أحمد محمد الشنوانى

كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء الأول

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجـــزء الأول

أحمد محمد الشنواني

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

مشروع الألف كتاب الثاني
نافذة على الثقافة العالمية

د. سمير سرحان — المشرف العام

أحمد صليحة — رئيس التحرير
عزت عبد العزيز — مدير التحرير
محسنة عطية — المشرف الفني

سكرتارية التحرير والشئون الفنية
هالة محمد
هند فاروق
هند أنور

إعداد الفهارس والكشافات
أمال زكي

التصحيح
محمد حسن
بدر شافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

تقديم

بقلم الأستاذ / صبرى أبو المجد

● أبدت الكتب قوة هائلة من أجل الخير ومن أجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشرى ، وهذه مناقشة فاحصة لثلاثة عشر كتابا من أهم المؤلفات فى جميع العصور ، كان لها تأثير عظيم على الفكر الانسانى من أقدم العصور الى يومنا هذا ٠

وصفت هذه الكتب وصفا دقيقا واضحا فى هذا الكتاب الممتع سهل القراءة ، ومؤلفه هو ابنى وتلميذى أحمد محمد الشنوانى الكاتب الصحفى بدار الهلال ، يبين بوضوح ذلك النفوذ الحاسم والواسع الانتشار لهذه الكتب ٠

وها نحن ذا نقدم هذا الكتاب الذى قدم عرضا موضوعيا لكتب من عدة عصور تبين القوة الهائلة للكلمة المطبوعة وأثرها على التقدم البشرى ٠

والغرض من هذا المؤلف الذى بين أيدينا هو توضيح القوة العاتية للكتب عن طريق مناقشة أمثلة معينة ، ولم يكن فى نية مؤلفنا تقديم قائمة « بأحسن الكتب » أو « أعظم الكتب » ولكن كان هدفه هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ٠

والمؤلفات الرائدة فى التراث الفكرى العالمى كثيرة ومتنوعة ، ففى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر الانسانى نجد كتبا كان لها فضل الارتياد فى ميدانها ، وفضل المبادرة الى التأليف فيها ، على مدى التاريخ الانسانى الطويل ٠

ورواد المؤلفين منذ ظهر أول انتاج فكرى مسطور مدون لا يحصى عددهم ولكل واحد منهم مجال اشتهر به، ونبغ فيه، وكان فيه رائدا ، جاء بعده أخلافه فزادوا عليه ، وعمقوا أفكاره ووسعوا مجالاته ، ولكن فضل الكتاب الرائد بقى كما هو لم يحجبه من جاءوا بعده ، وساروا فى الدرب الذى سار فيه٠

وكما قلنا ليس المجال مجال احصاء وحصر لهذه المؤلفات الرائدة ، فان هذا العمل تنوء أثقاله بالعصبة أولى القوة ، ولكنى عشت فى هذا الكتاب مع ثلاثة عشر من الكتب الرائدة تمثل عصورا مختلفة من تاريخ الفكر الانسانى وتمثل ألوانا مختلفة من الثقافة والفكر ٠

وعندما يستعرض المرء هذه الكتب الثلاثة عشر المحملة بالحركة ، يطرأ على بالنا دائما هذا السؤال : هل الكتاب الذى أحدث أثرا هائلا كان بسبب ما فيه ، أم لأن الوقت كان أرضا خصبة له ؟ ويغلب على الظن أن الزمن عامل مهم فى صنع القوة المؤثرة للكتاب ٠

وبين أيدينا كثير من الأمثلة : فقد وضع ميكافيلى كتاب « الأمير » لتحرير وطنه الحبيب ايطاليا من الاعتداء الأجنبى ، وكانت انجلترا على استعداد لتوسيع اقتصادها التجارى والصناعى الى أقصى حدود تستطيعها عندما كان آدم سميث يؤلف كتاب « ثروة الأمم » ، ولولا الأحوال القاسية السائدة فى الصناعة الأوروبية ولاسيما نظام المصانع الانجليزية فى منتصف القرن التاسع عشر لما أحدث كتاب « رأس المال » لكارل ماركس كل هذا الدوى ٠٠٠

وهناك كتب لم تحدث تأثيرها الكامل الا بعد سنوات وسنوات من نشرها ، فمثلا كان آدم سميث وكارل ماركس في عداد الأموات عندما أدرك العالم أهمية كتابيهما !

ويتردد في ذهني سؤال عندما أتأمل قائمة الكتب التي اختارها مؤلفنا ، ألا وهو : كيف يمكن قياس التأثير ؟ ولما كان هدف المؤلف اختيار الكتب التي يمكن الحكم على آثارها بمصطلحات النتائج الثابتة أو الأفعال ، فالمقياس الصحيح لمدى التأثير هو ما أحدثه الكتاب من قوة معارضة أو قوة تأييد ، فاذا أثار كتاب ما معارضة عنيفة وشعورا مماثلا من التأييد لوجهة نظره ، فالاحتمالات انه قد أثر تأثيرا عميقا في تفكير الناس ٠

وأيضا عندما يستعرض المرء الكتب الثلاثة عشر بحسب ترتيبها التاريخي ، يدهش لاستمرار العلوم والمعارف ـ حلقة الاتصال التي تربطها معا ٠ حقيقة لقد عبر عن هذا « هيتشينز » بقوله : يوجد هنا تقدم « المحادثة العظمى » وقد أخذ كوبرنيكوس الايحاء من قدامى فلاسفة الاغريق ، ونيوتن بدوره (وقف على أكتاف العمالقة) كوبرنيكوس وجاليليو وكبلر وغيرهم ٠ وبدونهم ما كان لأينشتاين أن يحدث أثرا ٠ أما داروين فقد أعلن في صراحة أنه مدين الى عدد كبير من علماء الأحياء والجغرافيا والجيولوجيا ، بنى على مؤلفاتهم نظريته عن أصل الأجناس ٠

ان فائدة هذا الكتاب الذى بين أيدينا أن به تعريفا لأهم الكتب ، والكتاب يغرى جمهور المثقفين بقراءة الأصول ، ويتيح الفرصة لأصحاب المشاغل الجمة الذين لا يتسع وقتهم لقراءة أصول أمهات هذه الكتب أن يلموا بها الماما جيدا وكذلك يسعف ذاكرة قارىء الأصول على تذكر ما وعى منها ودرس ٠

ان القارىء العربى فى حاجة ماسة الى هذا الكتاب الذى يقدم عصيرا مفيدا لكل تلك الكتب التاريخية ، كما يقدم

زبدة المعارف الانسانية التى لا غنى عنها فى تكوين المثقف الذى يعيش فى القرن العشرين وما بعده ، ونأمل أن المؤلف الشاب يتحفنا بجولات أخرى مع كتب أخرى احدثت فى التاريخ آثارا قوية ٠

وبعد ٠٠

فهذا كتاب هو فى ذاته كتب جمعها المؤلف من خزائن الدنيا بنية الخدمة والنفع ٠ وما أحوج المكتبة العربية الى كتب تصدر من أمثال هذا المؤلف الموضوعى المفيد ٠٠ !

فليكن هذا الكتاب أول بذرة تلقى فى هذه الأرض الطيبة ٠

وأقصى ما أتمناه أن يتلقاه القراء بالقبول لينتفعوا بقراءته ٠ وأملى كبير فى أن يتلقف القراء هذا الكتاب الذى نجح فى أن يقدم ألوف الصفحات من الكتب التاريخية فى هذه الصفحات ٠ وللمؤلف الشاب منى فى النهاية كما فى البداية كل شكر وتقدير لهذا الجهد البناء المخلص الذى أريد به الخير للناس ٠٠

مقـدمة الطبعة الثانيـة

●● كانت الكلمة بداية الانسـان ، لأنه بالكلمة أصـبح الانسان انسـانا ·· فاللغـة ·· هى التى جعلت الانسان يتميز على بقية الكائنـات ، فهى أعظم آلة ذهنيـة اخترعها الانسان أو يمكن أن يخترعها فى أى يوم من الأيام ، فهى أداة التخاطب والمعرفة والتفكير ، التى مكنت الانسـان من أن يتعلم ويعلم ، ويتذكر ويتخيل ، ويبـدع ويبتكر ، فنحن نقوم بهذه العمليات كلها من خلال اللغة التى تتألف من كلمات كل منها لمسمى من المسميات المادية أو المعنوية ·

هذه اللغة بكل هذا الجلال والخطر فى حيـاة الانسان أى انسان هى واحدة من تراث الانسانية ·

ولكى يعرف الانسان لابد أن يقـرأ ، والمطبعة هى أم المعرفة : لهـا ثمانيـة وعشرون جنـديا هى حروف من الرصاص ، تنفذ الى المعانى ، فتنفتح مغاليق الجهالة · وهذه الحروف تذوب فى كتاب ، ثم ترسـل اشعاعها عن طريق العين الى العقل والقلب ، فاذا الاشـعاع نور الدنيا ، ولألأة الحضارات ·

والكتـاب فى تحديده المادى هو مجمع الحـروف والكلمات ، وفى تحديده المعنوى هو الوسـيط بين ذهنين ينقل من هذا الى ذاك عصـارة الفكر ، ويجعل بين الكاتب والقارىء مشاركة روحيـة يختلف أثرها باختـلاف قوة طرفيهـا ·

وأقدم الكتب هو هذا الكون الذى ألفه الخالق وما برح الناس على مدى الأزمان يقرءون سطوره ويتملون معانيه ويتلقون عنه الوحى يسمو بارواحهم الى عبادة ربهم الذى علم بالقلم ٠

وشاء الله بعد ذلك أن يوحى الى عباده بآيات الهداية والرشاد ، فكان الكتاب مجموعه وصاياه اليهم خطوها على ألواح من الحجر وعلى رق الحيوان وأوراق البردى ثم خطوا على هذه الصفحات كلها علومهم وآدابهم الانسانية ٠

ولقد كان ـ وما زال ـ للكتاب شأن وأى شأن فى جميع العصور فهو حرز لا يتداوله الا الكهنة وخدام المعابد ، ثم هو شىء نفيس لا يقتنيه الا الأمراء والزعماء ، ثم هو أداة للتثقيف والتهذيب تزخر به المكتبات العامة والخاصة ويحتفى به طلاب العلم أولئك الذين تضع الملائكة أجنحتها لهم ٠

وبالكتابة أخذ الانسان يدون على الحجر وعلى جلد الحيوان وعلى أوراق النبات وعلى ما صنعت يداه من نسيج صوف أو كتان ، محصوله من المعرفة : ما تلقاه مشافهة ، وما تعلمه من تجربته ، وما عداه اليه تفكيره ، وبالقراءة لم يعد فرضا على كل انسان (أو كل جماعة من البشر) أن يبدأ معرفته من الصفر ، بل أصبح بوسعه أن يستأنف من حيث انتهى من سبقه ٠ وهكذا أصبحت المعرفة البشرية نسيجا متصلا عبر القرون ، يتعاقب النساجون وتتفاوت مهاراتهم ويتباينون تقليدا وابداعا ، ولكن النسيج لا ينقطع أبدا ما دب على سطح البسيطة بشر ٠

★★★

وهناك العديد من الكتب الهامة فى تاريخ الفكر البشرى والتى كان لها أكبر الأثر فى تغيير فهم الانسان لنفسه وللعالم من حوله ، بل كان لبعض هذه الكتب أكبر الأثر فى ظهور ثورات غيرت الفكر الانسانى ، كما كانت أيضا بمثابة اضافات للحضارة الانسانية ٠

ومن بين هذه الكتب نجد الثلاثة عشر كتابا التي نتحدث عنها في هذا الجزء من هذه الموسوعة والتى كان لها تأثير كبير على التاريخ والاقتصـــاد والثقافة والفكر العلمى ... عبر العصور ، وهنـاك بالطبع العديد من الكتب الأخـــرى ذات الأهمية الفكرية ، الا اننا اخترنا عينات من هذه الكتب الهامة التى ألقت أضواء جديدة على الانسان وعلى الكون .

وبعد أن تلقى القراء الأجزاء الثمانية من هذه الموسوعة بالقبول أردت أن أعيد اصدار الأجزاء الأولى بجانب استكمال باقى الأجزاء لينتفع بها القراء ..

فمن خلال هذه المؤلفات الكبيرة والتى ظهرت فى أوقات متباينة تتجسد القوى الهائلة لعالم الفكر والرأى على تقدم البشرية .

فكم من كتاب غير مسير الانسان
وكم من عظة أنجت أمة من ورطة
وكم .. وكم ..

ولهذا عمدت الى جمع بعض هذه الكتب النافعة للبشرية فى هذه الموسوعة .

والله المستعان أن يحقق بها الفوائد وهو حسبى وكفى .

أحمد محمد الشنوانى

الكتب الخمسة

كنفوشيوس

٥٥١ ق.م - ٤٧٩ ق.م

كنفوشيوس صاحب المدرسة الأخلاقية التى ساد نفوذها الشعب الصينى أكثر من خمسة وعشرين قرنا !

يعد كنفوشيوس واحدا من الرجال القليلين الذين أثروا تأثيرا عميقا فى التاريخ البشرى بقوة مواهبهم الشخصية والعقلية وبقوة انجازاتهم • فقد كان حكيما وفيلسوفا سياسيا وأخلاقيا ودينيا ، وكان مؤسسا لمدرسة دينية ساد نفوذها الشعب الصينى أكثر من خمسة وعشرين قرنا أو منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أوائل القرن العشرين •

ولا يمكن تفسير حقيقة ظهور مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ على مسرح التاريخ البشرى تفسيرا كاملا ، ولكن بفحص ظروف حياتهم نستطيع على الأقل أن نزيد من قدرتنا على فهمهم •

ومما يصعب محاولتنا فهم كنفوشيوس هو ضخامة الأساطير والأحاديث المنقولة التى جمعت حول اسمه طوال القرون حتى صار من الصعب أن نعرف الحقيقة • وتنبعث مثل هذه التعقيدات ، ان لم نقل التحريفات ، عن عاملين اثنين مختلفين تمام الاختلاف ، فمن ناحية يلاحظ أن المؤمنين به رغبوا فى أن يمجدوه ، ومن ثم قاموا بتلك الأعمال المخلصة مثل وضع تاريخ دقيق لتسلسل نسبه يرجعه الى

الأباطرة • ومن ناحية أخرى فقد عمل أولئك الذين كانوا يرون أن مصالحهم مهددة من جانب هذا المفكر الثائر على احباط هجماته على الامتيازات الحصينة بتحريف وتمويه ما كان عليه أن يقوله ، وقد نجحوا فى ذلك نجاحا جزئيا ، ومن ثم فان سبيلنا الآن هو أن نتغاضى تماما عن القصة التقليدية عن حياته وعن فكره وأن نثق فى الأدلة القليلة التى يمكن انتزاعها من الوثائق التى يمكن اقامة الدليل على أنها قديمة ويمكن الاعتماد عليها •

سيرة كنفوشيوس وبيئته الاجتماعية والثقافية

يتكون اسم كنفوشيوس وهو الاختصار اللاتينى Confecious لاسم الحكيم الذى نتحدث عنه ، من لفظين : كنج Kung وهو اسم القبيلة التى ينتمى اليها الحكيم ، ثم فوتسى Fu-tze ومعناه الرئيس أو الفيلسوف ، فاسم كنفوشيوس اذن يعنى رئيس قبيلة كنج وفيلسوفها أو حكيمها ، ولقد ولد هذا الحكيم سنة ٥٥١ قبل الميلاد فى ولاية «لو» • وكانت الصين فى ذلك الوقت تسير على النظام الاقطاعى ، فكانت مقسمة الى ولايات وعلى رأس كل ولاية دوق أو وال يخضع للامبراطور • كما كانت كل ولاية مقسمة الى مقاطعات على رأس كل منها نبيل • وكانت المقاطعات التى تؤلف كل ولاية فى تطاحن مستمر فيما بينها ، فكل منها كانت تحاول التوسع على حساب الأخرى ، وكذلك كانت الحال بين الولايات : عراك مستمر بين الولاة الذين كان يحاول كل منهم التوسع على حساب الآخرين • وكانت الحوادث تؤرخ بالنسبة لحكم الولاة والنبلاء ، فمثلا ولد كنفوشيوس فى السنة الثانية والعشرين

من حكم هسيانج أمير ولاية « لو » ، وهى تقابل سنة ٥٥١ ق٠م٠ ونشأ كنفوشيوس فقيرا فى خدمة أحد الأمراء الذى كلفه برعى الأغنام ٠ وتفانى كنفوشيوس فى هذه الحرفة مما أدى الى زيادة انتاج الثروة الحيوانية فى الولاية، ومن ثم رقى بعد ذلك الى منصب مشرف على الحدائق العامة بالولاية ، ثم اضطر الى ترك مسقط رأسه لكى يتنقل فى بعض الولايات المجاورة لأنه شعر ان هذه الأعمال لا تناسب مواهبه ، وأخيرا أنشأ فى سن الثانية والعشرين مدرسة لتعريف الشبان ذوى المواهب الخاصة بأصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية ٠

وكان تعليمه فى تلك المدرسة كتعليم سقراط شفهيا لا يلجأ فيه الى الكتابة ، ولهذا فان أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل الينا عن طريق أتباعه ومريديه، وقد ترك للفلاسفة مثلا قل أن يعبأوا به ــ وهو ألا يهاجموا أبدا غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم ٠ ولم يكن يعلم طريقة من طرق المنطق الدقيق، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب اليهم شدة اليقظة العقلية ٠ ومن أقواله فى هذا المعنى : « اذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى فى هذا ؟ فانى لا أستطيع أن أفعل له شيئا » ٠ « انى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالافصاح عما يكنه فى صدره ٠ واذا ما عرضت ركنا من موضوع ما على انسان ، ولم يستطع مما عرضته أن يعرف ثلاثة الأركان الباقية فانى لا أعيد عليه درسا » ٠ ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن

يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الانسانية بأمانة واخلاص دون أن تصلح دراستها من خلقه وعقله • « وليس من السهل أن نجد انسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح انسانا صالحا » •

وسرعان ما التف الناس حوله حتى استطاع أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا مدرسته ليشغلوا مراكز خطيرة وليصبحوا من قادة الفكر والسياسة فى الصين القديمة ، كما كانوا هم الذين نقلوا آراءه فيما بعد • ولقد اتصل بفضل بعض تلامذته حوالى سنة ٥٢٤ ق•م ، بفيلسوف صينى آخر كان معاصرا له وهو « لاوتسى laotze وهو من أشهر فلاسفة الصين القدامى وهو الذى يعزى اليه المذهب أو الدين التاوى Taoism الذى يقوم على وجود Tao وهو القانون السماوى الأعظم ، وأصل الحياة والنشاط والحركة فى السماء والأرض ، وهو الذى يبعث الحياة فى الموجودات • ثم عاد كنفوشيوس الى « لو » مسقط رأسه ليستأنف التدريس هناك •

وكان كنفوشيوس معلما من الطراز القديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم • وكان شديد المراعاة للمراسم، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة • ويلوح انه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان • ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوما من الأيام مقالة فيها بعض

التواضع : « قد يوجد فى كفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى واخلاصى ولكنه لن يكون مولعا بالعلم مثلى » • وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساويا لغيرى من الناس ، ولكن « خلق » الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل اليه بعد » • و « من وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهرا بأعمال جليلة ، ولبلغت «الحكومة» درجة الكمال فى ثلاث سنين » • على أننا نقول بوجه عام انه كان متواضعا فى عظمته • ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب ، كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيدا ولا أنانيا » • وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشىء » ، وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل الى الناس ما تعلمه من الامبراطورين العظيمين «يو» و «شون» ، وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يترامى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما • وكم من مرة رفض منصبا رفيعا عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة ، وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الانسان أن يقول : « لست أبالى مطلقا اذا لم أشغل منصبا كبيرا ، وانما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقا بذلك المنصب الكبير • وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى ولكننى أعمل على أن أكون خليقا بأن يعرفنى الناس » •

★★★

وواتته الفرصة حين عين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة فى مدينة جونج ــ دو ، وتقول الرواية

الصينية ان المدينة في آيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان اذا سقط شيء فى الطريق بقى حيث هو أو أعيد الى صاحبه • ولما رقاه الدوق دنج دوق « لو » الى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع فى مسح أرض الدولة فأدخل اصلاحات جمة فى الشئون الزراعية ، ويقال انه لما رقى بعدئذ وزيرا للعدل كان مجرد وجوده فى هذا المنصب كافيا لقطع دابر الجريمة • وفى ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلا برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والاخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء • وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى • وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب » •

ان هذا الاطراء سواء كان خليقا به أو لم يكن فانه كان أرقى من أن يعمر طويلا • وما من شك فى أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للايقاع به • ويقول المؤرخ الصينى : ان الولايات القريبة من « لو » دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضة • ودبر وزير ماكر من وزراء تشى مكيدة ليفرق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشى بأن يبعث الى تنخ بسرب من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جوادا تفوق الفتيات جمالا • وأسرت الفتيات والخيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس (وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادىء الحكم الصالح هو القدوة الصالحة) ، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة اهمالا معيبا واضطر كنفوشيوس للاستقالة حاقدا على النساء اللائى أدين الى القضاء على

مجهوداته فى اصلاح الولاية ، اذ قال فيهن فى كتاب الأغانى قبل تركه « لو » :

احـذر لسان المرأة ٠

انك لا شك ستلدغ منه ان عاجلا وان آجلا ٠

واحذر زيارة المرأة ٠

انها ستصيبك ان عاجلا وان آجلا ٠

هى هو !! هى هو !! (علامة على التأوه من ألم ما أصابه من النساء) ٠

اننى سأرحل الى مكان آخر ٠

ثم بدأ كنفوشيوس فى الارتحال والتجوال بين الولايات الصينية ، وبدأ يتصل بالولاة ويقدم النصائح ويدرس للناس ويناظر العلماء والأدباء ٠ ولما بلغ التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش « لو » وأرسل ثلاثة من موظفيه الى الفيلسوف يحملون اليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم ويدعونه الى موطنه ٠ وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززا مكرما ، وكثيرا ما كان يتردد عليه زعماء «لو» يستنصحونه ، ولكنه أحسن كل الاحسان بأن قضى معظم وقته فى عزلة أدبية منصرفا الى أنسب الأعمال وأحبها اليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين ٠ وكان يسلى نفسه فى وحدته بالشعر والفلسفة ، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله ، ومن أقواله فى ذلك الوقت : « لقد

كنت فى الخامسة عشرة من عمرى مكبا على العلم ، وفى الثلاثين وقفت ثابتا لا أتزعزع ، وفى سن الأربعين زالت عنى شكوكى، وفى الخمسين من عمرى عرفت أوامر السماء ، وفى الستين كانت آذنى عضوا طيعا لتلك الحقيقة ، وفى السبعين كان فى وسعى أن أطيع ما يهواه قلبى دون أن يؤدى بى ذلك الى تنكب طريق الصواب والعدل » ٠

ولم يكد كنفوشيوس يختم حياته ـ توفى عام ٤٧٩ ق٠م ـ حتى انتشر تلاميذه فى أحياء الصين ينشرون مبادئه وتعاليمه ، التى لم تلبث أن أخذت طابع القداسة وأصبحت دينا للصينيين ٠

مؤلفات المدرسة الكنفوشيوسية

لقد كانت الدراسات التاريخية أهم الدراسات السائدة فى الصين فى القرن السادس قبل الميلاد ٠ ذلك أن الصين كان بها حضارة يانعة مزهرة فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية فى القرن العشرين قبل الميلاد ٠ وحدث بعد ذلك ان انحطت الأحوال فى الصين ابتداء من القرن العاشر ، كما تغيرت اللغة الصينية تغيرا كبيرا فى تلك الفترة بحيث أصبح رجل القرن السادس قبل الميلاد غير قادر على قراءة مؤلفات الحضارة الصينية العتيقة ، مما أدى الى شبه انقطاع تام بين حضارة الصين العتيقة وبين أجيال القرون الأولى قبل الميلاد ، لذلك ركز كنفوشيوس جهوده فى نقل هذا التراث القديم الى لغة الصين الجديدة آنذاك مضيفا اليه أجزاء لا شك فى أصالتها من الحكمة والمعرفة ٠ وعلى

ذلك درس كنفوشيوس وعلم كتب السابقين عليه فى التاريخ والتغييرات التى طرأت على الأرض وما عليها منذ أقدم العصور ٠٠ اعتمد فى هذا على الكتاب القديم المسمى Yiking أو كتاب التغيرات ، واستمر سنين عديدة يدرس هذا الكتاب الذى يرجع لسنين سحيقة ولا يعرف مؤلفه ٠ ان جهد كنفوشيوس الأكبر يظهر فى نقله التراث الصينى السحيق فى لغة بسيطة سهلة حتى يفيد منها الصينيون فى عصره ويعيدوا مجد أسلافهم القدامى ٠ لذلك كان يتنقل ويرتحل باحثا عن الآثار والوثائق القديمة ومنقبا عن كل ما عسى أن يساعده فى تقديم معلومات جديدة عن التاريخ الصينى السحيق ٠ كان يدرس التقاليد والعادات الدينية فى ولايات الصين المختلفة محاولا أن يصعد بها الى أصولها الأولى ، ولقد أدت مجهوداته فى النهاية الى تأليفه للكتب الخمسة أو الكلاسيكيات الخمسة Five classics ٠ وهى مؤلفاته التى يعرض فيها تاريخ الصين القديم وأصول ديانات الأسر الصينية القديمة وعشائرها وأصول الحكم السياسى فيها والمبادىء التى كان يقوم عليها النظام السياسى ٠ كما درس ونقل مجموعات الأغنيات التى صدرت عن «تشى اس» ثم «هو تشى » ، وهما يمثلان الأجداد الخرافيين لأباطرة دولة تشو الصينية ٠ كما درس فروع المعرفة الستة التى كانت سائدة فى عصره ، وهى التى كانت تسمى بالفنون الستة وهى : الطقوس والموسيقى والرماية ، وقيادة العربات والجياد ، والقراءة وأخيرا الرياضيات والحساب ٠ وكان تلاميذ كنفوشيوس يلقبونه باسم « معلم الجنس البشرى » بل كانوا يعدونه أعظم معلم « أنجبته العصور » ٠ وكانوا ينقلون

آراء أستاذهم ويعلقون عليها ويشرحونها • وتألف عن ذلك مدرسة كبرى هى المدرسة الكنفوشيوسية التى خدمت الصين أكثر من ألفى عام • لذلك تنقسم مؤلفات المدرسة الكنفوشيوسية الى قسمين : قسم يسمى «الكتب الخمسة» وهى الكتب التى كتبها كنفوشيوس نفسه أو نقلها عن العصور السحيقة وأضاف اليها اضافات أصلية وهى كتب تحتوى على مذاهب السابقين على كنفوشيوس فى السياسة والفلسفة والدين والموسيقى • أما القسم الثانى ، فهو مؤلفات تلاميذ كنفوشيوس فى حياته أو بعد وفاته ، وفيها يعرض هؤلاء التلاميذ لآراء أستاذهم وفلسفته مع شرح وتعليق • وهذه الكتب الأخيرة مهمة جدا لأنها تعد المرجع الرئيسى للفلسفة الكنفوشية وان كانت معظم أجزائها منقولة عن الكتب التى ألفها كنفوشيوس • ولكن أهميتها ترجع الى أنها تهتم بآراء كنفوشيوس أكثر من اهتمامها بالآراء والتقاليد التى كانت سائدة فى العصور السحيقة • كما أنها تشرح الفلسفة الكنفوشية بشكل مبسط سهل يرقى اليه تفكير الرجل العادى •

وسنعرض فى شىء من التفصيل لهذه المؤلفات ثم ننتقل الى شرح منهجه وأسلوبه فى هذه الكتب والمؤلفات وبعد ذلك نتعرض لنواحى فلسفته كما وردت على لسانه فى كتبه الخمسة •

أولا : الكتب الخمسة القديمة التى ألفها كنفوشيوس بنفسه وهى المسماة باسم الكلاسيكيات الخمسة :

١ ـ كتاب الأغانى أو الشعر : وهو يحتوى على ثلاثمائة وخمس من الأغنيات والتواشيح الدينية ، وذلك بجانب ستة

تواشيح تغنى بمصاحبة الموسيقى ، وهى تعطى فكرة عن الأديان التى كانت سائدة فى الصين والفولكلور أو المرددات الشعبية الصينية فى العصور السحيقة ٠

٢ ـ كتاب التاريخ : وهو يشتمل على الوثائق التاريخية الخاصة بالصين فى عصورها السحيقة ولا سيما الأوامر والمراسم الملكية والامبراطورية ٠ وقد جمع كنفوشيوس فى هذا الكتاب أهم وأرقى ما وجده فى حكم الملوك الأولين من الحوادث والأقاصيص التى تسمو بها الأخلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين امبراطورية موحدة الى حد ما ، وحين كان زعماؤها ، كما كان يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه ٠

٣ ـ كتاب التغيرات : وهو يبين فلسفة تطور الحوادث ، وقد ألف فى الأصل للافادة منه فى التنجيم ومعرفة الحوادث المستقبلة ، ولكن كنفوشيوس استطاع أن يحول « علم » التنجيم الى دراسة علمية للسلوك الانسانى وكيف يتأثر بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه ، ومن ثم يمكن عن طريق هذه الدراسة التنبؤ علميا بسلوك الفرد فى المستقبل ٠ وكان كنفوشيوس يرى فى هذا الكتاب خير ما أهدته الصين الى ذلك الميدان الغامض ، ميدان علم ما وراء الطبيعة الذى كان جد حريص على ألا يلج بابه فى فلسفته ٠

٤ ـ حوليات الربيع والخريف : وهو كتاب للتاريخ بمعنى الكلمة ، اذ قد عالج كنفوشيوس فى هذا الكتاب تاريخ الصين بالتفصيل أثناء قرنين ونصف من الزمان أو فيما بين سنتى ٧٢٢ و ٨٤١ قبل الميلاد ٠

٥ ـ كتاب الطقوس أو التقاليد : وهو يعالج النظام السياسى لأسرة تشو القديمة ، وهى من الأسر الملكية الشهيرة التى لعبت دورا مهما فى تاريخ الصين فى العصور السحيقة، كما يعالج عددا كبيرا من العادات والتقاليد الدينية والسياسية المهمة فى حياة الصين فى العصور التاريخية البعيدة وذلك لاعتقاده أن هذه التقاليد والقواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس القديمة التى لابد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعى والسلام ٠

ثانيا : الكتب التى كتبها تلاميذ كنفوشيوس :

١ ـ فصول من كتاب الطقوس « الأخلاق والسياسة » ٠

٢ ـ فصول من كتاب الطقوس « الانسجام المركزى » ٠

وهذان الكتابان عبارة عن أقوال مأثورة عن كنفوشيوس وأتباعه ومرجعهما الأساسى كتاب الطقوس مع تفسير هذه الأقوال ٠

٣ ـ المنتخبات وبه ملخص لأقوال كنفوشيوس فى المناسبات المختلفة كما سجلها تلاميذه ٠

٤ ـ منسيوس mencius وهو مؤلف كبير يحتوى على سبعة كتب تعالج مذهب كنفوشيوس ٠ ومن المحتمل أن يكون مؤلف هذه الكتب السبعة منسيوس نفسه وهو تلميذ روحى لكنفوشيوس وقد تتلمذ فعلا على تزيتس حفيد كنفوشيوس ٠

ولما كان كتاب المنتخبات يشتمل على ملخص لفلسفة كنفوشيوس بشكل أوضح منه نسبيا من الكتب الأخرى ؛ فقد انتشر بين تلاميذ المدرسة وأتباعها حتى عرف باسم انجيل الكنفوشية ٠

منهج كنفوشيوس فى كتبه الخمسة

واذا رجعنا الى مؤلفات كنفوشيوس والمدرسة الكنفوشية ، أى الى الكتب الكلاسيكية الخمسة ثم الكتب الأربعة التى كتبها تلاميذه ، لوجدنا أنها فى الجزء الأكبر منها مكتوبة على صورة أمثلة سائرة وحكم ومواعظ منفصلة بعضها عن بعض ولا تربطها أية رابطة ٠ وهذا هو الفرق الجوهرى فى أسلوب الكتابة بين كنفوشيوس وغيره من الحكماء والفلاسفة ، فأفلاطون مثلا يكتب على طريقة المحاورات ويستطيع القارىء لمحاورة منها كالجمهورية أن يتبين آراءه ومذهبه ، وأرسطو يكتب على طريقة المحاضرة فيعالج موضوعا أو عدة موضوعات متكاملة ٠ أما كنفوشيوس فهو يذكر أمثلة وقصصا مسرودة الواحدة بعد الأخرى ولا رابطة بينها ، وليس ثمة تبويب أو تصنيف للموضوعات التى يحتوى عليها كل كتاب ٠ لذلك ، فقد عرف كثير من العلماء كنفوشيوس بأنه الرجل الذى لا يتكلم الا بحكم وأمثال قصيرة منفصلة ، كما كان بعضهم يرى استحالة استخلاص مذهب فلسفى أو اجتماعى من تلك الكتب التى هذه حالها ٠ ولكن العلماء الصينيين فى كل عصر من العصور ، ثم العلماء الأوروبيين قد استطاعوا بعد دراسة هذه الكتب استخلاص المذهب الكنفوشى واتجاهاته فى السياسة والاقتصاد والدين

٠٠٠ وفى غيرها من المجالات الأخرى ، تلك هى السمة الأولى من سمات كنفوشيوس فى كتبه وسنورد بعضا من حكمه وأمثاله ٠

« الرجل الذى يخطىء ولا يصلح خطأه يرتكب خطأ جديدا ٠ الرجل الذى يعشق الحق أفضل من الذى يعرف الحق ، وذلك الذى يجد سعادته فى الوصول للحق أفضل من الذى يعشق الحق ٠ اذا وجدت شخصا يستحق أن تتحدث معه ولم تخاطبه فانك تكون قد افتقدته ، واذا وجدت شخصا لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبته فانك تكون قد أضعت كلامك سدى ، والرجل العاقل هو من لا يفتقد الرجال ولا يضيع كلامه سدى ٠ وسئل الحكيم مرة عن حكمه على شخص يحبه كل أفراد القرية ، فأجاب « ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ، ثم سئل عن رأيه فى شخص يكرهه كل أفراد القرية فأجاب « ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم أضاف « ان الشخص الفاضل هو من يحبه الصالحون من أفراد القرية ويكرهه منهم الطالحون » ٠ « ان الانسان هو الذى يجعل الصدق عظيما ، وليس الصدق هو الذى يجعل الانسان عظيما » ٠ وقال عن الكلام الجيد : « ان الرجل ذا الأخلاق الكريمة لا يقول الا كلاما جيدا ولكن الرجل ذا الكلام الجيد لا يكون دائما ذا أخلاق كريمة » ٠ أى قد يكون منافقا ٠ ويقول : «ان الرجل العاقل لا يمدح الناس على أساس أقوالهم «بل على أساس أفعالهم» ولا ينكر الحقيقة اذا كانت صادرة عن شخص لا يرتاح اليه ، اذ الحقيقة جميلة أيا كان مصدرها» ٠ وسئل مرة عن صفات الحكم المثالى فأجاب « بأنه الحكم الذى يجد الناس تحت ظله غذاء كافيا ، وجيشا جرارا يحميهم ،

وثقة عظيمة فى حكامهم » • وسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الأمور الثلاثة اذا دعت ضرورة الى ذلك فقال «أفضل أولا الاستغناء عن القوة أو الجيش » ، ثم سئل عما يمكن الاستغناء عنه بعد ذلك فأجاب «أفضل الاستغناء عن الطعام، اذ ما أكثر من ماتوا جوعا من الأفراد فى كل جيل منذ أن وجد الانسان ، ولكن لم يحدث آن عاشت أمة بدون ثقة فى حكامها» • ويقول عن الفضائل وما يعتريها من نقائص: «حب الانسانية بدون حب للدراسة يولد الجهل ، وحب العلم بدون حب الدراسة يؤدى الى الضلال وعدم التثبت ، وحب الاخلاص بدون حب للدراسة يؤدى بصاحبه الى أن يكون ضحية الخداع ، وحب الاستقامة بلا دراسة يؤدى الى الرعونة التى لا حدود لها ، وحب الشجاعة بلا دراسة يؤدى الى التمرد ، وحب العزم والمثابرة بلا دراسة ينتهى بصاحبه الى الخبل أو التعلق بفكرة متسلطة » • ويقول عن ثقافة الشعب : «عندما أدخل قطرا من الأقطار أستطيع أن أعرف بسهولة نوع الثقافة السائدة فيه ، اذ عندما أجد فى الناس رقة الطبع والشفقة والبساطة فان هذا يدل على تعلقهم بالشعر ، وعندما يكون الناس واسعى الأفق ، عارفين لماضيهم فان هذا يدل على تمسكهم بالتاريخ • أما اذا كانوا كرماء متفاهمين بعضهم مع بعض فان هذا يدل على سيادة الموسيقى ، واذا كان الشعب هادئا مفكرا ذا قوة وملاحظة فان هذا يدل على سيادة فلسفة التعبير ، ولكن اذا ساد التواضع والاحترام والقناعة فى عادات الأفراد فان هذا يدل على سيادة تعاليم الله » •

أما السمة الثانية فى أسلوب كنفوشيوس فهى استخدامه نوعا من القياس المسمى بالقياس المتتابع ، اذ اتضح أنه

ليس أرسطو هو أول مفكر استخدم منهج القياس المنطقى المتتابع ، وهو يقوم على عدة أقيسة متتابعة يتخذ كل منها مقدمته من النتيجة التى انتهى اليها القياس السابق عليه • وهذا المنهج يسيطر على جزء كبير من كتاباته ، ومن أمثلة ذلك القياس قوله : « اذا فهم الانسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فانه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردى والأخلاقى ، واذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردى فانه سيفهم كيف يحكم الناس ، واذا فهم كيف يحكم الناس فانه سيفهم كيف يحكم الأمم والامبراطوريات » • أو قوله عن الصدق : « ان الحق المطلق غير قابل للتحطيم ، ولما كان غير قابل للتحطيم فهو خالد ، ولما كان خالدا فانه موجود بذاته ، ولما كان موجودا بذاته فهو لا نهائى ، ولما كان لا نهائيا فهو واسع وعميق ، ولما كان واسعا وعميقا فهو متعال وروحى ••• » • ويصف الطريق السليم الذى يجب أن يسلكه الحاكم حتى يكون فاضلا بقوله : « لا مناص للرجل الذى ينتمى لطبقة الحكام من أن يكون ذا سلوك منظم فاضل ، ولكن لكى يكون ذا سلوك فاضل عليه أن يؤدى واجباته نحو ذوى القربى ، ولكى يؤدى واجباته نحو ذوى القربى عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الانسانى والقواعد التى يقوم عليها التنظيم الاجتماعى ، ولكى يفهم طبيعة المجتمع الانسانى عليه أن يفهم القوانين الالهية » •

جوهر الفلسفة الأخلاقية عند كنفوشيوس

الأخلاق ــ فيما يرى كنفوشيوس هى المبدأ الرئيسى الذى يجب أن يكون أساسا لأى نظام اجتماعى وسياسى مستقر ، فلا يتحقق نظام سليم الا اذا كان الأفراد الخاضعون

له متحلين بالأخلاق الكريمة · ولا يستطيع حاكم أن يقيم نظاما اجتماعيا كاملا الا اذا عمل أولا على تكميل أخلاق الأفراد أنفسهم ، فاذا شعر كل انسان بالانسجام الداخلى والراحة النفسية تسيطر على ذاته عمل على تثقيف نفسه وتجميلها بالمعارف التى تجعل منه مواطنا يفهم العادات والتقاليد والقوانين التى تخضع لها الطبيعة ، ومن ثم يعامل مواطنيه وفق هذه القوانين ويسود الانسجام بين الناس · ولا تتم الأخلاق الكريمة للفرد الا بالتعليم والتربية التى تخلق منه مواطنا صالحا والتى يكون عليها الاعتماد الأكبر فى تهذيب الأخلاق · وثمة شرط ثان لانتشار الأخلاق الفاضلة التى هى عماد الحكم الصالح ، وهو أن يكون الحاكم نفسه ذا أخلاق سليمة لأنه مثال لمواطنيه ، فاذا وصلت أخلاق الأفراد الى الكمال قامت الأخلاق مقام القانون ، لذلك كان الكنفوشيون يمقتون التشريعات والقوة كأساس للحكم السياسى · فهم يرون أن تهذيب أخلاق الناس عن طريق التعليم يجعلنا نستغنى عن القوة وعن القانون والتشريعات والقضاء · ويقول كنفوشيوس : « انك اذا قدت الناس وفق قوانين اجبارية وهددتهم بالعقاب ، فقد يحاولون اتقاء العقاب ، ولكن لن يكون لديهم الشعور بالشرف ، ولكنك اذا قدتهم بالفضيلة ونظمت شئونهم بالتربية فان علاقاتهم ستقوم على أساس من الشرف والاحترام » · وبذلك خالفوا المدرسة القانونية التى كانت ترى أن القوة لازمة لتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، كما خالفوا المذهب التاوى وهو مذهب « لاوتسى » الذى كان ينادى بالسلبية المطلقة ، أى أن يعيش الفرد لنفسه وبنفسه بدون أدنى تفكير فى

الآخرين • وسنرى كيف استخدم كنفوشيوس الموسيقى والفنون فى علاج نفسيات الأفراد وفى تقريب مشاعرهم بعضهم من بعض ، كما اهتم بالطقوس الدينية والعادات والتقاليد لأنها تقرب بين الأفراد وتؤلف بينهم وتجعلهم يشعرون بوحدتهم وتضامنهم ••• وكل ذلك يؤدى الى وجود الحب والانسجام بين المواطنين ، مما يؤدى بهم بدوره الى الاستغناء عن القوة وعن القانون فى فض المشكلات وفى الزام الأفراد بالقانون الأخلاقى •

ولكن ما القانون الأخلاقى فى فكر كنفوشيوس وفلسفته ؟

ان هذا القانون هو قاعدة السلوك السليم القويم ، وهى القاعدة التى يلتمسها كل انسان فى سلوكه ، ومصدر هذه القاعدة هو الله أو السماء فهو الذى شرعها ونظمها ، ومن ثم فهى لا تقبل التغير والتبدل • ولقد وضعت السماء جوهر هذه القاعدة فى كل بناء بشكل كامل • ذلك أن الله قد منح كلا منا طبيعته العقلية ، وهى الطبيعة التى تجعلنا أحياء مفكرين • والقاعدة الأخلاقية ليست شيئا آخر سوى توجيه أفعالنا الانسانية بما يتفق وطبيعتنا العقلية الالهية • ومجموع القواعد الأخلاقية التى تنظم سلوكنا وهى مانسميها باسم الواجبات موجودة فينا ، ونشعر بها عندما نريد فعلا من الأفعال اذ نشعر أنه أخلاقى وغير أخلاقى ، فالانسان اذا رجع الى نفسه عرف القانون الأخلاقى بكل جلاء ، ولكن قد يخطىء بعض الناس لجهلهم التفرقة بين الخير والشر ، لذلك كان التعليم ضروريا حتى يتقى الانسان الخلط بين الخير والشر اذا رجع الى نفسه يستشف منها القواعد الأخلاقية •

والقـواعد الأخلاقية عنـد كنفوشيوس هى وسط بين الافراط والتفريط ، لأن الطبيعة الانسانية تقـوم عـلى عنصرين : الذات الانسانية الحقـة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقى كما يسميه كنفوشيوس ، ثم الانفعـالات التى تستيقظ فى النفس الانسانية • وهذه الانفعالات اذا استيقظت ونمت فى الانسان بحيث لا تتعدى حدا معينا فى شدتها فانها تصل مع الذات الانسانية المحضـة الى حالة من الانسجام والاستقرار النفسى ، فالشخص قد يخشى الرذيلة ويبالغ فى هذا الى حد التريث حتى يصل الى درجة تعلو على مستوى القانون الخلقى ويقع فى الرذيلة ، فالقانون وسط بين المغالاة والتهاون • وهنا نجـد كنفوشيوس قريبـا مما سيقوله أرسطو عن الفضيلة وانها وسط بين رذيلتين •

والحياة الأخلاقية عند كنفوشيوس أشـبه شىء بسـفرة طويلة يقطعها الانسان بادئا بأقرب نقطة فيها ، وعـلى ذلك فالأخلاق الفاضلة تبدأ بين أبناء الأسرة الواحدة حيث يعامل الأب أبناءه بنفس المعاملة التى كان ينتظرها من والده • وكذلك تكون معاملة الأبناء للآباء والأمهات ، فالأسرة هى المكان الأول للتجربة الأخلاقية وهى النقطة الأولى التى تبدأ منها الأخلاق الفاضلة • وكما يقول كنفوشيوس فى كتـاب الشـعر :

عندما تسود الألفة بين الزوج والأولاد والزوجة •
فما أشبه المنزل بربابة وعود قد تآلفت أنغامهما !
وعندما يعيش الاخوة فى تآلف وسلام •
فحينئذ يظل المنزل الى الأبد فى وحدة وانسجام •

فاذا حسنت أخلاق افراد الأسرة ومعاملاتهم ، حسنت أخلاق المجتمع لأن المجتمع ليس الا امتدادا للأسرة ، ولأننا « اذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فان المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق ، واذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة ، تعود المجتمع كله على الشفقة والعطف ، واذا عملت كل أمة على اصلاح حالها فان الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الانسانى بأسره » .

★★★

اذن كانت الأخلاق مطلب كنفوشيوس وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الايمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة الى العقائد القديمة وانما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والفقرتان الآتيتان المنقولتان من كتبه تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفى الكنفوشى :

« ان القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الامبراطورية قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدأوا بتهذيب نفوسهم ، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدأوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم

بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم الى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون الا بالبحث عن حقائق الأشياء ٠

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء اصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت افكارهم ، فلما خلصت افكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ، ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الامبراطورية كلها هادئة وسعيدة » ٠

تلك هى مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفى وسع الانسان أن ينسى كل ما عدا هـذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعانى التى هى « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الانسانية ، ويقول كنفوشيوس : « ان العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ، والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة ٠ والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعى الطبيعى ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوموا نفوسهم ، وهم يعجزون عن أن يقوموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ، وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ، وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع

دائرة معارفهم الى أقصى حد مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحثا منزها عن الأهواء ، فليسع الناس الى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ، وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ، وبتطهير قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ، وبصلاح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ، وليس الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع، بل الذى يصلحها هو ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ، وبتنظيم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والاخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسها نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح » ٠

طريقة الرجل الأعلى

واذن فالحكمة فى فلسفة كنفوشيوس تبدأ فى البيت، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرقى الذاتى أساس الرقى الاجتماعى ، ولما سأله تزه ــ لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » فأجابه بقوله : « أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام » ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءا جزءا ــ والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم ٠ والانسان الكامل الأسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث ، كان كل من سقراط ونيتشه والمسيح ، يرى الكمال فى كل واحدة منها بمفردها، وتلك هى الذكاء والشجاعة وحب الخير ٠ وفى ذلك يقول :

« الرجل الأعلى يخشى ألا يصل الى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ... وهو واسع التفكر غير متشيع الى فئة ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح » .

ولكنه ليس رجلا ذكيا وحسب ، وليس طالب علم ومحبا للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ، « فاذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفا ، واذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ، أما اذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة » . فالذكاء هو الذهن الذى يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الاخلاص ، « وليس الاخلاص الكامل وحده هو الذى يميز الرجل الأعلى » . « انه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل » « ولدينا فى فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك أن الرامى اذا لم يصب مركز الهدف رجع الى نفسه ليبحث فيها عن سبب عجزه » .

« ان الذى يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما فى نفسه ، أما الرجل المنحط فيبحث عما فى غيره ... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ألا يعرفه الناس » ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر فى ألا يذكر اسمه بعد موته » وهو «متواضع فى حديثه ولكنه متفوق فى أعماله .. قل أن يتكلم

فاذا تكلم لم يشك قط فى أنه سيصيب هدفه ٠٠ والشىء الوحيد الذى لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذى لا يستطيع غيره من الناس أن يراه » ٠ وهو معتدل فى قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط » فى كل شىء ذلك أن « الأشياء التى يتأثر بها الانسان كثيرة لا حصر لها ، واذا لم يكن ما يحب ويكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته الى طبيعة الأشياء التى تعرض لها » « والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته فى جميع الأجيال طريقا عاما ، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانونا عاما ، يتكلم بحيث تكون ألفاظه فى جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ » ٠

وعلى الحاكم أن يتحلى أيضا بالأخلاق لأنه مثال للأفراد ، وعليه فى هذا الصدد التزامات تسعة :

١ ــ أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق للأفراد العاديين ٠
٢ ــ أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه ٠
٣ ــ أن يتودد الى من تربطه بهم صلة القربى وأن يقوم بالتزاماته ازاءهم كاملة ٠
٤ ــ أن يجل وزراء ولايته وامبراطوريته ٠
٥ ــ أن يعامل موظفى دولته بالحسنى ٠
٦ ــ أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصى وأن يجعل من نفسه أبا للشعب ٠
٧ ــ أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها ٠

٨ ـ أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين فى دولته ٠

٩ ـ أن يهتم برفاهية أمراء الامبراطورية ٠

ويجب ألا ينسى الامبراطور أو الوالى أن يستمع الى نصيحة الشعب لأن « ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئا آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه ، وما يعتبره الشعب جديرا بالثواب والعقاب هو ما تعتبره السماء جديرا بالثواب والعقاب ، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب ٠ وعلى من يدبرون شئون الشعب أن يرعوا ذلك ويتدبروه » ٠ وكثير من العلماء وجد فى هذا الكلام أساسا للديمقراطية السياسية التى نادى بها كنفوشيوس، ونستطيع أن نقارن بين هذا القول وبين ما جاء على لسان الفلاسفة اليونان والرومان من أن صوت الشعب من صوت الله Vox Populi, Vox Dei بل كان كنفوشيوس يعتبر أن الحكم تفويض من السماء أو الله للحاكم فهو خليفة استخلفه الله على الأرض ، وهذا التفويض ليس أبديا بل يمكن أن يسحب منه فى أى وقت لا يلتزم فيه بالقانون الأخلاقى لأن السماء لا تمنح التفويض الا للحكام الذين يتمسكون بالمثل الأخلاقية ٠ ويقول فى هذا المعنى فى كتاب التاريخ : « ان توكيل السماء للحاكم ليس أبديا ، وهذا يعنى أن الحاكم يظل متمتعا بهذا التوكيل الالهى طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير، وينفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم » ٠ ثم يضيف الى ذلك : « ان بقاء الحاكم الأمير يتوقف على رغبة الله وارادته ، وارادة الله هى ارادة الشعب ، فاذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه فان الله العلى السامى ينظر اليه بعين

الرضا ويوطد عرشه • أما اذا فقد حب الشعب وعطفه فان العلى السامى يصب غضبه عليه ، ومن ثم يفقد دولته » •

ذلك تلخيص الفلسفة السياسية والأخلاقية الكنفوشية، ولكن المجتمع الذى نادى كنفوشيوس بوجوده مجتمع طبقى اذ كان يريد مجتمعاً يوضع فيه كل انسان فى الطبقة التى تؤهله لها كفاياته ، فالناس مختلفون : فمنهم الغبى والذكى ومنهم حسن الخلق وسيئه ، ويقتضى العدل الكنفوشى ألا يكون الناس فى منزلة واحدة • والقانون الأخلاقى يلزمنا أن نضع كل انسان فى مكانته ووفق صفاته وكفاياته وأخلاقه لأن « الله اذ وهب الحياة لمخلوقاته لا شك وهبها من النعم ما يتناسب مع صفاتها ، فهو ينمى الشجرة الممتلئة بالحيوية ، على حين انه يطيح بتلك التى قد يتطرق اليها الفساد ••• » ولكن طبقات كنفوشيوس ليست طبقات مقفلة على أصحابها بل هى طبقات مفتوحة يستطيع كل انسان أن يصل اليها ما دامت أخلاقه تؤهله لذلك • ولكل طبقة طقوس وعادات وتقاليد خاصة بها وأنواع من الاحترام والتبجيل خاصة بها ولها وضعها فى السلم الاجتماعى وذلك هو الـ Li (لى) أو النظام الاجتماعى الذى نادى كنفوشيوس بتحقيقه •

أهمية الموسيقى عند كنفوشيوس

ولقد اهتم كنفوشيوس بالموسيقى وكان يعتبرها من العمد الرئيسية التى يقوم عليها نظامه الاجتماعى ، وكان يستخدمها فى علاج الأمراض النفسية كما فعل كثير من الفلاسفة القدامى وكما يفعل كثير من العلماء اليوم •

فالموسيقى خاصة والفنون عامة ليست ترفا عقليا ، بل هى تلعب دورا اجتماعيا فعالا فى اصلاح الحياة الاجتماعية • فالنفس الانسانية (والنفس والقلب عند كنفوشيوس شىء واحد) اذا تأثرت بالعالم الخارجى وما به من ظواهر طبيعية واجتماعية ، فانها تعبر عن هذا التأثر بأصوات تختلف فى درجتها ونوعها حسب كل حالة على حدة ، أى تعبر عن التأثر بصوت ، واذا رتبت الأصوات بشكل معين نتج عنها النغم ، واذا رتبت الأنغام نتجت عنها الموسيقى • وفى القلب الانسانى أوتار مختلفة كل منها مرتبط بانفعال نفسى خاص ، فعندما تمس الحوادث الجارية وترا فى القلب فان الانسان يعبر عنه بنغم معين ، فالنغم الذى ينتج عن وتر الحزن الموجود فى القلب يكون بائسا حزينا ، والنغم الذى ينتج عن وتر الاطمئنان يكون هادئا ، والنغم الذى ينتج عن وتر الغضب يكون خشنا ، والنغم الذى ينتج عندما تمس الحوادث وتر الحب يكون رقيقا ••• وهكذا • وهذه الأنغام تنتج اذن من التقاء الحوادث بالقلب الانسانى ، فالموسيقى اذن تعبر عن النفس الانسانية وما يعتريها من انفعالات • ونستطيع بشكل عكسى أن نؤثر على الحالات النفسية عن طريق الموسيقى ، فنهدىء النفوس أو نثيرها أو نقلقها أو نحزنها أو نفرحها عن طريق الأنغام الموسيقية ، وعلى ذلك نستطيع اصلاح النفوس بالموسيقى وترقيق مشاعر الأفراد وتحسين علاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض عن طريقها ، ومن ثم يستطاع تدعيم التضامن الاجتماعى بين الأفراد عن طريقها ودراسة نفسية أى شعب ومدى تقدمه وتأخره ، اذ ان موسيقى الشعوب التى يعمها الرخاء والسلام موسيقى

هادئة ، وبالعكس نجد موسيقى الشعوب التى تعمها الفوضى موسيقى مضطربة صاخبة ، تؤدى الى القلق وعدم الاطمئنان، وموسيقى الشعوب المغلوبة على أمرها موسيقى حزينة كئيبة مليئة بالمرارة والأسى • ولا تعكس الموسيقى النفس الانسانية فحسب ، بل هى تعكس النظام الكونى كله •

وقصارى القول هنا ان الموسيقى تمثل بأنغامها المختلفة كل شىء فى الوجود والمجتمع ، ويستطاع عن طريقها اصلاح ما اعتل من شئون هذا العالم سواء الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية أو الفردية • لذلك ـ كما يقول كنفوشيوس ـ يجب على الأفراد أن يتعلموا الموسيقى ؛ لأنها تؤدى بهم الى مداواة أنفسهم من الأدواء وتجعلهم أقرب الى فهم القانون الالهى والقانون الأخلاقى ومن ثم تجعلهم أقرب الى الفضيلة •

★★★

تلك لمحة سريعة عن كتب كنفوشيوس الخمسة وما أدت اليه من كتب أربعة كتبها تلاميذه ومحتويات هذه الكتب ، وهكذا نرى أن كنفوشيوس يعتبر من أعظم من كتب فى سياسة الأمم والجماعات ووضع القواعد التى يراها مؤدية لسعادة الجنس البشرى • فقد رسم بكل تفصيل ودقة كل ما ينبغى للفرد ، كل فرد ، أن يحصله ويتعلمه ويجيده لكى يجعل من نفسه « الانسان الكامل » ، ورسم بكل دقة وتفصيل كل ما يلزم لتنظيم علاقات أفراد الأسرة الواحدة ، لكى تكون أسرة سعيدة وناجحة •

ورسم أيضا باسهاب وفى غير ملل أو كلل ، كل ما يلزم للحاكم وجهاز الحكم ، من مبادىء وقواعد ونظم لكى يتحقق ما نسميه اليوم مجتمع الرفاهية والعدل • ويمكننا تلخيص تماليم كنفوشيوس التى ملأت عشرات المجلدات ومئات الكتب فى كلمة واحدة هى « الانسانية » •

فالفضيلة بالنسبة للانسان هى أن تحب الناس ، والحكمة فى أن تفهمهم • واذا كانت الأسرة هى صورة المجتمع ، فان الجنس البشرى كله يؤلف أسرة واحدة ، ويقول أحد تلامذته : ما بين البحار الأربعة ، جميع الناس اخوة •

أثر كنفوشيوس فى الأمة الصينية

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ، ولكنه كان نجاحا كاملا • لقد كان يضرب فى فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها الى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لاصراره على تحقيقها •

واذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فان أدباء القرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد الاستمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا الى السلطان وتسنم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الامبراطورية بأجمعها • وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التى تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم

الأكبر ، ونماها منسيوس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام • وأصبحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية فى الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التى تدهورت فيها البلاد من الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعى فى العصور المظلمة التى تلت سقوط روما •

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة « القانونيين » استطاعت أن تناهض وقتا ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسة ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها فى بعض الأحيان •

ومن أقوالهم فى الرد على كنفوشيوس ان نظام الحكم على المثل الذى يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب المحكومين ، يعرض الدولة لأشد الأخطار ، اذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادىء المثالية • وهم يقولون ان الحكم يجب أن يستند الى القوانين لا الى الحكام ، وان الناس يجب أن يرغموا على طاعة القوانين حتى تصبح اطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين • ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغا يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فانهم لا يصيبون الرخاء الا تحت حكم جماعة من الأشراف •

هذه الآراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت الى الظهور مرة بعد مرة فى تاريخ الحكومة الصينية •

ولكن فلسفة كنفوشيوس كتب لها النصر آخر الأمر • وسنرى فيما بعد كيف سعى شى هوانج ـ دى صاحب الحول والطول يعاونه رئيس وزراء من طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجـودا وقتئذ من الكتابات الكنفوشية • ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان •

ولم يكن لعـداء « الامبراطور الأول » من نتيجة الا أن يجعل الكتب التى أراد أن يعدمها كتبا مقدسة قديمة ، وأن يستشهد الناس فى سبيل المحافظة عليها • حتى اذا انقضى عهد شى هوانج ـ دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش امبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعين العلماء الكنفوشيين فى مناصب الدولة ، وثبت حكم أسرة « هان » ، وقوى دعائمه ، بأن أدخـل آراء كنفوشيوس وأسـاليبه الحـكيمة فى برامج تعليم الشـبان الصـينيين وفى الحـكومة • وقربت القـرابين تكريمـا لكنفوشيوس ، وأمر الامبراطور أن تنقش نصـوص الـكتب القديمة على الحجـارة ، وأصبحت الكنفوشـية دين الدولة الرسمى •

ولما جلس على العرش تاى دزونج الأعظم ، أمر أن يشاد هيـكل لكنفوشيوس فى كل مدينـة وقرية فى جميع أنحـاء الامبراطـورية ، وأن يقرب له فيهـا القـرابين العلمـاء والموظفون • وفى عهد أسرة دزونج نشـأت مدرسـة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحا وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها

الاكبر وما أضافته اليها من شروح مختلفة فى بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت فى اليابان نهضة فلسفية قوية • وظلت مبادىء كنفوشيوس من مبدأ قيام أسرة هان الى سقوط أسرة منشو ـ أى ما يقرب من ألفى عام ـ تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها •

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ، ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة فى مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبى يتخرج فى تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التى يمتاز بها الحكيم القديم فى قلوب الصينيين ، وسرت فى دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقا فى التفكير لا نظير لهما فى غير تاريخهم أو فى غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها اعجابا شديدا بالعلم والحكمة ، وأن تنشر فى بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت بلادها •

فهل فى مقدور انسان ـ أيا كان شأنه ـ أن يسيطر بفكره وفلسفته على تفكير أمة كالأمة الصينية أكثر من عشرين قرنا من الزمان كما فعل كنفوشيوس العظيم ؟ ! •

الجمهورية

أفلاطون

حوالي ٤٠٠ ق.م

البحث عن سعادة البشرية

لقد أكثر الفلاسفة المتشائمون من وصف الحياة وذمها ، فقالوا : انها حياة شقاء أولها عناء ، وآخرها فناء ، حتى انه قيل لأرسطو مرة : « صف لنا الدنيا ! » فقال : « ما أصف من دار أولها فوت ، وآخرها موت ؟ كأن الحياة هى سجن العاقل وجنة الجاهل ، وكأنها جسر نعبره ولا نعمره ، أو كأنها مزرعة ابليس ، والأشرار لها حراثون » . فالمتشائم لا يعتقد أن المدينة السعيدة موجودة على الأرض ، ولا يثق بصلاح الانسان بل يزهد فى الحياة لكثرة شرورها ، ويعرض عنها ، ويرغب فى سعادة الآخرة ، وعدالة ملكها القادر على فصل الخير عن الشر .

على أن طائفة من الفلاسفة المتفائلين تصوروا امكان هذه المدينة السعيدة ، فحلموا بها ، وتخيلوها تحت تأثير الشرور والمفاسد التى شاهدوها فى زمانهم ، فعدد أفلاطون فى جمهوريته شرائط الفردوس الأرضى ، ونسج كثيرون من المفكرين على منواله ، فألف الفارابى مدينته الفاضلة فى القرن العاشر للميلاد ، وتصور توماس مور مدينته الخيالية فى القرن السادس عشر ، وأتبعهم كامبانيللا (١) فى مدينة الشمس ، باحثين كلهم عن شرائط الحياة المثلى ، التى تقرب حياة الدول والأفراد من أسباب السعادة الحقيقية ، فهم

---

(١) كامبانيللا : فيلسوف ايطالى (١٥٦٨ ـ ١٦٣٩ م) .

يعتقدون أن فى وسع الانسان أن يجد شيئا من السعادة فى هذه الدنيا ، وان في وسع الدول أن تصلح شرائعها ، وتبنى قوانينها على العدالة وتعطى كل ذى حق حقه ٠

ومن أوائل المفكرين الذين تصدوا للبحث عن المدينة الفاضلة أو المدينة المثالية كان أفلاطون مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده وهو كتاب « الجمهورية » ٠

والواقع أن أفلاطون من أنبغ نوابغ الفكر ، وأول الفلاسفة ، وأشهر الحكماء ، وهو أول من أنشأ المدارس الفلسفية العظيمة ، فكانت الأكاديمية احدى مدارس أربع أثرت أعظم الأثر في الحضارة القديمة ٠ وقد ظلت مدرسته قائمة في أثينا ـ حيث أنشأها ـ تسعة قرون حتي أغلق الامبراطور جستنيان أبوابها وطرد فلاسفتها ، ثم استمرت الأفلاطونية مؤثرة فى الفكر حتى الوقت الحاضر ٠ وقد قيل ان الفلسفة قد بنيت على يديه واكتملت فى حياته ، وذلك لأنه ضرب من كل فن ، وطرق كل باب ، وبحث فى كل علم ، وأرسى قواعد الفلسفة ، وشيد قوائم العلم ، وهو أول من كتب فى المدينة الفاضلة ، وأول من حاول اصلاح المجتمع بتطبيق الفلسفة على السياسة ، وأول من حلل النظم الاجتماعية وعرف طبائعها ٠

والاجماع منعقد على أن الحضارة الغربية ثمرة الأفلاطونية ، فقد تسربت الى المسيحية وصبغتها بالمثالية ، وثبتت قواعدها ، وتعلمها جاليليو فوضع علم الفلك الحديث، وسار العلم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم على سنة التفسير الرياضى الذى ذهب اليه أفلاطون ٠

وكذلك تسربت الأفلاطونية الى الحضارة الاسلامية ، واتجهت فى أول أمرها وجهة أفلاطونية قوية تبدو فى الكندى وفى الفارابى صاحب الجمع بين رأيى الحكيمين ، والذى كتب فى المدينة الفاضلة متأثرا خطى صاحب الأكاديمية • واليوم تجد الأفلاطونية شائعة بين الناطقين بالضاد ، فنحن نقرأ عن الحب الأفلاطونى ، والبحث الأكاديمى ، والتفكير المثالى ، وغير ذلك مما يجرى على كل لسان ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنه قد لا يعرف ما وراء ذلك من فلسفة تنادى بهذا الضرب من الحب ، أو هذا اللون من البحث ، أو هذا اللون من التفكير •

حياة أفلاطون

ولد أفلاطون فى شهر مايو سنة ٤٢٧ قبل الميلاد ، وعاش حتى بلغ الثمانين وتوفى سنة ٣٤٧ ق • م ، وكان مولده فى جزيرة قريبة من شاطىء أتيكا لا تبعد كثيرا عن أثينا تسمى «ايجيتا» حيث استقر فيها مؤقتا أبوه أرسطون •

ويزعم قدماء الرواة أن اسمه كان فى الأصل أرسطوقليس ، ثم لقب بعد ذلك بلقب اشتهر به هو أفلاطون: أى عريض الجبهة ، أو الأكتاف ، أو الصدر ، أو الفكر والأسلوب •

وهو من ناحية الوالدين شريف النسب ، فأبوه أرسطون ينحدر من صلب قودرس آخر ملوك أثينا الأقدمين والذى حقق النصر لشعبه على الدوريين وهزمهم فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ويزعمون أنه من نسل الاله بوزيدون •

أما أمه « فاريقطيونى » فهى من أسرة حكام أثينا ومشرعيها وتمت بالصلة الى صولون (٢) المشهور ، وكان أفلاطون يعتز بنسبه فسجله فى محاوراته ، فعرفنا الشيء الكثير عن آبائه من هذا الطريق ٠

وقد عاش أفلاطون طيلة حياته مؤمنا بأن صلاح الدولة فى اقتران الفلسفة بالسياسة واتصاف الحاكم بالحكمة ٠ وقد نشأ فى بيت من الحكام ، وكان أجداده من الملوك والمشرعين ، فلا غرابة أن ينسج على منوالهم ، ولكنه أضاف الى السياسة المأثورة شيئا جديدا هو الفلسفة ٠ وينبغى أن يستقر فى أذهاننا من أول الأمر أن أفلاطون لم يكن من الفلاسفة الذين كانوا يعيشون فى برج عاجى ، أو يفهمون الفلسفة على أنها البحث عن الحقائق الميتافيزيقية المجردة بصرف النظر عن صلتها بالحياة العملية ٠

ومع أن الرواة يمرون فى صمت على طفولة أفلاطون ، الا أننا نستطيع أن نتصور أنه تعلم كغيره من صبيان الاغريق القراءة والكتابة ، وحفظ شعر هوميروس ، ومبادىء الحساب والهندسة والموسيقى ، وأنه تعلم الغناء والعزف على القيثارة وكذلك الألعاب الرياضية ٠

ويقال انه هوى من الفنون الجميلة ومارس فى صباه النقش والتصوير والنحت وقرض الشعر وكتابة التمثيليات، فهو فى كثير من محاوراته يستعمل لغة الفنانين واصطلاحاتهم وينقدهم نقد الخبير ٠ ويروى القدماء أنه

---

(٢) صولون : مشرع أثينى ذاع صيته كشاعر حتى أصبح واحدا من حكماء الاغريق (٦٣٩ ق٠م ـ ٥٥٩ ق٠م) ٠

حين قابل سقراط أحرق التمثيليات التى كان قد كتبها وانقطع منذ ذلك الحين الى الفلسفة ٠

وأهم شخصية أثرت في تفكير أفلاطون هو سقراط(٣)، فقد كان من جملة أصحابه وأصدقائه لأن سقراط لم يكن صاحب مدرسة بالمعنى المفهوم من كلمة « مدرسة » ٠ وقد بين لنا أفلاطون مدى علاقته بأستاذه فقال : « حين كنت شابا توقعت كما يتوقع فى الغالب الشباب أن أشارك فى الحياة العامة للمدينة عندما أبلغ الرشد ٠ وقد شهدت من التطورات فى الموقف السياسى السخط العام على الدستور القائم ٠ ثم حدث تغيير أدى الى استيلاء واحد وخمسين شخصا على السلطة ، بقى عشرة منهم فى أثينا ، وأحد عشر فى بيرايوس ، ولم تقف سلطتهم على مباشرة الحال فى الأسواق فقط بل على العناية بجميع شئون المدينة كذلك ٠ أما الثلاثون الآخرون فكانت لهم على الجميع سلطة مطلقة ، وكان منهم بعض أقربائى وأصدقائى، فدعونى الى الاشتراك معهم باعتبار أن هذه الأعمال من جملة ما يشتغل به أمثالى٠٠ ولكنى تبينت بعد قليل أن مسلكهم جعل الدستور القديم بالنسبة الى حكمهم ذهبيا ، هذا الى أنهم أرسلوا صديقى القديم سقراط الذى لا أتردد فى القول بأنه أعدل رجل فى عصره ٠٠٠ للقبض على مواطن فى المدينة ٠٠٠ فلما رأيت جميع هذه الأحداث وغيرها من الجرائم التى لا يمكن غض النظر عنها اشمأزت نفسى وانسحبت من شرور ذلك الزمان»٠

---

(٣) سقراط : انظر صفحة ٣١ من الجزء الثالث من الموسوعة ٠

ويذكر أفلاطون بعد ذلك كيف رغب بعد سقوط حكومة الثلاثين فى المشاركة فى السياسة وفى الحياة العامة ، لولا أن عمل بعض الحكام على تقديم « سقراط صديقى وصاحبى الى المحاكمة باتهام من أفظع الاتهامات وأبعدها عن الانطباق على سقراط ، اذ حوكم بتهمة الالحاد ، وحكم عليه بالموت ، ونفذ الحكم فيه » ٠

ويصور لنا أفلاطون الأحوال السياسية التى ساءت فى تلك الأيام وموقفه منها ، واشمئزاز نفسه من مفاسدها ، سواء من جهة الأحكام أم من جهة القوانين والتقاليد ، ولم تكن الحال فى أثينا أحسن من غيرها من المدن فجميعها فى الفساد سواء ، ولذلك فهو يقول : « لن يخلص الجنس البشرى من متاعبه الا بأن يستولى المشتغلون اشتغالا حقيقيا بالفلسفة على السلطان السياسى أو بأن يصبح أصحاب السلطان فى المدن فلاسفة حقيقيين » ٠ وهذا هو المحور الذى دارت عليه فلسفة أفلاطون وهو العمود الفقرى فى مدينته الفاضلة ، نعنى : الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم ٠

رحل أفلاطون بعد موت سقراط الى أقليدس (٤) فى ميجارا ومكث عنده طويلا ، وتواترت الروايات على أنه رحل بعد ذلك الى مصر ، فهذا شيشرون (٥) يذكر أنه زارها مما

---

(٤) أقليدس : رياضى يونانى نشأ بالاسكندرية فى عهد بطلميوس ٠ وازدهر ح ٣٠٠ ق٠م ٠ (انظر الفصل الثالث من هذا الجزء) ٠

(٥) شيشرون : خطيب وكاتب وسياسى رومانى (١٠٦ ق٠م – ٤٣ ق٠م) (انظر صفحة ٧١ من الجزء الثالث من الموسوعة) ٠

يدل على أن الرواية قديمة وأنها كانت متداولة فى الأكاديمية بعد موت صاحبها بمائتى عام • ويذكر سترابون (٦) أنه زار المنزل الذى كان يعيش فيه أفلاطون فى مصر ، وذلك بعد ثلاثمائة عام من موته • ومما يؤكد هـذه الروايات ، اهتمام أفلاطون بمصر بوجه خاص ، ومعرفته الشىء الكثير عنها ، ووصـفه لأمور تدل عـلى الرؤية والمعاينـة ، مثل آثارها وفنونها ، ونظم التعليم السائدة فيها ، والعلوم التى اشتهرت بها وبخاصة الرياضيات •

ثم رحل من مصر الى تورينا فى شمال أفريقيا حيث لقى ثيودورس الـرياضى الذى ذكره أفلاطـون فى ثلاث من محاوراته ، وتوجه بعد ذلك الى تارنتوم فى جنوب ايطاليا ، وكانت معقل الفيثاغوريين حيث لقى زعيم المدرسة الرياضى أرخيتاس الذى لعب دورا كبيرا فى تفكير أفلاطون ، فرأى فيه الصورة العملية للحاكم الفيلسوف ، وأخذ عن مدرسته كل ما يخرج عن مسائل السلوك والأخلاق ، وهـذه المسائل هى خلود النفس والرياضيات بفروعها : العـدد والهندسة والموسيقى • وهكذا أشـبع أفلاطون رغبتـه فى الاتصـال بالفيثاغوريين والارتشاف من مناهل علومهم •

وفى عام ٣٨٧ ق•م وقد بلغ أفلاطون الأربعين ، أسس فى أثينا أول وأقدم جامعة فى العالم ، وهى الأكاديمية التى ظل يشرف عليهـا عشرين عاما ، وكان يبغى من تعليمه فى

---

(٦) سترابون : جغرافى ومؤرخ يونانى (٦٤ ق•م) (انظر صفحة ١١٩ من الجزء السابع من الموسوعة) •

هذه الأكاديمية هدفا سياسيا هو تكوين فئة من الفلاسفة المستعدين لنشر نظريات اجتماعية وسياسية فى أنحاء بلاد اليونان ٠

ويذهب بلوتارخ أن أفلاطون لم يترك لنا مجرد مذهب نظرى فى السياسة بل تعدى ذلك حين أخرج سياسيين ومشرعين أمثال «ديون» من صقلية و «بتون» و «هيراقليد» فى تراقيا ، و «أودوكس» وأرسطو(٧) اللذين شرعا قوانين لكنيدوس واسطاغيرا ٠

ولقد عنى الباحثون بمحاورات أفلاطون وصنفوها تصنيفات مختلفة ٠ غير أن أهم هذه التصنيفات ما اعتمد على تطور لغة أفلاطون على مدى حياته الطويلة فرتبت الى ثلاث مجاميع، مجموعة محاورات الشباب ويدور أكثرها حول حياة سقراط وآرائه ، ومجموعة النضج ومجموعة الشيخوخة ، وفيهما تطورت نظرياته عما كانت عليه فى عهد الصبا ٠

أما محاورة الجمهورية فتعد أهم ما كتب أفلاطون لما تضمنته من نظريات مختلفة ارتبطت لتكون نظرة عامة لحياة الانسان والمجتمع ، وكان لها فى تاريخ الفلسفة فيما بعد تأثير لم ير مثله كتاب من كتب الفلسفة ٠

موضوع محاورة الجمهورية

غاية بحث أفلاطون فى هذه المحاورة هو تحديد صورة الدولة المثالية التى تتحقق فيها العدالة ٠

---

(٧) أرسطو : انظر صفحة ٣٤ من الجزء الثانى من الموسوعة ٠

ولما كانت العدالة فضيلة النفس الفردية كما هى نظام يتعلق بالدولة فقد اقتضى بحثه تفسير طبيعة الانسان وتكوين الدولة على حد سواء حتى يمكن تحديد الظروف الواجب توافرها لكى تتحقق العدالة فى كل منهما ٠

ويجد قارىء محاورة الجمهورية أن البحث عن العدالة وشروط تحققها فى المجتمع المثالى يستغرق سبعة أبواب من الأبواب العشرة التى يتكون منها الكتاب ٠

ثم يعرض أفلاطون لتفسير مصادر الفساد الذى يصيب الدولة والفرد ، ويقابل بين دولته المثالية وأخلاق مواطنها المثالى وبين الدولة الفاسدة التى تفسد فيها أخلاق المواطنين ، ويضع أفلاطون قانون تدهور التاريخ من الدولة الصالحة الى الصورة الفاسدة ، ويستغرق بحث هذا الموضوع البابين الثامن والتاسع من الكتاب ٠

وفى الباب العاشر والأخير من الكتاب يختتم أفلاطون حديثه عن العدالة بتأكيد قيمتها وما يترتب على وجودها من خير للمجتمع وللفرد ، ويقدم نقده ويبين الأسباب التى من أجلها حكم على شعراء التراجيديا وهوميروس بالطرد من مدينته الفاضلة ، ويصف ما ينتظر النفوس من حساب عادل فى العالم الآخر ٠

هذا مجمل الموضوعات التى وردت فى محاورة الجمهورية ويمكن تلخيصها فيما يلى :

● تعريف العدالة وشروط تحققها فى الدولة وفى الفرد ويستغرق تقريبا من الباب الأول الى الباب السابع ٠

● مصادر الفساد فى الدولة وفى الفرد ويستغرق البابين الثامن والتاسع ٠

● آراؤه فى الفن وفى النفس الانسانية ويستغرق الباب العاشر ٠

العدالة وشروط تحققها فى الدولة والفرد

(أ) الآراء المختلفة فى العدالة

يعد الباب الأول من الجمهورية بمثابة مقدمة للمحاورة ، وحين يستطرد الحديث الى السؤال عن العدالة تتضح لنا ثلاثة آراء مختلفة تعبر عن مواقف ثلاثة متباينة من مشكلة العدالة هى رأى كيفالوس الشيخ وابنه بوليمارخوس ويمثل الرأى السائد عند عامة الناس ، ثم رأى تراسيماخوس السفسطائى ويمثل المذاهب الجديدة فى الأخلاق والسياسة ، وهو الرأى الذى يعارضه سقراط والذى يمثل رأى أفلاطون وموقفه المثالى الأرستقراطى فى العدالة ٠

ويدور الحديث فى محاورة الجمهورية بأسلوب رواية يرويها سقراط لمستمعين غير معروفين عما جرى فى اليوم السابق عند بوليمارخوس بن كيفالوس حيث التقى هناك بعدد من الشخصيات بعضها معروف وبعضها غير معروف مثل كيفالوس الشيخ الثرى وأبنائه ومنهم بوليمارخوس الذى سيروى حديثه فى المحاورة ، ومن الحضور أيضا السفسطائى

تراسيماخوس أخو أفلاطون ، وأديمانتوس وجلوكون ابنا أريستون ٠

وحين يتطرق الحديث عن العدالة يتقدم بوليمارخوس ابن كيفالوس بتعريف استمده من الشاعر سيمونيدس فيقول ان العدالة تقضى بأن يرد الانسان لكل ما له ٠

ويوضح هذا التعريف فيقول ان العدالة هى معاملة كل حسب ما يستحق ، أو معاملة الأصدقاء بالخير ان كانوا أخيارا والأعداء وهم الأشرار بالشر ٠

ورغم التعديلات التي يضيفها بوليمارخوس تحت ضغط مناقشة سقراط يرفض الجميع هذا التعريف ؛ لأنه ينطوى على تناقض ، اذ كيف يضر العادل أعداءه ؟ وبمعنى آخر كيف يقترف العادل ظلما بعدالته ؟

وسرعان ما يتدخل في الحديث تراسيماخوس الذي يمثل الآراء الجديدة المتطرفة فى السياسة ، فيعترض معلنا ضيقه من جدل سقراط وتلاعبه بالألفاظ ويقدم تعريفا ثانيا للعدالة ، وهو تعريف ينطوى على مبدأ سياسى أخذت به دولته الأثينية التى توسعت فى سياسة الاستعمار وفرضت الحق بالقوة على جميع مستعمراتها ، فيقول : « ان العدالة ليست سوى العمل بمقتضى مصلحة الأقوى » ٠ ويفسر تراسيماخوس معنى الأقوى بقوله ان الحاكم يفرض على المحكوم مصلحته ، والعدالة هى ما تفرضه ارادة الحاكم أو الأقوى ٠ لكن مثل هذا التعريف انما يفيد أن العدالة متغيرة بتغير نظم الحكم ، وأنها نسبية لظروف الحكام فى الدول

المختلفة ، ومثل هذا التفسير انما يقترب كل الاقتراب من فلسفة السفسطائيين معارضى سقراط وأفلاطون وعلى رأسهم بروتاجوراس القائل ان الانسان هو مقياس كل شىء ٠

وفى مقابل هذه المذاهب النسبية الواقعية من الأخلاق يأتى سقراط وتلميذه أفلاطون بفلسفة مثالية تؤكد أن للقيم الأخلاقية وجودا ثابتا لا يتغير من زمان لزمان أو مكان لمكان كما أنها مطلقة لا تحتمل أى تغير أو تبديل ٠

ويبدأ الباب الثانى بتدخل شخصية أخرى تؤيد مذهب تراسيماخوس هى شخصية جلوكون الذى يسترسل فى بيان ما يعتقده عامة الناس عن العدالة ، فيقول ان الناس لا ترغب فى العدالة لذاتها ولا يلتزمون بها الا مجبرين حتى لا يصيبهم أذى من غيرهم ان عرفوا بالظلم ٠

وهنا يتحفز سقراط للرد على هذا الرأى لكى يثبت لهم العكس وهو ان للعدالة فى ذاتها قيمتها وانها الخير الوحيد للنفس الانسانية وبها وحدها يدرك الانسان السعادة ٠

ويحثه جلوكون وباقى الحاضرين على اقناعهم بأن العدل خير من الظلم وأليق بالانسان ٠ وتخطر لسقراط فكرة قمينة بأن تهديه الى سبيله فى شرح رأيه فى العدالة ، فيقول : لنفرض أن قوما من ضعاف البصر أرادوا أن يقرأوا لوحة مكتوبة بالأحرف الصغيرة وأن أحدهم وجد المكتوب فيها مكبرا فى لوحة كبيرة ، ألا يشير عليهم بأن يقرأوا الكتابة مكبرة ثم يعودون الى مقارنتها فى النقش الصغير ؟ اننى سأتبع نفس الطريقة فى بحثى عن العدالة ٠

أليست العدالة موجود فى الدولة كما هى موجودة فى الفرد ؟ أليست الدولة أكبر من الفرد ؟ وما دام الأمر كذلك فسيكون من السهل علينا أن نتبين سماتها وطبيعتها عندما ننظر اليها فى الدولة وبعد ذلك نقارنها بالعدالة فى الفرد لنجد التشابه بين الصورة المكبرة والصورة المصغرة ٠

(ب) العدالة فى الدولة

لنبحث أولا كيف تنشأ الدولة لنرى بأى الطرق يمكن للعدالة أن تتحقق فيها ٠ ولقد سبق أن ذكر أفلاطون كيف نشأ المجتمع الانسانى وتطور ، وأظهر فى محاورتى السياسى والقوانين حنينه الى العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه الانسان فى بساطة لا تعرف التعقيد ويعول على الطبيعة فى كل شىء ٠ وفى محاورة بروتاجوراس يذكر على لسان السفسطائى بروتاجوراس أسطورة يفسر بها كيف تطور الانسان من الحياة البدائية الى الحياة المدنية ، فيروى أن الآلهة بعد أن وزعت المواهب على أنواع الحيوان المختلفة لم تبق للانسان شيئا من المواهب والقوى الطبيعية ، ولكن الاله بروميثيوس حامى الانسان وراعيه سرق له النار والفنون العملية وعلمه استخدامها ليدافع عن نفسه ويستطيع البقاء ٠ لكن المعرفة العملية لم تكفه فى ضغط حياته وكان لابد لكى تنتظم حياته الاجتماعية من معرفة أخرى ، لذلك وهبته الآلهة معرفة العدالة والعفة لتنتظم حياته الاجتماعية وترتقى علاقاته ومدنيته ٠

والى مثل هذا التفسير يشير افلاطون فى محاورة الجمهورية فيقول ان الفرد وحده ضعيف ومن ثم يكون الاجتماع ضرورة تحتمها الحياة الانسانية ٠

وينشأ عن اجتماع الأفراد الحاجة الى تقسيم العمل فيما بينهم من أجل توفير كافة حاجاتهم الضرورية ، وتكون حياتهم فى بادىء الأمر بسيطة طبيعية لأنها تتجنب المشاكل التى تنجم عن ازدياد عدد السكان والتى تؤدى الى قيام المنازعات والحروب ٠

وحاجات الانسان لا تقتصر على متطلبات الحياة المادية وانما ينبغي لأهل المجتمع أن يتذوقوا الفنون والآداب ، وبارتقائهم فى أساليب الحياة يطلبون الترف وتزيد حاجاتهم الى الكماليات ، فتشتبك المصالح وتنشأ الحروب ٠ ومن هنا ينبغى تكوين طبقة من المحاربين المحترفين يتولون حراسة المدينة والدفاع عنها عند الاعتداء عليها ، كما تحتاج المدينة الى طبقة من الحكام يوجهون الرعية الى العمل الصالح ويرشدون المدينة الى طريق الخير ويحققون لها العدالة ٠

فما شروط هذه الطبقة التى ستتولى حماية المدينة وقيادتها ؟

يقول أفلاطون انه ينبغى اختيار أفراد هذه الطبقة منذ الصغر ، فيختبرون اختبارات متعددة لنتبين من كان منهم ذا نفس عالية ولياقة بدنية، بل يرى تخويفهم بوسائل مختلفة ليرى أيهم أثبت جنانا وأشد مراسا ، يقول : لنختبرهم كما يختبر الذهب بالنار ، وبعد أن يتلقوا تربية وتعليما طويلا

يختـــار أصـــلحهم ليـــكون حاكما ، أما من يلونه فيـــكونون مساعدين له حراسا وجنودا ٠

ولكى نتبين صفات هـــؤلاء الحراس يكفى أن ننظر الى كلاب الصيد والحراسة الاصلية النوع فنجدهم اوفياء أرقاء لأصدقائهم وأصحابهم واقوياء أشداء على أعدائهم ، وكذلك يكون حراس المدينة فيما بينهم ولأعدائهم ٠ ولكنهم سيجمعون الى هذه الصفات الأخلاقية ، الروح الفلسفية التواقة للعلم والمعرفة ٠ ولذلك يضع أفلاطـــون نظاما معينا فى التربيـــة والتعليم ٠

ويقول أفلاطون ، انه ينبغى مراقبة كل ما يصـــل الى أسماع هؤلاء الحكام فى طفولتهم من قصص أو فنون تؤدى الى انحراف ذوقهم وأخلاقهم ، وانما ننمى فيهم القـــدرة عـــلى تذوق الجمال ؛ حتى يتوافر لنفوســـهم التنـــاسب والاتزان بواسطة الموسيقى والفنون الجميلة التى ترهف أذواقهم كما تقوى الرياضة البدنية أجسامهم ٠

وان كنا نربى حكامنا من الصـــغر على الصـــدق وباقى الأخلاق الكريمة الا أننا سنبيح كذبة نلقنها لجميع المواطنين اذ نروى لهم انهم جميعا اخوة لأن الأرض هى أمهم جميعا ، لكن الاله الذى خلقهم قد مزج فى طبيعة بعضهم ذهبا ليكونوا حكاما وأدخل فى طبيعة بعضهم فضة ليكونوا حراسا وجندا وخلط الباقين بالحديد والنحاس ليكونوا فلاحين وصـــناعا منتجين حاجات الانسان المادية ٠

كذلك يؤكد أفلاطون انقسام المجتمع الى ثلاث طبقات متمايزة بحكم الطبيعة ، ويرى أن لكل طبقة من هذه الطبقات

الثلاث وظيفة هيأتها الطبيعة لها وخصتها بها بحيث لا ينبغى لها أن تتدخل فى عمل الطبقة الأخرى ٠

ويترتب على ذلك أن تختص الطبقة الممتازة فى المجتمع بالحكم ولا يشاركها فيه أحد من الطبقات الأخرى وخاصة الطبقة المنتجة لأنها لا تملك الحكمة ولا التربية ولا التعليم الذى يهيئها للاشتراك فيه ! لذلك نراه يخص كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث بفضيلة تناسب طبيعتها، ففى حين يختص الحكام بفضيلة الحكمة ويختص الحراس بفضيلة الشجاعة يقول ان فضيلة الطبقة المنتجة من الشعب هى فى التزامها العفة أو الاعتدال ، وأن تعنى بتنظيم ملذاتها وانفعالها بحيث تتحكم دائما فى شهوتها ٠

هذه الفضائل الثلاث هى الشروط الواجب توافرها فى طبقات الشعب لكى تتوافر العدالة فى الدولة ٠ وتعريف العدالة بناء على ذلك يتلخص فى تأدية كل فرد فى الدولة للوظيفة التى هيأته لها الطبيعة والتزامه بالفضيلة المناسبة بطبقته ٠ وعلى العكس يكون الظلم والشر حين يتعدى أحد الأفراد أو الطبقات على عمل غيره ، وبعبارة أخرى تضيع العدالة فى رأى أفلاطون لو شارك الاسكافى أو النجار فى عمل الفيلسوف الحكيم الذى له وحده حق توجيه الحكم ، وبهذا يصدم أفلاطون أول مبادىء حكم الديمقراطية فى عصره وفى كل عصر ٠

الشيوعية فى طبقة الحكام

يقول أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » انه يتبع الطبيعة عندما ينادى بالشيوعية وبمساواة النساء والرجال فى طبقة الحكام • ألا ترى الأنثى من كلاب الصيد والرعى تشارك الذكر كل شىء ؟ كذلك ستكون نساء دولتنا يربين تربية الرجال ويتلقين تعليم الرجال ثم يولين نفس المهام فى السلم والحرب كالرجال على السواء • ذلك ان لهن ما للرجال من مهارات فى العمل ، أما اختلاف الجنس فليس سببا يمنعهن عن مزاولة ما هن جديرات به من أعمال •

ولما كانت المرأة ستشارك الرجل فى جميع الأعمال الخاصة بطبقة الحكام فقد ترتب على ذلك الغاء نظام الزواج والأسرة فى طبقة الحراس •• فلن يختص أحد من هذه الطبقة بزوجة أو بولد وانما سيكون جميع الناس والأولاد مشاعا بينهم • ويربى الأطفال فى دور حضانة ترضعهم الأمهات وتتركهم لمربيات مختصات حتى يتفرغن لأعمالهن • ويحدد للنساء والرجال فى هذه الطبقة سنا لا ينبغى لأحد منهم أن ينجب قبل بلوغها ولا بعد تجاوزها ؛ حتى لا ينشأ الأطفال ضعفاء . اذ يبغى أفلاطون بهذه الفكرة المحافظة على السلالة النقية التى يوليها الحكم • ويحرم زواج الاخوة وينظم الزيجات فى الخفاء حتى يتحكم فى انجاب نسل ممتاز •

ولقد قصد أفلاطون بشيوعية النساء والأولاد ازالة أسباب الخلاف بين أفراد وطبقة الحراس ، ومن أجل ذلك ذهب

الى تحريم الملكية الخاصة على أفراد هذه الطبقة وطالب بأن يعيشوا عيشة مشتركة تكفلها لهم الدولة ٠

ولا يخفى ما تنطوى عليه أفكار افلاطون هنا من تأثر كبير بما كان يجرى فى عصره فى اسبرطة (٨) وكريت حيث كانت تحكم فى هذه البلاد طبقة من الأرستقراطية الدورية التى حافظت على نظمها الحربية لتضمن بقاءها فى ارض غزتها وبقى أهلها الأصليون مغلوبين على أمرهم زراعا يقومون على خدمتهم ، وكان الحكام فى هذه البلاد يربون تربية مشتركة ويعيشون فى معسكرات من سن العشرين الى الثلاثين ٠

★★★

أما الموجة العاتية الثانية التى يلقى بها أفلاطون بعد قوله بشيوعية النساء فهى قوله :

« ما لم يتول الفلاسفة فى الدول أو أن يتحول من نسميهم ملوكا وحكاما الى فلاسفة حقيقيين ، وما لم نر القوة السياسية تتحد بالفلسفة ، وما لم تسن قوانين دقيقة تبعد من لم يجمعوا هاتين القوتين ، فلن تنتهى الشرور من الدول بل من الجنس البشرى » ٠

لكن ما الذى يعنيه أفلاطون بالفلسفة ؟

انها عنده محبة الحكمة أو محبة المعرفة والسعى الى الحقيقة ٠

---

(٨) أسبرطة : مدينة يونانية قديمة كانت عاصمة لاكونيا ٠

ونجد الأبواب الثلاثة من الكتاب ـ من الخامس الى السابع ـ استطرادا يشرح فيه أفلاطون فلسفة الميتافيزيقية فى الوجود ، ذلك لأنه يعد دراسة الفلسفة أهم شرط من شروط تكوين الحكام فى الدولة العادلة ، وهى وحدها الدراسة الكفيلة بالارتفاع بهم من القيم والمبادىء الواقعية ـ التى يأخذ بها أكثر رجال السياسة فى عصره ومن يماثلهم من الخطباء والسفسطائيين أمثال جورجياس وبروتاجوراس وايزوقراط ـ الى القيم والمبادىء المثالية التى ينبغى أن تقوم عليها المدينة الفاضلة ٠

(جـ) العدالة فى الفرد

وبعد أن يكون أفلاطون قد انتهى من تعريف العدالة فى المجتمع وشروط تحققها يقول ان العدالة فى الفرد لا تختلف عنها فى المدينة لأنها ليست الا صورة مصغرة لها ٠

ان العدالة فى النفس الفردية ليست سوى ائتلاف قوى النفس المختلفة ؛ لتقوم كل منها بالوظيفة الخاصة بها وتتوافر لها الفضيلة المناسبة لها ، فالقوة الشهوانية فضيلتها العفة تلزمها حدودها وتمنعها من تجاوز حدود الاعتدال ، والقوة الغضبية فضيلتها الشجاعة تبين لها ما ينبغى لها المبادرة بفعله وما ينبغى لها تجنبه ، وللقوة العاقلة فضيلة خاصة بها هى الحكمة التى تبين لها الخير الأقصى الذى ينبغى أن تتجه له النفس ٠

فاذا انتظم عمل هذه القوى وتمت لها هذه الفضائل الثلاث تحققت العدالة ، لأنها تعنى فى النفس ما تعنيه فى

الدولة من انصراف كل قوة من قواها الى عملها الخاص ، وانتظام كل هذه القوى بحيث تخضع القوة الشهوانية للقوة الغضبية وهذه بدورها للقوة العاقلة التى توجه عمل الجميع الى الخير بمقتضى ما لها من حكمة ٠

★★★

مصادر الفساد فى الدولة والفرد

بعد أن انتهى أفلاطون من وصف دولته المثالية ومواطنها الحكيم العادل بقى عليه أن يبحث فى الدول الفاسدة وصفات مواطنيها وحكامها ، وغايته فى النهاية أن يبين الفرق الشاسع بين سعادة المدينة الفاضلة وشقاء المدينة الظالمة ٠

ولقد كان بحثه هذا من جهة أخرى بحثا فى أسباب تدهور التاريخ فى سيره من النظم المثالية الى النظم الأكثر نقصا حتى الدول الفاسدة تماما ٠

ولكن ما الدساتير والنظم الناقصة فى رأى أفلاطون ؟

انها دساتير كريت واسبرطة الثيموقراطية (٩) ثم الأوليجارشية(١٠) ومقابلها الديمقراطية ، وأسوؤها جميعا الطغيان آخر درجات التدهور والفساد ٠ وهكذا يكون لدينا خمسة دساتير ، واحد فقط منها هو الدستور الصالح وهو

---

(٩) الثيموقراطية هى حكومة الأرستقراطية الحربية ٠

(١٠) الأوليجارشية : هى حكومة الأقلية الغنية ٠

دستور المدينة المثالية الأرستقراطية ، وأربعة دساتير فاسدة • ويقابل هذه الدساتير خمسة أنماط لأخلاق الانسان لأن طباع الناس هى التى تكون الدساتير المختلفة •

ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذى بدأ فى هذه الدراسة للدساتير اذ كان الناس فى اليونان يتباهون بالديمقراطية الأثينية وخاصة الخطباء والسياسيين والسفسطائيين • ولقد ملأ انتصار اليونان على الفرس نفوسهم عزة وفخارا ، ألم يقهروا تلك الجماعات التى يحكمها سوط الطاغية ؟ ولكن من جهة أخرى كان الصراع بين أثينا واسبرطة على السيطرة على باقى بلاد اليونان ، يمثل صراعا بين نظامين داخليين : بين الديمقراطية الأثينية والأرستقراطية الحربية فى اسبرطة ، ولقد جند هذا الصراع الأقلام كما جند الجيوش وأريقت فيه الدماء والأموال على السواء ، وحدثنا هيرودوت عن النظم الثلاثة المعروفة فى اليونان وهى الملكية والأرستقراطية والديمقراطية •

وعلى العموم يمكن أن نقسم حديث أفلاطون من خلال كتابه فى هذا الموضوع الى ثلاثة أجزاء هى :

١ ـ من الثيموقراطية الى الديمقراطية

ان الدستور المثالى عندما يتحقق فى الواقع يتعرض لظروف التغير والنقص فتتحول المدينة الفاضلة من دولة أرستقراطية تحكمها عقول الحكماء الى دولة ثيموقراطية تحكمها العاطفة والحماسة والقوة الغضبية •

وترجع أهم أسباب تغير الحكم وفساده الى الفساد الذى يصيب حكام المدينة • اذ يحدث نتيجة عدم مراعاة قوانين الوراثة والزيجات الخاطئة أن يعقب الحكام نسلا لا يماثل طبيعة آبائه فى الأصالة والامتياز ، وعندئذ يختلط المعدن الذهبى والفضى بالحديد والنحاس فيقع الحكم فى يد طبقة يتغلب على طبيعتها الحقد والكراهية وتسودها الحماسة للحرب والنضال فتكون دولة الارستقراطية الحربية أو الثيموقراطية •

أما عن أخلاق مواطن هذه الدولة فهى اخلاق المحارب الذى لا يتحمس لشىء قدر حماسته للرياضة والصيد والحرب ولا يقدر من الأعمال سوى الأعمال التى تجلب المجد والشرف وتراه فى صباه لا يكترث بالمال ولكنه بتقدمه فى العمر يأخذ فى تقدير الثروة ويتجه الى لذات الحياة ذلك لأن القوة العاقلة فيه قد تخلت عن القيادة للقوة الغضبية والحماسية •

واذا ساء حال الثيموقراطية تحولت الى أوليجارشية أى حكومة القلة التى تسعى الى جمع المال بحيث لا يكون للفقير فيها أى نصيب ولا للفضيلة أى حساب • وينتهى الأمر بانقسام المدينة الى مدينتين : مدينة للأغنياء ومدينة للفقراء كل منهما تتآمر على الأخرى ويملؤها الشك منها •

ويحدث هذا حين يعقب الحاكم الثيموقراطى ابنا لا يقدر فى حياته الا المال ولا يكترث لما يكترث له الأب من مثل المجد والشرف والكرامة ، وانما تراه يكره كل هذه القيم ولا يجد لها فى قلبه مكانا الى جانب حب المال والثروة والشهوة

للماديات ، لذلك يسجد العقل والشجاعة عنده عـلى قدمى الشهوة • ولكن اذا ساء الحال ودب الفساد فى الطبقة الحاكمة تحول من يد الأوليجارشية الى يد الديمقراطية •

اذ يأتى اليوم الذى تضعف فيه الطبقة الحاكمة لاهمالها تربية أبنائها وتضحيتها بكل القيم فى سبيل شهوة المال، فيجد الفقراء أنفسهم من حيث الفضيلة والقوة والعدد أقوى من حكامهم الأغنياء فينصرون عليهم ويساوون بين الجميع حتى يولوا الحكم والمناصب بالقرعة •

وفى هذه الدولة لا يقدس الانسان شيئا الا الحـرية ولكن ما يظنه الناس حرية فى هذه الدولة لا يؤدى الا الى الفوضى ، اذ سيتبع كل فرد فيها أهـواءه فتتعدد المبـادىء والقوانين ، ويبدو هـذا النظام جميلا فى نظر البعض لأنه سيصير أشبه بثوب مزركش بكل الالوان الزاهية ولكنه فى الحقيقة سوق لكل المبادىء وكل القوانين وفوضى تساوى بين المتساوين وغير المتساوين •

أما عن مواطنهـا الديمقراطى فهـو ذلك الذى ترك العنان لكل شهواته وقلب المخازى فضائل حتى دعا السفاهة حسن تربية والفوضى حرية والتهتك رقيا والوقاحة شجاعة •

ذلك هـو الديمقراطى الذى ينحسر عن فكره مبـادىء الحق والاتزان والذى يساوى بين جميع الشـهوات ويتقلب بحسب الأهواء ، يوما تشجيه الموسيقى وألحان النـاى ويوما يعكف على الرياضة وما يعالج به بدنه ويكتسب به القوة ، وتراه كسولا حينا وغارقا فى العمل عاكفا على الفلسفة حينا

آخر ، لا يعرف لنفسه نظاما ولا لسلوكه ضابطا ، وهذا هو محب المساواة • ثم لننتقل بعد ذلك الى وصفه لنظام الطغيان الذى يعده أفلاطون ثمرة ونتيجة لنظام الديمقراطية •

٢ ـ وصف الطغيان

ظهر نظام حكم الطغاة منذ القرن السابع قبل الميلاد فى مدن آسيا الصغرى خاصة المدن التجارية والصناعية ، ثم انتقل هذا النظام بعد ذلك الى بلاد اليونان نفسها فظهر فى سيكيون وكورنثا وأثينا ، وانتقل بعد ذلك الى جنوب ايطاليا وصقلية التى تولى الحكم فيها الطاغية ديونيسوس معاصر أفلاطون •

وكان الطغاة فى أكثر الأحيان يعارضون حكم الأغنياء وأصحاب الأراضى الزراعية ويحمون التجارة والصناعة ويناصرون طبقات الشعب الفقيرة وينشرون عبادة آلهتها ، وكان أكثرهم يرعى الفنون والآداب ويناصر أكثرهم مبادىء المساواة والحرية ، ومن أشهر هؤلاء فى أثينا بزيستراتوس وكلستينيس وبريكليس • ولكن وجد من يعارض حكمهم ويصفه بأنه حكم الشهوة والأنانية الفردية ، وكان أفلاطون على رأس معارضى هذا النوع من الحكم وكانت تجربته الشخصية مع ديونيسوس طاغية سيراقوصة بصقلية من أهم الأحداث التى أثرت فى آرائه السياسية •

وكان أفلاطون يعد حكم الطغاة أسوأ أمثلة الحكم ويرى انه فى ظل حكم الطغاة تصل الفوضى باسم الحرية الى أسوأ درجاتها بحيث تنقلب الأوضاع فيتحول الحاكم الى محكوم

والمحكوم الى حاكم، حتى نظام الأسرة يختل فلا يجرؤ الأب على توجيه ابنه بل يخشاه اذ يعد الابن نفسه مساويا لأبيه ويعد الغريب نفسه ندا للمواطن ، بل أسوأ من ذلك فى رأى أفلاطون أن يعد الرقيق نفسه مساويا فى الحرية لسيده وعندئذ تثور حتى الدواب على أوضاعها ٠

وتؤدى زيادة الحرية الى نقيضها الى العبودية وذلك حين يختار الشعب مدافعا عنه لكنه سرعان ما ينقلب الى طاغية يتخلص ممن نصبوه حاكما ويحيط نفسه بحراس من المرتزقة ويسوق شعبه الى الحروب ولا يجد من يمدحه الا العبيد والا شعراء التراجيديا الذين يحبذون حكم الديمقراطية والطغيان ، لذلك لا يتردد أفلاطون فى طردهم من مدينته الفاضلة ٠

٣ ـ سعادة الفيلسوف وشقاء الطاغية

ولكن لننظر الى حياة الطاغية لنرى هل سيسعد أم سيشقى بطغيانه ؟ ولكى نتبين ذلك فلنبحث فى طبيعة النفس الانسانية ٠

فالنفس الانسانية شأنها شأن الدولة تنقسم الى ثلاث قوى تناسبها ثلاث لذات ٠ فقوة عاقلة لذتها الفكر والمعرفة وقوة غضبية تثور للكرامة وقوة شهوية تسعى الى كافة اللذات المادية ٠ والفيلسوف هو من سلم القيادة فى حياته لتوجيه القوة العاقلة فكان سعيه دائما وراء الحق وأصبحت لذته الكبرى فى المعرفة وفى الفكر ٠ أما الطاغية فهو من انقاد لأسفل قوى النفس للقوة الشهوية التى لا تنفك تطلب اللذات

المادية وهى لذات وهمية زائلة تستعبد صاحبها وتشقيه لأنها أشبه بوحش جهول فى باطنه يسوقه الى ارضاء شهواته وارتكاب كافة المخازى والمساوىء ٠

فاذا قارنا بين حياة الفيلسوف وحياة الطاغية فانما نتبين سعادة الفيلسوف وشقاء الطاغية ٠ فاللذات التى يطلبها الحكيم من نوع اللذات العقلية التى تهب النفس ائتلافا ونظاما يكسبها الفضيلة ويخضع قواها لتوجيه العقل وادراك الخير فى النهاية ٠

أما لذات الطاغية فهى من قبيل اللذات الحسية التى ليست فى الحقيقة لذات حقيقية بل لذات وهمية سالبة ، من يجرى وراءها كان كمن يقفو أثر شبح لا حقيقة له ٠

رأى أفلاطون فى الفن والنفس الانسانية

وقد أرجأ أفلاطون حديثه عن الفن والنفس الى الباب الأخير من جمهوريته ، وذلك بعد أن كان قد انتهى من وضع نظرياته الاجتماعية والسياسية ٠

ويبدو لقارىء جمهورية أفلاطون أن نقده للفن وحديثه عن مصير النفس موضوعان بعيدان عن الموضوع الرئيسى للمحاورة ، لكنهما فى الحقيقة مكملان لبحثه فى العدالة ، لأنه يهاجم الشعر والتصوير من أجل العدالة ٠ ولقد بنى نقده للفن على أساس هذه النظريات السالف ذكرها فى الجمهورية ، وهو يعارض شعر هوميروس وشعراء التراجيديا من وجهة نظر المصلح الاجتماعى ويعارضه أيضا باسم

الفيلسوف الأخلاقى الذى يهدف الى اصلاح النفس واكتمال فضيلتها • ولقد أفصح فى الجمهورية وفى غيرها من المحاورات الأخرى عن اعجابه بأنواع من الفن الذى رأى فيه تعبيرا عن الأهداف الدينية والمثالية والأخلاقية •

وبحثه فى مصير النفس الانسانية انما يهدف الى تأكيد قيمة العدالة ، واثبات أنها الخير الوحيد الذى يناسب النفس الانسانية •

وكان أفلاطون قد أكد طوال محاورة الجمهورية أن الفضيلة فى حد ذاتها خير للانسان ، وهو فى ختام المحاورة يرى أن العادل محبوب من الجميع : الناس والآلهة على السواء وما يصيبه من شر ليس فى الحقيقة الا امتحانا ظاهريا لأنه سيكون فى النهاية أسعد حالا من الظالم • وتتضح قيمة العدالة وتزداد اذا كان فى الآخرة حساب واذا كانت النفس ستظل خالدة بعد الموت لتتلقى جزاءها •

والخلاصة ان الحكمة والفضيلة هما سبيل الانسان الى السعادة ، لأن العدالة تنطوى فى ذاتها على قيمتها وهى وحدها الخير الوحيد الذى يليق بالفيلسوف وبالنفس الانسانية •

وقد ختم سقراط حديث العدالة فى جمهورية أفلاطون وقال لسامعيه تلك العبارة الخالدة :

(لئن صدقتمونى فعلمتم أن النفس خالدة وحرة فى اختيارها الخير والشر فستهدون الى سواء السبيل وستلتزمون دائما بالعدالة والحكمة فى افعالكم لكى تمتلىء نفوسكم طمأنينة وأمنا فيما بينكم ومع الآلهة أيضا ، ليس فقط فى هذه الدنيا بل فيما بعد وفى يوم الحساب) ٠

هذه هى خلاصة جمهورية أفلاطون فى رسمها العدالة والمساواة واشتراك الجميع فى بناء صرح الدولة وتوفير الحاجات للناس دون تكالب على الكسب والتجارة وجمع المال ٠

والواقع أن أفلاطون هو الذى غرس أول دراسة للفلسفة السياسية من مناهله ، وضمن مؤلفاته جمهوريته وهى قمة ما كتب فى علم السياسة ، وستخلد على مدى الزمن ، وهى مرشد للباحث فى هذا الحقل ، ويصعب أن يضيف المفكر على أسسها شيئا مذكورا الا اذا كان ذلك عن طريق الشرح والاستفاضة ، وهو يعتبر بلا منازع بنظرياته القائمة على دراسات فى المنطق والعقل والحكمة والمعرفة والخلق والسلام والاتحاد أبا الفلسفة الغربية ٠

ولقد عرف الغرب الترجمة اللاتينية الأولى لهذا الكتاب فى سنة ١٤٨٣ وقد نشرها مارسيل فيسان ، وذلك قبل أن ينشر النص الأصلى اليونانى فى فينسيا ، بعد ثلاثين عاما من الترجمة اللاتينية ٠

ثم انتشرت بعد ذلك الترجمات الأوروبية المختلفة لجمهورية أفلاطون ، وكلها تتبارى فى اضافة الشروح والتعليقات عليها ٠ ولقد بلغت الترجمات الأخيرة لهذا

الكتاب العظيم أعلى درجة من الدقة والاتقان ، وأشهر هـذه الترجمات، ترجمة ليون روبان الفرنسية وترجمة كورنفورد الانجليزية ٠

★★★

جمهورية أفلاطون والفكر العربى والغربى

وقد تلهف الفكر العربى فى ازدهاره الى معرفة ما احتوته الحضارات التي سبقته أو عاصرته من العلوم والمعارف والحكمة والفلسفة ، وضمن ما عنى به نقل فلسفة اليونان القديمة وفى مقدمتها فكر أفلاطون ، ولا غرو فى عناية العرب بالفلسفات القديمة فحضارتهم واسعة الأفق تتقبل الجيد وما يقوم على المنطق والعقل والجدل ، ونظريتهم السياسية تأخذ بحرية الفكر واحترام حقوق الانسان ، فقد رأينا المثالية والجدل والحوار وتفسير الكون والوجود واقامة دولة صالحة صحيحة الجسد والعقل فى «الشفاء» و «القانون» لابن سينا وكتاب « تهافت التهافت » لابن رشد وفى « المدينة الفاضلة » للفارابى الذى جمع فى كتاباته بين الشريعة والفلسفة وبين أفلاطون وأرسطو ٠

وقد نقل المفكرون الأوروبيون عن العرب فلسفة أفلاطون وواصلوا تحليلها وعدوه رائد الفكر الغربى ومرشد الفلاسفة ومنار التفكير الاشتراكى والاتحادى بما جاء به من تخطيط سياسى واجتماعى فى جمهوريته المثالية ، وهو الذى رسم الطريق بمنهاجه الجدلى والعقلى للفلاسفة الحديثين أمثال « دى كارت » و « سبينوزا » و « نيتشه » و « هيجل » و « بنتام » و « ماركس » و « سان سيمون » ٠ وقد جمع

الى الجدل والحوار ومناقشة ما يحويه العقل والركون التخطيط ، فرسم السبيل لبنتام ومدرسته فى سياسة اللذة والألم ، وفى مكافحة الفاقة ونشر التعليم واصلاح القانون، كان هدفه توفير الضمانات للمواطنين وبث الطمأنينة فى النفوس على أساس تحقيق الرفاهية للجماعات • كما رأى أفلاطون فى مدينته الفاضلة أن تتولى السلطة الصفوة المختارة •

أيضا كانت جمهورية أفلاطون المرشد لقرون عديدة فيما بعد الى « سان سيمون » وهو بعد المخطط لسياسة اقتصادية للدولة تقوم على أساس الاختصاص والكفاية العلمية ، ونسج على منوالها « ماركس » بما حوته من تنظيم اشتراكى وخاصة فى الغاء الملكية الفردية والمساواة بين الناس على أساس توزيع الأعمال ، وكانت جمهورية أفلاطون أيضا المرشد للمفكرين فى مجال السياسة لـ « باريتو » و « ميشيلز » و « موسكا » الذين نهجوا سياسة حكم الصفوة بكفايتها وتخصصها باعتبار أن الحكم فعلا لا تباشره أغلبية بل يقوم به عدد من الصفوة الممتازة •

وساعدت « جمهورية » أفلاطون العلامة «ديجى» ورجل القانون الضليع « سيل » وغيرهما من الفقهاء والمشرعين فى دراسة توزيع الاختصاصات والأعمال كأساس لتكوين الدولة وفى تكوين الفكرة الاتحادية بين الدول •

وهكذا ابتدع أفلاطون فى دراساته وخاصة فى « الجمهورية » نظريته فى العالم ويصعد فيها الى القمة ليبدأ منها البحث عن الحقيقة وسعادة البشرية ويصبح بعقله

وخيـاله فى أفق المعـرفة الواسـع ليكشـف عن الحقـائق والمترادفات ويرسل أضواءه الوضاحة الى أبسـط التفاصيل ويبرز فى كتاباته أصل المادة وفلسفة الطبيعة والدين والخلق والسياسة وتناسق وجمال الأشياء والروح ، وكل ما يصـل اليه الفكر عند أفلاطون يتحول الى شعاع ويبعث فى صـورة بناءة لا يمكن ملاحقتها ، وهـو يهـدف ـ كما يتضـح فى « جمهوريته » ـ حرية الانسان المنظمة الى السـعى فى بناء عالم ينعم فيـه البشر بوسـائل راحة مادية ونفسـية نتيجة توزيع الأعمال ، والقضاء ما أمكن على الفوارق بين الناس وعلى أن تسود المعرفة والفلسفة والحكمة والتخصص حـكم المدينة الفاضلة ، وبذا يقوم عالم مثالى يسـوده السـلام ، وستظل فلسفة أفلاطون ومدينته المثالية فى « الجمهورية » المحرك الأساسى للمعرفة والتطور الفكرى ·

وفى النهاية يجب أن نذكر مقالة الفيلسـوف الشـهير آمرسون الخـالدة عن كتابنا فقـد قال عنـه : « ان تراث الانسانية لو آحرق برمته وبقى هـذا الكتـاب لكان فيـه الكفاية » !! ··

قال آمرسون هذا لأن الكتاب ملخص فلسفته ·· فيـه مذهبه فى السياسـة ·· والدين ·· والأخـلاق ·· وعلم النفس ·· والتربية ·· والفن ·· وفيما وراء الطبيعة ·· وفى هذا الكتاب يضع أفلاطـون الأسس التى يراها كفيلة لبناء مدينة فاضلة أو مدينة هى المثل الأعلى فى المدن ·

★★★

أصول الهندسة

أقليدس

٣٠٠ ق.م

الكتاب الذى ظل أساسا لدراسة مبادىء الهندسة حتى هـذا العصر

قليلون جدا من الخالدين استطاعوا أن يعيشوا طويلا مثلما عاش عالم الهندسة الاغريقى اقليـدس • فمن بين هـؤلاء الخالدين أناس اشتهروا وهم أحياء مثل نابليون والاسكندر الأكبر ومارتن لوثر وغيرهم • بينما عاش أقليدس هـذا مجهولا فى حياته ، ولكن بعد مماته أصبح أشهر من الجميع وأبعدهم أثرا أى أطولهم عمرا !!

سـيرة اقليدس

وعلى الرغم من شهرته هذه ، فان القليل جدا عن حياته هو الذى نعرفه • ونحن نعلم انه عمل مدرسا فى الاسكندرية حوالى سنة ٣٠٠ ق•م• ولسنا على يقين من تاريخ مولده أو مماته ، ولا نعرف أيضا ان كان قد ولد فى أفريقيا أو فى أوروبا ، ولا فى أى مدينة !

ولكن جاء فى كتابات العرب عنه انه اقليدس بن نقراط ابن زنارخوس ، ولد بطبرة ، اغريقى الجنسـية ، دمشـقى المـوطن ، فيلسـوف من العصـور الماضية ، عالـم كبير فى الهندسة ، كتب أعظم وأنفع كتاب أسماه «أصول الهندسة»، أو أسس الهندسة ، وهو عمل لم يسبق اليه ما هو أعظم منه ،

ترسم خطاه واعترف بفضله كل من جاء بعده ، ودأب القادمون من علماء الاغريق الرومان والعرب على شرح كتابه والتعليق عليه والاقتباس منه • وكان الفلاسفة الاغريق يضعون على أبواب مدارسهم العبارة الشهيرة : « لا يدخلها من لم يتعلم أصول هندسة اقليدس » •

ويقول ابن النديم فى كتابه الفهرست : « اقليدس صاحب جومطريا ، ومعناه الهندسة ، وهو اقليدس بن نوقطرس بن برنيقس ، المظهر للهندسة ، أقدم من أرشميدس وغيره ، وهو من الفلاسفة الرياضيين » •

وذكر ابن النديم فى كتابه أيضا أن لاقليدس كتبا أخرى غير كتاب « أصل الهندسة » منها : « كتاب الظاهرات ، كتاب اختلاف المناظر ، كتاب المعطيات ، كتاب النغم ، كتاب القسمة ، كتاب الفوائد ، كتاب القانون ، كتاب الثقل والخفة ، كتاب التركيب ، وكتاب التحليل » •

وعلى الرغم من أنه قد ألف كل هذه الكتب ، فان كتابا واحدا له هو الذى حظى بكل الشهرة • أعنى كتابه « مبادىء الهندسة » •

وقد ظن بعض كتاب العرب ان كتاب أصول الهندسة لم يكن من وضع اقليدس نفسه ، وان الكتاب كان لغيره ، وكان عمل اقليدس هو تهذيب وتفسير ما احتواه الكتاب ، اذ جاء فى كتاب « كشف الظنون » انه ورد من شرح الأشكال للفاضل قاضى زاده الرومى ، « ان بعض ملوك اليونان مال الى تحصيل ذلك الكتاب « الأصول » فاستعصى عليه حله ،

فأخذ يتوسم أخبار الكتاب من كل وارد عليه ، فأخبره بعضهم بأن فى بلدة صور رجلا مبرزا فى علمى الهندسة والحساب ، يقال له اقليدس ، فطلبه والتمس منه تهذيب الكتاب وترتيبه ، فرتبه وهذبه ، فاشتهر باسمه بحيث اذا قيل كتاب اقليدس يفهم منه هذا الكتاب دون غيره من الكتب المنسوبة اليه » ٠

كما ورد فى رسالة الكندى (١) فى أغراض كتاب اقليدس أن « هذا الكتاب ألفه رجل يقال له أبلونيوس النجار ، وانه رسمه خمسة عشر قولا ، فلما تقادم عهده ، تحرك بعض ملوك الاسكندرانيين لطلب الهندسة ، وكان على عهد اقليدس ، فأمره باصلاحه وتفسيره ففعل وفسر منه ثلاث عشرة مقالة ، فنسبت اليه ، ثم وجد اسقلاوس تلميذ اقليدس، مقالتين وهما الرابعة عشرة والخامسة عشرة فأهداهما الى الملك ، فأضيفتا الى الكتاب » ٠

غير أنه من المؤكد أن كتاب الأصول كان من الأعمال الرئيسية لاقليدس ، وان كان قد ضمنه نظريات بعض من سبقوه من فلاسفة الاغريق الرياضيين وذلك بعد أن أكملها واستوفى براهينها ٠

وتجمع كتابات العرب على أن جماعة منهم نقلوا كتاب اقليدس من الاغريقية الى العربية ، ويبدو أن أول من ترجم الكتاب الى العربية هو الحجاج بن يوسف بن مطر الذى

(١) الكندى : انظر رسائل الكندى فى الجزء السادس ، صفحة ١١٦ من هذه الموسوعة ٠

ترجمه مرتين ، وأسمى الأول الهارونى نسبة الى هارون ، وأسمى الثانية المأمونى نسبة الى المأمون ، ويوجد الآن نسخة من المخطوط الثانى فى مكتبة ليدن ، وقد جاء فى مقدمتها أنه أثناء خلافة هارون الرشيد ، أمر يحيى بن خالد البرمكى الحجاج بترجمتها الى العربية • ولما تولى المأمون الخلافة رأى الحجاج أن ينال الحظوة عند الخليفة ، فأخرج ترجمة أخرى للأصول نحا فيها نحوا جديدا ، فأصلح ما فيها من خلل وشرح ما يحتاج الى شرح •

وليس هناك من شك فى أن اسحق بن حنين قام بترجمة الأصول مرة أخرى من الاغريقية ، ويذكر صاحب الفهرست، أن ثابت بن قرة أصلح هذه الترجمة وحسن فيها ، كما يذكر أن أبا عثمان الدمشقى ترجم بعض أجزاء الكتاب •

ويتفق الكثيرون على أن أشهر النسخ المنقولة الى العربية من كتاب اقليدس ، هما نسختا ثابت والحجاج ، وتلا ذلك قيام كثير من علماء العرب بشرح الكتاب وتفسيره والتعليق عليه ، منهم : اليزيد ، والجوهرى ، والهامانى ، وأبو حفص الحارث الخرسانى ، وأبو الوفا الجوزجانى ، وأبو القاسم الانطاكى ، والقاضى أبو محمد بن عبد الباقى البغدادى الشهير بقاضى مارستان ، وأبو على الحسن بن الحق بن الهيثم البصرى ، وأبو جعفر الخازن ، وأبو داود سليمان بن عقبة ، وغيرهم كثيرون •

كما تناول أيضا كثير من المتأخرين من كتاب العرب وعلمائهم ، تحرير الكتاب متصرفين فيه ايجازا وضبطا ،

وايضاحا وبسطا ، ولعل أشهرهم فى ذلك نصير الدين بن محمد الطوسى ٠

من كل ذلك يتضح لنا جليا أن كثيرا من علماء المسلمين عنوا بالبحث فى كتاب اقليدس فى الهندسة ، وشارك فى هذا القدامى والمحدثون منهم ، وقد قاموا بترجمته ونشره واصلاحه وتفسيره والتعليق عليه ٠

مما هو جدير بالذكر أيضا أن بعض الكتاب الغربيين يقولون : ان كتاب « الأصول » لاقليدس وصل اليهم عن طريق العرب ٠ ومن ذلك تقول دائرة المعارف الأمريكية :

« وقد وصلت الينا أصول اقليدس من العرب عن طريق غير مباشر من الترجمات العديدة التى قاموا بها والتى لم تطبع منها الا احدى التراجم التى تمت فى القرن الثالث عشر ، وكان طبعها فى روما سنة ١٥٩٤م ٠ ويقال ان أول من قام باعادة ترجمة الأصول من العربية الى اليونانية هو Adelard of Bath فى القرن الثانى عشر ٠ وقد كانت هذه الترجمة أساسا للطبعة اليونانية التى حررها Companus of novara (فينسيا ـ ١٤٨٢) ، ومع كل فلا يعتمد على هذه الطبعة الى حد كبير » ٠

كتاب الأصول فى الهندسة

وكتاب اقليدس فى أصول الهندسة يعتبر أعظم الكتب المدرسية التى كتبت من أقدم العصور الى عصرنا هذا ، ويقع فى ثلاث عشرة مقالة ، تبدأ أولاها بتعاريف ثم خمس

مصادرات أو مسلمات (عمليات تفترض صحتها) ، ثم علوم متعارفة أو أشياء متعارف عليها (حقائق واضحة بذاتها) وعددها خمس أيضا ، ثم تأتى بعد ذلك النظريات ٠

وتشمل التعاريف : النقطة ، والخط ، والخط المستقيم والسطح ، والسطح المستوى ، والزاوية المستوية ، والزاوية الخطية المستقيمة ، والزاوية القائمة ، والزاوية المنفرجة ، والزاوية الحادة ، كما تشمل الشكل ، والدائرة ومركزها وقطرها ونصف الدائرة ، والأشكال الخطية والمثلث المتساوى الأضلاع ، والمتساوى الساقين ، والمربع والمعين وشبه المعين، وشبه المنحرف والخطين المتوازيين ٠

وأما المصادرات أو المسلمات فهى :

١ ــ يمكن رسم خط مستقيم من أية نقطة الى أية نقطة أخرى ٠

٢ ــ يمكن مد الخط المستقيم المتناهى بصفة متصلة الى خط مستقيم ٠

٣ ــ يمكن رسم دائرة لها مركز معلوم ونصف قطر معلوم ٠

٤ ــ جميع الزوايا القائمة مساو بعضها البعض الآخر ٠

٥ ــ اذا سقط مستقيم على مستقيمين فجعل مجموع الزاويتين الداخليتين على جهة واحدة منه أقل من قائمتين ، فان هذين المستقيمين اذا مدا الى ما لا نهاية له ، يتلاقيان على نفس الجهة التى عليها مجموع الزاويتين أقل من قائمتين ٠

أما العلوم المتعارفة أو الأشياء المتعارف عليها فهى :

١ ـ الأشياء المساوية لنفس الشىء يساوى بعضها الآخر ٠

٢ ـ اذا أضيفت أشياء متساوية الى أشياء متساوية فالحواصل متساوية ٠

٣ ـ اذا طرحت أشياء متساوية من أشياء متساوية فالبواقى متساوية ٠

٤ ـ الأشياء التى تنطبق الواحدة منها على الأخرى تساوى الواحدة منها الأخرى ٠

٥ ـ الكل أكبر من الجزء ٠

ونعود الى التعاريف وأولها تعريف النقطة الهندسية « النقطة ما ليس له أجزاء » ٠ ولا ترضى النفس عن هذا التعريف ، فهو يصف النقطة بما ليس لها ولا يصفها بما هى، ولابد لنا من بيان حالة الهندسة وتعريف النقطة قبل اقليدس حتى نتبين الحكمة فى هذا التعريف ٠ فلقد اعتبر فيثاغورث النقطة الهندسية عنصرا أوليا فى الفراغ كوحدة الأعداد فى الحساب ، ولكنها تختلف عنها بأن لها صفة المكان ، فهى وحدة لها مكان ، وأية نقطة على الخط المستقيم ، يمكن مطابقتها على نسبة عددين صحيحين متناسبين مع بعديهما عن طرفى المستقيم ٠ وهذا معناه أن الخط عبارة عن تتابع نقاط متميزة ٠

كذلك أثار تعريف اقليدس للخط المستقيم جدلا كثيرا ٠ فالخط المستقيم عنده « هو ذلك الذى يقع على استواء

بالنسبة للنقطة الواقعة عليه » وليس واضحا المقصود بهذا الكلام • وعندالبعض أن فكرة التماثل هى الفكرة الأساسية، فاذا وصلنا النقطتين (أ) ، (ب) بمنحنى (ل) فانه يوجد منحنى آخر (ل) يختلف عن (ل) بأنه صورته فى المرآة ، أى ما يكون يسارا فى أحد المنحنيين يكـون يمينا فى المنحنى الآخر • والمنحنى الوحيد الذى فيه تنطبق (ل) على (ل) هو الخط المستقيم (أ ب) • وعند البعض الآخـر ان تعريف اقليدس يشير الى عملية كعملية تصويب البندقية ، فعنـدما تكون (أ ، ب) كلتاهما فى خط النظر كذلك ستكون جميع نقط الخط المستقيم (أ ب) ، ومهما يكن الأمر فان اقليدس لم يستخدم تعريفه للخط المسـتقيم ولا تعـريفه للنقطـة الهندسية •

أما وجهة النظر الحديثـة فى النقطة والمسـتقيم فهى التسليم بأنهما تصوران أوليان • ومهما تكن وجهة النظر هذه منطقية الا انها تدعو للأسف واليأس من وجهة نظر عالم الطبيعة ؛ لأنها تفقد الهندسة صفة كونها تمثيلا لأمور توجد بالفعل فى الطبيعة •

★★★

ولقـد وضـع اقليدس من الفروض الأسـاسية خمس مسلمات ، وخمسة أشياء متعارف عليها • ومن هذه وتلك استنتج نظرياته •

والمسلمات الأربع الأولى من مسـلمات اقليـدس سهلة ليس فيها ما يثير المتاعب ، أما المسلمة الخامسة فهى أطول

فى النص وأقل وضوحا فى الفكرة ، وهى المسلمة المعروفة بمسلمة التوازى ونصها : اذا قطع مستقيم مستقيمين آخرين وكان مجموع الزاويتين الداخلتين من جهة واحدة أقل من قائمتين ، فان هذين المستقيمين الآخرين اذا مدا يتقابلان من هذه الجهة التى فيها مجموع الزاويتين الداخلتين أقل من قائمتين » ٠

ويرجع عدم ارتياح القدماء الى هذه البديهية ، لا الى الشك فى صحتها ولكن الى طبيعة كونها من الحقائق المشاهدة أكثر من أنها بديهية واضحة فى ذاتها ٠ كذلك ثارت الشكوك حول احتمال اشتقاقها من غيرها من البديهيات الأخرى بالاستنتاج المنطقى ، ولكن الاجماع الآن على أنه لا يمكن بأية حال استنتاجها من غيرها من مسلمات اقليدس ، وأن بديهية ما للتوازى أساسية لهندسة اقليدس ٠

وقد تحول البحث الى محاولة ايجاد بديهية أخرى للتوازى أبسط وأكثر وضوحا ، تحل محل بديهية اقليدس ، كأن نسلم مثلا بأنه يمكن تقسيم الفضاء الى مكعبات متساوية ، أو أن مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ٠ لكن لا واحدة من هذه المسلمات تلزم من الوجهة المنطقية ، وبذلك لم يتوصل الرياضيون الى خلق هندسة مبنية على حقائق منطقية لا غنى عنها ، الى أن ظهر الرياضى الايطالى « سيشرى » وطلع على العالم بفكرة أن أفضل طريق لحل لغز التوازى هو اللجوء الى البرهان بالخلف ، أى بافتراض أن البديهية غير صحيحة واستنتاج نتائج غير مقبولة ٠ ولما فعل هذا كشف فى الحقيقة عن الهندسة الاقليدية ، وأثبت أن

هناك ثلاثة أنواع من الهندسة بحسب كون مجموع زوايا المثلث أكبر من ، أو يساوى ، أو أصغر من قائمتين • وافترض أن الخط المستقيم يمتد الى ما لا نهاية له ، وبهذا القيد وجد أن النوع الأول من الهندسة ، وهو النوع الذى فيه مجموع زوايا المثلث أكبر من قائمتين مستحيل ، أما النوع الثالث ، والذى فيه مجموع زوايا المثلث أصغر من قائمتين ، فقد وجد أنه فيه مستقيمان يتقاربان من بعضهما الى ما لا نهاية له ، ولا يتقاطعان ، وهى خاصة ظن أنها غير مقبولة • وبذلك لم يبق أمامه الا النوع الثانى الذى فيه مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، وهو الذى يؤدى الى هندسة اقليدس •

طبيعة الهندسة الاقليدية

ولا شك أن الهندسة الاقليدية والتى وضع أسسها فى كتابه « أصول الهندسة » تعبر بدرجة كبيرة من الدقة عن كثير من خصائص عالمنا الواقعى وتعكس معظم آرائنا عنه ، ومنها اشتقت فكرتنا عن الفراغ الهندسى (المكان الهندسى) ، فالفراغ الهندسى هو كل ما اجتمع من النقط الهندسية التى تتكون منها المستويات والخطوط والكرات ••• وهلم جرا • ويمكن تصور ذلك على أنه وحدة يرمز لها بحد مطرد • ومن المهم أن نفرق بين الفراغ الهندسى ، والفراغ الفيزيائى الذى يتركب من أنواع ثلاثة هى : فراغ ما وراء السدم ، والفراغ الكبير ، والفراغ المجهرى • أما الفراغ الهندسى فلا يعدو كونه قاعدة متخيلة للعلاقات الهندسية الصحيحة على وجه التقريب فى الفراغ الفيزيائى

الكبير ، ولا وجود لهذا الفراغ الهندسى الا فى مخيلة عالم الهندسة ، ومع ذلك فقد لعب هـذا الفراغ دورا مهما فى تكوين صورة الفراغ الفيزيائى ، ذلك لأنه أصل تولد من مقـارنة القياسـات التى أجريت فى العـالم الواقعى ، ثم انعكست مرة أخرى على الطبيعة فأضـحت صـورة مقبـولة للحقيقة ٠

وفى رأى نيوتن ان الفراغ المطلق ، بطبيعتـه ذاتهـا وبدون نظر لأى مؤثر خارجى ، يبقى دائما متشابها دون حركة ، وجميع الأشياء موضوعة فى الفراغ بالنسبة لترتيب مكانها ٠ بمعنى أن الأرض والأجرام السماوية لها مكانها فى وعاء لا حركة له ، ولا حدود له ، وله وجود ، وكان هذا هو حاله ، بصرف النظر عن وجود العقول التى تدركه أو عدم وجودها ، وبصرف النظر عن انه مشغول فى مكان منـه أو غير مشغول ٠ وهو مسرح كل ما يحدث فى الكون المـادى ٠ واذا أخذنا لحظة من الزمان فكل جسم مادى يشـغل مكانا فى هذا الفراغ مع احتمال أن يتغير من موضع لآخر ، وهذا الفراغ لا نهائى فى الحجم ، منتظم الصفات متصل النسج ، هندسته اقليدية ٠ ومن واجبات عالم الطبيعة أن يفسر جميع الظواهر بدلالة حركات الجسيمات الموضوعة فى هذا الفراغ وفعل بعضها على بعض ٠

ومن المسلم به أنه بالرياضيات يمكن حسـاب كثير من حوادث الطبيعة قبل وقوعها ، ذلك أن للكون نظاما مستقرا يتبعه سير تلك الحوادث ، وأن المثل الأعلى للعلم أن يجد من القوانين والمعادلات الرياضية ما يمكننا من التنبؤ بأى حادث

قبل وقوعه فى الكون الفيزيائى الخارجى ، كالتنبؤ بكسوف الشمس أو خسوف القمر أو هبوب الريح وسقوط المطر ، الى غير ذلك من الظواهر ٠

ومن المسلم به أيضا أن كل فرع من فروع الرياضيات ينبنى على مجموعة من التعاريف والفروض ، والسؤال الآن هو : ما المعطيات أو المسلمات الأساسية التى منها يمكن رياضيا استنتاج جميع قوانين الكون المادى ؟ وهل هذه المعطيات أو المسلمات مما وصلنا اليه عن طريق الحواس بالتجربة والمشاهدة ؟ أم هى واضحة بذاتها ، كشفنا عنها بالحدس والالهام ؟

وقد أدرك الاغريق القدماء هذه المشكلة الفلسفية الأساسية وبحثوا فى أمرها وجاء حكمهم عليها فى الطريقة التى عالجوا بها الهندسة ، والهندسة بحكم انها علم العلاقات المكانية فى العالم الخارجى ، هى أساسا جزء من الفلسفة الطبيعية ٠ ومما لا شك فيه أن كثيرا من الحقائق الهندسية قد اشتق من المشاهدة ٠ وفى رواية أن طاليس قد اقتنع بنظرية اقليدس القائلة بأن الزاوية المرسومة فى نصف دائرة هى قائمة دائما ، وذلك حينما تطلع الى المستطيلات المرسومة داخل الدوائر على جدران المعبد ٠ كما روى هيرودوت : ان المصريين القدماء تعلموا كثيرا من الحقائق الهندسية حينما كانوا يضطرون عقب الفيضان كل عام الى اعادة تقسيم الأراضى ، وتعيين مساحتها ووضع حدودها ٠

ولما جاء الفيثاغوريون وأثبتوا الصلة المنطقية بين النظريات الهندسية المختلفة ساد الاعتقاد بأنه من المستطاع

احكام جميع الهندسة فى سلسلة من الاستنتاجات يحصل عليها بالتفكير القياسى من عدد صغير من المقدمات ، وأصبح السؤال هو : من أين يمكن اشتقاق تلك المقدمات ؟

وقال اقليدس : انه من الممكن اثبات جميع نتائج الهندسة كنتائج منطقية لعدد قليل من البديهيات والمسلمات التى نسلم بها بالحدس والالهام ·

انجاز اقليدس فى كتابه

وأهمية كتاب « أصول الهندسة » لا ترجع لأى من النظريات التى قدمها أو شرحها · وأكثر هذه النظريات الهندسية كانت معروفة من قبل ، كما أن الكثير من الأدلة على البرهنة على صحتها كانت معلومة أيضا · ولكن الانجاز الكبير الذى يعزى الى اقليدس هو تجميع هذه النظريات وعرضها وربطها والتدليل المقنع على صحتها· وهذا الانجاز يتضمن فى المقام الأول أنه أضاف الكثير من البديهيات الهندسية ، ثم انه نظم هذه النظريات الواحدة بعد الأخرى، حتى جاء هذا النظم مترابطا ومنطقيا ·· كما انه زودها بالبراهين التى غابت عن الكثير ممن سبقوه ·

وعلى الرغم من أن كتاب « أصول الهندسة » هذا قد تضمن نظريات هندسية ، فانه قد أضاف اليها بعض المعادلات الجبرية ·

والكتاب ظل أساسا للدراسات الهندسية أكثر من ألفى سنة ، ولم يفلح كتاب واحد ألفه انسان أن يعيش مثل هذا

الزمن الطويل • وقد ألف اقليدس كتابه هذا باللغة الاغريقية ، ولكن ـ كما أسلفنا ـ قد ظهرت له ترجمات فى كل اللغات ، وظهرت أول طبعة لهذا الكتاب فى سنة ١٤٨٢ أى بعد اختراع جوتنبرج للطباعة بثلاثين عاما • ومنذ ذلك الحين ظهرت لهذا الكتاب ألوف الطبعات فى مئات اللغات •

وهذا الكتاب لأنه تدريب عملى على التفكير المنطقى ، فقد كان أبعد أثرا من كتاب الفيلسوف أرسطو عن «المنطق» • وقد افتتن به كل المفكرين العظماء منذ ذلك الحين •

ومن العدل أن نقول ان كتاب اقليدس هذا كان عاملا قويا فى احياء العلوم الحديثة • لأن العلم ليس مجرد تجميع للمعلومات انما العلم يقوم على الملاحظات الدقيقة ، واستخراج النتائج المهمة لها • وأعظم انجازات العلم الحديث انما تجىء من ترابط التجارب الانسانية وتحليلها الدقيق بعد ذلك ، والوصول الى نتائج لها شكل النظريات وقوة البديهيات •

ولسنا على يقين من الأسباب التى أدت الى أن تكون نهضة العلوم فى أوروبا وليست فى الصين ، ولا يمكن أن يكون ذلك من نتائج الصدفة • فلابد من وجود أسباب قوية واضحة ومقنعة لأن يكون العلم قد ظهر وتطور الى غير حد فى أوروبا ، وليس فى أماكن أخرى من العالم • وأدى ذلك الى ظهور عدد من النابهين من العلماء مثل العالم الانجليزى

نيوتن والايطالى جاليليو (٢) والبولندى كوبرنيكوس(٣) · ولابد أن تكون هناك أسباب قوية لظهور مثل هؤلاء النابهين · ومن بين هذه الأسباب تأثر أوروبا بالفكر الاغريقي وبما قدمه الاغريق من نظريات فى الرياضيات ·

ومن الجدير بالملاحظة أن الصين قد تقدمت على أوروبا فى نواح أخرى · ولكنها لم تستطع أن تبلغ ما بلغته أوروبا فى اكتشاف النظريات الرياضية والعلمية ، فليس يوجد فى الصين عالم هندسى يماثل اقليدس ·· فمن المؤكد أن الصين قد كانت لها ممارسات هندسية ، لكنها لم تهتد قط الى نظرية هندسية واحدة · أى كانت لها تجارب عملية ولم تكن لها فلسفة نظرية محددة ·

وقد كان أثر اقليدس فى نيوتن عميقا · وهذا يبدو واضحا فى كتاب نيوتن الذى عنوانه « المبادىء » والذى كتبه باللغة اللاتينية · وقد جاء هذا الكتاب ذا شكل هندسى تماما مثل كتاب اقليدس ·

وقال المؤرخون : لم يوجد كتاب مثل كتاب « الأصول فى الهندسة » فى قدمه ، عاش كل هذه القرون · انه عاش فوق الألفين والمائتين من السنين · وهو لم يكد يصيبه فى كل هذا الزمان الطويل تغيير · وقبله الأقدمون ، وقبله

---

(٢) جاليليو : عالم فلك ورياضيات وطبيعة ايطالى (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) · اخترع الميزان المائى وصنع أول منظار فلكى عام ١٦٠٩ · اكتشف فى عام ١٦١٠ أربعة أقمار للمشترى ·

(٣) كوبرنيكوس : فلكى بولندى (١٤٧٢ ـ ١٥٤٣) واضع نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس وعلى أساسها بنى علم الفلك الحديث · (انظر صفحة ٢٧٧ من الجزء الخامس من هذه الموسوعة) ·

الأحدثون • ولقد قام جماعة من الأمريكيين فى منتصف القرن الماضى ، يتزعمون حركة تطيح باقليدس وكتاب اقليدس • وقاموا على عادة بعض الناس بالضيق بكل قديم • ونافسوا اقليدس تأليفا ، ونافسوه كتبا • وتعددت الكتب فى الهندسة ، وتعددت البراهين ، واختلطت • ولكن كتاب اقليدس بقى على الرغم من كل هذا ، كتاب الدنيا الأوحد ، والأخلد ، والأصمد •

★★★

القانون فى الطب

ابن سينا

حوالي ١٠١٠ م

الكتاب الذى ساهم مساهمة فعالة
فى تقـدم العلوم الطبيـة

ابن سينا من الخالدين الذين يحتلون مكانا ساميا فى تاريخ تقدم الفكر والطب والفلسفة ، وهـو من أصـحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع ومن ذوى المواهب النادرة والعبقرية الفذة • وعلى الرغم من عدم امتـداد حيـاته ، الا أنها كانت عريضة تفيض نشاطا وحيوية وتحفل بالانتاج والتأليف والابداع •

لقد كان انتاجه متنوعا وغزيرا ، فكتب فى الفلسفة والطب والطبيعيات والالهيات والنفس والمنطق والرياضيات والأخلاق ، ووضع فيها ما يزيد على مائة مؤلف ورسـالة ، يعتبر بعضها موسوعات ودوائر معارف ، اذ جمع فيها شتات الحكمة والفلسفة وما أنتجه المفكرون الأقدمون ، وأضاف اليها اضافات أساسية ومهمة جعلته من الخالدين المقدمين فى تاريخ الفـكر والعلم ، مما دفع البروفيسـور « جـورج سـارتون » (١) الى الاعتراف بأن « ••• ابن سـينا أعظم علماء الاسلام ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين ••• » •

---

(١) جورج سارتون : عالم أمريكى (١٨٨٤ ـ ١٩٥٦) • يعتبر أحد أعظم مؤرخى العلم • أهم آثاره « مقدمة لدراسة تاريخ العلم » •

ولقد سحرت عبقرية ابن سينا المستشرقين والعلماء ، والشرق والغرب على السواء ، فلقبه معظمهم بأرسطو الاسلام وأبقراطه ، وجعله دانتى بين أبقراط وجالينوس ، وقال دى بور : «... وكان ابن سينا أسبق كتاب المختصرات الجامعة فى العالم ... » ويرى فيه مثلا للرجل الواسع الاطلاع والمترجم الصادق عن روح عصره . والى هذا يرجع تأثيره العظيم وشأنه فى التاريخ . كما كان « مونك » يرى فى ابن سينا أنه من أهل العبقرية الفذة ومن الكتاب المنتجين . أما « أوبرفيك » ، فيقول : « ان ابن سينا اشتهر فى العصور الوسطى وتردد اسمه على كل شفة ولسان ، ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره ، وكان من كبار عظماء الانسانية على الاطلاق » .

لقد أجمع علماء الشرق والغرب على تقدير ابن سينا وتمجيده ، واستقوا من رشح عبقريته وفيض نتاجه ، فكان من الذين ساهموا مساهمة فعالة فى تقدم العلوم الطبية والفلسفية والنفسية .

سيرة الشيخ الرئيس ابن سينا بقلمه

هو أبو على الحسين بن عبد الله على بن سينا ، وهو وان كان أشهر من أن يذكر وفضائله أظهر من أن تسطر ـ قد ذكر من أحواله ووصف من سيرته ما يغنى غيره عن وصفه ، ولذلك نقتصر من ذلك على ذكر ما قد ذكره هو عن نفسه ، ونقله عنه أبو عبيدة الجورجانى قال : قال الشيخ الرئيس :

« ان أبى كان رجلا من أهل بلخ (٢) ، وانتقل منها الى بخارى فى أيام نوح بن منصور (٩٧٦ ـ ٩٩٧م) ، واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية من ضياع بخارى وهى من أمهات القرى وبقربها قرية يقال لها افشنة ، وتزوج أبى منها والدتي ، وقطن بها وسكن وولدت فيها ، ثم ولد أخى ، ثم انتقلت الى بخارى ، واحضرت معلم القرآن ومعلم الآداب ، وأكملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى منى العجب ، وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين وبعض من الاسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وانى أسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ، ولا تقبله نفسى ، وابتدأوا يدعوننى أيضا اليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهنى الى رجل كان يتتبع العقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه ، ثم صار الى بخارى أبو عبيد الله النائلى وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتزود فيه الى اسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد ألفت طريق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم منه ·

ثم ابتدأنا بكتاب ايساغوس على النائلى ، ولما ذكر لى حد الجنس انه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع من جواب ما هو ، أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع

---

(٢) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان ·

بمثله ، وتعجب منى كل العجب وحذر والدى من شغلى بغير العلم ، وكانت أية مسألة قالها لى أتصورها خيرا منه حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما وقائعه فلم يكن عنده منها خبر ، ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى ، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب اقليدوس ، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ، ثم انتقلت الى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته ، وانتهيت الى الأشكال الهندسية ــ قال النائلى فور قراءتها : حلها بنفسك ، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه • فارقنى النائلى متوجها الى كاركنج ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعى والالهى ، وصارت أبواب العلم تتفتح على •

ثم رغبت فى علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف ، وأنا مع ذلك أختلف الى الفقه وأناظر فيه ، وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة ، ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف السنة ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة وفى هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره ، وكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ، وأرتبها ، ثم نظرت فيما عساها تنتج وراعيت شروطها ، حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة ، وكلما كنت أتحير من مسألة ولم أظفر بالحد الأوسط فى قياسى ترددت

الى الجامع ، وصليت وابتهلت الى مبدع الكل حتى فتح لى المستغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل الى دارى ، واضع السراج بين يدى واشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت الى شرب قدح من الشراب حتى تعود الى قوتى ثم أرجع الى القراءة ، ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها حتى ان كثيرا من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام ، وكذلك حتى استحكم على جميع العلوم ، ووقعت عليها بحسب الامكان الانسانى ، وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزد فيه الى اليوم حتى أحكمت على المنطق والطبيعى والرياضى ، ثم عدلت الى الالهى ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم فيه ، والتبس على غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظا وأنا مع ذلك لا أفهمه ، ويئست من نفسى ، وقلت : هذا كتاب لا سبيل الى فهمه ، واذ أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الوراقين وبيد دلال مجلد ينادى عليه فعرضه على فرددته ، رد متبرم معتقدا أن لا فائدة فى هذا العلم ، فقال لى : اشتر منى هذا فانه رخيص أبيعك بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج الى ثمنه ، واشتريته فاذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى من أغراض كتاب ما بين الطبيعة ، ورجعت الى بيتى وأسرعت فقرأته فانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانى يومه بشىء كثير على الفقراء شكرا لله تعالى ، وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور الذى اتفق له مرض أتعب الأطباء فيه ، وكان اسمى اشتهر فيهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين

يديه ، وسألوه احضارى ، فحضرت ، وشاركتهم فى مداواته، وتوسعت بخدمته ، فسألته يوما الاذن لى فى وصول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لى فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب ٠

وقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ٠

ثم مات والدى وتصرفت فى الأموال وتقلدت شيئا من أعمال السلطان ، وتنقلت فى بلاد كثيرة ، ثم مضيت الى دهستان ، ومرضت مرضا صيفيا ، وعدت الى جرجان ، وأنشأت فى حالى قصيدة :

لما عظمت فليس مصر بواسعى
لما غلا ثمنى عدمت المشترى

قال أبو عبيدة الجورجانى : « أملى على المختصر الوسطانى فى المنطق لابن محمد الشبراوى فى كتاب المبدأ والمعاد ، وكتاب الأرصاد الكلية ، وصنفت كتبا كثيرة كأول القانون ومختصر المجسطى ٠

ثم صار الشيخ بعد ذلك من حاشية علاء الدين المقدمين، فظل الشيخ الرئيس يخدم علاء الدولة لما لقيه عنده من حسن التكريم ، فبقى معززا مكرما ، وكان كثير الرحلات كثير النشاط ٠

وأخيرا وصل الى همذان ، وقد ضعفت صحته ، ويقال : انه اغتسل وتاب وتصدق بماله على الفقراء ، ورد المظالم الى

أهلها ، وأعتق مماليكه ، وعكف بقية حيـاته عـلى قراءة القرآن ، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام ، واستمر على هذا الحال حتى توفي فى همذان فى يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هجرية ١٠٣٦ ميلادية وهو فى الثامنة والخمسين من عمره ٠

ابن سينا يتحدث عن كتابه

وضـع ابن سـينا مؤلفات في الطب جعلتـه في عداد الخالدين ٠ وقد يكون كتابه « القانـون » من أهم مؤلفـاته الطبية وأنفسها ٠ اشتهر كثيرا في ميدان الطب وذاع اسمه وانتشر انتشارا واسعا فى الجامعات والكليات ٠ وشغل هذا الكتاب علماء أوروبا ولا يزال موضع اهتمامهم وعنايتهم ٠ وقد ترجمه الى اللاتينية « جيرارد أوف كريمونا » وطبع فى أوروبا خمس عشرة مرة باللاثينية ما بين ١٤٧٣و١٥٠٠م، وبقى بفضل حسن تبويبـه وتصنيفه وسهولة مناله الكتاب التدريسى المعول عليه فى مختلف الكليـات الأوروبية حتى أواسط القرن السابع عشر للميلاد ٠

وفى هذا الكتاب جمع ابن سينا ما عرفه الطب عن الأمم السـابقة الى ما اسـتحدثه من نظـريات وآراء وملاحظات جديدة ، وما ابتكره من ابتـكارات مهمة ، وما كشـفه من أمراض منتشرة الآن ، مما أدى الى تقـدم الطب خطـوات واسـعة جعلت بعضهم يقـول : كان الطب ناقصـا فكمله ابن سينا !

وكذلك ضمن ابن سينا كتاب القانون شرحا وافيا لكثير من المسائل النظرية والعملية ، كما أتى فيه على تحضير العقاقير الطبية واستعمالها • وقرن ذلك ببيان عن ملاحظاته الشخصية •

وفى كتاب القانون ظهرت مواهب ابن سينا فى تصنيفه وتبويبه للمعلومات الطبية ، وما كشفه من نظريات جديدة فيها ، وأبرزها فى قالب منطقى • فقد كان قوى الحجة ، قاطع البرهان ، وهذا ما جعل كتاباته شديدة التأثير فى رجال العلم فى القرون الوسطى وما جعل السير « وليم أوسلر » يقول عن كتاب القانون : « انه كان الانجيل الطبى لأطول فترة من الزمن ••• » •

★★★

ولنترك الآن للشيخ الرئيس ابن سينا الفرصة لكى يحدثنا عن كتابه بأسلوبه فيقول فى مقدمته ما يأتى :

الحمد لله حمدا يستحقه بعلو شأنه وسبوغ احسانه والصلاة على نبيه المصطفى محمد وآله وأصحابه الطاهرين وبعد •• فقد التمس منى بعض خلص اخوانى ، ومن يلزمنى اسعافه فيما يسمح به وسعى ـ أن أصنف فى الطب كتابا مشتملا على قوانينه الكلية والجزئية اشتمالا يجمع الى الشرح الاختصار والى ايتاء الأكثر حقه من البيان والايجاز ، فأسعفته بذلك ورأيت أولا أن أتكلم عن الأمور الكلية فى قسمى الطب ، أعنى القسم النظرى والقسم العملى ، ثم بعد ذلك أتكلم عن كليات أحكام قوى الأدوية المفردة ثم فى جزئياتها ، ثم بعد ذلك عن الأمراض الواقعة بالأعضاء

عضوا عضوا فابتدىء أولا بتشريح ذلك العضو ومنفعته ، وأما تشريح الأعضاء المفردة البسيطة فيكون قد سبق من ذكره فى الكتاب الأول الكلى ، وكذلك منافعها ، ثم اذا فرغت من تشريح ذلك العضو ـ ابتدأت فى أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته ، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها، وطرق معالجتها بالقول الكلى أيضا ، فاذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الأمراض الجزئية ودللت أولا فى أكثرها على الحكم الكلى فى حده وأسبابه ودلائله ، ثم تخلصت الى الأحكام الجزئية ، ثم أعطيت القانون الكلى للمعالجة ، ثم نزلت الى المعالجات الجزئية بدواء بسيط أو مركب ، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة فى الجداول والأصباغ التى أرى اشتمالها عليه ، كى تقف أيها المتعلم عليه اذا وصلت اليه ، ولا أكرر الا قليلا منه ، وما كان من الأودية المركبة انما الأحرى به أن يكون فى الأقربازين . ثم يقول : ورأيت أن أفرغ من هذا الكتاب الى كتاب أيضا فى الأمور الجزئية ، مختص بذكر الأمراض ، التى اذا وقعت لم تختص بعضو بعينه ، ونورد هنالك أيضا الكلام عن الزينة وأن أسلك فى هذا الكتاب أيضا مسلكى فى الكتاب الجزئى الذى قبله ، فاذا انتهينا بتوفيق الله من الفراغ من هذا الكتاب ـ أتيت بعده بكتاب « الأقربازين » . وهذا الكتاب « يقصد القانون » لا يسع من يدعى هذه الصناعة ويتكسب بها الا أن يعترف بأن جله معلوم ومحفوظ عنده ، فانه يشتمل على أقل ما لابد منه للطبيب .

وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط وان أخر الله فى الأجل ، وساعد القدر انتصبت انتصابا ثانيا » ٠

ثم يقسم ابن سينا كتابه فى خمسة كتب :

- الكتاب الأول فى الأمور الكلية فى علم الطب ٠
- والكتاب الثانى فى الأدوية المفردة ٠
- والكتاب الثالث فى الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان عضوا عضوا ، أى بكل عضو على حدة من الرأس الى القدم ٠
- والكتاب الرابع فى الامراض الجزئيـة التى اذا وقعت لم تختص بعضو مثل الحميات ٠
- والكتـــاب الخامس فى تـركيب الأدوية وهو الأقربازين ٠

وأما الكتاب الأول فيتناول أربعة فنون :

- الفن الأول فى حـد الطب وموضوعاته فى الأمور الطبيعية ٠
- **والفن الثانى فى تصنيف الأمـراض** والأسـباب والأعراض الكلية ٠
- والفن الثالث فى حفظ الصحة ٠
- والفن الرابع فى تصنيف وجـوه المعـالجات بحسب الأمراض الكلية ٠

ثم يقسم الفن الأول الى ستة تعاليم

الأول فى موضوعات الطب ، والثانى فى الاسكان ، والثالث فى المزاجات ، والرابع فى الاخلاط ، والخامس فى الأعضاء ، والسادس فى الأرواح والقوى أو الأفعال ٠

واما التعليم الأول فهو فصلان : الأول فى حد الطب ، والثانى فى موضوعات الطب ، والتعليم الثانى فصل واحد وهو الاسكان ، والتعليم الثالث ثلاثة فصول : الفصل الأول فى تعليم المزاج ، والثانى فى أمزجة الأعضاء ، والثالث فى أمزجة الأسنان ٠ والتعليم الرابع فصلان : الاول فى ماهية الخلط واقسامه ، والفصل الثانى فى كيفية تولد الاخلاط ، والتعليم الخامس فصل واحد وخمس جمل ، فالفصل فى ماهية العضو وأقسامه والجملة الأولى فى العظام وهى ثلاثون فصلا : الفصل الأول قول كلى فى العظام والمفاصل، والثانى فى تشريح القحف(٣)، والثالث فى تشريح ما دون القحف الى الرأس ، والرابع فى تشريح عظام الفكين ، والأنف ، والخامس فى تشريح الأسنان ، والسادس فى منفعة الصلب، والسابع فى الفقرات، والثامن فى منفعة العنق وتشريح عظامه ، والتاسع فى تشريح فقار الصدر ومنافعها ، والعاشر فى تشريح فقرات القطن ، والحادى عشر فى تشريح العجز ، والثانى عشر فى تشريح العصعص ، والثالث عشر كلام كالخاتمة فى منفعة الصلب ، والرابع عشر فى تشريح الأعضاء ، والخامس عشر فى تشريح القص ، والسادس عشر فى تشريح الترقوة ، والسابع عشر فى

---

(٣) القحف : القطع أو الكسر ٠

تشريح الكتف، والثامن عشر فى تشريح العضد ، والتاسع عشر فى تشريح الساعد ، والعشرون فى تشريح المرفق ، والحادى والعشرون فى تشريح الرسغ، والثانى والعشرون فى تشريح مشط الكف، والثالث والعشرون فى تشريح الأصابع، والرابع والعشرون فى منفعة الظفر، والخامس والعشرون فى تشريح الفخذ ، والسادس والعشرون والسابع والعشرون والثامن والعشرون فى تشريح عظام الساق ، والتاسع والعشرون فى تشريح الركبة ، والثلاثون فى تشريح القدم ٠

ويلاحظ أن الشيخ الرئيس متأثر فى تبويب كتابه وعرض ما اشتمل عليه من حقائق الطب بدراسته الفلسفية المنطقية ، فهو يقسم كتابه أولا الى خمسة كتب ، ويقسم كل كتاب من الكتب الخمسة الى فنون ، ويقسم الفنون الى تعاليم والتعاليم الى فصول وجمل ، وقد راعى فى هذا التقسيم أنه يحقق الدقة فى حصر مسائل الطب ، واهتم ابن سينا فى مقدمة كتاب القانون برسم دستوره الطبى فى تأليف كتابه ويتلخص هذا الدستور فى الخطوط العريضة التى هى الأمور الكلية فى علم الطب والأدوية المفردة والأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان عضوا عضوا والأمراض الجزئية الأخرى وتركيب الأدوية « الأقربازين » ٠ ويبدأ مقدمته بشرح السبب الذى حمله على تأليف الكتاب ، ويحاول أن يبين أنه يتناول أمورا معروفة وأنه اذا امتد به الأجل فانه سيتناول الموضوع بطريقة أعم وأشمل ، والواقع أن الشيخ الرئيس كان متواضعا الى حد بعيد ، بدليل أن كثيرا من علماء الغرب قد اعترفوا بما لكتاب القانون من قيمة علمية كبرى فى ميدان الطب ، وبأنه قد تناول أدق المسائل فى هذه

الناحية . كذلك رسم ابن سينا لنا طريقته الفريدة فى التأليف الطبى فهو يبدأ أولا بالحديث عن تشريح العضو ، ثم يعقب على ذلك ببيان كيفية المحافظة على صحة العضو ، ثم ينتقل الى الـكلام عن كليات أمراض العضـو وأسـبابها وطـرق الاستدلال عليها ومعالجتها ، ويختم كتابه ببحوث ضافية فى علم الأدوية « الأقربازين » ، ومن الطريف أن نورد بعض الأمثلة للتقسيمات السابقة وهى توضح رأيه فيما يعرض له من مشكلات الطب وقضاياه ، ومن هذه الأمثلة :

(أ) ما يقوله فى تعريف الطب :

يقول الشيخ الرئيس فى الصفحة الخامسـة من الجزء الأول من كتابه القانون :

« الفصل الأول من الفن الأول من الكتاب الأول فى حد الطب ، أقول : ان الطب علم يعرف منه أحوال صحة بدن الانسان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زايلة ، والطب ينقسم الى نظر وعمل ، ثم يبدأ فى الرد على من قالوا : ان الطب نظرى فقط ، فيقول : وأنتم قد جعلتم الطب كله نظرا ، اذ قلتم : انه علم ، وهو يجيب عن هذا الاعتراض بقوله : ان من الصناعات ما هو نظرى وعملى، ويقال : ان من الطب ما هو نظرى وعملى ، ثم يفسر لنـا معنى النظرى فيقول : ونعنى بالنظرى ما يكون التعليم فيه يفيد الاعتقاد فقط من غير أن يتعرض لبيان كيفية عمل ، مثل ما يقال فى الطب : ان أصـناف الحميـات ثلاثة وان الأمزجة تسعة ، ويفسر القسم العملى من الطب بمثال يورده فيقول : ان الأورام الحارة يجب أن يقرب اليها فى الابتداء

ما يردع ويبرد ويكثف ، ثم بعد ذلك تمزج المرادعات بالمزجيات ثم بعد الانتهاء الى الانحطاط (يقصد هبوط الورم) يقتصر على المزجيات المحللة ، فهذا مما يفيد رأيا وبيان كيفية عمل ، فاذا علمت هذين القسمين فقد حصل لك علم نظرى وعلم عملى وان لم تعمل قط » . ويفهم من كلام ابن سينا فى تفسير القسم العملى من الطب بأنه العلم بكيفية العمل .

(ب) ما يقوله فى تشريح الأضلاع :

« الأضلاع وقاية لما تحيط به من آلات التنفس وآلات الغذاء ولم تجعل عظما واحدا لئلا تثقل ، وليسهل الانبساط اذا زادت الحاجة على ما فى الطبع ، أو امتلأت الأحشاء من الغذاء والنفخ فاحتيج الى مكان أوسع للهواء المجتذب ، وليتخللها عضل الصدر المعينة على أفعال التنفس وما يتصل به ، ولما كان الصدر يحيط بالرئة والقلب وما معهما من الأعضاء ، وجب أن يحتاط فى وقايتها أشد الاحتياط ، فان تأثير الآفات العارضة لها أعظم ومع ذلك فان تحصينها من جميع الجهات لا يضيق عليها ولا يضرها فخلقت الأضلاع السبعة العليا مشتملة على ما فيها ، ملتقية عند القص محيطة بالعضو الرئيسى من جميع الجوانب . وأما ما يلى آلات الغذاء فخلقت كالمخرزة من الخلف حيث لا تدركه حراسة البصر ، ولم تتصل من قدام بل درجت يسيرا يسيرا فى الانقطاع فكان أعلاها أقرب مسافة ما بين أطرافها البارزة ، وأسفلها أبعد مسافة وذلك لتجمع الى وقاية أعضاء الغذاء فى الكبد والطحال وغير ذلك توسيعا لمكان المعدة فلا تنضغط عند امتلائها من الأغذية ومن النفخ ، فالأضلاع السبعة العليا

تسمى أضلاع الصدر وبها من كل جانب سبعة ، والوسطان منها أكبر وأطول والأطراف أقصر ، فان هذا الشكل أحوط في الاشتمال من الجهات على المشتمل عليه ، وهذه الاضلاع تميل اولا على أحد بدايتها الى أسفل ، ثم تكر كالمتراجعة الى فوق فتتصل بالقص على ما نصفه بعد ، حتى يكون اشتمالها أوسع مكانا وتدخل من كل واحد منها زائدتان فى نقرتين غائرتين فى كل جناح على النقرات ، فيحدث فصل مضاعف ، وكذلك السبعة العليا مع عظام القص » ويبدو من هذا الوصف ان ابن سينا كان على علم دقيق بتشريح جسم الانسان وتركيب أعضائه ٠

(ج) ما يقوله في مرض الدوار :

« هو أن يتخيل لصاحبه أن الأشياء تدور عليه ، وأن دماغه وبدنه يدور فلا يملك أن يثبت بل يسقط ، وكثيرا ما يكره الأصوات ويعرض له من تلقاء نفسه مثل ما يعرض لمن دار على نفسه كثيرا بسرعة ، فلا يملك أن يثبت قائما أو قاعدا أو أن يفتح بصره ، وذلك لما يعرض للروح الذى فى بطون دماغه وفى أوردته وشرايينه من تلقاء نفسه ما يعرض له عندما يدور دورانا متصلا ، والفرق بين الصرع والدوار أن الدوار قد يثبت مدة والصرع يكون بغتة ، فيسقط صاحبه ساكنا ويضيق ، وأما السداد ، فهو أن يكون الانسان اذا قام أظلمت عيناه وتهيأ للسقوط ، والشديد منه يشبه الصرع ، الا أنه لا يكون معه تشنج كما يكون للصرع ٠ ثم يتحدث عن أسباب الدوار فيقول : وهذا الدوار قد يقع بالانسان بسبب أنه دار على نفسه فدارت الأرواح والبخار

فيه كما تدار الفنجانة المشتملة على ماء مدة ، وتسكن فيبقى ما فيها دائرا مدة ، فاذا دار الروح تخيل للانسان أن الأشياء تدور • الى أن يقول : وقد يكون هذا الدوار من النظر أيضا الى الأشياء التى تدور حتى ترسخ تلك الهيئة المحسوسة فى النفس ، ولهذا قيل : ان الأفاعيل الحسية كلها متعلقة بآلات جسدانية منفعلة •

ثم يقول : وقد يكون الدوار أيضا من أسباب بدنية حاضرة فى جوهر الدماغ حاصلة من بخارات خايلة فى العروق التى فيه وفى العصب ، واما من أخلاط محتقنة فيه من كل جنس ، فتبخر بأدنى حركة أو حرارة ، فاذا تحركت تلك الأبخرة ، حركت بحركتها الروح النفسانى •• واما بسبب كثرة بخارات قد احتقنت فى الدماغ متصعدة اليه من مواضع أخرى ثم مستقرة فيه ثانية عن مرض حار متقدم أو مرض بارد ، فيكون رياحا نافخة تحركها القوة المنضجة والمحللة ، وقد يكون لا لحركة بخارات فى الدماغ ولكن لسوء مزاج مختلف بغتة ، يلزم منه هيجان حركة مضطربة فى الروح ••• وقد يكون من محرك للروح من خارج مثل ضارب للرأس أو كاسر للقحف ، حتى يضغط الدماغ والروح الساكن ، فتتبعه حركات مختلفة دايرة متموجة ، كما يحدث فى الماء من وقوع ثقل عليه أو وقوع ضرب عنيف على متنه فيستدير موجه •

ثم يتحدث ابن سينا عن العلامات المميزة للدوار ، ويعقب على ذلك بوصف العلاج لكل حالة من حالات الدوار فيقول : فأما الكائن عن دوران الانسان حول نفسه أو من

نظره الى الدورات ، أو من نظره الى مكان عال ، فيعالج بالسكون والقرار والنوم ، ويتناول القوابض الحامضة ، ويكسر لقما فيها ويتناولها • وأما الكائن عن دم وأخلاط مختلفة فى البدن فيعالج بالفصد من القفا ، ثم من العرق الساكن الذى خلف الأذن ، فانه أفضل علاج لجميع أصناف الدوار المادى •

(د) ما يقوله فى الخفقان وأسبابه :

الخفقان حركة اختلاجية تعرض للقلب وسببه كل ما يؤذى القلب مما يكون فى نفسه أو فى غلافه ، أو ما يتصل به من الأعضاء المجاورة له المشاركة اياه • وقد يكون من مادة خليطة وقد يكون ناشئا عن مزاج ساذج ، وقد يكون عن ورم وقد يكون عن سبب غريب ، ومن علاماته النبض المخالف المجاوز للحد فى الاختلاج • ومن العلاج :

اذا كان من أسباب مادية ينتفع بالاستفراغات ، وأما الدموى فبالفصد وباخراج الدم البالغ وتعديل الغذاء بالكم والكيف ، وان كانت له نوبات ، أو فصل يعترى فيه مثل الربيع ، فمن الواجب أن يتقدم قبل النوبة بفصد وتلطيف غذاء وتناول ما يقوى القلب • وأما الكائن بسبب خلط بلغمى ، فيجب أن يستفرغ بأدوية يبلغ تأثيرها فى القلب•

(هـ) ما يقوله فى أمراض الرئة :

« ان الأطباء اختلفوا فى قروح الرئة فى أنها تبرأ أو لا تبرأ : فقال قوم انها لا تبرأ البتة لأن الالتحام يفتقر الى السكون ولا سكون هناك • وقال جالينوس : انها تبرأ » •

« تتعرض الرئة للأمراض المختلفة لتشابه الأجزاء والأمراض الآلية وخصوصا السدد فى عروقها ·

وقد تكثر أمراض الرئة فى الشتاء والخريف لكثرة النوازل وخصوصا فى خريف ممطر بعد صيف يابس شمالى، والهواء البارد ضار بالرئة وكثيرا ما تؤدى أمراض الرئة الى أمراض الكبد ، كما يؤدى شدة بردها وشدة حرها الى الاستسقاء » ·

(و) ما يقوله في الكبد وأمراضه :

ورم بعد ضربه ـ ورم بارد فى الكبد ·

ورم صلب مع عسر النفس يتبعه استسقاء ، ويهلكون في أكثر الأمر بانحلال الطبيعة لانسداد المسالك الى الكبد ·

واذا طالت العلة لم ينفع العلاج ، فان كان الصلب سرطانيا وكان هناك احساس بالوجع أشد كانت أحداث الآفة في اللون، وفي الشهوة وغير ذلك ، أكثر وربما أحدث غثيانا بلا حمى لم يحس بالوجع ، وكان فى طريق اماتة العضو · واعلم أن الكبد سريعة الانسداد وخصوصا اذا استعملت المغلظة · وأمراض الكبد ـ اليرقان ـ الاستسقاء وأمراض الكلى وحصاة المثانة وغيرهما ·

(ز) ما يقوله فى أمراض الأذن :

الفصل الرابع فى أحوال الأذن وهو مقالة واحدة ·

فى تشريح الأذن ·

اعلم أن الأذن خلقت للسمع وجعل لهـا صـدف معوج ليحبس جميع الصوت ثم يصل الى أن سطحها الانسى مفروش بليف العصب السابع الوارد من الزوج الخاص من أزواج العصب الدماغى ·· فاذا نادى الموج الصوتى الى ما هنـاك أدركه السمع ·

ونص فى آفات السمع فقال : ان آفة السـمع اما أن تكون أصيلة فيكون صمم ، واما أن تكون عارضة ·

فقدان السمع : منه مولود طبيعى لا علاج له ، ومنـه حادث ، لكنه طال عهده فهو مزمن ، وذلك أيضا قريب من اليأس أو عسر العلاج ، وأما الحادث القـريب العهـد فى الطرش فقد يقبل العلاج ·

وأما أسباب ذلك فقد يكون منه مشـاركة عضو مثـل ما يكون من مشاركة الدماغ أو بعض الأعضاء المجاورة كالذى يقع عند أول انبات الأسنان ·· والذى يقع عنـد أوجاع الأسنان (وقد يكون لآفة خاصة بالسمع) ·

آما الافة فى عصب السمع فقد تعرض لجميع أسـباب الأمراض المتشابهة الأجزاء فيها ، والآفة وانحلال الفـرد ، أما الأعراض المتشابهة الأجزاء فيها فكل واحد من أصناف سوى المزاج المفرد والمركب ·

واما الآفة فى العصب فمثل سدة موجهها خليط أو مدة أو ورم ٠٠ ورم حاد أو صلب أو عبارة عن وسخ أما انحلال الفرد فقد يكون من قرحة أو أكل شيء ٠

وأما الكاين بسبب المنخرين فأكثره عن سدة لسبب بدنى أو بسبب من خارج البدن مثل لحم زائد أو دود أو خلط غليظ أو صملاغ أو جمود من ورم ٠

فى علاج الدوى والطنين والصفير بالآذن :

يجب أن يتجنبوا الشمس والحمام والحركة والصياح والقيء والامتلاء ، وأن يليينوا الطبيعة أما الكاين بالمشاركة فيجب أن يفصد منه فصد العضو الفاعل له وخصوصا المعدة ، فينقى ويفصد الدماغ والآذن فيقويان ٠

أما الكاين بسرعة الحس فمن الناس من يأمر فيه بالمخدرات ، مثل دهن الورد المطبوخ بالخل مع قليل أفيون أو ممزوج بدهج البنج أو الشوكران مسحوقا ٠

أما الكاين عن قيح فيعالج بعلاج الورم والقيح ٠

(ح) ما يقوله فى العلاج بالجراحة :

المقالة الأولى فى الفصل الرابع من الكتاب الرابع من القانون ٠

فصل كلى من علاج الجراحات :

الجراحة اللحمية لا تخلو اما أن تكون شقا بسيطا مستقيما أو مدورا أو ذا أضلاع أو شقا مع نقصان شيء من اللحم ، وقد يكون غائرا نافذا ، وقد يكون مكشوفا ، ولكل واحد ندبة ، ويشترك الجميع فى حبس الدم السائل ، وقد جعلت له بابا ، وربما كان سيلان قدر معتدل من الدم نافعا للجراحة يمنع الورم والتبثر والحمى فانه من أفضل ما يعنى به فى الجراحات أن تمنع تورمها فانه اذا لم يوجد ورم يمكن علاجه بالجراحة ، وأما اذا كان هناك ورم أو كان رضى اجتمع فى تحليله مع الجراحة دم يريد أن يورم أو يتقيح لا يمكن معالجته بالجراحة ما لم يدبر ذلك ويعالج الورم وان احتقن فى المرض دم فيتعجل فى تحليله اذا كان له قدر يفيد وذلك باحالته قيما وتحليله ، وذلك بكل حار لين ومما قد علم يجب أن يعان سيلان الدم اذا قصر فان كان الورم بسيطا مستقيما لم يسقط منه شيء ويكفى فى تدبيره الشد والربط .

واجتهادك فى ألا ينجذب الى العضد الا دم طبيعى . وان كان عظيما لا تلتقى أطرافه لأنه مستدير متباعد أو مختلف الشكل أو قد ذهب منه لحم قليل غير كثير فعلاجه الخياطة ومنع اجتماع الرطوبة فيه باستعمال الملصقات . الخ (قانون ابن سينا الجزء الأول) .

(ط) ما يقوله فى العلامات الدالة على الأورام :

« أما الظاهرة فيدل عليها الحس والمشاهدة ، وأما الباطنة فالحار منها تدل على الحمى اللازمة والثقل ان كان

لا حس للعضو الذى هو فيه أو الثقل مع الرجوع ان كان للعضو الوارم حس ، ومما يدل أيضا أو يعين فى الدلالة الحالة الداخلية فى أمثال ذلك العضد ، ومما يؤكد الدلالة احساس الانتفاخ فى ناحية ذلك العضد ان كان للحس اليه سبيل ، وأما البارد فليس ينفعه لا محالة وجع وتعسر الاشارة الى علاماته الكلية ٠

وربما انتقلت المادة فى الأورام الباطنة من عضو الى عضو مثل ما ينتقل فى أورام الدماغ الى ما خلف الأذنين والى أورام الكبد الى الأربيتين ، والردىء أن ينتقل من عضو الى عضو أشرف منه أو أقل صبرا على ما يعرض به ، مثل أن ينتقل من ذات الجنب الى ناحية القلب أو الى ذات الرئة ٠

★★★

القيمة العلمية لكتاب القانون

ويعتبر كتاب القانون فى الطب ، من خير ما تتيه به الحضارة العلمية العربية فى هذا الفن ، وقد فضلته العرب على ما سبقه من مؤلفات ، لما وجدوا فيه من حسن التبويب والدقة العلمية ، مع ما تميز به من الاشارة الى خبرة مؤلفه وتجاربه ، فقد تناول فيه علوم وظائف الأعضاء ، وعلم الأمراض ، وعلم الصحة ، ومعالجة الأمراض، وعلم الأدوية، وقد ترجم الكتاب الى اللغة اللاتينية والى اللغات الأوربية ، وطبع فى أوربا خمس عشرة مرة ٠ وكان العمدة فى دراسة الطب فى الجامعات الأوربية حتى منتصف القرن السابع عشر ٠

ويقال ان فى المكتبة الأهلية بباريس جوهرتين نفيستين لا يعادلهما ثمن : الأولى نسخة من كتاب القانـون باللغـة العربية طبعت فى أواخـر القرن السـادس عشر ، اى فى أوائل عهد الطباعة ، وكانت لا تعار الا على منضدة خاصة ، والثانية نسخة عربية من كتاب جالينوس فى الطب العام ، وقد كتب فى أول صفحة منها : هذا الكتاب ملك أبى على بن الحسين بن سينا المتطبب وهذه العبارة بخط الشيخ الرئيس ابن سينا نفسه ٠

وقد أودع الشيخ الرئيس كتابه القانون كمـا تقـدم كثيرا من أنواع العلاج ووصف الأمراض ، وكان يفوق من سبقه من أطباء اليونان والرومان والفرس والعرب بدقتـه فى مناقشة الحالات المرضية ، ومهارته العظيمة فى تشخيص الأمراض ، وبحث أسـباب المرض ٠ وكان الطب الى أيـامه يتناول ما ترجم من كتب أطباء اليونان وما نقل عن أطباء مدرسة « جنديسابور » وبعض المعارف الطبية السريانيـة الممتزجة ببقايا طب الكلدانيين (٤) القدماء ، وطب الهنود وتجارب العرب الطبية فى العصر الجاهلى ٠

هذه المعارف كلها انصهرت وتفاعلت ثم تبلورت فى كتاب الحاوى للرازى ، وقد درس ابن سينا كل ذلك دراسة عالم محقق يعتمد على التجربة ، ثم أضاف الى معلومات السابقين ما وصل اليه باجتهاده وعقليته المبتدعة المبتكرة ، وكان من

---

(٤) الكلدانيون : أمة سامية قديمة عاشت فى وادى دجلة والفرات وهم البابليون وكانت لهم دولتان مشهورتان : بابل القديمة (٤٠٠٠ ق٠م ـ ١٣٠٠ ق٠م) ، وبابل الحديثة (٦٠٦ ق٠م ـ ٥٣٨ ق٠م) ٠

أشهر ابتكاراته الطبية : فحوصه الدقيقة ودراساته للدورة الدموية وتشريح القلب ، مما لا مثيل له عند اليونان والرومان ، وهو أول من وصف التهاب السحايا الأولى وصفا دقيقا صحيحا ، وفرق بينه وبين غيره من الأمراض المشابهة له كما شرح أمراض الجهاز الهضمى شرحا وافيا ، يشهد له بالبراعة فى ميدان الطب ، وهو الذى قال بضرورة التمييز الدقيق بين الأمراض عند تشخيصها ٠

أما الأمراض العصبية فقد كان ابن سينا فيها طبيبا مبرزا فى عصره فقد وجه عنايته الى الأشكال المختلفة للشلل والفالج النصفى وشلل الوجه ، واهتدى الى التمييز بين نوعى المركزى والموضعى منه وشرح باسهاب التشخيص التمييزى بينهما وقد خالف القدماء الذين ينكرون وجود الأورام بالمخ والعظام فقال : ان المخ والعظام قد تكون مقرا للأورام ، والطب الحديث يعترف اليوم بذلك ٠

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف ، وهى طريقة أعاد ادخالها فى العلاج الجراح الفرنسى «كالو» سنة ١٨٩٦ ٠ وكان لابن سينا طرق شائعة فى وصف الأمراض العقلية وعلاجها ٠ وله أيضا أكبر الفضل فى ابتكار كثير من طرق العلاج النفسى ، ومما وصل اليه ابن سينا فى كتابه ولم يسبقه اليه أحد من الأطباء أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها فى الربيع والخريف ، وأنها أكثر وقوعا فى هذين الفصلين وهو أول من تنبه الى أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين ٠ وقد درس الشيخ الرئيس فى كتابه أيضا أمراض الكبد ووفق طريقة فحصه ووضعه ،

كما وصف أعراض مرض اليرقان وصفا يتفق مع الأوصاف الحديثة وشرح السكتة الدماغية الناتجة عن احتقان الدم مخالفا بذلك التعاليم اليونانية ، وعندما تكلم عن أمراض المعدة أخذ يصف بدقة أعراض ضيق « فتحة البواب » أو القرحة المعدية ، وأفاض فى شرح الإدمان على شرب الكحول، وأثر ذلك فى الكبد ، ثم علل الأسباب الفسيولوجية لتلافيف الأمعاء ، وأفاض فى الحديث عن استطالة عنق الرحم وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته ، وعن خطر سرطان عنق الرحم ووصف أيضا أعراض حصى المثانة وصفا دقيقا واضحا ، يقول الدكتور «خير الله» فى كتابه الطب العربى : ويصعب علينا فى هذا العصر أن نضيف شيئا جديدا الى وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية ، وفى هذا اشارة الى أن ما قاله جالينوس العرب هو ما يذهب اليه الطب الحديث فى هذا العصر ، وقد ميز بين حصاة المثانة وحصاة الكلية •

كما وصف طريقة علاج البواسير بالشق ، وله فى علم الديدان كشوف جديدة ، وتجاربه وأوصافه فى علم التشريح أتم وأكمل من أوصاف « جالينوس » • وقد أدخل فى علم العقاقير الطبية « الأقربازين » عددا كبيرا من الأدوية النافعة والعقاقير الطبية المفيدة التى لم تكن مستعملة من قبل •

ومن الأدلة الواضحة على اجتهاد ابن سينا فى كتابه « القانون » ودقة ملاحظته فى الطب ابتكاره ما يشبه « كيس الثلج » فى عصرنا ، فقد صدع يوما فتصور أن مادة تريد النزول الى حجاب الرأس ، وانه لا مأمن من ورم يحصل فيه

فامر باحضار ثلج كثير ـ ودقه ولفه فى خرقة وتغطية رأسه بها ففعل ذلك حتى قوى الموضع ، وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفى ٠

ولقد كان لابن سينا الفضل العظيم فى كشفين مهمين فى عالم الطب ٠ فهو أول طبيب قام بحقن المريض تحت الجلد ، وأول من استخدم التخدير لاجراء العمليات الجراحية ولو لم يكن لابن سينا فى كتابه القانون غير هذين الكشفين لكفاه ذلك فخرا واعتزازا بفضله على الانسانية ولو وازنا بين ما كان يقوم به ابن سينا من أنواع العلاج وطرق الفحص عن المرض ٠٠ داخل البلاد العربية وما كان يصنعه الأطباء خارج حدود تلك البلاد ؛ لأدركنا الفرق العظيم بين الأمة العربية فى ذلك العهد وغيرها من الأمم المجاورة التى كانت تعيش على الخرافات والأوهام ، فقد كان المريض فى تلك البلاد التى يسودها الجهل والظلام يصلب على شجرة ، ثم ينهال عليه الطبيب ومساعدوه بالضرب حتى يخرج الشيطان من جسمه وهو المرض فى زعمهم وتصورهم ، وهذا دليل على الجهل المطبق الذى كان عليه أطباء الغرب فى تلك العصور ٠

وجماع القول : ان ابن سينا قد أدى رسالة الحياة على أفضل ما يكون الأداء ، وحرك عقله الفعال ، ومواهبه فى ميادين الثقافة الانسانية فأخرج من المؤلفات ـ وكتاب القانون من أهم مؤلفاته الطبية وأنفسها ـ ما جعله من مفاخر العالم ومن أشهر علمائه وأعظم حكمائه ٠

★★★

مقدمة ابن خلدون

١٤٠٠ م

[لو كان علماء الاجتماع قد اطلعوا على «المقدمة» فى حينها لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم أكثر مما تقدموا به]

ان علم الاجتماع أحدث العلوم • فهو لم يتخذ شكله النهائى المميز قبل أواخر القرن الماضى ، ولم يصل بعد ذلك الى مرحلة النضج والتكامل الا فى مطلع القرن الحالى •

ولعل التأخر فى ظهور هذا العلم وفى تكامله كعلم ، يعود الى الحرية التى هى طبيعة الانسان : فعندما يشعر الانسان بالحرية ، يعتقد بطبيعة الحال بحرية الآخرين ، وكذلك بحرية التجمعات الانسانية فهى تفعل ما تشاء من غير قيد يقيدها ، ولا قانون ينظمها ، فكما أن هذه الحرية المزعومة حرمت على العالم الانسانى ردحا طويلا من الزمن سن القوانين ذات الطابع العام والمطلق ، فانه ساد الاعتقاد خلال العصور بأنه من المحال لنفس السبب انشاء علم للمحادثات الاجتماعية • ولم يظهر علم الاجتماع الا عندما بزغت فكرة أن فى العالم الانسانى قوانين تجرى عليها أحداثه ، كما أن فى العالم المادى قوانين تجرى وفقا لها ظواهره •

ولقد ظهرت فى الماضى دراسات اجتماعية كثيرة ، ولكنها لم تكن موجهة بفكرة علم ايجابى للمحادثات الاجتماعية ، وانما كانت تعود كلها الى السياسة ، وهى علم

تقويمى للمجتمعات • فلما كان المجتمع مكونا من بشر يتمتعون بالحرية فهو كائن ـ كما كانوا يعتقدون ـ على النحو الذى يريده له أعضاؤه ، وبنوع خاص رؤساؤه • ولذا كانت مهمة المفكرين والفلاسفة الذين كتبوا عن المجتمع، أن يبينوا لأعضاء المجتمع ما ينبغى أن يريده •

تلك هى مهمة أفلاطون فى محاورتيه « الجمهورية » و « القوانين » ، وكذلك من بعده أرسطو فى «السياسة» وفى العصور الحديثة « هوبس » (١) وغيره •

وقد ظهر فى القرن الرابع عشر مفكر عربى خرج على هذه القاعدة ، هو ابن خلدون اذ تصور دراسة المجتمع كعلم خاص أى أن تدرس الظواهر الاجتماعية دراسة « وضعية » كما تدرس العلوم للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين ، وعلى هذا البحث وقف دراسته فى كتابه « المقدمة » وأيد ذلك بقوله : « ليس التاريخ الا سردا بسيطا للحوادث ، وكان ينبغى أن يكون فحصا يقظا للقضايا المتعاقبة واستقصاء أسبابها البعيدة ومعرفة الصورة التى تبدو عليها » •

وسوف نتعرض لسيرة مؤلف هذا الكتاب الرائد لنلمح مكونات هذه الشخصية الفذة ، وبعد ذلك ندرس المقدمة نفسها ونبين أغراضها ومنهجها وأثرها فى التراث الانسانى •

---

(١) هوبس : فيلسوف انجليزى (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) •

نشأة ابن خلدون وأعماله

هــو عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين بن خلدون الذى ولد بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو ســنة ١٣٣٢م) • ولما بلغ سن التعليم بدأ يحفظ القرآن وتجويده وطلب العلم • وقد تتلمذ على أبيه وعلى عدد كبير من شهيرى علماء تونس لعهده • فدرس عليهم العلوم الشرعية والعربية والطبيعة والرياضيات وعلوم المنطق والفلسفة • وكان فى نيته أن يتفرغ للعلم كما فعل أبوه من قبل • ولكنه لما بلغ الثامنة عشرة من عمره عاقه عن متابعة دراســته حادثان : أحدهما وفاة أبيــه ومعظم من كان يأخــذ عليهم العلم من شيوخه من الطاعون الجارف الذى اجتاح العالم فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وثانيهما هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس الى المغرب الأقصى •

وقد تغير من جــراء ذلك مجرى حيــاته الذى رســمه لنفسه ، واتجه الى تولى الوظائف العامة ، وخــوض غمــار السياسة •

استأثرت بعــد ذلك الوظائف الحــكومية والمغــامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشــاطه فى أثنــاء فترة طويلة استغرقت زهاء خمس وعشرين سنة من حياته (من سنة ٧٥١ الى سنة ٧٧٦ هـ) •

غير أنه يبدو أن هــذه الأمور لم تكن لتمثــل مطامحه واستعداداته الحقيقية فى شىء • وانه قد اندفع اليهــا

اندفاعا واضطر لخوض غمارها اضطرارا عن غير حب ولا رغبة ٠

ومن أجل ذلك كان يتحين الفرص التى كانت تتاح له فى أثناء هذه المرحلة ليعاود القراءة والاطلاع وتلقى العلم وتدريسه ، وليرضى بذلك أكبر رغبة عميقة امتازت بها شخصيته الحقيقية ، وأفاد منها التراث الانسانى أكبر فائدة وسجلت اسمه فى عالم الخلود ٠

وأول وظيفة تولاها كانت فى أواخر سنة ٧٥١ هـ وكانت وظيفة « كتابة العلامة » للوزير محمد بن تافراكين الذى كان حينئذ وصيا على صاحب عرش تونس الصغير ومستبدا بشئون الحكم ٠

وفى سنة ٧٥٥ هـ هاجر الى فاس فى صحبة السلطان أبى عنان سلطان المغرب الأقصى حينئذ ، وتولى فى بلاط هذا السلطان وظيفة الكتابة والتوقيع ، وكان هذا المنصب لا يتولاه الا كبار الكتاب وهذا يدل على أن ابن خلدون كان قد وصل فى هذه السن المبكرة (كان حينئذ فى نحو الثانية والعشرين من عمره) فى ميادين الأدب والكتابة الى منزلة رفيعة وأن شهرته فى هذه النواحى أخذت تنتشر فى المغرب العربى ٠

وقضى ابن خلدون فى وظيفة الكتابة للسلطان أبى عنان نحو سنتين ثم قضى مثلهما سجينا على أثر مؤامرة اشترك فيها ضد هذا السلطان ، ثم عاد الى وظيفته وقضى فيها نحو أربع سنوات ٠

وقد أتيح لابن خلدون وهو بفاس أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء والأدباء الذين كانوا قد نزحوا اليها من الأندلس ومن تونس ، ويختلف الى مكتبات فاس التى كانت حينئذ من أغنى المكتبات الاسلامية ، فارتقت بذلك معارفه ، واتسع اطلاعه ، وسنحت له فرصة لاشباع رغباته الحقيقية ومطامحه الأصيلة • وهكذا جمع ابن خلدون فى هذه الفترة بين أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم •

وعندما نزل تلمسان سنة ٧٧٦ عن له أن يتفرغ للقراءة والتأليف فغادرها الى قلعة ابن سلامة (من بلاد الجزائر الآن) فى ضيافة أولاد عريف ، وقضى هو وأسرته فى ذلك المقر المنعزل زهاء أربعة أعوام (٧٧٦ ـ ٧٨٠) نعم فى أثنائها بالاستقرار والهدوء • وتفرغ فيها لمشروعه العلمى الخطير وهو « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » وقدم لهذا المؤلف ببحث عام فى شئون الاجتماع الانسانى وقوانينه ، وهو البحث الذى اشتهر فيما بعد باسم « مقدمة ابن خلدون » • وقد شرع ابن خلدون فى تأليف هذا الكتاب سنة ٧٧٦ وانتهى منه فى وضعه الأول فى أواخر سنة ٧٨٠ هـ •

وكان ابن خلدون حينئذ فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، وقد نضجت معارفه ، واتسعت دائرة اطلاعه ، وارتقى تفكيره ، وأفاد أيما فائدة من تجاربه ومشاهداته فى شئون الاجتماع الانسانى على العموم ، وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن فى غمار السياسة متقلبا فى خدمة القصور

والدول المغربية والأندلسية ، يدرس أمورها ، ويستقصى سيرها وأخبارها ، ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها وأحوالها وتقاليدها • وكان ذهنه المتوقد ، وتفكيره الخصب ، وملاحظته الشديدة ، كان كل ذلك يحمل على التعمق فى تأمل هذه الظاهرات ، ورد الأمور المتشابهة منها بعضها الى بعض ، والبحث عن أسبابها ، والتمييز بين ما ينجم عنها عرضا وما يترتب عليها عن طريق اللزوم ، وردها الى قوانينها العامة • فجاءت مقدمته هذه فتحا كبيرا فى عالم البحوث الاجتماعية •

وقد استغرق ابن خلدون فى كتابة مقدمته خمسة أشهر فقط حسب ما يذكر هو فى خاتمتها • ويبدى دهشته واعجابه بما وفق اليه فى هذا الأمد القصير • وحق له أن يبدى دهشته واعجابه ، لأن بحوثا خطيرة كبحوثه فى المقدمة كانت خليقة أن تستغرق عدة سنين •

ويبدو أن نظره الفاحص الناقد كان يعمل بنشاط خلال هذه الحياة المضطربة بحوادثها وانه كان يعيش فى الوظائف وشئون السياسة بجسمه لا بروحه ، وأن روحه كانت فى شغل عن ذلك كله بالتأمل فى شئون الاجتماع الانسانى وتحصيل المعارف ، وأن ذهنه الباحث الألمعى لا يفتأ يختزن المعلومات ، وان عقله الباطن كان لا ينفك يرتب الحقائق ، ويوازن بينها ، ويستخلص النتائج ، وعندما تهيأ له شىء من هدوء البال واستقرار الحياة تفاعلت تلك الملاحظات المختزنة وبدت النتائج التى انتهت اليها العمليات العقلية اللاشعورية فأشرقت من خلال ذلك بحوث

المقدمة اشراقا ، وتدفقت الآراء والأفكار تدفقا فى صورة دعت الى دهشته هو نفسه ، كما دعا مثلا الى دهشة كثير من العباقرة والمخترعين • وكان ابن خلدون فى معظم ما يكتبه فى مقامه المنعزل بقلعة ابن سلامة يكتب من حفظه ومن ذاكرته وبالرجوع الى مذكراته والى المراجع القليلة التى أتيح له الحصول عليها فى أثناء ذلك والى ما عسى أن يكون لديه من كتب فى مكتبته الخاصة ان كانت له مكتبة خاصة حينئذ •

ثم رأى أن تنقيح كتابه وتكملته يقتضيانه الرجوع الى الكتب والمصادر الموسعة التى لم تكن متاحة له فى قلعة ابن سلامة ، فشخص هو وأسرته الى تونس حيث تقدم له مكتباتها الغنية ما يحتاج اليه من مراجع ، فظل فى تونس أربع سنين أخرى عاكفا على البحث والتدريس لطلبة العلم حتى أتم مؤلفه ونقحه وهذبه ورفع نسخة منه فى أوائل سنة ٧٨٤هـ الى سلطان تونس أبى العباس أحمد • وتعرف هذه النسخة بالنسخة التونسية •

مقامه بمصر

وفى أواخر سنة ٧٨٤ هـ بدرت من أبى العباس سلطان تونس بوادر رغبة فى الاستعانة بابن خلدون فى شئون السياسة • وكان ابن خلدون قد كره حينئذ الشئون التى كانت دخيلة فى طبيعته ومطامحه ، مؤثرا التفرغ للدراسة والعلم واشباع استعداده الأصيل ، فاعتزم مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج يتوسل بها عذرا الى السلطان، ومازال به حتى أذن له ٠

فترك أهله بتونس وأبحر الى الاسكندرية فوصل اليها فى يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤ هـ ثم قصد بعد ذلك الى القاهرة ٠ وكانت القاهرة حينئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، وكان لسلاطينها المماليك شهرة واسعة فى حماية العلوم والفنون فى المدارس العديدة التى أنشأوها وفى الجامع الذى أنشىء من قبلهم فى عهد الفاطميين ٠ وكان صيت ابن خلدون قد سبقه الى القاهرة ، وكان المجتمع المصرى يعرف حينئذ الكثير عن شخصيته وسيرته وعن بحوثه الاجتماعية والتاريخية ٠ فقد كان للوراقين (أصحاب المكتبات) فى هذا العهد نشاط كبير فى نسخ المؤلفات ونشرها فى مختلف البلاد ٠

ومن أجل ذلك لقى ابن خلدون من أولياء الأمور فى القاهرة ومن علمائها وخاصة آهلها آحسن استقبال وأروعه، وهوت اليه أفئدة كثيرة من الناس ، والتف حوله عدد كبير من المثقفين ينهلون من علمه ويفيدون من بحوثه ٠ وأخذ يلقى دروسه ومحاضراته فى الجامع الأزهر ٠ وقد رأى المجتمع المصرى فى دروسه ومحاضراته من العمق والطرافة والابتكار ما لم يعهد مثله من قبل ٠ فزاد هذا من مكانته وشهرته ، وعظمت منزلته فى نظر الظاهر برقوق سلطان مصر فى ذلك العهد ، فعينه فى منصب لتدريس الفقه المالكى بمدرسة « القمحية » وهى مدرسة من انشاء صلاح الدين الأيوبى

وقفها على المالكية يتدارسون فيها الفقه ، وكان هذا المنصب من أرقى المناصب القضائية والعلمية فى مصر ٠

ولم ينقطع ابن خلدون فى أثناء اقامته الطويلة بمصر عن مراجعة مؤلفه التاريخى « كتاب العبر » ومراجعة « مقدمته » فأضاف الى تاريخه عدة فصول ٠ ونقح كتابه « التعريف » الذى سماه أولا « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وذيل له كتاب « العبر » فأدخل عليه كثيرا من التعديلات والتنقيحات والزيادات فى المراحل التى عرض لتاريخها فى وضعه الأول ، وأضاف اليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته ، ووصل فى رواية حوادثه الى نهاية سنة ٨٠٧ هـ أى الى ما قبل وفاته ببضعة أشهر ٠ وقدم نسخة من المؤلف كله « المقدمة » و « العبر » و « التعريف » الى الملك الظاهر برقوق ونسخة أخرى الى السلطان أبى فارس عبد العزيز بن أبى الحسن سلطان المغرب الأقصى حينئذ وقد عرفت هذه النسخة الأخيرة باسم « النسخة الفارسية » نسبة الى السلطان أبى فارس وكان تقديمها له حوالى سنة ٧٩٩ هـ ٠

وتوفى ابن خلدون فجأة فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ (١٦ مارس سنة ١٤٠٦م) عن ستة وسبعين عاما ، وكان حينئذ فى وظيفة قاضى قضاة المالكية فى مصر ٠

من هذا العرض السريع لهذه الحياة الطويلة العريضة الحافلة بالعمل والانتاج نستطيع أن نلمح مكونات هذه

الشخصية الفذة ، وآن نجملها فى هذه العقلية الممتازة ، والذكاء اللماح ، والقراءات المستوعبة للتراث الثقافى الذى حفلت به الفترة التى سبقت مجىء ابن خلدون ، بالاضافة الى البيئة الطبيعية التى عاش فيها ، والى جولاته الواسعة فى ربوع البلاد العربية شرقيها وغربيها ، ومخالطته للساسة والقادة مع اشتراكه الفعلى فى صنع الأحداث وتدبيرها وتسنمه ذرات المناصب الخطيرة فى مختلف بلدان هذا العالم ٠

كل ذلك وأمثاله آتاح لابن خلدون خبرة فاحصة ووعيا مستنيرا استطاع بهما أن يتدسس الى ما وراء الظواهر من الأشياء والأحياء والأعمال والأقطار ، وأن يستملى من واقع الحياة الصاخبة التى عاشها وخبرها ، فيبلور هذه التجارب والأحداث والخبرات علوما ، وأصولا لعلوم ونظريات ، وخطوطا عريضة مازالت تلتمع عند الآفاق الفكرية ، تهدى وتضىء ، وتمد مدها فى الكيان الثقافى الراهن ٠

محتويات المقدمة

تطلق الآن مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة المجلدات التى يتألف منها « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ٠ ويشتمل هذا المجلد على ما يلى :

أولا : خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته ٠ وقد عرض فيها ابن خلدون لبحوث المؤرخين من قبله ، وذكر

طوائفهم ، ووجوه النقص فى بحوثهم ، وأشار الى الأسباب التى دعته الى تأليف الكتاب كله « كتاب العبر » ٠

ثانيا : « المقدمة فى فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شىء من أسبابها » ٠

ثالثا : « الكتاب الأول فى طبيعة العمران من الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب» ٠ هذا هو القسم الرئيسى مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون ويشتمل على ما يأتى :

١ ــ تمهيد تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ فى رواية حوادثه والأسباب التى دعته الى البحث الذى يتضمنه هذا الكتاب من مؤلفه ، وبين البحوث الستة الرئيسية التى يشتمل عليها هذا الكتاب وموضوع كل بحث ٠

٢ : ٧ ــ ستة بحوث رئيسية تنطوى تحتها :

(الباب الأول) : فى العمران البشرى على الجملة ويشتمل على ستة فصول أسماها ابن خلدون مقدمات ٠

(الباب الثانى) فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل ويشتمل على تسعة وعشرين فصلا فرعيا ٠

(الباب الثالث) فى الدول العامة والخلافة والمراتب السلطانية ٠ ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلا فرعيا ٠ ولعل

هذا الفصل من المقدمة هو أهم الفصول ، وفيه وصل ابن خلدون الذروة فى الابداع والعطاء بحيث قدم نظريات اعتبرت فتحا علميا ، ذلك انه رأى أن كل دولة تحدث بالقبيل والعصبية ، ولكل دولة خواص معينة ، ومزايا خاصة تختلف باختلاف القائمين عليها ، وللدول طبائع وخواص ، منها الانفراد بالمجد ، والدعة والترف والسكون ، وهى أمور اذا ما استحكمت تسبب الشيخوخة للدولة وتقودها الى الهرم ثم الى الفناء ، ورأى أن الدول كالأفراد لها أعمار لا تتجاوزها الا نادرا ، وقدر العمر الوسطى للدول بمائة وعشرين سنة .

(الباب الرابع) فى البلدان والأمصار وسائر العمران . ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا فرعيا .

(الباب الخامس) فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال . ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلا فرعيا .

(الباب السادس) فى العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال . ويشتمل على واحد وستين فصلا فرعيا .

شمول المقدمة لجميع مظاهر الاجتماع الانسانى

هذا ويبدو مما كتبه ابن خلدون فى مقدمته انه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية

وشمولها لجميع أنواع البحوث الاجتماعيـة وانه لم يغـادر أية طائفة من طوائفها الا عرض لها بالدراسة ٠

فقد عرض فى معظم البابين الأول والرابع من المقـدمة للظواهر المتصلة بطريقة التجمع الانسـانى أى للنظم التى يسير عليها التكتل الانسانى نفسه ، مبينا فى الباب الأول أثر البيئة الجغرافية فى هذه الظواهر وفى غـيرها من شـئون الاجتماع٠ وهذه هى الشعبةالتى سماها العلامة دوركايم(٢) «المورفولوجياالاجتماعية La morphologie Sociale » أو « علم البيئة الاجتماعية » ، وظن هو وأعضاء مدرسته انهم أول من عنى بدراسـة مسـائلها ، وأول من فطن الى خواصـها الاجتماعية ، وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع ، ولم يدروا أنه قد سـبقهم الى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون ، وأنه قد وقف على هذه الشعبة زهاء بابين كاملين من مقدمته !

وعرض ابن خلدون فى الفصول العشرة الأولى من الباب الثانى للظواهر المتصلة بالبدو والحضر وأصول المدنيات ٠

وعرض فى الفصـول التسعة عشر الأخيرة من البـاب الثانى وفى جميع فصول الباب الثالث لنظم الحكم وشئون السياسة ٠

وعرض للظواهر الاقتصادية فى جميع فصول البـاب الخامس وفى سبعة فصول من الباب الثالث (وهى الفصـول

---

(٢) دوركايم : عالم اجتماع فرنسى (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) (انظر صفحة ١٩٥ من الجزء الرابع من هذه الموسوعة) ٠

التى أعطاها العناوين الآتية : فصل فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها ، فصل فى ضرب المكوس أواخر الدولة ، فصل فى أن التجارة من السلطان مضرة للرعايا ، فصل فى أن نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية ، فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران ، فصل فى وفور العمران آخر الدولة • وتتصل هذه الفصول كذلك بشئون السياسة والحكم التى يتألف منها الموضوع الأساسى للباب الثالث) • وفى ستة فصول من الباب الرابع (وهى الفصول التى أعطاها هذه العناوين : فصل فى أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق ، فصل فى أسعار المدن ، فصل فى اختلاف أحوال الأقطار بالرفه والفقر ، فصل فى تأثل العقار والضياع ، فصل فى حاجات المتمولين من أهل الأمصار الى الجاه والمرافعة ، فصل فى اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع • ولهذه الفصول كذلك صلة بشئون المورفولوجيا الاجتماعية التى يتألف منها الموضوع الأصلى للباب الرابع) •

وعرض فى الباب السادس للظواهر التربوية والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه • وفى أثناء دراسته لظواهر هذا الباب تناول كثيرا من الظواهر الأخرى ، كالظواهر القضائية والخلقية والجمالية واللغوية والدينية •

طريقته فى عرض الحقائق

يعتمد ابن خلدون فى بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع فى الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين

أهلها ، وتعقب هذه الظواهر فى تاريخ هذه الشعوب نفسها فى العصور السابقة لعصره ، وتعقب أشباهها أهلها ، والموازنة بين هذه الأوضاع جميعا ، والتأمل فى مختلف مناحيها ، للوقوف على طبائع الظواهر وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية وما تؤديه من وظائف فى حياة الأفراد والجماعات ، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بما عداها من الظواهر الكونية ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور ، ثم الانتقال من هذه الأمور جميعا ، وفى ضوء هذه الأمور جميعا ، الى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر فى مختلف شئونها من قوانين ·

هذا هو جوهر منهجه فى البحث ، وهو المنهج الذى لا يزال الى الوقت الحاضر عمدة الباحثين فى علم الاجتماع·

● وأما طريقة عرضه فى المقدمة لما انتهت اليه بحوثه فتشبه من وجوه كثيرة الطريقة التى يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة فى عرض نظرياتهم · فهو يعنون كل فقرة من بحثه بقانون أو فكرة من القوانين أو الأفكار التى انتهى اليها ، كما يفعل علماء الهندسة المحدثون اذ يجعلون نص النظرية نفسها عنوانا للفصل · ثم يأخذ فى بيان الحقائق التى استخلص منها هذا القانون أو هذه الفكرة ، أى يأخذ فى البرهنة عليها ، كما يفعل علماء الهندسة كذلك فى البرهنة على نظرياتهم · ولا يقتصر فى هذه البرهنة على ما شاهده أو اطلع عليه فى بطون التاريخ من شواهد اجتماعية تدل على صحة القانون الذى هو بصدده ، بل يلجأ كذلك أحيانا الى البرهنة المنطقية الخالصة ان كان فى

الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق الدليل العقلى ، والى الاستدلال بحقائق العلوم الطبيعية وعلم النفس ان كان فى الموضوع بعض عناصر يقتنع بهـا الانسـان عن طريق هذه الحقائق ٠

واليك مثالا ــ من ذلك الفصل الذى جعل عنوانه : «فصل فى أن الأمة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع اليهـا الفنـاء » ٠

فقد وضع فى رأس الفصل فكرة أو قانونا من الأفكار أو القوانين الاجتماعية التى انتهى اليها بحثه وملخص هذه الفكرة أو هذا القانون أن خضوع أمة لأخرى لا يؤثر فى معنوياتها وحريتها واسـتقلالها فحسب بل يؤدى كذلك الى فنائها فناء ماديا ، فيتناقص عدد أفرادها ويتناقص نسـلها بالتدريج حتى تنقرض أو تشرف على الانقراض ٠ ثم أخذ فى البرهنة على هذه الفكرة أو هذا القانون ٠

وبدأ بالبراهين المسـتمدة من حقـائق علم النفس وعلم الحياة « البيولوجيا » وعلم الحيـوان ومن مقـولات العقـل والأقيسة المنطقية فقال :

« والسبب فى ذلك ، والله أعلم ، ما يحصل فى النفوس من التكاسل اذ ملك أمرها عليهـا وصـارت بالاسـتعباد آلة لسواها وعالة عليهم ، فيقصر الأمل ويضـعف التناسـل ٠ والاعتماد انما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنها من نشاط

فى القوى الحيوانية • فاذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو اليه من الأحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد الغلب من شوكتهم ، فيصبحون مغلبين لكل متغلب ، طعمة لكل آكل ، وسواء أكانوا حصلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا » •

« وفيه ، والله أعلم ، سر آخر ، وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له • والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده • وهذا موجود فى أخلاق الناس • ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة ، وانها لا تساق اذا كانت فى ملكة الآدميين • فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء • والبقاء لله وحده » •

ثم ختم البحث بأدلة مستمدة مما شاهده واطلع عليه فى بطون التاريخ من ظواهر اجتماعية فقال :

« واعتبر ذلك فى أمة الفرس • كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ، ولما فنيت حاميتهم فى أيام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير • يقال ان سعدا (يقصد سعد بن أبى وقاص قائد جيش المسلمين فى حربهم ضد فارس) أحصى من وراء المدائن (عاصمة المدائن حينئذ) فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألف رب بيت • ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ، ودثروا كأن لم

يكونوا . ولا تحسبن ان ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم ، فملكة الاسلام فى العدل ما علمت ، وانما هى طبيعة للانسان اذا غلب على أمره ، وصار آلة لغيره » .

★★★

وقد يرى ابن خلدون أن بحثا ما يحتاج الى دراسات تمهيدية ، فيقف بعض فصول أو فقرات على هذه الدراسات قبل أن يتناول البحث أو فى أثناء علاجه له . كما فعل فى الباب الأول اذ تكلم بتفصيل على الحقائق الجغرافية تمهيدا لكلامه على أثر البيئة الجغرافية فى الحياة الفردية والاجتماعية ، وكما فعل فى الباب السادس اذ تحدث عن مختلف العلوم وموضوعاتها وأغراضها وما ألف فيها تمهيدا للكلام على نظم التربية وشئون التعلم والتعليم .

أثر المقدمة فى التراث الانسانى

سنمهد لهذا القسم بفقرتين : احداهما فى موضوع علم الاجتماع وأغراضه ، والأخرى فى أنواع البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل ابن خلدون وما بينها وبين علم الاجتماع من خلاف ، ثم نقف بقية فقرات هذا القسم على ريادة ابن خلدون لهذا العلم .

موضوع علم الاجتماع وأغراضه

من المعروف أن « علم الاجتماع » La sociologie يدرس ما نسميه بالظاهرات الاجتماعية ، والظاهرات الاجتماعية فى تعريفها المجمل عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة

التى تتخذ فى مجتمع ما أساسا لتنظيم الحياة الجمعية وتنسيق العلاقات التى تربط أفراد هذا المجتمع بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم ٠

والظاهرات الاجتماعية أنواع مختلفات : فمنها ما يتعلق بشئون السياسة ونظم الحكم ، ومنها ما يتعلق بشئون الاقتصاد ونظم الاقتصاد ونظم انتاج الثروة وتداولها وتوزيعها واستهلاكها ، ومنها ما يتعلق بشئون الأسرة ونظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث وما الى ذلك ، ومنها ما يتعلق بشئون القضاء ونظم المسئولية والجزاء ، ومنها ما يتعلق بشئون الدين وعقائده وشرائعه ، ومنها ما يتعلق بشئون الأخلاق وقواعد التمييز بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر ، ومنها ما يتعلق بشئون التربية ونظم الاعداد للحياة ، ومنها ما يتعلق بشئون اللغة والتفاهم ونقل أفكار الناس بعضهم الى بعض ، ومنها ما يتعلق بشئون الفن والجمال ، ومنها ما يتعلق بشئون التكتل الاجتماعى نفسه أى تجمع الأفراد بعضهم الى بعض فى قرية أو مدينة ٠

هذا هو موضوع علم الاجتماع ٠ وأما أغراضه فمن الممكن رجعها الى غرض واحد وهو الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظاهرات ٠ وذلك أن الظاهرات الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد٠ وانما تسير حسب قوانين لا تقل فى ثباتها واطرادها عن القوانين التى لا تخضع لها ظواهر الفلك والطبيعة ٠ والغرض النهائى الذى يرمى اليه علم الاجتماع من وراء دراسته للظاهرات الاجتماعية هو الوصول الى معرفة هذه القوانين ٠

البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل ابن خلدون

ترجع البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل مقدمة ابن خلدون الى ثلاث طوائف :

(**الطائفة الأولى**) بحوث تاريخية خالصة يقتصر أصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية وبيان ما كانت عليه وما هى عليه ، بدون أن يحاولوا استخلاص شيء من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها • وقد سار على هذه الطريقة جميع الباحثين من قبل ابن خلدون • فنراهم فى ثنايا علاجهم لمسائل التاريخ العام يعرجون من حين لآخر وبحسب المناسبات على نظم السياسة والقضاء والاقتصاد والتربية وما الى ذلك من ظواهر اجتماعية ، فيصفون ما كانت عليه هذه النظم فى الشعوب التى يدرسون تاريخها • كما فعل ابن حزم فى دراسته للملل والنحل وكما فعل الفقهاء والمؤرخون فى دراستهم لتاريخ التشريع وتاريخ القضاء وتاريخ التربية وما الى ذلك •

وهذه الطائفة من الدراسات ليست من علم الاجتماع فى شيء ، لأن علم الاجتماع لا يقف عند وصف الظاهرات الاجتماعية ، وليس غرضه مجرد هذا الوصف ، وانما يرمى الى تحليلها للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين • وهو اذا عرض للوصف فانما يعرض له ليكون مجرد تمهيد لغرضه الأصيل ، وهو ربط الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، واستخلاص القوانين العامة التى تحكم هذه الظاهرات •

(**الطائفة الثانية**) دراسات وعظية ارشادية تدعو الى المبادىء التى تقررها نظم المجتمع ومعتقداته وتقاليده · وذلك ببيان محاسنها ، وترغيب الناس فيها ، وتثبيتها فى نفوسهم ، وحثهم على التمسك بها وتحذيرهم من تعدى حدودها ، وبيان ما ينبغى أن يتخذوه فى تطبيقها · وهذه هى الطريقة التى سلكها بعض علماء الدين والخطابة والأخلاق وبعض الباحثين فى شئون السياسة والملك كابن مسكويه فى كتابه « تهذيب الأخلاق » والغزالى فى كتابه « احياء علوم الدين » والماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » والطرطوشى فى « سراج الملوك » ·

وهذه الطائفة من الدراسات ليست كذلك من علم الاجتماع فى شىء ، لأن علم الاجتماع ، كما رأينا ، لا شأن له بالمواعظ والارشاد ، وانما يدرس مسائل الاجتماع كما يدرس عالم الطبيعة مسائل الطبيعة أى لمجرد الوقوف على حقيقتها وما يحكمها من قوانين ·

و (**الطائفة الثالثة**) دراسات يوجه أصحابها كل عنايتهم الى ما ينبغى أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية بحسب المبادىء التى يرتضيها كل منهم · فهى دراسات اصلاحية ، ترمى الى تغيير النظم واصلاح الحياة الاجتماعية على الوجه الذى يتفق مع نظريات أصحابها فى العدالة والسعادة والفضيلة وما الى ذلك · وذلك كما فعل أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » وأرسطو فى كتابيه « الأخلاق » و « السياسة » والفارابى فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » · فقد عمل كل واحد من هؤلاء فى بحثه

على بيان ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع من مختلف ظواهره الاجتماعية أو فى بعضها ؛ حتى يكون مجتمعا فاضلا فى نظره بحسب ما يذهب اليه من آراء فلسفية عن الأخلاق ومقومات الحكم ومختلف شئون الاجتماع ٠

وهـذه الطائفة من الدراسـات ليست كذلك من علـم الاجتماع فى شىء لأن علم الاجتماع ، كما رأينا لا شأن له بما ينبغى أن يكون ، وانما يدرس ما هو كائن للكشف عن طبيعته وقوانينه ٠

★★★

ومن هذا يظهر انه لا يوجد من بين أنـواع الدراسات الاجتماعية السـابقة لمقـدمة ابن خلدون نـوع يتفق فى أغراضه ومناهجه مع ما نسميه الآن علم الاجتماع ٠ ومعنى هذا انه قبل ظهور مقدمة ابن خلدون لم يكن علم الاجتماع قد أنشىء بعد ، وانه لم يفـكر أحـد من قبـل ابن خلدون فى انشائه ولا فى وضع أساس له ٠

ويرجع السبب فى هذا الى أن دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة التى يسير عليها علم الاجتماع لا تتـاح الا لمن ثبت لديه ان هذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لهـا الأفراد ، وانما تسـير فى نشـأتها وتطـورها ومختلف أحوالهـا حسب قوانين ثابتـة مطـردة كالقوانين الخاضع لها القمر فى تزايده وتناقصه والنهـار والليل فى اختلافهما باختلاف الفصول ٠ وهذه الحقيقة لم يصل اليها تفكير أحد من قبل ، بل ان نقيضها كان هو المسيطر

على أفكارهم جميعا • فقد كان المعتقد أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين ، وخاضعة لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمشرعين ودعاة الاصلاح • ولذلك لم يكن من الممكن حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على الوجه الذى تدرس به فيما نسميه الآن « علم الاجتماع » •

★★★

الى هذا الحد وقف تفكير السابقين لابن خلدون فى فهم الظواهر الاجتماعية • أما ابن خلدون فقد هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشئون الاجتماع الانسانى الى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون وانها محكومة فى مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التى تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات •

ومن ثم رأى انه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة « وضعية » Positive كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى ، أى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين • وعلى هذا البحث وقف دراسته فى « المقدمة » •

فمن بحوث ابن خلدون فى المقدمة يتألف اذن علم جديد لم يعرض له أحد من قبل • وقد سماه ابن خلدون « علم العمران البشرى » أو « الاجتماع الانسانى » وهو العلم نفسه الذى نسميه الآن «علم الاجتماع» لأن قوام هذا العلم ، كما رأينا ، هو دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التى تخضع لها •

وفى هذا يقول ابن خلدون نفسه :

« وكأن هذا علم مستقل بنفسه ، فانه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى ، وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض الذاتية ، وهذا شأن كل علم من العلوم » ٠

ويقصد ابن خلدون من كلمة « العوارض الذاتية » أو « ما يلحق المجتمع من العوارض لذاته » ، وهى العبارة التى استخدمها هنا وفى مواطن أخرى كثيرة من مقدمته ما نقصده نحن من كلمة القوانين ٠ ويتضح قصده هذا من منهجه فى دراسته ومما كتبه هو نفسه فى الباب السادس من مقدمته فى أثناء حديثه عن علم الهندسة اذ يقول :

« هذا العلم هو النظر فى المقادير ، اما المتصلة كالخطوط والسطح والجسم ، واما المنفصلة كالأعداد ، وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية : مثل ان كل مثلث فى زواياه مثل قائمتين، ومثل ان كل خطين متوازيين لا يلتقيان فى وجه ولو خرجا الى غير نهاية ، ومثل ان كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان » ٠ فهذا يدل على أنه يقصد من كلمة « العوارض الذاتية » ما نقصده نحن من كلمة القوانين » ٠

ويقرر ابن خلدون نفسه أن دراسة ظواهر الاجتماع على هذا الوجه لم يسبقه اليها أحد فيما يعلم ٠ وفى هذا يقول :

« واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص » . وبعد أن بين الفرق بينه وبين البحوث السابقة له على النحو الذى أوضحناه فيما سبق ، قال : « وكأنه علم مستنبط النشأة . ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة . وما أدرى أالغفلهم عن ذلك ؟ وليس الظن بهم » . ثم يعقب على ذلك بعبارة يبدو فيها تحفظ العلماء وتواضعهم فيقول : « ولعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا . فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى أمم النوع الانسانى كثيرون . وما لم يصل الينا أكثر مما وصل » .

والحقيقة أننا لم نعثر الى الآن على بحث سابق لبحوث ابن خلدون فى المقدمة قد تناول ظواهر الاجتماع فى مجموعها ، وعلى أنها موضوع شعبة مستقلة ، ودرسها كما تدرس العلوم الرياضية والطبيعية وظواهرها ، أى للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين .

مظاهر أخرى للنبوغ

لا تقتصر فائدة « المقدمة » على ابتكارها فى دراسة شئون الاجتماع ، بل تقدم لنا كذلك بحوثا قيمة فى تاريخ العلوم والفنون وموضوعاتها وفروعها ومذاهب أئمتها وأهم ما ألف فى كل فرع منها . وبذلك تدلنا على رسوخ قدم ابن خلدون فى معظم العلوم والفنون المعروفة فى عصره ، وتكشف لنا عن نواح أخرى كثيرة من مظاهر نبوغه غير النواحى التى تقدمت الاشارة اليها .

فقد عرض ابن خلدون لهذه البحوث فى مواطن كثيرة فى مقدمته وخاصة فى الفصول الثانى والثالث والسادس من الباب الأول وفى الفصول العشرة الأخيرة من الباب الخامس وفى معظم فصول الباب السادس • فدرس فنون الفلاحة والبناء والتجارة والخياطة والحياكة والتوليد والطب والخط والكتابة والوراقة والموسيقى والغناء ، ودرس علوم القراءات ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض وأصول الفقه والجدل والخلافيات والتوحيد والتصوف والعلوم اللغوية والرياضية والطبيعية بمختلف فروعها والمنطق والفلسفة والالهيات وبحوث التربية والتعليم وعلم النفس التربوى والتعليمى • بل تحدث كذلك عن فنون غريبة تدخل فى باب الشعوذة والأسرار الخفية والروحانيات كفنون السحر والطلسمات والكهانة وادراك الغيب بالرياضة والادراك الروحانى والتنجيم ، واستخراج الغيب عن طريق حساب الجمل ، والطب الروحانى ، والانفعال الروحانى ، والانقياد الربانى ، والاصابة بالعين ، وعلم أسرار الحروف أو السيمياء والاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية ، واستخراج الأجوبة من الأسئلة ، والاستدلال على ما فى الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية ، والزيرجة ••• وهلم جرا •

ومن العجيب أنه لا يمر مرورا سريعا على هذه الطوائف الغريبة من العلوم والفنون ، بل يفصل القول فيها تفصيلا ، ويذكر مناهجها وطرق استخدامها والانتفاع بها وأهم ما ألف فيها ، وأشهر أئمتها •

شهادة علماء التاريخ والاجتماع

وخلاصة القول ان الحديث عن مقدمة ابن خلدون مهما كان عميقا لا يمكن أن يبين جوانب الابداع فيها ، فهى تعتبر أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه كما يقول ماكدونالد . وهى مقدمة تاريخية فلسفية لم ينسج أحد على منوالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم ، وهناك من علماء الافرنج من خرج بتصريح خطير بعد دراسة المقدمة ، فاعترف بأثر هذه المقدمة فى التاريخ وفلسفته ، قال روبرت فيلنت : « من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتجلى الأدب العربى باسم من ألمع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكى فى القرون القديمة ، ولا العالم المسيحى فى القرون الوسطى يستطيع أن يقدم اسما يضاهى فى لمعانه ذلك الاسم .. انه ـ كواضع نظريات فى التاريخ ـ منقطع النظير فى كل زمان ومكان ، حتى ظهور « فيكو » بعده بأكثر من ثلاثمائة عام .. ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له ، وأما الباقون فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه .. ان أول كاتب بحث فى التاريخ كموضوع علم خاص هو ابن خلدون » .

وقال توينبى أشهر مؤرخى الانجليز المعاصرين : « ان ابن خلدون ـ فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام ـ قد أدرك وأنشأ فلسفة للتاريخ ، وهى بلا شك أعظم عمل من نوعه اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخى »

وسارتون فى كتابه « مدخل لتاريخ العلم » يقول : « انه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل فى تفكيره الى اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخى » .

أما شهادة علماء الاجتماع فيقولها « غو ميلوفيتش » أحد زعماء علم الاجتماع الألمان : « ان ابن خلدون يعتبر مفكرا عصريا بكل معنى الكلمة ٠٠ انه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين ، وأبدى آراء عميقة جدا ، ليس قبل « كنت » فحسب ، بل قبل « فيكو » أيضا ٠ والحقيقة ان ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع ٠

كما يقول « استفانو كولوزيو » الايطالى :

« ان مبدأ الحتمية الاجتماعية مما يعود الفخر فى تقديره الى ابن خلدون قبل رجال الفلسفة الاثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة ٠ ان المؤرخ العربى العظيم اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون ٠

اذا كانت نظريات ابن خلدون فى حياة المجتمع تضعه فى طليعة فلاسفة التاريخ فان ما يعزوه من شأن كبير الى دور العمل والأجر والملكية تجعله اماما لاقتصاديى هذا العصر»٠

وقد قارن كولوزيو بين ابن خلدون وميكافيلى فقال فى هذا الصدد :

« اذا كان ميكافيلى يعلمنا وسائل حكم الناس فانه يفعل ذلك كسياسى بعيد النظر ٠ ولكن العلامة العربى ابن خلدون استطاع أن ينفذ الى الظواهر الاجتماعية كاقتصادى وفيلسوف راسخ ، مما يحملنا بحق على أن نرى فى أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره » ٠

ويقول « فارد » من كبار علماء الاجتماع الأمريكان : « كانوا يظنون أن أول من قال بمبدأ الحتمية فى الحياة الاجتماعية هو مونتسكيو أو فيكو ، فى حين أن ابن خلدون قال بذلك ، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء فى القرن الرابع عشر ، حينما كان الغرب مستسلما للفلسفة الدرسانية والكلمانية استسلاما تاما » ٠

وقال « ناتانيل شميت » الأمريكى : « انه فيلسوف مثل أوجست كونت وتوماس ميكل وهربرت سبنسر ، وقد تقدم فى علم الاجتماع الى حدود لم يصل اليها كونت نفسه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠

والمفكرون الذين وضعوا أسس علم الاجتماع لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون فى حينها ، واستعانوا بالحقائق التى اكتشفها والطرائق التى أوجدها ذلك العبقرى قبلهم بمدة طويلة ، لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد أكثر مما تقدموا به فعلا » ٠

★★★

واذا كانت هذه هى نظرة علماء الغرب المحدثين لابن خلدون ، فليس فى وسعنا الا أن نعتز بهذه العبقرية العربية ٠

الأمير

ميكافيلي

١٥١٢ م

الكتاب الذى لعنه الساسة ثم تتلمذ عليه منهم الكثير فى شتى العصـور !!

ميكافيلى فى طليعة المفكرين السياسيين ، وقد شـغلت أفكاره السياسية العالم منذ ظهورها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وحتى اليوم ، وقد اختلفت الآراء فى تقديرها واشتد الجدل حول تفسيرها ، فخصومه يرون أنه قد أسـاء الانتفاع بعبقريته وان كتابه المشهور المسمى « بالأمير » من الكتب المخالفة للآداب المنابذة للدين التى يجب تحريمهـا واحراقها واراحة الناس من شر ما احتوت عليه ، ويذهبون الى أن الباعث الذى حداه على كتابته رغبته الملتوية فى تبصير الطغاة المستبدين بأساليب السيطرة عـلى الشـعب وانتهاب ثروة الأغنياء ، وتجريد الفقراء من الشرف والكرامة ، أما أصدقاؤه والمعجبون به فيرون فيه الوطنى الذى حفلت نفسه بحب بلاده والذى تطلع الى الوحدة الايطالية قبـل أن يولد متزينى وغاريبالدى وكافور بقرون عدة ٠

ويعزى سبب هذا التناقض الواضـح فى تقـدير آراء ميكافيلى الى أن حياته وتجاربه التى تأدت به الى تكوين أفكاره واستنباط نظرياته لم تعرف المعرفة الكافية ، وقد حال ذلك دون الفهم الصادق لآرائه ومراميه ، والرجـل الذى اقترن اسمه بالخيانة والغدر والخداع ونكث العهود كان فى واقع حياته موظفا فى حكومة مدينة فلورنسا المدينة الايطاليـة

الشهيرة ، شديد التوفر على أداء واجبات وظيفته ، ولم تشب سلوكه في الاضطلاع بعمله شائبة ، وكان وطنيا محبا لبلاده ، وفيا لها ، حريصا على مصلحتها ، وقد ضحى فى بعض مواقفه بمصلحته الخاصة فى سبيل آرائه ومعتقداته · فالتناقض بين حياته ، وما اتسمت به أفكاره واضح لا خفاء به ، ولكن معرفة طبيعة العصر الذى عاش فيه والتجارب التى مر بها تكشف لنا أسباب تكوين أفكاره ، واستخلاص نظرياته ·

★★★

والتقدير الصحيح لآراء ميكافيلي يقتضينا النظر الى آرائه ونظرياته في ضوء أحوال عصره وملابساته وتجارب حياته · وللتاريخ في كل عصر سيطرة على حياة الناس غير منكورة وهو الذى يقدم لنا مفتاح شخصيته وآرائه ·

كان تاريخ ايطاليا ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، تاريخا شائنا محزنا ، غاصا بالكوارث والنكبات والجرائم والمنكرات ·· فمدينة فلورنسا التى كانت تتمتع بحكومة ديمقراطية صالحة ، تغلبت عليها حكومة أخرى طاغية مستبدة لم تكف عن سوء التصرف واقتراف الكبائر ، وأيدها الفاتيكان فى هذا الانحراف عن الجادة والايغال فى الشر والعدوان · وتوالى على كرسى البابوية البابا اسكندر السادس ، والبابا يوليوس الثانى ، والبابا ليون العاشر ، وتكاثرت جرائم أسرة البارجيا وأسرة المدتشى ، وداست أرض ايطاليا أقدام الجيوش الفرنسية والاسبانية والألمانية ، ودارت أرحاء معارك دامية حامية ·

وكان هنالك من ناحية ازدهار فنى عظيم ، وتقدم فى العلم ، ونهضة شماء فى الأدب ، ومن ناحية أخرى انحطاط قومى شامل ، وحروب داخليـة مسـتمرة ، وخضـوع مزر للأجانب ، وفسـاد فى الأخـلاق ·· ولـم يكن للـولايات والامارات الايطالية جيش من أبنائها تعتمد عليه فى حماية حوزتهـا ، وانما كانت تستعين بالجنود المرتزقة ، وكانت هذه الجنود المأجورة تدافع مرة عن البندقية ومرة عن ميلانو ، وفى بعض الأحيان عن فلورنسا ، وفى كثير من الاحيان عن دفع غارة الغزو الخارجى ·

وكان البندقيون يملكون نصف مقـاطعة لومبارديا · ولما أراد دوق ميلانو أن يعرقل تقدم هذه الجمهورية النامية ، استعان على ذلك بالفرنسيين ، وأخذ البابوات يعملون عـلى توسيع نطاق ممتلكات الكنيسة ، وبسط نفوذهم بوسـائل معيبة ظالمة · وكانت ولاية نابولى مسرحا للصراع بين فرنسا واسبانيا ، وقد تغلب بهـا الفونسـو ، صـاحب أرجون ، وفرديناند الكاثوليكى على شارل الثامن ولويس الثانى عشر ملكى فرنسا · وكان حظ الفرنسيين فى مقاطعة لومبارديا أقل سوءا من حظهم فى ولاية نابولى · وقد تملقتهم روما حينا من الزمن ثم تنكرت لهم ·· ومهما يكن من الأمر فان دعائم الحكم الفرنسى لم تستقر طويلا فى فرنسا ·

وقد حاول البابا اسكندر السادس آن يستعمل نفوذه الروحى ، وسلطته الزمنية ، فى انشاء مملكة لابنه شيزارى بورجيا ، واتخذ السم والخنجر وسائل لجمع الأموال اللازمة لتسعير الحرب ·

وحالف البابا يوليوس الثانى الفرنسيين والألمان والاسبانيين للاستعانة بهم فى محاربة البندقية ، طمعا فى الاستيلاء على بعض المدن التى كانت تابعة لها • وبعد أن ظفر ببقية آصر على تحرير ايطاليا من الأجانب ، وقد بذل جهدا فى مساعدة شارل الثامن ملك فرنسا •• ولكن بعد أن تغيرت الظروف شرع فى مهاجمة الفرنسيين ، وأراد أن يستفيد فى مقاومتهم من قوة اسبانيا ، فصالح البندقيين ، وأخرج فرديناند الاسبانى من حلف كامبرى ، وأثار حربا جديدة فى ايطاليا لم يوفق فيها فى بادىء الأمر •

ودعا لويس الثانى عشر ملك فرنسا الى عقد مؤتمر فى بيزا لخلع البابا ، ولكن أمراء أوروبا لم يقروه على ذلك • وتحالف مكسميليان امبراطور ألمانيا ، وفرديناند الكاثوليكى وهنرى الثامن ملك انجلترا ، والسويسريون ، لمقاومة ملك فرنسا •• وطرد الفرنسيون فى النهاية من ايطاليا •

ومات البابا يوليوس الثانى عام ١٥١٣ وقد ورط ايطاليا فى حروب كثيرة أريقت فيها دماء الايطاليين فى غير طائل وطرد الفرنسيين من ايطاليا مكن للاسبانيين ، ولم يستطع البابا يوليوس الثانى ايقاظ الشعور القومى فى الايطاليين • وقد خلفه على العرش البابوى ليو العاشر ــ واسمه جيوفانى دى مديتشى ــ وهو الابن الثانى للورنزو العظيم ، وكان قد طرد من فلورنسا حينما سقطت حكومة أخيه بييرو ، وأقام الفلورنسيون حكومة جمهورية ، مسترشدين بآراء المصلح الدينى سافونارولا •

★★★

فى هـذا العصر المضـطرب ، الحـافل بالانقـلابات والمفاجآت ، ولد نيقولا ميكافيلى وقضى حياته (١٤٦٩م ـ ١٥٢٧م) • وقد نشأ فى أسرة شريفة تنتمى لحلف الجلف ، وهو الحزب الذى كان يناصر البابا ، ويعارض حزب الجيبلين الذى كان يناصر امبراطور ألمانيا • وقد ولى القضـاء فى فلورنسا ، فى أجيال متعـاقبة ، كثيرون من رجال أسرته ، وعمل حينا من الزمن أمينا على الأموال ، ولم يكن ثريا ولكنه كذلك لم يكن فقيرا ، وكان ولوعا بالدرس والمطالعة •

والمعلومات عن نشأة نيقولا ميكافيلى وطفولته ومطالع شبابه مطوية فى مدارج النسيان ، ولم يبدأ فى دخول التاريخ الا وهو فى السادسة بعـد العشرين من عمره • وقد نشـأ ميكافيـلى فى ابان حـكم لورنزو مديتشى ، وكانت معـاهد التعليم حينذاك كثيرة فى فلورنسا ، ويمكن أن نسـتخلص من ذلك أنه عرف المؤلفين اليونانيين واللاتينيين فى شبابه ، وقد وسع دائرة اطلاعه بعد ذلك بدراساته الخاصة ، وادامة التفكير والتأمل فى الحوادث التى تقع تحت بصره وسمعه ، وبممارسته لشئون الحياة ومعرفته بالناس •

على أن ثقافته بوجه عام كانت محدودة الى حد ما • وقد نفعه ذلك من بعض الوجوه ، اذ مكنه من الاحتفاظ بأصالة تفكيره ونضارة أسلوبه ، ولم يجعله يسـقط تحت أعبـاء المعلومات المتكاثرة ، وأثقال المعرفة الواسعة •• كما كان يحدث لكثيرين من معاصريه الذين أفقدهم الاستغراق فى الدرس والعكوف على الكتب القديمة •

وكانت الحوادث الجسيمة التى وقعت فى عصره ، ومؤامرات الأمراء ، وفضائح البابوية تجعله لا يخلو بالكتب وحدها ، وتحفزه الى النظر فى الحوادث التى تتوالى حوله سراعا ٠٠ ومما كان له أثر بالغ فى نفسه مجىء الفرنسيين الى ايطاليا عام ١٤٩٤ ٠ وقد تلا ذلك سقوط أسرة المديتشى، واعلان الجمهورية فى فلورنسا ٠ وكان ميكافيلى بحكم اطلاعه على الأدب اللاتينى وتعلقه بذكريات عظمة روما القديمة ، يمقت كل شىء له اتصال بالكهنوت ٠٠ ولذلك لم يعجبه أن يسيطر على جمهورية فلورنسا راهب مثل سافونارولا ، وكان هو مع خصوم الراهب المصلح العنيد ، وقد أبدى فى بعض كتاباته بعد ذلك شيئا من الاعجاب بالراهب الشهيد ٠

ولما غلب الراهب على أمره ، وتمكن أعداؤه من القضاء عليه ، لم يأسف ميكافيلى على الاتجاه الذى سارت فيه الحوادث ٠ واستتبع ذلك بضرورة الحال تغييرا فى المناصب العامة ووظائف الحكومة ٠ وكان ميكافيلى حينذاك قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، ولم يكن قد التحق بمهنة بعد، ولم يكن له دخل خاص ، فأخذ يعمل للحصول على وظيفة تدر عليه شيئا من المال ، ولم يجد صعوبة فى الظفر بالوظيفة المطلوبة ٠٠ فقد كانت جمهورية فلورنسا قد تعودت أن تستخدم الكتاب ، وتدفع الأجور المناسبة ، وكانت تتخذ أكثرهم سكرتيرين ، وقد اختير ميكافيلى فى عام ١٤٨٩ لشغل وظيفة سكرتير للجمهورية ، وظل يعمل فى وظيفته حتى عام ١٥١٢ حينما سقطت الجمهورية ٠

وقد أخلص فى خدمة الجمهورية ، وكانت أعمال وظيفته تستغرق أكثر وقته من الصباح حتى المساء • وبعض الرسائل الرسمية التى كان يحررها لا تزال محفوظة فى أرشيف فلورنسا •

وكان منشرح الصدر للحياة ، حسن العلاقة بزملائه فى الادارة التى كان يعمل بها ، وقد أرسلته حكومته مرتين الى بلاط امبراطور ألمانيا ، وأربع مرات الى البلاط الفرنسى ، وأوفد مرتين الى روما ، وعهد اليه بمهمات فى الجمهوريات والولايات الايطالية المختلفة ، وقد مكنته هذه الأسفار والاتصالات بالرجال الذين يتولون المناصب العليا ، ويقبضون على أزمة الأمور ، من أن يدرس المشكلات السياسية دراسة عملية ، ويتعرف على أسباب تخلف بلاده من الناحية السياسية •

وفى عام ١٥١٢ تمكنت أسرة المديتشى من العودة الى حكم فلورنسا ، وكان هذا الانقلاب سببا فى اقالة ميكافيلى من خدمة الحكومة الفلورنسية • ولما كان يعد من أنصار الحكومة الجمهورية السالفة ، لذلك صدر قرار بنفيه فى حدود الجمهورية ، وانذاره بالعقوبة الشديدة اذا حاول الخروج عن تلك الحدود •

وفى تلك الفترة ــ وقد أبعد عن المدينة التى نشأ بها، ولم يأل جهدا فى خدمتها ، وحرم من مرتبه الذى كان يستعين به على تكاليف الحياة ومطالب العيش ــ أقبل على القراءة والتأليف ، فكتب روايته التمثيلية « مندرا جورا » التى

أعجب بها ليون ، وكان هذا الاعجاب من دواعى صنعه عنه • وعلى الرغم من نجاح هذه الرواية فانه رأى أن يشغل وقته ويقصره على أشياء أجل منها شأنا وأقرب الى طبيعة تفكيره •• وفى هذه العزلة التى أرغم عليها بدأ يكتب كتاب « الأمير » •

فكرة الوحدة الايطالية

وكانت الفكرة الكامنة وراء هذه المؤلفات جميعها ، هى العمل على توحيد الولايات الايطالية المختلفة تحت زعامة أمير واحد يكون له جيش وطنى قوى يستطيع به ان يطهر شبه الجزيرة الايطالية من الطغيان الأجنبى • وفكرة الوحدة الايطالية هى الفكرة التى كانت غالبة عليه مالئة نفسه ، وقد تعلق قبله دانتى بهذه الفكرة ، ورأى أن الوسيلة الوحيدة لضم الولايات الايطالية فى وحدة شاملة ، هى اعادة بناء الدولة الرومانية واستدعاء هنرى الألمانى للجلوس على عرشها •

ولكن ميكافيلى كان ينفر من فكرة اقامة أمير أجنبى على العرش الايطالى ، وكان يرى أن يقوم بهذه المهمة الضخمة أمير ايطالى له من الشجاعة والاقدام وسعة الحيلة والدهاء ، ما يمكنه من تذليل الصعاب ، والتغلب على العقبات المعترضة • وكان مثله الأعلى فى بادىء الأمر « شيزارى بورجيا » ابن البابا اسكندر السادس • ومع ما عرف عن هذا الرجل من قسوة بالغة ، وما ارتكب من جرائم منكرة ، فان ميكافيلى

كان يرى أنه وحده الأمير الذى جمع بين الجـرأة الحربيـة والبراعة السياسية ٠

وعند ميـكافيلى ان العمل عـلى تحرير بلاده وتحقيق استقلالها يبرر أشياء كثيرة ٠ ومن أقواله فى ذلك : « حينما تكون سلامة البلاد متوقفة على القرار الذى يتخـذ ، فانه يجب ألا يكون هناك مكان لاعتبارات التفريق بين العـدالة وغير العدالة ، والانسانية والقسوة ، والمجد والعار ٠ ومتى أبعدنا جميع الاعتبارات الأخـرى تصبح المسـألة المفـردة الباقية هى : ما الطريق الذى يمكن أن ننقذ بسلوكه حيـاة البلاد وحريتها ؟ » ٠

كان تحقيق الوحـدة الايطاليـة فى رأى ميكافيلى من المطالب العظيمة التى تستباح من أجلها كل وسيلة ، وكانت العقبات القائمة فى سبيل تلك الوحدة كثيرة ٠٠ فهنـاك امارات تتوارث حكمها أسر أرستقراطية ٠ وولايات تحـكم حكما ديمقراطيا ، وولايات بعضها يتبع النظام الاقطاعى، وبعضها يسيطر عليه الأجانب ٠

وكانت الأسر الأرستقراطية تحسن الحـكم فى بعض الولايات ، وتسىء الحكم فى ولايات أخرى ٠٠ ففى ميـلانو ازدهر الفن فى عهد أسرة سـفورزا ، وفى رومانى سـاءت حالة المدن التى حكمها الأمراء ٠ ونرى من ذلك أن تحقيق الوحدة الايطالية كانت أمنية محفوفة الصعاب ، ومن أجل بلوغ تلك الأمنية كتب ميكافيلى كتاب « الأمير » وأهداه الى لورنزو مديتشى حاكم فلورنسا ٠ وكان يبدو لميكافيلى أن

لورنزو هو أجدر الأمراء الايطاليين بتحقيق الوحدة الايطالية بعد شيزارى بورجيا ٠

ولابد لنا عند النظر فى هذا الكتاب ، الذى لا يزال يثير بمحتوياته النقاش بين المفكرين والمفسرين من الرجوع الى طبيعة العصر الذى ألفه فيه ميكافيلى ٠

كانت ملوك أوروبا وأمراؤها فى القرن الخامس عشر يتبعون سياسة قاسية ، قد لفظت الرحمة ، ونبذت مبادىء الشرف ٠٠ فهى لا تعتمد على غير العنف والعدوان ، وطلب النجاح بأى ثمن ٠ وكان مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » هو المبدأ السائد ، والقاعدة المتبعة ٠ وقد سار على هذا المبدأ لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وتشبه به حلفاؤه فاتبعوا أساليبه دون أن يكون لهم نصيب من مواهبه ٠

وفى اسبانيا اتخذ الدين ستارا لاخفاء الظلم والطغيان والتعصب الذميم ٠ وفى ألمانيا كانت سياسة شارل الخامس قائمة على الخداع والغش والقسوة ، ولم يجد البابا اسكندر السادس ، ولا البابا يوليوس الثانى أن هناك تعارضا بين وظيفة الدين واقتراف أشد الجرائم نكرا وأدلها على التواء الطبع وفساد الخلق ٠

فى ذلك العصر ، عصر الجرائم والمنكرات ، كان الأمير هو الطاغية الذى يؤثر مكر الثعالب ، لأنه كانت تنقصه قوة الأسود ٠ ومقاومة أمثال هؤلاء الأمراء باتباع مبادىء الأخلاق الكريمة ، كان فى نظر ميكافيلى معناه قبول الخديعة والبوء بالهزيمة ٠ وكما أنه من الغباء والبلاهة أن يتجرد

الانسان من السلاح أمام العدو الذى يحمل السلاح ، أو الجار المتأهب لمهاجمتنا ٠٠ فكذلك من السخف ادعاؤنا القدرة على الانتصار دون أن نستعمل الوسائل التى هى مصدر قوة الآخرين ٠

والرجل الذى يريد أن يتغلب على هؤلاء الامراء ، وينتصر على البابا ـ سواء بتجريده من أملاكه او باتخاذه وسيلة من وسائله ـ لابد له أن يكون شديد البأس ، صارم العزم ، داهية فى السياسة ، قادرا على التخلق بكل الصفات الرديئة التى ساعدت الآخرين على النجاح ٠ وتحرير ايطاليا لا يتم باتباع نظرية أفلاطون ، وانما يتم باتباع وسائل الشدة والعنف ٠ وكان من الصعب أن يدعو رجل مثل ميكافيلى الى اتباع سياسة اللين والرحمة والعدالة ٠ فى العصر الذى كان الفاتيكان يبارك سياسة الغدر والقسوة ، ويمارس ذلك أمراء فلورنسا وميلانو والبندقية ٠

وقد كان ميكافيلى رجلا عمليا يريد فى جد وحماسة النهوض بايطاليا ، ولذا رأى أن يقدم للأمير الذى يتولى القيام بهذه المهمة النصائح العملية التى تكفل له تحقيقها ٠

★★★

وكتاب « الأمير » الذى أثار غضب الكثيرين ، لم يكد يلتفت اليه أحد حين ظهوره ٠ ولما كان الكتاب مهدى الى لورنزو مديتشى ، فقد وافق البابا على طبعه ٠ ولم يستنزل الفاتيكان الصواعق على الكتاب الا بعد انفصال انجلترا عن الكاثوليكية ، فقد أطلق الكاردينال بولو على هنرى ملك انجلترا اسم ميكافيلى ، مبالغة فى الحملة عليه وتشويه

سمعته • وألحق ديوان التفتيش مؤلفات ميكافيلى بقائمة الكتب المحرمة ، وأدان البابا بولس الرابع كتاب «الأمير» ، وتوالت الهجمات على الكتاب ومؤلفه ، وصنع الجزويت تمثالا مصغرا لميكافيلى وحرقوه •

وقد أخذ على ميكافيلى أنه أعطى للرجل الذى سيتولى توحيد ايطاليا فى المستقبل درسا فى الاستبداد والخيانة والخروج عن الدين • والواقع ان الأمراء الايطاليين ، فى العهد الذى ظهر فيه الكتاب ، كانوا لا يتورعون عن اتخاذ الغش والغدر والعنف وسيلة للمحافظة على كيان الدولة وكان الحال كذلك فى سائر أوروبا •

فالملك فرديناند الكاثوليكى كان من أشد رجال عصره خداعا وأقلهم وفاء بعهد ، وكان يفخر بأنه خدع لويس الثانى عشر ملك فرنسا أكثر من عشر مرات ، وأقسم قائده كونسالفو لدوق كالابرى بألا يخشى شيئا من ذهابه الى اسبانيا • فلما وصل هذا الدوق البائس الى شبه الجزيرة الاسبانية ، ألقى به فى ظلمات السجن •

وريتشارد الثالث ملك انجلترا كان أكثر رجال عصره استعمالا للسم • وقال « هالام » عن لويس الحادى عشر : « اذا لم يكن حقيقة انه هو الذى اخترع الغش ، فانه كان أقدر الناس على ممارسته » • وقد خان السويسريون لودفيكو ألمورو فى ميدان القتال •

وأمثال هذه الجرائم السياسية كثيرة فى التاريخ • ومعنى ذلك ان ميكافيلى لم يقدم درسا فى الانحراف السياسى والالتواء الخلقى ، وانما كان المؤرخ الصارم الذى أراد أن

يرسم لأميره الخطة التى يتبعها فى محاربة اعدائه . أما ميوله الخاصة بوجه عام ، فانها كانت موجهة الى التماس الخير . وهو فى الوقت الذى يحذر فيه الأمير الجديد من أخطار الثقة والمحافظة على العهد والتزام الصدق مع الخونة الأشرار ، لا يتأخر فى أن يضرب له مثل الامبراطور الرومانى العظيم «مرقص أورليوس» الذى كانت حياته مثلا يحتذى فى تحرى العدالة والانسانية والتمسك بالفضيلة ، ويقول : « مما لا شك فيه أنه جميل بالأمير أن يفى بوعده ، ويحافظ على عهده » . ولكنه يسرع فيضيف الى ذلك قوله : « يجب أن يكون الانسان خيرا اذا كان الناس جميعا خيرين . ولكن لما كانوا جميعا أشرارا ، ومستعدين على الدوام لنكث عهودهم ، فانك كذلك فى حل من الوفاء لهم » .

فميكافيلى لا يتطوع بتقديم النصائح السيئة بدافع من سوء الطبع أو الاستهانة بالأخلاق ، وانما بحافز من الضرورة ، لأنه يقول : « على الأمير ألا يترك عمل الخير اذا استطاع أن يتجنب ذلك » . وهناك بعض المذاهب الفكرية التى تفرق بين آداب الفرد وآداب الدولة . فالفرد عليه أن يضحى بكل شىء من أجل المحافظة على الفضيلة ، أما الدولة فانها تضحى بكل شىء ـ حتى بالفضيلة نفسها ـ من أجل المحافظة على كيانها .. فحينما يتعرض المجتمع للأخطار الشديدة ، فإنه يجب انقاذه بأى ثمن ، كما أن انقاذ السفينة المشرفة على الغرق قد يستلزم القاء ما بها من الخيرات فى البحر ، والتخلص من بعض ركابها اذا لم يكن هناك مندوحة عن ذلك . وقديما قال الحكماء ان الغرض الأسمى والقانون الأعلى ، هو سلامة المجتمع .

محتـــوى الكتـــاب

وصف لنا ميكافيلى حياته حينما بدأ يكتب كتابه الذائع الصيت بقوله : «حينما يقبل المساء أعود الى دارى واذهب الى غرفة المطالعة ، وقبل دخولها أخلع ملابسى الخشـنة الملطخة بالوحل التى البسها فى الريف، وارتدى أحسن ثيابى، وهكذا بعد أن أكتسى بالكساء اللائق أدلف الى جماعة الرجال الذين عاشوا فى غابر الزمان ، واغتذى بعد ترحيبهم بى من ذلك الغذاء الذى يمدنى بالقوة ويعيد الى النشـاط والذى أنا مدين له بكيانى ، واجترىء على التحدث معهم وأوجه اليهـم الأسئلة عن أسباب ما قاموا به من الأعمال . وهم يترفقون بى ويتفضلون بالاجابة عما أوجه اليهم من الأسئلة فيزول عنى الشقاء وأنسى آلامى جميعا وأصير غير خائف من الفقر أو الموت ، وأنسى فيهم نفسى ، وقد قال دانتى «المعرفة مكونة مما سمعه الانسان » ولذلك قد دونت كل ما أعجبت به فى حديثهم ، ومن هذه المذكرات ألفت كتيبا وهو كتاب «الأمير» درست فيه الموضوع جميعه بأقصى ما أسـتطيع من العناية والاتقان » .

وهـكذا كان يهرب ميكافيـلى من عالم الواقع الى عالم الفكر والخيال ، وربما لا نستطيع أن نقدر كتابه التقـدير الوافى اذا لم نقدر الحالة النفسية التى كان يعانيها وهـو يكتبه ، فقد كتبه وهو يقاسى الفقر والحرمان من غرفتـه الصغيرة فى سان كاستشيان سـنة ١٥١٣ وقد كان بمثـابة الوزير المخلص للجمهورية الناجح فى عمله المتحمس للجيش الذى دربه للدفاع عنها ولكنه فى ظروفه منفى شريد أطلق

سراحه من السجن ولا تزال يداه منتفختين من أثر التعذيب، وقد فقد مكانته وعمله وماله وليس عنده ما يكفي زوجتـه وأولاده ، وفي مختلف الحالات التي عرضت له كان تفكيره يتجه دائما الى السياسة ونظم الحكم. ومن أقواله عن نفسه : « لقد تعودت أن أفكر في الحكومة ونظام الدولة ، ولما كنت لا أستطيع الكلام عن صناعة الحرير أو الصوف أو الخسارة والربح لذلك قضى الحظ أن أستمتع ببحث فن الحكم » . وتفسر لنا التجارب المرة التي مر بها ما يتخلل بعض عبارات الكتاب من احتقار للبشر وسوء ظن بالطبيعة الانسانية . على أن كتاب الأمير لا يمثل آراء ميكافيلي السياسية تمثيـلا كاملا، فقد بسط آراءه السياسية بطريقة أكثر اعتدالا وأتم استيفاء في كتاب « المطارحات » وفي رسائله ، ولكن ربما كان من أسباب اشتهار كتاب الأمير أنه كتبه وهـو يعـاني الأزمات النفسية وقد امتلأت نفسه مرارة وألما ، فجاء خلاصة موجزة شديدة التركيز لتجاربه السياسية وتفـكيره العميق في نظم الحكم ؛ مما جعل الكتـاب مرجعـا للملوك والأمراء والحكام والسياسيين في مختلف الأمم .

★★★

وهذا الكتاب الموجز مكون من سـتة وعشرين فصـلا ، وفرط ايجازه جعل ميكافيلي لا يلجأ فيـه الى الاسـتطرادات والتكرار الذي يملأ صفحات كتاب « المطارحات » ، والأمير الذي يصفه لنا ميكافيلي في كتابه أمير ايطالي في جـوهره ولكنه يحمل سمات أمراء عصر الاحياء ، وهو طاغية حاكم بأمره ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك اذا صمم على أن ينجح

فى تحقيق الوحدة وتسليح بلاده وتحريرها من سلطة الأجنبى ، واذا نجح فى تسليح قومه وطرد الأجنبى فانه سيشرع بعد ذلك فى سن القوانين الصالحة ويعمل على بقاء نظامه وحمايته بأنه يكل الى الشعب الدفاع عنه ٠

وهو يستهل الفصل الاول بقوله : « كل الدول والأملاك التى عاش الناس تحت سلطتها فى الماضى وفى العصر الحاضر كانت اما جمهوريات واما امارات ، والامارات اما وراثية وأسرة الأمير قد استقرت طويلا فى الحكم أو انها امارات حديثة العهد ، والامارات الحديثة العهد اما انها جديدة كل الجدة مثل امارة أسرة فرانشيسكو سفورزا فى ميلان واما انها قد أضيفت الى الدولة التى ورثها الأمير مثل مملكة نابولى فى علاقتها بملك اسبانيا ، وأمثال هذه الأملاك المضافة اما انها كانت قبل ذلك قد ألفت أن يحكمها أمير آخر أو انها كانت ولاية حرة ، والأمير اما أن يضمها الى أملاكه بقوة سلاح الغير واما بقوة سلاحه أو بالحظ أو بالشجاعة » ٠

ويشير فى الفصل الثانى الى انه سيقصر الكلام على الامارات لأنه أطال الكلام على الجمهوريات فى كتاب « المطارحات » ، وفى الامارات الحديثة يوجد الأمير دولة جديدة ، أو يجدد امتلاك الدولة ، والامارات التى يوجد فيها الأمير دولة جديدة هى الموضوع الرئيسى فى الكتاب لأن الصعوبات التى يواجهها الأمير فى انشاء الدولة الجديدة أكثر من الصعوبات التى يواجهها فى الامارات الموروثة ، ولذلك تستلزم الامارات الحديثة معرفة أوسع وقدرة أعظم على الحكم الصالح والادارة الحسنة ، والامارات التى ينالها الأمير بالغزو يضر غزوها بمصلحة الكثيرين ، والذين

يستفيدون من الغزو ينتظرون أن تمكنهم من فوائد أكثر من الفوائد التى ظفروا بها ٠

وحينما تكون المقاطعة التى ضمت تشبه المقاطعات التى ضمت اليها تكون الصعوبات المعترضة أقل ويكفى فى التغلب عليها الاحتفاظ بالعادات القديمة وسفك دم الأمير السابق ، ولكن حينما يكون كل شىء فى الامارات الجديدة مختلفا تكثر العقبات والمشكلات وفى هذه الحالة من اللازم للأمير أن يذهب الى الولايات الجديدة ويقيم بها ، وبهذا يستطيع أن يوطد مكانته ويستديم سلطته ، ووجود الأمير فى تلك الولايات الجديد يمكنه من أن يعالج المشكلات عند بدء ظهورها وقبل أن يستفحل خطرها ، وفضلا عن ذلك فان وجوده يحول بين رجاله وبين استغلال الولايات الجديدة وانتهابها، ويرضى ذلك جمهرة الشعب لأنه يستطيع أن يتقدم اليه مباشرة بالشكوى من أى لون من ألوان الظلم يلحقه وهذا يجعل أفراد الشعب يحبونه اذا كانوا يريدون الخير والسلامة، ويرهبونه اذا كانوا نزاعين الى الشر والعدوان ٠

ويستطرد ميكافيلى ليقول ان الناس اما أن نتملقهم ونسترضيهم أو نستذلهم ونغلبهم على أمرهم ، وذلك لأنهم يستطيعون أن ينتقموا للأضرار التافهة التى تصيبهم ولكنهم يعجزون عن الانتقام لأنفسهم ممن ينزل بهم الأضرار الجسيمة ، ولذلك على الأمير أن يكون من هذا النوع الذى لا يخشى معه الانتقام ، ومن ثم يحسن محاولة استمالة الجيران الضعفاء لأن هؤلاء سرعان ما يخضعون للدولة الجديدة اذا كانت قوية ، وفى الوقت نفسه من الضرورى اخضاع الجيران

الأقوياء وألا تساعد الأجانب الأقوياء أو تسمح لهم بدخول دارك ٠

ويشير ميكافيلى فى الفصل الثالث من كتابه الى حكمة الرومان فى الحكم ، وانهم كانوا لا يكتفون بمعالجة المشكلات الراهنة بل كانوا يستبقون الحوادث ويتناولون المشكلات المتوقعة ، ويذكر بهذه المناسبة أن المشكلات مثل الامراض يسهل علاجها فى بادىء أمرها ولكن يصعب تشخيصها ، فاذا اشتدت أصبح من الصعب علاجها ومن السهل تشخيصها ، والاضطرابات السياسية يمكن اخمادها سريعا اذا توقع اقتراب حدوثها ، والحاكم البعيد النظر هو الذى يدرك ذلك ٠

ويستطرد ميكافيلى قائلا : « وقد أظهر سير الحوادث فى ايطاليا أن فرنسا هى التى عملت على تقوية مكانة البابوية فى ايطاليا ووطدت أقدام الاسبانيين بها ، وكان ذلك سببا لتدمير جيشها وهزيمتها ، ويمكن أن نستخلص من ذلك قاعدة عامة لا تخطىء الا نادرا ، وهى أن الذى تقع عليه تبعة قوية انما يسعى الى حتفه بظلفه ، وذلك لأن هذه القوة اما أن تكون مستمدة من الدهاء والحيلة أو آتية من الشدة والعنف ، والمكر والعنف كلاهما يثير اشتباه الذى أصبح قويا » ٠

★★★

وفى الفصل الخاص بكيفية حكم الأقسام الادارية يقدم ميكافيلى ثلاث طرق يمكن بها السيطرة على دويلة اعتادت أن تعيش بحسب قوانينها وفى حرية ، الأولى هى تخريبها وازالة معالمها والطريقة الثانية أن يذهب الأمير ويقيم بها ،

والطريقة الثالثة أن يبقى لها قوانينهـا ويكتفى بتحصـيل الجزية المضروبة عليها ويؤيد طائفة من الأشراف تدين له بالولاء ، ويؤيد ميـكافيلى وجهـة نظـره بامثله من التاريخ القديم ، ويقول فى صراحة ووحشية : « الذى يصبح سيدا لمدينـة قد تعـودت الحـرية ولا يدمرها عليـه ان ينتظـر تدميرها له » ٠

كيميـة حـكم الدولة

وفى الفصـل السـادس ينتقل بنـا ميكافيلى الى صميم موضوع كتابه ، وهو كيف يحـكم الأمـير الجـديد الدولة الجديدة ، وحكم مثل هذه الدول فى رأيه متوقف على مزايا الأمير ومواهبه قبل كل شىء ، والأمير الذى يعتمد على براعته وقدرته يستطيع أن يكون أكثر اطمئنانا الى مكانته من الأمير الذى يعتمد على الحظ الحسن ، وان كانت مواتاة الحظ لازمة له لزوم المواهب والمزايا ولكن كلما كان اعتماده على قدرته وكفايته أكثر من اعتماده عـلى اسـعاف الحظ كان مركـزه أثبت ٠

ويسـتطرد ميـكافيلى قائلا : « الرجال الذين أصبحوا أمراء باقدامهم وشـجاعتهم يحصـلون عـلى الدويلات التى يحكمونها بصعوبة ، ولكنهم يجدون سـهولة فى الاحتفـاظ بها ، وذلك لأن الصعوبات التى تواجههم فى الحصول عـلى الامارات ينشأ جانب منها من جراء النظم الجديدة والقوانين التى يضطرون الى ادخالها والأخذ بهـا فى انشـاء الدولة وتوطيد مكانتهم » ٠ والنظم الجـديدة تثير العداء من جانب

الذين كانوا يعيشون فى ظل النظم القديمة ، والذين تتحسن أحوالهم فى ظل النظم الجديدة يتلقونها أول الأمر فى شىء من التردد والتهاون ، وذلك لأنهم من ناحية يخشون أنصار النظام القديم ومن ناحية أخرى لأن البشر بطبيعتهم ضعاف الايمان ولا يسرعون الى تصديق الأشياء الجديدة الا بعد أن يختبروها ، ونتيجة لذلك نرى الذين يقاومون التغيير يهاجمونه فى عنف ، فى حين أن المدافعين عن النظم الجديدة ينقص دفاعهم فى العادة التحمس والايمان ، وهذا يجعل موقف المجدد وأنصاره مستهدفا للخطر ، ويفرق ميكافيلى بين المصلح المجدد الذى يقف مفردا أو المصلح المجدد الذى يستند الى قوة تحميه ؛ أى بين هؤلاء الذين يحاولون أن يحملوا الناس على الأخذ بآرائهم عن طريق الاقناع والذين يحملون حملا على اعتناق آرائهم بطريق الارغام والعنف ، وعنده أن الأولين يخفقون وتنتهى حياتهم بمأساة فى حين أن الآخرين ينتصرون • وجمهرة الشعب بطبيعتها متقلبة الأهواء ومن السهل اقناعها ولكن من الصعب استمساك الناس بالاقتناع ، ولذلك على المصلح أن يحسب ذلك التقلب ، وأن يكون له من القوة ما يرغمهم به على ما سبق أن اقتنعوا به اذا انحرفوا عن ذلك الاقتناع •

وفى فصل آخر من الكتاب يتحدث ميكافيلى عن الولايات التى تكتسب عن طريق الخطأ أو بمساعدة جيوش أجنبية ، وهو يرى أن الذين يصبحون أمراء من عامة الشعب عن طريق الحظ لا يبذلون من جانبهم سوى القليل من الجهد ولكنهم لا يستطيعون المحافظة على مكانتهم الا ببذل مجهود ضخم ، واذا لم يكونوا على جانب كبير من الشجاعة وسداد

الرأى ، فسرعان ما يفقدون ما جاد به عليهم الحظ الحسن ، ويضرب ميكافيلى مثلين لمن يصبح أميرا عن طريق الشجاعة أو طريق الحظ ، وهما فرانشيسكو سفورزا وشيزارى بورجيا وكانا معاصرين له ، وقد اعتمد الأول على شجاعته واستطاع أن يرتفع من مستوى المواطن العادى الى مرتبة دوقية ميلان وقد بذل فى الحصول عليها جهدا عظيما ولم يجد بعد ذلك صعوبة فى الاحتفاظ بها ، أما شيزارى بورجيا دوق فالنتنوا فقد ظفر بالامارة بمعاونة أبيه البابا اسكندر ، وفقد الولاية التى أمر عليها بعد وفاة أبيه وذلك برغم ما بذل من جهد فى سبيل تثبيت قواعد دولته .

ويمضى ميكافيلى فى الحديث بعد ذلك عن الأمراء الذين وصلوا الى الامارة لا عن طريق الحظ الحسن وانما بارتكاب الجرائم وكأن شيزارى بورجيا لم يكن كافيا ! ويقدم لذلك مثلين ليحتذيهما من يجد نفسه فى ظروف مقتضى اتخاذ هذه الوسائل المستنكرة ، الأول أجاثوكل الصقلى الذى أصبح بمهارته الحربية سيد سرقوسة رغم أصله ، فقد سعى فى أول أمره الى مصادقة القرطاجنيين ثم جمع بعد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وأمر عساكره بقتل أعضاء مجلس الشيوخ وزعماء الشعب ، ونجح بعد ذلك فى الاستيلاء على الحكم دون أن يلقى معارضة ، واستطاع بعد ذلك مهاجمة قرطاجنة واحراجها حتى اضطر القرطاجنيون الى الانسحاب من صقلية ، ويشعر ميكافيلى بأن ذكر هذا المثل قد يبعث القارىء على أن يظن انه يحبذ هذا الغدر تحبيذا تاما فيستدرك قائلا : « لا يمكن أن تعد من الشجاعة أن يقتل الانسان زملاءه المواطنين ويخون أصدقاءه وأن يكون غادرا مجردا

من الرحمة خارجا على الدين ، فان هذا قد يكسب الأمير قوة ولكنه لا يضفى عليه المجد ، ويستطيع الانسان أن يلفت النظر الى شجاعة أجاثوكل فى مواجهة الأخطار والتغلب عليها ويبدو أنه لا يقل منزلة عن كبار القادة المتفوقين ولكن برغم ذلك فان قسوته الوحشية وتجرده من الانسانية وجرائمه التى لا تعد تمنع من الحاقه بركب الرجال العظماء الأعلياء » ٠

والمثل الثانى الذى يقدمه ميكافيلى هو أوليفرتو الفيروماري فقد نشأ يتيما وكفله خاله جيوفانى ، وأرسله ليعمل جنديا تحت اشراف باولوفينلى ليتدرب على القيادة . ولما كان ذكيا جرىء الجنان صار قائدا بارعا ، ولكنه وجد أنه مما يزرى به أن يتلقى الأوامر من غيره من الناس ، ولذلك صمم على الاستيلاء على فيرمو وكتب رسالة الى خاله يخبره فيها انه يريد أن يدخل المدينة فى موكب حافل تحف به الفرسان ليرى الشعب فخامة أمره وقوة جيشه ، وتلقاه خاله بالترحيب والاكبار وأنزله فى قصره ، وأعد أوليفرتو عدته ونظم مؤامرته ، ودعا خاله وأعيان فيرمو الى وليمة حافلة ، وأمر بقتلهم جميعا ، وركب فى أعقاب ذلك جواده ليمر فى أنحاء المدينة التى أصبحت خاضعة له ، ولولا أن الدوق فالنتينوا قتله بعد ذلك لكان من الصعب زحزحته عن مكانته ٠

ويتساءل ميكافيلى بعد ذلك كيف ظل اجاثوكل فى أمن وسلام بعد ارتكاب هذه الجرائم واقتراف هذه الآثام ؟ وذلك فى حين أن الكثيرين من الطغاة الأشرار كانت نهايتهم

سيئة ، ويجيب عن هـذا التساؤل بأن الأمر يتـوقف عـلى الطريقة التى ارتكبت بها الفظاعات وهـل تمت بطريقـة بارعة أو بطريقة معيبة ؟ ويمكن أن يقال ان الجرائم التى اقترفت بطريقـة بارعة هى التى كان سببها الرغبـة فى توطيد المكانة ودفع الأذى والتى يتوقف عليها نجاة الانسان، والقسوة التى يساء استعمالها هى التى يندر استعمالها فى بادىء الأمر ، ولكن بمرور الزمن تصبح بدلا من أن تختفى أكثر ظهورا ، وذلك على الأمير الذى يستولى عـلى دولة أن يقرر الأضرار التى سـيوقعها بهـا ، ويصـبها عليها مرة واحدة ، ولا يجدد الحاق الأضرار بهـا كل يـوم ، وبهـذه الطريقة يستطيع أن يبعث الطمأنينـة فى نفـوس النـاس ويجتذبهم الى صفه حينما يجود عليهم بما ينفعهم ، والذى يخالف ذلك بباعث الخوف أو النصيحة السيئة سيضطر الى أن يحمل السلاح دائما ، ولا يستطيع أن يعتمد عـلى رعيته ، لأن الأذى الذى لا ينقطع عنهم يجعلهم لا يأمنون جانبـه ، والأذى الذى يحيق بهم مرة واحدة سرعان ما ينسى طعمه ، والنعم المغدقة يحسن أن تمنح بالتدريج ، ومن ثم تكون ألذ طعما وأجمل وقعا .

وينتقـل بعـد ذلك ميـكافيلى الى الحـديث عن الامارة الدستورية ، ويقول انها يجب أن تقوم على مساندة الشعب الذى بدونه لا يمكن أن تكون الحكومة ثابتة القواعد ، ومن أشد الأمور خطرا ترك حـكومة الدولة للأعيـان ، وهم اذ عجزوا عن مقاومة الشعب عملوا على تقوية مكانة واحـد منهم ونصبوه أميرا لـكى يحققوا أهـدافهم عن طريقـه ، والأمير الذى يصل الى الامارة عن طريق الأعيان يجد صعوبة

فى المحافظة على مكانته أكثر من الأمير الذى يصل الى الامارة مؤيدا من الشعب ، وارضاء الأعيان واشباع رغباتهم يضران بمصلحة الشعب ، والأعيان يريدون أن يقهروا أما الشعب فانه لا يريد سوى رفع الظلم عن كاهله ، والأمير لا يستطيع اغضاب عامة الشعب لكثرة عدده ، أما الأعيان فأمرهم هين لأن عددهم قليل ، والأمير الذى وصل الى الامارة عن طريق الشعب لا يجد صعوبة فى استدامة رضائه لأن الشعب لا يريد سوى العدالة ، أما الأمير الذى يصل الى الامارة بمعاونة الأعيان فعليه أن يعمل على اكتساب ثقة الشعب وهو أمر ميسور سهل اذا بسط على الشعب حمايته ٠

★★★

وفى الفصل الخاص بالامارات الدينية يقول ميكافيلى ، ان أمثال هذه الامارات تنال بالشجاعة أو بالحظ ولكن يمكن المحافظة عليها بغير الشجاعة لأنها فى كفالة النظم الدينية ، وهذه النظم الدينية من القوة والثبات بحيث تحمى الحكومة سواء أساء الأمير الحكم أو أحسن ، والأمراء الدينيون وحدهم هم الذين يملكون امارات ولا يحمونها ، ولهم رعايا ولكنهم لا يحكمون هؤلاء الرعايا ، ولما كانت اماراتهم غير محمية فانها لا تؤخذ منهم ٠ وما دامت رعاياهم بدون حكومة فهم لا يفكرون فى احداث انقلاب ، ولذلك فان هذه الامارات وحدها هى السعيدة الآمنة ٠ ولما كان الله هو حامى هذه الامارات فمن الحماقة والادعاء الافاضة فى الحديث عنها ٠

★★★

ويوقف ميكافيلى ثلاثة فصول من كتابه على الحديث عن مسألة تكوين الجيش اللازم للأمير ، ولهذه المسألة أهمية كبيرة عند ميكافيلى ، لأنه كان لا يفتأ يردد أن الجيوش القوية تدل على وجود القوانين الصالحة ، وحيث لا توجد الجيوش لا يكون هناك قوانين ، والجيوش اما أن تكون مكونة من جنود مرتزقة أو جنود مساعدة أو جنود مختلطة ، والجنود المرتزقة والجنود المساعدة لا فائدة منها وهى مصدر خطر ، والأمير الذى يعتمد على الجنود المرتزقة فى الدفاع عن امارته لا تحظى امارته بالاستقرار ولا بالأمن ؛ لأن الجنود المرتزقة غير متحدة ولا منظمة ولهم مطامع ولا يؤمن جانبهم وهم شجعان أمام الأصدقاء وجبناء أمام الأعداء ، ويطيل ميكافيلى فى وصفه تعديد صفاتهم وتشريح عيوبهم اطالة العارف بأحوالهم ، ويدلل على صحة رأيه بأمثلة كثيرة مستمدة من التاريخ القديم والتاريخ الحديث الذى عاصره .

صفات الأمير

ولكن ، ما الصفات التى يحسن أن يتحلى بها الأمير والصفات التى تعاب عليه ؟ وهذا الموضوع من الموضوعات الخطيرة التى تناولها ميكافيلى فى الفصل الخامس عشر من كتابه ، وكثير من كتاب القرن السادس عشر كانوا يرون أن الأمير يجب أن تتوافر فيه الفضائل جميعها ، وأن يكون مثلا أعلى فى التدين والتواضع والكرم والعدالة ، ولكن ميكافيلى ينظر الى المسألة من زاوية أخرى ، وهو يقول : « هناك فرق كبير بين كيفية معيشتنا وبين كيف كان يجب أن نعيش، وان

الذى يترك ما هو واقع فعلا من أجل ما كان يجب أن يقع سيجلب لنفسه الخراب ، والواقع أن الذى يريد أن يتبع الفضيلة فى كل سبيل سيجر على نفسه الكوارث اذا كان بين الكثيرين من المجردين من الفضيلة ، ولذلك اذا أراد الأمير أن يحافظ على مكانته فان عليه أن يتعلم كيف يعرض عن الفضيلة وكيف يكون خيرا حسب الحاجة » ويستطرد ميكافيلى قائلا : « انى أعلم أن كل انسان يوافق على أن من أجدر المسائل بالمدح أن تجتمع الصفات الطيبة جميعها فى الأمير ، ولكن ما دامت الطبيعة الانسانية على ما هى عليه فانه لا يمكن أن تتوافر هذه الصفات فى الأمير ، أو بالأحرى لا يستطيع الأمير أن يظهرها جميعها ٠٠ وعلى الأمير ألا يخشى اللوم على الرذائل اللازمة للمحافظة على الدولة ، وذلك لأنه اذا راعى جميع الاعتبارات فسيجد أن بعض الأشياء التى تبدو فضائل ستكون « قاضية عليه اذا مارسها وبعض الأشياء التى تبدو شريرة ستجلب له الأمن والرخاء » ٠

ويحسن أن نلاحظ هنا أن ميكافيلى لا يشغل باله فى كتابه بأخلاق الأمير الخاصة وسيرته الشخصية ، وانما يتناول أخلاق الأمير باعتباره ممثلا للدولة ورأسا لها ، والمقصود بالخراب الذى يصيب الأمير هنا خراب الدولة ذاتها فهو يفصل الأخلاق الخاصة عن الأخلاق العامة فصلا تاما ، وقد جرت عادة الشعراء أن يشيدوا بكرم الأمراء، ولكن ميكافيلى يخالفهم فى ذلك وعنده أن صفة الكرم فى الأمير غير جديرة بالمدح ، لأنه ينفق أموال غيره ولذلك يؤثر البخل فى الأمراء ، ولا يجمل عنده بالأمير أن يكون كريما الا فى توزيع أسلاب الحرب ٠ ولكن أيهما أجدى على الأمير أن

يوصف بالرحمة أم بالقسوة والوحشية ، وأن يكون محبوبا أم مكروها ؟ وبوجه عام خير للأمير أن يوصف بالرحمة ولكنه يجب عليه ألا يسيء استعمالها • ومن الخير أن يحب الانسان ويخشى بأسه فى الوقت نفسه ، ولكن لما كان هذا من المستحيل فالأفضل أن تكون مرهوب الجانب ، وقد يخشى بأس الأمير دون أن يكون مكروها ويرى ميكافيلى أن الخوف من الأمير لا يستلزم كراهيته ، على أن ميكافيلى يرى أن الأخلق بالأمير أن يكون مخشى السطوة لا محبوبا ، ولكن لم هذا ؟ ان ميكافيلى يرد علينا قائلا : « تستطيع أن تزعم بوجه عام عن البشر أنهم ناكرون للجميل وانهم متقلبون وكذابون وغاشون وأنهم يتحاشون ركوب الأخطار ويطمعون فى الكسب ، ما دمت تحسن معاملتهم فانهم فى صفك ومن شيعتك ويسفكون دماءهم من أجلك ويعرضون أملاكهم وحياتهم وأولادهم للخطر ما دام الخطر بعيدا ولكن حينما يحدق بك الخطر يقلبون لك ظهر المجن ويتنكرون لك ، والأمير الذى يكتفى بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيطة يبوء بالخيبة ، والناس لا تبالى بالاساءة الى الأمير الذى يجعل نفسه محبوبا ولكنهم يحذرون أن يمسوا بسوء الأمير الذى يخشون بأسه » ، ولا ينسى ميكافيلى أن ينصح للأمير بعدم التعرض لنساء رعيته وما يملكون ، وحينما يقود الأمير جيشه فعليه ألا يعبأ بالاشتهار بالقسوة لأنه بدون هذه الشهرة لا يستطيع المحافظة على النظام فى جيشه ، ويشيد ميكافيلى بقسوة هانيبال فى هذا الصدد ، كما يأخذ على القائد الرومانى سيبيو الأفريقى ضعفه فى هذه الناحية •

نصـــائح قاســـية !

والفصل الثامن عشر من كتاب الأمير أحد فصوله البالغة الأهمية وهو الفصل الخاص بكيفية محافظة الأمير على وعده أو نكث عهده ، وطالما كان هذا الفصل دريئة للهجوم عـلى ميكافيلى ونقد مذهبه ، ويقـول ميـكافيلى : « يعرف جميع الناس أن المحافظة على العهد من الأمور الجديرة بالثناء ولكن مع ذلك ، فان التجربة أثبتت فى عصرنا أن الأمراء الذين قاموا بأعمال عظيمة لم يعبأوا فتيلا بالمحافظة على وعودهم وعرفوا كيف يحيرون عقول الناس بالمكر والدهاء ونجحوا فى النهاية نجاحا لم يظفر بمثله الأمراء الذين اتبعوا الشرف والأمانة • ويمضى ميكافيلى فى تقديم النصـائح القاسـية قائلا :

« عليك أن تفهم أن هناك طريقتين للحرب ، وهما اتباع القانون أو استعمال القوة ، والطريقة الأولى طريقةالانسان والطريقة الثانية طريقة الوحوش ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى فى الأعم الأغلب تثبت أنها غير كافية فعلى الانسان أن يلتزم الطريقة الثانية ، وبناء على ذلك يجب أن يعرف الأمير كيف يجيد أن يكون وحشا وأن يكون انسانا، وقد علم الكتاب القدماء الأمراء ذلك بطريق المجاز حينما وصفوا لهم كيف أرسل اشـيل وكثيرون غـيره من الأمراء الى شـيرون ليتولى تنشئتهم وهو مخلوق نصفه انسان ونصفه حيوان ، ومعنى هذا المجاز أن الأمير عليه أن يعمل بموجب الطبيعتين وأن لا بقاء له ان لم يفعل ذلك » •

وعلى الأمير أن يتعلم من الثعلب ومن الأسد ، لأن الأسد لا حيلة له مع الشباك التى تنصب لاصطياده كما أن الثعلب لا يستطيع مقاومة الذئاب ، ولذلك يحسن بل يجب فى راى ميكافيلى أن يكون الانسان ثعلبا ليعرف الشباك وان يكون فى الوقت نفسه أسدا ليخيف الذئاب ، والذين يسلكون على الدوام مسلك الأسود أغبياء ، ولذلك يوصى ميكافيلى الأمير بألا يحترم وعده ولا يفى بعهده اذا كان ذلك يعرضه للخطر، ولو كان الناس جميعهم أخيارا لكان من الخطأ اتباع هذه النصيحة ، ولكن الناس أشرار مناكيد لا يفون لك بعهدهم فلست فى حاجة الى المحافظة على عهودهم ، ويوصى ميكافيلى الأمير مع ذلك بألا يكون صريحا فى ذلك فيقول :

« على الانسان أن يعرف كيف يضفى الألوان على اعماله وأن يكون بارعاً فى الكذب والغش » • ويضرب مثلا لذلك البابا اسكندر بورجيا معاصره الذى كان يجد على الدوام فريسة لكذبه وغشه •

وليس هذا كل ما فى الأمر ، فانه ليس من اللازم للأمير أن يكون متصفا بكل الصفات الحسنة ولكن من ألزم ما يلزم له أن يتظاهر بالتحلى بها ، ويقول ميكافيلى : « انى أجترىء على القول بأنه مما يضر بالأمير أن يتصف بهذه الصفات (الحسنة) وأن يعمل بموجبها فى حين انه من النافع له أن يبدو متحليا بها » أى يبدو مثلا رحيما صادقا متدينا على أن يضع نصب عينيه التخلى عن هذه الصفات حينما يستوجب الأمر العمل بنقيضها ، والأمير الجديد بوجه خاص لا يستطيع ممارسة هذه الفضائل لأنه فى سبيل المحافظة على الدولة

مضطر الى أن يأتم فى حق الانسانية والدين والفضيلة ، ولذلك من الملائم أن يكون عقله قلبا وان يراقب مهاب الرياح ويعرف كما يقولون من أين تؤكل الكتف » ٠

ولا نزاع فى ان هذه النصائح والتعاليم التى يهديها ميكافيلى لأميره فظيعة مستنكرة ولكنها فى الواقع تأكيد لكل ما لاحظه من تجاريبه السياسية ومخالطته للأمراء والملوك فى عصره ، وهى لا تخرج عن تكرير القول فيما يردده على الدوام رجال السياسة وهو انهم لا يستطيعون أن يقولوا الحق وأن عليهم أن يخفوا ما فى نفوسهم وما ينتوون عمله واذا لم يسلكوا هذا المسلك عرضوا أنفسهم ودولتهم واحزابهم للخطر الشديد ، والأحوال السياسية التى كانت سائدة فى عصر ميكافيلى وما تزال سائدة الى اليوم فى معظم أنحاء العالم تستوجب ما قاله ميكافيلى ، وليس السياسى رجلا فردا يخاطب رجلا فردا مثله وانما هو مجموعة أفراد ممثلة فى انسان فكلماته تختلف قيمتها وأهدافها وتأثيرها عن كلمات غيره من الناس العاديين ، ولا نزاع فى أن هناك سياسة أمينة صادقة وسياسة خائنة غادرة ولكن الذى شغل ميكافيلى فى كتاب الأمير هو « فن السياسة » الذى استأثر بالكثير من تفكيره واطلاعه وبخاصة فى التاريخ ، وقد استخلص من تفكيره وتجاريبه أن واجب الأمير الأسمى هو المحافظة على كيان الدولة وأن الوسائل المؤدية الى ذلك جميعها مشروعة ومباحة ٠

ويرى ميكافيلى فى الفصل التاسع عشر من كتابه أن خير ما يقى الأمير شر المؤامرات هو تجنب اغضاب شعبه ، وذلك

لأن المتآمرين عليه يظنون دائما انهم بقتله يرضون الناس ، فاذا قدروا أن قتله يثير نقمة الشعب أحجموا عن ذلك ، والأمير الذى ظفر بحب شعبه وثقته به يستطيع أن يأمن خطر التآمر عليه ، ولكن اذا كان الشعب ناقما على الأمير كارها له فانه سيخاف كل انسان ويخشى كل شيء ، وفى الدول الحسنة التنظيم كان الامراء العقلاء يتحرون استرضاء الأشراف واستمالة الشعب ٠

★★★

وفى الفصل العشرين يتحدث ميكافيلى عن بناء الحصون وهو يقر سياسة اقامة الحصون فى وجه المغير على البلاد ولكنه مع ذلك يرى أن الأمير الذى يخشى شعبه هو الذى يحرص على بناء الحصون ، أما الأمير الذى يخشى الهجوم على بلاده من الخارج فانه لا يعنى بها ، وخير حصن للأمير هو تجنب كراهة الشعب ٠

وفى الفصل الحادى والعشرين يوجه ميكافيلى التفاتة نادرة فى كتابه الى عامل آخر من عوامل المجتمع الانسانى غير الحرب والسياسة ، وذلك حيث يوصى الأمير بتقدير المواهب وتشجيع الأكفاء وتكريم مهرة الصناع وتشجيع المواطنين لتمكينهم من متابعة أعمالهم سواء كانت تجارية أو صناعية أو غير ذلك من المهن ، وألا يثقل كاهلهم بالضرائب، وأن يعنى بالترفيه عن الشعب باقامة الحفلات والمعارض ٠

وفى الفصل التالى يتناول ميكافيلى مشكلة اختيار الوزراء والمساعدين وعمال الادارة وفى هذا الاختيار تتجلى

حكمة الأمير ، ويقول ميكافيلى ان من الناس من يستطيعون فهم الأشياء بضوء ذكائهم وهؤلاء لا يحتاجون الى من يتولى تبصيرهم بحقائق الأمور ، ومنهم من لا يستطيعون أن يفهموا الاشياء بأنفسهم ولا بمساعدة الغير وهؤلاء غير الموفقين ، وهناك فريق ثالث وهم هؤلاء الذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم فى فهم الأشياء ولكنهم يستطيعون أن يقدروا ما فى آراء الغير من الصواب • والأمراء من هذا الطراز يحسنون من ناحية مراقبة وزرائهم ومن ناحية أخرى يفيدون من نصائحهم ، وعلى الأمير أن يكرم الوزير اذا أخلص فى خدمته وتحرى مصلحته ، واذا أحسنت العلاقة بين الأمير ووزرائه عاد ذلك بالخير الكثير على الدولة ، ويوصى ميكافيلى الأمير بابعاد المتملقين وأن يختار حاشية من العقلاء الذين يصدقونه القول ويمحصونه النصح ، على أن يزن آراءهم بميزان تفكيره الخاص ويأخذ بما يراه أقرب الى الرجحان والأصالة •

★★★

وقد استطاع ميكافيلى أن يبسط آراءه السياسية فى صورة واضحة محددة لتمثلها فى شخصية الحاكم المصلح والأمير الذى يحدد حياة الدولة ، وقد أوحت الى ميكافيلى صورة هذا الأمير الأمثلة التى لحظها فى التاريخ القديم مثل موماالاس وليكارجاس وصولون والأمثلة الحية التى رآها فى عصره مثل فرانشيسكو سفورزا وشيزارى بورجيا بوجه خاص وفرديناند الكاثوليكى •

وبعد ٠٠ فانه علينا أن نراعى ، عند تقدير كتاب « الأمير » انه مهدى لأمير من أسرة المديتشى ٠ وقد حرص ميكافيلى فى هذا الكتاب على اثبات بعد النظر السياسى لتلك الأسرة ، وتقديره للتقاليد التى قامت عليها سياستها، وكيف تحافظ على قوتها وتستبقى نفوذها ٠ وربما يكون هذا الاعتبار قد ساقه الى التورط فى بعض المبالغات ، ولكننا خلقاء مع ذلك أن نلمح فى ثنايا سطور الكتاب سوء اعتقاد الرجل فى الطبيعة الانسانية ، وعدم ايمانه بفكرة التقدم ٠٠ فالتاريخ فى نظره ميدان تلعب فيه المصادفات والحظوظ، وليست هناك قوانين محتومة مسيطرة عليه ، فاذا أردت النجاح فساير الظروف ، واختر البر والرحمة اذا شممت فيهما النجاح ، والعب دور الأسد أو دور الثعلب بحسب مقتضيات الأحوال ٠

رأى الأجيال فى الكتاب وصاحبه

أثار كتاب الأمير السخط على مؤلفه ، ولكنه أحرز اعجاب عظماء عصره ، لأنه خاطبهم باللغة التى يفهمونها ، ويدركون مغزاها ، وفيه تحذيرات نافعة لهم ومشاهدات وتجارب موحية ٠

ولا تزال آراء ميكافيلى تثير خلافات شديدة وخصومات لا تنتهى ٠٠ لأن علاقة السياسة بالأخلاق ليست بالمسألة القليلة الخطر ، والبحث فيها يتطلب موقفا خاصا تلقاء طائفة من المسائل الجسام والمعضلات المعقدة ٠٠ فهى تستلزم أن نعيد النظر فى التاريخ ونستقرىء أطواره ونتتبع

حركاته ، وأن نجيل الفكر فى النفس وننظر اليها نظرة فاحصة مجردة ، وأن نتناول بالبحث وظيفة الحكومة وواجبات الدولة ومهمتها ومدى ما يمنح لها من سلطة وما يقدم لها من طاعة • وآراء المفكرين فى كل مسألة من هذه تختلف باختلاف المشكلات التى يواجههم بها عصرهم ، لأن الفلسفة السياسية تنبع من التجربة ، والآراء التى ينتهى اليها المفكرون السياسيون هى صدى تأثير الحوادث فى نفوسهم •

فالمؤرخ الانجليزى الشهير اللورد ماكولى كتب رسالة عن ميكافيلى بدأها بقوله :

« أنا فى شك من أن يكون فى التاريخ اسم يحمل من كراهة الناس مثل ما يحمل اسم ميكافيلى • وأقرا ما وصفه به الناس والنقاد فأخرج بأنه شيطان ، كان فيه للناس غواية ، وللشر أصول ، وانه زارع الأطماع فى قلوب البشر ، ومع الأطماع حب الثأر والنكاية ، وانه قبل نشر كتابه « الأمير » لم يكن فى الناس منافق ولا مستبد ظالم ، ولا غادر خائن • ثم كان كل هؤلاء من بعد نشره » •

ومن النقاد من قال : ان كل سياسة بها عوج انما استمدها صاحبها من هذا الكتاب • وناقد آخر قال : ومن هذا الكتاب تعلم سلاطين الأتراك كيف يخنقون اخوة لهم تثبيتا لحكم قائم أو طمعا فى حكم يكون • وكنيسة روما وصمت ما كتب ميكافيلى باللعنة • وحرمته حيازة ونشرا وقراءة على عباد الله الصالحين •

وفى عام ١٩٢٤ حاول موسوليني الربط بين الفاشية والميكافيلية ، اذ كتب في مؤلفه « مقدمه عن ميكافيلى » يقول : « اننى أؤكد أن مذهب ميكافيلى يعيش حيا اليوم ، أكثر مما كان حيا منذ أربعة قرون » ٠

غير أن أجمل مديح ناله ميكافيلى ، هو ذلك الذى وجهه اليه ، عن غير قصد ، فردريك الثانى (١) ، الذى هاجمه فى البداية فى كتابه « ضد الأمير » ، ثم طبق كل مبادئه عندما أصبح ملكا !

ومن ناحية أخرى نجد الفيلسوف الألمانى هيجل ـ وهو من كبار المفكرين السياسيين فى القرن التاسع عشر ـ يؤيد ميكا فيلى فى آرائه ، وينكر امكان التوفيق بين السياسة والأخلاق ، ويقول ان الدولة هى تحقيق للفكرة الأخلاقية ، وليس لها واجب أكبر من المحافظة على كيانها ٠

والمؤرخ الألمانى ترتيشكه يرى أن فرية ميكافيلى هى أنه أطلق الدولة من سلطة الكنيسة ، والدولة فى رأيه أسمى من الأفراد الذين تتكون منهم ، وهى موجودة لتحقيق أغراض أسمى من السعادة الانسانية ، ولا تستطيع مباشرة وظيفتها الا اذا كانت قوية ٠٠٠ وهى القوامة على

---

(١) فردريك الثانى : (١٧١٢ ـ ١٧٨٦) ملك بروسيا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) ٠ أظهر مقدرة فائقة فى الحرب والادارة ٠ اشترك فى الحرب النمساوية وحرب السنين السبع ٠

التقاليد ، والوصية على الأجيال التى لم تولد بعد ، وهى غير مدينة بالولاء لأية سلطة خارجية ٠

ولا ينكر أحد أن دكتاتوريى وطغاة كل عصر وجدوا نصائح مفيدة فى كتاب « الأمير » ، وأن قائمة القراء المتلهفين ضخمة : فقد أعجب الامبراطور شارل الخامس ، وكاترينا دى ميديكى بذلك المؤلف ٠ وحصل أوليفر كرومويل (٢) على نسخة خطية واعتنق مبادئه وطبقها فى حكومة الكومنولث فى انجلترا ٠ وكان كل من هنرى الثالث وهنرى الرابع الفرنسيين يحمل كل منهما نسخة منه ٠ كما ساعد هذا الكتاب فريدريك العظيم على صياغة سياسة بروسيا ٠ واتخذ لويس الرابع عشر هذا الكتاب « طاقيته الليلة المفضلة » ، ووجدت منه نسخة ذات حواش فى غرفة نابليون بونابرت فى ووترلو ، واستمد نابليون الثالث معظم أفكاره عن الحكومة من ذلك الكتاب ٠ وكان بسمارك (٣) تلميذا مخلصا له ٠ وحديثا احتفظ أدولف هتلر تبعا لقوله هو نفسه بكتاب « الأمير » بجانب سريره حيث كان مصدر ايحاء مستمرا له ٠

ومن ناحية أخرى ، أوضح المحللون المدققون للأحداث التاريخية أن الطغاة ، أمثال هتلر وموسولينى ، لقوا عموما

---

(٢) أوليفر كرومويل : (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨) رئيس الجمهورية التى أقامها بانجلترا (١٦٥٣) ٠

(٣) بسمارك : (١٨١٥ ـ ١٨٩٨) سياسى ألمانى ٠ منشىء الامبراطورية الألمانية ٠

نهاية مؤسفة لأنهم أهملوا أو أساءوا تفسير بعض المبـادىء الأساسية التي صاغها ميكافيلى ٠

ولقد اشتقت من اسم ميكافيلى كلمتان ، هما الميكافيلية بمعنى الخـداع السـياسى ، والميكافيلى أى من يعتنق مذهب ميكافيلى فى السـياسة ، وهما ما أمكن تقريبهما من معنى السادية والسادى ٠ الا انه فيما عدا شهرتها المبالغ فيها فان عقيدة ميكافيلى تتفق مع مطالب عصر معين، هو عصر النهضة، فى بلاد معينة هى ايطاليا ، ومدينة معينة هى فلورنسـا ٠ ومع ذلك فهى تخـرج عن نطاق الزمن المحـدود الذى عاش فيه ، لكى تكتسب هـذه القيمة العالميـة التى أتاحت لها أن تعبر كل هذه القرون ٠ فلا جدال فى أن كتاب « الأمير » كان ذا تأثير ثورى على الفكر السياسى ويحق لمؤلفه أن يلقب باسم « مؤسس علم السياسة » ٠

التأملات فى الفلسفة الأولى

ديكارت

١٦٤١م

الكتاب الذى هيأ النفوس للثورة الانسانية الكبرى

ديكارت هو «أبو الفلسفة الحديثة» ، وأول من وصفه بهذا الوصف فلاسفة الألمان وعلى رأسهم «هيجل» و «شلنج» · ولقد أحدثت آراؤه فى الفلسفة والعلم هزة عنيفة ، فقوضت مذهب أرسطو ، وقضت على علم القرون الوسطى ، وأيدت سلطان العقل وناصرت قضية الحرية ، وهيأت النفوس للثورة الانسانية الكبرى ·

وقد اشتهر ديكارت فى العصور الحديثة بأنه زعيم « المذهب العقلى » فى الفلسفة · وهذا المذهب عبارة عن القول بأن المشكلات الفكرية العامة التى تعنى بالانسان بما هو انسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الانسانى ، ومن غير معونة من شىء خارج عن العقل ·

وفلسفة ديكارت عرفت بأنها « فلسفة الأفكار الواضحة المتميزة » كما كانوا يسمونها فى القرن السابع عشر ، فقد أرادت تلك الفلسفة أن تخلص الفكر من نير السلطات أيا كانت ، فلم تقبل دليلا على الحق الا البداهة العقلية ، أى بداهة العقل الذى يراه الفيلسوف « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » وحظوظ الناس منه متساوية ، فلا فرق بين شعب وشعب ، ولا تفاضل بين جنس وجنس ·

سيرة ديكارت من خلال مؤلفاته

كانت حياة الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت . حياة جوانية فى صميمها ، أعنى أن للروح فيها المقام الأول ، قضى الفيلسوف شبابه منقبا عن الموضوعات العقلية ، جادا فى درسها ، متعقبا المشكلات العلمية ، دائبا على حلها ، وأنفق أخصب سنى حياته فى مختلف أنحاء هولندا ، طالبا ملاذا مأمونا يستطيع فيه أن يفكر وأن يعمل فى خلوة وهدوء . وانتهى به الأمر الى أن جازف بتلك الخلوة نفسها، بل بحياته كلها ، حين قصد الى السويد اجابة لالحاح ملكة تريد أن تخفف من أعباء الحكم بالوقوف على شىء من مبادىء الفلسفة .

واذا كانت سيرة ديكارت قد تظهرنا على شخصية الفيلسوف ، فهى لا تطمع فى أن تفسر لنا عبقريته ومواهبه التى هيأته لأن يكون بطل الفكر الذى عرفه التاريخ الحديث.

ولد « رينيه ديكارت » فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فى قرية « لاهى » بمقاطعة « التورين » فى فرنسا ، من أسرة صغار الاشراف ، وكان أبوه مستشارا ببرلمان « رن » .

ويمكن أن نقسم حياة ديكارت الى ثلاث فترات مهمة :

الفترة الأولى :

فترة دراساته الأولى فى مدرسة « لافليش » حيث تتلمذ على اليسوعيين من سنة ١٦٠٤ الى سنة ١٦١٢ ، فدرس اللغات القديمة والمنطق والأخلاق والرياضيات والميتافيزيقا.

والفترة الثانية :

من سنة ١٦١٣ الى سنة ١٦٢٩ ، قضاها فى السفر والارتحال · فقد قصد الى باريس سنة ١٦١٣ ، والتقى بالرياضى « ميدورج » . كما التقى بالأب « مرسن » صديقه وزميله منذ عهد التلمذة · وواصل دراسة القانون والطب فى جامعة « بواتييه » · وحصل على اجازات الحقوق من تلك الجامعة سنة ١٦١٦ · ثم سافر الى الدانمرك ، وقضى الشتاء فى « نويبورج » ووقعت له حينذاك أزمة من أزمات الشك، ولم تنجل الأزمة الا باكتشاف المبادىء المهمة كمنهجه ، فى ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ · وقضى فترة تحمس ونشوة عقلية ، ونذر لله نذرا أن يحج الى « نوتردام دولوريت » · والتحق بجيش دوق بافاريا فى « أولم » وشاهد موقعة « الجبل الأبيض » سنة ١٦٢٠ · وفى السنة التالية دخل هولندا وقضى بعد ذلك سنوات فى الارتحال والتنقل بين هولندا وفرنسا وسويسرا وايطاليا · وقام بفروض الحج الى « نوتردام دولوريت » ·

والفترة الثالثة :

فترة مقامه فى هولندا وبقائه بها عشرين سنة (من سنة ١٦٢ الى سنة ١٦٤٩) · وفى تلك الفترة الخصبة كتب أهم مؤلفاته :

١ ـ كتب باللاتينية « قواعد لهداية العقل » سنة ١٦٢٩ وكان فى ذهنه أن يحتوى الكتاب على ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه تركه دون أن يتمه · وقد نشر الكتاب بعد

وفاته • ويرى « ميبه » ان هـذا الكتاب هو أعمق وأروع رسـالة منطقيـة عرفتهـا الفلسـفة فى جميع عصـورها بلا استثناء •

٢ ـ وعكف ديكارت فى هولندا عـلى النظر الفلسـفى الصرف ، ثم وجه اهتمامه الى دراسة علوم الطبيعة ، فحرر كتابا سماه فيما بعـد « العالم » سـنة ١٦٣١ • وقد أراد ديكارت فى هذا الكتاب أن يبسط رأيه فى كيفيـة نشـوء العالم على مقتضى قوانين ميكانيكية صرفة فقد أراد أن يوفق بين الايمان بعقيدة الخلق ، وبين فكرة النشوء الحاصل وفقا للقوانين الطبيعية التى لا يستطاع بعد البرهنة عليها •

ولكن حادثا وقع فى ٢٣ يونية سنة ١٦٣٣ فكان له أثر فى حياة ديكارت الفكرية • ذلك ان هيئة التفتيش حكمت عـلى العالم الايطالى « جاليليـو » بالمروق من الدين لقـوله بدوران الأرض • وكان ديكارت نفسه يقول ذلك فى كتابه « العالم » فلما بلغه نبأ الحكم عـلى جاليليو خاف أن ينشر الكتـاب ، وكتب الى الأب « مرسن » بأنه اذا كانت حركة الأرض باطلة ، فان جميع أصول فلسفته باطلة كذلك ، لأن تلك الأصول تثبت الحركة الأرضية بما لا مجال فيه للابهام • وقال أيضا انه لا يستطيع أن يفصل تلك النظرية عن حركة الأرض عن أجزاء كتابه دون أن يتعرض مذهبه كله للخلل • ولكنه لما كان لا يريد أن يصدر عنه قول يمكن أن يوجد فيه ما يخالف الكنيسة ، فانه يفضل أن يكتم ذلك القول على أن يظهر للناس فى صورة شوهاء •

٣ ـ وفى سنة ١٦٣٧ نشر ديكارت بالفرنسية كتابه المشهور « مقال فى المنهج » ، وهو مقدمة لثلاث رسائل هى « الآثار العلوية » و « البصريات » و « الهندسة » أما « المقال فى المنهج » فهو الرسالة الفلسفية الصرفة فى ذلك المجموع، بين فيها تاريخ أفكاره ، وأوضح عن الخصائص المهمة لمذهبه الجديد فى نظرية المعرفة وفى الميتافيزيقا • أما الآثار العلوية والبصريات فقد أعطى الفيلسوف فيهما مثلا أو نموذجا لطريقته فى تفسير الطبيعة تفسيرا ميكانيكيا بحتا • وفى رسالة « الهندسة » استكشف ديكارت الهندسة التحليلية التى ضم بها علم الجبر الى علم الهندسة ودرجهما تحت علم واحد •

٤ ـ وفى سنة ١٦٤١ نشر كتاب « التأملات فى الفلسفة الأولى » والذى نحن بصدده وهو أبدع ما كتبه الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام وفى النفس الانسانية وفى الأدلة على وجود الله بوجه خاص •

٥ ـ وفى سنة ١٦٤٤ نشر كتاب « مبادىء الفلسفة » • وفى هذا الكتاب عرض مبسط للفلسفة الديكارتية يسهل للناس فهمها والالمام بها • وقد قام الأب « بيكو » بترجمة الكتاب من اللاتينية الى الفرنسية وقد راجعه ديكارت وبعث الى بيكو رسالة مهمة ، جعلها بمثابة المقدمة للترجمة الفرنسية أوضح فيها الخلاف بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة ، والميزات التى توجد فى فلسفته وفضلها فى تقدم المعارف البشرية تقدما مطردا غير محدود •

٦ ـ وكانت الأميرة اليزابيث قد طلبت الى ديكارت أن يكتب « رسالة فى انفعالات النفس » فأجاب رغبتها ، ونشر الرسالة بالفرنسية سنة ١٦٤٩ · ورسالة الانفعالات ، مضافا اليها رسائل الفيلسوف مع الأميرة تحتوى على أهم ما فى مذهبه الأخلاقى ·

وقد كانت « رسائل الانفعالات » آخر مؤلفات ديكارت · ودعته الملكة كريستين ملكة السويد ، للسفر الى استوكهولم، ليلقنها بنفسه مبادىء فلسفته ، ولكى يعلمها « السبيل الى الحياة السعيدة مع الله ومع الناس » فقبل الدعوة بعد تردد منه والحاح من الملكة · وهناك مات فى ١١ فبراير سنة ١٦٥٥ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة ·

تحليل التأملات فى الفلسفة الأولى

تعريف بالتأملات :

« التأملات فى الفلسفة الأولى » من روائع المؤلفات الفرنسية على الاطلاق ، وهى بلا ريب أهم أجزاء الفلسفة الديكارتية وأجدرها بالاعتبار · ونظرة الى المسائل التى تناولتها والحقائق التى بينتها تقنعنا بأنها أوفى ما ألف الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام ، وأبدع ما كتب فى النفس البشرية ، ووجود الله بوجه خاص ، كما يشير الى ذلك النص الكامل لعنوان الكتاب : « تأملات فى الفلسفة الأولى ، وفيها يبرهن على وجود الله وخلود النفس » ·

وقد نشر ديكارت « التـأملات » سـنة ١٦٤١ باللغـة اللاتينية دون الفرنسية ، وكان قصده من ذلك كما يحدثنـا هو نفسه أن يقصر كتابه على الخاصة دون العامة ، اذ انه قد التزم فى شرح المسائل الميتافيزيقية سبيلا قل سالكوه ، وبعد عن الطريق المألوف بعدا كبيرا ٠

وقد رأى ديكارت أن يقدم للتأملات برسالة اهداء الى « العمداء والعلماء بكلية أصول الدين المقدسـة بباريس يسألهم فيها أن يؤيدوا آراءه ويبين لهم منهجه الجـديد فى الفلسفة ، وسوف نذكر نص هذا الاهداء نظرا لأهميته فى تحليل هذا الكتاب القيم :

« حضرات السادة » ٠

يدفعنى الى تقديم هذا الكتاب اليكم سبب وجيه جدا ، ويقينى انكم ستجدون حين تقفون على القصـد منـه سـببا وجيها كذلك لتشملوه برعايتكم٠ ولهذا رأيت أنى لا أستطيع أن أجد ما يشفع له عندكم خيرا من أن أبين لكم قصدى فيـه بيانا موجزا ٠

لقد كان رأيى دائما أن مسألتى الله والنفس أهم المسائل التى من شأنها أن تبرهن بأدلة الفلسفة خيرا مما تبرهن بأدلة اللاهوت : ذلك انه وان كان يكفينا نحن معشر المؤمنين أن نعتقد بطريق الايمان بأن هنالك الها وبأن النفس الانسانية لا تفنى بفناء الجسد ، فيقينى انه لا يبدو فى الامكان أن تقدر على اقناع الكافرين بحقيقة دين من الأديان ، بل ربما ،

بفضيلة من الفضائل الأخلاقية ، ان لم نثبت لهم أولا هذين الأمرين بالعقل الطبيعى • وحيث ان الغالب فى هذه الحياة أن تثاب الفضيلة ، فان أغلب الناس كانوا يؤثرون سبيل المنفعة على سبيل العدالة ، لو لم يردهم خوف الله أو توقع حياة أخرى • ومع أن من الحق اطلاقا أنه ينبغى أن نعتقد بوجود الله ، لأن هذا هو ما جاءت به الكتب المقدسة ، وانه ينبغى من جهة أخرى أن نؤمن بالكتب المقدسة ، لأنها جاءت من عند الله (وذلك لأنه لما كان الايمان هبة من الله ، فان الموجود الذى يهبنا من فضله ما يعيننا على الاعتقاد بالأشياء الأخرى يستطيع أيضا أن يهب ذلك الفضل ليعيننا على الاعتقاد بوجوده هو) الا اننا لا نستطيع أن نعرض ذلك على الكافرين فانهم قد يتوهمون ان الاستدلال على هذا النحو وقوع فى الغلط الذى يسميه المناطقة دورا •

وأنا أعلم انكم وجميع رجال الدين تذهبون الى أن وجود الله يمكن اثباته بالعقل الطبيعى • وتزيدون على ذلك أنه يؤخذ من الكتب المقدسة أن معرفتنا له أوضح جدا من معرفتنا لكثير من الأشياء المخلوقة ، وأن هذه المعرفة بلغت من السهولة حدا يجعل غير الواقفين عليها مذنبين ، كما يبدو من أقوال « سفر الحكمة » فى الاصحاح الثالث عشر ، اذ ورد فيه : « ان جهلهم لا يغتفر • لأنه اذا كانت عقولهم قد أوغلت الى هذا الحد فى معرفة أمور الدنيا ، فكيف أمكن ألا تكون معرفتهم للرب الأكبر أيسر ؟ » وجاء فى الاصحاح الأول من « رسالة بولس الى أهل رومية » انهم « لا عذر لهم » وجاء أيضا فى الموضع نفسه قوله : « اذ معرفة الله ظاهرة فيهم » • فيبدو أننا قد أخبرنا بأن كل ما يمكن معرفته عن الله يمكن

أن يبين بأدلة لا حاجة الى استنباطها من شيء غير أنفسنا وغير تدبرنا لعقولنا • من أجل هذا بدا لى أننى لن أخالف واجب الفيلسوف اذا أنا بينت ها هنا كيف وبأى طريق نستطيع أن نعرف الله معرفة أيسر وأيقن من معرفتنا لأمور الدنيا ، دون أن نخرج عن دخيلة أنفسنا •

أما النفس فان كثيرين من أصحاب النظر قد اعتقدوا أنه ليس من الميسور معرفة طبيعتها ، بل ان بعضهم قد اجترأ على القول بأن العقول الانسانية تقنعنا بأنها تفنى بفناء الجسم ، وأن العقيدة الدينية وحدها هى التى ترشدنا الى خلاف هذا الرأى ، غير أن « مجمع لتران » المنعقد برياسة البابا ليون العاشر ، وما قرره من ادانة هؤلاء ودعوته الفلاسفة المسيحيين دعوة صريحة الى الرد على أقوالهم ، واستعمال أقصى ما تملك عقولهم من قوة لاظهار الحق ، كل هذا قد جرأنى على محاولة ذلك فى هذا الكتاب • على أننى لما كنت أعلم أن الحجة الكبرى التى يستند عليها كثير من الكفار فى رفضهم الاعتقاد بوجود الله وبتميز النفس البشرية عن البدن هى قولهم بأن أحدا لم يتوصل حتى الآن الى اثبات هذين الأمرين ، وانى وان كنت لا أرى رأيهم ، بل أرى خلافا لذلك أن أغلب الحجج التى أوردها كثير من فطاحل المفكرين عن هاتين المسألتين هى فى مرتبة البراهين اذا فهمت على الوجه الصحيح ، وأنه يكاد يكون من المستحيل ايجاد حجج جديدة ، الا اننى أعتقد أنه لن يمكن أن يعمل فى الفلسفة شيء أنفع من البحث عن أحسن هذه الحجج وعرضها فى ترتيب واضح متين ، يكون من شأنه أن يظهرها بعد لجميع الناس براهين صحيحة •

وأقول أخيرا انه قد دعانى الى ذلك كثير من الناس ممن يعرفون أنى زاولت منهجا لحل جميع ضروب الصعوبات فى العلوم ، وهو منهج ليس فى الحق بجديد اذ لا شىء أقدم من الحقيقة ولكنهم يعلمون أنى قد أصبت بعض التوفيق حين اصطنعته فى مواطن أخرى • فبدا لى أن من واجبى أن أقوم بتجربته أيضا فى أمر خطير كهذا •

وقد بذلت قصارى ما فى وسعى للاحاطة فى هذا الكتاب بكل ما استطعت الاهتداء اليه عن طريق ذلك المنهج ، ولست أقصد انى جمعت هنا كل الحجج المختلفة التى يستطاع التدليل بها فى مثل هذا الموضوع الجليل ، فانى ما رأيت قط ضرورة لذلك ، اللهم الا حين لا يوجد بينها دليل يقينى واحد ، ولكن اقتصرت على أهمها وأولاها ، على وجه يجعلنى أجرؤ على ايرادها مقتنعا بأنها بدهية جدا ويقينية جدا • وأقول فضلا عن هذا انها جاءت من القوة بحيث لا أظن أن الذهن الانسانى سيجد وسيلة يستطيع بها أن يكتشف خيرا منها ، لأن أهمية الموضوع ومجد الله ، واليه مرجع هذا كله ، يضطرنى الى أن أتحدث هنا عن نفسى بشىء من الحرية أكثر مما جرت به عادتى •

غير أنى مهما أجد فى حججى من يقين وبداهة ، لا أستطيع أن أقنع نفسى بأن الناس جميعا قادرون على فهمها ، ولكن كما أن فى الهندسة حججا كثيرة ، أوردها « أبولونيوس » (١) و « بابوس » (٢) وكثيرون غيرهم ،

(١) أبولونيوس : رياضى يونانى من مدرسة الاسكندرية • درس الرياضيات على خلفاء أقليدس حوالى ٢٦٢ ـ ١٩٠ ق•م •

(٢) بابوس : رياضى يونانى عاش فى الاسكندرية حوالى ٣٠٠ ق•م•

يسلم بها الناس كلهم ويرونها فى غاية اليقين والبداهة ، ولأن اللواحق فيها وثيقة الارتباط والاعتماد على السوابق، ولكن زيادة طولها بعض الشيء وتطلبها استفراغ الذهن ، حال دون أن يحيط بها أو يفهمها الا فئة قليلة من الناس ، فكذلك أنا وان كنت أرى أن الحجج التى أستخدمها هنا تعادل بل تفوق فى اليقين والبداهة براهين الهندسة ، الا انى أخشى أن يستعصى فهمها فهما كافيا على الكثيرين ، اما لأن بها هى أيضا شيئا من الطول ولأن بعضها يعتمد على بعض ، واما لأنها تتطلب على الخصوص أذهانا قد تحررت من جميع الأوهام ، فتيسر لها بذلك أن تتخلص من مخالطة الحواس •

واذا أردنا كلمة الحق قلنا ، انه ليس فى الناس من هم أهل للنظر فى الميتافيزيقا بقدر ذوى الاستعداد للنظر فى الهندسة • ويبقى فوق هذا أن هناك فرقا ، وهو أنه فى الهندسة ، لما كان كل واحد يعلم أنه ما من شيء يبسط فيها الا وقد قام عليه برهان يقينى فان غير المتبحرين فيها يخطئون فى أغلب الأحيان بتأييدهم للبراهين الفاسدة ليوهموا الناس أنهم قد فهموها أكثر مما يخطئون بتفنيدهم البراهين الصحيحة • وليس الأمر كذلك فى الفلسفة ، اذ لما كان كل واحد يعتقد أن مسائلها كلها اشكالية ، فان قليلين من الناس يعكفون على طلب الحقيقة ، بل ان كثيرين يحبون أن يشتهروا بين الناس بأنهم من أهل الأذهان الجبارة ، فتراهم ولا هم لهم الا المكابرة فى مناقضة أبين الحقائق وأجلاها •

أيهـــا الســـادة :

مهما يكن فى الحجج التى أسوقها من قوة ، فلست آمل ، نظرا لانتسابها الى الفلسفة أن يكون لها أثر كبير على الأذهان اذا لم تشملوها برعايتكم • ولما كـــان لجماعتكم من تقدير الناس كلهم حظ عظيم ، ولما كان لاسم « السربون » على علو المنزلة مما جعل الناس لا يقابلون أحكام آية جماعة أخرى ، بعد المجامع المقدسة ، بمثل الاحترام الذى يقابلون به أحكام جمـــاعتكم لا فى مســـائل العقيدة فحســـب ، بل فى مسائل الفلسفة الانسانية أيضا ، ولما كان كل واحد يعتقد أنه ليس فى الامكان أن نجد فى الناس أوفر منكم رصانة ومعرفة ولا أكثر فطانة ونزاهة فى الحكم على الأمور ، فلا شك عندى أنكم اذا تعطفتم فشملتم هذا الكتاب بعنايتكم ، وتفضلتم أولا بتصحيحه (لأنى لا أزعم أنه خال من الغلط ويمنعنى من ذلك شعورى بقصورى بل بجهلى) ثم باضافة ما ينقصه اليه ، وتمام ما لم يتم منه ، والتكرم بايراد شرح أوفى اذا اقتضى الأمر ذلك ، أو تنبيهى على الأقل الى ما قد يكون فيه من عيوب حتى أعمل على اصلاحها ، وبعد أن تكون الحجج التى أثبت بها وجود الله واختلاف النفس الانسانية عن البدن قد بلغت من الوضوح والبداهة المرتبـــة التى أعتقد امكان بلوغها لكى تعد براهين محكمة ، وبعد أن تتفضلوا باقرارها وتأييدها ، واعلان شهادتكم بصـــحتها ويقينها ـ أقول انى لا أشك بعد ذلك فى أن كل ما وقع من قبل من غلط وزيف فى هاتين المسألتين سرعان ما يمحى من أذهان الناس •

وسوف يحمل الحق جميع العلماء وأولى الألبـاب عـلى قبول حكمكم والانضواء تحت لوائكم ، أما الكفار ، وهم فى العـادة قوم يغلب كبرهم وصلفهم عـلى علمهم وحصافتهم ، فينزعون من نفوسهم روح المعارضة ، أو لعلهم يدافعون هم أنفسهم عن تلك الحجج حين يرونها مقبولة لدى جميع أولى الألبـاب فى عـداد البراهين ، مخـافة أن يظهـروا بأنهـم لا يفهمونها ، وسوف يتيسر لسـائر الناس أن يتقبلوا هذه الشهادات الكثيرة • فلا يبقى شخص واحد يتجرأ على الشـك فى وجـود الله وفى التمييز الـواقعى الحقيقى بين نفس الانسان وبدنه •

فالحكم الآن لكم فيما نجنى من ثمرات هذا الاعتقاد متى توطدت أركانه ـ لكم أنتم الذين ترون الفوضى الناشئة من الشك فيه • ولكن لن يجمل بى فى هذا المقام أن أطيل الكلام فى التوصية بقضية الله وقضية الدين لدى من كانوا دائما أمتن دعائمها » •

« **ديـكارت** »

★★★

هكذا بين ديكارت لعلماء عصره أن منهجه الجديد فى الفلسفة ، على الرغم مما بينه وبين منهج « المدرسيين » من اختلاف عميق ، يستطيع أن ينصر العقيدة والدين ببراهين قاطعة من شأنها أن تخرس ألسنة الملحدين ، ولكى يضمن أن يظفر كتابه بحسن القبول عند علماء اللاهوت المسيحيين، أرسل الكتاب قبل طبعه الى صديقه الأب « مرسن » ليطلع

عليه مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، أمثال « أرتو » و « جسندى » و « هوبز » و «كاتروس» و «بوردان» وغيرهم • وتلقى مرسن من هؤلاء العلماء طائفة من الاعتراضات التى أوردوها على الكتاب • وكتب ديكارت ردوده عليها وجمعت الاعتراضات والردود ، ونشرت فى ذيل الطبعة الثانية للكتاب سنة ١٦٤٢ •

هذا وقد ألف ديكارت كتابه هذا ليعرض على الخاصة مذهبه فى الميتافيزيقا عرضا علميا منظما • ويلاحظ أن الفيلسوف كان يحيل من أراد الوقوف على جملة نظراته فى الميتافيزيقا الى هذا الكتاب وحده دون سائر كتبه • صحيح أنه قد أورد بعض مسائل الميتافيزيقا فى القسم الرابع من كتاب « المقال فى المنهج » ولكنه عرضها هناك عرضا سريعا ومسها مسا رفيقا لم يكن يقصد فيه الى التعمل والاستقصاء • على أن هذا العرض نفسه لا يفهم حق الفهم الا بالرجوع الى التأملات • وصحيح كذلك أن الباب الأول من أبواب كتابه مبادىء الفلسفة يبحث فى أصول المعرفة الانسانية ، وهو لهذا كان أدخل فى بحوث الميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى • لكن هذا الباب أيضا لا يتيسر فهمه جيدا الا بعد قراءة كتاب التأملات • أما كتاب البحث عن الحقيقة فهو محاورة نقدية بين أشخاص مختلفى الآراء • واذن فيجب على الباحث عن الميتافيزيقا الديكارتية أن يلمسها أولا فى كتاب التأملات الذى هو المرجع الأول فى هذا الباب •

الفلسـفة الأولى

والفلسفة عند ديكارت انما تبـدأ بالميتافيزيقا ، أى الفلسفة الأولى ، والفلسفة عبارة عن دراسـة الحـكمة • والحكمة ليست هى التبصر فى الأمور فحسب ، وانما هى أيضا وعلى الخصوص معرفة كاملة لجميع ما يستطيع الانسان أن يعرفه لتـدبير حياته ، وحفظ صـحته ، واختراع جميع الفنون • ولكن هذه المعرفة الكاملة ليست فى المعانى التى يجدها كل شخص فى نفسه بدون تأمل ، ولا فى المعـارف المكتسبة من التجربة والمحادثة والقراءة ، انما هى المعرفة عن طريق العلل والمبادىء الأولى التى يسـتنبط منهـا كل ما يستطاع معرفته • والمبادىء التى يتحدث عنها ديكارت هنا هى الميتافيزيقا عينها : فاننـا اذا وضعنا الميتافيزيقـا استطعنا أن نستنبط منها سائر ما عداها : « رأيت أن وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول ، واستنبطت منه المبادىء التالية : ان هناك الها هو خالق كل ما فى العالم • ولما كان هو مصدر كل حقيقة ، فانه لم يخلق أذهاننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التى نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا • تلك هى المبادىء التى اصطنعها فى الأشياء اللامادية أو الميتافيزيقية ، ومنها استنبطت بتمام الوضوح مبادىء الأشياء الجسمانية أو الفيزيقيـة ، أى ان هنـاك أجساما ممتدة طولا وعرضـا وارتفاعا ، وان لها أشـكالا وتتحرك على هيئات مختلفة » •

وكان « المدرسيون » يعرفون الميتافيزيقا بما عرفهـا أرسطو حين قال انها « علم الموجود بما هو موجود » أى انها

العلم بالخصائص الجوهرية للوجود • لكن هذا التصور المدرسى للميتافيزيقا لا يقبله ديكارت ، اذ ان المشكلة الكبرى عنده هى أن نتبين متى يسوغ لنا اثبات الوجود ، وبعبارة أخرى ان الميتافيزيقا الديكارتية انما تهتم بالذات التى تعرف والتى تقرر الوجود أكثر مما تهتم بالموضوع الذى يمكن أن يعرف أو يكون موجودا •

واذا كان الأمر كذلك فالميتافيزيقا عند ديكارت هى أشد العلوم يقينا ، وهى العلم الذى ينبغى أن نستيقن من نتائجه قبل أن نستيقن من نتائج العلوم الأخرى • والذى يضفى على الميتافيزيقا يقينا ليس هو طبيعة موضوعها ، بل الطريق الذى يسلكه الذهن فى طلبها • ونحن نقرأ فى كتاب « القواعد » : « ليس أمام الجنس البشرى طرق مفتوحة للمعرفة اليقينية سوى طريق الحدس البدهى والاستنباط الضرورى اللذين بينهما المنهج » •

والمنهج الذى يحدد ماهية الميتافيزيقا هو المنهج الذى وصل اليه الفيلسوف بملاحظة العمل الذهنى فى الرياضيات• فقد لاحظ أن فى الرياضيات استدلالات صحيحة لا نجدها فى غيرها ، وقرر أن من مرن ذهنه على عمليات الرياضيات أصبح أهلا للبحث عن الحقائق الأخرى • لأن منهج الفكر واحد فى جميع الأمور •

اذن فالميتافيزيقا علم دقيق يمكن اثبات قضاياه بيقين رياضى •

طريق التـأملات الديكارتية

ولنلق الآن نظرة عـلى الطريق الذى سلكه ديكارت فى تأملاته ..

فقد خصص تأمله الأول لنظر ميتافيزيقى مداره البحث فى الضرورة العقلية التى تقضى بانتهاج سـبيل الشـك ، باعتباره تمهيدا للفلسفة . ولكى نفهم منهجه فى ذلك يجب أن نتبين الأسباب التى جعلته يدعونا الى أن نصطنع الآناة ، ونتوقف عن الحكم ، ونرفض التصديق بما يلقى الينـا من أقوال وآراء حتى ما كان منها شديد الرجحان ، فلا نسـلم بشىء من ذلك ما لم نتبين بالبـداهة انه كذلك ، لأن بداهة العقل عند الفيلسوف هى معيار اليقين بمعنى انها هى العلامة المميزة للمعرفة الصحيحة المبرأة من الخطأ والزلل .

ويلخص فيلسوفنا تأملاته فيقول : « قدمت فى التأمل الأول ، الأسباب التى تجعل فى استطاعتنا أن نشـك عـلى العموم فى الأشياء جميعا ، وعـلى الخصـوص فى الأشـياء المادية ، على الأقل ما دمنا لم يتيسر لنا من أسس أخرى فى العلوم سوى ما تيسر لنا حتى الآن . غير أن شكا عاما كهذا ، ان لم يظهر نفعه أول الأمر ، له مع ذلك نفع عظيم جدا ، من حيث انه يخلصنا من ضروب الأحكام السابقة ، ويمهـد لنا سبيلا ميسورا جـدا لـكى نألف التجرد عن الحـواس ، وأخيرا من حيث انه يجعل من غير الممكن ، فى المستقبل أن نشك أبدا فى الاشياء التى قد نهتدى فيما بعـد الى أنهـا صحيحة » .

« وفى التأمل الثانى نجد الذهن يستعمل حريته الخاصة فيفترض ان جميع الأشياء التى يقع له عن وجودها أدنى شك هى أشياء معدومة ، لكن يتبين أن من الممتنع اطلاقا حينئذ أن يكون هو نفسه غير موجود • وهذا أمر فيه كذلك نفع عظيم ، فانه بهذا الوجه يتيسر له أن يميز الأشياء التى تخصه ، أى التى تخص الطبيعة الذهنية ، من الأشياء التى تخص الجسم » •

« لكن قد يتوقع بعض القراء منى أن أورد فى ذلك الموضع أدلة لاثبات بقاء النفس • ومن أجل ذلك أرى لزاما على ها هنا أن أنبههم الى أننى حاولت ألا أكتب فى هذه الرسالة كلها شيئا الا ولدى عنه براهين دقيقة جدا • ولذلك وجدت نفسى مضطرا الى اتباع ترتيب شبيه بالترتيب الذى يصطنعه أصحاب الهندسة ، وهو تقديم جميع الأشياء التى تتوقف عليها القضية التى نبحث عنها قبل استنتاج أى شىء منها » •

« وأول وأهم ما يطلب للتحقق من معرفة بقاء النفس أن نكون عنها تصورا واضحا صريحا ومتميزا كل التميز عن جميع التصورات التى يمكن أن تكون لدينا عن الجسم ، وهذا ما صنعته فى ذلك الموضع • ويطلب فضلا عن ذلك أن نعرف أن جميع الأشياء التى نتصورها بوضوح وتميز صحيحة على نحو ما نتصورها ، وهذا ما لم أستطع اثباته قبل التأمل الرابع • يلزم أيضا أن يكون لدينا عن الطبيعة الجسمية تصور متميز ، يقوم بعضه فى هذا التأمل الثانى ، وبعضه فى التأملين الخامس والسادس » •

« ويلزم أخيرا أن نستخلص من ذلك كله أن الأشياء التى نتصور بوضوح ونميز أنها جواهر متباينة ، مثلما نتصور الذهن والجسم ، هى حقا جواهر متميز بعضها عن بعض فى واقع الأمر ، وهذا ما انتهيت اليه فى التأمل السادس ، ومما يؤيده أيضا فى هذا التأمل نفسه اننا لا نتصورها الا غير منقسمة ، ذلك اننا لا نستطيع أن نتصور نصف أى نفس كما نستطيع أن نتصور لأصغر جسم بين الأجسام، وعلى هذا النحو نتبين أن طبيعتيهما ليستا متباينتين فحسب بل هما متضادتان بوجه عام • ولم أزد على هذا القدر فى معالجة الموضوع فى هذا الكتاب • لأن ذلك ما يكفى لافهام الناس ، بدرجة من الوضوح لا بأس بها ، أن فساد الجسم يقتضى فناء النفس ، ولملء قلوبهم بالأمل فى حياة أخرى بعد الموت ، وكذلك لأن المقدمات التى يمكن أن نستنتج منها بقاء النفس تعتمد على شرح الفيزيقا بأسرها: أولا لمعرفة أن جميع الجواهر على العموم ، أى جميع الأشياء التى لا يمكن أن توجد مخلوقة لله ، غير قابلة للفساد بطبيعتها ، وأنها لا يمكن أن تنقطع عن الوجود أبدا ، الا اذا منع الله عونه عنها فأحالها الى العدم ، ثم لملاحظة أن الجسم على العموم جوهر ومن أجل ذلك أيضا لا يفنى ، لكن الجسم الانسانى ، من حيث هو مختلف عن الأجسام الأخرى ، ليس مركبا الا من أعضاء على هيئة معينة ومن أعراض أخرى تشابهها •

أما النفس الانسانية فليست كالجسم مؤلفة من أعراض ، ولكنها جوهر محض: فمنهما تتغير جميع أعراضها، ومهما تكن مثلا تتصور أشياء وتريد وتحس بأشياء

أخرى ٠٠ الخ ٠٠ فلن تصير شيئا آخر ، فى حين أن الجسم الانسانى يصير شيئا آخر متى تغير شكل بعض أجزائه ٠ ويلزم عن ذلك أن فناء الجسم الانسانى أمر ممكن ميسور ، أما ذهن الانسان أو نفسه فباقية بطبيعتها » ٠

« وفى التأمل الثالث بينت ببعض الاسهاب فيما يلوح لى أهم دليل استخدمته لاثبات وجود الله ٠ ولكنى لم أرد أن أستخدم فى هذا الموضع تشبيهات مشتقة من الأشياء الجسمية ، لكى أبعد أذهان القراء بقدر ما فى وسعى عن استعمال الحواس والاتصال بها ٠ ولذلك ربما بقيت هنالك مسائل كثيرة غامضة (أرجو أن أوضحها توضيحا تاما فى ردودى على الاعتراضات التى وجهت الى الكتاب منذ فرغت من تحريره) ، ومنها المسألة التى أوردها فيما يلى : كيف أن فكرة موجود كامل اطلاقا ــ وهى فكرة نجدها فينا ــ تشمل قدرا من الحقيقة الموضوعية ، أى تشارك بالتصور فى قدر من درجات الوجود والكمال بحيث يلزم أن تصدر عن علة كاملة على الاطلاق ؟ وهذا ما أوضحته فى تلك الردود بايراد التشبيه بآلة فى غاية البراعة والاتقان ترد فكرتها على ذهن صانع ما ، فانه كما ان ما لهذه الفكرة من اتقان موضوعى لابد له من علة معينة اما أن تكون علم ذلك الصانع أو علم واحد غيره تلقى هو عنه تلك الفكرة ؛ فكذلك يمتنع بالنسبة الى فكرة الله ، التى هى فينا ، ألا يكون الله ذاته علة لها » ٠

« وفى التأمل الرابع أقمت الدليل على أن جميع الأشياء التى نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا جدا هى كلها

صحيحة ، كما أوضحت طبيعة الخطأ أو الباطل ، مما تلزم معرفته ضرورة لتوكيد الحقائق السابقة ، ولفهم الحقائق التى تتلوها فهما صحيحا • لكن ينبغى أن يلاحظ أنى لا أنظر هنالك فى الخطيئة ، أى فى الخطأ الذى يقترف فى طلب الخير والشر ، بل الخطأ الذى يقع فى الحكم وتميز الحق من الباطل وليس قصدى أن أتكلم هنالك فى الأمور التى هى من شأن الايمان أو سلوك الانسان فى الحياة ، بل فى الأمور التى تتصل بالحقائق العقلية والتى يمكن معرفتها بمعونة النور الطبيعى وحده » •

ويتحدث ديكارت فى التأمل الخامس عن ماهية الأشياء المادية ، ثم يعود الى الحديث عن الله ووجوده • وهو يستند الى معيار البداهة ، فيرفض مرة أخرى أن يضفى على المادة من الخواص الا الامتداد ، أى خاصة الجسم فى أن يكون ممتدا • ولا يقبل الا الحركة فى المكان ، وينكر فى الوقت نفسه جميع « الصور الجوهرية » و « الصفات الخفية » وغيرها من الكائنات والمبادىء التى كان يتحدث عنها الفلاسفة « المدرسيون » •

وينبغى ألا ننسى أن ديكارت عالم رياضى ، وأن المثل الأولى للبداهة عنده هو البداهة الرياضية • فهو ينظر الى الفكرة الواضحة التى تكون فى أذهاننا عن الله ، فيجد أن شأنها كشأن فكرة المثلث • ومن ثم يعود الى البرهنة التى قام بها فى التأمل الثالث وينقلها الى هذا المستوى الفكرى الجديد ، منتهيا الى القول بأن القضيتين : « مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين » ، و « الله موجود » هما قضيتان متعادلتان فى اليقين •

فى التأمل السادس من التأملات الديكارتية يبسط لنا النتائج العملية لما انتهى اليه • بعد أن بين أن النفس الانسانية مستقلة عن البدن ، قرر أنها مع ذلك متحدة به اتحادا وثيقا ، وأن هذا الاتحاد أمر واقع تشهد به التجربة المشاهدة ، وكل امرىء لابد متنبه الى أنه يجمع فى ذاته بين طبيعتين متباينتين ، جسمانية ونفسانية وهو أمر واقع لا سبيل الى المنازعة فيه •

ويختتم الفيلسوف تأملاته مبينا أن الأدلة على وجود عالم المادة والأجسام ليست من المتانة والوضوح بمنزلة الأدلة التى تؤدى الى معرفة النفس والى معرفة الله • ويقول ديكارت نفسه فى تلخيص التأمل السادس ما يلى : « وأنتهى فى التأمل السادس بتمييز فعل الفهم من فعل المخيلة ، وأصف علامات هذا التمييز ، وفيه أبين أن نفس الانسان متميزة عن الجسم حقا ، وأنها مع ذلك ملتئمة معه التئاما ومتحدة به اتحادا يجعلها واياه شيئا واحدا ، وفيه أبسط جميع ضروب الخطأ الناشئة من الحواس ، مبينا الوسائل لاجتنابها، وأورد أخيرا جميع الأدلة التى يمكن أن يستنتج منها وجود المادية ، لا لأننى أرى لها فائدة كبيرة فى اثبات ما تثبته ـ أعنى أن العالم موجود وأن الناس أجسام ، وما شابه ذلك من أشياء لم يشك فيها قط انسان ذو عقل سليم ، بل لأن امعان النظر فيها يطلعنا على أنها لم تبلغ من المتانة والبداهة مرتبة الأدلة التى توصلنا الى معرفة الله ومعرفة النفس • وبهذا الاعتبار تكون الأدلة الأخيرة أوثق وأبين ما يمكن أن يقع للذهن الانسانى من معرفة •

« وهذا كل ما قصدت الى اثباته فى هذه التأملات الستة، ومن أجل هذا اغفلت ها هنا مسائل أخرى كثيرة تكلمت عنها عرضا فى هذه الرسالة » ٠

فضل التأملات الديكارتية على الانسانية

وهكذا ٠٠ يمكن أن يقال فى فلسفة ديكارت من خلال تأملاته ان روح تلك الفلسفة الجوانية ومنهجها فى التدرج من الشك الى اليقين ، قد بقى كلاهما هاديا للذهن الانسانى على مدى العصور ٠ ولعل من فضل ديكارت على الانسانية المفكرة أن أصبح واضحا للعيان المثل الأعلى للوجود الانسانى لذاته ولمكانه فى العالم ، بحيث يرد جميع آرائه الى أفكار واضحة متميزة ، ويمتنع عن أن يقرر أو أن يعمل ما لم يكن معتمدا على أسباب صحيحة مقبولة لديه ولدى الناس جميعا ، وبحيث يتحرى دائما عن المسوغ الأخير لمعارفه وأعماله ٠ وهذا المعنى من معانى النظر الفلسفى هو المعنى الذى ينبغى أن نحرص كل الحرص على اذاعته وتعميمه ، حتى يتيسر للفلسفة أن تؤدى فى المجتمع رسالتها الجليلة ٠ ويسر كل متتبع لتطور الأفكار فى المجتمع الحاضر أن يلاحظ أن مفهوم الفلسفة ورسالتها الحقيقية ، على نحو ما أراد لها ديكارت أن تكون ، قد برزا فى أيامنا هذه بروزا لا يدع مجالا لغموض أو ابهام فى أذهان المستنيرين ٠

فقد كان لديكارت أكبر الفضل فى بناء صرح المذهب العقلى الحديث ، حين وضع قاعدته المشهورة « يجب ألا أقبل شيئا قط على أنه حق ما لم يتبين ببداهة العقل أنه كذلك »

ويجب ألا أحكم على الأشياء الا بما يتمثله ذهنى بوضـــوح وتميز ينتفى معهما كل ســبيل الى الشــك • وقد قيل ان ما يسمى فى الفلسفة باسم « الثورة الديكارتية » يتلخص فى القاعدة التى تتطلب البداهة فى كل معرفة وفى كل يقين، لأنها انما تدعو الى رفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها على التفكير ، ولا تقبل الا حكم العقل الذى لا يرى للحقيقة مقياسا الا البداهة والوضوح والجلاء •

وكثيرون من مؤرخى الفــكر الحديث رأوا فى فلســفة ديكارت وتأملاته هذا الطابع العقلى الصريح الذى يجعل من ديكارت « أبا روحيا للثورة الفرنسية ، وفيلسوفا انتصرت بفلسفته قضية البحث الحر وتأيد بها سلطان العقل » •

وكان لفلسفة ديكارت وتأملاته أعمق الآثار فى مختلف أنحاء العالم : ذاعت فى انجلترا وألمانيا وهولندا وايطاليا وفى غيرها من البلاد الأوروبية ، ابان القرن الثامن عشر وتغلغل الفيلسوف فى أبعد أصقاع الدنيا •

كذلك كانت لتأملات ديكارت آثار بعيــدة المــدى فى التاريخ ، فقد كانت آراء الفيلسوف بمثــابة ثورة فكرية هائلة ، بل كانت على التحقيق أكبر ثورة فلسفية عرفهــا الناس منذ أيام الفيلسوف اليونانى « سقراط » حتى عهد الفيلسوف الألمانى «كانط» ، وكذلك كانت المثالية «الكانطية الجديدة » عند « فشته » و « شوبنهور » موافقتين لبــداية المثالية الديكارتية ، وان كانتا قد اختلفتا عنها فى النتائج الواقعية التى انتهت اليها ، ولقد رأى « شلنج » أن الطابع

الذى يميز الفلسفة الحديثة هو الفصل بين « المتناهى » و « اللا متناهى » ، وان ديكارت قد عبر عن الثنائية تعبيرا علميا ، وما الفلسفة النقدية الا تحقيق تلك الفكرة التى بدأت بديكارت • ويبدو مفكرو الألمان اليوم ميالين الى قبول نظرية ديكارت فى المعرفة ، وهم يجلون الفيلسوف الفرنسى ويرون فيه مثال المفكر الصحيح العميق • ومن أشهر من تأثروا فى عصرنا هذا بفلسفة ديكارت الألمانى « ادموند هوسرل » (٣) • وهو نفسه يعترف فى مستهل كتابه : « تأملات ديكارتية » بأثر ديكارت عليه ويقول بصدد مذهبه فى « الفينومينولوجيا » : « ربما صح أن نسمى هذا المذهب ديكارتية جديدة ، وان كنا قد اضطررنا الى أن نطرح على التقريب كل ما للديكارتية من فحوى معروف • وذلك لأننا بسطنا بعض المسائل الديكارتية بسطا قائما بذاته » • ولا نزاع اليوم فى أن فيلسوفنا كان مصدر الهام قوى لفلسفات الحرية التى ظهرت آثارها فى الأجيال اللاحقة فى الغرب والشرق على السواء •

★★★

وجملة القول ان رائد المذهب العقلى فى العصر الحديث قد جعل من التفكير الواعى فريضة على كل واحد ، وآمن بأن الانسان انما خلق لوجود أسمى من وجوده فى اطار الزمان والمكان ، وانه لا حياة لحضارة انسانية من غير ميتافيزيقا •

---

(٣) أدموند هوسرل « فيلسوف ألمانى وضع أسس منهج الفينومينولوجيا (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) •

والناظر فى تأملات ديكارت وفلسفته يتجلى له منهما أمران نعتقد أن عصرنا هذا محتاج الى أن يتدبرهما وأن يطيل الوقوف عندهما : وهما الثقة بالله العليم الحكيم، والثقة بالعقل البصير المستنير • ففلسفة ديكارت هى فلسفة العقل الذى يفتح للانسان آفاق المعرفة والعلم ، ويغزو بنوره عالم السماء والأرض • فاذا أحسن المرء استعماله ، مع دوام الثقة بالله مبدع الكون ، استطاع أن يسخره لخدمة الانسانية واسعادها ، وحفظ صحتها ، وتوفير رخائها ، وتوطيد دعائم السلام بين أفرادها وجماعاتها • ولعل أكبر رسالة يتلقاها عصرنا هذا من تأملات ديكارت هى ضرورة تبرير العلم بالميتافيزيقا لا انكارها والتهجم عليها •

ولو بعث «أبو الفلسفة الحديثة» بيننا اليوم ؛ لرأى أنه مازال رائدا لذوى الأصالة من العلماء ، أعنى أولئك الذين لا ينكرون ما جاوز مقاييس الحس ، ويحرصون على أن يفكروا وفقا للعقل •

★★★

كتاب المبادئ

اسحق نيوتن

١٦٨٧م

أعظم انتاج فكرى أنتجه الذهن البشرى

« نيوتن أعظم عباقرة العالم »

يعتبر اسحق نيوتن من أبرز شخصيات التاريخ ومن أعظم العلماء الذين قدموا للانسان خدمات تجل عن الوصف، ولم تعرف البشرية قط عالما على ذلك القدر من الأهمية والعطاء • فانه أكثر العلماء تأثيرا فى هذا الكون •

ان سيرة اسحق نيوتن يصعب ايجازها فى سطور ، فقد كان بحرا عميقا من العسير سبر أغواره ، ويكفى لكى نتلمس عبقرية ذلك العالم الفذ آن ننصت الى ما قاله عنه العالم الأشهر آينشتين : « ان كل ما عرف من العلوم الطبيعية النظرية مدين لنيوتن ••• وليس غير امتداد طبيعى لآرائه •• » •

اسحق نيوتن كبير عباقرة الانجليز ، لا بل أعظم عباقرة العالم على مر الأجيال •• ولد ضعيفا هزيلا ، تضطرب أنفاسه فى صدره ، فى يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٦٤٢ م •• وما ان وقعت عينا القابلة عليه حتى قالت : « يا الهى انه من أصغر المواليد ، أستطيع ، بدون مبالغة ، أن أضعه فى كوز ماء » وقدرت له حياة يومه أو أقل من ذلك ، ولكن القدر شاء لهذا الطفل أن يبقى (٧٥ عاما) طواها فى

تؤدة وأناة ·· نشر خلالها أعلام المعرفة ·· وكلل مفرق العلم بغار النصر ·· نصر العلم على أسرار الطبيعة ·

ودرج اسحق نيوتن على بساط الأيام يطويها من خلفه حتى آن بلغ الرابعة فأودعته أمه حجر جدته ، وتخلت عنه لتعيش فى كنف زوجها الجديد · لقد مات زوجها الأول (والد اسحق نيوتن) ولم يكن الجنين قد اكتمل نموه فى الأحشاء · ورآت الجدة مخايل الذكاء على حفيدها ، فهو الطفل الذى لا يفتأ فى كل يوم يبتدع لها بآلاته الصغيرة ·· المطرقة والمنشار ·· آلوانا وآشكالا كثيرة مستطرفة لا تدرك هى كيف كد الصبى عقله فأوجدها ·

ويكبر اسحق نيوتن مع الأيام ·· ويزداد ولوعه بابتكار الآلات الصغيرة والدقيقة كبرا ، حتى انه استطاع صنع ساعة يدار عقرباها بنقط من الماء تنحدر عليهما من وعاء مستقل كان يملؤه كل صباح · وكان ابان طفولته شغوفا بالعلم ، حريصا عليه ، الا انه حينما ذهب الى المدرسة فى الثانية عشرة من عمره لم يبد نجابة بادىء الأمر ، وظل طالبا عاديا الى أن استفز أهميته العقلية آحد الطلبة من زملائه الأشداء ، فقد سدد اليه هذا الأخير ضربة بقبضة يده هوت به الى الأرض فأخذ الطلبة يتضاحكون عليه ، ويتندرون بضعفه ووهنه · وشحذ الصبى عقله ·· وانتصر على خصمه انتصارا مبرما ·· لا فى حلبة المصارعة ، بل فى ميدان العلم ·· وبرز اسمه منذ ذلك الوقت بين أقرانه وأصبح التلميذ النابغة فى مدرسته بدون منازع !

لكن صوت الأرض ظل يدوى فى أذنيه ٠٠ تدعوه اليها ليقيم أمرها ، ويحرث ويعزق أرضها ، ويحمل على كتفيه تبعات أبيه الراحل ، فهجر الدراسة ولبى لها النداء ، ولكنه لم يدم على حالته تلك طويلا ٠ فقد حرمت عليه أمه مطالعة أى كتاب ، وطلبت منه الانصراف بكلية طاقته الى الأرض٠ أن فتى مثل اسحق نيوتن لا يستطيع على هذا الأمر صبرا ، فأخذ يسترق ساعات الزمن فى خلسة ٠٠ بعيدا عن أعين الرقباء وينكب على كتيب يتدارسه ٠٠ أو مسألة يعالج فك مغاليقها ٠ وقبض عليه خاله فى أحد الأيام وهو ملق برأسه الى ورقة يحبرها بالأرقام والأعداد ، فوضع الخال يده عليه ، وقال : انك يا اسحق أحد اثنين لا ثالث لهما عندى ، فاما أن تكون مجنونا أو عبقريا فذا ، والله وحده أعلم بحقيقة الأمر ، ومن ثم خلى بينه وبين دراسته ٠ فالتحق بكلية الأقانيم الثلاثة فى كمبريدج عام ١٦٦٠ ، وبز اخوانه فى الدرس والتحصيل وخاصة فى الرياضيات حتى تخرج فى الكلية ٠

وفى عام ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضيات «اسحاق بارو » ، وعين نيوتن خلفا له بناء على توصية منه ، وصف فيها نيوتن بأنه « عبقرى لا نظير له » ، وقد احتفظ بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما ٠ ولم يكن بالمعلم الناجح ٠ كتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول : « كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين ، والذين يفهمونه أقل ، حتى انه كان أحيانا كثيرة وكأنه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين » ٠ وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين اطلاقا فيعود الى حجرته كاسف البال ٠ وبنى فيها مختبرا ـ

كان الوحيد فى كمبردج آنئذ ـ وقام بالكثير من التجارب ، لا سيما فى الخيمياء (١) « وهدفه الأكبر تحويل المعادن » ولكنه اهتم أيضا بـ « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة » ، وواصل دراساته الخيميائية من عام ١٦٦١ الى ١٦٩٢ وحتى وهو يكتب كتابه المبادىء ، وكان أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلا محموما بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب • ولم يكن هدف نيوتن تجاريا بشكل واضح ، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية ، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن يفسر بها العناصر على أنها أشكال مغايرة ، قابلة للتحويل ، لمادة أساسية واحدة • ولا سبيل لنا الى التأكد من أنه كان مخطئا •

وكانت له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج ، يتمشى فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع الى مكتبه ليسجلها • كان قليل الجلوس ، يؤثر أن يذرع حجرته كثيرا (فى رواية سكرتيره) « حتى لتخاله ••• واحدا من جماعة أرسطو » المشائين (٢) • وكان مقلا فى الطعام ، وكثيرا ما فوت وجبة ، ونسى أنه فوتها ، وكان ضنينا بالوقت الذى لابد من انفاقه فى الأكل والنوم • «ونادرا ما ذهب لتناول الطعام فى القاعة ، فاذا فعل فانه ـ ما لم ينبه ـ يذهب فى هيئة زرية ، حذاؤه بالى الكعبين ، وجواربه بلا رباط •••

---

(١) الخيمياء : كيمياء قديمة • ازدهرت فى القرون الوسطى غايتها تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب واكتشاف علاج عام لجميع الأمراض ووسيلة تعرف بأكسير الحياة لاطالة العمر الى ما لا نهاية •

(٢) المشاءون : أتباع أرسطو وتلاميذه • أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يمشون فى ممرات اللوقيون الذى اتخذه أرسطو مدرسة • أشهرهم ثاوفراسطوس واستراتون •

ورأسه غير ممشط الا فيما ندر ! » وقد رويت ، واخترعت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه • ويؤكد المؤرخون انه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى ثيابه وقد استغرقه الفكر • وكان أحيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة أخرى ، ويخط أفكارا على عجل ، وينسى أصحابه تماما •

مجـالات عبقريتـه

لقد كان نيوتن راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس والثلاثين بكمبردج • وقد وضع « قواعد للتفلسف » ـ أعنى للطريقة والبحث العلميين • ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى « مقاله » كمبادىء قبلية تستنتج منهـا كل الحقائق الكبرى بالاسـتدلال • وحين قال نيوتن « أنا لا أخترع فروضا » كان يعنى أنه لا يقدم نظريات حول أى شىء يتجاوز ملاحظة الظواهر ، فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية ، بل يكتفى بوصف مسـلكها وصياغة قوانينها • ولم يزعم أنه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب ، فان مختبره على العـكس خصص لاختبار مئـات الأفكار والامكانات ، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت • كذلك لم يرفض الاستدلال ، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضى الى المبـادىء • وكانت طريقته أن يتصـور الحلول الممـكنة للمشكلة ، ويستنبط متضمناتها الرياضية ، ويختبر هذه بالحسـاب والتجربة • وكتب يقول : « يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا ـ البحث عن ظـواهر الحـركات فى قوى الطبيعة ،

ثم ايضاح الظواهر الأخرى من هذه القوى » • لقد كان مزيجا من الرياضيات والخيال ، ولن يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعا •

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا • ان لشهرة نيوتن بؤرتين : حساب التفاضل ، والجاذبية • بدأ عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أية نقطة على منحنى • ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة Fluxions وفسر هذا المصطلح تفسيرا لا يمكننا أن نصل الى خير منه :

« ان الخطوط ترسم ، وبهذا الرسم تولد ، لا بضم الأجزاء بعضها الى بعض ، بل بالتحرك المستمر للنقط ، والسطوح بتحريك الخطوط ، والمجسات بتحرك السطوح ، والزوايا بدوران الجوانب، وأجزاء الزمن بالفيض المستمر، وهكذا فى غير ذلك من الكميات • وعلى ذلك فبما أن الكميات ، التى تزداد من أزمان متساوية ، وبالزيادة تولد ، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الأكبر أو الأقل التى تزداد أو تولد بها •• فاننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التى تولد بها ، واذ أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ « الفروق » والكميات المولدة « المتغيرات » • فقد اهتديت شيئا فشيئا الى طريقة الفروق فى عامى ١٦٦٥و١٦٦٦» •

ولعله استخدم هذه الطريقة فى التوصل الى بعض النتائج المتضمنة فى كتابه « المبادىء » عام ١٦٨٧ ، ولكن

عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه • وقد أسهم ببيان لطريقته فى الفروق ــ ولكن دون أن يخفى اسمه ــ فى كتاب «الجبر» عام ١٦٩٣ • وكان فى طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته ، وربما أراد أولا أن يحل الصعوبات التى أوحت بها • وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية « ذات الحدين » التى خلص اليها • ولو أنه صاغها على الأرجح فى ١٦٦٥ •

على أن الرياضيات ، على ما فيها من عجب ، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات ، فهى لم تزعم أنها تفقه الحقيقة أو تصفها • فلما تحول نيوتن من الأداة الى البحث الجوهرى ، عكف أولا على استكناه سر الضــوء • وتنــاولت محاضراته الأولى فى كمبردج الضوء واللون والرؤية ، وعلى عادته لم ينشر كتابه « البصريات » الا بعد خمس وثلاثين سنة فى عام ١٧٠٤ ، فقد كان بريئا من شهوة النشر •

وكان قد توصل عام ١٦٦٦ الى أحد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات ، وهو أن الضوء الأبيض ، أو ضوء الشمس ، ليس بسيطا أو متجانسا ، بل هو مركب من الأحمــر والبرتقــالى والأصــفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى • وجمع مناقشــاته حول الضــوء فى كتــابه « البصريات Opticks » فى عام ١٧٠٤ •

أصل نظرية الجاذبيـة

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن • شهدت بداية جهوده فى البصريات ، لكنه كذلك يقول عن ذكرياته ان شهر مايو « كان مدخلى الى الطريقة العكسية للفروق المستمرة ، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد الجاذبيـة الى مدار القمر ••• بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر فى مداره ، وقوة الجاذبية على سطح الأرض ، ووجدتهمـا متفقتين تماما تقريبا ••• فى تلك السنين كنت فى ربيع عمرى » •

وفى عام ١٦٦٦ وصل الطاعون الى كمبردج ، فعـاد نيوتن الى موطنه وولز ثورب طالبا للسلامة • وهنا نلتقى بقصة لطيفة • كتب فولتير فى كتابه « فلسفة نيوتن » :

« ذات يوم من أيام عام ١٦٦٦ ، حين كان نيوتن معتكفا فى الريف رأى ثمرة تسقط من شـجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت ، فاسـتغرق فى تفـكير عميق فى السبب الذى يجذب جميع الأجسام فى خط اذا مد يكون قريبا جدا من مركز الأرض » •

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصـة التفاحة • وهى لا ترد فى كتب مترجمى نيوتن القدامى ، ولا فى روايتـه لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية ، والفكرة السائدة اليوم عن القصة أنها أسطورة • وأرجح منها قصـة أخرى رواها فولتير ، وهى أن غريبا سأل نيوتن كيف اكتشف قوانين الجاذبية ، فأجاب « بادمان التفكير فيها » وسنا لا ريب فيه

أنه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التى تحفظ الكواكب فى أفلاكها وانتهى الى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس • ولكنه لم يستطع الى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية ، فنحاها جانبا ، ولم ينشر عنها شيئا طوال الأعوام الثمانية عشر التالية •

وقد كتب هو نفسه فى كتاب لم ينشر الا بعد موته بثمانية وأربعين عاما يقول :

« ان القوة المنبعثة من القمر تصل الى الأرض ، وبالمثل فان القوة المغناطيسية للأرض تعم منطقة القمر ، وكلتاهما تتجاوب وتتآلف بتأثيرهما المشترك ، حسب تناسب الحركات وتطابقها ، ولكن تأثير الأرض أكبر نتيجة لكبر كتلتها » •

★★★

كتاب المبادىء PRINCIPIA

وقد فسرت عنوان الكتاب مقدمته :

« بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) (٣) علقوا أهمية عظمى على علم الميكانيكا فى بحثهم فى الأشياء الطبيعية ، وبما أن المحدثين ، بعد أن نحوا أشكال المادة (التى قال بها السكولاستيون) (٤) والصفات الغيبية ،

---

(٣) بابوس : رياضى يونانى (حوالى ٣٠٠) عاش فى الاسكندرية • كان مؤلفه (مجموعة الهندسة) عاملا فى نهضة الهندسة فى القرن ١٧ •

(٤) السكولاستيون : الفلسفة المدرسية ، فلسفة المدرسيين : وهى الفلسفة التى كانت سائدة فى القرون الوسطى •

حاولوا اخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضيات ، فقد طورت الرياضيات فى هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية) ٠٠ وعليه فانا نقدم هذا المؤلف على أنه المبادىء الرياضية للفلسفة ، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هى فى بحث قوى الطبيعة من ظواهر الحركة ، ثم توضيح الظواهر الأخرى من هذه القوى » ٠

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة :

« وددت لو استطعنا استخلاص باقى الظواهر الطبيعية بنفس نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكية ، لأن مبررات كثيرة تحملنى على الظن بأنها ربما كانت كلها تتوقف على قوى معينة تدفع بواسطتها جزئيات الأجسام بأسباب مجهولة الى الآن بعضها نحو البعض ، وتتماسك فى أشكال منتظمة ، أو تصد وتتراجع بعضها عن البعض ، واذا كانت هذه مجهولة ، فقد حاول الفلاسفة الى الآن البحث فى الطبيعة عبثا ، ولكنى أرجو أن تلقى المبادىء الموضوعة هنا بعض الضوء على تلك الطريقة ، أو على طريقة أصح ، من طرق الفلسفة » ٠

وبعد أن وضح نيوتن بعض التعاريف والبدهيات ، صاغ ثلاثة قوانين للحركة :

١ ـ كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم يضطر الى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه ٠

٢ ـ تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحركة الواقعة ، ويتم فى اتجاه الخط المستقيم الذى تقع فيه تلك القوة ٠

٣ ـ كل فعل يقابله دائما رد فعل مساو له ٠

أما وقد تسلح نيوتن بهذه القوانين ، وبقانون التربيع العكسى فقد تقدم الى صياغة مبدأ الجاذبية ٠ وصورة المبدأ الحالية ، وهى ان كل جزىء من المادة يجذب كل جزىء بقوة تتناسب تناسبا طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسبا عكسيا مع مربع البعد بينهما ، هذه الصورة لا نجدها بهذا النص فى أى موضوع فى كتاب المبادىء ، ولكن نيوتن أعرب عن الفكرة فى التعقيب العام الذى ختم به الكتاب الثانى : « ان الجاذبية ٠٠٠ تعمل ٠٠٠ حسب كمية المادة الجامدة التى تحتويها (الشمس والكواكب) ، وتنتشر قوتها على جميع الجهات ٠٠٠ متناقصة أبدا بما يتناسب مع المربع العكسى للمسافات » ٠ وقد طبق هذا المبدأ ، وقوانينه فى الحركة ، على مدارات الكواكب ، ووجد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الأهليلجية التى استنتجها كبلر (٥) ٠ وزعم ان الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة ، وتحفظ فى مداراتها ، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسبا عكسيا مع مربع أبعادها عن مركز الشمس ، وفسر جذب المشترى لتوابعه ، والأرض والقمر ٠ وبين أن نظرية ديكارت فى الدوامات باعتبارها الشكل الأول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانين كبلر ٠ وحسب كتلة كل كوكب ، وقدر كثافة الأرض من خمسة الى ستة أمثال كثافة الماء

(٥) كبلر : يوهانس كبلر (١٥٧١ ـ ١٦٣٠) فلكى المانى نشر قوانينه عن المجموعة الشمسية ٠

(والرقم الحالى ٥ر٥) • وعلل رياضيا تفرطح الأرض عند القطبين ، وعزا انبعاجهما عند الاستواء الى قوة الشمس الجاذبة ، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارهما راجعين الى جذب الشمس والقمر الموحد للبحار ، وبمثل هذا الفعل القمرى ـ الشمسى فسر مبادرة نقطتى الاعتدالين ، ورد مسارات المذنبات الى مدارات منتظمة ، وبهذا أيد نبوءة هالى(٦) • وقد صور كونا أعظم تعقيدا من الناحية الميكانيكية مما ظن من قبل ، لأنه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب ، فأصبح الآن كل كوكب أو نجم ينظر اليه على أنه متأثر بكل كوكب أو نجم آخر • ولكن فى هذا الحشد المعقد من الأجرام السماوية وضع نيوتن قانونا يحكمه : فأبعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضيات اللتين يخضع لهما أصغر الجزيئات على الأرض • ان رؤية الانسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق فى الفضاء الى مثل هذا البعد ، ولا بمثل هذه الجرأة •

★★★

وقد نفدت الطبعة الأولى من كتاب « المبادىء » سريعا ، ولكن لم تظهر طبعة ثانية الا فى عام ١٧١٣ • وعزت نسخه حتى ان عالما نسخ الكتاب كله بيده • واعترف القراء بأنه عمل فكرى من أرفع طراز ، ولكن بعض ملاحظات النقد كدرت صفو الثناء عليه • فرفضت فرنسا النظام النيوتونى، الى أن عرضه فولتير فى سنة ١٧٣٨ عرضا ملؤه الاعجاب

(٦) هالى : عالم فلك انجليزى أسهم اسهاما بارزا فى دراسة القمر والزهرة وحركة النجوم • كان أول من وضع جدولا بنجوم نصف الكرة السماوية الجنوبى (١٦٧٩) • وكان أيضا أول من تنبأ بعودة المذنبات • واليه ينسب « مذنب هالى » •

والتبجيل • واعترض كاسينى وفونتنيل بأن الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف الى القوى الماضية ، وقالا ان نيوتن شرح بعض العلاقات بين الأجرام السماوية ، ولكنه لم يكشف عن طبيعة الجاذبية ، التى ظلت سرا خفيا كسر الله • وقال ليبنتز (٧) بأنه ما لم يستطع نيوتن بيان الكيفية التى تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها ، خلال فضاء يبدو فارغا ، فى أجسام تبعد عنها ملايين الأميال ، فانه لا يمكن قبول الجاذبية على انها شىء أكثر من مجرد كلمة •

ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبول السريع حتى فى انجلترا ، وزعم فولتير أن المرء كان بالجهد يجد عشرين عالما يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة بأربعين عاما • وبينما شكا النقاد فى فرنسا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقدر الكافى ، كانت الاعتراضات عليها فى انجلترا فى أغلبها دينية ، فأسف جورج باركلى (٨) فى كتابه « مبادىء المعرفة الانسانية » عام (١٧١٠) لأن نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة ، سرمدية فيما يبدو ، وموجودة مستقلة عن المساندة الالهية • فالميكانيكية تطغى على النظام النيوتونى طغيانا لا يترك فيه مكانا لله •

فلما وافق نيوتن على أن يعد طبعة ثانية للكتاب ، حاول أن يهدىء من ثائرة نقاده ، فأكد أنه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل ،

---

(٧) ليبنتز : جو كفريت فيلهلم ليبنتز : (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) فيلسوف ألمانى اكد معقولية الكون وارتباطه بالله •

(٨) باركلى : فيلسوف ايرلندى (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣) • (انظر صفحة ٩٨ من الجزء السادس من هذه الموسوعة) •

رغم انه لن يحاول وصفه ، ثم اعترف بصراحة أنه لا يفقه طبيعة الجاذبية • وبهذه المناسبة كتب فى الطبعة الثانية كلماته التى كثيرا ما يساء فهمها ، وهى انه «لا يضع فرضا» وأنه « يجب أن تتسبب الجاذبية مَن عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة ، ولكنى أترك لقرائى النظر فى هل هذا العامل مادى أو غير مادى ؟ » •

ورغبة فى المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيبا عاما عن دور الله فى نسقه • فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادى ، ورأى حتى فى ذلك العالم أدلة على وجود خطة الهية ، فالآلة الكبرى تتطلب مصدرا أول لحركتها ، لابد أن يكون هو الله ، ثم ان فى النظام الشمسى شذوذات فى المسلك يصححها تعالى دوريا كلما ظهرت • ولكى يفسح نيوتن مجالا لهذه التدخلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة • وافترض الآن أن آلة العالم تفقد بعض طاقاتها بمضى الوقت ، وستفقدها كلها ان لم يتدخل الله ليرد لها قوتها • واختتم بهذه العبارة : « ان هذا النظام البديع ، نظام الشمس ، والكواكب ، والمذنبات ، لا يمكن أن ينبعث الا من مشورة كائن ذكى قوى ومن رحابه » • وأخيرا تحرك صوب فلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوى أو تفسر بمعنى ميكانيكى قال :

« وقد نضيف الآن شيئا يتصل بروح غاية فى الدقة ، روح تنتشر وتختفى فى جميع الأجسام الكبيرة ، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزئيات الأجسام فى المسافات القريبة ، وتتماسك اذا تجاورت ، وتعمل الأجسام الكهربية الى أبعاد

أعظم ، فتصد وتجذب الجزئيات المجاورة ، ويرسل الضوء ، ويعكس ، ويكسر ، ويثنى ، ويسخن الأجسام ، وكل إحساس يثار ، وتتحرك أعضاء الأجسام الحيوانيـة بأمر الارادة ، أعنى بتموجات هذه الروح ، مبثوثة بالتبادل على خيـوط الأعصاب المتينة ، من أعصاب الحس الخارجية الى المخ ، ومن المخ الى العضلات • على أن هذه أشياء لا يمكن تفسيرها فى بضع كلمات ، ثم اننا لم نزود بما يكفى من التجارب التى يتطلبها التقرير والايضاح الدقيقان للقوانين التى تعمـل وفقا لها هذه الروح الكهربية المرنة » •

ترى ماذا كان ايمان نيـوتن الحقيقى ؟ لقـد تطلبت أستاذيته فى كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية ، وكان يختلف بانتظام الى الخدمات الكنسـية الانجليكانية • أما صـلواته الخاصة فيقول فيها سكرتيره : « لا أسـتطيع أن أقول عنها شيئا ، وأميل الى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمتـه من النصيب الأفضل » • ومع ذلك فقد درس الكتـاب المقـدس بنفس الغيرة التى درس بها الكون • وقد أثنى عليه رئيس أساقفة بقوله : « انك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعـرف كلنا مجتمعين » • وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة : « لست أعرف من أمثاله الا القليلين » وقد خلف كتـابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية •

وقادته دراساته الى نتـائج أشـبه بالأريوسية ، وهى قريبة الشبه بنتائج ملتن ، ومجملها أن المسيح وان كان ابن الله الا أنه ليس مساويا لله الأب فى الزمن أو القوة • وفيما عدا ذلك كان نيوتن ، أو أصبح ، مستقيم العقيدة تماما ،

ويبدو أنه آمن بكل كلمة من كلمات الكتاب المقدس على أنها كلمة الله ٠

★★★

الكتاب الذى أجلى غوامض الكون للبشرية

هذا وقد بلغ صيت نيوتن الذرا ، فقدر ليبنتز أن كتاب « المبادىء » يعدل فى قيمته كل المؤلفات السابقة ٠ وذهب هيوم الى أن نيوتن « أعظم وآندر عبقرى ظهر ليشرف النوع الانسانى ويعلمه » ووافقهفولتير فى تواضع٠ ووصف لجرانج كتاب « المبادىء » بأنه « أعظم انتاج أنتجه الذهن البشرى » ، وضمن له لابلاس الى الأبد « مكان الصدارة على جميع انتاجات العقل البشرى » وأضاف أن نيوتن أوفر الناس حظا ، لأنه ليس هناك سوى كون واحد ، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له ، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ ٠ ومثل هذه الأحكام لا ثبات لها لأن « الحقيقة » حتى فى العلم ، تذبل كالزهرة ٠

ويرى ميشيل هارت أن من يرجع الى الموسوعة العلمية ، يجد بأن للعالم الكبير نيوتن من المراجع ما يعادل ثلاثة أضعاف أية مراجع تخص العلماء الآخرين ٠ كما أن من الضرورى عند النظر فى قوانين نيوتن واكتشافاته الرجوع الى ما قاله علماء عصره عنه ٠٠ لقد كان بحق العبقرى الذى فاق حدود زمنه والرجل الأكثر أهمية فى اضفاء صفحات من التقدم والحضارة على تاريخ الانسانية ٠

ولو أننا قسنا عظمة انسان بأقل المقاييس ذاتية ، وهو انتشار تأثيره وطول بقاء هذا التأثير ، لما وجدنا لنيوتن نظيرا الا فى مؤسسى الأديان السماوية • لقد كان تأثيره على الرياضيات الانجليزية ــ حينا ــ تأثيرا ضارا ، لأن « فروقه وتنويتها كانا أقل يسرا من حساب التفاضل والتنويت اللذين هيمن بهما ليبنتز على القارة • ويبدو أن نظريته فى جسيمات الضوء عاقت تقدم البصريات قرنا ، وان وجد بعض الطلاب الآن عونا كبيرا فى نظرية نيوتن • أما فى الميكانيكا فقد أثبت عمله أنه خلاق الى غير حدود • كتب أرنست ماخ (٩) يقول : « ان كل ما أنجز فى الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطويرا استنتاجيا ، شكليا ، رياضيا ••• على أساس قوانين نيوتن » •

وقد خشى اللاهوتيون لأول وهلة من تأثير كتاب « المبادىء » على الدين ، ولكن محاضرات بويل (١٠) التى ألقاها بنتلى عام ١٦٦٢ ، بتشجيع من نيوتن ، حولت النظرة الجديدة الى العالم الى تأييد الايمان ، لأنها أكدت أن وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله •

لقد كشف نيوتن فى كتابه الخالد « المبادىء » عن هذه القوة الخالدة على هذا الكون الكبير ، الذى تفصل بين نجومه

---

(٩) أرنست ماخ : (١٨٣٨ ــ ١٩١٦) فيلسوف وفيزيقى نمساوى • كانت له بحوث مهمة فى نظرية النسبية والرياضيات ، وعلم وظائف الأعضاء •

(١٠) بويل : روبرت بويل (١٦٢٧ ــ ١٦٩١) كيميائى بريطانى أول من ميز العناصر والمركبات ، وقانون بويل مؤداه أنه اذا تساوت درجة الحرارة فان تناقص حجم الغاز المضغوط يتناسب مع ازدياد الضغط •

وسدمه ومجراته مسافات لا يدركها العقل ، بشريا كان أو الكترونيا ٠٠ مسافات مذهلة تقدر بملايين السنين الضوئية ٠٠ ولكن رغم البون الشاسع ٠٠ تبقى الجاذبية المقدسة رباطا للكون ، ويبقى الايمان بالخالق العظيم تفسيرا حكيما لهذا الرباط المقدس الأزلى ٠

من أجل هذا لم يكن يوم ٢٠ مارس سنة ١٧٢٧ يوم نهاية نيوتن على هذه الأرض ؛ ولكنه كان بدء دخوله فى رحاب الخالدين ، فقد عبر البابا ألكسندر عن ذلك بأسطر من الشعر قال فيها : « كانت الطبيعة وقوانينها مختبئة فى الظلام ٠ فقال الخالق : فليكن نيوتن ٠ فاذا بالطبيعة وقوانينها تخرج من الظلام إلى النور ! » ٠

وهكذا يتضح مدى ما كان لكتاب « المبادىء » لنيوتن من تأثير فى العقل البشرى ، فقد خلص الانسان من كثير من دواعى الحيرة التى تنتابه كلما فكر فى أسرار الطبيعة المعقدة وألغاز الوجود المبهمة ، اذ علمه أن فى هذا الكون قانونا ونظاما تسير وفقهما الأشياء والأفلاك ٠

★★★

روح القوانين

مونتسيكيو

١٧٤٨م

أكثر الآثار العلمية تشكيلا للفكر الاجتماعى والسياسى فى العصور الحديثة

لقد كان كثير من النقاد يعدون كتاب « روح القوانين » أعظم المؤلفات التى قادت الفكر السياسى والاجتماعى والفلسفى من القرن الثامن عشر وحتى الآن • وكان مونتسيكيو جد فخور بكتابه هذا الذى كان يمثل ثمرة أبحاثه طيلة حياته ولذلك حرص على تصديره فى طبعته الأولى بالمثل اللاتينى المشهور « Problemsine matre creatam طفل مولود بلا أم» • ولقد شرح مونتسيكيو ما يقصده من ذلك فقال ان كتابا يؤلف عن القوانين وروحها يجب ألا يظهر الا فى دولة تتمتع بالحرية الحقة ، فالحرية التى تسود بلدا من البلاد هى شرط أساسى لصدور مثل هذا الكتاب اذ هى بمثابة الأم التى تؤدى الى نشأة هذه المؤلفات ورعايتها ، ولكن كتاب « روح القوانين » بلا أم لأنه ألف فى فرنسا التى لا تتمتع ـ فيما يرى المؤلف ـ بأية حرية • ولكن لفيفا من النقاد يعتقد أن مونتسيكيو أراد بكتابته هذا المثل الفخر بكتابه ، اذ أراد من ذلك أنه لم يترسم فيه خطى أى مفكر أو فيلسوف سابق عليه •

. ويندر أن تجد مؤلفا يمثل ثمرة حياة علمية بأكملها مثل كتاب روح القوانين الذى يمثل حقا بالنسبة لصاحبه كتاب العمر • حقا أن مونتسيكيو قد ألف مؤلفات لا حصر

لها قبل تأليفه روح القوانين ، ومن بينها مؤلفات شهيرة اقترن بها اسم مؤلفه مثل « رسائل فارسية » و « ملحوظات عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » وخطبة الافتتاحية فى برلمان بوردو ورواياته وقصصه الى آخر كل ذلك ، ولكن كل تلك المؤلفات كانت مقدمة لذلك السفر الكبير الذى أزمع تأليفه والذى سلخ فى كتابته أربعة عشر عاما أو من سنة ١٧٣٤ حتى سنة ١٧٤٨ • وتقول فى هذا الشأن مدام دى لامبير التى كانت صاحبة منتدى أدبى مشهور فى القرن الثانى لحماية الأدباء والعلماء والمفكرين وتشجيعهم والتى كانت بمثابة أم روحية لمونتسيكيو ، ان مونتسيكيو لم يفعل بمؤلفاته السابقة على روح القوانين أكثر « من افساح الطريق أمام مشروع كان من شأنه أن يخلد اسمه ويرفعه مبجلا على ممر القرون المستقبلة » •

ولما كان كتاب روح القوانين يدور ـ كما سنرى ـ حول القوانين والعادات والتقاليد التى تسود المجتمعات المختلفة ، ولما كان مونتسيكيو يعلم تمام العلم أنه بهذا الكتاب يقوم بفتح جديد فى باب الدراسات الاجتماعية والسياسية والقانونية ، فانه لم يقتصر على قراءة المؤلفات القديمة والحديثة التى رأى فيها فائدة لموضوع كتابه الكبير ، بل رأى أن يتبع ذلك بزيارات يقوم بها للمجتمعات الأدبية المختلفة حتى يرى التباين بين طبائع المجتمعات المختلفة رأى العين ويلمسه « على الطبيعة » ، فزار النمسا وايطاليا وألمانيا وانجلترا ، حتى يكون على بينة فى كتابة مؤلفه •

واذا كانت مؤلفات أى مؤلف تعكس فى ناحية من نواحيها على الأقل الظروف الاجتماعية والسياسية ، بل والعائلية التى كانت تكتنف حياة صاحبها ، فان « روح القوانين » يعد أصدق مرآة للظروف التى كانت تحيط بصاحبه فى حياته العائلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولهذا سنبدأ موضوعنا بملخص لحياة مونتسيكيو ثم ننتقل بعد ذلك الى تحليل كتاب روح القوانين . وأخيرا سنعرض للأثر الكبير الذى تركه هذا المؤلف الضخم وآراء العلماء فيه .

حياة مونتسيكيو ومؤلفاته

ولد شارل دى سيكوندا بارون دى لابريدو دى مونتسيكيو ، فى « لابريد » بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتانى الفرنسية فى ١٨ يناير ١٦٨٩ ، وينتمى لأسرة ذات تاريخ طويل فى خدمة البلاط الفرنسى ولقد ورث لقب البارونية عن جد له ، اذ كانت التقاليد تقضى باطلاق هذا اللقب وغيره من الألقاب الأخرى كالامارة والدوقية على جزيرة أو مقاطعة أو مدينة أو قرية أو اقطاعية ، كما ورث عن أجداده لقب الرئيس القضائى لبرلمان جيين ، ذلك أن فرنسا طوال العصور الوسطى وحتى قيام ثورتها المشهورة كانت مقسمة الى مقاطعات ، لكل منها برلمان له اختصاصات تشريعية وقضائية ، وكان للبرلمان رئيس أعلى يتلوه فى الترتيب رئيس « ذو قلنسوة » وهو شعار للرأس كان يلبسه القضاة أثناء تأدية وظيفتهم كما كان يلبسه كبار الموظفين ، وكانت وطنية الرئيس ذى القلنسوة تورث ، شأنها فى ذلك

شأن كثير من الوظائف التى تباع وتشترى وتورث وتوهب مثلها فى ذلك كمثل الأموال العقارية والمنقولة ، وقد دافع مونتسيكيو عن بيع المناصب باعتباره « عملا حسنا فى الدولة الملكية ، لأنه يجعل من واجب أبناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التى قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المغرضة وحدها » . وقد ورث مونتسيكيو هذا اللقب عن عمه جان بابتيست الذى كان قد ورثه بدوره عن جد مونتسيكيو .

وتربى مونتسيكيو فى مدرسة كان يشرف عليها جماعة تسمى جماعة الخطابيين وهى جماعة ذات نزعات متحررة تجديدية ، تعنى أشد العناية بتدريس أصول الخطابة والبلاغة . ومن هنا نفهم سر ولع مونتسيكيو بالتاريخ . وقد حصل بعد دراساته الابتدائية والثانوية على ليسانس فى القانون من جامعة بوردو ثم ذهب الى باريس ليمرن على مهنة المحاماة ، وهناك اتصل بالأوساط والمنتديات العلمية وسيدات المجتمع الرفيع مثل مدام دى لامبير ، ثم فنتيل والأب سان بيير وقرأ « رحلة شاردان » فى بلاد الفرس ثم « ألف ليلة وليلة » وهو الكتاب الذى ترجمه جالان .

وكان غرام مونتسيكيو فى الفترة السابقة على تأليف « الرسائل الفارسية » بالعلوم والرياضيات لا يعرف حدودا لا سيما بعد أن انضم لأكاديميتى بوردو عام ١٧١٦ حيث حمل على تقييد حرية الفكر والبحث وابداء الرأى وفعلا أنشأ معملا بالأكاديمية وبدأ يجرى تجارب على الحيوانات بغية

هدم نظرية الحيوانات الآلية التى سادت القرن السابع عشر وهى النظرية التى كانت تذهب الى أن الحيوانات لا نفوس لها وأنها مجرد آلات متقنة الصنع فلا تتألم ولا تشعر كالانسان ٠

على أنه كان معجبا بالقرن السابع عشر بحسبانه قرن العلوم قبل أن يكون قرن الآداب ، اذ كان يرى فيه قرن جاليليو وتورشلى وديكارت (العالم لا الفيلسوف) وباسكال (العالم لا الأديب) وهويجنز ونيوتن ولا فرن كورنى وراسين وموليير الأدباء ٠ ولقد أفاد مونتسيكيو من دراسة العلوم والتجارب العلمية اذ ردت اليه ايمانه بالله بعد أن كان يعتقد أن الدين وهم وخيال فى خطاب صدر منه عام ١٧١٦ عن سياسة الرومان ازاء الدين ، ويقول فى هذا المقام : « ان العجب يملأ الفيلسوف كما تملؤه عظمة الله ، عندما يدرك كيف تعمل عضلة واحدة من العضلات » ثم يشير الى القدرة الجبارة التى تنظم عمل الجسم وما به من شرايين وأوردة وأعصاب وغدد ٠٠٠ فالدراسات التشريحية التى أجراها مونتسيكيو قد لعبت أكبر دور ــ فيما يرى النقاد ــ فى تشكيل الفكر الدينى عند مونتسيكيو ٠

ولقد لجأ مونتسيكيو للدراسات العلمية والتشريحية ليفهم أسس السلوك التى تنبنى عليها العبادات والتقاليد وهى التى سيستعين بها على تفسير كثير من الظواهر التى تعرض لها فى كتابه الكبير « روح القوانين » ٠ وكتابه عن « الرسائل الفارسية » سنة ١٧٢١ كان دراسة للعادات والتقاليد الشرقية ومقارنتها بالتقاليد الغربية وكان هو الآخر بمثابة مقدمة للكتاب الذى كان يزمع تأليفه ، اذ ألف

فى نفس الفترة كتاب ملحوظات عن الثروة وأسبابها · وهو فيما يرى كثير من النقاد « الأصل البعيد » لروح القوانين ·

وفى عام ١٧٢٥ خطب وهو رئيس لبرلمان بوردو خطبة افتتاحية كان لها أثر كبير فى الأوساط القانونية والسياسية، اذ حمل على الاتجار بالمناصب القضائية وعلى جهل القضاة ، وعدم نزاهتهم وطالب بسن قانون واضح عام لفرنسا يطبق على الناس جميعا بلا تفرقة حتى يطمئن المتقاضون · ذلك أن فرنسا فى تلك الفترة لم يكن يسودها قانون عام شامل بل كان القاضى فى كل منطقة يحكم حسب العادات والتقاليد فى شىء كبير من حرية التقدير مما أدى الى فساد العدالة ، كما كانت هذه العادات والأعراف مختلفة من مكان لآخر وترجع الى أصول متباينة ، ونقد مونتسيكيو فى خطبته بطء القضاء وتأخير البت فى القضايا « من حفيد الى حفيد حتى يقضى على آخر فرد فى أسرة تعسة » · وكان لهذه الآراء النقدية وأمثالها مما كانت تطفح به كلمات مونتسيكيو سواء فى خطبته البرلمانية أو فى أحكامه، أثر جبار فى توجيه أذهان العلماء والمفكرين الى اصلاح القضاء الفرنسى ، حتى ان برلمان بوردو مكث عدة سنوات يفتتح جلساته بقراءة خطبة الافتتاح التى ألقاها مونتسيكيو سنة ١٧٢٥ · وكل ما تم من اصلاحات قضائية ومن صدور قانون نابليون الفرنسى بعد ثورة ١٧٨٩ كان من بين الأفكار الجديدة التى نادى بها مونتسيكيو ·

ومما يذكر أن مونتسيكيو كان على اتصال وثيق بالعلماء والأدباء المعاصرين له سواء فى فرنسا أو فى الدول

الأخرى من أمثال ريامير وديدرو (١) وفولتير وميران وبيل وموير نوى ، كما أصبح صديقا حميما للفيلسوف المشهور هلفسيوس(٢) وفنتيل ونشأت صداقات بينه وبين الفيلسوف السياسى بفندورف أثناء زيارته لألمانيا عام ١٧٢٩ ، كما اتصل بهيوم وولاس ولوك ونيوتن أثناء زيارته لانجلترا عام ١٧٢٩ ٠

الكتـــــــاب

لقد رجع مونتسيكيو فى تأليفه لهذا الكتاب الى جانب مشاهداته ومحاوراته مع عدد لا يحصى من المفكرين الى عدد ضخم من المؤلفات نخص بالذكر من بينها كتابى «الجمهورية» و « القوانين » لأفلاطون ، و « السياسة » لأرسطو، و «الحيوات والأعمال الأخلاقية » لبلوتارخس ، و « الأمير » لميكافيلى ، و « خطاب سياسى » عن العقد الأول لحكم تبت ليف لنفس المؤلف وكتاب « المدينة الخيالية » لتوماس مور ، و « فى المواطن » لهوبس و « بحث عن الحكومة المدنية » للوك ، و « القانون الطبيعى وقانون الأمم » لبوفندرون ٠٠٠ وهذا الكتاب قيل ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، انه استغرق حياة مونتسيكيو بأكملها، اذ يقول المؤلف بعد أن انتهى من تأليفه : « اننى أستطيع القول بأننى استغرقت فيه حياتى كلها ، اذ عندما انتهيت من دراساتي القانونية وضعته وسط

---

(١) ديدرو : (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) فيلسوف فرنسى وشخصية بارزة فى عصر التنوير ٠ أنشأ أول دائرة للمعارف ٠ (انظر صفحة ١٩٨ من الجزء الثانى من هذه الموسوعة) ٠

(٢) هلفسيوس : (١٧١٥ ـ ١٧٧١) فيلسوف وموسوعى فرنسى ٠ ذهب الى أن الناس جميعا ذوو قدرات متساوية بطبيعتهم ، ثم تعمل ظروف التربية على تفاوتهم ٠

مؤلفات القانون فبدأت أبحث فى تلك المؤلفات عن روح القانون ، فأجهدت نفسى ولم أصنع شيئا ذا قيمة ومنذ عشرين عاما اكتشفت مبادئى وهى جد بسيطة • ولو أن مؤلفا غيرى قام بنفس الجهود لخرج بانتاج أفضل ولكننى أريد أن أستريح ولن أعمل شيئا بعد ذلك » • وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث • وكان يقول : « الدراسة لى هى خير علاج لكل خيبة أمل فى الحياة • ولم أجد ضيقا الا فرج من كربته ساعة قضيتها فى القراءة » •

ويقول استاروبنسكى معلقا على هذا القول ، ان حياة مونتسيكيو السابقة على تأليف روح القوانين كانت موجهة نحو هذا الذى كرس له كل جهوده والذى ملأ عليه حياته ، فهو قد طبق قول المفكر والفيلسوف الانجليزى جون لوك الذى قال : « ان الانسان يجب عليه أن يفقد نصف وقته لكى يستطيع أن يفيد من النصف الآخر » اذ قضى أوقاتا ثمينة فى التردد على المنتديات والملاهى فى الرحلات والمناقشات والحوار واستقاء المعلومات بالطريق الشفوى وعن طريق الرسائل وقام بكتابة القصص •• كل ذلك كان يمثل نصف وقته الذى « أضاعه » لكى يفيد من النصف الآخر بتأليفه كتاب « روح القوانين » • ولقد فقد مونتسيكيو بصره كله تقريبا أثناء تأليف هذا الكتاب مما اضطره فى النهاية الى املاء الأجزاء الأخيرة منه •

وكان كلما كتب فصلا أو جزءا عرضه على أصدقائه ولا سيما مدام دى لامبير التى استشارها فى معظم أجزاء الكتاب ، كما كان يستشير الوزير الأديب دارجنسون والآب

جاسكو • وأخيرا ظهر الكتاب كاملا فى جنيف سنة ١٧٤٨ فى مجلدين من القطع الكبير •

وما ان ظهر كتاب « روح القوانين » حتى أحدث ضجة كبرى اجتاحت فرنسا من أقصاها الى أقصاها فانقسم الفلاسفة ورجال الفكر والدين بين مؤيدين لآرائه ومعارضين لها ولكن رجال الدين على العموم على اختلاف مذاهبهم قد نقدوا الكتاب نقدا مرا ، لأن ما ورد به من نظريات تتعلق بنشأة الفلسفة والدولة وأثر النظم السياسية والهيئة الطبيعية على نشأة الأديان وما تنادى به من نظم •• كل تلك النقاط كانت ـ فيما يرى رجال الدين ـ تتعارض مع ما ورد فى الكتاب المقدس • ولا نكاد نجد أديبا أو فيلسوفا فى فرنسا الا وعلق على هذا الكتاب ، اما بالنقد الموضوعى أو بتحبيذ ما ورد به من آراء أو بالجملة عليه ، مما اضطر مونتسيكيو عام ١٧٥٠ الى اصدار رده على تلك الانتقادات فى كتاب عنوانه « دفاع عن روح القوانين » • ولقد راقبت الكنيسة الكاثوليكية فى روما الكتاب بشىء كبير من الاعتدال ، وفحصه علماء السربون بدون أن يصدروا حكمهم عليه رسميا • وأخذ ديبان الملتزم العام للضرائب فى فرنسا فى دحض ما ورد به من آراء اقتصادية • وفى سنة ١٧٥١ وضعت السلطات الدينية كتاب « روح القوانين » فى القائمة السوداء أو قائمة الكتب المحرمة قراءتها •

★ ★ ★

ويحتوى الكتاب على تصدير يأتى بعده واحد وثلاثون بابا أو جزءا ، وكل جزء مقسم الى فصول وتبلغ الفصول فى مجموعها ستمائة وخمسة • وقد وضع المؤلف لكتابه عنوانا

طويلا يعطى للقارىء ملخصا لما ورد فيه ، فقد كانت العناوين على أيامه توضيحية حقا ، دقيقة غالبا ، ولذا سمى كتابه « روح القوانين » أو « العلاقات التي يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة وغيرها » • وفى التصدير يتوسل مونتسيكيو الى القارىء ألا يتسرع فى الحكم على الكتاب بناء على نظرة خاطفة لبعض ما ورد به « ان لى رجاء أخشى ألا يتحقق ، وهو ألا يحكم قارىء عابر على عمل استغرق عشرين عاما ، وأن يقبل القارىء هذا المؤلف أو يرفضه جملة ولا يقتصر على قبول أو رفض عدة جمل ، لأن الانسان اذا أراد أن يفهم فكرة المؤلف فلن يستطيع الوصول اليها الا اذا فهم فكرة الكتاب » •

ثم يقول : « لقد خبرت الناس أولا ووجدت فى هذه الأشكال المتباينة ، بشكل لا نهاية له ، من العادات والقوانين أن الناس ليسوا مساقين بمحض أهوائهم • فوضعت المبادىء العامة لسلوك الناس ووجدت الحالات الضرورية تخضع لها فى يسر ، كما وجدت أن تاريخ جميع الأمم ليس الا نتائج لتلك المبادىء العامة وأن كل قانون خاص مرتبط بقانون آخر أو يعتمد على قانون آخر أعم منه • ولما اتجهت لدراسة العصور القديمة بذلت الجهد فى استخلاص مبادئها حتى لا يشكل على الأمر فأعتبر من قبيل المتشابهات حالات مختلفا بعضها عن بعض ، وحتى لا تغيب عنى الفوارق الفاصلة بين حالات قد تبدو متشابهة ، اننى لم أستخلص مبادئى قط من آراء ظنية وانما من طبيعة الأشياء » •

وبعد التصدير تأتي الأجزاء أو الأبواب الحادية والثلاثون وهي التي سنقسمها وفقا لرأى النقاد الى ثلاثة أقسام : القسم النظرى ، والقسم العملى ، ثم أخيرا قسم نسميه المتفرقات ويشمل بعض أجزاء متفرقة وموضوعات خاصة .

بحث فى تصنيف القوانين

ويعالج المؤلف فى هذا القسم موضوعات مجردة ، ففى الجزء الأول يتكلم عن القوانين على وجه العموم فيقول : « ان القوانين فى أوسع معانيها عبارة عن علاقات ضرورية تشتق من طبيعة الأشياء ، ولكل الموجودات قوانينها بهذا المعنى ، فللآلهة قوانينها وللعالم المادى قوانينه وللعقول المتعالية على الانسانية والحيوانات قوانينها وللانسان قوانينه » .

والقوانين أيا كان نوعها ليست الا علاقات بين قوى متفاعلة يؤثر بعضها فى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وهذه القوى على نوعين ، فيزيائية ومعنوية أو أخلاقية ، فالطبيعة ومبادىء الحكومات والتعليم والضرائب والمناخ وعادات الأمة وتقاليدها وعدد السكان والدين السائد ـ كل تلك قوى تتفاعل ، والقوانين ليست الا العلاقات التى تنتج عن ذلك التفاعل بشكل ضرورى . ويحمل مونتسيكيو حملة شعواء على الفلاسفة الذين أخضعوا القوانين والظواهر التى تسود العالم لقدرية عمياء ، اذ كيف يمكن أن نتصور

أن تخلق مثل هذه القدرية موجودات مفكرة ، فهنـاك اذن عقل مبدئى وهو الله ، والقوانين عبارة عن العلاقات التى توجد بينه وبين الموجودات المختلفة فيما بينها وبين بعضها ، فعلاقات الله بالكون تتلخص فى أنه خلقه وفق قواعد وضعها هو وهو يحفظه ويصونه وفق نفس القـوانين التى خلقـه بمقتضاها ، والعالم المادى والحال هذه مسود بقوانين لا تتغير لأنها أساس وجـوده واسـتمراره ، أما الموجـودات العاقلة فتخضع لنوعين من القوانين ، نوع طبيعى وهى القوانين التى تشتق من طبيعة تكوين تلك الموجـودات مبـاشرة وهى تلك القوانين التى كانت تسود الانسان البـدائى قبـل تكـوين المجتمعات ، لأن مونتسيكيو كان يعتقد كأصحاب المـذهب التعاقدى أن الانسان قبل تكوين المجتمعات قد مر بمرحلة طبيعية وكان فى هذا متأثرا بهوبس Hobbes ولوك على وجه الخصوص ، ففى هذه المرحلة مثلا كان الخوف يسيطر على الانسان ، وكل انسان كان يشعر أنه أقل من الآخر وبذلك لم يكن بين الانسان وأخيه أية نزعات عدوانية ، كما كان يسيطر على الانسان نزعة البحث عن الطعام والمحافظة عـلى حياته والانجـذاب الجنسى .. كل تلك تمثـل عينـات من القوانين الطبيعية ، ويبدو أن مونتسيكيو كان يقصـد من القوانين الطبيعية تقريبا ما نسميه اليوم الدوافع الغريزية . أما النوع الآخر من القوانين فهو القوانين الوضعية التى يضعها الانسان لنفسه بعد تكوين المجتمعات ، واذا كانت القوانين الطبيعية مفروضة على الانسان لأنه ليس مصدرها فان القوانين الوضعية لما كانت صادرة عنه فانها متبعثرة حسب ظروف كل مجتمع ، وهذه القوانين على أنواع ، فمنها

قانون الأمم الذى ينظم العلاقة بين المجتمعات ، والقانون السياسى الذى ينظم شئون الحكم ، والقانون المدنى الذى ينظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض .. الخ . ولما كانت القوانين ليست شيئا آخر الا العلاقات التى تربط العقل الأول أو الله بالموجودات وتربط الموجودات المختلفة بعضها ببعض ، فان « روح القوانين » يتلخص فى البحث فى العوامل التى تؤدى الى تغيير هذه العلاقات سواء بين الخالق والمخلوقات أو بين المخلوقات بعضها وبعض من جماعة لأخرى ومن عصر لآخر .

الأسس التى ترتكز عليها القوانين

ولقد بحث مونتسيكيو فى فلسفة السابقين والمعاصرين ، فلم يجد حلا يشفى غلته فوجد خليطا من المذاهب والآراء كما وجد معظم المؤلفين ينظرون للموضوع من زاوية ضيقة بدون الملم شامل به ، فعلماء القانون وعلى رأسهم الرئيس داجسوا الفرنسى يذهبون الى أن القوانين تصدر عن فكرة أو فلسفة خاصة لسلطة عليا متحكمة فى المجتمع ومشبعة بتلك الفكرة ، والقانون الوضعى ليس فى هذا المعنى الا تعبيرا عن ارادة الله .

وقريب من هذا ما ذهب اليه سبينوزا Spinoza (٣) الفيلسوف الهولندى المشهور من أن العالم يسير بالقضاء والقدر وأن كل ظواهر هذا العالم فيزيقية كانت أم انسانية

---

(٣) اسبينوزا : انظر صفحة ١٥٨ من الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

انما تعتمد على الارادة الالهية ، ولم تكن مثل تلك التفسيرات لتروق فى رأى مونتسيكيو الذى كان مشبعا بالروح العلمى والذى كان يهدف الى ايجاد وتفسير علمى لاختلاف القوانين، أى تفسير يقوم على منهج علمى يستند الى المشاهدة والتجربة والاستقراء ، فى حين أن هذه التفسيرات كانت تعتمد على أسس دينية ميتافيزيقية غامضة • والى جانب هذه المذاهب الدينية وجد مونتسيكيو فريقا من رجال السياسة والقانون يستندون الى أسس أخلاقية وذلك مثل جروسيوس وبفندورف وباربيراك ، ويذهب هؤلاء الى أن فكرة العدل سابقة على كل قانون وصفى ، فهناك نموذج من العدالة وهو نموذج مثالى يرجع اليه كل المشرعين فى تشريعاتهم ، وهذا النموذج المثالى ليس مصدره الانسان بل هو مفروض على الانسان ، وهو يتكون من الحقوق والالتزامات اللازمة لتنظيم العلاقات بين الأفراد الكائنين فى مجتمع واحد ، ولتنظيم العلاقات بين المجتمعات المختلفة ، وهذا النموذج هو ما يسمى بالحق الطبيعى • والانسان يشعر بهذا الحق الطبيعى بشكل تلقائى كأنما ولد الانسان مزودا بحاسة تجعله يفرق بين العدل والظلم وفقا لهذا القانون • وهذا القانون خالد أبدى أزلى لا يتغير بتغير الزمان والمكان وبناء على ذلك تصبح مسألة تفسير القوانين مسألة بحث مدى التطابق بين القوانين السائدة فى المجتمعات المختلفة والقانون الطبيعى • ولقد تأثر مونتسيكيو بهذه النظرية ردحا من الزمن ولكنه وجدها هى الأخرى نظرية ميتافيزيقية لا يؤيدها الواقع لأنها تتعارض مع فكرة الصيرورة ولا تفسر كيف أن فكرة العدل تختلف من مجتمع لآخر ومن عصر لآخر •

واذا كانت المذاهب السابقة قد فشلت فى ضم مونتسيكيو الى صفوفها ، فان ثمة عددا من المؤلفين بمثابة نور أدى بمونتسيكيو الى المنهج العلمى السليم لدراسة مشكلة القوانين فى أصلها وروحها ، وأول هؤلاء العلماء هو الايطالى جرافينا Gravina الذى كان ينصح الباحثين فى الدراسات القانونية بأن يضعوا فى اعتبارهم أن المشرعين عندما يشرعون انما يأخذون فى اعتبارهم الأول اختلاف الشعوب من حيث العادات والتقاليد التى تسودها والوسط الجغرافى الذى تعيش فيه ، والثانى هو الفيلسوف الألمانى أوتو افرارد Everard الذى نادى بضرورة الابتعاد عن التفسيرات التوكيدية والبحث عن « دوافع القانون » التى تتلخص فى فائدة الدولة وعقلية الشعوب والعادات والأفكار السائدة فيها والعدالة الطبيعية • أما الثالث فهو اللورد الانجليزى بولنجبروك Bolingbroke الذى قال بضرورة مراعاة الأخلاق والعادات والتقاليد والمناخ والروح العام فى كل دولة عند التشريع لها • وكان أن انضم مونتسيكيو الى رأى هؤلاء العلماء • وبدأ يبحث عن سر ائتلاف القوانين الوضعية قاصرا بحثه على القوانين الوضعية مقتصرا فيها على القوانين السياسية والمدنية ، أما قانون الأمم الذى ينظم علاقة الدول بعضها ببعض فانه ثابت لأنه يرتكز على ركيزتين : الأولى ضمان السلام بين الأمم والثانية ضمان الاستقرار والبقاء لكل أمة • ولكن ما العوامل التى تتوقف عليها القوانين السياسية والمدنية السائدة ، فى كل مجتمع ؟ ثمة ـ فيما يرى مونتسيكيو ـ فئتان من العوامل : عوامل أخلاقية أو اجتماعية تنحصر فى العامل الأخلاقى الأول وهو شكل الحكومة الذى

يتخذه المجتمع ، وعوامل فيزيقية تنحصر فى العامل الفيزيقى الأول وهو المناخ الذى يسيطر على الاقليم ، ثم تأتى بعد ذلك بقية العوامل الأخلاقية والفيزيقية لكى تدور حول هذين العاملين الرئيسيين ، فالقوانين تتعلق تعلقا ضروريا بنوع الحكومة السائدة والمبدأ الذى تقوم عليه ٠٠ كما تتعلق بالعوامل الفيزيقية كالمناخ ونوع الأراضى والموقع والمساحة التى يشغلها المجتمع ٠٠ كما تتعلق بدرجة الحرية التى يمنحها دستور الحكم وبالدين السائد بين السكان وميول الشعب وثروته ٠٠ كما تتعلق أخيرا بعضها ببعض (أى كما تتأثر القوانين بهذه العوامل تتأثر كذلك بعضها ببعض) وبالمصدر الذى صدرت عنه وغاية المشرع من سنها والموضوعات التى تنظمها ٠ ولا تؤثر هذه العوامل على القوانين بدرجة واحدة ، بل بدرجات متفاوتة ، فالعوامل الأخلاقية تؤثر بدرجة أكبر من العوامل الفيزيقية ، ذلك « أن العوامل الأخلاقية ــ فيما يرى مونتسيكيو ــ تشكل الطباع العامة للأمة وتحدد نوع روحها العام بدرجة أكبر مما تفعل العوامل الفيزيقية » ، ويؤكد الفيلسوف هذا المعنى قائلا : « ان النظم والعادات والتقاليد والأخلاق تستطيع أن تتغلب بسهولة على قسوة المناخ » ٠ والعوامل الفيزيقية والأخلاقية التى تكشف مجتمعا من المجتمعات لا يقتصر تأثيرها على نشأة القوانين ، بل هى تؤثر كذلك على تطورها ونضوجها وتقويتها أو اضعافها ، حتى اننا نجد فى كل عصر « جيلا من القوانين » يختلف عن جيل العصر السابق أو اللاحق ، اذ ثمة أجيال من القوانين على غرار أجيال بنى الانسان ٠ وكل

« جيل من القوانين » ليس بلا شك الا نتيجة لتفاعل كل هذه العوامل وتضافرها ٠

واذا كانت هذه العوامل هى الاسس التى ترتكز عليها القوانين فان مونتسيكيو يتناولها بالتحليل ، كل منها على حدة ٠

القوانين ونظم الحكم

ويبحث مونتسيكيو هذه النقاط فيقول، ان الأشكال التى يمكن أن يتخذها نظام الحكم ثلاثة : جمهورية وملكية وطغيان ٠ وهذا التقسيم كان محل نقد عنيف من العلماء لأن الطغيان لا يعد شكلا قائما بذاته ، بل هو شكل ينحدر اليه كل أشكال الحكم اذا تطرق اليها الفساد ، ولكن مونتسيكيو قد فصل بين الملكية والطغيان لكى يحمل حملة شعواء على الحكم الطغيانى بدون أن يسىء مع ذلك الى البلاط الفرنسى الذى كان يقوم على الحكم التحكمى ، والحكم الجمهورى ـ فى رأى مونتسيكيو ـ هو حكم الشعب أو من ينوبون عنه أو جزء من الشعب ، والحكم الملكى هو الذى يتولى الحكم فيه شخص واحد وفق قوانين واضحة الحدود لا يتعداها ، أما حكم الطغيان فهو يقوم على شخص واحد يحكم بلا قانون ولا قاعدة الا أهوائه وعواطفه ٠ والحكم الجمهورى على نوعين : فاما أن يحكم الشعب أو من يمثلونه وفق قواعد نيابية خاصة وتلك هى الديمقراطية ، وأما أن يكون الحكم فى أيدى فئة من أغنياء الشعب وتلك هى الأرستقراطية ٠ وفى الديمقراطية يستطيع كل شخص وفق قواعد خاصة تمثيل الشعب أو حكم الشعب باسم

الشعب ، أما فى حالة الأرستقراطية فان الحكم محصور فى طبقة معينة أو عدة طبقات لا يتعداها وأحسن شكل للحكم الأرستقراطى هو ذلك الذى يقترب قدر الامكان من الحكم الديمقراطى • أما الحكم الملكى فهو الذى يقوم على هيئات تتوسط بين الملك والشعب وتكون لها اختصاصات محدودة تحديدا دقيقا يحد من سلطان الملك • ومونتسيكيو اذ يتحدث عن هذه الأنواع من الحكم انما كان يفكر فى الحقيقة فى النظام الملكى الاقطاعى الذى ساد معظم الشعوب الأوروبية فى العصور الوسطى ، حيث كانت هيئات النبلاء والأشراف ورجال الدين والمدن الحرة تحد من سلطان الملك وتباعد بينه وبين الطغيان ، اذ بدون هذه الهيئات يصبح الملك ـ فيما يرى مونتسيكيو ـ لا حدود لسلطاته ولا رادع لتصرفاته • اذ : « لا نبلاء بلا ملك ولا ملك بلا نبلاء ، اذ فى هذه الحالة الأخيرة يصبح الملك طاغية ، أما فى حكم الطغيان فان الطاغية يخلق بجانبه بعض الأمراء الكسالى الجهلاء ذوى الشهوات التى لا تحدها حدود » • ومن سمات هذا النظام أن يعين الطاغية وزيرا يحمل الأعباء اسما ، بحيث يسمح هذا النظام للطاغية بأن يفعل كل ما يرضى نزواته ورغباته باسم ذلك الوزير •

والقوانين تحت الحكم الجمهورى ترتكز على التفصيلية لأن من يضعون القوانين هم أنفسهم الخاضعون لها والمتحملون لمسئوليتها ، والتفصيلية هنا تعنى التمسك بواجبات المواطن الصالح الشريف أى بتضحية المصالح الفردية ازاء الصالح العام ، أما الحكم الملكى فأساسه الشرف وثقة الشعب فى ملكه ، أما أساس حكم الطغيان فهو الخوف والرهبة لأن الرعايا

ليسوا احرارا بل هم عبيد أذلاء للطاغية الذى يبقى حكمه مرتكزا على هذه الرهبة من جبروته وسلطانه ٠

واذا كانت تلك هى الأشغال المختلفة لنظم الحكم فانها تؤثر تأثيرا كبيرا على القوانين المدنية والجنائيـة والادارية التى تنظم الحياة الاجتماعية ، ففى قوانين التربية والتعليم يعمل الحاكم على توجيه تلك القوانين بحيث تخدم أغراضه وتربى فى مواطنها هذه المبادىء التى يقـوم عليهـا النظام الأساسى ، أى غرس مبادىء الفضيلة أو الشرف أو الخـوف بحسب ما اذا كان النظام جمهوريا أو ملكيـا أو طغيانا ٠ وكذلك يؤثر نوع الحكومة فى القوانين الأخرى التى لا تتعلم بالتربية والتعليم ، فهو يؤثر على القوانين التى من شـأنها أن تطمئن الناس على أشخاصهم وأموالهم حتى تستقر الأمور فى المجتمع وحينئذ لابد من سن القوانين الجنائية وانشـاء المحاكم ، وهذه القوانين تقوم على عقوبات خفيفة عادة تحت النظم التى أسـاسها الفضيلة أو الشرف ، أما فى النظـام الطغيانى القائم على الخوف فنجد العقوبات صارمة وحشية غير انسانية ٠ كما يؤدى الشكل السـياسى للدولة الى سن قوانين تحمى الفرد من سوء استخدام النظام أو استغلاله ، وذلك فيما عدا النظام الطغيانى الذى يخضع الفرد فيه لكل أنـواع الظلم والاسـتغلال بلا ضـمان ٠ أما فى النظامين الجمهورى والملـكى فتسن قوانين تحمى الفـرد وحـرياته المختلفة ، على أنه من الملاحظ ــ فيما يرى مونتسيكيو ــ أنه كلما كانت الحكومة ديمقراطية تقوم باصلاحات يشعر بهـا الأفراد ، تقبل هؤلاء بسهولة ما تفرضه عليهم من أعباء مالية حتى تستطيع أن تضع ما يأتى كقاعدة عامة : « فى مقدور

الحاكم أن يجمع من الضرائب مقدارا يتناسب طرديا مع حرية المحكومين » ٠

ويتعلق بشكل الحكومة أيضا ما سماه مونتسيكيو قوانين الترف ٠ فالترف فى أية دولة من الدول انما يكون نتيجة للتفاوت بين الثروات ، فالدولة التى تكون الثروة فيها موزعة توزيعا عادلا بلا فوارق كبيرة لا يكون ثمة ترف يأتى من تمتع الانسان بعمل الآخرين ، وعلى ذلك نجد أن الترف قليل أو معدوم ـ فى رأى مونتسيكيو ـ فى الدول الديمقراطية أو الجمهوريات التى تكون الثروة فيها موزعة توزيعا عادلا ، وعلى ذلك فالجمهوريات المثالية هى التى يسودها حسن التوزيع وعدالته ، وهذا هو السر فى أن الأفراد فى كثير من الجمهوريات القديمة كانوا يطالبون دائما باعادة توزيع الثروات ٠

وهكذا اذا رحنا نبحث فى جميع أنواع القوانين التى تسود الدولة لوجدناها متعلقة تعلقا وثيقا بالنظام السياسى القائم فيها ، على أن النظام السياسى ككل شىء آخر قابل للفساد اما بطول « الاستعمال » أو بفساد القائمين عليه وحينئذ ينتشر الفساد والرشوة ، « الملكية تتحول بالفساد الى طغيان حاكم واحد والأرستقراطية الى طغيان عدة أفراد بينما يؤدى فساد الديمقراطية الى طغيان الشعب » ٠ فالسبب الأول مثلا فى فساد الديمقراطية ، هو أن يفقد الناس روح المساواة التى يجب أن تسود بينهم ، ومن ناحية أخرى تفسد الديمقراطية اذا زاد التمسك بروح المساواة عن حدود معينة ، اذ فى هذه الحالة سيعتبر كل انسان نفسه مساويا لرئيسه

فى العمل ؛ وبذلك يرى أن من الخطأ أن يتلقى أوامر منه وأن من حقه أن يعصيه ، فتضيع الثقة بين الناس وتضطرب المقاييس وتنتشر الفوضى ٠

★★★

واذا كان القسم الأول يعالج القوانين وأنواع الحكومات وعلاقتها بالقوانين السائدة فى مجال التعليم والعقوبات والترف ، ثم فساد الأنواع المختلفة للحكومات ، فان القسم الثانى يعالج مسائل هى بطبيعتها أقرب الى العمل منها الى النظر ، فيعالج مشكلة الحريات السياسية وأثرها على القوانين ومشكلة الرق السياسى والاسترقاق المنزلى وقوانين الدفاع والهجوم فى الدولة ، وأثر المناخ فى تشكيل القوانين ، وكذلك الدين وما سماه الروح العام للمجتمع ٠٠٠ وهى موضوعات أقرب الى مشكلة تطبيق القوانين منها الى فلسفة القوانين ، كما أن موضوعات القسم الأول تميل أكثر الى وصف ما هو كائن فعلا بينما موضوعات القسم الثانى لا تقتصر أحيانا على ما هو كائن بل تتبعه بتوجيهات عملية تطبيقية ٠ على أن هذا القسم من ناحية أخرى يعد استمرارا للقسم الأول من حيث ان كلا القسمين يبحث فى موضوع واحد وهو العوامل المختلفة التى تشكل القوانين فى كل مجتمع من المجتمعات ٠ وسنتناول موضوعات القسم الثانى فى شىء من التفصيل لأنها أهم ما يتناوله الكتاب ٠

الحرية السياسية

يتكلم مونتسيكيو عن علاقة القوانين بحالة الدفاع عن الدولة وحالة الهجوم ، وأهم ما يذكر له هنا هو دفاعه عن الحرب والغزو ، بوصف أنهما وسيلتان من وسائل الأمة للحفاظ على بقائها وضمان استمرار حياتها ، فهما اذن وسيلتان مشروعتان « ان حق الدفاع الطبيعى قد ينطوى أحيانا بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام وعندئذ يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير السلام » ٠

ثم ينتقل بعد ذلك ليبحث فى علاقة القوانين بالحرية السياسية وذلك موضوع من أهم الموضوعات التى تعرض لها اذ خصص له ثلاثة أبواب طويلة كاملة ٠ والحرية فى رأيه لا تعنى أن يفعل الفرد كل ما يريد ، ففى المجتمع الذى تسوده قوانين لا يمكن أن تعنى الحرية الا القدرة على عمل ما يجب أن يريده الفرد ، وعدم الزامه بفعل ، لا ينبغى أن يفعله ٠ وأكبر ضمان للحرية السياسية هو فى مبدأ تقسيم السلطات الى ثلاث سلطات : تشريعية وتنفيذية وقضائية بحيث تستقل كل منها بالتشريع وتنفيذ القوانين والقضاء على التوالى ولا تتدخل فى شئون السلطتين الأخريين ٠ ويعزى الى مونتسيكيو الفضل الأول فى نشر هذا النظام الذى نقله عن النظام السياسى الانجليزى مع بعض اصلاحات أدخلها عليه ، فأصبح مبدأ فصل السلطات بفضل مونتسيكيو السمة الأولى لكل حكم ديمقراطى فى العصور الحديثة ٠

فالحرية السياسية يجب أن تكون مقيدة وفى حدود القوانين فالفرد لن يكون حرا ، لأن الأفراد الآخرين سيكون عندهم نفس هذ السلطة » ٠

ولكن اذا فرض وتحققت الحرية فى شعب من الشعوب فكيف السبيل الى ضمان بقائها واستمرارها ؟ « ان التجربة الخالدة قد دلت على أن ثمة ميلا لدى كل رجل ذى سلطة الى اساءة استخدام هذه السلطة » ومن جهة أخرى دلت التجربة على أنه لابد فى المجتمع من رجل أو سلطة تتولى شئون الحكم، وليس والحال هذه ثمة ضمان لتحقيق الحرية أو استمرارها فى أى من النظم السياسية من ديمقراطية أو أرستقراطية أو ملكية لأنها قد يتطرق اليها الفساد ، فكيف السبيل اذن الى ايجاد نظام سياسى لا يتطرق اليه الفساد ؟ السبيل الوحيد يتلخص فى توزيع السلطات على عدة قوى تتوازن وتتكافأ معها ، اذ لا يوقف السلطة الا سلطة توازنها وتتكافأ معها اذ «لكيلا يستطيع أى ذى سلطة اساءة استغلال سلطته ، لابد من ترتيب الأمور بحيث توقف سلطته سلطة أخرى تعادلها » ٠ فالسلطات يجب أن تنقسم الى ثلاث سلطات : تشريعية وتنفيذية وقضائية ، وهذه السلطات وان كانت منفصلة فى اختصاصاتها ستكون مضطرة بحكم حركة الأشياء للعمل معا فى انسجام ووئام ٠ فمونتسيكيو لم يتجاهل كغيره من الفلاسفة طبيعة الانسان بل نظر الى هذه الطبيعة نظرة موضوعية مقدرا بحساب دقيق ما جبلت عليه من شر وخير ونظر الى القوى التى تسيطر على الحياة السياسية ووضع لها توجيها سليما يكفل تعاونها وانسجامها ، ولكى « نصل الى حكومة معتدلة لابد من ربط القوى بعضها ببعض والحد من

غلوائها وتوجيهها للعمل مع تنظيمها ، أى تقوم بعمل ما يشبه الرافعة فى العالم الفيزيقى حيث نجد قوة فى جانب تعادلها مقاومة فى جانب آخر » ٠

المناخ وعلاقته بالقوانين

لم يكن مونتسيكيو أول قائل بأثر العوامل الجغرافية على تشكيل العادات والتقاليد والقوانين السائدة فى المجتمع، بل سبقه الى ذلك كثيرون نخص بالذكر منهم أبقراط فى رسالته « عن الأجواء والمياه والأمكنة » وأفلاطون فى كتاب القوانين وأرسطو فى كتاب السياسة وكثير من العلماء الرومان مثل أوميدوس ، وابن خلدون عند العرب ٠ ومن العصور الدينية نجد مالبرانس وبودان الفرنسيين وميكافيلى الايطالى والطبيب الانجليزى الشهير جون أورثيوى ٠ ويبحث مونتسيكيو هذا الموضوع فى أبواب خمسة كبرى من كتاب « روح القوانين » فالعادات والنظم والقوانين تتأثر بالمناخ السائد فى الاقليم ، ذلك « أن الناس فى المناطق الباردة تقل حساسيتهم لأنواع السرور ، على حين تكبر هذه الحساسية فى المناطق المعتدلة وتصل الى درجتها العظمى فى المناطق الحارة ٠ وكما نستطيع تمييز أنواع المناخ بخطوط العرض نستطيع بنفس الطريقة أن نميز درجات الحساسية ٠٠٠ ويتبع الألم نفس القاعدة فان الله قد أراد أن يكون الألم متناسبا فى شدته مع ما يحدثه من اضطراب فى الجسم ٠ ولما كان من المحقق أن الأجسام الكبيرة والألياف الغليظة للشعوب الشمالية أقل قابلية للاضطراب من ألياف شعوب المناطق الحارة الرفيعة والرقيقة ، فان نفسية تلك الشعوب

الأولى أقل حساسية للألم فالمناخ ذو أثر فيزيقى ضخم لا شك فيه على الأعصاب والعضلات الانسانية ومن ثم على أخلاق الأفراد وتصرفاتهم • والعقل نفسه والانفعالات ترجع الى عوامل فزيولوجية ترجع بدورها الى عوامل مناخية ، وعلى ذلك يجب أن تكون القوانين السائدة فى المجتمعات متناسبة مع الظروف المناخية المختلفة » •

ويحاول مونتسيكيو فى عدة فصول طويلة بيان كيف أن للمناخ أثرا على كل جزء فى الجسم الانسانى وما به من عصارات وافرازات وأثر ذلك على مزاج الانسان وأخلاقه وعاداته وطباعه « فقوة الناس أو حيويتهم مثلا تكون أكبر فى المناطق الباردة •• وهذا من شأنه أن يؤدى الى نتائج ضخمة ؛ اذ يكون لدى الأفراد ثقة أكبر فى أنفسهم وشجاعة أكبر وشعور أكبر بتفوقهم ورغبة أقل من الانتقام وتكون لديهم صراحة أكثر وميل أقل الى الرياء السياسى والشك والخداع ! ولكن فى المناطق الحارة وحرارة الجو تبلغ أحيانا من الارتفاع فى بعض المناطق بحيث يصير الجسم بلا قوة ينتقل ذلك الى العقل نفسه وينتج عن ذلك سلبية الأفراد ، فلا حب للاستطلاع ولا مشروعات ذات قيمة ، مع ميل للكسل وتحمل للعقاب الجسدى الجسمى مع عدم التأثر بالعقاب المعنوى وتأنيب الضمير ، ويوجد مع ذلك ميل للاستعباد • ومن هنا نرى كيف يرجع مونتسيكيو وجود نظام الرق الى المناخ !

الروح العام فى المجتمع

والروح العام يتكون فى المجتمع من تعادل العوامل الطبيعية والثقافية التى تكتنفه • فالناس يخضعون فى حياتهم لعدة عوامل : المناخ ، والدين ، والقوانين ، ومبادىء الحكومة السائدة •• والعادات والتقاليد ، ومن كل هذه الأشياء يتكون الروح العام ، وكلما زادت قوة أحد هذه العوامل فى أمة من الأمم ضعفت قوة العوامل الأخرى بنفس النسبة ، فمثلا نجد أن الطبيعة والمناخ يوجهان وحدهما تقريبا حياة المجتمعات البدائية ، وتسيطر العادات على الصينيين وتسود القوانين فى اليابان •••

وهذا الروح العام بمثابة تيار فكرى عام يسيطر على المجتمع وهو يختلف من جماعة لأخرى ، وفى نفس الجماعة من فترة لأخرى ، وفق ما يحيط بالمجتمع من ظروف جغرافية وثقافية • ويقول مونتسيكيو بأن على المشرعين أن يراعوا هذا الروح العام فى تشريعاتهم ، فلا يصدروا من التشريعات ما يتنافى معه لأنه يمثل الذوق العام للمجتمع فالاصلاح السياسى والاجتماعى يجب أن يكون متمشيا مع هذا الروح والا فشل وأتى بعكس المقصود منه • فاذا وجدت فى المجتمع عادات وتقاليد لم تعد ملائمة ، فان اصلاحها لا يتم بسن تشريع يحرمها لأنها متعلقة تعلقا وثيقا بالروح العام ، وعلى ذلك سيكون مثل هذا القانون تعسفيا ، انما يتم الاصلاح هنا عن طريق غرس عادات وتقاليد جديدة يوجهها المصلحون ويعملون على نشأتها ونموها وتطورها • « فاذا أراد الحاكم القيام باصلاحات فيجب عليه ألا يلجأ للقانون الا فى

النواحى المنظمة بقانون ، أما فى النواحى المنظمة بعادات وتقاليد فيجب أن يلجأ فى شأنها الى غرس عادات وتقاليد جديدة » • ولا شك أن العادات والتقاليد تخضع خضوعا شبه تام للمناخ ، ومن هنا نجد أن ثمة شعوبا تسودها روح المحافظة على التقاليد وأخرى تسودها روح التجديد والتغيير بحسب ما يسودها من مناخ ، فالكسل المسيطر على شعوب المناطق الحارة يجعلها تتخذ مواقف سلبية من عاداتها وتقاليدها ومن هنا تنتج عندها روح المحافظة التى تتسم بها، على حين يسود التغيير والتجديد المناطق الباردة ، ويجب أن يلاحظ المشرعون كل تلك الظروف عند سن تشريعاتهم •

الدين وعلاقته بالقوانين

وكنا نود أن نعرض لرأى مونتسيكيو فى الدين فى شىء من التفصيل ، لولا أنه قد غلب عليه التعصب الأعمى للديانة المسيحية ضد الاسلام مما باعد بينه وبين المنهج العلمى السليم • فعندما ينتقل الى الكلام عن علاقة الأديان بالقوانين السائدة ، يدعى أن الديانة المسيحية تتفق مع الحكم الديمقراطى بينما الأديان الأخرى تتفق مع حكم الطغيان !! ويسوق كتعليل لذلك أن المسيحية حرمت تعدد الزوجات ، ومن ثم سمحت للحاكم بأن يكون أكثر صلة بالناس •

أما الأديان التى تسمح بتعدد الزوجات فانها تؤدى الى قطع صلة الحاكم بالناس ! وهذا هو السبب فى انتشار المسيحية فى أوروبا لأنها تتفق مع النظم الديمقراطية التى

تسود تلك القارة بينما انتشرت الأديان الأخرى فى آسيا لأنها تتفق مع حكم الاديان السائد فى تلك القارة • وأخيرا يوازن مونتسيكيو بين المذهب البروتستانتى والمذهب الكاثوليكى فيذهب الى أن المذهب الكاثوليكى يتناسب مع النظام الملكى بينما يتلاءم البروتستانتى مع النظام الجمهورى •

ولما كانت الشعوب الشمالية فى أوروبا تتميز بروح الاستقلال والحرية بقسط أكبر من شعوب جنوب أوروبا ، فانها لم تتردد فى اعتناق البروتستانتية لأنه مذهب يقوم على الحرية أكثر مما تقوم الكاثوليكية ، اذ لا تعرف البروتستانتية التنظيم الكنسى التصاعدى فى شكله الحاد الصارم كما تعرفه الكاثوليكية ، ولا تعرف تلك الرئاسات التصاعدية التى تنتهى بالبابا ، وكل تلك الصفات تتفق مع النظام الجمهورى • بينما تعلقت دول جنوب أوروبا بالكاثوليكية لأنها لا تعرف بالتدرج الكنسى الذى يتناسب مع تدرج الملكية والرئاسات التى تسود فيها • ثم يدرس مونتسيكيو الشعور الدينى دراسة مستفيضة أدت به الى استخلاص بعض القوانين ، فهو مثلا يذهب الى أن التعلق بالدين يزداد كلما ازدادت الطقوس التى تفرض على أتباعه لأن كثرة الطقوس تؤكد الصلة بين الفرد والايمان الذى يعتنقه ، ويستنتج قانونا آخر وهو أنه لما كان الناس ميالين بطبيعتهم الى الرجاء أو الأمل المشوب بالخوف فان الديانات التى قالت بالجنة والنار والثواب والعقاب فى حياة أخرى قد استهوت الشعوب والأفراد أكثر من الديانات التى لا تقول بحياة أخرى يسودها العقاب والثواب ، ويدلل على ذلك بأن

شعوب اليابان التى لا تعرف ديانتها الثواب والعقاب فى حياة أخروية لا تتمسك كثيرا بديانتها اذ تتركها بمجرد التبشير لتعتنق المسيحية أو الاسلام مثلا • وتلك هى بعض أمثلة من بين كثير من الأمثلة التى يبين بها العلاقة بين الدين والقوانين •

★★★

وبمثل هذا الأسلوب يتكلم مونتسيكيو عن علاقة القوانين بالأرض والتربة ، ثم التجارة ثم النقود والسكان ، فيدرس علاقة القوانين بهذه النواحى مستنتجا استنتاجات على درجة خطرة من الأهمية : فمثلا اذا كانت الأرض قابلة للزراعة فاننا نجد السكان مشغولين بمصالحهم الخاصة ولا يكون لديهم أى اهتمام بتحقيق حريتهم مما يجعلهم أسهل انقيادا للحكم الطغيانى ، بينما اذا كانت الأرض جدباء لا يجد السكان ما يشغلهم عن تحقيق حريتهم ، كما أن هذه الأرض لا تكون عادة مطمعا للغزاة وبذلك تسود عند أهلها الشجاعة والعزة والتمسك بالحرية •

★★★

هذا هو ملخص لمحتويات كتاب روح القوانين تعرض فيه مونتسيكيو لكل ما من شأنه أن يؤثر من قريب أو بعيد فى تشكيل القوانين • ولقد كان المؤلف يستعين بمئات الأمثلة من النظم المختلفة التى كانت سائدة عند القدامى ومجتمعات العصور الوسطى والحديثة ليدلل بها على صحة استنتاجاته • فكتاب روح القوانين من هذه الناحية موسوعة كبرى فى شتى العلوم والفروع من قانون وفلسفة واجتماع

واقتصاد ، بل وطب وفسيولوجيا ... الى آخر كل تلك الفروع . ولا يسعنا الآن الا أن نتكلم عن آراء العلماء وموقفهم من هذا السفر الضخم الذى يمثل ـ رغم ما فيه من تعصب أحيانا ضد بعض الأديان وضد بعض الشعوب ـ مؤلفا كان له من الأثر ما لم ينله كتاب آخر غيره من مؤلفات القرن الثامن عشر على الاطلاق .

أهمية « روح القوانين » فى نظر العلماء

لقد اختلف العلماء ـ كما هى العادة دائما ـ على تقدير آثار مونتسيكيو العلمية ولا سيما كتاب روح القوانين الذى كان المؤلف يستهدف فيه ادخال اصلاحات دستورية وقانونية واقتصادية واجتماعية لا فى فرنسا وحدها بل فى جميع الدول . ولذلك نجد « ميسار » وزير جمهورية جنيف آنذاك والذى لعب دورا ضخما فى سبيل نشر كتاب روح القوانين ، يقول : « ان مونتسيكيو بتأليفه هذا الكتاب كان عالميا ، ذا دراية بجميع الأقطار وجميع الأزمنة وجميع أنواع الحكم » . ويقول الفرنسى فرنيه Vernet بمناسبة قراءته لروح القوانين مخاطبا مونتسيكيو : «انك فرنسى عالمى صالح، فكم أعطيت للجنس البشرى فى كتابك من دروس !! اننا نجد فى روح القوانين أشياء نافعة بقدر ما نجد من كلمات ، كما نجد أشياء عظيمة وأصيلة ومفيدة للجنس البشرى » . وذلك المفكر الايطالى تشرارى Cerari الذى خاطب مونتسيكيو قائلا : « ان ملاحظاتك صالحة لرفع مجتمعات كل دولة الى مستوى الكمال والسعادة بالقدر الذى يستطيعه كل منها . لقد اكتشفت نظاما وسط الخليط اللانهائى غير المنظم

للأهواء الانسانية • وانك لتوحى الينا بآراء تحمل فى طياتها ـ قدر المستطاع ـ اصلاح الاتصالات وأنواع الخبرة التى تسود كرتنا الأرضية » •

والواقع أن مؤلفات مونتسيكيو على العموم وروح القوانين على الخصوص كانت بالنسبة للعصر الذى فيه أوفر ما تكون نشرا لروح الحرية والمناداة بالاصلاح الاجتماعى ومن هنا كان تقدير معظم المؤلفين لآرائه • لذلك كان اللورد بولكلى الانجليزى يثنى عليه لنقده للدستور الانجليزى ، وهو النقد الذى أدى الى اصلاح كثير من نواحى هذا الدستور وأدى الى ترسيخ الحياة الديمقراطية فى انجلترا • ويقول دالمبير فى مقدمة الموسوعة : ان «روح القوانين» كتاب سيظل أثرا خالدا يشهد لعبقرية مؤلفه وفضيلته وبتقدم العقل البشرى فى قرن سيعد منتصفه فترة خالدة فى تاريخ الفلسفة •

والى جانب ذلك نجد كثيرا من العلماء والمفكرين ينقدون مونتسيكيو ، ففولتير بالرغم من ثنائه على روح القوانين فى عدة رسائل ، يحمل على استقراء مونتسيكيو فى كثير من رسائل أخرى ، ثم تحول نقد فولتير الى اطراء فنجده يمتدح « روح القوانين » ومؤلفه فيقول : « ان الانسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسيكيو » •

وفى ذات الوقت كان الفلاسفة الناشئون آنذاك مستائين حيث اعتبروا « روح القوانين » كتيبا فى المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض واعتدال اصلاحاته

المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح الدينى • وكتب هلفسيوس الى مونتسيكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعى والمصاعب التى تعترضه •

ولكن كل تلك الآراء وأشباهها لا يمكن أن تحجب حقيقة لا شك فيها وهى أن الكتاب يعد اولا موسوعة علمية كبرى فى علم الاجتماع الوصفى ، اذ يقدم فيه مؤلفه وصفا شاملا لمئات العادات والتقاليد والقوانين التى سادت المجتمعات فى شتى عصورها ، كما أنه من أوائل المؤلفات التى أظهرت أن النظم الاجتماعية لا تسير بلا ترتيب ، بل هى تخضع لقواعد وقوانين دقيقة صارمة لا تقل فى دقتها عن القوانين التى تسود العالم المادى ، فكان مونتسيكيو بهذا المبشر الأول لظهور علم الاجتماع الحديث ، حتى ان مؤلفا مثل اميل لازباكسى قد أطلق على مونتسيكيو اسم « أرسطو علم الاجتماع » ، فأثره فى انشاء هذا العلم وفى توجيه المفكرين فيه فى العصور اللاحقة عليه لا يقل بحال ــ فى رأى لازباكسى ــ عن أثر أرسطو فى الفلسفة والفلاسفة • ويقول فاجيه : ان كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسيكيو •

وبعد •• فقد اعتبر كتاب روح القوانين أعظم انتاج عقلى فى القرن الثامن عشر له آثار بعيدة المدى فى التاريخ ، فقد كانت آراء مونتسيكيو فى هذا الكتاب بمثابة ثورة فكرية هائلة فى الفكر السياسى والاجتماعى والفلسفى ••• وحسبنا أنه منظر مبدأ السلطات « التشريعية / التنفيذية / القضائية » الى يومنا هذا •

★★★

ثروة الأمم

آدم سميث

١٧٧٦م

وثيقة مهمة فى تاريخ الفكر الاقتصادى
لا تدانيهـا أية وثيقـة أخـرى

يعتبر آدم سميث (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) من أئمة الاقتصاد فى القرن الثامن عشر ، وقد سماه البعض « أبـو الاقتصاد الحديث » وان كانت الموضوعات التى طرقها هذا المفكر غير جديدة على الجنس البشرى ـ اذ ان المعاملات الاقتصادية قد نشأت منذ أن وجد الانسان عـلى وجه البسيطة ـ فانه قد تناول هذه الموضوعات من زاوية جديدة فكانت معالجته لهـا فاتحة عهد جديد فى تاريخ علم الاقتصاد ٠

فآدم سميث هو حقا مؤسس المدرسة الفكرية الكلاسيكية التى ظهر فيها مفكرون وفلاسفة اتسـموا بخط فكرى يكاد يكون موحدا أساسه حرية الفرد فى نشاطه السياسى وحريته فى أن يمتلك ما شاء له أن يمتلك من الثروة المادية التى تنقله الى أعلى درجات المجتمع وحريته فى أن يمارس التجارة الداخلية والدولية دون ثمة تدخل من جانب الحكومة ٠

كذلك فان المدرسة الفكرية الكلاسيكية التى هى وليدة آراء آدم سميث ثم ريكاردو Ricardo ومالتس malthus (١) من بعده هى أيضا وليدة الثورة الصناعية واكتشاف قوة البخار فى تسيير العدد والآلات ، وهى وليـدة المصـانع الـكبيرة

---

(١) مالتس : (انظر صفحة ٢٧٤ من الجزء السادس من هذه الموسوعة) ٠

والمنافسة الحرة بين الوحدات الاقتصادية المختلفة • وفى كلمة موجزة فان المدرسة الكلاسيكية وليدة الراسمالية المبكرة التى غلفت العالم الغربى منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الآن !

والمعروف ـ علميا ـ عن المدرسة الكلاسيكية أنها من تلك المراحل التاريخية التى نعم الناس فيها بالاستقرار وسكينة النفس وراحة البال ، لا لشىء الا لأن هناك توافقا بين المكتوب من جهة والواقع الاقتصادى الذى يعيش فيه الناس من جهة أخرى •

وقد أودع آدم سميث أفكاره الاقتصادية كلها فى هذا الكتاب الذى يعتبر بحق آية من آيات الفكر الانسانى •

ولهذا كله كانت الكتابة عن آدم سميث وكتابه « ثروة الأمم » ، بل كان مجرد استرجاع سيرة حياته وخلاصة فلسفته ، فى الوقت الحاضر ، مساهمة مفيدة من أجل فكره لتقدم الاقتصاد •

سيرته ومؤلفاته

ولد آدم سميث فى ٥ يونية ١٧٢٣ فى مدينة كيركالدى بأسكتلندا • وفى سنة ١٧٣٧ التحق بجامعة «جلاسجو» ، حيث تميز عن أقرانه فى دراسة الرياضيات والفلسفة •

وفى سنة ١٧٤٠ أوفد الى أكسفورد لكى يعد لسلك القساوسة ، وهناك درس اللغات وتذوق روائع الشعر

الانجليزى بجوار آداب اللغة اليونانية واللاتينية والفرنسية والايطالية • وبعد أن أقام سبع سنوات فى أكسفورد ، لم يلق خلالها معاملة طيبة لشغفه بالاطلاع وتحرر فكره ، تركها ، رغم نصيحة أصدقائه ، وعاد الى كيركالدى ليعيش فى كنف أمه ، وعدل عن اختيار سلك القساوسة • وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين انتقل الى أدنبرة وألقى محاضراته فى الأدب والبلاغة •

وفى سنة ١٧٥١ عين أستاذا للمنطق فى جامعة « جلاسجو » ونقل فى العام التالى أستاذا للفلسفة الأخلاقية فى نفس الجامعة خلفا لأستاذه فرنسيس هتشسو • وكان الاقتصاد السياسى يدخل ضمن دراسة الفلسفة • وقد قسم آدم سميث منهاج دروسه الى أربعة أقسام كبرى الأول : يتناول اللاهوت الطبيعى حيث يعالج الأدلة على وجود الله ، ويتناول صفاته الحسنى والمبادىء التى يقوم عليها الدين ، والثانى : يشمل مبادىء الأخلاق ، والثالث يدرس مبادىء الأخلاق المتصلة بالعدالة ، أما القسم الرابع : فيتناول بحث النظم السياسية التى من شأنها زيادة الثروة والقوة والرخاء فى الدولة •

وفى سنة ١٧٥٩ نشر كتابه الشهير « نظرية المشاعر الأخلاقية » وتناول فى هذا الكتاب القسم الثانى من دروسه ، الخاص بمبادىء الأخلاق •

وبعد أن نشر سميث هذا الكتاب الذى أذاع اسمه فى أوروبا كلها ، أخذ نصيب هذا الجزء الخاص « بمبادىء

الأخلاق » ينكمش فى دروسه ، وبدأ يتوسع فى دراسة القسم الثالث الخاص بمبادىء الأخلاق المتصلة بالعدل ، آملا أن يصل الى صياغة المبادىء العامة فى القانون ونظام الحكم مع بيان تطورها ٠

ولكن لم يطل المقام بآدم سميث فى جامعة جلاسجو ليحقق آماله فى البحث الفلسفى القانونى ، اذ ترك الجامعة سنة ١٧٦٣ بعد سنوات أربع من اخراجه لكتاب « العواطف الأخلاقية » ورحل الى فرنسا كمرافق ومعلم لدوق « بكليه » Duke of Buccleukge ٠ ولكن ما ترامى الينا من دروس آدم سميث فى أواخر أيامه فى جامعة « جلاسجو » قبل رحيله الى فرنسا ، يدل على أنه قد رسم فى هذه الدروس الخطوط العريضة لكتابه الثانى «بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم» المعروف عادة باسم « ثروة الأمم » ٠

أقام سميث فى «تولوز» ثمانية عشر شهرا تمكن خلالها، بسبب علاقاته ببعض رجال السياسة من التعرف على النظم السياسية والاقتصادية السائدة فى فرنسا ، وبعد رحلة له فى جنوب فرنسا واقامة شهرين فى « جنيف » بلغ باريس حيث اتصل بمشاهير الفلاسفة السياسيين من « الفيزيوقراطيين »(٢) الذين كانوا يسمون «بالاقتصاديين» ومنهم « كيناى » و « ترجو » ٠

---

(٢) الفيزيوقراطيون : مدرسة فكرية اقتصادية سادت فرنسا فى منتصف القرن ١٨ تؤمن بوجود قوانين طبيعية تكفل سعادة البشر ولا ينبغى للدولة التدخل فى سير هذه القوانين ٠ وان الزراعة وحدها هى مصدر الثروة ٠ ومن أبرز قادة هذه المدرسة « كيناى » ٠

ثم عاد الى « كيركالدى » ليعيش عشر سنوات يقضى معظمها فى البحث والتأمل ليتم كتابه الكبير « ثروة الأمم » · وكانت الخطوط العريضة لهذا الكتاب قد نبتت من القسم الرابع من دروسه فى الفلسفة الأخلاقية خلال الأعوام الثلاثة عشر التى قضاها أستاذا فى « جلاسجو » ويتضح ذلك مما نقل الينا عن دروسه فى سنة ١٧٦٣ · ولقد كان لاقامة آدم سميث فى « تولوز » أثرها فى تبلور أفكاره وتحديدها · أما اخراج الكتاب فى صورته النهائية فقد استغرق عشر سنوات طويلة قضى سميث معظمها فى عزلة وتأمل ، وان تخللتها زيارات للندن وأدنبرة أفادت فى تزويده بمعلومات وحقائق أفادته فى اخراج الكتاب على النحو الذى نعرفه ·

وقد قسم سميث كتابه « ثروة الأمم » خمسة أجزاء أو خمسة موضوعات أساسية :

يعالج فى الجزء الأول أسباب تحسن القوى الانتاجية العمالية وتوزيع الثروة على من أسهم فى انتاجها ، فيناقش فكرة تقسيم العمل التى تصل بالانتاجية الى مستواها الأمثل ، ومن هنا يعرج الى التبادل والى النقود ، ثم الى الأسعار ويدرسها جميعا دراسة مستفيضة · وهو ينتقل بعد ذلك الى دراسة مشكلة التوزيع ، فيعالج الأجور والريع والفائدة والربح معتبرا اياها عوائد عوامل الانتاج ـ العمل والأرض ورأس المال ، والتنظيم على الترتيب ـ وهكذا يمكن أن يقال : ان الجزء الأول من ثروة الأمم يعالج كلا من الانتاج والتوزيع ·

ويخصص سميث الجزء الثانى من كتابه لدراسة رأس المال ودوره فى العملية الانتاجية فينادى بضرورة زيادته وتجميعه طالما أن المنظم يسير قدما فى عمليته الانتاجية مسميا عملية التجميع هذه بظاهرة التجميع الرأسمالى معتبرا اياها سمة من سمات الرأسمالية الصناعية وبدونها قد تقف تماما الصناعة الرأسمالية ٠

أما الجزء الثالث من الكتاب فقد خصصه سميث لدراسة التنمية الاقتصادية والظروف الملائمة لها ، وهو الموضوع الذى يعالج بتفصيل واف فى هذه الأيام ٠ وسميث حين يتعرض لمشكلة التنمية يبدى بعض التحفظ والشك فى امكان تحقيق تنمية اقتصادية بمعدل معقول فى الدول والشعوب المستعمرة : فالاستعمار ــ فى رأيه ــ ظاهرة من ظواهر العصر الذى وجد فيه ، والمستعمرات وجدت لتغذى الدول الصناعية العظمى بالمادة الأولية والطعام بأسعار زهيدة وليس لها الحق فى أكثر من هذا ٠ وهو رأى استعمارى سخيف لا يجد له مكانا بالطبع بين الاقتصاديين المعاصرين ٠

ويعمد سميث فى الجزء الرابع من مؤلفه الى نقد بعض المدارس الفكرية التى سبقته : فانتقد التجاريين (أى أصحاب المذهب التجارى الذى ساد ابان القرنين السادس عشر والسابع عشر) وهو فى اعتقاده هذا يرسى الحجر الأساسى فى بناء المدرسة الكلاسيكية التى تدين أولا وقبل كل شىء آخر بالحرية الاقتصادية : أى رفع القيود والاجراءات التى فرضها التجاريون لتنظيم الاقتصاديات القومية الأوربية حينذاك ٠

أما الجزء الخامس فقد خصصه لرسم سياسة مالية واقتصادية أمثل لزيادة الايرادات المالية فى الدولة وترشيد الانفاق. وهو فى هذا لا يباعد بينه وبين الحرية الاقتصادية، وانما يعمد الى اقرار هذه الحرية فى ظل التجارة الدولية الحرة بين الدول على أساس تخصص كل دولة فيما هى أهل له فى الانتاج ومبادلته بشكل حر مع انتاج آخر لدولة أخرى تتمتع فيه بميزة انتاجية مطلقة .

فكأن آدم سميث قد قضى أكثر من عشرين عاما فى الاستقراء والبحث والتفكير والتأمل ليخرج كتاب « ثروة الأمم » فى أوائل سنة ١٧٧٦ . وقد ساعدته اقامته فى البيئة التجارية التى اشتهرت بها مدينة جلاسجو واتصالاته برجال الأعمال على تكوين فكرة حقيقية عن النشاط الاقتصادى . كما أن سفره الى فرنسا واتصاله « بالفيزيوقراطيين » كان له أثره فى تأكيد فكرته عن مزايا الحرية الاقتصادية وأصالة النظام الطبيعى .

وبعد أن أخرج سميث كتابه بسنتين عين مراقبا للجمرك بأسكتلندا ، وهى وظيفة ذات أهمية كبرى . وانتخب فى سنة ١٧٨٧ مديرا لجامعة جلاسجو ، وقد كتب بهذه المناسبة ما يدل على مدى تعلقه بالحياة العلمية يقول :

« لا يستطيع رجل أن يكون مدينا لجماعة ما بقدر دينى لرجال جامعة « جلاسجو » ؛ فلقد علمونى ثم بعثوا بى الى « أكسفورد » ، وعند عودتى الى أسكتلندا اختارونى عضوا معهم ثم نقلونى لأشغل مركزا أحاط به الشرف ، اذ شغله

الدكتور هتشسون من قبل • ان فترة الثلاثة عشر عاما التى قضيتها عضوا فى هذه الجماعة أذكرها باعتبارها أنفع فترة فى حياتى وبالتالى أكثر فترات حياتى سعادة وأعظمها شرفا• والآن وقد مضى ثلاثة وعشرون عاما على تركى الجامعة أجد أصدقائى القدامى يذكروننى بانتخابهم اياى مديرا للجامعة، فيمتلىء قلبى بسرور لا يتأتى التعبير عنه » •

وقد قضى سميث الفترة الأخيرة من حياته مريضا ، واستطاع فى مرضه أن يعيد طبع كتابه « نظرية المشاعر الأخلاقية » بعد ادخال بعض الاضافات عليه • ولم يترك لنا آدم سميث شيئا آخر غير كتابيه الكبيرين فيما عدا بعض الأبحاث الفلسفية التى نشرت بعد وفاته سنة ١٧٩٥ •

الفلسفات المؤثرة فى آراء سميث

اذا نظرنا الى الفكر الاقتصادى قبل أواسط القرن الثامن عشر فلن نجد بحثا شاملا يحاول تفسير الظواهر الاقتصادية فى جملتها • والفلسفة الاقتصادية التى كانت تتحكم فى العالم خلال القرون الثلاثة التى سبقت القرن الثامن عشر هى فلسفة التجاريين التى كانت ترى تنظيم الحياة الاقتصادية على نحو يزيد من كمية الذهب والفضة داخل الدولة ، فالهدف النهائى للسياسة الاقتصادية عند التجاريين كان ينحصر فى التحكم فى ميزان المدفوعاتلتحقيق فائض ، أما أساليب هذه السياسة فكانت تختلف من دولة لأخرى تبعا لظروفها الخاصة ووفقا للفلسفة التجارية التى تسود حكامها • واذا كان بعض الكتاب قد حاولوا فى أواخر

القرن السابع عشر أن يقارنوا الميزة النسبية بين التجارة والزراعة وكان الفكر قد بدأ يتجه فى أوائل القرن الثامن عشر الى مناقشة مذهب تقييد التجارة ، الا أنه لم توجد أية دراسة تقوم على بحث شامل للمشكلة الاقتصادية قبل منتصف هذا القرن • ولم تظهر هذه الدراسة الا على يدى الفيزيوقراطيين وآدم سميث •

ونود أن نشير قبل التعرض للفيزيوقراطيين الى أسماء بعض الفلاسفة الذين اتفق المؤرخون على أن آدم سميث قد تأثر بهم تأثرا مباشرا •

فقد قيل ان سميث قد تأثر بفرنسيس هتشسون الذى سبقه فى شغل كرسى الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو ، نظرا لوجود شبه بين كتاب « ثروة الأمم » وبين دروس هتشسون من ناحية منهاج البحث وترتيب المواد ، وكذلك لأن هتشسون قد عالج فكرة تقسيم العمل وبعض المسائل المتصلة بنظرية القيمة ، كما أنه كان من المدافعين عن فكرة الحرية •

وكذلك قيل ان آدم سميث تأثر بدافيد هيوم نظرا لأنه قد عالج فى دراسات قصيرة ، بعض المسائل الاقتصادية المهمة التى تعرض لها آدم سميث فيما بعد ، مثل موضوع النقود وسعر الفائدة وحرية التجارة ونقد مذهب « التجاريين » الذين كانوا يخلطون بين النقود وبين ثروة الأمم ويقيسون درجة غنى الدولة ورخائها بما لديها من المعادن النفيسة ، وكذلك نقد سياسة التجاريين فى تقييد التجارة ، وبيان أن رخاء دولة ما لا يضر الدول الأخرى بل يفيدها •

وممن قيل بأنهم أثروا فى فلسفة آدم سميث بل فى فلسفة « الفيزيوقراطيين » الطبيب الفيلسوف برنارد دى مندفيل الذى كتب فى سنة ١٧٠٤ القصيدة المشهورة « قصة النحل » وفكرتها الأساسية ان المدنية بما تتضمنه من ثروة ومن علم انما ترجع الى ما غرس فى نفوسنا من رغبة فى اشباع حاجاتنا غير المحدودة وسعينا الى الرفاهية والمتعة • فرذائل الانسان ، لا فضائله ، هى أساس المدنية فى رأى « مندفيل » • هذه الفكرة نجدها عند آدم سميث أيضا فى كتاب « نظرية المشاعر الأخلاقية » • ثم نجد نفس الفكرة « فكرة الرغبة الانسانية » أو «المصلحة الشخصية» فى كتاب ثروة الأمم أساسا عريضا لكل فلسفته فى النظام الطبيعى ، باعتبارها الدافع الأساسى للنشاط الاقتصادى فى جميع صوره •

أما عن « الفيزيوقراطيين » فانهم قد حاولوا البحث عن سر الرخاء ومصدر الثروة وعن أفضل النظم لتحقيق الرخاء وزيادة الثروة • وقد وجدوا أن المصدر الأصلى لكل ثروة هى الأرض • وان العمل الزراعى هو العمل الوحيد المنتج ، لأنه يترك ناتجا صافيا يزيد عما أنفق على الانتاج • أما الأعمال الأخرى كالعمل الصناعى أو التجارى فان ما تضيفه من قيمة جديدة يتعادل تماما مع ما أنفق على عملية الانتاج ، وذلك لأن الطبيعة التى تتعاون مع الانسان فى الانتاج الزراعى لا تتعاون معه فى صور الانتاج الأخرى • وقد بين كيناى Kenai فى كتابه الشهير «الجدول الاقتصادى » سنة ١٧٥٨ أن الناتج الصافى لطبقة الزراع يتداول فى جسم الهيئة الاجتماعية كما يسرى الدم فى جسم

الانسان • وبين « الفيزيوقراطيون » أن هذا النظام الطبيعى الذى وصفه الخالق هو الذى يؤدى الى قدر من الرخاء ، وهو نظام يقوم على احترام الملكية والحرية ولا يحتاج الى قانون وضعى يقرره ، وان مهمة الدولة تنحصر فى ضمان احترام الملكية الفردية والحرية الاقتصادية • ولذا كان من الواجب اطلاق الحريات الاقتصادية بصورة كاملة حتى يتحقق الرخاء • وقد كان « الفيزيوقراطيون » يرون أن خير من يحكم هو المستبد العادل الذى يوجه الأفراد الى النظام الطبيعى ولا يتدخل فيه • وكان من رأيهم أن النظام المالى للدولة يجب أن يقوم على فرض ضريبة وحيدة هى ضريبة الأرض الزراعية •

★★★

واذا كان ادم سميث قد تأثر بمن سبقه من الفلاسفة والباحثين فى المسائل الاقتصادية ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فانه قد تلقى طابع فلسفة عصره ، فالقرن الثامن عشر قد تميز بفلسفة القانون الطبيعى التى تقول : ان ثمة مجموعة من القواعد تبين ما هو صواب وما هو عدل ومتمش مع الأخلاق بصفة عامة ، وانه من الممكن التعرف على هذه القواعد عن طريق العقل أو الاحساس الخلقى ، كما تقول أيضا : ان لهذه المجموعة من القواعد سلطة أعلى مما تمليه سلطة الحاكم الانسانى أو يقضى به العرف • ولقد حاول آدم سميث أن يكشف عن هذه القواعد بالنسبة للنظام الاقتصادى هذا • ولما كان النصف الثانى من القرن الثانى عشر قد شهد بدء التحول الى النظام الرأسمالى الصناعى

القائم على المنافسة ، وتبدت عيوب النظام الاقتصادى القديم المؤسس على القيود المفروضة على حرية العمل والمبادلة ، فقد أدى هذا التطور المادى ، كما أدت الدعوة الفلسفية سالفة الذكر الى زعزعة الثقة بفلسفة التجاريين وسياستهم، وأخذ يحل محل هذه السياسة فى العمل قدر من الحرية الواقعية ، سواء أكان ذلك بالنسبة للقيود المفروضة على التجارة الدولية وعلى حرية العمل فى بريطانيا أم بالنسبة للقيود المفروضة على حرية المبادلات الداخلية فى فرنسا.

فآدم سميث قد وجد فى فترة مكنته من أن يشاهد عيوب النظام الاقتصادى القديم المتداعى ، وهو نظام كان قوامه القيود العتيقة على نظام الانتاج والمبادلة ، وقد استطاع أن يلاحظ بشائر نظام الحرية الوليد . واذا كان آدم سميث لم يستشعر الثورة الصناعية التى كان ميلادها قد تم باختراع المحركات الآلية ، فانه قد استنبط أن ثمة نظاما أفضل قوامه الحرية والمصلحة الفردية ومن شأنه أن يؤدى الى الخير العام. ولقد جاء ما كتبه تعبيرا رائعا عما كان يختلج فى ضمير عصره ، ولذا فان كلمته لم تذهب أدراج الرياح ، بل كان لجرسها وقع عميق فى خيال جيله ، وفى نفس من تبعه من الأجيال .

المظاهر الكبرى لاقتصاديات آدم سميث

واذا كان آدم سميث قد رأى مدى ما تنطوى عليه سياسة التجاريين من أخطار الثروة وجد فى البحث عن سر الرخاء ومصدره ، واذا كان أيضا مثل « الفيزيوقراطيين » الذين

عرفهم وأعجب بهم قد تأثر بفلسفة القانون الطبيعى التى سادت القرن الثامن عشر ، فانه قد وصل الى تحديد صورة للنظام الطبيعى تختلف كثيرا عما قال به الفيزيوقراطيون كما انه كان أكثر منهم احساسا بحقائق الحياة وأقل تعبدا بالفكرة الواحدة المجردة • ذلك أن آدم سميث كان أبعد ما يكون عن المذهبية العمياء •

وقد وجد سميث أن المصدر الأول للثروة ليس الأرض بل هو العمل، وبدأ كتابه «ثروة الأمم» بتلك الجملة المشهورة: « العمل السنوى لكل شعب هو الرصيد الذى يمونه بالمواد التى يستهلكها خلال السنة من ضروريات المعيشة وكماليات الحياة سواء أكانت هذه المواد مما ينتجه العمل الوطنى أم مما يشترى من الشعوب الأخرى مقابل منتجات العمل الوطنى » • وبالتالى فان ثروة الأمم تزداد كلما زودت قوة العمل • وتتحقق هذه الزيادة فى رأى آدم سميث عن طريق التخصص وتقسيم العمل ، وكذلك تزداد ثروة الأمم بازدياد عدد العمال المشتغلين على نحو يتمشى مع زيادة المستهلكين « عدد السكان » وهو ما لا يأتى فى رأيه الا بزيادة رؤوس الأموال المستثمرة •

النظام الطبيعى يؤدى الى الصالح العام

ولكن ما القوى التى تعمل على أن تبلغ الثروة أقصاها وبفضلها يتحقق تقسيم العمل وتوزيع الاستثمار على أوجه النشاط على النحو الأمثل ؟ يرى آدم سميث أن ثمة غريزة قد ركزت فى الانسان وهى المصلحة الشخصية التى

تدفع به الى محاولة تحسين حاله • هذه الغريزة التى تحكم تصرفات الأفراد تؤدى الى تحقيق الخير كله للجماعة ؛ وذلك لأن الأفراد عند سعيهم لتحقيق مصلحتهم الشخصية ، تقودهم ـ كما يقول آدم سميث ـ « يد خفية » ولا شك فى أنه يقصد يدا الهية ، تقودهم الى غاية لم يقصدوها وهى تحقيق الصالح العام • والنظام الطبيعى عند آدم سميث نظام تلقائى ينبثق عن الدوافع النفسية للانسان ، وهو نظام يؤدى الى تحقيق الصالح العام ما دامت هناك حرية اقتصادية • فتقسيم العمل مثلا لم يأت نتيجة تفكير انسان نظم العالم ، بل انه ينشأ من سعى الانسان لتحقيق مصلحته • فالفرد الذى يعيش فى جماعة يعرف انه يستطيع الحصول على ما يريده من انتاج الآخرين لو باعهم فائض انتاجه ، ولذلك يتخصص فى انتاج السلعة التى يمتاز فى انتاجها ثم يستبدل بها السلع الأخرى • فتقسيم العمل أساسه رغبة الفرد فى تحسين حالته ، كما أن أساسه غريزة المبادلة وكذلك الحال بالنسبة للنقود فانها لم تنشأ من قرار من السلطة العامة ، ولكنها خرجت من الغريزة الانسانية ، فكل فرد يسعى الى أن يكون لديه كمية من مواد أو منتجات معينة ، يمكن أن يستعملها لتسهيل عملية المبادلة للحصول على ما يحتاج اليه من منتجات ، هذه السلع التى تتميز بالقبول العام فى جماعة معينة هى الأصل التاريخى للنقود ، فالنقود أيضا تعود بشأنها الى الغريزة الانسانية ، وكذلك تكوين رأس المال يتم بصورة طبيعية تلقائية نتيجة سعى الأفراد الى تحسين حالتهم • فهذا الميل يدفع بهم الى الادخار ، ويحثهم على استثمار هذه المدخرات ، وبالتالى يؤدى الى زيادة رؤوس

الأموال والى زيادة انتاجيـة العمـل وزيادة عـدد العمـال المشتغلين ، أى الى زيادة ثروة الأمم ٠

وقد مضى آدم سميث فى شرح تفاصـيل هـذا النظام الطبيعى المنبعث من الغرائز الانسـانية ، المـؤدى الى زيادة ثروة الأمم ونمو نظمها الاقتصادية على نحو يصل بالأمم الى الرفاهية وراح يبسط القول فى هذا النظام الطبيعى سواء أكان ذلك من ناحية الانتاج أم المبادلة ٠

ولنا أن نسأل : ماذا كان رأى آدم سميث بشأن الدور الذى يتعين أداؤه على الحكومة أو « الحاكم أو الكومنولث » كما دعاها ؟ الجواب عنده بسيط جدا ٠ فهو يرى أن يقتصر دور الدولة على محاولة توسيع نطاق السـوق بشـق الطرق وتنظيم النقد وضمان تنفيذ العقود تنفيذا أمينا ٠ وعـلى الدولة أن تعمل على تحقيق حرية الصناعة والتجارة بامتناعها عن التدخل، فعليها أن تلغى نظام «المنح» ونظام «الاعانات»، وأن تمتنع عن التـدخل فى التنظيم الصناعى ، وأن تترك الحرية الكاملة للعمل ورأس المال ، اذ ان رأس المال فى هذه الحـالة سـيتجه تلقائيـا الاتجاه الذى يتمشى مع صـالح صاحبه ، ويؤدى الى زيادة الثروة القومية ٠

الاتزان والنسبية فى الاقتصاد السياسى

هذا ولم يكن آدم سميث ، فى بحثه عن تفسير الظـواهر الاقتصادية ، وفي عرضـه للنظام الطبيعى ، وفى تفـاؤله بنتائج هذا النظام ، وفى دعوته الى الحـرية والفـردية ،

بغافل عن عيوب هذا النظام أو عن جشع الانسان ومخاطر هذا الجشع • ولذا فقد أدخل الاتزان والنسبية فى الاقتصاد السياسى ، ودفع بهذا العلم فى نطاق العلوم الاجتماعية ، معارضا بذلك الاتجاه الفيزيوقراطى الذى اتجه بالاقتصاد السياسى الى زمرة العلوم الطبيعية • هذه الناحيـة فى آدم سميث من أمتع نواحيه وأكثرها ابرازا لطبيعته ، التى تأبى الانسياق وراء الاعجاب باتساق البنيان النظرى ، ولا تنسى حقائق الوجود الانسانى •

فنراه ، وان كان من أنصار المشروع الخاص والنظام الفردى ، متيقظا لاحتمال قيام الاتفاقات بين أصحاب المصالح من أرباب الأعمال ، مما يعطل قيام النظام الطبيعى القـائم على المنافسة ، ويفوت ما كان يراه من آثاره الطيبة بالنسبة للجماعة ، فيقول : « انه لا يتأتى لأفراد من مهنة واحدة أن يجتمعوا ، حتى ولو كان اجتماعهم لمجرد التسلية ، الا واتجه الى التآمر ضد الجمهور أو التحايل على رفع الأسعار » •

واذا كان آدم سميث قد بين دور الدولة على النحو الذى أوضحناه ، الا أنه قد وافق على القوانين المحـددة للفائدة تفاديا من أن يستشرى خطر الربا • وكذلك نادى بتنظيم اصدار النقود حتى لا تؤدى المحافظة على « حرية بضعة أفراد الى تعريض أمن الجماعة كلها للخطر وهو ما يفرض عـلى قوانين الدولة أن تقيد مثل هذه الحرية سواء أكانت حكومتها أكثر الحكومات تحررا أم أشدها دكتاتورية » •

وكذلك اذا كان آدم سميث من أنصار حرية التجارة ، فانه قد أجاز الحماية التجارية لحماية الصـناعة التى تعـد

ضرورية للدفاع الوطنى ذلك لأنه كان يرى « أن الدفاع أكبر أهمية من الثراء » ٠

وكذلك أجاز فرض رسوم تعويضية على الواردات مماثلة للرسوم المفروضة على الانتاج المحلى ٠ كما أجاز المعاملة بالمثل بالنسبة للدول التى تتخذ اجراءات حماية ضد الصادرات الوطنية ، وكان من رأيه التدرج عند الغاء نظام الحماية التجارية لرعاية الصناعات الوطنية التى كانت تتمتع بتلك الحماية والتى تستخدم عددا كبيرا من العمال ٠

أما عن نظرته الى الطبقة العاملة فانه كان شديد الحساسية لظروفها ، الى درجة أنه يبدو غير مؤمن بعدالة النظام الطبيعى فى التوزيع رغم ايمانه بفائدته فى الانتاج فنراه بعد أن يقرر فى صدر الفصل الثامن من الجزء الأول انه « فى الوضع السابق على تملك الأراضى وتكوين رأس المال كان للعامل كل نتاج عمله ، فلم يكن له مالك أو سيد ليقتسم معه » ٠ ثم يبين كيف أن نظام الملكية واستخدام رأس المال فى الانتاج يؤديان الى اقتطاع جزء من دخل العمل لكل من هاتين الفئتين ٠

ولاحظ سميث كذلك انعدام المساواة فى قوة المساومة بين الأجراء وأرباب الأعمال وفى هذا يقول : « ان بين السادة دائما وفى كل مكان تفاهما شبه خفى ، ولكنه دائم متجانس ، من حيث عدم رفع أجر العمل فوق المعدل الفعلى»، وقلما سمع الجمهور بهذه الاتفاقات فيما بينهم ، ولكن محاولات العمال من أجل التكتل ومقاومة خفض الأجور أو

زيادة الأرباح ، كانت تؤدى الى الاستنكار الشديد ، كما أن العنف الذى لازم أحيانا أمثال هذه الحركات كان يقمع بشدة ٠

ولم يفت سميث أن يلاحظ الحاجة الى المنافسة كشرط لقيام نظام الحرية الطبيعية الذى يتحدث عنه ٠ لقد كان عدوا عنيدا للاحتكار ما عدا وظائف قليلة تكون فيها المنافسة باعثا على الاسراف كما هى الحال فى شق القنوات ٠ وكان يقول : « ان الاحتكار عدو الادارة الحسنة التى لا يمكن توافرها الا نتيجة المنافسة الحرة العامة التى ترغم كل امرىء على الالتجاء اليها كوسيلة للدفاع عن النفس » ٠

ويعلن سميث أن الريع فى جوهره سعر احتكارى ٠ ان كمية الأرض الجيدة أو المرغوب فيها محدودة ، والذين يملكونها يمكنهم استخلاص شىء من المستهلك ، وهو ما لا يدفعه مقابل العمل أو رأس المال الضرورى ، فالريع المرتفع ليس الا وليد الثروة القومية الكبيرة أو الأجور العالية ٠ وحين يحلل سميث الريع فانه يستبق مذهب « الريع غير المكتسب » الذى أصبح له تأثير كبير ، كما أنه فى هذا التحليل انما يعكس لنا شعور المنتج الصناعى ضد مخلفات النظام الاقطاعى والملاك الزراعيين ٠

العمل ودوره الأساسى فى خلق الثروة

وينحصر الهدف الأساسى من كتاب « ثروة الأمم » كما يدل عنوانه فى البحث فى طبيعة هذه الثروة وأسبابها ٠ ولقد سبق أن عرضنا باختصار نظرية آدم سميث فى النظام

الطبيعى الذى يحكم تطور ثروة الأمم ويؤدى الى زيادتها ، اذا ترك الأفراد أحرارا فى اتباع غرائزهم ، وسعوا لتحقيق مصلحتهم الشخصية ، وكفلت لهم الدولة الأمن والعدالة والتعليم • فآدم سميث يؤمن بتلقائية التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، ويرى من ناحية أخرى أن النظام الطبيعى يعفى الحكومة من المسئولية الاقتصادية « ويعفيها من واجب تعرضها محاولة أدائه الى حالات كثيرة من خيبة الأمل ، وذلك لأن أداء هذا الواجب يستلزم ما تنوء به رجاحة أى عقل ونفاذ كل علم ، مهما كان هذا الواجب الذى يتضمن مراقبة نشاط الأفراد وتوجيههم الى الأعمال الأكثر تمشيا مع الصالح العام » • فهو لم يكن يتخيل وضع برنامج مفصل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية على أساس علمى •

وفى النظام الطبيعى الذى رسم آدم سميث صورته ، يلعب العمل الدور الأساسى فى خلق الثروة ، سواء أكان عملا صناعيا أم زراعيا أم تجاريا • وهو فى هذا الصدد قد تقدم كثيرا عن الفيزيوقراطيين الذين كانوا يرون أن العمل الزراعى هو العمل المنتج الوحيد • ولكن آدم سميث لم يستطع التحرر تماما من فكرة عدم انتاجية بعض صور النشاط الانسانى ، بل ظل يقسم الأعمال الى أعمال منتجة وأعمال غير منتجة • فالأعمال المنتجة هى الأعمال التى تزيد من قيمة المواد التى تتركز عليها ، أما الأعمال غير المنتجة فهى الأعمال التى قد تكون نافعة ولكنها لا تزيد من تلك القيمة • وهذه الأعمال كما يقول سميث : « تهلك فى نفس لحظة أدائها ، مثل عمل الخادم » ويلحق به أعمالا أساسية

مثل عمل الحاكم والقسيس وراقص الأوبرا ٠٠ الخ ٠ فالخدمات لا تدخل عنده فى باب الأعمال المنتجة ٠

واذا كان آدم سميث قد أدخل فى نطاق الأعمال المنتجة الى جانب العمل الزراعى ، العمل الصناعى والتجارى ، فانه برغم ذلك قد رتب أهمية أوجه النشاط فى التقدم وفقا لما أسماه « السير الطبيعى للأمور » ، وأعطى المرتبة الأولى للنشاط الزراعى ، باعتباره أكثر صور النشاط توظيفا للعمال ، ثم أعطى المرتبة الثانية للنشاط الصناعى ، والثالثة للنشاط التجارى ، مقسما هذا النوع الأخير الى درجات متفاوتة الأهمية ٠

وتزداد انتاجية العامل تبعا لمدى تقسيم العمل ، وذلك لأن تقسيم العمل يؤدى الى زيادة مهارة العامل والى توفير الوقت اللازم للانتاج ، كما أن التخصص الذى يترتب على تقسيم العمل يؤدى الى الوصول الى أفضل الطرق لأداء العمل والى اختراع الأدوات التى تساعد العامل على زيادة الانتاج ٠ وقد ضرب لذلك المثال المشهور فى زيادة انتاج الدبابيس تبعا لتقسيم العمل ٠

وان الفقرة الشهيرة التى أوضح فيها أن تخصص العمليات فى عمل الدبابيس يرفع من انتاجية العامل ، لتعد **نموذجا فى حسن الشرح والايضاح :**

« ولنضرب على ذلك مثلا نستقيه من احدى الصناعات القليلة الأهمية التى روعى فيها تقسيم العمل وهى صناعة الدبابيس ، فالعامل الذى لم يتدرب على هذه الصناعة ربما

يعجز عن صنع دبوس واحد يوميا حتى ولو بذل أقصى جهده ، وبالتالى لا يستطيع أن يصنع دبوسا • ولكن بالطريقة المتبعة الآن فى هذه الصناعة لا يصبح العمل بأكمله حرفة خاصة بل انه ينقسم الى فروع يعتبر معظمها حرفا قائمة بذاتها • اذ يقوم أحد العمال بجذب السلك بينما يقوم الثانى بجعله على استقامة واحدة ويقطعه عامل ثالث ثم يجعل عامل رابع أحد طرفى الدبوس مدببا ويتولى عامل خامس اعداد الطرف الآخر من الدبوس الذى ستثبت عليه الرأس • أما عملية صناعة رأس الدبوس فهى تتطلب عمليتين أو ثلاث عمليات مستقلة ، ونضيف الى ذلك أيضا عملية تثبيت رأس الدبوس وتلميعه • بل يمكننا أن نعتبر عملية وضع الدبوس فى الورق لاعداده للبيع حرفة فى حد ذاتها • بهذه الطريقة تنقسم عملية صناعة الدبوس الى حوالى ١٨ عملية منفصلة يقوم بها عمال يستقل كل منهم عن الآخر فى بعض المصانع بينما يقوم فى المصانع الأخرى عامل واحد بعمليتين أو ثلاث عمليات فى وقت واحد •

وقد شاهدت مصنعا صغيرا لصناعة الدبابيس يعمل فيه عشرة عمال فقط ، يقوم بعضهم بعمليتين أو ثلاث عمليات ، ولكن على الرغم من أنهم كانوا فى غاية الفقر ولم تكن لديهم الآلات اللازمة فانهم كانوا يستطيعون أن يصنعوا ـ اذا بذلوا جهدهم ـ ١٢ رطلا من الدبابيس يوميا •

ولما كان الرطل يحتوى على ٤٠٠٠ دبوس من الحجم المتوسط • فان هؤلاء العمال العشرة يستطيعون أن يصنعوا ما يربو على ٤٨ ألف دبوس يوميا ، يعنى ذلك أن كل عامل

يصنع ١/١٠ هذا العدد ، أى يبلغ متوسط عدد الدبابيس التى يصنعها ٤٨٠٠ دبوس يوميا • ولكن لو كان كل منهم يعمل مستقلا عن الآخر ودون أن يتعلم أى منهم صناعة الدبابيس لما تمكن كل منهم من أن ينتج ٢٠ دبوسا ، بل ربما لم ينتج كل عامل منهم دبوسا واحدا ، أى ما استطاع كل منهم أن ينتج ١ الى ٢٤٠ أو ربما ١ الى ٤٨٠٠ من متوسط عدد من الدبابيس التى يمكن أن ينتجها كل عامل بفضل تقسيم العمل والتعاون فى العمليات المختلفة •

ان نتائج تقسيم العمل فى اى فن أو صناعة أخرى تتمثل فى النتائج التى أمكن تحقيقها فى هذه الصناعة القليلة الأهمية • هذا على الرغم من أنه لا يمكن تقسيم العمل فى الكثير من الصناعات ولا يمكن أن تصل الصناعة الى مثل هذه البساطة •

ولكن المعروف أن تقسيم العمل عموما يتيح بقدر الامكان زيادة نسبية فى القوى الانتاجية للعمال فى كل حرفة • ويبدو أن الفصل بين الحرف المختلفة قد حدث نتيجة لهذه الميزة •

ويبلغ هذا الفصل بين الحرف أقصى حد له فى تلك الدول التى تنعم بأقصى درجات التقدم ، فالعمل الذى يقوم به شخص واحد فى المجتمع البدائى يقوم به عدد من العمال فى المجتمع المتقدم •

وهذه الزيادة العظيمة فى كمية الانتاج التى يستطيع أن يحققها العمال بفضل تقسيم العمل تسفر عن ثلاث نتائج مختلفة :

أولا : زيادة مهارة كل عامل ٠

ثانيا : توفير الوقت الذى ينفق فى الانتقال من نوع من أنواع الانتاج الى نوع آخر ٠

ثالثا : اختراع كثير من الآلات التى تسهل العمل وتقلل تكاليفه ، وتمكين العامل الواحد من القيام بأعمال عدد كبير من العمال ٠

★★★

وأوضح سميث فى كتابه الحدود التى رأى أنها تقصر التقدم وتوقفه عند وضع معين ، فتقسيم العمل يحده الطلب على المنتجات ، الذى يحده بالتالى نطاق السوق ٠ فاذا كان السوق ضيقا كان احتمال تقسيم العمل محدودا ، وكانت احتمالات زيادة الثروة أو ما نسميه الآن احتمالات التقدم الاقتصادى محدودة أيضا ٠

وهذه الآراء ككثير غيرها مما أبداه سميث أصبحت اليوم جزءا من تراثنا بحيث تبدو عادية ، ولكنها لم تكن كذلك حين طلع بها ٠

نواحى الاختلاف عن المذاهب السابقة عليه

من أعنف أجزاء كتاب سميث ذلك الجزء الذى هاجم فيه المذاهب التجارية ، وهو أمر يترتب حتما على آرائه ٠ فاذا كانت المنافسة وحرية التجارة والتخصص أمورا مرغوبا

فيها داخل الشعب الواحد ، فيجب أن تكون مرغوبا فيها بالقدر ذاته بين الشعوب ، اذ ما من شعب يكسب من انتاج شيء يستطيع أن يشتريه بثمن أرخص من مكان آخر ، ولكن تحقيق هذا الاسراف هو الهدف الكامن وراء التعريفات الجمركية والاعانات المالية ، فبدونها نجد أن كل شعب يتخصص طبعا فى تلك الأنواع من الانتاج التى يكون أكثر استعدادا لها • وعلى أية حال ، فان انتاج هذا الشعب هو المصدر الوحيد لثروته ، وكلما زاد مقدار ما ينتج من القيمة باستخدام العمل المتوافر لديه ، زاد ثراؤه وغناه • وهكذا يتضح ان الاحتكارات التى تؤثر فى التجارة الدولية غير مرغوب فيها ، شأنها فى ذلك شأن الاحتكارات بالداخل •

وبوصفه بريطانيا ذا عقلية عملية نراه يسمح بالاستئناف ، فمن المرغوب فيه ــ لأغراض تتصل بالأمن العسكرى ــ العمل على تنمية الملاحة البريطانية ، وينبغى فرض الرسوم الجمركية على السلع المستوردة اذا كان الانتاج المحلى منها يتعرض لنفقات أعلى بسبب فرض ضريبة خاصة عليه ، وبذلك يمكن أن تتساوى المنافسة • وكذلك يمكن استخدام الرسوم الجمركية لأغراض المساومة ، وأخيرا يمكن تبرير خفض الرسوم تدريجيا بدلا من خفضها دفعة واحدة اذا ترتب على التغيير المفاجيء متاعب لا داعى لها •

أما الاتهام الأساسى الموجه ضد السياسة التجارية فقد لخصه آدم سميث بقوله ، انها تضحى بمصلحة المستهلك من أجل مصلحة المنتج ، مع أن « الاستهلاك هو الغاية الوحيدة من الانتاج » •

ويشارك سميث الطبيعيين فى الكثير من آرائهم ، ولكنه ينتقد مذهبهم اذ يعده رد فعل مغالى فيه للكولبيرتية ، اذ طبقا للمثل : « اذا امكن أن تثنى العصا كثيرا فى أحد طرفيها لجعلها مستقيمة يجب أن تثنى الطرف الآخر بالدرجة ذاتها» وهذا ما فعله الطبيعيون اذ اعتبروا الزراعة المصدر الوحيد للثروة • ان للزراعة أهمية أولية عند سميث ولكنه يرى فى الوقت نفسه أن الصناعة والتجارة حرفتان منتجتان •

★★★

سميث •• أبو الاقتصاد السياسى !

كان كتاب آدم سميث ذو المجلدين قنبلة زمنية فى حينه • وقد صادف الكتاب فى حياة صاحبه وبعد مماته نجاحا منقطع النظير ، فبمجرد نشر الكتاب تلقفه المثقفون فى بريطانيا بل فى أوروبا كلها وتناولوه بالتعليق والمناقشة ، ولقد ظل هذا الكتاب المحور الأساسى للمناقشات الاقتصادية والسياسية خلال قرن من الزمان ، وما زالت بعض المبادىء والنظريات التى قررها أساسا للبحث حتى وقتنا هذا •

وقد نال آدم سميث من التكريم والنجاح فى حياته وبعد مماته ما لم ينله الا عدد نادر من الكتاب فى العلوم الاجتماعية • وقد ذهب بعض المؤرخين الاقتصاديين الى اعتبار آدم سميث أبا لعلم الاقتصاد السياسى ومؤسسا لمبادئه • بينما ينكر عليه البعض صفات الابداع ويضعونه فى مصاف الناقلين عن الفيزيوقراطيين ، أو عمن سبقه من الاقتصاديين

الانجليز أو من تقدمه من الفلاسفة • ونرى فى كل من الرأيين مبالغة ، فالمسائل الاقتصادية قد شغلت تفكير الفلاسفة ورجال السياسة منذ أقدم العصور ، وكان للقدماء والمحدثين ممن سبقوا آدم سميث آراء يختلط معظمها بما قاله ، فالبحوث الاقتصادية أقدم بكثير من آدم سميث • كما أن التوافق بين ما جاء فى « ثروة الأمم » وما كتبه سابقوه لا يضع آدم سميث فى مركز الناقل غير المجدد • ومما لا شك فيه أن « علم الاقتصاد » قد جمع وتبلور فى كتاب « ثروة الامم » على نحو لم نشهده فى كتاب سابق عليه •

وعلى أية حال ، فقد أجمع كل من نقاد آدم سميث ومريديه أن كتابه « ثروة الأمم » وثيقة مهمة فى تاريخ الفكر الاقتصادى القديم لا تدانيها أية وثيقة أخرى فى ذلك الوقت • ويكفيه فخرا أنه ضمن كتابه هذا أفكار قرن بأكمله ـ أى القرن الثامن عشر ـ قرن الثورة الصناعية أو ثورة البخار •

وهذا خير مديح يمكن أن يزجى الى العمل الذى قام به سميث ، كذلك فان مهاجميه ومؤيديه يسلمون باتفاق تام بأن علم الاقتصاد السياسى بدأ بآدم سميث ، ومن ثم فانه (أى سميث) يجب أن يسمى بحق بأبى الاقتصاد السياسى • ذلك العلم الانسانى المهم الذى يدرس اليوم فى جميع الجامعات والمعاهد •

★★★

فالمعالم الأساسية لفلسفة آدم سميث الاقتصادية قد قدمت للعالم فى القرن الثامن عشر تفسيرا معقولا للظواهر

الاقتصادية ، ووضعت أساسا منطقيا لسياسة اقتصادية تتمشى مع ظروف تلك الحقبة واحتياجاتها • بيد أن هـذا وحـده ما كان ليكفى الى ايصال آدم سميث الى قمة المجد التى بلغها، لو لم تكن كتاباته وبحوثه قد امتدت الى جـذور الـكثير من المشـاكل الاقتصادية والاجتماعية • فقـد تعرض لمختلف المشـاكل الاقتصـادية ، وحـاول أن يربط بين الظـواهر الاقتصادية بتفسير نظرى متماسك وبين الصـفة التلقائيـة للظواهر الاقتصادية • وفتح بذلك السبيل الى التركيز عـلى دراسة القوانين الاقتصادية •

ومما ساعد على تعميق أثر آدم سميث ، أن من سبقه من الكتاب فى فرنسا وبريطانيا كانوا قد مهدوا له السـبيل الى النجاح • هذا الى أن قيام ثورة الاسـتقلال الأمريكيـة ونجاحهـا وما ثبت نتيجتهـا ، وبسـبب زيادة المبـادلات وازدهارها بين بريطانيـا وبين مستعمراتهـا الأمريكيـة القديمة بعد تحرر هذه المستعمرات، من أن التنظيم التحكمى بين الدولة المستعمرة وبين البلد المستعمر قد لا يكون أفضل تنظيم بالنسبة للدولة الكبرى ، وأن اقامة العلاقات بين هذين البلدين على أساس من الحرية قد يأتى بنتيجة أفضل وأكثر ربحا بالنسبة للدولة التى فقدت سيطرتها الاستعمارية • كل ذلك قد أوجد حجة عملية كبيرة تسـند فلسـفة النظام الطبيعى القائم عـلى الحـرية • وكذلك فان قيام الثـورة الفرنسية وقضاءها على النظام القديم فى فرنسا ، بما كان يتضمنه من تنظيمات عتيقة للنشاط الاقتصادى • كل ذلك قد رفع فلسفة الحرية بكل صورها الى مصاف العقائدالثابتة فى نهاية القرن الثامن عشر ، ومكن لهـذه العقيـدة من أن

تحكم الفلسفة والسياسة الاقتصادية قرابة قرن من الزمان ، ومكن بالتالى لآدم سميث ــ أكبر المنادين بمبادئها فى النطاق الاقتصادى ــ أن يجد سبيله الى مكان الصدارة بين الطلائع الموجهة للفكر الانسانى • وكذلك قد أدت الثورة الصناعية الى ايجاد توافق تام بين مصالح الرأسماليين وأصحاب الصناعة وبين فكرة الحرية الاقتصادية طوال القرن التاسع عشر، مما دعم أثر آدم سميث ومد ظله على هذا القرن كله •

ان ما امتاز به سميث من سعة فى الأفق ومعرفة موسوعية الطابع لا يمكن آن يستحقا سوى الاعجاب ، وما كان فى الوسع آن يظهر مثل هذا الكتاب الضخم الشامل والذى يمتاز بالعمق الا فى القرن الثامن عشر ، القرن الذى كانت تسوده الفلسفة الاحيائية والعقل • وربما لن يظهر من جديد اقتصادى بمثل هذا الالمام الشامل كما فعل آدم سميث •

★★★

وفى أواخر أيام سميث انهالت عليه مظاهر التكريم والاحترام ، فترجم كتابه الى الدنمركية والفرنسية والألمانية والايطالية والاسبانية ، وكغيره من العظماء المفكرين كان سميث مبعث الالهام لمجموعة من الاقتصاديين العظام أمثال : جان بابتيست ساى وجيمس مل James Mili ، وجون رمزى ماكولوخ ، ونساو وليم سينيور وأيضا دافيد ريكاردو David Ricardo الذين تناولوا نظريات سميث بالصياغة

والصقل والتصحيح دون أن يضيفوا الى الموضوع شيئا كثيرا من الحقائق وعمق النظرة ٠

والجدير بالذكر أنه حين دفن سميث فى كنيسة كانونجيت نقش على قبره هذه العبارة :

« هنا يرقد آدم سميث مؤلف كتاب « ثروة الشعوب » ٠ ومن الصعب أن نتصور تمثالا يمكن أن يعيش كما تعيش هذه العبارة » ٠

أصل الأنواع

داروين

١٨٥٩م

ميلاد نظرية التطور التى مازالت تثير العلماء حتى يومنا هذا

نظرية التطور من النظريات الكبرى التى تسيطر على الثقافة العالمية ، وتصبغ عقلية المفكرين فى جميع أنحاء العالم الآن • وهى قائمة فى الأصل على درس التاريخ الطبيعى للانسان والحيوان والنبات •

والواقع أن أية نظرية علمية ، لم تحظ بجدل واسع ، ونقاش مستمر ، مثلما حظيت به نظرية التطور ، وأصل الأنواع ، وظهور الانسان على هذا الكوكب ، وعلاقته بما ظهر قبله من ملايين الأنواع ـ الباقية منها والمنقرضة ـ وطبيعى أن الجدل المستمر فى أية مسألة علمية هو ظاهرة صحية ، خاصة اذا قام بهذا الجدل علماء متخصصون ، وليس ذلك مرده الى رداءة أو قصور فى النظرية ، لأن الردىء لا يستحق جدلا أو مناقشة يضيع العلماء فيها وقتهم ، ويستهلكون طاقتهم ، فالردىء هو الذى يسقط نفسه بنفسه ، بل يرجع استمرار الجدل حتى اليوم ، أو فيما قد يتلوه من أجيال الى اختلاف فى وجهات النظر على النظرية التى وضع داروين بذرتها ، أو النظريات الأخرى التى جاءت بعدها •

ورغم مرور أكثر من مائة عام على موت داروين ، فان نظريته لازالت حية بل انها تزداد حيوية واشراقا ، لا فى

عقول الناس ، بل فى عقول العلماء الذين يفكرون بطريقة منظمة ، مستمدين زادهم الفكرى من قوانين الكون وشرائع الحياة ، اذ كلما مرت السنون وتطورت البحوث ، وزادت حصيلة العلماء من الأسرار الكثيرة التى تنطوى فى خلق الكائنات ، أصبحوا من حقيقة التطور قاب قوسين أو أدنى ٠

وبعد ٠٠ فان من حق القارىء أن يعرف شيئًا عن ترجمة هذا المفكر العظيم ، لأنه لا يمكن أن ينفصل مؤلف عن مؤلفاته ، اذ هى تصطبغ وتصاغ وفق مزاجه وذكائه ، وقبل كل ذلك وفق العوامل الثقافية التى تعاصره ٠

حياة داروين وتكوين فكره

ولد تشارلز داروين فى ١٢ فبراير عام ١٨٠٩ فى « شرو سبورى » من أسرة اشتهرت بنزعتها العلمية حيث خرج منها قبل مؤلفنا عالم آخر نال شهرة كبيرة وهو « ارازموس داروين » جد تشارلز ومؤلف كتاب « قوانين الحياة الحيوانية » وهو الكتاب الذى نجد فيه بذور النظرية التطورية التى خلدت اسم داروين ٠

وقد ظهر الميل الى جمع نماذج النباتات والحشرات عند تشارلز داروين فى سن مبكرة ٠ وذكر هو نفسه ذلك فى مذكراته التى كتبها عن تاريخ حياته اذ يقول : « كان حب جمع النماذج عميقا فى نفسى مما يدفعنى الى التأكيد بأنه كان عندى غريزة فطرية ، اذ لم يظهر هذا الميل عند واحد من أشقائى أو شقيقاتى ٠ ولا شك أن هذا الميل هو الأساس

الذى يجعل من الانسان عالما طبيعيا مدققا أو يجعل منه أحيانا مهووسا أو شحيحا » ٠

وفى سن السادسة عشرة رحل داروين الى أدنبرة ليدرس الطب ولكنه ما لبث أن أظهر امتعاضه وكراهيته لتلك الدراسة ، وان كان فيما بعد قد أسف أسفا شديدا لأنه فوت على نفسه الفرصة التى كان يستطيع أن يتقن فيها فن التشريح ٠ وبعد مضى سنتين على التحاقه بدراسة الطب أدرك والده الدكتور روبرت وارنج داروين أن ابنه تشارلز لا يرجى منه أمل فى أن يكون طبيبا ناجحا ٠ وفكر فى تحويله لدراسة اللاهوت ليصبح رجلا من رجال الكنيسة ٠ ولم يكن يدور بخلد الوالد أن ابنه ، بدلا من أن يصبح خادما لمبادىء الكنيسة ، سيعلن بنظريته عن العالم وخلق الكائنات وتطورها مبادىء تقلب نظريات اللاهوت رأسا على عقب ، وتقيم الكنيسة وتقعدها وتجعلها تشن حربا لا هوادة فيها ضد هذا الرجل الذى اتهمته بالالحاد والكفر والمروق ٠

ورحل داروين الى كمبردج فى أوائل عام١٨٢٨ ٠ ولكنه لم يدرس اللاهوت ، بل أمضى فى هذه المدينة الجامعية ثلاث سنوات انصرف فيها الى حياة اللهو ، على أن هذه السنوات الثلاث فى الحقيقة لم تضع كلهاء هباء ! اذ ان معيشة داروين فى المدينة الجامعية القديمة قد ساعدت على ظهور الموهبة الكامنة فيه ، ونعنى بها موهبة العالم الطبيعى ٠ وكما يحدث فى كثير من الحالات ظهرت هذه الموهبة على أثر قراءته لبعض الكتب ٠ فاستطاع على أثر هذه القراءة أن يتعرف على مواطن القوة فى نفسه ، وأن يقبل على البحث فى المجال الذى يتفق

مع ميوله واستعداده • واستحوزت على نفسه فكرة سامية أراد أن ينفذها بعزم وقوة وهى أن « يضيف الى بناء العلوم الطبيعية الشامخ حجرا يضعه بنفسه مهما كانت قيمته المتواضعة » •

وما لبث أن ظهرت فرصة أخرى ساعدت على توجيه الشاب الجامعى نحو هوايته الحقيقية بعد قراءته لأخبار « همبولت » Humboldt (١) وصداقته للأستاذ « هنسلو » أستاذه فى علم النبات ، وانتمائه « لنادى الذواقين » ، فقد اقترح بعض أعضاء هذا النادى القيام بأبحاث تجريبية على أنواع من النبات والحيوان قد تؤدى الى استنباط « أكلات جديدة » غير تلك التى ألفها الناس • هذه الظروف جعلت الطالب فى جو غريب امتزج فيه حماسه للعلوم التجريبية بخياله عن البلاد والقارات النائية التى تحوى عجائب من الحيوان والنبات ، وبتعلقه المتهوس بجميع الطوائف والغرائب • ففى هذا الوقت أخذ داروين يجمع الحشرات ويحلم بالرحلة الى « جزر كنارى » فى المحيط الأطلسى •

وعندما ترك داروين كمبردج حاملا درجة الماجستير فى الآداب عام ١٨٣١ ، كان يدرك تمام الادراك أنه ما من شىء يستحق منه الاهتمام سوى دراسة التاريخ الطبيعى •

الرحلة التى كونت فكره

وبينما كان داروين على هذه الحال ، اذ أتيحت له فرصة ذهبية مكنته من تحقيق جميع أحلامه ، وفتحت أمامه مجال

---

(٢) همبولت : (انظر صفحة ٣٠٤ من الجزء الثانى من هذه الموسوعة) •

البحـوث وجمع المعلومات التى أدت فى أواخـر الأمر الى نظريته عن « أصل الأنواع » ٠

فقد كتب أستاذ الفلك فى كمبردج الى « هنسلو » أستاذ داروين يطلب اليه أن يختار له شابا له المام وولع بدراسـة التاريخ الطبيعى ليرافق بعثـة علمية الى « أرض النـار » والأرخبيل الهندى ٠ وفكر هنسلو عـلى الفـور فى داروين٠ وكتب الى تلميذه يقـول : « اننى لم أخترك لأننى أعتبرك عالما طبيعيا بلغ منتهى الكمال ، ولكنى أعرف انك تستطيع أن تستغل أحسن استغلال هوايتك لجمع النمـاذج وملاحظة الأشياء وتدوين هذه الملاحظات بدقة وعناية ٠ ولا شك أنك ستسجل كل ما يستحق أن يسـجل بالقيـاس الى التـاريخ الطبيعى » ٠

وبالرغم من أن هذه البعثة قد استغرقت خمس سنوات فهى تعد أخصب فترة من حيـاته ، فقـد كانت سـلسلة من المجهودات الشاقة والمتاعب المضنية ٠

وكان أعضاء البعثة التى أبحرت على ظهر سفينة الأبحاث « بيجل » مكلفين بدراسة أجواء وتضاريس سواحل بتاجونيا وأرض النار وشيلى وبيرو وبعض جزر المحيط الهادى ، أما داروين فقـد كلف بدراسـة النبـات والحيـوان فى تلك المناطق ٠ وقبل أن ترسو السفينة على الشاطىء لأول مرة كان داروين قد اسـتطاع أن يحلل الأتربة التى يحملهـا الهواء فى جو المحيطات ، ويميز فى هـذه المحيطات سـبعة وستين نوعا من الحيوان والنبـات ٠ ورست السـفينة على

أرض النار حيث استطاع مؤلفنا أن يتأمل لأول مرة الانسان فى حالة البدائية ، وتركت هذه المشاهدة فى نفسه أثرا لا يمحى • فكانت قوة تأثره بهذا المنظر دليلا على أن المشكلة العلمية والفلسفية الخاصة بأصل الانسان كانت قد بدأت تشغل ذهنه وتحتل مكانا معينا من تفكيره •

ومما لا شك فيه أن النظريات الأساسية التى أعلنها داروين فى كتابه « أصل الأنواع » قد تكونت فى ذهنه رويدا رويدا خلال هذه الرحلة • فدراسته لحفريات الحيوانات فى سهول « البمباس » وملاحظته للاختلافات البسيطة التى تحدث عند الحيوانات التى من أنواع متقاربة كلما تقدم نحو الجنوب من القارة الأمريكية ، جعلته يتصور بوضوح فكرة التغير التدريجى للأنواع • كما أن التجارب والملاحظات التى أجراها خلال هذه الرحلة الطويلة كانت بمثابة الغذاء والمؤونة التى عاش عليها طوال حياته العلمية •

وبعد عودته من رحلته عام ١٨٣٦ استقر فى لندن ، ثم انتقل بعد ذلك الى كمبردج • وبدأ فى ترتيب الوثائق والمجموعات النباتية والحيوانية التى جمعها ، ويكتب فى الوقت نفسه « رحلة عالم طبيعى » عام ١٨٣٩ • وتجسمت فى ذهنه نظرية « أصل الأنواع » والواقع أن هذه النظرية لم تكن عنده وليدة تأملات فلسفية حاول بعد ذلك أن يدعمها بالمشاهدات ، بل ان الأمر على العكس من ذلك تماما ، فان الظواهر التى لاحظها والعلاقات التى لمسها بين هذه الظواهر وأوجه الشبه التى صادفها هى التى قادته الى هذه النظرية التى أصبحت كشفا عظيما فى علم الحياة • وقد كان

داروين نفسه يدهش أحيانا أشد الدهشة من عدد الظواهر التى تقع تحت ناظريه فى تسلسل واضح ، ولا تدع لديه أى مجال للشك فى صدق نظريته • وكتب الى صديق له يصف هذا الأمر بقوله : « لقد ملأت كراسات بعد كراسات بالملاحظات ، ودهشت للظواهر التى كانت تتجمع من تلقاء نفسها بوضوح بحيث يسهل وصفها تحت قوانين ثانوية » •

ولما كانت حياة داروين تسير وفق نظام دقيق ، فقد خلقت له هذه الحياة خير الظروف لازدهار جميع قواه ومذاهبه وللانتفاع بها على أحسن وجه • والواقع أن التنظيم الدقيق لمواعيد يومه هو الذى يسر له جمع ملاحظاته العديدة وتبويبها وترتيبها • وكان يعمل فى صبر وأناة لتدعيم مستقبله العلمى بدون أن يهتم بالمظاهر أو ألقاب الشرف أو النياشين ، كما لم يكن عنده غرور أولئك العلماء الذين يصمون آذانهم عما يتردد فى العالم الخارجى • ولم يكن يحتد أو يغضب لما ينشر عنه من نقد مجحف بسبب ما يصل اليه من نتائج علمية جريئة ، ولم تستطع المناقشات الحادة والجدل العنيف الذى ساد أوساط العلم على أثر صدور كتابه « أصل الأنواع » أن تعكر من صفو حياته الرتيبة المنتظمة أو تبدل من هدوء ذلك الرجل •

وفى الوقت الذى ظهر فيه كتابه «أصل الأنواع» ، أى فى عام ١٨٥٩ كان لداروين مؤلفات أخرى وبحوث عديدة فى علوم النبات والحيوان والجيولوجيا • فقد نشر فى سنة ١٨٤٢ مؤلفا عن « الشعب المرجانية » وفى سنة ١٨٤٥ « رحلة عالم طبيعى » ، وفى عام ١٨٥٤ « وصف حياة

المحار » • ويجب ألا تحجب الأهمية الفلسفية لكتابيه الخالدين « أصل الأنواع » و « سلالة الانسان » قيمة بعض كتبه الأخرى مثل كتاب « النباتات آكلة اللحوم » وملاحظاته عن « حركات وعادات النباتات المتسلقة » ودراسته « للاخصاب بالطريق المباشر وبطريق التهجين » و « لقدرة النباتات على الحركة » •

فكرة الكتاب

عرض داروين نظريته فى التطور كاملة فى كتابه « أصل الأنواع » ، وقد تعرضت هذه النظرية لكثير من الهجوم والنقد ، كما كانت موضع اعجاب الكثيرين وثنائهم العاطر • ونحن لا يهمنا الآن أن نفند النقد ، أو نبرز المدح ، بقدر ما يهمنا عرض الآراء التى فى هذا الكتاب عرضا موضوعيا، وذلك بالاستناد الى أهم النصوص التى وردت فيه •

وليس فى وسعنا أن نحلل الكتاب تحليلا مفصلا ، وذلك لما حواه من المادة الغزيرة ، والمشاهدات والتجارب التى تجل عن الحصر ، ولما عنى به داروين من تتبع كل ظاهرة مهما كانت بساطتها ، لكى يستخلص منها ما يؤيد القوانين التى يريد أن يثبتها • ولذا فاننا نكتفى باعطاء فكرة عامة عن هذا الكتاب الضخم ، وابراز الهيكل العام لهذا البناء الشامخ

وقد يخيل للقارىء ــ من خلال عرضنا السريع ــ أن داروين قد وصل الى بعض النتائج بطريقة تعسفية • ولكن

الحقيقة أن هذه النتائج ، التى لا يسعنا الا ابرازها فى صورتها النهائية ، لرغبتنا فى تجنب التفاصيل العلمية التى التى لا يهتم بها الا المتخصصون ـ هذه النتائج لم يصل اليها داروين الا عن طريق الاستقراء الطويل ، والتجارب المضنية · ويكفى للاقتناع بذلك أن يرجع القارىء الى نصوص الكتاب ذاتها ، وحينئذ يجد أن أى فرض يفترضه داروين ، يظل موضع الدرس والاستقصاء ولا يرقى الى مرتبة اليقين ، ولا يصبح نتيجة علمية نهائية ، الا اذا أيده المؤلف بعدد كبير من الظواهر والمشاهدات ·

أصل فكرة التطور

بدأ الشك يخامر ذهن داروين فى مبدأ ثبات الأنواع، أثناء رحلته على ظهر السفينة «بيجل» ، وقد كان قبل ذلك ـ أى قبل أن تطأ أقدامه أرض أمريكا الجنوبية ـ مقتنعا بمبدأ « الثبات » ، ولا يجد من الأدلة القوية ما يشجعه على رفضه رفضا باتا · ولكنه عندما لاحظ أن التوزيع الجغرافى للأنواع الحية وعلاقتها بالأنواع المنقرضة ـ التى دلت على وجودها الحفريات ـ لا يمكن تفسيره عن طريق النظرية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، وهى النظرية التى تقول بأن كل نوع من الكائنات خلق على حدة ، وفى صورة مستقلة · عندما لاحظ ذلك اتجه ذهنه الى فكرة التطور وما لبث هذا الاتجاه الذهنى ـ الذى يمكن القول انه وليد الصدفة ـ أن حفزه الى معرفة القوانين التى تسيطر على التطور التدريجى للكائنات ·

على أن هذا الاتجاه الذهنى ، لم يصبح عقيدة جديرة باعتناقها وايجاد ما يؤيدها من البراهين ، الا بعد عمل شاق ، وجهود متصلة • وقد يقول قائل ان المناداة بفكرة التطور فى الوقت الذى أعلنها فيه داروين لم يكن ينطوى على كثير من الجراة ، ما دام عدد من المفكرين والعلماء قبله قد أثارها ، ووجه اليها الأذهان ، ولكن الحقيقة أن كل ما أثير حول هذه النظرية من قبل لم يكن الا من قبيل المحاولات الساذجة أو الآراء المبتسرة ، أو الآمال الغامضة • وظلت نظرية الثبات ، وهى النظرية التى ثبتتها العقائد الدينية فى الأذهان ، راسخة فى العقول ، طاغية على كل ما عداها من النظريات • واذا كانت بعض العقول قد شكت فى قيمتها العلمية من آن لآخر ، الا أن أحدا لم يستطع أن يعلن فى قوة ويقين ما أعلنه داروين فى مقدمة كتابه :

« اننى مقتنع تمام الاقتناع بأن النظرية التى تقول ان كل نوع من الأنواع النباتية والحيوانية قد خلق على حدة ، مستقلا عن الأنواع الأخرى ، نظرية خاطئة من أساسها • وانى لم أصل الى هذا الاقتناع ، الا بعد دراسة وافية وعميقة للمسألة ، وبعد الحكم بدون انفعال أو انحياز على تلك النظرية ، التى كانت ـ حتى وقت قريب ـ سائدة بين معظم علماء التاريخ الطبيعى ، وكنت أنا نفسى ، من قبل ، أحد أنصارها ، اننى مقتنع تمام الاقتناع بأن الأنواع ليست ثابتة ، وبأن الأنواع التى تنتمى الى فصيلة واحدة ، أو « جنس » واحد قد انحدرت مباشرة عن أنواع أقدم منها ، وغالبا ما تكون قد انقرضت • وقد حدث هذا بنفس الطريقة التى تخرج بها سلالات متنوعة من نوع أصلى واحد • وفوق

هذا ، فانى مقتنع بأن « الانتخاب الطبيعى » كان أهم عامل فى حدوث هذه التغيرات ، التى طرأت على الأنواع ، وان لم يكن العامل الوحيد » ٠

ان هـذه الفقرة ، علاوة عـلى ما تبينه لنـا من اقتناع داروين بمذهبه الجديد اقتناعا لا يشوبه أى تردد أو شك ، فانها تلخص كذلك أهم الآراء والاتجاهات التى سيعنى الكتاب بابرازها واثباتها بالبراهين العلمية ٠

★ ★ ★

استرعى انتباه داروين ، فى بادىء الأمر الاختـلافات الواضحة بين سلالات نوع واحد من الحيوانات المستأنسة أو المنزلية ، كما استوقف نظره استمرار عمليـة التنوع ، وتكوين سلالات جديدة بدون انقطاع ٠ وقد شهد بنفسه ، وفى خلال حقبة من الزمن قصـيرة نسبيا ، ظهور سـلالات جديدة من الكلاب والخيول ، والمواشى والحمام فى انجلترا ٠ وبذلك تأكد له « أن أى نوع من الأنواع المنزلية أو المستأنسة عرضة للتنوع والاختلاف الذى لا نهاية له » ٠

وقد بدا له ، فى أول الأمر ، «أن ظروف الحياة المنزلية ، أو الظروف التى تخضع لها حياة الحيوان المسـتأنس ، هى السبب الأساسى فى احداث هذه التغيرات الملحوظة فى الأنواع الحيوانية » ٠ ومال الى الاعتقاد ، بصفة خاصة ، « أن عملية الانسال عند الحيوانات المستأنسة ، لابد أن تكون قد تأثرت بتغير ظروف حياتها ، فاذا كانت حياة الاستئناس تغير ، الى حد

كبير ، من طبيعة الحيوان نفسه ، فليس من العجيب أن تؤثر كذلك على عملية الانسال عنده » ٠

بحث داروين هـذا الاحتمال ، ولكنه رفض أن يعتبره تفسيرا كافيا للتغيرات التى تطرأ عـلى الأنواع ، « فليست تغيرات الطقس ، أو ظروف الحياة عوامل يمكن أن تفسر على أساسها التغييرات العميقة ، التى تؤدى مثلا الى تلك التنوعات المتباينة من الطيور ، التى تبتعد فى كثير من صفاتها عن الحمام العادى ٠ والحقيقة ان العامل الحاسم فى حدوث هذه التغيرات ، وهو المربى نفسه (ونعنى بذلك المشتغل بهواية تربية الحمام) ٠ فهو الذى يختار للانتاج والتـوالد زوجا معينا ، اجتذبته فيه صفة من الصـفات ٠ ولا تلبث هـذه الصفة أن تتأكد ، بعد عدة أجيال ، وتفتح المجال أمام أنواع من التغيرات الأخرى ، حتى نصـل بعـد وقت يختلف مـداه الى سلالة جديدة ، لا تربطها بالنـوع القـديم الا الصفات العامة ، وفى غالب الأحيان تكون الصفة المختارة التى أراد المربى أن ينميها قد ظهرت بمحض الصـدفة ، ولكن توجيه عنايته لها يجعلها تتأكد فى الأجيـال اللاحقـة عن طريق التزاوج ، وخصوصا اذا اختير له ذكر وأنثى يتصفان بتلك الصفة الجديدة ٠ واذا حرص المربى بعد ذلك على استبعاد الأفراد الذين لا تظهر فيهم هذه الصفة المطلوبة أولا بأول ، فانه بعد مضى وقت معين لا يصبح فى حوزته الا حمام من ذلك النوع الجديد ، الذى يمكن القول انه شكله بنفسـه وحسب رغبته » ٠

هذه الملاحظات التى لاحظها داروين على الحيوانات والطيور المستأنسة أدت الى القول « انه يبدو أن تأثير « الاختيار » ، الذى يتضاعف من جيل الى جيل ، هو العامل الأساسى فى حدوث التغيرات • وسواء أكان هذا الاختيار يتم بطريقة منهجية ـ أى عن طريق تدخل الانسان ـ أم بطريقة لاشعورية ، فان أثره لابد أن يحدث ، وكل ما هنالك أن التدخل المنهجى يظهر أثره سريعا • وفى وقت قصير ، أما الاختيار الذى يتم بطريقة لا شعورية ، فان أثره يظهر ببطء ، ويستلزم حدوث التغير الملحوظ ، وقتا طويلا » •

هذا هو ما خلص اليه داروين فيما يتعلق بالتنوعات التى تظهر فى محيط الحيوانات المستأنسة •

نظرية التغيرات المتلازمة (٢)

« اذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر ـ حتى ولو كان أشد أعداء نظرية التطور ـ أن عملية « الانتقاء » المقصود تؤدى الى ظهور تنوعات أو فروع جديدة للنوع الأصلى ، واذا كانت هذه الحقيقة قد لاحظها بالسليقة ، وأفاد منها البستانى كما أفاد منها هواة تربية الحيوانات والدواجن ، الا انها لم تمنع من اثارة اعتراض له وجاهته • فقد قيل ان هذا « الانتقاء » المقصود الذى يباشره البستانى أو مربى الطيور قد يفسر تكوين التنوعات أو الفروع Varieties ولكنه لا يفسر ظهور أنواع جديدة species • ولتوضيح

---

(٢) نظرية التغيرات المتلازمة correlated variations ومعناها أن أى تغير فى الشكل يصاحبه أو يلازمه تغير عضوى أو وظيفى •

ذلك بمثال حسن نقول ، انه ليس هناك ما يبعث على الدهشة من تفرع « الحمام الطاووسى » عن الحمام العادى بتأثير العناية التى يبذلها المربى لاستنباط هذا الفرع الجديد · ولكننا لم نر قط ان أحد الهواة استطاع ـ مهما بذل من جهود وأظهر من حرص ـ أن يوجد « طيرا » يختلف تمام الاختلاف عن « الحمام » ·

أحس داروين بقيمة هذا الاعتراض واهتم اهتماما كبيرا بالاجابة عليه وحرص على أن ينطبق تفسيره على كل من « الانتقاء المصطنع » أو المقصود و « الانتقاء » الطبيعى · وقد ضمن هذا التفسير ما سماه بنظرية «التغيرات المتلازمة» Correlated variation .

ومضمون هذه النظرية أن التغيرات الشكلية morphogiques التى يعنى مربى الطيور بتأكيد ظهورها فى الفروع الجديدة كلون الريش أو شكل المنقار ··· الخ تؤدى بطريق التلازم الى ظهور تغيرات يصعب ملاحظتها فى بادىء الأمر فى أعضاء الحيوان أو الطير وأجهزته الداخلية كالجهاز التناسلى أو الجهاز العصبى · وهذه التغيرات العضوية هى أساس الانتقال من تفرع Variety الى « نوع ثانوى » sub-species ثم الى « نوع » species جديد فى النهاية · واذا كانت هذه التغيرات العميقة التى تؤدى الى ظهور الأنواع الثانوية ثم الى ظهور الأنواع الجديدة لا تظهر فى مجال « الانتقاء » المقصود فما ذلك الا لقصر الوقت الذى يمارسه فيه الانسان · فلا يمكن أن يظهر نوع جديد خلال عمر انسان أو عدة أفراد يهتمون الواحد بعد الآخر

باستنباط سلالة جديدة ؛ ولكن الأمر يحتاج الى مئات بل أحيانا الى آلاف من السنين • ولكن ما دمنا قد اقتنعنا بامكان الانتقال من النوع الأصلى الى تنوعات تظهر فيها صفات جديدة ، ثم الى أنواع فرعية تتأكد فيها هذه الصفات وتفسح المجال أمام تغيرات عضوية أساسية ، فليس من الصعب آن نقتنع بعد ذلك بأن هذه الأنواع الفرعية تؤدى بمضى الوقت الى ظهور الأنواع الجديدة • وهناك كثير من الشواهد فى حياتنا اليومية تؤيد صحة هذه النظرية فنحن اذا نظرنا الى بعض الحيوانات المستأنسة وجدنا أن تنوعاتها تختلف فيما بينها اختلافات جوهرية حتى ليمكن القول انها تكون أنواعا تختلف بعضها عن بعض ويلاحظ ذلك بصفة خاصة بين سلالات الكلاب • فأين « البلدج » بوجهه المفرطح وفمه الغائر ومشيته المتثاقلة من « السلوقى » ذى الجسم النحيل والأرجل الطويلة • وتختلف هاتان السلالتان عن سلالة «الكلب الاسبانى» ذى الحجم الصغير والأذنين الطويلتين والشعر الكثيف ؟ هل نستطيع أن ننكر أن هذه الأنواع المختلفة تمام الاختلاف تنتمى فى الأصل الى نوع واحد هو « الكلب » بصفة عامة ؟ وهل نستطيع أن ننكر أن هذا التباين الشديد فيما بينها لم يحدث الا نتيجة لتغيرات وتنوعات طفيفة تأكدت من جيل الى جيل بتدخل الانسان حتى انتهت الى ظهور هذه الأنواع المختلفة ؟ » •

« كذلك يوجد على الأقل عشرون تنوعا متباينا من تنوعات الحمام ، ولا يتردد هواة تربية هذا النوع من الطيور فى تصنيفها كما لو كانت أنواعا منفصلة باعتبار الاختلاف

فى بعض صفاتها الأساسية • وهذا الاختلاف منشؤه التهجين والعناية باستنباط سلالات جديدة •

وبعد عرض هذه الأمثلة وغيرها ينتهى داروين الى القول بأننا « فى الحقيقة لا نستطيع أن نرسم خطا فاصلا بين الأنواع الفرعية ، أى بين الأشكال التى قد يميل بعض علماء التاريخ الطبيعى الى اعتبارها أنواعا مستقلة بالرغم من عدم استحقاقها تماما لهذه التسمية • كما اننا لم ننجح كذلك فى تحديد خط فاصل أو حدود ثابتة بين الأنواع الفرعية و « التنوعات » Varieties التى تأكدت بوضوح ، أو بين « التنوعات » التى بدأت تظهر فى النوع والاختلافات الفردية • هذه الاختلافات يندمج بعضها فى بعض فى تدرج غير ملحوظ بحيث تكون سلسلة محكمة الحلقات • ومما لا شك فيه أن معنى التسلسل يتضمن فكرة التغير الحقيقى» •

هذه هى النتيجة التى وصل اليها داروين من ملاحظاته العديدة على انتقاء فصائل جديدة من الحيوانات المستأنسة أو النباتات بتدخل الانسان وتوجيهه للتطور وفق ما يبتغيه من صفات معينة • ومفتاح هذه العملية التى تتطلب وقتا وصبرا طويلين هو مقدرة الانسان على تجميع الصفة أو الصفات المختارة Power of accumuletive selection .

ولا نستطيع أن نقول ان ملاحظات داروين عن استنباط سلالات جديدة بفعل الانسان تتصف بطابع الجدة ، ولكن ما يعتبر بحق كشفا جديدا هو استغلاله لنتائج هذه الملاحظات فى الوصول الى قوانين « الانتقاء الطبيعى » ،

وتمكنه من أن يضع يده على وجوه التشابه بين تلك العملية المنهجية التى تتم باختيار الانسان وعملية الاختيار التى تتم بفعل الطبيعة ثم وصوله فى النهاية الى معرفة العوامل التى تتدخل بدلا من الانسان لاحداث التغير الطبيعى • وقد أطلق داروين أحيانا على عملية الانتقاء اسم «الانتقاء اللاشعورى» inconscious selection « وغايته تحسين الأنواع الموجـودة بالفعل ومعاونتها على التكيف بالبيئة بدون أن يكـون فى ذلك أى اتجاه محدد لخلق صفات جديدة » •

★★★

تنازع البقاء •• والبقاء للأصلح

ويوضح داروين أن التنوع يحدث فى حالة الطبيعة ، أى فى حياة الغابة والأحراش والسهول كما يحـدث عنـد الحيوانات المستأنسة • ووجود الاختلافات الفردية الواضحة بين أفراد نوع واحـد بل وضروب الشـذوذ عن الصـفات والملامح النوعية أمور قد أثبتتها المشاهدات العديدة •

ولا شك أن عامل « العدد » له أثره الفعال فى اظهـار الفروق الطفيفة ووضوحها ، ومعنى ذلك أن الأنواع كثيرة العدد • كمـا أن كثرة العدد ذاتها تؤدى الى السيطرة على البيئة والتحكم فيها •

فالتنوع فى ذاته ليس من الأمور التى تحتاج الى نقاش أو التى تحتمل الجدل • ولم يقف داروين عند هذا الحـد بل انتقل من ملاحظاته وتجاربه الى محاولة الاجابة عـلى هـذه الأسئلة التى تعد أس المشكلة •

« كيف تتكون الأنواع فى حالة الطبيعة ؟ وكيف يتحقق الانسجام بين عضو متطور وبين الأعضاء الأخرى فى جسم الكائن الحى؟ وكيف يتم التكيف بالبيئة وظروف الحياة ؟» ·

من هذه المشكلة تتلخص المشكلة التى تعين على داروين أن يجابهها وأن يجد لها حلا وقد استطاع فى النهاية أن يتغلب عليها بنظريته عن تنازع البقاء أو « الصراع من أجل الحياة »strenggle for existence« فبفضل هذا الصراع تنزع التغيرات التى تطرأ على الكائنات مهما كانت ضعيفة ومهما كانت أسباب حدوثها للمحافظة على أفراد النوع وتنتقل من جيل الى جيل ، بشرط أن تكون نافعة لهؤلاء الأفراد فى علاقاتهم العديدة مع الكائنات الأخرى وملاءمة الظروف الطبيعية لحياتهم » ·

وفى كثير من كتابات داروين نجد أنه لا يفرق بين « الصراع من أجل الحياة » و « الانتقاء الطبيعى » ، اذ ان عملية الانتقاء الطبيعى فى نظره عملية تلقائية تعين الكائنات على حفظ النوع وبقاء الأصلح وهى تقابل فى ميدان الحياة المنزلية عملية الانتقاء المصطنع التى يمارسها هواة تربية الحيوانات للحصول على صفات تلائم أهواءهم وأمزجتهم · ولكن هذه المقابلة لم تمنعه من أن يؤكد أن « الانتقاء الطبيعى قوة هائلة مستعدة دائما للعمل وأنها فى تفوقها الهائل على مجهودات الانسان الضئيلة تذكرنا بالفرق بين ابداع فن الطبيعة واللوحات التى تصنعها يد الانسان » ·

ومن الطريف أن نذكر فى هـذا المقام أن داروين قد تأثر فى نظريته عن تنازع البقـاء بالآراء التى أذاعهـا « مالتـوس » malthus فى القرن الثامن عشر عن تزايد السكان • فقد بين مالتوس بوضوح أن جميع الكائنات الحية تنزع الى التكاثر بسرعة كبيرة ولكن القليل من نسلها أو من نتاجها هو الذى يكتب له البقاء والوصول الى سن النضج • وذكر أن عدد البويضات التى تضعها اناث الكائنات الحيـة وعدد حبوب اللقاح التى تنتجها الأزهار والنباتات تبلغ من الكثرة بحيث لو قدر لها أن تصل جميعا الى مرحلة الاكتمال والنضج لما كان هناك مكان على الأرض يتسع لها •

والانسان نفسه الذى يتناسل فى بطء اذا قيس تناسله بالكائنات الأخـرى يتضـاعف عـدده كل خمس وعشرين سنة (٣) • وهذه النسبة وحـدها كافيـة لولا تدخل عوامل الموت والفناء لكى يصبح سطح الأرض بعد مرور أقل من ألف سنة لا يتسع لوقوف انسان على قدميه •

واستطاع مالتوس بعد ابداء هـذه الملاحظات أن يؤكد أن جميع النباتات والحيوانات تنزع الى التكاثر وفق متوالية هندسية • ولا يحد من هذا النزوع الطبيعى سوى فناء بعض الأفراد فى فترات متفاوتة من حياتها ، ولو قدرللنتاج جميعه أن يعيش لما استطاع أن يجد ما يتغذى به •

تأمل داروين هذه الملاحظات التى أكدها مالتوس ووجد أنها تنطبق على ما لاحظه على تكاثر النباتات • ثم ما لبث أن

---

(٣) يشير مالتوس بهذه العبارة الى أن الانسان يتزوج فى حوالى الخامسة والعشرين ثم ينجب طفلا فيتضاعف بذلك عدده •

وجه الى نفسه هذا السؤال : « اذا كانت هناك عقبات تحول دون تكاثر الكائنات وفقا لما تنتجه من بويضات أو من حبوب لقاح فما هى هذه العقبات ؟ » ٠

واعترف بأن العلم لم يصل الى تحديد دقيق للعوامل التى تؤثر فى تحديد عدد كائنات نوع معين ٠ ولكنه بملاحظاته الذاتية وتجاربه يستطيع أن يقول : « ان كمية الغذاء التى توفرها البيئة والعوامل المناخية ، وعلى الأخص ظهور فترات استثنائية من البرد والجفاف والأوبئة وأخيرا ضرورة وجود عدد معين من الأفراد لحفظ النوع ، كل هذه العوامل تؤدى الى تكاثر نوع معين على حساب نوع آخر وذلك بالنسبة الى منطقة معينة كما تحول فى الوقت نفسه دون تكاثر الأفراد من غير حد » ٠

« وعلى هذا النحو ينشأ نوع من التنافس العام بين الكائنات ويزداد الصراع حدة كلما كانت الأفراد تنتمى الى نوع واحد اذ انها تقطن مناطق واحدة وتبحث عن غذاء واحد وتتعرض لأخطار متشابهة ٠

ويكون الصراع على نفس الدرجة من الحدة تقريبا اذا كان الأمر يتعلق « بتنوعات » تنتمى الى نوع واحد ٠ فلو زرعنا مثلا أصنافا مختلفة من القمح فى وقت واحد وزرعنا فى السنة التالية الحبوب المخلوطة التى نتجت عن المحصول الأول ، فان الأصناف التى تلائمها التربة والمناخ أكثر من غيرها سيكون محصولها أوفر ٠ ولا تلبث نتيجة لذلك أن تحل فى نهاية بضع سنوات محل الأصناف الأخرى وتلغيها تماما » ٠

وبعد أن يعيد داروين الأمثلة التى يدعم بها نظريته ينتهى الى هذه النتيجة المهمة ، وهى أن « النظام الذى نراه فى الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وبين ظروف البيئة التى يعيش فيها » ٠

هذا الصراع من أجل البقاء ينطوى بلا شك على صور وحشية ومخزية ، وعندما يفكر المرء فيه ـ كما يقول داروين فى ختام هذا الفصل الرئيسى من كتابه ـ تنبعث فى نفسه عوامل الأسى « ولكننا نستطيع أن نعزى أنفسنا حين نوقن أن الحرب ليست حالة دائمة من حالات الطبيعة وان موت الكائنات التى يكتب لها الفناء يحدث فى كثير من الحالات بسرعة وبدون ألم وأن الكائنات القوية الصحيحة السعيدة هى التى تستطيع أن تعيش وتتكاثر » ٠

★★★

بقى علينا الآن أن نعرف ما الأثر الذى يحدثه تنازع البقاء أو الصراع من أجل الحياة على تنوع الكائنات ٠

يمكننا أن نفهم هذا الأثر اذا أخذنا فى اعتبارنا أن تنازع البقاء يترتب عليه كنتيجة حتمية فناء عدد كبير من أفراد النوع، كما يترتب عليه كذلك أن الأفراد التى تستطيع أن تواصل الحياة هى الأكثر تكيفا بالبيئة وظروف الحياة ٠ ويقول داروين فى هذا الصدد : « اذا كنا قد رأينا أن تدخل الانسان عن طريق التهجين يوجد صفات مستحبة لديه ، ولكنها كانت لا تفيد الحيوان فكيف تدهش اذا ظهرت بطريق

طبيعى هـذه المرة صفات جديدة عند الحيـوان ، صـفات نافعة له بالذات ومن شأنها أن تعينه على التغلب فى هـذه المعركة القاسية معركة الصراع من أجل الحياة ؟ ان هـذه الصفات « النافعة للحيوان » لابد أن تقوى بدون ادنى شك على مر الأجيال وتؤدى الى ظهور سلالات جديدة ثم الى ظهور أنواع جديدة فى نهاية الأمر • واذا كنا لا ننسى أنه يولد من أى كائن أعداد تفوق بمراحل ما يكتب له البقاء منها ، فيجب علينـا أن نعترف بالضرورة أن الأفراد التى تتميز بأية ميزة مهما كانت طفيفة وضئيلة هى الأفراد التى يكون لها حظ أكبر فى البقاء والتناسل وذلك على شرط أن يكون تميزها فى صالحها • أما اذا اعترى الحيوان أى تغير من شأنه أن يضر بتكيفه بالبيئة ، كأن يثقل جسمه فى بيئة تحتاج الى الحركة السريعة والخفة ، أو يرق جلده فى بيئة باردة تحتاج لجلد سميك فان هذا الحيوان لا محالة هالك » •

ويختتم داروين تفسيره هذا بقوله : « لقد أطلقت اسم «الانتقاءالطبيعى» أو «بقاء الأصلح survival of the fittest على ظاهرة الاحتفاظ بالتغيرات الفردية النافعة للكائن وعلى ظاهرة اختفاء وتلاشى التغيرات الضارة به » (٤) •

الاحتفاظ Conservation لا الخلق creation هذه هى الحقيقة التى أكدها داروين والتى لم يفهمها معارضوه • انه لم يقل أبدا ان عملية « الانتقاء الطبيعى » تخلق صفات جديدة وانما قال فقط انها تعين على الاحتفاظ بالصفات

(٤) وردت هذه الفقرة فى خاتمة كتاب « أصل الأنواع » •

والتغيرات النافعة التى تظهر بمحض الصدفة ، ولا تتعرض فكرة « الانتقاء الطبيعى » بتاتا لتفسير ظهور هذه التغيرات ٠

هذا الانتقال من مجرد التحسن الذى يطرأ على فصيلة معينة الى ظهور فصيلة أخرى متنوعة وذلك عن طريق الانتقاء وبقاء الأصلح ثم الانتقال مرة أخرى الى تكوين نوع جديد يختلف الى حد كبير عن النوع الأصلى ـ هذا الانتقال التدريجى الذى يوصلنا فى النهاية الى ما يمكن اعتباره خلقا جديدا هو فى الحقيقة لب النظرية الداروينية عن أصل الأنواع ٠

★★★

وبعد ٠٠ فان نظرية التطور تعد من أهم ما قدمه علم الحيوان للعلم والمعرفة والحضارة الانسانية بوجه عام ٠٠ اذ انها لفتت الأنظار الى ميدان فسيح من ميادين البحث والدراسة مازال العلماء يجدون فيه كل جديد ٠

هذا وقد نفدت الطبعة الأولى من كتاب داروين هذا فى يوم ظهوره ، وقد قوبلت نظريته وقتذاك بهجوم مرير ، اذ كان المظنون أنها مناقضة للعقيدة الدينية عن خلق الكون ٠

ولا شك أننا نعترف بما فى هذا العمل المضنى الذى قام به داروين من صرامة وعناد لا حد لهما ، ومن قوة احتمال وصبر ، قل أن تجد لهما نظيرا ٠ وقد استعان داروين بهذا العناد وتلك الصلابة فى الرد على مهاجمى نظريته

والدفاع عن آرائه · وكانت طريقته فى النقاش تقوم على قرع الحجة بالحجة ، وعلى توخى الدقة ، كما كان منهج نقاشه يقوم على البساطة والاقتناع الذى يصل الى مرتبة اليقين · فكان يبدأ بعرض رأى خصمه عرضا كاملا نزيها ، ويذهب فى ذلك أحيانا الى اقتباس عباراته نفسها ، وبعد ان يبين فى قوة أن هذا الرأى يناقض ما قدمه من تفسير لظاهرة من الظواهر ، يترك هذه الحجة وينصرف الى حجة أخرى أشد خطرا على خصمه ، حيث يبين أن آراءه تنطوى على تناقض داخلى ، وتتعارض فيما بينها أشد التعارض ، وبعد ذلك يعرض داروين تفسيره الذاتى للظاهرة ، وذلك بطريقة موضوعية ، ولا يخشى أن يبين للقارىء فى نزاهة نقط الضعف فيها ، وهى النقط التى يجب أن يتجه اليها النقد العلمى النزيه ·

وهكذا نرى أن داروين يتسلح فى تفكيره دائما بالصبر والأناة ، ولا يتسرع فى تعميم الأحكام ، بل يخضع رأيه لما تثبته الظواهر والتجارب العلمية · وهو لا يؤكد أو ينفى الا فى حذر شديد · واذا أحس بأنه امتلك الحقيقة عض عليها بالنواجذ ، وجعلها جزءا من كيانه وعقله · وكان يرى أن التفكير السليم يجب أن يكون دائما الى جانب الحقيقة ·

ولم يكن داروين يطمع الا فى أن يفهمه علماء التاريخ الطبيعى القلائل الذين وهبتهم الطبيعة مرونة فى العقل ، والذين استطاعوا أن يتخلصوا من الآراء السابقة ومن أشكال التفكير المصبوبة فى قوالب ، أما الآخرون فانه يرثى لهم

« لأنهم يفضلون الأسرار الغامضة التى لا يمكن تفسيرها فى ضوء التفسير الوصفى لظواهر الطبيعة الحية » ٠

وكان من الطبيعى أيضـا أن يثير مذهب داروين فى الطبيعة وخلق الـكون مسـألة تدينه وايمانه بالله ٠ ونزع الناس من معاصريه ومن تلاهم فى ذلك كل منزع ٠ ولـكن فصل القول فى هذا الموضوع هو ما أكده داروين نفسـه ، فقد أكد بقوة قبل موته ببضع سنوات أنه لم يكن ملحدا ٠ وها هى ذى عبارته التى نشرت فى مذكراته « لقد ترددت كثيرا فى حياتى بين كثير من المعتقدات وتأرجحت عاطفتى الدينية كثيرا بين الصعود والهبوط ، ولكنى فى أشد اللحظات ترددا لم أشعر بأنى كنت ملحدا ، ولم أنكر قط وجود الله ٠ وأعتقد بصفة عامة وخصـوصا عنـدما أخذت أقترب من الشيخوخة أن اللا أدرية هى المبدأ الذى ينطبق أكثر من غيره على آرائى الدينية » ٠

★★★

ورغم أن فكرة التطور ، واشتقاق الحياة من اللا حياة ، ليست شيئا جديدا فى دنيا الفكر والعلم ، فقـد سـبق بها أرسطو وتحدث عنها العرب فى كتبهم ٠

الا أن داروين هو الذى أفرغ هذه النظرية فى ثوبها العلمى الصارم ، جاعلا منهـا قانونا وقاموسـا ، بعـد أن أضفى عليها مظهرا من الوضوح والترابط ، وبعد أن ساق ألوف الحجج والملاحظات على تأييد فكرته ٠

ولم يكن داروين فى هذا الذى يقوله عن سنة الحياة والطبيعة من أنها تطور نحو الأكمل والأوفى من خلال الصراع المستمر ـ الا عاكسا فى الحقيقة روح عصره الذى كان ينمو فى هذه الفترة من خلال الصراع ، ومن خلال اهدار كل القيم القديمة والأخذ بالقيم الجديدة ٠

غير أن داروين لم يكد يؤلف كتابه ، واصفا نواميس الحياة فى هذا القالب القاسى ، حتى أصبحت انجيل العلم والمعرفة لا فى علم الحياة فحسب ، بل فى شتى فروع العلوم كلها ، فأخذت كل العلوم والمعارف تنسق نفسها على أساس الفكرة الجديدة ، فكرة التطور الدائم والمستمر من خلال الصراع وتنازع البقاء والبقاء للأصلح ٠

ونحن الآن وبعد وفاة داروين بأكثر من قرن من الزمان، نستطيع أن نقول انه أكسبنا من خلال مؤلفه هذا فهما جديدا للطبيعة والكون والانسان ، وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل ٠ فان كتاب « أصل الأنواع » قد حمل الى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات ، وأنها جميعا ترجع الى أصل واحد أو أصول قليلة ، وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة ، وأن الانسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر ٠

كذلك فان نظرية التطور ليست معرفة فحسب ، لأننا لا نقتصر فيها على الوقوف على تاريخ الأحياء ، بل نكتسب منها مزاجا واتجاها ؛ لأنها تجعل التطور مذهبا حيويا ،

والارتقاء ضرورة اجتماعية ، ومن هنا قيمتها العالية للفرد والجماعة ، اذ هى تشعر الفرد الذى استوعبها أنه يجب ألا يركد أو يجمد ، لأنه بهذا الركود وبهـذا الجمـود يناقض سنة الوجود ، كما أنها تشعر الجمـاعة أن تقصـيرها فى الارتقاء هو مخالفة خطيرة وتحطيم مدمر لأسباب وجودها • فالنظـرية ليست معرفة عملية فحسب وانمـا هى مـذهب اجتماعى أيضا •

★★★

رأس المال

كارل ماركس

١٨٦٧م

الكتاب الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع

ليس هناك من بين مفكرى القرن التاسع عشر من ترك أثرا مباشرا قويا فى الجنس البشرى مثل كارل ماركس ؛ فقد كان له على أتباعه ، ابان حياته وبعد موته ، نفوذ فكرى ومعنوى فريد فى قوته ، لا يماثله نفوذ آخر حتى فى ذلك العهد الذهبى ـ عهد القومية والديمقراطية ، الذى شهد ظهور أبطال وشهداء شعبيين عظماء وشخصيات رومانسية ، بل هى تكاد تكون أسطورية ، سيطرت حياتهم وكلماتهم على أخيلة الجماهير وخلقت تقليدا ثوريا جديدا فى أوربا • ومع ذلك لا يمكننا القول بأن ماركس كان شخصية شعبية فى أى وقت من الأوقات بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، فما لا ريب فيه أن ماركس لم يكن بأى حال كاتبا أو خطيبا شعبيا • فقد كتب كثيرا ولكن أعماله لم تحظ بجمهور واسع من القراء ابان حياته ، وحتى عندما حظيت مؤلفاته بذلك الانتشار الضخم الذى صادفه الكثير منها فى أواخر العقد الثامن من القرن الماضى ، لم تكن الرغبة التى حدت بالناس الى قراءتها وليدة ادراكهم لقيمتها الذاتية بقدر ما كانت ناجمة عن نمو شهرة الحركة أو سوء شهرتها التى اقترنت باسمه •

سيرته من خلال فلسفته ومؤلفاته

ولد كارس ماركس فى الخامس من مايو سنة ١٨١٨ بمدينة ترييز بألمانيا عن أب محام يهودى سرعان ما انقلب الى الديانة المسيحية ، بل ان أجداده من الجانبين كانوا ولأجيال متعددة من الحاخامات • ولقد كان السبب فى تحول والده الى المسبحية هو تهدد مركزه بسبب القوانين المعادية لليهود بعد سقوط نابليون وضم أراضى الراين •

وبعد أن أتم ماركس دراسته الثانوية التحق بجامعة برلين فدرس الحقوق بصفة عامة وتخصص فى دراسة الفلسفة ، ودفعه استعداده الذهنى الرائع الى الانكباب على دراسة التاريخ فى نفس الحين •

وفى سنة ١٨٤١ استطاع ماركس أن ينجز دراسته بتقديم مناقشة حول فلسفة ابيقور Epicurus ولقد كان فى ذلك الحين تتسلط فلسفة الفيلسوف هيجل على القانون بصفة خاصة وعلى الفكر الألمانى بصفة عامة •

ولقد فشلت مساعيه فى أن يلتحق بالجامعة البروسية للتدريس بها ؛ فقد كانت محرمة على أمثاله من أصحاب الفكر الحر • وفى سنة ١٨٤٢ انتقل ماركس الى مدينة كولونيا وعمل بالصحافة المتطرفة ، وازدادت كتاباته الثورية واتضحت ، فعمدت الحكومة الى فرض رقابتها عليها ثم سرعان ما قررت اغلاق جريدته •

أدرك ماركس من خلال نشاطه فى الصحافة أن معلوماته فى الاقتصاد السياسى غير كافية فاندفع ينهل من مصادره ٠ وفى سنة ١٨٤٣ تزوج من كريز صديقة طفولته ، وقد كانت تنحدر من عائلة نبيلة ، وفى نفس العام انتقل الى باريس ليصدر مجلة مع آرنولد روغه ، وكانت تسمى « الحولية الألمانية الفرنسية » ولم يصدر منها سوى العدد الأول ثم اضطر الى التوقف لصعوبة التوزيع السرى والخلافات مع روغه فى المبادىء ٠

فى عام ١٨١٤ حضر فردريك انجلز الى باريس لقضاء بضعة أيام ــ وكان انجلز قد بعثه أبوه الى انجلترا للتدريب على الأعمال ، وكان هيجليا يساريا استرعى نظره حال الوسط الصناعى فى انجلترا الذى أوحى اليه بكتابه الذى ظهر سنة ١٨٤٦ عن « حالة الطبقة العاملة فى انجلترا » ، وقد أصبح فردريك انجلز الصديق الحميم لماركس ٠٠ وفى يناير ١٨٤٥ طردته الحكومة الفرنسية بناء على طلب سفير بروسيا فلجأ الى بروكسل ٠

ولقد انتمى ماركس وانجلز الى جمعية سرية تدعى « عصبة الشيوعيين » ، وبعد ذلك عاد ماركس وانجلز الى مؤتمر الحزب الشيوعى الثانى الذى انعقد فى لندن ، وبناء على تكليف من المؤتمر قاما بوضع «بيان الحزب الشيوعى»٠

وعقب ذلك عاد ماركس مرة أخرى الى ألمانيا ليصدر جريدة جديدة ، وقد كتب فيها عن جميع الحركات العمالية والديمقراطية فى جميع بلدان العالم ٠ ثم أحيل ماركس الى

القضاء سنة ١٨٤٩ ثم نفى من ألمانيا ، فانتقل ثانية الى باريس ، ثم طرد الى لندن فعاش فيها حتى آخر عمره · ولقد كانت ظروفه العائلية فى لندن شديدة الفقر ·· وفى مرحلة انتعاش النشاط فى الحركات الديمقراطية اندفع ماركس من جديد الى النشاط العلمى سنة ١٨٦٢ ، حيث تأسست فى لندن أول جمعية مشهرة « جمعية السفلية العمالية » وكان ماركس روحها ورافع رسالتها ، واستطاع بعد جهاد مرير أن يرسى دعائم نضال الطبقة العاملة فى مختلف البلدان ·

فلسفة ماركس فى التاريخ

لم يكن ماركس مجرد مفكر سياسى ، ولكنه كان داعية الثورة والتغيير ، بل وسعى لترجمتها الى واقع · وأفكار ماركس قد ألهمت أيديولوجيات الملايين من البشر فى كافة أنحاء العالم نظرا لمنطقيتها ، والطابع الانسانى الغالب عليها ، ومناداتها بتحرير الانسان من الاستغلال والاضطهاد·

وقد اعتقد ماركس كما اعتقد هيجل ـ أن التاريخ هو المفتاح الى فهم الانسان وصفاته ، ذلك لأن هناك نموذجا متميزا وهدفا معقولا فى تطوير القدرات الانسانية ، وثمة أنماط بعينها من النشاط ، سواء أكانت عقلية أم عملية لم تكن لتظهر الا بعد أن نمت الملكات الملائمة لها نموا كافيا ، وهذه بدورها شجعت على ظهور ملكات ومناشط جديدة لم تكن ممكنة أو متصورة فى مرحلة أشد تبكيرا ·

ولقد قسم ماركس تاريخ البشرية الى خمس مراحل رئيسية ، وذلك طبقا لعلاقات الانتاج ودورها فى تاريخ البشرية :

١ ـ **مرحلة الشيوعية الأولى** : أو المجتمع البدائى والتى قامت على أساس الشيوع فى الملكية وفى استغلال الموارد الطبيعية ٠

٢ ـ **مرحلة العبودية** : حيث تميز المجتمع هنا ـ ويقصد به المجتمع الاغريقى الرومانى ـ بظهور الملكية الخاصة وبالتالى ظهور نظام الرق والعبيد كطبقة وظهور نظام الاستبداد كطبقة أخرى ٠

٣ ـ **مرحلة الاقطاع** : أو مرحلة القرون الوسطى وتميزت أيضا بوجود الملكيات الخاصة وبوجود الطبقات وأدوات الانتاج الرئيسية ٠

٤ ـ **مرحلة الرأسمالية** : أو مرحلة المجتمع الرأسمالى وهى النظام الذى تولد عن انتصار الطبقة البرجوازية وتحطيم الاقتصادى الاقطاعى ٠

٥ ـ **النظام الاشتراكى** : أو مجتمع المستقبل الاشتراكى ، وهو النظام الذى سيرث النظام الرأسمالى ٠ ويرى ماركس أنه أولى خطوات الشيوعية التى ينشد تحقيقها ، ويرى أن النظام الاشتراكى حتمى الحدوث وفقا للمادية التاريخية ، ويتميز هذا النظام بسيادة طبقة واحدة أطلق عليها اسم طبقة البروليتاريا حتى يتم التحول للشيوعية وتختفى الطبقية نهائيا ٠

★★★

كتبـــه ومؤلفـــاته

تأثر ماركس بالظروف فى انجلترا ـ الدولة التى عاش فيها بعد نفيه من ألمانيا ـ حيث أدرك أن الأوضاع فيها فى ظل النظام الرأسمالى فى التصنيع تعتبر أكثر تدنيا مما ساد فى ألمانيا ؛ مما جعله يعمم تحليله ليس فقط من واقع ألمانيا ولكن أيضا من الظروف السائدة فى وقته ، وتعتبر أفكار ماركس متكاملة وتكون أســاس ما يعرف « بالاشتراكيــة الثورية » التى درج على تسميتها « بالشيوعية » والتى تختلف عن غيرها من الاشتراكيات فى أنها اشتراكية علمية كما أطلق عليها ماركس على خلاف الاشتراكات المثالية : حيث ترتكز على فلسفة محددة وحتمية للتاريخ ، كما أنهــا ثورية حيث تختلف عن الاشتراكيات الديمقراطيــة التى تنبــذ الثــورة وتهدف الوصول الى الاشتراكية بوسائل تدريجية بدلا من الثورة التى جعلتها الشيوعية أساسا لتحقيق أهدافها ، وفى هـــذا المجــال يؤكد ماركس رأيه قائلا : « ان المفــكرين السياسيين طالما سعوا الى التعرف على العالم ، ولكن الفكرة الأساسية هى تغييره وليس التعرف عليه » .

والمتتبع منا لحياة ماركس يجد أن هناك ثلاثة تيارات أثرت على أفكاره :

١ ـ **الفلســفة الكلاسـيكية الألمانيــة :** حيث تأثر بمنهــاج وفلسفة الفيلسوف الشهير هيجل Hegel .

٢ ـ **الاشتراكية الفرنسية التى واكبت الثورة :** فلقد تأثر بأفكار العديد من المفكرين الاشتراكيين الفرنســيين من أمثال « بابيف » و « سان سيمون » Sain Simon

٣ ـ الاقتصاد السياسى الكلاسيكى الانجليزى ٠

ولقد بدأ ماركس كتاباته الاشتراكية المحددة بالبيان الشيوعى « المانفيستو » ، وقد وضعه بالاشتراك مع صديقه انجلز ، ولقد نشر هذا البيان فى ثلاث وعشرين صفحة تنطوى على أفكار كل من ماركس وانجلز ، مصاغة فى شكل مبادىء وخطط على قدر المستطاع بأسلوب يتميز بالحماسة والثورية والهجومية ٠

ولقد افتتح ماركس هذا البيان بعبارته الشهيرة : « ان تاريخ كل مجتمع لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات ، ومعنى النضال بين الطبقات هو أن كل شعب يحتوى فئات مختلفة فى المعيشة والمستوى الثقافى وسائر المستويات الأخرى ، وان هذا التباين هو ما يولد المسيطر والمسيطر عليه ٠ ومن هنا تنبعث هوة تؤدى الى الحرب الدائمة بين الطبقتين ، وان هذه الحروب لا تنتهى دائما الا بثورة أو بانهيار الطبقتين » ٠

ولقد تبع ذلك البيان كتاب مهم هو مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى ، ثم تبعه بكتابه الأسطورة « رأس المال » ، ذلك الكتاب الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع ، فلقد استودع ماركس هذا الكتاب خلاصة نظريته الاقتصادية وحللها تحليلا دقيقا وأوضح الطريق للوصول اليها ٠

وكتب ماركس أيضا عدة كتب أخرى منها : «الأيديولوجية الألمانية»، و «الصراعات الطبقية فى فرنسا»،

و « بؤس الفلسفة » ، و « حول المسألة اليهودية مساهمة فى نقد القانون عند هيجل» ، و «الاقتصاد السياسى والفلسفة»، و « العائلة المقدسة » ، و « تاريخ المذاهب الفلسفية » ٠

هذا وقد عاش ماركس خمسة وستين عاما ، عانى فيها من الفقر والبؤس والمرض كأشد ما تكون المعاناة ، ولقد رأى وهو بكامل صحته أول جزء من كتابه « رأس المال » بعد طبعه، ولكن سرعان ما وهن القلم فى يده قبل ارساله المجلدين الثانى والثالث الى المطبعة ، وفى السنوات العشر التى سبقت وفاته عانى أشد المعاناة من المرض الى أن توفى عام ١٨٨٣ بمدينة لندن ٠

رأس المال وقوانين التنظيم الاقتصادى

فوجىء العالم الأكاديمى بالمجلد الأول من كتاب كارل ماركس « رأس المال » Daskapital عام ١٨٦٧ ، وقد صدره بمقدمة قال فيها : « هذا المؤلف الذى أعرض القسم الأول منه على أنظار الجمهور ، هو استمرار لكتابى المنشور عام ١٨٥٩ بعنوان « نقد للاقتصاد السياسى » ٠

ولم يمتد بماركس الأجل كى يخرج بقية الكتاب الذى يعتبر بحق أعظم مؤلفاته ، ووقع العبء على انجلز الذى راح يجمع المسودات وينقحها ويربط بين أجزائها ، وبذلك أخرج المجلدين الثانى والثالث فى عامى ١٨٨٥ ، ١٨٩٤ على التوالى ، ثم جاء كارل كاوتسكى فأشرف على اخراج المجلد الرابع وهو من ثلاثة أقسام ويتضمن عرضا للمذاهب

الاقتصادية ، وقد ظهر هذا المجلد باسم Theorien uber den mehwert خلال السنوات ١٩٠٤ ـ ١٩١٠ ٠

وكان ظهور المجلد الأول من هذا الكتاب حدثا مهما فى تاريخ الاشتراكية الدولية وفى حياة ماركس نفسه ٠ وقد كتب على صورة بحث شامل فى قوانين التنظيم الاقتصادى للمجتمع الحديث وطريقة تكوينه ، ويهدف الى وصف عمليات الانتاج والتبادل والتوزيع كما تحدث بالفعل ، وتفسير حالتها الراهنة بوصفها مرحلة بذاتها من مراحل النمو أوجدتها حركة الصراع الطبقي ، أو فى عبارة ماركس نفسه « لاكتشاف قانون الحركة الاقتصادى فى المجتمع الحديث » عن طريق كشف القوانين الطبيعية التى تحكم تاريخ الطبقات ٠ وجاءت النتيجة مزيجا غريبا من النظريات الاقتصادية ومن التاريخ وعلم الاجتماع ، مزيجا لا ينطبق عليه أى نمط من الأنماط المألوفة ٠ ولا شك فى أن ماركس كان يعتبر مؤلفه هذا فى جوهره بحثا فى علم الاقتصاد ، فالاقتصاديون السابقون ، فى رأيه ، قد أساءوا فهم طبيعة القوانين الاقتصادية عندما قارنوها بقوانين علم الطبيعة والكيمياء وافترضوا أنه على الرغم من أن الظروف الاجتماعية قد تتغير فان القوانين التى تحكمها تبقى ثابتة لا تتغير ، وكانت النتيجة أن جاءت نظمهم اما منطبقة على عوالم خيالية يسكنها أشخاص حددت أنماطهم الاقتصادية على نسق المعاصرين للكاتب ذاته ، ومن ثم جاءوا عادة مزيجا من سمات لم تبرز بوضوح الا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، واما أنها تصف مجتمعات اختفت منذ أمد بعيد ، اذا كانت قد وجدت أصلا ٠ ومن ثم فقد رأى ماركس

أن مهمتـه هى أن يبتـكر نظاما جـديدا من المفهـومات والتعريفات ينطبق بصورة محددة عـلى العـالم المعـاصر ، بحيث يعكس التكوين المتغيرللحياة الاقتصادية، لا فى علاقتها بالماضى فحسب ، بل وفى علاقتها بالمسـتقبل كذلك • وقد حاول ماركس فى المجلد الأول فى وقت واحد أن يضع سردا منظما لنظريات أساسية معينة فى علم الاقتصاد ، وأن يصور بصفة خاصة ظهور النظام الصناعى الجديد باعتباره نتيجة للعلاقات الجديدة بين أصحاب الأعمال والعمل التى خلقهـا تأثير التقدم الفنى على وسائل الانتاج •

ومن ثم فقـد تنـاول المجلد الأول من « رأس المـال » عمليات الانتاج ، أى العلاقة بين الآلة والعمل من ناحيـة ، والعـلاقة بين المنتجين الفعليين (العمـال وأولئـك الذين يستخدمونهم ويوجهونهم) من ناحية أخرى • وأما المجلدات الباقية ، التى نشرها منفذو وصية ماركس بعد وفاته ، فقد تناولت الأساليب المستعملة فى تسويق المنتجات المنتهية ، أى نظام التبادل والجهاز المالى الذى ينطوى عليه ، كما تناولت العلاقات بين المنتجين والمستهلكين التى تحـدد سـعر الفائدة والربح •

والفكرة العامة التى تتخلل المـؤلف كله تشـبه التى وردت فى « البيـان الشـيوعى » وفى كتـابات ماركس الاقتصادية السابقة • فهى تتتبع ظهور البروليتاريا الحديثة عن طريق ربطها بالنمو العام للوسائل الفنية فى الانتاج ، اذ عندما تصبح هذه الوسائل ، خلال تطورها التـدريجى ، أكثر كلفة وأكثر تعقيدا من أن يستطيع كل فرد تكييفهـا

لاستعماله الخاص ، يسيطر بعض الأفراد عن طريق تفوقهم فى المهارة والقوة والقدرة ـ على التنظيم • أو يسيطرون عن طريق حادث من حوادث المصادفة على الآلات والأدوات ، وهكذا يجدون أنفسهم فى مركز يسمح لهم باستئجار عمل الآخرين بأن يعرضوا عليهم مكافآت فى صورة أجور منتظمة، تفوق ما يحصلون عليه كمنتجين مستقلين يحاولون ـ دون جدوى ـ تحقيق نفس النتائج بوساطة الآلات القديمة العديمة النفع التى لا يملكون سواها ، وهكذا أضحى هؤلاء الرجال أنفسهم ، نتيجة بيعهم عملهم لآخرين ، سلعا فى السوق الاقتصادى ، لعملهم سعر محدد يتقلب كما تتقلب أسعار السلع الأخرى تماما •

والسلعة هى أى شىء يتضمن عملا بشريا عليه طلب اجتماعى، فهى بذلك ـ كما عنى بايضاحه ماركس فى كتابه ـ مفهوم لا ينطبق الا على مرحلة حديثة نسبيا من مراحل النمو الاجتماعى ، وليس مفهوما أبديا ، شأنه فى ذلك شأن أى قالب اقتصادى آخر • وذهب ماركس الى أن القيمة التجارية للسلعة تتكون مباشرة من عدد ساعات العمل البشرى التى يقتضيها صنع نموذج متوسط من نوعها بيد منتج متوسط (وهى وجهة نظر مستمدة من مبدأ شبيه بذلك على حد ما قال به « ريكاردو » Ricardo والاقتصاديون الكلاسيكيون) • وقد ينتج عمل يوم واحد يقوم به عامل شيئا ذا قيمة أكبر من قيمة الحد الأدنى من السلع التى يحتاج اليها هذا العامل لسد حاجات المعيشة ، وهكذا ينتج شيئا أثمن مما يستهلكه ، بل هو اذا لم يفعل ذلك فلن يكون لدى سيده أى سبب اقتصادى يدعوه الى استخدامه • فان قدرته ، بوصفها سلعة

فى السوق ، يمكن الحصول عليها مقابل مبلغ « س » الذى يمثل الحد الأدنى الذى تتطلبه المحافظة على حياته فى حالة صحية تسمح له بأن يقوم بعمله بكفاءة ، والبضائع التى ينتجها «ل» ، والفرق بين «س» و «ل» يمثل مدى ما أضفاه من زيادة على جملة ثروة المجتمع ، وهذا هو الفائض الذى يضعه صاحب العمل فى جيبه . وحتى استنزال المكافأة المعقولة مقابل ما يقوم به صاحب العمل بوصفه منظما ومديرا لعمليات الانتاج والتوزيع ، فسيظل هناك فائض ضرورى من دخل المجتمع يوزع ـ فى رأى ماركس ـ لا على المجتمع كله فى مجموعه ، بل يقتسمه فى صورة ايجارات أو فوائد على الاستثمارات أو أرباح عمليات تجارية ـ أعضاء المجتمع الذين يطلق عليهم الرأسماليون أو البورجوازيون وحدهم ، وهم الذين يميزهم عن سائر أفراد المجتمع أنهم وحدهم يحصلون ـ بوصفهم الملاك الوحيدين لوسائل الانتاج ـ على مثل هذه الزيادة التى لم يبذلوا فيها عمل ، ويكدسونها . وسواء فسر مفهوم ماركس فى القيمة على أنه يعنى سعر السوق الفعلى للسلع ، أو المعيار المتوسط الذى تدور حوله الأسعار ، أو الحد المثالى الذى تتجه نحوه الأسعار ، أو أنه السعر الذى يجب أن يكون فى أى مجتمع منظم على أسس عقلية ، أو أنه شىء أكثر ميتافيزيقية وهيجلية بوصفه جوهرا لا يدرك يضيفه العمل البشرى الخلاق على المادة الصماء ، أو هو ، كما يقول النقاد الذين لا يميلون الى ماركس ، مزيج مشوش من هذا كله ، وسواء أكانت فكرة الموجود الموحد الذى يسمى العمل البشرى « غير المميز » (الذى تتكون منه القيمة الاقتصادية تبعا لهذه

النظرية) والذى لا يمكن مقارنة تعبيراته المختلفة الا من ناحية الكم وحدها ، صحيحة أو غير صحيحة ـ فليس من اليسير الدفاع عن الطريقة التى استعمل بها ماركس أى المفهومين ـ سواء كان هذا أو ذاك فان نظرية الاستغلال التى تعتمد عليها تظل متأثرة نسبيا • والفكرة الأساسية التى اجتذبت العمال ، الذين لم يفهموا فى أغلب الأمر الدقائق المعقدة فى رأى ماركس عن العلاقة بين القيمة التبادلية والأسعار الفعلية ، هى أنه لا يوجد سوى طبقة اجتماعية واحدة ، هى طبقتهم ، تنتج ثروة أكثر مما تتمتع به ، وأن هذا الفائض يستولى عليه أشخاص آخرون لا لشىء الا بفضل مركزهم الاستراتيجى بوصفهم المالكين الوحيدين لوسائل الانتاج ، أى للموارد الطبيعية والآلات ووسائل النقل والائتمان المالى وما اليها ، لأنه بدون هذه الوسائل لا يستطيع العمال أن ينتجوا ، بينما تمنح السيطرة عليها أولئك الذين بيدهم هذه السيطرة القدرة على ارغام بقية الجنس البشرى على التسليم بشروطهم تحت تهديد الموت جوعا •

ويصور الكتاب الأنظمة السياسية والاجتماعية والدينية على أنها أسلحة فكرية ومعنوية القصد منها تنظيم العالم لصالح أصحاب الأعمال • فان هؤلاء يستخدمون جيشا من الأيديولوجيين : من خبراء الدعاية والمفسرين والمدافعين والذين يتولون مهمة الدفاع عن النظام الرأسمالى وينمقونه ويخلقون حوله جوا أدبيا وفنيا الغرض منه زيادة الثقة والتفاؤل لدى أولئك الذين يستفيدون فى كنفه وجعل هذا النظام يبدو مستساغا فى نظر ضحاياه • بيد أنه اذا كان

تقدم الأساليب الفنية ، كما اكتشف « سان سيمون » (١) بحق ، قد منح ملاك الأرض ورجال الصناعة والمال ـ وكل نوع من أنواع الوسطاء ـ هذه القوة الفريدة لفترة ما ، فان تقدمها الذى لا يمكن التحكم فيه سوف يدمرهم بنفس الحتمية ٠

بعد ذلك يفرق ماركس بين جزأين من رأس المال ، وهما رأس المال الثابت constant الذى ينفق على وسائل الانتاج (المبانى ، والآلات ، المعدات ، الوقود ، المواد الأولية الخ)، ورأس المال المتغير veriable capital الذى ينفق على قوة العمل (الأجور) ، ولكل من هذين الجزأين دور مختلف فى انتاج فائض القيمة ٠ فوسائل الانتاج لا تخلق أية قيمة عن طريق اشتراكها فى عملية الانتاج ، بمعنى أن قيمة رأس المال الثابت تنقل بصورة كلية أو جزئية الى المنتج التام الصنع ٠ أما رأس المال المتغير فينمو عن طريق خلق فائض القيمة فى أثناء عملية الانتاج ٠ ونسبة فائض القيمة الى رأس المال المتغير تمثل درجة استغلال رأس المال للعمل ، ويقال لها معدل فائض القيمة النسبى ٠ والفائض المالى الكلى (الثابت + المتغير) يمثل معدل الربح ٠٠

ويحدث نمو فائض القيمة بطريقين : أولهما اطالة يوم العمل ، ويطلق ماركس عليه اسم فائض القيمة المطلق ٠ أما الطريق الثانى فيتمثل فى انقاص وقت العمل الضرورى ، ويسمى هذا فائض القيمة النسبى ٠ ويتحقق هذا الفائض

---

(١) سان سيمون : فيلسوف اجتماعى فرنسى (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥ م) ٠

النسبى عن طريق زيادة انتاجية العمل ، فكلما زادت انتاجية العمل وانخفضت قيمة المنتجات قل وقت العمل الضرورى وبالتالى زاد وقت العمل الفائض ، وهذه هى الزيادة التى تحدث فى تلك الفروع من الصناعة التى تصنع للعمال تلك الضرورات للحياة التى تحدد قيمة قوة العمل • كذلك يحدث الخفض فى وقت العمل الضرورى نتيجة لازدياد انتاجية العمل فى الفروع التى تنتج وسائل الانتاج التى تستخدم فى عمل السلع الاستهلاكية •

وقد يحاول الرأسماليون الفرديون أيضا الحصول على مزيد من فائض القيمة اذا أدخل أحدهم تحسينات فنية لا يستخدمها الآخرون ، وبهذا فالرأسمالى الذى يستخدم أساليب تكنولوجية متقدمة يحصل على فائض قيمة يزيد عن المعدل المعتاد • ولكن المنافسة ترغم الآخرين على أن يحذوا حذوه بأن يدخلوا فى عملياتهم الانتاجية تحسينات فنية •

★★★

وعندما حلل ماركس خلق فائض القيمة النسبى بحث ثلاث مراحل تاريخية من زيادة انتاجية العمل فى ظل الرأسمالية ، وهى :

١ ـ التعاون البسيط •

٢ ـ والصناعة اليدوية •

٣ ـ والصناعة الآلية الكبيرة •

والتعاون البسيط الرأسمالى هو تركيز عدد كبير من العمال تحت اشراف أحد الرأسماليين حتى يصنعوا نفس النوع الواحد من المنتج · ان الانتاج يقوم على تكنيك الحرفة اليدوية ، وليس فيه تقسيم للعمل ، ولكن تجميع مثل هذا العدد الكبير من العمال يحدث زيادة فى الانتاجية ·

والصناعة اليدوية هى تعاون رأسمالى مبنى على تقسيم العمل ولكنه لا يزال مرتكزا على تكنيك الحرف اليدوية · هذا النوع يجعل فى الامكان رفع انتاجية العمل بالقياس الى التعاون البسيط ، ولكنه لم يتمكن من القضاء على الانتاج الصغير ، ومن أن يصبح الشكل الغالب من الانتاج · غير أن الرأسمالية استطاعت أن تحقق السيادة الكاملة حين انتقلت الى الصناعة الآلية ·

★ ★ ★

هذا وقد تنبه ماركس فى كتابه « رأس المال » بأن الأزمات الدورية الناجمة عن الاقتصاد الذى يعوزه التخطيط، وعن الصراع الصناعى الذى لا ضابط له ، لابد بالضرورة أن تزداد فى عددها وحدتها ، ولابد من قيام حروب على نطاق واسع لم يعرف لها مثيل من قبل تدمر العالم المتمدين الى أن يتحقق فى النهاية حل عنيف لمتناقضات النظام الهيجلى(٢) ، التى يعتمد استمرارها على صراع يتزايد أثره

(٢) هيجل : فيلسوف ألمانى (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) فلسفته مثالية مطلقة · ولفلسفة هيجل أثر كبير على ماركس الذى أقام مذهب المادية الجدلية على أساس منطق الجدل الهيجلى ·

(انظر صفحة ٢٧٢ من الجزء الثانى من هذه الموسوعة) ·

المدمر باستمرار بين الأجزاء التى يتكون منهـا • وسـوف ينتهى أمر مجموعة الرأسـماليين الذين يأخـذ سـلطانهم السياسى فى التناقص باستمرار ، عندما يخلعهم العمال الذين يكون هؤلاء الرأسماليون أنفسهم قد دربوهم تدريبا ممتازا وجعلوا منهم هيئة متساندة منظمة • وباختفاء آخر الطبقات المالكة ينتهى نهائيا الصراع بين الطبقات الذى هـو وحده السبب الكافى فى الندرة الاقتصادية والتشاحن الاقتصادى•

ويقول ماركس فى نبذة مشـهورة وردت فى الفصـل الثانى والعشرين من المجلد الأول من كتاب « رأس المال » : « بينما يتناقص عدد أقطاب الرأسـمالية بصـورة متزايدة تكون هناك بطبيعة الحال زيادة مماثلة فى مجموع الفقـر والاستعباد والامتهان والاستغلال ، ولكن دور الطبقة العاملة يزداد قوة باطراد فى نفس الوقت ــ وهى الطبقة التى يزداد عددها باستمرار ، وتدربها وتوحدها وتنظمها نفس آليـة الأسلوب فى الانتاج الذى ازدهرت معه وفى ظله • الى أن يبلغ تركيز وسائل الانتاج وازدياد عـدد العمـال نقطـة يصبحان فيهـا غير متناسـبين مع الاطار الرأسـمالى الذى يوجدان داخله • وهنا ينفجر هذا الاطار ، فتدق الأجراس معلنة نهاية الملكية الخاصة ويجـرد الذين كانـوا يجردون غيرهم » •

أما الدولة ، وهى الأداة التى كانت تستعمل فى فرض سلطة الطبقة الحاكمة بطريقة مصطنعة ، فستختفى بعد أن تكون قد فقدت وظيفتها ، وأخيرا نصل الى المجتمع المثالى ، الذى طلاه أصـحاب المدن الفاضـلة فى الماضى بألوان أكثر

خيالا وأكثر بساطة مما ينبغى ، مجتمع لا سيد فيه ولا عبد، لا غنى ولا فقير ، مجتمع تنتج سلع العالم فيه وفقا للمطالب الاجتماعية ، ولا تعرقل فيه نزوات الأفراد انتاجها ، ويتم توزيعها ، لا بالتساوى ـ فهذه فكرة عرجاء أخذها العمال عن الأيديولوجيين التحرريين بمفهومهم النفعى عن العدالة بوصفها مساواة حسابية ـ بل على أساس عقلى ، أى على غير مساواة : لأنه كما تختلف حاجات الانسان وقدراته ، فان جزاءه ، اذا أراد أن يكون عادلا ، يجب أن يكون وفقا للقاعدة التى جاءت فى « البيان الشيوعى » « حسب حاجته ، ومن كل حسب قدرته » • ويبدأ الناس ـ وقد تحرروا أخيرا من طغيان الطبيعة وطغيان أنظمتهم التى أسىء تكييفها وأسىء الاشراف عليها فاستبدت بهم ـ فى تنمية قدراتهم الى أقصى حدودها • وهكذا تتحقق الحرية الحقيقية التى أشار اليها هيجل فى كثير من الغموض • وعندئذ فقط يبدأ التاريخ البشرى بمعناه الحقيقى •

★★★

هذا الذى قدمناه خلاصة مسرفة فى الايجاز لم نقصد بها سوى التعريف بأهم الأفكار التى تضمنها هذا الكتاب الذى أثر فى التاريخ المعاصر بأكثر مما أثر أى كتاب آخر، بل ان أثره يعادل تحطيم الذرة بالنسبة الى العالم الفيزيقى •

الكتاب الذى قامت باسمه الثورات

هذا وقد هيأ ظهور كتاب « رأس المال » آخر الأمر أساسا فكريا محددا للاشتراكية الدولية ، بدلا من تلك

المجموعة المبعثرة من الآراء الغامضة المتعارضة • وقد كشف هذا الكتاب الضخم عن الاعتماد المتبادل بين كل النظريات الاقتصادية التاريخية والنظريات السياسية التى بشر بهـا ماركس وانجلز ، كل منهما على الأخـرى ، وأضحى هدفا يتركز حوله الهجوم والدفاع على السواء ، وأصبحت جميع صور الاشتراكية اللاحقة تعرف على ضوء موقفها من الوضع الذى يرسمه ، وتفهم وتقسـم بالنسبة لأوجه الشـبه بينها وبينه • ولم يلبث بعـد فترة قصـيرة من الركود أن بدأت شهرته تنمو حتى بلغت حـدا غـير عادى ، واكتسب قيمـة رمزية أكثر من أى شىء آخر كتب منذ عصر الايمان ، بل لقد أصبح هذا المؤلف موضع تقديس أعمى وموضع حقـد أعمى أيضا من ملايين من الناس الذين لم يقرأوا منـه حرفا واحدا ، أو هم قرأوا ولم يفهموا أسلوبه ، وقامت باسـمه ثورات، فلم تلبث الثورات المضادة أن حشدت جهودها لمصادرته باعتباره أقوى أسلحة العدو مضيا وأشدها خداعا • وقام نظام اجتماعى جديد يعتنق مبادئه ويرى فيه تعبيرا نهائيا لايمانه الذى لا يتغير • وأدى الى ظهـور جيش من المفسرين وأصحاب الفتاوى الذين بذلوا جهودا لا تنقطع قرابة ثلاثة أرباع قرن دفنت الكتاب الأصلى تحت جبل من التعليقـات التى بز أثرها أثر هذا السفر المقدس نفسه •

أما فى حياة ماركس نفسه فقد كان نشر الكتاب لحظة حاسمة • لقد قصد من كتابه أن يكون أعظم ما أسهم به فى تحرير البشرية ، فضـحى من أجله بخمسـة عشر عاما من حياته وبكثير من طموحه ومطامعه • نعم ، فلقد كان الجهـد الذى بذله فى تأليفه ضخما حقيقة • ومن أجله تحمل الفقر

والمرض والاضطهاد الشخصى والعام ، عانى كل ذلك لا بسرور طبعا ، ولكن بطريقة رواقية فيها من القوة والخشونة ووحدة الهدف ما أثر فى كل من اتصل به وأضعافه ٠

وقد علقت زوجته على هذا الكتاب بقولها : انها كانت تفضل أن يكون لزوجها رأس مال ، بدلا من الكتابة عن رأس المال ٠٠ !

ولسنا نعدو الواقع اذا قلنا ، ان « رأس المال » أخطر كتاب ظهر فى العصر الحديث ، بل انه كتاب بدأ عملية تغيير مجرى التاريخ ٠

★★★

النظرية النسبية

آينشتاين

١٩٠٥م

أعظم قانون عرفه البشر

فى صمت وهدوء أحدث آينشتاين ثورة هائلة فى العلم ·· ثورة أذهلت العالم ، وقلبت فى العقل البشرى مفاهيم الزمان والمكان والحركة والمادة والطاقة وغيرها ·· بل انها امتدت الى اعادة تشكيل نظرتنا الى المستقبل ·

ولا أظن أن أحدا استطاع أن يحدث أثرا فى العلم أعظم مما فعل ألبرت آينشتاين ·· لقد أحدث ثورة عميقة فى مجال علم الفيزياء سوف تمتد آثارها بغير شك الى أجيال أخرى قادمة ·· وهى بغير تجاوز حدود الموضوعية والأمانة تعد ثورة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مفاهيم ومدلولات ·

فقد كان لما جاء به آينشتاين الفضل الأول فى تلك الطفرة العلمية التكنولوجية التى شهدها العالم فى الربع الأخير من هذا القرن · ولا أعتقد أننى فى حاجة الى الحديث عن آثار هذه الطفرة العلمية التكنولوجية فى مختلف مجالات الحياة · فنحن نعيش وسط ما نحققه من معجزات علمية تتدفق كطوفان هادر من حولنا كل يوم ، ومن ثم فان ما أحدثه آينشتاين فى تاريخ البشرية هو ثورة بحق وبصدق وبغير ادعاء ·

ولقد وضعه برنارد شو مع عدد قليل من عظماء التاريخ فى مكانة سامية ، ووصفهم بقوله : « انهم بناة

التاريخ والعالم » . وقال عنه أعظم الكتاب العلميين فى انجلترا وهو ج. صلفين : « انه أحد ثلاثة فقط فى تاريخ العلم يجلسون على القمة » . بل لقد وصفه بعض العلماء الذين يعرفون قيمة نظرياته العلمية بأنه « انسان فوق مستوى البشر » .

وقد يملؤنا العجب اذا علمنا أنه قد كتب عن آينشتاين منذ نشأته الأولى سنة ١٩٠٥ وحتى سنة ١٩٥٢ وقبل وفاته بثلاث سنوات ٤٣٠٠ كتاب كامل ولا يدخل فى هذا العدد الكتب التى وردت فيها أعماله العلمية وهى تعد بعشرات الآلاف !!

جذور العبقرية

واذا أردنا أن نحدد ملامح العبقرية عند آينشتاين ، نجد أنها مؤلفة من عناصر مختلفة ومتناقضة :

ثورة على التقاليد .. قدرة على النقد الصائب ونقد لنفسه ونظرياته .. حب الهدم والعناية بالبناء .. نظرة شاملة للأمور تتناول جميع نواحى الموضوع وتسعى الى تفسير عام شامل على أساس علمى واحد .. خيال خصب وقدرة مذهلة على التركيز .

وساعد على ذلك الظروف التى نشأ فيها آينشتاين . فقد ولد فى يوم ١٤ مارس سنة ١٨٧٩ فى مدينة أولم بألمانيا ـ وهى نفس المدينة التى ولد فيها القائد الألمانى الأسطورى روميل ـ وكانت طفولته لا تنبىء بأدنى قدر من

العبقرية ؛ فقد بدا طفلا متخلفا بدرجة هائلة ، وظل عاجزا عن الكلام حتى بلغ الثالثة من عمره ٠

وفى سنوات عمره الأولى لم تكن هناك أية ملامح نبوغ تبدو عليه ٠ كان مشاغبا يثير المتاعب لمدرسيه بكثرة أسئلته والى الحد الذى قال له مدرس يوما ما : « أنت لن تفلح مطلقا فى حياتك ٠٠ ولن تكون شيئا على الاطلاق » ٠

ولكن المدرسين لم يعرفوا آينشتاين جيدا ٠

وهو فى الخامسة من عمره عشر على بوصلة صغيرة ٠٠ أذهله هذا الجهاز الصغير ــ ما القــوة التى تجعــل الابرة تأخذ هذا الاتجاه دائما ٠ كان متدينا الى درجة كبيرة خــلال سنوات عمره الأولى٠٠ فى السادسة عشرة من عمره استنبط أول نظرية جديدة ٠٠ ليس فى المعمل ولكن فى عقله ٠٠ دارت النظرية حول انتقال الضوء ٠٠ فى هذه الفترة كانت العقول الضخمة تؤمن بأن الضوء مادة ٠٠ تنتقل كما تنتقل المواد الأخرى ٠٠ ولكن آينشتاين كان أول من تصــور أن انتقال الضوء مختلف وأنه ينتقل فى شكل موجات ٠٠

كان والده قد افتتح محلا تجــاريا فى ألمانيــا ولــكن تجارته فشلت ٠٠ فقرر الأب أن يزاول نشاطا تجاريا آخــر فى ايطاليا ٠٠

وجد آينشتاين نفسه مضطرا الى ترك المدرسة والى ترك جنسيته الألمانية أيضا ٠٠ كان طالبا فى مدارس ميونيخ ، ثم قرر الالتحاق بمعهد التكنولوجيا فى زيوريخ ٠ رسب فى

الامتحان ، لم يحصل على الدرجات المطلوبة فى علم الحيوان واللغات • دخل مدرسة خاصة لرفع مستواه فى هذه المواد•• ثم عاد بعد عام للمعهد التكنولوجى ••

ولكن ثورته الداخلية كانت مستمرة • لم يكن يحضر الدروس ولا يستمع الى المحاضرات • كان يقرأ فقط ما يمتعه وما يستهويه من المواد العلمية • كان مصرا على البقاء فى المعمل بدلا من الذهاب الى قاعة المحاضرات • وصف مدرس الرياضيات هرمان منيوسكى •• الطالب آينشتاين خلال هذه الفترة بأنه كالكلب الكسول ! فى نهاية العام •• طلب آينشتاين من زميل له أن يقدم له كراسة المحاضرات•• بهذه الكراسة وبقراءة ما فيها بسرعة وعلى عجل نجح آينشتاين فى امتحان نهاية العام • وتخرج فى المعهد سنة ١٩٠٠ ؛ ولكن درجاته كانت ضعيفةلهذا لم يحصل على منصب فى المعهد ولم يصبح بين هيئة البحث أو التدريس فقرر أن يكسب عيشه من خلال حل المسائل الرياضية كباحث فلكى• فى سن الثالثة والعشرين عثر آينشتاين على وظيفة ممتحن فى هيئة تراخيص فى مدينة برن بسويسرا • كان اسم الوظيفة هو « خبير تكنولوجى » من الدرجة الثالثة ••

ويقول آينشتاين : « وقد أنقذت هذه الوظيفة حياتى •• ذلك لأنه من خلالها وجدت المأكل والمسكن ـ وعرفت زميلتى ـ كان اسمها ميلكا ماريك •• تزوجتها •• » ومن خلال فحصه لبراءات الاختراع الجديدة عرف الكثير واستطاع أن يفرق بسهولة بين ما هو حقيقى وما هو زائف !

ورفعه هذا العمل بالذات الى التفكير فى علوم الطبيعة « الفيزياء » ·· كان لديه الكثير ليفكر فيه · نظريات نيوتن للجاذبية وقد دخلت القرن الثانى من عمرها · لم تكن هذه النظريات كافية عند آينشتاين لتفسير العديد من الظواهر ·

وفى القرن التاسع عشر ـ كانت نظريات نيوتن تعانى من فجوات حادة ·· مثلا ·· يقول نيوتن : ان الضوء جزئيات · أو موج من الجزئيات ·· ولكن التجارب أكدت أن الضوء ليس جزئيات ولكنه موجات ·· بل ان عالمين هما سكوت جيمس ماكسويل وميشيل فاراداى Farday قد أعلنا أن المغناطيسية الكهربائية والضوء لا يخضعان لنظريات نيوتن ·· !

الكون حول الأرض فراغ · لكى ينتقل الضوء من الشمس للأرض لابد من شىء ينتقل من خلاله ·· لابد أن هناك شيئا ما ينتقل لها ·· لهذا سماه العلماء : الأثير ·· ! والموجات هى موجات الأثير ·· !

ولكن لابد لصحة النظرية من اثبات وجود هذا الشىء الذى سموه الأثير ·· لابد من العثور عليه ·· لابد من الامساك به ·· فحص خواصه ·· ! لابد من معرفة مصدره وسببه ·· !

قال عالم اسمه ألبرت هيكلسون وزميل له اسمه ادوارد مورلى morley انهما أجريا تجربة مهمة عام ١٨٨٧ تأكدا

من خلالها من وجود الأثير ٠٠ قال : ان الأرض تدور حول الشمس بسرعة تصل الى ٣٠ كيلومترا في الثانية ٠٠ وهذه الحركة فى حد ذاتها هى التى تولد الأثير ٠٠ !

والتجربة هى أنه حينما يسير شخص يركب دراجة فانه يحس بشىء بارد يلفح وجهه ٠ هذا الشىء غير موجود لو كان الشخص واقفا على قدميه بدون دراجة ٠ لابد أن هذا الشىء هو الأثير !

واستمر العالمان فى تجاربهما وخرجا بنتيجة مهمة ومؤكدة ٠٠ وهى أنه ليس هناك شىء اسمه الأثير !

واستمرت الآراء تتدفق عن نظرية نيوتن ، حتى جاء آينشتاين ليقدم وهو فى السادسة والعشرين الاجابة المقنعة ٠٠ وهى نظرية النسبية ٠٠

كان ذلك فى عام ١٩٠٥ ٠٠ وفى بحثين لم يلتفت اليهما كثير من العلماء يومها جاءت النظرية المهمة ٠ البحث الأول والثانى لم يكن لهما اسم نظرية النسبية ـ كان الأول بعنوان « حول الديناميكا الكهربائية للأجسام المتحركة » ٠

رفض آينشتاين تماما فكرة الأثير من أساسها ٠٠ قال : ان الضوء يسير بسرعة ثابتة لا تتغير مهما تحرك مصدر الضوء ٠٠ ان حركة المصدر لا تؤثر على سرعة الضوء مطلقا ـ لو انطلق الضوء من جسم ثابت فان سرعته هى نفسها سرعة الضوء المنطلق من طائرة سريعة !

شيء يصعب تصوره ٠٠ ! ليس هذا فقط ـ بل ان آينشتاين قال : ان نيوتن أخطأ حين تصور أن الوقت شيء مطلق وأنه ليس مرتبطا بشيء آخر ـ وهو يتدفق من الماضى نحو المستقبل ٠ قال ان الوقت شيء نسبى ٠٠

قال آينشتاين ان نيوتن أخطأ حينما قال ان وحدات القياس ثابتة ٠٠ والصحيح ان وحدات القياس نسبية أيضا ! وان الثابت الوحيد فى الكون هو سرعة الضوء ٠٠ !

الوقت نسبى! والمكان نسبى ٠٠! والمساحة نسبية ٠٠! والمادة نسبية ٠٠ !

والثابت الوحيد : سرعة الضوء !

كيف هذا ٠٠ ؟!

النسبية الخاصة

RELATIVITE RESTREINTE

فى هذا البحث أدمج آينشتاين بعبقريته الزمان والمكان ، واعتبرهما وحدة لا غنى للواحد منهما عن الآخر ، فليس لك أن تتحدث عن الزمان دون المكان ولا عن المكان دون الزمان ، ولا يعتقد القارىء ان هذا مجرد رياضة للفكر أو فلسفة لا أثر لها على حياتنا ، فقد استنتج آينشتاين من هذه الوحدة أعظم قانون عرفه البشر ، وذلك أن المادة هى الطاقة وأن الطاقة هى المادة ، أوجد المعادلة التى نعرف بمقتضاها قدر الطاقة من قطعة من المادة أيا كان نوع هذه

القطعة ، علاقة أدخل فيها مربع سرعة الضوء ، كذلك أكد أن الطاقة بدورها يمكن أن تتحول الى مادة • وقد خلق أخيرا « لورانس » Lowrence فى أمريكا بروتونا وهو أحد جسيمات نواة الذرة من الطاقة ، وعلى هذا الأساس فان هذا القلم الذى أخط به هذا الكتاب هو مادة وهو اذن طاقة ، وهذه الوردة الجميلة التى أمامى هى مادة ، ولو أمكن تحويلها بأكملها الى طاقة لأمكن أن نسير بها قاطرة من القاهرة الى أسوان ونعود بها الى القاهرة ، ويتبقى من طاقتها ما قد نستطيع أن نسير بها هذه القاطرة مرات أخرى •

وهذه النسبية الأولى علمتنا أن سرعة الضوء هى سرعة كونية لا يجوز التحدث عن سرعة تعلوها ، وأن انتقال الضوء فى غير حاجة الى هذا الأثير الذى فرضه العلماء لتفسير انتشار الضوء وسريان الكهرباء •

ترى ما الذى حدا بآينشتاين وهو فى السادسة والعشرين من سنى حياته أن يدخل بثاقب فكره فى قضية الزمان والمكان ؟•• ما الذى حدث فى زمانه وقبل زمانه ، أى قبل سنة ١٩٠٥ ، السنة التى نشر فيها أول نشراته عن النسبية ، ليحمله على أن يتأمل موضوع حقيقة الزمان والمكان ويتعمق فيهما بطريقة لم يتعمق فيهما غيره من قبل ؟ •

ما الحادث الذى أثاره وجعله يفكر فيخرج على العالم بالنسبية التى هزت العالم هزا ؟ ما المسألة التى حاول أن يتعرض لها فى هذه السنة المثمرة سنة ١٩٠٥ ، فلما أصاب فى حلها كتب له الخلود ؟

هـذا الحـادث كان خاصا بالتجربة التى يعرفها كل من جلس فى صفوف الدرس وهى تجـربة « ميكلسـون » (١) و « مورلى » (٢) ٠

كانت أول تجربة لميكلسون ـ التى أشرنا اليها ـ لاثبات سرعة الأرض فى الأثير ، هذا الوسط الفرضى الذى يمـلأ الكون ، وقد أجراها سنة ١٨٨١ فى بوتسدام بألمانيا وكان عمر آينشتاين سنتين !

كانت النتيجة السـلبية فى تجـربة ميكلسـون ومورلى عجيبة بالنسبة للعقيدة العلميـة السـائدة والمتأصلة من أن الأرض والكواكب تتحرك فى الأثير ، وهكذا خلقت التجربة موضوعا محل دهشة العلماء فى كل بقاع الأرض ٠

ولقد أعيدت التجربة التى أعطت هذه النتيجة الغريبة بواسطة مورلى والعالم الكبير ميلر miller سنة ١٩٠٢ وأعطت النتيجة السابقة ٠

ولو أننا اعتبرنا أن شعاع الضوء يسير مرة مع اتجاه سير الأرض ومرة فى الاتجاه المضـاد ، فباعتبـار أن سرعة الضوء هى ٣٠ ألف كيلومتر فى الثانية وسرعة الأرض هى حوالى ٣٠ كيلومترا فى الثانية فالمفروض فى هذه التجربة الأخيرة أن تكون النتيجتان ٣٠٠+٣٠٠ ، ٣٠٠ألف ـ ٣٠٠

---

(١) ميكلسون : ألبرت ابراهام ميكلسون : أستاذ فى جامعة شيكاغو بأمريكا حصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٧ وتوفى عام ١٩٣١ ٠

(٢) مورلى : أستـاذ الفيزياء اشترك مع ميكلسـون فى تجربته الخـالدة التى شرحناها ٠

قد يقول القارىء ان فارق السرعتين وقدره ٦٠ كيلومترا فى الثانية بنسبة سرعة الضوء وهى ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية بسيط جدا لدرجة أن يكون هناك ما يسمونه الخطأ التجريبى اذ ان النسبة هنا هى ٦٠ على ٣٠٠ ألف أى $\frac{١}{٥٠٠}$ ، ولكن كل هذا أخذ فى محل الاعتبار، وان القياس كان دقيقا للغاية ٠

وانتظر العالم فى حيرة الى أن جاء آينشتاين ـ سنة ١٩٥٠ وبعد التجربة السابقة بربع قرن ـ بتفسير رائع فوضع للزمان والمكان تعاريف جديدة ووضع لسرعة الضوء تعريفا ثابتا لا يتعلق بالمركبة التى تحمله ٠

وفي هذا رفض آينشتاين فكرة المكان المطلق ، كما رفض أيضا فكرة الزمان المطلق ، وكان ذلك سببا مباشرا ليكتشف أعظم قانون فى الوجود وهو علاقة المادة بالطاقة ، ولا نود أن ندخل فى المعادلات الصعبة الخاصة بهذا البحث ، وانما نذكر أن آينشتاين وصل الى هذه النتيجة الباهرة بتعليل بسيط : فقد اعتبر أن كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد سرعته ، وحيث ان الحركة هى نوع من أنواع الطاقة فان مقدار الكتلة الزائدة للجسم المتحرك تنتج من طاقته الزائدة ، وبالاختصار فان للطاقة كتلة ، وقد استطاع آينشتاين ايجاد مقدار الكتلة المعادلة لوحدة الطاقة . واستنتج من ذلك أن :

الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء ..

أى ان الطاقة المختزنة فى أى جزء من المادة تعادل مقدار كتلة المادة مقدرة بالجرام مضروبة فى مربع سرعة الضوء مقدرة بالسنتيمتر فى الثانية .

ومنذ أن طالع آينشتاين مع الفهم والوعى والتعمق نتائج تجربة « ميكلسون » و « مورلى » بدأ يراجع عقيدته فى الزمان والمكان .

منذ القدم والعلماء يعتبرون المكان والزمان شيئين مستقلين ومنفصلين تماما بعضهما عن بعض ، واذا رجعنا الى ما سطره نيوتن نجد أنه عرفهما كما يأتى :

« المكان المطلق ودون الرجوع الى شىء خارجى يظل أبد الدهر متشابها وساكنا ـ الزمان المطلق يسرى بانتظام على الدوام دون الرجوع الى شىء خارجى » .

ولقد أدرك آينشتاين أن حادثين يفصل بينهما فاصل مكانى يمكن أن يؤدى بهما هذا الانفصال المكانى الى وجود فرق زمنى بينهما عند رصدهما من جهاز آخر فى حالة من الحركة .

وهكذا برهن آينشتاين فى النسبية الخاصة بما لا يقبل الشك ، بأنه من الخطأ الاعتقاد بوقوع حادثتين فى وقت واحد فى عالم غير متصلة أجزاؤه .

وكان من الضرورى ايجاد قاعدة جديدة للمحصلات فى الميكانيكا عند التحدث عن السرعة فى الاتجاهات الثلاثة المعروفة ، يدخل فيها عامل الزمن وسرعة الضوء ، كذلك فى حالة كتلة من المادة فى حركة عندما يقارن الباحث وصف مجموعتين متحركتين ـ وقد وجد آينشتاين ضالته وأكد ان الزمن والمسافة كميتان متغيرتان ، فالساعة تؤخر كلما زادت سرعة الجسم ، ولكن المسطرة تنكمش ويقل طولها فى اتجاه حركتها ، فاذا وصلت الى سرعة الضوء كان طولها صفرا أى انها تنعدم ، أما الساعة فانها تقف تماما ٠

وذكر أن العادة هى التى أملت علينا معتقداتنا الأولى الخاطئة ، تلك الأخطاء التى هى من رواسب رسخت فى عقولنا فى سن المراهقة ٠

وهكذا بينت النظرية النسبية الخاصة أن الفضاء والزمن شيئان نسبيان يتغيران بحركة الشخص المراقب وكان من نتيجتها أولى انتصارات آينشتاين من أن المادة هى الطاقة ويمكن أن تتحول اليها وان الطاقة هى المادة وممكن أن تتحول اليها ٠

★★★

النسبية العامة

LA RELATIVITE GENERALE

بعد أن حكمت العلوم قوانين نيوتن المعروفة فى الحركة وفى الجاذبية قرنين من الزمان سمحت لأمثال « لاجرانج »

والذين أخذوا عنه و « لابلاس » و « فرنل » و « كـوشى » والذين تتلمذوا عليهم بتوسيع فرع العلوم المختلفة والوصول الى تطبيقات غاية فى الروعة للميكانيكا النيوتونية ، والذين رغم جهودهم وذكائهم الخارق ظل التفسير الميكانيكى للكون غير مفهوم ، حتى ان قانون الجاذبيـة لنيـوتن الـرائع فى تطبيقه السهل فى معرفته لم يصبح مفهوما فى القرن الذى نعيش فيه ، اذ كيف أن الجاذبية تنتقل من جسم الى آخر دون وسط ينقلها وفى غير ما زمن ، الأمر الذى تراءى لآينشتاين أنه غير معقول ٠

كان قانون الجاذبية عند نيوتن يصف أن جسمين يجذب بعضهما الآخر بقوة تساوى حاصـل ضرب كتلة الجسـمين مقسوما على مربع المسافة بينهما دون فهم للزمن الذى يمر لتصل قوة الجذب من أحدهما للآخر ولا للوسط الذى تنتقل فيه هذه القوة ٠

أما قانون الجاذبية عند آينشتاين فهو لا يشمل الاشارة الى أية قوة ، بل يصـف سلوك الأجسـام فى الـكون أو فى «الفضا زمن» سلوكا يحتمه وجود المادة فى الكون ، وقوانين آينشتاين الجديدة تصف خواص المجال لمتصل « الفضا زمن » وقد أمكن تفسير بعض الظواهر الفلكية بالطريقة الجـديدة ولم يمكن تفسيرها بقوانين نيوتن ٠

مثال ذلك ملاحظة خاصة بمدار كـوكب المريخ الذى يدور فى شـكل القطع الناقص ولكنـه يتقـدم بمقدار ٤٣ ثانية فى الزوايا أى فى القوس كل قرن من الزمان ٠ كذلك

عطارد أقرب الكواكب الى الشمس فان له فوق دورانه حول الشمس ذبذبة بسيطة وبطيئة فسرتها رياضيات آينشتاين ولم تفسرها رياضيات نيوتن وهى الظاهرة المعروفة باسم ذبذبة عطارد ٠

ولقد كان ثانى انتصار لآينشتاين تنبؤه بظاهرة كونية جديدة لم يحلم بها عالم من قبل ، وهى تأثير وجود الأجسام فى الضوء الذى هو فى الواقع تعديل لفكرة الجاذبية ٠

لقد علمنا من النسبية الأولى أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء ، وباعتبار أن الضوء نوع من الطاقة ، أى أن للضوء كتلة ، لذلك فانه يجب أن يتأثر فى مجال الجاذبية أى بجوار الأجسام ، فينشأ عن ذلك انحراف الشعاع بجوار الكتلة ٠

وقد استطاع آينشتاين أن يستنتج من هذه الاعتبارات أن الضوء مثل أى جسم مادى ينحرف عند مروره فى مجال جاذبية جسم ذى كتلة ، واقترح لاختبار صحة نظريته ملاحظة مسار شعاع ضوئى صادر من نجم بعيد عندما يقترب الشعاع من الشمس ، ولما كانت النجوم معا فى السماء وذلك عند كسوف الشمس ، رأى أن تؤخذ صور النجوم القريبة من الوجه المظلم للشمس أثناء كسوفها ، وتقارن بصور نفس النجوم فى وقت واحد وبعد الكسوف ٠

وقد حسب آينشتاين أن درجة انحراف الشعاع ستكون ١ر٧٥ ثانية فى الزوايا من القوس ، وانتظر العلماء فى كل أنحاء العالم على لهف نتائج بعوثهم التى سافر خمسة منها الى

المناطق الاستوائية لتصوير كسوف الشمس الذى حدث فى يوم ٢٩ مايو سنة ١٩١٩ ، ووجدوا أن انحراف أشعة النجوم بلغ حوالى ١ر٦٤ ثانية فى مجال جاذبية الشمس ، وهو مقدار قريب جدا من نبوءة آينشتاين ، ويتفق فى حدود الخطأ التجريبى ، ولعل هذا أكبر انتصار شهده عالم معاصر فى حياته ٠

★★★

وهكذا أصبح آينشتاين بطل العلم ٠ وقد خصصت فى الولايات المتحدة الأمريكية جائزة قدرها ٥٠٠٠ دولار للملخص للنظرية النسبية ، لا يتجاوز حجمه ٣٠٠٠ كلمة ٠ وقد دهش آينشتاين ، وعبر عن دهشته قائلا : « اننى فى الحقيقة لا أدرى كيف أن بعض الشخصيات النادرة فى أرجاء العالم ، بعد كتابة عدد قليل من البيانات ، هم وحدهم الذين قدروا ما وصلت اليه من شهرة » ٠

وتتويجا لهذا المجد ، منح آينشتاين جائزة نوبل للسلام ، وقد بادر بتوزيع قيمة الجائزة (٤٥٠٠٠ دولار) مناصفة بين زوجته واحدى الجمعيات الخيرية ٠ ولم يتأثر آينشتاين بما أحرزه من نجاح ، واعتبر نفسه مجرد خادم متواضع للبشرية ٠ وهو فى ذلك يقول : « ان الاهتمام بالانسان وبقدره يجب أن يكون دائما فى المحل الأول بين جميع الجهود العلمية ٠٠ ان الحياة التى تكرس للآخرين ، هى وحدها الجديرة بأن تحيا » ٠

ثم واصل آينشتاين أبحاثه ، ففى عام ١٩٢٩ اصدر نظريته عن « الحقوق المتحدة » لكى يلخص بها ، عن طريق مجموعة من المعادلات ، القوانين التى تتحكم فى القوتين الرئيسيتين فى الكون ، وهما الجاذبية والكهرومغناطيسية • وقد ظل يعمل فى بحث هذا الموضوع طيلة الثلاثين سنة الأخيرة من حياته •

النتائج الفلسفية والمعلومات العامة
نتيجة نظرية النسبية

قد يهم القارىء بعد دراسة هذه النظريات العويصة التى اصطحبناه فيها محاولين التبسيط قدر المستطاع أن نذكر نتيجة تلك الأبحاث التى قام بها ذلك العالم العبقرى •

فقد أمكن لآينشتاين أن يستنتج من بعض الحقائق الفلكية ومن مجهوداته السابقة أن الكون ليس كما تصوره اقليدس ، وكما ظنه العلماء بأنه كون لا نهائى ـ انما هو كون محدود ، وقرر أن التركيب الهندسى للكون كمجموعة يجب أن يتشكل بتأثير مجموعة الأجرام المادية فيه ، فكل تركيز مادى فى الكون لابد أن يصحبه تحريف فى متصل « الفضا زمن » ، وكل جرم سماوى وكل مجرة لابد أن تخلق حولها وبين نجومها تحويرات محلية وغير منتظمة ، وكلما زاد تركيز المادة زاد انحناء الفضا زمن ، والنتيجة النهائية آن يصبح متصل الفضا زمن كله منحنيا يتبع تحويرا وانحناء ناتجا من مجموعة الأجرام المادية فى الكون التى تسبب انحناءه المتصل حول نفسه ، ويصبح الكون كله مقفلا

على نفسه ، وعلى ذلك فالكون محدود وليس كما تصوره اقليدس ، وأحسن تشبيه له ما قاله السير جينز Jeans : « انه كفقاعة الصابون التى بسطحها تجعيدات ، والكون فى هذه الحالة ليس داخل الفقاعة ، بل انه مادة السطح نفسها ، ولفقاعة الكون أربعة أبعاد ، ثلاثة منها الفضاء والبعد الرابع الزمن » .

وحيث ان انحناء الكون يمكن تقديره بالأجرام الموجودة فيه ، فان المسألة الكونية ممكن حلها بالحصول على الرقم الذى يبين متوسط كثافة المادة فى الكون ـ وقد تمكن العلماء المعاصرون ، بدراسة عينات من مساحات السماء لمدة عدة سنوات من أن يعرفوا متوسط المادة فى الكون ، وأن يقدروا أن متوسط الكثافة يبلغ واحدا على ١٠ أس ٢٨ جراما فى كل سنتيمتر مكعب من الفضاء ، وبتطبيق هذا الرقم على معادلة المجال لآينشتاين حيث قدر أن نصف قطر كرة الكون يبلغ ٣٥ بليون سنة ضوئية والبليون هو ألف مليون ، والسنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة بسرعته المعروفة وقدرها ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية ، ولو أراد القارىء أن يحسب هذا الطول فما عليه الا أن يضرب هذا الرقم فى ٦٠ لكى يحصل على المسافة التى يقطعها الضوء فى الدقيقة ، ثم فى ٦٠ ليعرف المسافة التى يقطعها الضوء فى ساعة ، ثم فى ٢٤ ثم فى ٣٦٥ يوما ليعرف المسافة التى يقطعها الضوء فى السنة ، وسيرى أن الرقم يساوى تقريبا ١٠ أس ١٣ أى ١٠ مليون المليون كيلومتر .

وقد قدر آينشتاين أن يكون لنصف قطر الكون علاقة بالجذر التربيعى لمربع الكثافة فيه ، فقد كان تقديره ٢ × ٢٠^٢٣ ميل وبحساب السنين الضوئية نجد انها قريبة من ٣٣ أو ٣٥ ألف مليون سنة ضوئية ، وبهذه الطريقة أمكن لآينشتاين ولميتر وغيرهم حساب كتلة الكون فى مجموعه بل معرفة عدد ما به من ذرات ٠

كل هذا كان خافيا على عقولنا ، ولقد قال آينشتاين : « المؤمنون هم الذين يعلمون علم اليقين ان هناك أشياء تخفى على عقلهم » ٠

ورغم أن غالبية العلماء يميلون الى تجنب كلمة « الله » عندما يشيرون الى غوامض الكون ، فان آينشتاين لم يتبع هذا الطريق ، ورغم أن البعض وصفه بالكفر ، ومع ذلك فقد قال : « ان دينى يشمل الاعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة التى تكشف فى ثناياها بعض التفصيلات القليلة التى لا تستطيع عقولنا المتواضعة ادراكها ، وهذا الايمان القلبى العميق هو الذى يدفعنى الى الاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع ادراكها خلال ذلك الكون الغامض الذى يلهمنى بفكرتى عن وجود الله ! » ٠

ويقول لينكولن بارنت فى كتابه « العالم وآينشتاين » انه يوجد الآن فى العلوم الحديثة نافذتان يطل منهما الانسان :

الأولى : المنظار الجديد فوق جبل بالومار فى كاليفورنيا الذى يبلغ قطر مرآته العاكسة ٢٠٠ بوصة ٠

الثانية : النظرية الجديدة لآينشتاين الخاصة بالمجال الموحد ٠

★ ★ ★

المـؤلف فى سـطور

- كاتب صحفى بدار الهلال منذ عـام ١٩٦٨ ٠
- عضو نقابة الصحفيين ٠
- عضو اتحاد الكتاب ٠
- كتب فى عدة مجلات أدبية واسلامية مختلفة ، منها : الهلال ـ المصور ـ الكواكب ـ حواء ـ التصوف الاسلامى ـ جريدة العالم الاسلامى ٠
- حصل على الميدالية الذهبية والشهادة التقديرية من السيدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية عن موسوعته « كتب غيرت الفـكر الانسانى » فى مهرجان القراءة للجميع ٠

مراجـــع مختـــارة

١ ـ أصول الكتب الثـلاثة عشر

٢ ـ ابن سـينا تأليف : د٠ أحمد الأهوانى

٣ ـ أفلاطون تأليف : د٠ أحمد الأهوانى

٤ ـ آينشتاين والنسـبية تأليف : بارنت ، ترجمـــة محـمد عاطف البرقوقى

٥ ـ تاريخ الانسانية تأليف : أحمد حسين

٦ ـ تاريخ العـلم ودور العلماء العرب فى تقـدمه تأليف : د٠ عبد الحليم منتصر

٧ ـ تاريخ الفكر السياسى تأليف : جان بوشار

٨ ـ الخالدون العرب تأليف : قدرى حافظ طوقان

٩ ـ دائرة معـارف الشعب دار الشعب

١٠ ـ ديكارت تأليف : د٠ نجيب بلدى

١١ ـ الطب والأطباء تأليف : د٠ محمود دياب

١٢ ـ العلوم عند العرب تأليف : قدرى طوقان

١٣ ـ الفـــكر الصـــينى من كنفوشـــيوس الى ماوتسى تونج تأليف : هـ٠ ج٠ كريل

١٤ ـ قادة الفكر الاقتصادى تـأليف : روبـرت هيـلبر ونـز ـ ترجمة د٠ راشد البراوى

١٥ ـ قصة الحضارة تأليف : ول وايريل ديورانت

١٦ ـ كارل ماركس تأليف : ايســـيابرلين ـ ترجمـــة عبد الكريم أحمد

١٧ ـ محيط العلوم تأليف : نخبة من العلماء العرب

١٨ ـ المذاهب الاقتصـادية الكبرى تأليف : جـورج سـول ـ ترجمـة د٠ راشد البراوى

١٩ ـ من أعلام الطب العربى تأليف : أبو الفتوح التوانسى

٢٠ ـ مؤلفات ابن سينا تأليف : جورج شحاتة قنواتى

٢١ ـ نظرية التطور تأليف : سلامة موسى

٢٢ ـ نفائس الفلسفة الغربية تأليف : د٠ عثمان أمين

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية
وليم بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية
و.د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجي
ج. كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية
ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د.محمد نعمان جلال،حركة عدم الانحياز في عالم متغير
اريك موريس؛ الان هو، الإرهاب
ممدوح عطية، البرنامج النووي الإسرائيلي
اررا . فوجل، المعجزة اليابانية(٢ ج)
د. السيد نصر الدين، إطلالات على الزمن الآتي
بول هاريسون، العالم الثالث غداً
مجموعة من العلماء ،مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء
و. مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر
بادي آوبيمود، أفريقيا الطريق الآخر
فانس بكارد ، إنـــهم يصنعون البشر (٢ ج)
مارتن فان كريفلد،حرب المستقبل.
الفين توفلر ، تحول السلطة (٢ ج)
ممدوح حامد عطية ، إنهم يقتلون البيئة

السيد أمين شلبي، جورج كينان
يوسف شراوة ، مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية
د. السيد عليوه ، إدارة الصراعات الدولية
د. السيد عليوه ،صنع القرار السياسي
جرج كاشمان، لماذا تنشب الحروب(٢ ج)
ايمانويل هيمان، الأصولية اليهودية

ثالثا: الاقتصاد

نورمان كلارك، الاقتصاد السياسي للعلم والتكنولوجيا
سامي عبد المعطى، التخطيط السياحي في مصر
جابر الجزار، ما ستر يخت والاقتصاد المصري
ميكائيل البى، الاقتراض الكبير
ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية الاقتصادية
فيكتور مورجان، تاريخ النقود

رابعاً: العلوم والتكنولوجيا

فيرنر هيزنبرج ، الجزء والكل محاورات في مضمار الفيزياء الذرية
فريد هويل، البذور الكونية
ويليام بيتر، الهندسة الوراثية للجميع
جوهان دورشنر، الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد
اسحق عظيموف، الشموس المتفجرة (أسرار

السوبرنوفا)

روبرت لافور، البرمجة بلغة السي باستخدام تيربوسي (٢ج)

ادوارد ايه فايجنباوم، الجيل الخامس للحاسوب

محمود سرى طه، الكمبيوتر في مجالات الحياة

مصطفى عناني، الميكروكمبيوتر

ي. رادو نسكايا جابوتنسكى، الإلكترونيات والحياة الحديثة

فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء

كاتى ثير، تربية الدواجن

محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج

لارى جونيك، الهندسة الوراثية بالكاريكاتير

جينا كولاتا، الطريق إلى دوللى

دوركاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا

اسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة

د.مصطفى محمود سليمان، الزلازل

بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة

وليليام . ماثيور، ما هي الجيولوجيا

اسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل

ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان

محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة للطاقة

بانش هوفمان، آينشتين

زافيلسكى ف. س.، الزمن وقياسه

ج. هوز، تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ج)

د.فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في الكيمياء

رولاند جاكسون، الكيمياء في خدمة الإنسان

إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهوا

ديفيد الدرتون، تربية أسماك الزينة

أندرية سكوت، جوهر الطبيعة

إيجور إكيموشكين، الإيزولوجي

إدوارد دو بونو، التفكير العملى

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء

فرانسوا دوماس،آلهة مصر

سيريل ألدريد، أخناتون

د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر

موريس بيرار، صناع الخلود

كنت . كتشن، رمسيس الثانى: فرعون المجد والانتصار

ألن شورتر، الحياة اليومية في مصر القديمة

ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر

حاك كرابس جونيور،كتابة التاريخ في مصر

نفتالى لويس، مصر الروماني

عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥-١٩٧٣)

د. السيد أبو سديرة، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية

أ. أ. س. ادواردز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية في وادى النيل

كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية

بيل شول وأدبنيت، القوة النفسية للأهرام

جيمس هنري برستد، تاريخ مصر

د. بيارد دودج، الأزهر في ألف عام

أ. سبنسر، الموتى وعالمهم في مصر القديمة

ألفريد ج. بتلر ، الكنائس القبطية القديمة في

مصر (ج٢)

روز اليندم؛ الطفل المصري القديم

ج. و. بكفرسون، الموالد في مصر

جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتييه، حتشبسوت

مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر

أولج فولكوف، القاهرة مدينة الألف ليلة وليلة

د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم

ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة

لورد كرومر، الثورة العرابية

إيفان كونج، السحر والسحرة

سادساً: الكلاسكيات

جاليليو جاليليه ، حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)

وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)

أبو الفتح الفردوسي ، الشاهنامة (٢ج)

أدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

ناصر خسرو علوي، سفر نامة

فيليب عطية، ترانيم زرادشت

سابعاً: الفن التشكيلي والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نفسي ومنطق

ألويز جرايتر، موتسارت

شوكت الربيعي، الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي

ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير

د.غيريان وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي

روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن

مارتن جك، يوهان سبستيان باخ

ميخائيل ستيحيمان، فيفالدى

هيربرت ريد، التربية عن طريق الفن

أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف

حسام الدين زكريا، انطون بروكنر

جيمس جيتز، العلم والموسيقى

هوجولا يخنتريت، الموسيقى والحضارة

محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع الأوركسترالي

صالح رضا، ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

أدموندو سوليمي، ليوناردو

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضاري للإنسان

س. م. بورا، التجربة اليونانية

جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام

. د. جرن، الحيثيون

ل.ديلابورت، بلاد ما بين النهرين

ج.كونتنو، الحضارة الفينيقية

آدم متز، الحضارة الإسلامية

جوزيف يند هام، تاريخ العلم والحضارة في الصين

ستيفن رينسيمان، الحضارة البيزنطية

سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية

تاسعاً: التاريخ

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى
هنري بيرين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى
أرنولد توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق
بول كولز، العثمانيون في أوربا
جوناثان ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية
د.بركات أحمد، محمد واليهود
ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (٣ج) و.
بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى،
فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوربا الشرقية
البرت حوران، تاريخ الشعوب العربية (٢ج)
نويل مالكوم، البوسنة
جارى ب . ناش، الحمر والبيض والسود
أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون (٢ج)
آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم
ناهاى متسيو، الثورة الإصلاحية في اليابان
محمد فؤاد كوبريلى، قيام الدولة العثمانية
د. إبرار كريم الله، من هـــم التتار
ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية
لبان .ويد جري، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)
جوسيى دي لونا، موسوليني
جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية
هـــ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)
يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى
هـــ ج ويلز، موجز تاريخ العالم

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت.و. فريمان. الجغرافيا في مائة عام
ليستر ديل راى، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
اميليا ادواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س , هوارد، أشهر الرحلات في غرب أفريقيا
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات في جنوب أفريقيا

حادي عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر(٣ج)
سوندراى، الفلسفة الجوهرية
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الغريب
سدني هوك، التراث الغامض:ماركس والماركسيون
إيفري شاتزمان، كوننا المتمدد
ادوارد دوبونو، التفكير المتجدد
رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة
-توماس هاريس التوافق النفسي: تحليل المعاملات
د. أنور عبد الملك، الشارع المصري والفكر
نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد
أنطوني دي كرسبي، أعلام الفلسفة المعاصرة
جين وروبرت هاندلى، كيف تتخلصين من القلق؟
هـــ ج. كريل، الفكر الصيني
أوجست ديس، أفلاطون
د. السيد نصر الدين، الحقيقة الرمادية

برتراند راصل، السلطة والفرد

مارجريت روز، ما بعد الحداثة

كارل بوبر، بحثا عن عالم افضل

ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة

جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال

إريك برن، الطب النفسي والتحليل النفسي

بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ ج)

فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربي الحديث (٤ ج)

هنري برجسون، الضحك

أرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية

يعقوب فام، البراجماتية

ثاني عشر: العلوم الاجتماعية

د.محيي الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية وأبناء الصغار

م. و ترنج، ضمير المهندس

رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع

روى روبرتسون، الهيروين والإيدز

بيتر لوري، المخدرات حقائق نفسية

ليوبو سكاليا، الحسب

برنسلاو مالينوفسكي، السحر والعلم والدين

بيتر رداي، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

بيل جيرهارت، تعليم المعوقين

ارنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة

رونالد د. سمبسون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس ، المرشد إلى فن المسرح

برونو ياشينسكى ، حفلة مانيكان

جلال العشري ، فكرة المسرح

جان بول سارتر ؛ جورج برناردشو؛ جان أنوى

مختارات من المسرح العالمي

د.عبد المعطى شعراوي ، المسرح المصري المعاصر: أصلة وبدايته

توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم

زيجمونت هيبز، جماليات فن الإخراج

يوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ ج)

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء

د.جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة

د.ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب

م. هـ. كنج، التغذية في البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص اخرى

ألدس هكسلى، نقطة مقابل نقطة

جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية

أنور المعداوي، على محمود طه: الشاعر والإنسان

جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصي

تاجور شين بن بنج وآخرون، مختارات من الآداب الآسيوية

محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية

مختارات من الشعر الأسباني: في

جابرييل جارسيا ماركيز، الجنرال في المتاهة

سوريال عبد الملك، حديث النهر

د.رمسيس عوض، الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية وبعدها

مختارات من الأدب الياباني:الشعر – الدراما الحكاية القصة القصيرة

ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر

نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى

رالف ئى ماتلو، تولستوي

والتر ألن، الرواية الإنجليزية

هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال

مالكوم برادبرى، الرواية اليوم

لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة

إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية

ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (٢ ج)

جورج ستاينر، بين تولستوي ودستويفسكي (٢ ج)

ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية

فيكتور برومبير، ستندال

فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى

يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية

د.نعمة رحيم العزاوي، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً

ف.برميلوف، دستويفسكي

لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل البليوجرافيا

محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية : مقال في النوع الأدبي

هنري باربوس، الجحيم

ميجل دي ليبس، الفئران

روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي

يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)

إفور ايفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي

فخري أبو السعود، في الأدب المقارن

سليمان مظهر، أساطير من الشرق

صفاء خلوصي، فن الترجمة

ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوي

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجين، الإعلام التطبيقي

بيير البير، الصحافة

هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومي في السينما

ج.دادلى، نظريات الفيلم الكبرى

روى آرمز ، لغة الصورة في السينما المعاصرة

هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)

جان لويس بورى وآخرون ، في النقد السينمائي الفرنسي

محمود سامى عطا الله ، الفيلم التسجيلي

ستانلى جيه سولومون ، أنواع الفيلم الأمريكي

جوزيف وهارى فيلدمان، دينامية الفيلم

قدري حفني، الإنسان المصري على الشاشة

مون براح، السينما العربية من الخليج إلى المحيط

حسين حلمي المهندس، دراما الشاشة :بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)

إدوارد يري، عن النقد السينمائي الأمريكي

جوزيف م. بوجز ، فن الفرجة على الأفلام

سعيد شيمي، التصوير السينمائي تحت الماء

دوايت سوين ، كتابة السيناريو للسينما

هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة

بوجين فال، فن كتابة السيناريو

دانيل اريخون، قواعد اللغة السينمائية

كريستيان ماليه ، السيناريو في السينما الفرنسية

ـ آلان كاسبيار، التذوق السينمائى

توني بار، التمثيل للسينما والتلفزيون

بيتر نيكولز، السينما الخيالية

بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكي

دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية

ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكري الإنساني في صورة عروض موجزة لأهم الكتب التي ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيها وقد صدر منها ٩ أجزاء.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٩١٧٤

ISBN — 977 — 01 — 6909 — 7

الألف كتاب
الثاني
١٢٤

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الثاني

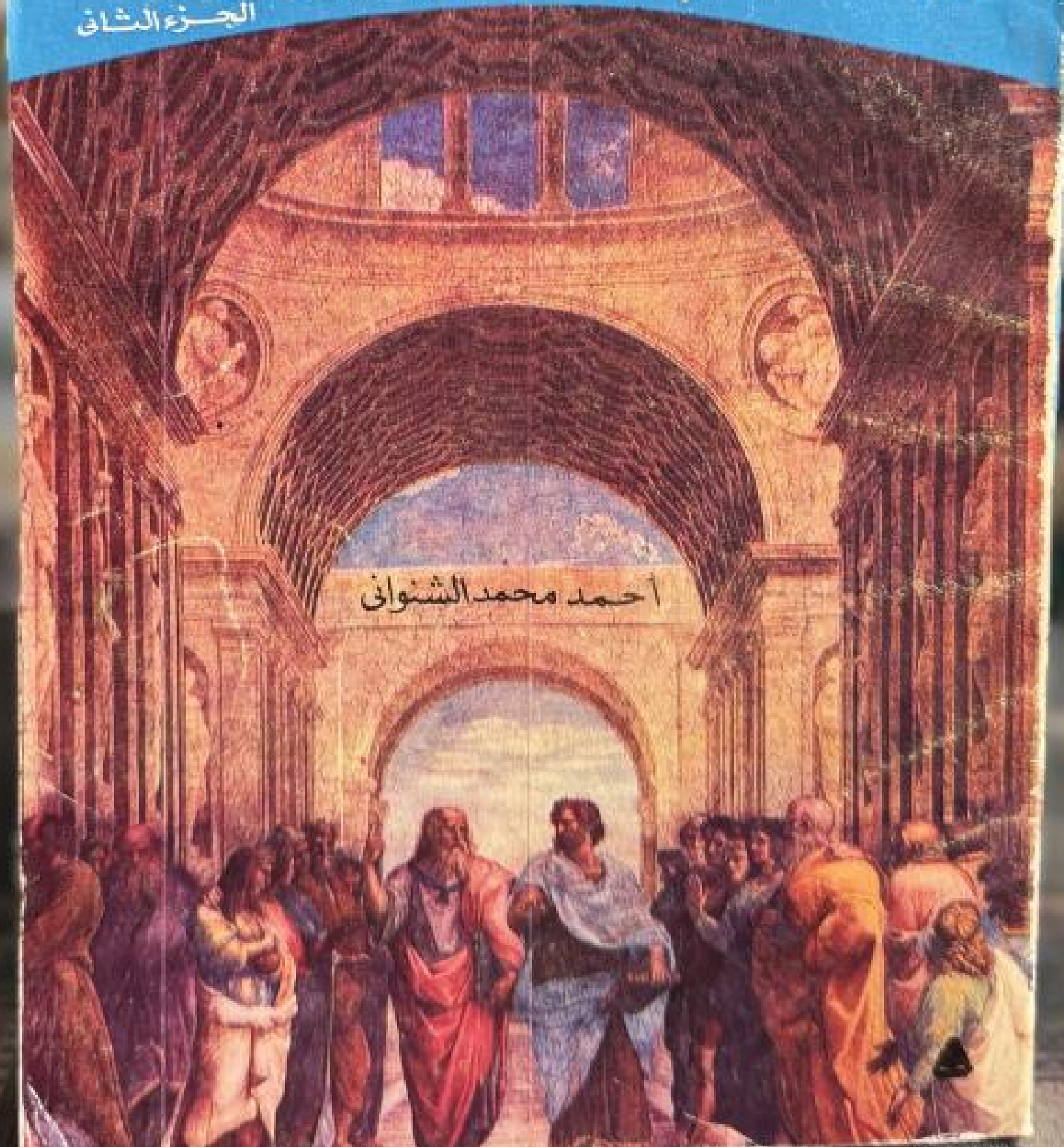

أحمد محمد الشنواني

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء الثاني
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Two
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1993
الناشر	دون ناشر
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	-977 -01 3420 1-
المستخلص	يتناول الجزء الثاني من كتاب " كتب غيرت الفكر الانسانى " استعراض لمجموعة من الكتب الرائدة والتى اثرت تاثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر العصور والغرض من هذه الموسوعة تاكيد الدور الخطير للكتاب فى تغيير مجرى الاحداث تغييرا كليا وذلك عن طريق مناقشة امثلة معينة والهدف هنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها اعظم الاثر واعمقه على الفكر الانسانى منذ اقدم العصور الى يومنا هذا . ومن ابرز الكتب التي تضمنها هذا الجزء (التاريخ الجامع لهيردوت - فن الشعر لارسطو - الرباعيات لعمر الخيام - العقد الاجتماعى لجان جاك روسو - فلسفة التاريخ لهيجل) .
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022104-001*

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الثاني

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

المقدمة

لعل التاريخ ، ذلك البحر الهائل الزاخر بالأحداث والأبطال ، وبالحقائق ، وبكل أسرار قصة الحضارة الانسانية ، هو أكثر الموارد اثارة وجاذبية للقارىء العادى ، وللدارس المتخصص على السواء • فقراءة التاريخ متعة للعقل وللخيال معا • فهو خلاصة بحوث ودراسات ورؤى وأفكار عكف عليها آلاف المؤرخين طوال التاريخ ليرووا لنا قصة الحياة : كيف كان وجود الانسان ، وكيف أصبح ، وكيف سار في طريقه الطويل عبر آلاف السنين •

ويختلف أسلوب الباحثين فى تفسيرهم لمادة التاريخ• فمنهم من يقدمونه من خلال الأحداث الهامة البارزة والمؤثرة فيه ، والتى تمثل علامات المرور التى تحدد للتاريخ مساره وطريقه • ومنهم من يقدمونه من خلال أبطال التاريخ وأعلامه الذين كان لهم بما قدموا للانسانية من كشف أو علم أو فكر • وهل يصنع أحداث التاريخ الا الانسان نفسه ومن خلال فكره •

ومن حيث الفكر ، فهو الذى يقود العالم ، انه القوة الحقيقية التى تقرر مصائر الشعوب والأمم وتحدد لها أهدافها ، فليس من شىء أغلى من الطاقة الفكرية فى الأمة ، ولا أعظم من نفحات العقل وهمسات القريحة ووثبات الرأى • وان أهم ما يصبو اليه الظالمون والطغاة وأعداء الانسانية هو ابادة أصحاب القرائح والعبقريات، لأنها تزيل من طريقهم قوى الفكر التى تخيفهم •

ولأن الأفكار تتمتع بقوة ذاتية هائلة لا حدود لها فانها لا تخنقها المقاومة ولا ترديها الخصومة • بل انها

لتستكين تحت الضغط زمنا ثم لا تلبث أن تنفجر • انها تفعل فعلها ببطء دائما ـ صديقة كانت أم عدوة ـ ولئن عارضها فريق وحمل عليها آخر ، فان هذا لا يحول دون تاثيرها فى أصدقائها وفى أعدائها ، بل وفى أشد الناس هجوما عليها ، وهنا مصدر قوتها •

كما أن الأفكار ـ على مدى التاريخ ـ لا تعترف بالحدود والسدود ، بل تتعداها لانها بطبيعتها عالمية جامعة • فهى لا تحبس داخل الحدود الجغرافية والسياسية ، ولا تختص بها أمة دون أخرى ، وانما هى تنتشر وتستمر فتفرض سلطانها على بنى الانسان بقدر ما بها من طاقة وحيوية ، لا سيما فى هذا العصر الذى أصبحت حياة الانسان فيه عالمية الى أبعد الحدود بفضل العلم وتشابك المصالح بين جميع الأسر البشرية • فلقد مضى عهد العزلة واشتدت الحاجة فى كل أمة الى أن تدير البصر حولها لتعلم من أين تجيئها التيارات التى تؤثر فيها ، وكيف تغزو الأفكار والآراء والعقائد وكيف تنتشر •

وما من اصلاح تم أو تقدم حصل ، وما من نهضة تحققت أو رسالة انتشرت ، الا وبدأت خاطرة راودت الأذهان ، أو أملا جاش فى الصدور ، أو مثلا أعلى توجهت اليه الهمم وتعلقت به النفوس ـ أى بدأت فكرة تغذى بها صاحبها أولا ، ثم أصبحت غذاء للآخرين ، ومركزا للاشعاع منه ينطلق التاريخ ، وذلك ينطبق بالطبع على !ثار صاحب الفكرة من كتب ومؤلفات ، لأنها شعلة منه وجزء من كيانه ، فيها جوهر وجوده • وأنت تحس حين تقرأها بنفحة من نفحاته • فليت شعرى الام يصير العالم لو أطاح الزمان بمكتباته ؟ يخيل الى أن الانسانية لو حرمت من مكتباتها لحرمت من وسائل حياتها ، ومبرر وجودها ، فكل مكتبة انما هى مجموعة من وسائل ومناهج وأسباب للحياة •

أما دخلت الى عالم الكتب ففكرت فى هذه العصارات من الحكمة المعتقة استقطرها أصحابها من خير ما فى قلوبهم وعقولهم ، ورصدوها شرابا سائغا حسبه للقاصدين المرتوين ؟ وبماذا تكرم الحياة ان لم تكرم بفكرة ، وبماذا تنتقل الفكرة من جيل الى جيل ان لم تنتقل بكتاب ؟

وبعـد ·· فهذا الجزء الثانى من كتابنا « كتب غيرت الفكر الانسانى » والذى جمعت فيـه من الكتب الهامة على مدى تاريخ الفكر البشرى والتى كان لها أكبر الأثر فى تغيير فهم الانسان لنفسه وللمجتمع الانسانى من حوله ·

ان الكتاب ـ بجزءيه ـ هو خلاصة قراءات قضيتها بين الكتب ·· وهى ليست كتبا عربية فحسب ، بل وكتب غربية أيضا ، لفت نظرى اليها ، ما فيها من فكر وعمق وتجربة وخبرة ·

لذلك رأيت أن أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجدت ·

والله أسـأل أن ينفع به ، ويجعله خالصا لوجهه فانه نعم المولى ونعم النصير ·

المـؤلف

التـــاريـــخ الجـــامع

هيرودوت

٤٢٧ ق . م

التاريخ فرع من فروع المعرفة التى كثر فيها اختلاف الآراء ، وتعارض النظريات والأحكام ، ولا يزال موضوعه محفوفا بالغموض برغم تكاثر الفلسفات التاريخية . والتفسيرات المنوعة ، ولا تزال هناك صعاب قائمة فى تحديد مكانته ، واستقصاء معالمه ، والماضى ليس له وجود الا فى الصورة التى يصورها لنا خيالنا ، أى فى الصورة التى يعيد العقل خلقها ، ولعل هذا هو الذى حدا الفيلسوف الايطالى بنديتو كروتشه على أن يقول كلمته المشهورة وهى « ان كل تاريخ تاريخ معاصر » .

وكانت الأساطير والخرافات غالبة على التاريخ فى أول أمره ، لأن الأسطورة أو الخرافة تشغل بال الرجل البدائى أكثر مما تعنيه الحقيقة الواقعية ، والخيال والتوهم أشد استيلاء على نفسه من الرؤية العقلية والمشاهد الحسية ، وليس من الأمور السهلة رؤية الحقائق التاريخية كما هى فى الواقع ، والقدرة على ذلك ليست من الهبات التى تجود بها علينا الطبيعة فى يسر ، وانما هى ثمرة من ثمرات الثقافة العالية ، ولم يصل اليها شعب من الشعوب الا بعد أن وصل الى مستوى رفيع من النضوج الفكرى ، وقد لوحظ فى حياة الأمم وتاريخ الأدب ان الشعر كان على الدوام أسبق من النثر ، وليس ذلك بالمستغرب ، لأن الشعر عماده الأخيلة والأحاسيس ، والنثر أكثر اعتماده على الفكر والمنطق ، ولذلك كان الشعر القريب من الانشاء التاريخى رائجا وشائعا عند معظم الأمم القديمة قبل أن يكون لها تاريخ ، فالهند تفخر بالرمايانا والمهابهاراتا وظهرت عند اليونان الياذة هوميروس والأوديسا قبل أن تعرف الأدب التاريخى ، وقد تكرر ذلك فى تاريخ أوربا فظهر الشاعر دانتى فى مطالع عصر الأحياء قبل ظهور المؤرخين جويكشياردينى وماكيافيلى ، وأظهر شكسبير براعة فائقة فى تصوير الشخصيات لم يستطع الاقتراب من مساماتها المؤرخون الانجليز الا بعد مضى فترة من الزمن .

فن كتابة التاريخ

وقد بلغت بعض الأمم القديمة مستوى حضاريا عاليا، ولكنها مع ذلك لم توفق فى اجادة فن كتابة التاريخ ، وقد كانت كتابة التاريخ عند قدماء المصريين والآشوريين مقصورة على سلاسل أنساب الملوك والأسر الحاكمة ، ومدونات عن الغزوات الحربية والحملات الظافرة ، والمعاهدات والأحداث الهامة والمغامرات ، وحوليات البلاط ومدائح الملوك ، والواقع ان ملابسات الظروف والأحوال التى ساعدت على توجيه العناية فى كتابة التاريخ على هذا النمط كانت هى نفسها التى تحول دون تقدم الكتابة التاريخية ، وارتفاع مستواها ، وذلك لأن ازدهار الكتابة التاريخية يستلزم وجود قومية قائمة فى ظلال الحرية والمساواة ، ولم يكن هذا متوفرا فى كثير من الأمم القديمة ، ولذلك جاء التاريخ الذى دون فى أكثر تلك الأمم الخالية سطحيا ضيق المجال ، لانه كان يكتفى بسرد أخبار أفراد الطبقة الحاكمة والأحداث العامة ، منفصلة عن بيان أسبابها وعللها .

ولم يصبح التاريخ فنا مستقلا قائما بذاته لاشباع غريزة حب الاستطلاع عند الانسان وحرصه على معرفة ما صنعه اخوانه البشر الا عند اليونانيين ، فقد سعوا الى تمجيد أبطال لم يكونوا آلهة ولا ملوكا بل ممثلين للشعب بمعنى أوسع وأعم . وهكذا انصرفت الالياذة الى رواية الأعمال الجليلة التى قام بها أخيل وأجاكس وهكتور أكثر من انصرافها الى رواية أعمال الملكين الغريمين مينيلاوس وبريام . وقد كانت أعمال كل هؤلاء الأبطال تنسب قديما الى الملك . على أن الحال تغيرت عندئذ فأصبح من حق الفرد الذى يقل عن الملوك مرتبة أن تروى أنباؤه ... زد على ذلك أن الدولة نفسها قد غدا تاريخها يروى مستقلا عن تاريخ حاكم معين من حكامها . والحق أن تواريخ هيرودوت واكسينوفون وتوسيديدس وبوليبيوس تسعى فى الواقع الى تمجيد الشعوب لا الى تمجيد الأشخاص .

وهذا التحول من النظرة الانانية الصرف الى النظرة التى تؤثر الغير ، يعد خطوة كبيرة فى هذا السبيل . فقد أصبح الكاتب وقتذاك يعنى عناية واضحة بتسلية القارىء دون أن يلقى الرهبة فى قلبه ، ويفكر فى تثقيف الجماهير فى الأمور الخاصة بالمواطن الصالح والسلوك الحميد فى المجتمع أكثر من تفكيره فى احترام الملوك والآلهة ، والمؤرخ اذ يفعل هذا يبين تقدم الحضارة فى العهد اليونانى والعهد الرومانى الأول .

وكان أول تاريخ حقيقى يكتب باليونانية هو ما كتبه « هيكاتيوس

الميليتى » (١) الذى نبه شأنه حوالى سنة ٥٠٠ ق٠م ، وقد صرح فى كتابه قائلا : « ان ما أكتبه هنا هو البيان الذى أعده حقا ، لان الروايات اليونانية متعددة وفى رأيى انها تدعو الى السخرية » ويبدو أن كتابه كانت تغلب عليه صفة الجغرافيا ، ولكنه احتوى مع ذلك على الكثير مما يدخل فى التاريخ ، وقد تناول موضوعه من جهة نظر انتقادية عقلانية ولم يحجم عن تجريح الأساطير الشائعة وحاول أن يذكر عن عصره مايراه حقا ٠ وآثر أن يجعل هدف التاريخ ذكر الحقائق لا التسلية والترفيه ٠

ولم يمض ربع قرن على ازدهار هيكاتيوس حتى ظهر هيرودوت الملقب « بأبى التاريخ » ٠

هيرودوت ابو التاريخ

ويعد هيرودوت أول مفكر كرس خبرته وتجاربه للمعرفة الانسانية ، واول مؤرخ علمى حاول أن يخلق من القصص والأقاويل المتناقلة سلسلة متصلة من الأحداث تربط أسبابها بنتائجها ٠ وهيرودوت يونانى جنسا ولغة ، فقد ولد عام ٤٨٤ ق ٠ م ببلدة هاليكارناسوس احدى مدن كاريا (التى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى) ، احدى مستعمرات الدوريين (٢) ، لكنها كانت أكثر تأثرا بالثقافة التى ازدهرت فى المدن الأيونية المجاورة ٠ وفى القرن الخامس ، كان سكان كاريا الذين يتكلمون اليونانية ، ينطقون باللهجة الأيونية ٠ وفى طفوله هيرودوت كانت كاريا اقطاعية للامبراطورية الفارسية ٠ وقد اضطر هيرودوت ، وهو مايزال حدثا، الى مغادرة وطنه ، بسبب الاضطرابات السياسية ٠ وقضى فترة من الزمن فى ساموس ، ثم أمعن فى الترحال ، وزار أثينا ، حيث تعرف الى بركليس وسوفوكليس ، وقضى باقى حياته فى تورى (أسست سنة ٤٤٣ ق٠م)، حيث توفى فى بداية الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق ٠ م) أى حول سنة ٤٢٦ ق ٠ م ٠ وقد كان يدعى فى الزمن القديم (حتى القرن الثالث من هذا العصر) ٠ بهيرودوت التورى ٠

وقد قام برحلات واسعة ، فزار مصر ، وأبحر فى النيل حتى بلغ أسوان ولعله ذهب الى برقة أيضا ٠ ومر بغزة وصور ، وأبحر فى الفرات حتى بلغ بابل ، وتعرف الى المنطقة الشمالية من بحر ايجة ، حتى مدينة طاسوس ٠ وأهم ما فى رحلته ، انه زار سكيتيا التى تقع على شمال البحر الأسود ، ولابد من أن يكون قضى بعض الوقت فى أولبيا قرب مصب الهيبانس وفى مكان يبعد عن المصب قليلا فى مجرى النهر ٠

وقد أطلق عليه شيشرون (٣) لقب « أبو التاريخ » ٠ ٠ وعلق به هذا اللقب المشرف منذ ذلك الحين ، وهو فى الحقيقة أهل له ٠ واذ صرفنا النظر عن المؤرخين العبرانيين ، كمؤلف كتب صموئيل (فى القرن السابع قبل الميلاد) فلابد لنا من أن نذكر أنه كان فى بلاد اليونان عدد من مدونى الحوليات التاريخية ٠ أمثال هيكاثيوس ٠ كما أنه كان هناك غيره من مدونى الحوليات ولكن هيرودوت كان أول من وضع كتابا محكم الأسلوب ، سهل القراءة ، والحقيقة انه ألف أول قطعة رائعة فى النثر اليونانى ٠

★★★

ولنبحث الآن فى هذا الأثر العظيم ٠

انه وصف لبلاد اليونان ومصر وآسيا الصغرى ، فى ماضيها وحاضرها ، والغاية التى رمى اليها هى وصف ذلك الصراع العظيم الذى احتدم بين آسيا واليونان ، منذ زمن كروسوس (ملك ليديا من سنة ٥٦٠ ـ ٥٤٦ ق٠م) حتى زمن كسركسيس ونهاية الحروب الفارسية ، أو بعبارة أدق ، حتى الاستيلاء على سستون (٤٧٩ ـ ٤٧٨) ٠ وكان هيرودوت عندما يشير الى مصنفه هذا لا يذكر أى كتاب ، بل يدعوه بالتاريخ٠

ويظهر لنا غرضه بوضوح فيما قاله فى الفقرة الأولى منه :

« الذى تعلمه هيرودوت الهاليكارناسى عن طريق البحث ، تجده هنا ماثلا بين يديك ، وذلك حتى لا تنطمس ذكرى الماضى فى أذهان الرجال على مر الأيام ٠ وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التى اضطلع بها اليونانيون والأجانب ـ وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم ـ الى من يظهرها للملأ » ٠

وهذه الفذلكة البسيطة ، لها تأثيرها ودلالتها فى آن واحد ٠ فقد كانت غايته أن يسجل للاجيال التالية تلك الأعمال العظيمة التى قام بها اليونانيون والبرابرة (الأجانب) أيضا ٠

وهذا أمر يسترعى الانتباه ، لأن بعض هؤلاء الأجانب ، الذين يشير اليهم كانوا الى مدة قريبة ، أعداء لليونانيين فى حرب ضروس أوشكت على نهايتها فى ذلك الوقت،الذى كان فيه هيرودوت عاكفا على كتابة تاريخه٠ فما الذى حدث له ؟ هل كان يفتقر الى الشعور الوطنى ؟ لقد كان رجلا متمدنا ، حاول أن يفهم بأمانة ولطف أنباء الأمم الأخرى ، ويجب أن نضيف الى ذلك ان تلك النظرة العالمية كانت أكثر ملاءمة له ، منها لرجل ينتمى الى طيبة أو أثينا ٠ لانه كان ينتسب الى كاريا التى مصرها الدوريون ولكنها كانت خاضعة لمؤثرات أيونية وفارسية ، وهكذا كانت شبه شرقية ٠

وقد كتب بلوتارك (النصف الثانى من القرن الاول ، كتاب [illegible] « تحيز هيرودوت » (De malignitate Herodotis) اتهم فيه أبا التاريخ بأنه ميال الى البرابرة « الأجانب » ، واتهمه بأنه مجحف · وذلك لانه لم يكن متحاملا · وهو بهذا يذكرنا ببعض المتعصبين فى أيامنا هذه ، الذين يرتابوت فى كل انسان لا يكون متبجحا فى شعوره الوطنى مثلهم · ولنلحق هذه المعجزة أيضا ، بسلسلة المعجزات اليونانية ، وهى أن أول مصنف يونانى فى التاريخ كتبه رجل شهد بأم عينه كثيرا من وقائع تلك الحرب الرهيبة التى دارت رحاها بين فارس واليونان ، ومع ذلك كله استطاع أن يتحدث عنها بسماحة وانصاف دون أن يطوى نفسه على ضغينة عنصرية · وبعد أن نوهنا بهذه الفضيلة الأساسية التى تكشف عنها عقل هيرودوت · ننتقل الى تأمل غايته ومنهجه بعناية أكبر ·

وسنتحدث أولا حديثا موجزا عن مصادره · والمصدر الأول دون ريب هو تلك المعلومات التى جمعها من رحلاته فى القارات الثلاث · وقد كان ناقدا ممحصا الى الغاية التى يتيحها عصر كعصره · فلم نكن نتوقع مثلا أن ينكر الكهانة وأن يبين ان اعتقادا كهذا لا يمكن أن يتم الا بشروط خاصة · ولم تكن النبوءات فى نظره مقبولة بقيمتها الظاهرة ، فالانسان يستطيع ان يتعرف الى عدد منها وان يختار من بينها ما شاء له الاختيار · والتكهن اذن ، كما هو الآن ، ليس الا نوعا من التفكير بصوت عال أو من تبادل الآراء · وكان هيرودوت فى أغلب الأحيان يعبر عن شكه ، أو يحتاط لنفسه ببعض الملاحظات كقوله : « أنا أقص القصة كما رويت لى » وكان فى بعض الأحيان يورد عدة روايات ويتركها للقارىء ليميز خبيثها من طيبها، وكان بارعا فى رواية القصص ، وقد قيل انه كان يرتزق بذه الوسيلة ، وان كنا لا نجد ما يثبت ذلك ، ولكننا بعد لا نعرف المورد الذى كان يأتيه منه الرزق ، ولعله كان تاجرا ، ولا شك ان التجارة كانت تلذ له ، كما كانت تلذ لأكثر اليونانيين · وكتابه يزخر بالحوادث والحكايات القصيرة التى يمكن أن تنحى منه جانبا ، كما انه يغص بالاستطرادات الممتعة التى كان يحب ايرادها على طريقة المحدثين البارعين · ولا يستبعد أن يكون قد قلب بعض الوثائق ورأى بعض النقوش ولكنه اعتمد على السماع فى المقام الأول ، وكان بارعا فى المقارنة بين الشهود وتمحيص أخبارهم · وهو يتيح لنا رؤية هؤلاء الشهود ، وسماع أقوالهم بعينها ، الا أنه بعد ذلك كله يدلى بخواطره وآرائه التى غالبا ما تكون رقيقة دمثة تنبع من عقل ذكى وتفيض من فكر صائب ·

ومصنفه يعتبر ذخيرة من الأساطير اليونانية والشرقية ، وهو يقارن فى هذا الشأن بكتب الرحالة العظام أمثال ماركو بولو (النصف الثانى

من القرن الثالث عشر) وابن بطوطة (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) ٠

وقد كان هيرودوت من أعلام النثر اليونانى المرسل وكان أول مؤلف حمل اليونانيين على أن يعتقدوا أن النثر قد يحوى من الجمال والاثارة ما يحويه الشعر ٠ وقد لاحظ ذلك أيضا ، رجل آخر من هاليكارناس هو ديونيسيوس (النصف الثانى من القرن الأول) ٠

* * *

تلخيص موجز للكتاب

يتألف تاريخ هيرودوت الجامع من تسعة كتب يحمل كل منها اسما من أسماء ربات الشعر والموسيقى وينقسم الى عدة فقرات مرقمة ، ويمكننا أن نقسمه الى جزءين : الجزء الأول من الكتاب الأول حتى الكتاب الخامس وفيه يتتبع هيرودوت خطى توسع امبراطورية الفرس وسيطرتها على بلدان الشرق القديم مما يدفعه الى التحدث عن تاريخ تلك البلدان · والجزء الثانى من الكتاب الخامس عندما بدأت ثورة ايونيا عام ٥٠٠ ق · م حتى آخر الكتاب التاسع والأخير ، وفيه يسرد علينا هيرودوت الأحداث التى سادت دويلات اليونان والمعارك والمباحثات والتوتر الذىأصاب كل من الفرس واليونان · وبهذا فالجزء الأول يسمى « تاريخ فارس » والجزء الثانى « تاريخ الحروب الفارسية » ·

الكتاب الأول

وعنوانه « كليو »

ويسرد فيه هيرودوت الفقرات الست الأولى الأساطير التى تفسر سبب التصادم بين الفرس واليونان ثم يرفضها كلها بوصفها غير تاريخيـة ، ويسترسل ليضع يده على السبب التاريخى الفعلى ألا وهو «كريوسوس» اليونانى ملك « ليديا » بساحل آسيا الصغرى · فقد كان هذا الرجل أول من زج باليونان فى هذا الصراع · ولكى يوضح الموقف للقارىء يسرد هيرودوت تاريخ مملكة « ليـديا » هـذه اذ يرجع بنـا الى أقدم ما أمكنه الحصول عليه من حقائق عن أجداد « كريوسوس » ملوك « ليديا » · فقد أخذ هؤلاء الملوك يوسعون من رقعة نفوذهم حتى أصبح كل يونان آسيا الصغرى خاضعين لنفوذ ليديا · ولما تربع كريوسوس على العرش كان أغنى رجل فى العالم لوفرة موارده وكثرة ممتلكاته · غير انه يتمادى فى افترائه حتى تصله أنباء الفرس · فقد أطاح « قورش » الفارسى بملك

الميديين وتربع على العرش لتزداد قوته يوما بعد يوم · فخشى « كريوس » أن تمتد أطماع قورش الى أملاكه وقرر القضاء عليه فذهب يسعى للتحالف مع الدويلات اليونانية القوية ، وهى أثينا الايونية واسبرطة الدورية · وهنا يمسك هيرودوت بطرف الخيط لينقلنا الى حقل التاريخ اليونانى فهو يظهر لنا الفارق ما بين الايونى والدورى ، ثم يشرح الأوضاع التى كانت عليها كل من أثينا واسبرطة فى ذلك الوقت اذ كانت أثينا فى قبضة حاكمها الطاغية بيستراتوس بينما كانت اسبرطة قد خرجت لتوها ظافرة من حرب مع جارتها « تيجيا » · وقد نجح « كريوسوس » فى التحالف مع اسبرطة ، ثم نعود الى « ليديا » لنرى ما فعله ، فقد جمع جيشه وشن حملة عنيفة على منطقة « كبادوكيا » الخاضعة للفرس آملا أن يلتقى بقورش ويسحقه هناك · ويحدد لنا هيرودوت الأسباب الحقيقية التى دفعت كريوسوس الى شن هجومه على « كبادوكيا » فقد أراد أن يوسع من رقعة نفوذه · كما ابتغى القضاء على قورش لأن الملك الميدى الذى خلعه كان زوج أخت كريوسوس ، وما أن دخل كريوسوس أرض كبادوكيا حتى استعبد أهلها الأبرياء وحطم منازلهم وخرب حقولهم · وسرعان ما علم قورش بالأمر ، فأسرع يقود جيشه الى « كبادوكيا » حيث التحم الجيشان بلا جدوى · فعاد كريوسوس الى عاصمته « أردريس » ليدعم قواته · غير أن قورش باغته وهاجمه فى « ساردييس » مما أربك كريوسوس واحل ليديا ، وسقطت « ساردييس » وخضعت ليديا للفرس · ولم يتمكن الاسبرطيون من ارسال العون لكريوسوس لضيق الوقت ، بينما سقط هو أسيرا فى قبضة قورش · ولكن أبقى قورش على حياته بعد أن حاول حرقه فأمطرت السماء وانطفأت النيران · وهكذا أحل الفرس بساحل آسيا الصغرى اليونانى · وفى ذيل هذا السرد يذكر هيرودوت عادات أهل ليديا وطباعهم · ولكن من هو قورش ومن هم الفرس ؟ ·

يسأل هيرودوت هذا السؤال لينقلنا ببراعة فائقة الى ميدان التاريخ الفارسى ، فقد أقام الأشوريون امبراطورية واسعة دامت طوال خمسمائة عام الى أن ثار الميديون على سيطرة أشور وحصلوا على حريتهم ، فثارت الشعوب الأخرى الخاضعة لأشور ، وما أن حصلت على حريتها حتى سقطت تحت نفوذ الميديين فآلت امبراطورية أشور الى الميديين الذين أوسعوا منها وفرضوا سلطاتهم على الفرس · وتزوجت ابنة ملك الميديين من أحد نبلاء الفرس ، ولكن يرى أبوها الملك حلما يحذره من الطفل الذى ستلده ابنته، ولما ولد قورش حاول جده الملك التخلص منه ، غير انه أفلت من المكائد وشب عوده وأصبح مرموقا بين الفرس بنى جنسه الذى علقوا عليه آمالهم · وبالفعل قاد قورش ثورة الفرس ضد جده ملك الميدين وخلعه ليتربع على العرش · وآلت امبراطورية الميديين الى الفرس ·

الكتاب الثانى

وعنوانه « أيوتربى »

يعد هذا الكتاب أقدم مؤلف تنفرد به مصر · فقد كانت حضارتها حتى فى زمن هيرودوت حضارة عريقة ضاربة في القدم · وقد كتبه هيرودوت بعد أن قام بزيارة مصر مرتين (عام ٤٦٠ ، ٤٤٧ ق · م) لذا جاءنا كتابه هذا خلاصة صادقة لمشاهدات مفكر يتمتع بعين ثاقبة ·

ولما كان هيرودوت بصدد توسع امبراطورية الفرس ، فقد ارتبطت مصر بهذه الامبراطورية · اذ يبدأ كتابه بموت قورش وتولى قمبيز ابنه عرش فارس ، ثم اعداده العدة لينفذ خطة أبيه ويغزو مصر · وهنا يترك هيرودوت قمبيز وفارس ليتوغل فى مصر وتاريخها فهو يقص علينا تجربة اجراها الفرعون بسماتيك ليعرف من هم أقـدم الاجناس على الأرض · وكان المصريون يعتقدون انهم أقدم الأجناس ، ولكن بهذه التجربة ثبت أن الفريجيين (٤) أقدم الأجناس ، يليهم المصريون · ثم يحدثنا هيرودوت عن اختراع المصريين للتقويم الشمسى وقد أعجب بتقسيمهم للسنة :

(٣٠ × ١٢) + ٥ = ٣٦٥ يوما ، ينقسم كل منها الى ٢٤ ساعة فى حين ان أحد تقسيماته الخاصة للسنة ، كان يجعلها تقع فى ما يقرب من ٣٧٥ يوما · ويعترف بأن تقويمهم أروع وأدق من التقويم اليونانى · وينتقل هيرودوت الى جغرافية مصر فنراه يعنى بملاحظة النيل · وأرض مصر ، وخرج من هذه الملاحظة بقولته المشهورة : مصر هبة النيل واستطاع أن يبرهن على هذا الرأى · ولم يستطع أن يعلل أسباب الفيضان السنوى تعليلا دقيقا · ولكنه لاحظ رواسب الطمى السنوية · وشاهد الأصداف البحرية والمتحجرة على التلال ، واستنتج منها ومن طبقـة الأملاح التى كانت تغطى وجه الأرض ، أن هذه الأجزاء كانت فيما مضى مغمورة بماء البحر ، وقد كانت مصر السفلى فى يوم من الأيام تحت الماء ولكن النهر أخذ يجرف معه بعض الرواسب ، هكذا نتأت الدلتا نحو البحر · ولاحظ تغير مواقع الماء واليابسة فى تساليا (٥) أيضا ، وعزا نشوء مضيق تحب (شمالى تساليا) الى احدى الهزات الأرضية ·

وعرف هيرودوت عن مصر كذلك ان طول شاطئها على البحر المتوسط يبلغ ٤٢٠ ميلا ، والطريق من البحر حتى هليوبوليس (٦) طريق منبسط خال من الينابيع وتكثر به المستنقعات (الدلتا) ، ويبلغ طول هذا الطريق ١٧٠ ميلا ، ويضيق وادى النيل تدريجيا من هليوبوليس نحو أعلى النيل، ويحد أرض مصر من جانب التـلال العربية (المرتفعات الشرقية) ومن الجانب الآخر التلال الليبية (الصحراء الغربية) أما التلال الأولى فهى

تمتد حتى الخليج العربى (البحر الأحمر) أما التلال الأخرى فهى تلال صخرية مغطاة بالرمال · ثم يقدر هيرودوت المسافة من هليوبوليس الى طيبة (٧) ، من البحر الأبيض الى طيبة ، ثم من طيبة الى الفنتين (أسوان) · ويعرب عن اعتقاده بأن المنطقة الشمالية لمصر كانت فى وقت ما خليجا للبحر · ثم يحاول هيرودوت معرفة سبب ارتفاع النيل صيفا وانخفاضه شتاء ، على عكس معظم الأنهار الأخرى التى ترتفع فى الشتاء بفعل الأمطار ·

ثم ينتقل هيرودوت الى طباع المصريين وعاداتهم · فالمصريون غير ملزمين برعاية أولادهم الذكور واعالتهم ، أما الاناث فيلقين منهم رعاية ورقابة صارمة · والكهنة المصريون يقصون شعورهم بصفة مستمرة ولا يطلقونها الا وقت الحداد ، على خلاف الكهنة فى كل بقاع العالم · ويعتبر المصريون أكثر الشعوب تقوى وورعا ، كما انهم أنظفهم ، فهم دائما يغسلون أنفسهم وملابسهم ، ويحلق الكهنة شعر أجسادهم يوميا حتى لا تتسرب القذارة اليهم ، ثم يسرد هيرودوت طريقة التضحية للآلهة والحيوانات المحللة والمحرقة ، ويعتبر الخنزير أكثر الحيوانات تحريما لقذارته ، بل وعلى من يلمسه أن يلقى بنفسه وملبسه فى النيل ليتطهر · ثم يقارن بين الآلهة المصرية واليونانية · ويعتبر الآلهة المصرية هى الأصل الذى نبعت منه آلهة اليونان ، فآلهة مصر عريقة وضاربة فى القدم ·

أما عن عادات المصريين فيقول عنهم هيرودوت أنهم يتمسكون بتقاليدهم وعاداتهم المتوارثة ، ولا يتبعون تقاليد أو عادات دخيلة عليهم · وتنتشر بينهم الأغانى الشعبية التى تعتبر من أبرز تقاليدهم · وأخلاق المصريين تتصف بالدماثة ، فعندما يلتقى صغارهم بكبارهم فى الطريق ، ينتحون جانبا اجلالا واحتراما ، بل وينهضون من أماكنهم ان كانوا جلوسا · وعندما يلتقى المصريون يحيون بعضهم بالانحناء كل أمام الآخر · ويتمتع المصريون بقدرة خارقة على التنبؤ مستغلين معرفتهم للفلك وحركات النجوم· أما الطب فكل طبيب يتخصص فى مرض من الأمراض ، لذا ينتشر الأطباء المتخصصون بمصر انتشارا واسعا · ويعتبر التحنيط معجزة الطب المصرى· ثم ينتقل هيرودوت الى تاريخ مصر القديم والمصادر التى يستقى منها معلوماته هى كهنة المعابد ، وقد علم هيرودوت أن أول ملك على مصر كان « مينا » الذى بنى الجسور ليحمى منف من الفيضان ، كما شق قناة ليغير مجرى النيل · ثم قرأ اله الكهنة قائمة بأسماء ٣٣٠ ملكا خلفوا مينا وكلهم غير ذى بال الا آخرهم وهو الملك موريس (أمنمحات) الذى خلف وراءه آثارا عديدة وحفر بحيرة قارون · وأبرز ملك خلفه كان « سيزوستريس » الذى كان أول من قاد أسطولا مصريا من الخليج العربى (البحر الأحمر) الى البحر الأحمر (المحيط الهندى والخليج العربى) وقد أخضع هذا الملك شعوبا وقبائل عديدة ، ووصلت فتوحاته الى البحر الأسود حيث

استقر بعض جنوده وانحدر من سلالتهم أهل « كولخيس » ولما عاد « سيزوستريس » الى مصر ، استغل الأسرى فى العمل الالزامى ، كما قام بتقسيم أرض مصر الى اجزاء متساوية ووزعها على الفلاحين ليدفع كل منهم أجرا سنويا نظير استغلالها ، ومن هنا عرف المصريون علم المساحة ونقله عنهم اليونان • كما كان « سيزوستريس » أول وآخر ملك مصرى يفرض سلطانه على أثيوبيا وقد خلفه عدة ملوك لا أهمية لهم حتى تولى رامبسينتوس (رمسيس الثانى) العرش ثم خلفه « خوفو » الذى انتهج سياسة العنف وأغلق المعابد والأسواق حتى يجبر المصريين على العمل فى بناء هرم له • ويصف لنا هيرودوت طريقة بناء الهرم ومساحته وأبعاده• وقد خلفه أخوه خفرع الذى كان على شاكلته ، وبنى هرما أصغر حجما من الأول ، وبعده جاء منقرع بن خوفو وكان ملكا خيرا ، ترك الناس تزاول أعمالها وفتح المعابد وبنى أصغر الأهرامات الثلاثة • وخلفه ملك يدعى « أسيخيس » عالج الكساد فى مصر باصدار عدة قوانين تنظم التجارة والمال • وبعده جاء ملك أعمى يدعى « أنسيس » من مدينة تحمل نفس اسمه • وقد غزا الأثيوبيون مصر فى عهده ، وفر هو الى المستنقعات حيث أصبح ملكا على سكانها • وكان هذا الملك أول من طبق قانون العقوبات ، فقد كان يحكم على المجرم بالأشغال الشاقة ليردم المستنقعات بدلا من قتله، كل حسب جريمته • ولكن طرد المصريون الأثيوبيين بعد خمسين عاما ، واستدعوه من المستنقعات ليتربع على العرش مرة أخرى • وبعده استولى كاهن يدعى « سيثوس » على الحكم • ويقول هيرودوت ان الكهنة المصريين أخبروه أنه قد مر ٣٤١ جيلا منذ حكم مينا حتى هذا الكاهن أى حوالى ١١٣٤٠ عاما (وذلك حتى عام ٧٠١ ق • م) ولما مات هذا الكاهن لم يجد المصريون من يولونه ملكا • فقسموا مصر الى اثنتى عشرة منطقة يحكم كل منها ملك • وتبادل هؤلاء الملوك التزاوج ليقووا من ارتباطهم ، كما أقاموا قصر اللابيرنت (التيه) ليصبح مركزا لهم جميعا •

ويعجب هيرودوت بهذا القصر ويصفه وصفا دقيقا هو وبحيرة قارون المجاورة له ، ولكن اختلف بسماتيك أحد هؤلاء الملوك مع زملائه وانتصر عليهم بمساعدة الايوكيين والكاريين • وخلفه ابنه نيخو الذى أعاد حفر قناة الى البحر كان ستى الأول (١٣٢٦ ـ ١٣٠٠ ق • م) قد حفرها من قبل • ثم خلفه بساميس فابنه ابريس الذى قامت ثورة ضده فأرسل قائده أماسيس أحمس ليخمدها • غير أن الثوار توجوا أماسيس ملكا وانتصر على ابريس ، وقد كان أماسيس حاكما صالحا ، وصلت مصر فى عهده الى أوج عظمتها • ويختتم هيرودوت كتابه هذا بقوله : « انه فى عصر أماسيس هذا غزا الفرس مصر » •

الكتاب الثالث

وعنوانه « ثالثيا »

يعود هيرودوت الى موضوعه الرئيسى ، ألا وهو غزو قمبيز لمصر · فبعد أن استعرض هيرودوت آراء الفرس والمصريين حيال هـذا الغزو ، أرجعه الى حرص قمبيز على تنفيذ سياسة أبيه وانسياقه وراء شهوة الفتح، وعندما بدأ قمبيز غزوته ، كان « أماسيس » ملك مصر قد مات وخلفه ابنه « بسامنتيوس » فقاد هذا الملك المصريين وانتظر قمبيز عند فرع النيل الشرقى · غير أن قمبيز هزمه ، فهرب بجيشه الى قلعة منف ، ولكن سرعان ما سقطت القلعة فى يد قمبيز واستولى على مصر ، ثم خطط غزوات أخرى، اذ قرر ارسال أسطول ليغزو قرطاجة ، وجزء من جيشه لاخضاع أهل « آمون » (الصحراء الغربية) بينما يقوم هو بغزو أثيوبيا · ولما كان أسطوله مكونا من الفينيقيين ، فقد رفضوا غزو قرطاجة لانها مستعمرة فينيقية ، كما ان الجيش الذى أرسله الى أهل آمون ذهب ولم يعد · لذا تركزت جهود قمبيز فى غزوه لأثيوبيا وأرسل جواسيسه اليهـا ، غير أن الأثيوبيين يسخرون منه مما يزيد غضبه ، فيقود جيشه اليهم · ونرى ما يقاسيه قمبيز وجيشه فى الطريق ، اذ يعانى من نقص المؤن ويضل الطريق ، فيفقد الأمل ويعود ادراجه ، وعندما وصل الى طيبة وجد المصريين يحتفلون احتفالا صاخبا لأن الاله أبيس (٨) كشف عن ذاته لهم ، فظن انهم فرحون لفشله وقتل عددا كبيرا منهم وجرح عجل أبيس فى فخذه · وبعد فترة وجيزة أخذت علامات الجنون تظهر عليه · اذ انتابته نوبة من الذعر والخوف وأخذ يقتل البارزين من الفرس بل وقتل أخـاه « سمرديس » واختـه ، ولكن فى الوقت الذى كان قمبيز يقوم بغزواته هذه حدثت تطورات سياسية هامة ببلاد اليونـان ، اذ ظهرت « سامون » على المسرح ، فقد تولى حكمها رجل قدير يدعى « بوليكراتيس » عام ٥٣٢ ق · م وقد عمل على توسيع رقعة نفوذه وواتاه النجاح الباهر وامتدت أطماعه الى أبعاد بعيدة حتى انه حالف قمبيز وساعده فى غزوته لمصر آملا أن يساعده ذلك العاهل صاحب الامبراطورية الواسعة ، ولكن القوات التى أرسلها لتساعد قمبيز فى غزو مصر رفضت محاربة المصريين، وعـادت من منتصف الطريـق لتحـارب « بوليكراتيس » نفسه غير ان بوليكراتيس انتصر عليهم ، فلجأوا الى اسبرطة يطلبون مساعدتها ووافقت اسبرطة وكورثنة على مساعدتهم ولكل منهما دوافعه اذا أرادت اسبرطة أن تنتقم من أهل ساموس لاستيلائهم على الهدايا التى كانت قد أهدتها لكريوسوس ، أما كورثنة فقد كانت تكن لساموس عداء مريرا لانها اختطفت بعض الشباب من مستعمراتها · فأقلعت الحملة الى ساموس وحاصرتها

طوال أربعين يوما بلا جدوى · فرفع الاسبرطيون الحصار وعادوا الى بلدهم · ثم يعود بنا هيرودوت الى تاريخ ساموس لنرى ما حل بها بعد فشل الغزو الاسبرطى ·

أما الفقرات الأخيرة من هذا الكتاب فهى تتناول حرب « دارا » (٩) على بابل ، ففى أواخر أيام قمبيز والماجوشى ثارت بابل فى وجه مستعمريها الفرس ، فسار اليها « دارا » بجيوشه وحاصرها سبعة أشهر حتى أوشك أن يفقد الأمل فى الاستيلاء عليها · ولكن جاءه أحد أصدقائه ووعده بأن يسلمه بابل ، ثم ذهب هذا الرجل وشوه نفسه بقطع أذنيه وأنفه ، ولجأ الى بابل وأقنع أهلها ان « دارا » مثل به لانه طلب منه رفع الحصار عن مدينتهم ، لذا فهو يتمنى أن يسند اليه البابليون قيادة جيوشهم حتى ينتقم من « دارا » ، وصدقه البابليون واسندوا اليه القيادة ، غير انه فتح أبواب بابل « لدارا » وجيوشه فتدفق الفرس اليها ليذبحوا أهلها ويصلبوا ثلاثة آلاف من سكانها ·

الكتاب الرابع

وعنوانه « ملبومينى »

ونتتبع فتوح « دارا » شمالا فى منطقة سكيثيا بساحل البحر الأسود الشمالى ، وكعادته يحدثنا هيرودوت عن شعوب تلك المنطقة ، غير ان أهل سكيثيا يستحوذون على اهتمامه ، فهو يبدأ بذكر أصل هذا الشعب ، وبعد ذلك الأساطير التى تفسر أصله ، فيقرر أن أهل سكيثيا قد وفدوا من الشمال وعبروا نهر أراكسيس « الفولجا » واحتلوا ساحل البحر الأسود بعد أن طردوا سكانه الأصليين ·

أما عن أسباب غزو « دارا » لهم ، فقد اراد أن ينتقم منهم لانهم عندما كانوا يطاردون هؤلاء السكان ضلوا الطريق ودخلوا أرض ميديا التى أصبحت فيما بعد بلاد فارس ، واستعبدوا أهلها لثمانية وعشرين عاما · وفى وسط حديث هيرودوت عن السكان المحيطين بهم ينتهز الفرصة ليدلى برأيه عن جغرافية العالم كما يتصورها ، فالعالم ينقسم الى جزء شمالى به أوروبا · وآخر جنوبى به آسيا وليبيا (أفريقيا) · ثم يصف لنا نهر اشتار (الدانوب) وفروعه لينقلنا الى أهل سكيثيا القاطنين على ضفته الشمالية ، فهو يحدثنا عن عاداتهم ويعدد اتصالهم باليونان ·

ويخصص هيرودوت الجزء الأخير من كتابه هذا لانتشار نفوذ الفرس فى منطقة ليبيا وبلدة قورنائية ويؤدى به الحديث عن قورنائية الى التحدث عن نشأتها ، مما يدفعه الى ذكر جزيرة « ثيرا » فقد انشأ أهل اسبرطة مستعمرة بهذه الجزيرة ، ثم انشأت هذه المستعمرة بلدة قورنائية ، وقد ازدهرت هذه البلدة وذاع صيتها فى العالم القديم ، فهاجر اليها يونان عديدون ٠

وفى أثناء حكم قمبيز ، سارت حملة فارسية من مصر لتساعد قورنائية ضد بلدة « برقة » ويحدثنا هيرودوت عن القبائل التى تسكن هذه المنطقة وطبيعة الأرض بها ٠ فأرض المراعى فى الشرق ، والمزارع فى الغرب ، ثم يذكر مصادر الذهب بها والعلاقات التجارية بينها وبين سكان المناطق الأخرى ، ويختتم حديثه موضحا ان هذه المنطقة يسكنها أربع فئات : فئتان من المواطنين الأصليين هما الأثيوبيون فى الجنوب والليبيون فى الشمال ، بينهما فئتان من المستعمرين هما اليونان والفينيقيون ٠

الكتاب الخامس

وعنوانه « توبسيخورى »

يعود بنا هيرودوت الى القوات التى تركها « دارا » فى أوربا بمنطقه طراقيا تحت قيادة « فيجابازوس » فقد توغلت هذه القوات بأرض طراقيا لتخضع كل قبائلها ٠ بل ويمتد طموحها الى مقدونيا ، فيرسل فيجابازوس وفدا اليها يطلب منها الخضوع للفرس ٠ فخدعه المقدونيون وقتلوا رجال هذا الوفد عن آخرهم ، فوجه فيجابازوس وجهه شطر الشرق ليخضع المدن اليونانية الواقعة حول مضيقى البسفور والدردنيل ، بينما كان الاسطول الفارسى فى بحر ايجه يعمل على اخضاع الجزر اليونانية بحجة انها لم تساعد الملك الفارسى فى غزوته لأرض سكيثيا ٠ وفى تلك الأثناء اندلعت ثورة على ساحل أيونيا وقد تسببت بلدة ملطيه وجزيرة ناكسوس فى اشعال نيران هذه الثورة ٠

ثم يستطرد هيرودوت ليوضح كل الظروف التى كانت عليها آنذاك ٠

الكتاب السادس

وعنوانه « ايراتو »

يكمل هيرودوت فى هذا الكتاب تاريخ ثورة أيونيا ومحاصرة الفرس بلدة « ملطية » برا وجوا الى أن سقطت (عام ٤٩٤ ق ٠ م) بعد ست

سنوات من اندلاع الثورة ، ونفى الفرس كل سكانها الى ساحل الخليج العربى (البحر الأحمر) • ثم استمر الاسطول الفارسى يخضع المدن والجزر اليونانية لتنتهى الثورة • فقد كانت ثورة أيونيا هذه هى الشرارة التى أشعلت الحرب بين الفرس واليونان اذ ينقلنا هيرودوت الى بلاد اليونان لنرى سياسة « دارا » حيالها بعد فشل الثورة • فقد ولى « دارا » « ماردونيوس » قائدا على قواته فى أوربا وساحل آسيا الصغرى ، وأخذ « ماردونيوس » يخضع المنطقة الباقية من « طراقيا » ولكنه يفشل فى العبور الى بلاد اليونان ويتحطم اسطوله عند سفح جبل « آثوس » فيتجه الى مقدونيا حيث يخضع كل قبائلها وتصبح أول دويلة يونانية تسقط فى يد الفرس ، ثم يرينا انعكاس هذه الأحداث على دويلات اليونان •

الكتاب السابع

وعنوانه « بوليمنيا »

يذكر لنا هيرودوت فى هذا الكتاب أن هزيمة الفرس في ماراثون كان لها وقع شديد على « دارا » فقد اشتد حقده على الأثينيين وقرر تجريد حملة قوية تشن حربا ضروسا على بلاد اليونان كلها • فأوفد الرسل الى شتى أنحاء امبراطوريته الواسعة يجمعون الجند والمؤن طوال ثلاث سنوات •• وفى السنة الرابعة ثارت مصر على حاكمها الفارسى ، فقرر « دارا » شن الحرب على أثينا ومصر فى وقت واحد •

ثم يصف لنا هيرودوت كيف تربع « كسركسيس » على العرش بعد وفاة والده « دارا » ونتتبع معه سير الحملة الكبيرة وتغلبها على العقبات فى طريقها الى أن أرسل « كسركسيس » الرسل الى دويلات اليونان ـ عدا اسبرطة وأثينا ـ يطالبها بالخضوع له • ويصف لنا هيرودوت ضخامة الحملة بأن سكان المناطق التى مرت عليها ظنوا أن الاله قد تخفى فى لباس «كسركسيس» وقاد الجيش البشرى كله ليسحق بلاد اليونان!! •

ثم يعدد لنا هيرودوت الأجناس التى اشتركت فى هذه الحملة ليصف أسلحة كل منها وملابسه ، فقد كان هناك الهركانيون والأشوريون والخالديون وأهل باكتريا وسكيثيا والهنود والآريون والبارثيون والأثيوبيون والأراميون وأهل فريجيا وليديا وميسيا وطراقيا وجزر الهند الشرقية وغيرهم ، ذلك بالاضافة الى القوات الفارسية ذاتها أما الأسطول فقد كان عماده الفينيقيين والمصريين وأهل قبرص وكيليكيا وكاريا وايونيا وغيرهم •

ثم ينتقل بنا هيرودوت الى الجانب اليونانى لنرى ما ألم به ، فقد كانت كل الدويلات اليونانية تعلم أن حملة الفرس ليست ضد أثينا وحدها ، بل ضد كل الجنس اليونانى ·

الكتاب الثامن

وعنوانه « أورانيا »

وقد وقع أول اشتباك مباشر بين أساطيل الفرس واسطول اليونان أثناء معركة «ثرموبيلاى» ووصف المعركة البحرية بين الأساطيل بدقة متناهية بقوله : وأبحرت مائتا سفينة فارسية لتلتف حول أسطول اليونان ولما علم اليونان بالأمر قرروا البقاء حيث هم حتى آخر النهار ، وفى الغروب تقدم الأسطول اليونانى واشتبك مع الأسطول الفارسى وهزمه وأسر ثلاثين سفينة · وفى تلك الليلة أمطرت السماء وهبت عاصفة كان لها أن تحطم المائتى سفينة الفارسية التى أبحرت لتلتف حول أسطول اليونان · وفى صبيحة اليوم التالى أرسلت أثينا مددا الى الأسطول من ثلاث وخمسين سفينة ، ففرح اليونان بهذا المدد كما ابتهجوا عندما علموا بغرق المائتى « سفينة الفارسية » ، وانتظروا حتى الغروب وهاجموا الفرس مرة أخرى ليحطموا عددا كبيرا من سفنهم ، وفى اليوم الثالث شعر قادة الأسطول الفارسى بالخزى والعار لانهزامهم من اسطول اليونان الضعيف ، فاستعدوا للمعركة واشتبك الأسطولان ، وكانت معركة ثرموبيلاى تدور رحاها فى هذه الأثناء ، لذا كان كل من الأسطولين يعمل جاهدا على احتلال الممر البحرى المواجه لثرموبيلاى ليمد قواته البرية بالعون · وانتهت المعركة بين الأسطولين ليخرج كلاهما قانعا بالخسائر والمكاسب التى حققها ·

ثم ينقلنا هيرودوت الى البر لنرى زحف قوات « كسركسيس » بعد ثروموبيلاى ، وبعد ذلك يصف لنا معركة سالاميس البحرية وصفا رائعا ، فقد أبلى فيها اليونان وخاصة الأثينيون بلاء حسنا ، اذ استدرجوا سفن الفرس الضخمة الى مياه ضيقة مما قيد حركتهم بينما كانت السفن اليونانية خفيفة وسريعة الحركة وتمكنوا بقيادة ثمستوكليس من تحطيم معظم الأسطول الفارسى ، بينما عملت سفن ايجينا على تحطيم السفن الهاربة ، وانتهت معركة « سالاميس » بهزيمة الفرس هزيمة نهائية وانتصار اليونان انتصارا رائعا · وقد وضعت هذه المعركة نهاية حاسمة للغزو الفارسى ·

الكتاب التاسع والأخير

وعنوانه « كاليوبى »

وقد وصـف فيه هيرودوت معركة « بلاتيا » وفيه وصف غاية فى الدقة لهذه المعركة والتى نال فيهـا أهل أثينـا واسبرطة وتيجيا شرف الانتصار وكيف انه بعد هذه اتخذ اليونان عدة تدابير اذ دفنوا موتاهم وذبحـوا قرابين الشـكر ، ثم أسرعوا بمحاصرة بلدة طيبـة التى خلقت الكثير من المشاكل لليونان ، وانضمت الى جانب الفرس · وأسرت القوات اليونانية أول الأمر فى طيبة وقتلتهم · أما القوات الفارسية الوحيدة التى كانت لا تزال بأرض اليونان تحت قيادة « ارتابازوس » الوالى الفارسى فما أن علمت بهزيمة الفرس فى بلاتيا ومقتل ماردونيوس حتى سارعت بالهرب تاركة بلاد اليونان الى مضيق البسفور ·

ثم ينتقل بنا هيرودوت الى البحر لنرى ما قام به الأسطول اليونانى، وكيف أنه بعد انتهاء معركة ميكالى ، أحرق اليونان ما تبقى من أسطول الفرس ثم أبحر أسطولهم الى ساموس ليتشاور قادته فى أمر الأيونيين حتى لايقعوا فى قبضة الفرس مرة أخرى · واستقر الرأى على توحيد قوى يونان الجزر والساحل لضمان حريتهم·وأخيرا يختم هيرودوت تاريخه الجامع لاختفاء أثر الفرس تماما من الأراضى اليونانية عندما طردت القوات اليونانية ما تبقى من القوات الفارسية بمنطقة المضيقين ·

تقييم كتاب هيرودوت

ودوره فى الفكر الانسانى

ما من شك ان هيرودوت « أبو التاريخ » ، ولكن ما الذى جعل منه أبا له ؟ ان التاريخ علم يدرس تتابع الأحداث ، يسرده كاتب يتمتع بحاسة التاريخ وولع بالمعرفة · فهو يحدد ويسجل ويفهم الماضى ليقرر ما حدث بالفعل ولماذا حدث · وان كان من جاءوا قبل هيرودوت قد تمتعوا بحاسة التاريخ ، غير انهم لم يصلوا الى تحديد مفهومه ووظيفته · فقد انحصرت مجهوداتهم فى حوليات محلية تسجل الأحداث تسجيلا جامدا مجردا ، أو تذكر أنساب عائلة أرستقراطية يرجع أصلها الى بطل أسطورى أو اله ، أو تتغنى بأسفار ومغامرات أبطال الأساطير كأوديسيوس وهرقل · بل وغالبا ما أرجعوا أسباب الأحداث الى ظواهر أسطورية أو نوازع الهية ·

ولكن بكتابات هيرودوت ولد التاريخ ، اذ كان أول من عالج موضوعا معالجة شاملة ناقدا اياه ليفلسف جوانبه ويكشف عن الصلة ما بين أسباب الأحداث ونتائجها ، ويكفى أن نقرأ مقدمة تاريخه الجامع لندرك التحول الذى أنجزه هيرودوت فى تحديد مفهوم التاريخ ، فقد جعل من الانسان محورا لتاريخه عندما أعلن انه سيسجل «ما خلقته قريحة الرجال» لا قريحة الأبطال الأسطوريين والآلهة كما اعتاد اليونان ، وسيحدثنا عن « الأجيال التى نطلق عليها أجيال الانسان » لا تلك الأجيال الخرافية التى تناقلتها الأساطير ٠

ولم يقتصر اهتمام هيرودوت على الانسان اليونانى ليمجد بنى جنسه متغاضيا عن هفواتهم ومنقصا من قدر الشعوب الأخرى ، بل أعلنها صراحة انه سوف « يسرد كل ما حققه الرجال من أمجاد سواء من اليونان أو من غير اليونان » ، وهو بذلك يكشف عن قيمة نظرة المؤرخ الموضوعية وضرورتها ٠ أما على مستوى البلدان والدول فهو يقول : « وسوف نفحص تاريخ كل من البلدان الكبرى والصغرى » لأن تلك التى كانت فيما مضى بلدانا عظمى أصبحت الآن لا ذكر لها ، أما تلك صاحبة النفوذ والصولجان فقد كانت من قبل لا شأن لها ، أى أن المؤرخ لا يأخذ بالظواهر ، بل يرجع بالحدث الى أصله ومنشئه ليظهر أسبابه ويوضح نتائجه ٠ وهكذا كان هيرودوت أول من حدد مفهوم التاريخ الذى لخصه فى نقاط ثلاث : الاهتمام بأفعال الانسان اهتماما مباشرا ، فهذه الافعال ذات نفع بالغ للانسانية ويجدر المحافظة عليها من الزوال ، والأعمال المجيدة ليست قاصرة على جنس من الأجناس بل ينجزها كل انسان وفى مختلف الظروف ، والأحداث ليست وليدة الصدفة والحظ ، بل تنبع من بواعث ودوافع من الممكن اكتشافها ، فالحاضر تكمن جذوره فى الماضى والماضى يخدم الحاضر الذى هو مرشد للمستقبل ٠

هيرودوت أول من أرسى علم الانثروبولوجيا

ومثلما كان هيرودوت أبا التاريخ ، كان أيضا أبا للجغرافيا وعلم الانثروبولوجيا (١٠) ٠ فقد زار الكثير من البلدان ونزل بين مختلف الشعوب ، فامتد شغفه الى كل صغيرة وكبيرة ليقدم لنا صورة صادقة عن جغرافية تلك البلدان وعادات شعوبها وأصلهم ٠ والواقع ان ما دفعه الى الاهتمام بالجغرافيا والانثروبولوجيا هو اهتمامه بالانسان فى حد ذاته ، فقد آمن أن لكل بيئة جغرافية مقوماتها الخاصة التى تشكل مادياتها ، وهذه الماديات هى التى تشكل طباع الانسان وعقليته ، بل وبناءه الجسمانى ،

وما سلوك الانسان وعاداته سوى انعكاس لمقومات هذه البيئة الجغرافية والجنسية . وعندما كان هيرودوت يتناول شعبا من الشعوب بالدراسة ، كان يتبع منهجا موحدا : فقد كان يبدأ بوصف البيئة الجغرافية لهذا الشعب ، ثم يبحث عن أصله والجنس الذى انحدر منه والهجرات التى أثرت فيه ، ثم يسرد عادات هذا الشعب وطباعه ، ويختم دراسته بسرد تاريخ هذا الشعب . ومن هذا المنهج المتكرر يتضح ان التاريخ فى رأى هيرودوت ما هو الا نتاج كل هذه المقومات الجغرافية والجنسية .

ولا حاجة بنا الى الاسهاب فى ايراد مثل هذه الشواهد ، فالملاحظات الاثنولوجية ، أطرف ما فى كتاب هيرودوت ، وبلغت من طرافتها انها لم تلاق ما تستحقه من التقدير حتى يومنا هذا . وقد تجاوزها اقدر الشراح فى القرن الماضى ، لأن علم خصائص الشعوب لم يكن قد عرف بعد ، أو أنه لم يكن قد بلغ درجة كافية من التنظيم ، وان ما وجد منه لم يكن معروفا لديهم فى ذلك الحين . وقد كانوا فى الأكثر من علماء الآثار ، أو من هؤلاء العلماء الذين وقفوا جهودهم على دراسة السياسة والدين فى العالم القديم ، وهكذا لم يدركوا أهمية الحقائق الأثنولوجية عندما عبروا بها ، والحقائق التى يضيفها علم الأجناس اليوم تحت عنوان : المذهب الروحى ، والمحرمات (تابو) ، والطوطمية ، و « سكنى البحيرات » وما الى ذلك ، كانت تنبذ على أنها من الغرائب أو البدع .

وبهذا يكون هيرودوت قد أرسى قواعد هذا العلم الذى سرعان ما اندثر بعد وفاته ، وهذا لا يعنى ان اليونانيين لم يكونوا يعنون بالانسان ، اذ كانوا يبذلون أعظم العناية لتفهم لغز الحياة . الا انهم بتأثير سقراط وأفلاطون وجهوا عنايتهم الفائقة الى طبيعة الانسان الداخلية ، والى مشكلاته الخلقية والسياسية ، واهملوا دراسة طبائعه وعاداته : كيف يعيش الناس ، وكيف يعالجون مشكلاتهم اليومية ؟ كيف يتغذون ؟ وما الملابس التى يخيطونها ويرتدونها ؟ وأى نوع من البيوت يبتنون لسكناهم ؟ وما علاقاتهم الجنسية وروابطهم العائلية ؟ ولماذا يسلكون فى حياتهم هذا المسلك الذى نراهم عليه ؟ وكيف ينتقلون من طور الطفولة الى طور المراهقة ، ومن العزوبة الى الزواج ، ومن الشباب الى الشيخوخة ؟ وكيف يعاملون المريض والمعتوه ؟ وكيف يتخلصون من جثث موتاهم ؟ ... لقد حاول هيرودوت أن يجيب عن أسئلة كهذه ، وقل من عنى بها ممن جاءوا بعده .

وقد ظهرت بعض العناية بدراسة خصائص الشعوب فى القرن الثامن عشر ، ولكن قواعد هذا العلم لم توضع الا فى القرن الماضى ، وفى

أوائل هذا القرن ، ولقد استطاع علماء خصائص الشعوب المحدثون أن يبرهنوا على صحة كثير من تلك الحقائق التى رواها أبو التاريخ ، والتى لم يعرها أجدادنا أدنى التفات وكانت لها قيمة كبيرة لانها أول أمثلة من نوعهـا ٠

وبعد ٠٠ ان تاريخ هيرودوت الجامع يعد من أروع ما خلفه الفكر القديم ، وما من كتاب مثله يحوى كل هذه الجوانب من المعرفة الانسانية ويتبع مثل هذا المنهج العلمى ٠ لقد أراد هيرودوت أن يصور عن صدق فكرته عن التاريخ ، فجاءتنا هذه الصورة حاوية جامعة لفروع المعرفة التى انتشرت فى العالم القديم وبين مختلف الشعوب ٠ وما من دارس لأصول التاريخ أو علم الجغرافيا والانثروبولوجيا الا وامتدت يده لتاريخ هيرودوت الجامع ٠ فلولاه لما أمكننا معرفة هذه العلوم أو جمع مثل هذه المعلومات ، وهذا ما جعل منه أبا لا للتاريخ فحسب بل لكثير من العلوم الانسانية ٠

ولقد قال أحد كبار علماء خصائص الشعوب فى عصرنا « ان هيرودوت يزداد كسبا يوما بعد يوم » ٠ وكثيرا ما لقب أبو التاريخ بأبى الأكاذيب ، الا أن أكثر هذه الأكاذيب التى تنسب اليه ، لم تكن من بنات أفكاره ولكنها ما تزال ماثلة فى معلوماتنا ٠ وان قامته لتزداد شموخا كلما قل جهلنا بعلم خصائص الشعوب ٠

★★★

هوامش

(١) هيكاتيوس : (٤٧٦ ق٠م) مؤرخ وجغرافى يونانى ٠ ألف كتابين أولهما فى انساب بعض الأسر وتواريخها ، والثانى وصف لاسفاره فى أوربا ٠

(٢) الدوريين : شعب اغريقى قديم غزا بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٠ ق٠م واستقر فى الأجزاء الجنوبية والشرقية من شبه جزيرة البيلوبونيز وجزائر بحر ايجة الجنوبية وجزيرة كريت وجزر الدوديكانيز والأجزاء الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى ٠

(٣) شيشرون : ماركوس توليوس شيشرون (١٠٦ ـ ٤٣ ق٠م) خطيب وكاتب ومحام وسياسى رومانى ٠ ترك مؤلفات عديدة فى الفلسفة وعددا كبيرا من الخطب الرائعة والخطابات المشهورة ٠

(٤) الفريجيين : شعب هندى أوربى فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد ٠ وكانت عاصمتهم غورديوم ٠

(٥) تساليا : اقليم بشرق بلاد اليونان ٠ كان الاقليم ولاية فى الامبراطورية الرومانية ثم استولى عليه البنادقة سنة ١٢٠٤ والأتراك سنة ١٥١٥ وانضم لليونان ١٨٨١ ٠

(٦) هليوبوليس : ومعناها : مدينة الشمس ٠ مدينة آون القديمة شرق القاهرة فى دلتا النيل ٠ أسماها العرب عين شمس ٠ ظلت طوال العصور القديمة مركزا دينيا هاما لاله الشمس ٠

(٧) طيبة : مدينة قديمة ٠ أشهر عواصم مصر الرئيسية ٠ عبد فيها الاله آمون ، ونشأ بها ملوك الدولة الوسطى الذين أعادوا توحيد القطرين ٠

(٨) أبيس : فى الديانة المصرية القديمة ٠ عجل قدسه المصريون فى منف كرمز للقوة ٠

(٩) دارا : (داريوس) ملوك فارس القديمة دارا (١) (٥٤٩ ـ ٤٨٦ ق٠م) ٠

(١٠) الانثروبولوجيا : علم الانسان ٠ ويدرس أصل النوع الانسانى وكل الظواهر المتعلقة به ٠

***

فن الشعر

أرسطوطاليس

٣٣٥ ق . م .

من الكتب التى كان لها تأثير بعيد المدى فى النقد الأدبى عند نقاد العالم كتاب أرسطو « فـن الشعر » فما هو أصـل الفـن عند أرسطو ، وما غايته ؟ وهل يرمى الفن الى خلق الاحساس بالجمال الحسن الواقع فى النفس فحسب ؟ واذا لم يكن هذا هو هدفه فما هدفه اذن ؟ وما هو جوهر الفن ، وماذا يفعل الشاعر حينما يصور فى شعر غنائى آلام الحب ومسراته ولواعج الشوق وتبريحاته ؟ وماذا يصنع المصور الذى يقدم لنا صور المناظر الطبيعية الرائعة ؟

فكلما ثار جـدل حول نظرية أو منحى جـديد فى المسرح قفز اسم أرسطو وسط ما يقال فى معرض التأييد أو الهجوم • ولا غرو فى هذا ، اذ أصبحت نظرية أرسطو فى المسرح ، خاصة ما يتعلق بالتراجيديا (١) ، أساسا يعتمد عليه المسرحيون ، ومنها يبدأ التأييد أو الهجوم • ولو رجعنا الى النظريات المسرحية المختلفة لوجدنا معظمها أساسا اما امتدادا لنظرية أرسطو أو محاولات للفكاك من أسارها والخروج على تعاليمها •

ولقـد نتج عن هذا الجدل المستمر حول نظرية أرسطو أن ضاعت الملامح الأساسية الأولى للنظرية وأخذ كل فريق من الأتباع أو الأضداد يفسرها ويؤولهـا على هواه ، حتى اننـا نجـد فى كثير من الأحيـان أن ما يقولونه عن النظرية هو أبعد شىء عنها ! وان الانسان ليرثى لأرسطو وهو يتململ فى قبره أبدا حسرة على ما حل بعمله الخالد •

لذلك يحسن بنا أن نعرض لهذا الكتاب القيم الذى تركه أرسطو ناموسا للفنانين من بعده ولنبين نظريته فى الفن عامة والمسرح بشكل خاص •

حياة نابغة المفكرين

أرسطو

هو أرسطوطاليس الفيلسوف الاغريقى ، نادرة العصـور ، ونابغة المفكرين ، وأكبر العلماء شهرة فى تاريخ الفكر الانسانى • فهو منشىء فن النقد الأدبى ، وأستاذ العلوم النفسية والمنطقية والأدبية والأخلاقية ،

والبحاثة الفذ فى علوم الاحيـاء · وقد انتهى بـه الحال لكثرة ما ألف وصنف أن يدعى بالمعلم الأكبر وأن تسمى مؤلفـاته « التعليم الأول » · وكما يقول ابن رشد :

« وضع علوم المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة وأكملها ، وقد قلت : انه وضعهـا ، لأن جميـع الكتب التى ألفت قبله عن هذه العلوم لا تستحق جهد الحديث عنها ، ولانها توارت بمؤلفاته الخاصة · وقد قلت : انه أكملها ، لان جميع الذين خلفوه حتى زمننا ، أى فى مدة خمسة عشر قرنا ، لم يستطيعوا أن يضيفوا شيئا الى مؤلفاته أو أن يجدوا فيها خطأ ذا بال · والواقع أن جميع هذا اجتمع فى رجل واحد ، وهذا أمر عجيب خارق للعادة ، وهو اذ امتاز على هذا الوجه يستحق أن يدعى الهيا أكثر من أن يدعى بشريا ، وهذا ما جعل الأوائل يسمونه الهيا » ·

ولد أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد « عام ٣٨٤ ق · م » فى ستاجيرا بولاية صغيرة على الشاطىء المقـدونى باليونان · وكان والده نيقوماخوس طبيبا ينتمى الى طائفة عرفت باسم « أبناء سقولابيوس » اله الطب عند الاغريق ، وكان والده يعمل طبيبا فى بلاط الملك أمينيتاس الثانى ، والد فيليب المقدونى ، وجد الاسكندر الأكبر ·

نشأ أرسطو فى محيط هذا البلاط الملكى ، وقد عزا بعض المؤرخين ــ الى هذه النشـأة الأولى ــ اهتمام أرسطو البـالغ بالدراسات المتعلقـة بالفسيولوجية وعلم الحيوان ، ولو انه لم يعن بهذه العلوم عناية فائقة الا فى السنوات الأخيرة ·

وقد يكون للوراثة بعض الأثر فى اهتمام أرسطو بهذه العلوم ، ولكن ما من شك فى أن الأثر الأكبر يرجـع الى شغفـه العميق بالبحث والاستقصاء فى جميع الاتجاهات العلمية والفلسفية ، وهو ما تميزت به المراحل الأخيرة من تطوره الفكرى ·

تلقى أرسطو تعليمه الأول ــ وفق التقاليد ــ على يد أساتـذة من أقران أبيه الأطباء ، الذين دمغوه وطبعوه بطابع ثقافتهم الطبية والبيولوجية المتصلة بمهنتهم · ولما كان المتبع أن يتلقى طالب الطب دراسات فى أصول الفلسفة ، فقد أرسل أرسطو ــ وهو فى السابعة عشرة ــ الى مدينة أثينا ليلتحق بالأكاديمية التى يرأسها أفلاطون · وظل يطلب فيها نحو عشرين عاما الى أن بلغ السابعة والثلاثين ·

وفى أثناء هذه المدة ، أشربت نفسه علوم أستاذه أفلاطون ، وبانت مواهبه فتفوق على أقرانه بذكائه الخارق ·· وهذا ما دفع أفلاطون الى

أن يقول « ان أكاديميته لا تحوى سوى شيئين اثنين فقط : عقل أرسطو في جانب ، والطلبة كلهم فى جانب آخر » ·

وبعد وفاة أفلاطون عام ٣٤٨ ـ ٣٤٧ ق · م فاز أرسطو ـ على ما جا فى بعض المراجع ـ فى الانتخاب الذى أجرى لرياسة الأكاديمية الا انا ـ على الرغم مما كان يتمتع به من شهرة وتقدير ، وبعد صيت واحترام ـ قدم استقالته من هذا المنصب ، ورحل الى آسيا الصغرى ، حيث التحق ببلاط هرمياس أحد أمراء الولايات الفارسية ·

وكان انتقال أرسطو الى آسيا الصغرى ، مباشرة بعد وفاة أفلاطون ، مدعاة لكثير من التقولات والاشاعات فيما يتعلق بالصلة بين أفلاطون وأرسطو ·

يقول « ييجر » صاحب كتاب أرسطو ، فى تعليل مغادرة أرسطو للأكاديمية بعد موت أفلاطون مباشرة أن السبب كان مزدوجا ، فهو من ناحية شخصى ومن ناحية مذهبى ·

فمن الناحية الشخصية كان أرسطو يعتقد انه الأحق بأن يكون خليفة أفلاطون فى رئاسة الأكاديمية ، لأنه كان أذكى بكثير من بقية تلاميذ أفلاطون · فالعهد برياسة الأكاديمية الى أحد أفراد أسرة أفلاطون جعل أرسطو يعانى من الناحية النفسية ، حفيظة وموجدة ·

وأما السبب المذهبى فهو ان الأكاديمية برياسة « اسبوسيبوس » كانت قد اتجهت اتجاها يخالف كثيرا روحها الأصلية فى عهد أفلاطون ، وعد أرسطو ذلك خروجا وخيانة من جانب اسبوسيبوس لمذهب أفلاطون ، فلم يكن فى وسع أرسطو أن يبقى بعد ذلك فى الأكاديمية ، وكان عليه أن يرحل · وقد صحبه فى الرحيل زميله اكسينوقراط الى آسيا الصغرى حيث اتصل بهرمياس ·

ثم انتقل أرسطو الى بيللا حيث اسند اليه منصب مؤدب ولى العهد اسكندر ، الذى أصبح فيما بعد الفاتح العظيم اسكندر الأكبر · وواصل عمله فى هذا المنصب ثلاث سنوات من ٣٣٨ الى ٣٣٥ ق·م ·

وقد أسبغت عليه هذه الوظيفة ألقابا من الشرف وألوانا من النعمة ، وحبته بثروة طائلة ، فاستطاع أن يحقق ما تصبو اليه نفسه الطموح من الاتجاه الى التبحر فى العلوم · والتعمق فى البحوث الفلسفية ، دون أن تعوقه الحاجة الى المال ، فعاد الى أثينا ، مهد ثقافته ، واتخذها مجالا لنشاطه الفكرى ، وميدانا لتأملاته العقلية ·

وأقام بها تحت رعاية الاسكندر ، زمنا ظل خلاله موضع الاجلال والتقدير من جمهرة تلاميذه العديدين وقد بلغ من علو قدره فى العلم ، أن منح حق استخدام « معبد أبولو » فى أغراض التعليم ، وهو المعبد الذى كان مكرسا لعبادة الاله أبولو ، وأطلق على هذا المعبد اسم «الليكوم» وهى عين الكلمة الفرنسية « ليسيه » وهو المثال الذى احتذته فيما بعد المعاهد العلمية فى أنحاء العالم .

ارسطو رائد المشائين

وكان أرسطو يلقى محاضراته فى هذه الندوة العلمية ـ كل صباح ـ على النخبة من تلاميذه الأصفياء ، وجلهم ـ ان لم يكونوا كلهم ـ من العلماء الطاعنين فى السن ، ذوى الصيت الذائع ، الذين عاونوه فى تسجيل بحوثه ونشرها ، وفى اثبات آرائه ، فيما كان يدور بينه وبينهم من محاولات ومساجلات حول المسائل العلمية ، والقضايا الفلسفية ، وتفسير ما تنطوى عليه من غموض ، أو كشف ما يحوطها من ابهام . وهؤلاء هم حواريوه ومريدوه الذين اصطفاهم ، والذين كان يقع على كاهلهم أكبر قسط من الجهد العلمى ، وكان يسمى طلبته بالمشائين ، لانه كان لا يعلم جالسا ولكنه كان يتمشى خلال الاروقة المحيطة بمعبد أبولو ، فيتمتع بالهواء الطلق وأشعة الشمس فى الشتاء ، وبالهواء العليل والظل الظليل فى الصيف . وكان يرى أن هذه الطريقة تساعد على تنشيط الذهن .

أما فى المساء فكان يعقد ندوات عامة على طائفة أخرى من التلاميذ الشبان ، ومع ذلك يجد من وقته متسعا ، ليدون طائفة من المواضيع فى علوم المنطق ، وما بعد الطبيعة ، والفنون ، والعلوم السياسية والنفسية والأخلاقية ، وعلم الأحياء .

ويدل هذا النشاط الجم على حيوية دافقة ، لا تعرف الكلل ، وعلى مقدرة فائقة فى حسن تنظيم عمله اليومى ، واتقان توزيعه .

واستمر أرسطو ينسج على هذا المنوال مدى ١٢ سنة ، الى أن ثارت أثينا ، بعد وفاة الاسكندر ، وتمردت على سيادة مقدونيا . وأمست حياته معرضة لخطر داهم ، وشعر انه ـ لابد ـ مواجه تهمة من تلك التهم التى كانت توجه ببساطة الى أمثاله ، كالالحاد ، وانكار الآلهة وتحقيرها ،

وهى التهمة التى توجه عادة الى الخصوم ، عند الافتقار الى ما يعوز الاتهام من وقائع جدية وأسباب صحيحة ٠

لذلك فر أرسطو ناجيا بحياته ، لكى يعفى حكام أثينا ـ كما قال هو نفسه ـ من وصمة ارتكاب جريمة أخرى جديدة ٠ بعد جريمة سقراط، تتصل بمقاومة الفلسفة ، ومطاردة العلماء من الفلاسفة ، وقصد الى جزيرة يوبيا ، حيث لم يلبث غير وقت قصير حتى قضى نحبه فى عام ٣٢٢ ق٠م ٠

مؤلفات المعلم الأكبر

كتب أرسطو فى كل علم تقريبا · وقد ألف نوعين من الكتب ، كتب عامة وأخرى خاصة · ونقصد بالكتب العامة تلك الكتب البعيدة عن المصطلحات العلمية والتى كتبها بأسلوب علمى مهذب وهذه هى الكتب التى أثنى شيشرون (٢) على أسلوبها · أما مؤلفاته الأخرى فقد كتبها لتلاميذه وهى تحتاج الى المام بقسط من العلوم ومعرفة بالاصطلاحات العلمية التى اختارها أرسطو والتى بدونها تصبح قراءتها عبثا ·

واسلوب أرسطو يمتاز بجفافه وشدة تركيزه ، ويرجع ذلك الى أن كتاباته كانت بمثابة نقط مركزة يسترشد بها المعلم الأول أثناء الشرح فى « الليكوم » ، ولكن شيشرون يذكر أن أسلوب أرسطو فى عهد الشباب كان متأثرا بجمال أسلوب أفلاطون ورشاقته ·

ويمكن تقسيم مؤلفات أرسطو بحسب أدوار حياته :

١ ـ دور الشباب :

تجد فيه محاورة « أوديموس » مثلا وهى على غرار « فيدون » لأفلاطون ، ونلاحظ أن أرسطو فى هذا الدور متأثر بتعاليم الأكاديمية ·

٢ ـ دور الانتقال :

يضع أرسطو فيه كتابا عن « الفلسفة » ينتقد فيه نظرية أفلاطون فى المثل ويضع الخطوط العريضة لمذهبه فى الميتافيزيقا والطبيعة والأخلاق والسياسة ·

٣ ـ الدور الأخير :

وهو مرحلة النضج الكامل وهى تمثل الثلاثين سنة الأخيرة من حياة أرسطو ،وضع أرسطو مؤلفاته الرئيسية على صورة مذكرات تعليمية ·

وتنقسم كتب أرسطو الى المجموعات الآتية :

١ ـ الكتب المنطقية :

وقد سميت بالاورجانون أى آلة الفكر منذ القرن السادس الميلادى وهى : المقولات ، والعبارة ، والتحليلات الأولى ، والتحليلات الثانية ، والجدل ، والأغاليط ٠

٢ ـ الكتب الطبيعية ٠٠ وتتضمن :

(أ) كتاب الطبيعة أو السماع الطبيعى وهو مؤلف من ثمانية أجزاء٠

(ب) كتاب السماء ٠

(جـ) كتاب الكون والفساد ٠

(د) كتاب الظواهر الجوية ٠

٣ ـ الكتب البيولوجية ٠٠ وهى :

تاريخ الحيوان وحركة الحيوان ويضم اليها كتاب النفس والرسائل الصغرى المتصلة به وعددها ثمانية ٠ وقد سميت بالطبيعيات الصغرى وهى : الحس والمحسوس ، والذكر والتذكر ، والنوم واليقظة ، وتعبير الرؤيا فى الأحلام ، وطول العمر وقصره ، ورسالة فى الحياة والموت ، ورسالة فى النفس ، ورسالة فى الشباب والشيخوخة ٠

٤ ـ الكتب الميتافيزيقية :

يعرض أرسطو فى هـذه الكتب للفلسفة الأولى وهى تشتمل على أربعـة عشر كتابا رتبهـا أندرونيقوس ورتبهـا حسب حروف الهجـاء اليونانية ، وسماها « ما بعد الطبيعة » لانها ترد فى الترتيب بعد كتاب الطبيعة ٠

٥ ـ الكتب الأخلاقية والسياسية :

وهذه الكتب تبحث فى الجانب العلمى من فلسفة أرسطو وهى تتضمن :

(أ) الأخلاق الأوديمية : وهى أقرب الى مذهب أفلاطون ٠ وتشتمل على سبع مقالات ٠

(ب) الأخلاق النيقوماخية وهى فى عشر مقالات ٠

(جـ) الأخلاق الكبرى : وهى تلخيص للكتابين الأولين ٠

أما الكتب السياسية فأهمهـا : كتاب السياسة ، وكتاب « نظام الأثينيين » وقد جمع فيه أرسطو مقتطفات من ستة عشر دستورا للمدن اليونانية ٠

٦ ـ الكتب الفنية :

كتاب الخطابة فى ثلاث مقالات ، وكتاب « فن الشعر » الذى نحن بصـــدده ٠

٧ ـ الكتب المنحولة :

وهى الكتب التى أثبت النقد التاريخى عدم صحة نسبتها لأرسطو لانها تتضمن آراء لا تتفق مع الموقف الأساسى لأرسطو ، وأخصها « كتاب الربوبيـة » ٠

وقد عكف القـدماء على كتب أرسطو يدرســونها ويعلقون عليهـا الى أن أغلقت مدارس الفلسفة فى أثينا على عهد « جوستنيان » عام ٥٢٩ م٠ ثم نقلت كتب أرسطو الى السريانية ، ولم يلبث السريان أن نقلوها الى العربية فى عهد العباسيين ٠ وفى الأندلس قامت حركة لنقل هذه الكتب من العربية الى اللاتينية وبعدها ترجمت من اليونانية الى اللاتينية مباشرة٠ وفى العصر الحديث أعيدت ترجمة هذه الكتب الى اللغات الأوروبية الحديثة، كما توفـر الباحثون على تحقيق الترجمـة العربية القديمـة للمؤلفـات الأرسطية ٠

فن الشعر عند أرسطو

ويحسن بنا أن نعرض ما حوى هذا المؤلف القيـم قبـل التعرض للمسائل الأدبية التى يثيرها هذا الكتاب وبيان مكانته فى تاريخ النقد الأدبى العالمى ٠

فمن الممكن أن يدرك القارىء دون مشقة تلك الخطة المنهجية التى تبعها أرسطو فى كتابه ٠ ويظهر هذا واضحا اذا قارنا فن الشعر لأرسطو بفن الشعر لهوراس (٣) الذى يحمل طابع رسالة أرسلت الى أصدقائه من آل بيسو ٠

يبدأ أرسطو ببيان أن الشعر فن من فنـــون المحاكاة كالموسيقى والرسم مثلا ، ثم يقسم الشعر الى سردى ودراماتيكى ٠ فهوميروس (٤) عنـدما يتحدث بلسان غـيره فشعره دراماتيكى ، أما اذا روى عن غـيره فشعره سرد فقط ،. وعلى هذا فالشعر الدراماتيكى قد يكون شعرا حماسيا أو شعرا مسرحيا ٠ ولما كانت الملاحم تتحدث عن العظماء والأبطال وكذلك تفعل التراجيديا فقد قارنهما أرسطو بالشعر الايامبى والكوميديا التى تتحدث عن الأسافل ٠

ويبدأ أرسطو كتابه بالفقرة الآتية :

« لما كان موضوع بحثنا هو الشعر فسأشرع فى الكلام ، لا عن الفن اجمالا فحسب ، بل عن أنواعه وعن الوظائف المختلفة لهذه الأنواع وعن بناء الحبكة المطلوبة لقصيدة جيدة وعن عدد الأجزاء التى تتألف منها القصيدة ونوع هذه الأجزاء ، وعن كل المسائل التى لها صلة بهذا الموضوع · ولنسلك الآن المنهج الطبيعى فنبدأ بالحقائق الأولية ·

ان شعر الملحمة والمأساة والملهاة وشعر الداثرامب (٥) Dithyramb ومعظم الزمر بالمزمار والضرب على القيثارة ، كل أولئك فى جملته أساليب للمحاكاة · ولكن هذه الأساليب يختلف بعضها عن بعض من جهات ثلاث، اما باختلاف نوع وسائلها أو باختلاف موضوعاتها أو كيفية المحاكاة فيها » ·

وبعد الاشارة الى أنواع الشعر يعطى أرسطو لمحة عامة عن تاريخ الشعر مبتدئا بهوميروس أبى الشعر اليونانى · ويشرح أرسطو بايجاز تاريخ التراجيديا والكوميديا قبل أن يحدد بالدقة أوجه الاختلاف بين التراجيديا وشعر الحماسة ·

ويعرف التراجيديا ويحللها بدقة الى ستة أجزاء رئيسية هى : الموضوع والأشخاص والفكرة والأسلوب والعرض المسرحى والأناشيد الغنائية ، والموضوع أو الحبكة هى الجزء الرئيسى ، بل هى روح التراجيديا ، ان صح هذا التعبير ، وهى أهم من التشخيص · ولذلك أسهب أرسطو فى التحدث عنها ، فكل شىء يدور حول الموضوع · فعندما يسدى أرسطو الى الشاعر بعض النصح يشير الى الموضوع ، وعندما يتكلم عن « العقدة » يشير كذلك الى الموضوع · ولا يناقش أرسطو غير جزءين من الأجزاء الستة·فأما الموسيقى والمناظر المسرحية فلا يذكرها مرة أخرى· أما الفكر فيقول عنه ان مكانه الطبيعى فى الرسائل المخصصة لفن الخطابة · وبعد أن يتحدث عن اللغة والألفاظ يعود ثانية للتحدث عن وحدة الموضوع · ثم يقارن بين الملحمة والقصة التراجيدية ، مادحا هوميروس الى عنان السماء ، ثم يختم بتفضيل التراجيديا ·

ويتحدث أرسطو فى مطلع كتابه عن فن الشعر عن محاكاة الفن للطبيعة ، وعن الشعر كفن من فنون المحاكاة · وأرسطو لا يعنى بالطبيعة تلك المظاهر الخارجية التى نشاهدها ، ولكن الطبيعة فى نظره قوة خلاقة فهى المبدأ المنتج فى هذا العالم · وتراه فى كتابه عن الطبيعيات يقارن بين الفن والطبيعة ، ووجه المقارنة أن هناك اتحادا بين المادة وبين الشكل فى كل منهما · فالفن يقلد منهاج الطبيعة · والفنون النافعة تأخذ عن الطبيعة الهدف الذى تسعى اليه · فالطبيعة تختار هدفها وتسعى اليه

فلا تخطئه ، فان فشلت ، فالعيب عيب المادة التى تستخدمها · والطبيعة تحتاج فى بعض الأحيان الى المعونة ، فالطبيعة تهدف الى الصحة ، ولكنها قد تفشل ، فتستعين بالطبيب الذى يستخدم طرق الطبيعة للوصول الى الهدف المنشود · فالمحاكاة عند أرسطو ليست مجرد نقل آلى ، وانما هى الهام خلاق به يستطيع الشاعر أن يوجد شيئا جديدا على الرغم من انه يستخدم ظواهر الحياة وأعمال البشر · فالشعر ان هو الا تبيان وابراز لكل ما هو دائم وعام وحقيقى فى حياة الانسان وأفكاره · ولهذا كان الشعر أفضل من التاريخ · وعندما يحاكى الشاعر الطبيعة يحاكى عملياتها الخلاقة ، ولا يقلد نتائج هذه العمليات · ولهذا كان الوزن عرضا غير لازم للشعر ، ويمكن أن تدل كلمة شاعر Poet على أى فنان فى النظم أو النثر ·

ولم يكن أرسطو أول من قال ان الفن محاكاة ، فقد كان هذا قولا سائرا فى بلاد اليونان ، ولكن أرسطو نفث فيه معنى لا يشاركه فيه أحد ·

النظرية الجمالية لأرسطو

ويعرف أرسطو الشعر تعريفا وافيا فى الفصل التاسع من كتابه حيث يقول :

« يتضح مما ذكرنا أن وظيفة الشاعر هى أن يصف شيئا يمكن أن يحدث ، لا شيئا حدث بالفعل ، أى انه يصف الشىء المحتمل حدوثه من حيث هو كذلك ، أو من حيث هو ضرورى · والفرق بين المؤرخ والشاعر ليس فى أن الأول يكتب نثرا والآخر يكتب نظما ، فانك تستطيع أن تنظم تاريخ هيرودوت ويظل نظمك مع ذلك نوعا من التاريخ ، أما الفرق الحقيقى فهو ان التاريخ يصف الأمور التى حدثت ، والشعر يصف ما يحتمل حدوثه · ومن ثم كان الشعر أدنى الى الفلسفة ، وأعظم خطرا من التاريخ· لان قضاياه ذات طابع كلى ، فى حين أن قضايا التاريخ جزئية » ·

ويرجع أرسطو أن الشعر نشأ أصلا من ميول ونزعات راسخة فى الطبيعة البشرية ، فنزعة المحاكاة تولد مع الانسان ، وهو أكثر من الحيوان استعدادا لها ، وبها يكتسب بعض معارفه الأولية · والمحاكاة لذيذة ، ومشاهدة المحاكيات لذيذة أيضا · وهناك اتفاق بين أرسطو وأستاذه أفلاطون فى أن نشوء الشعر يعود أيضا الى الميل الى الانسجام والايقاع · ويضيف أرسطو كسبب من أسباب نشوء الشعر وغيره لذة التعلم وقد أشار اليها فى كتاب ريطوريقا ·

واللذة أيضا هى هدف الشعر عند أرسطو ، بل هدف كل الفنون الجميلة ، أما الفنون المفيدة ، كالتجارة مثلا ، فهدفها تقديم الوسائل الضرورية فى حياتنا الدنيا ، ولا يعنى أرسطو هنا باللذة متعة حقيرة ، وانما يقصد اللذة السامية التى تمنح متعة جمالية مصدرها الشعور ، لا العقل • فالاحساس الذى يصحب النظر الى فن جميل يشبه المتعة التى تصحب التفكير الفلسفى •

وهذه اللذة ليست لذة الصانع أو الشاعر ، ولكنها لذة الناظر أو السامع ، فكما أن الهدف فى الخطابة يرنو الى السامع ، فكذلك فى الشعر •

فأرسطو هو أول من حاول فصل النظرية الجمالية عن النظرية الأخلاقية • وهو يلح فى أن هدف الشعر هو اللذة • وهو حين يفعل ذلك يبتعد كثيرا عن الآراء التى كانت سائدة فى عصره •

وأرسطو يمدح سوفوكليس (٦) كثيرا فى كتابه ، ولكنه لا يشير مرة واحدة الى سمو مبادئه الأخلاقية • وليس هناك فى كتاب فن الشعر ، لا فى تعريف التراجيديا ولا فى أى موضع آخر ، اشارة الى طراز من الشعر يجعل المواطنين أفضل ، فالمسرح ليس بمدرسة • ولكن أرسطو يهاجم الكارثة التى تحل ببطل القصة فتقهر الفضيلة وتنصر الرذيلة ، لانها لا تثير شفقة ولاخوفا • وهو يقرر كذلك أن الانحطاط الأخلاقى يجب ألا يعرض على المسرح الا لضرورة • أما اذا لم تدع اليه الضرورة فلا داعى له •

ولكن النظريات القديمة التى تنسب للشعر هدفا أخلاقيا وتعليميا استمرت فى الذيوع والانتشار فى بلاد اليونان • ونجد استرابون (٧) فى القرن الأول قبل الميلاد ينقد ايراتو سثينس لتمسكه بنظرية أرسطو الجمالية ويقول استرابون ان وجود الشعر فى منهاج جميع أنواع المدارس اليونانية دليل على أن اليونانيين يرون أن للشعر أثرا على السلوك والأخلاق وأن الشاعر الذى لا يهدف شعره الى تهذيب الشعب وتعديل مناهجه ليس بشاعر جدير بهذا الاسم • ويرى بلوتارك (٨) أن الشعر هو الخطوة الأولى التى تعدنا لدراسة الفلسفة • وقد وافق الرأى هوى فى نفوس الرومان ، فأعلن هوراس أن هدف الشاعر الاسمى يجب أن يكون النافع واللذيذ • وقد ساد هذا الرأى فى العصور الوسطى وفى أوائل العصر الحديث ، وكان كثيرون ممن يرددونه يظنون انهم يسيرون فى اثر أرسطو•

وهناك من المحال ــ فى نظر أرسطو ــ قبوله فى الشعر ، وهى الأساطير والخرافات والروايات السائرة على كل لسان فى شعب ما •

ولكن غير المعقول أقل قبـولا فى التراجيديا منه فى الملاحم · وان اريد عرضه على المسرح فيجب أن يصور على انه محتمل ، فالمحال ماديا أسهل فى معالجته فنيا من المحال اخلاقيا أو عقليا ·

وكذلك فان الشعر لا يقبل المصادفة أو الحظ ، لان فى ذلك نفيـا للفن وللذكاء وللطبيعة كقوة منظمة ·

وتعريف المأساة والقصة التراجيدية محاكاة عمل جدى تام ، ذات طـول معلوم فى لغة مزخرفة بأنواع من الزخرف الذى يناسب الأجزاء المختلفة · وهى قصة تمثيلية لا حكاية اخبارية ، تطهر بالشفقة والخوف هذين الانفعالين ·

ويشرح أرسطو ما يعنى بأنواع الزخرف المختلفة : فأناشيد الجوقة لابد فيها من شعر وألحان أما الحوار فيكفى فيه الشعر وحده ·

وتكمن الصعوبة فى هذا التعريف فى كلمة تطهير Katharisis (٩) التى ثار حولها نقاش طويل والتى استمرت قرونا كثيرة كان النقاد يرون فيها اشارة الى تطهير أخلاقى من الاهواء ·

وعلى الرغم من ان النقـاد فى عصر احياء العلوم قد أدركوا معنى الكلمة الحقيقية ، وعلى الرغم من أن ميلتون (١٠) ادرك مغزاها وضرب له مثلا علاج الداء بدواء من جنسه ، وعلى الرغم من أصوات احتجاج رفعت بين حين وآخر ، الا أن أول من نجح فى لفت الأنظـار الى خطأ التفسير التقليدى هو « جاكوب بيرينس » فى مقال نشره سنة ١٨٥٧ · وقد بين بيرينس أن لكلمة « كاثارسيس » معنى طبيا ، وان تطهير الروح هنا مشابه لأثر الدواء على البدن ، فالتراجيديا تثير انفعالين وتهدئهما وهما الشفقة والخوف ، وهما انفعالان يوجدان فى جميع أفئدة البشر ، وبينهما ارتباط، فهناك خوف يختبىء تحت الشفقة ·

وقد أدرك أفلاطون فى هجومه على الشعر أن الرغبة الطبيعية فى الأحزان والدموع وهى التى نحاول أن نتحكم فيها فى حياتنا العادية نجد ما يسرها فى الشعر · فالشعر فى نظر أفلاطون ، يغذى ويسقى الاهواء بدلا من قتلها جوعا · وهو يضعف الرجولة ويثير الاضطراب فى الروح باثارة الأهواء وعزل العقل ومحاباة الشعور ·

وقد رد أرسطو بأنه ليس من المفيد أو المرغوب فيه قتل الأحاسيس والمشاعر الانسانيـة ، ولكن ينبغى التحكم فيها · فالتراجيديـا تطلق الشفقة والخوف اللذين يكمنان فى قلب كل انسان باثارة شفقة وخوف

مسرحي وعند زوال الانفعال يتم التطهير · فالتراجيديا علاج من جنس الدواء ·

وقد قاد أرسطو الى هذه النظرية ما لاحظه من أثر الموسيقى فى شفاء بعض الاضطرابات النفسية ولا سيما الجذب الدينى · فأرسطو يرى أن هناك نوعا خاصا من الموسيقى يهدىء من هذا الاضطراب النفسى بأن يوجد مخرجا للحماس الدينى · يعود بعد ذلك المريض الى حالته العادية وكأنه قد تعاطى دواء مطهرا ·

ولما كانت مدرسة أبقراط تستعمل كلمة تطهير فى اخراج ألم من البدن ، فهناك اتفاق بين المعنى الطبى والمعنى الذى يقصده أرسطو · ذلك لان أرسطو يعرف الخوف والشفقة فى الجزء الثانى من كتابه ريطوريقا بما لا يخرج عن هذا الرأى · فالخوف عنده حزن أو اختلاط يحدث من تخيل شر يتوقع أن يفسد أو يؤذى ، والشفقة حزن لشر يظن مفسدا يعرض لامرىء بلا استيجاب ·

الوحـــدات الثـــلاث

والوحدات الثلاث هى : وحدة الموضوع ووحدة الزمان ووحدة المكان·

وتعتبر وحـــدتا الزمان والمكان من أكثـــر الافتراءات التى ألصقت بأرسطو ، والتى تمسك بها الشعراء فى فرنسا فى عصر لويس الرابع عشر وحاولوا أن يجدوا لها سندا فى كتاب فن الشعر لأرسطو · والوحدة الوحيدة التى يعرفها أرسطو هى وحدة الموضوع وهى التى يسميها روح القصة · ويرد أرسطو فى الفصل الثامن من كتابه على أولئك الذين يرون ان وحدة الموضوع تنشأ من وحدة الشخص ، لان حياة الشخص تتكون من أحداث كثيرة قد لا تجمعها وحدة · وهذا عيب من يؤلفون قصة أو يكتبون ملحمة عن هرقل أو ثيسيوس ·لكن هوميروس ، وله فى كل شىء المقام الأسمى فقد ابتعد عن هذا الخطأ : اما بفضل معرفته لأسرار الفن أو بفضل عبقريته عندما كتب الأوديسة والالياذة · وكلما كانت الوحـدة أعظم وأكمل ، اكتسب الموضوع شخصية موحدة · وأجزاء هذه الوحدة لا يمكن أن تنقل أو تبتر دون أن ينفرط عقد الكل · ويتصل بوحدة الموضوع طول المأساة لانها محاكاة فعل تام له مدى معلوم · واذا أفرط الشىء فى الطول أو القصر لم يعتبر جميلا ، ولهذا يجب أن يكون للمأساة من الامتداد ما تقوى الذاكرة على وعيه بسهولـة · والطول الكافى هو الذى يسمح بتطور الأحداث وتواليها وفقا لقاعدة الاحتمال أو الضرورة ، حتى يأتى

تغير الحال (حظ البطل) كنتيجة منطقيه لتسلسل الحوادث ، وحتى ينتهى القصة دون التجاء الى اله من الآلهة ·

ويرتكز الرأى القائل بوحدة الزمن على اشارة لأرسطو لم يرد على الاطلاق أن يجعل منها قاعدة واذا هى طبقت على المسرحيات اليونانية بأن خطؤها · فأرسطو يقارن بين الملحمة والمأساة فيقول ان القصة التراجيدية تحاول أن تحصر نفسها قدر المستطاع فى دورة واحدة للشمس أو يزيد قليلا · أما وحدة المكان فلم يعرفها أرسطو أو يشير اليها من قريب أو بعيد وانما استنتجت خطأ من وحدة الزمن ومن عدم تغيير المناظر فى المسارح اليونانية ومن افتراض بقاء الجوقة فى مكان واحد طوال عرض القصة · ووحدة المكان هذه لم يعرفها شعراء المسرح العظام ولا يمكن أن تطبق على مسرحياتهم ·

بطل المأساة المثالى :

استمرت فكرة البطل المثالى الذى تدور حوله القصة التراجيدية سائدة طوال العصور القديمة والحديثة · وكان يسندها تفسير خاطىء للفصل الثالث عشر من كتاب فن الشعر لأرسطو · وأول من خرج على هذا الاجماع جون جونز المحاضر فى أدب اللغة الانجليزية بجامعة اكسفورد فى كتابه عن أرسطو والتراجيديا اليونانية والذى أعلن انه لا يوجد دليل ــ أدنى دليل ــ على أن أرسطو كان يفكر فى بطل تراجيدى ، وأن فكرة البطل المثالى أدخلها العلماء فى كتاب أرسطو ، ولا يحتاج الى مجهود جبار للقضاء عليها ·

أما الرأى التقليدى فقد استند على أن وظيفة التراجيديا هى التطهير باثارة الشفقة والخوف · والشفقة لا تكون الا على من تردى فى الهاوية دون استحقاق ، والخوف لا يكون الا على الشبيه · ولهذا كان سقوط من لا عيب فيه لا يثير خوفا أو شفقة ، وكذلك سقوط الشرير الذى لا خير فيه · أما اذا نال الشرير سعادة ، فاننا جميعا نشعر بالاستياء · والحالة المثالية هى حالة رجل عريق لم يصل الى ذروة الكمال ، ولكنه ميال الى الخير · يتردى فى الهاوية بسبب خطأ فى الحكم ·

فأرسطو لا يهتم بتحول مجرى الحوادث سواء كان التحول من النعيم الى الشقاء أو العكس ، غير أن التغير الى أسوأ مفضل عنده وضرورى جدا عند أصحاب نظرية البطل المثالى الذى لابد ان يسقط بسبب خطئه · فالتحول عند أرسطو (فى الفصل الحادى عشر) هو انقلاب الفعل الى ضده اطاعة لقانون الاحتمال أو الضرورة ، ولابد ان ينتج من تطور حوادث

القصـــة بحيث يكون ضرورة عن الوقائع احتماليا أو ضروريا · ولكن أرسطو يهتم بطول القصة الكافى الذى يسمح للحـوادث بالتطور حتى يحدث التحول من السعادة الى الشقاء أو بالعكس طبقا لقاعدة الاحتمال أو الضرورى ·

الالهـــام :

هل الشعر بأنواعه المختلفة صنعة أم الهام ؟ هذه فكرة لم يعرها أرسطو كبير اهتمام · وفـكرة الالهام فكرة غريبة على مناهـج التفـكير اليونانى · فالشعر صنعة والشعراء كالصناع مهرة · وأول من يلح على فكرة الالهام هو بندار (١١) ، أما سقراط فيطوف بكبار الشعراء يسألهم عن معنى ما ينظمون فلا يستطيعون · وفى محاورة أيون يردد أفلاطون أن الشعر الهام وأن الاله يلهم المنشد والمنشد يلهم النظارة ، وهو يشبه أثر هذا الالهام بأثر المغناطيس الذى يجـذب الأشياء القابلة للمغنطـة ويكسبها خاصية الجذب أيضا · ويقترب أرسطو من هذا الرأى فى كتابه ريطوريقا عندما يقول ان الشعر الهام ، وفى الفصل السابع عشر من كتابه عندما يميز بين نوعين من الشعراء : نوع يشارك أشخاصه مشاعرهم فهم ذوو عواطف جياشة تؤهلهم للتكيف مع أحوال أشخاصهم ، ونوع يشتد استسلامه للنوبات الجنونية الشعرية ·

ولكن الحق أن اليونان فى جميع عصورهم لم يخرجوا قط عن حكم العقل · وهذا ما جعل لآرائهم ونظرياتهم فى الفلسفة والشعر وغيره صفة الدوام والعموم ·

★★★

مكانة فن الشعر فى تاريخ النقد الادبى

« فرغت من تلاوة كتاب أرسطو « فن الشعر » تلاوة جيدة شعرت فيها بمتاع أى متاع : انه ثمرة جميلة من ثمار العقل فى كمال تعبيره · ومما يدعو الى الاعجاب أن يشهد المرء الى أى حد يتعلق أرسطة بالتجربة وحدها ، ولئن كان هذا الأمر يضفى عليه ، ان شئت ـ طابعا من الواقعية والموضوعية المبالغ فيهما ، فانه فى مقابل هذا يخلع على منهجه مزيدا من الرسوخ والرصانة · فلشد ما أبهجنى ـ مثلا ـ أن ألحظ مدى سعة عقله فى الدفاع عن الشعراء ضد مماحكات النقاد وتشقيقاتهم الدقيقة ، ومدى مضاء عزيمته فى النفوذ قدما الى الجوهر ، وتسامحه فيما سواه ، حتى انى أحسست فى كثير من المواضع بدهشة حقيقية · ثم نظرته فى الشعر ، والجوانب التى تهمه منه بخاصة ، كل هذا فيه من النفوذ والحياة ما يدعونى الى العود اليه عما قليل ، ولو بسبب بعض المواضع المهمة التى ليست واضحة كل الوضوح ، وأود أن يتضح معناها بجلاء عندى » ·

هـــكذا كتب جيتـــه Goethe الى شيلر Schillr فى ٢٨ ابريل ١٧٩٧ يصـــف له أثر قراءته لكتاب أرســـطو « فن الشعر » لما قرأه مرة أخرى ، بعد أن كان قد قرأه قبل ذلك بثلاثين سنة فى ترجمة كورتيوس ، فلم يفهم شيئا من مغزاه الحقيقى آنذاك ، واذا به اليوم ، وقد شارف على الثامنة والأربعين ، يقرأه فيجيد فهمه ويصيح « ان المرء لا يكتشف كتابا حقيقيا الا فى اليوم الذى يفهمه فيه » (رسالة الى شيلر فى ٦ مايو سنة ١٧٩٧) ، ثم يفضى باعجابه الى صديقه شيلر فيبادله شيلر اعجابا باعجاب ويقول (٥ مايو سنة ١٧٩٧) : « أنا راض كل الرضا عن أرسطو ـ لا عن أرسطو وحده ، بل وعن نفسى أيضا : فليس من الأمور العادية أن يقرأ الانســـان لرجل مثله ، رصين العقل مودوع الحكم ، دون ان يفقد معه الطمأنينة · ان أرسطو هذا حكم رهيب كأنه أحد زبانية الجحيم بالنسبة الى كل من يدعى التمسك الوضيع بالشكل الخارجى ، أو التحرر المطلق من كل شكل : فالأول لا يلبث ان يشعر بوقوعه فى متناقضات مستمرة لما يشهده من استقلال فى الرأى والعقل

والذكاء اذ يتضح فى الحال ان أرسطو يعير الجوهر أهمية أكبر ، بما لا نهاية له من المرات ، مما يعير سائر مسائل الشكل الخارجى ، أما الثانى فسيروعه حتما أحكاما فى استنباط قوانين تركيب الأنواع الشعرية ـ وخصوصا المأساة ـ من فكرة الشعر وفكرة المأساة بخاصة · ولهذا فهمت الآن ، والآن فحسب ، لماذا أرهق شراحه الفرنسيين وشعراء فرنسا ونقادها ، وبث فيهم دائما الخوف الذى تثيره العصا فى نفوس الأولاد · وشكسبير الذى لم يتورع عن مخالفة قواعد أرسطو ، كان يمكن أن يكون بينه وبينه من الوفاق أكثر مما كان بين أرسطو والمأساة الفرنسية ـ ومهما يكن من شىء ، فأنا راض كل الرضا لانى لم أقرأه قبل هذه الأيام : والا لكنت قد فقدت كل اللذة وكل الفائدة اللتين استشعرتهما اليوم · وعلى من شاء أن يقرأه بفائدة ، أن يكون عارفا من قبل بالأفكار الواضحة كل الوضوح عن الأمور الرئيسية ، أما من لم يقف من قبل على الموضوع الذى يعالجه أرسطو ، فمن الخطر المحقق أن يلتمس عنده النصيحة » ·

وفى هذه الجملة البليغة كشف شيلر عن حقيقة كتاب أرسطو « فن الشعر » ومصيره ·

فلقد كان لهذا الكتاب من المكانة فى تاريخ النقد الأدبى فى أوربا الحديثة ما لم يظفر به أى كتاب آخر حتى الآن · فمنذ أن نشر «جورجيو» أول ترجمة لاتينية له فى سنة ١٤٩٨ بالبندقية ، ومنذ ان ظهرت له طبعة يونانية ـ بمعونة جيوفانى لسكاريس فى سنة ١٥٠٨ بالبندقية أيضا ـ والكتاب قد أصبح مصباحا سحريا فى أيدى الشراح والنقاد · واذا بسلسلة رائعة من ادباء عصر النهضة الانسانيين يتعاقبون على الكتاب : يستنبطون أغواره ، وينقبون عن خفايا قواعده ، ويختصون حول فهم مضمونه وقواعده · وكان على رأسهم فرنشسكو روبرتلو الذى قدم الى كوزمو دى مدتشى سنة ١٥٤٨ أول شرح لهذا الكتاب فى العصر الحديث، فبدأ بشرحه طريقا طويلة سلكها النقاد طوال القرون : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر أيضا حتى قيام الحركة الابتداعية (الرومنتيك) ·

والعارفون بتاريخ الآداب الأوروبية يعلمون أثر هذا الكتاب فى الأدب الفرنسى فى القرن الذهبى ، القرن السابع عشر ، وكيف تأثر به كورنى (١٢) الذى جرى فى أثر الرعيل الأول من الانسانيين الايطاليين ، فسار على قواعده فى تأليف مسرحياته ، وبهذا وضع الأساس فى التأليف المسرحى الفرنسى الذى بلغ به أوجه على أساس هذه القواعد جان

راسين (١٣) ، فتكون عن هذا ما عرف فى تاريخ الأدب باسم « المذهب الاتباعى (الكلاسيكى) فى الأدب الفرنسى » ، وهو المذهب الذى أثر من بعد فى الأدب الألمانى في القرن الثامن عشر · وعن طريق الشراح الايطاليين كذلك تأثر الأدب الاسبانى خصوصا الجماعة التى أطلقت على نفسها أو أطلق عليها اسم « اتباع قواعد أرسطو » و Los preceptistas aristotelicos

ومن بينهم الونسو لوبث والبنثيانو وكسكالس وجونثالث دى سالاس من كبار الانسانيين الاسبان الذين ساهموا فى حركة النهضة ·

★★★

هوامش

(١) تراجيديا : « مأساة » مسرحية شعرية أو نثرية تعالج موضوعا جديا وتصور صراعا بين البطل وبين قوة عليا أقوى (كالقدر أو المجتمع أو الظروف) ينتهى آخر الامر نهاية فاجعة تثير الاشفاق .

(٢) شيشرون : ماركوس توليوس شيشرون (١٠٦ ـ ٤٣ ق.م) خطيب وكاتب ومحام وسياسى رومانى .

(٣) هوراس : (٥٦ ق.م ـ ٨ ق.م) من أعظم شعراء اللاتين . نجح فى تصوير عصره تصويرا حيا فى اسلوب واضح ودقة متناهية وألفاظ مختارة .

(٤) هوميروس : أعظم الشعراء الاغريق . معظم الدراسات ترجح انه عاش قبل ٧٠٠ ق.م . أشهر أعماله الالياذة والأوديسة وهما من روائع الأدب العالمى .

(٥) الدثرامب : ترنيمة يونانية قديمة كانت ترتل للاله باخوس .

(٦) سوفوكليس : (٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق.م) من أشهر شعراء المأساة اليونانية . نال الجائزة الأولى ٢٠ مرة .

(٧) استرابون : (٦٤ ق.م ـ ٢١ ق.م) جغرافى ومؤرخ يونانى . وضع سبعة وأربعين مجلدا فى التاريخ ووضع سبعة عشر مجلدا فى الجغرافيا . وتعتبر هذه الآثار من أهم المصادر التى نستمد منها معرفتنا بالعالم القديم .

(٨) بلوتارك : مؤرخ وناقد يونانى . يعتبر أعظم كتاب السير والتراجم فى العالم القديم .

(٩) Katharsis وهى بمعنى كلمة تطهر فى أصلهـــا اليونانى أما ترجمتهـــا الانجليزية فهى Catharcis Purgation

(١٠) ميلتون : (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤ م) شاعر انجليزى اهتم بالموضوعات الاجتماعية والسياسية فى عصره .

(١١) بندار : (٥٢٢ ق.م ـ ٤٣٨ ق.م) شاعر يونانى اشتهر بقصائده التى تغنى فيها بالنبل والشجاعة والطهارة والشرف . اعتبره بعض النقاد أعظم الشعراء الغنائيين فى العصور القديمة .

(١٢) كورنى : (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤ م) شاعر المأساة الفرنسى . كان أبطال رواياته يتميزون باخضاع العاطفة للارادة والتمسك بأداء الواجب .

(١٣) جان راسين : (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩ م) أعظم الكتاب المسرحيين الفرنسيين . وأعظم ممثلى التراجيديا الكلاسيكية الحديثة .

تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

مسكويه

١٠٢١ م

ابن مسكويه من الأسماء المضيئة التى صنع أصحابها ملامح شتى فى وجه الحضارة الانسانية بصفة عامة والحضارة الاسلامية بصفة خاصة ·

انه المفكر الاسلامى والعالم الجليل الذى يعد من أبرز علماء الأخلاق فى العالم أجمع بشهادة الغربيين قبل الشرقيين ·

وعلى الرغم مما تعرض له فى صدر حياته من بعض المتاعب المالية والأزمات النفسية ، الا انه استطاع بالجد والمثابرة والصبر الطويل أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة فى مجتمعه وينجز العديد من الأعمال التى أضافت الى التراث الانسانى كنوزا فكرة وعلمية ، كانت لها آثارها البعيدة على مسيرة الحضارة الانسانية ·

فابن مسكويه ·· فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم كيمياء ·· اشتهر فى عالم الفلسفة بفلسفته الأخلاقية ، فله فى هذا الصدد كتاب « تهذيب الأخلاق » ، وكتاب « الفوز الأصغر » و « مجموعة من الحكم » نقلها عن حكماء الهند وفارس واليونان ، والعرب ·

كان مولعا بالتاريخ وذلك لما يتضمنه من التجارب الانسانية على توالى العصور فقام بتأليف كتابه المعروف باسم « تجارب الأمم » ·

حيـاة مسـكويه

هو « أبو على بن يعقوب الملقب بابن مسكويه » ·· وهى لفظة مركبة تركيبا أعجميا ومعناها : « رائحـة المسـك » وهذا كناية عما تميز به شخصه من خصال حميدة فاضلة ··· ولد عام (٣٣٠ هـ ـ ٩٤١ م) وهو ينتمى الى أسرة ذات جاه وعراقة · كان والده يعيش فى سعة وترف لكن هذا الوالد سرعان ما فارق ابنه ، وودع الدنيا وهو لم يزل فى عمر الشباب ·· الأمر الذى جعل « فيلسوفنا » لم يحاول أن يعتمد فى تعليمه

على أستاذ بعينه ·· فلا يذكر التاريخ أنه كان يتلقى العلم على واحد من الأساتذة ، ولم يقتنع بالذهاب الى المدرسة لتلقى دروسه ، وانما آثر أن يعلم نفسه بنفسه ·· كان حبه للحقيقة يدفعه دائما الى الاجتهاد ، وتكبد مشقة التحصيل ·· وساعده على ذلك ، طبيعة العمل الذى كان يؤديه ، فقد عمل أمينا لمكتبات قصور الأمراء التى تردد عليها خلال سنين طويلة ·· ومن ثم ، كان « الكتاب » بالنسبة اليه « ينبوع الثقافة » و « المعلم » و « الجامعة » التى تربى فيها ·· انظر اليه وهو يشيد بالكتب فى أشعاره يقول :

فان تمنيت عيش الدهر أجمعه
وان تعاين ما ولى من الحقب
فانظر الى سير القوم الذين مضوا
والحظ كتابتهم من باطن الكتب

العصر الذهبى للثقافة

عاش « ابن مسكويه » فى ظل دولة بنى بويه (١) التى بلغت أوج مجدها وعظمتها فى زمن الخليفة « عضد الدولة » ، فكان يشرف على مكتبات أمرائها المكدسة بالكتب النادرة التى أثرى منها ثقافة ، وفكرا ، وعلما ·

وكان عهد « عضد الدولة » عهد ازدهار ونهضة ، وكانت الكتب أغلى شىء يملكه الانسان فى ذلك الحين ·· فلم يضن الحكام ـ بالمال والجهد ـ من أجل بسط حركات التنوير ونشرها بين الناس ، فصارت الكتب أشبه بالسوق الرائجة التى تلقى اقبالا من الناس فى كل مكان · وكان الأمراء يتبارون فيما بينهم على اقتناء النفيس من الكتب ·· فلم يترددوا فى ايفاد مبعوثين لهم الى أنحاء البلاد بحثا عن الكتب الجديدة حتى تتوافر لكل من يحتاج اليها ··· ومن هنا ، كانت الثقافة شيئا مشاعا بين الجميع ·· فلا غرابة فى أن يطلق على هذا العصر العصر الذهبى للعلم والفلسفة والأدب ·

عالم الكيمياء :

قضى فيلسوفنا فترة من عمره فى رحاب الخليفة « عضد الدولة » الذى كان شغوفا بالكشوف العلمية ، وبما أبدعه العلماء ، خصوصا فى دنيا الكيمياء ·· ولقد كان ابن مسكويه يركز اهتمامه ـ فى بادىء الأمر ـ

على الكيمياء ، فكانت آنئذ شغله الشاغل ، حيث راح يستخلص النتائج من خلال عملية مزج المواد وخلط عناصرها ، عارضا هذه النتائج على الخليفة. فكان بذلك يشبع فضوله الشديد فى هذا الشأن . حتى ان الخليفة كان يتناول طعامه في حين يقف ابن مسكويه الى جانبه ليسأله عن تلك العناصر التى تتألف منها الأطعمة ، وعن منافعها ومضارها !

الفيلسوف :

ولئن كانت علوم الكيمياء قد شغلت ابن مسكوية فترة من حياته ، الا انه لم يكتف بها ، ولم يتوقف عندها ، وانما راح يشق طريقه الى الفلسفة ، وينهل من معينها ويضعها فى موضعها الصحيح اللائق بها .. فقد كانت ـ فى زمنه ـ تمثل نوعا من المعارف النظرية : من منطق ، وطبيعة ، ورياضيات وسياسة واخلاق واقتصاد .

اطلع ابن مسكويه على نتاج العقل اليونانى ، ودفعه اعجابه بأفلاطون الى قراءة كل كتبه .. وقد زاد اعجابه بارسطو ، خصوصا فى كتابه « الأخلاق » وكتاب « النفس » و « المقولات » .. أما جالينوس فقد قرأ له كتاب « التشريع » و « منافع الأعضاء » و « فى تعريف المرء عيوب نفسه » و « انتفاع الأخيار بأعدائهم » . كذلك تأثر بنتاج فلاسفة الاسلام .. ومنهم الكندى والفارابى وابن سينا .

شاهدا على عصره

واذا كانت الحياة قد ازدهرت فى حكم « بنى بويه » ، وعم الرخاء والتقدم ، الا أن هذا لم ينف ما أصاب هذه الحياة من فساد وانحراف وفوضى !! فقد غرق الناس فى ملذاتهم ومتاعهم ، وعبثهم . وجاء فيلسوفنا لكى يكون شاهدا على عصره الذى فقد قيمه الأخلاقية وأضاع مثله العليا !!

فظهر هذا الفيلسوف كرد فعل لهذه الحالة السيئة التى انحدرت اليها البلاد فكانت فلسفته الأخلاقية ، أصدق تعبير عما يحتاج اليه مجتمعه من قيم ، ومبادىء ، وفضائل ، ومن هنا كانت أغلب كتاباته فى الدعوة الى اصلاح النفوس وتوجيهها الى حياة أفضل . فنراه يحدثنا فى هذا الصدد فى كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » فهو يرى ان الناس اما أخيار بالطبع ، أو أشرار بالطبع ، أو لا أخيار ولا أشرار ، لكن التطبيع الاجتماعى يجعلهم أخيارا أو أشرارا .. وهو يعنى بالشخص الخير .. الشخص الذى تصدر عنه الأفعال الانسانية .

أما علم الأخلاق ، فهو عنده ذلك الذى يبحث فيما يجب أن تكون عليه أخلاق الانسان فى الجماعة ·· لهذا ، كانت محبة الناس فى نظره انما هى أساس كل الفضائل ·· وهو يرى أن « أحكام الشريعة » لو فهمت فهما صحيحا لأصبحت أشبه بالركيزة التى يقوم عليها مذهب أخلاقى قوامه محبة الانسان للانسان ··

وقد ألف ابن مسكويه كتبا كثيرة فى الفلسفة والتاريخ لم يصلنا منها الا ما يأتى :

١ ـ كتاب « تجارب الأمم فى التاريخ » : وهو تاريخ عام يبدأ بالخليفة وينتهى سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ويدخل فى ذلك تاريخ الفرس القدماء وما يتعلق به من أخبار الروم والترك · وقد استغرق هذا المؤلف ستة مجلدات كبيرة ·

٢ ـ كتاب : آداب العرب والفرس : وهو فى ستة مجلدات أيضا ، تكلم فيها عن الأخلاق والآداب عند العرب والفرس والهند واليونان ·

٣ ـ الفوز الأكبر : وهو فى الفلسفة وما يتعلق بها · وفى جملة ذلك رأيه فى المخلوقات ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف طبقاتها من الجماد والنبات والحيوان · وتبعه كتاب الفوز الأصغر تلخيصا له·

٤ ـ كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : وهو من كتبه الهامة والذى نحن بصدده فى هذا الفصل من الكتاب ·

★★★

محتويات تهذيب الأخلاق

وكتاب تهذيب الأخلاق مقسم الى سبع مقالات عالج ابن مسكويه فيها على التوالى :

١ ـ النفس والفضائل ·

٢ ـ مراتب القوى وشرفها (الخلق ، ماهيته وكيفية تكونه) ·

٣ ـ الفرق بين الخير والسعادة وأقسام الخير ·

٤ ـ ظهور السعادة فى الأفعال الناشئة عن الفضائل ·

٥ ـ فى الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض ·

٦ ـ علاج أمراض النفس (الوقاية) ·

٧ ـ رد الصحة على النفس (العلاج) ·

نعرض مع شيء من التفصيل لكل مقال على حدة :

١ ـ النفس والفضائل

يبرهن ابن مسكويه فى هـذا المقال على أن النفس ليست بجسـم ولا حالة من أحوال الجسم وانما هى شيء آخر مفارق له فى جوهره ، متخذا نفس البراهين التى أوردها أرسطو تقريبا · والنفس لا تأخذ علمها من الحواس ، ولكنها تأخذ هذا العلم من ذاتها أى من العقل · وهى تواقة الى العلوم والتأمل ، كما ان قوى النفس تنقسم الى ثلاثة أقسام : قوة ناطقة وتسمى الملكية وآلتهـا الدماغ ، وقوة غضبية وتسمى السبعية وآلتهـا القلب ، والقوة الشهوية وهى تسمى بالبهيمية وآلتها التى تستعملها من البدن الكبد · والفضائل والرذائل تقابل هذه القوى ، فالحكمة فضيلة النفس العاقلة ، وهى تتـأتى عن العلم ، والسخـاء هو فضيلة النفس البهيمية وهو يتأتى عن العفة ، وفضيلة النفس الغضبية الشجاعة وهى تتأتى عن الحلم · وهذه الفضائل الثلاث يحدث عنها اذا اعتـدلت فى نسبة بعضها الى الأخرى فضيلة رابعة هى كمالها وتمامها وهى فضيلة العدل · وعلى ذلك فالفضائل كما أجمع عليها الحكماء أربع وهى : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، واضدادها : الجهل والشره والجبن والجور · وهذه الفضائل ليست الا أجناسا يندرج تحت كل منها أنواع كثيرة ·

والفضائل ليست الا أوساطا بين أطراف متباعدة وهى الرذائل ، فكل فضيلة وسط بين رذيلتين : فالحكمة وسط بين السفه والبله ، ويقصد من السفه هنا استعمال القوة الفكريـة فيما لا ينبغى وكما لا ينبغى ، والذكاء وسط بين الخبث والبـلادة ، والعفـة وسط بين الشره وخمود الشهوة والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والسخاء وسط بين التبذير والتقتير · أما العدالة فهى وسط بين الظلم والانظلام أى تحمل الظلم · ذلك ان الظلم هو « التوصل الى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغى وكما لا ينبغى ، وأما الانظلام فهو الاستجداء (العطاء) والاستحانة (تحمل الظلم) فى المقتنيات لمن لا ينبغى كما لا ينبغى ، أى أن الانظلام أن تتنازل عن حقوقك حيث لا ينبغى ·

ولا شك ان الفضائل خاصة بالانسان دون الحيـوان ، والانسان لا يستطيع وحده تحقيق الفضائل فهو لكى يكمل ذاتـه فى حاجـة الى معاونة أناس كثيرين من بنى جنسه وعلى ذلك خلق الانسان مدنيا بطبعه ، أى خلق محتاجا الى مدينة من بنى جنسه يعيش فيها فى تعاون تام معهم

حتى تتحقق له السعادة · فالانسان مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم بالحسنى ومحبتهم المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته ، وهم محتاجون اليه أيضا لانه يكمل انسانيتهم · فاجتماع الناس فى حياة مدنية انما يؤدى بهم الى تحصيل الفضائل الانسانية · ولذلك يحمل ابن مسكويه على الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم ، « اما بملازمة المغارات فى الجبال واما ببناء الصوامع فى المفاوز واما بالسياحة فى البلدان » لان مثل هؤلاء « لا يحصل لهم شىء من الفضائل الانسانية ، ولا تظهر فيهم العفة ولا الجدة ولا العدالة » بل تصير قواهم وملكاتهم التى ركبت فيهم باطلة · فالمعزولون عن المجتمع والحياة الاجتماعية عند مسكويه ليسوا فضلاء وليسوا أعفاء وليسوا عادلين ، رغم انه يظن بهم الفضيلة والعفة والعدل · ذلك أن الناس يظنون ان هؤلاء فضلاء لانه لم يصدر عنهم رذائل أو ما يضاد الفضائل ، وهذا خطأ لان الفضيلة ليست ضدا ولا عدما بل هى فعل ايجابى يظهر عند مشاركة الناس الحياة الاجتماعية ، وليس بالفاضل من يمتنع عن الرذائل فقط ، لان مجرد الامتناع عن الرذيلة لا يكون الفضيلة ، بل الفضيلة هى المشاركة الايجابية فى الحياة حتى تكثر الخيرات وتتحقق السعادة ·

ولكن اذا كانت هذه هى حال الفضائل ، فكيف يتكون الخلق الانسانى الذى يؤدى اليها ؟ ذلك هو موضوع المقالة الثانية ·

٢ ـ الخلق ماهيته وكيفية تكوينه

الخلق ـ فيما يروى مسكويه ـ حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية · وهذه الحال تنقسم الى قسمين : فيها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالانسان الذى يحركه أدنى شىء نحو غضب ويهيج من أقل سبب ··· ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب · أى أن السلوك الانسانى يحتوى على عنصرين : عنصر طبيعى غريزى ، والآخر مكتسب بالعادة والمران ·

وبعد أن يعرض لآراء العلماء كأرسطو وجالينوس ، وبعد بحثه لقضية ما اذا كان الخلق طبيعيا لا يمكن تغييره أو انه غير طبيعى يمكن تغييره بالمواعظ والتدريب ينضم الى هذا الرأى الأخير ، لان الأطفال ينشأون بحسب الاسلوب الذى ربوا عليه فى المجتمع ، ولكن مع ذلك يختلف الأفراد فى قبولهم الأخلاق الفاضلة اختلافا بينا ونجد منهم من هذه الناحية مراتب كثيرة ودرجات لا حصر لها ، اذ منهم « المتوانى والممتنع

والسهل السلس ، والصعب العسر ، [illegible] الأطراف ... » فالناس يتباينون فى ذلك حتى لنجد منهم من هو أقرب للحيوان فى تخلفه ومنهم من هو أقرب للملائكة ، وبين هذا وذاك مراتب لا حصر لها .

نستطيع اذن أن نقوم الخلق وان نكمله ، وان ننزع عنه الرذائل ، وتلك هى مهمة « صناعة الأخلاق » التى هى أفضل « الصناعات » ، اذ صناعة الأخلاق هى التى « تعنى بتجويد أفعال الانسان بما هو انسان » .

ولكن ما هى الأسس التى تقوم عليها « صناعة الأخلاق » هنا يذكر مسكويه بعض المبادىء .

أولا : الغرض من علم الأخلاق الوصول بالانسان الى الكمال ، وكمال الانسان يختلف عن كمال المركبات الأخرى ، كالحيوان والنبات والجماد من حيث ان كماله تفكير وعمل . ذلك ان كمال الانسان كمالان ، كمال العلم وكمال العمل ، أو النظر والتطبيق ، ومهمة علم الأخلاق تنحصر فى الجانب العملى أى تقويم الخلق وتحقيق « الكمال الخلقى » فى الفرد بحيث لا تتصارع فى داخل نفسه القوى المختلفة وتصدر أفعاله كلها بحسب القوة العاقلة ، وينتهى علم الأخلاق الى « التدبير المدنى الذى يرتب الأفعال والقوى بين الناس حتى تنتظم الى ذلك الانتظام ، ويسعدوا سعادة مشتركة كما كان ذلك فى الشخص الواحد » .

ثانيا : اللذات الحسية لما كانت مشتركة بين الانسان والحيوان فانها ليست اللذات الجديرة بالانسان ، بل اللذات العقلية التى يتميز بها الانسان عن سائر المخلوقات هى الجديرة بأن يبحث عنها .

ثالثا : يجب أن ينشأ الأطفال على السلوك السليم وفق برنامج يسير وفق ظهور قوى النفس فى الأطفال اذ أول ما يظهر النفس الشهوية، ثم بعد ذلك النفس الغضبية وأخيرا النفس العاقلة . وبذلك وضع مسكويه برامج لتنشئة الأطفال على آداب الأكل والشرب والملبس (القوة الشهوية) وعلى الشجاعة والجرأة (النفس الغضبية) ثم على تحكيم العقل فى الأفعال (النفس الناطقة) .

فالأخلاق تستهدف الوصول بالانسان الى الكمال وهذا الكمال يؤدى به الى السعادة والى الخير ولكن ما السعادة وما الخير وما الفرق بينهما ؟ وهذا موضوع المقالة الثالثة .

٢ ـ السعادة والخير ، ماهيتهما وأقسام الخير

هنا يعرض مسكويه لرأى أرسطو فى التفرقة بين الخير والسعادة . اذ الخير ما يقصده الكل بالشوق فهو طبيعة تقصد لذاتها ، والخير له ذات وهو الخير العام للناس من حيث هم ناس فهم بأجمعهم مشتركون فيه ، أما السعادة فهى خير خاص بفرد ما ، فليس لها ذات معينة وهى تختلف بالاضافة لقاصديها من شخص لآخر · وعرض بعد ذلك لاختلاف الحكماء القدامى فى فكرتهم عن السعادة ، اذ ذهب بعضهم وعلى رأسهم أفلاطون الى أن السعادة تخص النفس وحدها دون البدن ، وعلى ذلك فلن تحدث سعادة للانسان طالما ظلت النفس متعلقة بالبدن · وانما تكون سعادة النفس بعد مفارقتها للبدن لان حاجات الجسم وافتقاره الى أشياء كثيرة تعوق النفس عن الحكمة والتأمل ، ووفق هذا الرأى لا سعادة للانسان الا بعد الممات · وذهب فريق آخر من الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو الى أن السعادة تحدث للانسان مع اتصال النفس بالبدن وتختلف من شخص لآخر ، فالفقير يرى سعادته في الثروة والمريض يرى أنهـــا فى الصحة والذليل يرى انها فى السلطان والفاضل يرى السعادة فى افاضة المعروف على المستحقين · وكل تلك سعادات متى حصل عليها صاحبها فى الوقت المناسب وبالقدر المناسب ، وما كان منها مرادا للحصول على شىء آخر فذلك الشىء الآخر يكون أجدر بلفظ السعادة ·

ويقف مسكويه موقفا وسطا بين هذين الرأيين : اذ لما كان الانسان مكونا من روح وجسم ومادام الانسان انسانا فـلا تتم له السعادة اذن الا بتحصيل السعادة الروحيـة والسعادة البدنية · والسعادة تكون على مرتبتـين : المرتبـة الأولى : أن يكون الشخص متعلقـا بأحوال الأشياء الجسمانية سعيدا بها ولكنه مع ذلك يطالع الأمور الروحية مشتاقا اليها باحثا عنها ومتحركا نحوها · أما المرتبة الثانية فهى أن يكون الانسان متعلقا بالأشياء الروحية سعيدا باحوالها العليا ، وهو مع ذلك يطالـع الأمور البدنية معتبرا بها ، ناظرا فى علاقات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها · ولكن اذا قارنا فيما يرى مسكويه بين هاتين المرتبتين وجدنا أن المرتبة الأولى لا تخلو من الآلام والمنغصات والحسرات وهى أمور تلازم الأشياء الحسية التى تشغل الانسان عن السمو بروحه نحو الملأ الأعلى كلية · أما المرتبة الثانية فيكون الانسان فيها سعيدا سعادة تامة ، فانه وقد قطع كل صلة بالمحسوسات لن يتألم لشىء ولا لأى حادث ، وهو بانشغاله بعالم الروح سينتقل من حال الى حال (على طريق الصوفية) حتى يصل الى مرتبة الملائكة وذلك عن طريق العشق الالهى ·

ولكن ما موقف فضائل العدالة والشجاعة والعفة من السعادة ؟ ذلك موضوع المقالة الرابعة من الكتاب ·

٤ ـ السعادة فى فضائل العدالة والشجاعة والعفة

السعادة لا شك تحدث لمن يقوم بممارسة الفضائل من العدالة والشجاعة والعفة وما يندرج تحتها من فضائل نوعية ، ولكن لكى تؤدى الفضائل الى السعادة لابد أن تكون مستهدفة بنية خالصة لا لأمور زائفه خارجة عنها · ففى حالة الشجاعة نجد أشخاصا ـ فيما يرى مسكويه ـ يتصرفون تصرف الشجعان وهم ليسوا كذلك كمن يقدم على الحرب والقتال لا لغرض الا لانه سينال من ذلك أجرا ، فانه يفعل هذا « بطبيعة الشره لا بطبيعة الفضيلة التى تدعى الشجاعة » · كما لا يعد كل من يقدم على الأهوال شجاعا ولا كل من لا يخاف الفضائح · فالشجاعة هى الاقدام والصبر على الأهوال ومقاومة الشهوات حيث تجب هذه الأمور · على ان لذة الشجاع ـ على حد تعبير مسكويه ـ ليست تكون فى مبادىء أموره فان مبادىء الأمور تكون مؤذية له ، ولكنها تكون فى عواقب الأمور وتكون أيضا باقية مدة عمره وبعد عمره ، لاسيما اذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة فى وحدانية الله عز وجل ، والشريعة التى هى سياسة الله وسننته العادلة التى بها مصالح العباد فى الدنيا والآخرة » · والشجاعة تتعلق بالعفة ، فكل شجاع عفيف حكيم ، وكل حكيم شجاع عفيف · على أن هناك أفعالا تظهر صاحبها بمظهر العفة والسخاء وهو ليس كذلك · بل يتصنع ذلك للحصول على مزيد من المال أو الشهرة أو كمن يبذل المال فى الشهوات ، وكذلك ليس بعادل من يعدل فى بعض الأمور ليصل عن طريق ذلك الى المال أو الشهرة أو تحقيق شهوة من الشهوات لان العادل بالحقيقة هو الذى يعدل قواه وأفعاله وأمواله كلها ، حتى لا يزيد بعضها على بعض ، ثم يروم ذلك فيما هو خارج منه من المعاملات والكرامات ، ويقصد فى جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضا آخر سواها · فالعدل اذن أن يعدل الفرد بين قواه وأفعاله المختلفة فلا يطغى مثلا القوة الشهوية على العقلية و لاعلى الغضبية ولا تطغى الغضبية على القوتين الأخريين · ثم يعدل فى معاملاته مع الناس · والعدل مشتق من معنى المساواة والمساواة هى أشرف النسب الرياضية ، فالعدل مساواة ، فاذا تعذر ايجاد المساواة استخدمت النسب للوصول للعدل ·

ثم يبين ان العدالة توجد فى ثلاثة مواضع : قسمة الأموال وقسمة المعاملات فى البيع والشراء ، ثم القسمة فى حالة وقوع الجور والظلم ·

ويبين مسكويه أسباب الظلم ويلخصها في أربعة وهى الشهوة والشر والخطأ والشقاء · ثم يقسم العدالة الى ثلاثة أقسام احدهـا ما يقوم به الانسان لربه والثانى ما يقوم به للناس من أداء الحقوق والثالث ما يقوم به الانسان من تأدية التزامات أسلافه كأداء ديونهم وتنفيذ وصاياهم · ثم يبين أثر العداله فى سعادة الفرد والمجتمـع ذاكرا رأى أفلاطون فى هذا المعنى وكيف أن وظيفة السلطان والدولة هى العدل ومنع الظلم ·

ويختتم مسكويه هذه المقالة باشارته الى أن بعض العلماء يرون أن المحبة بين الناس هى أساس ضرورة العدالة ، فالعدالة انما جعلت فضيلة لعدم وجود المحبة بين كل الناس · فلو سادت المحبة فى العلاقات بين الأفراد لأنصف بعضهم بعضا وأحب لغيره ما يحب لنفسه · ومثل هؤلاء العلماء يرون ان فضيلة « التأحد » أى الحياة فى مجتمع واحد هى أشرف غايات أهل المدينة ، فاذا أحب كل منهم الآخر واتحدوا سادت السعادة الجميع · وهذه الخاتمة للمقالة الرابعة ليست الا مدخلا للمقالة الخامسة التى يبحث فيها مسكويه ضرورة المجتمع البشرى وحاجة الناس الى تكوين المجتمعات ·

٥ ـ فى الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض

هنا يردد مسكويه نظرية أفلاطون من أن الانسان تلزمه كثير من الأشياء لكى يعيش ، وهو لا يستطيع تحقيق هذه الأشياء وحده ، لذلك كان الاجتماع ضروريا بين الناس لانهم يكملون بعضهم بعضا ، ولذلك أيضا قامت المحبة بينهم · والمحبة على أنواع : فمنها التى تنعقد سريعا وتنحل سريعا ، وتلك هى المحبة التى تؤدى اليها اللذة لأن اللذة سريعة التغير ، ثم المحبة التى تنعقد سريعا وتنحل بطيئا ، وتلك هى المحبة التى تعقد بقصد تحقيق النافع من الأشياء والأمور ، ثم المحبة التى تنعقد بطيئا وتنحل بطيئا وتلك هى المحبة التى تعقد بقصد تحقيق الخير · وكل هذه الأنواع من العلاقات خاصة بالانسان لانها لا تتم الا بعد تفكير وروية · ثم يحلل مسكويه فكرة المحبة وأثرها فى حياة الجماعة فيبين كيف أن الصداقة نوع من المحبة ولكنها محبة خاصة تقوم على الود ، بل هى الود نفسه ، وهى تقوم بين الأحداث لتحقيق اللذة أو المنفعة ، وتكون الصداقة بين الأخيار لتحقيق الخير · وكذلك العشق الالهى أو المحبة الالهية نوع من المحبة وتمثـل شوق الجـزء الالهى فى الانسان الى الاتحـاد بالذات

العليا التى هى من نفس جوهرها · وهذه المحبة هى المحبة فى الله وهى لا تكون الا بين الأخيار بينما المحبات الأخرى قد تكون بين الأشرار · والمحبة هى أساس الحياة الاجتماعية وما سمى الانسان انسانا الا لأنه يأنس الى أخيه الانسان ويجتمع به ويؤاخيه · وثمة صور كثيرة من المحبة ، كالمحبة بين السلطان والمحكومين وبين الولد والوالد وبين طالب الحكمة ومعلمها ومحبة العبد لخالقه · ويعرض مسكويه لكل من هذه العلاقات وما قد يطرأ عليها من مفاسد والظروف التى تجعل منها علاقات حسنة توطد حياة الفرد والجماعة · ثم يتكلم عن الذين يغشون المحبة والصداقة مبينا ان ضررهم أكبر بكثير من ضرر الذين يغشون الدرهم والدينار ، ثم يوجه نصحه للأفراد ، فمثلا فى حالة الصداقة يجب أن يكثر الفرد من مراعاة صديقه ولا يستهين بالقليل فى حقه عند مهم يعرض له أو حادث يحدث به ، وعلى ذلك فللصداقة التزامات يجب أن يقوم الفرد بها ، ومن هنا يجب على الانسان ألا يكثر من الصداقات الا بالقدر الذى تحتمله ظروفه وبالقدر الذى يستطيع فيه أن يفى بحاجاتها ، لأن كثرة الصداقات مع عدم القدرة على الايفاء بالتزاماتها يحولها الى عداوات ·

ويطنب مسكويه فى وصف التزامات الصديق نحو صديقه · ولكن هل يقتصر الانسان على الصداقة ؟ لا ، بل لابد أن يصل الى الصداقة الالهية والعشق الالهى وهو أسمى أنواع المحبة ·

(٦ ـ ٧) الوقاية .. والعلاج

فى هاتين المقالتين يبحث مسكويه فى تشخيص بعض الأمراض النفسية والاجتماعية والوقاية منها وعلاجها · وهاتان المقالتان ليستا الا نوعا من التربية للنفس · ففى المقالة السادسة يوجه النظر الى أن الصحة النفسية تستلزم أن يعمل الانسان فكره لأنه لو عطل نفسه عن التفكير فان هذا يؤدى بها الى البلادة · « ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه أن يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى ، لا يجرز له الاخلال بها البته ، لتجرى النفس مجرى الرياضة التى تلزم فى حفظ صحة البدن ، وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس · وذلك ان النفس متى تعطلت عن النظر وعدمت الفكر والغوص على المعانى ، تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير · واذا ألفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطلة ، قرب هلاكها لان فى عطلتها هذه انسلاخا من صورتها الأصلية ورجوعا منها الى رتبة البهائم ... » واذا كان من الضرورى تقوية القوة العاقلة المفكرة فان من الضرورى كذلك الاقتصاد فى الأكل والشرب وعدم المبالغة فيهما لان الانسان جبل على المبالغة فى اللذات الجسمية ، بينما

اللذات العقلية خير وأبقى وتؤدى الى سعادة أكثر · فالذى يفكر ويروض نفسه على التفكير يصل الى لذائذ لا يصل اليها أغنى الناس بالمال والسلطان أو الملوك · وليتخذ الانسان من القوت الضرورى جدا لحفظ حياته وصحته ولا يثير رغباته الشهوية · ويجب أن يستعد المرء دائما لمجاهدة النفس الشهوية والغضبية كمن يستعد لحرب أو للتغلب على أعداء بالعدة والعتاد والتحصن · ذلك هو الجانب الوقائى للأمراض النفسية · أما الجانب العلاجى فهو موضوع المقالة السابعة والأخيرة · ويعدد الأمراض النفسية والاجتماعية بادئا من الفضائل التى — كما ذكرنا — ليست الا أوساطا بين طرفين ، وكل من الطرفين يعد شرا · ولما كانت الفضائل أربع هى الشجاعة والعفة والحكمة والعدل ولما كانت كل فضيلة وسطا لطرفين ورذيلين فان عدد الرذائل يكون ثمانية وهى التهور والجبن وهما طرفا الشجاعة ، والشره والخمول وهما طرفا العفة ، والسفه والبله وهما طرفا الحكمة والجور والمهانة أو الظلم والانظلام وهما طرفا العدالة ·

ويستعرض مسكويه هذه الرذائل واحدة واحدة فيبين سببها ومظاهرها ويبين السبيل الى الخلاص منها فالتهور مثلا سببه الغضب الذى يأتى من اعتلال النفس الغضبية وذلك فى حالة المزاج الحاد اليابس الذى يثور لأتفه الأسباب · أما الأسباب المولدة للغضب فهى العجب والافتخار والمراء واللجاج (٢) والمزاج والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور اللذيذة التى يتنافس عليها الناس ويتحاسدون ··· ويتناول مسكويه ما تؤدى اليه هذه الرذائل من رذائل أخرى ويبين خطرها فى حياة الجماعة · والعلاج فى ترويض النفس وتمرينها أو مجاهدتها حتى تصير فى حدود عادية ، ففى حالة التهور تمرن النفس الغضبية حتى لا تثور لأتفه الأسباب وحتى تخلد للحلم ، أما فى حالة الجبن فنجد النفس الغضبية بالعكس فى حاجة الى أن تستيقظ وتقوى بحيث « توقظ النفس التى تمرض بهذا المرض بالهز والتحريك » فمثلا يحكى عن بعض الفلاسفة انه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ويركب البحر عند اضطرابه ليعود نفسه الثبات فى المخاوف· بالتمرين اذن والمجاهدة والمجالدة العملية يصل الانسان الى علاج نفسه من هذه الأمراض وما يتبعها من عوارض ·

أهمية كتاب التهذيب فى تقويم الأخلاق فى كل العصور

يقول مسكويه فى غرضه من تأليف هذا الكتاب :

« ان غرضنا أن نحصل لانفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها

جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي · والطريق فى ذلك ان نعرف أولا نفوسنا : ما هى وأهم شيء هى ولأى شيء أوجدت فينا ؟ أعنى كمالها وغايتها وقواها وملكاتها التى استعملناها على ما ينبغى بلغنا بها هذه المرتبة العلية · وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذى يزكيها فتفلح وما الذى يدنسها فتخيب ؟ » ·

اذن فان أهمية هذا الكتاب ترجع الى تقويم الأخلاق والسلوك على أساس دراسة علمية سليمة وفق المستوى الذى وصلت اليه العلوم آنذاك · والواقع أن كتاب التهذيب يمثل العصر الذى وجد فيه أصدق تمثيل ، ففى ذلك العصر كان تيار الترف شديدا جارفا عند طبقات الأمراء والخلفاء من يتصلون بهم الى جانب البؤس الشديد لكثير من من الطبقات الأخرى · وأدى الترف والاناقة الى خلق قوانين متعارفة لكل شيء وألفت فى ذلك الكتب المطولة ، فألفوا فى « حدود الظرف » وما يقدم من الأطعمة وما يؤخر و « آداب الحمام » و « آداب الزينة » وطريقة معاملة الأمراء والخلفاء ·· ومن أمثلة ذلك كتب « مرآة المروات » و « مكارم الأخلاق » و « اللطائف والظرائف » و « العقد النفيس فى نزهة الجليس » للثعالبى النيسابورى · أى أن العلاقات الاجتماعية بين الأفراد فى هذا العصر كانت محل دراسة ومؤلفات تؤلف على نهج علمى لتحديدها · ولاشك ان علم الأخلاق على رأس الدراسات التى تحدد علاقة الفرد بغيره من أفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم ، فكان هو الآخر محل دراسة الكثير من العلماء المعاصرين لمسكويه ·

ومسكويه يعرض فى كتابه « تهذيب الأخلاق » بشكل متضمن حينا صريح حينا آخر الأمراض الأخلاقية التى انتشرت فى عصره من العجب والخيلاء عند بعض الأمراء والملوك والكراهية التى انتشرت بين بعض الطبقات والحسد والغيرة والمشاحنات ، لأن عصره كان عصر تنافس بين عناصر الدولة من ترك وفرس وعرب ، بل وتنافس بين أمراء كل عنصر من هذه العناصر · وكان ثمة حقد دفين بين الطبقات لان ثروات الأمراء فى الدولة البويهية وغيرها وصلت الى أرقام خيالية بينما الطبقات الأخرى ومنها طبقة العلماء كانوا لا يجدون ما يسدون به رمقهم !!

كل هذه الأحوال نتجت عنها أمراض اجتماعية ونفسية خطيرة تفشت فى المجتمع آنذاك الى جانب التنافس والتناحر على السلطة والمراكز ، وهذا ما عالجه مسكويه فى كتابه فى أكثر من مقال ومطلب · والى جانب المشكلات النفسية والاجتماعية يعالج مسكويه قواعد علاقات الأفراد بينهم ببعض فى شتى دقائقها ·

واذا كنا قد قلنا ان فى فلسفه مسكويه الخلقيه نزعه واقعيه عمليه مستفادة من تجاربه الشخصية ، فاننا نود ذكر عهده الذى عاهد نفسه وربه عليه ، وهو العهد الذى نجده مذكورا فى « معجم الأدباء » لياقوت · وفى كتاب « المقابسات » للتوحيدى · وقد يكون فى هذا العهد من جانب مسكويه رد على انحطاط الأخلاق فى عصره انحطاطا كبيرا ·

يقول مسكويه : « هذا ما عاهد عليه الله فلان ، وهو يومئذ آمن فى سربه معافى فى جسمه · عنده قوت يومه لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، فلا يوالى مخلوقا ، ولا يستجلب منفعة من النـاس ، ولا يستدفع مضرتهم · عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ما استطاع، فيعف ويشجع ويحكم · علامة عفته ان يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمله السرف على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته · وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره قبيحة ، ولا غضب فى غير موضعه · وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهده ثمرتها التى هى العدالة · وعلى ان يتمسك بهذه التذكرة ، ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها · وهى خمسة عشر بابا هى :

١ ـ ايثار الخير على الشر فى الأفعال والحق على الباطل فى الاعتقادات والصدق على الكذب فى الأقوال ·

٢ ـ ذكر السعادة وان تحصيلها يكون باختيـار دائما · وكثرة الجهاد الدائم لاجل الحرب الدائمة بين المرء ونفسه ·

٣ ـ التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ·

٤ ـ حفظ المواعيد حتى أنجزها وأول ذلك ما بينى وبين الله عز وجل ·

٥ ـ قلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ·

٦ ـ محبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ·

٧ ـ الصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ·

٨ ـ حفظ الحال التى تحصـل بشىء شىء حتى تصير ملـكة ولا تفسد بالاسترسال ·

٩ ـ الاقدام على كل ما كان صوابا ·

١٠ـ الاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره ·

١١ـ ترك الخوف من الموت والفقر بعمل ما ينبغى وترك الدنية ·

١٢ـ ترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم والانفعال لهم ٠

١٣ـ حسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان بجهة وجهة ٠

١٤ـ ذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضى عند الغضب ليقل الطغى والبغى ٠

١٥ـ قوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله تعالى وصرف جميع البال اليه ٠

فاذا يسر الله تعالى له اصلاح نفسه بما جاهد عليه تفرغ بعد ذلك الى اصلاح غيره ٠ وعلامة ذلك ان لا يبخل على أحد بنصيحة ولا يمنع أحدا رتبة يستحقها ولا يستبد دون الاخيار بما يتسع له ٠ فاذا أكمل الله له ذلك ورفع عنه العوائق والموانع ، وبلغه ما فى نفسه من هذه الفضائل ليصير بها من أوليائه الفائزين وأنصاره الغالبين وعباده المؤمنين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقد استجاب له بحمده الى كل ما دعاه به ووثق بعد ذلك من جانبه الى كل ما وكله الى جوده من اعطائه مالا يحسن ان يرغب فيه ، واعاذته مما لا يحسن أن يستعيذ منه ٠ وهو حسبه وعليه التوكل ولا قوة الا به » ٠

هذا وقد امتدح الطوسى (٣) كتاب التهذيب لمسكويه فقال :

بنفسى كتابا حاز كل فضيلة
وصار لتكميل البرية ضامنا
مؤلفه قد أبرز الحق خالصا
بتأليفه بعد ما كان كامنا
ووسمه باسم الطهارة قاضيا
به حق معناه ولم يك مائنا
لقد بذل المجهود لله دره
فما كان فى نصح الخلائق خانيا

هـوامش

(١) **دولة بنى بويه** : (٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م) من الدويلات الكثيرة التى انقسمت اليها الدولة الاسلامية فى أيام ضعفها ٠

(٢) اللجاج :التمادى فى العناد الى الفعل المزجور عنه ٠

(٣) **الطوسى** : نصير الدين الطوسى (١٢٠١ ـ ١٢٧٤ م) فيلسوف فارسى له شأن كبير فى العلوم الفلسفية والرياضيات والفلك ٠ كانت له منزلة كبيرة فى تاريخ الحياة العقلية الاسلامية عند الفرس ٠

رسالة الغفران

أبو العلاء المعري

١٠٢١ م

تنفرد «رسالة الغفران» بمكانة خاصة ، نقلتها من نطاق الأدب العربى الى النطاق العالمى ٠

وحتى القرن الثالث عشر الميلادى ، لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلمات قصارا ذكرها مؤرخوه فى ترجمته ٠ وقد اكتفى «القفطى» فى انباء الرواة باثباتها فى فهرست مصنفاته بين « رسائله الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة » وكذلك فعل « سبط بن الجوزى » فى مرآة الزمان فذكرها بين « المصنفات الحسان لأبى العلاء » و « أبو القاسم الكلاعى المغربى » الذى أشار اليها فى أحكام صنعة الكلام ، بين رسائله « التى لها بال » ٠

ولكن فى القرن التاسع عشر ، بدأ اسم رسالة الغفران يتردد فى الأوساط الأدبية بأوربا ، مقترنا بالكوميديا الالهية لدانتى ، على سبيل لمح شبيه بينهما أولا ، ثم على سبيل المقارنة المنتهية الى أن دانتى متأثر بأبى العلاء ، وقد يكون قلده وأخذ عنه !

لكن نص الرسالة لم يعرف على صورة ما ، حتى شهر يوليو عام ١٨٩٩ ، حين نشر المستشرق الانجليزى « نيكلسون » فى « المجلة الأسيوية الملكية : « J.R.A.S. » انه ظفر بمخطوطات عربية ، أهمها رسالة الغفران ، كانت فى حوزة المستشرق « شكسبير » ثم قدم فى عام ١٩٠٠ وصفا للمخطوط وترجمة ملخصة للجزء الأول من الرسالة مع الأصل العربى لكثير من أشعاره وفقراته ٠ وفى عام ١٩٠٢ نشر نيكلسون ملخص القسم الثانى مترجما مع الأصل العربى ٠

وكان ما نشره نيكلسون هو النص الذى رجع اليه المستشرق الأسبانى « ميجويل أسين بلاسيوس » فى دراسته لرسالة الغفران مع أصول اسلامية وغيرها ٠ وقد نشر هذه الدراسة بالاسبانية فى مدريد عام ١٩١٩ بعنوان La Escatologia Musulmana en la Divina وترجمه سندر لاند الى الانجليزية بعنوان : الاسلام والكوميديا الالهية :
"Islam and The Divin Comedy" وطبع فى لندن عام ١٩٢٦ ٠

وفى عام ١٩٣٩ أصدر بلاسيوس بعد دراسة واسعة متخصصة استغرقت ربع قرن : « أن أصولا اسلامية من بينها رسالة الغفران ، قد كونت أسس الكوميديا الالهية » . وقد ترجم بلاسيوس فصولا من الغفران ، قابلها على نصوص من الكوميديا الالهية .

وأحدث الكتاب دويا فى العالم الأوربى ، وأخذت رسالة الغفران من ذلك الحين ، مكانها فى دراسات المستشرقين ، وتتابعت البحوث والمقالات الخاصة بها ، تأييدا لنظرية أسين بلاسيوس أو معارضة لها . وفى عام ١٩٤٩ نشرت مكتبة الرسل بالفاتيكان فى روما كتابا للمستشرق الايطالى « تشيروللى » عنوانه : كتاب السلم — يعنى المعراج — ومسألة المنابع العربية الاسبانية للكوميديا الالهية » .

وفى هذا الكتاب يؤيد تشيروللى نظرية بلاسيوس بنشر نصوص اسلامية ، وجدت مترجمة الى اللاتينية والفرنسية فى المكتبة الأوربية قبل دانتى ، وذيل هذه النصوص بفصل خاص عن « دانتى والاسلام » فيه كلام على تأثر دانتى بالغفران ، والمعراج وغيرهما من الآثار الاسلامية التى نقلت الى أوربا عن طريق اسبانيا .

وكان لهذه الشهرة العالمية لرسالة الغفران ، صداها فى الشرق ، وكما حدث فى أوربا ، بدأ اسم الرسالة يتردد مقترنا بكوميديا دانتى على سبيل التشبيه ، ثم على سبيل المقارنة والقول بالأخذ والاقتباس .

ففى عام ١٩٠٤ ظهرت ترجمة البستانى لالياذة هومير ، وفى مقدمتها يقول : « وان من أحسن ملاحم المولدين ، ملحمة نثرية جمع فيها صاحبها شتيت المعانى وأوغل فى التصور حتى سبق دانتى الشاعر الايطالى ، وملتن الانجليزى ، الى بعض تخيلاتها . ألا وهى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى » .

ثم نشر جورجى زيدان كتاب تاريخ الآداب العربية ، وفيه يقول عن أبى العلاء فى الغفران : « فتخيل رجلا صعد الى السماء ووصف ما شاهده هناك ، كما فعل دانتى شاعر الطليان فى الرواية الالهية ، وما فعل ملتن الانجليزى فى الفردوس المفقود ، لكن أبا العلاء سبقهما ببضعة قرون ، فلا بدع اذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه . وأقدمهما دانتى ، لم يظهر الا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين ، والايطاليون أسبق الافرنج الى ذلك » .

وقال الدكتور طه حسين فى رسالته عن أبى العلاء :

« والفرنج يشبهونها — رسالة الغفران — بكتاب دانتى الطليانى الذى سماه La comedia Divina وكتاب ملتن الانجليزى الذى سماه الجنة الضائعة » .

وقـرر الأستاذ محمد كردعلى « أن أعمى المعرة كان معلمـا لنابغة ايطاليا فى الشعر والخيال » (٢) ومن بعده قال الميمنى : « ... وما ملتن الانجليزى صاحب الفردوس الغابر الا من الاتباع .. ومثله شاعر الطليان دانتى فى كتابه ـ الكوميديا الالهية ـ بيد انا أهل المشرق لم نحتفظ بمآثر أسلافنا ولم نؤمنها من بوائق الضياع » (٣) .

صاحب الرسالة

ولكن .. ماذا عن صاحب رسالة الغفران ؟ .

انه أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخى .

ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، فى ٣ من ربيع الأول٣٦٣هـ . وينتمى الى قبيلة تنوخ « وهى من أكثر العرب مناقب وحسبا ومن أعظمها مفاخر وأدبا » وقد نزحت جماعة منها الى المعرة من قديم . فكان منهم بنو سليمان ، أجداد أبى العـلاء ، وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائهـا وعلمائها وشعرائهـا من بنى سليمان ابن داود بن المطهر » .

وبدأ خطوته على الطريق المهيـأ لمثله ، مرجوا لمستقبل مرموق ، بما تلقى من ميراث سلالته العريقة فى الفضل والعزة والعلم والأدب .

ولكنه ابتلى بصدمة فادحة قبل أن تستقيم خطوته على الدرب : اعتل فى سنته الرابعة علة الجدرى ، فما برىء منها الا بعد ان شوهت وجهه بندوب لا برء منها ، وذهبت بنور بصره فأسدلت بينه وبين الدنيا حجابا أسود لا أمل فى انحساره حتى آخر العمر .

ومن ذلك الحادث الملم ، فى الطفولة الباكرة ، بدأت رحلة أبى العلاء فى هذه الدنيا وقصته معها .

ولكن لم تفل هـذه الكارثة من حـد عزيمة المعرى ولم تثبطه عن التطلع الى أعالى الأمور واستجلاء غوامض الفنون ، وآزره على نوال بغيته ذكاؤه المفرط وحافظته النادرة وعقله الجبار مع ذلك الطبع الذى يكاد يسيل رقة وصفاء .

فقد قرأ القرآن على أئمة من شيوخ القراءات ، وسمع الحديث من أبيه وجده وجدته ، وجماعة من محدثى بلده فى زمانـه . وتلقى علوم العربية على أبيه ، وعلى جماعة من أصحاب « ابن خالويه » (٤) فظهر من

مخايل نجبته وفطنته ما جعل أباه يمضى به الى حلب حيث تلقى النحو على امام العربية فى حلب : محمد بن عبد الله بن سعد النحوى ، راوية الشاعر أبى الطيب المتنبى ·

ومن عهد صباه الغض ، ظن أبو العلاء انه اهتدى الى سلاحه فى معركة الوجود ، وعرف طريقه على الدرب : مواهبه تعوضه عن عجزه ، ونور العلم يمنحه الضياء ·

وفى اعتداد واصرار صمم على ان يتحدى محنته ويشق سبيله لا يعوقه فقد البصر ، ويلغ المدى فى مكابرته ، فرئى فى صباه يلعب النرد والشطرنج ويأخذ فى فنون الجد واللهو كما يفعل لداته المبصرون !

وبدا كأن الدنيا لا تتسع له ، لفرط طموحه واعتداده بمواهبه :

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
باخفاء شمس ضوؤها متكامل

يهم الليالى بعض ما أنا مضمر
ويثعل رضوى دون ما أنا حامل

وانى وان كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

« سقط الزند »

وأملى له القدر حينا ، فمضى فى شبيبته على غلوائه ، يبهر أهل بلده بنادر ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريته ، ويسرف فى أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والاقبال على الحياة مع الولع بالعلم والجد فى طلبه ·

وما كان فى لطف حسه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته ، بحيث يغيب عنه عقم هذه المكابرة فى تحدى محنته ومعاندة قدره ، وقد افلتت منه ، فى ذلك العهد ، ومضات كاشفة عن عالمه النفسى المجهد بالصراع بين شد الطموح وعجز الوسيلة ، بين ارادة الحياة وخيبة الرجاء ·

وفيما هو حائر بين اليأس والأمل ، مات أبوه سنة ٣٩٥ هـ فنفذت الطعنة الى صميم كيانه ، وفقد الشاب الضرير من كان له أبا وصديقا وقائدا ومرشدا · فتركته اللطمة فى مهب الريح لا يقر له قرار ·

كان حين تلقى اللطمة فى الثانية والثلاثين من عمره ·

وفى غربته النفسية ، اتجه تفكيره الى بغداد ، عاصمة الدنيا آنذاك فشد الرحال ليجد نفسه فى دوامة الموج الهادر لمجتمع العاصمة ·

لماذا ألقى بنفسه ، وهو الضرير المستطيع بغيره ، فى ذلك الخضم الهـــادر ؟

وماذا لقى فى العاصمة الكبرى من صدمة زلزلت كيانه ، ودفعت به الى اصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان ؟

ظاهر الأمر أنه بعد أن بهر اقليم حلب بعلمه وأدبه ، أحب المقام « بدار العلم لمكان دار الكتب بها » كما قال فى رسالته الى أهل المعرة عند منصرفه من العراق عائدا الى بلده ·

ولكن وراء هذا السبب الصريح الظاهـر ، عاملا خفيـا فى أعماق وجدانه : كانت الأيام قد أنضجت وعيه لذاته ، وكشفت له عن عقم مكابرته، لكنه ظل يقاوم دواعى القنوط ، ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما اراد من تحدى الدنيا و « معاندة القدر » · حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم معركته بالسفر الى بغداد ، ليبلو طاقته على المضى فى المقاومة والمعاندة ·

وأغلب الظن انه صفى قبل الرحلة حسابه مع طموحه ، فلم يستبق منه الا الأمل فى المجد العلمى والجاه الأدبى · واذا كان قد ظفر فى اقليم حلب والشام ، بشهرة بعيدة المدى ، فقد بقى أن تعترف به العاصمة · فشد رحاله اليها يحدوه رجاء فى أن يفر من الهزيمة التى أحس بوادرها فى أعماق وجدانه وأمل فى أن يفرض وجوده على الدنيا والناس ·

وتزود للرحلة بأسلحته التى يملكها : ذكاء شبه اسطورى ، وفقه عميق لعلوم العربية والاسلام ، وموهبة أدبية أصيلة متنوعة ·

ولكن أبا العلاء صدم فى بغداد حين وجـد أن معركة وجوده فى العاصمة الكبرى تحتاج الى أسلحة أخـرى لا يملكها من الدهـاء والمـكر والحيلة والنفاق !

كانت رحلة حاسمة ، فصلت ما بين شطرين متميزين من حياته : ذهب الى بغداد متفتح الأمل بعيد الطموح ، وانسحب منها بعد عام وبعض عام ، منكسر القلب مهزوما ، فلزم بيته فى المعرة ، وقد صمم على أن يعتزل الدنيا والناس ، وعاش رهين محبسيه ــ العمى والعزلة ــ نحو نصف قرن، يقاوم حبه للدنيا فى بسالة ، ويروض بشريته على أقسى ضروب الحرمان ، حتى أراحه الموت فى عام ٤٤٩ هـ من محنة الوجود وهم المكابدة ·

وبعـد ·· فان يكن أبو العـلاء قد امتحن بعمى البصر ، فقد بقى له نور البصيرة ·

ومنحته صفاء الذهن ووضوح الرؤية ، فكان البصير الذى خبر الدنيا كما لم يخبرها الغارقون الى أذقانهم فى خضمها ، المعتزل الذى خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها ٠

والى آخر عمره ، ظل يخوض معركته الشريفة الباسلة فى مجاهدة شغفه بالدنيا وتعلقه بها ، وفى رفض الظلم والبغى والتضليل والأثرة والنفاق ٠

اضاءة لما حول الرسالة

اننا نحتاج قبل أن نقدم رسالة الغفران ، ان نسوق قبلها اضاءة حول ظروف الزمان والمكان ، وحال أبى العلاء عندما تلقى رسالة ابن القارح وأملى رده عليها ٠

ورسالة الغفران أمليت فى أخريات الربع الأول من القرن الخامس الهجرى ، فهى من آثار أبى العلاء فى الشطر الثانى من حياته ٠ أملاها فى صميم عزلته بمعرة النعمان ، وقد بلغ الستين من عمره ، ومضى على عودته من بغداد مهزوما مهيض الجناح ، نحو ربع قرن من الزمان ، انطوى فيه على نفسه محزونا ، يروضها على الصبر والاحتمال ، ويغريها براحة اليأس بعد أن تعب من الدنيا ٠

وقد أنضجته هذه السنون الطوال ، وأرهفت العزلة حدسه ووجدانه ، وأوغل فى النفاذ الى أعماق نفسه ، فانكشف له المطوى من همومه وأشواقه وجراحه لطول ما أصغى الى نبض وجدانه ، وتمزقت حجب الوهم والمداراة ، فاذا راحة اليأس قد عزت عليه بعد ان عزت عليه قبلها نعمة الأمل ، واذا الانصراف النفسى عن الدنيا ، بعيد المنال ٠٠

وكان هو يمليها ، شيخا قطع مراحل الصبا والشباب والكهولة ٠ وأشرف على الشوط الأخير من رحلة الدنيا ، فاتجهت نفسه الى التأمل الطويل فى مصير الانسان ٠

أما لماذا أملاها ؟ فظاهر الأمر انها كتبت ردا على رسالة بعث بها اليه أديب حلبى من معاصريه ٠ وهذا يقتضى أن نعرف الأسباب التى دفعت ابن القارح الى كتابة رسالته ٠ و « ابن العديم » قد ذكر سببا منها، هو ما بلغه من أن أبا العلاء قال ، لما ذكر له ابن القارح : « هذا الذى هجا أبا القاسم بن المغربى » ٠ ونقر رساله ابن القارح فنزيد هذا الموقف بيانا ، وتقدم سببين هما :

أولهما : أن « أبا الفرج الزهرجى : كاتب نصر الدولة » كان قد كتب رسالة الى أبى العلاء وسأل ابن القارح ايصالها اليه • فسرق رحل له فيه هذه الرسالة ، فوجب الاعتذار عن ضياعها •

والثانى : ان ابن القارح سمع انه ذكر لأبى العلاء ، فلم يعرفه الا بهجائه لأبى القاسم بن الوزير المغربى • وابن القارح قد كان صنيعة آل المغربى ، وطالما غمروه بنعمتهم حين كانت الدنيا لهم • فهجاؤه أبا القاسم ، بعد أن دارت الدنيا عليهم ، ظاهرة غدر وجحود ، تنم عن لؤم النفس وشر الطبع • وقد فطن ابن القارح الى ماتدل عليه عبارة أبى العلاء ، عن سوء رأيه فيه ، فكتب رسالته يبرر هجاءه لأبى القاسم ويعبر عن ارتياعه من أن يستشر أبو العلاء طبعه فيقول :

« بلغنى مولاى الشيخ أدام الله تأييده انه قال وقد ذكرت له : أعرفه خبرا هو الذى هجا أبا القاسم على بن الحسين المغربى ! فذلك منه – أدام الله عزه – رائع لى ، خوفا أن يستشر طبعى وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر » •

وفى ضوء هذا نفهم لم استهل أبو العلاء رده على ابن القارح ، بمقدمة سيطر عليها جو السواد – على ما سنشير اليه بعد – كما نفهم ما فى القسم الثانى من الرسالة ، من فصول ساخرة عن النفاق ، وعن توبه ابن القارح وحجه الخمس !

وتعطينا رسالة ابن القارح سببا آخر لكتابتها ، فمنها نعلم ان الرجل بعد أن جاوز السبعين من عمره ، وتعب من الرحلة والسعى والنضال ، أحب أن يريح شيخوخته بالاستقرار فى بلده « حلب » • ومن ثم حرص على أن يتصل الود بينه وبين شيخ المعرة : أديب العصر وامام العربية فى الشام • ولم يكن بين الاثنين سابق تعارف أو لقاء • فأحب ابن القارح أن يقدم نفسه الى شيخ المعرة • فى رسالة اخوانية مطولة ، يبدو فيها الحرص على الاعلان عن بضاعته من اللغة والأخبار ، ومحفوظه من الأشعار ، والتحدث عمن لقى من أعلام العصر وشيوخ العربية •

وذلك أيضا مما يفسر لنا حرص أبى العلاء على التفنن فى أماليه العربية والأدبية ، جريا على عادة أدباء عصره فى رسائلهم الاخوانية التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، وردا على ابن القارح بما يبهره ويرده الى شىء من التواضع !

على انه لم يكد يبدأ املاء جوابه ، حتى انصرف عن رسالة صاحبه ، فى رؤيا عجيبة من رؤى اليقظة ، انطلق به فيها الى عالم آخر تمثل فيه جنته وناره ، ثم آب من رؤياه ، ليستأنف الرد على ما فى رسالة ابن القارح •

الرسالة

ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى تتكون من مقدمة وقسمين رئيسيين :

المقدمة الثعبانية !!

والمقدمة فى جملتها ، من الأمالى اللغوية والأدبية ، وقد ساقها أبو العلاء بأسلوب الألغاز وهو فن بديعى ولع به أصحاب الصنعة الأدبية فى عصره ٠

ففى مستهل الرسالة ، أراد أبو العلاء أن يعرب عما يغمر قلبه من الود لابن القارح ، فاختار أن يلغز عن ذلك بأن الله يعلم أن فى مسكنه حماطة ـ وهى شجرة تألفها الحيات ـ تضمر له من الود ما لا تضمره أم لولدها ، سواء أكانت من ذوات السم أو من غيرهن ! ومضى فألغز عن القلب بالخصب ـ وهو ذكر الحيات ـ وبالأسود وهو الثعبان ! مفسرا للغز فى كل مرة ، ومعقبا عليه بحديث لغوى وشواهد من الشعر ، فى الحماطة والخصب والأسود وأبى الأسود ، وسودة وسوادة والأسودين !

وتعلق د٠ عائشة عبد الرحمن (٥) على هذه المقدمة بقولها : «لا اذكر ان أحدا من الدارسين قد التفت قبل اليوم ، الى هذه المقدمة الثعبانية السوداء ! وانما شغلنا بتفسير ألفاظها ، والاستدلال بها على براعة أبى العلاء وثراء معجمه اللغوى ، وعن فهم عالمه النفسى وهو يلقى صاحبه بمثل هذه التحية التى لا نعرف لها نظيرا فى الرسائل الاخوانية ٠٠ »٠

والواقع أن أبا العلاء أصغى الى رسالة ابن القارح ، وهو ضيق النفس بما فيها من ملق ونفاق وخبث مشمئز من اسرافه فى ذم أبى القاسم المغربى تبريرا لهجائه اياه بعد أن تنكرت له الدنيا ٠ فلما بدأ يملى رده ، صدر فيه عن وجدان منفعل بهذا الاشمئزاز والضيق ، فجاء جو المقدمة

مشحونا بالحيات فى نعومتها السامة ، وفى تلويها وتسللها وتبديلها لجلودها مع دورة الفصول ، ثم بهذا السواد الذى شارك السم والحيات فى السيطرة على جو المقدمة ·

القسم الأول

ويبدأ القسم الأول من رسالة الغفران ، بخبر عن وصول رسالة ابن القارح ، المفتتحة بتمجيد الله ، ومن هذا التمجيد ، كان المنطلق الى العالم الآخر ، ففى قدرته تعالى أن يجعل كل حرف من كلمات ابن القارح فى تمجيده ، معراجا من نور يعرج بالشيخ – ابن القارح – الى عالى السماوات · وقد غرس له بفضل هذا الكلم الطيب ، شجر فى الجنة ، يجلس الشيخ فى ظله مع من اصطفى من ندامى الفردوس ، وكلهم من علماء اللغة ورواة الشعر (هم : المبرد ، وابن دريد ، ويونس بن حبيب ، والاخفش ، وثعلب ، وسيبويه ، والكسائى ، وأبو عبيدة ، والأصمعى) · وهم بالمجلس يتذاكرون ويتناشدون الأشعار ، والولدان المخلدون قيام وقعود فى خدمتهم ، والكئوس من الفضة والذهب والأباريق من صنوف الجوهر ، يغترفون بها الشراب من أنهار خمر الجنة وعسلها المصفى · واذ يذكر الندامى ما قال شعراء الدنيا الفانية ، فى الخمر ونشوتها وكئوسها وأباريقها ، يجىء ذكر الأعشى ، فيتمنون لو انه كان بينهم يطربهم بشعره ، فلا يكادون يعربون عن هذه الامنية حتى يمثل أمامهم « الاعشى » شابا أحور العينين ! ويعجبون لوجوده فى الجنة وقد مات كافرا وأقر على نفسه بالفاحشة ، ويسألونه : بم غفر له ؟ فيجيب بأن قصيدته الدالية التى نظمها فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد شفعت له فأدخل الجنة على ألا يشرب خمرا ، لأنه كان فى طريقه الى الرسول ، ليسلم وينشده القصيدة ، فصدته قريش ·

وينظر « ابن القارح » فى رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، عليهما لافتتان باسم «عبيد بن الأبرص» و «زهير بن أبى سلمى» ، واذ يسألهما : بم غفر لهما وقد ماتا فى الجاهلية ؟ يجيب عبيد انه نال ثواب بيته :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم
ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر ، فيوضع فى كتاب ، فيدخر
ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

ويسأل ابن القارح عبيد بن الأبرص عن « عدى بن زيد » فيدله عليه فيلقاه ويسأله : بم غفر له ؟ فيجيب انه كان على دين المسيح ، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وانما التبعة على من سجد للأصنام • ويستنشده الشيخ قصيدته الصادية :

أبلغ خليلى عبد هنـد فـلا
زلت قريبا من سواد الخصوص

ويناقشه فى بعض ألفاظهـا ، لكن عديا يزهـد فى هذه المناقشة اللغوية ، ويدعوه الى رحلة صيد ، فيشفق ابن القارح من ركوب الخيل ويذكر مصارع بعض من ركبوها ، فيبتسم « عدى » ضاحكا ، ويذكره بأن أهل الجنة لا يحيق بهم ضر ! ويركبان سابحين من خيـل الجنة ، فيلقيان فى رحلتهما النابغتين : الذبيـانى والجعدى ، يتحادثـان أمام قصرين من الدر ! ويطول حديث الشيخ معهما فى مسائل تتعلق بشعرهما• ثم يلتئم جمع الشعراء والأدباء ، ويمر سرب من أوز الجنة ، ينتفضن فيصرن كواعب حسانا بأيديهن المزاهر وآلات الطرب ، ويسألهن الشيخ أن يصنعن لحنا بعد لحن فى شعر للنابغة الذبيانى ، فيأتين بالألحـان المطلوبة ، ببراعة فذة ، ويفد على المجلس لبيد بن ربيعة ، ويخطـر لهم غناء المغنيات بالفسطاط أو مدينـة السلام ، بشعر للمخبل السعدى ، فتندفع المغنيات ــ من أوز الجنة ــ مستجيبات لما يطلبون •

ويمر « حسان بن ثابت » بالمجلس ، فيدعونه للمحادثة ويسألونه فى أبياته الخمرية التى جاءت فى قصيدته الهمزية ، فى مدح الرسول ، ثم يفترق المجلس ويستأنف الشيخ طوافه فى رياض الجنة فيلقى خمسة نفر ليس فى أهل الجنة أجمل من عيونهم ! واذا هم عوران قيس : تميم ابن أبى بن مقبـل ، وعمرو بن أحمـر ، والشماخ ، والراعى النمـيرى ، وحميد بن ثور • ويطيل مساءلتهم فى شعرهم ، فيعجبون لحفظه ، وكأنه لم يشهد أهوال الحشر •

مشـاهد أهوال الحشر :

وهنا يروى « ابن القارح » مشهد الحشر ، وكيف شق عليه وأرهقه، فخطر له أن يتقرب الى خزنة الفردوس بقصائد فى مدحهم ، لعلهم يعجلون بادخاله الجنة ! غير انهم لم يحفلوا بهذا الشعر ، وسألوه أن يفصح عن رغبته • فلما فعل ، أنكروا عليه ان يتصور ان يأذنوا له فى دخول الجنة بغير اذن من رب العزة ! وينصح له أحدهم ــ وقد عرف انه من أمة العرب ــ أن يستعين على مطلبه بنبى العرب • فمازال الشيخ يتوسل بآل البيت

حتى تحدثوا فى أمره الى السيدة فاطمة الزهراء وقالوا : « هذا ولى من أوليائنا قد صحت توبته ، ولاريب أنه من أهل الجنة • قد توسل بنا اليك فى أن يراح من أهوال الموقف » فقبلت السيدة فاطمة ، رجاءهم وعهدت الى أخيهـا « ابراهيم » عليه السلام ، فى أن يصحبه الى أبيهـا الرسول ، فسأل صلى الله عليه وسلم عن عمله فوجـده من أهل الجنـة فشفع له •

وعبر الشيخ الصراط بمعونة جارية للسيدة فاطمة حتى وصل الى باب الجنة ، لكن خازنها « رضوان » أبى أن يأذن له بالدخول وليس معه جواز ! فالتمس منه الشيخ أن يعطيه ورقـة من شجرة صفصاف ــ على باب الجنة من داخل ــ ليعود بها الى الموقف فيأخذ عليها جوازا ! ورفض « رضوان » أن يخرج شيئا من الجنة بغير اذن من العلى الأعلى ••

وفى غمرة يأسه وحيرته ، التفت اليه ابراهيم عليه السلام ــ وكان قد سبقه الى الجنة ــ فرآه متخلفا عنه ، فجذبه جذبة أدخلته الفردوس • وكان مقامه بالموقف ستة أشهر فقط من شهور الدنيا • فلذلك لم تنزفه أهوال الحشر ولا نهكه تدقيق الحساب • فبقى عليه حفظه !

وبعد أن يقص الشيخ على عوران قيس ، قصة المحشر ويصف لهم لقاءه هناك بأبى على الفارسى وقد احاط به قوم من العرب يسألونه عن روايته لشعرهم ، ويحاسبونه على أخطائه أقسى حساب ، يستأنف محادثته الأدبية مع عوران قيس واحدا بعـد الآخر ، الى أن يعـرض لهم « لبيد ابن ربيعة » فيدعوهم الى منزله بالقيسية ــ حى من أحياء الجنة ــ وهناك يرون ثلاثة بيوت ليس فى الجنة نظيرها بهاء وحسنا • ويخبرهم لبيد ، انها أبيات ثلاثة من شعره ، قالها فى الدنيا :

ان تقوى ربنـــا خير نفـــل
وباذن الله ريثى والعجـــل
أحمد الله فـــلا نـــد لـــه
بيديـه الخير ، ما شاء فعـــل
من هـداه سبل الخير اهتـدى
ناعم البـال ، ومن شاء أضـــل

صيرها الله تعالى أبياتا فى الجنة ، بفضله وكرمه •

ويقيم ابن القارح مأدبة يدعو اليها كل من فى الجنـة من الشعراء واللغويين والمتأدبين ، فتنحر الذبائح وتعد أشهى الأطعمة ، ويدعى من فى الجنـة من مشهورى المغنين والمغنيـات أمثـال : الغريض ومعبـد

وابن مسجح وابن سريج والموصليين ، وبصيص ودنانير وعنان والجرادتين. وبعد أن يفترق المجلس ، يخلو ابن القارح بحوريتين ، يلفته من احداهما طيب رائحة فمها ، ومن الأخرى بياضها الناصع ! فتخبره الأولى أنها كانت تدعى فى الدار الفانية (حمدونه الحلبية) وقد طلقها زوجها ـ بائع السقط ـ لرائحة كرهها من فيها . وتخبره الأخرى أنها (توفيق السوداء) التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ، وتخرج الكتب الى النساخ .

ويزهد ابن القارح فيهما بعد الذى سمعه منهما . ويسأل احد الملائكة عن الحور العين اللواتى لم يكن من نساء الدنيا ! فيرشده الملك الى شجر الحور ، حيث يكسر احدى الثمار فتخرج منها حورية باهرة الجمال، تخبره انها كانت تمنى بلقائه قبل أن يخلق الله الدنيا ! فيسجد الشيخ لله شكرا .

مشاهد أهل النار :

ويبدو للشيخ أن يطلع على أهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة ويسير ، فيمر فى طريقه بجنة العفاريت حيث يلقى شيخا من الجن المؤمنين ، يسمعه قصيدتين مطولتين من عجيب نظمه ! ثم يستأنف سيره ، فيرى أسد القاصرة الذى افترس « عتبة بن أبى لهب » بعد أن دعا الرسول ربه أن يسلط عليه كلبا من كلابه . ومن بعد الأسد ، يقابل الذئب الذى كلم الاسلمى ، ثم يرى فى أقصى الجنة بيتا حقيرا وفيه رجل ليس عليه نور أهل الجنة ! يخبره أنه « الحطيئة » وصل الى الشفاعة بالصدق فى قوله :

أبت شفتاى اليوم الا تكلما
بهجر فلا ادرى لمن أنا قائله
أرى لى وجها قبح الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله !

ويعجب الشيخ لم لم يغفر له بقوله :

ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

فيجيب الحطيئة : سبقنى الى معناه الصالحون ونظمته ولم أعمل به، فحرمت الجزاء عليه !

وبعد أن يسأل عن (الزبرقان بن بدر) يخلفه ويمضى ، فاذا هو « بالخنساء » قريبة المطلع الى النار ، تخبره انها أحبت أن تنظر الى

« صخر » فرأته كالجبل الشامخ ، والنار تضطرم فى رأسه وقد صح مزعمها فيه :

وان صخرا لتأتم الهداة به
كأنه علم فى رأسه نار

ويلقى ابن القارح فى النار ، ابليس اللعين • ويدر بينهما حوار عنيف ، يسأل فيه ابليس عن « بشار » فاذا هو أمامهما يسام سوء العذاب، لكن عذابه لم يصرف « ابن القارح » عن مساءلته فى اخبار دنياه ، ومناقشته فى شعره ، ويفعل ذلك مع من لقى من شعراء النار : امرىء القيس ، وعنترة العبسى ، وعلقمة بن عبده ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث اليشكرى ، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، وأبى كبير الهذلى ، وصخر الغى ، والأخطل التغلبى ، ومهلهل ، والمرقشين ، والشنفرى •

حتى اذا قضى من محاورتهم مأربه ، انطلق عائدا الى الجنة ، فمر فى طريقه الى منزله بأبينا آدم حيث سأله فى الشعر المنسوب اليه ، وفى لغة أهل الجنة ، ثم مر بروضة الحيات ، فسمع عجبا من رواية احدى الحيات للشعر ، وفقه حية أخرى بالقراءات ، وقد كانت تسكن فى جدار بيت أبى الحسن البصرى ثم انتقلت منه الى بيت أبى عمرو بن العلاء ثم الى جوار حمزة بن حبيب ، ففقهت قراءة القرآن !

وعرج فى طريقه على جنة الرجز ، حيث قابل منهم : « الاغلب العجلى ،والعجاج ورؤبة وأبا النجم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس وأبا نخيلة » وصارحهم برأيه فى الرجز ، وقرر ان مكانهم المتواضع فى الجنة على قدر منزلتهم الهابطة فى الشعر اذ الرجز أضعف القصيد •

وتنتهى الرحلة بوصول « ابن القارح » الى محله المشيد فى دار الخلود •

وبانتهاء الرحلة ينتهى القسم الأول من رسالة الغفران •

★★★

القسم الثانى

وفيه يرد أبو العلاء على ما جاء فى رسالة « ابن القارح » اليه ، فقرة فقرة ، مستطردا خلال رده الى أمال لغوية وأدبية ، ومتعرضا لقضايا نقدية وتاريخية هامة ، مما شغل أئمة العربية فى عصره وما قبله ٠

وقد أطال أبو العلاء فى هذا القسم ، الحديث عن النفاق والمنافقين ، وعن الزندقة والزنادیق ، تعليقا على ما تعرض له ابن القارح من أمرهم ٠

وأورد أبو العلاء نصوصا من شعرهم ومرويات من أخبارهم ، ثم استطرد يتحدث عن الفرق والمذاهب : الامامية والمعتزلة والأشاعرة والشيعة والكيسانية ٠٠ وهذا الحديث الطويل عن الزندقة ، كان موضع ريبة من مؤرخى أبى العلاء المعرى ، فقد ذكر ياقوت فى معجم الأدباء « ان ايراده لمثل هذا الشعر واستلذاذه به من امارات سوء عقيدته وقبح مذهبه » وقال الذهبى (٦) عن الغفران : « وفيها مزدكة واستخفاف » ٠ وان كنا نرى فى رسالة « ابن القارح » ما يفسر الموقف ٠

★★★

الرسالـة

أثر فنى مبدع

كانت رحلة أبى العلاء المعرى ـ فى رسالة الغفران ـ الى العالم الآخر، هى التى شغلت الأوربيين لما رأوا من ملامح الشبه بينها وبين الكوميديا الالهية لدانتى ·

وما تزال قضية تأثر دانتى بأبى العلاء موضع خلاف ، على انه مهما يكن الرأى فيها ، فالذى لاشك فيه ان لرسالة الغفران قيمتها الكبرى ، من حيث هى أثر فنى مبدع ، ولما تكشف لنا من عالمه النفسى في تلك المرحلة من حياته : عالم أديب بشر ، ضرير مقيد محروم ·

فجنة أبى العلاء ، أهلها اللغويون والشعراء ، ومن يقوم على خدمتهم من الولدان المخلدين ، والمغنين والمغنيات · وأبونا آدم جيء به ليسأل فى قضايا شعرية ولغوية ، والجن المؤمنون شعراء بارعون ، والحيات يروين الشعر ، وفيهن من لها علم بالقراءات · والشعراء يغفر لهم بأبيات قالوها من الشعر ، ومنازلهم فى الجنة حسب درجتهم فى الشعر ما بين رجز وقصيد · والقيان يغنين بمختارات من الشعر ، والراقصات يرقصن على نغمه وايقاعه · وحديث الندامى لغة وشعر ، ويتنافر المتنافرون ويتخاصم المتخاصمون فى الجنة حول مسائل لغوية ومرويات من الشعر ·

وجنة أبى العلاء جنة بشر ، عاش أكثر عمره مقيدا حبيسا يجاهد أهواء بشريته ، وأشواقهـا ، فلم يطق أن يتمثل جنته هادئـة بالسكينة والسلام ، بل ملأها حركة وضجيجا ، ورقصا وغناء ، ونزهة وصيدا ، ويعلو الصوت فيها حتى يصير صياحا وصخبـا ، وتعنف الحركة حتى تصير عراكا !

فأبو العلاء الذى حرم على نفسه كل متع الدنيا ، حشد فى جنته كل ما خطر على باله وتمثلته بشريته المحرومة المكبوتة من صنوف المتع الحسية والملاذ المادية · وأسرف فى ذلك حتى جاء بهذه المتع مشخصة ممثلة ! واللافت هنا ان أبا العلاء يحب الا تخلو جنته من ملامح دنيانا : فالقصور عليها لافتات بأسماء الشعراء ، ودخول الجنة لا سبيل اليه بغير جواز

مكتوب ، وفى الجنة خيـل لهواة الصيد ، وناقة لمن يشتهى أن يحلب اللبن ! والشيخ يأمر أن يكون من بين طهاة مأدبته طهاة حلب ، ولا يحتاج الموعودون السعداء الى أن يعبروا عما يشتهون ، بل يكفى أحيانـا أن تخطر لأحدهم الرغبة أو يهجس فى خلده الشوق ، فيجـد ما اشتهى حاضرا ماثلا !

« والجنة لن تكون جنة لأبى العلاء ، وفيها أعمى أو ذو عاهة ! بل ليس يكفيه أن يرتد الأعمى بصيرا ، والأعشى أحور ، والأعور سليم العينين، وانما يلتمس لكل من ابتلى بعاهة فى الدنيا ، أن يعوض عنها فى الآخرة تعويضا لا يقترحه الا المبتلى المحروم ·

وفى المحشر ، نرى عراكا بين أبى على الفارسى وجماعة من العرب ، لأنه أخطأ فى رواية شعر لهم · ونرى ابن القارح يحاول التقرب الى خزنة الجنة بقصائد نظمها فى مدحهم !

وكذلك الأمر فى الجحيم : « بشار » قد أعطى عينين بعد الكمة ، وابن القارح يسأل خزنة النار عن مهلهل ، فيعرفه بأنه الذى يستشهد النحويون بقوله كذا وقوله كذا ! والحوار مع شعراء النار ــ والشيخ لم يلق غيرهم ــ فى الشعر واللغة والرواية والانتحال · وهو يواسيهم فى عذابهم ويحزن لبلواهم ويصغى الى شكواهم دون أن يجردهم من عواطف بشريتهم ·

وأبو العلاء فى تصوير عالمه الآخر ، متأثر دون شك بما فى البيئة الاسلامية من وصف للحياة الأخرى ونخص بالذكر : الجنة والنار فى القرآن الكريم ، والمرويات الاسلامية عن الثواب والعقاب والشفاعة ، فى كتب الحديث والتفسير وقصة المعراج ، ثم ديوان الشعر العربى للجاهلية وصدر الاسلام ، بما فيه من وصف للمتع والملذات وفنون اللهو والطرب والمتعة ، نقلها المعرى الى جنته · وكذلك الأساطير العربية التى عرفت فى البيئة الاسلامية عن أفاعيل الجن ومغامراتهم وشجر الحور ·

لكن أبا العلاء ، صاغ عالمه الآخر صياغة فريدة لها طابعها المتميز ، فلم ينقل شيئا من هذه المرويات الا بعد أن ينفذ به الى أعماق وجدانه ، ويستجيب فيه لما تنفعل به نفسه من أشواق وهموم · وقد أضاف الى كل ما وعاه من مرويات عن الجنة والنار ، وأوصاف للملذات والعذاب مواد جديدة من صميم ذاتيته وأحلام يقظته ، فجاءت الصورة علائيـة أصيلة متميزة ، وفيها جديد من الفن الأدبى لم يعرفه النثر العربى قبل أبى العلاء ·

والواقع أن رسالة الغفران ما تزال ذخيرة حية خصبة من تراثنـا الانسانى ، لم نظفر بعد بكل كنوزها ، ولم نجل كل أسرارها الفنية ·

لولا الكوميديا ما خرجت رسالة الغفران من قبرها !!

ماذا كان يحدث لو كان الأب « ميجويل أسين بلاسيوس » قد أخفى اكتشافه وجعله سرا يدفن معه يوم مماته ؟ ·· هذا الاكتشاف الذى اكد ان رائعة أوربا المعروفة بالكوميديا الالهية لشاعر العصور الوسطى « دانتى » منقولة عن أصول عربية · لو كان قد فعل ذلك ·· لترتب عليه عدد من النتائج فى مقدمتها استمرار هذا السر مجهولا ، واستمرار اختفاء حقيقة وجود الجسور التى كانت تربط بين الفكر العربى والفكر الأوربى فى العصر الوسيط ، والأكثر استمرار هذه المصادر العربية مجهولة ·· الا لمن أراد التعرف على تراكيب لفظية أو قضايا فقهية أو كلاسيكيات تاريخية أو مسائل نحوية ·· أو أى أمر يبعدنا عن جوهرها الحقيقى الذى يعلن أبوتها للكوميديا الالهية ·

لقد كانت قنبلة هائلة تلك التى ألقاها أكبر المستشرقين الاسبان « بلاسيوس » عام ١٩١٩ باعلانه ان دانتى (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) فى رائعته الكوميديا الالهية مقلد لبعض الكتب العربية التى وردت عن معراج النبى عليه الصلاة والسلام وأهمها كتاب « رسالة الغفران » وكتاب « الفتوحات المكية » ·

وطبيعى أن يقابل اكتشاف « بلاسيوس » بهجوم شديد ، وبخاصة من الايطاليين الذين عز عليهم أن يفجعوا فى عملهم الأكبر ومناط فخارهم « دانتى » وعلى الرغم من أن بلاسيوس قد رد عليهم الا أن ردوده كانت فى حاجة الى دليل قاطع يؤكد وصول هذه الكتب العربية الى فلورنسا بلغة يفهمها دانتى نفسه ·

وجاء الدليل حين أصدر المستشرق الايطالى « انريكو تشيرولى » كتابا عام ١٩٤٩ نشر فيه الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة للكتابات العربية للمعراج الاسلامى ، وتلخص قصة هذه الترجمة فى أن الفونسو العاشر ملك قشتالة باسبانيا أمر بترجمة هذه الكتابات من العربية الى القشتالية · وقد قام بها الطبيب اليهودى ابراهيم الحكيم عام ١٢٦٤ أى قبل مولد دانتى بعام واحد ، بعد ذلك طلب هذا الملك من المترجم الايطالى

« بونا فنتوراداسينا » ترجمتهـا من القشتاليـة الى اللاتينية والفرنسية القديمة فى نفس السنة لاذاعتها فيما وراء الحدود الاسبانية وبذلك أيد « تشيرولى » فكرة بلاسيوس بما لا يدع مجالا للشك ٠

فاذا أدركنا كيف وصلت هذه الكتابات الأدبية العربية التى أوحت بها قصة المعراج الى يد دانتى ٠ يبقى أن نعرف أوجه التشابه والتقليد بينها وبين الكوميديا الالهية ٠ لكن قبل هذا ينبغى أن نعرف فكرة عن الكوميديا الالهية لدانتى حتى تسهل المقارنة ذلك بعد أن عرفنا رسالة الغفران من قبل ٠

فالكوميديا الالهية رحلة خيالية أيضا الى الدار الآخرة قام بها دانتى نفسه متخذا دليلا له هو الشاعر الرومانى الخالد « فرجيل » الذى عاش ومات قبل الميلاد حيث اصطحبه فى هذه الرحلة مبتدئا بالجحيم على عكس المعرى الذى ابتدأ بالجنة وابان ذلك يناقش دانتى صاحبه فرجيل في جوانب كثيرة من الفكر والحياة والناس متفننا فى وصف الجنة والأعراف والجحيم ووصف فيها من النعيم والحساب والعذاب وتخيـل المشاهير من الأدباء والمفكرين ممن سبقوه أو عاصروه وفى مقدمتهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وبابوات روما فى أماكن مختلفة هنا أو هناك يحادثهم ويسألهم الى ما أدى بهم الى هذه الأماكن ٠

ومن هنا فالعملان « رسالة الغفران » و « الكوميديا الالهية » متفقان فى البناء العام والخطوط العامة وبعض التفاصيل ، لانها قصـة رحلة خيالية من هـذا العـالم الفانى الى ذلك العـالم الثانى ٠ وهذا الاتفاق فى البناء والجوهر هو الذى حفز أهل الفكر والأدب أن يقرروا ان هناك شبها بين العملين وأن أبوة الرسالة واضحة على الكوميديا الالهية ٠

صحيح أن الشكل يختلف فى كل منهما حيث وردت رسالة الغفران نثرا وجاءت الكوميديا الالهية شعرا ٠ الا أن هذا الشكل لا يلغى حقيقة تطابقهما فى المضمون تطابقا يجعل البعض يتساءل لماذا لم يتخذ دانتى أبا العلاء المعرى صاحبا ودليلا له ، بدلا من فرجيل فى الكوميديا الالهية لو كان قد فعل ذلك لكان أكثر أمانة !!

وصحيح أيضا أن هناك فروقـا أخرى لا تخرج عن اطـار الشكل أو طريقة التناول ، الا اننا نجد تطابقـا بين العملين فى أمور كثيرة فى مقدمتها :

★ كلا الشاعرين اتخذ رسالته سبيلا الى اظهار مقدرته الأدبية واللغوية ومعرفته بالتاريخ والتعبير عن فلسفته وعقيدته الدينية ٠

★ وكلا الشـاعرين اتخـذ الأشخاص الذين لقيهم هنـاك من البشر المعروفين فى أيامه أو قبل أيامه أو من الجن ·

★ وكلاهما جعل أهل الجنة جماعات جماعات ، وجعل أهل النار أفرادا أفرادا · وكلاهما أيضا استعان بأديب آخر يناقشه المعرى استعان بابن القارح ودانتى استعان بفرجيل ·

★ وكلاهما وقف على الأشخاص الذين لقيهم يحادثهم ويناقشهم فى أمور جرت لهم فى الدنيا ولقـد قلد دانتى فى ذلك المعرى تقليـدا تاما · ويدهشك أن ترى المطابقة التامة بين دانتى وأبى العلاء المعرى حينما يأتيان الى قوم قد خفف الله عنهم العذاب أو بعضه ·

★ ويقلد دانتى المعرى حين يضع فى الأعراف عند أطراف الجنة قوما سبقوا ظهور المسيحية كسقراط وأفلاطون وأرسطو ويوليوس قيصر أو قوما جاءوا بعد ظهورها ·

والأعراف وهى فكرة اسلامية بحتة يقلد دانتى فيها المعرى ·

★ وهناك مطابقة تامة بين حـديث المعرى على لسـان صاحبه مع آدم وحديث دانتى معه فالاثنان يسألانه عن اللغة التى كان يتكلمها يوم خلقه الله ·

وبعد ·· فهذه اشارة سريعة الى تشابه الكوميديا الالهيـة لدانتى برسالة الغفران للمعرى · وعلى كل ·· يستطيع الأدب العالمى أن يعتبر هاتين الرسالتين من كنوزه الخالدة ·

هوامش

(١) نيكلسون : رينولد ألين نيكلسون (١٨٦٨ ـ ١٩٤٥ م) مستشرق انجليزى • ظهر اهتمامه بالأدبين العربى والفارسى مما خلف من آثار • حقق كتبا كثيرة وله مؤلفات عديدة •

(٢) من مقدمته لترجمة جحيم دانتى بقلم أمين شعر •

(٣) من « رسالة الملائكة » فى ذيل كتاب « أبو العلاء وما اليه » للميمنى •

(٤) ابن خالويه : الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٩٨٠) لغوى من همذان • أملى الحديث فى جامعة بغداد وأقام بحلب متقربا من آل حمدان • وقام على تأديب أبناء سيف الدولة • ألف كتبا كثيرة فى اللغة والنحو •

(٥) راجع (رسالة الغفران) تحقيق بنت الشاطىء •

(٦) الذهبى : محمد بن أحمد الذهبى (١٢٧٤ ـ ١٣٤٨) مؤرخ ومحقق • ولد وتوفى بدمشق • له نحو مائة كتاب •

الرباعيات

عمر الخيام

١٠٨٠ م .

قليل من الشعراء من فلسف الحيـاة ، وعقد منـاهج البحث فى حقائق الكون ، ومشكلات الفكر الانسانى البحت التى لا تكاد تتصـل بالتجارب والقواعد والمقارنات ..

وطبيعى أن تظفر هـذه القلة من الشعراء بعنـاية النقاد ، لكثرة ما استحدثوه من أوجه الخلاف فى الرأى ، فيما قالوه ، وفيما تناولوه فى أشعارهم من موضوعات تتناحر من حولها الافهام .

من هؤلاء الشاعر الشرقى « عمر الخيام » الذى اختلف الناس فى معرفة حقيقته : فقال عنه البعض انه زنديق ملحد ، وقال البعض الآخر انه مؤمن موحد ، واتخذ بعض الصوفيين من أشعاره أورادا يترنمون بها فى أذكارهم !!

فالخيام هو الشاعر الشرقى الوحيد الذى ترجمت كل آثاره الى لغات العالم المختلفة ، وكوفىء الشاعر الانجليزى « فتزجيرالد » على ترجمته الانجليزية له بدفنه فى مقبرة العظماء « وستمنستر » وتقوم فى بعض جامعات العالم أقسام خاصة بدراسة أدبه !

روح العصر وأثرها على فلسفة الخيام

ان كل من يتصدى لدراسة عمر الخيام وفلسفته ورباعياته عليه أن يفهم روح العصر الذى عاش فيه ويكشف عن القيم العقلية والروحية والعاطفية التى كانت سائدة فى العصر الذى عاش فيه رجال من أمثال ابن سينا والغزالى وعمر الخيام وبلغوا فيه هذا المجد العلمى الممتاز .

ليس من شك ان الفرس قد تركوا أثرا قويا فى الثقافة الاسلامية بوجه عام لطول احتكاك العرب بالفرس منذ أقدم الأزمنة . لقد كان الخلفاء الأمويون يباشرون سلطانهم من دمشق عاصمة الخلافة فى ذلك الوقت ، وكان همهم الأكبر الاحتفـاظ بالقوة العربية وبالتقـاليد العربية وكان التوحيد عندهم أهم أركان العقيدة الاسـلامية ، ولم يكونوا ليهتموا

انما كانت سياستهم الرئيسية الاحتفاظ بالسلطان السياسى للعرب ولعرب الشمال بصفة خاصة · وكانوا ينظرون الى الفرس على أنهم جنس أقل مرتبة من العرب ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشعرون بما للفرس من قوة عقلية وروحية حتى ان الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك قال مرة انى لأعجب للفرس حكموا ألف سنة ولم يحتاجوا للعرب لحظة واحدة ، بينما حكمنا نحن مائة سنة ولم نقدر على الاستغناء عنهم لحظة واحدة ·

ولما زالت الخلافة الأموية بسبب مؤازرة الفرس لمنافسى الأمويين من العباسيين ، أصبح نفوذ الفرس له القدح المعلى فى أنحاء العالم الاسلامى كله ، وقد ظلت اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ مدة قرنين آخرين من الزمان هى اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ولغة العلم والادارة ، بها كتبت المصنفات والكتب والرسائل التى أضاءت بنورها العالم المعروف لذلك الوقت ، غير أن القلم الذى كتب والعقل الذى فكر كان فى معظم الحالات قلما وعقلا فارسيا · أما المؤلفات العربية الصميمة فكانت قلة بالنسبة لهذا الفيض الزاخر من نتاج الفكر الفارسى · وليست هناك فئة درست العلوم والفلسفة بشغف وحماسة واقبال أكثر من الفرس الذين كان يزدحم بهم بلاط الخليفة فى بغداد · وتحفظ لنا كتب التاريخ أخبار كثير من المحن والشدائد التى قابلتها هذه الفئة من رجال العلم والأدب ، ولكنهم مع ذلك احتفظوا بسيادتهم فى ميدان الفكر والقلم زمنا طويلا ·

والفرس فى تفكيرهم الدينى كان يساورهم الشك فى كل ما يتصل بأركان العقيدة ، ولكن دون أن يحيدوا عن مراعاة القواعد الدينية المألوفة ، فقد رأوا أن يقيسوا كل ما فى الوجود بمقياس العقل والفهم الانسانى ، ما جاء مطابقا لهذا العقل عدوه صحيحا وما جاء مخالفا لمفاهيمه كان باطلا من الأباطيل ، وهم فى ذلك قد عكسوا فى تفكيرهم كل فلسفات الأمم الأجنبية التى اتصلوا بها عن طريق التجارة ، والفتوحات وغير ذلك ·

وكانت روح التشاؤم ظاهرة أخرى من مظاهر التفكير الفارسى ، فالفناء فى أنظارهم يتربص بالحياة ، فكل حى مصيره الى الفناء ، فاذا كانت الحياة مصيرها الى الزوال والفناء فانه من البلاهة والحمق أن يتعلق الانسان بشىء ليس له دوام ، والأولى له أن يعيش حياته المقدرة له فى هذا العالم الفانى سعيدا خلى البال · وليست السعادة فى امتلاك المال والقصور والعبيد ، انما السعادة هى ما انبعثت من داخل الانسان ، وهذه هى السعادة النفسية التى لا تدانيها أية سعادة أخرى ·

ومن الظواهر الملحوظة فى عصر الخيام ظهور طائفة من رجال الدين

همهم الأكبر مقاومة الحرية الفكرية ومناوأة الأحرار ومعارضة التجديد والاصلاح ·

وهذا النوع من رجال الدين لا يخلو منه عصر من العصور ، ولكنهم كانوا كثرة فى عهد الخيام ، فكانوا بلية على الناس ، اذ زجوا بأنفسهم فى كل النواحى الاجتماعية والسياسية ، وأهدروا كثيرا من الدماء الزكية بفتاويهم الهزيلة التى بنيت على الحسد والحقد والنفاق ، فاذا ما تألق نجم أحد من الناس وذاع صيته لعلم أو أدب فاض عنه تصدوا لمحاربته وألصقوا به مختلف التهم والرزائل ولا يستريح لهم بال الا اذا قضوا عليه وان ارتكبوا فى سبيل ذلك أكبر الآثام ·

هذه صورة لعصر الخيام ، اختلطت فيها الأحداث السياسية بالأحداث الدينية والاجتماعية فكان لهذا الخليط أثره على مزاج الخيام وفلسفته ·

حياته وآثاره

كانت الأمور تسير على ذلك المنوال الذى وصفناه آنفا ، عندما ولد « غياث الدين أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام » · وقد اختصر هذا الاسم الطويل فأصبح يعرف عند الجميع باسم عمر الخيام ، وقيل فى تفسير اسمه ان أباه كان يشتغل بصناعة الخيام أو ان عمر ذاته كان من رجال هذه الصناعة ، غير أن هذا التفسير لا يستقيم بحال مع ما عرف من ثقافة الخيام وسعة اطلاعه ومركزه الاجتماعى ونباهة ذكر الصحاب الذين كان يجالسهم ويتردد عليهم · فلم يكن من المألوف فى ذلك العصر الذى ازدهرت فيه فارس بالعلوم والآداب أن يبعث أحد المشتغلين بمثل هذه الحرف الوضيعة بابنه الى المدارس ودور العلم · ولم يكن من المحتمل بحال أن يدرس هذا الابن الفلسفة والرياضيات ، وأن يصبح قبل ان يصل الى منتصف العمر من رجال الفلك المشهورين ، وأن يجالس الأمراء وعلية القوم ·

والغالب أن كلمة الخيام تدل على لقب له ولأسرته ، ولعله كان اسم قبيلة صغيرة مغمورة · وتدل جميع الحقائق المعروفة على ان الخيام قد انحدر من أسرة لها بعض المكانة وكانت على قدر من الثراء ·

وليس من الممكن أن نحدد على وجه الدقة تاريخ مولد عمر الخيام ، على أن المتواتر انه ولد بين عامى ١٠١٥ و ١٠٢٠ م ، وانه توفى فى نيسابور عام ١١٢٣ م · واذا أخذنا بتاريخ مولده فان الخيام يكون قد عمر أكثر من مائة سنة ، وانه ظل الى آخر حياته محتفظا بقوة عقله

وتفكيره ، وانه كان يحضر مجالس العلماء والفلاسفة وكان يجادل فى الدين والفلسفة ٠

أســـفار الخيـــام :

لا ينكر أحد فضل الأسفار والتنقل فى مختلف بقـاع الأرض فى تكوين خلق الانسان ومزاجه ، هذا الى جانب ما يفيده من هذه الأسفار من الاطلاع على طباع الناس وأخلاقهم ، فيزداد خبرة وحنكة ٠

وهناك قول مأثور عند الفرس ، وهو أن العاقل المحنك هو من رأى الدنيا ٠

لقد سافر الخيام كثيرا ابان عمره المديد ، وزار أنحاء العالم المتمدين فى ذلك الوقت ، وأخذ يضرب فى الأرض حتى بلغ بيت الله الحرام وطاف حول الكعبة ، فارتد اليه ايمانه ، واهتز قلبه بنجوى الله ٠٠ ليرجوه التوبة ويسأله المغفرة والرحمة ٠

ويعود من حجه انسانا غير الذى عرفته نيسابور ، لا يشغله فى حياته غير التهجد والصلاة !

وقد ذكر « القفطى » (١) فى سبب هذه الرحلة أنه « لما قدح أهل زمانه فى دينه وأظهروا ما أسره من مكنونه خشى على دمه وأمسك عن عنان لسانه وقلمه وحج متاقاة لا تقية ! » ٠

وقد زار الخيام أيضا مدينة « مرو » (٢) ومكث بها مدة طويلة ، وكانت مرو فى ذلك الوقت قصبة (٣) السلاجقة ، كما زار بلخ وبخارى ٠ ومن المحقق أنه ذهب الى بغداد ، وكان لا يزال للخليفة بها ظل من السيادة الدينية ، وان كان السلطان السياسى فى يد الأتراك ، وليس من شك أن الخيام قد أفاد كثيرا من زيارته لبغداد ، اذ كانت فى ذلك الوقت كعبة العلم والعلماء ، يؤمها الشعراء والحكماء من جميع الجهات ، وكانت حافلة بالمعاهد ومجالس العلم التى يتناظر فيها العلماء فى الحكمة والفقه وشتى العلوم المعروفة آنذاك ٠

وفى عام ١٠٧٤ م عزم السلطان ملكشاه السلجوقى ـ أعظم ملوك المسلمين فى ذلك الوقت ـ على تعديل التقويم السنوى ، فكان عمر الخيام من بين علماء الفلك السبعة الذين انتدبوا لهذا العمل فوضـعوا التقويم الجلالى نسبة للسلطان جلال الدولة ملكشاه ، وكان من أعضاء هذه اللجنة

أبو مظفر الاسفزازى وميمون بن النجيب الواسطى · وقد قام الخيام نفسه بوضع الجداول الفلكية الخاصة بهذا التقويم ·

وقد أعجب السلطان ملكشاه اعجابا شديدا بعمر الخيام ، فقدم له أموالا كثيرة لبناء مرصد عظيم لرصد النجوم ومراقبة حركة الأفلاك التى كان لها شأن عظيم فى ذلك العهد ، غير أن السلطان مات قبل أن يتم تجهيز هذا المرصد ·

هكذا كان الخيام ذائع الصيت محترم الجانب مرموق المكانة بفضل علمه وعبقريته ، ولكن يستدل مما حكاه المؤرخون الذين عنوا بترجمة حياته انه كان حاد الطبع عصبى المزاج ، بل كان أكثر من ذلك شديد التشاؤم وهى صفة تلازم الكثيرين من أهل الفكر والفلسفة · والواقع أن العباقرة وأحرار الفكر كثيرا ما يضيقون بالناس لما يشاهدونه من خبث النفوس ولؤم الطباع ، فهم لذلك يؤثرون العزلة وحب الانفراد أو الاقلال من الأصدقاء على قدر ما يستطيعون · والظاهر أن الخيام كان من هذه الفئة بعد ما رأى من أعمال الناس وسمع من أقوالهم ما لا يرضى عنه ، فنأى ذلك به عن مصاحبة الناس ومجاراتهم وانصرف هو الى التأمل والدرس ·

ولما كان العظماء والعلماء فى كل عصر يتقرب الناس اليهم ويتوددون اليهم ويحبون مجالسهم ، ولكن من حسنات الخيام انه كان عزوفا عن الشهرة ، محبا للعزلة خصوصا بعد أن اتهمه قومه بالكفر والزندقة لما ذاع صيته فى الفلسفة وفاق أقرانه فيها وشاعت آراؤه وانتشرت نظرياته حتى بلغ به الأمر أن خاف على حياته · ويروى لنا القفطى صاحب كتاب تاريخ الخبر فيقول : « ولما قدح أهل زمانه فى دينه ، وأظهروا ما أسر من مكنونه ، خشى على دمه ، وأمسك عن عنان لسانه وقلمه ، وحج متاقاة لا تقيه ، وأبدى أسرارا من السرائر غير نقية · ولما حصل ببغداد سعى اليه أهل طريقته فى العلم القديم فسد دونهم الباب النادم لا سد النديم، ورجع من حجه الى بلده يروح اليه محل العبادة ويغدو ويكتم أسراره ولابد أن تبدو · وكان عديم القرين فى علم النجوم والحكمة ، به يضرب المثل فى هذه الأنواع لو رزق العصمة » ·

فالخيام الذى لا يعرفه الجيل الحاضر الا بالشعر ، كان راسخ القدم فى الفلسفة والأدب والتاريخ حتى ان القفطى فى كتابه السابق ذكره نعته بأنه امام خراسان وعلامة الزمان ·

هذا ولا يكاد يوجد من بين علماء المسلمين عالم ممتاز مثل عمر الخيام ، أحاط بمعظم العلوم التى كانت معروفة فى عهده ، فلقد كان

الخيام مبرزا فى الفلك ، متبحرا فى الفقه ، ضليعا فى الطب ، خبيرا بقراءات القرآن · هذا الى جانب درايته الواسعة بالفلسفة وعلوم اللغة والشعر والكيمياء والعقائد الدينية والرياضيات ·

وكان فى هذه العلوم كلها صاحب الرأى الصائب والفكر المستقل الحر ، اذا اجتمع بأصحاب كل علم من تلك العلوم ناظرهم وتفوق عليهم وظفر منهم بالاعجاب والاكبار · والظاهر أن عمر الخيام كان يميل بطبعه الى العلم المجرد لذلك تخصص فى الفلك والرياضة حتى كان فيهما واحد دهره وفريد عصره ·

مؤلفـــاته :

لم يكن الخيام من المكثرين فى عالم الكتابة والتأليف ، ولذلك فقد رماه البعض بالبخل فى نشر المعرفة · والظاهر انه كانت هناك أسباب دعت الخيام الى الاقلال من التأليف ، أهمها خوفه من رجال الدين من أهل زمانه الذين كانوا يرمون كل باحث حر الفكر بالكفر والزندقة ، هذا مع وجـود فئـة من الجهال المتشبهين بالعـلماء كانوا يستخفون بأهل العلم ويحقرون من شأنهم ، لذلك آثر الخيام أن يضم صدره على مكنون نفسه ، وان كان ذلك يؤلمه ·

والخيام مع هذا الاخلال فى عالم التأليف قد كتب عشرة كتب ، ثلاثة منها فى العلوم الطبيعية ، وأربعة فى الرياضيات ، واثنان فيما وراء الطبيعة ، والكتاب العاشر هو رباعياته والتى اشتهر بها · وفيما يلى بيان هذه المؤلفات :

١ ـ رسالة فى الجبر والمقابلة : وهى باللغة العربية ، وقد حل فى هذه الرسالة كثيرا من مسائل الجبر والهندسة التى كانت مستعصية على متقدميه ، كما كان فيه أول من عالج معادلات الدرجة الثالثة ، فأضاف بذلك ثروة جديدة الى العلم ·

٢ ـ رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات كتاب اقليدس ·

٣ ـ الزيج المكشاهى الذى كان الخيام أحد مؤلفيه ·

٤ ـ رسالة فى الوجود ·

٥ ـ رسالة فى الطبيعيات ·

٦ ـ رسالة فى الكون والتكليف ·

٧ ـ رسالة فى الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما ·

٨ ـ رسالة فى جواب ثلاث مسائل وفى كشف الحجاب عن ضرورة التضاد فى العالم ٠

٩ ـ رسالة فى لوازم الأمكنة بحث فيها عن اختلاف المواسم والفصول والأقاليم ٠

هذا وقد وصف لنا الشهرزورى فى كتابه « نزهة الأرواح » وفاة الخيام فقال :

« كان عمر يقرأ فى كتاب الشفاء لابن سينا حتى اذا وصل فى قراءته الى فقرة الوحدة والكثرة وضع الكتاب الى جانبه وقام الى الصلاة ، ثم أمسك عن الطعام طول يومه حتى اذا فرغ من صلاة العشاء سجد لله سجدة طويلة قال فيها : « اللهم انى عرفتك على مبلغ امكانى فاغفر لى فان معرفتى اياك وسيلتى اليك ، ثم أسلم نفسه الأخير » وكان ذلك عام ٥١٧ هـ ـ ١١٢٣ م ٠

مدرسة الرباعيات

الشعرية

كانت شهرة عمر الخيام ابان حياته تقوم فى نظر معاصريه على دراساته العقلية وعلى تبحره فى الرياضة والفلك كما تشهد على ذلك تآليفه القيمة فى علم الجبر والهندسة وبنائه الأرصاد وترتيبه للجداول الفلكية ٠ أما فى ميدان الشعر فكان لا يلج بابه الا فى أوقات فراغه فينظم الرباعية وتبثها بعض لواعج نفسه وخطراتها ، ثم يلقيها على أصدقائه وخلانه للترفيه والتسلية ، ففتنت الألباب لما تحويه من حكمة وفلسفة ، ولجمال صياغتها الشعرية التى تهز النفس وتلذ السمع الأمر الذى جعل أنصاره يعدونه من أكابر الشعراء ويسرفون فى تبجيله ٠

وأغلب الظن ان الخيام قد نظم هذه الرباعيات فى أزمنة وأمكنة مختلفة ، فكانت كل رباعية صورة لنفسيته فى الوقت الذى نظم فيه الرباعية وتعبيرا عما يحيط به من مؤثرات مختلفة ٠ ثم هو أيضا قد نظم هذه الرباعيات فى أوقات متباعدة فكان المعنى الواحد لذلك يفرغه فى قوالب شتى أو يتناوله من نواح متباينة ٠ وقد نرى أحيانا تناقضا ظاهرا بين رباعيتين أو أكثر ، فتارة نجده مؤمنا يعمر قلبه الايمان ، ونراه تارة أخرى وقد عصف الشك به ، فجاءت رباعياته زاخرة بما يشبه الكفر والالحاد ! ٠

وليس من شك أن الخيام لم يكن يقصد من رباعياته أن تكون عملا أدبيا له كيان واضح ونظام معروف ، فهو لم ينظم هذه الرباعيات تحت تأثير الهام مطرد أو نتيجة جهد متصل ، بل كانت فى الواقع عبارة عن لوحات فنية صغيرة وجد الخيام فى تنميقها ملاذا عاطفيا بعد جهد شاق فى عالم الفكر المجرد ، ولذلك فليس للرباعيات تسلسل منطقى معروف اذ هى عبارة عن تعبير فنى جميل لأحاسيس ومشاعر وحالات عقلية مختلفة · ولذلك فانك تجد فى الرباعيات تناقضا شاذا غريبا لا يصدر الا عن النفس الحائرة المتشككة ·

وقد جرى العرف فى كل مجموعات الشعر الفارسى أن ترتب رباعيات عمر الخيام لا فى تسلسل منطقى أو وفقا للموضوعات ، ولكن وفقا للقافية ، وذلك لأنه ليس هناك اتصال فى المعنى أو المضمون العاطفى بين الرباعية والأخرى ، فلكل رباعية صورتها الذهنية الخاصة ولونها الفنى الخاص بها ·

وانه لمن اليسير جدا أن تفرق عنه كثير من الشعراء العرب وغيرهم من شعراء الغرب بين شعر الشباب والشعر الذى قاله شاعر فى أخريات حياته ، أما فى رباعيات الخيام فانه من الممكن أن نضع رباعية قالها فى أواخر حياته جنبا الى جنب مع رباعية أخرى قالها وهو فى عنفوان شبابه ، فلا يمكن أن نفرق بينهما ·

ورباعيات الخيام كما هى موجودة ومترجمة الى مختلف اللغات مشكوك فى صحة نسبها كلها الى عمر الخيام · كما ان بعض الرباعيات يختلف نصها الفارسى باختلاف الروايات ·

ومما هو جدير بالذكر أن المستشرق الروسى « جوكوفسكى » قد لاحظ أن بعض رباعيات الخيام توجد فى دواوين بعض شعراء الفرس ، فافترض أن هذه الرباعيات لهم دون الخيام · ولكن اتضح ان بعض هذه الرباعيات موجودة فى نسخ من رباعيات الخيام أقدم عهدا من دواوين هؤلاء الشعراء ، فكان هذا دليلا على أن بعض رباعيات الخيام قد انتقلت الى بعض دواوين الشعراء كما أن بعض رباعياتهم قد انتقلت بدورها الى رباعيات الخيام ، ومن ثم أطلق عليها البعض اسم الرباعيات الحائرة أو المتنقلة لأنها تثبت من وقت لآخر بين مجموعات الرباعيات التى تنسب لعمر الخيام ، وقد تنشر أحيانا أخرى فى دواوين غيره من الشعراء ·

ونجد من ناحية أخرى ان عدد الرباعيات فى المخطوطات الباقية حتى الآن يكثر فى المخطوطات التى بعد بها العهد عن تاريخ وفاة عمر الخيام · وأقدم مخطوط عثر عليه حتى الآن يضم هذه الرباعيات هو المخطوط

المحفوظ بمكتبه بودليان باكسفورد · وقد كتبت هـذه النسـخة من الرباعيات عام ٨٦٥ هـ ـ ١٤٦٠ م أى بعد وفاة الخيـام بثلاثـة قرون ونصف ، وتضم ١٥٨ رباعية · وهناك مخطوط آخر فى مكتب الهند يحوى ٣٦٢ رباعية ، كما أنه به أيضا مخطوط آخر يضم ٥١٢ رباعية وتحتفظ الجمعية الآسيوية بكلكتا بمخطوط يحوى ٥١٦ رباعية ·

وجاء حديثا المستشرق الألمانى الدكتور « فردريك روزن » الذى كرس حياته لدراسة الخيام ورباعياته واستخلص من دراساته ان هناك نحو خمسة آلاف رباعية منشورة فى مختلف النسخ والطبعات تنسب كلها الى عمر الخيام ·

ومهما يكن من الأمر فان الخيام وان لم يعده النقاد من بين أكابر الشعراء العالميين ، الا أن رباعياته سرعان ما انتشرت وذاعت بين الجماهير ·

وقد كان « أكبر » (٤) امبراطور الهند العظيم يظهر دائما تقديره واعجابه بهذه الرباعيات ، بل كان يضع الخيام على قدم المساواة مع شاعر الفرس الأكبر حافظ الشيرازى (٥) ، وهو يذكر ان كل انشـودة من أناشيد حافظ يجب ان تتلوها رباعية من رباعيات الخيام ، لأن قراءة الانشودة دون الرباعية أشبه بشرح الراح دون التنقل عليه ·

لقد كانت طرافة الرباعيات وما فيها من روعة التعبير ودقة التصوير ، وافصاح عن خطرات النفس الانسانية الطليقة من ايثار التقاليد وتعبير صادق عن خوالج ونزعات الكثيرين من العلماء والمفكرين فى ذلك العصر الذى تباينت فيه الآراء والمعتقدات ـ باعثا للشعراء على أن ينسجوا على منواله حتى كثر ما نظم من الرباعيات على طريقة الخيام كثرة عظيمة ، واذا بالخيام يصبح امام مدرسة خاصة فى الشعر وطريقة التفكير ·

وليس من شك انه كان فى عصر الخيام كثير من الشعراء المقلدين الذين يقولون الشعر وينحلونه على الغير ، ولا يبعد ان يكون هؤلاء قد نظموا رباعيات كثيرة ونسبوها الى الخيام ، لأن الانتحال لم يخل منه عصر من العصور · يضاف الى ذلك أن البعض كان ينظم الرباعيات يعبر فيها عن خوالج نفسه ولكنه كان يتنصل من تبعتها فينسبها عن قصد حسن الى عمر الخيام ·

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء المقلدين والمتفلسفين ، بل كان هناك الأتقياء المؤمنون وكانت لهم رباعياتهم التى قصدوا بها الحض على الفضيلة والتمسك بأهداب الدين ·

وكان للمجان وأهل اللهو رباعياتهم التى تزخر بذكر الخمر والتغنى

بمفاتن الغيد الحسان وكانوا ينشدون هذه الرباعيات فى حاناتهم ومجالس لهوهم على أنغام المزاهر ودق الدفوف ورنات الأقداح ·

وكان أيضا للمتصوفة رباعياتهم يترنمون بها فى حلقات أذكارهم ، وفيهـا غزل ونسيب وشـطحات ومفاجأة ، بل كانوا كثيرا ما يترنمون برباعيات الخيام أو غيره من أهل اللهو حتى يتم بذلك أنسهم ووجدهم ·

وكان كذلك لأهل الزهد والورع رباعياتهم التى تنبىء عن عزوفهم عن أغراض الدنيا وملذاتها الزائلة ، وتنعى على الناس تهالكهم على حطام الدنيا وتكالبهم على الجاه والسلطان ·

وقد اختلطت هذه الرباعيات كلها بعضها ببعض حتى أصبح من العسير جدا أن نبين ما للخيام وما ليس له منها ونرد كل منها الى صاحبها ، ولاسيما أن أصحابهـا غير معروفين ولم يسجل التاريخ الا القليل من أسمائهم · يضاف الى ذلك ان الخيام لم يكن أول من ابتكر هذا الاسلوب من الشعر فقد نظم بعض الشعراء الذين تقدموا عليه ونفر من الشعراء الذين جاءوا بعده عددا من الرباعيات جليلة القدر عظيمة المعنى ، فقد وجدت بعض الرباعيات المنسوبة الى الخيام فى دواوين شعراء الفرس من أمثال سعيد أبى الخير وأفضل الكاشانى والأنورى وابن سينا وحافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى وغيرهم ·

وكثيرا ما كان يحدث أن يدون بعض المعجبين برباعيات الخيام على هامش نسخته المخطوطة لهذه الرباعيات بعض رباعيات أخرى منقولة عن شاعر آخر على سبيل المقارنة ، فيأتى ناسخ بعد ذلك على شىء من الغباء فيضيف هذه الرباعيات المنقولة الى صلب الرباعيات الأصلية لعمر الخيام ، وهذه كلها عوامل قد أدت الى هذه الكثرة الهائلة من الرباعيات التى تنسب الى عمر الخيام ·

على أن القارىء المتمعن يستطيع أن يدرك بسهولة أن هناك رباعيات قد دست على الخيام · كما أن هذه الرباعيات التى من هذا القبيل قليلة العدد وهى فى جملتها تخالف ما عرف من مزاج الخيام وطبيعة تفكيره · ثم نحن نستطيع أيضا عن طريق الاسلوب أن نميز بين الرباعيات الأصلية والأخرى الدخيلة الى حد كبير ·

اسلوب الرباعيات

والصبغة الشعرية التى اختارها عمر لينظم بها رباعياته هى الرباعى والجمع العربى رباعيات · وهذا الاسم مشتق من الكلمة العربية أربعة ، لأن المعروف ان كل مقطوعة تتركب من أربعة مصاريع (٦) الأول والثانى

والرابع مقفى والثالث مطلق ، وقد تكون الاربعة مقفيات ، وكل رباعيه مستقلة بنفسها ذات معنى قائم بذاته · وهذه الصبغة الشعرية ابتكار فارسى قديم العهد ، غير أن الذى أكثر من استخدامه وجعله شائعا بين الجماهير هو الشاعر الفارسى أبو سعيد أبو الخير الذى عاش من عام ٩٦٨م حتى عام ١٠٤٩م أى قبل عمر الخيام بقليل · والظاهر أن هذه الصبغة الشعرية قد استساغها الناس وأعجبوا بها لسبكها المحبوك وحلاوة جرسها ودقة تعبيرها ، ولذلك ظلت شائعة حتى اليوم · والمصراع الرابع هو الذى يحمل فى طياته الفكرة المراد ابرازها أو الحكمة التى ينادى بها الشاعر ·

وقد استغل الخيام فى رباعياته كل الصيغ التى صيغت بها الرباعيات من قبله ، غير أن أسلوب الخيام يمتاز بمرونته غير العادية وبرقته وبجرسه الذى يلذ الآذان · وكثيرا ما يختلف المصراع الثالث من رباعيات الخيام من ناحية الوزن الشعرى عن المصاريع الثلاثة الأخرى ·

ولغة الخيام سهلة بسيطة ، وكانت سهولتها البالغة فى رباعياته هى التى أكسبت هذه الرباعيات قوتها التى تبعث على الاعجاب ، فجعلت الناس فى فارس الأمراء منهم والسوقة والمثقفين والفلاحين يرددون هذه الرباعية وتبثها بعض لواعج نفسه وخطراتها ، ثم يلقيها على أصدقائه

ونحن لا نجد فى رباعيات الخيام غير هواجس نفس الخيام المنطلقة الثائرة تارة ، والمطمئنة الهادئة تارة أخرى · وهو يمثل روحه أصدق تمثيل ، فهو الشاعر الذى ما عرف غير الطبيعة وما فيها من جمال وفتنة ، ونفسه وما فيها من آلام وأفراح وشجون واتراح · فهو لم يتغزل الا بالطبيعة وما انتجته الطبيعة من حسن وجمال ، وهو لم يصف الا ما كانت تشعر به نفسه الهائجة الثائرة ، وهو لم يسخر الا بما كان يتعارض وحريته ، وهو فى ذلك كله كثير الشبه بالشاعر « سوفوكليس » عند اليونان ، وفرجيل عند الرومان ، وراسين عند الفرنسيين ·

وقد اختار الخيام لرباعياته ألفاظا تناسب المعنى والمقصد ، وساق رأيه مدعما بالحجج والأسانيد القوية بأربعة مصاريع فى قوة ومتانة وانسجام مثال ذلك هذه الرباعية :

أنت يارب كريم ، انت ذو لطف ومن

فلم تطرد العاصى عن جنة عدن ؟

ليس جودا منك أن تعطينى عن حسناتى

انما جودك أن تؤتينى عن سيئاتى

ثم انظر الى هذا المنطق القوى الذى يتجسم فى هذه الرباعية :

يقـول المتقون غـدا ستحيى
على ما كنت فى هذى الحيـاة
لذا اخترت الحبيبة والحميا
لاحشر هـكذا بعـد الممات

والخيام عندما ينظم رباعية من الرباعيـات يحشـد فيها جمعا من الخيال والنقد والسخرية ، لذلك نجد الرباعية تخاطب النفس قبل الأذن ، فتحدث هزات عنيفة فى شعور السامع وصدمات قوية فى جوانح القارىء ، ثم تترك أثرا عميقـا تعقبه ضحكة طويلة أحيانا ، وأسفا بليغـا أحيانا أخرى • وهو يرسل الألم والفرح والنصيحة والحكمة متنقلا بالقارىء من رأى الى رأى ، صارخا ضاحكا ، مداعبا مازحا ، وبهذا يظهر مهارته اللغوية والفكرية بأجلى مظاهرها •

فلسفة الخيام من رباعياتـه

ان النظرة الأولى الى رباعيات الخيام توحى بأن الخيام كان خليعـا مدمنا على الخمر متهالكا على النساء ، ولكن الواقع غير ذلك ، اذ ليس من طبيعة الأمور أن يكون شخص مثل عمر الخيام الذى كانت له الصدارة فى مجالس العلماء والفلاسفة ، والذى عرف انه كان جليسا للملوك والأمراء يكون ديدنه الخمر والنساء ولا شىء غير ذلك •

ومما هو جـدير بالملاحظة أن الرباعيات لا يمكن أن نعـدها صورة صادقة لفلسفة الخيـام لانها كانت خطرات عـابرة ضمنها بعض ما كان يشعر به فى قرارة نفسه ، فجاءت صورة صادقة لكثير مما يشعر به المرء بوجه عام عندما يتأمل هذه الحياة ، ويرى ما بها من المتناقضات والمعميات •

ليست فلسفة الخيام مجرد خمر ولذة وسعادة وهناء ، انما هو تناول فى رباعياته بأسلوبه الساحر المرح كل الموضوعات التى تناولها الفلاسفة والمفكرون قبله ، كالموضـوعات الطبيعيـة والرياضية والالهية العملية ، وتكلم عن المادة والزمان والجبر والقضاء والقدر والعدم والتناسخ ومصير البدن بعد الموت •

والخيام فى مسائل ما وراء الطبيعة كان من الفلاسفة اللا أدريين ، وهم الذين يعترفون بالجهل ويرون أن العقل الانسانى قاصر عن ادراك

هذه المسائل فما من أحد فى رأيهم طلب الكشف عن حقيقة الموجودات الا وعاد بالفشل . أما الحقيقة التى لا مراء فيها فى نظره فهى أن الانسان خلق من تراب ثم مصيره بعد ذلك الى التراب :

كم سرت طفلا لتحصيل العلوم وكم
أصبحت بعد بتدريسى لها طربا
فاسمع ختام حديثى ما بلغت سوى
أنى بدئت ترابا ثم عدت هبا

والخيام يكرر هذا المعنى فى كثير من رباعياته ، وكأن هذه الظاهرة قد أصبحت عنده حقيقة ثابتة فأراد أن يؤكدها فى رباعياته ، وهو فى كل مرة يعرضها علينا فى لوحة فنية جميلة تهز المشاعر وتبعث فى الوقت ذاته على التأمل والتفكير فهو يقول :

كان من قبلك فى الدنيا رجال ونساء
زينوا الآفاق ، كالأنجم لاحوا وأضاءوا
سوف يغدو جسمك المختال طينا، فهو طين
كان جسما لألوف الناس من قبلك جاءوا

وعلى الرغم من أن الخيام كان من القائلين بقدم العالم ، الا انه لم يكن من الدهريين الذين لا يعتقدون فى وجود اله قادر ، بل كان على العكس من ذلك يعتقد فى اله هو المحرك والمدبر لجميع الكائنات ، وأن كل ما هو موجود قد صدر عنه صدور المعلول عن علته ، وذلك على الرغم من قوله بقدم العالم .

وهناك رباعيات كثيرة قد أفصح فيها اعتقاده فى وجود اله خالق لكل شىء مثل :

الهى ومجرى كل حى وميت
ورب السما ذات النجوم السواطع
لئن كنت ذا سوء فانك سيدى
وما هو ذنبى ان تكن صانعى

والخيام لم يكن يعتقد فى اله مبدع للكون فحسب ، بل كان يعتقد أيضا أن هذا الاله خير محض لا يصدر عنه الشر ، بل هو اله غفور رحيم لطيف غير منتقم ، وكان يرى أن ما من أحد يخلو من خطيئة ، واذا كان

ذكر هذا المعنى فى كثير من رباعياته :

يـا واسع الرحمـة ذنبى عظيـم
وأنـت بالخلـق رؤوف رحيـم
فـان مت يـا خالقى آثمـا
فاغمـر باحسانك عظمى الرميـم

وتنبيه الأنام الى الأيام وتقلبات الزمان من الموضوعات المطروقة التى تناولها الشعراء والفلاسفة قبل الخيام وأكثروا منها القول ، غير أن الخيام فى تناوله لهذا الموضوع قد قربه الى القلوب والأفهام ، ورسم له أكثر من صورة فنية رائعة · وهو فى كل مرة يكشف عن ناحية جديدة منه تبعث فى نفس القارىء أحاسيس ومشاعر جديدة تجعله يحلق بفكره فى أحداث العالم وتقلباته ، وتدفعه الى التأمل فى مصير الانسان ومآله · هذا الانسان الذى أعماه الغرور فأخذ يصول ويجول وكأن الحياة قد كتبت له الى أبد الآبدين فمن ذلك قوله :

أيها العين انظرى الأحداث ان كنت ترين
وانظرى الآفات فى الدنيا ملأن الخافقين
كم رجال ضمت الأرض ملوكا ورعايا
ووجوه أكل النمل كأقمار اللجين

فهو فى هذه الرباعيـة يسأل العـين أن تنظـر الى من كانوا ملوكا وكانوا أقمارا كالفضة المذابة ، كيف طواهم الردى وأكلت أجسامهم نمال الأرض وديدانها · وهو يقول فى رباعية أخرى :

ايها المفتون بالدنيا ، الا كفكف جواك
أفلا فكرت فى صرف الليالى ان دهاك
ادكر آخر أنفاسك ، واستجمع نهاك
وتأمل ما أفاعيـل الليـالى بسواك

والتوبة وطلب الغفران من موضوعات الشعر التى طرقها الشعراء فى مختلف العصور · ولكن الطريقة التى اتبعها الخيام فى عرض هذا الموضوع تجعل القلب يخفق والعيون تدمع ، والعقل يشرد ويتدبر فهو يقول :

ألا ارحـم يـا الهـى لى فـؤادا
من الأشجـان أمسى فى عـذاب

ورجلا بى سعت للحان قدما
وكفا امسكت قدح الشراب

ان الخيام فى هذه الرباعية يطلب العفو والمغفرة ، ولكنه لا يطلبها لنفسه ، انما يطلبها لغيره أى ليديه ورجليه ــ وان كانا من أعضائه وهذا من شأنه أن يقوى من دعائه لأن التوسل وطلب المغفرة للمرء ذاته يعد نوعا من الانانية وحب الذات ، لكنه هنا يطلب العفو لبعض أعضائه لانها بريئة مما ارتكبت ، اذ هى لا تستطيع أن تفعل شيئا بمحض ارادتها ، انما هى مسيرة وفقا لرغبات النفس ونزواتها ·

وهو يطلب العفو والمغفرة من رب غفور رحيم ، وهو يطلب ذلك بأسلوب كله منطق واستدلال عقلى ، ولا غرو فى ذلك فهو الى جانب شاعريته الممتازة ، رياضى بارع خبير بالمنطق الرياضى الذى لا يقبل الزيادة أو النقصان ، لأن الرياضة لا دخل فيها للاعتبارات الشخصية ولا مجال فيها للجدل · وهو على هذا الأساس يطبق هذا المنطق الرياضى على مسائل الدين والقضاء والقدر ، مثال ذلك هذه الرباعية :

اننى يارب عبد مذنب فأين رضاؤك
وفؤادى كالدياجى مظلم أين ضياؤك
واذا أعطيتنا الجنة بالطاعة منا
كان هذا منك بيعا أين يارب عطاؤك

واذا كان الانسان بحكم المجتمع الذى يعيش فيه مضطرا الى معاشرة الناس ، فعليه أن يختار من يعاشره ، فليس كل انسان خليقا بالمعاشرة أو المحادثة ، انما أهل العلم والفضل هم وحدهم من تصح معاشرتهم ، ثم البعد بعد ذلك عن الجهال مهما أبدوا من حسن النية والطوية :

عاشر من الناس كبار العقول
وجانب الجهال أهل الفضول
واشرب نقيع السم من عاقل
واسكب على الأرض دواء الجهول

★★★

الرباعيات

أثر اسطورى فى الشرق والغرب

والواقع أن عمر الخيام كان من رجال العلم المتبحرين فى شتى العلوم والفنون كما تشهد بذلك مؤلفاته وأقوال معاصريه ، ولكنه كان فى الوقت

ذاته سابقا فى تفكيره على أهل عصره بسنوات كثيرة ، كما كانت أفكاره وآراؤه الجريئة التي ضمنها رباعياته موضع سخط رجال الدين والمحافظين من رجالات ذلك العهد ، ولذلك كله لم نجد أحدا من المؤرخين العرب أو الفرس المشهورين قد اهتم بشعر الخيام وحدد لنا مكانته بالنسبة لمعاصريه من الشعراء · انهم ذكروا الخيام على اعتبار انه عالم رياضى ومن رجال الفلك الذين كان لهم شأن فى اصلاح التقويم فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى ، وأغفلوا أشعاره المليئة بالقدح والسخرية من المنافقين وبعض رجال الدين فى عصره · والغريب أن تكون بعض أشعاره ومؤلفاته قد أفلتت من التدمير ووصلت الينا على الرغم من هذه الروح العدائية التى كانت تغلى بها صدور الكثيرين من أعدائه وحاسديه ·

ان الفضل فى شهرة الخيام وذيوع صيته ، يرجع من غير شك الى العلماء والشعراء الدارسين فى كل من أوربا وأمريكا · وقد لا نكون مبالغين اذا قلنا انه لولا اهتمام الغربيين بالخيام لكان النسيان قد احتوى هذا الشاعر فى جوفه كما حدث لكثير غيره من أهل العلم والفن ·

على أنه من الخطأ أن نقول ان الغربيين كانوا أول من كشف عن روعة الرباعيات وجمالها الشعرى ، فقد رأينا كيف ان الامبراطور « أكبر » قد أفصح عن اعجابه واكباره لرباعيات الخيام وذلك قبل ان يعرف الأوربيون والأمريكيون الخيام بسنوات طويلة ·

والواقع انه قد ظهرت فى المشرق من وقت لآخر طبعات مختلفة من رباعيات الخيام التى أصبحت أشبه بأثر أسطورى · ولعل أقدم هذه الطبعات ما صدر عام ١٧٨٧ م غير أن أقدم مخطوط لهذه الرباعيات وهو الذى كتب عام ١٤٦٠ م ، وكذلك المخطوط العربى لكتاب الجبر والمقابلة الذى وضعه الخيام قد انتقلا الى أوربا قبل ذلك بزمن طويل ·

ولعل أقدم اشارة ذكرها عالم أوربى عن الخيام هى تلك التى ذكرها الدكتور « توماس هايد » أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد عام ١٧٠٠م وذلك فى كتابه الذى وصفه باللغة اللاتينية عن تاريخ أديان الفرس ·

وجاء بعده المستشرق النمساوى « يوسف فون هامر برجستال » فوضع كتابا فى تاريخ الآداب الفارسية ، وترجم فيه شعرا بعض رباعيات الخيام الى اللغة الألمانية ، وقال عنه انه واحد من أشهر شعراء الفرس وحيد بابه فى النزعة الدينية الواضحة فى أشعاره ·

وفى عام ١٨٥١ م نشر الدكتور « وبكه » Woepcke

أستاذ الرياضيات بجامعة بون نص كتاب الجبر والمقابلة لعمر الخيام مع ترجمته الفرنسية وقال عن الخيام انه أعظم الرياضيين ·

وترجم المستشرق « جارش دى تاسى » فى عام ١٨٥٧ م عشر رباعيات من رباعيات الخيام الى اللغة الفرنسية ونشرها فى المجلة الأسيوية التى تصدر بباريس ·

وفى عام ١٨٥٨ م نشر « ادوارد كوديل » الأستاذ بجامعة كلكتا بحثا مستفيضا عن الخيام فى مجلة كلكتا ، وترجم فى هذا البحث ثلاثين رباعية من شعر الخيام نقلها الى الانجليزية شعرا مرسلا ·

وظهرت فى عام ١٨٥٩ م الترجمة الشهيرة لرباعيات الخيام وهى الترجمة التى قام بها « ادوراد فتزجرالد » الانجليزى ، فكانت فاتحة عهد لدراسة الخيام ورباعياته ·

هذا وقد ترجم المستشرق الانجليزى « ادوارد هيرون » الرباعيات الى الانجليزية نشرا عام ١٨٩٨ م وهناك الى جانب ذلك ترجمات أخرى للرباعيات الى اللغة الانجليزية ، ولكنها لم تبلغ شأو ترجمة « فتزجرالد » من حيث الروعة والجمال الشعرى ·

وكان أول من نقل رباعيات الخيام الى اللغة العربية نظما هو الشاعر « وديع البستانى » فقد نقل من هذه الرباعيات ثمانين رباعية ، فكان له فضل فى لفت أنظار الناطقين بالضاد الى رباعيات الخيام ثم جاء بعده الأديب محمد السباعى فترجم أكثر من مائة رباعية الى العربية ·

وفى عام ١٩٢٤ أصدر الشاعر أحمد رامى ترجمة لرباعيات الخيام نقلا عن الفارسية · وهو يقول فى مقدمة ترجمته انه قيد نفسه بالأصل تقييدا وصل به الى اثبات القوافى العربية التى وضعها الخيام فى كثير من رباعياته · والشاعر أحمد رامى لم يترجم فى الوقت ذاته كل رباعيات الخيام ، وانما اختار منها ١٧٥ رباعية تمثل للقارىء نفسية الخيام وفلسفته وتغنيه عن قراءة الرباعيات كاملة ، لانه هو الآخر قد هالته كثرة المعانى التى كررها الخيام فى أكثر من رباعية · وقد استهل ترجمته بهذه الرباعية :

سمعت صوتا هاتفا فى السحر
نادى من القبر غفاة البشر
هبوا املأوا كأس الطلى قبل أن
تفعم كأس العمر كف القدر

ومن ترجمته :

لبست ثوب العيش لـم أستشر
وحرت فيه بـين شتى الفـكر
وسوف أنضوه برغـمى ولـــم
أدرك لماذا جئت ـ أين المفـر

وهذه الترجمة تفوق بكثير أى ترجمة عربية للرباعيـات من حيث الصياغة الشعرية ومطابقتها للأصل الفارسى ، فجاءت صورة واضحة من فلسفة الخيام وتعكس فى ثناياها رقة الخيام ودقة مشاعره وأحاسيسه ، ولاغرو فى ذلك فهى ترجمة شاعر غنائى مطبوع درس الفارسية دراسة جيدة ، ثم قرأ هذه الرباعيات فى لغتها الأصلية ، واجتهد أن يعيش فى الجو الذى عاش فيه الخيام ثم قام بعد ذلك بترجمتها الى العربية فجاءت تحفة فنية رائعة ٠

● **نادى عمر الخيام بلندن :**

وقد شكلت فى لندن جمعيـة باسم « نادى عمر الخيام » أسسها سنة ١٨٩٢ م بعض أصحاب الجرائد الكبرى ونخبة من الفضلاء والكتاب٠ ومن مظاهر تعلق أعضاء هذا النادى واعجابهم بعمر الخيام وبمترجم رباعياته الى الانجليزية « ادوارد فتزجرالد » أن كلفوا أحد أعضاء هذا النادى وهو « المستر وليم سمبسون » بالسفر الى نيسابور موطن الخيام واحضـار بعض عقد من شجر الورد النامى فوق مقبرة الخيام ٠ وقد عولجت هذه العقد بعناية بحدائق كيو بلنـدن ، فأخرجت بدورهـا شجرة من الورد غرست الى جانب مقبرة « فتزجرالد » ووضع الى جانبها شاهد عليه هذه العبارة :

« استنبت شـجرة الورد هـذه فى حـدائق كيو من عقد أحضرها الرحالة الفنان وليم سمبسون من مقبرة عمر الخيام بنيسابور وزرعها نفـر من المعجبين بادوارد فتزجرالد باسـم عمر الخيـــام ـ ٧ أكتـوبر سنة ١٨٩٣ » ٠

● **نادى عمر الخيام بأمريكا :**

وقد ظهر هذا النادى فى عالم الوجود عام ١٩٠٠ ٠ ونشر أعضاء هذا النادى فى عام ١٩٢١ كتابا بعنوان « عشرون سنة من حياة نادى عمر الخيام » ٠ وهذا الكتاب محلى بلوحات جميلة ويحوى سجلا هاما عن مدى أعمال ونشاط هذا النادى ٠

★★★

هـوامش

(١) القفطي : علي بن يوسف القفطي (١١٦٧ ـ ١٢٤٨) · أديب ومؤرخ مصري ولد في قفط بمصر · وسكن حلب ، وتولى بها القضاء ثم الوزارة ·

(٢) مرو : مدينة قديمة بصحراء تركمانستان · كانت تدعى (مرجيانا) يوم كا عاصمة احدى المقاطعات الشمالية لفارس القديمة ·

(٣) قصبة : أعظم مدن البلاد ·

(٤) أكبر : (١٥٤٢ ـ ١٦٠٥) اسمه الأصلي جلال الدين · ولقب بالأكبر لما به من جلائل الأعمال في أثناء مدة حكمه (١٥٥٦ ـ ١٦٠٥) ·

(٥) الشيرازي : (١٣٢٠ ـ ١٣٨٩) شاعر غنائي ايراني · سمي حافظا لأنه ك يحفظ القرآن الكريم ·

(٦) المصراع : نصف البيت في الشعر ·

الاحيـــاء

أبو حامد الغـــزالى

١١٠٠ م

كان « الغزالى » واحدا من المفكرين البارزين فى العالم الاسلامى ، خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ·· وكان فكره يمتاز بالجدة والابتكار ·· وهو ـ فوق ذلك ، يعد فيلسوفا فريدا فى عصره ·· فقد كان يؤمن بأن « العقل » لا يستطيع أن يحيط بكل الأشياء بل هو يعجز عن ادراك الحقيقة ، وان الذوق وحده القادر على ذلك الادراك · فقد قذف الله الى قلب فيلســـوفنا نور الحقيقة فانزاحت عنه الظنون وعاد الى حال من الطمأنينة والهدوء ·

انه « أبو حامد بن محمد الغزالى » الملقب « بحجة الاسلام » الذى ولد عام ٤٥٠ هـ فى « طوس » وهى بلدة من أعمال « خراسان » ·

نشـــأة الغـــزالى

كان والد الغزالى غزالا يعيش من غزل الصوف ، فلما دنا أجله ، وولداه محمد وأحمد لا يزالان صغيرين ، وصى بهما صديقا له من المتصوفة فرباهما أحسن تربية · وما أن بدأ « محمد الغزالى » دراسته حتى ظهرت عليه آثار النبوغ والذكاء ، فلم تقنعه أدلة الفقهاء ولا أرضته علومهم ، فرحل الى « نيسابور » ، واتصل بامام الحرمين (١) ، ودرس عليه علم الكلام ثم تعـلم الجدل والمنطق واطلع على الآراء والمـذاهب على اختلاف أنواعها ·

ولما مات امام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ تعرف الغزالى الى الوزير نظام الملك فسماه أستاذا فى المدرسة النظامية فى بغداد سنة ٤٨٤ هـ ، وهنالك فى بغداد أخذ نجمه يتألق وصيته ينتشر ، لسعة علمه وفصاحة لسانه ، فأقبل عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب · وعلت منزلته عند الولاة فتعلقوا به ، وانكبوا عليه ، وبلغوه كما يقول جاها عريضا ، وشأنا خاليا من التكدير ، وأمنا صافيا بعيدا عن منازعة الخصوم ·

ورأى الغزالى وهو يدرس فى بغداد ان يقرأ الفلسفة من غير استعانة بأستاذ ، فأقبل عليها فى أوقات فراغه وحذقها وألف فيها كتابا سماه

« مقاصد الفلاسفة » توطئة لنقدها وابطالها فى كتاب آخر جاء من بعد ذلك سماه « تهافت الفلاسفة » ·

الغزالى يعتزل الناس

ومن أن الغزالى كان يقصد من تأليف هذين الكتابين الى ارضاء شكوكه الفكرية وشفاء اضطرابه الباطني ، فان اضطرابه النفسى بلغ به حدا أورثه شكا فى جدوى عمله · لأحظ نفسه فوجدها منغمسة فى العلائق · وفكر فى نيته فى التدريس فوجدها غير خالصة لوجه الله · ولم يزل يتردد بين الانكباب على العمل ، والاعراض عنه ، حتى اعتقل لسانه عن التدريس ، وأحسن بعجزه عن مقاومة ما أصابه من حزن وقلق ، فكان لا ينساغ له طعام ولا تنهضم له لقمة · وتعدى ذلك الى ضعف قواه حتى قطع الأطباء طمعهم من علاجه ؛ فعزم على ترك التدريس ، والاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب · وخرج من بغداد سنة ٤٨٨ هـ يقصد الحج الى بيت الله الحرام ، وهو ينوى أن لا يعود الى العراق أبدا · فبقى مدة عشر سنوات يتنقل فى زى الفقراء بين دمشق والقدس ومصر والاسكندرية والحجاز ، يقضى أوقاته كلها فى العبادة معتكفا زاهدا ، يجاهد نفسه ويقهرها ، ويجول فى البلدان ويزور المساجد ويأوى الى القفار وينزوى فى المغارات ، ويتعرض لمختلف المشاق والمحن ·

فانكشف له فى هذه الخلوات أمور روحية كثيرة ، رأى معها أنه لاينبغى له أن يلازم الكسل والاستراحة فى وقت بلغ فيه الانحلال الدينى والخلقى درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد · وتساءل : أفيجوز لمثله ان يرى الخطر المحدق بالدين ولا يعمل على درئه ؟ ·

لقد أخذ يشعر عندئذ بأنه صاحب رسالة ، وان عليه ان يصلح الناس كما أصلح نفسه · فلما عاد الى وطنه بعد ان كان أبعد الخلق رغبة فى الرجوع اليه ، أمره السلطان بالنهوض الى « نيسابور » لمعاودة نشر العلم ، فشاور فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فأشاروا بترك العزلة والخروج من الزاوية · وانضاف الى ذلك يقول منامات من الصالحين تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، فلبى دعوة السلطان ، وذهب الى نيسابور للقيام بهذه المهمة سنة ٤٩٩ هـ · وعاد الى نشر العلم ، والعمل على احياء دين الله قال : « وأنا أعلم انى وان رجعت الى نشر العلم فما رجعت · فان الرجوع عود الى ما كان · وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو اليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيتى · وأما الآن فأدعو الى العلم الذى به يترك الجاه ·

هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى ، يعلم الله ذلك منى . وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أأصل الى مرادى أم أخترم دون غرضى » (المنقذ من الضلال) .

ولم يعش الغزالى بعد خروجه من عزلته الا ست سنين ، انقطع خلالها الى نشر دعوته الدينية بالتدريس والوعظ والارشاد ، ثم مات وهو مشتغل بالبخارى ومسلم سنة ٥٠٥ هـ .

مؤلفات الغزالى

لم يترك الغزالى التأليف حتى فى سنوات الخلوة التى قضاها فى التنقل والعبادة ، فبلغت مؤلفاته ـ على قصر حياته واضطرابها ـ عددا ضخما يدل على المجهود العظيم الذى بذله لنشر دعوته . وأكثر مؤلفات الغزالى تدور حول موضوع واحد هو الفكرة الدينية . ومن خصائصها وحدة الموضوع ، ووحدة الفكرة ، وقوة التعبير ، ودقة الاسلوب ، والبعد عن الصناعة اللفظية ، والصراحة فى القول . يشعر القارىء فى كل جملة من جمله بأن هناك حياة تتدفق ، وقلبا يخفق ، وفكرا يجول ، وارادة تملى .

وللغزالى أكثر من مائتى كتاب ومقالة ورسالة ؛ منها المطبوع ، ومنها المخطوط ، ومنها المفقود ، والمفقود منها أكثر من المطبوع . وهى تتناول موضوعات مختلفة كالتصوف ، والعقائد ، والفقه ، والأصول ، والفلسفة والمنطق . وأهم هذه الكتب فى نظرنا هى : كتاب « احياء علوم الدين » الذى يمكن ان يسمى الموسوعة الدينية الجامعة وكتاب « تهافت الفلاسفة » ، وكتاب « المنقذ من الضلال » ، وكتاب « القسطاس المستقيم » ، وكتاب « ميزان العمل » ، وكتاب « المستظهرين » وكتاب « الجام العوام عن علم الكلام » ، وكتاب « مشكاة الأنوار » ، وكتاب « الاقتصاد فى الاعتماد » وكتاب « معيار العلم » وكتاب « كيمياء السعادة » .

بيد اننا اذا تصفحنا مؤلفات الامام الغزالى ـ سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف فى أثنائها ـ فاننا نجد ان أهمها فى نظر الباحث الذى يريد ان يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة ، وهى فضلا عن ذلك ، تعتبر فى نظرنا أهم كتبه على الاطلاق .

ولو لم يؤلف الامام الغزالى غيرها لبقى هو الغزالى العملاق ، الصوفى ، الفيلسوف ، بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئا ... ولكنه لو لم يؤلفها لما كان هو الامام الغزالى صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ ـ أما أحدها : فانه كتاب المنقذ من الضلال ٠

وهو كتاب لا غنى عنه للباحث فى تطور حيـاة الغزالى الفكرية ، ففيه يقص الامام حياته الفكرية ، فى تطورها من الدراسة المستفيضة الى الشك ، ثم الى اليقين ٠

٢ ـ وأما ثانيها فانه : كتاب « تهافت الفلاسفة » ٠

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فان الامام الغزالى حينما سمى كتابه : تهافت الفلاسفة ـ كما يقول « أزين بلاسيوس » ـ كان يريد ان يمثل لنا : ان العقل الانسانى يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول اليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فاذا أبصر شعاعا ، يشبه نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطىء مخدوعا بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك كما يهلك البعوض ٠

فكأن الغزالى يريد أن يقول : ان الفلاسفة خـدعوا بأشياء أسرعوا اليها بلا اعمال روية ، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدى ٠

٣ ـ أما ثالث الكتب فانه : الاحيـــاء ٠

وهو أهمها ، وأهم كتب الامام الغزالى عامة ، ولقد قال فيه الامام النووى « كاد الاحياء أن يكون قرآنا » ٠

ولقد ألفه الامام الغزالى فى أوائل الفترة التى اصطحب فيها مع العزلة أما فيما يتعلق بالبواعث التى من أجلها ألف الامام «كتاب الاحياء» ٠

وأما فيما يتعلق بالهدف الذى من أجله ألف كتاب الاحياء ، وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه فان ذلك كله يتلخص فى كلمة واحدة هى : الاخلاص ٠ ولقد روى ابن الجوزى أن بعض أصحاب أبى حامد سأله قبيل الموت قائلا : أوصنى ، فقال له : « عليك بالاخلاص » ولم يزل يكررها حتى الموت ٠

عليك بالاخلاص !! لقد تلفت أبو حامد يوما الى نفسه ، فوجد انه متجرد من الاخلاص ، وان كل همه ، انما هو الشهرة والصيت والجاه ، والمنزلة عند الناس وعند الحكام ٠٠ وانتفض أبو حامد انتفاضته التى وضع بها نفسه فى محيط الاخلاص ٠

وتلفت أبو حامد ـ بعد ذلك ـ فيما حوله ، فوجد أن الناس صم ، بكم ، عمى ، عن قوله تعالى « ألا لله الدين الخالص » ، وعن قوله تعالى « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، « فادعوا الله مخلصين له الدين » وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تدعو الى الاخلاص فى الدين ،

والى اخلاص الدين لله وحده وهى فى دعوتها الى الاخلاص انما تدعو الى التوحيد ٠

ووجد أن الشيطان قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين فى نظر علمائه ـ فضلا عن غيرهم ـ فتوى حكومة ، أو جدلا للمباهاة والغلبة والافحام ، أو سجعا مزخرفا يتوسل به الواعظ الى استدراج العوام ٠

لما رأى أبو حامد ذلك ألف كتابه النفيس ٠

وألفه ليستعيد الاخلاص الى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح من اتخاذ الاخلاص أساسا وشعارا ٠ وما من شك فى ان اخلاص الدين لله وحده هو التوحيد ، وما من شك فى ان التوحيد هو جوهر الدين الاسلامى ، وهو طابعه ، وهو هدفه وغايته ٠

وألف الامام الغزالى كتابه اذن ليبين فيه الاخلاص أسسا ونتائج ، وأسبابا وغايات ٠

وقد اعتز الغزالى بكتابه هذا وذكر من طلائعه انه يمتاز عما كتبه غيره فى هذا المجال بخمسة أمور هى :

١ ـ حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه

٢ ـ ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه ٠

٣ ـ ايجاز ما طولوه ، وضبط ما فرقوه

٤ ـ حذف ما كرروه ، واثبات ما حرروه

٥ ـ تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الافهام

ولعل من حق الغزالى ان يفخر بعلمه وبضاعته ، وكيف لا وهذا هو العقاد يتحدث فى كتابه « أنا » عما كتبه وعما لم يكتبه ، وعما يريد ان يكتبه فيقول فيما يقول :

« لقد ألفت عن ابن سينا وعن ابن رشد ، وهما أكبر فلاسفة اللغة العربية فى المشرق والمغرب ، وبقى كتاب عن الغزالى الفيلسوف الذى يصارع الفلاسفة ، والفقيه الذى يؤدب الفقهاء ، والمتصوف الذى يكشف عن عالم الخفاء ، كما يكشف عن عالم الشهادة ٠

« وليس فى المشرق والمغرب من هو أرجح فكرا ، وأصفى عقلا ، وأقوى دماغا ، من هذا الامام الجليل ، ولولا اتساع الأفق الذى تدفعنا

[illegible] الكتاب كله ، تبدأت بترجمته ، وبعده قبل ابن سينا وابن رشد وغيرهما من حكماء المشرق والمغرب » .

أقسام الكتاب

وقد رتب الامام الغزالى كتابه أقساما ، والأقسام كتبا ، والكتب أبوابا ، والأبواب فقرات ... كل ذلك ليسهل تناوله .

فأما أقسام الكتاب فهى أربعة :

١ ـ قسم العبادات :

يذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها ، وأسرار معانيها كل ما يحتاج العالم العامل الى معرفته من وجوه الاخلاص فيها ، واقامتها على الأسس التى يحبها الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ قسم العادات :

يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين .

٣ ـ قسم المهلكات :

وهى الأخلاق المذمومة التى ورد القرآن بتطهير القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها .

٤ ـ قسم المنجيات :

يذكر فيه كل خلق محمود ويشرح الوسائل التى بها يكتسب ، والثمار التى تجنى من التخلق به .

وهو فى كل هذه الأقسام يبتدىء كل موضوع يعالجه بذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار الصالحين .

ويعلل الغزالى تقسيم كتابه الى الأقسام الأربعة السابقة بقوله :

« وانما حملنى على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران :

أحداهما ـ وهو الباعث الأصلى ـ ان هذا الترتيب فى التحقيق والتفهيم كالضرورى ، لأن العلم الذى يتوجه به الى الآخرة ينقسم الى علم

المعاملة ، وعلم المكاشفة ، وأعنى بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف العلوم فقط وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به ٠

والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط ، دون علم المكاشفة ، التى لا رخصةفى ايداعها الكتب ، وان كانت هى غاية مقصد الطالبين ، ومطمع نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق اليه ، ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق ألا وهى علم الطريق والارشاد اليه ٠

وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه الا بالرمز والايماء على سبيل التمثيل والاجمال ، علما منهم بقصور افهام الخلق عن الاحتمال ، والعلماء ورثة الأنبياء ، لما لهم سبيل الى العدول عن نهم التأسى والاقتداء ٠

ثم ان علم المعاملة ينقسم الى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح ، والى علم باطن ، أعنى العلم بأعمال القلوب ، والجارى على الجوارح أما عادة واما عبادة ، والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت ، اما محمود واما مذموم ، فبالواجب انقسم هذا العلم الى شطرين ، ظاهر وباطن ، والشطر الظاهر المنطق بالجوارح ٠ انقسم الى عادة وعبادة ٠ والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخـلاق النفس انقسم الى مذموم ومحمود ٠ فكان المجموع أربعة أقسام ، ولا يشذ نظر فى علم المعاملة عن هذه الأقسام ٠

الباعث الثانى : انى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة فى الفقه الذى صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى ، المتدرع به الى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته فى المناقشات وهو مرتب على أربعة أرباع ، والمتزيى بزى المحبوب محبوب ، فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفا فى استدراج القلوب ٠

كتاب العلم

ويفتتح الغزالى كتابه « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة (شـــواهد الآيات ، والأخبـار ، والآثار) و (شواهد الشرع والعقل) ٠

لقد « شهد الله ، انه لا اله الا هو والملائـــكة وأولو العلم قائما بالقسط » ٠

فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا ، وفضلا وجلاء ونبلا ٠

ويقول صلوات الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم انه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال الأحنف رحمه الله : « كاد العلماء أن يكونوا أربابا » .

والعلم الذى يريده الامام الغزالى انما هو علم الدين والدنيا ، ولا يحرم الامام الغزالى منه الا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر مثلا : فاذا أدى العلم الى ضرر ما ، اما لصاحبه أو لغيره كان مذموما .

والهدف من العلم على كل حال زيادة الهداية وغرس الاخلاص فان « من ازداد علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله الا بعدا » .

كتاب قواعد العقائد

ولابد للاخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ولذلك يثنى الامام الغزالى بكتاب : « قواعد العقائد » ، وقواعد العقائد تدور حول :

١ ــ الله وصفاته والأساس فيه ، انه ليس كمثله شيء وانه متصف بكل صفات الكمال : كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والارادة الكاملة وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢ ــ وانه سبحانه بعث محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، برسالته الى كافة العرب والعجم ، فنسخ بشريعته الشرائع الا ما قرره منها ، ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد ، وهو قول : لا اله الا الله ما لم تقترن بشهادة الرسول ، وهو قولك محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول صلوات الله عليه ، فان أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار ، ما أرشد اليه القرآن ، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، ومن القرآن ارشاد واستدلال واضح على كل ذلك .

ويتهيأ الانسان للاخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية وباطنية ، وقد أطال الامام الغزالى فى الطهارة الباطنية ، أما الطهارة الظاهرية فمنها الوضوء .

أجل الصلاة ، والصلاة : انما هي الباب الذى يدخل الانسان منه الى الله سبحانه وتعالى : يناجيه ، وينغمس فى رحابه ، ويستنير بنوره ، وهى من أجل ذلك كانت عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات ، وكانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، وانها لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى كذلك بشرط الخضوع وحضور القلب ·

ويقرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى غير ما موضع « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقد جعلها الله تزكية ، وبفضلها تزكى من عباد الله من تزكى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ومعنى الانفاق فى سبيل الله : اخراج حق الزكاة ، والزكاة نوع من تجريد الانسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله ·

والصوم باب العبادة وباب الاخلاص ، فاذا ما صام الانسان ايمانا واحتسابا ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه ·

ويقسم الصوم الى ثلاث درجات : صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص وهو كف الجوارح عن الآثام ، وصوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ·

ويكفى فى فضل الحج ما رواه الشيخان البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ·

والقرآن كتاب الاسلام المنزل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من تمسك به هدى ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال صلوات الله عليه : « أهل القرآن أهل الله وخاصته » · والقرآن : رسائل أتتنا من قبل ربنا بعهوده · نتدبرها فى الصلوات ، ونقف عليها فى الخلوات ، وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وتلاوته اذن مطلوبة جلاء للقلوب ، وشفاء لما فى الصدور ، وغرسا للاخلاص ، وتثبيتا للتوحيد ·

قسم : العادات

وبعد أن ينتهى الامام الغزالى من ربع العبادات يبدأ فى ربع العادات ، فيبين فيه آداب الأكل وآداب النكاح ، ثم يبين آداب الكسب والمعاش ،

ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية ، فى فضل العمل وفى استقالة العمال والتجارة ، فمن الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهم فى طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء ٠

ويخلص من ذلك الى كتاب جليل نفيس وهو « كتاب الحلال والحرام » ٠ والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض ، والحرام كله خبث ، ولكن بعضه أخبث من بعض ، ويفصل الامام كل ذلك لينتهى الى « كتاب آداب الألفة والاخوة والصحبة ٠٠٠ » وأساسه حسن الخلق ، والتأسى فيه بالرسول الذى يقول الله له : « وانك لعلى خلق عظيم » ٠ وقد بعث صلوات الله عليه ليتمم مكارم الأخلاق ، فاذا ما كان حسن الخلق كانت الاخوة ، وفائدة الاخوة كما يريدها الدين عظيمة ٠ ولقد قال صلوات الله عليه فى الثناء على الاخوة فى الدين : « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ، ان نسى ذكره وان ذكر أعانه » ومن أروع ما قاله صلوات الله عليه فى ذلك : « مثل الأخوين ، اذا التقيا : مثل اليدين : تغسل احداهما الأخرى ، وما التقىمؤمنان قط الا أفاد الله احدهما من صاحبه خيرا » ٠

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط بين أنصاركل منهما وخصومه ، ليرى ان كلام الشافعى رحمه الله فى هذا الموضوع هو فصل الخطاب ، اذ قال : « يا يونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة ٠ ويختلف ذلك بالأحوال ، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل هذا هو الحق الصراح ٠ وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ٠ وانما هو اخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له فى الحال ٠

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيد الانسان فى جانبه الروحى ، ولكن السفر قد يكون بسير القلب عن أسفل السافلين الى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ويجمع السفرين ويحث عليهما قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ٠ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » ٠

ويختتم الغزالى ربع العادات : « آداب المعيشة وأخلاق النبوة » فيبين ما كان عليه الرسول عليه السلام من خلق ٠ كما فى القرآن ويشرح فى استفاضة ما يوضح قول الله تعالى لرسوله « وانك لعلى خلق عظيم » ٠

قسم : المهلكات

ويبتدىء ربع المهلكات بكتاب من أنفس الكتب ، لا غنى عنه قط ، لمن يريد أن يعالج التصوف عمليا ، أو أن يقتنع بحقيقته نظريا ، ذلك هو كتاب « شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع الى أن القلب هو العالم بالله ، وهو المتقرب الى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعى الى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، فاذا تساءلت : ما معنى القلب الذى له هذه المنزلة ؟ فانه : « هو لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان ، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب » ٠

ويتلو ذلك كتاب « رياض النفس وتهذيب الأخلاق » ومن هذا العنوان وحده نفهم ان الامام الغزالى مزج بين رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والخلق الحسن : انما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين ٠

ولقد كان صلوات الله عليه يقول : « ان أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » ٠

وأعظم المهلكات ، لابن آدم ، شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذل والافتقار ، اذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها ، فبدت لهما سوءاتهما ٠

واذا كان الأمر كذلك فلابد من كسر هذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الانسان الا حلالا ، وألا يجعل الأكل هدفا وغاية ٠ والأفضل بالاضافة الى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا ، فان مقصود الأكل بقاء الحياة ، وقوة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها ٠

ثم يتحدث الامام عن « آفات اللسان » ٠ وما من شك فى أن اللسان من نعم الله العظيمة ٠ ولطائف صنعه الغريبة ، ولكن الناس تساهلوا فى الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهى كثيرة ، وما من شك فى أن من أسباب النجاة ما نصح به الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله « أمسك عليك لسانك » ٠

والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والاستهزاء ، والسخرية : كل ذلك من آفات اللسان والمثل العربى يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » ٠ والطريقة المثلى ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله ٠

ومن الآفات التي تفسد على الناس أمورهم « الغضب » وقد روى أبو هريرة ان رجلا قال : يا رسول الله ، مرني بعمل وأقلل ، فقال له ، صلوات الله عليه : « لا تغضب » فأعاد الرجل السؤال ، فقال له : « لا تغضب » · ومما يزيل الغضب الجلوس اذا كان الانسان قائما ، والاضطجاع اذا كان جالسا ، ومما يزيل الغضب الوضوء والاغتسال ، ومنها السجود · « ألا ان الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون الى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن وجد ذلك شيئا فليلصق خده بالأرض » · وهذه اشارة الى السجود ·

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ولا يزال ابن آدم يجرى وراءها في جشع وفي تكالب فتستعبده الى أن يهلك ، والمؤمن يستعبد الدنيا ، فتذل له ، فيتخذها مطية للآخرة ·

ومحب الدنيا بخيل ، لأنه متكالب عليها ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل يقول : انا أنزلنا المال ، لاقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثاني ، لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ، ويتوب الله على من تاب » ·

أما المقياس الصحيح ، فهو قوله تعالى : « ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » ·

وحب الجاه ، والرياء ، والكبر ، والعجب ، والغرورة كلها من الآفات التي يجب أن يتخلى عنها المؤمن ، اذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده ·

قسم : المنجيات

أما اذا وصلنا الى ربع المنجيات ، فقد وصلنا الى درة التاج والى النور الهادى والى صفاء الصفاء ·

ويبتدىء الغزالى هذا القسم ، أول ما يبتدىء « بالتوبة » : فان التوبة عن الذنوب بالرجوع الى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول اقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاستصفاء والاجتباء للمقربين ·

ووجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الايمان صدره : « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا » ·

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستراب فيه لمعرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور . ومهما يكن من شيء . ف « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

والايمان : « نصفان » . نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار ، وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر ، وجعلها ثمرة له فقال تعالى : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال صلوات الله عليه : « الصبر نصف الايمان » ، وقال : « الصبر كنز من كنوز الجنة » .

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الانسان بهذه النعم هو الشكر ، والشكر نفسه سبب فى زيادة النعم ، يقول تعالى : « لئن شكرتم لازيدنكم » .

والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كئود .

والتوكل : منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معالى درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد فمن وحد الله حق توحيده توكل عليه . « أليس الله بكاف عبده » .

أما محبة الله . فانها الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، ومن ثمارها الشوق والأنس والرضا ، وليس قبل المحبة مقام ، الا وهو مقدمة من مقدماتها « كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها » . فهى واسطة العقد ، ودرة القلادة « والذين آمنوا أشد حبا لله » . « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » .

وقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الايمان وأنوار القرآن ان لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى الا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى الا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم ، فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير اخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والاخلاص من غير صدق وتحقيق هباء .

ومن راقب الله فاز ، ومن حاسب نفسه نجا .

وقد وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، وكثر الحث فى كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى ان الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا » ويقول : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » وقد روى ان الرسول صلى الله عليه وسلم : بكى حينما نزلت هذه الآية وقال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » ٠

★★★

أثر الاحياء
فى العـالم الاسلامى

هـذا هو مفهـوم الايمـان عند « حجة الاسـلام » كما ضمنه كتابه الاحياء ٠٠ هذا الكتاب الذى من أمضى القول ان نقول بأن نصيبه كان الرفض فى حياة مؤلفه ثم الاحراق !!

ثم مرت الأيام وأصـبح هـذا الكتاب مرجع الباحثين عن الايمـان الصحيح بما أحدثه من تغيير فى الفكر الاسلامى ورفع لفهم الدين والايمان الى مستوى روحانى عاد بالاسلام الى أصوله الأولى ومنابعه الصافية مما جعل لصاحبه مكانته التى لا تجحد فى تاريخ الفكر الانسانى ٠

أما أثر هذا الكتاب فى العالم الاسلامى ، فقد كان ضخما ، لقد شرح واختصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون ، وترجم الكثير منه الى الانجليزية والفرنسية والاسبانية وغير ذلك من اللغـات الحية : شرقية وغربية ٠

ومخطوطاته التى بمكتبات العـالم لا تكاد تحصى ، وقد طبع فى القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع فى الهند وفى تركيا وفى ايران ٠

ولا يزال الكتاب للآن فى العالم الاسـلامى مصدر الهـام ونور ، ودراسة تختلف نتائجها لاختلاف نزعات الدارسين ٠

ولا يزال فى مصر جماعات تعقد حلقات اسبوعية تخصصها لقراءة كتاب الاحياء والتعبد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ ٠

أما تقدير العلماء لهذا الكتاب ، فتصوره الآراء التالية :

يكاد الناقدون يجمعون على كلمة : « أبو المظفر » سبط أبى الفرج

ابن الجوزى فى قوله : « ووضعه على مذاهب الصوفية . وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التى لم تصح » .

ولهذه الأحاديث التى لم تصح أذاع بها كثيرون من أعداء الامام الغزالى ، ولكن ها هو ذا المولى أبو الخير يقول :

« أما الأحاديث التى لم تصح فلا ينكر عليه ايرادها لجوازه فى الترغيب والترهيب » .

والواقع ان الامام الغزالى لم يأت بهذه الأحاديث التى لم تصح لاثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك انه يذكر الآيات القرآنية التى يثبت بها ما يؤدى اليه من أحكام وقواعد ، وهى على هذا الوضع كافية فى الاثبات والاستدلال ، ثم يأتى بعد ذلك بالأحاديث وبأقوال الصحابة والتابعين .

واذا كان كذلك فاننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الاحياء فان كل المبادىء والقواعد والعظات والعبر التى أتى بها الامام الغزالى فى هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها من ناحية الاثبات والاستدلال .

ويتبين من هذا انه لا قيمة لهذا الاعتراض لا شكلا ولا موضوعا .

على انه قد قام العالم الثبت الحجة الحافظ العراقى (٢) الذى قال فيه شيخه : « ان ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة وأصبح الطريق أبلج .

يقول الحافظ العراقى عن كتاب الاحياء : انه من أجل كتب الاسلام فى معرفة الحلال والحرام جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع الى سرائر دقت عن الافهام ، ولم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع الى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومزج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه مقتديا بقول على كرم الله وجهه : « خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع اليهم الغالى » .

وقال الزبيدى (٣) شارح الاحياء : « وأنا لا أعرف له نظيرا فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر » .

وقال ابن السبكى : « وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها واشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل ما ينظر فيه الا ويتعظ به فى الحال » .

وقال الشيخ عبد القـــادر العيدروس فى كتابه « تعريف الاحياء بفضائل الاحياء » (اعلم ان فضائل الاحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له ، باعتبار حيثياتها لا تستقصى » ٠

وكان عبد الله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه ، وروى عنه انه قال : « مكثت أطالع كتاب الاحياء ، كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ، ومفهومات غزيرة ، غير التى قبلها ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد » ومن كلامه أيضـــا : « عليكم يا اخوانى بمتابعة الكتاب والسنة أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية خصوصا ، كتاب ذكر الموت ، وكتاب الزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس » ٠ وقد الزم الشيخ عبد الله العيدروس أخاه قراءة الاحياء فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة ٠

ونختم هذه التقديرات برأى اعتقد انه فيصل الحق فى موضـــوع « كتاب الاحياء » وهو رأى العالم الجليل الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بعصبية ، والآراء مجمعة على انه من العلماء الذين حاولوا جاهدين ان يكون كل ما يصدر عنهم انما يراد به وجه الله ، يقول : « اذا وجد العلماء فى كتاب الاحياء مآخذ معدودة ، فانه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى كتاب الاحياء فضلا وسمو منزلة ان تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وان يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما يظفرون به من كتاب غيره « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ٠

هـوامش

(١) امام الحرمين : هو أبو المعالى الجوينى (١٠٢٨ ـ ١٠٨٥ م) له عدة مؤلفات أهمها فى أصـــول الفقه (البرهان) و (الورقات) • وفى علم الكلام (الشامل) و (الارشاد) •

(٢) الحافظ العراقى : هو العالم زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم ابن الحسين العراقى الذى تخصص فى علم الحديث (٧٢٥ هـ ـ ٨٠٦ هـ) •

(٣) الزبيدى : محمد بن الحسن (٩٢٨ ـ ٩٨٩ هـ) لغوى • ولد ومات باشبيلية ودرس بها وبقرطبة • ألف كتبا قيمة منها (الأبنية) و (الواضح فى النحو) و (لحن العامة) و (مختصر العين) و (طبقات النحويين واللغويين) •

الفتوحات المكية

محيي الدين بن عربي

١٢٣٨ م

ينفرد كتاب الفتوحات المكية من بين كتب ابن عربى العديدة بأنه ألصق هذه الكتب كلها بمؤلفه ، فهو الى جانب مادته الغزيرة فى العلوم الانسانية والاسلامية وعلوم الأوائل ، مرآة تنعكس عليها سيرة المؤلف الشخصية وحياته الروحية ، كما تنعكس عليها ثقافته الواسعة التى استمدها اما مباشرة من العلماء والصوفية الذين تتلمذ عليهم أو صحبهم أو لقيهم عرضا فى أسفاره أو راسلهم فى الأندلس أو المغرب أو المشرق العربى ، واما من الكتب التى عثر عليها فى البلاد التى زارها · ولا تجد مؤلفا آخر غير « الفتوحات » يمدك بشتى التفاصيل عن كل هذا ، كما يلقى الضوء على ما خفى من معالم شخصية ابن عربى ومغامراته الروحية وتجاربه الصوفية ·

ويتصل الكتاب من ناحية أخرى اتصالا وثيقا بأكبر عدد من مؤلفات ابن عربى ، لا من حيث ذكر اسمائها وحسب ، بل من حيث ما يذكر عن موضوعاتها والظروف التى لابست تأليفها ، وتاريخ ومكان ذلك التأليف ، والحكم عليها فى أغلب الأحيان ·

ولما كان كتاب « الفتوحات » آخر وأوسع كتاب ألفه وعالج منه شتى الموضوعات والمسائل التى عالجها على انفراد فى كتبه الأخرى ، كان منها بمثابة الخلاصة العامة والثمرة الناضجة لكل ما كتب · وعلى كل من يتصدى للكتابة عن « الفتوحات » ان يمهد لذلك بالكلام عن مؤلف « الفتوحات » وعن مؤلفاته الأخرى لانعكاس كل من هذين الأمرين على الآخر ·

سيرة ابن عربى

هى سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفذاذ ، الذين تركوا ثروة ضخمة من الآثار والآراء ، ضمنها عددا لا يكاد يحصى من كتبه التى عدت عليها عوادى الزمان ، فما ضاع يعد أضعافا مضاعفة لما بقى منها ·

هى سيرة الصوفى المرسى العظيم « محيى الدين بن عربى » الذى عاش فى الفترة التى تجمع بين منتصف القرنين السادس والسابع الهجريين ، هذه الفترة التى كانت زاخرة بالأدب والتصوف ، فى بيئه من أخصب بلاد العالم الاسلامى رقة وذوقا وأدبا وتصوفا ، هى بيئة الأندلس ، التى على رباها نشأ عاهل التصوف العظيم ، ثم خطت قدماه تذرع البلاد شرقا وغربا ، بحثا عن المعرفة ، وارتيادا للحكمة ·

هى سيرة « ابن عربى » الذى سطع نجمه فى افق الثقافة الاسلامية الصوفية حيا وميتا ، ووجد من الأنصار والخصوم من يناصرون ويناوئون ، وشغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان ، وأثار ثائرة قوم واعجاب آخرين، وظلت كتبه الى ذلك الوقت منبعا فياضا وكنزا دفينا يهرع اليه طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة ·

هو الشيخ أبو بكر محمد بن على الملقب بمحيى الدين بن عربى المرسى الحاتمى الصوفى الفقيه الطاهرى · الذى ولد فى مرسية فى الجنوب الشرقى من الأندلس يوم الاثنين ١٧ من رمضان سنة ٥٦٠ هـ ، وهو من سلالة عربية صميمة ومن أسرة عرفت فى الأندلس بالتقوى والورع . وكان بعض أفرادها من الصوفية ، تلقى مبادىء العلوم الدينية فى مدينة لشبونة ثم فى اشبيلية التى كانت من أكبر مراكز التصوف فى الأندلس فى عهده ، وقضى فيها نحوا من ثلاثين سنة ، وتلقى العلوم عن مشيختها الذين كان لهم أثر غير قليل فى توجيهه فى الطريق الصوفى · وهو يذكر هؤلاء المشايخ فى كتبه فى كثير من التقدير والاكبار · والظاهر انهم كانوا من بسطاء الزهاد الذين قصروا همهم على الناحية العلمية من الطريق الصوفى ولم يكن لهم كبير حظ فى التصوف النظرى ، ومع ان ابن عربى اتخذ من اشبيلية مقرا له هذه الفترة الطويلة من حياته ، فانه كان يرتحل عنها الى بلاد أخرى فى الأندلس ، زائرا متجولا مرتادا للعلماء ، ثم يعود اليها · زار « قرطبة »وهو شاب ولقى بها الفيلسوف « ابن رشد » الذى كان قاضى المدينة اذ ذاك · وفى سنة ٥٩٨ هـ هجر الأندلس وبلاد المغرب جميعا ، وذهب الى المشرق ليقضى فريضة الحج ، ولكنه لم يعد منه · وأغلب الظن أن رحلته الى المشرق كانت فرارا من الأندلس والمغرب وجوهما الصاخب دينيا وسياسيا ، وما كان يسود هذا الجو من تزمت من جانب فقهاء المالكية واضطهاد للمفكرين الأحرار من جانب أصحاب الحكم ·

ولقد زادت همة « ابن عربى » فى طلب العلوم وكانت له عزيمة لاتعرف الكلل ، وتكبد فى سبيل تحصيله كثيرا من المشاق ، وكان كالنحلة دائب الانتقال من روض الى روض ، حتى جمع فى ذلك ذخيرة شهد له بها القاصى والدانى ، وسيأتى بيان عن ذلك بعد ·

فقد زار مصر سنة ٦٠٣ هـ ولم تطب اقامته بها لان أهل مصر لم يحسنوا وفادته ، فقد كان سببا فى اثارة ثائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل ، وهموا بأن يبطشوا به لولا أن قيض الله له من كان سببا فى انقاذه من هذه الفتنة التى أوشكت أن تعصف به ٠ ولما رحل عن مصر زار كثيرا من بلاد المشرق كبيت المقدس ومكة وجهات أخرى من الحجاز وبغداد وبعض مدن بلاد الروم ، ثم استقر به المقام فى دمشق التى أقام بها الى أن توفى ليلة الجمعة ٢٨ ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ ودفن فى جبل قاسيون ٠

مكانته العلمية وشهادة العلماء

تلك هى سيرة ذلك البطل الذى أطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما دلالتهما العظيمة :

أما اللقب الأول فهو « الشيخ الأكبر » وهذا اللقب لم يطلق عليه الا بعد أن اجتمعت له أصول الرياسة ومقومات القيادة الروحية ، وتخرج على يديه الكثير من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون حوله بالمئات فى كل مكان يحل فيه ، يتحلقون حوله ويستمعون الى محاضراته ، وينصتون الى آرائه وأذواقه فى شعره ونثره ، فيجدون فى ذلك بلسما شافيا لجراحهم ، وبعثا قويا لموات نفوسهم ، وحفزا صادقا لهممهم ، وارواء لظمأ أرواحهم ٠ وكانوا هم عند حسن ظنه بما أفادوا من تعاليمه وساروا على طريقه واستجابوا لنصائحه ، فشفت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وارتوت أرواحهم وانطلقوا يحلقون فى فضاء الروح ٠

ولقد وضع « الشيخ الأكبر » مناهج تتناول الصوفى فى جميع مراحل طريقه من لدن انبعاث الرغبة فى نفسه ، ثم مضيه مريدا سالكا حتى تتكشف أمامه الطريق ، فيتمكن من الوصول الى غايته بنجاح ٠

كما وضع مناهج للشيوخ أنفسهم يستأنسون بها فى ارشادهم ، كما يستأنس بها مريدوهم حتى يعرفوا القائد الحق فيحترموا قدوته ويحفظوا له حقه وبذلك يزهر غرسه ويدنو ثمره ٠

وكان هو ــ نفسه ــ سلوكا وتصرفا وقولا وعملا وآدابا وأخلاقا ــ فى الذروة العليا من الكمال الانسانى الذى بلغ به مراتب أهل الفضل وجعل شيوخ عصره يجلونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة ٠

من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب « الشيخ الاكبر » ·

أما اللقب الثانى فهو «سلطان العارفين» وهو لقب يكاد يكون متلازما مع اللقب السابق ، فلم يستحق ابن عربى لقب « الشيخ الأكبر » الا بعد أن تبوأ عرش المعرفة ، وأدرك من الأسرار ما عز على غيره ، واستطاع أن يشير الى حقائق تاهت فى الطريق اليها العقول ، وتفرقت العزائم ، وأدلى بمعان رائعة وحكم بالغة ، تدل على رسوخ قدمه وعلو كعبه وسعة معرفته·

ولقد شهد بذلك أعظم الصوفيين فى عصره ، ومنهم أبو مدين فى المغرب ، والسهروردى فى بغداد ، وابن الفارض فى مصر ·

أطلق عليه أبو مدين هذا اللقب « سلطان العارفين » ·

وقال عنه السهروردى : انه بحر الحقائق ·

وأدرك ابن الفارض روعة « الفتوحات المكية » فقال : انها خير شرح لنائيته المشهورة « نظم السلوك » ·

وهذه التقديرات اذ دلت على شىء فانما تدل على ما وصل اليه الشيخ الأكبر من تالق ومقدرة ·

ومن أجل ذلك أطلق عليه « سلطان العارفين » وهو جدير بهذا اللقب ، لانه لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى هذا الطريق الصوفى الغاص بالعقبات والمفاوز والمتاهات الا وأدلى فيها ببيان واف ، وعبارات رائعة نظما ونثرا · واتسعت معرفته فشملت غير العلوم الصوفية براعة ودقة وفهما وأداء ·

هذه سيرة الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى سلطان العارفين ·

تراث ابن عربى

وضع ابن عربى مائتين وواحدا وخمسين مؤلفا ما بين كتاب ورسالة حسبما ورد فى مذكرة كتبها سنة ٦٣٢ هـ ، أو خمسمائة كتاب على حد قول عبد الرحمن حامى (١) فى «نفحات الأنس» أو أربعمائة كما يقول الشعرانى فى « اليواقيت والجواهر » · وقد ذكر له بروكلمان (٢) نحوا من مائة وخمسين مؤلفا لاتزال باقية ما بين مطبوع ومخطوط ·

ومن الصعب تصنيف هذه المؤلفات على أى أساس علمى من أسس التصنيف : فمن المتعذر مثلا ترتيبها ترتيبا زمنيا لاننا لا نعرف تاريخ أكثر من عشرة منها ·

ومع ذلك فان من اليسير أن نميز بين المؤلفات التى كتبها فى الأندلس والمغرب ، وتلك التى كتبها فى المشرق ـ وبخاصة فى مكة ودمشق ـ وهذه تشمل أكثر مؤلفاته وأنضجها : ومنها النصوص والفتوحات ٠

ومن الصعب أيضا ـ ان لم يكن من المستحيل ـ ان نضع تصنيفا علميا دقيقا لمؤلفات ابن عربى على أساس مادتها لاننا لم نطلع عليها كلها بعد ، ولا نخال أن أحدا قد درس جميع هذه المؤلفات ووقف على مادتها ، وعناوين الكتب والرسائل وحدها غير كافية فى هذا التصنيف ، بل لابد من الاطلاع عليها أولا وبحثها وتحليلها تحليلا علميا ٠ ولابد ثانيا من الاستئناس بما ذكره المؤلف نفسه ، ومن ذلك الكثير فى كتابه «الفتوحات» الذى يشير فيه الى عدد كبير من كتبه ويعلق عليها وعلى الظروف التى احاطت بتأليفها ، ولكنامع ذلك نستطيع أن نضع التصنيف العام التالى ٠

يمكن تصنيف مؤلفات ابن عربى فى سبع مجموعات على النحو الآتى :

المجموعة الأولى : كتب التصوف : وهى ثلاثة أنواع :

١ ـ نظرية ٢ ـ عملية ٣ ـ تعليمية

المجموعة الثانية : كتب الحديث ، ومعظمها مختصرات لكتب أخرى كصحيح البخارى أو مسلم ٠

المجموعة الثالثة : كتب التفسير ، وأهمها تفسيره الصوفى الذى بلغ فيه الى سورة الكهف وتوفى ولم يكمله ٠

المجموعة الرابعة : فى السيرة النبوية ٠

المجموعة الخامسة : فى الأدب ـ بما فى ذلك الشعر الصوفى ٠

المجموعة السادسة : فى العلوم الطبيعية : كالفلك وعلم التنجيم ٠

المجموعة السابعة : فى علوم الأسرار ٠

ومع احاطة ابن عربى التامة بالتراث الفكرى الاسلامى الذى كان معروفا الى عهده لم يشغل نفسه بالتأليف فى الفلسفة الا من حيث ما يجد صلة بينها وبين بعض مسائل التصوف ، ولا بعلم الكلام الا عرضا عندما يناقش مسألة كلامية يرى فيها رأيا مخالفا أو موافقا لروح مذهبه ٠ ولكن شغله الشاغل كان التأليف فى التصوف الذى وقف كل علمه على خدمته٠

وقد اشتغل بالتأليف فى التصوف منذ دخوله فى الطريق الصوفى، وسار في التأليف فيه على نهج تدريجى : يكتب أولا الكتب أو الرسائل

القصيرة حول موضوعات خاصة مثل كتاب « التدبيرات الالهيـة » الذى وضعه فى المملكة الانسانية وكتاب « مواقع النجوم » الذى وضعه فى ارشاد السالك فى الطريق الصوفى ، ورسالـة « الخلوة » التى وضعهـا فيما يجب على المريد فى خلوته ، وكتاب « عنقاء مغرب » الذى وضعه فى الولاية ورسائل أخرى قصيرة ٠

كان هذا فى الشطر الأول من حياته وهو الشطر الذى قضاه فى الأندلس وبلاد المغرب وقضى وقتا منه ببلاد المشرق ٠ أما الشطر الثانى من حياته وهو الذى قضى معظمه بدمشق ومكة ، فقد ظهر فيه انتاجـه الناضج الخصب فى ميدان التصوف بوجه خاص مثل كتابه « نصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » ٠

وقد ألف ابن عربى كتابه « الفتوحات المكية » خلال ثمان وثلاثين سنة : بدأه بمكة سنة ٥٩٨ هـ عندما ذهب اليها قاصدا الحج وانتهى منه سنة ٦٣٦ هـ ٠ وها هى ذى عبارته الواردة فى نسخة الفتوحـات التى كتبها بخط يده ولا تزال محفوظة بمدينة قونية :

« انتهى الباب بحمد الله بانتهـاء الكتاب على ما أمكن من الايجاز والاختصار على يد منشئه : وهو النسخة الثانية من الكتاب بخط يدى ، وكان الفراغ من هذا الباب الذى هو خاتمة كتاب الفتوحات بكرة يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وستمائة، وكتبـه منشئه بخطه محمد بن على بن محمد بن عربى الحـاتمى الطائى وفقه الله ٠ هذه النسخة سبعة وثلاثون مجلدا ، وفيها زيادات على النسخة الأولى التى وقفتها على ولدى محمد الكبير الذى أمه فاطمـة بنت يونس ابن يوسف أمير الحرمين وفقه الله وعلى عقبه وعلى المسلمين بعد ذلك شرقا وغربا : برا وبحرا » ٠

★★★

تحليل الفتوحات

أكبر مؤلفات ابن عربى على الاطلاق وأهمهـا كذلك ، أشار اليـه ابن عربى نفسه فى فهرست مؤلفاته بقوله : « كتاب الفتوحات المكية ، وهو كتاب كبير فى مجلدات مما فتح به على فى مكة ، يحتوى على خمسمائة باب وستين بابا فى أسرار عظيمة من مراتب العلوم والمعارف والسلوك والمنازل والمنازلات والأقطاب وشبه هذا الفن » ٠ وهو مطبوع فى مصر طبعتين احداهما طبعة بولاق سنة ١٢٩٣ فى أربعة أجزاء تحتوى ثمانية مجلدات : وهى النسخة التى نشير اليها فى هذا الكتاب ٠

أما تسميته بالفتوحات المكية فلأنه ـ على حد قول المؤلف ـ مما فتح الله به عليه اثناء زيارته لمكة سنة ٥٨٩ هـ · بقوله : « كنت نويت الحج والعمرة ، فلما وصلت أم القرى « مكة » أقام الله سبحانه وتعالى فى خاطرى ان أعرف الولى بفنون من المعارف حصلها فى غيبتى ، وكان الأغلب منها ما فتح الله سبحانه وتعالى به عند طوافى ببيته المكرم » ·

وليست هذه أول مرة يدعى فيها ابن عربى انه مؤلف ملهم · وانه يصدر فيما يكتب عن املاء الهى لا عن تقليد للغير أو تفكير شخصى · يقول فى الباب ٣٦٥ : « واعلم ان جميع ما اتكلم به فى مجالسى وتصانيفى انما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فاننى أعطيت مفاتيح الفهم فيه والامداد منه · كل ذلك حتى لا اخرج عن مجالسة الحق تعالى ومناجاته بكلامه » ·

ويقول فى الباب ٣٦٦ : « ان جميع ما أكتب فى تأليفى ليس عن روية ، وانما هو نفث فى روعى على يد ملك الالهام · » · ويقول فى الباب ٣٧٣ : « جميع ما كتبته وأكتبه فى هذ الكتاب (الفتوحات) انما هو من املاء الهى والقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روح كيانى · كل ذلك بحكم الارث للأنبياء والتبعية لهم لا بحكم الاستقلال » · ويقول فى فهرست مؤلفاته : « وما قصدت فى كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف ، وانما كان يرد على من الحق موارد تكاد تحرقنى ، فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها ، فخرجت مخرج التأليف ـ لا من حيث القصد · ومنها ما ألفته عن أمر الهى أمرنى به الحق فى نوم أو مكاشفة » ·

وهكذا يمضى ابن عربى فى دعواه انه مؤلف ملهم ، وان ما خطه فى كثير من كتبه انما هو املاء الهى وصل اليه أحيانا أثناء اليقظة وأحيانا أثناء النوم وآونة فى حالة بين النوم واليقظة ·

ولا يحاول ابن عربى أن يخدع نفسه أو يخدع الناس عندما يتشبث بهذه الدعوى ، وفى دعواه نغمة تنم عن الصدق بأنه كان بالفعل يقع أحيانا تحت تأثير قوة خارقة لايستطيع مقاومتها ولا ملاحقتها فيما تملى عليه يدل على ذلك قوله « انه كان يرد على من الحق موارد تكاد تحرقنى · فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد » · أما مصدر هذه « الموارد المحرقة » فيسميه ابن عربى علوم الالهام أو علوم الوراثة أو علم الباطن أو علوم حضرة القرآن · وقد يسميه علم النفس الحديث « العقل الباطن » · وفى اعتقادنا اننا ان لم نفترض خضوعه لمثل هذه القوة الخارقة يصعب علينا تفسير كثير من الظواهر المتصلة بتأليفه ، ومن ذلك :

أولا : صدور هذا العدد الضخم من المؤلفات عنه ·

ثانيا : خلا الكثير من مؤلفاته ـ لاسيما الفتوحات ـ من أى نظام أو ترتيب أو ترابط تأليفى · فان مادة هذه الكتاب لا يمكن وصفها بأكثر من انها فيض متدفق من المعلومات ، يسيل على السجية ولا يخضع لضابط من الضوابط التى يخضع لها التأليف العادى ·

ثالثا : قوله انه أثناء كتابته « الفتوحات » كان يملى ثلاث كراسات كل يوم أينما كان ومهما كانت شواغله الأخرى ·

رابعا : قوله عن كتاب « مفتاح أقفال الالهام والتوحيد وايضاح أشكال اعلام المزيد » انه استيقظ يوما قبيل الفجر فأيقظ الرجلين اللذين كانا ينسخان له واملى عليهما الكتاب فى كراستين ، فما طلعت الشمس حتى انتهى من الكتاب ! ·

★★★

أقسام الكتاب

يكاد يكون من المستحيل وصف كتاب الفتوحات من حيث مادته بأكثر من أنه موسوعة ضخمة فى العلوم الدينية والتصوف وعلوم الأوائل خالية تماما من وحدة التأليف والغرض ، لا يصدر فيها صاحبها عن روية أو تفكير وانما يسجل كل فكرة تخطر بباله وكل تجربة تضطرب فى نفسه تسجيلا تلقائيا هو وليد اللحظة التى يتم فيها · ولذلك يسود الكتاب التفكك والاضطراب كما يسرده الاستطراد وتداخل المسائل بعضها فى بعض · ويعترف ابن عربى نفسه بهذا حيث يقول : « اعلم أن ترتيب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا نظر فكر ، وانما الحق تعالى يملى علينا على لسان ملك الالهام جميع ما نسطره · وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده » ·

والكتاب لا يدور حول موضوع واحد ولا مادة علمية واحدة ، وانما هو عرض شامل للثقافة الاسلامية والعلوم الدينية والفلسفية النظرية منها والعملية ·

والكتاب ضخم يحتوى على أربعة أجزاء ضخمة ، وكل جزء يحتوى على مجلدات ، وينقسم الكتاب من حيث الموضوعات الى ستة أقسام هى :

١ ـ القسم الأول : المعارف ··· ويحتوى على ثلاثة وسبعين بابا ·

٢ ـ القسم الثانى : المعاملات ··· ويحتوى على ستة عشر ومائة باب ·

٣ ـ القسم الثالث : الأحوال ··· ويحتوى على ثمانين بابا ·

٤ ـ القسم الرابع : المنازل ... ويحتوى على أربعة عشر ومائة باب ٠

٥ ـ القسم الخامس : المنازلات ... ويحتوى على ثمانية وسبعين بابا ٠

٦ ـ القسم السادس : المقامات ... ويحتوى على تسعة وتسعين بابا ٠

مجملة أبوابه ستون وخمسمائة باب ، تتناول شتى العلوم والمعارف الصوفية ، كما تتناول غيرها من العلوم ، والمعارف الأخرى التى يستدعيها الحديث من فقه وحديث ومعاملات وتاريخ وسياسة وغير ذلك ٠

وللشعرانى فيه وصف جامع يشير فيه الى هذا الشمول حيث يقول: « واعلم يا أخى أننى طالعت من كتب القوم ما لا أحصيه ، وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية ـ لا سيما ما تكلم فيه عن أسرار الشريعة وبيان منازع المجتهدين التى استنبطوا منها أقوالهم : فان نظر فيه مجتهد فى الشريعة ازداد علما الى علمه واطلع على أسرار وجوه الاستنباط وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده ، وان نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك ، أوشارح للأحاديث النبوية فكذلك ، أو متكلم فكذلك ، أو محدث فكذلك ، أو لغوى فكذلك ، أو مقرىء فكذلك ، أو معبر للمنامات فكذلك ، أو عالم للطبيعة وصنعة الطب فكذلك٠أو عالم بالهندسة فكذلك ، أو نحوى فكذلك ، أو منطقى فكذلك ، أو صوفى فكذلك ، أو عالم بعلم حضرات الاسماء الالهية فكذلك ، أو عالم بعلم الحروف فكذلك ٠ فهو كتاب يفيد أصحاب هذه العلوم وغيرها علوما لم تخطر لهم قط على بال ٠ وقد اشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها فى كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » ٠

وهذا وصف صادق لهذا الكتاب الضخم ٠

والناظرون فى هذا المنجم الفنى الحافل يستخلصون الكثير مما أودع فيه من ثمين العناصر ، كل بحسب منزعه ومسربه ٠ ولكن الذى يعنينا هنا بوجه خاص هو تصوف ابن عربى وفلسفته ، وهما أثمن عناصر الكتاب ٠

وتحتوى فلسفة ابن عربى فى كتابه عن العناصر الرئيسية الآتية :

أولا : مذهب كامل فى طبيعة الوجود والصلة بين الحق والخلق ، ومعنى التنزيه والتشبيه ، والوحدة والكثرة ، والذات والصفات والأسماء، وبيان ان الوجود الخارجى مظهر الأسماء الالهية ومجاليها ٠

ثانيا : نظرية فى « الكلمة » الالهية ، وظهور « الكلمة » بمظهر الحقيقة المحمدية والانسان الكامل ٠

ثالثا : نظرية كاملة فى طبيعة المعرفة ·

رابعا : نظرية فى طبيعة النفس الانسانية ·

خامسا : نظرية فى الأديان واتفاقها جميعا فى وحدة المعبود الواحد·

سادسا : نظرية فى الحياة الخلقية ومعنى المسئولية والجزاء والخير والشر ، وصلة ذلك بالعناية الالهية ·

سابعا : نظرية فى الحياة الأخروية ومعنى الجحيم والنعيم ·

ثامنا : نظرية فى الجمال وطبيعته وصلة الجمال بالحب ·

لكل هذه المسائل ــ وهى فى صميم الفلسفة والتصوف ــ مصدرها فى الفتوحات المكية على سبيل التصريح أو التلميح والاشارة ، مختلطة كاختلاط التبر بالعناصر الأخرى بمسائل غير فلسفية وغير صوفية وما على الباحث الدءوب الا أن ينقب عنها ويستخلصها ·

فهو اذ يتكلم مثلا عن الصلاة وحركات العبد فيها يستطرد الى ذكر الحق والخلق والصلة بينهما وواجب الوجود لذاته وصلته بالممكن ، ومعنى ان واجب الوجود غنى عن العالمين ان الممكنات مفتقرة اليه ثم يعود الى الصلاة وحركاتها ، ثم يخرج منها الى ذكر دليل الحق على نفسه ومعنى دلالة الممكنات عليه ، وهو اذ يناقش مسألة الناسى للصلاة يخوض فى موضوع المعرفة والعارف ويستعمل كلمة « الناسى » استعمالا صوفيا فيقول انه « العارف » بأنه ما فى الوجود الا الله وصفاته وأفعاله ·

وفى أثناء كلامه عن « الهرولة » فى الحج وانه ثلاث مرات يفيض فى معنى التثليث وانه أساس ظهور كل ما يظهر من الحركات المادية منها والعقلية ، وأن أصل التثليث الوحدة يقول : « فوعزة من له العزة والجلال والكبرياء ، ما ثم الا الله الواجب الوجود الواحد بذاته الكثير بأسمائه وأحكامه » ·

لذلك قلنا فى الذوات بأنها
وان لم تكن لله بالله ساجدة

ومهما يكن الموضوع الذى يعالجه فى « الفتوحات » فهو يعرج فيه على التصوف دائما وعلى فكرته فى وحدة الوجود بوجه خاص أو على فكرة متصلة بها · ولا يمل الكلام فى هذه المسألة والافاضة فيها لمناسبة أو لغير مناسبة ·

ولا يظفر القارىء « للفتوحات المكية « بمذهب فلسفى واضح متماسك مرتب على نحو ما يظفر بذلك من قراءة كتب الفلاسفة ، بل اننا لا نتوقع

له الظفر بهذا : لان ابن عربى صوفى أولا وفيلسوف ثانيا ، وهو يخضع للوجدان والعاطفة والخيال أكثر من خضوعه للمنطق والتناسق الفكرى · وهو يطالب قراءه بمشاركته فى أذواقه ومواجيده أكثر مما يطالبهم بمشاركته فى تفكيره ، ويلجأ الى الرمز والاشارة فى مواطن يستعصى فهمها وتستغلق معانيها · وهذا هو سر اختلاف الناس فى أمره ·

وعلى الرغم من انه لا يبدو للنظرة العابرة أن لهذا الصوفى مذهبا فلسفيا متسقا ، فان النظرة الفاحصة والتفكير العميق فى أقواله ، والتحليل والربط بينها ، تشهد شهادة قاطعة بوجود مذهب متكامل مترابط مبثوثة أجزاؤه بين آشتات من التفاصيل التى لا ترتبط به ارتباطا منطقيا والظاهر أنه كان على وعى تام بهذا المذهب ، ولكنه كان يدرك خطورة الجهر به فى صورة كاملة ·

لذلك أذاعه مشتتا بين ثنايا التفاصيل فى مسائل الفقه والكلام والحديث والتفسير وغيرها · وكان هذا التشتيت عن عمد لكيلا يثير حفيظة المفكرين عليه · بل انه يصرح بذلك بقوله فى عقيدة الخواص (وهو من غير شك عقيدته فى وحدة الوجود) : « فما أفردتها على التعيين عما فيها من الغموض : ولكن جئت بها مبددة فى أبواب هذا الكتاب (أى الفتوحات) مستوفاة مبينة ، لكنها ــ كما ذكرنا ــ متفرقة · فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميزها عن غيرها ، فانها العلم الحق والقول الصدق » ·

وحدة الوجود عند ابن عربى

والمسألة الأساسية التى يدور حولها كل تفكير ابن عربى وحياته الصوفية ويؤمن بها ايمانا راسخا هى مسألة وحدة الوجود · وعن هذه المسألة الميتافيزيقية تفرعت كل شعاب مذهبه فى المعرفة والنفس والأديان والأخلاق ، وقضية وحدة الوجود عنده قضية بديهية لا تقبل الشك ولا الدليل ، اذ « الحق » وهو الظاهر فى عين الوجود هو عين الدليل على نفسه · ولكنها قضية قابلة للتحقيق عن طريق التجربة الصوفية التى يدرك منها الصوفى الفانى عن نفسه وعن كل ما سوى الله ، وحدته الذاتية مع الحق ·

ولا ينكر وحدة الوجود عند ابن عربى الا مكابر أو جاهل ، فانه يصرح بها فى مواضع تربو على الحصر فى « الفتوحات » ، وبلغة لا تقبل الشك أو التأويل من ذلك قوله « فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها » ·

فما نظرت عينى الا غير وجهـه

ولا سمعت أذنى خـلاف كلامه

ويقول « وقد ثبت عند المحققين انه ما فى الوجود الا الله ، ونحن وان كنا موجودين فانما وجودنا به : ومن كان وجوده بغيره فهو فى حكم العـدم » ٠

« الحقيقة الوجودية واحدة لا ثنائية فيها ولا تعدد : اذا نظرت اليها من وجه قلت هى الحق ، واذا نظرت اليها من وجه آخر قلت هى الخلق ٠ وهى واحدة فى ذاتها ، كثيرة بأسمائها وصفاتها » ٠

« وهذه الأسماء والصفات هى المجالى الوجوديـة التى تتجلى فيها الذات الواحدة ٠ والحقيقة الوجودية من حيث ذاتها واحدة ، قديمـة ، منزهة ، غير معلومة ٠ ولكنها من حيث ظهورها على مسرح الوجود الخارجى، متعددة ، حادثة ، زمانية ، مشبهة ، معلومة ٠ ومن هنـا ظهر التناقض ووصف الحق نفسه بالاضداد كقوله : هو الأول والآخر والظاهر والباطن٠

« ولولا ظهور الحق فى أعيان الخلق ما كانت صفاته وأسماؤه ، ولما عرفناه ، لاننا انما نعرفه عن طريق هذه الأسماء والصفات المتجلية فى الكون » ٠

ولكن ثنائية الحـق والخلق من أحـكام العقـل والنظر والحس ، لا الذوق والكشف ٠ فهى ثنائية موهومة زائفة : لأن العقل لا يقوى على ادراك الوحدة الشاملة ولا يستطيع الا أن يدرك المتعدد والمتكثر » ٠

وليست وحدة الوجود عند ابن عربى وحدة مادية يضحى فيها بفكرة الألوهية ، بل العكس هو الصحيح وهو أن الوجود الحقيقى هو وجود الله وحده ، ووجود الخلق بالنسبة اليه كوجود الظل لصاحب الظل ، وصورة المرآة بالنسبة لصاحب الصورة ٠ فالخلق شبح زائل وظل للوجود الحقيقى ٠

وللحق عند ابن عربى معنيان : الحق فى ذاته والحق كما نعرفه ونعبده ٠ والحق فى ذاته منزه عن كل وصف وكل معرفة : وليس بينه وبين خلقه مناسبة البتة ٠ أما الحق المعروف لنا فله نسب الى ما نعرفه من صفات العالم : فهو خالق لوجود المخلوق ومعبود لوجود العابـد ، واله لوجود المألوه وقادر لوجود المقدور وهكذا ٠ أما الحق فى ذاته فلا نعرف عنه الا انه موجود ليس له مثل ولا ضد ولا يتصور فى الذهن ولا يناله الوهم والخيال ولا يطلب فى مطلب من المطالب الأربعة : « ما » ، « هل » ، « كيف » ، « لم » ٠ واذا كان الشبيه لا يدرك الا الشبيه ، وليس فى

الحق شيء يشبه الخلق ، وليس من الله فى أحـــد شيء ، استحال على الانسان أن يدرك الحق فى ذاته • هذا هو التنزيه فى فلسفة ابن عربى وهو نفى المماثلة بين الحق والخلق •

أما ما ورد من الآيات والأحاديث التى توهم التشبيه ، فيرى انه لا يجوز أخذها بظاهرها ولا يجوز تأويلها • والرأى عنده هو الأخذ بهذه الآيات ، والأحاديث على وجه من وجوه التنزيه مما تسمح به طبيعة اللغة واستعمالاتها • فاذا ورد خبر بنسبة « الأصبع » الى الله كما فى الحديث « قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فهمت كلمة « الأصبع » بمعنى النعمة لا بمعنى اصبع اليد : واللغة تبيح ذلك •

وقس على ذلك ألفاظ التشبيه الأخرى مثل الاستواء على العرش ، والوجه واليدين وغير ذلك •

وتستوى فكرة الوحدة على قلب ابن عربى فيفسر بها كل شيء فى عالم الوجود والاعتقاد وعالم الجمال والأخلاق • فأما فى عالم الوجود فهو ما شرحناه • وأما فى عالم الاعتقاد ــ وهو الأديان ــ فيرى أن المعبود واحد مطلق فى جميع الأديان مهما تعددت صوره وأشكاله لانه هو المتجلى فى هذه الصور والأشكال ، وأن العارف الكامل هو الذى يعرف المعبود فى كل صورة يتجلى فيها ، وغير العارف هو الذى لا يعرفـه الا فى صورة معتقده وينكره فى معتقد غيره • ولهذا دعا ابن عربى الى القول بوحـدة الأديان واعتبارها كلها طرقـا موصـلة الى معبود واحد لا يعبـد غيره على الحقيقة • وفى ذلك يقول :

عقـد الخلائق فى الالـه عقـائدا
وأنا اعتقـدت جميع ما عقـدوه
لمـا بـدأ صورا لهـم متحولا
قالوا بما شهدوا وما جحـدوه
قد أعـذر الشرع الموحد وحـده
والمشركون شقوا وان عبـدوه

★★★

أثر الفتوحات فى العالم الشرقى والعـالم الغربى

لا شك أن كتاب « فصوص الحكم » أعظم مؤلفات ابن عربى كلها قدرا من ناحية النضج التأليفى والمذهبى ومن أعمقها وأبعدها أثرا فى

نشر مذهبه الفلسفى الصوفى · ولكنه محصور فى دائرة لا يكاد يتعداها وهى دائرة هذا المذهب · أما كتاب « الفتوحات المكية » فخضم لا ساحل نه ودائرة معارف اسلامية لا نظير لها فى المكتبة العربية ، ولذلك كان أثره فى العالم الاسلامى ــ بل فى العالم المسيحى واليهودى ــ أشمل وأعم · ولا نظن أن كتابا آخر من كتب ابن عربى كان له مثل هذا التأثير فى الخاصة والعامة ، وفى المشتغلين بالتصوف أو المعنيين بالعلوم الاسلامية الأخرى · فقد كتبه ابن عربى وهو ملم الماما تاما بالتراث العقلى والروحى الاسلامى فى ابان نضجه ، وأخذ من هذا التراث ما أخذ وفهمه على النحو الذى أراد وفسره ووجهه الوجهة التى ترضى نزعته ومذهبه · ثم اضفى على ذلك كله صبغة قوية من تفكيره وتجاربه الروحية ، وخرج على العالم بهذا المصنف العجيب الذى أصبح منذ عهده مرجعا هاما للعلماء والصوفية ودارسى التصوف ، ومصدر وحى فى انتاج كثير من العباقرة فى شرق العالم الاسلامى وغربه ·

وقد خلف ابن عربى فى كتاب « الفتوحات » ثروة طائلة من المصطلحات الفلسفية الصوفية استمدها من كل مصدر عرفه كالقرآن والحديث وعلم الكلام والفقه والتصوف السابق عليه ، وفلسفة أفلاطون وأرسطو ··· ، كما استخدم مصطلحات شاعت فى أوساط الاسماعيلية الباطنية والقرامطة واخوان الصفا ·ولكن مهما يكن المصدر الذى أخذ منه، فانه صبغ هذه المصطلحات كلها بصبغته الخاصة وأعطى لكل مصطلح معنى جديدا يتمشى مع روح مذهبه وما من صوفى أتى بعد ابن عربى ــ عربيا كان أم فارسيا أم تركيا ــ شاعرا كان أو غير شاعر ــ الا استعمل لغته وكتب بوحى منهما ، سواء شاركه فى فلسفته فى وحدة الوجود أم لم يشاركه ·

على أن أثر كتاب « الفتوحات المكية » ليس قاصرا على معجم المصطلحات فيه ، بل يتعدى ذلك الى مادته وما فيها من شتى فنون التفكير · وليس ماخلفه شعراء الفرس من شعر صوفى رائع كشعر العراقى وعبد الرحمن جامى ومحمود شبسترى ، بل وجلال الدين الرومى (٣) ، وما كتبه مؤلفوهم فى التصوف من أمثال عبد الرازق القاشاى وعبد الكريم الجبلى الا صدى لتلك المعانى التى ابتكرها صاحب الفتوحات وورثتها العبقرية الفارسية فأبدعت فى صياغتها وتصويرها ·

بل ان أثر كتاب « الفتوحات المكية » لم يقف عند حدود العالم الاسلامى ، شرقه وغربه ، بل تعدى تلك الحدود الى الأوساط المسيحية واليهودية فى أوربا : فقد تأثر به كل من « ريمون لول » و «ديمون مارتن»

اللذين يرددان أقوال ابن عربى والغـزالى وابن رشـد فى وصف الجنة ويدفعان عن جنة المسلمين تهمة المادية والشهوانية ٠

كذلك تأثر بالفتوحات شاعر المسيحية وفيلسوفها الأكبر « دانتى » فى كثير مما قاله فى وصف الجحيم والنعيم كما هو واضح من الدراسات المستفيضة التى قام بها العلامة « آسين بلاثيوس » الاسبانى فى كتابه « علوم الآخرة الاسلامية وأثرها فى الكوميديا الالهيـة » الذى وضع له ملخصا ترجم الى اللغة الانجليزية بعنوان « الاسلام والكوميديا الالهية » ٠ فقد قارن هذا المستشرق بين كوميديا دانتى بأجزائها الثلاثة : الجحيم والمطهر والنعيم ، وبين التصورات الاسلامية الواردة عنها فى فتوحات ابن عربى ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وقصص المعراج النبوى ، وقطع بوجود صلة بين دانتى وهذه المصادر الاسلامية ٠

ومن المحتمل أيضا أن يكون لمذهب ابن عربى فى «الفتوحات» وغيره أثر غير قليل فى فلسفة اسبينوزا عن طريق ما كان شائعا فى عصره فى الأوساط الفلسفية اليهودية من تعاليم الشيخ ابن عربى وأفكاره ٠ فانه مع اختلاف الرجلين فى المنزع والمنهج ، نجدهما يتفقان اتفاقا يكاد يكون تاما فى تصورهما لوحدة الوجود على الرغم من ثنائيته التى يقول بها العقل وكثرته التى يقول بها الحس ، ولا يمكن أن يعتبر هذا التشابه التام بين مذهبى الفيلسوفين من قبيل المصادفة البحتة أو توارد الخواطر ٠

وليس فى الامكان أن نتتبع الأثر الذى خلفـه كتاب « الفتـوحات المكيـة » فى الأفراد والجماعات وفى مختلف الأوساط الصـوفية وغير الصوفية ، الاسلامية وغير الاسلامية ، ولكننا نقول فى النهاية ان كتاب « الفتوحات » قد خلف طابعا لا يمكن ازالته فى الثقافة الاسلامية وغيرها ، وظل مصدر علم واشعاع وايحاء مدة تربو على سبعة قرون ، وانه بذلك استحق أن يحل مكان الصدارة لا بين الانتاج الفكرى الاسلامى وحـده بل الانتاج العالمى ٠

هـوامش

(١) عبد الرحمن جامى : (١٤١٤ ـ ١٤٩٢ م) شاعر فارسى من شعراء الصوفية • تولى رئاسة الطريقة النقشبندية •

(٢) بروكلمان ، كارل : (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦ م) مستشرق ألمانى حقق عددا من النصوص العربية ـ من أهم أعماله (تاريخ الأدب العربى) و (تاريخ الشعوب الاسلامية) •

(٣) جلال الدين الرومى : (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣ م) : شاعر فارسى من أكبر شعراء الصوفية • له مريدون كثيرون تتألف منهم طريقته المعروفة بالمولودية •

علم الأخلاق

إسبينوزا

١٦٧٧ م

كان مصير « اسبينوزا spinoza » فذا فى تاريخ الفلسفة · فقد انبت عن اليهود لأنه من العقليين ، وانبت عن العالم لأنه من اليهود ! · ولم يشهد التاريخ انسانا عاش فى مثل عزلته ووحدته · على ان هذه العزلة كان لابد منها لاقامة صرح فلسفته الفذة ·

فقد ولد اسبينوزا فى ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ بمدينة امستردام بهولندا ، لأبوين يهوديين من أسرة تنتمى الى أصل اسبانى برتغالى هاجرت الى هولندا هربا من اضطهاد محاكم التفتيش · وقد تلقى العلم فى المدرسة اليهودية الرئيسية بامستردام ، ولكن دراسته تميزت عن دراسة بقية أبناء الطائفة اليهودية بوجود عناصر من الثقافة اللاتينية حرص أبوه على ان يتلقاها الابن على أيدى معلم خاص اطلع اسبينوزا ـ بفضله أيضا ـ على أعمال علماء الطبيعة المحدثين ·

كان أبوه من التجار الناجحين ، يرجو لابنه أن يكون رجلا ناجحا من رجال الدين ، ولكن باروخ ـ وهو اسم عبرى معناه المبارك ـ كان أشد كلفا بالحقيقة منه بالنجاح · وأدى به بحثه عن الحق الى مسالك وعرة ، تبعد عن الدين ، وتبعد غاية البعد عن عالم المال والعقائد · لقد وقف فى طفولته أمام قبر « اريل اكستا » ذلك اليهودى المتشكك الذى نبذه بنو جلدته علنا لأنه ألحد ، فوضع لحياته حدا ، متأثرا بما لحقه من خزى أمام الملأ · فيخلف ذلك المشهد فى نفس اسبينوزا أعمق الأثر ·· فيتساءل ماذا يفرق الناس شيعا فى الفكر ، فيصب بعضهم العذاب على بعض من أثر هذه الفرقة ؟ · وفى هذا اليوم بالذات كرس الصبى اليهودى نفسه لحياة البحث ، دون أن يدرى معنى ذلك حق الدراية ·

فلما كبر توفر على دراسة التوراة والتلمود وشعر القدامى وعلم المحدثين · وتوفر بنوع خاص على تعمق ما ساد عصره من الآراء الفلسفية العظيمة · فسلط ضوء عقله الناقد المحلل على الميتافيزيقا الخلقية التى شاهدها الفلاسفة اليهود من أمثال فيلو وابن ميمون ، ليفى بن جرسون وابن جبرول وحسداى · وسلطه كذلك على الأخلاق الميتافيزيقية

للفلاسفة من غير اليهـــود ، كأفلاطون وأرســـطو وأبيقور وجيوداتـــو برنو وديكارت • وشاء أن يوسع آفاق بحثه فى فلسفة غير اليهود فدرس اللاتينية على الأستاذ الهولندى « فان دى اندى » وهو فقيه لغوى لامع ، وهو متشكك ثائر •

وقد اصطدم اسبينوزا بالطائفة اليهـودية التى أفزعهـا جرأته فى المسائل الدينية وتحديه لتراثها الروحى ، وحاولت استمالتـــه اليهـا ، أو على الأقل منعه من انتقادها جهرا ، ثم جربت سلاح الارهاب ، ولما لم يفلح معه هذا كله ، أصدرت فى عام ١٦٥٦ قرارها بطرده من الطائفـة وتوقيع عقوبة التحريم على « التجديف الشنيع الذى يمارسه ويعلمه » • ولم يكترث اسبينوزا بهذه العقوبة بل يبدو انه رحب بها ، بدليـــل انه بادر الى تغيير اسمه العبرى « باروخ » الى مقابلة اللاتينى «بنديكتوس» • ومن الجدير بالذكر ان اسبينوزا بعد طرده من الطائفة اليهودية لم يحاول ان ينضم الى طائفة أخـــرى ، ومعنى ذلك انه ظل منذ ذلك الحين حتى وفاته دون ان يكون منتميا من الوجهة الرسمية الى أية عقيدة ، ولاشك ان تلك كانت حالة فريدة بين جميع فلاسفة العصر الحديث •

وكان من أثر قرار الطرد والحرمان أن تبرأ منه أبوه • ولما مات الأب بعد ذلك ، أرادت أختـــه ان تحرمه حقه فى تراث أبيـــه ، ودافع اسبينوزا عن حقه أمام القضاء ، وحكم له ، ثم نزل عن ميراثه لأختـــه • فهو لا يبغى المال ، وانما اقرار العدل • فما اتفه صـــالحه الشخصى فى مسرحية الحياة التى يحاول الظهور على غوامضها •

وسعيا لتحقيق هذه الغاية آوى الى حجرة علوية فى « أو تراك » من ضواحى امستردام واحترف صقل العدسات ليصيب عيشه ، واشـــتغل بالفلسفة ، وجعل منها رسالة حياته • وكان هذا يتفق مع تقاليد أسلافه • فالمعلمون العبرانيون الأوائل كانوا يؤثرون ان يتعلم المرء حرفة يدوية من حيث هي ضرورة من ضروريات التوفر على حياة العلم • فعندهم ان العلم أسمى من أن يتكسب به • وكانوا يقولون : « اشغل يديك ببضاعة الأرض، ورأسك ببضاعة السماء » • وكان كهؤلاء المدرسين القدامى يذهب مذهب علية القوم فى الايمان بهواية الرياضة •• ولكن هوايتـــه كانت رياضة العقل لا رياضة العضل •

لذلك عاش فى حجرته فى أعلى المنزل ، يصقل العدســـات ، ويهب فراغـه للتفكير ، ويكتب عن سر الله ومعنى الحيـاة • ولما بلغ الثامنة والعشرين انتقل الى « رينسبرج » القريبة من « ليون » • واعتكف فيها ،

كانه دودة القـــز فى الشرنقة · فهـو قلما يخـرج لغير النزهة أو شراء طعـــامه ·

تـراث اسـبينوزا

كانت حياة اسبينوزا قصيرة اذ لم يتجاوز به العمر أربعا وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، ولكنه ألم فى حياته القصيرة تلك بعلوم ومعارف شتى، ووقف على كتب دينية وفلسفية وعلمية عدة ، وعكف على دراسة هذا كله اما نقدا وتحليلا لبعضها ، واما تفسيرا وتأويلا لبعضها الآخر ·

على ان حياته على قصرها كانت حياة خصبة غنية بما أنتجه ابانها من الكتب والرسائل وما خلفه من الخطابات التى دارت على كثير من المسائل ، وكلها مرآة لما عرفه وأخذ عنه وتأثر به من كتب وعقائد ومذاهب سابقة عليه أو معاصرة له من ناحيـة ، وصورة معبرة أصـدق تعبير عن أفكاره وأنظاره ومذاهبه التى ابتكرها هو من ناحية أخرى ·

وها نحن أولاء نسلك تلك السبيل مع فيلسوف هولندا الفذ ، فنلم على قدر ما يتسع له المقام بما خلفه اسبينوزا من آثار فلسفية انطوت على كثير من الأفكار الانسانية ، مجملين فى عرض هذه الآثار بصـــفة عامة ، ومفصلين فى الحديث عن كتاب « علم الأخلاق » بصفة خاصة فهو أجمع كتب اسبينوزا لشتات مذهبه وأصدق مرآة لعقله وقلبه :

١ ـ (مبادىء فلسفة رينيه ديكارت ، مبرهنة بالطريقة الهندسية) سنة ١٦٦٣ وقد شفع اسبينوزا هذه الرسالة برسالة أخرى فى (الأفكار الميتافيزيقية) ·

وتعد رسالته فى مبادىء فلسفة ديكارت أول ما كتبـــه فيلسوفنـا واحدى رسائله التى نشرها ابان حياته ·

٢ ـ (الرسالة اللاهوتية ـ السياسية) ١٦٧٠ م

وقد انتقد فيها التفسير المألوف للكتاب المقدس ، ثم رفض الايمان بالاله كمـا يصفه العهد القديم وآمن باله أوسع رحمـة فى عهد جديد من لدنه · والعهد الجديد لاسبينوزا هو كتابه الشهير فى الأخلاق ·

٣ ـ (رسالة فى الله وفى الانسان) سنة ١٦٦٠ م ·

عرض فيها اسبينوزا فلسفته الخاصة · ويمكن ان تعد هذه الرسالة بمثابة المسودة لكتاب « علم الأخلاق » ·

٤ ـ (رسالة فى اصلاح العقل) ·

وقد تركها اسبينوزا دون ان يتمها ، ولكنها نشرت على ما هى عليه بعد وفاته ، وهى من قبيل المدخل الى المنهج من ناحية ، والى التعرف على قيمة المعرفة من ناحية أخرى ·

٥ ـ (الرسالة السياسية) سنة ١٦٧٥ ـ سنة ١٦٧٧ م ·

كتبها فى أواخر حياته ولم يتمها · وهذه الرسالة كتاب عام فى السياسة العقلية ، فيها وسع الفيلسوف نطاق المبادىء التى وضعها فى رسالته اللاهوتية السياسية ·

٦ ـ (الخطابات) ·

وقد ترك اسبينوزا طائفة صالحة منها كتبها الى مراسليه من أصحاب الشخصيات العلمية البارزة الذين كان من أشهرهم « مبير » ناشر آثار اسبينوزا و « أولدنبرج » سكرتير الجمعية الملكية للعلوم بلندن ·

٧ ـ (علم الأخلاق على النهج الهندسى) ·

وهو أهم كتب اسبينوزا وأصدقها تصويرا لمذهبه ومنهجه ، وقد اشتغل باعداده وتأليفه وتنقيحه طوال سنين عدة من حياته ، ولكنه لم يجرؤ على نشره ابان حياته خشية الفتنة ، فنشر الكتاب بعد مماته · وهو كذلك من أغرب ما خطت يد انسان من كتب · فهو لاتينى فى لغته ، هندسى فى نظامه ، اغريقى فى مثاليته ، ايطالى فى مادته (فهو يقوم على وحدة الوجود التى يقول بها جيوردانوبرونو) فرنسى فى أساسه (فهو يرتكز على نظرية ديكارت الآلية) عبرانى فى عقيدته (فهو يقول ان عقيدتى فى أساسها هى نفس عقيدة الأنبياء العبرانيين الأوائل) ·

هذه هى جملة المصنفات التى يتألف منها التراث الفلسفى والدينى والسياسى للفيلسوف الهولندى اسبينوزا ، ونحن اذا تدبرنا ما خلفه ذلك الفيلسوف من آثاره الفلسفية والدينية والسياسية تلك ، ألفينا طابع الجدل يكاد أن يطبعها جميعا ، جدل على الكيفية التى يمكن أن تقوم بها الأخلاق مع نظام الضرورة الكلية ، على ما يصير اليه اللاهوت والدين مع هذا اللون الجديد الذى يقدمه اسبينوزا لتأويل الكتب المقدسة ، ذلك

بأن اسبينوزا لاينكر الكتب المقدسة على الاطلاق ، ولكنه يؤولها على طريقته التى استحدثها · فهل شهد العالم انسانا بلغ فى عالميته هذا الحد ؟!

وهكذا نأتى الى الكتاب الذى صب فيه اسبنيوزا عصارة حياته ونفسه التى انزوى بها عن الناس · وأعنى كتاب « علم الأخلاق » ·

أجزاء الكتاب

يعد كتاب اسبينوزا فى « علم الأخلاق » أهم كتبه وأدلها على منهجه ، وأجمعها لكل نواحى مذهبه ، فضلا عن انه يوضح ويفصل كثيرا من أفكاره وأنظاره التى وردت غامضة أو مجملة أو مشارا اليها فى كتبه ورسائله الأخرى ·

وفى هذا الكتاب يصطنع اسبينوزا منهج الرياضيين فى الهندسة ، ويسرف فى اصطناع هذا المنهج ، حتى لقد جاء كتابه أشبه بكتب علماء الهندسة منه بكتب الفلاسفة ، وليس أدل على هذا من أن الكتاب كله ليس الا طائفة من التعريفات والبديهيات والمسلمات والمطالب والبراهين والنتائج ، وما الى ذلك مما يصطنعه علماء الهندسة فى كتبهم ورسائلهم ، وفى حل معضلاتهم ومسائلهم ·

واصطناع اسبينوزا للمنهج الهندسى على هذا الوجه لم يكن بدعا فى العصر الذى عاش فيه هذا الفيلسوف ، اذ كان ينظر فى ذلك العصر الى المنهج الرياضى على انه نموذج ينبغى ان يحتذى فى العلوم كلها : فهوبز Hobbes الفيلسوف الانجليزى الذى عنى اسبينوزا بدراسته عناية خاصة ، قد رد المنطق كله الى الحساب العددى ، وديكارت الفيلسوف الفرنسى الذى اتخذ منه اسبينوزا فى أول عهده بالتفكير الفلسفى قدوته حتى لقد كان مؤثرا فيه ، متأثرا به ، مقبلا على فلسفته وعلى عرض مبادئها فى أولى رسائله ، قد قدم مثلا واضحا لتطبيق المنهج الرياضى والصورة الهندسية على جزء من أجزاء ميتافيزيقاه · وهذه الصورة الهندسية هى التى آثرها اسبينوزا ليعرض فيها أولا مبادىء فلسفة ديكارت ، ثم يعرض فيها بعد ذلك أفكاره هو وأنظاره فى فلسفته الخاصة · ولعل مذهب اسبينوزا كان أطوع للصورة الهندسية من مذهب الفلاسفة التجريبيين ، ومن مذهب بعض الفلاسفة العقليين ، لأن مذهب اسبينوزا ينحى التجربة ويريد أن يستنبط كل شىء من فكرة أولى مستمدة من العقل ·

ذلك هو منهج اسبينوزا فى كتابه « علم الأخلاق » ٠

ويتألف الكتاب من خمسة أجزاء :

الجزء الأول : فى اللـــه

الجزء الثانى : فى طبيعة النفس وأصلها

الجزء الثالث : فى أصل الانفعالات وطبيعتها

الجزء الرابع : فى عبودية الانسان أو فى قوة الانفعالات

الجزء الخامس : فى قوة العقل أو فى حرية الانسان

ويلاحظ هنا ان موضوع الجزءين الرابع والخامس هو علم الأخلاق، ولكن اسبينوزا أطلق اسم « علم الأخلاق » على الكتاب كله ، لأن العمل عنده هو غاية النظر من ناحيـــة ، ولأن منزعه الرئيسى انما كان منزعا أخلاقيا من ناحيـة أخرى ٠ وان مثله فى هذا المنزع كمثل الرواقيين (١) اذ كان النظر عنـــدهم سبيلا الى العمـــل أو كان العمـل فى فلسفتهم غاية النظـر ٠

ولكى تتبين لنا القيمة الكبرى التى لهذا الكتاب فى ذاته ٠ والخطر العظيم الذى له فى الفكر الانسانى يحسن ان نقف معـــه وقفة عند كل جزء من أجزائه ، بحيث تتضح معالمه الرئيسية وخصائصه الجوهرية ، وموضوعاته الميتافيزيقية والنفسية والأخلاقية :

الجزء الأول

فى اللـــه

أفرد اسبينوزا الجزء الأول من كتـــاب « علم الأخـلاق » للحديث عن الله ، ذاته وصفاته وتجلياته وعما يتصـــل بهذا كله فى الانســان والعالم ، واستهل هذا الجزء ، كما استهل غيره من الأجزاء الأخرى بطائفة من الحـدود أو التعريفات والبديهيـات والمسلمات التى قدمهـــا بسبيل البرهنة عليها وكل أولئك قوام للأسلوب الهندسى الذى ساد الكتاب كله ، على نحو ما سبقت الاشارة الى ذلك آنفا ٠

ولعل أهم الحدود أو التعريفات التى فى مستهل هذا الجزء ، هو هذا التعريف الذى له خطـره فى تاريخ الفلسـفة الحديثة بصفة عامة ٠

وفي فلسفة اسبينوزا بصفة خاصة ، وفي ميتافيزيقاه بصفة أخص ، وأعني به تعريف الجوهر الذي يحده اسبينوزا بقوله : « أعني بالجوهر هذا الذي يوجد في ذاته ، أو بعبارة أخرى هو هذا الذي ليس تصدره مفتقرا الى تصور شيء آخر عنه يجب ان يكون وجوده » . ثم يتحدث اسبينوزا عن الله باعتباره جوهرا متأحدا ولا متناهيا وضروريا أو واجب الوجود بذاته ، كما يتحدث عن الموجودات التي تملأ أرجاء الكون على انها أحوال أو أشكال أو صور أو هيئات لهذا الجوهر الأوحد أو الله ، كما يبرهن على وجود الله باعتباره جوهرا واجب الوجود بذاته ، ولا متناهيا في ذاته ومتأحدا مع ذاته ، وله عدد لا متناه من الصفات اللا متناهية . وهاهنا يبين اسبينوزا أن اللا متناهي على أنواع ، كما ان لفظ اللا متناهي يستعمل في الاصطلاح بمعنى يدل على انه صفة ذاتية للشيء المتصف به تارة ، وبمعنى يدل على انه وصف عددي للشيء ، وقد تكثرت أفراده فهي لا متناهية في عددها لا في ذاتها .

أما من حيث تطبيق هذا المعنى الاصطلاحي أو ذاك على الجوهر الذي هو الله عند اسبينوزا ، فان الفيلسوف الهولندي يستعمل كما يبدو لفظ اللامتناهي بالمعنيين ، اذ للجوهر الالهي عنده صفات لا متناهية في ذاتها ولا متناهية في عددها ، الا اننا لانعرف من هذه الصفات التي هي كذلك غير صفتين جوهريتين هما في متناول عقولنا ، وهاتان الصفتان الجوهريتان هما الفكر من ناحية والامتداد من ناحية أخرى .

واذا كان ذلك كذلك ، فان اسبينوزا يرى ان الله من حيث هو جوهر ، فهو مفكر من ناحية ، وممتد من ناحية أخرى ، وهو وان كان ممتدا الا انه لا جسماني . وعنده ان الله من حيث هو مفكر ، فان فكره لا محدود ، وان موضوعه هو الوجود اللا محدود ، أو الكائن اللا متعين . واذن فليس لله عقل بالمعنى المألوف ، ولا له فهم على الوجه المعروف ، لأن الفهم على هذا الوجه ، والعقل بذاك المعنى ، انما هما اسمان يطلقان على ملكة أو وظيفة من ملكات الفكر الانساني المحدود ووظائفه ، وهذا أو ذاك ليس من طبيعة الذات الالهية اللامتناهية في كل شيء بصفة عامة ، وفي صفتيهما الجوهريتين وهما الفكر والامتداد المطلقان عن كل حد أو قيد أو تعين بصفة خاصة ، ومثل هذا يقوله اسبينوزا عن الارادة : فكما ان الله ليس له عقل أو فهم بالمعنى الانساني المعروف أو المألوف ، فهو ليس له ارادة أيضا بهذا المعنى أو ذاك ، لأن الله ليس له موضوع محدود أو معين تتعلق به ارادة مقيدة بهذا الموضوع المحدود المعين .

واذا كان الله فى ذاته ، وهو الطبيعة الطابعة كما يسميه اسبينوزا ، ليس له عقل ولا ارادة ، الا أن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالله منظورا اليه فى سياق النظام الضرورى لطبيعته ، وهذا يعنى بعبارة أخرى ان الفكر بالفعل والشعور ليس لهما مكان الا من خـــلال الفيض الضرورى لصفات الله ، أو يعنى بعبارة أوضح ان الطبيعة الطابعة هى العالم أو الله باعتباره جوهرا أو مبدأ بخلاف الطبيعة المطبوعة وهى العالم أو الله ، ولكن من حيث هو مجلى أو ظاهـــر · وينتهى اسبينوزا الى ان الطبيعة الطابعة هى الجوهر بصفاته على حين ان الطبيعة المطبوعة هى جملة الأحوال أو الأشكال أو الصور أو الهيئات التى للجوهر ·

واسبينوزا الذى يعد الفكر والامتداد صفتين جوهريتين لذات الله ، ينظر كذلك الى الحرية على انها عين ذات الله ، أو عين فعاليته اللامتناهية فى نفوذها الى كل صو رالوجود الممكنة حتى تبلغ ذروة اللامتناهى وفقا لقوانين ضرورية ، ولا ينظر الى الحرية على انها صفة من صـــفات الله ، اذ الحرية عنده هى ان يفعل الكائن بمقتضى قوانين طبيعته الذاتية وحدها، وذلك على الوجه الذى نتبينه معه فى تعريفه للحرية حيث يقول : « يقال لهذا الشيء انه حر اذا كان موجودا بحـــكم الضرورة النابعـة من محض طبيعته ، وكانت ذاته وحدها هى التى تسيره فى أفعـــاله · ويقال لهذا الشيء انه ضرورى أو مضطر مجبر اذا كان شيء آخر هو الذى يسيره فى وجوده وأفعاله ، وذلك بنسبة ثابتة وشرط معين » ·

وكأن اسبينوزا فى فهمه للحرية على هذا الوجـــه ، يربط اللـه والانسان بروابط الضرورة ، كما يرى أن كل ما يفعله الله انما يصدر عن طبيعته ضرورة على هذا الوجه الذى هو عليه ، وذلك على نحو ما هو فى المثلث اذ يقال عنه ان جملة زواياه مساوية لزاويتين قائمتين ، فان المساواة بين جملة زوايا المثلث وبين الزاويتين القائمتين انمـــا تنشأ من طبيعـة المثلث ، ومن هنا لايمكن ان يكون كل ما فى العالم على وجه آخر ، ولا على نظام آخر ، لأن كل شيء قد عينته وحددته الطبيعة الالهية ، ســـواء فى الانسان أو فى العالم ، واذن فالفرق بين الضرورى الواجب الوجود بذاته وبين الحادث الممكن الوجود بذاته الواجب الوجود بغيره ، ليس له وجود فى الحقيقة ، وانما هو آت من جهلنا بماهية الأشياء وبنظامها الكلى ·

والعالم الذى يصدر ضرورة عن ذات الله ، ينبغى ان يكون له أعلى درجة من درجات الكمال الممكن ، على حين ان الله ذاته ينبغى ان يكون له أسمى الدرجات من الكمال المطلق ·

فاذا عرفنا كل ما تقدم ، فقد انتهينا مع اسبينوزا من الجزء الأول من الكتاب ٠

الجزء الثانى
فى طبيعة النفس وأصلها

اذا كان اسبينوزا قد عرض فى الجزء الأول للطبيعة الطابعة على انها هى الله ، فهو هنا فى الجزء الثانى يعرض للطبيعة المطبوعة على انها هى الانسان ، ولهذا نراه ينبهنا بادىء ذى بدء الى انه لا يزمع ان يفسر الطبيعة المطبوعة بأسرها أى كل الأشياء التى لاحصر لها ولا يتناهى عددها ، والتى تفيض ضرورة من صفات الله ، وانما هو يتناول بهذا التفسير ما عساه ان يوصلنا الى معرفة النفس الانسانية وطبيعتها ، وكل ما تمتلىء به من ملكات وأفكار على انها هيئات أو أحوال لله من حيث هو جوهر مفكر ، كما ان كل الأجسام انما هى هيئات أو أحوال لله من حيث هو جوهر ممتد ، ومن هنا لم يشغل العلم الطبيعى الا حيزا ضئيلا عند اسبينوزا بالقياس الى ما يشغله هذا العلم عند ديكارت ٠

واذا كان ذلك كذلك فكيف ولدت الطبيعة الطابعة الطبيعة المطبوعة ؟ وكيف تولدت الأشياء المتناهية من أحضان الشىء اللامتناهى ؟ الحق ان هذه المسألة أو تلك لا وجود لاحداهما أو لكلتيهما عند اسبينوزا الذى لا ينكر فكرة الخلق فحسب ، بل ينكر فكرة التوليد أيا ما كان أيضا : ذلك بأنه يرى ان الصفات الالهية بكل مالها من هيئات انما توجد منذ الأزل ، مثلها فى هذا كمثل الجوهر الالهى اذ هو يوجد منذ الأزل بكل ماله من صفات ٠ اذ ان الأشياء الجزئية أو الفردية من حيث هى مكونة بواسطة هذه الهيئات ، فهى مساوقة لله الذى له هذه الصفات التى تفيض منها هذه الهيئات ، واذا كان الله سابقا عليها ، فليس هذا السبق فى الزمان ، ولكنه فى الطبيعة والرتبة ، لأنه لايمكن ان يتصور ان الله كان من غير عالم ، كما لايمكن ان يتصور انه كان بدون صفات وهيئات ٠

وينبنى على هذه المقدمات كلها ان كلا من النفس الانسانية والجسم الانسانى هيئة لصفة من صفات الجوهر الالهى ، أعنى ان النفس الانسانية هيئة لصفة الفكر الالهى ، وان الجسم الانسانى من ناحية أخرى ، على ان بينهما تبادلا أو توازنا ، كما نظر الى الصلة بين الأفكار فيما بينها من جهة ، والى الصلة بين الأشياء فيما بينها من جهة أخرى ، على أن بينهما مثل هذا التبادل أو التوازى الذى بين النفس والجسم ، وكما نظر بعد

هذا كله الى الانسان على انه هيئة مركبة من الفكر والامتداد الالهيين • ويمكن أن يقال بعبارة أخرى من عبارات اسبينوزا نفسه أن النفس فكرة أو سلسلة من الأفكار للفكر الالهى ، وأن الجسم فكرة للنفس ، والنفس فكرة للجسم تقابل كل منهما الأخرى أو تتوازى كل منهما مع الأخرى • وكل أولئك ينتهى باسبينوزا الى ان ثمة اتساقا سابقا بين النفس والجسم ، وان هذا الاتساق تحكمه الضرورة التى هى شرط لابد منه عند هذا الفيلسوف لكل مايصدر عن الطبيعة الالهية•وهنا ينتهى اسبينوزا أيضا الى ان هذه الصلة الضرورية بين النفس والجسم ، أو بين كل جسم وبين فكرته ، انما تؤدى الى ان لكل جسم نفسا ، وأن الطبيعة بأسرها حية ، وهذا يعنى أيضا ان كل الكائنات التى فى الكون حية ، ولكن على درجات متفاوتة •

وبعد نظرية النفس وصلتها بالجسم ، وقف اسبينوزا فى الجزء الثانى من الكتاب عند الهيئات المختلفة التى تتألف منها النفس الانسانية ، مبتدئا بالمعرفة ، وها هنا ننتقل مع هذا الكتاب من علم الوجود « الانطولوجيا » الى علم النفس « البسيكولوجيا » الذى يختلف عند اسبينوزا عما هو عليه عند جمهرة الفلاسفة الذين عرضوا لعلم النفس : ذلك ان فيلسوفنا انما يستقى كل عناصر علمه فى النفس من طبيعة الله وصفاته ، بحيث لايعول على استمداد شىء من المشاهدة الباطنية أو الشعور الانسانى الذى تقوم به وتدور عليه هذه المشاهدة الباطنية ، اذ ان النفس كما يتصورها اسبينوزا ليس لها ملكات ، وانما كل ما لها هيئات ، ويترتب على هذا ان العقل والارادة انما هى مجرد ألفاظ لا معنى لها ، أو هى محض تجريدات لا غناء فيها ، وان هيئات الفكر هى وحدها التى لها حقيقة وجودية ما •

الجزء الثالث

فى أصل الانفعالات وطبيعتها

استهل اسبينوزا الجزء الثالث من كتابه بتمهيد قدمه لأصل الانفعالات وطبيعتها ، فصرح فى هذا التمهيد بادىء ذى بدء بانه سيصطنع فى هذه الدراسة نفس المنهج الذى اصطنعه فى دراسة الله والنفس الانسانية ، أى انه سيدرس انفعالات الناس ورذائلهم وحماقاتهم على نحو ما تدرس الخطوط والسطوح والأحجام ، لأن تلك الأشياء ليست أقل حظا من الخصائص الطبيعية من هذه ، ولا هى أقل فى خضوعها

لقوانين الكون العامة من بقية الأشياء · وها هنا نرى اسبينوزا يعيب على الفلاسفة الذين عرضوا من قبله للانفعالات ، انهم جعلوا من الانسان دولة فى داخل الدولة ، ونظروا اليه على انه من القدرة على قهر الانفعـــالات بحيث يصبح من شأن الانسان وهو هذا الكائن الوهمى ان يخـل بنظـام الكون ، فضلا عن انه فى نظرهم كأنه ليس جزءا من هذا الكون ، وفى رأى اسبينوزا انه مهما كان من جمال وروعة فيما كتبه أولئك الفلاسفة عن الهيئة التى تكون عليها الحياة المثلى ، الا أن أحدا منهم لم يحدد الطبيعة الصحيحة للانفعالات ، ولا ما لهذه الانفعالات من سلطـــان على النفس ، ولا ما لهذه النفس من سلطان على تلك الانفعالات ، ومن ثم كانت شكوانا مما عليه حالنا ، وكانت كراهية الناس وازدراؤهم ، وكان فوق هذا وذاك هذا الذم الرائع فى بلاغته الذى وجه الى النفس الانسانية على انها قاصرة عاجزة ، كأن هناك رزيلة ما فى الطبيعة ، وكما لو لم يكن كل شىء داخلا ســواء بســواء فى النظام الكلى للكون ، ولا راجعـا فى ايجـاده الى قوانين ضرورية ·

وبعد هذا التمهيد أخذ اسبينوزا فى عرض تعريفـــاته وبديهـاته ومسلماته ومطالبه وبراهينه ونتائجه التى هى جماع العناصر التى تتألف منها دراسته لأصل الانفعالات وطبيعتها : فهو قد عـــرف الانفعال بأنه يعنى به تغيرات الجسم التى بها تزيد أو تنقص قوة الفعل فى الجسم ، فاما أن تكون عونا ، واما أن تكون عائقا ، كما يعنى به فى الوقت نفسه أيضا الأفكار المتعلقة بهذه التغيرات ·

أما أصل الانفعال فان اسبينوزا قد استطاع ان يصل اليه ، فاذا أصل الانفعالات جميعا عنده ، ليس فى الجســـم ، ولا فى الأعـــراض الخارجيـة ، بل هو فى جوهر النفس عينه ، وبهذا امتـاز اسبينوزا عن ديكارت · أما ما هو هذا الأصل أو المصدر الذى تصدر عنه وترد اليه كل الانفعالات ، فهو عند اسبينوزا الطلب أو النزوع أو الرغبة · وهذا يتبين اذا لاحظنا معه أن فى النفس الانسانية همة أساسية وجوهرية تظـــل دائبة بها الى غير حد على وجودها الذى هو عين جوهرها · وانه اذا كانت النفس هيئة صادرة عن القوة الالهية المتناهية ، فهى لا تنقطع عن ان تفعل فعلها فتبذل همها أبدا حتى تحفظ وجودها وتنميـه على الدوام ضد كل الانفعالات ·

والانفعالات عند اسبينوزا أنواع : منها انفعالات أوليـــة ، ومنها انفعالات ثانوية : فاما الانفعالات الأولية فهى الطلب ، والفرح والحزن ، وهذه الانفعالات الثلاثة هى التى تتولد منها كل الانفعالات الأخرى ٠

وأما الانفعالات الثانوية فهى ألوان متنوعة للانفعالات الأولية ، أو هى تنوعات لها ومشتقات منها ، الأمر الذى يمكن ان نتبينه فى وضوح وجلاء اذا وقفنا مع اسبينوزا عند بعض الأمثلة التى تظهرنا على ان كل الانفعالات انما ترجع الى أصول أولية هى انفعالات الطلب والفرح والحزن : فالحب والكراهية ليسا انفعالين أوليين ، ولكنهما انفعالان مشتقان من انفعـــالى الفرح والحزن ٠ بمعنى انك اذا أضفت الى كل من الفرح والحزن معرفة العلل التى تولدهما ، فقد حصـــل لك عندئذ انفعال الحب وانفعـــال الكراهية ٠

ولا يقف اسبينوزا عند هذا الحد من تصنيف الانفعالات وتعريفها . بل هو قد وقف أيضا عند تحليل التعاطف وتعليله وقفة لعله كان فيها أسبق من آدم سميث الى وضع قوانين التعاطف ودراستها دراسة دقيقة : فههنا يصوغ اسبينوزا مبدأ التعاطف على الوجه التالى : « اننا نجد فى أن نفعل كل الأشياء التى يخيل لنـــا ان النـــاس ينظرون اليها بفرح ، واننـــا نكره الأشياء التى نعرف انهـــا تستلزم كراهيتهم » ٠ وههنا أيضا يلاحظ اسبينوزا ان مجال التعاطف أوسع من هذا نطاقا ، وذلك اذ يقول ان كل شىء تماثل طبيعته طبيعتنا انما يجعلنا نستشعر له الى حـــد ما تأثيرا شبيها بذلك التأثير الذى نرى اننا نستشعره فيه ، ومن هنا كان الجهد الذى نبـــذله لكى يحب الآخـــرون ما نحب ، ويكرهوا ما نكره ، ومن هنا أيضا لم يكن الفرح بزوال الشىء المكروه ليمضى دون ان تشوبه شائبة من حزن ٠

الجزء الرابع

فى عبودية الانسان

او فى قوى الانفعالات

بعد ان فرغ اسبينوزا من دراسة الانفعالات من حيث هى فى ذاتها على الوجه الذى رأينا معه فى الجزء الثالث من كتابه « علم الأخلاق » ، نراه فى الجزء الرابع والخامس يعرض لهذه الانفعالات من حيث علاقاتها

بسعادة الانسان وكماله : فعلام تشتمل عبودية الانسان وحريته بالنسبة الى الانفعالات ؟ وما هو الخـــير والشر ؟ وما هى الانفعالات المحمـــودة والانفعالات المذمومة ؟ وما هى سبيل الوصول الى السعادة الحقيقية ، والى الحياة الأبدية ؟ كل أولئك موضوعات يتألف منها الجزءان الأخيران من كتاب « علم الأخلاق » ، وهما اللذان يورد المؤلف احدهما بعنـــوان « عبودية الانسان » ويورد الأخرى بعنوان « حرية الانسان » ، وكلاهما مرآة صادقة يتجلى على صفحتها المذهب الأخلاقى لسبينوزا ٠

ولعل أول ما يظهرنا عليه اسبينوزا هو سلطان الانسان بعقله على الانفعالات من ناحية ، وسلطان الانفعالات على الانسان بنفسه ، وعلى القوة التى لا تتناهى فى استعلائها علينا ، وهى قوة العلل الخارجية التى تولد فينا هذه الانفعالات من ناحية أخرى ٠ اما كيف كان ذلك ، فهذا ما نتبينه مع اسبينوزا هنا أولا فى الجزء الرابع ، ثم بعد ذلك فى الجزء الخامس ، فاذا كان الانسان جزءا بسيطا من الطبيعة مفتقرا الى كل الأجزاء الأخرى ، فانه لايمكن ان يكون الا علة جزئية غير تامة للتغيرات التى تعرض له ٠ ولكى يكون الانسان خلوا من كل طلب أو رغبة حتى يكون فارغا من كل انفعال ، فلابد من أن تكون أفكاره كلها تامة ، ومن ان يكون هو لا متناهيا مثل الله حتى يكون حرا كذلك ٠ ولكن الحقيقة هى ان الانسان مقهور ضرورة بالانفعالات ، وانه من حيث هو كذلك فهو انما يتبع القاعدة العامة للطبيعة على قدر ما يتطلبها النظام الكلى للأشياء ٠ على أن الانفعالات ، وان كانت قاهرة للانسان من وجه ، الا انها مقهورة من وجه آخر : يقهر بعضها بعضا ، ولا ينقهر احدها الا أن يكون الانفعال القاهر له أقوى منه٠ ولا تكفى معرفة الخير والشر لمنع أى انفعال من الوقوع ، الا ان تكون هذه المعرفة بالخير والشر انفعـــالا متولدا من الشعور بالفـــرح أو الحزن ٠ والصراع الذى ينتهى بهذا الانفعال الى القهر ، وبذلك الانفعال الى الانقهار، انما هو فى رأى اســـبينوزا صراع بين قوتين مقـدورتين حيث تستعمل ضرورة احداهما على الأخرى فى هذا الصراع فاذا احداهمـــا قاهـرة ، والأخرى مقهورة ٠

ويحصى اسبينوزا بعد هذه الأحوال أو الظروف الرئيســـية التى من شأنها ان تزيد أو تنقص فى قوة الانفعال ٠

ويرى اسبينوزا اننا لكى نتبع العقل ، فليس من الضرورى ان نقف من أنفسنا موقف الحرب لأنفسنا ، لأن العقل لا يأمرنا بشىء غير ملائم لطبيعتنا : فحبنا لأنفسنا ، وسعينا وراء ما هو نافع حقا ، وبذلنا ما نبذل من جهد حتى نحفظ وجودنا علينا مادام لنا هذا الوجود ، والجد فى طلب

الخير والنفرة من الشر على الجملة ، كل أولئك يأمرنا به العقل · ويعرف اسبينوزا الخير على نحو ما يعرفه « هوبس » (٢) بأنه كل ما نعرف يقينا انه لابد من أن يكون نافعا لنا ، كما يعرف الشر بأنه هو الذى يحول دون الخير · وبعبارة أخرى يقال مع اسبينوزا ان خير الانسان هو كل ما ينفع فى الحالين سواء · انه يأخذ نفسه بأن تخلص نفسه الى اسداء الفضل معه أيضا ان شر الانسان هو كل ما يضاد حفظ وجوده عليه ، أو هو كل ما ينقص من قدرته على الفعل ·

والعقل لايلزم الانسان بأن يحفظ وجوده عليه فحسب ، بل هو يلزمه أيضا بألا يحافظ على نفسه الا من أجل نفسه ، وان يصطنع فى هذه المحافظة كل الوسائل الممكنة : فكلما عمل الانسان على حفظ وجوده وانمائه ، كان انسانا أفضل مما كان ، لأنه أصبح وله من القدرة والكمال حفظ أوفر مما كان له ، وكلما أهمل الانسان عنايته بحفظ بقائه ، كان نصيبه من العجز أكثر : لأنه لا يستطيع ان يقصر فى هذه العناية الا اذا كان للانفعالات ولفعل الأسباب الخارجية عليه سلطة وقهر · وترجع أفضلية الانسان فى حالة الأولى عنه فى حالة الثانية ، الى ما يعتقده اسبينوزا من ان الجهد الذى تدأب النفس على بذله فى حفظ الوجود على صاحبها هو الفضيلة الأولى والعليا التى لايمكن أن تتصور فضيلة أخرى قبلها أو أعلى منها ·

ومهما يكن من أمر الطابع الابيقورى الذى يبدو على مذهب اسبينوزا الأخلاقى ، فان الذى لاشك فيه هو هذه الآية الكبرى التى تتجلى فيها نتيجته العليا وهى هذه النتيجة القائمة على مبدأ محافظة الانسان على نفسه من أجل نفسه ووحدة الخير مع مصلحته الخاصة · أما هذه الآية الكبرى فانها تتمثل فى التأمل فى الله وفى حبه : ذلك بأن الانسان من حيث هو فكرة الله ومن حيث ان الفكر هو جوهره ، وانه لابد له من ان يأخذ نفسه بقواعد العقل ، فقد ترتب على هذا كله أن يكون الفكر هو ما ينبغى ان يحب فيه ، وان يكون هذا الفكر هو ما ينبغى ان تعمل كل جهوده على حفظه وانمائه ·

فاذا عرفنا هذا كله فى وضوح وجلاء ، فهنا نحن أولاء نصل مع كتاب اسبينوزا الى نهاية الجزء الرابع ، حيث يعطينا صورة رائعة للانسان الحر مطابقة لمبادئه : فمن هذه الصورة نتبين ان هذا الذى ينقاد للانفعالات انما هو الانسان الضعيف الشقى المسترق ، وان هذا الذى ينصت الى صوت العقل انما هو الانسان القوى ، الانسان السعيد ، الانسان الحر : أولهما يفعل سواء أراد أو لم يرد دون ان يعرف ما يفعل ، وثانيهما لايطاوع

الا نفسه ، ولا يفعل شيئا الا أن يكون عارفا بما هو خير وأفضل حتى يفعله فى الحياة ، وعالما بما يتطلبه هو نفسه أكثر مما يكون عالما بما يتطلبه غيره · ان الانسان الحر ، أو الانسان الذى يحيا على مقتضى العقل ، انما يكون بمنجاة من القلق والخوف ، ولا يتفكر فى شىء أقل مما لا يتفكر فى الموت ، لأنه لايتفكر الا فى ان يحيا ، وان يعمل ، وان يحافظ على وجوده ، وفقا لقاعدة مصلحته الخاصة ، اذ الحكمة هى — كما يقول اسبينوزا معارضا لأفلاطون — هى تأمل للحياة لا للموت · ان هذا الانسان الحر حقا يعرف كيف يتعانق فيه الاقدام والخوف سواء بسواء ، كما انه يعرف كيف يتجنب أو يتلمس مواطن الصراع بروح حضورها لديه فى الحالين سواء · انه يأخذ نفسه بأن تخلص نفسه الى أسداء الفضل وأداء الخير الى الجهال حتى يكون بمأمن من بعضهم ، ولا يكون مذعنا لرغباتهم الجامحة · انه يعمل بايمان راسخ دائما · حتى يحفظ وجوده · انه لا يلجأ الى الغدر لأنه لايطاوع الا العقل الذى لايدل على الغدر أبدا ، ولو كان العقل دليلا على الغدر ، وكان الانسان متبعا للعقل ، لترتب على ذلك ان يكون الانسان دليلا لغيره على طريق الغدر ، وهذا محال : لأن ذلك انما يعنى ان الانسان لايستطيع أن يوحد قوى أشباهه ، ولا أن يوجه جهودهم الى الخير الا عن طريق الغدر ، وانه لا يكون عندئذ ثمة شىء حق هو شركة بينه وبينهم ، وان هذا الانسان الحر لهو هذا الذى يشعر فى حياته الاجتماعية فى ظل القانون العام بأنه أكثر حرية مما لو كان فى حياته الفردية منعزلا عن غيره لا يصدع الا بأمر نفسه ، وههنا فى حياة اجتماعية كتلك لايكون الانسان الشاعر بحريته على هذا الوجه مطاوعا للقانون عن خوف ، ولكن عن ذات عقل ، وههنا أيضا تراه فى دأبه على حفظ وجوده على مقتضى العقل لايعمل الا وفقا للقاعدة العامة وتبعا للمنفعة العامة ·

وينتهى هذا كله باسبينوزا الى نهاية قوامها حياة عقلية آمنة من ناحية ، وحياة روحية وادعة من ناحية أخرى ، وهما هاتان الحياتان اللتان تجدهما النفس الانسانية فى ظل الحرية قائمة على دعائم من فكرته الرئيسية وهى ان كل شىء انما يلزم عن ضرورة الطبيعة الالهية ، وتلك فكرة تجد النفس بين أحضانها سكينتها وطمأنينتها ، اذ ما عسى أن يطمح اليه العقل ، أو تصبو اليه الروح الا ان يكون ما يلائم النظام الضرورى للأشياء ! وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات اسبينوزا نفسه أن خير جزء فينا ينبغى أن يكون موافقا للطبيعة ، واذا كان ذلك ، فقد ترتب عليه ان الغاية القصوى التى يرى اسبينوزا ان مذهبه الأخلاقى ينتهى الى تحقيقها انما هى أمن النفس الذى تحصل عليه هذه النفس بتأمل ما هو

ضرورى أزلى وأبدى ، وبمعرفة الوحدة الذاتية التى بين أنفسنا الجزئية وبين الضرورة الكلية للأشياء التى ليست فى حقيقتها الا هيئات للطبيعة الالهيـــة ٠

الجزء الخامس
فى قوة العقل
أو فى حرية الانسان

لعل أول ما يلاحظه المتأمل فى الجزء الخامس من كتاب « اسبينوزا » « علم الأخلاق » ، هو انه يفصل فى هذا الجزء ما أجمله أو أشار اليه فى الأجزاء الأربعة بصفة عامة وفى الجزء الرابع بصفة خاصة : فهو يبسط القول فى الابانة فى الجزء الخامس هذا عن الحقيقـــة والأمن والسعادة وأين النفس الانسانية من هذا كله ، أو أين هذا كله من النفس الانسانية٠ كما يتحدث مسهبا فى استكناه حب الانسان لنفسه من ناحيـــة ، وحب الانسان لغيره منطويا على حبه لنفسه ، وعلى مبدأ محافظة الانسان على نفسه من ناحية أخرى ، وهو يعرض بعد هذا كله لوحدة حب الانســان لله ، وحب الله للانسان ، وللانفعالات المحمـــودة والانفعالات المرذولة كما يصور الانسان وقد تحرر من ربقة الانفعالات ، ويتعمق فى ما ينبغى ان يتوفر فيه من شروط تكفل له الخلود أو الحيـــاة فيما هو أزلى ومع ما هو أبدى ٠

يرى اسبينوزا ان المعرفة وحدها لا الحرية هى التى تجعل للنفس بعض السلطان على الانفعالات ، وان العقل وحده هو القوة التى يتصرف بها الانسان تصرفا يمكنه من كبح جماح انفعالاته ٠ ومعنى هذا انه على قدر معرفتنا بالانفعال يكون حظ النفس من هذا الانفعال ، أى انه كلما كانت معرفتنا بالانفعال على وجه أحسن كانت النفس فاعلة لا منفعلة ٠

أى اننا بمعرفتنا لأنفسنا معـرفة مطردة فى وضوحهـا نستطيع ان نتمكن من الاقلال من شأن الانفعـالات ، وهذا هو ما ينبغى ان نصبو اليه ، ونعمل عليه ، بحيث تستحيل أفكارنا غير التامة الى أفكار تامة ، وهنالك تتحول النفس عن الانفعال الذى يعمل عملها فيها الى الشىء نفسه الذى ينبغى على النفس ان تعمل الفكر فيه بحيث تدركه فى وضـــوح وتميز ، وهنالك ستجد عند هذا الشىء سكينتها الكاملة ٠ ويتبين تفاوت الانفعالات فى القوة والضعف بتفاوت المعارف والأفكار فى التمام والنقص ،

اذا لاحظنا مع اسبينوزا انه كثير ما يشتد بنا انفعال الحزن لفقدان شيء ما قد اقتنعنا بأنه ليس ثمة لدينا وسيلة ما للمحافظة عليه ، وانه قليلا ما يكون حظنا من هذا الانفعال ، وذلك بالقياس الى كل ما ندركه ونحكم عليه بأنه طبيعي وضروري ٠

ومعنى هذا كله ان كلا من المنطق وعلم النفس لدى اسبينوزا ، انما يقوم على قاعدة أساسية واحدة : هي تلك التي يعمل بها الانسان على تحويل أفكاره غير التامة الملبسة الى أفكار تامة حقا ٠

على ان مبدأ محافظة الانسان على نفسه ودأبه على حفظ وجوده على نفسه من أجل نفسه ، ليس عند اسبينوزا مصدرا يستخلص منه حب الله فحسب ، وانما هو يستخلص منه كذلك حب غيره من الناس : لأن الانسان بسيره في الطريق الذي يؤدي الى الخير الأسمى انما يعمل في نفس الوقت لخير الآخرين كما يعمل لخير نفسه ، ولأن الخير الحق انما هو قسمة أو شركة بين كل أفراد الانسان ، ولأن هذا الحب أو ذاك ليس من شأن أحدهما أو كليهما أن يثير الغيرة والحسد في نفس أي انسان ، أو يؤدي الى التقاطع والتنابذ بين أي فردين من أفراد الانسان ، بل هو يسلم الى التراحم والتحاب واتحاد القوى على وجه أشد وأقوى مما كان ، بحيث لو قد تواصل وتحاب وتراحم فردان ، لكان منهما فرد واحد هو أقوى ضعفين مما لو كان كل منهما منفردا ، ومن هنا لم يكن أنفع للانسان من الانسان الذي يسير على مقتضى العقل ، وفي حدود قوانين الطبيعة الانسانية التي تلائم بالضرورة طبيعة كل انسان ٠

وآية هذا كله التي تدل دلالة واضحة على طبيعة الحبين الالهي والانساني ، هي أن اسبينوزا يرى ان الحب العقلي النابع من النفس الانسانية الى الذات الالهية ، انما يصدر عن الحب العقلي الفائض من ذات الله لذات الله ، لأن الله من حيث هو محب لذاته ، انما يحب كذلك الناس الذين هم هيآت لذاته ، ولأن حب النفس لله ، انما هو جزء من عين حب الله اللامتناهي لكماله اللامتناهي ، وهذا يعني بعبارة أخرى من عبارات اسبينوزا ان حب الله للانسان ، وحب الانسان لله ليسا في الحقيقة الا حبا واحدا ٠

وهكذا نرى مع اسبينوزا كيف ينتهي مذهبه الأخلاقي في هذا الكتاب القيم الى نهاية مشرقة وغاية متألقة أخص خصائصها هذه الصبغة

الروحية التى أشرقت وتألقت بها جوانب عقله وقلبه وروحه ، فاذا هو يحيا ، ويريد غيره ان يحيا ، حياة عقلية كاملة من ناحية ، وحياة روحية فاضلة من ناحية أخرى ، كلتا الحياتين هما اللتان تكفلان لمن يحياهما الحياة السعيدة الراضية الباقية سواء فى هذا العالم ، وفى العالم الآخر ، حيث تتفيأ النفس ظلال الحق والخير والوجود ، وتستضىء بأنوار الأزل والأبد والخلود ٠

★★★

تأثير الكتاب فى تنشئة

الاستنارة فى فرنسا والعالم

ان لاسبينوزا نصيبا يكاد يكون خفيا فى تنشئة الاستنارة فى فرنسا ، فان زعماء هذه الثورة العنيفة استخدموا نقد اسبينوزا للكتاب المقدس سلاحا فى حربهم ضد الكنيسة ، وأعجبوا بمذهب الجبرية عنده ، و « بأخلاقه » القائمة على المذهب الطبيعى ، وبرفضه للتدابير فى الطبيعة ، ولكن حيرتهم مصطلحاته الدينية ، والتصوف أو المذهب الباطنى البارز فى كتاب «علم الأخلاق» وقد تخيل رد الفعل فى فولتير أو ديدرو، وفى هلفيشيوس أو دى هولباخ ، لعبارات مثل « أن الحب الروحى العقلى لله هو نفس الحب الذى يحب به الله نفسه » ٠

وكانت الروح الألمانية أكثر استجابة لهذا الجانب من فكر اسبينوزا٠ واستنادا الى حديث رواه « فردريك جاكوبى » (١٧٨٠) لم يعترف لسنج بانه لم يكن طوال سنى نضجه متأثرا باسبينوزا فحسب ، بل كذلك انه « لا فلسفة الا فلسفة اسبينوزا » ان التعادل بين الطبيعة والله ، ذلك التعادل القائم على مذهب وحدة الوجود ، هو بالتحديد الذى اهتزت طربا له ألمانيا أثناء الحركة الرومانتيكية بعد ان جرت حركة الاستنارة فى عهد فردريك الأكبر مجراها ٠ وكان « جاكوبى » ، بطل « فلسفة الوجدان » الجديدة من بين أولئك المدافعين عن اسبينوزا (١٧٨٥) وثمة ألمانى رومانتيكى آخر هو « نوفاليس » أطلق على اسبينوزا « الثمل بحب الله » ٠ وقال هردر بانه « وجد فى رسالة الأخلاق » التوفيق بين الدين والفلسفة ٠ وكتب شليماخر رجل الدين المتحرر عن « اسبينوزا المقدس المحروم من الكنيس » ٠ وارتد جيته الشاب عندما قرأ « الأخلاق » لأول مرة ، ومنذ ذلك الوقت غلبت السبينوزية على شعره (غير الجنسى) ونثره ٠ ويرجع بعض الفضل الى تنسمه جو الهدوء فى كتاب « علم الأخلاق » فى انصرافه عن الرومانتيكية المتطرفة الجامحة عند « جوتزفون برليخنجين ، وآلام فرتر الشاب الى الاتزان المهيب فى أخريات حياته ٠

وعوق « كانت » مجرى هذا التأثير لبعض الوقت ، ولكن هيجل صرح بانه « لكى تكون فيلسوفا ينبغى أولا أن تكون اسبينوزيا » ، وعبر من جديد عن اله اسبينوزا بانه (العقل الطلق) وربما تسرب شيء من « نزعة المحافظة على الذات » عند اسبينوزا الى « ارادة الحياة » عند شوبنهور ، و « ارادة القوة » عند نيتشة ·

ولم يصل اسبينوزا الى أذهان الانجليز الا عند ظهور الحركة الرومانتيكية عند انصرام القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وحينئذ أوحى أكثر من أى فيلسوف غيره بالميتافيزيقا العنيفة القوية · عند وردزورث وكوليردج وشلى وبيرون · وترجم جورج اليوت «الأخلاق» بعزيمة صادقة · واعترف جيمس فرود وماتيو ارنولد بتأثير اسبينوزا على تطورهما العقلى · ويبدو أن الدين والفلسفة أثبت كل نتاج الانسان على مر الزمان ·

★★★

هـــوامش

(١) الرواقيين : الرواقية مدرسة فلسفية أسسها زينون (ح ٣٠٠ ق٠م) ترى ان ماهية الانسان جزء من الوحدة الجامعة بين الله والطبيعة · وان الحقيقة مادية تسودها قوة توجهها (القوة الالهية) ·

(٢) هوبس : توماس هوبس (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) فيلسوف انجليزى · أخذ بالمذهب المادى · ورفض الميتافيزيقا التأملية · وكان من أنصار المذهب الذرى ·

ألف ليلة وليلة

مجهول المؤلف والتاريخ !!

ألف ليلة وليلة

مجهول المؤلف والتاريخ !!

كتاب « ألف ليلة وليلة » ثروة تراثية هائلة التقى المفكرون ، من شرقيين وغربيين · على اعتبارها وثيقة حية تعكس حياة العصر الاجتماعية والفكرية على حد سواء ، ورغم كل الدراسات والابحاث التى تنـاولت هذا الأثر العظيم فانه ما يزال فيه جوانب تستحق الكشف والتدقيق ·

وقد اهتم عشـاق القصـة ورجال الأدب فى العصر الحديث بهذا الكتاب الذى يزخر بأكبر مجمـوعة قصصية عربية ، تمتـاز بالصراحة وصدق التعبير ، وخصب الخيال ، والتصوير البديع ، والأساطير الجذابة، والعواطف المشبوبة ، والشخصيات الرائعة ، والمغامرات الباهرة ، والأجواء الساحرة التى يعيش فيها القارىء ، وكأنما يعيش فى أحلام لذيذة ، وآمال حلوة وعالم يزدحم بوقائع الجان ، وطبائع الانسان ، والصراع بين الخير والشر ، والفساد والصلاح ، والفشل والنجاح ·

وهى ـ الى ذلك ـ صور تاريخية صادقة لحياة المجتمع الشرقى فى القرون الوسطى ، وما كان عليه أهله من طباع وعادات ، وما كان لهم من أخيلة وأفكار ، وعقائد وآراء فى ركوب الأسفار ، وامتطاء البحار ، وبسالة المحاربين ، والذود عن الدين ، وطموح المغامرين ، وما كان لهم من آراء فى المرأة وأحوالها ، فهى عندهم ريحانة محببة ، ولكنها شيطانة متقلبة ، لا تعرف غير نفسها ، ولا ترضى غير أنوثتها !

فألف ليلة وليلة أكثر من كتاب عادى ، نبخسها حقها اذا اعتبرناه حكايات للتسلية مطعمة بالأساطير والخرافات · فهى تقدم لنا جل ما تلقاه العقل البشرى من تأثيرات الكون · وجل ما حققه الفكر ، مقرونا بالاجتهاد، فى مجالات الأدب والفن وحتى الفلسفة ، ناهيك بما فيها من جذور تمتد الى ما قبل التاريخ ، وتستلهـم حضارات بائـدة ، أو منسية ، سبقت حضاراتنا ، وبلغت من المعرفة والعمران ما لم نبلغه بعد فى عصرنا النووى

« الكومبيوتري » ، في بقعه من عالمنا طولها ثلاثة عشر الف ميل وعرضها أربعة آلاف ، تمتد من طليطلة الى بورينو ، وتتوغل فروع منها في أعماق الصين ، وبحر الظلمات ، وحتى القارة السوداء ٠

تحفة رائعة مجهولة المؤلف

ان هذا الكتاب ، الذى يبدو مجموعة غير متجانسة من القصص ، والطرائف ، والأساطير المتعددة الأصول ، التى جمعت على مر القرون ، لا يمكن أن يكون من ابداع مؤلف واحد ٠ والواقع فان الكثيرين من المقتبسين قد عملوا فى تأليف هذه التحفة الجماعية المجهولة المؤلف ٠ ومع ذلك فان فى قصص ألف ليلة وليلة ، برهانا يعتبر أساسا فى مجموع هذا المؤلف الأدبى ، هو أن واحدا أو أكثر من العباقرة المجهولين ، قد عرفوا كيف ينشئون موضوعا بالغ الاتساع ، لكى يشتمل على مجموعة من القصص المتباينة ، مثل السندباد البحرى ، وعلى بابا والأربعين لصا ، وعلاء الدين ومصباحه السحرى ، وشهر زاد ، وذلك بغير أن يفقد المصنف أهميته ٠

فألف ليلة وليلة تحدد لكل مجموعة من قصصها هدفا انسانيا محددا يختفى وراء مجموعة الموضوعات التى تطرقها كل قصة من قصص المجموعة منفردة ٠ وهى عند النظرة العجلى تبدو مفككة لا رابط بينها ، وكأنها مجرد حكى لا يقصد منه سوى الامتاع والتسلية ، بينما هى عند النظرة التحليلية الفاحصة تكشف عن أبعادها القيمية وأهدافها الانسانية بوضوح كما أن كل قصة من قصص المجموعة تلعب دورها فى تأكيد هذا الهدف وايضاح ذاك البعد ٠

ففى ذات يوم ، يفاجىء الملك شاه الزمان زوجته مع أحد العبيد ، فيشعر بغم عظيم ، وينطلق ليحكى لاخيه ملك الفرس شهريار حظه التعس ٠٠ ولكن هذا يسر اليه بدوره ، خيانة زوجته !

وتحت أثقال العار والألم ، يقرر الملكان أن يتجولا فى أرجاء البلاد، بحثا عن شخص واحد ، تفوق تعاسته أحزانهما ٠ الى أن كان يوم زالت فيه همومهما ، اذ شاهدا جنيا يخرج من خزانة حديدية امرأة بارعة الجمال ، ثم يغلبه النعاس فيروح فى سبات عميق ٠ واذا بالمرأة تراهما ، وتحملهما على مضاجعتها ٠٠٠

ويعود شهريار الى عاصمة ملكه ، فيأمر بالزوجة الخائنة أن تعدم ، ثم يقسم ، بعد أن تأكد من أن جنس النساء لا يعرف الوفاء ، أن يتزوج

الخيانة ، ومكر زوجة الليلة الواحدة ...

واستمر بالفعل ، لمدة ثلاث سنوات ، يحظى كل ليلة بفتاة جميلة عذراء تصبح زوجة للملك ، حتى اذا كان الصباح أسلمها للجلاد . الى أن أبدت الحسناء شهرزاد ، وهى ابنة وزير الملك ، رغبتها فى أن تهب نفسها له فى احدى الليالى ، لتكون الضحية التالية .

الا أن شهر زاد لم تدخل بمفردها المخدع الملكى ، وانما صحبت معها شقيقتها دنيا زاد ، ثم أخذت الاثنتان ، دنيا زاد بحيلها وتملقها ، وشهر زاد بقصصها العجيبة ، تستحوزان على اهتمام الملك ، وتصرفان عنه الملل الذى كان ينوء به . فلما طلع الفجر ، والملك مأخوذ بالقصة التى تقف بها صاحبتها ببراعة عند نقطة بالغة الاثارة ، ويتحرق شوقا لمعرفة بقيتها ، اذا به يقرر تأجيل تنفيذ حكم الاعدام فى زوجته الجديدة الى اليوم التالى .

وهكذا ، وطوال ألف ليلة وليلة ، يؤجل الملك الذى افتتن بعبقرية هذه الرواية ، نهايتها من يوم الى آخر . وأخيرا ، يتملك سحرها منه ، فيصدر عفوا عن شهر زاد ، فى الليلة الأولى بعد الألف .

أصل الليالى

ان هذه القصص الخرافية ، التى كانت وليدة خيال شهر زاد ، كما يقول المؤلف المجهول !

هى فى الواقع مأخوذة عن أساطير بلاد مختلفة ، انتقلت عبر القرون عن طريق الكتابة ، وبالفعل ، فان الطابع الذى يغلب عليه التحرر فى الكثير من الأحيان ، سواء فى الموضوع أو فى اللغة المستخدمة ، يحمل على اعتقاد بأن هذا النوع من القصص ، هى نتاج تجميع عدد من القصص ، والحكايات ، والروايات ، والطرائف ، النابعة عن تقليد سماعى حافل عرف عن الشرق .

وقد يسأل القارىء : من أين نشأت قصص ذلك الكتاب ، وهل هى فارسية أو هندية أو عربية ومن مؤلفها ؟ .. واذا لم يكن لها مؤلف واحد ، فمن يكون جامعها وواضعها هذا الوضع الذى انتهى الينا فى شكله الأخير ؟؟ ..

●●●

يرجع الباحثون الأوائل [illegible] يدعى «هزار افسانه» ومعناه «ألف خرافة» ، لأن افسانه باللغة الفارسية تعنى خرافة . وقد قال على بن الحسين المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م فى كتابه « مروج الذهب » حين عرض لاخبار شداد بن عاد ومدينته ارم ذات العماد : ان هذه الأخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك بروايتها ، وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا عن الفارسية والهندية والرومية،مثل كتاب «هزار افسانة»، وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة . والناس يسمون هذا الكتاب « ألف ليلة » وهو خبر الملك والوزير وابنته شهر زاد وجاريتها دنيا زاد » .

وقد وافق المسعودى فى ذلك محمد بن اسحاق المعروف بابن النديم والمتوفى فى سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، فقال فى كتاب الفهرست : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن الفرس الأول ، ثم أغرق فى ذلك ملوك الاشفانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ونقلت ذلك العرب الى اللغة العربية ، وتناوله النصحاء والبلغاء ، فهذبوه ونمقوه ، وصنفوا فى معناه ما يشبهه . فأول كتاب عمل فى هذا المعنى كتاب « هزار افسانة » ومعناه « ألف خرافة » . وكان السبب فى ذلك ان ملكا من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة ، قتلها من الغد . فتزوج بجارية من بنات الوزراء لها عقل ودراية يقال لها شهر زاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى على ألف ليلة .. » .

وهذان النصان للمسعودى وابن النديم يدلان على أن لكتاب ألف ليلة وليلة أصلا فارسيا . وقد عنى المستشرقون منذ أوائل القرن التاسع عشر بالبحث الجدى فى هذا الموضوع . وأول باحث فى ذلك هو المستشرق « سلفستر ده ساسى » واضع كتاب فقه اللغة العربية الحديث ، وقد أنكر امكان قيام فرد واحد بتأليف هذا الكتاب ، ورفض رفضا باتا الرأى القائل بوجود عناصر فارسية وهندية فيه ، وزعم أن النص المنقول عن المسعودى منحول عليه ، ولكن غيره من المستشرقين قد خالفوه ، وأيدهم فى ذلك النص المنقول عن ابن النديم فضلا عما قاموا به من من مقارنات بين عدد غير قليل من قصص ألف ليلة وليلة وأصلها الفارسى .

وقد انبرى المستشرق « ملر » لبحث تاريخ « ألف ليلة وليلة » ، فكان أول من فطن الى انه يتكون من طبقات . وأخذ « نولدكه » بنظرية الطبقات وفصلها تفصيلا وضع فيه مقاييس للموازنة بين هذه الطبقات ،

الأولى نواة الكتاب وتشمل القصص التى أخذت من كتاب «هزار افسانه»، وقد ترجمت الى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، والثانية القصص التى وضعت فى بغداد · والثالثة القصص التى أضيفت الى الكتاب فى مصر · وقال ان هناك طبقة رابعة من القصص أضيفت اليه فى عصور متأخرة ·

ومع ذلك ، فان التاريخ الدقيق لأول ترجمة عربية لهذا العمل الأدبى الضخم ، بعد تنقيحه ، واعادة كتابته ، وتعديله خلال مرحلة تطوير طويلة ، لا يزال أمرا غير مقطوع به ·

ولابد من اللجوء الى النقد الداخلى للنص ، والى دراسة السلوك والعادات ، واللغة وتطور الحركة ، والتماثل فى الحبكة ، لامكان التمييز بين عمليات النقل المتتالية ، ومن بينها النقل عن الهند وفارس ، اللتين يبدو انهما أهم البلاد التى نقل عنها وأقدمها · والواقع ان الهند هى التى يجىء منها المدخل الى القصة ، وهى حكاية تصلح كمقدمة · ونطاق عام يدور فيه الكتاب كله · الا أن شخصية الأميرة التى استطاعت أن تؤجل كل صباح القرار النهائى ، ليست وحدها ما نقل عن تلك البلاد ·

وهناك اثنتا عشرة قصة أخرى ، يتبين انها كذلك من أصل هندى ، ومنها قصة حسن البصرى ، وقصة قمر الزمان ، وقصة بدور ، وقصة الحصان المسحور ، وغيرها · ومن ناحية أخرى ، فان ظهور الجنى العفريت، المعروف لدى الفرس باسم « هاظار عفصانة » ، وكذلك تعبيرات أخرى سحرية ، انما يدل على مدى تأثير هذه البلاد ·

وأخيرا ، فان مسار هذا المؤلف الجماعى ، الذى أعيدت كتابته على مر الأعوام ، كان من المحتم أن يجعله يبدو غير متجانس · فلقد دخلت عليه حكايات طويلة ، كانت فى البداية غريبة عن المصنف ، لتندمج فى مجموعه ، مثل كتاب السندباد ، أو كتاب الوزراء السبعة ، وهما يدلان على أصلهما الهندى ، وكتاب الوزراء العشرة المستمد ، مثل مغامرات شمس الملوك ، من الأدب الفارسى · وهذه القصص ، بتركيبها العام ، ولما توحيه من تعدد الحكايات ، تدين بالكثير الى التقاليد الهندية الفارسية على السواء ، ولو انها ليست المصادر الوحيدة ··

والواقع انه تم الكشف عن ان هناك نقلا عن البلاد الهيلينية ، نتيجة لتحليل بعض القصص · وهذا الأثر يدل على أنه اذا كان الأدب العربى الكلاسيكى، قد زعم انه دفع عن نفسه فكر العالم الاغريقى ، فان الأدب السماعى والشعبى ، قد تأثر بهذا الفكر ·

وليس يضير ألف ليلة وليلة العربية أن تكون نواتها تلك القصص الفارسية ، فمما لا ريب فيه انه لو أتيح الوقوف على الترجمة الأصلية لهزار افسانه ، لوجدنا الفرق بينها وبين ما روى فى كتابنا كالفرق بين أوديسية هوميروس والياذة فرجيل ، فان الالياذة منقول أكثرها ـ لا بعضها ـ عن الأوديسية ومع ذلك تنسب لفرجيل !

أما القصص البغدادية فى ألف ليلة وليلة ، فمنها القصص التى يردد فيها اسم هرون الرشيد ، وأبى نواس ، وأبى دلامة ، والقصص التى تتناول حياة الجوارى ومجالس الأنس والطرب ، وحكايات الحب والهيام ، والقصص التى تصف الحضارة العباسية ، وما كان فى العراق من عمران ، كقصة المعتضد مع أبى الحسن الخراسانى ، وقصة السندباد البحرى ، وهى وصف شائق لسبع سفرات فى جزر الهند والصين · وكانت فى الأصل رحلة حقيقية ، ثم زاد فيها الناس بالمبالغة والافتعال · وقد وضعت فى عهد بلغت فيه البصرة وبغداد غاية الازدهار · ومن الحقائق المعروفة أن هناك بعض الحكايات المصرية التى تشابه حكاية السندباد ·

وأما القصص المصرية فى ألف ليلة وليلة ، فهى كثيرة ، وتمتاز بروحها الشعبية ، ولغتها السهلة كحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مزين بغداد ، وعلى بابا والأربعين حرامى ، وعلاء الدين ، ومعروف الاسكافى ، وأبى قير وأبى صير ، والملك الناصر ، والرجل الصعيدى وزوجته الأفرنجية وغيرها · وقد اشتمل الجانب الأكبر من قصص ألف ليلة وليلة على أبيات من الشعر بعضها طويل وبعضها قصير ، رويت على لسان المتحدث ·

وقد أجمع أكثر الباحثين على أن النصوص العربية لألف ليلة وليلة التى انتهت الينا فى التاريخ الحديث ، قد أخذت عن النص المصرى ، والفضل فى ذلك يرجع الى الكشف الذى قام به المستشرق « زوتنبرج » بعد دراسة جميع المخطوطات التى كانت موجودة ، واستطاع الحصول عليها وموازنتها · ويؤيد ذلك ما كتبه سيتزن فى يومياته حينما زار القاهرة سنة ١٨٠٧ م ، فقد كتب يقول : « ان اسلان اكتشف أن مخطوطات ألف ليلة وليلة المتداولة فى مصر قد جمعها واحد من الشيوخ ، وأن هذا الشيخ توفى منذ ٢٦ عاما ولسوء الحظ ترك اسلان فى يومياته بياضا مكان اسم هذا الشيخ » ·· وأضاف الى هذا أن المجموعة الأصلية التى وصلت الى يد الشيخ كانت فى مائتى قصة ، وانه جمع اليها نحو ٦٥ قصة من الحكايات المتفرقة · وهذا يؤيد ما ذهب اليه زوتنبرج من أن النص الحالى لألف ليلة وليلة هو النص المصرى · وهذا النص هو الذى طبعت منه أول طبعة فى مطبعة بولاق سنة ١٢٥١ هـ الموافق عام ١٨٣٥ م ·

السحر فى قصص الف ليلة وليلة

أما السحر الموجود فى قصص ألف ليلة وليلة الذى يصل الى ٩٠٪ من حكاياتها ، فليس الغرض منه اعطاء اسلوب معين للسحر أو طريقة تعليمية أو وصفية للسحر كشأن ما هو موجود فى الكتب والمخطوطات الممنوع الاطلاع عليها مراعاة لصالح وسلامة عقول الناس ·· وانما الغرض من السحر فى هذه الروايات اثارة الشوق والشغف عند القارىء لتتبع هذه المظاهر السحرية الغريبة ·· وقد حاول « الراوى » فى ألف ليلة وليلة أن يقدم مظاهر ليست موجودة أساسا فى الكتب المشار اليها ، لكنها مظاهر تتسم بالحركة والحيوية والنشاط والحدث الذى يثير شغف المستمع مثل « سحر المسخ » الذى يعنى تحول الانسان الى حيوان أو طائر ، وهى صورة متكررة فى الروايات التى تمتاز بحركة وحيوية تناسب الرواية صورتها العامة ، بأن تلقى الساحرة ـ مثلا ـ بماء على وجه الانسان وتقول له بعض العبارات التى تدور حول اخراجه من صورته الانسية الى صورة كلب أو قط ·· الخ وبهذا الموقف تتعقد القصة وتحدث مغامرات ومفاجآت ·· الى أن تتأزم العقدة فيبدأ (الراوى) فى حلها عن طريق فك المسحور ومثل هذا السحر يشوق السامع ·

والنوع الثانى من السحر الشائع فى ألف ليلة وليلة يتم عن طريق الأداة السحرية كالخاتم المسحور ·· وهذا المظهر من السحر لا يوجد فى كتب السحر السابقة ·· الا فيما ندر ، ولكنه يشكل الشطر الكبير من سحر الليالى فى روايات ألف ليلة وليلة ، اذ انه يتميز بالحركة والحيوية مثل « معروف الاسكافى » الرجل المضطهد من زوجته ، ثم اذا به يعثر على الخاتم السحرى وخادمه أبو السعدات ، وبعثوره على الخاتم تبدأ مغامرات ومفاجآت مثل التقائه بالملك وزواجه من ابنة الملك ·· ثم يضيع الخاتم ·· ويحاول الوزير أن يفتك به عن طريق خادم الخاتم ثم عثور الاسكافى مرة ثانية على الخاتم ·· وهكذا ··

وهناك علاقة الانس بالجن والعفاريت فى روايات ألف ليلة وليلة ، ويقصد بالسحر فيها الطيران فى الهواء أو الغوص فى الماء ، وقد فعل الانسان ذلك لكى يتساوى بالحيوان الذى هاله بقدرته على العديد من السلوك الخارق من وجهة نظره ·· والذى لا يستطيع أن يقوم به هو ·

لكن ·· هل للسحر وظيفة فى روايات ألف ليلة وليلة ؟

مما لاشك فيه أن الخيال الشعبى لا يبتكر شيئا بدون فائدة ·· الخيال الانسانى ربما تخيل شيئا من لا شىء وانما الخيال الشعبى لايحدث فيه ذلك · فالسحر له وظيفة نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية ··

ان السحر فى ألف ليلة وليلة عبارة عن التنفيس عن نوازع مكبوتة عند الشعب وهو يصور نقاط الضعف عند المجتمع .. فمثلا « المرأة » فى ألف ليلة وليلة .. دائما عاشقة ، ودائما تقتل زوجها من أجل عشيقها .. المرأة بطبعها ضعيفة لا تقوى على الرجل ولهذا اتخذت السحر سلاحا لتقهره وتقوى عليه .. وعدم قدرتها على تعدد الازواج جعلها تستخدم السحرة والسحر ..

والسحر أيضا معبر عن ابتسامة الحظ المفاجأة بالنسبة للفقير .. مثل عبد الله البرى الذى أثرى واغتنى عن طريق السحر ، حيث حمل له الجن سلة مليئة بالمجوهرات والأحجار الكريمة .. والراوى فى قصص ألف ليلة وليلة كان عن طريق السحر يعقد القصة حتى يصل الى قمة التعقيد ، ولكنه يحلها عن طريق السحر أيضا !

★★★

الجوانب الخلقية

فى ألف ليلة وليلة

ان الذى يبحر عبر قصص وروايات ألف ليلة وليلة يلمح نغمة سائدة تستهدف العبرة والعظة كلما وجدت الى ذلك سبيلا ، كأنما هى قد ألفت بهدف خلقى ، ولذلك نجدها فى بدايتها تشير الى أن التاريخ عبرة لمن يعتبر ، وأن كثيرا من الحوادث لو كتبت بالابر على آفاق البصر لكانت عبرة لمن يعتبر ، أو أن الخليفة قد أمر بأن تدون أحداث القصة ، وما جرى للبطل حتى يقرأها الناس على مر العصور ، فيتعجبوا من تصاريف الأقدار ، ويفوضوا الأمر لخالق الليل والنهار ·· وهذا الاتجاه نحو العبرة والعظة مألوف فى آداب الأمم والشعوب على مر العصور ·

وقد يطول بنا المقام اذا حاولنا أن نعدد ألوانا من القيم الدينية التى تجدها قصص ألف ليلة وليلة ، لاننا نجد على سبيل المثال لا الحصر : الايمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبالقضاء والقدر ، والصبر على البلاء ، والشكر والحمد فى السراء وعند الفرج ، والايمان بالدعاء ، وبحتمية الاجابة والوفاء ، ورد الجميل ، وحفظ العهد ، والرحمة والكرم والشهامة والمروءة ، وجزاء العمل الطيب ، وعاقبة الشر ، والتهور ، والصدق فى المعاملة ، وحفظ الحق حتى للميت الشرير ·· وأكثر من هذا ، فاننا قد نجد بعض شخصيات قصص ألف ليلة وليلة تخطئ أو تنحرف أو تدبر المكائد ، وفى نفس الوقت لا تستطيع أن تتخلص من جلدها الاسلامى ومن القيم الاسلامية التى أصبحت تجرى فى عروق المجتمع ، كجزء أساسى من مقومات شخصيات أفراده ، مما يذكرنا بالطرفة التى تحكى عن اللص الذى يسرق وهو يقول « استرها يارب » !

الكتاب ثروة تراثية هائلة

ولكن ما هى الفوائد التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية التى نستطيع أن نجنيها من هذا السفر النفيس ؟

سؤال محير ، قد نجد عنه جوابا ، أو بعض جواب ، فى عرض مغامرات السندباد البحرى ، واسطورة الخلق ، وأساليب الجن وبلادها ، ومهارة على بابا ، والحمائم الجنيات والمدينة النحاسية ، وحقيقة شهر زاد ، وشهريار ، وهرون الرشيد ، والخيزران ، والست زبيدة ..

ونقلت حكايات شهر زاد ، حتى اليوم الى أكثر من ستين لغة ، حتى يمكن القول ان معلوماتها قد استقرت فى عقول البشرية جمعاء وأنتجت مواسم فى العطاء فى مجالات الأدب والفن .

ويذكر الذاكرون أن الاقبال على قراءة نصوص ألف ليلة وليلة كان ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ الكتاب . بل كان اعصارا من الحماسة جعل الناس يقفون صفوفا طويلة على أبواب المكتبات ، ينتظر كل منهم دوره للحصول على نسخة منها ، بالرغم من الثمن الباهظ نسبيا الذى فرضه الناشرون . ولم يسجل ازدحام كهذا الا على أبواب مراكز توزيع الاعاشة فى الحروب والمجاعات !!

ولحكايات شهرزاد ينابيع عديدة ، أهمها ذكريات ، أو بالحرى انطباعات حضارية مستقرة وفاعلة فينا من حيث نحن بشر ، وان كنا لا نحسها جسديا ، ولا نستجلى صورها الا فى الأحلام أو فى هنيهات الشرود عن واقعنا المادى المحدود بالزمان والمكان . فالانسان موجود على هذه الكرة الأرضية منذ مليون أو ٦٠٠ ألف عام على الأقل ، والحقب ، أو العصور التى نعرفها أو نعرف شيئا عنها لا تتجاوز عشرة آلاف عام . ونقتصر معلوماتنا على آثار اكتشفناها فى ابلا وجرش وسومر وأوغاريت وغيرها . فما الذى « كان » على أرضنا قبل هذا القليل الذى نعرفه من الكثير الذى نجهله ؟ أما سبقت انسانيتنا الحالية انسانيات قديمة بلغت من العلم والتقنية ما لم نبلغه بعد ؟ألا يمكن أن يكون ما نعتبره أساطير وخرافات « وقائع » حققتها الانسانيات البائدة ؟! .

نقول « البائدة » .. لا المنسية ، لان التاريخ لا ينسى ، قد تغوص حوادثه فى أعماقنا ، وتشرد معالمه فى مجاهل عقلنا الباطن ، ولكنه باق فينا ما دمنا باقين ، تتباين مشاهده وضوحا وغموضا ، وتختلف صوره حجما وألوانا ، ولكنها تثبت وجودها فينا ، وكلما أطلت علينا من غياهبها السحيقة ، وعجزنا عن فهمها وادراكها ، بادرنا الى الباسها ثوب الخرافة أو الأسطورة ، لحاجتنا الى التعبير عما نحس ، أو لارضاء ما يعتلج فينا من فضول علمى .

★★★

الكتاب الذى صمد أمام الزمان طويلا

تتعاقب الأجيال جيلا بعد جيل ، وتتوالى العصور عصرا بعد عصر ، ولا ينتهى حديث الناس فى هذه الأجيال وتلك العصور عن ذلك الكتاب العجيب « ألف ليلة وليلة » ،الذى حوى كل شائق وغريب ، وظفر بما لم يظفر به كتاب قصصى فى العالم من السمعة الذائعة ، والشهرة الواسعة، والمكانة اللامعة ، فى الأوساط الشرقية والغربية ، وفى أندية الأدب ، وبين أئمة الفن القصصى ٠

ولما كانت أهمية أى أثر أدبى تقيم بمدى قدرته على الصمود أمام الزمن ، وبسعة انتشاره على الصعيد العالمى ، ثم بمدى تأثيره على المجتمع، وعلى الآداب الأخرى ، ودرجة تفاعلها معه ، كان كتاب ألف ليلة وليلة أكثر تراثنا الأدبى قيمة وأهمية ٠

فلقد ترجم هذا الكتاب الى أكثر لغات العالم ، واستطاع أن يصمد أمام الزمن فلا تبلى جدته مدى ستة قرون ــ هذا اذا اعتبرنا عمره منذ جمع ، بينما عمر بعض حكاياته يذهب الى أبعد من ذلك بكثير جدا ــ ٠ ظل هذا الأثر الأدبى العجيب خلال هذه المدة الطويلة يلهم ويعلم ، ويظفر باعجاب نوابغ الأدباء والفنانين فى الغرب والشرق ٠ ما نزال نلمح تأثيره فى بعض نتاجهم الى يومنا هذا ٠ فقد استلهمت منه قطع رائعة للمسرح والباليه والموسيقى والسينما ولوحات وتماثيل ٠ كما استنبط من حكاياته قصص اتخذت شخوصها رموزا لآراء فلسفية ، فاذا ماكنا نلمسه فى الكتاب من سطحية وهزل ينقلب عمقا وجدا ٠ ولعل أروع ما فى أدبنا العربى الرمزى الحديث ــ لا سيما المسرحى ــ هو ما استلهم أيضا من ألف ليلة وليلة ٠ عدا هذا كله فقد كان للكتاب أثر بالغ فى حركة الاستشراق ، وكما تقول د٠ سهير القلماوى فى كتابها عن ألف ليلة وليلة :

« لسنا نبالغ اذا قلنا ان كتاب ألف ليلة وليلة كان الحافز الأهم لعناية الغرب بالشرق عنايـة تتعـدى النواحى الاستعمارية والتجاريـة

والسياسية . بل لسنا نبالغ اذا أرجعنا كثيرا من حركة الاستشراق وانتشارها الى ما ترك هذا الأثر فى نفوس الغربيين » .

ولا غرو أن يبلغ الكتاب هذا الشأو من الأهمية ، فهو من نتاج أدباء أمم عريقة فى الحضارة .

يقول الأستاذ الألمانى (فريدريك فون دولاين) فى كتابه « الحياة الخرافية » :

« كلما توغل الانسان فى حكايات ألف ليلة وليلة ازداد احساسا بأنفاس الروح العربى ، فالطبيعة العربية تأسرنا حينئذ الى درجة اننا نستسلم اليها راغبين بها وحدها عن طواعية ، ونفضل الا نشعر بغيرها ، فهى صور واضحة للحياة العربية خلال ستة قرون » .

وقال عنه فولتير : « اننى لم أزاول فن القصص الا بعد أن قرأت ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة » .

وقد تمنى القصصى الفرنسى « استندال » أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة ليعيد قراءته ، فيستعيد لذته .. !!

★★★

دائرة المعارف الكبرى

حيدرو

١٧٥١ م

ليس من شك فى أن دوائرالمعارف من أهم ما يحتاج اليه المثقفون · وهى بمثابة معاجم للعلوم والفنون يرجع اليها العالم والمؤرخ والباحث فى كثير من الأحيان · ولذلك حرص العلماء على تصنيفها وجمعها منذ أقدم العصور ·

ولما كانت طبيعة دائرة المعارف الفرنسية (موسوعة ديدرو) ، تتطلب أن يعمل فى تحريرها أكبر عدد ممكن من العلماء والكتاب المتخصصين فى أفرع العلوم المتنوعة ، وجوانب الثقافة المتباينة الأنحاء والنزعات ، فقد اقتضى ذلك ان تسهم فى تحريرها أعلام من جميع الطبقات والدرجات التى تتفاوت رفعة وانحدارا ، وتتباين عمقا وسطحية ·

غير أن ــ مع هذا ــ لا ينبغى البتة أن يقاس مجهود أى واحد من هؤلاء المحررين بمجهود « ديدرو » الذى عالج وحده أكثر من ألف مادة فى هذه الموسوعة الجامعة فى تاريخ الفلسفة والأخلاق وعلم الجمال والفنون الميكانيكية ··· وما الى ذلك ·

ولم لا ·· فقد كان ديدرو من النجوم اللامعة فى سماء الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، وكان واسع المعرفة ، متعدد المواهب ، يجوب المعامل والمصانع لجمع المعلومات واتقان معرفة الفنون المهنية والحرفية · يصحح ويستكمل مقالات الآخرين وينظم العمل بين معاونيه · وكان رائده فى عمله وجهده تقديس العقل ، فكلما خطت الفلسفة فى رأيه بريادة عقلية خطوة استتبع ذلك تقدم العلوم الأخرى · الدين يجب أن تسوده روح التسامح ، والسياسة يجب أن تقودها الحرية ، والأخلاق عليها أن تهتدى بالسلوك الطبيعى ·

لذلك كله يتحتم علينا تقديرا للجهود المشكورة ، والانتاج الرفيع ، ووضعا للامور فى مواضعها من سجل التاريخ أن نخصص لديدرو بين صفحات هذا الكتاب مكانا يتناسب مع مجهوده الجبار العملاقى فى هذه الموسوعة العظيمة ·

حياة ديدرو وشخصيته

عندما يريد الباحث أن يقسم كتاب القرن الثامن عشر حسب المنهج العادى ، وأن يميز بين أنصار العقل واتباع العاطفة ، يجد نفسه بازاء « ديدرو » حائرا كل الحيرة ، فهو من ناحية ، ملهم دائرة المعارف التى هى من أسمى انتاج الفلاسفة العقليين فى ذلك العصر ، كما انه من أبرز المفكرين الذين يقدسون الطبيعة · وهو من ناحية أخرى منجم من مناجم الأحاسيس والعواطف · وفوق ذلك فانه منبع من منابع الحماس والحرارة، وطليعة من طلائع الرومانسية الأوربية · وتعتبر شخصيته ملتقى لما يعد عند غيره من المتضادات كالعقل والعاطفة · وكان الى جانب ذلك كله قويا قوة لا تغالب وذا عزيمة فولاذية ، بل ان فريقا من الباحثين قد جزم بأن الفضل فى وجود دائرة المعارف راجع فى أكثر نواحيه الى عزيمة ديدرو ، ويعلن ان كل ما عزى اليه من ضعف صحى كان ينمحى أمام شجاعته واصراره على انهاء عمله ومثابرته فى متابعته بلا أدنى توقف أو فتور · وفى الحق انه كان يحمل لرسالته حبا وحرارة لايتيسران الا للمتنسكين · وأخيرا يمكن القول بأن سلوكه فى ذلك المحيط الموسوعى كان على مستوى ذكائه ومواهبه ·

ولد « دينس ديدرو » فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى مدينة لانجرز من اسرة متواضعة · وكان أبوه يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة · وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت · ولم يرث « دينس » عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم، ولكنه لم يكف يوما عن اجلاله وحسن تقديره لأمانة أبيه الموسومة بالبساطة واقباله على أعمال البر والخير فى هدوء · وينقل عنه دينس قوله : « أى بنى ، أى بنى ان العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى الى وسادة الدين والقوانين » ·

ولما ترعرع « دينس ديدرو » أدخله والده مدرسة اليسوعيين فى مدينته ، فنشأ نشأة دينية محافظة من الجانبين ، لان أسرته كانت قد بلغت من التقوى والورع حدا لا تفوقه مدرسة اليسوعيين الا بالأساليب المنمقة ، والعبارات المنظمة · ولما أتم دور الدراسة الثانوية ارتحل الى باريس ليدرس الحقوق فى كليتها العالية · وبعد أن أتم دراسته عرض عليه والده أن يختار أحد أمرين : اما أن يبحث له عن عمل يعيش منه واما أن يعود الى مسقط رأسه ، ليعيش بجانب والده معيشة لا تكلفه تلك النفقات الباهظة التى ينفقها فى باريس · وكان هذا الأمر الأخير مستحيلا، لأنه قد تعود على أساليب الحياة الباريسية وألف الاختلاف الى البيئات

الثقافية المليئة بالحركة والنشاط · فبعث الى والده رساله رفض فيها العودة الى المدينة الصغيرة فلم يكن من الوالد الذى ناء بعبء النفقات الفادحة بالنسبة الى أمثاله الا أن قطع عن ابنه ما كان يرسله اليه من مال · فلما رأى ديدرو أنه أصبح وحيدا لا عون له ولا سند فى الحياة ، وأضحى مرغما على العمل للقوت ، لانه اما أن يعيش من مجهوده الخاص ، واما أن يهوى الى حضيض البؤس · ولكن هذا الشاب الذكى الممتلىء قوة وحيوية قد انجرفت كبرياؤه وأهين فى عزته واعتبر هذه المعاملة القاسية من والده شائكه لشخصيته ، فهب يقدح زناد فكره للخروج من هذا المأزق الذى لحقه منه ـ وهو لا يزال فى ريعان شبابه ـ اهانة قاسية · فاهتدى فى النهاية الى حل ينقذه من هذه الورطة التى أوقعته فيها ظروفه السيئة ، وهذا الحل هو أن يحترف الدروس الخاصة يعطيها لصغار الطلاب ويتقاضى عليها أجورا بسيطة ، فكان يتكسب من هذا العمل ما يكفى لانفاقه فى باريس بهيئة متوسطة · ولم يكن ديدرو شابا سفيها أو سيىء التصرف حتى ينفق كل ما يصل الى يده من المال على مظاهره أو على بواعث ملذاته ، وانما كان شابا عاقلا حكيما يحرم نفسه مباهج الحياة الباريسية الفاخرة بل بعض ضرورياتها ليقتصد مبلغا من كل شهر ينفقه على تعلم اللغات التى لا قوام لحياته الأدبية الا بها · فاتقن الانجليزية والايطالية والاغريقية واللاتينية ، ولم يكتف بهذه الدراسة العالية للغات المختلفة ، بل أحس فى نفسه بشغف شديد يدفعه الى التبحر فى الرياضة ، فأرضى هذا الشغف فى نفسه وعكف على مواردها المختلفة فقتلها بحثا وتعمقا · ولهذا تعتبر الأعوام العشرة التى تلت وقوع سوء التفاهم بينه وبين والده أرقى سنى حياته وأكثرها خصوبة وتثقيفا وتحصيلا وان كانت تعتبر أشد أيامه فقرا وبؤسا وحرمانا من مسرات الحياة ·

وبعد ذلك بزمن كتب كتابا سماه « رسالة عن المكفوفين » أهان فيه صديقا عزيزا لأحد الوزراء فانتهز هذا الوزير فرصة ما كان الشعب فقد رمى به « ديدرو » من اللادينية والالحاد ، وهما جريمتان شنيعتان فى فرنسا فى ذلك العصر ، فاختفى تحت ستار الدين ودبر الوقيعة لديدرو وزج به فى أعماق السجون بجريمة الالحاد ، ولكنه فى الواقع كان محنقا عليه لما وجهه الى صديقه من اهانات ، فلبث فى السجن مائة يوم كانت سببا فى شهرته وذيوع مجده فى انحاء الدولة ·

ولما كان أحد رجال الحكم اذ ذاك يعلم انه كان قبل سجنه يعمل على رأس فريق من العلماء والجهابذة لاعداد دائرة معارف كبرى ستكون ـ لو تمت ـ فخرا لفرنسا ، وانه هو روح هذه الجماعة وقلبها الخفاق وانها بدونه ستكون معرضة للفشل ، صمم على الافراج عنه ومنحه الحرية

ليستطيع أن يؤدى عمله الماجد على الوجه الأكمل المراد وقد فعل ، فعاد الى مهنته واستمر فى اداء واجبه ٠

تضافرت كل هذه الأحداث على اسطاع كوكبه وتلألئه فى سماء فرنسا فتطلعت البيئات العالية الى مرآه ، واشتاقت المنتديات الفخمة الى دعوته والتحدث اليه ، وكانت هذه المنتديات الأدبية تذكر اسمه الى جانب اسمى « فولتير » و « جان جاك روسو » ويتلو المجتمعون فيها بعض تعبيراته على انها مختارات أو نماذج ينبغى احتذاؤها ٠ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ٠ بل كان كثير من مثقفى العصر يدعونه بالفيلسوف من غير ذكر اسمه ٠ واذا ذكرت هذه الكلمة فى القرن الثامن عشر صحبها الاجلال والتبجيل اللذان لا حد لهما ، فقد بلغ ديدرو قمة المجد فى ذلك الوقت ٠

★★★

دوائر المعارف فى مختلف العصور

دوائر المعارف أو الموسوعات هى ما تعرف بالانسكلوبيديا ٠ وهى اما عامة تبحث فى موضوعات متنوعة أو خاصة تبحث فى موضوعات معينة ، وقد كانت الموسوعات قديما عند العرب مجموعة فصول ومقالات فى علوم وفنون مختلفة غير مرتبة على حروف المعجم ٠ ولعل أشهر الموسوعات العربية من هذا النوع « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لشهاب الدين أحمد النويرى ويستوعب ثلاثين مجلدا ونيفا ، وكتاب « صبح الأعشى » وهو موسوعة فى أربعة عشر مجلدا : فى الأدب والانشاء ، و « مسالك الابصار فى ممالك الأمصار » وهو يتألف من بضعة وعشرين مجلدا فى الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها ، و « سفينة الراغب ودفينة الطالب » وهو مجموعة فى كل علم وفن يحتوى على موضوعات وشذرات فى الأدب والشعر والطبيعة والحديث والطب والرياضيات والمنطق والادعية والأصول والنجوم ٠

وقد تطورت الموسوعات واتسع نطاقها ونظمت تنظيما حديثا ، وأصبحت تعالج مختلف الموضوعات العلمية والفنية والعمرانية والمالية والصناعية ٠

والصينيون هم أول من صنف الموسوعات وأولها موسوعة «آر ــ يا» ويرجع عهدها الى القرن الثانى عشر قبل الميلاد على ما يزعمه الصينيون وان كانت القرائن تدل على انها أحدث عهدا ٠ والأرجح أن المصنف المعروف باسم : « تاى ينج يولان » هو أقدم كتاب صينى يستحق أن يسمى موسوعة وقد تم تأليفه بأمر امبراطور الصين وتحت اشرافه وهو ينقسم

الى الف باب • على انه ليس اكبر الموسوعات الصينية
الصينيون موسوعة « ينج لوتاتين » أفضل موسوعاتهم وقد تم تصنيفها تحت اشراف الامبراطور الثالث من اباطرة أسرة « منج » وهذه الموسوعة تتألف من ٢٢٩٣٧ كتابا ولم يكتب منها سوى ثلاث نسخ تلفت اثنتان منها عند سقوط أسرة « منج » المذكورة • وتلفت الثالثة (ما عدا بضعة أجزاء منها) عند حرب البوكسر (١) • وفى أيام الامبراطور « كانج هسى » شرع علماء الصين فى وضع موسوعة جديدة وفرغوا منها وطبعوها فى أيام الامبراطور « يونج شنغ » سنة (١٧٢٣ ـ ١٧٣٦) •

واذا التفتنا الى الدول الغربية نرى أن اليونان تقدموا غيرهم فى تصنيف الموسوعات • وعلى نمطهم سار بلينوس المؤرخ الرومانى الشهير صاحب معجم « التاريخ الطبيعى » وقد قال فى مقدمة كتابه هذا انه اقتفى أثر مؤلفى الموسوعات اليونانية • وفى الواقع ان كتابه المذكور هو أقدم موسوعة أوربية موجودة فى الوقت الحاضر وهو يتناول موضوعات شتى ويميط اللثام عن كثير مما يتصل بأحوال الغرب فى الحقب الغابرة •

وفى أوائل القرن الخامس للميلاد ألف رجل من أهالى أفريقيا ومن رعايا الحكومة الرومانية وكان يدعى (مارتيانوس كبيلا) موسوعة نصفها منظوم والنصف الآخر منثور كانت ذخيرة علم وأدب وظلت حتى العصور المتوسطة من أهم المراجع العلمية والأدبية والمدرسية وكان الكثيرون يحفظون الجزء المنظوم منها ويعتبرون ذلك من متممات التحصيل •

وفى بدء القرن السابع شرع « ايزيدور » مطران اشبيلية فى وضع موسوعة لا تزال تعرف الى اليوم بعنوان « الأصول » واستغرق تصنيفها ثلاثين عاما وهى تبحث فى موضوعات شتى علمية وأدبية وفنية ولغوية ومنها فصول فى فنون الحرب والألعاب والصناعات والملائكة وأجناس البشر والحيوانات والنباتات والرياضات وصناعة السفن والثياب ، وهلم جرا • وكان المؤلف ملما باللغتين اليونانية واللاتينية ويعرف العبرانية أيضا وقد ساعده ذلك على تأليف موسوعته •

وفى منتصف القرن التاسع وضع رئيس أساقفة ماينز موسوعته المسماه « الكائنات » فى اثنين وعشرين مجلدا واعتمد فى تصنيفها على موسوعة ايزيدور المشار اليه بعد حذف واضافات •

واذا التفتنا الى العصور المتوسطة رأينا ان « فنسنت دى بوفيه » الذى عاش من سنة ١١٩٠ الى ١٢٦٤ كان مؤلف أعظم موسوعة ظهرت فى أواسط القرن الثالث عشر وكانت هذه الموسوعة تتضمن بيانات ومعلومات كثيرة مقتبسة عن كتب كانت شائعة فى ذلك الزمن وقد ضاعت اليوم ،

وكان بعضها باللغة العربية وقد حصل المصنف على ترجمتها باللغة اللاتينية ·

وفى نحو ذلك الزمن كان العلامة « برونيتو لاتينى » أستاذ دانتى شاعر ايطاليا المشهور منفيا فى فرنسا فقضى وقته فى تصنيف موسوعة دعاها « كتب الكنوز » وكان بين الموضوعات التى عالجها مسائل دينية وتاريخية وعلمية وأدبية وسياسية وفلكية وجغرافية · وكان الجزء الأخير منها يبحث فى منشأ الجمهوريات الايطالية التى كانت قائمة فى عصره · وفى أواخر القرن الثالث عشر ترجم العلامة « جمبونى » هذه الموسوعة الى اللغة الايطالية · وفى أوائل القرن التاسع عشر عزم نابليون بونابرت أن يأمر بترجمتها الى اللغة الفرنسية وعين لجنة خاصة للقيام بهذا العمل فقامت اللجنة به ولكنها لم تفرغ منه الا بعد وفاة نابليون بزمن طويل · ولم تنشر الترجمة الفرنسية الا سنة ١٨٦٣ وذلك بعنوان مجموعة « مستندات لم يسبق نشرها » ·

وفى سنة ١٣٦٠ نشر « جلانفيل » الراهب الانجليزى مصنفا يشتمل على مباحث فى موضوعات شتى · ولم يمر على هذه الموسوعة قرن ونصف القرن حتى كانت قد طبعت خمس عشرة مرة ·

وفى سنة ١٣٦٢ نشر الأب « بركوريوس » رئيس دير سان ايلوا بباريس موسوعة مؤلفة من ثلاثة أجزاء تبحث فى المسائل الدينية فقط وكان لها رواج عظيم جدا ·

وفى سنة ١٤٩٦ نشر الأب جورج ريش الألمانى معرف الامبراطور مكسيميليان موسوعة تتألف من اثنى عشر جزءا تبحث سبعة الأجزاء الأولى منها فى الفنون والمهن والصناعات والجزآن الثامن والتاسع فى منشأ الأشياء الطبيعية والجزآن العاشر والحادى عشر فى مختلف النباتات وخواصها والجزء الثانى عشر فى الفلسفة الأدبية ·

وفى سنة ١٥٠٦ نشر رافايل مافى بمدينة روما موسوعة عامة تبحث بوجه خاص فى المسائل التاريخية والجغرافية — وهى موضوعات لم تسهب فيها الموسوعات التى تقدمها · وقد راجت هذه الموسوعة رواجا لا مثيل له حتى انها طبعت ثماني مرات آخرها سنة ١٦٠٣ · وأجزاء هذه الموسوعة تشتمل على فصول على نمط الموسوعات القديمة الا انها أكثر منها دقة وجلاء وأصدق أخبارا · ولم يكن يفوقها فى غزارة مادتها فى ذلك الزمن سوى موسوعة « جورجيو فالا » المعروفة بالموسوعة البلاسنتية، نسبة الى مدينة بلاسنتيا بايطاليا · وهذه الموسوعة تتألف من تسعة وأربعين جزءا تحتوى على ٢١١٩ فصلا فى موضوعات مختلفة ·

وفى سنة ١٦١٤ نشر أسقف بتينا « باستريا » موسوعة تبحث فيما يشبه اليوم علم الانثربولوجيا أى تاريخ الانسان وتركيب جسمه وقواه العقلية والمادية منذ أقدم التاريخ حتى ذلك العصر · والى جانب هذه المباحث فصول فى التنجيم والفراسة وتفسير الأحلام وقراءة الكف ، وفى ستة وثلاثين علما من العلوم المختلفة · وهذه الموسوعة هى فى الحقيقة ذخيرة علوم لا يجدها المرء فى مراجع أخرى · وفضلا عن ذلك لها فهرست عام شامل يسهل على القارىء المراجعة ·

وفى سنة ١٦٣٠ نشر يوهان هنريخ آلستيد موسوعة شاملة تبحث فى مختلف العلوم والفنون والفلسفة والآداب والصناعات ·

وفى سنة ١٦٣٩ شرع معهد العلوم الفرنسى (الأكاديمية الفرنسية) فى وضع موسوعة فرنسية · وفى نحو ذلك الزمن أيضا شرع توما كورنيل (وكان من أعضاء الأكاديمية الفرنسية) فى وضع معجمه المعروف بمعجم العلوم والفنون فقررت الأكاديمية الفرنسية طبع هذا المجم مع الطبعة الأولى من موسوعتها ·

وفى نفس ذلك الزمن أيضا (سنة ١٦٩٧) ظهرت فى روتردام موسوعة جديدة باللغة الفرنسية بعنوان « المعجم التاريخى الانتقادى » لمؤلفه بيير بايل وقد نقح هذا المعجم غير مرة وترجم الى اللغة الانجليزية ·

وفى النصف الأخير من القرن السابع عشر شرع فنشنزو كورونيللى الراهب العالم الايطالى وأحد أهالى البندقيه فى وضع أول موسوعه باللغة الايطالية ، فقضى فى جمعها وتصنيفها ثلاثين عاما وسماها : « الموسوعة العامة الدينية الالحادية » قيل انها بلغت خمسة وأربعين مجلدا ولكن لم يطبع منها سوى سبعة مجلدات ، وهذه من أكمل الموسوعات التى ظهرت يومئذ فى أوربا ومن أحسنها وأسهلها تداولا ·

أما الموسوعات الانجليزية فأول ما ظهر منها موسوعة جون هاريس وقد طبعت سنة ١٧٠٤ وكان مؤلفها من رجال الدين من مدينة لندن · وقد رتب موسوعته على حروف الهجاء بخلاف أكثر الموسوعات التى كانت متداولة فى ذلك الزمن · وهذه الموسوعة تشتمل على مباحث مسهبة فى كثير من العلوم والفنون ما عدا علم الآثار وعلوم الدين والشعر وسير العظماء · فان المؤلف لم يشأ التعرض لها · وبعد ست سنوات ظهر المجلد الثانى من هذه الموسوعة ويبحث باسهاب عظيم فى الفلك والرياضيات والطبيعة · وكان بين المؤلف والفيلسوف اسحق نيوتن مودة عظيمة وقد أذن نيوتن للمؤلف أن ينشر فى موسوعته بحثه فى الحموض · وقد أعيد

طبع هذه الموسوعة خمس مرات لما كانت تشتمل عليه من الموضوعات العلمية والمباحث الدقيقة ٠

وفى سنة ١٧٢٨ نشر أفرايم تشمبرس الانجليزى موسوعته التى لا تزال متداولة حتى وقتنا الحاضر ومعروفة باسمه ٠ وقد جاء فى الصفحة الأولى منها انها « معجم عام للعلوم والفنون وتفسير الاشياء وشرحها مع توسع فى العلوم السماوية والدنيوية » ٠ وهذه الموسوعة جزآن كبيران وفى كل مقالة فيها اشارات الى المراجع التى اعتمد المؤلف عليها ٠ وقد عنى عناية خاصة بالمباحث اللاهوتية والمادية والفلسفية والسياسية والمنطقية واللغوية ٠٠ وفى منتصف القرن الثامن عشر ترجمت الى اللغة الايطالية فكانت أكمل موسوعة ظهرت فى تلك اللغة الى ذلك العهد ٠ ولما ذهب تشمبرس الى فرنسا سنة ١٧٣٩ طلب اليه أن يصدر موسوعة باللغة الفرنسية شبيهة بالموسوعة الانجليزية ٠

وقد ظهرت فى أوربا بعد ذلك موسوعات أخرى أهمها موسوعة زدلر الألمانية وهى من أحسن المصنفات التى من هذا القبيل ومن أكملها وأدقها ٠ وقد اشترك فى تصنيفها تسعة من علماء الألمان فى ذلك العهد ، عهد الى كل منهم الاشراف على علم معين من العلوم كالتاريخ والفلسفة والطب والفلك والجغرافيا وهلم جرا ٠ وجميع مباحث هذه الموسوعة مشحونة اشارات الى المراجع التى اعتمد عليها المؤلفون ــ الأمر الذى جعل لتصنيفهم قيمة كبيرة ٠

وفى عام ١٧٤٤ نشر العالم بيقاتى عضو أكاديمية العلوم بمدينة البندقية موسوعة علمية كبيرة فى عشرة مجلدات ونشر فيها كثيرا من الصور والرسوم ٠ وتعتبر هذه الموسوعة من أفضل الموسوعات التى ظهرت فى اللغة الايطالية ٠

★★★

كيف بدأت موسوعة ديدرو

ونأتى الآن الى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى وهى أعظم مصنفات القرن الثامن عشر ، ففى حوالى سنة ١٧٤٤ شرع ثلاثة من الناشرين الباريسيين ، وهم : يرياسون ، ودافيد ، ولوران ، فى دراسة مشروع ترجمة الموسوعة الانجليزية التى كان تشمبرس قد سبق بها فرنسا ٠ ولقد افضى أولئك الناشرون بمشروعهم هذا الى الأب « ديجوادى مالف » وطلبوا اليه أن يكون مشرفا على هذه الترجمة ٠ ولكن عندما عرضوا هذه الفكرة على الطابع « ليبريتون » أوجس فى نفسه خيفة من شذوذ عقلية

ذلك الأب ، وسرعان ما فكر فى اسناد هذا العمل الضخم الى ديدرو · وأعلنه انه لا يعتمد عليه فى ترجمة هذه الموسوعة فحسب ، بل فى أن يؤقلمها ويدخل عليها من الاعتدال وحسن الذوق وسلامة النظرة ما ليس فى مكنة الأب أن يفعله ، وعرض عليه فى مقابل ذلك العمل مائة جنيه شهريا · ولما كان ديدرو فى حاجة الى المال ، فقد قبل هذا الرقم مؤقتا ووعد بالقيام بهذه المهمة على خير ما يمكن ·

غير ان المهيمنين على هذا المشروع لم يلبثوا أن تبينوا ان هذه الموسوعة الانجليزية التى كانوا يعتزمون ترجمتها ظاهرة النقص ، وانها رجعية فى كثير من جوانبها الأساسية ، فعدلوا عن فكرة الترجمة نهائيا وصمموا على وضع موسوعة خاصة بهم وقرروا ألا يستعيروا من الأجانب شيئا البتة ، وأن يسترشدوا فقط بـ (القاموس التاريخى النقدى) تأليف بييربيل الذى ظهر سنة ١٦٩٧ والذى كان يمتاز على الأخص بروح الاستقلال عن الدين والسياسة ·

ولما أمعن ديدرو فى التأمل وتعمق فى تقدير هذا العمل الخطير الذى يقوم به ألفى أن النمو المتواصل الذى تخطو فيه العلوم خطوات واسعة ، يفرض عليه أن يتخذ له معاونا فى ادارة هذا المشروع ، فاستقر رأيه على اختيار صديقه « دالامبير » (٢) عضو مجمع العلوم ، وكان الاجماع اذ ذاك يوشك أن يكون منعقدا على أنه أول شخصية رياضية فى أوربا ، فكان اسهامه فى هذا المجهود عونا عظيما على النجاح المادى لدائرة المعارف ، كما كان بارز الأثر فى الحصول على المحررين العلميين وتوجيههم · ولا غرو فقد كان دالامبير دائب الاختلاف الى أشهر منتديات القرن الثامن عشر كمنتدى مدام دوديفان التى كانت تستقبل أرفع طبقات المجتمع ، وكانت تحب دالامبير كثيرا ، وتعمل على نجاحه فى عالم الكتابة والتأليف ، وكمنتدى الفلاسفة الذى كان مقره فى منزل مدام جوفران ، فلم يكد دالامبير يصطحب صديقه الى هذين المنتديين حتى سحرت فصاحته المجتمعين فيهما ، وسرعان ما وجدت دائرة المعارف التأييد والتشجيع فى كلا المنتديين ، ولم تلبث أن ظفرت فى ثانيهما بوثبتها الأولى التى كانت بمثابة ضمان ضد التقهقر أو التعثر أو الوقوف ، وكان ذلك أمرا طبيعيا ما دام أن فولتير ومونتسيكيو وفونتينيل ومارمونتيل ودوكلو ودولباك وعدوا باسهامهم فيها ·

غير ان هذا البريق المباغت لم يكن ليغرى ديدرو لان أسماء أولئك الأعلام المفرطة فى السطوع كانت تبعث على الاحتياط من شهرتهم ، وتنذر بعدم مداومتهم على المساهمة فى ذلك العمل المرهق · ومن ثم فانه كان

يعتمد بصورة أدق على علماء أقل شهرة حينا ، وأسماء خافتة أحيانا مثل صديقه جان جاك روسو الذى كان فى ذلك الحين يوشك أن يكون مجهولا، والذى عرفه ديدرو واتصل به منذ قدومه الى باريس فى سنة ١٧٤٢ · وعن طريق روسو ظفرت دائرة المعارف باسهام كوندياك الفيلسوف المعروف · ومن أولئك وهؤلاء من مختلفى العقليات ومتباينى الثقافات · ولكن ديدرو على الأخص كان يعتمد على نفسه ، وكان يعول على أن يقوم وحده بكتابة المواد التى كان غيره من الكتاب يتهيبون مواجهتها أو يتحرجون من الخوض فيها ·

غير ان هذا الانطلاق الباهر اللامع الذى كان يحمل بين طياته أبهى مظاهر النجاح لم يدم طويلا اذ لم يلبث أن توقف فجأة حين اعتقل ديدرو فى يوليو ١٧٤٩ بسبب تلك الفصول الجريئة التى نشرها فأثارت الرأى العام ، وذلك مثل : « نزهات الاتيابى » و « كفاية الدين الطبيعى » و « رسالة عن المكفوفين يستفيد منها المبصرون » وقد أخذ عليه فى هذه الرسالة الأخيرة انه يدعو فيها للمذهب الحسى الذى يقول به كوندياك ، ولكن هذا فى الحقيقة لم يكن سوى مسوغ تذرع به أولو الأمر للزج به فى السجن ، لأنه أهان فيها أحد ذوى الحل والعقد فى ذلك الحين · ولما رأى الناشرون ما حل بديدرو وبالتالى ما حل بموسوعتهم العظمى هرعوا الى الوزير الواسع الأفق دراجسانون ورجوه أن يدخل فى اعتباره الحالة النفسية التى انحدروا اليها بسبب اعتقال ديدرو · وطلبوا اليه أن يمنح عنايته لذلك العمل الذى هو أجمل وانفع ما قامت به الأوساط المثقفة وزاوله الناشرون حتى الآن · وليس هذا فحسب ، بل ان ديدرو ذاته تظلم من ذلك الاعتقال بوصف أنه مدير لدائرة المعارف · وقد بذل دارجسانون جهده عند الملك حتى ظفر له بحريته ، فغادر السجن فى نوفمبر ١٧٤٩ ·

معارك ومصاعب كان لها أثر عظيم فى ظهور الموسوعة

وعلى أثر ذلك اشتد الشغف بدائرة المعارف أكثر من ذى قبل ، فانتهز الناشرون هذه الفرصة الذهبية وقذفوا بين الرأى العام بفكرة جمع الاشتراكات مقدما ، فنجحت نجاحا باهرا · وظهر المجلد الأول فى الأول من يوليو ١٧٥١ فى جو من الحفاوة والحماسة التى تشبه الحمى ·

غير أن هذه الحرارة من جانب بيئة أحرار الفكر لم تلبث ان قوبلت من جانب رجال الدين وخصوم الفلاسفة بهجوم قاس أحدث رد فعل شديد العنف كأنه صدمة عصبية مباغتة نجم عنها أول الأمر حكم فى يناير ١٧٥٢

يقضى بوقف توزيع المجلد الثانى أعقبه حكم آخر فى فبراير من نفس السنة من مجلس الدولة يقضى باعدام المجلدين الأول والثانى · وعلى أثر ذلك نصح فولتير لديدرو وبقية زملائه بالهجرة الى برلين ليتابعوا العمل فى اتمام دائرة المعارف هناك بعد أن ضاقت بهم فرنسا على رحابتها · ولكن ديدرو ورفاقه أبوا الرحيل ، وصمموا على استئناف السير فى اعداد المواد الى أن تسنح الفرص بالنشر ، وجعلوا يعملون فى نشاط دون أدنى يأس أو قنوط ولم تلبث السماء أن حققت أملهم فألغى الوزير دارجسانون قرار الحظر والمصادرة فى سنة ١٧٥٣ · وفى نوفمبر من ذلك العام ظهر المجلد الثالث مصدرا بمقدمة معتدلة دبجتها براعة دالامبير الذى كانت الأوساط الدينية والجهات المحافظة تعتبره أقل خطرا من ديدرو ·

وفى سنة ١٧٥٤ ظهر المجلد الرابع ، وعلى أثر ظهوره أخذت مهاجمات اليسوعيين تبدو واضحة عنيفة وتبعتها حملة من النقد القاسى الذى انهال على تلك الموسوعة ومحرريها من أعداء الفلاسفة ك (فريرون) وأمثاله ومن المحايدين كالأب رينال واضرابه ، ومن أصدقاء الفلاسفة ك (جريم) ·

وفى سنة ١٧٥٥ ظهر المجلد الخامس ، وعلى أثر ظهوره تجددت مهاجمات « فريرون » · وفى سنة ١٧٥٦ ظهر المجلد السادس · وفى سنة ١٧٥٧ ظهر المجلد السابع ، ولكن الزمن كان قد بدأ يتجهم لأحرار الفكر ! اذ أنه فى يناير من تلك السنة كانت حادثة الاعتداء على حياة الملك لويس الخامس عشر قد وقعت ، فدفع ذلك الحكومة الى أن تتخذ اجراءات قاسية ضد النشر ، وان تشدد النكير على التسامح والمتسامحين ، وأن تعتبرهم مسئولين عن كل تجرؤ على العرش بالعمل أو بالقول أو بالكتابة· هذا من جهة ، ومن جهة أخرى قد اشتعل لهيب حملة اليسوعيين العنيفة التى كان ولى العهد يقف من ورائها يؤيدها بالمال والسلطان · وفى هذه الآونة انتهز أولئك الخصوم فرصة الطغيان المواتية فقدموا الى القضاء كتاب هيلفيسيوس المحرر الفلسفى فى الموسوعة ، وعنوانه « عن الروح » وطلبوا ادانته بحجة أنه كتاب مادى ينكر الروحيات والعقليات · وفعلا أدين هذا الكتاب وقضى باحراقه سنة ١٧٥٨ وقد نجم عن ذلك أن ارتاع الناشرون والمحررون ارتياعا شديدا وسرعان ما تخلى عن المساهمة فى الموسوعة فى السنة ذاتها مارمونتيل دوكلو وأعلن دالامبير أنه قد صمم على ترك العمل فيها · وكذلك هجرها جان جاك روسو وان لم يكن تخلى هذا الأخير بسبب الفزع بل بسبب اختلافه مع ديدرو الى حد القطيعة ·

وفى فبراير ١٧٥٩ استصدر خصوم الفلاسفة حكما يأمر بأن تفحص المجلدات التى ظهرت من دائرة المعارف لجنة مؤلفة من ثلاثة من

اللاهوتيين وثلاثة من المحامين واثنين من أساتذة الفلسفه ، وعضو من المجمع العلمى · وفى مارس قرر مجلس الدولة الغاء الاذن الذى يسمح للناشرين بالاستمرار فى طبع دائرة المعارف رغم دفاعهم المستميت ·

بيد أن ديدرو ـ رغم هذا الاجراء المشروع فى ظاهره ـ الطغيانى فى حقيقته ـ لم ييأس · وسرعان ما نظم حفله عشاء عند الطابع ليبريتون دعا اليها دالامبير والفارس دى جوكور والناشرين · وبعد النقاش والتمحيص وتقليب الأمور على وجوهها المحتملة ، استقر رأيهم ـ فيما عدا دالامبير ـ على الاستمرار فى اخراج دائرة المعارف سرا · وفى يولية ١٧٥٩ أثناء تغيب ديدرو فى مسقط راسه بمناسبة وفاة والده ، صدر قرار مجلس الدولة يأمر الناشرين برد جميع الاشتراكات فى الموسوعة الى أربابها ، وأعلن ذلك على نطاق واسع ، ولكن لم يتقدم أحد من المشتركين لتسلم اشتراكه · وفى أكتوبر من نفس العام ، عندما رأى دالامبير هذا الاصرار من جانب القصر والحكومة على ملاحقة الموسوعة والقائمين بها ، تخلى عن العمل فيها نهائيا · فكان ذلك بمثابة اغلاق الأبواب الظاهرية التى تشع منها دائرة المعارف · وحينئذ لم يبق الا التحايل على اخراجها سرا ، فجعل ديدرو واخوانه المتعاونون معه يبذلون جهودهم فى نشر المجلدات العشرة الباقية منها بطريقة خفية · ومما ساعد على نجاح هذه الخطة فى وسط تلك المحن الطغيانية المحيطة بديدرو وأعوانه أن دى سارتين رئيس الشرطة الجديد ـ وهو اذ ذاك بمثابة وزير الداخلية ـ كان صديق ديدرو منذ خمس وثلاثين سنة ، وفوق ذلك فان ماليزيرب المثقف الممتاز كان مديرا للنشر ، وكان يحب ديدرو ويقدره ويبذل له حمايته ومعونته ، ولكى يحتال ماليزيرب على تحقيق فكرة اظهار الموسوعة سرا توصل الى منح ديدرو اذنا رسميا بنشر ألف لوحة عن العلوم والفنون العقلية والميكانيكية ·

ونصح فولتير والسفير الروسى لديدرو بالرحيل الى روسيا لاتمام الموسوعة بين ربوعها ، فرفض هذا العرض وأعلن الى فوليتر أن المجلدات الأخيرة من هذه الموسوعة هى تحت الطبع · وفى الواقع ان سنة ١٧٦٣ انقضت فى طبع تلك المجلدات سرا · وهذا أمر طبيعى ما دام أن رئيس الشرطة ومدير النشر قد اغمضا عيونهما عن هذا الأمر · وقد ساعد على صفاء الجو أن غضب القصر على اليسوعيين قد بدأ يكشر عن أنيابه ·

وفى سنة ١٧٤٦ وقعت له حادثة أرهقت قلبه بالألم وكادت تقضى على حماسة قضاءها الأخير · ومجملها انه تبين ان ليبريتون الطابع قد خلع على نفسه منزلة الرقيب فجعل يراجع فصول ديدرو ويحذف منها ما يظن

انه خطر · فلما تبين ذلك لديدرو ، وقع على رأسه وقوع الصاعقة وقال هذه العبارة المؤثـرة وهى : « اننى جرحت جرحـا مميتا سينتهى بى الى الرمس » ·

وعلى أثر هـذا توترت العلاقة بينه وبين ذلك الطابع · وفى هذه الأثناء علمت كاترين الثانية امبراطورة روسيا بارتباك حالته الماليـة ، فاشترت منه مكتبته الفخمة على أن يظل يستعملها طول حياته · وهكذا عندما تحرر من شواغله المالية ، استطاع أن يكتب فى يوليو ١٧٦٥ هذه العبارة التى تشـع منها أنوار السعادة فيقول : « فى مدى ثمانيـة أيام أو عشرة سأرى نهاية هذا المشروع الذى يشغلنى منذ عشرين عاما » ·

وفى الواقع ان المجلدات العشرة الأخيرة كانت قد طبعت سرا والى جانبها أربعة مجلدات من أحد عشر مجلدا من اللوحات السالفة الذكر · ولم تبق سوى حيلة واحدة لاعلان انتهاء الطبع ولضمان تحقيق التوزيع · وأخيرا عثر على هذه الحيلة التى تظاهر الرأى العام الأوربى بقبولهـا · ومجملها أن الطابع صمويل فوش السويسرى قد أعلن فى مدينة نوشاتيل فى يناير ١٧٦٦ أن المجلدات الثامن وما بعدها قد طبعت فى سويسرا ، وانها تحت تصرف المشتركين ·

ومما لا ريب فيه أن هذه الحيلة التى لم ينخدع بها أحد ، والتى لوت عنان القانون ، وتظاهرت باحترامه قد تسببت فى أن تصل دائرة المعارف الى نهايتها ·

وأيا ما كان ، فانها فى سـنة ١٧٢٧ وبعد واحـد وعشرين عاما من تاريخ بدئها قد تكونت أخيرا من سبعة عشر مجلدا من النصوص ، وأربعة عشر مجلدا من اللوحات ·

من هذا يتبين جليا ان تلك المعارك والمجاهدات كان لها أعظم الأثر فى بروز هذه الموسوعة وخلودها وفى هذا يقول أحد الكتاب الممتازين ما نصه : « من المحتمل انه لو لم تكن كل هذه المصاعب ، وتلك المعارك ، وذلك الانتصار النهائى الذى لم يكن انتصارا الا بشرط ألا يظهر على انه انتصار لكان من الممكن أن تظفر دائرة المعارف بأهمية أقل ، لان الصفة الفاجعية قد ظلت مرتبطة بتاريخها وهى انها كافحت ضد القديم من حيث الفكر والقوى » ·

***

جوانب الابتكار فى الموسوعة

ان أهم ما يبرز جوانب الابتكار فى موسوعة ديدرو هو المنهج الذى استعمله فيها المهيمنون عليها لعرض مجموعة المعارف البشرية وتسلسلها فى نظام شامل محكم حسب الغاية التى رموا اليها من وضع هذه الموسوعة ولما كان هذا العمل الجماع قد يتنافى بفطرته مع التفريق الفوضوى المألوف فى القواميس الأبجدية ، فقد كان من الطبيعى أن يسلك سبيلا آخر غير النظام الأبجدى الذى جرت عليه القواميس حتى ذلك الحين · فقد حددت مقدمة الموسوعة أهداف هذا العمل : « ان هذا المؤلف الذى نبدأه له هدفان : فهو بوصفه دائرة معارف ، يتعين أن يقدم ، بقدر المستطاع ، نظام وتسلسل المعارف الانسانية · وبوصفه معجما محققا للعلوم والفنون والمواد ، فانه يجب أن يشمل من كل علم وكل فن ، المبادىء العامة ، التى هى أساس لها والتفاصيل الجوهرية التى يتكون منها هيكلها وروحها » ·

ولقد انتزع محررو الموسوعة هذا النظام الجديد من حاجة العصر وصاغوه على نموذج المبدأ الرئيسى العام الذى ساد القرن الثامن عشر كله ، وهو ان مجموعة معارفنا تتجه كلها دائما الى حاجاتنا سواء منها ما دعت اليه الضرورات أو الكماليات أو الأهواء · وقد صور ذلك المفكران الممتازان بوب الانجليزى وليسينج الألمانى فى عبارة شهيرة ربما يكون توافق الخواطر قد لعب فيها دورا هاما وهى « ان أنبل موضوعات دراسة الانسان هو الانسان » ·

ومن ثم فان ديدرو عندما يصل الى مادة « دائرة المعارف » يتولى الدفاع عن النهج الأساسى لموسوعته وفى عزم قوى هو يضع الانسان فى مركز الكون العام ·

واذن فأوضح المبادىء التى ترشد الى توثيق العرى بين مواد هذه الموسوعة ، وأيسر الطرق التى تنتهى الى هذه الغاية هو وضع تاريخ معارفنا على أساس تحليل الملكات الرئيسية الثلاث التى تشاهد لدى الانسان أى العقل والذاكرة والخيال ، وهى نفس أقسام دائرة المعارف :

فالعقل يخلق الفلسفة ، والذاكرة تسجل التاريخ ، والخيال يبتكر الفنون الجميلة · والفلسفة والتاريخ والفنون تنقسم بأدوارها الى أقسام · ولذلك كانت هناك فى دائرة المعارف اشارات مسجلة بعد كل كلمة من القاموس تسمح بربط الورقة بالفنن ، والفنن بالغصن ، والغصن بالساق المركزية التى تظل هى الواقعة البشرية الأكثر بساطة وهى وجود الملكات الانسانية ومن ثم فان الأستاذين العظيمين أى أستاذى الفكر والعلم الأوربيين وهما : لوك وبيكون ، قد طبعا توجيههما على صفحة الفكر المنظم بدائرة المعارف ·

★★★

المبادىء التى سارت عليها

دائرة المعارف

ان ما قدمناه من تاريخ نشأة دائرة المعارف وتكونها ومنهجها خليق بأن يبرز لنا المبادىء العامة التى كان لها الأثر الأول فى توجيه القائمين بأمرها وهذا شىء طبيعى ما دام ان هؤلاء الأعلام الذين وضعوا أو ساهموا فى وضع أسس مبادىء العصر كله ·

كان أولئك الموسوعيون على أتم معرفة بغايتهم العليا ، وهى تتلخص عن عمل احصاء شامل لكل ما تناولته المعرفة البشرية على وجه البسيطة · ولكى يصلوا الى هذا الهدف يجب أن يختبروا كل شىء ويقلبوه على جميع وجوهه بلا استثناء مع الاحتفاظ بالوفاء التام للعقل والطبيعة ولقد اقتضت هذه الطريقة منهم أن يحطموا الأوثان القديمة التى يستهجنها العقل ، وأن يبرزوا للعيان جميع القيم الحديثة ، ولم يشاءوا أن يتلكأوا بين ردهات الماضى ودهاليزه المظلمة ومنعرجاته الملتوية بحثا عن أخطاء الأقدمين لوصفها وتصويرها ووضع أيدى القراء عليها الى غير ذلك مما يضيع الوقت النفيس ويفوت الفرص المواتية ، وانما اعتزموا أن يكونوا قبل كل شىء نقادا وبناة· ومن هذه المبادىء أن كل ما فى دائرة المعارف يجب أن يفيد فى حيوية ونشاط وحداثة ، وانها ينبغى أن تتخلص من كل عتيق أو رجعى أو متشبث بأهداب القديم ·

ومن ثم فانها فى الفلسفة قد هجرت الميتافيزيقا وأعلت شأن التجريبية وحاولت الحط من قدر ديكارت لرفع قيمة لوك · وفى العلوم تبنت آراء نيوتن وأعلنت أن مهمتها الأولى هى محاولة كشف عالم الظواهر الذى هو الحقيقة الوحيدة عند أولئك المفكرين ، وذلك كما لو كان بحارة الماضى قد ضيعوا مجهودهم ، بهيئة جنونية فى ارادة معرفة أعماق المحيط· وكما كان بحارة اليوم وهم أشد حكمة من الأولين يكتفون بانشاء الخريطة النافعة للرياح والصخور والطرق والمرافىء ·

وفى السياسة سددت سهام النقد الى الأنظمة المقررة التى لم تستطع تحقيق السعادة للانسان · وفى الدين صممت على اختبار تعاليم السلطة الكنسية واصدار كلمة العقل الحاسمة فيها ·

ولما كانت معالجة هذين الموضوعين الأخيرين تعرض القائم بها للخطر، لاصطدامها بالسلطات ذوات القوة والبطش فى الدولة ، فقد لجأ أولئك المفكرون الى استعمال منهج مفعم باللف والدوران والفرار من مجابهة الحقائق طلبا للتقية والنجاة ، فجعلوا يثيرون المشاكل دون أن يجدوا حلولها ، وأخذوا يكتفون ببذر بذور الشك فى كل مكان ، وكانوا يظهرون احترامهم للمبادىء السائدة ، ولكنهم يسردون براهينها فى صورة ضعيفة، ويوردون الاعتراضات عليها فى قوة ، أو يحيلون القراء الى مواضع أخرى من الموسوعة تحتوى على جحودها ·

هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى ان الذى فهمه القائمون على الموسوعة ، ولا سيما ديدرو ، هو تعطش كل طبقات المجتمع الى المعرفة · غير أن الأكثرية الغالبة من اولئك القراء النهمين كانت تنقصها المعارف الأولية ، وان القائمين بأمر الموسوعة قد حسبوا حساب هذا النقص ، فعالجوا العلوم والفنون بطريقة تفترض انه ليس هناك أية معرفة أولية ، وعرضوا ما كانت معرفته هامة فى كل مادة لا أكثر · وقد محوا مصاعب قوائم الاصطلاحات لكى لا تكون مربكة فى أى موضوع ، وترجموا النصوص التى لم تعد غير مفهومة · وبالاجمال أرادوا أن يكتبوا مؤلفا يمكن أن يحل محل مكتبة شاملة لجميع الأنواع بالنسبة الى انسان جميع الطبقات · وهو شامل كذلك لجميع الأنواع بالنسبة الى العالم المحترف بحيث يكون حسبه القيام بحركة بسيطة لتناول الكتاب وقضاء بضع ثوان للبحث عن الكلمة المرادة · وعندئذ يصير أجهل الناس من أكثرهم تعلما · ومن أمثلة ذلك تلك الأقصوصة الشائقة التى يحدثنا عنها فولتير ، فينبئنا بأنه بينما كان الملك لويس الخامس عشر يتعشى فى قصر تريانون بفيرساى فى صحبة قليلة وكانوا يتحدثون عن الصيد وعن البارود · اذ بهم يلمحون انه لا يعرف أحد منهم بالضبط من أى شىء يتكون البارود ، وان مدام دى بومبادور ، لم تكن تعرف من أين تأتى بالأصباغ الحمر التى تزين بها وجنتيها ، ولا كيف تصنع الجوارب الحريرية التى تلبسها ، ولكن هذا الجهل كان له دواؤه فلم تلبث الاشارة أن صدرت ، وسرعان ما أحضر الخدم مجلدات دائرة معارف ديدرو واستعلم الحاضرون عن البارود والأصباغ ، والمناول التى تنسج عليها الجوارب · وعلى أثر ذلك انقض كل واحد من الحاضرين على المجلدات ، وفى نفس اللحظة التقى بما كان

يبحث عنه ، ففيها وجد الخصوم النتائج الحاسمة لقضاياهم ، وفيها قرأ الملك حقوق تاجه ·وفيما كان الحاضرون مستمرين فى القراءة قال الكونت دى ك ··· بصوت عال : « مولاى انك لجد سعيد بأن يوجد فى عهدك رجال قادرون على معرفة جميع الفنون ، وعلى نقلها الى الأجيال القادمة ، اذ كل شىء هنا منذ طريقة صنع الدبوس الى طريقة سبك مدافعك وتصويبها ، أى من اللامتناهى فى الصغر الى اللامتناهى فى الكبر » ·

★★★

دائرة المعارف فى عصر التنوير

مما لا ريب فيه ان القرن الثامن عشر هو الذى منح التطورات الغربية تلك الصور المتجلية التى تشاهد اليوم نتائجها واضحة المعالم ، وان تلك الحقبة من تاريخ أوربا هى الآونة الحاسمة التى فصلت بين ماضيها ومستقبلها · ومن ثم كان من المألوف أن يقرأ الباحث فى منتجات المؤلفين المحدثين ـ سواء أكانوا من العلماء أم من النقاد ، أم من المرتابين ـ هذه العبارة : « نحن الورثة المباشرون للقرن الثامن عشر » وفى الحق أن عددا ضخما من المؤلفات المعاصرة قد خصص لدراسة اتجاهات المدنية الغربية فى تلك الحقبة ، وان هذه المؤلفات جميعها قد عنيت بأن تقف وقفة المتمعن عند تلك الثورة العقلية التى سبقت الثورة السياسية وأعدت لها النفوس والعقول ، والتى كانت شعار ذلك القرن الذى أطلق عليه أعلام مفكريه اسم « عصر الأنوار » لأن اولئك الأعلام كانوا يهدفون الى « تبديد تلك الكتلة الكبرى من الظلام الذى غمر الأرض » على حد تعبير ديدرو ·

وفى الواقع اننا نرى فى جلاء ان ذلك القرن كان عصر العقليين وذوى الحجج المقنعة والفلاسفة التجريبيين أى أن افذاذه كانوا أرباب عقول حادة قاسية ، ونفوس جافة لا تعرف سوى المكافحات والمناضلات والنقد الحازم، الحاسم ، وانهم كانوا يأخذون على أسلافهم انهم ورثوهم مجتمعا سيئا رديئا اضطهد الطبيعة واستهان بالعقل ، وجعل السعادة غير ممكنة الاقتناص ، وقد زعموا انهم هم الذين سيجدون العلاج الناجح المبرىء من كل هذه الأدواء الخطيرة ، وانهم سيلاحقون السعادة حتى يستولوا عليها بمعونة العقل والعلم وحدهما ، ولكنها سعادة بشرية فقط تلك التى يعدون وراءها ذلك العدو المتواصل ، وانهم سيلحقونها بفضل الأساس العلمى الذى سيضعونه ولا جرم ان هذا الأساس الذى رموا اليه هو انتاجهم الشخصى الذى كانوا موقنين بأنه سيغير وجه التاريخ بازاء المعرفة البشرية · وأبرز جوانب هذا الانتاج العملاقى هو دائرة المعارف الفرنسية الأولى أو الموسوعة العظمى أو « دائرة معارف ديدرو » التى كانت مرآة القرن الثامن عشر المجلوة الصافية ، والتى ضمت بين دفتيها أهم أفرع

الثقافة الانسانية التى كانت معروفة الى ذلك الحين · وفى الحق أن الاجماع يكاد يكون منعقدا على أنها كانت أعظم أحداث ذلك العصر ، وانها كانت هى المركز الحقيقى لتاريخ الفكر فى تلك العصور المتلألئة ، وقد يكون فى هذا النعت شيء من المغالاة ، ولكن الذى لا شك فيه هو ان فكرة هـذه الموسوعة لما كانت قد نشأت من نموذج انجليزى ، وارتدت صورتها النهائية فى باريس ، ودعيت الى الهجرة الى سويسرا ، وبروسيا وروسيا حين حظر عليها فى مسقط رأسها ، وسطعت أشعتها فى أشد البلاد تباينا ، وأعيد طبعها ، وتعددت محاكاتهـا فى كل مكان ، فقد كانت حقا احـدى القوى العقلية التى تمثل أوربا كلها تمثيلا صحيحا ·

★★★

دائرة المعارف وحاجة العصر اليها

كان منشأ تمثيل دائرة المعارف لاوربا كلها هو أن الاتجاه الشامل كان فى كل مكان مندفعا نحو حب الاطلاع والشغف بالمعرفة بصورة مفرطة ، وأن روح العصر كله كانت تتوق الى احراز أكبر قسط من الثقافة بأقل مجهود · ومن آيات ذلك ما يلاحظه أحد علماء ذلك العصر اذ يقول : « يجب على كل امرىء أن يكون عالما ولكنه يحاول أن يصير كذلك بثمن رخيص ، تلك هى عبقرية عصرنا » ·

كانت هذه الملاحظة دقيقة ، ففى الواقع هل كانوا يريدون أن يتعلموا الهندسة دون أن يلاقوا كثيرا من المشقة ؟ والعلوم فى وقت قصير وبلا مساعدة أى أستاذ ؟ واللاتينية وهم يلهون ؟ والقواعد النحوية فى سرعة وبطريقة لذيذة ؟ لا ريب انهم فى كل مرة كانوا يظفرون بما يريدون، لأن هناك كتبا ظهرت حديثا كانت تعرض عناوين مغرية مثل : « الرياضة صناعة هينة » و « منهج جديد به يستطيع المرء أن يصير عالما بلا أستاذ ، وبلا دراسة ، وبلا مشقة » ·

كان هذا الاتجاه ثابتا لا يتغير وبعد أربع وثلاثين سنة كتبت « صحيفة العلماء » بدورها فى نوفمبر ١٧٤٩ ما يلى « يحب الناس أن يعرفوا ولكنهم يريدون أن يتعلموا بلا مشقة وفى قليل من الوقت وذلك بلا ريب هو سبب المناهج المتباينة التى تقدم فى كل يوم ، وهو السبب الذى من أجله نرى هذه الكثرة من المختصرات » · وفى الواقع كان الناس يرون مختصرات من كل نوع ، « وفكرا منتزعة من منتجات مؤلفيها حين تكون تلك المنتجات مفرطة فى الوفرة » ·

وكذلك كانت هناك قواميس كثيرة فى اللغات الأجنبية ، وقواميس تاريخية وأدبية · ولكن الذى كان يطلب اذ ذاك هو من نوع آخر ، أى قواميس للفنون وللتجارة وللجغرافيا · وكان المرغوب فيه قاموسا يحتوى على كل القواميس الأخرى ، ويكون أهلا لارضاء شره المعرفة الذى كان يهيج العقول · وكان المثل الأعلى لهذا القاموس ، أن يكون عالميا وسهل

الحمل ، واذا كان هذا مستحيـلا ، كان ثقيلا فليكن ذلك ، ولكن ليكن عالميـا ٠

كانت دائرة معارف ديدرو اذن تتجاوب مع حاجة العصر أصـدق التجاوب ، اذ انها كانت تهدف الى أن تكون فى الوقت ذاته انتاجا علميا وتعميما ، وكانت غايتها تلخيص جميع المعارف التى وصلت اليها البشرية عند منتصف القرن الثامن عشر فى مشكلات العلم والفن والأدب والفلسفة والسياسة ٠

حقا لقد كانت دائرة معـارف ديدرو طريق العقل ضـد الأساطير وطريق المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية ، وطريق التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل والتفكير القديم فى الموت ، فكأنما هبت هذه كلها على أوربا مثل ريح محملة بلقاح جديد تبدد كل التقاليد وتنير الفكر وتوقظه ، وتدعو آخر الأمر الى الثورة ٠ ان موسوعة ديدرو كانت ثورة قبل « الثورة الفرنسية » ٠

★★★

نماذج من دائرة معارف

ديـدرو

مادة الانسـان :

الانسان اسم مذكر ، وهو كائن حساس ، متأمل ، مفكر يسير فى حرية على سطح الأرض ، ويبدو انه على رأس جميع الحيوانات الأخرى التى يسودها ، وهو الذى يعيش فى جماعة ، والذى اخترع العلوم والفنون والذى لديه خيرية وشرية خاصتان به ، والذى اتخذ له سيادة ، واصطنع لنفسه قوانين وهلم جرا ٠

واذا أقصى الانسان أو الكائن المفكر والمتأمل من فوق سطح الأرض ، فان منظر الطبيعة المؤثر السامى لا يكون الا محزنا وأبكم ، فيصمت الكون ويستولى السكوت والضجر ويتحول كل شىء الى عزلة شاملة حيث تمر الظواهر غير الملحوظة بطريقة غامضة وصماء ، لأن الانسان هو الذى يجعل وجود الكائنات ذا أهمية ومادام الأمر كذلك فماذا يستطيع المرء أن يعتزم فى تاريخ هذه الكائنات خيرا من أن يخضع لذلك الاعتبار ؟ ولماذ الا تدخل الانسان فى مؤلفنا « دائرة المعارف » على هيئة وضعـه فى الكون ؟ ولم لا نتخذ منه مركزا مشتركا ؟

مادة الطبيعـــة :

الطبيعة اسم مؤنث ، وهى من الوجهة الفلسفية عبارة تعاقبت عليها استعمالات مختلفة ، ففى أعمال أرسطو فصل كامل عن المعانى المتباينة التى كان الاغريق يعطونها لكلمة الطبيعة ٠ وعند اللاتين بلغت المعـانى المختلفة لهذه الكلمة عددا أوصله أحد المؤلفين الى أربعة أو خمسة عشر معنى ٠ وكذلك الأستاذ « بيل » فى رسالة ألفها عن المعانى المعزوة الى كلمة طبيعة ، قد عد من تلك المعانى ثمانية جوهرية منها :

ان معناها أحيانا نظام العالم ، أو آلة الكون ، أو مجموعة كل الأشياء المخلوقة ٠

مادة الأخـلاق :

هى اسم مفرد مؤنث ، معناه علم السلوك ، هو العلم الذى يبين لنا السلوك الحكيم ٠ ويجعل أفعالنا ملتئمة مع قواعد هذا السلوك ٠ واذا كان من الملائم للكائنات العاقلة أن تطابق قواهم الأشياء التى هم مهيأون لها . فان الأخلاق هى العلم الخاص بالاناسى لانها هى العلم المتناسب فى العموم مع كفاياتهم الطبيعية ، والذى تتعلق به فوائدهم العظمى ٠ واذن فالأخلاق تحمل معها براهين قيمتها ٠ واذا كان هناك أحد محتاج الى التعقل المنطقى لاقناعه ، فانه يكون عقـلا فاسدا ذلك الذى يسترشد بالحجج فى هذا الشأن ٠

قد يكون من الممكن أنه ينقصنا كتاب فلسفى يعالج تطابق الانجيل مع أنوار العقل السليم ، لأن كليهما يسيران بخطى متوازنة ولا يستطيعان أن يفترقا ، اذ أن الوحى يفترض فى الاناسى معارف هى لديهم من قبل ، أو هم يستطيعون اكتسابها باستعمال نورهم الطبيعى ٠٠٠

وأخيرا ان من اساءة فهم الدين أن يرفع المرء قيمة الايمان التقليدى على حساب الأخلاق ، لانه ــ ولو أن الايمان ضرورى للجميع ــ يمكن أن يعلن الانسان بحق ان الأخلاق تسمو على الايمان من عدة مظاهر ٠

مادة الاعتـــدال :

الاعتدال هو اسم مؤنث ، معناه التوسط ٠ ويستعمل فى الأخلاق ، وهو فى معنـاه العـام توسط حكيم يوقف رغباتنا وعواطفنا وأهواءنا عند الحدود الدقيقة ٠

ان هذه الفضيلة النادرة تحمل الاناسى على الاستغناء عن الكماليات٠ وان الحكيم يحتقر الوسائل الشاقة التى ابتدعها الغنى لاجتـلاب السعة أو ما يسمى زيفا باسم السرور ، وهو يكتفى بالبساطة الطبيعية للأشياء ٠

ولكن نلاحظ هنا الاعتدال في [illegible] . وهو ـ بهذه النظرة الأخيرة ـ فضيلة تصنع زماننا لرغباتنا الجسمية . وعندما يحصرها في وسط بعيد بعدا متوازنا عن الافراطين المتعارضين ، هو لا يصيرها بريئة فحسب ، بل نافعة وجديرة بالثناء .

ان من أهم الرذائل الأساسية التى يكبح الزمن جماحها ، رذيلتى الدعارة والشراهة . واذا كانت هناك رذائل أخرى مضادة للاعتدال ، فانها تنبثق من أحد هذين النبعين .

★★★

هوامش

(١) حرب البوكسر : ثورة قام بها الصينيون (١٨٩٩ ـ ١٩٠٠) للقضاء على نفوذ الدول الغربية واليابان • وانتهت بهزيمة الصين •

(٢) دا لامبير : (١٧١٧ ـ ١٧٨٣) فيلسوف وفيزيائى وعالم رياضى فرنسى • كان أمين السر الدائم للأكاديمية الفرنسية • وضع دراسات رياضية استغرقت ثمانية مجلدات سنة ١٧٨٠ م •

العقد الاجتماعي

جان جاك روسو

١٧٦٢ م

هناك علماء وأدباء ومفكرون أحدثت آراؤهم دويا فى العالم ، وكانت الأسباب الرئيسية فى حدوث ثورات وتغييرات عنيفة فى حقول السياسة والاجتماع · ويأتى على رأس هؤلاء المفكر الفرنسى المعروف جان جاك روسو ·

واذا كانت سير الرجال العظام هى مراحل التاريخ الذى صنعوه وصورة الأزمنة التى عاشوا فيها ، فلابد من البدء بعرض حياة فيلسوف فرنسا كما سطرها فى اعترافاته التى لم يسبقه اليها أديب من قبل لما فيها من جرأة نادرة وصراحة غريبة ، وكما سجلها عشرات بل مئات الباحثين الذين كتبوا عنه · واذا كان علينا أن نجمل حياته فى كلمات ، فاننا نستعير قول « رومان رولان » (١) فيه : « ان حياة روسو وكتاباته تمثل فى ميدان التاريخ الأوربى حالة ربما كانت فريدة لرجل عبقرى هبطت عليه العبقرية على منشوده وخلافا لارادته » ·

والحق أن روسو كان ربيب الشوارع وخليل الأشقياء ! ، تعلم فى مدرسة التجارب الكبرى ، مدرسة الحياة ، وحين كان الآخرون يتعلمون ويتثقفون كان هو يحيا ويتأمل !

سيرة حياته

نشأ جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau فى أسرة بروتستانتية من أصل فرنسى ، وقد ولد فى جنيف يوم ٢٨ يونيو ١٧١٢ · وتوفيت أمه فى أثناء ولادته ، فتعهده أبوه ، ايزاك روسو ، الساعاتى ، بالتربية ، وبعد طفولة أحيطت بقدر كبير من الحرية عهد به الى الراعى لامبرسييه ، الذى علمه اللاتينية · وفى عام ١٧٢٧ ، التحق تلميذا لدى حفار معروف ، كان يقسو فى معاملته ، ولم يكن الشاب المراهق راضيا عن هذا الوضع ، وكان يفضل القراءة والنزهة فى حقول جنيف · وفى ذات مساء من شهر مارس ١٧٢٨ قرر الا يعود لمعلمه ، وهرب سيرا على قدميه فى طرقات سافوى ، فآوته مدام « دى وارن » وهى

من الأتباع الذين تحولوا الى الكاثوليكية ، وأوفدته الى تورين لكى يعتنق هو الآخر نفس المذهب ٠

وبعد حياة غير مستقرة ، زاول خلالها العديد من المهن عاد الى مدام دى وارن فى شارميت سنة ١٧٣٢ ، وهناك قضى روسو فترة سعيدة حتى عام ١٧٤٠ وأتم تعليمه وهو عند تلك السيدة التى طفق يناديها بأمه ٠ ثم غادر شارميت فى عام ١٧٤٢ قاصدا باريس ٠

وظل روسو طوال عشر سنوات مختلطا بالحياة الاجتماعية وهو يحلم بالشهرة ، عمل أولا معلما ، ثم مدرسا للموسيقى ، ثم سكرتيرا بسفارة فينيسيا ٠ وسرعان ما عزل من وظيفته ، ولكنه ظل يحتفظ بذكرى مريرة لاتصالاته الأولى بالمجتمع ، وفى عام ١٧٤٣ حاول أن يلفت اليه الأنظار ، فقدم الى أكاديمية العلوم مشروعا ثوريا عن العلامات الموسيقية على أسس حسابية . ولكن المشروع لم يلق نجاحا ، ثم كتب باليه « أشعار الغزل » عام ١٧٤٥ ، وتعاون مع ديدرو فى كتابة الموسوعة ٠

وذات عصر مشمس من أكتوبر ١٧٤٩ لفت نظره اعلان من أكاديمية ديجون يقول ان المؤسسة خصصت وساما ذهبيا لأفضل بحث فى الموضوع الآتى : هل أدى التقدم فى الآداب والعلوم الى تنقية الأخلاق أم الى افسادها ؟ » ٠

وللحال تراءى له انه يقف وجها لوجه أمام السؤال الذى ما انفك منذ طفولته يستعد للاجابة عنه ٠ والتمعت فى ذهنه الأفكار كما يسقط الوحى٠ وكتب لاحقا يصف ذلك : « لقد تجمهرت الأفكار فى رأسى ، تحفز احداها الأخرى » ٠ أما الفكرة الرئيسية فكانت الآتية : « الانسان صالح بطبيعته، والمؤسسات الاجتماعية وحدها التى أفسدته » وجاءت ثمرة أفكاره مقالا بعنوان : « مبحث فى العلوم والآداب » ، لم تقتصر نتيجته على نيل الجائزة، بل لقد كان نقطة تحول فى الفكر السياسى الغربى ٠ وهو كذلك ، أطلق كاتبه جان جاك روسو الى طليعة الفلاسفة الأوربيين ٠

فكرة الكتاب عند روسو

ثم قدم الى الأكاديمية رسالته عن العلوم والفنون لينال الجائزة ، ولقد أجاز المجمع هذه الرسالة بعد مناقشات حامية الوطيس ٠ ثم كتب سنة ١٧٥٢ أوبرا هزلية بعنوان «منجم القرية» وملهاه بعنوان «نرجس» ٠ ثم عاد الى جنيف ١٧٥٤ واستعاد صفة المواطن لمدينة جنيف بعد أن كان قد فقده منذ مدة ٠ وأخرج فى سنة ١٧٥٥ مؤلفه الشهير عن أصل التفاوت

ونشأته بين الناس وهو يحاول فى هذا المؤلف الوصول الى صفات « الانسان الطبيعى » أو الانسان الأول قبل أن يتحضر وتدمغه الحضارة والمجتمع بصفات معقدة أدت الى اخفاء ملامحه الأصيلة واشقائه ، مبينا كيف ان الناس كانوا فى حالة الطبيعة متساوين ولكن المجتمع والحضارة هما اللذان أديا الى ما نرى بينهم من فوارق · والواقع ان روسو يحمل فى هذا المؤلف والمؤلف الذى قدمه لجامعة ديجون عن تقدم العلوم على الحضارة مدعيا أن الحضارة فاسدة وان التقدم الحضارى هو أساس ما تعانيه البشرية من شرور وآثام ثم ينصح بضرورة الرجوع « الى حالة الطبيعة »التى تؤدى وحدها بالانسان الى السعادة · وفى كتابه عن أصل التفاوت بين الناس يتوسع فى هذه الفكرة اذ يقوم بدراسة الانسان فى مرحلة الطبيعة أى فى مرحلة سابقة على تكوين المجتمع الانسانى وهى مرحلة كان الانسان يعيش فيها حرا من كل قيد ، فيما يرى روسو ، وكان يعيش معيشة طبيعية · ثم يتساءل عن الظروف التى أدت بالانسان بالانتقال من هذه الحياة الطبيعية الى حياة اجتماعية كبلته بالسلاسل والأغلال وطمست صفاته الطبيعية الأصيلة لكى تخلع عليه صفات اجتماعية مصطنعة زائفة أفسدت حياته · ويجيب روسو على ذلك قائلا ان بعض الظروف الخارجية قد اضطرت أفراد الانسان الى المعيشة سويا بشكل عابر أولا ، ثم بدأ هؤلاء الأفراد يتعودون بعد ذلك على تلك المعيشة ، وأخيرا كونوا جماعات بشرية ظهر فيها على الفور أشخاص نصبوا أنفسهم سادة على غيرهم لا لسبب آخر الا لانهم أقوى من غيرهم ، وبذلك ولدت المجتمعات البشرية قائمة على التفرقة بين الناس ·

وهنا يقترح روسو فى خطابه عن تقدم العلوم الرجوع الى حالة الطبيعة ، غير أن هذا الحل بدا له مستحيلا لأن الانسان أصبح متعلقا بالحياة الاجتماعية بشكل يجعله غير مستعد اطلاقا للتنازل عنها ، اذ أن الحياة الاجتماعية بالنسبة اليه بمثابة « طبيعة ثانية » لا يستطيع أن يستبدل بها غيرها · ومن هنا يبدو الحل الثانى لهذه المشكلة وهو يقوم على اصلاح الحياة الاجتماعية اصلاحا من شأنه أن يؤدى بالانسان الى التمتع بالميزات الطبيعية التى كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة والتى فقدها الى الأبد ·

ولكن هل من الممكن تحقيق هذا الحل ؟ ويجيب روسو على هذا السؤال فى كتابه عن العقد الاجتماعى · فكتاب العقد الاجتماعى ليس الا محاولة لاصلاح الحياة الاجتماعية والسياسية فى المجتمع حتى يستطيع الانسان أن يسترجع كل أو بعض الميزات التى كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة · ولكن فى حالة استحالة استرجاع مثل هذه الميزات يمكن اعتبار

كتاب العقد الاجتماعى محاولة لايجاد اصلاحات اجتماعية من شأنها أن توفر للانسان الاجتماعى ما يعادل ما فقده من ميزات ، كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة ، أو ما يعوضه عن فقدانه لتلك الميزات ٠

وما أن صدر كتابه الجليل الشأن عن العقد الاجتماعى سنة ١٧٦٢ حتى قررت السلطات الحاكمة القبض عليه بتهمة اثارة الخواطر ضد نظم الحاكم والقوانين والعادات والتقاليد المستقرة ، مما أدى به الى الفرار من فرنسا الى سويسرا ٠ ولكنه طرد بعد ذلك من سويسرا وعاد الى فرنسا بعد عدة سنوات ٠ ثم قام بتأليف قاموس عن الموسيقى سنة ١٧٦٧ وقضى عدة سنوات فى الترحال من بلد لآخر ٠ ولقد قام فى باريس سنة ١٧٧٢ بتأليف كتابه « ملحوظات عن حكومة بولونيا » ضمنه كثيرا من آرائه لاصلاح نظام الحكم فى تلك الدولة ، ثم اتم فى تلك السنة كتاب « الاعترافات » الذى ضمنه تاريخ حياته ، كما بدأ فى نفس السنة كتابة مؤلفه « أحلام أو تأملات مشاء وحيد » ٠

ولقد توفى روسو فى ٢ من يوليو سنة ١٧٧٨ أى قبل قيام الثورة الفرنسية باحدى عشرة سنة ، فلم يعش اذن ليرى الثورة التى كانت مؤلفاته من بين الكتابات الهامة التى أدت الى اشعالها ٠

أصل فكرة العقد الاجتماعى
فى التاريخ

واذا بحثنا فى مدى أصالة روسو فى كتاب العقد الاجتماعى لوجدنا ان فكرة وجود اتفاق أو عقد بين الحاكم والأفراد أو بين الأفراد بعضهم وبعض على الخضوع لنوع معين من نظم الحكم فكرة قديمة ، فيذهب كونفوشيوس (٢) الفيلسوف والحكيم الصينى (٥٥١ ـ ٤٤٩ ق٠م) الى أن الحاكم مفوض من الله على الأرض ليحكم وفق عقد يحدد نصوص هذا التفويض ٠ والطاعة واجبة للحاكم طالما احترم نصوص هذا العقد والا فالأفراد لهم كل الحق فى الثورة ضده اذا حاد عن هذه النصوص ٠ وفى نفس العصر الذى عاش فيه كونفشيوس نجد اتباع موتسى وهو من الفلاسفة الصينيين البارزين يضعون كأساس للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد عقدا أبرم بينهم فى العصور السحيقة ، وعلى كل فرد احترام هذا العقد ٠ وفى عصر أفلاطون بنى كثير من السوفسطائيين الدولة على أساس تعاقدى ، اذ نجد جلوكون فى جمهورية أفلاطون (٣) يتحدث عن الرأى الشائع الذى يذهب الى أن الأفراد قد عقدوا فيما بينهم عقدا يبتعد كل

منهم بمقتضاه عن الظلم ، ولقد اعتنق هذا الرأى كثير من الأبيقوريين ، وفى العالم الرومانى يذهب كارتيادس الى أن الناس كانوا يعيشون قديما بلا قانون وكان كل منهم يعتدى على الآخر مما أدى الى انتشار القلق والخوف ولذلك أبرموا عقدا فيما بينهم يخضعون وفقه لنظام يختارونه ٠ ثم يأتى ستيكا (٤) (٣ ق ٠ م ــ ٦٥ م) فيؤكد هذه الفكرة اذ يذهب الى ان الانسان كان فى المبدأ يعيش فى عصر ذهبى لا يخضع فيه لاية سلطة الا سلطة عقله ، وكان الناس متساوين اذ لم تكن الملكية الفردية قد عرفت بعد ، ولكن لظروف ما ظهر مبدأ الملكية الفردية فقضى على العصر الذهبى للانسانية اذ عمد الأفراد الى تدمير الملكية الجمعية وأصبحوا مشبعين بشهوة الجرى وراء الثروة والجاه ٠ ومن ثم نشأت ضرورة انشاء نظم اجتماعية سياسية لكى تحد من شهوات الانسان واعتداء الناس بعضهم على بعض ٠ فالعصر الذهبى الذى أشار اليه سنيكا ليس الا العصر الذى كان يعيش فيه آدم وحواء فى الجنة قبل السقوط على الأرض بسبب الخطيئة التى ارتكباها ، أما القوانين ونظم الحكم والملكية الفردية ٠٠ فهى كلها نظم تعد فى ذاتها « شرا ضروريا » لكبح جماح شهوات بنى الانسان وللتكفير عن الخطيئة الأولى التى ارتكبها آدم ٠ وفى مطلع العصور الحديثة زادت أهمية نظرية العقد الاجتماعى وذلك نظرا لانتشار الجمعيات الخيرية والطوائف الدينية فى أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ، وهى كلها جمعيات تعاقدية أى تقوم على عقد يحدد اختصاصاتها ومجال عملها ، ولما كانت الدولة بمعنى من معانيها على الأقل ليست الا هيئة ذات اختصاصات معينة فقد كان من الطبيعى أن يلجأ كثير من المؤلفين الى تصويرها على أساس تعاقدى ٠ ثم ان التجارة والصناعة قد انتشرت فى مطلع العصور الحديثة وهى تقوم على عقود قانونية مبرمة بين الأفراد والشركات والبنوك تؤكد أهمية العقد فى دائرة النشاط الاقتصادى ، ولقد كان لهذه الحال أثرها المباشر على المفكرين السياسيين والاجتماعيين فى محاولتهم ايجاد تفسير معقول لخضوع الأفراد لسلطة الدولة ٠ وهذا هو تعليل كل من د ٠ ج رتش وفرنكلين جدنجز ويذهب كارليل (٥) الى أن فكرة « الميثاق الحكومى » كانت تسود السواد الأعظم من مفكرى العصور الوسطى لأن الحاكم كان فى رأيهم ممثلا للاله على الأرض ، يتولى سلطانه وفق ميثاق خاص ٠

أما الاهتمام بفكرة العقد فى بدء العصور الحديثة فكان استمرارا لتلك المعركة التى ثارت فى العصور الوسطى المتأخرة حول سلطة الملك ومداها٠ولكن ثمة سببا يبدو فى رأينا فاصلا في الموضوع،ذلك ان الكنيسة كانت طوال العصور الوسطى تطغى على سلطة الملوك وحدثت طوال تلك العصور معارك فلسفية بل وعسكرية بين انصار كل من الفريقين الى ان

قضى على سلطة الكنيسة فى بدء العصور الحديثة بعوامل النهضة والاصلاح الدينى وبدأت تظهر القوميات الأوربية الحديثة ، وبدأ الملوك يمارسون سلطاتهم بعنف وقسوة بسبب تلك العقـدة التى تكونت لديهم بسبب طغيـان الكنيسة عليهـم طوال العصور الوسطى فانتشرت الدكتاتوريـة وانتشر حكم الطغيان فى كل مكان من القارة الأوربيـة · وكان القانون يحمى هؤلاء الملوك من كل نقد ويعفيهم من أية مسئولية · ولقد أدت هذه القسوة الى وضع سلطة الملوك على بساط البحث ولا سيما مسألة الحق الالهى للملوك · ولم يجد المؤلفون أسلم ولا أكثر أمانـا من عرض هذه المسألة وأشباهها فى صورة قصة خيالية يعبرون فيها عمـا يجيش فى صـدورهم من نقد لهذا الطغيان ويرسمون الصورة التى يفتقدونها فى واقعهم · ولقد استخدم المؤلفون نظرية العقد لتوجيه نظر الملوك الطغاة الى انهم ليسوا من عنصر يعلو على عنصر البشر وانهم يحكمون وفق قواعد متفق عليها منذ الأزل وان عليهم أن يخضعوا لهذه القواعد كشرط أساسى لطاعة الأفراد لهم لأن العقد الكامل يحمل دائما التزامات متقابلة ، فعقد البيع مثلا يفرض على المشترى أن يدفع الثمن وعلى البائع تسليم الشىء المباع فاذا نقض أحدهما التزامه ولم يوف به كان الآخر فى حل من نقض التزامه فنظرية العقد هى أتم صورة قانونية وفلسفية يستطيع عن طريقها الفيلسوف أو السياسى أن يهدم النظرية التقليدية التى سادت منذ العصور القديمة فى أن الملك فوق القانون أو انه متحلل من كل قانون ·

لكل هذه الأسباب انتشرت اذن نظرية العقد على لسان عدد لا يحصى من المؤلفين فى أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ·

كيف ألف روسو كتابه

يعد كتاب العقد أهم مؤلفات روسو ، اذ كان ثمرة لتفكير عميق وتأمل طويل من المؤلف ، سلخ فيه أكثر من عشر سنوات · ذلك أن العقد الاجتماعى ليس فى الحقيقة الا جزءا من كتاب آخر ضخم كان روسو يزمع اخراجه لولا أن الوقت لم يسعفه فاقتصر على اخراج العقد ليحل محل ذلك الكتاب ، ويؤكد ذلك قول روسو فى اعترافاته سنة ١٧٥٦ « ان من بين الكتب المختلفة التى كنت اشتغل فى اعدادها ، كتابا كنت أفكر فيه منذ زمن طويل ، واشغل نفسى به فى شغف كبير ، وكنت أريد أن أقضى فى اعدادة كل حياتى ، كما كنت أعتقد انه سيتوج شهرتى ، وذلك هو كتاب النظم السياسية · ولقد راودتنى فكرة ذلك الكتاب منذ ثلاثة عشر عاما ، اذ عندما كنت فى البندقية سنحت لى الفرصة لمعرفة أخطاء حكومة ذلك البلد التى تفخر بحكمها » كان روسو اذن يزمع تأليف كتاب ضخم عن النظم السياسية على غرار كتاب روح القوانين (٦) لمونتسكيو يجمع فيه الى جانب الدراسات النظرية والفلسفية مشاهداته وملاحظاته عن نظم الحكم فى البلاد المختلفة التى زارها مضيفا الى كل ذلك تجاربه وخبراته · غير أن روسو وجد نفسه سنة ١٧٦١ أمام مشروع ضخم قد لا تكفى سنوات حياته الباقية لتحقيقه ففضل اخراج الجزء الذى كتبه من كتاب النظم السياسية تحت عنوان « فى العقد الاجتماعى » سنة ١٧٦٢ مقتصرا على ما سبق ان أبداه من آراء فى كتبه السابقة · على ان اخراج كتاب العقد لم يكن سهلا اذ استدعى ذلك ان يعمد المؤلف الى جمع بعض الأجزاء التى ترتبط بعضها ببعض فى كتاب النظم ، بحيث تدور كلها حول فكرة مركزة واحدة ، مع اتلاف الأجزاء الأخرى · « وعلى ذلك لما كنت قد عدلت عن اخراج هذا المؤلف ، فقد صممت على اختيار ما يمكن فصله منه ، وعلى حرق الأجزاء الباقية · ولما بدأت العمل فى هذا الكتاب بنشاط، بدون أن أتوقف عن تأليف كتاب اميل فى نفس الوقت ، استطعت أن انتهى من كتاب العقد فى مدة أقل من عامين » · وهو فى هذا الكتاب يرد على السؤال الذى طالما أثاره فى مؤلفاته السابقة وهو : كيف السبيل الى تخليص الانسان من الشرور التى جرها عليه انتقاله من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية ·

محتويات كتاب العقد الاجتماعى

ينقسم كتاب العقد الاجتماعى الى أربعة أجزاء تحمل العناوين الآتية:

١ ــ فى الميثاق الاجتماعى ٠

٢ ــ فى السلطان ٠

٣ ــ فى الحكومة ٠

٤ ــ فى كيف تسير الأمور فى المدينة (الفاضلة) ٠

وكل جزء من هذه الأجزاء مقسم الى عدد من الفصول ٠

وسنتناول هذه الأجزاء الأربعة بالترتيب :

الجزء الأول

فى الميثاق الاجتماعى

يقول روسو فى مقدمة هذا الجزء انه سيحاول البحث عن الأساس الشرعى للنظام المدنى ، أى سيحاول البحث عن الأساس الذى ترتكز عليه سلطة الدولة وطاعة الأفراد لها ٠ ثم يقول فى الفصل الأول من هذا الجزء « ان الانسان يولد حرا ولكنه مكبل بالأغلال فى كل مكان » ٠ فكيف اذن انتقل الانسان من الحرية التى ولد فيها الى حالة من العبودية تسيطر عليه ويخضع فيها لسلطان يستذله ويتحكم فى مصيره ، وعلى أى أساس حدث ذلك ؟ لا يمكن أن يكون القانون الطبيعى أساس هذا الاستعباد ٠ ذلك ان الأسرة وهى أقدم مجتمع فى العالم ، هى المجتمع الطبيعى بين صور المجتمعات البشرية ٠ وفى هذا المجتمع الطبيعى لا يخضع الأولاد للأب والأم الا طالما كانوا فى حاجة الى رعايتهما والمحافظة على حياتهم ، فاذا كبروا ولم يعودوا بحاجة الى الأب والأم أصبحوا أحرارا مستقلين مثلهما الا اذا استمروا خاضعين لهما عن طواعية وبشكل غير طبيعى ٠ والأسرة ليست الا النموذج الأول للمجتمع السياسى فالسلطان يمثل الأب والشعب يمثل الأولاد والكل لما كانوا أحرارا متساوين لا يمكن أن يتنازلوا عن حريتهم الا لصالحهم ولما يكون من شأنه أن يحافظ على كيانهم وبقائهم لأن القانون الطبيعى الأول للانسان هو أن يسهر على المحافظة على نفسه وعلى بقائه ٠ فالسلطان الذى يحكم الأفراد وفق مصلحته بعيدا عن مصالحهم ، ليس

لحكمه أى سند من القانون الطبيعى ، بل ان حكمه هذا ضد القانون الطبيعى على خط مستقيم · ولكن اذا لم يكن القانون الطبيعى هو الأساس ، ربما يكون قانون الأقوى هو أساس هذه الحال · ولكن « أقوى انسان لن يكون أبدا من القوة بحيث يستمر دائما سيدا ، ما لم يحول قوته الى حق وطاعته الى واجب » · ولكن القوة الجسمية لا يمكن أن تكون أساسا بحال من الأحوال للحق لان القوة تعنى القدرة الجسمية فاذا اخضع الناس لشخص قوى من الناحية البدنية فان خضوعهم سيكون عملا اقتضته الضرورة ولن يكون عملا طوعيا ،ولن تؤدى القوة الى خلق حق لان من صفات الحق أن يطاع صاحبه عن واجب وليس عن خوف ، وما أشبه الحاكم الذى يحكم بالقوة بصاحب عصابة يهاجم الناس ليغتصب منهم أمتعتهم فكما ان القوة هنا لا تمنح حقا كذلك هى فى المجال السياسى لا يمكن فى رأى روسو أن تكون أساسا لحقوق ونظم ·

« ويجب أن نتفق اذن على ان القوة لا تنشىء حقا وان الناس ليسوا ملزمين بالطاعة الا للقوة الشرعيه » · وعلى ذلك يستمر روسو فى البحث عن الأساس الذى يبرر مشروعية انتقال الانسان من الحالة الطبيعية التى كان فيها حرا من كل قيد الى الحالة الاجتماعية التى هو فيها مستبعد ـ على حد قوله ـ ويستمر روسو فى البحث عن هذا الأساس فيتساءل عما اذا كان ثمة عقد بين الحاكم والأفراد تنازل الأفراد بمقتضاه عن حريتهم له على غرار تعليل هوبس (٧) فى كتاب اللوثيان أو جروسيوس (٨) فى كتابه الشهير « فى قانون الحرب والسلم » · ويناقش روسو فكرة جروسيوس الذى ذهب الى ان الطغيان الملكى مشروع لأن لكل فرد الحق فى أن يتنازل عن حريته لسيد يختاره ، واذا كان ذلك صحيحا ومشروعا بالنسبة لأى فرد فلماذا لا يكون مشروعا بالنسبة لشعب بأكمله اذ يتنازل عن حريته لحاكم من الحكام ؟ · ويرد روسو على ذلك بأن طبيعة الانسان تجعله لا يتنازل عن حريته الا فى نظير ميزة أكبر منها ستعود عليه ولايمكن أن نجد شيئا يمكن أن يعادل حرية الانسان فى التصرف للمحافظة على بقائه ، حتى السلام أو الأمن الداخلى الذى يدعون أن الحاكم الطاغى يوفره لرعاياه نظير تنازلهم عن حريتهم أمر لا وجود له ، لأن جشع الحاكم وطمعه الذى لا يعرف حدودا واعتداءاته على الأفراد هى بمثابة حروب تهدد أمنهم باستمرار · كما ان التنازل عن الحرية معناه التنازل عن صفة الانسانية ، بل التنازل عن واجبات الانسان نحو نفسه ، فهو اذن ضد الطبيعة الانسانية وبالتالى لا يكون لأى انسان أو لأى شعب أن يتنازل عن حريته لأى شخص ·

ولكن اذا لم يكن ثمة عقد مشروع بين الشعب وبين الحاكم الطاغى يبرر طغيانه ، فان هناك ميثاقا اجتماعيا يختلف عن ذلك العقد المزعوم

وهو الذى يجب أن نبحث عنه ونتذاكر نصوصه · ففى المرحلة السابقة على تكوين السلطان السياسى والمدنى كان الأفراد أحرارا متحللين من كل قيد الا من واجب كل منهم الطبيعى نحو المحافظة على نفسه ، ولكن حدثت ظروف جعلت من الصعب استمرار هذه الحال الطبيعية ووجد الأفراد انهم مهددون بالفناء ان لم يبحثوا عن مخرج من هذه الحال · ولم يكن لدى كل منهم الا قوته وحريته وهما الأداتان الوحيدتان اللتان كان يستخدمهما فى المحافظة على بقائه ، لذلك وجدوا ان ليس ثمة من وسيلة لانقاذهم من حالة الطبيعة الا « البحث عن شكل للوحدة أو للاجتماع من شأنه ان يحمى ويقى شخص كل عضو وأمواله ·· شكل للوحدة يكون فيه كل عضو وقد اتحد مع الأعضاء الآخرين غير خاضع مع ذلك الا لنفسه ، ويظل أيضا متمتعا بنفس الحرية التى كان يتمتع بها من قبل » · وتلك هى المشكلة الحقيقية والرئيسية التى يبحث العقد الاجتماعى عن الحل الصحيح لها ·

ونصوص هذا العقد الذى أبرم بين الأفراد محددة تحديدا دقيقا بطبيعة هذا العقد نفسه بحيث ان أى تعديل فيها يجعل العقد لاغيا وبحيث يستطيع كل فرد أن يسترجع حريته الطبيعية التى تنازل عنها اذا ما اعتدى معتد على نصوص العقد واحكامه · ووفق هذا العقد يعد كل مسهم أو مشترك أو عضو متنازلا بلا تحفظ عن حقوقه للمجموعة · وهذا التنازل ليس لمصلحة شخص معين بل هو لمصلحة الجماعة التى هى مصلحة كل فرد من الأفراد ، « فكل شخص منا يضع تحت تصرف الجماعة شخصه وكل قوته تحت قيادة الارادة العامة » · فكل شخص سيصبح عضوا فى هيئة معنوية أو أخلاقية تتكون من الأفراد المنضمين اليها ، وهذه الشخصية العامة التى تتكون من اتحاد الأفراد هى ما كان الأقدمون يطلقون عليها اسم المدنية ويطلقون عليها الآن اسم الجمهورية أو الهيئة السياسية ، التى يسميها أعضاؤها باسم الدولة أو السلطان · أما المشتركون فيطلق عليهم اسم جمعى وهو الشعب ، وفى علاقاتهم بعضهم ببعض يطلق عليهم اسم المواطنين بوصفهم مشتركين فى هيئة ذات سيادة ، كما يطلق عليهم اسم الرعايا بوصفهم خاضعين لقوانين الدولة ·

والميثاق الاجتماعى والحال هذه يشتمل على التزامات متبادلة بين جمهور الشعب والأفراد ، وكل فرد من أفراد الجماعة سيكون ذا صفتين يقابل كل منهما التزامات ، فهو بوصفه جزءا من السلطان الذى لا مصدر له الا الشعب أو مجموع الأفراد متعاقد مع هؤلاء الأفراد وملزم ازاءهم وهو بوصفه فردا من أفراد الشعب متعاقد مع السلطان العام للجماعة ومسئول أمام هذا السلطان فالفرد اذن يمكن أن يقال عنه انه متعاقد مع نفسه ، فهو بصفته من رعايا السلطان متعاقد مع نفسه بصفته جزءا من هذا السلطان · وهذا السلطان المكون من الأفراد المتحدين فى الهيئة الاجتماعية

أو السياسية ليس له أية مصلحة ولا يمكن أن تكون له مصلحة تخالف مصلحتهم العامة بل ان مصلحة هذا السلطان لا يمكن أن تكون مضادة لمصلحة كل فرد على حدة · ولما كان كل فرد قد تنازل تنازلا مطلقا عن كل شيء للجماعة وهو بهذا انما يتنازل عن كل شيء لنفسه هو ، بوصفه عضوا في هذه الجماعة ، ولما كان العقد أو الميثاق الاجتماعي يصبح لا قيمة له اذا ابيح لأى عضو الخروج عليه ، فان أبسط النصوص المتضمنة في هذا الميثاق تقتضي منع أى خروج على نصوص هذا العقد بالقوة · ولكن ما هي الميزات التي ستعوض الأفراد الخاضعين للعقد عن ميزاتهم التي فقدوها بانتقالهم من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية أو المدنية ؟ ذلك هو موضوع الفصل الثامن من هذا الجزء ·

يقول روسو أن الانتقال من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية يحدث في الانسان تغييرات عميقة فهو يجعله خاضعا للعدل بدلا من الخضوع للغريزة وتصبح أعماله ذات قيمة أخلاقية كانت خلوا منها وهو في حالة الطبيعة ، لان الانسان في هذه الحالة الأخيرة كان بريئا ، عادلا وكان يفعل الخير طواعية وبشكل طبيعي ولذلك كانت الفضيلة التي يتحلى بها فضيلة سلبية ، أما في الحالة الاجتماعية فانه يتصرف وفق معايير أخلاقية محددة وعن علم تام بهذه الأخلاقية فهو يفعل الخير لذاته ويقدس الواجب لذاته لا لأى اعتبار آخر ، فالحالة الاجتماعية تحوله من كائن خاضع للغريزة الى انسان خاضع للواجب الأخلاقي ·

ثم يعمل روسو حساب الخسائر والمكاسب في الانتقال من الحالة الطبيعية الى الحالة الاجتماعية ، فالانسان قد فقد الحرية الطبيعية وحقه المطلق في كل ما يفعل ولكنه كسب الحرية المدنية المحدودة بالارادة العامة ثم الملكية التي تضمنها له الجماعة ، والحرية الطبيعية ليست الا استعبادا لأن الانسان يكون خاضعا فيها لنوازعه ، أما الحرية المدنية فهي الحرية الحقيقية بمعنى الكلمة لأن الانسان يخضع فيها لقانون مدني وضعه لنفسه بنفسه · أما عن الملكية في حالة الطبيعة فكانت قائمة على القوة الجسمية وهذه ليس فيها أى ضمان لبقائها واستمرارها ، أما في الحالة المدنية فالمجتمع هو ضامنها وهي لذلك ملكية مستقرة مقدسة ·

★★★

الجزء الثانى

فى السلطان

ان أول وأهم نتيجة لكل ما تقدم هى ان للارادة العامة وحدها الحق فى قيادة قوة الدولة وتوجيهها نحو الغاية التى أنشىء من أجلها النظام السياسى وهى الصالح العام. ولما كان السلطان ليس شيئا آخر الا اختصاص الارادة العامة التى تمثل ارادة « الأنا الاجتماعية » أو الشخص المعنوى الذى يتكون من مجموع الأفراد ، فان هذا السلطان لا يمكن التنازل عنه لشخص أو لعدة أشخاص ، فالارادة العامة يجب أن تمارس السلطان بنفسها وبدون نواب أو ممثلين ينوبون عن الأفراد أو الشعب الذى هو مصدرها. ولنفس الأسباب لا يمكن أن ينقسم السلطان الى أجزاء أو أقسام منفصلة ، لان الارادة العامة التى هى مصدر السلطان وممارسه الوحيد ، اما انها عامة بمعنى الكلمة وحينئذ تكون مصدر القانون ، واما انها لا تعبر الا عن جزء من الشعب وحينئذ لا تكون عامة ولا تكون مصدرا للقانون ، ولما كانت الارادة العامة واحدة غير متعددة فان السلطان الذى تمارسه لا يمكن أن ينقسم .

وهنا ينتقد روسو انقسام السلطان الى سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية قائلا ان السياسيين لم يستطيعوا قسمة السلطان فى مبدئه فراحوا يقسمونه فى موضوعه فأصبح السلطان أشبه شىء بموجود غريب مكون من أجزاء مختلفة ، أو أشبه شىء برجل ذى عدة أجسام جسم مزود بالعيون وآخر مزود بالأذرع وثالث بالأقدام ... وهكذا .

ولكن ما هى هذه الارادة العامة التى هى الممارس الوحيد للسلطان والتى هى مصدر القانون ، انها ارادة تتكون فى المجتمع عندما يتعلم كل فرد كيف يضحى بمصلحته الفردية فى سبيل صالح أسمى وهو الصالح العامة ، اذ ينتج حينئذ عن تمسك الأفراد بالصالح العام دون سواه روح عام تهدف دائما الى تحقيق هذا الصالح ، وهذه الروح العامة هى الارادة العام ، اذ ينتج حينئذ عن تمسك الأفراد بالصالح العام دون سواه روح

تريد أسمى صالح للدولة ، « انها أعم ارادة » · والارادة العامة هى « صوت الكل اذ يعبر عن صالح الكل) وهى أكبر الارادات عدلا ذلك ان كل عمل من الأعمال انما يتم نتيجة ارادة ولكن ارادة الانسان فى صلاح الدولة وخيرها تعد من الناحية الأخلاقية أسمى ارادة ·

والارادة العامة هى ارادة الأفـراد فى جملتهـم ، فروسو قد قال بما سيقول به الفلاسفة الألمان والمدرسة الاجتماعية الفرنسية فيما بعد من أنه تتكون فى كل جماعة روح عامة أو عقل جمعى يكون نتيجة لتفاعل عقولهم الفردية بحيث يتكون من هذا التفاعل عقل جديد يختلف عن عقول الأفراد أنفسهم أو هذا العقل الجمعى هو ما سماه روسو « الأنا أو الذات العامة » · والجسم السياسى أو الهيئة السياسية له أيضـا من حيث هو كائن أخلاقى ارادته العامة التى تتركب من « خير ارادات الجميع » فهى ليست مجموع هذه الارادات وانما هى روح عامة تعبر عن الارادات الخيرة للأفراد فيما يخص الصالح العـام · وهذه الارادة هى وحدهـا مصـدر القانون وهى وحدها التى تمارس السلطان وتوجه قوى الدولة لأن اختلاف المصالح الخاصة هو الذى جعل من الضرورى انشاء المجتمعات والانتقال من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية ·

وللارادة العامة السلطة المطلقة على جميع الأفراد ، ولابد أن تكون ناتجة عنهم مباشرة لا عن ممثليهم فروسو لا يؤمن بالنقابات ولا بالجمعيات ولا بالمجالس النيابية لأن ارادات كل هذه الهيئات ارادات خاصـة تقوم بالمناورات ضد بعضها بعض وضد الارادة العامة · فالأفراد يجب أن تكون علاقتهم بالدولة علاقة مباشرة ولا تكون بحال ما من خلال نقابات أو جمعيات أو مجالس أو هيئات·وهنا نجد موضوعا طال النقاش فيه بين علماء الاجتماع والسياسة وهو التساؤل عما اذا كان وجود هيئات متوسطة بين الدولة والأفراد يؤدى الى مزيد من ضمان الديمقراطية أو بالعكس يؤدى الى عرقلة الديمقراطية · روسو يرى فى هذه الهيئات عائقا للارادة العامة عن الظهور بشكل واضح · ويرى جورفتش أستاذ الاجتماع أن فى مثل هذه الهيئات أكبر ضمان لحرية الفرد بدليل أن الحكام الذين يتبعون سياسة الطغيان يعمدون أولا الى حل مثل هذه الهيئات المتوسطة · أما ارمان كيفلييه الذى كان أستاذا بالسربون ، فيعتقد أن الهيئات المتوسطة التى كانت تنشأ فى العصور القديمة على أساس الدم أو الأصل كانت حقا جمعيات تؤدى الى الطغيان أما جمعيات اليوم التى تنشأ بشكل حر طليق فهى من أهم وأكبر عوامل ضمان الديمقراطية ·

ولقد بالغ روسو فى مؤلفاته فى تقديس الارادة العامة حتى كاد يؤلهها لانها صوت الشعب وصوت الشعب من صوت الله ، الى حد أن جعل منها

أحيانا « دينا ودنيا » ، تقابل الخارج عليها عقوبة الاعدام · ولكن للسلطان الذى تمارسه الارادة العامة حدودا يجب ألا يتعداها ، لأن كل فرد عندما تنازل للهيئة الاجتماعية عن حريته وماله انما كان يهدف الى توجيه كل ذلك للصالح العام الذى يعد صالحه هو فى نفس الوقت ، وعلى ذلك فالهيئة الاجتماعية أو الشعب ، يجب أن توجه سلطانها الى كل ما فيه مصلحة الشعب وكل ما يتمشى مع نصوص العقد الاجتماعى ، فاذا وجه السلطان الى غير ذلك لم يكن له سند مشروع من العقد الاجتماعى ، فالسلطان مثلا لا يستطيع أن يكسر مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص بين المواطنين لأن تحقيق المساواة من الأغراض العامة التى عقد العقد من أجل تحقيقها ، وكذلك الاعتداء على الحريات أو تقييدها بسبب لا يمت للصالح العام بصلة · فالسلطان اذا خرج عن النصوص المتعارف عليها فى العقد الاجتماعى يكون حينئذ غير معبر عن الارادة العامة أو عن الهيئة الاجتماعية·

والارادة العامة هى المصدر الوحيد للقانون · ذلك ان العقد الاجتماعى قد أدى الى وجود الهيئة الاجتماعية وبذلك تنتهى مهمته وتبدأ مهمة التشريع الذى عليه أن يمنح الهيئة الاجتماعية الحركة ويعبر عن ارادتها · والقانون عبارة عن علاقة بين الشعب بوصفه صاحب السلطان وبين الشعب بوصفه خاضعا للسلطان فى مسألة عامة ·

على ان المشرع ــ فى نظر روسو ــ قبل أن يقترح القوانين يجب عليه أن يلحظ حالة الشعب الذى يشرع له فهناك شعوب أقل من غيرها فى استعدادها لتقبل القوانين الجديدة · فالشعوب « الشائخة » التى رسخت فيها عادات وتقاليد تبلورت وجمدت مع الزمن أقل استعدادا لقبول تشريعات جديدة من غيرها · وأحسن مرحلة للتشريع هى المرحلة التى يكون فيها الشعب فتيا لم يمض وقت طويل بعد على تكونه · وعلى المشرع أن يمهد الشعب لتشريعاته كما يمهد المهندس الأرض ويختبرها ويقوى أجزاءها الضعيفة قبل أن يقيم البناء عليها كما يجب ان يلاحظ المشرعون أن ما يصلح لشعب قد لا يصلح لآخر فلكل شعب ظروف تجب مراعاتها ·

كما يجب أن يوفر التشريع فى كل دولة الحرية والمساواة لأن أى استبعاد لفرد من أفراد الجماعة من شأنه أن يقلل من قوة الدولة التى تقوم قوتها على مجموع حريات الأفراد · والمساواة ضرورية لأن الحرية لا يمكن أن تتصور بدونها · ولكن ليس معنى المساواة أن يتساوى كل الأفراد فى مكانتهم الاجتماعية وثرواتهم ولكن المساواة تعنى المساواة فى الحقوق والالتزامات · على أن الثروة يجب أن تكون موزعة « بحيث لا يكون شخص من الغنى بحيث يستطيع شراء آخر ولا يكون شخص من الفقر

بحيث يلجأ لبيع نفسه » . وعلى ذلك يعد روسو من أوائل المنادين بتضييق الفوارق بين الطبقات .

وأخيرا يقسم روسو فى نهاية هذا الجزء القوانين الى ثلاث فئات :

١ـ قوانين سياسية : وهى التى تحدد علاقة الدولة من حيث هى هيئة ذات سيادة أو سلطان بالشعب فى جملته من حيث هو مؤلف من مجموع الرعايا الخاضعين للسلطان ، وهى ما نسميها اليوم بالقوانين الدستورية أو القانون العام .

٢ ـ قوانين تحدد علاقة الأفراد بعضهم ببعض أو علاقة كل منهم بالدولة وهى القوانين المدنية .

٣ ـ قوانين تحدد علاقة الفرد بالقانون بحيث يعاقب عقابا محددا اذا خرج عليه وتلك هى القوانين الجنائية .

ولكن ثمة فئة رابعة أهم بكثير من هذه الفئات الثلاث ، وهى قوانين غير مكتوبة وان كانت منقوشة فى صدور الأفراد ويجب مراعاتها وتلك هى العادات والتقاليد والأعراف المستقرة .

ولا يعالج روسو من هذه الفئات الا الفئة الأولى وهى القوانين السياسية التى يجعل منها موضوع الجزءين الثالث والرابع من كتاب العقد .

★★★

الجزء الثالث

فى الحكومـة

والحكومة هى هيئة متوسطة بين الرعايا والسلطان لكى تتولى تنفيذ القوانين وصيانة الحريات المدنية · وهى هيئة لا سلطان لها اذ السلطان الوحيد فى المجتمع للشعب وهى مفوضة لتنفيذ القوانين التى تسنها الدولة ولها أن تتخذ «مراسيم» وهى فى سبيل تنفيذ القوانين · غير اننا نستطيع أن نجد صورا مختلفة للحكومات تختلف من بلد لآخر ، فالسلطان يمكن أن يفوض الشعب كله أو الجزء الأكبر منه فى القيام بمهمة الحكم «التنفيذ» وهذه الصورة هى ما نسميه باسم الديمقراطية ، أو يفوض عددا صغيرا من المواطنين بالقيـام بهذه المهمـة وتلك هى الحكومة الارستقراطيـة ، أو يركز الحكم فى يد شخص واحد ، وتلك هى الحكومة الملكية · وثمة أشكال أخرى مختلفة ومركبة من هذه الأشكال السابقة ، ولا شك أن أفضل هذه الأنواع هى الحكومة الديمقراطية ، ولكن الديمقراطية بمعناها الكامل لا يمكن أن تتحقق فى العالم الانسانى · أما الأنواع الأخرى من الحكومات فقد تفسد وتتحول الى الطغيان ، ولكن لما كان السلطان دائما من الشعب والسيادة له ، ولما كانت الحكومة ليست الا « عميلا » للشعب أو مفوضة منه فان هذا الطغيان لا أساس له من العقد الاجتماعى ولا من القانون · على أنه يجب أن نؤكد هنا ــ فيما يرى روسو ــ أن شكلا معينا من أشكال الحكم لا يمكن أن يصلح لكل بلد فى كل زمان ومكان ، فالظروف قد تجعل شكلا معينا أكثر ملاءمة من الأشكال الأخرى ·

والوسيلة الوحيدة التى تدلنا على أن نوع الحكم ملائم أو غير ملائم هو الرخاء العام · ولكن عند أية حكومة استعداد دائم نحو الفساد وتغليب المصالح الخاصة لأفرادها على المصالح العامة ومن ثم فالفساد محتمل باستمرار · وما دامت المصالح الخاصـة قد غلبت على المصالح العامـة فمعنى هذا ان أساس الهيئة السياسية نفسه قد انهار وبالتالى تنهار الدولة · ولكيلا تصل الأمور بالدولة الى هذا الحد يجب أن يكثر الشعب من اجتماعاته ومن مناقشـته للأعمـال الحكومية ويجب أن يسهر على صيانة القوانين

ولا يستنيم للحكومة ، كما يجب على كل شخص أن يهتم بشئون الحكم في مجتمعه وألا يقف منها موقفا سلبيا · ان الدولة التى يقول كل شخص فيها لنفسه « ليس لى شـأن بالحكم ورجاله » لا شك مآلها الى الزوال والاختفاء · يجب اذن ألا يدع الشعب للحكومة أية فرصة للفساد والتحول عن الاختصاصات المخولة لها فذلك هو الشرط الأساسى لاستمرار الحكم السليم · ويجب هنا أن نبدد الزعم الذى أتى على لسان بعض المفكرين من أن الحكومة نظام قائم على عقد أبرم بين الشعب وبينها ،اذ لا يوجـد الا عقد واحد وميثاق واحـد وهو الميثاق الذى عقـده الشعب مع نفسه للانتقال من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية ، ووفق هذا العقد لايستطيع الشعب أن يتنازل عن سيادته أو سلطاته لأية هيئة · وعلى ذلك فلا يمكن أن يوجد مثل هذا العقد بين الحكومة والشعب ، بل الحكومة مجرد هيئة مفوضة من الشعب للقيام بنوع خاص من الأعمال وهى أعمال التنفيـذ ويظل الشعب محتفظا بالتشريع · فتكون الحكومة أو تفويضها انما يتم وفق قانون يصدر عن الارادة العامة ، وليس من عقـد ، وأعضاؤها اذن ليسوا سادة للشعب ، بل هم مجرد موظفين يعملون فى خدمة الشعب · ولما كان أساس الحكومة قانونا يصدر عن الشعب فان أية حكومة تكون مؤقتة يستطيع الشعب أن يغيرها ، سواء بتغيير أعضائها أو بتغيير شكلها فى أى وقت يراه مناسبا · وهنا نصل الى الجزء الرابع والأخير ·

★★★

الجزء الرابع

فى ادارة شئون المدينة

ان الحكم السليم يستند دائما كما قدمنا على الارادة العامة التى لا تقوم الا على الصالح العام ، وهى من هذه الوجهة معصومة من الخطأ بمعنى ان الارادة العامة لا يمكن ، وبحال من الأحوال ، أن تتجه الا الى الصالح العام ، ولكن ليس معنى هذا انها لا يغرر بها أحيانا ويصور لها الصالح الخاص على انه صالح عام فتتجه اليه عن غير تبصر · ولكن تربية الأفراد كفيلة بتكوين ارادات عامة لا يمكن التغرير بها أو ايقاعها فى الغش · ولكيلا تقع الارادة العامة فى الخطأ الذى يصور لها النفع الخاص على أنه عام يجب أن تكون قراراتها « قوانينها » قليلة العدد ، كما يجب ألا تكون القرارات الا فى المسائل البسيطة الواضحة · فالدولة المثالية عند روسو هى التى لا تحتاج الا لعدد ضئيل من القوانين الضرورية لحياتها ·

ولكن كيف السبيل الى معرفة الارادة العامة ؟ السبيل الوحيد ــ فى نظر روسو ــ هو أن يبدى المواطنون رأيهم فى كل مسألة فى استفتاء حر، والعقد الاجتماعى هو الحدث الوحيد الذى كان يتطلب الاجماع ، أما القوانين فلا تتطلب فى تقريرها وحتى الارادة العامة الا الاغلبية المطلقة، اذ يجب فى هذه الحالة أن تخضع الأقلية لارادة الأغلبية ·

أما عن تعيين أعضاء الحكومة فهو يتم فى الدول المختلفة بصورتين :

١ ــ القرعة ·

٢ ــ الاختيار أو الانتخاب ·

ونستطيع فيما يرى روسو أن نجمع الطريقتين وذلك باللجوء الى طريقة الانتخاب فى الوظائف التى تحتاج الى مهارة خاصة كالوظائف العسكرية ، والى طريقة القرعة فى الوظائف التى لاتحتاج الا الى ذوق سليم ولزاهة وعدل ·

ويختتم روسو هذا الجزء من مؤلفه بالحديث عن الدين وعلاقته بالدولة والمجتمع ويبين كيف أن الشعوب القديمة كانت تعد الآلهة ملوكا لها ، فالملك اله والاله ملك وكان نظام الحكم يعتمد على الدين ، وكان لكل دولة دينها وآلهتها بحيث لم يكن من حق اله فى مجتمع أن يعتدى على اله آخر فى مجتمع آخر ، فالآلهة مستقلة بعضها على بعض استقلال المجتمعات التى تدين لها ، والحروب السياسية التى كانت تقوم بين الدول كانت أيضا حروبا دينية وكانت السياسة والدين شيئا واحدا ·· الى أن أتت بعد ذلك الأديان الكبرى ·

وينادى روسو بضرورة تكوين دين مدنى يقوم على تقديس العقد الاجتماعى والارادة العامة · لابد من وجود دين مدنى يجعل المواطنين يحبون وطنهم ويقدسونه ويتفانون فى القيام بواجباتهم والتزاماتهم نحوه· مثل هذا الدين الاجتماعى أو المدنى سيكون مسيطرا على الأفراد بحيث يحملهم على التمسك بالقوانين التى هم مؤلفوها · ويطرد من رحمته كل خارج عليها ·

العقد الاجتماعى والفكر الانسانى

تلك هى الأفكار الرئيسية التى يعالجها روسو فى كتاب العقد الاجتماعى ، فما هو موقف العلماء منها وكيف أثرت تلك الأفكار فى الفكر الانسانى ؟

يندر أن تجد فى تاريخ الفكر الفلسفى والاجتماعى والسياسى مفكرا وقف منه العلماء مواقف متناقضة كروسو · يقول عنه « بنجامن كنستان » انه « أبشع حليف للطغيان فى شتى صوره » · ويقول ديجوى أستاذ القانون العام المشهور « ان روسو يعد أبا للطغيان اليعقوبى والتحكم القيصرى والموحى بمبادىء الحكم المطلق التى عبر عنها كانت وهيجل » · ولقد وصف كثير من المؤلفين روسو بأنه كان فرديا فى مذهبه الى جانب كونه طغيانيا فيقول عنه « كوبان » ان فكرة التقدم من الأفكار التى لايمكن أن نعزوها لروسو » بينما يذهب « هارولد لاسكى » (٩) الى رأى مخالف لرأى كوبان على خط مستقيم ، اذ يقول « ان روسو كان يؤمن فى حماس بفكرة التقدم » ويعتقد « لامنى » ان مؤلفات روسو كانت اعلانا صارخا « لحرب ضد المجتمع وضد الله » ويعتقد « لانسون » ان روسو لم يكن فرديا فى مذهبه بل انه انتهى الى نوع من اشتراكية الدولة يخضع الفرد فيه لسلطة المجموع الذى وهب له نفسه الى الأبد ، ويضيف الى ذلك أن روسو قد ترك طابعا قوميا وأصيلا فى السياسة والتربية وانه يقف على

رأس الطريق الموصلة لكل ما يتمتع به العالم الحديث من نظم ديمقراطيه سياسية · ويعتقد « برجسون » ان فلسفة روسو تعد أقوى مؤثر فى العقلية الانسانية فى العصر الحديث ·

وهكذا انقسمت آراء العلماء وتشعبت ، بعضهم يعده تقدميا وبعضهم الآخر يعده أبعد ما يكون عن التقدم ، بعضهم يعتقد أنه حليف الطغيان وبعضهم الآخر يعده على رأس المنادين بالنظم الديمقراطية الحديثة ، بعضهم يعده فرديا وبعضهم الآخر يعده اشتراكيا ·

ولكن مهما اختلف العلماء فى تقديرهم لروسو فانه يعد من أكبر دعاة العصر الحديث الى الحرية وتخليص المجتمعات من شبح الطغيان السياسى الذى عانى منه شخصيا ومواطنوه كثيرا · اذ يقول فى هذا الصدد فى قصة « الويز الجديدة » : « ان الانسان مخلوق بلغ من الثبل حدا يجعل من الصعب استخدامه كأداة لغيره ، كما يجعل من العسير استخدامه لما يفيد الآخرين ما لم يكن فى هذا فائدته هو أيضا » · ولا يمكن أن نتصور أن يكون روسو داعية للطغيان فى الوقت الذى كان فيه هو نفسه يقاسى من الطغيان ، وقد يكفى دليلا على حسن نيته أن الطبعة الأولى من العقد الاجتماعى صدرت وعليها صورة تنين هوبس بلا رأس اشارة الى أن روسو انما اراد بهذا الكتاب أن يقطع رأس الطغيان الذى كان تنين أو لويثان هوبس رمزا له ·

ثم مما يثبت أيضا حسن نية روسو حملته على نظام الرق واثباته بالبراهين القانونية انه نظام غير مشروع مهما كانت المصادر المؤدية اليه بما فى ذلك الحرب ذاتها ، وايمانه التام بأن السلطان والسيادة دائما للشعب وان من حق الشعب أن يثور على السلطان الباغى ·

واذا نحن بحثنا فى مبادىء الثورة الفرنسية وهى الحرية والاخوة والمساواة لوجدناها كلها بارزة فى العقد الاجتماعى ، ولا غرابة فى ذلك فان روسو كان من مؤلفى القرن الثامن عشر الذين أدت مؤلفاتهم الى الهاب الحماس واشعال الثورة ، ان لم يكن على رأسهم جميعا ·

وقد قال نابليون : « لولا روسو ما حدثت الثورة الفرنسية ! » ·

هوامش

(١) رومان رولان : (١٨٦٦ ـ ١٩٤٤) مؤلف فرنسى نال جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٥٥ ٠

(٢) كونفوشيوس : انظر الباب الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب ٠

(٣) جمهورية أفلاطون : انظر الباب الثانى من الجزء الأول من هذا الكتاب ٠

(٤) سنيكا : أوقيوس اناوس سنيكا (٣ ق٠م ـ ٦٥ م) شاعر وفيلسوف وخطيب رومانى من الرواقيين ٠ أشرف على تربية الامبراطور نيرون ٠ كتب فى الأخلاق والفلسفة ٠

(٥) كارليل : توماس كارليل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١ م) كاتب ومؤرخ انجليزى بحث فى الأدب والفلسفة الألمانية ٠ له مؤلف ضخم عن الثورة الفرنسية سنة ١٨٣٧ ٠ كان من أبرز شخصيات عصره وتأثر به الكثيرون ٠

(٦) روح القوانين : انظر الباب التاسع من الجزء الأول من هذا الكتاب ٠

(٧) هوبس : توماس هوبس (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) فيلسوف انجليزى ٠ أخذ بالمذهب المادى ورفض المتيافيزيقا التأملية ٠ وكان من أنصار المذهب الذرى ٠

(٨) جروسيوس : هوجو جروسيوس (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥) فقيه هولندى ألف (فى قانون الحرب والسلام) الذى يعتبر أول نص يحدد القانون الدولى ٠

(٩) لاسكى : هارولد لاسكى (١٨٩٣ ـ ١٩٥٠) مفكر انجليزى اشتراكى ـ أول المفكرين الأوربيين الذين أشـــاروا الى أهميـــة الادارة المحليـــة واللامركزية والديمقراطية الصناعية ٠ من مؤلفاته (تأملات فى ثورة العصر) ٠

فى التربية الجمالية للانسان

فردريش شيلر

١٨٣٧ م

فى بدء حديثنا عن نظرية التربية الجمالية للانسان لشاعر الحرية وبطل الأدب الألمانى فردريش شيلر ، يمكننـــا أولا أن نوجز نظريتـــه الجمالية فيما يلى :

هناك انفصال ملحوظ بين عالم الحرية وعالم الضرورة ، يلاحظ فى سلوك الفرد ، كما يلاحظ فى انحراف المجتمعات · ولن يستطيع الانسان أن يشعر بالرابطة بينهما الا بعد رجوع الى مثل مشخص يؤكد امكان قيام هذه الرابطة · والعمل الفنى ، بوصفه شكلا حيا ، يلتقى فيـــه الشكل بالمادة ، وعالم الحرية بعالم الضرورة ، هو أعظم دليل يعيد ثقة الناس فى عدم انفصال هذين العالمين · فاذا استطعنا تنبيه الناس الى قيمة الفن ورسالته الميتافيزيقية العليا ، المختلفة عن تصوراتهم الحسية له ، أمكن بلوغهم مرحلة عقلية أخلاقية عليا · وهذا لا يعنى خضوع الفن لأى توجيه تربوى أو أخلاقى ، كما يفهم أحيانا فى بعض النظـريات ، فمن الواجب توفر الحرية فى الفن · فبغيرها لن يحقق رسالته فى صورة صحيحة ·

والنظرية تتعرض الى كثير من اســـاءة الفهم ، بسبب عدم تحديد مصطلحات محددة من ناحية ، وبسبب اســـتخدام مصطلحات تحتمـــل تفسيرات وتأويلات متعددة والتى جعل لها معنى فلسفيا مثاليا مختلفا عن معانيها المعتادة ، وعن المعانى التى شـــاعت بعد ذلك فى نظريات مادية مثل نظريات داروين (١) وسبنسر (٢) ·

فالنظريات التى تجعل الفن مجـــرد مرحلة من مراحل الروح ، قد تثير تشككنا فى مدى تقدير الفيلسوف للفن ، فهل كان الفن عند شـــيلر مجرد مرحلة متوسطة بين المرحلتين الطبيعية والأخـلاقية ، أى انه كان على حد قول كروتشة (٣) مجرد « فترة انتظار » تقضى فى هدوء وتأمل حتى يتم بلوغ المرحلة الأخلاقية الأخرى · لا شك ان هذا التفسير يتعارض كثيرا مع كل عبارات التقدير والاعجاب التى امتلأت بها مقالات شـــيلر ومؤلفاته ·

★★★

حياة قصيرة وعميقة !

ان حياة شيلر تتميز مثل مواهبه بخصبها وعمقها ووفرة متناقضاتها · اذ كان طبيبا وضابطا وشاعرا ومؤرخا وصحفيا وفيلسوفا ! ، كما انه ذاق مرارة الفقر والحرمان ، وعانى الأمرين من طغيان دوق اقطاعى من أقسى الطغاة من الذين عرفتهم ألمانيا قبل وحدتها· والى جانب هذا ، فانه قد حظى بتقدير بلاده ومفكريها بوصفه مؤلفا لمجموعة هامة من المسرحيات ، قد كان لها أثر عظيم على الفكر العالمى ، لايقل عن أثر سوفوكليس أو شكسبير ·

فقد ولد كريستوف فردريش شيلر فى قرية مارباخ من أعمال دوقية فيرتمبرج فى ألمانيا فى ١٠ نوفمبر سنة ١٧٥٩ · وهو ينتمى الى أسرة صوابية عريقة · وكان والده يعمل جراحا فى آلاى فرساى بافارى، وظل طول حياته مخلصا لدوق فيرتمبرج وجيشه ·

ويقال ان شيلر كان يحب الوحدة منذ طفولته ، ولهذا كره القيود المدرسية ، وأحب الانطلاق فى الجبال والغابات ، وكثيرا ما سأل أمه فى طفولته عدة أسئلة تدل على حيرة ميتافيزيقية ولهفة الى معرفة سر الوجود·

وقبل بلوغه العاشرة من عمره ، نقل أبوه الى آلاى مرابط بمدينة لودفيجسبورج ، حيث كان يقيم الدوق كارل أويجن ــ دوق فيرتمبرج ــ الذى اشتهر بغطرسته ·

واتجهت نية والده منذ طفولته الى الحاقه بخدمة الكنيسة ، ولهذا التحق باحدى مدارس اللغة اللاتينية فى لودفيجسبورج ، تمهيدا لارساله الى احدى كليات اللاهوت · وهناك أظهر نبوغا وميلا الى تذوق الشعر اللاتينى · وبعد انتهاء دراسته بالمدرسة اللاتينية ، لم يستطع متابعة الدراسة وفقا للمنهاج الذى رسمه له والده ، ذلك لأن دوق فيرتمبرج اختاره للالتحاق بمدرسة حربية أنشأها فى دوقيته ، فخضع والده صاغرا

لرغبة الدوق ، وكتب الاقرار المألوف فى مثل هذه الأحوال ، بعدم ترك ابنه خدمة الدوق طول حياته ٠

وكان شيلر فى الثالثة عشرة من عمره ، عندما أصبح طالبـــا فى المدرسة الحربية ٠ وظل بها ثمانى سنوات ٠ وفى هذه المدرسة ، ينقسم الطلبة الى طائفتين : طائفة متميزة وتدعى "Chevalier"

وأخـرى عادية وتسـمى "eleves" ، « والشـفاليه » مميزون فى طريقة أكلهم ونومهم ، اذ كانوا ينامون على أسرة خاصة ، ويأكلون على مائدة على شكل حدوة الفرس ، ويباح للمتفوقين منهم تقبيل يد الدوق ٠ أما « الاليف » ومن بينهم شيلر ، فعليهم أن يقنعوا بمنزلتهم الوضيعة ، وفى المناسبات السعيدة ، يبـــاح لهم تقبيل ذيل معطف الدوق ، بـدلا من يـده !

وتعلم شيلر فى المدرسة الحربية اللغات : اليونانية واللاتينيـــة والفرنسية ، والرياضيات والجغرافيا والتاريخ ، ودرس القانون ، ولكنه لم يبد شغفا به ٠ ونقلت المدرسة الحربيـــة بعد ذلك الى شتوتجارت ، وأنشىء بها قسم خاص بالدراسات الطبية ٠ وطلب شيلر الالتحاق بهذا القسم بسبب كراهيته للقانون ، وتضمن منهج دراسته دروسا فى علم النفس والأخلاق وعلم الجمال ٠ وكثيرا ما كان الأستاذ « أبل » أسـتاذ علم النفس يستشهد أثناء محاضراته بأمثلة من الأدب ٠ ولعل شيلر قد رضى بالبقاء فى هذه المدرسة ، من أجل تمتعه باللحظات القليلة التى كان يستمع فيها الى مثل هذه الأمثلة الأدبية الضئيلة ٠

وكان موضوع البحث فى الامتحـان النهـــائى هو : « الفلســفة والفسيولوجيا » ٠ ولم يرض الممتحنون عنه ، واضطر للبقاء سنة أخرى ، أمضاها فى أسوأ حال ٠ وفى امتحان التخرج ، تقدم ببحثين احدهمـــا باللاتينية ، والآخر بالألمانية عن « الصلة بين طبيعة الانسان الحيوانية وطبيعته الروحية » ٠ وأقر الممتحنون نشر هذا البحث ٠ وتخرج شيلر من المدرسة الحربية فى ١٤ ديسمبر سنة ١٧٨٠ م ٠

وعين طبيبا لآلاى مدفعيـة مرابط بشتوتجارت ، وكان يحمل لقبا متواضعا هو « فيلد شيرر » ولكنه كره عمله ، ولم يتصف بالمهـارة فى أدائه ٠ ولهذا كثيرا ما احتدمت الخلافات بينه وبين رؤســائه ٠ وأقبل فى نهم على القراءة فى الأدب ، بعد ان كانت محـــرمة عليه طوال مدة دراسته ، كما قام بكتابه أول مسرحية مشهورة له وهى « اللصوص » ٠

ولكن دوق فيرتمبرج غضب من اشتغاله بالكتابة المسرحية . ومن مغادرته مقر عمله الى مانهايم ، بغير معرفته · ولهذا أمر بحجزه فى المعسكر مدة أربعة عشر يوما ، كما اصدر كذلك أمرا بمنعه من الاشتغال بالكتابة · وصمم شيلر على عدم الاذعان للدوق ، الذى اشتهر بالقسوة والغطرسة · وهرب من شتوتجارت الى مانهايم · وحاول الدوق تعقبه ، وطالب المسئولين فى مانهايم بتسليمه · ومنذ ذلك الوقت ، بدأت متاعب شيلر ، أو بدأت حياته الحقة بمعنى أصح · فقد تعرض للجوع والحرمان والتشرد ، بعد أن فقد وظيفته الصغيرة ، وبعد أن اضطر الى الافتراق عن والديه · وازدادت أحواله سوءا بسبب ترفعه وابائه ، ونفوره من كل فعل يحط من كرامته ، أو يدل على تراجعه عن مصيره الذى اختاره لنفسه ·

وازداد اضطراب شيلر ، وكثرت تنقلاته بين المدن الألمانية الكثيرة بحثا عن أى عمل يتلاءم مع مواهبه الأدبية · ولم يشعر بأى اطمئنان الا بعد أن قابل « كيرنر » الذى كان يعمل مستشارا للبلاط فى درسدن ، ومن المولعين بالفلسفة والموسيقى والأدب والتاريخ ، ومن أفضل الملمين بفلسفة كانط بوجه خاص · وتأثر شيلر بثقافته تأثرا ملحوظا ، وظهرت آثار ذلك فى كتابه « رسائل فلسفية » وفى اقدامه على اتمام روايته المشهورة « دون كارلوس » ·

ولن يهمنا بعد ذلك من حياة شيلر الا الفترة التى أمضاها فى كل من « فيمار » و « يينا » · فقد كانت فيمار كعبة الفكر والأدب فى تلك الأيام · ومن الواجب ارجاع الفضل فى ذلك الى دوق فيمار ، وثقافته الرفيعة ، وتشجيعه للأدباء والمفكرين ·

فعندما وصل شيلر الى فيمار فى يوليو سنة ١٧٨٧ ساعده أصدقاؤه على الحصول على وظيفة ثابتة ، مدرسا للتاريخ فى جامعة « يينا » · وفى يينا قابل أصدقاء عديدين من المشتغلين بالفلسفة والفكر من أمثال جوته (٤)وهمبولت وفيشته (٥) الذى كان قد عين أستاذا للميتافيزيقا خلفا للفيلسوف راينهولت ·

وتوطدت الصلة بينه وبين جوته فى فترة اقامته فى يينا ، وخاصة بعد سنة ١٧٩٤ · وكثيرا ما أمضى جوته أياما طويلة معه عند زيارته الى يينا ، وكثيرا ما تبادلا الرأى فى مختلف الموضوعات · واعترف جوته بأن شيلر هو صاحب الفضل فى اعادته الى كتابة الشعر بعد انقطاعه عنه ، واتجاهه الى العلم ، وانه أعاده الى الشباب ثانية · واشتركا معا فى

كتابه « ابيجرامات » التى تميزت بشدة سخريتها · وفى هذه الفترة وهن اهتمـــام شيلر بالفلسفة والميتافيزيقا ، وازدادت عنـــايته بالشعر · وقد يعزى هذا التغير الى أثر جوته ، لأنه كان يرى الشعر فى منزلة أسمى من الفلسفة · ففيه على حد قوله كل شىء يبدو فى صورة حقيقية حية بهيجة متوافقه ، بعكس الفلسفة التى تظهر الأشياء جامده مجردة مصطنعة · وفى الشعر ، تبدو الحياة فى صورة متآلفة ، أما الفلسفة فانها تظهرها مليئة بالنقائض والمتنافرات · وعلى هذا يصح فى نظر جوته اعتبار الشـــاعر وحده هو الانسان بمعنى الكلمة !

والجدير بالذكر أن شيلر توفى يـــوم ٩ مايو ســـنة ١٨٠٥ ، فى الخامسة والأربعين من عمره ·

هذه خلاصـــة مركزة لحياة شيلر القصـــيرة والعميقة ، ولا يختلف المؤرخون كثـــيرا فى اشادتهم بدوره وبدور جـــوته فى خلق أدب ألمانى عالمى · فلم تعرف أكثر المحاولات الأدبية السابقة لهما خـــارج ألمانيـــا الا فيما ندر · ولا يختلف المؤرخون كذلك فى الثناء على شيلر ، وتشامخه واعتزازه بذاته ، وعدم استســـلامه لليأس أو القنـــوط ، لأنه لم يكن متشائما ، اذ اعتقد فى وجود قوة فى الانسان تســـاعده على التســـامى والتحليق بعيدا عن أوصاب الحياة ·

★★★

فلسفة شيلر .. بين التصور والتأمل !

بقى بعد ذلك تناولنا لفلسفة شيلر ، وفلسفته الجمالية بوجه خاص ، وقد أدرك شيلر نفسه مدى اختلافه عن الفلاسفة الذين تقتصر مهمتهم على التأمل البحت . ولهذا قال فى رسالة الى فيشته : « اننى لا أود توضيح افكارى الى الآخرين فحسب ، بل أود أن أقدم لهم روحى بأسرها ، كما أحاول التأثير فى أحاسيسهم بالاضافة الى عقولهم » . وأدرك أحيانا صعوبات الجمع بين خصائص الشاعر وخصائص الفيلسوف ، وقال : « فى الوقت الذى يطرح فيه الفيلسوف خياله جانبا ، وفى الوقت الذى لا يعنى فيه الشاعر بالتجريد ، فاننى أرى نفسى مرغما ، عندما أعمل شاعرا وفيلسوفا فى نفس الوقت على الاحتفاظ بالقدرتين (الخيال والتجريد) . ولن أستطيع المحافظة على تجانس القدرتين ، الا اعتمادا على جهد فكرى باطنى مستمر » . وفى أحيان أخرى أظهر تشككا فى فلسفته الفريدة بعد امتزاجها بروح شاعريته ، مما أدى الى انكار البعض انتماءها الى الفلسفة أو الشعر معا . ولهذا أرسل الى جوته يقول : « ان عقلى يعمل وفقا لطريقة رمزية ، فأنا أرفرف مثل الطيور الهجينة ، وأحار بين التصور والتأمل ، وبين المنطق والشعور ، والاعتماد على الفهم والقريحة الخلاقة ، هذه الحالة هى التى جعلت أفكارى وأشعارى ، وخاصة فى مستهل حياتى ، تبدو فى صورة حمقاء بعض الشىء . فقد كان جانبى الشعرى يطغى ، عندما كان الواجب ان أتفلسف ، كما أن روحى الفلسفية كانت تتحكم عندما أود قول الشعر . وحتى الآن ، كثيرا ما يتدخل الخيال فى تفكيرى المجرد ، كما يقتحم الفهم — فى برود — أشعارى » .

ولكننا فى الحقيقة ، وبعد قراءة بعض كتابات شيلر الفلسفية ، قد نرى انه ظلم نفسه كثيرا بهذا التحليل . فلا يصح انكار أهمية أكثر أفكاره الفلسفية ، فى علم الجمال بوجه خاص ، وقد أشار بذلك كثيرون، فى مقدمتهم هيجل وشلنج (٦) ، وان كان بعض الأدباء لم يرضوا عن تجربة الجمع بين الشعر والفلسفة .

هذا يدلنا على أن تجربة الجمع بين الشعر والفلسفة لاتلقى تأييدا على الدوام · ولكن الرسائل التى سوف نعرضها فى هذا الفصل من الكتاب « فى التربية الجمالية للانسان » قد استطاعت اثبات أهميتها الفلسفية · اذ ندر ظهور مؤلف فى علم الاستاطيقا (٧) ، لم يعن بعرضها، والتنويه بقيمتها · ولابد من ارجاع ذلك الى معرفة شيلر العميقة بفلسفة معاصريه · فقد قرأ فلسفات بعضهم مثل كانط ، وقابل البعض الآخر مرارا فى « ييينا » من أمثال راينهولت ، وفيشته وهومبولت ، والى جانب هذا ، فقد عرف الفلاسفة اليونانيين ، وقرأ أكثر مؤلفاتهم باللغة اليونانية نفسها · وهذا يعنى انه لم يكن مجرد مردد لفلسفة كانط ، ففى فلسفة الجمال بوجه خاص ، استطاع تعمق عدة موضوعات لم يطرقها كانط ، وخاصة فى رسائله : « عن الشعر فى صورته الفطرية ، وفى صورته العاطفية » · ففيه مقارنة فلسفية بين اتجاه اليونانيين الطبيعى ، والاتجاه الحديث المثالى · ولم يضف من أعقبوه من فلاسفة تاريخ الفن ، من أمثال شليجل (٨) وشلنج شيئا ذا قيمة الى فكرته ·

★★★

نظرية شـيلر :

الجمال ومهمته فى تحقيق التوافق النفسى

من البدء ، ينبغى التنويه بأن دراســـتنا هذه ستتركز على كتاب فلسفى من كتب شيلر · وهذا يعنى اننا لن نتناول الا فى صورة عرضية عابرة جوانبه الأدبية المتعددة ، التى تمثلت فى شاعريته الفذة ، باعتباره من أعظـــم ممثلى الأدب الألمانى الحديث ، كما تمثلت فى دوره الكبير فى التمهيد للحركة الرومانتيكية بألمانيا ·

ولرسائله قصة طريفة ينبغى ذكـــرها ، قبل البدء فى تلخيصها اذ هى تدل على مدى ترفع شيلر ، وعدم تقبله أية هبة أو منحة بغير مقابل· فيقال ان الكاتب الدنيماركى « ينس باجيسين » قد أعجب بها أيما اعجاب· فلما عـاد الى وطنـه تحـدث عنـه مليا الى أمير أوجستنبرج ، والى وزيره الكونت فون شيملمان · وسرعان ما تأثر الأمير والوزير بهذا الثنـــاء · فلما عرف الأمير بعد ذلك بحالة الضنك التى يحياها شـيلر ويتوجعه من آلام المرض (١٧٩١) · رأى ارسال منحة تقدر بثلاثة آلاف تالر الى شيلر ، على أن يدفع ألف تالر اليه سنويا ·

وقد قبل شيلر هذه المنحة ، ولكنه رأى أن يهدى الأمير مجموعة من الرسائل الفلسفية اعترافا بفضله ومآثره ، وكمـا تلقى المنحة على ثلاث دفعات ، فانه قد نظم رسائله فى ثلاث مجمـــوعات أيضـــا ، كتبها فى سنتى ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ م ·

وتتألف المجموعة الأولى من تسع رسائل ، وتدور حول فكرة تحويل الدولة من صورتها الخاضعة للطبيعة الى صورة مثالية ، مع بيان العوائق التى تحول دون انجاز ذلك ·

أما المجموعة الثانية ، فتتألف من سبع وســائل ، تتضمن تحليلا لمعنى الجمال ·

ثم نجيء اخر مجموعه وهى مولفـــه من احدى عشره رســـــاله ، موضوعها : مهمة الفن ٠

وترتكن نظـرية شـيلر على افتراض أن الانســان يتبع عالمين ، وأنه مرغم على اتباع طريقين متعارضين فى نفس الوقت ، كما انه مطالب بتلبية مطالب كلا الطرفين ، الى جانب ضرورة التوفيق بين ما يظهر من تعارض بينهما ٠ وتتحقق هذه الغـــاية بوســـاطة العنصر الجمـــالى (الاستاطيقى) الذى يوحـــد بين المادة والشكل ، وبين ما هو حسى ، وما هو عقلى ، ولن يصبح الانسان حرا ، الا بعد تحقيق هذا التوافق ٠ فلا يصح اعتباره حرا ، مادام يتبع أى حافز من هذين الحافزين ٠

ولم ير شيلر الجمال وسيلة لتحقيق التوافق النفسى فى الانسان فحسب ، اذ هو قد رآه كذلك الوســـيلة الوحيـدة لتخليص المجتمع من شروره ٠ فقد شكا فى رسالته الثانية من احداث عصره ، وخضوعهـــا المطلق للضرورة ونجاحها فى اخضاع كل ما هو انسانى وروحى لمشيئتها ٠ فقد أصبحت المنفعة صنم العصر الأكبر ، ومن واجب الجميع الانحناء لهذا الصنم ٠ واعلان ولائهم له ٠ وفى مثل هذه الحالة ، لم تعد لقيمة الفن الروحية أى اعتبار ٠ ولقد نجحت الأبحاث الفلسفية المجردة من كل روح فى القضاء على الخيال الانسانى ، وترتب على ذلك انكماش رقعة الفن ، فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه سيطرة العلم وهيمنته ٠ ورأى شيلر أن مساوىء عصره السياسية لن تحل الا بوساطة العنـــاية بالجمـــال ، لأن الاهتمام بالجمال وحده هو الذى سيجيء بالحرية ٠٠

ويوضح شيلر رأيه هذا ، الذى قد يبدو غريبا لأول وهلة بقوله : « ان الطبيعة هى التى تسير الانسان ، اذا رأته عاجزا عن اســـتخدام حريته وروحه ، ولكن الانسان قد لايرضى عن الاستسلام للطبيعة ، ويحاول بعقله اكتشاف أمرها ، ويترتب على ذلك نجاحه فى ابداع شىء من اختياره عوضا عن المعطيات الطبيعية ٠ وبذا يستيقظ الانسان من سباته المترتب على خضوعه للحس ، ويعرف نفسه وروحه ٠ وينتهى شـعوره السلبى تجاه الدولة ، وتجاه ما ظنه قوانينها الطبيعية ٠ والضرورات التى فرضتها عليه ٠ وأول ما يذكره بهذه الحرية هو الفن » ٠

على أن الخلاص من هيمنة الدولة وسيطرتها ليس مسألة هينـــة ، كما يبدو من الكلمات السابق ذكرها ٠ اذ أن هيمنـــة الدولة والطبيعة قد ارتبطت بسيطرة العلوم الخاضعة للضرورة ٠ وما فيها من ابتعاد عن كل ما هو روحى ٠ وتمزيق لما له وحدة أصلية ٠ وتزيد الأمور تعقيـدا

بفعل السيطرة الحكومية وجهازها المصطنع . ومن ثم أصبح التحرر من الضرورة أمرا شـــاقا . فالدولة بمعنى الزمن لم تعد بحاجة الا الى التحرر اليسير من قدراتنا ، كما انها قد أصبحت تشعر بعداء نحو كل من يحاول التحرر ، أو الافلات من الدور المحدد الذى قررته له . والعلم كذلك فى أساليبه التحليلية ، وشدة التصاقه بالطبيعة والواقع ، قد أضعف من خصب الخيال وحريته ، كما غدا الحس سيد الموقف ، وأصبح المنهج التجريبى لايحرص على شىء سوى التركيز على التجربة والتزام حدودها ، وتمخض ذلك عن قمع الخيال وخضوعه لنظام آلى رتيب ، وتوقفـــه عن الانطلاق بحرية تساعده على تأكيد وجوده . واذا كانت الأجسام فى حاجة الى ممارسة تدريبات بدنية مختلفة ، تقوم فيها بتحريك أعضائها بحرية ، فلا جدال أن الملكات الانسانية بالمثل فى حاجة هى الأخرى الى تدريبات ، ويترتب على استخدام هذه المواهب بحرية ظهور الفن .

وشيلر هنا يعنى الفن بمعناه الروحى العميق ، اذ هو لايعنى الفن الجزئى الخاضع لضرورات الطبيعة أو الذى أصابه داء العصر ، أو الذى أصبح مماثلا للعلم فى شدة خضوعه للقوانين والقواعد والأصول .

ولكن كيف يستطيع الفنان أن يؤمن نفسه ضد مساوىء عصره التى تحيط به من كل ناحية ؟ وهل يقصـــد شـــيلر عدم الاعتراف بالواقع أو تجـــاوزه ؟

ان شيلر لم يلجأ الى مثـــل هذا الحل . اذ رأى من واجب الفنان السعى نحو الجمع بين الممكن والضرورى .

فنحن لا نستطيع انكار وجود مطلبين متعارضين عند الانســان . المطلب الأول يدعو الى ضرورة الخضوع للواقع والضرورات المادية ، أى أن يصبح الانسان جزءا من العالم أو الواقع . فاذا أراد الانسان ألا يصبح جزءا فى هذا العالم ، فعليه أن يبتدع شـــيئا ، أى يصنع شكلا متمايزا متوافقا يفرضه على كثرة المادة المضطربة .

فهناك اذن حافزان فى الانسان ، أحدهما حسى مرتبط بالجانب الطبيعى أو الحسى فى الانسان ، ويرمى الى تقييده بقيد الزمن وتحويله الى كيان مادى ، وجعله يقنع بالوجود المتناهى ، وعدم البحث عن التسامى أو عن أى لا متناهى ينتمى الى غير الحـاضر . أما الحـافز الثانى ، الذى سماه شيلر : الحافز الصورى ، فينبع من طبيعة الانسان العقلية وتعلقه بالمطلق ، وهو يسعى الى تحريره ، والى المحافظة على كيانه وسط اضطراب الظواهر الطبيعية ، وتضخم الذات وعدم خضوعها للحس ، وتمكنها من

القضاء على كل النقائض بواسطة الفكر المثالى ، واذا حدث ذلك ، شعرنا وكأننا لم نعد خاضعين لزمان ، وكأننـــا صـــوت كلى يعبر عن الروح الانسانية كلهـــا ٠

ولأول وهلة يبدو هذان الحافزان متعارضين ٠ فكيف اذن نستعيد وحدة الطبيعة الانسانية ؟ وأول حل يتبادر الى الأذهان هو خضوع الحافز الحسى بغير قيد أو شرط للحافز العقلى ٠ ولكن مثـــل هذه السيطرة ، حتى لو تحققت ، فانها لا تعد حلا موفقا فى نظر شيلر ، لأنهـــا ستترك الانسان مشتتا ٠ ومن الواجب لذلك ابقاء الحدود الفاصلة بين الحافزين٠ فلا ينبغى أن يتدخل الحس فى أى شىء يخص العقل ، كما ينبغى ألا يقرر العقل شيئا يخص الشعور ٠ ومعنى ذلك هو ادراك الاختلاف الضرورى القـائم بين الحافزين ، وعدم الخلط بينهما ٠ ولن تتحقق هذه النتيجـة الا بفضل التعلم والثقافة ٠ فبفضلهما تتم حماية الملكات الحسية من تأثير الحرية ، كما تتم كذلك حماية الشخصية الانسانية من طغيان الحس ٠ فلا ننسى أن العالم ممتد من مكان وزمان ، ويتألف من أشياء دائمة التغير، ومن ثم ينبغى أن تكون الملكات التى تربط الانسان بالعـــالم قادرة على التمييز ٠ غير أن هذه الملكات ينبغى أن ترتكز على جوهر راسخ يتصف بالاستقلال والحرية ، والقدرة على الوقوف فى وجـه الطغيـان الحسى ، اذا تجاوز حدوده ٠

الانسانية غايتها الكمال

من هذا يتضـح ضرورة صـقل الانســان بحيث يحقق غايتين : الحصول على أكبر قدر من المادة المعطاة نتيجة للقاءاته المتعددة بالعـالم ٠ ثانيا : ضمان تقوية الجانب الارادى ، وجعله مســتقلا عن المعطيـات الخارجية ٠ فاذا تعاونت هاتان الغايتان ، أمكن للانسان أن يسمو بوجوده الى أعلى مرتبة ٠ فبدلا من استسلامه للعالم الطبيعى ، فانه سـيجعل هذه الدنيا بما فيها من ظواهر متعددة كامنة فى نفسه ، كما انه سيوفق بينها وبين وحدة عقله وروحه ٠

على أنه فى حالة الانحراف ، تتحقق نتيجتان عكسيتان ، فاذا أصبح الحافز الحسى مهيمنا ، كان معنى هذا اختفاء الكيان الانسـانى ، ونهاية الشخصية الانسانية ٠ واذا ساد الحافز العقلى ، تحول كل شىء الى شكل بغير مضمون ، أى أصبح مجرد أشـــكال مجردة خاوية ٠ فالحافزان اذن فى حاجة الى ما يقيدهما ٠

ومشكلة التوفيق بين هذين الحافزين هى مشكلة العقل ، وحلها يعنى الوصول الى الكمال ، لانها غاية الانسانية بأسرها · فعلى الانسان كما ذكر شيلر ألا يسعى من أجل ادراك الأشكال العقلية (الروحية) على حساب واقعيته ، كما ينبغى ألا يسعى من أجل الواقع على حساب الشكل· وعليه بالاحرى أن يوازى بين الجانبين ، لأنه لن يصبح انسانا حقيقيا ، اذا حقق رغبات أى حافز مع انكار الحافز الآخر ، أو اذا حقق رغباتهما بالتبادل ، لأنه لو اكتفى بالجانب الحسى ، لظل وجوده المطلق نتيجة لهذا سرا مغلقا فى نظره ، ولو اكتفى بالجانب العقلى وحده فانه سيعجز عن ادراك وجوده المشخص · ولكن اذا استطاع أن يشعر بوجوده المادى ، وبوجوده الروحى معا ، فانه سيدرك انسانيته ادراكا كاملا ·

وحدوث ذلك يؤدى الى تنبه حافز جديد فى الانسان ، سيبدو متعارضا مع كلا الحافزين ، ولهذا السبب ، فانه سيبدو مختلفا · وهذا الحافز أسماه شيلر حافز « اللعب » ! · ويشعر شيلر بأن هذه الكلمة ستبدو غير مستساغة ، ولذا يقول فى رسالته الخامسة عشرة : « لعلك قد شعرت باغراء على الاعتراض ، وعلى الظن باننا قد حططنا من قدر الجمال عندما جعلناه مجرد لعب · وربما ظننت ان الأشياء الجميلة قد انحطت الى مرتبة الأشياء التافهة ، التى ارتبطت فى أذهاننا بكلمة « اللعب » · ألا يسىء هذا الاصطلاح الى مكانه الجميل الذى ننظر اليه أساسا من أسس الحضارة ، اذا جعلناه مجرد « لعب » · وألا يتعارض ذلك مع الفكرة التجريبية عن اللعب ، التى لا يلزم أن تكون مرتبطة بالتذوق الجمالى » ·

ولا يرى شيلر ان استخدام الكلمة سيؤدى الى أية اساءة فهم ، أو الى الحط من قيمة الجمال ، شريطة ألا نتخيل عند استماعنا الى كلمة (لعب) الأشياء المادية أو الغايات المادية ، التى نربط بينها وبين اللعب· وليس هناك ما يدعو الى الاعتراض على كلمة (لعب) ما دمنا عند اللعب نشعر باكتمال الشخصية الانسانية وتوافقها · وفكرة اللعب قد جاءت من تأثر شيلر بكانط · فان كانط قد استخدمها كذلك عند كلامه عن الحكم الجمالى للدلالة على ما تقوم به الملكات الانسانية بحرية وهى متوافقة ·

ونستطيع تحديد دور حافز اللعب بالرجـوع الى الحافزين الحسى والصـورى · فالحـافز الحسى يختص بالجوانب المادية كافة ، أى بكل ما يظهر بطريقة مباشرة للحس ، أما الحافز الصورى ، فيعنى بالخصائص الشكلية أو الصورية فى الأشياء وبكل صلاتها بملكاتنا العقلية · ومن ثم فان موضـوع حافز اللعب هو الجمع بين الشـكل والحس ، أى تحقيق الشكل الحسى أو الجميل ·

★★★

الجمال يمثل الكمال الانسانى

وبعد كل هذه المقدمات التى بين فيها شيلر ، كيف يتحقق الجميل بتوفيقه بين الحافزين الحسى والعقلى بوساطة ما دعاه : حافز اللعب ، تكلم عن الجميل · فذكر أنه ليس خاصا بالأشياء الحية فحسب ، لأن العمود الرخامى برغم افتقاره الى الحياة ، يمكن أن يظهر فى شكل حى ، بفضل كل من المهندس والنحات والمثال · كما أنه لايلزم أن يكون الكائن الحى ، رغم أنه يحيا ، ذا شكل حى ، لأننا اذا نظرنا الى الكائن الحى ، ولم نر فيه شكلا متمايزا ، فانه لن يبدو فى نظرنا شيئا حيا ، بل سيبدو مجرد مجموعة من التأثيرات · فالانسان اذن ليس مجرد مادة مفرغة من أى روح، كما انه ليس محض روح فحسب ، ومن ثم فان الجمال باعتباره يمثل الكمال الانسانى ، لايمكن ان يكون مجرد حياة أو مجرد شكل ، ففيه يلتقى الجانبان الروحى والمادى ·

ويستخلص شيلر من ذلك أن الجمال يقع فى موقف وسط بين المادة والشكل ، وبين الفاعلية والانفعالية · والجمال هو الذى يوصلنا الى هذه المكانة المتوسطة · ولعل هذا التصور هو ما يشعر به الكثيرون عند تأملهم للجميل ، وان كان أكثر الفلاسفة لايقبلونه لشعورهم بالهوة السحيقة التى تفصل بين المادة والصورة ، وبين الحس والفكر ، مما جعل التوفيق بينهما أمرا شاقا ·

ويعنى شيلر بالتغلب على هذه الصعوبة ، لأنها أساس نظريته كلها، ويرى أن السر فى الاضطراب الذى ساد العالم الفلسفى يرجع الى ان الفلاسفة قد بدأوا بحثهم بالفصل بين العنصرين : الروحى والحسى فى العمل الفنى · وعجزوا عن الشعور بكيف تتحقق الصلة بين هذين الجانبين فى الفن ، لأنهم اعتمدوا على التحليلات التى يقوم بها الفهم · ومن ثم لم يروا سوى جوانب متفرقة منه ، وظل لهذا السبب الجانبان الروحى والمادى فى نظرهم منفصلين · وأكثر الناس لايشعرون بوجود هذه الفجوة القائمة بين الحس والفكر ، أو بين الناحية المنفعلة والناحية

الفعالة الايجابية ، لان ادراكهم يخضع لتاثير الحافز الحسى ، ولا يحاول تجاوزه على أن تعدى المرحلة الحسية ، أى محاولة استبدال الناحية الفكرية الفعالة بالناحية الحسية المنفعلة ، لايمكن أن يتم الا بعد مرحلة انتقالية ، يظهر فيها كل من الحس والفكر فى صورة فعالة ، ويترتب على ذلك ظهورهما فى مظهر مختلف عن حالتهما الأصلية · هذه المرحلة المتوسطة لايصح وصفها بأنها حسية أو عقلية ، ولهذا السبب أسماها شيلر مرحلة جمالية (استاطيقية) ·

واختلاف هذه المرحلة الجمالية عن كل من المرحلتين الحسية والعقلية هو الذى دعا الناس الى الاعتقاد بعدم أهمية الجمال ، وبأنه لا يؤدى الى شىء من ناحية المعرفة · فهم لا يرون الجمال ذا أثر حقيقى فى حياتهم مثل الفهم أو الارادة · لأنه لا يكشف عن أية حقائق ، كما انه لايساعد على القيام بأى عمل ارادى معين ، ومن هنا يكون التآمر الجمالى أمرا عديم الجدوى · وغاب عن هؤلاء الناس ، ان تأمل الجميل يحقق شيئا هاما · فهو يشعرنا بالحرية ، وبقدرتنا على الافلات من قبضة الطبيعة ، ومن ثم فمن واجبنا أن نعتقد أننا بفضل تأمل الجميل ، نستطيع ان نشعر بجوانبنا الانسانية ، بحيث يصبح القول بأن من لم يمر بهذه التجربة ، لن يستطيع ادراك ، ما هو الانسان ؟ فالمرحلة الجمالية تمثل الانسان أفضل تمثيل ، لأن الجوانب الانسانية كافة ممثلة فيها · ومن يتأمل الجميل يدرك جوانبه الفعالة والمنفعلة معا · والعمل الفنى الحق هو الذى يجعلنا نشعر بحرية أرواحنا وبقدراتنا ، وبمدى ما نستطيع أن نحققه ، وبزوال أى نقائض بين عقل وحس ، أو حرية وضرورة ·

على أن بلوغ هذه المرحلة الجمالية ليس أمرا سهلا أو هينا · فكثيرا ما تعوق جوانبنا الطبيعية التى أصبح لها الغلبة فى أكثر الأحيان تجربة تذوقنا العمل الفنى · ولهذا السبب لا يتأثر الكثيرون الا بنواحى الموسيقى الحسية · فهم لايشعرون بأسمى خصائصها ، ومن ثم فانهم لايعرفون المشاعر الجمالية الحقة ، أى الشعور بالحرية وبالتحرر من كل تأثير طبيعى أو حسى ·

والفنان مطالب بالتغلب على الجوانب المادية التى يصادفها فى مادته الوسيطة ، وبارغام مضمون عمله الفنى على الانصياع للأشكال الروحية التى يفرضها عليها · فسر العبقرية الفنية اذن ، هو القدرة على تحطيم كل مظهر مادى بوساطة الشكل الروحى ·

التربية الجمالية

ويؤمن شيلر بقيمة التربية الجمالية · فهى وحدها التى تستطيع أن تخلق التوافق فى المجتمع · لأنها هى التى أحدثت التوافق فى الفرد ، فكل أنواع الادراك الحسى أو العقلى تؤدى الى تشتيت الانسان ، لأنهـــا اعتمدت على الجوانب الحسية فى كيانه ، أو على الجوانب المرتبطة بالفهم· وادراك الجميـــل وحده هو الذى يجعله يرى الاشياء فى صورة كليـــه . اذ يلزم أن تتوافق جوانبه المختلفة حتى يتم هذا التذوق · وكل السبل الأخرى ــ غير الجمالية ــ تؤدى الى انقسام المجتمع ، لأنها قد تكون مرتبطة بالمنفعة أو بشهوات حسية · أما المشاركة فى تذوق الفن ، فانها وحدها التى توحد المجتمع · ففى هذه التجربة ، يشعر المجتمع بالرابطـــة بين أفراده ، لأن العمل الفنى قد عبر عن شىء يشترك فيـــه الجميع · فنحن نستمتع بمتعنا الحسية بوصفنا أفرادا فحسب ، الا أن العنصر الانسانى الكلى الكائن فينا لا يشارك فى مثل هذه المتع ، ومن ثم فاننا لا نستطيع أن نحول متعنا الحسية الى أشياء كلية · والأمر بالمثل فيما يتعلق بجوانب الفكر أو جوانب المعرفة · أما فى حالة الجميل ، فالأمر مختلف ، لأننا نستمتع به بوصفنا أفرادا ، وبوصفنا ممثلين للانسانيه كلهـــا · والشىء الحسى يسعد انسانا بمفرده ، لأنه مرتبط بالملكية الفردية أو الاستحواز· أما الجميل ، فهو قادر وحده على اسعاد العالم ، ومن ثم فان كل كائن انسانى ينسى حدوده عندما يقع فى ســـحر الجميل · وعندما يأسرنا الجمال ، فاننا لانرضى الخضوع لأى عالم آخـــر · وهذا العالم يقع بين عالمين ، هما : عالم العقـــل المطلق ، حيث تتلاشى كل ضرورة ، وحيث لا شىء ينتمى الى المادة ، وعالم الطبيعة حيث يســـود الحافز الطبيعى ، وحيث كل شىء يسوده الارغام ، اذ لا وجود فيه لأى شكل من أشـــكال الروح ·

★★★

هوامش

(١) داروين ! راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) سبنسر : فيلسوف انجليزى (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ م) ٠

(٣) كروتشه : بنديتوكروتشه : فيلسوف ايطالى (١٨٦٦ ـ ١٩٥٢) قال بمذهب مثالى متأثر بهيجل ٠ وتتضح فلسفته المثالية فى كتابه « فلسفة الروح » ٠

(٤) جوته : يوهان فولفنجانج فون جوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) شاعر وكاتب مسرحى وروائى ألمانى ٠ شملت عبقريته العالمية ميادين أخرى وبخاصة فى ميدان العلم ٠

(٥) فيشته : يوهان جوتليب فيشته (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) فيلسوف ألمانى وزعيم سياسى ٠ تأثر بفلسفة كانط ٠

(٦) شلنج : فريدرخ فيلهلم شلنج (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) فيلسوف ألمانى ساعد على قيام الحركة الرومانسية فى الفلسفة ٠

(٧) علم الاستاطيقا : فلسفة الجمال المتمثلة فى الفن ٠

(٨) شليجل : أوجست فيلهلم فون شليجل (١٧٦٧ ـ ١٨٤٥) مؤلف وباحث ألمانى وزعيم الرومانسية ٠

فلسفة التاريخ

هيجل

١٨٣٢ م

مقدمة عن الاتجاهات المختلفة فى تفسير التاريخ :

يحتل التاريخ مكانة متميزة وسط العلوم الانسانية ، ويعد التاريخ من المواد الاجتماعية التى تعنى بدراسة الانسان من حيث علاقاته مع الأفراد والجماعات وعلاقاته مع بيئته والمشكلات الناجمة عن هذه العلاقات ، وخاصة وأن الكائن البشرى يمتاز من بين كل الكائنات بالذاكرة ، ذاكرة فردية ، وذاكرة جماعية ، ان التاريخ هو ذاكرة الجماعات ، هكذا كان قديما ، وهكذا هو اليوم ٠

ولقد شهد القرن التاسع عشر تطورات واسعة شملت جوانب التاريخ المختلفة ، فقد حدثت زيادة فى حجم المادة التاريخية كان مصدرها تنوع فروع التاريخ وآفاق المعرفة التاريخية واحتواءها بجانب كل ما كانت تحتويه من قبل ، علم تاريخ العلوم والفكر والتطورات الاجتماعية والاقتصادية وتاريخ الفنون ، والتواريخ المقارنة من جهة ، ويقظة الشعوب التى كانت مغلوبة على أمرها والتى أخذت تشارك فى كتابة تاريخها والاضافة اليه ٠

ولقد تبلورت فى القرن التاسع عشر معظم الاتجاهات المختلفة فى تفسير التاريخ ، علما بأن عددا من هذه الاتجاهات له جذور تعود الى العصور التاريخية القديمة ٠ ومثال ذلك : الاتجاه البطولى ، والاتجاه الدينى ، وكذلك الاتجاه الجغرافى والاتجاه الدورى ، ومن أشهر الاتجاهات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر وما زالت آثارها على كتابة التاريخ وتدريسه الى الوقت الحاضر ، الاتجاه المادى والاتجاه المثالى فى تفسير التاريخ ٠

١ ـ الاتجاه البطولى فى تفسير التاريخ :

ويعتبر الاتجاه البطولى فى تفسير التاريخ من أقدم التفسيرات التى عرفها الانسان ، وهو يعنى أن الأعمال التى للرجال العظام هى التى تصنع الحوادث التاريخية فى هذا العالم ٠ ولقد بدأ هذا الاتجاه منذ زمن

اليونان ، فملحمتا الالياذة والأوديسة للشاعر اليونانى « هوميروس » تعتبران نموذجا لتمجيد البطولة والابطال ، ولقد جاء فى مقدمة كتب التاريخ التسعة المعروفة باسم (التواريخ) للمؤرخ اليونانى هيرودوت(١) بأنه كتب تاريخه على أمل أن يحفظ به أعمال الناس ولكى يمنع الأعمال العظيمة والمدهشة التى قام بها اليونان والبرابرة ، يعنى (غير اليونان) ، من أن تفقد ما تستحقه من التمجيد · ومن هنا ظن هؤلاء المؤرخون ، أن السبب الرئيسى للتغيير فى التاريخ هو بسالة عظماء الأبطال والكهنة والملوك ·

وبعد هيرودوت جاء المؤرخ اليونانى « توكيديس » (٤٦٥ ـ ٤٠١ ق·م) بنظرية (الرجل العظيم) ، وفيها يوضح الدور الذى يلعبه الأبطال فى صنع التاريخ · لأن أعمال الأبطال من ملوك وقادة وشجاعتهم هى التى صنعت التاريخ · ولقد وجهت هذه النظرية المناهج التربوية زمنا طويلا ، ولقد عمد بلوتارك الى تحليل وتمجيد الشخصيات التى شاركت فى صنع وأهملت الدور الذى تلعبه الشعوب فى صنع الأحداث التاريخية ·

ان الطابع الذى اتسمت به كتابة معظم المؤرخين الاغريق ظل مقتصرا على قصص الأبطال وشجاعتهم الخارقة فى مختلف ميادين الحرب والقتال ·

ثم جاء المؤرخ الرومانى الشهير « بلوتارك » (١٢٥ ـ ٤٦ ق·م) الذى جمع فى شخصه شخصية المربى وشخصية المؤرخ بكتابه (حياة العظماء) مؤكدا ما أكده توكيديدس من قبل بشأن نظرية الرجل العظيم · ولقد عمد بلوتارك الى تحليل وتمجيد الشخصيات التى شاركت فى صنع التاريخ للعالم ·

ويمكن القول بأنه منذ عصور الملكيات الوثنية التى قامت فى عصر البرونز بمصر وبلاد الرافدين والصين وبسبب الاعتقاد بقوى خارقة تنسب للملك فان الاعتقاد كان سائدا بأن الملك هو العامل الوحيد المؤثر فى كافة الأحداث التاريخية ·

ولقد استمرت نظرية الرجل العظيم فى تفسير التاريخ خلال العصور الوسطى والحديثة والى ذلك يشير الفيلسوف الانجليزى « هربرت سبنسر » (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م) حيث يقول : لقد كان الملك فى العصور الماضية يمثل كل شىء بينما بقية الناس لا يمثلون شيئا ، ولذلك كانت أعمال الملك تغطى الصورة بكاملها ، بينما تكون أنماط حياة الشعب خلفية غامضة ·

ومن أشهر المدافعين عن الاتجاه البطولى فى تفسير التاريخ « توماس كارليل » (١٧٩٥ ـ ١٨٨٥) · وكان ذلك فى كتابه « الأبطال « حيث يقول : فى اعتقادى أن التاريخ العام تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا

العالم ، انما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الاسوة والقدوة وهم المبدعون بكل ما وفق اليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه من هذا الوجود ٠

وكان هيجل قد أوضح ان الرجل العظيم ليس نتاج الأحوال المادية أو الاجتماعية أو البيولوجية ، بل انه يعبر عن روح زمنه أو انه روح حضارته ، ويتوقف ظهوره على قالب مقدر ومكتوب خارج حدود الزمن وهو يتخلل الأحداث فى الوقت المناسب بطريقة غامضة ٠

وهكذا فقد اعتبر بعض المؤرخين التاريخ من صنع الأبطال العظماء ، فى حين أنكر البعض الآخر أى أهمية لدور الأفراد لاعتقادهم بأن الأبطال ليسوا الا نتاجا للقوى الاجتماعية المحيطة بهم ٠

٢ ـ الاتجاه الدورى فى تفسير التاريخ :

لقد ظهر هذا الاتجاه منذ زمن اليونان ، وهو يدور حول معنى رئيسى هو : أن تاريخ العالم يجرى فى دورات متتالية ومتشابهة ٠ بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد وبأشكال متقاربة وتترتب عليها بالتالى النتائج نفسها ٠

ويعتبر الفيلسوف اليونانى أفلاطون (٤٢٨ ـ ٣٤٨ ق٠م) من ممثلى هذا الاتجاه فى ذلك الزمان ، فهو يرى أن التاريخ عبارة عن مجموعة من الدورات لابد من أن تنتهى بالانحلال والتفكك والكوارث ٠

ومن مؤرخى هذا الاتجاه المؤرخ العربى « ابن خلدون » (٢) الذى يرى بأن كل دولة يجب أن تمر بعدة أدوار هى : دور العمران ثم دور القوة والازدهار ثم دور الضعف والانحلال ٠ ومن مؤيدى الاتجاه الدورى فى تفسير التاريخ فى العصور الحديثة المؤرخ الايطالى (فيكون ١٦٦٨ ـ ١٧٤٤ م) الذى وضع نظرية فى تطور الأمم سماها « نظرية الدورات » ٠ وحسب هذه النظرية فان كل أمة من الأمم تمر فى ثلاثة أدوار تنتهى الى بربريتها وانحلالها ، وهذه الأدوار هى : الدور الالهى ، وفيه يعتقد الناس بأن الآلهة تدير كل شىء ، والدور البطولى وهو دور الشخصيات الهامة القوية ، والدور الانسانى وهو دور الحضارة الحقيقية التى تسود فيها المساواة الطبيعية بين الناس والقوانين التى يتساوى فيها الجميع ٠

وبعد هذه الأدوار الثلاثة تصاب الحضارة بالانتكاس وتعود الى بربرية جديدة ٠ وهناك أيضا المؤرخ الألمانى « شبنجلر (٣) ١٨٨٠ ـ

١٩٣٦ م » والتاريخ حسب اعتقاده انما هو مسرح لعدد كبير من الحضارات. وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن العضوى أى انها تنشأ وتنضج ثم تذبل وتموت ، وكما أن سياق الحياة واحد بالنسبة للكائنات الحية فللحضارات سياق واحد تسير عليه . فالتاريخ اذن انما هو مجموعة دورات حياة حضارية ، ولكل حضارة دورة حياة مقفلة ولها سماتها الخاصة بها .

ولقد تأثر الفيلسوف والمؤرخ الانجليزى (توينبى ١٨٨٩ ـ ١٩٧٦م) بنظرية شبنجلر السابقة . وجاء توينبى بنظرية التحدى التى يقول فيها بأن كل حضارة تمر بثلاثة أطوار تضعف فى نهايتها . ويرى توينبى بأن الحضارة تنشأ بالتحدى عندما تتحدى ظروف المجتمع وتنشأ أقلية مبدعة تتولى الرد على هذا التحدى عن طريق القيام بالاستجابة اللازمة لذلك ، أى أن نشوء الحضارة هو عملية تحد واستجابة ، وان تاريخ البشرية انما هو سلسلة من التحديات والاستجابات .

٣ ـ الاتجاه الجغرافى فى تفسير التاريخ :

ويعود هذا الاتجاه فى جذوره الى مفكرى اليونان الذين يرون بأنه ينبغى تفسير التاريخ والبحث عن مصدر التغيير فى الحوادث التاريخية عن طريق ملاحظة تعاقب الأحوال الجغرافية والمناخية .

ومن مؤيدى هذا التفسير فى العصور الحديثة أولئك الذين حاولوا تفسير مظاهر التاريخ المتعددة فى ضوء عامل واحد فقط هو العامل الجغرافى . ونذكر منهم المؤرخ والفيلسوف الفرنسى مونتسيكيو (٤) الذى ركز اهتمامه على تعليل التاريخ بأسباب فيزيائية مثل المناخ والأحوال الجغرافية الأخرى .

وهناك أيضا الفيلسوف الألمانى (هردر ١٧٤٤ ـ ١٨٣٠ م) الذى فسر النمو الانسانى عن طريق البحث فى ماهية اتصال الانسان بالبيئة الطبيعية .

ومن أشهر دعاة التفسير الجغرافى فى القرن التاسع عشر المؤرخ الانجليزى (بوكلى ١٨٢١ ـ ١٨٦٢ م) الذى يعرف الحضارة بنقاط ثلاث هى : المناخ والتربية والطبوغرافيا . وهو يرى ان هذه العوامل الثلاثة التى تبين ما اذا كانت حياة البشر فى منطقة ما سوف تكون مزعزعة أم أنها سوف تتضمن شيئا من الثبات .

وهناك أيضا الأمريكي (هونتكتون ١٨٧٦ ـ ١٩٤٧ م) الذى عزا تقدم الحضارة الانسانية فى بعض المناطق ، دون غيرها ، الى عوامل جغرافية مناخية بحتة ٠

٤ ـ الاتجاه العرقى فى تفسير التاريخ :

ومنذ العصر اليونانى أيضا قام تفسير للتاريخ على أساس نظرية التفوق العرقى حيث كان اليونان يؤمنون بمبدأ تفوق الاغريق عليهم ، ثم تلقى الغرب فكرة التفوق العرقى ـ العنصرى واستغلتها كل دولة بما يناسب مصلحتها لتبرير أعمالها العدوانية وتفسير الحوادث التاريخية بالشكل الذى يناسب مصلحتها ٠ وتبعا لذلك أعلن بعضهم ان الحرب عملية طبيعية لابد منها وأن أعمال الغزو والتدمير والاغتصاب تمثل الجوهر الأساسى لنظام الطبيعة لأن البقاء ينبغى أن يكون للأصلح ٠

وفى هذا المجال يقول (وولشى) نقلا عن (كانط ١٧٢٤ ـ ١٨٠٤ م) ان الحرب تحث الناس على السعى والاكتشاف . وبذلك يساهمون فى تحقيق غزو الطبيعة فى تنظيم المجتمعات البشرية ٠

ويقول هيجل : على الدولة أن تفكك بالحرب نظاما أصبح من قبيل العادة ، وان الشعب يتعرض دون الحرب الى أن يفقد معنى حريته ٠

٥ ـ الاتجاه الدينى فى تفسير التاريخ :

لقد وجد هذا الاتجاه منذ الأزمنة القديمة ، ففى الحالات التى لم يستطع فيها المؤرخون تقديم بعض التفسيرات البطولية للتاريخ قدموا تفسيرات دينية نتيجة لاعتقادهم بوجود قوى خارقة تهيمن وتسيطر على العالم وتوجهه سموها بالاله ٠

فعند اليونان القدماء ولدى شعوب الشرق القديم وفى بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر تم ذكر هذه الآلهة ، وأحيانا اعتبروا الملك على أنه هو الاله على وجه الأرض ، ونسبوا اليه الحوادث التاريخية ٠ فحركة التاريخ ليست سوى الخطة الالهية لخلاص العالم ، وهذه الخطة مقررة فى خطوطها العامة منذ بدء الخليقة وحتى يوم القيامة ، وهذا التفسير ساد تاريخ التوراة كما انه يتجاوب مع المنهج التاريخى للكنيسة المسيحية ولكن بصورة أعمق ٠ وأما التفسير الاسلامى للتاريخ فانه يدعو أيضا الى الاعتقاد بوجود الاله المسيطر على كل شىء ، والموجه لكل شىء ٠ ووفقا

يوم خلق الله السموات والأرض وتتجه نحو يوم القيامة • اذن هنالك فريق من المؤرخين وهم أصحاب النظرات الدينية فى الزمان وفى التاريخ ، وهؤلاء ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصيرالانسانية فى الدنيا ، وبالنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب • ومن أبرز ممثلى هذا الاتجاه (فيلون ٢٥ق•م ـ ٥٠م) بالنسبة الى اليهودية ، والقديس « أغسطس ٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) بالنسبة الى المسيحية ، و « ابن خلدون » بالنسبة الى الاسلام •

٦ ـ الاتجاه المادى فى تفسير التاريخ :

هنالك عدد من الفلاسفة والمؤرخين الذين اتجهوا الى تفسير التاريخ اتجاها ماديا وأشهرهم (كارل ماركس ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ م) الذى نادى بالنظرية المادية فى التاريخ وربطها بالتطور الاقتصادى للمجتمع ، ونتج عن هذا الربط تفسير للتاريخ على أساس تقرره المادة ، أى أن السيطرة على وسائل الانتاج تقرر أية طبقة وأية نماذج فكرية يمكن أن تسود فى فترة ما ، غير أن الصراع المستمر بين الطبقات الاجتماعية المختلفة سيؤدى فى النهاية الى انتصار طبقة العمال •

وهكذا يفسر التاريخ بحسب الاتجاه المادى عن طريق العامل الاقتصادى والمادى الممثل بالصراع بين طبقات المجتمع عبر العصور التاريخية •

ويرى ماركس أن صراع المتناقضات لا يحصل فى عالم الأفكار وانما فى العالم الاقتصادى للمجتمع • وبموجب النظرية الماركسية ينطوى تفسير التاريخ على وجود مراحل ثلاث من التطور البشرى ، حيث تمثل المرحلة الأولى مرحلة المشاعية البدائية ، أما المرحلة الثانية فتتمثل بمرحلة الصراع بين الطبقات المختلفة وبأشكال مختلفة ، بينما تتمثل المرحلة الثالثة بمرحلة الشيوعية العالمية التى لم تصل اليها البشرية بعد وهى مرحلة لا طبقات فيها ، وفيها سوف يحقق الانسان وجوده الانسانى الحقيقى كما يرى ماركس •

٧ ـ الاتجاه المثالى فى تفسير التاريخ :

ويعتبر الفيلسوف الألمانى هيجل زعيما للمدرسة المثالية فى تفسير التاريخ ، وهى تعتبر الفكر أو العقل أساس كل ما هو موجود • وتنهى

فلسفة هيجل القرن الثامن عشر وتسع عشر ... تقع على نقطة التحول بين عصرين ، ويتأكد لنا هذا الحكم اذا تأملنا موقف هيجل حيال التاريخ والعقل وأن فلسفة التاريخ هى القسم الأكثر شيوعا فى عمل هيجل ، والحقيقة أن العقل فى نظر هيجل هو جوهر التاريخ ، وان كل شىء فى التاريخ ـ كما فى المجالات الأخرى ـ قد جرى بشكل عقلانى وأن فلسفة التاريخ هى بالتأكيد ـ حسب تصور هيجل ـ سائرة على مسار واحد مستقيم طيلة الزمن ، وان هذا المسار يمر بالانسان الذى انتقل من حالة التوحش الطبيعية الى المستوى القانونى والنظامى • وتاريخ البشرية كله يمكن أن يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت الانسانية خلالها أن تحرز تقدما روحيا وأخلاقيا ، وهذا التقدم قد تم احرازه عن طريق العقل البشرى •

وهكذا ومن خلال الاتجاهات المختلفة فى تفسير التاريخ السابقة ، والتى تبلورت فى القرن التاسع عشر نكون قد تعرفنا على أشهر هـذه الاتجاهات وأشهر فلاسفة التاريخ والمؤرخين الذين قالوا بها • وهذا يدل على تطور التأليف والتفكير التاريخى خلال ذلك القرن الذى اعتبره البعض قرن التاريخ •

★★★

حياة صاحب الاتجاه المثالى

كان الفيلسوف الألمانى جورج ويلهلم هيجل من المفكرين البارزين ومن أجل الفلاسـفة الألمان شأنا ، وأبعدهم تأثيرا ، ويصفه البعض فى مستوى أرسطو وأفلاطون لقدرته الفائقة على تنسيق البناء الفلسفى ، وعمق تفكيره ، واتساع نطاق بحوثه ، وشمول نظراته ، وأصالة آرائه ، وقليل من الفلاسفة استغرق نضجهم وقتا أطول مما استغرق نضج هيجل ، ولكن قليلا منهم كذلك من تناول نواحى المعرفة المختلفة بمثل قدرته ، وآراؤه فى الفلسفة والفن والسياسة والتاريخ لا تزال من المراجع المأثورة ·

ولد هيجل فى شتوتجارت عاصمة ولاية ورتمبرج فى ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ قبل ميلاد صديقه وضريبة فى الفلسفة الألمانية شلنج بخمس سنوات ، وبعد ميلاد الشاعر شيلر باحدى عشرة سنة ، وكلاهما مثله من ورتمبرج ·

وقد امتاز سكان «نجو دسوابيا» عن سائر الألمان بخصائص فى لهجتهم وأخلاقهم ، ففيهم مزيج من البساطة والحزم ، والحاسة الدينية وحرية التفكير النظرى ، وفيهم ميل الى التأمل النزاع الى التصوف ، وقد لوحظ أن المفكرين الكبيرين اللذين أكدا حرية الانسان واستقلاله وجعلا « النفس » فوق ما هو « غير النفس » ــ وهما كانط وفشته ــ كانا من أصل الشمال· وان المفكرين اللذين رأيا ترك المثالية ذات الجانب الواحد وسما بهما التفكير الى ادراك روحية العالم ووحدة الانسـان معه ومع اخوانه البشر ــ وهما هيجل وشلنج ــ كانا من أهل الجنوب ومن مقاطعة سوابيا نفسها ·

وفى السابعة أرسل هيجل الى المدرسة الاعدادية (الجمنازيم) فى بلده ، وعرف من أول أمره بأنه طالب مثابر على دروسه وحسن الاستعداد لتلقى شتى أنواع المعرفة ، ولكن دون أن يظهر استعدادا خاصا من ناحية من النواحى ، وظهر من باكورة أيامه ميله الطبيعى الى التنظيم والتنسيق، وكان « الطالب المجد الذى يحصل على الجوائز » ، وفى الرابعة عشرة من عمره بدأ يحتفظ بكراسة يدون فيها يومياته ، وكان يسجل بها تقدمه فى الدراسة وما يعن له من ملاحظات فى أثناء مطالعاته ، ويدرب نفسه

الآراء التى شاعت فى عهد الاستنارة ، وما كان يلتقطه من كتب العلم والفلسفة ، وقد أشار فى هذه اليوميات الى مساوىء عدم التسامح وضرورة اعتماد الانسان على نفسه فى التفكير ، وعرض بالخرافات الشائعة ، ويرجع كتاب سيرته الى هذه اليوميات لمعرفة حالتـه النفسية فى تلك الفترة وتطوره الفكرى ٠

وكانت الدراسة التى عنى بها هيجل أشد عناية وخصها بالجانب الأكبر من اهتمامه هى دراسة الشعر اليونانى ، وفى السادسة عشرة من عمره بدأ يكتب مختارات مطولة من كل كتاب يروقه ، وكان يجد متعة فى كل فروع العلوم التى أمكنه الوصول اليها واستطاع بذلك تحصيل طائفة كبيرة من مختلف المعلومات ، ولما كان يلتزم الدقة فى كل ما يباشره من الأعمال ، ولذلك استطاع أن يحسن فهم ما يقرأ ويقدر مزايا الكتاب الذين يتناول كتبهم ، وكان يذهب الى أن الثقافة الحقة تقتضى أن يقتصر الانسان فى بادىء الأمر على التلقى ، وبعد ذلك يجىء دور الفحص والنقد ، وقد أعجب بأسلوب « البيثاجوريين » فى التربية ، وكان هذا الأسلوب يفرض على الطالب التزام الصمت مدة خمس سنوات ، ويقول هيجل : « واجب الصمت هذا شرط جوهرى لكل ضروب الثقافة والتحصيل ، وعلينا أن نبدأ بانماء قدرتنا على فهم أفكار غيرنا ومعنى ذلك اغفال أفكارنا الخاصة ، وكثيرا ما يقال انه يجب أن يثقف العقل من بادىء الأمر بالأسئلة والاعتراضات والأجوبة ، والواقع أن هذا الاسلوب لا يمنح العقل ثقافة حقة وانما يجعله سطحيا موكلا بالظاهر دون الباطن ، ونحن بتحرى الصمت والاحتفاظ بأنفسنا لأنفسنا لا نزداد فقرا فى الروح ، بل على نقيض ذلك نكتسب القدرة على فهم الأشياء كما هى فى الواقع ، وندرك أن الآراء الذاتية ، والاعتراضات ليست بذات قيمة » ٠

وهى نصيحة بضرورة الحال يصعب اتباعها ، ولا تخلو من الخطر ، وقد تضر بالعقول الضعيفة التى لا تحسن رد الفعل على ما تحصل ، ولكنها نافعة للعقول الكبيرة الراجحة التى تجيد الهضم ولا توهنها أعباء المعرفة ولا يرهقها التحصيل ٠

وفى الثامنة عشرة من عمره ترك هيجل (الجيمنازيم) الى الجامعة ، وكان والداه يعدانه ليكون من رجال الكنيسة ، ولذلك أرسل الى معهد اللاهوت فى توبيخن ، وكان الطلبة فى هذا المعهد يخضعون لنظام لم يخل من الصرامة ، وكانت الدراسة تشمل اللاهوت والفلسفة ، وبطبيعة الحال كان للاهوت النصيب الأوفر ، ولم يكن بين أساتذة المعهد فى تلك الفترة من يصلح لأن يكون له تأثير دائم فى هيجل ٠

وتابع هيجل [illegible] المحدثين وبخاصة مؤلفات روسو التى كانت باعث الحركة المقبلة فى فرنسا وهى الثورة الفرنسية ، وكون هيجل وأضرابه الأصغر منه سنا فى الجامعة ومنهم شلنج ـ ناديا سياسيا كانوا يتناولون فيه بالبحث آراء الثورة الفرنسية ويناقشونها ، وعرف هيجل بين رفاقه بشدة تحمسه لفكرة الحرية وفكرة الاخاء ، وكان هيجل فى تلك الفترة يميل الى المرح والفكاهة ، وكان محبوبا من أصدقائه الذين كانوا يلقبونه بالرجل العجوز ! ٠ وتوثقت علاقته بزميله شلنج وبالشاعر الشاب هيلدرلين ، وكان مثله ميالا الى الأدب اليونانى ، وبعثه ذلك على دراساته مؤلفات كانط عن الأخلاق ، وقد ترك جامعة توبنجن سنة ١٧٩٣ م ٠

وقد قضى هيجل ثلاث سنوات من السنوات الست التى تلت خروجه من الجامعة فى مدينة برن بسويسرا مدرسا خاصا ، وكان فى خلال تلك الفترة دائم الاتصال بصاحبيه شلنج وهيلدرلين بطريق المراسلة مما جعله على دراية تامة بتقدم الحركة الفلسفية فى المانيا ، وقد كانت هذه السنوات الست هامة فى دراسته الفلسفية ، كانت المعارف والمعلومات الفلسفية التى حصلها تتصارع فى نفسه وتتفاعل لتلتئم وتتحد ويتكون من موادها المختلفة كل حى يبدو عليه طابع شخصية ويتسم بسمة عبقرية ، وقد انتقل من دراسة روسو الى دراسة كانط ، وقد ظل سنوات معنيا بوجه خاص بدراسة المسائل الدينية والأخلاق ، وكان يحاول معالجة مشكلات الدراسات عن طريق الامعان فى دراسة التاريخ لا من الناحية الفلسفية ، ويمكن القول بأنه اتجه الى الفلسفة عن طريق محاولته تفسير التاريخ وفهمه ، وشغل فى بادىء الأمر بتاريخ الدين ، وفى أثناء ذلك كتب كتابا عن حياة المسيح ، ووضع رسالة عن علاقة الدين الوصفى بالدين العقلى ، وكان فى هذه المحاولات ينظر الى الدين من ناحية علاقته بحياة الأمم الاجتماعية والسياسية ، وفى أثناء اقامته فى فرانكفورت اتجهت دراساته اللاهوتية بالتدريج الى البحوث الأخلاقية والاقتصاد السياسى ، وأخيرا الى العلوم الطبيعية والفيزيائية ، وفى السنة الأخيرة من اقامته فى فرانكفورت حاول أن يجمع نتائج بحوثه ويضمنها نسقا فلسفيا ، ومهما يكن من الأمر فانه لم يستطع أن يتم فى هذه الفترة سوى الجزء الخاص بالمنطق وما وراء الطبيعة وفلسفة الطبيعة ٠

وفى هذه السنوات الست كان التصور أن الغالبين على عقله والمرشدين له فى بحوثه هما فكرة الحرية ، وفكرة ان حياة الانسان الطبيعية والروحية وحدة عضوية من العناصر لا يمكن فصل أحدها دون أن تفقد معناها وقيمتها ٠

وكانت فكرة الحرية كما أدركها عصر الاصلاح الدينى تنطوى على خلاف بين حياة الانسان الداخلية وحياته الخارجية أو بين الضمير والسلطة الخارجية أو بين الفرد باعتباره مقررا لمصيره فى تفكيره وعمله وخضوعه للمؤثرات والأشياء التى تؤثر أو قد تؤثر فى مصيره من الخارج ، وقد رفض لوثر (٥) ادعاء الكنيسة حق الوساطة بين الفرد والله ، وأعلن تحرير الانسان لا من سلطة الكنيسة فحسب بل فى الواقع من كل سلطة خارجية أيا كانت وحتى من كل تعليم أو كشف للحق يأتى من خارج النفس ، وذلك لأن المبدأ الذى أعلنه هو أن الحق الذى يؤمن به الانسان ينبثق من داخل نفسه ويؤثر فى كل عناصر حياته ، فاذا كانت المعرفة الحقة لله هى التى تأتى من داخل الروح وصميم النفس فان معنى هذا انه لا يمكن قبول أى نوع من الحق يأتى بطريق آخر ، واذا كان القانون المقدس الذى لا يخضع الانسان خضوعا مطلقا لسواه لا يكشفه للانسان سوى الهاتف الداخلى الذى يتفق مع صوت الضمير ، فان أى حكم قانونى أو سلطة حقة لا تكون صادرة من الخارج ، ولا نستطيع أن نعترف بوجود أى شىء فى الواقع الا اذا كانت له علاقة واضحة مفهومة بوعينا المباشر ، ولا نقر أى أمر يصدر الينا ونعده عادلا الا اذا كنا نطيع الجانب الاسمى فى نفوسنا حينما نطيعه أى ان « لوثر » بدأ حرب تحرير للانسانية لا تقف أرجاؤها عن الدوران الا اذا تخلصت النفس من كل مؤثر غريب عنها ، وهذه هى الفكرة الرئيسية التى سيطرت على حركة الحضارة الحديثة والتى انتصرت الحضارة فى المعارك التى خاضتها تحت رايتها سواء فى مجالات الفكر أم ميادين العمل .

وقد كون هيجل قبل مبارحة فرانكفورت أقسام فلسفته الثلاثة ، وكان الجزء الأول يشمل المنطق وما وراء الطبيعة ، والجزء الثانى تناول فلسفة الطبيعة ، والجزء الثالث تناول فلسفة الروح التى تتوحد فيها الخلافات وتصطلح المتناقضات .

وفى سنة ١٨٠٠ وكان قد وضع أساس فلسفته وفكرتها الرئيسية وبدأ تطبيقها بطريقة منظمة أخذ يفكر فى الموازنة بين أفكاره وأفكار غيره من معاصريه ، فاستأنف المراسلة مع شلنج وكان قد ترك مراسلته منذ سنوات .

وفى سنة ١٨٠١ ظهر له أول مؤلف مطبوع وهو « الفرق بين مذهب فشته ومذهب شلنج » وقد دافع فى هذا الكتاب عن مذهب شلنج ، وفى عام ١٨٠٢ اتفق مع شلنج فى اصدار « المجلة الانتقادية » وكانت الفصول التى كتباها لهذه المجلة موحدة الهدف الى حد أنه أصبح من الصعب فيما بعد تمييز الفصول التى كتبها هيجل من الفصول التى كتبها شلنج !

وظل هيجل يعمل مدرسا خاصا حتى سنة ١٨٠٥ التى عين فيها أستاذا فى جامعة « ينا » وكتب فى تلك الفترة أول كتبه الهامة وهو كتاب « ظاهريات الروح أو العقل » وقد حاول فى هذا الكتاب ان يبين المراحل المختلفة للوعى التى تبدأ من مرحلة الوعى الحسى البدائى الى مرحلة الوعى الفلسفى الكامل ٠

وفى أثنـــاء اقامته فى نورمبرج أخرج كتابه العظيم عن المنطق ، وكانت شهرته قد أخذت تعلو وفى سنة ١٨١٦ قبل دعوة جامعة هيدلبرج وبدأ بها محاضراته عن الفن ولكن جهده كان موجها الى كتابه الموسوعة الفلسفية ، وفى سنة ١٨١٨ عين أستاذا للفلسفة فى جامعة برلين وظل بها حتى توفى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ ٠

★★★

هيجل وفلسفة التاريخ

تعد محاضرات هيجل عن فلسفة التاريخ مقدمة صالحة لدراسة فلسفته ، وقد جمعت هذه المحاضرات وقدمت للطبع بعد وفاة هيجل ·

وهو يرى أن هناك ثلاث طرائق فى تناول التاريخ :

١ ـ التاريخ الأصلى ·

٢ ـ التاريخ النظرى ·

٣ ـ التاريخ الفلسفى ·

التـــاريخ الأصلى :

ولبيان النوع الأول يمكن أن نذكر اسما أو اسمين ممتازين يوضحان طرازه المحدد ، ومن هذا الطراز هيرودوت وتوكوتيدس وغيرهما من المؤرخين من هـذا النمط ، الذين تقتصر أوصافهم فى معظم الأجزاء على الأعمال والأحداث وأحوال المجتمع الماثلة أمام عيونهم والتى شاركوا فى روحها ، وهم يكتفون بنقل ما كان يحدث فى العالم حولهم الى عالم التصور العقلى ، وبذلك يتحول من مظهر خارجى الى تصور داخلى ، وكذلك يصنع الشاعر من المادة التى توافيه بها عواطفه ومشاعره صورة يقدمها لملكة التصور ، وهؤلاء المؤرخون الأصليون يجدون تحت أيديهم وصف الأحداث الذى كتبه غيرهم ، اذ لا يستطيع انسان بمفرده أن يرى كل شىء ويسمع كل شىء ·· وهم يستبعدون الأساطير والأقاصيص الشعرية التى تتعلق بها الأمم قبل أن ينضج وعيها وتسمو ثقافتها ، وأمثال هؤلاء المؤرخين يصفون مشاهد لعبوا فيها دورا أو عنوا بمراقبتها ، ولا يتناول سردهم للأحداث فترات طويلة ، وهدفهم أن يقدموا للذين يخلفونهم صـورة للأحداث واضـحة وضوح الصورة التى شاهدوها ، وليس من عملهم اجالة الفكر فى تلك الأحداث لأنهم يعيشونها ولم يرتفعوا فوق مستواها ·· ويقول هيجل « ان مؤرخا مثل توكوتيدس قد عزا خطبـا الى بركليز (٦) وهى من انشائه ، ولكن هذه الخطب لم تكن بعيدة عن شخصيته المعزوة اليه ، وهى تبين الاتجاهات السياسية والأخلاقية السائدة فى عصرها » ؛ ومن

أمثلة هذا النوع من التاريخ « المذكرات » وأكثرها يكتبها رجال بارزون ، وقد تكون دائرة اهتماماتهم ضيقة ، والحوادث التى يشغلون بروايتها ليست بذات قيمة كبيرة ولكنها مع ذلك تلقى ضوءا على التاريخ ، واذا كان كتاب هذه المذكرات من الذين شغلوا مناصب سامية ، ووقفوا على دخائل كثير من الأمور ، فانهم يستطيعون ان يقدموا للتاريخ معلومات قيمة تجلو بعض غوامضه ، وتكشف جانبا من أسراره الخفية ٠

التـــاريخ النظـرى :

ويقول هيجـل ان النـوع الثانى من التاريخ هو التاريخ النظرى ، ولا يقتصر فيه المؤرخ على رواية أحداث عصره ، وما شاهده بعينه وكان حاضر أمره ، وانما غرض المؤرخ فى هذا النوع من الكتابة التاريخية أن يذكر تاريخ أمة من الأمم ، أو قطر من الأقطار ، والعمل الرئيسى للمؤرخ فى هذه الحالة هو جمع المادة التاريخية ، ومما له اعتبار هام فى أمثال هذا اللون من الكتابة التاريخية المبادىء التى يشير اليها المؤلف ، وتفسيره للبواعث على الأعمال التى يرويها ويصفها ، وطريقته فى سرد الأخبار ، وكل مؤرخ يختار له وجهة نظر خاصة ، واسلوبا معينا فى الكتابة ، وهذا النوع من التاريخ النظرى يقترب من التاريخ الأصلى حينما يكون غرض المؤرخ عرض الحوليات كاملة ، ومن أمثال هذه الأخبار المجموعة مؤلفات ليفى (٧) وديدرو الصقلى ٠ وبعض هذه الأخبـار المجموعة يقدم صورة للأحداث من الوضوح بحيث يظن القارىء انه يستمع الى الذين اشتركوا فيها ، ويكاد يراها رأى العين ، ولكن فى أغلب الأوقات يدرك القارىء أن جامع الأخبار ينتسب الى ثقافة مخالفة وعقلية عصر آخر غير العصر الذى يسرد أخباره ، ويروى حوادثه ٠

والنوع الثـانى من التاريـخ النظرى يسـمـيه هيجل « التاريـخ البرجماتيكى » وهو التاريخ الذى يحاول الافادة من الماضى ، ويتلقى منه الدروس العملية ، ويستخرج العبر من وقائعه ، ويقول هيجل ان أمثلة الفضيلة قد تسمو بالروح ، وتصلح فى تلقين المواعظ الأخلاقية للأطفال ، ولكن مصائر الأمم والدول واهتماماتها وعلاقاتها من الأمور المعقدة ، وكثيرا ما ينصح الحكام ورجال السياسة بالاستفادة من دروس التاريخ ، ولكن التجربة والتاريخ كما يرى هيجل يعلماننا انه لا الحكومات ولا الأمم قد تعلمت شيئا من التاريخ ، فكل عصر له ظروفه الخاصة التى يتبع فى علاجها اعتبارات خاصة به ، والمبادىء العامة لا تعين حينما يشتد ضغط الحـوادث العظيمة ، ولا فائدة فى هـذه الحالة من الرجوع الى الظروف المشابهة فى الماضى ، ولم يكن هناك شىء أكثر سطحية من الرجوع الى

ممثله فى تاريخ اليونان والرومان اثناء الثوره الفرنسيه ، ولا شيء اكثر تنوعا واختلافا من عبقرية الأمم الماضية وعبقرية عصرنا ٠

والنوع الثالث من التاريخ النظرى يطلق عليه هيجل اسم « التاريخ الانتقادى » وهو يصح أن يسمى « تاريخ التاريخ » ويقوم على نقد المدونات التاريخية ، واصطناع الدقة فى الاطلاع على الوثائق والسجلات ٠

والنوع الرابع من التاريخ النظرى أشد امعانا فى التجريد من النوع الثالث ، ويتناول وجهات نظر عامة ويحاول أن يتعمق الأحداث ، وأمثلته تاريخ القانون وتاريخ الفن وتاريخ الدين ٠

التـــاريخ الفلسفى :

ويرى هيجل أن خير تعريف له هو أن فلسفة التاريخ ليست سوى تدبر التاريخ واجالة الفكر فيه ، ويرى ان الفكر جوهرى للانسانية وانه هو الذى يميز الانسان من الحيوان ، وحينما نقبل على التاريخ وهذه الفكرة ماثلة فى أذهاننا قد يظن اننا ننظر الى التاريخ باعتباره مادة قابلة لأن تفرض عليها أفكارنا ، فى حين أن عمل المؤرخ يسجل ما كان وما وقع من الأحداث ، ولكن الفكرة التى تسترشد بها الفلسفة فى تأمل التاريخ هى مجرد تصور العقل ، فالعقل هو الذى تساس به أمور الدنيا ٠ ولذلك يمثل لنا تاريخ الدنيـــا حركة عقلية ، والعقل هو الجوهر والقوة غير المحدودة ، وهو نسيج الحياة الطبيعية والحياة الروحية ، وطبيعة الروح مكونة من الحرية ، وحرية الروح قائمة على شعورها بالوعى الذاتى ، فالروح تشتمل على نفسها وعلى الطاقة التى تمكنها من تحقيق نفسها ، أى أن تبرز عمليا ما هو كامن فيهـا « بالقوة » وبمقتضى ذلك يمكن أن يقال عن التاريخ العام انه مظهر وعرض للروح وهى تتعرف ما هو موجود فيها بالقوة ٠

وكما تحمل الجرثومة كل طبيعة الشجرة وطعم الفاكهة وشكلها ، كذلك الآثار الأولى للروح تتضمن تاريخها جميعه ، وأهل الشرق القدامى فى رأى هيجل لم يصلوا الى معرفة ان الحرية للجميع ورأوا أن الحرية تتمثل فى فرد ، والحرية فى مثل هـذه الحالة تكون عرضـة للنزوات والانطلاق بغير كابح ، ولم يظهر الشعور بالحرية الا عند الاغريق ، ولكن الاغريق والرومان رأوا أن الحرية مقصورة على البعض ولا تشمل البشر جميعهم ، وقد أضر ذلك بقضية الحرية الانسانية ضررا بليغا ، وقد كان الألمان كما يرى هيجل أول قوم أدركوا أن الحرية للناس جميعا وأن

الحرية هى جوهر الروح · ولكن جعل الحرية من المبادىء التى يؤخذ بها كان يستلزم حركة تثقيف عنيفة طويلة المدى ·

وليس تاريخ الدنيا سوى تقدم الشعور بالحرية ، ولكن ماهى الوسائل التى يتخذها مبدأ الحرية لتحقيقها ؟ والاجابة عن هذا السؤال تستلزم الرجوع الى التاريخ ، والنظرة الأولى للتاريخ ترينا أن أعمال الناس باعثها حاجاتهم ، وأن العواطف والأهواء والميول هى التى تحركهم ، وقد نجد بين هذه البواعث أهدافا حرة كريمة خيرة ولكن اذا نظرنا نظرة عامة نجد أن هـذه البواعث النبيلة نادرة قليلة الحول اذا قورنت بالبواعث الأخرى السائدة فى العالم ، فارضاء الميول والأهواء واشباع الشهوات هى أقوى البواعث على الأعمال ، ومصدر قوتها انها لا تقيم وزنا للحدود التى تفرضها العدالة وتقرها الأخلاق ، وهذه الحوافز الطبيعية أمضى تأثيرا فى الانسان من النظم المصطنعة التى تحاول رد عادية الانسان وكبح شرته ، وحينما نرى انطلاق الأهواء الجامحة ونتائج عدوانها وشرها ومجانبة العقل التى لا تفترض بها فحسب ، بل قد تصحب كذلك الأغراض الطيبة والنيات الصـــالحة ، وحينما نرى الشر والرذيلة والخراب الذى يصيب البلاد المزدهرة ، حينما نرى ذلك كله تملأ رؤية هذا الفساد نفوسنا أسى وحسرة ، ولما كانت تبعة هذا التخريب والهدم تقع على كاهل الانسان والطبيعة منه براء ، لذلك قد يثير تأمل هذه الحالات الأرواح الطيبة ، والخطوب التى أصابت أنبل الأمم والحضارات وأنقى الناس فضيلة تحرك أعمق العواطف ، وتثير الحزن الذى ليس له ملطف ولا سلوان ، وفى مشاهدتنا لتلك الأحداث المروعة التى لا نستطيع تسويفها أو الفرار من مواجهتها ، لا نجد سوى اعتبار واحد ، وهو أن هذه الأحداث كانت محتومة ، وقضاء مبرما لا دافع له ولا حيلة فيه ، وأنه قدر لا يرد ·

ولكن اذا اعتبرنا التاريخ مجزرة يضحى فيها بسعادة الأقوام وحكمة الدول وفضيلة الأفراد ، فاننا نواجه سؤالا آخر ، وهو ، ما هو الغرض النهائى الذى تقدم من أجله كل هذه التضحيات ؟ ان الفكرة والخصائص المجردة مسلوبة القوة ، والقوة التى تحركها وتدفعها الى العمل هى الحاجة والغريزة والميل والهوى ، ولا تعنى الناس بشىء الا اذا كان لهم فيه وجه من وجوه الانتفاع ، ولا يتم انجاز شىء من الأشياء ما لم يكن للقائمين به فائدة تعود عليهم · ويؤكد هيجل انه لم يتم انجاز شىء عظيم فى هذه الدنيا دون أن يكون للعاطفة والهـوى والميل أعظم الأثر فى انجازه ، فالفكرة والعاطفة هما لحمة التاريخ وسداته ، وتاريخ العالم لم يكن مسرحا للسعادة ، والأيام السعيدة فى تاريخ البشرية خالية الصفحات ، والناس تشبع رغباتها وتبقى ما ينفعها وتعمل على تحقيق غاياتها الخاصة تبعا لميولها الطبيعية ، ولكنهم فى خلال ذلك يشيدون بناء المجتمع ، ويوطدون

أركان النظام والعدالة ، أى انهم يحققون شيئا لم يكن يخطر لهم على بال وكان يتجاوز نطاق تفكيرهم ، ولأعمالنا نتائج تجاوز تقديراتنا ، ويبدو ذلك واضحا فى الدور التاريخى الذى تلعبه الشخصيات التاريخية الكبيرة البارزة فى تاريخ العالم ، فيوليوس قيصر كان يخشى أن يفقد مكانته ، فعمل على دعم نفوذه ، ومكنته انتصاراته من بسط سيادته على أنحاء الامبراطورية المترامية ، وأن يكون حاكما أوتوقراطيا ، وكان العصر ناضجا لقبول هذا النظام ، واستساغة هذا التحول فى نظام الحكم الرومانى ، فلم يكن الأمر مجرد كسب شخصى ليوليوس قيصر ، وانما حقق قيصر خلال سعيه وراء مصلحته الخاصة ما كانت تتطلع اليه روح العصر ويستلزمه الموقف التاريخى ، وهذا هو الدور الذى يقوم به أبطال التاريخ فى شتى العصور ومختلف المواقف والمناسبات ، وهؤلاء الأبطال لا يدركون الفكرة العامة التى يعملون على تنفيذ رغبتها دون أن يشعروا ، ولكنهم برغم ذلك كانوا رجالا عرفوا مطالب عصرهم ، وعملوا على تلبية هذه المطالب ، ووقفوا على تحقيقها جهودهم ، وأتباعهم وأنصارهم الذين يسيرون خلفهم كانوا يشعرون بدافع خفى قوى يحفزهم الى السير تحت رايتهم ، واذا نظرنا الى مصائر أمثال هؤلاء الأبطال التاريخيين الذين قاموا بتنفيذ ما تطلبته روح العصر ، فاننا نجد انها لم تكن سعيدة ، فهم لم يعرفوا الراحة ، وكانت حياتهم كفاحا لا نهاية له ، وكانت العاطفة المستولية عليهم لا تدع لهم فرصة للاخلاد الى الهدوء والتوقف عن الحركة الدائبة وبذل الجهد المتصل ، وحينما يتحقق الهدف الذى تطلبته روح العصر ينتهى دورهم ، وتنقضى الحاجة الى وجودهم ، فيموت أحدهم فى ميعة الشباب مثل الاسكندر المقدونى ، أو يقتل مثل يوليوس قيصر أو ينقل الى سانت هيلانه مثل نابليون ، وهؤلاء الأبطال يبتغون تحقيق هدف عظيم ، وفى سبيل تحقيقه قد تطأ أقدامهم الكثير من الأزهار البريئة وتحطم فى طريقها أشياء كثيرة ٠

والعاطفة والميل والهوى غير منفصلة عن « الفكرة » العامة فى تقدمها وتطورها وهى تظل كامنة فى الخلف وغير معرضة للدفع والجذب والأخذ والرد ، ويسمى هيجل اثارة الفكرة للعواطف والأهواء واستغلالها لتحقيق غاياتها « فكر العقل » الذى يضحى بالأفراد فى سبيل الفكرة العامة ، فالأفراد هم وسائلها الى تحقيق غاياتها ، وفى تأملنا مصير الفضيلة والأخلاق والتقوى فى التاريخ قد نميل الى الاعتقاد أن الصالحين والأتقياء لا تخلو حياتهم من الهموم والأكدار ، وأن الأشرار المناكيد السيئى النية أحوالهم راغدة ومعيشتهم هانئة ، ولكن حينما ننظر الى غاية الوجود نرى

أن مواتاة الحظ لبعض الأفراد أو اساءته الى الآخرين ليست من الأمور الجوهرية ، والذى يثير حنق الناس ويجعلهم غير قانعين بأحوالهم هى أنهم لا يجدون حاضرهم صـــالحا لتحقيق الأهداف التى يعتقدونها حقا ويرونها عادلة ، ويوازنون بين الواقع وما يتطلعون اليه ، وفى هذه الحالة لا تكون أهواؤهم هى التى تملى عليهم ولا الحرص على اشباع الشهوات ، وانما باعثهم العقل ونشدان العدالة والحرية ، وقد يدفعهم هذا الشعور الى الثورة بالأحوال السائدة ٠

★★★

الدولة والحرية فى رأى هيجل

والعقل الذى يتخلل الحركة التاريخية يهدف الى الخير العـــام ، وكشف الأخطاء فى حياة الأفراد والدول أيسر من تبين المضمون الهـام والقيمة الحقيقية ، وتقدم الناس فى السن يجعلهم أكثر اعتدالا فى اصدار الأحكام ، والشباب دائما يغلب عليهم التذمر ، والاعتدال الذى يرافق تقدم السن باعثه نضج القدرة على الحكم على الأشياء وليست القناعة بالدون وقبول الواقع ، والتجارب تعلم الانســـان التفريق بين الأشياء الجوهرية والأشياء العارضة ، وتعلمنا الفلسفة فى نهاية الشوط أن العقل العام المقدس ليس مجرد وهم من الأوهام ، وانما هو مبدأ حيوى قوى التأثير يتابع تنفيذ مخططه فى تاريخ البشرية العام ، والفلسفة تحاول تعرف هذه الخطة ، وقد يلحق الفساد الصور والأشكال التى تتخذها الأديان والآداب ، ولكنها فى جوهرها غير محدودة ولا نهائية ،وقوانين الآداب ليست شيئا عارضا ، وانما هى شىء جوهرى معقول ، والهدف الذى ترمى اليه الدولة هو الابقاء على كل ما هو جوهرى فى جهود الانسان واظهاره والاعتراف به،ولا يحقق الانسان الحرية الا عن طريق الدولة،والدولة فى رأى هيجل هى الفكرة المقدسة كما تظهر فى عالمنا ، ويظهر فيها هدف التاريخ فى صورة أكثر تحديدا من ذى قبل ، والارادة التى تساير القانون هى الارادة الحرة لأنها فى اطاعتها للقانون تطيع ذاتها ، فهى من ثم حرة ومستقلة ، وحينما يتم تكوين الدولة ، وتخضع الارادة الذاتية لقوانينها يزول الفرق بين الحرية والضرورة ، وتتفق الارادة الخاصة مع الارادة العامة • ويرفض هيجل الرأى القائل ان الانسان حر بطبيعته ، وان المجتمع والدولة يحدان من حريته ، والقول بأن الانسان حر بطبيعته فيه جانب من الحق ، وانما المعنى الحقيقى له هو أن الانسان فيه القدرة على أن يكون حرا ، ولكن على شريطة انماء هذه القدرة واظهارها ، وحينما يقال ان الانسان حر بطبيعته فان ما يتبادر الى الأذهان هو انه يملك الحرية وحقوقه الطبيعية وممارسة هذه الحرية دون أن يعوقها عائق ، ولا يرتفع هذا الادعاء الى مستوى رتبة الحقائق التاريخية ، فمن الصعب أن نعثر على مثل هذه الحالة الى حالة الانسان وهو فى حالة الحياة الهمجية •

ولكن الحياة الهمجية تكثر فيها أعمال العنف ، وتتسم بالأهواء الوحشية العارمة التى تحد من الحرية ، والحرية لا تأتى الينا منقادة فى يسر تجر أذيالها ، وانما يعمل من أجل الحصول عليها ونيلها ، والحالة الطبيعية يغلب عليها الأعمال غير الانسانية ، والنوازع المنطلقة بغير كابح ، والمجتمع والدولة يضعان حدا لطغيان الغرائز ، ووحشية الميول والأهواء ، وكبحها وسيلة من وسائل الشعور بالحرية والرغبة فى تحقيقها ، والقانون والآداب من مستلزمات المثل الأعلى للحرية ومن الخطأ الاعتقاد أن وضع حد للنزوات الطارئة والحوافز والرغبات الهدامة يناقض الحرية ، بل علينا أن نرى أن وضع هذه الحدود والقيود من ألزم ما يلزم لسلامة الحرية ، ولا تتحقق الحرية الا فى ظل الدولة والمجتمع .

★★★

فكرة التغير

والتاريخ العام يبين تقدم الشعور بالحرية من جانب الروح وتحقيقها نتيجة لذلك ، وكان لهذا التقدم مراحل ، فالفكرة تتخذ صورا متوالية ، كل صورة منها تسمو على الصورة السابقة لها ، وبهذه العملية ـ عملية التسامى والتجاوز ـ تزداد تأكيدا وثراء ووضوحا ، ولكل أمة عبقريتها القومية التى تبدو فى مظاهر وعيها وارادتها ، وتحمل ديانتها وآدابها ونظمها السياسية وقوانينها الأخلاقية وبراعتها الآلية طابع هذه العبقرية ، والشيء الجوهرى فى التاريخ هو الشعور بالحرية والأوجه التى يتخذها هذا الشعور بالحرية فى تطوره وتقدمه ٠

وتاريخ الدنيا يشغل مستوى أسمى من المستوى الذى تشغله الآداب ، والآداب خاصة بالأخلاق الفردية وضمير الأفراد وارادتهم الخاصة وطريقة مباشرتهم أعمالهم ، ولهذا كله قيمته والمناسب له من العقوبة أو المثوبة ، ولكن الغرض المطلق للروح الذى تتطلبه وتحققه ـ وما تريده العناية الالهية ـ يسمو على هذه الالتزامات ويعلو على قابلية الاتهام بالبواعث السيئة أو عزو النيات الحسنة الذى يتعرض له الفرد فى العلاقات الاجتماعية ، وهؤلاء الذين قاوموا على أسس أخلاقية وببواعث شريفة ما استلزمه تقدم الفكرة الروحية أسمى مكانة من الناحية الأخلاقية من هؤلاء الذين كانت جرائمهم قد تحولت الى وسائل أعانت الفكرة الروحية على تحقيق غاياتها ، ولكن فى مثل هذه الثورات فان الفريقين يقفان فى حدود دائرة الوجود المتقلب الفاسد ، وأعمال الرجال العظماء وهم « الأفراد » فى تاريخ الدنيا تسوغها النتيجة التى كانت محجوبة عنهم ، وعلينا حينما ننظر من هذه الناحية ألا نجعل المطالب الأخلاقية تتعارض مع الأعمال الدنيوية التاريخية ومنجزاتها ، ويحسن ألا نثير فى وجهها التواضع والاعتدال وحب الانسانية والاحتمال والصبر ، وقد يتجاهل تاريخ الدنيا التجاهل كله الدائرة التى تحوى الأخلاق ، والتفريق بين الأخلاق والأكاذيب السياسية وما يسجله التاريخ هو المجهود الذى تقوم به روح الأقوام ، والصور الفردية التى اتخذتها هذه الروح فى مجال الواقع الخارجى يمكن ان يترك تصويرها للتواريخ الخاصة ٠

ووجود الدولة لازم لنهضة العلوم والآداب ، والفنون التشكيلية تستلزم تجمع الناس ، والفلسفة تظهر حينما توجد الحياة السياسية ، ويشيد هيجل بالآداب الصينية وكتابات كونفوشيوس والديانة الهندية والشعر الهندى وبخاصة الفلسفة الهندية ، ولكنه يرى أن الأمتين ـ الصينية والهندية ـ كانتا ينقصهما الشعور بفكرة الحرية ، فقوانين الآداب عند الصينيين خارجية مثل القوانين الطبيعية ، والآداب عندهم مسألة سياسية يراقب مراعاة الأخذ بها رجال الدولة والقضاء ، والرسائل الأخلاقية عندهم تشتمل على أوامر لازمة لتحقيق السعادة ، ومذهب فى مقاومة الميول الحسية ، والرغبات الأرضية ليست غاية الوعى ولا موضوعه ، وانما هى تقضى على الجانب الروحى والجانب الحسى من الوعى ، وعند الروح أن أسمى ما يمكن بلوغه هو معرفة النفس ٠

والتاريخ عند هيجل بوجه عام هو تقدم الروح فى الزمان كما أن الطبيعة تقدم الفكرة فى المكان ، واذا القينا نظرة على تاريخ العالم رأينا صورة شاسعة الأنحاء للتغيرات والمنجزات وعديدا من الأقوام والدول والأفراد تتعاقب بغير توقف ولا انقطاع ، وكل ما يروق الروح ويشوق شعورنا بالخير والجمال والعظمة ـ كل ذلك يجد ما يدعو الى ظهوره ، وفى كل الأحداث والتغيرات نرى ما يبذل الانسان من جهد وما يعانى من شقاء ، وفى كل ناحية نرى أشياء تثير اهتمامنا وأشياء تثير نفورنا ٠

ومنظر الاطلال الدوارس يجعلنا نتأمل فكرة التغير فى مظهرها السلبى والسائح الذى يرى اطلال قرطاجنة (٨) وبقايا آثار باميرا (٩) وبرسبوليس (١٠) أو دوما يخالجه التفكير فى سرعة زوال الدول والناس ، ويأسى على فقدان تلك الحياة الثرية المزدهرة ، وهو حزن خالص برىء على سقوط ثقافة قومية باهرة ودثورها ، ولكن الاعتبار الآخر الذى يقترن بفكرة التغير هو أن هذا التغير كما يتضمن الانحلال والتدهور فانه كذلك يحتوى على ظهور حياة جديدة وكما ان الموت قد ينبعث من الحياة فكذلك الحياة قد تنبعث من الموت وقد عرف مفكرو الشرق هذا المفهوم العظيم وربما كان هو أسمى ما فى معلوماتهم الميتافيزيقية ، وجوهر الروح هو الحركة والنشاط وبه تحقق امكاناتها وتصبح موضوعا لذاتها وتتأمل ذاتها كأنها وجود موضوعى ، وكذلك شأن روح الأمم فان لها خصائصها المعنية التى تبدو فى صورة العبادة الدينية والعادات والنظم والقوانين السياسية والحوادث والانجازات التى يتكون منها تاريخها ، والأمم بأعمالها ، ويفرق هيجل بين روح الأمة المثالى وروحها الواقعى ، فالروح المثالى للأمة اليونانية يبدو فى أعمال سوفوكليس (١١) وأريستوفان وتوكونيدس وأفلاطون لأن فى هؤلاء الأفراد أدركت الروح اليونانية نفسها وفكرت فى نفسها ، وتتميز هذه الروح المثالية من الروح الواقعية ٠

وهيجل فى الناحية العملية من أنصار الحكومة القوية التى تجمع فى يدها كل السلطات ، ولذلك يبدو اعجابه بريشليبه ونابليون ، وهو لا يعد الحرب شرا ، بل يمجدها وبفضل الحرب يضحى الفرد بنفسه من أجل الدولة ، وهو يرى الحد من سلطة القوة التشريعية واخضاعها للدولة وان تقتصر سلطتها على الاستشارة ٠

وقد كان هيجل فى شبابه من المتحمسين للثورة الفرنسية ، وقد ظهر صدى هذا التحمس فى كتابه عن فلسفة التاريخ ، فهو يقول عنها « مفهوم العدالة وفكرتها أكدا سلطتها دفعة واحدة ، ولم تستطع الدعائم القديمة التى أقامها الظلم والجور أن تقاوم هجومها وتثبت له ، وأوجد نظام يلائم تصور العدالة وعلى هذا الأساس أقيم كل التشريع الذى جاء بعد ذلك ، ولم يحدث منذ استقرت الشمس فى كبد السماء ودارت حولها الكواكب السيارة أن أدرك الانسان أن وجوده متركز فى رأسه أى فى فكره » وبالهام هذا الفكر يبنى الانسان العالم الواقع ، ولم يصل الانسان الا فى عهد الثورة الفرنسية الى الاعتراف بمبدأ أن الفكر يجب أن يحكم الواقع الروحى ، ولذلك كان هذا العصر فجرا عقليا باهرا ، وقد اشترك المفكرون جميعهم فى أفراح ذلك العصر ، وحركت قلوب الناس فى تلك الفترة عواطف سامية وسرت حماسة روحية فى شتى أنحاء الدنيا كأنما تم التوفيق بين ما هو مقدس وما هو دنيوى لأول مرة فى التاريخ ٠

★★★

العقل هو المحرك الأول للتاريخ

ولسنا نريد أن نسترسل فى شرح تفاصيل فلسفة هيجل فى التاريخ ، وانما حسبنا أن نكون قد أعطينا القارىء العربى صورة سريعة لأهم معالم هذه الفلسفة · ولابد أن يكون القارىء قد لاحظ معنا ان هيجل كان فى مقدمة الفلاسفة المحدثين الذين دعوا الى « تأليه » التاريخ ، وكان « الديالكتيك » (١٢) هو المحكمة العليا التى تتحكم فى مصير الوجود بأسره ! ولئن كان من بعض أفضال هيجل على فلسفة التاريخ انه لفت أنظار الباحثين الى ضرورة ربط التاريخ بالمنطق ، والعمل على اكتشاف ما فى الأحداث من علاقات ضرورية ، الا انه قد استعان بكل ما لديه من أجهزة عقلية ومعارف تاريخية من أجل تبرير النظام السياسى الذى كان قائما فى عهده · ومن هنا فقد جاءت فلسفة هيجل التاريخية مجرد صورة أخرى من صور « البورجوازية الألمانية » التى كانت تعتبر أوج التاريخ هو مرحلة انتصارها ·

وعلى كل حال ، فقد اهتم هيجل فى فلسفته التاريخية باستعراض تاريخ الشعوب المختلفة التى تعاقبت على مسرح العالم ، ابتداء من الشعوب الشرقية القديمة حتى الشعب الجرمانى ، فصور لنا الانسان بصورة الجهاز العضوى الواحد ، وقال ان العالم الشرقى يمثل طفولته ، بينما يمثل العالم اليونانى شبابه ، والعالم الرومانى رجولته ، والعالم الجرمانى كهولته · ومن هنا فقد سيطر على تفكير هيجل التاريخى مفهوم « التطور » أو « النمو البيولوجى » ، وكأن الانسانية كائن حى واحد يتقدم ، ويتطور ، ويترقى ، بجملته · وأما غاية التاريخ — فى نظر هيجل — فهى بلوغ مرحلة الحرية أو زيادة شعور الروح بما لديها من حرية · ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين الى القول بأنه لا سبيل الى فهم فلسفة التاريخ عند هيجل ، اللهم الا فى ضوء مذهبه السياسى ، ونظريته فى الحرية السياسية ··

والغاية التى ترمى اليها فلسفة التاريخ الهيجلية هى جعل التاريخ مفهوما ، وأن ترينا أن كل ما هو كائن ينطوى على الخير للبشرية طبقا لقولته المشهورة « ان الواقع هو المعقول والمعقول هو الواقع » وما يبدو

لنا فى التاريخ شرا ونكرا يتضح لنا وجه الخير فيه حينما نعلم انه لم يكن منه بد ، وأساس هذه الفكرة عند هيجل هو أن تاريخ العالم ليس نهبا للمصادفة العمياء أو مجالا للامعقول ، وانما هو تقدم للروح وكشف للكفايات المستورة والقدرات الكامنة ، ومن ثم يبرر هيجل وجود الدولة بقوانينها ونظمها ٠

والتاريخ فى رأى هيجل لا يكرر نفسه لأنه فى حركة تقدمية ، وليست حركته حركة دائرية وانما تحركه تحرك لولبى ، وما يبدو لنا مكررا ليس فى الواقع كذلك وانما هو مختلف عن سابقه ، فكل حدث من أحداث التاريخ قد اكتسب شيئا جديدا من الأحداث التى سبقته ، والحروب مثلا تظهر فى تاريخ البشر من الحين الى الحين ، ولكن كل حرب جديدة تختلف من بعض الوجوه عن الحروب السابقة للدروس التى تعلمها البشر من الحروب التى تقدمتها ٠

ورأى هيجل فى أن العقل هو المحرك للتاريخ يتضمن ان العقل نفسه يحوى عنصرا لا عقليا ، وهو تصور قد لا يخلو من الغرابة ، والحركة التاريخية حركة منطقية عقلية ، لأن التاريخ ليس وليد المصادفة وانما هو حركة ضرورية محتومة ٠

ولم يكن هيجل ، بطبيعة الحال ، أول مفكر محدث خاض فى فلسفة التاريخ ، فاننا لنعرف من بين فلاسفة التاريخ مفكرين ممتازين من أمثال « فولتير » و « روسو » و « فيكو » و « كندوسيه » وغيرهم ٠ ولكن فلسفة التاريخ التى قدمها لنا هيجل قد اتسمت بسمات خاصة جعلت منها فتحا جديدا فى هذا الباب ، فكانت بمثابة نقطة تحول هام فى مجرى التفكير التاريخى الحديث ٠ ولئن كانت بعض آراء هيجل ــ فى فلسفة التاريخ ــ قد أصبحت اليوم مجرد آراء كلاسيكية معروفة ، فما ذلك الا لأن الفلاسفة اللاحقين له قد عملوا على نشرها ودعمها ٠ ولا شك ان الماركسيين مسئولون ــ الى حد غير قليل ــ عن اذاعة آراء هيجل فى فلسفة التاريخ ، وان كانوا قد أخذوا على عاتقهم تصحيحها والتعديل منها ٠ وعلى كل حال ، فان الكثير مما يكتب اليوم عن سارتر أو كامى أو هيدجر أو يسبر ، يفترض الماما واسعا ــ من جانب القارىء المثقف ــ بالفكر الهيجلى على وجه العموم ، وبفلسفة هيجل التاريخية على وجه الخصوص ٠ وهذا هو السر فى اهتمام الكثيرين من مؤرخى الفكر الحديث بالرجوع الى هيجل ، خصوصا وانهم قد فطنوا الى تردد أصداء الفكر الهيجلى لدى الغالبية العظمى من مفكرى القرن العشرين ، سواء أكان ذلك عن طريق التأييد أم عن طريق المعارضة ٠٠

(١) هيرودوت : راجع الفصل الأول من هذا الجزء من الكتاب ٠

(٢) ابن خلدون : راجع الفصل الخامس من الجزء الأول من الكتاب ٠

(٣) شبنجلر : أوزوولد شبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) فيلسوف ألماني قال بأن الحضارات تولد وتنضج ثم تموت كالكائنات الحية سواء بسواء ٠ وأن الحضارة الغربية المعاصرة هى في طريقها الى الموت وبأن حضارة أخرى جديدة من آسيا سوف تحل محلها ٠

(٤) مونتسيكيو : راجع الفصل التاسع من الجزء الأول من الكتاب ٠

(٥) لوثر : مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) زعيم البروتستانتينية ٠ درس العلوم والقانون ٠ وضع نظاما تربويا فعالا ٠ كتب كثيرا فى أمور الكنيسة وصارت تعاليمه معروفة باسم اللوثرية ٠

(٦) بركليز : (٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق٠م) أثيني ٠ حكم أثينا من عام ٤٦١ ـ ٤٢٩ ق٠م حكما مستنيرا بلغت معه هذه الدولة ذروة قوتها ٠

(٧) ليفى : تيطس ليطيوس ليفى (٥٩ ق٠م ـ ١٧ م) مؤرخ روماني ٠ يعتبر أشهر المؤرخين الرومان القدامى ٠ وهو صاحب كتاب (منذ تاسيس المدينة) وهو أثر ضخم يقع فى ١٤٢ جزءا ٠ أرخ فيه لمدينة رومه ٠ وقد كان لهذا السفر أثر بعيد فى اسلوب الكتابة التاريخية وفلسفتها حتى القرن الثامن عشر ٠

(٨) قرطاجنة : مدينة قديمة فى الجزء الشمالى الغربى من جمهورية كولومبيا ٠ تقع على شاطىء البحر الكاريبى ٠ أنشئت عام ١٥٣٣ ٠

(٩) باليرا : مدينة قديمة ٠ وسط واحة فى صحراء سوريا ٠ كانت ملتقى القوافل بين سوريا والعراق ٠ بنى فيها الملك سليمان مدينة أطلق عليها بالعبرية اسم تدمر ، أى مدينة النخيل ، ومنها اشتقت التسمية اليونانية باليرا ٠

(١٠) برسبوليس : عاصمة امبراطورة الاخيمينيين الفارسية القديمة التى تقع فى الجزء الجنوبى الغربى من ايران ٠

(١١) سوفوكليس : (٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق٠م) من أشهر شعراء المأساة اليونانية ٠

(١٢) الديالكتيك : (الجدل) منهج منطقى بدأ بطريقة سقراط فى السؤال والجواب والحل ٠

الكـــون

« عرض الوصف الطبيعى للعـالم »

الكسندر فون هومبولت

١٨٤٥ م

كان الكسندر دى هومبلت Alexandre de Humboldt واحدا من رجال العلوم المشاهير فى عصره (١٧٦٩ ــ ١٨٥٩ م) ، ذلك العصر الهام فى تاريخ أوربا ، والذى تميز بثورة عام ١٧٨٩ ، وبالحروب التى خاضها نابليون ، ان عمله الواسع ، وشغفه بالرحلات ، قد حملاه على القيام باكتشافات كان لها دوى كبير فى أرجاء العالم وبصفة خاصة فى فرنسا وألمانيا · وتبرر الدراسات التى قام بها أن يطلق اسمه على التيار البارد الذى يهب على سواحل شيلى وبيرو ، وأن يكون تعريفه للعالم الطبيعى تمثيلا لمجموع المعارف العلمية فى ذلك العصر ، وأن يضفى طابعه على علم المناخ وعلم المحيطات ·

رحلاته من افريقيا الى الأمازون

ولد البارون هومبولت عام ١٧٦٩ وهو الابن الثانى لأسرة تنتمى الى الطبقة الارستقراطية فى مدينة برلين · وقد تلقى تعليما راقيا ، والتحق بنجاح بالجامعات الألمانية الشهيرة ، ومنها جامعة جوتنجن ، وفى عام ١٧٨٨ ــ ولم يكن قد أكمل سن حياته العشرين ــ أنهى دراسته فى العلوم الاقتصادية ، وتعرف على المستكشف « جوهان راينولد فورستر » وحدثه هذا عن رحلات جيمس كوك فى « أوقيانوسيا » التى اشترك فيها ويحتفظ لها بذكريات كثيرة ، وأيقظت قصص الرحالة المثيرة فى نفس الشاب شغفا بالاستكشاف الذى مارسه طوال حياته ·

وقام هومبولت بأول رحلة له عام ١٧٩٠ فى رفقة فورستر · وقد صعد نهر الراين ، وقصد على التوالى الى كل من هولندا وبلجيكا وانجلترا وفرنسا ، ولدى عودته سجل نفسه فى أكاديمية مناجم فرايبرج فى ساكس ، فأبدى فيها تفوقا واضحا ، ولم يأت عام ١٧٩٣ حتى عهد اليه بتولى ادارة مناجم فرانكوينا · ومع ذلك استمر الشاب يحلم بالرحلات التى سوف تتيح له دراسة الطبيعة فى البلاد المختلفة · وعندما توفيت والدته عام ١٧٩٦ ورث عنها ثروة طائلة ، خصصها بأكملها لانجاز

مشروعاته الطموحة · وقد أدت به أبحاثه أولا الى سويسرا وايطاليا الشمالية ، وبعد ذلك بعامين زار جبال الألب الشرقية ، وفى ذلك الوقت شعر بما يجتذبه بصفة خاصة الى القارة الأمريكية · وخلال زيارة ثانية له لباريس عام ١٧٩٨ اتصل بعالم النبات الفرنسى « ايميه بونبلان » الذى يهوى الرحلات مثله ، فراح الاثنان يضعان معا مشروعات للقيام برحلات كبرى ·

وخلال خمس سنوات قطع العالمان الطبيعيان ٦٠٫٠٠٠ كيلو متر ، فقد خططا فى البداية لاستكشاف القارة الأفريقية ، ميدان البحث الهام الذى يتيح لهما عدم الابتعاد كثيرا عن أوربا · ومن سوء الحظ ، أنهما علما فى مارسيليا أن الباخرة التى سيستقلانها قد تعرضت لبعض التلفيات والعطب ، مما يحول دون ركوبهما البحر ، وباتفاق بينهما قررا الذهاب الى اسبانيا ، وخلال شتاء ١٧٩٩ ، درس بونبلان فيها النباتات المحلية ، على حين انصرف هو الى الأبحاث الجيولوجية · ولم تمنعهما هذه الأعمال من السعى لدى الملك شارل الرابع بهدف الحصول على تصريح للذهاب الى المستعمرات الاسبانية · وقالا انهما يريدان أن يجمعا منها بعض النباتات والحيوانات وأن يدرسا الحرارة والكهرباء والمغناطيسية الجوية ، وأن يحددا هناك خطوط الطول والعرض ويقيسا ارتفاع الجبال ·

ووافقت الادارة الاسبانية على هذه المشروعات واهتمت بها ، وقدمت للشابين العالمين معونتها بغير تحفظ · وكان من شأن التوصيات العديدة التى حصلا عليها لدى الدوائر العلمية والدبلوماسية أن سهلت الى حد بعيد سير حملتهما · ففى كل عاصمة نزلا بها ، كان الرحالان يستقبلان فيها بالفعل بترحاب شديد لدى الطبقة الارستقراطية فيها ·

وفى يوم ٥ يونيو ١٧٩٩ ، استقل هومبولت وبونبلان الباخرة « بيزارو » وخلال توقفها للمرة الأولى فى جزر كناريا · راح الشاب الألمانى يدرس الصخور البركانية فى الأرخبيل ، وبعد مرور شهر فى عبور المحيط ، اذا بهما يصلان الى مرسى كومانا فى فنزويلا · وقام هومبولت بجولة فى المنطقة وحدد خطوط الطول ودرس المعادن ، على حين انصرف زميله الفرنسى الى دراسة النبات المحلى ، وأنبت بعض الأعشاب · ومع ذلك فان رحلتهما هذه لم تكن سوى فى بدايتها ، فمن ريو أبورى صعدا الاورينوكو بطول ٢٠٠٠ كيلو متر · وفى عالم ملىء بالنمور الأمريكية والبعوض ، انطلقا ناحية الأمازون مجتازين الجنادل الضخمة ، وفى هذه المغامرة ، فقد بونبلان صحته ، وفقد هومبولت شعر رأسه !

وهبط العالمان مره اخرى الاورينوكو حتى الجواسورا ، ثم اتجها ناحية كوبا ، وخلال عودتهما الى القارة الأمريكية ، عند كولومبيا ، راقبا خسوفا للقمر يوم ٢ مارس ١٨٠١ · ومن بوجوتا الى ليما ، راحت قافلتهما التى تتكون من حوالى عشرين دابة ، محملة بالأطعمة والأدوات العلمية والعينات التى حصلا عليها خلال الرحلة ، تسير على شكل ما فوق الطرق الجرداء الوعرة فى جبال الانديز · وتسلق الرجلان جبالا وبراكين، وقاما بالصعود الى قمة تشبورازو (٦٣١٠ أمتار) ، ولكنهما توقفا على بعد ٤٠٠ متر فقط من القمة · ولدى وصولهما الى ليما فوجئا بقسوة الجو عند ساحل بيرو · واكتشف هومبولت وجود تيار بحرى يدفع المياه المثلجة من القطب الجنوبى نحو الشمال ، فكان أول من يدرس هذا التيار الذى عرف منذ ذلك الوقت تيار هومبولت أو تيار بيرو ، ومن ليما أبحر العالمان الى المكسيك حيث قضيا العام الأخير من رحلتهما العلمية ·

اشهر رجل فى أوربا

وفى عام ١٨٠٤ ولدى عودتهما الى أوربا ، سرعان ما أصبح هومبولت منارة فى الحياة الاجتماعية فى المانيا وفرنسا · فما كاد يعود الى باريس حتى بدأ يعد العدة لاصدار موسوعة ضخمة عن رحلته فى أمريكا ، واستطاع أن يجمع حوله عددا من المعاونين الألمان والفرنسيين · وبعد رحلة عملية قصيرة مع الكيماوى الفرنسى جاى لوساك فى ايطاليا ، واقامة سنتين ونصف فى برلين ، قرر هومبولت الاستقرار فى باريس حيث يستطيع أن يجد حاجته من دور النشر والفنانين القادرين على معاونته فى اصدار موسوعته وشجعه على ذلك الاستقبال الحافل الذى استقبلته به المجامع العلمية والصالونات الأدبية فى باريس · ففى العام الأول بعد عودته كان قد ألقى عددا من المحاضرات وأقام معرضا لمجموعته العلمية التى أحضرها من أمريكا فى أربعين صندوقا ، كما أصدر الجزء الأول من موسوعته بالاشتراك مع بونبلاند بعنوان « جغرافية النباتات » ·

وقد اقتضى اصدار تقارير هذه الرحلة أن يقضى هومبولت حوالى عشرين عاما متواصلة فى باريس اشترك فيها مع بونتبلاند فى كتابة مرجع يقع فى ثلاثين مجلدا بالفرنسية أسماه (رحلة الى المناطق المعتدلة فى القارة الجديدة) يضم أبحاثهما فى مختلف فروع العلوم الطبيعية وغيرها من الدراسات الانسانية والعامة · وفى خلال هذه الفترة رفض هومبولت عام ١٨١٠ تعيينه وزيرا للتعليم فى الدولة الروسية ، وتسابقت الأكاديميات العلمية فى مختلف الدول على منحه عضويتها وصار ـ كما

تقول دائرة المعارف البريطانيه ـ أشهر رجل في أوربا بعد نابليون بونابرت ٠٠ !!

وفى عام ١٨٢٧ أمر فردريك غليوم الثالث ملك بروسيا بقطع اجازة هومبولت الدراسية التى كان يقضيها فى فرنسا ، وأصر على أن يتولى رئاسة لجنة لتشجيع العلماء والفنانين ٠ وكان من شأن هذا النشاط الجديد أن بقى فى برلين حتى عام ١٨٢٩ وهو التاريخ الذى كلفه فيه القيصر نيقولا الأول القيام برحلة الى آسيا الوسطى ٠ وكان هومبولت فى ذلك الوقت فى الستين من عمره ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقطع ٤٠٠٠ كيلو متر فى ستة أشهر ، فاجتاز جبال الأورال ووصل الى توبولسك، ومن هناك الى دزونجاريا على الحدود مع سيبيريا ٠

وعلى المستوى العلمى تعتبر النتائج التى أسفرت عنها هذه الرحلة أقل أهمية من نتائج الرحلة الأمريكية ٠ ومع ذلك فان المعلومات التى جمعها سوف تتيح له أن يصيغ كتابا بعنوان : « آسيا الوسطى ، أبحاث مقارنة عن سلاسل الجبال والمناخ » وفضلا عن ذلك فان أبحاثه عن الطبقات الجيولوجية للأورال سوف تتيح استغلال مناجم الماس فى هذه المناطق ٠ وفى عودته الى برلين أنشأ هومبولت دراسة عامة فى الجامعة ، وكذلك حلقة للمحاضرات ، بمثابة مقدمة لكتابه الكبير عن العالم « عرض للوصف الطبيعى للعالم » ٠ وقد ظل يؤلفه لمدة ثلاثة عشر عاما ، من عام ١٨٤٥ ٠ ورغم أن هذه الدراسة جاءت بمفهوم القرن الثامن عشر ، ألا انها فى تناولها لظواهر العالم ، لازالت تعتبر مرجعا أساسيا فى مجال الجغرافيا الطبيعية ٠

وقد توفى هومبولت فى ٦ مايو ١٨٥٩ فى برلين وكان فى السادسة والثمانين من عمره ٠ وقد احتوت مؤلفاته الكاملة عن علوم الأرض والعلوم الطبيعية ، مثل السلالات والتاريخ ، وكل تفصيل فى هذا العالم العريض، هو ثمرة شجاعة وذكاء وفكر رجل عالمى ٠

★★★

تراثه الفكرى والعلمى

نشر هومبولت حوالى ٢٦ مؤلفا ، بعضها أبحاث علمية متخصصة وبعضها دراسات مطولة · ومن هذه الأبحاث التى نشر معظمها فى المجلات العلميـة المعروفة فى ذلك الوقت ، دراسـات عن التـأثير الكهربائى على العضلات والأعصاب عام ١٧٩٧ ، وتركيب الهواء الجوى بالاشتراك مع « جاى لوساك » الكيماوى الفرنسى عـام ١٨٠٥ ، وجغرافية النباتـات عام ١٨٠٧ ، ودراسات عن الحضارات القديمة فى أمريكا عام ١٨١٠ ، وتوزيع الحرارة على الكرة الأرضية بواسطة الخطوط المتساوية الحرارة عام ١٨١٧ ، وأبحاث جيولوجية عن أنواع الجبال والبراكين والصخور عام ١٨٢٧ ·

وفيما يلى عرض لأهم كتبه :

١ ـ رحلة فى المناطـق الاستوائية للقـارة الجديـدة قام بها فيما بـين ١٧٩٩ ، ١٨٠٤ ألكسندر فون هومبولت وايمى بونبلاند ·

كتبها هومبولت وصدرت فى باريس ابتداء من عام ١٨٠٧ فى ثلاثين جزءا · وهى تقرير كامل عن الرحلة فى أمريكا الجنوبية والمكسيك ويشمل على أكثر من ١٤٠٠ شـكل وخريطة ، وتعتبر هذه المجموعة من أضخم التقارير العلمية ·

٢ ـ دراسات عن الحالة السياسية فى مملكة اسبانيا الجديدة · وقد صدرت فى خمسة أجزاء (١٨٠٩ ـ ١٨١٤) ·

٣ ـ دراسات عن الحالة السياسية فى جزيرة كوبا ·

وقد صـدرت فى جزءين (١٨٢٦ ـ ١٨٢٨) ويناقش جغرافيـة واقتصاد المستعمرة الأسبانية وبه فصل هام عن تجارة الرقيق ·

٤ ـ دراسة نقدية عن التطور التاريخى للمعرفة الجغرافية للعالم الجديد·

وصدر فى ثلاثة أجزاء (١٨٣٦ ـ ١٨٣٩) عن الرحلات البحرية والبعثات الاستكشافية وتاريخ الملاحة الفلكية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ٠

٥ ـ آسيا الوسطى ٠

صدر فى ثلاثة أجزاء فى باريس ، وفى جزءين فى برلين (١٨٤٣ ـ ١٨٤٤) كتقرير علمى عن رحلته فى روسيا ٠

٦ ـ الكون ٠ عرض للوصف الطبيعى للعالم ٠

وصدر بالألمانية فى خمسة أجزاء (١٨٤٥ ـ ١٨٦٢) ٠

★★★

كتاب الكون

عرض للوصف الطبيعى للعالم

فى عام ١٧٩٦ كتب هومبولت ـ وكان قد بلغ العام السابع والعشرين من عمره ـ الى صديقه « بيكتيه » العالم الفلكى فى جنيف ، عن فكرته فى كتابه وصف لطبيعة العالم • وظلت هذه الفكرة تختمر فى ذهنه حتى جاء الوقت لتحقيقها بعد ذلك بأربعين عاما ، فكتب فى عام ١٨٣٤ الى أحد أصدقائه يقول « لدى فكرة ضخمة •• أن أضع وصفا للعالم الطبيعى، أى كل ما نعرفه اليوم عن ظواهر الفضاء السماوى والحياة الأرضية ••• فى كتاب واحد » • ومضت عشر سنوات أخرى ، قبل أن يظهر الجزءان الأولان من كتاب الكون فى عامى ١٨٤٥ ، ١٨٤٧ • وكتب هومبولت الذى كان يبلغ الثمانين من عمره ، فى مقدمة كتابه « فى الهزيع الأخير من حياة زاخرة بالحركة ، أقدم للجمهور الألمانى عملا ، ظلت صورته العامة غير المحددة عالقة بذهنى لأكثر من نصف قرن » •

واقتضى الانتهاء من كتابة الجزءين الثالث والرابع من هذا الكتاب ، ان يبذل الشيخ أقصى قوته وهو فى الحلقة التاسعة من عمره ، حتى قطع عليه الموت عمله فى الجزء الخامس الذى صدر بعد وفاته •

الجزء الأول :

وقد ظهر الجزء الأول من كتاب الكون عام ١٨٤٥ والثانى عام١٨٤٧، بعد عمل شاق لمدة خمسة عشر عاما • وقد اعتبرهما هومبولت نفسه كمقدمة للأجزاء التالية • بدأ هومبولت الجزء الأول بمقدمة صغيرة تلتها « دراسة أولية عن تنوع مباهج الطبيعة واستقصاء علمى لقوانين العالم » وتحت هذا العنوان أعاد الكاتب ـ مع بعض التعديلات ـ ما سبق أن ألقاه من محاضرات عن الكون فى جامعة برلين فى شتاء ١٨٢٧ •

وقسم الجزء الاول « اهم ما فى الكتاب ... لوحات طبيعية للعالم كله ، سمائه وأرضه » ثم يقول « سوف نبدأ من أعماق الفضاء الكونى ثم نقترب بالتدريج خلال طبقات النجوم التى يتبعها نظامنا الشمسى ، الى الهواء والبحار التى تحيط بالكرة الأرضية ، فندرس تكوينها وحرارتها ومغناطيسيتها والحياة الزاخرة التى تتضاعف على سطحها وتتأثر بالضوء. وهكذا فى لمسات قليلة تحتوى صورة الكون ، الفضائى اللانهائى للعالم ، والكائنات الميكروسكوبية الدقيقة فى المملكة الحيوانية والنباتية » . وتبلغ الدراسة نهايتها بظهور الانسان على سطح الأرض وتطوره الطبيعى والتوزيع الجغرافى للأجناس المعاصرة وقوى الطبيعة التى تؤثر على الانسان وتتأثر به .

ويصل هومبولت الى قمة دراسته فى هذا الجزء ، بتأكيد وحدة الأجناس البشرية فيقول تحت عنوان « نظرة عامة على الظواهر الطبيعية » : « واذا كنا نؤكد وحدة الجنس البشرى فنحن نعارض كل افتراض مؤسف عن وجود أجناس بشرية عليا وأجناس سفلى . ان هناك من وصلوا الى درجة رفيعة من الثقافة والعلم ، وهؤلاء ارتفعت بهم الحضارة الروحية الى مستوى السيادة ، ولكن ليس هناك شعب سيد ان الجميع لهم حق المساواة فى الحرية » . وكهدف رئيسى لهذه الحرية ، عبر هومبولت بكلمات شقيقه « فلهلم فون هومبولت » عن فكرة الانسانية « بالكفاح لرفع الحدود التى يضعها التعصب والآراء المتحيزة والتى تزكى روح العداء بين البشر ، ومعاملة البشرية كلها كوحدة كبيرة وعنصر متآخ بصرف النظر عن الدين أو الوطن أو اللون ، حتى يمكن الوصول الى التطور الحر للقوى الكامنة فى أعماق الانسان » .

الجزء الثانى :

ويدور الجزء الثانى من كتاب « الكون » أساسا حول تاريخ المشاهدة الطبيعية للعالم . وهو ما يعنى به هومبولت « تاريخ التعرف الى الطبيعة ككل ، وفى نفس الوقت تاريخ الفكر الخاص بوحدة الظواهر الطبيعية وتفاعل قوى الطبيعة فى الكون » . ويرى هومبولت ان هناك ثلاثة عوامل أدت الى هذا التطور فى المعرفة ، الأول هو الرغبة الطبيعية للعقل الانسانى فى الكشف عن قوانين الطبيعة أى التأمل والملاحظة العلمية لظواهر الطبيعة ، والثانى هو الاحتكاك العالمى الذى أدى الى الاتساع المفاجىء فى أفق الملاحظة العلمية . أما العامل الثالث فهو اختراع أجهزة وطرق جديدة للملاحظة الحسية قربت الانسان الى الكائنات الدقيقة ، والأجرام السماوية البعيدة ، وجعلت الملاحظة أكثر دقة .

وهكذا عرض هومبولت كمؤرخ عالمى لتاريخ الملاحظه الحسيه للطبيعه خلال سبعة أحقاب رئيسية تغطى الفى سنة ، ووضع الى جانب اللوحات الرئيسية للطبيعة فى الجزء الأول من الكتاب لوحات للتطور التاريخى فى جزئه الثانى ، مما أضفى على الكتاب صفة كلاسيكية · وبظهور الجزءين الأولين من الكتاب انتهى هومبولت من مهمته الأساسية فى وصف « الكون » ·

الأجزاء : الثالث ، الرابع ، الخامس :

وفى عامى ١٨٥٠ ، ١٨٥٨ ظهر الجزءان الثالث والرابع من الكتاب، وفى هذين الجزءين عالج هومبولت التفاصيل الدقيقة والعلاقات المتداخلة لظواهر الكون والكرة الأرضية التى كان قد عرضها فى شمول وبصفة عامة فى الجزءين الأولين من كتابه ·

وهنا يظهر هومبولت كعالم طبيعى ، ومؤلف غنى المادة بدقائق كل فرع من فروع العلم التى عالجها · ولهذا فان الجزءين الثالث والرابع لهما قيمة تاريخية خاصة فى دراسة تقدم العلوم ، كذلك فان هومبولت استطاع أن يكتشف ويدرس ، كما يقول آدولف فون هارناك « المشكلة الكبرى والمهمة للعلوم » أى العلاقات المتداخلة بين الميادين المختلفة للفروع المتباينة ، كما انه استطاع أن يشجع كثيرا من معاصريه من العلماء الشبان على الدراسة والبحث ·

ظهرت الأجزاء الأربعة من الكتاب فى ٢٤٠٠ صفحة تضم أكثر من ٣٥٠٠ ملاحظة وتعليق عن كثير من أسرار هذا الكون · أما الجزء الخامس، فقد كتب هومبولت مقدمته وفصلا عن البراكين وبداية فصل عن تقسيم الجبال وطرق تكوينها وأنواع الصخور · الا أن الموت لم يمهله ليتمه ، فقام بهذا العمل « أدوارد بوشمان » الذى استطاع أن يكتب سجلا ضخما لمحتويات كتاب « الكون » كله فظهر الجزء الخامس عام ١٨٦٢ ·

احتفاء العلماء بالكتاب

كان نجاح الكتاب ساحقا ودليلا على ما يتمتع به مؤلفه من تقدير · فقد كتب ناشره « كوتا » بعد ظهور الجزء الثانى : « لم يستطع الموزع أن يجد كلمات يصف بها العاصفة التى اجتاحت منزله عندما وصلته نسخ الجزء الثانى · وكان عليه أن يدافع عن نفسه أمام جماهير الراغبين فى الشراء والمتسلمين لنسخهم · وقد حدث نتيجة لهذا ، أن طرودا كانت

مرسلة الى بطرسبرج أو لندن ، أخذت عنوه لترسل الى فينا أو هامبورج · لقد كانت هناك معارك حقيقية من أجل الحصول على هذا الكتاب » ··

ظهر هومبولت بكتابه كشخصية أسطورية ، وترجم الكتاب فى حياة صاحبه الى تسع لغات حية · وكتب الامير مترنيخ النمساوى يشكر « للساعات من السعادة الحقيقية » التى وفرها له الجزء الأول من كتاب « الكون » · كذلك كان الكتاب موضع تعليق واهتمام الصحافة الأجنبية وخاصة فى فرنسا وانجلترا · ولم يكن العلماء أقل حماسا فى استقبال الكتاب من جمهور المثقفين عامة ، فنجد العالم الفلكى « ارجلاندر » يعلق : « ان الكتاب يحوى ، بصرف النظر عن النظام البديع للمواد المختلفة ··· كثيرا من الجديد ومن القديم غير المعروف ، حتى انه يعطى حقا كل فلكى كثيرا من المعلومات ··· لقد تعلمت كثيرا منه ، كما ان الكتاب أعطانى فعلا أفكارا لعديد من التجارب ··· » · وسرعان ما أصبح الكتاب أكثر الكتب ـ بعد الكتاب المقدس ـ انتشارا فى ذلك الوقت · وكان التوزيع الضخم للكتاب دليلا على دخول العلوم ميدان الثقافة والتربية الى جوار الأدب والفن · وكاد يصبح من المتعارف عليه أن على كل مثقف أن يقرأ كتاب « الكون » لهومبولت أو أن يقتنيه فى مكتبته على الأقل ·

هومبولت رائد علم البحار

وليس كتاب « الكون » كتابا فى علوم البحار ، ولم يكن هذا العلم سوى واحد من العلوم التى اشتغل بها هومبولت · وقد اخترنا علوم البحار لنتحدث عنها كنموذج لما استطاع أن يقدمه هومبولت لهذا العدد من العلوم التى اشتغل بها ·

فعلوم البحار من العلوم الحديثة التى يرى الكثيرون أن بدايتها كعلم مستقل ترجع الى أول بعثة علمية منظمة جابت محيطات العالم على ظهر سفينة الأبحاث الانجليزية « تشالنجر » خلال الفترة من ١٨٧٣ الى ١٨٧٦، أى بعد وفاة هومبولت بأكثر من عشر سنوات · وقد شارك هومبولت فى تأسيس هذا العلم بملاحظاته العلمية ودراساته عن الظواهر الطبيعية التى كان يقوم بها أثناء رحلاته البحرية أو اقامته على السواحل ، فاهتم بعدد كبير من الظواهر البحرية يتعلق معظمها بحركة المياه وخواصها الطبيعية والكيميائية وتوزيعها فى بحار العالم · والمتصفح لفهرست كتاب « الكون » فى الجزء الخامس يجد تحت كلمة « البحر » أربع صفحات ونصف مليئة برؤوس الموضوعات التى طرقها تحت هذا العنوان · ومعظم كتابات هومبولت فى هذا المجال تعتبر قديمة بالنسبة للتقدم الحديث فى هذه

العلوم ، الا أن هذا العالم يعد رائدا دفع بعلوم البحار خطوات الى الامام ، فى بعض ما قدمه من نظريات لاتزال تحظى بتقدير علماء اليوم ٠

وقد قدم هومبولت نظرية عن الحركة العامة للمياه فى المحيطات تفترض أن المياه السطحية عند القطبين تبرد فتزداد فى الكثافة وتهبط الى القاع حيث تزحف من القطبين حتى خط الاستواء ، وهناك تأخذ فى الارتفاع الى السطح حيث تتحرك فى تيارات سطحية تتجه مرة أخرى من خط الاستواء حتى القطبين كى تكتمل الدائرة وتواصل المياه حركتها الأزلية ــ هذه النظرية التى قدمها هومبولت فى الجزء الأول من الكتاب ، لاتزال تحتفظ بتقدير كبير فى علوم البحار ، رغم ما أدخل عليها من تعديل وتطوير ٠

وفى مكان آخر يتحدث هومبولت عن العوامل التى تؤثر فى التيارات السطحية للمحيطات ٠ وهو فى هذا الحديث يسبق عصره ويعطينا شرحا عاما عن رأيه فى أسباب نشوء التيارات السطحية فيذكر منها اختلاف درجات الحرارة والملوحة بسبب الذوبان الموسمى لثلوج القطبين واختلاف التبخر فى خطوط العرض المختلفة ودور الرياح التى تسود مناطق معينة ٠ ثم يتحدث عن أثر دوران الأرض على مياه المحيطات فى خطوط العرض المختلفة وكيف يتوقع أن « تنحرف المياه التى تتحرك من الجنوب الى الشمال نحو الشرق ، وعلى العكس من ذلك تنحرف التيارات القادمة من القطب الى خط الاستواء نحو الغرب » ٠ وهو يربط هذه الأفكار بالملاحظات البحرية القديمة عن المناطق الاستوائية والمناطق القطبية حول نيوفوندلاند٠ ثم يقارن بين سرعة الرياح وسرعة التيارات التى تتأثر بها ويتبع ذلك بأفكار صائبة عن توزيع الضغط الجوى على سطح البحر وأثر ذلك على حركة المياه السطحية ٠

ان نظريات التيارات البحرية أصبحت تعتمد الآن على البراهين الرياضية ، وانتقلت هذه الدراسات من المشاهدة الوصفية الى التقديرات الكمية بفضل تقدم طرق القياس وأجهزتها على سفن الأبحاث ٠ ورغما عن هذا التطور الكبير فى معلوماتنا ، فاننا نقرأ اليوم باعجاب كبير ما كتبه هومبولت فى هذا المجال تعتبر قديمة بالنسبة للتقدم الحديث فى هذه الربط العلمى بين الظواهر ومسبباتها ٠ ولو أتيح لهومبولت أن يخرج بأفكاره هذه الى البحر فى دراسة عملية ، لدفع بتاريخ علوم البحار سنوات الى الأمام ٠

★ ★ ★

قيمة الكتاب كوثيقة علمية وتاريخية

بالغة الأهمية

لاحظ أحد مؤرخى الكسندر فون هومبولت ، ولم يكن قد مضى على ظهور الجزء الأول من كتابه « الكون » ثلاثون عاما ، أن بعض المعلومات الواردة فى الكتاب قد أصبحت قديمة ، فما أهمية الكتاب اليوم بعد مرور حوالى مائة وخمسين عاما على صدوره ؟ وماذا بقى من شهرته وشهرة مؤلفه ؟ هل تنحصر قيمته فى أنه سجل لما بلغته العلوم فى نهاية القرن الثامن عشر ؟ وفى أنه يمثل الروح العظيمة لاحد عمالقة العلم فى ذلك العصر ؟ وبمعنى آخر هل تتركز أهمية الكتاب فى قيمته التاريخية فيعنى به المؤرخون الذين يهتمون بدراسة تطور العلوم فى هذه الحقبة من الزمن ، أم ان له قيمة خاصة لكل المشتغلين بالعلوم الطبيعية وفلسفتها ؟

لم يكن ألكسندر فون هومبولت أكثر علماء عصره شهرة فقط ، بل كان أكثرهم شمولا فى المعرفة واتساعا فى الأفق · فلم تنحصر أبحاثه ودراساته فى علم أو مجموعة واحدة من العلوم ، بل استطاع أن يقدم اضافات قيمة لعدد من العلوم الجديدة التى وضع هومبولت الأساس لبعضها أو على الأقل شارك فى تأسيسها · ورغما عن هذا فان هومبولت يذكر فى مقدمة كتابه انه وان كان قد صرف عمره كله فى أبحاث فى مختلف فروع العلم ، الا ان هدفه كان أكبر من ذلك ، كان « محاولة فهم الظواهر الطبيعية للأجسام المادية فى علاقاتها العامة ، وفهم الطبيعة كشىء كامل ، متحرك وحى ، بواسطة قوى داخلية » · وفى مكان آخر يقول « لقد تعلقت عيناى على الأثر المتناسق لهذه القوى أى أثر الموجودات غير الحية على الكائنات الحية فى عالم الحيوان والنبات » · وهكذا لم تفارق ذهن هذا العالم الرحالة فكرة « كلية الطبيعة » سواء كان يعمل فى منجم تحت الأرض أو على قمة جبل أو كان يدرس نباتا دقيقا أو يلاحظ الفضاء الخارجى · بل ان اتساع معرفته وخبرته العريضة بعدد كبير من الفروع العلمية ، أتاح له أن ينظر من بعيد الى ظواهر الطبيعة وعلاقاتها ، وان

يجعل من التفاصيل دعامه للعموميات ، وآن يجد فى العموميات شرحا للتفاصيل ٠

ويعرض هومبولت فى كتابه صورا حية للطبيعة ، وهو يستعمل لغة قلما يستعملها باحث علمى ، انه يتفاعل مع الطبيعة ويحسها قبل أن يصفها ، فهو عالم فنان ، يهدف الى مضاعفة التمتع بالطبيعة « بالنظرة العميقة فى معارفهـا » ٠ فنرى ان الجزء الأول يدخل اصطـلاح لوحات الطبيعة ويكثر من استعماله ، وهو اصطلاح لا يتفق فقط مع ذوق ذلك العصر بل انه تعبير عن النفس البشرية وحقيقة الكون الذى يحيط بها ٠ وهو يعنى من ناحية أخرى الأثر المتكامل للطبيعة جميعها على النفس البشرية بصرف النظر عن العناصر السماوية والأرضية الداخلة فى تركيب هذه اللوحة ٠

ان البحث عن وحدة الخبرة رغبة قديمة للانسان ٠ ونحن اليوم أكثر قدرة على وصف الطبيعة وفهمها بما بلغناه فى مضمان القياس ٠ لقد رفع هومبولت من قدرتنـا على وصف الطبيعـة وفهمها ، بما أدخله من طرق للدراسة والبحث ، وبما أسسه من علوم جديدة لها هياكلها الخاصة ٠ فهو يدرس التوزيع الجغرافي للنباتات على سطح الأرض ، والعلاقة بين أشكال النباتات ونوع التربة والجو فى المناطق المختلفة وعلى الارتفاعات المختلفة للأرض ٠ ويستخدم لايضاح أفكاره طريقتـه التى اكتشفها فى توزيع درجات الحرارة على سطح الكرة الأرضية بواسطة خطوط الحرارة المتساوية ٠

وهكذا يرى الباحث فى الجزء الأول من الكتاب قدرة كبيرة على ربط الظواهر الطبيعية المختلفة وايضاح العلاقات الداخلية بينها ، مما يعطى الكتاب قيمة علمية بقدر ما يظهره كوثيقة تاريخية بالغة الأهمية ٠

لقد رأينـا كيف ختم هومبولت الجزء الأول من كتابـه بالدعـوة للمساواة بين الأجناس ٠ وهو فى هذا لا يصدر عن مثالية البرج العاجى ، وحماس البعيد عن المشكلة ، بل يتحدث كرجل جاب العالم ، وخبر هذه الأجناس ، وزار مستعمرات العالـم الجديـد ٠ فاذا تحـدث عن هذه المستعمرات كأمم لها حق الاستقلال والمساواة مع دول العالم القـديم ، فهو يتحدث كعالم درس أرضها وبحارها ومحص جبالها وأنهارها ورسم خرائطها وحـدودها بل وكباحث فى العـلوم الانسـانية اهتم بتاريخها الحضارى وحالتها الاقتصادية والاجتماعية ٠

لهذا كانت دعوته الى المساواة بين الشعوب ، والأجناس وتقديس الحريات الفردية دعوة قوية تركت أثرا عميقا بين شعوب أمريكا الجنوبية

والوسطى · فنجد اول رئيس لجمهورية المكسيك يحيى دوره فى نضال بلاده من أجل الاستقلال ، كما تصفه جامعة هافانا فى لوحة وضعتها على تمثاله أمام جامعة هومبولت فى برلين « بالمكتشف الثانى لكوبا » ، أما فنزويلا فتعتبره « خادما عظيما لبلادها » وتذكر ان « سيمون بوليفار » أول رئيس لها ومحرر أمريكا الجنوبية ، والذى تأثر فى صدر حياته بهومبولت وصادقه بقية عمره ، كان يصفه « بالمكتشف العلمى للعالم الجديد » ·

فى الجزء الثانى من كتاب « الكون » يجمع هومبولت بين مقدرته على وصف العالم الى استيعابه لتاريخه فيترك لنا عرضا مثيرا ، بالغ الأهمية لتاريخ الحضارات الانسانية ، من غزوات الاسكندر الأكبر ، الى اتساع الامبراطورية الرومانية ، ونمو العالم الاسلامى الى الكشوفات البحرية الكبيرة ، كوقائع غيرت أفكار الانسان عن الأرض التى يعيش عليها · وهو يغرق فى اعجابه بعصر الكشوفات البحرية ، ويعرض لوحة حية لجهود كولمبوس فى هذا المضمار · وتعد كتابات هومبولت فى تاريخ الحضارة العلمية من الكتابات القليلة التى تلتزم الحياد وتبحث عن الحقيقية حين توضح التفاعل بين الحضارات والمؤثرات المختلفة ·

ويدرس هومبولت الطبيعة بوجهتى نظر مختلفتين ، الأولى كنظرة واقعية الى الظواهر الخارجية ، والثانية كرد فعل يظهر كصورة تستقبلها حواس الانسان وتؤثر على أعماقه وشعوره وخياله · ولا ريب أنه كان يعرف بالتأكيد ان الصورة المعكوسة من الطبيعة على نفس الانسان تحمل ملامح خيالية كنتيجة لطاقة الابداع البشرى · ولهذا ينشأ الى جوار العالم الواقعى أو الخارجى عالم مثالى نشأ مع الانسان البدائى كعالم خيالى أسطورى توارثته الأجيال وظل حيا رغم الصورة الحقيقية التى أدخلها العلم الحديث ولا يزال لتحل محل الصورة الأسطورية ·

ويرى هومبولت ان هذه الصورة المثالية للعالم تدخل فى صميم كتابه عن « الكون » وأن الكتاب يحقق هدفه عندما يصل الى فهم كامل لهذين العالمين ، العالم الحقيقى والعالم المثالى · وهذا يقتضى أن تصل العلوم الطبيعية الى درجة من التقدم تسمح لنا بتفهم نظام الطبيعة ، أى عندما يتأتى لنا ان ننتقل من القدرة على وصف العالم الى شرح أسراره · ومن ناحية أخرى يقتضى فهم العالم الداخلى ، متابعة عملية التطور التى اجتازتها الانسانية فى تأثرها بالطبيعة ·

حقا ·· لقد صدق « جوته » حين وصف صديق عمره « هومبولت » بقولـه :

« يا له من رجل ! فرغـم معرفتى الطويـلة بـه فانه يثير دهشتى باستمرار · ان المرء يستطيع أن يقول ان لا مثيل له فى المعرفة والعلم · بل لم أعرف يوما مثل هذا التعدد فى القدرات ، فمن أين نأتيه نجده سيد الموضوع ويبهرك بكنوزه الروحية » ··

★★★

مراجع مختـــارة

١ ـ أصول الكتب الأربعة عشرة

٢ ـ أبو العلاء المعرى
تأليف طه وادى

٣ ـ أبو العـــلاء المعرى فى بغداد
تأليف عائشة عبد الرحمن

٤ ـ أبو العلاء المعرى فى آراؤه فى لزومياته
تأليف كمال اليازجى

٥ ـ اعلام الفكر الأوربى من سقراط الى سارتر
تأليف هنرى توماس

٦ ـ ألف ليلة وليلة
تأليف سهير القلماوى

٧ ـ تاريخ الانسانية
تأليف أحمد حسين

٨ ـ جان جاك روسو وآراؤه فى الاصلاح الاجتماعى
تأليف محمد عطية الابراشى

٩ ـ الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله
تأليف مايكل هارت

١٠ ـ الخـــالدون العـــرب
تأليف قدرى حافظ طوقان

١١ ـ رباعيات عمر الخيام
ترجمة أحمد رامى

١٢ ـ رباعيات عمر الخيـــام
ترجمة وديع البستانى

١٣ ـ رســـالة الغفـــران
تحقيق عائشة عبد الرحمن

١٤ ـ دائرة معارف الشعب

١٥ ـ شخصيات تاريخية من سقراط الى راسبوتين
تأليف على ادهم

١٦ ـ عمر الخيام حياته وفلسفته ورباعياته
تأليف أحمد الشنتناوى

١٧ ـ الغزالى والتصوف الاسلامى
تأليف أحمد الشرباصى

١٨ ـ فلاسفة الاســـلام
تأليف سعيد عبد العزيز

١٩ ـ قصة الحضارة
تأليف ول وايريل ديورانت

٢٠ ـ المعجم الفلسفى
تأليف د٠ جميل صليبا

٢١ ـ نفائس الفلسفة الغربية
تأليف د٠ عثمان أمين

٢٢ ـ هيرودوت
تأليف ا٠ج٠ ايفـــانز

٢٣ ـ هيرودوت يتحدث عن مصر
تأليف د٠ محمد صقر خفاجة

فهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٥٤٨٧

ISBN — 977 — 01 — 3420 — 1

الألف كتاب
الثاني
١٤٢

أحمد محمد الشنواني

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الثالث

الهيئة المصرية العامة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء الثالث
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Three
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1993
الناشر	الهيئة المصرية العامة للكتاب
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	x - 01-3628 977-
المستخلص	يتناول هذا الكتاب الجزء الثالث من " كتب غيرت الفكر الانسانى " استعرض من خلاله اربعين كتابا من اهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والادب والتى اثرت تاثيرا عظيما فى الفكر الانسانى على مر العصور والتى تعد بحق من الاعمدة فى الحضارة الانسانية والغرض من ذلك توضيح الدور العظيم للكتب وللكلمة المطبوعة على التقدم البشرى وذلك عن طريق مناقشة امثلة معينة وقوفا على اهم الكتب التى كان لها اعظم الاثر واعمقه على الفكر الانسانى منذ اقدم العصور الى يومنا هذا ومنها: محاورات سقراط - كليلة ودمنة لابن المقفع - الرسالة للامام الشافعى - احصاء العلوم للفارابى - مسرحيات شكسبير .
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022105-001*

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الثالث

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

الفهـرس

اهداء ..

الى السراج المنير الذى كان يضوء لى الصراط المستقيم
الى الذى هدانى الى طريق العلم والمعرفة والإخلاص والدين ..
الى روح والدى ...
اعترافا بفضله وتقديرا له ..

احمد محمد الشنوانى

مقدمة

ان المعرفة هى محرك التقدم · ووعاء المعرفة الكتاب · والسبيل الى المعرفة هى القراءة · لقد اتفق رأى العلماء على أن يقسموا حياة البشر على سطح الأرض الى فترتين ، فالفترة الأولى امتدت عشرات الألوف من السنين ، ويطلق عليها اسم ما قبل التاريخ · أما الفترة الثانية فلا يعدو عمرها الآلاف القليلة وهى وحدها التى يتكون منهـــا التاريـخ ، والحد الفاصل بين التاريخ وما قبل التاريخ ، الحد الفاصل بين الحضـــارة وما قبل الحضارة على نطاق الأرض كلهـا بشعوبها وأجناسها وأجوائها المتعددة والمتنوعة ، ليس موقعة حربية عظمى ، وليس مولد امبراطورية أو انهيارها ، وليس حدثا طبيعيا مهما كان ، وانما هو حدث حضـــارى محض : اكتشاف الكتابة ، أو بعبارة أخرى اكتشاف القراءة ·

والدلالة الحضارية لاكتشاف الكتابة دلالة ذات أبعـــاد ضـخمة ومتعددة ، انها تمثل بحق بدء مرحلة حضارية مختلفـة جوهريا عن كل ما ســـبقها ·

بالكتابة والقراءة أصبحت المعرفة البشرية سجلا عظيما ، طالعتـه عبر التاريخ شعوب عديدة ، كان لبعضها فضل تسطير صفحات منـه · أخذ اليونان عن حضارة مصر والشام وما بين النهرين بل فارس والهند ، ثم أثروا هذا التراث فى عبقرية ، وكانت مدينة الاسكندر هى البوتقـة التى انصهر فيها كل ذلك وخرج منها أعظم ما خلفه لنا العالم القديم · ثم أخذت روما عن مدرسة الاسكندرية وزادت على ما أخذت ونشرت تلك الحضارة فى حوض البحر الأبيض كله · ثم دخل العرب تاريخ البشرية كشعب يتميز بقدرة فائقة على تمثل الحضارات وهضم الثقافات يبنى حضارة تمتزج فيها الشعوب فى ظل مساواة لم يعرفهـــا مجتمع قبله فينشط الجهد الثقافى ويزدهر البحث العلمى · ومن تعاليم الاســـلام وثقافة اليونان وفارس والهند يقدم العرب كنوزا جديدة من المعرفة ·

والامر الغريب الذى ينبغى أن نتأمله هو أن ثقافة اليونان التى لعبت دورا عظيما فى تقدم الفكر والبحث عند العرب كانت فى خزائن بيزنطة التى أخذت دولتها فى الانهيار • وعندما سقطت مدينة قسطنطين فى يد محمد الفاتح ووفد علماؤها بمخطوطات الاغريق الى أوربا ، كانت هذه الثروة الفكرية هى الراد الثقافى الذى ترعرع عليه عصر النهضة ، وليس أدل على ذلك من أن الثقافة اذا ظلت محفوظة لدى قلة بمعزل عن حركة المجتمع فانها لاتغنيه ولا يغنيها ، بل تبقى كأحجار كريمة فى جوف قبر يعلوها التراب •

اذن فالكتب هى التى أضاءت طريق الانسان ، منذ عرف نور العلم والمعرفة باعتبار أن هذا الانسان يتميز بالعقل ، وباعتبار انه يستفيد من ثقافته بقدر ما يستفيد من خبرته ، ولذلك فان الكتاب يعد تراثا انسانيا لاتقف فائدته عند حدود ، فالثقافة لاتحبس داخل الحدود الجغرافية ولا تختص بها أمة دون أخرى ، وانما هى موجات فكرية تظهر وتختفى ، ثم تتلوها موجات أخرى متداخلة ومتسقة •

والكتب العظيمة فى حياة الانسان ، كالأحداث العظيمة ، لا تأتى بموعد مسبق ولا يرتبط ظهورها بزمان ولا مكان محددين ، وانما هى فلتات تجود بها الحياة كلما أراد الله وأضاء وجه الحياة عباقرة العقول والمواهب شرقا وغربا •

فنجد فى حياة الانسانية عددا من الكتب العظيمة التى كان لها أعظم الأثر على مسيرة الحياة والانسان والتاريخ والثقافة والفكر والعلم والمدنية ••

والكتب الرائدة فى التراث الفكرى العالمى كتب كثيرة ومتنوعة ، ففى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر الانسانى نجد كتبا عظيمة كان لها فضل الريادة فى ميدانها على مدى التاريخ الانسانى الطويل •

ورغم أهمية هذه الكتب ، الا أنه من النادر أن تجد شخصا قرأها جميعا ، وذلك لصعوبة الحصول عليها مجتمعة ، أو لندرة طباعتها أو •••

ولذلك •• فبعد أن قدمت الجزءين الاول والثانى من هذه السلسلة « كتب غيرت الفكر الانسانى » وتلقاهما القارىء بالقبول ، فقد واصلت الرحلة فى عالم الكتب فى الفكر والأدب وجميع فروع العلم والمعرفة ••• وانني اذ أقدم اليك عزيزى القارىء الجزء الثالث من هذه السلسلة لتكمل فيها عصارة أربعين كتابا من أهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والأدب والتى أثرت تأثيرا عظيما فى الفكر

الانسـانى على مـر العصـور والتى تعد بحق من الأعمدة فى الحضـارة الانسـانية ٠

وكما قلنـا سابقا ان الغرض من هذه السلسلة هو توضيح القور العاتيـة للكتب وللكلمة المطبوعة على التقـدم البشرى وذلك عن طريق مناقشة أمثلة معينة ٠ ولم يكن فى نيتنا تقديم « قائمة » بأحسن الكتب أو أعظم الكتب ، ولكن كان هدفنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ٠

وما أردت الا الخير وعلى الله قصد السبيل ٠

المؤلف

الإلياذة

هوميروس

ح ٩٠٠ ق.م

● لم يحتل شـــاعر ولا علم من أعلام الأدب فى جميع العصـــور التاريخية مكانة فى حيـــاة شعبه كمكانة هوميروس · فهو الرمز الأعلى للوطنية ، والمصور الموثوق للتاريخ اليونانى القديم ، وهو أحب الشعراء الى قلوب اليـــونان ، وأعظـــم من يستشهدون بأشـــعاره · وقد أخبر « أفلاطون » أن من بين الاغريق من يعتقدون اعتقادا راسخا ان هوميروس : « يستحق ان ينظر اليـــه كمعلم فى مجـــال ادارة الشئون الانسانية وتهذيبها ، وأن على المرء ان ينسق حياته كلها مترسما خطى هذا الشاعر »· كما أن لأشعاره آثارا بالغة فى الأدب والثقافة والتربية ، حتى أصبح ينظر اليها على انها أساس للأخلاق ، ومعين للعلم والمعرفة ، واكتساب للبلاغة ، ومقياس للنقد الأدبى ، فقد عنى هوميروس بتهذيب أساليبه ، وتنقيح فنونه حتى بلغ بشعره أرفى شأن أمكن بلوغه فى تلك العصور · وتمثل ذلك بجـــلاء فى ملحمتيه الخالدتين « الالياذة » و « الأوديسا » اللتين حصل بهما هوميروس على لقب « صاحب أعظم الملاحم البطولية فى التاريخ» وهما قصتان شعريتان طويلتان احتلتا مقاما مرموقا فى الآداب العالمية ·

من هو هوميروس ؟

ولو أردنا أن نجيب على سؤال « من هو هوميروس ؟ » ما استطعنا ان نجيب بأكثر من أن هوميروس هو « مؤلف الالياذة » !!

فما زالت حياة هوميروس أسطورة كلما حاول العلماء فهمها تاهوا فى تفاصيلها ، وكلما أرادوا دراستها تشعبت أبحاثهم ، وتعددت آراؤهم، ولم يتفقوا على شىء · ومع انهم كتبوا عن شاعر الاليـــاذة من المؤلفـــات مالم يكتبوه عن أديب آخر فان أبحاثهم عن حياته ونشأته مازالت مملوءة بالفروض والاحتمالات ·

فأين ولد هوميروس ؟ ومتى ؟ ومن أى سلالة انحدر ؟ هل هو سليل الآلهة ؟ ابن بوسيدون رب البحار ؟ أم ابوللون ، اله الشعر والغناء ؟ وهل كانت أمه ربة ربات الشعر أم حورية من حوريات الماء أم امرأة كسائر الأمهات ؟ وهل كان ضريرا لايبصر ؟ أو كان مبصرا فى أوائل أيامه ثم فقد بصره ؟ أو كان ضعيف البصر طول حياته ؟ وأين قضى أيامه وكيف ؟ وهل فضل منطقة من بلاد اليونان وأقام بها أم طاف فى أرجائها وقصد كثيرا من مدنها ثم عاد الى مدينة أزمير « سمورنا » ونظم الالياذة والأوديسا وبعض القصائد الهزلية مثل « الغبى المغرور » و « حرب الضفادع » و « حرب النيران » ؟

وبأى أرض مات ؟ هل مات بجزيرة ايوس أم فى مكان غيرها ؟

هذه أسئلة لانعرف لها جوابا صحيحا لأن هوميروس فى أشعاره لزم الصمت ولم يذكر عن نفسه شيئا ، ولم يحدثنا عن نشأته كما فعل غيره من شعراء زمانه ، فأخذ العلماء ينسجون حوله الروايات ويحيكون القصص وكثرت هذه وتلك ، واختلفت اختلافا شديدا فيما تضمنته من سير وأنباء ، ولكن مهما تضاربت آراء النقاد القدماء ، فاننا نستطيع أن نستخلص منها شيئا عن حياة هوميروس ونشأته . وهذه أهم الحقائق التى يمكن أن نستنتجها من المعلومات التى أجمعوا عليها .

يبدو أن هوميروس ولد من أبوين مغمورين فى احدى المدن الأيونية بآسيا الصغرى ، ثم أظهر فى صباه ميلا لسماع القصائد وحفظ الأناشيد ، وفى سن الشباب بدأ يتغنى بأشعاره فلم ينل اعجاب سامعيه الذين أعرضوا عنه ولم يشجعوه ، فذاق مرارة الفقر . وعندما اتقدت قريحته ، ونبغ فى انشاد الشعر ، ذاع صيته وتسابق الأثرياء الى دعوته للاقامة فى قصورهم والتغنى بأسلافهم ، وتنافست المدن فى اجلاله وتكريمه لما فى أشعاره من تمجيد لابطالها واشادة بماضيها . وهكذا أتيحت له فرصة لزيارة كثير من البلدان ، ودراسة معتقداتها والوقوف على أحوالها ، ومعرفة عادات أهلها ، فكانت مصدرا للمعلومات التى تفيض بها قصائده .

ولعل ضخامة انتاجه وطول ملاحمه يحملنا على الاعتقاد بأنه عاش زمنا طويلا ومات فى شيخوخته بجزيرة ايوس التى أجمعت الروايات على انها كانت تفتخر بوجود قبره فيها .

أما عن عصره ، فقد ذهب القدماء فيه ثلاثة مذاهب ، فقال هيكاتيوس، أول مؤرخى اليونان ، بأن هوميروس عاصر الحرب الطروادية التى وصف

حوادثها أى انه ازدهر فى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد · ولكن هيرودوت (١) خالفه فى ذلك ، وأكد أن شاعر الالياذة ظهر قبله بما لا يزيد عن أربعة قرون أى فى منتصف القرن التاسع ق·م ، ثم جاء السفسطائى المشهور ثيوبوميوس (القـــرن الرابع ق·م) وجعله معاصرا للشـــاعر الهجائى أرخيلوخوس الذى ذاعت شهرته فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد · وازاء هذا الاختلاف كان من الطبيعى أن ينقسم المحدثون على أنفسهم وأن يعتنق كل منهم رأيا من الآراء الثلاثة ، ويعمل على تاييده فى ضوء الاكتشافات الحديثة ·

لكن آخر الأبحاث وأدقها أيدت رأى هيرودوت · فلغة هوميروس هى لغة القرنين التاسع والثامن ق·م وليست لغة العصر الموكينى التى كانت ضاربة فى القدم ، وكانت تحتوى كلمات عتيقة وألفاظا نادرة ، وعبارات غير مألوفة ، ولا هى لغة الشعر الغنائى التى كانت تفيض حيوية وتمتلىء حركة لتوافق الألحان الموسيقية ، وتعبر عن مختلف العواطف الحياشة والانفعالات القوية ·

عاش هوميروس اذن فى أواخر القرن التاسع ق·م بعد انتهاء حرب طروادة وقبل ازدهار الشعر الغنائى بقرون ، فاعتمد فى وصفه لحوادث هذه المعركة على الروايات التى سمعها ، والآثار التى شاهدها فى ربوع اليونان ، ثم وصف هذه الاحداث فى لوحـــات تصور المجتمع الذى عاش فيه ، والحضارات التى عاصرها · فسجل لليونان حياتهـــم فيما بين القرن الثانى عشر وأوائل الثامن قبل الميلاد · وعرضها فى قالب قصصى واسلوب روائى يجمع بين الحقيقة والخيال ·

المشكلة الهومرية

لما كان نقاد اليونان منذ بداية القـرن الســـابع قبل الميلاد كانوا ينسبون الى هوميروس عددا من القصائد غير الاليـاذة والأوديسا ، لكن شعراء الاسكندرية وعلماءها عكفوا على دراسة الأشعار الهومرية وتحقيقها وقرروا ، بعد بحث دقيق ، أن شاعرنا لم ينظـم الا الملحمتين العظيمتين ولم يخرج على هذا الاجماع الا فئـــة قليلة كانت تدعى بـأن هوميروس لم ينظم الا الالياذة ، وان الأوديسا كانت من نظم شاعر ــ أو شعراء ــ غيره · ولكن يظهر أن هذه الجماعة لم تستطع تأييد دعواها بأدلة قوية فكان من السهل على أريستارخوس ، أشهر نقاد الاسكندرية ، تفنيد رأيها واخماد صوتها ، فلم يعد يسمع به أحد فى العالم القديم ·

فاعتمدوا على بعض العبارات المتناثرة فى مؤلفات اليونان ليؤيدوا نظرية هؤلاء الذين سبق أن نادوا بفصل الالياذة عن الأوديسا ، وما ان تحددت هذه الدعوى فى القرن السادس عشر حتى انقسم المحدثون على أنفسهم وتعددت مدارسهم وتضاربت آراؤهم ، فظهرت فى الأدب اليونانى ، مشكله خطيرة ، كانت ومازالت موضع أبحاث عديدة ، وموضوع كتب بأكملها ، وأصبحت تعرف فى هذا الأدب بالمشكلة الهومرية ٠

ولقد قامت هذه المشكلة على اعتراضين رئيسيين ٠ أولهما انه ليس من الممكن ان يبدأ الأدب اليونانى بهاتين الملحمتين الرائعتين ، وليس من المعقول أن تخرجا من العدم دون أن تسبقهما ملاحم أخرى رجع اليها هوميروس وأفاد منها فى نظم أشعاره : ثانيهما أن خصائص كل من الملحمتين تدل على انهما عملان مختلفان ألفهما شعراء مختلفون وأن كلا منهما وحدة مستقلة رغم ما تضمنه من مقطوعات مفككة وفقرات متناقضة ٠ ومن هنا بدأ المحدثون دراستهم ، وأخذوا فى البحث عن مختلف الأدلة يدعمون بها رأيهم ٠

ويعتبر « فولف » أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة « هل » الألمانية أول من اهتم بدراسة هوميروس دراسة علمية دقيقة وأول من خلق المشكلة الهومرية فقد نشر فى عام ١٧٩٥ كتابه القيم المعروف باسم « مقدمة فى دراسة هوميروس » قرر فيها أن الأشعار الهومرية نظمت فى القرن العاشر قبل الميلاد عندما لم تكن الكتابة معروفة أو على الأقل غير مألوفة فى تدوين الأعمال الأدبية ثم انتقلت هذه الأشعار من جيل الى آخر عن طريق الرواية الشفوية واعتراها بعض التغييرات ، ولم تدون الا فى أيام الطاغية المستنير بيسستراتوس (٦ ق٠م) الذى أمر النقاد بتحقيقها وتصحيحها ، فقاموا بما أمروا به وأدخلوا عليها كثيرا من التعديلات ولذلك يضيف فولف قائلا : ان الوحدة الفنية فى الملحمتين لم تكن موجودة منذ نشأتهما ، انما اكتمنت تدريجيا على مر الزمن بفضل الاضافات والتعديلات التى أدخلت عليهما ، وينتهى من ذلك الى ان الوحدة الفنية أظهر فى الأوديسا منها فى الالياذة ، وان الملحمتين ليستا من نظم شاعر واحد ، وانهما أول الأمر لم تكونا فى صورتهما الحالية بل كانتا أقصر من ذلك بكثير ثم أخذ المنشدون يضيفون اليهما مقطوعات جديدة حتى بلغتا هذا الطول ٠

من علماء الألمان وأدبائهم ، ولكن سرعان ما اختلفوا فيما بينهم فى التفاصيل بما أدى الى اضعاف هذه النظرية التى لم تستطع الصمود أيضا أمام نتائج الكشوف الأثرية الأخيرة • فقد ثبت منهـا أن الكتـابة كانت معـروفة ومستعملة على أيام هوميروس ، بل قبله ، وهكذا تهدم الجانب الأساسى فى الأدلة الخارجية التى بنى عليها فولف نظريته •

أما عن الأدلة الداخلية التى اعتمد عليها ـ هو وأتبـاعه ـ لدعم ارائه ، فقد دحضها الأستاذ البلجيكى سفيرنس الذى عكف ما يقرب من ربع قرن ، على دراسة الالياذة والأوديسـا وبحث المشكلات التاريخية والدينية والاجتماعية واللغوية كافة مما يتصل بهما ، ونجح فى أن يثبت أن كل ما يبدو فى الملحمتين من تضارب أو تناقض انما هو تضـارب ظاهرى لأن هوميروس لم يكن مؤرخا أو جغرافيا أو عالما لغويا ، بل كان شاعرا من حقه ألا يتقيد بالحقائق • وبهذه الطريقـة بين خطأ فولف وتلاميذه ، وفند مزاعمهم ووصـل الى أن هوميروس وحده نظـم الالياذة والأوديسا فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد •

الاليـــاذة

تدور الالياذة حول أحداث الحرب الطروادية التى دارت رحاها فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، لكن هذا لايعنى انها ملحمة حربية كمـا يعتقد الكثيرون فهوميروس لم يصف لنـا هذه الحـرب التى دامت عشر سنوات وامتلأت بالأهوال والخطوب انما اكتفى بأن يتغنى بأحداث الشهرين الأخيرين من العام العاشر ، فنظم الالياذة ، ملحمة الخلود وقصيدة الزمان ، وتتكون من خمسة عشر ألفا وخمسمائة وسبعة وثلاثين بيتا ، قسمها علماء الاسكندرية الى أربع وعشرين انشـودة ، بدأها هوميروس بالدعاء لربات الشعر ليلهمنه الشدو والغناء ، ثم أخذ فى سرد قصته قائلا:

ذات يوم هاجم اليونان قرية طروادية وسبوا نساءها ، ومن بينهن خروسيس الجميلة ، ابنة كاهن أبوللون ، فأعجب بها أجا ممنون وأخذها من نصيبه ، وحزن أبوها حزنا شديدا ، فتوجه الى معسكر اليونان وتقدم نحو رئيسه وتوسل به قائلا : « مولاى ! انى أدعو لك بالنصر ، وأصلى من أجلك ، وأقدم لك ما أملك فداء لفلذة كبدى ، فارحمنى وردها الى » ولكن أجاممنون نهره ورده خائب الرجـاء ، فعاد الى قريته يبكى ابنته ويدعو أبوللون ان ينتقم له من هذا الملك المتجبر ، واسـتجاب الاله

لدعائه ، وانزل على اليونان صلصون يجتاح جنودهم وسيهم . واستمر الوباء تسعة أيام عاصفة تنذر بالفناء ، عندئذ اضطر اخيليوس الى دعوة مجلس الجيش ، فأجمع القادة على ان يذهب كالخاس ويسأل الأرباب لتكشف له أسباب هذه الغمة ، وعاد الكاهن وقال « الويل لنا ان لم نرد خروسيس لأبيها ، ان الآلهة تأمر بردها فورا ارضاء لابوللون ، فيجب علينا أن نبتهل اليه ونسترضيه ليرفع مقته وغضبه عنا » فنهض أخيليوس وأرسل كلمة الحق مدوية وأصر على ارجاع الفتاة لأبيها . فثار اجاممنون في وجه البطل العظيم ونشبت بينهما معركة كلامية ، وهم اخيليوس بأن يغمد سيفه في صدر الملك الذى وافق على رد خروسيس اذا تنازل اخيليوس عن فتاته برسيس ، وعندئذ هبطت أثينا من السماء ونصحت البطل بأن يتخلى عن حبيبته لهذا القائد الأنانى ، واستجاب البطل لنصيحتها وأقسم فى نفس الوقت بانه لن يشترك فى الحرب ولن يسمح لجنوده البواسل بخوض معاركها . وجلس اخيليوس في خيمته حزينا كئيبا ونادى أمه ثيتس لتأتى وتسمع شكواه ، فأسرعت اليه وحدثها عن الاهانة التى لحقته ، ثم خفت لمقابلة « زيوس » وأبلغته الخبر فوعدها بانه سيذيق أجاممنون وجنوده عذابا أليما تكفيرا عما أصاب ولدها من شر وأذى

ويحدثنا شاعر فى الانشودة الثانية بأن كبير الآلهة أرسل الى أجاممنون اله الأحلام وهو يغط فى نومه ليحضه على مهاجمة طروادة فورا ويبشره بالنصر المبين . فلما استيقظ القائد الأعلى تحدث الى القادة وأخبرهم برؤياه الكاذبة فصدقوها ، ثم وقف منهم نستور خطيبا ليشحذ عزائمهم ، ولكن اجاممنون اراد أن يعرف رأى جنوده قبل المعركة ، فنهض وهتف فيهم قائلا : « هلموا أغمدوا سيوفكم ، ولنعقد مع الطرواديين هدنة ، فلتنته هذه الحرب ولنعد الى ديارنا » . فما كاد ينتهي من القاء كلمته حتى طار الجنود فرحا ، وعلا هتافهم يؤكدون رغبتهم في الرحيل بعد الغياب الذى انهك قواهم ، وأفنى شبابهم ، ولكن كيف تقف المعارك وأثينا لاتريد ذلك فسرعان ما هبطت من السماء وتجلت أمام اودوسيوس وقالت له « اياك أن تنخدع بكلام اجاممنون ، انه يريد أن يسبر عزائمكم ، فهيا اتفخ من روحك فى الجند وردهم الى صوابهم وأقنعهم بالبقاء » . وعندئذ انطلق ملك أيثاكا بين القادة والجند وحثهم على التضحية ، ونجح فى تحقيق رغبة أثينا ، فاستمرت الحرب وطال القتال ، فيسهب الشاعر فى وصف المعارك التى تتأرجح فيها الكفتان أحيانا ، وترجح فيها كفة الطرواديين أحيانا أخرى ، فيثوب اليونان الى رشدهم ويدركون انه لو كان اخيليوس بينهم لما غلبوا على أمرهم فيوصى

نستور بمصالحة البطل ويطلب الى اجاممنون استرضاءه ، ويستجيب القائد العام لهذا الطلب ويرسله مع أودوسيوس وآخرين الى خيمة البطل ليعرضوا عليه صلحا كريما ويسألوه الصفح والغفران ولكنه يثور لكرامته ويرفض الاعتذار ويردهم خائبين • وبعدئذ يعود الشاعر بنا الى ساحة الوغى حيث نرى مئات القتلى من الاغريق الذين أصابهم اليأس بعد أن رفض اخيليوس العودة الى القتال . ويحاول باتروكلوس اقناع صديقه الحميم ، اخيليوس ، بأن يغفر الاساءة ، وينزل الى المعركة ليدفع عن بنى وطنه البلاء ، لكن البطل لايستجيب لنداء صديقه ، فيكتفى بأن يسمح له بأخذ ما يريد من قوة وعتاد ، فيذهب باتروكلوس فى الانشودة السادسة عشرة لتخليص الاغريق من الموت الذى يلاحقهم • وينتصر صديق اخيليوس أول الأمر ويختال بانتصاره ويصر على ملاقاة هكتور ، بطل طروادة ، ويسعى اليه ، لكن هكتور يرسل الى رأسه رمحا قاتلا ، فيسقط المسكين مضرجا بدمه • ويسمع اخيليوس بالخبر ، فيرسل صرخات مدوية كادت تزلزل قلوب الطرواديين وتملؤهم ذعرا ، وطفق يجوب الساحة بحثا عن جثة حبيبه ، فلما وقع عليها بصره ، بكى ما شاء له البكاء ، ثم رثى صديقه بكلمة مؤثرة وأمر بغسل الجثة ، ثم نسى غضبه ، ونسى كل شىء وأصبح لايفكر الا فى الانتقام لصاحبه ، ويصف لنا الشاعر فى الأناشيد الباقية كيف انتفض اخيليوس . وانقض يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة ، وكيف استخف بالاهوال وأقسم أن يفجع طروادة فى هكتور ، بطلها المغوار فانطلق فى ساحة القتال يبحث عنه حتى التقى به ، وظل يطارده أينما ولى وجهه ، ولما تعب هكتور ونال منه الجهد ، وقف للقاء اخيليوس ، ولم تنقض لحظات حتى انقض بطل اليونان عليه وعاجله بطعنة من رمحه هوت به الى الأرض ذبيحا ميتا • وبعد ان انتفخ اخيليوس لصاحبه ، جمع القوم وأمرهم باعداد كومة لحرقه وتادية الشعائر الدينية التى لايتم الجناز الا بها ، ثم عاد الى جثة هكتور وانقض عليها كالمجنون وربطها فى عربة ، وأخذ يلف بها حول الكومة التى حرق فيها صاحبه • فثارت الآلهة لما يحل بالميت المسكين من هوان ، وغضب زيوس فأرسل الى اخيليوس يأمره بتسليم جثة هكتور الى أبيه بريامس • ويذهب هذا الشيخ المكلوم الى معسكر اليونان ويسعى الى خيمة البطل الذى يكرم وفادته ويأمر بغسل جثة هكتور ولفها فى أكفان من كتان مصر وتسليمها الى أبيه • ثم يعود بريامس الى طروادة ويأمر بعمل كومة لحرق الجثة ويقيم لها الطقوس الدينية وسط نحيب الطرواديات وعويلهن • وهكذا تنتهى الملحمة بوصف بليغ لهذا المنظر الحزين •

هذا ملخص للالياذة التي كانت ومازالت تعد أهم ملحمة في الأدب الغربي ، قديمه وحديثـه ، يرجع اليها الادباء والعلماء يتلونها مرة بعد أخرى ، ويجمعون على انهم لايضيقون بها مطلقا ، وانهم اذا تركوها فترة ، أحسوا شوقا عجيبا اليها ، فيعودون اليها ، ويشعرون أن أوصافها مازالت ساحرة وان لوحاتها مازالت رائعة ..

صور من الالياذة

رجل من عامة الشعب يهاجم اجاممنون

ملك الملوك .

« ما شكواك يا ابن أتريوس ؟ وما تريد ؟ ان سفائنك مملوءة بالمال والعتاد ، مملوءة بالغيد الحسان اللاتي نقدمهن لك عندما تستولى على مدينة من المدن . أأنت فى حاجة الى مزيد من الذهب يحمله اليك أحد الطرواديين فداء لابنه ؟ أم تريد فتاة جميلة تحتفظ بها لنفسك ؟ انه لا يليق بزعيم الآخيين ان يدفع بهم الى البؤس والشقاء . وانتم أيها الآخيون ! أى خزى تجلبون على أنفسكم ! لقد أصبحتم لا تستحقون اسمكم ، فلنعد الى بلادنا ونترك ذلك الرجل هنا يذوق ثمرة تصرفاته ويشعر بحاجته الينا . لقد أهان اخيليوس الذى يفضله ويمتاز عليه ، فاغتصب حبيبته واحتفظ بها لنفسه » .

وقد يذهب لاسترضاء اخيليوس :

« سلام عليك ، اخيليوس ! ان مصيبة فادحة تشغل بالنا وتثير مخاوفنا ، اننا لا نعلم اذا كنا سننقذ السفن أو سنفقدها ، لقد أقام الأعداء بالقرب منها معسكرا لهم ولحلفائهم . وهكتور يختال بقوته ويعصف بجنودنا ، لايحترم الآلهة ولا البشر ، لقد استولى عليه غضب شديد ، وقرر أن يشعل النار فى السفن ، ويجندل رجالنا اجمعين وكل ما أخشاه ان يحقق الأرباب رغبته ، فيكتبوا علينا الموت بعيدا عن ديارنا . فهيا اذا كنت تريد ان تنقذ اليونان من مصيبتهم واذا توانيت فسوف تعانى انت نتائجها ، لأن الشر اذا وقع ، لن تجد لك منه مخرجا ، فأسرع وفكر فى انقاذ اليونان من بلواهم .

هدىء من ثورتك ، واترك الغضب جانبا ، ان اجاممنون يقدم اليك أنفس الهدايا اذا تخليت عن مقتك وغضبك ، ولكن اذا كنت لاتزال تبغضه وتبغض هداياه ، فلتأخذك الشفقة بغيره من اليونان الذين أنهكتهم الحرب ، انهم يجلونك كما يجلون الآلهة ، وسوف تبلغ بينهم قمة المجد » .

فاجاب اخيليوس قائلا :

« أى أودوسيوس ، يا صاحب الحيل يجب أن أصارحك بما أريد وبما سيحدث فعلا حتى لاتعود الى وتضايقنى ، انى أكره من يخفى فى نفسه شيئا ويقول شيئا آخر ، لذا سأبوح لك بما سوف أفعل · فلا أجاممنون ولا غيره من اليونان يستطيعون اقناعى لأنهم تنكروا لى رغم الجهد المضنى الذى بذلته فى محاربة العدو · فالجزاء واحد سواء بقينا فى خيامنا أم قاتلنا قتال الجبابرة ، انهم يمجدون الجبان كما يمجدون الشجاع ، ولم يبق لى شىء مطلقا بعد الاخطار التى واجهتها والمعارك العديدة التى خضتها · كنت أقضى الليالى دون ان أذوق للنوم طعما وأقضى الأيام دون ان أعرف للراحة معنى ، أما اجاممنون فكان يبقى فى المؤخرة بالقرب من السفن : ينتظر الغنائم ، فيوزع منها القليل ويحتفظ لنفسه بالكثير ، فقولوا له كل ما سمعتموه منى ، وحدثوه بذلك على رءوس الاشهاد حتى يغضب اليونان كما غضبت · فلن أتفاوض معه ولن أقاتل فى صفوفه · لقد سخر منى وأساء الى ولكنه لن يخدعنى أبدا · فليذهب الى حتفه بظلفه لأن زيوس حرمه نور الحكمة والرشاد » ·

مناجاة بين اندروماخيا الوفية وزوجها الحبيب هكتور

هكتور ، أيها المسكين ، ان حماستك ستدفعك الى الهلاك ، ما أشقانى ! ألا ترحمنى وترحم طفلك الصغير ! اننى سأترمل عما قريب ، فعما قريب سيقتلك اليونان ، ولكنى أتمنى ان أموت حتى لا أعيش وحدى لأننى لن أسعد من بعدك ولن أعرف الا الأحزان والهموم لقد فقدت أبى وأمى وكل اخوتى · فأنت يا هكتور ، أبى وأمى ، وأنت أخى وأنت زوجى فابق هنا وارحمنى ·

فرد عليها هكتور العظيم قائلا : « اننى مهموم لذلك ، ولكنى أخاف الطرواديين والطروادیات اذا هربت كالجبان من المعركة · هذا الى ان قلبى لايدفعنى الى الفرار لأننى تعلمت ان أكون شجاعا على الدوام وان أقاتل فى طليعة الطرواديين لأذود عن مجد أبى وأشيد مجدى ، اننى أعلم وأحس فى نفسى وفى قلبى بأنه سيأتى يوم تدمر فيه طروادة المقدسة ، وبهلك بريأموس ويفنى شعبه · ولكنى لا أفكر الا فى المستقبل

ولا أشغل بالى بهموم الطرواديين وأحزان أمى وأبى واخوتى بقدر ما أغتم لمصيرك المؤلم عندما يأسرك أحد الأعداء فيأخذك معه وانت تبكين وتنوحين. وهناك فى بلاد اليونان تعيشين تحت امرته تغزلين وتحملين الماء . وعندما يراك الناس والدمع ينهال من عينيك يقولون هاهى ذى زوجة هكتور بطل الطرواديين فى المعركة ، يقولون هذا فتتجدد أحزانك لحاجتك الى رجل مثلى ينقذك من العبودية ويرد اليك حريتك فليتنى أموت أو أدفن حيا . فهذا أحب الى من ان أراك باكية مستعبدة .

ثم يأخذ ابنه بين ذراعيه ويضمه الى صدره ويدعو الآلهة ان ترعاه ، فيقول :

« أى زيوس ، أى أرباب السماء ! حققوا رجائى ! ليت ابنى يشتهر بين الطرواديين مثلى ! ليته يكون قويا عزيز الجانب ، يحكم حكما وطيدا ليتهم يوما يقولون عنه : وهو راجع من ساحة الوغى ، انه أعظم من أبيه وليته يعود بأسلاب أعدائه تقطر منها الدماء ، فيسعد أمه ويشرح صدرها » .

ثم يضع الطفل بين ذراعى أمه ويلاطفها قائلا :

« لا تحزنى من أجلى ! فلن يسوقنى الى الموت رجل قط اذا لم تشأ الأقدار ، لكن اذا حكم القضاء ، فلا مفر منه ، اذهبى الى المنزل وانصرفى الى شئونك » .

عظمة الالياذة وتاثيرها

أنزل اليونانيون أشعار هوميروس منزلة مقدسة ، واعتبروها المرجع الأول لتعاليمهم الدينية والخلقية ، وقرروا تدريسها وحفظها فى المدارس، وفاق الاثينيون جميع اليونانيين فى تقديرهم لهذه الأشعار ، حتى قرر المشرع « سولون » انشادها فى أعياد « البانأثينيا » واهتم الطاغية « بيسستراتوس » بجمعها والمحافظة عليها ونشر أول نسخة لها ٠

لقد تركت الملحمة على الأدباء والفنانين بعد هوميروس آثارا واضحة ، فاستلهموا منها أشعارهم وفنونهم ، حتى وصف « أيسخولوس » مسرحياته بأنها فتات مائدة هوميروس ٠ ويروى أن بيتا من الالياذة هو الذى أوحى الى « فيدياس » صنع تمثال « زيوس » وهو من أروع آيات الفن اليونانى ٠ وأجمع القدماء والمحدثون على أن الالياذة والأوديسة هما أجمل ما نظم شعراء الملاحم وأن بعض أجزائهما تعد أجمل ما قيل فى عالم الشعر حتى اليوم ٠

ومن طريف ما يذكره المؤرخون أن الالياذة أثرت تاثيرا بالغا فى الاسكندر الأكبر ، فكان يتلوها مرة بعد مرة ، واتخذ بطلها « اخيليوس » مثالا يحتذى ، ويقال انه كان يحتفظ بنسخة من الالياذة فى غلاف مرصع بالجواهر ، ولعل اعجاب الاسكندر بهذه الأشعار ، جاء نتيجة طبيعية لاهتمام أستاذه أرسطو بها ، فقد كتب أرسطو لها شرحا وافيا ، وأشاد بها فى كتابه « فن الشعر » (٢) ٠

وكيف لاتكون هذه الدرة ساحرة رائعة ؟ انها تفيض بألوان من التنوع : تنوع فى المناظر ، وتنوع فى الوصف ، تنوع فى العواطف ، وتنوع فى الاسلوب وتتصف ، رغم طولها الشديد ، بتماسك الأجزاء وتسلسل الحوادث ، مما يدل على وحدة الموضوع فى ذهن الشاعر ، ووضوح الفكرة التى لا يشوبها غموض ولا اضطراب ٠

لقد طبعها هوميروس بطابع من الفخامة لأنه كان يضع نصب عينيه المثل الأعلى فى كل ما يصف من مناظر وأشخاص ، وكل ما يصور من أحداث ومغامرات وكل ما يروى من قصص وأساطير ، ومع انه كان يرمى الى بلوغ هذا المثل فانه كان لايبعد عن دنيا الواقع فمعاركه الدامية ليست

معارك عمالقة أو شياطين ، وأبطاله ليسوا مردة خرافيين ، ولكنهم جنود بواسل وفرسان شجعان لايتكلفون فى مواقفهم ولايتصنعون فى تصرفاتهم يشعرون بقوتهم ويعترفون بضعفهم الذى حاطهم به الاله ليجعلهم فى مستوى الناس أجمعين ، ويرفعهم أحيانا الى أعلى السمو وينزل بهم أحيانا الى أسفل سافلين ٠

ولقد خلع هوميروس على الآلهة أنفسهم صفات البشر ، فمع انهم خالدون أبدا فانهم يشبهون الناس جميعا ، يكثرون فى الطعام ويسرفون فى الشراب ، قساة غلاظ القلب لايحترمون المبادىء الخلقية ، ولا يتمسكون بالفضائل ، يسود بينهم الخصام وينقسمون الى أحزاب ومعسكرات ، يتصفون بالمكر والخداع ، منهم القوى الذى يبطش والضعيف الذى يرتجف ، ومنهم الشجاع الباسل والجبان الرعديد ، لايجلون زيوس ولكن يخافون بأسه ، وهكذا لم يصورهم هوميروس ، كما يصورهم أسلافه ، فلم يؤمن بما كان ينسج حولهم من أساطير أو بما ينسب اليهم من معجزات أو بما يقام لهم من عبادات ولذا خلت أشعاره من النظريات الدينية ٠

وعلى ذلك لم يحلق هوميروس فى دنيا الخيال بل عاش مع الناس وصور حياتهم وجعل الانسان محورا لاشعاره يقوم فيها بالدور الأول ، فيتصل بكل شىء ويتأثر به أو يؤثر فيه ٠ فحتى فى المعارك الدامية التى يخوضها الآلهة مع الأبطال لاينسى الشاعر الرجل العادى ولا يهمله ، فيشاركه عواطفه ويرثى لضعفه ويثور معه ضد القوى الجبار ، فيبكى فرحا مع أطفال شفى أبوهم من مرض عضال ، ويشارك الفلاح سروره عندما يرى أغصان الزيتون مزهرة ، ويتألم لجوع العامل الذى يكد طول النهار ، ويشعر بتعب الملاح الذى أنهكه التجديف ، ويرثى لحال المرأة التى تكافح لتكسب قوتها ، ويحزن مع الشيخ الذى مات أبناؤه فى ساحة الوغى ، ويحسد الأغنياء المترفين الذين يملكون مزارع القمح الواسعة ، ويعجب من أصحاب الثروات الضخمة والضيعات الشاسعة ، وينفر من جشعهم وقسوتهم نحو العامل الفقير والأجير المعدم ويشبههم بالحيتان الضخمة التى تبلع صغار الأسماك والنسور الجارحة التى تنقض على مستضعف الطير ٠

ولقد امتازت الالياذة ، فوق ذلك ، بوضوح الاسلوب الذى امتدحه علماء البلاغة واعتبروه أول سبب لتفوق هوميروس الأدبى ، فهو فى رأيهم أعظم كتاب اليونان ، وأوضحهم أسلوبا ، ويعزى وضوحه الى عنايته بترتيب الأفكار ونقاء التعبير واختيار أسهل الألفاظ وأدقها وأكثرها

انتشارا وأحسنها وقعا على النفس وأعذبها نغمـــا فى لأذن • ومع ان الوضوح فى رأى بعض النقاد قد يبعث الملل أو يقلل من أهمية الموضوع أو يؤدى الى سطحية الفكرة ، فان شاعرنا ، استطاع ، بفضل عبقريته ، تجنب هذه العيوب بأن نوع فى أسلوبه ، فكان مرة يركن الى الايجاز فى الشرح ويختصر فى التفاصـــيل ، ومرة يسهب فى الوصف ويبلغ حد الكمال • وكان لايهتم بالزخرف اللغوى ولا يميل الى المحسنات اللفظية ، بل كان يتعمد فى تشويق ســـامعيه على روعة الحوادث التى يعرضها ، والأحاديث التى يرويها والخطب التى يستخدمها القواد لحث الجنود فى ساحة القتال ، ويلجأ اليها الزعماء لمناقشة المسائل السياسية ، ويستعين بها الرسل فى أداء مهمتهم ، وكان هوميروس يحب التكرار ويعتمد عليه فى الاستيلاء على انتباه الجمهور ، ولقد بلغ مجموع الأبيات المكررة من الالياذة ثلث طولها ، ومع ذلك فاننا لم نسمع عن ناقد قديم أو حديث ضـــاق بهذا التكرار ، بل لقـــد اعتبره أرســـطو ظاهرة طبيعية لم تفقـــد الاسلوب شيئا من جماله ولم تبعث الملل لأن الشاعر كان بارعا فى تهيئة النفوس وتمهيد الجو لسماع ما يردده •

ولكن الالياذة تمتـــاز أولا وقبل كل شىء بدقة الوصف وبراعة التصوير ، فما من نشيد فيها الا وقد احتوى على مقطوعات تصف الطبيعة أو لوحات فنية تصور مظاهرها أو أوصاف مفصلة لبعض الأدوات الحربية، ولقد أظهر هوميروس مقدرة فائقة فى وصف كل ما رأى وسمع لأنه كان قوى الملاحظة محبا للاستطلاع ، فوصف الجروح وآلامها وطريقة معالجتها، وتكلم فى المعارك الحربية وقيادة الجيوش ، وصور الحدائق والبساتين ، تحدث عن كل ذلك حديث خبير ماهر ، ووصفه وصف عالم دقيق حتى قال بعض النقاد عنه : « انه كان جراحا » وقال آخرون : « انه كان قائدا » وقال غيرهم « انه كان فنانا أو عالما » ولكنه كان فى الواقع جراحا وقائدا وفنانا وعالما لأنه كان شاعرا ينطق عن موهبة قدسية أتته من لدن الآلهة •

ليس بكثير ، اذن ، على ناظم هذه الأشـــعار أن يعتبره اليونان البداية والنهاية وزميل الصبا والشباب والشيخوخة ، لا نستطيع مفارقته مطلقا ، نتغذى بأشعاره كما يتغذى الرضيع بلبن أمه : واذا شغلنا عنه ، شعرنا بظمأ لايمكن اطفاؤه الا بالرجوع اليه •

لقـــد كان هوميروس لليونان معلمـــا ورسولا ، جمع شملهم وتغنى بتاريخ أسلافهم ، فبعث نهضتهم وخلق منهم أمه قوية يؤمنون بدين واحد ويستخدمون لغة واحدة ، يحتفلون بأعياد قومية جامعة ، ويشتركون فى مباريات عامة شاملة •

قلده شعراء الملاحم [illegible]
ورددوا عباراته ، وحاكوا أسلوبه ، ونقلوا أفكاره ، ولكنهم ، لم ينظموا ملحمة واحدة فى روعة الاليـاذة ، وجـاء الشعراء الغنائيون واستعملوا صفاته وكناياته وتغنوا بآلهته ، وأعجبوا بقصائده اعجابا فائقا ، خاصة بنداروس زعيم الشعر الغنائى الذي تغنى بالالياذة ورفعها الى السماء • أما شعراء المسرح فقد اعترف أستاذهم ايسخولوس « بأن مآسيه كانت فتاتا من موائد هوميروس الحافلة » • وشهد أفلاطون بأن شاعرنا كان أحكم الحكماء وانه معلم اليـونان الأول ، ولقبه أرسطو بأمير الشعراء وأثنى عليه ثناء عاطرا فى كتابه فن الشعر كما أسلفنا القول •

كذلك كان هوميروس نموذجا لشعراء الرومان أيضا ، بدءوا بترجمته الى لغتهم واعتبروا ملاحمه أول عمل أدبى يجب تلاوته ، ولم يبدأ القرن الأول قبل الميلاد حتى أصبح تأثير هوميروس شاملا فى الأدب اللاتينى • واضحا فى جميع المؤلفات • ولكنه يتضح وضوحا تاما فى شعر ثلاثة من أعظم أدباء الرومان هم : فرجيل وهوراس وأوفيد • ولقد أصبح هوميروس فى عصر أوغسطس ، معروفا للجميع ، كان الطلاب يحفظونه ويقتبسون منه فقرات فى كتاباتهم ، وبدأ الشعراء يكثرون من الاشـارة اليه فى قصائدهم ، وأخذ النقاد ينصحون بتلاوة أشعاره وتلقينها فى المدارس • المختلفـة •

وزالت دولة الرومان وظهرت المسيحية وتبعتها النهضـة الأوربية ولم تستطع القرون العديدة أن تضعف من تأثير هوميروس لأن شعره بقى يحتل أسمى منزلة حتى فى عصور الجهالة والظلمة التى انقرضت فيها اللغـة اليـونانية ، فكان النـاس يتلونه فى الترجمات اللاتينية ويعجبون بأفكاره ، وبذلك لم تنقطع صلتهم به ولم يتوقف تأثيره عليهـم • ومنذ بداية القرن الرابع عشر بدأ علماء ايطاليا وأدباؤها يرجعون من جديد الى المخطوطات اليونانيـة لملاحم هوميروس ، ويرجـع الفضـل الى بترارك وبوكاشـيو فى تشجيع الايطاليين على تلاوة الالياذة فى اللغة الأصلية • ولم تكن انجلترا أقل اهتماما بدراسة هوميروس ، ولم يكن أدباؤها أقل تأثرا بشعره • فلقد صوره شوسر فى قصـائده وتغنى بأشعاره ومجد عبقريته ، ولقد اعترف « ملتـون » بانه اقتفى أثـر هوميروس وقلده ، واستخدم تشبيهاته واستعمل صفاته ، أما نقاد انجلترا امثال « دريدن » و « بوب » فكانوا من عشاق هوميروس ، قضوا كل حياتهم فى نقد أشعاره واظهار محاسنها وترجمتها ترجمة رائعـة جديرة بالأصـل اليونانى ، وما حدث فى انجلترا ، حدث فى فرنسا وألمانيا •

منها الكثير من موضوعات أعمالهم ، بل ان أدبـاء أوروبا مازالوا ينهلون منه ويعدونه المصدر الأول لالهامهم ، وليس ذلك بعجيب لأن نقاد أوربا أجمعوا ومازالوا يجمعون على ان الاليـاذة هى أروع ما جادت به قريحة اليونـان ٠

كما انه مما يدلنا على مكانة هوميروس فى الأدب والفكر العالمى حتى العصر الحديث انه فى عام واحد تم تسجيل خمسة وثلاثين كتابا ، اضافة الى ثلاثة وأربعين مقـالة تحدثت عن هوميروس صاحب معجزة اليونان « الاليـاذة » ٠

محاورات سقراط

٤٠٠ ق.م

● يعد سقراط من كبار الفلاسفة وشيوخ الحكمة الذين أثروا في تطور الفكر البشرى ، وتقدم الفلسفة رغم انه لم يكتب شيئا ، وليست له مؤلفات يرجع اليها ويعتمد فى تحديد مواقفه الفكرية عليها ، ولكن ما خلفه تلاميذه الذين أخذوا عنه ، واقتدوا به ، يعد من أنفس الآثار الفلسفية ، وأبقاها على الدهر ، وقد قدم سقراط للعالم مثلا نادرا فى سمو التعاليم ، والوقوف الى جانب ما اعتقد انه الحق ، والتضحية بالذات فى سبيل حرية الرأى ، والاستهانة بالأخطار الراصدة والمخاوف المحدقة ٠

ولم تتعرض شخصية سقراط للشك الذى تعرضت له بعض الشخصيات التاريخية ، فحياته فى أثينا من المسائل المسلم بصحتها ، ولكن الآراء مع ذلك مختلفةفى تحديد معالم شخصيته ، ووصف مواقفه ، وتحرى أخبار حياته ونشأته ٠ وفى مدى علمنا أنه يمكن القول بأن البحث التاريخى لم يصل بعد الى نتائج حاسمة ومقررات نهائية لا يعتورها الشك فى هذا الصدد ، وتسمو على المراجعة والتفنيد ٠ والمحاكمه التى ختمت بها مأساة حياته تعد من المحاكمات التاريخية التى طالما غنى بها المفكرون ، وشغل بها الناس ، مثل محاكمة جان دارك وغيرها من المحاكمات التاريخية المأثورة ٠

وأهم المراجع التى يعتمد عليها فى تعرف أخبار سقراط ومطالعة آرائه هى « المحاورات » الخيالية التى كتبها أفلاطون ، أعظم تلاميذه ، وأبعدهم شهرة ، وأسماهم مكانة فى عالم الفكر ، وكذلك ما كتبه عنه اكسانوفون (٣) ، وان قصر عن مدى أفلاطون ولم يبلغ مبلغه فى الدقة وصحة الفهم ، وأفلاطون فى محاوراته يوضح لنا الجوانب المختلفة لشخصية سقراط ، وحقيقة أن هذه المحاورات خيالية ، ولكن أفلاطون كتبها فى عهد قوم عاصروا سقراط وعرفوا الكثير عن حياته واتجاهاته الفكرية ، فاذا كان اعجابه الشديد بأستاذه قد دفعه الى تجميل الصورة

ونسبه بعض افكاره الخاصه الى افكار سقراط قاله مع ذلك يمكن الى حد ما التحقق من صدق الصورة وصحة الآراء بشيء من الرجوع الى ما كتبه اكسانوفون وما رواه بعض المعاصرين عن سقراط ، واذا كان أصدقاء سقراط وتلامذته قد غالوا فى الاشادة بمزاياه وفضائله فان خصومه قد بالغوا كذلك فى تسفيه آرائه ، وانتقاص قدره ، وعلى رأسهم شاعر الملهاة الكبير أرستوفانيز Aristophanes فقد قدم لنا صورة فى مسرحية السحب ، ملأى بالسخرية من سقراط ، واهدار مكانته ، وتشويه آرائه • وقد كان سقراط مثل الكثيرين من عظماء الرجال وأفذاذ الانسانية يبعث الحب والاعجاب والتقدير فى قلوب بعض الناس ، ويثير العداوة الصماء والحقد الشديد فى قلوب فريق آخر منهم • وكان ارستوفانيز من هؤلاء الذين أساءوا فهم سقراط ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا حقيقة رسالته ، وخالوه من السفسطائيين (٤) الذين حفل بهم عصره •

مولد سقراط

اكثر الرجال حكمة

وقد ولد سقراط سنة ٤٦٩ قبل الميلاد على مقربة من آثينا بعد موقعة سلامير بعشرة أعوام ، وهى الموقعة التى انتصر فيها الأثينيون بمساعدة أسبرطة وقضت على قوة اكسرسيز الفارسى ، وفى أكثر الروايات أن أباه سوفرونيسكاس Sophronisus كان مثالا ، وان والدته فينـاريت Phaenarete كانت قابلة • ويروى انه هو نفسه بدأ حياته باتخاذ صفة أبيه ، وانه نحت تمثالا لهرمس وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الاكروبوليس ، وكان من الفكاهات التى لاينفك ينطق بها عن نفسه قوله انه لم يفعل أكثر من مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها الى مجال الأفكار فكان يساعد غيره من الناس على أن يخرجوا للعالم أفكارهم الكامنة فى بواطن نفوسهم

وفى أكثر الروايات انه كان فقيرا ، وقد عنى عناية كبيرة بصحة جسمه ، وكان فى أغلب أيامه قوى البنية ، جيد الصحة ، وتجلت شجاعته وقوة صبره واحتماله فى أثناء حرب البلوبنيز ، وقد حارب فى بوتيديا سنة ٤٣٢ وفى ديليوم سنة ٤٢٤ وفى أمفبوليس سنة ٤٢٢ • وأنقذ فى بوتيديا حياة السبيادين وهو من الشخصيات اللامعة فى تاريخ أثينا ومن أشهر تلاميذ سقراط الذين أساءوا الى سمعته وكانوا من أسباب محاكمته

ونكبته ، وقد نزل له سقراط عن جائزة الشجاعة ، وقد بز سقراط الجميع في قوة الاحتمال والصبر على المتاعب دون أن يشكو ، ولم يكن سقراط كلفا بالأسفار والرحلات ولذلك لم يترك أثينا الا فى الحملات الحربية وأوقات الجهاد ·

وكان سقراط يقنع بثوب بسيط رث طوال السنة ، ويؤثر أن يسير بغير حذاء أو خف ، وكان مثلا شرودا فى امتلاك زمام النفس ، والسيطرة على الأهواء ، والقناعة والزهد · وبرغم ذلك لم يسلك فى حياته مسلك القديسين ، ولم يحرم على نفسه طيبات الدنيا · وكان يستطيع أن يتناول الشراب كما يفعل أى رجل مثقف دون أن يفقد اتزان عقله وحسن خلقه ، وكان لا يأبى الدعوة الى ولائم الأثرياء ، ولكن دون أن يفرط فى كرامته ، أو أن ينزل عن آرائه · وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك · ولم يكن يفارق ميله الى الدعابة ورقة الحاشيه ، قال عنه أفلاطون « كان بحق أعقل وأعدل وأحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها » ·

وقد كان سقراط بطبيعته ميالا الى النقاش والجدل ، وقد عمد الى دراسة الفلسفة ، وأعجب حينا ما بالسفسطائيين الذين تكاثروا فى أثينا أيام شبابه ، وقد التقى فى الأغلب بيارمنيدس ويرونا غوراس وغورغياس وغيرهم من فلاسفة عصره ، وليس ببعيد أن يكون قد رأى زينون (٥) حينما زار أثينا حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد ، ويرجح انه عرف انكساغورس ·

وقد تحول من علم الطبيعة الذى مال اليه فى مطلع حياته الى علم الأخلاق ، وأخذ يختبر معتقدات الناس ليرى الأسس التى قامت عليها هذه المعتقدات ، وكان يطلب ممن يوجه اليهم الأسئلة اجابات دقيقة محددة لايشوبها التناقض ، ويخيف من يعجز عن أن يكون واضحا فى تفكيره ، منطقيا فى حديثه · وكان يصارح الناس بأنه لايعرف شيئا ، وانه ليس سوى هاو من هواة الفلسفة ، وحينما سأل صاحبه كريفون عرافة دلفى (٦) عن من هو أكثر رجال أثينا حكمة ، قالت العرافة انه ليس هناك من هو أكثر حكمة من سقراط · وقد عزا سقراط وصفه بالحكمة الى أنه كان لايعرف شيئا ويجهر بذلك ، والفرق بينه وبين غيره من الناس انه يعلم جهله ، وهم يظنون أنفسهم عقلاء وحكماء ، ويعرفون كل شىء ·

وما قالته الكاهنة بعث سقراط على التفكير العميق ، وعده شبه أمر له ليعمل به ويقوم بتنفيذه · وهكذا صار سقراط ، الفقير الذى لا مال له ولا جاه ولا سيطرة سوى نفوذ بعض أصدقائه من معاصريه الممتازين ، صار يعتقد ان له رسالة مقدسة · وكان الرجل يؤمن بالله

وبالقيم الروحية ، وكان بطبيعته دينى النزعة ، ولكنه كان لايؤمن بحرفية الأساطير الشائعة ، ويعتقد انها وليدة أخيلة الشعراء ، ولا يرى مع ذلك بأسا فى انتقالها من جيل الى جيل · وصار سقراط يعتقد أن عمله فى حياته هو أن يختبر ويحلل ويكشف اذا استلزم الأمر حكمة غيره المزعومة ، وكان هذا بدء المتاعب !

فاخوانه المواطنون لم يستريحوا لهذا الكشف الذى يظهر تهافت أفكارهم ، وأصبح سقراط فى رأيهم رجلا مولعا بالأسئلة المعقدة ليشبع حب الاستطلاع الذى سيطر على نفسه ، فما هدفه ؟ انه لا يعمل شيئا ، ولا يقدم جوابا ، وانما يثير شكوك الناس فى آرائهم ، ولا يستطيع أحد أن يجاريه فى ميدان الجدل والنقاش ·

وعرف سقراط انه سيثير عداء الكثيرين ، ولكن هذا لم يثن عزمه ، وحاول فى بادىء الأمر أن يجرى تجربته على أحد السياسيين البارزين فى عصره ، وكان هذا السياسى يخال نفسه غاية فى سداد الرأى وحسن السياسة ، ولم يجد سقراط عند هذا السياسى صحة المعرفة واتساق الآراء وتماسك المنطق ، وأدرك انه الأحسن منه حالا لأن هذا السياسى لا يعرف شيئا ويحسب أنه يعرف كل شىء ، فى حين أن سقراط يقر بجهله وقلة معرفته · وقد صار هذا السياسى يمقت سقراط أشد المقت لأنه أربكه وأوقعه فى حيرة من أمره ·

وكان هذا هو حال الكثيرين ممن حاول سقراط ان يبلو علمهم ، ويختبر حكمتهم ، وكشف بعد ذلك سطحية آرائهم ، وتفاهة تفكيرهم · وبرغم كراهة بعض معاصريه له وتحاملهم عليه فقد أدركوا انه رجل ثاقب الفكر ، ولم يكن هو يريد ذلك ، مما سبب له الحيرة ، وكان سامعوه يعدونه حكيما ، وهو يعتقد أن الله وحده هو الذى تفرد بالعلم والحكمة وأما نحن البشر فخير ما نعلمه ان نعرف اننا لا نعرف شيئا !

ولسنا نعرف التاريخ الذى بدأ فيه سقراط يشعر بصوت وحى داخلى أشبه بصوت الضمير بل أقوى منه سيطرة ، وهو كثير الاشارة الى هذا الهاتف الداخلى ، وقد تعود طاعته والخضوع لنواهيه ، وكان هذا الهاتف سلبيا يخبره بما يمسك عن فعله لا بما يمكن ان يفعله ·

اتهام سقراط والحكم باعدامه

ولم يكن سقراط يميل الى المشاركة فى الاتجاهات السياسية ، ولا ينطلع الى المناصب الادارية ، وقد شاء القدر ان يكون عضوا فى مجلس الخمسمائة من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد ، وكان دائما فى مواقفه السياسية يتحرى جانب الاعتدال والرفق ، وكان هو الوحيد الذى دافع عن القواد المنتصرين فى معركة أرجنوسى البحرية ، فقد اتهم ثمانية من هؤلاء القواد المنتصرين بانهم تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التى أغرقها العدو يموتون غرقا على أثر عاصفة بحرية ولم يعملوا على انقاذهم . وحكم عليهم بالاعدام ، ولم تجد معارضة سقراط ، ونفذ الحكم فى ستة من هؤلاء القواد .

واستولى بعد ذلك على الحكم فى أثينا ثلاثون من الالجاركيين ، وكان حكمهم ارهابيا ، فصادروا أموال الكثيرين من أغنياء التجار ، ونفوا من المدينة الكثيرين من الديمقراطيين ، وأعدموا ألفا وخمسمائة آخرين ولم يتورعوا عن قتل من خالفهم ومن كانوا غير راضين عنهم سواء لأسباب سياسية أو لدوافع شخصية محضة ، وقضوا على حرية الاجتماع ، وحرم اكريتاس ـ الذى كان يوما ما من تلاميذ سقراط ـ على سقراط مواصلة أحاديثه فى الأسواق والأماكن العامة . وأراد الثلاثون ان يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويشركوه فى آثامهم ، فأمروه بالذهاب مع أربعة آخرين للقبض على التاجر الديمقراطى ليون ، فاطاع الأربعة الأمر ، وأبى سقراط الاشتراك فى ذلك معرضا نفسه للانتقام والأخذ بالشدة .

وازدادت جرائم الالجاركيين ، وأمعنوا فى الاضطهاد والطغيان مما أدى الى سقوط حكمهم ، وزوال دولتهم . وعاد الحكم الديمقراطى الى أثينا فى سنة ٤٠٣ ق.م ، وسارت الجمعية التى تولت الحكم سيرا معتدلا ، فلم يصدر حكم بالاعدام الا على بعض زعماء الثورة على النظام الديمقراطى ، وسمح لهم بالنجاة من هذا الحكم بطريق تيسير الخروج من المدينة ، وأعلن بعد ذلك العفو العام عن جميع من ساعد الالجاركيين من غير هؤلاء الزعماء ، وكان من شأن هذه السياسة الحكيمة ان تعيد الى أثينا

الاستقرار والأمن والسلام الذى كانت فى أشد حاجة اليه بعد الحروب الدامية وعواصف الخلافات العاتية ·

ولكن هذه الديمقراطية السمحة لم تلبث ان تورطت فى خطأ من أكبر الأخطاء التى تورطت فيها حكومة من الحكومات ، وهذا الخطأ البالغ هو محاكمة الفيلسوف سقراط بعد ان نيف على السبعين واصـــــدار الحكم باعدامه ·

وكانت التهمة الأولى التى وجهت الى سقراط هى انه لا يؤمن بآلهة المدينة ، ويدعو الى عبادة غيرها من الآلهة · وكانت التهمة الثانية هى انه افسد أخلاق الشباب ، وجرأهم على الاستهانة بالتقاليـــد والخروج على طاعة آبائهـم ·

وكان من زعماء الحزب المنتصر « انيتوس » وكان شديد الحقد على سقراط لاعتقاده انه أفسد عليه ابنه ، ولم يشفع لسقراط عند انيتوس انه أبى ان يطيع أمر الطغاة الثلاثين فى ابان سطوتهم ، وعلو كلمتهم · وأخذ مليتوس وليكون وأنينوس على عاتقهم رفع الدعوى على سقراط ، وأحيلت القضية على محكمة مشكلة من قضاة منتخبين من عامة الشعب بطريق الاقتراع ، وليس للكثير منهـم نصيب من الثقافة أو المعـــرفة المستفيضة ، وكان عددهم خمسمائة وبعضهم من النوتية والتجار وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن المختلفة ·

وقد أكد سقراط للمحكمة أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر ، وأظهر لمتهميه تناقضهم فى اتهامه قائلا لهم : « انكم تقولون أولا انى لا أومن بالآلهة ثم تتبعون ذلك بقولكم انى أومن بانصاف الآلهة ·· ان مثلكم هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير » ·

وأشار الى اتهام أرستوفانيز له بالمروق وتأثير هذا الاتهام فى نفوس قضاته ، وقال لهم انه مكلف بالقيام بأعباء رسالة الهية مضمونها ارشاد الناس الى الحياة الصالحة ، وانه لايثنيه شىء عن القيام بما تتطلبه هذه الرسالة ، وانه لا يخشى الموت فى سبيل أدائها · وصارحهم قائلا « اذا قلتم لى ، ياسقراط ، انا سنعفو عنك الآن ، ولا نشترط عليك الا ان تكف من هذه الســـاعة عن متابعـة البحث والتفكير على هذا النمط ، فاننى سأجيبكم قائلا انى أحبكم يا أهل أثينـا وأحبكم ، ولكنى ســـأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع مادمت حيـا وما دامت لدى قوة عن الاشـتغال بالفلسفة ، وتعليمها للناس ، وعن القيام بوعظ كل من ألقاه على طريقتى الخاصـــة » ·

وساء ذلك القضاه بطبيعة الحال ورأوا فيه ما يمس كرامتهم ، وينال من كبريائهم ، فأمروا بأن يكف عن الاسترسال فيما رأوا فيه استهانة بشأنهم ، ولكنه مضى فى دفاعه غير عابىء بما أظهروه من الضيق والتبرم واسترسل قائلا : « أحب ان تعرفوا انكم اذا أقدمتم على قتل رجل مثلى أسأتم الى أنفسكم أكثر من اساءتكم لى .. لأنكم ان قضيتم على لن يتيسر لكم ان تجدوا رجلا آخر مثلى ، فأنا اذا سمح لى ان ألجأ الى هذا التشبيه المضحك السخيف كذبابة بعثها الله الى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم بطىء الحركة لضخامة جسمه ، وهو فى حاجة الى ما يبعث فيه الحياة .. واذا كنتم لن تجدوا مثلى فنصيحتى لكم أن تبقوا على » .

وفوض أمره لقضاته بعد أن أكد لهم انه يأبى أن يستعطفهم ويستلين قلوبهم ، ويتلمس منهم الرحمة ، ولم يعجب القضاة هذا الترفع والاباء ، وعدوه لونا من ألوان التحدى لهم والاستهانة بهم .

وأعلنت نتيجة المحاكمة بعد اجراء الاقتراع فاذا بالأغلبية تقرر ادانته وتعده مذنبا ، وكان القانون يخول له حق مناقشة العقوبة المطلوبة ، واختيار العقوبة التى يرضاها لنفسه ، ولكن سقراط أصر على رفض أى نوع من أنواع العقوبة لأن قبوله أية عقوبة يتضمن الاعتراف بالذنب ، وهو بحسب تقديره برىء من الذنوب ، ومن حقه أن يثاب على ما يبذل من النصيحة وحسن التوجيه ، ومن حقه على الدولة أن يعيش على نفقتها . والح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء أن يقبل تأدية غرامة فى نظير العقوبة ، وتكفل أفلاطون وسائر الأصدقاء والأتباع بأن يضمنوا تعهده ، ولكنه كان قد أغضب القضاة ، وأثار نقمتهم عليه ، فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا باعدامه !!

حينئذ .. عمل تلاميذه على أن يمهدوا له السبيل للفرار .. والراجح ان قضاته كانوا يؤملون ان ينتهى الأمر على هذا النحو ، لأن هدفهم الأصيل كان ابعاده عن أثينا والتخلص منه ، ولكنه أبى الفرار ، وعده نوعا من الخروج على قوانين بلاده التى يحترمها ، وقد نشأ وعاش فى ظل تلك القوانين فكيف يرضى لنفسه أن يستهين بها ويخرج عليها ؟ وجاءته زوجته باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها فأخذ يواسيها وطلب الى اكريتون أن يصحبها الى دارها ، ولما قال له أحد تلاميذه المتحمسين « انك لاتستحق هذه الميتة » أجابه سقراط : « وهل تريد ان استحقها ؟ » .

ولما حان موعد الأجل ، وبكر تلاميذه بالحضور . واتفق ان أفلاطون كان مريضا فى ذلك اليوم فلم يستطع الحضور ، وكان سقراط يبدو

منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، واثقا كل الثقة ان الموت انتقال من عالم الدثور والفنـاء الى عالم الخلود والبقاء · ودار حديث بينه وبين بعض أصدقائه من الشبان أبدوا فيه ما خالجهم من الشكوك عن بقاء الروح بعد فناء الجسد ، فاكد لهم ان الروح لاتولد مع الجسـد ولاتفنى بفنائه ، وانما تشارك فى الأبدية الحق والخير ·

وعند غروب الشمس ودعه حاكم السجن وهو يبكى لأنه لم يجد فى حياته سجينا أرق منه حاشية وأثبت جنانا · وجاء الحارس الذى يحمل جرعة السم ، فتناول سقراط الكأس فى هدوء وشرب كل ما فيها دون أن يبدى أى تردد أو تقزز ، وهكذا كانت خاتمة هذا الفيلسوف الكبير الذى ظل اسمه على كل لسان منذ خمسـة وعشرين قرنا من الزمان ، يضرب به المثل فى الحكمة والمعرفة ·

الحوار السقراطى
اعرف نفسك

المأثور أن سقراط لم يتناول أجرا على التعليم لأن نظريته تذهب الى أن المعرفة موجودة فى النفس يستطيع المرء أن يستنبطها بالتوليد ، فكيف يأخذ المعلم أجرا على شىء ليس فى ملكه ، قد يكون الأجر جائزا فى حالة تعليم الحرف والصناعات ، أما فى تعليم الفضائل فهذا لا يجوز · ومع ذلك فنحن نرى أرستوفان ، شاعر الملهاة المشهور ، يصـــوره فى تمثيلية السحب صـــاحب مدرســـة ، لها باب يقفل عليها ، ويتجه اليها الطلبة للتعلم ، وقد كتبت هذه التمثيلية ولعبت بالفعل قبل وفاة سقراط بعشرين عاما ، ويقال انها كانت من جملة الأسباب التى أشـــاعت عن سقراط تهمة افساد الشباب · والمقصـــود بذلك تحويل آراء الشباب واثارتهم على العـــادات الجارية والتقاليد الموروثة · وحقا كان سقراط يغشى الشباب ويغير أفكارهم . ولكنه لم يكن صاحب مدرسة ولا تناول أجرا على التعليم ، كما لم يعلمهم التغلب بقوة البيان لو كانت الغلبة فى سبيل الباطل ، فقد كان هدفه على الدوام بلوغ الحقيقة ·

وقد بدأ سقراط فيلسوفا طبيعيا ، ففى محـــاورة فيدون انه قرأ كتاب انكساجوراسى فى العلم الطبيعى ولم يعجبه ، لأن صاحبه يصف الواقع كما هو عليه ويبين الأسباب الآلية للظواهر ولا يتعرض لأسبابها الغائية · ولذلك هجر مذهب فيلسوف العقل فى العلم الطبيعى ، وطور قوله بالعقل علة للأمور الانسانية · لقد كان الاتجاه فى الفلسفة قبل سقراط نحو البحث فى الطبيعة ، أى فى العالم الخارجى ، سواء أكان عالم السماء أم عالم الأرض حتى جاء سقراط ، فوجه هذا الاتجاه نحو البحث فى الانسان ، وفى أخلاقه ، وفى نفسه ، وهو هو الذى تمثل بالحكمة المشهورة التى كانت مدونة على باب معهد دلفى : « اعرف نفسك »· ولذلك قيل ان سقراط هو الذى أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض ، بمعنى تحويل الفلسفة نحو البحث فى عالم الانسان لا عالم الطبيعة ·

ولا شك ان البحث الطبيعى شىء يختلف عن البحث فى الانسان ، فللبحث الأول منهج يناسبه وهو الملاحظة الخارجية والتجربة ، وللبحث الثانى منهج آخر ، هو التأمل ، أو التفكير ، أو الجدل أو الحوار · وكان الحوار بوجـــه خاص هو المنهج الذى اتبعه سقراط ، وهو عبـــارة عن

مناقشة تدور بين شخصين أو أكثر ، فى هيئة سؤال وجواب ، وقد يكون السؤال سؤال استنكار أو تهكم أو استفسار أو تسليم ، فان سلم المستفسر بما يقال ترتبت على ذلك أمور ، وان سلم بما يناقضها ترتبت أمور أخرى . ولكن لابد من التسليم باحدهما على أية حال · وهذا النوع من الحوار كان يستخدمه السفسطائيون ، وهو صالح للبحث فى الأمور الانسانية من تقاليد وأخلاق وعقائد دينية وتشريعات دنيوية ومصالح سياسية · ويبدو أنه كان مستخدما فى أكاديمية أفلاطون ، الى ان أبطله أرسطو بمنهجه فى القياس المنطقى والبرهان ·

والحوار السقراطى من هذا القبيل غير أنه اتخذ طابعا معينا تميز به ، من حيث ان سؤاله تهكم يوقع محاوره ، أو خصمه فى الارتباك ، ولا يبادر سقراط بالجواب ، ولكنه يستخرجه من محاورة نفسه ، أو بعبارة أخرى « يولده » من هنا سمى منهجه بالتهكم والتوليد · والنماذج من المحاورات التى كتبها أفلاطون كثيرة · بل ان أحد الموازين التى بها تميز المحاورة السقراطية التى تمثل آراء سقراط من المحاورة الأفلاطونية التى تعكس فكر أفلاطون هو اتباع هذا المنهج · ان وجد واضحا كانت المحاورة سقراطية ، مثل محاورة أوطيفرون وأقريطون وبروتاجوراس وغيرها ، وان اختفى هذا المنهج وحل محله السرد ، والرواية المتصلة كما هى الحال فى « القوانين » ، كانت المحاورة أفلاطونية · هذا المنهج اذن يدعو الى أن يفكر الانسان بنفسه فى نفسه ، وأن ينعم النظر فى الآراء والمعتقدات ولا يأخذها قضايا مسلمة ، فان فعل المرء ذلك ذهبت القداسة التى تخلع على العادات والتقاليد والآراء الذائعة والمعتقدات الموروثة ، وتبين للمرء أن بعضها صحيح وبعضها الآخر فاسد ، وانها ليست كلها حقا بل بعضها باطل ، والقول بأن قوانين الدولة ومعتقداتها باطلة يعد « ثورة » عليها ، وأكثر من يتأثر بهذه التعاليم السقراطية هم الشباب ، لأن الشيوخ بعد اتباعهم التقاليد الجارية طول عمرهم يجمدون عليها ويصعب عليهم تغييرها أو الثورة عليها · فلما أخذ يثير التفكير ، ويسعى وراء الحق ، ويبتعد عن الباطل ، اتهمه أصحاب المصالح السياسية بأنه يؤلب الشباب ويفسده وانه كما جاء فى عريضة الاتهام مصدر متاعب للدولة ··

ومن الموازين التى يعتمد عليها النقاد فى الفصل بين المحاورة السقراطية والمحاورة الأفلاطونية ، ان الأولى لا تنتهى الى نتيجة حاسمة ، وانما تظل المناقشة مفتوحة الأبواب · حقيقى ان المنهج السقراطى باعتباره الطريق الفلسفى لا يمكن ان يصل الى نتيجة ، وانما يستمر فى البحث حتى آخر حياة المفكر ، ولا يزال المفكرون منذ سقراط الى الوقت الحاضر يقلبون الأنظار فى هذه المسائل الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والجمالية ·

على هذا الأســـاس اعتبر المؤرخون محـاورات هبياس ، وأيون ، وخرميـدس ، ولاخس ، وليسيسي ، وجورجـاس ، وبروتاجـوراس ، وأطيفرون ، والدفاع ، وأقريطون ، من المحاورات السقراطية . ولم يعدوا فيدون كذلك . غير ان القدماء رتبوا المحاورات ترتيبا آخر . فجمعوا كل أربع منها بحسب موضوع متقارب في « رابوع » ، وأول هذه المجموعات اوطيفرون والدفاع وأقريطون وفيدون ، وهي تدور حول اتهام سقراط بانكار الآلهة ، ودفاعه عن نفسـه في المحكمة ، وسجنه ورفضه الهرب وفي معنى الشجاعة ، ثم فيدون وتبحث في خلود النفس

ولما كان أرسطو قد اعتبر أن فلسفة سقراط تدور حول أمرين ، طلب الحد الكلي ، وان الفضيلة علم ، فجدير بنا النظر في هذين الأمرين ، بالاضافة الى محاكمته لأهميتها فلسفيا .

والحد هو التعريف . والأصل في الحد انه يضع نهاية حول شيء معين فلا يكون هـذا الشيء مبهما غامضـا ، ومن أجل ذلك سمي الحد تعريفا ، وليس المقصود بالتحديد وضـع حدود رياضية كالخطوط أو الدوائر التي تبين معالم الأشياء المادية بل التحديد الذهني للمعاني . فنحن نستخدم في حديثنا ألفاظا كثيرة ، تشير الى مسميات ، ولها دلالات ذهنية . والأصل اننـا ندرك الأشياء الحسية فيكون لها صورة ذهنية موازية للكائن الحسي الموجود خارج الذهن ، ولكن الانسان بعد أن تحضر وتقدم لم يقف عند ادراك المحسوسات بل ارتفع الى المعاني الكلية التي يصف بعضها الأنواع والأجناس للموجودات الطبيعية مثل الانسان والفرس والطائر وغير ذلك ، ويصف بعضها الآخر معاني مجردة ، وبخاصة المعاني الخلقية ، كالعفة والشجاعة والصداقة وغير ذلك . ولكن تحديد الكائنات الطبيعية أو الرياضية ، أمر سهل ، لأن الصفات المحددة للنوع واضحة المعالم . خذ مثالا لذلك لفظ « المثلث » فهو « معنى كلي » ينطبق على آلاف بل ملايين المثلثات . وبحكم تعريف المثلث من انه : سطح مستو محوط بثلاثة أضلاع لا نجد عسرا في تطبيق هذا التعريف على الأشكال الهندسية ومعرفة ما ينطبق عليها . ولوضوح الأمور الرياضية ضرب بها المثل دائما ، وبخاصة في الزمن القديم عند اليونانيين ، وبوجه خاص عند سقراط وأفلاطون . وهل يغيب عن بالنـا أن أفلاطون كتب على باب مدرسته : من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا ؟! .

الجمال والحق

تبحث محاورة هبياس الكبرى في الجمال ما هو ، على حين تبحث هبياس الصغرى في الحق والباطل وقد اختلف النقـاد في صحتها ،

والأرجح ان الكبرى صحيحة النسبة لسقراط ، ويعد هبياس مثالا للسفسطائى ، فهو غريب عن أثينا من مدينة « اليس » حسن المظهر ، يجيد صناعة البيان ، كما يجيد كثيرا من الصناعات الأخرى . انه ماهر بكل شيء . يسأله سقراط عن الجميل ما هو ، وهذه اللفظة فى اللغة اليونانية تصف الشيء المادى والمعنوى معا . فنحن نسمى فعلا ما من أفعال الشجاعة انه فعل « جميل » وكذلك الفعل العادل نسميه جميلا ، ففى الحالتين توجد « صورة » واحدة تنطبق عليهما معا . اذن ما هى هذه الصورة الجميلة التى تعد الماهية الحقيقية لما نسميه الجمال ؟ . يجيب هبياس الفتاة الجميلة ، والفرس الجميلة والآلة الموسيقية ، والآنية وغير ذلك . ولكن الفتاة الجميلة ، فان جمالها نسبى وليس مطلقا وذلك بالاضافة الى جمال الآلهة . يقول هبياس ان كل شيء « ذهبى » جميل ، ولكن سقراط يعترض بأن الملعقة الذهبية لا تناسب شرب الحساء الساخن، بل الملعقة الخشبية ، وكذلك فان فيدياس لم يصنع تماثيله من الذهب ، وهو الفنان الأصيل .

فالجميل اذن هو المناسب أو الملائم . وينتقل البحث بعد ذلك الى المجال الأخلاقى ، فمن الجميل أن يعيش المرء فى صحة ، وثروة ، وشرف ، وأن يدفن أبويه بما يليق بهما . غير ان هذه الأمثلة كلها لا تحدد التعريف الصحيح الجامع المانع . والواقع ان الدرس الذى نستخلصه من هذه المحاورة وغيرها من المحاورات السقراطية ، هو كيفية امتحان التعريف ومحاولة الوصول اليه .

وليس الأمر كذلك فى التعاريف الرياضية . فالمساواة مثلا كما تعرض فى محاورة فيدون لا خلاف عليها ، بل هى فى الواقع بديهية موجودة فى النفس بالفطرة بحيث يستطيع المرء ان يحكم على الأشياء بأنها متساوية فيما بينها بمقتضى « مثال » المساواة فاذا كانت الرياضيات قائمة على البديهيات والمسلمات والتعريفات ، فان المعانى الانسانية ليست كذلك ، ويصعب جدا الوصول الى تعريف متفق عليه بشأنها ، بحيث ينطبق على جميع الأحوال . وهذا الطريق هو الذى سار فيه سقراط ، محاولا أن ينتهى فيه الى غاية الشوط .

وقد جرت عادة بعض المؤرخين أن يقسموا المحاورات السقراطية قسمين ، الصغيرة من مثل هبياس الكبرى والصغرى وايون ومنكسنيوس وخرميدس وليسيس ، ثم المحاورات السقراطية الكبيرة ، يقصدون بها المعبرة عن مذهبه ، وهى جورجياس ومينوس وأوطيفرون والدفاع وأقريطون ، ويضيف بعض المؤرخين الكتب الثلاثة الأولى من الجمهورية وهى الباحثة فى معنى العدالة . مهما يكن من شيء فالخلاف حول تحديد المحاورات السقراطية والأفلاطونية شديد .

الفضيلة علم .. والرذيلة جهل !!

ومحاورة جـورجياس من أطول المحاورات وأهمهـا . وجورجياس سوفسطائي مشهور ، وخطيب ذائع الصيت ، أصله من ليونتيني وذهب الى أثينا واكتسب ثروة كبيرة من صناعة الخطابة . وحيث ان سقراط كان يعارض السفسطائيين ، فلا جرم تعد هذه المحاورة من أهم المحاورات لأنها توضح بين فلسفتين ، احداهما تقوم على العدل والحق والحكمة ، والأخرى تستند الى القوة . وهذان المبدآن موجودان منذ أن وجد الانسان ، بل ان الانسانية الحقة هى السمو على شريعة الغاب وعلى سلاح القوة كما يسود الجماعات الحيوانيـة فلما سما الحيوان الناطق على حيوانيته ، ابتكر صفات انسانية جديدة كالعدل والحكمة والحق وهى معان تحقق للانسان انسانيته بمعنى الكلمة وهذا ما فعله سقراط ودافع عنه ..

جاء جورجياس الى أثينا يحمل معه اسلوبا جديدا فى الحياة هو فرض ارادة القوة ، وفى المدينة تتجلى هذه القوة فى الخطابة ، والخطابة هى فى الاقناع . ونهض سقراط يدافع عن أسلوب آخر هو طلب الخير لذاته ، الذى يخضع للعدل والاعتدال ، لا للقوة وشريعة الغاب ، فالقوة هى الخير الاسمى . ومن هنا كان السلاح الذى ينبغى أن يتسلح به حاكم المدينة ليسيطر على اتباعه ويخضع خصومة هو القوة ، وقوة الاقناع بوجه خاص . وليس من المهم الوصول الى الحق فى ذاته بمقدار ما يصل الخطيب الى اقناع الجمهور بأن ما يقوله هو الحق . ينبغى اذن ان يحسن الخطيب استخدام الأسلحة التى تفيده فى تحقيق أغراضه والرجل القوى هو الذى يعرف كيف يسوس المدينـة . ولكن لكى يبلـغ الحاكم السـلطان على الجماهير ، ينبغى أن يكون صاحب سلطان على نفسه أولا ، فالقوة الحقيقة هى كبح جماح النفس وأن يسيطر عليها ويحسن توجيهها

لم يكن جورجياس مموها يبغى التزييف والمغالطة ، كما انتهت اليه السفسطة فيما بعد ، وانما كان مؤمنا بمذهب معين ، واسلوب فى الحياة يؤمن به ، هو ان حياة الانسان تتوقف على ارادته وكفاحه ، والقوى هو الأصلح للحياة ، وهذا المذهب كان موجودا من قديم وتجدد على أيدى فلاسفة القرن التاسع عشر مثل نيتشه وشوبنهور . وفى مقابل حياة الكفاح والعمل والارادة ، يقف سقراط فى الجانب الآخر وهو الحيـاة الفلسفية التى تعتمد على العقل والحكمة والاعتدال ، على حـين تستند الحياة التى ينادى بها جورجياس الى السعى وطلب اللذة .

وقد كانت نظرية جورجياس سائدة فى أثينا يأخذ بها كثير من الناس ، حتى انه فى أول الجمهورية عند تعريف العدالة نجد من جملة

التعريفات أن العدالة هى مصلحة الأقوى · ولكن سقراط يرفض هذا التعريف ، كما يرفض تعريفات أخرى ، ثم يمضى أفلاطون بعد ذلك فيحل مشكلة العدل فى نظرية شاملة للمجتمع بأسره . وذلك فى باقى أجزاء محاورة الجمهورية ، ويعدل أفلاطون أيضا عن نظريته التى بسطها فى الجمهورية والتى كانت توفر العدل بوحى من الضمير الحى والتربية والتعليم ووضع كل امرىء فى مكانه الصحيح من المجتمع ، الى المناداة بنظرية جديدة فى محاورة القوانين ، تستند الى وجوب احترام القانون ·

وفى القدر الذى ذكرناه عن محاولة سقراط بلوغ الحد الكلى ومناقشة التعريفات للمعانى الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ما يكفى ·

وننتقل الى الموضوع الثانى الذى وصف به أرسطو فلسفة سقراط وهو نظريته الأخلاقية ·

الفضيلة علم ، والرذيلة جهل ، هذه هى نظرية سقراط ·

لو علم الانسان ماهية الفضيلة ، فلا شك سيعمل بها ، ولو علم ماهية الرذيلة فلا جرم يتجنبها · وانما سادت الرذائل لجهل الناس بها وحقيقتها · ويكفى أن يكون المرء عالما بالفضائل والرذائل العلم الصحيح حتى يقبل على الفضائل ويتجنب الرذائل ·

ويترتب على ذلك عدة أمور ، على رأسها وجوب البحث عن الفضائل ومعرفتها ، وهذا ما فعله سقراط ، وتجلى فى المحاورات · وكذلك النظر فى الفضائل هل اذا كانت علما يمكن تعليمها كما تعلم الحرف والصناعات · ثم بعد ذلك هل الفضيلة جنس واحد له وجوه مختلفة ، أم هناك فضائل مختلفة كل منها يباين الفضيلة الأخرى ·

المأساة السقراطية

بقى ان نبحث المحاورات الثلاث التى تعد ذروة المأساة السقراطية ، اتهامه ودفاعه عن نفسه وامتناعه عن الهرب من السجن ، وهى المعروفة باسم أوطيفرون والدفاع وأقريطون · وقد جرت العادة ان يضاف اليها محاورة رابعة هى فيدون تبحث عن خلود النفس ، ولكن كثيرا من النقاد يعدها محاورة أفلاطونية لا سقراطية ، ولو انه من العسير فصلها عن الثلاث الأولى ، من وجهة انها تكملة طبيعية لهذه المأساة ·

يلتقى سقراط بأوطيفرون فى دهليز المحكمة ، حيث جاء

أوطيفرون يتهم أباه بالقتل ، وجاء سقراط ليدفع عن نفسه تهمة الالحاد وافساد الشباب ويدور البحث فى هذه المحاورة حول الدين ما هو ، وما طبيعته ، وما الالحاد ، وما التقوى ، وما الفجور · وللمحاورة صلة قوية بالأخلاق لأن الرجل الصالح هو الذى يفعل ما يرضى الآلهة · وهنا تدخل المحاورة فى بحث الدين والآلهة اليونانية ، وهل ينبغى أن نصدق ما يروى عنهم من أساطير · وتدور مناقشه حول التقوى ، فيسأل سقراط على طريقته التهكمية ويجيب أوطيفرون ، وتتعدد الاجابات · الجواب الأول أن التقوى ان يصنع المرء كما فعل أوطيفرون بأن يتهم أباه بالقتل ، وكما نجد فى أساطير الآلهة أنفسهم ·· والجواب الثانى ان التقوى · هى فعل ما يحبه الآلهة ، والفجور فعل ما يبغضونه ولا يرضون عنه ، غير انه لما كان الالهه مختلفين فيما بينهم ، فقد يسخط بعضهم عن أمر ، ويرضى بعضهم الآخر عنه ، وبذلك لا يكون التعريف صحيحا · وعندئذ يجرى تعديل للتعريف بحيث ينص على اجماع الالهة على حب الشىء ، وهذه هى التقوى · ويتضح تناقض هذا التعريف على أساس وجود مرحلتين للتقوى ، الأولى محبة الآلهة للشىء ، والثانية ان يكون مقدسا لديهم · فهل يحب الآلهة الشىء لأنه مقدس ، أم يقدسونه ومن أجل ذلك يحبونه · بعبارة أخرى هل التقوى فعل ما يحبه الآلهة أم يقدسونه ؟

تنتقل المحاورة بعد ذلك الى شىء من السخرية والفكاهة ، حين يسلم أوطيفرون ان كل تقى عادل ، وينكر أن كل عادل تقى ، ثم يسأل عن أى أجزاء العدل ، فيجيب بأنها خدمة الآلهة ، وذلك بتقديم القرابين واقامة الصلوات ، بعبارة أخرى ، التقوى علم الأخـذ والعطاء ، انها لون من « التجارة » بين الناس والآلهة ، فالناس يقدمون الصـــلوات والقرابين للآلهة ، ويأخذون فى مقابل ذلك رضاهم · ولا شك ان مناقشة سقراط تنتهى الى زعزعة الثقة بالأفكار الســائدة عن الدين وعن الآلهة ومن هنا جزع أصحاب السلطان والدولة على انهيــار الأسس التى يقوم عليهـا المجتمع ، والدين أساس مهم جدا أو دعامة قوية لاستمرار الجماعة ·

اتهم سقراط بتهم ثلاث ، انكار آلهة اليونان ، والمناداة بآلهة جديدة ، وافساد الشباب · وليس دفاع سقراط أمام القضاة من اختراع أفلاطون فان زينوفون يتحدث فى مذكراتـه عن هـــذا الدفاع ، ولكن المحاورة الأفلاطونية فيها صبغة فن أفلاطون ، وتعد من أقدم ما كتبه · وقد صور فيها سقراط ، فيلسوفا متهكما ، ســاخرا ، حتى فى هـذا الموقف الذى يوشك فيه أن يحكم عليه بالاعدام · وكان القضاة على استعداد ان يصدروا حكمهم بالعفو ، لو ان سقراط تذلل لهم ، وأظهر الندم ، ولكنه لم يبال وهو فى سن الشيخوخة أن يخون عهد الفلسفة ، وهى طلب الحقيقة واعلان الحق والجرأة فى اعلان الرأى ، والصراحـة فى ابداء ما يؤمن به المرء

ويعتقده ، لأن المداهنة والرياء مدعاة الى افساد الدولة ، والتعامى عن الحقيقة يبعد عن رقى الانسانية · وكان سقراط يعتقد فى نفسه انه مكلف برسالة الهية عليه أن يبلغها للناس ، مثله فى ذلك مثل الأنبياء والرسـل · وبالفعل صور سقراط فى محاورات أخرى انه يستمع الى هاتف باطنى يتلقى منه ما يشبه الوحى السماوى · ولذلك انبرى يكذب فى دفاعه ما شاع عنه من تهمة هو منها براء ، ذلك ان شريفون أحـد تلاميذه المخلصين ذهب الى كاهنة معبد دلفى وسألها من أحكم رجل فى أثينا ، فأجابته انه سقراط · ولكن سقراط باسلوبه الساخر نفى عن نفسه أن يكون حكيما لأن الحكمة صفة من صفات الآلهة ، أما هو فانه مؤثر للحكمة وصديق لها ، وهذا هو معنى الفيلسوف فى اللغة اليونانية ، فان « سوفوس » تدل على الحكيم ، على حين ان « فيلوسوفوس » تعنى محب الحكمة ، فالآلهة حكماء ، أما البشر فانهم مهما تبلغ معرفتهم فلن يبلغوا مرتبة الآلهة ·

ولقد قيل فى معرض الاتهام ان سقراط يعلم شباب أثينا أن الشمس والقمر قطعتـان من حجر ، وليسا الهين كما يعتقد الأثينيون · ويجيب سقراط أن هذه المقالة تنسب الى انكساجوراس ، دونها فى كتابه ، وكان انكساجوراس يعيش فى بلاط بركليس (٧) ، وكان بركليس يحميه بنفوذه وسلطانه ، ومع ذلك هرب انكساجوراس من أثينا ، ويقال ان بركليس سهل له سبيل الهرب حتى لا يحاكم وينفذ فيه حكم الاعدام ·

رفض سقراط استرحام القضاة ، ورفض أن يتقدم بعض تلاميذه بدفع غرامة عنه بدلا من الحكم بالاعدام ، وأقبل على الموت راضيا ، لأن الفيلسوف هو الذى يطلب الموت ليخلد فى الآخرة ، ولكى تتخلص النفس من سجن البدن ، وتنعم بالمعرفة فى عالم المثل ·

والفصل الثالث فى مأساة المحاكمة ، هو وضع سقراط فى السجن حتى تحين ساعة تنفيذ الحكم ، حيث بقى حوالى شهر حتى تعود السفينة المقدسة من رحلتها الى معبد ديلوس ، وهو شهر حرام لا يعدم فيه مجرم · وجاء أقريطون قبل الفجر يغرى سقراط بالهرب من السجن · غير انه رفض الهرب ، اذ فى نظره أن الخضوع لقوانين الدولة حتى لو كانت ظالمة أفضل من الهرب منها انقاذا لمصلحة الفرد · لقد عاش سقراط طيلة حياته ينادى باصلاح الدولة ، وايثار مصلحتها على مصالح الفرد ، وتمجيد القوانين التى بها تستقر الأمور فى المجتمع ، والدعوة الى احترام القانون واتباع النظام ، وبهما يتوفر العدل · ذلك ان الخير والشر هما فى الواقع أمران نسبيان بالاضافة للمجتمع ، فالخير خـير اذا عادت فائدته على المجتمع ، وتعود فائدته فترجع على الفرد ، والشر شر اذا أساء الى المجتمع

وعندئذ يصاب الفرد بالضرر • وهذه هى النظرية التى نماها أفلاطون فى الجمهورية ، حين أجاب على السؤال الذى بدأه فى تلك المحاورة عن العدالة ما هى ، فجاء الجواب بأن الدولة كلها ينبغى اصلاحها بجميع أجزائها ، وان يوضع كل فرد الموضع اللائق به • فالعدالة لا تتحقق فرديا بل اجتماعيا ، ولذلك سميت جمهورية أفلاطون بأنها شيوعية ، أو اشتراكية والحقيقة أن أفلاطون يعد هو المبشر الأول بالاشتراكية من قديم ، بتقديم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد •

ولو أن سقراط قبل الهرب لكان موقفه متعارضا تماما مع فلسفته التى استمر على التبشير بهـا واذاعتها فى تلاميذه • وكيف يهرب وقد رفض فى المحكمة أن يخضع لشتى الاغراءات التى قدمت له لتفادى الحكم المحتوم • ومن هذا يتضح أن فلسفته تتلخص فى انقاذ المدينة من الفساد ، والابقاء عليها خشية الانهيار • وقد ارتفع شأن أثينا فى زمانها ، وبقيت خالدة على مر العصور ، بتمسكها بهذه التعاليم التى نادى بها سقراط ، من حرية ابداء الرأى ، والدعوة الى الديمقراطية فى مقابل حكومة الطغيان والاستبداد ، والدعوة الى الفضيلة والخير ، لأن الأخلاق الفاضـلة هى الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه الدولة •

وقد كانت محاكمـة سقراط ، ودفاعه عن نفسـه ، وامتناعه عن الهرب ، وموته ، كل ذلك مثالا حيا على التفانى فى سبيل العقيدة الفلسفية الصحيحة •

مقتطفات من محاورات سقراط

١ ـ التقوى والفجور

(من محاورة اوطيفرون)

سقراط : وما التقوى وما الفجور ؟

أوطيفرون : التقوى ان تفعل ما أنا فاعل ، أعنى أن تقيم الدعوى على كل من يقترف جريمة القتل أو الزندقة أو ما الى ذلك من الجرائم ، سواء أكان أباك أم أمك أم كائنا من كان ، فذلك لا يبدل من الأمر شيئا . وأما الفجور فهو ألا تقيم على هؤلاء الدعوى . وأرجو أن ترى يا سقراط الدليل الساطع الذى أقيمه لك على صدق ما أقول ، وهو دليل سقته بالفعل الى سائر الناس برهانا على مبدأ ان الفاجر لا ينبغى أن ينجو من العقاب كائنا من يكون . ألا ترى الناس كيف يعدون زيوس أفضل الآلهة وأقدمهم مع اعترافهم بأنه كبل سلفه كرونوس لأنه مزق أبنـاءه تمزيقا مروعا . بل انهم ليقرون انه أنزل العقاب بأبيه نفسه أورانوس لسبب شبيه بهذا عقابا يفوق الوصف ، ثم يغضبون منى اذا أنا أقمت الدعوى على أبى . وهكذا ترى الناس يتناقضون فى موقفهم ازاء الآلهة وازائى .

٢ ـ احترام القوانين

(من محاورة الدفاع)

سقراط : أينبغى للانسان أن يفعل ما يراه حقا ، أم ينبغى له أن ينقض الحق ؟

أقريطون : يجب على الانسان أن يفعل ما يظنه حقا .

سقراط : ولكن ما تطبيق هذا ان صح ؟ هل أسىء الى أحد ان تركت السجن رغم ارادة الاثينيين ؟ أو بعبارة أخرى ، هل أخطىء فى حق أولئك الذين ينبغى أن يكونوا أبعد الناس عن الاساءة ؟ ألا يكون فى ذلك عجران للمبادىء التى اعترفنا جميعا بعدالتها ؟ ماذا تقول فى هذا ؟

أقريطون : لست أدرى يا سقراط ، فلا أستطيع أن أقول شيئا .

سقراط : اذن فانظر الى الأمر على هذا الوجه : هبنى همست بالأبواق فجاءت الى القوانين والحكومة تسائلنى : حدثنا يا سقراط ، ماذا أنت فاعل ؟ أتريد بفعلة منك أن تهز كياننا ، أعنى القوانين والدولة بأسرها بمقدار ما هى فى شخصك ماثلة ؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة ، ولا تجد من الأفراد الا نبذا واطراحا ان تقوم قائمتها فلا تندك من أساسها ؟ فبماذا نجيب يا أقريطون عن هذه العبارة واشباهها • وسيكون مجال القول متسعا لكل انسان ، وللخطيب البليغ بنوع خاص ، عندما يهاجمون هذا الشر الذى ينجم عن اطراح القانون الذى لابد لحكمه من النفاذ • وربما أجبنا نحن : « نعم ، ولكن الدولة قد آذتنا ، وجارت علينا فى قضائها » هبنى قلت هذا •

أقريطون : جميل جدا يا سقراط •

سقراط : سيجيب القانون : « أفكان ذلك ما قطعته معنا من عهد ، أم كان لزاما عليك أن تصـــدع بما حكمت به الدولة » • فان بدت على علائم الدهشة من قولهم هذا ، فربما أضـــاف القانون قوله : « أجب يا سقراط بدل ان تفتح لنا عينيك وقد عهدناك سائلا ومجيبا • حدثنا : ما شكاتك منا ، تلك التى تسوغ لك محاولة هدمنا وهدم الدولة معا ؟ وفوق كل شىء ألم نأت بك الى الوجود ؟ ألم يتزوج أبوك من أمك بعوننا فأعقباك ؟ قل ان كان لديك ما تعترض به على أولئك الذين ينظمون الزواج منا » • وهنا لابد من اجابتى أن لا • « أو على أولئك الذين منا ينظمون طرائق التغذية والتربية للأطفال وفى ظلها نشأت أنت • ألم تكن القوانين التى نهضت بهذا على حق عندما طلبت من أبيك أن يدربك على الموسيقى ورياضة البدن » • وهنا يلزم أن أجيب انها كانت على حق • « حسنا فان كنا قد أتينـــا بك الى العالم ، ثم أطعمناك فانشأناك ، أفأنت جاحد انك قبل كل شىء ابننا وعبدنا كما كان آباؤك من قبل ؟ فان صح هذا فلسنا واياك سواسية ، حتى تظن من حقك أن تفعل بنا ما نحن بك فاعلون • وهل يكون لك أدنى حق فى أن تنال أباك أو سيدك ، ان كان لك أب أو سيد ، بالضرب أو الشتم أو بغير ذلك من السوء ، اذا وقع عليك منه ضرب أو شتم ، أو أصابك منه غير ذلك من الشر • لا نخالك قائلا بهذا • واذا كنا قد رأينا ان من الصواب اعدامك ، أفتظن ان من حقك ان تجازينا اعداما باعدام » •

فكر سقراط

جعل الحكمة فنا جميلا

ولكن ·· وبعد ان استعرضنا المحاورات السقراطية والتى خلدت اسم سقراط طوال القرون الماضية ·· ما هى أهمية سقراط فى تاريخ الفكر الانسانى ؟

لقد كان فى حياة سقراط جانب « أثينى » وجانب انسانى · وقد بلغت أثينا هذا الجانب الانسانى فيما خلقت عقول الأكثرين من بنيها : فقد تجاوزوا فى خلقهم حاجة العـــمة الى افاق الكاملين ، فلا يكادون يصورون شيئا حتى نرى الانسان الحى فى كل أرض ولا يتحدثون عن شىء حتى يصغى الى ضمير الانسان النبيل فى كل دهر · ولكن هذا الجانب الانسانى الكامل فى حياة سقراط انما كان ــ لو تفكرنا ــ سببا الى غاية عزيزة على الأثينيين وهى سعادة أثينا نفسها · فالانسان كائن سياسى كما يقول أرسطو : فهو يعيش بآماله وأعماله لمجد المدينة ، ولا تسعد المدينة الا بفضائل الصالحين من بنيها · وكانت غاية سقراط أن ينهض الى خلق من يسميهم « حراس المدينة » ــ أى حاكميها ــ حراسا ساهرين على سعادة أمنهم ·

وقد شغف سقراط حبا بمدينته وعاش لا يخبو فى قلبه هذا الحب ولا ينصرف عنه لناحية من نواحى المنافع الدنيا ، وقد استأثرت أثينا بأفئدة العالمين وآمال الصالحين من بنيها ، واشرأبت أعناقهم الى المجد الذى يسمو بأمتهم الى الخلود · وقد رأيناهم يؤمنون بهذا الخلود ايمانا لا ريب فيه ، وقرنوا هذا الخلود بمـــا تصنع أيديهم من صور الجمال والخير · ولا سبيل لأمة أن تبلغ ما بلغت أثينا حتى يجاوز بنوها نطاق الهوان ويحطموا فى أنفسهم أغلال المادة ويمضوا مصعدين لا يلوون على شىء من دون الكمال · ولو انهم قنعوا بما يقنع به عامة الناس من رضا ومرت بهم الحياة دون أن تخرج الأنفس كنوزها من الجمال والعقل ما قدست أمتهم فى أفئدة العالمين · وما كان عبثا ان تحج الانسانية العالمية الى أثينا وتطأ مواقع أقدام الحكماء والشعراء والخطباء والمصورين ، فلم تقنع أثينا من بنيها الصـــالحين بشىء دون أن يحملوا نور الجمال والخير الى

العالمين · وقد طوت الأقدار أرض أثينا لحراب الغالبين غير مرة لكنهم انه تكشفرا ما تضمر هذه المدينة من نور كمال انسانى تبعوا عنه شعاعها كالطفل الجاهل السامع المطيع · وصغرت عليهم حرابهم واعزوا هذه الأرض التى غطت بتراثها الأبطال والحكماء · وما كان عبثا ان يقول قائل منهم « ان أرواح الأبطال حراس للوطن » · وفى أرض هؤلاء الأبطال تخر الجباه سجدا للجمال المفرد العلم الذى سما بالانسان الى آفاق الخير والكمال ، وفى آثار هؤلاء الأبطال تمتد آمال الصالحين من كل أرض وفى كل زمان لتتلقى نور الانسانية وتسمو بالانسان الى ما خلق له حقا من الكرامة والخير ··

● وكان سقراط يصغى فى ضميره لدعاء أمته التى تدعوه فى صحوه وفى منامه « خذ نفسك بالفنون الجميلة » ثم يتلو عليه هاتفها نداءه غير مرة « خذ نفسك بالفنون الجميلة » · ويحار هذا الحكيم فى تأويل هذه الأحلام فما كان سقراط بشاعر ليمضى فى الشعر ، وما كان سقراط بموسيقى ليمضى فى الموسيقى ، وما كان مصورا ولا مثالا ليخلق مثل ما خلق « فيدياس » وتلاميذه من الصور والتماثيل ··· وقنع سقراط بأن يجعل الحكمة فنه الجميل الذى يعيش ويموت له ··· فلم يعمل أبناء أثينا عملا مفاجئا متفطعا تمليه صحوة فى ساعة من ساعات العمر ، وانما كانت أعمالهم أعمارا ، وكانت أعمارهم أعمالا يحيون ويموتون لأمل مفروض لا تحيد عنه نفوسهم ·· ومن وراء أعمارهم تمتد ايمانهم بمشاعل الخير والجمال الى الناس ·· حتى اذا قضت أمتهم فلم ينهض من بنيها ناهض يتلقى هذه المشاعل باليمين مكثت هذه الأيدى تمتد الى الانسانية جمعاء وما تزال تمتد بنور الانسانية الى أن يشاء الله

وكان الفن الجميل الذى وهب له سقراط نفسه حيا وميتا هو ان يعلم أمته فن السياسة الحق وكانت قد أغفلته ساعة غابت معالم الحق فى نيل المطامع والفتن ···

لا تصلح هذه السياسة الا بما صلح به أولها وهو الفضيلة والعدل ·· وستستمع اليه طائفة ولا تعى نداءه طائفة · وتغرب ساعة أثينا بعد ساعة سقراط ، ولكن حكمة الأقدار قد صيرت أثينا شيئا أشبه بأبطالها فلا يكاد يطويها الغروب حتى تشرق من ناحية أخرى شمس ليست أدنى بهجة من شموس الحياة ، وتضىء معالم السبيل للانسانية جميعا · وتمتد آفاق أثينا فتحتضن آفاق الانسان من كل جنس ، وتكون حياة بنيها الصالحين أسوة للصالحين ، وتسمع نداءها ونداءهم فى الخالدين ···

ونادى سقراط قومه فقال يا قوم انه لا يصلح لسياسة أمة الا الفاضلون ، والفضيلة الاجتماعية السياسية هى العدالة ·· وهى جامعة

لسائر الفضائل ، وما كان أمرها بيسير على كافة النفوس لأنها تكليف في سبيل سعادة الآخرين ٠

وقد حسب أرسطو ان نداء سقراط لا يفسر معنى الفضيلة السياسية الحقة ، لأن الفضيلة اذا أخذت على علاتها قد تلقى في أذهان الناس معنى الفضيلة السلبية التي تعتزل ولا تشارك في سياسة الأمة ٠ فليس يكفي أن يكون السياسي فاضلا كاملا دون أن ينهض الى سياسة أمته ، وليس يكفي أن يقبع في عزلة هادئة طيبة لا تتلاطم من حولها الأمواج ولا تعصف بها الأعاصير ، وان ينعم هنالك بنعيم فضله وعقله في صفاء السكون ٠٠٠ ولا قدر لهذه الفضيلة السياسية من دون نضال وجهاد ٠٠ حتى يجاهد المرء نفسه في نشوة الحكم ٠ ولا قدر لهذه الفضيلة السياسية من دون نضال في سبيل الخير العام ٠ حتى يناضل المرء ما يلقى من أهواء وما يعوقه من معوقات الأشياء والأحياء ، وحتى يحمل العبء حكيما عادلا صالحا نقيا عالما شجاعا ٠ وما تغني هذه الفضيلة عن أحد ان اعتزل لأمر وخلى السفينة للمفسدين ٠ « اننا لا نجعل بطولة الاولامب الا للمصارعين الذين يصارعون في ساحة البطولة بأنفسهم وما يكفيهم أن يكونوا أجمل الناس ولا أقوى الناس ولكنهم لا يبلغون تاج البطولة حتى يصارعوا في سبيل هذا التاج » ٠

ومن أجل ذلك فليس يحل لأحد أن يكون فاضلا حقا حتى يولي فضيلته وكماله شطر صالح أمته ٠٠ وقد ظهر في الفلاسفة من بعد سقراط مذهب المعتزلين الذين يجتنبون السياسة في سبيل الحكمة ويؤثرون العافية على النضال ٠٠٠ وقد حسب كثير من الأثينيين سقراط من المعتزلة لأنه لا ينهض الى منبر الخطابة في « الأجورا » كسائر السياسيين ، ولام الأثينيين الذين لم يستمعوا اليه ولم يعلقوا هذا المذهب العجيب ، اذ يرونه شيخا كبيرا منبثا بين أطفال أثينا يقضي بينهم نهاره وطرفا من الليل وخالوه مجنونا ٠٠ غير ان سقراط شاء ان يدفع السيل من منبعه وانبث بين الناشئين من حياتهم الأولى ليعصمهم من سيئات المطامع وليصيرهم حراسا وحكاما صالحين ، وكان بعد ذلك جنديا شجاعا لا يزلزل أركان نفسه خوف ولا يحرص على شيء من أنفال الحرب ويلقى الى أصدقائه ما يقسم له من مغانم القتال ٠ وكان اذا قضى لا يحسب حسابا لأهواء الأثينيين وان غضبوا وان سخطوا ، ولا يحكم الا بالعدل وبما ينفع الناس ، وكان يمشي الى الصالحين العالمين فيحرضهم على أن يحملوا أمانة السياسة ٠

وهذا دليل على ان سقراط كان يدعو الى فضيلة ايجابية علما وعملا ، فيحض الصالحين ويثبط الجاهلين ويحارب مواطن العلة في نفوس

الأثينيين . وقد أثرت عنه عبارة ما تزال أصدق حكمة المعلمين : « ان أكبر ما على المعلم ان يضيء جذوة المجد فى نفس المتعلم ، فان علم الطلاب انه لا خير لهم حتى يكونوا رجالا صالحين هان عليهم فى سبيل العلم كل جهد وبلغوا بأنفسهم غاية السبيل » . ولا سبيل لمعلم ان يوقد فى أفئدة المتعلمين جذوة المجد ، حتى يكون فى نفوسهم كاملا ، وحتى يكون عالما مؤمنا ، وحتى يبصروا خلال حياته وعلمه شعاعا من قبس المجد الذى تولى اليه آمالهم . وهيهات ان يبلغ هذا المجد كل معلم ، والذين بلغوا هذا المجد كانوا هداة رسلا ، وكانوا بعد ذلك « ورثة الأنبياء » . وكانت اثينا تعد الشاعر معلما ولا يكون الشاعر شاعرا حقا حتى يجعل أمته أمة صالحة . وكانت تعد الحاكم معلما ، ولا يكون الحاكم حاكما حقا حتى تصير أمته أمة صالحة . وكانت هذه غاية المعلمين فى كل فن . فليس التعليم بقاصر على طائفة تبيع معرفتها بمال قليل أو كثير ، ثم لا تستطيع أن تحيى قلبا ولا تستطيع أن تسمو بنفس ، ولا تستطيع أن تخلص لرسالتها اخلاص المؤمنين . كان سقراط لا يبيع علمه بمال ، وكان مؤمنا برسالته خالصا لها لا يريد جزاء على ما أنفق فيها سوى أن يبصر تلاميذ خيرين صالحين ، والا أن يستمتع بوفائهم لأن الصداقة الوفية الطيبة أطيب متاع الحياة .

ولا يقنع سقراط بان يغشى ســـاحات الرياضة ليلقى تلاميذه وأن يصحبهم الى أحضان الطبيعة الجميلة لينعموا واياه بجمال النسيم ما يحمل النسيم من عبق الزهر ومن أصداء الهوام ، ثم يزودهم بعدئذ بحكمته ولم يخرج فى ذلك عن بساطة الصديق، ولا يلقى تلاميذه بعلم مأثور محفوظ وانما كانت معرفته « مذاكرة » . وأوتى سقراط مقدرة معجزة من احياء ما نسيت نفوس سامعيه من قيم الخير وأصول الجمال ، ولا يغمرهم بأثر محفوظ معلوم وانما يسألهم وهم يجيبون دون أن يعتمدوا فى جوابهم على رأى محفوظ موروث . وشاء سقراط بذلك ان يحيى ما أغفل تلاميذه من معانى الفضيلة التى اعتزت بها أثينا من قبل ، وأقامها بالحوار على ضوء العقل .

« اعرف نفسك بنفسك » ذلك كان مبدأ مدرســة سقراط ، أى استخراج ما بطن من صور الجمال والخير من نفسك . وعرف سقراط كيف يستخرج هذه المعانى مما كمن فى أفئدة ســامعيه ، وعلمهم كيف يشعرون ويتفكرون بمنطق صارم شديد .

وكان يتخذ كل سبيل فى اغرائهم بالفضيلة ، وكان يحب أن يحفظوا قول « برودكوس » عن الفضيلة :

« انه لمن اليسير ان تبلغ الرذيلة زرافات ووحدانا ... فسبيلها

معبدة قريبة المنال . وأما الفضيلة فقد فرض الآلهة الخالدون من دونها عرق الجبين ، وسبيلها قائمة شاهقة عصية أول الأمر فاذا بلغنا شرفها رأيناها هينة يسيرة رغم عنائها » .

ويذكرهم بقول « أبيكاروس » : « إن الآلهة آتتنا الفضيلة لقاء ما ننفق في سبيلها من نصب » ثم يمضي سقراط يلقى عليهم نبأ الأولين في الفضيلة : فقد ذكر الحكماء ان « هراقليس » (٨) قد شب عن الصبا ووقف لدى الشباب لا يدرى ما يفعل ، فان للحياة سبيلين لمن أراد أن يمضي فيها : سبيل الفضيلة وسبيل الرذيلة . فاتخذ مكانا قصيا لا يدرى ما يختار ، فأقبلت عليه امرأتان جاءته احداهما تمشى على استحياء ، وهى ذات وجه حر نبيل وهي متئدة عاقلة ، وتلبس ثيابا بيضاء .. وأما الأخرى فهى رخوة غضة بضة تغطى وجهها بطلاء أبيض وتحمر خديها بطلاء أحمر لتبدو أجمل مما خلقها الله . تتخاطر في مشيتها متعالية لتبدو أعلى مما هى ، ولا تسبل جفنيها حياء ولا تكف عن النظر الى نفسهـا تريد أن ترمقها الأبصار ولا تفتأ تنظر الى ظلها .. اقبلتا الى هراقليس فأما الأولى فقد سارت متئدة ثابتة الخطى وأما الثانية فقد أسرعت تهرول الى ذلك الفتى ، وقالت : « يا هراقليس .. انى أجدك حائرا لا تعلم ما تختار فان صحبتنى فسأمضى بك في سبيل اللذات والهوى فلا تغنى بشيء من العيش ولا تهتم بحرب ولا تشغلك السياسة ، ولكنك تقضى زمانك سعيدا متمتعا بمتاع الطعام والشراب ولذة السمع والبصر وحلاوة اللمس والحس وشهوة الهوى وتستمتع بالفراش الناعم ، وستجد كافة هذا المتاع هنيئا مريئا ، ولا تخف ان أسالك يوم ينضب معين هذه اللذات ان تنفق في سبيلها هما ولا عناء .. ولكنك ستعيش على ما أنفق الآخرون من جهد ، ولا تتورع عن نفع يجيئك من ناحية من النواحى ، وأنا أهيىء لرفاقى أن ينالوا المنافع حيث كانت » .

فلما استمع اليها هراقليس قال لها : أيتها المرأة ما اسمك ؟ فقالت ان رفاقى يدعوننى « الهناءة » وأما أعدائى الذين يكرهوننى فانهم يسبوننى ويسمونني « الرذيلة » . ثم جاءت الأولى وقالت : « وأنا أيضا أتقرب اليك يا هراقليس فأنا أعـرف أبويك وأعلم نفسك منذ الصبا ، فان سلكت طريقى فستبنى ما يمجدك ويبقيك ثم تجعل لى فى الصالحين ذكرا عاليا وبهاء ونورا ، ولست بباسطة لك فى مغريات المتاع ولكنى أقص عليك الأمر بالحق كما خلقته الآلهة ... ان الآلهة لم تقدر لأحد مجدا من دون مشقة ولا عناء ، فان أحببت ان يبارك الله سعيك فيجب ان تعبده ، وان شئت ان يحبك أصدقاؤك فيجب أن تحسن اليهم ، وان أردت أن يمجدك

وطنك فيجب أن تنفعه ، وان ابتغيت أن يتمدح اليونان جميعا بقدرك فيجب أن تعمل صالحا ، وأن أردت ان تؤتيك الأرض ثمارها فيجب أن تثمرها وان أردت أن تكثر رعيتك فيجب أن ترعاها . فاتبعنى اذن ولا تتبع سبيل الشهوات » .

واختارت الآلهة لهراقليس سبيل الفضيلة وجنبته سبيل الهوى

الموسوعة الأبقراطية

أبقراط

٣٧٥ ق.م

الطب قبل المدرسة الأبقراطية

الاســـــاطير الاغريقية القديمـــة تعتبر ان « اســـكليبيوس » (٩) ابن أبوللو ــ هو اله الطب • ولهذا فقد أقيمت في شرفة المعابد والهياكل التي يحضر اليها المرضى والمصابون ليقدموا القرابين ويقيموا الصلوات طلبا للشفاء والصحة • وقد وجد الكهنة الملحقون بهذه المعابد فى ذلك فرصتهم ، فألفوا فيما بينهم رابطة متماسكة ، وأطلقوا على أنفسهم لقب « الاسكليبديون » نسبة الى اله الطب • واقتصرت الخبرات والممارسات الطبية عليهم ، فهم يحتفظون بالمعارف الطبية ويخبئونها ويعدونها أسرارا مقدسة ، ولا تنتقل الا من الأب للابن • ولعل من المناسب أن نسمى أعضاء هذه الرابطة « بالاطباء الكهنة » أو « الأطباء الفلاسفة » ، فهم يربطون ويخلطون ما بين الممارسات الطبية وبين مهنتهم الأساسية بالمعابد والأفكار الفلسفية السائدة عن الكون •

والقاعدة المعروفة عندما تكون للعارف والمعلومات فى أى مجال من المجالات سرية ، هى انها تكون دائما فى خدمة الطبقات المسيطرة • وهذا ما حدث فعلا فى اليونان القديمة ، بل وفى الحضارات التى سبقتها أيضا ، فقد كان الكهنة الأطباء لا يعالجون الا السادة والأغنياء • اما العامة من الشعب فكان علاجهم محصورا فى نطاق المسنين والمسنات الذين يستخدمون أساليب الشعوذة والسحر بشكل أساسى •

والاتجاهات العامة التى كانت تسود دائرة الطب والعلاج فى اليونان القديمة قبل أبقراط كانت اتجاهات تخمينية غيبية وفلسفية فى الغالب الاعم •• أما المشاهدة الدقيقة والتجربة فلم تكن تشكل الأساس الضرورى ، والأمثلة التالية توضح ذلك :

ــ فنحن نجد « فيلا لاوس » من المدرسة الفيثاغورية يؤسس تصنيفه لأجهزة جسم الانسان على الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت بأهمية الرقم

أربعة ·· فالأجهزة الأساسية عنده هى : أجهزة التكاثر ، والبطن ، ولعله يقصد « الجهاز الهضمى » والقلب كمركز للاحساس ، والمخ كمركز للعقل ·

ـ ونجد مدرسة « امبذوقليس » متأثرة بالتأملات الكونية الفلسفية تفسر حالة الحمى على انها زيادة فى العنصر الساخن عند المريض ، والزكام مثلا على انه زيادة فى العنصر البارد ··· وهكذا · والمريض فى الحالة الأولى يحتاج الى تبريده ، وفى الثانية يحتاج الى زيادة حرارته ··· وهو ما يؤدى بالطبع الى نتائج سيئة ··

ـ ونجد أيضا هذه المدرسة الأخيرة تقول ان الانسان يكون أحد أربعة :

دمويا أو صفراويا أو مخاطيا أو سوداويا · وواضح تأثرها أيضا بالاعتقاد فى الرقم أربعة ·

وخلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد كان العصر الذهبى للتنوير فى اليونان القديمة ، حيث ظهرت الأسماء الكبيرة من الباحثين عن المعرفة مثل سقراط وسوفوكليس وأفلاطون ·· الذين تمعنوا وتأملوا فى طبيعة الانسان والكون · ورغم بعض التمزقات فى المجتمع الاغريقى الذى ينقسم الى سادة وعبيد ويتسم بالتخلف الصناعى بالمقارنة بمجالات النشاط الفكرى ، الا أن الوقت كان مهيئا والحاجة ملحة لظهور عقل علمى ليحرر الممارسة الطبية من القيود الاسطورية والخرافية والفلسفية ، ويؤسسها على مزيد من المشاهدات ·

وظهر أبقراط « وهى فى الأصل هيبوقراط » بجزيرة « كاوس » فى بحر ايجه ، حيث ولد عام ٤٦٠ قبل الميلاد أى قبل ظهور الاسكندر الأكبر بحوالى مائة عام · ولم يعرف الا القليل عن حياته الخاصة · ويبدو أن والده كان عضوا فى رابطة « الأطباء الكهنة » بمعبد جزيرة « كاوس » · وكالعادة فى ذلك الوقت ، اكتسب الابن أسرار فن الشفاء والعلاج من أبيه ، وأبدى تفوقا فى التحصيل ، مما دفع الأب الى البحث عن أفضل المدرسين الموجودين فى ذلك الوقت · ومن المعتقد أن « ديموقريطس » صاحب النظرية المادية الذرية كان أحد معلميه · وكما كان «ديموقريطس» متجولا فى أنحاء العالم لاكتساب المعارف الواسعة عن العلوم الطبيعية والفنون الجميلة والفلسفة ، أصبح أبقراط الصغير زائرا هو الآخر لكثير من مراكز التعلم فى العالم القديم · لقد ذهب الى أثينا ولعله قد التقى بأفلاطون أعظم المعلمين فى عصره · والواقع أن أفلاطون قد أشار فى بعض كتاباته الى أبقراط كمعلم طبى عظيم ، كما نقل عنه بعض أقواله المهمة فى مجال الطب ·· مثل : « ان أحدا لا يستطيع فهم طبيعة جزء من أجزاء الجسم دون أن يفهم طبيعة كل الكائن الحى » · وهى توضح مدى احساسه بالعلاقة بين الجزء والكل ·

مؤلفات أبقراط

ويذكر المؤرخون أن أبقراط قد ألف ما يقرب من ثلاثين كتابا أهمها :

الأول : كتاب الأجنة · ويتناول فيه كون المنى وكون الجنين وكون الأعضـــاء ·

الثانى : « طبيعة الانسان ·

الثالث : « الأهوية والمياه والبلدان ·

الرابع : « الفصـــول ·

الخامس : « المعرفة · وضمنه تعريف العلامات التى يقف بها الطبيب على أحوال المرضى ·

السادس : « الأمراض الحادة ·

الســابع : « أوجاع النساء ·

الثــامن : « الأمراض الوافدة ·

التــاسع : « الاخلاط ·

العــاشر : « الغذاء ·

الحادى عشر : « القاطيطرون أى حانوت الطبيب ·

الثانى عشر : « الكسر والجبر ·

هذا وقد فسر جالينوس معظم كتب أبقراط وشرحها ونقل المترجمون العرب والسريان هذه الشروح الى اللغة العربية · وما زالت لهذه الشروح مخطوطات موجودة فى أياصوفياوينى جامع بتركيا ·

قسم أبقراط

كان لأبقراط ولدان هما « ثاسدس وذواقن » وتلميذ فاضل جاد هو « فولويس » فعلم ابنه وتلميذه صناعة الطب مع الافضاء اليهم بأسرارها ودقائقها · ولما رأى أن هذه الصناعة ــ التى يكبرها ويجلها ــ أوشكت

أن تخرج منهم الى غيرهم ، وضع عهدا : استحلف فيه المتعلم لها : أن يكون ملازما للطهارة والفضيلة • وعرف فيه جميع ما يحتاج اليه طالب الطب •

فقد أقسم ابقراط بأبللو الطبيب وباسكلبيوس ، وبهجيائيا Hygiaea وباناسيا Panacea وبكل ما هو مقدس ، وأشهدهم جميعا على أن :

- انفذ هذا القسم وأوفى بهذا العهد بقدر ما تتسع له قدرتى وحكمتى •
- وأن أضع معلمى فى هذا الفن فى منزلة مساوية لأبوى ، وأن أشركه فى مالى الذى أعيش منه ، فاذا احتاج الى المال اقتسمت مالى معه ، وأقسم أن أعد أسرته اخوة لى ، وأن أعلمهم هذا الفن اذا رغبوا فى تعلمه ، من غير أن أتقاضى منهم أجرا أو ألزمهم باتفاق •
- وأن القن الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائى ولأبناء أستاذى وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا يمين الطبيب ولا القنها لأحد سواهم •
- وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتى وحكمتى ، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر •
- ولن أسقى احدا السم اذا طلب الى أن أفعل هذا أو أشير بسلوك هذا السبيل •
- كذلك لن أعطى امرأة صوفة لاسقاط جنينها ، ولكنى سأحتفظ بحياتى وفنى كليهما طاهرين مقدسين •
- ولن أستعمل المبضع ولو كنت محقا فى استعماله ، لمن يشكو حصاة ، بل أتخلى عن مكانى لمن يحذقون هذا الفن •
- واذا دخلت بيت انسان أيا كان ، فسأدخله لمساعدة المرضى ، وسأمتنع عن كل اساءة مقصودة أو أذى متعمد •
- وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أى رجل أو أية امرأة ، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء •
- ومهما رأيت أو سمعت فى أثناء قيامى بفروض مهنتى ، وفى خارج مهنتى فى خلال حديثى مع الناس ، اذا كان مما لا تجب اذاعته ، فلن أفشيه • وساعد أمثال هذه الأشياء أسرارا مقدسة •

فاذا ما ألزمت نفسى باطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه ، فانى أرجو أن أشتهر مدى الدهر بين الناس جميعا بحياتى وبفنى ، أما اذا نقضت العهد وحنثت بالقسم فليحل بى عكس هذا » ٠

ويضيف أبقراط الى هذا ان من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجى ، وأن ينظف جسمه ويتأنق فى ملبسه ٠ ويجب عليه أن يكون هادئا على الدوام ، وأن يكون سلوكه بحيث يبعث الثقة والاطمئنان فى نفس المريض ٠

ويجب عليه :

« أن يعنى بمراقبة نفسه ، و ٠٠٠ وألا يقول الا ما هو ضرورى ٠٠٠ واذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك ، وكن متحفظا فى كلامك معتنيا بهندامك ، صريحا حاسما فى أقوالك ، موجزا فى حديثك ، هادئا ٠٠٠ ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت الى جانب فراش المريض ٠٠٠ واضبط أعصابك ، وازجر من يقلقك ، وكن على استعداد لفعل ما يجب ان يفعل ٠٠٠ وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض ، وأن تراعى بعناية حال مريضك المالية ، وعليك أيضا أن تقدم خدماتك من غير أجر ، واذا لاحت لك فرصة لأن تؤدى خدمة لانسان غريب ضاقت به الحال ، فقدم له معونتك كاملة ، ذلك انه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضا حب الفن » ٠

لقد مات أبقراط قبل ألفى عام . ولكن قسمه خالد يذكره كل طبيب ولو مرة واحدة على الأقل فى حياته عندما ينتهى من دراسته ٠ وانا لنرجو ان يظل هذا القسم العظيم عالقا بأذهان الأطباء ٠ واذا كنا قد أتينا على ذكر هذا القسم فلكى يقف الناس جميعا على المثل العليا التى أرساها أبقراط فى الطب والتى يجب على الطبيب تعهدها والتمسك بها ٠

ولقد استطاع أبقراط أن يحافظ على هذا العهد طوال حياته ، فعاش سعيدا موفقا وترك تراثا خالدا لا ينسى ٠

أول مدرسة طبية علمية

وعندما توفى أبقراط عام ٣٧٠ ق٠م عن تسعين عاما ، كان قد أنشأ أول مدرسة طبية لها اتجاه علمى حقيقى ، وكان قد خلف ثروة من المعارف والتوجيهات أصبحت أساسا جيدا للعمل فى ميدان الطب والعلاج لقرون طويلة من الزمان ، ولعل من أهم ملامح هذا الاتجاه وهذه الثروة ما يلى :

تأكيد أبقراط الشديد والمتكرر فى كل مناسبة على أنه ينبغى على الطبيب المعالج دراسة المريض ككل وليس مجرد مرضه فقط · ولكى يكون التشخيص سليما ينبغى دراسة كل ما يمكن دراسته عن المريض ·· تصرفاته اليومية الروتينية ، تاريخ أسرته ، وظيفته ، الظروف البيئية الطبيعية والاجتماعية التى يعيش فيها ··· ومدى الحرية أو القهر الذى يحيط به ··· الى هذه الدرجة !! وتأكيده على أنه ينبغى على الطبيب أن يكون تشخصيه النهائى مستخرجا من مشاهداته ومراقبته الحريصة لحالة المريض ·

اصرار أبقراط على أن كل مرض مهما كان بسيطا أو خطيرا ، لابد ان يكون له مسبب طبيعى ، ومهاجمته للممارسة الطبية الخرافية والخيالية والفلسفية · فهو يقول : « ان الطب من بين كل الفنون هو أرفعها شانا ، ولكن نظرا لجهل من يمارسونه فانه يتخلف كثيرا عن كل الفنون الأخرى » ·

على الرغم من أن تشريح الجسم بعد الممات كان محرما عند قدماء الاغريق ، وعلى الرغم من أن المعارف عن التفاصيل التشريحية والفسيولوجية والمرضية كانت بدائية نتيجة لهذا التحريم ، الا أن كتابات أبقراط عن الكسور وخلع المفاصل تكشف عن معرفة متقدمة بتركيب ووظائف العظام والعضلات والأربطة بين بعضها البعض · وهو أمر يثير الدهشة ·

لقد كانت الحاجة الى التعقيم معروفة ، على الرغم من عدم فهمها وكانت لأبقراط تعاليم محددة فى تحضير غرفة العمليات والآلات الجراحية ، وتعاليم عن ضرورة تنظيف الجروح وتطهيرها بمزيد من الدقة قبل اغلاق حواف اللحم أو الجلد المجروح بالضمادات · وعن وضع الأعشاب الطبية على الجرح بعد ذلك ثم تغطيته برباط نظيف ·

ثم انه بعد ذلك يؤكد على أهمية نوع الطعام والتمريض والعناية بالمريض خلال فترة النقاهة والتئام الجروح وهو أمر يوضح مدى استنارة أبقراط وسبقه لزمانه ولتميزه بنظرته العلمية · وهنا يقول الدكتور « جرين » فى كتابه عن « عظماء العلماء » : « ان أبقراط ابن القرن الخامس قبل الميلاد ، لن يكون غريبا اذا دخل أى مستشفى من مستشفيات القرن العشرين بل سيشعر انه فى بيته » !!

ان ما يسمى « بالمجموعة الأبقراطية » أو « الموسوعة الأبقراطية » كانت أول تجميع علمى منسق فى مجال الطب عرفه العالم ، فقد حوت أكثر من ثمانين مقالا طبيا كانت تغطى كل مراحل الممارسة الطبية تقريبا ، كتبها أبقراط وتلاميذه وجمعها تابعوه خلال القرن

الثالث قبل الميلاد لمكتبة الاسكندرية التى يرجع اليها الفضل فى حفظها من الاندثار ٠

★ ويجمع المؤرخون فى مجال تاريخ وفلسفة العلم ان أول اتجاه علمى فى الطب هو ما نشأ مع مدرسة أبقراط ٠ فالرجل كان يدرك بشكل واضح ان الطب كجانب من المعرفة التطبيقية ينبع من الممارسة العلمية ومن التكنيك ٠ ولهذا تعتبر أعمال وآراء وتوجيهات أبقراط اسهامات جديدة بالنسبة لوقته فى تشكيل صورة علمية عن البيئة أو عن جانب منها ٠

كان أبقراط يرى أن الطبيب الفيلسوف ـ فى ذلك الوقت ـ لا يصلح أن يكون طبيبا معالجا ، فالأول يركز اهتمامه على المعرفة ولا يهتم بالمريض ذاته ٠٠ المريض الذى يعانى ويتألم ، ولقد تميزت مدرسة أبقراط بالاهتمام المركز على المريض ذاته فروح هذه المدرسة اكلينيكية ، ولا يمكن أن نلومه على ذلك بل ينبغى أن نحترم الرجل ومدرسته ، فلم يكن فى الوقت متسع لأكثر من تصحيح مسار العلاج وتخفيف آلام ومعاناة الانسان ، وتخليه من تأثير الأفكار البعيدة عن الواقع ٠ ان عبارته التى جاءت فى بداية « الموسوعة الأبقراطية » توضح مدى شعوره بالمسئولية تجاه مهنته وتجاه المرضى ٠٠٠ فهو يقول : « ان الحياة قصيرة ، ودراسة فن الطب والعلاج طويلة ، وفرصة تحقيق الشفاء تمضى بسرعة ، والتجربة خطيرة ، والقرار صعب » ٠

ومع هذا فقد وضع أبقراط أيضا الكثير من الأسس السليمة للمدرسة الأكاديمية والبحثية ٠ فحديثه عن المشاهدة والتجربة وتأكيده على ضرورة اختبار الآراء فى الواقع للتأكد من مدى صحتها ٠٠ يوضحان ذلك ٠

ان القيمة العظمى « للموسوعة الأبقراطية » كانت فى تأكيدها واصرارها على حاجة الطبيب للأسس الصحيحة عند الاقتراب من مشكلات الصحة والمرض وهو أمر لا يزال من أساسيات العمل الطبى حتى اليوم ٠ وهناك بعض المقالات فى هذه الموسوعة لا تزال تجد مكانها فى التفكير الطبى العلمى فى أيامنا هذه ٠ يقول أبقراط فى مقالة تحمل عنوان « حول المرض المقدس » ـ والمقصود به هو مرض الصرع الذى يتميز بالرجفة وفقد الوعى ـ يقول : « ان بعض الأطباء الجهلة يعتبرون هذا المرض العنيف على انه زيارة يقوم بها اله غاضب أو شيطان لجسم المريض ، وهم يحاولون انهاء هذه الزيارة بالتعاويذ والرقى والسحر والتمائم ٠ ان هؤلاء الأطباء يقولون بأن هذا المرض مقدس ليخفوا بذلك جهلهم وعجزهم عن دراسة ومعرفة السبب الحقيقى للمرض » ٠

لقد أصر أبقراط دائما على القول بأن كل مرض مهما كان مخيفا ، فلابد أن يكون له سبب طبيعى ، وعلينا أن نبحث عن هذا السبب ، وكانت هذه الخطوة الهائلة نحو طب علمى ، لأنها فصلت الممارسة الطبية عن آخر أثر للأساطير الخيالية والخرافات ٠

القيمة العظمى للموسوعة الأبقراطية

وكان أكبر فضل لأبقراط وخلفائه انهم حرروا الطب من الدين والفلسفة ٠ نعم انهم يشيرون فى بعض الأحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء ، كما نرى ذلك فى كتاب « التنظيم » ولكن النغمة السارية فى صفحات الموسوعة الأبقراطية كلها هى وجوب الاعتماد الكلى على العلاج الطبى ٠٠

وكانت روح العصر البركليزى تتمثل أوضح تمثيل فى عقلية أبقراط ، فقد كان واسع الخيال ولكنه واقعى ، يكره الخفاء ، ولا يطيق الأساطير ، يعترف بقيمة الدين ولكنه يكافح لفهم العالم على أساس العقل والمنطق٠ وانا لنحس بأثر السوفسطائيين فى الحرية التى تهدف الى تحرير الطب ، والحق أن الفلسفة قد أثرت فى طرق العلاج اليونانية تأثيرا بلغ من قوته أن قام النزاع بين العلم والفلسفة كما قام بينه وبين العقبات التى يضعها الدين فى سبيله ٠ ويقول أبقراط ويصر على قوله ، ان النظريات الفلسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه ، وان العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة وعلى تسجيل كل حالة من الحالات وكل حقيقة من الحقائق تسجيلا دقيقا ٠ ولسنا ننكر انه لم يدرك كل الادراك قيمة التجارب العلمية ، ولكنه كان يصر على أن يهتدى فى جميع أعماله بالخبرة والتجربة العملية ٠

وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب فى الطب ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة ، وفى مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى ٠ ويقول ان معظم الأمراض تصل الى مرحلة يقضى فيها اما عليها واما على المريض ذاته ، وان تقديره الحسابى ــ الذى يكاد يبلغ فى دقته الحساب الفيثاغورى ــ الذى يصل فيه المرض فى أشدها لأنه لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية ٠ وهو يقول فى هذا المعنى انه اذا استطاعت حرارة الجسم فى هذه الأزمات أن تتغلب على سبب العلة وتطرده من الجسم شفى المريض ، ويقول ان الطبيعة ــ أى قوى الجسم وبنيته ــ هى أهم علاج لكل مرض أيا كان نوعه ، وان كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلل أو يزيل العقبات القائمة فى طريق هذين الدفاع والشفاء الطبيعيين ٠ ولهذا فان

الطريقة الابقراطيـة لا تستخدم العقـاقير فى العلاج الا قليلا ، وانثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقى ، والمقيئات والأقماع ، والحقن الشرجية ، والحجامة ، والادماء ، والكمادات ، والمراهم ، والتدليك ، والمياه المعدنية . ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليونانى جد صغير معظمه من المسهلات وكانت أمراض الجلد تعالج بالحمامات الكبريتية ، وبالتدليك بدهن كبد الدلفين . ويسدى أبقراط للناس هذه النصيح

عش عيشة صحية تنج من الأمراض الا اذا انتشر فى البلد وباء أو أصابتك حادثة . واذا مرضت ثم اتبعت نظاما صالحا فى الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء » .

وكثيرا ما كان يوصى بالصوم اذا سمحت بذلك قوة المريض لأنه « كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى » . ويمكن القول بوجه عام ان « الانسان يجب ألا يتناول الا وجبة واحدة من الطعام فى اليوم الا اذا كانت معدته شديدة الجفاف » .

وكان تقدم علمى التشريح ووظائف الأعضاء فى بلاد اليونان بطيئا ، وكان أكبر العوامل فيما أحرزاه من تقدم هو الفحص عن أحشاء الحيوانات فى عمليات العرافة . وفى الموسوعة الأبقراطية كراسة صغيرة « فى القلب » تصف البطينين ، والأوعيـة الكبرى ، وصماماتهـا . وكتب سينيسس Syennesis القبرصى وديوجين الكريتى يصفان الجهاز الدموى ، وعرف ديوجين أهمية النبض . كذلك عرف أنبا ذوقليس أن القلب مركز الجهاز الدموى ووصفه بأنه العضـــو الذى يحمل النيوما أو الهـواء الحيوى « الأكسجين » من الأوعية الدموية الى جميع أجزاء الجسم . وفى كتاب الجسم Corpus يحذو أبقراط حذو القميون فيجعل المخ مركز الشعور والتفكير ويقول : « وبه نفكر ، ونبصر ونسمع ونميز القبيح من الجميل والغث من الثمين .

أمر واحد فقط ، هو ما يمكن أن يأخذه بعض المغالين على أبقراط ، وهو انه فى الوقت الذى رفض فيه النظريات والآراء التأملية التى قال بها الفلاسفة ليفسروا بها السلوك الانسانى والصحة البدنية ، نراه يقبل عقيدة المبـدأ المزاجى الذى كان معروفا فى زمانه وقالت به مدرســـة أمبذوقلس » .. فهو يصنف الناس أربعة .. دمويا نشيط الحركة ، ومخاطيا فاترا عديم المبالاة وصفراويا حاد الطبع ، وسوداويا مكتئبا ، وذلك حسب نوع السوائل أو الأمزجة الموجودة فى جسم كل شخص .. سوائل حارة أو باردة أو جافة أو رطبة . وكان يقول بأن الزيادة أو النقصان بشكل حاد فى أى من هذه السوائل ينتج عنه سلوك شاذ أو

صحة مصنه وربما الموت. وواجب الطبيب فى رايه كان هو المحافظه على التوازن بين أمزجة أو سوائل الجسم المختلفة · وأصبحت نظرية السوائل أساسا لتعاليم جالينوس الطبية فى القرن الثـانى الميلادى · واستمرت مقبولة وتدرس للطلاب سنين طويلة ·

وفى القرن السادس عشر الميلادى أكد « باراسيلسوس » (١٠) على أن لكل مرض سببه الخاص وعلاجه الخاص · ولكى يعبر عن رفضـه واحتقاره لنظرية السوائل أو الأمزجة ، قام بحرق كتابات جالينوس فى اجتماع عام ·

ومع هذا فانه بعد ثلاثمائة عام ــ بعد « باراسيلسوس » ــ جاء الفسيولوجى الفرنسى العظيم كلود برنار وأكد على دور سوائل الجسم فى المحافظة على وســـط بيئى داخلى ثابت · فوجود توازن ديناميكى للكيماويات فى الدم والليمفاويات وسوائل الأنسجة قد أصبح الآن معروفا بضروريته لعمل الجسم الطبيعى وللصحة الجيدة ·

لم يكن أبقراط يعرف شيئا عن الكيمياء والتحاليل الكيماوية فى وقته ، ومع هذا فقد احتوى تفكيره على بذرة صغيرة من الصدق فى هذا المجال ، ولكنها احتاجت لأكثر من ألفين من السنين لكى تنبت·

عن الصداقة:

شيشرون

٤٤ ق.م

المبادىء الأخلاقية
لشيشرون

● يعد اسم « ماركوس توليوس كيكيرو » Marcus Tullius Cicero المعروف لنـــا باسم « شيشرون » رمزا للفصـــاحة وذلك كمـــا يرمز اسم « هوميروس » للشعر الملحمى واسم « شكسبير » للدراما ·

ويمتدح البحاثة « فيريرو » شيشرون لتأسيسه سلالة من الخطباء والمحامين والأساتذة مثل سلالة قيصر ورغم أخطاء هذه السلالة فقد كان لها ولا شك تأثير كبير على مصير أوربا لا يقل عن تأثير القياصرة لفترة تقرب من ألفى عام ·

وعاش شيشرون فى عصر أخذت فيـــه روما مكانة بـــلاد اليونان باعتبارها مركزا للثقافة وكان لها المركز الأول بين أمم العالم ·

ولم يكن لشيشرون مكانة أدبية ممتازة فى عصره فحسب ، بل كان نموذجا ومعلما للأجيال اللاحقة ·

ومعظم شهرة شيشرون مرجعها خطبه ورسائله ، ولقد كانت أسس النقد الأدبى الرومانى توضع دائما على أســـاس أسلوب شيشرون فى خطبه ورسائله ، ذلك الاسلوب الذى اعتبر فى عصره والعصور التالية نموذجا للنثر الأدبى الرفيع للغة اللاتينية النقية ·

وقد قلد الانجليز اسلوب « شيشرون » فى عهد الملكة « اليزابيث الأولى » وكذا فى العصور المتأخرة ، فمثلا كان اسلوب القسيس الأكبر « ريتشارد هوكر » يشابه اسلوب شيشرون ، ومن الذين تأثروا باسلوب شيشرون من الانجليز John Milton وان كان اســـلوب ميلتون أكثر تفككا ، وكذلك أثرت لغة شيشرون فى القرن السابع عشر فى كتابات الشاعر الانجليزى « بوب » ·

هذا من ناحية أسلوب شيشرون فى خطبه ورسائله ، أما من ناحية المبادىء الأخلاقية التى نادى بهـــا فقد كان لها صـــدى قوى فى نفوس

الجماهير · فقد أخرجها للناس فى شكل واضح مبين ، ويمكن اجمال هذه المبادىء على حد تعبير شيشرون نفسه فى كلمة الانسانية Humanitas هذه الكلمة التى تتلور فيها مبادىء وخصال الرجل المتحضر ·

وأهم ما تتميز به هذه الانسانية من مبادىء هو « العطف » فلابد من أن يكون أساس معاملة الانسان لأخيه الانسان هو العطف والشفقة والحنو لأن الانسان نفسه جدير بالاحترام اذ يحمل فى نفسه بعض القيم الموروثة · وقد بنى شيشرون رأيه هذا على المبادىء الرواقية التى تنادى بأخوة الانسان للانسان دون النظر الى موطنه أو جنسه أو مكانته ، وقد كان شيشرون هو الداعية لهذا المبدأ · وقد نالت أبحاث شيشرون شهرة كبيرة فى حياته وعقب موته ، وكان غرضه من أبحاثه تلك أن يقرب الفلسفة الرواقية الى الفكر الرومانى ، وقد أحرز فى ذلك نجاحا كبيرا فلقد ساعدت أبحاثه على نشر المبادىء الرواقية بين الرومان وخاصة الطبقة المثقفة فيهم ، حتى ان أباطرة الرومان أنفسهم أصبحوا يميلون الى الفلسفة الرواقية ،وكان أولهم الامبراطور أوغسطوس ·

وكانت كتاباته الفلسفية رائد النهضة الايطالية فى سعيها لتحرير الانسان الغربى من مفاسد واضطرابات العصور الوسطى ·

وكان شيشرون فى نظر علماء النهضة بطل الفكر الحر والارادة الحرة والحرية الشخصية تلك المبادىء التى كانت النهضة تنادى بها · وقد احتل شيشرون هذه المكانة فى نفوس علماء النهضة نظرا لمناهضته للأوتوقراطية ونظرا أيضا لتلك الروح المضيئة التى لمسوها فى أبحاثه الفلسفية · ·

كما كان لهذه الأبحاث أثرها فى القرن الثامن عشر ويظهر هذا الأثر فى اعلان الأمريكيين لحريتهم وحقوقهم كما يظهر أيضا فى برنامج الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى

ان « فولتير » وفلاسفة بريطانيا أمثال « لوك » و « هيوم » يدينون بالكثير لفلسفة شيشرون ·

فلسفة شيشرون

ولد ماركوس توليوس شيشرون فى أربينوم سنة ١٠٦ ق·م وتلقى العلم فى روما ، حيث استمع الى محاضرات فيدروس الأبيقورى حوالى سنة ٩٠ ق·م وفيلون الاكاديمى حوالى سنة ٨٨ ق·م · الا أن

أهم معلميه ابان شبابه هو ديودوتس الرواقى . الذى التقى شيشرون فى أثينا والده منذ حوالى سنة ٨٥ ق٠م . وفقد ديودوتس بصره وتوفى فى منزل شيشرون سنة ٥٩ ق٠م . وقد كان شيشرون محاميا عظيما ، وكان أعظم خطيب رومانى ، ومن أعظم الكتاب اللاتين . وفى سنة ٧٩ ــ ٧٨ ق٠م أرغمته صحته على التجول ، فاستمع فى أثينا الى محاضرات الفيلسوف الاكاديمى أنطيوكس العسقلانى والفيلسوف الأبيقورى زينون الصيداوى٠ وكذلك استمع الى بوسيدونيوس فى رودس ، رغم ان علاقته الرئيسية به نشأت فى روما بعد ذلك بأمد طويل ، حوالى سنة ٥١ ق٠م . واكمالا لقائمة معلميه نذكر انه حضر فى السنة نفسها أى ٥١ ق٠م تقريبا وفى المكان نفسه أى روما ، محاضرات الفيلسوف الاكاديمى أريستوس العسقلانى ، والفيلسوف الأبيقورى باترون . وقد أثر فيه أسلافه أثرا بالغا وسخر مؤلفاتهم لمآربه الخاصة ، مثلا ، أفلاطون فى كتابه الجمهورية (١١) ، وأرسطو الذى أوحت محاورته المحرض Protrepticos بكتابه هورتانسيوس Hortensius ، والفيلسوف الاكاديمى كارنياديس البرقاوى ، الذى نسج شيشرون فى كتاب الجمهورية على منوال احدى رسائله وبانايتيوس الرواقى (توفى ١٠٩ ق٠م) الذى اقتبس من آثاره مادة كتابه (فى الواجبات) وهيكاتون الرودسى ، تلميذ بانايتيوس . وقد استمد كتابه حكم سكيبيو Somnium Scipionis من بوسيدونيوس .

كان شيشرون محاميا وسياسيا تقلد عدة مناصب عامة ، وكانت له صلة بجميع التقلبات الاجتماعية فى عصره . ويستحيل وصف حياته السياسية دون التطرق باسهاب الى الحروب والفتن التى شهدها ، والمكايد والمنازعات التى ألجىء الى الاشتراك فيها . والقراء الذى يرغبون فى الاطلاع على هذه الوقائع انما يجدونها فى كتب التاريخ السياسى المتداولة . ورغم مراسلاته العديدة ، يكاد يستحيل تقدير خلق شيشرون بتجرد ، فبعض المؤرخين ينددون به بمقدار ما يثنى عليه البعض الآخر . وينبغى أن نتذكر أنه كان بالمرتبة الأولى كاتبا لا سياسيا أو رجل دولة . وبحسب رواية بلوتارك (فى ترجمته له) كان شيشرون مكروها على وجه عام لغروره ودعواه المتواصلة . وأثرى ثراء فاحشا ، الا أننى أومن بنزاهته ، أى انه كان أنزه من معظم معاصريه الذين كتب لهم النجاح . وعندما عين حاكما على قيليقية سنة ٥٢ ق٠م لم يعمد الى سلب الشعب الذى أوكل أمره اليه كما كان العرف ، بل نظر اليهم برفق ، فكان متعجرفا ، على عادته الا أنه كان سخيا ، أما مساوئه فحفظت ، وأما فضيلته الخارقة فنسيت . وكانت أنبل لحظة فى حياته السياسية خاتمتها ، فقد اغتيل بأمر من الحكومة الثلاثية الثانية فى السابع من ديسمبر سنة ٤٣ ق٠م فى فورميا ، على خليج كاتيا الجميل . وكان بوسعه أن ينقذ حياته لو كان

جبانا الا أنه تقبل الموت فقطع رأسا ويده اليمنى وحملا الى الساحة في روما كي يعلقا بالمنصة ، وقد ساد الاعتقاد زمنا طويلا أن جسده (أو رماده) حمل الى روما ودفن في جزيرة زاكسينثوس (زانتى) (١٢) . ومن يدرى ؟

ولم تكن فلسفته مبتكرة ، بل كانت عرضا واضحا جدا لآراء يونانية شدد عليها تشديدا مبتكرا . ان الفكرة نادرة جدا ومعظم ما صنعه الفلاسفة خلال العصور انهم ركبوها تركيبا جديدا . أما ما صنعه شيشرون فهو اختيار ما حسبه خير نواحى الفلسفة اليونانية ولاسيما الآراء التى كانت تدرس فى الأكاديمية الجديدة وفى الرواق .

وأما أثره الرئيسى فى التراث الرواقى فينحصر فى نبذ الهراء والشعوذة ، وكان ذلك يتطلب صفاء وشجاعة فى ذلك العصر القائل بالخرافات ، وقد يقال للمنددين العديدين الذين ينعون عليه عدم الابتكار ان حملته على الخرافات كانت نهجا جديدا ، حظه من الابتكار مثل حظه من السداد .

ومهما تكن المساوىء والأخطاء التى نجمت عن طموحه وغروره ، ابان سنيه الأولى ، فمؤلفاته فى الفلسفة والدين بعد معركة فارسالوس (١٣) تثبت انه كان رجلا عظيما ، مثل قيصر وبروتوس . ولم يكن بومبيى وأنطونيوس من العظمة بمنزلة هؤلاء الثلاثة ، حتى ولا أغسطس الذى جنى ثمار جهودهم .

قلم شيشرون

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيىء السبيل الى الأدب الرومانى ، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الاتيكية ، فلم يسعه الا أن يدافع عن نفسه ، فكتب عدة رسائل طويلة فى فن الخطابة ، وقد لخص فى بعضها تاريخ البلاغة الرومانية فى حوار واضح بارع وضع فيه القواعد التى يجب اتباعها فى تأليف الخطب وفى الايقاع والالقاء • ولم يسلم فى هذه الرسائل بأن اسلوبه (آسيوى) ، وقال انه قد حذا فيه حذو دمستين Demosthenes واتهم « الاتيكيين » (١٤) بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تنيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم •

وتوضح السبع والخمسون التى وصلت الينا من خطب شيشرون جميع الحيل التى يلجأ اليها الخطباء الناجحون ، فهى توفى على الغاية فى عرض ناحية واحدة من نواحى الموضوع الذى يتحدث عنه الخطيب عرضا يفيض حرارة وحماسة ، وفى ادخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر ، وفى اثارة كبريائهم وأهوائهم ، وعواطفهم ووطنيتهم ، وتقواهم ، وفى عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء من يواليه سواء كانت صحيحة أو مما يرويها الناس عنه ، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه ، وبحذقه فى تحويل انتباه السامعين من النقط التى فى غير صالحه ، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الاجابة عنها صعبة أو مؤذية ، ثم يكيل التهم فى جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط ، وتيارها الجارف يغمر المستمعين ، ولا تدعى هذه الخطب انها عادلة منصفة بل ان فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح ، وهى خلاصات يستغل من يلقيها حرية القذف التى كانت محرمة فى المسارح ، ولكنها مباحة فى السوق العامة وفى ساحات القضاء • ولا يتردد شيشرون فى ان يصف ضحاياه بألفاظ مثل « الخنزير » و « الوباء » و « الجزار » و « القذارة » ، ويقول « ليبزو » ان العذارى يقتلن أنفسهن ليتقين عهره ، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملأ الناس ، وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والمحلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجد ، ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب الى بيزو رسائل تفيض ودا وصداقة بعد بضع سنين من هجومه الوحشى عليه فى in pisonem • وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن فى خطب شيشرون من الانانية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من

الاخلاص الخلقى أو الحكمة الفلسفية ، ولكنها بلاغة ليس كمثلها بلاغة قط · ان خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح ، الحيوى ، وهذه الفكاهة الغزيرة ، وهذا القذف اللاذع لبنى الانسان ، ومما لا جدال فيه انا لا نجد أحدا قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة فاتنة ، وقوة عاطفية وجمال · لقد كانت خطبه اسمى ما وصل اليه النثر اللاتينى ، وقد كتب اليه قيصر الكريم وهو يهدى اليه كتابه « فى التشبيه » يقول : « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أول من استخدمها ، وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ، لقد نلت نصرا دون نصر أعظم القواد ، لأن الذهن البشرى أنبل من توسيع رقعة الامبراطورية الرومانية ··

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية ، أما رسائله فتكشف عن انسانيته ، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية · لقد أملى هذه الخطب كلها الا قلة منها على أمين سره ، ولم يراجعها بنفسه ، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها انها ستنشر على الملأ ، ومن أجل هذا فان الناس لم تعرض عليهم نفسية انسان وسريرته كاملتين ، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريرته ، وفى ذلك يقول نيبوس « ولا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام » ، ذلك ان فى وسع قارئها أن يطلع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها ، والستائر كلها مرفوعة عنها ، واسلوبها فى الغالب صريح قديم ، خال من الفن والتكلف ، ملىء بالملح والفكاهات ، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية ، وسلاسة اللغه الدارجة · وهى أكثر ما بقى من آثار شيشرون بل من النثر اللاتينى كله طرافة ومتعة ، ومن الطبيعى ان نجد فى هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهى تشمل ٨٦٤ رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المتناقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الاخلاص · وليس فيها كلها أثر واحد للتقى والايمان اللذين يطالعاننا كثيرا فى مقالات شيشرون أو فى تلك الخطب التى يجعل الآلهة فيها ملجأه الأخير ، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص فى كثير من الناس ، وخاصة فى قيصر ، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به جهرة ، وفيها يظهر غروره الشديد الذى لا يكاد يصدقه العقل ألطف وأحب الى النفس مما يظهر فى خطبه ، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثاله أينما ذهب · وهو يقر مبتسما بأن « تقديرى لنفسى وثنائى عليها أعظم الأشياء قدرا عندى » · ويؤكد لنا فى سذاجة ساحر : انه « اذا كان فى الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا » ·

ولكن هل فى الناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته اذا ما نشرت رسائله الخاصة ؟ والحق ان الانسان اذا أمعن فى قراءة هذه الرسائل يكاد يحب هذا الرجل .. انه فى واقع الأمر لم يكن له من الاغلاط ، ولعله لم يكن له من الغرور ، أكثر مما لنا ، ولكنه اخطأ اذ خلد هذه الاغلاط وهذا الغرور فى نثر أوفى على الكمال . وخير ما نستطيع **أن نصفه به انه كان عاملا مجدا ، وأبا رحيما ، وصديقا وفيا .**

مؤلفات شيشرون

دعنا نتناول الآن مؤلفات شيشرون الفلسفية بحد ذاتهـا . فاذا أدرجنا فى عدادها رسائله فى الفلسفة السياسة قلنا انه شرع فى تاليفها بعد الخمسين من عمره .

١ ـ كانت الكتب الستة التى تتالف منهـا « الجمهـورية » De republica وهى محاورة مبنية على محاورة أفلاطون معروفة سنة ٥١ ق.م ، الا أنها بقيت مفقودة حتى القرن التاسع عشر ، باستثناء حكم سـكيبيو (Somnium Scipionis) الذى حفظ فى ثنـايا تفسير ماكروبيوس (أوائل القرن الخامس) . وفى سـنة ١٨٢٠ اكتشف أنجيلوماى جزءا هاما من النص فى مخطوطه محفوظة فى الفاتيكان .

٢ ـ De legibus (فى القوانين) شرع به سنة ٥١ ق.م ، ولكنه لم ينشر الا فى أعقاب وفاة المؤلف . وقد وصلنا ثلاثة من مجموع خمسة كتب .

ولم يشرع بمؤلفاته الفلسفية الأصيلة الا بعد سنين عديدة ، حين فت فى عضده انهيار الحرية السياسية ووفاة ابنته المحببة اليه « توليا » (فبراير ٤٥ ق.م) . والكتب التى سنسردها الآن كتبت جميعها بين تاريخ وفاتها ووفاته (ديسمبر ٤٣ ق.م)

وفى اللائحـة التالية يمـكن ادراج الأرقام ٣ حتى ٧ تحت باب الأخلاق ، والأرقام ٨ حتى ١٣ تحت باب الفلسفة بمعناها الأعم ، والأرقام ١٤ حتى ١٦ تحت باب الدين أو الفلسفة الدينية . ولا نشدد على هذا التبويب من ناحية أخرى ، لأنه غير حاصر .

٣ ـ Cato mojor sive De Senectute كاتو الأكبـر أو فى الشيخوخة بداه سنة ٤٤ ق.م لصديقه أتيكوس .

٤ ـ (De officiis) (فى الواجبات) ألفه سنة ٤٤ ق.م لابنه ماركس ، الذى كان يدرس آنذاك فى الليقيوم أو يبحث عن المتعة فى أثينا . وهو يقع فى ثلاثة كتب . الأولان مستمدان من بانايتيوس والثالث من هيكاتون ، والشواهد منتزعة من التاريخ الرومانى .

٥ ـ لا يليوس أو (في الصـــداقة) (Laelius sive De amicitia) حوالى سنة ٤٤ ق٠م ٠ كان ك٠ لاليوس الأصغر رواقيا ضليعا وصديقا حميما لسكيبيو ٠

٦ ـ في المجد De gioria سنة ٤٤ ق٠م ٠ وهو مفقود ، الا أن بترارك كان يملك مخطوطا منه ٠

٧ ـ في العزاء أو في الحزن المتناقص (De consolatione sive de luctu diminuendo) ألفه بعد وفاة توليا بقليل (فبراير سنة ٤٥ ق٠م) وهو مفقود ٠

٨ ـ الاكاديميات (Academica) حوالى سنة ٤٥ ق٠م ٠ وهو يدور على فلسفة الاكاديمية الجديدة ٠ كما بسطها كارينياديس ٠

٩ ـ في غايات الأخيار والأشرار De finibus bonorum et malorums ، ألفه سنة ٤٥ ق٠م وأهداه الى م٠ بروتس ـ قاتل الطاغية (توفي سنة ٤٢ ق٠م) وهو عبارة عن بحث في الخير الاسمى والشر الاسمى ٠ في الرد على الأبيقوريين والرواقيين ٠

١٠ ـ المناقشـــات التوســـكولانية Tusculanae disputationes (حوالى سنة ٤٥ ـ ٤٤ ق٠م) ٠ وهو خمس محاورات تدور على مسائل عملية ٠ أقيمت في توسكو لانوم ٠ وهي داره الواقعة في توسكولوم ٠ وهي مهداه الى بروتس أيضا ٠ الأولى : في الخوف من الموت ، والثانية : هل الألم شر ؟ الثالثة والرابعة : في الحزن ومخففاته والألم وعلاجه ٠ الخامسة : ان الفضيلة كافية في ادراك السعادة ٠

١١ ـ مناقضات (Paradoxa) سنة ٤٥ ق٠م ، وهي ست مناقضات رواقية ٠

١٢ ـ هورتانسيوس (Hortensius) وهو اقتباس لمحاورة أرسطو في المحرض Protrepticos ٠ وقد ألفهـا على أثـر دحر قيصر لاولاد بومبيي في موندا (جنوب اســبانيا) في مارس ٤٥ ق٠م ٠ ولم يبق منهـا الا شذرات ٠

١٣ ـ تيمايوس (Timaeus) ترجمات لتيمايوس أفلاطون ٠ شذرات فقط ٠

١٤ ـ في طبيعة الآلهة (De natura deorum) وهـو في ثـلاثة كتب (حوالى سنة ٤٥ ق٠م) مهداه الى بروتس ٠ وهو يدور على طبيعة الآلهة وصفاتها ، بحسب مذاهب الأكاديمية والرواق والحديقة ٠ ويوضد شيشرون في هذا الكتاب أسس التنجيم ٠ فحركات النجوم ينبغي أن

تكون ارادية · وهكذا فوجود الآلهة بديهى بحيث لا يستطيع انكاره امرو عاقل · وقد وفق شيشرون بين تشكيكه وبين اعتناق ديانة الدولة الرومانية الرسمية ·

١٥ ـ فى الكهانة (De divinat one) ألفه سنة ٤٤ ق·م وهو تكملة للبحث السابق · يدور على عدة أشكال من أشكال الكهانة · وقد حرص فيه على عزل الدين عن الخرافات ·

١٦ ـ فى القدر (De fato) أهداه الى أولوس هيرتيوس ، أحد ضباط قيصر وأصدقائه وأديب أبيقورى · التمييز بين القول بالقدر والجبرية · شذرات منه ·

لا يكاد يصدق المرء ان شيشرون ألف هذه الكتب الأربعة عشر (من رقم ٣ حتى رقم ١٦) فى غضون ثلاثة وثلاثين شهرا ، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار ، ليس الدراسات التمهيدية مدى عمر كامل وحسب ، بل تجرده الكامل لكتابتها·وهكذا قضى شيشرون آخر الأشهر الثلاثة والثلاثين من حياته الحافلة بالشغل والدأب · فهل تعرف سياسيا شهيرا استطاع أن يختم حياته بمثل هذا الرونق والوقار ؟ !!

عن الصداقة

أهدى شيشرون هذا الكتاب لصديقه أتيكوس ، والكتاب مكتوب على هيئة حوار ، وأهم المشتركين فى الحوار « لايليوس » صديق سكبيو أفريكانوس الأصغر ، والمفروض أن هذا الحوار قد دار عقب وفاة سكبيو (٢٩ ق٠م) بأيام قليلة ، عندما زار « فانيوس » و « موكيوس سكانيولا » حماهما « لايليوس » . وقد قص « سكانيولا » على شيشرون هذا الحوار .

● الفصل الأول :

فى هذا الفصل الأول يهدى شيشرون بحثه لصديقه « اتيكوس » ، وفى هذا الاهداء اعترف شيشرون بفضل هذا الصديق الذى كان يحثه دائما على الكتابة فى موضوع الصداقة ويبين له مدى جدارة الموضوع بالدراسة فى ذاته ومن ناحية أخرى فان تناول موضوع الصداقة بالدراسة ملائم لتلك الصداقة الوثيقة التى تربط شيشرون بأتيكوس .

وقد أجرى شيشرون الحديث عن الصداقة على لسان « لايليوس » نظرا لأنه أجدر الناس بالحديث عنها فقد كانت الصداقة التى تربط بينه وبين سكبيو مضرب الأمثال .

ويذكر شيشرون أن « موكيوس سكانيولا » و « جايوس فانيوس » حضرا الى منزل صهرهما « لايليوس » ثم بدأت بينهم المناقشة ، «فانيوس» و « سكانيولا » يسألان ، و « لايليوس » يجيب .

ويقول شيشرون لصديقه أتيكوس بأنه سوف يرى فى هذا الحديث صورة لشخصه .

● الفصل الثانى :

فى الفصل الثانى يتحدث شيشرون عن كلمة « الحكيم » Sapiens وكيف أن الناس يعدون لايليوس حكيما ، كما اعتبروا « ماركوس كاتو » حكيما من قبل ولم يكن تلقيبه بالحكيم لمجرد المزايا الشخصية والخلقية التى كان يتمتع بها فحسب ، وانما أيضا لثقافته ، ويرى ان « لايليوس » يختلف عن الحكماء السبعة عند اليونان (١٥) باستثناء سقراط ، اذ أن البعض لا يضعون هؤلاء الحكماء السبعة فى مرتبة فلاسفة الأخلاق

moral Philosophers ويقول « فانيوس » ان الناس يسألونه كما يسألون « سكانيولا » كيف استطاع لايليوس ان يتحمل ألم موت صديقه « سكبيو أفريكانوس » ، ويؤمن سكانيولا على كلام فانيوس ذاكرا ان لايليوس قد تحمل ألم موت صديقه فى شجاعة ورباطه جاش ويبدى لايليوس تواضعه حين يصفه فانيوس بأنه حكيم .

● **الفصل الثالث :**

فى هذا الفصل يستمر لايليوس فى حديثه فيقول انه سيكون كاذبا لو أنه أنكر شعوره بالألم والأسى لموت سكبيو الذى لم يكن له صديق مثله ولن يكون ، وان كان يعتقد أن مبعث أساه وألمه انما هو حرمانه من صداقة سكبيو ، وليس هو حادث الموت فى ذاته ، فان الموت لا يعدو مؤلما بالنسبة لسكبيو الذى عاش حياة مجيدة ، بلغ فيها أقصى ما يمكن أن يبلغه مواطن رومانى بل أقصى ما يمكن ان يصبو اليه انسان سواء فى حياته أو مماته ، وما أهمية أن يطول عمره بضع سنين أخرى ؟! ، فلم يكن فى حياته محتاجا الى اضافة مزيد من السعادة والمجد ولقد جعلته نهايته السريعة لا يحس بألم الموت .

كما ان تمجيد الشعب له واحتفاءه به جعله يبدو وكأنه صاعد الى السماء لا ذاهب الى العالم السفلى .

● **الفصل الرابع :**

وفى هذا الفصل يستمر لايليوس فى حديثه ويقول انه يؤمن بخلود الروح وانه لا يوافق أولئك الفلاسفة المحدثين الذين يذهبون الى أن الروح تفنى بفناء الجسد ، وان كل شىء يتلاشى بالموت . وانه يتفق مع الفلاسفة القدماء سواء أسلافه الرومان الذين كانوا يبجلون الموتى ، أو فلاسفة اليونان الذين عاشوا فى جنوب ايطاليا أو سقراط الذى اشتهر بأنه أكثر الجميع حكمة ، هؤلاء الذين قالوا جميعا بخلود الروح وانه عندما تترك روح الشخص جسده تجد الطريق أمامها مفتوحا للعودة الى السماء ، حيث تعود روح الشخص الطيب والعادل بسرعة .

ولقد كان سكبيو يؤمن أيضا بذلك ، وقد اشترك فى مناقشته مع سكبيو عن خلود الروح التى عرف سكبيو عنها الكثير من سكبيو افريكانوس الأكبر فى رؤيا عرضت له فى نومه .

وقد صعدت روح سكبيو الى السماء فى سرعة ويسر لأنه كان من فضلاء القوم ، ولهذا فهو يخشى أن يكون حزنه على صديقه مبعثه الغيرة وليس مبعثه الصداقة .

اما اذا كان الرأى الثانى القائل بأن الروح تفنى أيضا بفناء الجسم صادقا وان الاحساس ينعدم حقيقة بالموت فانه اذن لا يوجد نفع أو ضرر أو ألم بعد الموت لأنه اذا ما انعدم الاحساس فان الانسان يغدو وكأنه لم يولد ، ورغم ذلك فاننا نفرح لمولده ، وسوف تسر الدولة أيضا طالما هى باقية ٠

ويقول لايليوس انه سعيد بذكرى صداقته لسكبيو الذى سعد بصحبته والذى كان متفقا معه فى آرائه العامة والخاصة وكذلك فى رغباته وميوله ، لذلك لم يكن لقب « الحكيم » الذى أضفاه عليه فانيوس مبعث سرور كبير له ــ خصوصا وهو لا يرى نفسه جديرا بهذا اللقب ــ وانه سيكون أكثر سعادة لو ظلت ذكرى صداقته لسكبيو خالدة ٠

ان أعظم شىء يسره هو أن يحتفظ التاريخ بذكرى تلك الصداقة التى تربطه بسكبيو ، كما احتفظ بذكرى الصداقات الأربع (١٦) ٠

ثم يصدق فانيوس على كلام « لايليوس » وينتهز فرصة كلامه عن الصداقة ويطلب منه أن يحدثهما عنها ، ويشرح لهما طبيعتها ، وحكمتها وآراءه فيها ٠

● الفصل الخامس :

فى الفصل الخامس يبدأ لايليوس حديثه عن الصداقة ، فيقول ان موضوع الصداقة من الموضوعات النبيلة التى يصعب عليه الحديث عنها ، لأن الحديث عنها يحتاج الى فيلسوف ، ولكنه يستطيع أن يطلب منهم أن يضعوا الصداقة فوق أى شىء فى العالم ، فليس هناك ما هو أنسب ولا أحب للانسان منها سواء فى الرخاء أو فى الشدة ٠

وهو يرى أن الصداقة انما تنمو وتتوثق عراها بين الأخيار ــ وهو لا يقصد بالأخيار ذلك المفهوم المثالى البالغ حد الكمال الذى ذهبت اليه الفلسفة الرواقية فهى تهوم فى أفق خيالى فترى انه ليس هناك رجل فاضل ما لم يكن « حكيما » وانه من العسير على البشر أن يصلوا الى معنى الحكمة والخير الأقصى عندهم ٠

ويرى لايليوس انه يجب أن ننظر الى الأشياء الواقعية التى نلمحها من واقع حياتنا لا الى تلك الأشياء الخيالية التى تخلقها مخيلاتنا وأوهامنا وهو لا يؤكد أن المواطنين الرومانيين ــ الذين يعدهم أجداده حكماء ــ كانوا حكماء بالمفهوم الذى يذهب اليه فلاسفة الرواقية ، ذلك المفهوم الذى يصعب ادراكه ٠

ولكنه اذا ما سلك الانسان طريقه فى الحياة بشرف وأمانة وعدل ، دون أطماع أو غطرسة أو استهتار ، مثل أولئك المواطنين الذين امتدحهم

الاجداد ، كان جديرا أن يعد فى الحقيقة من الأخيار فان الذين يسلكون فى حياتهم مثل هذا المسلك انما يسيرون فى أعمالهم ـ قدر استطاعتهم ـ على مقتضى الطبيعة التي هى خـــير مرشد الى الحيـــاة الفاضـــلة « optima dux bene vivendi »

ويرى لايليوس اننا نأتى الى هذه الحياة وبيننا نوع من الترابط ، وانه كلما قويت الصلة بين شخص وآخر ازداد هذا الرباط الذى يجمع بينهما قوة ومتانة ، ولذلك كان مواطنونا أفضـــل لدينا من الأجانب ، والأقارب أعز علينا من الغرباء ، ان الطبيعة نفسها هى التى تخلق الصداقة بين هؤلاء الناس ، ولكن مثل هذه الصداقة لا تقوم على أساس متين .

وانما تفوق الصداقة القرابة لأن الشعور الطيب بين الأقرباء قد يزول وبزواله يزول معنى الصداقة بينما تبقى صلة القرابة ، فى حين أن ذلك الشعور الطيب يظل قويا بين الأصدقاء .

فيمكننا أن نتعرف على قوة الصداقة من الحقيقة التالية : وهى انه من بين تلك الروابط العديدة التى لا حصر لها والتى أوجدتها الطبيعة بين البشر ، من بين تلك الروابط العديدة رابطة واحدة وثيقة ومتينة ضيقت الطبيعة من حدودها فجعلتها شعورا متبادلا بين اثنين أو ثلاثة على الأكثر وتلك هى رابطة الصداقة .

● **الفصل السادس :** .

يتحدث لايليوس فى هذا الفصل عن مفهوم الصداقة ، ويرى انها توافق فى جميع الأمور الدنيوية والدينية ممتزج بالمحبة والشعور الطيب .

وباستثناء الحكمة ، فان الآلهة لم تمنح الخالدين من الناس شيئا أروع من الصداقة فى رأيه .

وهناك من يفضل عليها الثروة أو الصحة أو النفوذ أو الجاه أو اللذة ولكن هذه الأشياء ـ فى مجملها ـ سريعة الزوال والفناء ، اذ تتحكم فيها ظروف الدهر وتقلباته .

أما أولئك الذين يجدون فى الفضيلة خيرهم الاسمى فانهم بلا شك يختارون الجانب الاسمى والأكثر نبـلا ، اذ أن الفضيلة تخلق الصداقة وتعمل على رعايتها والحفاظ عليها ، ولا يمكن أن توجد صداقة على الاطلاق بدون فضيلة ، وهو يفسر الفضيلة بما يمليه من واقع الحياة ، والدلالة اللغوية العادية من المبادىء ، ولا يدخل فى مفهومه للفضيلة أولئك الرجال الفضلاء الخياليين الذين لا يوجدون فى عالمنا ، والذين يتحدث عنهم بعض الفلاسفة .

وان الصداقة لتؤدى كثيرا من الخدمات فى هذه الحياة ٠

وكيف يمكن ان توجد حياة جديرة بأن نحياها ـ كما يقول اينيوس (١٧) ـ اذا لم تشتمل على شعور طيب من صديق ، ما أروع ان يكون لك صديق تبثه ذات نفسك وكأنك تتحدث الى نصفك الثانى ! ٠

ان الانسان يحتاج للصداقة سواء فى رخائه أو شدته ، فهو محتاج الى صديق يشاركه سعادته وسروره كما هو محتاج الى صديق يقاسمه متاعبه وآلامه ٠

ان كلا من الثروة والجاه والصحة واللذة ، لها مناسبتها الخاصة وميزتها الخاصة فميزة الثروة أن تنفق منها ، وميزة الجاه أن تغدو مبجلا بين الناس وميزة اللذة أن ترفه عن نفسك وميزة الصحة أن تصونك من الأمراض ، وتمكنك من أداء أعمالك الجسمانية ـ وكل ميزة من هذه الميزات وقتية وجزئية ، لها مناسبتها الخاصة التى تستغل فيها استغلالا وقتيا فى حين أن الصداقة تجمع بين كل هذه المزايا ٠

● **الفصل السابع :**

يستمر لايليوس فى حديثه عن الصداقة فيقول انها تضيء الطريق أمام الأمل فى المستقبل ، وترفع من الروح المعنوية ، واذا ما زالت المحبة من العالم تفككت الروابط بين أفراد الأسرة ، وأعضاء الدولة ، فالصداقة نوع من الروابط التى تجمع بين أفراد الأسرة ، وأعضاء الدولة ، بل هى نوع من الروابط فى العالم الطبيعى ٠

ان الفيلسوف « أمبيذوكليس » يعتقد أن العالم محكوم بقوتين رئيسيتين وهما المحبة والكراهية ، والمحبة فى نظره هى القوة الحافظة فى الطبيعة ٠

ما أجمل أن يشارك صديق صديقه فى مواجهة الأخطار ! ٠

● **الفصل الثامن :**

يناقش لايليوس فى هذا الفصل مبعث الصداقة وأصلها ، وهل هى ناشئة عن احتياج الشخص لعون الآخرين ، أو هى ميل طبيعى فى الانسان ؟

وهو ينتهى الى انها ميل طبيعى ، ان كلمة الصداقة « amicitia » مشتقة من كلمـة الحب وانهـا القوة الرئيسية فى جعل المحبة « amor » متبادلة

وحقيقة أنه قد يترتب عليها نوع من النفع ، ولكن المنافع المترتبة على الصداقة مختلفة تماما عن تلك المنافع المؤقتة التى يسديها شخص ما بدافع المجاملة وتحت ستار الصداقة ، فالصديق الحق يسدى المعروف لصديقه بدافع الاخلاص لصداقته والشعور الودى الطيب نحوه ٠

واننا قد نحب شخصا ما اذا ما وجدناه على خلق نبيل ، لأننا نرى فى هذا الشخص مثالا بارزا للشرف والفضيلة ، فليس أحب الينا من الفضيلة ، والفضيلة تجذبنا بقوة الى المحبة وقد تخلق روحا من المودة بيننا وبين الأشخاص الذين لم نتعرف اليهم قط ، بسبب ما كانوا عليه من فضيلة واستقامة ٠ وللصداقة أصلها فى الطبيعة ٠

● الفصل التاسع :

ثم يتابع فى الفصل التاسع حديثه عن الصداقة الحقة الأصلية ، والصداقة الزائفة المؤقتة التى تزول بزوال المنفعة المترتبة عليها ٠

وكلما كان الشخص متسلحا بالفضيلة والحكمة بحيث يكبح جماح نفسه ويعف عن الدنايا أمكنه ان يكتسب الصداقة ، ويجنى ثمارها ٠

والصداقة الحقة هى التى لا تنبنى على توقع النفع ، فاننـــا حين نسدى لأصدقائنا معروفا ، فلا ينبغى أن نتوقع منهم رده الينـــا ، كما لو كان دينا من الديون ٠ اننا لا ننشد الصداقة انتظارا لما يترتب عليها من منافع ، اذ أن كل نفعها وثمارها تكمن فى المحبة ذاتها ٠

واذا ما كانت الصداقة مبنية على المنفعة فانها تتلاشى بتلاشى هذه المنفعة ٠ ولما كانت الطبيعة أبدية لا تتغير ، فان الصداقة الحقة كذلك خالدة وأبدية ٠

● الفصل العاشر :

فى هذا الفصل يشرح لايليوس العوامل التى تؤدى الى فصم عرى الصداقة ومجملها :

١ ــ اختلاف المنافع والآراء السياسية بين الأصدقاء وتناقضها ٠

٢ ــ ما يحدثه مرور الزمن من تقلبات وتغييرات مثل المحن ومشكلات الحياة ومسئولياتها ٠

٣ ـ التنافس على الجاه والشهرة والمناصب ٠

٤ ـ الطموح الى المنافع غير المشروعة التى تأباها الأخلاق والعدالة ، والتى تؤجج نيران العداوة فى الصدور اذا ما رفض الصديق أداءها ٠

● **الفصل الحادى عشر :**

يعرض هذا الفصل للمطالب المشروعة التى لا ضير فى طلبها من الصديق ، والمطالب غير المشروعة التى لا ينبغى أن تطلب من الصديق ٠

فلا بأس فى أن يطلب الصديق من صديقه كل ما هو فاضل ونبيل ، ولكن ليس له الحق فى أن يطلب منه ما يحيد عن سبيل الفضيلة ، أو كان مخزيا ومعيبا ، اذ لا يمكن الصداقة أن تدوم اذا ما تنكب الشخص طريق الصواب ، والشخص النبيل الخلق يربأ بنفسه عن أن يضعها موضع الخزى نزولا على نزوة صديقه ودفع الصديق الى أداء عمل ضار يساوى تماما ما لو فعله بنفسه ٠

● **الفصل الثانى عشر :**

فليكن اذن من مبادىء الصداقة ألا تطلب الى أصدقائنا أداء أعمال مخزية ، أو أن نقوم نحن بهذه الأعمال اذا ما طلبوا منا القيام بها ٠

ثم يورد أمثلة من التاريخ الرومانى واليونانى ، ويرى انه من العار أن يلجأ الشخص الى تبرير أخطائه ، ليس فقط الأخطاء العامة ، وانما أيضا الأخطاء التى يرتكبها فى سبيل الصداقة ، كما لو حاول تبرير جريمة الخيانة ضد الدولة بأنها كانت من أجل صديقه ، وينبغى لنا أن نرشد الصديق الطيب الصالح اذا ما أوقعته الصدف فى صداقة من هذا النوع ، نرشده الى هجران صديقه اذا ما ارتكب جناية الخيانة ، اذ انه ينبغى معاقبة الخونة كما ينبغى معاقبة أعوانهم بدرجة لا تقل قسوة عن عقوبة مدبرى الخيانة أنفسهم ٠

● **الفصل الثالث عشر :**

فليكن اذن من المبادىء الأساسية للصداقة ، ألا نطلب من أصدقائنا الا كل ما هو شريف ونبيل ، وألا نفعل من أجلهم الا كل ما هو شريف ونبيل ، وألا ننتظر حتى يطلب منا ذلك وان نكون دائمـــا مستعدين لمساعدتهم دون تردد أو تقاعس ، وان نقدم لهم نصحنا دون أن يطلبوا منا ذلك ، وأن نقيم لنصيحتهم المخلصة وزنها ٠

ولا ينبغي ان ننأى بانفسنا عن الصداقه المتحمسه المتفانيه ، لما ينادى بذلك بعض فلاسفة اليونان ـ حتى لا يرهق الشخص نفسه فى سبيل الآخـرين اذ أن لدى كل شخص ما يشغله من مشـــاكل وأموره الخاصة والاهتمام بشئون الآخرين وقضاياهم سوف يحمله عبئا ثقيلا وينبغى للانسان أن ينأى بنفسه عما يرهقها ويقلقها ليحيا حياة سعيدة ـ ان الصداقة ليست كمـا يرى البعض لمجـرد نشدان الحماية والعون ، وليست ناءمة عن مجرد العاطفة والرغبة الصادقة ، ولو كان الأمر كذلك لبحثت المرأة الضعيفة عن الصداقة أكثر مما يبحث عنها الرجال لأنها أكثر احتياجا منهم للحماية ، وكذلك لبحث عنها الفقراء أكثر من الأغنياء والرجال التعساء أكثر من السعداء ٠

ولا ينبغى لنا أن ننأى عن الأعمال النبيلة ضنا بانفسنا على العناء والارهاق ، واذا ما وضعنا فى اعتبارنا ما يكلفه العمل النبيل من تعب وعناء ، فلا ينبغى أن ننسى الجانب الآخر وهو الفضيلة فاننا اذا ما هربنا من المسئولية فاننا فى الوقت ذاته نهرب من الفضيلة التى تحتقر الصفات التى تضادها وتعارضـــها ، فالشفقة تمقت الأذى وضبط النفس يمقت التهور ، والشجاعة تمقت الجبن ٠

اننا لا ينبغى أن ننأى عن الصداقة لأنها تكلفنا بعض الجهد والعناء فلولا عواطفنا لما كان هناك فرق بيننا وبين الأحجار والأشـــجار ، وان الفضيلة تكمن فى العلاقات والروابط المختلفة خصوصا رابطة الصداقة ٠ وان قلب الرجل الفاضل يسر برخاء صديقه ويأسى لتعاسته وشقائه ٠

● الفصل الرابع عشر :

يعود فى هذا الفصل فيتحدث عن كنه الصداقة وأصلها ، فيرى انها تنجم عن ميل طبيعى متبادل بين الصديقين ، وانه لا شىء أروع من الحب المتبادل ٠

● الفصل الخامس عشر :

فى هذا الفصل يقول لايليوس انه لا ينبغى لنا أن نلقى بالا الى أولئك الذين أفسدهم الترف حين يتكلمون عن الصداقة التى لا يعرفون عنها أى شىء سواء من الناحية النظرية أو العملية ٠

من هو بحق السماء الذى يفضل أن يعيش غارقا فى النعيم محاطا بكل أنواع الترف على أن يكون محبا أو محبوبا ، ان مثل هذه الحياة

الخالية من الحب هى حياة الطغاة التى تخلو من الولاء والمحبة والثقة والصلات الوثيقة ، حيث يظللها دائما الشك والتوجس وعدم الاطمئنان وحيث لا يكون هناك محل للصداقة ٠

فمن ذا الذى يستطيع أن يحب رجلا يشعر بالخوف منه ، أو رجلا يترقب منه السوء ، والدليل على ذلك هو أن أمثال هؤلاء الطغاة يهجرهم أصدقاؤهم بعد أن تتهاوى عروشهم ٠

وكذلك حال الرجل الغنى اذ ليس له أصدقاء حقيقيون ، ان الثروة ليست عمياء فحسب ، بل انها تصيب أيضا بالعمى أولئك الذين يبتلون بها ٠

اننا نلحظ ان الجاه والنفود والسلطه والغنى تغير نفوس الذين كانت تتميز أخلاقهم بالسماحة فيحتقرون أصدقاءهم القدامى ، وينشدون أصدقاء جددا ، انهم قد يستطيعون بنفوذهم وسلطتهم وثروتهم أن يشتروا أى شىء ماعدا الصداقة التى يمكن أن تسمى عدة الحياة ٠

ان الحياة المجردة عن الصداقة لا يمكن أن تعد حياة سعيدة ٠

● الفصل السادس عشر :

فى هذا الفصل يتحدث عن حدود الصداقة ، فيعرض ثلاثة آراء فى هذا المجال :

الأول : أن نشعر نحو أصدقائنا بنفس الشعور الذى نشعر به نحو أنفسنا

الثانى : ان عطفنا على أصدقائنا ينبغى ان يتساوى وعطفهم علينا ٠

الثالث : أن يقدر الشخص صديقه بمقدار ما يقدر نفسه ٠

ولا يوافق شيشرون على واحد من هذه الآراء الثلاثة ٠

فبالنسبة للرأى الأول يرى أن خطأه نابع من اننا قد نفعل أشياء لصالح أصدقائنا لا نفعلها أبدا لصالحنا الخاص ، فاننا من أجل الصديق قد نتوجه بالطلب أو الرجاء الى شخص ما ، وقد نخاطبه بحدة أو نهاجمه ، ومثل هذه الأشياء قد لا تكون مشروعة ولا مناسبة فيما يتعلق بنا من أمور ، أما بالنسبة لما يتعلق بأصدقائنا فهى مناسبة ومشروعة جدا وفى كثير من الأحيان يحرم الرجال النبلاء أنفسهم من المنفعة ويؤثرون بها أصدقاءهم أو يسمحون لأصدقائهم أن يتمتعوا بهذه المنافع أكثر مما يتمتعون هم أنفسهم بها ٠

المتبادل فى الأعمال والرغبات المخلصة بين الأصدقاء فان هذا الرأى ينحدر بالصداقة الى لون من ألوان الحساب ، ويوجب تعادل كفتى الميزان بحيث لا يرجح الشيء المبذول مقابله ولا ينقص عنه ، ان الصداقة الحقة أكثر غنى وتسامحا من هذا ، فلا ينبغى ان نأسف لأن الجانب الأرجح كان من نصيب الصديق ولا ينبغى أن تتوقع انك سوف تحصل على أكثر مما أعطيت .

أما الرأى الثالث القائل بتقييم الشخص لصديقه بمقدار تقييمه لنفسه فهو أسوأ الآراء الثلاثة اذ كثيرا ما يكون أحد الصديقين خائر العزيمة ، ضعيف الطموح الى تحسين وضعه فمثل هذا الصديق لا ينبغى لصديقه أن يقيمه كما يقيم نفسه ، بل يجب عليه أن يبذل ما فى وسعه كى يقوى من روحه وعزيمته وأن ينمى آماله وأفكاره ويقويها .

● الفصل السابع عشر :

فى هذا الفصل يتحدث عن الحدود الحقيقية للصداقة ، فيرى انه من الواجب تقديم العون للصديق اذا ما تعرضت حياته أو سمعته للخطر ، ولو أدى الأمر الى أن يتنكب الانسان الطريق السوى قليلا ، ما دامت النتيجة فى النهاية غير مشينة .

ولما كانت الصداقة هى أهم ما يمتلك الانسان ، لذلك ينبغى عليه أن يعنى بها أكثر مما يعنى بالأشياء الأخرى التى تدخل فى ملكيته ، هناك من يستطيع أن يخبرك عن عدد ممتلكاته من الماعز والأغنام ، ولكن ليس فى وسعه ان يخبرك عن عدد أصدقائه ، انه يهتم بالأولى ويهمل اختيار الأصدقاء ، وليس لديه من الدلائل والعلامات ما يساعده على معرفة الأصلح للصداقة .

ويجب علينا أن نختار أصدقاءنا من بين أولئك الأشخاص الذين يتصفون بقوة العزيمة وبعدم التردد والذبذبة ويتحلون بالخلق السوى ، أولئك الذين يندر وجودهم وانه يصعب على المرء فى الحقيقة أن يحكم على الصديق ما لم يجربه ، لذلك ينبغى ان نجرب الصداقة نفسها لنستمد منها الحكم على الأصدقاء ، وان الصديق لا يعرف الا فى وقت الشدة .

● الفصل الثامن عشر :

ابتداء من هذا الفصل ، وحتى الفصل العشرين يتحدث لايليوس عن الصفات التى ينبغى توافرها فى الصديق . وأول هذه الصفات أن يكون

الصديق مخلصا اذ لا تستقر الصداقة بدون الاخلاص وثانى هذه الصفات سلامة الطوية ، فينبغى ان نراعى لدى اختيار صديق ان تكون شخصيته واضحة غير ملتوية ، وأن يكون صريحا فى التعبير عن شعوره ، وأن يحس نحونا بمثل احساسنا نحوه ، فاذا ما كانت شخصية الصديق ملتوية أو لم يكن يتأثر بنفس الظروف التى نتأثر بها ولا يشاركنا مشاعرنا فانه لا يكون مخلصا ولا ثابتا على صداقته

كما يجب ألا يفرح الصديق للاتهامات التى توجه الى صديقه ، أو أن يصدقها اذا وصم بها شخص آخر صديقه ، بل عليه أن يرفضها وينكرها ، وألا يخامره حتى مجرد الشك فى كذب هذه الاتهامات • كما ينبغى أن يكون هناك نوع من الحديث الرقيق، العذب ، والسلوك المهذب النبيل بين الأصدقاء تلك المظاهر التى تمنح الصداقة دفئا من نوع خاص ، أما الجدية فى كل الأحوال فانها تؤدى الى نوع من الثقل على النفس ، فيجب أن تكون الصداقة منطلقة غير مقيدة وأكثر طلاقة وجاذبية من أى شىء لطيف آخر •

● الفصل التاسع عشر :

فى هذا الفصل يتحدث عن الصداقة القديمة • وكيف أن الشخص يفضل الصديق القديم على أن ينشىء صداقة جديدة ، وكيف يجب على الصديق اذا ما ارتفع عن طريق الجاه أو الثروة أو العبقرية ألا يتعالى على أصدقائه القدامى ، بل يجب أن يشركهم فيما وصل اليه من رفعة وأن يحاول أن يعلى من شأنهم •

● الفصل العشرون :

يواصل حديثه فى هذا الفصل عن الصفات التى ينبغى توافرها فى الصداقة ، فيرى انه ينبغى على الأصدقاء الذين يتفوقون على أقرانهم أن يحرصوا دائما على أن يشعروا أقرانهم بأنهم على قدم المساواة ، وعلى ذلك ينبغى لأولئك الأقران ألا يحزنهم تفوق أصدقائهم عليهم سواء فى المواهب أو فى الثروة أو فى الجاه والمناصب ، ان أولئك الذين يكونون فى مستوى أقل يشكون دائما من أن أصدقاءهم لا يهتمون بمصالحهم بالقدر الكافى ، أو يلومون أولئك الأصدقاء خصوصا عندما يتحدثون عما قاموا به من اجل أولئك الأصدقاء المتفوقين ، وليس مستحسنا من الصديق أن يمن على صديقه بما أسدى اليه من أياد ، ومن واجب الصديق الذى أسدى اليه المعروف أن يتذكر ذلك من نفسه •

وينبغي للأصدقاء المتفوقين أن ينزلوا قليلا من مستواهم ليرفعوا من مستوى أصدقائهم الذين هم أقل شأنا ، والصداقات تتكون فى مرحلة الرجولة وليست قبل ذلك .

وعلى الصديق ان يحذر الاستسلام لعواطفه اذا ما تعارضت هذه العواطف مع مصلحة صديقه وتسببت فى تعطيلها ، كما اذا لم يحتمن فراق صديقه اذا ما رغب هذا الصديق فى الوحيل لمصلحة تخصه ، ان اعاقته عن مثل هذا السفر دليل على الضعف ، يجب أن تقدر ما يطلبه منك الصديق وأن تقدر فى الوقت نفسه ما تعطيه له .

● الفصل الحادى والعشرون :

وفيه يتحدث عن العوامل المؤدية الى فصم عرى الصداقة ، وأهم هذه العوامل أن تبدو من الشخص نقيصة يضار منها صديقه ، وفى هذه الحالة يقاطع الصديق صديقه بالتدريج ، الا اذا كان الخطأ فادحا وغير محتمل ، ففى هذه الحالة تفصم عرى الصداقة فى الحال ، وكذلك اذا ما تبدلت طبائع الشخص وميوله ـ كما يحدث أحيانا ـ أو اذا ما حدث خلاف فى وجهات النظر السياسية فان ذلك يؤدى الى فصم عرى الصداقة ، ويجب فى هذه الحالة ألا يصل الأمر الى حد العداوة البغيضة بين الصديقين ، اذ ان أبغض شىء هو ان تدخل فى حرب ضد شخص كان يوما ما صديقك ، بل يجب على الانسان أن يحتفظ بحلمه وهدوئه وأن يتحكم فى زمام أعصابه ولا يترك الزمام للغضب يشتط به ، وألا تتحول الصداقة الى عداوة وبغضاء ويجب أن يتذكر الشخص المضار أنهما كانا يوما ما صديقين ، وألا يعالج الشر بالشر ، انه بذلك يجعل الشخص المسىء جديرا باللوم والتقريع .

وتفاديا لكل هذه العوامل المؤدية الى فصم عرى الصداقة ينبغى أن « لا نسرع فى اتخاذ الصديق » وتأكد قبل كل شىء ـ انه جدير بالصداقة .

● الفصل الثانى والعشرون :

فى هذا الفصل يعرض بعض الملاحظات العامة حول الصداقة ، فيرى ان الناس ينشدون أحيانا أصدقاء يتمتعون بمزايا لا تتوفر فيهم هم أنفسهم ، فى حين أن الواجب ان يتحلى الشخص أولا بالأخلاق الفاضلة النبيلة ، ثم بعد ذلك يبحث عن قرين تنعكس شخصيته هو فى طباعه وأخلاقه . ان هذا يجعل أساس الصداقة متينا ، كما يؤدى الى أن يحترم كل منهما الآخر ، واذا فقدت الصداقة الاحترام المتبادل بين الصديقين فانها تفقد أعظم شىء يزينها .

وان من الخطأ ان يعتقد الانسان أن فى الصداقة متسعا للانغماس فى جميع أنواع السلوك المشين ، فقد منحنا الله الصداقة لتكون فى خدمة الفضيلة ، لا أن تكون من أعـوان الرذيلة ، واذا ما امتزجت الفضيلة بالصداقة فانه يتكون بينهما نوع من الارتباط القوى يحقق للانسان كل ما يصبو اليه من الشرف والمجد والطمأنينة والسرور ، هذه الأشياء التى بدونها يغدو الانسان تعسا ٠

لذلك ينبغى ألا ننساق الى الصداقة قبل أن نختبر أخلاق الصديق ونحكم عليها وألا نؤجل ذلك الى ما بعد الصداقة ، فكثيرا ما يكتشف أولئك الذين يعتقدون أن لهم أصـــدقاء حقيقيين انهم مخدوعون عندما تلم بهم كارثة تمتحن فيها صداقة أصدقائهم ٠

● الفصل الثالث والعشرون :

فى هذا الفصل يقيم الصداقة ، فيقول ان ما من أحد يشك فى مزايا الصداقة ، باجمـــاع الآراء ، فقد يأبه بعض الناس بشأن المال ، أو يقنعون بالقليل منه ، وقد لا يأبهون بشأن الجاه والمناصب التى نكون عادة مجالا للتطاحن وقد لا يأبهون بغير ذلك من الأشياء الأخرى التى يمكن أن تكون مثارا لاعجاب بعض الناس وطموحهم ، ماعدا الصداقة فانهـا تشغل ذهن جميع الناس ، يفكر فيها السياسيون والعلماء والأدباء ورجال الأعمال فى أوقات فراغهم ، وحتى أولئك الذين يكرســون كل وقتهم للتسلية ، ان جميع هؤلاء يعتقدون ان الحياة الحقة لا تساوى شيئا بدون صداقة ٠ ان الصداقة تضم بشكل أو بآخر حياة كل شخص ، ولا تسمح لأية طريقة من طرائق الحياة ان تشذ عنها ، لا يمكن لأى شخص أن يعيش بدون صداقة ٠

ان الطبيعة البشرية لا تميل الى الوحدة ولا تجد فيهـا كفايتهـا وسرورها ٠

● الفصل الرابع والعشرون :

فى هذا الفصل يرسم الحدود التى ينبغى أن تلتزمها المعاملة بين الأصدقاء ٠ فيرى ان الصداقة قد تتعرض أحيانا لمواقف تكون فيها مثارا للشك ، أو مبعثا للغضب ، وينبغى للرجل العاقل الحكيم أن يتجنب مثل هذه المواقف ، أو يهون من شأنها أحيانا ، أو يتحملها ما استطاع ذلك ، ان من واجب الصديق على صديقه أن يخلص له النصح ، وأحيانا يتوجه اليه باللوم على بعض الأمور وهذا دليل عمق الصداقة والاخلاص ،

وعلى الصديق الآخر أن يتقبل مثل هذه الأشياء بروح طيبة وألا يؤولها تأويلا سيئا ·

ان التملق والنفاق قد يخلق الصداقة ، كما أن الصدق قد يخلق العداوة ، فالصدق الذى يثير غضب الصديق قد يعرض الصداقة للخطر ، ولكن التملق ـ مهما كان شأنه ـ أكثر سوءا من هذا الصدق ، فان مدح أخطاء الصديق وتبريرها قد يؤدى به الى التمادى فى هذه الأخطاء التى تقوده الى التهلكة ·

وعلى كل فينبغى للصديق أن يكون حذرا ، وأن يتجنب العنف والقسوة فى نصيحته وأن يخفف لومه من الكلمات المؤذية القاسية ، وحتى لو تملق صديقه فينبغى أن يكون حصيفا فى تملقه بحيث يتفق هذا التملق والأخلاق الدمثة المهذبة ·

ان الحياة مع صديق تختلف عن الحياة مع طاغية ·

وينبغى للصديق أن يصغى لصوت الحقيقة الصادر عن صديق مخلص ·

ويجب على الصديق أن يبغض الرذيلة وينفر منها ، وأن يطرب للنصيحة ويهش لها ·

● الفصل الخامس والعشرون :

فى هذا الفصل يتابع حديثه عن التملق ، فيرى انه من الصفات الأساسية فى الصداقة أن تبذل النصح وتتقبله دون من أو استعلاء ، فعلى الصديق أن يمنح صديقه نصحه بروح كريمة دون عنف أو قسوة ، وأن يتقبل منه النصح برضا ودون اشمئزاز أو نفور ·

وانه لا شىء أسوأ فى علاقات الصداقة من المداهنة والكلام المنمق المعسول والتملق الكاذب ان هذه الأشياء تبعدنا عن الحقيقة والاخلاص فى القول التى لا معنى للصداقة بدونهما ·

ويجب أن ننأى بهذه الرابطة المقدسة عن مثل هذه الصغائر التى هى من خصال الرجل المخادع المذبذب ، وعلينا أن نميز الصديق المتملق المداهن من الصديق الحقيقى المخلص ، كتمييزنا الشىء المطلى الزائف من الشىء الحقيقى الخالص ·

● الفصل السادس والعشرون :

فى هذا الفصل أيضا يواصل حديثه عن مساوىء التملق ، فيرى أن مثل هذا التملق الضار انما يسىء الى الشخص الذى يتقبله ويسر به ،

فالشخص الذى ينتشى بكلام المتملقين انما يتملق فى الحقيقة نفسه ويخدعها ، وان الشخص الذى يدعى الفضيلة والنبل يسره أن يتملق الناس ، وان الصداقة تموت عندما يعزف الصديق عن الاصغاء الى الحقيقة من فم صديقه · وقد لا يجد الصديق أمامه مفرا من أن يلجأ الى طريق النفاق والمداهنة ، والمتملق يبالغ دائما فى ذكر الأشياء التى ترضى غرور الآخر وتسعده ·

وبالرغم من أن التملق له أثره على أولئك المعجبين بأنفسهم الا أنه ينبغى لأقوياء الشخصية أن يحذروا ذلك التملق ، خاصة ذلك التملق الذكى الملفوف ، فان التملق المكشوف يمكن أن ينفضح بسهولة ولا ينخدع به الا الحمقى والأغبياء ، ولكن ينبغى أن نحذر ذلك التملق الخفى الحاذق ·

● الفصل السابع والعشرون :

فى هذا الفصل يختتم لايليوس حديثه ، فيبلور آراءه السابقة عن الصداقة ويلخصها فيقول :

١ ــ ان الفضيلة هى التى تخلق الصداقة وتهبها القوة وصفة الاستمرار ·

٢ ــ انها ميل شخص لشخص آخر دون اجبار ، أو طمع فى نفع ، ولو أن الصداقة قد تستبيح المنفعة ولكن دون سعى اليها أو انتظار لها ·

٣ ــ التساوى فى العمر قد يساعد على الصداقة ، ولكن قد يصادق الانسان من هم أصغر منه سنا ·

٤ ــ يجب أن ننشد أصدقاء نتبادل معهم المحبة ، والا فقدنا جميع مسرات الحياة ·

٥ ــ لا شىء ــ باستثناء الفضيلة ــ يمكن أن يعادل الصداقة ·

٦ ــ ان الصداقة أجمل نعمة منحتها السماء للأرض ·

-
-
-

كليلة ودمنة

لابن المقفع

٧٥٠ م

● لقد نال كتاب « كليلة ودمنة » من الشهرة والذيوع فى مشارق الأرض ومغاربها ما لم ينله كتاب غيره ، ويعد المعلم الأول لكل ذى حكمة وبيان · ذلك ان للكتاب قيمة كبيرة فى عالم الفكر والتاريخ والأدب فهو كنز من كنوز الحكمة البشرية ، وفيه فلسفة اجتماعية أخلاقية واسعة النطاق ، وفيه كذلك دروس تشريعية ذات قيمة ، وفيه نظرات ما ورائية جليلة وان موجزة ، وفيه على كل حال علم وعمل ، وعمل موجه الى العمل · ومن ثم يتضح لنا أن فلسفة الكتاب هى فلسفة الحياة العملية الشريفة ، هى فلسفه موضوعية مثالية ·

وفلسفة كليلة ودمنة موسـومة بسمة المذهب العقلى الذى يجعل العقل مديرا وموجها لكل حركة · وقد كانت هذه الفلسفة مزيجا من أفلاطونية وأرسطوطالية وهندية شرقية ·

ونجد فى هذا الكتاب أن « ابن المقفع » قد وضع فيه نهجا قويما اذا اتبعه الحاكم استطاع أن يسير بدفة بلاده نحو الأمام ، ويكفل لرعيته الخير والرخاء والسعادة والهناء : فبين له المواضع التى يشتد فيها اذا احتاج الأمر الى الشدة ، ووضح له المواقف التى يلجأ فيها الى اللين اذا احتاج الأمر الى اللين ، كما طالبه بأن يكون حليما لا يستأثر به الغضب ، ولا تدركه العجلة ، فلا يتنبه الى عواقب الأمور ، لأن الغضب يغشى العقل بغشاوة كثيفة لا يستطيع معها الانسان أن يتبين حقائق الأمور واضحة جلية ·· فاذا تحلى الحاكم بهذه الصفات والأخلاق ، تجنب الفوضى أن تدب فى بلاده · وطالب الملوك أن يكونوا أصـحاب عهد ووفاء : فاذا عاهدوا وفوا بعهدهم ، واذا قالوا صدقوا فى قولهم ·

وبعد فالكتاب الذى بين أيدينا ـ بتعليمه الحكمة والأخلاق ، وحسن التدبير ، والسياسة فى قالب أقاصيص قصيرة خرافية جرت على ألسنة الحيوان والطير ، ليوافق رغبات الناس ـ يعد أول الكتب المطولة التى ظهرت من هذا النوع فى اللغة العربية ، بل فى اللغات الأوربية ·

ابن المقفع في تاريخ الفكر العربي

في كل دور من أدوار حياة الانسان طائفة من المفكرين ، يعجب بهم ، ويحذو حذوهم ، حتى اذا ما اجتاز ذلك الدور ، تضاءلت قيمهم أمامه ، وأخذ يضحك من نفسه لأنه كان يوما ما معجبا بهم يردد آراءهم و ينشد أشعارهم . ولكن هناك قلة من المفكرين يعجب بهم الانسان في مختلف أدوار حياته ، وكلما تقدمت به السن وازداد نضجه العقلي ازداد اعجابه وتضاعف . ومن هؤلاء الأفذاذ القلائل عبد الله بن المقفع (١٠٦ هـ ١٤٥ هـ) .

ظهر ابن المقفع في عصر يتطلع الى كل جديد ، وينزع الى التخير والى تلقف الثقافات الجديدة . فظهر على عصره بقوة ثقافته واطلاعه على الثقافات الأخرى وهكذا كان قوة سيطرت على مجتمعه وكان لها أصداء وأصداء عبر الدهور والأزمان .

وان من تتبع الحركة التي قام بها الرجل وجد لها أثرا ضخما في الفكر الأدبي والفلسفي والسياسي والتشريعي والقضائي عند العرب .

أما في الفكر الأدبي فكان لما نقله ابن المقفع من آراء ومذاهب أثر واسع في تفكير الأدباء والشعراء وفي توجيه التأليف عند العرب . وقد عنى الشعراء عناية كبيرة بكتب ابن المقفع فنظموا بعضها كما فعل أبان اللاحقي وغيره بكليلة ودمنة . واغترفوا من حكمتها وآرائها ما ظهر بوضوح في شعر كلثوم بن عمرو بن أيوب المعروف بالعتابي ، وفي شعر المتنبي وأبي العلاء وغيرهم ، وقد انبثت آراؤه في العقل والمروءة والجهل والرأي والمال في الأدب العباسي كله تقريبا . وعرف الكتاب من ابن المقفع طريقة الترجمة الغنية ، وضرورة الأخذ بثقافات مختلفة وتوسيع نطاق المعارف والوقوف على ما للغير من علوم وآداب ، واستنارو بابن المقفع في ما هو من طريقة التحليل والجدل والكتابة الفنية الراقية ، وراحوا يقتفون آثاره في ما هو من الجمع لأقوال الحكماء والعلماء وغيرهم ، حتى ان نفرا من العلماء من مثل ابن قتيبة في « عيون الأخبار » . وابن عبد ربه في « العقد الفريد » ، والطرطوشي في « سراج الملوك » ، وابن حزم في « كلمات في الأخلاق » ، وغيرهم ساروا على خطى ابن المقفع . ثم لم يقفوا عند هذا الحد بل أخذوا منذ عهد ابن المقفع تقريبا يحذون حذوه في تأليف ما يماثل كليلة ودمنة ، فوضع سهل بن هارون « ثعلة وعفرة » ،

وابن الهبارية « الصادح والباغم » ، وابن عربشاه « فاكهة الندماء ومناظرة الظرفاء » ، وأبو العلاء المعري « القائف » . وفي اخوان الصفاء رسالة في المناظرة بين الحيوان والانسان فيها ألوان من كليلة ودمنة ، هي الرسالة السابعة عشرة من الجسمانيات الطبيعيات . زد على ذلك أن ابن المقفع فتح باب القصص على السنة الحيوانات وفصله تفصيلا لم يكن معهودا لدى العرب .

وأما في الفكر الفلسفي فقد ظهر أثر ابن المقفع في ما كتبه الفارابي وابن سينا وغيرهما في الفلسفة المدنية ، فأقوالهما في السياسة والولاة والأصدقاء وما الى ذلك تذكر بأقوال كليلة ودمنة . ولقد استعار اخوان الصفاء اسمهم من باب الحمامة المطوقة ، كما انهم اقتبسوا طائفة من الأفكار المبسوطة في كتب ابن المقفع وقد جاء في الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية شيء كثير من آراء ابن المقفع في الصداقة .

وأما في الفكر الاجتماعي فقد دعا ابن المقفع الى الاصلاح في البلاط وفي القضاء وفي الخراج وفي كل ما يتعلق بالراعي والرعية ، فنرى الخلفاء بعد المنصور يعنون باختيار صحابتهم ، فتصبح البطانة بعد قليل — ولا سيما في عهدي الرشيد والمأمون — معروفة بالعلم وحسن الرأي ، ومؤلفة في كثير من عناصرها على ما كان ابن المقفع يرمي اليه .

دعا ابن المقفع الى اصلاح القضاء فاذا المحاولات تبذل بعده لايجاد قانون يسير عليه القضاة .

ودعا ابن المقفع الى الاصلاح في أمر الخراج ، فاذا الخلفاء يسمعون صوته ، واذا الرشيد يدعو أبا يوسف الفقيه لوضع كتاب في الخراج .

وهكذا كان لابن المقفع فضل جم على العقل العربي وأثر بليغ في عالم الفكر .

نشأة ابن المقفع وعصره

لم تبلغنا أخبار ابن المقفع الا مضطربة ، مقطعة الأوصال ، وجيزة الى حد يصعب معه تتبع الرجل فى مختلف مراحل حياته ، وجل ما عرف عنه ان حياته مرحلتان : مرحلة أموية دامت نحوا من خمس وعشرين سنة ، ومرحلة عباسية دامت نحوا من عشر سنوات ، والمرحلة العباسية هى مرحلة الانتاج الفكرى فيما أن المرحلة الأموية هى مرحلة التحصيل والتأمل والمراقبة ٠

ولد روزبه بن دازوبه نحو سنة ٧٢٤ م ـ ١٠٦ هـ فى قرية بفارس اسمها « جور » وهى فيروز أباد الحالية ٠ ومعنى اسمه بالفارسية « المبارك » ٠ وكان اسم أبيه دازوبه وكان دازوبه متوليا خراج فارس من قبل الحجاج فضربه الحجاج بالبصرة لمال احتجنه حتى تقفعت يده فعرف بالمقفع ـ وهناك روايه أخرى تقول ان اسمه : ابن المقفع بكسر الفاء المشددة لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها ٠ والقول الأول والذى بفتح الفاء المشددة هو المشهور بين العلماء ٠ وعرف ابنه بعده بابن المقفع ٠ ولما أسلم روزبة سمى عبد الله وكنى بأبى محمد ٠

هذا من جهة اسمه وأصله ٠ أما نشأته فكانت فى فارس الى جنب أبيه ، يسعى فى تحصيل الثقافة الفارسية ويدين بالزرادشتية على مذهب المجوس ثم انتقل الى البصرة وكانت مباءة رجال العلم والأدب٠ وفيها المربد منتدى الأدباء والشعراء ، واتصل بآل الأهتم وهم أهل فصاحة ، فكان مولى لهم يغترف من بلاغتهم ويتصل بالأعراب ويقوم لسانه على نطقهم ، وهكذا تعلم العربية وتدرب على أساليب الفصاحة والبلاغة ، واجتمع عاملان مهمان : عامل الثقافة الفارسية وفيها ثقافة اليونان والهنود ، وعامل الفصاحة العربية ٠ فقابل العالم الجديد بسلاحين قويين : سلاح الفكر وسلاح اللسان ٠

وما هو الا زمن قصير حتى طار للشاب الفارسى صيت فى العلم والفصاحة ، وكان الأمويون من أشد الناس التجاء الى الموالى للاستفادة من أقلامهم وتوليتهم كتابة الدواوين ، فلجأوا الى ابن المقفع ، فكتب ليزيد ابن عمر بن أبى هبيرة والى العراق من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وقيل انه كتب أيضا بعد موت يزيد لأخيه داود بن عمر بن أبى هبيرة وانه بقى مدة من الزمن يكتب لهذا الأمير فى دواوينه بكرمان ٠

وهكذا شهد ابن المقفع عن كثب كيف انهارت الدولة الأموية ، فشهد السعايات والمؤامرات ، وعرف كيف تتقلب الأيام وتدول الدول ، وعرف الأدواء الخفية والظاهرة التى تفتك بجسم الأمم والدول · وكان أبدا عينا ترى ، وأذنا تسمع ، ولسانا ينطلق ، وقلما يسجل ·

دارت الأيام دورتها فاذا العباسيون على عرش الخلافة ، واذا القسوة تضرب أطنابها ، واذا ابن المقفع يرى من الضرورى ، مجاراة للأحوال ، أن يلبس لباسا جديدا ، فيتصل برجال الدولة الجديدة ويعتنق الدين الجديد ليكون له من ذلك كله طريق سهل الى غايته التى يهدف اليها · فاتصل برجال الدولة الجديدة وكتب لعيسى بن على والى الأهواز ، ولزم بعض بنى أخيه اسماعيل عم المنصور يؤدبهم ويشتغل بتلعيمهم وتثقيفهم ، ثم كتب أيضا لسليمان عم المنصور ·

واعتنق ابن المقفع الدين الجديد ، وقد روى فى ذلك انه « بينما كان يمشى ذات يوم فى طريق ضيق اذ سمع صبيا يتلو بصوت مرتفع قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا » فوقف منصتا حتى أتم الطفل قراءة السورة ، ثم قال فى نفسه « الحق انه ليس هذا بكلام بشر » · ولم يلبث بعدها أن ذهب الى عيسى بن على وقال له : « لقد دخل الاسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يديك » · فقال له عيسى : « ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر » · ثم حضر طعام لعيسى عشية،هذا اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس · فقال له عيسى : « أتزمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ » فقال : « كرهت أن أبيت على غير دين » · فلما أصبح أسلم على يده وصار كاتبا له واختص به

اتصل ابن المقفع برجال الدولة الجديدة واعتنق الدين الجديد الا انه لم يخلص لتلك الدولة ولم يمل اليها الا مجاراة وسياسة · وحدث فى تلك الأيام أن خرج على الخليفة المنصور عمه عبد الله بن على مدعيا انه أحق بالخلافة من ابن أخيه فوجه اليه أبا مسلم الخراسانى فكسره وشرد جماعته وفر عبد الله الى أخيه سليمان وهو اذ ذاك بالبصرة مع أخيه عيسى بن على ، فكاتب الشقيقان ابن أخيهما المنصور فى أن يؤمنهما على عمه عبد الله ، فرضى الخليفة · وكان ابن المقفع يكتب اذ ذاك لعيسى ابن على ، ويقال ان عيسى أمره بكتابه الأمان لعبد الله وانه كتبه وأفرط فى الاحتياط حتى لا يجد المنصور منفذا للاخلال بعهده ، وانه كتب فى جملة فصوله : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن على فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته »

مما غاظ المنصور فقال : « أما أحد يكفينيه ؟ » هذا الى جانب ما كان عليه ابن المقفع من قلة الاخلاص للدولة الجديدة ، وما كان عليه من النزعة الفارسية التى تسخر من العرب وتذيع شيئا من أخبار الفرس وديانتهم ، وما ذهب اليه من كتابه « رسالة الصحابة » التى هى أشبه شىء ببرنامج ثورة موجهة الى المنصور ، ومن ترجمة كتاب « كليلة ودمنة » وفيه حملة عنيفة على الطغاة ، هذا الى جانب نبوغ عند ابن المقفع أوغر صـــدور الحاسدين الى جانب أمور كثيرة أدت الى قتل الرجل سنة ٧٥٩ م .

تلك كانت حياة ابن المقفع وتلك كانت خاتمته .

آثار ابن المقفع

لم يعمر ابن المقفع طويلا ، ولم يتح له من الوقت ما ينصرف فيه الى ابراز كل ما في عبقريته من غنى ، وقد ترك لنا مع ذلك من الآثار ما يشهد له بالنضج العقلي والعمق الفكري ، وان كان اكثر تلك الآثار مترجما لا موضوعا . ونحن نستطيع أن نقسم آثاره الى ثلاثة أقسام :

أما القسم الأول ففي التاريخ وما اليه وهو يحتوي :

١ ـ كتاب « خداينامه » أو « حديثنامك » أو « كتاب الملوك أو « كتاب السادة » في تاريخ ملوك الفرس

٢ ـ كتاب « آيين نامه » في عادات الفرس ونظمهم ومراسيم ملوكهم .

٣ ـ كتاب « التاج » في سيرة أنوشروان

٤ ـ كتاب « الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة » في اختيار السلطقادة الصالحين .

٥ ـ كتاب « مزدك »

أما القسم الثاني من آثاره ففي الفلسفة وقد نقل ابن المقفع عن الفارسية أيضا ثلاثة كتب لأرسطو في المنطق وهي :

١ ـ كتاب « قاطيغوريامس » في المقولات العشر

٢ ـ كتاب « باري أرمينياس » في العبارة

٣ ـ كتاب « أنالوطيقا » في تحليل القياس

ونقل كتاب « ايساغوجي » أو المدخل لفرفوريوس الصوري

وأما القسم الثالث ففي الأدب والاجتماع والسياسة والاخوانيات ومرجعه الى :

١ ـ رسالة الصحابة : وهي واحدة من تلك الرسائل التي كتبها ابن المقفع وقد امتازت عنها جميعا بأنها وضعت للاصلاح الاجتماعي والسياسي . وجهها صاحبها الى أبي جعفر المنصور وتناول فيها قضية بطانته خاصة وجميع مقربي الولاة والأمراء والخلفاء عامة ، وجعلها تقريرا

فى نقد نظام الحكم ووجوه اصلاحه ، ودستورا من الدساتير الاجتماعية ٠

٢ ـ الأدب الكبير والأدب الصغير : وقد أطلق عليهما ابن المقفع اسم « الأدب » لأنهما يتناولان أمورا أخلاقية فى جوهرها ٠ قال عبد اللطيف حمزة : « ان ابن المقفع يظهر فيهما كأنه معلم أخلاق ، يشرح هذه الأخلاق فى كتبه شرحا يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على الدين ٠٠٠ والخلق فى رأيه أمر يتصل بالعقل قبل كل شىء ، فالعقل يميز بين الحسن والقبيح ، يعرفهما بطبيعته ولو لم يدل عليهما شرع أو فضيلة أو أخلاق ٠٠٠ وابن المقفع فى كتابيه الأدبين كان ناقلا ومؤلفا معا ٠ فهو ناقل لأنه كان حريصا على أن يكثر من حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال ٠٠ وهو مؤلف لأنه كان يعمل عقله فى ما ينقله وكان له فى ما ينقله غرض يرمى اليه دائما » ٠

ويقول ابن المقفع فى مقدمة الأدب الصغير : « قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا ٠ فيها عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية أبصارها ، واحياء للتفكير ، واقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق » ٠ ويقول فى الأدب الكبير انه « لم يجد الأولين غادروا شيئا ٠٠ وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ٠ ومن ذلك بعض ما أنا كاتب فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج اليها الناس » ٠

وفى الأدبين حكم شتى وأمثال مختلفة لا يربط بينها رابط ، وهى من مصادر مختلفة : فارسية ويونانية واسلامية وغير ذلك ٠

ومن ثم يتضح لنا ان الأدبين الكبير والصغير من ذخائر الحكمة البشرية ، وان الحكمة فيهما قائمة على أساس عقلى لا يخلو من صبغة دينية ، وانها من ثم ذات نزعة فلسفية عميقة المرمى ، بعيدة الأغوار ، وانها عميقة العلم بالنفس البشرية ونزعاتها المختلفة ، وبالسياسة البشرية والاجتماع البشرى ، وانها ذات نزعة مثالية ٠

مضمون كليلة ودمنة

وضع كتاب كليلة ودمنة لأغراض عدة أوضحت فيه ، مرجعها الى تثقيف الملوك والوزراء باسلوب لطيف ، والتفكهة (وهذا ما قصد بوضعه على ألسنة البهائم والطير) ، واظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ، وأن يصلح للملوك والسوقة فيكثر انتساخه وينتفع المصور والناسخ ، وأن يصلح للفيلسوف فيجد فيه حكمة ، وأخيرا الى الاصلاح الاجتماعى فى العلاقات بين السلطان والشعب وبين الأصدقاء ·

ويتضمن كتاب كليلة ودمنة تفصيلا لواجبات الراعى والرعية وما يجب على كل انسان أن يحافظ عليه من جهة الصداقة والصدق فى القول والعمل وأدب الضيافة · وهو موجه قبل كل شىء الى الملوك والوزراء يرمى الى تأديبهم والى تخطيط طريقهم حتى لا يعدلوا عن الحق والعدل والاستقامة · وها نحن أولاء نستعرض أبواب الكتاب موجزين مضمونها ، ثم نعود الى موضوعات الكتاب موضوعا موضوعا موضحين موادها ، مبينين قيمتها ·

● مقدمة على بن الشاه الفارسى : وهى مقدمة طويلة تتضمن بعض الأساطير التى خلفتها فتوح الاسكندر فى الشرق ، والابانة عن سبب وضع الكتاب ثم التعريف بدبشليم الملك وبيديا الفيلسوف اللذين تفتتح بهما أبواب الكتاب ·

● باب عرض الكتاب لابن المقفع : وفيه تفصيل لمضمون كتاب كليلة ودمنة وللفوائد التى تجنى منه ، ثم ايضاح لكيفية مطالعة الكتاب حتى تجنى فوائده ، ثم كلام على العلم وأهميته وضرورة اتمامه بالعمل لأن العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ·

● باب بعثة برزويه : وفيه خبر بعثة برزويه الى الهند ومحاولاته للحصول على الكتاب ، ونجاحه ، وعودته الى بلاده ·

● باب برزويه الطبيب : وفيه سيرة برزويه وآراؤه فى الدنيا وسعيه الى الآخرة ·

● باب الأسد والثور : يمثل السلطة العليا (الأسد) فى الملك ، والحياة فى البلاط وما يجرى فيها من مكايد وسعايات ، ويظهر غرور

الملوك فى تقريب الناس اليهم ، وقلة تبصرهم فى الاصغاء لوشاية المحتالين وما ينتج عن كل ذلك من جرائم وظلم ، فكان أن الكذوب المحتال « دمنة » قد قطع بين المتحابين « الأسد والثور » حتى حملهما على العدواة بعد الصداقة .

● باب الفحص عن أمر دمنة : يمثل السلطة القضائية ، فيظهر لنا ما كان من أمر دمنة بعد أن أفسد بين الأسد والثور بالنميمة والاحتيال ، وكيف حوكم ، وكيف سارت الدعوى ، وكيف كان دفاع دمنة ، وكيف هلك أخيرا .

● باب الحمامة المطوقة : يدور حول الصداقة وامكانها بين المتنافرين .

● باب البوم والغربان : يمثل السياسة الخارجية والحرب بين الملوك وبين الأمم ، واستطلاع أخبار العدو ، ويوضح مكان الحيلة من السياسة وكيف يعامل العدو ، وكيف يجب اللجوء معه الى الحذر مهما أظهر من تضرع وتملق .

● باب القرد والغيلم : يمثل الغباوة وكيف يظفر معها صاحب الحاجة بحاجته فيضيعها . والفطنة وكيف يقع صاحبها فى ورطة فيتخلص منها .

● باب الناسك وابن عرس : يمثل الرجل العجلان فى أمره من غير روية ولا بعيد النظر ، فهو أبدا نادم أسيف .

● باب ابلاد وايراخت وشادرم ملك الهند : هو باب هندى بودى العداوة بين البراهمة والبوذية ويشنع على البراهمة . وهو قسمان : قصة الأحلام وتاويلها ، والمحاورة بين الملك ووزيره . وفى هذا الباب يسأل الملك الفيلسوف عما اذا عمل به ، كرم على رعيته ، وثبت ملكه وحفظ أرضه . فيجيبه الفيلسوف ان أفضل ما حفظ به الملك ملكه ، وثبت به سلطانه وكرم به نفسه هو الحلم والعقل مع مشاورة اللبيب الرفيق العالم .

● باب ملك الجرذان : يبين أهمية المشورة والنصح فى الحياة ، فرب مشورة تخلص من شدائد .

● باب السنور والجرذ : يبين الحكمة فى التماس الموالاة والصلح احيانا ، ويوضح الفرق بين الصداقة الحقيقية وتلك التى تبنى على الحاجة والضيق .

● باب الملك والطائر قنزه : يدور على ان ذوى الأوتار (١٨) ينبغى الا يثق بعضهم ببعض ، وأن يتقى بعضهم بعضا .

● باب الأسد وابن آوى : يمثل الرجوع الى الصداقة بعد العداوة · وعلاقة الملوك فيما بينهم وبين جلسائهم · ومفاد ذلك أن من واجب الملك أن يراجع من أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم أو ظلم ، ولاسيما اذا كان ذلك الشخص ممن يستعان به ويوثق برأيه ، فالملك لا يستطاع الا بالوزارة والأعوان ، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان الا بالمودة والنصيحة ·

● باب السائح والصـــواغ : يمثل صنع المعروف الى غير أهله ويبين من يستحق المعروف والثقة ·

● باب ابن الملك وأصحابه : يمثل أن كل ما يجرى على الناس انما هو بقضاء الله وقدره ·

● باب اللبؤة والشعهر (١٩) : يمثل الانسان الذى يدع ضر غيره لما يصيبه من الضر ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدوان ·

● باب الناسك والضيف : يمثل من يترك ما فى يده ليطلب غيره فيضيع هذا وذاك ·

● باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين : يمثل الرجل الذى ينفع الآخرين برأيه وهو لا ينتفع به ·

★★★

تلك خلاصة ما تضمنته أبواب كتاب كليلة ودمنة ، واليك مادة الكتاب مستخلصة من تلك الأبواب بحسب ما وردت به ·

● أدب الملوك : يحرص الكتاب شديد الحرص على تأديب الملوك وذوى السلطان ، ومهما اختلفت أبوابه وتنوعت أغراضه فالقضية المهمة والجوهرية فيه هى تأديب الملوك · واننا نجد فى بعض أبواب الكتاب ـ كباب الأسد وابن آوى ـ تشريعا كاملا لتصرف السلاطين ، كما اننا نجد فى الكتاب كله دراسة عميقة لنفسية الملوك ومقربيهم ·

فعلى الملك أن يكون عالما بالأمور لأن العلم أساس كل شىء ، أن يكون « العالم بالأمور وفرص الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضى والعجلة والاناة ، والناظر فى يومه وغده ، وعواقب أعماله » (٢٠)· تلك هى الصفة الأولى ، وان خلت دبت الفوضى ، وسادت شريعة الغاب ·

وعلى الملك أن يكون حليما ، عاقلا ، متأنيا عند الغضب والا ندم وأسف (٢١) وذلك أن الغضب يغشى العقل ، والفورة تعمى البصـــيرة وتؤدى الى الفوضى فى الحكم ·

وعلى الملك أن يكون ذا عهد ووفاء : قبحا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ! وويل لمن ابتلى بصحبتهم ! فانهم لا حميم لهم ولا حريم ، ولا يحبون أحدا ، ولا يكرم عليهم ، الا أن يطمعوا عنده فى غناء فيقربوه عند ذلك ويكرموه • فاذا قضوا منه حاجتهم فلا ود ولا حفاظ ، ولا الاحسان يجزون به ، ولا الذنب يعفون عنه ، الذين انما أمرهم الفخر والرياء والسمعة ، الذين كل عظيم من الذنوب يرتكبونه ، وهو عندهم صغير حقير هين » (٢٢) •

وعلى الملك أن يضع المعروف والاحسان عند أهل الوفاء والكرم قربوا أم بعدوا : « ان الملوك وغيرهم جدر أن يأتوا الخير الى أهله ، وأن يؤملوا من كان عنده شكر ، ولا ينظروا الى أقاربهم وأهل خاصتهم ، ولا الى أشراف الناس وأغنيائهم وذوى القوة منهم ، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف الى أهل الضعف والجهد والفاقة ، فان الرأى فى ذلك أن يجربوا ويختبروا صغار الناس وعظماءهم ، فى شكرهم وحفظهم الود ، فى غدرهم وقلة شكرهم ، ثم يكون عملهم فى ذلك على قدر الذى يبدو لهم » (٢٣) •

وعلى الملك أن يكون حسن السيرة لا كملك البوم الذى كانت سيرته « سيرة بطر وأشر وفخر وخيلاء وعجب وضعف رأى » (٢٤) •

وعلى الملك أن يحسن سياسته الداخلية ، فيحسن اختيار أعوانه : « ان أعظم الأشياء ضررا على الناس عامة ، وعلى الولاة خاصة ، أمران : أن يحرموا صالح الأعوان والوزراء والاخوان ، وأن يكون وزراؤهم واخوانهم غير ذوى مروءة ولا غناء » (٢٥) ، « من عرف بالشرارة ولؤم العهد ، وقلة الوفاء والشكر ، والبعد عن الورع والرحمة ، والجحود لثواب الآخرة وعقابها ، والحسد وافراط الشره والحرص ، والسرعة الى سوء الظن والقطيعة ، والابطاء عن المعاودة والمراجعة ، فقطعه أحزم للرأى • ومن عرف بالصلاح وكرم العهد ، والشكر والوفاء والمحبة للناس ، والسلامة من الحسد والحقد ، والبعد من الأذى ، والاحتمال للأصحاب والاخوان وان ثقلت عليه منهم المؤونة ، فهذا حقيق أن تغتنم صحبته وصلته ويمتنع من قطيعته • واحذر من الخلطاء الثمانية : الكفور النعمة الغادر بما يعهد اليه ، والذى لا يؤمن بيوم الحساب والثواب والعقاب ، والمفرط فى حرصه وهمه وغضبه ، ومن يسخطه اليسير بغير علة ، ومن لا يرضى بشىء وان كان كثيرا جسيما ، وذو المكر الداهى الغامض مكرا ، واللهج بالزنى والخمر ، والسيىء الظن المتلون المبتهج القليل الحياء ••• » (٢٦) •

ولكى يحسن الملك سياسته الداخلية يجب أن لا يكره أحدا على عمل من أعماله « لأن المكره لا يستطيع المبالغة فى العمل » ، ويجب أن يحتفظ

ببعض الأعمال ، وأن يقف على صفات العمال والأعوان وأن يوجه كل واحد منهم الى ما يوافقه ، وأن يتفقد العمال والأعمال ، فلا يخفى عليه احسان محسن ولا اساءة مسيء ، وأن يستشير لأن « الملك المشاور المؤامر يصيب فى مؤامرته ذوى العقول من نصحائه ، من الظفر ما لا يصيبه بالجنود والزحف وكثرة العدد ، فالملك الحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأى الوزراء الحزمة ، كما يزداد البحر بمواده من الأنهار » (٢٧) ٠

ولكى يحسن الملك سياسته الداخلية يجب أن يحصن أسراره : « يصيب الملوك الظفر بالحزم ، والحزم بأصالة الرأى ، والرأى بتحصين الأسرار » (٢٨) ٠ « ينبغى للملك أن يحصن دون المتهم (النمام) سره وأمره ، فلا يدنو من موضع أسراره وأموره وكتبه ، حتى من الماء والفرش التى يجلس عليها ، والحلة التى يلبسها ، والدابة التى يركبها ، والأدوية التى يشربها ، واكليل الريحان الذى يضعه على رأسه ، والطيب الذى يستعمله ، والشعار الذى يتخذه ، وكل شيء يدنيه منه » (٢٩) ٠

وعلى الملك أن يحسن سياسته الخارجية : « ذو العقل يجعل القتال آخر حيلة ويبدأ بما استطاع من رفق أو تمحل ولا يعجل » (٣٠) ٠ « اذا كان وزير السلطان يأمره بالمحاربة فيما يقدر على بغيته فيه بالمسالمة فهو أشد من عدوه له ضررا » أما السفراء بين الدول فيجب اختيارهم بكل اعتناء ، وعلى الرسول أن يكون ذا لين ومؤاتاه « فان الرسول يلين القلب اذا رفق ويخشن الصدر اذا خرق » (٣١) ٠

تلك بعض أقوال كليلة ودمنة فى أدب الملوك ، وهى أقوال موسومة بسمة الحكمة الانسانية ، ومبنية على تفهم عميق لنفسية البشر عامة والملوك خاصة ٠

● أدب الصداقة : وللصداقة محل واسع فى كتاب كليلة ودمنة ، وهى تظهر فيه من ضرورات الحياة : « ليس من سرور الدنيا شيء يعدل صحبة الاخوان ، ولا فيها غم يعدل فقدهم » (٣٢) ٠ « الاخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمؤاسون عند ما ينوب من مكروه » ٠ « لا خير من العيش بعد فراق الأحبة ٠٠٠ واذا فرق بين الأليف والفه فقد سلب سروره وغشى على بصره » (٣٣) ٠ « ان أولى أهل الدنيا بطيب العيش وكثرة السرور وحسن الثناء ، من لا يزال ربعه موطوءا من اخوانه وأصدقائه » (٣٤) ٠

والصداقة فى كليلة ودمنة نوعان : فهى تكون اما بتبادل ذات النفس ، واما بتبادل ذات اليد ، والأولى هى المصافاة ، وهى أفضل من الثانية ٠ واما رأس المودة فالاسترسال ، وحسن الثقة بالصديق والاستئناس به ٠

وثلاثة اشياء تزداد بها الصلة بين الاصدقاء : المؤاكدة ، والزيارة في البيت ، ومعرفة الأهل والحشم . و « ثلاثة لا يلبث ودهم ان يتصرم : الخليل الذي لا يلاقي خليله ، ولا يكاتبه ، ولا يراسله » . ومن الأمور التي تقطع الصلة بين الأصدقاء أن يكثر الانسان على أصدقائه حمل المؤنات . والصداقة الصافية تفان في سبيل الصديق ، وايثار له على النفس ، وتقديم له على الذات . وهكذا كانت الصداقة في كتاب كليلة ودمنة من أعذب الأمور ، وكانت بلسم الحياة الدنيا .

● أدب العقل والرأي : في كتاب كليلة ودمنة نزعة عقلية ، والعقل يظهر فيه اماما أكبر : « لا يفرح عاقل لكثرة ماله ، ولا يحزن لقلته ، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله وما قدم من صالح عمله » (٣٥) . والعاقل لا غربة عليه ولا وحشة اذا اغترب . والعقل أفضل من القوة لأن الأمور ليست بالقوة ولكن بالرأي ، والحيلة تغلب القوة .

والعاقل ضابط نفسه ، ضابط لأموره ، ضابط لأحوال زمانه ، ضابط لغيره حتى اذا كان عدوا : « العاقل يصانع عدوه اذا اضطر اليه ، فيظهر له وده ، ويريه من نفسه الاسترسال اليه اذا لم يجد من ذلك بدا ، ويعجل الانصراف عنه اذا وجد الى ذلك سبيلا » (٣٦) .

والعاقل العاقل من يقدم الحذر : « كأن يقال : ان العاقل انما يعد أبويه من الأصدقاء ، ويعد الاخوة من الرفقاء ، والأزواج الفا ، والبنين ذكرا ، والبنات خصيمات ، والأقارب غرماء ، ويعد نفسه فردا وحيدا » (٣٧) .

وهكذا نلاحظ أن فلسفة كليلة ودمنة هي فلسفة رأي وحكمة لا فلسفة قوة ، هي فلسفة مصانعة لا فلسفة نزوات وأعصاب .

● أدب الرجل والمرأة : تظهر المرأة في كليلة ودمنة بمظهر سيىء ، الا أن الأم تظهر أحيانا بمظهر شريف جدا كما نرى ذلك مثلا في باب الفحص عن أمر دمنة . وفي كلام الكتاب عن المرأة نزعة لا تخلو من تشاؤم ، فالمرأة لا تحفظ سرا ، وهي عالم من الاحتيال والخيانة والكذب ، بل هي عالم غريب الأطوار ، بعيد عن كل معقول : « ان الذهب يعرف النار ، وأمانة الرجل بالأخذ والعطاء ، وقوة الدواب تعرف بالحمل الثقيل ، والنساء ليس لهن شيء يعرفن به » (٣٨) . و « قل من حرص على النساء فلم يفتضح » (٣٩) .

وهكذا فالمرأة محتقرة في كليلة ودمنة ! ، المرأة في جوهرها وأميالها . والعاقل العاقل من لا يسترسل اليها ومن لا يثق بها .

● أدب المال : المال في كليلة ودمنة من ضرورات الحياة ، ذلك المال المصحوب بالقناعة لأن الفقر طريق الى الرذيلة ، والغني مع البخل

قباحة ، والناس مطبوعون على حب المال وهم شرهون اليه حتى عند احتمال المكروه ، وقد « جعل زيادة للقوة » فقد كان الجرذ يستطيع الوصول الى سلة الناسك حين كانت الدنانير فى جحره يفترشها ، ولما ذهبت ذهبت معها قوته ٠

والقناعة خير من الغنى الكثير ٠ « وقد جربت وعرفت انه لا ينبغى لأحد أن يلتمس من الدنيا طلبا فوق الكفاف الذى يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه ، وذلك يسير اذا أعين بسعة يد وسخاء نفس ٠ فأما ما سوى ذلك ففى مواضعه ليس له منه الا ما لغيره من حظ العين ٠ ولو أن رجلا وهبت له الدنيا بما فيها لم ينتفع من ذلك الا بالقليل الذى يكف به الأذى عن نفسه ، وأما سواه ففى مواضعه لا يناله » (٤٠) ٠

والغنى بلا مروءة لا يغنى شيئا ٠ والمال سريع اقباله اذا أقبل ، وشيك ادباره اذا أدبر ٠ والمال الكثير لا يدوم ٠ « ويعد غنيا من لا يشارك فى ماله » ٠ و « شر المال ما لا ينفق منه » ٠

وهكذا ترى أن تعاليم كليلة ودمنة فى شأن المال موسومة بسمة الاعتدال ، ولئن كان هنالك من الأقوال ما يخالف ما ذكرناه فان ذلك وارد على ألسنة الأشرار وذوى الطمع والغرور ٠

وهكذا يبدو لنا المال وسيلة لا غاية ، وهكذا نجد فى كليلة ودمنة روحا انسانية رائعة ٠

● والى جانب ذلك كله نجد فى كليلة ودمنة كلاما كثيرا فى القضاء والقدر ، وأمور الآخرة ، وما الى ذلك ، والقدر فى الكتاب مسيطر على كل شىء ، وهو مغيب ٠ « ليس من الخير والشر شىء الا وهو محتوم على من يصيبه ، بأيامه وعلله ومدته وكنه ما يبتلى به من قلته وكثرته » (٤١) ٠ «ليعرف أهل النظر فى الأمور والعمل بها أن الأشياء كلها بقضاء وقدر ، لا يجلب أحد منها الى نفسه خيرا ولا يدفع عنها مكروها ، وان ذلك كله من الله عز وجل ، وأن الله يفعل فيها ما أراد ويقضى فيها ما أحب ٠ فلتسكن الى ذلك الأنفس ولتطمئن اليه القلوب ، فان ذلك لمن ألهمه الله، ووفق له ، سعة وراحة » (٤٢) ٠

وهكذا ترى الجبرية من الأمور الأساسية فى كتاب كليلة ودمنة ، وهى تبلغ فيه أقصى حدودها ، وتصطدم بما فى الكتاب نفسه من حض على الخير وتجنب الشر أى بما هو من شأن الحرية ٠ وهكذا التناقض هو من العقد الكبرى فى مذهب الجبرية ٠

ومهما يكن من أمر فالكتاب كنز من كنوز الحكمة البشرية السامية التى تغذى القلوب والنفوس ٠

القيمة الكبرى للكتاب

لقد نال كتاب « كليلة ودمنة » من الشهرة والذيوع فى مشارق الأرض ومغاربها ما لم ينله كتاب غيره ، ويعد المعلم الأول لكل ذى حكمة وبيان .

فقد وضع هذا الكتاب منذ نيف وعشرين قرنا « لدبشليم » احد ملوك الهند الطغاة بعد عصر الاسكندر الأكبر المقدونى ، فأراد « بيدبا » الفيلسوف الهندى اصلاحه فألف هذا الكتاب ، وجعل النصح فيه على ألسنة الحيوانات والطير ، على عادة الهنود البراهمة فى عصورهم القديمة ، فانهم كانوا يروون الحكمة على ألسنة الحيوانات والطير ، لاعتقادهم بتناسخ الأرواح .

وقد تضمن الكتاب أربعة عشر بابا ، ومقدمة ، ولم يعثر على النسخة الأصلية باللغة السنسكريتية لغة الهند القديمة .

وظل الكتاب محفوظا فى خزائن الهند ، ثم سمع بفضله كسرى أنوشروان ملك الفرس ، فأنفذ اليه « برزويه » الحكيم الفارسى ، رأس أطباء فارس الى بلاد الهند لاستنساخه ، وترجمته الى اللغة الفارسية ، فقام بعمله خير قيام ، واستطاع أن ينقله من اللغة السنسكريتية الى اللغة الفهلوية « الفارسية القديمة » .

وبعد ترجمته الى اللغة الفارسية القديمة بمائتى عام قام بترجمته الى اللغة العربية ابن المقفع أول المترجمين من اللغة الأجنبية ، وزاد عليه المقدمة .

وقد صارت هذه الترجمة أساسا لتراجم كثيرة بالسريانية ، والفارسية الحديثة واليونانية ، والعبرانية ، والمغولية ، والأفغانية ، والتركية ، والملوية ، كما صارت مصدرا أخذت عنه أوربا جميع ما تعرفه عن هذه الأقاصيص ، ثم اخترع بعض الكتاب حكايات وأمثالا على نسقها ، ونسق ما يروونه عن أحد قدماء اليونان « ايسوب » الحكيم اليونانى الذى كتب مثل هذه الأقاصيص ، ثم جاء على اثر ذلك « لافونتين » ، و«فلوريان» الشاعران الفرنسيان المجيدان .

ولقيمة هذا الكتاب الأدبية نظمه « أبان بن عبد الحميد اللاحقى » فقال فى أوله :

هذا كتـــاب أدب ومحنـــة وهو الذى يدعى كليـل دمنـة

كما نظم « أبو يعلى محمد » المعروف بابن الهبارية العباسى المتوفى سنة ٥٠٩ هـ كتابه « الفطنة » يقع فى ألفى بيت على مثال « كليلة ودمنة » اختـرع حكاياته وأمثاله بنظم رقيـق وسمى كتابه « الصادع والباغم » وأوله :

الحمـــد لله الذى حبـــانى بالأصغرين القلب واللســـان

ويقول ابن الهبارية فى ترجمتـه : « انهـا خير من ترجمـة « ابان اللاحقى » . وله نظم ثالث اسـمه « در الحكم فى أمثال الهنود والعجـــم » أكمله عبد المؤمن بن الحسن الصـــاغانى . وكذلك ألف « أبو عبـد الله محمد بن القاسـم القرشى » المعروف بابن ظفر المتـوفى سنة ٥٩٨ م ، كتابا بعنوان « سلوان المطاع فى عدوان الطباع » على غرار كليلة ودمنة ، كما ألف « ابن عربشاه » على هذا النسج كتابه « فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء » وكتـابه « مرزمان نامه » الذى ترجمـه من الفارسـية . ويذكر كشف الظنون أن « أبا العلاء المعرى » ألف كتابا اسمه « القائف » على مثال كليلة ودمنة ، وهو فى ٦٠ كراسة ، ولم تتم ، وله كتاب آخر يسمى « منار القائف » يتضمن تفسيره فى عشر كراريس، وفى دثار اخوان الصفار رسالة بين الحيوان والانسان لاتخلو من لون كتاب « كليلة ودمنة » . ويقول « جولد تسيمر » ان اسم اخوان الصفا قد يكون مقتبسا من كتاب « كليلة ودمنة » .

وغير هؤلاء وهؤلاء كثير من كبار الأدباء .

وقد طبع الكتاب فى باريس سـنة ١٨١٦ م البـارون سلفستر دى ساسى المستشرق الفرنسى الشهير ، وهذه الطبعة لها الفضل الأكبر على جميع قراء اللغة العربية فى الشرق والغرب .

ومما جعل للكتاب قيمة كبيرة ، اشتماله على الحكم والأمثال الجديرة بالحفظ والاعتبار ، فى كل فن من فنون السياسة والاجتماع ، وأصول المعيشة ، على حسب ما تقتضيه أحوال ذلك الزمان ، وكذلك اشتماله على الخيال الرائع الباعث على السرور ، والمروح للنفوس ، باختراع القصص الجميلة ، والتشبيهات والاستعارات الرائعة .

نماذج من الكتاب

● **الحمامة والثعلب ومالك الحزين :**

قال الملك للفيلسوف :

اضرب لى مثلا فى شأن الرجل الذى يرى الرأى لغيره ، ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف :

ان مثل ذلك مثل الحمامة ، والثعلب ، ومالك الحزين .

قال : وما مثلهن ؟

قال الفيلسوف : « زعموا ان حمامة كانت تفرخ فى رأس نخلة طويلة ، ذاهبة فى السماء ، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العش الى رأس تلك النخلة ، فلا يمكن ان تنقل ما تنقل من العش ، وتجعله تحت البيض الا بعد شدة ، وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها (٤٣)

فاذا فرغت من النقل باضت ، ثم حضنت بيضها ، فاذا فقست ، وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب ، قد تعاهد ذلك منها ، لوقت قد علمه بقدر مما ينهض فراخها فيقف بأصل النخلة ، فيصيح بها ، ويتوعدها ان يرقى اليها ، فتلقى اليه فراخها .

فبينما هى ذات يوم ، قد أدرك لها فرخان اذ أقبل مالك الحزين (٤٤) ، فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة ، شديدة الهم ، قال لها مالك الحزين :

« يا حمامة ! مالى أراك كاسفة اللون ، سيئة الحال » فقالت له :

« يا مالك الحزين ! ان ثعلبا دهيت به ، كلما كان لى فرخان ، جاء يهددنى ، ويصيح فى أصل النخلة ، فأفرق منه ، فأطرح اليه فرخى .

قال لها مالك الحزين : « اذا أتاك ليفعل ما تقولين ، فقولى له : « لا ألقى اليك فرخى ، فارق الى ، وغرر بنفسك ، فاذا فعلت ذلك ، وأكلت فرخى طرت عنك ونجوت بنفسى » .

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شـاطىء نهر ، فأقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف ، فوقف تحتها ، ثم صاح كما كان يفعل ، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين .

فقال الثعلب : « أخبرينى من علمك هذا ؟ »

قالت : « علمنى مالك الحزين »

فتوجه الثعلب حتى أتى مالكا الحزين على شـاطىء النهر فوجده واقفـا .

فقال له الثعلب : « يا مالك الحزين ، اذ اتتك الريح عن يمينك ، فأين تجعل رأسك ؟ » .

قال : عن شمالى .

قال : فاذا أتتك عن شمالك ، فأين تجعل رأسك ؟

قال : أجعله عن يمينى أو خلفى .

قال : فاذا أتتك من كل مكان ، وكل ناحية ، فأين تجعله ؟

قال : « أجعله تحت جناحى » .

قال : « كيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك ؟ ما أراه يتهيأ لك » .

قال : بـلى

قال : « فأرنى كيف تصنع ؟ فلعمرى يا معشر الطير ! لقد فضلكن الله علينا . انكن تدرين فى ساعة واحدة مثل ما ندرى فى سنة ، وتبلغن مالا نبلغ ، وتدخلن رءوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهنيئا لكن . فأرنى كيف تصنع ؟ » .

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه ، فوثب عليـه الثعلب مكانه ، فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه . ثم قال : « يا عدو نفسه ! أترى الرأى للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها ، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يستمكن بك عدوك ، ثم أجهز عليه وقتله .

● الحمامة المطوقة :

قال بيدبا الفيلسوف :

زعموا انه كان بأرض سـكاوندجين مكان كثير الصيد ، ينتابه الصيادون ، وكان فى ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق ، فيها وكر غراب .

فبينما هو ذات يوم ساقط فى وكره اذ بصر بصياد قبيح المنظر ، سيىء الخلق ، على عاتقه شبكة ، وفى يده عصا ، مقبلا نحو الشجرة ، فذعر منه الغراب . وقال : « لقد سـاق هذا الرجـل الى هـذا المكان اما حينى (٤٥) ، واما حين غيرى ، فلأثبتن مكانى حتى أنظر ماذا يصنع ؟ ثم ان الصياد نصب شبكته ، ونثر عليها الحب ، وكمن قريبا منها ، فلم يلبث الا قليلا حتى مرت به حمامة يقال لها « المطوقة » ، وكانت سيدة الحمام ، ومعها حمام كثير ، فعميت هى وأصحابها عن الشرك ، فوقعن على الحب يلتقطنه ، فعلقن فى الشبكة كلهن ، وأقبل الصياد فرحا مسرورا ، فجعلت كل حمامة تضطرب فى حبائلها ، وتلتمس الخلاص لنفسها .

قالت المطوقة : « لا تخادلن فى المعالجة ، و لا تكن نفس احداكن أهم اليها من نفس صاحبتها ، ولكن نتعاون جميعا فنقلع الشبكة ، فينجو بعضنا ببعض .

فقلعن الشـبكة جميعهن بتعاونهن ، وعلون فى الجو ، ولم يقطع الصياد رجاءه منهن ، وظن أنهن لا يجاوزن الا قريبا ويقعن .

فقال الغراب : « لأتبعهن ، وأنظر ما يكون منهن » .

فالتفتت المطوقة ، فرأت الصياد يتبعهن ، فقالت للحمام : « هذا الصياد مجد فى طلبكن ، فان نحن أخذنا فى الفضاء ، لم يخف عليه أمرنا ، ولم يزل يتبعنا ، وان نحن توجهنا الى العمران خفى عليه أمرنا وانصرف » .

وبمكان كذا جرذ هو أخ لى ، فاو انتهينا اليه ، وقطع عنا هـذا الشرك !

فعلن ذلك ، وأيس الصياد منهن وانصرف ، ويتبعهن الغـراب ، فلما انتهت الحمامة المطوقة الى الجرذ أمرت الحمام أن يسقطن فوقعن ، وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف :

فنادته المطوقة باسمه ، فأجابها الجرذ من جحره : من أنت ؟ قالت : أنا خليلتك المطوقة .

فأقبل اليها الجرذ يسعى . فقال لهـا : « ما أوقعك فى هـذه الورطة ؟ » .

قالت له : « ألم تعلم انه ليس من الخير والشر شيء الا وهو مقدر على من تصيبه المقادير ، وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة ، فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى ، وأعظم أمرا ، وقد تنكسف الشمس والقمر اذا قضى ذلك عليهما ·

ثم ان الجرذ أخذ فى قرض العقد الذى فيه المطوقة ·

فقالت له المطوقة : « ابدأ بقطع عقد سائر الحمام » ·

وبعد ذلك أقبل على عقـدى ، وأعادت ذلك عليـه مرارا ، وهو لا يلتفت الى قولها ، فلما أكثرت عليه القول وكررت قال لها :

« لقد كررت القول على ، كأنك ليس لك فى نفسك حاجة ، ولا لك عليها شفقة ، ترعين لها حقا » ·

قالت : انى أخاف ان أنت بدأت بقطع عقدى أن تمل وتكسل عن قطع ما بقى ، وعرفت أنك ان بدأت بهن قبلى ، وكنت أنا الأخيرة ، لم ترض ــ وان ادركك الفتور ــ أن أبقى فى الشرك » ·

قال الجرذ : « هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك » ·

ثم ان الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتى فرغ منهـــا ، فانطلقت المطوقة وحمامها معها · فلما رأى الغراب صنع الجرذ ، رغب فى مصادقته ، فجاءه وناداه باسمه ، فأخرج الجرذ رأسه · فقال له : « ما حاجتك ؟ » ·

قال : « انى أريد مصادقتك » ·

قال الجرذ : « ليس بينى وبينك تواصل ، وانما العاقل ينبغى له أن يلتمس ما يجد اليه سبيلا ، ويترك التماس ما ليس اليه سبيل ، فانما أنت الآكل ، وأنا طعام لك » ·

قال الغراب : « ان أكلى اياك ــ وان كنت لى طعاما ــ مما لا يغنى عنى شيئا ، وان مودتك آنس لى مما ذكرت ، ولست بحقيق ــ اذا جئت أطلب مودتك ــ ان تردنى خائبا ، فانه قد ظهر لى منك من حسن الخلق ما رغبنى فيك ، وان لم تكن تلتمس اظهار ذلك ، فان العاقل لا يخفى فضله ــ وان هو أخفاه ــ كالمسك الذى يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح ·

قال الجرذ : « ان أشد العداوة عداوة الجوهر ، وهى عداوتان : منها ما هو متكافىء كعداوة الفيل والأسد ، ومنها ما قوته فى أحد الجانبين على الآخر · كعداوة ما بينى وبين السنور (٤٦) ، وبينى وبينك ، فان العداوة التى بيننا ليست تضرك ، وانما ضررها عائد على فان الماء لو أطيل

اسخانه لم يمنعه ذلك من اطفائه النار اذا صب عليها ، وانما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها فى كمه ، والعاقل لا يستأنس الى العدو الأريب ٠

★★★

وبعد ٠٠ فقد قدمنا للقارىء بيانا موجزا عن كتاب « كليلة ودمنة » لابن المقفع نابغة زمانه وحسبه فخرا أن يكون صاحب هذا الكتاب الذى طبقت شهرته الآفاق ، وبقى على الرغم من حوادث الزمان ونوب الأيام ، وكان فتحا جديدا ذا أدب رمزى خالد فى الأدب العربى والآداب الغربية ٠

وقد أوجزنا من النماذج المختارة من الكتاب ليكون أصل الكتاب أمام القارىء يعاود قراءتها كلما اتسع لذلك وقته ، وليحمله ذلك على الرجوع اليه ليقرأه ، ويتدبر ما فيه من المعانى والأفكار ، وليتخذ منه عونا على تفهم حيوات الناس ومجتمعاتهم ، فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، والحياة بأمواجها ، وجزرها ومدها هى الحياة وان تغيرت مظاهرها ٠

وقد بين ابن المقفع ذلك المعنى فى عرض كتابه حيث قال :

« ينبغى لمن قرأ هذا الكتاب ان يعرف الوجوه التى وضعت له ، والى أى غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه الى البهائم والطير ، واضافة الى غير مفصح ، وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا ، فان قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى ، ولا أى ثمرة تجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب » ٠

العين

الخليل بن أحمد

ح : ٧٨٠م

● ما أكثر ما يضفى الناس ـ فى عالم الأدب والشعر ـ من نعوت وصفات ! ، فهذا واحد دهره ونسيج وحده ، وذاك فرد زمانه ، وذياك درة عصره ... ثم ينقضى الزمان ، ويزول الهيل والهيلمان ، فيصبح الجميع فى خبر كان !

وقل من صدق فيه الرأى فى زمانه وبعد زمانه ، وهؤلاء الأفذاذ حقا على توالى الحقب وتتابع الأزمان ، ومن هؤلاء : الخليـل بن أحمد الفراهيدى ·

انه عبقرى العرب وأستاذ سيبويه وعاشق الشعر الذى عكف عليه وجمعه وأرجعه الى قواعده وتصنيفيات أسماها البحور وأدرج كل بحر فى منبعه ومصبه وضبط قواعد الايقاع وسمى كل ذلك بالعروض .. لأنه كان مقيما بالعروض وهى مكة فسماها بركة ويمنا ·

ولقد سموه عبقرى العرب لأنه سبق زمانه بألف عام ومائتين وأكثر ولأنه كان أبعد مدى وأرحب فى ميدان الكشف والعلم والعروض والشعر ·

والحديث عن شخصية الخليل بن أحمد يطول ، فلقد كان ذا شخصية نادرة متعددة الجوانب ، فقد كان عالما فذا فى أكثر من فرع من فروع اللغة .. كان اماما فى النحو ، مخترعا لعلم العروض ، ومبتكرا للمعجم العربى ، وفوق هذا كله كان ذا عقلية رياضية رائعة ، وذهن يعشق المسائل العقلية المعقدة ، وان هذا ليظهر لنا بجلاء ووضوح فى وضعه للمعجم العربى فقد اتبع فيه منهجا عقليا معقدا يدل على رقى فكره وتوقد ذهنه ورسوخ قدمه فى علم الأصوات اللغوية ، وان هذا الرجل الذى وصفه عبد الله بن المقفع بأن عقله أكبر من علمه ، يطوى جوانحه على صفات سامية ، هى بحق أحلى ما يتحلى به العلمـاء العظام ، فقد كان الخليل ـ متواضعا غاية التواضع ، أنوفا الى أبعد مدى ، معتزا بنفسه وبعلمه ، ولكن بلا غرور أو تكبر ، وان كتب الأدب والتاريخ لتحوى ذخرا من الروايات التى تتحدث عن صفات الخليل هـذه ، وعن ترفعه عن ماديات الحياة ·

عصر الخليل ونشأته

في خلافة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وفي سنة اثنتي عشرة من الهجرة أخذ المسلمون في تمصير البصرة وأخذ العرب تباعا يفدون اليها جاعلين منها مقامهم ، ونزل اليمنيون طرفا والحجازيون طرفا وانحازت البطون والافخاذ الى أصولها تتميز بمنازلها .

وكان لهؤلاء العرب أسواق أدبية أقاموها في البصرة تحكي أسواقهم في الجاهلية ، أعرفها المربد الذي كان على ثلاثة أميال من البصرة ، والذي بلغت شهرته مبلغ عكاظ ، فكانت تعقد فيه حلقات الخطباء وندوات الأدباء .

وعاشت البصرة صدر الاسلام مقر العلماء والحفاظ والقراء ، وحين أفضت الدولة الى بني أمية وانتقلت العاصمة الى دمشق لم تفقد البصرة مكانتها العلمية والأدبية ، لا ينبغ شاعر ولا يظهر أديب ولا يبرز عالم الا قصد البصرة يجد فيها من يستمع له ويعي عنه ويأخذ منه ، وجذبت تلك المكانة غير العرب اليها من العراق وفارس وغيرهما فدخل على الفكر العربي جديد أضيف اليه ، وهكذا عاشت البصرة في العصر الأموي العاصمة العلمية للدولة على حين كانت دمشق العاصمة السياسية .

والى جانب البصرة كانت الكوفة ، غير أن البصرة ظلت أسبق وعنها كانت تأخذ الكوفة الى أن قامت الدولة العباسية فأخذ خلفاؤها يؤثرون علماءها على علماء البصرة ويتخذون منهم معلمين لأبنائهم .

وأذكى هذا الايثار الروح العلمية بين البلدين فكان له أثر أيما أثر في انعاش الحياة العلمية وظهور آراء لم يكن يقدر لها الظهور لولا هذه المنافسة .

في ظل هذه الحياة العلمية المنعشة المتأثرة بحضارات مختلفة كانت نشأة الخليل بن أحمد في البصرة ، وكان مولده في العام المتمم مائة من الهجرة في خلافة الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ — ١٠١ هـ) . على ذلك اجماع المؤرخين . ثم امتدت به الحياة ليشهد نهاية الدولة الأموية وكان عندها قد جاوز الثلاثين بقليل ليستقبل الدولة العباسية ليعيش في ظلها عمرا طويلا .

ولا نعلم على التحقيق أين كان مولده ، وان كان بعضهم يقول : انه ولد بمدينة عمان « بضم العين » .

وغلبة البصرى عليه واشتهاره بهذا اللقب دون غيره تكاد تفيدنا ان اقامته بعمان ــ ان صح انه ولد بها ــ لم تكن كثيرة ، لهذا نسيت عمان وذكرت البصرة ، هذا الى ما كان للبصرة من صفة ، أعنى مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة فى النحو العربى ٠

والخليل بن أحمد يكنى أبا عبد الرحمن ، وأحمد هذا هو ابن عمرو ابن تميم ، ويذهب بعض النسابين الى انه ابن عمر بن تميم ، كما يذهب آخرون الى انه أحمد بن عبد الرحمن ٠ والى مزهود بن مالك بن فهم ابن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث ينتهى نسب الخليل ٠

وعلى أبى عمرو بن العلاء تتلمذ الخليل ، وكان أبو عمرو علما فى القراءة والعربية ، وكان من تلامذته مع الخليل يونس بن حبيب وأبو محمد على بن المبارك الزيدى ٠

وكان الى جانب أبى عمرو بن العلاء شيوخ آخرون من المحدثين روى عنهم الخليل منهم : أيوب السختيانى البصرى ، وعاصم الأحول بن النضر البصرى ، وعثمان بن حاضر الأزدى ، والعوام بن حوشب وغيرهم ٠٠

● **زهده وعلمه ٠٠٠**

وكان الخليل يرى رأى الأباضية أتباع عبد الله بن أباض ــ وهم فرقة من الخوارج يقولون بتكفير مخالفيهم من أهل القبلة ــ غير انه ما لبث ان رجع عن ذلك حين جالس أيوب السختيانى ٠ واذا عرفنا ان السختيانى كانت وفاته فيما بين سنتى ١٢٥ هـ ، ١٣١ هـ استطعنا أن نحكم بأن الخليل رأى رأى الأباضية مبكرا وعدل عنه مبكرا ٠

والذين يترجمون للخليل يجمعون على انه كان من الزاهدين المنقطعين الى الله غير راغب فى متاع الدنيا ٠

ومما يروى من زهده وتعففه انه أقام فى البصرة فى خص لا يقدر على فلسين وتلاميذه يكسبون بعلمه الأموال ٠

وقد أرسل اليه سليمان بن على والى البصرة لتأديب أولاده نظير راتب يجريه عليه فأخرج خبزا يابسا وقال للرسول : مادام هذا عندى فلا حاجة لى فيه ــ وهو يعنى سليمان بن على ــ وكتب اليه شعرا يقول فيه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنىً غير أنى لست ذا مال
شحا بنفسى انى لا أرى أحدا ... يموت هزلا ولا يبقى على حال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

وكان النضر بن شميل يقول : أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو فى خص لا يشعر به • وكان سفيان الثورى يقول : من أحب أن ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل بن أحمد • وهو يعنى نقاء معدنه وطيب نفسه •

وفى الحق لقد كان الخليل من الراغبين عن الدنيا الراغبين إلى الله يحج سنة بعد سنة وكان يقول : ان لم تكن هذه الطائفة ــ يعنى العلماء ــ أوليـاء الله تعالى فليس لله ولى • وكان يقول : انى لأغلق على بابى فما يجاوزه همى •

وكان كثيرا ما ينشد بيت الأخطل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجـد ذخرا يكون كصـالح الأعمـال

والخليل بعد هذا كان ذكيا فطنا ، ولقد قيل : انه لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع لعلم العرب منه •

ويحكون أن الخليل وابن المقفع اجتمعا ليلة بطولها يتذاكران ثم افترقا ، فسئل الخليل عن ابن المقفع فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : رأيت رجلا عقله أكثر من علمه •

ويزيدك ايمانا بحكم ابن المقفع على الخليل مما يرويه الأصمعى عن تقسيمه للعلوم هذا التقسيم الذى سأسوقه اليك والذى يدلك على مبلغ عقل هذا الرجل وتحكمه فيما بين يديه وانه لم يقف عند الوعى والحفظ بل عدا هذا وذاك الى الابداع والخلق • يروى الأصمعى فيقول قال الخليل : العلوم أربعة ، فعلم له أصل وفرع ، وعلم له أصل ولا فرع له ، وعلم له فرع ولا أصل له ، وعلم لا أصل له ولا فرع • فأما الذى له أصل وفرع فالحساب ، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف ، وأما الذى له أصل ولا فرع له فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها فى العالم ــ يعنى الأحكام والقضايا على الحقيقة • وأما الذى له فرع ولا أصل فهو الطب ، والعلم الذى لا أصل له ولا فرع فهو الجدل ــ يعنى الجدل بالباطل •

ومما ينطق بفطنته ما رووه له من انه كان عند رجل دواء لظلمة العين ينتفع به الناس ، فمات هذا الرجل وافتقر الناس الى ذاك الدواء • فقال الخليل : أله نسخة معروفة ؟ قالوا لا • قال : فهل له آنية كان يعمله فيها ؟ قالوا : نعم • قال : جيئونى بها • فجاءوه بها فجعل يشم الاناء ويخرج نوعا نوعا حتى أخرج الأخلاط جميعا وأخذ يتعرف أقدارها الى أن اهتدى الى ذلك • ثم وجدت النسخة فى كتب الرجل • فوجدت الأخلاط كما اهتدى اليها الخليل •

والمؤرخون مجمعون على انه كان اماما فى العربية كما كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، كما كان أول من استنبط علم العروض ٠

وما من شك فى أن معرفته بالايقاع والنظم أعانته على استنباط هذا العلم العروضى الذى لم يأخذه عن أستاذ ولا اجتذاه على مثال سابق ، ينضم الى هذا ذكاء خارق ٠ ولقد قالوا عنه فى استنباط لهذا العروضى واختراعه اياه من ان ذلك تأتى له حين كان يمر بالصفارين فسمع مطرقة على طست وكان عندها يردد بيتا من الشعر فاذا هو يوائم بين ما يسمع وبين ما يردد واذا الفكرة تواتيه فى أن يقطع الشعر تقطيعا ينتهى به الى وضع البحور ، وما تحتها من تفصيلات ٠

وهذا ان صح يدلك على ما رزق الرجل من بديهة متوثبة وفطنة متأهبة ٠

والذى لا نشك فيه أن الرجل كان على قدرة على تلوين النظم والتحكم فيه أكسبته اياها معرفته النغم والايقاع ، فهم يروون له قصيدة على « فعلن فعلن » ثلاثة متحركات وساكن التى يقول فيها :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا فلبئس لعمرك ما فعلوا
أبكيت على طلل طربا فشجاك وأحزنك الطلل

كما يروون له قصيدة على « فعلن » ساكنة العين يقول فيها :

هذا عمرو يستعفى من زيد عند الفضل القاضى
فانهوا عمرا انى أخشى صول الليث العادى الماضى

فهذه القدرة هى التى يسرت للرجل أن يملى على الشعر تلك الأوزان التى اخترعها ٠ ولقد كان بهذا مشغولا شغل به فترة ما يظن أنها كانت قصيرة ، فمثل هذا العلم الأصيل الدقيق الوافى لا يكون نتاج ساعة ٠ وما نظن تلك الحادثة التى وقعت له فى سوق الصفارين ــ ان صحت ــ الا بدء الفكرة ٠

ومما يدلك على شغل الخليل بهذا العلم العروضى كما قلنا وانه كان لهجا به لا يفتأ يشغل بالتقطيع حتى غلبه التقطيع على أمره وبات يردده على غير وعى : ما يروونه عنه من أن ابنا له دخل وهو يقطع بيتا من الشعر وما نظن الخليل كان عندها مالكا لأمره ، اذ لو كان كذلك ما خرج ابنه عنه وهو يصرخ ويقول : ان أبى قد جن ٠ ويدخل الناس عليه فيعلمون حاله ويجدونه على غير ما قال ابنه فيقول مخاطبا ابنه :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى أو كنت أعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى وعلمت انك جاهل فعذرتكا

وهكذا تلخص هذه الحادثة نشأة هذا العلم فى رأس الخليل وشغله به شغلا ألهاه عن نفسه وكاد ينير حوله الشكوك . وما تظن هذا العلم استوى له الا بعد جهد طويل كما قلنا .

● والخلاف فى موت الخليل يربى على الخلاف فى مولده فمن المؤرخين من يقول انه مات سنة خمسة وسبعين ومائة على هذا الرأى الكثرة . ومنهم من يقول : انه مات سنة سبعين ومائة ...

وبعد هذه الأقوال المتقاربة ينقل ابن خلكان فى كتابه « الوفيات » قولا بعيدا عن هذه الأقوال كلها فيقول : وقال ابن الجوزى فى كتابه الذى سماه شذور العقود انه توفى سنة ثلاثين ومائة .

غير أن ابن خلكان لا يترك هذا القول يمر دون تعقيب منه عليه فيقول : « وهذا غلط قطعا » .

والمؤرخون الذين اختلفوا اختلافا يسيرا فى مولد الخليل ثم اختلفوا اختلافا كثيرا فى وفاته لم يختلفوا فى مكان موته فكلهم مجمعون على انه مات بالبصرة .

والخليل لم يمت عن علة وانما مات من صدمة بسارية فى المسجد ، فالمؤرخون يروون انه دخل يوما المسجد وهو مشغول الفكر ، فشغل عن ان يبصر ما بين يديه ، فاذا سارية تصدمه ، واذا هو يقع ميتا .

والمؤرخون الذين يروون هذا لم يسكتوا عن أن يدخلوا فى رأس الخليل ليتبينوا ما شغله فيقولون : كان يقول : أريد أن أقرب نوعا من الحساب تمضى به الجارية الى البياع فلا يمكنه ظلمها ، وانه دخل المسجد وهو يعمل فكره ، فانقلب على ظهره فكانت سبب موته .

كما يقولون : بل كان يقطع بحرا من العروض .

وكان آخر ما قاله : « لا تبكوا .. فوالله ما فعلت فعلا أخاف على نفسى منه .. وما كان لى فضل فكر صرفته الى جهة وددت بعد ذلك انى كنت صرفته فى جهة غيرها .. وما علمت انى كذبت متعمدا قط .. وأرجو أن يغفر لى الله التأويل » .

انتاجه العلمي

ومات الخليل وما نظنه دون كل ما علم ، فقد دون شيئا واحتفظ بشيء آخر جعل وعاءه قلبه يمليه على تلاميذه ، وكان منه هذا الذي يتصل بالنحو والذي أخذه عنه تلميذه سيبويه

واليك ما وقع لنا مما دونه الخليل من كتب :

١ ـ كتاب الايقاع . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

٢ ـ « تصريف الفعل . ومنه قطعة بمكتبة بودليانا .

٣ ـ « التفاحة ، في النحو . وقد صورته البعثة المصرية لتصوير مخطوطات اليمن

٤ ـ « جملة آلات العرب . ومنه نسخة بمكتبة اياصوفيا .

٥ ـ « شرح صرف الخليل . ومنه قطعة بمكتبة برلين .

٦ ـ « الشواهد . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

٧ ـ « كتاب العروض . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

٨ ـ « فائت العين . ذكره ابن النديم .

٩ ـ « في العوامل . ذكره ابن خلكان .

١٠ ـ « في معنى الحروف . ومنه نسخة بمكتبة ليدن وأخرى بمكتبة برلين .

١١ ـ « النغم . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

١٢ ـ « النقط والشكل . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

١٣ ـ وبعد هذا يأتي كتابه الكبير الخالد الذي يعد أهم مؤلفاته وهو : كتاب العين ، الذي هو أول معجم عربي .

كتاب العين

كانت ثمة اسباب جعلت الخليل بن أحمد يفكر جديا في وضع معجم لغوي عربي وهذه الأسباب هي :

أولا : كان البدو الذين يسكنون البادية هم النبع الذي ينهل منه النحاة واللغويون كل ما يحتاجون اليه من الفاظ ، لكن هؤلاء البدو أخذوا يهاجرون الى الحضر شيئا فشيئا ، وأوشكت البادية أن تقفر ويجف فيها

النبع الفياض ، مما أدى الى التفكير الحدى فى وضع معجم يجمع كل ما توفر لدى النحاة من مفردات ، وكان لدى الخليل بن أحمد ـ وهو تلميذ لامام النحاة أبو عمرو بن العلاء ـ الشىء الكثير منها .

ثانيا : تدفق الكثير من الأعاجم على البلاد العربية ، واقامتهم بها مما أدى الى ضرورة وضع معجم يشرح لهم قواعد اللغة العربية ، ويضع أيديهم على أسرارها ، ويشجعهم على تعلمها .

ثالثا : وبسبب هجرة الأعاجم الى البلاد العربية ، خشى النحاة واللغويون على اللغة العربية من الفساد فأصبحت الحاجة ماسة الى وضع معجم يحفظ لها أصالتها ورونقها ، وهى توشك أن تفسد لحنا وتحريفا .

رابعا : ازدهار حركة التدوين فى العصر العباسى الأول .

كل هذه الأسباب شجعت الخليل بن أحمد على تنفيذ فكرته لاسيما وانه كان عالما جليلا ولغويا قديرا يعرف ماذا يكتب ولأى شىء يكتب .

والسؤال الآن : هل سبق أحد الخليل بن أحمد الى وضع معجم لغوى عربى . أم ان معجم الخليل يعد المحاولة الأولى من نوعها فى هذا المجال ؟ واذا كان هناك من سبق الخليل الى وضع معجم فالى أى مدى استفاد الخليل من هذه المحاولة ؟

من قبل كتاب العين كانت محاولات حول جمع الكلمات التى تتصل بغرض ما حسيا كان أو معنويا ، فالجمع عنى أولا بتدوين كل ما يتصل بالسيف مثلا وبالزرع والنبات والمطر الى ذلك من الموضوعات الحسية ثم بالقوة والخور والشباب وغير ذلك من الموضوعات المعنوية .

لقد سبق هذا التدوين الخاص ، وكأن ما وصلنا منه قبل الخليل قليل مثل كتاب الحشرات لأبى خيرة الأعرابى ، ثم ان هذا التدوين الخاص لم يقطع بظهور التدوين العام الذى بدأ به الخليل فلقد كان منه الكثير مما عاصر الخليل ومما جاء بعده .

ولكن كان الخليل السابق الى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على مخارج حروف الهجاء .

وكانت بين يدى الخليل الحروف العربية فى صورتين سابقة وهى الأبجدية أعنى : أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ ، تلك الكلمات التى تنتظم حروف الهجاء مرتبة على هذا السياق الذى تصوره الكلمات على ترتيبها هذا الذى جاءت عليه اللغة الفينيقية

ثم اليونانية والذى هو هو فى اللغات السامية ، ما عدا الحروف التى انفردت بها العربية ·

والى جانب تلك الصورة كانت صورة أخرى تنتظم حروف الهجاء العربية تضم الحروف المتشابهة بعضها الى بعض كما هى الحال فى الحبشية وان كانت تختلف شيئا عن النسق الحبشى الذى لا تزال صورته يحتفظ بها الترتيب المغربى وهو :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ى ·

على حين هو عند العرب المشارقة :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ى ·

وما من شك فى أن هذا النسق الثانى كان موجودا الى جانب النسق الأول من قبل أيام الخليل وحسبك ما أثير يوما فى حضرة الخليفة المروانى عبد الملك بن مروان (٢٦ هـ ــ ٨٦ هـ) حين قال لجلسائه : ايكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه وله على ما يتمناه ؟ فقام اليه سويد ابن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين · فقال : ما عندك ؟ فقال : أنف · بطن · ترقوة · ثغر · جمجمة · حلق · خد · دماغ · ذكر · رقبة · زند · ساق · شفة · صدر · ضلع · طحال · هامة · وجه · يد · فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين ·

فهذه الكلمات بمساقها هذا تشير حروفها الأولى الى حروف الهجاء وترتيبها الذى ارتضاه العرب المشارقة ولازلنا نحن عليه ·

كان هذان النسقان بين يدى الخليل أعنى النسق الأبجدى ثم النسق الآخر الذى تصور صورتين صورة مشرقية وصورة مغربية (حبشية) وكان بوسع الخليل أن يرتب معجمه على واحد من هذين النسقين ولكنا رأيناه يأبى هذا النسق وذاك ويرتب معجمه على نسق جديد خضع فيه لمخارج الحروف ·

والمتصلون بعلم اللغات يحدثوننا أن اللغة السنسكريتية (٤٧) فيها هذا المنحى الذى ينظر الى مخارج الحروف ·

ولقد كانت للعرب صلات بالهند ، وكانت البصرة كما قلنا محط رحال الكثيرين من هنا ومن هناك · وقد يكون الخليل لقن شيئا من

هذا عن السنسكريتية فاخضع له لغته العربية ، كما قد يكون هذا من بدع الخليل ، ولقد كان الرجل رجل صوت فلم لا تملى عليه فطنته الصوتية هذا المنحى اللغوى كما أملت عليه المنحى العروضى فأبدع هنا وهناك ٠

ورتب الخليل الحروف العربية على مخارجها من الحلق على النظام الآتى كما جاء فى مقدمته لكتاب العين :

ع ٠ ح ٠ هـ ٠ خ ٠ غ ٠ ق ٠ ك ٠ ج ٠ ش ٠ ض ٠ ص ٠ س ٠ ز ٠
ط ٠ ت ٠ د ٠ ظ ٠ ث ٠ ر ٠ ل ٠ ن ٠ ف ٠ ب ٠ م ٠ و ٠ أ ٠ ى ٠

وقد ساقها ابن منظور فى مقدمته لكتابه « اللسان » وهو يصف كتاب العين على النحو الآتى :

ع ٠ ح ٠ هـ ٠ خ ٠ غ ٠ ق ٠ ك ٠ ج ٠ ش ٠ ض ٠ ص ٠ س ٠ ز ٠
ط ٠ د ٠ ت ٠ ظ ٠ ذ ٠ ث ٠ ر ٠ ل ٠ ن ٠ ف ٠ ب ٠ م ٠ ى ٠ و ٠ أ

ولبعض الادباء ممن لهم نظم فى ترتيب حروف كتاب العين ، وهو أبو الفرج سلمه بن عبد الله والان المعافرى الجزيرى :

يا سائلى عن حروف العين دونكما ... فى رتبه ضمها وزن واحصاء
العين والحاء ثم الهاء والخاء ... والغين والقاف ثم الكاف اكفاء
والجيم والشين ثم الضاد يتبعها ... صاد وسين وزاى بعدها طاء
والدال والتاء ثم الطاء متصل ... بالظاء ذال وثاء بعدها راء
واللام والنون ثم الفاء والياء ... والميم والواو والهموز والياء

غير انه يلاحظ أن ثمة خلافا فى الترتيب بين ما سيق منظوما وبين ما سيق غير منظوم فى الحروف الأخيرة وهى التى يضمها عجز البيت الأخير ٠

وعلى حين يعد الخليل العين أقصى الحروف مخرجا يذكر سيبويه أن الهمزة أقصى الحروف مخرجا ٠ غير أنه يروى عن ابن كيسان (٢٩٩ هـ) انه سمع من يذكر عن الخليل انه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون فى ابتداء كلمة ولا فى اسم ولا فعل الا زائدة أو مبدلة ولا بالهاء لأنها مهموسة لا صوت لها فنزلت الى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن فى التاليف ٠ وليس العلم بتقدم شىء على شىء لأنه كله مما يحتاج الى معرفته فبأى بدأت كان حسنا وأولاها بالتقديم أكثرها تصرفا ٠

وقد بسط الخليل فى كتابه العين الكلام فى هذه الحروف ومخارجها فعدها تسعة وعشرين حرفا جعل منها خمسة وعشرين حرفا صحاحا لها احياز ومدارج كما جعل منها أربعة هوائية :

(أ) أما الصحاح فهى على وفق ما رتبها :

١ ــ العين ثم الحاء ثم الهاء من حيز واحد ، وبعضها أرفع من بعض ٠

٢ ــ الخاء والغين من حيز واحد ، وهذه الأحرف الخمسة يلقبها بالحروف الحلقية ٠

٣ ــ والقاف والكاف لهويتان ، لأن مبدأهما من الهــاء ، والكاف أرفع ٠

٤ ــ الجيم والشين والضاد ، فى حيز واحد ، وهى حروف شجرية لأن مبدأها من شجر الفم ، وهى مفرجة ٠

٥ ــ الصاد والسين والزاى ، فى حيز واحد ، وهى حروف أسلية لأن مبدأها من شجر الفم ، وهى مفرجة ٠

٦ ــ الطاء والدال والتــاء ، فى حيز واحد ، وهى حروف قطعية لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى ٠

٧ ــ الظاء والذال والثاء ، فى حيز واحد ، وبعضها أرفع من بعض ، وهى حروف لثوية ٠

٨ ــ الراء واللام والنون ، فى حيز واحد ، وهى حروف ذلقية لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفه ٠

٩ ــ الفاء والياء والميم ، فى حيز واحد ، وهى حروف شفوية لأن مبدأها من الشفة ٠

(ب) أما الحروف الهوائية فهى :

١ ــ الياء والواو والألف والهمزة ، وليس لها حيز تنسب اليــه الا الهواء ، غير أنه جعل الواو والألف والياء قسما ، والهمزة وحدها قسما ٠

وأنت ترى أن ثمة فروقا بين هذا النسق والنسق الأول لاسيما فى حروف العلة فعلى حين قد رتبها أولا : (و ــ أ ــ ى ــ) اذا هو يرتبها

هنا (ى ـ و ـ أ ـ) ثم يرتبها مرة أخرى فى مقدمته (و ـ ى ـ أ ـ) ويسوقها المعافرى فى بيته الأخير على ترتيب مخالف حيث يقول :

واللام والنون ثم الفـــاء والبـــاء والميم والـواو والمهمـوز واليـــاء

واذا عدنا الى سيبويه ، وهو تلميذ الخليل وجدناه يرتب الحروف على النحو الآتى :

الهمزة ـ الألف ـ الهاء ـ العين ـ الحاء ـ الغين ـ الخاء ـ القاف ـ الكاف ـ الميم ـ الشين ـ الياء ـ الضاد ـ اللام ـ الراء ـ النون ـ الطاء ـ الدال ـ الثاء ـ الصاد ـ الزاى ـ السين ـ الظاء ـ الذال ـ التاء ـ الفاء ـ الياء ـ الميم ـ الواو ·

ومن هنا ترى ان هذا النظام الذى أراده الخليل وتأثره به سيبويه لم يكن يضبطه ضابط آلى كما هى الحال اليوم بعد أن أصبحت فى أيدينا آلات لتسجيل مخارج الحروف على وجه دقيق استطعنا بها ترتيب الحروف ترتيبا حديثا يخالف رأى الخليل فى شىء ويوافقه فى شىء آخر ·

★ ★ ★

صورة من عرض الخليل لمادته

واليك مادة من مواد كتاب العين ، من الثنائى المضاعف وهى « عق » تكشف عن منهج الخليل ·

عـق :

يقول الخليل :

العرب تقول : عق الرجل عن ابنه ويعق عقا ، اذا حلق عقيقته وذبح شاة ـ واتسمى الشاة التى تذبح لذلك عقيقه ـ قال الليث : توفر أعضاؤها فتطبخ بماء وملح فتطعم المساكين ـ وفى الحديث : كل امرىء مرتهن بعقيقته · وفى الحديث : ان الرسول صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن والحسين فأعطى بزنة شعورهما ورقا ·

والعقة : العقيقة · وتجمع عققا · والعقيقة : الشعر الذى يولد به · وتسمى الشاة التى تذبح لذلك عقيقة · يقع اسم الشعر على الطعام كما وقع اسم الجزور التى تنقع على العقيقة · وقال زهير فى العقيقة

أذلك أم أقب البطن جـأب عليـه من عقيقته عفـــــاء

وقال امرؤ القيس :

يا هنـد لا تنكحى بوهـــة عليـــه عقيقتـه أحســـبا

ويقال أعقت الحامل : اذا نبتت العقيقة على ولدها فى بطنها ، فهى معق وعقوق ، وجماعة العقوق عقق ٠

قال رؤبة :

قد عتق الأجدع بعد رق بقارح أو زولة معق

وقال :

وسوس يدعو مخلصا رب الفلق سرا وقد آون تاوين العقق

وقال أيضا :

كالهورى انجاب عن ليل البرق طير عنها النسر حولى العقق

وجماعة العقة : العقق ٠ قال عدلى بن زيد العبادى فى العقة ، أى العقيقة :

صيت التعشير رزام الضحى ناسل عقته مثل المسد

ونوى العقوق : نوى هش لين رخو المضغة تعلفه الناقة العقوق الطافا لها فلذلك أضيف اليها ٠ وتأكله العجوز ٠ وهى من كلام أهل البصرة لا تعرفه الأعراب فى بواديها ٠

وعقيقة البرق : ما يبقى فى السحاب من شعاعه ٠

قال : وجمعه العقائق ، قال عمرو بن كلثوم :

بسمر من قنا الحطى لدن وبيض كالعقائق يختليتا

وانعق البرق ، أى تسرب فى السحاب ، وانعق الغبار : اذا سطع ٠ قال رؤبة :

اذا العجاج المستطار انعقا

قال أبو عبد الرحمن ــ وهو الخليل ــ أصل العق الشق واليه يرجع عقوق الوالدين ، وهو قطعهما ، لأن القطع والشق واحد ٠ يقال : عق ثوبه ، اذا شقه ٠ ومنه : عق والديه يعقهما عقا وعقوقا ٠ قال زهير :

فأصبحتما فيها على حيز موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم

وقال آخر :

ان البنين شرارهم أمثاله من عق والده وبر الأبعدا

وقال أبو سفيان بن حرب لحمزة سيد الشهداء رضى الله عنه يوم أحد حين مر به وهو مقتول :

ذق عقق . أى ذق جزاء فعلك يا عاق ، لأنك قطعت رحمك وخالفت آباءك وذقت وبال ما حسبت .

والمعقة والعقوق واحد قال النابغة :

أحلام عاد وأجسـاد مطهرة من العقـة والآفات والأثم

والعقيق : جذع أحمر ينظم ويتخذ منه الفصوص ، الواحدة عقيقة . والعقيق . واد بالحجاز ، كأنه عق ، أى شق ، غلبت الصفة عليه غلبة الاسم ، ولزمته الألف واللام لأنه جعل الشيء بعينه . قال جرير :

فهيهـات هيهـات العقيق وأهله وهيهـات خـل بالعقيق نحـاوله

أى بعد العقيق وأهله .

ثم يختم الخليل المادة بالرباعى المكرر البنية فيقول :

« والعقيق : طائر أبلق طويل الذنب يعرف صوته بالعقيقة ، وجمعه : عقاعق » .

★★★

هذه صورة من عرض الخليل لمادته . وهذا الجهد الذى نلمسه هنا نلمس مثله فى جميع المواد ، وهذا يصور لك كم كان عناء هذا الرجل الذى يقال عنه انه الواضع لمعجم عربى وليته حين أخذ فى عمله خفف عن نفسه شيئا فلم يضم الى مشقة مشقة أخرى بهذا الترتيب الذى التزمه .

ولكنك ترى أن هذه المادة الزاخرة التى ضمها كتاب العين والتى سقنا لك شاهدا منها بعيد ان تستوعبها ذاكرة ، وان الخليل كان حين هم بهذا العمل الكبير يملك مظانا بين يديه ، وحين استوى له المنهج الذى رسمه استطاع أن يستفرغ المظان ويستصفى ما فيها ، ولكنه على كل حال جهد لا يطيقه الا الخليل يملك العقل المنظم والرأى الهادى اللذين بهما يهون الكثير .

والماضى فى كتاب العين يرى ان الخليل عنى عناية كبيرة باللغات فذكر عنعنة تميم وكشكشة ربيعة كما أشار الى لغة هذيل وتميم واليمن ، كما لم يفته ان يشير الى لغة المعاصرين له فى اقليمه العراق أو بلدته البصرة .

كما عنى بالقياس يرد أكثر ما يورد اليه ، كما لم يسكت عن تعليل المسميات التى يوردها ليربطها بمواردها ، كما دعم لشروحه اللغوية بموفور من الشواهد الشعرية والأمثال والقرآن والحديث .

على يد الخليل خرج سيبويه و ...

لقد كان الخليل بن أحمد ـ كما قلنا آنفا ـ عالما فذا ولو لم يقدم للعربية سوى علومه التى لقنها لتلاميذه لكان هذا فخرا له لا يعدله فخر ؛ ولو بعث الخليل بن أحمد حيا اليوم لحق له أن يمشى بيننا فى خيلاء ، ولم لا وهو الذى بفضل علمه وتوجيهه وارشاده قدم للغة العربية عالما جليلا أيضا تعتز به العربية وتفخر ، وهو سيبويه الذى وصفه صاحب وفيات الأعيان بأنه : « كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه » . بل ان شخصية الخليل لم تظهر قوية واضحة الا فى تآليف تلاميذه فظهرت شخصيته فى كتاب سيبويه « الكتاب » الذى عده النقاد جامعا لمادته فقط التى أخذها عن استاذه الخليل بن أحمد . فقد كان الخليل بن أحمد هو الذى أوحى لسيبويه بوضع ذلك الكتاب ليكون دستورا للنحو العربى .

اذن فعلى يد الخليل خرج سيبويه وعنه أخذ ، وكل ما يحكيه سيبويه فى كتابه فعن الخليل ، وكذلك كل ما جاء فى الكتاب غير معزو لقائل فعن الخليل ، وحين يقول سيبويه فى كتابه : فسألته ، فهو يعنى الخليل . وهكذا ترى ان كتاب سيبويه يكاد يكون أكثره لأستاذه الخليل .

وشارك سيبويه فى الأخذ عن الخليل جملة منهم أبو فيد مؤرخ السدوسى وعلى بن نصر الجهضمى .

وكما حدث الخليل عن شيوخ من المحدثين مروا بك حدث عنه شيوخ من المحدثين . فقد روى عنه : حماد بن زيد ، وأيوب بن المتوكل ، والأصمعى ، وهارون بن موسى ، ووهب بن جرير بن حازم ، وداود بن المحبر ، وأخوه هذاب بن المجد .

ولقد جاء بعد الخليل بن أحمد من حذا حذوه منهم النضر بن شميل (٢٠٤ هـ) يذكر له حاجى خليفة فى كتابة كشف الظنون كتابا اسمه « الجيم » ولا شك فى انه تأثر فيه بمنهج أستاذه ان صح ما رواه حاجى فالذى نعرفه ان النضر بن شميل له كتاب اسمه « المدخل الى كتاب العين » . وثمة رجل آخر كان معاصرا لابن شميل وهو أبو عمرو الشيبانى اسحاق بن مرار (٢٠٦ هـ) يعزى اليه كتاب فى اللغة اسمه الجيم أيضا وكان يظن خطأ انه معزو الى الحرف الأول منه واذا الكتاب ليس كذلك وانما هو مبدوء بالهمزة وان تسميته بهذا الاسم لعلة أخرى رآها مؤلفه فمن معانى الجيم فى اللغة الديباج والاستحسان المؤلف لكتابه سماه

بالجيم . ومن بعد النضر جاء الهروى أبو عمرو بن حمدويه (٢٢٥ هـ). فلقد كان له كتاب اسمه الجيم أيضا يقول ابن الأنبارى عنه فى كتابه « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » : « وألف كتابا كبيرا على حروف المعجم وابتدأه بحرف الجيم » .

ويذكر حاجى خليفة كتابين آخرين احدهما كتاب العين ويعرف به فيقول : « فى الحروف » ولا يزيد على ذلك شيئا ، وثانى الكتابين هو كتاب الميم للبونى أحمد يعرف به حاجى خليفة وأكبر الظن أن الكتابين من هذا المنحى .

المدرسة المعجمية التى اقتفت أثر الخليل بن أحمد

وبعد .. فلقد كان الخليل بكتابه هذا أول معجمى وكان رأسا لمدرسة اقتفت أثره وانتفعت بمنهجه ، فعلى منهج الخليل ألف الغالى اسماعيل بن القاسم (٣٥٦ هـ) معجمه « البارع » ، ثم الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد (٣٧٠ هـ) معجمه « التهذيب » ثم الصاحب بن عباد أبو القاسم اسماعيل (٣٨٥ هـ) معجمه « المحيط » وابن سيدة أبو الحسن على بن اسماعيل (٤٥٨ هـ) معجمه « المحكم » .

وكذلك انتفعت بكتاب العين المدرسة المعجمية الثانية التى حاولت التحلل من الترتيب على مخارج الحروف ، فهى وان لم تنتفع بمنهج الخليل فى هذا فقد أفادت الكثير من مادته فلم يبعد ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسين (٣٢١ هـ) فى معجمه « الجمهرة » عن كتاب العين . كما أفاد ابن فارس أحمد (٣٩٥ هـ) منه شيئا فى معجميه « المقاييس » و « المجمل » .

وكما شغل كتاب العين المنشئين شغل المتعقبين والمنصفين ، فلقد استدرك أبو فيد مؤرخ السدوسى ونصر بن على الجهضمى على كتاب العين كما استدرك عليه أيضا أبو تراب . وألف المفضل ابن سلمه (٣٠٨ هـ) كتابا فى الرد على الخليل وألف الكرمانى النحوى الوراق هو الآخر (٣٢٩ هـ) كتابا سماه (الجامع فى اللغة) جمع فيه ما أغفله الخليل فى كتاب العين .

وفى نحو هذا ألف المطرز أبو عمر بن عبد الواحد (٣٤٥ هـ) كتابا سماه « فائت العين » كما ألف البشتى الخارزنجى أبو حامد أحمد ابن محمد كتابا سماه (التكملة) وكذلك ألف أبو الأزهرى البخارى

(القرن الرابع) كتابا سماه (الخصائل) والهمذانى الراعى أبو الفتح محمد بن جعفر (٣٧١ هـ) كتابه الاستدراك كما ألف الزبيدى أبو بكر محمد بن حسن (٣٧٩ هـ) كتابه (المستدرك) ثم الخطيب الاسكافى أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٤٢٠ هـ) كتابه « غلط العين » ثم ابن التيانى أبو غالب تمام بن غالب (٤٣٦ هـ) كتابه (الموعب) ٠

فهذه جملة من الكتب التى تعقبت الخليل فى كتابه العين ٠ وثمة كتب أخرى لمؤلفين حاولوا انصاف الخليل والرد على متعقبيه نذكر منها :

١ ــ كتاب التوسط ، لابن دريد محمد بن الحسن (٣٢١ هـ) ٠

٢ ــ كتاب الرد على المفضل فيما أخذه على الخليل لابن نفطويه ابراهيم ابن محمد (٣٢٣ هـ) ٠

٣ ــ كتاب الرد على المفضل فى الرد على الخليل لابن درستويه عبد الله ابن جعفر (٣٧٤ هـ) ٠

وبهذه الجهود المعجمية التى بدأهـا الخليل وهدى اليها بعد ان اهتدى هو اليها استوت بين أيدى المعجمين المادة أولا وتفتحت لهم الطرق ثانيا فأخذوا يلونون ويشكلون ٠

★★★

الرسالة

للإمام الشافعي

ح : ٨١٥م

● كتاب « الرسالة » علامة بارزة على طريق تطور العقل العربى الاســـــلامى ، فمؤلفه ، وهو الامام الشـــافعي ، محمـــد بن ادريس (١٥٠ ــ ٢٠٤ هـ) ، شخصية وسعتْ عصرها كله ، وعبرت عنه اسمى تعبير ، وقد شهد عصر الشافعى انطلاقة هائلة نحو الازدهـــار الثقافى والحضـــارى ، بعد أن كان قد مضى قرن ونصف القرن على بزوغ فجر الاسلام ، وانتصار فتوحاته ٠

كانت العبقريات تتفجـــر فى كل مجـــال ، ولا ســـيما فى الجوانب العقلية ، وكان أهم ما يشغل العقل العـــربى الاســـلامى هو فهم القرآن شكلا ومضمونا ، فمن حيث الشكل : عكف العلماء على دراسة لغة القرآن، أصواتا وألفاظا وتراكيب ، فكان امام هؤلا العلماء هو الخليل بن أحمد ثم تلميذه سيبويه وظفرت العربيـــة على يدى سيبويه بمؤلفـــه الخالد « الكتاب » الذى صار فيما بعد مصدرا لجهود التقعيد النحوى ، ومرجعا لأصول اللغة الفصحى ، الى جانب جهود علمية كثيرة لغيره من الأئمـــة العلماء ٠ ومن حيث المضمون : اجتهد الأئمة من رجال التفسير والحديث والفقه والكلام ، فكان من صدورهم الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقد ظفرت الأمة على يديه بالكثير من الآثار العلمية ولاسيما هذه « الرسالة » التى كان يطلق عليها أيضا : « الكتاب » ٠

ويبدو أن تســـمية الكتب فى ذلكم العهد كانت غـــير ملحة كثيرا ولا مألوفة ، فيكفى أن يعرف الناس ان هذا الكتاب لفلان من العلماء ، وهو عهد لم يشهد الكثير من المؤلفات المدونة ، فقد كان المتبع أن يحفظ العلماء علمهم فى صدورهم ، وان يستودعوه ذاكرة تلاميذهم ، اذ كانت كتابة العلم عيبا يجرح به غير الحفاظ الثقات وقد قال قائلهم :

وتنسى علمـــا ما حـــوى القمطر ما العـــلم الا ما حـــواه الصـــدر

وقد يكون اطـــلاق تسمية « الكتـــاب » على أحد المؤلفات من باب

التخصيص ، للدلالة على أنه هو الجدير بأن يسمى « الكتاب » دون غيره . وفي القرآن من ذلك التعبير : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » .

غير ان اسم « الكتاب » سرعان ما تغير ، وخص باسم « الرسالة » الذي استمر مصاحبا له ، معروفا به في أجيال المسلمين .

نشأة الشافعي ونبوغه

هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . وبهذا النسب الشريف يكون ابن عم رسول الله ، ويجتمع معه في عبد مناف .

اجتمع عليه في طفولته الغربة واليتم والفقر ، فقد ولد سنة ١٥٠ هـ بفلسطين بمدينة غزة على الأصح أو عسقلان . وقيل باليمن ، كما جاء في بعض الروايات ، ومهما يكن فقد ولد في بلد غريب بعيد عن مواطن قومه بمكة أو غيرها من بلاد الحجاز .

ومات أبوه قبل أن ينعم محمد هذا بمعرفته ، وتركه الى أمه ، وكانت امرأة من الأزد . ولكن الله رعاه وأنبته نباتا حسنا . وكان له من آثار نسبه الرفيع ما أبعده عن مواطن الريبة ، وحاطه من كل سوء ، وما جعله يطمح الى معالي الأمور ، ويصل بجده وعقله الألمعي الى أن يكون اماما وعلما خالدا على الزمان .

ورأت الأم أن تنتقل بولدها محمد الى مكة ، ليعيش بين أهله ولا يضيع نسبه بين الجاهلين به . وفيها أخذت مواهبه تتفتح ويشرع في طلب العلم وأسبابه ، وذلك على رقة حاله ، حتى انه كان لا يجد ثمن القراطيس التي يكتب فيها سماعاته .

وفي البلد الحرام حفظ القرآن الكريم وهو حدث ، ثم أخذ يطلب اللغة والشعر والأدب حتى برع في ذلك كله ثم انصرفت همته لطلب الحديث والفقه من شيوخهما ، مثل مسلم بن خالد الزنجي وغيره ، وأضاف الى ذلك أن حفظ موطأ الامام مالك . وكل هذا وهو يعاني من الفاقة وضيق ذات اليد .

وكان من الطبيعي وقد حفظ « الموطأ » أن يسعى للقاء صاحبه امام دار الهجرة ، فذهب اليه قبل سنة ١٧٠ هـ وقرأ كتابه من حفظه . فأعجب الامام به وبقراءته ، لأنه كان من الفصحاء المعدودين . ولما فرغ

منه قال له : « يابن أخي تفقه تعل » كما قال « يا محمد ، اتق الله فسيكون لك شأن » وقد صدقت فيه فراسة الامام ·

ويذكر الربيع بن سليمان الراوى المصرى: انه سمع الشافعى يقول عن لقائه للامام : « وقدمت على مالك وقد حفظت الموطأ ، فقلت : انى أريد أن أسمع الموطأ منك ، فقال : اطلب من يقرأ لك ، قلت : لا عليك أن تسمع قراءتي ، فان سهل عليك قرأت لنفسى · قال : اطلب من يقرأ لك ، وكررت عليه فقال : اقرأ فلما سمع قراءتى ، قال : اقرأ ، فقرأت عليه حتى فرغت منه (٤٨) ·

★★★

لزم الشافعى الامام مالك بن أنس بالمدينة حتى مات سنة ١٧٩ ، وظهر نبوغه في الفقه وفى سائر ما عنى به من العلوم · وكانت نزعته فى الفقه نزعة أهل الحديث ، وذلك لعلمه التام بالقرآن ومعانيه وشدة طلب الحديث الصحيح ، ليكون من أساتيذه فى الأحكام الفقهية وافتائه بهـــا ·

وبلغ من ذلك انه كان ــ كما يذكر ابن حجر ــ اذا ذكر التفسير ، كأنه شهد التنزيل ، وكما يقول أبو حسان الزنادى عنه : ما رأيت أحدا أقدر على انتزاع المعانى من القرآن ، والاستشهاد على ذلك من اللغة ، من الشافعى · ويذكر داود بن على امام أهل الظاهر عن اسحاق بن راهويه انه قال :

ذهبت أنا وأحمد بن حنبل الى الشافعى بمكة · فسألته عن أشياء ، فوجدته فصيحا حسن الأدب ، فلما فارقناه أعلمنى جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم الناس فى زمانه بمعانى القرآن ، وأنه أوتى فيه فهما ، فلو كنت عرفته للزمته · قال داود : رأيته يتأسف على ما فاته منه·

ولهذا لا عجب أن رأينا شيخه الأول مفتى مكة وهو مسلم بن خالد الزنجى يأذن له بالافتـــاء وهو دون العشرين من عمره ، ويقول له : « أفت يا أبا عبد الله ، فقد آن لك أن تفتى » ، كما ينقل الرازى · وكما يذكر صاحب شذرات الذهب أيضا ·

وقد بلغ من نبوغه وعلو شأنه فى الفقه وأدواته أن نال بحق تقدير أقرانه ومن أتوا بعده ، وثناءهم عليه ، واشادتهم به ، كما يذكر جمهرة مؤرخيه · هذا ابن حنبل يقول عنه :

« ما رأيت أحدا أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى ويذكر مما برع فيه هذه العلوم الأربعة : اللغة ، واختلاف الناس ، والمعانى (أى معانى القرآن) ، والفقه ·

ويذكر الخطيب عن طريق الحميدى انه كان اذا ذكر عنده الشافعى يقول : حدثنا سيد الفقهاء • ومن المأثور عن ابن حنبل أن ابنه عبد الله سأله : أى رجل كان الشافعى ؟ فانى سمعتك تكثر الدعاء له ، فقال له : يابنى ، كان الشافعى كالشمس للنهار ، وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين خلف ؟ وعنهما من عوض ؟ •

رحلات الشافعى وأثرها

من أدب العلماء الأفذاذ الرحلة فى طلب العلم والسماع من شيوخه ، لا يبالون فى هـذا السبيل بما يصيبهم من تعب ونصب • وقـد كان الشافعى من هذا الطراز النادر من العلماء ، ولذلك رأيناه يرحل من مكة الى المدينة ، فيلقى امام دار الهجرة ويأخذ عنه • ونراه بعد هذا فى العراق أكثر من مرة ثم فى مصر أخيرا حيث استقر به المقام ، ولقى ربه عام ٢٠٤ هـ بعد أن ملأ طباق الأرض علما •

يذكر ابن خلكان فى « الوفيات » (جـ ١ : ٦٣٨) ، بصدد رحلات الشافعى بين الحجاز والعراق ومصر ما يأتى نصه : « وحديث رحلته الى مالك مشهور ، فلا حاجة الى التطويل فيه • وقدم بغـداد سنة خمس وتسعين ومائة ، فأقام بها سنتين ، ثم خرج الى مكة ، ثم عاد الى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة ، فأقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر ، وكان وصوله اليها فى سنة تسع وتسعين ومائة ، وقيل : احدى ومائتين ، ولم يزل بها الى أن توفى يوم الجمعة اخر يوم رجب سنة أربع ومائتين » •

وقد كانت رحلته الأولى الى بغداد ، وان اختلف المؤرخون فى بيان سببها ، كبيرة الأثر بالنسبة الى الشافعى والى الفقه نفسه ، وذلك أن أصحابه من المالكية كانوا يطلبون اليه أن يرد على الأحناف أهل الرأى ، ولكنه كان يرى أن يعرف ما كتبوه قبل أن يتولى الرد عليهم ، وكان هذا طبيعيا •

ولهذا نراه لما وصل الى العراق يختلف الى محمد بن الحسن الشيبانى ويلزمه ويكتب كتبه ، وبذلك عرف آراء فقهاء العراق • وفى ذلك يذكر عنه ابن العماد الحنبلى انه قال : كتبت عن محمد وقر بعير كتبا ، ولولاه ما انفتق لى من العلم ما انفتق •

كما يذكر ابن أبى حاتم الرازى فى هذا أن الشافعى نفسه قال أيضا : « أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين دينارا ، ثم تدبرها ، فوضعت الى جنب كل مسألة حديثا ، يعنى ردا عليه •

هكذا كانت بداية معرفة الشافعي بمحمد بن الحسن وبكتبه وبأقاويل الأحناف بصفة عامة ، وكان من الطبيعي ـ اذا راعينا اختلاف منهج أهل الحديث عن منهج أهل الرأى اختلافا كبيرا فى استنباط الأحكام الفقهية ـ أن تكون مناظرات ومساجلات بين الطرفين ٠

انه نفسه وهو يتكلم عن اتصاله بمحمد بن الحسن ونزومه مجلسه : « وكان اذا قام ناظرت أصحابه ، فقال لى : انك تناظر ، فناظر فى الشاهد واليمين ٠ فامتنعت فألح على ، فتكلمت معه ٠ فرفع ذلك الى الرشيد فأعجبه ووصلنى » ٠

وحسنت منزلته لدى الرشيد ومحمد بن الحسن معا ، حتى انه ليروون أنه جاء مرة الى منزل ابن الحسن وكان خارجا الى دار الخلافة ، فلما رآه نزل ٠ وقال لغلامه اذهب فاعتذر ٠ فقال له الشافعي : لنا وقت غير هذا ، فقال : لا ، وأخذ بيده فدخلا الدار ٠ ثم يقول راوى هذه الحادثة ، وهو أبو حسان بن عثمان الزيادى : وما رأيت محمدا يعظم أحدا اعظام الشافعي ٠

هذا ، وكان أثر اتصال الشافعي بأهل الحديث أولا وأخذ عنهم ثم بأهل الرأى ومعرفته بأقاويلهم وآرائهم ومناظراته لهم ثانيا ، كان ذلك الأثر كبيرا جدا من ناحيتين : ناحية بحثه عن السنة وما يؤخذ منها وبيان الصحيح وحكم أخبار الآحاد فى العمل أو عدم العمل بها ، ثم بوجوب الاحتجاج بالسنة بجانب القرآن بصفة عامة ٠

وبذلك الى جانب بحوثه فى القرآن وبيان ناسخه من منسوخه ، وهل يجوز نسخ حكم من أحكامه بالسنة أو لا يجوز ، الى غير هذا كله من مباحث كتاب الله وسنة رسوله ، بذلك كله كان الشافعي بحق هو واضع علم أصول الفقه ، على ما سيأتى بيانه بشيء من التفصيل عند الكلام على كتابه « الرسالة » ٠

والناحية الثانية هى أنه وصل بعد الدرس والتمحيص وتمييز الصحيح من الآراء والمناهج من غير الصحيح الى أن يكون لنفسه مذهبا خاصا ، هو وسط بين الطرفين ، طرف أهل الحديث وعلى رأسهم مالك وأصحابه بالمدينة ومصر ، الذين يجعلون عمادهم السنن والآثار ، ولا يجنحون الى الرأى الا بالقدر الذى يرونه ضروريا ٠

وطرف أهل القياس والرأى (بالعراق وما والاه من الأمصار) الذين يعتمدون ، بعد القرآن المحكم والسنة الصحيحة التى لا ريب فيها ، على اعمال العقل ودقة النظر وقوة الجدل والأخذ بالقياس ٠

وكان النزاع شديدا بين هذين الطرفين المتعارضين فجاء الشافعي وسطا يوفق بينهما ويأخذ من كل منهما بقدر ، فهو مثلا ينصر السنة نصرا شديدا ، ولكنه مع هذا يأخذ بالقياس فى غير اسراف ، اذ يشترط أن يكون له أصل وسند من الكتاب والسنة .

وقد أعانه على سلوك هذا المسلك الحسن ، وان أغضب به كثيرا من أهل الرأى وكثيرا من أهل الحديث والآثار أيضا ، انه كان طالب حق لا جدل فى دراساته ومناظراته ، حتى لقد أثرت عنه هذه الكلمة : ما ناظرت أحدا قط الا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ، وتكون عليه رعاية من الله وحفظه ، وما ناظرت أحدا الا ولم أبال بين الله الحق على لسانى أو لسانه » .

وأخيرا عاد الشافعي الى مصر سنة ١٩٩ هـ ، أو أوائل سنة ٢٠٠ هـ واستقر حتى توفاه الله اليه ـ سنة ٢٠٤ هـ ـ وفيها لقى قبولا حسنا بوصفه تلميذا للامام مالك ، الى أن ظهر منه ما خالفه فيه ، وفى الحق انه كان كبير الاجلال لمالك وكان يذكره بانه أستاذ له . ولكنه مع هذا كان أكثر حبا للحق وتعصبا له متى هدى اليه ، وحينئذ يأخذ به وان خالف فقهاء العراق جميعا .

مؤلفات الشافعى

ألف الشـــافعى رحمه الله كتبا كثـــيرة فى المراحل التى مر بها وارتحل فى أثنائها بين بلاد عديدة ، وقد جمع بعض المؤرخين هذه الكتب وذكر بعضهم بعضا منها ، وأســـماها كل واحد منهم بمسميات مختلفة يقول ابن هداية : « من كتب مذهب الشافعى الأمالى ، ومجمع الكافى ، وعيون المسائل ، والبحر المحيط ، هذه من القديم ، والأم ، والامـــلاء والمختصرات والرسالة والجامع الكبير من الجديد ، وله كتاب آخر غير مشهور قريب من المحرر نظما وحجما ألفه المزنى من مسوداته وسماه الاختصار » .

وقد عدد النووى كتب الشافعى . وأدخل فيها كتب تلاميذه التى اختصروها من علمه فقال : « ومصنفات الشافعى فى الأصول والفروع لم يسبق اليها كثرة وحسنا ، فان مصنفاته كثيرة ومشهورة كالأم فى نحو عشرين مجلدا ، وجامع المزنى الكبير والصغير ، وكتاب حرملة ، وكتاب الحجة وهو القديم والرسالة القديمة والرسالة الجديدة والأمالى والاملاء ، وغير ذلك مما هو معلوم من كتبه وقد جمعها البيهقى فى المناقب ، قال القاضى الامام أبو محمد الحسين بن محمد المروزى فى خطبه تعليقه : قيل ان الشافعى رحمـــه الله صنف مائة وثلاثة عشر كتـــابا فى التفسير والفقه والأدب وغير ذلك ، وأما حسنها فأمر يدرك بمطالعتها فلا يتمارى فى حسنها موافق ولا مخالف » .

هذا .. وقد كان الشافعى يطلب الحق بكل سبيل ، كما كان عريق التفكير قبل أن يكتب ، كما كان كثير التدبير فيما كتبه ، حتى انه ليعدل عن كثير منه ويعيد كتابته ثانيا ، كما فعل بالرسالة وغيرها ، ولذلك عرف بأن له مذهبين : مذهب قديم بالعراق ، والمذهب الجديد الذى أثبته فى كتبه التى أثرت عنه بمصر .

قال محمد بن مسلم بن واره الرازى لأحمد بن حنبل : ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أحب اليك أم التى بمصر ؟ قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر ، فانه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ، ثم رجع الى مصر فأحكم تلك .

الرســـالة

تحليلهـا وتقديرهـا

لما ظهر الشافعي بعلمه ومواهبه ، ولفت الأنظار اليه في محالسه في المسجد الحرام ، ثم في لقاءاته بالعراق ، أرسل اليه بعض علمائها ، وهو عبد الرحمن بن مهدى الحافظ الامام العلم المتوفى ســنة ١٩٨ هـ رسالة يطلب اليه فيها ان يكتب لهم كتابا يبين فيه معانى القرآن ويجمع فيه قبول الأخبار · أى شروط قبول الحديث ويبين فيه حجية الاجماع والناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة ·

وقد أكد ذلك الطلب وتلك الحاجة العالم « على بن المدينى » المحدث شيخ البخارى الذى قال للشافعى « أجب عبد الرحمن بن مهدى عن كتابه فقد كتب اليك يسألك وهو متشوق الى جوابك ، قال : فأجابه الشافعى ، وهو كتاب الرسالة الذى كتب عنه بالعراق ، وانما هى رســالته الى عبد الرحمن بن مهدى ·

عند ذلك قام الشافعى باجابة مطلب عبد الرحمن بن مهدى وألف هذا الكتاب فأطلق الناس عليه هذا الاسم « الرسالة » لأنه كان عبارة عن رسالة من الامام الشافعى الى عبد الرحمن بن مهدى حملها اليه الحارث ابن سريج النقال الخوارزمى البغدادى ولقب بالنقال لهــذا السبب ، أما الشافعى فلا يسمى هذا الكتاب « الرسالة » ولكن يسميه « الكتاب » أو كتابى ·

● **تأليفها :**

حسب الروايات السابقة يكون الشافعى قد ألف رسالته هذه فى مكة وأرسلها الى عبد الرحمن بن مهدى فى العراق ، وذلك هو المشهور ، ولكن هناك رواية أخرى تذكر ان الشافعى ألف كتابه هذا « الرسالة » فى العراق ، قال الرازى « اعلم أن الشافعى رضى الله عنه صنف كتاب الرسالة ببغداد ، ولما رجع الى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة وفى كل منهما علم كثير » ·

ومن هذه الرواية نعلم أيضا انه قد أعاد تأليفها فى مصر بعد انتقاله اليها ، ولا تعارض بين الروايات · فمن الجائز أن يكون الشافعى قد ألف

رسالته ثلاث مرات ، لا ينشئها انشاء ، ولكن يعيد النظر فيها وفى ترتيبها بالاضافة والحذف أو التقديم والتأخير ، كما يفعل معظم المؤلفين فى طبعات كتبهم بعد الطبعة الأولى ، وعلى هذا يمكن القول ان الشافعى قد ألفها فى مكة ، وأرسلها مع ابن سريج الى عبد الرحمن بن مهدى ، فلما قدم العراق فى قدومه الثانى سنة ١٩٥ هـ ، حيث أقام سنتين أعاد النظر فيها فاعتبر ذلك تأليفا لها · فلما قدم مصر أعاد تأليفها ، وأملاها على أصحابه يضيف حينا ويختصر حينا آخر حسب ما تسعفه الذاكرة والحفظ الذى كان عليه اعتماده فى املاء كتبه ، وقد تبين لنا من استقراء كتب الشافعى الموجودة التى ألفت بمصر انه ألف هذه الكتب من حفظه ، ولم تكن كتبه كلها معه · انظر اليه يقول فى كتاب الرسالة : « وغاب عنى بعض كتبى وتحققت بما يعرفه أهل العلم بما حفظت فاختصرت خوف طول الكتاب ، فأتيت ببعض ما فيه الكفاية ، دون تقصى العلم فى كل أمره » ·

ولنأخذ الآن فى عرض هذا الكتاب القيم وتحليله ، لنعرف ما اشتمل عليه من أبواب وفصول ومباحث ، وكلها عظيم الفائدة والأثر ، وكلها فيه هدى للناس وبيان للفقهاء الذين يعملون لاستنباط الأحكام الشرعية من أصولها وأدلتها ·

للكتاب خطبة ، جعلها الامام المؤلف مقدمة له · وفيها ذكر أن القرآن قد جمع الله فيه ما أحل وحرم وما يجب علينا أن نتعبد به مما افترضه علينا ووعدنا عليه ثوابه ، ولهذا كان حقا على طلبة العلم بلوغ غاية الجهد فى الاستكثار من علمه نصا واستنباطا ، والرغبة الى الله فى العون اليه ، فانه لا يدرك خير الا بعونه ·

وذلك لأن من وصل الى علم أحكام الله فى كتابه وقال وعمل بما علم منه ، فاز بالخير والفضيلة فى دينه ودنياه · وصار فى الدين أهلا لموضع الامامة ·

وكان آخر الخطبة هذه الكلمة البليغة · فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة الا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها ، قال الله تبارك وتعالى « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » (١ ــ ابراهيم) · وقال : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (٤٤ ــ النحل) وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٨٩ النحل) · وقال : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم » (٥٢ الشورى)·

وكان من الطبيعي والقـرآن عماد الدين ، وفيه بيان ما أراد بيانه من الأحكام ـ أن يبدأ الشافعي « الرسـالة » بباب بين فيه كيفية بيان كتاب الله لما جاء به من أحكام العبادات والمعاملات لأن البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع ·

فمن البيان في القرآن ما يكون نصا لا يحتمل التأويل وذلك كجمل ما فرضه الله من صلاة وزكاة · ونحوهما · ومثل ما حرمه من أكل الميتة ولحم الخنزير ونحوهما · ومنه ما أحكم الله فرضه في الكتاب ، ثم بين كيفه على لسان نبيه ، مثل عدد الصلاة والزكاة وأوقاتها ومنه ما سنه الرسول مما لا نص فيه في الكتاب ، ولكن الله فرض علينا في الكتاب طاعته ، الى آخر ضروب البيان التي ذكرها الشافعي ·

وفي هذا الباب تحدث الشافعي عن مصادر الأحكام وأدلتها وبين انها خمسة مراتب على خمس مراتب :

الأولى : الكتاب والسنة اذا ثبتت ·

الثانية : الاجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة ، والمراد بالاجماع اجماع الفقهاء الذين أوتوا علم الخاصة ·

الثالثة : قول بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قولا من غير أن يعرف له مخالف ·

الرابعة : اختلاف الصحابة فيأخذ من قول بعضهم ما يراه أقرب الى الكتابة والسنة أو يرجحه قياس ولا يتجاوز أقوالهم الى غيرها ·

الخامسة : القياس على أمر عرف حكمه بواحد من المراتب السابقة ·

ثم عقد الشافعي بابا لخبر الواحد ، وما يشترط في هذا الخبر من شروط حتى يمكن الاحتجاج به فمن هذه الشروط :

١ ـ أن يكون من حدث به ثقة في دينه معروفا بالصدق في حديثه ·

٢ ـ وأن يكون عاقلا لما يحدث به عالما بما يحيل (٤٩) معاني الحديث ·

٣ ـ وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحـروفه كمـا سمع ولا يحدث به على المعنى ·

٤ ـ حافظا ان حدث به من حفظه ، حافظا لكتابه ان حدث من كتابه ·

٥ ـ أن يوافق حديثه أهل الحفظ في الحديث ·

٦ ـ أن يكون بريا من أن يكون مدلسا يحدث عمن لقى ما لم يسمع منه ، ويحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يحدث الثقات بخلافه .

٧ ـ وأن يكون هكذا من فوقه ممن حدثه حتى ينتهى الحديث موصولا الى النبى صلى الله عليه وسلم أو الى من انتهى به اليه دونه لأن كل واحد منهم مثبت لمن حدثه ، ومثبت على من حدث عنه فلا يستغنى فى كل واحد منهم عما وصفت .

وبعد الفراغ من ذلك أخذ يتكلم عن النسخ وحكمته ، وعن الناسخ والمنسوخ . وأطال الكلام فى فصول عدة فى هذا الموضوع المهم . فهو يذكر أن الله فرض فرائض أثبتها ، وأخرى نسخها تخفيفا عن عباده ، وابان انه نسخ ما نسخ من القرآن به وان السنة لا تكون ناسخة له ، بل هى تابعة له لأن على الرسول اتباع ما يوحى اليه ، وليس له تبديله من نفسه .

وتكلم بعد ذلك عن الناسخ والمنسوخ الذى يدل الكتاب على بعضه والسنة على بعضه ، وعن الفرائض التى أنزلها الله نصا ، ثم عن الأخرى المنصوصة ، ولكن للرسول سنة معها على اختلاف أنواع هذه الفرائض ، ثم عما يكون للسنة من تخصيص العام ومن ذلك عدم توريث القاتل من مال قتيله ولو كان أباه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس لقاتل شىء » مع نص القرآن على ان للابن نصيبا مفروضا من تركة أبيه .

وأخذ بعد هذا فى بحث جمل الفرائض التى أحكم الله فرضها بكتابه ، وبين كيف يكون القيام بها على لسان نبيه ، وذلك مثل الصلاة والزكاة والحج . فكل هذا فرض بالقرآن ، ولكن السنة هى التى بينت عدد الصلوات وعدد ركعات كل منها ، وكيفية أدائها فى الحضر والسفر .

وكذلك الأمر فى الزكاة التى يقول الله فيها (سورة التوبة ١٠٣) : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، فكان مخرج الآية ـ كما يقول الشافعى ـ عاما على الأموال . وكان يحتمل أن تكون على بعض الأموال دون بعض ، فدلت السنة على أن الزكاة فى بعض الأموال دون بعض . الى آخر ما قال .

والأمر مثل هذا فى الحج الذى فرضه الله بقوله (سورة آل عمران ٩٧) : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » . فجاء الرسول وبين أن السبيل الزاد والمركب ، وأخبر بمواقيت الحج ، وكيف تكون التلبية ، وما يجب أن يتقيه المحرم من لبس الثياب والطيب ، كما أعلمنا بسنته أعمال الحج كلها من الطواف بالكعبة والوقوف بعرفة ورمى الجمار وما سوى ذلك كله .

وجعل بعد ذلك بابا عنوانه « باب العلل فى الاحاديث » ، تكلم فيه عن الأحاديث التى نجد فى القرآن مثلها نصا ، وأخرى فى القرآن مثلها جملة ، وعن التى جاءت بأكثر مما فى القرآن ، والتى ليس فيها شىء فى القرآن ، كما تكلم عن الأحاديث الناسخة والمنسوخة ، والأخرى التى ليس فيها دلالة على ناسخ ولا منسوخ ، وعن أحاديث فيها أوامر ونواه للرسول، فيصرف بعضها الى التحريم ، وبعضها الى غير ذلك . كما تكلم أيضا عن مباحث أخرى تتعلق بالحديث وعلومه ، ومنها ما يكون من الاختلاف الذى يكون بين بعضها وأسبابه ، كما تحدث بعد ذلك كله عن أسباب اختلاف القراءات فى القرآن .

ويطيل بصفة خاصة فى كلامه عن النهى فى الأحاديث ، بادئا فى هذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه » ، مبينا أن النهى هذا جاء على معنى دون معنى آخر ، وهذا المعنى هو أن تكون المرأة قد رضيت بالأول وأذنت فى التزوج منه ، والا ما كانت خطبة الثانى منهيا عنها . ثم تكلم بعد هذا عن النهى لمعان أخرى فى البيوع وغيرها .

وبعد ذلك نرى الشافعى يخصص بابا للعلم وما يجب على الناس فيه ، فيذكر أن العلم علمان : علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله ، مثل الصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت على المستطيع ، والزكاة فى الأموال ، وتحريم الربا والزنا والقتل والخمر والسرقة ، وما كان فى معنى هذا .

ثم بين أن هذا الصنف من العلم موجود أيضا فى القرآن ، وموجود عاما عند المسلمين ، ويحكونه عن الرسول ولا يتنازعون فيه ، لأنه لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا الاختلاف .

وأما النوع الثانى من العلم ، فهو علم أحكام فروع الفرائض وغيرها ، مما ليس فيها نص قرآن ، ولا فى أكثر نص سنة الا ما كان منها من أخبار الخاصة ، وما كان يحتمل التأويل ، وهذه الدرجة من العلم لا تبلغها العامة ، ولم يكلفها كل الخاصة ، واذا قام بها من الخاصة من فيه الكفاية لا يكون حرج على من تركها .

ولما فرغ من بيان هذا كله ، نراه يتكلم عن خبر الواحد ، وعن الحجة فى تثبيته فى بابين ، وهو فى هذا يطيل ، لأن الأمر يقتضى الاطالة حقا ، وذلك بأن خصوم السنة ردوا الأحاديث التى رواها آحاد ولم يروها حجة فى التشريع ، فندب « ناصر السنة » نفسه للرد عليهم ودحض ما يحتجون به ، مستدلا بما لا سبيل الى دفعه ، وبما لا يسع المنصف الا التسليم به .

ثم انتهى الى الكلام على الاجماع وحجيته مبينا أن عامة المسلمين لا تجتمع على خلاف لسنه رسول الله ، ولا على خطأ • وتناول بعده القياس باعتباره أصلا من أصول الفقه بعد الكتاب والسنة والاجماع ، مبينا الأدلة على وجوب المصير اليه عند الضرورة ، وشروط القياس الصحيح ، ومن يجوز شرعا له أن يقيس ، ثم من يصح منه الاجتهاد فى أحكام الله •

وكان من الطبيعى للشافعى وهو يتكلم عن القياس وشروطه ، أن يتكلم عن الاستحسان الذى قال به الأحناف وابطاله ، فذكر انه حرام على أى انسان أن يقول بالاستحسان اذا خالف الاستحسان الخبر من الكتاب أو السنة ، لأن حلال الله وحرامه أولى ألا يقال فيهما بالتعسف والاستحسان ، وانه لو قال أحد فى هذا بلا خبر لازم أو قياس كان آثما •

والفقهاء يختلفون فى كثير من أحكامهم ، فهل يسعهم هذا الاختلاف ؟ هنا يتكلم الشافعى عن الاختلاف المحرم وغيره ، وقال عن الاختلاف المحرم وغير المحرم ما نصه :

« كل ما أقام الله به الحجة فى كتابه أو على لسان نبيه ، منصوصا بينا لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه • وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويدرك قياسا ، فذهب المتأول أو القايس الى معنى يحتمله الخبر أو القياس ، وان خالفه فيه غيره ، لم أقل انه يضيق عليه ضيق الخلاف فى المنصوص » •

ثم أقام بعد هذا الحجة على ما رآه من التفرقة بين هذين الضربين من الاختلاف •

وبعد ذلك تكلم عن اختلاف الصحابة فى بعض مسائل الميراث ، وبخاصة ميراث الجد ، ثم ابان رأيه فيما ينبغى العمل به من أقاويل الصحابة بصفة عامة اذا اختلفوا بصفة عامة فى آرائهم ، فقال : « نصير منها الى ما وافق الكتاب أو السنة أو الاجماع ، أو كان أصح فى القياس » •

ثم ذكر انه يصير الى قول الواحد منهم • لا يحفظ عن غير منهم فيه له موافقة ولا خلاف ، اذ لم نجد كتابا ولا سنة ولا اجماعا ، ولا شيئا فى معنى هذا أو وجد معه قياس •

وأخيرا يختم الامام رسالته ببيان أن أصول الفقه ليست فى مرتبة واحدة ، بل لكل منها مرتبة معلومة بحيث يجىء بعضها فى أثر بعض فيقول :

« نحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليهما التى لا اختلاف فيها ، فنقول لهذا : حكمنا بالحق فى الظاهر والباطن ونحكم بالسنة قد رويت

من طريق الانفراد · لا يجتمع الناس عليها · فتقول : حمكنا بالحق فى الظاهر ، لأنه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث ·

ونحكم بالاجماع ثم القياس ، وهو أضعف من هذا ، ولكنها منزلة ضرورة ، لأنه لا يحل القياس والخبر موجود ؛ كما يكون التيمم طهارة فى السفر عند الاعواز من الماء ، وانمـا يكون طهارة فى الاعواز فكذلك يكون ما بعد السنة حجة اذا أعوز من السنة » ·

مقتبسات من الرسالة

وبعد أن عرضنا تحليلا لمحتويات الرسالة التى وضع بها الشافعى علم أصول الفقه وابتدعه على غير مثال سابق ، ولكن هذا لا يغنى عن ايراد مقتبسات من هذه الرسالة تبرز هذا التحليل وتكشف عن اسلوب مؤلفه العظيم وطريقته فى التفكير ٠

ولن نطيل فى هذه الاقتباسات ، فحسبنا أن نجىء بما يجعلنا نلمس حقا قوة تفكير كاتبها العظيم ، ومقدار دفاعه من سنة الرسول ، والأسباب التى من أجلها خالف من خالفه من معاصريه الفقهاء ومن غيرهم من خصوم السنة والداعين الى عدم الأخذ بالكثير منها ، ومن ثم نعرف له فضله الكبير وألمعيته فى كل نواحى تفكيره ٠

● وجوه بيان القرآن :

وأشار الشافعى فى مقدمة الرسالة الى أن فى القرآن ــ وهو الأصل الأول للشريعة الاسلامية ــ بيانا لكل شىء ، ثم بدأ الرسالة بتعريفنا كيف يكون هذا البيان فقال :

« البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع ٠ فأقل ما فى تلك المعانى المجتمعة المتشعبة انها بيان لمن خوطب به ممن نزل القرآن بلسانه ، متقاربة الاستواء عنده وان كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض ، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب ٠

فجماع ما أبان الله لخلقه فى كتابه مما تعبدهم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه ، من وجوه ، فمنها ما أبانه الله لخلقه نصا ، مثل جمل فرائضه فى أن عليهم صلاة وزكاة وحجا وصوما ، وانه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحرم الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وبين لهم كيف فرض الوضوء ، مع غير ذلك مما بين نصا ٠

ومنها ما أحكم فرضه بكتابه وبين كيف هو على لسان نبيه ، مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها وغير ذلك من فرائضه التى أنزل الله فى كتابه

ومنها ما سن رسول الله مما ليس فيه نص حكم ، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله والانتهاء الى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل ٠

ومنها ما فرض الله على خلقه ٠ الاجتهاد في طلبه وابتلى طاعتهم في الاجتهاد ، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم ، فانه يقول تبارك وتعالى (سورة محمد ٣١) : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ٠ وقال (سورة آل عمران ١٥٤) : « وليبتلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم » ٠

● الحاجة الى السنة :

وسنة الرسول هي الأصل الثاني للشريعة ، ولابد منها بجانب القرآن كما رأينا ٠ وقد تناول الشافعي هذه المسألة في مواضع كثيرة من الرسالة ، ونذكر منها قوله ، بعد أن أتى ببعض الآيات الدالة على فرض الصلاة والزكاة والحج ٠

أحكم الله فرضه في كتابه في الصلاة والزكاة والحج ، وبين كيف فرضه على لسان نبيه ، فأخبر رسول الله ان عدد الصلوات المفروضات خمس ، وأخبر ان عدد الظهر والعصر والعشاء في الحضر أربع وعدد المغرب ثلاث وعدد الصبح ركعتان ٠

وسن فيها كلها قراءة ، وسن ان الجهر فيها بالقراءة في المغرب والعشاء والصبح ، وأن المخافته بالقراءة في الظهر والعصر ٠ وسن ان الفرض في الدخول في كل صلاة بتكبير ، والخروج منها بتسليم ، وانه يؤتى فيها بتكبير ، ثم بقراءة ، ثم ركوع ، ثم سجدتين بعد الركوع ، وما سوى هذا من حدودها ٠٠٠

ثم ذكر في الزكاة آيات جاء فيها فرضها ، ومنها قوله تعالى (سورة التوبة ١٠٣) : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ثم قال : فكان مخرج الآية (أي التي ذكرناها هنا) عاما في الأموال ، وكان يحتمل أن يكون على بعض الأموال دون بعض ، فدلت السنة على ان الزكاة في بعض الأموال دون بعض ٠

فلما كان المال أصنافا ، منه الماشية ٠ فأخذ رسول الله من الابل والغنم ، وأمر فيما بلغنا بالأخذ من البقر خاصة دون الماشية سواها ، ثم أخذ منها بعد مختلف ، كما قضى الله على لسان نبيه ، وكان للناس

ماشية من خيل وحمر وبغال وغيرها ، فلما لم يأخذ رسول الله منها شيئا ، وسن أن ليس فى الخيل صدقة ، استدللنا على أن الصدقة فيما أخذ منه وأمر بالأخذ منه دون غيره ·

وبعد ان بين الشافعي ما دلت عليه السنة من وجوب الزكاة فى أصناف أخرى من المال دون غيرها قال :

وقال الله (سورة الأنعام ١٤١) : « وآتوا حقه يوم حصاده » فسن رسول الله أن يؤخذ مما فيه زكاة من نبات الأرض ، الغراس وغيره ، على حكم الله جل ثناؤه ، يوم يحصد ، لا وقت له غيره · وسن فى الركاز الخمس ، فدل على انه يوم يوجد ، لا فى وقت غيره · أخبرنا سفيان عن الزهرى عن ابن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله قال : « وفى الركاز الخمس » ·

ولولا دلالة السنة كان ظاهر القرآن ان الأموال كلها سواء ، وان الزكاة فى جميعها ، لا فى بعضها دون بعض ·

***

القيمة العلمية لرسالة الشافعى

تستمد « رسالة الشافعى » مكانتها العلمية ، وقيمتها الفقهية والأصولية من الشافعى نفسه ، وهو من عرفنا من العلم والفقه والحديث واللغة ، لذلك فان كل فضل لهذه الرسالة انعكاس لفضل الشافعى ، ومكانته بين العلماء ، كما أن كل ثناء على الشافعى نجده بصورة أو بأخرى فى ثنايا هذه الرسالة .

وقد تكلم العلماء كثيرا فى فضل هذه الرسالة وقيمتها بما يضعها فى قمة كتب الفقه وأصوله ، وفى قمة كتب الشافعى أيضا ، واليك طرفا من ثناء العلماء على هذه الرسالة وآرائهم فى قيمتها ومكانتها :

قال عبد الرحمن بن مهدى ـ الذى أرسل اليه الشافعى رسالته هذه : « لما نظرت الرسالة للامام الشافعى أذهلتنى لأننى رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح فانى لأكثر الدعاء له » . وقال : « ما أصلى صلاة الا وأنا أدعو للشافعى فيها » .

وقال المزنى : « قرأت كتاب الرسالة للشافعى خمسمائة مرة ، ما من مرة منها الا واستفدت فائدة جديدة لم أستفدها فى الأخرى » .

وقال أيضا : « أنا أنظر فى كتاب الرسالة عن الشافعى منذ خمسين سنة ما أعلم انى نظرت فيه من مرة الا وأنا أستفيد شيئا لم أكن عرفته » .

وكتاب « الرسالة » هذا هو أول كتاب منظم فى أصول الفقه وفى أصول الحديث أيضا . أما انه أول كتاب فى أصول الفقه فلأن الناس قبله كانوا يتكلمون فى المسائل الأصولية حسبما اتفق ، لم يكن لهم نظام جامع ، ولا قواعد كلية الى أن ألف الشافعى رسالته هذه ، فوضع فيها القواعد الكلية والقانون الجامع فى أصول الفقه ولذلك فان نسبة الأصول الى الامام الشافعى كنسبة المنطق الى أرسطو ، ونسبة العروض الى الخليل ابن أحمد . وفى ذلك يقول فخر الدين الرازى : « اعلم أن نسبة الشافعى الى علم الأصول كنسبة أرسطو الى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد الى علم العروض وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطو يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة ، ولكن ما كان عندهم قانون فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين . وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعارا وكان اعتمادهم على مجرد الطبع ، فكذلك ههنا الناس ، كانوا قبل

الامام الشافعي رضى الله عنه يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع اليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها فاستنبط الشافعى علم أصول الفقه ، ووضع للناس قانونا كليا يرجع اليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى الى علم الشريعة كنسبة أرسطو الى علم العقل ، فلما اتفق الناس على أن استخراج علم المنطق بدرجة عالية لم يتفق لأحد مشاركة أرسطو فيها ، فكذا ههنا وجب أن يعترفوا للشافعى بسبب وضع هذا العلم الشريف بالرفعة والجلالة والتمييز على سائر المجتهدين بسبب هذه الدرجة الشريفة » . ثم يقول :

« والناس وان أطنبوا بعد ذلك فى علم أصول الفقه الا انهم عيال على الشافعى فيه لأنه هو الذى فتح هذا الباب ، والسبق لمن سبق » .

نحن اذن أمام ثلاثة مستويات : مستوى الناس قبل الشافعى : حيث لم يكن لهم قانون كلى ولا نظام صحيح فى أصول الفقه ، ثم مستوى الشافعى : الذى ابتكر هذا العلم العظيم ووضع أصـوله وفق قواعده وأرسى كلياته . ومستوى الناس بعد الشافعى . وهم عيال على الشافعى لأنهم لم يضيفوا شيئا وانما وضحوا وفسروا ما اختصر الشـافعى أو اختصروا وأوجزوا ما أطنب فيه الشافعى

وأما انه أول كتاب فى أصول الحديث أيضا : فلانه انتصر فيه للسنة النبوية الشريفة فقد دمج الشافعى « الكتاب والسنة » ـ مع انهما ليسا شـيئا واحدا ـ لأن القرآن اشـتمل على بيان الكليات وكثير من الجزئيات ، والسنة أتمت بيان القرآن الكريم ، وفصلت ما أجمل ، ووضحت بعض ما قد يدق على بعض العقول ادراكه ، فالشافعى وان أوضح أن السنة ليست فى مرتبة القرآن ، فقد رأى أن القرآن والسنة فى درجة واحدة فى الاستدلال .

ولقد دافع الشافعى عن السنة دفاعا شديدا ، ليس فقط لأن فى السنة وقائع التطبيق لما جاء من تشاريع فى القرآن ، بل لأنه رأى قوما من معاصريه يحملون على السنة الى درجة عدم الاعتراف بها ، والمناداة بالاكتفاء بما جاء فى القرآن الكريم ، وقد أدرك الشافعى أن هذا الهجوم مقدمة للهجوم على القرآن ، وهذا ما كان ...

***

هكذا نرى الامام العظيم يبتدع علما قائما بذاته ، هو علم أصول الفقه ، فيحتضنه الذين جاءوا بعده من أصحاب المذاهب الفقهية المختلفة ، ويفيدون منه أجل الفوائد ، وذلك فى رسالته التى تحوى الكثير من بذور التفكير المنطقى والفلسفى وأصوله .

ومن أجل هذا وذاك كله نرى العالم الاسلامى يتقبل مذهبه بقبول حسن ، ونرى هذا المذهب يظهر فى الأقطار والبلاد الاسلامية على أيدى رجاله ، نراه فى قاعدته ومركزه الأول بمصر والشام والحجاز وبغداد وفارس ونيسابور وخراسان وسائر بلاد ما وراء النهر ، الى بلاد كثيرة أخرى ، كما يذكر جمهرة من أرخوه ·

يقول ابن خلدون فى هذا : « وأما الشافعى فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وقاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس من جميع الأمصار » الى آخر ما قاله ابن خلدون · مما يدل على عظمة شأن المذهب وقوة انتشاره ·

وقد استفاضت شهرة الشافعى ومذهبه فى البلاد الاسلامية عامة ، وكذلك لدى الغربيين حتى تجرد لدراسته كثير من المستشرقين ، وأفادوا منه فى بحوثهم ، ويظهر لنا هذا الأثر العظيم واضحا فى أكثر من بحث وكتاب ·

رحم الله الامام الشافعى ، ورضى عنه وأرضاه ، جزاء ما قدم للاسلام وللانسانية من خير فى ناحية الفكر القانونى والتشريعى ·

الأغاني

الأصبهاني ح: ٨٨٥م

● بعد أن استقر العرب فى الدول التى نشروا فيها الاسلام ، امتزجوا بأهل البلاد ، وتبادلوا الثقافات والآداب، وظفروا من الأمم العريقة فى الحضارة بنصيب كبير من زهرة الدنيا وزينتها ، وبهجة الحياة ومتعتها ، فى المأكل والملبس ، والمسكن والفراش ، والزخارف والنقوش ، والطرب والسماع ، غير مقصرين فى ثقافة ، ولا عاجزين عن وصف ما نالوا وما أدركوا ، فى أساليب جميلة ، وعبارات رشيقة · وأبرز ما كان هذا كله فى العصر العباسى الذى جنى ثمار الامتزاج والاختلاط بذوى الحضارات العريقة فى كل اتجاه ·

وللنغم الحلو قوة ساحرة تأخذ بالألباب ، سواء أكان ذلك فى بداوة أم فى حضارة · وسواء أكان المغنى من الاناث أم من الذكور ، ويزيده روعة اذا اقترن بالجمال والشباب · فى مجالس تطيب أجواؤها وتتلألأ أضواؤها ، وتهفو فيها النسمات عليلة ، مضمخة بأريج الأزهار وعبيرها · ونفح العطور وذكائها ·

ولكل جيل ألحانه ، ولكل صقع أنغامه وطرائق ايقاعه على آلات اللهو والطرب ، من ضرب على الأوتار ، أو نقر بالدفوف ، أو نفخ فى المزامير · بين خفوت وارتفاع وامتداد وانقطاع · وهمس وجهر · وحدة ولين وآهات وأنين ·

وقد وضعت لمجرى الأصابع على ثقوب الآلات وأوتارها قواعد يعرفها أهل الفن ، سموها لحنا ·· وسموها صوتا ، وسموها « نغما » وسجلناها على الورق فى عهدنا الحاضر وسميناها باسمها الافرنجى «نوتة موسيقية»·

والغناء يكون فى الشعر ، لأن الشعر له أوزان منغمة ، وقد تكون للشاعر حياة فيها أحداث · وقد تجرى بسبب الشعر قصة ، وربما وقع للمغنى والمغنية ما يحكى ويروى وربما حيكت حولهما أساطير ومأثورات ، الى غير ذلك من أقوال وأحاديث ·

وللفراغ والرخاء الأثر الأول فى البحث عن كل هذا ، والعناية به وتتبعه ، فليس عجبا اذن من هارون الرشيد ، وهو الذى يمثل عهده قمة الخيال والأحلام عند الشرق والغرب ، أن يطلب من أعظم المغنين فى عهده أن يختاروا له مائة صوت من بين الغناء كله .

ثم يجىء الخليفة العباسى الواثق بالله ،، وكانت له فى الغناء صنعة ، فيأمر أعظم المغنين فى عهده « اسحاق بن ابراهيم الموصلى » أن يختار له ما يرى انه أفضل مما كان اختير فى عهد جده هارون .

ثم تمر الأعوام عشرات ، ويجىء أبو الفرج الأصبهانى فيؤلف كتابا يبلغ الغاية فى الروعة والنهاية فى الابداع .

وقل من لم يسمع بكتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى . بل ندر من لم يقرأ شيئا من كتاب الأغانى ، لأنه حينئذ لايكون له فى الأدب الرفيع نصيب .. وان شهرة كتاب الأغانى من يوم أن ألف وحتى يومنا ترددت فى كل بلد عربى ، وفى كثير من غير البلاد العربية ، وسيظل اسمه مترددا ما دام على الارض ناطق باللغة العربية ، لايخلو من قارىء له ، أو ناقل عنه ، أو سامع بعض ما جاء فيه .

ذلك أن صاحبه أبا الفرج أودعه من الأشعار والأخبار ، واللطائف والطرائف ما لم يقع فى كتاب مثله . فصار غاية يسمو اليها كل مثقف ، ويتطلع اليها كل أديب ومتأدب .

وما حمل أحد نفسه على قراءة بعض هذا الكتاب الا شغف به حبا ، واكب عليه قراءة . وأوغل فيه استقصاء ، ثم خرج من كل هذا بثروة واسعة فى الثقافة واللغة والاسلوب الفنى البليغ . أما القصص التى تتناثر فى أثنائه ، فتمتاز بحسن العرض، وجمال السبك ، ودقة الملاحظة.

وكل أعلام الأدب ممن مضى ومن بقى وممن سيأتون يذكرون أو سيذكرون فضله عليهم فى أساليبهم الممتازة وعباراتهم الرائعة .

★★★

صاحب الأغانى

ولعل كتابا من كتب العربيـــة لم ينل حظا من الشهرة والذيوع والاحتفال به وادمان القراءة له والاستفادة من مادته كما نال كتـــاب « الأغانى » وليس فى ذلك أية غـــرابة ، فالكتاب جدير بالشهرة قمين بالذيوع خليق بأن يستفاد منه ، فهو جيد رائع يدل على ملكة التأليف الأصيلة والمثابرة الداعية وسعة الأفق وتنوع الثقافة عند المؤلف العربى .

ومؤلف كتاب الأغانى شخصية بارزة من غير شك من شخصيات الفكر العربى ، فهو على بن الحسين الأموى القرشى ، تتصـــل عصبيته بمروان بن محمد آخر خلفاء بن أمية ، وكنيته أبو الفرج ، ولد بأصبهان أو أصفهان عام ٢٨٤ هـ (٨٩٧ ميلادية) واليها انتسب .

ولم تدم حياة أبى الفرج فى أصبهان طويلا ، اذ ما لبث أن رحل عنها الى بغداد ، وروى عن علماء كثيرين يطول تعدادهم ، وســـمع من جماعة لايحصون ، ومنهم ابن دريد امام عصره فى اللغة والأدب والشعر ، والفضل بن الحباب الجمحى الراوية ، والأخفش العالم النحوى الكبير ، وابن الانبارى ، والطبرى ، ومحمد بن خلف بن المرزبان ، وجعفر بن قدامة أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم .

وقال عنه ابن خلكان : « كان من أعيان أدبائها « بغداد » وأفراد مصنفيها . روى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم ، وكان عالما بأيام الناس والانساب والسير » .

وقال التنوخى : « ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفـرج الاصبهانى . وكان يحفظ من الشعر والأغانى والأخبار والآثار والأحاديث المسند والنسب ما لم أر قط من يحفظه مثله .. يحفظ دون ذلك من علوم أخر ، ومنها اللغة والنحو والخرافات والمغازى والسير ، ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا ، مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجـــوم والأشربة وغير ذلك ، وله شعر يجمع اتقان العلماء واحســـان ظرفـاء الشعراء » .

وقال ياقوت فى معجم الأدباء : « العلامة النســـابة الاخبـــارى والحفظة ، الجامع بين سعة الرواية والحذق فى الدراسة ، لا أعلم لأحد

احسن من تصانيفه فى فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه ، وكان مع ذلك شاعرا مجيدا » .

وقال ابن النديم فى كتاب الفهرست : « كان شاعرا مصنفا أديبا ، وله رواية يسيرة ، وأكثر تعويله كان من تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » .

ويبدو أن أبا الفرج الاصبهانى كان متاثرا الى حد بعيد باسحاق الموصلى ، فهو يقول : « ان موضعه فى العلم ، ومكانه فى الأدب ، ومحله فى الرواية ، وتقدمه فى الشعر ، ومنزلته فى سائر المحاسن .. أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف . أما الغناء فكان أصغر علومه ، وأدنى ما يوسم به ، وان كان الغالب عليه ، وعلى ما كان يحسنه : فانه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ، ولم يكن له فى هذا نظير ، فانه لحق بمن مضى عليه ، وسبق من بقى ، فهو أمام أهل صناعته ، جميعا ، ورأسهم ومعلمهم . يعرف ذلك منه الخاص والعام ، ويشهد به الموافق والمفارق ، وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزا لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده » .

كما تأثر أبو الفرج الأصبهانى كذلك بابن المعتز الخليفة الشاعر ، اذ كانت له آراء جريئة فى الفن الشعرى والغناء ، فنقل عنه آراء طريفة ، وأخبارا طيبة ، وروى أحكامه النقدية فى الغناء والمغنين ، وعلق على بعض أقواله بقوله : « هذا كلام العقلاء وذوى الفضل فى مثله ، لا كلام الثقلاء وذوى الجهالة » .

وتأثر الأصبهانى كذلك بشخصية « جحظة البرقى » ـ وهو أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ـ وكان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار ، متصرفا فى فنون جمة ، عارفا من العلوم بصناعة النجوم ، حافظا لأطراف من النحو واللغة ، مليح الشعر ، مقبول الألفاظ ، حاضر النكتة . وأما صناعة فن الغناء فلم يلحقه فيها أحد ، وقد جلس اليه الأصبهانى مجلس الطالب من الشيخ ، ولم يفارقه الا بعد ان انتقل جحظة الى جوار ربه ، وكان الأصبهانى فى ذلك الوقت فى الأربعين من عمره .

وظهر أثر تلك التلمذة فى كتاب الأغانى ، فهو يقول : سألت أحمد بن جعفر جحظة عن نسبه ، قلت له : ان الناس يقولون ابن أمية بن أبى أمية . فقال : هو محمد بن أمية بن أبى أمية . قال : وكان محمد ..» . وهو يقول فى موضع آخر : « حدثنى جحظة وجعفر بن قدامه ، وخبر جعفر أتم ، الا انى قرأته على جحظة فعرفه وذكر لى انه سمعه) .

مؤلفات أبى الفرج

لقد عاش أبو الفـــرج الاصبهانى اثنتين وسبعين سنة ، فقد ولد سنة ٢٨٤ هـ وتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، ولكنها سنوات حافلة بالتاليف والجد فى سبيل التحصيل العلمى ، ويكفى أن المدة التى استغرقها تاليف كتاب « الأغانى » كانت خمسين ســـــنة ، غير أن السنوات الخمسين لم تكن كلهـا فى تاليف الكتاب وحـده ، وانمـــا كانت جمعا لمادته وتنسيقا لموضوعاته فى فترات متقاربة حينا ، متباعدة أحيانا ، بحيث استطاع أن يقدم آثاره الأخرى الوفيرة التى أحصاها المترجمون فاذا هى خمسة وعشرون كتابا بالاضافة الى « الأغانى » وهى :

١ ـ مجرد الأغـــانى ٠

٢ ـ التعديل والانتصاف فى أخبار القبائل وأنسابها (وقيل فى مآثر العرب ومثالبها) ٠

٣ ـ مقاتل الطالبين ٠

٤ ـ أخبار القيـــان ٠

٥ ـ كتاب الاماء الشواعر ٠

٦ ـ كتاب المماليك الغرباء ٠

٧ ـ كتاب أدباء الغرباء ٠

٨ ـ كتاب الديانات ٠

٩ ـ كتاب تفضيل ذى الحجة ٠

١٠ ـ كتاب الأخبار والنوادر ٠

١١ ـ كتـاب أدب الســماع ٠

١٢ ـ كتاب أخبار الطفيليين ٠

١٣ ـ كتاب مجموع الأخبار والآثار ٠

١٤ ـ كتاب الخمارين والخمارات ٠

١٥ ـ كتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار (رسالة عملها فى هارون بن المنجم صاحب كتاب البارع) .

١٦ ـ كتاب دعوة النجـــار .

١٧ ـ كتاب أخبار جحظة البرمكى .

١٨ ـ كتاب جمهرة النسب .

١٩ ـ كتاب أيام العرب ذكر فيه ألفا وسبعمائة يوم .

٢٠ ـ كتاب نسب بنى عبد شمس .

٢١ ـ كتاب نسب بنى شيبان .

٢٢ ـ كتاب نسب المهالبة .

٢٣ ـ كتاب نسب بنى تغلب .

٢٤ ـ كتاب الغلمان المغنين .

٢٥ ـ كتاب مناجيب الخصيان .

ان صاحب معجم الأدباء بعد أن يذكر هذا الحشد من المؤلفـــات بقوله : « وله تصانيف أخرى جياد كان يصنفها ويرسلها الى المسئولين على بلاد المغرب ، يقصد الأندلس من بنى أمية . وهما الناصر وابنـــه المستنصر . هذا ويذكر للأصبهانى غـير ما ذكر ياقوت من الكتب كتاب الديارات وكتاب الحانات .

وان نظرة الى نوعية تأليف الأصبهانى ، تدل على أن الرجل كان من أعلام المعرفة من تاريخ وأنساب وسير وأعلام ولغة ومغاز وغناء وقيان ، ولكنه قد خصص نفسه فيما يبدو فى أمور الاماء والقيـان والســماع والخمر ودرس كل ما يتعلق بهذه الفنون ، ودون كل ما يتصـل بهـا سواء أكان ذلك فى كتابه « الأغانى » أو فى عدد كبير من الكتب العديدة التى مر ذكرها والتى تحمل العناوين الدالة على ذلك وهذا بالاضافة الى كون الأصبهانى راوية نسابة على ما هو واضح من كتبه أنساب القبائل .

الأغانى : جمعه وتأليفه وأغراضه

هذا وقد اتصل أبو الفرج الأصبهانى بالوزير المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، ويقول الثعالبى فى « يتيمة الدهر » ان أبا الفرج « كان منقطعا الى المهلبى الوزير ، كثير المدح ، مختصا به » . وكان المهلبى يختاره فى

كل شيء مريح ، وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها ، وظل هكذا الى ان فرق بينهما الموت ٠

وكان المهلبى من الأدباء الذين يقولون الشعر ، ويكتبون النثر ، ونعتقد انه الشخصية التى ألف لها أبو الفرج الأصبهانى كتاب «الأغانى»٠ الا أن الأصبهانى صرح فى كتابه عن الباعث الذى دفعه الى التأليف فقال : « والذى بعثنى على تاليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفنى جمعه ، وعرفنى انه بلغه ان الكتاب المنسوب الى أسحق مدفوع أن يكون من تاليفه ، وهو مع ذلك قليل الفائدة ، وانه شاك فى نسبته لأن أكثر أصحاب أسحق ينكرونه ، ولأن ابنه حمادا أعظم الناس انكارا لذلك ، وقد لعمرى صدق فيما ذكره وأصاب فيما أنكره ٠٠ » ٠

وعلى ذلك تكلفه أبو الفرج على ما فيه من مشقة ، وبناه على الأصوات المائة المختارة ٠

وحكاية هذه الأصوات أن هارون الرشيد أمر ابراهيم الموصلى ، واسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء باختيارها له من الغناء كله ، ففعلوا ٠ ثم أمرهم أن يختاروا له ثلاثة منها ففعلوا ٠ ثم رفعت الى الواثق بالله وهو الخليفة ، فأمر اسحق بن ابراهيم الموصلى أن يختار له منها ما رأى انه أفضل من غيره ، ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أولى منه ، ففعل ذلك ٠ فعلى هذه الأصوات المختارة اعتمد أبو الفرج فى تاليف كتابه ، ولكنه لم يقتصر عليها ، بل أضاف اليها طائفة كبيرة من الأصوات التى غنى بها ، وليست منها ٠

وكان اذا ذكر الصوت عرف قائله ، ومن غنى به ، وبين لحنه وطريقته وجنسه ، ومذهبه فى ذلك مذهب اسحق الموصلى ، اذ كان هو المأخوذ به يومئذ دون مذهب من خالفوه فى أسماء الألحان ، وبيان أجناسها ٠ ثم ينتقل الى الشاعر الذى قاله ، فيذكر نسبه وأخباره ، وتاريخ مولده ووفاته ، وطائفة من أشعاره ، وما غنى له فيها ، معتمدا بذلك على الاسناد المتسلسل ٠ ثم يفرغ الى من غنى بهذا الصوت ، فينسبه ويروى أخباره ويبين صنعته ، ومنزلته وما له من الأصوات المعدودة ٠ واذا لم يستتم الكلام على الشخص الذى يتحدث عنه ، لأن له أخبارا مع شخص آخر جعلت على حدة ، أشار الى ذلك بقوله : « وسنذكر خبره مع فلان فى موضع آخر » ٠ ويقول فى ذاك الموضع : « أخبار فلان مع فلان اذ كانت سائر أخباره قد تقدمت » ٠

وابتداؤه بالأصوات الثلاثة المختارة فما يليها جعله لا يراعي في كتابه طبقات الشعراء ، وأزمنتهم ، ولا طرائق الغناء ، وطبقات المغنين . فانه استهل الكتاب بأخبار أبي قطيفة ، وهو شاعر مخضرم ليس في المعدودين ولا الفحول ، وانما غنى له معبد في شعر له :

القصر ، فالنخل ، فالجماء بينهما .. أشهى الى القلب من أبواب جيرون

فعد من ثلاثة الأصوات المختارة ، فبدأ به أبو الفرج ، ثم بمعبد . وثنى بعمر بن أبي ربيعة ، ثم بابن سريج ، لأن ابن سريج غنى في شعر عمر :

تشكى الكميت الجرى لما جهدته وبين لو يستطيع أن يتكلما

فعد من ثلاثة الأصـــوات المختـــارة . وثلث بنصيب بن رباح ثم بابن محرز لأن هذا غنى له في شعره :

أهاج هواك المنزل المتقادم ؟ نعم ، وبه ممن شـــجاك معالم

فعد من ثلاثة الأصوات المختارة . وهكذا مشى الى سائر الأصوات على غير ترتيب في الشعراء والمغنين .

● هكذا رأينا أن الأغاني لم يقتصر على الغناء والمغنين . وانما هو تاريخ جزيل الفائدة ، ففيه أخبار بضع مائة من الشعراء ، والمغنين ، والقيان ، والاماء ، والغلمان ، والعشـــاق والمعشـــوقات ، والمتظرفين والمتظرفات . وفيه أخبار الخلفاء والأمراء والقواد ، ومن نبغ من ابنائهم وبناتهم في الشعر والغناء . وفيه أخبـــار قبائل العرب وأنسابهـــم ، وغزواتهم ، وأيامهم ، ومياههم . وفيه محاسن ما قيل من الشعر في الجاهلية والاسلام والمائة الأولى والثانية لبني العباس ، وفيـــه وصف مآكل العرب ومشاربهم في بداوتهم وحضارتهم ، وذكر عشقهم وأنواعه ، وتسريهم ، وزواجهم وطلاقهم ، وســائر أحوالهم .. وفيه تصوير بديع للمجالس والملاهي ، والرياض والحدائق .

واذا علمنا أن أبا الفرج يحب اللذة ويتطلبها ، وبنى كتابه على الغناء ، والغناء يقصد به اللذة والترفيه عن النفس ،فغلبت ناحية العبث والمجون على كتابه ، وحفل بالنوادر المسلية ، فنراه يعنى بفضح الشعراء ، وذكر أخبارهم وأشعارهم الفاحشة ، وتصوير فساد أخلاقهم ، ولم يتحرج من تشهير الخلفاء وأبنائهم ، وذكر عشقهم واستهتارهم وعكوفهـــم على اللهو والشراب والسماع .

فلهذا لايسعنا اعتماد كتـــاب الأغاني من النـــواحي التاريخيـــة الشاملة ، ولاسيما كلامه على الاسلاميين والمولدين ، فانه قلما تناولهم

الا من ناحية العبث واللهو ، ولا ينبغى الاستسلام الى رواياته كلها دون التوقف عند بعضها فى شىء من الاحتياط ٠

قيمة كتاب الأغانى
كموسوعة ادبية شاملة

مر بنا أن كتاب الأغانى يعد أوسع كتب الأدب العربى شهرة وأوفرها حظا وأكثرها تداولا على ألسنة المتأدبين ، لفخامته مبنى وحجما ، ونفاسته قيمة ومحتوى ٠ ومر بنا أيضا أن صاحبه أبا الفرج الأصبهانى ألفه فى خمسين سنة ، وتتركز الروايات حول اهدائه اياه لسيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وان سيف الدولة بعث اليه بألف دينار ، ويستقل الرواة هذا المبلغ لأن سيف الدولة الذى عرف باكرام الشعراء والأدباء والعلماء كان ينبغى له أن يقدر هذا العمل العلمى الجليل ، وأن يوفيه ما يستحق من جائزة تكون أضعافا مضاعفة لهذا المبلغ الضئيل بالنسبة للوزن العلمى للكتاب ٠

وعندما بلغ الصاحب بن عباد أن سيف الدولة أعطى أبا الفرج ألف دينار لما أهدى اليه نسخة من كتابه ، فقال : « لقد قصر سيف الدولة ، وانه يستحق أضعافها ، اذ كان مشحونا بالمحاسن المنتخبة ، والفقر الغريبة ، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة وللبطل رحلة وشجاعة ، وللمتظرف رياضة وصناعة ، ولقد اشتملت خزانتى على مائة ألف ، وسبعة عشر ألف مجلد ما فيها سميرى غيره » ٠

وسواء صحت هذه الروايات أم لم تصح فانها قد فجرت انتباه صفوة العلماء والأعيان ممن كانوا معاصرين للأصبهانى أو ممن جاءوا بعده الى قيمة الكتاب ، فذكروا فضله وأوفوه حقه وزيادة بما يربو على أى مبلغ يمكن أن يمنحه سيف الدولة للمؤلف فيما لو كانت قصة الاهداء والألف دينار كاملة الصحة ٠

وكتاب الأغانى ــ فيما يذكر أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة ــ لم يكن يفارق عضد الدولة فى سفره ولا فى حضره ، وانه كان جليسه الذى يأنس اليه ، وخدينه الذى يرتاح نحوه ٠

وتتكرر قصة الألف دينار واستصغار القيمة والثناء على الكتاب عند أكثر من ترجم للاصبهانى من المؤرخين أو الأدباء أمثال ابن منظور

فى مختصره « مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى » والعينى فى « عقد الجمان » وطاشكبرى زاده فى كتابه « مفتاح السعادة » ، وحاجى خليفة فى « كشف الظنـــون » ويتفق الجميع على أن الصـــاحب قد انتقـــد سيف الدولة وأطرى الكتاب وفضله على جميع الكتب التى احتوتهـــا خزائنه وان اختلفوا فى تقدير عددها ، فمن قائل انها كانت مائتى ألف وستة آلاف كتاب ، ومن قائل انها كانت مائة ألف وســـبعة عشر ألف سفر ، وقائل آخر أن الصاحب كان يستصحب حين يسافر ثلاثين جملا محملة بالكتب فلما وصل اليه « الأغانى » استغنى به عنها !!

ان الكتاب من حيث قدره يعتبر كنزا لايسهل تثمينه ، وهو أمر متفق عليه حتى عند من لم يكونوا متوفرين على الأدب توفرا كاملا مثل أبى تغلب بن حمدان ـ ابن أخى سيف الدولة ـ فقد بعث بابن عرس الموصلى يبحث له عن نسخة منه فاشتراه له بعشرة آلاف درهم ـ وهى مجرد نسخة وليست الأصل ـ فلما وقف عليه ورأى عظمته وجـــلال ما حوى قال : لقد ظلم وراقه المسكين وانه ليساوى عشرة آلاف دينار ، ولو فقـــد لما قدرت عليـــه الملوك الا بالرغائب ، وأمـــر ان تكتب له نسخة أخـــرى .

لقد شغل الكتاب الناس شغلا كبيرا حتى بدا أن السبب فى ذلك هو تقصير سيف الدولة فى جائزته للمؤلف . والواقع أن قيمة الكتاب تنبع من عظم شأنه وجلال قدره فى عالم التاليف ، ومن انه شىء جديد فى محتواه تنوعا وثراء وتشعبا وشمولا وتخصصا واستطرادا . لقد جمع الكتاب مادة وفيرة مثيرة . وأما رواية اهـداء المؤلف الكتـاب الى الأمير سيف الدولة ، وأنه لم يكتبه الا مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها الى الأمير الحمدانى ، فهى برغم أن الوزير المهلبى رواها على لسان المؤلف تبدو مغايرة للواقع ، ذلك ان ياقوت الحموى يذكر ان ما أهدى الى سيف الدولة كانت منتخبات من الكتاب ولم يكن الكتاب كله . والخبر هكذا معقول . فسيف الدولة على رفعة شأنه لم يكن يليق بقدره أن يهدى اليه منتخبات من كتاب ، ومن ثم فان الألف دينار التى بعث بها الى المؤلف تعد فضلا منه ، وأما النسخة الأصلية من « الأغانى » فيما يروى المقرى صاحب « نفح الطيب » فقد بعث بها المؤلف الى المستنصر الأموى الأندلسى ـ وكانا ذوى قربى فكلاهما أموى ـ فأرسل اليه نظيرها ألف دينار من الذهب العينى . وينص صاحب نفح الطيب على أن الأصفهانى بعث الى الملك الأندلسى بنسخة من كتابه قبل أن يخرجه الى أهل العراق ، وهو رأى نميل اليه ، خاصة وان الرواية قد تكررت عند صاحب تاريخ بغداد من أن أبا الفرج كان يبعث بتصانيفه سرا الى صاحب الأندلس ، ومعنى

ذلك انه أرسل مصنفات قبل الأغاني الى عبد الرحمن الناصر ثم الى ابنه الحكم المستنصر ٠

وكتاب الأغاني فريد في بابه من حيث كونه أكبر مرجع عربي في ذكر الغنـاء وتاريخه وقواعده والآلات الموسيقية التي كانت على عصره أو سابقة عليه ، ولكي نكون على شيء من الحرص فنحن نستثني من ذلك كتاب « الموسيقى الكبير » للفارابي ، فانه أكبر وأعظم عمـل موسيقى عربي ، الا ان هناك فرقا كبيرا بين طبيعة الكتابين ، بحيث لايجمـل الخلط بينهما ولا تحمد المقارنة ٠

وكمصدر أعلى للغناء العربي فان الأصبهاني يلم بكل المغنين والمغنيات وفنونهم وأخبارهم وألحانهم في أجزاء الكتاب على سعة رقعتها ، ويعرف بأول من دون الغناء العربي ، وهو الكاتب يونس بن سـليمان من أهل المدينة ، الذي أخذ فنه على الرعيل الأول من رواد الغناء العربي مثل معبد والغريض وابن سريج وابن محرز ٠ ولقد وصل صيت يونس وفضله الى الوليد بن يزيد ، وهو من نعرف حبا للطرب وشغفا بالموسيقى واقبالا على الملذات ، فاستقدمه من المدينة وقربه اليه وظل مقيما في الشـام عنده حتى مقتله ٠

وقارىء كتاب الأغاني سوف يصادف في طريقه كثيرا من المصطلحات التي يستغلق عليه فهمها ، ذلك لأنها مصطلحات موسيقية بحتة ، وكلها متعلق بالعود العربي ، فمن هذه المصطلحات البم والمثلث والمثنى والزير انها أوتار العود من أعلى الى أسفل (٥١) ٠

وللعب الأصابع على الأوتار أماكن ذات مسميات فنية أيضـا منها دستان الخنصر ودستان السبابة ودستان البنصر ودستان الوسطى ٠ ولعلنا نلاحظ ان الخنصر والبنصر والسبابة والوسطى هي الأصابع التي تتحرك بنانها على الأوتار مشدودة على عنق العود في رشـاقة وانتظام فتحرك الأنغام متى كان صاحبها ملما بفنه عارفا بأصول العزف ٠

وسوف يصادف قارىء الأغاني وبخاصة عند الأصوات أسماء يشكل عليه أمرها حتى ليكاد ذهنه ينصرف الى أوزان أبطال الرياضة في زماننا مثل ثقيل أول وثقيل ثان ٠ وخفيف الثقيل الثاني ، وخفيف الخفيف ، فلا عليه من ذلك ، انها قوانين الغناء وهي لاتخرج عن ثمانية قوانين ٠

ان هدف الكتاب في طبيعته حسبما ذكرنا موسيقى من ناحية الشكل العام ، ولكنه في واقعه كتاب عظيم من كتب أدبنا العريق ، بل ان الناحية

الأدبية فيه أوسع وأشمل منها من الناحية الموسيقية . فهو والأمر كذلك لايمكن اعتبـــاره كتـــاب طبقات رغم احتوائه على هذا العدد الهائل من شعراء الجاهلية والاسلام حتى نهاية القـرن الثالث الهجرى ، فان تلك الفكرة لم تجر لمؤلفه على خاطر ولم تلح له على بال ٠

ان الكتاب موسوعة أدبية فنية ثمينة ٠ انه ما يكاد يذكر صـــوتا أى لحنـــا حتى ينطلق منه ببراعة ورشاقة الى المغني وأخباره والشاعر وأشعاره وان كان متصلا بخليفة أو ملك تحدث عن هذا الملك أو ذلك الخليفة ، وهو يدعم روايته بالاسناد ، واذا تعددت الروايات أثبتها على اختلافها ٠ وفى أجزاء الكتاب العشرين وعلى سعة صفحاته تنتشر أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ومفاخرهم ومياههم ووصف لحياتهم الاجتماعية فى أكثر من عصر وأكثر من مكان ، ويركز المـؤلف على مراكز الغنـــاء وخاصة المدينة ومكة وبغداد ، هذا فضـــلا عن مئات التراجـــم وعديد السير ، يضاف الى ذلك كله تلك المجموعات الهائلة من الصور الأدبية من شعر وخطابة وقصص ونوادر ٠

والأصبهانى يؤلف عن دراية ويكتب عن خبرة ، فهو حين ينتقل انتقالا مفاجئا من موضوع الى غيره لا يصدر فى ذلك عن غفلة أو قلة دراية بأساليب التأليف ومناهجه ، وانما هو يعمد الى ذلك عمـــدا فيقول فى الصفحات الأولى من افتتاحية كتابه : « فلو أتينا بما غنى به من شـــعر شاعر ولم نتجاوز ، حتى نفرغ منه ، لجرى هذا المجرى وكان للنفس عنه نبوة ، وللقلب منه ملة ٠ وفى طباع البشر محبة الانتقال من شىء الى شىء ، والاستراحة من معهـود الى مستجد ، وكل منتقل اليه أشهى الى النفس من المنتقل عنه ، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود ، واذا كان هذا هكذا ، فما رتبناه أحلى وأحسن ، ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ، ومن أخبار قديمة الى محدثة ، وملك الى سوقة وجد الى هزل أنشط لقراءته وأشهى لتصفح فنونه ، ولاسيما والذى ضمناه اياه أحسن جنســـه ، وصفو ما ألف فى بابه ولبـــاب ما جمع فى معناه » ٠

مختصرات الأغانى

لا شك ان فى كتاب الأغانى من المظاهر والبواطن ما يغرى بعض العلماء على اختصاره أو تبسيطه ٠ واختصار الكتب الكبيرة أمر جرت عليه طبيعة الثقافة العربية ٠ وقد عرفنـــا كيف كان بعض العلماء يختصرون

كتبهم المطولة كما فعل العماد الاصبهانى مع كتابه « الخريدة » وكما فعل البيهقى مع « دمية القصر »

ان هناك من رأوا ضرورة اختصار « الأغانى » وتخليصه من الأسانيد ومفاتيح الموسيقى التى لايفهمها الا المتخصصون ، والتى أشرنا الى شىء منها فيما مضى من صفحات بحيث يصبح الكتاب أدبا محضا ، وهناك من رأى اعادة ترتيبه بشكل زمنى واضفاء طابع كتب الطبقات عليه ، وهكذا لكل من حاول اختصاره وجهة نظر خاصة به طبقها حين مارس عملية الاختصار التى أقدم عليها ·

وتنتهى الى علمنا ثمانى محاولات من هذا القبيل كان أولها ما قام به الوزير الحسين بن على بن حسين أبو القاسم المعروف بالمغربى المتوفى سنة ٤١٨ هـ ومعنى ذلك انه بدأ يختصر كتاب الأغانى ولما يمض على وفاة مؤلفه نصف قرن من الزمان · وكان آخرها ما قام به الشيخ محمد الخضرى العالم المصرى الجليل الذى توفى سنة ١٩٢٧ م ·

غير أن أشهر مختصرات الأغانى وأكثرها فائدة فيما نرى هى :

١ ــ ما قام بعمله ابن واصل الحموى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ وكان يلقب بقاضى القضاة وشيخ الشيوخ بحماة ، واسمه كاملا : محمد بن سالم ابن نصر الله بن سالم بن واصل · وقد سمى كتابه « تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى » وعنوان المختصر يفيد أنه جرده من صفته الموسيقية ، وهذا هو ما قام به بالفعل ، كما انه خلصه من التكرار والعنعنات وزاد بأن شرح الصعب من الألفاظ ، ولايزال الكتاب مخطوطا بدار الكتب المصرية ·

٢ ــ ما قام به ابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ صاحب « لسان العرب » واسمه محمد بن على ، وكنيته أبو الفضل جمال الدين بن منظور ، وكان سخى الذهن نابغ الفكر خصب الانتاج ويكفيه فضلا قاموسه « لسان العرب » الذى لم يستطع فرد ولا جماعة حتى الآن تصنيف ما يماثله دقة وعمقا واحاطة وشمولا · ومن الطريف أن ابن منظور فى الوقت الذى نرى له أطول وأفضل قاموس ، نجده فى نفس الوقت مولعا باختصار المطولات من كتب الأدب مثل الحيوان للجاحظ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وذخيرة ابن بسام وأغانى الأصبهانى وهو الذى يعنينا فى هذا المقام وسماه « مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى » وهو من الأعمال الجليلة التى تيسر النفع وتصل بالباحث الى ضالته فى سرعة ويسر ·

٣ ـ ما قام به الشيخ محمد الخضرى الأستاذ بالجامعة المصرية وصاحب المؤلفات النفيسة فى اللغة والأدب والتـاريخ ، انه لم يختصر كتاب الأغانى على النحو الذى مر ذكره ، ولكنه فى الواقع هذب الكتـاب وصنع منه شيئا آخر ، وهو لذلك سماه « تهذيب الأغانى » وجعله فى سبعه أجزاء وخصص جزءا أضافه الى السبعة سماه الفهارس والملاحظات .

وقد فصل الشيخ الخضرى بين الغناء والشعر ، ورد الأشعار الى اصولها طبقا لرواياتها الصحيحة وليس تبعا لما غنـاه المغنون أو المغنيات وأتم القصائد المبتورة ، وقسـم الشعراء الى طبقات زمنيـة : جاهليين ، ومخضرمين ، واسلاميين ، ومخضرمى الدولتين ، ومحدثين ، وخص كل طبقة بجزء حسب الترتيب الذى ذكرناه . ولما كان الشعراء المحدثون من كثرة العدد ووفرة الانتاج بمكان فقد خصص لهم جزءين هما الخامس والسادس وأما الغناء والمغنون فقد أفرد لهم جزءا منفردا هو الجزء السابع من الكتاب .

نماذج مما روى أبو الفرج
فى الأغانى

ونذكر للقارىء قصة مما ساقه أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه باسلوب غاية فى القوة والسلاسة ٠

« أخبرنى محمد بن يزيد عن أبى الأزهر قال : حدثنا حماد بن اسحق عن أبيه ، عن سياط قال : حدثنى يونس الكاتب قال :

كان معبد قد علم جارية من جوارى الحجاز الغناء ، ثم ملكها رجل من اهل الاهواز ، فأعجب بها ، وذهبت به كل مذهب ، وغلبت عليه ٠ ثم ماتت ، وأخذت جواريه أكثر غنائهن عنها ، فكان لمحبته اياها وأسفه عليها ، لايزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ، ويظهر التعصب له ، والميل اليه ، والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره ، الى أن عرف ذلك عنه ، وبلغ معبدا خبره ٠ فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل وقد خرج عنها فى ذلك اليوم الى الأهواز فاكترى سفينة ٠ وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها الى الأهواز ، فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه فى مؤخرة السفينة ٠ ففعل ، وانحدروا ٠ فلما صاروا فى فم نهر الابله تغدوا وشربوا ، وأمر جواريه فغنين ومعبد ساكت ، وهو فى ثياب السفر ، الى ان غنت احدى الجوارى من شعر للنابغة (واللحن الغنائى فيه لمعبد) ٠ فلم تجد أداءه ، فصاح بها معبد : يا جارية ، ان غناءك هذا ليس بمستقيم ، فقال له مولاها وقد غضب : وانت ما يدريك بالغناء ما هو ؟ الا تمسك وتلزم شأنك ؟ فأمسك ٠ ثم غنت أصواتا من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت فى شعر لعبد الرحمن بن أبى بكر ، (واللحن فيه من صنعة معبد) فأخلت ببعضه فقال لها معبد : يا جارية ، لقد اخللت بهذا الصوت اخلالا شديدا ٠ فغضب الرجل وقال له : ويلك ٠ ما أنت والغناء ؟ الا تكف عن هذا القول ؟

فأمسك معبد عن الكلام ٠ وغنت الجوارى مدة ، ثم غنت الجارية فى شعر لكثير عزة (واللحن لمعبد) فلم تحسن الأداء ٠ فقال لها معبد : يا هذه اما تقوين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له ما أراك تدع الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من

لسفينة ، فأمسك معبد • حتى اذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأول حتى فرغ منه • فصـــاحت الجوارى : أحسنت والله يا رجل ، فأعده • فقال : لا والله ، ولا كرامة • ثم اندفع يغنى الثانى • فقلن لسيدهن : ويحك ، هذا والله أحسن الناس غناء ، فاسأله ان يعيده علينا ولو مرة واحدة ، لعلنا نأخذه عنه ، فانه ان فاتنا لم نجد مثله أبدا • فقال : قد سمعتن سوء رده عليكن ، وأنا خائف مثله منه ، وقد أسلفناه الاساءة ، فاصبرن حتى نداريه • ثم غنى الصوت الثالث ، فزلزل عليهن الأرض • فوثب الرجل فخرج اليه وقبل رأسه وقال : ياســـيدى أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك (أى قدرك) فقال له : فهبك لم تعرف موضعى ، قد كان ينبغى لك ان تتثبت ولا تسرع الى بسوء العشرة وخفاء القول • فقال له : لقد أخطأت وأنا أعتذر اليك مما جرى ، واسألك ان تنزل الى وتختلط بي ، فقال : أما الآن فلا • فلم يزل يرفق به حتى نزل اليه • فقال له الرجل : ممن أخذت هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين أخذه جواريك ؟ فقال : أخذنه من جارية كانت لى ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وقد كانت أخذت عن أبى عباد معبد ، وعنى بتخريجها ، فكانت تحل منى محل الروح من الجســـد ثم استأثر الله عز وجل بها • وبقى هؤلاء الجوارى ، وهن من تعليمها ، فأنا الى الآن أتعصب لمعبد ، وأفضـــله على المغنين جميعا ، وأفضـــل صنعته على كل صنعة • فقال له معبد : أتعرفنى ؟ قال : لا ، قال : فصـــك معبد بيـــده صلعته ــ أى ضرب بيده على رأسه الأصلع ــ ثم قال : فأنا والله معبد ، واليك قدمت من الحجاز ، ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لاقصدك الأهواز • والله لا قصرت فى حوارك هؤلاء ، ولا جعلن لك فى كل واحدة منهن خلفا من الماضية •

فاكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونهـــا ويقولون : كتمتنا نفسك طول هذا حتى جفوناك فى المخاطبة ، واسأنا عشرتك ، وانت سيدنا ومن نتمنى على الله أن نلقاه » •

ثم أكرمه واتحفه واهدى اليه وانحدر معه الى الأهواز ، فأقام عنده حتى رضى حدق جواريه وما أخذت عنه ، ثم ودعه وانصرف الى الحجاز •

إحصاء العلوم

الفارابي

٩٤٠ م

● أول ما عرف من موسوعات العلوم فى العربية كتاب « احصاء العلوم » للفيلسوف الاسلامى أبى نصر « الفارابى » (٨٧٠ ــ ٩٥٠ م) ·· الفه الفارابى فى القرن العاشر الميلادى ، فاشتهر ذكره فى بلاد الاسلام ، وأصاب حسن التقدير عند أهل العلم فى الشرق والغـرب ، وامتدحه العارفون ، وعدوه ضروريا لجميع المثقفين ، والراغبين فى البحث والاطلاع·

ففى القرن الحادى عشر الميلادى تحدث القاضى صـــاعد بن أحمد الأندلسى (المتوفى سنة ١٠٧٠ م) عن الفارابى ومؤلفاته ، فأبدى اعجابه بكتاب « احصاء العلوم » اذ قال : « ثم له (أى الفارابى) بعد هذا كتاب شريف فى احصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، لم يسبق اليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به ، وتقديم النظر فيه » ·

وقد نقل هذا الثناء على « الاحصاء » كثيرون من مؤلفى العرب ، مثل « القفطى و « ابن أبى أصيبعة » · وفى أواخر القرن الثانى عشر ، وأوائل الثالث عشر نقل « ابن طملوس » (تلميذ ابن رشد) عن«الاحصاء» فصلا برمته ، وهو الفصل الذى عقده الفارابى فى « المنطق » ، وقدم له « ابن طملوس » · بقوله : « ولما رأيت كلاما غير هذا الذى أسوقه كاملا ، بالغـــا فى وصف هذه الصناعة ، جئت به على وجهـــه من غير زيـادة ولا نقصان ·· » · وكذلك نقل « ابن أبى أصيبعة قسما من ذلك الفصل ، قدم له فى « عيون الانباء » بعبارة « قال أبو نصر الفارابى ·· » ·

وحسبنا لبيان مكانة « احصاء العلوم » عند علماء الغرب فى القرون الوسطى أن نذكر أن هذا الكتاب العربى ترجم الى اللغة اللاتينية ، غير مرة ، ابان القرن الثانى عشر الميلادى · وأهم هذه الترجمات ترجمتان : احداهمـــا منســـوبة الى « دومينكوس غنديسالينوس » ، وقد نشرها « كاميراريوس » ، ولكن هذه الترجمة ليست كاملة ولا وافية · فقد حذف

« غنديسالينوس » بعض فصول الكتاب كالفصل الذى عقده الفارابى في علم الكلام) وتصرف فى بعض المواضع بالحذف والاختصار . أما الترجمة الثانية فمنسوبة الى « جيرار دى كريمونا » ، وهى ترجمة كاملة دقيقة مطابقة للنص العربى للكتاب .

على أن « احصاء العلوم » كان معروفا أيضا فى المدارس اليهودية : فقد انتفع به « موسى ابن عزرا » (المتوفى سنة ١١٤٠ م) . وقد وجدت للكتـــاب ترجمة عبرية مختصرة بقلم « كالونيموس بن كالونيموس » (المتوفى سنة ١٣٢٨ م) .

حيـاة الفارابى

طلب العلم من المهد الى اللحد

هو أبو نصر ، محمد ، المعلم الثانى ، الشهير بالفارابى • فاسمه محمد وكنيته أبو نصر ، ولقبه المعلم الثانى ، وشهرته الفارابى •

ولا ندرى كيف كنى بأبى نصر ، مع انه قد جرت العادة فى الغالب ان يكنى الشخص باسم ابنه الأكبر ، وان المشهور من سيرة الفارابى انه لم يتزوج ولم ينجب أولادا •

والراجح أن السبب فى تلقيبه بالمعلم الثانى يرجع الى مكانتـــه الكبيرة فى الفلسفة ، ووفرة انتاجه فيها ، ومتابعته لدراسات أرسطو ، وشرحه لنظرياته ، حتى لقد اعتبر أكبر الفلاسفة من بعده ، وأعظم ناشر وموضح لآرائه ، ولما كان أرسطو قد اشتهر بلقب « المعلم الأول » ، لذلك أطلق على خليفته فى عالم الفلسفة وناشر آرائه لقب « المعلم الثانى » •

واشتهر بالفارابى نسبة الى مسقط رأسه « فاراب » من أعمـــال خراسان • وهى منطقة كبيرة وراء نهرى جيحون « أموداريا » وسـيحون « سراداريا » ، وتقع على جانب الفـــرع الأكبر لنهر سيحون فى طرف بلاد تركستان •

هذا وقد اشتهر بلقب الفارابى علماء آخرون منهم صاحب معجم « الصحاح » (هو أبو نصر حماد الجوهرى الفـــارابى ٣٢٣ ــ ٣٩٣ هـ صاحب معجم « تاج اللغة وصحاح العربية » المشهور بالصحاح) • ولكن اذا أطلقت كلمة الفارابى انصرفت الى فيلسوفنا الذى نحن بصدده •

ولا نعرف عن طريق يقينى السنة التى ولد فيها الفارابى • والراجح انه ولد حوالى سنة ٢٥٩ هـ (الموافقة لسنتى ٨٧٢ ، ٨٧٣ ميلادية) • ويستنتج ذلك استنتاجا ما ذكره المؤرخون فى وفاته ، فقد ذكر ابن خلكان انه توفى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ ــ ٩٥١ م) وقد ناهز ثمانين سنة •

ولا نكاد نعرف شيئا يقينيا عن طفولته الأولى • أما فيما يتعلق بالمراحل التالية فيظهر من سيرته انه بعد بلوغه دور التعلم قد عكف فى مسقط رأسه على دراسة طائفية من مواد العلوم والرياضـــة والآداب

والفلسفية واللغـات وعلى الأخص التركية وهى لغته الأصلية والفارسية واليونانية والعربية ٠

ثم خرج من بلده حوالى سنة ٣١٠ هـ ، وهو يومئذ يناهز الخمسين، قاصدا العراق ، حيث أتم دراسـاته فيما بدأ به فى مسقط رأسـه وأضاف اليه مواد أخرى كثيرة ٠ فدرس فى حران الفلسفة والمنطق والطب على الطبيب المنطقى يوحنا بن حيلان ، ودرس فى بغداد الفلسفة والمنطق على أبى بشر متى بن يونس ، وهو مسيحى نسطورى كان حينئذ من أشهر مترجمى الكتب اليونانية ومن أشهر الباحثين فى المنطق ، ودرس فى بغداد كذلك العلوم اللسانية العربية على ابن السراج ، وأتيح له فيها أيضـا دراسة الموسيقى واتمام دراساته فى اللغات والطب والعلوم والرياضيات٠ ولا غرابة ان يتتلمذ فى هذه السن المتقدمة ، فقد كان هذا دأب العلماء فى هذه العصور ، يطلبون العلم من المهد الى اللحد ٠

وكان الفارابى مولعـا بالاسـفار فى طلب العلم ونشره والاحاطة بشئون الجماعات ٠ فانتقل من العراق الى الشام حوالى سـنة ٣٢٠ هـ حيث اتصل بسيف الدولة بن حمدان الذى عـرف له فضـله ، وأكرم وفادته ، وعاش فى كنفه منقطعا الى التعليم والتأليف ٠ وكان فى أثناء اقامته بالشام يتنقل بين مدنها وخاصـة بين حلب عاصمة الحمدانيين ودمشق التى كانت تدخل فى حوزتهم تارة وتخرج أخرى ٠ وقد سـافر مرة من الشام الى مصر ، وكان ذلك على الراجح سنة ٣٣٨ هـ ثم رجع منها الى دمشق حيث توفى سنة ٣٣٩ هـ ٠

وقد آثر الفارابى حياة الزهد والتقشف ، فلم يتزوج ، ولم يقتن مالا ، ولم يشأ ان يتناول من سيف الدولة الا أربعـة دراهـم فضية فى اليوم ـ كما يذكر ذلك كثير من الرواة ـ ينفقها فيما يحتاج اليه من ضرورى العيش ٠ وقد اكتفى بذلك قناعة منه ، وكان فى اسـتطاعته وهو الاثير عند الملك الجواد سيف الدولة بن حمدان ان يكتنز الذهب والفضـة ويقتنى الضـياع ٠ ويروى انه قد بلغ به التقشف انه كان يسهر فى الليل للمطالعة والتصنيف مستضيئا بقنديل (الحارس) ، لأنه لم يكن يملك قنديلا خاصا ، وانه قد بقى على ذلك أمدا طويلا ٠

وكان يؤثر العزلة والوحدة ليخلو الى التأمل والتفكير ٠ وكان طول مدة اقامته بدمشق ، كما يقول ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، يقضى معظم أوقاته فى البساتين وعلى شواطىء الأنهار ، فلا يكون الا عند مجتمع

ماء أو مشتبك رياض ، حيث يؤلف بحوثه ويقصد اليه تلاميذه وزملاوه ومساعدوه » .

مكانة الفارابى
فى العلوم والفنون والآداب

ليس من شك فى أن الفلسفة بمعناها الواسع الذى كان مستخدما فى ذلك العصر ، أى « العلم الجامع الذى يضع امامنا صورة شاملة للكون » كما يقول « دى بور » فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ، كانت أوضح ناحية من نواحى نبوغ الفارابى ، وأبرز مظهر من مظاهر ألمعيته وتخصصه . فمعظم جهوده كانت متجهة الى تجويد بحوثها ، وخاصة ما تعلق منها بالفلسفة اليونانية . وقد استأثرت فلسفة أرسطو ومؤلفاته بقسط كبير من نشاطه ، حتى ان ابن خلكان ليروى فى كتابه « وفيات الأعيان » انه قد وجد « كتاب النفس » لارسطاطاليس وعليه بخط أبى نصر الفارابى : انى قد قرأت هذا الكتاب مائة مرة ، وانه قد نقل عنه انه كان يقول : قرأت « السماع الطبيعى » لارسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى اننى محتاج الى معاودة قراءته » .

وقد طبقت شهرته الآفاق فى مواد الفلسفة ، واعتبر أكبر الفلاسفة بعد أرسطو وأعظم ناشر وموضح لآرائه ، حتى لقد أطلق عليه اسم « المعلم الثانى » أى خليفة أرسطو الذى اشتهر بلقب « المعلم الأول » كما سبق بيان ذلك .

وهو يعد المؤسس الحقيقى للدراسات الفلسفية فى العالم العربى ، والمنشىء الأول لما نسميه الآن « الفلسفة الاسلامية » . فقد أشاد بنيانها ، ووضع الأساس لجميع فروعها . ولانكاد نجد فكرة عند من جاءوا بعده من فلاسفة الاسلام الا لها أصل لديه . وهو أعرف فلاسفة الاسلام بتاريخ الفلسفة ونظريات الفلاسفة . فهو يتحدث فى مؤلفاته حديث الخبير عن المدارس اليونانية ويبين الفوارق بينها ويحاول التوفيق بين أفلاطون وأرسطو

ولا تقل شهرته فى شئون السياسة والاجتماع عن شهرته فى شئون الفلسفة ، بل ان شئون السياسة والاجتماع كانت من أبرز مسائل الفلسفة من فجر نشأتها على يد سقراط وأفلاطون وأرسطو الى الوقت الحاضر . ومن أجل ذلك استأثرت هذه الشئون بقسط كبير من نشاطه

[illegible] ، ووقفت عليها طاقته من مؤلفاته ، من اشهرها كتاب « آراء اهل المدينه الفاضلة » .

وبلغت شهرته فى اجادة عدد كبير من اللغات الأجنبية درجة منقطعة النظير ، حتى لقد ذكر كثير من المؤرخين انه كان يعرف سبعين لغة . وهذا الرقم — وان كان لا يخلو من كثير من المبالغة — يدل على مبلغ شهرته بين معاصريه بتمكنه من معظم لغات الكتابة والحديث السائدة فى عصره ، وخاصة التركية وهى لغته الأصلية ، والفارسية واليونانية التى يتحدث عنها فى بعض كتبه حديث العالم الخبير . وقد وصل فى احاطته باللغة العربية ، وهى ليست لغته الأصلية ، انه كان ينظم بها الشعر ، وقد روى له شعر كثير تغلب على معظمه أساليب الفلاسفة والرياضيين .

وكان له معرفة واسعة بالطب ، بل ذكر بعض المؤرخين انه زاول مهنة الطب ومزاولة عملية ، ولكن الراجح انه لم يزاولها بالفعل ، وانما اكتفى بدراسة الفن نفسه والوقوف على مختلف فروعه .

وكان نابغة عصره فى الموسيقى وله فيها مؤلف مشهور ومخترعات كثيرة . ويذهب ابن خلكان الى انه المخترع للآلة المسماة بالقانون وانه أول من ركبها هذا التركيب ، ويذهب غيره الى انه اخترع آلة أخرى تشبه القانون . ويقول كارادى فو فى « دائرة المعارف الاسلامية » ان دراويش المولوية لا تزال تحتفظ بأغان قديمة منسوبة اليه . ويروى ابن خلكان فى هذا الصدد حكاية أدنى الى الأساطير فيها الى التاريخ ، ولكنها تنبىء عما كان قد اشتهر به الفارابى بين مواطنيه من نبوغ فى فنون الموسيقى ، فيذكر أن الفارابى فى أحد مجالسه مع سيف الدولة لم يعجبه عزف العازفين الذين عزفوا أمامه ، وأظهر أخطاء فنية كثيرة لكل واحد منهم ، فتعجب سيف الدولة من ذلك وسأله ان كان يحسن هذه الفنون ، فأجاب بالايجاب ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيدانا وركبها ثم عزف بها فضحك كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضربا آخر فنام كل من كان فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج .

ويدل ما وصل الينا من مؤلفاته ، وبخاصة كتابه « احصاء العلوم » على انه — بجانب ما ابتكره وما رسخ قدمه فيه — لم يغادر أى فرع آخر من فروع المعرفة السائدة فى عصره الا ألم به ووقف على أهم ما ألف فيه وما وصل اليه الباحثون فى مسائله

الفارابى وانتاجه الفكرى

كان الفارابى منتجا الى أبعد حدود الانتاج ، أخرج الى الناس من المؤلفات والرسائل ما يزيد على المائة ، أتى فيها على الفلسفة بعلومها وعلى النجوم والمناظر والمنطق والعدد والهندسة • وقد سار فى عرض أكثرها على اسلوب ممتاز « بالقصد فى اللفظ والعمق فى المعنى مع دقة فى التعبير وقوة فى التماسك وحسن الانسجام والنظام فى التاليف وربط المواضيع ربطا محكما منطقيا » •

ومن المؤسف حقا ان تضيع أكثر مؤلفاته أثناء الانقلابات والفتن ، وقد سلم منهـــا القليل ، ومن هذا القليل ترجـــم الأوربيون ما وقع فى أيديهم ، ومنهم من نقل محتويات بعض الرسائل وادعاها لنفسه ، ثم ظهر انه مأخوذ عن الفارابى •

وأثنى « روجر باركن » على الفارابى وعلى بعض مؤلفاته ، وذكره بين المقدمين فى تاريخ تقدم الفـكر كأقليدس ، وبطلميوس ، وســـانت أوغستين • ويمكن القول : ان مؤلفات الفارابى « مهدت السبيل لظهور ابن سينا وابن رشد • وكانت نبراسا لحكماء الشرق والغرب ، وسراجا وهاجا يستضيئون بنوره ويسيرون على هداه » •

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد ان للفارابى أكبر الأثر فى التفكير الأوربى ، ولايزال رجـــال الفلسفة والعلم فى أوربـا وأمريـكا يهتمون به الى اليوم •

ومن المؤرخين من ســـماه فيلسوف الاســـــلام بالحقيقـة ، وقال « ابن القفطى » : « ان الفارابى فيلســـوف المســلمين غير مدافـع » • أما « ابن خلكان » فقد ذكر أنه أكبر فلاسفة المسلمين وانه لم يكن فيهـم من بلغ رتبتـه فى فنونه • واطلع المستشرقون والمؤرخـــون فى أوروبا وأمريكا على فلسفة الفارابى ودرسوها وتأثروا بها ، وخرجوا بالقول : ان « الفارابى » مؤسس الفلسفة العربية ، ومنهم من يرى انه زعيم أكبر فرقة فلسفية فى عصره والمقدم فيها وهو المرجع وعليه الاعتماد •

وقال « دى فو » : « ان الفارابى شخصية قوية وغريبة حقا ، وهو عندى أعظم جاذبية وأكثر طرافة من ابن سينا ، لأن روحـه كانت أوفر

تدفقا وجيشانا ، ونفسه أشد تأججا وحماسة ، لفكره وثبات كوثبات الفنان ، وله منطق مرهف بارع متفاوت ، ولأسلوبه مزية الايجاز والعمق » . ويظهر ان « ماسينيوس » (٥٢) قد تأثر أكثر من غيره بفلسفة « الفارابى » وقدرها حق قدرها . فصرح بأن « الفارابى » أفهم فلاسفة الاسلام وأذكرهم للعلوم القديمة ، وهو الفيلسوف فيها لا غير ، وهو مدرك محقق

وكان « للفارابى » أثر بليغ فى الاسلام وفلاسفة القرون الوسطى من مسيحيين ويهود ، ويدلنا على ذلك آثاره التى نجدها فى مصنفات هؤلاء التى تناولت آراء الفارابى ونظرياته بالعناية والاهتمام بها شرحا وتعليقا. ومذهب الفارابى فى الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، مطبوعا بطابع الاسلام « ذلك المذهب الذى بدأ بترتيبه الكندى من قبله وأكمل ابن سينا من بعده »

وقد اشتهر بتفسيره لكتب أرسطو لاسيما فيما يتعلق بالمنطق — كما أسلفنا القول — وهو يعد فى هذا المضمار من أعظم المفسرين . ولكن فضله لا يقف عند التفسير ولا عند التمهيد للنهضة الفلسفية فى الاسلام ، بل بما له من « أنظار مبتدعة وبحوث فى الحكمة العملية والعلمية عميقة سامية لم يتهيأ بعد للباحثين كل الوسائل لتفصيلها تفصيلا وافيا .. » .

ويرى كثيرون ان اهتمام « الفارابى » بالمنطق هذا الاهتمام العظيم ، قد أثر فى التفكير عند العرب ، وتقدم به خطوات ، فقد اعتبره آلة للفلسفة وأداة يمكن بواسطتها الوصول الى التفكير الصحيح . وقد قال فى هذا الشأن :

« وأقول : لما كانت الفلسفا انما تحصل بجودة التمييز ، وكانت جودة التمييز انما تحصل بقوة الذهن على ادراك الصواب ، وكانت قوة الذهن حاصلة لنا قبل جميع هذه . وقوة الذهن انما تحصل متى كانت لنا قوة بها نقف على الحق انه حق يقين فنعتقده ، وبها نقف على الباطل انه باطل يقين فنتجنبه ، ونقف على الباطل الشبيه بالحق فلا نغلط فيه ، ونقف على ما هو حق فى ذاته وقد أشبه بالباطل فلا نغلط فيه ولا نخدع، والصناعة التى بها نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق » .

ولقد أنصف « ابن صاعد » فى كتابه « طبقات الأمم » الفارابى ، فاعترف بانه بز فى صناعة المنطق جميع أهل الاسلام وأربى عليهم فى التحقق بها « فشرح غامضها وكشف سرها وقرب تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها فى كتب صحيحة العبارة لطيفة الاشارة منبهة على ما أغفله الكندى

وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعليم ، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس وافراد وجوه الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها وكيف تعرف صور القياس فى كل مادة منها ، فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » ٠

وله كتاب جدير بالذكر هو كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وضع فيه مذهبه الفلسفى كله مما يتعلق بآرائه فى الالهيات والنفس الانسانيه وقواها المتعددة المختلفة وفى الأخلاق والسياسة ٠

والفارابى مخلص للحقيقة محب لها ويدعو الى محبتها والاخلاص لها ولو خالفت مذهب أرسطو ، فقد جاء فى كتابه « ما ينبغى ان يقدم قبل تعلم الفلسفة » فى الفصل الذى يبحث فى « معرفة الحال التى يجب ان يكون عليها الرجل الذى يؤخذ عنه علم أرسطو ، فهى ان يكون فى نفسه قد تقدم وأصلح الأخلاق من نفسه الشهوانيـة كيما تكون شهوته للحق فقط لا للذة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة كيما يكون ذا ارادة صحيحة ٠٠ وأما قياس أرسطو فينبغى ان لا تكون محبته له ، فى حد يحركه ذلك ان يختاره على الحق ٠٠ » ٠

ولقد دفعت محبة الفارابى للحق واخلاصه للحقيقة الى أن يقول بابطال صناعة التنجيم ، فخالف الكثيرين من علماء عصره والذين أتوا قبله وبعده ٠ وقد أبطل هذه الصناعة بحجج عقلية مشبعة بروح التهكم ، ووضع فى ذلك رسالة سماها : « النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام النجوم » فبين فى هذه الرسالة فساد علم أحكام النجوم الذى يعزو كل ممكن وكل خارق الى فعل الكواكب وقراناتها « لأن الممكن متغير لايمكن معرفته معرفة يقينية ٠٠ » وفى رسالة أخرى بين « الفارابى » : انه من الخطأ الكبير ما يزعمه الزاعمون من أن بعض الكواكب تجلب السعادة وان بعضها يجلب النحس ، وانتهى من هذا كله — كما يقول دى بور — « بأن هناك معرفة برهانية يقينية الى اكمال درجات اليقين نجدها فى علم النجوم التعليمى ٠ أما دراسة خصائص الأفلاك وفعلها فى الأرض فلا نظفر منها الا بمعرفة ظنية ، ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لاتستحق منا الا الشك والارتياب ٠ » ٠

هذا وقد بلغت مؤلفات « الفارابى » — من الكثرة ما جعل المستشرق الألمانى « ستينشيدر » يخصص لها مجلدا ضخما ٠

ولكن لم يصل الينا من هذه المؤلفات الا أربعون رسالة ، منها اثنتان وثلاثون رسالة وصلت الينا فى أصلها العربى ، وست رسائل وصلت

الينا مترجمة الى العبرية ، ورسالتـــان وصلتا الينـــا مترجمتين الى اللاتينية (٥٣) .

وقد طبع نحو نصف مؤلفاته التى وصلت الينا فى أصلها العربى فى ليدن وحيدر آباد والقاهرة وبيروت وغيرها ، ولا يزال باقيها مخطوطا.

ومن أهم ما وصل الينا من مؤلفاته الفلسفية التى يسجل فيهـــا آراءه الخاصـــة :

« كتاب الواحدة والوحدة » و « كتاب الجوهر » و « كتاب الزمان » و « كتاب المكان » و « كتاب الخلاء » و « مقـــالة فى معانى العقـــل » طبعة ليدن ســـنة ١٨٩٠ وطبعة القاهرة ســـنة ١٩٢٧ ، وقد طبع فى بيروت سنة ١٩٣٢ تحت عنوان « رســـالة العقل » ـ ولعل هذا هو نفس الكتاب الذى يسميه بعض المترجمين للفارابى « كتاب العقل والمعقول ») ، و « رسالة فيما ينبغى ان يقدم قبل تعلم الفلسفة » و « عيون المسائل » و « فصوص الحكم » و « رسالة فى جواب مسائل سئل عنها » و « نكت أبى نصر الفارابى فيما يصح ولا يصح من أحكام النجوم » و « كتـــاب التنبيه على سبيل السعادة » و « كتاب تحصيل السعادة » و « رسالة فى اثبات المفارقات » .

ومن أهم ما وصل الينا من مصنفاته التى تتمثل فى شروح وتعليقات على مؤلفات أرسطو شروحه وتعليقاته على : .

« كتاب المقولات » (قاطيغورياس) ، و « كتاب القول الشارح » (القضايا والتعريف) و « كتاب أنالوطيقا الأولى والثانية » (تأليف القياس المنطقى) ، و « كتاب طوبيقا » (الجدل) و « كتاب سفسطيا » (السفسطة) ، و « كتاب ريطوريقا » (الخطابة) و « كتاب بوطيقا » أى الشعر (والكتب السابقة جميعـــا هى مباحث كتـــاب « الأورغانون » L'organon لأرسطو ، وهى المباحث التى يتألف منها علم المنطق بمعناه الواسع عند أرسطو) ، و « كتـــاب الأخـــلاق الى نيقوماخوس » و « كتاب العلم الطبيعى » و « كتاب الآثار العلوية » ، و « رسالة النفس والعالم » و « كتاب فى أغراض الحكيم فى كل مقالة من الكتاب الموسوم بالحروف » (يقصد كتاب الميتافيزيقا لأرسطو) .

ووصل الينا من مؤلفاته كتاب يوفق فيه بين آراء أفلاطون وأرسطو وهو « كتاب فى الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون الالنهى وأرسطوطاليس» .

ووصلت الينا بعض مصنفات له يعلق فيها على غير كتب أرســـطو وأفلاطون منها شرحه على « مقالة النفس » للاسكندر الافروديسى ، وتعليقه على كتاب « المجسطى » لبطليموس الفلكى .

ووصل الينـــا من مؤلفاته فى شئون الســـياسة والاجتماع وكتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » و « كتاب السياسات المدنية » ٠

ووصل الينا من مؤلفاته فى الموسيقى كتاب « صناعة علم الموسيقى » وهو يعد من أهم المراجع فى هذا الفن ٠

هذا بالاضافة الى الكتاب الذى نحن بصدده « احصاء العلوم » والذى يقول فيه « مونك » و « فارمر » ان هذا الكتاب يدل على انه « الفارابى » هو أول من وضع النواة لدوائر المعارف فى العالم ٠ وقد أيد هذا القول الأستاذ مصطفى عبد الرازق فقال : « فليس مجانبا للحق قول من يرى ان الفارابى هو أول من وضع دائرة معارف ، ولسنا نعرف من قبل الفارابى من قصد الى تدوين جملة المعارف الانسانيـــة فى زمنه موطأة مجملة ، يسهل تناولها على المتأدبين ٠٠ » ويقول فى التعريف بالكتاب القاضى صاعد فى كتابه « طبقات الأمم » : « كتاب شريف فى احصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، لم يسبقه اليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء اليه وتقديم النظر فيه » ٠ وكان هذا الكتاب محل عناية المؤلفين والعلماء فى الغرب ، وقد ترك أبلغ الأثـــر فى نظـريات تصنيف العلوم فى القرون الوسطى ٠

أقسام الكتاب

يحصى الفارابى أولا عناوين الفصول الخمسة التى يحتوى عليها « الاحصاء » ، ثم ينبه الى ما لكتابه من فوائد عامة لمحبى المعرفه : فالكتاب يعينهم على ان يعرفوا موضوع العلم الذى يريدون أن يتعلموه ، ويبصرهم بمنفعته والغاية منه ، ويمكنهم من أن يوازنوا بين العلوم ، ليتبينوا أفضلها وأوثقها وأتقنها ، وان يميزوا بين العالم الحقيقى والعالم المتفيهق الذى يدعى البصر بعلم تلك العلوم ، دون ان يضطلع به أو يكون على بينة منه.

ويقسم الفارابى « احصاء العلوم » خمسة فصول : الفصل الأول فى علم اللسان وفروعه ـ من اللغة ، والنحو ، والصرف ، والشعر ، والكتابة ، والقراءة . وقد بحث الفارابى فى مقدمة هذا الفصل بحثا عاما فى معنى « القانون » و « القاعدة » الكلية . ثم بحث فى الأجزاء السبعة الكبرى التى يتألف منها « علم اللسان » عند جميع الشعوب : وهى علم الألفاظ المفردة ، وعلم الألفاظ المركبة ، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة ، وقوانينها عندما تكون مركبة ، وقوانين تصحيح الكتابة ، وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين تصحيح الأشعار . وظاهر ان بحث الفارابى هنا بحث علمى فى قواعد اللغة على العموم ، لا قواعد لغة بعينها ، وان كان يورد الأمثلة من اللغة العربية .

ومن أقوى فصول الكتاب وأمتعها الفصل الذى عقده الفارابى فى علم المنطق . وهذا الفصل كله قد نقله « ابن طملوس » فى مقدمة كتاب « المدخل لصناعة المنطق » . ونقل « ابن أبى أصيبعه » قسما منه فى كتاب « عيون الأنباء » كما أشرنا فيما تقدم . وقد بين الفارابى فى هذا الفصل وجه الحاجة الى المنطق ومنفعته وضرورته لمن أقدم على الدراسات العلمية ، وأوضح موضوع المنطق ، وهو « الصناعة التى نستفيد منها قوة نقف بها على ما هو حق بيقين ، وما هو باطل بيقين » . وذكر وجوه الشبه والخلاف بين المنطق والنحو ، والقضايا المختلفة التى يستعملها المنطق : البرهانية ، والجدلية والسفسطائية ، والخطابية ، والشعرية . وأشار الى مختلف أبواب المنطق ، فى علاقاتها بهذه القضايا . وفقا لقانون « أرسطو » : وهى « المقولات » (قاطيغورياس) و « العبارة » (بارى أرمينياس) ، و « القياس » (أنولوطيقا الأولى) ، و « البرهان » (أنولوطيقا الثانية) ، و « المواضع الجدلية » (طوبيقا) ، و « الحكمة

الموهة » (سفسطيقا) ، و « الخطابة » (ريطوريقـــا) ، و « الشعر » (بوطيقا) ــ وتلك هى المواد التى يحتوى عليها هذا العلم الذى هو ألزم العلوم التمهيدية التى تسبق التعليم وأهمها ·

والفصل الثالث فى « علم التعاليم » ، أى الرياضيات ، وينقســـم الى سبعة أجزاء عظمى : علم العدد ، وعلم الهندسة ، وعلم « المناظر » (أو علم البصريات) ، و « علم النجوم التعليمى » (أى علم الفلك) الذى يبحث فى الأجسام السماوية عن أشكالهـــا ومقادير أجرامها ، ونسب بعضها الى بعض ، وعن حركاتها بالقياس الى الأرض وما الى ذلك ، وعلم الموسيقى بأجزائه الكبرى ، و « علم الأثقال » الذى ينظر فى الأثقال من حيث يقدر بها وفى الآلات التى تستخدم فى رفع الأشياء الثقيلة ونقلها من مكان الى مكان ، و « علم الحيل » (الميكانيكا التطبيقية) ويعطى وجوه معرفة التدابير والطرق فى التلطف لايجاد العلوم الرياضية بالصنعة ، واظهارها بالفعل فى الأجسام الطبيعية والمحسوسة ·

والفصل الرابع فى العلم الالهى (ما بعد الطبيعة) . والعلم الطبيعى (الفيزيقا) · أما العلم الطبيعى فيبحث فى الأجسام الطبيعية أو الصناعية ، مميزا بين عللها الغائية والفاعلة وبين موادها وصورها ، وفى أعراض الأجسام ومراتب الأجسام الطبيعية (بسيطة أو مركبة) · وينقسم العلم الطبيعى الى ثمانية أجزاء عظمى (ويشير الفارابى الى انها كلها تبحث فى كتب أرسطو عن « السماع الطبيعى » ، و « السماع والعالم » و « الكون والفساد » و « والآثار العلوية » ، و « كتاب النبات » و « كتاب الحيوان » و « كتاب النفس ») ·

وهذه الأجزاء هى :

١ ــ ما تشترك فيه الأجسام الطبيعية كلها ·

٢ ــ الأجسام البسيطة ·

٣ ــ كون الأجسام الطبيعية وفسادها ·

٤ ــ مبادىء الأعراض والانفعالات التى تخص « الاسطمسات » (العناصر) ·

٥ ــ الأجسام المركبة من العناصر ·

٦ ــ الأجسام المعدنية ·

٧ ــ النبـــات ·

٨ ــ الحيوان ٠

ويعرض الفارابى « للعلم الالهى » (أى ما بعد الطبيعة) ، ويشير الى انه يتابع « أرسطو » فى كتابه المسمى « ما بعد الطبيعة » ٠

وينقسم العلم الالهى الى ثلاثة أجزاء :

١ ــ جزء يفحص عن الموجودات والأشياء التى تعرض لها بما هى موجودات ٠

٢ ــ وجزء يفحص عن مبادىء البراهين فى العلوم النظرية الجزئية٠

٣ ــ وجزء يفحص عن الموجودات التى ليست بأجسام ولا فى أجسام ، فيبرهن على انها موجودة ، وانها كثيرة ، وانها متفاضلة فى الكمال ، ثم يبرهن على « أنها على كثرتها ترتقى من عند أنقصها الى الأكمل فالأكمل ، الى أن تنتهى فى آخر ذلك الى كامل ما ، لا يمكن ان يكون شىء هو أكمل منه ، ولا يمكن أن يكون شىء هو أصل فى مثل مرتبة وجوده ، ولا نظير له ولا ضد ٠ والى أول لايمكن أن يكون قبله أول ، والى متقدم لايمكن ان يكون شىء أقدم منه ، والى موجود لايمكن ان يكون استفاد وجوده عن شىء أصلا ٠٠ وانه هو الواحد الأول الذى أفاد كل شىء سواه الوحدة ، وانه الحق الذى أفاد كل ذى حقيقة سواه الحقيقة ٠ ثم يبين ان هذا الذى هو بهذه الصفة هو الذى ينبغى ان يعتقد فيه انه هو الله ــ عز وجل وتقدست أسماؤه ٠٠ » ٠

والفصل الخامس فى العلم المدنى (علم الأخلاق وعلم السياسة) ، وعلم الفقه ، و « علم الكلام » ٠ ويعترف الفارابى انه قد تابع هنا آراء « أفلاطون » فى كتاب « الجمهورية » وآراء « أرسطو » فى كتاب « السياسة » ٠

والعلم المدنى جزءان :

١ ــ جزء يشتمل على تعريف السعادة ، وعلى احصاء الأفعال والسير والأخلاق ، وتمييز الفاضل منها وغير الفاضل ٠

٢ ــ جزء يشتمل على وجه ترتيب الشيم والسير الفاضلة فى «المدن» والأمم ٠ وينبه الفارابى الى ضرورة الرياسة المدنية (فى المجتمع)، ويبين الشرائط التى ينبغى ان تتوافر فى « المدن » (فى الأمم والدول) لكى تدوم فاضلة ولا تستحيل الى غير الفاضلة ٠

وعلم الفقه هو العلم الذى يقتدر الانسان به على أن يستنبط تقدير شىء مما لم يصرح واضح الشريعة بتحديده على الأشياء التى صرح فيها

بالتحديد والتقدير · ولما كانت كل ملة تحتوى على معتقدات وأعمال ، فعلم الفقه جزءان :

١ ــ جزء فى الآراء ·

٢ ــ وجزء فى الأفعال ·

ويختتم الفارابى كتابه بعلم الكلام ، وهو عندنا من أحسن فصول الكتاب · والفارابى يعرف هذا العلم بأنه « ملكة يقتدر بها الانسان على نصرة الآراء والأفعـــال المحدودة التى صرح بهـا واضـــع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل » ·

والذى يسترعى النظر هنا أن الفارابى يضع « علم الكلام » من جملة العلوم « العملية » ، بمعنى ان المقصود منه ليس هو حصول رأى أو اعتقاد يقينى فحسب ، بل حصول صحة رأى من أجل عمل · ويفرق الفارابى بين الفقيه والمتكلم تفرقة دقيقة : فالفقيه « يأخذ الآراء والأفعال التى صرح بها واضع الملة مسلمة » ، ويجعلها أصولا ، فيستنبط منها الاشـــياء اللازمة عنها والمتكلم ينصر الأشياء التى يستعملها الفقيه أصولا من غير أن يستنبط عنها أشياء أخرى » ·

وينتهى فيلسوفنا الى تحليل بارع يبسط فيه « المتكلمين » ، ويصور وجهة نظرهم فى الدفاع عن الدين ، فيذكر أن فريقا منهم يرون ان ينصروا الملل بقولهم ان عقائدنا مأخوذة عن وحى الهى ، فلا ينبغى ان تخضـــع للنقد ، لأن فيها أسرارا الهية تضعف العقول البشرية عن ادراكها ·

هدف الفارابى

من كتاب الاحصاء

اختلف الباحثون من شرقيين وغربيين ، على قصد الفارابى من كتاب « احصاء العلوم » ، فذهب بعضهم الى ان الكتاب أشبه بموسوعة ، أو « دائرة معارف » ، واعترض البعض الآخر على هذا الوصف .

الظاهر لنا ان الفارابى لم يقصد ان يكون « الاحصاء » دائرة معارف أو « موسوعة » بمعناها الدقيق المتعارف عليه الآن ، وانما قصد أن يكون كتابه مختصرا لعلوم زمانه ، ومرشدا موجزا لمن أراد الوقوف عليها أو التبحر فيها : فهو يعطى القارىء فكرة واضحة عامة عن موضوع كل علم ومنفعته النظرية والعملية ، فيؤدى الخدمة التى لا يستغنى عنها المثقف ، من المشاركة فى أهم العلوم فى عصره ، وهذا ما يصرح به الفارابى نفسه فى عبارة جلية ، اذ يقول : « قصدنا فى هذا الكتاب ان نحصى العلوم المشهورة علما علما ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ماله منها من أجزاء ، وجمل ما فى كل واحد من أجزائه .. وينتفع بما فى هذا الكتاب الانسان اذا أراد أن يتعلم علما من هذه العلوم وينظر فيه ، علم على ماذا يقدم ، وفى ماذا ينظر ، وأى شىء سيفيد نظره ، وما غناء ذلك ، وأى فضيلة تنال به ليكون اقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرر . وبهذا الكتاب يقدر الانسان على ان يقايس بين العلوم ، فيعلم أيها أفضل ، وأيها أنفع ، وأيها أتقن .. وينتفع به أيضا فى تكشيف من ادعى البصر بعلم من هذه العلوم ، ولم يكن كذلك : فانه اذا طولب بالاخبار عن جملة ما فيه ، وباحصاء أجزائه ، ومجمل ما فى كل جزء منه ، فلم يضطلع به ، تبين كذب دعواه وتكشف تمويهه . وبه يتبين أيضا فيمن يحسن علما منها ، هل يحسن جمعه أو بعض أجزائه ، وكم مقدار ما يحسنه . وينتفع به المتأدب والمتفنن ، ومن أحب ان يتشبه بأهل العلم ، ليظن به أنه منهم » .

ومع ذلك فان الفارابى ــ بكتابه هذا الذى يشتمل على عدد معين من العلوم ــ قد وضع الحجر الأساسى الذى سيبنى عليه مؤلفو الموسوعات العربية ، كما سنرى عند بحثنا لأثر « احصاء العلوم » فى الشرق . ولابد للقارىء أن يلاحظ ان تاليف الكتاب قد جاء وفقا لترتيب عقلى معين

لم يصرح به الفارابى هنا ، وان يكن قد أوضحه فى أكثر من موضوع من مؤلفاته الأخرى ، فكان ما راعاه الفارابى من الترتيب فى كتاب « الاحصاء » جاء على سبيل التطبيق العملى لنظريته فى « تقسيم العلوم » وترتيبها ·

أما نظرية الفارابى فى ترتيب العلوم فقد أجملها فى كتابه « التنبيه على سبيل السعادة » اذ قسم العلوم قسمين كبيرين :

١ ــ قسم تحصل به معرفة الموجودات التى ليس للانسان فعلها ، وهو العلوم النظرية ·

٢ ــ وقسم تحصل به معرفة الأشياء التى شأنها ان تفعل ، والقوة على فعل الجميل منها ، وهو العلوم العملية والفلسفية المدنية ·

والعلوم النظرية تشتمل على ثلاثة أصناف :

١ ــ علم التعاليم (أى العلم الرياضى) ·

٢ ــ والعلم الطبيعى ·

٣ ــ والعلم الالهى (أو علم ما بعد الطبيعة) ·

وكل واحد من هذه العلوم يشتمل على صنف من الموجودات التى شأنها ان تعلم فقط ·

أما العلوم العملية والفلسفة المدنية فهى صنفان :

١ ــ صنف يحصل به علم الأفعال الجميلة ، والأخلاق التى تصدر عنها الأفعال الجميلة ، والقدرة على أسبابها ، وهذه تسمى « الصناعة الخلقية » أو علم الأخلاق ·

٢ ــ وصنف يشتمل على معرفة الأمور التى تحصل الأشياء الجميلة لأهل المدن ، والقدرة على تحصيلها لهم ، وحفظها عليهم ، وهذه تسمى « الفلسفة السياسية » أو علم السياسة ·

فاذا نظرنا الآن فى كتاب « احصاء العلوم » وجدنا الفارابى نفسه يقسمه الى خمسة فصول تحتوى على ثمانية علوم ، وهى : علم اللسان ، وعلم المنطق ، وعلم التعاليم ، والعلم الطبيعى ، والعلم الالهى ، والعلم المدنى ، وعلم الفقه ، وعلم الكلام · واذا تأملنا هذا التقسيم نفسه وجدناه فى صميمه تطبيقا لنظرية الفارابى التى ذكرها فى كتاب « التنبيه على سبيل السعادة » : فقد قدم علم اللسان وفروعه ، وأعقبه بعلم المنطق · وتفسير ذلك ظاهر من كلامه ، لأن علم اللسان عند كل أمة أداة لتصحيح ألفاظها ، وتقويم عباراتها ، فوجب تقديمه على سائر العلوم · ثم ان علم

اللسان مما لا يستغنى عنه فى دراسة « أوائل صناعة المنطق » كما قال الفارابى فى بعض كتبه ، ولأن « موضوعات المنطق هى المعقولات من حيث تدل عليها الألفاظ ، والألفاظ من حيث هى دالة على المعقولات » كما قال فى كتاب « الاحصاء » ·

وبعد ان فرغ الفارابى من علم اللسان ، عرض مباشرة لعلم المنطق، وقد قدمه على سائر العلوم لأنه « يعطى جملة القوانين التى شأنها ان تقوم العقل ، فتسدد الانسان نحو طريق الصواب » · وبعبارة أخرى لأن قوانين المنطق قوانين عامة كلية لابد من مراعاتها فى أى علم لعصمة الأذهان من الزلل فى الأحكام · واذن فتقدم المنطق على العلوم الأخرى هو عند الفارابى تقدم بالذات ، أو بالحيثية : لأن المنطق ، فى نظره ، « رئيس العلوم » وحكمة نافذة فيها ·

وبعد ذلك قسم الفارابى العلوم قسمين كبيرين :

١ ــ علوم نظرية ، وهى التى تكلم عليها فى الفصلين الثالث والرابع ، وجعلها مشتملة على العلوم الرياضية بأنواعها وأجزائها ·

٢ ــ وعلوم عملية ، وقد تكلم عليها فى الفصل الخامس ، وذكر منها العلم المدنى (أى الأخلاق السياسية) ، وأضاف اليه علم الفقه وعلم الكلام ·

واذن فالمطابقة ظاهرة بين المذهب العام للفارابى فى ترتيب العلوم وبين الترتيب الذى اتبعه بالفعل فى كتاب « احصاء العلوم » ·

★★★

أثر احصاء العلوم
فى الشرق والغرب

كتب الفارابى « احصاء العلوم » فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، فذاع الكتاب لدى العلماء والمؤلفين فى العالم الاسلامى ، وأصبح نواة لغيره من الموسوعات العلمية العربية ·

وأول ما نذكر من تلك المؤلفات « رسائل اخوان الصفا » التى ظهرت فى منتصف القرن الرابع الهجرى وهى أشبه بموسوعة فى الفلسفة والعلوم ، وتحتوى على اثنتين وخمسين رسالة ، قسمها مؤلفوها أربعة

أقسام كبرى : رياضية تعليمية ، وطبيعية جسمانية ، ونفسانية عقلية ، والهية ناموسية ·

ويقول « اخوان الصفا » فى الرسالة الأولى : « الفلسفة أولها محبة العلوم ، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الانسانية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم · والعلوم الفلسفية أربعة أنواع : أولها الرياضيات ، والثانى المنطقيات ، والثالث العلوم الطبيعيات ، والرابع العلوم الالهيات ·· » ·

ونذكر فى هذا الصدد أيضاً كتاب « مفاتيح العلوم » لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى (المتوفى فى سنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م) · والكتاب فى مقالتين : الأولى فى ستة أبواب ، وتحتوى على علوم الشريعة وما يتصل بها من العلوم العربية (الفقه ، والكلام ، والنحو ، والكتابة ، والشعر ، والعروض ، والأخبار) · والثانية فى تسعة أبواب ، وتتناول علوم العجم · من اليونانيين وغيرهم من الأمم (الفلسفة ، والمنطق ، والطب ، وعلم العدد ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والحيل ، والكيمياء) · ويلاحظ ان أساس التقسيم فى « مفاتيح العلوم » مخالف لأساسه فى « احصاء العلوم » · ثم ان الخوارزمى قد أضاف علمى الطب والكيمياء الى العلوم التى ذكرها الفارابى ·

ومما يدخل فى هذا الباب كتاب « الشفاء » لابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ـ ١٠٧٣ م) · وهذا الكتاب المشهور أشبه بموسوعة للعلوم التى أوردها الفارابى · ولابن سينا أيضا رسالة فى « أقسام العلوم العقلية » · ويبدو لنا ان التقسيم الذى اتبعه الفارابى فى كتاب « الاحصاء » قد أصبح بعد أساسا لتقسيم ابن سينا الذى بسطه فى هذه الرسالة ، وجعل فيه « الحكمة » قسمين : قسم نظرى مجرد ، وقسم عملى · فالقسم النظرى هو الذى يكون المقصود فيه هو حصول الاعتقاد اليقينى بحال الموجودات التى يكون وجودها غير متعلق بفعل الانسان ، كعلم التوحيد ، وعلم الهيئة · والقسم العملى هو الذى تكون الغاية فيه حصول صحة رأى من أمر يحصل بقدرة العلم النظرى هى « الحق » ، وغاية العملى هى « الخير » · والحكمة النظرية ، بدورها ، تنقسم عند ابن سينا ثلاثة أقسام : العلم الأسفل ، ويسمى العلم الطبيعى ، والعلم الأوسط ، ويسمى العلم الرياضى ، والعلم الأعلى ، ويسمى العلم الالهى · والحكمة العملية تنقسم كذلك أقساما ثلاثة : علم الأخلاق ، ويعرف به كيف يكون تدبير الانسان لمنزله ، وعلم سياسة المدنية ، ويعرف به أصناف السياسات والرياسات والاجتماعات فى المدينة الفاضلة والفاسدة ·

وقد يلاحظ القارىء بين هذا التقسيم الذى بسطه ابن سينا ، ومن التقسيم الذى ذكرناه للفارابى تطابقا بينا من حيث الجوهر والأساس ، وان اختلفت الصيغ والعبارات ٠

أما رسالة « ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد » لشمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد السنجارى الأكفانى (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م) ، فقد ذكرت طائفة كبيرة من العلوم ٠ ويظهر أن مؤلفها استقى فيها من « احصاء العلوم » شيئا غير قليل ٠ ونظرة فى مقدمة هذه الرسالة تجعلنا نتبين انها اتفقت فى أكثر من موضع مع مقدمة « الاحصاء » اتفاقا لايقتصر على المعنى ، بل يتناول العبارات بنصها ٠

ومما هو معلوم للباحثين ان ابن خلدون (المتوفى سنة ٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢ م) قد عقد فى « مقدمته » المشهورة لكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فصلا مستفيضا فى العلوم وأنواعها وسائر طرقها وأنحائها ، فتكلم على طائفة كبيرة من علوم الحضارة فى زمانه ، كعلوم القرآن ، والفقه ، والكلام ، والتصوف ، والرياضة ، والمنطق ، والطبيعيات ؛ والطب ، والالهيات ، والسحر ، والطلسمات ٠٠٠ الخ ٠ ويبدو أن أساس تقسيم العلوم عند ابن خلدون لايختلف كثيرا عن أساسه عند الخوارزمى فى « مفاتيح العلوم » ٠

ولعل أكمل الموسوعات العلمية فى اللغة العربية كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لطاشكبرى زادة (المتوفى سنة ٩٦٨ هـ ـ ١٥٦٠ م) ٠

وفى هذا الكتاب أفاض المؤلف فى الكلام على العلوم وموضوعاتها وأعلامها المبرزين فيها ٠ وهو قد قسم العلوم سبعة أقسام ، هى : البيان ، والفصاحة ، والمنطق ، والفلسفة النظرية ، والفلسفة العملية (العلم الايجابى النظرى والعلم الايجابى العملى) ٠ ونلاحظ ان هذا الكتاب بدوره قد استقى من رسالة « ارشاد القاصد » وغيرها ، وزاد عليها فى بعض المواضع ، ونقل الكثير من تعريفاتها للعلوم بنصها فى مواضع أخرى ٠

وبعد ذلك بنحو قرن من الزمان ظهر كتاب « كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون » لمصطفى عبد الله ، الشهير بحاجى خليفة ، وبكاتب جلبى (المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ ـ ١٦٥٨ م) ٠ وهذا الكتاب أشبه بمعجم كبير فى عناوين الكتب العربية والتركية والفارسية التى تيسر للمؤلف ان يقف عليها ٠ وقد لخص حاجى خليفة فى مقدمته لـ (كشف الظنون) بعض ما ورد فى المقدمة الخلدونية وفى (مفتاح السعادة)

وغيرهما ، وقد سلك فى ذلك مسلك طاشكبرى زادة ، وان كان قد تعرض له بالنقد حينا وبالنقل عنه وبالزيادة عليه حينا آخر • وقد تكلم حاجى خليفة فى المقدمة أيضا عن ماهية العلم وموضوعه وغايته وتقسيمه . وعن منشأ العلوم والكتب فى البلاد الشرقية ، وعن مسائل أخرى متصلة بتاريخ المعارف واللغة العربية وآدابها • وقد ترجمت هذه المقدمة كلها فى « انسيكلوبيديا » ، « فون همر » الألمانية التى طبعت فى مدينة « ليبزج » سنة ١٨٠٤ •

وينبغى ان نشير أخيرا الى كتاب « أبجد العلوم » لصديق حسن خان ملك بهوبال الهند (المتوفى سنة ٣٠٧ هـ ــ ١٨٩٨ م) • وقد نقل هذا المصنف عمن سبقوه فى هذا الفن : كالألفانى ، وابن خلدون وغيرهما •

وما دمنا بصدد هذا البحث فلا بأس من أن نذكر كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » للمولوى التهانوى الهندى ، وقد جاء فى مقدمة الكتاب بيان عن العلوم المدونة ، مع ذكر موضوعاتها • ونلاحظ هنا أيضا أن المصنف قد أخذ كثيرا من التعريفات والشروح عمن سبقوه كصاحب « كشف الظنون » ، وصاحب « ارشاد القاصد » وصاحب « مفتاح السعادة » ــ، وغيرهم •

وقد رأينا أن هؤلاء جميعا قد تأثروا بكتاب « احصاء العلوم » للفارابى • ولا شك أن الفارابى هو السابق الى الكتابة فى تقسيم العلوم وترتيبها ، وهو أيضا واضع الحجر الأساسى لبناء موسوعات العلوم فى اللغة العربية واللغات الشرقية •

ولم يقتصر أثر « احصاء العلوم » على الحياة العقلية فى العالم الاسلامى أو العالم العربى ، بل امتد الى المؤلفين والمصنفين من أهل القرون الوسطى فى العالم الغربى أيضا • والظاهر ان الكتاب أصبح فى المدارس المسيحية ، كما كان فى المدارس الاسلامية ، من المؤلفات التى « لايستغنى عنها » ، على الرغم من ذيوع كتاب المستشرق الاسبانى « جند سالينوس » (ابان القرن الثانى عشر) فى « تقسيم الفلسفة » •

وخلاصة القول انه ليس ثمة شك فيما كان لكتاب « احصاء العلوم» من اعتبار فى نظر المتقدمين ، ولا فى مبلغ ما أحدث من أثر عند المتأخرين من شرقيين وغربيين •

القانون المسعودي في الحياة والنجوم

أبو الريحان البيروني

١٠٣٠ م

● للعرب نظريات مبتكرة لم يسبقهم اليها انسان ، بعضها ظل مخلدا باسمهم على مر السنين والأعوام ، وبعضها اقتبسه علماء الغرب بعد ذلك بعدة قرون فصار منسوبا اليهم دون أصحابه الشرعيين · ويرجع السبب فى هذا اللبس الى العدد الهائل من المخطوطات العربية التى تحتاج الى دراسة شاملة ومقارنة علمية بالنظريات الحديثة ، وندرة الخبراء العرب الذين تخصصوا فى هذا النوع من الدراسات ·· أما المستشرقون الأجانب ، فعذرهم عدم الالمام الكافى باللغة العربية ، ناهيك عن اللغة العلمية والاصطلاحات الخاصة التى استخدمها علماء العرب فى القرون الوسطى ـ هذا بالاضافة الى صعوبة قراءة المخطوطات العربية والأخطاء التى وقع فيها الناسخون القدماء ، وأكثرهم غير ذى دراية بما يقوم بنسخه ·

وعلماء العرب الذين بزغت أسماؤهم فى القرون الوسطى ، وأدلوا بقسط وافر فى تقدم العلوم ، هم فى الحقيقة مجموعة ضخمة ، احتل منهم الكثيرون مراكز الصدارة ومن بينهم العالم أبو الريحان البيرونى ·

وقبل ان نخوض فى تراث البيرونى العلمى ينبغى لنا ان نزيح الستار عن الدور الكبير الذى أسدته العناية الالهية للحضارة الاسلامية فنجد جورج سارتون أكبر مؤرخ لتاريخ العلم فى العصر الحديث يقول فى كتابه العظيم « مقدمة لتاريخ العلم » : « عندما أمسى الغرب مستعدا استعدادا كافيا للشعور بالحاجة الى معرفة أعمق ، وعندما أراد آخر الأمر ان يجدد صلاته بالفكر القديم ، التفت ، لا الى المصادر الاغريقية ، ولكن الى المصادر العربية » ·

أما بريفو فى كتابه « تكوين الانسانية » فيقول : « العلم هو أجل خدمة أسدتها الحضارة العربية الى العالم الحديث ، فالاغريق قد نظموا ، وعمموا ، ووضعوا النظريات ، ولكن روح البحث ، وتركيم (٥٤) المعرفة اليقينية ، وطرائق العلم الدقيقة ، والملاحظة الدائبة المتطاولة كانت غريبة

عن المزاج الاغريقى ، وانما كان العرب هم أصحاب الفضل فى تعريف أوربا بهذا كله ، وبكلمة ، فان العلم الأوربى مدين بوجوده للعرب » ٠

وقال نيكلسون (٥٥) : « ٠٠٠ وما المكتشفات اليوم لتحسب شيئا مذكورا ازاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء فى القرون الوسطى المظلمة ولاسيما فى أوربا ٠٠ » ٠

وقال دى فو : « ٠٠٠ ان الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به ٠ أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وانمائه حتى سلموه الى العصور الحديثة ٠٠٠ » ويذهب « سيديو » الى ان العرب هم فى واقع الأمر أساتذة أوربا فى جميع فروع المعرفة ٠

وقد يقول قائل : ان المعارف القديمة لاتهمنا ، وليس فيها ما يلائم العصر الحاضر فى شتى ميادين المعرفة ، فالقدماء العرب ومن قبلهم اليونان لم يقدموا صورة عن الكون ، ولم تكن آراؤهم فى بعض نواحى المعرفة ناضجة ٠ وفى كل يوم نشهد تحولا وانقلابا فى الفكر والعلم ٠ اذن ما هى ميزة تراث الأقدمين حتى توجه اليه العناية والاهتمام ؟ ٠

وفى هذا مغالطة ليس بعدها مغالطة : فالتراث الذى خلفه الأقدمون ، والانقلابات التى تتابعت ، هى التى أوصلت الانسان الى ما وصل اليه ٠ وجهود فرد أو جماعة فى ميادين المعرفة تمهد السبيل لظهور جهود جديدة فى أفراد أو جماعات أخرى ٠ ولولا ذلك لما تقدم الانسان ولما تطورت المدنيات ٠ ذلك لأن الفكر الانسانى يجب ان ينظر اليه ككائن ينمو ويتطور ، فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة أو أوقات خاصة تمهد لأدوار أخرى معينة ٠

وعلى هذا يمكن القول : لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من النقطة التى بدأ منها العرب نهضتهم العلمية فى القرن الثامن للميلاد ٠

★★★

البيرونى فى عصره

هو أبو الريحـان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى ، الرياضى الفلكى ، الجغرافى ، المؤرخ ، وهو مؤلف عربى وان كان من أصل فارسى. ولد فى (ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ ـ سبتمبر سنة ٩٧٣ م) بضاحيـة من ضواحى خوارزم ، ودرس فى استيعاب وتفصيل الرياضيات والفلك والطب والتقاويم ، والتاريخ . وكان متصلا بالشيخ الرئيس ابن سينا ، وكانت بينهما مراسلات ، قيل انها ذات أثر فى حياة البيرونى العلمية ، وبالرغم من انه كان على صلة قرابة بابن سينا والفارابى الا أنه فى نزعته العلميـة كان يعد حقـا تلميذا للكندى والمسعودى ، ويقول المستشرق الألمانى « سخاو » : « البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ » ، ولا ريب ، فالبيرونى صاحب اليد الطولى فى الرياضيات والنجوم والتاريخ ، وفضلا عن ذلك كان لغويا أديبا . وسمى البيرونى بلغة أهل خوارزم ، لأنهم كانوا يسمون الغريب بيرونى ، وذلك لأن اقامته بخوارزم كانت قليلة ، اذ كان لايقيم بها الا وهو على سفر ، فلما طالت غيبتـه عدوه غريبـا ، وأطلقوا عليـه لقب « بيرونى » ويقول السمعانى فى اللباب : « سمى بذلك لأنه كان يسكن بظاهر مدينة خوارزم وكان هذا الجزء من المدينة خاصا بالغرباء ، واسمه بيرون ، فنسب اليه » . وقيل انما لقب بالبيرونى نسبة الى بلده « بيرون » من بلاد الهنـد ، يقال انه نشـأ بها ، أو أقام بها مدة طويلة ، فعرف بأنه من أهلها ، الراجح من أقوال المؤرخين انه بدأ حياته فى خوارزم ، ثم انتقل منها الى جرجان ، وأقام فيها مدة ، ثم ارتحل الى « كوركانج » شمالى خوارزم ، وانه كان على جـانب كبير من الدهـاء وسعة الحيلة ، والذكاء الخارق ، فاستطاع أن يتقرب الى ملوك خوارزم ، وان تكون له الحظوة عندهم والمكانة الاثيرة . ولما استولى السلطان محمود الغزنوى على ممتلكات آخر ملوك الدولة الخوارزمشـاهية الأولى انتقل أبو الريحان الى بلاط محمود الغزنوى ، ويقول ياقوت : انه أقام بمدينة غزنه أيام السلطان محمود الغزنوى ، الذى عرف بحبـه الشديد للعلم وتكريم العلماء .

وكان أبو الريحان معروفا بسعة الاطلاع ، فكان لايرى الا مكبا على تحصيل العلوم ، عاكفا على تصنيف الكتب ، مع الاحاطة التامة بما فيها ، فلا يفـارق يـده القلم ، ولا عينه النظر ، ولا عقله التفكير الا فى يومى

النيروز والمهرجان ، لاعداد ما تمس اليه حاجته من زاد ومتاع ، ولذلك قيل : انه قضى معظم حياته فى كشف قناع المشكلات · وحسبك دليلا على مقدار تشبع هذا العالم النادر المثال بحب العلم ما يرويه ياقوت عن النيسابورى من أن قاضيا من أصحاب أبو الريحان قال :

دخلت على أبو الريحان وهو يجود بنفسه وقد حشرج نفسه وضاق به صدره ، فقال لى فى تلك الحال :

كيف قلت لى يوما حساب الجدات الفاسدة ؟

فقلت له اشفاقا عليه : أفى هذه الحالة ؟

قال لى : يا هذا ، أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟

· فاعدت ذلك عليه ، وحفظه ، وعلمنى ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا فى الطريق فسمعت الصراخ (٥٦) ·

ومن كانت هذه حاله مع العلم فانه ولا شك لا يمارسه ليتقرب به الى الملوك ولا ليكتسب به الجاه عند الناس ، وهكذا كان أبو الريحان مستغنيا عن الملوك وما عندهم من جهة ، غير مبال بأن يفوز بالحمد من سواد الناس ، أو يشتهر عندهم بالعلم من جهة أخرى ·

كان حب الاطلاع والعلم والاخلاص فى طلبه غريزة من غرائز علمائنا السابقين · فأحب شىء لدى العالم منهم ألا يودع الدنيا ألا وهو يقرر مسألة من مسائله ، ولذلك كان البيرونى يتمتع بمنزلة علمية سامية ، حتى قيل ان شمس المعالى قابوس بن وشمكير (٥٧) أراد أن يستأثر بصحبة أبو الريحان · على ان تكون له الكلمة النافذة فى ملكه الواسع ، فأبى البيرونى ذلك فى أول الأمر ، وحينما سمحت نفسه بذلك بالغ شمس المعالى فى توقيره واحترامه ، فأسكنه معه فى قصره ، وكان يستشيره فى كل ما يعرض له من أمور مهمة ، وفيما يسنح له من أمر السماء والنجوم ، لأنه كان أكبر عالم فى الفلك فى عصره ، وقد حدث أن رسولا جاء من أقصى بلاد الترك الى غزنة ، فحدث الحاضرين فى مجلس السلطان ، ومن بينهم البيرونى عما شاهده وراء البحر نحو القطب الشمالى من دوران الشمس عليه وهى ظاهرة فى أثناء دورانها فوق الأرض · ولما كان لهذه المسألة أثر فى اختلاف مواقيت الصلاة أسرع السلطان ، وكان معروفا بالتشدد فى الدين فى رمى الرسول بالالحاد · وكان ممن حضروا هذا المجلس أبو نصر ابن مشكان وكان عالما فاضلا فقال : ان مثل هذا الرسول لايحدث الا عما

شاهده وارتآه بعينه ، وتلا قوله تعالى : « وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » ، ولما سئل أبو الريحان قرر وجه الحق فيما قاله الرسول على طريق الاقناع ، وسنرى فيما بعد أن أبا الريحان قد وضع الكتاب الذى نحن بصدده فى تقرير هذه المسألة · وكانت اقامته بغزنه من الأسباب التى ساعدته فى القيام بعدة رحلات علمية الى الديار الهندية المفتوحة · ولكى يتمكن من دراسة بلاد الهند من حيث تاريخها وثقافتها وأديانها ، تعلم اللغة السنسكريتية على بعض العلماء الوطنيين ، ففتحت له هذه المعرفة أبواب الثقافة الهندية من الناحيتين العلمية والدينية ، حتى اذا كانت سنة ١٠١٧ م ، شرع فى تأليف كتابه المشهور عن الهند ، الذى يعد صورة كاملة عن عالم ثقافى غريب ، ويقول (بروكلمان) المستشرق الألمانى الكبير : ان هذا الكتاب يعد نسيج وحده فى الأدب العربى ، وقد أدى للدراسات الأوربية خدمة جلى · ولم تكن مدارسته للعلوم والتأليف مقصورة على الفلك والرياضيات ، بل انه تناول الآداب والتاريخ ، واختص فى الفن الأخير بتدوين أخبار الامم الشرقية عامة والأمة الهندية خاصة ، فقد استقصى حوادث الهند وأخبارها وأساطيرها ، ووصف عاداتها وأخلاقها وأزياءها فى افاضة عجيبة ، ولهذا انعقد اجماع النقاد على أن تواليفه فى التاريخ من خير المراجع ، لاستطلاع أخبار الشعوب الشرقية ، وحوادثها وأساليب معيشتها والمستشرقون مجمعون على انه كان أكبر عالم فى العالم الاسلامى وأكثر المفكرين الاسلاميين ابداعا · واذا كان عصر البيرونى حافلا بعدد كبير من العلماء فانه هو ومعاصره ابن سينا سبقا غيرهما فى ميادين العلم والمعرفة سبقا عظيما ، فأبن سينا لم يكن خلفا عظيما لأبقراط وجالينوس فى الطب فحسب ، بل كان فيلسوفا كبيرا جمع بين أفكار أرسطو والأفلاطونية الحديثة ، وضمنها علوم المسلمين ، وأما البيرونى فقد كان رحالة ، وجغرافيا ومؤرخا ، ورياضيا وعالما طبيعيا وفلكيا · وفضلا عن ذلك فقد كانت له مهارة فائقة فى لغات كثيرة ، كان يتكلم بلهجة خوارزم مسقط رأسه ، وكان يجيد العربية والفارسية كل الاجادة ، هذا الى المامه باللغات السنسكريتية واليونانية والعبرية والسريانية · وأما معرفته بالأدب العربى وبخاصة الأدب الجاهلى فقد كانت معرفة ألفة وممارسة · واذا كان ابن سينا يمثل الروح العلمى الفلسفى فى جمع الأفكار ووضعها على شكل نظريات أو أحكام عامة ـ فان البيرونى يمثل روح الناقد الجرىء ، فقد كان ذا رغبة قوية فى نقد الأمور ، جريئا فى ابداء الرأى ، ولاريب فى ان شجاعته الفكرية ، وحبه للاطلاع العلمى ، وميله الشديد الى الحقيقة والتسامح والاخلاص ـ كانت من الصفات النادرة فى القرون الوسطى · والبيرونى فى الحقيقة مدين لمن أتاحوا له فرص البحث من أمراء خوارزم وملوك الدولة الغزنوية · وقد استغل هذه

الفرصة خير استغلال . فتفرغ للبحث عن العلوم ... حبوه برعايتهم الامير قابوس بن وشمكير أمير جرجان ، وقد أشرنا اليه من قبل ، وقد عبر البيرونى عن وفائه لهذا الأمير المحب للعلماء ، فاهدى اليه بعبارات تفيض بالشعور الفياض ، والاعتراف بالجميل — مؤلفه الأول من مؤلفاته الكبرى المعروف بالآثار الباقية عن القرون الخالية فى الفلك والنجوم ، وكان قد وضع هذا الكتاب فى أثناء اقامته فى بلاطه . ولما توفى السلطان محمود الغزنوى وتولى بعده ابنه السلطان مسعود ، ورث أباه فى حبه للعلماء والميل الى علم النجوم بصفة خاصة . وكان من المسائل الفلكية التى شغلت الأذهان فى ذلك الوقت مسألة اختلاف مقادير الليل والنهار على الأرض ، فعرض السلطان مسعود هذه المسألة على أبى الريحان ، ويقول ياقوت : ان أبا الريحان قال للسلطان مسعود : « أنت المتفرد اليوم بامتلاك الخافقين ، والمستحق بالحقيقة اسم ملك الأرض ، فأخلق بهذه المرتبة ايثار الاطلاع على مجارى الأمور ، وتصاريف أحوال الليل والنهار ، ومقدارها فى عامر الأرض وغامرها » ثم صنف له كتابا فى موضوع اختلاف الليل والنهار على منهج جديد ، يبعد كثيرا عن مصطلحات المنجمين فى ذلك العهد ، وكان السلطان يفهم العربية ، فسهل وقوفه عليه ، ومن أجل ذلك أجزل فى الاحسان الى أبى الريحان .

ويقال ان البيرونى بعد أن تنقل كثيرا فى بلاد الهند ، وبعد اقامته الطويلة بها — ألقت به عصا التسيار الى خوارزم مرة أخرى ، ولم تعرف سنة وفاته بالدقة . وقيل انه توفى فى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٤٨ م . ويقول ياقوت انه استمر يقيم بغزنة حتى مات سنة ٤٠٣ هـ تقريبا ، وقد بلغ من العمر سنا عالية ، ويصفه بأنه كان حسن المحاضرة ، طيب العشرة ، عفيفا فى أفعاله ، لم يأت الزمان بمثله علما وفهما .

تراث البيروني العلمي

عرف معاصرو البيروني فضله ، وقدروا سبقه في مختلف العلوم حق قدره ، فذاعت شهرته في حياته ، وصار يعرف بين علماء العصر باللقب الذى انفرد به وهو « الأستاذ » ، كما كان معاصره وقرينه في الشهرة العلمية ابن سينا يعرف بلقب « الرئيس » ، وهما لقبان اذا أطلقا من غير اضافة كانا كافيين للدلالة على شخصى البيروني وابن سينا كدلالة الأسماء سواء بسواء . وكما كان البيروني يعرف في الشرق بلقب الأستاذ كان يعرف لدى الغربيين في القرون الوسطى باللقب نفسه مضافا الى اسمه محرفا فهو عندهم « الأستاذ أليبورون » Master Aliporon كما نجده في الكتب اللاتينية لذلك العهد .

وعالم مثل أبي الريحان في سعة آفاقه وتعدد مناحيه يصعب الالمام بما أحرزه العلم على يده من تقدم وما حقق في مختلف الميادين من سبق علمي ، على انه لا بأس باشارات قليلة تدل على ما وراءها من كنوز خبيئة في مؤلفات البيروني – ما نشر منها وما لايزال ينتظر النشر – والحق ما قاله المستشرق ساخاو – ناشر كتب البيروني في القرن الماضي – من ان تقدير أبي الريحان حق قدره والاعتراف له بكل فضله يحتاج الى عمل أجيال من الباحثين بنكبون على تراثه العلمي بحثا ودراسة وتحقيقا.

بعد ان يعدد ياقوت بعض كتب البيروني يقول : « واما سائر كتبه في علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانها تفوق الحصر ، رأيت فهرسها في وقف الجامع بـ (مرو) في نحو الستين ورقة بخط مكتنز ». ويقدر الدكتور حسن ابراهيم حسن عدد مؤلفاته بـ (١٠٠) مائة مؤلف ، والأستاذ قدرى طوقان بـ (١٢٠) عشرين ومائة مؤلف نقل بعضها الى اللغات اللاتينية والانجليزية والفرنسية والألمانية .

وسطر العالم الألماني « سخاو » في مقدمته لكتاب البيروني الموسوم بـ (الآثار الباقية) العشرات من مؤلفاته ومقالاته ورسائله . وقدر (جاك بوالو الدومنكى) عدد مؤلفاته بين موجود ومنقود وبين مطبوع ومخطوط بـ (١٨٠) مؤلفا . وعلى رأى الأستاذ أحمد سعيد الدمرداش (١٨٣) كتابا ضاع الكثير منها والباقى موزع في مكتبات العالم . وفيما يلى أبرز مؤلفاته :

● الآثار الباقية عن القرون الماضية :

وهو أول كتاب وضعه عندما كان في بلاط جرجان وأهداه الى أميرها قابوس سنة ١٠٠ م · وهو يبحث عن التقاويم والشهور عند مختلف الأمم · ويتخلل ذلك بحوث رياضية وطبيعية وفلكية عديدة · كما يحوى معلومات تاريخية عن ملوك آشور وبابل والكلدان والقبط والروم واليونان · وعنى « سخاو » بنشر نص هذا الكتاب وطبعه في (ليبزك) عام ١٨٧٨ · كما ترجمه الى الانجليزية ونشرة في لندن سنة ١٨٧٩ وطبع طبعة جديدة مع شروح سنة ١٩٢٣ ·

● القانون المسعودى :

والذى نحن بصدده فى هذا الفصل ، وهو مصنف ضخم يبحث فى علم الفلك والهندسة والجغرافيا · طبعته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند فى ثلاثة أجزاء سنوات ١٩٥٤ ، ـ ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ·

● تحقيق ما للهند من مقولة معقولة فى العقل أو مرذولة :

ويحتوى على ٨٠ بابا ، تناول فيه أحوال الهند وأعيادها وتقاويمها وقوانينها وسكانها ، وذكر معتقداتهم بالله والموجودات العقلية والحسية وغيرها · نشر فى لندن سنة ١٨٨٧ ·

● التفهيم لاوائل صناعة التنجيم :

ألفه فى غزنه ، بالعربية والفارسية سنة ١٠٢٩ م على طريقة السؤال والجواب فى الفلك والرياضيات وقدمه لريحانة بنت الحسن الخوارزمية · نشره « رمزى رايت » مع ترجمة انجليزية فى لندن سنة ١٩٢٤ عن مخطوط محفوظ فى المتحف البريطانى ·

● الصيدلة :

ترجمه فى الهند الى الفارسية أبو بكر بن عثمان الأصغر الكاسانى عام ١٢١١ م استقصى فيه ماهيات الأدوية ، وأسماءها واختلاف آراء المتقدمين وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه ، وقد رتبه على ظروف المعجم · نشره مع ترجمة مقدمته فى برلين عام ١٩٣٢ ماكس مايرهوف وقام بتحقيقه المستشرق السوفيتى الكيميائى عبد الله كاديموف من كلية الدراسات الشرقية بجامعة البيرونى بطشقند · وقد أطلق عليها الروس اسم البيرونى تمجيدا له ·

● الجماهر فى معرفة الجواهر :

ألفه للملك مودود بن مسعود وهو يبحث فى علم الجيولوجيا والمعادن والأحجار الكريمة ، قام بتحقيقه المستشرق السوفيتى كرمكوف كما طبعته جمعية دائرة المعارف العثمانية سنة ١٩٣٦ م

● تحديد نهايات الأماكن :

يحوى معلومات دقيقة فى علم الجيولوجيا ، توجد منه نسخة مكتوبة بخط المؤلف فى مكتبة استنبول ، وقد طبع النص الكامل للكتاب سنة ١٩٦٢ فى أنقرة .. وقام المستشرق السوفيتي د. بوكاكوف بتحقيقه

● الفلسفة الهندية :

ذكر فيه أحوال الهند ، واعتقادهم فى الله وفى الموجودات العقلية والحسية وفى سبب الفعل وتعلق النفس بالمادة وغير ذلك من الأمور الفلسفية . راجعه وقدم له د . عبد الحليم محمود .

● استخراج الأوتار فى الدائرة :

صنفها فى رجب سنة ٤١٨ هـ ، وتعود كتابة النسخة الموجودة بحيدر آباد الدكن الى سنة ٦٣١ هـ .

● رسائل البيرونى :

طبعت بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن سنة ١٩٤٨ هـ وتتكون من أربع رسائل فى الرياضيات ، وعلى الأخص الهندسة ، وهى : ١ ــ استخراج الأوتار فى الدائرة ٢ ــ افراد المقال فى أمر الظلال ٣ ــ تمهيد المستقر لمعنى الممر ٤ ــ راشيكات الهند .

ومن مؤلفاته الأخرى « مقالة فى النسب » ويتضمن خلاصة أبحاثه فى الوزن النوعى و « الأسطرلاب » (٥٨) وقد وردت فيه نظرية لاستخراج محيط الدائرة ، و « تقاسيم الأقاليم » الذى كتبه بخطه سنة ٤٢٢ هـ عندما كان بغزنه . وله مؤلفات عديدة غيرها .

ابتكاراته العلمية

وفق البيرونى فى تقرير بعض الآراء العلمية ، التى تشهد بعقليته الجبارة فى ميدان البحث ، والكشف العلمى الدقيق ، انه لم يكن ناقلا لآراء السابقين من علماء اليونان وغيرهم فحسب ، بل كان محققا مصححا لآراء علماء اليونان وغيرهم ، وكان المفكرون من العرب فى زمانه يؤمنون برأى الاغريق فى الجاذبية ، الذى يقول : « ان الأجسام الثقيلة مجذوبة الى معدنها من مركز الأرض ، والأجسام الروحانية مجذوبة الى أصلها فى السماء » .

ولكن البيرونى يشك فى هذا الرأى ، ويوجه الى ابن سينا سؤاله ، الذى يدل على ميله الى القول : بأن الأجسام كلها مجذوبة الى مركز الكرة الأرضيّة ، وذلك حين يقول : ما الصحيح من هذين الرأيين ؟ الرأى الذى يقول : ان الماء والأرض يتحركان الى المركز ، والهواء والنار يتحركان من المركز ، أو الرأى الذى يقول : ان جميع الأشياء تتحرك نحو المركز ، ولكن الأثقل منها يسبق الأخف فى الحركة اليه ؟

والبيرونى يؤيد الرأى الثانى ، وقد مهد هذا الرأى وغيره من الآراء أمام العالم الانجليزى « اسحق نيوتن » الى كشف قانون الجاذبية ، وتعليل الثقل على الأساس العلمى الحديث . ولكى يصل البيرونى الى معرفة الوزن النوعى لبعض العناصر والمركبات ابتكر تجربة فريدة ، تتكون من اناء مصبه الى أسفل ، وسن وزن الجسم فى الهواء والماء تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح ، ومن هذا الأخير ووزن الجسم فى الهواء قدر الوزن النوعى ، وبهذه التجربة وصل الى معرفة الوزن النوعى لثمانية عشر عنصرا ومركبا من الأحجار الكريمة .

وقد وضع البيرونى كتابا فى خواص العناصر والجواهر وفوائدها التجارية والطبية ، كما وردت فى كتبه شروح وتطبيقات لبعض الظواهر ، التى تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وشرح صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، كما شرح تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب ، حيث يكون مأخذها من المياه القريبة منها ، وتكون سطوح ما يتجمع منها موازية لتلك المياه ، ثم بين كيف تفور مياه العيون ، وكيف يمكن ان تصعد مياهها الى القلاع ورءوس المنارات . وقد شرح كل ذلك بوضوح تام ، ودقة متناهية ،

وباسلوب سهل بعيد عن التعقيد . ويمكن القول بان [illegible] القـــادرين الذين وضعوا بعض القواعد الأساســـية فى « الميكانيكا » و « الأيدروستاتيكا » . والبيرونى أول من شرح الأرقام الهندية شرحـا وافيا ، وهى الأرقام التى اتخذت أساسا للأرقام العربيـــة ، وقد انتشر استعمالها فى بلاد المغرب والأندلس ، وعن طريق هذه البلاد دخلت الأرقام الغبارية الى أوربا ، وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية Arabic-numerals

ووفق الى قياس محيط الأرض بطريقة علمية ، ذلك انه حينما كان فى الهند ، استطاع ان يتعرف على محيط الأرض ، عن طريق قياس درجة انحراف الأفق عن جبل قائم فى هذه الناحية ، وبذلك يعد من أول علماء الفلك الذين ابتكروا النظريات الجديدة لاستخراج مقدار محيط الأرض ، ثم استعمل معادلة حسابية لحساب نصف قطر الأرض ، ســماها علماء الغرب « قاعدة البيرونى » ويقول الأستاذ « نلينو » : « انه مما يستحق الذكر ان البيرونى بعد تأليفه كتابه فى « الاسطرلاب » أخرج تلك الطريقة من القول الى الفعل فى كتابه « القانون المسعودى » .

ومن نظـرياته أن الزهرة يجب أن تحمل ثلاث ورقات « بتلات » أو أربعا أو خمسا أو ستا أو ثمانى عشرة ، وان من المستحيل ان يكون لها سبع أو تسع وهذه النظرية لم تجد الى الآن من ينقضها ، وهو أول عالم عربى استخدم طريقة « ارشميدس » . ومن آرائه الجغرافية ان العمارة على سطح الأرض فى النصف الشمالى من هذه الكرة العظيمة ، ومن أقواله : ان اليونان قد انقطع العمران من جانبهم ببحر أوقيانوس ، فلما لم يأتهم خبر الا من جزائر بعيدة عن الساحل ، ولم يتجاوز المخبرون عن الشرق ما يقارب نصف الدور ــ جعلوا العمارة فى أحـــد الربعين الشماليين ، لا ان ذلك موجب أمر طبيعى ، فمزاج الهواء الواحد لا يتباين ، ولكن أمثاله من المعارف موكول الى الخبر من جانب الثقة ، فكان الربع دون النصف هو ظاهر الأمر ، والأولى ان يؤخذ به الى أن يرد دليل لغيره

ومعنى ذلك أن العقل يقضى بوجـود جانب مغمـور فى الجـــانب الغربى من الكرة الأرضية ، ولكنه لايقطع بوجوده الا بعد المشاهدة وتواتر الخبر من الثقات . وهذه هى الحقيقة التى اعتمد عليها « كولمبس » فاقتحم بحر الظلمات ، وكان يؤمل تحقيق الفكرة المنطقية برؤية العيان ، وقد فعل كولمبس ذلك اعتمادا على رأى البيرونى ، وذلك على الرغم من ان آراء الأوربيين كانت لاتزال تقول بتسطيح الأرض ، وكانت الكنيسة فى نفس الوقت ما تزال تنكر استدارتها ودورانها ، فكأن العرب بفضل البيرونى قد وفقوا الى الرأى الصحيح فى هذه المسألة الجغرافية ، وهى تعمق كروية

الأرض فى الوقت الذى كانت أوربا فيه تؤمن بالأوهام ، وكان تعمق البيرونى فى الدراسات الفلكية والجغرافية من الأسباب التى جعلته ينشىء مرصدا خاصا ، كان يسمى « مرصد البيرونى »

ان البيرونى بعد أن حلق فى ميادين العلم الطبيعى والرياضيات والفلك لم ينس الفلك ، فقد كان يعدها ظاهرة من ظواهر المدنية ، ومن الطريف اننا نراه يبين أحسن بيان وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورثية والأفلاطونية الحديثة والحكمة الهندية والكثير من مذاهب الصوفية ، وهو يعترف بسمو العلم اليونانى اذا قيس بمحاولات العرب والهنود ، فيقول فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » : ان بلاد الهند ــ دع عنك بلاد العرب ــ لم تنجب فيلسوفا مثل سقراط ، ولم يكن للهنود منهج علمى يخلص علمهم مما يخالطه من أوهام ، وهو مع ذلك ينصف بعض الهنود ، ويرتضى بعض تعاليمهم ، ويذكر منها : يكفينا معرفة الموضع الذى يبلغه الشعاع ، ولا تحتاج الى ما لا يبلغه وان عظم فى ذاته ، فما لا يبلغه الشعاع لا يدركه الاحساس ، وما لا يحس فليس بمعلوم .

ومن هذا يتضح لنا أن فلسفة البيرونى قائمة على أساس من أن العلم اليقينى لا يحصل الا من احساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقى ، كما كان يرى أن مطالب الحياة تجعلنا فى حاجة الى فلسفة عملية ، تميز بها العدو من الصديق ، ويعتقد انه بهذا القول لم يقل كل ما يقال ، ولا آخر ما يمكن ان يقال .

★★★

تقدير العلماء « للأستاذ » البيرونى

لا شك أن عبقريا فذا ، وعالما جليلا ومفكرا كبيرا كالبيرونى لابد أن يتطرق الى ذكره وذكر مآثره عدد كبير من المفكرين والعلماء من العرب والمستشرقين قديما وحديثا ·

فقد كان المستشرق العلامة سخاو Sachau ممن درسوا آثار البيرونى العلمية دراسة عميقة ، وقد أعجب بعقليته العلمية النادرة أيما عجب ، فقال : « البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ » · ولا شك ان لهذا الاعتراف قيمته العظيمة ، لأنه صدر من عالم خطير ذى كفاية ممتازة فى ميادين البحث العلمى ، ويقول العلامة « سيديو » : « ان أبا الريحان اكتسب معلوماته المدرسية البغدادية ، ثم نزل بين الهنود حين أحضره الغزنوى ، فأخذ يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم قديمة أو حديثة ، ويفيدهم استكشافات أبناء وطنه ، ويبثها لهم فى كل جهة مر بها ، وألف لهم ملخصات من كتب هندية وعربية ، وكان مشيرا وصديقا للغزنوى ، استعد حين أحضره بديوانه لاصلاح الغلطات الباقية فى حساب الروم والسند وما وراء النهر ، وعمل قانونا جغرافيا كان أساسا لأكثر القسموغرافيات المشرقية ، واستند الى قوله سائر المشرقيين فى الفلكيات ، واستمد منه أبو الفدا الجغرافيا فى جداول الأطوال والعروض ، وكذا أبو الحسن المراكشى » ·

ويقول الأستاذ « سميث » فى كتابه تاريخ الرياضيات · « ان البيرونى كان ألمع علماء زمانه فى الرياضيات ، وان الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم » ·

ويقول د· سارتون فى كتابه مقدمة لتاريخ العلم : « كان البيرونى باحثا فيلسوفا رياضيا جغرافيا من أصحاب الثقافة الواسعة ، بل من أعظم علماء الاسلام ، ومن أكابر علماء العالم » ·

ويقول المستشرق د· يوسف شخت : « والحق ان شجاعة البيرونى ، وحبه للاطلاع العلمى ، وبعده عن التوهم ، وحبه للحقيقة ، وتسامحه ، واخلاصه ــ كل هذه الخصال كانت عديمة النظير فى القرون الوسطى ، فقد كان البيرونى فى الواقع عبقريا ميدعا ذا بصيرة شاملة نفاذة » ·

ويقول الأستاذ « نللينو » : « ان قياس المأمون وقياس البيرونى لمحيط الأرض من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة للعرب » ·

ويقول الأستاذ « كويلر بونج » أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة « برنستون » ورئيس قسم اللغات والآداب بها : « ومن أعلام الاسلام فى الطبيعة والميكانيكا البيرونى ، الفارسى الأصل المتوفى سنة ١٠٤٨ ، وقد استخدم طريقة حمام (أرشميدس) فاستخرج الأوزان المضبوطة لثمانية عشر حجرا من الأحجار النفيسة والمعادن » .

ويقول الأستاذ « أدور دشاسو » : « إن الشيخ أبا الريحان البيرونى أعظم مفكر ظهر على وجه البسيطة » .

وتقول دائرة المعارف الفرنسية فى الجزء السادس : « ومع أن البيرونى كتب أغلب مؤلفاته باللغة العربية ، فقد كان بارعا فى الكتابة باللغة الفارسية ، سهل العبارة فيها ، وله فى اللغتين كتب كثيرة » .

لا ريب أن الباحث يخرج من هذه الاعترافات التى مبعثها اليقين العلمى والتجرد من روح التعصب بأن البيرونى كان شخصية علمية فذة ، وأنه ضرب بسهم وافر فى الفلك والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية . وفضلا عن هذا فهو أول عالم عربى أماط اللثام عن القارة الهندية بنقله علوم هذه البلاد وعقائدها وفلسفتها وأساطيرها الى اللغة العربية ، ولم يكن البيرونى ناقلا فحسب ، بل كان عالما باحثا دقيق النظر ، له آراؤه وابتكاراته العلمية والذى يلفت النظر حقا ان علماء الغرب قد وضعوا هذا العالم فى مرتبته اللائقة بهذه الاعترافات ، فكانوا منصفين فى حكمهم . فاعترفوا فى اخلاص بقدرته العلمية الفائقة ، وفضله العظيم فى ميدان البحث والابتكار ، وغير شك أن هذه الشهادة لها قيمتها الكبيرة من الناحية العلمية ، فالبيرونى كان واحدا من الخالدين الذين يمثلون العقلية العربية العلمية ، فيما وصلت اليه من امتياز فى التفكير . لقد كان مؤرخا ، وفيلسوفا ، وعالما رياضيا ، وفلكيا جغرافيا . ولم تكن عبقريته مقصررة على انه كان خزانة كتب واعية كما كان شأن بعض علماء القرون الوسطى ، وانما كان عالما دقيقا ، يعرض آراء السابقين بعد أن يدرسها ويمحصها ، ويضيف اليها الكثير من انتاجه العلمى الخاص ، فزاد بذلك فى ثروة الانسانية العلمية ، وتراثها الفكرى صفحات لامعة مضيئة .

ومما يرفع من قيمة بحوثه انه كان لا يتعرض للتأليف فى أى موضوع الا بعد الدراسة الطويلة ، والبحث العميق ، وقد حمله ذلك على دراسة لغات كثيرة ، كانت عونا صادقا له على التأليف العلمى الخصب ، وكان منهجه فى البحث قائما على أصول الطريقة العلمية الحديثة ، لا ينشد الا الحقيقة مهما كان مصدرها . ولذلك تميزت مؤلفاته بروح التسامح .

والتجرد من التعصب القومى والدينى ، وبالجرأة فى النقد ، وكان اسلوبه فى كتبه واضحا سهلا ·

لا ريب أن البيرونى كان شخصية فذة ، وعقلية علمية جبارة ، وحقلا مخصبا من حقول التفكير العربى الاسلامى ، لذلك وضعه مؤرخو الحضارة فى طليعة الصفوة المختارة من علماء المسلمين الذين اتصفوا بالعالمية فى تفكيرهم ·

***

منهاج البيرونى فى القانون المسعودى

أهم مؤلفات البيرونى فى علم الفلك كتابه هذا « القانون المسعودى فى الحياة والنجوم » الذى كتبه عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وأطلق عليه هذا الاسم نسبة الى السلطان الغزنوى مسعود بن محمود ـ ويقول يافوت ان مسعود أهدى المؤلف حمل فيل من القطع الفضية مكافأة له على هذا العمل ، لكن البيرونى رفض الهدية ـ والكتاب يعتبر موسوعة فلكية نادرة ، تناول فيه بالتفصيل كل ما يتعلق بعلم الفلك سواء فى ذلك المبادىء الأساسية ، وأبحاثه ونظرياته مقارنة بأبحاث السابقين والمعاصرين له ٠

وصلت الينا منه سبع نسخ مخطوطة موزعة فى عدة دول :

أقدمها التى توجد بمكتبة بادلين بأكسفورد منسوخة عام ١٠٨٢ م ، ثم النسخة الموجودة فى فرنسا بالمكتبة الأهلية فى باريس وقد نسخت عام ١١٠٨ م ، والنسختان الثالثة والرابعة موجودتان فى تركيا احداهما بمكتبة الملة باستنبول وقد كتبت عام ١١٣٦ م والثانية بمكتبة بايزيد باستنبول وتاريخها قبل عام ١١٤١ م ، ونسخة فى المانيا بمكتبة جامعة توبنجن فى برلين وهذه نسخت قبل عام ١١٦٦ م ، وأخرى فى انجلترا بالمتحف البريطانى فى لندن نسخت عام ١١٧٤ م ٠ أما فى مصر فهناك نسخة بدار الكتب فى القاهرة كتبت عام ١٢٧٤ م ٠

وقد قامت دائرة المعارف العثمانية فى الهند بمجهود ضخم فى سبيل طبع هذا الكتاب النفيس الذى « لم يصنف فى فنه مثله وقد بقى فى عالم الخفاء لم يطبع الى الآن مع ان كثيرا من الفضلاء والحكماء والادارات العلمية والمعاهد الحكمية فى الشرق والغرب كانوا حريصين على نشره منذ ألف سنة » ٠ وكان نشره بعد مقارنة لفظية بين النسخ السبع مع اعتبار الرابعة منها الموجودة فى مكتبة بايزيد باستنبول أساسا للطبع ٠

ومع ان الكتاب المطبوع فى الهند لم يتناول التحقيق اللفظى والعلمى ، الا أنه أصبح عونا كبيرا لمن أراد أن يقوم بهذه المهمة ، وقد استعان الكاتب به ـ الى جانب المخطوط الموجود فى دار الكتب بالقاهرة ـ لدراسة النظريات الرياضية والفلكية التى نقلها البيرونى وناقشها عمن سبقوه أو التى ابتدعها بنفسه بعد بحث عميق ٠

ويشمل القانون المسعودى على احدى عشرة مقالة ، كل منها مقسم الى عدد من الأبواب تبلغ فى مجموعهـا مائة واثنين وأربعين بابا تغطى جميع الأرصاد والنظريات الفلكية فى ذلك الوقت بالاضافة الى ما توصل اليه علماء الحضارات السابقة والمعاصرون للبيرونى ، مع نقد العالم المطلع وتفنيد الآراء دون تحيز أو محاباة • وقد وضع البيرونى نصب عينيه الا يأخذ النظريات والأرصاد قضية مسلما بها بل ناقش البراهين والأدلة وأضاف اليها من عنده‌ياته وأعاد الأرصاد أكثر من مرة لكى يستوثق من صحة النتائج ، وكان البيرونى فى كتابه جم التواضع دعا الى مناقشة آرائه وتصحيح ما يكون قد وقع فيه من زلل • وفى ذلك يقول فى مقدمة كتابه :

« ولم أسلك فيه مسلك من تقدمنى من أفاضل المجتهدين من طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا الترديد الى قضايا التقليد ، باقتصارهم على الأوضاع الزيجية ، وتعميتهم خير ما زاولوه من عمل ، وطيهم عنهم كيفية ما أصلوه من أصل ، حتى أحوجوا المتأخر عنهم فى بعضهـا الى تكلف الانتقاد والتضليل • اذ كان خلد فيها كل سهو بدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة ، وقلة اهتداء مستعمليها بعدهم الى المحجة • وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله فى صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة ، وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة ، وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة فيه من مقادير الحركات وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده ، وقرنت بكل عمل فى كل باب من علله ، وذكر ما توليت من عمله ، ما يبعد به المتأمل عن تقليدى فيه ويفتتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه ، أو الاصلاح لما زللت عنه أو سهوت فى حسابه » •

والى جانب الناحية الفلكيـة المباشرة ، نرى البيرونى قد خصص بعض أجزاء من كتابه تنـاول فيها عدة مواضيع تتصل بعلم الفلك من قريب أو بعيد• ففى المقالة الثانية تعرض بصورة موجزة لتواريخ الأنبياء والملوك من عهد آدم عليه السلام حتى ملوك عصره وذلك للصلة الوثيقة بينها وبين التقاويم المختلفة والتواريخ المشهورة • ولم يقتصر على سرد الأعياد والمناسبات بل أشار الى أصلها والأسباب التى جعلت منها عيدا دينيا أو مناسبة مشهورة • فالبيرونى لم يسرد التواريخ والأعياد دون روية أو تفكير ، بل ناقش أصولها وأسباب التعارض فى أقوال المؤرخين • والمقالة الثانية من القانون المسعودى حافلة بالأمثلة المشابهة سواء فى أصل الأعياد أو فى تحويل التقاويم المختلفة بعضها الى بعض •

وفى المواضيع الأخرى المتصلة بعلم الفلك ، أفرد البيرونى المقالة الثالثة للرياضة والقوانين الخاصة وجداول حساب المثلثات التى تعتمد عليها النظريات والأرصاد والحسابات الفلكية • وحتى فى هذا الموضوع

الفرعى ظهر نبوغ البيرونى وعمق أبحاثه وآرائه وتوخى الدقة فى المسائل الرياضية فتوصل الى قوانين الاستكمال فى صورتها المبسطة التى نسبت الى نيوتن وجريجورى بعده بستمائة عام • ولم يكن توصله الى هذه القوانين من قبيل المصادفة أو التخمين ، بل نتيجة للبحث فى دقة الجداول الرياضية السابقة وطرق استخدامها • فقد وجد ان الفترات المتساوية بين الزوايا لا تقابلها تغيرات متساوية فى النسب المثلثية ، وتأكيدا لهذه الحقيقة أثبت صحتها بالطرق الهندسية • وكان فى ذلك حافز له على البحث عن مخرج للوصول الى أدق القيم حين استعمال الجداول المثلثية وتعميم ذلك الى كافة الجداول الرياضية • وقد سلك فى سبيل ذلك مسلكين ،أولهما أخذ فترات صغيرة قدر الامكان بين قيم المتغير (الزوايا) وعمل جداول على هذا الأساس وقام فعلا بحساب جداول للجيوب لكل ربع درجة بدلا من الجداول الشائعة حينئذ والتى كانت محسوبة لكل درجة ، وقد كان يتمنى أن يعملها لكل دقيقة قوسية لولا طول الوقت وكثرة الحسابات ، وهو فى ذلك يقول :

« فلهذا لو لم يتعذر تدقيق العمل لطوله ، لكان تحليل الجيوب الى دقائق أجزاء القسى أصوب لينتقل التساهل من أجزاء الأجزاء الى التى لم تستعملها ، وكان الأولى بنا أن نفعله ، لأن مدار أمور هذه الصناعة عليها ، ومرجع الزيجات اليها » وكانت حساباته من الدقة الى درجة أن جداوله كانت صحيحة الى الرقم السابع أو الثامن العشرى ! •

وثانى المسلكين ، تحسين طريقة استعمال هذه الجداول ، وذلك ما أدى به الى استنباط قانون الاستكمال مقربا بطريقة هندسية بسيطة ، وكانت فكرته كما يلى معبرا عنها بالاصطلاح الحديث :

اذا زادت قيمة الزاوية من (س) الى (س + ١) تغير جيبها من (ج١) الى (ج٢) ، فاذا زدنا الزاوية فترة أخرى من (س + ١) الى (س + ٢ أ) تغير الجيب من (ج٢) الى (ج٣) ، ومع أن الفترات متساوية (= ١) الا ان فروق الجيوب (ج٢ − ج١) ، (ج٣ − ج٢) غير متساوية • فاذا أردنا ايجاد (ج) جيب زاوية (س + أ + ب) واقعة بين (س + أ) ، (س + ٢ أ) بالطريقة العادية الشائعة كانت نسبة الجزء (ب) الى الفترة (أ) مساوية لنسبة الزيادة (ج − ج١) الى الفرق (ج٢ − ج١) ، وذلك غير صحيح كما أثبتنا لأن فروق الجيوب لا تتناسب مع فروق الزوايا • ولكن ما حدث فى الحقيقة هو ان التغير فى الزاوية من (س + أ) الى (س + ٢ أ) صاحبه تغير تدريجى فى فروق الجيوب (لا فى الجيوب نفسها) من (ج٢ − ج١) الى (ج٣ − ج٢) وعلى ذلك تكون نسبة الجزء (ب) الى الفترة (أ) مساوية لنسبة فرق

الجيوب المناسب (ج – ج١) الى الفرق (ج٣ – ج٢) – (ج٢ – ج١) ٠ وبتعويض فرق الجيوب المناسب الخارج لنا فى القانون الشائع نحصل على قيمة أدق لجيب الزواية المطلوبة ٠

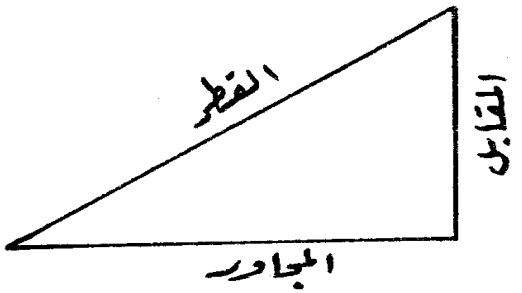

وفى تلك المقالة أيضا نرى ان البيرونى هو أول من استعمل النسب المثلثية بمعناها الحديث المعروف لنا ، فان الجداول المستخدمة حتى ذلك العصر لم تكن جيوبا أو ظلالا بالمعنى المفهوم ، بل مضروبة فى معامل ثابت يختلف باختلاف مصدر الجدول ، وذلك العامل الثابت قيمته ٢½ طبقا للنظام الهندى أو ٦٠ طبقا للنظام الفارسى أو اليونانى ٠ والسبب فى ذلك يرجع الى أن هذه الجداول لم تكن نسبا بين المقابل ، والقطر مثلا ، بل أطوالا مطلقة للمقابل ٠ فهى اذن تتوقف على قيمة القطر المأخوذة وهى ما اعتبرها اليونان ٦٠ وبعض علماء الهند ٢½ ٠ وكان البيرونى أول من اعتبر الوحدة قيمة للقطر وبذلك أصبحت الأطوال المطلقة للمقابل هى بعينها النسبة بينه وبين القطر ٠

ويجدر بنا فى هذا المجال ان نشير الى طريقة التقريب المتتابع المعروفة للرياضيين فى الوقت الحاضر والتى استخدمها البيرونى لايجاد طول وتر فى دائرة زاوية قدرها ٥٤٠ عند المركز (أى $\frac{1}{96}$ الدورة الكاملة) وكان هدفه ايجاد الأوتار التى تقابل من الدورة الكاملة ثلثها وربعها وخمسها ٠٠٠ الخ ، وذلك تمهيدا لحساب جداول الجيوب ٠ وقد استنتج قوانين رياضية مبسطة لحساب قيم هذه الأوتار فيما عدا وترى السبع والتسع كما استنتج قوانين لوتر مجموع زاويتين أو الفرق بينهما أو قيمة نصف الزاوية ٠

بدأ البيرونى طريقة التقريب المتتابع فأخذ وترى الخمس والسدس (يقابلان ٧٢° ، ٦٠°) واستخراج وتر الفرق بينهما (وتر ١٢°) ، ومن وتر السدس أيضا باستعمال قانون التنصيف وصل الى وتر ٥٣٠ – ثم استخدم قانون المجموع لايجاد وتر (٥٣٠ + ١٢°) أى ٥٤٢ وذلك قريب من ٥٤٠ ٠ والخطوة التالية هى تنصيف ٥٤٢ مرتين ومن ذلك وصل الى وتر ٣٠ـ١٠ فلما أخذه مع وتر ٥٣٠ حصل على وتر ٣٠ ر٥٤٠ وبذلك اقترب كثيرا من ٥٤٠ ٠ وبمتابعة

نفس هـذه الخطوات الأخـيرة أمكن الاقتراب قدر الامكان من وتر ٤٠° المطلوب · ولما اتبع البيرونى هذه الطريقة وصل الى وتر ٤٠ درجة ، صفر دقيقة ، صفر ثانية ، صفر ثالثة ، ٢٤ رابعة ·

بعد أربع وستين عملية حسابية لايجاد الجذر التربيعى ولن نشير الى طرقه الأخرى التى أوصلته الى معادلات من الدرجة الثالثة قام بحلها بطريق (المحاولة والخطأ) حتى توصل الى قيمة صحيحة حتى الرقم السادس العشرى ·

وفى المقالة الرابعة التى تحتوى على ٢٦ بابا ناقش البيرونى عدة مسائل ، من بينها ايجاد الزاوية بين مسار الأرض حول الشمس ومستوى خط الاستواء أو بمعنى آخر ميل محور الأرض على مسارها حول الشمس ، وتحويل الاحداثيات السماوية بعضها الى بعض ، وتعيين الوقت ، وتعيين خطوط الطول والعرض للبلدان · وهو فى مناقشـاته ذكر كل الطرق المختلفة التى عولجت بها المواضيع بالاضافة الى طرقه الخاصة وتحسين السابقة كلما استطاع الى ذلك سبيلا ·

فعندما تناول موضوع ميل محور الأرض ، بدأه بذكر العلاقة بينه وبين ارتفاعات الشمس عند المنقلبين الصيفى والشتوى · ثم أردف ذلك بوصف للجهاز المستخدم فى هذه الأرصاد مقارنا فى ذلك بين آلة بطليموس والآلة التى استعملها العرب ومشـيرا الى الحاجة الى تكبير حجم الحلقة الدائرية المدرجة حتى يمكن تقسيمها الى أكبر عدد من الأقسام فيكون قياس ارتفاع الشمس بها أقرب الى الدقة مما لو كانت صغيرة الحجم وأوضح من ناحية أخرى أن تكبير حجمها يؤدى الى زيادة ضغط أجزائها بعضها على البعض مما ينتج عنه تغير شكلها وانحرافه عن دائرة ، وكيف تغلب القدماء على تلك الصعوبات ببناء حائط رأسى واستعاضتهم عن الحلقة برسم دائرة على ذلك الحائط ·

وكعادة البيرونى فى الاشارة الى أعمال الآخرين ، جمع النتائج التى توصل اليها علماء الفلك فى الهند واليونان والمعاصرون له من العرب وكيف ان هذه النتائج قد اختلفت فيما بينهم · وهو فى تسجيله لهذه النتائج أعطى كل ذى حق حقه ، حتى ولو كان عن طريق السماع ·

ولم يطمئن البيرونى لهذا الاختلاف فقرر أن يقوم بارصاده الخاصة ، وكررت ذلك أربع مرات أولاها قبل عام ٣٨٧ هـ أى قبل ان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ! ثم اضطر الى الهجرة بعيدا عن بلاده ولما عاد اليها بعد حوالى خمسة عشر عاما أعاد تلك الأرصاد عام ٤٠٧ هـ ولم يلبث أن انتقل الى غزنة مع السلطـان محمود بن مسـعود حيث أعاد الرصد للمرتين الثالثة والرابعة عامى ٤١٠ ، ٤١١ هـ ·

شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، أقلق باله تضارب النتائج الفلكية لصفوة العلماء فقرر أن يصنع آلته الخاصة ويقوم بأرصاد تقضى على حيرته فى اختيار القيمة الحقيقية التى يبنى الاعتماد عليها فى أعماله الفلكية ، ثم لا يكتفى بالرصد مرة واحدة بل يكرره مثنى وثلاث ورباع دون أن تصرفه الحوادث والحروب عن عزمه ولو بعد عشرات السنين !!

ولما كانت الأرصاد الفلكية على اختلاف أنواعها وما يتصل بها من تحديد الأوقات وتعيين اتجاهات أماكن العبادة تعتمد على معرفة الجهات الأصلية ، فقد أفرد بابا خاصا لتعيين خط نصف النهار (اتجاه الشمال والجنوب) . وذكر سبع طرق مختلفة للوصول الى ذلك ، مشيرا الى مزايا ومساوىء كل منها ، واحدى هذه الطرق من أصل هندى ، ناقشها ثم أضاف اليها بعض التحسينات وأخيرا شرح مع البرهان طريقا هندسيا له يوفر الوقت الذى يقضيه الفلكى فى انتظار اللحظات المناسبة للأرصاد .

وتعيين الوقت أمر من الأمور الفلكية المهمة الجديرة بالاشارة اليها ، وقد تناولها البيرونى بالمناقشة فى ثلاثة أبواب من هذه المقالة حيث بين فى أحدها كيفية حساب ما مضى من النهار منذ شروق الشمس عن طريق رصد ارتفاعها ، وفى الثانى عن طريق رصد اتجاهها بالنسبة لخط الشمال والجنوب ، بينما خصص الثالثة للأرصاد الليلية على النحوم وتعيين الوقت عن طريقها .

واختتم البيرونى هذه المقالة بتحويل المعلومات الفلكية من أى مكان على الأرض الى قبة الأرض ، وهذه القبة هى منتصف العمران . ولما كان القدماء يعتقدون ان نصف النصف الشمالى من الأرض فقط هو الآهل بالعمران ، وان تلك المنطقة تمتد من شواطىء المغرب الى شواطىء الصين فان منتصف ذلك هو جزيرة بالهند عند خط الاستواء شرقى طول بغداد بمقدار ٥٠ر٥٣٠ . وتذكر الأساطير الهندية ان بهذه الجزيرة قلعة (لنك) وهى مستقر للشياطين ووصفوا من ارتفاعها فى الجو ما يمكن أن يشبه بالقبة فأطلق عليها اسم قبة الأرض .

والمقالة الخامسة من القانون المسعودى تبحث فى المسائل الأرضية المتصلة بالظواهر الفلكية ، كتعيين خطوط الطول والعرض للبلدان ، واتجاه مكان بالنسبة لكان آخر ، وقياس حجم الأرض أو محيطها ، وخصائص الكرة السماوية فى خطوط العرض المختلفة ، ووصف موجز لجغرافية الأرض مع جدول لخطوط الطول والعرض جمع فيه ما يزيد على ستمائة بلد ومكان .

ولايجاد خطوط الطول أشار الى استخدام خسوف القمر برصد وقت حدوثه فى مكانين احدهما معلوم الطول ثم ناقش الأسباب فى استحالة الاستعانة بكسوف الشمس أو ستر القمر للنجوم · وثمة طريقة أخرى لا تعتمد على الخسوف ولكنها تحتاج الى معرفة عرض المكانين حيث يرصد فيهما وقت عبور القمر لاتجاه الشمال والجنوب فى ليلة معينة ، وبعد بعض التصحيحات ينتج فرق الطول بين البلدين · أما اذا عرفنا المسافة بين بلدين وعرضيهما فان الفرق فى الطول يمكن حسابه · ولما كان المجال غير متسع أمام البيرونى ليتناول مواقع البلدان وتعيينها بشىء من التفصيل فى نطاق القانون المسعودى ، فقد أفرد لهذا الموضوع كتابا كاملا هو « تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » شرح فيه جميع الطرق الحسابية والرصدية الممكن استعمالها فى هذا الشأن وضرب الأمثلة المختلفة لأن « الأمثلة تكون مرشدة للحاسب ومعينه على الامتحان والتعبير » ومسجلا النتائج التى أدت اليها أرصاده وأرصاد غيره

وقد اهتم البيرونى بمسألة تعيين اتجاه بلد بالنسبة لبلد آخر لأهمية ذلك فى اتجاه المصلين نحو الأماكن المقدسة · وذكر فى ذلك طريقين ، يعتمد احدهما على الحسابات المثلثية باستخدام قوانين الرياضة المعروفة ، أما الطريق الثانى فهندسى بحت أو كما أسماه « الطريق الصناعى لمعرفة سمت القبلة وغيرها » لا يحتاج الى الحسابات المعقدة تسهيلا للأئمة فى البلدان المختلفة فى معرفة الاتجاه الصحيح ، كما يسر لهم ولغيرهم من قبل اتجاه الشمال والجنوب بالطرق الهندسية ·

وعند وصفه لتضاريس الأرض ومسالك البحار والمحيطات أشار لأول مرة الى انه ليس ما يمنع من اتصال المحيط الهندى بالمحيط الأطلنطى جنوب القارة الأفريقية وهو عكس ما كان شائعا فى ذلك الوقت · ثم دلل على ذلك بالعثور على ألواح مراكب مخروزة عند مضيق جبل طارق ومصدرها هو المحيط الهندى وليس المحيط الأطلنطى لأن المراكب فى هذا الأخير تسمر بالحديد ولا تخاط ·

هذا وقد قارن أرصاده بأرصاد ميطن واقطيمن (٥٩) وبأرصاد أرسطرخس (٦٠) ثم رصدتين لبطليموس فخرجت له أربع نتائج مختلفه هى على التوالى ٣٦٥ر٢٤٢٦ ، ٣٦٥ر٢٤٢١ ، ٣٦٥ر٢٣٩٨ ، ٣٦٥ر٢٤٠٨ يوما (٦١) كما قارن أرصاد هؤلاء بعضها ببعض فوجد أيضا اختلافا فى النتائج · وقد أرجع ذلك الى تخاليط فى التواريخ « كاستعمال الشهور فى غير سنيها ، واستعمال شهور مختلفة لأمم متباينة ، ان كان حينئذ أمرها له معلوما فانه خفى علينا مجهول » · والمصدر الذى استقى منه البيرونى معلوماته عن الأرصاد وتواريخها هو كتاب المجسطى لبطليموس ·

وقد دلل على اختلاط التواريخ فى المجسطى بضرب أمثلة عديدة من هذا الكتاب

وفى معرض الحديث عن القمر ، تنـــاول بالتفصيل شرح مسيرة المختلف والمستوى أى الناتجين عن السرعة الحقيقية غير المنتظمة وعن السرعة النظرية المتوسطة · وقد افترض فى شرحه ان مستوى مســار القمر حول الأرض ينطبق على مستوى مسار الأرض حول الشمس مع انه فى الحقيقة مائل عليه بزاوية معينة · وقد علل أسـباب هذا التقريب بامكان الوصـــول عن طريقه الى المعــلومات الصحيحة باستخدام طريقة التقريب المتتابع · ثم يشير الى زاوية الميل ــ أو أعظم عروض القمر ــ فيسجل وجود اختلاف بين الآراء وعدم سنوح الفرصة له كى يتعرف على الحقيقة ·

وسجل البيرونى أعمال العرب فى مجال النجوم ، فعند تقسيم النجوم حسب أقدارها (درجة لمعانها) أشار الى جداول بطليموس المحتوية على النجوم وأقدارهــا والى توســط بعض النجوم بين قدر وآخر حتى ان أبو الحسين الصوفى (٦٢) فى جداوله نقلها من مرتبة الى أخرى · ولعل تلك أول فكرة فى تقسيم الأقدار الصحيحة الى كسور وهو المعمول به فى الوقت الحاضر أما عن ثبات النجوم فى السماء وعدم وجود حركة لها خلاف الشروق والغروب ــ وهو أمر بعيد عن الصحة كما ثبت من الدراسات الدقيقة فى العصور الحديثة ــ فقد أشار الى اكتشــاف العرب للحركة الثانية عندما قال :

« قيل فيها انها كلها متحركة نحو التوالى بحركة واحدة شرقية على مثال تحركها جملة بالحركة الغربية ، وأى شىء أظهر فيهــا من وجود ابرخس قلب الأسد (٦٣) متقدما للدائرة المارة على الأقطاب الأربعة (٦٤) الى خلاف التوالى بسدس جزء (١٠) ، وكونه الآن مجاوزا اياها الى التوالى باكثر من نصــف برج (٥١٥) · فظاهر انه متحرك ، الا ان شــكله (أى وضعه) من سائر الكواكب (الكواكب الثابتة أى النجوم) باق على حاله ، فكلها اذن متحركة حركة مشابهة لحركته » ·

ويستطرد بعد ذلك فيبرهن ان هذه الحركة للنجوم على محور فلك البروج Ecliptic ويبحث تأثير وجود هذه الحركة على خصائص النجم كالشروق والغروب وموقعه بالنسبة للنجم القطبى ولنقطة الاعتدال ، ولم ينس هذا التأثير عندما وضع جداوله لمواقع النجوم حيث جمع ١٠٠٢٩ نجما وصف مكان كل منهــا فى كوكبته وأعطى موقعه الى أقرب دقيقة قوسية ، وقدره كما رآه بطليموس والصوفى · أما الصحيح الذى أضافه فكان للموقع ·

وأنهى حديثه عن النجوم بذكر منازل القمر ونجومها طبقا لرأى العرب والهند ، كما قارن بين هدف كل منهما فى دراسة تلك المنازل ، فالهند استعملتها بقصد التنجيم والتنبو بالحوادث بينما اهتم بها العرب ليربطوا بينها وبين أحوال السنة وفصولها وما يحدث فيها من تغير فى أحوال الجو وغيره .

وبعد النجوم جاء ذكر الكواكب ، فأعطى شرحا هندسيا لحركاتها وفسر مع البرهان أسباب حركتها المستقيمة والاقامة والرجوع العارض (٦٥) واختتم ذلك باقتران كل كوكبين أى باجتماعهما فى جزء واحد من فلك البروج ثم شروط حجب احدها للآخر وحجب القمر لسائر الكواكب .

ولم يكن البيرونى ممن يؤمنون بالتنجيم ، ومع ذلك فقد اختص المقالة الأخيرة من القانون المسعودى بالحديث عنه ، ولكنه تناوله من الناحيةالرياضية وطرق الحسابات الفلكية البحتة التى يحتاجها المنجمون . وليس أدل على سخطه على المنجمين ما ذكره فى بداية هذه المقالة :

« هذه الصناعة (٦٦) التى قصر الكتاب عليها ، على استغنائها بذاتها لنفاسة قدرها فى نفسها ، لا تكاد تميل اليها القلوب التى لا تتصور كيفية اللذة الا فى مقدمات الآلام الجسمانية ، ولا النفع الا فى الأمور الدنياوية . واذا لم ترغب فيها رغبت عنها وعافتها ، فعادتها وأهلها . ولهذا السبب رجز القدماء أكوان العالم بقضاياها ، وطرقوا الى تقديم المعرفة بها من تأثيراتها طرقا ، أشبهت شيئا من الاقناع ، وقننوا عليها صناعة الأحكام » (٦٧) .

★★★

شرح تشريح القانون

ابن النفيس

٢١٢٨٠

● كان ابن النفيس اماما فى الطب لا يضاهى فى ذلك ولا يدانى استحضارا واستنباطا · هذا ما قاله أحد معاصريه ·

صنف فى المنطق والفلسفة وأصول الفقه والعربية والحديث وعلم البيان · وله فى هذا كله رسائل نفيسة وتآليف قيمة ·

وكان لتضلعه فى هذه الألوان المختلفة من المعرفة أكبر الأثر فى قوة الاستيعاب عنده وفى التوسع فى ميادين الفكر والعلم والطب · ولم يكن هذا هو الذى حلق به فى أجواء العبقرية والنبوغ ، بل ان سر عبقريته ونبوغه يكمن فى مزايا لم يحملها غيره من معاصريه أو من كثير من الذين أخذ عنهم ودرس عليهم ·

فقد كان مستقلا فى التفكير والرأى ، يعتمد فى استنتاجاته على العقل والملاحظة والتجربة · وقد أشرب روح النقد مما دفعه الى مخالفة الآراء الشائعة المتداولة ومعارضة الفلاسفة والحكماء من الذين سبقوه ·

كان يمحص الآراء ويدرسها ويسلط عليها عقله ومنطقه وخبرته ، فاذا خرج بصحتها أخذ بها ، واذا لمس فيها الخطأ أو الشذوذ بين فسادها ودعا الى نبذها واهمالها ·

ولعل استقلاله هذا وروح النقد — التى كان يحملها — كانا من العوامل التى جعلت ابن النفيس يسبق عصره فى العلاج والتطبيب العلمى فجاء بآراء ونظريات هى فى الواقع فتح فى ميدان الطب وعلم وظائف الأعضاء ·

لقد كشف « ابن النفيس » الدورة الدموية الصغرى ، وقال : « ان الدم ينقى فى الرئتين » قبل « سرفيتوس » بثلاثة قرون ·

لقد كان الشائع فى زمن ابن النفيس الرأى الذى قال به جالينوس وابن سينا ، وهو « ··· ان الدم يتولد فى الكبد ومنه ينتقل الى البطين

الأيمن فى القلب ثم يسرى بعد ذلك فى العروق الى مختلف أعضاء الجسم فيغذيها ، وان بعضه يدخل البطين الأيسر عن طريق مسام فى الحجاب الحاجز حيث يمتزج بالهواء الذى يأتى من الرئتين · وكان هذا المزيج يسمى بالروح الحيوى الذى ينســـاب فى الشرايين الى مختلف أنحاء الجسم · والظاهر أن هذا الاعتقاد جاء مصداقا للحقيقة الآتية : وهى ان عروق الموتى تكون عادة طافحة بالدم مملوءة به فى حين تكاد الشرايين ان تكون خالية منه · على اننا نعلم الآن السبب فى ذلك يعود الى أن النبضات الأخيرة للقلب تنضح بالدم من الشرايين ·· ولكن الأطبـاء فى العصور الوسطى والقديمة لم يدركوا هذه الحقيقة ولم يعرفوا شيئا عن الدورة الدموية ··· »

ولقد قام ابن النفيس يعارض هذه الآراء وينقدها حتى ولو كانت من جالينوس أو ابن سينا ·

ولم يقف عند هذه الحدود ، بل خطا خطوات ايجابية وخرج من ملاحظاته وخبراته ودراساته الى أن الدم ينساب من البطين الأيمن الى الرئة ، حيث يمتزج بالهـواء ثم الى البطين الأيسر ، وهى الدورة التى نسميها اليوم بالدورة الدموية الصغرى ·

وهكذا أصبح ابن النفيس الامام الأول « لهارفى » الطبيب البريطانى الشهير ، الذى خطا فى المسألة خطوة جديدة، وكشف سنة ١٦٢٨ الدورة الدموية الكبرى من البطين الأيسر الى الشرايين ، ومنهـا الى الأوزدة ثم البطين الأيمن ·

الحياة العملية لابن النفيس

توصيات طبية رائعة

ولد ابن النفيس حوالى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) وذلك فى دمشق ابان حكم الأيوبيين لها ، وكانت كعبة للعلم والعلماء آنذاك بها بيمارستان أى مستشفى يضم أعظم الأطباء ، وعلى رأسهم مهذب الدين عبد الرحيم على المسمى « بالدخوار » أستاذ ابن النفيس ونظرة الى ما وصف بـه « الدخوار » وما كتب عنه تعطينا ضوءا عن نشأة ابن النفيس وثقافته ·

ففى كتاب « مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار » كتب مؤلفه عن « الدخوار » يقول : « كان فى الحكماء علما ، وفى اثبات الحكم قلما ، وكان لفروع الطب شجرة يكاد زيتها يضيء · وكأنه جالس أرسطاطاليس » ·

وقال عنه ابن أبى أصيبعة : « كان رحمه الله أوحد عصره ، وفريد دهره ، وعلامة زمانه ، فاق أهل زمانه فى صناعة الطب ، وحظى عند الملوك ، ونال من جهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء ، وولاه السلطان الكبير رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام » .

وقد أوصى الدخوار بأن يحول بيته ومكتبته بعد مماته الى مدرسة للطب لقبت بالدخوارية .

وتتلمذ ابن النفيس كذلك على عمران الاسرائيلى ، وكان طبيبا ذائع الشهرة ، زامل الدخوار فى البيمارستان الكبير .

وكانت طريقة تعليم الطب تمتـــاز بالتدقيق فى فحص المرضى ، وبمتابعة مظاهر المرضى فى تطورها ، واستجابتها للعلاج ، وابداء الرأى سواء من الأساتذة أو الطلبة ، كل حسب ما يرى ، وما يمليه عليه فكره وعقله . وتلك هى الطريقة « الاكلينيكية » الصحيحة التى ابتدعها العرب لفترة طويلة قبل أن يأخذها عنهم الغرب .

وفى هذا الجو العلمى الصحيح المبنى على الخبرة ، والأصالة فى التفكير والبحث والتنقيب ، وابداء الرأى بحرية تامة نشأ ابن النفيس .

ثم عمل ابن النفيس فى مصر بالمستشفى الذى أقام صرحه الناصر صلاح الدين الأيوبى والمسمى « بالناصرى » ، وتدرج فى مناصبه الى أن أصبح رئيسا لاطبائه ، وفتح باب داره على مصراعيه لطلاب العلم والعلماء ، وكان يحضر مجلسه الخيرة من أهل العلم .

ولقد درس ابن النفيس كتب جالينوس وابن سينا ، ولكنه كان يمحصها ، ويحكم فيها عقله ، ويبعد عن تلاميذه الأقوال التى يشك فى صحتها ، ولا أدل على ذلك من قوله : « وأما منافع الأعضاء فانما يعتمد فى تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق ، والبحث المستقيم ، ولا علينا أوافق ذلك الرأى من تقدمنا أو خالفه » .

كلمات رائعة ، وتوصيات نابعة من عقل مجرب حكيم ، وما أجدر لو اهتدى بها الأطباء ، فليس كل ما قيل صحيحا ، وما زال كل باحث فى علم الطب يجد ان ما توصل اليه الآخرون فى زمن مضى ليس من الجائز أن يكون كله صحيحا ، بل يحتاج الى تمحيص واستقصاء على هذا الأساس المتين كان ابن النفيس دائم الدرس والتجربة ، لا يقتنع برأى الا بعد التأكد منه . فأوصى بدرس التشريح المقـــارن ، تشريح الحيوانات المختلفة ، لكى يكون هناك المام بالاختلافات والتباين بين هذه الحيوانات . وكان من نتـائج هـذا البحث والتنقيب ان توصـــل الى الاكتشافات الآتية :

- كان ابن النفيس اول من اكتشف ان القلب يتغذى بواسطة شرايين منتشرة فى أجزاء القلب المختلفة . وبذلك يكون أول من اكتشف الدورة الدموية فى الشرايين التاجية أو الاكليلية للقلب .

٢ - ان هناك اتصالا بين أوردة الرئتين وشراييناها يتمم الدورة الدموية ضمن الرئة . وقد ادعى كولومبو الايطالى انه أول من توصل الى هذا ، علما بأنه نشر هذا البحث بعد وفاة ابن النفيس بما يقرب من ٢٧٢ عاما .

٣ - اكتشعف قبل « سارفتيوس » الذى نسب اليه هذا الاكتشاف ، ان جدران أوردة الرئة أسمك بكثير من جدران شراييناها .

٤ - وبكل تأدب واحترام لجالينوس نقد نظريته ، وقال لعلها تكون منقولة خطأ ، وقال فى أدب العالم الجليل : « ليس بين البطينين منفذ ، فان جرم القلب هناك سميك ليس به منفذ ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم - كما ظنه جالينوس - فان مسام القلب هناك مستحصفة وجرمه غليظ .

٥ - بعد أن توصل لهذا الكشف هداه ذلك الى الكشف الخالد للدورة الرئوية « بعد أن يلطف الدم فى التجويف الأيمن من القلب ينفذ الى الرئة ، وهناك يخالط الهواء ، ويرشح ألف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الرئوى (كما سماه) والمسمى الآن بالوريد الرئوى ، ليوصله الى التجويف الأيسر ، وقد خالط الهواء ، وصلح لأن يتولد منه الروح ، وما بقى منه أقل لطافة تستعمله الرئة فى غذائها .

وقد أكد كشفه هذا فى مواضع أخرى من كتابه الخالد الذى نحن بصدده « شرح تشريح القانون » حين قال « ان نفوذ الدم الى البطين الأيسر انما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده من البطين الأيمن » .

ومن الروايات التى رويت عن ابن النفيس ، والتى تدل على عمق تفكيره وسرعة خاطره انه كان يوما فى الحمام فتركه فجأة الى قاعة اللبس ، وأمر باحضار ما يلزم للكتابة ، وأسرع بكتابة رسالة طويلة فى النبض ! وكان يكثر من الكتابة . وبالرغم من أن أكثر كتاباته كانت تعليقات على مؤلفين سبقوه ، الا انه كان يؤلف بسرعة ودون رجوع الى الأصل . فكانت الاقلام تبرى له ، حتى اذا حفى قلم رماه واختار آخر ، واستمر فى الكتابة دون انقطاع .

وتوفى ابن النفيس بعد مرض دام ستة أيام سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) حسب رواية حاجى خليفة أو سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) حسب رواية

اخرى . وروى ان بعض زملائه وصف له أثناء مرضه أن يتعاطى النبيذ فكان جوابه انه لا يود المثول أمام ربه تعالى وفى جسمه خمر .

ولم يفته قبل وفاته أن يوقف داره الفخمة ، وكتبه ومؤلفاته العديدة على البيمارستان المنصورى فخدم العلم فى حياته وبعد مماته .

هذه صورة رائعة لعالم عاش فى كنف الاسلام ، نبغ فى علمه ، وكرس حياته فى خدمته .. ولا غرو فى ذلك ، فهذا شأن العلماء العرب الذين خدموا الانسانيـة ، وقدموا لها من دمهم وعرقهم وجهدهم أجل الأعمال ، ورفعوا من شأن العلم صرحا باقيا على مر الأجيال . وسبقوا غيرهم فى كل مضمار ، وعلى مائدتهم تعلمت أوربا والعالم بأسره .

العـالم المؤلف

الذى سبق عصره

كان ابن النفيس كثير التاليف ، كما أسلفنا ، وكان ـ حسبما ذكر المؤرخون ـ « يكتب اذا صنف من صدره من غير مراجعة حال التصنيف » . وكان على ثقة اليقين بمـا يقوله ، فقد روى انه قال : « لو لم أعلـم أن تصانيفى تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما وضعتها » (٦٨) . وكان ملما بكل ما كتب قبله وموهوبا بقوة نقدية نادرة فى ذاك الوقت ، فقد اشتهر بانتقاده لجالينوس الذى لم يجرؤ على نقضه الا قلة من العلماء . وهذا ما أشير اليه فى عدة تراجم ، وبالعكس فانه كان يعظم كلام أبقراط ، وقيل : « انه شرح كتبه كلها وان لأكثرها شرحين، مطولا ومختصرا » ، وكان يجل ابن سينا « ويحفظ كليات القانون ولا يشير على مشتغل بغير القانون » ، وهو الذى جسر الناس على هذا الكتاب ، ومعنى هذا انه بدأ به فى دراسة كتب ابن سينا وبكثرة تصنيف الشروح لهـا تمكن من تبسيط ما جاء بها ووضعها فى متناول الطالب المتوسط . وهو لم يكتف بمؤلفات ابن سينا فى الطب ، بل اختصر له أيضا ، حسب رواية كثير من المؤرخين كتاب « شرح الهداية » فى المنطق ، وقد اعترف له معاصروه بهذه المقدرة فلقد قال أبو الصـفاء : « قال السديد : قلت يا سـيدى لو شرحت الشفاء لابن سيناء كان خيرا من شرح القانون لضرورة الناس الى ذلك . « قال : الشفا على فيه من مواضع . قلت انه يريد انه ما فهم تلك المواضع لان عبارة الرئيس (أى ابن سينا) فى الشفاء غلقة » ، وقد وضع شرحا للقانون فى عشرين مجلدا شرحا « حل فيه المواضع الحكيمة ورتب فيـه القيـاسات المنطقيـة وبين فيه الاشكالات الطبية ولم

يسبق الى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه ان يقتصر على الكليات الى نبض الحبالى ولا يجرى فيه ذكر الطب الا نادرا » · ولعل شغفه بدراسة كتابات ابن سينا وبتفسيرها هو سبب نعته بابن سينا الثانى ·

وكان كريمـــا بمعلوماته وأوصى بوقف داره وما جمعه من الكتب للبيمارستان المنصـــورى ــ كمـا ذكرنا من قبل ــ وقد يكون استعداده لمشاركة تلاميذه فى معلوماته السبب فى انه قيل عنه انه : « الحبل الذى لا يعلق به الا الفريق السالم ، لم يبق الا من اغترف منه غرفة بيده وأخذ منه حلية لمقلده » · كما قيل انه « كان لا يحجب نفسه عن الافادة ليلا ولا نهارا » ·

ومن المؤسف حقا انه لم يبق من سيل كتاباته الا النزر اليسير ، ولعل سبب قلة ما وصل الينا منها انها كانت ــ بسبب كبر أحجامها ــ مما يصعب استنساخه ، وربما كشف المنقبون فى خزائن الكتب فى المستقبل عن شىء مما ضاع منها كشرح الاشارات أو المقالة فى النبض أو شروح كتب أبقراط غير التى وصلتنا ·

على اننا نعرف منها الآتى :

١ ــ كتاب الشامل فى الطب : قال العمرى (٦٩) ان فهرسته تدل « على انه يكون فى ثلاثمائة سفر ، هكذا ذكر بعض أصحابه ، وبيض منها ثمانين سفرا · وهى الآن وقف بالبيمارستان المنصورى بالقاهرة » ·

ويرجح ان ابن النفيس قصد بهذا المؤلف الضخم بجميع كل ما وصل اليه الطب فى زمانه فى موسوعة تضاهى موسوعة « الحاوى » للرازى · ولا يوجد الآن من هـذا المصنف الا بعض فقرات فى مكتبـة البودليان باكسفورد (رقم ٥٣٦ ــ ٥٣٩) · وقال مايرهوف انه غير موجود فى أية مجموعة شرقية وان كان يعلم انه كان موجودا بالقاهرة فى سنة ١٣٥٠ ·

٢ ــ كتاب المهذب فى الكحل : الموجود فى مكتبة الفاتيكان ، ذاع صيت هذا المؤلف فى زمانه ولم يصل الى علمنا منه الا نبذة اقتبسها منه صدقة بن ابراهيم الشاذلى (عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى) وهى خاصة بتدهور حالة المصابين بانسكاب صديدى فى الخزانة المتقدمة من العين اذا تحركوا ، ونبذة أخرى فى علاج الرمد الحبيبى ذكرها هرشبرج ·

٣ ــ كتاب المختار من الأغذية : وهو كتاب لم يذكر فى أى ترجمة من تراجمه ولكنه موجود فى مكتبة برلين ، وهو يعنى بالغذاء فى الأمراض

الحادة ، ولذا فقد يكون ايحاؤه من مؤلف أبقراط المسمى « الغذاء فى الأمراض الحادة » ، وقد لقب ابن سينا فى عنوان هذا الكتاب بالرئيس ٠

٤ ــ شرح فصـــول أبقراط : موجود فى مكتبـات برلين وجوتا واكسفورد وباريس والاسكوريال وفى أياصوفيا نسخة مؤرخة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) أى سنة وفاته ٠

٥ ــ شرح تقديمات المعرفة : وهو تعليق على تكهنات أبقراط ٠ ذكره حاجى خليفة وبروكلمان ٠

٦ ــ تعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط : موجود فى آياصوفيا ٠

٧ ــ شرح تشريح جالينوس (آياصوفيا ٣٦٦١) ٠ وهذا الكتاب يبدأ من الكتاب الثامن ٠

٨ ــ شرح مسائل حنين بن اسحق : وأصله موجود بمكتبة ليدن بهولندا ٠

٩ ــ شرح القانون ، وقيل انه شرح « فى عشرين مجلدا شرحا حل فيه المواضع الحكمية ورتب فيه القياسات المنطقية وبين فيه الاشكالات الطبية ، ولم يسبق الى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه ان يقتصر على الكليات الى نبض الحبالى ، ولا يجرى فيه ذكر الطب الا نادرا » ٠

١٠ ــ شرح مفردات القانون ومنه نسخة فريدة فى آياصوفيا ٠

١١ ــ كتاب موجز القـانون وهو شرح مقتضب تناول كل أجزاء القـانون فيما عدا التشريح ووظائف الأعضـاء ، الأمر الذى جعله سهل التناول ومحبوبا من الوجهة العملية لمارسى الطب ٠ ولذا فانه انتشر فى كل الشرق وكان له تأثير بالغ فى طب هذه البلاد ٠ أما أصله فموجود منه نسخ فى باريس واكسفورد وفلورنسا وميونخ والاسكوريال ، ويقع فى أربعة أجزاء لا خمسة كما هى حال القانون ، اذ انه ضم كتاب الأدوية الى الجزء الثانى ، وقـد كثرت ترجمته الى اللغـات الأجنبية وتعددت التعليقات عليه ٠

١٢ ــ تفاسـير العلل وأسـباب الأمراض : وهو مؤلـف ذكره بروكلمان (٧٠) ٠

١٣ ــ شرح « الهداية فى الطب » ٠

١٤ ــ شرح تشريح القانون : وهو فى نظرنا مفخرة الطب العربى وجدير بأن نفرد له هذا الفصل من الكتاب ٠

● تكرر التاكيد فى ترجمات ابن النفيس وفيما قال عنه معاصروه بأن هذا العالم الفذ والذى قيل عنه « انه فرد الدهر وأخو العلم ووالده » ، تكرر التاكيد بانه لم يقتصر مجهوده على ضرب واحد من ضروب العلم ، فلقد قيل فى لغة زمانه المزدهرة انه « لم يكن على علم واحد بمختصر ولا يشبهه بالبحر الا مختصر » الى عبارات أخرى من الاطراء ، وان كانت تبدو غريبة على آذان قارىء القرن العشرين . كما جاء فى « مسالك الابصار) أنه صنف فى المنطق مختصرا وشرح الهداية لابن سينا فى المنطق ، وكان له فى ذلك اتجاه خاص ، اذ يبدو أنه كان يميل فى ذلك الى طريقة المتقدمين كابن سينا ، كما كان يكره طريقة معاصريه من أمثال الخونجى والأثير الأبهرى . والف غير ذلك كله فى اللغة وعلم البيان والحديث .

أما الفقه فانه تولى تدريسه بمدرسة المسرورية بالقاهرة ، وشرح فيه فى أول التنبيه الى باب السهو شرحا حسنا . وكان ينتمى الى المذاهب الشافعية ، حتى ان تاج الدين السبكى ترجم له فى كتاب « طبقات الشافعية » الذى تناول أعيان هذا المذهب .

ويمكن اختصار ما ألفه ابن النفيس فى غير الطب على الوجه الآتى :

* فى النحو : « طريق الفصاحة » .

* فى القانون : « شرح لكتاب التنبيه فى فروع الشافعية لأبى اسحق ابراهيم الشيرازى » .

* فى المنطق : (١) « شرح كتاب الهداية فى الفلسفة لابن سينا » وهو كتاب يتناول المنطق . وقد قيل انه شرح كتاب الهداية فى الطب لابن سينا ولعل هذا خطأ فى النسخ اذ يبدو أنهما كتاب واحد ، ومما يؤسف له أنه لم يصل الينا لا كتاب ابن سينا ولا شرح ابن النفيس له . (٢) « شرح الاشارات » وهو كتاب ابن سينا الرئيسى فى المنطق .

* فى العلوم الدينية :

١ ــ « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

٢ ــ « مختصر فى علم أصول الحديث » .

٣ ــ « فاضل بن ناطق » .

محتويات الكتاب

لو أن ما ذكرناه هو كل ما يؤهل اسم ابن النفيس للخلود لكان كافيا لأن يكفل له مكانة رفيعة في مصاف هؤلاء الأفذاذ ، الضالعين في العلم والفكر ، الذين وزعتهم العصور الوسطى في بلاد متعددة ، والذين أحاطوا بفضل عقولهم النادرة بكل ما توصل اليه عصرهم من شتى صنوف المعرفة ... وانما فخر ابن النفيس ، بل فخر العرب في كل مكان ان يكون هذا العالم الفذ قد تطاول على القيود التقليدية التى كانت تشل نشاط المشتغلين بالعلم ، وتحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا ، وانكر — في جرأة — كل ما لم تره عينه أو يصدقه عقله ، وهذا في مؤلفه العظيم « شرح تشريح القانون » الذى بات في غمار المكتبات ، لم يثر انتباه القراء خلال ستة قرون حتى ان لكليرك Leclerc اكتفى في مؤلفه عن طب العرب بأن قال : انه موجود في مكتبات باريس والاسكوريال واكسفورد ، الى أن عثر عليه طبيب مصرى هو الدكتور محيي الدين التطاوى سنة ١٩٢٤ في مكتبة برلين وقد قام التطاوى بدراسته في الرسالة التى قدمها لنيل الدكتوراة من جامعة فريبورج بألمانيا .

ولنلق نظرة الآن على هذا المؤلف .. فنجد انه ليس هناك أكثر دلالة على الروح السائدة فيه ، مما ورد في مقدمته ، تلك الروح التي عبرت عن احترامه للدين والشريعة ثم للقدماء أى جالينوس وابن سينا ، وأفصحت أخيرا عن اعتماده على النظر المحقق والاستقصاء الشخصى مهما كان رأى هؤلاء ، قال :

« وبعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله ، فان قصدنا الآن ابراز ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبى على الحسن بن عبد الله ابن سينا رحمه الله في التشريع في جملة كتاب القانون . وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتاب القانون الى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب ، وذلك ليكون الكلام في التشريع جميعه منظوما ، وقد حدانا عن مباشرة التشريع وازع الشريعة ، وما في أخلاقنا من الرحمة ، فلذلك رأينا ان نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس ، اذ كانت كتبه أجود الكتب التى وصلت الينا في هذا الفن ، مع انه اطلع على كثير من العضلات لم يسبق الى مشاهدتها ، فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ، ونحو ذلك على قوله الا في أشياء يسيرة ظننا انها من

أغاليط النساخ ، أو اخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها . وأما منافع كل واحد من الأعضاء فانما نعتمد فى تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه » .

ولكى ندرك أثر الاتجـاه فى التفكير ومداه البعيد يستحسن أولا عرض نظرية حركة الدم حسب رأى جالينوس التى كملها بعده ابن سينا ، ثم ذكر تعليقات ابن النفيس عليها .

وحين نقول حركة الدم نود أن نميز بين الحركة والدورة ، اذ أن فكرة الدورة لم تنشأ الا فى القرن السابع عشر ، وان تلك الحركة كانت تعتبر مجرد مد وجزر فى الأوعية . وتبعا لهذه النظرية كان الوريد البابى ينقل الغذاء من الأمعاء الى الكبد حيث كان يتحول الى دم . ثم كان الدم يسرى من الكبد الى سائر الأعضاء عن طريق الأوردة ، فكان يذهب الى المخ عن طريق الوريد الأجوف العلوى .

وكان ما يسمى بالوريد الأجـوف العلوى مكونا من جزء الوريد الأجوف السفلى الحالى الواقع بين الكبد والقلب ، ومن الوريد الأجوف العلوى الذى كان يعتبر مكملا له ، أما القلب الأيمن فانه كان ينظر اليه كجيب للوريد لا منفذ له . وكان الدم ــ تبعا لهذه النظرية ــ يصل من الكبد الى التجويف الأيمن ، فيتخلص فيه من الشوائب التى تكون قد علقت به فى مختلف الأعضاء ، ثم يعود مطهرا الى الأوردة ، ومنها الى الأحشاء ، بينما تذهب الشوائب عن طريق الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) الى الرئة ، وتتصعد الى الزفير .

الا ان جالينوس وجد أن الأوعية الواردة الى القلب أكثر اتساعا من الأوعية الخارجة منه ، فاستنتج من ذلك ان الدم الوارد اليه أكثر من الخارج منه عن طريق الأوعية ، مما جعله يزعم ان هناك منفذا يتسرب منه الفرق بين الكميتين الى البطين الأيسر ، وان هذا المنفذ يقع فى الحاجز بين التجويفين ، ويفسر وجود بعض الدم فى الشرايين .

وكذلك الحال بالنسبة للقلب الأيسر فان الأورطى كانت تعتبر امتدادا للقصبة الهوائية وتوصل الهواء الى القلب ، حيث يمتزج الدم النافذ من البطين الأيمن فتتولد منهما الروح التى تسرى فى الشرايين .

لقد كـان الجهـاز الوريدى فى نظر جالينوس منفصلا تمامـا عن الجهـاز الشريانى فيما عدا منـافذ القلب المزعومة ، وكانت وظيفتاهما مختلفتين ، فالأول ينقل الـدم من الكبـــد الى القلب ، ومن القلب الى

الأنسجة ، أما الآخر فينقل الروح من القلب الى كافة الأعضاء • ظلت هذه النظرية عقيدة جامدة حتى القرن السابع عشر ، وحتى بين أكبر الأطباء استقلالا فى الفكر ، فقد آمن بها ابن سينا ، وسجلها « ليوناردو دافنشى » فى لوحاته التشريحية ، عندما كانت النهضة العلمية الايطالية فى ذروتها ، بالرغم من انه قام هو نفسه بتشريح عدة جثث •

لننظر الآن الى ما ورد من تعليقات ابن النفيس على ما قاله ابن سينا وجالينوس •

ويمكن حصر ما أتى به ابن النفيس من جديد فى الفقرات التالية الخاصة بالروح ، والتى يتضح منها مبدئيا ان المؤلف قبل النظرة السائدة ، وهى ان البطين الأيسر والشرايين مليئة بالروح ، وان الروح تتولد فى التجويف الأيسر باختلاط الدم بالهواء • قال ابن النفيس :

« والذى نقوله نحن والله أعلم ان القلب لما كان من أفعاله توليد الروح ، وهى انما تتكون من دم رقيق جدا شديد المخالطة لجرم هوائى ، فلابد ان يحصل فى القلب دم رقيق جدا وهواء ليمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منهما ، وذلك حيث تولد الروح وهو فى التجويف الأيسر » •

ثم يفسر ضرورة الرقة الشديدة فى الدم الواصل الى التجويف الأيسر وكيفية حدوث هذه الرقة • فيقول : « ولابد فى قلب الانسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء ، فان الهواء لو خلط الدم وهو على غلظه لم يكن جملتهما جسما متشابه الأجزاء ، وهذا التجويف هو التجويف الأيمن » •

نستطيع اذن أن نستخلص ان وجود تجويف آخر محتم فى نظره لضرورة تلطيف الدم تمهيدا لمخالطته الهواء • وهذا استنتاج غائى بحت ، ونعنى بذلك استنتاج وجود شىء من ضرورته •

ويسترسل ابن النفيس فى سرده لآرائه فيقول :

« واذا لطف الدم فى هذا التجويف (أى الأيمن) فلابد من نفوذه الى التجويف الأيسر حيث مولد الروح » • وهذا بالطبع ضرورى لاتمام نظريته فى تكوين الروح •• ثم يضيف : « ولكن ليس بينهما منفذ فان جرم القلب هناك سميك ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم ، كما ظنه جالينوس • فان مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ » •

من أين اذن يكون مرور الدم ؟ ألم ينكر صراحة وجود مسام فى الحاجز ؟ لقد بحث ابن النفيس عن مكان هذا الاتصال ، فلم يزد من أن

يقطع بأن الدم بعد ان يلطف فى التجويف الأيمن ينفذ الى الرئة وهناك ـ على حـد قوله ـ يخالط الهواء ويرشح ألطف ما فيه وينفذ الى الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) ليوصله الى التجويف الأيسر ، وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح ويضيف : ما بقى منه أقل لطـافة تستعمله الرئة فى غذائها » .

وقد أكد هذا فى موضع آخر بقوله : « فان نفوذ الدم الى البطين الأيسر انما هو من الرئة بعد سحبه وتصعده من البطين الأيمن كما قررنا أولا »

وكأنه لم يكتف بكل هذا ، فأراد زيادة التأكيد بأن الدم انما يجرى فى اتجاه واحد وأنه ليس موضوع مد وجزر ، فقال أيضا قوله : « واتصال الدم الذى يغذو الرئة ، الى الرئة من القلب (وهو يعنى البطين الأيسر) ، هذا هو الرأى المشـهور وهو عندنا باطل .. وأما نفوذ الدم من القلب الى الرئة فهو فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) .

يبدو بوضوح فى كل هذه الفقرات أن ابن النفيس اهتدى الى أن اتجاه الدم ثابت ، وانه يمر من التجويف الأيمن الى الرئة حيث يخالط الهواء ، ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) الى التجويف الأيسر . ويفسر هذا فى فقرة أخرى بقوله : « فلابد ان يكون هذا الدم اذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) الى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويصفى ألطف ما فيه ، وينفذ الى الشريان الوريدى ليوصله الى التجويف الأيسر . ثم فى مكان آخر : وجعل الشريان الوريدى نحيفا ذا طبقة واحدة ليسهل قبوله لما خرج من ذلك الوريد ، ولذلك جعل بين هذين العرقين منافذ محسوسة .

وفيما يتصل بهذه المنافذ يجب أن نتذكر ان العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد ، وان مالبيجى لم يكشف عن الأوعية الشعرية الا بعده بقرون ، مما جعل الشرايين تعتبر منفصلة انفصالا تاما عن الأوردة .

ولذلك فان ابن النفيس لم يبعد كثيرا عن الحقيقة عندما قال ان الدم فى جرم الرئة ليخالط الهواء ، وانه يمر من مسام بين العرقين ، منافذ محسوسة هى بمثابة الأوعية الشعرية فتنبأ باكتشـاف الأوعية الشعرية .

وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها ابن سينا ، وهى : عدد تجاويف القلب قال : « وفيه ثلاثة بطون وهذا كلام لا يصح فان القلب له بطنان فقط احدهما مملوء من الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين البطنين البتة ، والتشريح يكذب ما قالوه .

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بالتأمل • لقد سبق ان قال لنا فى ديباجته : « وقد حدنا عن مباشرة التشريح بوازع الشريعة ، وما فى أخلاقنا من الرحمة » وها هو ذا يقدم لنا الدليل على اعتماده على هـذا التشريح اذ يقول : « والتشريح يكذب ذلك » • ولسنا نجد تفسيرا لهذا التناقض الظاهرى سوى انه حرص على عدم اثارة حنق رجال الدين ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من العبـاقرة المجددين ، أمثال كوبرنيكوس وجاليليو ، عندما استهلوا مؤلفاتهم الثورية بتأكيد تبعيتهم للعقائد الدينية السائدة فى عصرهم • كما انه حرص على ألا يتهم بالجهل ، كما كان يتهم كل من ينكر تعاليم جالينوس اذ اعتذر عن هذا النقد حيث قال فى نفس الديباجة : « الا فى أشياء يسيرة ظننا انها من أغاليط النساخ » وذلك لاثارة الشك فى أمانة النساخ لا فى علم الفاضل جالينوس •

وحسبنا لنستعرض ما فى هذا الكتاب من فقرات أخرى تستحق الذكر وتحض على التأمل والاعتبار ، ان نذكر عبارة واحدة لها أهمية قصوى بالنسبة لتاريخ الطب ، وهى خاصة بتغذية عضلة القلب التى كان قد قال عنها ابن سينا : انها عن طريق الدم الموجود فى تجويفه مباشرة ، يقول ابن النفيس : « ليكون له مستودع غذاء يغتذى به وجعله الدم الذى فى البطين الأيمن منه يغذى القلب لا يصح البتة ، فان غذاء القلب انما هو من الدم المار فيه من العروق المارة فى جرمه •• وهذه العبارة تجعل ابن النفيس أول من فطن الى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها ، وهى تضيف دليلا آخر على ان ابن النفيس مارس التشريح ، كما انهـا تجعل منه أول من وصف الشريان الاكليلى وفروعه لنثبت الفارق الجسيم بين نظرة جالينوس وابن سينا من جهة ، ونظرة ابن النفيس من جهة أخرى •

نقارن آراء ابن النفيس بنظريات معاصريه ، فندرك ما ليس فيه من شك وهو ان تفكيره سبقهم بعدة قرون • ولنا أن نتساءل ألم تكن بحوث ابن النفيس جديرة فعلا بالتبصر والاعتبار ؟ أكانت تعاليمه منسية حقا قبل ان يقدر لها البحث اليوم ؟ •• الحقيقة ان هذا الاهمال الذى وقعت ضحيته تعاليم هذا الرجل العبقرى ، والذى لم يكن فى واقع الأمر الا امهالا من الزمن ، كان منشؤه تلك الهالة ، هالة القداسة التى أحاطت ردحا طويلا من الزمن بأقوال جالينوس وابن سينا ! كان العلماء يؤمنون بكل كلمة من كلماتهما ويذعنون فى خشوع لكل تعاليمهما ، الى حد ان أى انحراف عنها كان يعد بمثابة الحاد • ولقد روى عن « ريولانوس » قوله : ان حدوث أى اختلاف بين نتائج التشريح وبين قضايا جالينوس يكون مرده الى تغير طرأ على الطبيعة •• ولذا فان هذا العبقرى حين ينصف

اليوم ، انما يتحقق له بدل المجد مجدان : مجد اكتشافاته الواقعية ، وقبل ذلك مجد جسارته العلمية النادرة التى دفعته الى رفض سيطرة القدماء ، وتنظيف عقله ـ قبل أن يفكر ـ من كل ما كان عالقا به من صور وآراء . وهذه الجسارة هى من غير شك احدى السمات الأصيلة فى كل انتاج عبقرى .

★★★

كتاب التشريح كان له أكبر الأثر فى نظرية هارفى من بعده

هكذا نرى مما سبق ان تفكير ابن النفيس سبق معاصريه بعدة قرون ، الا انه يجدر بنا ان نتساءل من جديد : هل كانت تعاليمه منسية حقا الى أن كشف عنه التطاوى بعد سبعة قرون ؟ ٠

لقد ظل العالم العلمى يؤمن بتعاليم جالينوس ، ولاهيا عما كتبه ابن النفيس طيله قرون ثلاثة ٠ وفجأة ، كما لو أن سدا انفجر ، انبرى ثلاثة علماء فى غضون ٦١ سنة يصفون دورة الدم فى الرئة بنفس الألفاظ التى استعملها ابن النفيس ٠ وهم ميشيل سرفتوس الاسبانى فى مؤلفه اللاهوتى سنة ١٥٥٣ (Christianismi restituto) .

الذى حكم عليه من أجله بالاعدام حرقا ، ثم ريالدو كولومبو الذى شغل كرسى التشريح فى بادوا ونشر النظريات ذاتها فى مؤلفه (De re anatomica) سنة ١٥٥٩ بعد مرور ست سنوات على مؤلف سرفتوس ، وان كان قد حاول أن يؤكد انه قام بتأليفه قبل ظهور هذا المؤلف وأخيرا هارفى الانجليزى الذى درس فى بادوا وتتلمذ على تلاميذ كولومبو ، وجمع كل ما قاله سابقوه ، وضمه الى تجاربه الخاصة فى مؤلف De motu cardis سنة ١٦٢٢ ،فعد بذلك أول من اهتدى الى سر الدورة الدموية ، وان كان قد سبقه الايطاليون الى ذلك ٠

لقد أصر المؤرخون الغربيون على القول بأن تعاليم ابن النفيس أصابها النسيان ، وبأن سرفتوس وكولومبو وهارفى اهتدوا الى هذا السر مستقلين عنه ، بل مستقلا كل منهما عن الآخر ٠

ولكن هناك ، على الأقل ، برهانين يدلان على ان الغرب لم يجهل ابن النفيس وان كان قد تجاهله ٠

أما أولهما : فهو ترجمة باللاتينية نشرت فى البندقية سنة ١٥٤٧ ، قام بها طبيب ايطالى اسمه (ألباجو) زار دمشق لدراسة اللغة العربية ولتصحيح ترجمات ابن سينا اللاتينية وهى تذكر فقرات كثيرة من كتاب « شرح تشريح القانون » وهو المؤلف الذى نحن بصدده ٠ وان كانت لا تشتمل على الفقرات المتعلقة بدورة الدم الرئوية ٠ وقد أكد (ألباجو) فى مستهل مؤلفه ان هذه هى أول مرة تنشر فيها ترجمة لاتينية لهذا المؤلف ٠

وبمقارنة تاريخ نشر تلك الترجمة (١٥٤٧) فقد سبقت بست سنوات مؤلف سرفتوس (١٥٥٣) وباثنتى عشرة سنة مؤلف كولومبو (١٥٥٩) الذى لا يشك أحد اليوم فى أن هارفى قد اقتبسه . هل يعتبر من قبيل المصادفة ان يظهر ، بعد صمت طل ثلاثة قرون ، ثلاثة مؤلفات الواحد تلو الآخر ؟ .

أما البرهان الثانى : على تسلل تعاليم ابن النفيس الى الغرب فهو وجود مخطوط عربى يرجع الى القرن السابع عشر فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٧٧٦ حيث اكتشفه عبد الكريم شهادة . وهذا المخطوط تنقصه للأسف صفحاته الأولى وصفحاته الختامية مما يجعل من المتعذر معرفة اسم مؤلفه . وهو عبارة عن تعليق على قانون ابن سينا يتضمن فى ثناياه اعجابا بالغا بابن النفيس الذى يلقبه بالقرشى . وقد اتبع منهجا يورد بموجبه أقوال ابن سينا أولا ثم يتبع ذلك بقوله « ولكن القرشى يقول كذا وكذا » . وبهذه الطريقة بسط نظرية ابن النفيس عن الدورة الدموية فى الرئة فى عدة صفحات .

ومن هنا نجد انه من المحتمل أن تكون تعاليم العالم العربى قد تسللت الى علماء النهضة الغربيين عن أحد طريقين : اما عن طريق الأندلس واسبانيا حيث نشأ سرفتوس ، واما عن طريق ترجمة الباجو . وهذا بالاضافة الى طريق ثالث هو جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا حيث عنى ملوكها النورمانديون أمثال فردريك الثانى بتشجيع العلماء العرب ، وبالبحث على ترجمة مؤلفاتهم ، ومنهما تنتقل الى بالريمو وبولونيا وبادوا وبقية أوربا . ولم تكن الأمانة العلمية من مميزات هذا العهد ، بل ربما كان العلماء المسيحيون يخشون ذكر منابع علمهم غير المسيحية خوفا من الحكم عليهم بالهرطقة .

★★★

مسرحيات شكسبير

١٥٩٠ - ١٦١٦ م

العصر الذهبى للأدب الانجليزى

بلغت انبعاثات عصر النهضة فى انجلترا ذروة ازدهارها أثناء حكم الملكة اليزابيث الأولى الذى امتد من عام ١٥٥٨ حتى عام ١٦٠٣ ، فقد خرجت انجلترا اذ ذاك من ظلام العصور الوسطى ، ومن عزلتها وأصبحت فى عداد الدول العظمى خصوصا بعد هزيمة الأرمادا الاسبانية ٠

وبدأ تحول فى تفكير الناس من الدعوة الى التقشف والانشغال بالحياة الأخرى الى مشاكل الحياة على هذه الأرض ٠ وكان لدعوة « الهيومانزم » أو الانسانية أثرها فى نشأة رجال ذلك العصر سواء فى الميدان الفكرى لمعرفة كل جديد طريف ، أو الاقدام على كشف كل مجهول فى النواحى المادية الصرفة ، فظهر من الرواد المغامرين « والترالى » و « فرانسيس دريك » ومن أعلام المثقفين ثقافة عليا « فيليب سدنى » ومن الفلاسفة « فرانسيس باكون » ومن العلماء الطبيعيين « وليام جلبرت » كما امتاز هذا العصر بكثرة الرحلات والاسفار والاستكشافات الجغرافية والفلكية ، والرخاء ويسر الحياة والتطور السريع فى لغة القوم وعلومهم وطرز عمارتهم وأنواع ملابسهم وأخلاقهم وفنونهم ، ويقظة فى عالم الأدب سواء فى الشعر أو النثر أو الخطابة أو المسرح حتى أطلق على هذه الحقبة « العصر الذهبى للأدب الانجليزى » ٠٠

وابان هذا التحول الخطير تألقت عبقرية رجل أصبح اسمه يطرق كل سمع فى انجلترا بل صار فى الصف الأول بين الأدباء العالميين ، وقدر له أن يكون أحد مفاخر بريطانيا ومن أبرز أعمدة تراثها القومى ٠

فمنذ حوالى أربعة قرون واسم وليام شكسبير يلمع كأكبر كاتب مسرحى ، وتحتل مسرحياته مكانا مرموقا فى دور التمثيل ويزداد يوما بعد يوم عدد المستمتعين بمسرحياته التى ترجمت الى معظم لغات العالم ٠

ويرجع الفضل فى دوام شهرته الى أن مسرحياته زاخرة بالمواقف الصادقة والشخصيات الحية ، كما أن لغته صالحة للقراءة أو الاستماع اليها ، وكذا الأداء التمثيلى ... والأهم من ذلك أن شكسبير يعد كاتبا انسانيا عالميا تعمق فى دراسته للمجتمع وتفهمه .

فكوميدياته حافلة بمواقف الغرابة وشخصياتها مرحة ، أما الحوار فيمتاز بملاحة النكتة وسرعة الخاطر ، ويؤثر تأثيرا قويا على مشاهديها وينقلهم الى عالم مفعم بالفرح والسرور .

وتراجيدياته وان كانت تدعو الى الحزن والأسى فانها تأخذ بمجامع القلوب وتحرك المشاعر وتهزها هزا عنيفا وتوقظ فى النفوس والعقول التأمل والتفكير العميق فى جوانب الحياة حلوها ومرها .

***

قصة حياة

أعظم شعراء انجلترا

ولد وليام شكسبير أعظم شعراء انجلترا فى بلدة « ستراتفورد » على نهر أفون بانجلترا فى السنة السادسة لحكم الملكة اليزابيث الأولى يوم ٢٣ ابريل ١٥٦٤ ، وكان الطفل الثالث لأبويه بعد بنتين ماتتا قبل ولادته ثم رزقا من بعده ثلاثة صبية وبنتين ، مات معظمهم فى سن الصبا وقد نجا شكسبير نفسه باعجوبة من وباء الطاعون الذى أصاب ستراتفورد بعد سنة من مولده ٠

كان والده « جون ريتشارد شكسبير » وهو من خاصة الناس يعمل فى التجارة والزراعة فى ستراتفورد التى اتخذ منها موطنا له منذ عام ١٥٥٢ ، وكان يشغل مركز شيخ البلد منذ عام ١٥٦٥ ثم ارتقى الى وظيفة العمدة عام ١٥٧١ ، وقد حالف الرجل سوء الحظ منذ عام ١٥٨٦ فكسدت أعماله وتدهورت حالته المالية ، وتخلى عن وظائفه وأشرف على الافلاس بعد ان فقد معظم ثروته فى أخريات حياته التى اختتمها عام ١٦٠١ وترك لابنه وليام أملاكا ضئيلة مما اضطره الى ان يعول نفسه وهو ما يزال فى سن مبكرة ٠

أما والدته « مارى روبرت آردن » فقد انحدرت من أسرة شريفة ينتهى نسبها الى الملك الفريد الكبير ، وهى أرقى من أسرة زوجها وكان والدها من أصحاب الأملاك الواسعة وقد خلف لها معظم ثروته ، بيد ان هذه الثروة ضاعت فيما بعد أيضا ٠

وتقع بلدة « ستراتفورد » على بعد ٩٢ ميلا الى الشمال الشرقى من لندن بمقاطعة « ووروكشير » المسماه قلب انجلترا اذ انها تحتل منطقة ريفيـة جميلة فى وسط انجلترا ٠ وعلى عهـد شـكسبير كانت حافلة بالمزروعات والغابات الكثيفة ٠ وكانت البلدة نظيفة متألقة ويسير فيها التطور بخطى واسعة سريعة ٠ وبالقرب منها تقع غابة الأردن الشهيرة وقصرا وورويك وكنيلورث ٠

التحق شكسبير وهو فى السابعة من عمره بمدرسة ستراتفورد التى اشتهرت باسم « مدرسة الأجرومية الحرة » وبقى فيها حتى سن الثالثة عشرة حيث درس العلوم الأولية واللغة الانجليزية وعلم البيان والمنطق والتاريخ واللغة اللاتينية وقليلا من اليونانية وجانبا من الآداب القديمة

اليونانية واللاتينية ، ومما يسترعى الانتباه ان هذه المدرسة التى كان يديرها « ماستر روش » المعروف بصرامته ، كانت مشهورة بأنها من دور العلم التى تعنى عناية فائقة بتعليم طلابها وتثقيفهم ، يقوم بالتدريس فيها طائفة من الأساتذة المتخرجين فى جامعة اكسفورد • وقد اضطر وليام الى قطع دراسته فى هذه السن الباكرة بسبب المتاعب المالية التى لاقاها والده آنذاك وعكف على مساعدته فى أعماله

ويعتقد ان شكسبير حصل على معلومات واسعة فى علم الاحياء وعن الألعاب الرياضية والتجارة والمبادلات وحياة أهل الريف والحضر وهواية الصيد والقنص وفنون الرقص والموسيقى وغير ذلك من فروع الرياضة والفنون ، كما درس الكيميـاء والفلك والفولكلور والطب والقـانون ، فاجتمعت له ثقافة مستفيضة سواء من قراءاته الحرة أو ملاحظاته الثاقبة للعالم المحيط به • كما كان للمناظر الطبيعية فى مسقط رأسه من ريف جميل وحدائق وغابات وأنهـار تأثيرها القوى فى نفسه . اذ ظهر أثرها جليا فى شعره فيما بعد •

ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره اقترن يوم ٢٧ نوفمبر عام ١٥٨٢ بالآنسة « آن هاثا واى » وهى ابنة مزارع غنى من قرية « شوترى » القريبـة من ستراتفورد ، وكان صـديقا لوالده وكانت تكبره بثمانى سنوات ، وهذا التفاوت فى السن كان له أثره فان حياتهما سويا لم تكن سعيدة • وقد رزقا عام ١٥٨٣ بابنتهما الأولى « سوزانا » ثم أنجبا توءمين ذكرا وأنثى هما « هامنت » و « جوديت » •

وتكتنف حياته الغموض فيما بين عام ١٥٨٣ و ١٥٩٢ ويقال انه عمل خلالها معلما باحدى المدارس الريفية وبمكتب أحد المحامين وبأملاك أحد الأغنياء أو انضم الى فرقة تمثيلية جوالة •

وقيل انه قبض عليه هو وبعض أصدقائه وهم يصطادون بغير اذن الأرانب والغزلان فى أملاك السير توماس لوسى أوف كارلكوت بالقرب من وورويك وأثناء حبسه ظهر باكورة أدبه بهجوه هذا الشريف الذى أجبره على ترك البلدة •

كانت هذه الحادثة سببا لتوجهه الى لندن عام ١٥٨٦ باحثا عن الرزق فاضطر بادىء الأمر الى العمل فى مهنة متواضعة فى احد المسارح كملاحظ لخيول النظارة ومناد وملقن ثم اشترك مع تلك الفرقة فى اعادة كتابة المسرحيات وفى التمثيل ، ومن المحتمل انه كان قد تدرب على العمل المسرحى أثناء شبابه فى ستراتفورد أو شاهد على الأقل بعض المسرحيات

التى كانت شائعة فى ذلك العصر والتى كانت تقوم بتقديمها بعض الفرق الجوالة ممن ترددت على ستراتفورد ٠

ومما يقال كذلك انه سافر في رحلات خارجية الى أوربا والشرق ، ويحتمل انه كان يتردد على جامعة اكسفورد للدراسة خلال هذه الفترة من حياته ٠

ومن المؤكد انه كان مقيما في لندن عام ١٥٩٢ ، وانه صار معروفا للجمهور كممثل وكاتب مسرحيات في فرقة الايرل أوف لستر ، وأصاب نجاحا سريعا ، وكانت سنه آنذاك ثمانية وعشرين سنة وقد أشير اليه لأول مرة فى مؤلف للكاتب المسرحى « روبرت جرين » الذى اتهمه بالاقتباس من أعمال غيره من الكتاب ٠

وفى الفترة بين عام ١٥٩٢ ، عام ١٥٩٤ أغلقت مسارح لندن بسبب انتشار وباء الطاعون فكتب شكسبير خلالها بواكير أعماله الشعرية من النوع المعروف بالسرنيت فلما لاقت نجاحا باهرا تفتقت عبقريته عن قصيدتين قصصيتين طويلتين من الشعر الوجدانى الأولى هى « فينوس وادونيس » عام ١٥٩٣ والثانية هى « اغتصاب لوكريس » عام ١٥٩٤ ٠ ومنذ ان ظهرت هاتان القصيدتان توطدت مكانته كشاعر ٠

وبانتهاء الوباء الذى اكتسح لندن عادت المسارح الى نشاطها وتكونت فرق تمثيلية جديدة ، ومن ثم عاد الي عمله المسرحى رغم انه أصيب بكارثة أثرت عليه تأثيرا كليا بوفاة ابنه الوحيد « هامنت » فقدم بعض أعماله فى مسارح كان يملكها جيمس بورباج ٠

ولما شرع جيمس بورباج عام ١٥٩٨ فى انشاء مسرح « جلوب » شاركه شكسبير بماله وفنه وعمله فأحرزا ربحا وفيرا من المؤكد ان شكسبير اصابه ذروة النجاح فى ذلك العام ومن ثم كان مسرح « جلوب » عزيزا على نفسه وظل بورباج صديقه الحميم حتى آخر أيام حياته الفنية ٠

وقد منح والده ـ تقديرا لخدماته ـ رتبة عام ١٥٩٦ رفعته الى طبقة السادة والنبلاء وكان لها أثر بالغ الأهمية بالنسبة لشكسبير كممثل ، فقد كان الممثلون فى تلك الأيام يسلكون فى طبقة المجرمين والمتشردين ، وكان حصول والده على هذا التكريم بمساعى وليام الذى صار له أصدقاء كثيرون من النبلاء وفى حاشية الملكة اليزابيث ، وقد كانت هى نفسها مغرمة بشعره يرويه هو نفسه لها ، وبمشاهدة تمثيلياته التى تقدم على مسرح البلاط ٠

وفى العام نفسه أبرز « فرانسيس ميرز » نجاحه كشاعر ومؤلف مسرحي وعلق على اثنتى عشرة من مسرحياته مشيرا الى عبقريته التى استفاضت شهرتها وهو ما يزال على قيد الحياة ٠

ولما توفيت الملكة اليزابيث الأولى عام ١٦٠٣ واعتلى العرش الملك جيمس الأول كتب للشاعر بيده خطاب اعجاب وجعل فرقة شكسبير المسرحية تحت رعايته وأطلق عليها اسم « الفرقة الملكية » اذ انها كانت أنجح الفرق المسرحية فى تلك الأيام واعتبر شكسبير وغيره من الممثلين أعضاء فى حاشية الملك ومنحوا رواتب ثابتة ورتبا عسكرية رسمية ، وهذه الفرقة هى التى كانت تعرف من قبل بفرقة « ايرل دربى » فترة ، وفرقة « لورد تشمبرلين » فترة أخرى ٠

وفى عام ١٦٠٧ أصبح شكسبير عضوا فى جماعة كتاب العصر العظماء وهذا النادى الأدبى أسسه السير « والتر رالى » وكان رئيسه الروحى هو « بن جونسون » وكان شكسبير ألمع أعضائه لدماثته ونبوغه وكثيرا ما كانت تنشب مساجلات بينه وبين بن جونسون الذى دأب على نقده بقسوة ومع ذلك فقد كان يكن له أبلغ تقدير وقرظه بقصيدة مشهورة مفعمة بأحاسيس وعواطف صادقة ٠

ومن العجيب ان يوم وفاته كان مطابقا لتاريخ مولده ــ ٢٣ ابريل ١٦١٦ ــ وهو عيد سان جورج ، بعد أن مرض مرضا قصيرا عن اثنين وخمسين عاما بالتقويم القديم « اليولياني » أى يوم ٣ مايو بالتقويم الحالى « الجريجورياني » ودفن فى الخامس والعشرين منه فى محراب كنيسة « الثالوث المقدس » فى ستراتفورد ٠

وقد حزنت الأوساط الأدبية آنذاك لفقده وعبر عن كامل الاعجاب به والتقدير له معاصره الأديب « بن جونسون » فقال « ٠٠٠ انه كان ذا طبيعة رحبة حرة ، وذا خيال ممتاز وأغراض شريفة ، وتعبيرات رشيقة وكان ذكاؤه طيعا لارادته » ٠

وبعد خمسة وستين عاما على وفاة الشاعر سجل حياته المؤرخ الانجليزى « جورج اوبرى » أول المترجمين لسيرته فوصفه بأنه « مليح الوجه ذو هيئة حسنة ، حلو المعشر ، وديع النفس ، رضى الخلق ، حاضر النكتة ، لماح البديهة ، خصب القريحة » ٠ ثم ظهرت سيرة دقيقة لحياته بعد وفاته بمائة عام من قلم المؤرخ البريطانى نيقولاس راو ٠

كما قرظه غيره من كبار رجال الفكر فى بريطانيا منهم ٠٠ جون ملتون ، وجون دريدن ، والكسندر بوب ، وصمويل جونسون ، وتشارلس

لامب ، وتوماس كارليـل وماكولى ، ومن الألمـان لسنج وهريدر وجوته وشليجل الذى وصفه بأنه « المارد المسرحى الذى يقتحم السماء » ·

ويرجع الفضل فى ذيوع صيته وانتشار أعماله فى العالم الى ما قام به « فولتير » بدءا من عام ١٧٣٣ من توجيه الأنظار اليه فما وافى عام ١٧٤٦ حتى طبقت شهرته الآفاق خارج وطنه · وحتى وقتنا هذا يتوالى صدور كتب لدراسته لا تقع تحت حصر ·

ومع أن شكسبير يعد خاتمة اعلام عصر النهضة فى انجلترا ، اذ انه ظهر فى الحقبة الأخيرة لهذا العصر الا انه أعظمهم على الاطلاق فبفنه تبلور التراث الأدبى لعصر النهضة وتركز فى المسرحية التى جعلها فنا مستقلا بذاته وبها تألق الأدب الانجليزى وسبق غيره من الآداب الأوربية التى لمستها عصا النهضة السحرية فى هذا المضمار بل سبق غيره من فنون الأدب كالشعر والنثر والقصة التى تأخر ظهورها فى انجلترا الى القرن الثامن عشر ، فهو بذلك عملاق الأدب الانجليزى فى عصر النهضة ورائد المسرحية الحديثة فى العالم بأسره على الاطلاق ·

★★★

المؤلفات الشكسبيرية

كتب وليم شكسبير ـ الذى أجمع النقاد فى كل بلاد العالم على انه سيد كتاب المسرحية الشعرية فى كل العصور ـ سبعا وثلاثين مسرحية : بعضها من الملاهى أو الملهيات ـ كما يقول البعض ـ وهى : « ترويض الشرسة » و « العبرة بالخواتيم » و « الليلة الثانية عشرة » و « حكاية الشتاء » و « العاصفة » و « سيدان من فيرونا » و « زوجات وندسور المرحات » و « صاع بصاع » و « ملهاة الأخطاء » و « جعجعة ولا طحن » أو « لجاج فى غير طائل » ـ و « حلم منتصف ليلة صيف » و « عناء الحب الضائع » و « تاجر البندقية » و « كما تهوى » .

وبعضها من المسرحيات التاريخية ، وهى :

« حياة الملك هنرى الخامس » و « الملك هنرى السادس » جزء أول وثان وثالث ، و « حياة الملك جون وموته » و « حياة ريتشارد الثانى وموته » و « الملك هنرى الرابع » جزء أول و « حياة ريتشارد الثالث وموته » و « حياة الملك هنرى الثامن » و « هنرى الرابع » جزء ثان .

وتنقسم المسرحيات التاريخية لشكسبير الى قسمين :

أولهما : المسرحيات التى تتحدث عن تاريخ انجلترا أو الجزر البريطانية ، وقد اعتمد فى كتابتها اعتمادا كليا على دائرة المعارف التاريخية التى نشرها ريجنان وولف ، كما راجع قبل كتابه بعضها مسرحيات قديمة فى موضوعاتها نفسها ، واقتبس منها ما رأى صلاحيته بعد التنقيح والاصلاح والتقويم .

وثانيهما : المسرحيات التى استمدها من غير تاريخ انجلترا ، والتى يدخلها النقاد فى نوع التراجيديات أو المآسى ، وهى مسرحيات : « كريولينوس » و « يوليوس قيصر » و « أنطونى وكليوباترة » ، وكلها مأخوذة عن كتاب « سير بلوتارك » فى تاريخ الرومان ... ان شكسبير فى بعض هذه المآسى التاريخية ينقل عبارات بنصها من كتاب بلوتارك بعد ان ينقحها تنقيحا لغويا يقصد به زيادة الايضاح أو التأثير ، أو مجاراة اسلوب الحوار التمثيلى .

وبعضها من التراجيديات أو المآسى ، وهى :

« مأساة كريولينوس » و « تيتوس اندرونيكوس » و « تيمون الأثينى » و « روميو وجولييت » و « حياة يوليوس قيصر وموته » و « مأساة ماكبث » و « مأساة هملت » و « الملك لير » و « عطيل مغربى البندقية » و « أنطونى وكليوباترة » و « سمبلين ملك بريطانيا » و « ترويلس وكريسينيا » و « بركليس » .

وقد اختلفت آراء الذين أرخوا لشكسبير فى ترتيب هذه المسرحيات ترتيبا تاريخيا لمعرفة أيها كتب أولا ، وأيها كتب أخيرا ، ولكن خلافهم لم يكن جوهريا ، الى أن استقرت أخيرا آراء ثلاثة من العلماء المنقبين الدارسين هم : اوموند شيمبرز ، وسدنى لى ، وجوزيف كوينس آرمز — بعد بحث تاريخى أدبى دقيق ، أجراه كل منهم بوسائله الخاصة وامكاناته — على أن ترتيب كتابة هذه المسرحيات هو كما يلى :

« هنرى السادس » الجزء الثانى ، « هنرى السادس » الجزء الثالث ، « هنرى السادس » الجزء الأول ، « ريتشارد الثالث » ، « كوميديا الأغلاط » ، « تيتوس اندرونيكوس » ، « ترويض الشرسة » ، « سيدان من فيرونا » ، « عناء الحب الضائع » ، « روميو وجولييت » ، « ريتشارد الثانى » ، « حلم منتصف ليلة صيف » ، « الملك جون » ، « تاجر البندقية » ، « هنرى الرابع » الجزء الأول ، « هنرى الرابع » الجزء الثانى ، « ضجة بلا طحن » ، « هنرى الخامس » ، « يوليوس قيصر » ، « كما تهوى » ، « الليلة الثانية عشرة » ، « هملت » ، « زوجات وندسور المرحات » ، « العبرة بالخواتيم » ، « صاع بصاع » ، « عطيل » ، « الملك لير » ، « مكبث » ، « أنطونى وكليوباترة » ، « كريولينوس » ، « تيمون الأثينى » ، « بركليز » ، « سمبلين » ، « حكاية الشتاء » ، « العاصفة » ، « هنرى الثامن » .

وقد انعقد اجتماع الباحثين على أن هذه المسرحيات كتبت فى الفترة من عام ١٥٩٠ حتى عام ١٦١٣ ، أى فى أقل من ربع قرن أو فى خلال ثلاثة وعشرين عاما على وجه التحديد .

ان اهتمام النقاد والمؤرخين بترتيب مسرحيات شكسبير ترتيبا تاريخيا مرجعه اعتقادهم ان هذا الترتيب يعاوننا معاونة صادقة على دراسة صلة الكاتب وانتاجه بالمجتمع الذى عاش فيه وبأحداثه .

ينبئنا هذا الترتيب أن شكسبير بدأ بالمسرحيات التاريخية ، والتى تعالج تاريخ انجلترا بوجه خاص ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، فقد عاش فى

عصر النهضة أو البعث ، أو المولد الجديد أو عصر احياء العلوم ، كما كانوا يطلقون عليه ٠

وفى عصور النهضات تبحث الشعوب الناهضة عن أنفسها كما تبحث عن أمجادها وبطولاتها ٠ واحيانا تبحث عن أمجاد غيرها من الشعوب وبطولاتها ٠

ولم يكن شكسبير وحده هو المنفرد بكتابة المسرحيات التاريخية فى ذلك العهد ، بل كان فى ذلك سالكا السبل نفسها التى سلكها غيره من الكتاب ٠

وهذا الترتيب ينبئنا أيضا أن أولى مسرحيات شكسبير كانت « هنرى السادس » ، وقد كتبها ـ أو اشترك فى كتابتها بمعنى أدق ـ فى عام ١٥٩١ ، أى عندما كان شابا فى الثامنة والعشرين ٠٠٠ ومن ثم نستطيع من دراستها ودراسة ملابسات كتابتها ان نعرف كثيرا عن منهج المؤلف الجديد ، وما تأثر به ذلك المنهج ٠

ولشكسبير أيضا غير مسرحياته بضع قصائد مثل : « فينوس » و « أدونيس » و « زهرة لوكريس » ، و « شكاة عاشق » ٠ وله ديوان « مقطعات » يعد غرة فى جبين الأدب الذاتى ٠

كان اسلوب شكسبير قويا رصينا ، أضاف الى الأدب الانجليزى أسلوبا متفردا معروفا عند المتأدبين ٠ ولم يكن شكسبير ليقف عند حد فى سبيل التعبير عن معنى يعترض ذهنه ، بل استخدم اللغة أداة فى يده يحركها كما يشاء ٠ وكثيرا ما كان يخرج عن قواعد النحو والصرف فى سبيل الغاية التى يرمى اليها ٠

وقد سما شكسبير باللغة الشعرية الى أرفع الدرجات واسمى المراتب ٠ وكان مبتكرا فى تعبيراته وتراكيبه ، فكان يبدع ألفاظا جديدة لجمله ٠ ويضفى عليها من روحه الحياة والجمال والجلال ٠ ولم يكن يتقيد بالقواعد النحوية الرتيبة ، انما كان يعول فى عباراته على سمعه وأذنه الموسيقية ، وعاطفته الجياشه ، واحساسه المرهف ٠

وحفلت مؤلفات شكسبير بألوان متباينة من التشبيهات والاستعارات التى أصبحت فيما بعد مثلا يحتذى ويقتبس فى الأدب الانجليزى ٠

وقد أضفى خيال شكسبير الواسع ، ومقدرته على حبك المآسى وتصوير المشاعر الانسانية برمتها ، وفكاهاته العذبة الرقيقة ، على مسرحياته ألوانا شتى من الجمال ٠٠٠ حتى ان أدبه أصبح أدب الناس جميعا ، لا أدب الملوك أو السوقة فحسب ٠

شخصيات شكسبير

كانت من الأسس التى قام عليها علم النفس الحديث

ويقول المؤرخون ان مسرحيات شكسبير جميعا ـ سواء ما كان منها تاريخيا ، وما كان من نوع المأساة ، أو من نوع الملهاة ـ ماخوذة عن اصول معروفة أو مجهولة ، وانه لم يكن له فضل ابتكار موضوع واحد من موضوعاتها ·· غير ان هذا لا يقلل من قدر شكسبير كمؤلف مسرحى يعد فى القمة بين من ألفوا للمسرح فى جميع العصور والأزمان · ويرجع هذا الى ان شكسبير كان يتناول الموضوع من أى مصدر من المصادر ، كما يتناول البناء مواد البناء فيشيد منها بناء ضخما منيفا من تصميمه هو ، ومن صنع يديه وحده ·

كان يتناول الأسطورة أو القصة أو النادرة التى قرأها أو سمعها ، فيضع منها مسرحية جديدة تمتاز باسلوب انفرد به وحده دون كل المؤلفين · وكان يتناول الشخصية التى رسمها غيره مهزوزة أو ناقصة أو غير متكاملة ، فيقومها ويبث فيها الحياة ، وينطقها بعبارات حية نابضة ، فاذا بها بشر سوى له طباعه وشخصيته واسلوبه فى حياته ·

وشخصيات مسرحيات شكسبير كلها ، جلها ، لا تتبادل الحديث الا شعرا ، ولكنه شعر لا مثيل له فى حيويته وفى تلونه · ولما كان المسرح الاليزابيثى لم يعرف المناظر المرسومة التى تصور المكان الذى تجرى فيه حوادث المسرحيات ، فقد استخدم شكسبير شعره فى وصف تلك المناظر ، وأجرى على ألسنة شخصيات مسرحياته عبارات شعرية وصفية كانت تنقل الى مخيلات المتفرجين صورا قوية واضحة للأمكنة التى تدور فيها الحوادث · وكم من موقف فى أكثر من مسرحية استطاع فيه شعر شكسبير القوى المعبر ان ينقل مخيلات المتفرجين الى غابات وحدائق تشبه الجنان ، كما فعل فى ملهاة « حلم منتصف ليلة صيف » عندما وصف المكان الذى تقضى فيه « تيتانيا » جزءا من الليل ·

وفى كثير من الأحيان كان شكسبير يستخدم الشعر لغرض خلق جو خاص لموقف من المواقف ، كما فعل عندما أجرى على لسان الملكة « جرترود » وصفا حيا مؤثرا لموت « أوفيليا » فى مأساة « هملت » ، وكما فعل فى مسرحية « حكاية الشتاء » عندما أراد تصوير الفرحة التى تشبه الربيع ، فأجرى على لسان برديا حديثا عن الزهرة يكاد يرقص رقصة الفرح والحبور ·

ولم يقتصر استغلال شكسبير لملكته الشعرية الخصبة على هذين الغرضين ، بل جعله أداته الى تعريف شخصيات مسرحياته نفسها ، والى

الكشف عن أفكارها الداخلية وحقيقة مشاعرهـا ... انه يبيح لهذه الشخصيات دائما التفكير بصوت عال ، وفى أثناء هذا التفكير الناطق يتيح للمتفرج فرصة فهمها وتحليلها من خلال استماعه الى أبيات الشعر المرسل البليغ الذى ترددده ، كما فعل عندما جعل « مكبث » يفكر بصوت عال ، مصورا للمستمع كيف أثرت جرائمه فى نفسه حتى سلبته لذة الشعور بمعنى الحياة ، وكما فعل فى مواقف كثيرة من مسرحية « هملت ».

وقد برع شكسبير براعة غير محدودة فى رسم النماذج البشرية على أسس من الخبرة والتجربة لا تتاح الا لعبقرى موهوب ، ولا نقول على أسس من علم النفس ، لأن ذلك العـلم لم يكن قـد عرف بعد فى عهد شكسبير . وان كان هو قـد عرفه ، وبرع فيه ... حتى ان بعض الشخصيات الشاذة أو المنحرفة التى صورها أصبحت فيما بعد أساسا من الأسس التى قام عليها علم النفس الحديث ... من هذه النماذج المدروسة فى دقة وعمق شخصيات « هملت » و « الملك لير » و ليدى مكبث « و « عطيل » وغيرها .

● شخصية هملت :

كان الشاعر الألمانى « جوته » هو أول من كشف عن « هملت » فى الوقت الذى كانت فيه الثورة الفرنسية قائمة . وكان المفكرون فى ألمانيا ابان القرن التاسع عشر يحللون شـخصية هملت فلا يرون فيهـا الا شخصا متشائما يتمنى الموت . وفى فترة نشاط الاستعمار الألمانى لبعض بلاد أفريقيا عارض كارل وارد هذه الفكرة السائدة ، مستندا فى معارضته الى جلاء الناحية السياسية فى المسرحية التى توضـح ان هملت كان شخصية لها نشاطها السياسى .

وعندما بدأت المسرحيات تعالج المشكلات الاجتماعية تحت تأثير الحركة العمالية ، وظهور مسرحيات هنريك ابسن ، أخذ أنصار شكسبير وتلاميذه ينادون بأن مأساة « هملت » سبقت الى معالجة هذه المشكلات .

وفى أوائل القرن العشرين فسر الناقد الانجليزى « أندرو برادلى » شخصية « هملت » تفسيرا جديدا آخر ، فقال انها شخصية شاب وسيم موهوب أثرت فيه شخصية أمه المنحلة تأثيرا أسلمه « للحزن والأسى » . وأخـذ النقاد وتلاميذ شكسبير بهذا التفسير حتى عام ١٩٣٠ ، الى ان اعترض عليه بعض المجتهدين ، ونادوا بأن شخصية هملت اللطيفة التى تعذبت وسعت للوصول الى الحقيقة باسلوب تهكمى ، انما هى شخصية شاب ذى عقل قوى وقلب كبير ، قست عليه الحياة فثار عليهـا وعلى الجوانب الكريمة فيها .

ويقول النقاد السوفيتيون الذين تحمسوا لمسرحية « هملت » ودرسوها باسلوبهم الخاص فى دراسة الآثار الأدبية : ان شكسبير صور لنا فى هذه المسرحية مأساة انسان نبيل كريم الخلق ، نشأ نشأة تؤهله لأن يصبح رجلا سياسيا مسئولا عن مصائر بلاده وسعادة شعبه ، فكان ابنا بارا ، وفارسا شجاعا ، وأميرا جميل السجايا ، تجتمع فى شخصيته كل الصفات التى تبشر بأنه سيصبح ملكا ممتازا ، ولكنه كان يعيش فى عزلة بعيدا عن العالم ٠٠ الى أن وجد نفسه فجأة غارقا فى بحر من الكوارث والمصائب ، فكانت النتيجة ان شك فى كل شىء حوله ، وتصور أن كل ما يرى مشوب بالغموض ٠ غير انه ثبت للشدائد ، وراح يبحث عن الأسباب التى تجعل الناس يلجأون الى الشر ، ويحاول ان يبرىء النفوس المحيطة به من الشوائب ، ولم يستثن نفسه من ذلك ، فقد كان يرى انه لا يخلو من العيوب ٠

ان شخصية « هاملت » فى رأى هؤلاء النقاد السوفييت — ومن تبعهم من نقاد البلاد الأخرى — هى شخصية رجل أفعم قلبه بحب الانسانية ، ومن ثم نراه يردد أفكارا وانفعالات وتمنيات أقلقت الناس فى جميع الأزمان ، بل عذبتهم وألهمتهم ٠٠٠ انها شخصية بثت فى الناس منذ ظهورها روح الكفاح بغرض الوصول الى أهداف انسانية ٠

غير ان علماء النفس يدرسون شخصية هملت من زاوية أخرى ٠ انهم يطبقون عليه مرضا نفسيا أطلقوا عليه اسم « القلق النفسى » ٠ ان موضوع المسرحية يروى قصة رجل قتل شقيقه الملك ، وتزوج من امرأته الملكة ٠ ويعلم الأمير « هملت » ابن الملك المقتول ، بالحقيقة ٠٠٠ حقيقة الجريمة البشعة من شبح أبيه الذى يطالبه بالانتقام له ٠

ولكن هذا الابن الذى وصف بالشجاعة والاقدام وبالسجايا الحسنة ، يتردد فى ذلك ترددا غامضا لا مبرر له ٠٠٠ بل ترددا غير مفهوم ، فلماذا ؟

لقد تناول نقاد الأدب والمسرح شخصية « هملت » هذه بالتحليل والتفسير ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يكتشفوا السر النفسى الخفى الذى يتحكم فى هذه الشخصية ٠٠٠ ولعل أقربهم الى الوصول الى ذلك السر هو الناقد الانجليزى « برادلى » الذى وصفه بأنه « شاب رقيق موهوب ، دفعته صدمة خيانة أمه — باشتراكها مع عمه فى قتل والده الملك ، وفى الزواج من القاتل بعد ذلك — الى هاوية الجنون الذى سببه فرط الحزن » ٠

وتدخل علم النفس فى الأمر عندما قام الأستاذ « ارنست جونز » بتطبيق نظرية فرويد فى اللاشعور وعقدة أوديب ٠٠٠ يرى الأستاذ ارنست ان « كلوديوس » عم هملت قد ارتكب جريمتين شنيعتين فى وقت واحد : أولاهما قتل أخيه ، والثانية افساد زوجته ٠

وقد تأكد هملت من ارتكاب عمه لهاتين الجريمتين بالدليل المادى عندما قدم مسرحية بالاشتراك مع بعض الممثلين المحترفين فى القصر أمام والدته وعمه روى فيها ما سمع من شبح والده .

فلماذا تردد فى الانتقام الذى ناشده شبح والده اياه ؟!

يجيب على هذا السؤال المحير الخالد بقوله : « ان السبب هو عقدة أوديب » . ويفسر ذلك بقوله ، كما جاء فى كتاب السينما والمسرح وأمراض النفس للدكتور أنيس فهمى اقلاديوس : « لقد كان هملت مرتبطا بأمه كطفل ، يحبها حبا آثما لا يقره المجتمع ... ولذلك كان يغار من أبيه ، ويشعر بما فى ذلك من اثم شعورا عميقا ، وكانت النتيجة تغطية مصطنعه تبدو فى اعجابه الشديد بخلال أبيه . ولما قتل أبوه أحس اللاشعور بفرح واغتباط ، اذ تخلص هملت من غريمه الذى كان ينافسه فى حب أمه ، ومن هنا حال اللاشعور بينه وبين قتل عمه الذى خلصه من منافسه العنيد ... ولكن ألم يأخذ عمه أمه ، كما أخذها أبوه من قبل ؟ ..

« العم هنا بديل عن الأب فى عرف المجتمع الذى يعيش فيه ، وما دام قد عجز عن التخلص من أبيه من قبل ، فهو اليوم أعجز عن تنحية العم للأسباب نفسها .. فهملت اذن ضحية لذلك الرباط الذى لم ينقطع بينه وبين أمه منذ الطفولة . ومما زاد فى معاناته موت شخص عزيز عليه ، ونعنى به والده ، وتحطم مثل أعلى وحلم جميل هو أمه التى تردت فى الاثم ...

« ولقد كان فى الامكان أن يكون سعيدا ومنتجا ، ولكن الصراع الذى اضطرم فى نفسه منذ الصغر وتفاقم أخيرا ، فرق طاقته وبددها ... ولو قد عاش والده ، ولم تخطىء أمه . لأمكن لهملت أن يتخلص رويدا رويدا من عاطفته المنحرفة نحو أمه ، ولاتجه نحو صبيته أوفيليا بقلب سليم » .

هذا هو التفسير الذى ارتآه علم النفس الحديث لشخصية هملت التى رسمها شكسبير منذ حوالى أربعة قرون ... انه انسان ذكى ولكنه ضعيف مشلول الارادة ، ويقول كل من جوته وكولردج انه « مثال للعقل الاكاديمى الذى يغوص ويحلق ، ولا يكاد يفعل شيئا » .

ـ كيف رسم شكسبير الشخصية :

رسم شكسبير شخصية هملت كما لو كان قد درس أعراض مرض القلق النفسى دراسة دقيقة مستوعبة . ان نفسه فريسة لصراع نفسى

والتشاؤم والخور والتردد ... انه ـ نتيجة لخيانة أمه ، وغدرها بأبيه ـ يفقد ثقته بالنساء جميعا ، ويشك فيهن جميعا . وقد أدى هذا الشعور البغيض الى الشك فى الفتاة التى أحبها وأحبته ... شك فى حبيبته أوفيليا نفسها ، وساقه هذا الشك الى القسوة عليها والاساءة اليها ، مما أدى الى جنونها ومرضها عزفا ... « بل ان هـذا التشاؤم وفقدان الثقة ، امتدا الى الوجود عامة ، فغدت قبة السماء فى نظره مجموعة من أبخرة دنسة كريهة » .

ويصور شكسبير فى حواره خوف هملت وتردده وتشاؤمه ، منذ اللحظة الأولى التى يفرغ فيها من الاستماع الى حديث شبح والده ، فيجعله يقول لمرافقيه « هوراشيو » و « مرسلس » : « لننصرف جميعا ، ولكن أبدا أصابعنا على شفاهنا هكذا ، أرجو ذلك منكما . ان الزمن لفى اعتلال واختلال ، ومن نكد طالعى أن أكون أنا المنوط به علاجه ، والعودة به الى النظام ... هيا بنا » .

وهل هناك من صورة للقلق النفسى أروع من تلك الصورة التى رسمها شكسبير لبطله ، عندما تركه يفكر تفكيرا بصـوت عال قائلا : « غاية ما دافعت به عن أب وحبيب . وملك عزيز نكب أشد النكبات ، هو اننى أهذى هذيان الحالم ، مع ان شاغل الانتقام مالىء نفسى .. جبان أنا ؟ » .. الى أن يقول : « أفيى حاجة كحاجة البغى المومس ، أو الأجيرة القعيدة فى المطبخ ، الى تبديد ما فى قلبى من الحقد بالألفاظ والثرثرات ؟ حراكا يا دماغى حراكا ! » .

وتتجلى حيرة « هملت » وقلقه النفسى فى المونولوج الشعرى الطويل المشهور الذى يتحدث فيه عن الحياة والموت قائلا : « أكائن أنا ، أم غير كائن ؟ تلك هى المشكلة » .. الى أن يتساءل : « وما هو الموت ؟ نوم ، ثم لا شىء .. نوم نستقر به من آلام القلب وآلاف الخطوب التى تصاب بها الأجسام . اننا نخشاه على انه حقيقى بأن نرجوه ...

« الموت رقاد ، وقد تكون به أحلام ... هذه عقدة المشكلة . اذ ان الخوف من تلك الأحلام التى قد تتخلل رقاد الموت ، بعد النجاة من آفات الحياة ، هو الذى يقف دونه العزم ، وهو الذى يسومنـا عذاب العيش ، وما أطول مداه ! اذ لولا هذا الخوف ، لما صبر أحد على المذلات والمشقات الراهنة ! » .

وما هى المشقات الراهنة فى رأى هملت القلق ؟

انه يعددها ، او يعدد بعض ما خطر على باله منها : « لا على بغى الباغى ، ولا على تطاول الرجل المتكبر ، ولا على شقاء الحب المرذول ، ولا على ابطاءات العدل ، ولا على سلاطة السلطة ، وقحة القدرة ولا على الكوارث التى يبتلى بها الحب الصحيح والمجد الصريح ، بفعل الجهلة وتهجم السفلة » .

ان مرض القلق النفسى — كما يعرفه علماء النفس والأطباء ، هو الشعور بخوف غامض ، وانتظار لخطر يتوقع الشخص حدوثه ، والاحساس بالكآبة المشوبة بحالة من التوتر العصبى وسرعة التهيج ... ويصاحب هذا الشعور بالخوف صعوبة فى الاقدام على أى عمل ايجابى ، والاحساس بعدم المقدرة على انجاز أى عمل وهذه هى الأعراض التى صورها شكسبير فى شخصية هملت ، والتى كرر تصويرها فى كل تصرف من تصرفاته منذ استماعه الى حديث شبح والده ، مما يدل دلالة واضحة على اتساع أفق خبرته بالناس ، ودقة ملاحظته لأحـــوالهم وتصرفاتهم فى مختلف حالاتهم ... كما يدل على دقة رسمه لمعالم شخصيات مسرحياته مما لم يتوافر لمعاصر من معاصريه ، كما لم يتوافر الا للقليلين ممن خلفوه فى كتابة المسرحيات فى جميع أنحاء العالم .

● شخصية أوفيليا :

وفى مسرحية « هملت » نفسها يقدم لنا شكسبير شخصية رقيقة أخرى تحتاج الى دراسة ... انها شخصية « أوفيليا » بعد ان أصيبت بالجنون على أثر صدمتين نفسيتين عنيفتين رزئت بهما .

كانت الصدمة الأولى عندما تخلى عنها هملت وأعلنها فى صراحة وفى قسوة بأنه لم يعد يحبها قائلا : « عليك ان تنسى حبى لك ، وان تقضى حياتك فى دير ، فهذا أفضل لك من أن تتزوجى لتصبحى أما لخاطئين » .

أما الصدمة الثانية ، فكانت مقتل والدها الحبيب « بولينوس » بسيف حبيبها هملت نفسه .

وكانت الصدمتان كافيتين لاصابة أوفيليا بالجنون . . . « انهـا لا تفتأ تذكر أباها ثم تبكى ثم تضحك .. تهذى بكلام لا معنى له ، وتخلج بعينيها ، وتهز رأسها وكتفيها » ... سيطرت عليها « الكآبة والوسوسة والألم واليأس » ، « وهى لا تفتأ تغنى فى كل لحظة » . فمرة تقول : « مات ، وانصرف على رأسه عشب أخضر ، ورجلاه مشدودتان بحجر » ، ومرة تقول : « حملوه مكشوف الوجه فى النعش .. ترالا لا لا ، وعلى ضريحه سالت دموع غزار .. ليلتك زاهرة يا عصفورتى ! » .

وتنطبق هذه الأعراض ـ كما يقول الدكتور أنيس فهمى أقلاديوس ـ على حالة جنون الخلط الذهنى حيث « يبدو المريض كأنه يحلم فى أثناء اليقظة ، وتظهر على ملامح وجهه امارات القلق والكآبة والخوف واليأس · وقد يكون كلامه غير مرتب ولا مفهوم » ·

● شخصية الليدى مكبث :

وفى مسرحية « مكبث » يقدم شكسبير شخصية مريضة أخرى ، أحسن دراستها وتصويرها من الناحية النفسية ، هى شخصية « الليدى مكبث » الشريرة التى دبرت مقتل الملك دنكان ونبكو وزوجه مكروف وأطفاله · وكان من نتيجة أفعالها الشريرة هذه ، وجرائمها النكراء ، ان اضطربت نفسيتها ، وأصبحت مسرحا لصراع عنيف كان من نتيجته اضطراب نومها ·

ان شكسبير يجعلها تحاول غسل الدم من يديها فى أثناء نومها ، وهى تنهض من فراشها فى كل ليلة « فتلقى عليها رداءها ، فتفتح حجرتها ، فتتناول ورقا تكتب عليه شيئا ثم تختمه ، وتعود الى مرقدها ·· وذلك كله فى سبات من النوم » ·

وهناك طبيب فى المسرحية لا يدرى شيئا عن حقيقة جرائمها ، ولكنه يقول : « من أدلة الاختلال الشديد فى الوظائف الحيوية ان تكون غافلة وهى تسعى سعى المستيقظين » ··· « انها تمشى وهى نائمة · عيناها مفتوحتان ، ولكن حاسة النظر مفقودة » ·

من أين أدرك شكسبير أن المشى فى أثناء النوم يعد دليلا من دلائل الاضطراب النفسى ·

● نماذج أخرى :

ولا تقتصر دقة شكسبير وبراعته على تصوير الشخصيات المريضة أو المنحرفة ··· بل انه ليصور شخصياته جميعا بالدقة نفسها ، وهذا المستوى الرفيع من الكمال الفنى · وهو أبرع من قدم النماذج البشرية ، وأدق من صور العواطف والانفعالات والغرائز والوجدانات المتباينة ·

ان « جولييت » العاشقة هى أروع مثل للعشق ، و « ديدمونه » البريئة هى أرفع صورة للبراءة والطهر ، و « عطيل » الغيور الأحمق مثال لا يدانيه مثال من نوعه ، و « ياجو » الخبيث المتآمر صورة لا شبيه

لها فى خبثها ومكرها وتآمرها ، و « بروسبيرو » فى مسرحية « العاصفة » مثال للحكمة والصبر وحسن التصرف لا يدانيه مثال آخر ٠

والساحرات واللصوص والخونة والفتيات العاشقات الرقيقات ٠٠٠ هؤلاء كلهم شخصيات أبدع شكسبير فى تصويرها ، وعاونته عبارته الشعرية البليغة ، وطول باعه فى دنيا البديع ، على تقديمها فى أروع الصور وأبدعها ٠

ويتساءل كثيرون ممن لم يدرسوا حياة شكسبير الدراسة الكافية : كيف استطاع شكسبير وهو القروى الذى خرج من مدارس الريف قبل ان يكمل تعليمه — ان يبلغ هذا المدى فى دقة تصوير شخصياته تصويرا نفسيا مبنيا على أسس علمية ٠

والجواب على هذا التساؤل : ان شكسبير لم ينقطع عن الدراسة والاطلاع طوال حياته ٠ وقد أثبت بعض مؤرخيه انه كان يختلف الى جامعة اكسفورد قبل زواجه بسنوات ، وانه لم ينقطع عنها الا بعد عقد زواجه والحاح الحاجة عليه ٠٠٠ كما لم ينقطع عن الاطلاع والاجتهاد الشخصى فى الدراسات النظرية والعلمية للحياة فى مختلف أدوارها ، وللناس فى مختلف حالاتهم ومظاهرهم ٠

لقد ثبت « انه زار مستشفى للأمراض العقلية ، يسمى مستشفى « بدلام » مرات كثيرة كى يدرس أنواع الجنون المختلفة دراسة عملية » ٠ وهذا مثل من أمثال دقته ورغبته فى اتقان عمله ينبىء عن أمثلة أخرى لم يوردها مؤرخو حياته ، فليس بمستبعد على من ذهب الى مستشفى لعلاج الأمراض العقلية كى يحسن تصوير مجنون فى احدى مسرحياته ان يذهب الى ظهر سفينة فى الميناء كى يحسن تصوير حياة البحارة أو أن يقرأ كتابا أو أكثر فى سير العشاق الخالدين كى يصور عاشقين خالدين ٠

● **نساء شكسبير وأطفاله :**

بلغ من دقة شكسبير فى تصوير شخصيات النساء فى مسرحياته ان مؤلفه انجليزية ، تدعى مسز اناجيمسون ، ألفت كتابا ضخما عن بطلات تلك المسرحيات ، وقسمتهن الى خمسة وعشرين نوعا : منهن الذكيات ، ومنهن الطموحات المغامرات ، ومنهن صاحبات العاطفة المشبوبة والرقيقات ، ومنهن ذوات الشخصيات القوية والمعروفات فى التاريخ ٠٠٠ ولم تجد المؤلفة فى نساء مسرحيات شكسبير واحدة تشبه الأخرى ، أو

تقرب منها من حيث تكوين الشخصية · أما أطفال مسرحيات شكسبير فلم تكن صورهم فيها بأقل دقة ولا اتقانا من شخصيات الكبار ، حتى قيل عنه انه كان يعاشر الأطفال ويعيش معهم ــ ومنهم ابنه ــ كي يخرج بهذه الصور البالغة الابداع ·

● **مآسي شكسبير :**

ان اسلوب المأساة الشكسبيرية اسلوب لم يأخذ به في جملته وتفصيله كتاب آخرون كثيرون · ويرجع الكاتب « نيكول » ــ مؤلف كتاب علم المسرحية وصاحب كرسي الأدب الانجليزي واللغة الانجليزية في كل من جامعتي لندن وبرمنجهام على التوالي ــ سبب ذلك الى سعة خيال شكسبير ، وفرط قوة تصوره مما لا يتوافر لكثيرين · نعم ان كثيرين قلدوا بعض نواحي تلك المآسي ، كما انها كانت ذات أثر كبير ملحوظ في كل المآسي التي كتبت للمسرح الانجليزي بعد عصر شكسبير · ولكن هجاراتها في سماتها كلها كان من الأمور المتعذرة ·

والسمات المميزة لمآسي شكسبير هي : القوى الخارقة للطبيعة التي تعمل عملها خفية ولكن في يقين ، ثم تلك الروابط الغريبة التي تربط البطل بكل ما يحيط به ، وابطال شكسبير كلهم موضوعون في مواقف لا يستطيعون هم ــ وهم وحدهم دون الناس جميعا ــ ان يصارعوا القدر فيها ·

ان « هملت » المتدين القلق ــ كما قد رأيت ــ هو الذي يختاره شكسبير لاصلاح العالم ، وهذا قدرٌ لا يمكن مدافعته ! وعطيل الغبي الأحمق هو الذي يختاره شكسبير للوقوف أمام من ؟ أمام « ياجو » الخبيث الماكر الألعبان الذي يستهتر بكل القيم وكل المقاييس ··· ومكبث الانسان الضعيف السريع التأثر الذي يسيطر عليه الطموح ، يضعه شكسبير أمام الساحرات ، وأمام زوجته القاسية المجرمة · أما أنطوني العاشق المدله ، فلا يختار له شكسبير ــ ولعل القدر هو الذي اختار له ــ الا الوقوف أمام كليوباترة ·

يقول « نيكول » : « وضعوا في المواقف المحكمة المغلقة التي لا يستطيعون منها فكاكا ··· فاذا أنت وضعت « هملت » في مكان عطيل ، أو عطيل في مكان هملت ، لم تجد بين يديك مأساة على وجه الاطلاق ، لا من النمط الشكسبيري ، ولا من أي نمط آخر ··· ومواجهة البطل بهذه الصورة التي تكاد تكون من صنع الأقدار هي ما يميز مآسي شكسبير » ·

مؤلفات عن شكسبير !!

من أقوال أحد المعجبين بشكسبير : « ان الكتاب المقدس وآثار شكسبير كانت أقوى العوامل الأدبية التى أثرت فى التاريخ » . وسواء سلمنا بهذا الرأى أو رأينا فيه مغالاة فمما لا ريب فيه ان شكسبير هو باعتراف جميع الأمم المتمدينة رب الروايات المسرحية الذى لا يجارى . فلا غرابة اذا افتخرت الأمة الانجليزية بهذا العبقرى الفريد واحتفلت ... وجدير بها ان تفتخر وتحتفل أكثر مما فعلت — بل حقيق بالعالم أجمع أن يشاركها فى هذا التذكار لأن الميراث الذى خلفه شكسبير هو منك لكل زمان ومكان .

بل انظر الى ما كتب عن شكسبير ومؤلفاته تعرف ما له من المقام الحى بين جميع الأمم . فان آلاف الكتب قد صدرت عن حياة شكسبير ومؤلفاته .. وهو ما لم يحظ بمثله كاتب آخر على مدى تاريخ البشرية كله .. وما زالت الكتب تتتالى عنه ، كل منها يكشف عن جوانب جديدة فى فنه العظيم .. وليس هذا غريبا بالنسبة لكاتب أجمع كبار الدراسين على اعتباره واحدا من أهم صانعى العقل الحديث .

ولم يكن شكسبير كاذبا ولا مغرورا عندما قال عن نفسه : « سيظل فنى خالدا ما دامت هناك عيون ترى وآذان تسمع » .. فها هى ٤٠٠ سنة من عمر الزمن تمضى ، والعالم يحتفل بأعظم من كتب للمسرح حتى الآن .. ف « وليم شكسبير » يعد أول من وضع أسس المسرح التقليدى .

قد يلوح للوهلة الأولى ان كل ما يمكن ان يقال عن شكسبير ومؤلفاته قد قيل ، وانه لم يبق فيه مجال لمستزيد بعد كل تلك الآلات التى ملأت الملايين من الصفحات التى كتبت عنه ، عبر أربعة قرون ولكن ها هو ذا حصاد الدراسات الشكسبيرية فى عصرنا الحديث يشهد بأن الاهتمام به وبمؤلفاته لم ينقص مثقال ذرة ، ولعله ازداد مع زيادة معرفتنا بملامح عصره واتجاهاته .

ومن أهم الدراسات التى صدرت عنه منذ مطلع هذا القرن فقط :

- المدخل الى شكسبير — مسز الدرولانج .
- مزيد من المداخل الى شكسبير — السير أ.ت كويلر . مع مقدمة بقلم هـ.أ. مارشال .
- الحياة فى انجلترا فى عصر شكسبير .. كتاب من النشر الاليزابيثى — جون دوفر ديلسون .

- شكسبير دراسات مسحية ـ السير ادموند ٠ ك ٠ تشيمبرز ٠
- شكسبير ـ ج٠ب ٠ هاريسون ٠
- رفيق الى شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٩٦٤) وضع ف ٠ أ ٠ هاليداى ٠
- مسرحيات شكسبير التاريخية ـ أ ٠ م ٠ و ٠ تيليارد ٠
- مآسى شكسبير ٠٠ منتخبات من النقد الحديث ٠
- ملاهى شكسبير ٠٠ منتخبات من النقد الحديث ٠

} لورانس ليونو

- معجم المقتطفات الشكسبيرية ـ وضع د٠ براونلج ٠
- الليلة الأولى من الليلة الثانية عشرة ـ الزلى هوتسون ٠
- الفن والصنعة عند شكسبير ٠٠ دراسة في التقابل والوهم الدرامى ـ الر ادجارستول ٠

- شكسبير الكاتب المسرحى	ـ اونا اليس فرمور
- شكسبير والشعر الاليزابيثى	ـ م ٠ برادبروك
- شكسبير بلا دموع	ـ مارجريت وبستر
- فن شكسبير	ـ جون أرثوس
- لغة مسرحيات شكسبير	ـ السير ايفور ايفانز
- شكسبير وفكرة المسرحية	ـ آلان رايتر
- عصر شكسبير	ـ بوريس فورد
- شكسبير : الملاهى	ـ كينيث ميور
- شكسبير معاصرنا	ـ جان كوت
- شكسبير نظرية وجودية	ـ ديفين هوروتيز
- مآسى شكسبير	ـ ج ٠ ب هاريسون
- البحث عن شكسبير	ـ د٠ لويس عوض
- التعريف بشكسبير	ـ عباس محمود العقاد

٠٠٠٠

كما أن جميع طبعات الانسيكلوبيديا بريتانيكا قد وقفت أكثر من ٥٠ عمودا على شكسبير ومؤلفاته !!

وليعلم القارىء ان هذا الاقبال ليس قاصرا على الشعب الانجليزى فقد ترجمت مؤلفات شكسبير الى أهم لغات العالم ولقد ترجم بعضها مرات عديدة . هذا فضلا عن دراسته فى المدارس فانك لا تجد مدرسة راقية فى العالم الا ودرس شكسبير داخل فى برامجها .

● **مكتبة المركز الشكسبيرى :**

وفى العيد المئوى الرابع لمولد شكسبير أقيم مركز يعرف « بالمركز الشكسبيرى » « Shakespeare Centre » .

كذلك لا تبعد «مكتبة شكسبير التذكارية » فى برمنجهام غير نصف ساعة من ستراتفورد وتكاد تضم مسرحياته فى مختلف لغات العالم ، بما فيها العربية ، وقد أنشئت هذه المكتبة فى العيد المئوى الثالث لمولد شكسبير ، أى قبل مائة عام ، وحاول الأمريكيون محاكاتها فانشأوا فى واشنطن المكتبة التذكارية المعروفة بـ Folger library الا انها اليوم أخذت تبتعد عن الغرض الأصلى الذى أنشئت من أجله اذ توسع نطاقها فأصبحت مكتبة لعصر النهضة وبقيت مكتبة برمنجهام تختص بشكسبير وحده وفيها اليوم ٥٠٫٠٠٠ كتاب بخمس وثمانين لغة ، وتشمل كل ما كتب عن شكسبير فى العالم أجمع ، فهى أعظم مركز للمصادر والبحوث الشكسبيرية أو ما يعرف بال « شكسبيريانا » Shakespeariana .

والى ذلك كله فقد أقام البروفيسور أولارديس نيكول سنة ١٩٥١ مؤسسة شكسبير للدراسات العليا وهى تابعة لجامعة برمنجهام وتعنى بالأدب الانجليزى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وبخاصة بحياة شكسبير ومسرحياته . وهناك دور للتمثيل اختصت بالمسرحيات الشكسبيرية ، طوال العام ولاسيما دار التمثيل الشكسبيرية الملكية فى ستراتفورد ، وتليها داران للتمثيل فى كوفنترى وواحدة فى برمنجهام (وهى أقدم دار للمسرحيات المعادة) وأخرى فى اكسفورد .

ولا يقتصر الباحثون اليوم على المسرحيات الشكسبيرية والكتب المطبوعة وزيارة الأماكن الأثرية المرتبطة بالشاعر وأسرته ، بل تعدوها الى دراسة ونشر العديد من المخطوطات المهمة من العصر الاليزابيثى الذى عاش فيه الشاعر وما يتصل به من عهد سبقه أو تلاه ، لاكتشاف جميع جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، لتتكامل الصورة على أوسع وأوضح ما يمكن أن تكون ، وأهم مركز لمثل هذه المخطوطات مكتبة « بودليان » باكسفورد .

★★★

شـــكسبير

رائد المسرحية الحديثة في العالم

ان المجال لايتسع لأن نتنـــاول شكسبير من ناحيـة شعره الخالص واسلوبه الأصيل في قصائده ، وحسبنا ان يكون هذا الفصل لمسرحياته . وذلك باعتبار انها نهاية النهايات فى أدبه وفنه ٠

ومواطن الابداع فى مسرحيات شكسبير من حيث القالب ونظـــام مشاهدها ، كثيرة متعددة ٠٠ فقد حطم القيد الذى كان مقيدا به مؤلفو اليونان والرومان ومن تبعهم من معاصريه ، فى ان تجرى حوادث الرواية وتتابع مشاهدها فى نهار وفى مكان واحد ، خرج على هذه القاعدة التى ابتدعها الذهن الاغريقي ، وفرضت طابعهـــا على الأدب المسرحى مدى الف وسبعمائة عـام ولم يتنبه المتبعون لهذه القاعدة الى ما للزمن ومـر الأيام من أثر نافذ في تطور الناس والحوادث ٠

وبخروج شكسبير على هذه القاعدة ، أصبحت المسرحيـة على يديه فصولا متعددة ومشاهد متلاحقة غير مقيدة بزمان أو مكان ، تجرى وتتعاقب لابراز شخصيات الرواية من غير عنت أو افتعال ، تجرى وكأنها سيل من الحياة الدافقة تتلاحق أمواجه لتترامى على هدف معين ٠

كذلك نهج شكسبير نهجا جديدا فى الاسلوب اللغوى الذى يكتب به حوار الرواية ، فبعد أن كان مقصورا كتابته على الشعر الموزون المقفى ، أصبح على يديه تارة شعرا مرسلا وتارة أخرى شعرا ونثرا واضحا بينا ، وبهذا تحررت المسرحية من قيد بيانى كان يحد من انطلاق الذهن وتحليق الخيال فى أوسع مجالاته ٠ بهذا قلب شكسبير الأوضاع الشكلية للمسرحية، فكان الأول فيما فعل ، وعنه أخذ كتـــاب القارة الأوربيـــة فى القرن التاسع عشر ٠

فى مدى ثمانية وعشرين عاما ٠ استطاع هذا العبقرى شكسبير ، ان يجعل المسرحيـة الانجليزية تحيط بالحيـــاة البشرية احاطة شـــاملة ، فمسرحياته بمآسيها وفكاهاتها ومهازلها هى سفر القلب الانسانى الذى لم يتغير ولن يتغير ٠ ففى مآسيه صـــور غرائز الكائن الانســـانى ملجمة بلجام العقل ، ثم ، وهى جامحة محطمة اللجام ٠٠ أحاط بالآثام البشرية

ورسم مسير القدر وهو يهدف الى غرضه ، صور مصارع الجريمة والخيانة، الطمع والترف والكبرياء غليان الجسد وثورة الغيرة ، يقظة الحس ، ومحاسبة الضمير ، الجحود وقسوته ، الضعف ومحنته ، جلائل العظماء وتفاهات المعوزين ، الحب كأسا شهية والحب كأسا تورد موارد الهلكة ·

وتمثل مسرحيات شكسبير فى كل زمان ومكان فاذا الدنيا ممثلة بحقائقها ، بكلياتها وجزئياتها ، فى صحوها وكدرها ، فى خيرها وشرها ، ثم يعاد تمثيلها وقد يعاود القارىء قراءتها ، فاذا هو دائما أمام متعة لاتبلى جدتها ، وتفكير تمتد آفاقه على التأمل والنظر ، تتراءى لنا فى ظلاله مواكب انسانية تتوالى أفواجها موفورة الاحساس بالحياة ، جياشة بصدق العاطفة ، بل ان العين لتقع على أشخاص بينها لاتنكرها لسابق معرفة بها فى الحياة الواقعية فكان شكسبير ، فى كشفه الدقيق عن دخائل النفس فى مختلف النماذج البشرية ومنازعها ، يريد أن يحيطنا علما بالحياة ، بل هو يريد أن يعرفنا أنفسنا ، يعرفنا ما هى النظرة الانسانية التى نعرفها ولا نستطيع تعريفا لها ، ونحسها ولا نقدر على شرح ماهيتها ·

ومرجع هذا كله لدى شكسبير انه وهب النظرة الكاشفة التى تنفذ الى أعماق فى النفس لا نصل الى أغوارها نظرة أخرى ، ومرجع هذا أيضا القدرة على التحليل النفسى الصادق ، والمقدرة على الابتداع والخلق ·

وهكذا ابتدع شكسبير مذهبا فى كتابة المسرحية ، فرض طابعه على الزمن أو تابعه فيه من جاء بعده من الكتاب والشعراء · هذه ناحية من نواحى عظمة شكسبير ولا أدل على اعتراف الناس بها من ان الأمم الراقية ، تذكر كل عيد من أعياد ميلاده بما يجب له من التكريم والتبجيل ·

فهاهو الشاعر « ملتن » عندما رأى تمثالا لشكسبير فى الكنيسة التى دفن فيها بستراتفورد علق على ذلك بقوله :

ـ « ما حاجة شكسبير الى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى اليها رفاته المجيدة ؟ ما حاجته ان تدفن بقاياه المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل الى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيزة ، ووارث المجد العظيم ! ماذا يغنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك من اعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى ·· » ·

وقال أيضا « فيكتور هوجو » عندما رأى تمثال شكسبير :

ـ « تمثالا لشكسبير ! ولماذا !! ان التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو انجلترا كلها لخير له من كل تمثال · ليس شكسبير بحاجة الى

هرم وله مؤلفاته . وماذا يمكن ان يخلد الرخام منه ؟ وماذا يستطيع البرونز ان يقيم حيث يقيم المجد ؟ .. ان الأحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهدهم عبثا . فالعبقرية هى العبقرية من غير حاجة اليها . ولو اجتمعت الأحجار كلها ، افتراها تكبر هذا الرجل أصبعا ؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس : قصة الشتاء ـ العاصفة ـ زوجات وندسور المرحات ـ يوليوس قيصر ـ كريولان . وأى أثر أعظم من لير ، وأشد تجهما من تاجر البندقية وأبهر من روميو وجولييت ، وأبهى من ريكاردوس الثالث . وأى بدر يلقي على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء ؟ وأى حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أوتللو ؟ وأى نحاس أصلب من نحاس هملت ؟ ، كلا : لن يوازى بناء من الحجر أو الصخر أو الحديد هذا الروح روح العبقرية العميق . روح الله يتجلى به على لسان الانسان ورأس فيه فكرة هو القمة ، أما أكداس الأحجار فجهود ضائعة ، وأى بناء يساوى فكرة ؟ ان بابل لدون ايزاس ، وخوفو لأصغر من هوميروس ، والكوليزيم لأقل من جوفنال ، وقصر اشبيليه قزم الى جانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس فى روما لا توازى كعب دانت ، فكيف تستطيعون وان جهدتم ان تقيموا برجا فى رفعة هذا الاسم : « شكسبير » .

وقال « توماس كارليل » فى حديثه عن شكسبير : « لو خيرت انجلترا بين التخلى عن أقطار الهند أو مؤلفات شكسبير ، لو أكرهتها الأحداث على هذا التخير ، لما ترددت فى ان تستبقى آثار شكسبير وتتخلى عن الهند » ! وأخيرا ها هو أمير الشعراء أحمد شوقى يصف شكسبير فى قصيدته قائلا :

دستورهم عجب الدنيا وشاعرهم ... يد على خلقه لله بيضاء
ما أنجبت مثل «شكسبير» حاضرة ... ولا نمت من كريم الطير غناء
نالت به وحدة « انجلترا » شرفا ... مالم تنل بالنجوم الكثر جوزاء
لم تكشف النفس لولاه ولا بلست ... لها سوامر لاتحصى وأهواء
شعر من النسق الأعلى يؤيده ... من جانب الله الهام وايحاء
من كل بيت كأى الله تسكنه ... حقيقة من خيال الشعر غراء
وكل معنى كعيسى فى محاسنه ... جاءت به من بنات الشعر عذراء
أو قصة ككتاب الدهر جامعة ... كلاهما فيه اضحاك وابكاء
مهما تمثل ترى الدنيا ممثلة ... أو تقل فهى من الانجيل أجزاء
والناس صنفان موتى فى حياتهم ... وآخرون ببطن الأرض احياء

روبنسون كروزو

دانيال ديفو

١٧١٥ م

● لعل أول ما يخطر لنا عند ذكر « روبنسون كروزو » هو تلك الساعات الجميلة التى قضاها معظمنا أيام الطفولة فى قراءة هذا الكتاب الممتع ، متعلقين بالبطل ، متتبعين لمغامراته ، مشدودين اليه وهو يجوب أطراف جزيرته النائية باحثا عن الطعام ، مستكشفا معالم عالمه الجديد ، أو وهو يقدح زناد فكره ليجد طريقة يصنع بها آنية يحتفظ بها بغذائه ، أو وهو يقاتل عددا من آكلى لحوم البشر لينقذ الضحية المسكينة التى كادت أن تصبح طعاما لبعض أفراد جنسها ، مبتئسين لوحدته حينا ، فرحين بانتصاره حينا آخر ، وأخيرا مهللين لنجاته وعودته سالما لبلاده ·

ولعل هذا الخاطر الجميل قد ينسينا ولو لبرهة قصيرة ان « روبنسون كروزو » وان قرئت أول ما تقرأ عادة فى سنوات الطفولة الا أنها ، مثلها فى ذلك مثل كثير من روائع الأدب العالمى « كرحلات جاليفر » ، و « دون كيشوت » مثلا ، لم تكتب أصلا للأطفال · فسرعان ما نذكر عودتنا الى هذه القصة فيما بعد الطفولة واستمتاعنا بها كعمل أدبى فريد ، وتناولنا لها بالقراءة الجادة والدراسة والتحليل ، ف « روبنسون كروزو » ليست احدى الروايات الخالدة التى راجت وأصبحت جزءا من التراث الانسانى فحسب ، ولكنها ذات أهمية خاصة فى تاريخ الأدب أيضا ، فهى تعد بحق أول عمل قصصى روائى · كتبها دانيال ديفو فى أواخر الحقبة الثانية من القرن الثامن عشر فكانت فاتحة لذلك النشاط الروائى الذى ازدهر فى انجلترا فى النصف الأول من ذلك القرن على يد صمويل ريتشاردسون وهنرى فيلدنج ولورنس ستيرن وتوبياس سموليت ، واكتمل نموه فى القرن التاسع عشر وانتقل من انجلترا الى فرنسا وروسيا اللتين بزتا انجلترا فى هذا المضمار ·

ولم يكن دانيال ديفو يدرك تماما أهمية العمل الذى قام به وما نظنه كان يرحب بمولد هذا الفن الجديد — فن الرواية — على يديه · فقد قدم عمله للقارىء مدعيا انه سجل لاحداث حقيقية وقعت فعلا ولا دخل للخيال فيها · لذا فقد عمل بكل وسيلة لايهام القارىء بصحة ادعائه

فأضفى على أحداث قصته الخيالية جوا من الصدق والواقعية ، فوضع بذلك حجر الأساس فى حرفية هذا الفن الجديد .

ونحن عندما نتحدث عن فن الرواية انما نعنى الرواية كما نعرفها اليوم ونفرق بينها وبين القصص الرومانسية أو قصص البطولة والحب التى كانت تصور عالما خياليا قائما على الأعمال البطولية الخارقة التى يقوم بها الأبطال والأمراء . بل والآلهة أحيانا ، ولاتمت الى عالم الواقع بصلة . كما نفرق بينها وبين القصص « البيكارية » أو قصص « الشطار » التى تقوم أساسا على وصف مغامرات أحد هؤلاء « الشطار » أو الأبطال المتجولين ولا تهتم كثيرا بتصوير الحياة المعاصرة تصويرا واقعيا . ومن الواضح ان « ديفو » عندما قرر فى مقدمة كتابه انه يقدم مغامرات حقيقية وانه يهدف من وراء ذلك الى جانب ادخال السرور الى قلب القارىء ، تلقينه درسا أخلاقيا ، انما كان يرمى بذلك الى التفريق بين عمله وبين تلك الأعمال . وهكذا نجد « ديفو » ينحو نحوا جديدا فى كتابة الأعمال القصصية ويتجه نحو الواقع ليقدم شخصيات من واقع الحياة وان وجدوا أنفسهم فى ظروف غريبة مثيرة . وكأنه يباعد بين عمله وبين تلك القصص الرومانسية التى كان يرى فيها الكثيرون من أبناء عصره عبثا ومضيعة للوقت ٩ ومما لا شك فيه ان هذا الاتجاه كان نتيجة لمزاجه الخاص ولروح العصر الذى عاش فيه ، فمن الواضح ان « دانيال ديفو » وبطل قصته انما يمثلان أبناء تلك الطبقة المتوسطة التى كان لنموها فى ذلك الوقت فضل كبير فى جعل فن الرواية ممكنا .

والعنوان الكامل لهذا الكتاب هو « حياة ومغامرات روبنسون كروزو الغريبة المدهشة » . ويعتقد البعض أن « ديفو » قد اقتبس موضوع قصته عن قصة واقعية ، وقعت أحداثها لبحار اسكتلندى يدعى ألكسندر سيكلير ك ذهب فى عام ١٧٠٥ بصحبة الربان المعروف « وليم دامبير » فى رحلة الى البحار الجنوبية ، ولكنه اختلف مع هذا الربان فتركه هذا الى جزيرة خالية من السكان هى جزيرة « جوان فرناندز » بالقرب من الشاطىء الغربى لأمريكا الجنوبية حيث بقى بمفرده حتى عام ١٧٠٩ عندما حملته الى انجلترا احدى قطع الأسطول الملكى . وسواء اعتمد « ديفو » على هذه القصة أو على غيرها من قصص الرحالة التى كثرت فى تلك الأيام فان ذلك لايقلل من قيمة عمله شيئا فقد خلق عملا جديدا مبتكرا يختلف عن تلك القصة تمام الاختلاف ، عملا خلد على مر الزمن بينما اندثرت معظم تلك الأعمال التى يقال ان « ديفو » قد اعتمد عليها ، ولعل من

حسن حظه أن اختار لنفسه موضوعا يثير الخيال فى جميع الأجيال والأزمان ٠

وجدير بنا قبل أن ننتقل الى تحليل « روبنسون كروزو » ودراسة الصفات التى جعلت منها عملا حيا خالدا ان نتعرف أولا على شخصية كاتبها وأن نشير باختصار الى بعض العوامل التى هيأت الجو المناسب لولد فن الرواية وازدهاره ٠

ديفو ٠٠ حياته وأعماله الروائية

ولد « ديفو » (وكان اسمه الأصلى فو فغيره فى أواسط حياته الى ديفو) فى عام ١٦٦٠ م فى سانت جايلز بلندن من أسرة مزارعين كانت قد انتقلت الى لنـدن من مقاطعـة نورثهامبتون ٠ أما أبوه جيمس فو فكان جزارا فى مقنطة سانت جايلز وكان ينتمى الى جماعة البروتستانت الذين لايتبعون الكنيسة الرسمية لانجلترا ويدعون nonconformists أى المخالفون ٠

أما ديفو نفسه فكان شخصية مثيرة غامضـة ٠ عمل بالتجـارة والصحافة والجاسوسية والأدب وأخيرا استحق ان يلقب « بأبى الرواية »٠ ويختلف كتاب السيرة ومؤرخو الأدب فيمـا يختص ببعض تفاصـيل حياته ، لما اكتنفها أحيانا من الغموض والتناقض نتيجة لمزاولتـه بعض أنواع النشاط التى تدعو الى السرية والحيطة ٠ والمعـروف ان والده أراده ان يصبح قسا فألحقه بكلية نيونجتون جرين الدينية ليحصل على التعليم اللازم لذلك ولكنـه لم يتم دراسته وترك هذا المعهـد بعد خمس سنوات دون ان يحصل على أية مؤهلات دراسية ، ولكنـه حصل على كثير من المعلومات التى اعتمد عليها كثيرا فيما بعد ٠ كما أجاد كتابة اللغة الانجليزية التى أصبحت من أهم الأسس التى قام عليهـا نجاح كتاباته الصحفية والأدبية على حد سـواء ٠ ومما هو جدير بالذكر أن « ديفو » لم يتلق التعليم التقليدى الكلاسيكى ولكنه تلقى تعليما حديثا بمعنى أنه درس اللغات الأوربية الحديثة بدلا من اللغات القديمـة كما درس التاريخ والجغرافيا وعلم السياسة ، بدلا من الميتافيزيقا والعـلوم الشكليـة ٠

ولم يصبح « ديفو » قسا ، بل اتجه نحو التجارة فعمل لدى صانع جوارب أولا ثم استقل بتجارة خاصة به فى عام ١٦٨٥ وراجت أعمـاله وقام برحلات تجارية متعددة الى بعض أجزاء القارىء الأوربية مثل اسبانيا وألمانيا وهولندا ٠

عاش « ديفو » فى فترة مضطربة من تاريخ بلاده ، فترة سـادها الصراع بين أنصار المذهب البروتستانتى ويشكلون الغالبية العظمى من أبناء البلاد وبين الملوك الكاثوليك الذين حكموا انجلترا بعد عودة الملكية

اثر انتهاء حكم كرومويل ، لذا استهوته السياسة ، وانضم الى المذهب البروتستانتى فقد اشترك فى ثورة مونموث سنة ١٦٨٥ التى قادها دون مونموث ضد الملك جيمس الثانى الكاثوليكى ، وكان من حسن حظه ان تمكن من الهرب عند فشل هذه الحركة . ولكنه عاد فاشترك فى ثورة ١٦٨٨ أو الثورة المجيدة التى أطاحت بجيمس الثانى وأتت بوليم الثالث البروتستانتى الى العرش .

وقد كان « ديفو » يكتب النشرات سرا للدفاع عن المذهب البروتستانتى ، أما بعد أن فاز أنصار هذا المذهب فلم يتوان فى اعلان الولاء للملك الجديد عن طريق اعلانه عن كتاباته بكل شجاعة واقدام ، وسرعان ما جذب الأنظار وعرف فى أوساط البلاط ، وأصابت نشراته — وخاصة ما كان منها للدعاية للملك الجديد — نجاحا كبيرا . الا أنه يبدو أن هذا النشاط كان على حساب تجارته ، اذ أفلس فى عام ١٦٩٢ ، واضطر الى الانتقال الى بريستول حيث عاش فى شبه عزلة تامة حتى أطلق عليه « سيد يوم الأحد » لأنه كان يختفى بقية أيام الاسبوع خوفا من الدائنين . ولكنه ما لبث ان استرد مكانته عن طريق كتابة النشرات. وفى عام ١٦٩٤ بدأت أنجح فترات حياته ، اذ عين محاسبا للجنة ضريبة الزجاج ثم أصبح مديرا لمصنع للآجر والبلاط ، وتحسنت أحواله المالية ، فسدد ما عليه من ديون . ولكن تجارته أفلست مرة أخرى بحيث بدا من الواضح انه أكثر نجاحا ككاتب منه كرجل أعمال . فبالرغم مما حققته كتاباته من أرباح الا أن أحواله المالية استمرت فى الارتفاع والهبوط الى آخر حياته . ومما يقال انه قضى أواخر أيامه فى السجن لعدم تمكنه من سداد بعض الديون !

ومن أهم النشرات التى كتبها فى هذه الفترة « مقال عن المشروع » عام ١٦٩٧ وفيه تقدم بمقترحات كثيرة سابقة لعصره مثل التأمين الاجتماعى وتعليم المرأة ، ثم « الانجليزى الأصيل » عام ١٧٠١ وفيه دافع عن الملك ضد أولئك الذين هاجموه لكونه أجنبيا عن البلاد . أما « أقصر طريق مع المعارضين » (للكنيسة الرسمية) عام ١٧٠٢ فكتبه للدفاع عن هذه الفئة الدينية ولكنه كتبه بلغة عنيفة ومشابهة للغة رجال الكنيسة الرسمية الذين ظنوه خطأ دفاعا عنهم ولكنهم ما لبثوا ان اكتشفوا ما ينطوى عليه من سخرية بالغة فأمروا بحرقه ، وحكم على ديفو بغرامة مالية وبالسجن والوقوف فى آلة التعذيب ثلاث مرات . ومما يقال ان الشعب وقف الى جانبه فى هذه المحنة وبدلا من ان يقذفوه بالطماطم والبيض الفاسد كما كان متبعا مع من يقف هذا الموقف ، الا أنهم قدموا له الزهور

وجعلوا منه بطلا شعبيا محبوبا . وعلاوه على ذلك فقد كانت فترة وجوده بالسجن فرصة للتعرف على كثير من المجرمين من لصـــوص ومزورين وقطاع للطريق الذين أمدته قصص حياتهم بالمادة الخام لبعض أعمـــاله الروائية فيما بعد .

وفى أوائل نوفمبر ١٧٠٣ أطلق سراحه نتيجة لاتفـاق سرى بينه وبين هارلى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت . وعمـــل ديفو مستشـــارا للحكومة ، مقدما خدماته لها .

ولعل أهم ما يعنينا من نشاط « ديفو » فى هذه الفترة هو اصداره لجريدة « ريفيو » وهى دورية سياسية أدبيـــة كانت تصدر مرتين فى الأسبوع وكان ديفو يكتب معظم مادتها بنفسه ، وتعد أول جريدة مهمة ناجحة فى ذلك الوقت . ويتفق النقاد جميعا على ان ديفو قد لعب دورا مهما فى ارساء قواعد الصحافة الانجليزية الحديثة وانه اكتشف معظم أدواتهـــا فأصبح بذلك « أبا للصحافة » كما أصبح « أبا للرواية » . فقد جعل من اللغة الانجليزية أداة ســـهلة طيعة لنقل الخبر ونشر الآراء واقناع القارىء والتأثير عليه وذلك عن طريق استخدام أسلوب بسيط ، والتخلص من المحسنات اللفظية التى كانت تثقل اسلوب الكتابة . وهو بذلك لم يخدم الصحافة فحسب ولكنـــه أعد الطريق لمولد الرواية التى أصبح الاسلوب السهل المعبر هو الذى يعتمد على الدقة والصدق ركنا من أهم أركانها . هذا بالرغم مما يتهمه به معاصروه من رواد المدرســة الكلاسيكية التقليدية من سوقية وجهله بأصول الكتابة واهمال للجمال . كذلك فقد عمل من ناحية أخرى على توسيع قاعدة القراء من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لم يتلقوا تعليما كلاسيكيا بتقديمه نـوعا من الكتـابة يمكنهم فهمه والاستمتاع به .

وهكذا نرى ان هذه الأعمال الصحفية والسياسية قد ساعدت فى اعداد « ديفو » لعمله الأهم والأبقى وهو كتابة الأعمال الروائيـــة التى خلدت اســـمه . فقد علمته الى جانب ذلك كيف يقنع قراءه بصـــحة حقائقه وأخباره كما أكسبته تلك القدرة على اختراع التفاصيل المكانية والزمانية الدقيقة واستخدام ما وصف « بالكذب الذى يشبه الصدق » كما سنرى بوضوح فى « روبنسون كروزو » .

★ ★ ★

اعمال ديفو الروائية

أما هذه الأعمال الروائية فكتبها فى الفترة الواقعة بين عام ١٧١٥ وعام ١٧٣١ بعد ان انتقل الى ستوك نيونجتون حيث قضى بقية أيام حياته ٠

وكانت « روبنسون كروزو » أول هذه الأعمال وأغراه نجاحها السريع ، فقد صدر منها أربع طبعات فى مدى أربعة أشهر ، على كتابة جزء ثان مكمل لها أسماه « مغامرات أخرى لروبنسون كروزو » لم يصب ، على عادة مثل هذه الأجزاء المكملة كثيرا من النجاح ، ولكنه اتبعه فيما بعد بجزء ثالث أسماه « تأملات جديدة فى حياة روبنسون كروزو » لم يكن حظه فى ذلك خيرا من حظ سابقه ٠ وتوالت بعد ذلك أعماله الروائية الأخرى التى حجب نجاح « روبنسون كروزو » كثيرا من قيمتها وأهميتها ، اذ يستحق بعضها على الأقل من العناية والتقدير أكثر مما يناله فعلا من ذلك ٠ وأهم هذه الأعمال هى :

- « حياة كابتن سنجلتون » و « تاريخ حياة ومغامرات السيد دنكان كامبل » سنة ١٧٢٠ ٠
- « مول فلاندرز » و « تاريخ سنة الطاعون » سنة ١٧٢٢ ٠
- « حياة الكولونيل جاك » سنة ١٧٢٣ ٠
- « مذكرات فارس » و « روكسانا » سنة ١٧٢٤ ٠
- « رحلة جديدة حول العالم » سنة ١٧٢٥ ٠
- « حياة كابتن جورج كالتون » سنة ١٧٢٨ ٠

وتعتبر الآن « مول فلاندرز » و « تاريخ سنة الطاعون » و « روكسانا » أهمها ٠ ويذهب كثير من النقاد الى ان « مول فلاندرز » احدى روائع الأدب الانجليزى الروائية على الاطلاق ٠

ومن العوامل التى ساعدت على نجاح هذه الأعمال من ناحية وفيام فن الرواية من ناحية أخرى اشباع ديفو لرغبة القراء الذين ينتمون فى الغالبية العظمى الى الطبقة المتوسطة فى القراءة عن أنفسهم أو من يشبههم من الناس واهتمامه بالناحية الخلقية واقناع القارىء المهتم بهذه الناحية بأن للقصة هدفا حقيقيا ٠

مغامرات كروزو

تحكى « روبنســـون كروزو » قصة حياة رجل خاض كثيرا من المغامرات ، كان أهمها إقامته بمفرده فى جزيرة نائية مدة ثمانية وعشرين عاما وشهرين وتسعة عشر يوما · ومما ميز هذه القصة :

أولا : ان المغامرة الكبرى وهى اقامة هذا الرجل بمفرده فى تلك الجزيرة لا تقدم على انها موضوع القصة ، بل على انها احدى المغامرات الكثيرة التى خاضها ·

ثانيا : انه طيلة تلك القصة ، وبالرغـــم مما احتوته من غـرائب واحداث مثيرة فان التركيز يبدو واقعا على شخصية البطل نفســه وعلى سلوكه وأفكاره ومشاعره تحت تلك الظروف القاسية التى يجد نفســه فيها · أما هذا البطل فهو شخص واقعى من أواســط الناس لا يميزه سوى جده وجلده واعتماده على النفس وهى صفات يشاركه فيها كثير من أبناء طبقته ·

فاذا ما تذكرنا أن « ديفو » قد زعم فى مقدمة كتابه انه يقدم وقائع حقيقية لا دخل للخيال فيها أدركنا لماذا تعين عليه ان يقنعنا بواقعية قصته قبل أن يلقى بنا فى سلسلة الأحداث و « المغامرات الغريبة المدهشة » التى يشير إليها عنوان القصــة · لذا يبدأ الكتــاب بتثبيت شــخصية روبنسون كروزو فى عالم الواقع عن طريق حشد عدد كبير من التفاصيل الدقيقة التى توحى بجو من الواقعية والصدق ، وكأني به فى ســبيل اقناع القارىء بكذبته الكبرى يسوق أولا عددا من الكذبات الصغيرة ان يتقبلها القارىء دون جهد أو شك لأنها تبدو كالصدق ·

وتوكيدا لذلك الجو من الصدق والواقعية يستخدم الكاتب طريقة ضمير المتكلم لسرد القصة أى أنه يضعها فى شكل الترجمة الذاتية التى تقوم فيها الشخصية الرئيسية بدور الراوى فتكتسب بذلك قدرة أكبر على اكتساب ثقة القارىء واقناعه بصدقها · فلنر اذن كيف يقدم كروزو نفسه للقارىء :

« لقد ولدت فى مدينــة يورك فى عــام ١٦٣٢ من أسرة طيبــة ، وان لم تكن من أهل هذا البلد ، فان والدى أصلا من أهل بريمن ولكنه

انتقل الى « هل » أولا حيث كون لنفسه ثروة عن طريق التجارة ثم ترك تجارته وعاش بعد ذلك في يورك ـ وهناك تزوج من أمى التى كان يدعى أهلها روبنسون وهم أسرة طيبة جدا فى هذا البلد ، وعنهم أخذت اسمى روبنسون كروتزنر · ولكن نتيجة لما يحدث من تحريف للكلمات في انجلترا فنحن نسمى الآن ، أو على الأصح نسمى أنفسنا ونكتب اسمنا « كروزو » وهكذا يسمينى رفاقى دائما ·

« وكان لى أخوان أكبر منى سنا · كان أحدهما مقدما فى فرقة انجليزية فى هولندا تحت قيادة العقيد المعروف لوكهارت ، وقتل فى المعركة التى وقعت قرب دنكرك ضد الاسبان · أما أخى الثانى فلم أعرف مطلقا ما حدث له تماما كما لم يعرف والدى ما حدث لى أنا ! » ·

وهكذا ينسب الكاتب بطله لأسرة وأبوين واخوة موردا أثناء ذلك بعض التفاصيل الواقعية ، قبل ان ينتقل ليعرفنا بالبطل نفسه ·

« ولكونى الابن الثالث لأسرتى ولأنى لم أتعلم أية حرفة فقد بدأ رأسى يمتلىء منذ وقت مبكر بأفكار السفر والتجول · وكان والدى ـ الذى كان مسنا جدا ـ قد كفل لى قدرا كافيا من التعليم أى بالقدر الذى يمنحه التعليم في المنزل أو فى مدرسة ريفية مجانية عادة ، وقرر ان أعمل بالقانون · ولكن لم أكن لأرضى بغير حياة البحر بديلا ، ولذا فقد دفعنى ميلى لهذه الحياة لأعرض عن توسلات أمى وأهلى ومحاولاتهم لاقناعى بالرجوع عن ذلك ، لدرجة كان يبدو معها أن هناك أمرا مقدرا فى هذا الميل الطبيعى الذى يدفعنى مباشرة لحياة الشقاء التى كانت تنتظرنى »·

ثم ينتقل الكاتب تدريجيا الى الظروف التى أحاطت بأول رحلة لهذا الفتى والتى ارتبطت فى ذهنه بعصيانه لوالديه وخشيته من غضب السماء وما قد تنزله به من عقاب · فهو يخبرنا أولا كيف حاول والده أن يثنيه عن عزمه مبينا له ان لا حاجة به للسفر والمغامرة فى سبيل المال ، اذ يمكنه أن يحيا حياة رغدة دون أن يترك بيته وأهله ، وموضحا له مزايا الحياة الوسطى وانها خير من الفقر الشديد كما أنها خير من الثروة الطائلة · وجدير بالملاحظة ان روبنسون كروزو يقرر منذ البداية أن الدافع للسفر والتجول لم يكن مجرد الميل الى التنقل ورؤية العالم ، بل هو السعى وراء الثروة والربح وتحسين المركز ·

وينصت كروزو الى نصيحة والده أول الأمر ولكن ما يلبث أن يعاوده الحنين الى البحر فيذهب الى والدته راجيا اياها التوسط له لدى والده ولكنها ترفض ذلك مؤكدة له ان والده لن يسمح له بالسفر ولن يبارك

خطئه مهما يكن من أمر · ثم هي تبدى عجبها لمعاودة ابنها الكرة بعد ما كان بينه وبين والده من حديث ابوى رقيق · ويفقد كروزو الأمل فى موافقة والديه فيترك التفكير فى الأمر فترة من الوقت ، ولكن تغلبه الرغبة الجامحة الى المغامرة فى النهاية فيذهب لايلوى على شىء هذا بالرغم من ادراكه لخطئه وتخوفه من نتيجته · وهاهو ذا يصف بدء حياته الحافلة بالمغامرات :

« ولم أفلت الا بعد سنة تقريبا من ذلك الوقت · ولو انى طيلة هذا الوقت لم أكف عن رفض أيه مقترحات بشأن اشتغالى بأى عمل · وكثيرا ما كنت ألوم والدى والدتى لاصرارهما الشديد على رفض ما كانا يعتمان أن ميولى تمليه على · ولكنى عندما كنت يوما فى « هل » حيث ذهبت عرضا ودون نية للهرب فى تلك المرة ، فقد حدث أن كان أحد أصدقائى على وشك الابحار الى لندن فى سفينة والده وعرض على الذهاب معه مستخدما لاغرائى تلك الكلمات المعروفة للبحارة وهى أن الرحلة لن تكلفنى شيئا · فلم أستشر أبا أو أما مرة أخرى ، ولم أبعث لهما بكلمة عن الأمر ، بل تركتهما ليسمعا به كيفما اتفق ، ودون أن أطلب بركة الله أو بركة والدى ودون أى اعتبار للظروف أو النتائج · وفى ساعة « نحس » يعلم الله ، ركبت فى أول سبتمبر ١٦٥١ سفينة مصوبة نحو لندن · وانى اعتقد انه ما من مغامر حدث قد بدأت مصائبه بسرعة أكثر مما بدأت مصائبى أو استمرت مدة أطول مما استمرت مصائنى · اذاما كادت السفينة تخرج من الهمبر حتى أخذت الرياح تهب والأمواج ترتفع بطريقة مخيفة للغاية · ولما كنت أبحر لأول مرة فقد أصابنى الدوار والفزع بشكل لايعبر عنه · وبدأت الآن جديا فى التفكير فيما فعلت وكيف نزل بى قصاص السماء العادل نتيجة لخطئى الفادح فى تركى لبيت والدى والهرب من جانبى · وتذكرت الآن نصيحة والدى القيمة ، ودموع والدى وتوسلات والدتى ، ولامنى ضميرى الذى لم يكن بعد قد بلغ تلك الدرجة من التحجر التى بلغها فيما بعد · لامنى لاحتقارى النصيحة واهمالى لواجبى نحو الله ونحو والدى » ·

وكأنما تعبر هذه الفقرة مقدما عما سيلحق بكروزو نتيجة لفعلته هذه بحيث نشعر عندما نجده فى « جزيرة الأسى » بمفرده فيما بعد ان ذلك كان متوقعا · ونلاحظ هنا بوجه خاص انزعاج كروزو وتفكيره فى خطئه وشعوره بالاثم · ويلاحقه هذا الشعور بالاثم طيلة مغامراته ويقوده تدريجيا عندما يدرك مدى عناية الله به الى علاقة أقرب وأوثق بالله · ويمثل هذا الشعور أحد الجانبين المهمين فى شخصيته ، فهو انسان واقعى يسعى الى الثروة من ناحية وانسان دين من ناحية أخرى · أما فى

بادىء الأمر فان تدينه لايعدو ان يكون عادة أو أمرا آليا ، أما بعد أن يمر بتجربته القاسية فانه يدرك ان يد الله وراء كثير مما يحل به من احداث فيركع ساجدا لله شاكرا له عنايته به ، وتتغير نظرته الى الدين فيشعر بوجود الله شعورا قويا مختلفا ، ويصبح الدين علاقة حية بينه وبين خالقه . ولعلنا نرى هنا أثر تربية ديفو نفسه الدينية .

فاذا عدنا الى أحداث الرواية وجدنا أن تلك العاصفة التى تغرق أول سفينة يركبها كروزو ليست سوى الأولى في حياته تتبعها ثانية وثالثة نتيجة لتصميم هذا الشاب الغر على متابعة مغامراته دون أى اعتبار جدى لتلك التحذيرات التى كانت تبدو له جلية واضحة كلما شعر بخطر البحر ثم تضاءلت أهميتها وتخف حدة تاثره بها بعد زوال الخطر ومرور قليل من الوقت ، ففي كل مرة يتعرض فيها للخطر كان ينذر ان يعود الى أهله طالبا الصفح والغفران اذا كتبت له النجاة ، ولكنه سرعان ما كان ينسى ذلك ويعاود الكرة المرة بعد الأخرى .

ولعل من سوء طالعه أن رحلته الثانية التى قام بها تجاه ساحل افريقيا كانت ناجحة مربحة ، فأغرته بالقيام برحلة أخرى الى جزر كناري كانت نتيجتها ان وقع فى أيدى جماعة من القرصان وبيع كعبد ، ولكنه تمكن أخيرا من الهرب باستيلائه على قارب سيده الذى كان يرسله فيه أحيانا للصيد ، ساعده فى ذلك خادم صغير يسمى أجزورى . ويقضى كروزو فترة من الزمن فى هذا القارب ملازما ساحل أفريقيا الى ان نلتقطه سفينة برتغالية هو وخادمه الصغير وكل ما يحمل من متاع الى البرازيل . وهنا يعرض كروزو على ربان السفينة كل ما يملك لقاء انقاذ حياته ولكن هذا يرفض ذلك محتجا بأنه لم ينقذ حياته من الهلاك في البحر ليتركه يهلك جوعا على البر فى بلاد غريبة ، ولكنه يطلب منه أن يبيعه قاربا وخادمه وبعض الأشياء الأخرى التى يرغب فى الاستغناء عنها فيفعل ذلك شاكرا . وهنا نلاحظ أن كروزو لم يتردد كثيرا فى بيع خادمه الصغير الأمين ولا يلوم نفسه حقا الا عندما يشعر بالحاجة الى خادم آخر حين تستقر به الأمور فى البرازيل ويشترى مزرعة وتأخذ زراعته فى الاتساع . فهنا فقط يتذكر أجزورى وكيف باعه ويحزن لذلك ، ولكنه سرعان ما يبرر عمله قائلا : انه لم يكن بوسعه أن يرفض للربان طلبا .

وهنا نرى احدى صفات كروزو المميزة فهو لايفتأ يحلل أعماله ويناقشها ويحاول تبريرها أمام نفسه . وما ذلك فى الواقع الا وسيلة من وسائل بناء الشخصية التى يستخدمها « ديفو » . فهو لا يكتفى بتقديم صورة مفصلة لما يقع لكروزو من أحداث وما يقوم به من أعمال ولكنه

يكشف لنا عما يدور بخاطره من أفكار وأحاسيس وان لم يبلغ ديفو فيذلك درجة كبيرة بالمقارنة بمن تبعه من الروائيين ، الا أنه قد خطا الخطوة الأولى في هذا المضمار . فعمل على توضيح ملامح شخصيته وتعميق أبعادها بحيث يمكننا القول بأن موضوع العمل القصصى لم يعد المغامرات فحسب، بل أصبح الشخصية أو الشخصيات وهو ما يتفق النقاد على أنه الركن الرئيسي للرواية التى تهدف كفن لتصوير الحياة الانسانية . فما الأحداث سوى العوامل والملابسات التى تبرز الشخصية وتكشف عن معالمها . فاذا أردنا مثلا لذلك فلنستمع لكروزو مرة أخرى بعد أن اتسعت مزارعه بالبرازيل وأخذ يلوم نفسه لتفريطه فى الصبى أجزورى لنعلم الى أى مدى هو دائم اللوم لنفسه ، دائم التطلع لشيء آخر :

« ولكن وا أسفاه ! فما من غرابة فى أن أخطيء أنا الذى لا أصيب أبدا . ولكن ما من علاج للموقف سوى أن أستمر ، فهأنذا قد اتخذت لى عملا بعيدا كل البعد عن ميولى ومضادا تماما للحياة التى تدخل البهجة الى نفسى والتى من أجلها تركت بيت أبى ورميت بنصيحته عرض الحائط. نعم ، فهأنذا مقبل على ذلك المركز المتوسط أو الدرجة العليا من الحياة الدنيا التى نصحنى بها والدى من قبل ، والتى اذا ما قررت قبولها لكنت الآن فى بيتى وما كنت تكبدت فى الدنيا من المتاعب ما تكبدت . وكثيرا ما كنت أقول لنفسى لقد كان بوسعى ان أفعل تماما فى انجلترا وبين أهلى ما ذهبت ٥٠٠٠ ميل بعيدا لأفعله بين الأجانب والمتوحشين فى هذا الفقر وعلى مثل هذه المسافة التى لايمكن عندها سماع أية أخبار من أى جزء من العالم يعرف عنى شيئا » .

« وهكذا كنت أنظر الى حالتى بأسف شديد . فلم يكن هناك من أتحدث معه سوى هذا الجار من وقت لآخر . ولم يكن هناك من عمل أقوم به غير العمل اليدوى وكنت أقول لنفسى انى أعيش تماما كانسان ملقى به بعيدا فى جزيرة قفراء بمفرده . ولكن كم هو من العدل وكم يجب أن يفكر الناس انهم عندما يقارنون ظروفهم الراهنة بظروف أخرى أسوأ ، فان السماء قد تجبرهم على تغيير تلك الظروف حتى يتأكدوا عن طريق تجربتهم الشخصية من سعادة ظروفهم السابقة . وانى أكرر انه لمن العدل أن الحياة الانفرادية الحقة التى تصورتها فى جزيرة قفراء قد آل اليها مصيرى أنا الذى قارنتها ظلى بالحياة التى كنت أحياها حينذاك والتى اذا ما استمررت بها لأصبحت على أغلب الظن ناجحا جدا وغنيا جدا » .

ويتضح ذلك الميل الى السفر والتجول مرة أخرى عندما يترك « ديفو » مزارعه الناجحة ويواصل مغامراته . ذلك أنه نظرا لحاجته

وبعض جيرانه من المزارعين للخدم ونظرا لما كان كروزو قد ذكره لهم عن وجود كثير من السود الذين يمكن استحضارهم من افريقيا واستخدامهم فى مثل هذه الأعمال فان بعض هؤلاء المزارعين يعرضون عليه ان يعدوا له سفينة ليذهب لاحضار بعض هؤلاء العبيد على ان يقوموا هم بدفع نفقات الرحلة والاشراف على مزارعه أثناء غيابه • وبعد تردد قليل يوافق كروزو على مقترحاتهم • فيقضى بذلك على كل ما كان ينتظره من استقرار وثروة • ولكنه يدرك تماما انه كان بارادته سبب كل ما أصابه من شقاء « فكل هذه المصائب والاخفاقات كانت نتيجة لتمسكى الواضح العنيد بميلى الأحمق للتنقل فى الخارج ولمتابعة ذلك الميل معارضا بذلك أوضح الأمور لمصلحتى ولتحقيق بوادر الحياة الناجحة التى اتفقت الطبيعة والسماء على منحها لى وجعلها من واجبى » •

وهكذا يصل بنا « ديفو » الى أهم جدث فى القصة وهو تحطم سفينة كروزو فى عاصفة عاتية ونجاته بمفرده ليقضى الجزء الأكبر من ٢٨ عاما فى جزيرة خالية من السكان بعيدا عن طرق الملاحة المعروفة • ومرة أخرى يؤكد لنا كروزو مسئوليته عما حدث له ويشير الى ان رحلته هذه قد بدأت فى اليوم الأول من سبتمبر ١٦٥٩ وهو نفس اليوم الذى ترك فيه أبويه ليذهب الى « هل » قبل ذلك التاريخ بثمانى سنوات •

ومما يلاحظ اهتمام ديفو بالتواريخ فى هذه القصة • فكروزو يذكر تاريخ كل حادث مهم فى حياته ويربطه بغيره ليستنتج من ذلك ان هناك أكثر من عامل الصدفة وراءها ، هذا من ناحية • أما من الناحية الأخرى فان هذه الدقة فى تحديد الأزمنة هى أحد أوجه الأسلوب الذى يستخدمه ديفو ويعتمد فيه على التفاصيل الدقيقة المحسوسة التى تساعد فى مجموعها على خلق جو من الواقعية والصدق حول ما يبدو فى القصة من مستحيلات ، ومن أمثلة ذلك ان كروزو عندما يكتشف انه نجا من الموت بأعجوبة وانه الوحيد الذى نجا فانه يخبرنا ببساطة لاتترك فرصة للشك وان كانت تدعو للعجب والأسى : « أما عن الباقين فلم أرهم قط بعد ذلك ولا أى أثر لهم ، فيما عدا ثلاث قبعات • وغطاء للرأس وفردتى حذاء مختلفتين » أو عندما يدرك أن هذه النجاة انما هى نجاة مخيفة ، فملابسه مبللة وليس لديه غيرها ليبدلها وليس لديه ما يأكله أو يشربه وليس لديه سلاح يصطاد به شيئا يقتات به أو يدافع به عن نفسه ضد أى مخلوق قد يرغب فى ان يتغذى به : « فبالاختصار ، لم يكن معى سوى سكين وغليون وقليل من التبغ فى علبة » هذا بينما الوقت مساء والليل على الأبواب • كل هذه التفاصيل الملموسة تساعد على تصوير الأحداث

وتعاون القارىء على « أن يمارس عن رضى ايقاف ميله لعدم التصديق » كما يقول كوليردج .

وينجح ديفو في اثارة اهتمام القارىء لهذا الموقف عن طريق الوصف الدقيق المفصل لكل ما يقوم به كروزو من أعمال وما يدور بخاطره من أفكار واحساسات مبديا عبقرية نادرة في التفكير في كل ما يمكن أن يعن للمرء من تفاصيل مهمة تخدم هدفه .

أما كروزو فسرعان ما يواجه الموقف ، بعد نوم ليلة هادئة في أعلى شجرة كبيرة ، بواقعية وشجاعة ، فما يكاد يلمح السفينة التي ظنها انه غرقت مرتطمة بالصخور على مقربة من المكان الذي ألقت به الأمواج حتى يسرع اليها وينقل منها كل ما يمكن وكل ما يحسب انه سيحتاج اليه في اقامته التي يتصور مقدما انها ستكون اقامة طويلة قاسية ، مبتدئا بالأهم فالأقل أهمية ، ويعرفنا بدقته المميزة انه ذهب الى السفينة أحد عشر مرة أثناء الثلاثة عشر يوما التي بقيتها السفينة على الصخور قبل أن يبتلعها اليم . ثم ينتقل لوصف احتياره للمكان المناسب لاقامة مسكن له ذاكرا كل الاعتبارات التي كان عليه مراعاتها وكيف عمل على المحافظة على سلامة « بضائعه » من التلف ، ثم كيف نظم أوقاته بحيث جعل للعمل وقتا وللراحة وقتا وللصيد وقتا وللعمل بمكان اقامته وقتا آخر ، ثم كيف بدأ بصناعة أدوات بسيطة وتدرج منها الى صناعة أدوات أخرى أكثر تعقيدا ثم كيف استأنس بعض الماعز وأعد الأرض لزراعة بعض الحبوب وكيف حصن مسكنه وأقام حوله سياجا من الأشجار ثم كيف نقل بعض ممتلكاته الى كهف بعيد خوفا عليها من الأمطار وخشية أن يدهم مسكنه خطر مفاجيء فيفقد كل شيء .

وينجح ديفو في اقناع القارىء بحقيقة مهمة هي مرور الزمن ، وهو عامل مهم لاقناعه بحقيقة قضاء كروزو لكل هذا الوقت في تلك الجزيرة . ويفعل ذلك في بادىء الأمر عن طريق المذكرات اليومية التي يدونها كروزو ولكن سرعان ما يستهلك كل ما وجده في السفينة من مداد ولا يجد وسيلة لصنع غيره . ولذا فهو يعتمد أساسا على وسائل أقل آلية من ذلك ، فيوحي للقارىء بمرور الزمن عن طريق غير مباشر بالاشارة الى تكاثر قطيع الماعز الذي استأنسه مثلا ، أو الى تزايد عدد القطط التي توالدت من قطتين انقذهما من السفينة حتى اضطر الى قتل معظمها ، أو الى تعلم ببغاء استأنسه وحاول تعليمه بضع كلمات حتى صار قادرا على تكرار بعض الجمل بكل وضوح ، أو الى زيادة محصول القمح والأرز الذي يبدأ ببضع سنابل نمت من بضع حبات ألقى بها عفوا عند نفض

كيس كان يحوى بعض المواد الغذائية التي أحضرها من السفينة ، وتزايدت مع السنوات حتى اصبحت كافيه لان يصنع منها ما يكفيه من الخبز الذى حرم منه لعدة سنوات ، أو الى تكاثف الشجيرات التي غرسها حول مسكنه حتى أصبحت سدا منيعا يستحيل اختراقه دون تسلق احدى الأشجار أو اقتلاعها . كما يشير أيضا الى عدد الأيام أو الأسابيع أو السنوات التى تستلزمها صناعة شيء معين ، فصناعة منضدة مثلا تستغرق أسابيع بينما يستغرق حرث مساحة من الأرض بأدواته البدائية شهورا ، أما قطع شجرة واعدادها وصنع قارب منها فيستلزم سنوات . ويبدو كروزو شديد الاهتمام بالزمن بالرغم من وحدته وتشابه الأيام وعدم توقعه حدوث أمر جديد . ولكنه يخبرنا من بادىء الامر انه قام بحساب السنوات التى قضاها فى الجزيرة وانه كان يحتفل سنويا بذكرى مجيئه اليها بالصلاة وتقديم الشكر لله ، كما يخبرنا فى مكان آخر من القصة ان حسابه كان دقيقا لدرجة أنه عندما عاد الى العالم الخارجى وجد انه لم يخطىء سوى فى يوم واحد يرجح انه نامه بأكمله أثناء فترة مرض ، ونتيجة لتناوله جرعة كبيرة من التبغ على سبيل الدواء .

ويظهر ديفو براعة فائقة فى سرد قصته بحيث يحتفظ بانتباه القارىء وتشوقه فروبنسون كروزو يملأ بنشاطه وسعة حيلته الأيام المتتالية بالأعمال المختلفة التى تتفاوت بين صنع رداء من جلد الحيوان الى صنع غليون من الطين الى محاولة جريئة لاستكشاف سواحل الجزيرة.

وهكذا تمضى الحياة آمنة مستقرة بوجه عام وان كانت لاتخلو من مفاجآت وصعوبات ومخاطر يقابلها جميعا كروزو بشجاعة وصبر ، الى ان يحدث يوما ما يفزع هذا البطل ويقض مضجعه بحق . ولنتركه يصف لنا هذا الحدث فى فقرة من أشهر فقرات الكتاب :

« حدث ذات يوم حوالى الظهر وأنا متجه نحو القارب أن هالنى على الشاطىء أثر قدم رجل عارية ، يمكن رؤيتها بوضوح على الرمل . فوقفت كشخص أصابه قصف الرعد أو كما لو كنت قد رأيت شبحا . وأنصت وتلفت حولى ولكنى لم أسمع شيئا ولم أر شيئا ، وصعدت الى ربوة مرتفعة لأرى لمسافة أبعد وسرت على الشاطىء جيئة وذهابا ولكن ذلك لم يغر من الأمر شيئا ، فلم أر أى أثر آخر غير ذلك الأثر . فذهبت اليه مرة أخرى.لأرى هل هناك آثار أخرى ولمعرفة ما اذا كنت قد تخيلت ذلك الأثر . ولكن لم يكن هناك مجال لذلك فقد كان هناك بالضبط ودون أدنى شك أثر قدم وأصابع وكعب وكل جزء من قدم . أما كيف جاءت الى هناك فلم أعرف ولا كان يمكننى ان أتصور ذلك على الاطلاق . ولكن بعد

ان تنازعتنى أفكار شتى وكنت مثل رجل مضطرب وفى غير وعيه تماما قدت للمنزل الى حصنى وانا لا أحس كما يقال بالأرض التى أمشى عليها ، بل كنت فى غاية الفزع ، أتلفت خلفى كل خطوتين أو ثلاثة وأتوهم كل شجرة أو شجيرة أو جذع شجرة على بعد رجلا . غير انه من المستحيل ان أصف كيف صور لى الخيال المنزعج أشياء كثيرة ولا كم من الأفكار الغريبة قد وجدت طريقها الى ذهنى طيلة الطريق .

« أما عندما جئت الى حصنى ، فهكذا أظننى قد سميته منذ ذلك الوقت فقد هربت الى داخله كشخص مطارد — وسواء كنت قد صعدت السلم كما كنت أفعل أولا أو دخلت من الفتحة التى فى الصخر والتى كنت أسميها بابا فلا أذكر ، لا ، ولا كان بوسعى أن أتذكر فى الصباح التالى ، فما من أرنب فزع قد هرب الى مخبئه أو ثعلب الى جحره وهو أكثر اضطرابا مما جريت أنا الى هذا المخبأ » .

وهكذا يتابع القارىء كروزو بقلب واجف الى ان يكتشف معه ان جماعة من المتوحشين يؤمون الجانب الآخر من الجزيرة من وقت لآخر لاقامة احتفال يلتهمون فيه ما يحضرون من الأسرى ثم يذهبون تاركين وراءهم آثار فعلتهم البشعة . ويضطرب كروزو ويقسم ان يعاقب أولئك المتوحشين ان هم حلوا بجزيرته مرة أخرى ولكن كثرة عددهم كانت تمسك يده الى ان حانت الفرصة فأنقذ من بين أيديهم أحد الأسرى واتخذه خادما له ، علمه اللغة الانجليزية ولقنه مبادىء الدين فصار خير أنيس له فى وحدته . وينقذ كروزو وخادمه « فارادى » عددا آخر من الأسرى ويشعر كروزو وكأنه أصبح ملكا لرعية صغيرة تعاونه وتأتمر بأمره فيفكر جديا فى محاولة للوصول الى شاطىء القارة الأمريكية التى يأتى منها هؤلاء المتوحشون ، الا أن سفينة انجليزية تعرج على جزيرته عرضا ، ويدرك كروزو أن بعض بحارتها قد خرجوا عن طاعة ربانهم وحاولوا الاستيلاء على السفينة وترك الربان وبعض رجاله على الجزيرة ، فينقذه هو ورجاله من بين أيديهم ويسترجع له سفينته ، فيحمله هذا معه وخادمه الى انجلترا بعد ان يكون قضى فى الجزيرة ثمانى وعشرين سنة وبعيدا عن وطنه خمسة وثلاثين عاما كاملة . ويعود كروزو ليجد نفسه غريبا فى وطنه فقد توفى والداه وتفرقت أسرته ، ولكنه يجد نفسه ثريا جدا فقد درت مزارعه فى البرازيل أرباحا طائلة الا انه بالرغم مما حقق من ثراء وما قد قاسى من أهوال فانه يعود للسفر هرة أخرى مدفوعا كما يخبرنا فى الجزء الثانى من رحلاته ، لا بحب المال فحسب كما يتضح لنا الآن ، ولكن بتلك الرغبة الملحة فى السفر والترحال .

تلك اذن هى قصة كروزو التى ما زالت تثير الخيال وتجتذب القراء من جميع الأجناس والأعمار ، فما سر عظمتها ؟ وما سر خلودها ؟ والى أى مدى أثرت فيما تلاها من أعمال ؟

سر الخلود

لقد كتب « روسو » يقول : « ان (روبنسون كروزو) هو الكتاب الوحيد الذى يمكن ان يعلم كل ما يمكن أن تعلمه الكتب » . وأضاف أن اميل « سيقرأ هذا الكتاب قبل أن يقرأ أى كتاب آخر وأنه سيبقى الكتاب الوحيد فى مكتبته لمدة طويلة ، كما سيشغل دواما مكانا فى الصدارة » .

أما اذا أردنا حكما أكثر موضوعية فلنستطلع آراء بعض كبار نقاد الرواية . يشير « والتر ألين » الى نقطة مهمة عندما يقول « ان ديفو يضع التركيز طيلة الوقت لا على الجزيرة أو على الأخطار التى تحيط البطل ، بل على كروزو نفسه كرجل .. ان كروزو هو الذى يملأ الصورة وهو يفعل ذلك بصفاته البطولية حقا ، كرجل يسود الطبيعة » . ثم يضيف ان كروزو أول ممثل للفردية ولكنه يقنعنا بفرديته لأنه لا يختلف عن غيره من الناس ويذكرنا بقول « كوليردج » الشاعر الانجليزى المعروف من « أن كروزو لم يبلغ درجة فائقة من المهارة فى كل ما فعله ، فهو يجيد النجارة والخياطة وصناعة الآنية الفخارية بالقدر الذى يسد حاجاته فقط .. فهو يبلغ الدرجة التى يشعر جميع الناس انهم يستطيعون بلوغها » ولعل هذا هو سر أجتذابه للقراء ، فهو كما يقول كوليردج أيضا « يمثل العالم بأجمعه . فهو الشخص الذى يمكن لكل قارىء أن يضع نفسه مكانه » . وبالرغم من انه يمثل كلا منا الا أنه صنع المعجزات وتمكن بمفرده دون أدنى معونة أن يتحكم فى ظروفه وينتصر على الطبيعة .

أما النقطة المهمة الثانية فهى أن ديفو استطاع أن يجعل من شخصية كروزو شخصية مقنعة فنيا . وهنا أيضا يتفق النقاد على انها شخصية كاملة بشكل واضح هذا علما بأن هناك مناطق بأكملها من الخبرات الانسانية التى لا تدخل فى نطاقها . ولكن ديفو قد أحسن تصوير النواحى التى تناولها لدرجة تمكننا من تصور تلك التى لم يتناولها .

وجدير بنا ان نؤكد هنا انه ليس من العدل أن نتهم ديفو ، كما يفعل البعض ، بجهله بأهمية الناحية الشكلية والفنية . فاختياره للشكل

السردى المناسب لقصته وتسخيره للترجمة الذاتية الخيالية لأغراضه ، في الوقت الذى لم تكن فيه حتى الترجمة الذاتية الحقيقية معروفة لاكبر دليل على عبقريته . أما ابداعه فى خلق ذلك الجو من الواقعية والصدق القائم أساسا على دقة الملاحظة واختيار التفاصيل فهو ما يذكره له جميع النقاد ومؤرخى الأدب بالاعجاب والثناء .

أما أهمية « روبنسون كروزو » من الناحية التاريخية فلندلل عليها من أقوال « ايان وات » مؤلف « نشأة الرواية » . يرى وات ان نشأة الرواية مرتبطة بعاملين هامين هما ازدهار المذهب الواقعى وانتشار المذهب الفردى . وترجع أهمية « روبنسون كروزو » الى انها أول عمل قصصى تتمثل فيه الفردية والواقعية خير تمثيل . فكروزو شخصية واقعية تختلف عن أبطال القصص الرومانسية من ناحية وشخصية تمثل الفردية الاقتصادية من ناحية أخرى .

ويذهب وات الى أن كروزو يمثل الفردية الاقتصادية أكثر من أى شىء آخر ، فحب المال هو الدافع الرئيسى لجميع أعماله لذا فان العلاقات الاجتماعية وحتى علاقته بالله تأتى فى المرتبة الثانية . أما «أرنولد كتبتل» فيقول : « ان روبنسون كروزو تعد من ناحية قصة فى امتداح الفضائل البرجوازية وهى الفردية والعمل الخاص .. أما من ناحية أخرى أهم فانها تشيد بضرورة الحياة الاجتماعية وكفاح الانسان عن طريق العمل لقهر الطبيعة » .

وسواء نظرنا الى هذه القصة من خلال هذه النظرة أو تلك فمما لاشك فيه أنها تمثل على المستوى الرمزى ناحية من أهم وأعمق وهى شعور الانسان بالوحدة الكاملة فى علاقته مع الله والوجود . ولعل تصويرها لهذا الشعور بالوحدة التى يقاسى منها الفرد فى العالم الحديث بوجه خاص هو الذى يقربها الى نفس القارىء الحديث بالرغم مما يرى فيها من تكرار ممل واغراق فى التأملات الدينية والفلسفية التى قد تفسد عليه استمتاعه بها .

مراجـــع مختـــارة

١ ـ اصول الكتب الثلاثة عشر	ول وايريل ديورانت
٢ ـ قصـــة الحضـــارة	جورج ســـارتون
٣ ـ تاريـخ العـلم	قدرى حافظ طوقان
٤ ـ العلوم عند العرب	ج · ن · ليونارد
٥ ـ جولة عبر العلوم	نخبة من العلماء العرب
٦ ـ محيط العـلوم	نعيم عطيـة
٧ ـ شخصيات من الأدب اليونانى	أحمـــد حســـين
٨ ـ تاريخ الانســـانية	د · جميل صليبا
٩ ـ المعجـم الفلسفى	
١٠ ـ دائرة معارف الشعب	د · بول غليونجى
١١ ـ ابن النفيس	هنرى توماس
١٢ ـ أعلام الفكر الأوربى من سقراط الى سارتر	
١٣ ـ ســـقراط	د · على حافظ بهنسى
١٤ ـ تاريخ آداب اللغة العربية	جرجى زيدان
١٥ ـ أدبـاء العـــرب	بطرس البستانى
١٦ ـ مهذب الأغانى	محمـــد الخضرى
١٧ ـ صاحب الأغانى	د · محمد أحمد خلف الله
١٨ ـ هوميروس	د · عبد المعطى شعراوى
١٩ ـ تاريـخ العـــالم	أوروسيوس
٢٠ ـ معالم تاريخ الانسانية	هـ · ج · ولز
٢١ ـ منهج البحث العلمى عند العرب	جـــلال محمد موسى
٢٢ ـ الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب فى عشرة قرون	ســـامى اليافى
٢٣ ـ تاريخ العلماء عبر العصور المختلفة	الخطيب الشيخ محمد رضا الحكيمى
٢٤ ـ مناهج التاليف عند العلماء العرب	د · مصطفى الشكعة
٢٥ ـ رواد الطب	جون والتـــون
٢٦ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه	د · عبد الحليم منتصر

هـوامش الكتـاب

(١) هيرودوت : راجع الفصل الأول من الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

(٢) فن الشعر : راجع الفصل الثالث من الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

(٣) اكسانوفون : (٥٧٠ ـ ٤٨٠ ق٠م) فيلسوف يونانى عاش فى ايليا وأسس المدرسـه الايلية ٠ دعا الى فكرة الموجود الكل ٠ وانتقد الصـورات الشـائعة للآلهة الشبيهة بالبشر ٠

(٤) أساتذة جامعيون متجولون ينتقلون من بلد الى بلد يلقون سلسلة من المحاضرات وخاصة فى الخطابة وفن النجاح فى الحياة مقابل أجور يتقاضونها من طلابهم ٠ فلم تكن لفظة السفوسطائى فى الأصل من الفاظ التحقير بأى معنى من المعانى ، وانما كانت تعنى شيئا يشبه ما تعنيه كلمة « الأستاذ » ٠

(٥) زينون : زينون الايلى (٤٩٠ ـ ٤٣٠ ق٠م) فيلسوف يونانى من المدرسـة الايلية ٠ وضع حججا يدعم بها آراء أستاذه بارمنيدس فى ثبات الوجود ووحدته المطلقة فاثبت بطلان الحركة منطقيا ٠ ولذلك سمى بمكتشف « الجدل » ٠

(٦) دلفى : معبد فى اليونان اشتهر بنبوءات معبد أبولو ٠ كانت توجد فتحة تتوسط أرض المعبد يخرج منها دخان خانق وفوق هذه الفتحة مقعد تجلس عليه كاهنة تدعى بيثيا ٠ وكان يعتقد أن الكلمات التى تتفوه بها بعد استنشاق الدخان تعبر عن رأى أبولو فى المشاكل التى تطرح عليه ٠

(٧) بركليس : (ح ٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق٠م) سياسى اثينى ٠ نشأ محبا للفن ٠ شهدت أثينا تحت زعامته أزهى عصورها ٠

(٨) هراقليس : فيلسوف يونانى (ح ٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق٠م)

(٩) اسكليبيوس : اله الطب فى الميثولوجيا اليونانية ٠ زعموا انه كان ابن أبولو وانه تقن فن الشفاء ٠

(١٠) باراسيلسوس : طبيب وكيميائى سويسرى ٠ زعم انه اكتشف حجر الفلاسفة وانه من أجل ذلك سوف يعمر أبد الدهر ٠

(١١) الجمهورية : انظر الفصل الثانى من الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

(١٢) زانتى : (زكنثوس باليونانية) وهى جزيرة تجاه ساحل جنوب اليونان فى البحر الايونى ٠

(١٣) فارسالوس : هى فارسالوس فى تساليا ، حيث قهر يوليوس قيصر بومبيى سنة ٤٨ ق٠م٠ وهكذا أصبح سيد العالم الرومانى ٠ ولكن لامد وجيز ، اذ انه اغتيل سـنة ٤٤ ق٠م ٠

(١٤) أتيكا : اقليم فى الجزء الشرقى من وسط بلاد اليونان كانت أثينا عاصمته

(١٥) الحكماء السبعة : اسم خلعه القدماء على سبعة من رجال ذوى حكمة علمية سياسية ومشرعين وفلاسفة للعصر ما بين ٦٢٠ و٥٠٠ ق٠م٠

(١٦) الصداقات الأربع : الصداقة بين أخيلوس ، وباتروكيلس ، وتيسيوس ، وبيرثيوس ، دامون وبيثياس ، ورستيس وبيلادس .

(١٧) اينيوس : كوينتوس اينيوس هو شاعر الرومان العظيم (٢٣٩ ق.م ـ ١٦٩ ق.م) ويعد كتاب « الحوليات » أهم اعماله .

(١٨) الأوتار جمع : وتر بفتح الواو وكسرها وهو الانتقام والثأر .

(١٩) الشعهر : ضرب من بنات آوى .

(٢٠) باب البوم والغربان .

(٢١) باب ابلاد وايراخت

(٢٢) باب الملك والطائر فنزه

(٢٣) باب السائح والصواغ

(٢٤) باب البوم والغربان .

(٢٥) باب الأسد وابن آوى .

(٢٦) باب الأسد وابن آوى .

(٢٧) باب البوم والغربان .

(٢٨) باب البوم والغربان .

(٢٩) باب البوم والغربان .

(٣٠) باب الأسد والثور .

(٣١) باب البوم والغربان .

(٣٢) باب الحمامة المطوقة .

(٣٣) باب الحمامة المطوقة .

(٣٤) باب الحمامة المطوقة .

(٣٥) باب الحمامة المطوقة .

(٣٦) باب الجرذ والسنور .

(٣٧) باب الملك والطائر فنزه .

(٣٨) باب البوم والغربان .

(٣٩) باب البوم والغربان .

(٤٠) باب الحمامة المطوقة .

(٤١) باب الحمامة المطوقة .

(٤٢) باب ابن الملك وأصحابه .

(٤٣) سحقها : ارتفاعها

(٤٤) مالك الحزين : طائر طويل العنق والرجلين وهو المعروف بأبو قردان .

(٤٥) حينى = هلاكى .

(٤٦) السنور = القط .

(٤٧) اللغة السنسكريتية : ومعناها اللغة التامة أو المهذبة ، لغة الهنود القديمة • اخذت فى الاضمحلال قبل الميلاد بنحو قرن فصارت كاللاتينية فى عصرنا ، يستعملها العلماء والنجاة فى تواليفهم •

(٤٨) آداب الشافعى ومناقبه لأبى محمد بن أبى حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٢٧ ص ٢٧ ، ص ٢٨ •

(٤٩) يحيل = يحول ويغير •

(٥٠) لحب الطريق = سلكه •

(٥١) مقدمة الأغانى ص ٣٩ ، ص ٤٠ •

(٥٢) ماسينيون : لوى ماسينيون (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) مستشرق فرنسى تعددت رحلاته الى بلاد اسلامية كثيرة بحثا عن المخطوطات واستزادة من العلم •

(٥٣) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٢١٠ ـ ٢١٣ •

(٥٤) تركيم : ركم الشىء : جمعه وجعل بعضه فوق بعض •

(٥٥) نيكلسون : رينولدالين نيكلسون (١٨٦٨ ـ ١٩٤٥) مستشرق انجليزى منح التصوف الاسلامى عناية خاصة • ظهر اهتمامه بالأدبين العربى والفارسى مما خلف من آثار •

(٥٦) معجم الأدباء ١٨٢/١٧ •

(٥٧) قابوس : هو قابوس بن وشمكير الديلمى الملقب بشمس المعالى من الملوك ، وكان صاحب جرجان وطبرستان • وكان فاضلا وأديبا مترسلا وشاعرا ظريفا •

(٥٨) الاسطرلاب : كلمة يونانية أصلها الاسطرلابون • وهى مركبة من جزءين : الأول « اسطر » ومعناه النجم ، والثانى « لابون » ومعناه المرآة ، أى مرآة النجم • وقد أطلقت هذه الكلمة على عدة آلات فلكية •

(٥٩) ميطين واقطمين : من علماء اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد •

(٦٠) أرسطرخس : من علماء اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد •

(٦١) القيمة الحقيقية ٣٦٥ر٢٤٢٢ يوما •

(٦٢) أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى الرازى (٩٠٣ ـ ٩٨٦ م) •

(٦٣) قطبا محور الأرض وقطبا فلك البروج (مسار الأرض حول الشمس) •

(٦٤) نتيجة لحركة الأرض حول الشمس وحركة الكواكب فى نفس الوقت تشاهده وقد سار فى مداره العادى ثم اذا به يقف عن الحركة وبعد ذلك يتراجع الى الخلف •

(٦٥) يقصد بذلك علم الفلك الحقيقى •

(٦٦) يقصد بذلك علم التنجيم •

(٦٧) مسالك الابصار فى أخبار ملوك الأمصار لشهاب الدين أحمد بن فضل العمرى •

(٦٨) العمرى : مؤرخ ولد بدمشق (١٣٠١ ـ ١٣٤٩ م) ألف فى الجغرافيا •

(٦٩) بروكلمان : مستشرق ألمانى (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦) حقق عددا من النصوص العربية • أهم أعماله (تاريخ الأدب العربى) الذى يعد أهم مرجع فى بابه •

الفهرس الشـــامل
للأجزاء الثلاثة

مسلسل	الكتـــاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١	ـ الالياذة	هوميروس	٩٠٠ ق٠م	٣	
٢	ـ الكتب الخمسة	كنفوشيوس	٥٥١ ق٠م	١	٢٦
٣	ـ التاريخ الجامع	هيرودوت	٤٢٧ ق٠م	٢	١٠
٤	ـ المحـاورات	سقراط	٤٠٠ ق٠م	٣	
٥	ـ الجمهـورية	أفلاطون	٤٠٠ ق٠م	١	
٦	ـ الموسوعة الابقراطية	أبقراط	٣٧٥ ق٠م	٣	
٧	ـ فن الشعر	أرسطو طاليس	٣٣٥ ق٠م	٢	٣٤
٨	ـ أصول الهندسة	اقليدس	٣٠٠ ق٠م	١	٦٤
٩	ـ عن الصداقة	شيشرون	٤٤ ق٠م	٣	
١٠	ـ كليلة ودمنة	ابن المقفع	٧٥٠ م	٣	
١١	ـ العين	الخليل بن أحمد	٧٨٠ م	٣	
١٢	ـ الرسالة	الشافعي	٨١٥ م	٣	
١٣	ـ الأغاني	الاصبهاني	٨٨٥ م	٣	
١٤	ـ احصاء العلوم	الفارابي	٩٤٠ م	٣	
١٥	ـ القـــانون في الطب	ابن سينا	١٠١٠ م	١	٧٦

مسلسل	الكتـــاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١٦ ـ	تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق	ابن مسكويه	١٠٢١ م	٢	٥٧
١٧ ـ	القانون المسعودى في الحياة والنجوم	البيرونى	١٠٣١ م	٣	
١٨ ـ	رسالة الغفران	ابى العلاء المعرى	١٠٣١ م	٢	٧٤
١٩ ـ	الرباعيات	عمر الخيام	١٠٨٠ م	٢	٩٨
٢٠ ـ	احياء علوم الـدين	الغزالى	١١٠٠ م	٢	١٢٠
٢١ ـ	الفتوحات	ابن عربى	١٢٣٨ م	٢	١٤٠
٢٢ ـ	شرح تشريح القـانون	ابن النفيس	١٢٨٠ م	٣	
٢٣ ـ	المقـــدمة	ابن خلدون	١٤٠٠ م	١	٩٦
٢٤ ـ	الأمير	مكيافيلى	١٥١٣ م	١	١١٧
٢٥ ـ	مسرحيات شكسبير	شكسبير	١٥٩٠ـ١٦١٦م	٣	
٢٦ ـ	التامـلات	ديكارت	١٦٤١ م	١	١٤٤
٢٧ ـ	علم الأخلاق	اسبينوزا	١٦٧٧ م	٢	١٥٨
٢٨ ـ	الف ليلة وليلة	مجهولة المؤلف	مجهولة التاريخ	٢	١٨٢

مسلسل	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٢٩	المبادىء	نيوتن	١١٨٧ م	١	١٦٤
٣٠	روبنسون كروزو	ديفو	١٧١٥ م	٣	
٣١	روح القوانين	مونتسكيو	١٧٤٨ م	١	١٧٨
٣٢	دائرة المعارف الكبرى	ديدرو	١٧٥١ م	٢	١٩٨
٣٣	العقد الاجتماعى	جان جاك روسو	١٧٦٢ م	٢	٢٢٨
٣٤	ثروة الأمم	آدم سميث	١٧٧٦ م	١	٢٠٢
٣٥	فلسفة التاريخ	هيجل	١٨٣٢ م	٢	٢٧٢
٣٦	فى التربية الجمالية للانسان	شيلر	١٨٣٧ م	٢	٢٥٢
٣٧	الكون	هومبولت	١٨٤٥ م	٢	٣٠٤
٣٨	أصل الأنواع	داروين	١٨٥٩ م	١	٢٢٤
٣٩	رأس المال	كارل ماركس	١٨٦٧ م	١	٢٤٤
٤٠	النظرية النسبية	آينشتين	١٩٠٥ م	١	٢٥٩

اقرأ فى هـذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطة مقـابل نقطة	الدس هكسلى ·
الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليستر ديل راى
الرواية الانجليزية	والتر ألن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقـود	ديفيد وليام ماكدونالد
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشرف س· بى كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحـديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنور المعـداوى
القوة النفسية للاهرام	بيل شول وأدنبيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلو
سـتندال	فيكتور برومبير
رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجـو
الجزء والكل (محـاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سـيدنى هـوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف· ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د· نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل أحمد الطائى

فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيـــم	هنرى باربوسى
صنع القـــرار السياسى	السيد عليـــوة
التطور الحضـــارى للانســـان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للاطفال ؟	د٠ روجر بستروجان
تربيـــة الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا٠ سبنسر
النحـــل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحـــدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصـــحافة	بيير البيـــر
اثر الكوميديا الالهيـــة لدانتى فى الفـــن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبـــل الثـــورة البلشـــفية وبعدها	د٠ رمسيس عـــوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين
نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج٠ دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	طائفة من العلماء الأمريكيين
حـــرب الفضاء	د٠ محمد اسعد عبد الرؤوف
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليـــوة
الميكروكمبيـــوتر	د٠ مصطفى عنـــانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
	وكينيث مينوج
كتابة السيناريو للسينما	دوايث سوين
الزمن وقياســـه	زافيلسكى ف٠س
اجهزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر · راى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د · سمبسون
	و نورمان د · اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دور كاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د· محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون · ر · بورر
	وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م · هـ · كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	
للكون	د· السيد طه أبو سديره
حوار حول النظامين الرئيسيين	جاليليو جاليليه
الارهاب	اربك موريس ، الان هو
اخناتون	سيريل الدريد

القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغـــة الصـــورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العـالم الثالث غدا	بول هاريسون
	ميكائيل ألبى
الانقراض الكبير	جيمس لفلوك
تاريخ النقـود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشـاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
ســقوط المطـر	نادين جورديمر وآخرون
صناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمد الشنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
الكنائس القبطية (٢ جـ)	الفريد ٠ ج ٠ بتلر
ترانيم زرادشت	اعداد ٠ د٠ فيليب عطية
النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
التاريخ من ثتى جوانبه ٣ جـ	ستيفن اوزمنت
مصر الرومانية	نفتالى لويس
السينما الخياليـــة	بيتر نيكوللز
السينما العربيـــة مـن الخليج الى المحيط	اعداد مونى براح وآخرون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٣٠٧ / ١٩٩٣ .

ISBN — 977 — 01 — 3628 — X

الألف كتاب
الثاني
١٩٩

كتب غيّرت الفكر الإنساني

الجزء الرابع

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء الرابع
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Four
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1995
الناشر	دون ناشر
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	977- 01- 4641-2
المستخلص	يتناول هذا الكتاب الجزء الرابع من " كتب غيرت الفكر الانسانى " خلاصة طائفة من عيون ما قرا فى العربية وغير العربية مشيرا الى ما فيها من عمق وتجربة وخبرة فى شتى نواحى المعرفة فيعد هذا الكتاب واحدا من ثقافات اخرى وعمل اضافى الى اعمالنا الثقافية واثراء لها مستعرضا مؤلفين محدثين واخرين قدامى ومنهم (اوديب ملكا - العقد الفريد - الكوميديا الالهية - الشوقيات - تفسير الاحلام لسيجموند فرويد).
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022106-001*

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الرابع

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

المقدمة

تحكى كتب التاريخ ان اديبا دخل على الخليفة عبد الملك بن مروان فوجده يقرأ ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ان الكتاب انبل جليس ، وآنس انيس ، واصدق صديق ، واحفظ رفيق ، وأكرم مصاحب ، وافصح مخاطب ، وابلغ ناطق ، وأكتم وامق (محب) ، يورد اليك ، ولا يصدر عنك ، ويحكى لك ، ولا يحكى عنك ، ان أودعته سرا كتمه ، وان استحفظته علما حفظه ، وان فاتحته فاتحك ، وان فاوضته فاوضك وان جاريته جاراك ، ينشط بنشاطك ، ويغتبط باغتباطك ، ولا يخفى عنك ذكرا ، ولا يفشى لك سرا ، ان نشرته شهد ، وان طويته رقد ، خفيف المؤونة ، كثير المعونة ، حاضر كمعدوم ، غائب كمعلوم ، لا تتصنع له عند حضوره فى خلوتك ، ولا تحتشم له فى حال وحدتك ، فى الليل نعم السمير ، وفى النهار نعم المشير » .

فقال عبد الملك بن مروان : « لقد حببت الى الكتاب ، وعظمته فى نفسى ، وحسنته فى عينى » .

● ● ●

وفى الصفحات التالية أقدم للقارىء العربى الجزء الرابع من هذه السلسلة (كتب غيرت الفكر الانسانى) وبه طائفة من الكتب من عيون ما قرأت فى العربية وغير العربية ، لفت نظرى فيها ، ما فيها من عمق وتجربة وخبرة فى شتى نواحى المعرفة ، وقد تحريت فيما اخترت أن يكون هذا الكتاب حافلا بزاد أصيل نافع ، لذلك رأيت ان أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجدت .

ولقد أردت بهذا العمل أن أقدم للقارىء العربى زادا من ثقافات أخرى ، وثمرا من رياض غير رياضنا حتى يكون عملى اضافة الى بضاعتنا

الثقافية واثراء لهـا • وما من كتـاب قدمته فى هذه الأجزاء الأربعـة الا وتحريت أن يكون من نفائس الذهن العربى والغربى مما لا أتوقع أن يكون فى متناول الكثيرين • وما أنا فى هذا الا كزارع يبحث عن الطيب المستجاد من خيرات الأرض ليزرع بذوره فى أرضه لتغنى وتثرى •

فى هذا الكتـاب مؤلفون محدثون وآخرون قدامى ، محدثون ممن يملكون نواحى عالم الفكر اليوم ، وقدامى ممن كتبوا كتبا لا يتقادم بها الزمان ولا تموت ولا تخمل ، فهى حديثة أبدا •

والحمد لله حمد الشاكرين ...

أحمد الشنوانى

أوديب ملكا

سوفوكليس

٤٠٠ ق.م

سوفوكليس .. الجائزة الأولى !!

في عام ٤٦٨ ق.م انتزع الجائزة الأولى للمأساة من اسكلس قادم حديث في سن السابعة والعشرين يسمى سوفوكليس أى العاقل المكرم . وكان سوفوكليس هذا أسعد الناس حظا ويكاد أن يكون أشدهم تشاؤما . وكان موطنه الأصلى ضاحية كولونس احدى ضواحي أثينة وكان ابن صانع سيوف ، ومن أجل هذا فان الحروب الفارسية والبلوبونيزية التى أفقرت الأثينيين كلهم تقريبا جاءت لهذا الكاتب المسرحي بثروة طائلة . وكان فضلا عن ثرائه رجلا عبقريا وسيما جيد الصحة نال جائزتى المصارعة والموسيقا — فجمع بذلك بين كفايتين لو شهدهما أفلاطون لاغتبط أشد الاغتباط بوجودهما في رجل واحد وقه أمكنته مهارته في لعب الكرة وفى العزف على القيثارة من أن يقيم حفلات عامة في الفنين وكان هو الذى اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس ليقود شبان أثينة العراة في رقصة النصر ولنشيده . وقد ظل محتفظا ببهاء طلعته الى أواخر أيامه ويظهر تمثاله المحفوظ في متحف لاتران شيخا ملتحيا بدينا ولكنه قوى طويل القامة وقد نشأ في أسعد عهود أثينة ، وكان صديقا لبركليز وشغل في عهده أعلى مناصب الدولة فكان في عام ٤٤٣ أمين بيت المال الامبراطورى ، وفى عام ٤٤٠ كان أحد القواد الذين تولوا قيادة قوات أثينة فى الحملة التى سيرها بركليز على ساموس وان كان من واجبنا أن نضيف الى هذا ان بركليز كان يعجب بشعره أكثر من اعجابه بخططه الحربية وعين بعد الكارثة التى حلت بأثينة في سرقوصة عضوا فى لجنة الأمن العام واقترع بحكم منصبه هذا على عودة الدستور الالجركى فى عام ٤١١ وكان الشعب يعجب بأخلاقه أكثر من اعجابه بسياسته فقد كان ظريفا لبقا متواضعا محبا للهو وهب من قوة الجاذبية ما يكفر عن جميع أخطائه وكان شديد الصلاح ، وقد شغل مرارا منصب الكاهن .

★★★

ولد سوفوكليس فى كولون عام ٤٩٥ ق.م وكان والده سوفيلوس من أصحاب مصانع الأسلحة فى أثينا ولما شب استقبل الحياة بقلب مرح وكان من ذوى الفطر المرنة التى تنثنى ولا تتحطم وتقدر على أن تتلون بألوان البيئات المختلفة التى تندمج فيها ولهذا لم تلبث مدينة أثينا ان

صورته على الصورة التى أرادته عليها فكان أثينيا لحما ودما وقلبا وشعورا وذوقا وعقلا ·

كلف منذ طليعة شبابه بالموسيقا فأخذ يدرسها ويختلف الى مواطن توقيعها ويرافق حذاقها وذوى النبوغ فيها وكذلك شغف بالرياضة البدنية فعكف عليها فى نشاط حتى أجاد أهم تمريناتها ·

ولما كان جميل الطلعة مليح التقاسيم خفيف الروح رشيق الحركات ـ فقد لفتت اليه هذه الميزات أنظار الجميع ولهذا عندما احتفلت أثينا فى سنة ٤٨٠ ق·م بانتصارها فى موقعة « سالامينا » وقع الاختيار عليه ليرأس الجوقة المؤلفة من الشبان للتوقيع على القيثارة ولم يكن بعد قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره فقام بهذه المهمة قياما يبشر بمستقبل زاهر فى عالمى الموسيقا والتمثيل ، وبعد ذلك التاريخ بقليل لم يرهب أن يمثل دور « نوسيكا » ابنة ملك الفابكيان فى الأوديسا ودور الشاعر الجوال ثاميريس الذى كان يخاصم عرائيس الشعر فى التوقيع على القيثارة ·

على أن أهم العوامل التى كانت تحتل رأسه احتلالا تاما هو التأليف المسرحى فأخذ يجد ويطلق العنان لموهبته فى عالم الأقاصيص الغابرة يستلهمه الفن ويستوحيه القريض حتى استطاع أن يتقدم للمسابقة للمرة الأولى فى سنة ٤٦٩ ق·م ولم تكن سنه قد تجاوزت الثامنة والعشرين ففاز فيها بالأولية وهزم ايسخيلوس الشيخ ·

ومنذ ذلك الحين الى وفاته جعل يتقدم الى المسابقة بأربع مآس مرة كل سنتين حتى روى انه لم يفز أى شاعر بمثل ما فاز به من الانتصارات لا فى الكم ولا فى الكيف اذ بلغ عدد المسابقات التى ظفر فيها بالأولية ثمانى عشرة مسابقة فيما يروى ديودوروس وعشرين فيما تدعى الرسالة المجهولة المؤلف وأربعا وعشرين فيما يحدثنا به سويداس وأيا ما كان فانه ـ فيما خلا هذا العدد من المسابقات ـ لم ينزل فى أية مسابقة فى حياته عن الصف الثانى ·

كان هو الذى يقوم فى شبابه بتمثيل الأدوار الأولى من مآسيه حسب التقاليد القديمة ولكنه لما تقدمت به السن وضعف صوته أسند هذا الدور الى حذاق الطبقة الأولى من الممثلين ·

كان عهد نضوج سوفوكليس وسطوع كوكبه أسمى عهود أثينا فقد بلغت فيها قوتها الأوج ، ووصل مجدها الى القمة وتحولت فيها الحياة الى جنة يانعة الأزهار دانية الثمار ولذلك شاهد هذا الشاعر فيما بين الثلاثين والستين من عمره سلطان كيمون يسمو ويتألق ثم ينطفى فيعقبه

سلطان بريكليس العظيم الذي يساهم فى تحقيق سؤدد هذه المدينة واتمام علاهـــا ٠

وعلى أثر انتصار أثينا فى الحرب الميدية تفتحت أبواب الثراء والمجد أمام الجميع ولكن سوفوكليس قد أبى أن ينال أى تشريف من جهة أخرى غير فنه ، فاكتفى بأن يكون مواطنا أثينيا وشاعرا مأساويا ولم يطمع فيما وراء ذلك مما كان يغوى الشباب فى تلك الحقبة المليئة بالنشاط والأمل وظل يرفل فى حلل الهناءة والسطوع ما شاءت لهما الأقدار أن يفعلا ٠

ولما قلب الزمن لهذه الحاضرة الجليلة الزاهية ظهر المجن ، وتجهمت لها الأقدار فسددت اليها سهام الارزاء والنكبات ووقعت بها هزيمة صقلية فى سنة ٤١٣ ق٠م أضحت فى حاجة الى البحث عن وسائل انقاذها ، وكان شاعرنا قد تقدمت به السن وعين قاضيا فاختير ضمن القضاة الستة الذين وكلت اليهم هذه المهمة ٠ وفى سنة ٤١١ عين عضوا فى لجنة الثلاثين التى كلفت بتعديل الدستور ٠٠

وأخيرا وبعد هذه الحياة الطويلة المليئة بالنشاط والانتاج والظفر والسعادة والشقاء والمرح والأسى توفى فى سنة ٤٠٥ ق٠م وكانت سنه تسعين عاما فرسم أحد الفنانين على قبره صورة احدى عرائس البحر ذوات الأصوات الساحرة رمزا الى أثر شعره فى النفوس وليس هذا فحسب بل ان أثينا بنت له معبدا جعلت تقدم اليه فيه الضحايا فى كل عام على نحو ما تفعل لعظماء الأبطال ٠

مؤلفـــاته

لا يدرى أحد كم ألف سوفوكليس من المآسى بالضبط فقد أقر الناقد الاسكندرى « أريستوفانيس البيزنطى » مما نسب اليه منها مائة وثلاثا وعشرين مسرحية ووافقه « سويداس » على هذا العدد ٠ ولكن الباحث الألمانى « داندروف » لم يثبت فى قائمته الا مائة وخمسة عشر عنوانا ٠

لم يبق من هذا العدد الضخم الذى أشرنا اليه الا سبع مآس وهى :

١ ــ اياس : وهى مسرحية انتيجونى أقدم ما وصلنا من أعمال سوفوكليس وتعالج الأولى مأساة انتحار اياس وكان يطلق عليها أحيانا (اياس حامل السيوط) لتمييزها عن تراجيديات أخرى باسم هذا البطل ، وهذه المسرحية دراسة للخطأ الذى يؤدى الى الفاجعة ٠

٢ ــ انتيجونى : التى عرفت لأول مرة حوالى ٤٤١ ق٠م فهى فى رأى معظم النقاد الحديثين من أروع ما كتب سوفوكليس وذلك لأنهـا

تعرض مشكلة من أهم المشاكل الأخلاقية الأبدية وهى مشكلة الصراع بين الواجب الخاص والواجب العام ٠

٣ ـ نساء تراخيس : أو التراخينيات ويحتمل انها عرضت حوالى عام ٤١٣ ق٠م ٠

٤ ـ الكترا : التى عرفت لأول مرة فى عام ٤١٠ ق٠م على وجه التقريب وهى تعالج نفس الموضوع الذى عالجه ايسخيلوس من قبل فى مسرحية الخويفوروى أي حاملات القرابين وهو موضوع انتقام أورسيتس وأخته الكترا من أمهما كليتسترا لقتلها أباهما أجاممنون ٠

٥ ـ فيلوكتيتيس : التى عرفت حوالى عام ٤٠٩ ق٠م ٠ وكان سوفوكليس قد بلغ السابعة والثمانين على وجه التقريب وفازت بالجائزة الأولى ٠

٦ ـ أوديب فى كولونوس : وهى آخر ما كتب سوفوكليس وعرفت لأول مرة عام ٤٠١ ق٠م بعد وفاة الشاعر بحوالى ثلاث أو أربع سنوات وتقدم بها للمسابقة حفيده وسميه سوفوكليس الصغير ٠

أوديبوس ملكا

ترجع الاشارة الى أسطورة أوديبوس الى أبعد العصور فقد أشار اليه هوميروس فى الأوديسا (الجزء الحادى عشر البيت ٢٧١ وما بعده) وتحكى الأسطورة أن أبوللون قد أنذر لايوس بأنه ان أنجب ولدا فسوف يقتله هذا الولد وكان هذا الانذار عقابا له على جرم ارتكبه فى حق بيلوبس الذى أكرم وفادته عندما لجأ اليه حين طرد من عرش بلاده طيبة فبدلا من أن يعترف لايوس بالجميل والفضل لضيفه بيلوبس يختطف ابنه خريسيبوس ٠ يسترد لايوس عرشه ويتزوج من يوكاستا ٠ وبعد مدة تضع له زوجته ولدا فيغتم ويتنازع نفسه عاملان : الحرص على الحياة من ناحية والرغبة فى الولد الذى يرث الملك ويخلد الذكرى من ناحية أخرى ولكن تردده هذا لم يستمر طويلا فقد قرر التخلص من الولد فأرسله مع أحد خدمه ليتخلص منه بعيدا فوق قمة جبل كيثيرون وهناك أخذت الرجل الشفقة على الطفل ، وفيما هو جالس يفكر فى الأمر اذ يقبل أحد الرعاة من المملكة المجاورة فاذا سأل زميله عن أمره وعرف ما يشغل باله اقترح عليه أن يعطيه الطفل ويعود الى مولاه بدم كذب فيوافق ٠ يعود الراعى الى مدينته كورنثة ويعطى الطفل لملكها بوليبوس الذى كان محروما من نعمة الذرية فيفرح الملك بالطفل ويتبناه وتتعهده الملكة ميروبى بالحب

والرعاية فينشأ في مهاد النعمة وليا للعهد ، ويشب الطفل وهو يعتقد انه ابن الملك والملكة بالفعل • وتسير الأمور هانئة هادئة ردحا من الزمن الى أن يذهب أوديبوس وقد صار الآن شابا يافعا مع نفر من أصدقائه ليلهو معهم فشربوا وسكروا وفي غمرة سكرهم يعيره أحدهم بأنه مجهول الأصل وليس ابن ملك كورنثة وملكتها ويهلع قلب الأمير الشاب أوديبوس ويذهب الى معبد دلفى ليستلهم الحقيقة من أبوللون فجاءه الوحى بأنه ان عاد الى وطنه فسيقتل أباه ويتزوج من أمه ويجلب التعاسة على أهله وذويه • يشتد هلع أوديبوس ويعتزم عدم العودة الى كورنثة حتى لا يقع هذا الشر المستطير فهو يحسب أن ملكها وملكتها هما أبوه وأمه ويمضى فى طريقه على غير هدى الى أن يأتى الى مكان عنده مفترق طرق ثلاث وفى هذا المكان يلتقى بجماعة من المسافرين على رأسهم شيخ وقور يركب عربة يصيح به بشيرهم ليخلى الطريق ولكنه لا يبالى ويصر على أن يمر هو أولا وتنشب بينهم معركة يقضى فيها أوديبوس على كبيرهم وكل حاشيته الا واحدا استطاع أن ينجو بجلده وهكذا تحقق جزء من النبوءة فلم يكن ذلك الشيخ الوقور سوى لايوس والد أوديبوس وكان فى طريقه الى مهبط وحى دلفى ليعرف السبيل للخلاص من ذلك الاسفنكس — الوحش الهولة — الذى يهدد مدينة طيبة ويقطع الطريق على الناس ويقتل منهم كل من لا يستطيع حل لغز يلقيه عليه • يقبل أوديبوس على طيبة وهو لا يدرى انها مسقط رأسه وعلى أبوابها يعترض الاسفنكس طريقه ويلقى عليه اللغز : ما الحيوان الذى يسير فى الصباح على أربع وفي الظهيرة على اثنتين وفي المساء على ثلاث ؟ فيجيب عليه أوديب : انه الانسان فهو يحبو على أربع وهو طفل فاذا شب واستوى عوده سار على اثنتين واذا أدركته الشيخوخة توكأ على عصا • فيضحك الاسفنكس ويتركه ليمضى فى شأنه اذ كانت هذه هى الاجابة الصحيحة ولكن أوديبوس يستهل سيفه ويهاجمه ولا يزال به حتى يجهز عليه وتكون هناك جماعة من أهل طيبة واقفة على الأسوار تشاهد هذا الصراع الرهيب • كان أهل طيبة قد تلقوا نبأ مقتل ملكهم لايوس فى ظروف غامضة من الحارس الذى فر هاربا ولكنهم سرعان ما يشغلون عن هذا بذلك الشاب الباسل الذى خلصهم من الرعب الرابض على أبواب مدينتهم فيقبلون عليه مهنئين مستبشرين ويدخلون به المدينة دخول الفاتح المنتصر حيث يتوجه كريون ملكا على طيبة ، ويزوجه من الملكة يوكاستا وذلك تحقيقا لنذر نذره أهل المدينة لمن يخلصهم من الاسفنكس فلم يملك أوديبوس وقد عقدت لسانه الدهشة الا أن ينزل على رغبتهم ويقبل الملك والزوجة ، وبذلك تحققت كل النبوءة وتمضى الأيام والسنون وأوديبوس يحكم المدينة فى أمن وسلام وتنجب له يوكاستا — زوجه وأمه — ولدين وبنتين أما الولدان فهما اتيوكليس وبولنيكيسس وأما البنتان فهما انتيجونى واسمينى ولكن

القضاء كان لهم بالمرصاد اذ يهدد المدينة الطاعون والمجاعة فيرسل الملك الى دلفى من يسـأل عن سبب ذلك الوباء وطريقة الخلاص منه فيعود الرسول يقول انه لا خلاص لطيبة مما هى الا اذا تطهرت من رجس بها وهـذا الرجس هو وجود قاتل لايوس بهـا فلابد اذم من القبض عليه والاقتصاص منه وبعد تقصى الحوادث تتضح الحقيقة وهى ان قاتل لايوس ان هو الا أوديبوس نفسه وأنه تزوج من أمه وأنجب منها أبناء هم فى نفس الوقت اخـوة له . تظلم الدنيـا فى عينى أوديبوس وتكون أمه قد انتحرت عندما عرفت الحقيقة فينطلق الى داخل القصر ليسمل عينيه فى ثورة جنون ويترك البلاد ، تقوده ابنته انتيجونى ، فقد حكم على نفسه بالنفى .

هذه هى الأسـطورة فكيف تصرف فيها سوفوكليس ؟ لم يعرض سوفوكليس الأسـطورة بالتسلسل الروائى الذى رويـنـاه وانما بدأ مسرحيته من منتصف الأسطورة ولكن ، كان لابد من الاحاطة بالأحداث السـابقة على نقطة البدء . لم يلجأ سوفوكليس فى شرحهـا الى طريقة المقدمات وانما كان بارعا فى الاشارة الى هذه الأحداث خلال عرض مسرحيته فكان موفقا كل التوفيق فى مزج الماضى والحاضر .

تبدأ المسرحية عند سوفوكليس بتجمع نفر من أهل مدينـة طيبـة يحملون أغصان الغار والزيتون وقد جثوا أمام مذبح قصر الملك أوديبوس وبينهم كاهن زيوس كبير الآلهة ، يخرج اليهم أوديبوس وقد مضت عليه سنوات يحكم فيها البلاد حكما عادلا وهو الآن زوج يوكاستا وأبو أولادها ، يخرج اليهم متسائلا :

— أى أبنائى يا ثمار نسل كادموس التليد . أيها الجيل الحديث الناشىء . ما لكم جاثين هكذا ، حاملين معكم ضفائر الزهر وأغصان التوسل فى حين يملأ المدينة عبق البخور ، وترتفع فيها الأصوات بالأدعية ويشيع بين أهلها الأنين ؟! .

من أجل هذا جئت اليكم أنا أوديب الذى تبجله الناس جميعا .

واذ يعلم انهم لجأوا اليه كى ينقذهم من هذا الوباء الذى يحصدهم حصدا ، كما أنقذهم من قبل من ذلك الوحش الذى كان يهدد مدينتهم يطمئنهم ويطيب خاطرهم بأنهم ان كانوا يألمون فانه يألم أكثر منهم فهو يحمل كل آلام المدينة على كاهله كما يخبرهم بأنه قد أرسل كريون الى معبد دلفى ليعلم من الاله أبوللون ما ينبغى أن يصنع . ولا يمضى وقت طويل حتى يقبل كريون مبتهجا وقد توج رأسه بأكليل الغار فيبادئه أوديبوس بالسؤال :

ـــ : أى جواب تحمله الينا من الآلهة يا كريون ؟

كريون : ان شئت تكلمت أمام هذا الحشد والا فلندخل القصر .

اوديبوس : تكلم أمامهم جميعا . فان آلامهم تثقل على أكثر مما تثقل على آلامى وان الأمر لأخطر من أن يمسنى وحدى .

فيعلن كريون أن الاله أبوللون يطلب اليهم تطهير المدينة من قتلة الملك السابق لايوس بتوقيع القصـــاص عليهم ونفيهم فاذا سأل اوديبوس :

ـــ : أين هم وكيف نقتفى أثر هذه الجريمة التى حدثت منذ أمد بعيد ؟

أجاب عليه كريون :

ـــ : لقد قال الاله ان الآثمين فى هذه الأرض ومن بحث عن شىء وجده ومن أهمل شيئا أفلت من يده .

فاذا بأوديبوس يقرر :

ـــ : اذن فلأرجع بالأمر الى أصله حتى أرده الى الجلاء والوضوح .

ثم يخرج الجميع ليدخل أفراد الجوقة التى تتألف من خمسة عشر من أشراف طيبة فتغنى أنشودة تبتهل فيها الى الآلهة أن ترفع عن طيبة هذا البلاء .

ومن هذا الموقف تبدأ عقدة مسرحية سوفوكليس فى التطور نحو الذروة فقد راح أوديبوس يبحث عن هؤلاء القتلة فأدى به هذا البحث الى الكشف عن حقيقة نفسه وقد أدار سوفوكليس دفة هذا البحث فى بناء درامى محكم يصل فى روعته الى حد الاعجاز .

يدخل أوديبوس مرة أخرى فيخاطب أفراد الجوقة مطالبا اياهم أن يعينوه على اكتشاف الحقيقة ويهيب بالقاتل أن يظهر نفسه فان أقصى ما سيناله ان دل على نفسه هو أن ينفى دون أن تتعرض حياته لأدنى خطر . كما ينذر ويتوعد كل من يعرف القاتل ولا يدل عليه اذ يجب أن يردوه جميعا عن ديارهم فهو الرجس بالقياس الى المدينة كلها كما أنبأ بذلك وحى أبوللون واذ ينصـــحه رئيس الجوقة باستدعاء تريسياس الكاهن القادر على اختراق حجب الغيب يجيب بأنه لم يمهل هذه الخطة بناء على مشورة كريون وقد أرسل بالفعل فى طلبه ، يقبل تريسياس الأعمى يقوده صبى صـــغير ويسأله أوديبوس فيجيب اجابات غامضة ملتوية فينتهره الملك ويتهمه بأنه شريك فى القتل ولولا أنه أعمى لقال انه القاتل نفسه فيثور الكاهن ويصيح كالمجنون :

ـ انك أنت نفسك الرجس الذى يدنس المدينة .

فتحتدم ثورة أوديبوس على أثر هذا الاتهام الرهيب وتبلغ الثورة مداهـا فيقذف بالتهم فى وجه الكاهن فيتهمه بأنه صنيعة كريون الذى رشاه بالمال ليخترع هذه الفرية كى ينزعاه عن العرش كما يعيره بفقد بصره فلا يسع تريسياس عندئذ الا أن يصرح بالحقيقة ويرهص بالنهاية :

ـ اذن فلأقل لك فى صراحة ما دمت تعيرنى بفقدان البصر ...

انك تبحث مهددا منذرا عن الرجل الذى قتل لايوس فاطمئن سوف أدلك عليه انه هنا يقيم على انه غريب ، ولكن سيعرف الناس أنه من أهل طيبة ... انه يرى ولكنه سيفقد البصر ، وسيسعى ، وعصـــاه تتحسس طريقه ضاربا فى بلاد مجهولة مصغيا الى أصوات تهتف به من حوله : هذا أب وأخ لأبنائه هذا رجل جلب الخزى والعار على أبيه وأمه .

هذا ابن قاتل ، مرتكب للفسق .

ثم يخرج الكاهن مغضبا . ويدخل أوديبوس القصر وكلمات الكاهن تطن فى أذنيه تنشد الجوقة انشودة تستعيد فيها أفضال أوديبوس على المدينة وتتردد فى تصديق ما تنبأ به الكاهن تريسياس عندئذ يدخـل كريون وكان قد سمع بما اتهمه به الملك فيدافع عن نفسه أمام الجوقة ويلوم أوديبوس لاهانته بهذا القول ثم يدخل أوديبوس فيشتبك مع كريون فى حوار عنيف :

اوديبوس : اذا كنت تحسب انك تستطيع الاعتداء على أحد أقربائك دون أن تنال العقاب فأنت واهم .

كريون : أنت على حق فى هذا ، ولكن ماذا جنيت فى حقك من ذنب ؟

اوديبوس : ألم تشر على بأن أرسل فى طلب هذا الكاهن ؟

كريون : بل وما زلت أرى هذا الرأى .

ـــ : أى أمد مضى على لايوس منذ ان قتل ؟

ـــ : ماذا تقصد ؟ لا أفهم ... مضى على ذلك زمن طويل .

ـــ : أكان هذا الكاهن يصطنع كهانته حينئذ ؟

ـــ : نعم وكان بارعا كما هو الآن .

ـــ : هل أسمانى فى ذلك الوقت ؟

ـــ : كلا لم يفعل ذلك أمامى على الأقل .

ـــ : ألم تبحثوا عن الحقيقة فى مصرع الملك ؟

— : بحثنا بدون شك ولكن بلا طائل .

— : ترى لماذا لم يقل ذلك البارع اذ ذاك ما يقوله اليوم ؟

— : لا أدرى .

— : لا تدرى ، ولكن قد تقوله حين تواتيك الفرصة .

ويشتد الحوار حتى يصل الى ذروته :

كريون : ماذا تريد اذن ؟ أتريد نفيى من المدينة ؟

اوديبوس : أنى أريد موتك لا نفيك .

ثم تدخل الملكة يوكاستا لتوقف هذا الصدام بقولها :

— : أيهـــا المغروران ، حسبكما ما تشدقتما به من ألفـاظ الغضب العمياء ، ألا تخجلان من اثارة الخصومة الخاصة بينما المدينة كلها تنزف دماءها .

وتحاول التوفيق بينهما فلا تفلح ، ويخرج كريون محنقا ثم تسأل أوديبوس عن سر هذا الغضب فيخبرها أنه ائتمار كريون به فهو يزعم أنه هو قاتـل لايوس ويدعى أن الكاهن هو الذى أخبره بذلك فتسـفه يوكاستا كهانة الكاهن بل الكهانة كلها بما فى ذلك كهانة أبوللون نفسه وتذكر له أن كهان أبوللون كانوا قد أخبروا الملك لايوس بأنه سيموت مقتولا بيد ابنه الذى يولد منها ولكن الناس جميعا تؤكد أن لصوصا من الأجانب قد قتلوا الملك لايوس منذ زمن بعيد فى طريق ذى ثلاث شعب وما أن يسأل أوديبوس عن زمان ومكان وقوع الحادث وتعينه له يوكاستا حتى يضطرب ويسأل :

— : كيف كان لايوس ؟ ماهيئته وماذا كانت سنه ؟

يوكاستا : كان طويلا وخط الشيب رأسه وكانت فيه ملامحك .

— : ما أشقانى ... !!

أكان مسافرا فى جماعة صغيرة أم كان يتبعه حرس كبير ؟

— : كان معه خمسة لا غير بينهم مناد .

— : أواه ! الآن يتضح كل شىء ولكن من أنباك بكل هذا ؟

— : خادم نجا وحده .

— : أهو فى القصر الآن ؟

فيطلب استدعاء هذا الخادم من المرعى ثم يحدث الملكة عن نفسه وعن حياته فى كورنثة ويذكر لها كل ما حدث له حتى وصل الى طيبة وأصبح ملكها كما يعبر عن قلقه وخوفه من أن يكون هو القاتل ولكنه يتعلق بأمل فى مقدم هذا الرجل الراعى فان أكد ما قالته الملكة الآن من أن القاتل كان جماعة ولم يكن فردا واحدا فقد نجا ثم يخرجان لتنشد الجوقة أنشودة أخرى تخفف من حدة التوتر تعود بعدها يوكاستا ومعها قرابين تقدمها للآلهة لتهدئة قلق أوديبوس عندئذ يدخل رسول من كورنثة يحمل أنباء خلاصتها أن أهل كورنثة سيختارون أوديبوس ملكا عليهم لموت الملك بوليبوس فتطلب الملكة من احدى وصيفاتها استدعاء أوديبوس فيحضر واذ يعلم رغبة أهل كورنثة فى تنصيبه ملكا عليهم • يبدى قلقه وتخوفه فانه وان كان لم يقتل بوليبوس أباه على حد زعمه فربما تحققت النبوءة فى شطرها الثانى فالملكة ميروبى ـ التى يعتقد أنها أمه ـ لا تزال على قيد الحياة وهنا يكشف له الرسول عن حقيقة صلته بملك وملكة كورنثة فقد كان هذا الرسول هو نفس الراعى الذى أخذ أوديبوس وهو طفل وأهداه الى ملك كورنثة ثم يصل الرجل الذى كان قد نجا من القتل فاذا رأى أوديبوس ظهرت عليه علامات الفزع واذا رأى الرسول الكورنثى عرفه أيضا وجزع جزعا شديدا فقد كان هذا الرجل هو نفس الخادم الطيبىالذى سلم الطفل أوديبوس الى الراعى الكورنثى الذى هو الآن الرسول وبذلك تنكشف الحقيقة كاملة فتخرج الملكة يوكاستا لتنتحر ثم يتبعها أوديبوس ليسمل عينيه ، ويصل رسول من داخل القصر يحدثنا بما كان من أمر الملكة والملك فيقول :

ـ لقد عبرت (الملكة) البهو ذاهلة عن نفسها لما بها من سورة ، وكانت ماضية لا تلوى على شىء ويداها فوق رأسها تستأصل بهما شعرها وكأنهما سلاحان ماضيان فتنطلق الى حجرتهـــا حتى اذا دخلتها أغلقت الأبواب من خلفها فى عنف وهى تهتف باسم لايوس الذى مات منذ أمد بعيد كما كانت تعول وتنحب على هذا السرير الذى تلقى أزواجا من زوجها وأبناء من ابنها وبعد ذلك لا أدرى كيف استطاع الموت أن يجد سبيله اليها ، لأننا فوجئنا بأوديبوس وقد أقبل صارخا صاخبا فلم أعد أرى ما انتاب الملكة ••• لقد اقتحم أوديبوس باب الغرفة المحـكم الاغـلاق فحطمه واقتلعه من جذوره ثم دخل الحجرة لقد كان أول ما شهدنا الملكة وقد شنقت نفسها ، وكانت لا تزال تتأرجح فى الأنشوطة كطائر ميت • فلا يكاد الشقى يرى هذا المشهد حتى تنبعث منه آهة يائسة ثم يندفع فيحل الأنشوطة التى كانت تشنقها فتسقط البائسة على الأرض آه • ما أبشع المنظر الذى تلا ذلك ! فان أوديبوس ينتزع المشابك الذهبية

التى تشبه اللهب ينزعها من صدرها ويدفع بها فى عينيه صائحا : اخرجا ... اخرجا ... فلن ترياني بعد اليوم ولن تريا آلامى وآثامى ...

ثم يصل أوديبوس والدم يسيل من عينيه واذا بأفراد الجوقة يشيحون بوجوههم حتى لا يروا هذا المنظر المريع . لقد أصبح أوديبوس الآن كائنا ذليلا مهيض الجناح يتلمس طريقه فى الظلام الأبدى مقطوع الأمل والرجاء فى الدنيا والآخرة لاعنا الرجل الذى نجاه من الموت ليدفع به الى هذا الشقاء الذى يحيق به هو وبكل من له به صلة ثم يستصرخ الجوقة قائلا :

ـ أستحلفكم بحق الآلهة ان تسارعوا باخفائى عن الابصار قودونى الى مكان سحيق فاقتلونى أو ألقوا بى فى اليم حيث لا يرانى أحد أبد الدهر .

ثم يدخل كريون فيعتذر اليه أوديبوس وهو يبكى ثم يستعطفه ويوصيه خيرا ببنتيه فيتأثر كريون ويبدى نحوه عطفا شديدا ويواسيه ثم تدخل الفتاتان أنتجونى واسمينى بناء على أمر من كريون واذ يسمع أوديبوس صوت بكائهما يقول :

ـ ألست أسمع بكاء ابنتى غير بعيد من هنا ؟ هل أشفق على كريون فبعث الى بأعز أبنائى وآثرهم عندى ؟ .... لتكافئك الآلهة اذ سمحت لى بلقائهما .... بنتى ! أين أنتما ؟ ادنوا منى ، تعاليا الى ذراعى أواه ! تعاليا الى ذراعى أخيكما .. اللتان حرمتا الضوء ـ بما صنعتا ـ عينا الرجل الذى أنجبكما .. الرجل الذى كان مغمض العينين لا يرى ولا يدرى كيف أخرجكما من الأحشاء التى خرج هو منها .. أى شقاء لم ينزله بكما أبوكما ؟ قتل أباه وتزوج من أمه ومنحكما الحياة من حيث استمدها ... أى كريون ... انت وحدك الآن والد هاتين الفتاتين اذ هلك أبواهما اللذان كانا يرعيانهما من قبل أتوسل اليك لا تدعهما ، لا تتخل عنهما .. انهما لا تزالان صغيرتين كما ترى .. وحيدتين من الأهل الا منك ... أعطنى يدك وعاهدنى .. واذ يخرج أوديبوس منهارا تقوده ابنتاه تتغنى الجوقة أنشودة الختام التى تلخص عادة مغزى المسرحية :

ـ أى أبناء الوطن العزيز ، انظروا الى أوديبوس الذى حل اللغز العجيب الذى أعجز غيره من البشر .. انظروا الى هذا الرجل القوى .

أهناك من لم يكن ينظر الى رخائه ويسره وسعادته فى غير ما حسد ؟ انظروا الآن أى بحر هائل من الشقاء قذف به !

فعليكم أن تأخذوا حذركم وأن تتبصروا فى عواقب أموركم ونهاية أيامكم اذ لا ينبغى أن نحكم على أحد من الناس بأنه سعيد الا اذا انقضت

الساعة الأخيرة من حياته وانتقل الى العالم الآخر من غير ألم وبلا وزر يحمله ٠

★★★

وهكذا تنتهى مسرحية أوديبوس ملكا لسوفوكليس التى تعتبر بحق أروع ما كتب سوفوكليس فأشعارهـا سـهلة متدفقة تفيض بالعواطف المتأججة وحوارها يفوق الوصف من الناحية اللغوية والناحية الموسيقية ليس فيها سطر من غير ضرورة ، ولم تترك المسرحية أية فرصة لخلق التوتر العاطفى والنفسى ولخلق التشوف والتشويق لدى المشاهد الا انتهزتها ، كما أن المسرحية تعتبر النموذج الكامل للتراجيديا الاغريقية وذلك باجماع آراء النقاد القدماء والمحدثين وعلى رأسهم أرسطو الذى أشاد بمواضع الكمال فيها فى أكثر من موضع من كتابه المشهور فن الشعر فحال بطلها أوديبوس مثلا هى حال من ليس فى الذروة من الفضل والعدل ، ولكنها حال من يتردى فى هوة الشقاء لا للؤم فيه وخسة بل لخطأ ارتكبه وكان ممن ذهب سمعه بين الناس وترادفت عليه النعم ، وهذه فى رأى أرسطو حال البطل النموذجى للتراجيديا (فن الشعر ١٤٥٣ أ ، ١١) والمسرحية تثير الخوف والرحمة لا عن طريق المنظر المسرحى بل عن طريق البناء الدرامى وترتيب الأحداث التى ألفت على نحو يجعل كل من يسمعهـا يفزع منها وتأخذه الرحمة بصرعاها وان لم يشهدها وهذا من عمل فحول الشعراء (فن الشعر ١٤٥٣ ب ، ٧) والتعرف على الحقيقة فى هذه المسرحية هو أفضل أنواع التعرف وهو التعرف المصحوب بالتحول كما أنه من النوع الذى يستنتج من الوقائع نفسها حيث تقع الدهشة عن طريق أحداث محتملة الوقوع لا عن طريق أحـداث مفاجئة غير محتملة الوقوع ، ففى المسرحية يأتى الرسول الكورنثى وفى تقديره أنه سيدخل السرور على نفس أوديبوس ويطمئنه من ناحية أمه فلما أظهر حقيقة نفسه أحدث عكس الأثر ، وتحقق التعرف على الحقيقة ، كما حدث فى نفس الوقت التحول من السعادة الى الشقاء (فن الشعر ١٤٥٢ أ ، ٢٤ ، ٣٣ ـ ١٤٥٥ أ ، ١٩) وليس فى أحداث المسرحية شىء غير معقول وحتى اذا اعتبرنا مثلا ان كون أوديبوس لا يعرف كيف مات لايوس أمر غير معقول فقد حدث هذا خارج المسرحية ولم يكن ضمن أحداثها الداخلية فى بنائها الدرامى (فن الشعر ١٤٥٤ ب ، ٨٠ ، ١٤٦٠ أ ، ٢٩) ٠

لقد شغلت مأساة أوديبوس كثيرا من كتاب المسرح فى كل العصور والأمصار وقد أحصى الناقد الفرنسى مارينياك ـ فى المقدمة التى كتبها للترجمة الفرنسية لمسرحية أوديب لتوفيق الحكيم ـ تسعة وعشرين مؤلفا من بين الفرنسيين قـد حاولوا منـذ عام ١٦١٧ الى عام ١٩٣٩ محـاكاة

سوفوكليس ومعالجة موضوع أوديبوس كما ان توفيق الحكيم وعلى أحمد باكثير من الكتاب العرب قد عنيا أيضا بهذه المأساة ولكن يجب الاعتراف بأن الذين أرادوا محاكاة سوفوكليس لم يبلغوا ما بلغه من شأو فى تحقيق الغرض من معالجة موضوع مأساة أوديبوس فلقد استطاع سوفوكليس بعبقريته الفذة أن يعالج الموضوع علاجا مركبا . فالمسرحية فى ظاهرها احدى مآسى القدر اذ تحققت نبوءة الآلهة رغم كل المحاولات التى بذلت للفرار من هذا القدر المحتوم ولكن شخصية أوديبوس — كما صورها سوفوكليس — هى السبب المباشر فى تحقيق هذه النبوءة ، اذ تتمثل فى شخصيته نقط الضعف الرئيسية وهى التهور وحدة المزاج التى دفعت بالأحداث أن تسير فى الطريق الذى رسمه القدر لذلك فأنت ترى أوديبوس يتحمل المسئولية كلها ولا يتنصل منها بالقاء التبعة على الآلهة التى لا مرد لقضائها !

الأنيادة

فرجيل

١٧ ق.م

حياة فرجيل ٠٠ أحب الرومان الى القلوب

ظهر أعظم شاعرين فى روما القديمة ، فرجيل وهوراس (١) ٠ كما ظهر مشجعاهما أغسطس (٢) وماپكيناس الى عالم النور خلال سنوات قليلة جدا (٧٠ ــ ٦٣) (ق٠م) وكان اغسطس اصغرهم وربما كان فرجيل أكبرهم وكانت شخصيته من أعظم الشخصيات التاريخية فى الغرب كله ٠ فهو ينتسب الى مجموعة صغيرة جدا من الشعراء العالميين ، ها هو ذا يقف بين هوميروس ودانتى فليس هناك شعراء آخرون يتساوون معهم على الرغم من ان البرتغاليين قد يذكرون اسم كامويس والانجليز والبروتستانت ميلتون ٠

والعلاقة بين فرجيل وهوميروس متينة جدا لأن الأول حاكى الثانى ٠ فهذا مثل جديد ، بل هو أعظم مثل يبهر الالباب لاعتماد العبقرية الرومانية على العبقرية اليونانية : وكما شرح لوكريتيوس (٣) وشيشرون الفلسفة باللغة اللاتينية فكذلك أبدع فرجيل ملحمة لاتينية احتذى فيها النماذج اليونانية أعنى الاليـاذة والأوديسـا ٠ ولعل العلاقة بينهما كانت أعمق وأوثق ٠ وأعجب القدماء بهوميروس أيما اعجاب وعرفوا أشعاره معرفة جيدة حتى ان الباحثين من الرومان ذهبوا الى ذلك الاعتقاد الخرافى وهو أن روما أسستها سلالة الملوك من الطروادیين ، فكانت الانيادة أول تطور تام لهذه الخرافة وبالتالى كانت الالياذة مقدمة لا للتاريخ اليونانى فحسب بل وللتاريخ الرومانى أيضا ٠

ولد فرجيل فى منتصف شـهر أكتوبر (١٥ من أكتوبر) سنة ٧٠ ق٠م فى قرية بالقرب من مانتوا من أعمال فينيسيا شمال نهر البو ٠ وكان أبوه مزارعا صغيرا كسب عيشه من تربية النحل وتوافر لديه مال يكفى لارسال ابنه ــ الذى لاحت عليه أمارات الذكاء ــ فى سن الثانية عشرة الى مدرسة جيدة فى كريمونا ٠ ونجد فرجيل هناك وهو يحتفل بعيد ميلاده الخامس عشر (١٥ من أكتوبر ٥٥) بارتداء (التوجا) (عباءة الرومان) المعدة للرجال أعنى أنه أصبح يعتبر رجلا وهو فى الخامسة عشرة أقل بقليل من السن المعتادة ٠ وقد ذهب فى السنة ذاتها الى ميلان لفترة

قصيرة ثم الى روما لاتمام دراسته وخاصة الريطوريقا ومن المحتمل انه درس علم الفلك والطب وبعد ذلك بقليل أصبح تلميذا لسيرو الابيقورى وبدأ اهتمامه بالشعر مبكرا جدا تحت تأثير شعراء الاسكندرية وكاتوللوس الذى حاكاهم ولوكريتيوس بوجه خاص ومن المحتمل انه كان فى روما قبل الفترة الممتدة من ٥٣ الى ٤٦ وأثناءها وبعدها ونستطيع ان نتخيل الاضطراب والارتباك الذى يصيب شابا مرهف الحس معتل الصحة كالغريق فى المدينة العظيمة مواجها لآلام الحرب الأهلية والفساد السياسى، وفى وسعنا ان نتخيل أيضا حنينه الى الأرض مسقط رأسه وقد عاد الى مانتوا حوالى سنة ٤٤ أو ٤٣ ٠

ومن سوء الحظ أنه بعد قليل (سنة ٤٢) صودر ذلك الجزء من ايطاليا (وفيه مزرعة أبيه) ليوزع على قدماء المحاربين فى الحرب الأهلية فعاد فرجيل الى روما لينال بعضا من التعويض ٠

وحاول أسنيوس بليو وحاكم غالة الايطالية ان يرد الضيعة الى مالكها ولكنه عجز فعوضه عن ذلك بأن تولى رعاية الشاب فرجيل وشجعه على الاستمرار فى كتابة (المختارات) وهى القصائد التى كان ينشئها فى ذلك الوقت ٠

ولم يكد يحل عام ٣٧ حتى كان اسم فرجيل على كل لسان فى رومة ذلك أن المختارات نشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن وكانت احدى الممثلات قد انشدت أبياتها على المسرح وصفق لها النظارة تصفيقا ملؤه الحماسة والاعجاب وموضوع القصائد هو وصف الرعى على نمط قصائد ثيوقريطس (٤) ونجد فيها أحيانا ألفاظها نفسها وهى جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التى استمعت لها رومة فى تاريخها كله وهى مليئة بالحنان التأملى والحب التخيلى ٠ ذلك ان الشاب وان قضى شطرا كبيرا من حياته فى العاصمة قد انفصل عنها زمنا يكفى لأن يجعله يمجد حياة الريف ويعدها الممثل الأعلى للحياة الحقة وكان من شعره أن أصبح كل انسان يسره أن يتخيل نفسه راعيا يسير مع قطعانه على سفوح الابنين صاعدا أو نازلا ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب ٠

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقراطية (٥) ما كان فى شعر فرجيل من وصف للمناظر الريفية ٠ وقد مجد فرجيل هذه المناظر أيضا كما مجد مناظر الرعى واتخذها هى الأخرى مثلا أعلى للحياة ولكنه هنا لم يكن مقلدا فقد استمع من قبل الى أغانى الخطاب الشهوانية ، وشهد بعينيه النحل القلق يحوم حول الازهار وعرف يأس الزارع الخلى البال الذى

خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم فى تلك الأيام على أن أهم من هذا كله أنه كان شديد الاحساس بما كان يرتجيه ذلك العصر من القضاء على التخزب والحرب وكانت الكتب السبيلية قد تنبأت بأن عصر زحل الذهبى سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدى ، ولما أن ولد فى عام ٤٠ ق٠م ولد لاسينيوس باليو نصير فرجيل أعلن الشاعر فى الكتاب الرابع من المختارات أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة فقال :

« والآن يعود العصر الأخير الذى (يبشر به) نشيد كومية (سبيل) ، وها هى ذى الأحقاب العظيمة المتعاقبة تولد من جديد وتعود العذراء ويعود حكم زحل وينزل من السماء العليا جيل جديد أى لوسينا الطاهرة العفيفة (ربة المواليد) ابتسمى للغلام الذى ولد منذ قليل والذى سيزول فى عهده لأول مرة جيل الحديد وينشأ فى العالم جيل الذهب٠وان الهك أبوللون قد أصبح الآن ملكا على الأرض » ٠

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت فتخلص الناس من عدد الحرب الحديدية وسيطر على البلاد جيل جديد مسلح بالذهب ومفتون به ولم تشهد رومة فى السنين القليلة الباقية من حياة فرجيل اضطرابات جديدة وعمها الرخاء والسعادة وحيا الناس أغسطس ولقبوه بالمنقذ وان لم يلقبوه أبلون ٠ ورحب بلاط الامبراطور ــ وان لم يكن فيه من مظاهر العظمة والأبهة الا نصف ما فى بلاط الملوك ــ بما فى شعر فرجيل من تفاؤل ، واستقدمه اليه ماسيناس وأحبه ورأى فيه اداة شعبية ينفذ بها اصلاحات اكتافيان ٠ وكان حكمه هذا دليلا على بعد نظره ذلك ان فرجيل ــ وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره ــ كان يبدو رجلا ريفيا شديد الحياء الى حد يجعله يتلعثم اذا تكلم يتجنب الظهور فى أى مكان عام يمكن ان يعرفه الناس فيه ويشيروا اليه ، لا يطيق مجتمعات رومة الراقية الحديثة المهذارة المتطاولة ٠ وفوق هذا فقد كان فرجيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالا يشكو شكوى مستمرة من الصداع وأمراض الحلق واضطرابات المعدة والبصاق الدموى الكثير ولم يتزوج فرجيل قط ٠ ويلوح أنه لم يكن أكثر احساسا بالحب العارم الطليق من بطله انياس ٠ ويبدو انه اتى عليه حين من الدهر كان يواسى نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق أما فيما عدا هذا فقد كان معروفا فى نابلى باسم (العذراء) ٠

وكان ماسيناس كريما فى معاملة الشاعر الشاب فاقنع اكتافيان بأن يرد له ضيعته واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجد الحياة الزراعية وكانت ايطاليا فى ذلك الوقت (٣٧ ق٠م) تجزى أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية الى مراع وبساتين وكروم وكان

سكستسى بمبى يمنع عنها الطعام الذى يرد من صقلية وأفريقية ، ونقص القمح ينذرها بانفجار بركان الثورة من جديد وكانت حياة المدن توهن ما فى شباب ايطاليا من رجولة • ولاح ان صحة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة الى حياة الزرع فلما اقترح ماسيناس على فرجيل ان يكتب القصائد التى تمجد الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره فقد كان عليما بحياة الريف ، وكان أجدر الناس بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال ، معتمدا على ما اختزنه فى ذاكرته من حب لها عظيم وان كان ضعف صحته فى ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب وخبأ الشاعر نفسه فى نابلى وبعد ان ظل يعمل سبع سنين خرج على العـالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهى القصيدة المعروفة باسم (العمل فى الأرض) وسر منها ماسيناس وجاء معه بفرجيل الى الجنوب ليقابل أكتافيان وكان وقتئذ (٢٩ ق.م) عائدا من انتصاره على كليوباترة • واستراح القائد المضنى فى بلدة أتلا الصغيرة وأخذ يستمع أربعة أيام كاملة لألفى بيت وهو مأخوذ بجمالها مفتتن بسحرها • هذا الى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقا يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس فقد كان يعتزم الآن أن يسرح الجزء الأكبر من جيوشه الجرارة التى ساد بها العالم وان يعمل على ان يستقر جنوده المضرسون فى الأرض فيستطيع بذلك ان يهدىء بالهم وأن يطعم المدن الايطالية ويحفظ كيان الدولة • كل ذلك بفلح الأرض فى الريف • وأصبح فرجيل من ذلك الوقت حرا فى أن يفكر فى الشعر دون غيره •

فى هذه القصائد نرى فنانا عظيما يعالج أشرف الفنون بأجمعها ـ فن زراعة الأرض وفيها يأخذ فرجيل من هزيود وأراتس وكاتو وفارو ولكنه يحول نثرهم الخشن أو أبياتهم العرجاء الى شعر رقيق مصقول وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويوفيها حقها ـ فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها وفصول الزرع والحصاد ويبحث فى غرس أشجار الزيتون والكروم وتربية الماشية والخيل والضأن والعناية بالنحل ويستهويه كل عمل من أعمال الزراعة ويثير اهتمـامه ويستحوذ على فكره حتى ليحتاج الى أن يحذر نفسه من الانهماك فى الموضوع الذى يتحدث عنه ونسيانه ما بعده فيقـــول :

« ولكن الوقت يمر مرا سريعا ، وما مر عنه لا يمكن ان يعود أبدا ، على حين أننا نحن يسحرنا حب (موضوعنا) فنطيل الوقوف عند كل دقيقة من دقائقه » •

أعمـــال فرجيـــل

وقبل ان نعرض أعمال « فرجيل » يجب أن نتذكر أن الشـــعر اللاتينى باستثناء الهجاء فيما يقال قد نهض أساسا على محاكاة النماذج الاغريقية بوجه عام وكان قراء الدوائر المثقفة التى كان فرجيل يكتب لها يتحولون عن كل قصيدة يعتمد كاتبها على فطرته فحسب ويرحبون باعادة انتاج الروائع الأفريقية • وقد وضع (هوراس) للشعراء القاعدة التى تحقق لهم النجاح فى هذا المضمار •

(ادرسوا النماذج الاغريقية وتأملوها آناء الليل وأطراف النهار) •

ان (الرعويات) تمثل أول أشعار مؤكدة للشاعر (فرجيل) وهى تتألف من عشر قصائد قصيرة يطلق عليها أحيانا اسم (مختارات) • كان شعر مدرسة الاسكندرية أحب ألوان الشعر دراسة فى ذلك الوقت من تاريخ الأدب اللاتينى وكانت رعويات ثيوكريتوس ــ التى يطلق عليها اسم « ايديليا » ــ أكثر أشعار مدرسة الاسكندرية سحرا وجاذبية وكلمة (ايديليا) معناها صورة قصيرة تصور فى معظمها حياة الرعاة وحياة الريف وغالبا ما تأخذ شكل الحوار ويرجع أصلها فى الغالب الى حب الموسيقا والولع بالأغانى اللذين ساعد على تطورهما ســهولة وبساطة الحياة الرعوية فى الجنوب مما يشيع جوا من البهجة والسعادة كما يرجع أيضا الى عادة التنافس فى الغناء والى الارتجال الذى كان شائعا فى الأعياد الريفية وعلى الأخص بين الدوريين الذين كانوا يشكلون جزءا كبيرا من المستعمرات فى صقلية حيث أمضى (ثيوكريتوس) معظم حياته رغم انه ولد فى جزيرة كوس ــ وأمضى بعض الوقت فى الاسكندرية •

ورغم ان رعويات (فيرجيل) من ناحية الشـــكل تعتبر محاكاة لرعويات (ثيوكريتوس) الا انها تختلف عنها فى الجوهر : فرعويات (ثيوكريتوس) مرتبطة بالطبيعة الحقة فالمناظر واقعية والرعاة حقيقيون من لحم ودم يتدفقون حيوية ، أما رعويات (فيرجيل) فيغلب عليها طابع الصـــنعة والفن فهى صـــور مثالية للحياة الريفية كتبت لتناسب الذوق الرفيع لقراء عاصمة العالم المثقفين وقد لاحظ (هوراس) أن أهم ما يميز هذه الرعويات هو الرقة والرشاقة ولكن لو تأملنا رعويات (فيرجيل) بامعان لأدركنا أن (ثيوكريتوس) لم يكن بأية حال النموذج الوحيد الذى احتذاه (فيرجيل) ، فمما لا شك فيه أن (فيرجيل) قد أحب (هيسود)

وتأثر به حتى قبل ان يقدم على كتابة الزراعيات كما انه لابد وان يكون قد وقع تحت تأثير شعراء روما السابقين عليه • وفى الرعوية السادسة المهداة الى (فاروس) تبدأ أغنية (سيلينوس) بقصة نشأة العالم على نهج (لوكريتيوس) بتعبيراته وانغامه •

ومهما قيل عن التناقض وغلبه الصنعة فى الرعويات لا يستطيع أحد أن ينكر اخـــلاص هذه الأشـــعار فى حبها للطبيعة واهتمامها بالجمال وتوفيقها فى توصيل هذه التأثيرات الى نفس القارىء ، فالشاعر يجعل أهل الريف يتغنون كما لم يتغن أهل الريف من قبل • ففى (أركاديا) التى صورها فيرجيل على نهج (ثيوكريتوس) وان كان قد زينها بحيث امتزجت فيها المناظر الايطالية بالمناظرالصقلية ، فى تناقض يشبه تناقض الأحلام يشدو الرعاة المثاليوو متغنين بحبهم لراعيات مثاليات ذاكرين آمالهم وأحوال يأسهم وهم يتبارون على نهج لا مثيل له بأبيات ينشدها كل بدوره •

وعلى كل فان رعويات (فيرجيل) كانت شيئا جديدا على الرومان فالى جانب جمالها ومواطن سحرها كانت متقنة من الناحية الفنية • فقد نجح (فيرجيل) فيما فشل فيه غيره ممن سبقوه فخلق من اللغة اللاتينية أنغاما وايقاعات رائعة لم يســـمعها الرومان من قبل ومن ثم فقد لاقت الرعويات نجاحا كبيرا بمجرد ظهورها حتى ليقال انها كانت تلقى على المسرح بحماس عظيم • وهذه الأشعار هى التى منحته فرصة الدخول فى بلاط (أوكتافيوس) والحصـــول على رعاية (مايكيناس) ومكنته من احتلال مكانه اللائق به كشاعر للطبيعة والحياة الريفية • وليس معنى ذلك ان (فيرجيل) قد بلغ ذروة الجمال فى هذه الأشعار فما زالت أمامه خطوات يخطوها نحو الكمال عندما يتناول موضوعات أسمى وأجل وهذا ما نراه فى عمله التالى (الزراعيات) •

و (الزراعيات) عبارة عن مقالة عن شئون الزراعة وما يتعلق بها وقد كتبها (فيرجيل) تلبية لرغبة (مايكيناس) كما أنها مهداة اليه • فمنذ نشر الرعويات وقد أصبح فيرجيل أحد رجال الأدب الذين تعتمد عليهم الدولة فى الدعاية لمشروعاتها ، وقد كان أحد المشروعات المهمة التى واجهت (أوكتافيوس) ووزيره (مايكيناس) صدالخطر الداهم الذى يهدد ايطاليا• خطر اهمال الأراضى والهجرة من الأرياف فليس بعجيب اذن أن يشير (مايكيناس) على (فيرجيل) بكتابة هذه المقالة عن (الزراعيات) كوسيلة من وسائل الدعاية بقلم شاعر أثبت مقدرة فائقة على التعبير عن مثل هذه الأمور فى الرعويات وذلك بمهارة لم يسبق لها نظير •

تتألف الزراعيات من أربعة كتب تحتوى فى جملتها على ٢١٨٨

بيتا ، وان أهم ما يميز (الزراعيات) هو احكام صقلها فقد كتبت على مهل وبعناية فائقة فلو سئمنا بأنها كتبت فيما يقرب من سبع سنوات لكان متوسط ما كتبت فى اليوم الواحد أقل من بيت واحد ٠

ومن ثم فقد صقل كل بيت صقلا تاما أو على حد قول (فيرجيل) نفسه فيما يقال : (كان يلمس أبياته ليعطيها شكلا كما تفعل الدبة بأولادها) ٠ ولذلك فان الزراعيات تعتبر أحسن ما أنتج (فيرجيل) من ناحية المهارة الفنية ، بل أروع ما كتب باللاتينية فى الشعر التعليمى ٠

الانيـــــادة

نأتى الآن الى بيت القصيد أعنى (الانيادة) : لقد بدأ (فيرجيل) فى كتابتها حوالى عام ٣٠ ق٠م وهو فى سن الأربعين وقد عكف على كتابتها الاحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته ومع ذلك فانه لم ينته من تنقيحها بحيث يرضى عن نشرها فقد كان بها كثير من أنصاف الأبيات التى لم تكتمل حتى لقد أراد (فيرجيل) ان يقوم بتدمير هذا العمل الضخم حين وافته المنية لولا ان تدخل الامبراطور (أوغسطس) وعمل على انقاذه فأمر (فاريوس) و (توكا) ان يقوما بنشر (الانيادة) على ان يحذفا الزيادات دون ان يضيفا شيئا من عندهما ٠ وعلى هذا وبعد مرور عامين على وفاة (فيرجيل) أى حوالى عام ١٧ ق٠م طلعت على العالم ملحمة (فيرجيل) الخالدة (الانيادة) التى تنبأ لها (بروبيرتيوس) بأنهـا ستكون (شيئا ما أعظم من الالياذة) ٠

ويبدو ان (الانيادة) لم تكن أول محاولة يقوم بها (فيرجيل) لكتابة الملاحم فقد سبقتها بعض المحاولات التى لم يكتب لها النجاح ومع ذلك فان (فيرجيل) لم ييأس فقد أعلن فى الأبيات الافتتاحية من الجزء الثالث للزراعيات عن عزمه على محاولة الكتابة فى موضوع أكثر سموا حيث يقدم ملحمة عظيمة يكون (قيصر أوغسطس) الشخصية الرئيسية بها وقد وفق (فيرجيل) أكبر توفيق ، اذ اختار قصة (أينياس) لتكون الهيكل الذى يبنى عليه ملحمته ولم يحـــاول أن يكتب ملحمة تاريخية دقيقة فلم تكن الحروف التى شبت بين قتلة قيصر والحكومة الثلاثية لتمده بالمادة الغنية التى امدته بها قصة (أينياس) فهذا الاختيار مكنه من مزج الحقيقة التاريخية بالخيال الأسطورى ومن ثم جاءت (الانيادة) ملحمة قومية وطنية قصد بها ربط أصل الرومان وعلى الأخص الأسرة اليولية بالآلة والأبطال العظام ، كما قصد بها أيضا ولو بطريق غير مباشر تمجيد كثير من عادات وطقوس الرومان وذلك بربطها بعادات وطقوس

عصر الأبطال ، ثم ان « اينياس » وأتباعه باصرارهم على احراز النجاح ، رغم اعتمادهم على الآلهة فى حل جميع الصعوبات والمخاطر التى واجهتهم ، يمثلون خير تمثيل تلك الفضائل والمميزات التى عملت ببطء على تأسس الامبراطورية الرومانية وتدعيمها بينما (اينياس) نفسه باعتباره الحاكم الأبوى لشعبه : قائدهم فى المعركة وواضع تشريعاتهم فى وقت السلم وكاهنهم الأعظم فى كل ما يتعلق بالشئون الروحية والدينية يمثل بوضوح شخصية (أوغسطس) مؤسس الدولة الجديدة ٠

والانيادة تتألف من اثنى عشر كتابا تحتوى على ما يقرب من ٩٨٩٦ بيتا ٠ فهى عمل ضـــخم جدا حتى ان الامبراطـــور قد علق عليه بأن (فيرجيل) عندما بدأ هذا العمل كان ولابد فى حالة من حالات ذهاب العقل ٠ تصف الكتب الستة الأولى تجوال أينياس ومغامراته بينما تصف الكتب الستة الثانية حروبه ومعاركه فكأن الملحمة الرومانية اذن تمثل ملحمتى (هومر) الاوديسا والالياذة كما انها تسير على منوالهما فى معظم أجزائها ٠

لقد افتتح فيرجيل ملحمته بالأبيات التالية :

« انى أتغنى بالسلاح وبالرجل الذى قدر له أن يكون أول من يأتى من شواطىء طروادة ويصل الى ايطاليا وساحل لافينيوم رغم انه كتب عليه ان يكون طريدا لقد قاسى ذلك الرجل وتعذب فى البر والبحر بقوة من السماء ، وذلك ارضاء لغضب جونو الذى لا يهدأ ولا يلين ، كما تحمل الكثير من المعارك الحربية قبل ان يتمكن من تشييد مدينة وتدعيم آلهته فى اقليم لايتوم ، وقد اتى من صلبه العنصر اللاتينى وسادة ألبا وروما ذات الأسوار الشامخة » ٠

وكما فعل (هومر) فى (الاوديسا) فعل (فيرجيل) أيضا فى (الانيادة) فلم يبدأ الأحـــداث منذ ســـقوط طروادة وبداية مغامرات (اينياس) بل بدأها وقد أوشك (اينياس) ان يصل الى غايته فقد كانت ايطاليا على مرأى البصر لولا (جونو) عدوة الطرواديين منذ حكم (باريس) بالتفاحة الذهبية لفينوس فقد كانت تعلم ان نهاية قرطاجة وهى أحب مدينة لديها ستكون على يد رجال من طروادة بعد أن يؤسسوا لأنفسهم امبراطورية أخرى جديدة أشد وأعظم ومن ثم فان (جونو) قد استطاعت أن تستميل (ايولوس) اله الرياح فيرســل عاصــفة هوجاء تعصف بأسطوله الذى جرفه التيار قريبا من ساحل أفريقيا الخطر ، ولكن نيبتونوس اله البحار أحس العاصفة فأدركه برحمته فجعل المياه تهدأ والأمواج تخلد الى السكون لقد غمر اليم ثلاثا من سفن (اينياس) ولكن البقية الباقية وصلت الى مواقع مختلفة من الشـــاطىء وفى اليوم التالى

توغل (أينياس) داخل البلاد يصحبه تابعه المخلص (اخاتيس) حتى وصل الى مدينة قرطاجة ، وفى الطريق تقابله أمه الالهة (فينوس) وكانت قد اطلعت من (جوبيتير) على المصير الرائع الذى قدر لمدينة (روما) فتخبره بأن (ديدو) هى حاكمة هذا الموطن الجديد فقد هربت من موطنها الأصلى (تيرى) بعد مقتل زوجها السابق (سيخايوس) لقد استقبلت الملكة (ديدو) البطل (اينياس) أحسن استقبال وأكرمت وفادته وأرسلت (فينوس) (كيوبيد) ليجعل (ديدو) تهيم غراما بحب (اينياس) وذلك بايعاز من (جونو) التى كانت تهدف الى استبقاء (اينياس) بجوار (ديدو) وبذلك لا يتحقق له ما كان مقررا أن يقوم به . وأثناء الوليمة التى أقامتها (ديدو) فى تلك الليلة اكراما لضيفها العزيز تطلب منه أن يصف لها سقوط طروادة ويحدثها عن جولاته ومغامراته .

وفى الكتاب الثانى يبدأ (أينياس) الرواية فيتحدث عن سقوط طروادة وقصة الحصان الخشبى وكيف أن أمه (فينوس) أمرته بالفرار بصحبة أبيه (انخيسيس) وابنه اسكانيوس وهو نفسه ايولوس الذى قدر أن يكون مؤسس الأسرة اليولية ، أما زوجته (كريوسا) فقد تاهت عنهم وبينما كان يبحث عنها يقابله شبحها فقد ماتت ويفضى اليه انه قدر عليه ان يستقر فى بلاد الغرب .

وفى الكتاب الثالث يتابع (اينياس) حديثه عن تجواله منذ ذلك اليوم بحثا عن الوطن الموعود فيصل أولا الى طراقيا ومنها الى كريت وبعدها الى بيروس ثم الى صقلية حيث مات أبوه (انخيسيس) .

أما الكتـــاب الرابع فيعرض فيه (فيرجيل) علاقة (ديدو) مع (اينياس) . لقد مكث أينياس فى (قرطاجة) عدة شـــهور تحوطه (ديدو) برعايتها وتضره بحبها لقد باحت (ديدو) لأختها (آنا) بأنها على الرغم من قسمها بألا تتزوج أبدا بعد موت زوجها الراحل ، الا أنها تنهار يوما بعد يوم منذ وقعت تحت تأثير سحر (اينياس) وذات يوم بينما كانا فى رحلة صيد أرغمتهما ريح عاصفة أن يحتميا فى كهف حيث نسيا نفسيهما وشربا كأس الحب حتى الثمالة وحدث بينهما ما ظنته (ديدو) زواجا ، حدث كل هذا بتدبير من (فينوس) وموافقة (جونو) على استمرار هذا الحب حتى تظل الآلهتان فى أمن وسلام ولكن (جوبيتير) يرسل رسوله (ميركوريوس) ليذكر (أينياس) بواجبه ، يحاول أينياس أن يدبر أمر رحيله سرا حتى لا يؤلم (ديدو) ولكنها تكتشف الأمر فتتوسل اليه ألا يتركها وحيدة ولكن بلا جدوى ، فقد كان عليه أن ينفذ

ما أمر به (جوبيتير) وفى لحظة من لحظات اليأس والألم التى تسببها لوعة الفراق تقتل ديدو نفسها ٠

ان مشهد اللقاء الأخير بين (ديدو) واينياس من أروع ما كتب فرجيل لهذا رأينا ترجمته كنموذج من (الانيادة) رغم ان الترجمة بالطبع ستفقد المشهد الكثير من روعته وجمال أسلوبه :

٣٠٤ وأخيرا هاجت اينياس بهذه الكلمات :

« أيها الخائن أكنت تأمل أيضا انك تستطيع اخفاء مثل هذا الجرم البشع وترحل عن بلادى سرا ؟ ألا يمكن لحبنا وايدينا التى تشابكت ذات يوم وديدو التى ستموت ميتة قاسية أن تستبقيك ؟ ٠٠٠

٣١٥ أتفر منى ؟ بحق هذه الدموع وبحق يمناك اذ لم يبق لى شىء آخر غيرك ٠ يالى من بائسة ! بحق تعانقنا وبحق طقوس عرسنا التى ما تزال فى البداية لو كنت أستحق منك أى معروف أو كان لعزتى عندك أى تقدير أشفق على بيت يتداعى ٠ واذا كان ما يزال للضراعة أى مكان فانى اضرع اليك ان تطرد هذه الفكرة من رأسك !

فبسببك كرهتنى قبائل ليبيا وزعماء النوميديين ٠ وبسببك أصبح التيريون أعدائى وبسببك أيضا ضاع حيائى وتخطمت سمعتى السابقة التى كنت أستطيع بها فقط أن أصعد الى نجوم السماء ٠ لمن تتركنى عرضة للهلاك ، أيهـا ٠٠ الضيف ؟ اذ أن كلمـة زوج أيضا قد تضاءلت وانكمشت الى أين أمضى ؟ ٠٠٠٠٠

٣٢٧ لو أنى على الأقل أنجبت منك قبل رحيلك ذرية ما ٠ لو كان لى اينياس صغير يلعب فى أبهاء قصرى فيجعلك على الأقل تعود الى فى المستقبل لما بدوت أمامك بأية حال على هذه الصورة الذليلة الكسيرة ! » ٠

كانت قد تكلمت بينما بقى الآخر محدقا بعينه بناء على تعليمات جوبيتير وهو يخفى بين جنبيه هما دفينا يعمل على كبح جماحه وأخيرا يرد ردا مختصرا : « لن أنكر قط ٠ أيتها الملكة أى شىء من أفضالك التى يمكن أن تعديها كثيرة جدا ، ولن أمل من تذكر اليسا ، طالما انى ذاكر لنفسى ، وطالما أن أنفاس الحياة تدب فى هذه الأعضاء ٠

لتكن كلماتى قليلة لتناسب المقام انى لم أفكر قط فى ان احيط هذا الرحيل بطى من الكتمان ٠ لا تتصورى هذا كما أنى لم أعرض عليك أبدا مشاعر الزواج أو أتيت لمثل هذه الارتباطات لو ان الأقدار سمحت لى بأن أشكل حياتى وفق هواى وان أعمل على حل مشاكلى بمحض رغبتى وارادتى لكان أول ما يحظى باهتمامى مدينة طراودة ورفات أصدقائى الأعزاء ،

ولظلت منازل بريام الشامخة قائمة ، ولعملت بيدى هذه على استرداد برجام لأبنائهم المنهزمين • أما الآن فقد أمرنى أبوللو سيد جرينيوم بأن استحوذ على ايطاليا العظيمة • ايطاليا مقر النبوءات الليلية هذا هو حبى وهذا هو وطنى وأنت باعتبارك فينيقية لو ان قلاع قرطاجة ورؤية المدينة الليبية قد استولت على نفسك فأى ضيم فى أن يستقر التيوكريون فى أرض أوسونيا ؟ فمن حقنا نحن أيضا أن نبحث عن ممالك خارجية • ان طيف أبى انخيسيس ينذرنى فى أحلامى ويخيفنى بنظرته المضطربة كلما خيم الليل على العالم بظلاله الندية وكلما طلعت النجوم المتوهجة (كما ينذرنى أيضا) الفتى اسكانيوس والاضرار التى نزلت برأسه العزيز الذى أوهمته بحكم هيسبيريا وبالأراضى الموعودة • وان رسول السماء أيضا الذى أرسله زيوس بنفسه ، واستشهد على ذلك برأسينا ، قد حمل الى تعليمات خلال الهواء المنطلق وقد رأيت الاله فى وضح النهار وهو يدخل الأسوار والتقطت صوته بأذنى هاتين •

أقلعى عن احراق روحى وروحك بشكاياتك فانى لا أتجه الى ايطاليا بمحض ارادتى » •

لقد كانت تحملق فيه شزرا طوال الوقت وهو يتكلم على هذا النحو وهى تجيل بعينها هنا وهناك وترمقه كله بنظراتها الصامتة ثم انفجرت فى اشتعال وقالت ما يلى :

« لم تكن أمك الهة • ولم يكن داردانوس أيها الغادر مؤسس عنصرك ولكنك جبلت من صخر أصم • اذ انجبتك جبال القوقاز المريعة وأرضعتك نمرات هيركانيه •

فلماذا أخفى الحقيقة ؟ ولأى مصائب أجل أدخر نفسى ؟ فهل يمكن أن نتصور ما هو أكثر مهانة من ذلك ؟ والآن فقط لا تنظر جونو العظيمة ولا أبوها ساتورنوس الى هذه الأمور بنظرة متعادلة •

ان الاخلاص لا أمان له على الاطلاق • لقد رحبت به عندما جاء الى الشاطىء شريدا طريدا وجعلته فى لحظة جنون شريكا لى فى الملك •

كما انقذت أسطوله من الضياع وبحارته من الموت •

ويلاه ! انى أتقلب محترقة بنار من الغيظ • والآن فان ابوللو كاشف الغيب والنبوءات الليلية ورسول السماء الذى أرسله زيوس بنفسه يحمل الآن الأوامر الخطيرة خلال الهواء •

هذا بالطبع هو كل عمل آلهة السموات العلى ! وهذا هو الهم الذى يقلق راحتهم انى لن استبقيك ولن أرد على ادعاءاتك •

اذهب لتحملك الرياح الى ايطاليا ولتبحث عن الممالك وسـط الأمواج ٠

وانى اتمنى فى الواقع ان تتجرع كأس الشقاء وسـط صخور البحر ٠

آه لو تسطيع قوى الآلهة الطيبة ذلك وآن تهتف باسم ديدو مرارا وتـكرارا ٠

ورغم بعدى عنك فانى سوف اقتفى أثرك بالنيران المريعة (نيران آلهات الغضب) ٠

وعندما ينزع الموت البارد الروح عن أعضائى فان طيفى سيلاحقك فى كل مكان ايها الناكر للجميل سوف ينزل بك العقاب ٠

وسوف أسمع ذلك اذ ستصل الى الرواية حتى ولو كنت فى أعماق العالم الآخر » ٠

قالت هذه الكلمات وقطعت الحديث من منتصفه وانطلقت بسرعة وكأن مرضا أصابها ونأت بنفسها عن ناظريه واندفعت الى الخارج تاركة اياه وقد انعقد لسانه بخوف شديد وان كان يود ان يقول الكثير ٠

أما هى فقد انهضتها الوصيفات وحملن أعضاءها المنهارة الى حجرتها المرمرية وأرقدنها على السرير ٠

ولكن اينياس الطيب رغم انه يتوق الى أن يخفف من آلامها بالتسرية عنها الى ان يزيح عنها الهموم بكلماته فانه يئن أنينا موجعا ويضغط على قلبه المعذب بحبه العظيم ٠

٣٩٦ ـ ويعود الى الأسطول تنفيذا لأمر السماء ٠

أما الكتاب الخامس فهو يمثل مرحلة انتقال تخفف من حدة مأساة « ديدو » وتمهد لغموض وروعة الكتاب السادس ، كما أنه يقدم فرصة يحاكى فيها « فيرجيل » بعض المشاهدين « هومر » فقد خصص معظم هذا الكتاب لعرض الألعاب التى أقامها « أينياس » بعد عودته الى صـقلية احتفالا بمرور عام على وفاة أبيه ٠

وينتهى الكتاب بانقاذ بعض سفن « أينياس » بمعجزة من الحريق الذى اشتعل فى الأسطول بايعاز من « جونو » وبغرق باليينوروس مرشد سفينة « أينياس » كفدية لسلامة الآخرين ٠

ويبدأ الكتاب السادس بوصول « أينياس » الى ساحل ايطاليا · وما أن يصل حتى يأخذ فى البحث عن العرافة « سيبيلا » فى « كومای » · ان « فيرجيل » فى هذا الكتاب يبدو أكثر غنى وثراء وأكثر استقلالا وبعدا عن النقل والتقليد فقد جمع « فيرجيل » فى هذا الكتاب كل ثمار دراسته وثقافته واطلاعه عن الأساطير والنبوءات والطقوس وعن التاريخ والفلسفة ووضعها جميعا فى تلك الصورة الخيالية الرائعة التى صـــور بها رحلة « أينياس » الى العالم الآخر كشف بها عن أحداث المستقبل ، هذا رغما من التشابه الظاهرى بين رحلة اينياس الى العالم الآخر فى انيادة « فيرجيل » ورحلة « أودويسيوس » فى الكتاب الحادى عشر من أوديسا « هومر » ·

يتابع « اينياس » سيره مع الكاهنة حتى يمرا بالأرض المنعزلة التى يكتظ بها من علت شهرتهم فى الحرب ومن هنا يرى « اينياس » أسوارا عالية يحوطها نهر « فليجيثون » المتأجج وهذه الأسوار كما أخبرته الكاهنة هى أسوار « تارتاروس » ســـجن من حكمت عليهم الآلهـــة بالعذاب الأبدى ·

وأخيرا يصـــلون الى مقر الصـــالحين حيث يلتقى بروح أبيـــه « أنخيسيس » الذى يكشف له عن سير الأمور فى العالم وعن وسائل التطهر التى تمكن البشر من السماح لهم بدخول مقر الصالحين كما يخبره أبوه بأنه من هذه الأرض البهيجة سيعود الى العالم الدنيوى بعد ألف سنة بعض الرجال الذين قدر لهم أن يكونوا هم الرومان العظماء · ومن بين هؤلاء الرجال أحفاد « أينياس » نفسه · ويصف له مغامراتهم فى عرض لتاريخ روما متضمنـــا الامبراطـــور « أوغسطس » وابن أخته وريثـــه « ماركيللوس » الذى اختطفه الموت وهو فى ريعان الشباب عام ٢٣ ق·م ·

وفى الكتاب السابع يعود « اينياس » الى رفاقه ويتابعون رحلتهم الى مصب نهر التيبر ، فينزلون باقليم « لاتيوم » الذى كان يحكمـــه « لاتينوس » وكان لهذا الحاكم ابنة تسمى « لافينيا » وكانت مخطوبة لتورنوس ملك الروتوليين الذى يسكنون احدى المقاطعات فى نفس الأقاليم ولكن كانت هناء نبوءة تعلن أن الفتاة لابد وأن تتزوج من أمير أجنبى · عندئذ يبعث « اينياس » بسفارة الى « لاتينوس » فيستقبلها بالترحاب اذ أيقن أن « اينياس » هو زوج ابنته المرتقب وتنشأ بين الطرفين علاقات ودية ، ولكن الالهة « جونو » كانت للطروادين بالمرصاد فتثير « تورتوس » الذى يقوم بتسليح أهل لاتيوم الذين اتحدوا مع الروتوليين لمحـــاربة الغزاة الدخلاء تعاونه فى ذلك « أماتا » زوجة « لاتينوس » وأم « لافينيا » الأمر الذى يضطر معه « لاتينوس » أن يعلن سخطه عليهم جميعا ويغلق القصر على نفسه ·

أما الكتاب الثامن فنرى فيه ان « اللتيبر » الأب قد زار « اينياس » فى المنام وأمره بالسعى فى طلب معونة « افاندر » حاكم مدينة باللانتيوم وفى الصباح أسرع أينياس الى « افاندر » الذى صحبه فى رحله حول الأرض المقدسة حيث قامت « روما » فيما بعد كما أراه الغابة الكابتيولينية الكثيفة التى جعل منها « رومولوس » فيما بعد محرابا للآلهة · وقد اقترح « افاندر » على « اينياس » أن يطلب معونة الاترسكيين الذين ثاروا ضد حاكمهم الطاغية « ميزينتيوس » واضطروه الى الخروج من بلادهم فلجأ الى « تورنوس » فقبل « اينياس » الاقتراح وخرج الى معسكر الاترسكيين يصحبه « بالاس » ابن « افاندر » وفى تلك الاثناء استطاعت فينوس ان تقنع زوجها « فولكانوس » ان يصنع لاينياس عدة حربية تتضمن درعا محفورا عليه عرض لبعض المشاهد المستقبلة من تاريخ « روما » حتى معركة « أكتيوم » ·

وفى الكتاب التاسع تمكن « جونو » من اقناع « ايريس » الهة النزاع ان تذهب لتثير « تورنوس » حتى يعمل على انتهاز فرصة غياب « أينياس » ويقوم بالهجوم على معسكر الطرواديين ويشعل النار فى معسكرهم ولكن « نيبتونوس » يحول السفن الى حوريات من عرائس البحر · وبناء على تعليمات « اينياس » التى كان قد تركها لأتباعه قبل رحيله ، يظل الطرواديون خلف الأسوار وفى اليوم التالى بدأ « تورتوس » الهجوم على الطرواديين من جديد وتمكن من اقتحام استحكاماتهم ولكنهم قطعوا عليه الطريق حتى انه تمكن من التقهقر بكل صعوبة ·

وفى الكتاب العاشر نرى مجلس الآلهة منعقدا وقد ثار به جدل حاد بين « جونو » و « فينوس » حول مصير الحرب ولكن « جوبيتير » قرر ترك الأمر للاقدار وعلى كل فان « اينياس » تمكن من عقد محالفة مع « تارخون » قائد الاترسكيين الذين اعتلوا ظهر أسطولهم حتى وصلوا قريبا من معسكر الطرواديين رغم مجابهة « تورنوس » لهم ونشبت بين الفريقين معركة حامية أبلى فيها « باللاس « ابن « افاندر » بلاء حسنا ولكنه قتل فى النهاية بيد « تورنوس » فيثور « اينياس » ويثأر لمقتله بالقضاء على عدد غير قليل من أبطال الأعداء ولكن « جونو » تمكن من انقاذ « تورنوس » بابعاده عن الميدان فينازل « اينياس » « ميزينتيوس » ويقتله ·

ويبدأ الكتاب الحادى عشر بعقد هدنة يتم فيها دفن جثث القتلى واقامة الطقوس الجنائزية لهم ثم يعقد اللاتين مجلسا لمناقشة الموقف الحربى حيث يقترح أحدهم وضع حد لهذه الحرب بأن ينازل « تورنوس » « اينياس » فى مبارزة فردية ولكن هذا الاقتراح لم يلق التأييد الكامل

أمام نصيحة « تورنوس » بضرورة محاولة القيام بمعركة أخرى وعلى كل فان هذا المجلس ينفض على عجل ، اذ وصلته أنباء بأن الطرواديين يهاجمون المدينة فيهرع الجميع الى القتال وعلى رأسهم « تورنوس » وبعد معركة طويلة يتراجع اللاتين الى مدينتهم فى فوضى واضطراب ·

وفى الكتاب الأخير تعقد هدنة أخرى بين الطرفين يتم خلالهما انهاء الحرب بمنازلة « اينياس » لتورنوس ولكن احـــدى العرائس وهى « جوتورنا » أخت تورنوس حرضت الروتوليين على خرق الهدنة بالقـــاء سهم على « اينياس فأصابه بجرح عميق ولكن « فينوس » جعلت الجرح يندمل فى الحال بينما شنقت « أماتا » نفسها لاعتقادها أن تورنوس قد لقى مصرعه · وبعد ان صالح « جوبتير » « جونو » بقراره الذى يتضمن اتحاد الطرواديين مع اللاتين فى أمة واحدة اشتبك البطلان « اينياس » « وتورنوس » فى القتال وسقط « تورنوس » ، واذ هو فى النزع الأخير يطلب فى رخـاء واستعطاف ان يرد جثمـانه الى أبيه العجوز · وكان « اينياس » على وشـك أن يرق قلبـه لهذا الموقف لولا أن رأى حزام « باللاس » حول وسط « تورنوس » عندئذ يصرخ صرخة مدوية ويهوى بسيفه فيقضى عليه بضربة قاتلة ·

الملحمة الخالدة

بهذا تنتهى ملحمة « فيرجيل » الخالدة « الانيـــادة » التى ظلت تعتبر لقرون عديدة وعلى الأخص فى القرون الوسطى أعظم عمل أنتجته عبقرية انسان ولم تحظ أى أشعار أخرى على الأقل فى العالم الغربى بمثل ما حظيت به هذه الملحمة من شهرة واسعة واهتمام بالغ من رجال اللغة والأدب · والواقع ان الانيادة والأشعار الهومرية رغم ما بينهما من تشابه كبير من ناحية الشكل يغرى دائما بعقد المقارنات بينها ، تختلف عن بعضها اختلافا كبيرا فى الروح والطبع حتى انه لا ينبغى كما اقترح أحد النقاد عقد المقارنات بينها · فالأشعار الهومرية ثمرة نتاج عبقرية فطرية نظمها الشاعر ليتغنى بها أثناء الأعياد والاحتفالات التى كانت تقام فى العصور الأولى تمجيدا للأبطال العظام ، وهى تصف أناسا يعيشون تقريبا بنفس الطريقة التى كان يعيش بها من كتبت الأشعار فى عصرهم · أما « الانيادة » فهى خلق فنى كتبها شاعر ينتظر الرعاية من الامبراطور ويتوقع النقد من « مايكنياس » وجماعته الأدبية ، وهى تحاول أن تضفى الروح على أشباح الماضى البعيد بحيث تبدو مقبولة لدى أناس يختلفون عنهم تمام الاختلاف فى كل شىء · ومن ثم فان أهم ما يهـــم « هومر » ومستمعيه هو القصة والأحداث ويأتى الشكل الفنى فى المرتبة الثانية أما بالنسبة لفيرجيل وقرائه ، فان الصورة الفنية والأدبية فى المقام الأول وتأتى بعدها حقيقة أحداث القصة ··

واذا شئنا أن نفهم الانيادة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذى هى جديرة به كان علينا ان نتذكر فى كل قسم من أقسامها أن فيرجيل لم يكن يكتب رواية خيالية ، بل كان يكتب لروما كتابا مقدسا · وليس ذلك لأنه يقـــدم لها شريعة دينية واضحة فان الآلهة التى تسـير الحـوادث فى تمثيليته من وراء الستار لا تقـــل خبثـا من آلهـة هومر وان لم تكن قريبة من البشر الفكهين قرب هؤلاء بل ان لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان كل ما فى القصة من شر وشقاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسها ، وأكبر الظن أن فيرجيل لم يكن يرى فى أولئك الأرباب الا أنها أدوات لشعره ورموز للظروف الظالمة المستبدة والحادثات المفاجئة التى تخـل بسـير العالم المنتظر الرتيب وهو على العموم يتذبذب بين جوف رب الأرباب وبين القدر اللا شخصى فهذا يسيطر على الكائنات تارة وذلك يسيطر عليها تارة أخرى ، وآلهة القرية والحقل أحب اليه من آلهة أوليس فهو لا يترك فرصة تتاح له الا مجد الأولى ووصف طقوسها ومراسمها وتمنى لو استطاع الناس أن يعودوا الى ما كانوا عليه من حب الآباء والوطن والآلهـة وهو الحب الذى كانت تغذيه العقيدة الريفيـــة البدائية : « أسفى على تقوى الأقدمين وايمانهم » غير انه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعا الصالح منهم والطالح ، بل تخالجه أفكار أرفية (٦) فيثاغورية عن تجسيد الأرواح بعد الموت وعن الحياة فى الدار الآخرة وهو يوضح الى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب فى الجنة والمطهر والعقاب فى الجحيم ·

لكن الحقيقى فى الانيادة هو دين الوطنية ، والهها الأعظم هو روما فمصير روما هو المحرك لحبكة القصة وكل ما فى القصة من محن وشدائد انما يرجع الى « الواجب المضنى واجب بعث الشعب الرومانى والشاعر فخور بالامبراطورية فخرا يمنعه أن يحسد اليونان على تفوقهم فى الثقافة ويقول فى ذلك : « فلتحول الشعوب الأخرى الرخام والبرنز الى شخوص حية لترسم مسارات النجوم » ·

« أما أنت يا ابن روما فواجبك ان تحكم العالم وستكون فنونك أن تعلم الناس طرائق السلم وأن تشفق على الذليـل وتذل الفخور » · وفيرجيل لا يأسف على موت الجمهورية وهو يدرك أن حرب الطبقات هى التى قضت عليها ولم يقض عليها قيصر وهو فى كل جزء من أجزاء قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيعيدها سيرتها الأولى ويرحب به ويصفه بأنه حكم زحل قد عاد الى الأرض ويعده بأنه سيجزى على عمله بأن يحشر فى زمرة الأرباب · وقصارى القول أن أحدا من الناس لم يوف بما ألقى على كاهله من واجب أدبى بأكمل مما وفى به فرجيل ·

ويبقى بعد ذلك أن نسأل : لم نحتفظ بحبنا الشديد لهذه الدعاوى للتقى وصالح الأخلاق وحب الوطن والنعرة الإمبراطورية ؟ ان من أسباب هذا الحب مانجده فى كل صفحة من ورقة روح الشاعر وظرفه ، وأنا نشعر بأن عطفه قد امتد من ايطاليا بلاده الجميلة الى جميع بنى الانسان بل الى جميع الكائنات الحية فهو يدرك آلام الطبقات العليا والدنيا ويعرف أهوال الحرب وما يصحبها من فحش ورذيلة ولا ينسى أن أنبل الناس أقصرهم آجالا وأن ما فى الحياة من أحزان وآلام وما فى « الأشياء من دموع » تذهب ببهجة الأيام تارة وتزيدهـــا تارة أخرى · وهو حين يكتب عن « العندليب الذى يبكى فى الظلام شجرة الحور فقد صغاره التى أبصرها الحراث فانتزعها من عشها قبل أن يكسوها الريش فيقضى الليل كله ينتحب ثم يجثم على فنن ويعيد أغنيته الحزينة ويملأ الغابة بها وبعويله » نقول انه حين يفصل هذا لا يقلد لكريشيوس فحسب وان الذى يجذبنا نحو فرجيل مرارا وتكرارا هو ما فى حديثه من جمال لاينقطع أبدا ولم يكن عبثـــا منه ان ينكب على كل سطر من سطوره « فيلعقه بلسانه ليسويه ويصقله كما تلعق الدبة ديسمها » · ولن يستطيع أحد غير القارىء الذى حاول الكتابة أن يتصور ما عاناه الشاعر من التعب حتى أكسب قصته ما فيها من نعومة وسلاسة وزينها بكثير من الفقرات ذات الأنغام القوية الرنانة التى تطالعنا فى كل صفحتين من الكتاب وتغرى القلم باقتباسها واللسان بالنطق بها ولعل القصيدة مفرطة فى جمالها المتناسق المتماثل لأن جمال اللفظ نفسه يمل اذا أفرطت فصاحته فى الطول · وفى فرجيل ســـحر نسائى ولكنا لانطالع فيه قط ما نجده فى شعر لكريشيوس من رجولة وقوة التفكير كما لانجد فيه تلك الأمواج الصاخبة التى نراها فى ذلك « البحر المتلاطم العجاج » المسمى هومر · ونحن نبدأ نفهم ما يعزى الى فرجيل من حزن واكتئاب حين نتصوره يدعو الى عقائد لم يكن فى وسعه قط ان يستعيدها فى نفسه ويقضى عشر سنين فى ما يحتاج اليه الفن المصطنع من جهود ثم يموت والأفكار تساوره بأنه عجز عن تحقيق غرضه وأن خياله لم ينره وميض من الابداع والابتكار وأنه لم يبعث فى أشخاصه نسمة الحيـــاة · ولكن أحدا لايجادل فى ان الشـاعر قد انتصر نصرا مؤزرا على أداته ان لم يكن قد نال هذا النصر نفسه على موضـوعه · وقلما بلغت الصناعة ذلك الحد الأعلى من الاعجاز الذى بلغته فى شعر فرجيل ·

وبعد عامين من وفاته أخرج منفذو وصيته قصيدته الى العالم وقام بعضهم يعيبها ويسفهها : فنشر أحد النقاد ثبتا طويلا بعيوبها ، ونشر غيره ثبتا آخر بما فيها من سرقات وأصدر ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر فرجيل والشعر القديم من شبه ولكن روما سرعان ما نسيت

هذه الشيوعية الأدبية فوضع هورانس فرجيل فى مستوى هومر ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر ، وظل الناس فيهما يحفظون الانيادة عن ظهر قلب وظل الناس جميعهم خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه والصناع والتجار يقتبسون من شعره وشواهد القبور والجدران تنقش عليها عبارته ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غامضة يقتطعونها من أبيات ملحمته وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التى لم تنقطع الى عصر النهضة عادة فتح ملحمة فرجيل فتحا عشوائيا للبحث عن نصيحة أو نبوءة فى أول فقرة تقع عليها عين الفاتح • وانتشر صيته حتى كان يعد فى العصور الوسطى من السحرة والقديسين • كيف لا وهو الذى تنبأ فى النشيد الرابع بمجيء المنقذ ووصف روما فى الانيادة بالمدينة المقدسة التى ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه ؟ ألم يصور فى الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعذاب المذنبين وتطهيرهم فى نار المطهر ونعيم الصالحين فى الجنة ؟ لقد كان فرجيل أيضا كما كان أفلاطون ذا روح دينية طبيعية رغم آلهته الوثنية وكان دانتى يعجب بعذوبة شعره ولم يكن يسترشد به فى وصف الجحيم والمطهر فحسب بل كان يسترشد به أيضا فى تدفق فنه القصصى وجمال حديثه ، وكان ملتون يفكر فيه وهو يكتب الفردوس المفقود وخطب الشياطين والآدميين الطنانة الرنانة ، وكان فولتير — وهو الذى كنا نتوقع أن يكون أقسى مما كان فى الحكم على فرجيل — يصف الانيادة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبى •

الموطأ

مالك بن أنس

٧٨٥ م

انطـلاق الفـــكر

كان العرب والمسلمون من المجلين فى ميدان العلوم الفقهية ، وقد امتازوا بغزارة الانتاج فى هذه العلوم وبالتعمق فى التحليل وبالمقدرة على الاستنتاج والاستقراء والتخريج والتفرغ • فبنوا بذلك بناء متينا كاملا من التشريع وتراثا ثمينا شاملا من القواعد الكلية والضوابط العامة والأحكام الفرعية التفصيلية •

وقد ساعدهم على ذلك أمور أهمها تعدد الأدلة التشريعية وتعدد القضايا الطارئة وتأثير قواعد الدين والأخـــلاق ، فالأدلة الشرعيـة التى أعدها الفقهاء من أدلة نقلية مبنية على نص القرآن الكريم أو الســـنة الشريفة الى أدلة عقليـــة مبنية على القياس والاجمـــاع والاستحسان والاستصلاح والاستدلال ، كلها وسائل مرنة للبحث العلمى وللاجتهـاد المنتج • وكذلك ساعد الفقهاء تعدد القضايا الطارئة التى نجمت عن توسع الدولة بالفتوحات وعن تغيير الأحـــوال والعوائد والحاجـات • أما تأثير قواعد الدين والأخلاق فناتج عن شمول علم الفقـــه للعبادات والمعاملات جميعا فقد اقترنت من جراء ذلك فكرة العدالة بفكرة الاحسان واتصف القضـــاء بالرحمة والتيسير وبنزاهة الايمان ونصـفه الخـير المطلق ، وهكذا جاءت الشريعة الاسلامية شريعة انسانية خالدة مرنة تساير حاجات الزمان وضرورات الحياة الاجتماعية •

وقد استتبعت هذه الأمور تعددا فى العلوم الفقهية وفى المذاهب والمؤلفات والمؤلفين فالعلوم الفقهية شـــملت علم التفسير وعلم مصطلح الحديث وعلم الفروع ، وشمل علم الفروع والعبادات والأحكام القانونية ثم انقسمت هذه الأحكام الى معاملات وعقوبات ومناكحات ومخاصـــمات وسير وأحكام سلطانية •

وكذلك تعددت المذاهب وانقسمت الى مذاهب سنية ومذاهب شيعية ثم انقسمت الأولى الى مذاهب أهل الحديث ومذاهب أهل الرأى ومذاهب متوســـطة بين هذه وتلك • فاشـتهر منهـــا المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى • ثم تعـدد العلماء والفقهاء من أتبـاع هذه المذاهب

وكثرت تآليفهم كثرة تكاد تفوق الحصر وبقيت كنزا يحوى من الجواهر الفكرية ما يستحق ان يعد من مفاخر العرب والمسلمين وأن يخلد ذكرهم على مر الدهور ٠

كان الداخل الى المسجد النبوى فى منتصف القرن الثانى الهجرى يرى رجلا طويلا مسنون اللحية أشقر الوجه جميل التياب جليل المنظر فيه مهابة وله وقار ولعينيه بريق ينفذ الى القلوب ، يجلس فى أكبر حلقة علمية فى ذلك التاريخ ، ذلك الرجل هو مالك بن أنس رضى الله عنه قد أتاه الله تعالى بسطة فى العلوم والجسم والخلق وقد اختار ان يكون درسه فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ثالث المساجد التى تشد اليها الرحال ، واختار ان يكون موضع جلوسه فى المكان الذى يجلس فيه عمر بن الخطاب فى قضائه وتدبيره شئون الدولة وفتاويه للناس ٠ وكان أيضا مجلس شـــوراه الخاصـــة الذى يتشاور فيه مع على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعبد اللـــه ابن مسعود وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وغيرهم من فقهاء الصحابة وذوى الرأى منهـــم ٠

مالك ٠٠ ومكانته ومهابته

وقد تحدث أهل المدائن والأمصار باسم مالك وكانت فتاويه تنشر وتذاكر فى مصر والشام وبلاد المغرب كلها ، وكان فى الأندلس الامام الذى لا يذكر بجواره امام حتى كان أهل الأندلس يستسقون بقلنسوته اذ يتخذونها بركة ويضرعون الى الله أن تمطر السماء وهم حاملون لها ٠ وقد كان له سلطان فى المدينة يصل الى سلطان الولاة بها ، وان لم تكن له ولاية ٠ ولقد قال بعض الشعراء فى وصفه :

يأبى الجواب فما يراجـع هيبـة والسائلون نواكس الأذقـــان

أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطـــاع وليس ذا سلطـان

ان تلك المكانة ما جاءته عفوا بل لها أسباب من نشأته ومن جهوده ومن شيوخه ومن شخصه ثم ما أفاض على الناس من علم غزير واستنباط فقهى سليم وادراك لمصالح الناس وعلم بالقرآن والسنة وتنقيح الرواية ونقدها بدراية عميقة مدركة ، وقد عاش فى عصر ماجت فيه فتن كموج البحر وكان هو يركب سفينة النجاة ولا يخوض فيهـــا ، ويستنقذ العلم والفقه والدين بشخصه القوى الذى لا يفرض عليه أمر الا ما كان من أمر الله ونهيه ٠

من بيت عنى بالحديث والفتاية !!

لقد ولد امام دار الهجرة على أرجح الروايات سنة ٩٣ ـ بعد أن استتب الأمر لبنى مروان . وهو ينتمى الى ذوى أصبح ، وهم قوم من اليمن وقد أسلم قومه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكان أهل بيته يعنون بالحديث واستطلاع أخبار الصحابة وفتاويهم ، وقد توارثوا الفتاية بذلك خلفا عن سلف فجده مالك بن أبي عامر كان من كبار التابعين ، روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأم المؤمنين عائشة ، وقد روى عنه بنوه ومنهم أنس أبو الامام ولكن أنسا هذا لم يشتهر بالرواية كما اشتهر عماه ربيع ونافع المكنى بأبى سهيل .

وبهذا يتبين أن مالكا رضى الله عنه قد ولد فى أسرة اشتهرت بالرواية ونشأ بين رواة محدثين وكان الفقه الى ذلك الابان مختلطا بالحديث فلم يكن قد تميز عنه فالرواة يروون فتاوى الصحابة ويطبقونها على الحوادث التى تقع بين ظهرانيهم ويستفتون فيها .

ولذلك اتجه الامام مالك بعد أن حفظ القرآن كشأن كثيرين من المؤمنين وبعد ان تفصح بالعربية الى طلب علم الرواية ، ومع علم الرواية الفقه .

مدينة العلم والرواية

وقد كانت البيئة العامة كبيئتة الخاصة توجهه نحو المعرفة وطلب الرواية فقد ولد وعاش بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره الذى هاجر اليه ومنزل الشرع الاسلامي ومعقد حكم الاسلام الأول ، اذ كانت قصبة الدولة الاسلامية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين .

وقد كان بها فى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه كل فقهاء الصحابة أو جلهم أبقاهم بجواره ليتعرف الرأى القويم من آرائهم وجعل من كبارهم شوراه الخاصة وقد خرج بعضهم منها بعده ولكنهم عادوا اليها بعد أن كانت الفتن والحروب بين المسلمين اذ وجدوا فيها الموئل والمثابة والأمن .

وكذلك قصدها التابعون الذين كانوا يريدون فقه الصحابة الذين لم يجاوزوا حدود المدينة أو آبوا اليها بعد أن خرجوا منها ·

ولقد كانت للمدينة تلك المنزلة العلمية فى العهد الأموى وكانت مهد السنن والفتاوى المأثورة حتى لقد كان الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يكتب الى الأمصار يعلمهم السنن والفقه ويكتب الى أهل المدينة يسألهم عما مضى ويعمل بما عندهم وكتب الى أبى بكر بن حزم من علماء التابعين بالمدينة أن يجمع له السنن ويكتب بها اليه ولكنه توفى قبل أن يتم له ما أراد وهو تعميم فقه التابعين بالمدينة فى كل الأمصار ·

هذه هى البيئة التى عاش فى ظلها مالك وتلك أسرته وكلتاهما تنمى فيه النزوح الى العلم والاتجاه اليه · ولقد كان له بجوار هاتين البيئتين هاد مرشد يدفع ويسدد ولكنه لايظهر فى كثير من الأحوال ، وهو أمه فقد كانت ذات رأى صائب وفكر مستقيم ، وكانت تشرف على توجيه مالك حتى شب عن الطوق · بل انها كانت تختار له شيوخه وترشده الى ما يأخذه من كل واحد منهم لينال من كل شيخ ما عنده فكانت تقول له وهو يذهب الى ربيعة الرأى أحد شيوخه : « اذهب الى ربيعة فتعلم من علمه قبل أدبه » ! وقد كان ربيعة فقيها ذا رأى عميق واستنباط دقيق وله لسان فصيح ، ولعلها رضى الله عنها كانت ترى فى لسانه بعض النبوءات كشأن كثيرين من ذوى الفصاحة فحذرت ولدها فى عبارة رقيقة من أدبه ·

وبهذا التوجيه الكريم والبيئة الخاصة الهادية والبيئة العامة التى تمكن طالب العلم من أن يرد موارده انصرف مالك الناشىء الى العلم وذهب الى مصادره من التابعين رواة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقضيه الصحابة وفتاويهم وأقبل على ذلك باخلاص وجد ودأب ·· كان يذهب الى شيوخه فى كل وقت لايمنعه حر ولا برد ولقد روى عنه انه قال :

« كنت آتى نافعا (مولى عبد الله بن عمر) نصف النهار تظلنى شجرة من الشمس أتحين خروجه فاذا خرج أدعه ساعة كأنى لم أره ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه حتى اذا دخل أقول له كيف قال ابن عمر فى كذا كذا فيجيبنى ثم احبس عنه ، وكان فيه حدة » ·

ولقد كان ينتهز كل فرصة ليخلو الى الشيخ الذى يريده حيث لا ضجة لا صخب ولنتركه يتحدث الينا عن قصته فى تتبع الزهرى الذى كان يسميه (بحر العلوم) فهو يقول :

« شهدت العيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه فسمعته يقول لجارته : انظرى من بالباب

فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك قال : أدخليه فدخلت فقال : ما أراك انصرفت بعد الى منزلك !! قلت : لا . قال : هلا أكلت شيئا ؟ قلت : لا . قال : فما تريد ؟ قلت : تحدثني . قال : هات فأخرجت ألواحي فحدثني بأربعين حديثا فقلت : زدني ، قال : حسبك ، ان كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ . قلت : قد رويتهـا فجبذ الألواح من يدي ثم قال : حدث ، فحدثته بهـا ، فردها الى وقال : « قم فأنت من أوعية العلم » .

شباب يافع .. لكنه وقور !

اتجه هذا الاتجاه الى طلب العلم مع صفة لازمته من وقت ان كان غلاما الى ان صار اماما ، وهي حبه للوقار والاتزان ، وقد مر وهو يافع بأحد شيوخه هو أبو الزناد ، فوجده يحدث في مزدحـم وكان المكان ضيقا فلم يجلس ولم يستمع ولما التقى به من بعد قال له الشيخ عاتبا : ما منعك أن تجلس الى ؟ فقال الشاب الوقور الذي يجل السنة : « كان المكان ضيقا فكرهت ان أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم » .

وقد تلقى من شيوخ كثيرين فقد كان في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي معـدن العلم ، واليها أوى التابعون أو جلهم في عهـد الأمويين والذين اختاروا غيرها مقاما كانوا يجيئون اليها الوقت بعد الآخر لزيارة الروضة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وكان في هذا يتلقى أحاديث الرسول من أصحابه الذين شاهدوا وعاينوا وتلقوا التنزيل وتفسيره من صاحب الرسالة عليه السلام . وكان ينتقي الثقات من أهل الرواية وأهل الدراية وهو يقول : « ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون منه . لقد أدركت سبعين ممن يقولون قال رسول الله ، عند هذه الأساطين » وأشار الى المسجد ، « فما أخذت عنهم شيئا . وان أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أمينا ، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

وبعد أن وعى مالك القوى الفكر والخلق والدين ، ما أدركه من علم أهل عصره ، اتجه عند نضجه في السن والعقل الى الدرس واختار ان يكون مجلس درسـه هو المجلس الذي كان يجلس فيه الامام عمر رضي الله عنه وكان من حسن الاختيار انه كان يسكن في المنزل الذي كان ينزل فيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فالعلم كان يظل فكره في المكان ، كما كان يظله في كل أعماله وكل الأزمان .

وعندما جلس للدرس ، قسم درسه قسمين أحدهما لرواية الحديث والثانى للفقه ، ويسميه المسائل لأنه ما كان يتكلم فى الفقه الا فيما يسأل عنه من وقائع تقع ٠

وكان فى درســـه يبتعد عن الغلو ، مع أنه لم تكن فيه جفوة ولا خشونة ٠ وقد قال بعض تلاميذه كان اذا جلس معنا كأنه واحد منا ، يتبسط معنا فى الحديث ، وهو أشد تعظيما منا له ، فاذا أخذ فى حديث رسول الله تهيبنا كلامه كأننا ماعرفناه ولا عرفنا !!

ومع انه كان المهيب فى عامة أحواله ، فانه فى درسه كان يخص الحديث بسمت خاص يلتزمه ، فكان اذا حدث توضأ وتهيـــأ ، ولبس أحسن ثيابه ٠٠

ولما مرض انتقل درسه الى بيته ومع ذلك كان للدرس سمته ووقاره ٠ يحكى أحد تلاميذه أنه عندما انتقل درسه الى داره : « كان اذا أتاه الناس خرجت اليهم الجارية ، فتقول لهم : أتريدن الحديث أم المسائل ؟ فان قالوا المســائل خرج اليهم فأفتاهم ٠ وان قالوا الحديث قالت لهم : اجلسوا ودخل مغتسلة فاغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا وتعمم ٠ وتلقى له المنصة ولم يكن يجلس على المنصة الا اذا حدث ٠

الموطأ وتصنيفه

فى الكتاب مجموعة من الحديث النبوى وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم تمس شئون الحياة ونظمها حتى منتصف القرن الثانى الهجرى ــ أواسط القرن الثامن الميلادى ٠

ويبدو أن تسمية « الموطأ » كانت تعبيرا عن الحاجة العلمية والعملية الى مؤلفات ميسرة سهلة يجد فيها الناس حاجتهم من الأحكام القانونية العامة والخاصة التى يطمئنون الى مطابقتها للتوجيه الدينى الذى يقدم القرآن خطوطه الكبرى ويتولى الرســـول عليه الســلام بيـــانه ويحتفظ أصحابه منه بما رأوا وسمعوا وتلقوا ٠

ولهذا سميت مجموعات متعددة باســـم « الموطـأ » ونازعت مالكا رحمه الله أولية هذا الصنف من التدوين كما شاركته فى الاسم أيضـــا فقيل مثلا : ان أبا الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج فقيه مكة المتوفى سنة ١٥٠ هـ هو صاحب أول كتاب صنف فى الاسلام كما كان لابراهيم بن أبى يحيى معاصر مالك ومنافسه المتوفى سنة ١٨٤ هـ موطأ اضعاف موطأ مالك لكن موطأ مالك من بينها هو الذى كتب له البقاء وصار

أساسا لبناء مدرسة فقهية عاشت حتى اليوم وذلك لأسباب دينية وعلمية واجتماعية ·

ولو أجمعنا القول فى ذلك لقلنا : ان الموطأ يحتوى ما انتهى الى مالك مما كان يسمى لعهده « العلم » ويرد فى عبارته وعبارات معاصريه بلفظ العلم وهو علم نقلى مروى طريقه تلقى الخالف عن السالف · ويبدو أن هذا العلم النقلى الدينى كان فى ذلك العهد جملة متصلة الأجزاء متداخلة الأقسام لم تتميز فروعها بالأسماء التى عرفت بعد ذلك من علم الحديث وعلم التفسير وعلم الفقه والكلام والتصوف وكذلك احتوى « الموطأ » من ذلك ما لو نظرت اليه على ضوء التقسيم الأخير لكان فنونا مختلفة قد يكون الطابع الفقهى أبرزها والمحتكم فى جمعها وفى ترتيبها كذلك ·

وقد صنف الموطأ أبوابا هى أبواب الفقه الأخيرة أو أقرب ما تكون اليها بعناوينها وبترتيبها كثيرا أو مع شىء من المخالفة ففيه الأبواب التى ترى أخيرا فى كتب الفقه تحت عنوان « العبادات » مع شىء من مغايرة الترتيب اذ بدأ الموطأ بكتاب « وقوت الصلاة » على حين تبدأ كتب الفقه بعد ذلك بكتاب الطهارة ·

وفى الموطأ بعد ذلك أبواب الفقه الأخرى غالبا ، من المعاملات والحدود والفرائض ــ المواريث ــ والأقضية وما الى ذلك ، وان اختلف ترتيب هذه الأبواب عما استقر بعد فى كتب الفقه التى جعلت تلتمس النكت والمناسبات لترتيب تلك الأبواب ، كما تختلف تلك الأبواب توزيعا فى الموطأ عما فى كتب الفقه التالية أيضا ·

فتجمع ما يكون قد فرقه مالك فى أكثر من باب أو تتوسع فى بعض الأبواب ·

ويلى تلك الأبواب أو الكتب كتاب عنوانه « كتاب الجامع » يستهلك نحو ١١٪ من صفحات الموطأ : وفيه فنون من الأعمال والمعارف المختلفة من اجتماعية عملية الى خلقية سلوكية بينها كلامية اعتقادية مما يتحقق به من ان العلم فى ذلك العصر كان يؤلف تلك المجموعة المتداخلة التى لما تتميز حدود أقسامها ·

وهناك علوم اسلامية قد ظهرت بعد ذلك بفعل الزمن واتصال الثقافة الاسلامية بثقافات الأمم السالفة فكانت تلك العلوم مظهر نمو وتقدم نحو مستوى عقلى خاص كعلم أصول الفقه ، فانك لا تجد فى الموطأ الصورة الواضحة لهذا العلم مثلا ·· لكنك تجد ملامح مقررات له قد أخذت صورة القواعد بعد ذلك فقاعدتهم « ان الضرورات تبحن المحظورات » تجدها فى

الموطأ بقول مالك : واذا كانت الضرورة فان دين الله يسر ـ الموطأ بشرح السيوطى المسمى تنوير الحوالك ج ١٢ ص ١١٢ ـ كما ترى قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » أكثر من مرة يلفظها ـ المرجع السابق ٢ : ٢١٨ و ٣ : ٢٨ ٠

وما يتقرر بعد تفصيل من سد الذرائع نرى نواته فى مثل قول مالك : لأنه ذريعة الى الربا وتخوف ان يدار ذلك على هذا الوجه ـ المرجع نفسه ٢ : ١٦٤ ـ وهكذا يقف الموطأ فى تاريخ العلم الدينى موقفا تمثل فيه أتم التمثيل صورة العلم الدينى بالحجاز فى تلك الفترة التى ظهر فيها من عقود القرن الثانى الهجرى ٠

مادة الموطـــأ :

وفى هذا تجد ان الحديث بمعناه الخاص من قول أو فعل أو تقرير هو العنصر المتميز فى مادة الكتاب والطابع الظاهر الذى يسلك الموطأ من أجله فى كتب السنة والمجموعات الحديثية ٠ والحديث هو الذى يصدر به الباب المعنون بتلك العناوين التى ظلت تحملها كتب الفقه لكن مع الحديث أو السنة أو الأثر ـ على اختلاف الاصطلاح فى ذلك ـ مواد اخرى من فتاوى الصحابة وعملهم وقولهم ، ومن فتاوى التابعين وعملهم كذلك ٠ والى جانب ذلك فتاوى مالك فيما سئل فيه وقوله فيما يفهم من الحديث وما يعلق به على المنقول من القول أو الفعل وأحب مايكون من ذلك اليه وأعجبه عنده وأحسنه لديه ٠ وهو بهذا الوضع مطابق للخطة التى روى : أن مالكا رسمها حينما أتى بما ألفه معاصره عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون الفقيه المدنى ـ المتوفى سنة ١٦٦ هـ ـ وقد عنى الماجشون فى تأليفه بما اجتمع عليه أهل المدينة وذكره بغير حديث فقـــال مالك : « ما أحسن ما عمل ، ولو كنت أنا الذى عملت ابتدأت بالآثار ، ثم شددت ذلك بالكلام » ، وكذلك رأيناه فعل فيما عرضنا من المثل السابق وكانت عنايته بالآثار سبب احتساب الموطأ فى أصول السنة حتى الآن مع منزلته الفقهية وصفته الواضحة فى ذلك ٠

وفيما ألم به الموطأ من شئون الحياة فى عصره وقبل ذلك العصر فى حياة الرسول عليه السلام وحياة الصحابة ، بل فيما عرض له من أحداث الحياة فى الجاهلية وما أحدث فيها الاسلام من تغيير واصلاح ٠٠ وفى كل ذلك ما يجعل للموطأ مكانا واضحا وأثرا بارزا فى فروع من الثقـــافة الاسلامية غير الفروع الدينية البحتة وهو ما نقف هنا وقفة خاصة لبيان مكان الموطأ فى تلك الفروع مع ما عرفنا له من مكانتـــه فى الاسلاميات بخاص معناها ، من شريعة ، وخلق ، وعقيدة ، فنتحدث عن :

الموطأ .. فى اللغة والأدب :

ويختلف الرأى فى الاحتجاج على اللغة بالحديث فقوم يجيزون ذلك وآخرون يمنعون وقوم يتوسطون فيجيزون شيئا ويمنعون شـــيئا لكن اذا ذكر « الموطأ » بالذات حق على من يمنع الاحتجاج للغة بالحديث أن يقدر فى « الموطأ » أشياء :

منها : انه نص ظهر فى حدود العصر الذى يحد به زمن الاحتجاج وهو منتصف القرن الثانى الهجرى ·

ومنها : انه فى ميدان الحديث طليعة مبكرة ، تهيأ لها مع تقـــدم الزمن ، بيئة خاصة حجازية ، قد تكون اللغة فيها ذات تأثر بالبيئة التى فيها بقية من السلف المقدر لما يقول ويعلم ، وجها من التقدير على رغم تغير الحال ·

ومنها : انه نص قد نقل متحريا ، الى حد كبير وعلى قدر ما احتملت دقة المنهج النقلى لعهده وقد يدعو ذلك الى شىء من الحرص فى التعبير حتى حينما تكون الرواية بالمعنى ·

ولكل أولئك وغيره ، من أمر هذا « الموطأ » يتريث من ينكر الاحتجاج بالحديث فى تعميم هذا الانكار على الموطأ أيضا ، ثم يجىء مع ذلك ما لمالك صاحب الموطأ من شأن فقد تختلف الرواية عن مدى فصاحته هو نفسه فينقل انه كان يلحن ، وأن الأصمعى لذلك قال : « ما هبت عالما قط ما هبت مالكا حتى لحن فذهبت هيبته من قلبى » ، لكن الأصمعى عينه يثبت لمالك عليه مشيخة لغوية حين يقول : « أخبرنى مالك أن الاستجمار هو الاستطابة ولم أسمعه من غير مالك » ·· وصاحب الموطأ ينبغى مع كل اعتبار أن تقدر فى مدى فصاحته أشياء :

منها : أنه من أهل هذا العصر المتقدم الذى عرف لرجال العلم الدينى فيه شأن لغوى وأدبى ، فالشافعى هو من هو فى الميدان اللغوى وهو تلميذ مالك والأوزاعى له شأن فى الحياة الأدبية وهو معاصر مالك ونظيره فى الشام ، فروح العصر العامة التى اعتبرته عصر احتجاج لغوى بوجه ما ، والروح الخاصة التى جعلت لرجال الحديث هذه المشـــاركة مما ينبغى تقديره عند الحديث عن الموطأ واللغة ، ثم يؤازر ذلك ما يروى ــ ولو كان من المناقب ــ أن مالكا أول من تكلم فى غريب الحديث لأن هذا الكلام عناية لغوية فى نشاط أصحاب الحديث ومالك فوق كل ذلك مجتهد لابد له من العلم باللغة علما يهيىء له استثمار الأحكام من النصوص ــ كما يقولون ــ·

ولكل ذلك من أمر الموطأ ومؤلفه نقدر ما للموطأ من أثر فى الثقافة اللغوية وان نصوصه فى هذا الميدان تثبت وتنفى أو ترجح وتؤيد على أقل تقدير ·

وانه ينبغى أن ينظر فيه من هذه الناحية نظرا أكثر اهتماما من النظر الى ما تأخر عنه من مجموعات الحديث أو كتب الفقه فسيرى الناظر فيه من اللغويات أشياء مثل :

اشباع تاء المخاطبة حتى تنشأ من ذلك الاشباع ياء واضحة على نحو ما نقول الآن فى لغة الحياة ، ويتكرر ذلك فى مواضع من الموطأ منها :

حديث مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فيما لايجوز من النحل — أى الاعطاء بلا عوض — وأن أبا بكر الصديق كان نحلها جاد عشرين وسقا من ماله بالغابة فلما حضرته الوفاة كان مما قال لها بشأن هذا النحل « فلو كنت جددتيه واخترتيه كان لك » فتشبع التاء على ما ترى من الفعلين حتى يكون بعدها ياء وترسم هكذا واضحة فى نسخ الكتاب ·

ومن ذلك أيضا حديث مالك فى باب ما جاء فى أكل الضب من كلام الرسول عليه السلام فى بيت ميمونة بنت الحارث وقوله لها من حوار طويل ما عبارته : « أرأيتك جاريتك التى كنت استأمرتينى فى عتقها أعطيتها أختك وصلى بها رحمك » باثبات تلك الياء التى أشرنا اليها فهذه النصوص الحديثة — ولاسيما فى الموطأ على ما نبين — تسند حكاية يونس عن ان اثبات هذه الياء لغة وتهز انكار الأصمعى لهذه اللغة وتؤيد جعل هذه الياء فى كلامنا اليوم من صحيح العامية على ما ذكره ابن الحنبلى فى كتابه بحر العلوم فيما أصاب فيه العوام ، واحتج له بحديث آخر وهذان الحديثان يزيدان الحجة تأييدا ·

وهكذا يجد الدارس اللغوى فى الموطأ مثل تعبير : « لا هاء الله اذن » ومعناه ، واختلافات أهل العربية بشأنه ووصفهم عمل رواة الحديث فيه وتفسير معانيه وبيان أوجه اعرابه ووقوف من وقف من اللغويين الى جانب رواة الحديث وهو ما لانجد المكان للخوض فى شىء منه وانما نسوقه مثلا لما للموطأ ، بما هو نص له زمان ومكان وظروف خاصة تجعله فى البحث اللغوى شيئا متميزا عما بعده من مراجع حديثية متأخرة عن عصر الاحتجاج ·

واذا ما جاوزنا اللغة بمتنها ونحوها وما يتصل بذلك الى الأدب وأساليبه وثروته من النصوص الفصيحة وقفنا عند الموطأ وقفة كتلك الوقفة فى المجال اللغوى اذ نشعر أن الموطأ بجامعه ، وعصره ، وبيئته ،

وعمله فى الفهم والتخريج يكون بكل أولئك مادة لصاحب الدرس الأدبى يجد فيها من النصوص الأدبية ما يجد من خطب وكتب وعبارات حوار وصيغ تقرير يظفر فيها من الطابع العربى الخالص بما يحفظه ويأنس به كما يجد فى ثنايا هذه النصوص من أعلام الأشخاص والأماكن والوقائع ما يتكامل مع سائر مراجع الأدب فى ذلك · ومن الخير لدارس الأدب فى هذا العصر أن يعرج على هذا الموطأ بما هو نص نثرى منقول نقلا دقيقا يمثل ضربا من الاسلوب الأدبى تلتمس فيه خصائص الأســـاليب فى ذلك الوقت المبكر وتقرر به الصلة التى هدى اليها البحث فيما بين أصحاب هذا العلم الدينى وأصحاب القلم والنثر الأدبى الخاص فى هذا العهد ·· ولا مجال هنا لأكثر من هذه الاشارة اللافتة التى يتولى اتمامها صاحب الدرس الأدبى مستفيدا من الرجوع الى هذا الموطأ فائدة ليست بقليلة ·

الموطأ فى التاريخ والسيرة :

واذا ما نظرنا الى التاريخ فى أول صورته حين بدأ عند القوم نوعا من الحديث وسدادا لما أعوزت اليه الحاجة الماسة ، من معرفة سيرة الرسول عليه السلام وتتبع أحواله استقصاء للسنة بما هى مصدر التشريع ومأخذ الأحكام · ففى هذه الحال يكون الموطأ وثيق الصلة بالتاريخ وبالسيرة لأنه ليس الا مجموعة مبكرة لحديث الرسول وأقوال الصحابة ·· الخ ومن هنا تجد فيه فصولا من السيرة مثل ما جاء فى سائر أبواب الكتاب من قول للرسول وفعل ليس الا شيئا من تاريخه وسيرته يرجع اليه من يريد استيفاء تلك السيرة ·

ولكن مكان الموطأ فى التاريخ والسيرة لايتحدد بهذا المفهوم الأول للتاريخ ، والقصد الأول من السيرة بل حين تتطور النظرة الى التاريخ والسيرة حتى تبلغ المستوى الحالى الآن من العمق والدقة واتخاذ المنهج المحرر المحقق الملائم لمستوى المعرفة اليوم فيظل للموطأ مكانه بين المصادر التى يرجع اليها المؤرخ الدارس بمعنى الكلمة بل نحتاج الى ان نلفت ذلك الدارس الحق الى قيمة هذا المرجع المهم فيما يقصد اليه من درس الحياة العربية قبل الاسلام فى كيانها الداخلى ونظامها الاجتماعى الذى يعنى به المؤرخ الجدير بهذا الاسم وتعوزه المصادر فيه · كما يفيده ذلك الموطأ فى فهم الصلات الخارجية لهؤلاء العرب بمن حولهم من الأمم وهى صلات نادرة المصادر ·· فاذا كان الاسلام وصـــدره الأول ففى الموطأ بأسبقيته وأقدميته مجموعة قيمة فى وصف تلك الحياة فى ميادينهـــا المختلفة من دينية وعلمية وسياسية واقتصادية وغيرها ، فأما السيرة فتلك المجموعة من أقوال الرسول وأفعاله مصدر مباشر تفصيلى لهذه السيرة يمتاز عما سواه من مصادرها الأخرى ·

الموطأ .. والمذهب المالكى

لما حج المنصور اجتمع بالامام مالك وأشار اليه بأن يدون فى كتاب ما ثبت عنده من مسائل العلم فألف كتاب الموطأ فى الحديث والفقه . فلما جاء المهدى حاجا سمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار ثم رحل اليه الرشيد مع أولاده وسمعه منه وأغدق عليه الخير الكثير . ويظهر أن الموطأ وقع من نفس الرشيد موقع الاعجاب ولهذا حاول ان يعلقه فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه لولا أن راجعه فى ذلك الامام مالك .

روى أبو نعيم فى الحلية عن مالك ابن أنس قال : « شاورنى هارون الرشيد فى ان يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت : لا تفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله » .

وقد روى الموطأ عن مالك كثير من العلماء ورواه عنه محمد بن ادريس الشافعى ومحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة . ومن أجل أصحابه الذين تفقهوا عليه ورووه عنه عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وقد صحبه كل منهما نحو عشرين سنة وقد دونا مذهبه مع غيرهما من أصحابه ونقلوه الى أمصار الاسلام ثم نقله عنهم غيرهم ممن تلقاه عنهم من العلماء ، وهكذا أخذ ينتشر حتى غلب على مصر وأفريقيا والأندلس والمغرب الأقصى فى الغرب كما غلب على البصرة وبغداد وغيرها من بلاد المشرق .

وبنى الامام مذهبه على الأصول الأربعة : الكتاب والسنة والاجماع والقياس .

وذكر ابن خلدون انه اختص بمدرك آخر للاحكام ، وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما ينفسون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم ، وهكذا الى الجيل المباشرين لفعل النبى صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه .

وأول من أدخل فقه مالك الى مصر عثمان بن الحكم الجزامى من أصحاب مالك المصريين ، وعبد لرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح ، وكان فقيها روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ . ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين ومن فى

طبقتهم فاشتهر بها أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوافر أصحاب مالك بها .

ولم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم اليها محمد بن ادريس الشافعي ونشر مذهبه بها فشارك مذهب مالك في الشهرة والذيوع وصارت المذاهب الثلاثة ـ الحنفي والمالكي والشافعي ـ تتداول القضاء بمصر حتى غلب الفاطميون عليها ، فأبطلوا العمل بمذاهب أهل السنة . وفي زمن الدولة الايوبية عاد مذهب مالك الى الظهور وبنيت لفقهائه المدارس .. ففي سنة ٥٦٦ هـ بنى لهم صلاح الدين المدرسة القمحية وفي سنة ٦٤١ هـ رتب الصالح نجم الدين أيوب في مدرسته الصالحية بالقاهرة دروسا أربعة للمذاهب الأربعة .

ثم كثر هذا النوع من المدارس بعد ذلك . ثم في دولة المماليك البحرية جعل الظاهر بيبرس القضاة أربعة بعد ان كان القضاء مقصورا على الشافعية في الدولة الايوبية ومن ثم عاد القضاء للمذهب المالكي .

ومع ان القضاء قصر على الحنفية في الدولة العثمانية ، فان مذهب مالك بقي حافظا مركزه في الشهرة والذيوع الى الآن وأكثر انتشاره في الصعيد .

وكان أهل الأندلس ملتزمين مذهب الأوزاعي ، أدخله بها صعصعه بن سلام لما انتقل اليها وبقي مذهبه غالبا بها حتى أدخل مذهب مالك الى الأندلس زياد بن عبد الرحمن القرطبي الملقب بشبطون بعد أن لقي الامام مالكا وأخذ عنه فقهه وذلك في زمن هشام بن عبد الرحمن (١٧١ ـ ١٨٠ هـ) فمن ثم أخذ مذهب مالك في الانتشار والتغلب على مذهب الأوزاعي .

وشبطون أول من أدخل الموطأ الى الأندلس مكملا متقنا ، وقد تلقاه عنه يحيى بن يحيى بن كثير وبعد أن أخذه عنه حج وسمعه من الامام مالك الا أبوابا منه ثم أخذ عن ابن وهب وابن القاسم وغيرهما كثيرا من العلم وعاد الى الأندلس فاشتهر أمره وتفقه عليه كثير من أهل الأندلس واختص به الحكم بن هشام الملقب بالمنتصر (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) ، فنال من الرياسة والسلطان ما لم ينله غيره .

وصارت الفتيا اليه فكان لا يقلد قاض في جميع أعمال الأندلس الا باشارته واعتنائه ، ولا يقلد الا من كان على مذهب مالك فاتبع الناس مذهبه وتركوا مذهب الأوزاعي ولم تنته المائة الثانية من الهجرة حتى أخذ مذهب الأوزاعي في الزوال ثم لم يلبث أن تقلص ظله بالأندلس وساد المذهب المالكي .

ويظهر أن ثلاثة أسباب اجتمعت فكان لها أكبر أثر في انتشار مذهب مالك بالأندلس وسيادته في أرجائها :

الأول : ما ذكر في نفح الطيب وغيره من ان الأمير هشام بن عبدالرحمن قد نقل اليه ما عليه الامام مالك من سعة العلم وجلالة القدر والتقوى ، وانه عندما سمع بسيرته من بعض الأندلسيين قال لهم : « نسأل الله ان يزين حرمنا بملككم » فأحب مالكا ومذهبه وحمل الناس على اتباعه .

الثاني : ما حصل في زمن الحكم بن هشام من تمكن يحيى بن يحيى منه ، وجعله القضاء والافتاء في الأندلس مقصورين على المالكية . فقد جعل هذا الناس يتفقهون على مذهب مالك رغبة فيما عند السلطان من الوظائف وحرصا على طلب الدنيا .

لأنه ما كان يتولى الفتيا أو القضاء في المدن والقرى الا من تسمى بالفقه على مذهب مالك . وقد جرى العامة اثر الخاصة في ذلك اتباعا لأحكام القضاة وفتاوى العلماء .

والثالث : أن أهل الأندلس كانت تغلب عليهم البداوة وأهل الحجاز كانوا كذلك . ولما كان مذهب مالك قد نشأ في وسط الحجاز ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كان أوفق لطبيعة الأندلسيين ومزاجهم الفطري.

وكان الغالب في أهل أفريقيا المذهب الحنفي الى ان ولى سحنون بن سعيد التنوخي قضاء أفريقيا بعد أسد بن الفرات فنشر فيها مذهب مالك وصار القضاء في أصحابه . ولما تولى المعز بن باديس على أفريقيا عام ٤٠٧ هـ حمل أهلها وأهل ما ولاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي وترك ما عداه من المذاهب الأخرى فاستمرت له الغلبة على أفريقيا وعلى سائر بلاد المغرب .

وفي زمن دولة بني تاشفين بالمغرب الأقصى والأندلس ، كان علي بن يوسف بن تاشفين ـ ثاني أمرائهم (٥٠٠ ـ ٥٣٥) يقدم أهل الفقه ويؤثرهم على غيرهم ، ولم يكن يقرب منهم ويحظى عندهم الا من كان عنده علم مذهب مالك . وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء بألا يبتوا حكومة في صغير الأمور وكبيرها الا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فنفقت في زمنه كتب مذهب مالك وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها.

وفي زمن دولة الموحدين بالمغرب جمع الناس على مذهب مالك في الفروع عبد المؤمن بن علي ثاني خلفائهم (٥٢٤ ـ ٥٥٨ هـ) . ولكن في زمن حفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ) انقطع علم الفروع وأمر باحراق كتب مذهب مالك بعد أن جرد ما فيها من القرآن والحديث ، فأحرق منها جملة في كافة البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب

ابن يونس ، ونادر بن أبى زيد ومختصره ، والتهذيب للبرادعى . وواضحة ابن حبيب ، وغير ذلك من الكتب ، وأمر بجمع أحاديث من الصحيحين والترمذى والموطأ وسنن أبى داود والنسائى والبزار والدارقطنى والبيهقى ومسند ابن أبى شيبة فى الصلاة وما يتعلق بها . فكان يملى هذا المجموع بنفسه على الناس ويأخذهم لحفظه ويجعل لمن يحفظه الجعل السنى من الكسى والأموال .

وكان على مذهب أهل الظاهر ، ولهذا عظم أمر الظاهرية فى مدته بالمغرب ولكنهم كانوا معمورين بالمالكية .

وعلى الرغم مما حصل فان مذهب المالكية بقى غالبا فى بلاد المغرب الأقصى ولايزال كذلك الى اليوم وهو الغالب أيضا على الجزائر وتونس وطرابلس .

هذا ما كان من شأن مذهب مالك فى المغرب . أما فى المشرق ، فقد نقل الى بغداد وظهر بها ظهورا واضحا وزاحم فيها مذهب أبى حنيفة . ولكن أنصاره صاروا قلة بعد القرن الرابع ، ونقل أيضا الى البصرة وبقى بها الى القرن الخامس ثم ضعف شأنه بها ، ولايزال له بقية من مقلديه فى بلاد العراق الى الآن . كذلك مقلدوه على قلة اليوم فى أرض الحجاز . وقد انتشر باليمن ثم تلاشى .. وهو المذهب الغالب الآن فى أرض الكويت وقطر والبحرين وأكثر أهل السنة فى الاحساء مالكية وحنابلة .

أما فى مصر فيغلب على أهل الصعيد ، كما انه غالب على أهل السودان .

ويقرر الأقدمون جيلا بعد جيل ، أن مالكا لم يشتهر عنه غير الموطأ ، فهو الذى واظب على اسماعه وروايته ، وحذفه منه ، وتلخيصه له ، شيئا بعد شىء حتى آخر حياته .

وقد كانت العناية به منذ القرن الثانى الى اليوم تناسب هذا الاشتهار ، فبدأ ذلك بروايته وتلقيه وتعددت لذلك نسخه حتى بلغت أربعة عشر أصلا فى الأقاليم المختلفة ، يمثل كل أصل رواية ناقل خاص عنه ، وكان من هؤلاء الناقلين من له شأن فى مدرسة فقهية أخرى كمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة المعروف .. وروى الموطأ عن مالك رواة لم ينفردوا بنسخ خاصة وقد بلغ عدد هؤلاء كثرة كاثرة ، وفى ذلك كله دلالة على الاهتمام .

وتلا هذا التلقى النشط اجتهاد حافل بدراسات منوعة فى الموطأ استمرت الى عصرنا من شروح كثيرة الى شروح لشىء منه كالشواهد ، الى عناية خاصة برجاله وحالهم الى تتبع لاختلاف الموطئات الى كذا وكذا

مما لو حاولنا سرد شيء منه لاستغرق صفحات ، وقد ضاع من ذلك ما ضاع وبقى منه كثير وصلنا ٠

وقد طبع من تلك الدراسات ما طبع فى المشرق والمغرب ولايزال يطبع منه جديد وجديد ٠

ومما قيل شعرا فى مدح « الموطأ » هذه الأبيات لسعدون الوارجينى :

اذا أحببت أن تدعى لدى الناس عالما ... فلا تعد ما تحوى من العلم «يثرب»

أتترك دارا كان بين بيوتهـــا ... يروح ويغدو وجبرئيل المقرب ؟

ومات رســـول الله فيها ، وبعده ... بسنته أصـــحابه قد تأدبـوا

وفرق شـــمل العـــلم فى تابعيهم ... فكل امرىء منهم له فيـــه مذهب

فخلصه بالسبك للناس « مالك » ... ومنه صحيح فى المجس وأجرب

فبـــادر موطـــأ مالك قبل موتـــه ... فما بعده ان فات للحق مطلب

ودع للموطأ كـــل علم تريده ... فان الموطأ الشمس ، والغير كوكب

ومن لم يكن كتب الموطأ ببيتـــه ... فذاك من التوفيق بيت مخيب

جزى الله عنا فى موطأه مالكا ... بأفضل مايجرى اللبيب المهذب

لقـــد فاق أهل العلم حيا وميتا ... فصارت به الأمثال فى الناس تضرب

العقد الفريد

ابن عبدربه

٩٣٠ م

احمد بن عبد ربه والعقد الفريد

ان أحمد بن محمد بن عبد ربه عاش نيفا وثمانين عاما فى الأندلس بمدينة قرطبة مولدا ووفاة بين عامى ٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ أى انه عاش النصف الأخير من القرن الثالث وأكثر قليلا من الربع الأول من القرن الرابع ، فقد عاش اذن فى الفترة التى كانت الأندلس تبنى فيها شخصيتها العربية الاسلامية ، وذلك بالاقبال على العلم والدرس والتحصيل اعتمادا على العلوم والمؤلفات الوافدة بكثرة ووفرة من المشرق العربى والاسلامى ٠

ولقد عاش أحمد بن عبد ربه ناسكا فى محراب العلم عاكفا على أسباب الثقافة متحليا بالخلق والدين والورع بحيث أجمع كل من أرخ له انه كان أهل علم وأدب ورياسة وشهرة مع ديانة وصيانة وكان موضعا لاحترام الملوك الأندلسيين الكبار ٠

وقد كان ملوك الأندلس جميعا وبغير استثناء يحترمون العلماء ويضعونهم موضعهم من الاجلال والتقدير والاحترام ، ذلك لأنهم كانوا ملوكا مثقفين على علم وأدب ، وفى نفس الوقت كان العلماء متحلين بأخلاق العلم لابسين ثوب الحشمة والوقار غير متهافتين على المناصب ولا مترخصين فى سلوكهم ولا متهاونين فى كراماتهم ، الأمر الذى جعل الملوك يحترمونهم ويخشون نقدهم ويتحاشون جانب الاعتداء عليهم بل انهم كانوا يستمعون منهم الى النقد العنيف اذا ماندت بدوة من ملك أو سقطة من سلطان فلا يملك هذا الملك أو ذاك على جليل ملكه ورفعة شأنه الا الطاعة للعالم والامتثال لنصائحه ٠

ان أحمد بن عبد ربه عاش فى هذا المحيط ونال التكريم من ثلاثة ملوك كبار عاصرهم وعايشهم ومدح مواطن المدح فيهم وهم : المنذر بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط الذى قال عنه المؤرخون انه لم يكن أحد من الخلفاء قبله فى شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه ، وعبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط الشجاع الأديب الباطش الشديد التواضع ، وعبد الرحمن الناصر أشهر ملوك الدنيا وأسعدهم حظا وأطولهم فترة حكم ٠

لقد مدح ابن عبد ربه هؤلاء الملوك الثلاثة بل لقـــد ضـــمن كتابه « العقد الفريد » شعرا طويلا فى التأريخ لانتصارات الناصر لدين الله ، ومن ثم فقد كان الرجل على ولاء شديد واعجاب أشد بهؤلاء الملوك الذين تحلوا بالأدب واتصفوا بالشجاعة وتجملوا باحترام العلم واجلال العلماء ·

وابن عبد ربه يبدو شخصية واضحة المعالم من ناحية علمه وأدبه وخلقه وسلوكه فى آثاره الأدبية والعلمية التى تركها بين يدى الدارسين والمؤرخين والمتأدبين وهذه الآثـــار تتمثل فى شـــعره وفى كتـــابه « العقد الفريد » ·

فأما ابن عبد ربه الشاعر فان مكانته بين شعراء الأندلس تأتى فى الصدارة رغم ان الدارسين المحدثين لم يعنوا بذلك وربما كان السبب فى ذلك هو ضياع شعر الأديب الكبير الذى كان مجموعه فيما يذكر الحميدى نيفا وعشرين جزءا هى جملة ما جمعه الأدباء من شعره للحكم المستنصر الذى فتن بالكتب فانشأ مكتبة كبيرة فريدة فى ترتيبها وتنسيقها بين مكتبات ذلك الزمان ·

على ان المهم فى شعر ابن عبد ربه ليس الكم والعدد ولكنه الكيف والفن والتجديد فقد تواترت الأخبار الأدبية وبخاصـــة عند ابن بسام صاحب « الذخيرة » ان أحمد بن عبد ربه هو أول من أنشأ « الموشحات » ·

ان أحمد بن عبد ربه يعتبر على كل حال ــ فى نطاق الخبر الذى أورده عنه ابن بسام واحدا من رواد الابداع والتجديد فى الشعر الأندلسى بل ان ابن سعيد وهو من هو فى تاريخ أدب الأندلس يقول عنه انه : « امام أهل المائة الرابعة وفرسان شعرائها فى المغرب كله » ·

عقول الناس مدونة فى أطراف أقلامهم !!

فاذا ما عرضنا لكتاب ابن عبد ربه من عنوانه وجدناه صورة من صاحبه فالتسمية تسمية ناعمة « العقد الفريد » جمعت الى خيال الشاعر واقع الأدب وقد قصد المؤلف الى هذه التسمية قصدا فهو قد تصور كل باب من أبواب الكتاب جوهرة من جواهر العقد فى جيد الحسناء ، وعقد الحسناء يتكون من خمس وعشرين حبة ثمينة لكل واحدة منها اسم فى اللغـة والعرف وأثمنها عادة هى الحبة الوسطى التى يكون عن يمينها اثنتا عشرة حبة وعن يسارها مثلها · والحبة الوسطى تسمى الواسطة ومن هنا شبه كل شىء نفيس بين أقرانه بواسطة العقد أى الأفضل بينهم فاذا تصورنا عقدا فى جيد حسناء فان أثمن حبة هى الواسطة وكل حبة عن

اليمين أو اليسار هى على الترتيب : المجنبة ، ثم العسجدة ، ثم اليتيمة ، ثم الدرة ، ثم الزمردة ، ثم الجوهرة ، ثم الياقوتة ، ثم المرجانة ، ثم الجمانة ، ثم الزبرجدة ، ثم الفريدة ، ثم اللؤلؤة وعلى هذا النسق اذا أردنا أن نتصور العقد بشكل أوضح تكون كل من الحبتين الأوليين فى طرفى العقد اللؤلؤة والحبتين اللتين تليانهما الفريدة وهكذا حتى نصل الى الواسطة ٠

وابن عبد ربه كصاحب مؤلف ضخم قضى فى تأليفه وجمعه وتنسيقه وتبويبه سنوات طوالا لم يفته شأن كل مؤلف عربى نابه ان يقدم لقارئه منهاج كتابه وهو منهج يخضعه صاحبه للمنطق العلمى ويقنع به القارىء ويتلمس لذلك الأسباب من قول الحكماء والبلغاء ضاربا المثل بأقوال لجعفر البرمكى الأديب وكلثوم بن عمرو العتابى الحكيم البليغ ويورد ابن عبد ربه أخباره ورواياته بدون اسناد فى أكثر الأحيان ويتوقع ان ذلك النهج سوف يثير تساؤلات القارىء اللبيب الحصيف لأن العرب قد ألفوا أن يردوا كل حديث الى مصدره وكل خبر الى منبعه عن طريق الاسناد الصحيح فيعد المؤلف اجابة بارعة التعليل على هذا التساؤل المتوقع وهكذا نلمس فى الرجل منهج العالم وذكاء الأديب فلنستمع اليه يقدم كتابه وموضوعاته على النهج الذى رسمه والوضع الذى اختاره والنسق الذى تصوره :

« وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وانما لى فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وفرش فى صدر كل كتاب ، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء ، واختيار الكلام الصعب من تأليفه ٠ وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله ٠

وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك اذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : « عقول الناس مدونة فى أطراف أقلامهم ، وظاهرة فى حسن اختيارهم » ٠

فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعانى وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته بابا على حدته ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره فى كل باب ٠

وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرا وأظهرها رونقا وألطفها معنى وأجزلها لفظا وأحسنها ديباجة وأكثرها طلاوة وحلاوة أخذا بقول الله تبارك وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ٠

وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويتحدثون أحسن ما يحفظون ٠

وقال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل شيء أحسنه ٠

وفيما بين ذلك سقط الرأى وزلل القول ولكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ٠

وفى بعض الكتب : انفرد الله تعالى بالكمال ولم يبرأ أحد من النقصان ٠ وقيل للعتابى هل تعلم أحدا لا عيب فيه ؟ قال : ان الذى لا عيب فيه لا يموت أبدا ولا سبيل الى السلامة من ألسنة العامة ٠

وقال العتابى : من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرق للألسن الا عند من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى وقليل ما هم ٠

وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والايجاز وهربا من التثقيل والتطويل لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها ٠

وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة وشريعة مفروضة فكيف لا نحذفه من نادرة شاردة ومثل سائر وخبر مستطرف وحديث يذهب نوره اذا طال وكثر ٠

سأل حفص بن غياث الأعمش عن اسناد الحديث فأخذ بحلقه واسنده الى حائط وقال هذا اسناده !

وحدث ابن السماك بحديث فقيل له ما اسناده ؟ فقال : هو من المرسلات عرفا ٠

وروى الأصمعى خبرا فسئل عن اسناده فقال : هو من الآيات المحكمات التى لا تحتاج الى دليل وحجة ٠

وحدث الحسن البصرى بحديث فقيل له : يا أبا سعيد عمن ؟ قال : وما تصنع بعمن يابن أخى ؟ أما أنت فنالتك موعظة وقامت عليك حجته ٠

وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرفة فى فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافيا شافيا جامعا لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ٠ وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقها فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ليعلن الناظر

في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظا من المنظوم والمنثور ·

وسميته كتاب (العقد الفريد) لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة السلك وحسن النظام وجزأته على خمسة وعشرين كتابا كل كتاب منها جزآن فتلك خمسون جزءا فى خمسة وعشرين كتابا قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد فأولها :

كتاب اللؤلؤة فى السلطان ·

ثم كتاب الفريدة فى الحروب ومدار أمرها ·

ثم كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد ·

ثم كتاب الجمانة فى الوفود ·

ثم كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك ·

ثم كتاب الياقوتة فى العلم والأدب ·

ثم كتاب الجوهرة فى الأمثال ·

ثم كتاب الزمردة فى المواعظ والزهد ·

ثم كتاب الدرة فى التعازى والمراثى ·

ثم كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ·

ثم كتاب العسجدة فى كلام الأعراب ·

ثم كتاب المجنبة فى الأجوبة ·

ثم كتاب الواسطة فى الخطب ·

ثم كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة ·

ثم كتاب العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم ·

ثم كتاب اليتيمة الثانيـــة فى أخبـــار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ·

ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ·

ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ·

ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى ·

ثم كتاب الياقوتة الثانية فى علم الألحان واختلاف الناس فيه ·

ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ·

ثم كتاب الجمـــانة الثانيـــة فى المتنبئين والمرورين والبخـــلاء والطفيليين ·

ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان ·

ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب ·

ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى النتف والهدايا والفكاهات والملح » ·

★★★

تأليف مقسم على عدة فنون فى خمسة وعشرين كتـــابا انفرد كل كتاب باسم جوهرة من جواهر العقد ، بحيث ان كلا منها سميت باسم التى تقابلها من الجانب الآخر وبذلك تكون أولى جواهر العقد وأخراه على اسم واحد : ففى العقد لؤلؤتان وزبرجدتان وياقوتتان وجمانتان وهلم جرا · ولعل من الخير أن نذكر جدولا كاملا بها ·

١ ــ اللؤلؤة فى السلطان ·
٢ ــ الفريدة فى الحروب ·
٣ ــ الزبرجدة فى الأجواد ·
٤ ــ الجمانة فى الوفود ·
٥ ــ المرجانة فى مخاطبة الملوك ·
٦ ــ الياقوتة فى العلم والأدب ·
٧ ــ الجوهرة فى الأمثال ·
٨ ــ الزمردة فى المواعظ والزهد ·
٩ ــ الدرة فى التعازى والمراثى ·
١٠ ــ اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ·
١١ ــ العسجدة فى كلام الأعراب ·
١٢ ــ المجنبة فى الأجوبة ·
١٣ ــ الواسطة فى الخطب ·
١٤ ــ المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول ·

١٥ ـ العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم ٠
١٦ ـ اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج ٠
١٧ ـ الدرة الثانية فى أيام العرب ٠
١٨ ـ الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ٠
١٩ ـ الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر ٠
٢٠ ـ الياقوتة الثانية فى الألحان ٠
٢١ ـ المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ٠
٢٢ ـ الجمانة الثانية فى المتنبئين والموسومين ٠
٢٣ ـ الزبرجدة الثانية فى طبائع الانسان ٠
٢٤ ـ الفريدة الثانية فى الطعام والشراب ٠
٢٥ ـ اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح ٠

يتبين من عناوين الكتب التى يضمها العقد شىء من الأبحاث التى تدور عليها ، فهو يبحث فى السلطان وسياسته والحروب ومدار أمرها والأمثال والمواعظ والتعازى والمراثى وكلام الأعراب وخطبهم وأنسابهم وعملهم وأدبهم ومخاطبة الملوك وأخبار الوفود وأخبار الخلفاء وتاريخهم والنساء وصفاتهن وطبائع الانسان والطعام والشراب وأعاريض الشعر وعلل القوافى وغير ذلك ٠ وفى كتاب السلطان مثلا يذكر ابن عبد ربه أخبارا عن اختيار السلطان لأهل عمله وحسن السياسة واقامة المملكة وبسط العدالة ورد المظالم وصلاح الرعية وحزم السلطان وعزمه والتعرض له والرد عليه وحلمه وغضبه وحجابه وقضاته الخ ٠ ويذكر مع هذا أخبارا تاريخية فيستشهد مثلا بقصص عن عمر بن الخطاب ومعاوية ومروان ابن عبد العزيز وأبى جعفر المنصور من الخلفاء ، وزياد والحجاج وغيرهما من القواد والأمراء ، وكذلك شأنه فى كل الكتب التى يضمها العقد فهو ينثر فيها فوائد تاريخية ثمينة نقلها عن المتقدمين ٠ كما أن العقد مجموعة أدبية قيمة فقهية ومنتخبات من الخطب والرسائل والأمثال وفيه أشعار لعدد كبير من الشعراء ، وفيه أخبار عن بعضهم قد لا نجدها فى غيره من المصادر ٠

نماذج العقد

لو أردنا استقصاء أنماط الموضوعات فى العقد حتى نأتى لكل منها بنموذج واحد ممثلة لاحتجنا الى عشرات الصفحات ولذلك ، نكتفى بهذا القدر القليل للدلالة على بعض معالم العقد من حيث محتوياته ومصادره ومنهجه ٠

ـــ تفرق الخـــوارج :

تحت عنوان « باب من أخبـار الأزارقة » أورد مؤلفنـا بدء ظهور الخوارج فى عهـد الامام على وحربهم معـه ثم حروبهم مع أوائل الأمراء الأمويين وأبطالهم وأخبارهم حتى هزمهم المهلب بن أبى صـــفرة وكان اختلافهم من أسباب هزيمتهم وختم الباب ـ وهو آخر « كتاب الفريدة فى الحروب » ـ بذكر تفرقهم على النحو التالى فقال :

« وتفرقت مقالة الخوارج على أربعـة أحزاب فقال نافع بن الأزرق باستعراض النـاس والبراءة من عثمان وعلى وطلحة والزبير واستحلال الأمانة وقتل الأطفال وقال أبو بهس هيصم بن جابر الضبعى : ان أعداءنا كأعداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحل لنا المقـام فيهم كما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المسلمون بين المشركين وأقول : ان مناكحتهم وموارثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الاسلام ، وان حكمهم عند الله حكم المشركين ، وقال عبد الله بن اباض : لا نقول فيمن خالفنا انه مشرك لأن معهم التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول ، انما هم كفار للنعم ومواريثهم ومناكيحهم والاقامة معهم حل ودعوة الاسلام تجمعهم ٠

وقالت الصفيرة بقول عبد الله بن اباض ورأت القعود ، حتى صارت عامتهم قعدا وانما سموا صفرية لاصفرار وجوههم وقيل : لأنه أصحاب ابن الصفار » ٠

ـــ ترجمة هشام بن عبد الرحمن الداخل :

(ثم ولى هشام بن عبد الرحمن لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين ومائة ومات فى صفر ســنة ثمانين ومائة وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ومات وهو ابن احدى وثلاثين سنة وهو أحسن الناس وجها وأشرفهم نفسا الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة الذى أخذ الزكاة على حلها ووضعها فى حقها لم يعرف منه هفوة فى حداثته ولا زلة فى أيام صباه ورآه يوما أبوه وهو مقبل ممتلئا شبابا فأعجبه فقال: ياليت نساء بنى هاشم أبصرته حتى يعدن فوارك ٠ وكان هشام يصر الصرر بالأموال فى ليالى المطر والظلمة ويبعث بها الى المساجد فيعطى من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد وأوصى رجل فى زمن هشام بمال فى فك سبية من أرض العـدو فطلبت فلم توجد احتراســا منه للثغر واستنقاذا لأهل السبى) ٠

ـــ خطبة للحجاج عند موت عبد الملك بن مروان وتولية ابنه الوليد :

(قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ان الله ـ تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم الى نفسه فقال : انك ميت

وهم ميتون وقال : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ؟ فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات الخلفاء الراشدون المهتدون منهم أبو بكر ثم عثمان الشهيد المظلوم ثم تبعهم معاوية ثم وليكم البازل الذكر الذى جربته الأمور وأحكمته التجارب مع الفقه وقراءة القرآن والمروءة الظاهرة واللين لأهل الحق والوطء لأهل الزيغ فكان رابعا من الولاة المهديين الراشدين فاختار الله له مما عنده وألحقه بهم وعهد الى شبهه فى العقل والمروءة والحزم والقيام بأمر الله وخلافته فاسمعوا وأطيعوا ·

أيها الناس اياكم والزيغ فان الزيغ لا يحيق الا بأهله وقد رأيتم سيرتى فيكم وعرفت خلافكم وطيبكم على معرفتى بكم ولو علمت ان أحدا أقوى عليكم منى وأعرف بكم ما وليتكم فاياى واياكم ، من تكلم قتلناه ومن سكت مات بدائه غما » ثم نزل) ·

— نموذج من شعره ومباهاته به :

(ومن قولنا فى رقة التشبيب وحسن التشبيه :

كم سوسن لطف الحيـاء بلونه
فأصـار وردا على وجناتـــه

ومثله :

يا لؤلؤا يسبى العقول أنيقـا
ورشا بتقطيع القلوب رقيقـا

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
درا يعـود من الحيـاء عقيقـا

ونظير هذا من قولنا فى رقة التشبيب وحسن التشبيه والبديع الذى لا نظير له والغريب الذى لم يسبق اليه :

حوراء راعتهـا النوى فى حور
حكمت لواحظهـا على المقـدور

نظـرت الى بمقلة ادمانـــه
وتلفتت بسـوالف اليعفـور

فكأنما غلط الأسى بجفونهـا
حتى أتـاك بلؤلؤ منثـور

ونظير هذا من قولنا ··· ومثله ···) ·

ـــ شروط الأديب :

تحت عنوان « باب من مقاطع الشعر ومخارجه » أورد مؤلفنا أمثلة من أخطاء الشعراء في الأساليب ثم أورد توجيهات سديدة في النقد والأدب ومنها في شروط الأديب قوله :

واعلم أنه لا يصلح لك شيء من المنثور والمنظوم الا أن يجرى منه على عرف وان يتمسك منه بسبب فأما ان كان غير مناسب لطبيعتك وغير ملائم لقريحتك فلا تنض مطيتك في الناس ولا تتعب نفسك الى انبعاثه باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم فان ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك وملتحمة بطبعك واعلم ان من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه واستضاءته بكوكب من سبقه وسحب ذيل حله غيره ، ولم تكن معه أداة تولد من بنات ذهنه ونتائج فكرة الكلام الحزم والمعنى الجزل ـ لم يكن من الصـــنعة في عير ولا نفير ولا ورد ولا صدر على أن كلام الفصحاء المطبوعين ودرس وسائل الشعر من المتقدمين هو ـ على كل حال ـ مما يفتق اللسان ويقوى البيان ويحد الذهن ويستحد الطبع ان كان فيه بقية وهناك خبية) .

★★★

واذا غضضنا النظر عن الدرر والجواهر التى جعل المؤلف من كل واحدة منها عنوانا لموضوع من موضوعات كتابه ، فاننا يمكن أن ننتهى الى القول بأن الكتاب موسوعة ثقافية عربية كبيرة تشـــمل الفنون الأدبية والفكرية على النحو التالى :

أولا : الشعر بمختلف موضوعاته : كل قصيدة أو مقطوعة يذكرها المؤلف حسب الغرض الذى استهدفه من التمثل بها . وهو يختار نماذجه بعناية فائقة يعمل فيها ذوقه الفنى كشاعر صاحب اجادة وامتياز . هذا وكثير من فصول الكتاب يكاد الشعر يكون العنصر الأساسى فى تكوينها كما هو الحال فى « كتاب الفريدة » الذى خصصه للحرب وهى مجال رحيب للتمثل بشعر الحماسة والمواقع الحربية . ولا يكتفى ابن عبد ربه فى هذا المجال بالنماذج الكثيرة التى يوردها لكبار الشعراء وانما يتمثل بشعره أيضا قائلا : « ومن قولنا فى وصف الرمح » أو « ومن قولنا فى وصف الفرس » وغير ذلك من الموضوعات التى كتب فيها بحيث جعل من كتابه بستانا نثر فى جنباته أزاهير شعره وأبكارها بل انه يخص الشعر بأكثر من دراسة فى أكثر من باب ويبدو ذلك واضحا فى كتاب الزمردة الثانية الذى جعله فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه وكتاب الجوهرة الثانية الذى جعله فى أعاريض الشعر وعلله وقوافيه فالمؤلف والحال كذلك لم يجعل من الشعر وسيلة استشهاد وأداة تمثل ، وغاية اطراف وحسب ، وانما قدم عنه دراسة نقدية فنية عروضية .

ثانيا : الخطابة وهى تتمشى فى كيان الكتاب وجوهره وفى مواضع كثيرة كل فى مكانها من فصول الكتاب هذا فضلا عن الحشد الكبير من الخطب التى زين بها ابن عبد ربه أعطاف عقده وركز عليها فى « واسطة » العقد ، فخصص الواسطة كلها للخطب . لقد استهله بخطبة الوداع للرسول صلى الله عليه وسلم ثم ثنى بعدد من خطب الخليفة أبى بكر الصديق وقدر مماثل لها للفاروق عمر وخطبة واحدة قصيرة للخليفة عثمان ـ اذ لم يكن له كبير مشاركة فى الخطابة ـ ثم أورد عددا كبيرا من خطب الامام على بن أبى طالب وخطبا كثيرة لكل واحد من ملوك بنى أمية وقوادهم . وأخرى كثيرة لملوك بنى العباسى ثم عرج على خطب من عرفوا بالفصاحة والابانة من العرب والمسلمين فتمثل لكل منهم بخطبة أو أكثر مثل أم المؤمنين عائشة وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وجعل فصلا من « الواسطة » لخطب أوردها من أخبار حول أحداث اجتماعية وجوانب شعبية لم نألف التعرف عليها الا عند القلة من صفوة المؤرخين العرب .

وعلى الرغم من أن الكتاب اهتم بالمشرق اهتماما كليا فانه لم يهمل تاريخ الأمراء الأمويين بالأندلس ابتداء من عبد الرحمن بن معاوية الذى لقب بالداخل وانتهاء بعبد الرحمن بن محمد الذى عرف بعبد الرحمن الناصر .

وهو الملك الذى مات المؤلف ابان حكمة بل انه زاد على ذلك بأن أرخ لعبد الرحمن الناصر وحروبه ووقائعه ومغازيه حتى سنة ٣٢٢ هـ فى أرجوزة مفرطة الطول زادت على الأربعمائة والخمسين بيتا .

ثالثا : اهتم الكتاب بالعرب وأنسابهم وأمثالهم وهما العدة الأولى لمن يريد أن يلج باب الدراسات العربية من مدخله الصحيح فعقد بابا كاملا هو كتاب الجوهرة وخصصه للأمثال . وليس المقصود بالأمثال هنا تلك الأمثال التى تضرب للأمر فى المناسبات بعينها وانما هناك التمثيل للمعانى والقيم . وهذا الباب بما جمع من شعر وبلاغة من الثراء والنفاسة بمكان . وباب آخر كاملا هو كتاب اليتيمة وخصصة لنسب العرب وفضائلهم وقد ذكر فى هذا الباب أكثر من مائتين من أسماء القبائل والبطون والأفخاذ والرهوط والبيوتات فى سعة وافاضة ، كما اهتم بكلام العرب فى باب كامل طريف هو كتاب العسجدة وجعله فى كلام الأعراب ويمكن أن ندرج تحت هذا الموضوع بابا هو كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ومن ثم فان للعرب نسبا وأياما وثقافة ولهجات موضوعا رحيبا فى العقد الفريد .

رابعا : نالت الأخلاق والزهد والتدين نصيبا لا بأس به فى العقد ففى كتاب الأمثال فصل نفيس عن الأمثال فى مكارم الأخلاق والأمثال فى

القربى ، وان فصل الزهد بأكمله يدعو الى التدين ومعرفة الله ملىء بالأدعية الصالحة وهو بعيد كل البعد عن التشجيع على ترك الدنيا تماما وانما يضع المعايير الطيبة للحياة الصالحة مع قدر من المعرفة بالزهد وحياة بعض الزهاد · هذا والفصل الخاص بالتعازى من كتاب التعازى والمراثى لما يؤنس وحشة المحزون ويرد الجزوع الى رحاب الهدوء والسلو والاطمئنان ، كما ان كلا من باب الأجواد وباب مخاطبة الملوك يحتوى على كثير من نماذج نقاء السلوك والاريحية وحسن التعامل مع الناس والمجتمع ·

خامسا : لم يهمل صاحب العقد الامتاع النفسى والتسرية عن القارىء الذى ينشد القراءة الخفيفة لسلوى ينشدها أو هم يزيحه فأنشا ثلاثة أبواب لطيفة أحدها فى الألحان وهو كتاب الياقوتة الثانية عرض فيه للألحان وأعذبها ورأى الدين فيها كما عرض لنوادر المغنين وبعض المغرمين بالسماع وأخبار القيان وأعذب ما تغنى به من الشعر · والكتاب الفكه الثانى هو كتاب الجمانة الثانية جعله المؤلف عن المجانين والبخلاء والطفيليين وأخبارهم وسلوكهم وحوداثهم وظرفهم وهى صفحات تدفع الكثير من الهموم عن نفس قارئها ·

ولم ينس ابن عبد ربه أن يضمن هذا الباب أشهر رسالة كتبت فى البخل وهى رسالة سهل بن هارون التى أنشأها مكيدة فى العرب الذين اشتهروا بالكرم فدفعت به شعوبيته وحقده عليهم الى كتابة رسالة فى تمجيد البخل ·

والباب الثالث فى الفكاهة هو آخر كتاب فى لآلىء العقد انه كتاب اللؤلؤة الثانية وقد جمع فيه ابن عبد ربه أشتاتا من الفكاهات والأخبار المضحكة والنوادر الطريفة وأكثرها حدث لاعلام معروفين أو جرى لهم ، ولا ينسى ابن عبد ربه انه يطرز حواشى هذا الكتاب كما يفعل دائما كلما سنحت له الفرصة أو ساعده المنهج بالأبيات اللطيفة والمقطوعات الطريفة من عذب الشعر ومختاره ·

سادسا : وهذه الفقرة من تقيمنا للعقد الفريد تتصل بالثقافة العامة التى استهدفها صاحب الكتاب فى بعض أبوابه والحق انه لا يخلو باب من أبواب الكتاب الخمسة والعشرين وما يتفرع عن كل باب من فصول من كل لون من ألوان الثقافة العامة رغم العمد الى التخصص الدقيق فى الموضوع نفسه · غير ان هناك أكثر من باب من أبواب الكتاب يمكن أن ننسب الى المؤلف انه حين كتبها كان يقصد الى ما يمكن ان يسمى الثقافة الاجتماعية أكثر مما يقصد الى الثقافة الموضوعية فمن ذلك النسق مثلا الباب الذى كتبه فى طباع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان وهو

الذى أطلق عليه « كتاب الزبرجدة الثانية » . انه يتحدث فيه عن النفس والدار واللباس والتزين والتطيب والمشى والركوب ويتحدث عن الحيوان من خيل وبغال وحمير عن السباع والطير والأنعام ويتحدث عن مصايد الطير ومصايد السباع وينحو منحى جغرافيا وتاريخيا حين يتحدث عن بعض الأقطار مثل العراق والشام والجزيرة ومصر وفارس ويتحدث عن المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى ثم ينتقل فجأة الى الحديث عن الطب والحجامة والتعويذ والرقى والسم والسحر والعين والحسد . ومن أبواب الثقافة الاجتماعية فى « العقد » كتاب « الفريدة الثانية » فى الطعام والشراب وهذا الباب على طرافة عرضه ومحتواه يكاد يكون كتابا فى « الصحة العامة » بلغة دراسة الطب فى عصرنا الحاضر مع عرض لبعض أنواع الأطعمة التى يقبل عليها من يهتمون بالأكل ويغرمون بلذيذ الطعام . وما دام الشراب يشكل قسما من هذا الباب فان المؤلف يتحدث عن الخمر وبعض الأخبار عمن حد من الأشراف فى شربها والفرق بين الخمر والنبيذ ـ حسب رأيه ورأى غيره ـ ومناقضة ابن قتيبة قوله فى الأشربة ويعارض أقواله من خلال منطق النقاش أكثر منه من خلال التحليل والتحريم ويكاد يقصر ابن عبد ربه حديثه هذا الذى يختص بالشراب على النبيذ ومن حلل شربه وحجته ، ومن حرم شربه وحجته . ويورد رسالة عمر بن عبد العزيز الى أهل الأمصار فى الأنبذة .

ويمكن أن نعد كتاب « المرجانة الثانية » فى النساء واحدا من أبواب الثقافة الاجتماعية فقد ضم الكثير من أخبارهن وصفاتهن ومكرهن وغدرهن والسرية والهجناء وان كان هذا الباب قد ضم أيضا من فحش القول ما كان يجمل برجل كابن عبد ربه ان يترفع عن ذكره .

قيمة العقد التاريخية

يعد العقد مصدرا من المصادر الأولية المهمة التى يرجع اليها الباحثون فى تاريخ العرب السياسى والاجتماعى والأدبى وقد امتاز عن كثير من الكتب القديمة بتبويبه وحسن ترتيبه واختياره ، كما أنه يذكر لنا بعض روايات الأقدمين كالأصمعى وأبى عبيدة والعتبى والشيبانى وغيرهم ممن لم يترك لنا الزمن من آثارهم التاريخية والأدبية شيئا كثيرا مجموعا فى كتب مستقلة ولذلك فذكر العقد لرواياتهم يفيد من يود الرجوع اليها أو من يرغب فى مقابلة بعضها فى المصادر المختلفة بما هى عليه فى العقد .

ويذكر العقد أخبارا كثيرة عن رجال الاسلام الأول من خلفاء وأمراء وقواد فى عصر الراشدين والأمويين وعن أيام العرب الأولى واختلاف أمرهم

في العصر الأموى ، لابد للباحث في تاريخهم من الوقوف عليها ، كما أنه يذكر في بعض كتب العقد كثيرا من الفوائد التاريخية مما يتعلق بالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب وغيرهـا . واذا قرأت خبر وفود عبد الله ابن جعفر مثلا على عبد الملك بن مروان رأيت فى هذا الخبر فوائد عن حالة القوم الاقتصادية والاجتماعية وفهمت شيئا من تلك العلاقات بين بنى أمية فى الشـام من ناحية وبين بعض هذا النفر الارستقراطى فى الحجاز من ناحية أخرى كذلك نرى فى كتاب السلطان مثلا أخبارا ذات شأن عن سياسة عمر كما فهمها أهل ذلك العصر ومحاسبته للعمال وعن حياة الأمراء وبلاط الخلفـــاء وعن نزعة أهل ذلك الجيل الجديد الذى تلا عصر الصحابة الأول الى البذخ والترف وميلهم الى اقتناء المال وامتلاك المزارع وبنـاء الدور الجديدة واتباعهم سـبل المرح واللهو فنقرأ مثلا « كتب عمر الى أحد عماله : وقد بلغ أمير المؤمنين انه فشت لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها » ، أو مثلا : « قال أبو هريرة لمروان أتظل عند ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر » . وكذلك قل عن كتاب الحروب ففيه بعض الفوائد عن تاريخ العرب السياسى وفيه نتف من أخبار الخوارج ، وقد ذكر فى كتاب النسب أخبارا دقيقة لها علاقة فى بعض الأمور التاريخية كأن يورد مثلا فى كلامه عن قريش تسـمية من انتهى اليه الشرف من قريش فى الجاهلية فوصله بالاسلام ، ويشرح المكارم التى كانت لهم فى الجاهلية من سقاية ورفادة وسـدانة وحجابة الخ .. وذكر فى كتاب آخر من العقد أسماء من كتب للنبى ، وليعض الخلفاء والأمراء من بعده ويروى فى بعض الأحيان أخبارا لها أهميتها لمن يريد التخصص فى درس بعض الشخصيات الاسلامية ، فقد ذكر مثلا عن عثمان بن عفان انه كان يعتنى فى ثيابه ويتنظف وأنه وهم يبنون المسجد بالمدينة زمن النبى يحمل اللبنة ويجافيها عنه بحيث لا تمس ثيابه فاذا وضعها نفض كفيه ونظر الى ثوبه فاذا أصابه شىء من التراب نفضه عنه فنظر اليه على وأنشد :

لا يسـتوى من يعمر المسـاجدا ... يـداب فيهـا راكعـا وسـاجدا

وقائما طورا ، وطورا قاعـدا ، ... ومن يـرى عن التـراب حـائدا

وكتب عن الحجاج فصلا فى نحو ٢٠ صفحة فى اليتيمة الثانية عدا عما نثره عنه فى أكثر كتب العقد .

كذلك نرى فى العقد كثيرا من الفوائد عن حالة العرب الاجتماعية من سماعهم للغناء ومجالسهم حوله وطرق معيشتهم ولباسهم وطعامهم

وشرابهم ورأيهم فى الخمر والنبيذ وذكر الشاربين ومن حد منهم ، ونظر الأئمة لبعض هذا اللهو الذى فشا بعد احتكاكهم بالأمم الأخرى وتساهل البعض فى أمره وشدة البعض الآخر واختلاف الأقطار بالنسبة الى آراء أهلها وأئمتها فى الغناء والشراب مثلا ، وما الى هذه الأمور ٠

وللعقد قيمة تاريخية من حيث الرجوع اليه عند نشر بعض الكتب التى أخذ عنها صاحبه ، أو التى أخذت عن رواة استند اليهم ابن عبد ربه أيضا ٠ وقد الحقت لجنة دار الكتب فى القاهرة عند نشرها كتاب « عيون الأخبار » زيادات كثيرة فى متنه نقلتهـــا عن العقد وصححت كثيرا من الأغلاط التى عثرت عليها فى النسخ الخطية من « عيون الأخبار » عنـد مقابلتها بالعقد ٠

ويجب ألا ننسى أن العقد من المصادر القديمة ، فصاحبه قريب عهد بكثير من الأمور التى وقع ذكرها فى كتابه ٠ كمـا أن بالعقد كتابا كبيرا قصره لتاريخ الخلفاء يمتاز عن كثير من كتب التاريخ القديمة من حيث الاختيار والاختصار اللذين قصد اليهما مؤلفه فقد حشد فى نحو ١٣٣ صفحة فوائد كثيرة عن الخلفاء فى الشرق والأندلس حتى زمنه كتبت بأسلوب سهل واضح جذاب وروعى فيها الترتيب والتبويب ٠

وربما من الخير هنا أن نذكر هنا رأى الأستاذ جرجى زيدان من حيث قيمة العقد التاريخية قال فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » :

« ان فى بعض أبوابه فصولا لا تجد مثلها فى كتب التاريخ فأخبار زياد والحجاج والطالبين فيها حقائق يعز العثور عليها فى كتاب آخر ٠ وناهيك بأيام العرب وأعاريض الشـعر وما هناك من أخبـار الخوارج والأزارقة فضلا عن كثير من الأقوال المأثورة عن عظماء الملوك نقلا عن كتب ضاعت أصولها » ٠

الكوميديا الإلهيّة

دانتي

١٤٧٢م

يعد دانتى اليجيرى واحدا من العباقرة الأربعين أو الخمسين الأوائل في تاريخ البشرية • وهو يجد العناية والاقبال والدرس في الجامعات والمعاهد والجمعيات الأدبية ولدى كثير من الناس في أنحاء العالم المتحضر من اليابان شرقا الى الولايات المتحدة الأمريكية غربا ، وقد عكف كثير من الباحثين منذ القرن الرابع عشر حتى اليوم — على دراســـته وترجمته والكتابة عنه •

ومن الأمثلة على ضخامة التراث الدانتى ان نسخ « الكوميديا الالهية » المخطوطة في العالم يتراوح عددها بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ نسخة ! ومن الأمثلة على ذلك أيضا ان توفر كثيرون على تحقيق نصـوص مؤلفاته الايطالية واللاتينية وانه قد كتبت الآلاف من الشروح والتعليقات الخاصة بهـا ووضعت المعاجم والفهارس وألفت الكتب التفصيلية والعـــامة ونشرت الدوريات الدانتية المختلفة وترجمت مؤلفاته الى اللغات الأجنبية عشرات المرات في لغات بعينها أحيانا ومثال ذلك اننا نجد الكوميديا قد ترجمت الى الانجليزية حـوالى ٤٥ ترجمة كاملة وترجمت الى الفرنسية حـــوالى ٢٢ ترجمة كاملة وترجمت كاملة الى الألمانية في حوالى هذا العدد • وذلك عدا الترجمات الجزئية لها في كل هذه اللغات ، كما أن هناك ترجمات كاملة للكوميديا في لغات أخرى عديدة كالأسبانية والبرتغالية والسويدية والبولندية والروسية والرومانية والمجرية والعبرية والتركية واليابانية والعربيـــة •

وعلى هذا فقد اكتظت دور الكتب بالآلاف المؤلفة عن التراث الدانتى في عشرات من اللغات الحية في كثير من أنحاء العالم مثل مكتبات الفاتيكان وفلورنسا ونابلى وبولونيا والبندقية وفيرونا وميلانو ••• في ايطاليـا ومثل مكتبات باريس واستراسبورج ونيس في فرنســـا ومثل مكتبة المتحف البريطانى ومكتبـــات جامعـــات لندن واكســـفورد وكمبريدج وادنبرة ••• وفي انجلترا ومثل مكتبـات جامعـات هارفارد وبوسطون وكورنيل ••• في الولايات المتحدة الأمريكية وتبلغ محتويات المجموعة الدانتية في جامعة كورنيل — مثلا — حوالى ١١٠٠٠ (أحد عشر ألف) مجلد كما أحصيت في خريف ١٩٦٢ ! وربما كانت هذه هي أكبر مجموعة من الكتب الدانتية في العالم توجد في مكان واحد •

ومن العلماء والأدباء الاعلام في الدراسات الدانتية نجد باسكولى

وكاردوتشى ودى ســـــانكتس ودوفيديو وزنجاريلى ودل لونجو وفانديلى وباربى وبيتروبونو وبابينى من الايطاليين وبارلو ومور وتوينبى وجاردنر سايزر من الانجليز ولونجفلو ونورتون ولوويل وهوايت وويلكس وشاردى من الأمريكيين واوزانام واوفيت ولونيون وججييه وماسيرون ورينوتشى من الفرنسيين وبلاثيوس الاسبانى وسكارتاتزينى السويسرى ٠

وكذلك وجد دانتى عناية كبيرة من جانب رجال الفنون التشكيلية وفنون الموسيقا الذين وضعوا رسوما كروكية أو صورا ملونة أو غير ملونة وصنعوا التماثيل وألفوا الألحان الموسيقية التى تعبر عن بعض ما جال فى ذهن دانتى أو جرى به قلمه ومن هؤلاء جوتو وستيوريلى وبوتتشلى وميكلانجلو من الايطاليين وردان ودوريه وديلاكروا من الفرنسيين وبليك وستمانكوت وروستى من الانجليز وسالفادور دالى الأسبانى وذلك فى مجال الفنون التشكيلية ونجد روسينى الايطالى وليست المجرى وفاجنر الألمانى وتشايكوفســـكى وراحمانينـــوف الروســـيين فى مجال الفنون الموسيقية ٠

وفضلا عن ذلك فان دانتى ثروة انسانية هائلة اذ مهد للخروج من العصور الوسطى الى عصر النهضة والعصر الحديث وهو ينشر العلم ويربى الذوق ويعلم السياســـة ويؤيد العدالة والحرية ويقوى الروح المعنوية يدعو الى التضحية والوطنية ويغرس الايمان والصفاء والأمل ويخلق فى أجواء من السعادة الروحية ويخلق فنا لا يكاد يدانيه فيه انسان ٠

ترجمة حياة دانتى

ولد دانتى فى فلورنسا بايطاليا فى ١٤ مايو سنة ١٢٦٥ م من عائلة رفيعة الجانب يقال لها عائلة اليجيرى وسمى عند ولادته ذروانتى ثم تحت اسمه بالاستعمال فصار دانتى ، وتوفى والده وهو لا يزال غلاما فربى فى حوزة بعض ذوى قرابته فتلقن كل العلوم الرائجة فى تلك الأعصر وأشهرها التعاليم الدينية ومنطق أرسطو وبعض الكتب اللاتينية المعتمد عليها فى مدارس تلك الأيام ٠ وكان حاد الذهن فلم يحتج فى اكتسابها الى كبير مشقة أو طويل زمن ، لكنه لم يكشف بها فأخذ يطالع كل علوم تلك العصور على صعوبة الوصول اليها قبل اختراع الطباعة ولذلك فقد ظن بعضهم انه تثقف فى مدرسة بولونيا الشهيرة ٠

ولم يكد يفتح عينيه فى عالم العمل حتى ألم به حادث انطبع على أخلاقه وأطواره ورافقه الى آخر نسمة من حياته وذلك انه علق بفتاة من

الأشراف اسمها بياتريس بورتيناري وكانا صغيرين لا يتجاوز احدهما التاسعة من العمر . ومن الغريب انه تمكن حبها من قلبه حتى شغله عن كل شاغل وهو لم يرها الا قليلا ولا تجاسر أن يبثها ما في فؤاده ولا خطر بباله أن يخاطبها بأمر الزواج لشعوره بترفعها عنه فهي لم تكن تعلم شيئا عن منزلتها عنده غير ما قد تلحظه النساء الجميلات الساميات المقام من حركات قلوب الشبان الواقفين بين أيديهن ولو كانوا صامتين .

فكان حب دانتي لبياتريس حبا عذريا حقيقيا منزها عن كل شائبة . أما هي فتزوجت باحد أعيان الايطاليين فلم يغير ذلك شيئا من عواطف دانتي نحوها وهو لا يطمع بغير النظر اليها عند سنوح الفرصة . ثم توفيت الفتاة فأثرت وفاتها فيه تأثيرا شديدا فأصبح كيفما توجه تخيل شبحها أمام عينيه واشتهر ذلك عنه حتى تحدث به الخاص والعام .

وكان قبل وفاتها قد نظم فيها قصيدة طويلة سماها « الحياة الجديدة » كلها عواطف وفلسفة ، وهي أول قصيدة نظمها مندفعا بثورة الغرام وما زال ذلك التأثير ظاهرا فيه يتراءى في خلال أعماله الى آخر أيامه .

ولابد لاستيعاب ترجمة حياة هذا الشاعر العظيم من بسط حالة ايطاليا في أيامه ، فقد كان في ايطاليا اذ ذاك حزبان سياسيان كبيران يسمى احدهما جيلف والآخر جيبلين نشأ في القرن الثاني عشر أولهما وهم الجيلف يقاومون العائلة المالكة وثانيهما وهم الجيبلين ينتصرون لها . وما انفكت الحروب والمخاصمات قائمة بينهما حتى أقلقت راحة ايطاليا ففي سنة ١٢٦٧ طرد الجيبلين من ايطاليا كلها بايعاز البابا واستقام الأمر للحزب الآخر ولم يكن في فلورنسا من حزب الجيبلين أحد . على أن كلا من هذين الحزبين لم يكن يخلو من تخاصم بين عائلاته وربما استعان بعض عائلات هذا الحزب على البعض الآخر بالحزب المغلوب وقد تحدث فترة صلح بين الحزبين ثم لا يلبثون أن يعودوا الى الخصام ، وقد يتفق أن يكون هذا الحزب فائزا في هذه المدينة وذاك في تلك ففي سنة ١٢٨٠ م حصلت واقعة بين جيلف فلورنسا وجيبلين اريتسو ففاز حزب الجيلف وكان دانتي في جملتهم وهي أول واقعة ظهر فيها فلما عاد من الواقعة تزوج بفتاة من كبراء ذلك الحزب اسمها « جما دوناتي » ولكنها كانت سببا لتعاسته ولم يهدأ له بال ولا اطمأن له قلب منذ تزوجها .

على انه أصبح بعد ذلك الاقتران مرشحا للمناصب الملكية في مصالح الحكومة وكان أهل فلورنسا اذ ذاك ثلاثة صفوف (١) الأشراف والعظماء (٢) التجار والأغنياء (٣) العامة . وكان الصفان الأخيران في شقاء دائم لانتمائهما الى الأحزاب السياسية ، ثم قام فيهما رجل مصلح اسمه

دينوكومباني سن قانونا جديدا سنة ١٢٨٢ م جعل فى أهل فلورنسا صفوفا تمتاز بعضها عن بعض بما تعلمه من المهن أو التجارة وجعل لهذه الصفوف مجلسا أشبه شيء بمجلس النواب مؤلفا من ستة أعضاء ينوب كل منهم عن حى من أحياء المدينة وهذا المجلس يتولى ادارة شئون أصحاب تلك المهن والقضاء فيما قد يعرض بينهم على أن يتجدد انتخابه كل شهرين ولا يجوز انتخاب غير المندرجة أسماؤهم فى قوائم أصحاب المهن والتجارات وكان اسم دانتى فى قائمة الأطبـاء والصيادلة مع انه لم يتعلم الطب ولا الصيدلة قط ٠

ولكن هذا الترتيب لم يمنع نفوذ الأحزاب السياسية وانحياز أعضاء ذلك المجلس الى احدها فلم يمكث ذلك النظام الا بضع عشرة سنة ثم عادت الأمور الى مجراها الأول مع بعض التحوير فنشأ فى فلورنسـا حزبان شبيهان بالأولين اسم احدهما الأسود (نيرو) وأصلهم من الجيلف والثانى الأبيض (بيانكى) وأصلهم من الجيبلين ٠

وكان دانتى جيلفيا كما قدمنا وتزوج بامرأة من زعماء الحزب الأسود فازدادت علاقاته مع الجيلفيين متانة ، ولكنه كان من الجهة الأخرى مرتبطا ببعض كبراء الحزب الأبيض برباط الصداقة أو لعله كان يشعر بارتباطه معهم برباط العدالة لاعتقاده بصواب دعواهم ٠

وفى يونيو سـنة ١٣٠٠ انتخب دانتى مندوبا فى المجلس المتقدم ذكره ٠ وفى عهده حكم على الحزبين الأسود والأبيض بالنفى الى فلورنسا ثم تساهل هو مع بعض زعماء الحزب الأبيض فأرجعهم اليها فشق ذلك على الحزب الأسـود فساروا الى رومية والتجأوا الى البابا بونيفاشيوش الثامن فنصرهم وبعث معهم شارل دى فالوا مندوبا من قبله ولقبه « صانع السلام » فوصل شارل الى فلورنسا فى نوفمبر سنة ١٣٠١ ومعه جند فأعاد الحزب الأسود اليها وحل المجلس وألف مجلسا آخر من حزبهم فارتفع شأن الحزب الأسود وضعف الحزب الأبيض فحكم المجلس على الحزب الأبيض بالنفى والقتل وأخذوا فى تعذيبهم وقتلهم فى الشوارع أو المنازل وسلب أمتعتهم وأموالهم وحرق منازلهم بغير شفقة ٠ وكان شارل اذا رأى نارا يتصاعد دخانها فى بعض أطراف المدينة وسأل ما هذه النار أجابوه هى زريبة حقيرة لا تستدعى اهتماما وقد تكون قصرا عظيما وكان فى جملة المنازل التى لعبت بها النار ونهبتها الأيدى منزل دانتى وكان دانتى اذ ذاك فى رومية ذهب اليها بايعاز الحزب الأبيض لمخابرة البابا بشأن ما يقاسونه من الاضطهاد والظلم فلما علم بالحكم الصادر بالنفى غادرها وسار الى منفى أصدقائه فى اريتسو ٠

وفى يناير سنة ١٣٠٢ صدر عليه الحـكم الخاص بالنفى سنتين

وبغرامة قدرها ثمانية آلاف فلورين وانه اذا تأخر عن دفع الغرامة وقع الحجز على أملاكه · ثم صدر عليه حكم آخر بالاحراق حيا بدعوى انه مرتش وسارق ومراب فلم ير بدا من مهاجرة الوطن · وقد تمكنت علاقاته مع الحزب الأبيض فجعل يطوف البلاد يحرض الجيبلين على مقاومة أعدائهم الجيلف فسار الى فيرونا ثم الى توسكانا ·

وفى سبتمبر سنة ١٣٠٣ م توفى البابا بونيفاشيوش وخلفه البابا بنيديكتس فحاول هذا اصلاح ذات البين بين الحزبين فذهب سعيه عبثا ، فظلت فلورنسا محط رجال الثورة فأصابها حريق هائل صحبه هجوم الحزب الأبيض ومن والاهم وتعاظم الخطب حتى كاد يقضي على المدينة ·

وكان دانتى لا يزال يجول فى ايطاليا ينتظر فرصة تسنح له للرجوع الى وطنه فذهب انتظاره ادراج الرياح · فلما تولى هنرى السابع (٧) كرسى مملكة جرمانيا تجدد أمله وكان هنرى قد عزم على القدوم الى ايطاليا للمطالبة بحقوق أسلافه عليها وحزب الجيبلين يستعد للأخذ بناصره فكتب دانتى منشورا سنة ١٣١٠ م الى الملوك والدوكات وشيوخ رومية والى شعوب ايطاليا يبشرهم بالسعادة المنتظر نيلها على يد هنرى ووزرائه فجاء الامبراطور هنرى فى تلك السنة الى ايطاليا وتتوج فى ميلان ملكا على لومبارديا وكان دانتى ينتظر قدومه الى توسكانا بفارغ الصبر لقمع الجيلف واخماد الفتنة فكاتبه بهذا المعنى فجاء هنرى الى توسكانا ولكنه لم يفز منها بطائل فسار الى رومية حيث توجه وفيما هو عائد مات بغتة سنة ١٣١٣ م فكانت وفاته صدمة قوية على دانتى فالتجأ الى فيرونا ثم الى غيرها · وأخيرا سار الى رافنا باقى حياته فى حمى جيدو دا بولنتا عظيم تلك المدينة وكان جيدو شاعرا محبا للعلم آخذا بناصر العلماء فسر بنزول دانتى عليه على ان دانتى كان يجول فى البلاد مرة بعد أخرى ينظم القصائد ويؤلف الروايات ونفسه تشتاق الى وطنه ولكنه لم يستطع الرجوع اليه فتوفى فى رافنا سنة ١٣٢١ م حزينا كئيبا · وأحرق عظامه انتقاما منه على هرطقته · ثم لم تمض على هذه الأحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الايطالى بمنزلة هذا الرجل ففى سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا ان تدفع مبلغا من النقود الى ابنة له راهبة (واسمها بيتريس) وفى سنة ١٣٩٦ قررت أن يبنى له ضريح ويقام له تذكار فى فلورنسا ·

أعماله الأدبية

نظرا لاستحالة الوصول الى تواريخ دقيقة لانتاج « دانتى » يحسن ان نقسم حياته الى ثلاث مراحل تمثل تطوره الروحى وان ننسب الى كل مرحلة أقرب المؤلفات اليها ·

وتمتد المرحلة الأولى بين سنتى ١٢٨٣ و ١٢٩٠ وقد سادتها حمية الشباب والاتجاه الدينى الذى حوله اليه غرامه العظيم ببياتريس مما صوره في سياق « الحياة الجديدة » ٠

أما المرحلة الثانية فتبدأ بوفاة حبيبته مما بث الأسى واليأس والشك فى حياته وأدى الى تغلب العقل على العقيدة فترة من الزمن انصرف فيها الى الفلسفة والعلم والصراع السياسى العنيف والبغضاء والتآمر ومن الممكن ان نعزو الى هذه الفترة من مؤلفاته « الندماء » و « الملكية » و « الرسائل »٠

وقد انتهت هذه المرحلة فى سنة ١٣١٣ بوفاة الامبراطور هنرى السابع الذى كان دانتى قد عقد عليه آماله ٠٠٠ وبدلا من أن يقضى انهيار هذه الآمال على عزيمته وروحه المعنوية فقد رده الى الناحية الروحية وأعاد اليه الايمان الذى كان فى صباه وحمله على التعبد متخذا من « بياتريس » ــ بعد ان خلع عليها القداسة فى خياله ــ رمزا للخير مما تشهد به كل قصيدة فى « الكوميديا الالهية » ٠

ولقد جمع « دانتى » قصائده الغنائية الأولى وربط بينها بتفسيرات نثرية وشروح فلسفية مطولة فى كتابيه الكبيرين « الحياة الجديدة » و « الندماء » الذى يسمى أحيانا « المأدبة » أو « مأدبة الحب » وتنم لهجة « دانتى » فى تفسير أغانيه وأناشيده فى الحب عن تدرجه فى الانتقال الى تغليب العقل على العقيدة ٠

وكثيرا ما توصف « الحياة الجديدة » بأنها أول قصة توغل فى التحليل النفسى الذى يكشف عن أعماق مشاعر الشاعر وفيها يروى « دانتى » ــ بخليط من النثر الروائى والشعر الغنائى والتعليقات المسهبة على القصائد ــ كيف التقى ببياتريس أول مرة فى عام ١٢٧٤ فكان هذا اللقاء بداية حياة جديدة له ويتحدث عن جمالها ولطفها وعن أمله واعجابه وعن عذابه وحزنه البالغ لوفاتها وتساميه تدريجيا من الحب الدنيوى الى الحب القدسى ــ فأصبح ــ لاسيما بعد موت بياتريس ــ يمعن فى رفعها الى مصاف القداسة حتى لم تعد مثالا للمرأة وانما أصبحت طيفا ذا قدسية دينية ٠

أما الخلط بين دراسته الدنيوية والدراسات الفلسفية العميقة الذى أدى به ــ فيما بعد ــ الى شك مستيئس وهو يتخبط فى الحيرة بين الصورة الرمزية التى رسمها لبياتريس والغرور والسخط الدنيويين ٠٠٠ هذا الخلط يتبدى فى خير صورة فى (الندماء) فقد جعل أربعة من أناشيده تفسيرا فلسفيا بليغا مليئا بالاستعارة والكناية لحاله تلك فى أسلوب

جرى فيه على نسق الدراسات العلمية في القرون الوسطى ولو انه أكمل هذا الكتاب لجاء موسوعة رائعة لفلسفة القرون الوسطى وأخلاقياتها .

ومن العسير أن يتبين المرء فى أى المواقع من هذين الكتابين كانت « بياتريس » امرأة ذات طهر ملائكي وفى أيها أصبحت رمزا فلسفيا أو تصوفيا .. فان علاقته في الحالين بفتاته (لم يكن قد التقى بها سوى مرات متباعدة وعلى غير اتفـاق) لم تكن حبا عاديا وانما كانت تمجيدا وسموا بقيمة الخير والايمان الذين كان لا يلبث ان يرتد اليهما ـ بين آن وآخر ـ بالرغم من الصراع والاضطرابات التى كانت تدور فى نفسه .

والواقع انه فى آخر سطور « الحياة الجديدة » استطاع أن يتمثل ما وراء الحيـاة ولكنه لم يستطع أن يسجل فورا الصورة التى تجلت لبصيرته والتى قدر لبياتريس ـ التى هدته وانتزعته من عقم الفلسفة الدنيوية ـ أن تكون محورها ومركزها ... بل لقد اضطر الى أن يقضى سنوات فى الدرس والتفكير والتأمل قبل أن يصبح قادرا على أن يرسم تلك الصورة فى « الكوميديا الالهية » وأن يصف « بياتريس » بما لم توصف به امرأة على الاطلاق .

أما مؤلفـاته التى كتبهـا باللاتينية فى تلك الفترة فكان أهمها « الملكية » ، الذى يشرح فيه نظرية الامبراطورية المسيحية ـ كنظام الهى ضرورى ـ ويدعو فيه الى الفصل بين الكنيسة والدولة وأن يقتصر سلطان البابا على الأمور الروحية .

وقد عرض هذا الكتـاب للصراع السياسى الذى كان دائر الرحى والذى ساهم هو نفسه فيه وتجلى فى سياقه انتقاد « دانتى » لتوسع الكنيسة فى بسط نفوذها الدنيوى وهو انتقاد زاد من قوته وأثره أن « دانتى » كان من أخلص أبناء الكنيسة الرومانية .

وقد تكرر الانتقاد فى « الرسائل » التى دعا فيها الى توحيد الدول الأوربية تحت تاج الامبراطور هنرى السابع الألمانى لتكوين الامبراطورية المسيحية .

الى أى العصور ينتمى ؟!

ومن العسير الجزم بما اذا كان « دانتى » ينتمى الى القرون الوسطى أو الى عصر النهضة فان أشعاره المتعددة الألوان والتأويلات تبدو متضمنة العصرين فى بعض الأحيان وفى كثير من النواحى يبدو كمن جمع كل مقومات الأدب والفكر فى القرون الوسطى دون أن يتجاوزها الى التبشير بفجر عهد النهضة وبدلا من أن يبدو متقدما عن معاصريه نجده ـ فى

ضوء كثير من الاعتبارات ـ متخلفا عنهم متشبثا بأحلام وآمال كانت تزداد عقما واندثارا بمضى الزمن ... أحلام توحيد أوروبا فى امبراطورية مسيحية .

وما أوسع الهوة التى تفصل بينه وبين غيره من شعراء القرن الرابع عشر مثل (بوكاشيو) الذى كان يصور نساءه صورة جسدية حسية بعيدة عن الأطياف الروحية والذى كان يمثل الرجل المادى الذى تفتق عنه عصر النهضة ، ومع ذلك فلابد أن شعراء النهضة قد شعروا بأنه كان جزءا من عصرهم مع انصرافهم عن النزعات التصوفية والخيال القائم على المعتقدات الدينية ... ذلك ان دانتى ابتكر اسلوبا تعبيريا واضحا وأفلح فى أن يكسو ما كان يتمثله من رؤى خيالية لما وراء الحياة الدنيا ثوبا من شعر رائع الأوزان ومن أسلوب لغوى مرن مرونة عجيبة .

كذلك ينتمى « دانتى » الى العصر الحديث بما أوتى من طاقة عاطفية عارمة خارقة للمألوف . فقد كان فى وسعه أن يحب ويكره وأن يقاتل ويزدرى فى عنف لا يقل عن عنف أولئك الذين أعقبوه فى القرن السادس عشر وكان يضرب بسهم فى كافة نواحى النشاط فكان جنديا وشاعرا وراهبا وديبلوماسيا وسياسيا وعاشقا ... ولم يكن به أثر من محو الذات الذى اتسمت به القرون الوسطى بل انه أوتى كبرياء وزهوا وترفعا لا تكون الا لرجل واثق من نفسه متفرد فى حياته وكفاحه ومع ذلك فانه جمع الى هذه الصفات نظاما روحيا قاسيا كان يروض نفسه عليه ، وزهدا دينيا تصوفيا مما كبح جماح نشاطه ومشاعره فلم يسف فيما أسف فيه شعراء النهضة .

اثره الخالد

أعظم أعمال « دانتى » الأدبية وأرفع تحف الأدب المسيحى فى القرون الوسطى . ولا سبيل الى ادراك قيمتها ومغزاها الا فى ضوء التجارب المريرة التى اجتازها المؤلف بعد وفاة حبيبته « بياتريس » حين نبذ الحب الحقيقى الصادق وهام متخبطا فى ميدان الفلسفة العقيمة ومضمار التآمر السياسى الى أن قدر له أن يعود الى الايمان والالهام اللذين كانا يلازمانه فى صباه .

فلقد شاء « دانتى » أن يبين لنفسه ولمن أعقبهم ممن أضلهم الاثم وأرهقهم الصراع عن جهل أن ثمة مخرجا من هذا الضيق وأن فى وسع الانسان أن ينجو من متاهة الحياة اذا هو استنار بالالهام الالهى واستعان بفضل من السماء واتبع نظاما روحيا قاسيا لترويض نفسه ... وهذا هو

المعنى العميق الذى قامت عليه القصة والذى أثبته « دانتى » بما تصوره من رؤى خيالية لما وراء الحياة مستمدا بعض خطوطه مما ترك « هوميروس » و « فرجيل » و « شيشيرون » ٠

وتجارب « دانتى » فى العوالم الثلاثة التى رسمها فيما بعد الحياة الدنيوية ــ وهى « الجحيم » و « المطهر » و « الفردوس » ــ والتى تصور انه اجتازها فى عشرة أيام تالية ليوم الجمعة اليتيمة من عام ١٣٠٠ ليست سوى تصوير لسعى الانســـان الى خالقه ورجوعه اليه وظفره بالخلاص والتوبة والمغفرة ٠

ومع ما كان فى تصويره لما بعد الحياة من اجتراء فى زمنه الا أن قصته الشعرية كتبت بحساب وتخطيط دقيقين ٠٠٠ فلم يخرج فيها عن تعاليم الدين بل انه أورد آراءه التصوفية ومعتقداته المستمدة من تعاليم القديس « أوجستين » كعناصر فى بناء العالم والروح على أساس التثليث (الأب والابن والروح القدس اله واحد) ٠

أقســـام الكتـــاب

ويتألف الكتاب من ثلاث قصـــائد كبيرة « الجحيم » و « المطهر » و « الفردوس » والأولى تعد بمثابة مقدمة وتضـــم الثـــلاث مجتمعة مائة أنشودة كما تصور ثلاثة عوالم فيما وراء الحياة أو فى الآخرة ، يتكون كل منها من عشرة أقسام ٠٠٠ فالجحيم يتكون من دهليز وتسع دوائر و « المطهر » من تسع مناطق و « جنة عدن » أو « الفردوس » من تسع مناطق ممثلة فى الكواكب « القمر وعطارد والزهرة وهكذا » وأعلى عليين أو « سدرة المنتهى » حيث الله ذاته ٠

وكان يقود « دانتى » فى رحلته فى العوالم الثلاثة ثلاثة أدلاء فقاده « فرجيل » و « ستاتيوس » ــ وقد اتخذهما رمزا للعقل الذى غلبه على الايمان فى تخبطه ــ عبر « الجحيم » والى قمة جبل « المطهر » ثم قادته « بياتريس » ــ وقد اتخذها رمزا للايمان ــ الذى أيقن انه العون الأوحد للخلاص من محنه ــ فى « الفردوس » ٠

واختياره عدد العوالم ثم عدد الأدلاء المرشدين لم يكن اعتباطا وانما هو استطراد لقاعدة التثليث مما يؤكد دقة حسابه وتخطيطه فى بنـــاء القصة ومما يدل على ايمانه بأن التثليث هو قاعدة وجود الانسان ومصدر الوحى الذى تلهمه به السماء ٠

وقد تخيل « دانتى » ــ فى خريطة ما وراء الحياة ــ أن « الجحيم » يقع فى منتصف الأرض أو نقطة الوسط تماما وان جبل « المطهر » يبرز خلال سطح الأرض فى موقع يقابل « بيت المقدس » تماما ، وان « جنة عدن » فوق ذروته العليا ومنها بدأ يرقى مع « بياتريس » الى السماء ٠ ويجدر بنا الآن بعد هذا التحليل السريع أن نلخص الكوميديا ٠

١ ــ الجحيـــم :

تاه دانتى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره فى غابة مظلمة فحاول الخروج منها بتسلقه أحد تلالها الشمسية ولكن اعترض طريقه فهد وأسد وذئبة وبينما هو يقف مرتعدا من الخوف لمح شبحا فطلب منه النجدة فاذا هو الشـــاعر اللاتينى « فرجيليو » الذى يهدىء من روعه ويخبره بأن « بياترتشى » هى التى أوفدته اليه لينقذه وليصحبه الى الجحيم والمطهر ثم تصحبه هى الى الجنة ٠ يصل دانتى الى الجحيم فيرى مكتوبا على بابها بحروف داكنة هذه العبارة :

« الطريق الى حيث القوم المجرمون فأنا عدالة الخلاق العظيم صنعتنى يد القدرة الالهية والحكمة السامية والحب الأزلى لم يسبق وجودى غـير الكائنات السرمدية ولقد كتب على الخلود فيا أيها الداخلون من بابى اتركوا كل أمل » ٠

يدخل دانتى بصحبة مرشده هذا الباب فيجدان نفسيهما فى واد فيه أناس يصرخون من لسع النحل وحشرات أخرى : هم أرواح الذين عاشوا على الأرض دون ارتكاب اثم أو عمل خير وأرواح الجبناء والسلبيين ثم يجلس دانتى وفرجيليو فى زورق ويسيران به فى النهر الموصل الى طبقات جهنم ودوائره على حد تعبيره فينام دانتى نوما عميقا أثناء هذه الرحلة النهرية ثم يستيقظ ليقص أهوال الجحيم ويصف « طوبوغرافيتها » على الوجه الآتى : عندما نزل غضب الله على ابليس قذف به الى الأرض فأحدث ثقل جسمه الضخم فجوة هائلة على شكل مخروط رأسه فى جوف الأرض ينقسم الى تسع طبقات أو دوائر يتناقص حجمها كلما اقتربت من رأس المخروط يسكنها الآثمون ٠٠ فالدائرة الأولى وتسمى « وادى الزفرات » تقيم فيها أرواح الأولاد الذين ماتوا دون « تعميد » والعلماء والفلاسفة والشعراء الذين عاشوا فى عصور الوثنية ولم تدركهم المسيحية ولكنهم عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيوية ويتلخص عذاب هؤلاء فى حرمانهم من رؤية الله ٠

وتضم الدائرة الثانية أرواح أهل الهوى الآثمين الذين تعصف بهم زوبعة هوجاء تجعلهم يدورون على أنفسهم دوران الخذروف (٨) ٠

وخصصت الدائرة الثالثة لأرواح النهمين الشرهين المفرطين في الأكل والطفيليين ويتلخص عذابهم في تساقط البرد عليهم وقطع الجليد ويمزق كلب ضخم جلودهم بمخالبه ٠

وتقبع في الدائرة الرابعة أرواح المسرفين والبخلاء حيث يدفع كل منهم بصدره صخرة ثقيلة ثم تدور كل طائفة منهما في اتجاه متعارض لاتجاه أختها ثم يتصادم أهل كل فئة بعنف ويتكرر هذا المنظر دون هوادة أو انقطاع ٠

ثم يصل دانتي وصاحبه الى مستنقع ملىء بالطين ــ هو الدائرة الخامسة ــ تغوص فيه أرواح مرتكبي الخطايا بدافع ثورات الغضب ومن بينهم أعداء دانتي من أهل فلورنسا ٠

وبعد اجتياز دانتي ومرشده هذا المستنقع في زورق يدخلان مدينة اللهب الكائنة في الدائرة السادسة وهي مثوى أرواح أهل البدع والهرطقة حيث ترقد توابيت من نار ٠

ثم ينزل الزائران بمشقة الى الدرك السابع من الجحيم وهو ينقسم الى ثلاث دوائر اختصت الأولى بالمتهورين والثانية بالمنتحرين والمغتالين والثالثة بالعائبين في الذات الالهية ومرتكبي الشذوذ الجنسي وتنزل عليهم شواظ من نار دون انقطاع بينما هم يرقدون على رمال محرقة في أوضاع مختلفة ، ويجد دانتي في هذه الدائرة أستاذه «برونيتي» وقد شوهت النار وجهه ٠

أما الدائرة الثامنة فتتوسطها بئر عميقة تحيط بها عشر حفريات مستديرة تتصل فيما بينها بجسر من الحجارة ويضع فيها دانتي أرواح المرائين وهي تضرب بالسياط ثم تغمس في بحيرة من الغائط وأرواح الرهبان الذين باعوا الغفران للناس بالمال وقد دست رؤوسهم في جوف الأرض بينما اشتعلت أقدامهم نارا وأرواح المتملقين والغرافين وهي تسير القهقرى محرومة من النظر الى الأمام ، لأنها حاولت خداع الناس بادعائها كشف حجب الغيب وأرواح المرتشين من رجال القضاء وهي تغمس في قطران آن ، وأرواح المنافقين وقد غطت رؤوسها بقلانس من رصاص مصهور وقطاع الطرق وتلدغهم الأفاعي فيشتعلون نارا ثم يتحولون رمادا ثم يعادون الى الحياة وهلم جرا ، والمختالين والمغتابين وقد تقرحت جلودهم بعد اصابتها بالبرص والجرب ومزيفي النقود وقد أصيبوا بمرض الاستسقاء ٠

وأخيرا يصل الرجلان الى الدائرة التاسعة وهي قاع الجحيم وهي تنقسم الى أربع دوائر يتعذب في كل منها صنف من الخونة ففيها خائنو

الرابطة الزوجية وأواصر القرابة والمبادىء السياسية والوطن ويفترسهم ابليس بأنياب حداد ٠

وفيها أيضا ابليس وقد غمرته حتى صدره بحيرة من جليد ودموع الدم تنساب من مآقيه ، بينما يمضغ بين فكيه « يهودا » الذى خان المسيح « وبروتوس » و « كاسيوس » اللذين خانا يوليوس قيصر ولى نعمتهما ٠

٢ ـ المطهـر :

يتجه دانتى وفرجيليو بعد ذلك الى المطهر تاركين أهل الشمال فى العذاب المهين متجهين الى أهل اليمين وعندما وصلا الى المطهر شعرا بالهدوء التام وبدأ يستنشقان الهواء النقى تحت زرقة السماء الصافية وبينما يتطهر دانتى فى مياه بحر بجوارهما يقترب منهما زورق يتلألأ نورا يدير دفته ملك ثم تنزل من هذا الزورق أرواح كثيرة تستحم فى مياه ذلك البحر تطهر من الذنوب قبل دخولها الجنة ٠

ويتكون هذا المطهر من سبع دوائر تختص كل واحدة منها بخطيئة من الخطايا السبع الكبرى التى نص عليها الدين المسيحى : فالمتكبرون يطوفون بجبل المطهر وهم يحملون أوزارا يرغمهم ثقلها على احناء رءوسهم ، والحاسدون وقد التصقت أجفانهم فلا يستطيعون رؤية أى شىء ، والغضبى من الناس وقد غمرهم دخان كثيف ، وأهل الخمول والكسل يسيرون دون توقف والبخلاء والمسرفون منبطحون أرضا وأولو النهم الشره يتضورون جوعا وحلوقهم جافة من شدة العطش ٠

ومن قمة جبل المطهر يظهر الفردوس الذى تصعد اليه الأرواح بعد تطهرها من أدرانها ٠

ثم يجتاز دانتى ورفيقه سورا من اللهب ضرب بين المطهر والفردوس فيجدان الورد والأزهار وأجمل الرياض ثم تظهر له « بياتريتشى » وعلى رأسها تاج من أغصان الزيتون وعلى وجهها حجاب أبيض ويغطى جسدها رداء من نور عليه معطف فى لون الزمرد الأخضر وفى هذه اللحظة تنتهى مهمة فرجيليو فيختفى تاركا دانتى بين يدى « بياتريتشى » لتسير به بين دوائر الجنة ولكن قبل أن يلج دانتى باب الفردوس يغطس فى نهر « النسيان » ليصبح خليقا برؤية الله ٠

٣ ـ الفـــردوس :

يصعد دانتى مع رفيقته الى تسعة أفلاك الواحد بعد الآخر ٠ الأول فلك القمر حيث تقيم فيه أرواح البررة ، والثانى عطارد وتعيش فيه أرواح أهل الجد من المشرعين والحكام والثالث الزهرة ويضم أرواح أهل الزهد

والرابع الشمس وفيه أرواح علماء الكنيسة على هيئة تيجان من نور والخامس فلك المريخ الذى يقطنه الشهداء ومن ضمنهم جد دانتى « كتشاجويدا » و السادس المشترى ويسكنه أهل العدل من الملوك والسابع زحل وفيه المتصوفون وأما الثامن فهو فلك النجوم الثابتة وتبدو فيه عظمة المسيح وجلال قدره وهو جالس بين القديسين والأولياء ويصعد الشاعر الفلورنسى الى الفلك التاسع فيتمتع بمشاهدة الجوهر الالهى ثم يرقي الى عليين حيث بهاء الذات العليا والتى طغى سنا نورها على عقله وذاكرته فجعله عاجزا عن وصف ما رآه ٠

★★★

يبقى القول بأن فكرة الكوميديا ليست جديدة ولا فريدة فى نوعها ولا هى غريبة فى بابها بل سبق دانتى اليها فى هذا المضمار أنبياء وشعراء ومفكرون ورواة نقلوا عن التراث الاسلامى الذى غزا أوروبا منذ استيلاء العرب على الأندلس فى صورة قصص دينية وأساطير ورؤى شعرا ونثرا وكان للاسلام الفضل فى ظهور ما يمكن أن نسميه « بأدب العالم الآخر » وانتشاره فى الغرب خلال القرون الوسطى ذلك لان مصير الروح بعد موت الجسد كان الشغل الشاغل لرجال الدين والأدباء بل ولعامة الناس فى أوروبا بصفة خاصة حتى وجدوا فى الاسلام معينا لا ينضب فانتهلوا منه ما شاءوا ٠

فدانتى لم يكن مبدعا ولا مبتكرا وانما راوية ينقل ويقتبس ثم يلبس ما انتحله أردية من خياله كشاعر ٠ والأفكار العلمية والفلسفية التى وردت فى الكوميديا ليست جديدة وانما هى تكرار لما جاء على لسان من سبقوه من فلاسفة وعلماء ومفكرين (٩) ٠

ابـــداع تصـــويرى

و « دانتى » ــ فى تنقله المنسق خلال العوالم الثلاثة التى ترمز الى نقمة الاثم والتطهر أو التفكير ثم المغفرة ــ يرمز كذلك ، وفى الواقع ، الى تراجع ٠٠٠ الى تحول تصوفى من الفساد الذى وصل اليه الانسان الحديث الى براءة الانسان الأول ويرسم « دانتى » فى « الجحيم » صورا لخطايا البشرية بطريقة بارعة اذ يربط كل خطيئة بعقابها : فالجشع الشره مثلا ، يمثله وهو يلغ فى الأقذار كالخنزير ، والعاشقان الآثمان يرسمهما وعواصف الشهوات تتلاعب بهما فى عنف والبخيل يبينه وهو يحاول عبثا أن يزحزح صخورا هائلة ٠

وبعد أن ألم « دانتى » بهذه الآثام كلها ورجع عن ممارستها اقترب من « المطهر » وكأنه طفل ولد فهو طاهر من كل خطيئة من عمله وان ظلت

عالقة بروحه اللعنة التى أورثه اياها « آدم » و « حواء » بخطيئتها ولكن هذه اللعنة وما تبقى من ميل الى الحسد والغرور والكفر لا تلبث أن تمحى فى أثناء جهاده لتسلق طبقات جبل (المطهر) فاذا بلغ قمته دخل « جنة عدن » وهو طاهر تماما كما كان « آدم » و « حواء » قبل أن يطردا من الجنة · واذ ذاك يصبح جديرا بأن يقاد خلال طبقات « الفردوس » مقتربا من الضوء الباهر الذى يغشى العيون ··· نور الله ، وألوانه ، وموسيقاه ··· الى أن يقدر له فى لحظة لا تفوقها لحظة أن يبصر وأن يفهم وأن يظفر بأسمى ما يصل اليه الانسان وتمثل الرؤيا الوهمية لسر الثالوث المقدس ذروة الابداع الشعرى ·

ومن العوالم الثلاثة ــ « الجحيم » بما فيه من صور للشهوات و « المطهر » بما فيه من مظاهر العطف والغفران و « الفردوس » بما فيه من تصور روحى لله ــ نجد أن (الجحيم) كان أقربها الى الاسلوب الواقعى فى وصفه ·حتى ان الانسان ليشعر بأنها صورة صادقة لخزيه وعذابه ·

أما « المطهر » و « الفردوس » فمع أن هناك من سبق « دانتى » الى تصويرهما الا أنه بلغ فى وصفه لهما أسمى درجات الابداع الفنى · والواقع أن « الجحيم » هو الذى ترك أبلغ الأثر فى نفوس الشعراء والرسامين اذ أن «دانتى » توسل ببعض الشخصيات المعروفة ــ مثل (فرجيل) و (فارياتا) و (كافالكانتى) ــ فى تصوير مناطقه ·

ولعل المنظر الذى رسمه فى جوف « الجحيم » فى الأنشودة الرابعة والثلاثين يقوم دليلا على ايمان « دانتى » الوطيد بضرورة انتظام البشر فى وحدة تحت حكومة واحدة ، وعلى يقينه من أن هذه هى ارادة الله فقد تخيل « الشيطان » فى أعمق أعماق (الجحيم) وقد انصرف الى انزال عقاب أبدى بكبار الخونة والغادرين فى تاريخ الانسانية مثل (يهوذا الاسخريوطى) الذى غدر بالمسيح و « بروتس » و « كاسيولا » اللذين اغتالا (يوليوس قيصر) ·

علم « دانتى » ومعارفه

ومما تنم عنه هذه الرحلة الخيالية : دراية « دانتى » دراية رائعة بالعلوم وتمكنه من فلسفة « أرسطوطاليس » واستيعابه تعاليم « توما الأكوينى » (١٠) فى الفلسفة اللاهوتية والمامه التام بتاريخ « روما » القديم وتاريخ ايطاليا فى عصره ··· هذا الالمام الذى مكنه من أن يختار صورا للآثمين والتائبين والقديسين ·

كذلك تكشف الرحلة عن كراهية عارمة للبابوات الذين لم يكونوا أهلا لمراكزهم السامية والأمراء الفرنسيين الذين كانوا يتدخلون فى شئون بلاده ولتذبذب العامة من أهل « فلورنسا » ... كما تكشف عن تمسك لا يهن بالعدالة جعله يغفل كل اعتبار للصداقة الشخصية وهو يصور الخطايا وعقوبتها ... وعن مدى ما أترعت به نفسه من حب وحنان وشفقة انسانية فى الوقت ذاته .

على أن الأدعى من هذا كله الى الاعجاب بمقدرته الفائقة هو انه تمكن فى سطور قلائل من أن يصور فى بساطة وواقعية وقوة تأثير مناظر لا تنسى ونخال ــ ونحن نقرؤها ــ أنها ليست من وحى خيال الشاعر وانما هى منقولة عن رؤية واقعية !

وقد ترجمت « الكوميديا الالهية » الى كثير من اللغات وكانت أسبق الترجمات الى اللغة اللاتينية فى عام ١٤٠٠ وترجمة ثانية الى اللغة ذاتها فى عام ١٤١٧ وكان الأسبانيون أول من ترجموها الى لسان قومى ، فقد ترجمت الى لغة أهل (قشتالة) (قسطلة) فى عام ١٤٢٨ والى لغة أهل « قطالونة » فى عام ١٤٢٩ ثم ترجمت الى الفرنسية فى القرن السادس عشر والى الألمانية والانجليزية فى القرن الثامن عشر ومن الترجمات الممتازة الى الألمانية ــ فى القرن التاسع عشر ــ ترجمة بقلم « فيلاليتس » وهو « جون » ملك سكسونيا .

★★★

عندما ظهرت طلائع المدرسة القصصية الشاعرية « الرومانية » أصبح « دانتى » من كبار قادة هذه المدرسة فى فرنسا وألمانيا وأمريكا . ولعل خير تقدير له هو ما قاله « وليم جلادستون » الذى كان رئيسا لوزراء بريطانيا فى القرن التاسع عشر : « ان قراءة دانتى ليست مجرد متعة بل انه بطولة أو درس .. انه ترويض شاق للقلب والفكر والانسان بأسره .. لقد تزودت من مدرسة دانتى بزاد عقلى ساعدنى على أن أمضى فى رحلة الحياة الى سن الثالثة والسبعين » .

ولقد لاقت الكوميديا بالرغم من ذلك شهرة عالمية كانتاج فكرى وتراث انسانى كما لاقى دانتى صيتا واسعا فما هو سبب ذلك ؟!

يرجع السبب الى عدة عوامل منها :

١ ــ التراث الاسلامى الذى نقل عنه الشاعر الفلورنسى الشىء الكبير .

٢ ــ طريقة نظمه التى ترتكز على قوة البناء ومتانة الأسلوب وترابط المعانى والحساب الدقيق الذى التزمه فى قافية الثنائيات

والثلاثيات المتشابكة والتى تتطلب عقلا رياضيا وصبرا مضنيا وقريحة ومواد غزيرة واطلاعا واسعا ·

٣ ـ الرموز التى ملأ بها الكوميديا فأكسبتها ابهاما وتعقيدا زاد فى روعتها فى أعين قرائهـا ودفع النقاد الى محاولة كشف أستارهـا واستشفاف أسرارها فتضاربوا فى تفسيرها ·

فلقد ألبس دانتى مدرسة الرموز الاغريقية ثوبا قشيبا وصبغها بلون أدبى رقيق مبهم يترك أكثر من معنى فى نفس القارىء ·

٤ ـ مختلف العلوم والمعارف والمذاهب الفلسفية التى دسها فى صلب الكوميديا بطريقة مسلية جعلها دائرة معارف مصغرة يطوف القارىء متنقلا بين مملكة الظلام بما فيها من عذاب وبكاء وعويل ومملكة السعادة الأبدية حيث النعيم المقيم والنور الالهى ·

ولم تسلم الكوميديا من لسان الناقد اللاذع فولتير اذ يقول عنها :

« ان الكوميديا أصبحت لا تقرأ فى أوروبا لكثرة ما فيها من كناية وتلميح الى أحداث مجهولة ولا يحتفظ بها فى مكتباتهم الا المولعون بالتحف لا بالقراءة ·

ويلقبه الايطاليون بالأديب الرائع ولكن روعته مستترة غير مرئية وان التضارب فى تفسير رموز كتابه لهى الدليل على انه مبهم غير مفهوم » ·

وقال عنها « فلوبين » : « لا أريد أن أقول عن الكوميديا بأنها مملة لانها كتبت لعصر معين لا لكل العصور » ·

وحللها « اوزانام » بهذه الجملة : « ان الكوميديا هى نتيجة أفكار استقاها دانتى فى مثابرة طويلة من المدارس المسيحية والعربية والسكندرية واللاتينية والاغريقية ولكن يظهر فيها بوضوح وحى الشرق » ·

ونحن نؤكد بدورنا ان التراث الشرقى العربى الاسلامى هو الذى خلدها ·

دون كيشوت

سرفنتيس

١٦٠٥ م

كثير من عظماء الرجال وافذاذ الانسانية لم تقدر عبقريتهم ويعترف بفضلهم فى أثناء حياتهم وقد يظفر بعضهم بعطف قلة من معاصريهم ويحظى بتشجيعهم ، ولكن أعمالهم برغم ذلك تظل عرضة للشك ومثار جدل وخلاف حتى تنقضى حقبة من الزمن يختفى فيها من الميدان الرجال الأقل قيمة والأدنى منزلة ، الذين نالوا مكانة لم يكونوا بها جديرين وأصابوا من الاعجاب والتقدير مالا يستحقون ، ويظهر حينذاك فضل هؤلاء الذين عقهم عصرهم وغمطهم حقهم • وكثيرا ما يحدث أن هؤلاء الذين ملأوا عصرا من العصور ضجة ودويا ووصلوا بين معاصريهم الى المكانة الشماء يجر عليهم النسيان أذياله ويطويهم الزمن فى غياهبه فلا تحفل الأجيال التالية بآثارهم وتعرض حتى عن ذكر أسمائهم فى حين أن الرجال العظماء حقا يعيشون فى أعمالهم الخالدة ويبقى ذكرهم ما بقيت الانسانية ومنهم من ذاق مرارة الاخفاق وعرف آلام الحرمان •

ورواية دون كيشوت من أشهر الروايات العالمية واحدى الطرف الأدبية والمعدودة ، وقد اشتهرت مغامرات بطلها هذا ، أو بالأحرى حماقاته المسلية وكيف كان يسير مع تابعه سانكوبانزا ويثبت اقدامه وشجاعته وميله الى الأخذ بيد الضعفاء ومناصرة المظلومين بأساليب مختلفة تدل على الغفلة والسذاجة والمقتربة بطيبة النفس والمثالية العمياء • ولا يعد هذا الكتاب الذى سجل مغامرات هذا الفارس المغوار وتابعه المسكين مجرد قصة وانما هو صورة لأسبانيا فى عصره وحياتها من شتى نواحيها فى القرن السادس عشر فهى تمثل أفكار الشعب وتصور مشاعره تصويرا لايستطيعه سوى فنان عبقرى موهوب حاد الفطنة نافذ البصيرة •

كتاب عرفه العالم قبل أن يعرف صاحبه !

وحينما ظهر الكتاب فى أسبانيا سنة ١٦٠٥ لم يكن أحد يدرى أنه سيكون من الكتب العظيمة الخالدة وأنه سيترجم الى لغات العالم جميعها ومنها لغتنا العربية ولم يعن أحد بمعرفة مؤلفه أو بذكره بعد موته ولكن حينما عرف مواطنوه الأسبانيون أنه أصبح له شهرة عالمية أخذوا فى بحث سيرته وتحرى أخبار حياته ووجدوا انه يستحق الشهرة الواسعة بوصفه انسانا ، فضلا عما يستحقه من الشهرة بوصفه أحد كتاب العالم المعدودين •

كان سرفنتس جنديا وليس من عادة الجنود أن يشتغلوا بكتابة القصص ولكنه لم يكن جنديا فى جيش منظم يتلقى التدريب كل يوم فى الثكنات ، وانما جندى آثر أن يذهب الى الحرب ويخوض غمارها ويستهدف أخطارها ويتحمل فى صبر وجلد مشقاتها وقد أفاد من ذلك معرفة واكتسب خبرة بالحياة والمجتمع أعانها خياله الخصب وشاعريته وقدرته الفنية ٠

وقد ولد سرفنتس فى سنة ١٥٤٧ وكان أبوه بيطارا بمدينة قلعة اينارس وكانت هذه المدينة حينذاك مركزا مهما من مراكز العلم المسيحى ، فقد أوجد فيها الكاردينال اكزيمنيس جامعة فى سنة ١٥٠٨ ٠ ولكن سرفنتس لم يلتحق بهذه الجامعة لان أهله كانوا فقراء ولكنه عمل على أن يتلقى من اللاتينى ما يمكنه من قراءة الآثار اللاتينية الأدبية وقد استدل الذين ترجموا له على فرط ميله للقراءة من قوله انه كان يقرأ كل ما يقع فى يده حتى قصاصات الورق التى يلتقطها من الطريق وقد اعتاض عن الدراسة المنظمة بمعرفة الناس والحياة معرفة يغبطه عليها الدارسون والعلماء ٠

وقد حاول الكتابة مبكرا ونظم قصيدة وهو فى العشرين من عمره بمناسبة وفاة ملكة أسبانيا وأثنى على القصيدة أستاذه ، ومرت سنوات قبل أن يستطيع أن يفرغ للأدب ومعالجة الكتابة والتاليف وكان يشعر بأنه يملك الموهبة ولكن ظروف الحياة القاسية لم تتح له الفرصة لاختبار قدرته وشحذ ملكته وكان مطبوعا على حب المغامرة ، فاغتنم أول فرصة لاحت له لممارسة الحياة ومعاناة التجارب فقد التحق بخدمة القس الايطالى الشاب أكوفيفا بوصفه رئيسا للخدم ٠

وكان البابا قد أرسل هذا القس الى الملك الأسبانى فيليب الثانى وغضب الملك عليه وأمره بمغادرة أسبانيا خلال شهرين وقد انتقل معه سرفنتس الى ايطاليا عند عودته اليها ولكن سرفنتس لم يرض عن الحياة المملة الخالية من الحوادث الشائقة فى ظل راعية القسيس ولم يكن ممن يحسنون الملق والمداهنة والدس ولذلك استقال من عمله ٠

والتحق بالجندية فى الفرقة الأسبانية التى تكونت فى ايطاليا وكان البابا بيوس الخامس ينظم حينذاك حلفا مقدسا لوقف تقدم الأتراك العثمانيين فى أوروبا وكانت فتوحاتهم العظيمة وانتصاراتهم الباهرة قد أدخلت الرعب فى قلوب الحكومات الأوربية ولكن كانت هناك صعوبة فى توحيد الكلمة وجمع الصفوف والاتفاق على خطة لصد تيار الهجوم التركى ٠ كانت المنافسات بين الدول الأوربية لا تمكن من عقد الاتفاق والتغلب على أسباب الخلاف والشقاق وأخيرا وبعد ابطاء طويل قضاه سرفنتس فى نابولى تكون الحلف من البابا والبندقية وأسبانيا تحت

قيادة دون جيوان النمساوى ، وكان قائدا بارعا وهو أخو فيليب الثانى وكان أسطول هذه الدول الثلاث يعد أعظم أسطول يحمل علم المسيحية وكان فيه سفن يجدف بها عدد من البحارة كلهم من المجرمين المحكوم عليهم • وفى سفن الأتراك كانت البحارة من الجنود الانكشارية وكان هدف المتحالفين استرداد جزيرة قبرص من الأتراك ولكن ، قبل وصول الحلفاء الى الجزيرة نشبت معركة رهيبة عند خليج ليبانتو الواقعة عند مدخل خليج كورنت انتصر فيها الحلفاء بعد جهاد شديد •

وبرغم ان سرفنتس كان يعمل جنديا بسيطا فقد أظهر شجاعة استرعت الأنظار وحازت التقدير ، وكان مصابا بالحمى فى نابولى ولكنه أصر على الاشتراك فى المعركة برغم مرضه ، واختار مكانا معرضا للهجوم الشديد من السفن المعادية وقد أصيب فى المعركة بثلاث قذائف اثنتين فى الصدر والثالثة فى يده اليسرى وظلت يده مشلولة طوال حياته وقد أكسبه موقف البطل هذا اعجاب زملائه وظل هو نفسه يرى أن هذا الموقف هو أنبل مواقف حياته وأحقها بأن يفخر به •

وقتل من الأتراك فى هذه المعركة الدامية قرابة عشرين ألفا وفقدوا مائة وسبعين سفينة • ولم تقض هذه المعركة على قوة الأتراك ولكنها أوقفت تقدمهم وأقنعت الحلفاء بأن الأتراك يمكن هزيمتهم وكانت انتصارات الأتراك المتلاحقة قد جعلت الأوربيين يشكون فى قدرتهم على ايقاع الهزيمة بالأتراك وردهم على أعقابهم •

وهبت عاصفة فى اثر المعركة ، وأبحر دون جيوان النمساوى الى مسينا ومعه جرحى المعركة وكان من بينهم سرفنتس الذى كان جرحه بالغا وأعطيت له هبة من المال لقاء شجاعته ولكنه كان شديد التوق الى العودة الى ميدان القتال ولم يمض زمن طويل حتى عاد الى الانضمام للجيش واشترك فى محاولة دون جيوان الثانية للتغلب على الأسطول التركى ولكن هذه المحاولة لم تنجح •

وتلا ذلك هجوم على أفريقيا والاستيلاء على تونس ولكن سرعان ما استردها الأتراك واستغرقت هذه المحاولات والمغامرات أربع سنوات عانى سرفنتس فى خلالها شدائد الحرب وتعاورته محنها وذاق لذة الانتصار وتجرع مرارة الهزيمة • وقد صار بعد هذه التجارب المرة جنديا مبتور اليد وعرف ما يعرض الحياة الجندى من الأعمال العظيمة ولكنه عرف كذلك الاخفاق وخيبة الرجاء •

ولما كان قد غاب عن بلاده ست سنوات فقد التمس العودة اليها ومنح هذا الحق وترك نابولى فى سفينة قاصدة الى أسبانيا وكان يحمل رسالتين يشيدان ببطولته وحسن بلائه احداهما من دون جيوان نفسه

والأخرى من دوق سيسا لفيليب الثـاني وكانت هاتان الرسالتـان من أسـباب نكبته فقد هاجمت السفينة التي تحمله سـفن القراصنة من الجزائريين في الريفييرا الفرنسية وأخذته أسيرا مع جماعة من الأسبانيين ولما وجد القراصنة معه الرسالتين ظنوا أنه من علية القوم وان له شأنا وغالوا في طلب الفدية وقد حمل سرفنتس مع سائر الأسرى الى الجزائر ووضع تحت حراسة رجل من أصل يوناني اعتنق الاسلام ٠

وأظهر سرفنتس في أثناء أسره الذى استمر خمس سنوات شجاعة نادرة وأظهرت الأحداث التي توالت عليه ما تنطوى عليه نفسه من نبل وسماحة ٠ ودبر خططا للهرب من الأسر ولم يمنعه اخفاق احدى الخطط من محاولة تدبير خطة أخرى وفي أول محاولة أفسد الخطة أحد المغاربة وكان قد اتخذه دليـلا فأفشى سر المحاولة في اللحظة الأخيرة واضـطر الهاربون مع سرفنتس الى العودة الى الجزائر واحتمل هو التبعة ، وعوقب من أجل ذلك عقابا شديدا ٠ وفي السنة التالية أرسل والده مبلغا من المال لافتدائه ولكن المبلغ المرسل لم يكن كافيا وأطلق سراح أخيه رود ديجو فعاد الى أسبانيا ومعه طلب من سرفنتس يوصى فيه باعداد سفينة وارسالها للجزائر لتمكنه من الهرب مع زملائه من الأسرى وأعد العدة للهرب ، وخبأ نحو خمسين من الأسرى الأسبانيين في كهف خارج المدينة وظل يقدم لهم الطعام مدة ستة أشهر وأخيرا جاءت السفينة المنتظرة واستعد هو ورفقاؤه للهرب والابحار عليها ولكن شاء الحظ أن يكشف أمرهم في اللحظة الأخيرة وأحاطت به قوة مسلحة من الجند الأتراك وأبى سرفنتس الا أن يحمل الوزر كله وحده وبرغم تهديده بالتعذيب والموت فانه رفض القاء التبعة على أحد من رفاقه ٠ ولم يكن الحاكم التركي الذى مثل سرفنتس بين يديه يتردد في اصدار الحكم بالاعدام في أمثـال هذه الحالة ولكن يبدو أن ثبـات سرفنتس واصراره على الانفراد باحتمال التبعة أثرا في نفسه وحملاه على الظن بأن هذا الأسباني الجرىء لابد أن يكون له شأن خاص وربما أمكن الحصول على فدية ضخمة من وراء الابقاء على حياته ٠

واتفق تاجران أسبانيان على تجهيز سفينة مسلحة تتسع لستين من الأسرى ولكن راهبا أسبانيا كان يكره سرفنتس لأسباب مجهولة أفشى سر المحاولة وكان في استطاعة سرفنتس أن يهرب بسهولة ويتخلص من حياة الأسر الشاقة لو أنه وافق التاجرين على أن يهرب بمفرده ولكنه أبى أن يهرب ويترك رفقاءه في الأسر ولكى يجنبهم التبعة قدم نفسه للحاكم وقد سيق اليه وحول عنقه حبل وأظهر شجاعة كعادته أمام الحاكم وكان المنتظر هذه المرة أن يحكم عليه بالشنق أو على الأقل يجدع أنفه أو تقطع

أذنه ولكن الحاكم اكتفى هذه المرة بحبس الأسبانى المقطوع الأيدى مقيدا بالاغلال مدة خمسة أشهر ٠

وقامت محاولات فى أسبانيا لافتدائه وكان والده قد توفى ولكن والدته وأخواته عملوا على جمع ما يستطيعون من المال وقدم الملك اعانة لوالدة سرفنتس لقاء خدمته فى الجيش كما أمدتها بعض المؤسسات الخيرية بمبلغ من المال وأرسل راهب أسبانى الى قرصان الجزائر للمساومة فى اطلاق سراحه ٠ ويروى أنه لو تأخر الراهب قليلا لكان سرفانتس قد نقل الى القسطنطينية ليباع بها فى سوق الرقيق العام ٠

ولما عاد سرفنتس الى أسبانيا ترك الجندية للاشتغال بالأدب ونظم شعرا وكتب تمثيليات وروايات ونقدا أدبيا ولكنه لم يوفق فى ذلك كله وكان يعانى من الضيق وقد انفقت الأسرة ما عندها ليستعيد حريته ٠ ولو عاش مثل هذا الرجل فى عهد انتشار الصحافة لاشتهرت مغامراته فى الخافقين وعد من أبطال العصر وشخصياته اللامعة وكان راعيه دون جيوان قد مات حين وصوله الى أسبانيا فلم يجد أحدا يقدر ماضيه وحسن بلائه ويقول عنه كلمة طيبة تقربه من أصحاب السلطة والنفوذ ٠ وكانت أسبانيا حينما عاد اليها فى سنة ١٥٨٠ قد بلغت الذروة فى المكانة بين الدول الأوربية وكان ملكها فيليب الثانى لا يحكم أسبانيا وحدها وانما يحكم معها كذلك البرتغال والأراضى المنخفضة وجزءا كبير من ايطاليا وجزءا من شاطىء أفريقيا الواقع على البحر الأبيض المتوسط والدنيا الجديدة من شيلى الى فلوريدا أو قرابة ثلاثة ارباع القارة الجديدة ٠

وكانت أسبانيا مسيطرة فى البر والبحر ، مما آثار المنافسة الشديدة بينها وبين الدول الطامعة فى توسيع رقعتها وبسط نفوذها ولكن هذه العظمة كانت قائمة على اتساع الحجم وترامى الحدود فى حين ان الفساد كان متغلغلا فى صميم الدولة فقد ملكت شهوة جمع الذهب والطمع فى التوسع والنفوس مما يوضح لنا أن عبادة القوة وشره حب الامتلاك يؤديان الى السقوط والخراب فقد شرعت الناس تفخر بما تملك من الأميال المربعة وما تسيطر عليه من النفوس وشغل تفكيرها بالأهداف المادية المحضة واتخذت الدولة سياسة العدوان والتوسع فى بسط السلطان وأهملت الحاجة الى الاصلاح الاجتماعى والاصلاح الاقتصادى ولم تعن بأحوال الطبقة الفقيرة بل حاولت أن تستغلها ٠ وأثارت الكثير من الحروب ولم يكن عجيبا اغفال أمر الجندى الباسل الفقير المغمور سرفنتس فى مثل هذه الأحوال ٠

وقد ألف رواية أسماها « جالتيا » ضمنت له الشهرة ولكنها لم تدر عليه من المال ما يكفى للاقبال على التأليف والافادة من مواهبه الأدبية

وتزوج سرفنتس فى السابعة والثلاثين من عمره من سيدة تسمى كاتالينا حملت معها له بائنة مكونة من أربع خلايا نحل وملاءتين من الكتان وثلاث من القطن وبطانية جيدة وأخرى مستعملة وأربعين دجاجة وملكية مزرعة كروم صغيرة وعجب جيرانه من أمر هذه السيدة التى تقبل الزواج من مثل هذا الجندى المقطوع اليد الذى لا يملك شروى نقير ويكبرهـا بسنوات كثيرة ٠

وأقبل سرفنتس على الكتابة والتأليف وبذل جهده ولكنه عجز عن منافسة معاصره المؤلف الدرامى الشهير « لوب دى فيجا » فقد كان ذائع الصيت كثير الأنصار والمعجبين وكانت له قدرة على الابتكار لا تبـارى ويروى أنه ألف ألفا وثمانمائة مسرحية غير الأشعار التى نظمها والقصص التى كتبها ولم يبق من آثاره الا القليل ٠ وقد كانت الدرامات الأسبانية هى الأمثلة التى احتذاها كتاب الدراما فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية ٠

واضطر سرفنتس الى البحث عن عمل آخر ليعيش منه ويعول أسرته وكانت الحكومة الأسبانية حينذاك تعد أسطولها الأرمادا لمهاجمة انجلترا واستطاع سرفنتس أن يحصـل على وظيفة لتوريد الأغذية والأخشـاب وما اليهما وبيعها للأسطول وكان هذا العمل مما يضيق عنه ذرعه ٠ وعين بعد ذلك فى الوظيفة المتواضعة وظيفة جابى الضرائب وسرعان ما أبغض هذه الوظيفة وعانى مشكلاتها والتمس من الحكومة أن تعينه فى وظيفة أخرى ولكن التماسه أهمل وظل فى الوظيفة الكريهة وعصره الفقر حتى كان يجـد صعوبة فى الحصـول على الملبس ، وأثار عجزه فى المسـائل العملية الشبهة فى أمانته وحبس فى أشبيلية لوجود عجز فى عهدته ولم يعطف فيليب الثانى على هذا الجندى القديم والكاتب المكافح وحينما مات فيليب الثانى وخلفه ابنه فيليب الثالث أغفل هو كذلك شأن سرفنتس ولم يعمل على انصافه وتفريج أزماته ٠

سرفنتس يكتب قصته الخالدة

وفى غمرة هذا الشقاء وخلال هذه المثبطات ومواجهة هذه الصعاب شرع سرفنتس فى تأليف كتابه العظيم وروايته الخالدة وفى سنة ١٦٠٥ ظهر الجزء الأول منها وبرغم النجاح الذى لقيته واقبال القراء على قراءتها والاعجاب بها فان الكنيسة لم ترض عنها ٠ وكتب « لوب دى فيجا » المؤلف الموفق الناجح يقول عن معاصره التعس الحظ : « ليس هناك شاعر أسوأ من سرفنتس ولا شىء اسخف من امتداح دون كيشوت » ٠

وكانت الناس في ذلك العصر تقرأ روايات الفروسية التى تروى مغامرات سخيفة مشحونة بالمبالغات التى لا يقبلها العقل عن الفرسان وجولاتهم لاجتذاب الأميرات الحسان واستنزالهن من القلاع والحصون . وقد أراد سرفنتس أن يسخر بهذا النوع من البطولة الزائفة ويكشف ما تنطوى عليه من سخافات وحماقات وتهويلات ومبالغات ، ومكنه خياله الخصب وتجاربه المنوعة من أن يقدم لنا فى كتابه صورة شاملة للحياة الأسبانية فى عصره من خلال تصويره لبطله الذى أفسد عليه تفكيره امعانه فى الاطلاع على أقاصيص البطولة . وتابعه الذى كان يحاول عبثا أن يبصره بالواقع ..

الرواية وخلاصتها

دون كيشوت ـ هو رجل نحيف طويل قد ناهز الخمسين ـ برجوازى متوسط الحال يعيش فى قرية من قرى اقليم لامنشا بأسبانيا . لم يتزوج . ولا يعيش معه فى بيته القروى الا ابنة أخت له وخادمة تتكفل بشئون البيت ولديه من الفراغ ما يسمح له بالقراءة والمطالعة ويقوده مزاجه الى كتب الفروسية والتى تسرد وقائع الأبطال والمغامرين من الفرسان الجوالين فيجتمع له قدر ضخم يعكف الليل والنهار على قراءته ويشغف بها شغفا يملك عليه حسه حتى يكاد يفقد عقله وينقطع ما بينه وبين الحياة الواقعية ثم يبلغ به الهوس حدا يجعله يفكر فى أن يعيد دور هؤلاء الفرسان وذلك بمحاكاتهم والسير على نهجهم حين يضربون الأرض ويخرجون لكى ينشروا العدل وينصروا الضعفاء ويدافعوا عن الأرامل واليتامى والمساكين .

وقر عزمه على الخروج . وأعد له عدته فاستخرج من ركن خفى بالمنزل سلاحا قديما متآكلا خلفه له آباؤه منذ زمن قديم فأصلح من أمره ما استطاع وأضفى على نفسه درعا ولبس خوذة وحمل رمحا وسيفا ووضع فى ذراعه درقة وركب حصانا أعجف هزيلا أطلق عليه اسم روسينانتى ، كما أطلق على نفسه هو اسم دون كيشوت دى لامنشا بدلا من اسمه الأصلى كيخانا الطيب وأخذ يدير فى رأسه أسماء من عرف من قرويات فاستقر على اسم احداهن فصارت دولثينيا دالتوبوسو . وتخيل أنه لها محب ولهان شأن الفرسان السابقين مع حبيباتهم وخرج دون أن يشعر به أحد قبيل الفجر فى يوم من أيام الصيف وهو على هذه الهيئة الغريبة التى انقرض أصحابها منذ أجيال يلتمس المغامرات ويمنى نفسه الأمانى وتهجس فى صدره وساوس عظيمة .

ثم تذكر وهو سائر فى طريقه فرحا مزهوا أن خروجه غير شرعى وانه لكى يصبح فارسا جوالا ذا حق فى استخدام السلاح ينبغى أن ينصب فارسا على يد شيخ من الفرسان معترف به حسب ما هو مدون فى كتب الفروسية التى قرأها ويضطرب لذلك الأمر شديدا • ولكنه يرى عن بعد خانا صغيرا مما ينزل فيه المسافرون وسرعان ما تخيله قلعة ذات أسوار وتخيل صاحب الخان فارسا عظيما فركع أمامه ودعاه الى تنصيبه فارسا ومضى صاحب الخان فى المهزلة فحقق له ما أراد •

ويعود دون كيشوت فرحا الى قريته ليحمل معه بعض ما يلزم الفرسان من متاع فيلقى فى طريقه فلاحا يضرب غلاما له • ويمارس للمرة الأولى حقه فى الفروسية ويهدد الفلاح برمحه ويخلص الصبى المسكين من يده ويمضى معتقدا أنه أسدى يدا عظيمة على حين يعود الفلاح الى غلامه فيزيده تنكيلا وعذابا •

ويعود الفارس الجوال الى منزله على حمار فلاح من أبناء قريته صادف الفارس طريحا على الأرض بعد معركة ضرب فيها ضربا مبرحا على يد تجار استفزهم بجنونه ويدخل بيته وهو يهذى هذيانا طويلا بكت له صاحبتاه •

ويقر عزمه على الخروج ثانية ولا يستطيع أن يثنيه عن حمقه أحد ، لا صاحبتاه ولا صديقاه المخلصان له : قسيس القرية وحلاقها اللذان أحرقا مكتبته أثناء غيابه مقدرين انها مصدر جنونه بل ان الفارس يستطيع خلال اقامته القصيرة أن يستغوى فلاحا ساذجا هو سانشو بانثا فيفاوضه على أن يكون تابعا له وحاملا لشعاره شأن اتباع الفرسان فى قصص الفروسية ويمنيه الأمانى ويعده أن يجعله حاكما على احدى الجزر حين يفتح الله عليه ويهبه النصر والمجد المنتظر ويصدقه سانشو ويضع خرجه على حماره ويركبه ويسير خلف سيده الراكب على حصانه ويصبح شاهدا وشريكا له فى مغامراته كلها وهو يرجو وينتظر أن يتحقق له ما وعده به سيده من امارة وحكم •

ويخرج الفارس وتابعه خلسة بعد أسبوعين من عودته الى الدنيا العريضة وهذا هو خروجه الثانى •

وأثناء هذا الخروج يقوم الفارس بمغامرات عديدة ما هى فى حقيقتها بمغامرات ولكن خيال الفارس يأبى الا أن يجعل من الشىء العادى المألوف أمرا خطيرا يستحق المغامرة • وأول الحوادث هى معركته مع طواحين الهواء اذ توهم انها شياطين ذات أذرعة هائلة واعتقد انها مصدر الشر فى الدنيا فهاجمها غير مصغ الى صراخ تابعه وتحذيره ورشق فيها رمحه فرفعته أذرعها فى الفضاء ودارت به ورمته أرضا فرضت عظامه ، ثم تصادف فى

يوم تال عربة تجرها الخيل فيها امرأة مسافرة حولها الخدم وأمامها راهبان على بغلين فيدخل فى وهم الفارس انها سيدة قد اختطفت وقيدت قسرا وأن واجبه تخليصها من أسرهـا وأن الراهبين ساحران خبيثان فيهاجم الراهبين ويخوض معركة مع خادم للسيدة تنتهى بضربة تسقط الخادم عن دابته ولا ينقذ الموقف الا تعهد المهزوم أن يمضى فورا الى بلد التوبوسو ليقدم نفسه خاضعا لدولثينيا سيدة الفارس يسألها العفو ويشهد ببطولة دون كيشوت حبيبها ٠

ولا يسلم سانشو خلال مغامرات دون كيشوت من أذى يصيبه فلقد ضرب ضربـا شديدا فى معركة دارت بين الفارس وبين فريـق من تجار جليقية وكان جانيها روسينانتى حيث تحكك فى أفراس أولئك التجار ٠ وكذلك حدث فى فندق نزل فيه الفارس أن أخذ بعض العابثين يتقاذفون سانشو فى ملاءة سميكة أمسكوا بأطرافها من كل جانب يرفعونها ويهبطون بها فيتعالى سانشو فى الهواء ويتكور ثم يسقط ليعود الى التحليق مرة بعد مرة ولم تفارق ذاكرة سانشو هذه الدعابة الموجعة القاسية التى كان سببها امتناع دون كيشوت عن دفع أجر لمبيتهما فى الفندق اذ توهم انه بات ليلته فى قلعة من قلاع الفرسـان ولا يجوز فى حكم الفروسية أن يدفع أجرا فى مثل هذه الحال ٠

وسانشو بانثا يحب السلم ويؤثر المسكنة على القتال ، ولكن المشكلة تجىء من أن دون كيشوت بوصفه فارسا لا يباح له الا قتـال الفرسان وحدهم فاذا جاء العدوان وان يكن لسوء تصرفاته هو من مدنيين لا يحملون سلاح الفرسان ، فقد وجب أن يتكفل سانشو برد هذا العدوان والنتيجة الحتمية لذلك أن يتحمل سانشو ما يتحمل من لكمات وصفعات وضرب بالعصى وتمرغ فى التراب ورجم بالحصا وتقاذف فى الملاءات !

ثم تجىء بعد ذلك معركة الأغنام المشهورة فلا يكاد دون كيشوت يبصر غبـار قطيع من الأغنـام يملأ الجو يتخيل أنه يشهد زحف جيش عظيم ويتصاعد غبار من الجهة المقابلة لقطيع آخر فيؤمن بأنها المعركة الهائلة بين جيشين لملكين أحدهما مسلم وثانيهما مسيحى ويأخذ فى هذيان طويل يشرح فيه لتابعه أمر الجيشين وسبب القتال بينهما ثم يندفـع بحصانه يخوض المعركة التى أتاح له القدر ليثبت فيها شجاعته ويخلد اسمه وتنجلى المعركة عن قتل عدد من الأغنام برمح الفارس وعن سقوط الفارس تحت وابل من أحجار الرعاة يفقد فيها عددا من أضراسه !

الفارس فى مثـل هذه المعـارك يدرك الحقيقة بعد هزيمته ولكنه لايفسر الأمر على الوجه الصحيح فيرجعه الى جنونه هو ، وانما يفسره على أن خصومه من السحرة قد أرادوا حرمانه من نصر مؤكد ومجد لابد أن

يظفر به ، وقد مسخوا بسحرهم العمالقة الشياطين الى طواحين هواء والفرسان المحاربين الى أغنام ! وهكذا الهمة أو لا · ويصدقها دون كيشوت ويمضى معها ويتكامل الموكب ويأخذ الطريق الى قرية دون كيشوت ·

وعاد دون كيشوت الى قريته فى وضح النهار من يوم عيد وأهل القرية مجتمعون فى الطرق والميادين فقوبل بالعجب والأسف ودخل منزله بين بكاء صاحبتيه — ابنة أخته وربة منزله — وعويلهما ووضع فى فراشه مهزولا منهوك القوى ·

وذلك هو آخر الخروج الثانى وبه يختم النصف الأول من الرواية ·

أما القسم الثانى من الكتاب — وقد طبع بعد عشر سنوات من صدور القسم الأول فيبدأ ودون كيشوت معتكف فى بيته والذين حوله يتجنبون اختبار ذهنه مخافة أن يرتد اليه جنونه ثم يكتشفون أنه لم يشف من جنونه رغم الاعتكاف والمعالجة ويلقى سانشو سيده ويفضى اليه مما ذكره له سانسوكراسكو — وهو طالب علم من أبناء القرية يدرس فى جامعة سلمنقة من أن كتابا ألفه مؤرخ اسمه سيدى حمادة بن الجيلى قد صدر مطبوعا وهو يقص مغامرات دون كيشوت وأعماله فى خروجه الأول والثانى ثم يستدعى كراسكو الى منزل دون كيشوت ويجتمع به وبسانشو فيحدثهما عن الكتاب وما فيه ويعجب الرجلان ويقدران أن مؤلف الكتاب انما هو من سحرة العلماء ويبين خلال المناقشة مقدار ما عليه الطالب كراسكو من خبث ودهاء ومن ميل الى الفكاهة والعبث ·

ويعلن دون كيشوت اعتزامه الخروج الثالث ويستشير كراسكو فى جهة المسير فيشير عليه بأن يذهب الى سرقسطة وتسمع صاحبتا المنزل هذا فيأخذهما الحزن والألم ويشتد غضبهما على كراسكو ويسؤوهما أن يمد الطالب العلم لدون كيشوت من حبل جنونه وهما لا يعلمان أن كراسكو يدبر فى رأسه أمرا ·

وفى مساء يوم من الأيام يخرج دون كيشوت وسانشو فى هيأتهما السابقة ، هذا على حصانه روسينانتى وعليه سلاحه وهذا خلفه على حماره وفى وداعهما شخص واحد هو الطالب كراسكو · ويريد دون كيشوت قبل البدء فى مغامراته أن يتلمس التأييد والبركة من حبيبته وأن يستفتح جهاده بالحج اليها فيتخذ طريقه الى بلد التوبوسو ويصل الفارس وتابعه ليلا الى القرية ويطوفان حولها حتى يقبل الفجر وانها لمشكلة لابد لها من حل : فلا الفارس وتابعه ولا أحد فى ذلك الموضع يعرف من تكون دولثينيا هذه ولا أين يقوم قصرها ويتفتق ذهن سانشو عن الحل فلا يكاد يرى عددا من القرويات على حميرهن يذهبن مبكرات الى الحقل حتى يعلن لسيده أنه موكب السيدة العظيمة دولثينيا ويركع الفارس أمام احداهن داعيا

شاكيا مبتهلا بين تعجب القرويات ونفورهن وأخيرا يعتقد دون كيشوت على عادته أن السحرة من خصومه أرادوا حرمانه من الاستمتاع برؤية محبوبته فمسخوها قروية قبيحة جافية وهي حيلة صنعها سانشو بنفسه ولكنه سيعود مؤخرا الى الشك فيما اختلقه هو !

ويمضي الفارس بعد ذلك فى طريقه ..

فـــارس الأسود !!

ويعترض طريقه فارس مجهول لديه يخفى وجهه ويلقب نفســـه بفارس المرايا ومعه تابع له على هيئة الفرسان الجوالين وأتباعهم ويدخل الفارس المجهول فى جدال مع دون كيشوت ويتحداه بأن محبوبته أجمل من دولييثينيا دالتوبوسو ، ويطلب اليه أن يعترف بذلك والا وجب عليه أن يبارزه وأن على المهزوم أن يقبل حكم خصمه مادام الحكم لا يخرج على قواعد الفروسية الجوالة ويقبل دون كيشوت التحدى . ذلك الفـارس المجهول ليس الا طالب العلم كراسكو أرادها حيلة لكى يرد الفارس الضال الى صوابه ناويا أن يكون حكمه عند النصر أن يتخلى دون كيشوت عن مغامراته ويتنازل عن حق الفروسية لمدة عامين يقضيهما فى قريته لا يغادرها وهذا أمر دبره كراسكو مع القسيس والحلاق ولكن يشاء الحظ أن يهزم الفارس المجهول فى المبارزة فتفسد الخطة ثم ينكشف وجه المهزوم بعد سقوطه عن حصانه وسنان دون كيشوت بين عينيه وكذلك يسقط عن وجه التابع قناعه فاذا بهما عند سانشو الطالب كراسكو وأحد جيرانه من القرية ولكنهما عند دون كيشوت عدوان حقيقيان حولهما السحر بعد الهزيمة فصارا فى هيئة الصديقين امعانا فى الســخرية من الفــارس والكيد له .

وتجىء خلف ذلك مغامرة الأسود حيث يشهد دون كيشوت عربة عليها أعلام ملكية مقبلة واذا هى تحمل أسدين فى قفصين جاءا هدية الى القصر الملكى من وهران ويستوقف الفارس العربة ويهدد صاحب الأسود ويأمره بفتح باب القفص ليبارز الأسد ويثبت تفوقه عليه ويضيف الى مجده مجدا ولا يجد الرجل مفرا من الاذعان والرمح فى ظهره ويترجل دون كيشوت ويسحب السيف بدل الرمح ويقف أمام القفص ويمعن فى الفرار سانشو ومن هنالك . ويفتح الباب على مصراعيه ويدعو الفارس الأسد الى النزول فينهض الأسد ويطل برأسه من باب القفص ذات اليمين وذات اليسار فترة ثم يدير فى بطء ظهره الى الفارس ويعود الى الرقود فى موضعه ويأبى صاحب الأسود أن يهيج أسده أكثر من ذلك وهو ما دعاه

اليه دون كيشوت ويؤكد الفارس أنه قد تم له النصر المؤزر على الأسد اذ جبن على النزول لاسيما وهو جائع لم يطعم وأنه سيحمل هذا النبأ العظيم الى الملك نفسه حين يلقاه وهكذا يقفل القفص ثانيا ويرى دون كيشوت أن يخلد هذه الواقعة فيطلق على نفسه منذ الآن اسم « فارس الأسود » بدلا من لقبه السابق الذى كان قد اختاره له سانشو (الفارس ذو الوجه الكئيب) ٠

ويعود الهاربون ويسـير الفارس مزهوا بحق ويمضى فى طريق المغامرة والمجد ٠

ويمضى الفارس الى مدينة برشلونة وتصادفه فى الطريق أحداث ويلقى عصابة من قطاع الطرق ثم يدخل برشلونة فيلقاه أهلها بالحفارة ، لأنهم قرءوا تاريخه ويدبرون له زيارة للأسطول ويقيمون له الولائم ٠

ويخرج دون كيشوت ذات صباح على حصانه وفى سلاحه الكامل للتريض على شاطىء البحر فيعترضه فارس مجهول يلقب نفسه بفارس القمر الأبيض يتحداه ويأمره بأن يعترف بتفوق محبوبته على دولثينيا ثم يبارزه مشترطا عليه اذا انهزم أن يتخلى سنة عن الفروسية ويعود الى قريته ـ مرة ثانية ـ يظهر طالب العلم كراسكو متخفيا لينجز مشروعه ويصادفه النجاح هذه المرة فيسقط دون كيشوت على الأرض وسنان خصمه أمام عينيه فيلتزم بالوفاء بالشرط ولا يسلم بأن على وجه الأرض من هى أجمل من حبيبته دولثينيا ٠

ويودع دون كيشوت برشلونة وأهلها ويعود مهزوما حزينـا الى قريته مجردا من السـلاح ولكنه فى الطريق يسترد بعض قواه المعنوية ويعتزم أن يقضى سنة الاعتزال هذه راعى أغنام حيث يعيش كما يعيش الرعاة فى جـو من الشعر والحب والموسيقا ذلك الجـو الذى صـورته القصص الرعوية تصويرا جذابا جميلا ٠

وفى مدخل القرية يشهد بعض علامات ويسمع بعض كلمات يرى فيها نذيرا يوحى له بأن الأيام تكاد أن تجرى بنحس لا بسعود ٠ ثم يلقى القسيس والحلاق وطالب العلم ويخبرهم بهزيمته وقد علموا بها من قبل وبعزمه على التزام وعده وتفكيره فى الحياة الرعوية فيشجعونه ليخففوا عنه صدمة الهزيمة ويحضه سانشو على التفاؤل وتلقاه صاحبتا البيت بالرعاية والسهر ٠

ولكنه لم يلبث أن تعتريه الحمى فتلزمه الفراش سبعة أيام ويزوره الطبيب فيعلن اليأس من شفائه وتضج المرأتان بالبكاء وتملأ الكآبة قلوب أصدقائه وخاصة تابعه سانشو الذى لا يفارق فراش سيده الواجم الذاهل

المحموم ويغشى دون كيشوت نوم عميق طويل يفيق منه شديد التنبه واليقظة ويستدعى أصدقاءه الثلاثة ليعلن لهم أمرا وليوصيهم ويجتمعون ويتحدث دون كيشوت ذاكرا ان الله الرحيم قد غمره بلطفه ورفع عن عينيه الغشاوة وشفاه من الجنون الذى أصابه فهو الآن ليس الفارس الجوال دون كيشوت دى لامنشا وانما عاد الى حقيقته الأولى واسمه الأول الونسو كيخانا الطيب كما عرفه أهل قريته ويتم المراسم الدينية فيعترف للقسيس منفردا بخطاياه ويملى وصيته ٠

ويغمى على الرجل عدة مرات خلال ثلاثة أيام ثم يوافيه الأجل المحتوم وبهذا تنتهى حياة البطل وبه ينتهى الكتاب بقسميه ٠ وفى العام التالى يوافى الأجل المحتوم المؤلف نفسه ميجيل دى سرفنتس سافيدرا فينهى الكتاب فى سنة ١٦١٥ وحياة مؤلف الكتاب فى سنة ١٦١٦ ٠٠

تاويـــلات

دون كيشوت « وتنطبق بالأسبانية « دون كيخوتة » » الكتاب الذى عرض على العالم بأسره أروع صورة للعقلية الأسبانية طيلة القرون الأربعة الأخيرة وخلد اسم مؤلفه « ميجيل دى سيرفانتس » فى الأدب العالمى ٠

ذلك ان معظم أهل الفن والأدب يصدرون فى نظرتهم للحياة عن طابع شخصى ولكن « سيرفانتس » ــ فى قصته هذه ــ جمع بين الطابع الشخصى والطابع القومى والطابع الانسانى عامة : الطابع الشخصى لأنه بث فيها الفلسفة التى خرج بها من تجاربه فى الحياة والطابع القومى ، لان القصة خير ما يعبر عن عبقرية قومه والطابع الانسانى لانها تصور النفس عامة وتخاطب العقل الانسانى دون تقيد بعصر ولا بجنس والكتب من هذا النوع فى الأدب العالمى كله لا تتجاوز أصابع اليدين عدا ٠

والقصة تكون سخرية ممن تستهويهم المثل العليا ــ مثل الشهامة والمروءة والشجاعة ــ التى تصورها قصص الفروسية الخيالية باعتبارها مثلا وهمية لا مجال لها فى الحياة العملية ٠٠ وقد تكون نقدا لاذعا لأوضاع المجتمع الأسبانى فى القرن السابع عشر ولشخصيات معينة فى العهد الذى عاش فيه « سيرفانتس » ٠٠٠ كالملك شارل الخامس والملك فيليب الثـانى ٠

وقال ناقد أسبانى انها قصة تصوفية وان « دولثينيا » ــ السيدة التى تعلق بها « دون كيشوت » ــ تحريف لكلمتى « ديفينا لوشى » الأسبانيتين ومعناها « النور الالهى » ٠ وقال البعض انهـا محاولة لعرض الجنون وتصويره على طبيعته ٠

تأثير الرواية فى الأدب العالمى

لعل قصة لم تظفر من الشهرة والذيوع بين الناس بما ظفرت به قصة دون كيشوت فان النجاح الذى استقبلت به فى أسبانيا منذ ظهورها ثم فى بقية أجزاء العالم يكاد ان يكون منقطع النظير وحسبنا ان نذكر انها الى سنة ١٩١٤ كانت قد طبعت خمسمائة مرة فى اللغة الأسبانية ومائتى مرة فى الانجليزية وما يعادلها فى الفرنسية وانها مترجمة الى معظم لغات الأرض !!

وفى هذا دلالة واضحة على أنها قصة انسانية لم يقف تأثيرها عند شعب دون شعب ولم يقتصر نفوذها على زمان دون زمان ٠

ولعلنا لا نتجاوز الحق اذا قلنا ان انسانية هذه القصة جاءتها أولا من انها تمثل الصراع الأبدى فى حياة الانسان المتحضر ما بين نزوع الى مثالية تتطلع الى الخير والحق والجمال ، وبين واقع عملى نفعى يفرض وجوده على البشر باعتبارهم بشرا يعيشون فى مجتمع بشرى ٠ وليس من شك فى أن الآثار الأدبية العالمية كلها لا تخلو أبدا من مثل هذه السمة الانسانية فى صورة أو أخرى ويكفينا أن نتذكر هملت لشكسبير وفاوست لجوته فدون كيشوت خرج ليملأ الأرض عدلا بعد اذ امتلأت جورا فكأنه المهدى المنتظر الذى ترقبته الأجيال فى كل مكـــان وزمان ولكن جهاده لا ينتهى الى شىء وربما انعكست الآية فأحدث من الضرر فوق ما أحدث من الخير ٠ وتابعه سانشوبانثا يمثل الواقعية التى تطلب الفائدة الملموسة والنفع القريب والتى تخلد الى الأرض مشدودة بالأطماع المادية ٠

ولـــكن الطريف فى رواية سرفنتس ان هذا الصراع بين المثالية والواقعية لا يجمد فى نموذجين ثابتين وانما يتداخل الأمر بما يجعله أقرب الى طبيعة الحياة والأحياء فدون كيشوت المثالى لا يحركه حب الخير وحده مجردا بل انه ليطلب لنفسه هو الصيت والمجد والشهرة ، وسانشوبانثا على واقعيته وأطماعه وجشعه يستفزه حب العدالة والرغبة فى الخير أيضا والفارس وتابعه يتبادلان التأثير العاطفى والفـــكرى فيما بينهما خلال مراحل القصة ٠

وقد وفق سرفنتس اذ استطاع ان يعرض قضية المثالية والواقعية عرضا شيقا جذابا فمزج فيما بين الجد والهزل وبين الأسى والفكاهة مزجا جعل من قصته متعة للقراء جميعا على اختلاف حظوظهم من الثقافة وتفاوت عقلياتهم وتجاربهم فى الحياة ٠ وقليلة هى الآثار الأدبية التى تستطيع

ان ترضى الخاصة والعامة معا وتستهوى الصغار والكبار فى وقت واحد وانما جاءها هذا التشويق من المواكبة البارعة بين المثالية والواقعية من جانب والجنون والبلاهة من جانب آخر . فالفارس مجنون وهو مع جنونه ينطق بالحكمة ، والتابع أبله وهو مع بلاهته لا يخلو من ذكاء وخبث فكأن هنالك صراعا آخر بين العقل والجنون الى جانب الصراع بين الخير والشر وفى الحق انه من استرعى انتباهه فى قصة دون كيشـــوت الصراع بين المثالية والواقعية خرج منها متشائما حزينا ، اما من التفت الى الصراع بين الجنون والعقل فيها فقد خرج منها ضاحكا غير متشائم .

ثم ان فى القصة من التنوع وتعدد المواقف والانتقال بالأحداث بين البيئات المختلفة من قرى وغابات ومدن . وبين الطبقات المتعددة من فلاحين ورعاة ولصـــوص وسجناء وتجار وارستقراطيين ما وهبها رحابة واتساع أفق لا يوجد فى آثار عالمية أخرى كل هذا فضلا عن اتصالها المباشر بتراث أدبى ضخم عرفته كل الآداب الانسانية وهو كتب الفروسية وسير الأبطال الشعبيين فاعتمدت بذلك على ذوق أدبى مشترك لدى الناس على اختلاف آدابهم ولغاتهم يضـــاف الى هذا كله موهبة سخية رزقها سرفنتس فى التفطن الى الانتقالات الذهنية والعاطفية والعقلية لدى أبطاله جعلت من حواره فى القصة ومن خلقه للأحداث والمواقف ما تجدد دائما لذته وطرافته كلما أعاد القارىء مطالعة قصته .

وليس من الشك ان قصة دون كيشوت على نزعتها الانســـانية العالمية الواضحة يمكن ان تربط بحياة مؤلفها وبحياة العصر الذى عاش فيه سرفنتس وهذا شىء طبيعى فى كل أثر أدبى ..

فاوست

جـــوتـــه

١٨٢٥م

ما أعظم المكانة التى يتبوؤها اسم « فلوست » فى تاريخ الفكر ! فمنذ بضعة قرون سطع هذا الاسم فى كل مكان يصبو اليه النظر وتتدفق من حروفه التى جمعتها يد القدر على بساط العالم أنهار من البحوث المختلفة المتنوعة : فمن قصص شعبية الى مآس ومصنفات أدبية وموسيقية، الى رسومات ونحوت ولوحات • فقد ملأ هذا الاسم من دور الكتب والمتاحف والمسارح الشيء الكبير ، واذا نظرنا الى قائمة بأسماء ما أوجده لرأينا ان هذه الشخصية وليدة الخيال كانت تشغل العقل البشرى أكثر مما شغله أعظم بطل من أبطال التاريخ وان كانت « الكوميديا الالهية » فى العصور الوسطى تعد احدى الروائع الأدبية العالمية ، فكان حريا بالعالم الحديث ان يخلق لنفسه رائعة لا تقل عنها عظمة ومجدا • فكان منشؤها فى ألمانيا ما بين سنة ١٨١٨ وسنة ١٨٢٤ على يد شـــوبرت وجوشـــيل ودوب وهنريش وفى فرنسا على يد مدام دى ستال وفى انجلترا على يد كارليل • ولم تلبث حلقة الدراسات والتحاليل تتسع شيئا فشيئا حتى أصبح اسمه وقد مر على انشائه أكثر من مائة عام محط الأنظار وحديث الأفواه •

وهذا الاسم مقرون باسم جوته يلازمه ملازمة وثيقة اذ أنه — من بين الشخصيات المتعددة التى أوجدها خيال الشـــعراء فى هذا الموضوع ، لا توجد شخصية أقوى من هذه التى صورها جوته وأعمق أثرا فى النفوس وأشد وقعا فى القلوب •

ولم يكن جوته عندما كتب روايته الشـــهيرة ليتصـــور حضارتنا الحديثة ، ولم يكن معاصروه الذين أعجبوا بهذه الرواية ليتصوروا منها شيئا • على ان بطله لم يزل يعيش بيننا عيشة ملؤها النشاط والحيوية كأنه قد ولد بالأمس فاننا نرى فى فاوست اليوم أكثر مما رأى هؤلاء الذين عاشوا فى عصره منذ أكثر من قرن • ومن يدرى ما ستكشفه الأجيال المقبلة فى هذه الشخصية من آيات وما سيكتبونه من تعليق حول هذا البطل بعد مرور خمسمائة أو ستمائة عام عندما يتحدثون عنه كما نتحدث نحن الآن عن أبطال هوميروس الذين قضوا منذ ثلاثة آلاف سنة • ولم يكتف فاوست بأن تتحدث عنه جميع الأفواه ، بل ترجم الى شتى اللغات ولم يزل يترجم فى كل ســـاعة بالحروف فى القصائد ، وبالألوان فى اللوحات ، وبالموسيقا فى المقطوعات الموسيقية وأصبحت أمثاله وكأنها تخرج من أحشاء الانسانية نفســـها • فقد قال « مفستوفليس » رأس الشياطين وهو يهزأ من زلة مرجريت « ليست هذه هى الأولى » • وقال

ناقد عظيم : « ان رواية فاوست قد أصبحت ملكا للانسانية بأسرها وليست ملكا لألمانيا بل هى تراث للعالم أجمع » ٠

ولد يوهان أو حنا فولفجانج جوته فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة فرانكفورت بألمانيا من ابوين كانا فى سعة من العيش وان لم يكونا عريقين فى الحسب فقد كان جده حائكا تزوج سيدة تملك فندقا وتدر شيئا من الرزق فولد له ولدان أصغرهما يوهان كاسبار جوته والد مؤلفنا ٠ ولما نال هذه الحظوة لدى دوق فيمار فى أخريات حياته لم تكن طبقة الخاصة فى ألمانيا تعطف عليه لأنه لم يكن على زعمهم عريق الحسب ٠ فما كان من الدوق الا ان زاد على اسمه كلمة « فون » وهى من ميزات الخاصة عند القوم ٠

وبذل والدا جوته جهد الطاقة لتعليم ابنهما وتهذيبه ، وكانا يرميان بذلك الى الاستعاضة بشهرته عما ينقصهما من نبل الحسب فلم يدخرا وسعا فى سبيل تعليمه ٠ وكان والده شـــديد الرغبة فى تلقينه مهنة المحاماة التى كادت تكون مقصورة يومئذ على طبقة خاصة ٠ ومع ان جوته تخرج فى كلية الحقوق والشريعة ونجح فى جميع العلوم التى درسها فان ميله كان أشد الى الآداب فكانت نفسه تفيض عواطف واحساسات وكلما أبصر ما حوله من مظاهر الطبيعة أثارت كامن شعوره وأوحت اليه منظوماته الخالدات ٠

ويظهر من ترجمة جوته انه ورث رقة الشعور وفرط الذكاء عن أمه ، فقد كانت على جانب كبير من التعليم ورقة العواطف وقوة التصور حتى قال بعضهم انها المثل الأعلى لكل أم تريد أن ينبغ ابنها فى الشعر ٠ أما الأب فقد ورث عنه جوته الرزانة والطموح وقوة العزيمة وهـــدوء الطبع ٠

وقلما ترك شاعر من شعراء ذلك العصر ما تركه لنا جوته من آثار صباه التى تشف عن خلقه وميوله وما كان يجيش به صدره من العواطف ٠ ولا تقتصر تلك الآثار على القصائد التى نظمها فقط بل تتناول كتبه ودماه (لعبه) وتصاويره وذكرياته والتحف الفنية التى كان يملكها ، مما يدل على ان جوته لم يكن يفرط فى شىء مما يذكره بحوادث صباه وما وقع له من روايات الغرام ، وقد كانت سيرته مجموعة عبر ودروس يستطيع الباحث ان يستشف من خلالها نفسية جوته وما كان يخالجها من مشاعر وعواطف وآراء ٠ وليس ذلك غريبا اذا تذكرنا تشعب مناحى حياته وتعدد المشاهد التى مرت أمام مخيلته ، ولعله لو لزم عقر داره ولم يتجشم مشاق السفر والانتقال ما علقت بذهنه تلك الصور المختلفة من مشاهد الحياة ٠

ويقال من الجهة الأخرى ان تعدد تلك المشاهد نبا بجوته عن الخلق الألماني · فبينما ترى الألماني يميل عادة الى التخصص والتوافر على درس ناحية معينة من نواحي العلم ترى جوته يميل الى درس كل علم وفن لأن نفسه كانت متعطشة للارتواء من كل منهل ، وهذا يفسر لنا اكبابه على العلوم والفنون من رياضة ورسم وشعر وموسيقا وتصوير ·

بل لقد كان ميله عظيما الى درس النبات والطب والهندسة والحقوق والسياسة حتى انه بلغ من بعضها شأوا بعيدا ، وهو ما لم يتسن لغيره من الشعراء ، أضف الى ذلك ميله الغريزى الى تعلم اللغات حتى حذق اللاتينية واليونانية والايطالية والفرنسية والانجليزية والعبرية كل ذلك باشراف والده الذى كان يريد اعداده لمناصب الدولة الكبرى ، ليستعيض بها عما فاته هو منها ·

وفى سنة ١٧٥٩ — وعمر جوته يومئذ عشر سنوات — احتل الفرنسيون مدينة فرنكفورت لأن حرب السبع سنوات كانت قائمة على قدم وساق · واحتل أحد الضباط الفرنسين منزل والد جوته فكان ذلك أول عهد جوته بالفرنسيين الذين كان أبوه يكرههم · ومنذ ذلك اليوم أخذ النفوذ الفرنسى يؤثر فى نفس جوته تأثيرا لزمه الى أخريات حياته ·

ولما بلغ جوته السادسة عشرة من عمره أدخله أبوه جامعة ليبسك بقصد تعليمه الحقوق · ويظهر ان القسط الذى كان قد ناله من العلم قبل ذلك لم يكن ليكفيه زادا لدخول الجامعة لذلك لم ينجح جوته هنالك نجاحا يذكر ، الا انه تعرف بأستاذ يدعى جيلرت مال اليه بكليته واتخذه خلا وفيا · ولكن طبعه القلب ما عتم أن انتصر عليه فمل صحبة جيلرت ونسيه بعد قليل · وادرك وهو فى الجامعة ان ميله الى الأدب لم يكن ليجديه نفعا فما كان منه الا أن عمد الى ذخائره الأدبية ومنظوماته وقذف بها الى النار ولكنه ندم على ذلك بعد قليل فاستأنف صناعة الشعر وطفق ينظم من جديد ·

وفى أثناء اقامته بجامعة ليبسك جرت له واقعة غرامية لم تكن الأولى من نوعها ، ذلك انه أحب فتاة تدعى حنة كاترين شونكوبف وهى ابنة صاحب حانة كان جوته يتردد اليها وبلغ شغفه بها حد الجنون حتى انه ذكرها فى كثير من منظوماته باسم « آنيت » ، بل لا تكاد قصيدة من القصائد التى نظمها فى ذلك الزمن تخلو من اشارة الى هذه الحسناء التى فتنت لبه وملكت عليه مشاعره ولكنه ما كادت الفتاة تقابل حبه بمثله حتى طوى كشحه عنها ونسى أمرها !

وفى أثناء اقامته بجامعة ليبسك نظم عدة قصائد وروايات أهمها المأساة الموسومة « بمزاج المحبين » ومأساة « الشركاء فى الجريمة » فبسط

فى الأولى الأسباب التى حملته على هجر معشوقته حنة كاترين شونكويف بعد أن أحبها حبا يقرب من العبادة وبسط فى الثانية العادات الرديئة التى كانت منتشرة فى بعض الأسر فى ذلك الزمن ليس فى مدينة ليبسك وحدها بل فى جميع مدن ألمانيا أيضا ، وقد غلب الذوق الفرنسى على كلتا هاتين المأساتين وهما تفيضان بالعواطف التى كانت تتأجج فى صدر جوته والتى كانت أحسن دليل على حقيقة طبعه ٠

وفى سنة ١٧٦٧ نشر مجموعة منظوماته بعنوان آنيت أو آنيتا وهى الفتاة التى تقدم ذكرها والتى كان مايزال لها فى نفسه أعظم الأثر وقد نحا جوته فى بعض منظوماته هذه منحى الفرنسيين وأودع فيها كثيرا من التخيلات الشهوانية بأسلوب طلى وعبارة منسجمة ، ويظهر انه أحسن بسهام الانتقادات التى وجهت اليه من جراء تلك المنظومات فلما أعاد طبع مجموعته سنة ١٧٦٩ حذفها منها ٠

وقبل ذلك بسنة ــ أى فى سنة ١٧٦٨ ــ اضطر جوته الى مغادرة جامعة ليبسك والعودة الى فرنكفورت من دون ان يتمم علومه وكان رجوعه فجائيا وسببه انه بذل فى التحصيل جهودا فوق طاقته فأصيب بنزيف أضعف قواه وألزمه الفراش طويلا فى ليبسك ثم فى فرنكفورت وكان وهو على سرير المرض يراسل أصدقاءه ٠ ويؤخذ من لهجة رسائله هذه انه كان ينظر الى الحياة نظرة جد ويحسب للمستقبل حسابا ، وهذا يفسر شدة اكبابه وهو فى دور النقاهة على درس كتب الفلسفة والسحر والتنجيم والكيمياء ، ويظهر ان فتاة من صديقات أمه تدعى سوزان كاترين فون كليتنبرج وكانت من أهل التقوى والصلاح أثرت فى نفسه وحولته الى التفكير فى الروحانيات فلم يمر عليه بعض الوقت حتى أصبح من المتصـــوفة !

وما كاد جوته يستعيد صحته حتى عزم والده على ارساله الى جامعة ستراسبورج ليستأنف فيها دراسة الحقوق ، ومع ان ستراسبورج هذه من مدن الالزاس وكانت يومئذ فى حوزة الفرنسيين فقد كانت ألمانية الصبغة سواء أكان فيما يتعلق بلغة أهلها أم بحضارتهم ٠ وكان لانتقال جوته الى هذه الحضارة أثر كبير فى نفسه ظل معه الى أخريات أيامه ، ذلك انه أصبح متشبعا منذ ذلك الحين بالروح القوطية (١١) الألمانية ورأى من واجبه تسويد ذلك الروح على كل روح أخرى سواء أكان فى ميدان الفن أم الأدب أم العلوم ٠

وفى أثناء اقامته بستراسبورج وضع المواد اللازمة لروايته « جوتس فون برليخنجن » التى أحدثت عند ظهورها ضجة كبيرة فى عالم الأدب

لأنها كانت بمنزلة ثورة على الروح السائدة على الأدباء فى ذلك الوقت ٠ وتقول دائرة المعارف البريطانية ان هذه الرواية كانت فتحا جديدا فى عالم الأدب ألمانى فى ذلك الوقت لأنها أدخلت عليه أسلوب الدراما الذى ابتكره شكسبير فى الأدب الانجليزى ومع ذلك فان بعض النقاد يعتقدون ان رواية جوتس المذكورة هى دون مســـتوى « فاوسنت » و « ولهلم مايستر » وغيرهما من روايات جوته الخالدة وان قيمتها انما فى اقحامها طرازا جديدا على الأدب الألمانى يعتبر ثورة على الروح والتقاليد القديمة التى كانت سائدة فى ذلك العصر ٠ فقد كان شعراء الألمان يومئذ يقلدون الروح الفرنسية واللاتينية وكان فريدريك الأكبر نفسه « ملك روسيا فى ذلك العصر » متشبعا بالروح الفرنسية ميالا الى الأدب الفرنسى لذلك كانت الثورة التى رفع جوته لواءها برواية « جوتس » خطيرة جدا ٠

وفى سنة ١٧٧١ نال جوته اجازة القانون وعاد الى مسقط رأسه ليمارس مهنته وقضى السنة التالية فى « فتزلار » التى كانت مقرا للمحاكم الامبراطورية ولمحكمة الاستئناف العليا فى ذلك الوقت وكان غرضه من ذلك التمرن على أعمال المحاماة ٠ وفى أثناء اقامته بفتزلار تعرف بكثير من رجال القضاء والسلطة وجرت له واقعة غرامية أخرى كان لها أثر عظيم فى حياته وفى الأدب الألمانى عامة ٠ ذلك انه أحب فتاة تدعى شارلوت بوف حبا مبرحا حتى انه خلد ذكراها بروايته الشهيرة « فرتر » التى ذاعت وانتشرت بسرعة لم يعهد لها مثيل فى أى كتاب آخر من كتب جوته ٠

ولما بلغ جوته السادسة والعشرين من عمره ٠ ولا شك أن المدة الواقعة بين سنتى ١٧٧١ و ١٧٧٥ كانت أخصب أطوار حياته من الوجه الأدبى ٠ ففيها أنتجت قريحته « جوتس » و « كلافيجو » و « آلام فرتر » و « ستيلا » و « جوتر » و « اروين » وعدة آثار أخرى رفعت مرتبة جوته فوق مراتب معاصريه الالمان فأصبح اسمه على حداثة سنة حديث مجالس الأدب وتعدت شهرته حدود بلاده ٠ ووقع له فى أواخر سنة ١٧٧٤ حادث كان له أعظم الأثر فى حياته وهو انه تعرف بكارل أوجست دوق فيمار فى مدينة « كالسر » بمقاطعة بادن فدعاه الدوق لزيارة فيمار وبعد سنة قابله مرة أخرى فى فرنكفورت وكان عائدا يومئذ مع زوجته الى فيمار فدعاه مرة أخرى لزيارته فقبل جوته الدعوة وذهب الى تلك العاصمة فى ٧ نوفمبر سنة ١٧٧٥ ولم يخطر بباله يومئذ انه كان قاصدا الى مدينة سيتخذها له موطنا الى آخر العمر ٠

وقضى جـوته بضعة الأشهر الأولى فى فيمار يمتع النفس بجميع مباهج الحياة وتعلق به الدوق تعلقا شديدا ، ومع ان دوقية فيمار كانت فقيرة وسواد أهلها من الفلاحين ، الا انها كانت بفضل أميرها مثابة رجال العلم والفن والأدب وكانت تنافس فى ذلك العصر بوتسدام ٠

ولم تمض على اقامة جوته بفيمار أشهر حتى عهد اليه الدوق فى أحد مناصب الدولة ، واشتدت أواصر الصداقة بين الأمير والشاعر فصارا لا يخرجان للنزهة الا معا ولا يذهب أحدهما الى مكان من دون ان يصطحب الآخر · واتفق أن الدوقة أماليا والدة الأمير ، وكانت من أعلام الأدب فى ذلك العهد ، تحسن الموسيقا وتميل الى اللهو والمسرات لذلك أحسنت وفادة جوته ورحبت بمقدمه وصارت تكاتب أمه وكان جوته يومئذ شابا فى مقتبل العمر لا تجاوز سنه السادسة والعشرين ، والدوق فتى فى الثامنة عشرة فقط ومع ذلك كان بعيد البصر صحيح الحكم وقد جمع حوله فى قصره العلماء والأدباء ومنهم سكندورف وهودر وفيلاند أستاذ والدته فى اليونانية والآداب ومهذب الدوق نفسه وكان من شعراء ألمانيا المعدودين فى ذلك العصر ·

ويظهر ان انصراف جوته فى أوائل اقامته بفيمار الى اللهو والترف واضطراره الى القيام بواجبات منصبه حالا دون اخراجه أى مؤلف يستحق الذكر ولكنه يقول فى ذلك انه لم يضع وقته باطلا بل كان يدرس وبعد العدة لاخراج مؤلفات جديدة ·

وكان منصبه يدر عليه مائتى جنيه فى السنة وهو مبلغ ما كان ليستهان به فى ذلك الزمن ولا سيما فى مثل امارة فيمار الفقيرة ولذلك كثر حساده وأخذوا يشكون منه مر الشـــكوى ، ولكن الأمير لم يعبأ بشكواهم ولم يكترث لها وقويت أواصر الصداقة بينه وبين جوته حتى انه منحه دارا ذات حديقة غناء على نهر « الالم » ليقيم بها ·

وما كانت عزة نفس جوته لتأذن له بأن يتقاضى اجرا كبيرا من منصبه دون أن يقوم بأعباء ذلك المنصب لذلك عكف على درس شئون الدولة لتصريفها على الوجه الأفضل بهمة واخلاص ، وكان كل اهتمامه منصرفا الى ترقية الفنون والتمثيل وتنظيم النواحى الحربية والمالية وتنفيذ الأعمال التى فيها صلاح الدولة · وقضى فى القيام بتلك الأعباء المضنية عشر سنوات متوالية شعر بعدها بالتعب فأشار عليه الدوق ان يأخذ قسطا من الراحة ·

وكان فى أثناء ذلك قد نظم روايات كثيرة مثل بعضها فى مسرح فيمار ونظم رواية أخرى سماها « انتصار العواطف » وسخر بها من الذين كانت روايته « فرتر » قد أثرت فيهم تأثيرا سيئا · وفضلا عن ذلك اشتغل بالعلوم والفنون ووقف جانبا من وقته على تنظيم مدينة فيمار وتجميلها وتحسين هندستها واصـــلاح حدائقها واهتم كذلك بالزراعة وفلاحة البساتين والمكتشفات الطبية ·

وسافر جوته الى ايطاليا سنة ١٧٨٦ وقضى فى هذه الرحلة عشرين شهرا نال خلالها ما كان فى حاجة اليه من الراحة وشهد بلادا كان يتوق الى رؤيتها . وقد أثر فيه جمال ايطاليا وعظمة آثارها الخالدة وأوحت اليه الشعر والتصوير واخرج وهو فى ايطاليا ثلاثا من أحسن رواياته التمثيلية وهى افيجينيا وايجمونت وتاسو . وقد قال عن زيارته لايطاليا انها أهم حوادث حياته . ولما عاد الى فيمار شعر الجميع بأنه قد طرأ عليه انقلاب خطير فأصبح رزينا جاف الطباع .

وكان ذلك فى ابان سطوة نابليون . وكان الفرنسيون قد غزوا فيمار وكان قبل ذلك قد تعرف بشيلر أحد كبار شعراء ألمانيا فى ذلك العصر ودامت أواصر هذه الصداقة متينة الى النهاية ولم يظهر بين الشاعرين اى أثر للمنافسة مع أن أهل فيمار حاولوا الايقاع بينهما . ولما توفى شيلر سنة ١٨٠٥ كتب جوته الى أحد أصدقائه يقول : « اننى قد فقدت نصف حياتى » .

واحتل الفرنسيون فيمار انتقاما من الدوق كارل أوجست الذى أظهر عطفا على البروسيين (١٢) فانبرت الدوقة لويز لنابليون واستعطفته ليعفو عن زوجها فأجابها الى سـؤالها وحسنت بعد ذلك علاقة الدوق بنابليون . وفى سنة ١٨٠٨ اذ كان نابليون على مقربة من فيمار استدعى جوته اليه وجرى له معه حديث ممتع أعجب نابليون على أثره بجوته أشد الاعجاب حتى انه قال للذين حوله بعد انصراف جوته « هذا انسان ! » .

ولما تألبت أوروبا كلها على نابليون سنة ١٨١٣ كان لذلك أشد الوقع فى نفس جوته اذ كان يعطف على نابليون حتى اتهمه الكثيرون بأنه مارق من الوطنية ، الا أن جوته لم يكن ينظر الى العالم نظرة التحيز الجنسى الضيقة بل كان يحسب العالم كله مملكة واحدة والبشر كلهم اخوانا وقد نشأ على تلك الروح حتى بلغ تلك السن .

وعاش جوته حتى شبع من الأيام وذاق من مباهج الحياة أحلاها وعاشر الكبراء والأمراء والعلماء والأدباء وتمتع بشهرة ذائعة وبشيخوخة حافلة بجلائل الأعمال وقضى نحبة فى الثانية والثمانين من عمره بعد ان ترك كنزا لم يتركه غيره من رجال الأدب .

مؤلفـــات جوتـــــه

ولابد لنا من اشارة وجيزة لأعمال جوته الأدبية خلاف كتابه الكبير الذى سنذكره بالتفصيل فيما يلى . لقد عاش جوته عمرا مديدا وبدأ انتاجه مبكرا وكانت حياته مليئة بالانتاج الذى لا ينقطع حتى الأيام الأخيرة

من عمره المديد والمقام لا يتسع للافاضة فى ذكر مؤلفاته وحسبنا هنا أن نجمل الاشارة الى أشهرها دون ان نلتزم الترتيب الزمنى ٠

ان مؤلفات جوته تنتظم أربعين مجلدا ومن أهم ما تشتمل عليه ومن أبدعه شعره الغنائى أي الأناشيد والقصائد فى الوصف والغزل والقصص القصير المنظومة والمنظومات الشعبية من طراز « بلاد » وهى تحتل مجلدين كاملين وقد اتفق رأى النقاد على ان شعر جوته الغنائى يمتاز بالرقة والعذوبة الى درجة منقطعة النظير ولو ان جوته لم يؤلف سوى تلك القصائد لكان فى هذا ما يكفى لوضعه فى المكان الأسمى بين الشعراء « الغنائيين » ٠

وألف جوته مسرحيات عديدة بدأها فى مرحلة صباه باخراجه مسرحية « جوتس » وهى مستمدة من قصة بطل جرمانى فى العصور الوسطى ثم جاءت بعدها مسرحيات كلافيجو وايجيمنت وتاسو وايفيجينا وغيرها وغيرها ٠ وقد كان جوته شديد العناية بالمسرح فى فيمار وقد قام هو نفسه بالتمثيل فى بعض مسرحياته وفى غيرها ٠

وتناول التأليف القصصى المنثور أيضا ، ومن أشهر ما ألفه فى هذا « آلام فرتر » وهو من أول وأشهر مؤلفاته ويصف قصة غرامه بخطيبة صديقه المسماه شارلوت بوف والكتاب معروف للقارىء المصرى فى ترجمته الرشيقة بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات ولكن أشهر قصص جوته النثرية قصة ولهلم مايستر وهى قصة طويلة تصف حياة المسرح والعاملين فيه وعلى الرغم من أنها رواية منثورة فانها تشتمل على أناشيد وأغان شعرية من أبدع ما أنتجه شاعر ٠

ويعتبر كتاب ولهلم مايستر أكبر انتاج لجوته بعد فاوست وقد ألفه على مدى كثير من السنين كما هى الحال فى فاوست ٠

وهناك قصة بالشعر على نظام شعر الملاحم : تدعى « هرمن ودروثيا » وقد ترجمت نثرا باللغة العربية وهى تعد من أروع ما نظمه جوته ٠

ومن مؤلفات جوته المطولة كتابه عن تاريخ حياته بدأه وهو كهل ولكنه استخدم ذاكرته القوية وما قد يكون لديه من مذكرات بحيث أصبح كتابه شاملا لتاريخ حياته كلها وقد سماه « الحقيقة والخيال » احتراسا من ان تكون ذاكرته قد خانته فى بعض شئون صباه وشبابه ٠

وفى ختام الحديث عن أعمال جوته لابد ان نشير الى ديوانه الشهير المسمى « الديوان الشرقى الغربى » فان جوته بعد ان تجاوز الستين أبدى اهتمامه بالأدبين العربى والفارسى بصورة جدية وأخذ يستعين بعدد من المستشرقين على فهم بعض النصوص الأدبية المهمة ونصوص القرآن

الكريم وانتهى به الأمر الى تأليف الديوان المذكور الذى تظهر فيه الروح الشرقية والجو الشرقى ، والديوان عبارة عن مجلد ضخم يشتمل على عدد كبير من القصائد والمقطوعات فى شتى الموضوعات من نسيب وحكمة ووصف وكلها مصطبغ بالصبغة الشرقية ...

ان اهتمام جوته بموارد أدبية جديدة وتعمقه فيها ونشره لديوان شعر مستلهم من تلك الموارد الشرقية ونشره لمثل هذا الأثر وهو مشرف على السبعين من أكبر الأدلة على حيويته ودأبه ومقدرته على التجديد فى فى جميع مراحل الحياة ..

فكـــرة فاوست

بنى جوته كتابه العظيم على أسطورة « الدكتور فاوست » التى تدور حول قصة أستاذ من أهل العلم باع روحه للشيطان نظير أربعة وعشرين عاما ينال فيها الوانا من المتع والملذات . ولعل الأسطورة تكونت بفضل جهود بعض رجال الدين الذين أرادوا بنشرها أن يعظوا الناس ويحرضوهم على الصلاح والتقوى والبعد عن سبل الضلال . ولكن الأسطورة فيما يبدو لها أساس من الواقع : فان النقاد متفقون على أنه كان يعيش فى ألمانيا فى النصف الأول من القرن السادس عشر رجل يحمل اسم الدكتور فاوست وكان يتجول فى أنحاء البلاد يوهم الناس أنه ساحر ضليع وقد تحدث عنه طبيب يدعى فيليب بيجاردى فى كتاب ألفه سنة ١٥٣٩ قال فيه ان فاوست رجل أفاق محتال يتجول فى البلاد منذ بضـــع سنين يزعم أنه الفيلسوف الأعظم ويدعى غير ذلك من الألقاب ، ويحتال على ابتزاز أموال النـــاس بقراءة البخت والشـــعوذة والطب الخرافى ونحو ذلك ويقول « بيجاردى » انه قابل كثيرا من معاصريه ممن خدعتهم حيله وادعاءاته .

فى ذلك العصر كان حديث السحر والسحرة يشـــغل الأذهان فى جميع أنحاء أوروبا الى درجة لا نكاد نتصورهـــا فلم يكن بمستغرب أن يؤمن الناس ببراعة فاوست السحرية ويصدقوا مزاعمه فاشتهرت حول اسمه الروايات والأخبار وهو على قيد الحياة وعندما سمع الناس فى حوالى عام ١٥٤٠ انه قد مات ميتة عنيفة فى ظرف شديد الغموض لم يجد الناس صعوبة فى تفسير ما حدث بأنه من غير شك قد اختطفه الشيطان الذى كان يساعده على الاتيان بأعماله الخارقة للعادة .

هكذا ولدت أسطورة الدكتور فاوست وعلى الرغم من أن الزعم بأن رجلا باع نفسه للشيطان نظير بعض المساعدات العاجلة لم يكن شيئا جديدا غير انها فى هذه المرة أسطورة مقترنة باسم رجل كان يعيش ويراه

الناس بل ولم تلبث الأسطورة أن ظهرت فى صورة قصة مطبوعة نشرت فى فرانكفورت عام ١٥٨٧ وناشرها رجل يدعى شبير أما المؤلف المجهول فأكبر الظن انه قسيس من أتباع مارتن لوثر ألف كتابه بأسلوب جدى لغرض دينى ليحذر الناس من السحر والشعوذة والفنون الجهنمية . والكتاب ملىء بمقتطفات من الكتاب المقدس وشعاره المكتوب على الغلاف « قاوموا الشيطان .. يهرب منكم ! » أما عنوان الكتاب فهو « تاريخ الدكتور يوهان فاوست الساحر البعيد الصيت ذى الأعمال الجهنمية » .

ومن المفيد أن نأتى هنا بخلاصة لهذا « التاريخ » :

« كان فاوست ابنا لفلاح فى قرية بالقرب من فيمار وله عم غنى فى بلدة ويتمبرج تولى الانفاق على تعليمه فى جميع مراحل الدراسة فتخرج الطالب من الجامعة بامتياز فى علم اللاهوت ولكنه نظرا لطموحه وحبه للأبحاث الشاذة تعلق بدراسة السحر والكشف عن الأسرار الغامضة وترك دراسة الدين وتبرأ منه وأخذ يدعى العلم بالتنجيم والطب ويعالج أمراض الناس بالأعشاب والنبات . ولم يكفه الامعان فى البحث عن أسرار الكون وكل ما فى الأرض والسماء بل دفعه غروره الى الالتجاء الى العزائم الخاصة باستحضار الشيطان فأمكنه أن يستحضر شيطانا من المرتبة الثانية ظهر له فى صورة راهب وتبين ان اسمه « مفستوفليس » فاستدعاه فاوست الى منزله وعقد معه اتفاقا وبمقتضى هذا الاتفاق يكتسب فاوست القوة الروحية ويكون له ابليس خادما مخلصا مطيعا يأتى الى منزله فى أى وقت يريده فاوست . وفى أى شكل يريده سواء أراده مختفيا لا يرى أو فى أية صورة ظاهرة . ويقدم للدكتور فاوست جميع الخدمات التى يطلبها وينيله ما يشاء من الرغائب وفى نظير ذلك وبعد فترة من الزمان ــ حددت فيما بعد بأربعة وعشرين عاما ــ يصبح فاوست جسدا وروحا ملكا لهذا الابليس وعليه منذ الآن أن يفكر بالدين المسيحى وأن يبغض جميع المسيحيين ويقاوم كل محاولة يراد بها عودته الى الدين ولابد لفاوست أن يمضى هذا العقد بقطرة من دمه .

« قبل فاوست هذه الشروط كلها ، وفى الفترة الأولى بعد العقد التزم منزله لا يقابل أحدا سوى ابليس وتلميذ فاوست الخاص المسمى كرستوف واجنر وهو فتى غر وقح كان من قبل أحد الرعاع السفلة . وأخذ الشيطان يزورهما ويجتهد فى تسليتهما يقدم لهما أطيب الأطعمة وأفخر الخمور التى كان يسرقها من القصور المجاورة وهكذا أخذ فاوست يعيش عيشة الترف ليلا ونهارا وكفر بالله ورسله واليوم الآخر ... ثم خطر لفاوست أن يتخذ زوجة ولكن نظرا لأن الزواج نظام نصرانى فان الشيطان اعترض على الزواج ولكن وفر له الوسيلة لارتكاب الاثم .

كذلك أتحفه الشيطان بكتاب ضخم فيه جميع المعلومات عن السحر والشعوذة وطرق ممارستها ، ثم تدور مناقشات ومجادلات بينهما حول الأرواح والملائكة . وكيف يستحيل الملك اذا عصى شيطانا ، بعد هذه المجادلات أخذ فاوست يشعر بشيء من الندم ويفكر في التوبة ولكنه لا يلبث ان يعود الى ضلاله وكفره وتنقطع المجادلات بينهما بعد ذلك . ويأخذ فاوست في دراسة التنجيم ، وعلى طبائع الأشياء ، وتمضى على انهماكه في هذه الدراسات سبع سنين .

« في الأعوام الثمانية التالية لم يحدث سوى حادثين خطيرين : أولهما ان فاوست طلب من الشيطان أن يريه جهنم فتوسط لدى واحد من كبار الشياطين يدعى « اله الذباب » لكى يحضر في منتصف الليل ويأخذ فاوست . وحضر هذا الشيطان فعلا وحمل فاوست على كرسى من العاج ثم أغرقه في سبات عميق وجعله يرى في نومه أحكاما تتضمن صورا ومشاهد من الجحيم وهو يتوهم انه يراها حقيقة .

« أما الحادث الثاني فانه طلب أن يرقى الى السماء فحملوه في مركبة يجرها جواد أشبه بالتنين فجعل يتجول في السماء وبين النجوم بضعة أيام ثم عاد الى الأرض ، وفي العام السادس عشر من المدة المتعاقد عليها طلب من ابليس أن يسيح في الأرض فتحول الشيطان الى حصان ذى أجنحة وأخذ يجوب به بجميع أركان الأرض فأمكنه بهذه الوسيلة أن يزور مختلف البلدان ويشاهد مختلف المناظر وينعم في كل بلد من ضروب الملذات ويقوم ببعض أعمال السحر والشعوذة من باب التسلية . ففى روما زار قصر البابا وقام ببعض الاعيبه وسخرياته وفي استامبول زار حريم السلطان في زى مولى من أولياء المسلمين .

وفي بلاط الامبراطور شرلكان في إسبانيا ظهر بمظهر الاسكندر الأكبر وزوجته . وفي نهاية المطاف يقضى وقتا طويلا في مرح ودعابة مع مجموعة من الطلاب المحبين للسكر والعربدة وفي احدى السهرات مع هؤلاء تمنى أحدهم أن يرى هيلانة التى اشتهرت بجمالها الفتان في زمن اليونان فلم يلبث أن أحضرها لهم ليأنسوا بوجودها ثم اتخذها بعد ذلك عشيقة له وأولدها غلاما سماه يسطس فاوست ومن خصائصه « انه يتنبأ بما في الغيب » .

وهكذا تمضى السنون وتقترب مدة التعاقد مع ابليس من نهايتها فيأخذ الندم سبيله الى قلب فاوست وينادى بالويل والثبور وينهمل الدمع من عينيه فيتصنع ابليس العطف عليه ولكنه يصر على تنفيذ جميع شروط العقد . وفي اليوم الأخير من الأعوام الأربعة والعشرين يجعل فاوست وريثه تلميذه واجنر ثم يذهب مع خلانه الى حانة بالقرب من ويتمبرج ،

فيقدم لهم أطيب الطعام والشراب ثم يقص عليهم قصته فى حزن وألم مؤكدا لهم ان الشيطان سيحضر ليقبض روحه فى منتصف الليل • بعد ذلك يفترق الجميع • وفى الساعة المحددة يسمع صـــوت صفير مزعج وحشرجة عالية ويعودون فى الصباح لرؤية صاحبهم فلا يجدون لفاوست أثرا بل يجدون جسدا ممزقا فوق كومة من القمامة •

وقد ألف جوته كتابه كله نظما فيما عدا منظرا واحدا قصيرا فى الجزء الأول رأى أن يستبقيه نثرا • وقد امتاز شعر جوته فى فاوست بالمزايا التى امتاز بها فى أشعاره الغنائية فكان ينظم بعناية واتقان ويختار الوزن والقافية التى تلائم كل موقف وكل موضوع وربما أرسل الأشعار بغير قافية أحيانا استجابة لحالة نفسية تتصل بالموضوع أو المتكلم وقد أكثر من الأغانى والأناشيد لأن الموقف يتطلبها أو لأنه رأى أن يقحم الانشاد فى بعض المناسبات التى ابتكرها ، وهكذا كان ينوع الأوزان حسب نوع الكلام من حوار أو غناء • وحين يكتب عن العصر اليونانى يجعل أوزانه من الطراز الاغريقى القديم ، وهكذا نراه أبدا الصائغ المبدع المتقن دائما سواء أكان فى شبابه أم كهولته أم هرمه وشيخوخته •

واختار جوته أن يكون كتابه فى صورة مسرحية ولو أن اخراجها على المسرح فيما بعد كان أمرا شاقا ، ولعله لم يأبه لذلك كثيرا فقد رأى ان الصورة المسرحية أليق بالموضوع لأنه يريد من شخصياته أن تتحدث عن نفسها وان تدل على نزعتها وطباعها بكلامها •

ولم يرد جوته حين ألف الجزء الأول من المأساة أن يقسمه الى فصول على طريقه كتاب المسرحيات بل جعله عبارة عن مشاهد أو مناظر لكل منها عنوان يدل على الموضوع أو على المكان أو الزمان الذى تجرى فيه الحوادث • أما فى الجزء الثانى فقد رأى جوته أن يقسمه الى خمسة فصول ويجعل لكل فصـــل عددا من المناظر دون أن يجعل للمناظر ترقيما بل يميزها بعناوينها •

منذا الذى يصدق بعد ذلك أن رواية فاوست التى حازت من الشهرة والانتشار هذا القسط لم تمثل على المسرح لأول مرة الا فى عام ١٨٢٨ وكان ذلك بمناسبة الاحتفال ببلوغ مؤلفها الثمانين من عمره ! على أن جوته كان يتوقع لروايته مستقبلا غير هذا اذ قال : « سوف ترون فرنسيا يستخلص منها مسرحية كبيرة ذات مناظر » وهو يقصد بذلك مأســاة وأوبرا أوباليه •

ولم يخطىء فى ذلك فقد جاء فى سنة ١٩٤٠ موسيقى فرنسى عبقرى فى العشرين من عمره يدعى شارل جونو ووطد العزم على تلحينها ولم يثبط عزمه ما رأى من محاولات عديدة فى هذا الموضوع بل على العكس

شجعه على أن يتابع تحقيق مشروعه وحثه على اتمـــامه . وقد كتب فى مذكراته : « لم يتركنى هذا العمل لحظة بل رافقنى فى كل مكان فكنت أودع فى مفكرات مبعثرة الأفكار المختلفة التى كنت أراها جديرة بأن تصلح يوم أعزم على الاقدام على مشروع الأوبرا ولم يتحقق هذا المشروع الا بعد سبعة عشر عاما » .

والواقع أن أوبرا فاوست كما نعرفها الآن لم تظهر الا فى ١٨ مارس سنة ١٨٤٩ وقد تجاوز عدد المرات التى مثلت فيها ثلاثة آلاف عرض فى فرنسا وحدها وهذا أعظم دليل على نجاح هذه الرواية الشهيرة الخالدة التى لم تعرف الاخفاق فى أى وقت طوال هذا الزمن .

عن الحرية

جون ستيوارت مل

١٨٥٩م

استقبلت انجلترا القرن التاسع عشر وقد أخذت تضطرم بثورة صناعية عارمة ، سرعان ما انصهرت واستجابت الى حركات اجتماعية وتيارات سياسية واتجاهات اقتصادية وفتوحات علمية ومذاهب فلسفية ! كانت انجلترا أسبق دول الأرض الى هذا الانقلاب الصناعى الجارف فأحلت الآلة مكان اليد العاملة ، ونجم عن هذا تضخم المصنع ووفرة الانتاج وتدفق الثراء الفاحش وظهور طبقتى العمال والمولين بالاضافة الى طبقة الزراع وأصحاب الضياع واحتدمت المنافسة وتعارضت مصالح الطبقات واصطرعت مطالبها فكان الكفاح وكانت الثورات التى انتهت الى تعديل النظم النيابية ورفع المظالم الجائرة ، واقرار أوضاع اجتماعية جديدة ، وادخال قيم أخلاقية لا عهد بها للمجتمع الانجليزى من قبل ٠

وسايرت هذه الحركات التى يعج بها العصر نظريات اجتماعية واقتصادية تلائم روحه ، وكان من أظهرها نظرية الاشتراكيين التى بشر بها « روبرت أوين » (١٣) وأتباعه فعارضت حرية التجارة وناصبت الرأسمالية العداء وطالبت باعادة تنظيم الحياة الاقتصادية ، ومن ثم استبدت بهوى العمال واستهوت قلوبهم وان أثارت الضيق الممض فى نفوس المولين والفرديين والمحافظين من أهل الفكر فى ذلك الوقت ٠

وكان طبيعيا ان تصاحب هذا العصر وتؤثر فى حركاته وتتفاعل مع تياراته يقظة عقلية واعية بدت فى آثار الكتاب والأدباء والشعراء وتمثلت فى فتوحات العلم وتطبيقات نظرياته واتجاهاته الفلسفية ومذاهبها فظهر من الأدباء والروائيين المعروفين (والتر سكوت) و (جين أوستن) و (تشارلس ديكنز) و (ثاكرى) و (كبلنج) و (ويلز) ومن الشعراء المطبوعين (بايرون) و (تنيسون) و (براوننج) ومن كتاب المقالة والبحث التاريخى (توماس كارلايل) و (ماكولى) و (رسكن) وغيرهم ٠

وتضاربت المذاهب الفلسفية واستعر الجدل بينها فكان منها ما اتصل ببيئته وسايرتياراتها وعبر عن روح عصره وساعد على اذكائها فكانت النزعة الحسية واتجاهاتها المادية الخالصة ٠ وكان من هذه المذاهب ما أنكر هذا الاتجاه واستعان بفلسفة الألمان على اقرار « مثالية » روحية معارضة كان يمثل الحركة الأولى بنزعتها الحسية أعلام النفعية الحديثة من أمثال « جيرمى بنتام » و « جيمس مل » ممن انتصروا للنزعة الفردية وجعلوا المبدأ النفعي قوام الأخلاق والتشريع وغيرهما من مجالات الفكر

والعمل وسار فى هذا التيار مع تطعيمه بنظرية التطور « ليسلى ستيفن » (١٤) و « هربرت سبنسر » (١٥) وجرى فى ركب المادية الحسية « السكندر بين » و « توماس هكسلى » فتأكد على يد هؤلاء الاتجاه التجريبى وتمكنت المادية ومدت جذورها الى الحركات التى اضطرم بها هذا العصر ٠

وفى هذا الجو الصاخب الذى يغلى بالحركات والتيارات ويضطرم بالمذاهب والنظريات عاش فيلسوفنا « جون ستيوارت مل » عملاقا بين قادة الفكر والاصلاح فى عصره ٠ ولد فى مطلع ذلك القرن وصحبه حتى نيف القرن على السبعين من عمره ٠ نشأ فى محيط أحداثه وضرب فى زحمته وساهم بقلمه ولسانه فى تياراته وحركاته وأمطر قراءه وابلا من المقالات التى أيد فيها رهطا من ساسة عصره الذين دانوا بنفعية بنتام وأبيه جيمس ٠ هم الراديكاليون الفلاسفة « ورسم لهم فى مقالاته خطة حركاتهم ووجه بها نشاطهم ، وأفاض فى المطالبة بتعديل النظم النيابية لتفادى عيوبها ورفع مظالمها وأسهب فى تأييد الأوضاع السليمة واقرار المبادىء القوية ومباشرة الاصلاح الاجتماعى وربط بين تفكيره النظرى وروح عصره فأنشأ فلسفة خلقية قوامها المبدأ النفعى ودعا فيه الى العمل على « تحقيق أوفى مقدار من السعادة لأكبر عدد من الناس » ووضع منطقا استقرائيا أوجب فيه على المشتغلين بالبحث العلمى أن يصطنعوا الملاحظة والتجربة فى دراسة الظواهر الحسية ابتغاء الكشف عن حقيقتها ومعرفة عللها ومعلولاتها فكان بهذا أول رائد وضع قواعد البحث العلمى وبشر باخضاع العلوم الأدبية والعقلية لمناهج البحث التجريبى كما كان ابن عصره وبيئته مصلحا اجتماعيا وفيلسوفا نظريا ٠

طفولة فيها ما يكفى للدهشة والعجب !!

فى العشرين من شهر مايو عام ١٨٠٦ ولد « جون ستيوارت » ابن « جيمس مل » الذى شارك فى قيادة الفكر وتوجيهه فى أمته وكان أكبر مريدى « جيرمى بنتام » الذى احتل مكان الصدارة فى توجيه الاصلاح الاجتماعى فى عصره ووضع دعائم مذهب المنفعة العامة الذى يدعو الناس الى العمل على تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ٠ وقدر للوليد الجديد أن يكون وريثهما الروحى وأن تستطير شهرته حتى تكاد تطفىء نورهما وقد عاشر أباه ثلاثين عاما ، وأدرك من حياة بنتام ستة وعشرين ربيعا فكان طبيعيا ــ مع ما سنعرفه من أمر نضجه الباكر ــ ان يتأثر فى عمق بشخصيتيهما الغلابتين ! وفطن الفيلسوفان الكبيران الى أن هذا الطفل أخلق أهل جيله بوراثة التركة وتحدثا فى تدبير أمره وخشى

الأب أن يرحل عن دنياه قبل أن يتم تكوين ابنه واعداده لحمل الأمانة الكبرى · وتطوع بنتام فخفف من جزع صديقه ورحب بتبنى الوليد وتعهد بتربيته ان قدر لصديقه أن يسبقه الى أخراه ، فكتب جيمس الى بنتام يقول والطفل لم يتجاوز السادسة من عمره : « ما خطر لى الموت الا استولى على خاطر مزعج يقض مضجعى ويثير مكامن الضيق فى نفسى ذلك أنى سأرحل عن هذه الدنيا وعقل الحادث المسكين لم ينضج بعد ولهذا فانى أرحب بتطوعك لتعهد تربيته راضيا مسرورا فلو قدر لك أن تتبناه وترعاه لتركناه وريثا خليقا بكل منا » · هكذا قدر كل منهما وأبت الأقدار الا أن يسبق بنتام صديقه الى الموت بأربع سنوات ·

ونريد الآن أن نجمل فى الصفحات القليلة التالية سيرته العقلية فى المرحلة الأولى من حياته وهى تستغرق خمسة عشر ربيعا ، حصل فيها من ألوان المعرفة ما مكنه من أن يحتل بفلسفته مركز الصدارة فى قيادة الفكر وتوجيه الاصلاح فى أمته · ولا يكاد المؤرخ يخطىء اذا زعم أن سيرته بعد المرحلة السالفة من حياته تلخص تاريخ أمته وتكشف عن أهم التيارات الاجتماعية والسياسية والفكرية فى عصر كان يعج بحركات التقدم ويضطرم بالنزوع الى الرقى ويغلى باتجاهاته العلمية ومذاهبه الفلسفية · واذا كان أبوه جيمس وأستاذه بنتام قد قدر لهما أن يعيشا فى شبه عزلة وأن يكون تلامذتهما قلة فان فتانا قد استطارت شهرته حتى أصبح فى أواخر حياته أظهر مفكرى عصره وأوسعهم نفوذا وأكثرهم تلامذة ومريدين · بل انه أثار بطموحه الباكر منذ طفولته دهشة معارفه واعجابهم · فلنقف قليلا عند سيرته فى المرحلة الأولى من حياته :

أشرنا الى أنه نشأ فى جو عقلى أعانه على أن ينهل العلم مبكرا وأن يسبق أقرانه فى السن وينضج قبل أوانه · وفى سيرته فى هذا الصدد غرائب فقد روى هو نفسه — فى سيرة حياته التى كتبها بقلمه — انه لا يذكر متى تعلم اليونانية القديمة ولكن قيل له انه شرع فى تعلمها وهو ابن ثلاث سنين ! وقيل انه قرأ وهو فى الثامنة من عمره « هيرودوتس » وست محاورات من أفلاطون — من بينها « ثياتيتس » التى أشار بحذفها لأنه لم يقو على فهمها ! — واطلع على بعض المؤلفات التى خلفها « اكسينوفون » و « لوسيان » وغيرهما وقرأ فى السنوات الثلاث التالية « هومير » و « ثيوكيديدس » وبعض أجزاء من « سوفوكليس » و « ايروبيدس » و « أرستوفانس » و « ديموستنيس » وغيرهم · وفى سن الحادية عشرة اطلع لأرسطو على كتاب « الخطابة » ولم يقدر له أن يتعلم اللاتينية حتى بلغ الثامنة من عمره وقد عرف وهو فى هذه السن قليلا من علم الحساب ومضى فيه وحده لأن جهل أبيه بالرياضيات جعله يحمل عبء دراستها وحده حتى سبق فى مجالها أقرانه ! · وقرأ فى عامه الثانى

عشر كثيرا مما كتب « فرجيل » و « هوراس » و « ليفى » و « لوقريتوس » و « شيشرون » واتصل ببعض المؤلفات التى وضعت عن العلوم الطبيعية التجريبية ولا سيما ما كان منها فى الكيمياء وان لم تتح له فرصة يقوم فيها باجراء تجارب علمية • وقرأ الكثير من كتب التاريخ المفصلة المطولة ووقف عندها مع أبيه فى نزهاتهما الصباحية ــ يفند حقائقها ويناقش موضوعاتها وقرأ « هيوم » و « روبرتسون » و « جيبون » وغير هؤلاء كثيرين ، ووضع أبوه فى يده كثيرا من الكتب التى تصور نضال المغامرين والبحارة والمكتشفين منها « روبنسون كروسو » و « ألف ليلة وليلة » و « دون كيشوت » وكثير غيرها •

وفى عامه الثالث عشر شرع فى دراسة الاقتصاد السياسى فقرأ آثار أبيه وريكاردو وآدم سميث وغيرهم من أساطين هذا المجال !!

أما عن الفلسفة ــ التى كان قد عرف بعض دراساتها فى الثامنة من عمره ــ فقد عاد واقتحم معقلها وارتاد أرضها وهو فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمره مع استمراره فى قراءة الآداب القديمة والاطلاع على روائعها • ودخل الى الفلسفة من أقرب أبوابها فدرس الكتب الأربعة الأولى فى منطق أرسطو واطلع على منطق المدرسين بعده وأعانه أبوه على فهم القياس المنطقى وتقدير منفعته ، وقرأ أفلاطون وراقه منه منهجه المنطقى وان ضاق بما يعزى الى تلامذته من اتجاهات شعرية وصوفية وعلى هذا النحو مضى فتانا فى دراساته !!

اننا لا نضيف الى طفولة فيلسوفنا خوارق لنثير بها دهشة القارىء بل نعتقد على العكس من هذا ان عهد الحداثة عند العظماء كثيرا ما يخلو من الغرائب ويجرى على نفس النهج الذى تجرى عليه طفولة سائر الناس ولا يطعن فى العظيم أن يكون قد قضى المراحل الأولى من حياته على نحو ما عاشها غيره من الأحداث والغلمان ، ولكننا نروى عن فيلسوفنا بعض الحقائق التى اتفق فى روايتها مؤرخو سيرته وفيها ما يكفى اثارة للدهشة والعجب •

وحين أتم فتانا الرابعة عشرة من عمره رحل الى جنوبى فرنسا وقضى بها عاما ، وفيها تعلم الفرنسية واستمع فى معاهدها الى محاضرات شتى ودرس الرياضة والاقتصـــاد السياسى والى جانب هذا استيقظت عنده أذواق ومشارب جديدة وتهيأت له خبرات لم تتيسر له فيما سلف من حياته ، واتصل بعلم النبات فحبب اليه مناظر الطبيعة وغرس فيه الميل الى العلوم التى تدرس ظواهرها ، ثم هو فوق هذا كله وقبل هذا كله قد تنفس طوال اقامته فى فرنسا جوا من الحرية البهيجة التى افتقدها ابان حياته فى وطنه اذ أدى به نظام معيشته الى الجهل بتقاليد المجتمع

الانجليزى وآدابه ولكنه أدرك بعد رحلته الى فرنسا افتقار مجتمعه الانجليزى الى المشاعر السامية والوجدانات الرقيقة ، واستخفافه الساخر بهذه الألوان من العواطف .

أما المجتمع الفرنسى فقد لاحظ انه يغرس فى نفوس أفراده المشاعر الرقيقة ويهذب قوى النفس ويعمل على تربية العقل ، وراقه ما رآه فى الرجل الفرنسى من رقة وتواد وحب للاجتماع على عكس الرجل الانجليزى الذى يتصرف وكأن كل فرد أمامه يناصبه العداء أو يثير ضيقه ويهيج ضجره ! ويعلق مؤرخو الانجليز ساخرين على حكم فيلسوفنا هذا بأن فيه وصفا لموقف الانجليز من النفعيين !!

وعاد « مل » من رحلته الى وطنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره واستأنف دراساته القديمة فقرأ « كوندياك » وألم بتاريخ الثورة الفرنسية ودرس القانون الرومانى وتوسع فى دراسة « بنتام » واطلع على كتاب هزيده « ديمونت » « بحث فى التشريع » وقرأ « لوك » وهلفتيوس وهارتلى وباركلى وهيوم الى جانب ريد ودوجالد ستيوارت وغيرهم كثيرون من المفكرين المعروفين ، فما مست يده كتابا الا أتى عليه قراءة وتفنيدا فتهيأ له من وراء هذا رصيد من المعرفة المتنوعة جعله من أغزر أهل عصره مادة وأرفعهم ثقافة وأغناهم علما ، وأحسن فيلسوفنا استغلال هذه الثروة فحكم فيها عقله الواسع وأطلق له حرية التصرف فيها والانتفاع بها فخلصت له من وراء هذا فلسفة شاملة جامعة امتدت الى مجال المنطق والميتافيزيقا والأخلاق واتصلت بالسياسة وكان لها أثرها الملحوظ فى شتى ميادين الاصلاح الاجتماعى فى عصره بل فى العصور التى أعقبته .

واتجه الى الكتابة وهو فى السادسة عشرة من عمره وتعرف الى فتى فى مثل سنه من طلاب جامعة كمبردج كان متحمسا للمذهب النفعى وعلى درجة عالية من موهبة الخطابة هو « تشارلس أوستن » ، وعرف أبوه من صلته بتشارلس وتحمسه للمذهب النفعى ما حمله على الحاق « جون » بكلية « ترينتى » بكمبردج وكان يعتقد ان الجامعات معقل الرجعية وأنها معوق للمواهب المتفتحة وهناك التف حوله جماعة من الطلاب فألف منهم جمعية تبشر بالمذهب النفعى وانقطع عن الجامعة بعد أن عين كاتبا فى شركة الهند الشرقية عام ١٨٢٣ وقضى بها حياته العملية وتدرج فى وظائفها حتى وصل الى مثل ما وصل أبوه فيها من قبل .

ولم يمنعه العمل عن متابعة نشاطه الفكرى والسياسى فأخذ يكتب فى الصحف داعيا لمذهبه ومذهب أبيه جيمس وأستاذه « بنتام » مهاجما خصومه فى قسوة وعنف يحولان أحيانا دون نشر مقالاته واتصل بالمثالية الألمانية فى الفلسفة والشعر وقرأ « جيته » كما قرأ « وردزويرث »

و « كولودج » من شعراء الطبيعة الانجليز فتكشف له عالم مغلق عليه أضفى على تفكيره عمقا وأصالة كانا لهما أبعد الأثر فى تطوير فكره وفلسفته عن النفعية فاكتسب المذهب النفعى على يديه جدة وعذوبة وحيوية واعتدالا وحكمة وان ظل فى تفكيره ومثله الأعلى الاجتماعى على تعاليم أستاذه « بنتام » فأخذت السعادة ـ وهى جوهر النفعية ـ على يديه معنى جديدا فأنكر أن تكون السعادة غاية مباشرة أو شعورا قائما فحالما تسأل عما اذا كنت سعيدا توقف شعورك بالسعادة بانصرافك الى السؤال وجوابه كما تبين كيف يروض الألم فيحوله الى احساس بلذة الحياة وما فيها من متع • وكان يقول ان أزمته النفسية كانت تحول بينه وبين الاستمتاع بالموسيقا التى يحبها •

ولم يحل عمله فى الشركة بينه وبين البحث والانتاج العلمى فتوالت كتبه فى الصدور حافلة بالفكر الجديد فى كل ميدان طرقه ، وحفلت المجلات والصحف بأبحاثه ومقالاته فى الفلسفة والسياسة والمنطق وفيما يراه دفاعا عن « مذهب المنفعة » وفى مطالب الاصلاح الاجتماعى والنيابى وحقوق المرأة وفى الدفاع عن مبادىء الراديكاليين وفى غيرها من ميادين البحث المألوفة لدى مفكرى هذا العصر •

وفى عام ١٨٦٥ انتخب عضوا فى مجلس العموم فقضى بين جدرانه ثلاث سنوات يبشر بمنهاجه فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى وينادى بتحرير المرأة ويحاول التوفيق بين شيعته من الراديكاليين وطائفة العمال الناشئة التى أخذت تثبت وجودها وتنصرف عن الراديكاليين الى الالتفاف حول دعوة « روبرت أوين » واشتراكيته الجديدة وان لم ينزع عن نفسه ثوب الراديكالية التى رأى العمال ـ بالرغم مما حققته لهم من مكاسب ـ انصرافها الى طائفة المموليين ، اذ راح يقنع العمال عبثا بأن مبادىء الراديكاليين تخدم مصالحهم فى الوقت الذى كان يقاوم فيه بعض مطالبهم كاباحة حق الانتخاب لكل مواطن فباءت محاولته بالفشل •

وعندما أجريت الانتخابات التالية هزمه منافسه مرشح « التورى » ، فآب الى عزلته وأبحاثه حتى وافته منيته عام ١٨٧٣ بعد حياة حافلة تسنم فيها قمة الفكر الانجليزى قاطبة •

وخلت حياته من الهزات العنيفة الا ما كان من غرامه بالسيدة « هاريت » وتدله فى حبها وبادلته حبا بحب وكانت امرأة ذكية تصغره بثلاث سنوات ولعت بالفلسفة والعلم ودرست المنطق وانصرفت الى قراءة « مل » وكلفت به حتى قالت عنه « انه يمثل غاية ما فى البشرية من سمو » وكلف بها « مل » وصحبها فى جولة بأوربا للنقاهة من مرض أصابه وضاق أهله وصحبه بعلاقته بها فلم يلق بالا اليهم واعتزلهم فقد أغناه

الحب عن كل عشرة فى الوجود ، وقضيا فى هذه العلاقة التى وصفهـا بالبراءة واحدا وعشرين عاما قبل أن يتزوجها عام ١٨٥١ .

ويرد اليها « مل » الفضل فى الكثير من انتاجه مما نوه به وأشار اليه فى سيرته وأهداها أعظم ما كتب كتابه « عن الحرية » فلما قضت عام ١٨٥٨ اثر التهاب رئوى هزته الفجيعة فاعتزل الناس وثوى الى دار فى « أفنيون » يطل منه على قبر الغالية ولا يتركه الا الى « بلاكهيث » حيث يقيم بعض الوقت مع ابنة زوجته ويختلف اليه مريدوه بين حين وآخر ولم يجد عزاءه فى غير العمل فوهبه كل وقته حتى وافته منيته فى ٨ مايو ١٨٧٣ فى الضاحية التى تضم رفات الغالية الراحلة .

عـــن الحريـــة

كان « مل » يعتقد أن كتابه « عن الحرية » هو أثره الخالد الذى يطاول الزمن ويبقى على الأحقاب فيصلا بين الحرية الفردية والسـلطة العامة التى يحكمها العرف أو يحكمها القانون سلطة المجتمع أو سـلطة الدولة وصح ما تبينه فما من كتاب أكثر اقناعا وأعلى منطقا ككتابه « عن الحرية » وما من مفكر عرض للحرية فى اخلاص وايمان كما عرض لهـا جون ستيوارت مل وما من نظرية تحدد غاية الدولة كما تحددها نظريته فى الحرية وفى الاقتصاد السياسى وان عفت نظريته الاقتصادية وبقيت نظريته عن الحرية أسمى ما يمكن أن يحدد النفع الاجتماعى للحرية وأقوى ما يكتب عن حقوق الأفراد .

لم يلجأ فى كتابه الى استجداء العاطفة والشعور ولم يكن لاتجاهات العصر الرومانسى أثر كبير على تفكيره ، وان أضفى انطلاقه الفكرى وفهمه العميق للتاريخ على حججه ومنطقه الاستقرائى عذوبة وحيوية .

كان تفكيره امتدادا لتفكير القرن الثامن عشر وايمانه بالعقل ، غير انه كأستاذه بنثام لم ير فى جمود القانون الطبيعى ما يحقق نظرته للحياة تلك النظرة التى تقوم على تنمية الفضائل واذكاء العقل لدى الأفراد . فمنفعة المجتمع لا تتحقق الا بضمان حرية الفرد وفى هذا الاطار تتحدد غاية الحكومة فمتى عرفنا الغايات التى تضمنها الحكومة وتعمل على حمايتها وتشجيعها أمكننا ان نحدد أفضل شكل لحكومة تتكيف مع تلك الغايات وتتلاءم معها .

ولا تقاس الحكومة الصالحة الا بمقدار ما يتمتع به أفرادهـا من فضائل الخلق والسلوك والتقدم العقلى العام أو بعبارة أخرى بمقدار

ما تصطنعه من مواطنيها وما تصنعه بهم ولا يتأتى ذلك ما لم تفسح لكل فرد أوسع مدى لتنمية مواهبه واذكاء ملكاته فان حرية الفكر وحرية العمل هما أثمن ما تقدمه الحكومة لرعاياها ٠

وليس لأى فرد أو جماعة أن تعوق حرية الانسان الا دفاعا عن النفس وما من مسوغ لاستخدام القوة المشروعة ضد ارادة الفرد الا لمنعه من ايقاع الأذى بالآخرين ٠ فسلوك الفرد حيال غيره هو ما يقع تحت رقابة المجتمع أما سلوكه حيال ذاته فمما لا يصح لأى فرد أو جماعة أن يتعرض له ٠ فالانسان سيد نفسه له مطلق الحريق على جسده وعقله فاذا بدر منه ما يسيء الى نفسه فما على المجتمع الا أن يقومه بالنصح والتعليم والاقناع فان لم يجد فمن حقه أن ينبذه اذا وجد فى ذلك خيرا له ٠

ويقسم « مل » كتابه عن الحرية الى خمسة فصول يمهد فى أولها لفكرة الحرية ويخص الثانى بحرية الفكر والمناقشة والثالث بالفردية كعنصر من عناصر الحياة الطيبة والرابع بحدود سلطة المجتمع على الفرد والخامس بما دعاه « تطبيقات » ويقصد بها تطبيق مبادئه وآرائه على المجتمع ٠

وتتضمن هذه الفصول بما عرضت له من شتى النواحى فكرة واحدة هى الحرية فى كل أشكالها ومراميها وانطلاقاتها ٠

غرض « مل » من كتابه

ونراه يحدد الغرض من كتابه فيقول : « لا يتناول هذا المقال ما يسمى حرية الارادة وهى التى تتعارض مع ما يدعى خطأ بفلسفة الضرورة ولكنه بحث فى الحرية المدنية والاجتماعية وطبيعة الحدود التى يمارسها المجتمع شرعا فى سلطانه على الفرد وهى مسألة قلما اتضحت أو كان من اليسير مناقشتها والكتابة عنها مع ما لها من تأثير بالغ بصورتها الكامنة على قضايا العصر العملية وتوشك ان تصبح أخطر ما يشغل الأجيال القادمة فى المستقبل وهى أبعد من أن تكون محدثة فقد ناشت البشرية منذ القدم ومع التقدم الذى أحرزته فهى مسائل متحضرة من بنى الانسان قد أخذت تسفر عن وضع جديد تحتاج معه الى بحث جاد يختلف عما مضى » ٠

ويمضى فى شرح مفهوم الحرية عند الأمم القديمة لا سيما اليونان والرومان والانجليز ولعله حين خصهم بذلك ؛ فلأن الفكر اليونانى والرومانى يمثلان المنابع الأصيلة للفكر الأوربى الحديث ٠ أما الانجليز

فلأنه ينتسب اليهم ويكتب لهم ، فيقول ان الظاهرة البارزة فى تاريخ تلك الأمم هو الصراع بين الحرية والسلطة لحماية الأفراد من استبداد الحكام اذ كان هؤلاء الحكام ـ فردا أو جماعة ـ بحكم الضرورة خصوما للرعية يستندون فى حكمهم الى حق الفتح أو الوراثة ، وينتفى أمام سلطتهم المطلقة كل حق للمحكومين ، وكثيرا ما كانوا ينتضون تلك السلطة فى وجه الرعية لذلك كان مفهوم الحرية حينذاك هو تقييد سلطة الحاكم على المحكومين بعهود أو ضمانات هى التى ندعوها « حقوقا سياسية » ، أو باقامة حدود دستورية يصبح فيها الشعب أو بعض هيئاته شريكا فى السلطة فلا يتخذ الحاكم قرارا دون موافقتها .

ثم نشأت الأنظمة الديمقراطية فكان القائمون على السلطة ممثلين للأمة أو وكلاء عنها تتمثل ارادتهم ارادة الأمة مدة انابتهم عنها ولها حق عزلهم متى شاءت وان كان هناك من يرى أنه متى توحدت ارادة الحاكم وارادة المحكومين فلا خوف من الاستبداد ، اذ لا يعقل أن يستبد الشعب بنفسه . وعلى الشعب أن يأتمن حكامه على سلطتهم ما دام قد حدد لهم طريقها ومداها .

ولما كانت السلطة لا تمثل الارادة العامة وانما ارادة الأكثرية أو من يقومون مقامها فليس من البعيد أن يقع الضيم على الأقلية الخارجة على الاجماع مما يحملنا على توقيه بتقييد سلطة الحاكم على الأفراد .

استبداد المجتمع

الا ان أخطر ما يتعرض له الفرد هو استبداد المجتمع فقد درج الناس على تقاليد وعادات يرون فى الاجماع عليها ما يسوغها ، يستوى فى ذلك ما يستنده العقل والمنطق أو ما يقوم على الهوى والوهم وان حملتهم المصلحة على الهوى غالبا أو حملهم الوهم الذى تطيب به نفوسهم ما تنبى عليه عواطف من الحب والكره تحدد سلوكهم أمام القانون أو أمام الرأى العام ، وأكثر ما تتبدى تلك العواطف سافرة فى العقيدة الدينية ، حيث تتحول شعور الكراهية والحقد للمخالفين وان أدى الخلاف الى تقرير الحرية الدينية ضمانا لكل فريق فى البقاء والدفاع عن مذهبه بعد ان تعذر على ايهم القضاء على المخالفين وكان هذا الجانب من جوانب الحرية وحده الذى لقى من التأييد ما ينكر على المجتمع فرض سلطانه على المخالفين الا أن ما ساعد على تقرير هذا الحق هو انصراف الناس على الدين ، والملل من الجدل الدينى الذى يعكر على الناس راحتهم وهناءهم ولكن هذا الحق ما زال مقيدا لا يجيز نقد العقيدة وان أجاز نقد الكنيسة أو يجيز أشياء

ويقف دون أشياء أخرى وطالما ظل المجتمع على فطرته من التعصب لعقيدته بقيت حوافزه تحمله على التعرض للمخالفين مما يعوق حرية الفكر والضمير.

فسلطة المجتمع التى يمثلها سيادة العرف وسلطة الحكومة التى يمثلها القانون هما ما يحملاننا على تقرير مبدأ واضح بسيط وهو ألا يجوز التعرض لحرية الفرد الا لحماية الغير منه أو لمنعه من الاضرار بغيره فهو الغاية الوحيدة التى تبرر السلطة التى تحكمه وتنتفى دونها كل غاية حتى وان كانت لحماية الذات فلا يجوز ارغام الفرد على انتهاج سلوك معين بحجة حمايته من الاضرار بنفسه أو ماله ، وان تكن أسبابا كافية لمناقشته فيما ينبغى عليه لحفظ ذاته وماله ، الا أنها ليست على الاطلاق سببا للحد من حريته ، فالانسان حر فى ذاته مطلق التصرف فى جسمه وعقله وان كان هذا مما لا ينطبق على القصر من الأطفال والمراهقين ممن يحتاجون الى رعاية غيرهم وتوجيههم ولا يندرج على الشعوب المتأخرة فهى أشبه بالقاصر الذى يحتاج الى الرعاية والتوجيه ، فاذا قدر لها حاكم مصلح ينهض بها ، جاز له أن يتخذ ما يتراءى له من اجراءات تكفل له غايته ، وليس لها أن تعترض عليه ما دام الاصلاح مبتغاه وقصده . فالأصل فى الحرية ألا يجوز منحها قبل أن يصبح الشعب قادرا على أمره ، مدركا لصالحه ، يعى حرية المناقشة ويعرف معنى المساواة والا وجبت عليه الطاعة لعاهله حتى اذا بلغ الشعب رشده — كالشعوب التى نكتب لها هذا البحث — لا يصبح الاستبداد جائزا ولا يصبح اكراهه على أمر حقا .

المنطقة الحرام !!

ويستغنى « مل » عما يؤيد رأيه من حق الفرد المجرد فى الحرية ولا يجب أن يتخذ من حافز المنفعة — لا باعتبارها مردا لكل حافز أخلاقى ولكن باعتبارها أساسا لكل ما للانسان من مصالح خالدة ككائن حى متطور — سندا لحجته فليس هناك ما يبرر ارغام الفرد أو الحد من حريته الا فيما يتصل بمصالح الغير فاذا وقع منه ضرر على الغير استحق الجزاء القانونى أو الجزاء الأدبى الذى يوقعه به المجتمع حيثما تداعت صولة القانون ، ويعنى بهذا ان حق الفرد فى الحرية أقوى وأبرز من أن تسوق له البراهين والحجج لتأييده ، وان كان هناك ما يجيز حمل الفرد على القيام بعمل ينتفع به الآخرون كارغامه على القيام بواجبه فى الدفاع عن الوطن أو أداء الشهادة أمام المحاكم تحقيقا للعدالة بل ان المجتمع ليحاسبه اذا تقاعس مثلا عن انقاذ آخر من الهلاك أو التصدى لظلم يلحق بمستضعفين ما دام قادرا عليه فالفرد قد يوقع بتقاعسه كما يوقع باقدامه الأذى بغيره ، والقاعدة فى الحالين هى ما يسببه من أذى للآخرين وان

كان الأذى فى اقدامه بين لا يقبل الشك وفى احجامه أو تقاعسه مما يقبل الشك ما لم ينتف الشك فى الأذى الذى يقع عن تقاعسه ٠

الا أن الفرد فى مسئوليته أمام القانون وقبل المجتمع عما يمس مصالح الآخرين قد يخضع لظروف يكون من الأجدى فيها رفع المسئولية عنه اذا أدى الارغام مثلا الى ضرر أشد مما لو ترك وشأنه ليحل الوازع والضمير محل القانون ٠

أما ما يتصل بسلوك الفرد ولا يؤثر فى الغير أو يؤثر فيهم طوعا ورضا وقبولا فهو المنطقة الحرام فى حرية الانسان وتتمثل :

أولا : فى حرية الضمير وما يتصل بها من حرية الفكر والعقيدة والتعبير والمناقشة بأوسع معانيها ٠

وثانيا : فى حرية الفرد فى اختيار ما يوافق ذوقه ومزاجه وتكييف حياته على ما يحب ويرضى ما دام لا يتعرض للآخرين بأذى حتى وان جلب على نفسه المضرة ٠

وثالثا : حرية الاجتماع للراشدين دون اكراه أو تدليس لغرض لا يضير الغير ٠

فما من مجتمع لا يجل تلك الحريات ويكفلها الا وهو مجتمع غير حر مهما كان طرازه ومهما تكن حكومته ٠ فجوهر الحرية يقوم أصلا على الانطلاق الذى يحمل الأفراد على السعى وراء مصالحهم أيان يريدون وكيفما يبتغون ما داموا لا يتعرضون بالأذى للغير فالفرد سيد نفسه وبدنه وعقله ولا تعانى الانسانية من حرية ينطلق فيها الناس كما يحبون كما تعانى من تكبيلهم بقيود يفرضها الغير ٠

ويستطرد « مل » فيقول ان التسليم بمبدأ الحرية لم يحل بين المجتمع واملاء سلطانه على الأفراد ، بل انه ليرغمهم على ما يرضاه لذاتهم أو حياتهم الاجتماعية لا بقوة الرأى العام فحسب بل يلجأ الى القانون مستعديا اياه حتى فيما لا يصح أن يعدو اليه ما دام الاتجاه السادر يعلى من سلطان المجتمع ويوهن من قوى الفرد وتلك سوأة لا يرجى زوالها بقدر ما يخشى تفاقمها ، فما زال الناس حكاما ومحكومين نزاعين الى فرض آرائهم وميولهم على الغير ، يحملهم عليه ما يجيش بنفوسهم من خير وشر على حد سواء هما من خصائص الطبيعة البشرية وهى نزعة لا يفل غربها غير حاجتها الى القوة وما دامت تلك القوة فى ازدياد فلن يقف دونها حائل ما لم يكن لها وازع من الضمير ٠

حرية الـــرأى

وينتهى « مل » من هذا التمهيد ليبدأ بجانب من جوانب البحث يراه متصلا بما ساقه من آراء عن سلطة المجتمع هذا الجانب هو « حرية الرأى » وما يندرج تحته من « حرية التعبير والكتابة » فهما وان كانتا شائعتان فى البلاد التى تتمتع بحريتها الدينية والسياسية الا أن أصولهما العملية والفلسفية ما زالتا غامضتين فى أذهان العامة ولا تجدان التقدير الجدير بهما من قادة الرأى العام ، فاذا وعيناهما كان ذلك خير تمهيد لجوانب البحث الأخرى ٠

١ ـ حرية الفكر والمناقشة :

ويبدأ هذا الموضوع بتقرير مبدأ يراه سياج حرية الفرد القمين برفع كل ضيم أو اكراه يقع عليه من جانب الدولة أو المجتمع أو كليهما معا وهو ألا يجوز لأية حكومة سواء بنفسها أو بتأييد الشعب أن تخرس فردا واحدا عن ابداء رأيه فلو اجتمع الناس قاطبة على رأى وخالفهم فيه فرد واحد لما جاز اخراسه فليس الاجماع دليلا على الصواب وليست القلة دليلا على الخطل وحرمان الفرد من ابداء رأيه مضرة للناس وحرمان للانسانية من دواعى الرقى والتقدم ٠ فاذا كان الرأى صوابا فقد حرم المجتمع من فرصة التغيير ، وان كان خطأ فقد حرم من فرصة المقارنة التى تؤكد ما هو عليه من حق ٠ فاذا ادعينا العصمة فى الاجماع فقد أقمنا اليقين على باطل وكفى بذلك دليلا على خطل تقييد حرية الرأى ٠

ويستقرىء « مل » التاريخ فيروى كيف خطأ المجتمع « سقراط » واتهمه بافساد عقول الشباب ، وحمل حكومة أثينا على محاكمته والحكم باعدامه وهو أجدر أهل جيله بالتقدير والاكبار ٠

وتقدم « مل » بأربع حجج يدلل بها على ان صلاح الناس عقليا وفى كافة شئونهم انما يستلزم كفالة حرية الفكر والمناقشة هى :

اولا : ان اخماد رأى قد يخمد حقا ومن ينكر احتمال ذلك فانما يدعى العصمة ٠

ثانيا : اذا افترضنا لاخماد الرأى مجافاته للصـــواب جاز افتراض انه يتضمن بعض الحق وهو الواقع فعلا فلا تكتمل الحقيقة اذن الا اذا قارع السائد رأى مخالف ٠

ثالثا : فاذا كان الرأى صوابا واشتمل على كل الحقيقة وجب كفالة الحرية فى مناقشة جادة ليقع فى أذهان الناس على ثقة ويقين ·

رابعا : وتضعف الآراء وتتلاشى حتى تفقد تأثيرهـــا على الأخلاق وتغدو العقيدة ألفاظا جامدة جوفاء لا تحقق خـيرا ولا نفعا ولا تؤثر فى سلوك الناس اذا ما حيل بينها وبين المناقشة ·

ولا يجوز الحجر على حرية المناقشة حتى وان تجاوزت حدود العرف والآداب فتعيين مثل هذا الحد الفاصل جد عسير والانسان بطبعه يضيق بما يخالفه أو يكشف خطأه · والواجب أن يلتزم الناس الحق والاخلاص فى النقاش وان يحذروا التعرض لخصومهم فى أشخاصهم والتهكم عليهم وخاصة اذا كانوا من الخارجين على آرائهم ، فالرأى العـام هو الحـكم وما أحرانا أن نلتزم الحق فى محاربة التعصب والشطط والنفاق ! ، وما أحرانا بالتزام الأمانة فى مقارعة الخصم وتفنيد حججه ! ·

٢ ـ الفردية عنصر من عناصر الحياة الطيبة :

وبعد التمهيد الذى ساقه « مل » لموضـــوعه وبعد ان أسهب فى الحديث عن حرية الفكر والمناقشـــة يعرض للفردية كعنصر من عنـــاصر الرفاهية أو الحياة الطيبة ويبدأ فى البحث عما اذا كانت مبررات حرية الفـــكر والتعبير تكفى لأن تكون مبررا لحرية التصرف أو حرية العمل بشرط ألا تسبب ضررا للغير · وقبل أن يمضى فى عرض رأيه يؤكد هذا الشرط الأخير فيقول : « ليس هناك من يدعى بأن حرية العمل قرين حرية الفكر » فالرأى يفقد حرمته اذا وقع منه ضرر ، فلا حرج على من يقول ان تاجر القمح يقتل الناس جوعا أو ان الملكية الخاصة ضرب من السرقة ، ولكن اذا كان هذا القول فى جمع من الغوغاء تجمهر أمام متجر للغلال ، فانه مما يوقع ناشره تحت طائلة العقاب ، ويوجب على الرأى العام أو القانون منعه فعند هذا الحد تنتهى حرية الفرد ، اذ لا يجوز له ان يجلب السوء للآخرين أو يكون سببا فى سوء يقع عليهم · أما اذا كان تنفيذ رأيه لا يعدو ذاته فلا ضير من ان تطلق له حرية العمل كحرية الرأى سواء بسواء ما دام لا يتسبب فى ضرر للآخرين ، فما يصدق على حرية الرأى يصـــدق على حرية العمل ولن تستقيم الحيـــاة ما لم تتأكد شخصية الفرد ولن ترقى الحضارة ويطرد التمدن ما لم يكن للفردية كيانها المستقل ·

ومما يعوق حرية التصرف أن يرى الســـواد الأعظم من النـــاس ما تعارفوا عليه من أوضاع اجتماعية صالحا لكل فرد ، وأكثر منه اعاقة أن يهمل الفلاسفة والمصلحون هذا الجانب من جوانب الفردية وكأن الناس

لم يخلقوا الا ليقلد بعضهم بعضا تقليد القردة فيحولوا بين الفرد وبين الخلق والابداع وبين النمو والتطور ، وكأن تجارب البشرية وما فيها من تنوع لا تهديهم الى ما فى طرائق الحياة من تمايز وأن لكل فرد أن يختار لحياته ما يرضيه وما يراه متفقا مع خصاله وسجاياه مهتديا بما كان من تجارب الآخرين ، فانها وان لم تكن شاملة لكافة الخبرات أو مناسبة لظروف كل فرد مع انها صالحة فان تقليدهم لها دليل على ما أفادوا منها وهى بهذا قمينة بالتقدير ، الا ان العادات مهما كانت صالحة ومناسبة فليس للانسان أن يدين بها لا لشىء الا لأنها مقررة تدين بها الجمهرة من الناس فانه فى هذا يغدو أقرب الى مرتبة الحيوان ولا يميز الانسان على الحيوان غير الادراك والفطنة وهما فى حاجة الى التدريب والمران ٠

ويستطرد « مل » قائلا :

وأكرم للانسان ألا يعوق حوافزه ورغباته عن التفتح والانطلاق ليؤكد ذاته وينمى شخصيته ، بشرط ألا يجور على الغير فيعوق نوازعهم عن الانطلاق ويعطل فرديتهم عن التفتح والنمو ، مما يعوق نمو المجتمع بأفراده ، فاطلاق الحرية للأفراد جد عسير ما دامت طبيعة المجتمع تقوم على المعاشرة والاجتماع فالقيود التى نرضاها لحرية الفرد ليست مما يعوق نمو الأفراد فان الاطلاق فى جانب جناية على الآخرين فى جانب آخر ثم ان هذا القيد اذ حد من أنانية الفرد نمى جانبه الاجتماعى فأصبح محبا للخير الذى يجلب المنفعة للغير ، على ألا يؤدى ذلك الى انكار ذاته والاستبداد بشخصه سواء أكان الواعز فيه الارادة الالهية أم ارادة الانسان ٠

وجدير بنا ان ننتفع باطلاق الحرية بما تضيفه على العباقرة من تفتح وانطلاق يكشفان عن المجهول ويرودان بهم آفاق الخلق والابداع فتتجدد الحياة على الأرض وتستقيم فلا تبلى ولا يخمد لها أوار فما من جديد فى الحياة الا وهو عمل الفرد وما من شىء طيب الا وهو وليد فكر عبقرى ٠

٣ ـ حدود سلطة المجتمع على الفرد :

ويمضى « مل » فيقول ان ما يخص الفرد وحده من حقوقه وما يخص المجتمع فهو حق للمجتمع ٠

فالفرد حين يعيش فى رحاب المجتمع ويتمتع بحمايته يرى نفسه مدينا له ومطالبا بسلوك معين قبل أفراده ـ أولا ـ أن يتحاشى الاضرار بمصالح الغير وعليه ـ ثانيا ـ ان يتحمل نصيبه من التضحية التى يتطلبها المجتمع كحمايته من الأذى أو دفع العدوان عنه ، فان أهمل ذلك حق عليه عقاب المجتمع عن طريق القانون أو طريق الرأى العام ، فان كان

فى عمل الفرد مضرة بالغير لا تصل الى الاعتداء على حق من حقوقهم المقررة كان للرأى العام دون القانون حق عقابه ، وفيما عدا ذلك فللفرد حريته كاملة غير منقوصة فاذا جاز لنا ارشاده وتقويمه بما للناس على بعضهم البعض من واجب الرعاية لم يجز لنا اكراهه على شيء أو حمله عليه عنوة وقسرا ، فما من انسان أبصر بمصلحته غير نفسه وان كان عليه أن يكون بصيرا بما يتفق عليه الناس من قواعد عامة بما ينتظره منهم ويحظى بتقديرهم ، فلست من القـــائلين بأن صـــفات الفرد وعيوبه الذاتيـــة مما لا يجوز أن يؤثر فى رأى الناس فيه فانه ولا شك قمين بالتقدير اذا ما تحلى بالصفات التى تعود عليه بالخير ، فاذا كان عاطلا منها الى درجة شائنة كان حقيقا بالاستهجان بل والتحقير فقد يقترف المرء أفعالا لا تلحق بغيره أدنى مضرة تحملنا على ان نصفه بالسفه أو الحمق أو الانحطاط ومن الخير له ان نحذره منهـــا ، وعلينا أن نتوسع فى هذا الخـــير ، بأكثر مما تجيزه آداب تعارفنا عليها فاذا قلنا لانسان انه مخطىء فلا يصح ان يقال اننا نتجاوز حدود اللياقة أو اننا نتدخل فى شئون الغير فلك الحق فى أن تتجنبه دون أن تضطهده ولك الحق أن تحذر الغير منه أو تؤثر الغير دونه بخيرك وبرك .

وغاية ما أقوله ، واعمل على اثباته ، هو انه لا يجوز للمجتمع أن يتدخـــل فى شئون أفراده الا فيما يتجاوز ذواتهم الى ذوات الآخرين ، فالانسان حر فى كل ما يتعلق بذاته ، ولكنه ليس حرا فى أن يصيب الآخرين بضرر ، فالكذب والغش والخداع والظلم بل السلبية التى تؤدى الى مضرة بالغير مما تعرض صاحبها للتوبيخ ان لم تؤد الى الجزاء القانونى عندما تقع تحت طائلة القانون وان كانت هناك صفات تؤلف خلقا خبيثا كالنفاق والطمع والأنانية والحسد ، تسم صاحبها بالحمق وتفقده الهيبة والكرامة ولكنها لا تجيز العقاب الا اذا ترتب عليها اخلال بواجبات الفرد نحو غـــيره . فهناك فرق كبير بين ما يستحقه الفرد لعيب ذاتى وبين ما يستحقه لعيب تقع مضرته على الغير . فاذا كنا نتجنب الشخص لعيب فى ذاته فليس من حقنا أن ننغص حياته ونقلق راحته ، فحسبه ما ينال من سوء المصير بل ان واجبنا حياله ان نهون عليه بارشاده الى سبيل الخلاص لا أن نزيد فى آلامه ، بخلاف ما اذا أصاب الغير بضرر فردا كان أو جماعة فان على المجتمع بصفته حاميا لكل أفراده أن يوقع به أشـــد العقاب .

ولكن من الأفعال الذاتية ما يمس الآخرين بطريق غير مباشر ، فالسفه وتبديد المال قد لا يقف ضرره على صاحبه بل يمتد الى ذوى قرباه أو من يعولهم والاضرار بالصحة قد يؤدى الى العجز فيصبح الفرد عالة على غيره

فان لم يكن هذا أو ذاك فانه قدوة سيئة يمكن أن تمتد عدواها الى المجتمع ٠

ومثل هذه الأفعال اذا تجاوزت الذات الى الاخلال بحقوق الغير وقعت تحت طائلة الجزاء الأدبى لا للسلوك ذاته ولكن لما يترتب عليها من أذى للآخرين ، فمن ينفق ماله فى وجه مشروع كمن ينفق ماله سفها اذا كان المال معدا للانفاق على الأسرة أو للوفاء بدين ومن يقترف فعلا ذميما يؤلم ذوى قرباه كمن يقترف فعلا غير ذميم بالمعنى المقصود ولكنه يسبب الضيق لمن يعاشرونه ، أو من يقارف فعلا ذاتيا محضا لا يستحق العقاب ولكن اقترافه اياه أدى الى الاخلال بواجبه نحو الجمهور كالشرطى الذى يسكر أثناء قيامه بعمله حينئذ يتجاوز السلوك نطاق الحرية ويلج دائرة الجزاء الأدبى أو القانونى متى أصاب فردا أو جماعة بضرر ٠

★★★

ويختم « مل » بحثه بما دعاه « تطبيقات » فيقرر حقيقتين هما خلاصة بحثه عن الحرية : أولاهما أن الفرد حر فيما يفعل وليس للمجتمع أن يفرض عليه أية مسئولية فيما يتعلق بذاته منها الا أن ينصح ويرشد ويوجه ٠ وثانيهما : أن الفرد لا يسأل أمام المجتمع الا اذا مست أفعاله الغير ونالتهم بضرر وللمجتمع حينئذ أن يوقع بالفرد من العقاب الأدبى أو القانونى ما يراه كفيلا بحماية مصالحه ٠

وحتى لا يترك ظلا من الشك حول الحدود التى يراها لاقامة المسئولية يعود الى مناقشة تطبيقاتها فى بعض الحالات ، فيرى أن بعض الأفعال الفردية قد تسبب ألما أو خسارة للغير أو تحرمه نوعا من المنفعة وهى وان كانت فى الغالب نتيجة نظام اجتماعى فاسد الا أنها أنفع للفرد وأنفع للمجموع فحيث يفوز الانسان بالسبق وينجح على غيره ينفع نفسه وينفع المجموع ٠ وان سبب فوزه ألما أو خسارة لمنافسيه وهو فعل مشروع ما لم يكن الغش والخديعة أو الاكراه وسيلة للنجاح ٠

ولا يرى « مل » فى القيود التى تفرض على التجارة والصناعة ما يتعارض مع الحرية الشخصية ما دامت قاصرة على ما يمس المجموع فاذا عدتها كانت خطأ لا يجوز اغفاله فمراقبة الغش وفرض شروط صحية على المصانع وتحريم بيع السموم ومنع تصدير الأفيون مما يحمى المشترى لا تعد اعتداء على حرية البائع مع مبدأ حرية التجارة أو الحرية الشخصية ، كما لا يعد منع ارتكاب الجرائم اعتداء على حرية من ينتويها أو وضع بطاقة على قوارير السموم قيدا على الحرية ٠

منفعـــة المجتمـــع

وهكذا ينتهى « مل » بتقرير الحرية المشروعة للفرد فى اطار المجتمع الذى يعيش فيه وحاول أن يقيم نوعا من التوازن بين الفردية والجماعية وخرج على مذهب أستاذه بنتام فى طبيعة المنفعة فقد فضل بنتام منفعة الفرد على منفعة المجتمع بينما فضل « مل » منفعة المجتمع على ألا تطغى على حرية الفرد وجعل يضرب لذلك أمثلة عديدة ويسهب ويطيل فى شرح نظريته حتى يؤكدها للناس وكأنه يخشى أن يضلوا حقيقتها اذا لم يتحوط لكل شك فى مدلولها .

وقد ســادت النزعة الفردية فى القرن التاسع عشر حتى أخــذت الجماعية تزحمها ببزوغ النظرية الاشتراكية التى تركت آثارها واضحة فى تفكير « مل » حين حاول أن يقيم نوعا من التوازن بينهما .

ولقيت نظرية مل فى الحرية والمنفعة أرضا طيبة فى مصر فى مطلع هذا القرن حين أخذ لطفى السيد يبشر بها ويدعو اليها على صفحات الجريدة ، ويبدع لها مسمى جديدا على العربية هو « مذهب الحريين » واستهوت النظرية كثيرا من المثقفين فقام الأستاذ طه السباعى فى شبابه المبكر عام ١٩٢٢ بترجمة كتاب « مل » عن الحرية وأعاد طبعه عام ١٩٤٣ .

الحرب والسلام

ليو تولستوى

١٨٦٤م

الأدب الروسى اذا لم يكن فسيح وحده فى آداب العـــالم القديمة والحديثة فانه من الطراز الأول • واذا كان فى العالم من الآداب ما كتب له الخلود فان قصص تولستوى وجوركى ودستويفسكى وغيرهم هى من خوالد الدهر التى لن تموت • بل هى أحرى بأن تكون مقياسا تقاس عليه آداب الأمم الأخرى فينسب اليها الفضل أو النقص بنسبة قربها أو بعدها عن الطريقة الروسية •

ولكن ما هى هذه الطريقة الروسية ؟ هى حسب الظاهر الطريقة التقريرية الواقعية ، فالكاتب يتلمس الحقائق ويرسمها للقارىء كما هى فى الواقع بدون أن يلبسها خيالا كاذبا ، ونقول « كاذبا » لأنه سيضطر الى أن يكسوها بخياله الشخصى مهما حاول أن يحايد أو يقتصر على الحقائق ، ولكنه عندئذ لا يكذب فهو يقرر الحقائق وهذا الخيال الذى يكسوهـا به يجد صدى فى نفوسنا تعرف فيه الصدق والاخلاص فنحبه ويصير أبطال القصة أشبه شىء بأصدقائنا أو بأنفسنا •

وهذا حسب الظاهر • ولكننا عند التحليل نرى ان تفوق الأدب الروسى يرجع الى أن الأدباء الذين وضعوا هذا الأدب لم يكونوا يقصدون الى الأدبية ، وانما قصدوا الى الحياة يحاولون تبديل معاييرها فى أنفسهم وغيرهم والسعى الى معيشة جديدة يعيشونها فكان أدبهم بذلك ثمرة الحياة وفى صميمها وليس لعبا ولا بهرجة حول هوامشها • ولذلك فاننا نجد العظماء من أدباء روسيا لم يؤلفوا الأدب بمقدار ما عاشوه وهذا هو ما يدعونا الى القول على الدوام بأن التجديد فى الأدب لا يكون شيئا آخر سوى ثمرة التجديد فى الحياة وان الأديب يجب أن يتجدد قبل أن يجدد •

الكونت ليو نيكولايفيتش تولستوى روائى روسى وفيلسوف خلقى • ولد فى ٢٨ أغسطس (وقيل ٩ سبتمبر) سنة ١٨٢٨ بالقصر الريفى لوالديه فى ضيعة « ياسانيـا بوليـانا » فى اقليم « تولا » وكان آل « تولستوى » من الأسرات الروسية العريقة الحسب والجاه التى يرجع أصلها الى القرن السادس عشر ولم تكن تمت الى أصل ألمانى كما قيل فى كثير من الأحيان ، وكما كان « تولستوى » نفسه يعتقد • وقد كان جده الأكبر « بطرس اندرييفيتش » سليل وصيف فى بلاط القياصرة ولكنه استطاع بطموحه أن يصبح سياسيا لامعا وعين أول سفير لروسيا لدى الباب العالى (تركيا) سنة ١٧٠١ حيث خاض مغامرات ديبلوماسية

أدت الى سجنه هناك وكادت تفضى الى حرب بين تركيا وروسيا ، وعندما أفرج عنه فى سنة ١٧١٤ عاد الى وطنه حيث ساهم بنشاط كبير فى الأحداث السياسية وأنعم عليه القيصر بطرس بلقب « كونت » . أما والد « ليو » فكان نيكولاس « نيقولا » ايلييتش الذى تزوج من الأميرة مارى فولكونسكى ، فحملت اليه ثروة دسمة وأنجبت له خمسة أبناء كان « ليو » الرابع بينهم .. وكانت الأوساط التى نشأ فيها مثلا لما كان يحيط علية القوم من أرقى مصاف الطبقة الوسطى ـ فى روسيا فى أواخر عهد الاستعباد والرقيق مما جعل نظرته الى الحياة تجمع بين آراء علية القوم وآراء الفلاحين المستضعفين .

نشاته وصدر شبابه

ماتت أمه فى سنة ١٨٣١ ولحق بها أبوه فى سنة ١٨٣٧ ، فتولت تربيته بعض قريباته المسنات وكان يضطلع بتعليمه مدرسون فرنسيون خاصون ـ على ما كان شائعا فى الأوساط الراقية فى روسيا ـ اذ ذاك ـ فكانت المصادر الأولى لتكوينه الفكرى والثقافى مستمدة من النظم الفرنسية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر فلم يقدر له أن يتصل بالثقافة الروسية فى عصره الا فيما بعد ، وفى ظروف لم تكن لتشجعه على الميل اليها . وفى سنة ١٨٤٢ التحق « تولستوى » بجامعة « قازان » ولعلها كانت ـ اذ ذاك ـ أعظم مركز للعلم شرقى برلين ولكنه انصرف عن الجد فى دراسته ، بل خامره ـ منذ البداية ـ نفور من الدراسات العلمية وأصبح يقضى معظم وقته فى الأوساط الاجتماعية فقد كانت « قازان » مركزا اجتماعيا للطبقة العليا فى روسيا ، يلى « سانت بطرسبورج » و « موسكو » مباشرة . وقد كانت ذكرى هذه السنوات الحافلة بالسعادة النزقة مبعث اغتباط له فى كهولته . غير ان حب الجدل والتحرى والنقد كان قد بدأ يرسخ فى فكره وقد عزا التأثير « الهائل » الذى خلفته مؤلفات « روسو » على تفكيره الى تلك الحقبة . ثم لم يلبث أن هجر الجامعة فى سنة ١٨٤٧ واستقر فى « ياسنايا بوليانا » معتزما أن ينصرف الى الزراعة والاشراف على المزارعين ورقيق الضيعة . ولكن المحاولة أسفرت عن فشل اذ وجد انه لم يؤت استعدادا لهذا العمل .

وقضى الشطر الأكبر من الأعوام التالية فى « موسكو » حيث استسلم للفساد والفوضى اللذين كان معظم شباب طبقته يعيشان فيهما اذ ذاك . بيد ان ما سجله فى يومياته ـ التى بدأها فى سنة ١٨٤٧ ـ عن دراسته لنفسه ونقده اياها يشهد بأن الحياة العاطلة لم تكن ترضيه فلم يلبث ان بدأ ـ فى سنة ١٨٥١ ـ صفحة جديدة فى حياته اذ رحل الى « القوقاز »

وانضم الى احدى وحدات المدفعية كمتطوع من علية القوم ، وأخذ يقضى أوقاته فى هدوء ودعه فى حاميات قرى اقليم « القوزاق » التى لم يكن يخفف من رتابتها سوى الخروج للصيد أو الاشتراك فى بعض الحملات ضد العصاة من أهل الجبال ٠

وفى سنة ١٨٥٢ فرغ من أول قصصه : « الطفولة » ، وأرسلها الى « نيكراسوف » ــ وكان رئيسا لتحرير أكبر مجلة أدبية ــ فتقبلها هذا متحمسا لها وبادر الى نشرها وما لبث « تولستوى » ان رقى الى مرتبة ضابط عامل ونقل ــ بناء على طلبه ــ الى الجيش الذى كان يقاتل الأتراك فى حوض « الدانوب » ثم الى « سباستوبول » بعد أشهر قلائل حيث استقر الى نهاية الحصار فلما استسلمت حاميتها أوفد بتقارير روسية الى « سانت بطرسبورج » فمكث فيها وراح يغشى أوساطها الاجتماعية والأدبية مفضلا الأولى على الأخيرة فقد أخفق فى أن ينسجم مع أهل الأدب ، اذ أثارته عجرفتهم الوقحة ولم يقم وزنا للتقدم الأوربى الذى كانوا يتخذونه مثلا أعلى تتوخاه النهضة الأدبية الروسية ٠

وفى سنة ١٨٥٧ اعتزل الخدمة فى الجيش وقام فى السنة ذاتها ــ كما قام فى ســـنة ١٨٦٠ بجولة فى الخارج لم يعد منها بغير استهجان حضارة الغرب المادية ثم استقر ــ بعــد رحلته الثانية ــ فى « ياسنايا بوليانا » وقبل منصبا قضائيا أنشىء بمقتضى قانون تحرير الرقيق الذى صدر فى سنة ١٨٦١ للبت فى المنازعات المتعلقة بالأراضى بين السادة الاقطاعيين ورقيقهم السابقين ٠ كما أنشأ مدرسة لأبناء الفلاحين على نظم جديدة مبتكرة مستمدة من ايمانه بأن مواهبهم الفطرية أرقى قيمة من المقاييس المصطنعة الزائفة التى خلقتها الحضارة المادية ــ وأصدر كذلك ــ صحيفة يومية لترويج آرائه التربوية ولكن الوقت لم يطل به حتى تخلى عن منصبه القضائى وعن الصحيفة اذ كان على شفا أزمة نفسية بيد أن هذه الأزمة لم تنضج وتتكشف قبل خمس عشرة سنة وكان زواجه سببا فى تأخرها ٠ فقد ظل يفكر فى الزواج فترة من الزمن ثم انتهى الى أن خطب « صوفيا اندرييفنا بيهرس » التى كانت تصغره بستة عشر عاما والتى وقع فى هواها فى سنة ١٨٦١ واقترن بها فى العام التالى ٠

أعماله الأدبية (١٨٥٢ ــ ١٨٧٦)

تنبعث أعمال « تولستوى » الأدبية من مذكراته اليومية فقد كانت ــ أصلا ــ محاولة للكشف عن تركيب وتفاعلات الحياة الداخلية للانسان لتحديد وايضــاح تفاعلات الوعى على حقيقتهــا ٠ وكانت أولى محاولاته

الأدبية هى « قصة الأمس » التى كتبها فى سنة ١٨٥١ ولم يقدر لها أن تنشر إلا فى سنة ١٩٢٦ · وهى محاولة لايراد بيان مفصل دقيق لمشاعره والآثار المترتبة عليها فى أربع وعشرين ساعة · وكان أول كتاب كامل نشر له ــ وهو (الطفولة) (سنة ١٨٥٢) أقل اســـهابا فى التحليل وأكثر تمشيا مع القواعد المألوفة للأعمال الأدبية ، وقد كشف عن المام بأدق تفاعلات الوجدان وأكثرها خداعا فى مظهره فاق كل ما ظهر فى الأدب من قبل ·· وقد ازداد « تولستوى » ارهافا لوسائله التحليلية ــ فى القصص التى تلت ذلك ــ حتى لقد كان كثيرا ما يذهب فى امعانه الى درجة الإضرار بالحبكة الخيالية للقصة ·

وفى تلك الأثناء برز صراع قدر له ان يظل ميسطرا على « تولستوى » طيلة حياته ·· الصراع بين الحياة الطبيعية المسترسلة من تلقاء ذاتهـا دون ما تفكير وبين مطالب العقل والقانون الخلقى · ففى قصة « القوزاق » ــ التى كتبها فى ســنة ١٨٥٤ ونشرت فى قالب لم يرض عنه فى ســـنة ١٨٦٢ ــ تنتصر الحياة الطبيعية · اذ نرى « القوزاق » يمجدون رجلا على الفطرة لايفطن الى الخير والشر ومن ثم فهو بعيد عن الفلسفة الأخلاقية ثم انهم يهيلون العار على البطل « أولنين » المفكر القوى العقـــل ولكنه ضعيف الجسم · ونجد تفاهة الانســـان المتمدين وخسته وحقـــارته معروضة بصورة واضحة فى « ضابطان من الفرسان » (التى كتبها فى سنة ١٨٥٦) و « لوسيرن » (١٨٥٧) و « ثلاث ميتات » (١٨٥٩) ثم فى « خولستومر » (١٨٦١) وهى صورة ساخرة فذة لحياة الطبقات الراقية فى روسيا ·

ولقد كانت كل أعماله الأدبية الأولى موضوعية ، تمثل الشخصية المنكرة ، المتأملة المحللة لما يدور داخل النفس ·· شخصية « تولستوى » نفسه أما الشخصيات التى كان يعالج تحليـــل مشاعرها فكانت مجرد نماذج من الناس عامة ·· مجرد صور للتفاعلات النفسية بين السبب والنتيجة خاليـــة من كل طابع · ومن الأمثلة على ذلك الضـــباط الذين صورهم فى قصص « سيباستوبول » ــ فى سنة ١٨٥٥ ــ والذين حلل فيهم عنصرى الخوف والشجاعة ·

وعاش (تولستوى) بعد زواجه فى « ياسنايا بوليـــانا » ، وكان يقضى شطرا من كل عام فى « موســـكو » وفى ضـــيعة له عبر مجرى « الفولجا » · وكانت حياته الزوجية سعيدة مثمرة محفوفة بالرخاء فقد ازداد دخله بفضل نجاح أعماله الزراعية وبيع كتبه وكانت زوجته وفية كرست حياتها له وللأبناء التسعة الذين أنجبتهم له ومن ثم هدأ الصراع الداخلى فى نفسه لسنوات عديدة ، تمثلت فلسفته خلالها فى : « على المرء ان يعيش لكى يحصل على مايمكن الحصول عليه لنفسه وأسرته » فلا يحاول

ان يتبع العقل وأن يكون أكثر عقلا وحكمة من الحياة والطبيعة وقد تحلت هذه الفلسفة ـ فى أكمل صورة ـ فى أولى رواياته الكبرى القليلة ·· فى « الحرب والسلام » ثم عاد بعدها ـ لفترة من الزمن ـ الى الكتابة فى الفلسفة التربوية كما قام بعدة محاولات فى ميدان الروايات التاريخية فكان مما كتبه رواية عن « بطرس الأكبر » لم يتمها اذ غشيه نفور طاغ نحو البطل الذى صاغه لها · وفى سنة ١٨٧٣ بدأ رواية « آنا كارنينا » التى ظهرت فى حلقات من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٨٧٧ وحوالى نهاية هذه الرواية بدأ يعانى الأزمة الطويلة الأمد التى أدت الى انقلابه وقد بدت نذرها واضحة فى الجزء الأخير من الرواية ·

وهاتان الروايتان هما أعظم تحفه الأدبية وهما تمثلان ـ الى حد ما ـ ذروة ما بلغه فن كتابة الرواية الواقعية الحديثة من تقدم ، بل ان الواقعية الأدبية تبلغ فيهما غايتها : دقة فى تصوير الواقعية الحية حتى ينتهى الى ان يولد فى نفس القارىء الشعور ـ الذى يعهده قراء تولستوى ـ بأن أبطال قصصه يمكن أن يدرجوا بين الآدميين المخلوقين من دم ولحم ، وليس بين الشخصيات الخيالية ويعزى الفضل الأكبر فى اعداده لهذا النصر الفائق الى مرانه ودراساته السابقة · ولكن « الحرب والسلام » تسجل تقدما فاق كل ما سبق فان المرء لايقتصر احساسه على الصور الخارجية للشخصيات التى لا حصر لها ـ التى ملأت مسرح القصة ـ وانما هو يرى داخلية نفوسها ، لا سيما الشخصيات النسوية ، وشخصية « ناتاشا » بالذات ·· وهى محور القصة ولبها والشخصية التى تجسمت فيها فلسفة القصة وجوهر الجنس البشرى المسير من تلقاء نفسه وفقا لحكمة الطبيعة كذلك لم يصور المؤلف نفسه فيها تصويرا غير مصقول ـ كما فعل فى قصصه السابقة ـ وانما تحول فى هذه الرواية الى شخصيتين لكل منهما طابعها وهدفها وهما شخصيتا : « الأمير أندريه » و « بيير » فالقصة بما زخرت به من شخصيات وبما مثلته من قطاع هائل من التاريخ الروسى والأوربى تعتبر قطعة حقيقية من الحياة نقلت ببراعة فنية وهى ذات طابع متفائل بدرجة ملحوظة ·· لا لأنها خلو تماما من أهوال الحياة وانما لأن هذه الأهوال تذلل فيها بفضل اله رحيم يسبغ خيره على العباد ويسيطر على تصرفاتهم ·

ولم تسجل « آنا كارنينا » أى تقدم فى فن المؤلف فوق ما بلغه فى « الحرب والسلام » وان كانت كل شخصية فيها تصل ـ فى حد ذاتها ـ الى مستوى شخصيات هذه ، بل لعلها تقدم مجموعة أكبر من الأشخاص المتباينين الذين يختلفون كل الاختلاف عن المؤلف والذين تتكشف بواطنهم وسرائرهم بجلاء ·

التولستوية .. الانقلاب الذى ألم بحياته !!

بدأ « تولستوى » يشعر حوالى سنة ١٨٧٦ بعدم ارتياح الى الحياة الرخية الخلو من التأمل التى كان يحياها وأخذت فكرة اقتراب موته تنمو وتتسلط عليه وتولاه شوق متأجج الى ارساء حياته على أسس دينية لم يلبث أن أصبح القوة المهيمنة عليه . وتحول ـ بادىء ذى بدء ـ نحو العقيدة الأرثوذكسية التى كان قومه يعتنقونها آملا فى ان يجد الخلاص فى دين جعل الملايين سعداء وهم فى غمرة الشقاء . ولكن تفكيره الأبى الذى كان يأبى أن يتقبل أى شىء دون تمحيص لم يستطع ان يتقبل طقوس الأرثوذكسية وتزمتها فنبذ الكنيسة واستخلص لنفسه تدريجا ـ من قراءاته الخاصة للأناجيل ـ عقيدة مسيحية نسجها على نول من صنع يديه ، وأقصى عنها كل الغيبيات وكانت المرحلة الحاسمة فى تحوله ـ كما روى ـ هى اللحظة التى تبين فيها ان رسالة المسيح بأكملها كانت تتمثل فى هذه الكلمات التى وردت فى « انجيل متى » ـ « لاتقاوموا الشر » (الاصحاح الخامس ـ ٣٩) . فصار هذا المبدأ ـ مبدأ عدم المقاومة ـ هو أساس المذهب الذى سرعان ما أصبح معروفا باسم « التولستوية » .

ولابد من ان نميز بين مرحلتين فى تحوله : الشعور الأول اللاذع بالقنوط والنفور من الحياة الجسدية الجائرة ثم الجهود التى راح تولستوى يبذلها ـ من جراء ذلك ـ لكى يصوغ هذه التجربة التصوفية الاعتزالية ـ فى جوهرها ـ الى مذهب منطقى متسلسل وقد روى « تولستوى » قصة تحوله كاملة فى كتاب « اعتراف » الذى كتبة سنة ١٨٧٩ ونقحه سنة ١٨٨٢ ونشر فى سنة ١٨٨٤ والذى اتسم بخيال تصويرى صادق وبلاغة هائلة يجعلانه فى مصاف « اعترافات » القديس أوغسطين . على ان مرحلة القنوط التى مهدت للتحول سجلت بأسلوب أعظم وأقوى فى كتيب وئد بمجرد نشره هو « مذكرات مجنون » (١٨٨٤) . كما تجد التجربة ذاتها فى صميم أعظم قصتين كتبهما فى شيخوخته وهما : « وفاة ايفان ايليتش » (١٨٨٤) و « الرب والانسان » (١٨٩٥) .

ولم يقدم « تولستوى » ـ فى البداية ـ على الترويج لعقيدته فلم تتخذ هذه العقيدة لونا اجتماعيا الا بعد أن تجلى له البؤس الاجتماعى فى الاحياء الشعبية الدنيا فى « موسكو » .

تعاليم تولستوى

وتقوم عقيدة « تولستوى » ـ كما عرضها فى « هذا ما أومن به » و « عرض سريع للأناجيل » ـ على الضوء الكامل فى الوجدان الانسانى والذى يكشف لنا الله بوصفه الخير والعقل الأسمى وان الله لايتمثل فى شخص ، فلا خلود للأشخاص وان المسيح كان انسانا عظيما ذا تعاليم صادقة .. لا لأنه كان ابن الله بل لأن هذه التعاليم تتمشى مع نور الوجدان البشرى وقد كان بوذا وغيره عظماء مثل المسيح فهو لا يحتكر الحقيقة والصدق .. ولقد كانت عقيدة « تولستوى » تتخذ الانسان محورا لها فالله ومملكة الله « فى داخلنا » أى فى نفوسنا .. وهدف الانسان هو ان يحقق السعادة الأمر الذى لايتسنى الا بفعل الصواب والخير وحب البشر أجمعين وتحرير النفس من شهوات الجشع واللذة والغضب .. وكل صور العنف أثم على السواء وليست الحرب وحدها بل كل أشكال الغضب الغريزية ـ فى الدولة ـ أساليب اجرامية فعلى المسيحى الصادق ان يحجم عن الاشتراك فيها فيرفض ان يجند ويأبى كل عمل تحت سلطان الدولة ولا يقبل أن يكون من المحلفين ومقاومة الحكومة بالعنف اثم كذلك ولا يمكن ان يؤدى الى أى تحسين فى الحياة فالنشاط الثورى ـ ولو قام على شعور الحب للمظلومين ـ اثم .. لأنه يولد البغضـــــاء والعنف ولن يتحسن النظام الاجتماعى الا اذا تعلم الناس جميعا أن يحب بعضهم بعضا . ومع ان تولستوى لا يقر الثورة الا أنه يؤثر عليها نظام الحكم الا بأقوى السخط وأشد مرارة والتملك ـ وكوسيلة لارضاء جشع الانسان ولذته وتعزيز احتكار انسان واحد للأشياء التى تمت للجميع ـ اثم فهو المصدر الأول للعنف وما اليه ولقد أقام الأغنياء صرح حضـــارة زائفـة فاسدة وخلقوا لأنفسهم قيما زائفة يجب التخلص منها ، ومع ان العبودية هدمت أخلاق الفقراء الا أنهم صانوا فطرتهم الطيبة فى حال تفوق كثيرا حال فطرة الأغنياء نقاء وطهرا ، لأن ثقافة هؤلاء الزائفة لم تفسد الفقراء ويجب ابداء الحب والشفقة لجميع الكائنات الحيـة والعزوف عن لحوم الحيوانات الذبيحة كما يجب الامتناع عن العقاقير والمواد المخدرة (لاسيما التبغ) التى خلقت الحضارة الفاسدة طلبا مصطنعا عليها والتى تفرض غشاوة على الوجدان الطبيعى للانسان .

ومن العسير ان يعتبر « تولستوى » مصلحا اجتماعيا لأنه لم يقدم مشروعا علميا لتحسين الأحوال الاجتماعية ـ اللهم الا بصدد علاج مسألة الأرض عن طريق الضرائب ـ وقد شمل استنكاره العنف المنظم الذى

انطوت عليه الديمقراطية الرأسمالية الغربية والنظام الاستبدادى الروسى .. على السواء .

ولم يكن الأثر المباشر لتعاليم تولستوى كبيرا فى روسيا بوجه عام. على أن أثر فلسفته كان عظيما وسرعان ما امتد الى الخارج حتى أصبح — فى السنوات الخمس عشرة أو العشرين الأخيرة من عمره — أعظم رجل يحظى بالتوقير والاجلال فى العالم وأقبل الناس من جميع أطراف الدنيا يحجون الى « ياسنايا بوليانا » . ومع أن الحكومة الروسية اعتبرت نشاطه معاديا لها — منذ البداية — الا انها لم تحاول قط ان تتخذ أى اجراء ضده . وان دفعت الظروف الى أن تنشر بعض مؤلفاته المسرفة فى معارضة الأرثوذكسية والمقذعة فى مهاجمة الأسرة القيصرية الحاكمة فى خارج روسيا على ان ما نشر فى روسيا كان كافيا للتعريف بتعاليمه تعريفا كاملا .

وفى سنة ١٩٠١ قضى عليه المجمع الكنسى الروسى بالحرمان من الكنيسة وهو قرار لم يكن له من قيمة أكثر من أنه عزز أمرا أعلنه تولستوى بنفسه قبل ذلك بسنوات حين نبذ الكنيسة . ومن ناحية أخرى تعرض كثير من أتباع تولستوى للسجن والنفى الى سيبريا لأنهم رفضوا ان يؤدوا الخدمة العسكرية .

وأدى هذا التحول الى تغير فى انتاجه الأدبى . ومع ان جودة مادته لم تتأثر الا ان نوعها هو الذى تغير كما تغيرت آراؤه فى الوظيفة الاجتماعية والخلقية للأدب مما تجلى فى « ما هو الفن ؟ » — الذى نشر فى سنة ١٨٩٦ — وهو أروع ما كتب فى هذا الموضوع فالفن — فى رأيه — وسيلة ينقل بها الفنان الى سواه ما يكون قد خبر من مشاعر فما لم يحقق النقل لم يكن هناك فن ولو اقتصر النقل على نفر ضئيل من الناس — ينتمون الى طبقة المؤلف أو عصره أو جنسيته — لكان فنا ناقصا واذا امتد أثر الفن الى الجنس البشرى عامة وكانت المشاعر المنقولة خبيثة فهو فن حقيقى ولكنه خبيث . اما اذا كانت المشاعر أرقى ما يمكن الوصول اليه — وهى المشاعر الدينية التى قوامها الحب والشفقة — فهذا أرقى أنواع الفن وهو الفن الدينى ولو طبقت هذه المقاييس لتضاءلت قيم الشطر الأكبر من الانتاج الأدبى والفن الحديث بما فى ذلك مؤلفات تولستوى السابقة .

كذلك رافق تحوله الدينى تغير فى ذوقة الأدبى فنبذ الاسهاب فى التفصيلات الواقعية . وكان قد كتب فى سنة ١٨٧٣ طائفة من القصص المجردة من كل ما لا لزوم له فى سياق الرواية وأخذ — ابتداء من سنة ١٨٨٤ — يكتب طائفة من القصص على النسق نفسه فكانت نماذج

رائعة لفن الرواية العف المسخر لخدمة فكرة موحدة متبلورة هى المسيحية كما كان يراها ، واستخدم الاسلوب ذاته على نطاق واسع فى : « الأب سرجيوس » و « البطاقة المزورة » و « حاجى مراد » ـ بين سنتى ١٨٩٦ و ١٩٠٤ ـ فكانت أحب مؤلفاته اليه فى شيخوخته وكانت نماذج للفن الطيب الذى يدعو الى روح الأخوة البشرية ولكن قصة « البعث » (التى نشرت فى ١٨٨٩ ـ ١٩٠٠) شذت عن ذلك اذ عاد فيها الى الاسهاب القديم فلم يرض عنها ولم ترق الى مصاف التحف الرائعة . وبوجه عام كان أهم مؤلفاته الخيالية فى أواخر عمره هى القصص المستمدة من تجاربه النفسية والروحية ـ « وفاة ايفان ايليتش » و « الرب والانسان » و « مذكرات مجنون » ـ وتلك التى ضمنها تجاربه فى ميدان الجنس مثل « أنشودة كرويتزر » (١٨٨٩) و « الشيطان » التى كتبها فى سنة ١٨٨٩ ونشرت سنة ١٩١١ .

أما المسرحيات التى كتبها « تولستوى » فترجع كلها الى ما قبل تحوله الدينى عدا مسرحية فكاهية كتبها فى سنة ١٨٦٣ ونشرت سنة ١٩٢٦ . ومن هذه المسرحيات : « سلطان الظلام » ـ وهى « دراما » قوية عن حياة الفلاح كتبها سنة ١٨٨٩ و « ثمار التنور » ـ وهى مسرحية فكاهية خفيفة لنقد تزوات المجتمع نشرت سنة ١٨٩١ . و « الجثة الحية » التى نشرت سنة ١٩١١ والتى تجلى فيها وهن الشيخوخة .

السنوات الأخيرة

ادى التحول الدينى بتولستوى الى انتهاج أسلوب جديد فى الحياة فاصبح يرتدى ما كان الفلاحون يرتدونه ، ويؤدى كثيرا من الأعمال اليدوية وتعلم صناعة الأغذية وعف عن اللحوم فاقتصر على الخضر فى غذائه وقد تجهمت زوجته وأولاده ـ عدا ابنته الصغرى « الكسندرا » لتعاليمه وابت زوجته عليه نبذه متاع الدنيا ، لأنها كانت ترى أن ثروته من حق أبنائه فنزل لها عن كل ثروته ـ بما فى ذلك حقوق تاليف ما كتب قبل سنة ١٨٨٠ . وكان من المتناقضات أن يعيش داعية الزهد وسط أسرة تستهجن آراءه ولكنها تحبه وبدأ الشقاق يدب بينه وبين زوجته حتى تحول الى نفور بعد مولد سادس أولادهما فازدادت الزوجة تطرفا على انفعالاتها ومشاحناتها وتحول البيت الى جحيم عانى فيه « تولستوى » الأمرين .

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٠ تسلل من البيت ـ تحت جنح الظلام ـ تصحبه ابنته « الكسندرا » دون أن تكون له غاية معينة وتداعت

صحته فى « استابوفو » فأرقدوه فى غرفة ناظر المحطة ثم مات فى ٨ نوفمبر فنقل الى « ياسنايا » حيث دفن بلا طقوس دينية ٠

● الرواية ●

فى أوائل سنة ١٨٦٠ انهمك الكونت « ليوتولستوى » فى جمع مادة لرواية يقدم فيها بعض ما كانوا من أحياء ممن اشتركوا فى مؤامرة ديسمبر سنة ١٨٢٥ ويصور علاقاتهم بالظروف المتغيرة فى روسيا عقب تبرؤ القيصر « اسكندر الثانى » الذى عرف بميوله المتحررة ــ عرش البلاد واعادته من ظل على قيد الحياة فى سيبريا من أولئك الثائرين ٠ وكتب « تولستوى » عدة فصول من الرواية وأجزاء من فصول أخرى ولكنه كان لا يلبث ان يرتد ــ بالرغم منه ــ الى الأسباب الأولية للمؤامرة ٠٠ الأسباب التى كانت ترجع الى عهد « نابليون » والقيصر « اسكندر الأول » ذى الأفكار المتقلبة ومن ثم طرح « تولستوى » جانبا مشروع الرواية التى كانت أحداثها تجرى فى عصره وانهمك فى وضع رواية تاريخية تصور العهد الذى ينتهى بغزو « نابليون » الأرض الروسية واحراق « موسكو » ــ بتدبير الكونت « فيودور ــ فاسيلييفيتش روستوبشين » ــ واضطرار الفرنسيين للانسحاب بعد ان كبدوا خسائر فادحة ٠

ووضع « تولستوى » نصب عينيه ثلاثة أهداف رئيسية :

أولها : أن يقدم صورا حية للأحداث الكبرى التى أدت الى سقوط نابليون سواء ما وقع منها فى روسيا أو ما وقع فى أوربا عامة ٠

وثانيها : أن يعرض نظرية القدر وتسلطه على الأعمال التى تصدر عن البشر ــ حتى العظماء منهم ــ وتبدو كأنها بمحض اختيارهم ٠

وثالثها : ان يعرض ويصور آراءه فى فلسفة الحياة ٠

وقضى « تولستوى » ست سنوات فى وضع قصته التى حشدها بالشخصيات حتى لقد تجاوز عدد الشخصيات ذات الأدوار البارزة فيها ٣٠ بينها امبراطوران وساسة وقادة كبار وسادة وسيدات من نجوم البلاط واقطاعيون من أصحاب الأراضى وأمراء ووجهاء ومن ذوى الألقاب الضخمة وجنود وفلاحون وقد تناول المؤلف كل شخصية فعالجها على حدة وهو يحرص فى تقديمها على أن تبدو جزءا لا يتجزأ من المجموع ٠ كذلك حرص فى الحوار ــ حتى أتفه الأحاديث ــ على ان يصوغه بحيث يضفى على القصة جوا من الواقعية ٠

ورواية الحرب والسلم من الطرف الأدبية الفذة التى لا يعرف لها نظير فى الآداب العالمية برمتها وهى فى رأى فريق من النقاد أعظم رواية أخرجت للناس وقد عدها بعض النقاد ملحمة نثرية تقف الى جانب الياذة هومر الشعرية · وقد وازن النقادة البريطانى ادوارد جارنت بين الياذة هومر ورواية الحرب والسلم ورأى ان الالياذة تفوقها فى الجمال والتركيز وان رواية الحرب والسلم ترجح الالياذة من ناحيـــة السعة والشمول وتعقد الاهتمامات الانسانية · وهى ان خلت من أمثال أشيل وهيكتور واليوسيس وأجا ممنون ففيها حشد من الرجال والنساء العاديين قد ابدع تولستوى فى تصوير ملامحهم وكشف دخائلهم واســـتبطان دوافعهـم النفسية ويستثنى جارنت شخصية القائد الروسى كوتوزوف فهو يراه يمثل البطولة الروسية القومية وتظهر فيه كل الصفات التى جعلت روسيا عظيمة فهو عنده من غير شك نظير لشخصيات هومر التى قدمها لنا فى الياذته ·

ورواية الحرب والســلم أهـم أعمـال تولستوى الأدبية وأكبرهـا حجما وأوسعها نطاقا وهى مقسمة الى ثلاثة أجزاء وهى على طول وكثرة صفحاتها وامتداد آفاقها قوية السرد متدفقة الاسلوب تشيع فى شـــتى نواحيها الحيوية الغامرة المكتسحة وتتجلى فيها عبقرية تولستوى الفنان فى أقوى صـورها ولا يدرك قارئها الملل أو الفتـور ، لأن فن تولســتوى الساحر يؤكد العلاقة بين القارىء والشخصيات البارزة فى الرواية وينمى الألفة بيننا وبينهم حتى نصبح شركاء لهم فى مسراتهم وأحزانهم ·

وقدرة تولستوى الخارقة فى استحضار المشاهد وتمثيل المواقف تجعل قراءة هذه الرواية جزءا من تجربة الانسان التى لا يعفى عليها النسيان فهى ليست رواية تقرأ كسائر الروايات وانما هى فترة يحياها الانسان فى عالمها الضخم وبين أشـــخاصها الكثيرين النابهين منهـــم والمغمورين ·

والعجيب من أمر هذه الرواية الطويلة بغير املال ان الانســان يأسف حينما ينتهى من قراءتهـــا ويشعر بأنه كان يـود ان تطول هذه المتعة فهى ليست من تلك الكتب التى يخيب أمل الانسان فيها ويأسف على الأيام التى أضاعها فى قراءتها ، انها مفخرة تولستوى بل هى مفخرة الأدب الروسى خاصة والأدب العالمى عامة ·

وقد حاول تولستوى فى هذه الرواية ان يصور عصرا من العصور الحافلة بالأحداث الجليلة من جميع نواحيه وكانت حوادث هذا العصر مثيرة للعواطف والأهواء والخواطر والأفـكار وموضـــوعها ذلك الصراع الرهيب بين الأمة الروسية ومطامع نابليون الذى رام أن يفرض سلطانه

على أوروبا جميعها ويهزم جيش القيصر الاسكندر الأول ويستذل كبرياءه ويخضع روسيا لسلطانه كما خضعت له المانيا والنمسا واسبانيا وايطاليا .

وتنتهي حوادث هذه الرواية التاريخية بانسحاب نابليون من موسكو بعد غزوه المشئوم لروسيا . وهي تصور لنا مأساة هذا الانسحاب وفظائعه وقسوته تصويرا ينفرنا من الحرب وأهوالها وما بها من غدر وخسة وحشية . وهو يحدثنا في ذلك حديث العارف الواثق المجرب الصريح الذى لا ينافق ولا يضلل ولا يخفي الحقائق ولا يسمى الأشياء بغير أسمائها ، وهو يرينا تلك الحوادث الجليلة خلال تأثيرها على عقول الأشخاص الذين اشتركوا فيها وكانوا آلاتها المسخرة وان كان بعض البارزين من هؤلاء الأشخاص عبثت بهم الأوهام وخيلت لهم كواذب الظنون أنهم مالكو ناصية الحوادث ومسيرو حركة الأقدار !!

بحوث فلسفية في الرواية

وتتخلل سياق الرواية بحوث فلسفية تحليلية تؤلف فيما بينها رسالة كاملة استخلصت من الرواية وترجمت ونشرت بالفرنسية والانجليزية وقد ظهرت الترجمة الانجليزية بعنوان « نابليون والحملة الفرنسية » وهدفها الرئيسى هو محاولة اثبات ان كبار القادة والزعماء ـ كنابليون واسكندر الأول ـ ليسوا العوامل الرئيسية في الحركات الكبرى للجنس البشرى كما كانوا يعتقدون في أنفسهم وكما اعتبرهم المؤرخون كأمر مسلم به وانما هم أشبه ببيادق الشطرنج : تحركها قوة عليا ـ أسماها تولستوى « الحظ » أو « القدر » ـ على رقعة شاسعة هي عالمنا هذا . ويمضى « تولستوى » في محاولته الى حد الزعم بأن أخطاء هؤلاء الزعماء وزلاتهم لم تكن سوى حلقات مهمة في سلسلة الظروف التي أدت بهم الى انتصاراتهم ونجاحهم . فان التصرفات التي ربما بدت ـ من وجهة نظر الادراك العادى ـ من أشنع الأخطاء كانت تتحول الى ما فيه نفعهم في حين ان الأغراض السامية والميزات الجديرة بالاعجاب كانت تتحول الى أدوات للنحس وسوء الطالع . فكم من استعدادات جبارة انتهت الى غير طائل وكم من ظروف تافهة عارضة أدت الى نتائج هائلة ! . ومن ثم نجد أن « تولستوى » كان يحمل الأحداث البسيطة والأحاديث العابرة معانى عميقة تجعلها أشبه بشظايا الخشب الطافية على سطح نهر هادىء عريض فهي تبين للعين اتجاه التيار .

كذلك كانت خاتمة الرواية بحثا آخر نشر على حدة تحت عنوان « السلطان والحرية » عرض فيه « تولستوى » آراءه عن حرية الارادة .

من شخصيات الرواية

وهناك ثلاث شخصيات بالذات ـ من بين شخصيات الرواية ـ تبين بوضـــوح تام التطور الذهني والديني للمؤلف نفسه : الأمير « اندريى بولكونســـكى » والكونت « نيكولاى روســـتوف » و « بيزوخوف » وهم أعضاء من أسرات كان « تولستوى » من سلالتها وان حرفت أسماؤهما قليلا . كما أن حياتهم تكاد تطابق العادات والتقاليد والأنباء التى تناهت اليه بالوراثة والنشأة وان أدخل عليها بعض التعديلات بما دسه خلالها من تجاربه فى بيئات مشابهة ـ بعض الشىء ـ سواء فى الخارج ، أو فى موسكو أو بيتروجراد ، أو فى الجيش ، وفى نواحى نشاطه فى الريف وقد اندمجت هذه الشخصيات الثلاث فى غمار الحروب النابليونية فاذا تصرفاتها الفردية تجعلهـــا تقارن بالشخصيات التاريخية الحقيقية التى تظهر وتختفى تباعا فى سياق الأحداث : نابليون ، الكسندر ، الجنرال كوتوزوف ، الأمير آدام كزارتوريسكى ، سبيرانسكى ، الجنرال بنجيسن ، والكونتس بوتوكا ، وكثير من مشاهير وشهيرات ذلك العهد ، أما شخصية « بلاتون كاراتايف » فتمثل الآراء الدينية التى اتخذها « تولستوى » ـ فيما بعد ـ مبادىء يسترشد بها فى حياته والتى بلغت ذروتها حين نبذ ثروته ولقبه وبيته وأسرته ، وكل ما يعتز به من يكون فى مكانته عادة .

وتتتابع فى القصة ألوان متباينة من المناظر الحافلة : قصور وضياع ودور ريفية ومعسكرات ومعارك وحفلات سباق الخيل وحفلات راقصة مشاجرات ومبارزات وغزل وعشاق يهربون بعشيقاتهم وخطب وزيجات .. وصور حية واقعية لميلاد أشخاص ووفاة آخرين وللاسراف فى الشراب والمقامرة لحفلات أهل الريف وشغب العمال ، وللمجالس والمؤتمـــرات ولحالات من اللهو والعربدة أثناء حرائق « موســـكو » ولفظائع الغزو الفرنسى وللصيد وللحصاد .. كلها مصورة بريشة أسبغت عليها من الواقعية ، مما يجعلها تبدو كأنها منقولة عن الحياة الحقيقية اذ مزج المؤلف الخيال بالتاريخ مزجا تاما .. ونخلص من هذا كله الى ان القصة ليست قصة فرد أو أفراد وانما هى قصة دنيا بأكملها وتنبض بالحياة فى عصر زاخر بالأحداث حافل بالجلال ..

والحرب والسلام ـ كرواية لا تخلو من أخطاء جسيمة ولكن ميزاتها العظيمة الرائعة تطغى على تلك الأخطاء وترتفع القصـــة الى ذروة الأدب

العالمى بأسره لا الروسى فحسب وهى تشغل أكثر من ٢٠٠٠ صفحة تضم ما لايقل عن ٦٥٠ر٠٠٠ كلمة وقد ظهرت بين عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٩ مسلسلة فى كبرى المجلات الأدبية الروسية فقوبلت باعجاب عظيم حتى اذا نشرت ـ فى ستة مجلدات ـ توالت الطبعات ٠

وصدرت الطبعة السادسة سنة ١٨٨٦ وترجمت فى السنة ذاتها الى الانجليزية نقلا عن ترجمة فرنسية وفى سنة ١٨٩٨ ترجمت الى الانجليزية عن الروسية مباشرة ومنذ ذلك الحين ترجمت الى معظم لغات العالم كما اقتبست للسينما ٠

ويقول سومرست موم : « أعتقد ان بلزاك هو أعظم روائى عرفه العالم على الاطلاق ولكنى أعتقد أن رواية « الحرب والسلام » لتولستوى هى أعظم رواية فلم يسبق ان كتبت (وأغلب الظن ان هذا لن يتكرر) رواية تضارعها فى الفخامة وتعالج مثل هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ ، وتتناول هذه المجموعة الكبيرة من الشخصيات ولقد قيل عنها بحق انها ملحمة ولا أستطيع أن أجد عملا روائيا آخر يمكن أن نصفه هكذا ونكون محقين فى وصفنا » ٠

وقد عبر ستراخوف صديق تولستوى والناقد القدير عن رأيه فى عبارات قليلة وقوية اذ قال : « انها صورة كاملة للحياة الانسانية وصورة كاملة لروسيا فى ذات اليوم وصورة كاملة لما يمكن ان يسمى تاريخ الشعوب ونضالها صورة كاملة لكل شىء يجد فيه الناس سعادتهم ومجدهم ، حزنهم وهوانهم ، تلكم هى رواية « الحرب والسلام » ٠

تحرير المرأة

قاسم أمين

١٨٩٤ م

كان الشيخ الرئيس ابن سينا حكيما حين سأل الله ان يهبه حياة عريضة لا طويلة . وقد تحقق له أمله اذ مات قبل بلوغ الستين . ولكن كان نبوغة مبكرا فامتلأت حياته بكثير من الأعمال الكبار في عالم الطب وعالم الفلسفة كما جرب من متع الدنيا وانكادها ما يكفي لملء اضعاف عمره . فكأنه عاش عدد أعمار في عمر واحد وهكذا تكون البـــركة في الأعمار بعمق التجارب الحيوية وتنوعها ثم بآثارها في اصلاح الانسانية أو زيادة ثروتها الأدبية والحضارية .

وقد كان لنابغتنا قاسم أمين وكثير من اخوانه النوابغ — لاسيما المبكرون في النبوغ — مثل هذا الحظ في الحياة فهو لم يعمر أكثر من خمس وأربعين سنة (١٨٦٣ — ١٩٠٨) ولكنه نبغ مبكرا وكان رجل نظر كما كان رجـــل عمل فحفلت سنواته بكثير من الخدمات الجليلة التي أفادت منها أمته وستبقى لها فوائدها طالما وعتها كما أرادها ووضح طريقها وغايتها في حدود الكرامة الانسانية لا كما أرادها الآخرون من دعاتهـــا وأدعيائها .

محور نشـــاطه

ولم يقتصر نشاط قاسم فكرا وعملا على مجال واحد ، بل شمل عدة مجالات ولكننا مهما نمض معه في أنشطته خلالها حتى تبلغ أوسع مداها — نجدها تدور حول محور واحد هو « التربية » .

ومن المجالات التي أسهم قاسم في اصلاحها القضاء والتشريع ومنها الاجتماع والاقتصاد ومنها الأدب والفن والنقد ومنها أعمال البر والاحسان العامة . ولكن اسمه لم يشتهر بيننا الا مرتبطا بدعوته الى تحرير المرأة كما لم تشتهر هذه الدعوة الا مرتبطة به ، وان كان فضل قاسم أعظم من ان ينحصر في هذه الدعوة وحدها فشهرته بها وان نشرت بعض فضله — قد جارت على بعضه الآخر فبقي مستورا أو مجهولا وهكذا كل شهرة حين تبدى من الفضل بعضه لا كله .

الطريق .. والعقبات !!

ولد قاسم أمين في أول ديسمبر ١٨٦٣ بطره . وكان أبوه أميرالاى في الجيش المصري قيل انه من أصل كردي ، الا أن بعضهم يؤكد انه تركي .

دخل قاسم المدرسة الابتدائية بالاسكندرية ولما أتم دراسته فيها التحق بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة ثم انتقل منها – بعد ان نال شهادتها – الى مدرسة الحقوق والادارة حيث تخرج فيها سنة ١٨٨١ ولما كان من الطلبة المتفوقين فقد أرسل فى بعثة الى كلية الحقوق فى « مونبلييه » بفرنسا فقضى فيها أربع سنوات عاد بعدها الى مصر حيث عين مساعدا للنيابة المختلطة سنة ١٨٨٥ . ثم انتقل منها الى قلم قضايا الحكومة فى سنة ١٨٨٧ ثم رقى رئيسا لنيابة بنى سويف سنة ١٨٨٩ ، ثم انتقل منها الى طنطا ، ثم عين فى سنة ١٨٩١ نائب قاض بمحكمة الاستئناف ثم رقى بعد ذلك الى درجة مستشار فى المحكمة نفسها ولم يكن قد جاوز الحادية والثلاثين من عمره !

كانت حياة هذا المصلح سلسلة كفاح ، فهو دائب العمل والنشاط لا يستريح لحظة واحدة ، بيد أن حياة هذا شأنا لابد أن تنطفىء شعلتها قبل الأوان فقد توفى قاسم أمين وهو فى الخامسة والأربعين من عمره .

وانتهز بعض عارفى فضل هذا المصلح الجرىء مرور أربعين يوما على وفاته فأقاموا له حفلة تأبين اعترافا بما له من جهود فى ميادين القضاء والعلم والاجتماع وأنشد حافظ ابراهيم مرثية رائعة جاء فيها :

ان ريت رأيا فى الحجاب ولم تعصم فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعه فيما رأيت فنم ولاتستسل
وكذا طهاة الرأى تتركه للدهر ينضجه هونا على مهل

وقال خليل مطران فى قصيدته :

مضيت وفى النعش منك الخطيب ينادى على الملأ الواجم :
أنيروا أنيروا ! فان الظلام حليف المظالم والظالم
أنيروا أنيروا ! فان الضياء سلاح على اللص والآثم
أنيروا العقول ولا تتركوا على الفكر من أثر قاتم

ولم يبرز قاسم أمين فى الحياة العامة حين أرسل فى بعثة الى فرنسا ولا حين عاد منها ليعين فى وظائف النيابة والقضاء ، ولكنه ظهر ولمع نجمه حين خاض ميدان الاصلاح الاجتماعى بما عرف عنه من جرأة وحب لبنى وطنه . ويبدو لنا انه لولا الكتاب الذى ألفه الدوق داركور عن « مصر والمصريين »سنة ١٨٩٣ والذى ملأه طعنا وذما وتجريحا لعادات

المصريين وتقاليدهم لما عكف قاسم على دراسة مجتمعنا والأسس التى يقوم عليها دراسة وافية ليرد على الدوق فى كتاب باللغة الفرنسية أسماه « المصريون : رد على الدوق داركور » . وقد دافع قاسم فى هذا الكتاب عن بنى وطنه وهاجم الأوربيين والحرية التى منحوها لنسائهم ، الا أن هذه الدراسة التى قام بها قاسم أمين أوصلته الى حقائق لم يكن يدركها من قبل . لقد أدرك أن المجتمع الذى يعيش فيه فى حاجة الى اصلاح وأن هذا الاصلاح يجب ان يبدأ بالأسرة ، ولكن كيف تصلح الأسرة والمرأة التى هى عمادها حبيسة دارها حبيسة الجهل المطبق ؟ يجب اذن أن تعطى الحرية وان يلغى هذا الحجاب الذى يحول بينها وبين نور العلم .

عاد قاسم أمين بعقله لا بوجدانه الى المجتمع الأوربى الذى عاش فيه أربع سنين وقارن بينه وبين المجتمع المصرى فألفى البون شاسعا والطريق مليئا بالعقبات . فبدأ يكتب فى « المؤيد » مقالات فى الاصلاح الاجتماعى بعنوان « أسباب ونتائج » و « حكم ومواعظ » كشف فيها عن علل مجتمعنا المصرى . ثم لم يلبث أن ألف كتابه « تحرير المرأة » الذى ذكر فيه الأسباب التى دعت الى تأخر المرأة وندت بالحجاب وتعدد الزوجات والطلاب ، وطالب بتعليم الفتاة لتستعين بالعلم على طلب رزقها ان هى فقدت عائلها ، وهو يرى ان الفتاة الجاهلة تضطر الى التسول أو الى بيع شرفها ان هى لم تجد من يعولها .

ويخطىء من يعتقد أن قاسما كان يريد اصلاحا سريعا ، أو كان يرغب فى ثورة جامحة تقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وآية ذلك ما قاله فى تحرير المرأة : « انى لست ممن يطمع فى تحقيق وجه الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحققه وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية وكل تغيير يحدث فى أمة من الأمم وتبدو ثمرته في أصولها فهو ليس بالأمر البسيط .

وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئا فشيئا ، ثم تسرى من الأفراد الى مجموع الأمة فيظهر التعبير فى حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة .. أليس هذا الذى حدث فعلا فى مصر ؟ » .

وطبيعى ان يهاجم الرجعيون قاسم أمين لآرائه الجريئة ، فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وقال آخرون انه يرمى بأفكاره الهدامة الى قلب المجتمع المصرى وذهب بعض الجهلاء الى اشاعة انه يتواطأ بأفكاره مع الانجليز ليقضى على البلاد قضاء لا رجعة فيه ..

والغريب ان محمد طلعت حرب كان من أبرز معارضيه فقد ألف كتابا دعاه « تربية المرأة والحجاب » قال فيه إن المرأة أقل من الرجل ادراك

وحسا وان الحجاب أصل من أصول الأدب فيلزم التمسك به وان الأصل فى المرأة احتجابها وعدم ابتذالها · وكتب محمد فريد وجدى فى صحيفة « المؤيد » عدة مقالات دعا فيهـــا الى الابقاء على الحجـاب وأثبت ان المرأة أضعف من الرجل وأن طلب المساواة بين الجنسين فى جميع الحقوق عبث محض وخاض أمير القوافى أحمد شوقى معركة السفور والحجاب بلاميته التى مطلعها :

صـــــداح يا ملك الكنـا ر وبأمـــير البلبـــل

التى قال فيها :

يا طـــير ! والأمثـــال تضـ ـــرب للبيب الأمثـــل
دنيـــاك من غاداتهـــا ألا تـــكون لأغـــزل
خلقت لحـــر يبتـــلى فى ذى الحيـــاة ويبتـــلى
مستأســـــد كالليث ان يجهـــل عليـه يجهـــل

الى أن قال :

ان طـــرت عـن كنفى وقعـ ـت على النســـور الجهل
حـــرصى عليك هـــوى ومن يحـــرر يمينـا يبحل

وانضم الى معسكر قاسـم أمين ابراهيـــم رمزى رئيس تحرير « الجريدة » فأصدر مجلة أسماها « المرأة فى الاسلام » وقفها على الدفاع عن تحرير المرأة وظلت تلك المجلة تصدر سنة ثم احتجبت وكانت مجلة المقتطف من بين الصحف التى أيدت تصير المرأة وكانت تحض « كل من يغار على وطنه » على قراءة كتاب « تحرير المرأة » وبث ما جاء فيه بين الجمهور ، وخاضت الصحف الأجنبية المعركة التى دارت بين أنصار المرأة وخصومها وانضمت جريدة « الفار دالكساندر » الى الفريق الأول وطالبت برفع الحجاب واختلاط النساء بالرجال وتضييق دائرة الطلاق ·

غير ان شدة هجوم الرجعيين على قاسم لم تثنه من عزمه فى مواصلة الكفاح لتحرير المرأة وها هو ذا يطلع على بنى وطنه بكتاب ثان أطلق عليه « المرأة الجديدة » وأهداه الى سعد زغلول ويعد هذا الكتاب فى الواقع تكملة للأول ولو أنه يفوقه فى قوة الحجة خاصة حينما يبحث فى

التربية والحجاب . ومع ان قاسما لم يطالب بالمساواة بين المرأة والرجل في السياسة الا اننا نرى في الجملة التالية تمهيدا لهذه المطالبـــة فقد قال : « ان عقلا لا يقبل ان تعتبر المرأة انسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت ثم تعتبر ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شئون الحياة العادية » .

ويكتب الزعيم مصطفى كامل في عدد مجلة اللواء الصادر في ١٥ من فبراير ١٩٠١ م معلقا على ظهور « المرأة الجديدة » بأسلوب هادىء رصين مبديا عدم موافقته على اعطاء المرأة الحرية المطلقة . ولو انه يتفق مع صاحب الكتاب في الشكوى من « عدم تربية نسائنا تربية سليمة نافعة » ويوافق « كل رجال الأمة على ان التعليم واجب للنساء والتهذيب محتم عليهن أسوة بالرجال » ولكنه لايؤيد « أصحاب مذهب اطلاق حرية المرأة في مسألة رفع الحجاب ولعلهم يريدون ـ كما يعتقد الكثيرون ـ ان تنال المصرية الحالية ما يبتغونه لها من حرية مطلقة ويرمون بمبدئهم الجديد الى مستقبل الأيام ولكن الحكم على نشأة المستقبل لا محل ولا معنى له الآن . فانما يسير أبناؤنا وأحفادنا في السبيل الذي يرونه موافقا لدرجة تعليمهم وتمدنهم والواجب علينا ان نبحث في اصلاح حالتنا الآن وتمهيد السعادة للأعقاب الآتية .. » . فوجـــه الخلاف بين مصطفى كامـل وقاسم أمين هو في اختيار الوقت الذي تعالج فيه هذه المشكلة فالأول يرى تركها لمستقبل الأيام في حين يرى الثاني ان يبدأ في حلها حالا .

ولم تقتصر جهود هذا المصلح الاجتماعي على رفع مستوى المرأة ، بل تعدته الى النواحي الانسانية والثقافية فقد أسس « الجمعية الخيرية الاسلامية » واشترك في تاسيس « الجامعة المصرية » سنة ١٩٠٦ لأنه لمس « ان التعليم الموجود الآن لايصلح الا لاعداد الموظفين أو أصحاب فن يحترفون به للقيام بحاجات الحياة التي لا يستغنى عنها » وهو يطمح في ان « يرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشـــوقا الى اكتشاف المجهول فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم » .

ويستطرد قائلا : « ... اذا نظرنا الى طائفة المتعلمين في مصر وهم متخرجو المدارس العالية نجد أنهم يعملون على مبدأ اكسب كثيرا واتعب قليلا ... » . ويرى ان ذلك العيب منشؤه « التربية المنزلية التي غفلت عن تربية احساسنا وأهملت تربيـــة قلوبنـــا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم الا بالنتائج في جميع أمورنا .. وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا من هذه الجهة تغيرا محسوسا الا اذا تم اصلاح العائلة المصرية » .

فقاسم أمين أول من وصل الى بيت الداء ونادى بالاصلاح ، الاصلاح الذي يتعمق حتى يصل الى الجذور لتنمو الشجرة وتزدهـــر على أرض

متينة من الأخلاق لقد أدرك ـ وأدرك وحده ـ ان كل اصلاح يبدأ بغير المرأة انما هو اصلاح فاشل ومجهود ضائع · ولم يلبث أن أدرك المصريون صدق شعوره وها هى ذى المرأة تعمل الى جانب الرجل فى بناء صرح الوطن الجديد ·

وتوفى قاسم أمين فى الحادى والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٠٨م·

تهيئة الأفكار للاصلاح ··

عندما اختمرت فكرة « تحرير المرأة » فى ذهن قاسم عرض على صديقه أحمد شفيق ان يشاطره العمل فى تأليف الكتـــاب فاعتذر بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول هذه الدعوة · وزاد اعتذار الصديق من حماســـة قاسم أمين فلو انتظر المصلحون دائما رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه فى العصور البدائية ·

انه يستطيع أن يمضى وحده ليهيىء الأفكار للاصلاح الاجتماعى ، اصلاح نصف المجتمع يستطيع ان يمضى دون أن يخشى طعنة من رجال الدين فى اسلامه فمحمد عبده أستاذه مفتى الديار المصرية ، فليمض اذن فيما اعتزمه وهو لن يكون أول داعية الى تحرير المرأة من الجهل فأمامه نخبة من المصلحين · فهناك رفاعة الطهطاوى فى كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » الذى تحدث فيه عن تعليم الفتاة « فان هذا ما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من ســـخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها » وهنـــاك الشيخ محمد عبده الذى كان يرى ان من محاسن الاسلام مساواة المرأة بالرجل فى الأمور الجوهرية · أما تعدد الزوجات فان الاسلام لم يجزه الا لضرورات اجتماعية ولذلك ينبغى اصـــلاح الحياة الاجتماعية فيما يمس حياة المرأة ·

وتناول الموضـــوع أحمد فارس الشدياق فى كتابه « الساق على الساق » · كما تناوله عبد الله النديم فى صفحات الأستاذ ، وعلى مبارك فى الجزء الثانى من كتابه « طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية » وكلهم تحدثوا عن وضع المرأة وحقها فى التعلم ولكن أحدا منهم لم يتناول سجن المرأة وحجابها ورأى الدين في الحجاب الشرعى ·

ويعود فيذكر يوم رأى فى شارع الدواوين « امرأة تمشى وأمامهـــا خادم ، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة ممتلئة الجسم عمرها بين العشرين والثلاثين فى وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاما . الجزء الأسفل بارز عند الارداف ومرسوم تحت الملاءة باعتدال جميل والقسم الأعلى غـــير مستور وانما الملاءة مشبوكة فى رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها الى المرفقين وعلى وجهها قطعة من الموسلين الرقيق ، أقل عرضا من الوجه تحجب فاهها وذقنها حجابا لطيفا وشفافا ، كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر الى منتصف الرأس مكشوفة . كانت تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المسرح وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام وبالاجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم » .

أهذه المرأة المحجبة التى يحتج بعفتها المحافظون ؟ . انه يذكر أيضا يوم أن رد على الذوق الفرنسى وعرض بالسفور وظنت الأميرة نازلى فاضل انه يعرض بها فاحتال سعد زغلول حتى جمعه بها فى مجلسها ورآهـــا سافرة تناقش محمد عبده وعلى يوسف وعبد الكريم سلمان والمويلحى وغيرهم مناقشة عميقة مهذبة .

انه يذكر ذلك ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلده مثلهـــا أو مثل زميلته الفرنسية ، يتمنى ان تخرج المرأة المصرية من قوقعتها الى الحياة الطليقة تستنشق نسيم المعرفة وتخبر الدنيا وتناقش الرجل وتتمسك بدينها . وهذا هو الذى دفعه الى ان يعيد النظر فى رأيه السابق عندما رد على الذوق وان يرجع الى الشريعة السمحاء يدرس نصوصـــــها . وغاية مايريد ان يلفت المجتمع الى ما وصل اليه لا ان يحقق كل مايريد « لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية » .

وهو يعلم أن الناس لن تتقبل آراءه ببساطة ، ولكنه لا يرجع عما يعتقد انه الحق ، ولذلك يبدأ الصفحات الأولى من تحرير المرأة قائلا : « سيقول قوم ان ما أنشره اليوم بدعة فأقول نعم أتيت ببدعة ولكنها ليست فى الاسلام بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها » .

ويرى قاسم المسلمين منتشرين فى أطراف الأرض فهل هم أنفسهم متحدون فى عاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم ؟ أليست الحقيقة فى ان لكل أمة فى كل فترة من الزمن آدابا خاصة بها ترتبط بمدى تقدمها العقلى والاجتماعى ؟ ان بقية الحقيقة ان هناك تلازما بين انحطاط المرأة

وانحطاط الأمة . ان الغربى الذى يحب أن ينسب كل شىء الى دينه ما دام راقيا يعتقد أن المرأة الغربية قد ترقت لأن دينها قد ساعدها على نيل حريتها . والواقع ان الاسلام قد سبق كل الشرائع فى تقرير مساواة المرأة للرجل فأعلن حريتها واعتبر لها كفاءة شرعية يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند كل الأمم .

لماذا اذن هوت المرأة الى هذه المنزلة السيئة ؟ لا دخل للاسلام فى ذلك ولكنها عادات ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الاسلام ، فلم تبدل تقاليدها بعد ان أسلمت ، ثم كانت الحكومات الاستبدادية سببا فى استمرار تلك التقاليد القاسية : فالحاكم يستبد بالمحكوم والرجل يستبد بالمرأة ودائرة الاستبداد تحيط المجتمع كله وتفسد كل جانب فيه ، وهكذا حالة المرأة وبقى حال الرجل معها حتى الآن : « له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » .

وبعد هذا التمهيد الذى عرض فيه لحالة المرأة السيئة وحاول أن يتتبع الجذور التاريخية لتلك المنزلة وينبه الى براءة الاسلام منها . بدأ يرد على سؤال كان يتردد على صفحات الجرائد فى ذلك الوقت عن « الرجل والمرأة وهل يتساويان » مع وضوح قوته الجسدية والعقلية ؟ فيرى قاسم ان الرجل اذا فاق المرأة فى القوة البدنية والعقلية فذلك انما يرجع الى ان الرجل قد مارس الأعمال العضلية والعقلية فقويت بنيته ونما عقله بدوام الممارسة ، فى الوقت الذى كانت فيه المرأة تكاد تكون محرومة من استعمال القوتين . والى الآن لايزال كثير من الناس يتساءلون : هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعا ؟ ثم يعلق على ذلك السؤال بأن لا شىء يمنع المرأة المصرية من الاشتغال بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والصناعة مثل المرأة الغربية الا جهلها واهمال تربيتها .

ولكن البيئة مختلفة هنا والعقول غير مهيأة كما قال له صديقه أحمد شفيق فيتواضع فى مطالبه حتى تتهيأ تلك العقول بفعل التطور لقبول المزيد « فيجب أن تتعلم كل ما ينبغى أن يتعلم الرجل من التعليم الابتدائى على الأقل حتى يكون لها المام بمبادىء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت » .

ولم يدع قاسم الى خروج المرأة لميدان العمل الا فى حالات الضرورة كان يتوفى زوجها ، أو يكون فقيرا محتاجا الى مساعدة أو لم تتزوج اطلاقا وليس لها أقارب مستعدون لمعاونتها فلا بد لها اذن من التعلم لتتمكن من العمل فى وظيفة شريفة بدلا من الانزلاق الى هاوية الرذيلة . ولكن الدعوة

الى العمل رغم الشروط التى وضعها كانت غريبة على مجتمع شديد المحافظة ولم يكن من الممكن ان تجتذب أنصارا عديدين فى وقت سريع ·

وتستبد به مشاعره وكل حماسته حين يتصور المرأة زوجة وأما فيقول : « نرى نساءنا يمدحن رجالا لا يقبل رجل شريف ان يمد يده ليصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفا لنا ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مالا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الاشتغال فى مكتبه » ·

أهذه هى صورة الزوجة عندنا ، انها صورة مشوهة معكوسة للمرأة التى يتمناها الرجل المثقف الباحث عن السعادة ·

ولا سبيل الى سعادة الأمة اذا لم يسعد الزوج فى بيته ولم تسعد الزوجة مع زوجها ولم يسعد الأبناء فى بيئة صالحة · والوراثة والتربية هما الأصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الأطفال ، جيل المستقبل الذى نبنى عليه آمالنا الوطنية ·

والطفل لا يعيش فى الفترة الأولى من حياته التى يكون فيها عقله ونفسه أشبه بصحيفة بيضاء قابلة لكل ما ينقش فيها سواء أكان خيرا أم شرا ــ الا بين النساء · ومن جهل الأم ان تترك طفلها مشردا فى الطرقات يتمرغ فى الأتربة تمرغ صغار الحيوانات وأن تملأ قلبه فزعا بالجن والشياطين ، وأن لا تعرف من وسائل صيانته سوى تعليق التعاويذ والطواف حول القبور والتمسح بالأضرحة ·

اننا نجد فى هدى نبينا ما ينبغى ان نقتدى به حين قال فى شأن عائشة : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت ولذا ، ينبغى أن نبدأ بتربية المرأة تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الأجنبى كل يوم وترتد كلها الى اهمالنا تربية المرأة ·

ولكن ما بال أكثر الرجال يعارضون تعليمها وتثقيفها فى الوقت الذى يشكون فيه مر الشكوى من جهالتها ؟ لقد رسخ فى أذهانهم ان تعليمها وعفتها لايجتمعان وقال بعضهم فى ذلك حكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على ان تعليم المرأة يزيدها براعة فى الاحتيال ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به على تنفيذ شهواتها ·

الواقع ان البطالة التى ألفتها النساء عندنا وصارت طابع حياتهن هى أم الرذائل والتعليم يرفع من قدر المرأة ويرد اليها احساسها بشخصيتها وكيانها ويسمح لها أن تفكر وتتبصر فى أعمالها والمرأة

المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاه الجاهلة ويكون لهـــا من كرامتها ما يصونها عن الدنس ٠

« والمعول فى كل ذلك على الأخـلاق التى نشأت عليهـــا المرأة فى تربيتها الابتدائية ٠ فان اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية ، وتربت بين أهل وعشـــيرة رأت فيهم أســوة انجد والاستقامة ، وغاب من بينهم كل ما يؤثر فى مشاعرها أثرا غير صالح أو يهيج حسها الى أمر غير لائق وتعودت على ان تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية كان من النادر ان تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات التى لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم بالجملة فانا نرى ان تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل ٠ بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه وأرى ان من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصـــيرهما ان يترديا فى أول حفـــرة تصادفهما فى الطريق » ٠

الى هنا كان قاسم يعرض لموضوع تربية المرأة وتعليمها عرضـــا منطقيا يسوق فيه الأدلة العقلية ولكنه حين ينتقل للموضوع الثانى الخاص بحجاب المرأة سنرى أثر قراءاته الدينية ، لأنه موضوع قد عرض له من قبل القرآن الكريم والحديث الشريف وهو يمس جوهر الحياة الاجتماعية الاسلامية ثم ان قاسما قد أيد الحجاب من قبل حين رد على الدوق الفرنسى فلا ينبغى حين يدعو الى السفور اليوم ان يكون متناقضنا مع نفسه ولكن هل دعا قاسم حقيقة الى السفور ؟ ٠

لنستمع اليه يقول : « اننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بها ٠ غير انى أطلب ان يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية » هذا هو لب رأيه فى مســـألة الحجاب فالغربيون قد غالوا فى السفور الى درجة يصعب معها ان تتصون المرأة ، ونحن غالينا فى الحجاب حتى صيرنا المرأة متاعا من المقتنيات وحرمناها نعمة الحياة الحقة ٠ وبين هذين النقيضين درجة تسمو عليهما هى درجة الحجاب الذى حدده الاسلام ٠

ونخلص من كل ذلك الى ان قاسم أمين لم يدع الى السفور بالصورة التى تخيلها الناس وانما دعا الى الحجاب الشرعى ودعا الى تربية المرأة وتحميلها مسئولية جيل جديد يطمح الى نهضة قومية شاملة ٠ ومن الواضح انه قد أعاد التفكير فى قول الدوق الفرنسى ورأى ان هجومه وان يكن مليئا بالمفتريات ، فقد كان فيه بعض الحق على أنه ينبغى أن نذكر دائما ان قاسم أمين كان ساخطا على مظاهر التهتك فاذا رأينا الآن بعض تلك المظاهر تروح وتغدو أمامنا فقد نسبنا اليه ما هو برىء منه !!

أقسام الكتاب

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ ولكنه فى موضوعه ومحتوياته لايعد كتابا لتلك السنة أو تلك الحقبة بل هو كتاب اليوم والغد أيضا ما دامت قضاياه ما تزال بين أخذ ورد . وقد استفتحه مؤلفه بمقدمة وتمهيد تلتهما موضوعات الكتاب فى مسائل المرأة فخاتمة فى الدعوة الى الأخذ بالعلم والعزيمة فى الاصلاح ، ومن المفيد ان نشير الى ان المؤلف كان يوجه كتابه الى المصريين أولا ولكنه كان خلال كل خطواته دائب التطلع بأوسع نظر الى غيرهم من العرب والمسلمين وسائر الشرقيين ، اذ أن كل بلاد الشرق منذ كانت كمصر فى حالة شديدة من التخلف ، وكان الغرب فى قمة طغيانه مسلطا عليها جميعا ، يستعمرها ويستعبد أهلها ويستنزف خيراتها فى عنف وصلف ولولا اتجاه المؤلف بكتابه الى كل المسلمين لما كان لدعوته فى كتابه هذا كل آثارها القوية فى شتى البلاد الاسلامية لاسيما العربية فقد أثارت ولم تزل تثير كثيرا من التأييد وكثيرا من المعارضة وكثيرا من اللغط بين من لم يقرءوا حرفا من الكتاب وان خاضوا فى الحديث به وبصاحبه .

المقدمة

أما المقدمة ـ وهى نحو صفحتين ـ فيوضح فيها ان كل مسألة من المسائل التى أجملها فى كتابه « يصح أن تكون موضوعا لكتاب على حدة » . ولكنه اختصر فيها عمدا لترتبط كحلقات سلسلة واحدة ، وغاية أمله منه لفت الأذهان الى موضوع يقل عدد المفكرين فيه ، لا وضع كتاب واف فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانسانى ويقول : « وقد يوضع هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها فى أذهان أولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها » . ثم يمضى فيوضح ان مراده من الاصلاح بعيد الشقة كثير المشقة وانه هو لا يطمح فى تحقيقه قريبا « لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه » .

ثم يهيب المؤلف بصفوة الأمة وهم المتعلمون من أبنائها فيدعوهم الى النهضة والاصلاح والا تصرفت فيهم الحوادث كما تتصرف بالنبات والجماد وكلهم يتألم ويشعر بالحاجة الى الاصلاح فعليهم تبعاته . ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم ان يسجلوا على أمتهم العجز واليأس « فان ذلك من

مظاهر الكسل والجبن وحال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ، ولا بشرعه ولا بالهه » .

فالمؤلف يرى الكسل موتا واليأس كفرا بالنفس والأمة والدين والوجود كله ، وهكذا يرتفع بتفكيره وأمله فيرتقى من وجوب الثقة بالنفس والجماعة وبالعقيدة والشريعة حتى يبلغ الايمان بالله الذى هو مناط كل خير وكل عزم وكل أمل فى الاصلاح . ومن هنا نعرف قوة نفسه وقوميته وقوة اعتماده على دينه وقوة يقينه بالله .

ثم يختم المؤلف مقدمته فيقول ما يقوله كل طالب للحقيقة فى اخلاص وتواضع : « ان أخطأت فلى من حسن النية ما أرجو معه غفران سيئة خطئى، وان أصبت ــ كما أظن ــ وجب على أولئك المتعلمين نشر ما أودعته فى هذه الوريقات وتأييده بالقول والعمل » .

وأما التمهيد فهو فصل من الكتاب وان سماه تمهيدا وأما موضوعه فواضح من عنوانه « حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الأمة » فهو بحث تاريخى سياسى اجتماعى لبيان حقيقة مكانة المرأة فى المجتمع . والمؤلف يعمد فيه الى منهج البحث الذى يسميه علماء الكلام عندنا « التخلية قبل التحلية » أى ازالة العقبات وسد الثغرات لتعبيد الطريق قبل تجميلها لتمضى فيها الحقيقة بسهولة ، ولذلك يتقدم المؤلف هنا فى حذر وأناة ، ولكن مع شجاعة وبصيرة لازالة الشكوى والمعارضات التى تقف دون الاصغاء لقضيته وذلك قبل ان يورد القضية كى يسهل فهمها وقبولها ثم هو يدعو كل متعلم يطلع على كتابه أن يتحمل مسئوليته فى التفكير معه لفهم حالة النساء السيئة فى أمته والبحث عن وسائل اصلاحها لتصلح الأمة جميعا اذ لا صلاح لأمة دون تربية نسائها على تحمل مسئوليتهن بحرية ، أى بشجاعة وفهم واخلاص ، ويذكر المؤلف انه بحث هذا الأمر طويلا وقلبه على وجوهه وامتحنه وحلله حتى انتهى الى فكرة اصلاحية صارت تلح عليه حتى لم يجد هربا من اعلانها .

وهذه القضية أشبه بالبدهية عند من اطلع على سير المصلحين فلولا استيلاء فكرة عليهم ــ لاخيرة لهم معها ــ لما جازفوا فى سبيلها بكل شىء حتى حياتهم ، بل ما هو أسمى من الحياة وهو حسن السمعة .

ثم يمضى المؤلف فيذكر الصراع بين الآراء والمذاهب ومحاولة تأييدها ولو بالحروب وهذا واضح فى تاريخنا الاسلامى وغيره ، اما داخليا فى صراع الأفراد بعضهم مع بعض أو خارجيا فى صراع كل أمة مع غيرها ، ولكنه أوضح ما يكون فى عصرنا لأن الاختراعات الحديثة ألغت المسافات وهدمت الفواصل فوثقت العلاقات بين الأمم طوعا وكرها فمن العار أن نلوذ بالسكون الذى حبب الينا اهمال عقولنا حتى صارت كالأرض

البوار ، فعادينا كل فكرة مألوفة حتى ما كان من السنن الصالحة الأولى ، أو قضت به المصالح العامة وطريقة الكسول دفع الاصلاح بكلمة باطلة ، اذ يصفه بأنه بدعة فى الاسلام ليتخلص من عناء الفهم وعناء العمل كأن الله خلق المسلمين من غير طينة الآخرين وأعفاهم من النواميس التى يخضع لها بقية البشر وسائر الأحياء ٠

بدعة فى العادات لا فى الدين

ثم يشير الى مايتوقعه لفكرته الاصلاحية فيصفها قوم بأنها بدعة ويعترف هو بأنها بدعة ولكنها ليست بدعة فى الاسلام بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد « طلب الكمال » فيها ٠ ثم يوضح معنى العادة وانها « اصطلاح الأمة على طريقة خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يوافق الزمان والمكان فهى لابد ان تتغير لأنها من ثمار عقل الانسان كما يدرك مصالحه وهذا كله مختلف باختلاف الأماكن والأزمنة ، وشواهد ذلك اختلاف عوائد المسلمين فى بلد عن بلد ومن زمن الى زمن ، وكذلك غيرهم من بدو وحضر وجماعات جاهلة أو متوحشة وأخرى متعلمة أو متمدينة ولا سبيل لتخلص أمة من عوائدها الا بتحويل نفوسها وارتفاع درجتها فى العقل » ويستشهد بالآية القرآنية « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » ٠ والعوائد قاهرة وربما تغلب غيرها من العوامل حتى الشرائع وقد تحول قوانين الاصلاح آلة جديدة للفساد بل « تتغلب على الدين نفسه وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه » ٠

ومن هنا نعرف انه يقيم القضية على دعائم تضرب فى أغوار النفس الانسانية بل تمتد الى أعماق الوجود كله ويؤيدها بالقرآن الذى هو أساس الاسلام ثم يقيم على هذه الدعائم الراسخة قاعدة شاملة هى أوسع من قضية تحرير المرأة لأنها تتسع بهذه القضية لقضايا كثيرة تقام عليها لاصلاح كل شئون الأمة ٠

ويمضى المؤلف فيقرر أن حالة المرأة فى أية أمة ترتبط بأحوال هذه الأمة رقيا وانحطاطا ٠ ويؤيد رأيه بكثير من الأمثلة التاريخية عند اليونان والرومان والعرب قديما حين كانت القوة هى القانون الوحيد والحكومات الاستبدادية تعتمد على القوة وحدها ، وليست الحال كذلك الآن فى الأمم المتمدينة لضعف الاستبداد فيها ولذلك ضاقت المسافة فيها بين الرجال والنساء وقد ترقت المرأة فى الأمم التى تفوق غيرها تمدنا فصارت المرأة أسعد حالا وأوسع حرية ، كما نرى المرأة الأمريكية وتليها الأوروبيات على درجات ، فالاستبداد أساس كل فساد وهو يفسد كل عناصر الأمة ٠

ويرى المؤلف انه « ولو كان لدين ما سلطة قاضـــية على العوائد المخالفة له لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة نســـاء الأرض » فقد « سبق الشرع الاســـلامى كل شريعة أخرى فى تقرير مســـاواة المرأة بالرجل فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم وخولها كل حقوق الانسان : فكفاءتها كالرجل شرعا فى جميع الأحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير توقف على اذن أب أو زوج ، ولم تصل الى هذه المزايا بعض النساء الغربيات حتى اليوم ، وهذه المزايا كلها تشهد على ان من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل ، بل ان شريعتنا أبعدت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها أعمال المعيشة ، ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط وميزت الرجل فى الحقوق » ٠

الاسلام برىء من تهمة انحطاط المرأة

ثم يبين انه ليس فى أحكام الاسلام ما ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة ، بل حقيقته عكس ذلك لأنه أكسبها مقاما فى الهيئة الاجتماعية ولكن الذى تغلب على جماله هو ما ورثته شعوب أمتنـــا عن جاهليتهـــا أو الأمم التى خالطتها من أخلاق وعوائد سيئة وأسوأ ما منيت به الشعوب الاسلامية تجردها من النظم التشريعية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول المحكومين مطالبة الحاكم بالوقوف عند حد مقرر بمقتضى الشريعة والنظام ، ولهذا اتخذت حكوماتها الشكل الاستبدادى دائما فللحاكم ثم أعوانه السلطة المطلقة بلا قيد ولا مشورة ولا مراقبة واذا كان الحاكم ملزما باتباع العدل وتوقى الظلم فان السلطة تغرى بســـوء الاســـتعمال ان لم تجد رأيا يناقشها وهيئة تراقبها ٠ ولهذا مضت القرون على شعوب الاسلام وهى تحت الاستبداد المطلق فاتبع الحكام أهواءهم ولعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ما عدا ندرة منهم واذا غلب الاستبداد على أمة لم يقتصر على هوى الحاكم بل تجاوزه الى أهواء من حوله ٠

فظلم كل قوى جميع من هم دونه اذا استطاع ، وسرى الظلم فى كل النفوس وان لم يرض الحاكم وقد يتوهم ان المظلوم يحب العـــدل ويؤثر الشفقة ولكن المشاهدات تدل على أن جو الأمة المظلومة لا يصلح لنمو الفضيلة ، ومن هنا احتقرت المرأة لضعفها واهتضمت كل حقوقهـــا فحبست فى زوايا البيت خوفا عليها وخوفا منها وعاشت رهينة الجهل والظلم لا عمل لها الا خدمة الرجل وترفيهه ، له أن يبقيهـــا أو ينبذها كما يشاء وهو لا يأمن الدنيا ولا يأمنها على نفسها فيفرض عليها ملازمة

البيت ويراقبها فيه أحيانا ، وقد تخرج باذنه ولكن تحت الرقابة ممن لا يؤمن عليها فى الداخل أو الخارج .

وهنا عدد المؤلف مظاهر احتقارها وظلمها ، ثم بين ان حالة المرأة المصرية تحسنت أخيرا بسبب ما ناله الرجال من كرامة لاعتدال سلطة الحاكم فأعطوا نساءهم مقاما فى الحياة العائلية حين وثقوا من أنفسهم فواثقوا بنسائهم وشاركوها فى الخروج والنزهة وهذا احترام جديد لا يسلم من انتقاد ، ولا سبب لهذا الانتقاد الا أحوال تحف به وأهمها رسوخ عادة الحجاب فى نفوس الجمهور الأعظم ونقص تربية النساء فلو كملت تربية النساء على مقتضى هداية الدين وقواعد الأدب ، ووقف الناس بالحجاب عند حده الشرعى المعروف فى أغلب المذاهب الاسلامية ــ لسقطت تلك الانتقادات وأمكن ان تنتفع الأمة بجهود كل أفرادها رجالا ونساء .

ومن هذا الفصل وفصل « المرأة والأمة » الذى يتممه ــ يبدو اتساع القاعدة التى أقامها المؤلف لتحرير المرأة فهى أوسع من الموضوع بكل أطرافه ، كما أم روح البحث ومنطقه أعم من كل قضاياه فهو يدعو الى تحرير الأمة جميعها من كل استبداد والى تربية كل أفرادها تربية دينية خلقية ثقافية بقدر المستطاع ، ليسهم فى نهضتها كل فرد بشتى مزاياه وجهوده ولا يترك أى فرد عطلا من التربية التى تليق به وتؤهله لحمل مسئوليته الفردية والاجتماعية .

تربيـــة المرأة

فى هذا الفصل يقرر المؤلف أن المرأة انسان فى أعضائها ووظائفها واحساسها وفكرها وفى كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان ولا تختلف عن الرجل الا بقدر ما يستوعبه اختلافهما فى الصنف ، واذا كان الرجل قد فاقها قوة بدن وعقل فمن أسباب ذلك أنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالا طويلة على حين قهرت المرأة على لزوم الانحطاط وبلغ من اهمالها أن تساءل بعض الناس هل يجوز شرعا تعليمها القراءة والكتابة أم هو حرام .

ولا يكفى فى تعليمها أن تعرف الأعمال المنزلية البسيطة كالمطبخ ونحوها فهذه المعرفة لا تمكنها من ادارة منزلها بل يلزمها على الأقل أن تتعلم ما يتعلمه الصبى فى المرحلة الابتدائية من مبادىء العلوم لاختيار ما يوافق ذوقها منها بعد ذلك كى تشتغل به اذا شاءت ، ويبدو أن المؤلف قانع بذلك أو كالقانع (وهذا فى عصره كان مطلبا موغلا فى الشطط) ولكننا لا نكاد نمضى معه فى فكرته ــ كى يبين لنا وظيفتها فى المجتمع

ووظيفتها فى العائلة ـ حتى نرى لزاما انه لابد أن تعلم المرأة كل ما يتعلم الرجل فيما يصلحان له معا انسانيا وما تنفرد به من دونه وما ينفرد به دونها ، اذ لا يمكن بغير ذلك تنمية مواهبها الانسانية والنسائية وتمكينها من الاسهام فى بناء مجتمعها وحماية نفسها وادارة بيتها وتربية أولادها وارضاء زوجها مع تهيئة عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات التى تفتك بعقلها ، ولابد من مبادرتها بذلك من صغرها وتربيتها على الفضائل الاجتماعية التى يظهر أثرها فى نظام الأسرة ونظام الأمة حتى تصير تلك الفضائل ملكات راسخة فى نفسها « ولا يتم ذلك الا بالارشاد والقدوة الصالحة » .

ان النساء نصف السكان على الأقل « فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة والمرأة عندنا اذا أحسننا تربيتها كانت كزميلتها الغربية تشتغل بالعلوم والأدب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة وصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك ، لا مجرد عالة كما هى الآن ، بل هى محتاجة الى التربية لمجرد أن تكون انسانا يعقل ويريد ، ولو لم تشارك فى حرفة فأقل ما فى ذلك اعتمادها على نفسها فى تدبير معاشها حين تفقد السند من الرجال وحماية نفسها من الابتذال.

والشرائع الالهية والقوانين الوضعية والتكاليف الشرعية تتجه للمرأة كالرجل باعتبار أنها وهبت مثله العقل ووسائل الادراك وهى لم تمنح ذلك عبثا بل لتستعمله لا لتهمله وحرمانها من التربية فى الماضى هو الذى حرمها التمييز والتمسك بالكرامة والانسانية وباعد بينها وبين الرجل فى الفهم والشعور وأعجزها من ارضاء زوجها وتربية أولادها وتدبير بيتها كما ينبغى لها ، والرابطة بينها وبين زوجها جسمية ونفسية أيضا وقد تضاعفت العلاقة الجسمية فتبقى لها جاذبيتها النفسية ، والأطفال يعيشون فى طفولتهم بين النساء فتأثيرهن فيهم أكبر والتربية الأولى أساس كل تربية تليها » .

« والنساء أمهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا وهن زينة حياتنا » بل « هن نحن ونحن هن » ولا كمال للرجل والمرأة ناقصة ولا سعادة للرجل الا بالنساء ومن يعتمد على امرأة جاهلة كان كالأعمى يقود أعمى ليسقطا معا فى أول هاوية .

حجـــاب المرأة !!

فى هذا الفصل يشير المؤلف الى قصته مع الدوق وكتابه ، ويشير الى انه فى رده عليه قد دافع عن الحجاب وانه هنا لم يزل مدافعا عنه اذ

يعتبره هنا كما اعتبره هنا كما اعتبره هناك « أصلا من أصول الأدب التى يجب التمسك بها » غير انه يطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية وهو فيها يختلف عن الحجاب المتعارف عندنا ، لان قومنا غالوا فى الاحتياط وفيما يظنونه عملا بأحكام الشريعة حتى تجاوزوا حدودها وأضروا بمصالح الأمة ٠

« والغربيون قد توغلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثيرات الشهوات وما لا ترضاه عاطفة الحياء » ولكن « بين هذين الطرفين وسط سنبينه هو الحجاب الشرقى الذى أدعو اليه » ٠

ثم يشير الى أن الحجاب حدث فى كل أمم العالم فى دور تاريخى ، ولم يستحدثه المسلمون وان التخفف منه فى مصر قد حدث فى السنوات الأخيرة فخرجت النساء لقضاء حاجتهن وتعاملن بأنفسهن مع الرجال فى شئونهن وطلبن الترويح فى الهواء وصحبهن رجالهن فى الأسفار وشاركنهم فى الموائد وامتد ذلك فى أشد البيئات تحرجا من ظهور النساء ٠

ثم يبين المؤلف انه لو جاءت فى الشريعة الاسلامية نصوص تقتضى الحجاب كما هو فى شكله الآن لتجنب البحث فيه لأن الاذعان للأوامر الالهية واجب دون جدال ، ولكن لا نص على هذا الحجاب المتعارف بل هو عبارة أصابت المسلمين مما ورثوه قبل الاسلام أو من مخالطة أمم أخرى فاستحسنوه فالبسوه ثوب الدين كسائر العادات الضارة التى نسبت اليه وهو منها براء ٠

ثم مضى المؤلف يذكر نص القرآن فى الحجاب : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ٠٠٠٠ » ووضح أن هذا النص يبيح للمرأة اظهار بعض أعضائها أمام الأجنبى عنها دون تسمية تلك المواضع وان العلماء قالوا ان تعيينها موكول الى ما كان معروفا فى العادة وقت الخطاب واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما استثناه النص ثم نقل بعض كتب المذاهب ما يؤيد اباحة كشف القدمين لابتلاء الناس باظهارهما ، وذلك أوضح حيث ينتشر الحفاء ٠ وبين أن الشريعة خولت المرأة مثل حقوق الرجل وألقت عليها تبعاتها فى أعمالها المدنية والجنائية فكيف يمكن التعامل معها دون رؤية تثبت شخصيتها وبغير ذلك يسهل الغش والتزوير فى المعاملات كما أظهرت الوقائع القضائية ، وكيف للمحجبة أن تتخذ صناعة أو تجارة أو زراعة بنفسها لتعيش وكيف تؤجر نفسها للخدمة فى غير بيتها أو لحصاد أو زرع أو بناء ؟ ٠

ان الله لم يقسم العالم بين الجنسين قسمة افراز ، بل جعله مشتركا ليتعاملا معا فى رعاية آداب وقوانين تنظيم العلاقات بينهما وتيسر لكل

منهما أن ينعم بالحياة فى حدودها ، وأباحت الشريعة بل ندبت أن يرى الرجل المرأة حين يخطبها ليكون كلاهما أعرف بالآخر ، وليس التصون من آداب المرأة وحدهـا ، بل هو عام بين الفريقين وموضـــوعه الأعمال والمقاصد ، لا الأشكال والملابس ومن هنا يظهر ان حكم الشريعة يسرى على الفريقين وانه لا عسر فيه على أيهما فى التكاليف الشريعة والمعاشية وهذا التشدد تنطع فى الدين يخالف نصوص الشريعة الصريحة ٠

وأما خوف الفتنة الذى يقفز دائما فى كل تفـكير فهو أمر يتعـلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ، ولا هن مطالبات بمعرفته فمن خاف الفتنة غض بصره رجلا كان أو امرأة ، وغض البصر مطلوب من الفريقين على السواء وبعض أشكال النقاب تحليه زينة تغرى بالفتنـــة ، وفى انكشـــاف الوجه ما يمنع معاودة تجسس النظر اليه ، ولا تقتصر الفتنة على الأعضـــاء الظاهرة ففى المشى وتغطية الجسم ما هو أشد فتنة والنقاب يخفى شخصية المرأة فتستطيع اتيان ما تشتهيه ولكن انكشاف وجهها يكشف شخصيتها فتشعر بالحياء لنسبها الى عائلتهـا أو شرفها الى نفسها فلا تأتى ما يشعر برغبتها فى لفت الأنظار وقد أمر القرآن المرأة أن تضرب خمارها على جيبها ، وهذا يختلف عن المعهود الآن فى البرقع والنقاب ٠

ليس الحجاب حجز المرأة فى بيتها

هذا هو الحجاب بمعنى تغطية الجســم وأما الحجاب بمعنى حجز المرأة فى بيتها وعدم مخالطة الرجـال فالكلام فيه قسمان ، قسم خاص بنساء النبى عليه السلام كما نص القرآن عليهن ، وقسم لسائر المسلمات فالأوليات لسن كسائر النساء فيقتصر عليهن ما يخصهن ولا يسحب على سواهن ، وأما ما يعم الأخريات فانه لهن جميعا وليس فى الشريعة ما يمنع عامة المسلمات من غشيان المجتمعات فقد كن يغشينها لمصالحهن فى عصر النبى وصحابته ٠

أما الحجاب اجتماعيا فمرده الى الشريعة الاسلامية ، لا الى مزاج أحد أو ذوقه أو استحسانه أو التمسك بعادة ما دمنا بصدد البحث عما به قوام المرأة وقوام حياتنا ٠ وما تقدم من الكلام على تربية المرأة وفوائدها للهيئة الاجتماعية يوضح أن المسائل يرتبط بعضها ببعض فلا سبيل الى التربية الحقيقية مع بقاء الحجاب المعهود فلو عزل رجل فى الأربعين كما تعزل المرأة عند بلوغها فى منزل لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والأدبية ٠

والتربية ليست خزن كمية من المعلومات بل تثقيف دائم للنفس والعقل بكل الوسائل الدينية والأدبية والعلمية من الميلاد حتى الموت فلا تقف عند سن معينة ولا فضيلة في العفة القهرية بل في الامتناع عن مقارفة الشهوات مع القدرة عليها ، ثم ان فساد المرأة لا يتأتى من الاختلاط بالرجل فحسب بل يأتي أيضا من الاختلاط بالفاسدات وحبس النساء في البيوت لا يمنع سريان الفساد اليها ٠

ولهذا ينبغي أن يكون الحجاب في حدود الشريعة مع تربية المرأة منذ طفولتها على أساس الدين والأدب فان « حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان في تقدم الرجال في كل زمان ومكان » وكذلك في تقدم النساء ٠

المرأة والأمة

في هذا الفصل يقرر المؤلف أن أمتنا لم يتهيأ لها من فرص التقدم ما تهيأ لها اليوم ولا تعرضت للأخطار كما تعرضت لها اليوم أيضا (هذا في عام ١٨٩٨) فان تمدن أمم الغرب بفضل البخار والماء قد انتشرت آثاره حتى عمت كل بلاد العالم وكلما دخل سلطان الغرب بلدا حاول الاستيلاء على منابع ثروتها واستنزافها وتسخير أهلها لمصلحته وحده ولا يترك لهم من خيراتها غير ما يبقيهم لخدمته ، وهو غالبا يستعمل عقله فاذا لم تسعفه الحيلة استعمل العنف وهو في ذلك لا يطلب الفخار ، بل الثراء وذلك بتحصيل ثروات البلاد الأخرى ولا نجاة من غوائله الا باتخاذ مثل قوته أو أشد ولا سيما القوة المعنوية « قوة العقل والعلم التي هي أساس كل قوة » ولا وسيلة لذلك غير تربية كل أفراد الأمة رجالا ونساء ٠

وخلع العادات السيئة وعدم اعتماد الجماهير في ذلك على أية حكومة بل على أنفسهم ، فلابد أن يتحملوا مسئولياتهم ولا ينتظروا من الحكومة الا ما هو من شأنها وحدها دون الأفراد والهيئات ٠

وتخلف المسلمين عام وليس لاختلاف شعوبهم وأقاليمهم أثر فيه ، بدليل تخلفهم جميعا وليس شيء يجمع المسلمين غير الاسلام ولهذا اتهمه كثير من الغربيين وبعض المسلمين أنفسهم بأنه سبب التخلف ، وهو بريء منه ، وكل من عرف حقيقة الاسلام من أبنائه بل من الأجانب أيضا — يعظم قدره ويعترف بفضله في نهضة كثير من الأمم التي اتصلت به ، ولكن كثيرا مما يزعمه بعض المسلمين دينا لا علاقة له بالدين ، بل بدع ألصقت به فاعتبر هذا الخليط اسلاما مع أن للاسلام مراجعه الكبرى التي تنكر هذه البدع !!

أثر الاسلام فى ترقية البشرية

وقد وضح المؤلف أثر الاسلام فى رقى الشعوب التى اعتنقته يوم كان المسلمون لا يتركون « فرعا من العلوم ولا فنا من الفنون الا تعلموه وألفوا فيه وزادوا عليه ، فاشتغلوا بالعلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والأخلاق وتوسعوا فى الصناعة والتجارة وبنوا الأساطيل تجرى فى البحار للتجارة وللحرب ، واستمر ذلك على تفاوت بحسب الأزمان ، ثم ابتلوا بوقائع التتار فزالت الخلافة فى الشرق وزالت دولة العرب فى الأندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا فرجع المسلمون الى التخلف كالجاهلية الأولى ، ومنذ ذلك « انطفأ مصباح العلم فى الشرق بأجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر فى شىء من علوم الكلام وبعض شىء من قواعد اللغة وانصرفوا عن كل شىء عداها » . ولما ساد الجهل عقولهم عجزوا عن فهم حقيقة الاسلام ، وهنا أطبقت البلية بكل ظلماتها وظلمها ، واستمر الحال كذلك حتى ظهر أخيرا علماء متعمقون مضوا يكشفون حقيقة الاسلام اذ رجعوا الى القرآن والحديث دون أقوال المحققين من أهل المتون والشروح والحواشى فدعوا الى ما دعا اليه القرآن والحديث من تحرير العقل وتعلم كل ما يمكن تعلمه من المعارف الكونية والاشتغال بكل حرفة تنفع الناس ، فان انحطاط العقول هو الذى شوه الدين وحال دون الترقى ، وبصلاح العقول وتفتحها لادراك المصالح العامة تصلح الأمة ويعود للدين صلاحه .

وهنا يبين المؤلف ان المرأة لا تكون خلقا كاملا حتى تتم تربيتها جسميا وعقليا ، وسلامة العقل ترتبط بسلامة الجسم سواء فى الرجال أو النساء وصلاح الرجال بصلاح النساء ، لأن المرأة أم العائلة وميزانها ، فليست تربيتها من الكماليات بل هى من لزوم الضرورات لمصلحة الرجال والأمة جمعاء .

العائلة

فى هذا الفصل يتكلم المؤلف على أهم المسائل التى تمس المرأة فى العائلة وهى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق ويبين ان الزواج عند الفقهاء عقد يملك به الرجل الاستمتاع بالمرأة وهذا يختلف عن معناه فى القرآن القائل : « **ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** » ولسوء فهم بعض علمائنا هذا التعريف غفلوا وغفل

الناس معهم عن واجبات الزوجين فى الزواج قبل العقد وبعده ، فلابد فيه من معاينة كل من الزوجين الآخر ومعرفة صلاحه لحسن العشرة ، وللمرأة ما للرجل من حق اختيار الشريك فالقرآن يقول : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » وقد ندب النبى الى ذلك لأنه أعون على المودة ٠

وتعدد الزوجات فى نظر المؤلف كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية من المنع والكراهة بحسب ما يترتب عليه من المصالح أو المفاسد ، فاذا غلب الجور أو نشأ من التعدد فساد فى العلاقات أو مجاوزة لحدود الشريعة فلأولى الأمر أن يمنعوه بشرط أو بغير شرط على حسب ما يرونه موافقا للمصالح العامة ٠

وأما الطلاق فقد وجد منذ وجد الزواج وكان معروفا فى كل الأمم ولم تمنعه المسيحية الا بعد نشأتها بزمن طويل ، ومنعه مطالبة للناس بالكمال المطلق وهو غير مستطاع ولا مراعاة فيه للمصالح ومع تسامح الكنيسة فيه شيئا بعد ذلك أحست أمم الغرب أن الشدة فى أمره لم تزل باقية فخففت تلك الشدة وشرعت له قوانين واسعة فانحسر سلطان الكنيسة عن كل ما لا يتفق وقوانين الطلاق فى كثير من الأمم ٠

فاذا رجعنا الى الشريعة الاسلامية وجدنا أنها وضعت أصلا يمكن أن ترد اليه جميع الفروع فى أحكام الطلاق ، وهذا الأصل هو أن الطلاق محظور فى نفسه مبـاح للضرورة وهو ما يسـتفاد من القرآن والحديث النبوى وأقوال كثير من الصحابة ٠

وقد راعى كل الأئمة على العموم هذا الأصل الذى من شأنه تضييق دائرة الطلاق ولكنهم عند التفريع على هذا الأصل لم يتفقوا فى التطبيق والفروع ويستطيع المسلمون اليوم أن يأخذوا من نصوص القرآن ما أخذ به كثير من فقهائنا فى مذاهبهم المختلفة ليقرروا للطلاق أحكاما تنظم فوضاه وتقلل منه بحيث تكون أقرب الى أصول الشريعة وأكثر تحقيقا لمصـالح الأسرة وبذلك ترعى حرمة الدين وحق العشرة وأواصر النسب ٠

وهنا على سبيل المثال يضع المؤلف ـ وهو رجل متبحر فى القانون ـ نظاما للطلاق مؤلفا من خمس مواد يراها أقرب الى روح الشريعة وأصولها ، وانها تقلل الطلاق ، ثم يورد احصائية لحالات الزواج والطلاق فى القاهرة خلال فترة ثمانى عشرة سنة توضح أن كل أربع زوجات تطلق منهن ثلاث وهذا شىء فظيع مفزع !!

الخاتمـــة

تناول المؤلف فى الخاتمة موضوعين : العلم والعزم ، فالعلم وسيلة الأمة الى معرفة مطالبها وتخليصها من سيئات عاداتها ثم ترقية أحوالها لتعيش للمستقبل ، ومعرفة الشريعة تدلنا على أنها حدود عامة ولهذا يجد الناس فيها ما يوافق مصالحهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة ٠

وأما العزيمة فهى تحث الارادة على تحقيق كل خير يكشفه العلم ، فاستحسان شىء لا قيمة له دون ارادة تنفيذه ، والرجل الحق من يحاول معرفة الخير ويجهد وسعه ليحققه فلابد لنا من العلم والعزيمة فى تحقيق التقدم ٠

وأخيرا اقترح المؤلف تكوين جمعية من الآبـاء الراغبين فى تعـليم بناتهم على هذه الطريقة لتحقيق تربية بناتهم والدعوة لاصـدار قوانين تضمن للمرأة حقوقها الشرعية دون التقيد بمذهب واحد كالمذهب الحنفى الذى تقيدت به بعض الدول ٠ ودعوة المؤلف الى عدم التقيد فى التشريع بمذهب واحد رأى غـاية فى السداد والتيسير فكل ما ورد فى المذاهب الاسلامية تراث اسلامى ينبغى أن نأخذ منه ما هو أنسب لنا ونستكمله بالاجتهاد ــ على وفق اصولنا اذا احتاج الى تكملة ولابد من تكملة ٠

نصوص مختارة من الكتـــاب

١ ــ « عاشت المرأة فى انحطاط شديد أيا كان عنوانها فى العائلة، زوجة أو أما أو بنتا ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأى خاضعة للرجل لأنه رجل ولانها امرأة ، فنى شخصها فى شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ٠ واستعملها الرجل متاعا للذة يلهو بها متى أراد ويقذف بها فى الطرق متى شاء ، له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه ٠ من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب ٠ من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه ٠ من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العـامة والعمل فى أى شىء يتعـلق بها ، فليس لها رأى فى

الأعمال ولا فكر فى المشارب ولا ذوق فى الفنون ولا قدم فى المنافع العامة ولا مقام فى الاعتقادات الدينية وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملى » .

٢ ـ « أليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشردا فى الطرق والأزقة يتمرغ فى الأتربة كما يتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذى هو رأسماله مضطجعا أو نائما أو لاهيا مع أن سن الطفولة لا يعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها أننا جميعا مصابون بشلل فى أعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شىء مهما بلغ فى الحسن والقبح ؟ فاذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان واذا شاهدنا فعلا قبيحا استهجناه بهز الرءوس وظاهر من القول بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع الى الأول ولا على الابتعاد عن الثانى ؟ أليس من جهلها أن تسلك فى تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الأضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به الا الجاهلون بأصول الدين وفضائل الأعمال وله من الأثر السيىء فى أنفس الناشئين بل وفى أرواح الرجال ما يجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟ » .

٣ ـ « وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسألة تقريبا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقريره ولا هن مطالبات بمعرفته وعلى من يخاف الفتنة من الرجال أن يغض بصره كما أنه على من تخافها من النساء أن تغض بصرها والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء وفى هذا دلالة واضحة على أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها .

« عجبا لم لم يؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة ، واعتبر الرجل أضعف من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه ، واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعا مطلقا خوف أن يفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من القبح وبشاعة الخلق ؟ » .

٤ ـ « وان سمح لى القارىء أن أبدى هنا كل ما أظنه صوابا ، أقول لا يمكننى أن أفهم ان الطلاق يقع بكلمة مجرد التلفظ بها مهما كانت

صريحة . نعم ان الأعمال الشرعية لا تستغنى عن الألفاظ ، اذ لو حللنا أى عقد لوجدناه مركبا من ظهور ارادة أو مطابقة ارادتين حصل الاستدلال عليها أو عليهما من الألفاظ التى صدرت شفاهيا أو بالكتابة ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الألفاظ وانما مرادنا ان اللفظ لا يجب الالتفات اليه فى الأعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلا على النية فينتج من ذلك أنه يجب أن يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزواج وارادة واضحة فى انه انما يريد الانفصال من زوجته لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم ان الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق) » .

قواعد المنهج في علم الاجتماع

دوركايم

١٨٩٥م

يمثل « دور كايم » نقطة تحول مهمة فى تاريخ الفكر الاجتماعى ونظرية علم الاجتماع فلقد تجنب الكثير من المشكلات التى أثارها علماء الاجتماع التطوريون فى القرن التاسع عشر ، وجعل اهتمامه منصبا على تحديد موضوع علم الاجتماع وتميزه عن علم النفس وتحريره من الفلسفة الاجتماعية · وحاول جاهدا أن يحتفظ لعلم الاجتماع بكيانه الخاص كعلم وضعى يعتبر ضروريا وكافيا لتفسير الواقع الاجتماعى تفسيرا شاملا ، ودعم دور كايم موقفه هذا بمجموعة من الدراسات المتخصصة التى تناولت منهج علم الاجتماع وتقسيم العمل ، والانتحار ، والدين ، وبذلك كون مدرسة فكرية فى علم الاجتماع · بل ان تأثيره قد جاوز ميدان علم الاجتماع ذاته ، فانعكس على تفكير المتخصصين فى الاثنولوجيا والتاريخ وعلم النفس والقانون والاقتصاد واللغة والدين ·

● خلفية تاريخية :

ولد اميل دور كايم فى ١٣ أبريل عام ١٨٥٨ فى مدينة ابينال بمقاطعة اللورين عن أسرة يهودية تتمسك بتقاليد الدين ، وقد أحب دور كايم منذ حداثته مهنة التدريس فصمم على أن يصبح مدرسا وليس رجل دين كما كانت ترغب أسرته · وقد ظل حتى الثامنة عشرة من عمره طالبا متفوقا بمدرسة ابينال ، ثم ما لبث أن انتقل الى باريس حتى التحق بالليسيه وهى خطوة ضرورية للالتحاق بعد ذلك بمدرسة المعلمين العليا والتى كانت تمثل فى ذلك الوقت قمة اختيار الطلاب الأكاديميين فى فرنسا· وقد تمكن دور كايم من الالتحاق بها بعد أن اجتاز اختبارا تمهيديا عام ١٨٧٩ ، وكان قد بلغ من العمر ٢١ عاما ولقد كانت المدرسة مركزا هائلا للفكر فى ذلك الوقت الا أن علم الاجتماع لم يكن يحتل بعد مكانته اللائقة · والتقى دور كايم فى رحاب هذه المدرسة بزملاء له كانوا فيما بعد رواد الفلسفة والعلم ومن بين هؤلاء بيرجسون وجون جوريه وبلوندل وبيرجانيه والتون مايو · على الرغم من أن دور كايم قد عاصر كل المفكرين السابقين الا أنه لم يكن راضيا تماما عن موقفه ، فلقد أحب الفلسفة ولكنها ليست تلك التى نظر اليها بعض زملائه وأساتذته بوصفها هواية التفلسف « حول لا شىء » فهو يطالب بمعرفة فلسفية يمكن الافادة منها فى الميادين السياسية والاجتماعية· وأبدى دور كايم اعجابه الشديد بثلاثة من أساتذته هم : اميل بترو وفوستل دى كولانج ، ورجيلوس موتو ، ولقد مكنته

تلمذته على هؤلاء الأساتذة من التعرف على طرائق التفكير المنطقى فى تناول المشكلات ، ولكنه حينما بدأ مطالعاته الخاصة اكتشف أن أساتذته الحقيقيين هم أشخاص قرأ لهم ولم يلتق بهم فعلا من أمثال رينوفييه والذى كان أحد أعلام الفلسفة الأخلاقية وأوجست كونت وسان سيمون ٠

ولقد تميزت هذه الفترة أيضا بجو فكرى خاص ـ ففى عام ١٨٧٩ حينما التحق بالمدرسة كان قد مضى حوالى تسع سنوات على اعلان الجمهورية الثالثة فى فرنسا بعد أن هزمتها ألمانيا ٠ وساد فى ذلك الوقت شعور قوى بين المفكرين بأن النظم القديمة يجب أن تستبدل بنظم أخرى جديدة نتيجة التحول الكبير الذى طرأ على فرنسا وقد أدى ذلك بدور كايم الى التفكير فى موضوعات ثلاثة : فأحس أولا أن هناك ضرورة تملى عليه التخصص فى البحث الاجتماعى بحيث يطبق مناهج العلوم الوضعية فى دراسة الشئون الانسانية وثانيا : وجد أنه يتعين عليه أن يعيد النظر فى الفلسفة المعاصرة وبخاصة فلسفة العلم وثالثا : نظر الى علم الاجتماع لا باعتباره علما مجردا ولكنه علم يصلح للتطبيق على المشاكل الاجتماعية التى تعانى منها فرنسا فى ذلك الوقت ٠

وبعد أن تخرج دور كايم من هذه المدرسة عمل فى سلك التدريس بالمدارس الثانوية لمدة خمس سنوات حصل خلالها على اجازة لمدة عام سافر فيها الى ألمانيا ليشهد الأرض التى عاش عليها كانط وهيجل ، كما زار ليبزج حيث أعجب فيها بفوندت كفيلسوف علمى ، وتأثر بمعمله السيكوفيزيقى ٠

وفى عام ١٨٨٧ دعى دور كايم لكى يشغل وظيفة مدرس لعلم الاجتماع بجامعة برودو ، ثم ما لبث أن أصبح أستاذا بها عام ١٨٩٦ ٠

وفى خلال هذه السنوات لم يكن التدريس هو كل ما ينشغل به ، فقد أتم رسالته للدكتوراه عن تقسيم العمل الاجتماعى ونشرها عام ١٨٩٣ ٠

وفى عام ١٨٩٥ نشر مقالة عن قواعد المنهج فى علم الاجتماع الذى عبر بصورة واضحة عن الاطار المنهجى والتصورى لعلم الاجتماع ثم نشر عام ١٨٩٧ دراسته عن الانتحار ٠ وانشغل الى جانب ذلك كله بتحرير « حولية علم الاجتماع التى ظهر العدد الأول منها عام ١٨٩٨ بوصفها مجلة متخصصة تعرض مجموعة كتابات اجتماعية وفلسفية ٠

وفى عام ١٩٠٦ انتقل دور كايم الى جامعة السربون ليشغل كرسى التربية فيها وظل يقوم بتدريس التربية وبعض الدروس الأخرى فى الأخلاق والدين والزواج والأسرة ٠ الى أن وافقت الجامعة عام ١٩١٣ على أن يصبح دور كايم أستاذا للتربية وعلم الاجتماع ، وهذا هو أول كرسى

له أهميته فى فرنسا يتضمن كلمة « علم الاجتماع » · وفى عام ١٩١٢ نشر دور كايم آخر أعماله وهو : « الصور الأولية للحياة الدينية » الذى قدم فيه نتائج دراساته للقبائل الاسترالية عن الدين والأخلاق والمعرفة · ولقد أصيب دور كايم بنوبة قلبية حادة عقب وفاة ابنه اندرى مما عجل بوفاته عام ١٩١٧ ·

ولقد تميزت أعمال دور كايم بالتكامل المنطقى الشديد وباهتمامه بالدراسات الامبيريقية ، ولكن دور كايم تأثر بأعمال العلماء السابقين عليه وبخاصة أوجست كونت وسان سيمون وأعجب أيضا بتلك النزعة الجماعية التى عبر عنها من قبل مجموعة مفكرين فرنسيين من أمثال دى بونالد ودى ميستر حين ذهبا الى أن الجماعة الاجتماعية تسبق الوجود الفردى وتشكله وهى منبع الثقافة والقيم وان التغيرات الاجتماعية لا تتأثر بالارادة الفردية ·

ولقد وجد أيضا أن كتابات سان سيمون عن ضرورة تطبيق مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، والبرنامج الذى وضعه للفسيولوجيا الاجتماعية باعتبارها تبحث عن القوانين الضرورية للتطور الاجتماعى تتفق الى حد كبير مع أفكاره حول طبيعة علم الاجتماع ومنهج البحث الملائم له · والتقت هذه الأفكار مع اهتمام أوجيست كونت بالاجتماع وبالأسرة باعتبارها الوحدة الاجتماعية الحقيقية وحذفه لعلم النفس من تصنيفه للعلوم ، وأصبحت تشكل جميعا الأسس التى استندت اليها النزعة السوسيولوجية عند دور كايم · ويذهب بعض علماء الاجتماع الى أن كل هذه المؤثرات بالاضافة الى ظروف المجتمع الفرنسى فى عصره قد جعلت دور كايم يهتم بمشكلة النظام العام وطبعت نظريته بطابع محافظ ، ويظهر ذلك بوضوح منذ أعماله المبكرة حتى الصفحة الأخيرة من مقاله : مقدمة فى الأخلاق الذى كتبه باختصار قبل وفاته ··

● قواعد المنهج فى علم الاجتماع :

يعتبر كتاب قواعد المنهج فى علم الاجتماع الذى نشره دور كايم عام ١٨٩٥ أحد المؤلفات الكلاسيكية فى العلوم الاجتماعية · فقد تابع دور كايم فى هذا المؤلف التقليد الذى بدأه أوجست كونت من قبله والذى يطالب بضرورة اعتبار علم الاجتماع علما وضعيا شأنه شأن العلوم الطبيعية الأخرى · وحتى يستطيع علم الاجتماع أن يصل الى هذه الغاية يتعين أن نتعرف تماما على مناهج هذه العلوم وأن ندرك بوضوح كيفية استخدامها فى دراسة الظواهر الاجتماعية ويستند ذلك كله الى ركيزتين أساسيتين : فمن الضرورى أولا تحديد موضوع الدراسة فى علم الاجتماع

تحديدا لا يجعل هذا العلم يختلط بأية دراسة علمية أخرى ، ومن الضرورى ثانيا أن يكون هذا الموضوع من الموضوعات التى يمكن ملاحظتها وتفسيرها بنفس الطريقة التى نلاحظ ونفسر بها تلك الظواهر التى تدرسها العلوم الأخرى · وهاتان الركيزتـان هما الأساس الذى قام عليه كل ما ذكره دور كايم من قضايا وأحكام وآراء منهجية فى مؤلفه قواعد المنهج · ومن هنا فان دور كايم لم يكتف بجعل هذا الكتاب مجرد مؤلف فى مناهج البحث الاجتماعى أو طرائق البرهان العلمى وانما ضمنه المبادىء الأساسية للتفسير والتحليل السوسيولوجى ·

محتـــوى الكتـــاب

وهو يرى فى الفصل الأول من الكتاب ضرورة تحديد طبيعة هذه الظواهر قبل الشروع فى بيـان قواعد المنهج الذى يستخدم دراســتها · وهذا أمر له أهميته الكبرى اذ لو لم تكن هناك ظواهر اجتماعية مستقلة عن الظواهر التى يدرسها علم النفس مثلا لما كان ثمة داع الى انشاء علم جديد يكون تكرارا لعـلم سابق · لذلك نجده يحرص هنـا على تعريف الظاهرة الاجتماعية وبيان خصائصها التى تميزها عن غيرها فهذه الظاهرة ليست هى كل شىء يحدث فى المجتمع كما ظن بعض الباحثين والا لكان النوم والأكل والشرب والتأمل بل الهذيان ظواهر اجتماعية ، فمن الضرورى اذن أن توجد طائفة معينة من الظواهر لها خواصها الذاتية التى تجعلها صالحة أن تكون موضوعا لعلم خاص ·

وقد ضرب « دور كايم » أمثلة للظواهـر الاجتماعية بالواجبـات الأخلاقية التى يحددها العرف والقانون وبالعقائد والطقوس الدينية واللغة والنقود وجميع الوسائل الاقتصـادية التى يستخدمها المرء فى علاقاته التجارية والتقـاليد · فكل هذه الأمور ظواهر اجتماعية لانها موضوعية أى أن لها وجودا خاصـا خارج شعور الأفراد ، لانها ليست من صـنعه بل هو يتلقاها من المجتمع الذى نشأ فيه وليس يمكن أن يقال انها وليدة التفكير الذاتى بل الأولى القول بأنها هى التى تلون هذا التفكير لدى مختلف الأفراد بطابع متجانس الى حد كبير أو قليل حسب درجة التقدم التى وصل اليها المجتمع ويترتب على خاصية الموضوعية خاصة القهر أو الالزام ، فلما كانت الظواهر الاجتماعية ضروبا من الشعور أو السلوك التى توجد خارج ضمير الفرد فلا بد من أن تفرض نفسها على شعوره وسلوكه · والحق أن الفرد لا يشعر فى كثير من الأحيان بهذا القهر لانه يستجيب له بحسب العادة لكن سرعان ما يفطن الى سـلطان الظواهر الاجتماعية متى حاول

الخروج عليه . ويؤكد لنا « دور كايم » أن فكرة القهر لديه ليست فكرة ميتافيزيقية كفكرة المحاكاة التي حاول « تارد » تفسير الظواهر الاجتماعية بها ، وانما هي احدى خواص الظواهر الاجتماعية التي تبدو له أكثر ملاءمة لتحديد طبيعة تلك الظواهر .

ولما كانت الظواهر الاجتماعية ذات طبيعة خاصة فمن الضرورى أن تختلف عن الصور التي تعكسها في ضمائر الأفراد . ومن الممكن فعلا أن نفصل أية ظاهرة اجتماعية عن مظاهرها أو تجسداتها الفردية ، فمثلا يحدد لنا علم الاحصاء عدد الزيجات والطلاق والانتحار ويعطينا رسوما بيانية تصدق في المتوسط الى حد كبير . لكنه لا يعين لنا بالدقة الأفراد الذين سيتزوجون أو ينفصلون أو ينتحرون ويرجع ذلك الى أن كل فرد له ظروفه النفسية الخاصة ، ومع هذا فان هذه التجسدات الفردية لا تخلو من عنصر اجتماعي فهي وسط بين الظواهر الاجتماعية والظواهر السيكولوجية . ومن الممكن أن ينشأ لها علم خاص هو علم النفس الاجتماعي أما الظواهر الاجتماعية بمعنى الكلمة كالعقائد والعادات والتقاليد والأخلاق الخ فهي تراث انساني يفرض نفسه على الأجيال المتعاقبة بدلا من أن يقال ان الأفراد هم الذين يخلقونه بدءا في كل عصر . وهذا يكشف لنا عن حقيقة مهمة ، وهي ان الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الصور الفردية التي تتشكل بها عند انتشارها في أحد المجتمعات وبهذا كله يهدف « دوركايم » الى معارضة تلك النظريات التي حاولت ارجاع علم الاجتماع الى أحد العلوم التي سبقته من حيث النشأة كعلم الحياة أو علم النفس وهو حريص على دحض تلك النظريات اذ لو سلم بها لما أمكنه أن يبرر مشروعية علم الاجتماع الذى بذل « كونت » كل الجهد لانشائه .

ولكن « دوركايم » يلح في تأكيد فكرته فيقول ان الظواهر الاجتماعية وان كانت نفسية بحسب طبيعتها ، فانها تختلف تماما عن الظواهر النفسية الفردية . وقد فسر هذا الاختلاف الجوهرى بأن تركيب الحالات النفسية الفردية يؤدى الى مركب جديد تختلف خواصه عن خواص العناصر الداخلة فيه كما تختلف خصائص الخلية الحية عن خصائص الجزئيات غير العضوية التي تتالف منها .

ومهما يكن من أمر فانه يرى أن الظواهر الاجتماعية نفسية ، ولكن من نوع فريد . وقد حاول ارجاع الظواهر الاجتماعية التي تجسدت ماديا اذا صح هذا التعبير الى حالات نفسية من ذلك النوع فالوحدات الأولية التي يتكون منها المجتمع والناحية المورفولوجية الخاصة بالأشكال المادية للمجتمع من طرق مواصلات وأشكال المنازل وطريقة توزيع السكان الخ كلها ترجع في التحليل الأخير الى ضروب من السلوك أو الشعور أو التفكير . وهكذا

ينتهى تعريف الظاهرة الاجتماعية بأنها « كل ضرب من السلوك ، ثابتا كان أم غير ثابت يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجى على الأفراد ، أو هى كل سلوك يعم فى المجتمع بأسره ،وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التى يتشكل بها فى الحالات الفردية » .

قواعد ملاحظة الظواهر الاجتماعية

أما الفصل الثانى وهو من أهم فصول الكتاب فقد خصصه «دوركايم» لبيان القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية ، والفكرة هنا تسير فى الاتجاه العام لفلسفة « أوجست كونت » الوضعية . فكما أن هذا الاخير ينادى بضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية مجردة من كل تأثير لاهوتى أو ميتافيزيقى ، كذلك يتحدث « دوركايم » عن الآراء الوهمية . وغير المحصة التى صحبت العلوم مرحلة كبيرة فى أثناء تطورها . وهو يبرر نشأة هذه الآراء عن الظواهر الطبيعية والكيميائية بأن الفرد لا يستطيع الحياة وسط الطبيعة دون أن يكون لنفسه فكرة عنها تساعده على تحديد سلوكه . وربما كان الجديد هنا انه يربط هذه الآراء الوهمية بطريقة التأمل الباطنى التى سيطرت على علم النفس الى عهد قريب وكأنه يرى فى ذلك دليلا جديدا على ضرورة فصل علم الاجتماع عن علم النفس بل على ضرورة تطبيق المنهج الموضوعى فى علم النفس أيضا . ويعترف « دوركايم » فى مقدمة كتابه ان علماء القرن العشرين قد أنشأوا علم نفس « يعتمد على تلك القاعدة الأساسية التى توجب على الباحث أن يدرس الظواهر النفسية من الخارج ، أى على أنها أشياء أفلا يجب من باب أولى أن تطبق هذه القاعدة نفسها على الظواهر الاجتماعية ؟ وذلك لأن الشعور الذى يعجز من معرفة حياته الخاصة لأشد عجزا عن معرفة هذه الظواهر » .

وبناء على هذه الملاحظات السابقة يحدد لنا دوركايم القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية : فالقاعدة الأولى هى القائلة بأنه يجب على عالم الاجتماع أن يتحرر بصفة مطردة من كل فكرة سابقة « وهذه هى قاعدة الشك عند ديكارت وفكرة التحرر من الأصنام عند « بيكون » . أما القاعدة الثانية فتتلخص فى أنه من الواجب أن ينحصر موضوع البحث فى طائفة خاصة من الظواهر التى سبق تعريفها ببعض الخواص الخارجية المشتركة بينها . ومن الواجب أن ينصب نفس البحث على كل الظواهر التى تتوافر فيها شروط ذلك التعريف . وهذه القاعدة خاصة بتصنيف الظواهر الاجتماعية فى طوائف متجانسة كظاهرة الجريمة والأسرة والعشيرة

والعائلة الأبوية الخ ... ويقتضى ذلك تحديد المصطلحات العلمية التى تعبر تعبيرا دقيقا عن طبيعة الظواهر . « ومع وضوح هذه القاعدة فان العلماء لم يراعوها فى دراسة الظواهر الاجتماعية ... فانه يخيل الى عالم الاجتماع فى كثير من الأحيان أنه ليست ثمة فائدة فى تعريف هذه الظواهر تعريفا مبدئيا دقيقا » هذا الى أن بعض الباحثين يختار نخبة من الظواهر ويهمل طائفة كبيرة منها وهذه طريقة مبتورة ، لأن الحذف يتم هنا بناء على فكرة سابقة . أما القاعدة الثالثة فهى « من الواجب على عالم الاجتماع لدى شروعه فى دراسة طائفة من الظواهر الاجتماعية أن يبذل جهده فى ملاحظة هذه الظواهر من الناحية التى تبدو فيها مستقلة عن مظاهرها الفردية » وهذا شرط ضرورى حتى يمكن العثور على الصفات الثابتة التى تتيح لنا الكشف عن حقيقة الظواهر ، ومن ثم تسمح لنا بالكشف عن القانون الذى تخضع له .

الظواهر الاجتماعية السليمة والمعتلة

وفى الفصل الثالث من هذا الكتاب يحدد لنا « دوركايم » بعض القواعد الخاصة بالتفرقة بين الظواهر الاجتماعية السليمة والظواهر الاجتماعية المعتلة أو المرضية وهو يطلق الأولى على كل ظاهرة تعم فى المجتمعات المتحدة أو المتقاربة فى الدرجة ، ولكن بشرط أن يكون وجودها فى هذه المجتمعات فى مرحلة من مراحل تطورها . أما المرضية فهى الظواهر الشاذة التى لا ترتبط بشروط الحياة الاجتماعية . وليس من الضرورى أن تكون الظاهرة عامة حتى تكون سليمة بل هى لا تكون كذلك الا اذا ارتبطت بالشروط الأساسية للحياة الاجتماعية والا كانت من الرواسب الاجتماعية التى تستمر فى البقاء بحكم العادة وحدها . « وعندئذ لاتكون الظاهرة سليمة الا بحسب الظاهر » . كما أن بعض الظواهر التى تبدو شاذة فى نظر العامة قد لا تكون كذلك فى نظر العالم . وقد ضرب دوركايم لذلك مثالا بظاهرة الجريمة فانها وان بدت شاذة الا أنها ترتبط بشروط الحياة الاجتماعية وهى تلاحظ بصفة عامة فى معظم المجتمعات التى تنتهى فى تطورها الى نوع معين بل يمكن القول انه ما من مجتمع يخلو من الجريمة ومن ثم فهى ظاهرة سليمة فى حد ذاتها . لكن من الممكن أن تتشكل بصورة شاذة — وهذا هو ما يحدث عندما تزيد نسبة الاجرام زيادة كبيرة فهذه الزيادة هى الظاهرة الشاذة . ويعترف بعد ذلك بأن الجريمة ظاهرة بغيضة وان كانت طبيعية فى المجتمع ، وقد اتهم بعض الناس « دوركايم » بأنه يبرر الجريمة لانه يعدها ظاهرة سليمة فقال هو : « لئن صح أن يوجه الينا هذا الاعتراض فانه اعتراض صبيانى وذلك لانه

اذا كان وجود الجرائم فى كل المجتمعات ظاهرة سليمة فمن الطبيعى أيضا أن يعاقب مقترفوهـا ، ... فاذا أردنا محو الجريمة فلا مناص لنا فى هذه الحال من محو الفروق الفردية التى توجد بين ضمائر الأفراد » ٠

وقد استخلص دوركايم فى هذا الفصل قواعد التفرقة بين هذين النوعين من الظواهر وهى :

أولا : تعد الظواهر الاجتماعية سليمة بالنسبة الى نموذج اجتماعى معين ، وفى مرحلة معينة من مراحل تطوره اذا تحقق وجودها فى أغلب المجتمعات المتحدة معه فى النـوع واذا لوحظت هذه المجتمعات فى نفس المرحلة المماثلة فى أثناء تطورها هى الأخرى ٠

ثانيا : يمكن التحقق من صدق نتائج القاعدة السابقة ببيان أن عموم الظاهرة فى نموذج اجتماعى معين يقوم على أساس من طبيعة الشروط العامة التى تخضع لها الحياة الاجتماعية فى هذا النموذج نفسه ٠

ثالثا : وهذا التحقق ضرورة اذا وجدت هذه الظاهرة فى بعض أنواع المجتمعات التى لم تنته بعد من جميع مراحل تطورها ٠

تحديد النماذج الاجتماعية

أما الفصل الرابع فيعالج فيه فكرة تحديد النماذج الاجتماعية فى مقابل وجهة نظر المؤرخين والفلاسفة ٠ ذلك ان الأولين يرون أن كل مجتمع من المجتمعات يكون وحدة قائمة بذاتها ، وانه لا سبيل الى المقارنة بين هذه المجتمعات نظرا لأن لكل شعب سيماه الخاصة به ، أما الآخرون فهم يذهبون مذهبا متطرفا عندما يحاولون ادماج هذه المجتمعات المؤقتة فى الوجود الاجتماعى الحقيقى وهو الانسانية ٠ « ومن ثم فان المؤرخين يرون أن التاريخ ليس الا سلسلة متتابعة الحلقات من الحوادث التى لا يتكرر وجودها على نمط واحد ٠ أما الفلاسفة فيقولون انه لا قيمة ولا أهمية لهذه الحوادث نفسها الا على انها أمثلة جزئية تتمثل فيها القوانين العامة التى تخضع لها » ويريد « دوركايم » أن يتخلص من هذا التعارض بين الاتجاهين اذا سلم بوجوب مجتمعات هى وسط بين المجتمعات التاريخية وبين المجتمع الانسانى الكلى ٠

أما الفصل الخامس فهو يعدل الفصل الثانى فى أهميته وهو يبرر الفكرة الرئيسية عند « دوركايم » ، اذ لما كانت الظواهر الاجتماعية توجد خارج شعور الأفراد ويجب أن تدرس على أنها أشـياء طبقـا لمنهج علمى موضوعى فمن الطبيعى أن يكون تفسيرها علميا أيضا ٠ ولن يكون الأمر

كذلك الا اذا فسرته بشيء آخر سوى العوامل النفسية الفردية · ولذا نجده ينقد النظريات السابقة ويعيبه رأى هؤلاء الذين يعتقدون امكان تفسير الظواهر الاجتماعية بناء على الخدمات التى تؤديها · وهذا نوع من التفسير الغائى حاربه « كونت » من قبل ، ومع ذلك فقد ارتضاه عندما فسر قدرة النوع الانسانى على التقدم بأحد الميول الرئيسية التى تدفع المرء الى مستواه ، كذلك وقع « سبنسر » فى هذا الخطأ عندما فسر نشأة المجتمع ببعض المزايا التى يؤدى اليها التعاون · وليس معنى ذلك ان « دوركايم » ينكر أن تكون للظواهر الاجتماعية بعض الفوائد أو الغايات ولكنه ينكر أن يكون المجتمع قد نشأ على هذا التفكير الغائى · ويجب عدم الخلط بين الأسباب الفعالة الحقيقية التى أدت الى نشأته وبين الغايات التى ترتبت على هذه النشأة · « فمثلا اذا أرادت احدى الحكومات أن تسترد النقود الذى لا وجود لها الا به فلا يكفى أن يشعر الناس بهذه الحاجة ، بل يجب الاتجاه مباشرة نحو المصادر الوحيدة التى تنبع منها كل أنواع النفوذ ··· كذلك يجب أن يصعد المرء بعيدا فى سلسلة الأسباب والمسببات حتى يجد نقطة يستطيع أن يتدخل عندها ·· » وبالجملة ليس ثمة صلة بين السبب الذى يؤدى الى وجود الشيء وبين الغاية أو الوظيفة التى يؤديها هذا الشيء · فمثلا لم يفكر الناس فى تقسيم العمل حتى يحققوا مزاياه · لكن قسم العمل لأسباب اجتماعية ثم تبينت فائدته ، ففطن الناس الى أهمية التخصص الدقيق ، وأيا كان الأمر « فلسنا فى حاجة الى الرجوع الى المذهب الغائى ولو رجوعا جزئيا ، لأننا لا نرفض الاعتماد أحيانا على بعض الحاجات الاجتماعية فى تفسير الظواهر الاجتماعية ، ولكن هذه الحاجات لا تستطيع التأثير فى التطور الاجتماعى الا اذا كانت تخضع هى الأخرى لقانون التطور ·

واذن فالقواعد التى يجب اتباعها فى تفسير الظواهر الاجتماعية تلخص على النحو الآتى :

« يجب البحث عن السبب فى وجود احدى الظواهر الاجتماعية بين الظواهر الاجتماعية السابقة لها ، لا بين الحالات النفسية التى تمر بشعور الفرد » ويمكن اكمال هذه القاعدة بما يأتى : « يجب البحث دائما عن الوظيفة التى تؤديها الظاهرة عن طريق دراستنا للصلة التى تربط هذه الظاهرة باحدى الغايات الاجتماعية » · ولما تجاهل علماء الاجتماع هذه القاعدة غلب الطابع الشخصى على نظرياتهم مما دعا الى بعث الريبة لدى المؤرخين حيال علم الاجتماع · واذا كان « دوركايم » لا يريد تفسير الظواهر الاجتماعية بعوامل سيكولوجية فليس معنى ذلك انه يحرم على عالم الاجتماع أن يدرس الظواهر النفسية الفردية بل يرى على العكس من ذلك « ان حاجة عالم الاجتماع الى ثقافة سيكولوجية (نفسية) أكثر من

حاجته الى ثقافة بيولوجية ، ولكن لن تكون هذه الثقافة النفسية مجدية الا اذا تجاوز نطاقها وأكملها بثقافة اجتماعية بمعنى الكلمة » ٠

مرحلة تحقيق الفروض

أما الفصل السادس والأخير فهو خاص ببيان القواعد الخاصة باقامة البراهين أى بالمرحلة الأخيرة فى المنهج العلمى تلك التى نطلق عليها اسم مرحلة تحقيق الفروض ونلاحظ أن دوركايم أغفل التعرض لمرحلة الفرض فى المنهج الاجتماعى ولعله متأثر هنا بعداء « كونت » للفروض فى المرحلة الثانية من حياته العلمية ٠ ومن المعلوم أن طرق البرهان فى المنهج العلمى هى طريقة الاتفاق وطريقةالاختلاف وطريقة التفسير النسبى وطريقة البواقى وأفضل الطرق فى نظر « دوركايم » وهى طريقة التغير النسبى التى يجب اكمالها بالطريقة التاريخية ٠ أما طريقة البواقى فلا يمكن استخدامها فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، اذ أنها تستخدم فقط فى العلوم التى قطعت شوطا كبيرا فى الكشف عن القوانين ، وهذا ما لم يتم بعد فى علم الاجتماع ٠ وقد بين « دوركايم » الصعوبات التى تعترض تطبيق كل من طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف « ففى الواقع تقوم كل من هاتين الطريقتين على أساس الفرض الآتى : وهو أن جميع الحالات التى يقارن بينها المرء تتفق أو تختلف من جميع الجهات ما عدا جهة واحدة فقط » وهذا ليس بالأمر الأكيد فى علم الاجتماع على الأقل ٠ أما طريقة التغيير النسبى فيكفى فيها أن نقارن بين التغيرات التى تمر بها ظاهرتان للوقوف على العلاقة السببية بينهما وهى لا توقفنا على هذه العلاقات من الخارج بل من الداخل لانها ترينا أن كلتا الظاهرتين تتأثر بالأخرى ٠

« وهناك سبب آخر كانت من أجله طريقة التغير النسبى أفضل الطرق ٠٠٠ ففى الواقع لا يمكن استخدام الطرق الأخرى استخداما مجديا ٠٠٠ الا بشرط أن يكون عدد الظواهر التى يقارن الباحث بينها كبيرا جدا فلئن عجز المرء عن الاهتداء الى مجتمعين يختلفان أو يتفقان فى جميع الوجوه ما عدا وجها واحدا فانه يستطيع أن يتحقق على الأقل من أن ظاهرتين من الظواهر توجدان معا أو يتنافى وجودهما بصفة عامة جدا ٠ ومتى برهن المرء على أن ظاهرتين من الظواهر تتغيران تغيرا نسبيا فى عدد من الحالات استطاع التأكد حينئذ من أنه يوجد وجها لوجه مع أحد القوانين وهكذا يمكن تحديد قواعد البرهان على النحو الآتى :

لن يستطيع المرء تفسير أية ظاهرة اجتماعية معقدة بعض الشىء الا بشرط أن يتبع بملاحظته جميع مراحل التطور التى تمر بها الظاهرة

فى جميع الأنواع الاجتماعية · ويمكن اصابة هذا الهدف بأن نلاحظ المجتمعات التى نقارن بينها فى مرحلة مشتركة من مراحل تطورها · وهكذا نحكم بتقدم الظاهرة أو بتقهقرها أو ببقائها على حالها الأولى تبعا لما يعتورها من قوة أو ضعف فى أثناء وجودها فى كل مجتمع من هذه المجتمعات ··

أشعار طاغور

طـــاغـــور

١٨٩٠ - ١٩٤١م

« اننى فقدت أمى وأنا صبى صغير ولعلى كنت وقتذاك فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرى ·· لقد صحبت أبى قبل وفاة أمى فى رحلة الى تلال « دالهوزى »عن طريق بلدة « أمرتسار » وكانت هذه الرحلة هى تجربتى الأولى مع العالم الخارجى ·· ولا يوجد شك فى أن هذه الرحلة أثرت فى كتاباتى الى حد كبير · وفى هذه الشهور الثلاثة التى لازمت أبى فيها تعلمت على يديه الانجليزية والسنسكريتية فى دروس منتظمة وقضيت معه أمسيات كثيرة أدرس النجوم والفلك ·· وفى رحاب الطبيعة الطلقة تذوقت طعم الحرية التى كانت خارج جدران المدرسة ·· ومن أجل ذلك تركت المدرسة نهائيا عند عودتى ·· ولقد كفرت عن ذلك بأن أنشأت مدرسة فى شيخوختى وأنا الآن لا أستطيع أن أتركها بل اننى أحرص على ألا يفر منها تلاميذى » ·

بهذه الكلمات البسيطة أشار الشاعر الفيلسوف القصصى الموسيقى « رابندرانات طاغور » الى بداية حياته ·· وكيف اكتسب عن طريق الطبيعة شخصيته وقام يصقلها ··

ان طاغور ليس مجرد شاعر أو حكيم أو فيلسوف ·· انه فكرة لن يموت صاحبها فهذا الرجل عبر فى عام ١٨٨٩ عما يكنه من الاحتقار الشديد للحروب ·· ومفاسد الأجانب الدخلاء حينما يتولون حكم بلد يحتلونه ·· !! عبر عن كل ذلك منذ حوالى ١٠٠ عام وكانت بلاده ترزح تحت نير الاستعمار البريطانى بكل قسوته ·· واذا كان كلام طاغور فى مسرحيته « الملك والملكة » قد كتب فى عام ١٨٨٩ الا أن ما يحدث الآن فى كثير من البلاد ·· وما نراه من عروش تتهاوى ومن حروب انما يذكر بهذا الفيلسوف الذى عاشت فلسفته وستعيش قرونا عديدة نبراسا لمن يريد أن يهتدى ويتعلم ···

ولد طاغور فى مدينة « كلكتا » فى عام ١٨٦١ وهو أصغر اخوة سبعة من أبيه « مارشاشى رابندرانات » وكان أبوه أميرا كبيرا فانحدر بذلك طاغور من سلالة الأمراء وكانت مدينة كلكتا ـ مسقط رأسه ـ عاصمة الهند فى ذلك الوقت ·

وكان طاغور من بين أسرة برهمية · وبرهما اسم الله فى اللغة السنسيكريتية الهندية وهو عند البراهمة الاله الموجود بذاته لا تدركه

الحواس ويدركه العقل ، وهو مصدر الكائنات كلها لا حد له وهو الأصل الأزلى المستقل الذى يستمد العالم وجوده منه • وكانت كلمة برهما فى الأزمنة القديمة تعنى الصلاة التى تصحب القربان ولا يظهر أنها كانت تعنى شيئا آخر •

وقد نشأ طاغور على الديانة البرهمية ولكنه أصبح صاحب نزعة فلسفية خاصة • تأمل وهو يناجى ربه :

هذه صلاتى اليك ياربّاه •

انزع هذا البخل من قلبى واجتثه من جذوره وامنحنى القوة حتى أصبر على الاتراح والأفراح

وامنحنى القوة حتى لا أحتقر الفقير أو أخضع للقوة الطاغية •

امنحنى القوة حتى أجعل حبى مقرونا بالتفانى •

امنحنى القوة حتى أسمو بروحى فوق توافه الحياة •

امنحنى القوة حتى أهيم بحبك وأبقى رهن مشيئتك •

وهكذا يناجى طاغور ربه فى ضراعة وخضوع ••• وما العالم فى مظهره الغنى سوى ملعب يمزح فيه المبدع الأسمى ويتلهى بالخلق والتكوين وان الله يتراءى فى ابهى شىء •••• يتراءى فى النور والبستان والوجه الجميل كما تتراءى قدرته فى أهون مخلوقاته •

وقد أصيب طاغور فى صباه بحمى شديدة فصحبه أبوه الى مكان هادىء على شاطىء البحر فكان لهذه الفترة أثر كبير فى رهافة حسه ورقة ذوقه وعمق احساسه بالجمال فتأثر بمنظر البحر الساحر والزوارق التى تتهادى على صفحة اليم فى جمال وجلال والزبد المتطاير كالقطن المندوف والموج الذى يتهادى فى خفوت وهمس حينا ، ويصطفق فى جلبة وضجيج حينا آخر •

وعندما سافر طاغور الى البنغال نظم مقطعات عذبة من الشعر وطفق يناجى بلاده العزيزة من أعماق القلب وأغوار الفؤاد نجوات عذبة • وفى احدى هذه النجوات يقول طاغور : « بلادى العزيزة انك تعملين آناء الليل وأطراف النهار تكدين وتكدحين وعلى ثغرك تتلالأ ابتسامة راضية ••• والعمل يمضى بلا توقف فى حقولك وفى مراعيك ومعابدك وعلى صفحة نهرك المقدس » •

وعاش طاغور فترة من عمره فى بلبور فى البنغال •

وفي عام ١٨٧٧ سافر طاغور الى انجلترا ليواصل دراسة القانون وكان محافظا على ردائه الشعبي وقد حاول أن يحصل على شهادة الميتروكليشن ولكنه لم يكن متفانيا في الدرس لانه أبـاه كان دائما في ترحال وكانت أمه تتركه لدى الخدم وعن هؤلاء الخدم تلقن طاغور صورة عن المجتمع الذى كان يعيش فيه فقد سمع منهم « لم يكن نظام الملكية في تاريخ الهند نظاما يدعو الى البهجة » ٠

وقد صدر لطاغور ديوانه الشعرى الأول عام ١٨٧٧ وهو في الخامسة عشرة وكتب في ذلك الوقت طائفة من المقالات التى أشار فيها الى ضرورة امتزاج الحضارة الأوربية بحضارة الشرق ٠

وتزوج طاغور وهو في الثانية والعشرين ولكن زوجته لم تلبث أن توفيت في عام ١٩٠٢ ٠ وأول انتـاجه المشهور جمع في مجلد باسم « جيتانجالى » أو قربان الأغانى واتجه الشـاعر بعد شعره الليريكى أو الغنائى الى المذهب الرمزى في التأليف من عام ١٩٠٥ الى عام ١٩١٩ ٠

و « جيتانجالى » مختارات من أشعاره الأولى المتفرقة في عدة كتب ٠ وعن أعماله الأدبية الى سن الستين — وفي مقدمتها هذا الديوان الضخم الذى ترجمه هو الى الانجليزية — استحق الشاعر جائزة « نوبل » في الأدب عام ١٩١٣ ٠

وفي عام ١٩١٩ أعلن رفضه لقب « سير » الفخرى من ملك انجلترا عندما منحه هذا اللقب احتجاجا على سياسة انجلترا الظالمة في الهند ٠

وجدير بالذكر أن طاغور طاف بكثير من بلاد العالم فزار الولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا وايطاليا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا والسويد والدانمارك والصين واليونان وايران وكان يقابل في هذه البلاد كلها بترحاب شديد وحفاوة بالغة وقد ألقى في أثناء زيارته لانجلترا عدة محاضرات في جامعة « أكسفورد » في علم الفلسفة المقارن وكان موضوع محاضراته « ديانـات الانسان » وعندما زار روسيا ألف كتابه المشهور « رسائل من روسيا » ٠

وعندما صدر لطاغور كتاب « البستانى » نشرت الديلى نيوز مقالات قرظت فيه الكتاب جـاء فيه « ان أشعار البستانى تفوق حتى الأحسن والأفضل من قرابين الأغانى رقة وابداعا » ٠

وقالت جريدة (الأوبزيرفر) : (هذا الشاعر يتناول الهنات المألوفة في أمور الناس ، ويصوغها دررا متألقة في السماء بجلال الحب والحياة) ٠

واستطاع طاغور في كتاب (السادهانا) أن يلم بأهم قضايا الفكر البشرى الماما يدل على عمق دراسته وطول باعه ٠ وطفق يناقش في هذا

الكتاب مسائل الخير والجمال ، كما أخذ يبصر الانسان بمعنى الألم ، ويرشده الى مكانه الحقيقى في الكون واللانهاية ، ويدعوه الى تحقيق ذاته فى الحياة وفى الحب وفى الفن . وفى ذلك يقول طاغور : (ان أقيم درس يمكن أن يستفيده الانسان من الحياة هو انه لا يوجد هناك ألم فى الوجود . وفى مقدور الانسان أن يتخلص منه ، وينأى عنه ، ويحيله فى نفسه الى سعادة ومسرة ، وبهجة وأنس .. ان ما يؤهل الانسان لكى يكون انسانا — وهذا شيء طبيعى فى حقوقه — هو أن يكابد الشعور بالألم) .

ويشير طاغور فى (السادهانا) الى ضرورة تقبل الحياة على علاتها ، كما أن الكمال لا يمكن أن يتحقق فى الوجود ، انما هناك نقص يشيع فى الحياة .. وهذا النقص يشيع فى الحياة .. وهذا النقص يتراءى فى منازع الحياة المختلفة ، ولا مندوحه عنه ولا مفر منه .

وعلينا أن نتقبل الحياة بما فيها من وجوه النقص دون سخط أو تبرم ، ودون ضيق أو انزعاج ونقنع أنفسنا بأن الحياة لا يمكن الا أن تكون ناقصة ، وان تاريخ العلوم هو تاريخ الأخطاء التى وقع فيها الجنس البشرى فى مختلف العصور . ولا يمكن أن يسمى العلم علما الا اذا واجه النقص والخطأ والخطل والخلل ، ولكن الشر فى الحياة مآله الى الزوال ، كما أن الخطأ مآله الى الاصلاح ... ومهمة الحياة سعى فى سبيل الاصلاح واتقاء الأخطاء ، وتقويم الشرور . وعلينا أن نقبل تجارب الحياة بنفس راضية مرضية حتى نصل الى الخير ، وندرك كنه الحياة الذى يغيب عنا .

وحياة الانسان تختلف عن حياة الحيوان فى السمو والرفعة والاستعلاء عن الغرائز البهيمية ... لان الحيوان لا يدرك نفسه الا عن طريق اشباع الشهوات أما الانسان فلابد أن يتمسك بأهداب التضحية والايثار حتى يكون أسمى من الحيوان وحتى يحقق حياة أفضل وعيشة أسمى .

وقد أشار طاغور فى «السادهانا» الى قول الفيلسوف «يوبانيشاد» ان الكائنات جميعا انما خلقها ابتهاج الله وسروره الذى لا يحد ولا يفنى ولكى نفهم ان فكرة الخليقة انما هى سرور الله بالكائنات يجب أن نبدأ فهمنا بتقسيم الكائنات الى كائنات جميلة وكائنات مفتقرة الى الجمال ، وينبع فهم الجمال من صدمة عنيفة توقظ وجداننا من سباته الأزلى ويدرك فهمنا للجمال أغراضه من الاغراق فى التفريق بين ما هو جميل من الكائنات وما ليس منها على شيء من الجمال ... لهذا كان ادراكنا البدائى يخضع لما يكسو الحياة من ألوان بهية مبهجة تأخذنا بزهوها وبهجتها .

على أن هذا ليس الا ادراكا مبتسرا للجمال اذ كلما نضج فهمنا للجمال كنا أكثر بعدا عن تأثير المظاهر التي تشعها الحياة على مداركنا وتحول ما في الكائنات من شذوذ متنافر مع أحاسيسنا الى نغم متوافق رخيم ومنظوم وادراك الجمال وفهمه لا يمكن أن يأتي دفعة واحدة فالنفوس تعاني الأمور حتى تفهمها ... لذلك كان علينا أولا أن نمارس نقد الجمال بما يحوطه من شعث ، ثم نعزله بعيدا لفهم ما به من خصائص وطبائع وبعد هذه المعاناة نستطيع أن ندرك الجمال ونتبينه في سهولة مهما التوت عليه السبل فأنغامه المنظومة لابد أن تجلي احساسنا فندركها ولو اختلطت بنغم شاذ مضطرب فالجمال الذي يثير عواطفنا ليس في حاجة الى مظهر ، فما كانت الموسيقا لتثيرنا بما يدخل عليها من جلبة وصياح أو صوت جهير ، فالموسيقا تأبى الشدة والعنف وتهوى الى قلوبنا بحقيقة لا ريب فيها وهي أن السكون والجمال والوداعة جميعا سترث الأرض بعد حين .

وقد وهب الله طاغور صوتا عذبا مؤتلفا ، فكان يؤلف الأغاني ويلحنها لنفسه ويترنم بها بين أحبابه وأصدقائه وقد قال مخاطبا ربه : « لا أدري كيف تنشد يا مولاي . إني أنصت في ذهول صامت . ان صوت موسيقاك ينير العالم . أنفاس حياة موسيقاك تجري من سماء الى سماء . ان قلبي يتوق الى الاتصال بغنائك ولكنه عبثا ما يبحث مناضلا عن صوت . ان مجرى موسيقاك المقدس يجتاز كل العقبات الصخرية ويندفع الى الأمام . أني أود الكلام ولكن الكلام لا يصير أغنية فأصبح مغلوبا على أمري لقد جعلت قلبي أسيرا في الشرك اللانهائي لموسيقاك يامولاي » .

وقد امتزج طاغور في فلسفته بالكون حتى صار جزءا منه وفي ذلك يقول : « لقد قبلت هذه الدنيا بعيني وأعضائي لقد طويتها في قلبي طيات لا عد لها لقد غمرت نهرها ولياليها بالأفكار حتى صارت حياتي والعالم جزءا واحدا وأنا أحب حياتي لاني أحب ضوء السماء المنسوج في » .

وديوان طاغور « قطف الثمار » من أروع ما كتب هذا الشاعر العظيم لما يضمه هذا الديوان من معان صوفية رائعة ومن خيال محلق جميل ومن صلوات خاشعة الى الله تعالى وفيه يقول : « مرني فأقطف ثماري وأحملها الى فنائك في سلال ملأى ولو أن بعضها فقد والبعض لم ينضج بعد ... فالموسم يبدو مريعا بفيضها ، وهنا ناى الراعي الحزين تحت الفيء » .

« مرني فأبحر على النهر ان رياح مارس المتناوحة تداعب الأمواج الفاترة فينبعث منها أنين لقد أتت الحديقة أكلها وفي الأمسيات الكليلة يبلغني نداؤك صادرا من قلب دارك ... من لدن الشاطيء المنغمر في الغروب ... » .

« فى ريق الشباب كانت حياتى كزهرة ... زهرة نزلت عن ورقة أو ورقتين من ثرائها حين أقبلت أنفاس الربيع تدلف لدى بابها تستجدى ثم لم تستشعر فقدها والآن حين أوشكت نضرة الشباب أن تذوى أصبحت حياتى كثمرة ... ثمرة لا تجد ما تضن به وهى تنتظر لتلهب نفسها كاملة وما تنضم عليه من حلاوة » .

وفى موضع آخر يقف طاغور مخاطبا ربه الأعلى : « ان لغتك سهلة يا الهى وهى على نقيض لغة الذين يتحدثون عنك اننى أعى حديث كواكبك وصمت أشجارك وأنا واثق بأن قلبى سيتفتح كالزهرة وأن حياتى أترعت نفسها من ينبوع خفى ... وأغانيك كأنها طيور الجهات الثلجية النائية نرف وتريد أن تبنى أعشاشها فى قلبى لتستشعر دفء أبريل وأنا أرقب بهجة هذا الفصل فى رضا » .

ويلتفت طاغور الى الليل الساجى الذى يهبط من حوله وينشر أرديته السوداء على الأحياء والأشياء ويقول : « اجعلنى شاعرك أيها الليل ! أيها الليل المقنع ان ناسا كثيرين قضوا فى ظلامك أجيالا صامتين فدعنى أرتل أغانيهم . خذنى على عربتك وانطلق فى غير جلبة من دنيا الى دنيا ... أنت ياملكا فى قصر الزمان أنت أيها الجمال المظلم » .

وقال فى الليل كذلك : « الليل سياج وهجعتك فى سكون حياتى عميقة فاستيقظى يا آلام الحب لأننى لا أعرف كيف أفتح الباب ... ان الزمان سيأتى والكواكب ترقب والرياح نائمة ولكن هذا الصمت ثقيل على قلبى فاستيقظ أيها الحب لتستيقظ وأترع كأسى الفارغة وأزح الليل بأنفاسك الغنائية » .

وقد ربط طاغور فى فلسفته بين مناحى الجمال . فالجمال فى نظره وحدة متماسكة لا انفصام لها سواء أكان جمال الطبيعة أم جمال المرأة ... فهو ينبع من معين واحد ماؤه الرغبة الصادقة فى معرفة الحقيقة والتطلع الى المعرفة وكشف الأستار ورفع الحجب .

والحب عنده أشبه بالثمرة الجميلة ... حتى اذا ما أتت النحلة ونفثت فيها لقاحها وبدأت ثمارها فى النضج نفضت الزهرة عن نفسها هذه الغلائل الحسان التى توشيها وأصبحت فى شغل عن كل شىء لانضاج الثمرة .

وقد كتب طاغور كتابا لمعالجة شئون البيت والأسرة سماه « البيت والعالم » والكتاب رواية يتقاسم بطولتها « نيكهل » الزوج و « بيمالا » الزوجة ويتضح من سلوك الزوجة أنها امرأة كريمة تحرص حرصا شديدا على سعادة زوجها وتعمل على راحته وهناءته وتقدس الحياة الزوجية

تقديسا يوشك أن يكون عبادة ولعل طاغور يرمى فى هذا الكتاب الى الاشارة الى حياته نفسه مع زوجه واخلاصها له ٠

ويؤخذ من هذا الكتاب أن طاغور يحبذ مساندة المرأة للرجل ولا مانع عنده من مؤازرتها له فى العمل ولكنه يؤكد ضرورة ايمان المرأة بمعنى الزوجية فتصبح ديانة لها كما يصبح زوجها موضع اجلالها وتقديسها ٠

وهو يرى أن سعادة الزوج لا تتحقق الا مع زوجة حرة تثق فى نفسها وتعتز بشخصيتها وتحافظ على كيانها ٠

أما تصوف طاغور فلم يكن زهدا أو تشاؤما أو انصرافا عن الحياة وعما فيها من متع وجمال ٠٠٠ انما كان فناء فى مجالى الكون ٠ وفى ذلك يقول : « لن أكون ناسكا يا رفيقى ، ولتذهب بك الظنون ٠٠٠ لن أكون ناسكا اذا هى لم تشاركنى هذا النسك راضية ، لن أكون ناسكا اذا لم أوفق الى ركن ورفيق يشاركنى نسكى ٠٠٠ هذا ما انتهيت اليه أخيرا فلن أهجر دارى ولن أترك مرقدى لأمضى الى عزلة الغابة ووحدتها ما لم تملأ الغابة ضحكات الأمل السعيدة وليهفهف رداؤها الاقحوانى فوق عزلتى وليحضرنى همسها فى نسكى لتزداد الغابة سكونا وصمتا ! » ٠

فالتصوف فى شعر طاغور عمل روحى وجهد نفسى ، هو معرفة الله وادراك الحق وشمول الروح واتساعها لمعانى الحياة كلها ٠ وتصوفه تدبر ونظر فى مذاهب الهند الصوفية المتطرفة وهو فى الواقع تصوف فى مطالب الروح ورغباتها وانعكاس من النفس لمعالجة مشكلاتها الروحية والاجتماعية من طريق اللين واليسر وادراك الحقيقة ٠

وقد هيأ له ذلك « البصيرة الباطنة » التى وشت شعره بغلالة رائقة من الجلال والجمال فهو يقول فى احدى مقطعاته : « اللهم أرهف مشاعرى وامزجها بعالمك هذا تحية لك واجلالا كغيم تمور المحمل بالأمطار وسحائبه المثقلة بالماء ٠ أخفض لك هامتى تحية واجلالا حتى تأتلف كل نغمات حبى لحنا واحدا يتلاشى فى الصمت الرهيب تحية واجلالا ٠٠٠ كسرب من الحمائم ألح عليه الشوق وبرح به الحنين فآب الى وكناته الجبلية ولم تذق عينه طعم الكرى، لأرحل بحياتى الى مقرها الأبدى تحية لك واجلالا » ٠

وقد مزج طاغور غزله بتلك الناحية الصوفية الصادقة ووشاه بهذه الغلائل الرقيقة من سبحات الروح وشطحات الخيال فقال : « يا حياة حياتى ! سأعمل دائما أبدا فى صيانة جسمى نقيا لان أطرافك الجميلة تلامس كل عضو من أعضائى ٠٠٠ سأعمل دائما أبدا فى اقصاء فكرى عن الضلال لانك الحق الذى أججت نيران العلم فى عقلى سأعمل أبدا فى دفع كل خبث عن فؤادى وكل تصنوح يسرى فى زهر غرامى ، لان مشواك

فى أغوار قلبى ... وحين يغيب عنى محياك يفقد قلبى الهدوء والراحة ويصبح عملى نصبا متواصلا فى بحر رحيب . واليوم أشرق الصيف على نافذتى بهمزة ولمزة وتسارعت النحلات يغازلن أزاهير الرياض ... هى الساعة المواتية دعنى أجلس فى هدوء خيالك وجها لوجه دعنى أغنى فى غمرة هذا السكون الرهيب ! » .

وهكذا يكون غزل طاغور شعرا روحانيا يرفعنا فوق آليات الحياة ويناى عن الشهوة العارمة والرغبة الجامحة . وقد أسس طاغور مدرسة « سانتيكيتان » آى دار السلام ، فالله هو السلام التام والصلاح التام ... وهو الفريد الوحيد وهو سلوة النفس وفرحة القلب وسلامة الروح . والماء ليس فى رأيه هو ذلك الشىء الذى ينظف الجسد فحسب ولكنه يطهر القلب لانه يمس الروح ، والأرض ليست ذلك الشىء الذى يمسك الجسم فحسب ولكنه شىء يسر الخاطر وصلتها بنا فوق الصلة الجسمية لانها كائن حى .

وساهم طاغور الى جانب جهوده فى ميدان التصوف والأدب بجهود أخرى فى ميدان العلم فالف كتابا عن « العالم الواسع » باللغة البنغالية نقلته الى الانجليزية السيدة « أندودت » ويبهرنا طاغور فى هذا الكتاب بمعرفته العلمية الواسعة ومن ذلك قوله :

« ان قطر الشمس ٨٦٤٫٠٠٠ ميل ولو اجتمعت مائة وعشر من الأرض ووقفت كل واحدة الى جانب الأخرى فى خط مستقيم لبلغ مجموع عرض هذه الأرضين مقدار عرض الشمس وحدها من طرفيها . والشمس اذا وزنت تبلغ ضعف وزن الأرض ٣٣٠ ألف مرة وهى لذلك تستطيع أن تبدى جذبا مغناطيسيا يتعادل وذلك المقياس . والشمس تربط الأرض الى مدارها بالضغط المغناطيسى ولكن الأرض بفضل ما أوتيت من سرعة من حركتها الدائرة على أن تحتفظ بمسافة ابتعادها عن الشمس » .

والكتاب يضم الى جانب هذه الحقائق العلمية الطريفة حقائق أخرى تزيد من اعجابنا بهذا الشاعر المتصوف الذى أخذ من كل شىء بطرف . ولو أن عالما متخصصا قال هذا لما وجدنا فيه شيئا من العجب ولكن أن يقوله شاعر تبلغ تمثيلياته الشعرية فى لغته الأصلية نحو ١٥٠ ألف بيت وتبلغ مقالاته الفلسفية ورواياته وقصصه القصيرة ومقالاته فى النقد والتراجم الذاتية قدرا كبيرا وتبلغ أغانيه التى أعدت للغناء ويستمع اليها الآن أكثر من ١٥٠٠ أغنية فهذا هو العجب العجاب !

وقد منحته جامعة اكسفورد الدكتوراه الفخرية فى الأدب عام ١٩٤٠ وفى عام ١٩٤١ انتابه المرض وقامت الهند كلها تصلى وتدعو له بالشفاء

ولكن وطأة المرض ازدادت عليه ولم يلبث أن فاضت روحه الى بارئها بعد أن ظل في غيبوبة كاملة طيلة يومين وبعد أن ترنم بلحن الوداع :

« أنا راحل فزودونى بالوداع يا اخوانى . انى أنحنى اليكم محييا وأنصرف ... الآن أرد مفاتيح بابى وكل حقوقى فى دارى انى أسالكم فقط كلمات شفيقة أخيرة لقد كنا جيرانا طويلا ولكنى أخذت أكثر مما قدرت أن أعطيه ... قد ذر الآن فجر النهار وخمد المصباح الذى أنار ركنى المظلم . جاءت الدعوة وأنا على أهبة الرحيل » .

وقد توفى طاغور فى ٧ من أغسطس عام ١٩٤١ وهو فى الواحدة والثمانين وقد نثرت على جثته الأزهار والعطور ، ثم أحرقت بين مظاهر الحزن والأسى وأشعل حفيده النار فيها ثم وورى هذا الرماد التراب فى زجاجة صغيرة فى « سانتيكيتان » .

روح الانسانية عند طاغور

العقيدة الدينية التى يدين بها رابندرانات طاغور هى ــ كما أسماها هو ــ عقيدة شاعر لم يأخذها من كتاب ولم يسمعها من رسول لكنه استلهم فيها وجدانه واستوحى خبرته الواعية وخلاصتها أن « الانسان الأزلى » هو نفسه الله الذى حقت على أفراد الناس عبادته والمقصود بالانسان الأزلى هو فكرة الانسانية التى تمثلت فى هذا وذاك من الأفراد ، فهؤلاء الأفراد فانون والانسانية باقية وهؤلاء الأفراد حادثون يحيون حينا ثم يطويهم الموت . والانسانية أزلية منذ القدم لا أول لها فى الزمان ولا آخر وهؤلاء الأفراد يختلفون ويتقاتلون ويتحاسدون ويتناحرون والانسان الأزلى الأبدى واحد لا كثرة فيه ولا تباين وهؤلاء الأفراد تدفعهم شهواتهم هنا وتجذبهم غرائزهم الدنيا هناك أما الانسان الخالد فلا شهوة فيه ولا غريزة انما هو مستقر هادىء ساكن عاقل حكيم فماذا يدعو الأفراد الى اخاء أكثر من أن يعلموا أنهم جميعا ــ على اختلافاتهم الظاهرة ــ ملتقون هناك عند الأب الكبير وحدة واحدة لا تشقق فيها ولا تمزق ؟ .

والفرق بين الفرد المتغير والانسان الخالد الباقى هو نفسه الفرق بين النفس والروح فالأولى هو السطح المضطرب والثانية هى الأعماق الصامدة والأولى هى مجال الاختلاف والكثرة والثانية هى مركز الالتقاء والوحدة ولطالما تبزغ الروح من أعماقها فتوجه هذا الفرد أو ذاك توجيها يناقض التوافه التى تمليها عليه نوازع حياته اليومية ويقلب خطط رغباته الأنانية رأسا على عقب فاذا هو يعمل لصالح المجموع لا لصالح نفسه واذا

هو ينطق بلسان الكل ويعبر عن روح الكل ولا ينطق بلسان نفسه ولا يعبر عن ذات نفسه وها هنا قد يتساءل هو ويتساءل الناس معه : أنى له هذه القوة الدافعة التى لا يقوى على صدها والتى يضطر الى خدمتها بغض النظر عن صوالحه هو العاجلة حتى ليموت مضحيا بحياته الفردية كلهـا هى وترضى ؟ انها هى الروح الكلية الخالدة التى ما جئنا أفرادا الا لتحقيق أهدافها وعندئذ لا يكون فرق بين فرد وفرد وتنمحى الفوارق الجنسية واللونية جميعا ونصبح جميعا جنودا مجندة مجندة لها تدعو من تشاء لحمل رسالتها ـ رسالة الحق والخير والجمال ـ فيحملها راضيا أو مكرهـا لا ابتغاء مرضاة نفسه بل استجابة لنداء ما يستحيل رد ندائها : روح الانسانية جميعا ٠

كانت الخطوة الأولى نحو أن تنكشف هذه الحقيقة لطاغور هى شعور الألفة بينه وبين الطبيعة ٠ وهو لا يعنى بالطبيعة هنا تلك الطبيعة التى نتصل بها عن طريق أبداننا اتصالا نستمد منه معارفنا عن هذه الظاهرة من ظواهرها أو تلك بل يعنى بالطبيعة جوانبها التى تحقق ذواتنا وتخصب حياتنا وتحرك خيالنا بما فيها من صور وألوان وأصوات وحركات جاءت كلها متنـاغمة متجاوبة فى نشيد واحد ٠ كلا انها ليست الطبيعة التى نجردها فى رموز رياضية ليعالجها العلم فى صيغ ومعادلات حتى تختفى الطبيعة فى لبها وصميمها وراء ما تقدمه للعلم من شواهد على وجودها وعلى حقيقتها بل الطبيعة المقصودة هنا هى التى تمس الانسان صميمها بصميمه وروحها بروحه فيكون جزءا منها وتكون جزءا منه ٠

لا ٠ بل اننا لنتخذ من العلم ذاته شاهدا على صدق ما نقوله من أن وراء أنفس الأفراد روحا انسانية شاملة وذلك ان رجال العلم ينبئوننا بأن معيار علمهم هو « الحق » والحق يختلف عن الخير وعن الجمال فى أن هذين يتوقفان على ميل ذاتى عند الانسان فالخير خير لان الانسان يراه خيرا وكان يمكن ألا يراه كذلك والجمال جمال لان الانسان يراه جمالا وكان يمكن ألا يراه كذلك ، وأما الحق فهو حق لأن الانسان مرغم على قبوله ولا دخل لاهوائه فيه فبينما الخير والجمال نابعان من داخل الانسان ترى الحق يفرض نفسه عليه فرضا لا حيلة له فيه وتسأل رجال العلم قائلا : وكيف نتصور الحق مستقلا عن العقل الانسانى ؟ فيجيبونك بأن هذه حقيقة قد تثير العجب وتستعصى على التعليل ولكن هكذا أمرها على كل حال ٠٠٠ وهنا يتوجه اليهم شاعرنا طاغور بهذا السؤال : أفلا يجوز أن يكون « الحق » الذى هو مستقل عن عقول الأفراد ومفروض عليها من خارجها فرضا أقول أفلا يجوز أن يكون هذا الحق حقا لأنه صادر عن العقل الكلى العام الذى يشتمل على عقول الأفراد كما يشتمل الأصل على فروعه ؟ لاننا اذا قلنا ان الحق ـ كما تراه عقولنا ـ قائم خارج الانسانية كلها

فانما ننقض العلم بقولنا هذا ، لأن العلم لا يسلك فى مدركاته وتصوراته العقلية الا تلك الحقائق التى هى فى مستطاع الناس أن يعلموها ويفهموها وما المنطق الا أداة التفكير كما اصطنعها الانسان لنفسه • واذن فلا مناص لنا من ربط الصلة بين « الحق » وبين العقل ربطا يجعل الأول معتمدا على الثانى وليس مستقلا عنه فان رأيناه غير معتمد على عقول الأفراد حكمنا باعتماده على عقل كلى عام •

ان ظهور الانسانية الواحدة العامة مشتتة فى أفرادها لا ينفى وحدانيتها وتكثر العقول فى بنى الانسان لا ينفى وجود العقل الكلى العام فليس ما يثير فينا العجب هو أن نقول ان الأجزاء تترابط فى وحدة تضمها ، بل كان العجب ليأخذ بألبابنا اذا وجدنا الأجزاء مفككة فرادى لا تجد الرباط الذى يوحدها فالصلات الرابطة هى من الحقائق الأساسية فى عالم الظواهر الذى نعيش فيه بحواسنا وأجسادنا وأجدر بها أن تكون كذلك من الحقائق الأساسية فى عالم العقل والروح خذ — مثلا — قطعة من الفحم تجد لها خصائصها المميزة المعروفة لنا من حيث هى قطعة من فحم ونستخدمها على هذا الأساس فنحقق باستخدامها ما نريد من أغراض لكن حلل قطعة الفحم هذه الى مقوماتها الأولية تنقلب لك عددا كبيرا من الكترونات وبروتونات وبذلك تختفى قطعة الفحم التى عهدناها ذات خصائص معينة محددة أفيكون لنا من مناص سوى أن نقول ان هذه الوحدات الأولية الكثيرة انما تستمد حقيقتها لا من حيث هى قائمة مفككة فرادى بل من حيث هى متصلة مترابطة فى قطعة الفحم أو فى غيرها من أشياء هذا العالم وما الخلق الا اندراج الوحدة البسيطة فى الكل المركب وكذلك قل فى العالم الروحانى الذى يتحقق بانكار الذوات المقررة بوطيها تحت الذات الواحدة الشاملة وان يكن هنا الأمر أعصر منه فى الأشياء الطبيعية لأن الوحدات المفردة فى حالة الانسان — على خلاف ما نراه فى وحدات الأشياء الطبيعية — ذات ذكاء وذات ارادة قد يعصيان على عملية التوحيد ولابد لهما من رياضة وتدريب حتى ينصاعا الى الروح فتنطوى الأفراد فى أصلها العام •

لقد جاء فى آية من « اليوبانشاد » ان وحدة عليا تضم هذا العالم بكل ما فيه من حركة فيستحيل على الانسان أن يبلغ سعادته الكبرى اذا هو اقتصر على اشباع شهواته الجشعة انما طريق النشوة الحق فى تجرد الانسان عن نفسه المفردة ايفنى فى الروح الخالدة هذا الروح الأسمى الذى تتحد به أنفسنا الفردية فتفنى فى غمرته ليس عقلا صرفا بل هو كذلك خيال وهو حب وهو حكمة فاذا أحببته أحببت كل الكائنات وطعمت لذة التضحية فى سبيل من تحب ، وبهذا يصبح غاية الحياة التى لا غاية وراءها هى فناء الفرد فى سبيل المجموع •

الانسان الأسمى

ان للانسان من وجهة نظر طاغور ثلاث حيوات فى حياة • ولكل من الحيوات الثلاث عللها التى تسقمها ولكل منها كذلك علاجها الذى يشفيها• أما الحياة الأولى فحياة الجسد التى لا تكون على اتمها الا اذا اتسق هذا الجسد مع سائر أجساد الدنيا الطبيعية المحيطة به فالعين يقابلها الضوء والأذن يقابلها الصوت والمعدة يقابلها الطعام وهكذا • فجانب أو جوانب من الجسم الانسانى يتصل بجانب أو جوانب من الطبيعة الخارجية فان جاءت الصلة بينهما ميسرة فخير والا كان الجسم معلولا يريد البرء من علته لتستقيم صلاته ببيئته مرة أخرى • وأما الحياة الثانية فحياة العقل فثمة معقولات كقوانين العلم مثلا ويراد لعقل الانسان فهمها وقبولها فان فعل كانت حياته العقلية سوية سليمة والا فالانسان عندئذ يوصف بالبلادة والغباء والجهل • وأما الحياة الثالثة فحياة الروح التى تتنـاول علاقة الشخصية الفردية بالشخصية الانسانية العامة فالى أى حد تتسق نوازع الواحد وعواطفه وأهدافه مع نوازع الانسانية وعواطفها وأهدافها ؟ اللهم ان كان الجانبان على اتفاق فحياة الروح عندئذ تكون معافاة سليمة وأما ان كانا على تباين واختلاف فحياة الروح اذن مصابة عليلة تحتاج الى التطبيب والمعالجة لتشفى ••• وفى هذه الحيوات الثلاث جميعا نستطيع أن نتبين العلاقة بين الفرد الواحد والكل الذى يحتويه ونستطيع نتيجة لذلك أن نتبين معنى الحرية فى وجوهها المختلفة فحرية الجسم مرهونة بعلاقته بالطبيعة المادية وحرية العقل مرهونة بعلاقته بعالم المعقولات وأما حرية الروح فمرهونة بعلاقتها بعالم الروح •

وفى الحديث عن حرية الروح لابد لنا من التفرقة بين « النفس » و « الروح » ، فالنفس هى المنوط بها مناشط الانسان الخاصة بطبيعته الفردية المحدودة وأما الروح فهى التى نتجاوز بها حدودنا الفرديةلنواجه الحقيقة الكلية أعنى « الانسان الأسمى » • ولئن كانت « النفس » تجد سعادتها فى تقرير الفرد لذاته بغض النظر عما عمداه وعمن عداه فان سعادة « الروح » هى فى انكار تلك الذات الفردية من أجل تحقيق ذات أسمى وأشمل على أن انكار الذات الفردية هنا لا يعنى — من وجهة نظر طاغور — سحقها ووأدها بل يعنى توجيهها نحو تحقيق ما يراد تحقيقه وهو أن يلتمس الفرد طريقه الى الاتحاد مع المثل الأعلى الذى يضم فى ذاته ضروب الكمال كلها أى أن يسعى الفرد نحو حياة توفق بينه وبين الانسان اللامتناهى الخالد فمن وجد ذاته محققة فى « الكل » تكشف له الله الحق

الذى كان خبيئا فى نفسه عندما كان معزولا فى فردية يباعد بينه وبين الآخرين ٠

وفى عالم الفن خير مثال نسوقه للحرية التى تستشعرها النفس اذا ما تحررت من فرديتها الضيقة فانظر الى النشوة الفرحى التى تملؤك اذا ما نظرت الى شىء ما من حيث يخدم غرضا من أغراضك بل من أجل ذاته فعندئذ لا يقيدك الصالح الفردى الشخصى الضيق بل تنفك عنك هذه القيود وتحس أنك قد علوت عن ذاتك ونظرت نظرة تنفذ الى حقيقة الأشياء فى ذواتها ٠ تلك هى النظرة الفنية للأشياء وللعالم وكذلك هى النظرة الروحية ٠ ففى النظرة الروحية تحل « الروح » من أغلال « النفس » أو الذات الفردية وتصبح قادرة على التمتع بالأشياء تمتعا لا شأن له أبدا بتحقيق مصالح اللحظة الراهنة والظروف العابرة بل هو تمتع منزه من الغرض ولذلك فهو نفسه التمتع الذى يصاحب الابداع الفنى كما يصاحب النظرة الفنية الى هذا الابداع ٠

هذه الدعوة التصوفية الى عقيدة تحطم حدود الفرد لتؤمن «بالانسان» الواحد المشترك ربما بدت غريبة لمن ألفوا الى الأمور نظرة واقعية علمية ولهذا أراد طاغور أن يطمئن هؤلاء أنه بهذه الدعوة لم يبعد كثيرا عما يفعله العلم ذاته وليس من شطط القول أن يوصف العلم بأنه تصوف فى عالم المعرفة المنصبة على الطبيعة المادية فما معنى ذلك ؟ معناه ان العلم يجاوز بنا حدود الظواهر البادية للحس ليصل بنا الى حقائق الأشياء من باطن ، وهى حقائق تتخذ صور المبادىء العامة والتجريدات التى لا هى مشخصة ولا متعينة ٠ فهو اذن يحرر عقل الانسان من عبودية الحواس حتى ينطلق فى عالم من الحرية العقلية ٠

طاغور المربى

قل من الأفذاذ من يتسع نبوغه الى مثل الآفاق التى تغلغل فيها طاغور فهو فيلسوف متعمق ٠ وفنان خلاق ٠ أنارت آراؤه الطريق للملايين فى الهند حتى وصفه غاندى بأنه حارس الهند العظيم ونفذ فكره الثاقب فى كثير من نواحى الحياة ومجد الطبيعة والانسان والانسانية حتى استحق عن دراساته ومؤلفاته جائزة نوبل سنة ١٩١٣ وترجم كثير من كتبه وأشعاره الى عدد كبير من لغات العالم وترنم بأغانيه وموسيقاه الكثير من الناس وشهدت صوره وفنه البلاد المختلفة حيث أقيمت فيها المعارض لهذا الفن الرفيع ٠

ولم يقصر نشاط طاغور على هذه الميادين بل تعداه الى ميدان التربية الذى اتجه اليه هذا العقل اللامع بعد سن الأربعين. ورسم طاغور مذهبه فى التربية والتعليم واضحا بسيطا بل طبق مذهبه عمليا فى الحياة فأنشأ مدرسة سانتينيكتان التى تطورت الى الجامعة العالمية بعد ذلك وهى تعد الآن من أعظم جامعات الهند وتضم طلبة وطالبات من أنحاء العالم ويقوم على تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم أساتذة من جنسيات مختلفة ويعيش الجميع معا فى جو من التفاهم والتعاطف والتقدير المتبادل كما أراد ذلك طاغور .

ولقد كان وراء آراء طاغور فى التربية والتعليم عوامل مختلفة وخبرات من حياته المليئة انصهرت جميعا لتصنع تلك الآراء وتحفزه على انشاء مدرسته .

وكان طاغور ينادى دائما بضرورة تعليم الطفل جغرافية بلاده وتاريخها وتراثها حتى يفهم نفسه ويفهم بلاده وحتى يقوم تعليمه بعد ذلك على أساس مكين من تراثه وثقافته الأصيلة . وكان مر الانتقاد للنظم المدرسية وبرامج التعليم التى قامت فى الهند منقولة عن الغرب ويرى فيها تعويقا للنمو الفكرى فى هذه البلاد وأنها لا تؤهل الا للوظائف والقيام بالأعمال المهنية بشكل رتيب لا يفتق الذهن لابتكار أو اجراء بحث علمى أو القيام باضافات للرقى بالعلم أو المهنة .

ويقول طاغور فى ذلك :

« نحن نقول ان الشىء الوحيد الخاطىء فى التربية عندنا هو أننا لا نتحكم فيها تماما ، ان السفينة جديرة بالبحر ولكن يجب أن تكون الدفة فى أيدينا حتى ننقذها من التهلكة نحن ننسى أن الخطأ نفسه موجود فى خلقنا أو فى ظروفنا التى لا مناص من أن تجرنا الى منحدر التقليد الزلق . . ان حريتنا حينئذ تكون حرية فى تقليد المعاهد الأجنبية وبذلك يوقعنا الحظ التعس تأثير عاملين ضارين : هما التقليد وسوء التقليد وبذلك نتج تصنعها ، آليا آلة فاسدة .

ان الشر والفساد يأتيان من أننا حينما نفكر فى جامعة تثب الى ذهننا صورة جامعة كمبردج أو أكسفورد وحشد آخر من الجامعات الأوروبية يتدفق ليملأ جميع فكرنا ونتخيل بعد ذلك أن تحررنا قائم على اختيار أحسن ما فى هذه الجامعات ثم نرقع بعضها ببعض فى تنظيم كامل وننسى أن الجامعات الأوربية هى أجزاء عضوية حية من حياة أوروبا حيث وجد كل منها مولدها الطبيعى . ان ترقيع أنوفنا وأجزاء وجوهنا الناقصة بجلود وعضلات من أعضاء أجنبية أمر مسلم به فى الجراحة الحديثة ولكن أن نبنى الانسان بكليته من أجزاء فانه أمر تعجز عنه ممكنات العلم ليس

فى الوقت الحاضر فقط ولكن آمل بكل قوة أن يكون كذلك فى جميع العصور القادمة » ٠

وليس معنى هذا أن طاغور كان لا يؤمن بأية ثقافة أجنبية بل على العكس كان يعتقد فى ان هذه الثقافة ضرورية لبث الحياة فى الفكر مهما تعارضت مع الثقافة الأصلية ويضرب مثلا لذلك روح المسيحية الذى لا يتعارض فقط مع ثقافة أوروبا الكلاسيكية ولكنه يتعارض أيضا مع المزاج الأوربى تماما وبالرغم من ذلك فان روح المسيحية كان أهم وأعظم عامل فى النهوض بالمدنية الأوربية وتغذيتها بسبب هذا التعارض وهذا الأمر نفسه حاصل فى الهند فان الثقافة الأوربية قد غزت الهند ليس فقط بما تحويه من علم ومعرفة بل وبسرعتها الهائلة ٠ ومع أن تمثل الهند لهذه الثقافة كان ناقصا فانها أثارت الحياة الفكرية وأخرجتها من سكونها وعاداتها الشكلية وأثارت فيها حرارة الادراك بسبب هذا التعارض بينها وبين التقاليد الفكرية القومية ٠

ولكن ما يعترض عليه طاغور هو ذلك النظام المصطنع الذى من شأنه أن يسمح للتربية الأجنبية أن تملأ العقل القومى كله وبذلك يقتل الفرص الخلاقة المبتكرة لقوى فكرية جديدة تتوالد من تفاعل الحقائق الأجنبية مع التراث القومى أو على الأقل يقف عثرة فى سبيل ذلك ٠

وهذا هو ما جعل طاغور يلح فى تقوية جميع عناصر الثقافة القومية الأصيلة لا لتقاوم الثقافة الغربية ولكن لتقبلها وتتمثلها حتى تصبح هذه الثقافة لا أن يعيش على هامشها ٠

ويضرب طاغور مثلا لذلك بالاسلام الذى وجد طريقه للهند من الخارج محملا بخزائن المعرفة والمشاعر الزاخرة وديمقراطيته الروحية العظيمة ٠ ففى ميادين الموسيقا والعمارة والفن والأدب قدم الاسلام اضافات ثمينة للثقافة الهندية ومن يدرس حياة القديسين الهنود فى العصور الوسطى ومؤلفاتهم وجميع الحركات الدينية التى بزغت فى أثناء الحكم الاسلامى يدرك تماما أى دين عميق تدين الهند به لهذا التيار الذى وفد من بلاد العربية وامتزج تماما بالحياة الهندية ٠

ولم تقتصر دراسة طاغور على الناحية الفكرية من التربية بل انها امتدت الى الناحية الوجدانية أيضا التى هى بحاجة الى أن تعكس عليها الأضواء كما عكست أضواء الفكر على الحياة العقلية حتى تلمع وتزدهر كما لمعت الحياة الفكرية وازدهرت ٠

لقد خلد طاغور اسمه بين عباقرة الفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانين على مر العصور ، كذلك أصبح اسمه خالدا بين علماء التربية

بما نشر من مبادىء سامية وتعاليم قوية عمل على تطبيقها فى مدرسته التى أنشأهـا منذ تسعين سنة ونمت وازدهرت حتى أصـبحت جامعة عالمية يحج اليها الدارسون والعلماء من جميع أنحاء العالم ٠

وفى سنة ١٩٤٠ أوفد « متحف الحضارات البدائية » فى باريس الى الهند m.I. Gommes فى مهمة رسمية لدراسة الشعوب وتطور الحضارة فأقام فترة طويلة بجوار رابندرانات طاغور فى جامعة « شانتينيكتان » وبلغ اعجابه بهذا الشاعر العبقرى أروع المظاهر وأشاد بالرسالة الضخمة التى تحققها جامعة طاغور فى التسـامى بالفكر البشرى ودعم السـلام بين الشعوب ٠ وحين عاد الى فرنسا سنة ١٩٤٢ وأراد رفع تقرير عن زيارته هذه لم يستطع أن يحصر فيض اعجابه فى صفحات موجزة فوضع كتابا فى ٨٤ صفحة واختار له عنوانا متواضعا لاقتناعه بأنه لا يمكن أن يفى طاغور حقه فى الدراسة فأسماه : « مقدمة عن طاغور » ٠

ولقد قدم كتابه للقراء بهذه الكلمات :

« ان هذا الكتاب الا دعوة لمعرفة أبرز شخصية متكاملة فى عصرنا هذا تلك الشخصية التى حين التقت بالعـالم وبالناس تجسمت فيهم واستطاعت أن تفهمهم وتحبهم بصورة لم يستطعها أحد آخر » ٠

وجاء فى مقدمة هذا الكتاب :

« اننا نستطيع أن نجزم أستاذ « شانتينيكتان » قد اخترق حدود عالمنا الروحى وتوغل فيها بفضل تسامى فكره وعمق بحوثه فلقد طاب لهذا الشاعر العبقرى أن يصبح معلما ومربيا فوضع فنه فى خدمة المبادىء الجوهرية التى طمست معالمها حياتنـا العادية ٠ فلم يقنع بالدفاع عن الحقائق الروحية بل دأب يسعى فى أن يعلم الانسان من جديد معنى الفكر الروحى وأماط اللثام عن كل ما يقتل الحياة من سيطرة المادة التى تصيب النفس بالشلل والسلطان الآلى الذى يصيب الروح بالتصلب ٠ وهكذا جاءت تعاليمه وأقواله عملية فعالة تكشف لنا معنى الحياة وحقيقتها ٠

لذلك كانت أناشيده التى يتغنى فيها بالحياة وبالحرية جديرة بأن يتقبلها بالترحيب كل من يرى الحضارة المادية تنهار فى حضيض البشاعة والفزع ٠

كما أن رسالة الشاعر الهندى يمكنها أن تعين العالم الغربى على أن يدرك ادراكا أفضل قيمة الثروة التى لديه وأن يوجه ارادته توجيها عاليا ساميا واننا نناشد الغرب أن يفتح آذان قلبه وروحه لتلقى هذا الصوت الأخوى القادم من أعماق الشرق » ٠

رسالة محبة : أن أبرز ما استرعى نظر منظمة اليونسكو فى مؤلفات طاغور التى تبلغ مائة وعشرين مجلدا كانت دعوته الى السلام ونشر المحبة بين الناس مما حدا بهذه المنظمة العالمية أن تشيد بذلك وتخصه بأعمدة طويلة فى عدد ابريل سنة ١٩٦٠ من جريدتها ٠

ففى الواقع لم يكتف طاغور بالتغنى بالسلام والمحبة بل كان هو نفسه يحب الناس جميعا وخاصة البسطاء والفلاحين مما يذكرنا بالأديب الروسى تولستوى ولعل تأثير ذلك يرجع الى زوجته التى غرست فيه حب الفقراء « أطفال الله الكبار » على حد قولها ٠

هذا الحنان العميق للمساكين الودعاء والصغار فى هذا العالم ٠ وهذا العطف الشديد على « الفقير والضعيف والضال » هو الأساس المتين الذى تبنى عليه الانسانية رسالتها فى التوجيه الايجابى لحركة السلام العالمى ٠

طاغور يؤمن بأن « الحب هو المعنى الأسمى لكل ما يحوطنا «سادهانا» و « ان نور الشمس يفتح باب الكون كما أن نور الحب يفتح كنوز العالم » وتتبلور العقيدة الطاغورية فى أنه « يجب أن تحب لكى تعمل ويجب أن تعمل لكى تحب » ويذهب به ايمانه بالحب الى أن يقول : « عليك ان تؤمن بالحب حتى لو جلب عليك الألم » ٠

ولقد أعجب الأديب الفرنسى المعاصر « ماركل أشارد » بهذه العبارة الأخيرة الى حد أنه اتخذها شعارا له ٠ وحين انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ١٩٦٠ قال فى أصدقائه : « لقد اتخذت من الحب دينا لى » وبعد ذلك بعام يكتب مقالا فى مجلة أيلى الفرنسية يردد فيه عبارة طاغور هذه ثم يضيف : « ان الحب لا يضيع أبدا ٠٠ فالحب هو بداية المعرفة كما أن النار هى بداية النور » ٠

ان احياء اسم طاغور ليس احياء لفكرة منعزلة انما هو احياء لرجل أيقظ العالم أجمع أصداء عميقة فى الفلسفة وفى الأدب وفى الفنون فتوطدت بذلك الدراسات المقارنة بين الشرق والغرب فى هذه الألوان المختلفة من المعرفة والثقافة ٠

وفى أعلى الحواجز والحدود التى تفصل بين الأجناس والأوطان أخذت تحلق روح ذلك الذى طالما تمنى للفكر البشرى انتشارا عاليا دوليا وتعاونا فى روح المحبة والسلام ٠

لقد تحققت نبوءة أبيه :

« سيدعى رابندرا — أى الشمس — لانه مثل الشمس سيطوف العالم والعالم سيضىء بنوره » ٠

وهذه أمثلة رائعة من شعر طاغور :

الخطايا الأربـــع

لماذا انطفأ المصباح ؟ .. لقد أحطته بردائى لأجعله فى مأمن من الريح لهذا انطفأ المصباح .. هذا هو التهور .

لماذا ذبلت الوردة ؟ .. لقد ضممتها الى صدرى فى لهفة وقلق لهذا ذبلت الوردة هذا هو خداع الحب .

لماذا جف النهر ؟ .. لقد أقمت حياله سدا ليخدمنى أنا وحدى .. لهذا جف النهر . هذه هى الأنانية .

لمـاذا انكسر وتر العود ؟ .. لأنى أردت ارغامه على تأدية نبـرة عالية .. لهذا انكسر وتر العود ..

هذه هى الكبرياء .

فردوس الحريـــة

هنا حيث العقل لا يعرف الخوف والرأس شامخ .

هنا حيث المعرفة تصطخب كامواج البحر .

هنا حيث العالم لا يجزأ بين جدران ضيقة منفصلة .

هنا حيث تتصاعد الألفاظ من أعماق الصدق .

هنا حيث المجهود المطرد يمد ذراعيه نحو الكمال .

هنا حيث مجرى العقل الصافى لم يسر ضالا الى الفناء فى صحراء العرف والتقاليد القاحلة .

هنا حيث يتقدم الذهن تحت قيادتك نحو التوسع الدائم فى الفكر والعمل .

اذنك يا الهى أن تجعل وطنى يستيقظ فى فردوس الحرية هذا !

الشـــاعر والعصفور

يرغم المساء الذى يدنو وئيد الخطى مسكتا كل الأناشيد .

وبرغم رحيل رفيقك وتعبك ·

وبرغم الخوف الذي يسري في الظلمات ·

وبرغم السماء المقنعة ·

استمع الى اليها العصفور · يا عصفورى الصغير اياك أن تطوى جناحيك !

ان الظلمة التى تكتنفك ليست ظلمة أوراق الغابة · انها البحر الذى ينفتح كشعبان هائل ·

ان أزهار الياسمين التى ترقص أمامك انما هى زبد الأمواج الذى يبرق تجاه عينيك · أنت بعيد ·· بعيد جدا ·· أين ، هى ضفتك الخضراء المشمسة ؟

أين هى حياتك أين هو عشك ؟

أمازلت تأمل فى العودة اليه ؟

استمع الى أيها العصفور يا عصفورى الصغير : اياك أن تطوى جناحيك !

الليل يتمدد على الطريق ·

والفجر يغفو خلف الجبيلات المظلمة ·

والنجوم البكماء تعد الساعات ·

والقمر الشاحب يسبح فى الظلام العميق ·

كل ما فى الكون يخيفك ··· كل ما فى الكون يطردك ويدفعك مكرها الى عشك ·

ومع ذلك فاستمع الى أيها العصفور يا عصفورى الصغير : اياك أن تطوى جناحيك ·

لقد تضاربت الظلمات واختلطت الأجواء وعصفت بالسماء ريح عاتية·

انتهى كل شىء ·· لم يعد لك أى أمل !

لم يعد فى وسعك أن ترسل لا تأوهات ولا غمغمات ولا صراخات !

لم يعد لك عش ولا فراش للراحة !

ليس لك غير جناحيك والسماء اللانهائية ·

فعلام الخوف وعلام الحزن ؟

حلق فى الجو مجاهدا · اضرب فى الفضاء ما استطعت · عش طليقا حرا برغم الظلام والريح والموت · واياك اياك يا عصفورى الصغير أن تطوى جناحيك ·

ايهـــا المـــوت

أيها الموت ياموتى قل لى ماذا تهمس فى أذنى بمثل هذا الخفوت ؟

لقد تسللت الى فى هدأة المساء · والزهر يذبل والماشية تعود الى المذود · ثم جلست خفية بجوارى · وطفقت بكلام لا أفهمه ·

أتعتقد انى أخافك ؟ ·· أتأمل بكلامك ان تداهئنى فتأسرنى · ثم ترقدنى فى غمغمة خاطفة تحت أفيون قبلاتك الباردة أيها الموت يا موتى ؟!

أريد أن يقام لعرسنا قداس رائع ! ··

أريد أن أبصر اكليلا من الياسمين منعقدا حـول جدائل شـعرك الوحشى !

أريد أن ترسل الى من يتقدمك حاملا علمك !

أريد أن تلتهب الظلمة كلها من نار مشاعلك الحمراء · أيها الموت ياموتى !

فتعال اذن ··تعال على نغم اصطفاق صنوجك الصدفية · تعال فى ليلة فارقها النعاس البسنى الرداء القرمزى وضم يدى الى يدك وخذنى لتكن عربتك ببابى على استعداد ، ولتصهل خيولك من عدم اصطبارها ·

أمط اللثام وانظر الى مواجهة وفى أنفة وأنقذنى · أنقذنى من غدر الحب وغدر الأمل وغدر الحياة ، أيها الموت يا موتى !

الشوقيات

أحمد شوقي

١٩٠٠ - ١٩٣٢م

شوقى .. نشأته وأطوار حياته

هبط الأرض كالشعاع السنى بعصا ساحر وقلب نبى

لمحة من أشعة الروح حلت فى تجاليد هيكل بشرى

ذلكم هو الشاعر يهبط الأرض على رفوف من نور وجناح من الوحى والسحر فيعيش فيها ما عاش وقلبه مشدود النياط الى عالم من الرؤى أو الأحلام ، فيتملى من تلك المفاتن ما شاء ان يتملى ثم يبثها فى الناس أهازيج تهز نفوس البشر ، ويبسم لها طربا سكان السماء .

والله سبحانه وتعالى اذا أراد الخير لأمة من الأمم أرسل اليها الشعراء فكانوا فيها ألسنة الملأ الأعلى ، يبث شعرهم الدعوة للخير والحق والجمال ويرقى بالنفوس الى أجواء من السمو والرفعة تنسيها أكدار الأرض وأقذاء الحياة وتعلمها كيف تختلج الجوانح لكل جميل جليل وكيف تتحرك المشاعر لصيحات الحق وسبحات الخيال .

وما عرفنا شاعرا صيغ له من قلائد المدح ونظم فيه من عقود الثناء ما صيغ ونظم فى شوقى فهو الملقب بأمير الشعراء وكل قصيدة له تنعت بالعصماء ، وكل منظومة من منظوماته تعد شوقية غراء . كلماته الدر النظيم ، ومعانيه الجوهر اليتيم . هكذا تصفه سيارة الصحف وهكذا يقول فيه رواة شعره .

ولقد استحق الكثير من هذا الوصف : فهو شاعر الغزل والنسيب وناظم الحوادث والتاريخ ، صاحب الحكم الرائعة والأمثال الذائعة ترجمان العاطفة الوطنية والذائد عن العقيدة الدينية محيى دارس الآثار ومستنهض الهمم الى الأعمال الكبار الداعى الى الاتحاد والوئام والمستخلص خالد الحقائق من الأحلام .

.. وفى أبريل من عام ١٩٢٧شهدت دار الأوبرا المصرية مهرجانا ضخما لتكريم أحد أعظم شعراء العربية الذين شهدهم القرن العشرون ، وتمت مبايعة أحمد شوقى أميرا للشعر والشعراء بحضور شعراء الأمة العربية يتقدمهم زعيم الأمة سعد زغلول بوصفه زعيما للشعب ورئيسا

لمجلس النواب ونهض شاعر النيل حافظ ابراهيم ينشد قصيدته المشهورة فى مدح شوقى :

أمير القوافى قد اتيت مبايعـــا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ويجمع نقاد الأدب العربى ـ قديمه وحديثه ـ على أن عرش الشعر ظل خاويا بعد المتنبى الى ان خرج أحمد شوقى على امته كالمعجزة امتدادا للاتجاه الكلاسيكى المحافظ بحكم انتمائه لمدرسة البعث والاحياء التى كان رائدها رب السيف والقلم البشاعر محمود سامى البارودى حيث الأصالة والفخامة والحيوية والسمو واستلهام التراث العربى القديم الذى خلفته عصور الازدهار فى الشعر العربى ، واذا بشوقى على قمة مدرسة الاحياء يجمع فى شعره بين فخامة المتنبى وصياغة البحترى وصناعة ابن تمام وسخرية أبى العلاء وسلاسة ابن الرومى ، على أنه لم يكتف بالاصـــالة وسعى الى المعاصرة فسبق كل شعراء جيله وكان له فضل الريادة فى انشاء المسرحية الشعرية فى الأدب العربى .

وقد عاش أحمد شوقى على أحمد شوقى ـ ٦٢ ـ عاما منذ خروجه للحياة فى منتصف أكتوبر من عام ١٨٧٠ وحتى رحيله فى منتصف أكتوبر من عام ١٩٣٢ .

شوقى يتحدث عن نفســه

ولما كانت لمقدمة شوقى للشوقيات أهمية خاصة يلقى الضوء فيها على حياته وشعره رأينا نشرها .

كتب أمير الشعراء :

الحمد لله الذى علم البيان وجعله أثرا من روحه عند الانسان . والصلاة والسلام على نبى الأمة القائل ان من الشعر لحكمة .

(أما بعد) فمنازل لواء الشعر معقودا لأمراء العرب وأشرافهم وما برح نظمه حبيبا الى علمائهم وحكمائهم يمارسونه حق المراس ويبنون كل بيت منه على أمتن أســـــاس موفين اجلاله حافظين خلاله مدنين الى الأذهان خيـــاله .

قال امرؤ القيس واصفا وحاكيا وضاحكا وباكيا وتاسيا وغازلا وجدا وهازلا وجمع شتلة بحيث تغلد المنظومة الواحدة له أثرا فى البيان مستقلا وبنيانا قائما بزاته .

ونظمه أبو فراس فخرا عاليا ونسيبا غاليا وحكما باهرة وأمثالا سائرة لكنه لم يقله فوضى فى نظمه الخلط فان قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر

ليست الا عقدا توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه . تعاونت فيه ملكة العربى وسليقة الشاعر على حسن الحكاية فاذا فرغت من قراءتها فكأنك قد قرأت أحسن رواية . وهذا وكونها أشبه شيء بالشعر فى شعور الأنفس هما سر بقائها متلوة الى الأبد .

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق فى شعره ويوعى تجارب الحياة فى منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة :

فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

وقابل بين هذا البيت وبين قول ابن فراس :

معللتى بالوصول والموت دونه اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

. ثم نظر الى الأول كيف شرع سنة الايثار وبالغ فى اظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس والى الثانى كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة فى هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية .

علم ان شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادىء الاجتماعية العالية وانهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان واظهارها فى أجلى وأجمل صور البيان .

وكان أبو العتاهية ينشيء عبرة وموعظة وحكمة بالغة وموقظة . وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنة يرجع اليه كذلك فى الوعظ والارشاد والتحذير من الرذائل والاغراء بالفضائل .

وكان الشافعى رحمه الله وهو القائل :

ولولا أشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

تجرى ألفاظه بالشعر وله مقاطيع مختارة وحكم فى الناس سيارة وحسبك أن الطب جميعه لو جمع ما خرج عن البيتين المنسوبين اليه وهما :

ثلاث هن مهلكة الأنام وداعية الصحيح الى السقام

دوام مدامة ودوام وطء وادخال الطعام على الطعام

ولو انفسح لهؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان وشهدوا عصر البخار كما نشاهده وكابدوا الدهر في الهرم مثلنا نكابده لامتلأت الصدور من محفوظ أشعارهم ولضاقت المطابع على تنافسها على نشر آثارهم .

ثم يحدد شوقي أسس نجاح الشاعر في الأمور التالية :

« الأول » ثقة الانسان من كون الشعر في طباعه وهذا هو الشرط الأوجب وانه لأمر يعنى الآباء والأساتذة أكثر من سواه ولا ينبغي لهم ان يتصرفوا في مستقبل الأطفال الذين هم أمانة الله في أيديهم بمقتضى أميالهم الشخصية وأفكارهم الخصوصية ، بل عليهم اذا أنسوا هذه الهبة عند الطفل ان يأخذوا بيده ويعينوه عليها ولو كانوا ممن ينظرون الى الشعر بعين السخط لأن الله سبحانه وتعالى وهو الواهب قد رأى له ذلك وما يرى الله أفضل . واذا وجدوه دعيا في الشعر دخيلا منذ الطفولة وجب عليهم تبغيضه اليه وممانعته عن نظمه لو كانوا من محبي الشعر ونصرائه .

« والثاني » أخذ العلوم وتناول التجارب لأن الشعر لا يخرج من كونه اخبارا وحكمة لا يكونان الا من عليم مجرب .

« والثالث » ألا يتخذ الشعر حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها . فان كان ولابد من التفرغ للأدب حبا به أو طلبا للكسب فليكن الشعر هو اليتيمة القعساء في عقد علومه وصاحب العلم في موكب فنونه لا يتنافى تعاطيه الكتابة نثرا في جميع المطالب وضروب المواضع فانك لا تجد الشعر وسلطانه عندئذ الا مرشدين أمينين وذخرين ثمينين .

فمن جمع بين هذه الأمور الثلاثة وكان عاملا متقنا لعمله حريصا عليه مترقيا فيه يخاف الله في الغرور ويخشاه في ايذاء خلقه فقد انكشف له سر النجاح وأحرز قصب السبق في حلبة الكتاب والشعراء .

الآن ادخل في الحديث مع فريق طلبوا مني ان أجعل صورتي في هذه المجموعة وآخرين رغبوا الي في كلمة تقال عنها وعن صاحبها وألا يقولها سواي .

معذرتي الى الفريق الأول ان من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم واعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون اليها فاذا مت فليأخذوها من أهلي اذا وجد بهم الحرص عليها .

وللآخرين اقول اني لا أزال في أول النشأة وان حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمل من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس باخبارها . لكن لا أثق بيومي الآتي وأخاف بمدى رجوم الظن وضلات

الحديث فلى العذر ان أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب ٠

سمعت أبى رحمه الله يرد أصلنا الى الأكراد فالعرب ويقول ان والده قدم هذه الديار يافعا يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار الى والى مصر محمد على باشا وكان جدى وانا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطا وانشاء فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العـــالية ويتقلب فى المناصب السامية الى أن أقامه سعيد باشا أمينا للجمارك المصرية فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية سددها أبى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أرانى فى ضيق حتى اندب تلك السعة فكأنه رأى لى وكما رأى لنفسه من قبل ألا أقتات من فضلات الموتى ٠

أما جدى لوالدتى فاسمه أحمد بك حليم ويعرف بالنجدة لى نسبة الى نجدة احدى قرى الأناضول ، وفد على هذه البلاد فتيا كذلك فاستخدمه والى مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمعتوقته جدتى التى أرثيها فى هذه المجموعة وأصلها من مورة جلبت منها أسيرة حرب لا شراء وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها وكان زوجها محبوبا عنده كذلك فمازالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفى جدى وهو وكيل لخاصة الخديو اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه الى أرملته ، وأن يحسب ذلك معاشا لا احسانا وكان الخديو المشار اليه يقول عنهما :

« لم أر أعف منه ولا اقنع من زوجته ولو لم يسمه أبى حليما لسميته عفيفا لعفته » ٠

أنا اذا عربى ٠ تركى ٠ يونانى ٠ جركسي بجدتى لأبى ٠ أصول أربعة فى فرع مجتمعة تكفله لها مصر ، كما كفلت أبويه من قبل ومازال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل ٠ على انها بلادى وهى منشأى ومهادى ٠ ومقبرة أجدادى ولد لى بها أبوان ولى فى ثراها أب وجدان ٠ وببغض هذا تحبب الى الرجال الأوطان ٠

أما ولادتى فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو الى الثلاثين حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم (الشيخ على الليثى) قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقصص على حلما رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقا فى الاسلام ٠

ثم اتفق انى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقى فوالله

ما قالها قبل فى الاسلام لحد ، قلت : وما تلك يا مولاى ؟ قال : قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها :

حف كاسـها الحبب فهى فضـة ذهـب

وها هى فى يدى أقرؤها · فاستعذت بالله وقلت له الحمد الله الذى جعل هذه هى « الخرق » ولم يضر بى الاسلام فتيلا ·

أخذتنى جدتى لأمى من المهد وهى التى أورثيهـا فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو على فوق حنوهما وترى لى مخايل فى البر مرجوة · حدثتنى أنها دخلت بى على الخديو اسماعيل وانا فى الثالثة من عمرى وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديو بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى : اصنعى معه مثل هذا فانه لا يلبث ان يعتاد النظر الى الأرض ، قالت : هذا دواء لا يخرج من صيدليتك يا مولاى · قال جيئى به الى متى شئت انى آخر من ينثر الذهب فى مصر ·

ولا يزال هذا الارتجاج العصبى فى الابصار يعاودنى ، وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبى :

« محاجر مسك ركبت فوق زئبق » ·

دخلت مكتبة الشيخ صالح وانا فى الرابعة وهى من أهلى جناية على وجدانى اغفرها لهم ثم انتقلت منها الى المبتديان فالتجهيزية فكنت التلميذ الثانى لهذه المدرسة ·

وأنا فى الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لى من النظارة على « المجانية » يوجه لى الاستثناء لى عن حاجة اليها ولكن على سبيل المكافأة ، ثم رأى لى أبى أن أدرس القوانين والشرائع فدخلت مدرسة الحقوق وكان ناظرها المأسوف عليه « فيدال باشا » لا يرانى أهلا لذلك بالسن فمازال استاذى وصديقى المهذب يحيى بك ابراهيم وكيل المدرسة يومئذ يؤيدنى عند رئيسه الى ان قبلت ثم لم يكفه ذلك حتى حصل لى من النظارة على مائتى قرش فى الشهر فدرست الحقوق سنتين ثم ارتأت الحكومة ان ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يتخرج فيه المترجمون الأكفاء فنصح لى الوكيل ان أدخل هذا القسم ففعلت ··

وأقمت فيه سنتين ثم منحتنى نظارة المعارف الشهادة النهائية فى فن الترجمة · وبينما أنا أتردد على المغفور له على باشا مبارك فى شأن ورد

عليه مرسوم من المعية السنية بطلبي اليها فكان سروره بذلك أضعاف فرحتي بالنعمة المفاجئة فذهبت الى السراى وهنالك استؤذن لى على المرحوم الخديو توفيق باشا ، فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ولكن مدحته مرارا وأنا في المدرسة خاطبني بهذا اللفظ الشريف « قرأت يا شوقي في الجريدة الرسمية انك أعطيت الشهادة النهائية وكنت انتظر ذلك لالحقك بمعيتي لكن ليس بها الآن محل خال فهل لك في الانتظار ريثما يهيىء الله لك الخير » فاستلمت اذيال العزيز وقبلتها ثم قلت حسبي يا مولاى انك قد ذكرتني من تلقاء نفسك الشريفة وأى خير يهيىء الله لعبدك أفضل من هذا ، فأطرق هنيهة ثم قال : قد سمعت ان أباك عطل من الخدمة فبلغه انى ربما أدخلته في عمل قبلك ثم تهلل وأذن لى بالانصراف .

فلبثت في المعيه بضعة شهور انتظر فرجا يأتي به الله وكان المرحوم على باشا مبارك لم يقطع عنى الراتب الى ان كان يوم كثر غيمه وتثاقل مطره فخرجت قبيل الأصيل في حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى وبينما أنا عائد الى منزلى أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز في بهو السراى يشرف منه ، فنزلت عن الدابة أمشى كرامة للمليك المطل وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقيني خلف القصر ثم مشيت على الأقدام حتى اذا انتهيت من الميدان اعترضنى رسول من الأمير يدعوني اليه فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب وكان معه ساعتئذ المرحوم عبد الرحمن باشا رشدى فتحلى الحليم بصورة الغضب ثم قال أليس لى أن أطل من بيتى حتى نزلت من حمارك والجأتنى الى الانثناء قلت عفوا يا مولاى هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم :

واذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

فتبسم ضاحكا . ثم قال انكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوب فهذا اليوم من أيامكم فاسمع للباشا فان عنده لك فالا فالتفت الباشا عندئذ الى وقال الآن أمرنى أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشا في الخاصة الخديوية وأما أنت فتعين بعد شهر ثم مد العزيز الى يده فقبلتها واجما قد غلب على السرور حتى انسانى الشعر وكان ذلك وقته ثم لم يحل على حول في الخدمة الشريفة حتى رأى الخديو أن أبلغ التأديب في أوروبا فخيرني في ذلك وفيما أريده من العلوم فاخترت الحقوق لعلمى انها تكاد تكون من الأدب وان لا قدم فيها لمن لا لسان له فأشار الأمير على عندئذ أن أجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنساوية بقدر الامكان ، ثم سافرت على نفقته فكنت أنفق ستة عشر جنيها في الشهر نصفها من المعية

ونصفها من الخاصة وأعطانى يوم سفرى مائة جنيه أرسل نصفها الى مدير الارسالية ليهيىء لى جميع ما أحتاج اليه حال وصولى ودفع لى النصف الآخر بيده الشريفة وما أنسى من مكارمه رحمة الله عليه لا أنس قوله لى فى ساعة الوداع : « لا حاجة بك منذ اليوم الى أهلك فلا تعنتهم بطلب النقود وأعنت أباك هذا الغنى » .

فركبت البحر لأول مرة اؤم مرسيليا فلما قدمتها وجدت مدير الارسالية فى انتظارى فأخبرنى بأن أقضى عامين فى مدينة مونبلييه وآخرين فى باريس وكان المدير قادما من مونبلييه للقائى فعاد بى اليها على الفور وهنالك قدم لى جميع ما احتاج اليه وادخلنى مدرسة الحقوق الجامعية ثم رجع الى العاصمة فلما انقضت السنة الأولى التمست من ولى النعم أن يأذن لى فى الأوبة الى مصر لقضاء زمن العطل بين أهلى فأوقع الى أمره أن هذا من نزق الشباب وانه يرى لى أن أقيم أربع سنوات كاملة فى أوروبا وألا أضيع منها دقيقة واحدة ثم أرسل الى خمسين جنيها لأنفقها فى رحلة أزمعها الى أى بلد اشاء الا مصر وكانت الدعوات قد توالت على من الفرنساويين رفقائى فى المدرسة بالذهاب الى مدنهم المتفرقة فى الجنوب وقضاء بعض الأيام فى ضيافتهم هنالك فقضيت نحو شهرين كنت فيهما قرير العين طيب النفس ناعم البال حيث التفت رأيت حولى مناظر رائقة ومجالى شائقة ومعالم للحضارة فى اقاصى القرى شاهقة وآثارا لدولة الرومان تزداد حسنا على تقادم الزمان وعرفت الفلاح الفرنسى فى داره وكنت القاه فى مزرعته وأماشيه فى الأسواق فيخيل الى انه قد خلف العرب على قرى الضيف واكرام الجار وكان أعجب ما رأيته مدينة (كركسون) وجدتها قسمين والفيت القوم عليها صنفين فمنهم الباقون الى اليوم كما كان عليه آباؤهم فى القرون الوسطى بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس وعاداتهم واخلاقهم تلك العادات والأخلاق . والآخرون خلق جديد وشعبه كسائر شعب الأمة فى أخذهم بأشياء التمدن العصرى . وبالجملة كانت نتيجة هذه النقل من أجل نعم الله على وأسنى أيادى الخديو السابق عندى .

ثم ماكدت انتهى من السنة الثانية حتى كتب لى مدير الرسالة المصرية يستقدمنى لباريز ويخبرنى انه ذاهب بتلامذته الى انكلترا لقضاء أكثر أيام العطلة فيها ، وان الأمير رحمه الله أدى نفقة هذه السياحة عنى اذا رغبت فيها فبرحت مونبلييه على عجل أيمم باريز للمرة الأولى فأقمت بها يومين ريثما اهبت للرحلة ثم سافرنا الى عاصمة انكلترا فلبثنا فيها نحو شهر نغشى من معالمها فى الحضارة ونشاهد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهى اليه العظم والجلال فى هذ لعصر لكنا لم نلبث أن سئمناها وهذا أكبر عيوبها فخرجنا الى بعض المدائن على بحر الشمال

وهناك وجدنا راحة الخاطر وقرة الناظر وان يكن الجو كثير التقلب غدارا في غالب الأحيان . فلما كانت السنة الثالثة وهي الأولى لي في باريز أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر علي وتعمل باشارتي في الحركة والسكنة فكنت اسمعها وانا في سكرات الحمى تقول : « أفي مثل هذا الشباب تذهبون ! » ثم تكفكف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومن علي بالشفاء وعندئذ أشار علي الأطباء ان أقضي أياما تحت سماء أفريقيا على زعم ان الذي بي من الضجر والسآمة ليس الا حنينا الى الوطن فوقع اختياري على الجزائر فرحلت اليها مع أحد قضاتها الفرنساويين فنفعتني مرافقته وظل دليلي على الهدى عاصمة المستعمرة نحو عشرين يوما ثم برحها الى أوران .

أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء في صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه الا جنوب فرنسا ولم أتأثر فيها كتأثري من رؤية المصريين في القهاوي البلدية اذ أكثر اصحابها وغلمانها منهم وكان قد بلغهم جلوس مولانا الخديو القائم عباس باشا على الأريكة المصرية فكنت أراهم فرحين بالنبأ واسمعهم يدعون لسموه ولا عيب في الجزائر سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية واذا خاطبته بها لم يجبك الا بالفرنساوية على ان حركة العمران في المدينة عجيبة وآثار التمدن الفرنساوي بادية عليها ولكن المسلمين من أهلها لا يشاركون القوم في شيء من ذلك ولا يتهافت مترفوهم الا على مضمار التمدن وأسوائه فكأن حظنا واحد في كل مكان .

أقمت بالجزائر أربعين يوما أو تزيد ثم حثثت الرحال عنها قافلا الى باريز وهناك تمت لي السنة الثالثة في الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها ، فرأى لي الجناب العالي أيده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها وقد كان في الدراسة ما يشغل عن ذلك ويحول دونه ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لي الرأي العالي أيده الله فعدت الى الوطن وأنا نضو فراق . تهزني اليه الأشواق .

وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنية في مؤتمر المستشرقين الذي كان انعقاده في مدينة جينيف عاصمة سويسرا .

فكانت خير فرصة تغتنم لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة فرحلت اليها واقمت بها شهرا ثم انفض المؤتمر فبرحتها الى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذي أقيم بمدينة انفرس في ذلك العام .

ولما كانت السنة الماضية وكنت قد سئمت الحضر على أثر رمد طال أمده خرجت الى الاستانة طلبا للعافية على ضفاف البسفور فأذن الله وكان ما رجوت وعدت من عاصمة الاسلام وأنا أعتقد أن خطرات النسيم فيها تفعل فى أربعين يوما مالا يفعله طب الأطباء فى أربعين شهرا ·

هذه هى أيام صباى وخطوات شبابى وأوائل نشـــأتى أجبت عنها السائل ليعلم كيف تقضت وفيم أنفقت وأين ذهبت وأنا أستغفر الله لى ولأهلى ولمن ينظر الى هذا الكتاب بعين الكريم المتجاوز أو المنتقد العدل ·

جمعتنى باريز فى أيام الصبا بالأمير شكيب ارسلان وانا يومئذ فى طلب العلم والأمير حفظه الله فى التماس الشفاء فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة وكنت فى أول عهدى بنظم القصائد الكبرى وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشورا فى صحف مصر فتمنى ان تكون لى يوما ما مجموعة ثم تمنى على اذا هى ظهرت أن أسميها الشوقيات ·

ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم فى الكرى أو خلسة المختلس أو هى كما قلت :

صحبت شكيبا برهة لم يفز بها ســـواى على ان الصحاب كثير
حرصـــت عليهـــا آنـــة ثم آنـــة كما ضـــن بالماس الـــكريم خبير
فلما تســـاقينا الوفـــاء وتم لى وداد على كل الـــوداد أمـــير
تفرق جسمى فى البلاد وجســـمه ولم يتفرق خاطر وضـــمير

هذا أصل التسمية سبقت به اشارة لا تخالف ودفعت طاعة واجبة وأنا بين هاتين هدف للقال والقيل يظن بى نسبة الأثر الضئيل · الى الأسم القليل ·

كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات فكان لى عجبا ان وجدت بين أوراقه شيئا كثيرا من مشتت منظومى ومنثورى ما نشر منها وما لم ينشر قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد لفه فى ورقة كتب عليها هذه العبارة « هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم فى أوربا فكنت كأنى أراه وانى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدى من يعتنى بشئونه وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب » · فبينما انا ذات يوم تعب بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارنى صديقى مصطفى بك رفعت فحدثته حديثى فسألنى أن أعيره الأوراق أياما ثم يعيدها الى ففعلت ثم لم يمض شهر حتى بعث بها الى واذا هى قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق الا أن تدفع الى المطابع ، فأخذتها وبودى

لو وفيت صديقى المشار اليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول فى نفسى. لئن صدق أبى فى الأولى لقد ظلم فى الثانية فان الخير لايزال فى الناس ٠

على ان ما جمع فى « الشوقيات » ثم طبع ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن فى الزمن الأخير فأما ما أسقط عمدا فأكثره من تولى فى زمن الصبا الذى لا يؤمن فيه على المرء الغرور ٠ ولا يسلك الفتى فيه سبيلا الا هو مظلل عثور ٠ وقد خشيت ان يقع مثل ذلك فى أيدى الناشئة فأسأل عن سوء وقعه ويكون اثمه أكبر من نفعه ، لكننى حرصت على اثبات بعض الشىء منه كما يحرص الانسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب ٠ وأما ما عثرت عليه والمجموعة فى أيدى الطباع فلم يكن فى الوسع أخذه لئلا يختلط الكتاب ويختل ترتيب الأبواب على أنه محفوظ لينشر فى الجزء الثانى ان شاء الله تعالى مع سائر القصائد التى أقيلت بعد الاعلان عن الشوقيات ولم يتيسر ادخالها فى أبواب هذا الجزء ٠

وقد عزمت بحول الله ومشيئته على ان أنشر فى آخر كل عام هجرى ما يحصل عندى من منظوم ومنثور ولو قل عدده وصغر حجمه وان أجعل ذلك بمثابة أجزاء متتالية « للشوقيات » تسمى باسمها وتكون لها متممة ٠

شوقى ٠٠ وشعره الانسانى

عاش شوقى انضر أيامه مع الأحداث — مع أحداث العالم بشتى ظواهره ومع أحداث العالم الاسلامى بمختلف قضاياه وعديد نوازعه ومشكلاته ٠ ومع أن أيامه كانت بعيدة عن الاختلاط بالشعب تقريبا وفى « برج من العاج » كما صوره بعض النقاد ٠٠ الا أن الواقع لم يكن كذلك فقد كان « ملتزما » نحو كل قضية أو ظاهرة تمس مصر والشرق ، قومية كانت هذه القضية أو اجتماعية فكان يعبر عنها بصدق وباحساس متقد ٠٠

وهذا يفسر لنا ان نظرية « الفن للفن » لا تتعارض قط مع « الالتزام » ٠

فالشاعر ابن بيئته ٠

ومهما حاول أن يبتكر للأحداث التى تحيط بقومه وبمجتمعه ٠

ومهما بلغ ايمانه بنظرته « الفن للفن » لا يستطيع ان يفصل « ذاته » عن كيانه وان يتجرد عن « مجتمعه » ٠

وقد يقول قائل انه مادام شوقى شاعرا فهو وليد تجارب عديدة وأطوار وصور وأحداث ومواقف من المفروض أن يكون بينها ، موقفه الانسانى حيال ما ينظم ·

ولكن الرد على ذلك يتصل بما يحمله الشاعر بين جنبيه من حساسية مفرطة وعاطفة مشبوبة هى التى تكون بارزة فيما نحن فيه من حديث فان الشاعر يمتاز عن زميله بفارق الحساسية والمشاعر والصدق والعاطفة المتقدة وبهذا يتفاوتون فى الموازين ·

والشعر ينبع من الشعور وكل ما يثير العاطفة ويلعب بأوتار القلوب فهو شعر ولكن درجات الحساسية والتأثر العاطفى عند تناولهم النواحى الانسانية تتباين فيما يعالجون من أهداف عظام فى نظمهم لما يحسون به ويطرحونه على الناس فى هذا المجال ·

وان تفانى الفنان فى فنه واندماجه فيه ، حمل فان جوخ الرسام الهولندى الأشهر على أن يقول انه عندما يرسم زهرة يصبح هو نفسه زهرة أى يتجسدها ويصبح هو الزهرة وهذا من فرط اندماجه فيما بين يديه وأمام ناظريه من مادة يريد ان يخضعها لفنه أولا ولمشاعره وأحاسيسه ثانيا ، وهو فى ذلك أشبه ما يكون بالممثل الذى يندمج فى دوره حتى يصبح هو صاحب الشخصية التى يقوم بتمثيلها وليس هو الممثل المعروف بين زملائه باسمه أو شخصه أو صفاته ·

●●●

كانت هذه الظاهرة تتمشى مع شعر شوقى وتنساب حتى تكاد تعم كل ما نظم فى أى باب وفى أى زمان وفى أى مكان فهو انسان يفعم بالانسانية اذا خاطب حجرا فانه يخاطبه كما لو كان انسانا تجرى فى عروقه الدماء · وكان شوقى قد عرف بمحبته للحياة محبة عارمة تحمله على أن يحيط نفسه بكل ما هو حى حتى لو كان جمادا أو نباتا أو حجرا :

اسمعه وهو يخاطب أبا الهول :

تحرك أبا الهول هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الحجر
أبا الهول لو لم تكن آية لكان وفاؤك احدى العبر

أو اسمعه وهو ينظر الى بقايا معبد « أنس الوجود » ، « فيله » من أحجار تترنح وهى توشك أن تنقض :

قف بهذى القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضا سابحات به وأبدين بضا

لم ينس وهو يخاطب الأحجار حبه للجمال ونظرته الى بياض السيقان التى اختفى منها ما اختفى وكشفت عن أجزاء منها لتغرى بها الناظرين ·

وشوقى شاعر موكل بالجمال يعرضه بعد ان يتم صياغته كأتقن ما تكون عليه صياغة الصائغ الفنان ويطرح ما صنع أمام الأعين ويدعو كل البشر للتنعم بهذا الجمال والحسن الأخاذ اينما وجد حسن وحينما أطل جمال من صنع الله فى هذا الوجود :

لا والقـــوام الذى والأعين اللاتى ما خنت رب القنـــا والمشرفيات
ولا ســـلوت ولم أهم ولا خطرت بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنى كـل حاجـــاتى

أو اسمعه يقول :

ردت الروح على المضـــنى معك أحسن الأيام يوم أرجعـــك
مر من بعـــدك ما روعنى أترى يا حلو بعـــدى روعـــك !
كم شكوت البين بالليل الى مطـــلع الفجر عسى أن يطلعـــك
موقعى عنـــدك لا أعلمـــه آه لو تعلم عندى موقعـــك

وشعر شوقى العاطفى ينم عن نفس عفيفة وقلب يكتوى ويسلم أمره للمقادير وهذه صفات لا تتردد ولا ينبض بها الا قلب من غلبت انسانيته على عاطفته الحسية ·

وهو فى عشقه وحبه انسان وفى يحب ويغتر بمن أحب فهو يقول :

بينى وبينك فى الهـــوى سبب سيجمعنـــا متينـــه
الـــروح ملـــك يمينـــه تفـــديه ما ملكت يمينـــه

وهو صاحب مبدأ فى الحب ، انسانى النزعة ، فهو على يقين من انه مادامت قامت علاقة حب بين انسان وانسان فان هناك وراء الغيب من يرعاها ويحفظها طالما كانت عفيفة طاهرة ·

ثم يشكو ما فعلت به العيون شكوى انسانية تسأل الرحمة :

أدارى العيون الفاترات السواجيا وأشكو اليها كيد انســـانها بيا

قتلن ومنين القتيل بالسـن من السحر يبدلن المنايا أمانيـا
وكلمن بالألحاظ مرضى كليـلة فكانت صحاحا فى القلوب مواضيا

●●●

وشوقى من أبرز الشعراء فى تعمقه الأشياء حتى يصل الى اغوارها ثم يتحدث بما أحس وما انتهى اليه من شعور حديث صاحب التجربة من ناحية أخرى ·

والفن فى رأيى ، الى جانب تعمقه للحيـاة ، فانه محاولة لاعادة تشكيل المرئيات على نسق ينبع من داخلنا ومن ذات مشاعرنا ومما تركه فينا من أحاسيس ومشاعر ·

وسئل فيلسوف عن خير تعريف للفن فاجاب :

الفن هو امتزاج الانسان بالحقيقة والطبيعة · والحقيقة مصـدر الشعور الصادق والطبيعة ملهمة للفنان بما تعرضه من مفاتنها عليه وهى أدرى بما تثيره تلك المفاتن فى النواظر والمشاعر فتكشف عما يوقظ القلب العطوف الشفيف ، وما يزال حتى يختار خيرها ويستأثر بما أثار لبه وعاطفته ويعود للطبيعة التى ألهمته كل هذا البهاء ليرد فضلها ويدها عنده ، بأن يسجل افتتانه بآلته التى اختصه الله بها شعرا أو نثرا أو نقشـا أو نحتا أو لحنا أو غناء ·

وكان شوقى يمتزج بالطبيعة فى شعره امتزاجا يتحول فيه الى جزء منها لا انفصام منه عنها فهى فى نظره الانسانى شىء حى والحى يألف الحى ·

استمع اليه فى هذا النظم :

هل تيم البان فؤاد الحمام فناح فاستبكى جفون الغمام
أم شقه ما شـفنى فانثنى مبلبل البـال شريد المنـام
يهـزه الأيـك الى الفـه هز الفراش المدنف المسـتهام
وتـوقد الذكرى بأحشـائه جمرا من الشوق حثيث الضرام
كذلك العاشـق عند الدجى يالله ـوى مما يثير الظلام !

والقارىء للشوقيات تستوقفه ظاهرة عجيبة انه يقف أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر · الا ان كليهما شاعر مطبوع يصل فى الشعر الانسانى الى علياء سماواته وأن كليهما مصرى عربى شرقى يبلغ حبه لوطنه مرتبة القداسة والتفانى والعبادة له ، لأنه من خلق الله · أحدهما مؤمن عامر القلب والنفس بالايمان وانسان يقف

نظمه ومشـــاعره على كل ما يتأثر به وجدانه ما اقترب منه مما يثيره أو ما ابتعد عنه غاية البعد ولكنه يتصوره وتحس روحه الشفيفة به ·

وهو حكيم يرى الحكمة نبراس العقل والايمان وهو متعصب للغته العربية حريص على أن تأخذ مكانها بين أرقى لغات الأرض فانه يراها لغة تتسع لكل صورة وكل فكرة وكل معنى وكل خيال ·

أما الرجل الآخر فهو رجل دنيا ونعيم يرى ان الله خلق النعيم فى الدنيا ودعا الناس الى التمتع به فهو نعيم كفله الله لأبناء الحياة ليأخذوا منه بنصيبهم وهو متسامح تتسع نفسه للانسانية والوجود كله ·

وهو مجدد فى اللغة لفظا ومعنى ومبنى لأنه يراها كما يرى كل ما فى الوجود كيانا حيا يجرى عليه ما يجرى على الأحياء ·

نخلص من هذا الى أن الازدواج الظاهر فى شعر شوقى بين دين ودنيا قد لازمه منذ أول شبابه حتى آخر عمره الا قليلا ·

وليس للازدواج النفسى عند الشعراء أو انقســـام الشخصية عند الشعراء دخل فى هذا الشأن وأمامنا مثل واضح فى ابى نواس وما كان يقول من شعر يتردد بين الشأنين فهل أبو نواس الذى قال فيما قال :

ألا فاسقينى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقينى سرا اذا أمكن الجهر

هو نفس أبى نواس الذى لبس لبوس الحكماء وذهب يقول :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

أو هو الذى كان يبتهل قائلا :

لبيـــك ان الحمد لك والملـك لا شريـك لـــك

وهناك رأى لباحث كبير فى مثل هذه الشئون النفسية ينطوى على منطق صـــائب وتحليل سليم ، فهو يقول ان هذا الأمر ليس ازدواجا فى الروح · وما الحكمة الزاهدة التى هبطت على أبى نواس الا فتور نفس اجمدتها اللذة والمتعة فأضعفتها فأخافها الضعف الذى ألجاها الى حمى الحكمة والزهد والى استغفار الله والتوبة اليه ·

وشوقى ــ كما ذكرنا ــ من هذا القبيل ففى شعره صورتان من صور الحياة يقوم كل منهما بدوره مستقلا عن الآخر كأنما قائلها شخص أجنبى تماما عن الأول فانت تقرأ له :

حـف كأســـها الحبب فهى فضـــــة ذهـــب

أو يطالعك من شعره قوله :

رمضان ولى هاتها يا ســـاقى مشتاقة تسعى الى مشـــتاق

وهنا ترى نفسك فى حضرة شاعر مغرم بالحياة ومتاعها وأنعمها ، ثم لا تلبث أن ترى صورة مخالفة تردد فى خشوع :

ولد الهدى فالكائنات ضـــياء وفم الزمان تبســـم وثنـــاء

أو تراه فى موضع آخر يقول فى نهج البردة :

ريم على القاع بين البـــان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

يانفس دنيـــاك تخفى كل مبكية وان بدا لك منها حسن مبتســـم

الى ان يقول ق

لزمت باب أمـــير الأنبيـــاء ومن يمســـك بمفتاح باب الله يغتنم

وشوقى وهو يتجسد هاتين الشخصيتين انما يكشف عن دخيلة نفس تمتلىء بالحياة والخيال ونور الايمان والتعلق بأسباب السماء واعلاء كلمة الحق لأنه قبل كل ذلك وبعد كل ذلك انسان يفيض حسه بالانسانية وبكل كوامن النفس البشرية التى تعتريها القوة كما يعتريها الضعف .

●●●

والشاعر الانسان فى مثل نشأة أحمد شوقى وما حباه الله به من فيض عامر فى العاطفة والاحساس والخيال الرفيع والصدق فى التعبير يتدرج مع تاريخ وطنه منذ عهود الفراعنة وما تعاقب على مصر من رفعة تارة وانخفاض تارة أخرى ويقف وقفة المصرى الصـــادق العاطفة حيث تفيض عليه ربة الشعر بما يؤنسه فى هذا الترحال من قصص يرويها عن رمسيس وأبى الهول وتوت عنخ آمون وفرعون موسى الى أن يصـــل الى مصر العربية .

حيث تبين لقـــارىء نظمه ، روحه الانسانيـــة الشفيفة وهى تغوص ليستخرج اللآلىء من أعماق الأحداث ويعرضها فى موكب زاهر براق يبهر الأنظار ويوقظ الأفكار وكأنما هو قيثارة الهية يدفع اليها كل جيل بأصفى نسائمه ، ليتغنى ويشـــدو بأهازيج النصر تارة وبترانيم المسرة طورا وبشجو الألم أحيانا عندما يتعرض شباب ورجال جيله الى منازلة الغضب وما يلقونه على يديه من قهر وطغيان .

وله فى العلم والفن والعمل والجمال والترحال آيات بينات ينساب فيها روح الانسان الداعى الى التمسك بالخلق الصالح على اعتباره قوام الحياة فى الأمم ، وهو يرى ان الخلق القويم خير من الخلق القويم . وله

بيت فى قصيدة طويلة أصبح يتردد على كل لسان ، كما غدا مثلا وبات دستورا يدبر وينظم ويحكم :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أكد هذا المعنى الرائع فى غير موضع من الشوقيات منها :

واذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

وأيضا :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

ولم يكن شوقى شاعرا لمصر وحدها فهو شاعر ينبض قلبه الكبير بحب الانسانية أينما وجدت وعلى أية صورة تكون • وهو لذلك لا تراه يفرق بين الأوطان ، فهو هو شاعر مصر كما هو شاعر العرب وشاعر الشرق وشاعر المسلمين وكل الأديان •

وهو فى موقفه من هذه الأحاسيس أشبه ما يكون بالرادار الانسان الذى ترتسم على مخيلته كل ما يقع فى أية بقعة من بقاع الأرض من نكبات وأحداث أو من اعتزاز باختراع أو اكتشاف يدعو الى الافتخار ويطرح فى شعره المعبر ما أثار وجدانه حيال هذه الأحداث •

ففى العشرينات وقع فى طوكيو زلزال عنيف ، ما أن بلغ نبؤه مسامع الشاعر الانسان شوقى واطلع على فداحة الكارثة حتى بادر بنظم قصيدة طويلة عن النكبة بدأها بقوله :

قف(بطوكيو)وطف على(يوكوهاما) وسل القريتين أين القيامه

قف تأمل مصارع القوم وانظر هل ترى من ديار عاد دعامه

خسفت بالمساكن الأرض خسفا وطوى أهلها بساط الاقامه

دولة المشرق وهى فى ذروة العز تحار العيون فيها فخامه

الى أن يقول :

لو تأملتها عشية جاشت خلتها فى يد القضاء حمامه

ثم يمضى يقول :

تجد الأرض راحة حيث سالت راحة الجسم من وراء الحجامه

مالها لا تضج مما أقلت من فساد وحملت من ظلامه

ولقد أحس شوقي بعد عودته الى مصر من بعثته في فرنسا انه ليس شاعر مصر وحدها التي ينتمي اليها فقد كان قلبه وأحاسيسه تجيش بأخيلة وصور ومعان ولغة وبيان تتسابق لتحتل ارادته التي تلبث أن تطيع تلك الأحاسيس الجائشة ليطرحها شعرا علوى النسق والنسيج • فهو اذن موكل برسالة وهو اذن ممن أمسكت بهم شرارة الفن المقدسة فكيف يقنع بأن يكون شاعر مصر انه شاعر العرب أجمعين وشاعر المسلمين وشاعر كل العقائد وشاعر الشرق ووجد أن هذه المسئولية التي هي ارادة علوية مقدسة تتطلب منه ان يوفر لها أثمن ما لديه من أخيلة وصور ومعان ليكون شاعر اللغة العربية السليمة طالما كان هو لسانها وخطيبها والسباق الى ذكر مناقب العرب وما كان لهم منذ الفتح الاسلامي من عز وسؤدد ، ومن آثار ماتزال شاهدة على ما كانوا عليه من قوة ومعرفة وحضارة كان عليه ان يتزود من كتب الأقدمين ودواوين الشعر العربي الرصين منذ العصر الجاهلي حتى العصر الاسلامي عندما كان في مجده التليد •

ومما لا شك فيه ان الحكمة التي يستمدها شوقي من انسانيته التي تفيض بها مشاعره تجدها تسري في وصفه وفي غزله وفي رثائه وفي تهانئه وفي استخلاص العبرة من الأحداث التي تقع حوله بلسان عربي فصيح مبين منذ ان كان هو سجل هذه الأمة العربية والمتحدث عن أدق الأحاسيس الانسانية التي يراها في زهر أو جماد أو انسان •

وهو في كل ما نظم لا يشعر له بأنه تأثر بالحياة الغربية الا بمقدار ما تحتاج اليه الأمة العربية من نصح أو ارشاد أو تقليد لفضيلة يحسن انتاجها لفظه ومعناه ، ومرد ذلك الى ما رآه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة التي تتحكم في نفوس كثيرة وتعمل على اهمال ما خلف السلف من تراث والأخذ بكل ما هو جديد أو مستحدث •

وهو في بعثه للقديم انما يصدر عن انسانية تتشبث بالحياة ، وبالقديم ، فهو ادخال ما يزيد هذه الحياة نضارة وقوة وازدهارا هو ما رآه واجبا يحمل هو مسئوليته ويتولى شأن تقويمه •

فهو يعمد الى بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وتنكروا لها وسر ذلك عند شوقي ان البعث وسيلة من وسائل التجديد وعودة الروح • بل قد يكون البعث أكثر وسائل التجديد انتشارا ونجاحا والتجديد له الى جانب ربط السلف بالخلف معنى انساني يتمثل في الوفاء وتوقير القديم •

وشعر شوقي مليء بالأمثلة الدالة على قدرة فائقة لا تجارى في بعثه لألفاظ قديمة ، وأفاضته عليها من رقيق شعره ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبل من المعاني والأخيلة والصور ، وهكذا نراه

خلاقا ومبدعا وباعثا الحياة فى ألفاظ وجمل وتراكيب أوشكت أن تندثر ، فمضى كالطبيب الماهر يضفى عليها من عرفانه وقدراته بما يمدها بالحياة لأنه محب للحياة ولأنه ينظر الى كل ما حوله بمنظار انسانى تشيع فى جوانبه الحركة والقوة والنماء فهو انسان يحب كل انسان مادام هذا الانسان قادرا على العطاء الطيب ومتمتعا بالخلق السوى فهو يرى ان الأخلاق هى أصل الحياة وركيزة الانسانية وقوام كل عمل جليل ٠

وهو يمجد كل شىء يعطى ويبعث الحياة ويمقت كل ما يدمر الحياة أو من يدمرها ويهلك من على الأرض بغرض القوة والسلطان ٠ ولأنه شاعر فهو محب للسلام وللجمال وللخير ويرى الحياة من حوله ربيعا مزدهرا بأينع الأزهار تؤنسه زقزقة العصافير ونواح الأطيار ، اسمعه فى موقف من هذه المواقف :

وشدت فى الربا الرياحين همسا كتغنى الطروب فى وجدانه

نعم فى السماء والأرض شتى من معانى الربيع أو ألحانه ٠٠

الوطنيـة فى الشوقيات

فى قصائد شوقى يسطع نور الوطنية ويتأجج لهيبها وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم انتاجا فى هذه الناحية ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته شابا وكهلا وشيخا ، بل ان شعره الوطنى فى شيخوخته كان أقوى منه فى شبابه وقد يكون مرجع ذلك الى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمى ثم الى نفيه من مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى ، فآثار البعد عن الوطن شاعريته وجاد بأبدع قصائده فى الحنين الى مصر وحبه لها والهيام بها الى درجة التقديس ومرجع ذلك أيضا الى تأصل عبقرية الشعر فى نفسه فلم تضعفها السن ولم ينال منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطا ٠

والوطنية فى شعر شوقى هى فيض الفطرة والالهام وليست من صنع الظروف أو التكلف ولذلك جاءت قوية جارفة عميقة رائعة ٠

فتأمل فى أول قصيدة فى ديوانه وهى التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

تجدها آية فى شعر الملاحم أو الشعر التاريخى وتحس وأنت تقرؤها انها قبس من نور الوطنية فهى سجل ناطق (لكبار الحوادث فى وادى

النيل) وقد بلغ عدد أبياتها (تسعين ومائتى بيت) وعرض فيها عرضا أخاذا بديعا تاريخ مصر من أقدم العصور الى عام نظمها أشاد بعظمتها ومجد مفاخرها وحنا عليها فى كبواتها واستنزل السخط على كل من اعتدى عليهـــا ٠

فانظر الى قوله عن عظمة مصر :

قل لبان بنى فشـــــاد فغـــالى لم يجز مصر فى الزمـــان بنـــاء

وقد سارت نهضة الشعر فى مصر الى جانب النهضة الوطنية التى هبت لمقاومة الاحتلال ومن هنا جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره وكانت دعوته الوطنية تلقى صدى وتأييدا فى قصائدهم الغر بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق فى سماء مجده مثلما تألق فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد ٠

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى وزاد فى هـذا التجاوب أن شـوقى كان صـديقا حميما لمصطفى وكلاهما معجب بصاحبه أيما اعجاب ولا غرو فهما صنوان وفرسا رهان ٠ هذا فى ميدان الوطنية والجهاد وذلك فى دولة الشـعر والبيان ، وكان شـوقى يعتز بصداقته لمصطفى ومشاركته اياه فى تعهده الروح الوطنية وغرسها فى نفوس الجيل والى ذلك يشير فى قصيدته عن ذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٥ اذ يقول فيها مخاطبا الفقيد :

أتذكر قبل هذا الجيـــل جيـــلا سهرنا عن معلمهـــم ونامـــا ؟
مهـــار الحق بغضنا اليهـــم شـــكيم القصرية واللجامـــا
(لواؤك) كان يسـقيهم بجـــام وكان الشـــعر بين يدى جامـــا
من الوطنيـــة اســـتبقوا رحيقـــا فضضنا عن معتقهـــا الختامـــا

وكان مصطفى يصف شوقى بأنه « الغدير الصافى فى القاف الغاب يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون » وكان يخصص لقصائده اسمى مكان فى (اللواء) وفى ذلك يقول شوقى فى مرثاته الخالدة :

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى وتجـــل فـــوق النيرين مكـــانى

حبـه وتقديسه للوطن

ان حب شوقى للوطن يتمشى فى معظم قصائده مما تراه فى ديوانه التى بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى

الحكم والأمثال على تعاقب السنين والأجيال وتبعث فى نفوس المواطنين روح الاخلاص العميق للوطن والفناء فيه ٠

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته الى مصر من منفاه :

ويا وطنى لقيتـــك بعـــد يـأس ... كأنى قـــد لقيت بـك الشـــبابا
ولو أنـــى دعيـت لكنت دينـى ... عليـــه أقابل الحتـم المجابـــا
أدير اليـــك قبـــل البيت وجهى ... اذا فهت الشـــهادة والمتابـــا

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطبا الشباب :

وجـــه الكنانة ليس يغضب ربكم ... ان تجعلوه كوجهـــه معبـــودا
ولوا اليـــه فى الدروس وجوهكم ... واذا فرغتم ٠ فاعبدوه هجـــودا
ان الذى قسم البـــلاد حباكمو ... بلدا كاوطان النجـــوم مجيـــدا
قد كان ــ والدنيـا لحود كلها ــ ... للعبقـرية والفنـون مهـــــودا

وقوله وهو فى منفاه :

وطنى لو شـــغلت بالخلد عنـــه ... نازعتنى اليـــه فى الخلد نفسى

أى انه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها لبقيت نفسه تهفو الى الوطن وتنزع اليه ٠ وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسي :

وللأوطـان فى دم كل حـر ... يد سلفت ودين مستحـــق
وللحـرية الحمـراء بـــاب ... بكل يد مضرجـــة تـــدق

وقوله :

لا تلوماها اليست حـــرة ... وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤ :

أحبك مصر من أعماق قلبى ... وحبك فى صميم القلب نام

وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال :

وانى لغـريد هذا البطـاح ... تغذى جناحـا وسلسالهـــا
ترى مصر كعبـة أشعـــاره ... وكـل معلقـــة قالهـــــا

وحدة وادى النيـــل

وقال فى يولية سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادى النيل :

وان نرتضى ان تقـد القنـــاة ويبتر من مصر سودانهـــا
فمصر الريـاض وسودانهـــا عيـون الرياض وخلجانهـــا
وما هـــو مـــاء ولكنـــه وريد الحيـــاة وشريانهـــا
تتمم مصـــر ينـــابيعه كمـــا تمم العـين انسانهـــا
وأهلوه منـــذ جـرى عذبه عشيرة مصر وجيرانهـــا

ويحيى النهضة النسائية

كان مؤيدا ونصيرا لنهضة المرأة . القى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ فى جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية وجعل عنوانها فى ديوانه (مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات) قال :

قم حى هـــذى النـــيرات حى الحســـان الخـــيرات
واخفض جبينـــك هيبـــة للخـــرد المتخفـــرات
زيـن المقـــاصر والحجـــا ل وزين محـراب الصـــلاة
هـــذا مقـــام الأمهـــا ت فهل قدرت الأمهـــات ؟
لا تلـــغ فيـه ولا تقـــل غـير الفواصـــل محكمـات
واذا خطبت فـــلا تكـــن خطبـــا على مصر الفتـــاة
اذكـر لهـــا اليـــابان لا أمـــم الهـــوى المتهتكـات
ماذا لقيت من الحضـــا رة يا أخـى الترهـــات
لم تلـــق غـــير الـرق من عسر على الشرقى عـــات
خـذ بالكتـــاب وبالحديـ ـث وسـيرة السلف الثقات
وارجـع الى سنـــن الخليـ ـفة واتبـــع لظم الحيـــاة
هـــذا رســـول الله لـــم يفض حقـــوق المؤمنـــات

ويدعو الى الوحدة الوطنية

من قصيدة له فى رثاء بطرس غالى سنة ١٩١٠ :

الحق أبلج كالصباح لناظر ... لو أن قوما حكموا الأحلاما
أعهدتنا والقبط الا أمة ... للأرض واحدة تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله ... لو شاء ربك وحد الأقواما
يا قوم بان الرشد فاقضوا ما جرى ... وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذى ربوعكم وتلك ربوعنا ... متقابلين نعالج الأيامـا
هذه قبوركم وتلك قبورنا ... متجاورين جماجما وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم ... عيشوا كما يقضى الجوار كراما

قال مخاطبا الشباب فى قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤ :

يا شباب الغد وابنـاى الفدا ... لكم أكرم وأعزز بالفداء
هل يمد الله لى العيش عسى ... أن أراكم فى الفريق السعداء
وأرى تاجكم فوق السنها ... وأرى عرشكم فوق ذكاء
من رآكم قال مصر استرجعت ... عزها فى عهد (خوفو) و (منا)
أمة للخلد ما تبنى اذا ... ما بنى الناس جميعا للعفاء
انما مصر اليكم وبكم ... وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حز ومستقبلكم ... فى يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا حظنا الدهر فما ... هو الا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة فى جهلها ... ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها ... انما السائل من لون الاناء
فخذوا العلم على أعلامه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرءوا تاريخكم واحتفظوا ... بفصيح جاءكم من فصحاء
أنزل الله على السنتهم ... وحيه فى أعصر الوحى الوضاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما ... خلقت نضرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فان ... هى ضاقت فاطلبوه فى السماء !

ويدعو الى انكار الذات

وقال مخاطبا الشباب في قصيدة قالها سنة ١٩٢٤ :

قـــالوا أتنظـم للشـــباب تحيـة ... تبقى عـلى جيـد الزمان قصـيدا
قلت الشـــباب أتم عقـــد مآثر ... من أن أزيـدهمو الثنـــاء عقـودا
قبلت جهـودهم البـــلاد وقبلت ... تاجـــا على هامتهـم معقـــــودا
خرجـوا فمـا مدوا حناجرهم ولا ... منـوا على أوطـانهم مجهـــــودا
خفى الأساس عن العيون تواضعا ... من بعد ما رفع البنـــاء مشـــيدا

وتنســـاب في شعر شوقي الحكم والعظات يخاطب بها مواطنيه ويبصرهم بعبر التاريخ وعظات الحوادث مما نذكر طرفا منه .

قال عن جلال الملوك وانه الى زوال ولا يبقى الا جلال الخلود :

جـــلال الملـك أيـام وتمضـــى ... ولا يمضى جـــــلال الخالدينـــا

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وانه للعمل الصالح :

من سره ان لا يمـــوت فبالعـــلى ... خلد الرجـال وبالفعـــال النابـه
ما مات من حـاز الثرى آثـــاره ... واســـتولت الدنيـــا على آدابـه
قل للمـدل بمـاله وبجاهـــــه ... وبما يحل النـاس من أنســـابه
هذا الأديم يصـــد عن حضـــاره ... وينـــام مـلء الجفن عن غيـــابه
الا فتى يمشى عليـــه مجـــددا ... ديبـــاجتيه معمـــرا لخرابـــه

وقال سنة ١٨٩٤ في أول قصيدة له في ديوانه ينبه الملوك الى قوة الشعوب ويدعوهم الى النزول على حكمها :

إن ملكت النفوس فابغ رضـــاها ... فلهـــا ثورة وفيهـــا مضـــاء
يسـكن الوحش للوثـوب من الأســـر فكيف الخلائـق العقـــلاء ؟
يحسب الظالمـون ان سيسـودو ... ن وأنه لن يؤيـــد الضـــعفاء
والليـــالى جوائر مثلمـــا جـــا ... روا وللدهـر مثلهـــم أهـــواء

وقال سنة ١٩٢٢ يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد :

زمـــان الفـرد يا فرعـــون ولى ودالـت دولـــة المتجبرينـــــا
واصـــبحت الرعـــاة بكل أرض على حـــكم الرعيـــة نازلينـــا

وقال سنة ١٩٢٣ يندد بالمستبدين :

المســـتبد يطـاق فى ناووســـه لا تحت تاجيـه وفـــوق وثابـــه
والفـرد يؤمن شره فى قبـــره كالسيف نام الشر خلف قرابـــه

وقال فى هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٥ :

قســـما بمن يحيى العظـا م ولا أزيدك من يمـــين
لـو كان من ســـفر ايـــا بـك أمس أو فتـــح مبـــين
لرأيت جيـــلا غـــير جيـــ ـــلك بالجبـــابر لا يـدين
ورأيت محـــكومين قـــد نصبوا وردوا الحاكمـــين
روح الزمـــان ونظمـــه وســـبيله فى الآخـــرين
ان الزمـــان وأهلـــه فرغـا من الفـرد اللعـــين
فـاذا رأيت مشـــايخا أو فتيـــة لك ســـاجدين
لاق الزمـــان تجدهمـــو عن ركبـــه متخلفـــين
هـــم فى الأواخـــر مولدا وعقـــولهم فى الأولـين

ونظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل ، فصـور الحيـاة للوادى وأهله وأبدع فى وصف روعته وجماله وجلاله ثم انتقل الى قدماء المصريين ومفاخرهم :

من أى عهـد فى القرى تتدفـق وبأى كف فى المدائـن تغـــدق
ومن الســماء نزلت أم فجرت من عليـــا الجنـان جداولا تترقـرق
وبأى عـــين أم بأيـة مزنـــة أم أى طـــوفان تفيـض وتفهـــق
وبأى نـــول أنت ناســـج بردة للضـفتين جديدهـــا لا يخلـق
تســـود ديبـاجا اذا فارقتهـــا فاذا حضرت اخضـوضر الاستبرق
أتت الدهـور عليـك مهدك مترع وحياضـــك الشرق الشهية دفق

تسـقى وتطعم لا اناؤك ضـائق بالواردين ولا خوانـك ينفـق
والمـاء تسـكبه فيسبك عسجدا والأرض تغرقهـا فيحيا المغـرق
تعى منابعك العقول ويستـوى متخبـط فى علمهـا ومحقق ..

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين الناطقين بالضـاد جميعا ألحان الحرية ويسمعهم أسمى معانى الانسانية حتى أدركته الوفاة وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام رمزا للحكمة والحرية والخلود .

تفسير الأحلام

سيجموند فرويد

١٩٠٠ م

تشغل الأحلام بال الناس منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر تهتم نسبة كبيرة من الأفراد بأحلامهم ويحاولون ايجاد تفسير لهـــا والتعرف على دلالتها ، وقد تسبب لهم أحلامهم الكثير من الحيرة والقلق !

والواقع ان هناك كتابات عديدة تعرض لآراء بالنسبة للأحـــلام ودلالتها وأسلوب تفسيرها ومن أشهر هذه الكتـــابات ما كتبه سيجموند فرويد فى كتابه « تفسير الأحلام » ٠

والواقع أن فرويد قد أسهم فى القاء كثير من الضوء على جوانب عديدة من الأحلام ومنها الدوافع اللاشعورية على الأحلام ٠

●●●

ما من شخص أثار فى علم النفس من الضجيج والعجيج قدر ما أثاره فرويد الطبيب النمساوى الذى بدأ حياته الطبية مختصا بعلم الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وأنهاها بوصفه أبا للتحليل النفسى وصـــاحب مدرسة فيه ٠

على انه من غير الممكن أن تفهم فرويد وعمله اذا لم تلم ببعض الحقائق الأساسية :

وأولها : ان مؤرخى علم النفس الحديث متفقون على ان علم النفس الحديث على صلة وثيقة بعلم الفيزيولوجيا الحديث والحق أن علم النفس الحديث ولد على يد العالم الألمانى (فنت) فى مختبر بلايبزج الذى أسسه عام ١٨٧٩ ٠

وقل الشىء نفسه عن فرويد وهو طبيب مختص بعلم الفيزيولوجيا ٠ وبافلوف وهو عالم الفيزيولوجيا الروسى وآدلر وهو طبيب نمســـاوى وغيرهم كثير ٠

وثانيهما : ان فرويد حلقة فى سلسلة من الأطبـــاء الذين اهتموا بالأمراض النفسية والجســـدية (وكانت تســـمى عصبية) وأشهرهم (شاركو) الفرنسى وتلميذه (جانيه) الفرنسى أيضا وقد تتلمذ فرويد على أولهما ثم انتقل من مدرسته الى مدرسة (نانسى) فى فرنسا أيضا ٠ وكلتا المدرستين كانت تستعمل التنويم (المغناطيسى) علاجا للأمراض العصبية النفسية على أن المهم فى هذا الصدد كون الجو العلمى مهيئا لهذه الدراسات مما مهد لظهور فرويد ٠

وثالثهما : ان فرويد عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين وشهد النهضة الصناعية الجبارة التى اجتاحت أوروبا وتعقد الحياة الاجتماعية فى المجتمعات الأوروبية وتشابك العلاقات الانسانية بين أفراد هذه المجتمعات ٠

ورابعها : ان فرويد يهودى وانه كان ليهـــوديته دخل كبير فى صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته ذلك بأنه كان ينتمى الى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة التى أقل ما ينسب اليها حب المال والانغلاق والتعصب والتوحيد بين القومية والدين والمطامح الاقتصـــادية والحنين الى الماضى والعمل على بناء وطن قومى من نوع محدد ٠ وكان ذلك ضمن اطار معين ٠

حيـــاة فرويـــد

ولد سيجموند فرويد فى عام ١٨٥٦ من أبوين يهوديين فى مدينة فرايبرج بمورافيا التى تعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا وفى سن الرابعـة انتقل مع أسرته الى مدينة فيينا حيث نشأ ودرس الطب فى جامعتها ٠

وقد اهتم فرويد اهتماما خاصا بالأبحاث الفسيولوجية والتشريحية المتعلقة بالجهاز العصبى واشتغل وهو لا يزال فى معمل ارنست بروك الفسيولوجى وقام بعدة أبحاث فى تشريح الجهاز العصبى ٠ وفى عام ١٨٨١ حصل على الدكتوراه فى الطب وعين مساعدا لارنست بروك فى معمله وفى عام ١٨٨٢ اشتغل طبيبا فى المستشفى الرئيسى بفيينا ونشر بعض الأبحاث المهمة فى تشريح الجهاز العصبى وفى الأمراض العصبية مما لفت اليه الأنظـار ٠ وفى عام ١٨٨٥ عين محاضرا فى علم أمراض الجهـاز العصبى ٠

ونشأت فى تلك الفترة صـداقة بين فرويد وجوزيف برويز أحد أطباء فيينا المشهورين وقد تأثر فرويد به تأثرا كبيرا ٠ وقد كان برويز يستخدم الايحاء التنويمى فى معالجة مرضاه واكتشف أثناء علاجه لفتاة مصابة بالهستيريا أن المريضة ذكرت أثناء نومها حوادث ماضية لم تستطع تذكرها أثناء اليقظة ورأى برويز ان ذكر المريضة لهذه الحوادث والتجارب الشخصية القديمة والافضاء بالعواطف والانفعالات المتعلقة بها والتى كانت من قبل مكبوتة كان له أثر كبير فى شفاء المريضة وقد سمى برويز فيما بعد هذه الطريقة فى العلاج « بطريقة التفريغ » وذكر برويز لفرويد قصة علاجه لتلك الفتاة فأعجب فرويد بطرافتها وبنجاحها فى شفاء المريضـة ولكنه لم يعلق عليها فى ذلك الوقت أهمية كبيرة ٠

وفى عام ١٨٨٥ رحل فرويد الى باريس للدراسة فى جامعة سالبتربير حيث كان شاركو يقوم بأبحاثه فى الهستيريا وشاهد فرويد بنفسه بعض هذه الأبحاث التى أثبتت امكان احداث أعراض الهستيريا بالايحاء التنويمى وامكان ازالتها بالايحاء أيضا وقد أكدت هذه التجارب التشابه التام بين الهستيريا التى تحدث عن الايحاء وبين الهستريا التى تشاهد بين المرضى ثم عاد فرويد الى فيينا عام ١٨٨٦ واشتغل طبيبا خاصا مع استمراره فى وظيفته التدريسية وأخذ فرويد فى تطبيق ما تعلمه من شاركو وحاول اقناع أطباء فيينا أن بامكانه احداث الهستيريا بالايحاء التنويمى فقوبل بمعارضة شديدة غير ان فرويد استمر فى مواصلة بحثه العلمى كطبيب خاص يعالج مرضاه بوساطة الايحاء التنويمى · ولم يلبث فرويد طويلا حتى اتضحت له بعض العيوب فى فنه التنويمى اذ تبين له انه لا يستطيع أن ينوم بعض مرضاه وقد جعله ذلك يشعر بأنه لا يزال فى حاجة الى تحسين فنه التنويمى فسافر فى عام ١٨٨٩ الى مدينة نانسى بفرنسا وقضى فيها عدة أسابيع فى اتصال بالطبيبين ليبيبولت وبرنهايم ·

ولما عاد فرويد بعد ذلك الى فيينا جدد اتصاله العلمى فى أسباب الهستيريا وطرق علاجها وقد نشرا معا فى عام ١٨٩٣ بحثا فى « العوامل النفسية للهستيريا » وفى عام ١٨٩٥ نشرا كتاب « دراسات فى الهستيريا » ويعتبر هذا الكتاب الأخير نقطة تحول مهمة فى تاريخ علاج الأمراض العقلية والنفسية فقد احتوى على البذور الأولى التى نمت منها فيما بعد نظرية التحليل النفسانى وقد أشار المؤلفان فى هذا الكتاب الى أهمية الدور الذى تلعبه الحياة العاطفية فى الصحة العقلية وبينا ضرورة التمييز بين الحالات العقلية الشعورية وبين الحالات العقلية اللاشعورية وذهبا الى أن الأعراض الهستيرية تنشأ عن كبت الميول والرغبات فتتحول تحت تأثير هذا الكبت عن طريقها الطبيعى وتتخذ لها منفذا عن طرق شـــاذة غير طبيعية هى الأمراض الهستيرية · وشرح المؤلفان « طريقة التفريغ » وبينـــا قيمتهـــا العلاجية فى شفاء الهستيريا · وتتلخص هذه الطريقة فى حث المريض أثناء التنويم المغناطيسى على تذكر الحوادث والخبرات الشخصية الماضية وعلى « التنفيس » عن العواطف والانفعالات المكبوتة ولذلك سميت هذه الطريقة فى العلاج بطريقة التفريغ · ويرجع الفضل فيما جاء فى هذا الكتاب من آراء جديدة الى « بروير » كما اعترف بذلك فرويد نفسه وقد ساعدت ملاحظات فرويد وتجاربه العديدة على تأييد آراء بروير واثبات صحتها ·

ثم أخذت آراء فرويد تختلف عن آراء بروير فدب بينهما الخلاف وانقطعت بينهما الصلة وحدث أول خلاف بينهما حينما حاولا تفســير

العوامل النفسية المسببة للهستريا ففسر بروير الانحلال العقلى الذى يصاحب الهستريا بانقطاع الصلة بين حالات النفس الشعورية وفسر الأعراض الهستيرية بحالات شبه تنويمية ينفذ أثرها الى الشعور • أما فرويد فقد كان يرى أن الانحلال العقلى يحدث نتيجة صراع الميول وتصادم الرغبات واعتبر الأعراض الهستيرية أعراضا دفاعية نشأت تحت ضغط الدوافع المكبوتة فى اللاشعور التى تحاول التنفيس عن نفسها بشتى الطرق ولما كان ظهور هذه الدوافع المكبوتة فى الشعور أمرا غير مقبول للنفس فانها تحاول التنفيس عن نفسها بطريق غير طبيعية هى الأعراض الهستيرية • وحدث الخلاف الثانى بين فرويد وبروير حينما أخذ فرويد الغريزة الجنسية السبب الأول فى حدوث الهستيريا ولم يوافق بروير على هذا الرأى وعارض فرويد فيه كما عارضه فى ذلك جمهور الأطباء فى عصره •

ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يواصل أبحاثه منفردا فى عزم لا يلين وفى ثبات لم تزعزعه هجمات خصومه وبدأت تكشف له ملاحظاته وأبحاثه عن الدور المهم الذى تلعبه الغريزة الجنسية فى مرض الهستيريا وقد دفعه ذلك الى توسيع دائرة بحثه فأخذ يدرس الأنواع الأخرى من الأمراض العصابية ويبحث عن علاقة الغريزة الجنسية بها وقد أدت أبحاثه الى اقتناعه بأن اضطراب الغريزة الجنسية هى العلة الرئيسية فى جميع هذه الأمراض •

كان فرويد حتى الآن يستخدم « طريقة التفريغ » أثناء التنويم وهى الطريقة التى اكتشفها بروير ثم أخذ فرويد يفطن الى ما فى التنويم من عيوب فرأى ان بعض المرضى لا يمكن تنويمهم كما رأى أيضا أن الشفاء الذى ينتج عن التنويم كان مقصورا فقط على ازالة الأعراض المرضية ولم يتناول العلل الرئيسية التى تنتج عنها هذه الأعراض كما ان الشفاء كان وقتيا فقط لا يلبث ان يزول أثره بعد فترة طويلة أو قصيرة فتعود الأعراض نفسها أو غيرها الى الظهور مرة أخرى • ورأى فرويد أيضا ان نجاح العلاج يتوقف على استمرار العلاقة بين المريض وطبيبه ودعاه ذلك الى أن يفطن الى أهمية الدور الذى تلعبه الرابطة الانسانية فى العلاج ولم تكن الرابطة الانسانية تظهر بوضوح أثناء التنويم المغناطيسى •

لكل هذه الاعتبارات رأى فرويد أن يعدل من استخدام التنويم وبدأ يحث مرضاه عن طريق الايحاء وهم فى حالة اليقظة على تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية •

ثم ظهرت لفرويد ــ فيما بعد ــ عيوب هذه الطريقة أيضا فقد وجد أنه لا يستطيع دائما باستخدام الايحاء وحده دفع مرضاه الى تذكر الحوادث

والتجارب الشخصية الماضية التى سببت مرضهم ، هذا فضلا عما فى هذه الطريقة من مشقة وارهاق لكل من الطبيب والمريض فرأى فرويد أن يعدل عن هذه الطريقة وبدأ يطلب فقط من مرضاه ان يطلقوا العنان لأفكارهم تسترسل من تلقاء نفسها دون قيد أو شرط وطلب منهم أن يفوهوا بكل ما يخطر ببالهم أثناء ذلك من أفكار وذكريات ومشاعر دون اخفاء أى شىء عنه مهما كان تافها أو معيبا أو مؤلما وتعرف هذه الطريقة التى ابتكرها فرويد بطريقة « التداعى الحر » .

وباستخدام التداعى الحر بدأت تنكشف أمام فرويد حقائق مهمة لم يكن من المستطاع الاهتداء اليها من قبل حينما كان العلاج يتم فقط أثناء التنويم . ابتدأت تتضح لفرويد الأسباب التى تجعل تذكر بعض الحوادث والتجارب الشخصية الماضية أمرا صعبا فقد رأى أن معظم هذه التجارب مؤلم أو مشين للنفس وهكذا بدا لفرويد أن سبب نسيانها هو كونها مؤلمة أو مشينة . ولهذا السبب كانت اعادتها الى الذاكرة أمرا شاقا يحتاج الى مجهود كبير للتغلب على المقاومة الشديدة التى كانت دائما تقف ضد ظهور هذه الذكريات فى الشعور ومن هذه الملاحظات كون فرويد نظريته المهمة فى الكبت التى قال عنها انها الحجر الأساسى الذى يعتمد عليه جميع بناء التحليل النفسانى وأهم جزء فيه .

وذهب فرويد الى أن الكبت يحدث فى الأصل عن الصراع بين رغبتين متضادتين وذكر نوعين من الصراع بين الرغبات يحدث أحدهما فى دائرة الشعور وينتهى بحكم النفس فى صالح احدى الرغبتين والتخلى عن الأخرى وهذا هو الحل السليم للصراع الذى يقع بين الرغبات المتضادة ولا ينتج عنه ضرر للنفس وانما يقع الضرر من النوع الثانى من الصراع الذى تلجأ فيه النفس بمجرد حدوث الصراع الى صد احدى الرغبتين عن الشعور وكبتها دون اعمال الفكر فى هذا الصراع واصدار حكمها فيه وينتج عن ذلك ان تبدأ الرغبة المكبوتة حياة جديدة شاذة فى « اللاشعور » وتبقى هناك محتفظة بطاقتها الحيوية المحبوسة وتظل تبحث عن مخرج للانطلاق ، فتجده فى الأعراض المرضية التى تنتاب العصابيين . وعلى ضوء هذا التفكير رأى فرويد أن مهمة الطبيب النفسانى ليست هى دفع المريض الى (التفريغ) و (التنفيس) عن الرغبات المكبوتة كما كان يفعل بروير وفرويد من قبل بل هى الكشف عن الرغبات المكبوتة لاعادتها مرة أخرى الى دائرة الشعور لكى يواجه المريض من جديد هذا الصراع الذى فشل فى حله سابقا ، فيعمل الآن على حله باصدار حكمه فيه تحت ارشاد الطبيب النفسانى وتشجيعه . وبعبارة أخرى أصبحت مهمة الطبيب النفسانى هى احلال الحكم الفعلى محل الكبت اللاشعورى . ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يسمى طريقته فى العلاج بالتحليل النفسانى .

قضى فرويد عشر سنوات (١٨٩٦ ـ ١٩٠٦) منذ انفصال بروير عنه يعمل منفردا فى جمع ملاحظاته ومواصلة أبحاثه وتكوين نظرياته فى وقت حرمته المجتمعات العلمية كل تشجيع وتأييد • ثم ابتدأت الأمور تتبدل ابتداء من عام ١٩٠٢ حينما التف حوله لأول مرة قليل من شباب الأطباء المعجبين بنظريته الجديدة بقصد تعلم مبادئها واكتساب الخبرة فيها ثم أخذ عددهم يزداد رويدا رويدا وبدأ ينضم اليهم أفراد من غير الأطباء من أهل الأدب والفنون •

ثم أخذت المعرفة بالنظرية الجديدة تنتشر بين الأطباء فى كثير من البلاد وخاصة فى سويسرا حيث اكتسبت الحركة الجديدة صداقة « أوجين بلولر » المشرف على معهد الأمراض العقلية بالمستشفى العام بمدينة زيوريخ ، ويونج أحد مساعدى بلولو • وفى عام ١٩٠٨ عقد أول مؤتمر للتحليل النفسانى بمدينة زيوريخ بدعوة من يونج حيث تقرر اصدار مجلة التحليل النفسانى تحت ادارة فرويد وبلولر وأسندت رياسة التحرير الى يونج وكان ذلك بدء صفحة جديدة فى تاريخ حركة التحليل النفسانى •

وفى عام ١٩٠٩ دعت جامعة كلارك بالولايات المتحدة الأمريكية فرويد ويونج للاشتراك فى احتفال الجامعة لمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيسها فاستقبل فرويد وزميله فى أرض الدنيا الجديدة استقبالا رائعا وقوبلت محاضرات فرويد الخمس والمحاضرتان اللتان ألقاهما يونج بجامعة كلارك مقابلة حسنة •

وفى سنة ١٩١٠ عقد المؤتمر الثانى للتحليل النفسانى فى مدينة نورمبرج حيث تم تأليف « جمعية التحليل النفسانى الدولية » وتقرر فى ذلك المؤتمر اصدار نشرة دورية تكون رابطة الاتصال بين الجمعية الرئيسية وبين فروعها الأخرى فى برلين برياسة أبراهام وفى زيوريخ برياسة يونج وفى أثينا برياسة ألفرد ادلر وبعد ذلك أصدر ادلر وشتيكل مجلة ثانية للتحليل النفسانى فى فيينا •

ثم توالت بعد ذلك مؤتمرات جمعية التحليل النفسانى وتكونت لها فروع فى معظم الأقطار الغربية وأخذت تعاليم التحليل النفسانى فى الانتشار وبدأت تجلب اليها كثيرا من الأصدقاء والأتباع لا من رجال الطب فقط بل من رجال العلوم والفنون المختلفة أيضا •

اتفق على ان علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الأخرى فى انه أكثرها غموضا وأعظم لغز بينها ، وأقل جميع العلوم قابلية للبرهان العلمى • ففى طبيعة الأشياء لا مفر من الزوغان وعدم قبول

التكهن لأن العالم النفسانى يتناول أعظم الظواهر الطبيعية غموضا ، فاية نظرية في الكيمياء أو فى علم الفيزياء يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحة أية نظرية فى علم النفس ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيجموند فرويد والمحللين النفسانيين لمدة تزيد على الستين عاما !

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث • وحتى اينشتين نفسه لم يمس تصورات معاصريه أو يتدخل فى حياتهم مثلما فعل فرويد • صاغ فرويد أفكارا ومصطلحات في محيط المناطق المجهولة من العقل وصارت جزءا من حياتنا اليومية • لقد أحس بآثار تعليمه كل مجال من المعارف ــ الأدب الفن والدين وعلم الأجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الاجرام والتاريخ وتاريخ حياة الأفراد وغير ذلك من دراسات المجتمع والفرد •

رغم كل ذلك هناك بعض الحلاوة والضوء فى هذه التعاليم وقد أبدى أحد النقاد غير الأوفياء ملاحظته قائلا :

« عندما انتشرت نظريات فرويد ظهر أمام الرجل العامى كأعظم مفسد للسرور فى تاريخ الفكر البشري يحول مزاج الانسان ومرحه الى كبت محزن غريب ويجد العداوة فى جذور الحب والضغينة فى قلب الرقة ، والزنا بالأقارب فى المحبة والاجرام فى السخاء وكراهية الأب المكبوتة كطبيعة بشرية عادية موروثة » •

ومع هذا فبسبب فرويد تختلف فكرة الناس اليوم عن أنفسهم • يعتقدون ان أفكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الادراك على الوعى والأساس الجنسى لاضطراب وظائف الأعصاب ووجود الغريزة الجنسية لدى الأطفال ووظيفة الأحلام وعقدة أوديب والكبت والمقاومة وقراءة الأفكار ، ويعتقدون ان هذه الأفكار أمور عادية ثم ان عيوب الانسان كفلتات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية تتخذ أهمية جديدة عند النظر اليها من وجهة نظر فرويد ومن الصعب الآن ادراك مقدار التعصب الذي كان على فرويد أن يتغلب عليه عند نشر نظرياته اذ كان أشد بكثير مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين •

نظرية فرويد

قسم فرويد النشاط الذهنى للفرد على انه يحدث على ثلاثة مستويات أطلق عليها الايد ، والذات ، والذات السامية ، والايد ذات أهمية أولى ويقول فرويد ان « منطقة عمل الايد هى الجزء المظلم غير الممكن الوصول اليه من شخصيتنا والقليل الذى عرفناه عنها عرفناه عن طريق دراسة الأحلام وتكوين أعراض الاضطرابات العصبية » والايد هى مركز

الغرائز والانفعالات البدائية وتمتد الى الوراء الى الماضى الحيوانى وهى حيوانية وجنسية فى طبيعتها • انها غير واعية ويستطرد فرويد فيقول : « تحتوى الأيد على كل شىء موروث وكل ما هو موجود عند الميلاد وكل ما هو ثابت فى تكون الشخص » الأيد عميـاء متهورة وكل غرضها هو تحقيق رغباتنا وملذاتها دون تقدير للعواقب وبنفس ألفاظ « توماس مان » « لا تعرف أية قيم ولا خيرا ولا شرا ولا أخلاقا » •

الطفل الحديث الولادة نموذج الايد وبالتدريج تنمو الذات من الايد أثناء نمو الطفل وبدلا من أن تكون الذات منقادة تماما بمبدأ اللذة يحكمها مبدأ الحقيقة تعى الذات العـالم حولهـا مدركة وجوب كبح ميول الايد الجامحة منعا لخرق قوانين المجتمع وكما قال فرويد ان الذات هى الوسيط « بين مطالب الايد الطائشة وتحريم العالم الخارجى » وعلى هذا تعمل الذات بمثابة رقيب على دوافع الايد وتلائمها تبعا للمواقف الحقيقية مدركة أن تحاشى العقاب أو حتى صيانة النفس ، قد تعتمد على مثل هذا الكبت وقد ينتج عن الصراع بين الذات والايد اضطرابات عصبية تؤثر على شخصية الفرد •

أخيرا هناك العنصر الثالث للعملية الذهنية وهو الذات السامية التى يمكن التوسع فى تعريفها بالوعى وكتب أ• أ• بربيل وهو أعظم أنصار فرويد فى أمريكا كتب يقول :

« الذات السامية أرقى تطور ذهنى يمكن أن يصل اليه الانسـان وتتألف من رواسب جميع المحرمات وجميع القواعد الشخصية التى يطبعها الوالدان فى الطفل والبدائل الأبوية ويتوقف الاحساس بالوعى كلية على نمو الذات السامية » •

وتشبه الذات السامية الايد فى كونها غير واعية وكلتاهما فى صراع دائم بينما تعمل الذات حكما بينهما وتكمن المثل الأخلاقية وقواعد السلوك فى الذات السامية •

عندما تكون الايد والذات والذات السامية فى انسجام معقول يكون الفرد طيب المزاج سعيدا • أما اذا صرحت الذات للايد بخرق القوانين أحدثت الذات السامية قلقا واحساسا بالاثم وغيرهما من مظاهر الوعى •

هناك عامل آخر قريب الشبه من الايد أوجده فرويد وهو نظريته عن الشـهوة الجامحة فيقول ان جميع انفعالات الايد مشحونة بصورة من « النشاط النفسى » اصطلح على تسميته Libido أى الشهوة الجامحة « جوهر مذهب التحليل النفسى » ويعتبر جميع ما يتعلمه المرء من ثقافة وفن وقانون ودين وغير ذلك من تطورات للشهوة الجامحة • وبينما يشار الى الشهوة بأنها نشاط جنسى فالواقع ان كلمة « جنسى » تستعمل فى

معنى واسع جدا فتتضمن فى حالة الأطفال الحديثى الولادة أعمالا منها مص الابهام والرضاعة بالبزازة والتبرز وفى السنين اللاحقة قد تنتقل الشهوة الى شخص آخر عن طريق الزواج وتتخذ صورة انحراف جنسى أو يعبر عنها بخلق فنى أو أدبى أو موسيقى ـ وهذه عملية تعرف باسم « الاحلال » . والغريزة الجنسية فى رأى فرويد هى أعظم مصدر للعمل الخلاق .

عقـــدة أوديب

يقرر فرويد فى أعظم نظريات التحليل النفسى جدا انه تحت تاثير الشهوة الجنسية تنمو فى الطفل احساسات جنسية نحو والديه مبتدئا بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية بثدى أمه فتكون لدى الطفل صلة حب لأمه وعندما تتقدم به السن ، ولكن فى سن مبكرة تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات جنسية قوية نحو أمه بينما يمقت أباه ويخافه كمنافس له . أما الطفلة الأنثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها وتقع فى حب أبيها وتصير الأم موضع كراهيتها ومنافسة لها . وبتطبيق هذه النظرية على الطفل الذى يطلق عليها اسم « عقدة أوديب » التى أخذت اسمها من الشخصية الاسطورية الاغريقية القديمة « أوديب » الذى قتل أباه وتزوج أمه . وقال فرويد ان عقدة أوديب موروثة عن أسلافنا البدائيين الذين قتلوا آباءهم فى ثورات الغيرة وعندما يصل الشخص الطبيعى الى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الأوديبية أما الأفراد الضعاف فقد لا ينجحون اطلاقا فى قطع الصلة بالأبوين وبذا ينقادون الى سلسلة من الاضطرابات النفسية .

والواقع ان فرويد قرر يقول : « ان الاضـطربات النفسية بدون استثناء اضطرابات للوظيفة الجنسية » وزيادة على هذا فلا يمكن القـاء اللوم على الاضطرابات العصبية فيما يختص بالزيجات الفاشلة أو شئون الحب غير الناجح لدى البالغين ، بيد أنه يمكن أن نعزو كل هذه الى العقد الجنسية للطفولة المبكرة وبتطبيق نظريته على مجال علم الأجناس البشرية استنتج فرويد فى كتابه « الشعارات والمنبوذين » ان الطبيعة والأساطير الدينية للانسان البدائى نتيجة لعقد الأب والأم وكان يعتقد أن الدين مجرد تعبير عن عقدة الأب . وبعد تحاليل مفصلة لمئـات الحالات التى جاءته للعلاج رفع الغريزة الجنسية والرغبات الجنسية الى دور بالغ الشان فى تكوين الشخصية كما جعلها السبب الرئيسى فى الاضطرابات العصبية وهذا حكم رفضـه بعض مشاهير أخصائيى التحليل النفسى كما سنبين فيما بعد .

ولما أجبر المجتمع الفرد على أن يوقف الكثير من رغباته الملحة فانه يطوي نفسه على كثير من الكبت بطريقة غير واعية واذا استخدمنا مصطلح فرويد : ينجح وعي المرء في منع « قوى اللاوعي المظلمة » التي كبتت ومنعت من الظهور مرة ثانية ورغم هذا فان الأشخاص المصابين بالاضطرابات العصبية قد يعانون فترات من الاضطرابات العاطفية بسبب مثل هذه الرقابة فيقول فرويد : « ان من وظيفة العلاج بالتحليل النفسي أن يكشف حالات الكبت ويحل محلها حالات الحكم الصحيح التي قد ينتج عنها اما القبول واما نبذ ما سبق رفضه وبسبب الطبيعة المؤلمة للمادة المكبوتة فقد جرت العادة أن يحاول المريض منع اكتشاف كبته ويطلق فرويد على هذه المجهودات « مقاومات » ، ويهدف الطبيب الى التغلب عليها .

تعرف الآن تلك الطريقة التي ابتكرها فرويد لتناول حالات الكبت والمقاومات باسم « التسلسل الحر للأفكار » — « سيل من حديث العقل الواعي بواسطة مريض راقد على سرير أخصائي التحليل النفسي في حجرة خافتة الضوء يشجع المريض على أن يقول كل ما يدور في رأسه بينما يتوقف عن اعطاء أي اتجاه واع لأفكاره » ويقرر فرويد أن طريقة التسلسل الحر للأفكار هي الطريقة الفعالة الوحيدة لعلاج اضطراب الأعصاب وقد حققت ما كان ينتظر منها وهو « اظهار المادة المكبوتة الى الصورة الواعية تلك المادة التي احتجزتها المقاومات » وقد وصف « بريل » طريقة فرويد مع المرضى بقوله : « حثهم على أن يظهروا كل انعكاس واع ويستسلموا الى التركيز الهادىء ويتتبعوا أحداثهم الذهنية التلقائية ويفضوا اليه بكل شيء . وبهذه الطريقة حصل أخيرا على تلك الأفكار المتسلسلة في حرية والتي تقود الى أصل الأعراض » وهذه المادة المنسية التي يستخرجها المريض من العقل غير الواعي بعد مدة ربما تصل الى شهور من علاج التحليل النفسي تمثل عادة شيئا مؤلما مقيتا ومخيفا وذميما من الماضي وهي مواد يمقت المريض ان يتذكرها بوعي .

لابد في مثل هذه العملية ان تحدث تلك الذكريات الهائمة كمية من المعلومات غير الملائمة والعديمة النفع . اذن يتوقف كل شيء على مقدرة الطبيب على تحليل مادته نفسيا تلك المادة التي كما أشار مختلف النقاد يمكن تفسيرها بعدد لا نهائي من الطرق وعلى ذلك يكون ذكاء ومهارة أخصائي التحليل النفسي على جانب كبير من الأهمية الأساسية .

ومن خلال معالجة فرويد لمرضاه بالتحليل النفسي اكتشف ما أطلق عليه « عامل ذو أهمية لا يحلم بها » وهو علاقة عاطفية شديدة بين المريض والطبيب وهذا يسمى « قراءة الأفكار أو انتقال الأفكار » .

لا يقنع المريض بالنظر الى الطبيب المحلل النفسانى فى ضوء الحقيقة كمساعد وناصح ... بل على العكس يرى المريض فى طبيبه النفسانى اعادة شخص كل شىء من الأهمية فى طفولته أو ماضيه ويعنى بهذه الاعادة « اعادة التجميع » ــ ونتيجة لهذا ينقل اليه مشاعر وانفعالات تنطبق بلا شك على هذا النموذج .

« يمكن أن تتفاوت قراءة الأفكار بين نهايتين احداهما محبة عاطفية ذات صفة جنسية كاملة والأخرى تعبير منفلت الزمام من التحدى والكراهية المريرتين » . وفى هذا الموقف يكون الطبيب النفسانى المحلل « كقاعدة » فى موضع أحد والدى المريض أبيه أو أمه » ويعتبر فرويد حقيقة قراءة الأفكار « خير أداة للعلاج النفسى » ــ بيد ان تناولها يظل « أصعب وأهم جزء فى فن التجميل » ويقرر فرويد أن المشكلة « تحل باقناع المريض بأنه يستعيد ممارسة علاقات عاطفية نشأت فى طفولته المبكرة » .

عالم الأحـــلام

ومن الطرق المثمرة الأخرى التى ابتكرهـــا فرويد للوصـــول الى الصراعات والعواطف الداخلية ، تحليل الأحلام الذى كان فرويد أول من توصل اليه فقبل عصره اعتبرت الأحلام بدون معنى أو هدف ، كان كتابه « تفسير الأحلام » أول محاولة لدراسة عملية جديدة لهذه الظاهرة . وقد أبدى فرويد ملاحظته بعد نشر ذلك الكتاب باحدى وثلاثين سنة « بانه يتضمن ، حتى بعد حكمى فى هذا اليوم الحاضر أعظم الاكتشافات التى ساعده الحظ فى ايجادها وأكثرها قيمة » وتبعا لفرويد : « يحق لنا أن نؤكد أن الحلم هو الانجاز المستمر لرغبة مكبوتة يمثل كل حلم دراما فى العالم الداخلى « فالأحلام دائما نتيجة صراع » . وقال فرويد : و « الحلم هو حارس النوم » . ووظيفته مســاعدة النوم لا ازعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغبات لا يمكن تحقيقها .

عالم الأحلام حسب رأى فرويد واقع تحت سيطرة العقل غير الواعى بالوحدة الوراثية « الايد » والأحلام مهمة لأخصائى التحليل النفسى ، لأنها تقوده الى العقل غـــير الواعى للمريض وتكمن فى العقل اللاواعى جميع الرغبات البدائية والرغبات العاطفية المكبوتة من الحياة الواعية بواسطة الذات والذات الســـامية والرغبـــات البهيمية موجـــودة دائمـــا تحت السطح وتدفع نفسها الى الظهور فى الأحلام وحتى فى النوم تقف كل من الذات والذات السامية فى موقف الحراسة كرقيبتين لهذا السبب كانت معانى الأحلام غير واضحة دائما وانما يكون التعبير عنها فى صورة رموز تحتاج الى خبير يفسرها ورموز لا يمكن أخذها حرفيـــا الا بالطبع فى

الأحلام البسيطة للأطفال ويحتوى كتاب « تفسير الأحـــلام » عدة أمثلة حللها فرويد تحليلا نفسيا ٠

ومن الأعمال التعبيرية للعقل اللاواعى أخطاء التهجى وزلات اللسان وحيل شاردى الذهن ٠ ويقول فرويد : « بنفس الطريقة ينتفع أخصائى التحليل النفسى من تفسير الأحلام كما ينتفع من الزلات البسيطة الكثيرة والأخطاء التى يقوم بها الناس ــ التى يطلق عليها اسم أفعال عارضة » ٠ وفى سنة ١٩٠٤ فحص فرويد ذلك الموضوع فى كتابه « العلاج النفسى للحياة اليومية » يقرر فى ذلك المؤلف و « ليست هذه الظـواهر وليدة الصدفة فلها معنى ويمكن تفسيرها ٠ ويقنع المرء بأن يستخلص منها وجود انفعالات ونوايا مكبوتة » فنسيان المرء لاسم ما : معناه انه يكره الشخص المسمى بذلك الاسم وعندما يفوت القطار شخصا بسبب التباس فى جدول المواعيد فقد يدل ذلك على انه لا يرغب فى ركوبه والزوج الذى يفقد مفتاح بيته أو ينساه قد يكون غير سعيد فى بيته ولا يرغب فى العودة اليه ٠ يمكن لدراسة مثل هذه الهفوات ان تقود أخصائى التحليل النفسى الى متاهات العقل اللاواعى ٠

يمكن الحصـــول على نفس المنطلق من النكات التى سماهـــا فرويد « خير صمام أمن أنتجه الانسان العصرى » اذ من خلالها نتحرر مؤقتا من حالات الكبت التى يريدنا المجتمع المؤدب أن نخفيها ٠

اثر الفكر الفرويدى على الأدب والفن

وقد انقسم علماء النفس اليوم الى معسكرين أو ثلاثة معسكرات متعارضة يؤيد البعض فرويد ويعارضه بعض آخر وحتى تلاميذه عدلوا قبولهم المطلق لنظرياته فى الخمسين سنة الماضية وها هو ألفريد ادلر أحد أتباعه المبكرين ينشق عن المعسكر الفرويدى لاعتقاده أن فرويد أكد الغرائز الجنسية أكثر من اللازم ٠ وكمذهب بديل أخذ ادلر يعلم أن رغبة كل انسان فى اثبات تفوقه هى الينبوع الأساسى فى السلوك البشرى وقد أنشأ فكرة (مركب النقص) الذى يضطر الفرد الى النضال لابراز نفسه فى نشاط ما ٠ ومن مشاهير المنشقين الآخرين كارل جونج أحد مواطنى مدينة زيوريخ الذى حاول أيضا أن يقلل من دور الجنس ٠ قسم جونج البشرية الى نوعين نفسانيين : احدهما مقلوب من الداخـــل الى الخارج والثانى مقلوب من الظاهر الى الباطن ولو انه أدرك ان كل فرد خليط من النوعين وعلى نقيض فرويد أكـــد جونج عوامل الوراثة فى تكـــوين الشخصية وعلى العموم فان نقاد فرويد يخالفونه فى بعض النقاط مثل

اصراره على الأهمية الأولى للاضطرابات النفسية فى عهد الطفولة واتهامه الناس بأنهم تتحكم فيهم الغرائز الصارمة وعلى تصعيده الشهوة الجنسية الى مركز رئيسى فى تكوين الشخصية كذلك يخالفه البعض فى اعتقاده ان التسلسل الحر للأفكار طريقة لا تخطىء لارتياد العقل الباطن ، مبرزين ، بنوع صعوبة تفسير المعلومات الناتجة عن هذه الطريقة ٠

ومع ذلك فكما لاحظ أحد علماء النفس :

« لم تقلل التغيرات ولا التطورات التى حدثت فى خلال ستين عاما بحال ما من مركز فرويد أو نفوذه لقد فتح مملكة العقل الباطن وأبان كيف انه يساعد فى جعلنا على ما نحن عليه وكيف نصل الى ذلك وكان لابد لكثير من آرائه واستنتاجاته من أن يعد لها من يأتى بعده فى ضوء المزيد من التجارب ويمكنك أن تقول ان خلفه كانوا يكتبون « عهدا جديدا » فى طب الأمراض العقلية ولكن سيجموند فرويد كتب « العهد القديم » وسيظل عمله أساسا فى ذلك المجال » ٠

اننا ندين لفرويد بالكثير من نظريتنا الحديثة الى الجنون وهناك ميل متزايد الى تقرير ان « مرضى الاضطرابات العقلية مثلنا بل وأكثر من كونهم مثلنا » وقد أكد الكسندر رايد مارتين انه : « سواء أعلن أو لم يعلن فان جميع مستشفيات الأمراض العقلية والأمراض النفسية تستخدم عناصر علم النفس الفرويدى ونظرياته الأساسية وما كان يعتبر من قبل عالما غير معروف ومخيفا وغامضا وعديم الهدف وبلا معنى أصبح عن طريق فرويد عالما نيرا وزاخرا بالمعانى وجذابا وممتعا ومعترفا به ليس فى الطب فحسب بل وفى جميع العلوم الاجتماعية ٠

ولوحظ أثر الفكر الفرويدى على الأدب والفن بنفس القدر ففى عالم الخيال والشعر والدراما وغيرها من الصور الأدبية الأخرى ازدهرت آراء فرويد فى السنوات الحديثة وقد أبدى برنار دى فوتر رأيه بقوله : « ما من عالم طبيعى آخر كان له على الأدب مثل ذلك الأثر القوى والواسع الانتشار » فلم يكن أثره أقل عمقا على التصوير والنحت وعالم الفن عموما ٠

من الصعب احصاء ما أسهمت به عبقرية فرويد فى معارفنا من نظريات وآراء متعددة النواحى وذلك بسبب اتساع مجالاته المتعبة الشاقة وطبيعة اكتشافاته المتعددة الاتجاهات وقد قام الكاتب الانجليزى روبرت هاملتون بمحاولة فاستنتج ما يأتى : ــ

« وضع فرويد علم النفس فى الخريطة ٠ وكان عالما مكتشفا عظيما ويعزى الكثير من نجاحه الى طرافته وأسلوبه الأدبى ورغم كون طريقته

لا تعتمد على شيء ملموس فما من طريقة خارج الأدب البحت كانت أكثر امتاعا وطرافة وذات أسلوب جذاب لقد جعل العالم يفكر نفسيا وهذه ضرورة أساسية لعصرنا وأجبر الناس على أن يسألوا أنفسهم أسئلة حيوية لصالحهم البشرى فمن قضايا علم النفس الأكاديمى العقيم للقرن التاسع عشر أنتج النظريات المضادة فى التحليل النفسى بسلبياتها المظلمة » ٠

وتناول أحد مشاهير الطب النفسى الأمريكيين وهو فريدريك ورثام من وجهة نظر أخرى فكتب يقول : ــ

« يجب على المرء أن يوضـــح انه زيادة على الكثير من الحقـائق الاكلينيكية الجديدة عن المرضى الذين لاحظهم فرويد فانه أحدث ثلاثة تغييرات فى التمهيد لدراسة الشخصية والعلاج العقلى أولها الكلام عن العمليات السيكولوجية والتفكير فيها بمنطق العلوم الطبيعية ، ولم يكن هذا ممكنا الا عندما قدم فرويد الفكرة الواقعية عن العقل الباطن والطرق العملية لفحصه وثانيها تقديمه لبعد جديد للعلاج السيكولوجى : الطفولة ٠ قبل فرويد مارسوا طب الأمراض العقلية كما لو كان كل مريض هو آدم ــ الذى لم يكن طفلا قط وثالثهما هو افتتاح الفهم النوعى للغريزة الجنسية ٠ كان الاكتشاف الجديد هنا هو انه ليس للأطفـال حيـاة جنسية وانما للغريزة الجنسية طفولة ٠

أصدر أ٠ أو ٠ تانسلى حكما مماثلا آخر فى تقرير عن موت شخص أعد للجمعية الملكية بلندن :

« تغدو الطبيعة الثورية لاستنتاجات فرويد عندما نتذكر انه كان يفحص مجالا لم يرتده أحد قبله اطلاقا وهو منطقة من العقل البشرى لم ينفذ اليها أحد من قبل واعتبرت مظاهرها الواضحة غير قابلة للتفسير أو انها انحرافات فاسدة أو تجاهلها العلماء لأنها تقع تحت أقوى المحرمات البشرية ولم يدرك مجرد وجود هذا المجال ــ فاضطر فرويد الى فرض حقيقة وجود منطقة لا واعية بالعقل ثم محاولة ارتيادها بالتفكك الواضح فى سلسلة الأحداث العقلية الواعية ٠

وأخـيرا قررت وينفريد أوفر هولستر انه : « هناك سبب قـوى للاعتقاد بأنه بعد مائة عام منذ الآن سيعتبر فرويد فى مصاف كوبرنيكوس ونيوتن كأحد الرجال الذين فتحوا أفقا جديدا من آفاق الفكر فمن المؤكد انه فى عصرنا هذا لم يلق أحد ضوءا على أعماق عقل الانسان كما فعل فرويد » ٠

الهـــوامش :

(١) هوراس : ص ٢٠ : (٥٦ ق٠م ــ ٨ ق٠م) من أعظم شعراء اللاتين ٠ نجح فى تصوير عصره تصويرا حيا فى أسلوب واضح ودقة متناهية وألفاظ مختارة ٠

(٢) اغسطس : ص ٢٠ : (٦٣ ق٠م ــ ١٤ بعد الميلاد) أول امبراطور رومانى ، اسمه أصلا أوكتافيوس ٠ ابن بنت أخت يوليوس قيصر الذى تبناه وجعل منه وريثا له ٠

(٣) لوكريتيوس : ص ٢٠ : (ح ٩٩ ــ ح ٥٥ ق٠م) شاعر رومانى اسمه تيتوس لوكريتيوس كاروس نظم قصيدة مهمة فى الأدب اللاتينى عنوانها « عن طبيعة الأشياء » ٠

(٤) ثيوقريطس : ص ٢٢ : ازدهر حوالى ٢٧٠ ق٠م أبو الشعر الرعوى فى الأدب اليونانى ومن أهم شعراء الاسكندرية ٠

(٥) الثيوقراطية : ص ٢٢ : أى الشبيهة بالأشــباح التى يصفها فى شعره ثيوقريطس ٠

(٦) أرفيه : ص ٣٧ : نسبة الى أرفيوس وهو الشاعر الذى يقال عنه انه كان يحرك الجماد بصوت مزماره ٠

(٧) هنرى السابع : ص ٨١ : (١٢٧٥م ــ ١٣١٣م) كونت لكسمبرج ٠ انتخب ملكا على ألمانيا خلفا لألبرت الأول (١٣٠٨ م)

(٨) الخذروف : ص ٨٧ : عويد مشقوق فى وسطه : يشد بخيط فيدور فيسمع له حنين ، ويشبه به كل سريع فى جريه ٠

(٩) ص ٩٠ راجع الفصل الرابع من الجزء الثانى من الكتاب ٠

(١٠) توما الأكوينى : ص ٩٢ : ١٢٢٥م ــ ١٢٧٤م فيلسوف ولاهوتى ايطالى ٠ من أشهر وأهم ممثلى الفكر الكاثوليكى يلقب باسم (الدكتور الملائكى) دلالة على صــفاء ذهنه ٠

(١١) القوطية : ص ١١٧ : هى حركة احياء قامت فى القرن ١٩ على تقليد الطرز الفنية والمعمارية التى سادت العصور الوسطى ٠

(١٢) بروسيا : ص ١٢٠ : ولاية ألمانية سابقة ٠ كانت تشغل النصف الشمالى من ألمانيا ٠

(١٣) روبرت أوين : ص ١٢٤ : ١٧٧١م ــ ١٨٥٨م مصلح ومفكر اشتراكى انجليزى ومؤسس الحركة التعاونية ٠ ص ١٢٤ ٠

(١٤) سير لسلى ستيفن : ١٨٣٢ ــ ١٩٠٤ كاتب وفيلسوف انجليزى من أبرز الشخصيات الأدبية فى أواخر القرن ١٩ ٠

(١٥) هربرت سبنسر . ص ١٢٤ : ١٨٢٠م ــ ١٩٠٣م فيلسوف انجليزى ٠ لقب بفيلسوف التطور ٠

المراجـــع

١	أصول الكتب الأربعة عشر	
٢	عشر روايات خالدة	سومرست موم
٣	ابن عبد ربه وعقده	جبرائيل سليمان جبر
٤	مفكرون لكل العصور	فتحى العشرى
٥	جون ستيوارت مل	د٠ توفيق الطويل
٦	اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع	د٠ عبد الباسط عبد المعطى
٧	شوقى شاعر الأمراء	انطون الجميل
٨	فى موكب العظمـاء	ابراهيم المصرى
٩	رواد الطـــب	جـون والتـــون
١٠	أحمد شوقى الشاعر الانسان	أحمد عبد المجيـد
١١	شعراء الوطنية	عبد الرحمن الرافعى
١٢	دانتى اليجيرى	طـــه فـــوزى
١٣	طاغور ٠٠ الذكرى المئوية لميلاده	
١٤	رواد علم الاجتماع	د٠ محمد على محمد
١٥	الحضارة الاسلامية	جوستاف جروينبـــاوم
١٦	معالم تاريخ الانسانية	هـ٠ ج٠ ولـــز
١٧	دائرة المعارف الاسلامية	دار الشـــعب
١٨	الحضـــــارة	أحمد حمدى محمود
١٩	التراث والحضـــارة	نعمات أحمد فـؤاد
٢٠	الحضـــارة العربية	ى٠ هـــل
٢١	الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب فى عشرة قرون	سامى اليافى
٢٢	الغرب والحضارة ٠٠ تاريخ الحضارة	كافيـــن رايلى
٢٣	حضارتنا وحضارتهم	عبد المنعم النمـر
٢٤	قصـــة الحضـــارة	ول ديورانت
٢٥	معجم اعلام الفكر الانسانى	نخبة من الأساتذة
٢٦	تاريخ العلم	جـورج سارتون

اقـرأ فى هـذه السـلسلة

أحلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغـرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايمونت وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـتر ديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
الرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطـق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديـلان تومـاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـول ويسـت
الرواية الحـديثة	بول لويس
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهرام	بيـل شول وأدبنيت
فـن الترجمـة	د · صـفاء خـلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د · نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د · فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د · روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د · لينورا تشامبوز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د · جون شندلر
الصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د· رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج· دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د· جوهان دورشنر
حـــرب الفضـــاء	مجموعة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د · السـيد عليـوة
الميكروكمبيـــوتر	د · مصطفى عنـــانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـــبرى الفضـــل
الفكر الأوروبى الحديث (٣ جـ)	فرانكلين · ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييـــل بايـر
اعلام الفلسفة السـياسية المعاصرة	انطـونى دى كرسبنى
كتـابة السـيناريو للسينما	دوايت ســـوين
الزمن وقيـــاسه	زافيلسـكى ف · س
أجهـزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـــربة اليـــونانية	س · م يـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسـلامية	د· عاصم محمد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د · سمبسـون ونورمان د· اندرسون
الشـارع المصرى والفـكر	د · أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسـيط الكيميـــاء	فرد · س · هيسن
العـادات والتقاليد المصرية	جـون يوركهـارت
التـــذوق السـينمائى	آلان كاســـبيان
التخطيط السـياحى	سامى عبـد المعطى
البـــذور الكونيـة	فريد هـــويل
دراما الشاشة (٢ جـ)	شاندرا ويكراما سـينج
الهيـروين والايـدز	حسين حلمى المهندس
صـــور افريقيـــة	روى روبرتســون
نجيب محفوظ على الشاشة	دوركاس ماكلينتـوك هاشـم النحـاس

الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر٠ بورر وميلتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د ٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس وآلان هو
اختاتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جون بورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب٠ كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر٠ح٠ فوريس
التوافق النفسى	توماس ٦ ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد / مونى براخ وآخرون
دليـل تنظيـم المتـاحف	آدمز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر
جماليـات فن الاخـراج	زيجموند هبنر
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج	ستيفن أوزمنت ،
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تأليف / تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بول كـولنر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ ج	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيمـا
انهم يصنعون البشر	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
السـينما الخيالية	بيتـر نيكوللز
السـلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى الف عام	بينـارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩	جاك كرابس جونيـور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
الكاتب الحديث	ج٠س٠فريزر
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	ترجمة / سوريال عبد الملك
من هم التتـار	د٠ ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معـالم تاريخ الانسانية ٤ ج	هـ ٠ ج ولز
ما بعد الحداثة	مارجريت روز

حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفل ٢ ج	أرنولد جزل وآخرون
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
فن الزجاج	محمد زينهم
رحلة بيرتون ٣ ج	رتيشارد ف • بيرتون
السحر والعلم والدين	د• فيليب عطية
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى	ادمز متز
رحلة فاسكو دا جاما	فاسكو داجاما
كوننا المتمدد	ايفرى شاتزمان
الفلسفة الجوهرية	سوندراى
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج• برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف • م• بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودوستويفسكى ج ١	جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى ج ٢	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ• ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب • ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين سولومون

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/١١٢٠٦

ISBN — 977 — 01 — 4641 — 2

ألف كتاب
شاب
٢٠٠

كتب غيرت الفكر الإنساني

أحمد محمد الشنواني

الجزء الخامس

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء الخامس
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Five
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1996
الناشر	دون ناشر
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	N/A
المستخلص	يتناول الجزء الخامس من كتاب " كتب غيرت الفكر الانسانى " استعراض لمجموعة من الكتب الرائدة والتى اثرت تاثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر العصور والغرض من هذه الموسوعة تاكيد الدور الخطير للكتاب فى تغيير مجرى الاحداث تغييرا كليا وذلك عن طريق مناقشة امثلة معينة والهدف هنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها اعظم الاثر واعمقه على الفكر الانسانى منذ اقدم العصور الى يومنا هذا . ومن ابرز الكتب التي تضمنها هذا الجز (انشودة التوحيد - الجامع لصناعة الطب - تاريخ الامم والملوك - رسالة اخوان الصفا - حياة الحيوان الكبرى - تدهور الغرب) .
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022107-001*

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الخامس

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

وسمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

فهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

مقـــدمـــة

منذ فجر التاريخ تفجرت على البشرية طاقات متنوعة من المعرفة ، ومع فجر التاريخ بدأ الانسان يرسى قواعد الحضارة ويضع دعائم العلم والثقافة فى كل ميادين الفكر ، وأهله ذلك لأن يفرض سيادته شـــيئا فشيئا على محيطه ٠

وبينما بقى الكون أخرس لا يفصح ولا يبين لأنه لا يعقل ، ولا يفكر ، شرع الانسان ــ هذه القصبة المفكرة كما سماه باسكال ــ فى الاعراب عما فى نفسه وضميره وقلبه وروحه ، وصار يعبر عن رغباته وانفعالاته ووجداناته وبدأ يسجل افكاره ومشاعره بالكتابة على الفخار وعلى الواح من الخشب والطين والعظام وعلى لحاء الشجر وعلى لفافات البردى وعلى ضروب من الرق والحرير ٠ وهكذا وصلت الينا معلومات شتى عبر عنها انسان ما قبل التاريخ فى شـــكل صور وكتابات ، تلك هى آثار من الحضارات القديمة البائدة ، ولأجل بقاء هذه الآثار والمعلومات البشرية حث الانسان الخطى وانتهى الى اختراع فن الكتابة ٠

فالوثيقة المكتوبة منذ آلاف الســـنين والوثيقة المطبوعة منذ مئات السنين كلتاهما تلعب دورا أساسيا فى نشر المعارف الانسانية والحفاظ عليها ، فقد وجدت الشعوب في هذه المعارف نعم الحليف للهيمنة على حياة الـــفكر والظفر بالحرية ، حتى ولو تأسست بعض الثقافات على التواصل الشفاهى أو الايمائى فان البقاء لن يضمن لها فى العصر الحديث الا بالتوصل بالكتابة ٠

وقد مدح بعض الناس الكتب قائلا : « الـــكتب بمنزلة معلمين يعلموننا بغير عصا ولا ســـوط ، ولا يسيئون معاملتنا ولا يغضـــبون ولا يطلبون هدايا ولا مالا ، واذا دنونا منهم لا ينأون عنا واذا سألناهم لا يبخلون علينا بشىء واذا تغاضينا عنهم لا يستاءون منا ، واذا جهلنا شيئا لا يسخرون منا » ٠

والكتب كالحافظة الأمينة نجد فيها تاريخ الأمم وما تقلبت فيه من حضارات ، فيها الحكم البالغة ، وتجارب القرون الماضية ، كما انها مرآة

عجائب الطبيعة ، ربما يصعب ان نجد شيئا من مصنوعات الانسان هو قاسم مشترك بين جميع أبناء البشر فى مستوى الكتاب فقد صار الكتاب من ألزم الأشياء للانسان ، وكاد يكون كالهواء لا تخلو منه بقعة من البقاع الاجتماعية فى العالم ، وهو عماد جميع أشكال الحضارة والثقافة فى جميع الميـــادين .

وكما قلنا فما من اصلاح تم أو تقدم حصل ، وما من نهضة تحققت أو رسالة انتشرت ، الا وبدأت خاطرة راودت الأذهان ، أو أملا جاش فى الصدور ، أو مثلا أعلى توجهت اليه الهمم وتعلقت به النفوس — أى بدأت فكرة تغذى بها صاحبها أولا ، ثم أصبحت غذاء للآخرين ، ومركزا للاشعاع منه ينطلق التاريخ ، وذلك ينطبق بالطبع على آثار صاحب الفكرة من كتب ومؤلفات ، لأنها شعلة منه وجزء من كيانه ، فيها جوهر وجوده ، وأنت تحس حين تقرؤها بنفحة من نفحاته .

اذن فالكتب هى التى أضاءت طريق الانسان ، منذ عرف نور العلم والمعرفة باعتبار ان هذا الانسان يتميز بالعقل ، وباعتبار انه يستفيد من ثقافته بقدر ما يستفيد من خبرته ، ولذلك فان الكتاب يعد تراثا انسانيا لا تقف فائدته عند حدود ، فالثقافة لا تحبس داخل الحدود الجغرافية ولا تختص بها أمة دون أخرى ، وانما هى موجات فكرية تظهر وتختفى ، ثم تتلوها موجات أخرى متداخلة ومتسقة .

والكتب العظيمة فى حياة الانسان ، كالاحداث العظيمة ، لا تأتى بموعد مسبق ولا يرتبط ظهورها بزمان ولا مكان محددين ، وانما هى فلتات تجود بها الحياة كلما أراد الله واضاء وجه الحياة عباقرة العقول والمواهب شرقا وغربا .

فنجد فى حياة الانسانية عددا من الكتب العظيمة التى كان لها أعظم الأثر على مسيرة الحياة والانســـان والتاريخ والثقافة والـــفكر والعلم والمدنية ..

والكتب الرائدة فى التراث الفكرى العالمى كتب كثيرة ومتنوعة ، ففى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر الانسانى نجد كتبا عظيمة كان لها فضل الريادة فى ميدانها على مدى التاريخ الانسانى الطويل .

ورغم أهمية هذه الكتب ، الا انها من النادر ان تجد شخصا قرأها جميعا وذلك لصعوبة الحصول عليها مجتمعة ، أو لندرة طباعتها أو ...

ولذلك .. فقد قدمت الأجزاء الخمسة من هذه السلسلة « كتب غيرت الفكر الانسانى » .

واننى اذ أقدم اليك عزيزى القارىء الجزء الخامس من هذه السلسلة لتكمل فيها عصارة سبعون كتابا من أهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والأدب والتى أثرت تأثيرا عظيما فى الفكر الانسانى على مر العصور والتى تعد بحق من الأعمدة فى الحضـــارة الانســـانية ٠

فان الغرض من هذه السلسلة هو توضـــيح القوة العاتية للكتب وللكلمة المطبوعة على التقدم البشرى وذلك عن طريق مناقشة أمثلة معينة ٠ ولم يكن فى نيتنا كما قلنا سابقا ـ تقديم قائمة بأحسن الكتب أو أعظم الكتب ، ولكن هدفنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ٠

ان الكتاب بأجزائه الخمســة ـ هو خلاصــة قراءات قضيتها بين الكتب ٠٠٠ وهى ليست كتبا عربية فحسب ، بل كتب غربية أيضا ، لفت نظرى اليها ، ما فيها من فكر وعمق وتجربة وخبرة ٠٠

لذلك رأيت أن أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجدت

وما أردت الا الخير وعلى الله قصد السبيل ٠

والله أسأل أن ينفع به ، ويجعله خالصا لوجهه الكريم ٠

والله المستعان ان يحقق به الفوائد ٠ وهو حسبى وكفى ٠

المـــؤلف

أنشودة التوحيد

إخناتون

١٣٦٥ ق.م

منزلة الأدب فى نفوس المصريين القدماء

كان المصريون القدماء يقدرون الأدب حق قدره ويعجبون بالكلام الجيد والقول البليغ وكانوا يرون فى اجادة التعبير والتصرف فى فنون الحديث فضلا يمتاز به المرء ومثلا ينبغى أن يتخلق به الكريم ويرون فيه كذلك ثروة تعين على المنزلة الرفيعة والدرجة السامية فقد كان بتاح حتب يحض على بذل الجهد والاستقصاء فى نيل العلم والبلاغة ويقول ان الكلام الجيد أخفى من الحجر الكريم ومع ذلك فقد يجده المرء عند الاماء ٠

ولقد أدرك المصريون ما يكون للكلمة من القوة والأثر وما تتيحه البلاغة والفصاحة من التسلط على الناس وحسن سياستهم والسيطرة عليهم ومكان ذلك من مقومات القيادة القوية والزعامة النافذة ٠ ولنا فى ذلك شاهد من قول أحد ملوك أهناسيا لابنه مريكارع وهو يعظه فيقول : كن للكلام صانعا حتى تكون شديد البأس لأن قوة الرجل فى لسانه ولأن القول أمضى من أى قتال ٠ وفيما ورد فى قصة البحار الغريق قول التابع « ان منطق الرجل ينقذه وحديثه يكف عنه (غضب) الوجوه » ٠

ونستطيع كذلك الوقوف على مبلغ حب المصريين للأدب وشغفهم به مما أورده لنا فى قصة الفلاح الفصيح وما كان من شكايته للحاكم مما وقع عليه من الحيف والجور وذلك فى أسلوب مبين وقول عذب طرب له الملك فأمر الحاكم بالتراخى فى اجابة الفلاح والتلكؤ فى رفع الظلم عنه استزادة من بيانه كما أمر بتدوين ما يقول ورفعه اليه ٠

وقصة الفلاح الفصيح كما كتبها المصريون انما قصد بها امتاع القارئين والسامعين بما أوردته من البيان والبديع وهى تكاد تشبه المقامات فى الأدب العربى ، فلا تكاد شخصية الفلاح لتختلف عن شخصية عيسى بن هشام التى اخترعها بديع الزمان الهمذانى أو شخصية أبى زيد السروجى التى اخترعها الحريرى ثم اجريا على لسانيهما ما شاءا من البيان ٠

كذلك ورد فى بعض آداب المصريين أن الملك سنفرو دعا رجاله يوما فسألهم ان يجدوا له من بينهم واحدا فيه من الحكمة والمقدرة فيحدث جلالته بالأقوال البليغة والأحاديث المختارة التى تسر قلب جلالته ٠

ولقد أدرك الملوك والكهان حب المصريين للأدب واقبالهم عليه وتأثرهم به فكان أن استخدم فى الدعاية الدينية والسياسية وفى توجيه عواطف الناس وأفكارهم الى بعض مذاهب الدين أو اتجاهات السياسة فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة والرواية فيتحدثون اليهم بالقصة الشيقة التى تثير الشغف والانصـــات وهم فى أثناء ذلك يبثون فى تضاعيفها ما شاءوا من الدعاية ويوحون للناس بما يجرون على لسان أبطالهم من النبوءات والكهانات • كان ذلك مثلا أواخر الأسرة الرابعة حين طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم ويدعون لدولتهم التى يقبض زمامها فيما رووا ملوك زعموا انهم ولدوا لاله الشمس من امرأة من الشعب وتكرر ذلك أيام الدولة الوسطى فى نبوءة نفرر حو ، التى بشر فيها بحكم أمنمحوتب الأول وفى الدولة الحديثة عن مولد حاتشبسوت الالهى •

ومن الخطر ان نخضع الآداب القديمة لما عندنا اليوم من المقاييس والمعايير وان نعيب على المصريين الأقدمين أدبا أنتجوه ولم يحقق لنا كل الذى نريده من آدابنا منذ اليوم فنقفز بذلك هوة سحيقة من الزمان ونسقط من تقديرنا عشرات من القرون فى حساب التطور الفكرى والأدبى ولذلك فينبغى أن نصدر فى حكمنا على الأدب القديم على أساس من تقدير العصر الذى أنشىء فيه والثقافات التى أخذ عنها وأسهمت فى انشـــائه •

ومع ذلك فقد وضع المصريون القدامى الأسس الأولى فى بناء الفكر الانسانى والانتاج الأدبى الرفيع وأنتجوا لنا أدبا مازال يؤثر فينا ونجد له فى نفوسنا شعورا بالرضى والاعجاب •

ومهما يكن من شىء فقد ملك المصريون ناصية المعانى والأفكار وكانوا حريصين فضـــلا عن ذلك على تجويد الكلام والوصـــول به الى أقصى ما استطاعوا من الجمال الفنى والتأثير الأدبى بما حفل به من ضروب البيان والبديع وما اصطنعوا فيه من التشبيه والاستعارة والكناية والتورية والجناس وحسب الذين ينظرون فى أدب المصريين القدامى أن يعملوا أنهم أخرجوا للناس كثيرا من الصور والتعبيرات التى فرضت نفسها على آداب من جاورهم من الأمم والشعوب ثم وجدت سبيلها الى كتبنا المقدسة التى أثرت فى آداب العالم القديم والحديث وقد كان طبيعيا أن تتحدث الكتب المقدسة الى الناس بما كانوا قد ألفوا من قبل من الصـــور والأخيلة والتعبيرات •

ثورة أخناتون الدينية

فى الوقت الذى كاد التاريخ ان يحكم فيه على ديانة مصر القديمة بانها ديانة تعدد ، وبأن ملوكها لا شأن لهم بالدين وانهم يخضعون خضوعا مطلقا لسلطة الكهنة ، ظهر ملكها الفيلسوف « اخناتون » ليؤكد بظهوره دلالات عديدة أولها : ان مصر القديمة أنجبت أول وأعظم « فرد » فى التاريخ العالمى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، ففى ظل سيطرة تكاد تكون مطلقة لعبادة الاله آمون ، وفى ظل السيادة التامة لكهنته كان على هذا الشاب أن يقف موقفا فلسفيا حادا — نتيجة تأملاته الخاصة — جعله يصارع هذه القوة العظمى ، قوة الكهنة رغم ما فى معارضتها من خطر عظيم على فرد فى مثل رقة ودماثة خلق اخناتون ٠

وثانيها : ان عقيدة « التوحيد » نبت مصرى أصيل ، عرفها المصريون قبل الأديان السماوية وكان ذلك نتيجة تأملات كهنتها لتصورات شتى حول الألوهية وحينما أسلمت تلك الكيانات الالهية التى خلقتها التأملات القديمة نفسها لتأملات أخناتون كان موقفه الفكرى الفريد برفض كافة مظاهر التعدد وضرورة أن يكون للعالم اله واحد خلق كل شىء وهو يرعى ما خلق ٠

أما ثالث تلك الدلالات : فهى ان الفلسفة بمعناها النظرى وليس العملى فقط كانت ابداعا مصريا ، فالفلسفة هى فى المقام الأول موقف عقلانى يتخذه الفيلسوف من مشكلة ما ، ولا شك ان موقف اخناتون من عقائد عصره الدينية كان موقفا فلسفيا فريدا عمقه الاقتناع العقلى الشديد لديه بأن عقيدته التوحيدية هى العقيدة الصحيحة وان ما عداها وهم وضلال ٠ وقد اكتسب هذا الموقف الفلسفى أبعادا أعمق بتلك الأدلة والبراهين التى ساقها اخناتون فى قصيدته الشهيرة للتدليل على صحة معتقده حول واحدية الاله وعالميته ٠

***

فى عام ١٣٨٠ ق٠م مات امنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم أخناتون ٠

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته فقد كان من فى الهيكل العظيم بالكرنك من النساء يتخذن سرارى لآمون فى الظاهر وليستمتع بهن الكهنة فى الحقيقة ٠

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة فلم يرضه هذا العهر المقدس وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قربانا لآمون كريهة نتنة فى خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى واستخدامهم نبوءات آمون للضغط على الأفكار باسم الدين ولنشر الفساد السياسى مما تعافه نفسه فثار على ذلك كله ثورة عنيفة وقال فى هذا : « ان أقوال الكهنة لأشد اثما من كل ما سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) وهى أشد اثما مما سمعه الملك أمنحوتب الثالث ٠ وثارت روحه الفتية على الفساد الذى تدهور اليه دين شعبه وكره المال الحرام والمراسم المترفه التى كانت تملأ الهياكل وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء فلم يقبل تراضيا ولم يقنع بأنصاف الحلول وأعلن فى شجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة وان ليس للعالم الا اله واحد هو ــ آتون ٠

ورأى أخناتون ــ كما رأى « أكبر » (١) فى الهند من بعده بثلاثين قرنا ــ ان الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة ٠

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام أو ابتدعها من عنده وهل كان آتون مجرد صورة أخرى لادنيس ٠ وأيا كان أصل هذا الاله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسرورا فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على آمون اسم أخناتون ومعناه « آتون راض » واستعان ببعض الترانيم القديمة وبعض قصائد فى التوحيد ــ نشرت فى أيام سلفه ــ فألف أغانى خماسية فى مدح آتون وهى أجمل ما بقى لدينا من الأدب المصرى القديم ٠

وقد عثر بمقابر سراة القوم على أنشودتين منهما وضعهما أخناتون للمعبود آتون لتلاوتهما فى المعابد والتوسل بهما فى خلوته ٠ وتعتبر هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور لأنهما يوضحان لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسوف الذى ضحى بالكثير لأجله ٠

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !
أى آتون الحى مبدأ الحياة ،
فاذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى

ملأت الأرض كلها بجمالك .
انك جميل ، عظيم براق ، عال فوق كل الرءوس ،
اشعتك تحيط بالأرض بل بكل ما صنعت ،
انك انت رع ، وأنت تسوقها كلها أسيرة ،
وانك لتربطها جميعا برباط حبك .
ومهما بعدت فان أشعتك تغمر الأرض ،
ومهما علوت فان آثار قدميك هى النهار .
واذا ما غربت فى أفق السماء الغربى
خيم على الأرض ظلام كالموت ،
ونام الناس فى حجراتهم ،
وعصبت رءوسهم ،
وسدت خياشيمهم ،
ولم ير واحد منهم الآخر ،
وسرق كل متاعهم ،
الذى تحت رؤوسهم ،
ولم يعرفوا هم هذا ،
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغت الأفاعى كلها ...
وسكن العالم بأجمعه
لأن الذى صنعها يستريح فى أفق سمائه
ما أبهى الأرض حين تشرق فى الأفق ،
حين تضىء يا آتون النهار
تدفع أمامك الظلام .
أضحت الأرضان فى أعياد يومية ،
واستيقظ كل من عليهما ووقفوا على أقدامهم
حين رفعتهم
فاذا غسلوا أجسامهم . لبسوا ملابسهم ،
ورفعوا أيديهم يمجدون طلوعك ،
وأخذوا فى جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم ،

واستراحت الأنعام كلها فى مراعيها ٠
وازدهر الشجر والنبات ،
ورفرفت الطيور فى مناقعها ،
وأجنحتها مرفوعة تسبح بحمدك ٠
ورقصت كل الأغنام وهى واقفة على أرجلها ،
وطار كل ذى جناحين ،
كلها تحيا اذا ما أشرقت عليها ،
وأقلعت السفائن صاعدة ونازلة ،
وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت ٠
وان السمك فى النهر ليقفز أمامك ،
وان أشعتك لفى وسط البحر العظيم الأخضر ،
يا خالق البذرة فى المرأة ،
ويا صانع النطفة فى الرجل ،
ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ،
ويا من يهدئه فلا يبكى ،
يا من يغذيه وهو فى الرحم ،
يا واهب الأنفاس يا من ينعش كل من يصنعه ٠
وحين يخرج من الجسم ٠٠٠ فى يوم مولده
تفتح انت فاه لينطق ،
وتمده بحاجاته ٠
والفرخ حين يزقزق فى البيضة
تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته
فاذا ما وصلت به
الى النقطة التى عندها تكسر البيضة ٠
خرج من البيضة ،
ليصيح بكل ما فيه من قوة
ويمشى على قدميه
ساعة يخرج منها ٠
الا ما أكثر أعمالك

الخافية علينا !
ايها الاله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ..
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
حين كنت وحيدا :
ان الناس والأنعام كبيرها وصغيرها ،
وكل ما على الأرض من دابة ،
وكل ما يمشى على قدمين
وكل ما هو فى العلا
ويطير بجناحيه ،
والبلاد الأجنبية من سوريا الى كوش
وأرض مصر ،
انك تضع كل انسان فى موضعه
وتمدهم بحاجاتهم ...
انت موجد النيل فى العالم السفلى ،
وأنت تأتى به كما تحب
لتحفظ حياة الناس ...
الا ما أعظم تدبيرك
يارب الأبدية !
ان فى السماء نيلا للغرباء
ولم يمش على قدميه من أنعام كل البلاد .
ان اشعتك تغذى كل الحدائق ،
فاذا ما أشرقت سرت فيها الحياة ،
انت الذى تنميها ،
أنت موجد الفصول
لكى تخلق كل أعمالك :
خلقت الشتاء لتأتى اليها بالبرد ،
وخلقت الحرارة لكى تتذوقك .
وأنشأت السماء البعيدة وأشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعت ،

أنت وحدك تسطع فى صورة أتون الحى ٠
تطلع ، وتسطع ، وتعود ،
انك تصنع آلاف الأشكال
من مدائن ، وبلاد ، وقبائل ،
وطرق كبرى وأنهار ٠
كل الأعين تراك أمامها ،
لأنك انت أتون النهار فوق الأرض ٠٠٠

★ ★ ★

انك فى قلبى
وما من أحد يعرفك
الا ابنك أخناتون ٠
لقد جعلته حكيما
بتدبيرك وقوتك ٠
ان العالم فى يدك
بالصورة التى خلقته عليها ،
فاذا أشرقت دبت فيه الحياة
واذا غربت مات ،
لأنك انت نفسك طول الحياة
والناس يستمدون الحياة منك ،
مادامت عيونهم تتطلع الى سناك
حتى تغيب ٠
فتقف كل الأعمال
حين تتوارى فى المغرب ٠٠٠

جـــلال آتـــون

بزوغك جليل فى أفق السماء يآتون ياحى يامبدىء الحياة ·

اذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك ·

ماذلك الا لأنك جميل عظيم نير فى السموات العليا تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك ·

أنت رع · أنت الذى اسرتهم وقيدتهم بحبك ·

أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك ·

أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار ·

الليـــل

اذا ما غربت فى افق السماء الغربى أظلمت
الأرض فأصبحت كالميتة
فيقصد السكان النوم فى حجراتهم
مغطى الرؤوس هادئى الانوف غير
مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون
أن يشعروا ·
أما الأسود فتخرج من أجحارها وكذا
الثعابين اللداغة ·
ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض ·
وماذلك الا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح
فى أفقه ·
تجعل ظلمة فيصير ليلا فيه يدرج كل حيوان
الوعر · الأشـــبال تزمجر لتخطف ولتلتمس
من الله طعامها ·

النهـــار والانســـان

اذا ما ظهرت فى الأفق وأشرقت فى النهار
كآتون أضاءت الأرض ·
اذا ما بزغت أشعتك فى الظلام وشمل
الفرح قطرى مصر ·
تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويهـــا تربض
الانسان يخرج الى عمله والى شغله
حتى المساء ·
كيف ولا وقد أيقظتهم فيغتسلون ·
ويكتسبون ويبتهلون بأذرعهم اليك وقت ·
شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم ·

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها والأشجار والنبات جميعها يانعة والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالا اليك والأغنام ترقص على أرجلها والطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة اذا ما أشرقت عليها ·

النهـــار والميـــاه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه
وكل طريق عمومى يصبح مسلوكا لأنك
ظهرت فى الأفق أما السمك فيقفز أمامك
فى النهر هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم ·
هذا البحر الكبير الواسع الأطراف · هناك
دبابات بلا عدد · صغار حيوان مع كبار ·
هناك تجرى الســـفن · لوياثان هذا خلقته
ليلعب فيه

(مزمور ١٠٤ آية ٢٥ ــ ٢٦)

خلق الانســـان

أنت خالق الجنين فى رحم أمه · أنت خالق نطفة الانسان · أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكى كيف لا وانت

المربى فى الرحم · انت معطي نفس الحياة كل مخلوقاتك ····· أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلد أمه ·

خلق الحيـــــوان

انت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصبح ، فاذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه ·

الخلق عمـــــوما

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلهـــا أنت الاله
الأحد لا شريك لك فى الملك خلقت الأرض
ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة
صنعت ملآنة الأرض من غناك ·
(مزمور ١٠٤ آية ٢٤)

بارادتك · ولما كنت وحيدا فى هذا الكون
خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير
والمخلوقات التى تدب على الأرض أو
تطير بأجنحتها انت الذى أحللت كل
انسان في سوريا والنوبة ومصر فى موضعه
وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ
نصيبه ويعيش أيامه المعدودة لقد
اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم
فسبحانك من مميز لخلقك ! ·

رى الأراضى

انت خالق النيل فى الدار الآخرة أنت أوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الأهالى · أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف · انت سيد كل اسرة لأنك تشرق لأجلها · انت شمس النهار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها والواهب لها الحياة خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم ·

ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى !

فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد ·

والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة ·

أشعتك تغذى الجنان · فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك ·

الفصـــول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ·

فالشتاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة ·

انت الذى رفعت السماء عاليا لتنظر ما خلقت فى وحدتك شارقا حيا كآتون ساطعا متلألئا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدأت ·

تضرعات الملـــك

انت فى قلبى لا يعرفك ســـوى ابنك أخناتون الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك ·

العالم كله فى قبضتك كما خلقته

أنت الوجود ومسبب الحياة للانسان ·

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب والشغل كله يبطل اذا ما أفلت فى الغرب · فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو للملك · لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش فى الخلق سيد الأرضين نفر ــ خبرو ــ رع ، وان ــ رع (ابن رع) العائش فى الحق سيد التيجان أخناتون طال أجله (وأيضا) للزوجة الملكية العظيمة خليلته ســـيدة القطرين نفر ــ نفرو ــ آتون (نفرتيتى) العائشـــة الى أبد الآبدين ·

أقدم رسول فى تاريخ البشرية

لا شك أن القارىء استنتج من هذه القصيدة ان واضعها كان واسع الاطلاع بالأمور الاجتماعية العالمية من شلالات النوبة الى أقصى حدود سوريا معتبرا هذه الأقاليم وحدة لا تتجزأ الشيء الذى لم يعتد المؤرخون نسبته الى أهالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد · وبديهى أن مثل هذا التغير نتيجة ظهور روح جديدة فى مصر بدل الروح الرجعية العتيقة والفضل فى ذلك يرجع طبعا الى أخناتون بدليل ما أوردناه من السطور السالفة التى تشهد له بسمو الذاكرة فى ذلك العهد السحيق وقد توصل هذا الملك العظيم بثاقب فكره الى معرفة اله العالم خالق الكون والى الايمان برحمته ورأفته بمخلوقاته حتى الحقير منها فقد أبصر فى رفرفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعلع بالمستنقعات المصرية نوعا من التسبيح لخالقها كما تصور قفز السمك فى الغدير حمدا لبارئها واعتقد هذا الملك أيضا أن الاله الأحد هو الذى يناجى النبات ويغذى الفرخ ويشرف على فيضان النيل الشديد وقد سماه « أب وأم جميع مخلوقاته » ومنه يتضح لنا ان الملك عرف لطف الاله العالمى وحلمه · وأشار الينا أخناتون أن نعتبر بحياة اللعلع ففيها صدق مذهبه ، وان سيادة الاله التامة على الشعوب كلها مصحوبة بعطف وحنوى أبوى بدون تمييز بين القومية والعنصر · وأظهر جلالته للمصرى المتغطرس رأفة الخالق لشعوبه كلها فذكر سوريا وبلاد النوبة قبل مصر فى تعداد تلك الشعوب · ولا شك ان هذه العقلية الغربية هى التى جعلت الأثريين يعتبرون أخناتون أقدم رسول معروف فى التاريخ الآدمى كيف لا وقد كان الملوك يعتقدون أن الاله الأعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الأهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون أما أخناتون فقد رأى فى الاله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد فى التاريخ · ولا شك ان القارىء لتعاليم هذه العقيدة يتضح له انها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته وهذا يتمشى تماما مع الروح الصوفية الموجودة فى هذه العقيدة واليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة :

« ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة انها سر مكنون أيها الاله الأحد الذى لا شريك لك فى الملك ! » ·

ومع اعتراف أخناتون لحد بعيد بعطف الخالق على مخلوقاته لم ينعته بصفات روحانية وخلقية سوى ما اتصف به آمون من قديم الزمن زد على ذلك انه بالرغم من معرفة أخناتون للطف الله بعباده لم يهتد تماما الى معرفة الحق جل شأنه ولا الى رغبته تعالى في وجود الصفة في نفوس بنى آدم وكل ما ذكره أخناتون بهذا الخصوص في تعاليمه التي وجدت مبعثرة بين الأناشيد ونقوش مقابر امراء عصره هو الاصرار المستمر على اتباع « الحق » بما لم يكن معروفا سابقا فقد اعتاد جلالته أن يعقب اسمه بعبارة « العائش في الحق » مما يشير الى شدة تعلقه بالحق وهو أمر ثابت من أخبار معيشته اليومية · وامتاز هذا الملك باعتقاده أن المعيشة العادية البسيطة البعيدة عن الكلفة هي أقرب الأمور للحق والصواب وأن كل ما أوجدته الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه لذلك لم ير هو وأسرته فائدة من الاحتجاب عن رعيته · وكان شفيقا جدا بأطفاله ويظهر في كل الاحتفالات مصحوبا بزوجته وأعضاء أسرته كأنه كاتب وضيع في معبد آتون وقد رسم نفسه وهو يعامل أعضاء أسرته ببساطة وبدون تكلف وكان كلما اشترك في حفلات دينية صاحب زوجته وأطفاله ليشتركوا فيها كل ذلك لأنه اعتقد أن الطبيعة فطرت على الحق والصواب ومن ثم أجهد نفسه في اعلان صدق هذا الرأى كلما اقتضت الظروف الاقلاع عن عادات أجداده السابقين ·

شعب غير جدير بالملك الصالح

ومن مآسى التاريخ أن أخناتون بعد أن حقق حلمه العظيـــم حلم الوحدانية العامة التى سمت بالبشرية الى الدرجات العلى لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها اليه على مهل · بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيرا يتناسب مع الواقع · لقد خال ان كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها الا اسم آتون وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة آمون من مئات الآثار وحرم كل دين غير دينه وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى أختآتون « مدينة أفق آتون » ·

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن خرجت منها دور الحكومة ــ وخسرت رواتب الموظفين وأضحت أختآتون حاضرة غنية أقيمت فيها المبانى الجديدة ــ ونهض الفن بعد أن تحرر من اغلال الكهنة والتقاليد · ولقد كشف وليم فلندرز بترى فى تل العمارنة ــ وهى قرية حديثة أنشئت فى موقع أختآتون القديمة ــ طوارا جميلا تزينه صور الطيور والسمك وغيرهما من الحيوانات رسمت كلها أدق رسم وأجمله ولم يفرض أخناتون على الفن قيودا بل كل ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صورا لآتون لأن الاله الحق فى اعتقاده لا صورة له وما أسمى هذه من عقيدة ثم ترك الفن بعدئذ حرا طليقا عدا شيئا واحد آخر وهو انه طلب الى فنانيه : بك ، وأوتا ، وتحتمس ، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها وان يغفلوا العرف الذى جرى عليه الكهنة وصدع هؤلاء بأمره وصوروه هو نفسه فى صورة شاب ذى وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل ورأس مستطيل مسرف فى الطول واسترشـــدوا فى تصويرهم بعقيدته الحيوية فى الهه فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية فى تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ودقة لا تسمو عليها دقة فى أى مكان أو زمان وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار ·

★★★

ولو ان أخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم الى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل لأدرك أن هذا تغيير أكبر من أن يتم فى زمن قصير واذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية ولكنه كان شاعرا لا فيلسوفا فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء وانهار على أم رأسه ٠

ذلك انه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من تراثها فأغضبها عليه وحرم عبادة الآلهة التى جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس ولما أن محا لفظ آمون من اسم أبيه خيل الى الناس أن هذا العمل زيغ وضلال اذ لم يكن شىء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم وما من شك فى أن أخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم ٠ وتغالى فى قدرة الشعب على فهم الدين الفطرى وقام الكهنة من وراء الستار يأتمرون ويتآهبون وظل الناس فى دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة وزاد الطين بلة ان مئات الحرف التى لم تكن لها حياة الا على حساب الهياكل أخذت تزمجر فى السر غضبا على الملك الزنديق بل انه كان من وزرائه وقواده وبطانته بين جدران قصوره من يحقدون عليه ويتمنون موته ٠

وكان الشاعر الفتى فى هذه الاثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان وكانت له سبع بنات من زوجته نفرتيتى وكان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان فى تاريخ مصر ٠

وجاءت الرسائل المروعة من الشام تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة فقد غزا الحيثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر فى الشرق الأدنى وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون فى طلب النجدة العاجلة وتردد أخناتون فى الأمر ذلك انه لم يكن على ثقة من ان حق الفتح يبرر اخضاع هذه الولايات لحكم مصر وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا فى ميادين القتال البعيدة دفاعا عن قضية لا يثق بعدالتها ٠ ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولى صالح خلعت حكامها المصريين وامتنعت فى غير جلبة عن أداء شىء من الخراج وأصبحت حرة مستقلة فى جميع شئونها ، ولم يمض من الزمن الا أقصره حتى خسرت مصر امبراطوريتها الواسعة وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التى ظلت قرنا كاملا تعتمد على ما يأتيها من الجزية الخارجية ونقصت الضرائب

المحلية الى أقصى حد ووقف العمل فى مناجم الذهب وعمت الفوضى جميع فروع الادارة الداخلية · وألفى أخناتون نفسه معدما فقيرا لا صديق له ولا معين فى عالم كان يخيل اليه من قبل انه كله ملك له · واندفع لهيب الثورة فى جميع الولايات التى كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية فى وجهه تناوئه وتترقب سقوطه ·

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى فى عام ١٣٦٢ ق·م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه من ان يكون ملكا وأيقن أن شعبه غير جدير به ·

ميديا

يوريبيدس

٤٣١ ق ٠ م

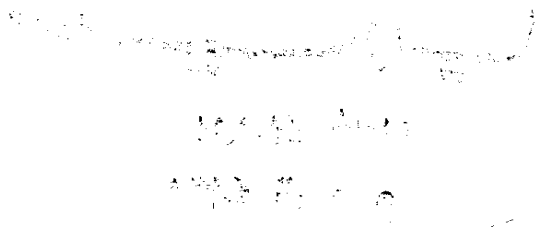

يعتبر يوربيديس أول شاعر مسرحي تراجيدى صور الحياة وما يجرى فيها من أحداث تصويرا واقعيا ، كما صور شخصيات مسرحياته كما هى لا كما ينبغى أن تكون وهذا ما يميزه عن زميليه أيسخيلوس وسوفوكليس اللذين صورا الشخصيات تصويرا ساميا بعيدا عن الواقع • وهذا التباين يرجع فى الواقع الى الظروف التى أحاطت بكل منهم : فايسخيلوس كان يمثل عقليـــة المحاربين القدماء المتدينين الذين انتصروا على الفرس فى ماراثون وسلاميس بفضل آلهتهم وسوفوكليس كان يمثل عصر ببركليس الذهبى وهو وسط بين القديم والحديث • أما يوربيديس فهو شاعر أثينا الحديثة ، أثينا التى أصبحت المركز الأول للمدينة والعلم والفلسفة أثينا التى أصبحت حدائقها وميادينها مسرحا للمساجلات الخطابية والمناقشات العلمية والفلسفية بين شبابها الذى أصبح مولعا بدراسة الخطابة والبلاغة والفلســـفة •

تحدثنا الرواية العامة المشهورة أن أوريبيديس قد ولد فى سالامينا فى سنة ٤٨٠ ق•م فى اليوم الذى كان فيه أهيب معركتها يحتدم وتنبئنا رواية أخرى بأنه ولد فى سنة ٤٨٥ ق•م •

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن والده كان صاحب حانة وأن والدته كانت تاجرة خضر وزعم البعض الآخر بأنه كان من أسرة عريقة •

ولكن النقاد المحدثين يؤكدون انه لم يبد فى حياته ما يدل على أنه كان من طبقة أرستقراطية أو متوسطة الحال كما بدا ذلك فى جلاء على ايسخيلوس وسوفوكليس وهذا يدفعهم الى ترجيح الرأى الأول أما نحن فنفضل أن نحتفظ برأينا الى أن ننتزعه من انتاجه نفسه ومن انعطافه بالمآساة نحو الغاية التى هيأته لها الوراثة والبيئة •

ومهما يكن من الأمر فان اجماع الباحثين الأساسيين منعقد على أن مؤلفاته توشك أن تكون خالية خلوا تاما من التقاليد القديمة التى هى طابع الأسر النبيلة •

واذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى سنة مولده وفى طبقة والديه الاجتماعية فأحرى بهم ألا يعرفوا شيئا ذا بال عن نشأته وطليعة شبابه ونوع ثقافته • ولهذا ظل العالم الحديث يجهل تلك النواحى جهلا يوشك أن يكون تاما وكل ما يعرفونه عنه هو أنه بدأ فى سنة ٤٥٥ ق•م ـ وكانت

سنه خمسا وعشرين سنة ـ بتقديم أولى مآسيه فى احدى المسابقات فنال فيها الجائزة الثالثة ومنذ ذلك الحين أخذ يبذل مجهودا متواصـــلا فى التأليف المسرحى • ولما لم يكن محبوبا من الأثينيين فانه لم يفز بالأولوية الا بعد أربعة عشر عاما انقضت كلها بين الرفض والخذلان والدرجة الدنيا وبعد هذه السنين الطويلة جعل الحظ يبتسم له قليلا فظفر بالأولوية أربع مرات فى حياته وفازت بها احدى مآسيه بعد موته وأنت ترى أن هذا نصيب ضئيل من النجاح اذا قيس بنصيب سوفوكليس ولكن هذا هو الذى كان •

كان هذا الاخفاق المتواصل الذى رافق شاعرنا ذلك الزمن كله يمكن أن يحدث فى نفسه أثرا سيئا يدفعه الى اليأس من المسرح ويحمله على البحث عن مهنة أخرى ولكن الأمر كان على عكس ذلك فظل وفيا لفنه عاكفا عليه رغم تجهمه له ولم يشأ أن يساهم فى الوظائف العامة كما كان كثير من أمثاله يفعلون ذلك فى ســهولة ويسر • وليس معنى هذا أنه كان لا يأبه لشئون مدينته أو يحتقر المصلحة الوطنية الكبرى فمآسيه مفعمة بهذه الجوانب كلها ، وانما قد شاء ألا يعالج هذه النواحى الا عن طريق فنه وانتاجه فطفق يصوب اليها ســهام نقــده وأشــعة بيـــانه ويفيض عليها من الهام خياله ووحى شعره وبراعته فى التصوير ودقته فى التحليل حتى رسمها مجسمة أمام أعين الجماهير •

وأخيرا وبعد هذه الحياة العابسـة المنقبضة غادر أثينا ـ على أثر مأساة أوريبستيس فى سنة ٤٠٨ ق•م ـ الى مدينة بيلا حيث استقبله ارخيلاءوس ملك مقدونيا فى بلاطه استقبالا حافلا وأكرم وفادته أيما اكرام وقد ظل هناك حتى توفى فى سنة ٤٠٦ ق•م وكانت سنه خمسا وسبعين ســنة ويرجع بعض المؤرخين أن وفاته كانت بحــادثة ثم دفن فى وادى اريثوزا بمقدونيا • وقد أقامت له أثينا هيكل قبر نقشت عليه أبيات تشهد بموهبته ومجده وقد أعقب ثلاثة أبناء كان أصغرهم سنا ـ واسمه كاسم والده ـ شاعرا وهو الذى قدم الى التمثيل مأساة والده بعد وفاته •

مؤلفـــــاته

عزا القدماء ـ وعلى رأسهم ســـويداس ـ الى اوريبيديس اثنتين وتسعين مسرحية بين مأساة وفاجعة ولكن يبدو أن عددا قليلا منها قد فقد فى العصر الذى تلا عصر الشاعر مباشرة وأن عددا آخر فقد بعد ذلك وأن بضع مآس قد ارتاب النقاد فى صحة نسبتها اليه •

ولم يبق من هذا العدد الضخم الذى أنشأه أوريبيديس الا سبع عشرة مأساة وفاجعة ساتيروسية واحدة ولم يعرف الا تواريخ ظهور سبع

منها ، وأما العشر الأخريات فلا يدرى أحد متى مثلت الا على سبيل الترجيح وها هى ذى حسب الترتيب الزمنى يقينا كان أو ترجيحا :

« الكيستيس » · « ميديا » · « هيبوليتوس » · « التروادیات » · هيلينية » · « لوريستيس » · « ايفيجينيا فى أوليس » · « الباكوسيات». « اندروماخيه » · « الهيراكليســـيون » · « هيكوبيه » · « الضارعات » · « ايليكترا » · « هيراكليس مخبولا » · « ايفجينيا فى توريس » · «يون» · « الفينيقيات » ·

عاطفة الانتقـــام !!

ونأتى الآن الى بيت القصيد ، أقصـــد مسرحية ميديا التى قدمت للعرض عام ٤٣١ ق٠م ٠

وميديا هى ابنة ملك كولخيس فى جنوب القوقاز وكان والدها يملك فرو الذهب الشهير فى الأقاصيص الهيلينية والذى كان غاية جميع عظماء ملوك اغريقا ، لأنه كان فى عقيدتهم رمز الثراء والسعادة ، فيرتحل هؤلاء الملوك حيث يوجد الفرو وهم : ثيسيوس وصديقه بيريثاءس وهيراكليس وأسكيليبيوس بن أبولون شافى الآلام وأورفيوس وبيليوس والد أخيلوس وكاستور وبوليدوكيس أخوا هيلينه ، وكانوا كلهم تحت قيادة ياسون لأنه منظم هذه الحملة ٠

وعندما يصلون الى تلك البلاد وتقع عين ميديا على ياسون تهوى فى حبائل غرامه وتريد أن تحقق له أمنيته وتخدع والدها وتمكن حبيبها من الاستيلاء على الفرو الذهبى ثم ترافقه الى بلاده فيبعث وراءها ابنه وحين يلحق بهما تمكن ميديا معشوقها فيقتله ثم تمزق هى جسمه أشلاء تنثرها فى الطريق ليراها والده اذا تعقبهما فييأس ويرجع ٠

وعندما تصل الى بلاد الهيلين تلقى بيلياس عم ياسون قد اغتصب عرش شقيقه أوسون والد ياسون فتصمم على أن تسترده بوساطة السحر والحيلة فتبدأ باعادة الشباب الى والد زوجها لتبرهن على مقدرتها ثم تعرض على بنات ذلك العم المغتصب أن تعيد الشباب الى والدهن كما أعادته الى أخيه ولكنها تفهمهن أن هذه العملية لا تتم الا اذا استنزف كل الدم القديم المسن من جسمه فتفتح الفتيات حنجرة والدهن فيموت ٠٠٠ لكن هذه الجريمة تثير ضجيجا سيئا حول ســـمعة هذه الأسرة فيضطر ياسون أن يغادر بلاده فيلتجىء هو وهذه الزوجة الآثمة الى مدينة كورنثة ٠

وهناك تقع هذه المأساة التى نحن بصددها ومجملها أن ياسون يهجر زوجته ميديا ويصمم على أن يتزوج من ابنة ملك كورنثة فلا تكاد تعلم هذا النبأ حتى يجن جنونها ويلتهب رأسها حقدا على زوجها وغيرة من خطيبته وتعتزم الانتقام السريع لنفسها منهما معا ٠ واذ يخشى ملك كورنثة

على ابنته فانه يطلب ابعاد الزوجة القديمة وابنيها الى مكان ناء ، ليأمن الزوج وعروسه غائلة هذا الحقد الذى يندلع أوراه فى قلب هذه السيدة القاسية فتتضرع الى زوجها أن يسمح لها بيوم واحد تمضيه فى المدينة قبل ارتحالها الى منفاها فيجيب سؤلها ويكون هذا اليوم كافيا لتنفيذ خطتها الجهنمية ثم يجىء زوجها ويعتذر اليها ويحاول ان يبرر مسلكه معهـا فتقابله باحتقار واستهانة وقبل أن تنصرف تبعث الى عدوتها ـ وكانت لا تزال فى بيت أبيها ـ حلة وتاجا ذهبيا مشربين بالسم الزعاف فلا تكاد هذه الفتاة تلبسهما حتى تسقط جثة هامدة لا حراك بها ولا حياة فيسرع والدها الى اسعافها حين يراها تتلوى من أثر السم فلا يوشك أن يلمسها حتى يخر هو الآخر صريعا ولا تكتفى هذه السيدة الآثمة بتلك الجريمة فتصمم على أن تذبح ولديها على مرأى من أبيهما ، لتحطم البقية الباقية من فؤاده،واذ ذاك تشتعل حرب طاحنة فى داخل نفسها بين شعور الأم الشفيقة واحساس الزوجة المهانة الثائرة تظهر فيها عبقرية المؤلف ودقته ظهورا واضحا وفى النهاية تتغلب عليها عاطفة الانتقام فتجهز على ولديها أمام أبيهما ثم تمتطى فى الحال مركبة سريعة يجرها تنينان لأنهـا ساحرة وتنصرف ساخرة من آلام هذا الزوج المنكوب الذى يرى بعينى رأسه فلذتى كبده مضرجين بدمائهما فتتجه الى أثينا حيث كانت تعلم من قبل أن الملك ايجيوس مستعد لأن يقدم لها المأوى ٠

ولكى نفهم المسرحية فهما تاما ينبغى الاحاطة ببعض الأحداث التى سبقت بداية المسرحية ٠

ظل أيسون يحكم مدينة أيولكوس فى تساليا حتى أنزله أخوه بلياس عن العرش واغتصب ملكه ، وكان له ولد صغير يدعى ياسون خشى عليه أبوه من عسف الملك المغتصب فأذاع نبأ موته ثم عهد به خلسة الى المربى العظيم خيرون ليتولاه برعايته ويلقنه العلم والحكمة ويدربه على فنـون الحرب والقتال ٠ ولما اشتد عضد الفتى ياسون صمم على العودة الى بلده ايولكوس ليسترد من عمه ملك أبيه ٠ يتظاهر عمه بلياس بالفرح لعودته ويداهنه ويحاول استمالته بأن يعرض عليه الزواج من احدى بناته فيصبح الوريث للعرش من بعده فيرفض ياسون ويخبره بأنه انما أتى ليسترد ملك أبيه ٠ يكظم غيظه ويفكر فى ابعاد ياسون بأية وسيلة فيدعى أن الآلهة قد تجلت له فى الحلم وأمرته باحضار الفروة الذهبية من مدينة كولخيس على ساحل البحر الأسود ولكن شيخوخته تحول بينه وبين تلبية أمر الآلهة ويقسم لياسون بأغلظ الايمان بأنه ان أحضرها له فسوف ينزل له عن العرش ويترك له كل شىء ٠ يوافق ياسون على القيام بهذه المهمة حقنا للدماء التى ستراق لو لجأ الى القتال ٠ يقلع ياسون مع نخبة مختـارة من أبطال اليونان الى مدينـة كولخيس حيث يستقبلهم ملكهـا

بالترحاب واذ يعلم بغيتهم يضع أمامهم العراقيل ويخبرهم بأنه يجب على من يريد الحصول على الفروة الذهبية أن يشد الى المحراث ثورين وحشيين ينفثان من منخاريهما لهيبا من نار ، ويحرث بهما قطعة أرض معينة ثم يبذر فى هذه الأرض أسنان تنين فتنبت فى الحال عمالقة مسلحين عليه أن يستأصلهم فى الحال فاذا تم ذلك كان عليه أيضا أن يتغلب على الأفعوان الوحشى الذى يقوم على حراسة الفروة الذهبية • وقد استطاع ياسون أن يتغلب على كل هذه المخاطر بمساعدة ميديا ابنة ملك كولخيس وكانت على علم بعلوم السحر وفنونه•لقد وقعت ميديا فى حب ياسون وتتلهب فى هواه وصارحته بهذا الحب ففرح به وقبل معونتها بعد ان عاهدها على الحب والوفاء والزواج منها ان تم الحصول على الفروة الذهبية وعاد سالما الى بلاده وفعلا تم له ما أراد وهرب هو وزملاؤه سرا تصحبهم ميديا التى تركت الأهل والوطن واستسلمت لنداء قلبهـا وعند عودته الى ايولكوس وجد أن عمه بلياس كان قد خدعه ولاينوى أن يبر بوعده فكيف السبيل الى خلعه ؟ هل يستطيع هو ومن معه على قلتهم أن يهزموا ذلك الملك الجبار العاتى ؟ أو يثير الفتنة ويؤجج حربا أهلية ويطلب منازلة هذا الغاصب فى ساحة القتال ؟ ولكن ميديا تخرجه من حيرته وتقدم له العلاج الناجع الذى يخلصه من عدوه اللدود ، اذ تستعين بسحرها مرة أخرى وتخدع بنات بلياس وتجعلهن يقدمن لأبيهن شرابا ساما على انه سيعيد اليه الشباب ولكنه يقضى عليه فى الحال وبذلك يعود العرش الى ياسـون ولكنه بعد فترة يتنازل عن العرش لابن عمه الملك المقتول ويهـاجر الى كورنثة مع زوجته ميديا وولديه اللذين أنجبهما منها • وفى كورنثة يعيش مع زوجته وولديه عيشة راضية زهاء العشر سنوات • ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد فان ياسون لم يستمر على وفائه لزوجته ونسى عهده الذى قطعه على نفسه فهجر ميديا وتزوج جلاوكى ابنة كريون ملك كورنثة وهذه الخيانة وما أعقبها من نتائج مروعة هى موضوع مأساة ميديا ليوربيدس •

لقد لخص يوربيديس بايجاز كل هذه الأحداث السابقة على بدء المسرحية فى المقدمة التى جاءت على لسان المربية :

أيا ليت السفينة أرجو لم تشق طريقها الى أرض كولخيس ••• ويا ليت الأبطال الصناديد لم يجدوا فى البحث عن الفروة الذهبية لبلياس• اذن لما استطاعت سيدتى ميديا أن تركب متن البحر الى ايولكوس ذات البروج العالية وقد جنت بحب كاسون ، ولما قدر لها أن تقيم فى كورنثة بعد أن أغرت بنات بلياس ودفعتهن الى قتل أبيهن لقد كانت (ميديا) تعمل دائما على ادخال السرور على قلب الذين لجأت الى أرضهم ، كما كانت تبذل قصارى جهدها ارضاء لياسون وهكذا تكون السعادة عندما لا يدب

الشقاق بين المرء وزوجه . أما الآن فقد تفككت أعز وأصدق ما بينهما من عرى المحبة ولم يبق غير الشقاق والكراهية وذلك لأن ياسون قد غدر بها وبولديها فهجر فراشها من أجل عروس ملكية اذ تزوج من ابنة كريون ملك هذه البلاد ... لقد علمتها الكوارث التي نزلت بها نتيجة هجران الأهل والوطن انها لتبغض ولديها ولا تبتهج لرؤيتهما وانى لأتوجس خيفة وأخشى ان تتخذ قرارا خطيرا فهى حادة الطبع ولن تتحمل الاهانة انى أعرفها حق المعرفة وانى أخشى أن تتسلل الى غرفتها حيث يوجد فراشها وتغمد فى أحشائها سيفا بتارا أو تقتل الملك زوجها فتجر على نفسها الويلات ، انها مخيفة ومن يقحم نفسه فى عداء معها فلن يحرز لنفسه النصر بسهولة ولكن ها هما ولداها مقبلان بعد ان تمرنا على السباق انهما لا يكترثان بمصائب أمهما ، لأن الصبية الأحداث لا تطيق عبء الأحزان .

وهنا يدخل مربى ولدى ميديا ومعه الولدان ، فيسأل المربية كما كانت تردده من كلام فتتخابث عليه فيهزأ بها ويشعرها أن لديه من الأسرار ما لا تعلمه هى فاذا ألحت عليه ليذكر لها تلك الأسرار أخبرها بأن كريون ملك كورنثة سينفى ميديا وولديها عن البلاد .

تدخل الجوقة التى تتألف من فتيات من كورنثة جئن ليسألن عن ميديا يسمع صوت ميديا من الداخل وهى تئن وتتألم وتشكو وتنذر بشر مستطير تلحقه بزوجها وبأهل البيت جميعا فينسحب المربى والمربية بالولدين . تظهر ميديا وهى فى حالة شديدة من الهم والقلق فتتحدث الى أفراد الجوقة بما جازاها به زوجها الخائن ياسون الذى فضلته على أبيها وقومها وهربت معه بعد ان سهلت له الحصول على الفروة الذهبية وانه ليخونها اليوم بعد أن أقسم لها بالوفاء والزوجية الكريمة ثم تلوم نفسها على غلطتها وعدم تعقلها فى اختيار زوجها .

عندئذ يدخل الملك كريون مغضبا ثائرا وينهى اليها قراره بنفيها مع ولديها عن البلاد ذلك لأنه يخشاها ويخشى أن تستغل سحرها فى عمل شرير فقد وصل الى مسامعه وعيدها الذى ينطوى على الانتقام من الأب الذى زوجه ابنته ومن الرجل الذى اقترن بها ومن المرأة التى عقدت يدها فى يده فتضرع اليه وتستحلفه بكل عزيز لديه :

ميديا : أستحلفك بابنتك العروس الجديدة وأجثو عند موطىء قدميك .

كريون : عبثا ما تقولين فانك لن تغرينى أبدا .

ميديا : أنت اذن تنفينى ولا تصغى لضراعتى ؟

كريون : انى لا أحبك أكثر مما أحب آل بيتى ٠

ميديا : آه يا وطنى الآن أذكرك ٠

كريون : ان معزتى لأبنائى أفضل من أى شىء آخر ٠

ميديا : وأسفاه أن الحب يدفعك الى شر مستطير ٠

كريون : ولكنى أرى ان ذلك بتوجيه من الأقدار ٠

ميديا : أى الهى زيوس لاتنس انك مصدر مصائبى هذه ٠

كريون : ابتعدى أيتها العابثة وخلصينى من الآلام ٠

ميديا : نحن الذين نتألم ولدينا من الآلام الشىء الكثير ٠

كريون : ان حراسى سيخرجونك من البلاد سريعا بالقوة ٠

ميديا : لا ، لا تأمر بهذا فأنا أتوسل اليك يا كريون ٠

كريون : انك على ما يبدو أيتها المرأة ستتسببين المتاعب ٠

ميديا : سنخرج ولكن ما تضرعت اليك من أجل هذا ٠

كريون : فلم اذن هذا النضال ؟ ولماذا لا تتركين البلاد ؟

ميديا : دعنى أمكث يوما واحدا أدبر فيه أمرى وأعرف أى طريق أسلك وأعد لأطفالى مؤنة فان أباهم لا يرغب فى أن يدبر لهم أمرا ٠ كن بهم عطوفا فأنت أب لأطفال وتحس بلا شك بحنان الأبوة انى لا آبه لنفسى لو أننا طردنا من هنا ولكنى أبكى من أجل هؤلاء الأطفال الذين حط عليهم البؤس ٠

كريون : انى لست قاســـيا بل عطوفا الى درجة ألحقت بى الكثير من الأذى ٠ وعلى ذلك فأنا أمنحك ما تطلبين أيتها المرأة رغم انى أشعر بأنى مخطىء فى ذلك ولـــكنى أنذرك أنه اذا طلعت عليـك أنت وأبنائك شمس الغد وكنت ما تزالين فى هذه البلاد فسيكون جزاؤك الموت هذه كلمتى وهى صادقة والآن اذ كان لشأن تبقى فلتبقى يوما واحدا ، فانك لن تفعلى ما أخشاه من أعمال مريعة فى هذا اليوم ٠

ويتركها كريون وينصرف وهنا تضحك ميديا فجأة ويبدو عليها فرح شديد وهى تقول : ألا ما أحمقه اذ سمح لى بقضاء هذا اليوم هنا بينما كان فى وسعه أن يعرقل كل مكائدى لو أنه طردنى من هذا المكان ولكنه منحنى يوما وفى هذا اليوم ســأقضى على أعدائى الثلاثة وأجعلهم جثثا هامدة : الأب وابنته وزوجى أيضـــا ان لدى من وسائل الفتك الكثير ولا أدرى بأيها أبدأ هل أشعل النار فى بيت الزوجية ؟ أم أسترق الخطى خلسة الى مضاجعهم وأغمد السيف البتار فى صدورهم ؟ ولكن هناك عقبة واحدة تقف فى سبيلى ، ذلك انهم اذا قبضوا على وأنا أتسلل لأضرب

ضربتى فان موتى سيكون حلالا لأعدائى كما انى سأصبح موضع سخريتهم اذن فعلى أن الجأ الى السبيل الذى أتقنه كل الاتقان وأقضى عليهم بفعل السحر والرقى • حسنا ، ولكن لو تم لى هذا وقضيت عليهم جميعا فأى بلد يأوينى ••• ليس لى من أحد اذن فلأتربص برهة وجيزة فان وجدت حصنا آمنا دبرت قتلهم بمكيدة ماكرة أما اذا صرفنى سوء طالعى عن تنفيذ هذه المحاولة فسوف أرفع السيف بيدى هذه وأذبحهم بنفسى مخاطرة بحياتى فان روح الجرأة تدفعنى الى القوة والاقدام •

وبعد أغنية ترددها الجوقة يدخل ياسون فيعاتب ميديا على حماقتها فقد كانت السبب فى غضب الملك لكثرة ما هذت به وهددت وأنذرت مما سمعه أهل القصر جميعا وهنا تثور به ميديا فتتهمه بالخيانة والغدر وعدم الوفاء ثم تعدد أفضالها عليه ومساعدته فى الحصول على الفروة الذهبية وفرارها معه بعد غدرها بأبيها وأهلها ثم دفعها لبنات بلياس الى قتل أبيهن ــ فيجيب ياسون بأنه قد كافأها على ذلك اذ تزوجها وأحضرها معه من بلاد البربر الهمج الى بلاد اليونان المتحضرة ، فتثور به ثورة أعنف فلا يملك ياسون الا أن يدعى بأن زواجه الجديد مصدره انه وجد نفسه طريدا عن وطنه وأنه ما رضى الزواج من ابنة كريون الا لينجب منها أولادا يكونون اخوة لولديها فيرتفع بذلك مركزهم ومركزها فترد عليه عارفة :

ميديا : لا لم يكن الباعث لك هو ما زعمت ولكنك رغبت فى فراش برىء تنقصه الكرامة ليكون نعمة لك فى شيخوختك •

ياسون : كلا لم يكن كذلك وثقى بأنى لم أرغب فى مصاهرة الملك من أجل ابنته وانما ــ كما قلت لك من قبل ــ لكى أنقذك من كربتك وأضم الى ولدينا اخوة من أسرة مالكة أدعم بهم بيتى •

ميديا : بئس هذا اللون الممقوت من السعادة لا أحب أن يكون لى منه نصيب ولا أحب الثراء الذى يمزق قلبى الدامى •

ياسون : ألا يمكن ان تغيرى رغبتك وان تكونى أكثر حكمة ؟ لا تقلبى أعظم النعم الى شقاء ولا تحسبى نفسك شقية وأنت فى أعظم سعادة •

ميديا : وجه الى من الاهانات ما شئت فأنت هنا آمن مطمئن أما أنا فطريدة منبوذة عليها أن تخرج من هنا •

ياسون : انت السبب فى ذلك فلا تلومن الا نفسك •

ميديا : ماذا فعلت هل تزوجت وغدرت بك ؟

ياسون : انك تصبين أقذع الشتائم على رؤوس سادتك •

ميديا : انما تنصب نكبات بيتك على رأسى أنا •

ياسون : لن أجادلك فى هذا الأمر مرة أخرى ولكن ان كنت ترغبين فى شىء من المال لك أو لولديك تخففين به لوعة المنفى فانى على استعداد لأن أمنحك ما تريدين بسخاء وسوف أرسل الى أصدقائى توصيات تنفعك وهم سيقدمون لك كل صنيع كريم أما اذا رفضت هذا أيتها المرأة فأنت حمقاء خففى حدة غضبك تتحسن أحوالك ٠

ميديا : لن أستغل أصدقاءك ولن أقبل شيئا من أموالك ٠ لا تعطينى منها شيئا فان عطايا الرجل الخبيث ليست منها فائدة ٠

ياسون : ولكنى أشهد الآلهة أنى أرغب فى أن أكون عونا لك ولولديك ولكنك ترفضين وان نفسك المشتعلة بالحنق تنبذ أحباءها ولن تجنى من هذا الا شقاء أكبر ٠

ثم يتركها وينصرف تتغنى الجوقة بأنشودة أخرى يدخل بعدهـا شخص غريب ذو هيبة ووقار فتعرف فيه ميديا الملك أيجيوس ملك أثينا فتفرح بلقائه وتسأله عن سبب مجيئه الى كورنثة فيذكر لها انه عقيم لا ينجب وأن زوجته عاقر ولا تلد وانه فى سبيله الى معبد دلفى ليستوحى كهنتها عن علاج لهذه الحالة فتطمئنه ميديا وتذكر له ان هذا أمر هين عليها فان لديها من الأعشاب ما تقدر به على اصلاح حاله وحال زوجته ولكن عليه أن يستضيفها عنده فاذا سألها عن السبب قصت عليه قصتها فيحزن الملك أيجيوس من أجلها ويقبل عرضها بشرط ألا تصحبه فهو فى ضيافة كريون وانما عليها أن تلحق به بعد سفره الى بلاده وهنا تضحك ميديا وتنذر بما سوف تصنعه فهى قد اطمأنت الى مكان تأوى اليه ، فتبعث ميديا باحدى أفراد الجوقة تستدعى لها ياسون لتعلن اليه أسفها فاذا وصل ياسون لقيته ميديا وهى تتظاهر بالندم على ما فرط منها وتطلب اليه الصفح ثم ترجوه أن يتوسط عند الملك لكى يأذن ببقاء ولديها فى كورنثة حتى لا يذوقا مرارة النفى فيعدها بذلك ثم ترجوه رجاء آخر هو أن يصحب ولديه الى عروسه بهدية منها ، هى صدار متعدد الألوان وتاج من الذهب حتى ترضى العروس بتلك الهدية فتكرم الطفلين فى غياب أمهما ٠ ينخدع ياسون بكلامها ويوافق على طلبها ويتقدم الغلامان ويذهبان بصحبة أبيهما ومعهما الهدية ٠

تنشد الجوقة أنشودة أخرى ثم يدخل المربى معلنا :

المربى : سيدتى لقد عدلوا عن الحكم الذى قضى بنفى ولديك ، وتقبلت العروس الملكية هديتك جذلة مسرورة وأصبح ولداك هنا فى أمن وسلام ٠

ميديا : واحسرتاه !

المربى : فيم اضطرابك وقد ابتسم لك الحظ ؟ ولماذا تشيحين بوجهك ولا تبتهجين لما حملته لك من أنباء ؟

ميديا : واحسرتاه !

المربى : انى لا أجد معنى لهذا مع ما أحمل لك من أنباء طيبة ٠

ميديا : ومع ذلك فان الحسرة تملأ فؤادى ٠

المربى : هل نقلت اليك من غير وعى منى خبرا سيئا فى حين كنت أحسب أنى أسوق اليك ما يبهجك ؟

ميديا : لقد أعلنت ما تعرف ٠ ولا جناح عليك ٠

المربى : لماذا تغضين الطرف اذن ولماذا تذرفين الدمع ؟

ميديا : هناك ضرورة ملحة أيها الشيخ فقد أرادت الآلهة كما أرادت روحى الشريرة أن يقع ما حدث ٠

المربى : لا عليك ٠ فان آمالك تحيا حياة ولديك ٠

ميديا : سأبعث بهما أولا ٠ آه ما أتعسنى !

المربى : لست الوحيدة التى تركت أبناءها على البشر الفانين أن يتحملوا البلايا راضين ٠

ميديا : هذا ما سأفعله أما أنت فاذهب الى الدار وأعد للأولاد ما يلزمهم من حاجيات اليوم ٠

ثم يقبل رسول خائف مفزوع ينصح ميديا بالفرار من القصر ومن كورنثة كلها فاذا سألته عن السبب أخذ يقص عليها ما فعلته الهدية بالعروس وأبيها لقد فرحت العروس بالهدية فرحا شديدا فلما لبستها أخذت تروح وتجىء أمام المرآة مزهوة معجبة وبعد قليل أحست بالصداع يضغط على صدرها فلما أرادت نزعه لم تستطع وأخذ يؤلمها ألما شديدا لأنه بدأ يتحول الى ثوب من نار يشوى جسدها كما بدأ التاج يتحول الى سائل منصهر من الذهب يتصبب على جسدها فيحرقه ويهرأ اللحم ٠ لم يستطع أحد انقاذها حتى أقبل أبوها الذى حاول ذلك وهو يصرخ ويبكى ولكن الصداع لصق به هو الآخر ولم يستطع أن ينفصل عنه وصنع به ما صنع بالعروس البائسة وسقط الى جانب ابنته جثة هامدة ٠

تفرح ميديا فرحا شديدا لهذا الانتقام المروع وتخبر أفراد الجوقة بأنها ستقتل ولديها امعانا فى ايذاء ياسون زوجها الخائن ٠ ويقبل الولدان فتأخذ ميديا فى توديعهما وداعا مؤثرا ثم تنطلق بهما الى داخل القصر حيث تذبحهما واحدا بعد واحد ٠

يقبل ياسون باحثا عن ميديا المتوحشة التى قتلت عروسه وأباها الملك فيفاجئه أفراد الجوقة بخبر قتلها ولديه فيكاد يجن ويصرخ قائلا :

ياسون : أيها الأتباع افتحوا الأبواب فى الحال واسمحوا لى بالدخول لأرى هذا الشر المستطير ـ مقتل ولدى ـ ولأقتلها عقابا لها ٠

تفتح الأبواب وتظهر ميديا وقد ركبت عربة خرافية ترف فى الهواء ويجرها أفعوانان كبيران وقد أخذت معها جثتى ولديها فترد عليه ساخرة :

ميديا : لماذا تقرع الأبواب على هذا النحو وتحدث كل هذا الضجيج ؟ هل تبحث عن ولديك وقد أصبحا جثتين ، وعنى بعد ان ارتكبت الجريمة ؟ كف عن هذه الجلبة وتحدث بما تريد ان كان لك معى أمر ما ، ولكنك لن تمسك بى أبدا فان أبى ـ الشمس ـ قد أمدنى بعربة تقينى من كل بلد يعادينى ٠

ياسون : يالك من امرأة بغيضة ! ان الآلهة تمقتك وكذلك أنا وجميع الجنس البشرى ٠٠٠ أى ولدى ، لقد صادفتما أما شريرة ٠

ميديا : أى ولدى لقد قضت عليكما حماقة أبيكما ٠

ياسون : ولكن يمناى لم تطعنهما ٠

ميديا : ولكن طعنهما حمقك وزواجك الجديد ٠

ياسون : أمن أجل هذا الزواج قتلت ولدى ؟

ميديا : أو تحسب هذا هينا على المرأة ؟

ياسون : انه كذلك اذا كانت المرأة عاقلة ولكن كل شىء لديك شرير ٠

ميديا : لقد قضى على ولديك وسيمزق موتهما قلبك ٠

ياسون : ان شبحيهما سيصبان اللعنة عليك ٠

ميديا : ان الآلهة العادلة تعلم أينا بدأ هذه الشرور ٠

ياسون : كما تعلم أيضا قلبك اللعين ٠

ميايا : انى أبغضك كما أبغض نباحك الكريه ٠

ياسون : وأنت كذلك بالنسبة لى ولذلك فليننته الأمر بسرعة ٠

ميديا : كيف ؟ ماذا أفعل ؟ فانى أود هذا من صميم فؤادى ٠

ياسون : أعطنى جثتى ولدى كى أواريهما التراب وأبكيهما ٠

ميديا : هذا لن يكون ، سوف أدفنهما بيدى هذه فوق التل الذى يبارك أرضـــه معبد الالهة هيرا حتى لا ينالهما غضب الأعداء ويسىء الى رفاتهما ويخرجهما من قبريهما ٠٠٠

ياسون : ويلى ! يا لى من بائس ! انى أتوق الى تقبيل ثغرى ولدى والى معانقتهما ٠

ميديا : الآن توجه اليهما الخطاب وتود معانقتهما وكنت بالأمس تريد أن تبعدهما عنك ٠

ياسون : أعطينى اياهما بحق الآلهة لألمس بشرة ولدى الناعمة ٠

ميديا : كلا لن يكون هذا وما كلماتك الا هباء منثور ٠

وهكذا ترفض ميديا أن تسمح له حتى بوداع ولديه وتقبيلهما وذلك امعانا فى تعذيبه والتنكيل به ثم تنطلق عربة ميديا فى الهواء تاركة ياسون يبكى وينتحب ويشهد الآلهة على أفعال ميديا القاسية ٠

***

ان مسرحية ميديا على هذا النحو تعتبر دراسة عميقة لزواج غير متكافىء بين زوجين مختلفين فى كل شىء تقريبا ٠ فهذا ياسون رجل أنانى مغالط لا يحب الا نفسه فهو على استعداد دائما لأن يقبل كل ما تقدمه له ميديا من خدمات حتى ولو كان سبيل هذه الخدمات ارتكاب بعض الجرائم طالما لا تقطع عليه مسئولية أى عمل تقوم به ميديا كما أن زواجه منها لم يكن الا بدافع مصلحته الشخصية وحبه لها لم يكن الا نزوة ورغبة فى امتلاك جسدها ٠ أما ميديا فهى المرأة البدائية الفطرية التى تمنح كل كيانها وروحها للرجل الذى تحب وهى على استعداد دائما لأن ترتكب أبشع الجرائم فى سبيل من تحب وتهوى ولكن اذا اكتشفت انها مخدوعة فى حبها مطعونة فى كرامتها فانها ــ وقد استولى عليها بغض لا يقل عن الحب عنفا وقسوة ــ تنقلب الى وحش كاسر لا يستطيع أن يقف أمام ضراوة انتقامها أى سبيل حتى ولا عاطفة الأمومة ٠

لقد بلغ يوربيديس القمة فى تحليل شخصيات هذه المسرحية وعلى الأخص شخصية ميديا التى أبدع فى وصف مشاعرها وتعمق فى تصوير انفعالاتها بصورة دقيقة رائعة ــ كما كان بارعا فى السير بأحداث المسرحية نحو تلك النهاية الرهيبة التى أنهى بها مسرحيته ٠

تميز فن يوربيديس

بالرغم من أن يوربيديس لم يدخل أى تجديد ملموس على فن كتابة التراجيديا من ناحية الشكل واتبع القواعد المسرحية التى ابتدعها سلفاه أيسخليوس وسوفوكليس الا أنه غير مضمون التراجيديا تغييرا جذريا . فتراجيديا يوربيديس قديمة فى اطارها المادى وجديدة كل الجدة فيما عدا هذا الاطار : فهى جديدة فى رسم الشخصيات وفى مظهر ملابسها وأزيائها وجديدة أيضا فى الأفكار والمناقشات التى تجرى على لسان هذه الشخصيات . كان الكاتب المسرحى يستمد موضوعات تراجيدياته فى معظم الأحيان من الأساطير القديمة وقد اتبع يوربيديس هذا المنهج أيضا ولكنه كيف هذه الأساطير لروح العصر الذى كان يعيش فيه وأدخل عليها من التعديلات ما يلائم غرضه فاهتم بالواقع الذى يكمن بين طياتها ومزجها بالمناظر المألوفة والحوادث اليومية ، وجعل الأشخاص حقيقيين وعاديين واستخدمهم للتعليق الفلسفى على الأحداث وأنطق الآلهة بلغة عادية بها الكثير من الاصطلاحات العامية وبذلك جرد الأساطير من جلالها وقدسيتها فلم يهتم بتمجيد الآلهة والأبطال الخياليين ولكنه اعتنى بوصف الحياة الدنيا التى امتزج فيها الحزن والألم والسرور والفرح فجاءت معظم مسرحياته وسطا بين التراجيديا والكوميديا . كان الانسان هو المحور الأساسى لمعظم مسرحيات يوربيديس فكان لا يهتم الا بتصويره وتحليل نفسيته وتعليل سلوكه وتصرفاته ونتج عن ذلك أن أتيح له أن يصف الحياة العائلية بما فيها من مودة زوجية وغيرة وسعادة الأطفال وبراءتهم مما يؤثر فى المتفرج تأثيرا قويا ، كما أتيح له لأول مرة أن يخصص للحب بكل ألوانه مكانا كبيرا فى مسرحياته وكان من قبل يعتبر من العواطف التى لا تستحق أن تعرض على المسرح وعلى ذلك فان مسرحياته قريبة الشبه جدا بمسرحيات العصر الحديث . لقد كان يوربيديس يؤمن بالقدر فى حدود حقيقة واحدة هى أن مصدر كل تصرف انسانى انما يرجع أولا وأخيرا الى طبيعة البشر لا الى مشيئة الآلهة كما كان يؤمن بالديمقراطية التى يتساوى فى ظلها الغنى والفقير فعبر عن الكراهية للرق واهتم بالدفاع عن العبيد لأن الرق يفسد الأخلاق ويجعل العبد جبانا خائنا وكره الحرب وأحب السلم لأنه كان يعتقد أن شقاء المنتصر لا يقل عن بؤس المهزوم

فاليونانيون المنتصرون فى حرب طروادة قد لاقوا نكبات جسيمة لا تقل هولا عما أصاب أهل طروادة من ذل وعبودية ٠

ونظرا لما أدخله يوربيديس على الأساطير من تعديل وتبديل فقد كان مضطرا لاجراء بعض التغييرات فى البناء المسرحى ، لقد أصبح كل هم يوربيديس يتركز فى المناظر التمثيلية التى تعرض الشخصيات الرئيسية فتضاءل دور الجوقة وأصبحت مجرد أناشيد منفصلة لا تكاد تتصل بالموضوع الرئيسى حتى لقد صارت مسرحياته لاتقوم على التفاعل بين الجوقة والأشخاص بل على التفاعل والصراع بين الشخصيات المختلفة ، ومن ثم لم تعد الجوقة تشترك فى الحوار الا نادرا ولا تعين على تطور الحدث بل مجرد فواصل غنائية بين المشاهد التمثيلية وهى فى ذلك على عكس سلفيه أيسخيلوس وسوفوكليس وعلى عكس ما نادى به أرسطو خاصا بالدور الذى يجب أن تقوم به الجوقة (قارن فن الشعر ١٣٥٦ /٢٧ : « يجب أن ينظر الى الجوقة على أنها أحد الممثلين وأنها تؤلف جزءا من الكل وتعين على تطور الحدث » ولذلك فان يوربيديس وكأنه يفكر فى تعويض هذا النقص فى دور الجوقة ـ قد بذل كل همه فى سبيل تهذيب أغانى الجوقة وصقل لغتها وتجميل أساليبها وتجويد الموسيقا المصاحبة لها فجاءت أغانى رائعة غاية فى الابداع ٠

لقد كان يوربيديس يجد نفسه أيضا مضطرا فى بعض الأحيان لأن يقدم تفسيرا لبعض المعلومات التى تساعد المشاهدين على فهم وجهة نظره وعلى تتبع سير الأحداث فى مسرحياته ومن ثم فقد استخدم لهذا الغرض المقدمة ، وهى ذلك الجزء من المسرحية الذى يسبق الدخول على المسرح لأول مرة (أرسطو فن الشعر ١٤٥٢ ب ١٩) ٠ لقد وجدت المقدمة فى بعض مسرحيات أيسخيلوس وسوفوكليس ولكنها عند يوربيديس تتميز بخلوها من العنصر الدرامى وبأنها سرد يجرى على لسان شخص باسم الشاعر يفسر بعض الأشياء التى تعين المتفرج على فهم النقطة التى بدأ الكاتب منها سير الأحداث فى مسرحيته ومن هنا جاء المعنى العصرى لكلمة مقدمة ٠ أما أسلوب يوربيديس فهو السهل الممتنع ، وقد اعترف بجمال لغته ورقة أسلوبه كل النقاد القدماء بما فى ذلك ارستوفانيس الذى طالما هاجمه فى كثير من مسرحياته ٠ فهو أول من ابتدع أسلوبا غير مزخرف تكثر فيه الكلمات العادية ولكنها مرتبة ترتيبا يسمو بها الى ذروة البلاغة وبذلك خلص التراجيديا من العبارات الرنانة والألفاظ الضخمة والكلمات الثقيلة وتجنب الثرثرة والمهانة والغموض والابهام وقدم على المسرح مناظر من الحياة الواقعية وشخصيات تتكلم بلغة مفهومة ،

ومن ثم فقد ذاع صيت يوربيديس فى أواخر أيامه وأصـــبح من أعظم الشعراء وأصبحت أشعاره أكثر الأشعار ذيوعا وانتشـــارا لا فى أثينا فحسب بل فى كل العالم الاغريقى كما أصبح أحب شاعر الى الأجيال المتعاقبة والنموذج الذى يحتذيه الشعراء فى كل العصور والأمصار ٠

الضفادع

أرستوفانيس

٤٠٥ ق ٠ م

منزلة أريستوفانيس وأثره

لقد احتل اريستوفانيس فى العالم اليونانى منزلة سامية وذاع صيته بعد ان نال الجائزة الأولى فى أربع مسابقات تمثيلية وفاز بالثانية فى أربع أخرى وهذا نصر لم يحرزه أى من شعراء الملهاة بمختلف أنواعها فاستحق بذلك تمجيد الأدباء والفلاسفة وفى مقدمتهم أفلاطون الذى صوره فى المأدبة أحسن تصوير وأثنى عليه فى الجمهورية أيما ثناء ونظم فيه الأبيات الرائعة ٠

وأعجب بأريستوفانيس شعراء الرومان أيضا فقلدوا مسرحياته ، أما المربى كونتليانس فقد امتدح مؤلفاته وأكد ضرورة الرجوع اليها وفرض تلاوتها على تلاميذ المدارس ليفيدوا من نقاء أسلوبها ورشاقته ويقفوا على قوة تركيبها وتدفق حوارها بخاصة فى الأجزاء الخطابية لذا كان هذا الناقد الرومانى يعتبر هوميروس وأريستوفانيس نموذجين لتعليم الخطابة أما شيشرون فقد اعترف لشاعر الملهاة ببراعة النكتة وتوقد القريحة ٠

ولكن تأثير أريستوفانيس كان أشد وضوحا فى عصر النهضة ، حين اهتم أدباء ايطاليا بنشر أسفاره وترجمتها وتبعهم فى ذلك شعراء فرنسا وكتابهم الذين ذهب بعضهم الى تقليد أريستوفانيس فى أسلوبه وسخريته اللاذعة ومنهم من تقمص روحه وحاكى طريقته فى النقد ومنهجه فى التصوير ٠ ويعتبر رابليه زعيما لهذا الفريق من الأدباء ، ثم جاء راسين وموليير واقتفيا أثر الشاعر اليونانى فى مطلع حياتهما وقلده فى انجلترا بن جونسون وغيره من شعراء المسرح الانجليزى ٠ ولما بدأ القرن التاسع عشر ونشطت الحركة الرومانتيكية حاز أريستوفانيس على اعجاب كثير من الكتاب مثل براونتج وسوينبرن فتعدد ترجماته وراجت مسرحياته وأخرجت فى المسارح الانجليزية والفرنسية والأمريكية وأعدت للاذاعة فلاقت نجاحا عظيما فى هذه الدول ٠

أريستوفانيس

أجمع الدارسون على أن أريستوفانيس شاعر عظيم فى فن الملهاة. لكن قليلا من الناس هم الذين يعرفون أريستوفان وأقل منهم من قرأه وسبر أغواره ، وهذا شأن كتاب الساتيرا والساخرين من الشعراء لأن شعرهم فى العادة مرتبط بالبيئة والأحداث التى عاشوهـا ومثل هؤلاء سرعان ما تتبخر صورهم وتخبو تلميحاتهم بزوال الأشخاص والأحداث . على أن أريستوفان كان أكثرهم حظا فقد تبقى من مسرحياته التى جاوزت الأربعين احدى عشرة ملهاة هى :

١ ـ أخارنيس (اسم معبد وحى)
٢ ـ الفرســـان
٣ ـ السحب
٤ ـ الزنابير
٥ ـ الســلام
٦ ـ الطيــور
٧ ـ ليسستراتى (مسرحية الجيوش)
٨ ـ تسموفوريازوسي (حارسات التقاليد أو العرافات)
٩ ـ الضـــفادع
١٠ ـ النائبات أو المجتمعات
١١ ـ الغنى أو المال .

وأريستوفان من أولئك الشعراء الذين غلبت شهرة عملهم الأدبى على تاريخهم فلم يعرف للآن حتى موعد مولده ووفاته ، كل ما يعرف عنه هو ما كتبه عن نفسه وما ذكره أفلاطون وقد كان معجبا به ـ الى متنائرات أخرى نجدها عند بلو تارك وغيره من النقاد والمؤرخين القدامى .

المعروف عنه حتى الآن :

انه أثينى من عشيرة (كودا) من قبيلة (بنديونيد) وهى قبيلة عريقة من القبائل العشر التى كونت أثينا منذ القدم .

كما كان يطلق عليه الأجينى نسبة الى جزيرة أجينا المقابلة لأثينا شرقا والتى قضى بها الشاعر سنين كثيرة من عمره ويقال ان أباه أقطع مزرعة بها .

ويذكر هليودور الأثينى أن أرسبتوفان من جزيرة رودوس ويرجح

أنه مصرى جاء من مدينة نقراش (ناوكراتيس) وكانت مدينة هيلينية بدلتا النيل قرب ايتاى البارود ، نجد أطلالها اليوم فى كوم جعيف وغيرها من القرى ، سكنها اليونانيون أيام سمح لهم الفراعنة بسكنها ليكونوا قوة بحرية وتجارية تسند جيش مصر فى حروبها ضد آشور والفرس وغيرهم . وهذه المدينة الاغريقية ظهر تاريخها وحضارتها منذ القرن السابع قبل الميلاد ولعبت دورا مهما فى المزج الحضارى وكانت هى وكانوب (أبو قير) وغيرهما من المدن أسسا ودعامات لبنـاء الاسكندرية فى أواخر القـرن الرابع قبل الميلاد .

ويزعم سويداس ان أريستوفان من طبقة العبيد واعتمد فى هذا الزعم على الوثيقة التى أعلنهـا كليون الحاكم الأثينى « تطعن فى أن أريستوفان أثينى أصيل » لكى يشهر بالشاعر الذى طالما فضحه على المسرح وكانت هذه التهمة دامغة لكل أجنبى فلا يسـتطيع أن يطالب بحقوق المواطن الأثينى .. ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى ادعى فيها الحاكم على أريستوفان أمام القضاء حيث طالب بعقابه وطرده من أثينا فعندما قام أريستوفان بنفسه كاشفا عن اسمه بعد ان كان مستعارا أصـبح العداء سافرا بين الحاكم وبين أريستوفان فقاضاه وعذبه بالضرب وهدده وأغراه ولكن أريستوفان صمد وكتب البقاء للملهاة اليونانية على المسرح كما يذكر ذلك بنفسه فى مسرحية الزنابير (الأبيات من ١٢٨٣ ـ ١٢٩١) .

معنى هذا ان الشاعر اضطر لاقتحام الميدان السياسى حتى يخلص نفسه من التشهير به والادعاء عليه .

والثابت أن أمه أثينية خالصة والشك انما يدور حول أبيه فيليب . فالمعروف أن أريستوفان وأمه سنة ٤٣٠ ق.م أخذا اقطاعية فى جزيرة ايجينا كأثينيين خالصين (وذلك فى الدورة الأوليمبية ٨٧) عندما كانت هذه الجزيرة تحت سيطرة أثينا ولذلك نرى الشاعر فى مسرحية أخارنيس فى البيت (٥٦٣) يسخر من اسبرطة التى طالبت بنصيب فى هذه الجزيرة المستعمرة كى يجعلوا من أريستوفان ملكية خالصة لاسبرطة .

ويبدو أن أريستوفان نفسه كان متشككا فى نسبه الأثينى ففى رده بالمحكمة يذكر شطرة من شعر هومير يقابل معناها فى العربية « أكرم للمرء ألا يعتمد على حسبه ونسبه وانما على اسمه وشخصه » ... وحتى لو كان أريستوفان غير أصيل الدم الأثينى فان لغته الاتيكية كانت على أعلى مستوى بين معاصريه من الشعراء .

لمع اسم أريستوفان من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٨٥ ق.م والمعروف

أن مسرحية الفرســـان أخرجت ســنة ٤٢٤ ق٠م ومن قبلها مسرحية (ديتاليس) سنة ٤٢٧ ق٠م قدمها الشاعر تحت اسم مستعار ، ويقول بنفسه في مسرحية السحب انه اقتحم ميدان المسرح في سن مبكرة ومن هنا يقترح لمولده سنة ٤٥٥ ق٠م على الأكثر ٠

أما تاريخ وفاته فغير محدد كذلك غير أنه علم ملهاة (الغنى) المعدلة سنة ٣٨٨ ق٠م في أعياد ديونيس وكتب بعدها مسرحيتين : كوكالون ويولوسيكون درسهما ابنه أرارون باسمه لا باسم أبيه وقد قصد هذا أريستوفان ليجعل من ابنه خلفا له في المجتمع الديني ٠

ومن هنا يقترح زمن وفاته ســنة ٣٨٥ ق٠م أو سنة ٣٨٤ ق٠م ويرجح هذا ما كتبه أفلاطون في السيمبوسيون اذ جعل منه شاعرا كوميديا مرموقا في الأدب اليوناني لدرجة أن يجادل سقراط في المأدبة وقد يكون هذا من أفلاطون تكريما للشاعر واعلاء لاسمه قرب موته ٠

أما عن ثقافته فيبدو من شعره أنها واسعة ممتازة على أحسن ما كانت الثقافة والتربية في عصر بريكليس الذهبي ٠

وأريستوفان يقول انه قبل أن يكون ربانا لسفينة الكوميديا قد كان بحارا ماهرا وجدافا قديرا متمكنا ٠ ونقده الأدبي في الموازنة بين أسخيل ويوربيد في الضفادع يثبت انه راسخ في العلم ذواقة في الفن ٠

كذلك يذكر بعض النقاد أن اريستوفان متأثر باوروبيد وهذا صحيح لكن لا ينكر انه استحدث أساليب جديدة على المسرح اليوناني وفي مسرحية الطيور نرى غزارة معلوماته الأورفية وفي مسرحية السلام نلحظ عمق معرفته بايسوب ذلك مع حفظه الكثير للشعراء السابقين عليه والمعاصرين لـــه ٠

ويظهر انه كان معتدل الثراء لأنه كان يدفع للممثلين أجورا وينفق بسخاء على أدواته المسرحية ٠

أما جرأته كشاعر كوميدى ضد حكام الدولة وكهنتها فتشعرنا بقوته واستغنائه عن الاغراء ٠

وأما عن حياته فقد عرف عنه انه يحب الأصول والهدوء والسلام ويحافظ على التقاليد وأنه محتشم متفان في فنه ٠ ومسرحياته كلها نضال صريح أو مستور في سبيل تلك المبادىء ٠

وفي مسرحية السلام سنة ٤٢١ ق٠م يصور نفسه أصلع الرأس كذلك عرف عنه انه أكثر من الشراب طلبا للوحي والالهام ، وتحدى شعراء عصره فوصمه منافسه (كراتينوس) بأنه مدع سارق لأفكار غيره

عن وعى وعن غير وعى وأطلق عليه لقب اليوروبيدى • ولكن من يقرأ يوروبيد وأريستوفان قراءة فيلولوجية يخرج بأصالة أريستوفان وعلو فنه خاصة فى الكورس •

اعمال اريستوفان

عاش الرجل حياته منقطعا للمسرح فكتب أربعا وأربعين ملهاة أصاب الشك منها أربعا وهى : (١) الشعر (٢) الغريق (٣) الجزر (٤) نيوباس • وبقيت من أعماله احدى عشرة أصيلة ذكرناها أما الأخرى فمفقودة لم يبق منها الا متناثرات فى بطون المراجع منها :

١ ـ **ديتاليس أو مجلس الشراب** : سنة ٤٢٧ ق•م قدمت باسم المغنى الأول فى الكورس واسمه فيلونيد وقد حارب فيها بدعة التعليم الجديد فى أثينا (السفسطة) •

٢ ـ **البابليون** : سنة ٤٢٦ ق•م باسم معلم الكورس كاليستراتوس قدمت فى ربيعيات ديونيس وهى ضربة جريئة للنظام الانتخابى الذى اكتسح طاقات أثينا ووضع فى الحكم رجالا مهرجين على غير خبرة أو علم من أمثال كليون الذى فتح بابا للأجانب فملأوا أثينا فأصبح البلد كبرج بابل •

وعندما عرضت هذه المسرحية اتهمه كليون بأنه عدو الشعب وعذبه وحاكمه ونادى بابطال الكوميديا من المسرح الأثينى •

٣ ـ **اولكاديس** : درست بعد مسرحية الفرسان فى أعياد لينيا سنة ٤٢٣ ق•م وفيها هجوم واضح ضد أنصار كليون الحاكم محب الحروب •

٤ ـ **الشيخوخة** : عن شيوخ أثينا المتصابين الذين فجروا ، والباقى منها قطعة تصور العجائز سكارى يستولون على مخبز ويقلبونه رأسا على عقب وزادوا فى العربدة بشكل لا يعلمه حتى الشباب الجاهل •

٥ ـ **أمفيراوس** : سنة ٤١٤ ق•م تصور شيخا عجوزا يحج مع زوجه الى معبد أمفيراوس من أجل تجديد شبابه •

٦ ـ **تريفاليس** : قدمت على المسرح بين سنة ٤١١ ، سنة ٤٠٨ ق•م وتسخر من الكفياديس •

٧ ـ **ليمنيا** : قدمت على المسرح بين سنة ٤١١ ، سنة ٤٠٨ وتسخر من مشاهد الأعياد والتقاليد المعيبة والبدع •

٨ ـ **شيوخ** : سنة ٤٠٧ ق٠م من نوع الضفادع نقد أدبى للشعراء ٠

٩ ـ **الفينيق** : سنة ٤٠٥ ق٠م معارضة لمسرحية يوروبيد بهذا الاسم ٠

١٠ ـ **كوكالوس** : سنة ٣٨٨ ق٠م عرضها ابنه وموضوعها خداع فتاة ومن هذه المسرحية يختفى الكورس تماما ٠

١١ ـ **ايلويسيكون** : سنة ٣٨٨ ق٠م أخرجها ابنه من غير كورس وفيها نقد للشعراء ٠

ما بقى بعد ذلك من ١٢ الى ٢٩ لم يبق منها الا أسماؤها ولا داعى لذكر أسمائها الآن٠

وأعظم ما فى أعمال الشاعر بروز خفايا عصره ولهذا بقيت أعماله كوثائق تاريخية وعملية مما دفع أفلاطون الى أن يمجده بهذا البيت :

« ربات النعم جدت فى البحث عن معبد لهـا فلم تجد غـير روح أريستوفان هيكلا سرمديا » ٠

المسرحية

تبدأ المسرحية فيظهر ديونوسوس اله المسرح ، وقد ارتدى ملابس هيراكليس ثم يتجه الاله مع خادمه الى منزل هذا البطل ليسأله النصح قبل أن يذهب الى عالم الموتى ، ليرجع يوربيديس الى أثينا التى كانت قد أقفرت بعد موته من شعراء المأساة الممتازين وبعد أن يوضح له هيراكليس معالم الطريق الذى سبق أن اتبعه فى الذهاب الى العـالم الآخر يشرع ديونوسوس فى رحلته مع خادمه كسانثياس ٠ فلما يصلان الى البحيرة التى تقع على شواطىء هاديس يعبرها ديونوسوس فى زورق خارون ، الملاح الذى يقوم بنقل الموتى ويسمع الاله أثناء عبوره نشيد الضفادع التى تسكن مستنقعا قريبا من البحيرة فيقاطعها ويتحداها فى المقدرة على الانشاد وتجرى بينه وبينها مباراة غنائية تنتهى بفوزه ٠

أثناء ذلك يكون كسانثياس قد انتهى من الدوران حول البحيرة على قدميه ، اذ لم يكن من حق العبد أن يعبر فى الزورق مع سيده ٠ وبعد بلوغهما الشاطىء تأخذ الجوقة فى ترديد مقطوعات دينية وسياسية ثم يقترب ديونوسـوس وكسانثياس من مملكة بلوتون اله الموتى فيقابلان أياكوس حارس القصر فيمنعهما من الدخول ويلجأ الى الشرطة لتعاونه فى أداء واجبه ٠ عندئذ يتناول الزائران ملابسهما رغبة من ديونوسوس فى أن يخدع أياكوس ويضلله وفجأة يصل خادم آخر بعثت به بروسربينا زوجة بلوتون ليدعو هيراكليس المزيف (أى الخادم بعد ان ارتدى ثياب

ثياب ديونوسوس) لحضوره مأدبة ملكية ويأمر ديونوسوس الخادم من جديد بأن يغير ملابسه لكن ، بعد لحظات من تبديل الثياب يدخل اثنان من أصحاب الفنادق ويتهمان ديونوسوس بأنه احتال عليهما أثناء زيارته السابقة لعالم الموتى ويهددانه بالانتقام ثم يخرجان بعدئذ يعود أياكوس حارس القصر ومعه نفر من الشرطة القساة فيداهمون كسانثياس ويهجمون عليه في عنف شديد ظنا منهم بأنه هريراكليس فيؤكد الخادم انه لم يأت الى ذلك المكان من قبل ثم يقترح معاقبة تابعه اذا ثبت انه قد جاء الى هذه الديار فيما مضى . عندئذ يعلن ديونوسوس (وقد ارتدى ثياب الخادم) بأنه اله وأن كسانثياس عبد ، ثم يطلب الاثنان الى أياكوس أن ينهال عليهما ضربا بالسياط ليعرف الحقيقة فيضربهما ضربا مبرحا ليتعرف على شخصيتهما فالاله سوف يتحمل الضرب ، لأنه الآلهة بطبيعتها لاتتألم ، ويفشل أياكوس ولا يستطيع التمييز بينهما فيتخلى عن هذه المهمة ويعهد بها الى اله العالم الآخر وزوجه .

عندئذ يخرج جميع الممثلين من المسرح وتبقى الجوقة وحدها تنشد مقطوعة عن أفكار أريستوفانيس السياسية ثم يظهر كسانثياس مع خادم بلوثون وهنا ينتهي الجزء الفكاهي من الملهاة وهنا أيضا ينقلنا الشاعر الى الفكرة الرئيسية للمسرحية وتدور حول دراسة الشعر التمثيلي في عصره .

ولقد لاقت هذه الملهـــاة نجاحا كبيرا حين قدمها أريستوفانيس على المسرح الأثيني لأول مرة عام ٤٠٥ ق.م ولا أدل على اعجاب اليونان بها من أنهم طالبوا بعرضها مرة ثانية وهذا تقدير لم تنله الا الالياذة . فما السبب في أن هذه المسرحية احتلت هذه المنزلة السامية ؟ أيرجع ذلك الى ما تتضمنه من فكاهات مضحكة وطرائف شائقة ؟ أم الى ما عالجته من مشاكل وطنية وموضوعات سياسية ؟ أم الى ما تناولته من دراسات دقيقة في النقد ونظريات مهمة في طبيعة الشعر ووظيفته ؟ .

يحتمل انها نالت اعجاب الاثينيين لأهميتها السياسية ولكنها في الواقع لم تشتهر في العـالم الحديث من أجـل ذلك انما أثارت اهتمـام الباحثين لأنها أقدم نص أدبي يتضمن دراسة مفصلة للمأساة اليونانية وتحليلا دقيقا لمسرحيات أيســخولوس وســوفوكليس ويوربيديس لذا ، وصف النقاد الغربيون « الضفادع » بأنها تفوق أعمال دريدن دقة ومقالات كولردج عمقا ، وأبحاث أرنولد وسان بيف أصالة .

ولقد عرض أريستوفانيس هذه الملهاة بعد أن كان زعماء المأســاة الثلاثة قد انتقلوا الى عالم الموتى وخلت أثينا من شعرائها الكبار وأصبحت تعج كما قال ديونوسوس بمئات من المتشاعرين الذين حطوا من قدر الفن : « فلم يوجد بينهم شاعر أصيل بارع ينظم شعرا ساميا بل كانوا جميعا

يبوءون بالفشل ، وتختفي أسماؤهم من عالم الأدب بعد عرض أول مسرحية يقدمونها » لذلك رأى اله المسرح انه لابد من التوجه الى هاديس لارجاع يوربيديس الى عالم الأحياء لأن أثينا كانت في حاجة الى شاعر مبتكر ٠

وما أن وصل ديونوسوس مملكة بلوتون ، حتى سمع بخلاف شديد قد احتدم قبل مجيئه بلحظات بين أيسخولوس الذى تربع على عرش المأساة وبين يوربيديس الذى يريد أن يغتصب العرش ويحتل مكانه ويقترب ديونوسوس من الشاعرين المتخاصمين ليقف على تفاصيل الموضوع فيطلبان اليه أن يحكم بينهما فيقبل الحكم ثم تبدأ المباراة فينتقد كل منهما الآخر فيلغته وأسلوبه وفلسفته الخلقية وفي مقدمة مآسيه وفي تركيبها ووظيفتها وفي أوزانه وأشعاره الغنائية ٠ ورغم ذلك كله يصعب على الاله أن يفضل شاعرا على الآخر فيلجأ الى وسيلة جديدة للموازنة بينهما فيسأل كلا منهما رأيه في سياسة القائد الأثيني المشهور ألكبياديس ، فيقول يوربيديس : « انه يكره الرجل الذى يتلكأ في خدمة وطنه ويسارع الى الحاق الضرر به الرجل الذى يسعى الى تحقيق مآربه الشخصية ولا يؤدى واجباته القومية » ويرد أيسخولوس قائلا : « لا ينبغي أن نربي أشبالا في المدينة أما اذا ربينا واحدا وكبيرا بيننا فيجب أن نرضى عن تصرفاته » ٠

لكن الحكم لا يرضى عن اجابة الشاعرين ويطلب الى كل منهما أن يوجه النصح السديد الى أثينا في محنتها الشديدة فيعبر يوربيديس عن رأيه قائلا : « يجب علينا أن نرتاب في هؤلاء الذين نثق فيهم اليوم ونعتمد على الذين لم نثق فيهم من قبل وأن نلجأ الى وسائل غير تلك التي اتبعناها فيما مضى » ٠ أما ايسخولوس فينادى بدفع الضرائب والاستمرار في الحرب وعندئذ يقترب بلوتون اله الموتى من ديونوسوس ويطلب اليه أن يختار الشاعر الذى يفضله فيقرر الحكم فجأة ارجاع ايسخولوس الى أثينا ٠

ومع ان أريستوفانيس لم يعتمد على التفوق الأدبي في تفضيل شاعر عن آخر ، الا أنه عقد مقارنة مفصلة بين الاثنين أبرز فيها محاسن كل منهما ومثالبه ٠

اريستوفانيس في نظر الأجيال :

على هذه القاعدة نجد لاريستوفان قمما من الأمجاد على مر العصور فعلى المسرح السكندرى في عصر البطالمة لاقى أريستوفان شعبية لم يظفر بمثلها شاعر الملك (مينانذرو) وفي روما وفي القسطنطينية بالذات لم نجد رواجا لمسرح أريستوفان في المال بخاصة ثم يسكت المسرح قليلا أيام النضال المسيحي وما أعقبه من الفتوح الاسلامية والحروب الصليبية ويعود

بعث أريستوفان مع النهضة الأوربية فتدب الحركة فى أوصال المسرح وينشط البحث . لكن الخزائن تكون قد فقدت الكثير من أعمال أريستوفان .

ففى القرن الخامس عشر نرى فرانسوا رابيليه (١٤٩٤ ـ ١٥٥٣) أثناء الصراع ضد الاقطاع يهتم اهتماما كبيرا بأريستوفان ويقتبس كثيرا من لمحاته الذكية ، كذلك حدث فى انجلترا فقد تأثر الكتاب بخاصة من نادى منهم بشىء من الديمقراطية والتعاون الاجتماعى أمثال توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥ م) بل ان شكسبير نفسه لم يسلم من التأثر بأريستوفان فى (حلم ليلة صيف) وهى الى حد ما تذكرنا بطيور أريستوفان وبن جونسون كان متأثرا بمسرحية المال .

وفى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وما بعدها نجد مساحة المسرح الأريستوفانى تتسع ويزداد عدد المعجبين بأريستوفان وعدد الناقمين عليه . فنرى بوالو يتهم أريستوفان بالاسفاف والخشونة والغلظة بينما نجد راسين من أشد المعجبين به ويؤلف على غراره مسرحية على أساس (الزنابير) وتمثل على المسرح سنة ١٦٦٨ م .

وفى انجلترا نرى سويفت يعيد على المسرح أريستوفان ويتخذ من وسائله سلاحا لضرب الاقطاع والفساد والعفن الاجتماعى كذلك فعل هنرى فيلدنج (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤ م) والذى ترجم المال . كما كتب ليسنج معترفا بأن « مسرح أريستوفان ليس بأقل من حوار سقراط فى تربية المجتمع » .

ثم نرى جيته فى يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٨٠ يقدم على مسرح بيمار (الطيور) على أسلوب أريستوفان ويعلن اعجابه بأريستوفان طول حياته .

أما الشاعر هاينى فقد عشق أريستوفان عشقا بعيد المدى وسمى نفسه (أريستوفان الجرمانى) واعترف بأريستوفان أبا روحيا له .

على ان أريستوفان لم يزدهر فى الأدب وحده وانما نرى المسرح كلما ازداد اتساعا وامكانا ، علا فيه صوت أريستوفان بمسرحياته أو بالمقتبس من أفكارها وأساليبها وان ما يشاهد من نشاط حركة النقد والصراع بعد كل مسرحية من مسرحياته لدليل على اهتمام الناس بالشاعر أبى الكوميديا وأنه عائش فى ضمائر الأجيال ..

ولعلنا لا نبالغ فى القول اذا قررنا أن عظمة أريستوفان كممثل للملهاة اليونانية القديمة وكناقد ممتاز فى القرن الخامس تعزى الى حد بعيد الى ملهاة « الضفادع » التى يعتبرها النقاد أجمعون أروع مسرحياته

وأجدرها بالقراءة والدراسة للحكم على ناظمها « كشاعر موهوب وناقد بارع » ٠

ونسير بسرعة حتى نصل الى بريخت فنلاحظ أسلحته فى الخشونة والسخرية الماحقة لمحاربة الاستعمار والاستغلال البشرى ، وهى أسلحة عليها خاتم أريستوفان ولا ينكر بريخت ذلك ٠

مصنفات جالينوس الطبية

جالينوس

١٥٠ - ٢٠٠م

جالينوس هو آخر أئمة الكتاب فى الطب ببلاد الاغريق لعهدها القديم وقد نبه ذكره مشرحا وعالما طبيعيا وطبيبا ممارسا وجراحا وصيدلانيا ، وعرف أيضا بأنه فيلسوف له أثر ،وان لم يكن من أئمة الفلاسفة · ونسب اليه نيف ومائة وعشرون كتابا فى الطبعة الأخيرة للثبت الكامل بمؤلفاته اليونانية وهى الطبعة التى قام بها كون ليبسك فى الفترة من سنة (١٨٢١ ـ ١٨٣٣) ولا يمثل هذا الثبت بحال انتاجه جميعا ، وبقى بعض كتبه مترجما الى العربية أو العبرية أو اللاتينية فحسب أما البقية فقد فقدت ·

وما من موضع سلك فيه جالينوس فى الصف الأول ومع ذلك فان شهرته وخاصة فى الطب نمت نموا مطردا فى القرون التالية وأصبح آخر الأمر أعظم معلمى الطب أثرا هو وأبقراط الذى ساعد جالينوس على توطيد مكانته من حيث هو الطبيب الأمثل والنموذج الكامل ، كما تناول بالتفسير رسائله فى شروح مستفيضة · ولما أصبح تعليم الفلسفة والطب الاغريقيين جزءا من برنامج التعليم فى سنة ٥٠٠ تحقق بقاء الجزء الأكبر من مصنفاته العديدة واستقرت مكانته السامية فى ألف السنة التالية ، على حين أن مصنفات أسلافه فى الإسكندرية وغيرها قد اندثرت ـ وسلم جالينوس ما جمعه من الأعمال العظيمة لأطباء العصر اليونانى المتأخر (الهلنسى) الذين عرف فيهم بعد استقلالهم فى الرأى ودرس ذلك بنفسه الى الأجيال اللاحقة · وكان هذا التراث الذى سلمه ذا أثر فى اقامة سنة الطب العلمى راسخة لم تنفصم ولم تغب عن الأنظار قط ··

حيـــاة جالينـــوس

ولد جالينوس فى عام ١٣٠ للميلاد فى مدينة بيرغاموم وكانت واحدة من أجمل مدن الاغريق على سواحل بحر ايجه وموقعها الحالى شمالى أزمير فى تركيا ٠

ولقد أمضى جالينوس ذلك العملاق فى تاريخ الطب أيام صـــباه وبواكير شبابه فى بيرغاموم ترى ما هو حال هذه المدينة الآن ؟ وهل هنالك ما تزال بقايا الاسلبيون أول مركز طبى فى العالم ٠

عندما بلغ جالينوس السابعة عشرة من عمره كان قد حفظ الفلسفات الأفلاطونية والأرسطوطالية والرواقية والابيقورية ، وقد ظهر آنذاك أن ذلك الشاب اللامع الذكاء سيصبح واحدا من أعظم فلاسفة عصره ورأى والده فى المنام ان ابنه يدرس الطب وتحول الابن من الفلسفة الى الطب لكى يحقق حلم أبيه ، والتحق جالينوس بمدرسة الجراح العظيم ساتيروس فى بيرغاموم حيث درس التشريح ، وعندما كان جالينوس لا يزال تلميذا تفشى فى المدينة وباء الجمرة الخبيثة وانهمك الأستاذ فى مكافحة هذا الوباء وكان جالينوس يقف عند مرفق أستاذه الذى كان يجرى العمليات الجراحية لتطبيب مرضاه ٠

ولم يكن اهتمام جالينوس منصرفـا فقط الى طريقة معالجة المرضى وانما كان يدقق النظر فى الأوصال الجريحة ويحاول القيام بتشـخيص كامل لها ، اذ كان يطلب من المريض أن يحرك أعضاءه التى تناوشـــها مشرط الجراح لكى يتـأكد من علاقة مختلف العضـلات بحركاتها وكان أحيانا يدقق النظر فى شريان أو وريد أو عصب وقد كان وأستاذه يلاحظان أمورا تشريحية كان سائر الأطباء لا يلاحظونها ٠

وأسرف جالينوس على نفسه فى العمل حتى مرض لفرط الاعياء وبعد مدة وجيزة على شفائه من مرضه توفى والده وهكذا وجد الشـاب نفسه وحيدا فى هذه الدنيا فهجر بيرغاموم وكان والده قد ترك له قدرا من المال ساعده على المحافظة على استقلال نفسه وانتقل الشاب الى أزمير حيث تابع دراسته عند الطبيب بيلويس والفيلسوف البينوس وقام الشاب بجولة

طاف خلالها اليونان وكيليكا وفينيقيا وفلسطين وكريت وقبرص وكان أثناء طوافه يثابر على دراسة الأمراض والعلاجات وعادات الناس وأخيرا وصل الى الاسكندرية وكانت آنذاك أعظم مدن شرق البحر الأبيض المتوسط وذلك لدراسة علم التشريح فى مدرسة الطب ٠

وكان رجال التشريح فى الاسكندرية خلال مرحلة من مراحل تاريخ المدينة يقومون بتشريح أجسام المجرمين وهم أحياء وكان ملوك البطالسة يقدمون لمدرسة الطب عددا من هؤلاء المجرمين لتشريح أجسامهم نظرا لشدة اهتمامهم بالطب وعدم احساسهم بآلام البشر ٠ وعندما وصل جالينوس الى الاسكندرية كانت تلك العادة الوحشية قد أبطلت ولذلك انصرف جالينوس الى تشريح القردة لمتابعة دراساته ٠

وفى عام ١٥٧ للميلاد عاد جالينوس الى بيرغاموم وكان عمره آنذاك ٢٨ عاما وقد عينه رئيس كهنة الهيكل الطبى طبيبا للمجلودين وكان جالينوس مكلفا بالاشراف على ما يتناوله هؤلاء الرجال اليائسون من طعام ومعالجة جراحهم الرهيبة بالقدر المستطاع ٠

وبالاضافة الى عمله هذا فقد فتح جالينوس عيادة خاصة به وفى هذه الفترة من حياته كتب أول مقالاته وصار جالينوس شخصية معروفة فى اسكلبيون حيث كان يجتمع أعظم أطباء عصره ٠

وأخذ جالينوس يعلم ويتابع أبحاثه ويكتب الكثير من أبحاثه الطبية حول الطب فى هذا الهيكل الذى كان ملتقى أطباء العصر الذى كانوا فى نفس الوقت كهنة للهيكل ٠ وفى أيام البيزنطيين حول الهيكل الى كنيسة ومكان للمعمودية ٠

ان معظم الناس فى يومنا هذا يظنون أن العلاج بالعقاقير وبالماء وبالفن وبالايحاء وبالتحليل النفسى لشفاء الأمراض العقلية هى من ابتكار هذا العصر الحديث ومع ذلك فان أعشاب العقاقير كانت تستعمل فى اسكلبيون لتحقيق الشفاء وكانت الجراحة فنا متقدما وكانت الأمراض العقلية فى هذا الهيكل تعالج بالعلاجات المائية وبالعقاقير وبالايحاء ٠ ومن يزر بيرغاموم يشاهد سردابا طويلا تحت هيكل اسكلبيون كان المصابون بأمراض عقلية يوضعون فيه بعد اعطائهم أنواعا من المخدرات وتتصل بهذا السرداب أنابيب خفية كان الأطباء من خارج السرداب يتحدثون عن طريقها ويقدمون النصائح للمرضى فيتصور هؤلاء أنهم يتلقون هذه النصائح من مصادر الهية ، ولذلك كانوا يتقبلون هذه النصائح ويعملون بمقتضاها ٠

ومن جهة أخرى كان مرضى آخرون يستعينون على الأمراض العقلية

بالانشغال بالأعمال الفنية كالرسم والنحت حتى يتماثلوا للشفاء ، وحين كان غيرهم يمارس التمثيل فى مسارح خاصة أقيمت لهذا الغرض وكان آخرون يأخذون الحمامات الشمسية ويستمعون الى الألحان العذبة وكانت هناك فى الهيكل مكتبة طبية تبرع بها اليه الامبراطور هدريان الذى كان فى وقت من الأوقات نزيل هيكل اسكلبيون الطبى وما تزال آثار غرف الفن الموسيقى والمكتبة والمسرح والحجرات الانفرادية موجودة حتى وقتنا هذا ٠

ولقد قام الامبراطوران الرومانيان كاراكالا وماركوس أوريليوس بزيارة اسكلبيون طلبا للشفاء ، ومما لاشك فيه أن ماركوس أوريليوس قابل جالينوس فى الاسكلبيون الذى زاره عام ١٦٢ للميلاد ، وهو العام الذى تلا ارتقاء العرش وكان الامبراطور فى ذلك العام يقودكتائبه فى حرب مريرة ضد البارثيين على الحدود الشرقية لامبراطوريته ٠

وعادت جيوش روما من هذه الحرب ولكنها كانت مصابة بطاعون رهيب وانتقل جالينوس الى روما حيث أسهم فى مكافحة الطاعون وصار طبيبا وفيلسوفا ذائع الصيت ٠ وصار علية القوم فى روما من رواد عيادته طلبا للطب للاستماع الى المحاضرات التى كان يلقيها وعرف جالينوس بعد ذلك باسم « بارادو كسوبويوس » ومعناها فى الاغريقية صانع الأعاجيب ٠

وذات يوم استدعاه ماركوس أوريليوس الى القصر الامبراطورى حيث كان أطباء البلاط يعالجونه من حمى أصابته وألقى جالينوس نظرة على الحاكم الممدد على فراش المرض وقال ان سبب المرض هو التخمة فقال الامبراطور : صدقت لقد أسرفت فى تناول الطعام ٠ ووصف له الدواء الصحيح لعلته ٠

وفى روما ثابر جالينوس على الأبحاث الطبية وتابع دراسته للهياكل العظمية بشرية كانت أم حيوانية وكان جالينوس كلما سمع بأن ضريحا قد فتح هرع اليه لدراسة العظام المدفونة فيه واذا قتل أحد المسافرين لصا انبرى له فى الطريق لم يكن الناس يهتمون بدفن اللص ولذلك كان جالينوس يستولى على الجثة ويعرضها للجوارح التى كانت تلتهم اللحوم فى يومين وتترك له الهيكل العظمى معدا للبحث والدرس وقد وصف جالينوس الهيكل العظمى بالنسبة للجسم بأنه شبيه بأعمدة الخيام أو بجدران المنزل بالنسبة للخيام وللمنازل ومع أن جالينوس لم يعلم أكثر مما كان معلوما من قبل عن العظام فانه درس وضع الأوصاف العلمية لأكثر من ثلثمائة عضلة وكثير منها ما يزال مستعملا حتى الآن ٠ لقد

أثبت لأول مرة ان التقلص هو الحركة الوحيدة للعضـــلات وان حركة العضلات أثناء الاسترخاء تنتج عن تقلص عضلة مقابلة ٠

وقد اهتدى جالينوس من وراء دراسته للعضلات الى دراسة الأعصاب التى بين أنها الوسيلة التى يحكم الدماغ العضلات بواسطتها ٠ وذات يوم كان جالينوس يشرح خنزيرا وأخذ الحيـــوان الجريح يصرخ من الألم فما كان من جالينوس الا أن قطع عصبا متصلا بصندوق الصوت (الحنجرة) فى حلق الخنزير فلم يعد قادرا على الصراخ وتتبع مسرى العصب فوجد انه متصل بالدماغ وعندئذ أثبت ان مكان الذكاء عند الانسان والحيوان على السواء هو الدماغ ٠

كذلك درس جالينوس تأثير العواطف على جسم الانسان فقد دعى ذات مرة لمعالجة شابة رومانية جميلة ، ولاحظ جالينوس أن الفتاة كانت مضطربة الحركة مسهدة رغم انها لم تكن مصابة بحمى وكانت ترفض الاجابة على الأسئلة التى وجهها اليها وبينما كان جالينوس يحاول تهدئة الفتاة وتطييب خاطرها دخل أحدهم الى الغرفة وقال عرضا انه قادم من المسرح حيث شاهد شابا يدعى بيلاديس يرقص وعندئذ لاحظ جالينوس أن ملامح الفتاة ولونها تبدلا عندئذ جس نبضها فألفاه مضطربا ٠

وفى زيارة تالية طلب من أحد الأشخاص أن يدخل الغرفة فيقول انه شاهد رجلا آخر يدعى موريوس يرقص فى المسرح ولم تضطرب الفتاة لدى سماعها هذا النبأ ٠

وأعاد جالينوس الكرة وأمر ذلك الشخص بـأن يقول انه شـــاهد بيلاديس وهو يرقص وعندئذ عادت الفتاة الى الاضطراب ٠

وقال جالينوس لقد أدركت ان الفتـــاة كانت مغرمة بهذا الشـــاب بيلاديس ٠

وتوفى جالينوس عام ٢٠٠ للميلاد عن عمر يبلغ السبعين وظل اسمه لمدة ثلاثة عشر قرنا يعد أعظم اسم فى دنيا الطب ، وظل أطباء القرون الوسطى يتبعون تعاليمه ويتمسكون بها٠

وربما كان جالينوس من أعزز الكتاب القدامى وقد ضـــاعت معظم مؤلفاته ولكن ما بقى منها يشغل واحدا وعشرين مجلدا ضخما وعلى ذلك يكون من المستحيل دراسة كل آرائه الطبية ، ومع ذلك فسنبحث نظامه الفسيولوجى فقط لانه أصبح النظام المأخوذ به فى أواخر العصور القديمة ٠

كان الجوهر الأساسى للحياة طبقـا لفلسفة جالينوس هو الروح أو النفس المستمد من الروح الكونية فى عملية التنفس وهو يدخل الجسم عن طريق القصبة الهوائية فيصل بذلك الى الرئة ومن هناك يدخل فى (الشريان) الشبيه بالوريد الذى نسميه اليوم الشريان الرئوى الى البطين الأيسر حيث يقابل الدم ولكن ما أصل الدم ؟ لقد كانت اجابته على هذا السؤال بارعة ولكن الأخطاء التى تضمنتها بقيت حتى عصر هارفى ٠

كان جالينوس يعتقد أن الكيلوس (هو مستحلب الطعام المهضوم) الذى يأتى من القناة الهضمية عن طريق الوريد البابى يصل الى الكبد وقد اعتقد أن فى استطاعة هذا العضو أن يحيل المستحلب الى دم وريدى وأن يشربه بروح خاصة أو نفس يوجد بصورة فطرية فى جميع المواد الحية طالما كانت محتفظة بالحياة ويشار الى هذا النفس باسم « الروح الطبيعية » فاذا حمل الدم بالروح الطبيعية المستمدة من الكبد وبالمواد الغذائية المستمدة من الأمعاء فان الكبد يوزعه ، كما كان جالينوس يعتقد ، فى جميع أجزاء الجهاز الوريدى الذى يتفرع منه هنـاك حيث يمر فى حركة انقبـاض وانبساط خلال الأوردة وأحد الفروع الرئيسية فى الجهاز الوريدى هو الجانب الأيمن من القلب ٠

أما الدم الذى يدخل هذا الفرع المهم ، وهو الجانب الأيمن من القلب — فقد حدد له نظام جالينوس مصيرين محتملين فالجزء الأكبر منه يبقى قليـلا فى البطين ليتخلص مما فيه من شوائب ، يحطها « الشريان الوريدى » الذى يسمى الآن الشريان الرئوى ، الى الرئة حيث تخرج مع الزفير ، فاذا تخلص الدم الوريدى الذى فى البطين الأيمن مما كان فيه من شوائب فـانه يعود الى التدفق فى الجهاز الوريدى العام ولكن جزءا صغيرا من الدم يمر فى طريق آخر وهذا الجزء الصغير يقطر فى القنوات الدقيقة الموجودة فى الجدار الحاجز بين البطينين فيصل الى البطين الأيسر نقطة فنقطة حيث يلتقى بالنفس أو الهواء الذى تحطه القصبة الهوائية والشريان شبه الوريدى من العالم الخارجى ، وحين تختلط هذه النقطة الدموية بالهواء فى البطين الأيسر تتحول الى نوع من الأنفاس وهو روح الحياة التى توزعها الشرايين مع الدم الشريانى ٠

ومن هذه الشرايين ما يصعد الى الدماغ وبذا تحمل روح الحياة الى قاعدة المخ وهنا يتجزأ الدم الى أجزاء دقيقة بواسطة قنوات شبكة الأوعية الدموية المتحدة المصدر ٠ وفى هذا العضو الخفى يحمل الدم بنوع ثالث من الانفاس وهو الروح الحيوانية ، كانت توزعها الأعصاب التى كان يعتقد أنها جوفاء ٠

وكان عدد يسير من مؤلفات جالينوس هذه يحتوى على كل المعلومات المعروفة فى العالم فى علم وظائف الأعضاء من القرن الثالث الى القرن السابع عشر ، وكل الأفكار المتعلقة بعلم الحياة تقريبا حتى القرن الثالث عشر ومعظم علم التشريح وعلم النبات حتى القرن السادس عشر وفى الآراء المتصلة بالبناء الطبيعى للكائنات الحية خلال العصور الوسطى،وظلت مؤلفات أرسطو وثيوغراستوس فى علم الحياة تتناقلها بطريقة مضطربة بضع مخطوطات قليلة نادرة فى أديرة الشرق وقد دمر تدميرا كاملا كل ما انتجه نشاط مئات السنين فى الاسكندرية وبرغامة كما عفا النسيان على المؤلفات الأيونية فى علم الحياة التى نجا القليل منها بمعجزة ولكن مؤلفات جالينوس الضخمة السيئة الترتيب ظلت باقية ، فقد ترجمت الى اللاتينية والسريانية والعربية والعبرية وتشبعت بها الحركة الفكرية فى العصور الوسطى وقد علق عليها وشرحها الكتاب الاغريق المتأخرون وترجمت هذه الشروح بدورها الى نفس اللغات المشار اليها آنفا فأصبحت تتداول مرة أخرى تحت أسماء مؤلفين اغريقيين آخرين ٠

ما هو السر الكامن وراء حيوية آراء جالينوس هذه فى علم الحياة ؟ يمكن الاجابة عن ذلك فى أربع كلمات : كان جالينوس باحثا غائيا أى أنه يعتقد أن كل شىء قد خلقه الله لغاية خاصة محددة يضاف الى ذلك أن غائيته كانت من نوع تصادف أنه كان يتماشى مع الاتجاه الدينى السائد فى العصور الوسطى سواء أكان مسيحيا أم اسلاميا أم يهوديا ، ففى رأيه ان كل شىء يوجد فى جسم الانسان ويظهر نشاطا هو من ابداع كائن مفكر أبدعه بحسب خطة ذكية بحيث يكون العضو فى بنائه ووظيفته نتيجة هذه الخطة ٠ لقد كانت الحكمة اللانهائية للخالق هى التى تخيرت أفضل الوسائل للوصول الى أغراضه الخيرة ، وان من الادلة على قدرته الشاملة انه خلق كل شىء حسن حسب الخطة التى وضعها وبذلك حقق ارادته « وقد مرت بعد جالينوس ألف عام من الجهالة ، وكاد ينقطع تاريخ الطب وعلم الحياة » ٠

مصنفات جالينوس الطبية

ولجالينوس من المصنفات كتب كثيرة جدا وهذا ذكر ما وجدناه منها منتشرا فى أيدى الناس مما قد نقله حنين بن اسحق العبادى وغيره الى العربية ، وأغراض جالينوس فى كل كتاب بينكس وهو الفهرست وغرضه فى هذا الكتاب أن يصف الكتب التى وضعها وما غرضه فى كل واحد منها ومن دعاه الى وضعه ومتى وضعه فى أى حد من سنه وهو مقالتان : المقالة الأولى ذكر فيها كتبه فى الطب وفى المقالة الثانية كتبه فى المنطق والفلسفة والبلاغة والنحو : كتاب فى مراتب قراءة كتبه مقالة واحدة وغرضه فيها

أن يخبر كيف ينبغي أن ترتب كتبه في قراءتها كتابا يعد من أولها الى آخرها كتاب الفرق مقالة واحدة · وقال جالينوس انه أول كتاب يقرؤه من أراد تعلم صناعة الطب وغرضه فيه أن يصف ما يقوله كل واحد من فرقه أصحاب التجربة وأصحاب القياس وأصحاب الحيل في تثبيت ما ندعي الاحتجاج له وللرد على من خالفه وكيف الوجه في الحكم على الحق والباطل منها · وكان وضع جالينوس لهذه المقالة وهو شاب في الثلاثين من عمره عند دخوله رومية لأول مرة كتاب الصناعة الصغيرة مقالة واحدة وقد قال جالينوس في أوله انه أثبت فيه جعل ما قد بينه على الشرح والتلخيص في غيره من الكتب وان ما فيه بمنزلة النتائج بما فيها النبض الصغير وهو أيضا مقالة واحدة عنوانها جالينوس الى طوثرس وسائر المتعلمين وغرضه فيها أن يصف ما يحتاجه المتعلمون الى عمله من أمر النبض ويعدد فيه أولا أصناف النبض ولم يذكرها جميعها وانما ذكر ما يقوى المتعلمون على فهمه منها ثم يصف بعد الأسباب التي تغير النبض ما كان منها طبيعيا وما كان منها ليس بطبيعي وما كان خارجا من الطبيعة وكان وضع جالينوس لهذه المقالة في الوقت الذي وضع فيه كتابه في الفرق كتابا الى أغلوقن في التأني لشفاء الأمراض ومعنى أغلوقن باليونانية الأزرق وكان فيلسوفا وعندما رأى من آثار جالينوس في الطب ما أعجبه سأله أن يكتب له ذلك الكتاب · ولما كان لايصل المداوي الى مداواة الأمراض دون معرفتها قدم قبل مداواتها دلائلها التي تعرف بها ووصف في المقالة الأولى دلائل الحميات ومداواتها ولم يذكرها كلها لكنه اقتصر منها على ذكر ما يعرض كثيرا وهذه المقالة تنقسم قسمين : وصف في القسم الأول من هذه المقالة الحميات التي تخلو من الأعراض الغريبة ووصف في القسم الثاني الحميات التي معها أعراض غريبة ووصف في المقالة الثانية دلائل الأورام ومداواتها · وكان وضع جالينوس لهذا الكتاب في الوقت الذي وضع فيه كتاب الفرق كتاب في العظام هذا الكتاب مقالة واحدة وعنونه جالينوس: « في العظام للمتعلمين » ، وذلك أنه يريد أن يقدم المتعلم للطب تعلم علم التشريح على جميع فنون الطب لانه لا يمكن عنده دون معرفة التشريح أن يتعلم شيئا من الطب القياسي وغرض جالينوس من هذا الكتاب أن يصف حال كل واحد من العظام في نفسه وكيف الحال في اتصاله بغيره وكان وضع جالينوس له حين وضع سائر الكتب الى المتعلمين ·

كتاب في العضل :

هذا الكتاب مقالة واحدة ولم يعنونه جالينوس الى المتعلمين لكن أهل الاسكندرية أدخلوه في عداد كتبه الى المتعلمين وذلك انهم جمعوا مع هاتين المقالتين ثلاث مقالات أخرى كتبها جالينوس الى المتعلمين واحدة في تشريح العصب وواحدة في تشريح العروق غير الضوارب وجعلوه كأنه دون كتابا

واحدا ذا خمس مقـــالات وعنونه : « التشريح الى المتعلمين » ، وعرض جالينوس فى كتابه هذا أن يصف جميع العضـــلات فى كل واحد من الأعضاء كم هى ؟ وأى عضل هى ؟ ومن أين يبتدىء كل واحدة منها وما فعلها بغاية الاستقصاء ٠

كتاب فى العصب :

هذا الكتاب أيضا مقالة كتبها الى المتعلمين وغرضه فيها أن تصف كم نوعا من العصب تنبت فى الدماغ وأى الأعصاب هى وكيف وأين تنقسم كل واحدة منها وما فعلها ٠ كتاب فى العروق هذا الكتاب عند جالينوس مقـالة واحدة يصف فيها أمر العروق التى تنبض والتى لا تنبض كتبه للمتعلمين وعنونه : « الى انطشانس » ٠ فأما أهل الاسكندرية فقسموه الى مقالة فى العروق غير الضوارب ومقالة فى العروق الضوارب وغرضه فيه أن يصف كم طرفا تنبت من الكبد وأى العروق هى وكيف وأين ينقسم كل واحد منها وكم شريانا تنبت من القلب وأى الشريانات هى وكيف هى وأين تنقســـم ٠

كتاب الاسطقسات :

على رأى أبقراط مقالة واحدة وغرضه فيه أن يبين أن جميع الأجسام التى تقبل الفساد وهى أبدان الحيوان والنبات والأجسام التى تتولد فى بطن الأرض انما تركيبها فى الأركان الأربعة التى هى النار والهواء والماء والأرض وان هذه هى الأركان الأولى البعيدة لبدن الانسان وأما الأركان الثوانى القريبة التى بها قوام بدن الانسان وسائر ما له دم من الحيوان فهى الأخلاط الأربعة أعنى الدم والبلغم (خلط من الصفراء والسوداء) ٠

كتاب المزاج :

ثلاث مقالات وصف فى المقالتين الأوليين منه أصناف مزاج أبدان الحيوان فبين كم هى وأى الأصناف هى ووصف الدلائل التى تدل على كل واحد منها وذكر فى المقالة الثالثة منه أصناف مزاج الأدوية وبين كيف تختبر وكيف يمكن تعرفها ٠

كتاب القوى الطبيعية ثلاث مقالات :

وغرضه فيه أن يبين أن تدبير البدن يكون بثلاث قوى طبيعية وهى القوة الجابلة والقوة المنوية والقوة العادية ٠ وان القوة الجابلة مركبة من قوتين احداهما تغير المنى وتجعله حتى تجعل منه الأعضاء المتشابهة

الأجزاء • والأخرى تركيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء بالهيئة والوضع والمقدار أو العدد الذى يحتاج اليه فى كل واحد من الأعضاء المركبة وانه يخدم القوة العادية أربع قوى : وهى القوة الجاذبة والقوة الممسكة والقوة المتغيرة والقوة الدافعة •

كتاب العلل والأعراض ست مقالات :

وهـذا الكتاب أيضـا لجالينوس ومقـالاته متفرقة وانما جمعها الاسـكندريون وجعلوها كتابا واحـدا وعنون جالينوس المقـالة الأولى من هذه المقالات الست فى أصناف الأمراض ووصف فى تلك المقالة كم أجناس الأمراض وقسم كل واحد من تلك الأجناس الى أنواعه فى القسمة الى أقصى أنواعها وعنون المقالة الثانية منها : « فى أسباب الأمراض » وغرضه فيها موافق لعنوانها،وذلك أنه يصف فيها كم أسباب كل واحد من الأمراض وأى الأسباب هى • وأما المقالة الثالثة من هذه الست فعنونها : « فى أصناف الأعراض » ، ووصف فيها كم أجناس الأعراض وأنواعها وأى الأعراض هى وأما ثلاث المقالات الباقية فعنونها : « فى أسباب الأعراض ، ووصف فيها كم الأسـباب الفاعلة لـكل واحـد من الأعراض وأى الأسباب هى •

كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة ويعرف أيضا بالمواضع الآلمة ست مقالات وغرضه فيه أن يصف دلائل يستدل بها على أحوال الأعضاء الباطنة اذا حدثت بها الأمراض وعلى تلك الأمراض التى تحدث فيها أى الأمراض هى ووصف فى المقالة الأولى وبعض الثانية منه السبل العامة التى تتعرف بها الأمراض وواضعها وكشف فى المقالة الثانية خطأ ارخيجانس فى الطرق التى سلكها فى طلب هذا الغرض ثم أخذ فى باقى المقالة الثانية وفى المقالات الأربع التالية لها فى ذكر الأعضاء الباطنة وأمراضها عضوا عضوا وابتدأ من الدماغ وهلم جرا ، يصف الدلائل التى يستدل بها على واحد واحد منها اذا اعتل كيف تتعرف علته الى أن انتهى الى أقصاها •

كتاب النبض الكبير :

هذا الكتاب جعله جالينوس فى ست عشرة مقالة وقسمها الى أربعة أجزاء فى كل واحد من الأجزاء أربع مقالات وعنوان الجزء الأول منها : « فى أصناف النبض » وغرضه فيه أن يبين كم أجناس النبض الأول ، وأى الأجناس هى وكيف ينقسم كل واحد منها الى أنواعه الى أن ينتهى الى أقصاها وعمد فى المقالة الأولى من هذا الجزء الى ما يحتاج اليه من صفة

أجناس النبض وأنواعها فجمعها فيها عن آخره وأفراد ثلاث المقالات الباقية من ذلك الجزء للحجاج ، والبحث عن أجناس النبض وأنواعه وعن حده · وعنوان الجزء الثانى فى تعريف النبض وغرضه فيه أن يصف كيف يتعرف كل واحد من أصناف النبض بجسة العرق وعنون الجزء الثالث : « فى أسباب النبض » ، وغرضه أن يصف من أى الأسباب يكون كل واحد من أصناف النبض وعنوان الجزء الرابع : « فى تقدمة المعرفة من النبض » وغرضه فيه أن يصف كيف يستخرج سابق العلم من كل واحد من أصناف النبض ·

كتاب أصناف الحميات:مقالتان وغرضه فيه أن يصف أجناس الحميات وأنواعها ودلائلها وصف فى المقالة الأولى منه جنسين من أجناسها أحدهما يكون فى الروح والآخر فى الأعضاء الأصلية ووصف فى المقالة الثانية الجنس الثـالث منها الذى يكون فى الأخلاط اذا عقت · كتاب البحران ثلاث مقالات وغرضه فيه أن يصف كيف يصل الانسان الى أن يتقدم فيعلم هل يكون البحران أم لا وأن كان يحدث فمتى يحدث وبماذا والى أى شىء يؤول أمره · كتاب أيام البحران ثلاث مقالات وغرضه فى المقالتين الأوليين منه أن يصف اختلاف الحال من التى يكون البحران الحادث فيها محمودا وأيها يكون البحران الحادث فيها مذموما وما يتصل بذلك ، ويصف فى المقالة الثالثة الأسباب التى من أجلها اختلفت الأيام فى قواها هذا الاختـــلاف ·

كتاب حيلة البرء : أربع عشرة مقـالة وغرضه فيه أن يصف كيف يداوى كل واحد من الأمراض بطريقة القياس ويقتصر فيه على الأعراض العلمية التى ينبغى أن يقصد قصدها فى ذلك ويستخرج منها ما ينبغى أن يداوى به كل مريض من الأمراض ويضرب لذلك أمثلة يسيرة من أشياء جزئية وكان وضع ست مقالات منه لرجل يقال له أريان ، بين فى المقالتين الأولى والثانية منها الأصول الصحيحة التى عليها يكون مبنى الأمن فى هذا العلم وفسخ الأصول الخطأ التى أصلها أراسطراطس وأصحابه ، ثم وصف فى المقالات الأربع الباقية مداواة تفرق الاتصال من كل واحد من الأعضاء · ثم ان ايارن توفى فقطع جالينوس استتمام الكتاب الى أن سأله أوجانيوس أن يتممه فوضع له ثمانى المقالات الباقية ، فوصف فى الست الأول منها مداواة أمراض الأعضـاء المتشابهة الأجزاء وفى المقالتين مداواة أمراض الأعضاء المركبة ووصف فى المقالة الأولى من الست الأولى مداواة أصناف سوء المزاج كلها اذا كانت فى عضو واحد وأجرى أمرها على طريق التمثيل بما يحدث فى المعدة ثم وصف فى المقالة التى بعدها وهى الثامنة من جملة الكتاب مداواة أصناف الحمى التى تكون فى الروح وهى حمى يوم · ثم وصف فى المقالة التى تتلوها وهى التاسعة مداواة الحمى المطبقة · ثم فى

العاشرة مداواة الحمى التى تكون فى الأعضاء الأصلية وهى الدق ووصف فيها جميع ما يحتاج الى عمله من أمر استعمال الحمام · ثم وصف فى الحادية عشرة والثانية عشرة مداواة الحميات التى تكون من عفونة الأخلاط ، أما فى الحادية عشرة فما كان منها خلوا من أعراض غريبة وأما فى الثانية عشرة فما كان منها مع أعراض غريبة ·

كتاب علاج التشريح — وهو الذى يعرف بالتشريح الكبير كتبه فى خمس عشرة مقالة وذكر أنه قد جمع فيه كل ما يحتاج اليه من أمر التشريح ووصف فى المقالة الأولى منه العضل والرباطات فى اليدين وفى الثانية العضل والرباطات فى الرجلين وفى الثالثة العصب والعروق التى فى اليدين والرجلين وفى الرابعة العضل الذى يحرك الخدين والشفتين والعضل الذى يحرك اللحى الأسفل الى ناحية الرقبة والكتفين وفى الخامسة عضل الصدر ومراق البطن والمتنين والصلب · ووصف فى السادسة آلات الغذاء وهى المعدة والأمعاء والكبد والطحال والكليتين والمثانة وما أشبه ذلك وفى السابعة والثامنة وصف تشريح آلات التنفس ، أما فى السابعة فوصف ما يظهر فى التشريح فى القلب والرئة والعروق والضوارب بعد موت الحيوان ومادام حيا ، وأما فى الثامنة فوصف ما يظهر فى التشريح فى جميع الصدر · وأفرد المقالة التاسعة بأسرها بصفة تشريح الدماغ والنخاع ووصف فى العاشرة تشريح العينين واللسان والمرىء وما يتصل بهذه الأعضاء · ووصف فى الحادية عشرة الحنجرة والعظم والذى يشبه اللام فى حروف اليونانيين وما يتصل بذلك من العصب الذى يأتى هذه المواضع ووصف فى الثانية عشرة تشريح أعضاء التوليد وفى الثالثة عشرة تشريح الضوارب وغير الضوارب وفى الرابعة عشرة تشريح العصب الذى ينبت من النخاع · قال جالينوس : « وهذا الكتاب المضطر اليه من علم التشريح وقد وضعت كتبا أخرى لست بمضطر اليها لكنها نافعة فى علم التشريح » ·

اختصار كتاب مارينس فى التشريح — وكان مارينس قد ألف كتابه هذا فى عشرين مقالة وانما جالينوس اختصره فى أربع مقالات (اختصار كتاب لوتس فى التشريح) وهذا الكتاب أيضا ألفه صاحبه فى سبع عشرة مقالة ، وقد ذكر جالينوس أنه اختصره فى مقالتين · كتاب فيما وقع من الاختلاف بين القدماء فى التشريح مقالتان وغرضه فيه أن يبين أمر الاختلاف الذى وقع فى كتب التشريح فيما بعد من كان قبله من أصحاب التشريح أى شىء منه انما هو فى الكلام فقط وأى شىء منه وقع فى المعنى وما سبب ذلك · كتاب تشريح الأموات مقالة واحدة يصف فيها الأشياء التى تعرف من تشريح الحيوان الميت لأى الأشياء هى · كتاب تشريح الأحياء مقالتان

وغرضه فيه أن يبين الأشياء التي تعرف من تشريح الحيوان الحي أي الأشياء هي · كتاب في علم ابقراط بالتشريح : هذا الكتاب جعله جالينوس في خمس مقالات وكتبه لبويثوس في حداثة سنه · وغرضه فيه أن يبين أن ابقراط كان صادقا بعلم التشريح وأتى على علم ذلك بشواهد من جميع كتبه · كتاب في آراء أراسطراطس بالتشريح : هذا الكتاب جعله في ثلاث مقالات وكتبه أيضا لبويثوس في حداثة من سنة وغرضه فيه أن يشرح ما قاله أرسطراطس في التشريح في جميع كتبه ثم يبين له صوابه فيما أصاب وخطأه فيما أخطأ فيه · كتاب فيما لم يعلمه لوقس من أمر التشريح أربع مقالات · كتاب فيما خالف فيه لوقس في التشريح مقالتان · كتاب في الرحم هذا الكتاب مقالة واحدة صغيرة كتبه لامرأة قابلة في حداثة سنه فيه جميع ما يحتاج اليه من تشريح الرحم وما يتولد فيها في الوقت الذي للحمل · كتاب في مفصل الفقرة الأولى من فقار الرقبة واحدة · كتاب في اختلاف الأعضاء المتشابهة الأجزاء مقالة واحدة · كتاب في تشريح آلات الصوت مقالة واحدة وقال حنين ان هذا الكتاب مفتعل على لسان جالينوس وليس هو لجالينوس ولا لغيره من القدماء ولكنه لبعض الحدث جمعه من كتب جالينوس وكان الجامع له مع هذا أيضا ضعيفا · كتاب في تشريح العين هذا الكتاب أيضا مقالة واحدة وقال حنين : ان عنوانه أيضا باطل لأنه ينسب الى جالينوس وهو ليس لجالينوس وخليق أن يكون لروفس أو لمن دونه ·

كتاب في **حركة الصدر والرئة** : هذا الكتاب جعله في ثلاث مقالات وكان وضعه في حداثة من سنه بعد عودته الأولى من رومية وكان حينئذ مقيما بمدينة سمرنا عند فالقس وانما كان سأله اياه بعض من كان يتعلم معه ، وصف في المقالتين الأوليين منه وفي أول الثالثة ما أخذه عن فالقس معلمه في ذلك الفن ثم وصف في باقي المقالة الثالثة ما كان هو المستخرج له · كتاب في علل النفس هذا الكتاب جعله في مقالتين في رحلته الأولى الى رومية لبويثوس وغرضه فيهما أن يبين من أي الآلات يكون التنفس عفوا ومن أيها يكون باستكراه ·

كتاب في الصوت : هذا الكتاب جعله في أربع مقالات بعد الكتاب الذي ذكرته قبله غرضه فيه أن يبين كيف يكون الصوت وأي شيء هو وما مادته وأي الآلات يحدثه وأي الأعضاء تعين على حدوثه وكيف تختلف الأصوات · كتاب في حركة العضل مقالتان وغرضه فيه أن يبين ما حركة العضل وكيف هي وكيف تكون هذه الحركات المختلفة من العضل وانما حركته حركة واحدة ويبحث أيضا فيما عن النفس هو من الحركات الارادية أم من الحركات الطبيعية ؟ ويفحص فيه عن أشياء كثيرة لطيفة

من هذا الفن · مقالة فى مناقضة الخطأ الذى اعتقد فى تمييز البول من الدم · مقالة فى الحاجة الى النبض · مقالة فى الحاجة الى التنفس مقالة فى العروق الضوارب هل يجرى فيها الدم بالطبع أم لا ؟

كتاب فى قوى الأدوية المسهلة : مقالة واحدة يبين فيها ان اسهال الأدوية ما يسهل ليس هو بأن كل واحد من الأدوية يحيل ما يصادفه فى البدن الى طبيعته ثم يندفع ذلك فيخرج لكن كل واحد منها يجتذب خطا موافقا مشاكلا له · كتاب فى العادات مقالة واحدة وغرضه فيه أن يبين أن العادة أحد الأعراض التى ينبغى أن ينظر فيها ويوجد متصلا بهذا الكتاب ومتحدا معه تفسير ما أتى به جالينوس فيها من الشهادات من قول فلاطن وشرح ايروقليس له وتفسير ما أتى به من قول ابقراط بشرح جالينوس ·

كتاب فى آراء أبقراط وفلاطن : عشر مقالات وغرضه فيه أن يبين أن فلاطن فى أكثر أقاويله موافق لأبقراط من قبل أنه عنه أخذها ، وأن ارسيطوطاليس فيما خالفهما فيه قد أخطـــأ ، وبين فيه جميع ما يحتـــاج اليه من أمر قوة النفس المدبرة التى بها تكون الفكرة والتوهم والذكر ومن أمر الأصول الثـلاثة التى منها تنبعث القوى التى بها يكون تدبير البدن وغير ذلك من فنون شتى · كتاب فى الحركة مقالة واحدة وغرضه فيها أن يبين أمر حركات كان قد جهلها هو ومن كان قبله ثم علمها بعد · كتاب فى آلة الشم مقالة واحدة ·

كتاب منافع الأعضاء : سبع عشر مقالة بين فى المقالتين الأولى والثانية حكمة البارىء تبارك وتعالى فى اتقان خلقه اليد وبين القول الثالث حكمته فى اتقان الرجل وفى الرابع والخامس حكمته فى آلات الغذاء وفى السادس والسابع أمر آلات التنفس وفى الثامن والتاسع أمرها فى الرأس وفى العاشر أمر العينين وفى الحادى عشر ما فى الوجه وفى الثانى عشر الأعضاء التى هى مشاركة للرأس والعنق وفى الثالث عشر نواحى الصلب والكتفين ثم وصف فى المقالتين اللتين بعد تلك الحكمة فى أعضاء التوليد ثم فى السادس عشر من أمر الآلات المشتركة للبدن كله وهى العروق الضوارب وغير الضوارب ثم وصف فى المقالة السابعة عشرة حال جميع الأعضاء ومقاديرها وبين منافع ذلك الكتاب كله مقالة فى أفضل هيئات البدن وهذه المقالة تتلو المقالتين الأوليين من كتاب المزاج وغرضه فيها يتبين من عنوانها· مقالة فى خصب البدن وهى مقالة صغيرة وغرضه فيها يتبين من عنوانها · مقالة فى سوء المزاج المختلف وغرضه فيها يتبين من عنوانها ، يذكر فيه أى أصناف سوء المزاج هو مستوف البدن كله وكيف يكون الحال فيه وأى أصناف سوء المزاج هو مختلف فى أعضاء البدن ·

كتاب الأدوية المفردة : هذا الكتاب جعله فى احدى عشرة مقالة كشف فى المقالتين الأوليين خطأ من أخطأ فى الطرق الرديئة التى سلكت فى الحكم على قوى الأدوية ثم أصل فى المقالة الثالثة أصلا صحيحا لجميع العلم بالحكم على القوى الأولى من الأدوية ثم بين فى المقالة الرابعة أمر القوى الثوانى وهى الطعوم والروائح أخبر بما يستدل عليها منها على القوى الأولى من الأدوية ، ووصف فى المقالة الخامسة القوى الثوالث من الأدوية وهى أفاعيلها فى البدن من الاسخان والتبريد والتجفيف والترطيب ثم وصف فى المقالات الثلاث التى تتلو تلك قوة دواء من الأدوية التى هى أجزاء من النبات ثم فى المقالة التاسعة قوى الأدوية التى هى أجزاء من الأرض أى أصناف التراب والطين والحجارة والمعادن وفى العاشرة قوى الأدوية التى هى مما يولد فى أبدان الحيوان ثم وصف فى الحادية عشرة قوى الأدوية التى مما يتولد فى البحر والماء والمالح ٠

مقالة فى دلائل علل العين : كتبها فى حداثته لغلام كحال ، وقد لخص فيها العلل التى تكون فى كل واحدة من طبقات العين ووصف دلائلها ٠ مقالة فى أوقات الأمراض وصف فيها أمر أوقات المرض الأربعة أى الابتداء والتزويد والانتهاء والاحطاط ٠ كتاب الامتلاء ويعرف أيضا بكتاب الكثرة وهو مقالة واحدة يصف فيها أمر كثرة الاخلاط ويصفها ويصف دلائل كل واحد من أصنافها ٠ مقالة فى الأورام : ورسمها جالينوس أصناف الغلظ الخارج عن الطبيعة ووصف فى هذه المقالة جميع أصناف الأورام ودلائلها ٠ مقالة فى الأسباب البادية : وهى الأورام التى تحدث من خارج البدن يبين فى هذه المقالة ان للأسباب البادية عملا فى البدن ونقض قول من دفع عملها ٠ مقالة فى الأسباب المتصلة بالأمراض ذكر فيها الأسباب المتصلة بالمرض الفاعلة له ٠ مقالة فى الرعشة والنافض والاختلاج والتشنج ٠ مقالة فى أجزاء الطب يقسم فيها الطب على طرق شتى من القسم والتقسيم ٠

كتاب المنى : مقالتان وغرضه فيه أن يبين أن الشىء الذى يتولد منه جميع أعضاء البدن ليس هو الدم كما ظن أرسطوطاليس لكن تولد جميع الأعضاء الأصلية انما هو من المنى وهى الأعضاء البيض ، وان الذى يتولد من دم الطمث انما هو اللحم الأحمر وحده ٠ مقالة فى تولد الجنين المولود لسبعة أشهر ٠ مقالة فى المرأة السوداء يصف فيها أصناف السوداء ودلائلها ٠ كتاب أدوار الحميات وتراكيبها مقالة واحدة يناقض فيها قوما ادعوا الباطل من أمر أدور الحميات وتراكيبها وعنوان هذا الكتاب عند جالينوس : « مناقضة من تكلم فى الرسوم » ٠ قال حنين : « وقد توجد مقالة أخرى نسبت الى جالينوس فى هذا الباب وليست له » ٠

اختصار كتابه المعروف بالنبض الكبير : مقالة واحدة ذكر جالينوس انه أكمل فيها النبض • قال حنين : « وأما أنا فقد رأيت باليونانية مقالة ينحو بها هذا النحو ولست أصدق أن جالينوس الواضع لتلك المقالة لأنها لا تحيط بكل ما يحتاج اليه من أمر النبض وليست بحسنة التأليف أيضا ويجوز أن يكون جالينوس قد وعد أن يضع تلك المقالة فلم يتهيأ له وضعها فلما وجده بعض الكذابون قد وعد ولم يف فحرص على وضع تلك المقالة وأثبت ذكرها فى الفهرست كما يصدق فيها ويجوز أن يكون جالينوس أيضا قد وضع مقالة فى ذلك غير تلك وقد درست كما درس كثير من كتبه وافتعلت هذه المقالة عوضها ومكانها » • كتاب فى النبض : يناقض فيه ارخيجانس • قال جالينوس : « انه جعله فى ثمانى مقالات » • كتاب فى رداءة التنفس هذا الكتاب جعله فى ثلاث مقالات وغرضه فيه أن يصف أصناف التنفس الردىء وأسبابه وما يدل عليه وهو يذكر فى المقالة الأولى منه أصناف التنفس وفى الثانية أصناف سوء التنفس وما يدل عليه كل صنف منها وفى المقالة الثالثة يأتى بشواهد من كلام أبقراط على صحة قولـه •

وكتاب نوادر تقدمة المعرفة : مقالة واحـدة يحث فيها على تقدمة المعرفة ويعلم حيلا لطيفة تؤدى الى ذلك ويصف أشياء بديعة تقدم فعلها من أمر المرض وأخبر بها فعجب منه • اختصـار كتابه فى حيـلة البرة مقالتان • كتاب الفصد : ثلاث مقالات قصد فى المقالة الأولى منها المناقضة لأراسطراطس لانه كان يمنع من الفصـد وناقض فى الثـانية أصحاب أراسطراطس الذين برومية فى هذا المعنى بعينه ووصف فى الثالثة ما يراه من العـلاج بالفصد • كتاب الذبول مقالة واحدة وغرضـه فيه أن يبين طبيعة هذا المرض وأصنافه والتدبير الموفق لمن أشرف عليه • مقالة فى صفات لصبى يصرع • كتاب قوى الأغذية : ثلاث مقالات عدد فيه جميع ما يتغذى به من الأطعمة والأشربة ووصف ما فى كل واحد منها من القوى • كتاب التدبير الملطف مقالة واحدة وغرضه موافق لعنوانه اختصار هذا الكتاب الذى فى التدبير الملطف مقـالة واحدة • كتاب الكيموس الجيد والردىء مقالة واحدة يصف فيها الأغذية ويذكر أيها تولد كيموسـا محمودا وأيها تولد كيموسا رديئا • كتاب فى أفكار أرسطراطس فى مداواة الأمراض ثمانى مقالات اختبر فيه السـبيل التى سلكها أرسطراطس فى مداواة الأمراض ويبين صوابها من خطئها • كتاب تدبير الأمراض الحادة على رأى أبقراط مقالة واحدة • كتاب تركيب الأدوية جعله فى سبع عشرة مقالة أجمل فى سبع منها أجناس الأدوية المركبة فعدد جنسا جنسا منها وجعل مثلا جنس الأدوية التى تبنى اللحم فى القروح على حدته وجنس الأدوية التى تحلل على حدته وجنس الأدوية التى تدمل وسائر أجناس

الأدوية على هذا القياس وانما غرضه فيه أن يصف طريق تركيب الأدوية على الجمل ولذلك جعل عنوان المقالات السبع هذه فى تركيب الأدوية على الجمل والأجناس وأما عشر المقالات الباقية فجعل عنوانها فى تركيب الأدوية بحسب المواضع وأراد بذلك أن صفته لتركيب الأدوية فى تلك المقالات العشر ليس يقصد بها الى أن يخبر أن صنفا منها يفعل ما فى مرض من الأمراض مطلقا لكن بحسب المواضع أعنى العضو الذى فيه ذلك المرض وابتدأ فيه من الرأس ثم هلم جرا على جميع الأعضاء الى أن انتهى الى أقصاها ٠

نقول : وجملة هذا الكتاب الذى وسعه جالينوس فى تركيب الأدوية لا يوجد فى هذا الوقت الا وهو منقسم الى كتابين وكل واحد منهما على حدته ولا يبعد أن السكندريين لتبصرهم فى كتب جالينوس صنعوا هذا أو غيرهم فالأول يعرف كتاب فاطاجانس ويتضمن سبع المقالات الأولى التى تقدم ذكرها والآخر يعرف بكتاب الميامر ويحتوى على عشر المقالات الباقية والميامر جمع ميمر وهو الطريق ويشبه أن يكون سمى هذا الكتاب بذلك اذ هو الطريق الى استعمال الأدوية المركبة على جهة الصواب ٠

كتاب الأدوية التى يسهل وجودها : وهى التى تسمى الموجودة فى كل مكان مقالتان وقال حنين : انه أضيفت اليه مقالة أخرى فى هذا الفن ونسبت الى جالينوس لكنها لفيلقربوس وقال حنين أيضا انه قد ألحق فى هذا الكتاب هذيان كثيرا وصفات بديعة عجيبة وأدوية لم يرها جالينوس لم يسمع بها قط ٠ كتاب الأدوية المقابلة للأدواء جعله فى مقالتين ووصف فى المقالة الأولى منه أمر الترياق وفى المقالة الثانية منه أمر سائر المعجوبات ٠ كتاب الترياق الى مغيليليوس مقالة واحدة صغيرة ٠ كتاب الترياق الى قيصر وهذا الكتاب أيضا مقالة واحدة ٠ كتاب الحياة لحفظ الصحة ست مقالات وغرضه فيه أن يعلم كيف يحافظ الأصحاء فيه على صحتهم من كان منهم على غلبة كمال الصحة ومن كانت صحته تقتصر على غاية الكمال ومن كان منهم يسير بسيرة الأحرار ومن كان منهم يسير بسيرة العبيد ٠ كتاب الى لسبولوس مقالة واحدة وغرضه فيه أن يفحص هل حفظ الأصحاء على صحتهم من صناعة الطب ثم هو من صناعة أصحاب الرياضة وهى المقالة التى أشار اليها فى ابتداء كتاب تدبير الأصحاء حين قال ان الصناعة التى تتلو القيام على الأبدان واحدة كما بينت فى غير هذا الكتاب ٠

كتاب الرياضة بالكرة الصغيرة : هذا الكتاب مقالة واحدة صغيرة يحمد فيها الرياضة بالكرة الصغيرة واللعب بالصولجان ويقدمه على جميع أصناف الرياضة ٠ تفسير كتاب عهد أبقراط مقالة واحدة ٠ تفسير كتاب

الفصول لأبقراط جعله فى سبع مقالات • تفسير كتاب الكسر لأبقراط جعله فى ثلاث مقالات • تفسير كتاب رد الخلع لأبقراط جعله فى أربع مقالات • تفسير كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط الذى نجده من تفسير لهذا الكتاب هو ثلاث مقالات وقال لجالينوس فى فينكس كتبه انه فسره فى خمس مقالات وأن ثلاث المقالات الأولى هذه هى تفسير الجزء الصحيح عن هذا الكتاب والمقالتان الباقيتان فيهما تفسير المشكوك فيه •

تفسير كتاب القروح لأبقراط : جعله فى مقالة واحدة • تفسير كتاب جراحات الرأس لأبقراط مقالة واحدة • تفسير كتاب اجذيما لأبقراط : فسر المقالة الأولى فى ثلاث مقالات والثانية فى سبع مقالات والثالثة فى ثلاث مقالات والسادسة فى ثمانى المقالات هذه التى غيرها،أما الثلاث الباقية وهى الرابعة والخامسة والسابعة فلم يفسرها لانه ذكر أنها مفتعلة على لسان ابقراط • تفسير كتاب الاخلاط لأبقراط : جعله على ثلاث مقالات • تفسير كتاب تقدمة الانذار لأبقراط : وهذا الكتاب لم يجد له نسخة الى هذه الغاية • تفسير كتاب قاطيطرون لأبقراط جعله أيضا فى ثلاث مقالات : وقد وجدت بعض النسخ من هذا التفسير أيضا فى أربع مقالات الا أن الأول هو المعتمد عليه •

تفسير كتاب الغذاء لأبقراط جعله فى أربع مقالات • تفسير كتاب طبيعة الجنين لأبقراط ، وقال حنين : هذا الكتاب لم نجد له تفسيرا من قول جالينوس ولا نجد جالينوس ذكر فى فهرس كتبه انه أعطى له تفسيرا الا انا وجدناه قد قسم هذا الكتاب ثلاثة أجزاء فى كتابه الذى عمله فى علم أبقراط فى التشريح وذكر أن الجزءين الأول والثالث من هذا الكتاب منحولان ليسا لأبقراط وانما الصحيح منه الجزء الثانى وقد فسر هذا الجزء جاسيوس الاسكندرانى وقد وجدنا لجميع الأجزاء الثلاثة تفسيرين أحدهما سريانى وسم انه لجالينوس قد كان ترجمه سرجس فلما فحصناه علمنا انه لباليس والآخر يونانى فلما فحصناه وجدناه لسورانوس الذى من شيعة المترذيقيين • وترجم حنين نص هذا الكتاب الا قليلا منه الى العربية فى خلافة المعتز بالله •

تفسير كتاب طبيعة الانسان لأبقراط جعله فى مقالتين • كتاب فى أن رأى أبقراط فى كتاب طبيعة الانسان وفى سائر كتبه واحد جعله فى ثلاث مقالات وقال جالينوس انه ألفه بعد تفسيره لكتاب طبيعة الانسان وذلك عندما بلغه أن قوما يعيبون ذلك الكتاب ويدعون فيه أنه ليس لأبقراط • كتاب فى أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا : مقالة واحدة • كتاب فى كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة مقالة واحدة وكتاب فى البحث عن صواب ما كتبه أصحاب أبقراط الذين قالوا بالكيفيات

الأربع مقـالة واحدة وقال حنين : ان هذا الكتاب لا أعلم الحقيقة انه لجالينوس أم لا ولا أحسبه ترجم كتابا فى الثبات على رأى أبقراط وقال حنين أيضا : ان القصة فى هذا مثل القصة فى الكتاب الذى ذكر قبله كتاب فى ألفاظ أبقراط قال حنين : هذا الكتاب أيضا مقالة واحدة وغرضه فيه أن يفسر غريب ألفـــاظ أبقراط فى جميع كتبه وهو نافع لمن يقرأ باليونانية فأما من يقرأ بغير اليونانية فلا يحتاج اليه ولا يمكن أيضا أن يترجم أصلا • كتاب فى جوهر النفس ما هى على رأى أسقليباس مقالة واحدة : كتاب فى التجربة الطبيعية مقالة واحدة يقص فيها حجج أصحاب التجربة وأصحاب القياس بعضهم على بعض • كتاب فى الحث على تعميم الطب مقالة واحدة وقال حنين : ان كتاب جالينوس هذا نسخ فيه كتاب مينودوطس وهو كتاب حسن نافـع • كتاب فى أجمـل التجربة مقـالة واحدة • كتاب فى محنة أفضل الأطباء مقالة واحدة • كتاب فيما يعتقده رأيا مقالة واحدة يصف فيها ما علم وما لم يعلم • كتاب فى الأسماء الطبية وغرضه فيه أن يبين أمر الأسماء التى اسـتعملها الأطبـاء على أى المعانى استعملوها وجعله خمس مقالات والذى وجدناه قد نقل الى اللغة العربية انما هو المقالة الأولى التى ترجمها حبيش الأعصم •

وما من شك فى أن مصـنفات جـالينوس الطبية بتمامها وطرائفها والنتائج التى وصل اليها قد هضمها كل الهضم وقدرها كل التقدير جميع الأطباء العرب والمتأخرين وأصبحت جزءا لا يتجزأ من معارفهم الطبية التى تمثلت فى صورتها الأصلية كما تمثلت فى ملخصاتها وشروحها والكتب الجديدة التى اعتمدت عليها وان كان تفصيل ذلك لا يزال يتطلب التثبت منه وتبينه فى الرسائل ولا يصدق ما ذكرنا بأية حال على أئمة الأطباء أمثال محمد بن زكريا الرازى أو ابن سينا فحسب بل يصدق أيضا على كثيرين غيرهم والمقارنة بين جالينوس وبين ابن سينا فى كتابه القانون فى الطب خليقة بأن تسفر عن نتائج مهمة جدا حقا • وجالينوس جدير بأن يشغل بابا عظيما فى أى تاريخ يكتب مسـتقبلا عن الطب العربى حتى النصـف الأول من القرن العشرين وتـدين الدراسـات التى عملت عن جالينوس فى أوربا أيام القرون الوسطى وأيام النهضة بالكثير جدا الى ما سبق به العرب والى ما ترجم من جالينوس عن العربية •

ويطول بنا الحديث لو أننا دخلنا فى ذكر أبحاث جالينوس وكشوفه وعلمه عامة ، وان مؤلفاته لشىء كثير ضاع أكثره وبقى الأقل وبعض ما بقى ذهب الى العرب فأفادوا منه كثيرا ••• ومن العرب دخل أوربا بعد أن ناله التغيير والتعديل •

وظل جالينوس مدى ١٤ قرنا أبا الطب الذى لاينازع لم يجرؤ واحد على

أن يقول غير الذى قال وانصرف الناس عن التشريح فى العالم المسيحى والعالم الاسلامى لتبقى حرمة الانسان مصونة وقالوا : ماذا يجد المشرح ولم يبق بعد الذى وجده جالينوس علم ؟!

وظل جالينوس وظلت تعاليمه عمدة أهل الرأى أربعة عشر قرنا حتى جاء عصر النهضة فى أوربـا فأطاح بأكثر ما كان شاع طوال هذه القرون ..

وما أن جاء القرن السادس عشر حتى تبدل الحال ..

انها لثورة علمية التى بدأها فيساليوس والذى بدأها بالرجوع الى الجسم الانسانى بالتشريح يستقى منه علمه .. ورويدا رويدا يدخل الطب فى عصوره الحديثة ..

الجامع لصناعة الطب

«الحاوى»... الرازى

ح ٩٠٠ م

الرازى حجة الطب فى أوروبا حتى القرن السابع عشر للميلاد ويعده معاصروه طبيب المسلمين غير مدافع ٠

ظهر فى منتصف القرن التاسع للميلاد ، واشتهر فى الطب والكيمياء والجمع بينهما وهو فى نظر المؤرخين من أعظم أطباء القرون الوسطى كما يعده غير واحد أنه أبو الطب العربى ٠

قال عنه صاحب الفهرست : « ٠٠ كان الرازى أوحد دهره وفريد عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب » ٠ وسماه ابن أبى اصيبعة بجالينوس العرب ٠

★ ★ ★

عصـــره

ولابد لمعرفة الرازى حق معرفته وفهمه حق فهمه من معرفة البيئة التى نشأ فيها وترعرع ولاسيما البيئة الطبيعة ٠

عاش فى العصر العباسى الثانى وظهر فى بغداد فى أيام الخليفة المعتضد وكانت النهضة العلمية التى أرسى المأمون قواعدها وعمل على نشرها لاتزال تسير فى طريقها الى الرقى والازدهار اذ لم تكن جحافل التتر قد بدأت تتحرك ولم يكن القواد التتار قد فكروا بعد فى القضاء على الخلافة العباسية واحتلال بغداد ، واذا كانت سلطة الخليفة فى بغداد قد أصيبت بضعف شديد بدليل استقلال كثير من أطراف الدولة البعيدة من الهيبة والقوة ٠ فهذا الخليفة المعتضد العباسى كان على درجة من الشجاعة والقوة والاقدام ويصفه بعض المؤرخين بأنه كان ميالا لسفك الدماء ومن أجل ذلك سموه « السفاح الثانى » واستطاع بما عرف عنه من هذه الصفات ان يعيد الى الدولة العباسية شيئا من سطوتها وسيطرتها فأعاد الى حظيرة الخلافة بعض الولايات التى انفصلت عنها وحارب البيزنطيين فى جرأة وشجاعة وانتصر عليهم واسترد بعض المعاقل والحصون على الحدود فى آسيا الصغرى وكان الروم قد انتزعوها من المسلمين ، وقام الأكراد بثورة فى الجزيرة فقضى على ثورتهم وطردهم من بلاد الجزيرة ثم تمكن من اخماد الفتن التى أثارها الأمير الحمدانى فى الموصل ٠

وقامت بينه وبين خمارويه الحاكم الطولونى صـــلات ودية قوية أسفرت عن زواج المعتضد بالأميرة قطر الندى كريمة خمارويه وزفت اليه فى احتفالات أخذت تتحدث عن ذكرها الركبان اذ كانت مضرب الأمثـــال فيما أحاط بها من مظاهر الثراء والابهة والعظمة • وجاء في بعض الروايات التى تتحدث عن عظمة هذه الاحتفالات انه بنى للعروس قصرا تتوافر فيه كل وسائل الراحة والتسلية بين كل مرحلة وأخـــرى فى الطريق بين مصر وبغداد لكى تقيم فيه بعض الوقت طلبا للراحة من عناء السفر ولا شك ان النفقات الطائلة التى تتطلبها هذه الاحتفالات تعد دليلا على ان الخلافة فى بغداد كانت على قدر كبير من الفخامة والعظمة والقوة لذلك اتسع أمام المعتضد لكى يقوم ببعض الاصلاحات وتشجيع العلماء • وكان الرازى يقيم فى بغداد واشتهر فيها بطبه وبحوثه الدقيقة فى الكيمياء ، فأراد المعتضد أن ينتفع بعلمه وطبه ويقال انه اختاره لكى يعين له المكان الذى يصلح من الناحية الطبية لاقامة (البيمارستان) وهو المستشفى الذى عرف فيما بعد باسم (البيمارستان العضدى) ولذلك قصة طريفة : فحينما وقع عليه الاختيار أمر باعداد قطع من اللحم « الطازج » فى عدة أماكن من مدينة بغداد وقد لاحظ أن الفســـاد قد أسرع الى بعضها وبقيت قطع أخـرى لم يسرع اليها الفساد فاختار مكانها لبناء (البيمارســـتان) ويقول ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء : « ان عضد الدولة استشار الرازى ليختار له مكانا لبناء مستشفى يحمل اسمه فطلب الرازى ان يعلق فى كل ناحية من جانبى بغداد شقة لحم واعتبر الناحية التى لم يتغير فيها اللحم فأشار باقامة المستشفى عليه » •

ويذكر المؤرخون ان الخليفة أراد بعد ذلك ان يختار بعض الأطباء للاشراف على هذا المستشفى الكبير فوضعت له قائمة تتناول مائة طبيب كان منهم الرازى أمر باختصـــارها الى خمســـين ثم الى عشرة ثم الى ثلاثة فكان الرازى من بين المختارين فى كل مرة ولما أريد تفضيل واحد من الثلاثة كان الرازى الأول فاختاره المعتضد مديرا للبيمارستان • وتدل هذه العملية على دقة بالغة فى اختيار الأطباء الذين يتولون تطبيب الناس وعلاجهم فى مستشفيات الدولة وتدل هذه العملية أيضا على انه كان لا يتصدى لصناعة الطب الا العلماء الذين درسوا دراسة علمية ، واشتهروا بالنبوغ ويمكن ان يقال انه لم يكن يزاول الطب أحد من الادعياء •

ثم قامت الدولة السامانية فى أيام المعتضد وصار لها شـــأن كبير فى توجيه الحركة العلمية • والنهوض بها ويذكر ابن النديم أن الرازى كانت بينه وبين المنصور بن اسماعيل أحد ملوك هذه الدولة صـــداقة قوية ويروى انه ألف كتابه المنصورى فى الطب فجعل اســـم الكتـاب

منسوبا اليه ويعد هذا الكتـــاب من أشـــهر الكتب الطبية . لقد كان الجو الســـياسى فى هذه الأيام مشـــحونا بطاقة قـوية من العواصف والاضطرابات بدأت تلبد السماء وتملؤها بسحب قاتمة بعد قتل المتوكل على الله العباسى ولكن هذه الفترة بالرغم من كل ذلك لم تخل من بعض الخلفـــاء الأقوياء الذين استطاعوا ان يحتفظوا بشىء من هيبة الدولة . وأما الحركة العلمية فهى وان كانت قد فقدت المأمون الذى كان أعظم نصير لها ـ الا انها مع ذلك استمرت تسير فى طريقهـــا ذلك لأن الدول الناشئة بعد استقلال الأطراف ـ كانت فى حاجة قوية الى دعم سلطانها ـ فلم تجد وسيلة أقوى الى تحقيق هذه الغاية خيرا من تشجيع العلمـــاء ومناصرة الحركة العلمية وفى هذا الجو عاش الرازى .

حيـــاته

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فى الرى من أعمـــال فارس والرازى نسبة الى الرى وهى نسبة الى غير قياس .

ويقول البيرونى فى احدى رسائله : ان الرازى ولد فى الرى فى غرة شعبان سنة ٢٥١ هـ وتوفى بها فى الخامس من شعبان سنة ٣١٣ هجرية ، وكان منذ صغره يميل الى العلوم الأدبية ويقول الشعر مولعا بالموسيقا وكان حريصا كأهل زمانه على تربية لحيته وشاربه فأمسك يوما بلحيته وقال :« كل غناء يخرج من بيتى شارب ولحية لايستظرف »، وما لبث أن انصرف عن الغناء واشتغل بالطب والعلوم العقلية وكان على استعداد قوى فعكف على دراسة كتب الطب والفلسفة وقرأها قراءة باحث مدقق ويذكر ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء رواية لأبى سعيد زاهد العلماء يتحدث فيها عن سبب تعلم الرازى الطب فيقول : انه عند دخوله مدينة السلام دخل (البيمارستان) العضدى ليشاهده فاتفق ان ظفر الرجل برجل شيخ يعمل صيدلانيا فى البيمارستان فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها فى البدء فأجابه بأن قال :

« ان أول ما عرف منها كان) حى العالم (وبيان ذلك أن فلولن سليل (اسقلبيوس) كان بذراعه ورم يؤلمه ألما شديدا فمال يوما الى الخروج الى شاىء نهر وعندئذ أمر غلمانه فحملوه اليه ، وكان على شاطىء النهر ذلك النبات فوضع ذراعيه عليه تبردا به فخف ألمه بذلك فاستطال وضع يده عليه ثم أصبح من غد ففعل مثل ذلك فبرىء فلما رأى الناس سرعة برئه وعلموا أنه انما كان بهذا الدواء فسموه (حياة العالم) وتداولته الألسن وخففته فسمى (حى العالم) فلما سمع ذلك الرازى أعجب به ثم دخل مرة أخرى هذا (البيمارستان) فرأى صبيا مولودا بوجهين ورأس

واحد فسأل الأطباء عن سبب ذلك فأخبروه به فأعجبه ما سمع ولم يزل يسأل عن شيء وشيء ويقال له وهو يعلق بقلبه حتى تصـــــدى لتعلم الصناعة ونبغ فيها فأصبح يدعى « جالينوس العرب » .

وفي رواية أخرى ان الرازى كان في جملة من اجتمعوا على بناء هذا البيمارستان العضدى .

ويقال : ان عضد الدولة استشاره في تعيين المكان الصالح لبنائه وان الرازى أمر بعض الغلمان بأن يعلقوا في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم ثم اعتبر مكان الشقة التى لم تتغير ولم يسهك لحمهـا بسرعة بأنه صحى وأشار ببناء البيمارستان فى هذا الموضع ثم مالبث الرازى ان أصبح شديد الحب لعلم الطب والرحلة فى طلبـــه ويتحدث عن ذلك فيقول : « فأما محبتى للعلم وحرصى عليه واجتهادى فيه فمعلوم عند من صحبنى وشاهد ذلك منى انى لم أزل منذ حداثتى والى وقتى هذا مكبا عليه حتى انى متى اتفق لى كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألقه ـ لم ألتفت الى شغل (بته) ولو كان ذلك على عظيم ضرر ـ دون أن آتى الكتاب ـ وأعرف ما عند الرجل وانه بلغ من صبرى واجتهادى أنى كتبت بمثل خط التعاويذ فى عام واحد وأكثر من عشرين ألف ورقة وبقيت فى عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمل الليل والنهار حتى ضعف بصرى وحدث على فسخ فى عضل يدى ـ يمنعاننى فى وقتى هذا القراءة والكتابة وأنا على حالى لا أدعهما بمقدار جهدى فأستعين دائما بمن يقرأ ويكتب لى » .

وفى هذه العبارات ترجمة دقيقة للجهود العظيمة والطاقات الكبيرة التى كان ينفقها الرازى فى تحصيل العلم والالمام بأكبر مقدار منه فاذا أقعدت به السبل لأن آلات البدن التى تعينه على تحصيله قد تعطلت فان اليأس لا يتسرب الى نفسه الكبيرة ولايزال مستمرا فى الطب بمختلف السبل . ومن أساتذته الذين قرأ عليهم بعض كتب الطب أبو الحسن الطبرى ، كان يهوديا ثم أسلم وله كتـــاب مشـــهور فى الطب يسمى (فردوس الحكمة) ثم قـــرأ كتب الفلســـفة على البلخى واهتـــم الرازى بمدارسة الطب فقرأ جميع الكتب من يونانية وهندية وفارسية وبدأ يسلك أول الأمر مسلك قدامى الأطباء فى ممارسة هذه الصنعة ولكنه ما لبث ان انفرد بطريقته الخاصة فى مزاولة الطب يقول « سيديو » فى كتابه تاريخ العرب العام : « لا أحد يعدل الرازى وابن سينا اللذين سيطرا بكتبهما الطبية على مدارسنا زمانا طويلا » ، ويقول سارطون : « ان الرازى من أعظم أطباء القرون الوسطى » . وما كاد ينتهى من دور التحصيل والدراسة حتى رحل عن الرى قاصدا بغداد وكانت سنه تبلغ الثلاثين كما أقام بدار السلام ، ومنذ ذلك الحين بدأت شهرته تملأ الآفاق شرقا

وغربا · يقول صاحب الفهرست : « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى من أهل الرى أوحد دهره وفريد عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء سيما الطب وكان ينتقل فى البلدان وبينه وبين المنصور بن اسماعيل صداقة وله ألف كتاب « المنصورى » ، وأما ابن أبى أصيبعة فيسميه فى كتاب طبقات الأطباء (جالينوس العرب) · وأفاد الرازى من مزاولته لفنى الموسيقا والغناء فائدة كبرى فقد روى انه كان يتردد على صديق له يشتغل صيدليا بمستشفى مدينة الرى التى هى مسقط رأسه وكان من عادته حينما يجتمع بصديقه هذا ان يعاوده الحنين الى الموسيقا فكان يعزف عنده بعض الوقت داخل المستشفى بقصد التسلية والطرب ولشد ما كانت دهشته حين رأى المرضى وهم يعانون آلاما قاسية يتركون أسرتهم ويلتفون حوله يستمعون فى مرح وسرور الى أنغامه الساحرة وقد لاحظ الرازى أن بعض هؤلاء المرضى مصابون بأمراض تسبب آلاما مبرحة وبالرغم من ذلك فقد نسوا هذه الآلام وشملهم الهدوء والسكون والسرور عندما سمعوا الألحان الشجية والنغمات المطربة فأدرك باحساسه الدقيق المرهف ان الموسيقا لابد ان يكون لها أثر فى تخفيف الآلام وفى شفاء بعض الأمراض ولكنه لم يقتنع بهذه النتيجة من أول مرة وأخذ يدرس بدقة تأثير الموسيقا فى شفاء المرضى حتى انتهى بعد التجارب الكثيرة الى رأى حاسم وهو ان نغمات الموسيقا الجميلة لها تأثير قوى فى شفاء بعض الأمراض ·

ومنذ ذلك الحين أصبح يعتمد عليها بوصفها أسلوبا من أساليب العلاج الطبى وصارت الموسيقا لونا من ألوان العلاج التى يؤمن بها الطب الحديث فى عصرنا · وقد وصل الرازى وهو يعالج المرضى بنغمات الموسيقا الساحرة وألحانها العذبة ان بعضهم لم يتم شفاؤه الا بعمليات جراحية فبدأ يدرس علوم الجراحة وتشريح الأجسام واستعان بأستاذه الطبرى وأثناء دراسته للطب الجراحى إتضح له ان قدامى الأطباء قد بنوا آراءهم على نظريات خاطئة ومن العجيب انه كشف عن كثير من هذه الآراء فى كتب (جالينوس) وبالرغم مما له من شهرة عظيمة وبالرغم من انتشار كتبه التى كانت تعد من أعظم المراجع فى علوم الطب وكان الشك لايمكن ان يتسرب اليها · ومن المعروف عن الرازى أنه لم يكن يسلم بآراء غيره الا بعد ان يمتحن هذه الآراء ويختبرها ويضعها موضع التجربة ثم يحكم عليها ولهذا السبب خطأ كثيرا من الآراء · ولما عين مديرا (للبيمارستان العضدى) تجاوزت شهرته البلاد القاصية والدانية فكان المرضى يأتون اليه من الهند والسند والصين وبلاد الافرنج يلتمسون عنده الشفاء من مرضهم لما ترامى اليهم من أخباره التى تتحدث عن دقته فى دراسة المرضى وأحوالهم وسير المرض والعلاقة بين الحالة النفسية والمرض كذلك عرف بأمانته العلمية : فعندما وضع كتابه عن الحصبة والجدرى لم ينس أن ينصف

فى هذا الكتاب الطبيب اليونانى (جالينوس) فقـــال : « لو زعم أحد الأطباء أن جالينوس العظيم لم ينوه فى كتاباته عن الجدرى ـ فان ذلك اما ان يرجع الى ان الطبيب لم يقرأ كتابات جالينوس اطلاقا ، واما أنه قرأها قراءة سطحية » • وفى هذه العبارة دليل على ما اتصف به الطبيب العربى الكبير من حب الانصاف والتقدير لمن سبقه من الأطباء وهذا الروح العلمى السامى المتميز بالانصاف والاعتراف بالفضل لكل من أسهم فى خدمة العلم بنصيب يختلف تماما عما اتصف به بعض علماء أوربا من الذين دأبوا على انكار فضل العرب على العلوم الطبية وغيرها من العلوم التى بنيت عليها الحضارة الانسانية ونحن نشير الى بعضهم فقط لأن هنـــاك عددا كبيرا من المنصفين الذين اعترفوا بفضل العرب العظيم على التراث الانسانى الخالد فهذه جامعة « برنستون » بالولايات المتحدة الأمريكية تقدم دليلا ساطعا على تقديرها الممزوج بالاحترام لطبيب العرب العظيم (أبو بكر الرازى) معترفة بما له وبما للحضارة الاسلامية بصفة عامة من فضل كبير على الثقافة الانسانية لذلك خصصت جانبا فخما من أبنيتها الرائعة لتسجيل مآثر هذا الطبيب الخالد وأنشأت الى جانب ذلك معهدا خاصا لدراسة العلوم والمخطوطات العربية • ولا ريب أن كل ما فى هذا العمل الجليل اعتراف بأمجاد العرب الخالدة فى النواحى الانسانية •

منزلته فى الطب

كان للرازى منزلة رفيعة فى الطب وأطلق عليه (أبو الطب العربى) ، كما كان يدعى (جالينوس العرب) لأنه ابتكر فى الطب أشياء لم يسبق اليها من ذلك أنه استخدم الموسيقا لونا من ألوان العلاج لبعض الأمراض ، كذلك كان من أول الذين عرفوا أثر الضوء فى حدقة العين وانه يساعد على اتساعها ليلا وانكماشها نهارا وقد استغل هذا الكشف فيما قام به من بحوث عصبية وفى مداواة أمراض الحصبة وكان صاحب الفضل على طب الأطفال اذ جعله فرعا من الطب قائما بذاته وكتب فيه كتابة مستقلة وكان يسلك فى علاج المرضى مسلكا علميا يشهد له بالنبوغ والعبقرية فلم يكن يسمح لمرضاه بتناول العقاقير الطبية ـ الا بعد قيامه بتجربتها على الحيوان • ومما يروى عنه أنه عندما أراد أن يقدم مركبات الزئبق كملين لبعض المرضى جرب الدواء الذى أعده على قرد ، فلما أثبتت التجربة نجـــاح الدواء بدأ يعطيه للمرضى • وكان نبوغه فى علوم الكيميـــاء من الأسباب التى عاونته على اعداد الأدوية بنفسه فكان يعمل طبيبا وصيدليا فى وقت واحد ومن أجل ذلك نراه يفسر شفاء المريض بأنه نتيجة تفاعل كيميائى يحدثه الدواء فى جسم المريض • وهو أول من استخدم مركبات الرصاص فى صنع المراهم وأول من توصـــل الى اســـتخدام الخيوط

المصنوعة من أمعاء الحيوانات فى خياطة الجروح المفتوحة بعد انتهاء العمليات الجراحية ويبين الرازى السر فى ذلك فيقول : ان الخيوط المصنوعة من الأمعاء يمتصها الجسم فتصير جزءا منه » • وهو أول من قام بمعالجة الحمى بالماء البارد فسبق بذلك أطباء العصر الحديث ، اذ لايزال الماء البارد الى اليوم علاجا نافعا لبعض أنواع الحميات والى ذلك كله كان من أوائل الأطباء الذين تنبهوا الى العدوى الوراثية وأول من وصفوا بدقة ووضوح أمراض الجدرى والحصبة وميزوا بينها ويقول البروفسور « بوشنو » الفرنسى : « لقد وصف الرازى ضربا من الجدرى تظهر بثوره على سطح الجسم بيضاء متلاصقة كأنها بقعة من الدهن » وقال : « ان آخرتها محزنة ، وانى والحق يقال لم أجد أجود من وصفه لها ولا أصدق مما قال وهو أول من كتب فى أمراض الأطفال وفى واجبات الطبيب » •

وقد نبغ الفحص الطبى نبوغا منقطع النظير فى زمانه فكان فى الصف الأول من أطباء العرب بل من أطباء العالم فى عصره الذين يمتازون بدقة الملاحظة السريرية وهى التى تقوم على دراسة سير المرض وتتبع حالة المريض • وسجل المستشرق (مايرهوف) للرازى ما يقرب من ثلاث وثلاثين ملاحظة سريرية وله فضلا عن ذلك ابتكارات طبية أخرى تعد من أسس المعالجة الحديثة فى الأمراض التناسلية والولادة وجراحة العيون • وقد أشرنا من قبل الى براعته فى تشخيص الأمراض وقد سجل فى كتبه كثيرا من ذلك فمما قاله فى تشخيص بعض الحميات وكانت قد أصابت أحد مرضاه ويدعى عبد الله بن سوادة :

أصيب عبد الله بن سوادة بأنواع مختلفة من الحميات كانت تأتيه كل ستة أيام مرة تغيب يوما ومرة تأتى كل يومين ومرة كل أربعة أيام ومرة كل أسبوع ويتقدمها شىء من الرعدة القليلة وكان يبول مرات كثيرة ، حكمت أنه لايخلو ، اما أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب ربعا أى تأتى كل أربعة أيام واما ان يكون به خراج فى كلاه فلم يلبث الا مديدة أى وقتا قليلا حتى بال قيحا وصديدا ثم أعلمته انه لاتعاوده هذه الحميات وكان كذلك وانما صرفنى فى أول الأمر عن قولى بأن به خراجا فى كلاه — انه كان مصابا بالحمى قبل ذلك وكانت تأتيه فى يوم وتغيب عنه يوما كما كان مصابا بحميات أخر فكان للظن بأن تلك الحميات المخلطة من انحرافات تريد ان تصير ربعا موضع أقوى — ولم يشك الى ان قطنه يكون شبه ثقل معلق منه اذا قام ، وأغفلت أنا أيضا ان اسأله عنه وقد كانت كثرة البول تقوى ظنى بالخراج فى الكلى الا اننى لا أعلم ان أباه أيضا ضعيف المثانة يعتريه هذا الداء ولما بال المدة أكببت عليه بما يدر البول حتى صفا البول من المدة ثم أسقيته الطين المختوم بعد ذلك

والكندر ودم الأخوين وتخلص من علته شفاء تاما سريعا فى نحو شهرين وكان الخراج صغيرا دلنى عليه انه لم يشك الى ابتداء ثقلا فى قطنه لكن بعد ان بال المدة قلت هل كنت تجد ذلك ؟ قال نعم فلو كان كبيرا لقد كان يشكو الى ذلك أى يشكو اليه الألم وان المدة التى (ترشح) سريعا تدل على صغر الخراج فأما غيرى من الأطباء فانهم كانوا حتى بعد ان بال (المدة) أيضا لا يعلمون حالتهم (البتة) .

ويدل هذا الوصف الدقيق على أن الرازى كان نابغة فى الفحص الطبى وتشخيص الأمراض وملاحظات سيرها فى أجسام المرضى وانه كان يفحص العليل الذى يعرض عليك بكل دقة وبالوسائل التى وصل اليها والتى لاتقل فى دقتها عما هو معروف اليوم وفى هذا التشخيص اشارة لاتخلو من معنى دقيق فقد أشار الرازى ان الأمراض قد تورث وهذا أمر مسلم فى الطب الحديث . ويتنبه الرازى الى أثر العامل النفسى فى صحة المريض فيقول : « ان مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » . ولذلك كان يرى من الواجب على طبيب الجسم ان يكون أولا طبيبا للروح وقد جاء فى كتبه . على الطبيب ان يوهم مريضه بالصحة ويرجيه بها وان لم يثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس . وقد كان ذلك مما حمله على وضع قانون للطب الروحانى الذى هو ضرب من التدبير للنفس ويحتل العلاج النفسى اليوم منزلة كبيرة بجانب العلاج بالعقاقير الطبية ومن أطباء العرب الذين برعوا فى العلاج بطريق التحليل النفسى ابن سينا .

مؤلفـــاته

ترك الرازى مؤلفات كثيرة فى الطب تمتاز بقيمتها العلمية الكبيرة وهى تعد جزءا عظيم الشأن من التراث العربى الخالد فى الطب والكيمياء . وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة منها ومن هذه الكتب كتاب الشكوك على (جالينوس) وكتاب فى أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان وكتاب الفالج وكتاب هيئة العين وكتاب هيئة الغلب وكتاب كيفية الاغتذاء وكتاب خواص الأشياء وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجها وكتاب دفع مضار الأغذية وكتاب مايعرض فى صناعة الطب . ومن كتبه التى نالت شهرة عظيمة كتابه « المنصورى » ويتناول فيه وصفا دقيقا لتشريح أعضاء الجسم كلها كما يضمنه بحوثا على جانب كبير من الأهمية الطبية فى بيان قوى الأغذية والأدوية ومواد الزينة والتقطير وطائفة كبيرة من الارشادات الصحية الطبية العملية التى كشفت عنها تجاربه والكتاب مؤلف من أقسام عشرة وهذه الأقسام هى :

١ ـ المقالة الأولى فى المدخل الى الطب وفى شكل الأعضاء وخلقها ٠

٢ ـ المقالة الثانية فى تعرف مزاج الأبدان وهيئتها والاخلاط الغالبة عليها واستدلالات وجيزة جامعة من الفراسة ٠

٣ ـ المقالة الثالثة فى قوى الأغذية والأدوية ٠

٤ ـ المقالة الرابعة فى حفظ الصحة ٠

٥ ـ المقالة الخامسة فى الزينة ٠

٦ ـ المقالة السادسة فى تدبير المسافرين ٠

٧ ـ المقالة السابعة وتتناول جملا وجوامع فى صناعة الجبر والجراحات والقـروح ٠

٨ ـ المقالة الثامنة في السموم والهوام ٠

٩ ـ المقالة التاسعة فى الأمراض الحادثة من القرن الى القدم ٠

١٠ـ المقالة العاشرة فى الحميات وما يتبع ذلك مما يحتاج الى معرفته فى تحديد علاجهـــا ٠

وقد سماه المنصورى باسم المنصور بن أحمد السامانى وترجمه الى اللاتينية (جيراد الكريمونى) كما طبع مرارا فى ميلانو والبندقية وليون وبادو اذ كان مع قانون ابن سينا من أعظم المراجع التى يعتمد عليها فى تدريس الطب بالمدارس الطبية الأوربية الى القرن السابع عشر ٠ وأما رسالته فى الجدرى والحصبة فتعد بحق بلا منازع زينة الآداب الطبية العربية وتتجلى فى هذه الرســـالة عبقرية الرازى بوصفه طبيبا مختبرا مدققا مجردا من الأوهام والاعتقادات الزائفة كما يبدو فى هذه الرسالة تلميذا نبيها اقتفى خطوات أستاذه (أبوقراط) ولكنه فاقه وبزه فى كثـير من النواحى ٠ ويتحدث الرازى عن أسباب نشأة الجدرى فيقول : انه ينشأ بسبب فوران الدم ويشبه ذلك بفوران الخمر أثناء تخمرها وقد أثبت العلم الحديث أن كلا من التخمر والمرض العفن ينشأ بسبب ميكروب خاص وهذا التشبيه الدقيق يدل على أصالة فى الرأى ودقة فى الفهم والتجربة ٠

وكان كلام الرازى فى نشأة مرض الجدرى نقطة انطلاق للبحوث المستمرة التى أدت الى كشف الميكروب فيما بعد ، ولو أن الرازى عرف « المجهر » فى زمانه لكان بلا شك صاحب الفضـــــل الأول فى كشف الميكروب ولعرف (الميكروب) باســـمه ونسب اليه بدلا من نسبته الى (باستور) ٠ ويتميز طبيبنا العربى الكبير بقدرته العجيبة على ملاحظة أعراض الأمراض ووصفها وصفا دقيقا فيقول فى وصف أعراض الجدرى :

ويسبق ظهور الجدرى حمى مستمرة تحدث ووجع فى الظهر وأكلان فى الأنف وقشعريرة أثناء النوم والأعراض المهمة الدالة عليه هى : وجع الظهر مع حمى وألم لاذع فى الجسم واحتقان فى الوجه وتقبضه أحيانا وحمرة حادة فى الخدين والعينين وشعور بضغط فى الجسم ويزحف فى اللحم وألم فى الحلق والصدر مصحوب بصعوبة فى التنفس وسعال وجفاف فى الفم وغلظ فى الريق وبحة فى الصوت وصداع فى الرأس وضغط فى الدماغ وهيجان وقلق وغثيان وقلة راحة ولكن التهيج والقلق والغثيان أظهر فى الحصبة منها فى الجدرى ، فى حين أن وجع الظهر أشد فى الجدرى منه فى الحصبة ٠

ويقول الدكتور « سارطون » : « ان رسالة الرازى فى الحصبة والجدرى تتناول أقدم وصف سريرى للجدرى وهى احدى روائع الطب الاسلامى » ٠

وللرازى كتاب آخر فى صفات (البيمارستان) وأحوال المرضى الذين يعالجون فيه ويقول عبيد الله بن جبرائيل : « انه لما عمر عضد الدولة (البيمارستان) الجديد الذى على طرف الجسر من الجانب الغربى من بغداد وكان الأطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع وهم أربعة وعشرون طبيبا كان يجرى لهم الرواتب الكبيرة ومن جملتهم أبو الحسن على ابن ابراهيم وأبو يعقوب الاهوازى وأبو عيسى بقية والقس الروحى وبنو حسنون ٠ وكان مع هؤلاء الأفاضل الثقات بعض المجبرين المشار اليهم ومنهم أبو السلط وبعض الجراحين ومنهم أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح ويقال : ان الرازى كان متوليا العمل فى (بيمارستان الرى) ثم نقل الى البيمارستان العضدى فأظهر عطفه الشديد على المرضى وكان يقضى وقته كله فى العمل على اراحتهم وبذل كل ما فى طاقته من مهارة طبية فى سبيل تطبيبهم وعلاجهم » ٠ ويقول محمد بن اسحق النديم فى رواية لمحمد ابن الحسن الوراق : « قال لى رجل من أهل الرى وكان شيخا كبيرا سألته عن الرازى : كان شيخا كبير الرأس مسفطه وكان يجلس فى مجلسه دونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون فيصف ما يجده الأول من يلقاه فان كان عندهم والا تعداهم الى غيرهم فان أصابوا والا تكلم الرازى فى ذلك » ٠

« وكان الرازى كريما متفضلا بارا بالناس حسن الرأفة بالفقراء حتى كان يجرى عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ولم يفارق القراءة والنسخ وما دخلت عليه قط الا رأيته ينسخ ما يسود أو يبيض وكان فى نظره رطوبة لكثرة أكله (الباقلاء) « وكف بصره فى آخر عمره » ويفهم من هذه الرواية ان الرازى كان حريصا كل الحرص على الاتصال بتلاميذه

والاجتماع بهم والتحدث اليهم فى شئون صناعة الطب وفى أثناء ذلك كان يمدهم بالمعلومات ويزودهم بالتجارب وانه فضلا عن ذلك كان انسانا كريما نبيلا يتصدق على الفقراء ويشركهم فى ماله وينفعهم بخبرته فى الطب فيطببهم بالمجان وهو بذلك يضرب مثلا عاليا لكل من يريدون ممارسة هذه الصنعة ومن يمارسونها بالفعل ويعدون أنفسهم لتخفيف آلام المرضى وبخاصة هؤلاء الذين اشتهروا بالحذق والمهارة . كذلك كان الرازى قارئا لايمل القراءة شديد العناية بتسجيل آرائه وتجاربه اذ كان وقته موزعا على افادة تلاميذه والعناية بالمرضى والقراءة والاطلاع والكتابة والبحث فى غوامض صناعة الطب والكشف عن الجديد فى أصول المعالجات .

ومن كتبه أيضا كتاب « منافع الأغذية » وهو يعطينا فكرة واضحة عن اتجاه أطباء العرب فى أساليب العلاج فقد كان هؤلاء الأطباء لايهتمون بعلاج المرضى فحسب ولكنهم كانوا مع ذلك يبذلون عناية خاصة بتدبير الوسائل التى تساعد على حفظ الصحة عملا بالحكمة القائلة : « درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

ومما يروى فى ذلك أن الخلفاء كانوا يستمعون الى نصح أطبائهم وينفذون فى دقة ما يشيرون به عليهم ويمنعونهم تناول بعض الأغذية ويوضحون لهم ما تسببه من فساد لآلات البدن وفى هذا دليل على أنهم مهروا فى دراسة مختلف أنواع الأغذية من حيث نفعها ودفع مضارها فقد درسوا خواص المأكولات والمشروبات وبتتبع أحوال المرضى كانوا يعرفون ما يضرهم من الأغذية وما يناسبهم منها وكانوا فى الوقت نفسه ينصحون الأصحاء بالابتعاد عن تناول بعض المأكولات أو التخفيف منها لأنها تجلب للجسم المفاسد وكتاب الرازى مثال لذلك . ويتحدث عنه الدكتور الأب (ج) شحاته قنوانى فيقول : « انه يتكون من تسعة عشر فصلا فيتحدث الرازى فى الفصل الأول عن السبب فى تأليف كتابه وفى الفصل الثانى يتحدث عن منافع الحنطة « القمح » والخبز الذى يؤخذ منها مضاره وما يتخذ من الوسائل لدفع هذه المضار ثم يتكلم عن أصناف الخبز ويبين ما يناسب منها فى حال من الأحوال وما لايناسب . وفى الفصل الثالث يبين منافع الماء الذى يشرب وأصناف الثلج والجمد والماء البارد والحار وفى الفصل الرابع يتحدث عن منافع الشراب المسكر ومضاره وفى الفصل الخامس يتكلم عن الأشربة غير المسكرة وفى الفصل السادس يتكلم عن اللحوم ومنافعها ومضارها وفى الفصل السابع يتحدث عن القديد وهو اللحم المجفف بالملح وفى الفصل الثامن يتحدث عن السمك ومنافعه ومضاره وفى الفصل التاسع يتكلم عن أعضاء الحيوان واختلافها وطبائعها ومنافعها

ومضارها وفى الفصل العاشر يتكلم عن ألوان الطبيخ والبوارد ومنافعها وفى الفصـــل الحادى عشر يتكلم عن الكوامخ والجبن العتيق والقنبيط والزيتون والمخللات وفى الفصل الثانى عشر يتحدث عن اللبن وما يتخذ منه وما يجرى مجراه وفى الفصول الباقية يتكلم عن البيض والبقول التى تؤكل نيئة أو مطبوخة والتوابل والأبازير التى تســـتعمل مع الطبيخ ثم يتكلم عن الفواكه الرطبة واليابسة والحلواء وغيرها ٠

وكذلك من كتب الرازى كتاب فى الأمراض التى تصيب جســـم الانسان وكيف تعالج مختلف الأدوية وأنواع الأغذية ٠

وقد أحدث هذا الكتاب ثورة فى عالم الطب فى العصور الوسطى وكتاب آخر طريف فى موضوعه وهو كتاب (من لايحضره الطبيب) وقد وضعه ليؤدى به خدمة كبرى للفقراء الذين لايستطيعون احضار الطبيب للفحص عن مرضهم والقيام بمعالجتهم لذلك أطلق على هذا الكتاب « كتاب طب الفقراء » وفيه يشرح كيفية معالجة المرضى فى العمل الجليل العلاج لكل انسان ولا شك أن هذا الصنيع يدل على الجانب الانسانى العظيم الذى عرف به هذا الطبيب العربى الكبير ٠

بعض آرائه فى الطب

وللرازى آراء طبية عظيمة القيمة فى هذه الصناعة وهى مبعثرة فى كتبه غير انها فى جملتها تكون دستورا طبيـــا يعترف به الطب الحديث اليوم وما يزال ينتفع بتطبيق الكثير مما تضمنه ذلك الدستور الطبى ومما ورد فيه من آراء قوله : « اذا كان الطبيب عالمـــا والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة » وغير شك ان هذا الرأى يترجم عن نظرية طبية ستظل صادقة الى ما شاء الله وقوله : « ما اجتمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك » ٠ وقوله على طالب الصناعة « يقصـــد صناعة الطب » أن يزور على الدوام البيمارستانات ، ودور العلاج وأن يوجه انتباها لا يفتر الى أحوال من فيها وظروفهم وهو فى صحبة أعظم أساتذة الطب ذكاء وان يكثر من الاستفسار عن حالة المرضى والأعراض الظاهرة عليهم ذاكرا ما قرأه عن تلك التغيرات وعما تدل عليه من خير أو شر فان هو فعل ذلك — بلغ مرتبة عالية فى هذه الصـــناعة وقوله : « اذا استطعت ان تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب » وقوله : « الحقيقة فى الطب غاية لاتدرك والعلاج بما تصفه الكتب دون اعمال الماهر الحكيم برأيه خطر » فقوله : « ان الحقيقة فى الطب غاية لاتدرك » دليل على ايمانه القوى بتطور صناعة الطب وفى قوله : « ذاكرا ما قرأه عن تلك التغيرات » حث على الاتصال بكتب الصناعة ومداومة الاطلاع وبذلك يبلغ

الطبيب منزلة عظيمة ثم يقول : « ان العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات فى الأمراض فعليك بالأشهر مما أجمع عليه ودع الشـــاذ » ، وقوله : « متى اجتمع جالينوس وأرســـطوطاليس على معنى فذلك هو الصواب ومتى اختلفا صعب على العقول صـــوابه جدا » وقوله : « ومن لم يعن بالأمور الطبيعية والعـــلوم الفلسفية والقوانين المنطقية وعدل الى اللذات الدنيـوية فاتهمه فى علمه ولاسيما فى صناعة الطب » وقال : « الأمراض الحارة أقتل من الباردة لسرعة حركة النار » وقال : « الناقهون من المرض اذا اشتهوا من الطعام ما يضرهم فيجب على الطبيب أن يحتال فى تدبير ذلك الطعام وصرفه الى كيفية موافقتهـم ولا يمنعهـــم ما يشتهون (البتة) » ، وقال : « الأطباء الاميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايتهم وكثرت شـــهواتهم قتالون » وقال : « ينبغى للطبيب ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من الداخل ومن الخارج ثم يقضى بالأقوى وينبغى للمريض ان يقتصر على طبيب واحد ممن يوثق بهم فخطؤه فى جنب صوابه يسير جدا ، ومن تطبب عند كثير من الأطباء يشك فى خطأ كل واحد منهم » وقال : « متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل ، وينبغى ان تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلا على الدنيا (كلية) ولا معرضا عن الآخرة (كلية) فيكون بين الرغبة والرهبة » .

ومما يدل على عبقريته الطبية اشارته الى اختلاف خطوط عـروض البلدان وأثر ذلك فى العلاج ومزاج الجسم فقال بانتقال الكواكب الثابتة فى الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات وباختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية حتى يكون ما فى الدرجة الثانية من الأدوية فى الرابعة وما فى الرابعة فى الثانية . وقال : « اذا اســـتطاع الحكيم ان يداوى بالأغذية دون الأدوية فقـــد وافق السعادة » .

تلك بعض أقواله فى أصول صناعة الطب وهى دالة بلا ريب على عقلية فذة فى هذه الصناعة فقد تناولت دستورا طبيا عمليا يستطيع ان ينتفع به كل من الطبيب والمريض فى عصرنا وحبذا لو اقتدت جامعاتنا الطبية العربية بجامعة (برنستون) الأمريكية فعملت على اعداد أركان خاصة لدراسة الطب العربى واحياء ذكرى هؤلاء الأعلام من أطباء العرب ، وأن تبعث تراث هؤلاء العلماء وأن تقرر فصولا كثيرة من كتابى الحاوى للرازى والقانون لابن سينا لكى تدرس فى الجامعات العربية الطبية .

ولم يكن نبوغ الرازى مقصورا على الطب وحده فقد أضاف اليه نبوغه فى الكيمياء وعلم اعداد الأدوية (الاقرباذين) والصـــلة قوية بين علوم

الطب والكيمياء . واســـتطاع الرازى أن ينتفع فى الطب بمعلوماته فى الكيمياء فكان أول من استعمل الملينات واستخدم المركبات الكيماوية فى الطب كما مهر فى التشريح بدرجة عظيمة واستطاع بذلك أن يميز أعضاء الجسم بعضها من بعض ومما يذكر أنه حينما فقد بصره فى أيامه الأخيرة لم يرض بأن يقوم له أى طبيب بعملية قدح فى عينيه الا بعد امتحانه فى عدد أغشية العين ويقول : « هانزشيدر » فى كتابه روح الحضارة الغربية : « عرف المترجمون اللاتينيون الرازى ويعد بحق أكبر طبيب بين المسلمين وهو فى الطب تلميذ « جالينوس » ولكنه فى الوقت نفســـه ذو اتجاه تجريبى دقيق فقد كان يعنى مستعينا بمركزه مديرا لبيمارستان بغداد ــ بالملاحظات (الاكلينكية) ويصف تجارب صيدلية دواء للمرضى ولكنه يحاول فى الوقت نفسه أن يعالج الأمراض بوصفات صحية وقائية ونظم للتغذية » .

ذلك طبيب من أطباء العرب يعترف بفضله الغربيون وقد كانـــوا أحرص على انكار فضله منهم الى الاعتراف بهذا الفضل لولا عظمة الطبيب ولولا بقية من الأمانة العلمية فهل بعد ذلك يمكن ان يتسرب الشك الينا فنفقد الثقة بأنفسنا .. ؟!

الحـــاوى فى الطب

كتاب ألفه أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فيه الأمراض الكائنة فى جسم الانسان ومعالجتها وسماه الحاوى لأنه يحتوى على جميع الكتب وأقاويل القدماء الفضلاء من أهل هذه الصناعة وقد بدأ بذكر ذلك من رأس الانسان وما ينزل به من الأمراض ٠

والكتاب مطبوع طبعته الأولى عن نسخة اســكوريال (رقم ٨٠٦) ورمزها (ألف) وقد طبع طبعته الأولى هذه بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ، الهند سنة ١٩٥٥ م ٠

ويقع الكتاب فى اثنى عشر جزءا يقع الجزء الأول فى نحو ثلثمائة صفحة ويختص بأمراض الرأس وقد قسمه الى عشرة أبواب يبحث الباب الأول فى السكتة والفالج والخدر والرعشـــة وعسر الحس وبطـلانه والاختلاجات وعلاج الرأس والمانخوليا ، كما يتحدث فى الباب الثانى عن الرعشة المبتدية والكائنة بعقب الأمراض وأوجاع العصب واسترخائه،وفى الباب الثالث يتحدث عن المانخوليا والأغذية الدوائية والمضادة لها وفى الرابع عن قوى الدماغ وفى الخامس عما ينفى الرأس بالعطوس والسعوط والشموم وفى السادس تحدث عن القوة وانخلاع الفك واشتباكه كما تحدث فى السابع عن الصرع والكابوس وأم الصبيان والتفزع من النوم وخص الباب الثامن بالتشنج والتمدد والكزاز وتعقد العصب والمفاصل كما عالج فى بقية أبواب الكتاب عددا من أمراض الرأس ٠

وقد قسم كل باب الى عدد من المقالات فتكلم فى المقالة الأولى عن الأعضاء الآلية وقال :« ينبغى ان تكون عالما بالعصب الذى يأتى الى كل واحد من الأعضاء وما منها عصب الحس وما منها عصب الحركة فالعصب الذى ينبعث فى الجلد يحس والذى يكون منه الوتر يحركه وفعـــل العصب يبطله اما بتره البتة فى العرض أو رضه أو سده أو لورم يحدث فيه أو لبرد شديد يصيبه الا ان الورم والسدة والبرد قد يمكن أن يرجـــع فعله اذا ارتفعت علله وان حدث فى نصف العصب عرضا قطع استرخت الأعضاء التى فى تلك الناحية وان شق العصب بالطـول لم ينل الأعضـــاء ضرر البتة فاقصد أبدا عنه بطلان حس عضو أو حركة الى أصل العصب الجائى

اليها فان كان قد برد فلا تضمده وان كان قد ورم فاجعل عليه المحللة وان كا قد قطع فلا حيلة فيه » . وهو يستشهد بأقوال جالينوس وأبقراط وحنين وشمعون وسرابون وغيرهم ولاشك انه مارس التشريح فيقول :« رجل سقط عن دابته فذهب حس الخنصر والبنصر ونصف الوسطى من يديه فلما علمت انه سقط على آخر فقار فى الرقبة علمت أن مخرج العصب الذى بعده الفقارة السابعة أصابها فى أوب مخرجها لأنى كنت أعلم من التشريح ان الجزء الأسفل من أجزاء العصبة الأخيرة النابت من العنق يصير الى الأصبعين والخنصر والبنصر ويتفرق فى الجلد المحيط بهما وفى النصف من جلد الوسطى » .

وقد تناول الرازى فى الجزء الثانى من كتابه طب العيون وفى الجزء الثالث طب الأنف والأذن والأســـنان وهكذا خص الرازى كل جزء من أجزاء كتابه « الحاوى » العشرة بطب عضو أو أكثر من أعضاء الانسان .

وهو يذكر ما يسميه علامات كل حالة ويصف لها ما يراه من ألوان العلاج ويستشهد بأمثلة كثيرة أو حالات عرضت له .

★★★

ويقول ابن النديم : « ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب وينقسم الى اثنى عشر قسما فالأول فى علاج المرضى والأمراض والثانى فى حفظ الصحة والثالث فى الرئيـــة والجبر والرابع فى قوى الأغذية والأدوية وجميع ما يحتاج اليه من مواد فى الطب والخامس فى الأدوية المركبة والسادس فى صنعة الطب والسابع فى صيدلية الطب والأدوية وألوانها وطعومها ورائحتها والثامن فى الأبدان والتاسع فى الأوزان والمكاييل ، والعاشر فى التشريح ومنافع الأعضاء والحادى عشر فى الأسباب الطبيعية من صناعة الطب والثانى عشر فى المدخل الى صناعة الطب وهو مقالتان : الأولى فى الأسماء الطبية والثانية فى أوائل الطب فالكتاب كما يبدو من أقسامه الكثيرة ســـجل دقيق حافل تنـــاول فيه الحديث عن كثير من المعلومات الطبية المعروفة فى عصره » .

ويمكن أن يقال : ان الرازى فى هذا الكتاب اهتم بشبيئين رئيسيين فى صناعة الطب فهو يتناول الدرس العميق موضوع علم الأدوية (الاقرباذين) . كما يتناول موضوع الملاحظات السريرية وهى التى تتعلق بدراسة ســـير المرض ووصف العلاج الذى استعمل لكل حالة من حالات ســـير المرض وتطور حالة المريض وما أســـفر عنه العـــلاج من نتائج ويقال : ان المنية عاجلته قبل أن يتمه .

وكان ابن العميد يتتبع آثار الرازى فوصل الى علمه ان هذا الكتاب فى حوزة أخت الرازى فاشتراه منها بمبلغ كبير من المال ثم اتصل بتلاميذ الرازى فى بغداد والرى وطلب اليهم حرصا على حفظ آثار أستاذهم وصيانة لها من التفرق والضياع — ان يقوموا بترتيب كتاب الحاوى وان يضموا اليه ما نقص منه ومما سمعوه من أستاذهم فاستجابوا الى طلبه وقاموا بما عهد اليهم وتقول بعض الروايات : ان تلاميذ الرازى جمعوا بعد وفاته ملاحظاته الطبية وأودعوها دائرة معارف طبية واسعة قسموها اثنى عشر قسما أطلقوا عليه اسم كتاب (الحاوى) وقد فاقت شهرة هذا الكتاب غيره من الكتب الطبية ولقيمته العظيمة اختصره كثير من الأطباء ومنهم على بن داود فى سنة ٥٣٠ هـ وترجم الى اللاتينية فى سنة ١٤٨٦ م ثم طبع بعد ذلك بالبندقية فى سنة ١٥٤٢ م ومن هذه الترجمة الأخيرة نسخة فى مكتبة جامعة (كامبردج) وبعض نسخ فى مكتبة جامعة (ليبك) ٠ ويقول الأستاذ : (براون) : « اننى متأكد نظرا لما اتصل بى أنه لا يكاد يوجد نصف هذا الأثر العظيم » ويشايعه فى ذلك عدد من العلماء واذا صح القول فمعنى هذا أن كتاب الحاوى لايوجد كاملا وانه لابد ان تكون قد ضاعت منه أجزاء مهمة بسبب الاهمال من ناحية ولما أصاب الدول الاسلامية من أعاصير حروب التتار تلك الحرب التى كانت سببا فى اتلاف مجلدات لا حصر لها من التراث العربى الاسلامى من ناحية ٠ ويكاد يجمع المؤرخون على ان التتار قد أخرجوا أكثر ما فى خزائن بغداد من الكتب والقوا بها فى نهر دجلة كى تعبر فوقها جنودهم ولاتزال أكثر مجلدات هذا الكتاب مبعثرة فى مكتبات أوربا غير انه فى دار الكتب بالقاهرة نسخة مخطوطة تقع فى أربعة أجزاء وقد كانت ملكا للحاج ابراهيم فان العلاخة المتبادلة بين الآتى والمنقضى تتعانق فى الحاضر ، بل ان الثلاثة (باشا) والى جدة والشيء الذى يدعو الى مزيد من الأسف ان هذا الأثر الطبى النفيس لم يجد من علماء العرب وأطبائهم اهتماما جديا بالقيام ببحث دقيق عنه وتحقيق الأجزاء المبعثرة منه فى مختلف المكتبات فى الشرق والغرب تمهيدا لطبعه واخراجه ومن المؤكد ان الأوربيين كانوا يجلون هذا الكتاب فى العصور الوسطى ويعدونه أعظم مرجع فى الطب والدليل على ذلك تلك القصة الطريفة التى تقول : ان جامعة باريس الطبية فى القرن الرابع عشر وقع ببعض أبنيتها خلل وأراد مجلس ادارة الجامعة أن يقوم باصلاح هذه المبانى ولكن المال كان يعوزه فاضطر أعضاء المجلس الى طلب معونة مالية من أحد رجال المال المعروفين ولما كانت طريقة الاقتراض تستدعى تقديم ضمان للمبلغ المطلوب تحير أعضاء مجلس ادارة الجامعة اذ لم يكن عندهم ذلك الضمان الا الكتب ، وعندئذ اشترط صاحب المال كتاب (الحاوى) للرازى ضمانا لماله وغير شك ان هذه الرواية تترجم فى وضوح عما كان لكتاب الحاوى من منزلة علمية عند الأوربيين

ومن أجل ذلك عده رجال المال فى تلك العصور رصيدا عظيم القدر تعادل قيمته مقدارا كبيرا من الذهب ٠

ويتحدث الرازى فى المجلد الرابع من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٧٦٧٦ طب عن أمراض المثانة ومجارى البول وأمراض النســـاء والولادة بما يثبت حذقة ومهارته فى تشخيص هذه الأمراض ووصف الدواء وأنواع العلاجات المفيدة التى تؤدى الى البرء والشفاء ٠

فيقول فى الصلابة الحادثة فى الكلى : « ان حدث فى الكلى ورم صلب مستحجر لم يحدث معه وجع بل يحس العليل بأن شيئا ثقيلا معلقا فى كليته ويكون هذا الثقل فى القطن ويتبعه ضعف الساق وخدر فى الورك فيكون البول مائيا قليلا لأنه يكون صافيا ويحدث لذلك ترهل فى البدن وفساد مزاج لذلك يجب ان يعالج بالأدوية التى شأنها ان تلين الصلابات وتفشى الورم نحو الادهـــان وبالتدليك والتمريخ الرطب والحقن الملينة ثم يسقى المريض الأدوية المسكنة التى تدر البول ادرارا سهلا » ٠

ويقول فى القروح الحادثة فى أجهزة البول : « اذا كان فى هذه الأجهزة قروح حدث بول لمدة أياما كثيرة مع عسر البـــول ويعرف أثـر القرحة مما يبرز مع البول فان كانت القرحة فوق الكبد ونواحيه ــ كان البول مضروبا مع المدة ولم يدم أياما كثيرة وان كان بالبول قطع لحم فانه من الكلى وان كان فيه قشور فانه من المثانة أو من مجارى البول اليهـــا والفصل بينهما أن التى من المثانة نتن ريح وليس التى من مجارى البول نتنا ، فان احتبس البول فانك تعرف ذلك من مكان الوجع وشدته فان كانت القرحة فى الكلى يكون الوجع فى القطن والتى من مجـارى البول يكون فى الحالبين والتى فى المثانة يكون فى العانة وعسر البـول يكون اذا كانت القرحة فى المثانة ، فأما اذا كانت فى الكلى فان البول يجـرى بسهولة وان كان الوجع شديدا جدا فالقرحة فى المثانة وان كان متوسطا ففى مجارى البول وان لم يكن وجع فهى فى الكلى والثقـل معـه لازم له وان جرت المدة بلا بول فان القروح قريبة جدا » ٠ ثم قال : « وقروح الكلى تبرأ بسهولة فاما قروح المثانة فتعسر وتعالج هذه القروح باســـتعمال الأدوية المنقية للمدة والوسخ الذى فى القرحة حتى اذا نقيت استعملت الأدوية القابضة ومن الأدوية النافعـــة عمل مزيج معين من بذر (القتـا) القثاء وبذر البطيخ مع العسل أو من ماء العسل المعمول ببذر الكرفس ٠

ويلاحظ انه يبدأ أولا بوصف أعراض المرض والعلامات المميزة له فى كل حالة من حالاته ثم يصف الدواء فى ضوء الأعراض التى يحس بها

المريض أو تظهر عليه وهذه الخطوات شبيهة جدا بما يجرى عليه الطب الحديث في عصرنا فالطبيب يفحص المريض للتعرف على نـــوع المرض ثم يصف العلاج المناسب لمرضه . واعترافا بفضل الرازى لايعوتنا ان نشير الى أنه كان أول من شخص أمراض المثانة فى العصـور الوسـطى تشخيصا دقيقا وأنه كان الى جانب ذلك حجة فى علم الولادة . ومن رأيه ان السبب فى أمراض المثانة يرجع الى اختلاط الدم بالبول وكان من أول من استعمل الحقن فى علاج الأمراض ..

اذا أردنا ان نجمل الصفات العلمية للرازى اجمالا يبين مزاياه ـ لم نجد خيرا من وصفه بأنه كان أستاذا ، وكان طبيبا ممارســـا ناجحا ، وفى هاتين الناحيتين تتلخص حياته العملية .

كان أستاذا ، فكان عليه ألا يخرج خروجا صارخا على أسس العلوم الطبية كما عرفها أهل زمانه ومن سبقهم ، وأساتذة الطب لا يرون من واجباتهم ان يثوروا على النظريات الطبية القائمة ، ولا ان يقدموا للناس نظريات جديدة حتى يصقلها الزمن ويتبين خطؤها او صوابها .

وكان الرازى كغيره من الأطباء العرب يؤمن ايمانا راسخا بالطب اليونانى ، فهو قائم على منطق لا يقبل الجدل ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يعترض على بعض آرائهم ، يفندها تفنيدا قد يكون أحيـــانا قاســيا عنيفـــا .

لقد أورد ابن أصيبعة أســماء اثنين ومائتى كتاب تنسـبها للرازى فى مختلف فروع المعرفة ، وذكر صاعد الأندلسى بأنه ألف نيفا على مائة تأليف وأكثرها فى الطب ، وأشار الفهرست الى ثمانية وســتين كتابا وتسع وسبعين رسالة ، وذكر رانكنغ ان الرازى ألف ستا وخمسين مقالة فى الطب وثلاثين فى الطبيعة وسبع مقالات فى المنطق وعشرا فى الرياضيات والنجوم وسبع رسالات فى التفاسير والتلاخيص وعشرين رسالة فيما وراء الطبيعة وسبع عشرة مقالة فى الفلسفة وثلاثا وعشرين رسالة فى الكيمياء وأحد عشر مؤلفا فى مواضيع شتى . وقد لاقت بعض كتب الرازى فى الطب رواجا كبيرا فى أوربا ونقلت الى اللاتينية في أكثر من طبعة ويعتبر سارتن كتاب (الحاوى) من أكثر كتب الرازى أهمية ، ووصفه بموسوعة عظيمة فى الطب تحتوى على ملخصات كثيرة من مؤلفين اغريقيين وهنود اضافة الى ملاحظاته الدقيقة وتجاربه الخاصة . وقد أشار الرازى نفسه الى المصادر التى استقى منها المعلومات الطبيعية من اغريقيـــة وهندية ، وترجم الحاوى الى اللغة اللاتينية وطبع لأول مرة فى بريشيا فى شمال ايطاليا عام ١٤٨٦ م وهو أضخم كتاب طبع بعد اختراع المطبعة مباشرة ،

ثم أعيد طبعه مرارا فى البندقية فى القرن السادس عشر للميلاد ، وفى الطبعة اللاتينية قسم الحاوى الى خمسة وعشرين مجلدا ، ــ والحاوى تحت الطبع باللغة العربية الآن تشرف على طبعه دائرة المعارف العثمانية فى حيدر آباد وقسم فى هذه الطبعة الى عشرين مجلدا وقد صـــــدرت المجلدات باستثناء المجلد الأخير ــ وتتضح مهارة الرازى فى هذا المؤلف الضخم الذى اعتمد عليه كبار علماء أوربا ، وأخذوا عنه الشيء الكثير ، وبقى مرجعهم فى مدارسهم وجامعاتهـــم الى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد ٠٠ ولهذا اعتبر الرازى بحق أعظم أطباء الاسلام وظل الكتـــاب حجة الطب بلا مدافع حتى القرن السابع عشر !!

ديوان المتنبي

المتنبي

٩٠٠ - ٩٦٥م

قليل من الناس بلغوا مبلغ المتنبى فى الشهرة مع أن العباقرة والأفذاذ يملأون صفحات التاريخ بأخبارهم وآثارهم . ولو أن الآداب العربية أتيح لها ما أتيح لآداب الغرب من الذيوع بالترجمة والنقل لكان المتنبى فى مقدمة المشاهير الذين يلهج الناس بذكرهم فى الشرق والغرب على حد سواء . ولو أن الغربيين قرءوا شعر المتنبى لأذهلتهم تلك العبقرية الجبارة وهذا الروح الوثاب الغلاب الذى يكتسح حتى لا تكاد ترى أمامه أثرا لمنافس .

نعم .. لو قرأ الغربيون شعر المتنبى لوقفوا أمامه ذاهلين ولست ألقى القول على عواهنه فقد أذهلت رباعيات الخيام أدباء الغرب وقراء الأدب فيه وفتحت أمامهم آفاقا جديدة لم يروها من قبل وتألق نجم هذا الشاعر الفارسى فى أوروبا وأمريكا كما لم يتألق قط فى المشرق ، مع إن الخيام دون المتنبى مرتبة فهو شاعر يشدو على وتر واحد بينما يشدو شاعرنا على أوتار هى جماع الفن والحكمة والفلسفة .

وأول ما نسجله من أمر هذه الشهرة التى لازمت المتنبى فى حياته ولازمت تاريخه بعد موته أنها مرتكزة على أسس متينة ودعائم قوية .

والشهرة عندنا هى الصمود للدهر ومغالبة معاول الهدم — وما أكثرها ! — وقد صمدت شهرة المتنبى فى حياته فتحطمت دونها معاول الهدامين الذين فى نفوسهم حقد وفى قلوبهم تغلى مراجل الجسد وتلهب نار البغضاء ، والذين مازالوا يذكرون مثالبه ونقائضه فيعترفون — أو يعترف حسدهم — بشاعريته التى لاتجارى على وغر مكنون فى الصدور .

ثم صمدت شهرته للنقاد الزارين عليه بنقدهم بعد مماته مع أن فريقا منهم حاولوا هدمها بمعاول هيهات أن تهدم التراث الأدبى فيبقى المتنبى حيا ولم يذهب رسمه ولم يعف أثره .

ومما يزيد فى رسوخ هذه الشهرة انها بلغت غايتها على الرغم من ان شعر المتنبى لم يكن كالنسمات تهب رخاء أو كزقاق الخمر تروى الشاربين بل كان شعرا جليلا يهتف به شاعر عبقرى فيذكى فى القلوب نار الحماسة والنبالة ويمتع الأنظار والألباب بألوان من الفن الرفيع يتطاول اليها الناس ويتشوفون لها دون ان يبلغوها ومثل هذا الشعر لايقدره حق قدره الا الراسخون فى دراسة الآداب الرفيعة التى تسمو

بالأذواق الى ما هو أعلى من أذواق العامة والمترفين من عشاق الأدب المخنث. فبهذا الشعر خلد المتنبى وعلى هذا الأساس المتين بنى شهرته ونقش اسمه على الصخر بينما خط معظم معاصريه من الشعراء أسماءهم على الرمال .

وانك لتعجب وانت تقرأ ديوانه كيف أنه استطاع أن يجمع كل هذه الأقوال المأثورة والأبيات الحكيمة فى صعيد واحد ، لعلمك أن معظم السابقين واللاحقين من الشعراء كانوا يتمخضون بالبيت المأثور بعد الهذيان الطويل .

ثم انك لتعجب من هذا الروح الغلاب الذى رجح الشعراء وسادهم دون ان يعدو طوره وتعجب لتلك الحوادث الجسام واندماجه فيها مادحا وهاجيا وحكيما بعد أن حلب الدهر أشطره ولاعتداده بنفسه وشموخ أنفه وخيلائه ولتجاربه وثقافته التى يندر لها مثيل .

نعم انك تعجب لكل هذا اذ تفاجأ به أول وهلة وأنت تقرأ ديوانه وأخباره فتعود الى نفسك فتقول : لاجرم اذا خلد المتنبى وطبقت شهرته الآفاق ..

ثم ان المتنبى تفرد بنزعة أخرى غير نزعة الشاعر الفنان اذ كان يحسب انه أرفع من الشعر والشعراء منزلة وان الشعر مطيته الى الملك والسؤدد ويرى ان بنفسه أنفا ان تسكن اللحم والعظم .. والحق يقال انه كان عظيما فى شعوره وحركاته وسكناته فقد كان شعره على ذباب سيفه وسية قوسه وكانت له أبيات تهول ، وقد أضفت عظمة نفسه على شعره هذا الجلال وتلك الروعة (التى تركت فى الدنيا دويا) كان يود أن يكون (للسيف والفتكة البكر) لا للشعر والمدائح فلا عجب ان تشتهر قصائده من وحى الملك والبطولة والفن الرفيع .

أما منافسوه من الشعراء فقد كانت قصارى آمالهم صلات الأمراء وعطاياهم وكان الخوف من ضياع هذه العطايا سياجا يحول بينهم وبين اشهار ما شعروا به .. لقد كانوا أذنابا ولم يكونوا سادة وكانوا ملهاة وأداة من أدوات التسلية كالأقزام فى بلاط الفراعنة سواء بسواء ، كانوا ينطقون بلسان سادتهم وأمرائهم ، فلم يجرؤ أحدهم على مجاراة المتنبى فى قوله :

وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

ولم يدع أحدهم انه (خلق) أميرا من الأمراء بل كان الأمراء هم الذين يخلقونهم بيننا يحق للمتنبى ان يفخر بأنه (خلق) كافورا

بهجائه المقذع وسخريته اللاذعة .. فلولاه لما تمثل كافور فى أذهاننا عبدا خصيبا بطينا مشفره نصفه وتكاد تحسبه منتعلا وهو حافى القدمين . وقد كان شعور المتنبى بتفوق شعره على شعر خصومه عظيما حتى ان هذا الشـــعور انقلب الى اعجاب بالنفس وخيلاء لا حد لتطاولها مما حداه ان يقول :

أفى كل يوم تحت ضنبى شـــويعر ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ؟

فانظر الى كلمة (شويعر) هذه وتأمل فيما تحويه من معانى الزراية والسخرية الأليمة ! ثم ان جلال شعره وفخامة جرسة جعله يسير فى البلاد ويؤثر فى الناس أضعاف ما يؤثر شعر منافســـه وحساده وهذا مما جعل الأمراء يستقدمونه ويجذلون له العطاء . وقد بلغ قلق بعضهم على لقائه وحرصهم على مجيئة حد الضحك ككافور الذى كان يهذى بالمتنبى وبقرب قدومه ولايزال يتراوح بين اليأس والرجاء حتى يقبل فتهدأ أعصابه ويطمئن قلبه .

وقد ساعده على بلوغ تلك المكانة عند الأمراء والولاة عدم استقراره فى حاشية أمير واحد أمدا طويلا وعدم قصره مدائحه على رجل واحد:فكان يشد الرحال اذا سئم المقام فى قصر أمير أو وزير ويذهب الى غيره ليمدحه ولينعم عنده شهرا أو عاما أو بضعة أعوام تاركا وراءه الاعجاب بشعره والحقد عليه مستقبلا وجوها جديدة متقبلا عطايا جزيلة لايدفع لها ثمنا من كرامته وعزة نفسه ، ومن هنا تهافت عليه طلاب المدح فعلا ثمنه فى سوق الشعر بينا كسدت بضاعة جل منافسيه فعمدوا الى غيظه .

ومما زاد فى غيظ منافسيه وحساده ان شعره خلا ــ أو كاد يخلو ــ من الغزل والتخنث مخالفا بذلك جمهرة الشعراء القدماء منهم والمحدثين وانه لم يكن متهالكا على النساء شأن غيره من محبى الترف وأسارى الشهوة الجامحة ولم يكن للخود منه الا ساعة ثم بينه وبينهن « فلاة الى غير اللقاء تجاب » ، ثم انه لم يكن سكيرا عربيدا فخلا شعره من أوصاف الخمور الا فيما ندر وظل جافا مطهرا الى آخر بيت فى ديوانه . كل ذلك كان ترفعـــا عما درج عليه الناس من مألوف التغزل والمنادمة وسموا بالشعر والفن الى قنن الرجولة والبطولة .

والمتنبى هو الشاعر العربى الوحيد ــ فيما نعلم ــ الذى كان لايتهيب الأمراء بل يدخل عليهم ويخاطبهم مخاطبة الند للند والصديق للصديق ،

وقد روى أنه كان ينشد الشعر وهو جالس أمام سيف الدولة وان طاهرا العلوى أجلسه على سريره وجلس بين يديه · وهذا نصر عظيم للشاعر وللشعر نفسه فقد بيض المتنبي وجهه بعد أن سوده الشعراء المادحون المستضعفون وان شعرا يقوله شاعر معتدا بنفسه مترفعا عما درج عليه الشعراء من الصغار والزراية لقمين بأن يذيع فيلهج به كل لسان ·

الحياة الفكرية فى عصر المتنبى

كان يميز الحياة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه المتنبى شيوع الفلسفة وازدهارها ، فاتبعت الفلسفة وأكثر العلوم العقلية منذ هذا العصر منهجا علميا وصار لهـا أسلوب مذهبى خاص وقد مشى معها علم الكلام وأقبل عليها المتأدبون .

وقد ظهر ابن النديم بكتابه « الفهرست » فى الربع الأخير من هذا القرن حاشدا فيه صنوف المؤلفات فى عصره وما قبله وفيهـا من كتب الفلسفة مقدار يدل على رواجها واتقانها وتفرغ العلماء للبحث والتاليف فى هذا العصر تفرغا لم يعهده السابقون .

وقد شاع فى هذا المنتصر اقتناء الكتب وكثرت المكتبات وصـار الملوك والأمراء بعد الخليفة الأمين يفاخرون باقتناء المصنفات ويتسابقون الى شراء نوادرها . وفى أواخر هذا القرن أولعت بغداد بالكتب والتاليف وصنع مثل ذلك أمراء الأندلس فكان الحكم صـاحب الأندلس يبعث الى المشرق بالعلمـاء والتجار الذين كانـوا ينتقون له أحسن المخطوطات وأطرف المؤلفات منذ ظهورها وبلغ فهرس مكتبته أربعة وأربعين كراسـا كل كراس بعشرين ورقة وكذلك كان الأمر بمصر .

وظهرت الكتب فى التركات والمواريث فى صـدر هذا العصر وحين توفى « محمد بن نصر الحاجب » خلف كتبا قومت باكثر من ألفى دينار .

وكانت حلب فى أيام سيف الدولة دار علم وأدب وملتقى المفكرين والشعراء وقد كثرت فيها المكتبات ، وكان قصره فى ظاهر حلب فى مكان يسمى « الحلبة » مزهوا بنوادر المصنفات وكان يجرى على العلماء جرايات مالية ليتفرغوا للعلم والتاليف فاجرى على الفيلسوف والموسيقى أبى نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أربعة دراهم كل يوم ، وكان الفارابى أشهر من ظهر من الفلاسـفة فى عصره فضلا عن معرفته فن الموسيقا العربية ، كما ظهر « اخوان الصفا » برسـائلهم الفلسفية النقدية التى أداروا بحوثها وحوارها فى الطبيعة وما وراءها وفى المغيبات والظواهر وكان لها أثر بعيد فى تبصير العقول بل نكاد نعدها من أسباب الثورة الفكرية وكانت موردا عقليا لكثير من المفكرين .

كما ظهر في هذا العصر أبو الريحان البيروني وأبو علي ابن سينا وقد مهد الفيلسوف الكندي الذي جاء في العصر السابق كثيرا من مناهج الفلسفة لمن جاء بعده ٠

أما البيروني فلم يكن فيلسوفا فحسب وانما كان موسوعي المعرفة والثقافة وهو مؤرخ وجغرافي وقد عاش بعد منتصف القرن الرابع وحين نضج تفكيره وتمرس بالمجتمع عنى بدراسة التطور في حياة الأمم وكان له فضل كبير في ان ينقل الى علوم العرب وتاريخهم ما كانت عليه الهند من العلوم والمعارف فبذل من عمره أربعين عاما في نقل هذا التراث الهندي الى العربية وكان بينه وبين ابن سينا مكاتبات فأفاد كل منهما من الآخر ٠

وأما ابن سينا الذي احتفل العالم العربي والفارسي في عصرنا بمرور الف عام على مولده ، فقد انتهت اليه الفلسفة والطب وكان له في تصانيف الفلسفة دراسات نفسية تشبه الى حد قريب مرامي علم النفس اليوم في نظرياته وتجاريبه وكان هذا العالم الى عقله روحانيا حكيما ٠

وقد عاش أبو الطيب المتنبي في عصر تألق بالأدب من كل صنف ، وقد راجت سوق هذا الأدب وتقرب به أهلوه الى الملوك والأمراء وكانوا به بين متكسبين للمعيشة وبين محبين موهوبين ولا عجب ، فقد كان الأدب للأمة العربية منذ صدر الاسلام حتى أواخر العهدين العباسي والأندلسي ديوان حكمتها وفنونها ومظهر تفكيرها وشعورها ٠

أما الأدب فكان في القرن الرابع الهجري مرآة أصحابه وصور نفوسهم وأهوائهم ولم يكن بمعزل عن الجامعات ففيه آثار كثيرة صورت مجتمع هذا العصر في الشعر والنثر ٠

أما الشعر في هذا العصر فقد انبعثت في قريحة المتنبي عبقرية فياضة ومواهب متجاوبة ٠ وكان أبو الطيب أكثر الشعراء طموحا بل كان في هذا التألق والتجدد ثمرة تطور فني وتمازج فكري بدأ من الثلث الأول للقرن الثاني وذلك بقيام الدولة العباسية فمنذ بشار بن برد حدثت في شعر العرب همزة جديدة وطفر الشعر طفرة رائعة وجاء أستاذ الشعراء أبو تمام ففتح بابا جديدا لصناعة الشعر العربي ومضى تلميذه البحتري على غراره في صنع الشعر وقوله وان أدخل عليه من ذوقه وفنه الشيء الكثير سواء في الوصف والتصوير أم في دقة المعنى والتعبير كما أخذت تلوح بوادر الابتكار في المعاني الطريفة ٠ وكان أبو نواس وصحبه من شعراء الخمر والمجانة بدعا في هذا الشعر فبعثوا فيه روح التجدد والتفنن كل ذلك مع حفاظ على ديباجة القول المحكم الرصين وابراز القصائد والمقطعات في طراز رفيع تربط حاضر هذا الشعر بماضيه لكن الروح الفنية الجديدة

دخلت هـذا الشعر وآذنت الحضـارة بتمازج الثقافات ، كما آذن الزمن ان يرث القرن الرابع كل هذه الصفات والمزايا فى الشعر العربى ليستقبل أبو الطيب هذه المواريث سائغة مستحبة فيتداول أروعها ويختص شعره بأقوى ما فيها ٠

وكان بين الشعراء المبرزين آخرون دونهم فى الشهرة والقصيد فى هذا القرن ــ وكانت لهم آثار فنية شاعت لدى القوم حتى تبنـاها النقد والبحث ــ فيهم الشاعر أبو بكر الصنوبرى الحلبى الذى كان خازنا لمكتبة سيف الدولة وكان له شعر حسن ومن سوء حظه أن لم يعن به الثعالبى فى « يتيمة الدهر » ولا الاصبهانى فى « أغانيه » ٠

وكان فى بلاط سيف الدولة شاعر آخر هو كشاجم وله مفارقات لطيفة فى الشعر كما كان يجول بين حلب والموصل شاعران آخـران هما الخالديان وكان يسميهما الثعالبى بالساحرين ٠

وفى « يتيمة » الثعالبى شعراء كثيرون غير هؤلاء عاشـوا فى ظلال سيف الدولة كالنامى أبو العباس ، وكان المعهم أبو فراس الحمدانى وعاش آخرون من الشعراء عند البويهيين فى فارس أو بالعراق ٠

المتنبى فى عصره

١ ـ مولده ونشـــأته :

ولد أبو الطيب المتنبى بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ واسمه أحمد بن الحسين ابن عبد الصمد الجعفى · وقد فتح عينيه على الدنيا فى حى « كندة » وهو حى نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتوح الى هذه البقاع وهم من أصل يمانى من كندة فسموا منازلهم الجديدة بأســـماء منازلهم الأولى للذكرى والحنين · وفى شعر أبى الطيب ذكريات فى هذا الحى من الكوفة وكان مفارقا فقال فيما يحن اليه :

أمنسى السكون وحضرموتا ووالدتى وكندة والسبيعا

كل هذه أماكن بالكوفة ذاتها عرفها المتنبى فى نشأته وصباه وكانت الكوفة من أجمل بلدان العراق ·

وقد جاء شعر المتنبى موضحا لسيرته وحوادثه ولم يتفق لشاعر عربى برزت أطوار حياته وعصره فى شعره مثلما اتفق لابى الطيب ، ففى ديوانه صور نفســـه ومزاجه وخصائص فكره وضروب المحن التى لازمت زمنه ولابست أهله وحكامه ونستطيع أن نقسم سيرته وحوادثه الى أطـــوار أربعـــة :

(أ) الطـــور الأول :

نشأ أبو الطيب بالكوفة متنقلا بين الوراقين مستجيبا لوعى فى تفكيره مبكر ثائر متتبعا ما يقع بين يديه من كتب ودفاتر فاذا سئم القراءة مضى الى مجالس العلماء يتلقى عنهم أصول الجدل واللغة والبيان ثم دلف الى فريق من قومه اختصوه بالتقدير ، فأحاط علما بأنباء الحكام وسياسة الدولة مما كان يزيد فى شجونه وأضغانه ويتلفت الى المحظوظين والمنعمين فيجد نفسه صفر اليدين ملموزا من حاسديه · لكنه يحس العزاء فى جدته التى كانت تحبه وتفديه ولم يجد بدا من الانطلاق الى البادية لعله يلقى حظا وخيرا فلم تتحقق بغيته فيها ولم يكتسب الا مودة ومعرفة فارتد الى

جدته يقاسمها الحسرة والضغينة اذ عانت قبله من العلويين ما عانت وان سعوا اليها بعد حين بالهوادة والمعروف ٠

وفى عام ٣٢٠ هـ راح الى بغداد دون رضى جدته فشهد ألوانا من الخطوب والأحداث من تنازع الأمر والولاة وتضارب الأهوال بين الشعب والأمراء وكان يرجو هنالك نصيبه من الرزق يمدح من يستحق المدح فتأبى على هؤلاء المتنابزين المتربصين ورفض ان يثنى شعره على أحد منهم بل زاد حقده وثارت هواجسه وقد صور الشعور فى أبيات كثيرة موزعة فى قصيده ٠

وضاقت عليه بغداد بما رحبت فارتحل الى بادية الشام وجال فى مدنها وقراها حتى هبط دمشق بعد عام وهو يرسم الخطط ويبيت فى نفسه أمورا خطيرة يحقق بها مجدا وانتقاما فمر بحلب وانطاكية واللاذقية حيث احتفى به نفر من الأعيان والكبراء كسعيد بن عبد الله الكلابى وأبى المنتصر الازدى وبدر بن عمار الاردنى ومحمد بن زريعة الطرسوسى وغيرهم٠ ولقد مدحهم بشعره على عادة العرب ولا يجوز ان نشبهه بالشعراء الجوالين كما رأى الأستاذ بلاشير اذ سبقهم وتقدم الأكبر منهم ولم يكونوا من انداده وحظى لدى أولئك الأمراء فظفر منهم بالهدايا والعطاء ثم ارتحل ومضى الى طرابلس الشام فلقى فيها اسحق الأعور المعروف بابن كيغلغ وكان أميا لايقدر الشعر قدره ، فأوعز اليه حساد لأبى الطيب بأن يتلمس منه مدحه فاعتذر الشاعر وهاج كيد المتطاول فلم يجد أبو الطيب مناصا من هجوه ــ اذ حال بينه وبين المسير وسد عليه الدرب ــ فهجاه بقصيدة لو جمع ما قاله الفرزدق والأخطل وبشار فى التشنيع والاقذاع لما رجح على ما فى قصيدة أبى الطيب هذه وقد جاء فيها من الأبيات التصويرية اللاذعة غير الاقذاع قوله فى وصف ابن كيغلغ :

واذا أشـــار محدثا فكـــأنه قرد يقهقه أو عجـــوز تلطم

وفى رواية ثانية ان أبى الطيب وصل به التجوال الى اللاذقية حيث لقى معاذا بن اسماعيل فرآه حسن السمت فصيح اللسان جدي القول فتحاورا وتبادلا الرأى وقد بلغ الزهو من المتنبى مبلغه حتى زعم معاذا ان أبا الطيب قال له أنا نبى مرسل ثم رأى من البراعة والاقتدار ما جعله يؤمن بما ادعى من النبوة والمعجزة ٠ والى هذه الزورة للاذقية أشار أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران ودفع عن شاعره تهمة النبوة بقوله : « لأن نطق اللسان لاينبئ عن اعتقاد الانسان » ٠ وكان قد وصل الى اللاذقية كلام نسب الى أبى الطيب يعارض به القرآن ٠

من أجل ذلك حبسه أمير حمص حتى استتاب وليس من المعقول هذا الادعاء فقد خلط الرواة بين النبوة المزعومة وبين تسمية المتنبى نفسه بالعلوية حيث يقيم فريق من العلويين الى يوم الناس هذا • لقد حقدوا على أبى الطيب لأنه انتسب اليهم فزعموا أنه ادعى النبوة وقد خافوا أن يستهوى القلوب بسحر بيانه ونبل غايته فنبذوه وأهانوه •

ان شجاعة أبى الطيب هى التى جعلته يقتحم الأرض التى ضمت طوائف من العلويين فيهم الفاطمية والباطنية واليهم أشار بقصيدته الدالية التى استشفع بها :

فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأن بعجل اليهود

وما تزال هذه الأرض موطن الطوائف العلوية وفيها ظهر منذ بضع سنين شخص ادعى الألوهية وليس النبوة حتى قضى عليه القضاء بالموت شنقا •

والحقيقة السياسية فى النبوة المزعومة ان أبا الطيب حين مر بقبائل البادية وأعمال الشام وتلقى دعوة بالحفاوة والرضى لما شهدوا من نفاذ علمه ونبل مقصده ورجاحته وقد استجاب له بالتأييد منهم بنو كلب • وكان يدعو للعروبة ورد الأعاجم الى ما كانوا عليه قبل أن يتطاولوا وينشدوا المساواة بولاة أمرهم ولا أشك فى انه تزعم حركة عربية ثورية غرضها سياسى لا دينى وقد آل أمره الى السجن والاعتقال بعد المطاردة والتشريد • وفى سجنه كان عظيم النفس لكن عض الحديد والجوع أجبراه على التماس العفو من الحاكم فى ذنب نواه ولم يفعله ويتبين هذا من قوله فى القصيدة الدالية :

وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

وعطف قلب الحاكم على الغريب وأيقن أن الوشاة زوروا أقواله فقال :

بيدى أيها الأمير الأريب لا لشىء الا لأنى غريب

عائب عابنى لديك ومنه خلقت فى ذوى العيوب العيوب

وقد أفرج عنه الحاكم بوساطة بعض التنوخيين الذين سعى اليهم بالشكر بعد خروجه من السجن •

(ب) الطـــور الثـــانى :

خرج المتنبى من سجنه لا يلوى على شىء واذا هو بعد سنين يجىء انطاكية فيمدح أميرها أبا العشائر الحمدانى ويزور سيف الدولة هذا الأمير وأنطاكية فى اقطاعه فيقدم أبو العشائر شاعره المتنبى لأمير حلب وكان المتنبى قد مدح نفرا من الأمراء ونال عطاياهم ورضاهم ٠

وبدأت الصلة بينه وبين سيف الدولة منذ ذلك اليوم فدعاه لمديحه وضيافته فقبل المقام بشروط تضمن حريته وكرامته ٠

كذلك بدأ أبو الطيب يحيا الطور الثانى من سيرته فبقى فى حلب من سنة ٣٣٧ حتى سنة ٣٤٥ وفى هذا الطور قال أروع شعره فى تصوير المعارك والوقائع ، اذ كان يحضر مع سيف الدولة حروبه لبيزنطة ويبدى ضروبا من البطولة والمغامرة ، اذ كان فارسا مغوارا وقد ازدادت معرفته بالسلاح والحرب منذ لزم سيف الدولة ٠

ووجد المتنبى ضالته فى شخصية سيف الدولة ، وطالما جاب الآفاق باحثـا عن مثلها ليجعلها موضعا لشعره يصـور فيها الاباء والفروسـية متجليين فى انسان عظيم حتى وجد أمير أحلامه سيف الدولة الحمدانى فأودعه آماله الجسام التى عجز هو عن تحقيقها فى وحدة العرب ٠

(ج) الطـــور الثـــالث :

فارق أبو الطيب حلب ووجهته الى دمشق لأن حمص التى أحبها كانت من أعمال سيف الدولة فلم يذهب اليها بل اتخذ طريقه الى دمشق وكان عليها من كافور حاكم مصر وال يهودى يعرف بابن ملك ٠ فلما نزلها أبو الطيب طلب منه واليها أن يمدحه بشعره اسوة بغيره فرفض وكره المقام بدمشق من أجله لكن هذا اليهودى جعل كافور الأخشيدى يطلب أبا الطيب ، فسار الى الرملة فى الجنوب وتلقاه أميرها الحسن بن طغج بالتكريم اذ حمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفا محلى وأعطاه هدايا غالية فمدحه أبو الطيب بقصيدة أشار فيها الى ما لحقه من تهديد ووعيد من الأدعياء والحساد ٠

ولما كتب كافور الى أمير الرملة فى طلب أبى الطيب لم يجد هذا بدا من الرحيل اليه وأقبل المتنبى على كافور مصر فاحتفى به وأمر له بمنزل ووكل به من يخدمه ويعنى بأمره ثم خلع عليه الخلع وطالبه بمدحه فاستجاب أبو الطيب على حذر وسخرية وحمل نفسه على أن يقول ما لا يرضيه فقال أول أمره معه قصيدته التى كان مطلعها :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن أمانيـــا
تمنيتها لما تمنيت ان تـــرى صـــديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

ولم يستطع أن يشترط على كافور ما اشترطه على سيف الدولة وهو ينشده شعره فوقف بين يدى الاخشيدى يلقى شعره وكان كله مدحا مبطنا بالتهكم والاستهزاء مواجا بالهم والأسى ٠

وكان كافور أديبا سياسيا فلم تخف عليه خافية مما جاء بشـــعر أبى الطيب لكنه احتمله على مضض لعله يكتسب مودته ويظفر بمدحه وتنازعت حياة أبى الطيب وهو فى مصر عداوة من الحساد والمتبرمين به لا تقل عما لقى فى حلب وقد أصابته الحمى فطرحته فراشه حتى شفى وقال فى قصيدته الميمية التى يقول فيها :

نزلت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركـاب ولا أمامى
ولما صـــار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتســام

لقد أقام بمصر كارها ضجرا ، وكان يسكن على مقربة من قصر كافور ومن مجلسه ويظهر هذا من قوله :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة ولكن قربا بالبعاد يشـــاب

ولما ضاقت به مصر وضاق بها أعد العدة للرحيل وكان موسم العيد يستقبله كافور بالفرحة ويوزع فيه الهدايا على كبار جنده وحاشيته وكان الموسم سانحة مواتية للهرب ، اذ أن كافورا حال بينه وبين السفر ولكن المتنبى خلص ليلا فسرى يطلب النجاة ويطوى الفلاة وفر بماله ورجاله وابله وخيله حائرا فى دربه أيكون الى نجد والحجاز أو يمضى الى العراق ؟ وطلبه كافور ففاته وقد غلب الشاعر الحنين الى موطنه الأول فضرب فى البادية الى الكوفة بعد أن أقام بمصر أربع سنوات وقبيل انطلاقه منها قال قصيدته المشـــهورة :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجـــديد

(د) الطـــور الرابع :

لبث أبو الطيب فى مصر أربع سنوات وبضعة أشهر مكرما هانئا حينا ومحسودا منغصا أحيانا وطامعا منذ أقبل على حاكمها الاخشيدى كافور بما لم يطمع عند سيف الدولة الذى أغناه بالعطايا والهبات عن التماس المزيد من المال ٠

وبقى أبو الطيب يرجو من كافور أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو سواها من الصعيد وكافور يماطل ويروغ من الحيلة والترضية بالذهب حتى دب اليأس في صدر أبى الطيب وسئم المقام لكن لازمه السقام وملّه الفراش فحدثته نفسه بالرحيل لولا صديقه فاتك أبو شجاع الذى كان يعزيه ويسليه فلما أدركه الموت أعد أبو الطيب كل ما يحتاج اليه فى السفر وأرسل الى كافور يستأذن فى السير فرفض وجعل يعلله بالبقاء ويمسكه بين اشفاق وخشية من التعريض به والتشنيع عليه لكن المتنبى كان قد أحكم الخطة وفضل العودة الى بلده ٠

وكان فى صدره من السخط والموجدة أشد مما كان وهو يغادر سيف الدولة ، مضى يعانى خيبة فادحة وندما أليما وقد تمثل له سيف الدولة الذى علق عليه الأمل ثم تخيل كافورا الذى راغ منه وضحك بالتعليل والمطال فعبر عن غيظه وغمه بقصيدة العيد وهجا فيها كافورا والبلد الذى ضمه ٠ ومضى حتى دخل البلد الذى احتوى قبر جدته وذكريات نشأته وصـــباه ٠

ارتد الى الكوفة بعد عراك عنيف بينه وبين عبيده ومرافقيه وبينه وبين نفسه حتى دخل موطن المرأة التى اعدته للحياة الرفيعة ولكن الموت كان أسبق اليها وصار يهوى لثواها وما ضما ، وها هو ذا يرى الكوفة بعد ستة عشر عاما (٣٥٠ ــ ٣٥١ هـ)غير عابىء بالشامتين والذين صدوه عن العودة اليها ظلما وحقدا ولا مكترث لما ينتظره من مكايد جديدة ٠

فلما عاد الى الكوفة عاد الشوق الى صديقه العظيم ، كما ان سيف الدولة لم يصبر على فراق شاعره فمنذ بلغه ان أبا الطيب سار الى الكوفة أرسل ابنه من حلب يدعوه اليه ومعه هدية غالية ولعل هذا الأمير الكريم شاء أن يجبر خاطره وهو أدرى بطبع المتنبى وطموحه فتقبل الهدية وأرسل اليه عام ٣٥٢ هـ قصيدته التى قال فيها :

ما لنا كلنا جو يا رســـول أنا أهـــوى وقلبك المتبـــول
من عبيدى أن عشت لى ألف كافو ر ولى من نداك ريف ونيل

وبقى أبو الطيب يبعث بشعره الى أميره متوددا حامدا والأمير يستعجله للعودة اليه وهو متريث متردد وقد عن له قبل ان يتلقى دعوة سيف الدولة ان يخرج من الكوفة الى بغداد ليستطلع عن قريب حياة الناس وسياسة الحكم فيها وهو العليم بأسباب الاضطراب ومظاهر النقمة فى ذلك العهد وكان أول الناقمين على أولئك الأعاجم الذين دخلوا فى شئون الدولة ليتقاسموا المغانم فيها والمناصب ٠

وفى بغداد أقام أبو الطيب كدأبه متعاظما معرضا بالوزير المهلبى الذى زين للشعراء واللغويين أن يكيدوا لضيف البصرى فى مطارحاته ومجالسه فتألبوا عليه بالهجاء وأعادوا الى الخواطر تشبث المتنبى بادعاء العلوية ، فراحوا يلمزون نسبه من جديد ويصمونه بالشح والتقتير ·

أما أبو الطيب فزادهم غيظا بالتأنى عليهم وعلى خليفتهم العباسى ورجال قصره وحكمه ، مرددا شعره على كل من كان فى مجلسه دون تهيب ولا تحرج حتى عاد الى الكوفة ولم يرجع الى بغداد حتى مات الوزير المهلبى خصمه وظالمه · وبعد عودته ازدادت نقمته على الأوضاع السياسية ومستغلى الحكم من الموالى والأعاجم وارتدت الى باله صورة سيف الدولة وما لمس من بطولته وكرامته وكأنه يستنجزه وعدا فأرسل اليه قصيدته التى قال فيها :

أنت طول الحياة للروم غاز ... فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم ... فعلى أى جانبيك تميل
ما الذى عنده تدار المنايا ... كالذى عنده تدار الشمول

وجاءته دعوة من شيراز الى أبى الطيب أرسلها عضد الدولة طالبا زيارته فتردد فى الاستجابة لكن ابن العميد اغراه وأطمعه بما قد يتلقاه من مكرمات ·

واستقبل رسول من قبل عضد الدولة بالتكريم ولما طلب ان يسمعه من شعره أنشده القصيدة التى فيها :

فلما انحنا ركزنا الرما ... ح بين مكارمنا والعلى

فأحسن هذا الرسول تعاظم أبى الطيب على الديلم فنقل ما سمع الى عضد الدولة الذى داخلته الريبة فى ضيفه ·

ولما أنشده قصيدته التى استهواه فيها جمال الطبيعة بفارس ومطلعها :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

وجدها عضد الدولة مديحا ممزوجا بذم لكنه لم يجد بدا من أن يضفى على مادحه وضيفه أصناف الطيب والكساء ومعها صرة من الدنانير ·

وقد استطاع عضد الدولة بما أوتى من مكر ودهاء ان يدارى أبا

الطيب وهو الذى يعلم طواياه وما يكن لقومه من عداوة وبغضاء — فيقال انه أوعز الى من يخلصـــهم منه بعد رحيله وقد أقام ثلاثة أشـــهر فى ديارهم ٠

ولقد ابتلى الشاعر — الذى لم يســـالمه الدهر حيثما كان — بأن تعرض له وهو بفارس أبو العباس الصاحب بن عباد طامعا فى زيارته اياه بأصبهان والحصول على منحه واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة كما قال ، ولم يكن استوزر بعد وضمن له مشاطرة ماله ، فلم يقم له المتنبى وزنا ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده ، فحقد الصاحب عليه وأقام الدنيا وأقعدها يتسقط مثالبه فى شعره لكنه كما يقول الثعالبى كان أعلم أن سفرته لدى عضد الدولة نجحت وربحت وحصل منه على أكثر من مائتى ألف درهم ٠

كذلك خرج أبو الطيب من شيراز مكرما بأحسن توديع وقد أشير عليه باصطحاب الخفراء فأبى اعتدادا بنفسه فكان أن خرجت عليه سرية الأعراب فى رواية الثعالبى — فلقى المتنبى مصرعه مع ابنه محسد وبعض غلمانه واقتسم الأعراب ماله ، وكان قاتلوه من أعدائه المتربصين يحملون له الحقد المر ٠

١ ـ شـــعره

الطبع والالهام أساس الشاعرية وقد كان المتنبى شاعرا مطبوعا نطق بالشعر وتأتى له وهو غلام · وفى ديوانه قصائد قالها فى صباه دلت على ما سيكون لصاحبها من شأن ومكانة وكان لحياته الأولى فى البادية وبين الاعراب ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة فى موضعها من كلام العرب أثر راسخ فى موهبته وطبعه حتى ان مياسم البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده · لقد مزج روحه بالبداوة وعمق احساسه فيها فقال :

كم زورة لك فى الاعراب خافيـــة أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

وعرف أسرار الجمال فيها فقال :

ما أوجـــه الحضر المستحسنات به كأوجـــه البدويات الرعابيب
حسن الحضـــارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حســـن غير مجلوب

وصور ممارسته للبادية مقيما ومرتحلا فى هذا البيت :

أوانا فى بيوت البدو رحلى وآونة عمـــلى قتـــد البعير

وفى ارجائها امتد خياله وعلقت بذهنه بقاعها وفلواتها ، وجرت على لسانه لغتها فى تصوير سلاحها وخيلها وابلها وكأنه واحد من أهلها حتى بعد تجواله فى البلاد وتمازجه بالملوك والكبراء وأهل الحضر والترف · لقد رفد هذه الفطرة والسليقة بمعرفة واسعة فى كلام العرب وادراك لخفايا اللغة وسحر البيان فجاءت صياغته من طراز رفيع فيه الأصالة والجزالة وفيه الفكرة الصائبة والروعة الباقية ·

وكان مرد المتانة فى الشعر العربى واحكام صـوغه الى الشـــعر الجاهلى · وحين تحدر هذا الميراث الى العصر الأموى فبدا فى الشـــعر الجزل دخل عليه التطور حتى جـــاء عهد العباسيين والأندلسيين فطبع بطوابع التجديد وجاء عصرنا فأعاد اليه رونقه السابق وخلصه مما علق به فى عهود التخلف ناظرا الى أبى الطيب وكأنه نبراس لا ينطفىء لاحياء الشعر العربى على مدى الزمن ·

ولا يعيب أبا الطيب ما جاء فى بعض شعره ـ مما تبعه عليه الثعالبى فى اليتيمة ـ والجرجانى فى الوساطة فان للبلاغيين آفات تلازم أعمارهم . كان هذان يعجبان به لكن هنالك فئة من الباحثين عن عيوبه ظهروا بروح حساد أكثر مما تناولوه بتسامح العلماء ، على أن هذا الشعر لم يسلم من الشوائب وأى شاعر خلا قصيده من خطأ أو زلل .

كان شعر أبى الطيب المتنبى صورة صادقة لعصره ومرآة للحوادث والمحن فى أيامه وما من شك ان السياسة والعروبة المتأصلة فى فؤاده والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر عبر به عن رأيه ومذهبه وخلجات نفسه . فهو يقول فى واحد من العلويين حين مدح الأمير أبا محمد الحسين بن طغج بالرملة :

وفارقت شر الأرض أهـــلا وتربة بها علوى جده غير هاشـــم

ولقد طرح فى شعره صورا لكل ما كابده فى حياته وهذه الصور كان يأتى بها خلال قصائده موزعة حسبما تدعو اليها المعانى والخواطر التى كان يسوقها .

رأى ما كانت عليه السياسة فى زمنه من تحكم ملوك العجم وأمرائهم بخليفة المسلمين وملوك العرب وعاين هوان الأمة العربية يومذاك بما أصابها من الترك والعجم والزنج فنفس فى شعره عن سخطه المكبوت .

وكان المتنبى يحس فى نفسه حافزا قويا لاستعادة الأمجاد العربية وقد شاعت فى شعره حيثما قاله ـ نزعة الى العروبة وبعثها وتعميمها فكان يصف الكرماء وأهل النجدة والأبطال بأن خصالهم عربية وفضل السيوف العربية على السيوف الهندية بمثل قوله :

تهاب ســيوف الهند وهى حدائد فكيف اذا كانت نزارية عربا

كما كان يذم العجم وينال منهم فى مثل قوله :

أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وكان المتنبى أكثر شعراء عصره حماسة للقومية العربية واحياء لها بل كان يذهب الى أبعد من ذلك ، اذ وقر فى عزيمته أن يعيد للأمة العربية مجدها الزائل بتأليف العرب وتأليبهم على العجم فى حرب عاصفة يكون هو قائدها وقد كشف عن عزيمته هذه حين قال أبياتا يخاطب بها أبا عبد اله معاذ اللاذقى يوم نزل عنده باللاذقية سنة ٣٢٦ للهجرة وهو فى صدر عمره متوقد النخوة والهمة يصف فيها مطلبه الجسيم وما هو قادم عليه من المغامرة والخطر وكان انذار المتنبى بثورته العربية باديا فى هياجه النفسى الذى عبر منه بقوله المتوعد :

لا تركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقدم من ساق على قدم
تنسى البلاد بروق الجو بارقى وتكتفى بالدم الجارى عن الديم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وقد عاين أبو الطيب الحالة الاجتماعية فى الأمراء والعبيد فقال متهكما :

ـ ولعل ذلك لما قاساه من كافور ـ :

فلا ترج الخير عند امرىء مرت يدا النخاس فى رأسه

وحين هجا كافورا راح يقول بأسلوب التهكم اللاذع فضلا عن الهجاء :

العبد ليس الحر صالح بأخ لو أنه فى ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية أم قدره بالفلسين مردود

ولقد تعددت نواحى العبقرية فى شعر المتنبى وتجلت فيه طوابع الحكمة والتجربة يقولها فى كل شعره وأشبهها بواحاته الفكر والخاطر يقف عندها مستريحا . وكانت ثقافته المتعددة وجولاته فى البلاد سبيلا الى تعدد ألوان شعره فمن غرر ألوانه فى الحكمة والعبرة هذه الأبيات :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظلم
خذ ما تراه شيئا سمعت به فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل
واذا الشيخ قال أف فما مل حياة وانما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى
ابى خلق الدنيا حبيبا تديمه فما طلبى منها حبيبا ترده
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن
غير ان الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
وأتعت من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
فلا تطمعن من حاسد بمودة وان كنت تبديها له وتنيل

ومن ألوان شعره التى انتهت اليها الجودة والبراعة شعر الحرب فلقد بلغ شأوا يناصى به هوميروس فى ملحمة « الالياذة » ولو جمع شعره فى وصف الحرب والمعارك فى تتابع واحد وأعطى العرض والتحليل لكان فى ذلك بعض الوفاء لشاعر أعطى العربية روحه ودمه فقد وصف الخيل

وصفا يبز فيه ما قاله الأوائل من تصـــوير شياتها وحركاتها وصهيلها وأعرقها وتسلل بنفسه الى الوقائع الحربية مع البيزنطيين فكان شعره بوق الحرب الذى نام سيف الدولة فى قبره على هدير صوته فمن هذا الشعر الرائع وصفه وقعة « الحدث الحمراء » سنة ٣٤٣ هـ ٠

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أى الســـاقيين الغمائم
بناها فأعلى والقنا تقرع القنـــا ... وموج المنايا حولها متلاطـــم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منه زمازم

ومن ألوانه المديح الذى ضمن له مكاسب عمره وتسابق الى الحصول عليه الملوك والأمراء لأنه يصور ممدوحه فى شـــعره صورة يضمن لها البقاء ٠ وهو الشاعر الذى يكاد يكون وحيدا فى الشعراء المادحين بطريقته اذ يضع نفسه فى منزلة الممدوح فيتكلم عن الصفات التى يعجب بها من فطانة وكرم وشجاعة ويتناول ممدوحه بمثل هذه السجايا ٠

وهـذا ضرب من الســـمو لم نشـهده عنـــد المداحين الذين كانوا يتواضعون ويخنعون أمام الرؤساء والملوك ٠ ومن مزايا المديح عند أبى الطيب قدرته على ابراز ممدوحه بصفات تلزمه فهو يعمد كالمصور البارع الى الخطوط المؤسسة لشخصيته ثم يقيم عليها قطعته الفنية ومن هنـــا برزت أصالة المدح عنده ٠

مدح سيف الدولة يوما وقد أهدى اليه ســيفا وأماديحه فيه هى المجموعة الكبرى من شعره الذى اختص به صاحب حلب فهو يقول فيه :

معطى الكواعب والجرد السلاهب والـ ... بيض القواضيب والعســـالة الذبل
ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ... ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن فى جذل والروام فى وجل ... والبر فى شغل والبحر فى خجل
ليت المدائح تستوفى مناقبه ... فما كليب وأهل الأعصر الأول ؟
جاز الدروب الى ما خلف خرشنة ... وزال عنهـا وذاك الروع لم يزل

حتى يقول له على عادته فى المديح فى مساواة نفسه بالممدوح :

ناديت مجدك فى شعرى وقد صدرا ... يا غير منتحل فى غير منتحـــل

ومن ألوانه الرثاء : فقد برع فيه وأجل مرثيتين قالهما فى حياته الشعرية ــ وهما يعدلان الكثير مما قاله الشعراء فى الحزن والتفجع ــ مرثيته لجدته والثانية لخولة أخت سيف الدولة التى توفيت بعد سبع سنين من تركه لحلب وقد شفت الشنتان عن عاطفة رقيقة وحنين وصدق فمن قوله فى الأولى :

لك الله من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن الى الكاس التى شربت بهـا ... وأهوى لمثواها التراب وما ضـما
حـرام على قلبى السرور فاننى ... أعد الذى ماتت به بعدها سـما

ويتجلى فى رثائه الحزن العميق والشعور الصادق المتدفق وهو لا يقصره على تعداد المزايا فى المرثى وانما يثير حوادث وذكريات فيعيش فى نطاق من حزنه الحى ويسلسل الحوادث حتى تبدو فى شعره نزاعة الى أسلوب القصة فلا يكون القارىء والسامع غريبا عن أفقها وانما هو ينسـجم ليعيش فيها مع الشـاعر وهذا منتهى البراعة فى التجاوب والتأثير ٠

أما لون الهجاء الذى عنده فهو كما يقول الغربيون فى أدبهم يتخذ شكل (ساتير) بل هو حرب عاصـفة ينزلها أبو الطيب على من كادوا له وخيبوا أمله وهو لا يكون فى أهاجيه الا منتقما أو مدافعا عن نفسـه ٠ لقـد هجا جماعة فى الشام وهجا كافورا الاخشيدى أمر هجاء ولو نهض اليوم مو رمامه لأشفق مما ترك لهم من أوصاف السوء ترويها العصور وترددها الأجيال ٠

وأما الوصف والغزل فان فى القصائد التى قالها أبو الطيب فى الرثاء والهجاء وفى المدح والفخر صـورا رائعة وصف فيها كل ما مر بخياله ونفسه من حياة البادية ومواقع النضال الذى شهده مع سيف الدولة ٠ وكان هو يصف الخيل والفرسان بشعره وكأنه مصور أمام لوح يودعه الخطوط المعبرة والألوان الناطقة ولم يترك منظرا من مناظر الفوز والهزيمة الا صوره ٠ كما انطبع فى باله وخالط احساسه وكانت ألفاظه الجزلة تحمل كثيرا من المعانى والأفكار فيؤدى بها ما يريد من تصوير شعوره بالحياة ورأيه فيها ٠ وهو حين صور صراع ابن عمار للأسد أتى بتفاصيل وتبديع وحين وصف شعب بوان وهو بساتين بفارس نزلها كان رساما ماهرا للطبيعة ٠ ومن فنه فى الوصف انه يعطى الأشياء روحا وحركة وهو الذى أدرك جمال السكون وجمال الحركة ولعله اطلع على فلسفة زينون الاليائى فأخضعها للشـعر حسبما تمثلها وراح يصف حسـناء قال فيها :

تناهى سكون الحسن فى حركاتها ٠

وجرى أبو الطيب على عادة الشعراء فى الغزل فكان يستهل أبياته متغزلا ثم ينسياب مع طبعه وشعوره فيقول المعانى التى يريدها وأكثر ما جاء غزله رقيقا شفافا حين كان فى حمى سيف الدولة وبعد أن فارقه آسفا حزينا ٠

لم يكن المتنبى شاعرا غزلا أرصد شعره للحب والغرام لكنه على عنفه وغلبة عقله كان ألوفا يستجيب لدواعى الهوى والعاطفة ٠

ولقد كشفت اماديحه لأمير حلب عن عشق طواه طويلا لكنه فى شعره لم يستطع ان يخفيه فقد تملك حسه وسرى فى أبياته أنينا وشكوى فلما ماتت المحبوبة التى تعلقها ، دل رثاؤه اياها على لوعة لم تكن فى غير الهائمين المعاميد ٠

فالمتنبى عرف العشق وأقر به فى شعره وردد من ألفاظه ما أكد هواه فغزله اذن تعبير صادق ولم يكن تكلفا وتقليدا ٠

تأثير المتنبى فى الشرق والغرب

لقد اتفق لأبى الطيب من العناية بشعره ما لم يتفق لشاعر عربى قبله فكانت تعقد بمصر على أيامه فيها حلقة لشرح ديوانه وكانت هـذه الحلقة تحت ارشاده • وفى حلب لم تخل مجالس الأدب من ذكره وحفظ شعره وتفسيره وروايته وكان اسم المتنبى دوما مقرونا باسم سيف الدولة• وفى شيراز وحيث عاش عضد الدولة زمنا كان شعر أبى الطيب موضوع بحث ودراسة واستشهاد حتى انتقل الى بغداد وفيها تغلغل اللمز للشاعر وديوانه حيا وميتا •

ولم يتح لشاعر عربى من النقد والتحليل لآثاره فى القديم والحديث ما أتيح لأبى الطيب وكان له فى القدامى محبون وخصـــوم وكذلك فى المحدثين من المعنيين بدراسته والمقارنة بينه وبين غيره •

تتبع الحاتمى البغدادى شعر المتنبى وادعى أنه اجتمع به وناقشه فيه ذكر ذلك فى رسالته الجائية ، وذكر فيها سرقاته والساقط من شعره ومما ذكره أن مصدر الآراء الفلسفية عند المتنبى هو أرسطو • أما ابن جنى فقد شرح ديوانه شرح معرفة وملازمة للشـــاعر وقد روى أن شعر أبى الطيب كثير وأن ما فى الديوان هو المتداول فى ايدى الناس من شعره وكذلك أبو العلاء المعرى أولع به وشرح شعره •

أما المتأخرون فقد كان من أفضـــل جمهرتهم فى العناية بالديوان الشيخ ناصيف اليازجى الذى أسدى الى المتنبى يدا لا تنسى فى سجل الزمن اذ حل معانيه وضبط شعره وقوافيه بما يوافق روح الشـــاعر وأدبه •

وكان الأستاذ عباس محمود العقاد سابقا الى دراسة المتنبى على المنهج العلمى الحديث فجاء بحثه المنشـــور فى مطالعاته جامعا بين الجدة والدقة فى الاستنباط والتقصى والمقارنة •

كما ان من آثار الدكتور عبد الوهاب عزام كتابين فى المتنبى واحدا لذكراه وآخر هو شرح ديوانه • فى الأول أثبت الانطباع الخالد لشعر المتنبى

فى نفسه وعرض لسيرته الزاخرة بالأحداث وقد قدم للقصائد فى شرح الديوان بذكر ظروفها وأحوالها الاجتماعية والسياسية ٠

هذه القصائد قالها أبو الطيب مثلما ينفح النسيم أو تهب العاصفة وقد فرغ منها ثم ترك الخلق يبحثون فيها فى عهده ومن بعده ويتداولون الرأى والنقد ونام هو عنهم جميعا بعين طاب لها الرقاد فى ظلال الخلود وهو القائل :

أنام ملء جفونى عن شـــواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
أنا الـــذى نظر الأعمى الى أدبى وأسمعت كلماتى من به صـــمم

حتى حار أبو العلاء المعرى فى هذه النبوءة التى جاءت من المتنبى يوم نظر بشعره بعد موته ٠

وقد تتبع المستشرق الأستاذ بلاشير أكثر ما ألف فى موضوع المتنبى عند الشرقيين والغربيين وعنى المستشرق الايطالى جابريللى بدراسة المتنبى وهو يرى فى شعره ما يأتى :

١ ــ المتنبى أقرب الى القدماء منه الى المحدثين ٠

٢ ــ ديوانه صـــدى المعرفة العميقة بدواوين الجاهليين والاســـلاميين والمولدين وقد كتب هذا المستشرق دراســـة حياة أبى الطيب من الوجهة الذاتية لا الموضوعية فاستخلص الأمور الآتية :

١ ــ امتلأ ديوانه بالمدائح والمراثى وهذا قسم خلقته المنفعة الخاصة ٠

٢ ــ أقيم التصنع فى هذا القسم مقام الاختيار وحلت التشبيهات والمجاز محل السمات الخاصة بكل شخصية بمعنى ان الحقيقة فى ممدوحيه حسب رأيه بقيت ظلالا باهتة ٠ ومايزال المستشرقون معنيين كل العناية بدراسة المتنبى وشعره لأنهم يجدون فيه مجال القول ذا سعة وموضـــوعا متعدد النواحى يعـــوزه الشرح والتحليل على المنهج الجـــديد ٠

كان كلامنا على حياة أبى الطيب وسيرته ممزوجا بنزعات شعره فان أبا الطيب شاعر أرخ حياته وصور حوادثه فى شعره ولم يحجم ٠ والذين نسـقوا ديوانه حسب أدوار حياته صـنعوا الجميل لتاريخ أدبنا أكثر مما صنع العكبرى ٠ ومن رتب ديوانه على حروف الهجاء مثله فكان أن ضاع بذلك على الدراسين والباحثين منهج التسلسل فى حياة الشاعر جريا على الطريقة السخيفة التى سار عليها الأوائل وبعض الأواخر فى

جمع دواوين الشعراء ونشرها حسب حروف الهجاء فى القوافى والروى وهذه الطريقة ان دلت على شىء فـــلا تدل على أكثر من لعبة تصفيف للحروف واحصاء لعدد الأبيات ٠

ومن أعظم قصائد أبى الطيب « سيفياته » التى قالها فى مدح سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب٠ ويلاحظ المستشرق الأستاذ ريجيس بلاشير فى كتابه الذى وضعه عن المتنبى سنة ١٩٣٥ قبل ذكراه الألفية بعام واحد أن أبا الفرج الأصبهانى لم يذكر أبا الطيب فى كتابه لكرهه للشاعر وأرى أن اغفال هذا الذكر ربما كان عمدا وأن الأصفهانى الذى صـــنع أغانيه فى خمسين عاما وقدمه الى سيف الدولة فأجازه عليه بألف دينار واعتذر ٠

قد يكون هذا الاعتذار على أنه تلقى الكتاب فى أواخر عمره حين ضاقت يده عن جزالة الاكرام وذلك بعد غلبة البيزنطيين وخيبته قبيل موته ومن عجب أن يسكت سيف الدولة عن اهمال أبى الفرج لذكر المتنبى وفى هذا اهمال للأمير نفسه ٠

ولقد لقى شعر المتنبى تحيزا فانقسم نقاده فريقين واحدا معه وآخر عليه وألفوا الكتب المطولة فى ذلك وكان أعدلهم القاضى الجرجانى المتوفى سنة ٤٩٢ هـ كان قاضيا فى الرى فوضع فى أبى الطيب كتابا سماه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، كما وضع أبو الحسن الأفريقى المعروف بالمتيم الذى عاش فى عهد نوح بن منصور السامانى فى أواسط القرن الرابع للهجرة كتابا عن أبى الطيب سماه « الانتصار المنبى عن فضـــل المتنبى » ــ ونجد البديعى الحلبى الذى توفى سنة ١٠٧٣ للهجرة قد وضع كتابا عن الشاعر سماه « الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » ٠

أما العكبرى أبو البقـــاء فقد شرح ديوان أبى الطيب سنة ٥٩٩ للهجرة وقرأه فى مصر على كبير أشياخها فى عصره محمد بن صالح التيمى النحوى كما قرأه على أبى الحرم بن ريان الماكسينى بالموصل معتمدا على أبى الفتح بن جنى فى شرحه لديوان أبى الطيب ثم على شرح أبى العلاء المعرى وأبى زكريا بن الخطيب واستفاد من شروح أبى على بن فورجة وأبى الفضل العروضى ٠ وهذان من أهل القرن الرابع للهجرة ، كما كانت استعانته كبيرة بشرح أبى الحسن الواحدى المتوفى بعد منتصف القرن الخامس للهجرة ٠

★ ★ ★

تلقى المتنبى ثقافته الأولى فى « كتاب » بالكوفة كان يدخله أولاد الأعيان من الكوفيين فتعلم العربية لغة واعرابا وشـــعرا ثم ارتحل فى

مستهل شبابه الى البادية حيث صاحب الأعراب ولابســـهم وأخذ عن شيوخهم كثيرا من أوابد اللغة وشواردها ورجع الى الكوفة بعد ســـنين شاعرا حاذقا عالما باللغة وأسرارها وتنقل من بادية العراق الى بادية الشام ومن البدو الى الحضر ومن المدر الى الوبر مترددا بين القبائل ومخايل العبقرية مبشرة بخير منه كثير وكان الفضل بذلك لأبيه الذى لازمه فى هذه الأسفار الأولى ولما اشتد ساعده قرأ على أكابر العلماء فى عصره منهم الزجاج أبو اسحق والسراج أبو بكر ، كما قرأ على نفطويه وابن درستويه ولزم أبا بكر محمد بن دريد وقرأ عليه ولم يترك كبيرا من علماء عصره دون أن يتصل به ويتلقى عنه ٠

وقد لازم الوراقين واتخذ كراريس يودعهـا شـــعره وخـــواطره ونظراته فيما يروقه أو لا يروقه من شعر معاصريه : أبى تمام والبحترى وبشار وأبى نواس وكانت هذه الكراريس عدته وزاده فى تجواله ورحيله ولقد بقى أثر البادية عميقا فى حياته مطبوعا فى ذهنه وخياله فكان شعره لا يخلو من الأثر حتى بعد انتقاله الى الحضر فكانت لغة البادية فى معانيه وقوافيه ، يهيج فؤاده بالأعرابيات ويترنم ببنات الجديل تمشى فى البيت ويتغنى بالرمح والسيوف وحمحمات الخيل وهدير الفحول ٠

لكن المتنبى الذى تناهت اليه ثقافة البادية والتطواف لم يقتصر عليها وما وقف دونها بل خرج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة ــ كما قال القاضى الجرجانى ــ وراح يقرأ الفلسفة والمنطق ولا شك فى استفادته من فلسفة الفارابى الذى كان معروفا بحلب فى مقامه عند سيف الدولة كما تأثر بمقولات أرسطو وعكف على كتب التصوف حتى فهم المعانى فيه والمرامى ودخلت شعره ألفاظ الصوفية والحكمة واستفاضت فيه خطرات نفسية وروحية دلت على استساغة ما تلقى من ثقافة حضرية تمازجت بالأولى ٠ أما مدرسته الكبرى التى عب منها حتى ارتوى وبقى فيها حتى انتهى فهى الحياة نفسها بتجاربها ومقاليدها ، بشقائها ونعيمها فاكتمل شعره وظهرت خصائص هذا الشعر فى تفكيره وشعوره غير منسلخة من أثر البادية ولا خالية من دواعى القلق والاضطراب فاستطاع ان يجمع بين ثقافتين ويفيد من حياة البدو ومعرفة الحضر ٠

وكان شعره مشابها ــ فى مصطلح عصرنا ــ لجريدة كبرى أو دار نشر فعظم خطره عند خصومه واحبائه وبلغ من تأثير هذا الشاعر بشعره أن خافه الملوك وطمعوا بمدحه وقد أثر الى ذلك مجرى السياسة فى عصره وأخبارها فأسبغ المديح والثناء على رجال وكال الهجاء والطعن لآخرين فجعل التاريخ فى عهده يساق بحداء هذا الهجو وذاك المديح أو ترسم صوره على كل شىء من التزوير أو التعديل ٠

كما أثر فى الشعراء الذين أتوا بعده فهم عالة على قصيده لا يريمون عنها حتى تدركهم التخم وقد ويتسللون الى ديوان أبى الطيب كلما عصتهم القرائح وتمردت المعانى فراحوا يقتنصـــون أروع ما عنده من القوافى والخواطر ولهؤلاء قصائد لو حملت كلماتها ومعانيها ــ كما يقال ــ مغناطيسية الرجوع الى قواعدها عند المتنبى لما بقى لهم سوى الأوزان الجافية مثل سمكة ذهب لحمها وبقى شوكها ٠

تأثيره فى أبى العلاء وشـــوقى

أثر شعر المتنبى ــ من حيث هو فن ــ فى الشعر العربى بعصره وفيمن أتى بعده ، فبعث فى الشعراء همة الى رفع شعرهم نحو طبقته لأن من عادة أهل الأدب الاقتداء والاتباع والمنافسة فأبو فراس الحمدانى وأكثر الشعراء الحمدانيين الذين ذكرهم الثعالبى كانوا ينسجون على أثر أبى الطيب وهم الذين حسدوه وتتبعوا أخطاءه ٠

وأما الذين أتوا بعده وتأثروا به فهم كثير لو تجرد مؤلف لجاء لهم بكتاب كبير فيهم على أنى اكتفى بشاعرين عظيمين عاشا فى ظلال أبى الطيب أو فى تنسم وحيه وكان له فى كل منهما أثر عميق عاش معه عمره وقد يختلف القول فى أحدهما عن الآخر ٠

أولهما أبو العلاء المعرى الذى أقبل على شعر أبى الطيب اقبالا ما عرف من شاعر آخر مثله فتأثر بآرائه السياسية والاجتماعية والدينية أيضا فأبيات أبى الطيب التى يقول فيها :

تمتع من ســـهاد أو رقـــاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثـــالث الحـــالين معنى ســـوى معنى انتباهك والمنام

نرى لها صورا اشتاتا فى اللزوميات لا تكاد تحصى وترجع هذه الأشباه عند أبى العلاء بروحها الى المتنبى ، وحين يغرقنا أبو العلاء بفلسفته الوعظية وزهده فى الحياة وذمه للمرأة وتبيانه للاعيبها النفسية والجنسية من أجل بقاء النوع ويدعونا الى ترك النسل لتعطيل العالم نجد أستاذه أبو الطيب يقول باختصار :

هل الولد المحبـــوب الا تعلة وهل خلوة الحسناء الا أذى البعل
وما الدهر أهـــل أن تؤمل عنده حياة وان يشتاق فيه الى النسل

وأما فلسفة الموت والحياة التى عج بها شعر أبى العلاء عجيجا فاننا نجدها كلها صدى لهذا البيت عند أبى الطيب :

أنبكى لموتانا على غير رغبة تفوته من الدنيا ولا موهب جزل
اذا ما تأملت الزمان وأهله تيقنت ان الموت ضرب من القتل

أو قوله :

يكفن بعضنا بعضا ويمشى أواخرنا على هذه الأوالى

والشاعر الثانى هو أحمد شوقى شاعر العربية فى القرن العشرين الميلادى . لقد أولع بشعر أبى الطيب فقلده فى سبكه وتعبيره والتزم فى أكثر قصائده أوزان المتنبى وقوافيه ورويها ولكن شوقيا لم يكن يصنع هذا لنفسه تعلقا بأبى الطيب فحسب بل اعتقادا منه بأنه لا يقل عنه شأنا فهو مطبوع على الشعر متمكن من العربية فلماذا لا يقدم روائع كالتى أتى بها أبو الطيب يضاهيها بتلك المحاكاة وربما كان فيها الابداع .

كان تأثر شوقى الذى جاء بعده بعدة عصور أقوى من تأثره بشعراء الغرب الذين قرأهم وتعلم ثقافتهم وأقام مدة فى بلادهم فتجلت طوابع المتنبى فى كثير من شعر شوقى وقد حاكاه فى بعض معانيه وألفاظه ورثى جدته « تمراز » بقصيدة عارض فيها ميمية أبى الطيب التى رثى فيها جدته .

منزلته فى الشرق والغرب

لقد احتل أبو الطيب المتنبى فى أدب العرب مكانة رفيعة ارتقى اليها وتبحبح فيها بقوة واقتدار متعاظما ومرغوبا فيه ولم يتح مثلها لغيره من شعراء العربية وليس للحظ دخل فى ذلك فان حساب الحظ يسقط فى القيم الأدبية الخالدة ويكاد يكون هذا الفصل من الكتاب بجملته بيانا لمنزلة الشاعر فى أدب العرب حين تقدم الكلام على ديوانه وشراحه ومن كتب عنه من الأقدمين والمعاصرين وكفى برأى الجرجانى قاضى الرى بل قاضى الأدب أن تناول الشاعر بما هو أهل له فى كتابه « الوساطة » حتى خلص الى ان المتنبى هو الشاعر المتفوق وأن حملة النقد الكبرى التى حملت عليه كانت لنوازع المنافسة والحسد أكثر مما كانت لغاية النقد والأدب وقد خلفت له شهرة وجعلت الأنظار تتجه اليه راضية ومرت منزلة الشاعر عبر العصور فاذا تناولها الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ لم يسىء الى شاعريته فيها وان تبسط بذكر شوائبه وجاء ابن خلكان سنة ٦٨١ للهجرة فترجم للمتنبى فى كتابه المشهور « وفيات الأعيان » وكان قاضيا عادلا كالجرجانى فوضع الشاعر فى أرفع منزلة من الأدب العربى ثم قفى على آثاره البديعى فى القرن الحادى عشر للهجرة فأطال البحث فى قيمة المتنبى فى الشعر والحياة بكتابه « الصبح المنبى » .

وناهيك بما لقى المتنبى من عناية المعاصرين بما تقدم ذكره وخاصة فى اقامة الحقول الدراسية لشعره وأدبه فى ذكرى عيده الالفى سنة ١٩٣٦ فى العواصم العربية وباريس وأهمها مهرجان دمشق ٠

أما منزلة المتنبى فى أدب الغرب فقد احتلها رفيعة مرموقة ، اذ أن الأدب العالمى الذى يزن الشـــعراء والأدباء وأهل الفن بميزان المعـــانى الانسانية ويطلب فى أن يسمع الشاعر الناس أصداء نفسه وروحه وأن يعطيهم صورته الصادقة فى الألم والحب والفرحة والبغضاء وأن يكون شيئا ملحوظا فى تاريخ البشر بآثاره الخالدة ونفاذا بناظريه وراء الوجود وكل هذا يجده الغربيون فى شعر المتنبى فكان من السباقين الى التعريف بأبى الطيب فى أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين الأستاذ المستشرق القديم غوستاف شلومبرجة الذى ترجم للمتنبى بمواضع كثيرة من كتبه وعرف به وبشـــعره وبفروسيته وحروبه للبيزنطيين والمؤرخ الرومى اسكندر فازيلييف وهو من السباقين أيضا فى الغرب الى التعريف بالمتنبى ٠

ثم مضى على أثرهما أستاذان كبيران أحدهما الأستاذ المستشرق ماريوس كانار فوقف جزءا كبيرا من آثاره الأدبية فى فرنسا والجزائر على أبى الطيب المتنبى والحمدانيين والثانى الأستاذ المستشرق رجيس بلاشير الذى ترجم فى كتابه الذى ألفه عن أبى الطيب قسما كبيرا من شعره للغة الفرنسية ٠

وقد قدم هؤلاء وغيرهم من المستشرقين الألمان والروس والهولانديين والايطاليين أبا الطيب للعالم العربى وللأدب العالمى فرأوه شاعرا للعربية من طراز أعلى يعلم شعره المجد والمروءة والأخلاق ويبعث فى النفس روح الحماسة والبطولة وهم جميعا عدوا أبا الطيب شاعرا منهم حدثا رائعا فى أدب أمته ٠

وقد عنى غير هؤلاء بالمتنبى طائفة من المستشرقين درس كل منهم ناحية خاصة من نواحيه فى الأدب والفلســـفة فعنى المستشرق لويس ماسينيون بناحية غريبة فى شعر أبى الطيب فعزا ما عنده من صلابة الأسر وتوقد الحماسة والميل الى الحرب الى نزعة (قرمطية) سماها النزعة الى سفك الدماء وهذا مذهب ارتآه الأستاذ ماسينيون حين وجد القرامطة يدهمون الأمصار فى عصر أبى الطيب وقد جاءوا البصرة والكوفة وأعملوا فيها النهب والفساد ٠

والذى أجده أن ميل أبى الطيب الى الحرب كان نزعة حربية حرة فى عصر عانى فيه العرب الانقسام والتناحر ومكايد الفرس والترك فكان

أبو الطيب صاحب رسالة حربية فى تحرير العرب من ربقة العجم وتجديد حياتهم بردهم الى مثلهم العليا السابقة ولا نستغرب هذه الرسالة من شاعر عربى حر كالمتنبى وتاريخ نضاله ورحلاته ومحتوى ديوانه يدلان أوضح دلالة على هذه الخطة التى ما حاد عنها حتى مات · وليس ما يسوغ تفسير النزعة العربية الواضحة الصريحة عند أبى الطيب بنزعة قرمطية دموية مرادها السفك والتقتيل وقد رأى المستشرق ماسينيون رأى كل من الدكتور طه حسين والدكتور شوقى ضيف ·

فهل تكون دعوة من نافح عن بلاده فى ذلك الحين وقد تحكم بها الأجنبى اذا حمل السلاح ودعا للتحرير والكفاح نزعة قرمطية لأنها تهدد بسفك الدم ؟ أو اذا قام فى عصرنا داعية ثائر لتخليص بلاد العرب من سلطان الأجنبى والمستعمر والصهيونية الغاصبة فأخذ بالشعر ليبعث الحمية والنخوة فى العرب يكون قرمطيا ؟ ان الوضع لم يختلف فى عصر المتنبى عما فى عصرنا ولئن كان من حظ القرن الرابع أن وجد فيه شاعر كالمتنبى ينهض بتلك الرسالة فمن لنا فى عصرنا بشاعر ؟ وشعراؤنا بين معتزل أو متغزل ، أو لاه بمطامع الدنيا ···

وقد عنى بالمتنبى عدا أولئك المستشرقين أنداد لهم معاصرون فيهم : كارل بروكلمان وكارادوفو كما كتب المستشرق الايطالى جابريللى عن حياة المتنبى التى عرضها فى معرض التحليل ووجد صاحبها شاعرا يرتفع الى مصاف شعراء الغرب الخالدين وقد مارس هذا المستشرق دراسته لأبى الطيب خلال الأعوام ١٩٢٧ ــ ١٩٢٩ و ١٩٣٦ · ويستخلص من هذا أن المتنبى بما ترك من شعر ودوى يعد من مفاخر الأمة العربية وأنه لا يقل قدرا ومنزلة عن الشعراء والعباقرة فى أمم الشرق والغرب ··

مختارات من ديوان المتنبى

١ ـ التوثب والطموح

دل شعر المتنبى فى كل صوره وألوانه وخاصة فى صدر حياته على توثب وطموح لتحقيق أمر يضمره الشاعر وبدت صور هذا التوثب بعزيمة واستعداد أو بتوعد وتهديد أو باعتزاز بالنفس ونماذج هذه الطفرة الروحية فى شعر أبى الطيب تدل على اتجاهه الذى كان أبدا يسعى اليه ٠

وثبة ماجـــد

الى أى حين أنت فى زى محـــرم ... وحتى متى فى شـــقوة والى كم
وان لا تمت تحت السيوف مكرما ... تمت وتقاسى الذل غير مكرم
فثب واثقـــا بالله وثبة ماجـد ... يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

وسائل العلى

تحقر عنـــدى همتى كـل مطلب ... ويقصر فى عينى المدى المتطاول
ومازلت طودا لا تزل مناكبى ... الى ان بدت للضـــيم فى زلازل
كأنى من الوجناء فى ظهر موجـة ... رأت بى بحارا ما لهن ســـواحل
يخيل لى أن البـــلاد مســـامعى ... وأنى فيها ما تقول العواذل
ومن يبخ ما أبغى من المجد العلى ... تساوى المحايا عنده والمقاتل
ألا ليست الحاجات الا نفوســـكم ... وليس لنا الا السيوف وســـائل

الجلد الشـــجاع

أبا عبـــد الاله معـــاذ أنى ... خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جسيم ما طلبى وأنا ... نخاطر فيه بالمهج الجســـام
أمثلى تأخذ النكبـــات منه ... ويجزع من ملاقاة الحمـــام
ولو برز الزمان الى شخصا ... لخضـــب شعر مفرقه حســـامى
وما بلغت مشـــيئتها الليالى ... ولا ســـارت وفى يدهـــا زمامى
اذا امتلأت عيون الخيل منى ... فويل فى التيقظ والمنـــام

(ب) التنقل فى البلاد

ولابد لمن يطلب المجد ان يطلبه فى كل مكان وأوان فاذا ضاق به بلد تركه الى سواه سعيا وراء أمانى النفس ورغبات الهمة والعزم :

الرحالة

أوانا فى بيـــوت البـــدو رحلى ... وآونـــة على قتـــد البعير
أرعض للرماح الصـــم نحرى ... وأنصـــب حر وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى ... كأنى منـــه فى قمر منـــير

طـــلاب الغرر

لا أقترى بلدا الا على غرر ... ولا أمر بخلق غير مضـــطغن
ومدقعين بســـبروت صـــحبتهم ... عارين من حلل كاســـين من درن
خراب بادية غرثى بطـــونهم ... مكن الضـــباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبرى ... وما يطيش لهم ســـهم من الظنن

البغية السامية

تغرب لا مستعظما غير نفســـه ... ولا قابلا الا لخالقه حكمـــا
ولا ســـالكا الا فواد عجاجه ... ولا واجدا الا لمكرمة طعمـــا
يقولون لى ما أنت فى كل بلدة ... وماتبتغى؟ ماأبتغى جل ان يسمى!

جبـــل وبحـــر

وكم من جبال جبت تشهد أننى ال ... جبال وبحر شـــاهد اننى البحر
وخرق مكان العيس منه مكاننـــا ... من العيس فيه واسط الكور والظهر
يخدن بنا فى جوزه وكأننا ... على كرة أو أرضه معنا ســـفر
ويوم وصلناه بليل كأنمـــا ... على أفقه من برقـــة حلل حمر
وليل وصلناه بيوم كأنمـــا ... على متنه من دجنـــة حلل خضر

طلائع النجاد

وعقاب لبنان وكيف بقطعها ... وهو الشتاء وصيفهن شـــتاء
لبس الثلوج بها على مسالكى ... فكأنها ببياضـــها ســـوداء

موجة الريح

ألفت ترحلى وجعلت أرضى قتودى والغريرى الجلالا
فما حاولت فى أرض مقاما ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتى أوجهها جنوبا أو شمالا

(ج) الغزل

قيل ان أبا الطيب تكلف الغزل على عادة الشعراء فلم تكن له عاطفة العاشق المتيم وقد علل النقاد هذا الرأى بأن المتنبى غلب عقله على عاطفته لكن قصائد المتنبى نفسها هى التى تدل على احساسه الرقيق فى الأبيات التى عبر فيها عن هواه ولم يستطع أن يخفى هذه الحقيقة وقد جاءت صور الغزل فى هذه الأبيات المتفرقة بدوية الأوصاف والملامح فلسفية المعانى أحيانا فيما حاكاه وتكرارا ، لكن روح العشق مشبت فى ألفاظها وقوافيها وهذه أبيات منها :

البدوية

من الجآذر فى زى الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب
ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبى غير مخضوب

العاشق المبتلى

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى مجال لدمع المقلة المترقرق
وأحلى الهوى ماشك فى الوصل ربه وفى الهجر فهو الدهر يرجو ويتقى
وغضبى من الأدلال سكرى من الصبى شفعت اليها من شبابى بريق
وأشنب مصسول الثنيات واضح سترت فمى عنه فقبل مفرقى
وأجياد غزلان كجيدك زرننى فلم أتبين عاطلا من مطوق
وما كل من يهوى يعف اذا خلا عفافى ويرضى الحب والخيل تلتقى

(د) الفخر

مما أثار حقد النـــاس على أبى الطيب من بنى قومه ومن الأمراء والملوك ومن العلماء والشعراء تشبث بالنسب وتفاخر بالشرف وتعاظم بما أوتى من مجد وفضل وتفوق واقدام عبر عن كل ذلك فى شعره بهذه المعانى فى مختلف قصائده ولا تكاد تخلو واحدة من بيت أو أبيات يمدح فيها ويفاخر :

ما بقـــومى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لا بجـــدودى
وبهم فخر كل من نطق الضـــا ... د وعوذ الجانى وغوث الطريد
ليس التعلل بالآمـــال من أربى ... ولا القناعة بالاقلال من شـــيمى
لا تركن وجوه الخيـــل ســـاهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
أى محـــل أرتقـــى ... أى عظيـــم أتقـــى
وكـــل ما قد خـــلق ... اللـــه وما لـــم يخلق
محتقـــر فى همتـــى ... كشـــعرة فى مفرقـــى
أنا الـــذى نظر الأعمى الى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم
وما الدهر الا من رواة قصائدى ... اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغنى مرددا
تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا الا لخالقه حكمـــا
فلا عبرت بى ساعة ولا تعزنى ... ولا صحبتنى مهجة تقبل الضـــيما

(هـ) المديح

ومن اماديحه فى عيد الأضحى لسيف الدولة أنشـــدها وهو على فرسه وسيف الدولة على فرس مقابل فى ميدان حلب تحت قصره :

اليـــوم الأوحد

لـــكل امرىء من دهره ما تعـودا ... وعاد سيف الدولة الطعن فى العدى
وأن يكذب الارجاف عنه بضـــده ... ويمسى بما تنوى أعاديه أسـعدا
ذكى تظنيه طليعـــة عينـــه ... يرى قلبه فى يومه ما ترى غدا
وصول الى المستصعبات بخيله ... فلو كان قرن الشمس ماء لا وردا
لذلك سمى ابن الدمستق يومه ... مماتا وسماه الدمستق مولدا
سريت الى جيجان من أرض آمد ... ثلاثا لقد ادناك ركض وابعدا

فولى وأعطاك ابنه وجيوشه جميعا ولم يعط الجميع ليحمدا
عرضت له دون الحيـــاة وطرفه وأبصر سيف الله منـــك مجردا

(و) الشـاعر الحكيم

تمرس أبو الطيب بكل شأن من شئون الحياة فذاق حلوها ومرها وعرف بؤسها ونعيمها وأحاط بثقافتها وعاش بتجاربها ومحنها ، ولم يقنع بما تعلم فكان دائب التطلع الى كل جديد وقد تمثل هذا فى معانيه التى اقتبست من غموض الصوفية ومن مذاهب الفلسفة التى عاشت فى عصره فظهرت فى شعره وهذه أبيات قليلة تردد فى كل زمان ومكان تجرى مجرى الأمثال وتعبر أصـــدق تعبير عن كثير من المعانى والأمور على اختلاف الحوادث والعصور :

ذل من يغبـــط الذليـــل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـــرح بميت ايـــلام
أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم الخلاهم من الفطن
اذا أنت أكرمت الـــكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيـــم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف فى موضع الندى
ما كـــل ما يتمنى المرء يدركـــه تجرى الرياح بما لاتشتهى السفن
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدوا لـــه ما من صـــداقته بد
واذا كانت النفـــوس كبـــارا تعبت فى مرادها الأجســـام
واذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بانى كامل
واحتمال الأذى ورؤية جانيـــ ـــه غذاء تضوى به الأجسام
واذا ما خلا الجبـــان بأرض طلب الطعن وحـــده والنزالا
تصـــفو الحيـــاة لجاهل أو غافل عما مضى منهـــا وما يتوقع
ولن يغالط فى الحقائق نفســـه ويسومها طلب المحال فتطمع
وأتعب خلق الله من زاد همـــه وقصر عما تشـــتهى النفس وجده
وما بلـــد الانســـان غير الموافق ولا أهله الادنون غير الاصـــادق
لولا المشـــقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والأقدام قتـــال
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشـــقاوة ينعم
ومن البلية عذل من لا يرعـــوى عن جهله وخطـــاب من لا يفهم
ومن العـــدواة ما ينالك نفعـــه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهاما بها صـــبا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا
اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

والى جانب تلك الحكم السامية التى نظمها المتنبى وأودعها شعره جرت قريحته بكثير من المعانى التى ذهبت مذهب الأمثال وحفظها الناس جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر واليكم بعضا منها :

ان المعارف فى أهل النهى ذمم
أنا الغريق فما خوفى من البلل
ليس التكحل فى العينين كالكحل
ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا
وفى عنق الحسناء يستحسن العقد
مصائب قوم عند قوم فوائد
ومن قصد البحر استقل السواقيا
الجوع يرضى الأسود بالجيف
ولابد دون الشهد من ابر النحل
وبضدها تتميز الأشـــياء
رب عيش أمر منه الحمام

تاريخ الأمم والملوك

الطبري

٣١٠ هـ

تميزت الحركة الفكرية فى القرن الثالث للهجرة بأمرين كان من أهم نتائجهما التعجيل بازدهار الفكر العربى الاسلامى وفتح الباب واسعا أمام جداول الثقافات العالمية لتصب فى النهر الكبير ، نهر الثقافة العربية الاسلامية .

وأول هذين الأمرين هو اقتراب العلوم الاسلامية من النضج والكمال سيما وان العمليات الأولية (كالرحلة فى طلب العلم وجمع المعلومات) والتبويب (تبويب الأحاديب والأخبار وتمييز صحيحها من فاسدها ... الخ) وتدوين الروايات فى الحقول المختلفة كانت قد انتهت وبدأ المشتغلون فى العلم يصنفون المطولات فى مختلف العلوم والفنون .

وفى هذه الحقبة من تاريخ الفكر العربى كانت اللغة قد جمعت من أفواه الأعراب وصنفت فيها الكتب ووضعت كتب السيرة والمغازى والفتوح وتبلورت الآراء والمذاهب الفقهية وأصبحت ترتكز على أسس ثابتة وجمع الحديث وألفت فيه الكتب الصحاح واتسعت آفاق الرجال فأصبح المحدث من بينهم يلم بالشعر والأخبار والمشتغل بالنحو يأخذ بالنصيب الوافر من الحديث والفقيه لا تخلو جعبته من شعر وخبر .

وثانى هذين الأمرين هو انكسار الطوق الذى كان يحصر مراكز الفكر فى العراق بمدنه الثلاث : الكوفة والبصرة وبغداد وسريان نور الثقافة الى مراكز جديدة خارج العراق كالشام ومصر والمغرب وفارس وخراسان وما وراء النهر والرى وغيرها ، أصبحت هذه المراكز الجديدة تزخر بحلقات الدرس والتحصيل وتوفر لها من العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل اللغة والخبر ما جعلها محط أنظار الدارسين وطلاب العلم يقصدونها للاستماع الى شيوخها والأخذ عنهم وتلقى العلم على يديهم .

نشأة ابن جرير الطبرى .. نبوغ مبكر !!

فى هذه الفترة من تاريخنا الفكرى وله وعاش المؤرخ الفقيه أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى .

ولد بآمل عاصمة اقليم طبرستان وأكبر مدينة فى سهله وهى مدينة خرجت كثيرا من العلماء ولكنهم ينسبون الى طبرستان فيقال لكل منهم الطبرى ٠

والاقليم الذى يشـــمله طبرستان متسع ممتد تشغل الجبال أكثر مســـاحته ٠

وقد ســـمى بهذا الاسم لأن ســـكان الجبال كثيرو الحروب وأكثر أسلحتهم الأطبار ، فليس بينهم صعلوك ولا غنى ولا صغير ولا كبير الا وبيده الطبر فسميت بلادهم طبرستان أى بلاد الأطبار أو موضع الأطباز ٠

وهو اقليم كثير المياه متهدل الأشجار متنوع الفاكهة قال أبو العلاء الروى فى وصفه :

اذا الريح فيهـــا جرت الريح أعجلت
فواختها فى الغصن أن تترنمـــا

فـــكم طيرت فى الجـــو وردا مدنرا
يقلبـــه فيـــه ووردا مدرهمـــا

وأشـــجار تفـــاح كـــأن ثمارها
عوارض أبكار يضـــاحكن مغرما

فان عقدتها الشمس فيها حسبتها
خدودا على القضبان فذا وتوأما

ترى خطباء الطير فوق غصـــونها
تبث على العشـــاق وجدا مكتما

بدأ سعيد بن العاص فتح الاقليم فى عهد عثمان بن عفان فلما تولى معاوية بعث اليها مصقلة بن هبيرة ومعه عشرون ألف رجل فأوغل فيها لكن أهلها ترصدوا لهم فى المضايق فقتلوا مصقلة وأكثر رجاله ٠

فكان المسلمون بعد ذلك اذا غزوا هذه البلاد تحفظوا وحذروا التوغل فيها ٠

فلما تولى يزيد بن المهلب خراسان فى أيام سليمان بن عبد الملك سار حتى وصل الى طبرســـتان وقاتل أهلها فصالحوه ولم يزالوا يفون بصلحهم مرة ويغدرون أخرى الى أيام مروان بن محمد فانهم نقضوا عهدهم ومنعوا جزيتهم فوجه اليهم السفاح عاملا فصالحوه على مال ، ثم غدروا

وقتلوا المسلمين في خلافة المنصور فارسل اليهم ثلاثة من قواده حاربوهم وانتصروا عليهم ٠

وفى أيام المأمون افتتحت جبال شروين من طبرستان وهى من أمنع الجبال وأصعبها فولى المأمون على طبرستان المازيار بن قارون ــ وكان قد شارك فى فتح الجبال ــ وسماه محمدا فلم يزل واليا عليها حتى توفى المأمون فأقره المعتصم ولم يعزله لكنه بعد ست سنوات من ولاية المعتصم غدر وخالف ٠ فكتب المعتصم الى عبد الله بن طاهر واليه على المشرق (خراسان والرى وقومس وجرجان) يأمره بمحاربته ، فلما قصدته جنود الخليفة وجنود ابن طاهر سلم ، وحمل الى سر من رأى (سامراء) سنة ٢٢٥ هـ فضرب بالسياط بين أيدى المعتصم حتى مات ٠

ثم وليها بعد عبد الله بن طاهر ابنه طاهر وخلفه عليها أخوه سليمان فخرج عليه الحسن بن يزيد العلوى سنة ٢٤٩ فاخرجه عنها وغلب عليها الى أن مات وخلفه أخوه محمد بن يزيد ٠

★★★

أما اسمه فمحمد وأما كنيته فأبو جعفر ٠

والمؤرخون متفقون فى نسبه حتى جده فهو أبو جعفر محمد بن جرير ابن يزيد لكنهم بعد ذلك مختلفون ، فيزيد هذا ابن كثير بن غالب فى رأى أكثرهم ولم يذكروا رأيا آخر وفى رأى آخرين أنه ابن خالد ويظهر من عبارة ابن خلكان أنه يعتقد صحة هذا النسب ويضعف الرأى الآخر ٠

على أن أبا جعفر نفسه لم يكن يزيد فى نسبه اسما آخر على أبيه فقد سأل عن نسبه فقال : محمد بن جرير ، قال السائل : زدنا فى النسب فانشده بيت رؤبة بن العجاج :

قد رفع العجاج ذكرى فادعنى
باسمى اذا الانساب طالت يكفنى

ولد فى آخر سنة ٢٢٤ أو فى مطلع سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ م) وقد سأله القاضى ابن كامل أحد تلاميذه الذين أرخوا له : كيف وقع لك الشك فى سنة مولدك ؟ فقال أبو جعفر : كان أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دول السنين فأرخ مولدى بحادث كان فى بلد فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون قال بعضهم : كان ذلك فى آخر سنة أربع وعشرين ومائتين ٠ وقال آخرون : بل كان فى أول سنة خمس وعشرين ومائتين ٠

وكانت وفاته ببغداد يوم ٢٦ من شوال سنة ٣١٠ هـ فى عصر الخليفة العباسى المقتدر بالله ٠

ويبدو أن مؤرخيه يستبعدون ما قيل عن وفاته فى سنة ٣١١ أو ٣١٦ هـ ٠

وهم مجمعون على أن وفاته كانت ببغداد اذ أنه دفن هناك ٠

وقد ذكر ابن خلكان أنه رأى بمصر فى القرافة الصغرى عند سفح المقطم قبرا يزار وعند رأسه حجر مكتوب عليه (هذا قبر ابن جرير الطبرى) والناس يقولون انه صاحب التاريخ المشهور ثم قال : ان هذا ليس بصحيح ، بل الصحيح أنه دفن ببغداد وكذلك قال ابن يونس فى تاريخه المختص بالغرباء ٠

لم يكد أبو جعفر يبلغ السبن التى تؤهله للتعلم حتى يعهد به والده الى علماء (آمل) وسرعان ما يتفتح عقله وتبدو عليه مخايل النبوغ وهو حدث فقد قال : « انى حفظت القرآن ولى سبع سنين وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين وكتبت الحديث وأنا فى التاسعة » ٠

وكان هذا النبوغ المبكر حافزا لأبيه على الجد فى اكمال تعليمه وبخاصة أنه رأى حلما تفاءل من تأويله قال الطبرى : « رأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى مخلاة مملوءة بالأحجار وأنا أرمى بين يديه ٠

وقص رؤياه على المعبر فقال له : ان ابنك ان كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبى صغير » ٠

وأغلب الظن أن والده لم يحبس هذه الرؤيا فى نفسه بل أخبر بها ابنه الصغير ولعله أخبره بها مرات فكانت هذه البشارة من حوافز أبى جعفر الى الاجتهاد فى طلب العلم والدأب النشيط فى الاستزادة من ينابيعه ، ثم الكد المتصل فى التدريس والتأليف طيلة حياته ٠

ها هو ذا يقضى سنوات فى « آمل » تزيده الى المعرفة ظمأ فيتنقل بين مدن طبرستان وغيرها من بلاد الفرس يستقى من ينابيعها ما يبرد غلته فيبدأ بالسفر الى الرى وما جاورها ليأخذ الحديث عن محمد بن حميد الرازى والمثنى بن ابراهيم الابلى ويقول : « كنا نكتب فى ابن حميد فيخرج الينا فى الليل مرات ويسألنا عما كتبناه ويقرؤه علينا » ٠

وفى هذه المنطقة يدرس التاريخ على محمد بن أحمد بن حماد الدولابى مع حرص شديد على مجالسى ابن حميد قال : « كنا نمضى الى أحمد ابن حماد الدولابى وكان فى قرية من قرى الرى ثم نعدو كالمجانين حتى نعود الى ابن حميد فنحلق مجلسه » . ويقال انه كتب عنه أكثر من مائة ألف حديث .

على أنه درس عليه التفسير أيضا وأخذ فقه أهل العراق عن أبى مقاتل بالرى ، فاذا ما ارتوى من هذه الينابيع أحس بظمأ جديد الى مناهل أخرى .

فالى أين يقصد ؟

يشخص الى بغداد ليسمع من عالمها أحمد بن حنبل ويمنى نفسه وهو فى طريقه بأنه سيتلقى من الامام المحدث الفقيه ، لكن الأقدار لم تحقق له ما كان يأمله اذ توفى ابن حنبل قبل ان يصل أبو جعفر الى بغداد ويعلم بوفاته وهو على مقربة منها فينصرف عنها ولا يفكر فى ان يعود الى بلده فيتجه الى البصرة ويسمع من علمائها : يسمع من محمد بن موسى الخرشى وعماد بن موسى القزاز ومحمد بن عبد الأعلى الصنعانى وبشر بن معاذ ومحمد بن بشار المعروف ببندار وأبى الأشعث ومحمد بن المعلى وغيرهم .

ثم ينتقل الى واسط فيسمع من بعض شيوخها .

ويحدوه الكلف بالمعرفة الى أن يرحل الى الكوفة فيكتب الحديث عن هناد بن السرى واسماعيل بن موسى وأبى كريب محمد بن العلاء الهمدانى ويأخذ القراءات عن سليمان الطلحى .

ويتبين زملاؤه فى الكوفة انه أقدرهم وأحفظهم ثم يتبين أبو كريب أن الطبرى أنبغهم ، فقد كان أبو كريب من كبار علماء الحديث لكن كانت فيه شراسة وشدة . وقد وصف الطبرى لقاءه لتلاميذه مرة فقال : « حضرت الى داره مع طلاب الحديث فاطلع من باب خوخة له ، وطلاب الحديث يلتمسون الدخول ويصيحون فقال : أيكم يحفظ ما كتبه عنى ؟

فالتفت بعضهم الى بعض ثم نظروا الى وقالوا : أنت تحفظ ما كتبت عنه ؟ قلت : نعم قالوا : هذا فاساله فقلت : حدثنا فى كذا بكذا وفى يوم كذا بكذا .

فأخذ أبو كريب يسألنى الى ان عظمت فى نفسه فقال لى : ادخل الى فدخلت فمكننى من حديثه » .

ويقال انه سمع من أبى كريب أكثر من مائة الف حديث • هل يقنع الطالب النهم بما حصل فى الرى والبصرة وواسط والكوفة ؟ لا ولعل هذه الدراسة قد زادته الى العلم شوقا وزادته به كلفا •

لقد كان يريد بغداد ليدرس على ابن حنبل فانصرف عنها لما علم بموته ولم يدخلها •

فلماذا لا يتجه اليها الآن وفيها من جلة العلماء من يروون ظمأه أو بعض ظمئه الى المعرفة ؟

وسرعان ما يندفع الى بغداد فيدرس القراءات على أحمد بن يوسف التغلبى ، ويتلقى فقه الشافعى عن الحسن بن محمد الصباح الزعفرانى وعن ابى سعيد الاصطخرى •

فهل آن لهذا الظمآن أن يرتوى فلا يرتحل الى ينابيع أخرى ؟

ان هذا بعيد لأن العطاش الى المعارف لا يرتوون مهما ينهلوا ولعلهم كلما نهلوا استطابوا العلم فازدادوا اليه ظمأ واحتملوا فى سبيله نصبا •

انه يعتزم رحلة طويلة الى بلد بعيد تهفو اليه نفسه • فليتجه الى مصر ليستقى من مناهلها التى طالما سمع بها •

لكن شوقه الى المعرفة يعرج به الى الشام فيقيم فى بيروت مدة يلقى فيها العباس بن الوليد البيروتى المقرىء ويقرأ عليه القرآن كله برواية الشـــاميين •

فاذا ما قضى من الشام حاجته اندفع الى مصر فوصل اليها سنة ٢٥٣ هـ فى أوائل عهد أحمد بن طولون •

أقام مدة بالفسطاط ثم عن له ان يعود الى الشام فلما قضى من هناك أربا علميا رجع الى مصر سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) •

ولقد كانت مصر حينئذ ثرية بعلمائه الذين استسقاهم الطبرى •

ها هو ذا يدرس فى مصر فقه الشافعى على الربيع بن سليمان المرادى واسماعيل بن ابراهيم المزني ومحمد بن عبد الله بن الحكم وأخيه عبد الرحمن ويدرس فقه مالك على تلاميذ ابن وهب •

ويلقى يونس بن عبد الأعلى الصدفى فيأخذ عنه قراءة حمزة وورش• وكان بمصر وقت دخوله اليها أبو الحسن على بن سراج المصرى وكان متأدبا فاضلا يقصده من دخل الفساط من أهل العلم فلما ظهرت شهرة الطبرى بمصر وبان فضله وعلمه بالقرآن واللغة والحديث والفقة والنحو والشعر

لقيه أبو الحسن بن سراج فوجده واسع المعرفة سديد الجواب فى كل ما سأله عنه .

فسأله عن شعر الطرماح بن حكيم ولم يكن فى مصر من يحفظه فوجد الطبرى يحفظه فسأله ان يمليه ويفسر غريبه فأخذ يمليه عند بيت المال فى الجامع .

ثم يناقش المزنى — بعد أن درس عليه فقه الشافعى — فى عدة مسائل منها كلام فى الاجماع . وكان الطبرى قد اختار من مذاهب الفقهاء قولا اجتهد فيه بعد ان كان تفقهه فى بغداد على مذهب الشـــافعى وبعد ان درسه بمصر .

وقد سأله أبو بكر أحمد بن كامل فيما بعد عن المسألة التى تناظر فيها هو والمزنى فلم يذكرها لأنه كما قال ابن كامل : « كان أفضل من ان يرفع نفسه وأن يذكر تفوقه على خصم فى مسألة » .

ويشاء حظه المواتى ان يجتمع بمصر بمحمد بن اسحاق بن خزيمة وأن يقرأ كتابه فى السيرة ثم يعتمد عليه فى مصادر تاريخه .

وقد اجتمع بمصر فى ذلك الوقت أربعة من العلماء الوافدين اسم كل منهم محمد هم : محمد بن جرير الطبرى ومحمد بن اسحاق ومحمد ابن نصر المروزى ومحمد بن هارون الروياني وقد أبى الخيال الا أن يزخرف من اجتماعهم بمصر اسطورة تنبىء عن نبل أخلاقهم وطهارة نفوسهم وتدل على تقدير الحاكم للعلم والعلماء .

ذكر ياقوت نقلا عن كتاب السمعانى وذكر الخطيب البغدادى فى ترجمته لمحمد بن حرب أن الرحلة جمعت بين أولئك المحمدين بمصر فأملوا وافتقروا ولم يبق عندهم ما يمونهم ولحق بهم الضرر فاجتمعوا ليلة فى منزل كانوا يأوون اليه واتفقوا على أن يستهموا — يقترعوا — فمن خرجت عليه القرعة سأل الناس لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على محمد بن اسحاق فقال لأصحابه : أمهلونى حتى اتوضأ وأصلى صلاة الخيرة . فاندفع الصلاة فاذا هم بالشموع وخصى من قبل والى مصر يدق عليهم الباب ففتحوا له فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل له : هذا وأشاروا اليه فأخرج صرة فيها خمسون دينارا ودفعها اليه .

ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقيل له هذا فدفع اليه مثلها .

ثم قال : ايكم محمد بن اسحاق ؟ فقالوا : هو ذا يصلى فلما فرغ من صلاته دفع اليه صرة فيها خمسون دينارا .

ثم قال لهم : ان الأمير كان فى قيلولته فرأى فى النوم طيفا يقول له :

ان المحامد اشتد بهم الجوع فبعث بهذه الصرر وهو يقسم عليكم اذا نفدت أن تبعثوا اليه ليزيدكم ٠

ويظهر أن الحنين الى بغداد عاوده فقصد اليها ٠

لكنه لم يلبث أن اتجه الى طبرستان وكانت هذه زورته الأولى لها منذ ان فارقها فى طلب العلم ٠

فقضى بها مدة رجع بعدها الى بغداد ثم عاد الى طبرستان مرة ثانية سنة ٢٩٠ هـ ٠

لكن بغداد أبت الا أن تجتذبه فعاد اليها وأقام بها وانقطع للتدريس والتأليف الى ان ودع الحياة ٠

ويظهر من تتبع أساتذته أنه تلقى على الكبار من علماء عصره وسمع من الشيوخ الثقات الذين مر ذكر بعضهم ٠

وهناك كثير غيرهم من أصحاب الأسانيد العالية بمصر والشـــام وبغداد والكوفة والبصرة والرى ٠

فقد تلقى القراءات على سليمان بن عبد الرحمن بن حماد (خلاد) الطلحى ، وكان الطلحى قد قرأ على خلاد وخلاد قرأ على سليم بن عيسى وسليم قرأ على حمزة وتلقاها كذلك عن يونس بن عبد الأعلى عن على بن كيسة عن سليم بن حمزة ٠٠٠

تطور المنهج التاريخى عند الطبرى

كان التاريخ قبيل الطبرى وفى عصر الطبرى قد خطا خطـــوتين واسعتين فى ميدان تطوره . أولاهما هى استقلاله وانفصاله من الحديث فى القرن الثانى منذ تخصص كثير من المؤرخين فى موضـــوعات معينة اشتهروا بمعرفتها وجمعها وتدوينها : فمحمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ يشتهر بالانساب وعوانه بن الحكم الكلبى المتوفى سنة ١٤٧ يدون أخبار بنى أمية وأبو مخنف لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٥٧ هـ يؤلف فى حرب الردة وفى موقعة الجمل وفتوح الشام ومقتل عثمان ومقتل على الخ ، وسيف بن عمر المتوفى سنة ١٧٠ يؤلف فى الفتوح وهشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ يدون أخبار الأوائل وأيام العرب وأنســـابهم وأصنامهم ويؤلف فى بعض أخبار الاسلام .

وكان بعضهم قد تخصص فى تواريخ الأقاليم فكان أبو مخنف أعلم من غيره بأمور العراق وأخبارها وفتوحها ، وكان المدائنى أعرف بأمور فارس وخراسان والهند وكان الواقدى أدرى بالسيرة النبوية وتاريخ الحجاز وهؤلاء الثلاثة أكثر من غيرهم علما بفتوح الشام ثم اتضح هذا التخصص حينما انقسمت الدولة العباســـية منذ منتصف القرن الثالث وتعددت الممالك والامارات والدويلات وكثرت العواصـــم والحواضر التى نافست بغداد فازدانت بالعلماء أصفهان وغزنة والرى وبلخ وحلب والقاهرة والقيروان وقرطبة .

وكان من أثر هذا الاستقلال أن ازدهر التاريخ الاقليمى وأن كثرت كتب التراجم والطبقات .

فابن عبد الحـــكم المتوفى سنة ٢٥٧ ألف فى فتوح مصر والمغرب والبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ ألف فى أنساب الاشراف وفى فتوح البلدان وابن يونس (٢٨١ ــ ٣٤٧) أرخ لحوادث مصر ورجالها ومن طرأ عليها من الغرباء والكندى (٢٨٣ ــ ٣٥٠) ألف كتابا فى ولاة مصر وقضاتها وكتابا فى خططها وكتابا فى مواليها .

على ان التأليف فى التاريخ العام لم يتوقف عن مسـايرة هذه الاتجاهات فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ ألف كتابه المعارف وغيره ٠

وهنـاك آخرون دونوا تاريخ العالم منـذ الخليقة ، وتعرضوا لتاريخ الشعوب وبخاصة الفرس والروم كاليعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ (أو ٢٨٤) ، صاحب التاريخ المعروف باسـمه والدينورى المتوفى سنة ٢٩٠ مؤلف الأخبار الطوال ٠

وأما الخطوة الأخرى فقد كانت تمثل المكانة العالية للتاريخ والمؤرخين اذ تعددت مصادره الموثوق بها فى القرن الثالث فصار لا يعتمد على الأساطير والأخبار التى لا ضابط لها بل يعتمد على كتب مدونة فى السيرة وتاريخ الأقاليم والتاريخ العام وعلى وثائق وسجلات وعلى كتب مترجمة من اللغات الأجنبية الى جانب اعتمـاده على المشـافهة والمشـاهدة والرحـلات ٠

ولم يعد المؤرخ يسمى اخباريا ، كما كان يسمى من قبل ، واقتصر مدلول الاخبارى على راوى القصص والنوادر والحكايات ٠

وبهذا صار التاريخ علما لا يستنكف العلماء والفقهاء من التوفر على دراسته ولا يتحالون التأليف فيه وأصبح المؤرخون ذوى مكانة عالية بين العلمـاء ٠٠

بين الكتاب ومؤلفه

يستمد المؤرخ المطبوع نظرته الخاصة الى جملة التاريخ وأجزائه من نظرته الى الكون كله وهذه النظرة قائمة على شخصيته وأخلاقه ومزاجه ومنزعه المفضل في الحياة عن اختيار أو اضطرار ولا شك أن لثقافته وبيئته وعصره آثارها في نظرته العامة والخاصة . ولكن هذه الآثار لا تظهر الا من تأثيرها في نفسه ومن خلالها أولا ثم تظهر بعد ذلك في كل ما يصدر عنه ومن ذلك نظرته التاريخية والكونية . فالشخصية الانسانية هي ملتقى الآثار من كل ما يحيط بها ومن يحيط ومنها تصدر دوافع الأعمال والأقوال .

ولذلك تختلف نظرات الناس الى التاريخ باختلاف أنماط شخصياتهم وخصائص كل نمط والفروق الفردية بين كل فرد وغيره فلا يستوي في النظرة التاريخية النظريون والعمليون . ولا يستوي فيها الفنانون والفلاسفة والعلماء ونحوهم . وان كانوا جميعاً نظريين . ولا يستوي فيها أفراد كل طائفة من هؤلاء ولو كانوا على نهج واحد في النظر لاختلافهم في الأمزجة والأخلاق والملكات والسير أو لاختلافات أخرى تعود الى تنوع العصور والبيئات والألوان الثقافية والحضارية الغالبة على كل منها وكلها مع موروثات الانسان قوام شخصيته التي هي مورد معطيات الوجود له ومصدر ما يحدث منه .

وليست صورة الكون عند أي انسان إلا وفق ما تنطبع في نفسه أو هي صورة نفسه التي تطبع بطابعها كل ما تتلقام من الحياة والاحياء فاذا عرفنا كيف ينظر الانسان الى التاريخ مثلا عرفنا ما هو أو طبيعته واذا عرفنا ما هو عرفنا كيف ينظر الى التاريخ أو غيره .

والطبري في تاريخه يؤرخ لخلق العالم بسماواته وأرضه ومن فيه فتلمح في نظرته الى العالم نظرة الحواري أو رجل الدين الذي يتبصر حكمة الله وفضله في ابداع خلقه وما دبر لمخلوقاته من أقدار ونظم لهم من سنن . فتاريخ الكون ومن فيه مجال للعظة والعبرة وخلقه آية حول الله وطوله . ولقد خلق الله فيه الانس والجن لعبادته وخلق لهم السموات والأرض وما بينهما على وفق مصلحتهم كما اقتضت حكمته ونعمته .

وفهم الطبرى للزمان فهم الحوارى كذلك فالزمان ساعات الليل والنهار ، ليعرف عباد الله من ذلك عدد السنين والحساب فيعبدوه وفق مواقيت معينة ويبتغوا من فضله نهارا ويسكنوا الى الراحة ليلا وبذلك يستوجب الله عليهم شكره وجزاء نعمته فمن شكره زاده ومن عصى عاقبه بذنبه أو عفا عنه بفضله . والطبرى ـ كما ينبغى أن نتوقع ـ يحتج لكل ذلك بالآثار القرآنية ليدعم قلمه ببراهينه ويزداد يقينا الى يقينه وهذه عناية وفاء الطبرى لحواريته فى تاريخه وفى سائر مؤلفاته وهى من أقوى الأدلة على أصالة هذه الطبيعة فيه وانطباع كل ما يصدر عنه بخصائصها الحية القومية . فالتاريخ عنده من العلوم الدينية ، والكون كله معبود وعابدون وان كان فيهم أبرار وخطاة أو مطيعون وعصاة والله وراء كل شىء محيط وهو صاحب الأمر والخلق وليس كمثله شىء وهو الأول قبل كل أول والآخر قبل كل آخر وقد خلق الخلق وهو الغنى عنهم فضلا منه ونعمة وهو المدبر لهم وفق حكمته وكرمه وقدرته « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وقد أراد أن يخرج الكتاب ـ وفق سعة علمه بموضوعه ـ فى ثلاثين ألف ورقة فحال طلابه دون ذلك فأخرجه فى ثلاثة آلاف ورقة تبلغ فى الطبعة المصرية ٣٣٠٠ صفحة .

محتويات الكتاب

يبدأ الكتاب بخطبة (مقدمة) يليها تمهيد ثم التاريخ وهذا يشمل تاريخ الخلق منذ بدأ حتى سنة ٣٠٢ وهو شطران يفصل بينهما الهجرة النبوية وسنجمل فيما يلى كل قسم من أقسامه الأربعة ونهجه الخاص به .

(أ) الخطبة :

وهى تقع فى ثلاث صفحات وتبدأ باسم الله وحمده بما هو أهله من قدم وبقاء ووحدانية وقدرة وتجرد عن المكان ولطف عن الادراك ثم شكره على فضله والاقرار بوحدانيته ونبوة محمد عليه السلام وعبوديته لله الذى أرسله فنهض برسالته ثم شرح حكمة الخلق كما لخصناها حين وضحنا نظرة المؤلف التاريخية ودلالتها على طبيعته ثم اشارة الى موضوع الكتاب وهو ذكر ما انتهت الى المؤلف أخبارهم منذ بدء الخلق من الرسل والملوك والخلفاء مع جملة من حوادث الأمور فى كل عصر منهم « اذ كان الاستقصاء فى ذلك يقصر عنه العمر وتطول به الكتب » ثم أشار المؤلف الى أنه سيمهد لذلك بالكلام على ما هو أولى وهو الزمان « ما هو وكم قدر جميعه وابتداء أوله وانتهاء آخره وهل كان قبل خلق الله تعالى اياه شىء غيره وهل هو فان وهل بعد فنائه شىء غير وجه المسبح الخلاق تعالى ذكره

ومنه الذى كان قبل خلق الله ايام وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى ايام وكيف يكون فناؤه والدلالة على أن لا قديم الا الله .... بوجيز من الدلالة غير طويل اذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضية وجمل من أخبارهم ... » .

ثم أشار الى أنه سيتبع ذلك بتاريخ النبى وصحابته وتابعيه ومن بعدهم ... ومن حمدت روايته أو رفضت وسبب ذلك . ثم أشار الى أنه أدى ما وصل اليه كما وصل لأن الأخبار تعرف بالنقل لا باستنباط الفكر والحجج العقلية ويبرأ من عهدة ما ينقله من خبر قد يستنكر أو يستبشع وأن العهدة فى ذلك على الرواة لا عليه على نحو ما قدمنا فى هذا آنفا عن كلامنا على نظرته التاريخية ومنهج كتابه .

(ب) تمهيد فى الزمان وبدء الخلق :

يقع التمهيد فى نحو خمسين صفحة وفيه يوضح الزمان ما هو فيعرفه بأنه ساعات الليل والنهار ، وأن من معانيه المدة الطويلة أو القصيرة ويحتج لهذه التعريفات بكلام العرب وهى تعريفات عالم فقيه لغوى لا تعريفات فيلسوف .

ثم يتكلم عن مقدار الزمان من بدئه الى نهايته ويذكر الأقوال فيه فينقل بسنده عن ابن عباس تقديره بسبعة آلاف سنة فتقدير كعب الأحبار له بستة آلاف سنة ومن وافقه على ذلك ويتهمه بأقوال من يقدره تقديرا مبهما اعتمادا على قرب مبعث نبينا محمد ـ عليه السلام ـ من قيام الساعة معتمدا على أحاديث يرويها ونهجه هنا أنه يذكر الرأى ويروى طائفة من أقوال أصحابه بأسانيدها اليهم مهما يطل السند أو الصنعة ثم يذكر رأى اليهود فى قدر الزمان اعتمادا على توراتهم وأنهم يقدرونه من بدء الخلق حتى الهجرة النبوية باثنتين وأربعين وستمائة سنة وأربعة آلاف ويذكر أن اليونانية من النصارى يرون بطلان تقدير اليهود ويرفضونه وأنهم يقدرون هذه الفترة باثنتين وتسعين سنة وخمسة آلاف وعدة أشهر اعتمادا على التوراة التى فى أيديهم أيضا والاختلاف دينى آت من اعتقاد كل من الطائفتين فى المسيح أهو ابن مريم الذى ظهر فاتبعه النصارى ورفضه اليهود أم هو لم يأت بعد فاليهود ينتظرونه على ما يدعون . ثم يذكر رأى المجوس فى أن آدم (أبو البشر) حتى الهجرة النبوية وهم يقدرون هذه المدة بتسع وثلاثين ومائة سنة وثلاثة آلاف ثم يختم ذلك باختلاف الاخباريين فى قدر هذه المدة ولا يتعرض لرأى أهل الهند فيها كما تعرض له المسعودى فى « مروج الذهب » وهم يحسبون مدة العالم بالدورات الكونية وتبلغ ملايين السنين » .

ثم يذكر حدوث الزمان وان له بدءا ونهاية وأن وجود الله قبله وبعده دائم ، ويحتج لذلك بالنقل عن القرآن والعقل واحتجاجه فى الحالين احتجاج حواوى لاهوتى وليس احتجاج فيلسوف مع اطلاعه على الفلسفة وغاية ما يقترب فيه من الفلسفة تفرقته بين وجود الله بغير زمان ووجود الخلق مع الزمان وأدلته أضعف من الأدلة القرآنية على ذلك وهو يقتصر من بينها على دليل الايجاد أو الخلق الذى يسميه الأوربيون « البرهان الكونى » وخلاصته « أن كل موجود يتوقف على غيره ، وهكذا فلابد من سبب للموجودات بوجودها ولا يتوقف وجوده على غيره » وهذا عند أرسطو هو برهان « المحرك الذى لا يتحرك » .

ثم يذكر بدء الخلق وأن أوله القلم الذى كتب القدر ثم الغمام (وهو أشبه بما يسمى « العماء » فى بعض ما نسب الى النبى عليه السلام وما يسمى فى الفلسفة (الهيولى) أو « القابلية » ثم يذكر ظهور مخلوقات أخرى : العرش والماء والريح وسائر السموات والأرض وما فيهن من الكائنات ومن بينها الجن والانس ويبين اختلاف الأقوال فى اليوم الذى خلق فيه كل منها بين الأيام الستة ويبين مقدار اليوم معتمدا على القرآن الكريم الذى يشير الى أن اليوم عند الله مقداره ألف سنة مما نعد وبذلك ينجو المؤلف من الانحصار الذى يقع فيه العامى حين يفهم اليوم بمعنى الليل والنهار ، ويفلت من الاشكال الذى يتورط فيه العامى حين يفهم ذلك ثم يجد أمامه أن الشمس أو الأرض لم تخلقا فى اليوم الأول أو الثانى بل بعد ذلك وبهما تعرف الأزمنة .

ثم يذكر سبب خلق الزمن ليلا ونهارا وما كان لابليس — على بعض الأقوال — من ملك السماء الدنيا والأرض حتى كشف الله عن كبر ابليس بخلق آدم ففضح دعواه الربوبية ثم نزع منه مجده ويذكر تحدى الله الملائكة بآدم حين عارضوا خلقه اياه فامتحنه واياهم فأفلح وخابوا ثم أذعنوا الا ابليس ثم يذكر حياة آدم قبل خروجه الى الأرض وبعده ومن هنا يبدأ التاريخ البشرى .

(ج) التاريخ البشرى حتى الهجرة :

يبلغ هذا القسم نحو خمسمائة صفحة وهو يستوعب بقية الجزء الأول وجميع الجزء الثانى الا خمسين صفحة ، وفيه يذكر المؤلف خروج آدم أين كان ، وما تزود به فى خروجه وما وقع فى عهده من أحداث أهمها ما نسلته له حواء من بنين وبنات فيذكر عددهم وتزويجه هؤلاء بهؤلاء ليبقى النسل وتعمر الأرض ويذكر اختلاف الرواة فى ابنى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر وسبب نزاعهما وزمنهما وهل هما ممن ولدت حواء لآدم أم هما من بنى اسرائيل .

ثم يذكر زعم الفرس في آدم أبي البشر وأنه عندهم « جيومرت » ، ويذكر آراء من يوافقهم ومن يخالفهم في ذلك وفيما ينسبونه اليه من أعمال ويرجح رأى من يرى أن جيومرت هو جامر بن يافث بن نوح وأنه ملك طبرستان (موطن المؤلف) ثم فارس ثم اتسع ملكه وملك أبنائه فشمل بابل وسائر الأقاليم ويحتج لذلك باتفاق العلماء على أبوة جيومرت للفرس وأن ملكه هو وأولاده لم يزل متصلا حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم فى زمن عثمان بن عفان ٠

ثم يذكر ما قيل فى عدد ولد حواء لآدم وعدد الأنبياء من نبيه وأنهم أربعة وعشرون ومائة ألف منهم ثلاثة عشر وثلثمائة رسول ، ويختم القول في آدم بوفاته ودفنه ثم تكاثر ذريته وانتشارهم فى الأرض شرقا وغربا وحوادثهم حتى أيام نوح فيفصل الأقوال فى دعوته وعصيان قومه وصنعه السفينة وقصة الطوفان ومن نجا معه فى السفينة من حيوان الأرض وناسها وتناسل الخلق بعده من أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث وخصائص كل منهم ، فهو الأب الثانى للبشر بعد آدم وكلهم حتى الآن من ولده الثلاثة فليس منهم الا من هو سامى أو حامى أو يافثى كما يذكر قول المجوس فى انكار الطوفان وينكره عليهم معتمدا على القرآن والحديث الشريف وأقوال العلماء ٠

وهنا يذكر « بدأ التاريخ على مذهب أهل الكتاب وغيرهم » فأهل الكتاب يؤرخون بالخلق ثم خروج آدم ثم مبعث نوح فالطوفان وتفرق أبناء نوح ثم نار ابراهيم ثم مبعث يوسف الى مبعث موسى الى ملك داود وسليمان ثم مبعث عيسى وهذا عند المؤلف ينبغى أن يكون على تاريخ اليهود ٠ وأما النصارى فتؤرخ بعهد الاسكندر وأما الفرس فى عهد المؤلف فكانت تؤرخ بعهد يزدجرد وأما المسلمون فيؤرخون بالهجرة النبوية وأما العرب قبل الاسلام فكانت قريش بينهم تؤرخ بعام الفيل وسائر العرب يؤرخون بأيامهم « وقائعهم الحربية » ٠

وهنا يقف المؤلف وقفة حاسمة فى تاريخه الحوادث كانت لها نتائج خطيرة فى كتابه سنعرض لها فى ختام كلامنا على هذا القسم من كتابه ٠ وحسبنا هنا الاشارة الى أنه جعل التاريخ (التوقيت) الفارسى قبل الهجرة النبوية فى المحل الأول واتخذه نظاما رئيسيا يقاس به غيره من التاريخات ويركب عليه ولا يقاس بتاريخ آخر حتى تاريخ اليهود والسبب فى ايثاره تاريخ الفرس على التاريخ « التوقيت » اليهودى أن الأول ـ كما أشار المؤلف ـ مرتبط بظهور المملكة الفارسية واتصال أحداثها فهو متصل منتظم واضح الأزمنة وليس الثانى كذلك ولهذا يجعله تابعا

للتاريخ الفارسى وان كان يعول على التاريخ اليهودى حين يربط بين حوادثه الخاصة به فيما بين بعضها وبعض .

ومن هنا لا يكاد المؤلف يعرض لتاريخ ما بعد الطوفان حتى يظهر عنده تاريخ المملكة الفارسية ثم يزداد ظهورا وانتظاما مع توالى الأزمنة فبعد أن يذكر « جيومرت » ـ « آدم عند الفرس » كما قدمنا ـ نراه يذكر بعده « أوشهنج » الفارسى الذى قيل انه ملك الأقاليم السبعة وأسس مدينة بابل ومدينة السوس . وعند اشارته الى حوادث بنى آدم من عهد « شيث » الى أيام « يرد » بن مهلائيل بن قينان بن أنوس بن شيث بن آدم يذكر رأى بعض الفرس فى أن « أوشهنج » هو مهلائيل بن قينان حفيد شيث بن آدم ثم يذكر انه ولد لأوشهنج ولد فلما صار ملكا كان محمود السيرة وهو فيشداذ (ومعناه أول حاكم بالعدل) واليه تنسب الدولة الفيشداذية أقدم دول الفرس ، وبذلك يقرب المؤلف تاريخ اليهود المقدس الى تاريخ الفرس الذى اتخذه أساسا .

والمؤلف فى تاريخه حريص على ذكر الحوادث المتعاصرة معا ، ولو اختلفت موضوعاتها ولم تكن لاحداهما صلة بالأخرى ، الا المعاصرة التى هى اقوى صلة بينها عنده وهو على هذا النهج يجرى هنا فيذكر عصر ملك فارسى أو أكثر ويطيل فى سيرته ويتبعها بحوادث عصره فى الأمم الأخرى فاذا فرغ من ذلك ذكر عصر ملك فارسى آخر أو أكثر من ملك فيفعل مثل ذلك وهكذا .

وكلما كان الملك أحدث كثرت الأخبار المتصلة بالأمم التى تجاور مملكته شرقا وغربا كالترك والعرب واليونان والروم وقد يتعرض لأخبار أهل الهند والصين . أما « التاريخ المقدس » فهو يلاحق التاريخ الفارسى خطوة فخطوة ظاهرا معه على ما عداه منذ أيام شيث بن آدم ثم نوح الى مبعث المسيح عيسى بن مريم وتشتت اليهود فى عهد الروم ولهذا كان التاريخ المقدس لليهود وأسلافهم واضحا بارزا فيه وان كان تابعا فى توقيته للتاريخ الفارسى بل يبدو فى المبدأ كان هذا التاريخ خادم للتاريخ المقدس .

فالمؤلف يذكر من ملوك الفرس « أوشهنج » وولده « فيشداذ » ثم يذكر قولا آخر هو ان الذى تلا أوشهنج هو « طهمورث » الذى ظهر فى عهده « يوراسب » ودعا الى ملة الصابئين ثم جاء « جم » أو « جمشيد » فقتل « طهمورث » وملك مكانه ثم ملك « بيوراسب » وهو الازدهاق الذى تسميه العرب الضحاك وكان ظالما ويقال انه « النمروذ » الجبار وقد قتله أفريدون وحكم مكانه وهنا يشير المؤلف الى أنه ذكر هؤلاء ووضح سيرهم هنا لظهور نوح فى عصرهم على بعض الأقوال ، بل يقول بعض نسابة

الفرس ان نوحا هو أفريدون الذى قتل الضحاك كما قيل ان بينه وبين « جم » عشرة آباء وان ملكه كان خمسمائة سنة ، كما قيل ان ظهور نوح حتى عهد ابراهيم كان فى عهد الضحاك ولذلك يذكر المؤلف الحوادث بين عهد نوح الى ابراهيم خلال عهد هؤلاء الفرس ويقصها فى وفاء .

ثم يذكر ولاية « منوشهر » بعد أفريدون والنزاع بينه وبين العبريين ويشير الى ولاته على اليمن من أهلها كالرائش وغيره ، كما يشير الى ظهور موسى وقارون فى عهده ويفصل القول مسهبا فى تاريخ اليمن وتاريخ بنى اسرائيل على يد موسى ثم فتاه يوشع بن نون على عهد « منوشهر » .

وهنا يذكر المؤلف اعتماده تاريخ الفرس أساسا فيقول : « ذكر القائم ببابل من الفرس بعد « منوشهر » اذ كان التاريخ انما تدرك صحته على سياق مدة أعمار ملوكهم ثم يذكر منهم « فراسياب » وافساده بين البلاد والعباد ثم ظهور « زو » بن « طهماسب » واصلاحه ما أفسد « فراسياب » وعمران البلاد الفارسية فى عهده ومعاونة « كرشاسب » له فى ذلك ثم ظهور « كيقباذ » بعده وهو أول ملوك « الكيانية » أو « الكيكية » . ويعقب ذلك بذكر ما يعاصر ذلك من حوادث بنى اسرائيل فيما بعد يوشع ابن نون الذى مكنهم من الاستيلاء على جزء من فلسطين فبعده خضع بنو اسرائيل لحكم القضاة حتى ظهر شمويل (صمويل) فاضطروه الى اختيار ملك فاختار لهم طالوت (شاول) وجاء بعده داود وابنه سليمان .

ثم يذكر بعض ملوك « الكيانية » الفرس منهم كيقاوس وكيخسرو وفى عهدهما انقسم بنو اسرائيل مملكتين ، ثم ذكر « لهراسب » وابنه « يشتاسب » من الفرس وغزو واليه بختنصر للعرب وبنى اسرائيل وتخريبه بيت المقدس ونقله اليهود الى بابل .

ثم يذكر بعد يشتاسب تملك حفيده أردشيربهمن الذى كان قورش واليه على بابل فرد السبى من اليهود من بابل الى بلادهم فى فلسطين ثم يذكر دارا الأكبر ودارا الأصغر الذى هزمه الاسكندر وقضى على مملكته وقسم بلاده بين عدة ولاة ليلجأ كل اليه فى نزاع بعضهم بعضا ومنذ ذلك ظهر من يسمون « ملوك الطوائف » أو « الملوك الاشغانيين » وهم الدولة الفارسية الثالثة .

فى عهد هؤلاء الملوك يذكر المؤلف ظهور سلطان الروم حتى ملكوا الشام ومصر وظهور ملوك العرب فى اليمن والحيرة والانبار ولاة من قبل الفرس واضمحلال سلطان بنى اسرائيل حتى ملكهم هيرود تحت سلطان الروم وظهور المسيح عيسى وانتشار الرسل للتبشير بدينه وظهور الزباء وطسم وجديس وأصحاب الكهف ويونس بن متى وشمشون الجبار .

ثم يذكر ظهور الدولة الفارسية الرابعة والأخيرة « الدولة الساسانية » بقيـــام أردشـــير بن بابك الذى قضى على ملوك الطوائف ووحد المملكة واستمرت متحدة يليها منهم ملك بعد آخر حتى فتحت فى عهد عمر بن الخطاب ، وقتل آخر ملوكها يزدجرد فى عهد عثمان بن عفان. وتاريخ هذه الدولة أوضح من تواريخ الدول الفارسية الثلاثة الماضية ويبدو المؤلف خلالها كأنه لا يؤرخ الا له حقا ويبدأ تاريخ اليهود فى الاختفاء وتظهر تواريخ أمم أخرى فى صورة أبرز وأهمها الترك والروم والعرب. ومع تقدم الحوادث يحل تاريخ العرب فى الظهور محل التاريخ المقدس اليهودى. والمؤلف يعدد هؤلاء الملوك الفرس وسيرهم وأحداث عصرهم فى بلادهم وما جاورهـــا بالتفصيل ملكا فملكا منذ « أردشير » حتى يأتى ذكر « بهرام جور » فيذكر تربية المنذر بن النعمان ملك الحيرة له بوصية أبيه ومساعدة المنذر وابنه النعمان لبهرام جور على استرداد ملك أبيه يزدجرد من قبضة كسرى الذى انتهز فرصة وفاة يزدجرد وبعد ابنه وولى عهده عن بلاده واغتصب ملكه وقد عرف بهرام للمنذر فضله فقدمه .

ثم يذكر فى عهد يزدجرد بن بهرام جور وابنه فيروز فيبين خلال ذلك ولاتهما من ملوك العرب على الحيرة واليمن واستعانة ملوك الفرس فى حروبهم بالعرب ضد الروم وأتباعهم من العرب أيضا ، حتى اذا جاء عهد قباذ ابن فيروز ذكر فتنة « مزدك » الشيوعية فى عهده ومن دخل فيها من العرب والفرس ثم قضاء أنوشروان بن قباذ على مزدك وطائفته وفتنته وأخبار اليمن فى عهد قباذ وأنوشروان ثم ولادة النبى عليه السلام فى عهد أنوشروان .

ثم يذكر ملوك الفرس بعد أنوشروان واضـــطراب أحوال المملكة الفارسية منذ عهد حفيده كسرى أبرويز حتى آخرهم يزدجرد القتيل فى عهد عثمان بن عفان .

ثم يطيل فى ذكر نسب النبى وسيرته فى مكة منذ ولد حتى بعث ثم تبشيره بدعوته حتى هجرته وبذلك ينتهى هذا القسم من تاريخه الذى جعل فيه تأريخ الفرس أساسا للتاريخ البشرى .

وقد كان لتعويل المؤلف على تأريخ الفرس آثاره فى كتابه فقد أفاض فى ذكر أخبار الفرس الى حد جعل هذا القسم مصدرا من أكبر مصادر تاريخهم لا يستغنى عنه مؤرخ ولو ملأ خزانته مما عداه من الكتب والآثار . وهو يعد حجة كبرى فى هذا الموضوع حتى لقد اعتمد عليه كل عارف به ممن كتب فى تاريخ الفرس . وقد ترجم المستشرق «نولدكه» الى الألمانية القسم الخاص بالدولة الساسانية كما عول عليه فى تاريخ الفرس أكبر ثقاته وهو المستشرق « براون » فى كتـــابه عن تاريخ الأدب الفارسى .

(د) تاريخ الاسلام منذ الهجرة حتى سنة ٣٠٢ هـ :

هذا القسم أطول أقسام الكتاب وهو يستغرق أكثر من ثمانمائة وألفى صفحة وأساس توقيت هذا القسم هو التأريخ الاسلامى بالهجرة النبوية على وفق السنوات الهجرية فهو يذكر فى سنة ما وقع فيها من حوادث ، فاذا فرغ من أخبار سنة انتقل الى غيرها ويبدؤها بقوله مثلا : ثم دخلت سنة كذا وفيها وقع كذا وكذا وحين يشير الى حادثة يذكر روايات عدة فيها بأسانيدها مهما تطل وقد تتداخل الروايات فى الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة اذا كان فى جزء منها أكثر من رواية فهو يذكر الرواية فى هذا الجزء ثم يذكر رواية أخرى أو أكثر فيه أيضا فاذا استوفى روايات هذا الجزء ذكر روايات جزء آخر على هذا النحو ولو كانت بعض أسانيد الجزء الأول هى أسانيد الجزء التالى له ويبدأ روايات الأجزاء التالية بقوله مثلا « عاد الحديث الى رواية فلان » فترى رواية الراوى الواحد فى « أجزاء الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة مختلطة برواية غيره فى هذه الأجزاء مع أنها وقعت داخل سنة واحدة » .

واذا وصل المؤلف الى السنة العاشرة بعد فتح مكة ختم أحداث كل سنة بعدها حتى آخر الكتاب بذكر من حج بالناس فيها (أمير الحج) والولاة على الأمصار بالبلدان وذلك عقب الفتوح ثم انتشارها .

والطبرى يهتم فى هذا القسم كما اهتم فى ذلك بروايات غيره للحوادث ولا يكتبها منشئا أو ملخصا بقلمه الا أخبارا نادرة عن حوادث شاهدها فى آخر تاريخه الذى أوصله الى سنة ٣٠٢ أى قبل وفاته بثمانى سنوات .

وبينما يعنى بالحوادث السياسية عند الحكام كثيرا تقل عنايته بدراسة مجتمعات الأمم التى يؤرخها وبتوضيح نظمها الادارية والاقتصادية والزراعية وسائر أحوالها الاجتماعية التى تكشف خصائصها وهو لا يبدى رأيه بالحكم على الأشخاص أو الأعمال أو يكشف عبر الحوادث التى يعرضها بل يكتفى بالنقل الا نادرا كما انه نادر الترجيح لرواية على رواية فيما ينقل ولهذا النهج مزاياه ولغيره أيضا مزاياه وانما يفضل نهج سواه على حسب وجهة القارىء . وقارىء تاريخ الطبرى يجد فيه مادة ضخمة صالحة للحكم على الأشخاص والأعمال وكشف العبر من الحوادث بنفسه ولا يجد تحيزا مذهبيا ولا عنصريا ولا حزبيا ولا سياسيا .

وليست سنوياته أو أخبار سنواته متساوية ولا متقاربة فمن سنوياته ما تبلغ صفحة كما فى سنة ٢٩٥ وهى السنة التى ولى فيها المقتدر الخلافة وكما فى سنة ٣٠١ وسنة ٣٠٢ وهما ختام الكتاب . وقد تبلغ نصف

صفحة أو ربعها كما فى سنة ٢٩٧ وما تلاها حتى سنة ٣٠٠ وربما تزيد حتى تبلغ تسعين صفحة كما فى سنة ١١ التى تستغرق الثلث الأخير من الجزء الثالث وهى سنة وفاة النبى عليه السلام وتولية الصديق وحوادث الحرب التى سميت « حروب الردة » وبدء الفتوح فى الشام والعراق على عهده ومثلها أخبار سنة ٣٦ فهى نحو تسعين صفحة ٠

وفى هذا القسم ــ ولاسيما سنويات القرن الأول ــ يكثر المؤلف من رواية الخطب والأشعار والرسائل والمناظرات والكلمات البليغة مما جعل كتابه جزءا مهما من تراثنا الأدبى كما هو جزء من تراثنا التاريخى وتأخذ هذه النصوص الأدبية فى الضعف والقلة كلما اقتربنا مع الزمن من عصر المؤلف حتى تتلاشى فى سنوياته الأخيرة مما يدل على ضعف أساليب الحكام الذين يعنى المؤلف بأخبارهم وأساليب المؤلفين الذين ينقل عنهم رواياته ٠

وقسم السنويات جميعا يرتبط أساسا بتاريخ الحركة الاسلامية منذ الهجرة حتى ختام الكتاب سنة ٣٠٢ هـ وماعدا أخبار هذه الحركة فهو تابع لها داخل فى تاريخها بسبب منها ٠ فهو يبدأ السنويات بسيرة النبى عليه السلام فى المدينة عقب الهجرة واقامته المجتمع الاسلامى الجديد فيها ومغازيه أثناء ذلك حتى وفاته ثم يذكر سير الخلفاء الراشدين والفتوح فى عهدهم والخلافات فى المجتمع الاسلامى ولا يكتفى فى هذه الفتوح خلال هذا العهد وما تلاه بنقل أخبارها عمن استوطنوا هذه البلاد عقب الفتوح بل ينقل عن شيوخها وعن غيرهم من شيوخ البلاد الأخرى ، كما لا ينقل فى الخلافات روايات حزب بدون حزب بل ينقل من رواة الأحزاب جميعا فى سماحة وأمانة اذا وثق بما عندهم من روايات ، ثم يذكر أخبار الأمويين ثم أخبار العباسيين حتى صدر عهد المقتدر فلا يتحامل على الأمويين لأنهم أعداء العباسيين ولا يجامل العباسيين أو يحاربهم ضد الأمويين أو العلويين لأنهم أصحاب الدولة فى أيامه فهو لا يتصل بالدولة ولا يحب أن يتصل بها بل هو حريص على أن يستقل بدينه ودنياه عن الحكومة والحكام وهو ليس ناصبيا ولا شيعيا ولا متعصبا لعنصر على عنصر ولا لمذهب ولا ممن يرضون الفتن أو يستمرءون الخلاف أو يقبلون الطعن فى خصم وان صرح بالخلاف والطعن ، الا أنه يعلن قولة الحق بالحسنى أمام قولة الباطل مهما تكن العواقب فلا سكوت على الباطل ولكن بلا لدد ولا تجريح ، وتاريخه لم يكن محتاجا الى جهاد كثير من هذا القبيل الا أمام من كادوا الاسلام وأهله فى حرب عدائية مكشوفة وهذه المواقف فى تاريخه قليلة ٠

ليس فى كتب المؤرخين حتى اليوم ما يضارع هذا الكتاب فى موضوعه من حيث الأمانة والسعة والاحاطة بالوجهات المختلفة للروايات

ورواتها فهو في موضوعه عمدة المؤرخين في قسميه القديم والاسلامي فهو مرجع قيم لا يستغنى عنه في موضوعه ولم يهمله فيه الا من قصر عنه ٠

ولقد أشرنا في ختام كلامنا على القسم الخاص بما قبل الهجرة الى أنه مرجع لا نظير له في تاريخ الفرس الأقدمين من أبعد عصورهم الغامضة حتى أحدثها فلا غنى لمن يؤرخونه عنه ولقد عول عليه كل عارف به فيمن كتبوا في تاريخهم من القدماء والمحدثين شرقيين وغربيين وزاد في تقديره عند الغربيين نظرهم الى الفرس نظر الأبناء الى الآباء في أرومتهم الآرية واعتدادهم بهذه الأرومة في الصراع العنصرى وبخاصة في القرون الأخيرة التي كثر فيها البحث عن الأصول البشرية وتسلموا قيادة العالم وطمعوا في تسخير سائر الأمم لمصالحهم القومية ٠

وعلى نحو قريب من ذلك اهتم به الفرس بعد الاسلام فما كادوا يستحيون معالم قوميتهم الثقافية ومنها لغتهم وتاريخهم وآدابهم حتى عنوا بهذا الكتاب بعد تأليفه بنصف قرن فقام بترجمته الى اللغة الفارسية الحديثة أحد أعلامهم النابهين وهو محمد بن عبد الله البلعمى الذى كان وزير نوح بن منصور من ملوك الدولة السامانية في المشرق وتعد ترجمته لهذا الكتاب سنة ٣٥٢ هـ أقدم كتاب تاريخي باللغة الفارسية الحديثة ٠

ويذكر الأستاذ جرجي زيدان مقدار اهتمام أسلافنا به فيقول :« تغالى القوم في اقتنـــاء هذا الكتاب حتى كان منه في خزانة العزيز الفاطمى صاحب مصر عشرون نسخة منها واحدة بخط المؤلف وكان في دار العلم بمصر ١٣٠ نسخة منه ولم يكن يتأتى الا للملوك وأهل الثروة ٠ ولما أظلم الشرق في الأجيال الوسطى وخيم الجهل أحرقت فضاعت نسخه ، فلما أرادوا طبعه في ليدن لم يجدوا منه نسخة كاملة في مكان فاضطروا الى جمعها من عدة أماكن » ٠

ونزيد عليه أن المستشرقين جمعوه من عدة أماكن ، طائفة من علماء هولندا ساحوا في البلاد الاسلامية وغيرها سنوات حتى حصلوا له نسخة كاملة طبعوها في ثلاثة وعشرين جزءا بلغت ٧٥٠٠ صفحة وكانت منها الطبعة المصرية في أحد عشر جزءا بلغت ٣٣٠٠ صفحة ، كما أن المستشرق « نولدكه » ترجم الى اللغة الألمانية الجزء الخاص بتاريخ الساسانيين وأن الكتاب كله ترجم من ترجمته الفارسية للبلعمى الى الفرنسية بقلم الأستاذ زوتنبرج وترجم بعضه الى اللاتينية كما ترجم كله الى التركية وقد عول عليه الأستاذ براون في كتابه الكبير « تاريخ الأدب الفارسى » وهو يعد في تاريخ الفرس أكبر حجة بين المستشرقين في العصر الحديث ٠

ولقد عول عليه أكثر من غيره كل من عرفه وكتب في موضوعه من

كبار مؤرخينا السابقين كما يظهر من اشاراتهم اليه ونقلهم عنه ونكتفى من أقوالهم بما ذكره المؤرخ الكبير « ابن الأثير » فى كتابه « الكامل » اذ يقول فى مقدمته مفاخرا به : « ... ولكن أقول : انى قد جمعت فى كتابى هذا ما لم يجتمع فى كتاب واحد ومن تأمله علم صحة ذلك فابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الامام أبو جعفر الطبرى اذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف اليه فأخذت ما فيه من جميع تراجمهم فلم أخل بترجمة واحدة منها . وقد ذكر هو فى أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التى قبلها أو أقل منها وربما زاد الشىء اليسير أو نقصه فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت اليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شىء مكانه فجاء جميع ما فى تلك الحادثة ـ على اختلاف طرقها ـ سياقا واحدا على ما تراه .

« فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت الى ما نقلته من تاريخ الطبرى ما ليس فيه ووضعت كل شىء منها موضعه الا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانى لم أضف الى ما نقله أبو جعفر شيئا الا ما فيه زيادة بيان أو اسم انسان أو ما لا يطعن منهم فى نقله وانما اعتمدت عليه من بين المؤرخين اذ هو الامام المتقن حقا الجامع علما وصحة واعتقادا وصدقا » .

وكما عنى سابقونا بالنقل عنه وباختصاره على نحو ما فعل ابن الأثير عنوا بتكميله ، فوصله كثير منهم بين المشارقة والمغاربة . ومن هذه الصلات كتاب « الصلة » الذى ألفه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى وقد نقل عنه ياقوت كما أشرنا قبل ، وكتاب الصلة الذى ألفه غريب ابن سعد القرطبى فانتهى به ا سنة ٣٦٥ وقد أشرنا اليه من قبل ، وتلاه محمد بن عبد الملك الهمذانى بكتابه « الصلة » فانتهى به الى سنة ٤٨٧ .

ولا نجد بعده كتابا ذا قيمة خلال تاريخنا القديم والحديث يعرض لتاريخ الاسلام وأهله وصلاته بجيرانه فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة ـ وهذا بعض موضوع الكتاب ـ الا وجدناه يعول عليه كأوثق مصدر له وأوسعه ولا وجدنا مؤرخا قديما أو حديثا عرض لتقديره الا زكاه وعظمه كيفما كانت مآخذه عليه وفى بعض هذا برهان واضح على قدر الكتاب بين القدماء والمحدثين فى أمم مختلفة وعلى أثره فى مؤلفاتهم التاريخية والأدبية وهذا حسبه فى عظمة القدر والأثر الذى يتجدد على اختلاف الأمصار والأعصار .

تقـــدير الكتاب وأثره

لعله قد استبان من موضوع الكتاب ومادته ومنهجه انه كتاب جليل القدر عظيم القيمة ٠

ونستطيع أن نوجز مقومات هذا الحكم فى عدة أمور : ــ

١ ــ هو أول كتاب فى التاريخ العام أكمل به الطبرى ما ابتدأه سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم أو طوائف الرجال كابن سعد واليعقوبى والدينورى والواقدى والبلاذرى وابن اسحاق ٠

وقد ضاع أكثر ما دون سابقوه وبقى هو مسجلا لما ضاع فحفظ تراثا نفيسا جديرا بأن يبقى على مر الزمان ٠

٢ ــ وهو تمهيد لمن جاءوا بعده ومصدر أصيل من مصـــادرهم كالمسعودى وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون ومازال مصدرا للباحثين الى اليوم ٠

٣ ــ على انه جمع كثيرا من أخبار العرب فى الجاهلية ودونهـــا فحفظها من الضياع ، وكان المؤرخون الذين جاءوا بعده يعولون على ذكره ولولاه لفقد الباحثون معارف كثيرة عن العرب وأحوالهم فى جاهليتهم ٠

٤ ــ كذلك ســـجل كثيرا من الحقائق التاريخية عن العصـــور الاسلامية موثقة بالاسناد الى أصحابها لولاه لعدت عليها عوامل الاغفال والنسيان فحرم التاريخ هذه الآراء ، لأنه دون روايات نقلها من كتب لم يبق الا أقلها وروايات سمعها من أشخاص لو لم يدونها لتوارت فى موجات الزمـــان ٠

٥ ــ ذكر فى تاريخ الفرس كثيرا من الحقائق لا نجدها فى غيره لمن يريد أن يدرس تاريخهم حتى لقد اعتمد عليه نولدكه فى معرفة تاريخ الفرس والعرب أيام بنى ساسان ٠

ولهذا ترجم الى الفارسية فى القرن الرابع الميلادى ، وترجم الى التركية وغيرها بعد ذلك ٠

٦ ـ على انه قد تبين من البحث المفصل فى تاريخ الرومان أن الطبرى دقيق فيما ذكره عنهم لأنه نقل عن نصارى الشام وسمع منهم وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها اليه بأمانة ٠

٧ ـ وهو الى هذا كله حافل بالنصوص الأدبية من شعر وخطب ورسائل ومحاورات قيلت فى مناسبات شتى ٠

فلا غرابة فى أن اعتمد عليه المؤرخون من بعده فاستقوا منه كابن مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١) وابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠) وأبى الفدا (المتوفى سنة ٧٣٢) وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨) ٠

وبهذا ، استحق الكتاب حرص القدماء على اقتنائه واستحق ثناءهم عليه ، فقد كان بخزانة كتب العزيز الفاطمى أكثر من عشرين نسخة احداها بخط المؤلف ٠ وقال القفطى : « ان كتاب الطبرى فى التاريخ أجل كتاب فى بابه » ٠

رسائل إخوان الصفا

إخوان الصفا

٩٨٣ م

اخوان الصفاء والحمامة المطوقة !!

لم يكد يمضى على موت الفارابى ثلاثون سنة حتى هب جماعة من صفوة علماء العصر وخاصة حكماءه الذين أحاطوا بنظريات الأقدمين من فلاسفة الاغريق والهند وفارس وقتلوها بحثا وتمحيصا وهضموا براهينها واعتراضاتها ونجحوا فى اكتناه خفاياها وأسرارها واستنبطوا منها آراء خاصة ، وأقل ما تدل عليه عندهم هو النضوج الفائق فى النظر والفكر وغزارة العلم وسعة الاطلاع ووفرة الثقافة فى جميع جوانب المعارف البشرية التى وصل اليها العالم القديم الى عصرهم ... وفوق ذلك فقد صفت نفوسهم من شوائب المادة وعلت أرواحهم عن علائق المنفعة فوصلوا — كما ينبئوننا فى رسائلهم — الى اسمى آواج الاخلاص والوفاء .

ولما تصافت نفوسهم وتعارفت أرواحهم تآخوا على البر والتقوى ، وقر رأيهم على أن يؤلفوا لهم هيئة علمية وأخلاقية تتعاون على نشر الثقافة العالية من : الهيات ورياضيات وطبيعيات وخلقيات بأسلوب أدبى سلس لكى تذوقه الخاصة ولا يعسر فهمه على العامة . ولما كان أساس تكونهم هو الاخلاص والفدائية فقد أطلقوا على أنفسهم اسم « اخوان الصفاء وخلان الوفاء » .

وقد حدثنا الأستاذ « دى بوير » فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية نقلا عن الأستاذ « جولزيهير » ان هذه الجماعة قد أخذت اسمها من قصة « الحمامة المطوقة » فى كتاب « كليلة ودمنة » ... لأن هذه الخرافة فضلا عن انها اشتملت على الكلمة نفسها « اخوان الصفاء » قد احتوت من الغيرية والتضحية ما اشترطته هذه الجماعة فى الصداقة ... فكما نرى الحمامة فى القصة تطلب الى الجرذ أن يقطع شباك صديقاتها قبل شبكتها وتقدم نجاتهن على نجاتها ترى اخوان الصفاء يقولون فى أحد الفصول التى كتبوها عن الصداقة ما نصه :

« فاذا أسعدك الله يا أخى بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك وق عرضه بعرضك وافرش له جناحك وأودعه سرك وشاوره فى أمرك وداو برؤيته عينك واجعل أنسك اذا غاب عنك ذكره والفكر فى أمره وان هفا هفوة فاغفرها له وان زل فصغرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقدك

واذكر سالف احسانه عند اساءته بك ويأمن من غائلتك فان ذلك أسلم لوده وأدوم لاخائه » ٠

ألف أولئك العلماء جماعتهم بطريقة سرية لا يطلع عليها أحد من العامة ولا من الخاصة لأنهم آمنوا بأن فشلهم مقرون بايضاح خطتهم أو باظهار أسمائهم اذ كان يكفى لسحقهم واحباط كل أعمالهم أن يهب بضعة شيوخ من رجال الدين فيؤلبوا عليهم العامة معلنين أنهم زنادقة أو ملحدون ٠

ولكن هل معنى هذا انهم كانوا يخفون منتجاتهم ويضنون بها على الجماهير كما ضنوا عليها بأسمائهم وأمكنة اجتماعاتهم ؟ كلا بل حرصوا بالعكس على أن يذيعوا آراءهم وأفكارهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، لأن الغاية التى كانوا يرمون اليها من عملهم انما هى تثقيف الأمة وتهذيبها بعد أن عجزت الشريعة ـ فى نظرهم ـ عن أداء هـذه المهمة لما أصابها فى رأيهم من لطخات البدع والمستحدثات الدخيلة التى حالت بينها وبين القيام بمهمتها تمام الحيلولة وهم فى هذا يقولون فيما يروى لنا عنهم أبو حيان التوحيدى :

« أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال » !

هذه هى غايتهم التى أعلنوا أنهم ألفوا جمعيتهم من أجلها وصرحوا بأنهم لو أمنوا تعصب الخاصـــة وهوس العـــامة لأظهروا أشـــخاصهم ومجتمعاتهم للعيان ، لأنهم ليس لديهم ما يريب وليست لهم أية غاية أخرى غير التى أعلنوها ٠ ولكن الناس لم يطمئنوا اليهم ولم يصدقوا ما قالوه بل رموهم بأغراض شخصية كانوا ينتوون الوصول اليها من وراء حركتهم هذه وهى قلب الدين والعرش ٠ وقد ذاعت هذه التهمة فى عصرهم بين الخاصة والعامة فارتاب فيهم أولئك وحمل عليهم هؤلاء ٠

واننا لنجد عناصر هذه الريبة فى اخوان الصفاء عند الوزير صمصام الدولة حين نمى اليه ان أبا حيان متصل بأحد أعضاء هذه الجماعة هو « زيد بن رفاعة » فقال مخاطبا أبا حيان :

« حدثنى عن شىء هو أهم من هذا الى وأخطر على بالى : انى لا أزال أسمع من زيد بنى رفاعة قولا يريبنى ومذهبا لا عهد لى به وكناية عما لا أحقه واشارة الى ما لا يتوضح شىء منه يذكر الحروف ويذكر اللفظ

ويزعم ان الباء لم تنقط من تحت واحدة الا لسبب والتاء لم تنقط من فوق اثنين الا لعلة والألف لم تهمل الا لغرض وأشباه هذا وأشهد منه فى عرض هذا دعوى يتعاظم بها وينتفخ بذكرها ... فما حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دخلته ؟ فقد بلغنى يا أبا حيان انك تغشاه وتجلس اليه وتكثر عنده ولك معه نوادر معجبة ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافى مذهبه » .

قال أبو حيان « أيها الوزير أنت الذى تعرفه قبلى قديما وحديثا لاختبار ولاستخدام ، ومه منك الامرة القديمة والنسبة المعروفة ... » .

وقال الوزير : « دع هذا وصفه لى » .

قال أبو حيان : « هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع فى قول النظم والنثر مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة وحفظ أيام الناس وسماع المقالات وتبصر فى الآراء والديانات وتصرف فى كل فن ... اما بالشد الموهم واما المتوسط المفهم واما بالتناهى المفحم » .

قال الوزير : « فعلى هذا ما مذهبه ؟ » .

قال أبو حيان : « لا ينسب الى شىء ولا يعرف له حال حيث انه تكلم فى كل شىء وغلبانه فى كل باب ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان محمد بن مشعر البستى (ويعرف بالمقدسى) وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى وغيرهم وصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبا زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله » .

مجالس الحكماء الخاصة !!

فأنت ترى من هذا الحديث ان الوزير مرتاب يوجس خيفة من هذه الجماعة وان أبا حيان وان كان قدم حام حول الايضاح ــ لم يكشف اللثام عن تأسس هذه الفئة ولم يحط علما بأغراضها الحقيقية ، ولذلك فقد ظلت هذه الأغراض موضع التكهن والخلط حتى عند الباحثين المحدثين في عصورنا الحاضرة واليك ما يقوله البارون « كارادى فو » حول تأسس هذه الجماعة :

« ان هذه الجماعة لم تكن جمعية فلسفية بسيطة وانما كانت الى جانب ذلك شيئا آخر وان كان من العسير ان يقال ما هو ذلك الشيء بالضبط انه يحوم حولها سر غريب وهو الذى يمنع من كشف غايتها وأعمالها ووسائلها ولكن الأمر المؤكد هو ان اخوان الصفاء كان لديهم أدوات أخرى للدعاية غير مؤلفاتهم ، بل ان هذه المؤلفات نفسها لم تقل كل شيء عنهم ولم توضح كيف كانوا ولا ماذا كانوا يفعلون ولكنهم كانوا يشتغلون بالسياسة » .

وكذلك الدكتور طه حسين يرى هذا الرأى اذ يقول ما نصه :

« كان هؤلاء الناس اذن يعملون من وراء ستار ويؤلفون جماعة سرية وكان قوام جماعتهم هذه ــ فيما يظهر ــ سياسيا وعقليا ... فهم يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الاسلامى يومئذ ، وهم يتوسلون الى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين أيضا وهم يسلكون فى ذلك مسلك جماعات سبقتهم فى العالم القديم أظهرها جماعة الفيثاغوريين فى المستعمرات اليونانية الايطالية ، فقد كانت هذه الجماعة مبغضة للنظام السياسى اليونانى المألوف وكانت تريد قلبه وتغييره وكانت تتوسل الى ذلك بوسائل أهمها : تغيير النظام العقلى وانشاء فلسفة جديدة تكون الحياة العقلية والعملية للفرد والجماعة تكوينا جيدا ملائم بينها وبين السياسة الجديدة ويمكن هذه الجماعة من السيطرة على الأمور العامة وقد وفقت هذه الجماعة الفيثاغورية بعض التوفيق » .

« وحاول أفلاطون شيئا من ذلك فوفق من الجهة العقلية وتخيل

نظاما سياسا بسطه فى كتاب « الجمهورية » وكتاب « النواميس » وأقامه على الفلسفة الأفلاطونية كلها كما أقام الفيثاغوريون نظامهم على الفلسفة الفيثاغورية ... ولكن أفلاطون لم يوفق فى الحياة العملية الى شىء وظلت سياسته خيالا ليس غير . وفلاسفة اليونان جميعا متفقون على ان النظام السياسى كائنا ما كان لا قيمة له اذا لم يعتمد على نظام من نظم التربية يلائمه ويهيىء الأفراد والجماعات لتأييده والذود عنه ... فالتربية أهم ما يعنى به أفلاطون فى الجمهورية وهى أهم ما يعنى به أرسطاليس فى كتاب « السياسة » وكلاهما يبين أحسن تبيين الصلة بين أنواع التربية والتعليم المختلفة وبين ما يوجد أو يتخيل من نظم الحكم والسياسة ...

« فجماعتنا السرية هذه متأثرة من غير شك بما كان فى العالم اليونانى من محاولات تشبه محاولتها السياسية متأثرة بمحاولة الفيثاغوريين متأثرة بمحاولة أفلاطون وقد كان حظها من التوفيق كحظ الفيثاغوريين فقد وفق الاسماعيليون الى وجود سياسى مكن لهم فى بعض الأرض ونشر الرعب فى العالم الاسلامى حينا » .

ومهما يكن من الأمر فان الذى لا ريب فيه أن هذه الجماعة قد وجدت وتكونت من عدد عظيم من خاصة رجال العصر وكبار علمائه وفصحائه وفطاحل مفكريه وفلاسفته وان أعضاءها كانوا من أشد أهل زمانهم محافظة على مكارم الأخلاق وتمسكا بالفضائل العالية من اخلاص ووفاء وطهر وصدق وأمانة وغير ذلك وأنها كانت ترمى الى غاية معينة قد يكون ما صرحت به جزءا منها وقد يكون غيرها سواء أكان هذا الغير متجها الى السياسة أم الى الدين أم اليهما معا وان كنا نستطيع أن نجزم بأن هذه الغاية ــ ان وجدت ــ لم تكن شخصية البتة بل كانت للصالح العام .

بقى الآن فى هذه النقطة أن نعلن أن « البارون كارادى فو » يخالفنا فيما نراه من ان هذه الجماعة قد اقتصرت على خاصة العلماء وأفذاذ المفكرين اذ يرى أنها قد حوت بين دفتيها الى جانب أسماء الخاصة والممتازين عددا كبيرا من أسماء الجهلة والعوام الذين أوتوا نصيبا من الثروة ليساهموا فى الجمعية بأموالهم كما ساهم الأولون بأفكارهم وليس هذا فحسب بل قد انضم اليها من لا علم عنده ولا مال فساهم فيها بخدماته العلمية .

غير أنه قد فات البارون أن هذه الجمعية لو حوت سجلاتها أسماء جهلة الأغنياء والسوقة لانكشف أمرها وذاع سرها فى وقت قصير ... لأن الدهماء فى كل زمان لا يؤتمنون على سر ولا يقوون على الاحتفاظ بعهد وانما المعقول المستساغ هو أن عضوية هذه الجماعة كانت مقصورة على

الحكماء والفلاسفة أما الذى كان يشمل العامة فهو تعاليمهم الظاهرة التى كانوا يدونونها فى رسائلهم ويرسلونها الى المكتبات العامة لتذيع وتتداول وبالتالى لم يكونوا يضنون بها على أحد حتى لو كان من خصومهم ·

ولا ريب أن نصوصهم نفسها تؤيدنا فيما نذهب اليه اذ هى صريحة فى أنهم لم يكونوا يسمحون بحضور مجالسهم ولا بالنقاش معهم ولا بالاحاطة بأسرارهم الا لخاصة العلماء وخلاصة الحكماء الذين لهم مقدرة على تدارس العلوم الالهية والرياضية وأمثالها من مواد الفلسفة الصعبة المنال واليك شيئا من هذه النصوص :

« اعلم أيها الأخ — أيدك الله وايانا بروح منه — أنه ينبغى لاخواننا — أيدهم الله كانوا من البلاد — ان يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه فى أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه أسرارهم وينبغى أن تكون مذاكرتهم أكثرها فى علم النفس الحس والمحسوس والعقل والمعقول والنظر والبحث عن أسرار الكتب أو التنزيلات النبوية ومعانى ما تضمنتها موضوعات الشريعة وينبغى أيضا أن يتذاكروا العلوم والرياضيات الأربعة أعنى العدد والهندسة والتنجيم والتأليف وأما أكثر عنايتهم وقصدهم فينبغى أن يكون البحث عن العلوم الالهية التى هى الغرض الأقصى » ·

وفوق ذلك فقد أيد صاحب « كشف الظنون » صحة هذا الرأى فقال : « انهم كلهم حكماء اجتمعوا وصنفوا احدى وخمسين رسالة » ·

وأحسب أن كلمة « كلهم » هنا لا تدع مجالا للشك فى أنه لم يكن بين أولئك الأعضاء دخيل جاهل ولا غنى غبى ·

رسائل اخوان الصفا وقيمتها

تتكون رسائل هذه الجماعة من اثنتين وخمسين رسالة فى أربعة أجزاء ·

فأما الجزء الأول فيحتوى على أربع عشرة رسالة فى الرياضة والمنطق ·

وأما الجزء الثانى فيشتمل على سبع عشرة رسالة فى العلوم الطبيعية والنفسية ·

وأما الجزء الثالث فيتكون من عشر رسائل فيما وراء الطبيعة ·

وأما الجزء الرابع فيتألف من احدى عشرة رسالة فى التصوف وعلم النجوم والسحر ·

وأخص ما تمتاز به هذه الرسائل البساطة واليسر وسهولة المأخذ وعذوبة الأسلوب وتجنب الاصطلاحات الفنية التى هى احدى العقبات الكئود التى تعترض البادئين فى دراسة الفلسفة فتعوقهم عن الاستمرار فيها بل تنفرهم منها أما هنا فان القارىء يستطيع أن يسير مع هذه الرسائل التى تنساب أمام عقله وقلبه انسياب الماء فى الجداول والغدران الا حين يلتقى بالرموز المقصودة التى لم تكتب له بل كتبت لطبقة أخرى قليلة العدد والتى قضت الضرورة فى ذلك العصر بأن تكون على هذه الصورة ·

ومما لا ريب فيه أن هذه الرسائل كانت ــ ولا تزال ــ موضع عناية القدماء والمحدثين فى مشارق الأرض ومغاربها ومن آيات ذلك أن المستشرق الألمانى « فريدرخ دبتريص » قد اتخذ من هذه الرسائل مرجعه الوحيد لكتابه الضخم الذى بلغت مجلداته ثمانية ، والذى تناول فيه دراسة الحكمة عند العرب فى القرن الرابع الهجرى وان دوائر المعارف الأوربية وكتب المستشرقين قد أسهبت فى تحليل هذه الرسائل واستكناه دورها وحل ألغازها ومحاولة تبين رموزها وتتبع ترتيباتها وتنظيماتها ، لأنهم جميعا قد اقتنعوا بأنها هى المرآة الصادقة لنضوج الفكر الاسلامى بعد ان انتشرت حوله المعارف الأجنبية المترجمة وعملت عملها وآتت أكلها ·

وقد سجل هذا التصوير الدكتور طه حسين فى مقدمته لهذه الرسائل اذ قال :

« ورسائل اخوان الصفاء هذه تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر كما تمثل الحياة السياسية أو أقوى من تمثيلها للحياة السياسية فهى مرآة تنعكس فيها الحيـــاة العقلية مباشرا ونحن نرى فيهـا هذه الحياة واضحة جلية نرى أن العقل الاســلامى فى القرن الرابع كان قد وعى ما نقل اليه من فلسفة اليونان وحكمـــه الهند وآداب الفرس والآداب العربية والاسلام وغيره من الديانات السماوية وغير السماوية وجمع ذلك كله ورتبه ولاءم بينه وحاول أن يكون منه مزاجا واحدا مؤتلفا هو خلاصة الثقافة التى يجب على الرجل المستنير حقا أن يظفر بها ويأخذ منها الحظ الموفور ...

« ولسنا نقول شيئا جديدا حين نقول ان رسائل اخوان الصفاء هذه أشبه شىء بدائرة معارف فلسفية علمية جمعت كل ما لم يكن بد من تحصيله للرجل المثقف حقا فى ذلك العصر ولكنها جمعت ذلك كله على شىء من النظام يمثله الفهرست الذى قدم بين يديها .

« لرسائل اخوان الصفاء قيمة أخرى لم أشر اليها بعد وهى قيمتها الفنية الخالصة فهى من حيث انها تتجه الى جمهرة الناس للتعليم والتثقيف قد عدل فيها عن العسر الفلسفى الى اليسر الأدبى وعنى كتابها بألفاظها وأساليبها عناية أدبية خاصة ففيها خيال كثير وفيها تشبيه متقن وفيها ألفاظ متخيرة ومعان ميسرة وليس من الغلو أن يقال انها قاربت المثل الأعلى فى تذليل اللغة العربية ، وتيسيرها لقبول ألوان العلم على اختلافها . ولو أن لدينا من الذين يعنون بالدرس الأدبى جماعة تتوفر على « رسائل اخوان الصفاء » درسا وتحليلا ونقدا لكان من الممتع ان نتبين فيها من الشخصيات الفنية المتفاوتة بل لكان من الممكن أن نستكشف بعض هذه الشخصيات . ومن يدرى لعل منها شخصيات معروفة كتبت فى الأدب والفلسفة والعلم وعرفت كتبها واشتركت فى هذه الرسائل سرا لم يعرف اشتراكها الى الآن » .

« وجملة القول ان هذه الرسائل كنز لم يقدر بعد لأنه لم يعرف بعد . وهو اذا عرف فقد يجلو قطعة من حياة الأمة الاسلامية فى عصر من أهم عصورها وأجلها خطرا وعسى أن يكون فى نشر هذه الرســائل وتيسير الحصـــول عليها ما يدنى من هذه الغـاية ويقرب من هذا المثل الأعلى » .

لقد شبه هؤلاء العلماء الأعلام الأخيار أنفسهم برجل كريم الطبع عظيم السخاء واسع البذل غزير الجود ولديه بستان مورق مونق شهى

الثمار شذى الأزهار فأراد أن يشرك فى المتعة به الصفوة التى تقدره من بنى الانسان فدعاهم بلا استثناء ولا تمايز الى تذوق ثماره واستنشاق عرف زهوره وتشنيف أسماعهم بشدو طيوره وامتاع أبصارهم ببديع مناظره وحثهم على الالتذاذ ببواطنه وظواهره وحضهم على التزين بلآلئه وجواهره وهو لكى يجتذبهم اليه قدم اليهم نماذج مما يشتمل عليه وكذلك هذه الرسائل هى أمثلة من معارفهم لا حصر لثقافتهم وهم فى هذا يقولون :

« واعلم يا أخى ـ أيدك الله وايانا بروح منه ـ بأن مثل أصحاب هذه الرسائل مع طالبى العلم ومؤثرى الحكمة ومن أحب خلاصه واختار نجاته رجل حكيم جواد كريم له بستان خضر نضر بهج مونق معجب طيب الثمرات لذيذ الفواكه عطر الرياحين أرجه الأوراد فائحة الأزهار بهجة المنظر نزهة المرامى ، مختلفة الأشكال والأصباغ والألوان والمذاق والمشام ، من بين رطب ويابس وحلو وحامض وفيها من سائر الطيور المطربة الأصوات ، الملهبة الألحان ، المستحسنة التغريد تطرد تحت أشجار أنهار جارية وخلال أزهارها وخضرها جداول منسابة تموج وفى حافات الأنهار خضر مونقة وأصداف مشرقة الألوان وجواهر متناسبة الأصباغ رائقة المناظر عجيبة الصور بديعة التأليف غريبة التنضيد فرحة كل نفس ونزهة كل عين مسلاة كل هم مدعاة كل أنس ... فأراد ـ لكرم نفسه وسخاء سجيته ـ أن يدخلها كل مستحق ويتلذذ فيها وبها كل مشرف فنادى فى الناس أن هلموا وادخلوا هذا البستان وكلوا من ثماره ما اشتهيتم وشموا من رياحينه ما اخترتم وتفرجوا كيف شئتم وتنزهوا أين هويتم وافرحوا واطربوا وكلوا واشربوا وتلذذوا وتنعموا واستروحوا بطيبها وتنسموا بروائحها فلم يجبه أحد ولم يصدقه خلق ولا عبئوا به ولا التفتوا اليه استعظاما لقوله واستبعادا لوصفه واستنكارا لكلامه واستغرابا لذكره فرأى الحكيم من الرأى ان وقف على باب البستان وأخرج مما فيه تحفا وطرفا ولطفا من كل ثمرة طيبة وفاكهة لذيذة وريحان زكى وورد جنى ونور أنيق وجوهره بهى وطير غرد وشراب عذب فكل من مر به عرضها عليه وشهاها اليه ، وذوقه منها وحياه بها وأشمه من فوائح الرياحين وأسمعه من بدائع التلحين حتى اذا ذاق وشم وفرح به وطرب منه وارتاح اليه اهتز وعلم انه قد وقف على جميع ما فى البستان ومالت اليه نفسه واشتاق الى دخول البستان وتمناه وقلق اليه ولم يصبر عنه ، فقال له عند ذلك : ادخل البستان وكل ما شئت وشم ما شئت واختر ما شئت وانظر كيف شئت وتنزه أين شئت وجىء من أين شئت وتلذذ وتنعم وتطيب وتنسم .

فهكذا ينبغى لمن حصلت عنده هذه الرسائل والرسالة ألا يضيعها

بوضعها فى غير أهلها وبذلها لمن لم يرغب فيها ولا يظلمها بمنعها عن مستحقها وصرفها عن مستوجبها » .

مذهب هذه الجماعة

لعل فى نسبتنا الى اخـوان الصفا مذهبا معينا شيئا من التجوز ماداموا هم أنفسهم يعلنون انهم لا يفضلون مذهبا على مذهب ولا يقدمون عقيدة على عقيدة وانما كل المذاهب عندهم سواسية لأنهم يرجعون كل المذاهب والعقائد الى الوحدة المطلقة التى صدر عنها كل شىء والتى لا ينبغى تفضيل أحد الصـادرين عنها على الآخر واليك نص عبـارتهم فى هذا الشأن :

« أعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ، انا نحن جماعة اخوان الصفا أصفياء كرام كنا نياما فى كهف أبينا آدم مدة من الزمان تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان حتى جاء وقت الميعاد بعد تفريقنا فى البلاد فى مملكة صاحب الناموس الأكبر وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة فى الهواء التى ذكرناها فى الرسالة الثانية وهى التى أخرج منها أبونا آدم وزوجته وذريتهما لما خدعهما عدوهما وهو ابليس وقال : « هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى » واغترا بقوله وحملهما الحرص والعجلة فبادرا وطلبا ما ليس لهما أن يتناولاه قبل استحقاقه فى أوانه فسقطت مرتبتهما وانحطت درجتهما وانكشفت عورتهما وأخرجهما وذريتهما جميعا بعضـــهم لبعض عدو وقيل لهم اهبطوا منها ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يوم البعث اذا انتبهتم من نوم الجهالة واستيقظتم من رقدة الغفلة اذا نفخ فيكم بالصور فتنشق عنكم القبور وتخرجون من الأجداث سراعا « كأنهم الى نصب يوفضون » .

فهل لك يأخى أيدك الله وايانا بروح منه أن تبادر وتركب معنا فى سفينة النجاة التى بناها أبونا نوح عليه السلام فتنجو من طوفان الطبيعة قبل أن تأتى السماء بدخان مبين وتسلم من أمواج بحر الهيولى ولا تكون من المغرقين ؟

أو هل لك يا أخى أن تنظر معنا حتى ترى ملكوت السموات التى رآها أبونا ابراهيم لما جن عليه الليل حتى تكون من الموقنين ؟ .

أو هل لك يا أخى أن تتمم الميعاد وتجىء الى الميقات عند الجانب الأيمن حيث قيل يا موسى فيقضى اليك الأمر فتكون من الشاهدين ؟ .

أو هل لك يا أخي ان تصنع ما عمل فيه القوم كى ينفخ فيك الروح

فيذهب عنك اللوم حتى ترى الأيسوع عن ميمنة عرش الرب قرب مثواه كما يقرب الابن الأب أو ترى من حوله من الناظرين ؟

أو هل لك يا أخى أن تخرج من ظلمة أهر من حتى ترى اليزدان قد أشرق منه النور فى فسخة أفريحون ؟

أو هل لك يا أخى أن تدخل الى هيكل عاديمون حتى ترى الأفلاك التى يحيكها أفلاطون ، وانما هى أفلاك روحانية لا ما يشير اليه المنجمون وذلك ان علم الله تعالى محيط بما يحوى العقل من المعقولات والعقل محيط بما تحوى النفس من الصور والنفس محيطة بما تحوى الطبيعة من الكائنات والطبيعة محيطة بما تحوى الهيولى من المصنوعات فاذا هى أفلاك محيطات بعضها لبعض ؟ ·

أو هل لك ألا ترقد من أول ليلة القدر حتى ترى المعراج فى حين طلوع الفجر حيث أحمد المبعوث فى مقامه فتسأل حاجتك المقضية لا ممنوعا ولا مفقودا وتكون من المقربين ؟ ··· وفقك الله أيها الأخ البار الرحيم وجميع اخواننا لفهم هذه الاشارات والرموز وفتح قلبك وشرح صـــدرك وطهر نفسك ونور عقلك لتشـاهد بعين البصـيرة حقائق هذه الأسرار فلا تفزع من موت الجسد اذا فارقته وفيه حياة النفس فتكون من أولياء الله » ·

وهنا نرى اخـوان الصـفاء يحاولون التوفيق بين الأديان ويبذلون الجهد فى اثبات صدورها من نبع واحد ·

نظريات المعرفة

جعل اخوان الصفاء درجات التفلسف ثلاثا :

أولاها : محبة الحكمة والشغف بالوصول الى الحقيقة والتفانى فى البحث عنها ·

وثانيتها : تحقيق المعرفة على صورة عملية واقعية ·

وثالثتها : القول والعمل بمقتضى العلم وهما قمة الحكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ·

واذن فالخطوة الأولى فى درجـات التفلسف ـ بعد المحبـة القلبية الصـــادقة للحكمة ـ وهى تحصيل المعرفة وقد تبعوا فى مراتب هـذا التحصيل تلك الحكمة الفلسفية القديمة التى وجدها سقراط مكتـوبة ـ فيما تروى الاسطورة ـ بأحرف من ذهب على عتبة ديلف معبد أبولون

اله الوحى والالهام والشعر عند الاغريق وهى : « اعرف نفسك بنفسك » فقد قررت هذه الجماعة أن المتفلسف لا يستطيع أن يخطو تفلسفه خطوة واحدة قبل أن يعرف نفسه بنفسه معرفة عميقة قاطعة والا كان مثله كمثل من يزعم انه يعالج المرضى وهو سقيم أو يدعى انه يساعد الفقراء وهو مدقع أو أنه يحاول أن يرشد الناس فى الطرقات وهو لا يعرف طريق بيته وهم فى هذا يقولون :

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه انه لا يحسن بنا ان ندعى معرفة حقائق هذه الأشياء ونحن لا نعرف أنفسنا لأن مثل من يدعى معرفة حقائق الأشياء ولا يعرف نفسه كمثل من يطعم الناس وهو جائع وكمن يكسو غيره وهو عريان وكمن يداوى الناس وهو عليل وكمن يهدى الناس الى الطريق وهو لا يعرف طريق بيته فقد علم ان الانسان فى مثل هذه الأشياء ينبغى له أن يبتدىء أولا بنفسه ثم بغيره ...

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ان كل واحد منا هو مركب ومؤلف من جوهرين متباينين متضادين : احدهما هو هذا الجسد الغليظ المحسوس المؤلف من اللحم والدم والعظم والجلد والعصب والعروق وما يشاكل ذلك ، وهذه كلها أجسام أرضية ميتة مظلمة فاسدة وأما الجوهر الآخر فهو هذا الروح اللطيف أعنى النفس فهى جوهرة سمائية روحانية نورانية علامة دراكة صور الأشياء .

« واعلم ان هذا الجسد لهذه النفس فى المثال بمنزلة دار تسكن أو دابة تركب أو آلة تستعمل وما دامت هذه النفس مع الجسد مربوطة به الى الوقت المعلوم فلابد لنا من النظر فيما تصلح به معيشة الدنيا وما تنال به النجاة والفوز فى الآخرة » .

وأما المعارف التى يجب على المفكر أن يفلسف فيها ليصل من ورائها الى كشف أسرار الكون وخفايا الوجود فهى النواميس السماوية والظواهر الكونية والكتب الالهية والثمار العقلية التى أنتجها أعلام الفلسفة على ألا يأخذوا من الكتب الالهية بظواهرها وألا يكتفوا بالأصداف التى وضعتها السماء حول جواهرها ولآلئها قصدا لاخفائها عن الدهماء وسترا لأسرارها عن العامة الذين ليس فى تكوينهم ما يمكنهم من اكتناه نفائسها وضنا بها عن دركات الابتذال واحتفاظا بقيمتها للصفوة الممتازين الذين ركزت السماء فى فطرتهم القدرة على التغلغل الى أعماقها واستكشاف بواطنها وهم فى هذا يقولون :

« واعلم أيها الأخ أنا لا نعادى علما من العلوم ولا نتعصب على مذهب من المذاهب ولا نهجر كتابا من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألفوه فى فنون العلم وما استخرجوه بعقولهم وتفحصهم من لطيف المعانى ...

« وأما معتمدنا ومعولنا وبناء أمرنا فعلى كتب الأنبياء صلوت الله عليهم أجمعين وما جاءوا به من التنزيل وما ألقت اليهم الملائكة من الأنباء والالهام والوحى ...

« واعلم أيها الأخ أيدك الله وايانا بروح منه أنا لنا كتبا نقرؤها يشاهدها الناس ولا يحسنون قراءتها وهى صورة أشكال الموجودات بما هى عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب وأمهات الأركان واختلاف جواهر المعادن وفنون أشكال النبات وعجائب هياكل الحيوانات ولنا كتاب آخر لا يشاركنا فيه غيرنا ولا يفهمه سوانا وهو معرفة جواهر النفوس ومراتب مقاماتها واستيلاء بعضها على بعض وافتنان قواها وتأثيرات أفعالها فى الأجسام من الأفلاك والكواكب والأركان والمعادن والنبات والحيوانات وطبقات الناس من الأنبياء والحكماء والملوك وأتباعهم والسوقة وأعوانهم فان نشطت أيها الأخ البار الرحيم الى قراءة هذه الكتب أنت واخوانك لتعلم ما فيها وتفهم معانيها وتعرف أسرارها فهلم الى حضور مجلس اخوان لك فضلاء وأصدقاء لك كرام ... تسمع أقاويلهم وترى شمائلهم وتعرف سيرتهم لعلك تتخلق بأخلاقهم وتتهذب بآدابهم فتنتبه نفسك من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة وينشرح صدرك ويصفو ذهنك وتفتح عين البصيرة من قلبك فترى ما قد أبصروه بعيون قلوبهم وتشاهد ما قد عاينوه بصفاء جواهر نفوسهم وتنظر الى ما نظروا اليه بنور عقولهم وتفهم معانى هذه الكتب الأربعة كما فهموها وتؤيد بروح الحياة وتعيش عيش العلماء وتحيا حياة الشهداء وتوفق للصعود الى ملكوت السماء وتنظر الى الملأ الأعلى الـ « حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

غير أنه لما كانت هذه الجماعة قد أعلنت فى أكثر من موضع من رسائلها أن لديها معارف خاصة ومعلومات مخبوءة تضن بها على غير أهلها فلا تبديها الا للصفوة الممتازين والعلية المختارين ، أذاع خصومها ضدها شائعات متباينة مؤداها ان لهذه الجماعة أهدافا سرية خطيرة ترمى اليها وتشغف بها وهى قلب نظام الحكم والاستيلاء على مقاليد الأمور طمعا فى السلطان وحقدا على الحكام الراهنين وانها تخشى من اذاعة هذه المبادىء بطش الملوك والأمراء ورجم العامة والدهماء فلما اتصلت أطراف هذه الشائعات بجماعة اخوان الصفاء وضعوا الأمور فى نصابها وأوضحوا الحكمة التى دفعتهم الى الضن بعلومهم والاحتفاظ بمعارفهم فقالوا :

« أعلم أيها الأخ البار الرحيم أنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوى السلطنة الأرضية ولا حذرا من شغب جمهور العوام ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا كما أوصى المسيح فقال : « لا تضعوا الحكمة عند غيرأهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » ..

وأعلم أيها الأخ أنا لا نحسد ملوك الأرضين ولا نتنافس فى مراتب أبناء الدنيا لكن نطلب الملك السـماوى ومراتب الملائكة الذين هم أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع لان جوهرنا جوهر سماوى وعالمنا عالم علوى ونحن ها هنا أسرى غرباء فى أسر الطبيعة غرقى فى بحر الهيولى بجناية كانت من أبينا آدم الأول حين خدعه عدوه اللعين اذ قال : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ... « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما » وقيل لهم : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » يعنى أنتما وذريتكما « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » وقال : « فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » .

الفلسفة وأقسامها

قسمت هذه الجماعة الفلسفة الى أربعة أنواع وهى : الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والالهيات وعندهم أن أول ما يجب أن يبدأ به من هذه العلوم الفلسفية : الرياضيات وأول الرياضيات معرفة خواص العدد ، لأنه أقرب العلوم متناولا ثم الهندسة ثم التأليف ثم التنجيم ثم المنطقيات ثم التطبيقات ثم الالهيات .

سلك اخوان الصفاء فى رسائلهم النهج نفسه الذى أشاروا اليه فى تعريف الفلسفة وهو البدء بالقسم الرياضى لانهم كانوا موقنين انه المقدمة الضرورية الأولى لمعرفة جميع علوم الحكمة والوسيلة المثلى للتدليل على صحة المذهب . وليس المنطق الا فرعا منه رغم كونه قسيمه اذ أن الهندسة النظرية هى العامل الأول فى تقويم العقل وجعله قادرا على الاستفادة من المنطق وهذا هو السر فى الحاقهم المنطق بالقسم الرياضى من رسائلهم .

وهاك ما يقولونه فى فضل الرياضة وما يبررون به تقديمهم اياها على سائر علوم الفلسفة :

« واعلم أيها الأخ البار الرحيم بأنه لما كان من مذهب اخواننا الكرام أيدهم الله النظر فى جميع علوم الموجودات التى فى العـالم من الجواهر والأعراض والبسائط والموجودات والمفردات والمركبات والبحث عن مبادئها وعن كيفية أجناسها وأنواعها وخواصها ونظامها على ما هى عليه الآن وعن كيفية حدوثها ونشـوئها عن علة واحدة ومبدأ واحد من مبدع واحد

جل جلاله ويستشهدون على بيانها بأمثلة عددية وبراهين هندسية مثل ما كان يفعله الحكماء الفيثاغوريون ... احتجنا أن نقدم هذه الرسالة قبل رسائلنا كلها ونذكر فيها طرفا من علم العدد وخواصه التى تسمى « الارثماطيقا » شبيه المدخل والمقدمات لكيما يسهل الطريق على المتعلمين الى طلب الحكمة التى تسمى الفلسفة ويقرب تناولها للمبتدئين بالنظر فى العلوم الرياضية » .

ليست صدارة القسم الرياضى عند اخوان الصفاء ناشئة من أنه أصل البراهين المنطقية فحسب بل هى ناشئة من شيء آخر هو أهم من ذلك وهو تأثرهم بالفيثاغورية الحديثة التى امتزجت بالفلسفات الاسكندرية ثم اتجهت الى غاية معنية وهى اثبات الانسجام الدقيق بين الأعداد وسائر الموجودات من : علوية عقلية وسفلية مادية .

الطبيعة :

تبع اخوان الصفاء أرسطو فى أكثر نظريات هذا القسم فأسهبوا فى بسط مشاكل الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان والفراغ والسماء والعالم والكون والفساد والآثار العلوية وفعلها فى الطبيعة وغير ذلك مما تفوق فيه حكيم استاجيرا على سائر الفلاسفة القدماء . وظلوا حريصين على محاكاة أرسطو فى جميع هذه النظريات بل مزجوها فى عدة نواح بآراء الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثتين ، كان قرروا مثلا أن النفس الكلية هى روح العالم المدبر لجميع أجزائه وعناصره ، وان الأفلاك ليست الا أدوات تلك النفس التى تدبر بها ، وأن جسم العالم لا يخرج عن كونه المادة التى يقع عليها التدبير من النفس الكلية ، ولا ريب أن هذا رأى فيثاغورى أفلاطونى وهم فى هذا يقولون :

« واعلم يا أخى ان الطبيعة انما هى قوة النفس الكلية الفلكية وهى سارية فى جميع الأجسام التى دون فلك القمر من لدن كرة الأثير الى منتهى مركز الأثير ...

« واعلم ان الأجسام التى دون فلك القمر نوعان / بسيطة ومركبة فالبسيطة أربعة أنواع وهى : النار والهواء والماء والأرض والمركبة ثلاثة أنواع : المعادن والنبات والحيوانات وهذه القوى أعنى الطبيعة سارية فيها كلها ومحركة ومسكنة ومدبرة لها ومتممة ومبلغة لكل واحدة منها الى أقصى مدى غاياتها بحسب ما يليق بواحدة واحدة منها كما شاء باريها وكما بينا فى الرسائل الخمس وهى : رسالة الكون والفساد ورسالة الآثار العلوية ورسالة المعادن ورسالة النبات ورسالة الحيوان ...

• واعلم ان النفس الكلية هى روح العالم كما بينا فى الرسالة التى ذكرنا فيها ان العالم انسان كبير والطبيعة هى فعلها والأركان ـ وهى النار والهواء والماء والأرض ـ هى الهيولى المرضوعة لها والأفلاك والكواكب كالأدوات لها والمعادن والنبات والحيوانات كلها مصنوعاتها » .

ما بعد الطبيعة .. الاله :

لم يرتب أحد من اخوان الصفاء فى أن للكون الها واحدا حكيما اتصف بكل كمال وتنزه عن كل نقص وانه هو مبعث وجود كل شىء وانه علة العلل الذى عنه بدأ واليه ينتهى كل وجود وأنه هو وحده الواجب لذاته وبذاته وان كان من عداه مفتقر اليه وانه كما كان مصدر الوجود هو كذلك مصدر العلم والحق والخير والنور وانه ليس على الانسان الا أن يتجه اليه ليفوز من كل هذا بحظ وافر وان منزلته من جميع الموجودات هى منزلة الواحد من الاعداد اذ هو منشؤها جميعها وهو مع ذلك لا ينقسم ولا يتجزأ ، وهى كلها مفتقرة اليه والنظر الى الأعداد وافتقارها الى الواحد يصلح عندهم لأن يكون برهانا قاطعا على وجود الله ووحدانيته وكماله وهم فى هذا يقولون :

« واعلم يا أخى أيدك الله بروح منه بأنك اذا تأملت ما ذكرنا من تركيب العدد من الواحد الذى قبل الاثنين ونشوئه منه وجدته من أدل الدليل على وحدانية البارى جل ثناؤه وكيفية اختراعه الأشياء وابداعه لها وذلك ان الواحد الذى قبل الاثنين وان كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه كما بينا قبل فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ كذلك الله عز وجل وان كان هو الذى اخترع الأشياء من نور وحدانية أبدعها وأنشأها وبه قوامها وبقاؤها وتماما وكمالها فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وابداعه لها كما بينا فى رسالة المبادىء العقلية فقد أنبأناك بما ذكرنا من أن نسبة البارى جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد وكما أن الواحد أصل العدد ومنشؤه وأوله وآخره وكذلك الله عز وجل هو علة الأشياء وخالقها وأولها وآخرها وكما أن الواحد لا جزء له ولا مثل له فى العدد فكذلك الله اله جل ثناؤه لا مثل له فى خلقه ولا شبه وكما أن الواحد محيط بالعدد كله وبعده كذلك الله جل جلاله عالم الاشياء وماهياتها . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا » .

النفس :

عرفوا النفس بأنها « جوهرة سماوية نورانية حية علامة فعالة بالطبع حساسية دراكة لا تموت ولا تفنى بل تبقى مؤيدة اما ملتذة واما مؤتلمة » .

أما قواها فهى عندهم كثيرة يقولون انها لا يحصى عددها الا الله وهم يذكرون منها البـاصرة والسامعة والشـامة والذائقة واللامسة والمتخيلة والذاكرة والمفكرة والحافظة والناطقة والكاتبة وهلم جرا ٠

الأخـــلاق :

تنقسم الأخلاق عند هذه الجماعة من حيث كونها أصيلة أو طارئة الى قسمين : طبيعى ، ومكتسب فأما الطبيعى فهو متكون من آثار الجبلة البشرية المؤلفـة من العنـاصر الأربعـة : التراب والماء والهواء والنـار وما يعتورهـا من الاخـلاط الخـاضعة لقوى الطبيعة كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وهى ناشئة كذلك من مؤثرات البيئة الطبيعية والتربة التى وجد فيها الشخص والعوامل الجوية التى تعاقبت عليه ، ويضيفون الى ذلك تـأثيرات الكواكب ومنـازلها من أفـلاكها ومحاورهـا ودوراتها وتنقلاتها ٠

أما المكتسبة فهى طارئة مستفادة من البيئة الاجتماعية التى تحوط الشخص وتكيفه بتكييفاتها المختلفة وتصوره على صوره المتباينة كالوالدين والمعاشرين والمربين والأساتذة والعلوم والمعارف والعقائد وما الى ذلك من وسائل التكوين التأثير ٠

وبعد أن ينتهوا من وصف تأثير العناصر والأخلاط وترب البـلاد ومناخاتها فى الأخلاق الفطرية أو المركوزة يأخذون فى تصوير تأثير البيئة الاجتماعية والثقافية والاعتقادية فى الأخلاق المكتسبة فيقولون :

« واعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها تقوى الأخلاق المشاكلة لها ، كمـا أن النظر فى العلوم والمداولة على البحث عنهـا والدرس لها والمذاكرة فيها يقوى الحذق بها والرسوخ فيها وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدءوب فيها يقوى الحذق والأستاذية فيها وهكذا جميع الأخلاق والسجايا والمثال فى ذلك ان كثيرا من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم وهكذا أيضا كثير من الصبيان اذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم ان لم يكونوا فى كل الخلق ففى بعض وعلى هذه القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا التى تطبع عليها الصبيان منذ الصغر اما بأخلاق الآباء والأمهات أو الاخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأسـتاذين المخالطين لهم فى تصاريف أحوالهم » ٠

الصداقة والوفاء :

خصصت هذه الجماعة رسالة من الجزء الرابع من رسائلها ذكرت فيها شروط الصداقة التى يجب على كل فرد من اخوان الصفاء أن يلاحظها فى يقظة ودقة وحذر بحيث لا يختار الصديق الا بعد أن يدرس نفسيته وأن يتعرف مذهبه وعقيدته ويتحقق من أنه خير فاضل عفيف صادق وفى ثابت لا يريد الصداقة الا لذاتها ولا يرمى من وراء العلاقة الا الى هدف المحبة والاخلاص والتعاون على الخير فاذا ظفر بصديق من هذا النوع يجب أن تكون صلته به وثيقة العرى متينة الأواصر حتى تفوق علاقة الشقيق بشقيقه والأب بابنه والزوج بزوجته ، لأن هذه العلائق الأسرية عندهم ناشئة من علل وأسباب وأما اخوان الصفاء فلا علل بينهم اللهم الا الطهر والنقاء وهم فى هذا يقولون :

« وينبغى لاخواننا أيدهم الله حيث كانوا فى البلاد اذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقا مجددا أو أخا مستأنفا أن يعتبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الاخوة أو لا . لأن فى الناس أقواما طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة جائرة فمنهم خير وشرير . وكفور وشكور . وذو أمانة وغدار . وحليم وسفيه . وسخى وبخيل . وشجاع وجبان . وحسود وودود . وفاجر وعفيف . وجزوع وصبور . وشره وقنوع . وسلس وشرس . وفظ غليظ ولطيف رقيق . وعاقل وأحمق وعالم وجاهل . ومحب ومبغض . وموافق ومخالف ومنافق ومخلص . وناصح وغاش . ومتكبر ومتواضع . وعدو وصديق . ومؤمن وزنديق . وعارف ومنكر . ومقبل ومدبر . وما شاكل هذه الأخلاق المحمودة والمذمومة مضادات بعضها لبعض ... فينبغى لك اذا أردت أن تتخذ صديقا أو أخا أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة التى يشترونها .

« واعلم ان الخطب فى اتخاذ الاخوان أجل وأعظم خطرا من هذه كلها لأن اخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعا وهم أعز من الكبريت الأحمر واذا وجدت منهم واحدا فتمسك به فانه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة ، لأن اخوان الصدق نصرة على دفع الأعداء وزين عن الاخلاء وأركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى وظهر يستند اليهم عند المكاره فى السراء والضراء وكنز مذخور ليوم الحاجة وجناح خافض عند المهمات وسلم للصعود الى المعالى ووسيلة الى القلوب عند طلب الشفاعات

وحصن حصين يلتجأ اليه يوم الروع والفزعات فان غبت حفظوك وان تضعضعت عضـــدوك وان رأوا عدوا لك قمعوه والوحدة منهم كالشجرة المباركة تدلت أغصـانها اليك بثمرهـا وأظلتك أوراقها بطيب رائحتها وسترتك بجميل فيئها : فان ذكرت أعانك وان نسيت ذكرك يأمرك بالبر ويسابقك اليه ويرغبك فى الخير ويبارك اليه ويدلك عليه ويبذل ماله ونفسه دونك ٠

فاذا أسعدك الله يا أخى بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك وقى عرضه بعرضك وافرش له جناحك وأودعه سرك وشاوره في أمرك وداو برؤيته عينك واجعل أنسك اذا غاب عنك ذكره والفكر فى أمره وان هفا هفوة فاغفر له وان زل زلة فصغرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقد له واذكر من سالف احسانه عند اساءته ليأنس بك ويأمن غائلتك فان ذلك أسلم لوده وأدوم لاخائه ٠٠ واعلم يا أخى ان من الناس من لا يصـــلح للصداقة والاخوة والمقاربة أصلا البتة فانظر من تصحب وتعاشر ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر فى مرارة عاقبتها فاذا أردت اتخاذ أخ أو صديق فاختبر أولا أحواله واختبر أخلاقه وسله عن مذهبه واعتقـاده وانظر فى عاداته وسـجيته وشمائـله وحركاته فانه لا يخفى على المتفرس بواطن الأمور اذا نظر الى ظواهرها ٠٠٠

« واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق ويدلس عليك بشـبه المرافق ويظهـر لك المحبـة وخلافها فى صـدره وضميره فلا تغتر أو تتيقن ٠٠٠

« واعلم أن أعمال الناس فى ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التى طبعوا عليها وبحسب عاداتهم التى نشأوا عليها أو بحسب آرائهم التى اعتقدوها فاذا رأيت الرجل معجبا صلفا أو نكدا لجوجا أو فظا غليظا أو مماحكا ماريا أو حسودا حقودا أو منافقا مرائيا أو بخيلا شـحيحا أو جبانا مهينا أو مكارا غدارا أو متكبرا جبارا أو حريصا شرها أو كان محبا للمدح والثناء أكثر مما يستحق أو كان مزريا لنظرائه أو كان مستحقرا لأقرانه والناس ذاما لهم ، أو متكلا على حـوله وقوته فاعلم أنه لا يصلح للصداقة وصفوة الاخوة لان هذه الأخلاق والآراء والعادات مفسدة لاعتقاده لاخوانه ٠ وذلك ان من يختار المطالبة بما لا يجب له لا تسمح نفسه ببذل ما يجب عليه وهكذا الحسود واللجوج والغضوب تمنعه هذه الأخلاق عن الاذعان للحق وهكذا اللجاج والتكبر يمنعان عن قطع الجدال والخلاف وكذلك الفظاظة والغلظة يمنعان من العذوبة والسهولة والشراسة والغضب يهيجان على المكابرة ٠٠٠

« وبالجملة كل هذه الأخلاق مفسدة للمودة ومخالفة لصفوة الاخوة مستقلة للنفوس وموحشة للأنس والراحة ومنفرة لالف الطباع ومنغصة للعيش ومبغضة للحياة • أما الأصدقاء الحقيقيون فينبغى اذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم فانه خير لك من ولدك الذى من ظهرك وأخيك من صلب أبيك ومن زوجتك التى جعلت كل كسبك لها وجميع سعيك من أجلها فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم بل ينبغى أن تؤثره عليهم كلهم لان هؤلاء يحبونك من أجل منفعة تصل منك اليهم ويريدونك من أجل مضرة تدفعها فاذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا فى غيرك وخذلوك أحوج ما تكون اليهم فأما هذا الأخ فليس يريدك من أجل شىء خارج عن ذاتك بل من أجل أنه يرى ويعتقد انك اياه وهو اياك نفس واحدة فى جسدين متقابلين يسره ما يسرك ويغمه ما يغمك يرد لك منه مثل الذى تريد له منك واعلم أن قلوب الأخيار صافية لان نفوسهم طاهرة ولا تخفى عليهم خفيات الأمور لانها تتراءى فيها كما تتراءى فى أعين البصراء ظواهر كليات الأمور فلا تضمر لاخوانك الأصفياء ما ظهر لهم فان ذلك لا يخفى عليهم ولا ينكتم عليهم منك » •

خلاصـــــــة

وضح مما قدمناه فى عرضنا لاخوان الصفاء ورسائلهم وآرائهم وأهدافهم انهم جماعة من صفوة المثقفين فى القرن الرابع الهجرى قد تكونت بعد أن تمت ترجمة الفلسـفة الاغريقية والحكمة الهندية والعقائـد الفارسية . وبالاجمال : بعد أن نقلت كل المعارف الانسانية المحترمة فى ذلك العصر الى اللغة العربية فساهمت فى تكوين الفكر الاسلامى الذى كان القرآن والحديث قد أعداه للنظر والبحث اعداد قويا ، بل دفعاه اليهما دفعا والذى شحذته الفتنة السياسية وما ترتب عليها من خلاف فى الآراء ونزاع فى المبادىء طالما خرجا عن حد الاعتدال . وعند ذلك اضطر أولئك المذعنون للأهواء الفردية والأغراض الدنيوية الى أن يؤولوا الآيات والأحاديث وان يحملوها ما لا تطيق لكى يجتذبها كل منهم الى معسكره ويظفر بوقوفها فى صفه ولو كان ذلك على حساب العقل والمنطق والأخلاق .

تضافرت هذه العوامل الأصلية فى البيئة الاسلامية مع المعـارف الأجنبية المترجمة فى انضاج العقلية الاسلامية والارتفاع الى عليا المنازل فى ذلك العهد فكان من الطبيعى أن تحدث تلك التطورات الفكرية الهائلة بل الثورات الاجتماعية الرهيبة وكان جماعة اخوان الصفاء صورة من صور هذا الحدث العظيم .

الشاهنامة

الفردوسى

١٠١٠ م

كتب غيرت الفكر ج ٥ ـ ١٩٣

طالما مال الانسان الأول الى التخيل اذ لم يجد فى الواقع ما يشبع نهمه الى المعرفة وحب كشف المجهول ·· فأوحى اليه الخيال صورا فيها الكثير من المبالغة والمغالاة فى « البطولة » الخارقة ·

ومن هنا وبدافع من ذلك الايحاء الفطرى القديم نشأت « الأسطورة » ·· وتفنن الانسان الأول فى خلق أبطالها الخرافيين الذين لا تقف أمامهم حدود ولا سدود ، ولا تستطيع قوى البشر والطبيعة والجن أن تنال منهم أو تفل من عزائمهم وتوقفهم عاجزين عن بلوغ غاية مهما كانت صعوبتها ··

والأسطورة برغم تغاليها ومجانبتها للحقيقة تعتبر جزءا متمما لتاريخ الشعوب الفكرى ، كما انها تمثل صورة للمجتمع الساذج الذى صدق الأسطورة وتركها تعيش فى ربوعه وأحس انها منه وانه منها ·· وان بينه وبين أبطالها الخياليين أكثر من رباط ··

ولما كانت البيئة وما تحويه من مظاهر طبيعية وصناعية هى التى ترسم شخوص الأسطورة وتحركهم وتدفع بهم حيثما تريد مبشرين بمبادىء سامية أو مقاتلين فى سبيل تدعيم أغراض نبيلة ـ فان الأسطورة الفرعونية قد اتسمت بالطابع الدينى واليونانية تميزت بطابع السعى وراء المعرفة واللذة ، مباحة وغير مباحة أما الفارسية فلها دائما طابع الجرأة والبطولة والجرى وراء المغامرات والحروب ··

والأساطير الفارسية عديدة الا أن « الشاهنامة » هى أشهرها بلا جدال ·· وهى وان تكن أقدم الأساطير الفارسية الا انها تسجل حوادث أقدم الحقب وتروى فى تسلسل محبب قصة أحب الأبطال الى قلوب الناس هناك بما حوت من مغامرات وحوادث ليس لها فى العالمين مثيل !!

« والشاهنامة » فى مجموعها سلسلة من مفاجآت تدور حول لون من ألوان البطولة يكاد يكون واحدا ، هو التمهيد للحرب ثم الحرب ثم الانتصار ولو على جيوش حشدها القردة وقادتها الجن والشياطين !!

وكما رحب الأقدمون بأبطال « الشاهنامة » وعاشوا معهم بالفكر خلال الاحقاب المتعاقبة فقد رحب بهم أيضا من جاء بعدهم وأحبوا هذه الشخوص الفريدة التى صنعت تاريخا فى البطولة والشجاعة والجرأة ما لا نجد له أصلا فى التاريخ الأصيل ···

الفردوسى وحكاية الشاهنامة

الفردوسى هو أكبر شعراء القرن الخامس الهجرى وأحد الشعراء الفرس العظام نظم الشاهنامة فبلغ الأوج فى نظمه ، وهى الملحمة الفارسية التى تصور القصص الايرانى القديم كما تعطى صورة تاريخية صادقة لكثير من جوانب الحياة فى العصر الساسانى الذى سبق الفتح العربى لبلاد الفرس • ثم انه نظم « يوسف وزليخة » متجها فى نظمه القصة نحو الأدب الاسلامى الخالص •

عنى كتاب السير وأدباء الفرس بالفردوسى وحاكوا حول حياته الكثير من القصص حتى ان استخلاص حقيقة حياة الرجل من هذه القصص المختلفة أصبح أمرا لا جدوى منه وانما على الباحث أن يقرأ كتابى الفردوسى الشاهنامة وقصة يوسف وزليخة للتعرف على حياة الشاعر الذى كرس حياته للنظم والذى حرص أشد الحرص على أن ينظم الكتاب الايرانى المعروف فى الفهلوية باسم خداى نامه والذى يعد أعظم أثر أدبى باللغة الفارسية •

والفردوسى حين قام بهذا العمل الأدبى الكبير انما كان يعمل على احياء القومية الايرانية التى بعثها المأمون (١٩٨ / ٨١٣) حين أذن بقيام الدولة الطاهرية أول دويلة فارسية داخل دولته فقد تبع ذلك قيام دويلات منها القوية والضعيفة ، الصفارية والسامانية والعلوية والزيارية والبويهية وكلها فارسية • ثم جاءت دولتان تركيتان الغزنوية والسلجوقية • واستتبع قيام الدويلات الفارسية احياء الروح الفارسى والحنين الى احياء اللغة الفهلوية فى صورتها الاسلامية الحديثة لتكون لغة للعلم والأدب والديوان، ومن هذا الاتجاه الفارسى كان عزم الفردوسى على أن يتفرغ لينظم الشاهنامة ولم يكن قيام الدويلات التركية ليقف معارضا لهذا التيار فكثير من وزراء السلاطين كانوا فرسا وكانت أمنيتهم تشجيع الأدب الفارسى واستخدام اللغة الفارسية فى أعمال الديوان •

***

اختلف الكتاب فى اسم القرية التى ولد بها الفردوسى : ذهب البعض الى انها شاداب « دولتشاه » وذهب آخر الى أنها رزان « مقدمة بايسنقر » وذهب العروضى صاحب « جهار مقاله » — وقد زار طوس بعد وفاة الفردوسى بحوالى مائة سنة — الى أنه ولد فى قرية باز من ناحية الطابران. ويأخذ الكتاب المحدثون برأى العروضى فى هذا . واختلف الكتاب أيضا فى اسم الفردوسى ، منصور أو حسن أو أحمد . أما كنيته « أبو القاسم » فيتفقون عليها وكذلك يتفقون على لقبه الشعرى « الفردوسى » وفى طوس بستان يعرف باسم الفردوسى ولعله ينسب الى هذا البستان .

ويذهب العروضى الى أن الفردوسى كان من دهاقين (أصحاب الضياع) طوس . ويؤيد هذا قوله فى الشاهنامة .

ولم يذكر كتاب التذاكر تاريخ ميلاد الفردوسى ولكن يتبين من بعض أشعاره فى الشاهنامة ما يرجح هذا التاريخ فهو يقول انه فرع من آخر فصل فى كتابه فى اليوم الخامس والعشرين من شهر اسفندرامز وكان قد مضى على الهجرة أربعمائة سنة وكان عمره فى ذلك التاريخ قد اقترب من الثمانين .

ومن هذا يتضح أنه فرغ من الشاهنامة فى ٢٥ فبراير عام ١٠١٠ (٤٠٠ هـ) فاذا ذهبنا الى انه كان فى السادسة والسبعين أو السابعة والسبعين حينذاك فان مولده قد يكون بين سنتى ٣٢٠ / ٩٣١ و ٣٢٣ / ٩٣٤ وفى الشاهنامة نصوص أخرى قد تغير هذا التاريخ قليلا ذلك أن الفردوسى يذكر السنوات بالتقريب لا بالتحديد وقد أخذ الايرانيون حين احتفلوا بالعيد الألفى للفردوسى بهذا التاريخ الأخير .

وأقيم العيد الألفى للفردوسى فى يناير سنة ١٩٣٤ .

وعرف شاعرنا العربية معرفة جيدة وعرف الفهلوية معرفة جيدة كذلك ، وكانت درايته بتاريخ ايران دراية عميقة شاملة أما العربية فهى لغة الثقافة فى ذلك العصر . ومهما يكن من ظهور النزعة الفارسية والاتجاه الى احياء اللغة الفارسية فان لغة القرآن لم يهمل أمرها وقد كتب العلماء حينذاك باللغتين العربية والفارسية ومنهم من كان يكتب الكتاب نفسه باللغتين جميعا . كتب ابن سينا والغزالى والرازى وغيرهم باللغتين ومن هنا عرف أن الحضارة العربية الاسلامية تقوم على العربية الفارسية .

تتفق المقدمتان المبكرتان للشاهنامة على أن (أبو منصور المعمرى) ترجم الى الفارسية — عن الفهلوية — كتاب خداينامه الذى كتبه دانشور وذلك بأمر من (أبو منصور بن عبد الرازق) والى طوس فى العهد السامانى حوالى سنة ٣٤٧ / ٩٥٧ . وقد ساعد المعمرى فى ترجمته أربعة من الفرس

هم : تاج الخراسانى ، يزدان داد بن شابور ، ماهويه بن خورشـــيد ، شادان بن برزين • ومهما يكن من أمر رواية المقدمتين فان عزام وماسيه يلاحظان ان الفردوسى ذكر شادان بن برزين فى أول قصة كليلة ودمنة كأنه الذى حدثه بهذه القصة • ويقول عزام ، نقلا عن نولدكه ، ان شاهوى الذى يذكره الفردوسى راويا فى مفتتح قصة وضع الشطرنج قد يكون تحريف ماهويه أحد الأربعة المترجمين ، وان ماخ مرزبان هراة الذى يروى الفلدوسى عنه ســـيرة هرمز بن أنوشروان يمكن أن يكون هو تاج أحد هؤلاء الأربعة • ولاحظ عزام ان الأربعة الذين ترجموا الكتاب وكانوا مجوسا « ولم يكن غير المجوس اذ ذاك يعنى بالفهلوية ويجيد قراءتها » ولســـنا نوافقه على هذا الرأى فان اسلام الرجل لا يحول دون حبه لثقافة أمته ، وأسماء المترجمين الذين ذكرهم حمزة الأصـــفهانى والبيرونى والبـــلعمى وغيرهم تدل على انهم كانوا مسلمين • ولكن قد يكون من هؤلاء المترجمين الذين قصدهم أستاذنا عزام مجوس • أما ماسيه فيرى أن هؤلاء الأربعة ايرانيون من الولايـــات الشرقية ، فهم من هراة وسيســـتان ونيســـابور وطوس •

من هذا يتبين ان آثـــار الفرس وقصـــصهم كانت معروفة باللغتين العربية والفارسية وان الفردوسى كان لديه هذه التراجم ، أو بعضها وكان لديه النص الفهلوى أيضا •

★★★

عهد نوح بن منصور السامانى الى شاعر شاب ذاع صيته فى الشعر الفارسى حينذاك ــ القرن الرابع الهجرى ــ اسمه الدقيقى (أبو منصور محمد بن أحمد) بأن ينظم الشاهنامة فبدأ بنظم قصـــة كشتاسب الذى ظهرت رسالة زرادشت فى عهده والذى خصته الأوســـتا (الأبستاق) بفصل تضمن نصح زرادشت له بالايمان بالدين الجديد ودخول هذا الملك فى الزرادشتية •

نظم الدقيقى ألف بيت من هذه القصة وحال الموت دون مضيه فى نظم الكتاب ، يقول الفردوسى : (ولكن سوء الخلق كان خدن شبابه ، فكان يقطع أوقاته بالبطالة وصحبة الأشرار حتى بغته الموت فتوجه بتاجه الأســـود • لقد ســـلط الخلق الدميم على الروح الجميل ، وما نعم يوما بالحياة • ثم انقلب به جده فقتله أحد عبيده » • ويعبر الفردوسى عن ترحيب الفرس بالدقيقى فى نظم الشاهنامة « قال الدقيقى سأنظم هذا الكتاب ففرح الناس به أى فرح » •

وعزم الفردوسى على نظم الكتاب فان ما لقيته قصص الأبطال من ترحيب الفرس شجعه على المضى فيما أخفق فيه سلفه الدقيقى . « ورغبت فى الحصول على كتاب خداى نامة كى أنقله الى لغتى وكم من رجل سألت عن الكتاب دون جدوى . وكنت أخشى مر الزمان وقصر الأجل فأتركه لغيرى ، ثم ما آمل من ورائه من مجد قد يذهب سدى ، وقد لا أجد العظيم الذى يثيبنى بصلة على قد ما بذلت من جهد ، فان الدنيا تعج بالخلف والزمن غير موات لمن ينشدون حسن الثواب . ومضى زمان لم أفض فيه لأحد بمكنون صدرى فانى لم أجد من هو جدير بأن أحدثه بسرى .. ثم كان الصديق الأمين الذى هو قطعة من نفسى » .

فكاشفته بالأمر فقال : انها فكرة حسنة ولسوف تسعد بها سآتيك بالكتاب الفهلوى (البهلوى) فامض قدما ولا تتوان ان لك موهبة النظم وانك على سبك قصص الأبطال قادر . قص على الناس من جديد حوادث هذا الكتاب يقدرك أصحاب السلطان وتناول الجزاء الذى تبغى » وجاءه صاحبه بالكتاب فاطمأن الفردوسى الى أن الطريق بدأ يتفتح لتحقيق رسالته .

كان الفردوسى قد بلغ حوالى الأربعين من العمر حين بدأ ينظم الشاهنامة وكان عليه أن يتفرغ للنظم والقراءة والاستماع الى قصص شيوخ الموابذة أو غيرهم ممن يعون قصص ايران فى صدورهم . كان عليه اذن أن يترك ضيعته فلا يفلحها بنفسه فان الفلاحة والأدب لا يجتمعان ويتاح له أمير ذكى من زرية الأبطال له دراية بالشعر وله ولع بأن يرى أمجاد أمته منظومة فى سفر باللغة الحديثة هذا الأمير هو والى طوس « أبو منصور محمد » الذى يتعهد الفردوسى ويهيىء له من أسباب الحياة ما يجعله فى غنى عن سؤال غيره « ورعانى رعاية حسنة ولم يكن شىء يكدر صفو حياتى حتى لقد رقيت من أرضنا الدنيا الى السموات العلى بفضل ما غمرنى به من المال فقد كان يرى الذهب والفضة لا يساويان أكثر مما يساوى التراب » .

وأخذ الشاعر فى المضى فى النظم وأخذ الناس يتناقلون ما نظم من قصص وأصبح الفردوسى ذائع الصيت فى كل مكان حتى انه هدأ نفسا اذ أصبح من الخالدين .

واغتيل الأمير « أبو منصور » حاميه وراعيه وكاد النور الذى يضىء له حياته أن ينطفىء لولا أن قيض الله له حى « حسين » بن قتيبة والى خراج طوس الذى لم يكن يتلقى شعر الفردوسى دون أن يبعث له بعطاء جزيل « وهو الذى أعطانى الغذاء والكساء ووهب لى الذهب والفضة فكنت أدفع ما على من الخراج دون مشقة وعشت فى رغد وهناء » .

ولم تكن الحياة السياسية مستقرة لآل سامان وبدأت القبائل التركية تتطلع الى الحكم ، والقصة الأزلية التى تصورها الشاهنامة للحرب بين توران وايران بدأت جلية وقد اقترب الفردوسى من الفراغ من كتابه وعلائم الادبار بادية على الدولة السامانية التى احتمى فى ظل حكامها ، وعلائم الاقبال بدت واضحة للتورانيين الذين كانوا أمراء للجند السامانيين ففى ٣٥١ / ٩٦٢ يظهر الب تكين التركى فى غزنة وفى ٣٩٠ /٩٩٩ يستولى ألب على غور وخراسان وتأخذ الدولة الايلخانية ما وراء النهر . وهذه الأحداث تؤثر أشد التأثير فى حياة الشاعر الذى تخلى عنه الأمراء الذين ساندوه واضطر أن يعتمد على غلات ضيعته مرة أخرى ، والنظرة السوداء سيطرت على رؤيته للأشياء وجاء ضغثا على ابالة سقوط الثلج الذى أتلف الزرع وأحال الحياة الى موات .

كانت هذه حالة الفردوسى وهو فى الثامنة والخمسين من عمره وتحمل الأديب مشاق الحياة حاملا العسر على اليسر ولكنه حين قارب الخامسة والستين أوجعه ريب المنون فقد مات ولده فى السابعة والثلاثين وبكى الشيخ ولده وزهد من بعده فى المجد الذى كان يرتقب وأصبحت الدنيا لديه لا تساوى شيئا لقد هده الحزن وأحس بأنه لاحق مستتبع . « لقد كانت نوبتى فى الرحيل ولكن ولدى الشاب ارتحل فخلف لى الحزن الذى أحالنى جسدا بغير روح انى أحث خطاى عساى أن ألحق به ، ولى معه حين ألقاه عتاب رقيق : لقد كانت النوبة نوبتى فى الرحيل فلم ارتحلت يا بنى دون اذن منى ورضا وحرمتنى راحة البقاء لقد كنت لى الفرج عند الشدة فما الذى حملك على تسلك طريقا غير طريق صاحبك الشيخ الكبير . ألقيت فى الشباب رفاقا فآثرتهم على ومضيت وخلفتنى وحدى » .

« انه حين بلغ السابعة والثلاثين لم تعجبه هذه الدنيا فغادرها غادرها وقد ترك لى الحزن والقهر وأغرق فى الدمع عينى انه الآن فى عالم النور وسيختار لأبيه مكانا بقربه فيه لقد انقضى زمن طويل ولم يعد أحد من رفاقه فى الطريق لعله ينتظرنى ويود أن ألحق به » .

والشاهنامة التى كبرت ونمت وكادت تتم والتى كانت رسالة يعمل لها حساب أصبحت شيئا لايستحق الجهد الذى بذل فيها فقد قوبل عمله المجيد بالصد ونكران الجميل « بلغت الخامسة والستين وان روحى قلق كئيب وأشعر أنى كلما مضيت أبحث فى سير الملوك يتوقف عن السير نجمى ويأفل كم من عظيم بلغ الأوج فى نسبه وعمله بفضل كتابى وكم من حاكم اشتهر بكلامى كلهم يستنسخ شعرى بالمجان وأنا فى مكان قصى أنظر وأرى انهم يحسبوننى أجيرا مرتزقا فى أسرهم . لست ألقى منهم غير

« أحسنت » ولقد خارت قواى مع هذا الثناء الرخيص أما خزائنهم العامرة فموصدة أمام قلبى الكسير » ٠

★★★

بعض مخطوطات الشـــاهنامة تذكـــر أن الفردوسى أتمها فى هذه الظروف الحزينة سنة ٣٨٤ / ٩٩٤ والبندارى مترجم الشاهنامة للعربية (٦٢٠ / ١٢٢٣ ـ ٦٢٤ / ١٢٢٧) من هذا الرأى ويرى ماسيه أنه يمكن القول بأن الفردوسى أتم فى هذا التاريخ كتابته الأولى للشاهنامة ثم انه استكمل ما فـاته فى الكتابة الأولى وفرغ من هذا كله سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م ٠

وضاقت خراسان فى وجه الشـــاعر ولم ير بدا من التفكير فى الهجرة الى العـراق ٠ وكان من الطـبيعى أن يفـكر الفردوسى فى الدولة البويهية ، فأمراؤها فرس يحبون احياء التراث الفارسى وهم شيعة وهوى الفردوسى معهم ٠ ثم ان دولتهم تمتد الى الغرب والجنوب من فارس فهى بعيدة عن خراسان ٠ ومهما يكن من أمر الخصومات بين أمراء البويهيين فانها أقل خطرا من فتن خراسان ٠ وسار الفردوسى الى مدينة الرى (من نواحى طهران) ليتوجه منها الى أصفهان ثم الى اقليم الأهواز ٠ كان أمير البويهيين حينذاك « بهاء الدولة أبو منصور فيروز » (٣٧٩ ـ ٤٠٣) ، وكان من رجاله الموفق (أبو على حسن بن محمد بن اسماعيل الاسكافى) الذى حث الفردوسى على نظم « يوسف وزليخة » وذلك بين سنتى ٣٨٠ / ٩٩٠ و ٣٨٦ / ٩٩٦ ٠ واشرقت آمال الشاعر من جديد فانه قد يظفر برضا « ملك الاسلام » وحسبه أن يظفر باحدى مراتب حاشية بهاء الدولة اذا ما تقبل شعره قبولا حسنا ٠

هكذا يصف المؤرخون والشاعر نفسه اقامته فى العراق والى من كتب يوسف وزليخة ٠ وهناك رواية أخرى تقول ان الشاعر فى أواخر حياته ســار الى بغداد حيث طلب اليه الخليفة أن يكفر عن نظمه مجـد ايران المزدية بنظم قصة مستمدة من القرآن ٠ وعندنا أن هذه الرواية وضعت ردا على توهم بعض الكتاب ان الشاهنامة قامت على أساس من الشعوبية ومحاولة رد الشاعر الى الطريق المستقيم والحق أن الشاهنامة عمل فنى رائع قصد به احياء تراث انسانى عظيم حرص العرب على اخراجه باللغة

العربيـــة قبـــل أن يحرص الفرس على اخراجـــه نثرا أو نظمـــا بالفارسية الحديثة • وأمهات الكتب العربية مليئة بالكثير من الأخبـــار الواردة فى الشاهنامة • واحياء النص العربى للشاهنامة ، ترجمة البندارى ، كان أول رسالة للدكتوراه قدمت الى الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) • والنظر الى الشاهنامة على أنها وليدة عصبية معينة يتجافى مع مالهذا الأثر الخالد من قيمة فنية لا مراء فيها وينفى ماسيه رواية توجيه الخليفة للفردوسى لينظم قصة من القرآن •

الأســـــطورة !!

الشاهنـامة سـتون ألف بيت بالتقريب ، والمطبوع والمخطوطـات تختلف فى العدد • واذا استثنيت الأبيـــات الألف التى نظمها الدقيقى وأدخلها الفردوسى فى كتابه فانها تكون نتاج شاعر واحد • ولايبارى الشاهنامة فى طواها كملحمة الا بعض الملاحم الهندية ولكن الشـــاهنامة تمتاز بأنها نظم شاعر واحد •

وهى تتناول قصص وتاريخ أربع أسرات : البيشدادية (أهل العدل) والكيانية (كى ، كاوى بمعنى الملك) والأشكانية ثم الساسانية •

ولم تشر الشاهنامة الى الأسرة السلوقية خلفاء الاسكندر •

والقصص الذى يروى تاريخ الأسرتين الأولى والثانية يكاد يكون خرافيا كله فملوك الأسرة الأولى عشرة حكموا ٢٤٤١ سنة وملوك الأسرة الثانية عشرة أيضا حكموا ٧٣٢ سنة •

وقصص الأسرتين موصـولة ومتصلة بالأسـاطير الهنديـة الى عهد لهراسـب الذى كان قد ترك الملك وتفرغ للعبادة ثم جـاء الملك التركى ارجاسب وقتله •

بعد لهراسب يأتى عهد كشتاسب الذى ظهر فى أيامه دين زرادشت وبه تبدأ القصة التاريخية وتكون أقرب الى التاريخ ويمكن ادخال الدور الاكمينى (الهخامنشى) فى هذا العهد • فكوروش الكبير (الثانى) هو كيخسرو وقمبيز هو كيكاوس وبهمن هو أرت خشتر (أردشير الأول ـ ارتجزرسيس) وهكذا • والشـــاهنامة على خلاف التاريخ ، تنهى هذه الأسرة بحكم الاسكندر المقدونى وتجعله ضمن الكيانيين ، فهو ليس أجنبيا عن ايران حتى يعد غازيا لها انما هو ابن داراب ، وداراب هو أخو الملك دارا الثالث الذى تزوج بنت فيليب ملك الاغريق فأنجبت له الاسكندر الايرانى •

والأسرة الثالثة الأشكانية (دولة البرت) حكمت فى الشاهنامة ٢٠٠ سنة ولا تذكر الشاهنامة أسماء حكامها جميعا وهى تعدهم أجانب ولا تعنى بهم والتاريخ يذكر بعد الاسكندر السلوقيين ثم الأشكانيين (البرت أو ملوك الطوائف) الذى ينهى عهدهم اردشير مؤسس الأسرة الساسانية ٠

والساسانيون حكموا حسب الشاهنامة ٥٠١ سنة وملوكهم ٢٩ وفى التاريخ أنهم حكموا ٤٤١ سنة وملوكهم ٣٦ ملكا وتاريخهم ثابت مما كتب عنهم سواء عند مؤرخى اليونان أو فى الكتب البهلوية ثم العربية وفى هذا القسم الأخير تعتبر الشاهنامة مصدرا تاريخيا للحضارة الايرانية بوجه عام ٠

★★★

تصور الفترة الأولى من الشاهنامة التحول الحضارى لشعب ايران فالملك قد اختير على أساس القدرة على فض المنازعات بين القبائل المتخاصمة أو على الحكم فى الخلاف بين الأفراد ٠ فهو القاضى الذى يرتضى الناس حكمه ولذا يجب أن يعرف بالعدل وهو قريب من الله وفيه من روحه ولذا فانه يعبد وهو يفضى بالملك الى أبنائه من بعده ٠ والدنيا سكنت بالانس والجن فكان على هذا الملك أن يحمى الشعب من الشر الذى يذيعه الشياطين وأن يحارب هذه الشياطين التى تتمثل فى التنين وغيره من الحيوانات المخيفة المفسدة وفى هذه الفترة اكتشف الملوك وسائل الحياة من الملابس والنار والزراعة والكتابة وأكل لحم الحيوان كما قسموا المجتمع الى طبقات وأقاموا العمائر ونظموا الجيش ٠

فالملك هو شنك مثلا يجتاز الجبل ذات يوم مع بعض رجاله فيرى ثعبانا ضخما يتطاير الشرر من عينيه وتظلم الدنيا من حر أنفاسه فيأخذ حجرا ويلقيه عليه بكل قوته فاذا الثعبان يجرى ليختبىء ولكن الحجر يقع على صخرة فتخرج شرارة من تكسرهما ويحمر موضع الشرر وبدأ ظهور النار وقد دعا الملك الناس الى التوجه بالشكر الى الله لانه هداهم الى النار وفى الليل أشعل نارا عظيمة التف حولها مع صحبه وشربوا الخمر وسمى هذا الاحتفال سده (السذق) ٠

والملك جمشيد الذى حكم ٧٠٠ سنة استخدم الحديد وأعد منه السيوف والرماح ونسج منه الدروع وعمل الجواشن والتجافيف وسائر أدوات الحرب فى زمانه وعرف الملابس من الكتان والابريسم وعلم الناس كيف يغزل الغزل وينسج ٠ واستحدث الأبنية وشاد المدن واستخرج الذهب والفضة والياقوت والفيروز فرصع بها المناطق والأساور والعصائب ثم استخرج الطيب والكافور والعنبر وأظهر علوم الطب وخواص الأدوية

وصنع المراكب وجاس بها البحار وكان يسخر الجن فعمل تختا مرصعا بالجواهر ورتب له حملة منهم فكان يجلس عليه وهم يرفعونه فى الهواء ويحملونه الى حيثما أراد · ووضع عيد النوروز فقد كان حمل الجن لتخته أول يوم فى السنة والشمس فى برج الحمل فعيد اليوم وسماه النوروز ·

وقد طغى وله فى الحكم ٣٠٠ سنة ونسى ربه فنهاه رجال الدين عن ذلك فم يأبه لقولهم فكان أول غلبه الضحاك وحمله على الهرب ٤٠٠ سنة ثم قده فى نهاية الأمر نصفين بمنشار ·

والضحاك (ازدهاق) وهو بيوراسب (صاحب عشرة آلاف فرس) كان أبوه مرداس ملكا تقيا فى الصحراء التى يسكنها الفرسان رماة السهام — العرب — وجاء ابليس الى الضحاك وزين له قتل أبيه ليرقى عرشه فاستجاب لابليس وقتل أباه وكان يحب الأكل فتزيا ابليس فى زى طباخ وأخذ يهيىء له خير أنواع الطعام وكانت الأطعمة المعروضة قليلة عندهم فأثر ذلك فى نفس الضحاك وقرب الطباخ منه حتى صار أقرب الناس اليه وذات يوم قال الضحاك للطباخ : اقترح حاجة أقضها اليك فقال الطباخ دعنى أقبلك بين كتفيك فأذن له ثم اختفى الطباخ فلم يعد يراه الملك وخرج من كل واحدة من كتفيه حية سوداء وجاء الأطباء فقطعوا الحيتين فعادتا كغصن الشجرة من جديد وتكاثر الأطباء ولم يجد طبهم فى اقتلاع الحيتين واتخذ ابليس هيئة الطبيب ودخل على الملك فقال له هذا قدر كتب عليك والعلاج أن نطعم الحيتين حتى لا يضج منهما الملك وطعامهما لا يكون الا من أدمغة البشر فأخذ الملك برأى الطبيب وقتل ما لا يحصى من الخلق لاطعام الحيتين بأدمغتهم وكان كل ليلة يأمر بقتل رجلين ·

وكان لجمشيد طفل هربت به أمه الى الهند وأحسنت تربيته حتى اذا شب وعرف ما يجريه الضحاك من المظالم فى ايران أخذ يستعد لتخليص البلاد من شره والضحاك فى الوقت نفسه يسرف فى الدماء ويتبع أخبار هذا الولد — افريدون — الذى حدثه المنجمون عن أمره ويجمع الضحاك العلماء والزهاد من حوله عسى أن يدفع عن نفسه بعونهم · وذات يوم يثور « جاوه » وهو حداد قتل أحد ولديه وجاءت النوبة فى اليوم التالى على الابن الثانى ورفع « جاوه » قطعة الجلد التى يغطى بها قدميه عند تطريق الحديدة المحماة ونادى من ورائه خلق كثيرون بشعار أفريدون الذى اتجه القوم الى مخبئه ليأخذوه ويجلسوه على عرش أبيه ويقود افريدون الثورة ويهزم الضحاك وفى اللحظة التى يريد أن يهوى بجرزه على رأسه كالصاعقة يمثل ملك أمامه ويقول : « ان الله يأمر بمد أجل هذا الثعبان حتى يعذب طوال الزمان ، شد وثاقه وألقه حبيسا فوق جبل دنباوند » · وبهذا انتهى عهد الضحاك الذى دام ألف سنة ·

وظل علم جاوه « درفش كاويان » على ايران منذ ذلك الزمان ٠

وعيد افريدون يوم ارتقائه عرش ايران أول يوم من ماه مهر وعرف هذا العيد باسم المهرجان ٠

وكان له ثلاثة أبناء زوجهم من ثلاث أخوات هن بنات ملك اليمن (سرو) واستقر له ملك الدنيا فآثر الاعتزال للتعبد وقسم ملكه بين أولاده الثلاثة ٠

فأعطى « سلم » بلاد الروم و « تور » الصين وبلاد الترك و « ايرج » ايران وجعله وليا للعهد ٠ وتسلم كل منهم عرشه ٠ ولكن سلم وتور حقدا على أخيهما وطعنا فى القسمة التى أجراها أبوهما وقالا انهما كانا أحق بولاية العهد من ايرج ٠ وبعثا برسول الى افريدون منذرين متوعدين ٠ فلما علم ايرج بهذا عرض على أبيه أن يذهب مسالما الى أخويه وأن يعمل على اخماد ما فى قلبهما من الحقد عليهو ذلك بأن يترك ملكه قسمة بينهما ٠ وسار الى أخويه فأحسنا استقباله ، وكان يعاملها معاملة كلها ود واخاء ، وكلما جرى على لسان أحدهما قول جارح قابله بالكلمة الطيبة ٠ والكبراء حول الاخوة يشهدون عتو سلم وتو وهدوء ايرج وسلامة منطقه ورجاحة عقله وايثاره السلام وحقن الدماء ، فكانوا يتحدثون عنه فى اكبار واجلال ويتهامسون فيما بينهم بأن رأى افريدون هو الصواب فهذا الشاب أجدر اخوته بولاية العهد ٠ ويشعر الأخوان بما يتهامس به الناس ويدركان ما كسبه ايرج من تقديرهم ٠ فيثب تور على أخيه ويرميه بكرسى من ذهب فيتوسل اليه ايرج ألا يفلت منه الزمام وأن يهدأ حتى لا يكون فتنة بين التورانيين والايرانيين ، ويقسو قلب تور فيستل خنجره ويطعن أخاه فيقتله ويحتز رأسه ٠ ويرسل الاخوان رأس ايرج الى أبيه ٠

ويحزن أفريدون حزنا شديدا ويبكيه بكاء مرا حتى يفقد بصره ، ثم يعلم أن جارية بالقصر حامل من ولده ايرج ، وتلد الجارية بنتا ، فلما تكبر يزوجها من ابن أخيه فتلد منه منوجهر الذى يسعد جده به ويجد فيه عوضا عن ابنه ايرج ويرد الله اليه بصره ٠

ويعد منوجهر جيشا ومده قارن (صاحب الأسرة التى ينتسب اليها شهريار الذى قدم الفردوسى الشاهنامة اليه بعد أن يئس من محمود الغزنوى) ، وسار الجيش الى توران فهزم جيش تور ثم انقض عليه منوجهر واحتز رأسه ــ ثم سار الى حيث سلم ، وكان قارن قد قطع عليه سبل الفرار فقتله أيضا ٠

ويعود منوجهر منتصرا الى جده الأكبر أفريدون الذى يقر به عينا ، فيرى الوقت قد آن لآن يبوئه عرش ايران وليجعله خليفته ، ثم انه يعهد برعايته الى سام ، البطل الايرانى ، ويشعر بدنو أجله ، بعد أن حكم ٥٠٠ سنة • وبموت أفريدون يبدأ عهد الأبطال فى الشاهنامة ، وتطغى أخبارهم على أخبار الملوك • ولا تشير الابستاق (الأوستا) الى الأبطال بينما تذكر الملوك الخرافيين •

وهؤلاء الأبطال هم سام وابنه زال ثم رستم بن زال وأخيرا سهراب ابن رستم •

★★★

ولد لسام ولد طالما انتظره ، وتطير حين رأى شعره أبيض فأخذه الى جبل وتركه فيه • وجاءت السيمرغ (العنقاء) فرأت الطفل فأشفقت عليه وحملته الى عشها ونشأته مع أفراخها • وكبر الولد ورأته القوافل وهى تسير بجانب الجبل وتحدث الناس عن الانسى الذى يعيش فى شعفة الجبل بين أفراخ العنقاء • وسمع سام بقصة ابنه ورأى فى منامه رسولا يخبره بقصته ، وسار الى الجبل بنفسه بحثا عن ولده ورأته السيمرغ فأبلغت الولد ، وكانت تسميه داستان ، ونصحته بأن يقبل أن تحمله الى أبيه • ونزعت ريشة من جناحها وطلبت اليه أن يحتفظ بها حتى اذا ما حزبه أمر أحرق الريشة فتحضر السيمرغ وتقضى حاجته • وعظم شأن زال وتبناه منوجهر وأبلى بلاء عظيما فى حكم الهند والسند حين ناب عن أبيه سام الذى وجهه الملك للحرب فى مازندران •

وأحب زال روذبة بنت ملك كابل ، وهى من نسل الضحاك ، وتزوجها بعد مشاورات طويلة وتردد • فقد كان الملك يخشى مصاهرة بيت الضحاك، ولكن زال ينجح فى اقناعه بعد أن يجتاز امتحانا عقده الموابذة له وسألوه عن اثنتى عشرة أحجية • أجاب عليها •

وحملت روذبة فلما جاءها المخاض تعسرت وأوشكت على الهلاك وزال واقف ترتعد فرائصه ويبكى • وفجأة يذكر ريشة السيمرغ التى معه فيخرجها من جيبه ويحرقها فتحضر السيمرغ ومعها الخير والأمان ، تأمر زال بأن يأتى بحديدة حادة ويعطيها الى آس حاذق ليشق بها خاصرة روذبة ثم يستخرج الولد ثم وصفت له الدواء الذى وضع على الجرح قبل أن يخيط • وأمرت بأن يسقى الوالدة من الشراب ما يفقدها الوعى حتى تتم هذه العملية (القيصرية) ونظرت السيمرغ فى حنان الى زال ونزعت ريشة من جناحها تركتها له ثم حلقت وجاء الآسى وقام بالأمر واستخرج

ولدا لم ير له مثيل جمالا وقوة كأنه ابن عشر سنين ولبثت روذبه مغشيا عليها يوما وليلة فلما أفاقت ورأت ولدها بجانبها حدقت فيه وحنت عليه وقالت « برستم – أى نجوت » فسمى الولد « رستم » ٠

وجىء للطفل الرضيع بمرضعات فلما تم فطامه كان يأكل أكثر من نصيب خمسة رجال وفى شبابه المبكر كان يصرع الفيل الثائر بضربة واحدة ٠

وامتحنه زال ليرى مدى دهائه بجانب ما أوتى من قوة فكلفه بفتح قلعة حصينة ، فتخفى رستم ورجاله فى زى التجار وخبأ السلاح فى أكياسة الملح ودخل القلعة فجعل عاليها سافلها فاطمأن الوالد الى قدرة ولده وكتب بذلك الى جده سام ٠

ومات الملك منوجهر وكان قد أوصى بالملك لولده « نوذر » وأوصاه بأن يتبع النبى الجديد اذا ظهر بناحية المغرب وحذره من جنود بشنك ملك الترك وابنه افراسياب ونصحه بأن يستظل بحماية الأبطال سام وأولاده ولم يكن نوذر جديرا بالملك ، كان لاهيا عابثا ويرسل بشنك جنوده وعلى رأسهم ابنه أفراسياب ويموت سام فى زابلستان فيذهب أفراسياب الى ايران منتهزا فرصة تغيب زال لحضور العزاء فى ابيه ويؤسر الملك نوذر ثم يقتل بعد أن يغلب زال جنود الترك ويقتل أعيانهم ويلجأ أولاد نوذر الى زال وينصب هذا الملك زوبن طهماسب وهو أحد أحفاد أفريدون ٠ ويلم القحط بالبلاد ويعجز جيشا توران وايران عن متابعة الحرب ويعقد الصلح بين الطرفين وتذهب الغمة وتخضر الأرض وتكثر الخيرات ولكن زو يموت ويعود أفراسياب ليحتل ايران ويموت الملك الجديد كرشاسب وتزحف طلائع الترك على ايران ويلجأ الأشراف الى زال فيعهد الى ابنه رستم بالأمر ويطلب اليهم تنصيب ملك على ايران حتى لا يبقى الملك بغير رجل من آل أفريدون فأشار الموبد بكيقباد وسار رستم ليخبره بهذا وليكون فى دولته بطل الأبطال ٠

ويبدأ عهد الكيانيين مع البطل رستم وحول رستم روايات كثيرة منها المخاطر التى اجتازها وهو يخلص كيكاوس من « سبيد ديو » – العفريت الأبيض – وقتله ملك مازندران الذى كان يستعين بالشـــياطين وتذكر القصص دور « الرخش » فرس رستم ٠

ولكن القصة التى اشتهرت هى قصة صلة رستم بسيدة من توران وهولد ابنه سـهراب ثم الحرب بين الأب وابنه دون أن يعرف أحـدهما الآخر ٠ قال الفردوسى : خرج رستم ذات يوم للصيد عند حدود توران ٠

وبعد الصيد نام وترك « الرخش » يرعى فجاء جماعة من أهل مدينة سمنجان وسرقوا « الرخش » فسار رستم الى هذه المدينة وقابل ملكها وطلب منه أن يحضر الرخش بالحسنى وهدأ الملك من روعه واستضافه فى قصره وفى الليل جاءته ابنة الملك فعقد عليها برضاها فلما آذنت الشمس بالطلوع أعطاها خرزة كانت مشدودة على عضده وقال لها : « ان رزقت أنثى فاربطيها فى قرونها وان رزقت ابنا فشديها على عضده » ثم ان ملك سمنجان دخل غرفته وبشره بالعثور على فرسه فسر رستم وركب الرخش وانطلق الى ايران ووضعت ابنة الملك ولدا سمته سهراب كان يشب فى يوم غيره فى سنة فلما كبر سأل أمه عن أبيه وجده فقد وجد نفسه أطول أقرانه قدا وأوسعهم صدرا وأشدهم بأسا فقالت له أنت ابن رستم من شجرة زال بن سام بن نيرم وما استعلاؤك الا لان ذلك البيت أصلك فقال سهراب : لأجمعن جيشا عظيما من الترك ولأخلعن كيكاوس عن عرشه وأنقل تاج ايران الى رستم وأعطف الى بلاد توران وأنتزعها من يد أفراسياب فأكون مع أبى ملكى هذه الدنيا وبلغ أفراسياب أن سهراب جمع جيشا حوله وأنه يتصدى لاكتساب المجد ٠٠٠٠ وبعث أفراسياب برجلين من ثقاته ليسيرا مع سهراب فى مسيرته لايران ويبذلا أقصى المكر حتى لا يعرف أباه رستم عند الملاقاة وكان أمله أن يقتل أحدهما الآخر ٠ وفى الطريق التقى رستم بقائد قلعة واشتبكا فى المبارزة وكتب رجل فيها الى الملك كيكاوس ينبئه بهذا الفارس التركى الذى لم ير مثله والذى يشبه سام ابن نريمان فى عراكه ونبه الكاتب الملك ايران الى ضرورة الاستعداد لملاقاة جيش هذا الفارس فلما بلغ الكتاب الملك تشاور مع رجاله واتفقوا على استنهاض رستم فى زابلستان ليحضر بنفسه ويدفع هذا التركى الشجاع ٠

واستخدم الشاعر وسائل الاثارة فى نفسيتى رستم وسهراب وكثيرا من الظروف التى كانت تحول دون معرفة احدهما الآخر واللقاء بين البطلين تم على مراحل ويقترب أمل القارىء من أن البطلين سيعرفان ما بينهما من صلة الرحم ثم يتبدد هذا الأمل وتنتهى المعركة بأن يقتل رستم ولده سهراب ويراه وهو يحتضر ويستمع اليه يقول : « ان كنت أنت رستم فانما قتلتنى وأنت أعمى القلب فكم تعرفت اليك وتملقت لك فما تحرك عرقك ولا لان قلبك فحل الآن معاقد جوشنى ٠٠ فان أمى حين ودعتنى شدت على عضدى خرزة وقالت هذه من أبيك » ٠٠ فلما رأى رستم الخرزة فقد من الحزن الصواب فلما ثاب الى رشده أسرع فى ارسال رسول يطلب من الملك كيكاوس دواء لايقاف نزيف ولده ٠٠ ويأبى الملك النذل أن يسعف الولد والوالد جميعا ، غلبه طبعه السيىء ٠٠ وعاد الرسول ليخبر رستم بمنع الملك الدواء عن ولده فيسرع بنفسه للملك وفى الطريق يلاحقه الخبر بأن سهراب مات ٠٠

وينتقل الفردوسي بعد قصة سهراب ورستم الى قصة جديدة لسياوخش بن كيكاوس .

تزوج كيكاوس من سوذبه بنت ملك هماوران (حمير) كما أنجب ولدا من فتاة تركية يتصل نسبها بأفريدون وسمى الولد سياوخش وعهد بتربيته الى رستم وتتكرر القصة التى كانت بين امرأة بوتيفار وسيدنا يوسف (امرأة العزيز وسيدنا يوسف فى القرآن) فتراود سوذبه ابن زوجها سياوخش عن نفسه فلا يجاوب وتخبر الملك كيكاوس بخيانة ولده له فيأمر الملك بأن يجرى الابتهال على ولده ويأمر باشعال النار ويمرق سياوخش بفرسه هذه النار فتكون بردا وسلاما عليه ويخرج منها سالما ويأمر الملك بقتل سوذبه ولكن سياوخش مقدرا حب ابنه لها وما سيكون من نقمته عليه بعد قتلها يناشد أباه أن يعفو عنها فيعفو .

ويعود افراسياب فيحشد الجيوش لغزو ايران ويتقدم وينتهز سياوخش الفرصة لينجو بنفسه من حبائل كيد سوذبه فيعرض على أبيه ان يخرج لدفع العدو مع رستم ويخرج البطلان ويضطرب أفراسياب ويرسل رجلا من قبله يطلب الصلح ويتشاور بطلا ايران ويقرران القبول لقد بعث اليهما أفراسياب مائة نفس من الأمراء الكبار تأكيدا لصدق ميله وايثاره السلم وبعد التشاور أوفد سياوخش رستم ليشرح الأمر لكيكاوس ويغضب هذا ويهين رستم : « أحسب ان سياوخيش شاب غر لم تصبه المكاره ولم تعضه النوائب ألست أنت الجذيل المحنك والعذيق والمرجب ومن يتعلم منه الملوك ؟ سآمره أن يهجم غير متلبث على افراسياب فى مخيمه ويضع فيهم السيف ويوسعهم القتل والأسر . أما الأمراء الذين أوفدهم أفراسياب فيحضرون عندى لأسقيهم كأس المنون » .

وتمسك رستم بأهداب السلم وآداب الحرب وقال لكيكاوس : « ليس يحسن فى الاحدوثة ان ينتشر عن سياوخش انه أخفر الذمة وغدر بالرهائن » ويتهم الملك رستم بأنه يشير بهذا ايثارا للدعة وركونا للرفاهية ويحتد رستم ويخرج غاضبا ويذهب الى زابلستان .

أما سياوخش فيلقى رسول أبيه الذى يقص عليه ماجرى مع رستم ويحمل اليه أمر الملك بأن يحل « طوس » محل رستم ثم يبين له الرسول مدى حقد أبيه عليه والمصير الذى ينتظره اذا هو عاد بدون قتال افراسياب فوجم سياوخش لما أحزنه من تنكر أبيه عليه وما يخشى من عاقبة ذلك ويابى أن يسلم الرهائن الى أبيه وكان على سياوخش ان يختار أحلى أمرين كلاهما مر . فهو لا يريد أن يذهب الى ايران حيث أبوه الملك النزق

الشرير الضعيف الذى وقع فى هوى امرأة لعوب وهو مجبر على ان يختار اللجوء الى افراسياب فيتخذ من العدو صديقه ويشير رجال افراسياب بوجوب استقبال سياوخش على الرحب والسعة ويقبل ملك الترك هذا الرأى بعد تردد شديد فقد كان المنجمون يخشون هذا اللقاء الوديع والناصحون يرون ان ملك ايران صائر الى سياوخش والخير أن يكرمه الترك وهو فى محنته ويلقى سياوخش الود الخالص من افراسياب الذى يزوجه ابنته فرنكيس ويهب له ولاية فى دولته . هناك يعيش سياوخش ويحكم ويشيد مدينة كنكدز فتكون كالجنة فى الأرض وكان نجم سياوخش الى النحس أميل فانه يثير حقد كراسيوز أخى الملك فيوقع هذا بينه وبين أخيه وينجح مسعى السوء بين الصديقين « انه قد تغير عما كان عليه وقد تكررت الرسل اليه من أبيه كيكاوس فى السر وكذلك تأتيه الرسائل من أطراف الروم والصين وهو لا يشرب الآن الا على اسم كيكاوس» ويقرر افراسياب أنه سلم لمن سالمه وحرب لمن حاربه ويقتل سياوخش أما فرنكين فتحزن لقتل زوجها ويحاول أبوها اسقاط الجنين الذى فى بطنها ولكن أميرا تركيا ينقذها وهو بمكيدة كراسيوز من العالمين ويسمى المولود كيخسرو كما أراد أبوه .

أما كيكاوس فيدرك انه تسبب فى قتل ولده فيجلس للعزاء ويجىء رستم كالأسد الغاضب فيشبع الملك تعنيفا ولوما ويسرع الى بلاطه فيدخل الى حيث تقيم زوجه سوذبه فيجذبها من شعرها ويخرجها ويقدها بسيفه نصفين ثم يأخذ جيشه ويسير الى بلاد الترك ويحتل رستم توران ويأسر ابن افراسياب أما هذا فيهرب الى الصين ويصحب معه كيخسرو بن سياوخش وينجح جيو ابن أخى رستم فى اختطاف كيخسرو وكان كيخسرو ينتظر هذا الخلاص الذى حدثته أمه به وكان نبوءة لأبيه قبل مقتله .

ويحضر كيخسرو الى ايران ويلاقى جده كيكاوس الذى قام ونزل له عن تخته واعتنقه وقبل وجهه وحضر جميع الاصبهبذية والأمراء وسلموا عليه بالسلطنة عدا « طوس » « صاحب الكوس والمداس الذهبى وحافظ الدرفش الجاوياتى » فكان يتعصب لعم كيخسرو « فرى برز » ويقول : « كيف يجوز أن يكون الحاقد وارث التاج والتخت مع وجود الابن ونحن لانرضى ملكا من نسل افراسياب » ويختلف الأمراء ويلجأون الى كيكاوس ليقضى برأيه فيشير بأن من يفتح منهما قلعة بهمن يكون صاحب الحق فى التاج وينجح كيخسرو فى فتح قلعة الشياطين ويعود الى ايران فيبايعه الأمراء جميعا ملكا عليهم .

وكيخسرو هو كوروش فى (الآثار الباقية) للبيرونى وهو ثالث الكيانيين والثالث عشر من ملوك الشاهنامه وهو بقية من المقدسين فى

الدين الآرى القديم . وهو آخر الملوك الذين تشترك فيهم أساطير الابستاق والفيدا وقصة ولادة كيخسرو فى توران وتربيته بين الرعاة وما كان من اشفاق جده افراسياب من زوال ملكه على يده وقتل الجد بيد حاقده فى النهاية تشبه كل الشبه ما يرويه هيرودوت عن ولادة كورش وما كان بينه وبين جده لأمه استياجس ملك ميديا وتدق الحرب سجالا مع التورانيين أيام كيخسرو ويلعب دور البطل الأعظم فيها وتجرى وقائع : كاموس الكشانى ورستم مع أكوان الجنى وحرب الاثنى عشر رخا وغيرها .

وتنتهى حياة كيخسرو فى غموض فهو يعتزل فى آخر أيامه ويخلو الى ربه ويطلب اليه ان يأخذه الى جواره وكان قد نصره الله ومكنه من أعدائه وأتاح له الثأر لأبيه وبلغه ملك المشرق والمغرب يخشى ان يملك العجب مقاده فيصير مثل الضحاك وجمشيد وأفراساب ولهراسب الذين كفروا بالله وجعلوا أنفسهم آلهة من دونه ويجتمع عظمـــاء ايران الذين هالهم تصوف الملك وعزلته وانصرافه عن الملك بعد أن استقر له الأمر وهدأت الفتن ، وكما كانوا يلجأون الى زال ورستم فى الحروب والمعارك استعانوا بهما لاقناع الملك بأن يعود الى الحكم ويترك مناجاة ربه ويشتد زال فى حديثـــه مع كيخسرو ويصبر هذا ولا يخاشن زال فى الجواب فليس هذا حسنا عند الله وهو لا يأمن موجدة رستم ان هو تطاول على أبيه الشيخ المهيب يقول له : « انى سئمت التاج والتخت والأمر والنهى ووقفت بين يدى ربى فى هذه الأسابيع الخمسة أتضرع اليه واسأله أن يخلص روحى من هذه الأرض المكدرة حتى اســـتجاب دعوتى وحقق أملى ولقد رأيت فى المنام كأن ملكا نزل على وهمس فى أذنى : « انك قد أعطيت ما سألت فتجهز الى جوار الله الكريم ولاتقم فى هذه الدنيا الكدرة وفرق الأموال على المحتاجين والفقراء والمساكين .. » فاعتذر زال عما بدر منه وأدرك الحاضرون ان كيخسرو ليس بمجنون انما هو من الواصلين .

وكما انتهت حياة « يدهشترا » واخوته والذين كانوا فى وداعهم تنتهى حياة كيخسرو ومرافقيه : تقول « المهابهاراتا » ان يدهشترا واخوته يسيرون بعد ان اعتزل الملك ويودعهم الرجال والنساء ثم يرجع المودعون ويستمر السائحون فى رحلتهم حتى يبلغوا متاهة يهلكون فى رمالهـــا ما عدا يدهشترا الذى يسير قدما لايعبأ بشىء ومن ورائه كلبه حتى يدخل السماء حيا (ورنر) وتقول « الشاهنامة » ان كيخسرو صعد الى جبل وفى اثره العظماء والنساء والرجال زهاء مائة ألف نفس يبكون ويضجون حتى طن بصياحهم السهل والجبل ثم ان الملك التفت اليهم ونبههم الى انه يجتاز طريقا صعبا لا ماء فيه ولا عشب فانصرف عنه زال ورستم وجوذرز وتبعه الباقون ولما طلعت الشمس ركب الملك وغاب عن أعينهم فهاموا على

وجوههم يطلبونه ويبكون .. ثم تغيمت السماء واشتد الهواء ومطـــروا ثلجا وهلكوا تحته أجمعين .

وكان كيخسرو قد بايع لهراسب ليخلفه ولم يكن زال ورستم عن هذا الاختيار راضين ويأتى بعد مهراسب كشتاسب وفى عهده ظهر زرادشت فاعتنق ديانته واشتهر ابنـــه اسفنديار (أمه كتايون بنت ملك الروم) بالبطولة .

واسفنديار هو بطل قصة المنازل السبعة (هفتخوان اسفنديار) وقد وضعت هذه القصة محاكاة لقصة رستم المعروفة بهذا الاسم فكمـا اجتاز رستم فى مازندران سبع عقبات : رخش رستم والأسد ، العطش يضعف رستم ، رستم يقتل التنين ، قتل رســتم امرأة ســـاحرة ، رستم يأسر أولادا ، حرب رســـتم أوزنك الجنى ، قتل رســـتم الجنى الأبيض ، يجتاز أفراسياب سبعة خطوب .

واسفنديار هو بطل دين زرادشت أيضا تعاون فى نشره بالسيف وعاون الوزير جاماسب فى احيائه واسفنديار هو الذى خلص والده كشتاسب أكثر من مرة وهو الذى قتل ملك الترك أرجاسب .

ويلقى اسفنديار من أبيه مثل ما لقى سياوخش فان كشتاسب حريص على الملك حرصا أنساه الشفقة على ولده البطل فهو يستمع الى كرزم الذى سعى اليه بالوقيعة وصور له أن ابنه يتآمر عليه وقر فى نفس كشتاسب أن يتخلص من اسفنديار .

وكان رستم فى زابلستان ملكا لم يبايع ملك الملوك فأمر هذا ابنه اسفنديار أن يذهب الى زابلستان ويأتى برستم أسيرا فى القيد وغبتا يحاول الابن ان يثنى أباه عن طلبه ذاكرا رستم وحروبه وانقاذه ايران وصمم كشتاسب وأمره مطاع وعصيانه حرام فى دين زرادشت .

ويبذل رستم الكثير من الود نحو الشاب البطل ويقبل أن يصحبه الى كشتاسب ولكن دون قيد وتلعب الأقدار دورها ويحسب اسفنديار أن رستم يخدعه وينشب القتال بين البطلين ومن حولهما رجالهما ودون اذن بقتال يشتبك الرجال ويقتل ولدان من أبناء أسفنديار فيفقد هذا صوابه ويمطر رستم وابلا من سهام تصيبه وتضطره الى ان يعتصـــم بجبل ويطلب استئناف القتال فى الصباح ويجد افراسياب أن الليل أقبـــل بظـــلامه فلا يلاحق خصمه ويلجأ زال الشيخ الكبير الذى لم يفلح مسعاه للسلام الى العنقاء فيحرق جزءا من ريشتها التى سلمتها له عنـــد مولد رستم فتحضر العنقاء وترفرف على رستم وتغمره بحنانها ثم تدخل منقارها

فى جراحاته وتخرج منها نصالا أربعة ثم تمسحها بجناحها فتلتئم وصنعت مثل ذلك بالرخش واستخرجت منه ستة نصال ثم قالت لرستم :« لأى معنى تعرضت لقتال اسفنديار ·· وقاتله لايرى الخير بعده ·· وتقصر مدته ويلقى العناء بقية عمره ويذوق العذاب بعـــد موته ؟ فان رضيت بهذه الحالة فاركب وأبصر العجب » فركب رستم وسار الى ساحل البحر فأسفت العنقاء على شجرة من الطرفاء فقالت له : « اقطع من هذه الشـــجرة قضيبا مستقيما ·· وركب عليه نصلا عتيقا واجعل له قذذا ثم اذا جاء اسفنديار يطلب قتالك فتضرع اليه وابك بين يديه فلعلك تصرفه عن قتالك بحلو لسانك فاذا لم يفعل فوتر قوسك وسدد نحو عينه هذا السهم فانه يصيب عينه ويكون فى ذلك حينـــه » وأرشـــدته الى الطريق ثم ودعت « زال » وطارت ·

ونزل البطلان الى الميدان فلما تقاربا قال اسفنديار : « أيها السجزى! كأنك قد نسيت صنيعى بك بالأمس وكان ظنى أنك تكون اليوم محمولا الى الرمس انك لم تبرأ الا برقية أبيك وسحره وسأسد عليك اليوم سبيل حيلته ومكره فاجعل بدنك كالغربال بصادرات النبال ·· » فقال رستم : « انى ما جئت اليوم للقتال وانما جئت لاتضرع اليك عساك تجنح الى السلم وتطفىء من قلبك نار الحقد » ولكن القدر يدفع أفراسياب الى الشر ويصوب رستم عليه السهم فيصيب عينه فينقلب عن ظهر فرسه ثم يتماســـك وينتزع السهم ويجرى اليه ولده بهمن · ويحتضر اسفنديار ورستم قائم فى مكانه ويلتفت اليه البطل وهو فى نزعه الأخير ويقول له : « لم يقتلنى غير أبى كشتاسب حيث أكرهنى على قتالك والآن فهذا ولدى بهمن تسلمه منى واحمله معك الى زابلستان وربه تربية الوالد لولده » ويضع رستم يده فى يد اسفنديار على ان يربى ولده ويسعى له حتى يكون ملكا ويموت اسفنديار ·

أما رستم فيقتله أخ له من أبيه اسمه شـــغاذ · هيأ له حفرة غرز فى قاعها نصولا محددة ثم غطاها ودعا رستم الى الصيد فوقع برخشه فى الحفرة فمزقته الحراب ولكنه يخرج مثخنا بالجراح القاضية من الحفرة ويطلب الى أخيه أن يعطيه قوسه ونشابتين ليذود بها السباع عن نفسه حتى يموت وقدم شغاذ لأخيه قوسه ووترها فتناولها رستم وخاف شغاذ فتترس بشجرة دلب كانت هناك مجوفة قد أتت عليها السنون فرمى رستم الشجرة بنشابته فنفذت فيها وخلصت الى شغاذ فخاطتـــه مع الشجرة وأصمته ويموت رستم وتنتهى حياة أعظم أبطال الشاهنامه ·

وتمضى الشاهنامه بعد ذلك فتتم تاريخ الاكينيين وتجعل الغزو الاغريقى ايرانيا صرفا فالاســـكندر منهم وليس أجنبيا ثم تتحدث عن الاشكانيين ثم الساسانيين فتصـــور عصورهم الزاهية ثم عصر التحلل الذى جعلهم فريسة سهلة المنال للفتح العربى .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

الإدريسي

١١٥٤ م

عندما نجا ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن ابى طالب من مجزرة « فخ » الرهيبة لم يكن أحد يحسب انه سيكون لنجاته مثل هذا الشأن الذى صار لها ٠

ولكن ادريس استطاع ان يجعل لنجاته شأنا تاريخيا كبيرا امتدت آثاره عدة قرون وعاد على العرب والمسلمين بالخير الكثير ٠

***

مضى اليوم زهاء ثمانية قرون على وفاة الجغرافى المسلم العظيم الشريف الادريسى الذى يعتبر بحق عمدة الجغرافيين المسلمين والذى أنفق شبابه فى شبه الجزيرة الاسبانية طالبا درسا وباحثا متجولا ثم خص جغرافيتها ووصفها فى موسوعته الجغرافية العظيمة بأقيم فصولها ٠

وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن ادريس يحيى بن على ابن محمود بن ميمون الحمودى سليل أسرة بنى حمود الملوكية البربرية التى حكمت جنوبى الأندلس وثغر سبتة فى أوائل القرن الخامس الهجرى وسمى بالشريف لأنه ينتصل بنسبته الى أسرة الادارسة الحسنية التى ينتمى اليها بنو حمود والتى حكمت المغرب منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، وهذه ترجع نسبتها الى آل البيت ومن ثم فان نسبته تورد منذ جده الأعلى ميمون على النحو التالى : ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، واذن ، فهو وفقا لهذه النسبة كذلك سليل آل البيت ٠

ولد الادريسى فى مدينة سبتة ، ميناء المغرب الأقصى على البحر الأبيض المتوسط فى سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م أو ١١٠٠) ويعود أصل عائلته الى ادريس الأول مؤسس الأسرة والذى هرب من المشرق وأسس امارة مستقلة فى منطقة الريف عام ١٧٢ هـ / ٧٨٩ م واستمرت من أواخر القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلادى وتوسعت خلال هذه الفترة حتى كادت تشمل المغرب كله ٠ وقد اشتهر ادريس الأول بصفته وليا من الأولياء الصالحين لاسيما بعد وفاته عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ولايزال ضريحه المشهور بـ (مولاى ادريس) يتمتع بحظيت كبير لدى أبناء المغرب ويقع بجوار فاس التى أسسها ابنه ادريس الثانى والذى حكم من عام

١٧٧ هـ / ٧٩٣ م الى ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م وقد تلاشت دولتهم عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م أما أجداد ادريس المباشرون فقد كانوا أمراء ثانويين فى مالقة ، وهناك أيضا عجزوا عن الاحتفاظ طويلا بسلطانهم فاضطروا للعودة الى سبتة في القرن الحادى عشر ٠

وقد كانت مدينة سبتة المغربية ـ وهى التى لعبت دورا عظيما فى تاريخ المغرب والأندلس التى تعتبر اليوم أرضا اسبانية تتبع ولاية قادس الأندلسية وتحتلها أسبانيا منذ قرون ـ كانت مسقط رأس لجمهرة كبيرة من علماء المغرب والأندلس وتشتهر بالأخص بمولد رجلين من أبنائها يشغل كل منهما مكانة بارزة فى تاريخ العلوم العربية وقد عاش كلاهما فى نفس العصر تقريبا أى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى هما الشريف الادريسى أعظم الجغرافيين المسلمين والقاضى عياض بن موسى السبتى أعظم حفاظ المغرب بلا مراء ٠

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة الادريسى وحياته الأولى بيد اننا نعرف من اشارات وردت فى مؤلفه انه درس فى معاهد الأندلس ولاسيما فى قرطبة وقد كانت الأندلس يومئذ تحت حكم المرابطين سادة المغرب ونعرف كذلك انه قام برحلات عديدة فى شبه الجزيرة الاسبانية ووصل فى تجواله غربا حتى ثغر أشبونة أو لشبونة عاصمة البرتغال الحديثة وقد كانت يومئذ ثغر ولاية الغرب الأندلسية ثم زار شمالى أسبانيا وتجول فى جليقية ، بل هنالك فى كتاباته ما يدل على انه زار شواطىء فرنسا مما يلى خليج بسكونية ، ووصل فى رحلاته البحرية حتى شواطىء انجلترا الجنوبية ولما أتم تجواله فى شبه الجزيرة الاسبانية وما اليها عبر البحر الى المغرب وتجول فى شماله وجنوبه وهنالك مايدل على انه عاش حينا فى مدينة مراكش وحينا آخر فى شمالى المغرب بمدينة قسنطينة ، وكذلك رحل الادريسى الى المشرق وتجول فى آسيا الصغرى وزار المغارة المنسوبة الى أهل الكهف حسبما يحدثنا بذلك ومن المحقق أن هذه الرحلات العديدة كان لها أكبر أثر فى تكوين معلوماته الجغرافية التى ظهر أثرها فيما بعد فى أبواب كثيرة من معجمه الجغرافى ٠

وهنا يلعب القدر دوره فى تطور حياة الادريسى ذلك أننا نراه بعد ذلك فى جزيرة صقلية يمثل فى بلاطها ويخوض حياة علمية باهرة ٠ ونحن نعرف أن جزيرة صقلية افتتحها المسلمون تباعا ما بين سنتى ٢١٣ و ٢٦٤ هـ (٨٢٨ و ٨٧٨ م) وغدت فى ظلهم حديقة يانعة تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها حتى اذا أدرك الوهن تلك الدولة الاسلامية الصغيرة توالت عليها حملات الفرنج حتى غزاها النورمان (١٠) بزعامة روبر جويسكار والدوق روجر فى سنة ٤٦٤ هـ (١٧٠٢ م) وتم افتتاحها فى

سنة ١٠٨٦ م وكان الدوق روجر أول حكامها من النورمان ، فشمل سكان الجزيرة من المسلمين واليونان بتسامحه وسمح للمسلمين بالاحتفاظ بمساجدهم وقضاتهم وأطلق لهم حرية التجارة . ولما توفى الدوق روجر فى سنة ١١٠١ م خلف ولده الطفل روجر حدثا وبدأ حكمه للجزيرة حينما بلغ الثامنة عشرة فى سنة ١١١٢ م وكان الدوق روجر الثانى أو رجار كما تسميه الرواية الاسلامية من أعظم ملوك عصره وفى ظله غدت صقلية دولة عظيمة وكان مثل أبيه من ذوى الأفق الواسع وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضارى ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ومن ثم فقد استطاعت الجالية الاسلامية أن تعيش فى ظله حتى حين متمتعة بسائر شعائرها ونشاطها الاجتماعى والثقافى . وفى ظل هذا التسامح المحمود دعا الدوق روجر للعمل فى بلاطه رهطا من العلماء المسلمين ومن الصقليين المحليين ومن افريقية والمغرب وكان فى مقدمة هؤلاء الشريف الادريسى .

وكان وفود الادريسى على الجزيرة فيما يرجح بين سنتى ١١٣٠ و ١١٤٠ .

وكان العلامة المسلم يومئذ ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافى فاستقبل فى بلاط صقلية بترحاب وأغدق عليه الدوق رجار عطفه ورعايته وعهد اليه بالمهمة العلمية العظيمة التى حققها الادريسى بكتابة معجمه الجغرافى الخالد .

ولما تمت دراسة المصادر القديمة أمر الدوق بعد ذلك وحسبما يحدثنا الادريسى « ان يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما » وأن تنقش فيها صور الأقاليم السبعة بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها . والأقاليم السبعة هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى العصور الوسطى وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين فقام العمال المهرة تحت اشراف الادريسى وتوجيهه باتمام تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه ، ونقش فوق الكرة الفضية : خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ وقد اشتهرت هذه الخريطة الادريسية يومئذ وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوربيين فى العصور الوسطى ولاسيما العلامة البندقى مارينو سانتو (١٢٦٠ — ١٣٣٨ م) الذى استرشد بها فى معظم خرائطه . ويقال ان الخريطة المنشودة لم تستغرق من الفضة التى نقشت عليها سوى الثلث وان رجار وهب الجغرافى المسلم بقية الكمية الفضية وأعطاه فوق ذلك مبلغا كبيرا من المال وشحنة سفينة من نفيس المتاع .

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافى عام يرتسم مطابقا للكرة الفضية وتستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وعللها وخواصها وأجناس نباتها وما بها من الصناعات والتجارات وما يذكر عنها من العجائب وحيث هى من الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومذاهبهم وأزيائهم ولغاتهم . وهكذا يلخص لنا الادريسى فى مقدمته محتويات الموسوعة الجغرافية الكبرى التي عهد اليه الملك رجار بوضعها . وقد اعتمد الادريسى فى وضع هذه الموسوعة فضلا عن مادته ومعلوماته الشخصية التى جمعها من طوافه فى شبه الجزيرة الاسبانية وشواطىء فرنسا وغربى البحر المتوسط وجزائره والمغرب وآسيا الصغرى وما استقاه من بحوث الجغرافيين القدماء ولا سيما بطليموس ومن أسلافه الجغرافيين المسلمين العظام مثل اليعقوبى وابن خرداذبة والمسعودى وابن حوقل ـ اعتمد فضلا عن ذلك كله على تقارير الرسل والمبعوثين الذين أوفدهم الملك رجار باشارته وتوجيهه الى مختلف البلدان الأوربية . ومنها فرنسا وايطاليا والمانيا وبلاد اسكندناوه وجزائر بحر الادرياتيك وجزر الأطلنطى وهى التي يتناولها الادريسي جميعا ولأول مرة فى الجغرافية العربية وجغرافية العصور الوسطى ـ بكثير من الدقة والبراعة فى التحديد والوصف . واستغرقت بحوث الادريسى فى وضع المؤلف كله خمسة عشر عاما وانتهى من وضعه حسبما يحدثنا الادريسى فى مقدمته فى العشر الأول من شهر يناير ١١٥٤ م الموافق لشهر شوال سنة ٥٤٨ هـ وذلك قبيل وفاة الملك النورمانى بأشهر قلائل وسمى المؤلف « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وهو اسم يقول لنا الادريسى : « انه من وحى الملك رجار واشارته » . ولما كان المؤلف كله قد وضع باشارة الملك رجار ورعايته وأهدى اليه فى مقدمته فقد سمى كذلك « كتاب رجار » أو « الكتاب الرجارى » تنويها من مؤلفه بفضل هذا الأمير العالم المستنير .

وقد كتب الادريسى غير موسوعته الجغرافية كتابا آخر عنوانه « روض الأنس .. ونزهة النفس » أو « كتاب المسالك والممالك » كتبه للملك وليم الأول (غليوم) ولد الدوق رجار وهو الذى خلف أباه فى الملك . بيد انه لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد باحدى مكتبات استانبول .

وكان الادريسى ـ فوق براعته فى علوم الجغرافية ـ عالما ممتازا بالنبات له آفاق واسعة فى معرفة الأرض التى وطئتها قدماه فى رحلاته لذلك فقد كان وصفه للنباتات المختلفة لا يختلف كثيرا عن الوصف العلمى الحديث .

وله من الكتب : النبات ، وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاب الجامع لصفات أشتات النبات في أربعة أجزاء ويوجد منه نسخة في خزانة الفاتح باستانبول بتركيا (رقم ٣٦١٠) ، وكتاب الصيدلة .

ولنأخذ بعض الأمثلة على وصف الشريف الادريسي لمجمل النباتات التي ذكرها في كتبه ، ففي مدينة شرشال شمال ايران وصف هذا النبات حيث قال : (سفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وهو من طرائف غريب في ذاته) وكان لا يترك أية شاردة أو واردة عن أية نبتة أو عشب أو شجرة الا ذكر نوعه وصفاته العامة وفوائده الاقتصادية أو الطبية .

وتمتاز كتابات الادريسي في العقاقير والنباتات الطبية بمحاولاته مطابقة الاسم العربي للمواضع على مقابله في اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية والبربرية ويتالف كتاب الادريسي « الجامع لصفات أشتات النبات » من جزءين وقد رتبت مواده على حروف المعجم ويبحث الجزء الأول في ٢٦٠ نباتا وعقاراتها والثاني في ٣٠٠ نبات وعقاراتها . وقد أشار الادريسي الى انه قد استعان في تاليفه بما قرأه في سبته من مؤلفات والى ان رحلاته الكثيرة قد أعانته على اعداده ومراجعته .

وكان الادريسي ـ فوق هذا كله ـ أديبا متمكنا وشاعرا محسنا ومن نظمه قوله :

ليت شعري أين قبري ... ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشـ ... ـتاق في بر وبحر
وخبرت الناس والأرض ... لدى خير وشر
لم أجد نارا ولا دارا ... كأني لحي صدري
فكأني لم أسر الا ... بميت أو بقفري

وتوفي الادريسي في سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٦ م) وهو في السابعة والستين من عمره ولسنا نعرف أين توفي وأين دفن ويغلب على الظن انه استقر في البلاط النورماني في بلرم حتى توفي ودفن بالجزيرة ..

يرى بعض الباحثين ان أرجحية الادريسي على سائر الجغرافيين العرب بما كتبه عن أوروبا لا تعود لرحلاته وأسفاره في تلك الأصقاع

***

بقدر ما تعود لما حصل عليه من الرواد الذين بعث بهم روجـــر الى أقاصى أطراف أوروبا مثل اسكندينافيا لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضيعها . ولما قيده الادريسى من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج فى السفن التى كانت ترسو بموانى صقلية الى جانب ما استطاع الحصول عليه من بيانات عن البلاد النصرانية بفضل رعاية الملك رجـــار السميحى وما جمعه من خلاصة معلومات من سبقه كبطليموس والمسعودى ولهذا نجد من جاء من بعده من الجغرافيين المسلمين ينقل عنه ما كتبه فى هذا الموضوع .

وقد قسم الادريسى العالم المعروف من جهة الطول فجعل كل اقليم مقسما عشرة أقسام متساوية من الغرب الى الشرق كمـــا هى الحال فى درجات الطول المعروفة فى أيامنا هذه ثم انه جعـــل لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة ، عدا الخريطة العالمية الجامعـــة وهذه الخرائط الســـبعون محفوظة فى نسخ كتاب الادريسى ومنها استخرج (ميلر) خريطته الشهيرة عام ١٩٣١ والتى اعتمد عليهـــا المجمع العلمى العراقى وأخرج خريطة جديدة بطول مترين وعـــرض متر واحـــد فى سنة ١٩٥١ .

هذا كما صنع الملك النورماندى كرة جوية وخريطة كروية للأرض من الفضة وقد طبع كتابه مع خرائطه السبعين فى روما ســـنة ١٥٩٢ وترجم الى اللاتينية فى ١٦١٩ من قبل عالمين من الموارنة فى الغرب وهما جبرائيل اليهودى ويوحنا الحصرونى وطبع النص أيضا فى ليدن ومدريد وبـــون .

ويعتبر كتابه أحسن مؤلف تلتقى فيه الجغرافيا القديمة بالجغرافيا الحديثة ومعلومات الادريسى عن نهر النيجر فوق تومبوكتو وعن السودان ومنابع النيل دقيقة لدرجة تدعو الى الاعجاب لذلك لم يكن غريبا ان يطلق على الادريسى اسم « استرابون العرب » (١١) وان يقول عنه البارون دوســـلان فى المجـلة الآسيوية الفرنسية فى عدد نيسان من عام ١٨٤١ : « ان كتاب الادريسى لا يمكن ان يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتصلة بها » .

ولكى يقوم الادريسى بعمله الضخم الرائع هذا خير قيام كان عليه ان يستفيد من ملاحظاته الشخصية ومن ملاحظات معاصريه ومن أبحـاث

سابقيه أيضا كمؤلفات اليعقوبى وابن حوقل والمقدسى ومن غير المشكوك فيه على كل حال هو أن أوصاف المناطق الغربية من العالم المعـــروف فى عصره تبدو أحسن من كل ما عداها ومن أحسنها دراسة فهى المناطق التى يعطينا الادريسى عنها معلومات وثائقية من الطراز الأول نجد من العبث البحث عنها فى كتب الجغرافيين الآخرين باستثناء البكرى ·

الادريسى يتحدث عن كروية الأرض !!

يعتبر كتاب نزهة المشتاق أعظم مؤلف جغرافى فى العصور الوسطى وبالرغم من أنه يجرى فى وصف البلدان على نظرية « الأقاليم السبعة » المتبعة فى سائر البحوث الجغرافية السابقة فانه يمتاز بنزعته العلمية ، ويكفى ان تعلم ان الادريسى يبدأ كتابه بالتحدث عن « كروية الأرض » ، ويمتاز من وجهة أخرى بخرائطه العديدة التى بلغت سبعين خريطة لكل اقليم من الأقاليم السبعة ، عشر خرائط بعدد أقسامه ، وأبدع أقسام « نزهة المشتاق » هى الفصول التى تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الاسبانية والمغرب وبحر الادرياتيك وايطاليا وجزائر البحر المتوسط وهى البلاد التى تجول فيها الادريسى ودرسها عن كثب ففى هذه الفصول يكشف الادريسى عن رسوخ معلوماته ودقة مشاهداته ، وهذا الى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوروبا الشمالية مثل ألمانيا وبلاد اسكندناوة ، وفضلا عن ذلك فان الادريسى يبدى دقة واضحة فى تعريب المصطلحات والاعلام الجغرافية الأوروبية مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية وربما الايطالية التى كانت يومئذ لغة البلاط النورمانى والقشتالية التى وقف عليها خلال تجواله فى شبه الجزيرة الاسبانية ،

ويعترف الادريسى نفسه فى مقدمة كتابه بدور الملك النورماندى فى اخراج مصنفه لحيز الوجود فيقول بعد خاتمة يمجد فيها راعيه وولى نعمته :

« فمن بعض معارفه السنية ونزعاته العلوية انه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته واطاعة البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب ان يعرف كيفيات بلاده ويقتلها يقينا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى اقليم هو وما يخصها من البحار والخلجان الكاينة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع اليه من يطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله كمثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجهانى وكتاب أبى القاسم عبيد الله

ابن خرداذبة وكتاب ابن عمر العذري وكتاب أبي القاسم محمد الحوقلي البغدادي وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكي وكتاب موسى بن قاسم القردي وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي وكتاب أسحق بن الحسن المنجم وكتاب قدامة البصري وكتاب بطليموس الاقلوذي ارسيوس الانطاكي فلم يجد ذلك مشروحا مفصلا بل وجده فيها مغفلا فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم أكثر مما في الكتب المذكورة فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيكها فسألهم عنها بواسطة جمعا وافرادا فما اتفق فيه قولهم وصح في جمعه نقلهم أثبته وأبقاه وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ٠ وأقام في ذلك نحوا من خمس عشرة سنة لا يخلي نفسه في كل وقت من النظر في هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته الى ان يتم له فيه ما يريده ثم أراد ان يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم في ذكر أطوال مسافات البلاد وعرضها فأحضر اليه لوح الترسيم وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئا فشيئا مع نظره في الكتب المقدم ذكرها وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر في جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها فأمر عند ذلك ان يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما فلما كملت أمر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المعروفة على نص ما يخرج اليهم ممثلا في لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئا ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه وان يؤلفوا مطابقا لما في أشكالها غير انه يزيد عليها بوصف أطوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواناتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها الصناعات التي تتفق بها والتجارات التي تجلب اليها وتحمل منها العجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها وحيث هي من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم وملابسهم ولغاتهم وان يسمي هذا الكتاب « بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وكان ذلك في العشر الأول من يناير (كانون الثاني) أو يناير ١١٥٤ م الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم » ٠

ثم يأخذ بتعريف طريقته التي اتبعها :

« سنتعرض لكل بلد على حدة مع اهتمامنا بتعريف وضعه الحالي

وواردا ته وصادراته والبحار والانهار والمستنقعات والبحيرات التى تقع فيه والجبال التى تشاهد فيه مع اشارة الى امتدادها . وسنتكلم كذلك عن النباتات والأشجار والحيوان ومواضع المعادن وسنشير الى منابع أنهارها ومجاريها ومصباتها وذلك استنادا الى المعلومات والروايات المتوفرة .

نظرة عامة على أسبانيا ووصف مدينة المرية

يذكرنا الادريسى من حيث النظر الى مختلف نقاط تفصيل عرضه ، بالاصطخرى وبابن حوقل والبكرى فكما هو الحال لدى هؤلاء نجد ان كل فصل يبدأ بنظرة اجمالية على القطر الموصوف ثم يتنقل الى الطرق التى تؤدى من أية مدينة رئيسية الى أخرى ويسجل الادريسى كلا من محطات هذه المسالك مع تخصيصها بالاسهاب عند الكلام عن المدن الكبرى التى يصفها ويقود هذا الاسلوب طبعا الى طراز رتيب بشكل ملحوظ لاسيما وان أسلوب هذا الجغرافى لايحتوى على التنوع الذى نجده فى أسلوب المقدسى .

الجزء الأول من الاقليم الرابع

مبدؤه من المغرب الأقصى حتى البحر المظلم ومنه يخرج خليج البحر الشامي مارا الى المشرق وفى هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس السماة باليونانية أشبانيا وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها على شكل مثلث وتضيق من ناحية المشرق حتى تكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بجزيرة الأندلس خمسة أيام ورأسها العريض نحو من سبعة عشر يوما وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهايته انتهاء المعمور من الأرض محصور فى البحر المظلم لا يعلم أحد ما خلف هذا البحر ولا وقف بشر منه على خبر صحيح لصعوبة عبوره وظلام أنواره وتعاظم أمواجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه وبه جزائر كثيرة ومنها معمورة وليس أحد من الربانيين يركبه عرضا ولا ملججا وانما يمر منه بطول الساحل لا يفارقه . وأمواج هذا البحر تندفع منغلقة كالجبال لاينكسر ماؤها والا فلو تكسر موجه لما قدر أحد سلوكه .

(الزقاق) (١٢) والبحر الشامي فيما يحكى كان بركة منحازة مثل ما هو عليه الآن بحر طبرستان لايتصل بشيء من البحر (المظلم) وكان أهل المغرب من الأمم السالفة يغيرون على أهل الأندلس فيضرون بهم كل الاضرار وأهل الأندلس أيضا يكابدونهم ويحاربونهم جهد الطاقة الى أن كان زمان الاسكندر ووصل الى الأندلس وأعلموه بما هم عليه من التناكر مع أهل المغرب فأحضر الفعلة والمهندسين وقصد أرض الزقاق وكان أرضا جافة فأمر المهندسين بوزن الأرض ووزن سطوح ماء البحرين ففعلوا ذلك فوجدوا البحر الكبير يشف علوه على البحر الشامي بشيء يسير فرفعوا البلاد التي على الساحل من بحر الشام ونقلها من أخفض الى أرفع ثم أمر ان تحفر الأرض التي بين طنجة وبلاد الأندلس فحفرت حتى وصل الحفر الى الجبال التي في أسفل الأرض وبني عليها رصيفا بالحجر والجير افراغا . وكان طول البناء ثلاثة عشر ميلا وهو الذي كان بين البحرين من المسافة والبعد . وبنى رصيفا آخر يقابله مما يلى أرض طنجة وكان بين الرصيفين سعة ستة أميال فقط فلما أكمل الرصيفان حفر الماء من جهة البحر الأعظم فمر ماؤه بسيله وقوته بين الرصيفين ودخل البحر الشامي فغلض ماؤه وهلكت مدن كثيرة على الشطين معا وغرق أهلها وطفا الماء على الرصيفين نحو إحدى عشرة قامة .

وطول هذا المجاز المسمى بالزقاق ثلاثة عشرة ميلا وعلى طرفه مما يلى المشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء وعلى طرفه من ناحية المغرب المدينة المسماة بجزيرة طريف ويقابل جزيرة طريف فى الضفة الثانية من البحر مرسى القصر المتسوب لمصمودة ويقابل الجزيرة الخضراء فى تلك العدوة مدينة سبتة · وهذا البحر فى كل يوم وليلة يجزر مرتين ويمتلئ مرتين فعلا دائما ذلك تقدير العزيز الحكيم · وأما ما على ضفة البحر الكبير من المدن الواقعة فى هذا البحر المرسوم فهى طنجة وسبتة وتكور وبادس والمزمة ومليلة ووهران ومستغانم ·

(وصف الأندلس) لنرجع الآن الى ذكر الأندلس ووصف بلادها وذكر طرقاتها وموضع جهاتها ومقتضى حالاتها ومبادى أوديتها ومواقعها من البحر والمشهور من جبالها وعجائب بقعها ونأتى من ذلك بما يجب بعون الله فنقول : أما الأندلس فجنوبها يحيط به البحر الشامى وغربها يحيط به البحر المظلم وشمالها يحيط به بحر الانقلشين من الروم والأندلس طولها من كنيسة الغراب التى على البحر المظلم الى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ومائة ميل وعرضها من كنيسة شنت ياقوب التى على أنف بحر الانقلشين الى مدينة المرية على بحر الشام ست مائة ميل · وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات وفى جنوب هذا الجبل مدينة طليطلة وما خلف الجبل المسمى بالشارات من جهة الجنوب يسمى أشبانيا وما خلف الجبل من جهة الشمال يقال له قشتالة والأندلس المسمى أشبانيا أقاليم عدة ورساتيق جملة فى كل اقليم منها عدة مدن نريد أن نأتى على ذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى ·

(وصف المرية) ومن أراد من مرسية الى المرية سار من مرسية الى مدينة لورقة وهى مدينة غراء حصينة على ظهر جبل لها أسواق وربض فى أسفل المدينة وعلى الربض وفيه السوق والزهادرة (١٣) وسوق العطر وبها معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل الى كثير من الأقطار · ومن لورقة الى مرسية أربعون ميلا ثم من لورقة الى آبار الرتبة الى حصن بيرة مرحلة وهو حصن منيع على حافة مطلة على البحر ومن هذا الحصن الى عقبة شقر وهى عقبة صعبه المرقى لا يقدر أحد على جوازها راكبا وانما يأخذها الركبان رجالة ومن العقبة الى الرابطة مرحلة وليس هناك حصن ولا قرية وانما قصر فيه قوم حراس للطريق · ومن هذه الرابطة الى المرية مرحلة خفيفة ·

ومدينة المرية كانت فى أيام الملثم (١٤) مدينة السيلام وكان بها من كل الصناعات كل غريبة · وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى

والستور المكللة والثياب المتينة والخمر والعتابى والمعاجر وصنوف أنواع الحرير .

وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد الى سائر الصناعات مالا يحد ولا يكيف . وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص .

(وهذا الوادى المنسـوب الى بجانة بينه وبين المرية اربعة أميال وحوله جنات وبساتين وارحاء وجميع نعمها وفواكهها تجلب الى المرية) . وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كلها ، ولو يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ، والمرية فى ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة والجبل الثانى منهما فيه ربضها ويسمى جبل لاهم والسور يحيط بالمدينة بالربض ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربى ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض وله سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات والمدينة فى ذاتها كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون اليها كثيرون وكان أهلها مياسير ولم يكن فى بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا وعدد فنادقها التى أخذها عد الديوان فى التعنيب (١٥) ألف فندق الا ثلاثين فندقا وكان بها من الطرز أعداد كثيرة قدمنا ذكرها . وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة وأحجار صلبة مضرسة لا تراب بها كأنها غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر . والمرية فى هذا الوقت الذى ألفنا كتابنا هذا صارت ملكا بأيدى الروم قد غيروا محاسنها وسبوا أهلها وخربوا ديارها وهدموا مشيد بنيانها ولم يبقوا على شيء منها . ومن المرية لمن أراد مالقة طريقان طريق فى البر وهو تحليق وهو سبعة أيام والطريق الآخر فى البحر وهو مائة وثمانون ميلا .

***

وقد بقى هذا الكتاب المعتمد والمصدر لعلماء أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون .. ويقول (سيبولد) : « .. وهذا الكتـاب تشر بعضه مع أحدى وسبعين خريطة .. » وقد ترجمت وطبعت أقسام من هذا الكتاب على أيدى بعض المستشرقين وطبع (دوزى) القسم المختص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس سنة ١٨٦٤ فى ليدن . وطبع (روزن ملر) وصف الشام وفلسطين فى ليبسيك سنة ١٨٢٨ وطبع (امارى) وغيره القسم المخنص بايطاليا سنة ١٨٨٥ فى روما وطبع (كولندى) الأصل العربى مع الترجمة الاسبانية الأقسام التى تتعلق بوصف الأندلس فى مدريد سنة ١٧٩٩ .

ويرى (سيبولد) : « ... إن الدراسات العربية في حاجة ماسة الى نشر كتاب الادريسي الذى يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافيا مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط مهمة له يعتمد في ذلك على المخطوطات المعروفة لنا الآن في مكتبات باريس واكسفورد واستانبول » .

ولقد قضى الادريسي شطرا من حياته في اعداد أول خريطة عالمية صحيحة « ... مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة لذلك العهد والتي لا تختلف اختلافا كبيرا عما هو ثابت من ذلك لعهدنا هذا .. » .

ويمتاز الادريسي بدقته في حساب الأطوال والعروض للبلاد المختلفة فهو لم يكتف بما اتفق عليه العلماء في عهده أو العهود التي سبقته بل كان يلجأ الى أساليب جديدة ليتحقق من صحة ذلك فقد أحضر ما سماه (لوح الترسيم) « .. وهو ولاشك تصميم جغرافي للكرة الأرضية أو بعبارة أدق مشروع خريطة العالم التي وضعها فيما بعد فيمتحن عليه مواقع البلدان واحدا فواحدا بوساطة بركار من حديد مقارنا ما عنده من معلومات بما قرره المؤلفون في هذا العلم محققا بغاية العناية المواقع المذكورة ومرجحا بالاستناد الى النظر الصحيح بين الأقوال المتضاربة في بعض المسائل حتى يقف على حقيقتها وكان هذا بلا ريب هو الاصلاح العظيم الذى أدخله الادريسي على خريطة العالم فجعلها تقرب من وضعها العلمي الصحيح الذى هي عليه اليوم .. » .

ولقد كتب العلاقة الألماني (ميلر) عن الادريسي مطولا وأتى على ذكر خريطته ودفعه اعجابه وتقديره للادريسي أن يجمع أطراف الخريطة الادريسية وأن يدرس كتاب نزهة المشتاق دراسة علمية فأخرج هذه الخريطة لأول مرة في طبعة ملونة غاية في الاتقان سنة ١٩٣١ .

ولقد رجعنا الى ما كتبه الأستاذ « عبد الله كنون » عن الشريف الادريسي وما ورد في كتاب تراث الاسلام ودائرة المعارف الاسلامية وما نشر عنه من مقالات متفرقة في المقتطف والرسالة فتجلى أن الخريطة الادريسية انما تمثل القسم المعمور من الكرة الأرضية وهو النصف الشمالي ويشمل العالم القديم أو مجموع القارات الثلاث التي هي آسيا وأفريقيا وأوربا « .. وإن كان هذا الاسم ـ القارة ـ لم يكن معروفا في ذلك الوقت .. » .

وكان تقسيم العالم مبنيا على نظرية الأقاليم وهي سبعة وقد أوردها الادريسي بهذا العدد ولكنه حددها وقسمها بحسب درجات العرض فجعل الاقليم الأول بين (٠) ودرجة (٢٣) شمال خط الاستواء والأقاليم الخمسة بعده ، كل واحد منها ست درجات ، والاقليم السابع من

٥٤ ــ ٦٣ ٠ وما بعد هذه الدرجة الأخيرة منطقة غير مسكونة لكونها كثيرة البرودة ومغمورة بالثلوج ٠

ولقد أضاف الادريسى الى القسم الشمالى من الكرة الأرضية جزءا صغيرا من القسم الجنوبى حتى (١٦) عرضـــا جنوب خط الاستواء ٠ « ٠٠ وهذا الجزء هو الذى تقع فيه منابع النيل وقد بينها ببراعة علمية فسبق بها علماء الجغرافيا والمكتشفين الذين أتوا بعده ٠٠ » ٠

لقد قدر علمـــاء الجغرافيا والباحثون فى أوروبا وأميركا عبقرية الادريسى فى رسم خريطته فقد حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدها « ٠٠٠ وانه أفلح فى هذه المحاولة الى حد بعيـــد ٠٠ » ٠

ولقد أعجب المستشرقون والباحثون بخريطة الادريسى وكتابه العظيم فقال (دى فو) : « ٠٠٠ ان الادريسى اســـتعمل ملاحظاته الشخصية زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه وأعمال المؤلفين قبله ٠٠ » ولاشك ان ما كتبه عن البلاد العربية كان أحسن ما كتب عنها لأنه أعطاها بحثا من الطبقة الأولى ٠

وقال البارون دى سلان : «٠٠ ان كتاب الادريسى لايمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له وهناك بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتعلقة بها ٠٠ » ٠

وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية : « ان كتاب الادريسى هو أوفى كتاب جغرافى تركه لنا العرب وان ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى ٠٠ » ٠

معجم البلدان

يا قوت الحموى

١٤٠٠ م

معجم البلدان من الكتب التى يتردد اســـمها على ألسنة المحاضرين وتجرى بخطها على الأوراق أقلام المؤلفين ·

وقد يحسب بعض من لم يطلعوا عليه انه كتاب فيه بعض الجفاف وانه فهرس لاسماء بلدان وتحديد لمواقعها ، ولكن الواقع خلاف ما تذهب اليه الظنون · ذلك ان معجـم البلدان دائـرة معارف حافلة بالطريف المفيد · ففيه الى جانب تقويم البلدان : تاريخ وتراجم ولغـــة وشرح لمصطلحات وأدب ممتع من شعر ونثر وذكر لأحوال المجتمعات فى عاداتها وتقاليدها مما ينفع الباحثين ويساعد الدارسين ·

وللناس فى ذكر ديارهم شغف · ولأماكن لهوهم تشـــوق ولمدارج طفولتهم ومغانى صباهم حنين وقد يمرون بمراتع ومرابع ومدن وقرى وأنهار وجداول فيعجبهم بعض ما رأوا أو يترك فيهم أثرا لاينسى ، وقد يجتمعون فى تلك البقاع أو يفترقون فتفيض مشاعرهم بالمنظوم والمنثور ويتلقفه عشاق الأدب ثم يروونه فى مجالس سمرهم أو لمن يسألهم طلبا للبيان فاذا ذكرت ملابسات القطعة الأدبية وعرفت أماكنها ضاعف ذلك من الاحساس بتأثيرها فى القارئين والمستمعين ·

وشعراء العرب من قديم لهم ولع بذكر الأماكن ، لاتخلو من ذلك قصائدهم ومقطوعاتهم كما أن الفتوحات الاسلامية خلقت بأسماء الأقاليم والمناطق والبقاع وللعلماء رحلات وجولات فى طلب المزيد من العلم والكثير من المعرفة واكتساب الخبرة وقد قالوا وصدقوا : «ماراء كمن سمع » · هذا الى ان للدول حدودا تشمل قرى ومدنا ووديانا وصحارى ومزارع فاذا وجدت فى ذلك كتبا مؤلفة بعناية ومرتبة بدقة ، جامعة لما قيل فى المكان وما حدث فيه لاتشعر بملل ولا ضجر بل تقبل على القراءة فى حرص ورغبة طالبا المزيد وتخرج من كل هذا بزيادة فى الثقافة وتوسيع فى المدارك ·

ويزيد اعجابك بالمؤلف حين ينسب الأقوال الى أصحابها والمعلومات التى كتبها المنقولة عنها وتشعر بالارتياح اذا كان قد طاف بهذه الأماكن التى يتحدث عنها وأن يقص عليك بعض عجائبها التى وقعت عليها عيناه أو سمعتها أذناه ·

كل هذا الذى يحبب ويعجب تجده فى معجم البلدان لياقوت الحموى ·

صـــاحب المعجـــم

ونتعرف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به فى أول نشأته غلام رومى صغير مجهول الاسم يقع فى الأسر خلال الحروب المتصلة التى كانت تنشب بين المسلمين والروم فى آسيا الصغرى ويدخل فى ولاء تاجر حموى فى بغداد يدعى عسكر بن أبى نصر بن ابراهيـم الحموى فيسميه ياقوتا وينسـبه اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومى الحموى ٠ ويحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموى البغدادى لياقوت بأحد الكتاب لينتفع به فيما بعد فى ضبط تجارته فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأوفده فى عدة رحلات تجارية زادت فى خبرته ووسعت أفقه ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها الخليج العربى حيث زار البصرة وبعض موانى الخليج وجزره وبخاصة جزيرة قيس التى كانت مركز النشاط التجارى بين الخليج والهند فى القرن السادس الهجرى ، القرن الثانى عشر الميلادى وكان خلال رحلاته التى اتسعت فيما بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر يجتمع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب حتى اذا بلغ العشرين من عمره انفصل عن مولاه لجفوة وقعت بينهما ، فاشتغل ياقوت بنسخ الكتب ليتكسب منها وحصل بالمطالعة فوائد زادت فى ثقافته العلمية وحببت اليه الاشتغال فى العلم ومكنته منه ٠ وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ويصبح شريكا لمولاه فى التجارة بالمضاربة وقد أعطاه الأخير مالا خـــرج به للتجارة فى جزيرة قيس فلما عاد من رحلتـــه الى بغداد عام ٦٠٦ هـ وجـد مولاه عسكر بن أبى نصر قد توفى ، فأعطى أولاده وزوجته من المال ما أرضاهم به وبقيت لديه بقية جعلها رأس ماله واستمر يعمل فى التجارة بما فيها تجارة الكتب فكان يطوف البلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب ويتعرف على العلماء وكبار القوم والذين يرغبون فى هذه البضاعة ، فعلت مكانته واشتهر أمره فسعى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذى كان يطلق على الرقيق لكن الناس لم يألفوا اسمه الجديد وظلوا يدعونه باسمه الأول ياقوت ٠

وفى أثناء تجوال ياقوت فى مدن خراسان أدركته جيوش التتار فى مدينة مرو التى أحبها كثيرا وتمنى أن يقضى بقية حيـــاته فيها فغادرها

مكرها الى اربل ومنها الى الموصل بعد أن قاسى الكثير من المتاعب والاهوال وضيق ذات اليد . وفى الموصل استأنف ياقوت عمله فى نسخ الكتب وقد نسخ منها الكثير اذ يحدثنا ابن الشعار المبارك بن أبى بكر بن حمدان الموصلى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) الذى التقى بياقوت فى الموصل ان ياقوت « كتب بيده فى مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد » واذا علمنا ان هذه الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة (٥٩٦ هـ ـ ٦٠٣ هـ) أمكننا القول انه نسخ بعد هذا التاريخ مئات أخرى من الكتب وهذه مهمة شاقة لم تكن تدر على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد شكا ياقوت من ذلك وهو فى الموصل حيث قال انه كان « يمارس حرفته وبخته .. ويذيب نفسه فى تحصيل أغراض هى لعمر الله أغـــراض من صـــحف يكتبها وأوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل واستمتاعه بها قليل ثم الرحيل .. وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وطر أو ادراك أرب » وكتب ياقوت وهو فى الموصل رسالة مؤثرة الى جمال الدين على القفطى وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفادة عليه والاقامة فى كنفه . فلم يخيب القفطى رجاءه فاستقدمه الى حلب حيث اســـتمر ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجتمع الى أهل العلم والأدب وأكمل خلال تلك الفترة مســـودة معجم البلدان الذى أهداه الى الوزير القفطى اعترافا بفضله عليه ولم يلبث ياقوت ان توفى فى حلب وهو فى الخمسين من عمره (٥٧٤ ـ ٦٢٦ هـ) (١١٧٨ ـ ١٢٢٩ م) .

معجـــم البلـــدان

يقع معجم البلدان فى خمسة مجلدات فى الطبعة المتداولة • وقد بدأ ياقوت فى جمع مادته منذ شبابه واستمر فى ذلك حتى قبيل وفاته حيث بادر فى تسويد أوراقه خشية بغتة الموت قبل تبلج فجره على يد تعبيره وكان يود لو يمتد به العمر فيضاعف حجمه ورفض بشده اختصار الكتاب والاستجابة الى طلبات متكررة باختصاره • ويذكرنا ياقوت هنـا بعزم شيخ المؤرخين الطبرى على جعل تاريخه فى ثلاثين ألف ورقة الا ان همة طلابه قصرت عن ذلك فاختصره فى ثلاثة آلاف ورقة ومع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبرى المختصر الا ان ياقوت تمسك برأيه فى عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الافادة منه • ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة أبواب وهو بعامة يغطى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهـــار وغيرها من المعالم البارزة فى العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الاسلامى • ونشير ابتداء الى الأهمية الكبيرة للمقدمة التى كتبها ياقوت لهذا المعجم لاحتوائها على نقاط رئيسية نجملها فيما يلى :

اولا : دواعى تأليف معجم البلدان وأسبابه وتتلخص فيما جاء فى القرآن الكريم من حث للبشر على السير فى الأرض والتفكر فى عاقبة من عمروها قبلهم وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارها وفتوحها ووصف جغرافيتها والالمام بأماكن الزيارة والحج والغزوات والمواقع التى يرد ذكرها فى كتب السيرة والتاريخ والأدب •

ثانيا : مصادر المعجم ، وتضم عرضا موجزا قيما لحركة التأليف الجغرافى لدى علماء العرب والمسلمين بالاضافة الى الفوائد التى حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهده فى أسفاره وحصله فى تطوافه وهو كما يقول أضعاف ذلك •

ثالثا : منهج تأليف المعجم من حيث حرصـــه على توخى الدقة فى الوصف وضبط الأسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك والاشارة الى

ذلك قولا وكتابة منعا للبس والتحريف والتصحيف ، اضافة الى ميله الى الشرح والتفصيل ونفوره من الاجتزاء والاختصار وتنبيه القارىء الى ما يرد فى الكتاب أحيانا من أساطير تبوأ من صحتها وأوردها على علاتها حتى يقف الناس على ما قيل فيها ويكونوا على بينة منها وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشعوب من أساطيرهم والباحثين فى علم الميثولوجيا ·

رابعا وأخيرا : تشمل المقدمة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه فى عدد من قضايا العلم والأدب والجهود الفنية التى بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليفيد به الناس عله يظفر منهم بالثناء والدعاء فينال ذكرا زكيا من المؤمنين ويحشر فى زمرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو ·

وأما البابان الأول والثانى فتنحصر فوائدهما فى الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفلكية بها فى حين أفرد ياقوت الباب الثالث لشرح معانى المصطلحات الفنية الواردة فى المعجم كالبريد والفرسخ والميل والاقليم والكورة والمخلاف والرستاق والطسوج والسكة بمعنى الطريق والمصر والقطيعة وغيرها سالكا فى ذلك أحدث الطرق فى التاليف والتصنيف · وخصص الباب الرابع لأقوال الفقهاء فى أحكام أراضى الفيء والغنيمة وأدار الباب الخامس على جمل من أخبار البلدان ·

وقد حرص ياقوت فى أثناء اعداد وجمع معجم البلدان أن يراعى أصولا عملية دقيقة تثير الدهشة والاعجاب وهى :

أولا : الاعتماد على مصادر موثوق بها وهى كثيرة جدا من بينها : فتوح البلدان للبلاذرى وكتاب الفتوح لأبى حذيفة اسحاق بن بشر القرشى وكتاب فتوح الشام لأبى حذيفة بن معاذ بن جبل وكتاب خطط مصر للقضاعى وكتاب أبنية الاسماء (الأبنية) لابن القطاع وكتاب ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن السكندرى وكتاب اشتقاق البلدان أو أنساب البلدان لابن الكلبى وكتاب جزيرة العرب للحسن الهمدانى وكتاب جبال تهامة لأبى الأشعث الكندى وكتاب فى مياه العرب للغندجانى بالاضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التى ألفها ابن خرداذبة وابن واضح والجهيانى وابن الفقيه والبلخى والاصطخرى وابن حوقل والبشارى والمقدسى والمهلبى وابن أبى عوف البغدادى وغيرهم · ويلاحظ ان جانبا من هذه المؤلفات قد فقد أو ضاع ولم يصل الينا بعد ما يجعل لاقتباسات ياقوت عنها أهمية تراثية كبيرة تاهيك عما يدل من سعة المصادر التى رجع اليها ياقوت فى تاليف معجمه فكان لا ينفك منذ نشأته وحتى وفاته يطالع فى أمهات الكتب ويعكف على

الافادة منها والاقتباس عنها وقد أكد ذلك معاصره ابن الشعار فى ترجمته لياقوت فقال فى ذلك : « فما يعلم أنه منذ كان عمره سبع سنين الى أن توفى ما خلت يده من كتاب يستفيد منه أو يطالعه أو يكتب منه شيئا أو ينسخه وكان ياقوت أمينا فى الاشارة الى اقتباسه عن هذه المصادر » ·

ثانيا : الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التى اكتسبها من تجارته وأسفاره التى امتدت من النيل الى جيحون · وقد أشار ياقوت الى ذلك أكثر من مرة كلما دعت المناسبة الى ذلك فنراه يسهب فى الحديث عن خوارزم وخراسان وطبرستان ويقول عن الأخيرة : « رأيت أطرافها وعاينت جبالها ·· ولابد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة الباردة فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة » ·

ثالثا : استقصاء سبل البحث العلمى الدقيق من ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء وتحفظ فكان ياقوت لايثبت القول المنقول فى معظم الأحوال الا اذا اطمأنت اليه نفسه وقد اتبع ذلك فى كثير من الأخبار كما هو الحال فى حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم فبعد ان يعدد الروايات المختلفة فى هذا الشأن يقول : « والذى تركن اليه نفسى انه اما ان يكون من التجمع أو تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له قريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة » فاذا لم يجد ياقوت ما تطمئن اليه نفسه من صحيح الأخبار ظل يبحث ويستقصى حتى يصل الى ضالته فيهدأ ويطمئن · وقد حدث مثل ذلك معه عندما كان يحقق مواضع المحمدية حيث تبين له بعد البحث والتنقيب فى المصادر وجود محلة بالرى كانت تدعى أيضا المحمدية نسبة الى منشئها الخليفة العباسى محمد المهدى وقال بعد ان توصل الى هذه المعلومة : « فلما وقفت على هذا فرج عنى » وواجه مثل هذا الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمعجمه ، بل قام ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها بعض من سبقه فى هذا الميدان مثل ابن الكلبى والبلاذرى وأبى حنيفة الدينورى والمسعودى وابن بطلان وغيرهم وتوصل فى نفس الوقت الى معلومات مفيدة عن طبرستان وبنى النضير والبرامكة وآل الصفار ودارات العرب وعدد العشرات من أيامهم فى أثناء حديثه عن مواقعها ·

أما الاستقراء والاستنتاج فقد توافرا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن وذكاء متقد فنراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج ·

وأما الاجتهاد فكان ياقوت يلجأ اليه اذا لم يسعفه الدليل القائم أو النص المقنع كما فعل فى محاولته معرفة اشتقاق اسم « مناة » اذ يقول : « لم أقف على أحد يقول فى اشتقاقه وأنا أقول فيه ما يسنح لى فان وافق

الصواب فهو بتوفيق الله والا فالمجتهد مصيب فلعله يكون من المنا وهو القدر وكانهم أجروه مجرى ما يعقل » .

بل لقد بلغت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الأسماء التى يخالجه شك فيها أو عجز هو نفسه عن تحقيقها وأجاز للباحث أن يضبط ما يحتاج الى ذلك على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين . وأشار ياقوت الى مثل ذلك أكثر من مرة فى معجم البلدان وبخاصة عند ذكره التقسيمات الادارية البيزنطية اذ قال : « وفى أخبار الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر فى كتابى هذا ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها بحثا فقد أذنت له في اصلاحه مأجورا » .

رابعا : التحفظ عند ذكر الأساطير التى نقلها من مصادره وقد أعرض عن ذكر الكثير منها خوف التهمة ولكونها تخالف المألوف من العادة وقد استبعد ياقوت وقوعها وتبرأ من عهدتها وفند معظمها مؤكدا « أن الملة الاسلامية تجل عن مثل هذه الخرافات » وكان المبرر عنده لايرادها حتى يعرف القارىء ما قيل فى ذلك حقا كان أو باطلا .

الدقة تغلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت لهذا المنهج العلمى فى تأليف معجمه الى الحصول على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم الاسلامى وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للأقطار التى زارها وتردد عليها كمصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربى وبلدان المشرق الاسلامى وأمثال تلك المعلومات تضيق عن الحصر نذكر منها على سبيل المثال وصفه الدقيق لشبه جزيرة العرب وبحر الروم (المتوسط) وبحر الهند (المحيط الهندى والخليج العربى وبحر الخزر وتتبعه لمجرى كل من دجلة والنيل وظاهرة قصر الليل صيفا فى بلاد البلغار التى ذكرها المسعودي بقوله : « والليل فى بلادهم فى غاية القصر فى الصيف حتى ان أحدهم لايفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمنا الى تأثير ارتفاع الجبال على التنفس وذلك حين روى ان « بالتبت جبل يقال له جبل السم اذا مر به أحد تضيق نفسه فمنهم من يموت ومنهم من يثقل لسانه » وغير ذلك من المواد التى تزخر بالمعلومات والفوائد .

ويكفى ياقوت فضلا انه استطاع بخبرته وألمعيته وثقافته الموسوعية ان يعطى من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة عالم الاسلام فى عصره وان يصف بطريق غير مباشر جانبا من أحوال ذلك

العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا أمر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه لما له من أهمية فى التعرف على حضارة العالم الاسلامى قبيل الغزو المغولى المدمر لأقاليم المشرق الاسلامية التى لم تكد تسير فى طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين ، حتى دهمها الغزو المغولى الذى كان ياقوت أحد الضحايا الذين شردوا وأوذوا بسببه .

الملامح السياسية فى معجم البلدان :

تتمثل أولى الملامح التى تواجه من يقرأ معجم البلدان قراءة متأنية فى الاحساس الواقعى الذى يحسه بوحدة العالم الاسلامى الكبير وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التى كانت قائمة فيه والأخطار الداخلية والخارجية التى تهددته فترة من الزمن وهنا يعتبر ياقوت الحموى شاهد عيان واعيا لآثار المرحلة الأخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة التى استهدفت قلب العالم الاسلامى وبخاصة مصر وبلاد الشام وهذا الوصف السياسى الذى قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تحتل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

أولا : لأن المعلومات التى ذكرها ياقوت فى معجم البلدان يعتبر جانبا منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم متتبع لشاهد الأحداث السياسية وانفعل بها وسجل ملاحظاته عنها من ذلك مثلا ان ياقوت يحمل خوارزم شاه محمد بن تكش بن ارسلان (ت ٦١٧ هـ ـ ١٢٢٠ م) المسئولية المباشرة فى اضعاف قوة المسلمين فى مقاطعات ما وراء النهر وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المتاخمة للتتار فى الشرق وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون فى ظل مملكة الخطا بمراكزهم وقوتهم النسبية التى تحفظ حدودهم مع التتار وقد أدى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكرى وسياسى وسكانى لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة ، مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الأولى عن ديار المسلمين فى تلك المناطق التى وقعت فريسة سهلة بأيدى التتار الذين ما لبثوا ان اجتاحوها وأهلكوا الحرث والنسل فى ربوعها فكانت أولى المناطق الاسلامية التى هب عليها اعصار التتار المدمر وقد أشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجلاء وبصيرة نافذة .

ويصف النكبة التى حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا رثى فيه حالهم بقوله : « وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة والاسلام فيهم غض المجنى حلو المعنى . يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه ولم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ولكن الله يفعل بعباده ما يشاء » .

ثانيا : رسم ياقوت أمثال هذه الصورة المؤثرة بروحه الاسلامية الصادقة كلما ذكر مكانا وقعت فيه أحداث مماثلة وبذلك ربط وبطا متلازما بين المكان والانسان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلف معجم البلدان يدخل أيضا فى نطاق اشارات ياقوت المماثلة فى أثناء تعريفه ببلدان الأندلس وما سقط منها في أيدى الأسبان وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين ، كما أورد تفاصيل أوفى عن الغزوات التى كان الروم يشنونها على الثغور الاسلامية فى شمال بلاد الشام وسقوط طرسوس وحلب فى أيديهم وانتقد ياقوت موقف الأمراء المسلمين المتخاذل في ذلك الوقت وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول « وسيف الدولة ـ الحمداني ـ حي يرزق بميافارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين وعطلوا هذا الفرض (الجهاد) ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ونسأله الكفاية من عنده » .

ثالثا : وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالح فى البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود زمن الدولة العباسية وما بذله خلفاء تلك الدولة من جهود لتعزيز تلك الجهود وهو أمر يتمشى مع السياسة الدفاعية التى تبنتها دولة بني العباسى وعدم أخذها بسياسة الفتوح الأموية التى كانت ترى فى الفتوح (الهجوم) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويزودنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالح والحصون الدفاعية المنتشرة من خراسان الى الديلم .

وفى هذا الميدان أى نظام الدفاع عن الدولة الاسلامية يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة أخرى عن المراقب والمناظر والمنارات التى كانت منتشرة على طول الخطوط الأمامية للحدود من جهة وبين هذه الخطوط ومركز القيادة من جهة أخرى كما كان الحال في باب الأبواب وقزوين ، حيث يذكر ان المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر اقامة الحجاج ابن يوسف الثقفى والى بنى أمية على العراق والمشرق فى أواخر القرن الأول الهجرى « فاذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهارا وان كان ليلا أشعلوا نيرانا فتجرد الخيل اليهم » فكانت تلك المناظر والمنارات بمثابة وسائل انذرا مبكر وسريع للمسلمين من الأخطار التى قد تدهمهم .

رابعا : أشاد ياقوت فى أثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره سببا في عمرانها وخصبها وازدهارها كما ندد بالظلم لكونه يؤدن بخراب البلاد وجلاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادى فى مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح

التتار لها اذ كان فى منطقة غرشتان كما يقول : « عدل حقيقى وبقية من عدل المعمرين وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » وكان فيها مياه كثيرة وبساتين وأرز وزبيب يحمل الى البلدان ومثل ذلك يقول عن اسفيجاب والطاقات ومرو وساوه التى كانت من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشجرا ومياها ورياضا مزدهرة » كما كانت المياه الجارية فى بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها وكان ياقوت فى هذا الوصف شاهد عيان لأنه أمضى بضع سنين ينتقل فى ربوعها ٠

وفى المقابل يصف ياقوت الخراب الذى حل فى بعض البلاد الاسلامية الأخرى نتيجة لتكالب العمال والولاة على جمع المال من الرعية وعدم انفاقه على شئون الولاية ، اضافة الى غياب السلطان العادل وكثرة الحروب والجيوش التى كانت تعيث فى تلك البلاد فسادا ٠

الملامح الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من بينها اقطاعات الأرضين العديدة التى منحت لبعض الأشخاص من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده سواء فى عهد الخلفاء الراشدين أو دولة بنى أمية أو دولة بنى العباس ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الأشخاص الذين منحوها فى مواضع متعددة من المعجم فبالنسبة للاقطاعات فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نجدها فى معجم البلدان فى ثنايا المواد : حبرون ، الشقراء ، ظبية ، عقيق ، الغميم ، الغورة ، فخ ، قالس القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينبع ٠ ونجد الاقطاعات التى منحت فى عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة فى حكم عثمان بن عفان فى المواد التالية فى المعجم : سنينيا ، شاطىء عثمان ، شط ، عرصه ، نشاستج نهر الأساورة ، نهر أم حبيب ، نهر أم عبد الله ، كما نتعرف على بعض الاقطاعات التى منحت فى الدولة الأموية فى المواد : سلوقية ، عرب ، نهر العلاء ، مدينة مرغاب ، نهر بن عمير ٠ واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين فى المواد : بغداد راون ، سوق العش ، سويقة خالد ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة أم جعفر ، مرعش ، نهر أبى الخصيب ٠

ويوضح ياقوت المفهوم الاسلامى لهذه القطائع التى كانت تتم فى الصوافى والأراضى البور التى لا مالك لها ويقول فى ذلك ان « القطائع من السلطان انما تجوز فى عفو البلاد التى لا ملك لأحد عليها ولا عمارة توجب ملكا لأحد » وهذه ناحية اقتصادية مهمة ، لأن الخلفاء والولاة كانوا بوجه عام لايتصرفون بممتلكات الغير واذا أرادوا امتلاك أرض مملوكة

لأجل المنفعة العامة كبناء مسجد أو مدينة عمدوا الى شراء الأراضى من أصحابها كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفى فى واسـط والمهدى فى المحمدية بالرى والمعتصم فى سامراء وهذه على كل حال قاعدة اسلامية سنها الرسول صلى الله عليه وسلم لأول مرة عندما ابتاع أراضى مسجده فى المدينة ورفض امتلاك الأرض دون التعويض على أصحابها وهنا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصـدرا مهما ورئيسـيا فى دراسة تطور الاقطاعات فى الدولة الاسلامية ٠

وفى أثناء حديث ياقوت عن البلدان والأرضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد أحيانا بعض المعلومات القيمة عن الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية فيها ، اضافة الى ذكر بعض الصناعات مما يدخل فى التاريخ الاقتصادى للدولة الاسلامية ٠ فقد كان فى مدينة شيراز مثلا شجرة تفاح نصفها حلو ونصفها الآخر حامض كما كان فى بلدة شنترة بالأندلس تفاح محيط الواحدة منه ثلاثة أشبار واشتهرت تاهرت بالسفرجل وتبريز بالمشمش وغزة ورفح بالجميز وفلسطين وتونس بالزيتون وفى مصر كمثال آخر يشير ياقوت الى أهمية مياه النيل وقياس مستوى ارتفاعهـا للزراعة ويورد كشفا بأسماء مائة وستة وثلاثين نوعا من الطيور كانت توجد فى منطقة بحيرة تنيس بالاضافة الى ثمانين نوعا من الأسماك فيها ٠

الملامح الاجتمـاعية :

وتصادفنا فى معجم البلدان عدة ملامح اجتماعية مهمة منها :

أولا : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب على اعتبار أن هذه المنطقة كانت فى معظم الحقب التاريخية منطقة طرد بشرى الى المناطق الأكثر خصبا وتعود هذه الظاهرة الى ما قبل الاسلام ٠

وفى هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمـة عن تحـرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الاسلام ويعدد مواطن عدد بارز منها فقد ذكر تفرق قضاعة والازد ومواطن بنى سعد وبنى أسد وطيىء وكلب وتغلب وبكر وربيعة ومضر واستشهد بأبيات شعر للاخنس بن شهاب التغلبى تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهى لكيز وبكر وتميم وغسان وبهراء واياد وتغلب ٠

وعندما جاء الاسلام وتكونت نواة دولته فى المدينة اتخذت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية أبعادا أوسع فقد أدى ذلك داخل الجزيرة نفسها الى حدوث تركز سكانى فى منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ، وتدفق الأعراب على المدينة للافادة من العطاء ولم تلبث أعداد من القبائل العربية ان خرجت ضمن جيوش الفتح خارج الجزيرة العربية

حيث فتحت الأقطار وأقامت فى الأمصار والثغور وفى بيوت المدن المفتوحة كما حدث فى خراسان . وقد أسهم عرب الفتوح فى نشر الاسلام والعربية فى البلاد المفتوحة .

وفى أخبار البعثة الاستطلاعية التى أرسلها الخليفة العباسى الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذى بناه ذو القرنين ليحول دون تقدم يأجوج ومأجوج ذكر ياقوت ان البعثة اجتازت حصونا فيها « قوم يتكلمون بالعربية والفارسية هم مسلمون يقرءون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب الا أنهم كانوا منقطعين عن العالم الاسلامى ولايعرفون شيئا من أخباره » .

ثانيا : وكان العرب لدى انتقالهم الى الأمصار والأقاليم يسمون بعض مدنهـــا بأسماء المدن والمواطن التى قدموا منها تذكرهم بمواطنهم الأولى وتهدىء من شوقهم وحنينهم اليها وهى ظاهرة انسانية مألوفة ومعروفة فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا الاســم قرب عين التمر فى العراق وشهدت الأندلس ملوكا سموا عدة مدن منها بأسماء مدن الشـــام مثل حمص وتدمر .

وثالثا : وياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية مهمة عن مساحتها وسكانها فالبصرة كانت تضم فى عهد زياد بن أبيه ثمانين ألف مقاتل من العرب وعيالاتهم مائة وعشرون ألفـــا أى أن عدد سكانها حوالى منتصف القرن الأول الهجرى مائتا ألف نسمة وأضيف الى هؤلاء فى زمن عبيد الله بن زياد ألفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخارى وفرض لهم العطـــاء وبنى لهم سكة فى البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم فقد تطورت البصرة زمن خالد بن عبد الله القسرى فى أوائل القرن الثانى للهجرة فأصبح طولها فرسخين الا أنقا .

ولم يغفل ياقوت وهو يذكر عرضا أخبار العرب المهاجرة الى الأمصار أخبار الشعوب والفئات الأخرى التى كانت تعيش داخل الدول الاسلامية أو تلك التى تقيم على تخومها كالنبط والأساورة والبخارية والاكراد والديلم والجراجمة والترك والصقالبة والخزر والروس والبلغار والزنج وأهل الصين فأورد وصفا لجانب من عاداتهم وتقاليدهم واعتمد فى هذه الأخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة التى وضعها أوائل القرن الرابع الهجرى ورسالة أبى دلف فى ذكر ما شاهده ورآه الترك والصين والهند .

الملامح الثقافية :

وسجل ياقوت فى معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملامح ثقافية فلا الدولة الاسلامية وقد استوقفته هذه الملامح ، لأنه كان أديبا شارك فى ثقافة عصره من طريق نسخ الكتب والمتاجرة بها الى جانب جهوده المشكورة فى التاليف فضلا عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية جاء قبيل اجتياح المغول للمشرق الاسلامى وتدميرهم لمعظم المراكز الثقافية فيه ويمكن تلمس هذه الملامح تحت المؤسسات التالية :

أول : المساجد : وكانت المساجد الاسلامية مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية مهمة منتشرة فى جميع أنحاء الدولة كما كان يلحق بمعظمها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة ·

ثانيا : المكتبات : اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة فى معظم المدن الاسلامية وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وأفاد منها فائدة مباشرة ففى مدينة ساوة بين الرى وهمذان كانت توجد دار كتب كبيرة وصفها ياقوت بأنها « لم يكن فى الدنيا أعظم منها بلغنى أن التتر أحرقوها » وذلك عام ١٦٧ هـ / ١٢٢٠ م وفى مدينة مرو الشاهجان وحدها بخراسان كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدمير المغول لها ويقول ياقوت فى هذا الشأن انه أقام بمرو ثلاثة أعوام وانه « لولا ماعرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات » لما فى أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بهـا فانى فارقتهـا ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان فى الجامع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز أبو بـكر عتيق الزنجانى أو عتيق بن أبى بكر ··· وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقابلها والأخرى يقال لها الكمالية لا أدرى الى من تنسب وخزانة شرف الملك المستوفى أبى سعد محمد بن منصور فى مدرسته ومات المستوفى هذا فى سـنة ٤٩٤ هـ وكان حنفى المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق فى مدرسته وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها وخزائن الخاتونية فى مدرستها والضميرية فى خانكاه هناك · وكانت سهلة التناول لايفارق منزلى منها مائتـا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها وأنسانى حبها كل بلد وألهـانى عن الأهل والولد » · وأكثر فوائد هذا الـكتاب وغيره مما جمعه فهو من تلك الخزائن ·

ثالثا : العلماء : وهؤلاء كانت تزخر بهم المدن والأقاليم الاسلامية وقد اشتمل معجم البلدان على أسماء فئات من العلماء النابهين الذين ذكرهم ياقوت بعد تعريفه باسم البلد أو القطر الذى ينتمون اليه ويلاحظ من عاصروه أو سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه الموجزة أهمية خاصة وكان بعض هؤلاء العلماء يتنقلون فى البلاد الاسلامية استكمالا لعلمهم من جهة ولنشر علمهم بين الناس من جهة أخرى وفى هذا الصدد ذكر ياقوت أسماء العديد من علماء المغرب والأندلس الذين ارتحلوا الى المشرق للاستزادة من العلم وكان الطلب شديدا على العلماء النابهين يسعى الكثيرون اليهم ويتمنون سماعهم ٠

الملامح الأثرية :

وخلال وصف ياقوت للبلدان ذكر عدة معلومات أثرية مهمة سواء بالنسبة للمساجد والآثار الاسلامية أو الآثار القديمة التى خلفتها الدول والشعوب فى العالم الاسلامى الذى تعاقبت عليه الحضارات وهناك أمثلة كثيرة على هذه الآثار نجدها فى وصف المسجد الحرام والكعبة الشريفة فى مكة المكرمة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة والمسجد الأقصى والصخرة المشرفة فى القدس والجامع الأموى فى دمشق وجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون فى الفسطاط اضافة الى تحديد المساجد التى أقامها الرسول الكريم بين المدينة وتبوك وذكر معلومات أخرى تتعلق بتصميم المدن الاسلامية وطريقة بنائها ووصف مواقعها وأسوارها وقصورها وخططها كما هو الحال بالنسبة للبصرة وواسط وبغداد وسامراء والفسطاط والقيروان ٠

وقد لاحظ ياقوت استغراب الناس من ضخامة هذه الآثار فكانوا ينسبون بناءها الى النبى سليمان بن داود والجن كما هو الحال بالنسبة لمدينة زندورد وتدمر وقصر عمدان وقد علق ياقوت على ذلك بقوله : « لكن الناس اذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه أضافوه الى سليمان والى الجن » كما لاحظ ان الناس كانوا يرتادون الأماكن الأثرية للمشاهدة والتنزه وكان بعضهم يكتب العبارات والأبيات الشعرية على جدرانها للموعظة والاعتبار ٠٠

دراسات رائدة لمعجم البلدان

كان صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى (ت ٧٣٩/١٣٣٨م) أول من اختصر هذا المعجم فى كتاب أسماه « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » وبعد ذلك بحوالى قرنين قام جـــلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) باختصـــاره ثانية فى كتاب عرف باســـم « مختصر معجم البلدان » ويستفاد من ذيل تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ان هناك نسخة من المختصر الأخير فى مكتبة آصفية بحيدر آباد ٠

الا أن أول دراسة فى مادة معجم البلدان قام بها ياقوت الحموى نفسه وضمنها كتابه المطبوع « المشترك وضعا والمفترق صقعا » اذ يقول فى مادة تلك الدراسة : « هذه طرفة طريفة وملحة مليحة تشرئب اليها النفوس ٠٠ انتخلتها من كتابى الكبير المسمى بمعجم البلدان وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان فيما اتفق من أسماء البقاع لفظ وخطا ووافق شكلا ونقطا وافترق مكانا ومحلا واختلف صقعا ومحتلا ٠٠ ليخف على الحامل ثقله ويتيسر على الناقل نقله » ٠

وفى القرن التاسع عشر تنبه عدد من المستشرقين الى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين الى ذلك بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأقطار الاسلامية ونورد فيما يلى جانبا من العرض القيم للدراسات الاستشراقية للمعجم والذى ضمنه وديع جويدة مقدمة ترجمته للفصول التمهيدية لمعجم البلدان لياقوت فقد قام عدد من كبـار المستشرقين فى النصف الثانى من القرن الماضى بدراسات علمية تتعلق بموضوعات معينة فى المعجم ففى عام ١٨٢٣ نشر المســـتر الروسى فرين(C. M. J. Fraehn) فى بطرسبورج أول دراســـة استشراقية من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقارير عربية مختلفة أخـــرى عن الروس الأقدمين والشعوب المجاورة لهم »

(Ibn Foszlan's und anderer Araber Berichte uber die Russen alterer zeit und ihr nachbarn.)

فكان فرين بهذه الدراسة أول من نشر معلومات عن الروس والسلاف والبلغار القاطنين ضفاف نهر الفولجا وعن الشعوب المجاورة له معتمدا فى الدرجة الأولى على رسالة ابن فضلان المثبتة فى معجم البلدان لياقوت وقد

نشرها متنا مع ترجمة لاتينية ، مضيفا اليها ما عثر عليه من كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة كما يعتبر فرين أيضا أول من كتب عن ياقوت وعرف به وقد احتفظ بحثه بقيمته الى أوائل القرن العشرين ٠

وكانت دراسة فرين فاتحة لأبحاث ودراسات مماثلة فقد نشر المستشرق الألمانى كورد دى شولتسير (Kurd de Schloezer) الرسالة الأولى لأبى دلف متنا وترجمة لاتينية وهى رسالته للدكتوراه (برلين ١٨٤٥) وذلك بعنوان : « أبو دلف مسعر بن مهلهل ورسالته عن رحلته الآسيوية »
« Abu Dolef Misaris ben mohalhol de itemere asiatico commentarius »
وكان بحثه دراسة لمقتطفات من رسالة أبى دلف موجودة فى معجم البلدان ٠

وبعد ذلك نشر المستشرق الايطالى المعروف ميشيل امارى فى ليبزج ١٨٥٧ كتابه المشهور « المكتبة العربية الصقلية » وهو عن تاريخ جزيرة صقلية وقد ضمنه عدة نصوص عربية بدءا بالمسعودى وانتهاء بحاجى خليفة واشتمل الباب الحادى عشر من الكتاب على المقتطفات التى أوردها ياقوت فى معجم البلدان عن جزيرة صقلية ومدنها وقراها ٠

وفى عام ١٨٦١ ظهرت فى باريس دراسة للمستشرق الفرنسى باربييه دى ميناز (C. Barbier Meynard) بعنوان « معجم جغرافى فى تاريخى فى أدب فارس والأقطار المجاورة لها مستخرج من معجم البلدان لياقوت »
« Dictionnaire Geographique Historique et litteraire de la Perse et des contrees Adjacentes Extrait de modjem El Bouldan de Yaqout ».

أما النصوص التى أوردها ياقوت فى معجم البلدان عن العرب قبل الاسلام فكانت موضع دراسة قام بها المستشرق الألمانى لودولف كريل بعنوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » ٠

وقد نشرت هذه الدراسة فى ليبزج عام ١٨٦٣ والمعروف أن هذه النصوص اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبى كما أن المستشرق الألمانى يوليوس فلهوزن ضمن كتابة القيم « بقايا الوثنية العربية » Uber die Religion der Vorilamischen Arber جميع المقتطفات التى أوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور وأتبع ترجمتها بالتعليق والتحليل ورجع الى مصادر كثيرة أخرى مكنته من جمع مادة غزيرة حول الموضوع الذى يدور عليه كتابه ٠

وكانت أراضي الحرار في جزيرة العرب موضوع دراسة أخرى قام بها المستشرق الألماني أوتولوث (ottoloth)، معتمدا على ما ذكره ياقوت عن تلك الحرات في معجمه وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨ بعنوان « حـــرار بلاد العـــرب عند ياقوت » Die vülkan regionen-Harra's Von Arabien nach Jakut. ZDMG 1868.

أما الاشارات المتنوعة التي أوردها ياقوت عرضـــا عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبورج Hartwig Derenbourg بعنوان « الصليبيون في معجم ياقوت » ونشرت في كتاب الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عـــام ١٨٩٥ .

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق ايرنست دامان Ernest Dammann بحثا بعنوان « اسهام المصادر العربية في التعريف بافريقيا الســـوداء » ويكاد هذا البحث الذي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود ان يكون اعتماده الأساسي قائما على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ ، ١٨٧٢ تمكن المستشرق الألماني فستفليد من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات خصص المجلد الأخير منها للفهارس وقدمت الملاحظات والفهارس التي وضعها أساســـا لدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلداني ومصادره كما كتب في أثناء عكوفه على نشر المعجم مقالتين عن أسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان وتناولت المقالة الأولى « تجوال ياقوت كما صوره في معجم البلدان » ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ .

في حين كانت المقالة الثانية بعنوان « ياقوت رحالة كما هو أديب وعالم » وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ .

وفي أواخر القرن الماضي (١٨٩٨) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير (F. Justus Heer) دراسة عن مصـــادر ياقوت تحت عنـــوان « المصار التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » .

وقد وصف وديع جويدة هذا الكتاب بأنه مايزال أفضل وأشـــمل دراسة وضعت عن معجم البلدان ومصادره .

وقدم المستشرق الروسي كراتشكوفسســـكي (Krachkovski) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » اذ المعروف ان هذا المعجـــم يضـــم حوالي

خمسة آلاف بيت من الشعر بينها عدد من الأبيات لياقوت نفسه والكثير من هذه الأشعار جاءت شواهد تؤيد النص وتكمله كما أن القصائد التى قيلت فى الفتوح والحنين الى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق على جانب كبير من الأهمية فى ضوء ندرة الوثائق التى ترجع الى القرون الهجرية الأولى ويمكن للباحثين ان يجـــدوا فى هذا الشعر مادة خصبة ومفيدة وبخاصة فى القرن الأول الهجرى · وكان كراتشكوفسكى من أوائل الذين تنبهوا الى هذه الحقيقة · كما وضـــع هذا المستشرق الكبير دراسة أخرى حول الرسالة الثانية لأبى دلف فى معجم البلدان وشهرزور فى معجم ياقوت ·

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستنفلد لمعجم البلدان فان هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكى ماتزال من أهـــم المراجـع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية وقد أعيد نشر هذه الطبعة بالأوفست فى طهران عام ١٩٦٥ · أما طبعة القاهرة التى جاءت فى عشرة أجزاء وأشرف عليها محمد أمين الخانجى الكتبى (١٩٠٦) فلم تأت بجديد وان كانت أحيانا تقدم قراءات فيهما على معجم ياقوت البلدانى وسماه « منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان » وقد لاحظ كراتشكوفســـكى ان « هذه الاستدراكات قد تمس أحيانا نقاطا عالجها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة عن ذلك ولكنه فى أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث فى أوروبا وأمريكا واستراليا وهذه الاضافة وان لم تمثل قيمـة ما من وجهة النظر العلمية ، الا أنها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوســـاط العربية المثقفة الى بداية القرن العشرين ·

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد على واسعاف النشاشيبى وعباس الغزاوى وعبد الوهاب عزام وعلى أدهم وعبد الله مخلص وأبو الفتوح التوانسى وعبد المعين الملوحى · وليس من شك فى أن كثرة الدراسات التى أفردت لياقوت ومصنفاته تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب هذا الرجل ومكانته العلمية فى التراث العربى الاسلامى الذى يمثل فيه معجم البلدان مكانة بارزة ·

والحق ان ياقوت الحموى نفســـه كان يدرك أهمية العمل العلمى العظيم الذى قام به فوصف كتابه الضخم بأنه « أوحد فى بابه مؤمر على جميع اضرابه وأترابه لايقوم لمثله الا من أيـــد بالتوفيق وركب فى طلب فوائده ، كل طريق فغار وأنجد وطوح بنفسه فأبعد وتفرغ له فى عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات

الحرص وحركته » وياقوت وهو يشير هنا الى المعاناة الكبيرة التى عايشها · وهو يجمع مادة كتابه القيم حبا فى العلم والمعرفة وانتفاع الناس بهما كان كل أمله ومبتغاه أمنية فى ان لاينسب هذا الجهد الى سواه ودعاه توجه الى الله عز وجل « ان لايحرمه ثواب التعب فيه وان يكون جائزته على ما أوضع اليه ركاب خاطره ولسهر فى تحصيله بدنه وناظـــره دعاء المستفيدين وذكر زكى من المؤمنين بأن يحشر فى زمرة الصالحين » رحم الله ياقوت الحموى رحمة واسعة وجزاه عن عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء ·

الذين أشادوا بياقوت الحموى وآثاره العلمية والأدبية كثيرون منهم والمعـاصرون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون وهؤلاء وأولئك يغلب على بعضهم الاختصار والتعميم فى معرض تقويمهم لتلك الآثار فى حين يتسم تقويم البعض الآخر بالافاضة والتخصيص فابن خلكان وهو من المعـاصرين يصف ياقوت بأنه « كانت له همة عالية فى تحصـــيل المعارف ··· وان الناس كانوا عقيب موته يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه » والذهبى وهو من اللاحقين ينعته « بالأديب الاخبـــارى صاحب التصانيف الأدبية فى التاريخ والأنساب والبلدان وغير ذلك » وهو عند ابن تغرى بردى المتأخر عنه « صاحب التصانيف والخط » ·

وكان المستشرقون الســابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بتراث ياقوت ونبهوا الى أهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ويأتى فى مقدمة هؤلاء المستشرق الروسى فرين (Frahn) الذى كان أول من كتب منهم عن شـخص ياقوت وعرف به وتبعه زميله ســنكوفسكى (Senkowski) الذى وصفه « بأنه كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة ·· وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس فى دراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره » وجاء بعده فستنفلد (Wustenfeld) الألمـــانى فوصف معجم البلدان بأنه « أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار » وقفى عليه الأسبانى بونس بويجس (Boigues) فذكر انه أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى للعصور الوســطى وأشـــار كراتشكوفسكى (Krachkovski) الى أن « أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة ·· فهو جماع للجغرافيا فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية الى جانب الدين والحضـــارة والاثنولوجيـــا والأدب الشـعبى والأدب الفنى فى القرون الستة الأولى للهجرة » وأشـــاد به المستشرق الهولندى كرامرز (Kramers) وبخاصـــة بالنسبة للاشارات التجارية التى وردت فيه واعتبره جليلا فى هذا الميدان كما أكد أن علم التاريخ مدين لمعجم البلدان أكثر من علم الجغرافيا ونوه به المستشرق

الفرنسى كارا دو فو (Carra de voux) حين قال : « ان معجم البلدان من المؤلفات التى يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر » .

وأولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما ممائلا بمعجم البلدان فاعتبره نفيس أحمد كتابا ذا « أهمية فائقة اذ يصور العالم الاسلامى فى الفترة السابقة على الخراب الذى أصاب ثقافته وثروته بأيدى المغول ويعتبر الجهد الذى قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة وهدانا الى كتب متعددة لم يعد يتيسر الحصـــول عليها كما استعمل المنهج النقدى الذى يأخذ به الجغرافى الحديث » وعده جرجى زيدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية » وهو عند د. حسين مؤنس « معجم جغرافى خالد وديوان الجغرافية العربية الأكبر وكنزها الذى يمثل صرحا من صروح العبقرية البشرية فى كل العصور » وعند عمر كحالة « أكمل مصنف للمعلومات الجغرافية والوصفية والفلكية واللغوية وأخبار الرحالين والتى جمعها السلف » .

حياة الحيوان الكبرى

الدميري

١٤٠٠ م

لقد كانت الأمة العربية من أوائل الأمم التى ضربت بسهم وافر فى مختلف ألوان المعرفة البشرية فكانت كتابات أبنائها فى العلم والأدب والدين والفن من أروع الكتابات التى سجلها التاريخ ، وكانت لهم فى مختلف أنواع العلوم كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء والنبات والحيوان جولات صادقة تتضح أصالتها من مخلفاتهم العلمية العديدة التى تزدان بها مكتبات الشرق والغرب • والواقع أن التراث العلمى العربى سواء أكان فى صورة مطبوعات أم مخطوطات يحتاج الى كثير من الدراسة والتعليق احقاقا للحق ودحضا لافتراءات المغرضين الذى ينكرون على العرب دورهم الكبير فى تقدم الحضارة الانسانية •

ونحن اذ نقدم كتاب « حياة الحيوان الكبرى » انما نظهر فى وضوح وجلاء أن الكتاب العرب لم يتركوا بابا من أبواب المعرفة دون أن يطرقوه فى قوة وعزم ، فقد كتب هذا المؤلف الضخم الذى يقع فى جزءين يحتويان على ٦٩٦ صفحة منذ ستة قرون مضت من الزمان وهو تاريخ لم يكن فيه لعلم الحيوان وجود ، وقد طبع لأول مرة عام ١٢٧٤ هجرية فى مطبعة بولاق بالقاهرة كما ترجم الى عدد من اللغات الأوربية •

***

دميرى ــ بفتح الدال وكسر الميم ــ على وزن سفينة كما نص صاحب القاموس فى مادة (دمر) : بلدة من أعمال السمنودية والسمنودية الآن هى بعض بلاد محافظة الدقهلية بمصر نسبة الى سمنود •

ودميرة اشتهر منها علماء ذكر بعض منهم فى تاج العروس •

وذكر السخاوى بعضهم فى كتابه « الضوء اللامع » •

لكن أشهر من نبغ وكانت له آثار وذكر حميد هو محمد بن موسى ابن عيسى بن على وكنيته أبو البقاء ، ولقبه الكمال • أصله من دميرة أما ولادته فكانت بالقاهرة وهو صاحب كتابنا هذا كتاب « حياة الحيوان الكبرى » •

يقول السخاوى فى الضوء اللامع عنه : « الدميرى الأصل القاهرى » ويقول أيضا : « كان اسمه كمالا بغير اضافة ــ أى لا يقال له « كمال الدين » ــ وكان يكتبه كذلك بخطه فى كتبه ثم تسمى محمدا وصار يكشط الأول •

ولد فى أوائل سنة ٧٤٢ هجرية تقريبا بالقاهرة ونشأ بها •

وتكسب فى أول مرة بصناعة هى الخياطة ثم أقبل على العلم فتفقه بمذهب الامام الشافعى وجعل يأخذ ذلك من كبار العلماء فى عهده مثل أحمد بن التقى السبكى والجمال الاسنوى •• كما أخذ الأدب وعلوم العربية من كبار رجالها ولم يقتصر فى ذلك على من كان بالقاهرة بل رحل

الى مكة المكرمة وتلقى من علمائها وروى الحديث من كتب الحديث المشهورة سماعا على الأئمة وكان بارعا فى تفسير القرآن ٠

ثم تصدر للتدريس والاقراء فانتفع به الناس وشرع فى التأليف والشرح فى الفقه والحديث وكانت له فى ذلك مؤلفات لكن أهم ما اشتهر به هو كتابه « حياة الحيوان » فاذا قلت : قال الدميرى انصرف الذهن الى كتابه حياة الحيوان واذا قلت قرأت فى كتاب « حياة الحيوان » كذا ، جرى ذهنك الى صاحبه الدميرى ٠

وفى القاهرة درس بأماكن ، منها الأزهر ، كانت له فيه حلقة يوم السبت ومنها القبة البيبرسية ، كان يدرس فيها الحديث ٠ يقول السخاوى فى « الضوء اللامع » : « وكنت أحضر عنده فيها وكان يوم الجمعة غالبا يذكر الناس (أى يعظهم) بمدرسة البقرى داخل باب النصر وبعد عصر الجمعة يدرس بجامع الظاهر فى الحسينية » ٠

وفى مكة أقام سنين متفرقة وكان أول قدومه لها فى موسم سنة ٧٦٢ هـ وفى مكة تزوج فاطمة بنت يحيى بن عباد الصنهاجى وولدت له أم حبيبة وأم سلمة وعبد الرحمن ٠

ولقد صحبه المقريزى المؤرخ المشهور ويقول عنه : « صحبته سنين وحضرت مجلس وعظه لاعجابى به وأنشدنى وأفادنى وكنت أحبه ويحبنى فى الله لسمته وحسن هديه وجميل طريقته ومداومته على العبادة » ٠

ويقول عنه الحافظ بن حجر : « مهر فى الفقه والأدب والحديث وشارك فى الفنون ودرس للمحدثين بقبة بيبرس وفى عدة أماكن ، ووعظ وأفاد وخطب فأجاد وكان ذا حظ فى العبـــادة تلاوة وصياما ومجاورة بالحرمين ٠٠ سمعت من فوائده ومن نظمه واجتمعت به مرارا وكنت أحب سمته » ٠

وكان يتردد بين القاهرة ومكة فى أعوام مختلفة وآخر قدوم له الى مكة كان سنة ٧٩٩ هـ ثم تركها فى آخر سنة ثمانمائة أو فى أول سنة ٨٠١ وعاد الى القاهرة واستقر بقية عمره حتى توفى رحمه الله فى الثالث من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانمائة (٨٠٨) ودفن بمقابر الصوفية ذلك أنه كان فى التقوى بالغ المنتهى من عبادة وتلاوة وصيام وقيام ومجاورة بمكة والمدينة وله أذكار يواظب عليها وعنده خشوع وخشية وبكاء عند ذكر الله ٠

وكثيرون أولئك الذين يقرءون كتبا لا تحصى ، فتزكو لديهم المعلومات وتتشعب أمامهم المعـــارف ثم يكتفى أغلبهم بما قـــرءوا والقليلون منهم

يتخذون لهم طريقا يسلكونه ومنهجا يتبعونه ليصلوا الى معين فياض حيث تتفجر منهم ينابيع من الروافد التى أمدتهم وتزهو منهم زهرات وتزكو ثمرات مما تشربته أفكارهم وتلقحت به عقولهم ·

وكتب السابقين فيهـا أشتات من معلومات ، وخليط من ثقـافات يوردونها لأدنى ملابسة ويستطيع من يلزم نفسه بمنهج أن يضم كل نظير الى نظيره وكل موضوع الى شبيهه فيخرج من جولته خلال رحابها ومتاهاتها بما يكون محدد المعالم ومرشدا لمن يبغون موضوعا واضح القسمات ·

والدميرى كما قلنا فقيه من كبار الفقهاء ومن رجال الحديث الواسعى الرواية ومن علماء تفسير القرآن ومن الزهاد الأتقياء ومن المكثرين الاطلاع فى كتب الأدب والتاريخ ·

طريقة تصنيف الكتاب

كانت معالجة الدميرى للمواد التى يحتوى عليها الكتاب فريدة فى نوعها ، وكانت تسير فى معظم الحالات على وتيرة واحدة منظمة وخصوصا فى تلك المواد التى كتب عنها بالتفصيل فاذا استعرضنا واحدة من هذه المواد النموذجية المطولة لوجدنا أنها تبدأ عادة بالتعريف باسم الحيوان وكيفية اشتقاق هذا الاســـم ثم استعراض للمفرد والجمع فى مختلف صـــوره وكذلك المذكر والمؤنث والمترادفات ان وجدت ويأتى بعد ذلك وصف الحيوان من حيث الشكل واللون والحجم وكذلك المميزات الواضحة التى ينفرد بها عن بقية الأنواع ثم يتطرق بعد ذلك الى ذكر العادات والصفات والطبائع وخصوصا ما يتعلق منها بالغذاء أو السلوك أو التكاثر وكذلك الأماكن التى يعيش فيها أو يتردد عليها والأوقات التى يخرج فيها من مخابئه فى ظلام الليل أو فى وضح النهار ولا يفوته ذكر السلالات المختلفة ان وجدت ٠

ويأتى بعد ذلك بحث طريف عن شرعية قتل هذا الحيوان (ان كان من الحيوانات المؤذية) أو تحريم هذا القتل وكذلك تحليل تناوله كمادة غذائية أو تحريم هذا التناول وكل ذلك مدعم بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو أقوال الأئمة والفقهاء ٠ وتحتوى المادة عادة على كثير من الأشعار التى تتعلق بهذا الحيوان أو القصص التى تروى عنه أو الأمثال التى قيلت فيه ٠

وتختتم المادة عادة بذكر الفوائد الطبية التى تتعلق بالحيوان نفسه أو ببعض الأجزاء فيه ، فقد كان الأقدمون جميعا يعتقدون فى مثل هذه الوصفات التى تستمد من مختلف أنواع النبات والحيوان وتحتوى الكتب الطبية القديمة ــ الأوروبية منها أو العربية ــ على مئات من هذه الوصفات التى كانت تستخدم فى علاج معظم الأمراض وكثيرا ما كانت المادة تنتهى بعد ذلك بتفسير الأحلام التى يشاهد الانسان خلالها بعض هذه الحيوانات حيث يختلف التفسير تبعا للطريقة التى يشاهد بها فى المنام !!

ويحتوى الكتاب على عدة مئات من مختلف أنواع الحيوانات التى رتبت ترتيبا أبجديا مما ييسر على القارىء طريق البحث والاطلاع ٠

ولم يزعم مؤلفنا الدميرى ـ حين صنف كتابه ـ انه كان عالما فى العلوم الطبيعية وانما ذكر ـ فى تواضع العلماء ـ أنه انما جمع الحقائق المعروفة عن الحيوان فى عصره ووضعها أمام القارىء فى اطار مرتب على حروف المعجم اذ يقول فى مقدمة الكتاب : « لم يسألنى أحد تصنيفه ، ولا كلفت القريحة تاليفه ، وانما دعانى الى ذلك أنه وقع فى بعض الدروس التى لا مخبأ فيها لعطر بعد عروس ، ذلك مالك الحزين والذيخ المنحوس فحصل ما يشبه فى ذلك حرب البسوس ومزج الصحيح بالسقيم ولم يفرق بين نسر وظليم ... الى ان قال : واستخرت الله تعالى الكريم المنان فى وضع كتاب فى هذا الشأن وسميته حياة الحيوان » الخ .

ويتضح من هذه المقدمة ان الباعث له على وضع هذا الكتاب هو رغبته فى تصحيح معلومات خاطئة عن الحيوان شاعت فى أذهان الناس ورسخت حتى بين أخص طبقات أهل العلم فى زمانه ، فوضع هذا الكتاب ، مشتملا على المعلومات الصحيحة ، والآراء الصائبة المعروفة الى عصره .

وقد سار الدميرى فى تنسيق كتابه على نهج خاص فرتب الحيوانات حسب الحروف الهجائية ليسهل على القارىء الوقوع عليها وخاصة منها الأسماء الغريبة الغامضة . وكتب كل حيوان فى مادة خاصة تشتمل على كل ما عرف من الحقائق عن هذا الحيوان وعلى صوره المتعددة فيما يتصل بالعلوم الاسلامية . ولما كان الكتاب قد جمع أغلبه من مصادر متعددة فقد تعددت ـ تبعا لذلك ـ الاستشهادات والمراجع المؤيدة وقلما تخلو صفحة من دليل أو برهان ينطق بكثرة ما اطلع عليه المؤلف من المراجع المختلفة وما استخلصه منها .

وهناك مواد مطولة مسهبة وأخرى مقتضبة موجزة حسب الموضوع وما قد يحتويه من حشو وافاضة فقد تستطيل المادة الى جملة صفحات عن الحيوانات المشهورة كالأسد والابل والخيل والفيل والذئب أو تقصر المادة الى بضعة سطور أو بضع كلمات عن الحيوانات النادرة أو غير المألوفة مثل مادة (البهثة) ومادة (القرعوش) فيقول عن الأولى (البقرة الوحشية) وعن الثانية (القيراد الغليظ) فقط .

وتبدأ كل مادة بتعريف اسم الحيوان وشرح الاسم من الناحية اللغوية وتعداد الأسماء التى يكنى بها الحيوان معتمدا على أشهر فقهاء اللغة مثل ابن سيده والجوهرى والجاحظ يتلو ذلك وصف الحيوان وذكر طباعه وتعداد أنواعه وأصنافه كما قال مثلا عن الأسد معتمدا على أرسطو الذى استشهد بكتابه المسمى « النعوت » فى وصف الحيوانات فى جملة مواضع . ثم يروى الدميرى الأحاديث النبوية التى ورد فيها اسم الحيوان

سواء فى ذلك ما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحيوان ، وقد اعتمد الدميرى فى رواية الأحاديث النبوية الشريفة على أئمة الحديث الستة وهم البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة · كما اعتمد أحيانا على غيرهم مثل البيهقى والسهيلى وابن الجوزى والحسن البصرى ومع ان شيخنا الدميرى كان من علماء الحديث كغيره من علماء الحديث المبرزين ، الا أنه الوحيد من بينهم الذى استطاع أن يجعل من الأحاديث النبوية التى استشهد بها مادة علمية لكتابه ومعظم الأحاديث التى أوردها مسندة الى ابن عباس وأبى هريرة والسيدة عائشة وجابر بن عبد الله وابن عمر ومالك بن أنس ·

ثم ينتقل — فى المواد المطولة — الى ما يتصل بالحيوان من التحريم أو الاباحة ليس فقط من ناحية الأكل بل وكذلك فى كل ما له علاقة بالحياة العادية للمسلمين مثل الصيد أو الدية أو الزكاة أو الطهر أو النجاسة معتمدا فى ذلك على المذاهب والأحكام المختلفة لأئمة المذاهب الأربعة : أبى حنيفة النعمان ومالك بن أنس وابن حنبل والشافعى بالاضافة الى غيرهم من الأئمة · ومع ذلك كان الدميرى — من حين لآخر — يجتهد رأيه الخاص ويدلل عليه · ومع انه كان شافعى المذهب الا انه — فى بعض الأحيان — يجنح الى الأخذ بالآراء الصوفية بما يبديه من اعجاب واكبار بأمثال الجنيد والغزالى وعبد القادر الجيلانى والشعبى وغيرهم ·

البذور الأولى فى العلاج الطبى !!

ثم ينتقل — فى المادة — الى ذكر الأمثال التى تتصل بالحيوان ومن المعروف أن معظم الأمثال العربية مشتقة من الحيوان بل ويندر وجود حيوان يعرفه العرب لم يضربوا عنه مثلا أو أكثر ، لذلك كان كتاب حياة الحيوان هو خير مجال وأفسحه لايضاح حقائق الأمثال وتصويرها تصويرا صحيحا · ولا شك فى أن الدميرى قد صادف كثيرا من العناء وبذل جهدا كبيرا ليس فى شرح معظم هذه الأمثال وبيان المواطن التى تضرب فيها فحسب ، بل وكذلك فى تتبع آثار الوقائع التى نشأت منها الأمثال · وقد اعتمد الدميرى فى ذلك على كتاب الميدانى الذى جمع فيه الأمثـــال العربية ·

وكتاب حياة الحيوان للدميرى يعد — من الناحية التاريخية — أول محاولة فى المصنفات العربية ظهرت فى صورة منسقة جمعت شتات العلوم الخاصة بالحيوان سواء ممن نقل عنهم أو مما انطبع فى أذهان العرب من حياتهم فى البادية ، وفى مناحى الصحراء ، وحملوها معهم حيثما امتدت بهم فتوحاتهم الى الآفاق البعيدة والأقطار المترامية · ففى الجاهلية قبل

الاسلام ـ كان العرب منعزلين في أحضان الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر حينئذ ، وكانوا فى حياتهم البدوية يرون ـ على الدوام ـ شتى انواع الحيوان والنبات واكتسبوا ـ من طول مشاهدتها ومراقبتها ـ معرفة بطبائعها وصفاتها وانطبعت فى أذهانهم ومخيلتهم ماهيتها وخواصها ·

ثم يخطو المؤلف بعد الأمثال الى ذكر الخواص الطبية وغير الطبية لأجزاء الحيوان المختلفة وعصاراته وفضلاته · ومع أن الدميرى لم يكن له المام سابق بهذا النوع من الدراسة الا انه أظهر فيه من المقدرة ما يشهد له بالتفوق فقد استوعب آراء الآخرين وما أثبتوه من مشاهداتهم وركزها ـ جميعا ـ في ايجاز بارع معتمدا على آراء ابن سينا وابن بختيشوع (١٦) وابن رشد وأرسطو وحنين بن اسحق والجاحظ والقزوينى ·

والناس فى جميع أنحاء العالم ـ منذ أقدم العصور ـ كانوا يعتقدون فى الخواص الطبية والفسيولوجية لأجزاء جسم الحيوان وفضلاته وهى خواص تأيدت لديهم فائدتها عن تجارب عملية أو عن حدس وتخمين · فعلم المادة الطبية عند الاغريق القدامى يعالج مواد كثيرة من أصل عضوى حيوانى · والعرب ـ عندما ترجموا المؤلفات الطبية من لغات الأمم الأجنبية التى تجاورهم لم يقتصروا على ترجمة آرائهم فحسب بل ترجموا كذلك معتقداتهم فى فوائد هذه العقاقير والمواد الأخرى التى وردت فى تلك المؤلفات وكذلك الهنود والصينيون الذين مارسوا صناعة الطب ـ لقرون عديدة ـ قبل ظهور الاسلام قد استخدموا المواد الحيوانية فى علاج الأمراض وكان اعتقادهم كبيرا فى خواصها · ومهما يكن الرأى فى الحالات التى جمعها المؤلف فى كتابه والتى تستخدم فيها أجزاء الحيوان المختلفة وعصاراته فانه انما كان يقرر المعتقدات المتداولة بين مواطنيه وبين سائر أمم الشرق والغرب التى استقى منها العرب علومهم المختلفة ·

وقد يرى البعض أن أمثال هذه المعتقدات فى فائدة استخدام أعضاء الحيوانات وعصاراتها فى علاج الأمراض تصم العصور القديمة بالسذاجة والجهل ، الا ان نتائج البحوث الحديثة لمعرفة قيمة المواد العضوية الحيوانية التى تستخلص من الغدد الحيوانية وغيرها لا تدع مجالا للشك فى صحة ما ذهب اليه الرواد الأول فى ميدان العلاج وكان هؤلاء الرواد يستخدمون نفس المنتجات الحيوانية على حالتها الطبيعية · وقد اتجه الطب الحديث الى الأخذ بهذه النتائج وأصبحت من أسباب تقدم العلاج وعلى ذلك تعد المحاولات القديمة ـ على الأقل ـ بذورا فى حقل العلاج الطبى ·

ثم ان المؤلف ينهى ـ عادة ـ كلامة عن كل حيوان يصفه بذكر التعبير فى المنام · والعرب لم يكونوا الوحيدين الذين يعنون بهذا الفرع

من العلم بل كانت كل شعوب بلدان الشرق يعنون به عناية فائقة ، ومع أن علم النفس الحديث لا يعترف بما ذهب اليه الأقدمون فى تعبير الرؤيا ولكن هل كشف علم النفس عن كل أسرار النفس ؟!

ومن أروع ما تضمنه الكتاب ما ورد فيه من القصص فيما يتصل بالحيوان فقد تكلم مثلا عن : « هدهد سليمـــان » و « حـوت موسى » و « فرس فرعون » التى طارد عليها بنى اسرائيل وعن « البراق » وعن « العنقاء » وغيرها وقد سرد القصص سردا كاملا مسهبا فى كثير من المواضع بحيث تبدو كل قصة بذاتها عملا فنيا رائعا • ومن ناحية أخرى فان تضمين كل مادة أمثال تلك القصص فضلا عن الشعر الرصين والأمثال وغيرها مما يضفى على المادة لونا من الترويح على المطلع ويجعل الموضوع شائقا غير ممل •

وكما بدأ المؤلف كتابه بمقدمة حشد فيها بعض صنوف الحيوان التى ورد ذكرها فى حلقة الدرس وكانت باعثا على تصنيف الكتاب كذلك أورد قبل أن يختتم الكتاب قصيدة لكمال الدين على بن محمد بن المبارك صاحب المقامة البحرية المتوفى فى شهر المحرم من سنة ٦٩٢ هجرية وهى قصيدة مطولة يهجو فيها دار سكناه وضمنها أسماء حيوانات كثيرة وفيها النكتة اللاذعة والتشبيه البارع •

وقد قال الدميرى فى آخر كتابه : « انه فرغ من مسودته فى شهر رجب الفرد من سنة ٧٧٣ هـ » ومن هذه النسخة المبيضة فى شعبان من سنة ٨٠٥ هـ •

★★★

وتوجد من كتاب حياة الحيوان للدميرى نسختان كبرى وصغرى والنسخة الكبرى هى التى اهتم بها العالم العربى واعتمد عليها وتواتر طبعها جملة مرات •

فقد طبعت أولا بالمطبعة الأميرية ببولاق بالقـــاهرة سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م) • وعليها مقدمة بقلم مراجعها محمد العدوى ثم أعيد طبعها سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) وقد راجعها وصححها محمد الصباغ • ولتكوين فكرة واضحة عن حجم الكتاب وسعته نذكر أن هذه الطبعة الثانية صدرت فى جزءين يضم الجزء الأول ٤٦٠ صفحة والجزء الثانى ٤٨٥ صفحة من القطع الكبير عدا مقدمة المصحح ويضم الكتاب ١٠٦٩ مادة تتصل بالتاريخ الطبيعى للحيوان ولكن عدد الحيوانات الممثلة فى هذه المواد أقل لأن الحيوان الذى يحمل أكثر من اسم يتكرر ذكره عند ايراد كل اسم من

أسمائه حسب ترتيبه الهجائى · وبالاضافة الى هذه المواد فان هناك ٦٩ فصلا عن تاريخ الخلفاء وهى فصول تعد خارجة عن علم الحيوان · ويقرر « وستنفلد » (١٧) أن الكتاب يحتوى ــ فى مجموعه ــ على وصف ٧٣١ حيوانا ولكنه نظرا لأن اسما واحدا قد يطلق على عدة حيوانات أو أن أسماء قد تطلق على حيوان واحد فان الصعوبة تبدو كبيرة لاحصاء عدد الحيوانات الموصوفة احصاء حقيقيا ·

ثم طبعت هذه النسخة الكبيرة بالمطبعة الميمونية فى سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) وقد ذكر المؤرخ هوارث فى سنة ١٩٠٣ م أن هذه النسخة الكبرى طبعت بالقاهرة ست مرات ولا شك فى أنها قد طبعت بعد سنة ١٩٠٣ م أكثر من مرة ·

وورد فى معجم سركيس (طبعة ١٩٢٨ م) « أن كتاب حياة الحيوان للدميرى طبع فى بلاد فارس سنة ١٢٨٥ هـ مع صور ورســـوم جميع الحيوانات الواردة فيه وكذلك صور بعض الآدميين ممن ذكروا فى الكتاب وترجم كتاب حياة الحيوان أكثره لا كله الى اللغة الانجليزية بقلم جاكار وطبع فى لندن وبومبى سنة ١٩٠٦ م و ١٩٠٨ م » ·

اهتمام العلماء بالكتاب

ونظرا لضخامة حجم هذا الكتاب فقد عملت له مختصرات أحدها عنوانه « حاوى الحسان من حياة الحيوان » وجاء فى قائمة باريس للمخطوطات العربية ان هذه النسخة الموجزة من تأليف الدميرى · وقد أراد المؤلف أن يعيد نشر هذا الكتاب بصيغة موجزة فحذف من الأصل ما جاء فى مادة الاوز عن الخلفاء الراشدين وغيرهم وهناك مختصر آخر عنوانه « عين الحياة » من عمل محمد أبو بكر عمر بن أبو بكر بن محمد المخزومى الدماميني المالكي وانتهى من عملها فى نهروله (بالجزيرة) بالبنجاب بالهند فى ١٤ شعبان سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٣ م) أى بعد ١٥ سنة من وفاة المؤلف وقد أثبت واضع هذا المختصر فى مقدمته أنه كان أحد تلاميذ الدميرى وقد سمع أصول الكتاب من فم مؤلفه وقال انه مع الاحتفاظ بالتبويب الأصلى للمواد بالعناوين الواردة تحت كل مادة فانه قد حذف من الأصل كل البحوث الفلسفية والدينية والاقتباسات الشعرية والقصص الأدبية بحيث أصبح المختصر على صورة موجزة فى متناول الجميع · ويقول وستنفلد انه يوجد مختصر لكتاب حياة الحيوان كما توجد منه مخطوطات فى برلين وباريس ولكن وستنفلد لم يذكر اسم كل منهما أو اسم واضعه ولذلك لا يمكن الحكم بأنه أحد النسختين السالفتين ، أو أن ذلك مختصر يختلف كلية عنهما ·

وهناك مختصرات أخرى أحدها من عمل عمر بن يونس بن عمر الحنفى وآخرى من عمل الشيخ تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى المتوفى سنة ٨٣٢ هـ وثالث من عمل القارى المتوفى سنة ١٠١٦ هـ وقد سمى مختصره « بهجة الانسان فى مهجة الحيوان » فى مكة المكرمة سنة ١٠٠٣ هـ ومختصر آخر وضعه الشيخ عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وقد قسمه الى جزءين أطلق على الجزء الأول اسم « ديوان الحيوان » وعلى الجزء الثانى اسم « ذيل الحيوان » وهو ملحق للجزء الأول ·

وفضلا عن هذه النسخ المختصرة فقد صدر ملحق لكتاب الحيوان كتبه القاضى جمال الدين محمد بن على بن محمد المكى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وأطلق عليه اسم « طيب الحياة » ·

ويتضح من تعدد هذه المختصرات التى صدرت بعد وفاة الدميرى بقليل مقدار ما كان عليه اهتمام علماء العرب بكتاب حياة الحيوان والعمل الدائب على نشر خلاصات لما ورد فيه على نطاق واسع وهذا كله شبيه بما يقوم به ـ فى وقتنا الحاضر ـ علماء الغرب سعيا فى احياء تراثهم العلمى وتعميم نشره فاذا كان الكتاب ضخم الحجم أصدروا عنه مختصرات واذا كان الكتاب صغير الحجم تناولوه بالزيادة والاضافة كما هى الحال مع كتاب العلامة الألمانى « بريم » الذى سماه « حياة الحيوان » مؤتما بشيخنا الدميرى .

أعظم مؤلف فى علم الحيوان

ومما لا نزاع فيه أن كتاب حياة الحيوان للدميرى قد عرف فى أوروبا منذ زمن طويل لطلاب اللغة العربية فى الجامعات الأوربية وغيرهم واشتهر فى الأوساط العلمية هناك بأنه كتاب عظيم قيم ، ولا نزاع كذلك فى أن هذا الكتاب قد لعب دورا مهما فى الثقافة العربية فكثيرا ما اقتبس منه العلامة « لين » فى معجمه العربى المشهور ، كما ان العلامة بوكارت قد استعان به فى مؤلفه المسمى « هيروزيكون » كما أخذ عنه العلامة هازل بعض ما ورد عن مادة الجراد نقلا عن مخطوط فى كوبنهاجن وقد أورد العلامة « سلفستردى ساسى » مقتطفات مطولة عن كتاب حياة الحيوان للدميرى فى كتابه « لاشاس دوبيين » وعلاوة على ذلك فقد تضمنت مؤلفات كثير من علماء أوروبا مقتبسات من كتاب الدميرى أمثال كرامر وهومل وتكسن وبريم الألمانى وسواهم ٠

ويقول جاكار : « لقد جاء كتاب حياة الحيوان للدميرى نبعا فياضا من الحكمة الاسلامية والعربية زاخرا بقواعد الفقه والتشريع والأحاديث النبوية والفنون الأدبية والأمثال تدفقت كلها من مناهل متعددة ومصادر مختلفة وتجمعت كلها فى صعيد واحد ينهل منها القارىء من المسلمين فى العالم العربى فيضـــا لا ينضب مما يعوزه الالمام به فى شئونه الدينية والدنيوية » ٠ ثم يقول جاكار : « وفى الحق ان الكتاب محشو بانحرافات قد يستسيغها القارىء العربى ولكنها تعد فى نظر القارىء الأوروبى مما لايغتفر والانحراف الأكبر ــ الذى يؤخذ على المؤلف ــ هو ما ورد تحت مادة الاوز والذى يقص فيه الحديث المأثور عن على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فان المؤلف لم يقتصر على وصف اغتياله فحسب ولكنه انساق منه الى ذكر تاريخ عام موجز لتاريخ جميع الخلفاء مما استغرق $\frac{1}{3}$ من مجموع صفحات الكتاب » ٠

ثم يقول جاكار : « ان الألمعية التى يتصف بها أسلوب المؤلف قد يشوبها ــ فى بعض الأحيان ــ ايجاز مفرط وخاصة عند توضيح القواعد الدينية والأحكام الشرعية وعند تلخيص الأحاديث النبوية ولو انه يسهب أحيانا اسهابا مستفيضا فى بعض المواضيع » ٠

ثم يقول جاكار : « ان الدميرى فى استشهاده ـ فى بعض المواد ـ ببيت أو بيتين من الشعر يتصل بالحيوان يعود فيسوق أبياتا أخرى للشاعر لا تتصل بالحيوان لا لغرض الا للدلالة على نبوغ الشاعر وقدرته أو يسوق أبياتا لشاعر آخر تؤيد ما قاله الشاعر الأول ولو أن المعنى الوارد فى هذا الشعر بعيد عن الحيوان ولا يمت اليه بصلة ما » .

ويقول لوسين ليكليرك : « ان الدميرى هو أعظم عالم ـ فى علم الحيوان ـ أنجبته العرب ويكفى انه كتب أكثر مما كتب عن الحيوان فى العالم الاسلامى . وقد كتبه بأسلوب رجل أديب أكثر منه بأسلوب رجل عالم فى التاريخ الطبيعى . والدميرى متفوق على القزوينى فى سعة الاطلاع وفى كثرة المعلومات التى أوردها ولـــكنه من ناحية أخرى يختلف عن القزوينى فى طريقة سرد الموضوع أو المادة فكتاب حياة الحيوان مرتب على حسب الحروف الهجائية ولذلك خلا من عرض الحيوانات فى مجاميع من الرتب والفصائل » .

ويستطرد ليكليرك فيقول : « ان الدميرى كثيرا ما يخرج عن الموضوع الأصلى ـ لأقل سبب ـ منساقا الى ذكر أمور لا تمت الى الموضوع بصلة . وحين يتحدث عن مادة البراق يورد دابة خرافية وكذلك كلامه تحت مواد النسناس والعفاريت والجن وأمثال ذلك مما لا يجوز تصديقه الا على السذج مثل قوله فى مادتى الضبع والأرنب من ان كلا من هذين الحيوانين يكون ذكرا فى عام وأنثى فى العام الذى يليه ومثل قوله فى مادة الفيل ان مدة الحمل فى أنثى الفيل سبع سنوات » . وينتهى ليكليرك بقوله : « انه اذا أسقط من الحســـاب ما ورد فى كتاب الدميرى من الخرافات والقصص وتراجم الأشخاص فان الكتاب يعـد مجموعة فريدة قيمـة من الحقائق المتصلة بتاريخ الحيوان » .

ويقول العلامة السويدى ابريك نوردن سكيولد فى كتابه « تاريخ البيولوجيا » : « لقد وصل الينا كتاب ضخم يسمى « كتاب حياة الحيوان » من وضع محمد الدميرى كتبه فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى وصف فيه عددا كبيرا من أنواع الحيوان قدره البعض بنحو تسعمائة نوع وصف جانبا منها عن خبرة ومشاهدة شخصية ووصف الجانب الآخر عن تصورات خيـــالية » .

ويقول العلامة حاجى خليفة : « ان كتاب حياة الحيوان للدميرى كتاب لا يبارى » .

اما فيما يتصل بنقد جاكار فلابد من القول بأن كثيرا من المؤلفين العرب فى تلك العصور درجوا على ان تشمل مؤلفاتهم ألوانا كثيرة وفنونا متعددة من العلوم والآداب لالمامهم الواسع بمختلف فروع الثقافة والمعرفة من علم وأدب وفقه وفلسفة وطب الى غير ذلك • ولم يكن هناك — حينئذ — تخصص بالمعنى المفهوم فى عصرنا الحاضر لذلك كان من المألوف ان ينتقل الكاتب فجأة من فن الى فن دون أن يعد ذلك انحرافا بل فيه تشويق ومتعة وخاصة اذا كان الكتاب يعالج مواضيع علمية بحتة وذلك دفعا للملالة وهناك هدف اسمى وهو استدراج القارىء الى استيعاب كل ما يمكن استيعابه من الكتاب وفى هذا ثقافة عامة محمودة فشيخنا الدميرى حين يتكلم — مثلا — عن الأسد أو الضبع يمزج المادة بألوان شتى شائقة تغرى القارىء بتذوقها • فالكتاب ولو انه معجم للحيوان الا أنه درج فيه على اسلوب الموسوعات المستفيضة • ومع ان الدميرى قد أسرف فى ذلك وتجاوز فيه حدود المألوف الا ان الانحرافات ولو انها تشق على الباحث الذى يسعى الى الوقوف على بيان خاص الا انها — فى حد ذاتها — لا تخلو من فائدة وتشهد — فى الوقت نفسه — على ما للمؤلف من سمو الادراك وقوة الذاكرة وعمق البحث الذى أدى به الى هذا السيل الفياض من مختلف الآراء التى كثيرا ما انتقل بها بعيدا عن الموضوع الأصلى ، فمادة الاوز التى ساق فيها تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين وغيرهم انما ساقها ليؤيد بها الرأى الذى ذهب اليه المؤرخون من ان كل سادس قائم بأمر الأمة مخلوع فيقول الدميرى فى مادة الاوز تحت عنوان « فائدة أجنبية » : « ولما كان الحديث شجون وافادة العلم تحقق للطالبين ما يرجون وتجدد لهم ما ينسى الخليع أيام المجون ، أحببت أن أذكر ههنا فائدة غريبة ذكرها المؤرخون وهو ان كل سادس قائم بأمر مخلوع وهأنا اذكر ما ذكروه وأزيد عليه قدرا يسيرا من سيرة كل واحد منهم وأيامه وسبب موته ومدة خلافته وعمره لتكمل بذلك الفائدة » •

ويتضح من هذا القول ان الدميرى لم يغرب عن باله ان ذلك خارج عن موضوع الكتاب • وقرر انه انما ساقه لما ينطوى فى ذكره من الفائدة فضلا عما فيما أورده من الزيادة والافاضة مما يشهد له بطول الباع فى بحث يعد رسالة وافية — على نسق الرسالات العصرية — فى موضوع بذاته تماثل ما تمنح له درجة علمية فى علوم التاريخ •

أما ما جاء فى نقد جاكار عن الايجاز فان اللغة العربية من محاسنها أنها لغة ايجاز ومنطق وانه قد ينطوى من المعنى فى جملة قليلة الكلمات

ما لا يتوفر فى لغة أخرى الا فى جمل مطولة كثيرة الكلمات فاذا كان الدميرى قد اوجز فى بعض المواضيع التى اقتبس فيها من غيره من المؤلفين العرب الذين تميزت لغتهم بالايجاز فانه قد يبدو لغير الضليع فى اللغة العربية ان هذا الايجاز المزدوج مما يربك القارىء العادى · ولكن الدميرى قد كتب لافادة الذين يفترض فيهم الحصول على ثقافة عامة فى مختلف العلوم التى تناولت ــ من بعض نواحيها ــ التعاليم الاسلامية فيكون من غير المستساغ أن يستفيض فى شرح معلومات معروفة لهم على انه من جهة أخرى قد أفاض طويلا فى المواضيع التى تستحق الشرح والتفسير مثال ذلك ما ورد فى مادة الابل فى حديث وهب : « تابل آدم على ابنه المقتول كذا وكذا عاما لم يصب حواء ، أى امتنع عن غشـــيانها أعواما وتوحش عنها » فالقارىء من المسلمين فى غير حاجة الى شرح قصة آدم عليه السلام وابنيه هابيل وقابيل · كذلك ما ورد فى مقدمة الكتاب اذ يقول : « صار الشيخ الأفيق كذات النحيين » يصف علماء حلقة الدرس بالحيرة والتردد وذات النحيين مثل يعرفه العرب ، ويضرب فى حالات الحـــيرة والارتباك والنحى هو الجرة أو الزق · وقد نشأ هذا المثل عن قصة امرأة كانت تحمل زقين على كتفيها باحدهما عسل وبالآخر سمن وصادفها وهى فى الطريق رجل يريد بها سوءا وأرادت الدفاع عن نفسها فاشكل عليها أى الزقين تلقى به على الأرض لتتمكن من دفع هذا العدوان ·

وكما قال فى مادة الخيل عن الأمثال : « كالأشقر اذا تقدم نحر اذا تاخر عقر » هو مثل مشهور لدى العرب يضرب لمن وقع بين خطرين ولم يكن الدميرى فى حاجة الى ايراد أصل المثل ونشأته لأنه مثل يتصـــل بعنترة العبسى المعروف والأشقر هو فرس لقط بن زرارة الذى كان يخاصم عنترة ولكنه يرهب جانبه وتحين فرصة شقاق بين عنترة وقبيلته عبس فسولت للقيط نفسه ان يهاجم القبيلة فى غيبة عنترة حتى اذا هزمها نالت الهزيمة من سمعة عنترة فارس القبيلة فهاجم القبيلة ولكن عنترة سارع الى نجدتها فوقع لقيط بين شقى الرحى ، القبيلة من أمامه وعنترة من خلفه ولم يسعفه الأشقر بالفرار وأطبق عليه عنترة وأخذه أسيرا ·

وفضلا عن الايجاز فقد أفاض فى مواضع تجب فيها الافاضة لتعدد مراجعها ففى مادة « عنقاء » يقول : هى من الألفاظ الدالة على غير معنى ثم يستطرد الى ما قاله غيره فيفيض طويلا فى الحديث عن هذه الأسطورة ثم يعود فيقول ان العنقاء طائر فى طول البلشون ولكنه أعظم جسما منه كذلك فى مادة الغراب نقل عن أرسطاطاليس وأسهب طويلا وأفاض فى وصف أنواعه وألوانه وطباعه ومواطنه فتكلم عن الغداف والزاغ والاكحل وغراب الزرع والأورق والغراب الأعصم وكلها أسماء يســـتخدمها علم

التصنيف الحديث للطيور فى فصيلة الغربان وفرق بين الغراب وهو طائر نهارى من العصفوريات وبين غراب الليل الذى لا يظهر الا ليلا كالبوم وألمع فى أكثر من موضع الى أقوال ارسطاطاليس والقزوينى والجاحظ وغيرهم علاوة على الأحاديث النبوية وأسانيدها وأقوال الشعراء وسواهم ·

ولا مراء فى ان مؤلفنا الدميرى يرجع اليه الفضل فى أنه أول من تناول الحيوان من زوايا متعددة سواء من الناحية اللغوية أو العلمية أو الأدبية أو الدينية كل ذلك فى مؤلف واحد هو موسوعة شاملة فريدة فى نوعها وقد عنى الدميرى كثيرا ـ فيما يتصل بعلوم الأحياء ـ بالجغرافيا الحيوانية من حيث موطن الحيوان وتوزيعه الجغرافى · فقال مثلا عن الحيوان المعروف باسم « الشيخ اليهودى أو انسان الماء » انه حيوان يوجد ببحر الشام وقال عن السمك الطيار وهو المعروف باسم الخطاف انه سمكة ببحر سبتة لها جناحان على ظهرها اسودان تخرج من الماء وتطير فى الهواء ثم تعود الى البحر · وقال عن التمساح : « وهذا الحيوان لا يكون الا فى نيل مصر خاصة ، وزعم قوم انه فى بحر السند أيضا » الى غير ذلك مما قد يستطيع المطلع ان يتبين منه موطن الحيوان سواء من الوصف أو من النوادر والأمثال ·

كما عنى الدميرى بالكلام عن بيئة الحيوان وطباعه وغذائه وذكر الحيوانات التى تنشط فى الليل والتى تنشط فى النهار وتأثير ذلك على أبصارها وكذلك الحيوانات التى تعيش فى الصحارى أو فى الأراضى المنزرعة أو الصخرية أو فى الجبال أو التى تعيش فى الماء فتكلم عن الخفاش ووصفه بأنه « حيوان ليلى ضعيف البصر يتغذى بالهوام » وقال عن القنفذ : « حيوان شوكى يتغذى بالحيات والحشرات » وقال عن البوم : « انها طائر ليلى يصيد الفأر » ووصف النعامة بأنها جمل الصحراء وان لها ساقين طويلتين وخفا يساعدها على العدو السريع وتتغذى بالحشائش وذكر الدميرى البيات الشتوى فقال عن الدب : « فاذا جاء الشتاء دخل وجاره الذى اتخذه فى الغيران ولا يخرج حتى يطيب الهواء » ·

يضاف الى ما تقدم ان كتاب حياة الحيوان قد اشتمل على كثير من الحقائق العلمية فتضمن ظاهرة التكافل كما ورد فى مادة الضب من تعايشه مع العقرب فى حجر واحد ، وكذلك تضمن الكتاب ارجاع الحيوانات الى أصولها مثل ما ورد فى مادة التمساح عن تحريم أكله فقد علل التحريم بأن التمساح أصله حيوان برى وانه ليس كسمك القرش الذى يعد حيوانا بحريا بحتا فكأنه يشير هنا الى طور بائد من أطوار حياة التمساح ·

ومع ان مواد الكتاب مرتبة على حسب الحروف الهجائية ، الا أن تعريف كل حيوان يجعله في موضعه الصحيح من الشجرة الحيوانية فهناك الثدييات والطيور والزواحف والأسماك الى غيرها من الحيوانات اللافقرية • كما أن قسم من هذه الأقسام مقسم بدوره الى الأقسام الصحيحة في تصنيف الحيوان الحديث فهناك اللواحم وآكلات العشب وآكلات الحشرات وهكذا من الأقسام الأخرى وفضلا عن ذلك فقد زود هذا الكتاب المكتبة العربية لعلم الحيوان بثروة من الأسماء السليمة سواء في ذلك الحيوان البالغ أو صغاره وأسماء الذكر والأنثى •

كما أفاض في تسمية الأنواع مثل ما ورد تحت مواد الأسد والابل والخيل والحية وغيرها وقد تضمن الكتاب بعض الأسماء الغريبة التي رحب بها العلم الحديث مثل كلمة الجلكي التي تطلق على نوع من الأسماك اللافكية يتطفل على الأسماك ومثل كلمة الأرنب البحرى عن ضرب من الحيوانات الرخوة يزحف على الأعشاب البحرية التي يتغذى بها ويتميز بأن قرنيه الأماميين ـ ويعرفان بالملماسين ـ كبيران ويشبهان أذن الأرنب ومن هنا اشتق اسم الحيوان • ومثل كلمة تفلق على طائر من طير الماء وأخذها عنه أحمد فارس والدكتور بوست في تعريف هذا الطائر •

وقد استطاع بكتابه حياة الحيوان للدميرى بعض علماء الأجناس البشرية في أوربا أمثال هومل في تحديد مواطن الجنس السامى في الشرق حسب توزيع الحيوان الجغرافي •

واذا كان كتاب حياة الحيوان للدميرى لم يدرس الى اليوم دراسة وافية في العالم العربي من النواحي العلمية كما درس مثلا كتاب ابن الهيثم في العلوم الطبيعية حيث استخلصت منه النظريات الحديثة في الضوء فان كتاب الدميرى خليق بالبحث والتحليل مع استبعاد الشوائب والانحرافات التي لا تتصل بالحيوان والتي جاء معظمها نقلا عن غيره فيصدر الكتاب ـ بعد اضافة ما جد ويجد من علم ومعرفة ـ في ثوب جديد وفي صور متعددة كبيرة وصغيرة وبذلك يساهم هذا الكتاب بقسط أوفى في نشر الوعي الثقافي الحديث في العالم العربي فضلا عما ينطوى عليه هذا العمل من تقدير ووفاء لعالم مصرى صميم ولد في القاهرة ومازال ضريحه قائما بها •

نماذج من الوصـــف

كتب الدميرى فى وصف النمل ما يلى :

النمل معروف · الواحدة نملة والجمع نمال · وأرض نملة ذات نمل وطعام منمول اذا أصابه النمل · والنملة بالضمة النميمة وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قوائمها · والنمل عظيم الحيلة فى طلب الرزق فاذا وجد شيئا أنذر الباقين ليأتوا اليه ويقال انما يفعل ذلك رؤساؤها · ومن طبعه انه يحتكر قوته من زمن الصيف لزمن الشتاء · وله فى الاحتكار من الحيل ما انه اذا احتكر ما يخاف انباته قسمه نصفين · واذا خاف العفن على الحب أخرجه الى ظاهر الأرض ونشره · وأكثر ما يفعل ذلك ليلا فى ضوء القمر · والنمل شديد الشم · ومن أسباب هلاكه نبات أجنحته فاذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير لأنها تصيدها فى حال طيرانها وهو يحفر قريته بقوائمه وهى ست فاذا حفرها جعل فيها تعاريج لئلا يجرى اليها ماء المطر · وربما اتخذ قرية فوق قرية بسبب ذلك وانما يفعل ذلك خوفا على ما يدخره من البلل · وليس فى الحيوان ما يحمل ضعف بدنه مرارا غيره ولا يكون عمره أكثر من سنة ومن عجائبه اتخاذ القرية تحت الأرض وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات معلقة يملؤها حبوبا وذخائر للشتاء ومنه ما يسمى « الذر الفارسى » وهو من النمل بمنزلة الزنابير من النحل · ومنه أيضا ما يسمى « بنمل الأسد » لأن مقدمه يشبه وجه الأسد ومؤخره يشبه النمل ·

وكان مما كتبه عن الخفاش ما يأتى :

الخفاش واحد والخفافيش التى تطير فى الليل · وهو غريب الشكل والوصف والخفش صغر العين وضيق البصر · قال البطليموسى : الخفاش له أربعة أسماء خفاش وخشاف وخطاف ووطواط · وقال قوم الخفاش الصغير والوطواط الكبير وهو لا يبصر فى ضوء القمر ولا فى ضوء النهار ، ولما كان لا يبصر نهارا التمس الوقت الذى لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء · وهو قرب غروب الشمس ، لأنه وقت هيجان البعوض فان البعوض يخرج ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان ، والخفاش يخرج طالبا للطعم ، فيقع طالب رزق على طالب رزق فسبحان الحكيم · والخفاش ليس هو من الطير فى شىء فانه ذو اذنين وأسنان وخصيتين ومنقار ويحيض ويطهر ويبول كما تبول ذوات الأربع ويرضع ولده ولا ريش له · وهو شديد الطيران سريع التقلب يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه وهو مع ذلك موصوف بطول العمر فيقال انه أطول عمرا من النسر ومن حمار الوحش وتلد أنثاه ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة وليس فى الحيوان ما يحمل ولده غيره والقرد والانسان · ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه ، وذلك من حنوه واشفاقه عليه وربما ارضعت الأنثى ولدها وهى طائرة ··

حركات الكرات السماوية

كوبرنيكوس

١٥٤١م

لا يستغنى الانسان منذ فجر التاريخ عن استخدام العناصر الفلكية في كثير من مرافق حياته . وحتى الآن نجد لدى أفراد الشعوب البدائية معلومات فلكية متأثرة بسيطة الا انها أساسية بالنسبة لحياتهم وتعينهم في معاشهم وأمور دنياهم ، فهم غالبا لا يخرجون للقنص أو لصيد الأسماك ولا يزرعون ولا يتأهبون للنهب أو السلب الا تبعا لتوفر ظواهر معينة يشاهدونها أو يرصدونها فيما علاهم من سماء أو في جو الأرض .

ويبدو أن معرفة الانسان ببعض حالات السماء وتطلعه اليها نشأت منذ القدم وتدرجت هذه المعرفة من وساوس وأوهام الى عمليات رصد فعلية وساعد قيام حكومات قوية في الصين ومصر وبابل على تطور هذا العلم في تلك البلاد ، ونهضت شعوبها القديمة بالفلك وأمكن توفير سلسلة طويلة من الأرصاد بنيت عليها في النهاية أسس ذلك العلم وشيدت دعائمه ... الا انه في الواقع لم يحدث تقدم نظرى سليم في هذا الصدد حتى عهد الاغريق الذين بدءوا باجراء التجارب واعمال الفكر والمنطق لتحقيق ما ظهر من نظريات ...

***

ولقد نهضت دراسات الفلك في الأندلس بعد ان نقلها اليها العرب وظهرت آثار هذه النهضة في قرطبة وطليطلة وتستمد الجداول الطليطية التي صنفها « أرزاشيل » عام ١٠٨٠ اسمها من هذه المدينة الأخيرة .

وهناك أيضا جداول « ألفونسين » التي نشرت عام ١٢٥٢ م بعد اعدادها تحت اشراف ألفونسو العاشر . ويعد العلماء ظهور هذه الجداول بمثابة اعلان لمولد العلم الحديث في أوروبا وهي تكاد تنطبق مع زيج أو أرصاد « سفيرا موندى » التي تتخذ مرجعا للفلك الكروى ، والتي صنفها يوركشيرمان وجون هوليوود . وقد أعيد طبع هذا الكتاب ٥٩ مرة في ذلك العهد الذى انتشرت فيه المطابع وعرف باسم « ساكروباسكو » .

وظهرت في القرن الخامس عشر محاولات ناجحة في ألمانيا لجمع شتات مذهب « بطليموس » وأدخل « جورج برباخ » (١٤٢٣ ـ ١٤٦١ م) الى أوربا وسيلة تعيين الزمن بالمزاول التي كان يستخدمها ابن يونس ، كما قام بالقاء المحاضرات في فينا ابتداء من عام ١٤٥٠ ومات عن ثمان

وثلاثين سنة وهو فى طريقه الى روما لفحص نسخة من « المجسطى » وقد اثمرت تعاليمه وظهرت نتائجها فى أعمال « رجيومونتانس » و « برنهارد فالترر » فى نورمبرج (١٤٣٠ ــ ١٥٠٤ م) الذى شيد مرصدا جعل فيه ساعات تدور بوساطة أثقال معلقة كما توصل الى تحسينات كثيرة فى عمليات الرصد ٠

ظهرت نهضـــة علمية فى ايطاليا فى تلك الآونة وتبين ان قطعية نظريات « بطليموس » لا تقل فى عدم صلاحيتها عما جاء به « ارسطو » وتقدم بعض المفكرين الأحرار أمثال « دومينيكو ماريانوفارا » (١٤٥٤ ــ ١٥٠٤ م) بانتقاد مذهب بطليموس وتطلعت الأبصار الى أعمال « نيقولا كوبرنيق » مدة تلمذته فى بولونيا من عام ١٤٩٦ الى عام ١٥٠٥ ٠ وأذاع « كوبرنيق » نظريته الخاصة باعتبار الشمس مركزا للمجموعة الشمسية فى سلسلة من النشرات ما بين عام ١٥٠٦ وعام ١٥١٢ ٠ وفى عام ١٥٤٣ أكمل نظريته وبراهينها فى رسالة قيمة هى خير دليل على الجهود التى بذلت فى سبيل بناء علم الفلك على أساس جديد وقامت دعائمها على مبدأ علمى سليم هو مبدأ الحركة النســـبية وقد أوضحت نظريته هذه ان مجموعات النجوم الثابتة فى الكوكبات والأبراج لا تدور من حولنا طوال اليوم ولكن الذى يدور هو الأرض وبالطريقة نفسها نعلم أن الشمس لا تدور حولنا ، بل الأرض هى التى تدور حول الشمس وكذلك تدور سائر الكواكب حول الشمس ٠

وبهذه النظرية أمكن تفسير عدة ظواهر فلكية كانت تقف حجر عثرة فى سبيل المفسرين من علماء الفلك ومن أمثلة ذلك ظاهرة تراجع الكواكب الظاهرى ، التى فسرت فى ظل محصلة حركة الأرض وحركة أى كوكب آخـــر ٠

« تاريخ كوبرنيق » :

ولد نيقولا كوبرنيق عام ١٤٧٣ م فى بلدة « ثورن » ببولاندا وكان أصغر ولدين وبنتين لتاجر ناجح من أسرة كبيرة بالمدينة وكانت ثورن مركزا تجاريا ذا رخاء يتوسط بين طريق الشرق حيث السلع والخامات الآسيوية وطريق الغرب حيث السلع الأوروبية الناهضة ٠ لم يكن والده تاجرا فحسب وانما كان قاضيا وأحد أعيان المدينة ومات الوالد وهو فى العاشرة فتقرر أن يهول الأطفال خالهم القس لوكاس واكزنرود الذى أصبح مطرانا بعد ذلك ٠ وقرر الخال ان يتلقى ابن اخته العلوم الكنسية ٠

فدخل نيقولا جامعة كاراكاو عام ١٤٩١ م وكانت عاصمة لبولاندا في ذلك الزمان ولها شهرة كبيرة في أوروبا بثرائها وثقافتها وصناعة التعدين وجذبت جامعة كاراكاو طلابا من بلاد شتى مثل ألمانيا وهنغاريا وسويسرا والسويد . أما لغة التعليم فيها فكانت اللاتينية وجميع الكتب الدراسية مكتوبة بهذه اللغة لذلك كان لزاما على جميع الطلاب اتقان هذه اللغة .

تعلم كوبرنيق بهذه الجامعة الفلسفة والفلك والهندسة والجغرافيا على يد الأستاذ ألبرت بزودزوسكي الذي كان قد صنف تفسيرا لكتاب بزباخ في فلكيات بطليموس وعلى يديه أيضا تلقى الرياضيات والدراسات الانسانية التي تخصص فيها أستاذه هذا . وكانت لدراسة الفلك أهمية كبرى في ذلك الوقت اذ أخذت التجارة عبر المحيطات تنمو بسرعة وبدأ حجم المراكب يتزايد ومشاكل البحار تتراكم . وعندما كان كوبرنيق في التاسعة من عمره كان كولومبس الذي درس العلوم الفلكية قد عبر المحيط مكتشفا أمريكا ومعه الاسطرلاب العربي يستعين به في الأرصاد والجداول الفلكية العربية رائدة له عند السير في اليم .

ترك نيقولا كاراكاو عام ١٤٩٤ م قبل ان يتم علومه وقبل ان يحصل على أية شهادة منها وطابت نفسه الى استكمال دراسته في ايطاليا بعد أن ألحقه خاله بوظيفة يتلقى راتبها دون عمل ومكث في ايطاليا حتى عام ١٥٠٦ م متنقلا بين جامعتها يقطف من العلوم ما شاء . وأول جامعة التحق بها كانت جامعة بولونا حيث تابع دراسة القوانين الدينية لكي تؤهله للوظائف الادارية الكنسية غير انه كان كلفا بالرياضيات والفلك فداوم على مصاحبة أستاذ الفلك فيها وهو « دومينيكو ماريا دي نوفارا » .

ورغم ان نيقولا قد تم تعينه قسيسا لكاتدرائية فراونبرج عام ١٤٩٧ بفضل نفوذ خاله فانه سرعان ما حصل على منحة تفرغ ليستكمل فيها دراساته وزار روما عام ١٥٠٠ م في اليوبيل السنوي محاضرا في العلوم الرياضية . وفي العام التالي عاد الى ارملاند ببولاندا ساعيا الى امتداد تفرغه حتى ينهض بدراسة الطب في جامعة بادوا وكانت دراسة الطب في تلك الأيام متشابكة مع علم أحكام النجوم فأعضاء الجسم الانساني تعتزي بعرى غامضة الى دائرة البروج وأمزجة الانسان كانت تتركب من أربعة « اخلاط » ، فذاك بلغمي أو صفراوي أو دموي أو سوداوي تبعا لزيادة أحد العناصر . وكانت الموضوعات التي نسميها الآن الفلك والفيزيقيا والطب والكيمياء وهلم جرا في الحقيقة علما واحدا مترابطا ، أما علم اللاهوت فكان مكانه وراء الكرة السماوية الأخيرة ..

لذلك نرى كوبرنيق يغشى جامعة بادوا موطن الطب والتشريح حينئذ . وفي عام ١٥٠٣ م تقدم برسالة الدكتوراه في القوانين الكنسية

فى جامعة فرارا رغم انه لم يترك دراسة الطب فى بادوا من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٥ م لقد كان جم النشاط ٠

ثم عاد الى بولندا في العام التالى بعد أن استقى من علوم الاغارقة فى شتى المجالات فأصبح طبيبا ومحلفا فى المحاكم ولم يشتغل بواجبات الكنيسة الا بعد مضى ست سنوات من مغادرته ايطاليا ٠

واستمر كوبرنيق فى قصر الأسقفية بهيلزبرج طبيبا لخاله الأسقف واكزنرود وقد أصبح شيخا هرما ٠ وتوفى خاله بعد سنة ٠ فوطد العزم على العمل اسقفا فى تلك الكاتدرائية الشهيرة بثرائها والتى تقع فى فراونبورج على ساحل البلطيق ٠ غير انه لم يقم قط بالمراسيم الدينية بل اكتفى بالمهام الضرورية التى تتعلق بوظيفته فمن الوجهة الرسمية كان يعمل مندوبا عن الكاتدرائية للفصل بين المنازعات ٠

ورغم مشاغله المتعددة فى القيام بواجبات وظيفته فانه ظل يتابع الانتـــاج الذهنى ٠ وأول مؤلف نشره كان عام ١٥٠٩ نشره باللاتينية وموضوعه ترجمة لمكاتبات وهمية لمشاهير الرجال كان قد صاغها مؤرخ بيزنطى فى القرن السابع أسمه ثيوفيلاكت سيموكاتا وكتب صديق له مقدمة لهذا الكتاب كتبها شعرا يمدح كوبرنيق كعالم فلكى له بحوث جديدة عن مسار القمر وحركاته المتغيرة وعن قبة السماء الزرقاء بما فيها من كواكب ٠

يحدثنا كوبرنيق انه منذ عام ١٥٠٦ م بعد عودته من ايطاليا بدأ يخطو فى تنمية نظامه الفلكى الذى تصوره للكون بناء على ذلك النظام الذى كان حلما يراوده أثناء دراساته الموضوعية فى جامعات ايطاليا ثم أخذ يستكملها فى أحد أبراج السور الدفاعى المحيط بكاتدرائية فراونبورج ٠ هذا البرج لايزال قائما ويعرف ببرج كوبرنيق انه كان مرصده كما كان علم الفلك شرعته ٠

وما أن وافى عام ١٥١٤ م حتى أصبح كوبرنيق شهيرا كعالم فلكى ، فدعى الى المجمع الكنسى لتقديم مشورته فى اصلاح التقويم فاعتذر متنحيا ، نظرا لأن الأرصاد الفلكية الجديدة لحركات الشمس والقمر لم تتم جدولتها بدقة تفى بالغرض المطلوب فهى مازالت فجة تتغذى من النهج القديم ٠

لقد كان التقويم اليوليوسى يخطىء فى ثلاثة أيام كل أربعمائة عام والخطأ يتراكم على مر السنين مما دعا البابا جريجورى الثالث عشر بناء على مشورة الفلكى اليسوعى كلافيوس الى اصلاح هذا العيب فيه فعدل التقويم ليقرب الفترة بين عيد الفصح والاعتدال الربيعى حيث ان تاريخ

عيد الفصح كان يقترب شيئا فشيئا من الصيف فحذفت سنوات كبيسة معينة واستبعدت كل سنوات القرون الا اذا كان رقمها يقبل القسمة على ٤٠٠ ، وفي عام ١٥٨٢ م بعد وفاة كوبرنيق بنصف قرن تقريبا اعتمد التغيير في الدول الكاثوليكية وجعل اليوم التالي ليوم ٤ أكتوبر يوم ١٥ أكتوبر ٠

★★★

لم يذكر كوبرنيق المراجع العلمية التي اعتمد عليها في كتابه « حركات الكرات السماوية » ولكننا سنذكرها هنا اعتمادا على انها كانت المراجع الأساسية التي بنيت عليها الدراسات بجامعة بولونا فاستقى منها بحوثه وهي الآتي :

أولا : كتاب الهيئة للبطروجي الذي كان يعرفه اللاتين باسم (Alpetragius) ٠

ثانيا : تحرير المجسطي للخوجة نصير الدين الطوسي الذي ترجم من العربية الى اللاتينية ٠

ثالثا : كتاب أصول الفلك لابن كثير الفرغاني المعروف عند اللاتين باسم (Alfraganaus)

رابعا : مجادلات نيقولاس الاورزمي العالم الباريسي في القرن الرابع عشر الذي ناقش فيها من الوجهة الميتافيزيقية دورات السماوات ونادى بأنها ما هي الا وهم وسراب وأن جميع أنواع الحركة انما هي نسبية فالسحب تظهر لنا متحركة والأرض ساكنة ٠

خامسا : كتاب « الجهل العلمي » الذي ظهر في القرن الخامس عشر للكاردينال نيقولاس الكوزي وفيه ينادي بأن الكرة الخارجية للكون التي تستمد حركتها من الله ، اعتبرت حدا فاصلا للكون والفضاء فكيف اذا وقفنا تحتها واطلقنا سهما نحوها فما الذي يحدث هل يرتد السهم ثانيا أم ينطلق نهائيا بغير رجعة ؟ ان الكون غير متناه لا مركز ولا محيط له ثم يستطرد في البرهان على ان الأرض لها حركة دورانية وليست لها حركة انتقالية وان الحركة بمعناها الفيزيقي نسبية ولا يمكن اختيار نقطة ما في الكون لاعتبارها مركزا له ٠ ثم افترض بأنه يوجد في مستوى خط الاستواء قطبان تدور حولهما الأرض مرة كل أربع وعشرين ساعة اما الكرة السماوية للنجوم الثوابت ففي زمن أقل تفسيرا لمبادرة

الاعتداليين ، بينما الشمس تقع فى دائرة تبعد ٢٣٫٥° من أحد القطبين وتدور فى زمن أقل من زمن الأرض وعلى ذلك تظهر الشمس فى دورتها السنوية فى السماء وكأنها تتحرك من مدار السرطان لمدار الجدى ثم العودة ثانية ٠

كل هذه الآراء قد ولدت تتابعا فى الهجـــوم على نظام بطليموس فأثارت شكوكا فى السنين التى سبقت كوبرنيق والشك يورث القلق ٠ والقلق للفكر العلمى ينبوع مما حفز كوبرنيق الى القيام بعدة من الأرصاد الشاقة بفراونبورج تولاها بنفسه ليدعم بها نظريته الجديدة عن الكون ٠ ورغم جدية هذه الأرصاد فانه ظل محجما عن نشرها بل ان أول رسالة ظهرت له عام ١٥٢٤ م وهى التى حاول فيها تقويض الأسس التى قام عليها التفسير القديم عن مبادرة الاعتداليين لم تتناول أى تلميح عن نظريته الجديدة ٠ وفى ذلك الوقت أخذت بحوث كوبرنيق طريقها الى الشهرة بفضل عالم فلكى هو سليو كالا جنينى الذى زار كاراكاو عام ١٥١٥ م ووضع كتابا عام ١٥٢٤ محاولا فيه شرح الحركات السماوية للكواكب على أساس الحركة الدورانية للأرض ٠

لقد أصبح الطريق ممهدا بعد ذلك أمام كوبرنيق ليخطو خطوة أكثر جرأة ، فتقدم عام ١٥٣٠ بكتاب آخر هو « تفسيرات » كدراسة أولية لنظريته الجـديدة التى تنادى بمركزية الشمس للكون وليست الأرض فسرعان ما جذبت انتباه المفكرين ٠

وفى ربيع عام ١٥٣٩ م قدم جورج جوشيم رثيكوس ، عالم ألمانى فى الخامسة والعشرين من عمره لزيارة كوبرنيق وكان ريتكوس العبقرى بابتكاراته فى العلوم الرياضية بالنسبة لعصره قد عين أستاذا لهذه المادة فى جامعة وثنبرج ، ولما يتجاوز الثانية والعشرين ، استقبله كوبرنيق وقد أصبح شيخا هزما وأمضى ريتكوس أكثر من سنتين معه لدراسة نظرياته الجديدة فآمن بها وحث كوبرنيق على نشرها مثلما فعل الـــكاردينال شونبرج حين رجاه فى نشرها على الملأ ٠ وكان لريتكوس الفضل فى ارسال مخطوط البحث الى ألمانيا ليطبع تحت اسم « حركات الكرات السماوية » ونلاحظ أنه ذكر الكرات السماوية لا الاجرام السماوية ، لأنه كان ولم يزل متأثرا بالنمط الاغريقى ٠ لقد ظل كوبرنيق قرابة ثلاثين عاما يعمل بغير انقطاع ساعيا الى ابتكار نظام جديد للكون ومدونا أفكاره بالرصاص على قصاصات الورق وهوامش الكتب بل على جدران منزله حتى أكمل نظاما لم يفسر فحسب كل ما فسره نظام بطليموس القلوذى ، وانما فسر فى ذلك بدقة جميع حركات الكواكب والنجوم ومع أربع وثلاثين كرة فقط ٠

ان كتابه هذا يضارع الى حد كبير كتاب « البرنسيبيا » لاسحق نيوتن باعتباره نتاجا للعبقرية الخلاقة · رأى كوبرنيق النسخة المطبوعة وهو في غيبوبة المرض اذ سبق له ان أصـــيب في نهاية عام ١٥٤٢ م بالسكتة ثم الفالج وتوفى في ٢٤ مايو عام ١٥٤٣ م ودفن في كاتدرائية فراونبرج ·

كثيرا ما قيل ان كوبرنيق خشى من نشر متنه الكبير وهو على قيد الحياة خوفا من حركة الاضطهاد الديني التي تيبست من أجلها الأفكار العلمية الجديدة · بيد ان الواقع لا يؤيد هذا الرأى فالحقيقة أنه نشر مسوداته موجزة في كتابه « التفسيرات » ، قبل وفاته بسنوات كثيرة وسمح لتلميذه ريتكوس أن يطبع تقريرا أوليا عن النظام في عام ١٥٤٠ م قبل وفاته بثلاثة أعوام وفضلا عن ذلك كان بحثه معروفا عند البابا والآخرين من علية القوم في المجالس الكنسية بل كان يدعو الى اعجاب شديد ·

وواقع الأمر ان الذى أخر كوبرنيق في النشر هو خوفه من سخرية الجماهير عامة ففي ذلك الوقت كانت العقول جميعها قد استراحت الى نظام بطليموس في الفلك وفيزيقا أرسطو التي تنادى بأن الأرض مركز العالم فاذا قذفت حجرا في الهواء عاد ثانية الى الأرض ، بل اذا قذفت حجرا من فوق أحد الكواكب الأخرى كالمريخ مثلا فانه قطعا يسقط على الأرض فهى المركز والشمس والقمر والكواكب المتحيرة بل النجوم الثوابت كل في فلك حول الأرض يسبحون وقد خلقها الله جميعا لمنفعتنا وأن لها أهمية خاصة عند الخالق ·

ان أى تغيير جذرى لتلك العقيـــدة باســـتبدال الشمس بالأرض باعتبارها مركزا للكون سوف يصبح لا محالة موضوعا يتندر به الحمقى · وكان كوبرنيق شديد الحساسية والتحرج من مخاطرة كهذه · لذلك نراه يبوح بأفكاره لأولئك الذين استطاعوا تقديرا لها واستيعابا لادراكها ·

والآن يكفينا هذا القدر من صـــورة العصر الذى أحاط بكوبرنيق ولنمض مسرعين الى التعرف على كتابه الذى أثار كل هذا القلق ·

حركات الكرات الســـماوية

لم يهدف كوبرنيق الى تقويض نظام بطليموس تقويضا تاما ، لأنه جعل الأرض مركزا للكون ولكنه كان غير مقتنع بتلك الأسانيد التي يبررها المجسطى في براهينه الهندسية لتفسير حركات الكواكب والنجوم فأراد الوصول الى نسق أكثر سهولة وأيسر تعبيرا من الوجهة الرياضية فالكون كرى ، والكرة أعظم الأشكال كمالا فهى لا تحتوى على وصلات أو عقد بل

هى أكبر الحجوم المغلقة وأن أكمل أنواع الحركة ما كانت دائرية فليس لها بدء وليس لها نهاية لذلك اختارها الله نظاما للكون ولا داعى اذن لتعقيد تلك الحركات باضافة أفلاك تدور • أى بافتراض أن الكوكب يتحرك على محيط فلك تدوير يتحرك مركزه على محيط فلك تدوير ثان ومركز هذا الأخير يتحرك على الفلك الدائر وأن الأرض بعيدة عن مركز الافلاك الدئرة أو أن مراكز افلاك الاكر بعيدة عن الافلاك الدائرة • كل هذه التعقيدات التى نشأت باعتبار الأرض مركزا ساكنا للكون كانت البؤرة الأساسية التى أراد كوبرنيق أن يبتدىء منها ليحقق نظاما أكثر كمالا وأقرب منطقا ليتمشى مع العقيدة بأن الله قد خلق الكون متكاملا لا تعقيد فيه •

لذلك فانه وضع نصب عينيه أن يعيد ترتيب الكواكب والكرات السماوية لتحقيق ذلك النظام فارتأى وضع الشمس مركزا للكون بدلا من الأرض قائلا : « فى هذا المعبد الكبير منذا الذى يستطيع أن يضع تلك الشعلة المضيئة فى مكان آخر سوى المركز حيث تضىء كل الأشياء فى وقت واحد فهذه الشمس هى نور العالم بل هى روحه بل هى التى تتحكم فيه وهى جالسة على عرشها القدسى ترشد أسرة الكواكب الى طريقها » •

ان التعقيدات التى نشـــأت عن نظام بطليموس جعلت الكواكب لا تتحرك بسرعات ثابتة حول مركز معدل المسير ، لا حول مركز التدوير فثمة تناقض لا يقبله المنطق والعقل فاضطر الى اللجوء الى توزيع هندسى آخر بحيث تتحرك فيه كل العناصر بسرعات منتظمة حول مركزها كما تقتضى قاعدة الحركات المطلقة • فالشمس والقمر والكواكب تشكل نظاما متكاملا تتحرك كل واحدة منهـــا بحركات دائرية منتظمة وبأســـلوب متوافق •

اذن فقد أصبح لزاما ان ينتقل علم الفلك من حظيرة الاسكندرية حيث بطليموس وهيبارخوس الى حظيرة أثينا حيث هيراقليطس واكفانتوس وشيعة فيثاغورس ومنهم فيلولاوس لكى يستبدل بالنار المركزية الشمس تدور حولها الكواكب •

أليست أثينا هى مهد أفلاطـــون القـــائل بأن الله هو المهنـــدس الأكبر وليس الفيثـــاغوريون هم القـــائلين بأن الأعـــداد الأولية هى أصل الأشياء وأن تقسيم الأوتار الطنانة الى أقسام عددية بسيطة تنشأ عنه أنغام توافقية فكذلك حركات الكرات السماوية وهى البسيطة فى عددها وتنشأ عنها نغمات سماوية لا يســـتطيع سماعها الا من أوتى استعدادا خاصـــا •

وأليس أرسطو هو القائل بأن النقلة الدائرية هى التى يمكن ان تنتج حركة واحدة لا متناهية متصلة وأزلية والجسم فيها هو بلا انقطاع مائل نحو الوسط الذى هو نفسه لا متحرك وخارج عن المحيط الذى ليس هو جزءا منه وأن الحركة الدائرية تذهب من ذاتها لتعود الى ذاتها وأن المحرك الأول هو واحد وانه أزلى فى وحدته وفى فعله .

وأليست فيزيقا أرسطو هى القائلة أيضا ان المادة كلها ذات حياة وأن طاليس نسب الى النفس قوة محركة وقال بوجود نفس حتى للحجر المغناطيس لأنه يحرك الحديد فالكرات السماوية بحسب كوبرنيق لها إرادة فهى تتحرك تبعا لذلك . وقد طبق شوبنهور الفيلسوف الألمانى فى القرن العشرين فكرته عن الارادة هذه على كل شىء فى مذهبه .

لذلك ركز كوبرنيق نظريته فى الأسس التالية :

١ ــ لا توجد مراكز لجميع الدوائر والكرات السماوية .

٢ ــ مركز الأرض هو قطعا ليس مركز الكون بل هو مركز الثقل لها فقط .

٣ ــ جميع الكرات تدور حول الشمس باعتبارها النقطة المتوسطة وعلى ذلك فهى مركز الكون .

٤ ــ بعد الأرض عن الشمس يعتبر ضئيلا بالنسبة لارتفاع كرة النجوم الثوابت (هذا الافتراض مقتبس من فرض اريستارخوس لتفسير عدم الازاحة الظاهرية للنجوم) .

٥ ــ كل حركة ظاهرية للنجوم هى نتيجة لحركة الأرض وليست هناك حركة لكرة النجوم الثوابت والأرض وما عليها لها حركة دورانية حول محورها كل يوم بينما تظل النجوم ثابتة .

٦ ــ ما يظهر لنا من حركة الشمس السنوية انما هو نتيجة للحركة الانتقالية للأرض وكرتها حول الشمس غير المتحركة ومثلها فى ذلك مثل الكواكب الأخرى وللأرض حركة أخرى ترنحية (مثل حركة النحلة التى يلعب بها الأطفال فانها تترنح عند دورانها) وذلك تفسيرا لظاهرة مبادرة الاعتدالية .

٧ ــ ان حركات الاستقامة والرجوع للكواكب المتحيرة ليست دالة لحركتها بل لحركة الأرض التى هى كفيلة وحدها لتفسير جميع الاختلافات فى حركات الكواكب والنجوم السماوية .

٨ ــ تدور الأرض فى دائرة مركزها ليس الشمس ولكن نقطة أخرى مختلفة عن المركز • اما مركز فلك الأرض فيدور حول نقطة هى نفسها حول الشمس •

وكتاب كوبرنيق يتألف من ستة أجزاء يبدأ فى البرهنة على ان الكون كروى والأرض كروية أيضا ثم اثبات ان حركة الكرات السماوية منتظمة ، ثم يتساءل : هل للأرض حركة دائرية ؟ ولماذا كان الفكر القديم يعتبر الأرض ثابتة ؟ ثم يستطرد فى تركيب الكرات السماوية الدائرية ثم شرح الحركة الثلاثية للأرض ثم ينتقل الى مواضيع أخرى هندسية عن الخطوط المستقيمة فى الدائرة وجداول الأوتار ثم يذكر النظريات الهندسية الخاصة بأضلاع وزوايا المثلثات المستوية والمثلثات الكروية •

وبمقارنة هذه الجزء مع المقالة الأولى للمجسطى نجد نفس الترتيب ونفس جدول القسى وأوتارها وجدول القسى وجيوبها فمثلا نجد فصول هذه المقالة بالترتيب التالى « فى أن السماء كروية وحركتها مستديرة ــ فى ان الأرض كروية فى الحس بالقياس الى الكل ــ فى أن الأرض فى وسط السماء كالمركز فى الكرة ــ فى أن الأرض كالنقطة عند ذلك البروج ــ فى أن الأرض لها حركة انتقال ــ فى أن أصناف الحركات الأولى اثنان ــ فى العلوم الجزئية ــ فى مقادير الأوتار » •

بالمقارنة بين المنهجين يتضح لنا ان كوبرنيق أراد أن يتخذ من نمط المجسطى منهجا ثم يزيد عليه العرفان المتراكم من بحوث الفلكيين العرب فى حساب المثلثات الكروية التى كانت تنقص المجســـطى • أما جداول القسى وأوتارها وجيوبها فلا نجد أثرا لبحوث البيرونى كما ذكرها فى مؤلفه الكبير القانون المسعودى بجعل نصف قطر الدائرة الوحدة •

وفى بقية الفصول التالية نجد نفس المواضيع ولكن بتغيير موضع الشمس مكان الأرض أما فى جداول أول حركات أوساط القمر وجداول الاختلافات الجزئية وجداول اختلافات مناظر النيرين فى دائرة الارتفاع وجداول الاجتماعات والاستقبالات فتكاد تكون نقلا • ذلك لأن كوبرنيق لا يعقل ان يقوم بكل هذه الأرصاد التى أخذت من الذهن البشرى آلافا من السنين قبله فهو اكتفى بذكرها بعد ادخالها فى اطار نظامه الجديد •

وفيما يختص بالحركة التقهقرية للكواكب فيمكننا هنا أن نقارن بين رأى الفرغانى الذى ذكره فى الفصل الخامس عشر من مخطوطه « جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية » وبين تفسير كوبرنيق نفسه •

يقول ابن كثير الفرغانى : « فيما يعرض للكواكب الخمسة المتحيرة فى الرجوع فى مسيرها فى فلك البروج فلنصف هنا ما يعرض من الكواكب الخمسة المتحيرة من الرجوع فى مسيرها فى فلك البروج . فنقول أولا أنا قد بينا أن الكوكب اذا كان فى الجهة العليا من فلك التدوير فان حركته تكون الى المشرق وفى جهة الحركة التى لمركز فلك التدوير فيرى الكوكب سريع المسير لاجتماع الحركتين فى جهة واحدة واذا كان فى الجهة السفلى من فلك التدوير فان حركته فيه الى المغرب الى خلاف جهة الحركة الأخرى .

ونقول هنا أيضا ان الكوكب اذا كان فى جنبى فلك التدوير من المشرق والمغرب وعلى موضع تماسه الخطان اللذان يخرجان من الأرض الى جنبى فلك التدوير لم تر حركته قدرا بين فلك البروج فيكون ما يرى من مسيره فى فلك البروج هو ما يسير من مركز فلك التدوير فقط .

فاذا سار الكوكب من موضع الخط المماس لفلك التدوير مما يلى المشرق كان عند ذلك ابتداء الحركة التى ترى للكوكب فى فلك التدوير الى المغرب بابطاء فينقص ذلك من مسير مركز فلك التدوير الذى يرى الى المشرق وكلما انحط الكوكب فى فلك التدوير . ودنا من البعد الأقرب كان أكبر لما يرى من حركته فيه الى المغرب الى أن يساوى مدار ما يرى من حركته فى فلم التدوير بحركة مركز فلك التدوير .

فاذا تساوت الحركتان من جهتين مختلفين لم ير للكوكب فى تلك البروج تقدم ولا تأخر ويرى كأنه مقيم ثم ترتد حركته التى ترى فلك التدوير الى المغرب وترتد على الحركة الأخرى التى الى المشرق فعند ذلك يرى الكوكب راجعا فى فلك البروج نحو المغرب ويكون أكثر ما يرى من حركة الرجوع اذا صار الكوكب فى أقرب فلك التدوير .

فاذا جاوز البعد الأقرب صاعدا من جهة المغرب فصار الى قبل ذلك البعد الذى ابتدأ منه الرجوع من جهة المشرق تساوت هناك الحركات أيضا فيرى مقيما فى موضعه من فلك البروج الى ان يجوز ذلك الموضع فيرى مستقيم السير الى المشرق فهذا سبب ما يرى من رجوع الكواكب الخمسة ولذلك سميت المتحيرة » .

ولكى نقرب هذا التعليل للأذهان دعنا نفترض تلك الدوارة « وهى اللعبة التى تتكون من أفراس وطيور وحيوانات دوارة حول المركز وتكثر فى الملاهى ونحن فى مركزها وهناك طفل يجلس فوق أحد الأفراس هذه فعندما تدور اللعبة يدور الطفل حولنا وهو راكب فوقه ولنفترض أن مع

هذا الطفل لعبة صغيرة دوارة يمســـكها بيده ولنفترض أحد الأفراس المشابهة عليها ، فعندما تدور اللعبة وتدور الدوارة الكبيرة الأصيلة يظهر لنا فرس اللعبة التى يمسكها الطفل وكأنه يدور حول مركز يدور فى فلك حولنا ، هذا هو فلك التدوير أو الأكر كما يسميه الطوسى أما اللعبة الكبيرة فمحيطها الذى يجلس عليه الطفل هو فلك التدوير الأول وعندما يدور فلك التدوير فان الفرس الذى اخترناه يتحرك فى اتجاهات دورانية تارة مخالفة للدوران الأول وطورا فى نفس الاتجاه ويبدو هذا الفرس على الخلفية الخارجية وكأن حركته فى استقامة وفى رجوع ، وعلى ذلك سميت بالمتحيرة ٠

وفى تعليل كوبرنيق ، هو يضع الشمس فى مركز اللعبة الأصلية ونحن فوق الأرض نتحرك بسرعة دورانية حول الشمس وبأخرى حول أنفسنا أما الفرس الذى يجلس عليه فيدور أيضا فى اللعبة الأصلية بسرعة مغايرة لسرعتنا فعندما ندور ونلتقى بالفرس ثم نخلفه وراءنا يظهر الفرس وكأنه يرتد الى الخلف وعندما ندور حول أنفسنا يلحقنا ثم يصبح اتجاه حركتنا مغايرا لاتجاه حركته فيبدو وكأنه يسبقنا ، ثم تتكرر العملية فتبدو حركة الفرس فى الخلفية وكأنها تقهقرية وهذا ما يحدث لكوكب مثل كوكب المريخ مع راصد فوق الأرض ٠

ونلاحظ بعد ذلك بقية أجزاء كتاب حركات الكرات السماوية تشمل مواضيع عميقة يستلزم الالمام بها استيعابا لمصطلحات علم الفلك ٠

الثـــورة الكوبرنيقية :

لقد كانت نظريات كوبرنيق نهاية لعصر فـــكرى متزمت وتهيئة ضرورية لعصر آخر هو عصر العلم الذى نغرق فيه اليوم تماما ، ولم يكن كوبرنيق نفسه هو منشىء العلم الحديث بأية حال فآراؤه خلت من الفكر الاشراقى الذى يخرج بغتة بنمط جديد على غرار ما نجده عند نيوتن وبلانك وآينشتين وكيكلوليه ٠ كانت نظريته هى نظرة العصور الوسطى التى تشكلت بأفكار أرسطو وفيثاغورس وكل ما فعله هو تمكينه للفلسفة العلمية الجديدة من الظهور ٠ لم يتبادر لعقول الناس معنى الحركة فيما بين عهد بطليموس وكوبرنيق وكان من الواضح أن الجسم يتحرك لو أنه يغير مكانه بالنسبة للأرض وهو ساكن فيما عدا ذلك أما بعد كوبرنيق فقد استجد مفهوم آخر لمعنى الحركة أى تغيير المكان بالنسبة للشمس مما مكن جاليليو عند بداية القرن السابع عشر من اذاعة رأيه فى الحركة المحلية التى أصبحت ركيزة علم الميكانيكا فيما بعد ٠

أما نيوتن فقد استفاد من الحرية التي جادت بها هذه الفكرة فعندما كان يبحث حركة الكواكب اعتبر الشمس ساكنة مثل كوبرنيق ، ولكنه عندما كان يبحث سقوط التفاحة على الأرض اعتبر الأرض ساكنة كما زعم معارضو كوبرنيق واستطاع عندئذ ان يبين أن نفس القانون العام للجاذبية يسرى على الكواكب والتفاحة كما استطاع أن يبنى على مبدأ جاليليو القوانين العامة للحركة التي يرتكز عليها كل ما جاء بعد ذلك من علم ٠

آمن كوبرنيق بأن الكواكب تدور لأن لها ارادة والتفاحة عندما تسقط فان لها ارادة بحيث هي التي تساعدها على السقوط ، وكان معاصروه يعتقدون ان للتراب والماء والهواء والنار طبائع هي في أساسها من طبيعة الانسان ، كانوا يميزونها على انها أجزاء من الطبيعة البشرية وأن أمزجة الناس تتأثر الى حد كبير بحركات الاجرام السماوية وجاءت نظريات كوبرنيق فقلبت كل شيء ظهر فيها : ان الأرض مجرد كوكب ضئيل لنجم ضئيل في جسد لا نهائي من النجوم وان الانسان ليس مركز الخلق فانهارت فكرة التنجيم من أساسها ٠ كان التنجيم علما يعتد به فأصبح حديث خرافة وبات مكان الانسان كله في النظام الكوني مزعزعا وتغيرت المفاهيم في نسق جديد واختفت الارادة وحلت محلها الجاذبية التي تسود النظام الكوني بأجمعه والجاذبية بدورها تخضع لقوانين ثابتة أزلية نسيجها العلية ٠

لقد كان كتاب حركات الكرات السماوية لكوبرنيق اغريقيا في تصوره ، فهو يؤمن بأن الحركة الدائرية أكمل الحركات للكواكب ثم ظهر بعد ذلك ان تلك الحركات بيضية ٠ ان كل ثورة من الثورات لا تأتي بغتة بل لابد من وجود بذور صالحة لها ولابد من زمن حتى ينمو وينضج نبتها ٠ استورد كوبرنيق تلك البذور من الاغارقة ومن العرب ثم زرعها في أرض أوربية فأينعت لأنها كانت على حافة التطور والثورة ٠

لقد كان نظام الجيوستاتيكي الاغريقي موضوعا ، فجاء الفلكيون العرب واستحدثوا أنظمة جديدة وأصبحت تلك الأنظمة نقيض ما هو موضوع ثم جاء كوبرنيق فربط بينها في تعايش سلمي مستحدثا النظام الهليوستاتيكي الذي أمسى (مركب موضوع) ٠ واستقر نظامه بل نما وترعرع لأنه كان محفوظا اذ وجد من يخلفه من شوامخ الفكر أمثال تيخوبراها وكيلر وديكارت ونيوتن ولابلاس وأصبح نظام كوبرنيق موضوعا طبقت شهرته الآفاق أثناء محاكمات جوردانو وجاليليو بعد وفاته بأكثر من خمسين عاما ٠

ان أهم تصور فيزيقي نجده في كتاب كوبرنيق ، هو في ازاحته لفيزيقا أرسطو المحرك الذي لا يتحرك ٠ هذا المحرك هو الذي يحرك كرة

النجـــوم الثـــوابت وهى بدورها تحرك الكرات البلورية الأخرى لزحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد ، قال كوبرنيق ان الكواكب تتحرك لأن لها ارادة ذاتية • ذلك التحول فى التفكير كان رائدا لكبلر حين قال ان حركة الكواكب تتحكم فيها الشمس • وعلى ذلك أصبحت الحركة نابعة من داخل الكون حيث الشمس متمركزة وليست من خارج الكون حيث المحرك الذى لا يتحرك •

هذا هو التطور الثورى الذى حدث فى العلوم الرياضية • أما ما حدث فى التطور الثورى للطابع الاقتصادى فلقد كان الفكر الاوروبي فى العصور الوسطى يتبع فى علم الصنعة ما ورثه من الفكر الاسلامى الذى كان ينسب الذهب للشمس والفضة للقمر والحديد للمريخ •• الخ ثم جاء كوبرنيق وجعل الشمس مركزا للعالم فتغيرت المفاهيم فى القرن السابع عشر ، حيث أصبح الذهب هو مقياس الثروة بعد أن كانت الأرض أو السلع المستهلكة هى المقياس واندفعت المغامرات البحرية الى منابع الذهب فى بيرو وأمريكا وأفريقيا والهند واستولى الأسبان على الذهب والفضة بأمريكا ، والبرتغال على ذهب أفريقيا •

كان الذهب والفضة وسائل عديدة استراتيكية لتبادل التجارة فأمسى الذهب هو القوة الديناميكية المسيطرة على اقتصاديات دول أوروبا الناهضة مثل انجلترا ، وهولندا • قبل كوبرنيق كان النقد الذهبى أو الفضى مقدارا، أما بعده فقد أصبح النقد دالة ، وأخذ الاقطاع وهو ملكية الأرض يذبل رويدا أمام سيطرة الذهب الذى هو وليد التجارة الواســـعة فيما وراء البحار ونشأت طبقة قوية من التجار هى نبالة الذهب والمال ، ناهضت نفوذ نبالة الاقطاع أى الأرض حتى ان جامعة جريشام بانجترا تبرع تاجر ثرى بانشائها والصرف عليها وسميت باسمه تمجيدا له ثم أخذت المصالح التجارية تتشعب وأصـــبح للتجار النفوذ الأكبر فى أحزاب وبرلمانات انجلترا ولأول مرة أنشئت وزارة التجارة وأصبحت موضـــوعات حرية التجارة أو حمايتها من الموضوعات الصاخبة فى القرن السابع عشر وما يليه وتكونت الجيوش والأساطيل لحماية التجارة فيما وراء البحار •

كانت الأرض وهى مركز الكون سابقا هى أساس الثروة فكانت نبالة الاقطاع ثم جلت الشمس مكانها متمركزة فى الكون والشمس فى الخيمياء هى الذهب فكانت نبالة المال والنقد •

لقـــد كانت ثورة كوبرنيق العلمية ثـــورة عامـــة فالحركة البيوريتانية (١٨) فى انجلترا والحركة البروتســـتانتية المستشهدة فى أوروبا كانتا من المظاهر الجدية لهذا التغيير من الوجهة الدينية وكانت ثورة

كروميل وحروب لويس الرابع عشر من علامات هذا التغيير من النواحى السياسية • انها ثورة عارمة حتى فى الفنون ، ففى التراجيديا كان الصراع الذى يقوم بين البطل وبين الطبيعة صراعا بالمعنى الحقيقى وانما يخضع البطل للطبيعة الخارجية فليس ثمة صراع من الطبيعة الخارجية أى المحرك الذى لا يتحرك • أما بعد ثورة كوبرنيق فنجد الصراع مستمرا والنضال سجالا بين البطل أى بين الطبيعة الانسانية المستمدة من الأرض فى نظام كوبرنيق وبين الطبيعة الخارجية أى الشمس فى النظـام نفسه ، فلير وهاملت لا وجود لهما فى تلك المآسى الا باعتبارهما فى نزاع مســـتمر ومتساو مع القدر •

لقد سجل جيته شاعر الجرمان هذه الثورة فى رواية فاوست « أيها الشباب أيتها النشوة أيتها الرسالة السامية قبلنا ، قبلى أنا ، لم يكن العالم موجودا لقد انتزعت الشمس من وسط الهاوية وأن القمر ليسير فى مداره تبعا لفرجاوى ان النهار حين رآنى قد أصبح جميلا تحت أقدامى والأرض علاها وشى من الخضرة والازهار وموكب النجوم الذهبية قد بزغ فى السماء القدسية فى الليلة الأولى بفضل يدى وان لم أكن أنا فمن اذن الذى حطم حدود القوانين البائسة التى أبهظت كاهل الأرض ؟ » •

حركة القلب

وليم هارفي

١٦٢٨م

تمر بعض الأحداث الكبرى وقلما تسترعى الانتباه ومثال ذلك اكتشاف الدورة الدموية .. ففى عام ١٦٢٨ وفى معرض الكتاب السنوى فى مدينة فرانكفورت على نهر المين فى ألمانيا نشر كتاب صغير فى عالم التشريح قلب الكثير من الأفكار القديمة عن جسم الانسان رأسا على عقب ووضع أسس علم الطب الحديث ... وكان عنوان الكتاب « بحث تشريحى فى حركة القلب والدم » لمؤلفه الانجليزى وليم هارفى طبيب الملك وأستاذ التشريح فى كلية الطب بلندن .. وقد وضع المؤلف كتابه باللغة اللاتينية وشرح فى صفحاته الاثنتين والسبعين لأول مرة طريقة توزيع الدم على الجسم بواسطة القلب .. ولكن قراء الكتاب كانوا قلة .. ومرت سنوات طويلة قبل ان يتبين الناس أنهم مدينون بالكثير لوليم هارفى .

★★★

ولد وليم هارفى فى أبريل من عام ١٥٧٨ فى مدينة فولكستون من أعمال مقاطعة « كنت » لأبوين موسرين وكان هو أكبر اخوته وكان أبوه توماس هارفى عمدة فولكستون وقد علم أبناءه السبعة تعليما راقيا لرغبته فى ان ينالوا نصيبا من النجاح فى حياتهم أكثر مما ناله هو وقد أصبح معظم تجارا أثرياء فى مدينة لندن كما غدا أحدهم عضوا فى البرلمان . وبعد بضع سنوات قضاها وليم فى المرحلة الأولى من التعليم فى كنتربرى التحق بكلية كايوس بجامعة كمبردج حيث حصل على درجته العلمية عام ١٥٩٧ وكان أغلبية طلاب الكلية يدرسون الطب ، وجلى ان هارفى الشاب كان قد اختار لنفسه مهنة المستقبل .

وكانت ايطاليا فى تلك الأيام موطنا لأئمة العلماء فى العالم يفد اليها الشباب من ربوع أوربا ويحتشدون فى قاعات المحاضرات بجامعتها وقد وصل وليم هارفى الى مدينة بادوا فى عام ١٥٩٩ حيث كانت توجد مدرسة من أعظم مدارس العالم شهرة فى الطب ويمكننا ان نرى هناك حتى الآن قاعة المحاضرات التى تضاء بالشموع حيث كان هارفى الشاب يقضى الساعات الكثيرة مصغيا الى أستاذه فابريكيوس الاكوابندتنى Fabricius of Aquapendente أعظم علماء التشريح فى زمانه وكان فابريكيوس يعرف عن الجسم الانسانى ما لم يعرف أحد غيره فى ذلك

الوقت وله يدين هارفى الى حد كبير بما وصل اليه من علم ولكنه لم يلبث ان بز أستاذه وتفوق عليه فيما بعد ، ولابد أن زملاء هارفى فى الدراسة كانوا يكنون له الحب لأنهم اختاروه ممثلا للطلاب الانجليز فى مجلس الجامعة ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٦٠١ وعاد الى انجلترا ٠

استقر هارفى بعد ذلك فى لندن حيث تزوج وبدأ يزاول عمله بوصفه طبيبا ولم يمض وقت طويل حتى انتخب زميلا فى الكلية الملكية للأطباء ٠

ثم عين فى عام ١٦٠٩ طبيبا فى مستشفى القديس بارثلميو وهى وظيفة كانت لا تمنح الا للأطباء الممتازين اذ كان الملك هو الذى يقوم بتعيينهم ٠ وتبين من الوصية التى كانت تتلى على مسامع الطبيب الحديث الاختيار ما كان ينتظره المجتمع من الأطباء فى ذلك الزمن تقول الوصية : « أيها الطبيب لقد وقع عليك الاختيار لتكون طبيبا للفقراء فى هذا المستشفى وحزت القبول لتؤدى الواجب التالى ٠٠٠ عليك ان تأتى الى المستشفى مرة كل أسبوع على الأقل طول السنة وعليك أكثر من ذلك أن تطلب الى الموظف المقيم فى المستشفى أو رئيسة الممرضات أو البواب كلما دعت الحالة أن يستدعوا للحضور أمامك أكبر عدد ممكن من الفقراء النازلين بهذا المستشفى والذين هم فى حاجة الى نصح الطبيب ومشورته ٠ ضع نصب عينيك أنك لن تقرر لهم شيئا على سبيل المجاملة أو بقصد الربح المالى أو الكسب ولكنك ستقرر ما تراه من أسباب الخير والشفاء لهم مصحوبا بنصائحك الغالية هذا ما يجب أن تتعهد به وتكون مسئولا عنه أمام الله » ٠

***

كان هارفى يتقاضى أربعين جنيها فى العام نظير القائه محاضرتين كل أسبوع فى التشريح والجراحة طوال السنة مدى الحياة ولعل ذلك يبدو اليوم مبلغا زهيدا الا انه كان يعتبر مبلغا كبيرا في عصره ولذلك فانه حين عين محاضرا في كلية الأطباء الملكية بهذا المرتب السنوى ضمن ذلك دخلا يأتيه سهلا طوال الفترة الباقية من حياته ٠ ومازالت المذكرات التى تحمل محاضراته باقية يمكن مشاهدتها فى المتحف البريطانى وهذه المحاضرات خليط عجيب من اللغتين اللاتينية والانجليزية وهى توضح أن هارفى كان أول من اكتشف توزيع الدم بواسطة القلب وقد كان يسجل الحرفين الأولين من اسمه وهما « و ٠ هـ » على هامش مذكراته ليبين ان هذا الاستكشاف انما يرجع اليه الفضل فيه دون غيره ٠ على انه رفض ان يذيع اكتشافه فى العالم عدة سنوات وانما أخذ يتريث فى اذاعته على سبيل الحيطة والحذر حتى اتضحت له صحة تجاربه ٠

وفى أثناء ذلك كان هارفى يزداد شهرة يوما بعد يوم فكان طبيبا لرجال السياسة والنبلاء ومن بينهم الوزير اللورد سير فرنسيس باكون حامل أختام الملك ، كما كان هارفى كثير التردد على القصر حتى عين فى عام ١٦١٨ طبيبا خاصا للملك جيمس الأول ومنذ ذلك الحين غدا اثرى الأطباء وأعظمهم شهرة فى انجلترا « فكان يمتطى صهوة جواده ليزور مرضاه ويسير خلفه تابع له على قدميه كما جرت العادة بذلك يومذاك » .

هارفى ٠٠ واعتزازه بالحقيقة !!

ومع ذلك فلم يكن هارفى يبحث قط عن ثروة أو مجد ولم يحاول أن يجعل همه جمع المال ولا كان يهتم به اذا حصل عليه ، ودليل ذلك انه ترك شئونه لأخيه يصرفها بدلا منه سنوات طويلة وقيل ان أخاه كان أحرص على مصالح هارفى من هارفى نفسه ، ومع انه كان شخصية محببة فى بلاط اثنين من الملوك سنوات طويلة ، فانه لم يمنح لقبا ولم يسع فى الحصول على ذلك اللقب بل لم يكن يحفل كثيرا بحياة البلاط المرحة كما كان قليل الاهتمام بشئونه السياسية ، اذ أن أقصى سعادته تركزت فى دراسة التشريح التى دأب على مواصلتها العام تلو العام ولم تثنه مشاغل الزمن عن المضى فيها ٠

وأخيرا وفى عام ١٦٢٨ أعلن هارفى اكتشافه للعالم بعد سنوات طويلة من الدراسة المتصلة التى لا تعرف السأم والتجارب الدقيقة ودعم اكتشافه بمجموعة كبيرة من الأدلة المبنية على أساس علمى دقيق ولم يقتنع باجراء التجارب على القلب والدور الذى يقوم به فى الجسم بل انه بين وظيفة القلب فيما يقرب من أربعين نوعا من الحيوانات منهـــا الديدان والحشرات والسمك الصدفى ٠ وكان فى صبره ودأبه لا يعرف الكلل ولم يجرؤ عدو له على اتهامه بتجاهل الحقائق ٠ وقد أدرك هارفى أن أساطين الأطباء والجراحين فى عصره سيهزءون به فلم يحدث كتابه فى أول الأمر أى اهتمام ٠ ثم ما لبث ان تعرض للهجوم من كل الجهات وقال الكثيرون انه يحتوى على مغالطات ووقف فى وجهه كل الأطباء وأعرض عنه مرضاه وأصبح نصيبه فى النجاح ضئيلا ولكن عندما أدرك الناس صحة تعاليم هارفى كان ذلك ايذانا ببداية عصر جديد فى عالم الطب ٠

وكان المعروف قبل عصر هارفى أن القلب عبارة عن عضـــلة جوفاء تنقسم الى أربعة تجاويف يسمى اثنان منهما بالأذينين ويسمى الآخران البطينين فمن أعلى الاذين الأيسر والأذين الأيمن ومن أسفل البطين الأيسر والبطين الأيمن وكان المعروف كذلك ان هناك نوعين من الأوعية الدموية وهى الشرايين والأوردة ويعرف الشريان الرئيسى فى الجسم بالأورطة وهو يتصل بالبطين الأيسر ويتصل الوريد الرئيسى بالاذين الأيمن ، كما يتصل

البطين الأيمن بالرئتين عن طريق الشريان المعروف باسم الشريان الرئوى . وأما الوريد الرئوى فيصل الرئتين بالاذين الأيسر . ولقد كان الكثير من هذه المعلومات معروفا لجميع الأطباء والجراحين قبل ان يولد هارفى بزمن طويل وكان من المعروف كذلك ان الشرايين والأوردة تنتشر في كل أجزاء الجسم وتشبه في انتشارها جذور الشجرة ..

كل هذه الحقائق كانت مألوفة لدى رجال الطب فى نهاية القرن السادس عشر ، الا أن أحدا لم يستطع أن يشرح العمل الذى يقوم به القلب والأوعية الدموية شرحا مقنعا . فقال البعض ان القلب يفرغ سائلا يسرى في كل أجزاء الجسم ويسمونه « روح الحياة » .. وقال البعض الآخر ان العملية ترتبط بعض الشيء بالتنفس واعتقد آخرون أن عمل القلب ليس له علاقة بالدم الذى زعموا انه ينساب فى اللحم ليغذى الجسم كله غير ان الكثير من أولئك الذين اعتنقوا هذه الآراء قد انتجوا فى ذلك نحو تعاليم وآراء الفلاسفة الذين عاشوا قبلهم بمئات السنين فهى ليست اذن من بنات أفكارهم . وقد بذل آخرون جهدا عظيما فى التفكير دون أن يصلوا كثيرا بالحقائق الواضحة وكان لابد أن يأخذ هارفى على عاتقه ان يتأمل ويشاهد بنفسه ما يحدث عندما يدق القلب وأخيرا وصل الى الحقيقة بالملاحظة الدائبة والتجارب الطويلة وكتب يقول : « انى اقر بألا أتعلم التشريح أو أعلمه من الكتب أو من كلام الفلاسفة ولكن بواسطة التشريح ذاته ومن صنع الطبيعة » .

ولقد كان فابريكوس معلم هارفى فى ايطاليا أول من اكتشف صمامات الأوردة وهى عبارة عن قطع صغيرة من النسيج الغشائى توجد على مسافات في الأوردة . وقد لاحظ فابريكوس أن هذه الصمامات تتجه دائما نحو القلب ولكن هارفى هو الذى لاحظ ان عمل هذه الصمامات هو دفع الدم فى اتجاه القلب وليس خارجا عنه كما لاحظ انه كلما دق القلب اتسعت الشرايين ونبضت وسمحت بتدفق الدم خارجة عن القلب وليس فى اتجاهه وتبين له أن القلب يصب الدم فى الأورطة ويسرى منه الى جميع الشرايين فى الجسم .

ولقد واجهت هارفى مسألة معقدة فالنبض عند الانسان يجرى بمعدل ٧٢ مرة فى الدقيقة وكل بطين يحمل أوقيتين من الدم وبذلك فانه فى كل دقيقة يصب البطين الأيسر ١٤٤ أوقية من الدم فى الأورطة وهكذا نرى بسهولة أن ٨٦٤٠ أوقية من الدم تتدفق فى الأورطة فى مدة ساعة من الزمن وهى كمية تعادل وزن ثلاثة أفراد ثقيلى الوزن ومثل هذه الكمية نفسها يتدفق فى الشريان الرئوى عن طريق البطين الأيمن ولنا ان

نتســـاءل : « من أين تاتى هذه الـــكمية الكبيرة من الدم ؟ والى أين تذهب ؟ » ٠

والواقع انه ليس فى الامكان الاجابة على هذا السؤال الا بجواب واحد فقد رأى هارفي من قبل ان الدم يتدفق دائما فى اتجاه واحد خارجا من القلب عن طريق الشرايين ومتجها اليه عن طريق الأوردة وانه ينساب باستمرار دون توقف وكتب يقول : « لقد بدأت أفكر فى احتمال عدم وجود دورة دموية اذ أنى أرى أن البطين الأيسر يدفع الدم فى الشرايين ويرسله للجسم بكميات كبيرة وبنفس الطريقة يدفع البطين الأيمن الدم فى الشريان الرئوى ومنهما الى الأوردة » ٠ وبذلك شبه عمل القلب بمضخة تمد الجسم كله بدم الحياة ٠

ويستمر فى حديثه فيقول : « ان القلب يعد نتيجة لذلك بداية الحياة لأنه بعمل القلب ونبضاته يتحرك الدم نقيا صالحا لتغذية الجسم كما يحفظ من ان يفسد ويتجلط وهو فى الحقيقة سر الحياة ومصدر كل حركة » ٠

الا أن فكرة توزيع الدم كانت من الجدة وعدم السماع بها من قبل . بحيث خشى هارفى أن يعارضه جميع الناس ولكنه وقد أيدت له ملاحظاته صواب رأيه لم يحفل بما يحتمل أن يقوله الناس عنه وكتب يقول : « قضى الأمر وانى اعتز بالحقيقة وأجلها ٠٠ » ٠

ولما لم تكن المجاهر القوية معروفة فى ذلك الوقت فقد بقى أمام هارفى موضوع واحد يحيطه الغموض : فلم يعرف طريقة مرور الدم من الشرايين الى الأوردة عند عودته الى القلب ومن المعروف الآن أن فروع الشرايين الدقيقة وتسمى بالشعيرات صغيرة جدا ويتعذر رؤيتها بالعين المجردة وهى تقوم بحمل الدم النقى من الشرايين الى جميع أنسجة الجسم وأعضائه ونقل الدم الفاسد الى الأوردة ومنها الى القلب ويمر الدم الفاسد من الاذين الأيمن الى البطين الأيمن ومنه الى الرئتين بواسطة الشريان الرئوى وفى الرئتين يمر فى الشعيرات المنتشرة خلال الرئة وهنا يقوم الاكسوجين بتنقيته فى القصبة الهوائية الذى يأتى اليها بواسطة التنفس وآنئذ يسير الدم خلال الوريد الرئوى الى الاذين الأيسر فى القلب ويستمر فى تدفق مستمر فى نظام دورى كما سبق أن شرحه هارفى ٠

***

وعندما أعلن هارفى اكتشافه للعالم هجره كثير من مرضاه وربما كان ذلك عن اعتقاد منهم بأن الرجل فقد صوابه ٠ وفى ذلك الوقت كان

يكتسب عطف بلاط الملك السيىء الحظ شـــارل الأول وتظهر آية ذلك العطف فى سجلات مستشفى القديس بارثلميو ففي أوائل عام ١٦٣٠ صدرت النشرة التالية : « أعلن اليوم الدكتور هارفى طبيب هذا المستشفى أن صاحب الجلالة الملك المعظم قد أصدر اليه أمره بمرافقة سمو الأمير دوق لنوكس الجديد فى اسفاره فيما وراء البحار ولذلك فهو يرغب فى أن يسمح البلاط لادموند سميث الدكتور فى الطبيعة أن ينوب عنه أثناء تغيبه فى القيام بعمله طبيبا لهذا المستشفى » ٠

وقد ترك هارفى انجلترا بعد ذلك بشهور قليلة مع رفيقه السامى وقضيا الشتاء التالى معا فى باريس ٠

وما كاد هارفى يعود الى انجلترا حتى عينه الملك طبيبا دائما له ولم يلبث أن أصبح بعد ذلك بسنوات قليلة طبيب الملك الأول وكان على الدوام ملكيا متحمسا حاز اعجاب شـــارل الأول بدرجة كبيرة وكان له أصدقاء بين رجال البرلمان ، كما حظى بتقدير كل أولئك الذين اتصلوا به ومحبتهم وكان له أصدقاء ومعجبون فى كل من المعسكرين اللذين أفضى اليهما النزاع المرير فى ذلك العصر التعس ومع انه ظل على ولائه للملك شارل فانه مع ذلك لم يعاد أحدا ويبدو أن الملك بدوره قد أحب طبيبه ووثق به اذ رأى فيه رجلا يتمتع بذكاء حاد فاحترم آراءه ٠ وحين ذهب الملك ليتوج فى هوليوود فى قصر ادنبرة اصطحب معه هارفى وكانت بعض الواجبات التى يقوم بها طبيب الملك غريبة ، فقد أمره الملك ان يقوم بفحص بعض النساء اللواتى قضى بادانتهن بتهمة السحر (وكان السحر عقيدة واسعة الانتشار فى ذلك الوقت) وقد وجد هارفى أن النســـاء أبدانهن صحيحة فصدر العفو عنهن ٠

وعندما نشبت الحرب الأهلية فى عام ١٦٤٢ صاحب هارفى الملك حيثما حل وارتحل ٠ وفى أثناء هذه الغيبة قام جنود البرلمان بتفتيش منزله وحرقوا الكثير من أوراقه وقد كتب بعد ذلك يقول : « بينما كنت فى خدمة الملك سطت بعض الأيدى الأثيمة على منزلى وسلبت كل أثاثه وان أعظم ما يحز فى نفسى ما سلبه أعدائى من متحفى من ثمرات كدى سنوات كثيرة » ٠ وفى معركة « ادجهل » فى نفس السنة عهد الى هارفى برعاية ابنى الملك الصغيرين وبينما كانت تستعر نار المعركة كان يجلس تحت سياج من النباتات ومعه ابنا الملك وقد أخذ يقرأ كتابا ٠٠

وأحس هارفى بأعباء السنين وما عاناه من داء فى مفاصله وتعذر عليه ان يواصل أداء رسالته الطبية بسبب الحرب وفى عام ١٦٤٦ اعتزل الخدمة وعاد الى حياته الخاصة ولم يعد يراه أحد فى البلاط الا أنه استمر

في القاء محاضراته ومواصلة أبحاثه فى علم التشريح فى كلية الأطباء ومع انه انتخب مديرا للكلية ، فقد رفض المنصب متعللا بكبر سنه وضعفه ومع ذلك فانه لم يتوقف عن دراسة وتشريح الانسان والحيوان حتى أواخر أيامه ٠٠ وما الكثير من معلوماتنا فى العصر الحاضر الا ثمرة السنوات الطويلة التى قضاها فى الدراسة والتجربة ٠ وفي يونيو عام ١٦٢٧ مات هارفى بعد ان بلغ الثمانين من عمره ودفن في همبستيد بمقاطعة اسكس حيث لا يزال قبره قائما ٠

الرســـالة

تتألف رسالة هارفي من مقدمة طويلة ومن سبعة عشر فصلا مبوبا تبويبا مدرجا منطقيا ٠

أما المقدمة فسنتناولها بشيء من التفصيل لدلالتها على حالة هارفي الفكرية عندما شرع في دراسته وعلى طريقته في النقد والتحليل ٠ يبدأ هارفي بسرد أقوال من سبقه من العلماء وعقائد العامة وما جرى عليه التقليد ليثبت منها ما يطابق الحقيقة وليصحح الخطأ وهذا عن طريق المقارنة بنتائج التشريح والتجارب المتكررة والملاحظات المضـــبوطة اذ أن المشرحين والأطباء والفلاسفة كانوا مجمعين في تبعيتهم لرأي جالينوس وهو أن حركة النبض والغاية منه لا تختلفان عنهما فيما يخص التنفس ٠ اللهم في أن الأول يتناول الروح الحيواني والثاني يتناول الروح الحيوي ٠ ومن هنا أكدوا ــ كما أكد ذلك أيضا هيرونيموس فابريسيوس دي أكوابندنتي في الكتاب الذي نشره عن التنفس قبل ظهور المؤلف الذي نحن بصدده أنه بما أن نبض القلب والشرايين لا يكفيان لتهوية القلب ولتبريده فان الرئتين شكلتا للاحاطة بالقلب فيبدو من تلك الأقوال ان كل ما ذكر عن الانقباض والانبساط انما قيل بالاشارة الى الرئتين ولكن بما ان تكوين القلب وحركاته تختلف عن تكوين الرئة وحركاتها ، وبمـــا أن حركة الشرايين تختلف عن حركة الصدر فان هارفي رجح أن لهذه الحركات أغراضا وأفعالا مختلفة ٠

ثم يمضي الى سياقة البرهان على ان الأوعية لا تحوي الا دما مستندا الى تجارب جالينوس والى تجاربه الخاصة ويفسر وجود الروح في الدم بأن فصلهما محال كما أن الفصل بين الماء وحرارته محال ٠

ثم يمضي في اعتراضـــاته فينكر أنه يمكن الاستنتاج أن النبض والتنفس غرضهما واحد وهذا من ان الظاهرتين تسرعان وتقويان سويا تحت تأثير العوامل المختلفة ــ وهذا ما قاله جالينوس ــ اذ أنه يمكن ملاحظة تباين بينهما في حالات يذكرها ــ كما يهاجم الفكرة القائلة بأن وظيفة البطين الأيمن هي التغذية بينما ان وظيفة البطين الأيسر هي صناعة الروح

الحيوى والحياة ـ بانيا حجته على تشابه البطينين من حيث تجهيزهما بالألياف وبما يشبه الشدادات وبالصمامات .. الخ . ومن حيث وجود دم اسود متجلط فى الأذينين عندما تشرح الجثة ومن حيث تشابه عملهما وحركاتهما ونبضهما . ويتساءل لماذا عمل الصمامات ، وهى متشابهة التركيب ، تارة بالدم وطورا بالروح ، ولماذا يتساوى الشريان الرئوى بالوريد الرئوى فى الحجم ان لم تكن وظيفة كل منهما متماثلة ويعيد سؤال ريالدو كولمبو : « ولم تسرى فى الشريان الرئوى تلك الكمية الضخمة من الدم التى تساوى مجموع ما يمر فى الوريدين الحرقفيين ؟ » ويمضى فى أسئلته : « اذا كان البطين الأيسر يستمد خاماته (دم وهواء) لصنع الروح من الرئة ومن جيوب القلب اليمنى واذا كان يرسل الدم المشحون بالروح الى الأورطا ثم يسحب من الأورطا عينها الابخرة الدخانية ليدفعها الى الرئة عن طريق الوريد الرئوى ، واذا كان الروح يستمد من الرئة ليوصل الى الأورطا فكيف يفصل بين الروح والابخرة وكيف يستورد كل منهما ويصدر عن الطريق نفسه دون حدوث أى اختلاط بينهما ؟ » . ثم يسأل أيضا : « اذا كانت الصمامة المترال تسمح بمرور الأبخرة الى الرئة فكيف تقف فى سبيل الهواء ؟ » .

وينتهى قائلا : « يا الهى ! كيف تعوق الصمامة المترال ارتداد الهواء ولا تعوق ارتداد الدم ؟ كيف يسندون وظيفة واحدة الى الشريان الرئوى ذى الغلاف الشريانى (أى القوى) بينما يولون الأوردة الرئوية المرنة والرخوة ثلاث أو أربع وظائف ؟ انهم اذ يقولون ان الأبخرة تسرى فى الوريد الرئوى من القلب الى الرئة وان الهواء يسرى فيه من الرئة الى القلب أقول ان الطبيعة لم تعتد تخصيص مجرى واحد لحركات عكسية واذا كانت الأبخرة تتسلل الى الوريد كما تتسلل الى الشعب فلم لا تنطلق من الوريد الرئوى اذا فتح ؟ » .

وآخر هجوم يشنه هارفى على الأقدمين فى هذه المقدمة يوجهه الى عقيدة اعتنقها العالم قرونا وأخذها عن جالينوس وان كان ثار عليها ابن النفيس قبله بأربعة قرون وهى الايمان بوجود مسام بين البطينين .

ويمكن تقسيم حججه الى ست نقاط :

أولا : يؤكد عدم وجود أية مسام فى الحاجز بل أن قوام الحاجز أسمك وأصم منه فى أى جزء فى الجسم عدا العظام والأوتار .

ثانيا : يفرض جدلا وجود هذه المسام فيسأل كيف ينفذ شىء من بطين الى الآخر اذ أنهما ينقبضان وينبسطان معا .

ثالثا : يسأل لماذا لا يقال ان الأيمن هو الذى يستمد الروح من الأيسر بدلا من العكس ؟ .

رابعا : يستعجب مرور الدم من مسام لا ترى بينما خصصت للهواء مجار واســـعة .

خامسا : ما فائدة الشرايين الاكليلية التى تغذى الحاجز اذا كان الدم يمر فيه .

سادسا : اذا كانت الطبيعة اضطرت فى الجنين ــ وأنسجته رخوة الى تمرير الدم من اليمين الى اليسار عن طريق الفتحة البيضاوية فكيف سهل عليها فى البالغين تمريره دون مجهود عبر الحاجز الذى يزداد صلابة مع السن ؟ .

ويختم هارفى دفعه مستنتجا ، مما يشوب أقوال الاقدمين من قصور وتضارب وغموض ضرورة اعادة النظر فى القضية بأجمعها .

***

سرد هارفى فى الفصل الأول بعد مقدمته الدوافع التى حفزته الى الكتابة وهى حيرته التى شبهها بحيرة أرسطو ازاء مد وجزر نهر يوريوس والنقص فى مؤلف هيرونموس دى أكوابندنت الذى عرض لكل أجزاء الجسم عدا القلب ثم تناول فى الفصول الأربعة التالية مشاهداته فى حركة القلب (فصل ٢) ، وحركة الشرايين (٣) وحركة القلب والأذينين (٤) وعمل القلب ووظائفه (٥) كما تشاهد فى الحيوانات الحية ذاكرا أنه اجرى هذه المشـــاهدات على ذوات النبض البطىء كالضفادع والثعابين والأسماك والقواقع وأبى جلمبو والمحار وفى الحيوانات الثابتة الحرارة قبيل وفاتها عندما تبطؤ حركة قلوبها . ولاحظ أن القلب ــ فى وقت ضربة النبض ــ يرتفع ويضرب الصدر وينقبض ويتصلب كعضلات العضد عند الحركة ويشحب لونه ويندفع منه الدم بشدة اذا وخز وهذا على نقيض الرأى المألوف بأن النبض يحدث عند امتلاء القلب وأن حركة القلب الجوهرية هى الانبســـاط وكذلك على نقيض قول فيزاليوس أن ألياف القلب موضوعة على شكل حزم متوازية من الصفصاف متى تنقبض تقترب قمتها من قاعدتها فتنبعج جوانبها كالأقواس ويتسع تجويفها ويدخل فيه الـــدم .

أما الشرايين فانه لاحظ أن امتلاءها يقارن انقباض القلب وأنها فى هذا الحين فى حالة انبساط وأن هذا صحيح أيضا فى حالة الشريان الرئوى

والبطين الأيمن كما أن النبض يقف عند توقف البطين ويضعف اذا ضعف انقباضه وأن الدم يندفع بقوة من الشرايين اذا وخزت وقت انقباض القلب وانبساط الشرايين · فاستنتج من هذه المشـــاهدات أن انقباض القلب يعاصر انبساط الشرايين وأن الشرايين تمتلئ كالقرب بدفع الدم الذى يأتيها من القلب وأنها لا تتمدد من ذاتها كالمنفاخ وأن كل شرايين الجسم تتمدد تحت تأثير محرك واحد هو انقباض البطين كما تنتفخ أصابع القفاز معا اذا نفخ فيه وهنا ذكر حالة مريض بورم شريانى فى الرقبة كان نبضه فى الناحية المصابة أضعف منه فى الناحية الأخرى لأن جزءا من الدم تحول الى الورم · أما عن الأذينين فبدأ يقول ان « بوهان » « وريولان » وهما من أوسع الناس علما وأكثر المشرحين مهارة قد وصفا أربع حركات للقلب تمتاز فى المكان والزمان : اثنتين للأذينين واثنتين لبطينين وهو مع احترامه لهما يقول انها أربعة فى المكان ولكنهـــا اثنتين فى الزمان لأن الأذينين متواقتان والبطينين متواقتان وان حركة الأذينين تســـبق حركة البطينين وانه قبيل الوفاة يتوقف البطينان بينما يستمر الأذينان فى الحركة فاذا وضع أصبع على البطين يمكن حس انقباض الأذينين واذا استؤصلت قمة البطين اندفع منها بعض الدم كلما انقبض الأذينان ، الأمر الذى يدل على دخول الدم الى البطين مدفوعا بانقباض الأذينين ليس مجتـــذبا بانبساط البطن · ثم أضاف ملاحظات مهمة منها أن قطعا من القلب تستمر فى الانقباض بعد فصلها مدة من الزمن وشبه هذا بعضلات بعض الأسماك كما أشار الى بعض الملاحظات الأخرى عن ظهور حركة القلب فى الأجنة ·

ثم عرض نظرية دورة الدم مفصلة فى ثلاثة فصول (الســـادس والسابع والثامن) وهنا لمس سبب حيرة من سبقه وهو العلاقة الوثيقة بين القلب والرئتين وتشعب الشريان الرئوى والوريد الرئوى فى الرئة وضياعهما فيها ، وهو أمر حير العلماء فى تفهم الوسيلة التى يوزع بها البطين الأيمن الدم والتى يستمده بها البطين الأيسر فدفعهم الى فرض وجود مسام بين البطينين · وهذه القضية أفرد لها الفصل السادس حيث بدأ بملاحظات فى التشريح المقارن قائلا ان الدم فى الحيوانات ذوات البطين الأوحد ـــ كالأسماك ـــ يمر من الأوردة الى الشرايين عن طريق هذا البطين المشترك وبما أن عدد هذا النوع من الحيوان ـــ من أسماك وزواحف يفوق بكثير عدد الحيوانات الأخرى فيجب قبول مبدأ عام هو وجود طريق مفتوح لنقل الدم من الأوردة الى الشرايين عن طريق تجاويف القلب على انه قانون عام ·

ويتدرج من البرهان المستمد من النشوء القبلى الى النشوء الذاتى ويقول ان علاقة الأوعية المرتبطة بالقلب تختلف فى أجنة الحيوانات ذوات الرئة عنها فى البالغين ·

وفى الفصل السابع يقول : انه ليس هناك ما يمنع تسلل الدم من البطين الأيمن الى الأوردة الرئوية عن طريق الرئة وشبه هذا بمرور العرق فى الجلد وادرار البول من الكلى بعد شرب كمية من الماء من ان نسيج الكبد والكلى اللذين تمر منهما السوائل أكثف بكثير من نسيج الرئة بالاضافة الى ان نبض البطين الأيمن يدفع الدم بقوة فى الرئة فيوسع أوعيتها ومسامها وأن حركة الرئة فى أثناء التنفس تفتح وتغلق المسام والأوعية كما يحدث فى الاسفنج ٠

وفى الفصل الثامن يقول : انه استنتج بالتأمل فى حجم الأوعية ومن كمية الدم التى تنقل فيها ، ومن قصر الوقت الذى يستغرقه النقل ، ومن استحالة ورود كل الدم من الأطعمة دون ان تفرغ الأوردة أو تنفجر الشرايين اللهم الا اذا وجد الدم سبيلا يسلكه ليعود من الشرايين الى الأوردة ، استنتج من كل هذا وجود حركة دورية للدم ، تحقق منها فيما بعد بالبرهان ، كما تحقق من ان البطين الأيسر يدفع الدم فى الشرايين فيوزعه على أجزاء الجسم كما يوزعه البطين الأيمن فى الرئة ، ثم يمر الدم فى الأوردة والوريد الأجوف ويعود الى البطين الأيسر ، وبهذه الطريقة تغذى الأنسجة بدم دافىء لطيف كامل مشبع بالغذاء ٠ وبالعكس فان هذا الدم فى الأنسجة يصبح باردا متجلطا نافذ المفعول فيعود الى القلب ليستعيد الكمال ٠

وفى الفصل التاسع يتناول هارفى المسألة بالحساب ، واستعمال الحساب عند العرض للمسائل الحيوية هى بدعة ابتدعها ، فيقدم ثلاثة براهين وهى :

أولا : أن الدم ينقل دون انقطاع من الوريد الأجوف الى الشرايين بكمية لا يمكن ان تتوفر من الأطعمة ٠

ثانيا : أن الدم يدفع فى مجرى مستمر ومتساو غير منقطع فى كل عضو من أعضاء الجسم بكمية تفوق بكثير حاجتها الغذائية ، كما أنها تفوق ما توفره كمية السوائل بأجمعها ٠

ثالثا : أن الأوردة تعيد هذا الدم بالطريقة نفسها ٠ ثم يفترض هارفى أن سعة تجويف القلب عند امتلائه أوقيتان من الدم وان ربع أو حتى ثمن هذه الكمية يخرج منه مع كل نبضة ، فان القلب بعد نصف ساعة يكون قد ضرب أكثر من ألف ضربة واحيانا أربعة آلاف ، وتكون بهذا كمية الدم المطرودة نحو ألف مرة نصف أوقية أى كمية تفوق ما يحويه الجسم

بأجمعه . ثم يفرض جدلا ان هذا لا يحدث الا مرة واحدة يوميا فانه مازال واضحا ان كمية الدم التى تمر فى القلب تفوق كل ما يدخل الجسم من طعام أو كل ما تحويه الأوردة وهذا يفسر امكان تفريغ جسم الحيوانات مما تحويه من دم فى وقت قصير بفتح شريان ، كما يفسر الظاهرة التى دعت الأقدمين الى الاعتقاد بأن الشرايين لا تحوى الا روحا فى أثناء الحياة ، اذ أن الشرايين فارغة بعد الموت بينما الأوردة ممتلئة ، هذا الى أن الدم لا يمكنه المرور من الأوردة الى الشرايين بعد أن تنقطع حركة الرئة ، ولكن بما ان القلب يستمر فى النبض بعد وقوف الرئة فان البطين الأيسر يستمر فى تفريغ الدم فى الشرايين دون أن يصل اليه شىء منه ، وهذا هو السبب أيضا فى توقف الأنزفة فى حالة الاغماء عنـدما تضعف حركة القلب ، وفيما يجده القصابون من صعوبة فى جمع الدم اذا لم يسرعوا فى فتح رقبة الثور بعد ضربه على رأسه قبل أن يتوقف قلبه .

أما الفصول العاشر والحادى عشر والثانى عشر فان هارفى يصف فيها تجربة ربط الوريد الأجوف فى الثعبان ، وهى العملية التى يتبعها فراغ الجزء الموجود بين موضع الربط وبين القلب ، وزوال اللون الأحمر من القلب ، وانكماش حجمه لقلة الدم الموجود فيه ، وكل هذا يعود الى أصله اذا ما فك الرباط . أما اذا ربط الشريان فان الجزء الموجود بين القلب وموضع الربط يمتلىء حتى يكاد ينفجر ويزيد لونه احمرارا ، وفى هذا دليل على ان أسباب الموت على نوعين : الوفاة بالنقص والوفاة بالاختناق أو الامتلاء .

وفى الفصل الثالث عشر يفسر اتجاه مرور الدم من الأطراف الى القلب فى الأوردة على أنه نتيجة لوجود صمامات فى الأوردة .

وفى الفصل الرابع عشر سرد نظريته فى الدورة الدموية .

ولم يفت هارفى ــ وهو كما رأينا قد تشبع بالنزعة التجريبية ــ ان يدعم بالحجج المألوفة فى ذاك الزمن وقد ساق تلك الحجج فى الأبواب الثلاثة التى ختم بها ليبرهن بها على أن الدورة ضرورية :

اولا : القلب منبع الحرارة والحيوية فيجب ان يعود الدم اليه بعد تبريده فى الأطراف ليستعيد حرارته .

ثانيا : ان القلب هو المخزن المركزى الوحيد الذى يوزع الدم على كل عضو بالنسبة الواجبة وهى نسبة يحددها حجم الشريان الذى يغذى العضو .

ثالثا : ان توزيع الدم وحركته يحتاجان الى محرك هو القلب .

وفى الفصل السادس عشر يستنتج الدورة للامتها لبعض الملاحظات: كالتى تتعلق بالجروح المسمومة وعض الثعابين والحيوانات المصروعة والعدوى بالزهرى .. الخ حيث يصاب الجسم بأكمله بينما يبدو محل العدوى سليما الأمر الذى يدل على سير العدوى عن طريق الدم الى القلب الذى ينشرها فى الجسم أو كالتى تتعلق بتأثير العقاقير على الجسم عند استعمالها من الخارج بسبب امتصاصها فى الأوردة كما تمتص الأطعمة من الأمعاء .

أما الباب السابع عشر وهو الأخير فهو باب فى التشريح المقارن يبدأ فيه فيقول ان الحيوانات البدائية كالديدان ليس لها قلب لبرود طبعها وصغر حجمها وتساويها فى القوام لأنها لا تحتاج الى محرك بل انها تمتص وتطرد بحركة من جسمها بأكمله كأن الجسم يستعمل على نحو قلب .

أما فى غير هذه الحيوانات فان القلب يزيد فيها حجما وتعقيدا ويزيد عدد تجويفها كلما زاد حجم الحيوان وكمية دمه حتى ان أكملها يحتاج الى بطين ثان والى رئتين وكلما وجدت رئتان ، وجد بطين أيمن وهذا لايوجد ان لم يوجد أيضا بطين أيسر ثم أوما الى ان البطين الأيسر أسمك وأضخم وأقوى من الأيمن وان الشدادات والعصائب اللحمية فيه أسمك فى البالغين وفى الذكور وفى ذوى الأجسام القوية العضلات منها فى غيرهم وهذا لأن مجهوده فى توزيع الدم للجسم كله أكبر من مجهود البطين الأيمن .

وبعد هذا تأمل فى الصمامات التى لاتسمح بمرور الدم الا فى اتجاه واحد ثم فى الاذين وبخاصة فى الاذين الأيمن الذى سماه المحرك الأول للقلب (وهو فى هذا اصاب اذ أن مركز حركة القلب موجود فى البطين الأيمن)وفى هذا الجزء من تاملاته أظهر معرفة مستفيضة بعدد ضخم من الحيوانات ثم قال ان حجم الاذين بالنسبة الى البطين أكبر فى الجنين منه فى البالغين كما ان الاذين ينشأ قبل البطين لأن الجنين الصغير لايحتاج الى بطين وأن الطبيعة لاتخلق عضوا الا اذا كانت خصصت له وظيفة .

وانتهى مؤكدا مع أرسطو ان القلب ملك الجسم فانه يتكون فيه قبل غيره . ويملك أقوى سلطة . وهو الأصل والمنبع لكل قوة .

★★★

وقد نتج عن نشر هذا المؤلف خلاف بين معاصديه وأعدائه من علماء وفلاسفة وكتاب تردد صداه أكثر من نصف قرن فقد أخذ بنظرياته فى انجلترا « هايمور » و « لوور » . وفى الدانمرك أقرها « نيلزستينسن » وفى هولاندا « سيلفيوس » وفى ألمانيا « كونرنج » ولكن موافقة هولاء العلماء الممتازين لم تمنع التقليديين من شن حملة تهكم على الانتقاد التافه والحجج الخاطئة .

وأول من هاجمه فى انجلترا « برمروز » سنة ١٦٣٠ الذى اتهمه بالاقتباس والنقل وفى ايطاليا قال « جيوفانى دلاتورى » عن نظريته انها فضيحة رجل يحاول هدم عقائد تتصف بالكمال ونظـــريات تدعو الى الاعجاب ، وقال عنها « باتان » فى فرنسا انها خاطئة وضارة ومنافية للعقل . ومن الطريف أن الأدباء انحازوا له فى المعركة فسخر « بوالو » و « موليير » من أعدائه ايما سخرية وعلق « باسكال » قائلا : « اننا اذا ما اعتدنا الاستعانة بالبراهين الخاطئة عجزنا عن قبـــول البراهين الصائبة عند الكشف عنها » .

ولنضرب مثالا للنضال العنيف الذى هز الدوائر العلمية فى ذاك الوقت بما حدث فى باريس فان ريولان الذى ذاع صيته فى عهد لويس الثالث عشر وتقلد منصب عميد أطباء باريس وطبيب الملكة الوالدة الأول استمر يلقى على تلاميذة نظريات أبقراط وجالينوس غير مكترث بنظريات هارفى أو من سبقه فيها أمثـــال « سرفتوس » أو « كولومبـــو » أو « سيزالبينـــو » ولـــكن لويس الرابـــع عشر تبنى النظـــرية الجديدة بتأثير « داكين » فأمر « ديونيس » جراح الملك الأول بتدريس الحقائق التشريحية الجديدة بالاستعانة بالتشريح على رغم مقاومة شديدة ممن دعوا احتكار تعليم التشريح . وأصدر الملك أمرا عن طريق البرلمان سجل سنة ١٦٧٣ باجراء العمليات التشريحية والجراحية فى الحديقة الملكية بأبواب مفتوحة وبدون طلب أى أجر لمشاهدتها كما أمر بتفضيل من يقومون بهذه الدروس عند توزيع الجثث وقد نشر ســـنة ١٦٩٠ ديونيس مؤلفا أسماه « تشريح الانسان طبقا للدورة الدموية » وهذه التسمية تدل على مدى النفوذ الذى اكتسبته النظرية الجديدة ..

البخيل

مولير

١٦٦٨م

من المؤكد أن القرن السابع عشر هو العصر الذى حصل فيه الغرب على تراثه المسرحى الحقيقى ، فقد افتتحه شكسبير واختتمه موليير ومما يدعو الى العجب ان ثمة مقارنات تدعو الى التقريب بين هذين العملاقين من عمالقة المسرح · كما انه فضلا عن أوجه الشبه بينهما فان الأسطورة والخرافة تشيران بالنسبة لهما تساؤلات متشابهة ، ومن جهة أخرى فبينما يشكك بعض الباحثين فى حقيقة شخصية شكسبير نجد آخرين يدعون ان « موليير » لم يكن سوى اسم مستعار يخفى وراءه مجموعة من المؤلفين لم تكن مواهبهم لتكتسب شهرة عن طريق المسرح ! وزيادة فى السخرية أو التنبؤ التاريخى كان لابد ان تكون هاتان العبقريتان قد نبعتا من أكثر الطبقات تواضعا فى عصريهما فالأول ابن جزار والثانى ابن بائع سجاد !

★★★

وهناك تواريخ ليس من حق البشرية ان تجهلها هى تلك التى تشير الى أهم الأحداث التى تخللت حياة الفياقرة ، ذلك لأن الانتاج الانسانى الفذ لا يجب ان ينسى ظروف الحياة التى نبع منها والتى يمكن ان تكون زاخرة بالعبر والدروس · وحياة موليير تضم بعض هذه التواريخ : انها تقع فى نصف قرن من الزمان · واذا كان التاريخ قد سجل بدايتها (١٦٢٢) فلأنه أجبر على تسجيل نهايتها (١٦٧٣) ! فما أهمية تاريخ ميلاد انسان لم يترك أثرا يشعر بفداحة الرزء حين يموت ؟ وبين عام ١٦٢٢ الذى أدرك فيما بعد أنه كان ايذانا بقرب مولد الكوميديا الحقيقية فى فرنسا وعام ١٦٧٣ الذى اتضح فيما بعد كذلك انه كان نذيرا بموت هذه الكوميديا ، أقول ان بين هذين التاريخين تقع عدة تواريخ أخرى بالغة الأهمية فى حياة الأدب والفن ·· هى تلك التى اتحف فيها موليير الأدب والمسرح العالميين بسبع أو ثمان من أروع رواياته ·

وحياة موليير لاتزال موضوعا لكثير من الآراء المتناقضة وربما كان من العوامل التى لاتعين على معرفة الكثير عنها بالدقة خلو انتاجه من التفاصيل التى تتعلق بها ·· كل ما نعرفه عن طفولته وصباه هو ان جان باتيست بوكلان ولد فى باريس وان أباه كان يجمع بين الانجار فى السجاد ووظيفة خادم للملك وانه درس على يد اليسوعيين فى كلية كليرمونت ثم درس الحقوق فى أورليان كما تتلمذ فى دراسة الفلسفة على

جاسندى الذى حببه فى الشاعر اللاتينى لوكريس وانه اشتغل بالمحاماة فترة قصيرة لم يترافع خلالها سوى مرة واحدة وانه اندفع نحو المسرح بميل طبيعى قوى لم يستطع مقاومتـــه ويقـــال انه فقد أمه وهو فى الحادية عشرة من عمره وان أباه كان فظا بخيلا وان جده لأمه لويس كريسيه هو الذى غرس فيه حب المسرح اذ كان يصطحبه دائما الى المسارح التى يغشاها وفى كل مرة كان جان بوكلان يشهد فيها احدى الروايات كان يعود بعدها الى بيته ممتقع اللون ويغرق فى تفكير عميق يزيده سخطا على مهنته . ويقال كذلك انه حين قرر التفرغ للمسرح لقى معارضة شديدة من والده الذى لجأ الى شتى الوسائل لثنيه عن عزمه : بذل له الوعود ثم عمد الى الوعيد ثم عهد بمهمة انتزاع فكرة المسرح من ذهنـــه الى أستاذ قديم له يدعى جورج بينيل والطريف ــ وهذا يقال أيضـــا ــ ان الفتى لم يكتف بالرسوخ أمام مساعى معلمه القديم وانمـــا وفق فى اقنـــاعه بالعمـــل معـــه !

وفى يونيو ١٦٤٣ اتفق « جان باتيسد » مع ثلاثة أفراد من أسرة بيجار (جوزيف ومادلين وجنوفييف) وعدد آخر من الرفاق (سبعة) وأستاذه القديم بينيل (الذى سمى نفسه لاكوتير) على انشـــاء فرقة مسرحية أطلقوا عليها اسم « المسرح العظيم الفخم » وهنـــا سمى جان باتيسد نفسه « موليير » وظلت الفرقة تستأجر المسرح تلو المسرح وتصاب بالاخفاق تلو الاخفاق الى أن أبهظتها الديون واستحال بقاؤها فى باريس . كان موليير مديرها الفعلى بالرغم من حداثة سنه ويقال انه سجن مرتين بسبب الديون التى كانت تثقل كاهلها وجمعت الفـــرقة أمتعتها ولاذت بالريف فى أواخـــر عام ١٦٤٥ ولم ترجـــع الى باريس الا بعد ثلاثة عشر عاما عرفت خلالها حياة التجول .. وأعجب بموليير أمير كونتى زميله القديم فى المدرسة فأراد ان يعينه سكرتيرا له ، لكنه رفض بدافع من حبه لمهنته وتعلقه بفرقته وحرصه على اســـتقلاله . فى احدى جولات الفرقة فى روان حصل موليير على اذن من دوق أورليان شقيق الملك ــ بأن يمثل فى باريس أمام الملك . وفى ٢٤ أكتوبر ١٦٥٨ قدمت الفرقة فى قصر اللوفر مأساة لكورنى وملهاة هزلية من تاليف موليير هى الدكتور المحب . وأعجب لويس الرابع عشر بالفرقة فسمح لها بأن تستقر فى باريس وبأن تسمى نفسها « فرقة شقيق الملك » وان تقدم حفلاتها فى مسرح البوربون الصغير بالتناوب مع فرقة الايطاليين وحين أزيل مبنى هذا المسرح فى عام ١٦٦٠ تغير اسم الفرقة باذن من الملك فصار (الفرقة الملكية) وانتقلت الى « صالة » ملحقة باللوفر كانت مخصصة لحفلات القصر كما كانت تعار فى بعض الأحيان لهذه الفرقة أو تلك من الفرق الباريسية .. وظل موليير يمثل فيها الى ان توفى

فاتحدت فرقته مع فرقة ماريه ثم حدث توحيد جديد يأمر بادماج فرقة بورجوني فكان ميلاد فرقة الكوميديا فرانسيز أو « المسرح الفرنسي » (١٦٨٠ ـ بعد وفاة موليير بسبع سنين) .

في عام ١٧٤٠ سئلت ابنة الممثل الكوميدي بواسون عن أوصاف موليير وكانت في شيخوختها واعتمدت في ردها على ما وعته ذاكرتها قالت : « ليس بالضخم ولا بالنحيف .. أقرب الى الطول منه الى القصر .. يمشي بخطى ثابتة .. أساريره جادة .. أنفه وفمه كبيران .. شفتاه غليظتان لونه خمري .. حاجباه كثيفان .. دمث ، مجامل ، كريم .. » ولنتوقف قليلا عند هذه الصفات الأخيرة فلقد أكدتها فعلا شهادة المعاصرين .. ان لحسن حظ الانسانية أن تقترن العبقرية في معظم الأحيان بالسمو الخلقي . كان موليير معتل الصحة تعسا في حياته الزوجية ينوء بشتى أنواع الهموم ولكنه كان كبير القلب وكفى .. يقول عنه زميله في التمثيل لاجرانج انه كان يتميز بجميع الصفات التي تجعل منه رجلا شريفا حقا .. ويكتب ممثل آخر اسمه بريكور بعد وفاة موليير مسرحية من وحي حياته « ظل موليير » يقول : « لقد كان (موليير) في حياته الخاصة كما كان في مغزى مسرحياته : شريفا صادق الحكم انسانا صريحا كريما .. » ولعل من أبرز صفاته كذلك صداقته النادرة . وتاريخ الأدب يسجل أواشج الود الخالص الأكيد التي ربطت بينه وبين كثيرين من كبار معاصريه أمثال بوالو وراسين وشابل ولافونتين وكورنى بل يسجل كذلك انه لم يمزق صداقته لراسين حين تنكر له مع انه كان قد أحاطه برعايته في مستهل حياته الأدبية (انتزع راسين من فرقة موليير واحدة من أكبر ممثلاتها هي الآنسة دي بارك كما استرد منها تراجيديته « الاسكندر » وعهد بتمثيلها الى فرقة أخرى منافسة هي فرقة بورجوني .

وكان موليير كريما فعلا والى حد السخاء وتدل على ذلك شواهد عديدة تسجل أنه أعان في حياته أناسا كثيرين بل ان هذا السخاء اتخذ شكلا أسطوريا يحكي أنه صادف ذات مرة في الطريق رجلا معوزا فدس في يده قطعة نقود .. ولم يكد يدير ظهره حتى نظر الرجل اليها فوجدها من الذهب .. فأسرع الى موليير وقال له : « لعلك لم تتعمد اعطائي هذه القطعة الذهبية ولذا فاني أردها اليك » ولكن موليير رد عليه قائلا : « خذ ياصديقي هاك قطعة أخرى » وصاح قائلا : « أين ستعثمش الفضيلة ؟ » .. وحين تجهم القدر لأبيه في شيخوخته لم يتردد في ان يمد اليه يد المساعدة ! لقد تناسى أن أباه هذا كان قد ضن عليه بجزء من ماله الوفير يوم كان المسكين يتخبط في مستهل حياته العملية ويوم تركه يدخل السجن الذي زج به الدائنون اليه .

وزواج موليير من أخطر الأحداث التى أثرت فى حياته . كان فى الأربعين من عمره حين تزوج من فتاة تصغره بثلاثة وعشرين عاما كان قد عرفها وهى فى مهدها هذه الفتاة وهى أرماند بيجار شقيقة زميلته فى الفرقة مادلين ولم يكن فارق السن هو المظهر الوحيد لعدم توافق الزوجين فقد كانت أرماند ـ وهنا العنصر الهدام فى حياتهما ـ تافهة الى حد الحمق عابثة الى حد التهتك وكانت حياة موليير معها سلسلة من الخلافات المنيفة ومصدرا لتجهمات جائرة .. وكثر القيل والقال وتواترت الاشاعات الى حد ان ممثلا بفرقة بورجونى (المنافسة لفرقة موليير) بعث الى الملك برسالة اتهم فيها موليير بأنه متزوج من ابنته التى أنجبها من خليلته السابقة مادلين بيجار .. على ان الشىء الذى يعنينا هو ان زوجة موليير لم تكن جديرة به وان بعدها عن مستوى عبقريته وعبثها الدنىء قد سمما حياته وأصاباه بتعاسة دائمة .

وظل موليير ينوء بحياته الخصبة والمريرة معا : يدير أكبر فرقة مسرحية فى باريس ويؤلف لها المسرحية تلو الأخرى فى سرعة فائقة (ثلاث مسرحيات فى النصف الأول من عام ١٦٦٨) ويقوم بتمثيل الدور الأول فى كل منها .. وكل ذلك فى جو خانق من القلق والضيق يضاعف تسممه التهاب رئوى وسعال حاد متقطع . وقبل وفاته بشهرين أشفق عليه صديقه بوالو فحاول اقناعه بالكف عن التمثيل وبالاكتفاء بالتأليف ولكن موليير رفض ان يتخلى عن فرقته وان يتوقف عن تأدية رسالته كاملة .. وأقبل ذلك اليوم المشئوم فى حياة الأدب والمسرح ١٧ فبراير ١٦٧٣ .. كانت « الفرقة الملكية » تمثل مسرحية « مريض الوهم » للمرة الرابعة اشتدت العلة على موليير وهو يقوم بدوره بشكل لحظه الجمهور ولكنه بذل من الجهد الجهيد ما مكنه من مواصلة دوره حتى نهايته وهنا نقل الى بيته ولم يكد يأوى الى مضجعه حتى أخذ سعاله يتضاعف فى عنف أدى الى انفجار أحد شرايين رئتيه ففقد النطق وتدفق الدم من فمه . ثم قضى نحبه فى نفس الليلة وظل رجال الدين حانقين عليه حتى بعد وفاته اذ بقيت مسرحيته « طرطوف » ماثلة فى مخيلاتهم : تباطأ القس الذى استدعى فى المجىء ولم يصل الا بعد الحاح طويل وحين كان موليير قد فارق الحياة ورفضت كنيسة « سانت أوستاتش » أن يدفن كالمسيحيين وتحرج الموقف واضطرت زوجته الى الالتجاء الى الملك ملتمسة منه التدخل لدى كبير أساقفة باريس ونجحت مساعى لويس الرابع عشر بعض النجاح اذ أذنت الكنيسة بالدفن على ان يتم ليلا بدون صلاة على الجنمان ولا احتفال دينى ! .. سخرية من سخريات القدر ! ولكن أفظع منها ان يحتوى يوم العبقرى ـ كيوم كل الناس ـ على أربع وعشرين ساعة وان تنتهى حياة عبقرى كموليير وهو فى الحادى والخمسين من عمره !!

الانسانية من خصائص عبقرية موليير

من الغريب أن موليير وهو مبتكر الفن الكوميـــدى الحقيقى فى فرنسا كان يميل الى التراجيديا وربما كان مرد ذلك الى تعاسة فى الحياة الا ان مأساته « دون جارسيا دونافار » أصيبت بفشل ذريع كان بمثابة انذار حض موليير على العـــدول عن التراجيديا والحق أنه خلق للفن الملهوى : حدث حين عاد بفرقته الى باريس اثر رحلته الطويلة فى الريف أن مثل مسرحيته الشهيرة « المتحذلقات المضحكات » واذا برجل سمن لايتمالك نفسه من الاعجاب فيطلق هذه الصيحة التى دوت فى أرجـــاء المسرح : « تشجع تشجع ياموليير هاهى الكوميديا الحقيقية » .. لقد كانت تلك المسرحية تبشر بثورة من أجل الذوق السليم .. هذا العبقرى الذى صور عادات عصر اكتشف فى الوقت نفسه خبايا النفس البشرية . أدبه اذن عالمى بقدر ما هو فرنسى يقول سانت بيف : « ان أهم خصائص عبقريته هى الانســـانية الأبدية المرتبطة ارتباطا وثيقا بتصوير عادات عصره وان ملابس شخصياته تخفى تحتها الانسان فى كل العصور » .

وموليير يختلف اختلافا بينا عن كل من سبقه من كتاب المسرح . يختلف عن كتاب الاغريق والرومان وعن كتاب العصور الوسطى والقرن السادس عشر وعن الكتاب الذين ســـبقوه مباشرة يختلف مثـــلا عن أرستوفان لأن ارستوفان صور شعب أثينا أكثر من تصويره الانســـان العالمى بشجاعة نادرة وهجاء بليغ الأمر الذى يمنح مسرحيـــاته قيمـة تاريخية تجعل منها ما يشبه الوثائق عن عهد صاخب من عهود الديمقراطية الاثينية .. اما موليير فقد تصدى للعيوب والرذائل التى تصيب البشرية فى جميع البلاد وجميع الأزمان .. ويختلف عن بلوت لأن كوميديا بلوت — هى الأخرى — هجاء اجتماعى ينصب على اطار محلى هو المجتمع الرومانى فى عصره صحيح ان لهذه الكوميديا طابعا مبتكرا هو ثأرها للعبيد من ساداتهم (عزا بلوت الى العبيد الذكاء والشرف والى السادة الحمق وأحيانا الخسة) الا ان انتاج موليير يدخل فى اطار أوسع يضـــم القصر والمدينة والقرية فضلا عن بهو طويل يحتوى على العديد من آفات البشرية .

نعم يقال ان ميناندر درس القلب الانسانى واستطاع ان يصور الحياة البشرية الا ان أباطرة بيزنطة حرقوا أهم انتاجه استجابة لتوجيه

رجال الدين . اذن فمن العبث ان نبحث عن أوجه شبه بينه وبين موليير أو ان يزعم أحد ان موليير قد اقتدى به .. ويختلف عن تيرانس لأن كوميديا تيرانس ينقصها الابتكار والجسارة وتشبه الخرافات اليونانية أكثر من تصويرها للمجتمع الرومانى فى عهد وتصلح للقراءة أكثر من صلاحيتها للتمثيل . ان موليير يتفوق على هؤلاء جميعا لأن لديه أبرز خصـــائص فنونهم جميعا ويزيد : فنه هو يتميز بنزعة هزلية كنزعة (ارستوفان) وبجسارة ومرح شبيهين بجسارة وملامح (بلوت) وبرقة تذكر برقة (تيرانس) ولكنه يبزهم جميعا بما خلق من نماذج بشرية تصور طبيعة الانسان فى أبرز ملامحها ..

ويختلف موليير كذلك عن كتاب المسرح فى العصور الوسطى لأن المسرح فى تلك الحقبة كان دينيا فى جوهرة .. ويختلف عن كتاب القرن السادس عشر لأن كوميديا هؤلاء الكتاب ، صـــحيحا لم تكن مصطبغة بصبغة دينية ولكنها كانت فى دور التكوين بحيث يستحيل عقد أية مقارنة بينها وبين فن موليير الأصيل .. ويختلف عن أسلافه المباشرين من مقلدى المسرح الأسبانى أمثال هاردى وتيوفيل وسكوديرى وسكاردون لأن انتاجهم كان ينبع من الخيال أكثر من اعتماده على الملاحظة ويخلو من تحليل للشخصيات ويزخر بالمواقف الغريبـــة المعقدة التى يتحتم على الانسان ان يلغى عقله ان أراد تصديقها ، ثم انه يختلف عن كورنى صاحب ملهاة « الكذاب » ، وبالرغم من ان موليير يعترف بأن هذه المسرحية هى التى دلته على الطريق الحقيقى الذى كان عليه أن يســلكه ، فشتان بين كوميديا موليير وكوميديا كورنى فبهذه الأخيرة تصـــور عادات بشرية تختلف باختلاف الناس وتضم مواقف غريبة ملغزة وشخصيات لا تتكلم باسم خالقها وانما كثيرا ما يتكلم المؤلف باسمها ..

وقد كتب موليير قرابة ثلاثين مسرحية أجودها ــ عدا « البخيل » ١٦٦٨ ــ (المتحذلقات المضحكات » ١٦٥٩ « طرطوف » ١٦٦٤ ، ٦٧ ، ٦٩ « المتزمت » ١٦٦٦ « البرجوازى الشريف » ١٦٧٠ « النساء العالمات » ١٦٧٤ « مريض الوهم » ١٦٧٣ .

★★★

المسرحيـــة

وأحداث مسرحية البخيل تدور فى باريس وأهم شخصياتهـا : البخيل هارباجون وابنه كليانت وابنته ايليز وشريف من نابولى يدعى انســـيلم وابن هذا الشريف فالير وابنتـــه ماريان وسمســـار يدعى السيد سيمون وامرأة تقوم بدور « الخاطبة » تدعى فروزين والسيد جاك وهو فى خدمة هارباجون يجمع بين وظيفتى « عربجى » و « طباخ » وخادم كليانت واسمه لافليش .

الموضوع هو تصوير البخيل .. والأحداث تتأتى بمشروعات الزواج التى يكونها هارباجون من ناحية وتلك التى تداعب خيـال ابنه وابنته من ناحية أخرى .. والبخل هو المحور الذى تدور حوله كل هذه الأحداث .. والعقدة تتكون فى اللحظة التى ينبىء فيها هارباجون ابنيه بمشروعاته المتعلقة بالزواج والحل يتم فى النهاية بتدخل الشريف انسيلم .

فى الفصل الأول : تتفق ايليز مع فالير على الزواج وتدبـر معـه حيلة يدخل بها فى خدمة أبيها فيقبله هارباجون فى وظيفة مدير لشئون بيته بدون أجر ويرغب كليانت ـ من ناحيته ـ فى الزواج من ماريان ولكى يتحقق مشروعه يصطدم بشيح أبيه .. انه هارباجون يمتلك مالا وفيرا يخفيه فى صندوق ويخشى ان يكتشفه أحد .. ويستوثق البخيل من ان ماله لم يمس ثم يعود ليطلع ايليز وكليانت على مشاريعه : انه يعتزم أن يتزوج هو من ماريان وان يزوج ابنته من الشريف انسيلم الذى سيعفيها من المهر وأن يزوج ابنه من أرملة غنية !

وفى الفصل الثانى : يبحث كليانت عن وســـيلة لاقتراض بعض المال .. ويسعى خادمه لافليش لتدبير هذا المال بمســـاعدة السمسار السيد سيمون .. ثم يجمع هذا السمسار الشاب بالمرابى الذى ارتضى اقراضـــه ما يريد بعـــد أن فرض شروطا قاسية واذا بكليانت يجد نفسه أمام أبيه وجها لوجه فالمرابى ليس سوى هارباجون نفسه .. وبعد ان يحتدم النقاش بينهما يعود هارباجون الى بيته ليلتقى بالوسيطة فروزين التى أقبلت لتطلعه على نتائج مساعيها المتعلقة بمشروع زواجـــه من ماريان ولتبتز منه بعض المال بفضل تقريظها وتملقها وما تسوق من

أنباء مضللة .. لقد وفقت فى انعاش مزاج هارباجون ولكنها أخفقت فى الحصول منه على قطعة واحدة من النقود لأنه أصم أذنيه فغادرته وهى تدعو عليه بأن « تخنقه الحمى » .

وفى الفصل الثالث : يوافق هارباجون على ان يقيم وليمة احتفالا زواجه من ماريان ! على ألا تكون هذه الوليمة باهظة التكاليف ويظهر شحه الشديد فى التوصيات التى يدلى بها الى خدمه وابنيه .. وتصطحب فروزين ماريان الى بيت هارباجون ولاتكاد هذه الأخيرة تطل على وجهه حتى تتقزز من دمامته .. وتدهش الفتاة اذ تجد الابن — وهو غريم أبيه حاضرا .. الا ان هارباجون يجهل مشروع كليانت .. وتسعد ماريان بهذا الالتقاء ويمعن كليانت فى الاهتمام بها والاشادة بحسن اختيار أبيه بعبارات يصب فيها اعجابه هو بطريقة بليغة تفطن الفتاة الى مغزاها .. ويلمح الخاتم الكبير الذى فى أصبع أبيه فيخلعه فى رفق ليريه لماريان وما أن استقر فى أصبعها حتى يتوسل اليها ان تحتفظ به كهدية من صاحبه ! ويمتقع لون البخيل لكنه لايملك ان يقول شيئا أمام الفتاة وان كان قد كال لابنه أقذع السباب فى الخفاء .

وفى الفصل الرابع : يرتاب هارباجون فى نيات ابنه كليانت اثر موقفه ازاء ماريان فينفرد به محاولا أن ينتزع منه اعترافات تكشف له الأمور .. يسأله عن رأيه فى ماريان فيجيب بأنها مدللة ضحلة الذكاء تافهة العقلية .. ويتصنع هارباجون الأسف : ان التفكير هداه الى الاقلاع عن مشروع زواجه من ماريان بسبب الفارق الكبير فى العمر بينهما ولقد حسب ان ابنه أكثر لياقة منه .. هنا يعترف كليانت بما بينه وبين ماريان من حب متبادل .. ويطير صواب هارباجون ويدور بينه وبين ابنه حوار عاصف .. وتسود الدنيا فى نظر كليانت ثم يتلألأ الأمل فى نفسه : فها هو خادمه « لافليش » يهرول اليه ويلقى فى أذنه بنبأ خطير : لقد سرق الصندوق الذى يحوى مال البخيل حين كان هارباجون منهمكا فى حديثه مع كليانت وهو يضعه تحت تصرف سيده ليعينه على بلوغ مرماه .. ثم يظهر هارباجون بعد أن اكتشف السرقة .. انه فى حالة يرثى لها وهو يرعد ويزبد ويتوعد الدنيا كلها بل يهدد نفسه بالشنق ان هو لم يعثر على ما سرق منه .

وفى الفصل الخامس : يفتح التحقيق فيتهم هارباجون الناس جميعا .. ويبدأ رجل الشرطة مهمته باستجواب السيد جاك الذى يوجه الريبة نحو فالير — (مدير شئون البيت) لأنه لم يكن على وئام معه — اذ يدعى انه ابصره فى الحديقة (حيث كان يوجد الكنز) ...

ويلوم هارباجون فالير على استغلاله طيبته ودخوله بيته بنية خيانته هنا يقع التباس غريب ·· هرباجون يتكلم عن خزانته وفالير يتكلم عن محبوبته ايليز ·· ثم يفطن البخيل الى ما يعنيه فالير بقوله : « انه على استعداد لأن يموت من أجل عينيها الجميلتين » فتتضاعف ثورته ضد فالير الذى يغضب بدوره فيكشف عن شخصيته الحقيقية : انه ابن شريف من نابولى يسمى دون توماس دالبورسى · ويقول انسيلم لفالير انه صديق لذلك الشريف ويطلب اليه اثبات ما يزعم ·· ويظهر فالير خاتما صغيرا من الياقوت وسوارا من العقيق (كان فالير قد حاول عبثا العثور على أبيه بعد ان نجا من الغرق) ·· وتسمع ماريان وترى فتعانق فالير ، انه أخوها ويعانقه انسيلم انه أبوه ! ويطلب هارباجون الى انسيلم أن يدفع قيمة « ما سرقه منه فالير » ! ·· ولا تكشف حقيقة السرقة الا حين يعود كليانت فيعترف بأن الصندوق لديه ويشترط لرده أن يوافق أبوه على زواجه من « ماريان » وتتدخل « ماريان » فتطلب ان يوافق « هارباجون » كذلك على زواج « فالير » من « اليزا » ويفرض البخيل بدوره شرطا : ان يستوثق قبل موافقته من أن يدا لم تعبث بما تحويه خزانته ·· ويخطر « انسيلم » « والد فالير » بأنه لن يستطيع منح ابنته مهرا ·· ويحتم عليه أن يتكفل بنفقات الزواجين ·· ويوافق « انسيلم » على جميع شروط « هارباجون » بما فى ذلك تكفله باعداد ملابس جديدة ليرتديها البخيل فى حفل الزفاف ! ·· وتعم السعادة جميع الحاضرين الا شخصا واحدا هو رجل الشرطة الذى يأبى « هارباجون » ان يدفع له « أتعابه » ·· ويرتضى « انسيلم » ان يتولى هو دفع هذه الأتعاب بينما يصيح « هارباجون » فى نشوة الفرح : « وأخيرا فانى ذاهب لأعيد النظر الى خزانتى ! » ·

تدهور الغرب

اشبنجلر

١٩١٨ م

يعد اشبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦ م) الفليسوف الألمانى من القلائل ذوى النظرة الأصيلة الى التاريخ فلم يكن هذا الفيلسوف ناقلا عن غيره أو متـــأثرا بأحـــد ســـوى جوته ونيتشـــه حينما أعلن رأيه فى التاريخ والحضارة بل كان فى كل ما قاله فى تحليلاته • ولهذا فقـــد كان له تاثير بالغ على من أتوا بعده من فلاسفة التاريخ وخاصة أرنولد توينبى •

ولقد أثارت انتقاداته المختلفـــة للنظريات الأخـــرى فى التاريخ فعلها فى تقويض تلك النظريات وقد استفاد اشبنجلر من اطلاعه الواسع فى التاريخ ومن تخصصه فى العلوم الطبيعية والرياضـــية فى تفسيره للحضارة تفسيرا بيولوجيا •

أحدث اشبنجلر ثورة أشبه بالثورة الكوبرنيكية فى التاريخ حين صحح ذلك الوهم الذى كان يعيشه الأوربى وهو يظن ان حضارته مركز الحضارات كما كان يتوهم كوبرنيكوس أن الأرض هى مركز الكون وهى ثابته وتدور حولها جميع الكواكب فكان المؤرخ الأوربى يتصور أوربا الغربية قطبا ثابتا للحضارات لشتى الحضارات لأنه يعيش فوقهـــا • والثورة الكوبرنيكية التى أحدثها اشبنجلر فى النظر الى التاريخ انه نظر اليه لا على أنه مركزه الحضارة الأوروبية وتدور حولها الحضارات الأخرى ، بل نظر اليه على أنه مكون من حضارات ربما كانت بعضها تفوق الحضارة الأوربية من حيث عدد الشعوب المنتمية اليها ومن حيث قوتها الروحية وهذا يتضح لو ان كل حضارة درست كوحدة منفصلة •

انه يصف بنفسه ما قام به فى كتابه الشهير « تدهور الحضارة الغربية » بأنه اكتشاف كوبرنيكى فى الميدان التاريخى فهو لايعترف بأى مركز ممتاز للحضارة الكلاسيكية أو الحضارة الغربية على الحضارات من هندية بابلية ، صينية ، مصرية ، عربية ومكسيكية • وهذه هى عوالم منفصلة لكينونة ديناميكية لها تماما من حيث الكتله داخـــل الصورة العامة للتاريخ ما للحضارة الكلاسيكية من قيمة ، بينما انهـــا تتجاوز مرارا الكلاسيكية من حيث العظمة الروحية وقوة التسامى والتحليق •

فالتاريخ اذن فى نظر اشبنجلر مكون من كائنات عضوية حية هى الحضارات وكل حضارة منها تشبه الكائن الحى العضوى تمام الشبه

فتاريخ كل حضارة كتاريخ الانسان أو الحيوان أو الشجرة سواء بسواء والتاريخ العام هو ترجمة حياة هذه الحضارات فاذا كان سياق الحياة واحدا بين الأفراد التى تدخل تحت نوع واحد فللحضارات جميعا سياق واحد تسير عليه ٠

★★★

ولد « أزوالد اشبنجلر » فى « بلاكنبرج » بجبال الهارز فى ألمانيا فى ٢٩ من مايو علم ١٨٨٠ ، وتوفى فى ٨ من مايو عام ١٩٣٦ وقد انحدر من ناحيـــة أبيه من أسرة كانت تحترف التعدين وقد نزحت الأسرة من جنوب ألمانيا الى « الهارز » فى القرن السابع عشر وقد اضطر والده ــ لما أصاب مناجم الهارز من الكساد وســوء الحال ــ الى تــرك التعدين والالتحاق بوظيفة فى مصلحة البريد ويعزو صديق « اشبنجلر » الحميم « أوجست البرز » تفوق صاحبه فى الرياضة ومواهبه العلمية الى وراثته من ناحية أبيه كما ورث حبه للفن واستعداده لتذوقه من ناحية والدته ٠

وقد تلقى أزوالد تعليما جامعيا ، فبعد أن تخــرج فى مدرسة « هال » العليا لدراسة الأدب الكلاســيكى ســار على الخطة المتبعة فى ألمانيا وهى الدراسة فى جامعتين أو ثلاث جامعات على التوالى فدرس فى جامعات ميونخ وبرلين وهال وأتم بها اعداد رسالته للحصول على لقب دكتور وكانت الرياضيات والعلوم الطبيعية أهم نواحى دراسته ٠

وقد احترف التدريس بعد تخرجه فى الجامعات وعمل مدرسا فى « ساربروكن » ثم فى « دسلدرف » و « همبرج » بعد ذلك وفى عام ١٩٠٨ اختير مدرسا بمعهد همبرج العالى وقام بتدريس اللغة الألمانية والجغرافيا علاوة على المادتين اللتين تخصص فيهما وكان على ما يبدو مدرسا صالحا يبث الحياة فى الموضوعات التى يتناولها ويجعلها شائقة محببة الى نفوس الطلبــة ٠

وظهرت فى خلال التدريس مواهبه التى تجلت بعد ذلك رائعة مذهلة فى مؤلفاته العجيبة الشــأن ولوحظ انه مع اعراضه عن توقيع العقوبات الشديدة على تلامذته كان شديد المحافظة على النظام ومع ميله الى العزلة اكتسب تقدير زملائه وقد أسف زملاؤه المدرسون وطلبته حينما حصل على أجازة فى سنة ١٩١٠ لمدة سنة ولم يعد بعدها الى التدريس واستقال من وظيفته وانتقل من همبرج الى ميونخ واستقر بها قانعــا بدخل خاص متواضع ليشبع رغبته فى الفراغ للتفكير الفلسفى وتسجيل ما يعن له من الخواطر والأفكار وكان يستكمل نقص دخله بكتابة بعض الفصول القصيرة ٠

وحينما نشبت الحرب الكبرى الأولى تعرض لضائقات مالية شديدة وقد أعفى من الخدمة العسكرية لقصر فى نظره لما كان يعانيه من ضعف القلب وكان عزاؤه فى أزماته المشتدة وفى ضروب الحرمان التى استهدف لها الى حد انه كان يجد صعوبة فى الحصول على الغذاء والكساء هو أن فكرة كبيرة غير واضحة ولا متماسكة كانت تختلج فى نفسه وتفرض نفسها عليه وقد عقد العزم على انه يعمل لابرازها وازالة الغموض عنها .

فكـــرة الكتـــاب

وحينما أقدم اشبنجلر على طلب الأجازة من التدريس لم تكن عنده فكرة واضحة عما ينتوى عمله وغاية ما فى الأمر انه كان يشعر بحاجة ماسة الى الانغماس فى القراءة والاطلاع وممارسة الكتابة والتفكير • وفى ميونخ أدمن القراءة وأمعن فى الاطلاع على التاريخ وبخاصة تاريخ الفن والفلسفة وأخذ يعالج الكتابة فى موضوعات شتى وقد قرض الشعر وألف روايات تمثيلية وقصصا قصيرة ولكن مواهبه الأصيلة لم تظهر مع ذلك فى ميادين الأدب الخالق وان كانت بعض كتاباته فى تلك الفترة قد دلت على قوة عاطفته القومية وميله الى الاكبار من شأن المجد الحربى •

وفى خلال عام ١٩١١ ومضت فى ذهن هذا الشـــاب الألمانى الذى لم تتجاوز سنه حينذاك الواحدة بعد الثلاثين فكرة لامعة كان باعثهـــا الأزمة السياسية الحادة التى حدثت بين فرنسا وألمانيـــــا فى مراكش وأوشكت ان تؤدى الى نشوب حرب بين الدولتين •

وهو يروى لنا فى احدى مذكراته التى طبعت بعد موته ان هذه الأزمة فتحت عينيه على طبيعة العصر الذى يعيش فيه فيقول :

« فى ذلك الوقت بدت لى الحرب العالمية موشكة الوقوع باعتبارها مظهرا خارجيا للأزمة التاريخية لامناص فى حدوثه وكان على ان أحاول فهم تلك الأزمة واماطة اللثام عن أسرارها وذلك بطريق تبين روح القرون السالفة لا السنوات الماضية فحسب •• ولذلك رأيت الحاضر والحرب العالمية مقتربة فى ضوء آخر ولم تصبح المسألة مجـــرد تلاق موقوت لوقائع عارضة باعثها العواطف القومية والمؤثرات الشخصية أو الاتجاهات الاقتصادية التى أضفى عليها بعض المؤرخين مظهر الوحدة والحتمية ، جريا على طريقتهم فى تلمس الأسباب السياسية والاجتماعية لربط الحوادث وتعليلها وانما كانت طرازا لتغير وجه من أوجه التاريخ يحدث فى داخل عضوى تاريخى عظيم له محيطه المعلوم عند نقطة مقدرة له منذ مئات من السنين » •

وقد يرى للقارىء من الغموض فى هذا الكلام ولكن ما يقصده اشبنجلر سيظهر فيما بعد عند استيفاء توضيح نظرياته وآرائه فى تفسير التاريخ وبيان مختلف الثقافات والحضارات التى يتكون منها التاريخ ·

وأخذت الفكرة التى وضعت جرثومتها فى نفسه الأزمة المراكشية تنمو وتتضح وتتسع آفاقها وتترامى أبعادها وانتقلت من ميدان السياسة الى تأمل ايقاع الثقافات وتوالى الحضارات · واتفق فى عام ١٩١٢ ان رأى فى واجهة احدى دور الكتب كتابا عنوانه « تاريخ سقوط العالم القديم » فأوحى اليه هذا العنوان فكرة عنوان كتابه الذى انتوى أن يضمنه الرؤية التاريخية التى وجهته الى كشفها الأزمة المراكشية ·

ولما نشبت الحرب الكبرى بعد ذلك بعامين كان قد أتم كتابة أصول كتابه · وفى أثناء الحرب راجع مسوداته وأضاف اليها ما استجد عنده من المعلومات ولكنه واجه بعد ذلك صعوبة الحصول على ناشر يقبل ان يتولى نشر هذا الكتاب الذى أصبح صالحا للنشر فى عام ١٩١٧ وقد عرضه على طائفة من دور النشر الشهيرة فى ألمانيا فرفضته جميعها وأخيرا قبلت نشره احدى دور النشر فى فينا ولم يظهر من المجلد الأول سوى ألف وخمسمائة نسخة ·

★★★

وفى يوليو ١٩١٨ ظهر الكتاب حاملا هذا الاسم المنذر الرهيب (تدهور الحضارة الغربية) وعلى غير انتظار أثار ضجة ولفت الأنظار وشغل الأفكار وكان مما يبعث على العجب والدهشة انه لم يكن قصة مسلية مثيرة أو رواية شائقة الحوادث جذابة الاسلوب وانما كان مؤلفا فلسفيا ضخما عميقا ينم على معرفة عميقة غزيرة وخيال مجنح وثاب وقدرة على التفكير واستخلاص النتائج ليست كثيرة الأشباه والنظائر ·

ولم يكن الكتاب مع ذلك سهل القراءة واضح الفكرة فقد كانت روعة أسلوبه وشدة أسره وحفوله بالأفكار والموازنات تقتضى من قارئه بذل الجهد فى تتبع عباراته واستكناه مراميه ولكن كانت هناك ظروف خاصة قد ساعدت على رواج هذا الكتاب أخصها ان ألمانيا كانت قد باءت بالاخفاق والخسران وخرجت تجر أذيال الهزيمة من تلك الحرب الشعواء التى أثارتها فى وجه العالم وتحدت فيها مجموعة من أقوى أمم الأرض وتطلعت الى السيادة العالمية لنشر ما كانت تسميه « الكالتور الألمانى » ·

وكان من الطبيعي أن يجز ألم الهزيمة في نفوس الألمان ويخيم على نفوسهم اليأس ولكن الألمان شعب قوى الحيوية نزاع الى التأمل والاستغراق في التفكير ٠٠ فهو لا يفنى نفسه حسرتا في أعقاب الهزيمة وانما يحاول أن يبحث أسباب الهزيمة وكيف حدثت ويفتن في تعليلها وتحرى مصادرها ٠ وقد مهدت هذه النوبة من التشاؤم وما تلاها من الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السبيل لاذاعة المؤلف الذى يحوى فلسفة جديدة من فلسفات التاريخ أتحف بها اشبنجلر الشعب الألمانى وزاد في ثروته الفكرية ٠

وقد كشف هذا الكتاب لألمانيا المصدوعة الفؤاد المجروحة الاباء أن آمال أوربا الوثابة مقدر لها ان تخيب وان الحضارة الغربية مقبلة على عهد انحطاط وتهافت لا مفر منه وانها تعاني أعراض الشيخوخة وعلامات الانحلال وفي هذا الايمان بالقدرية والحتمية التاريخية ضرب من السلوان يسكب العزاء على النفوس المكروبة لأنه يرفع عن كاهلنا الشعور بالتبعة ، ويبين لنا ان سير الحوادث من وراء طاقة الانسان وأن غايات القدر لا حيلة لنا فيها ولا يد لنا بدفعها ٠

ولم يكن ظهور فلسفة جديدة للتاريخ في بلاد « كانت » و « شلنج » و « فختة » و « لوتز » و « داتناى » بالأمر الغريب ٠٠ لأن التعميمات الفلسفية العريضة والأبنية الفكرية الرائعة والنظريات الكونية الشاملة تعد في ألمانيا من ضروب الحكمة وآية العبقرية ٠ وقد ألف الألمان أن يصب لهم المفكرون أحداث التاريخ في الصيغ المناسبة وان يضمنوا لهم حوادث الحياة وتجارب البشرية القوالب التي تعين على تنظيمها وتنسيقها ٠٠ ولا مانع في بعض الأحيان من ان يجار على الحوادث وتقطع أوصالها وتلوى الحقائق أو تنتقص أطرافها من أجل انتظام المذهب واتساق النظرية والتدليل على صحتها وانطباقها على الواقع ٠ وموجز رأى اشبنجلر ان ما نسميه « تاريخا » للبشرية ان هو في الحقيقة الا سيرة حياة أنواع عضوية متشابهة البناء متماثلة المصير لكل منها حياته المعنية وفرديته المستقلة وخصائصه المميزة له ٠

وقد كشف اشبنجلر وجود ثماني حضارات رئيسية هي : الحضارة المصرية القديمة والحضارة الصينية والحضارة البابلية الآشورية والحضارة المدرسية (اليونانية الرومانية) أو الابولونية والحضارة العربية أو الماجية والحضارة الغربية أو الفاوستية ٠

وهذه الحضارات تتشابه في بنائها العام ودورات نموها ومراحله ومصيرها النهائى المحتوم وكل حضارة منها تحمل طابعها الخاص ورمزها

المميز وتنطوى على أسرارها ودخائلها وكل منها يخضع لاسلوب خاص فى التفكير والشعور والنظرة الى الحياة وكل حضارة من هذه الحضارات مغلقة مكتفية بذاتها لاتستمد من غيرها وتتأثر به ولا تعتمد عليه وانما تنسج خيوطها من بين جنبيها ومن صميم كيانها وتسترفد منابعها الداخلية .. وهى من ثم لاتفهم غيرها من الحضارات ، ولا تدرك كنهه ، لأنها مستغرقة فى ذاتها .

واشبنجلر نفسه يزعم انه وحده أوتى القدرة على معرفة كلمة السر التى يستطيع بها ان يتغلغل فى صميم كل حضارة ويتعرف أسرارها ويكشف له الغطاء عن خصائصها . وهو يصارحنا بأنه لا يدرك ذلك بالعقل المفكر الواعى وانما يدركه بالبداهة الملهمة وقوة البصيرة .

وعنده أنه ليست هناك صلة ولا رابطة ولا وحدة بين الحضارات المختلفة وليست هناك « انسانية » عامة فان هذا محض تجريد ووهم من الأوهام . ومادام انه ليس هناك انسانية عامة يقتضى ذلك انه ليس هناك رياضيات عامة أو علوم طبيعية أو فنون أو ثقافات مطلقة ، فانما هذه الثقافات السنة مختلفة ولهجات متعارضة ، وقد استطاع هو حل رموزها وتفسير غوامضها .

الحضارات تذبل وتفنى !!

ومع أن كل حضـــارة مســـتقلة عن الأخرى فانها ـ من الوجهة الطبيعية العضوية ـ خاضعة جميعها لقانون لا يتغير هو قانون الميـــلاد والنضج والتدهور والفناء فالحضارة أو الثقافة على الأصح حسب رأى اشبنجلر تنهض في ناحية من النواحي وتنمو نمو النبات وتمر بأدوار الانســـان الســـبعة فلها عهـد الطفولة ولهـــا دور الشباب والمنضـــج والشيخوخة ولا يستتبع موتها فناء أهلها ، وانما معناه نفاد حيويتهـــا وانطفاء شعلتها وانها فقـــدت ميزتها من حيث هي قوة تاريخية محركة منتجة • والحضارة تذبل وتفنى بعد ان تكشف عن خصائصها وممكناتها الموهوبة لها مثل القوميات والديانات والآداب والفنون والعلوم وصور الحكم وأساليب السياسة •

ولما كانت كل مرحلة من مراحل الثقافة يمكن استنتاجها من المرحلة التى سبقتها فنحن اذن نستطيع ـ مادمنا نهتدى بهدى اشبنجلر ـ ان يكون عندنا معرفة فلكية اليقين مطردة السوابق والأشباه •• لما سيحدث•

والحضارة الغربية ـ أو الفاوستية كما يحب اشبنجلر ان يسميها ـ مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء وليس معنى ذلك فناء أهلها •• فان الصين التى انتهى عهد حضارتها فى رأى اشبنجلر لا تزال موجودة ومصر التى لعبت حضارتها دورها المقسوم لهـــا لاتزال كذلك على قيد الحياة ولكن الحضارة الصينية قد مضى عهـــدها والحضـــارة المصرية قد زالت •

وينكر اشبنجلر وجود وحدة انسانية تاريخية ولا يعترف بفكرة التقـدم البشرى أو فكرة وجـــود تاريخ للبشرية جميعها مستمر متتابع الأدوار متسلسل الحلقات ، وانما يوجد تاريخ ثقافات مســـتقلة منعزلة كل ثقافة منها قائمة بذاتها ولا تؤثر الثقافات فى بعضها الا اذا اعترضت احداها نمو الأخرى وقضت عليه كما فعل الاســـبانيون بالحضـــارة المكســـيكية •

وأكثر المؤرخين يسلمون بانفصال الحضارة الهندية والحضـــارة الصينية انفصالا كبيرا عن الحضارة الغربية ولكنهم يرون ان الحضـــارة

الرومانية كانت الجسر الذى انتقلت به تأثيرات حضـــارة بابل ومصر والحضارة الأبولونية الى الحضارة الغربية ٠

واشبنجلر ينكر ذلك ويحمل نفسه عنتا فى هذا السبيل لتدعيم نظريته واثباته مذهبه وهو يفصل الحضارات بعضها عن بعض ويضع بين الحضـــارة الأبولونية والحضـــارة الفاوســـتية والحضارة العربية أو الماجيـــة ٠

وكل ثقافة من هذه الثقافات تمر فى أدوار متشابهة خـلال مدة من الزمن متقاربة وكل حادث مهم فى حياة ثقافة من هذه الثقافات له نظيره فى الثقافة الأخـــرى ، فالعهد الاقطـــاعى والاصـــلاح الدينى والبيوريتانية والنزعة المثالية الروحية والاتجاه المادى الواقعى والقيصرية التى يصحبها احياء دينى ــ كلها مظاهر يتبع بعضها بعضا وتتوالى على التعاقب فى حياة الحضارات فالاســـلام مثـلا هو دور البيوريتانزم فى الحضـــارة العربية ونابليون هو اسكندر الحضـــارة الغربية وسيسيل رودس هو طليعة قيصرية الحضارة الغربية ٠

لكل حضارة خصائصها وسماتها وأسلوبها وطرازها ففن البنـاء القوطى وحساب التفاضل والتكامل وحروب الأسر والتصـــوير بالزيت وانشاء السكك الحديدية والنظام المالى الحديث ٠٠ وما الى ذلك من مظاهر الحضارة الغربية تعبر جميعها عن الروح الفاوســتية ولم يكن من قبيل المصـــادفة ــ فى رأى اشبنجلر ــ أن الحضارة الأبولونية وجدت أسمى تعبير عنها فى النحت فى حين ان الثقافة الفاوستية كشفت عن نفســها فى الموسيقا ٠

وهناك فروق ملحوظة بين مختلف الثقافات ٠٠ فالفرد فى الثقافة الفاوستية مطبوع على حب السيطرة والنفوذ والاستعلاء وهو يحاول أن يبسط سلطانه على المكان والزمان ، وفى الحضارة الأبولونية يقف الفرد أوحديا معتصما بابائه وكبريائه يصابر غيره من الناس ولكنه ينأى بجانبه ويلوذ بفرديته ، ونفسية الفرد فى الحضارة العربية ملتقى الخير والشر والظلمة والنور والحضـــارة المصرية والحضارة الصينية والحضـــارة الفاوستية ٠٠ تاريخية النزعة فى حين أن الحضارة الأبولونية والحضارة الهندية لاتكلفان بالتاريخ ولا تعبآن به كثيرا ٠

والاعتقاد السائد هو ان الحضارة الغربية الفاوســـتية قد ورثت عناصر كثيرة من الحضارات السابقة ولكن اشبنجلر ينكر ذلك فالديانة المسيحية مثلا من مخلفات الحضارة العربية الماجية وأرســطو مثلا من مخلفات الحضارة الابولونية فكيف ينكر تأثيرهما فى الحضارة الغربية ؟

والجواب عن ذلك أن اشبنجلر يذهب الى أن هناك ثلاثة أنواع من المسيحية : المسيحية العربية وهى مسيحية المسيح ومسيحية الغرب وهى مسيحية هلدبراند ولوثر وليولا ، ومسيحية روسيا وهى مسيحية دستوفسكى التى ستزدهر فى الألف القادمة من السنين لأن الحضارة الروسية فى العصر الحاضر تعد فى دور الطفولة والبوذية الهندية كذلك مختلفة عن البوذية الصينية وهناك ثلاثة أنواع من أرسطو : أرسطو الابولونى وأرسطو العربى وأرسطو الفاوستى وكذلك توجد أنواع مختلفة من الرياضيات والطبيعيات والكيمياء والنحت والتصوير والآداب والثقافات .

ويرى اشبنجلر انه ليس فى قدرة حضارة من الحضارات ان تزيد فى ثروة الحضارة الأخرى أو تصلح منها وانما قد تعترض نموها وتقضى عليها .

★★★

وقد أثار كتاب « تدهور الغرب » منذ ظهوره دهشة أساتذة التاريخ ووقف بعض المؤرخين المحترفين منه موقف العداء والنقد والتفنيد ولوحظ بوجه عام انه قائم على معلومات غزيرة واطلاع واسع ولكنه من وجهة نظر بعض المتخصصين — لايمكن الاطمئنان الى بعض أحكامه .. فمؤلفه مسرف فى آرائه شديد التعصب لاحكامه نزاع الى ما وراء الطبيعة .

ولكن الكتاب بضخامته وغزارة أفكاره وجرأتها وقف فى طريق الباحثين وفرض نفسه عليهم فرضا وبعض الباحثين لكى يتخلصوا من تأثيره لجأوا الى أساليب مختلفة : فمنهم من احتال على ذلك بالنقد القارص والتسفيه الشديد والاحتقار والسخرية ومنهم من لجأ الى انكار وجوده على الاطلاق وتجاهل نظرياته ومنهم من حذر جمهور القراء من قراءته .. ولكن القراء رفضوا التحذير وخالفوا أحكام المتخصصين ولم يعبأوا بشكوكهم وأقبلوا على قراءة الكتاب متخطين الأجزاء الصعبة واجدين فى قراءته متعة فكرية قل أن يتيح مثلها غيره من المؤلفات الدارجة .

وربما كان من أسباب هذا الانشقاق بين آراء العلماء الدارسين والمؤرخين المتخصصين وجمهرة القراء العاديين أن أصبحت الكتابات عن اشبنجلر تنقسم قسمين : قسم قائم على النقد الشديد وقسم آخر تبدو فيه حماسة الاعجاب وسمو التقدير ولكنه لايخلو من مبالغة وسذاجة .

وقد لوحظ على اشبنجلر ان نظرته للمجتمع البدائية من خلال كتابته غير ديمقراطية : والنظرية الديمقراطية أساسها أن الناس قد ولدوا متساوين وان من حقهم ان تكون لهم حقوق متشابهة وعند اشبنجلر أن الحكومات على اختلاف صورها — سواء أكانت ملكية

أم جمهورية أم حكومة اشراف أم حكومة رجال دين أو حكومة برلمانية ـ هى فى الحقيقة سيطرة من الأقلية على الأكثرية ٠

وكل مجتمع لذلك ينقسم الى أقلية حاكمة وأكثرية محكومة ولايمكن الا ان تكون الأمور على هذه الوتيرة ٠

ولا يجهل اشبنجلر قيمة النظام الديمقراطى ولكنه ـ بحكم التزامه موقف المؤلف الموضوعى الذى يراقب سير الحوادث التاريخية وتتابعها ـ يحاول ألا يبدى رأيه فى ترجيح نظام من أنظمة الحكم على نظام آخر ٠٠ فهو يرى الديمقراطية وجها من أوجه التاريخ المتعددة وصورة من صوره تتغلب فيها الطبقة البورجوازية بقوة عقلها وقوة مالها وتخفى رغبتها فى السيطرة والتحكم فى الجماهير ٠٠ وحرية الجماهير فى الانتخاب حرية صورية ٠

ولا خلاف فى ان كل أمة من الأمم تحكمها أقلية ولكن هذه الأقلية مع ذلك ـ سواء أكانت من الكهنة أم الاشراف أم رجال البلاط والحاشية أم أعضاء البرلمان أو قادة العمال ـ لا يمكن أن تتجاوز حدود العدالة وحسن التأنى فى الأمور دون أن تلقى جزاءها وفى كل العصور ثارت الجماعات على ما اعتبرته انحرافا عن العدالة أو تعمدا ٠

وقد لقيت فكرة اشبنجلر ـ أن الحضارات تولد وتنمو ويدركها البلى وتعلوها الشيخوخة كالأفراد ـ كثيرا من النقد ٠٠ وذلك لسبب بسيط هو أن الحضارات فى الواقع ليست كالأفراد ومن ثم هى لا تولد بأدوار الطفولة والشباب والشيخوخة مثل الأفراد والحضارة فى رأى مؤلاء النقاد مجموعة من المظاهر الثقافية : منها الجانب السياسى والجانب الاقتصادى والمظهر العلمى والمظهر الدينى والمظهر الاجتماعى وهذه الظواهر قد تلقى فى عصر من العصور ليتكون منها ما يسمى حضارة وقد يوجد بعضها قبل ظهور الحضارة وقد يوجد كذلك بعضها بعد انتهاء الحضارة ودثورها وهذا يدل فى رأيهم على أن الحضارة لا تولد فى الواقع ولا تموت مظاهرها جميعها معا ٠

ويرى اشبنجلر ان عالم التاريخ لايشبه عالم الطبيعة ، وذلك لأن عالم التاريخ تدفعه قوى غير خاضعة لقانون السببية بل قوى لا يستطيع ان يدرك كنهها التحليل العلمى فالتاريخ يحتمه القدر الغامض الخفى ، وهو يعلل بذلك حتمية سقوط حضارة الغرب وسائر الحضارات السابقة ٠٠ فسقوط الحضارة قدر محتوم لا حيلة للانسان فى دفعه متى استتمت الحضارة أدوارها المقدرة لها ، ومادام التاريخ فى رأيه لايخضع لقوانين العلوم فلا فائدة اذن من محاولة استنتاج المستقبل من الماضى ٠

واشبنجلر مع ذلك لايرى بأســـا فى التكهن بالمستقبل ولكن عن طريق الموازنة بين مصير الحضارات الذى يحتمه القدر الغامض لا عن طريق قانون السببية وربطه تفسيره للتاريخ بشدة ايمـــانه بالجبرية التاريخية لايجعل المفكرين يسرعون الى قبول آرائه لأن مســـألة حرية الارادة مسألة شائكة قد تضاربت فيها الآراء على مر العصور وربما كانت من المشكلات غير القابلة للحل ٠

ومع ما وجه الى كتاب « تدهور الغرب » من نقد من ناحية المؤرخين والمحترفين وبعض المفكرين الاجتماعيين والفلسفيين فانه كتـــاب جليل الشأن يجمع بين الهامات العبقرية وجمحات الخيال الرومانتيكى ٠ قال عنه المؤرخ « هويزنجا » : « ان قارئه يظل يشعر فى أثناء قراءته أنه يقوم بجولة فى جبل شاهق رائع الجلال يصحبه دليل يقوده فى مسالكه ولكن هذا الدليـــل الخبير بشعاب الجبـــل تومض فى عينيه من حين الى حين ومضات الجنون » ٠

ونقد آرائه لا ينفى حقيقة انه قد بدأ تسجيل هذه الآراء قبل اندلاع نيران الحرب الكبرى الأولى وانه تكهن بقدوم عهد الحروب العالمية وظهور الديكتاتوريات ونمو المدن الكبيرة وظهور روسيا بوجه خاص وآســـيا بوجه عام على مسرح السياسة العالمية كقوة فاصلة ولم تكن هذه المظاهر واضحة حينما بدأ اشبنجلر كتابه وضوحها اليوم ٠

وقد ظهر فى الثلاثينيات من هذا القرن كاتبان باحثان أحدهمـــا انجليزى والآخر روسى أقام فى أمريكا وتجنس بالجنسية الأمريكية ـ سارا على طريقة اشبنجلر وأخرج كل منهما فلسفة جديدة للتاريخ حاول فيهـــا أن يتجنب الأخطـــاء والمبالغات التى تورط فيهـــا اشبنجلر ، وهذان الكاتبان المفكران هما أرنولد توينبى وبيتريم سوروكين ٠

وقد سبق اشبنجلر الى فكرة تعدد الحضارات واستقلال كل حضارة عن الحضارات الأخرى واقتراب ظهور الحضارة الروسية بمميزاتهـــا الخاصة المفكر الروسى دانيلفسكى ٠ ولم يعرف بعد على وجه التحديد هل ألم اشبنجلر بنظريات دانيلفسكى حينما كان مقبلا على تاليف كتابه أو لا ! ومهما يكن من الأمر فان أوجه الشبه بين ما ذهبا اليه فى تفسير التاريخ تسترعى النظر ٠

الهوامش :

(١) **اكبر : ص ٩** : (١٥٤٢م ـ ١٦٠٥م) أعظم أباطرة المغول فى الهند · اسمه الأصلى جلال الدين ولقب بالأكبر لما قام به من جلائل الأعمال فى أثناء حكمه (١٥٥٦م ـ ١٦٠٥م) ·

(٢) **مسقطه الراس** : كبيرة ص ٨٩ ·

(٣) **ابن أبى أصيبعة** : ص ٩٨ : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ح ١٢٠٣ ـ ١٢٧٠م) طبيب ومؤرخ ولد بدمشق ·

(٤) **كافور** : ص ١٠٢ : أبو المسك كافور الاخشيدى (٩٠٥ ـ ٩٦٨م) كان عبدا حبشيا اشتراه ابن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية ، فعهد اليه الاخشيد بالوصاية على ولده ابن القاسم أنوجور ، فاستقل بأمور الدولة ·

(٥) **الحدث الحمراء** : ص ١١٨ ، الحدث مدينة على الحدود البيزنطية « الثغور » سميت بالحمراء فى شعر المتنبى اما لترابها الأحمر أو للدم الذى سفك حولها ·

(٦) **ساتير** : ص ١١٩ اله من الأساطير اليونانية ·

(٧) زينون الاليائى : ص ١١٩ : فيلسوف يونانى ولد بين ٤٩٠ ق·م· ـ ٤٨٥ ق·م·

(٨) **« مطالعات فى الكتب والحياة » كتاب للاستاذ عباس محمود العقاد** : ص ١٢١ ·

(٩) **الوراقون : ص ١٢٤** : باعة الكتب ·

(١٠) **النورمان** : ص ٢٠٨ : تحول الشماليون بعد غزوهم نورماندى الى المسيحية واللغة الفرنسية ، ولكنهم احتفظوا بروح الحرب والمغامرة ، فغزوا انجلترا عام ١٠٦٦ بقيادة وليم دوق نورماندى الذى أصبح ملكا لانجلترا ·

(١١) **استرابون** : ص ٢١٣ : جغرافى يونانى (٥٨ ق·م ـ ٢٥ ق·م) ·

(١٢) **بحر الزقاق** : ص ٢١٨ : مضيق جبل طارق ·

(١٣) **الزهادرة** : ص ٢١٩ الجمرك ·

(١٤) **الملثم** : ص ٢٢٠ : أى البربرى الملثم · أى أمير المرابطين الذى يستر وجهه بلثام وهو يوسف بن تاشفين ·

(١٥) **التعنيب** : ص ٢٢٠ : أى التى أحصتها مصلحة الجباية لفرض ضريبة الخمر عليها · وعنب يعنى شرب الخمر ·

(١٦) **بختيشوع** : ص ٢٥٢ : معناها عبد يسوع · أسرة من سوريا · نبغ من أفرادها عدد من الأطباء خدموا فى بلاط العباسيين قرابة ثلاثة قرون ·

(١٧) **وستنفلد** : ص ٢٥٥ : هنرى فرديناند وستنفلد مستشرق ألمانى (١٨٠٨ ـ ١٨٩٩) نشر كثيرا من أمهات الكتب العربية ·

(١٨) **الحركة البيوريتانية** : (التطهير) مذهب بروتستانتى يعتقد بمزيج خاص من الأفكار الاجتماعية والسياسية والأخلاقية واللاهوتية · ظهر فى عهد الملكة اليزابيث مناديا بالغاء الأزياء والرتب الكهنوتية ·

المراجـــع

١ ـ اصول الكتب الستة عشر ٠

٢ ـ مفكرون لكل العصـــور — فتحى العشرى

٣ ـ فى موكب العظمـــاء — ابراهيم المصرى

٤ ـ رواد الطـب — جون والتـــون

٥ ـ الحضارة الاســـلامية — جوســـتاف جروينباوم

٦ ـ معالم تاريخ الانسانيـــة — هـ ٠ ج ٠ ولز

٧ ـ دائرة المعارف الاســـلامية — دار الشـــعب

٨ ـ الحضـــارة — أحمد حمـــدى محمود

٩ ـ التراث والحضـــارة — نعمات أحمـــد فؤاد

١٠ ـ الحضـــارة العربيـــة — ى ٠ هـــل

١١ ـ الحضارة الانسانيـــة بين الشرق والغرب فى عشرة قرون — ســـامى اليافى

١٢ ـ الغرب والحضارة ٠ وتاريخ الحضارة — كافين رايلى

١٣ ـ حضارتنا وحضارتهم — عبد المنعم النمـــر

١٤ ـ قصـــة الحضارة — ول ديورانـــت

١٥ ـ معجم أعلام الفكر الانسانى — نخبة من الأساتذة

١٦ ـ تاريخ العـــلم — جورج ســـارتون

١٧ ـ محيط العـــلوم — نخبـــة من العلماء

١٨ ـ المتنبى — د ٠ زكى المحاســـنى

١٩ ـ من أعلام الطب العربى — أبـــو الفتوح التوانسى

٢٠ ـ الموسوعة الذهبية للعلوم الاسلامية — د ٠ فاطمـــة محجوب

٢١ ـ تـــاريخ العالم — أوروســـيوس

٢٢ ـ ارســـتوفانيس ٠٠ عصره وعمـله المسرحى — عـلى نـــور

٢٣ ـ الطبرى — د ٠ أحمد محمد الحوفى

٢٤ ـ فلاسفة أيقظوا العالم — د ٠ مصطفى النشـــار

٢٥ ـ تاريخ الانسانيـــة — أحمـــد حســـين

اقـرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · راسونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الارض الغـامضة	ليستردیل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
الرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د · محسن جاسم الموسوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شـعراوى
على محمـود طـه	انـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهرام	بيـل شـول وأدبنيت
فـن الترجمـة	د · صـفاء خـلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتـــور هـــوجو
الجزء والكل (محـــاورات فى مضمـــار الفيـــزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسـيون	ســـدنى هوك
فن الأدب الروائى عنـد تولسـتوى	ف ٠ ع ٠ أدنيكوف
ادب الأطفـــال	هادى نعمـــان الهيتى
أحمـد حسـن الزيات	د ٠ نعمة رحيم العزاوى
أعـلام العـرب فى الكيميـاء	د ٠ فاضل أحمـد الطائى
فـكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيـــم	هنـــرى باربوس
صـنع القـرار السـياسى	السيد عليـــوة
التطور الحضارى للانسـان	جاكوب برونوفســكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د ٠ روجر ستروجـان
تربية الدواجـن	كـاتى ثيـر
الموتى وعالمهم فى مصر القـديمة	ا ٠ ســبنسر
النحـــل والطب	د ٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جـوزيف داهمـــوس
سياسة الولايات المتحـدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ــ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السـنة	د٠ جـون شـندلر
الصـــحافة	بييـــر البيـــر
اثر الكـوميديا الالهيـة لدانتى فى الفـن التشـــكيلى	د ٠ غبريال وهبـة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعـــدها	د ٠ رمسيس عـوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د ٠ محمد نعمان جـلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ــ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمـد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج · دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د· جوهان دورشز
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د · السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د· مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د · سمبسون ونورمان د· اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شانرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لوري
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د ٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د ٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس و آلان هو
اختناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

من النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميـرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد/ مونى براخ وآخرون
دليـل تنظيم المتـاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليـات فن الاخراج	زيجمونت هيلـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بـول كولنـر
صـنـاع الخلود	موريس بير برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر ٢ ج	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
السـينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السـلطة والفرد	برتراند راصـل
الأزهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سـفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصـال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

حديث النهـر	اعداد / سوريال عبد المله
من هـم التتـــار	د· ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معـالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ · ج · ولـز
الحمـلات الصليبيـة	ستيفن رانسيمان
حضـارة الاسـلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون ٣ ج	ريتشارد ف · بيرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز متـز
الطفل ٢ ج	ارنولد جـــزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطيـة
الكون ذلك المجهول	جـلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمـــد زينهم
حـرب المسـتقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسـفة الجـوهرية	سونداري
الاعـلام التطبيقى	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج· كارفيـل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهـارت
تحـــول الســـلطة	الفين توفلر
التفكيـر المتجـدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان ســالين
فن الفرجة على الأفـلام	جوزيف · م · بوجـز
خفايا نظـام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جـورج ســتايز
ما هى الجيـولوجيا	ويليام هـ · تبـوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناشى
انواع الفيـلم الأميركى	ســتالين جين سولومون

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٢١١٦

الألف كتاب
الثاني
٢٤٦

كتب غيرت الفكر الإنسانى

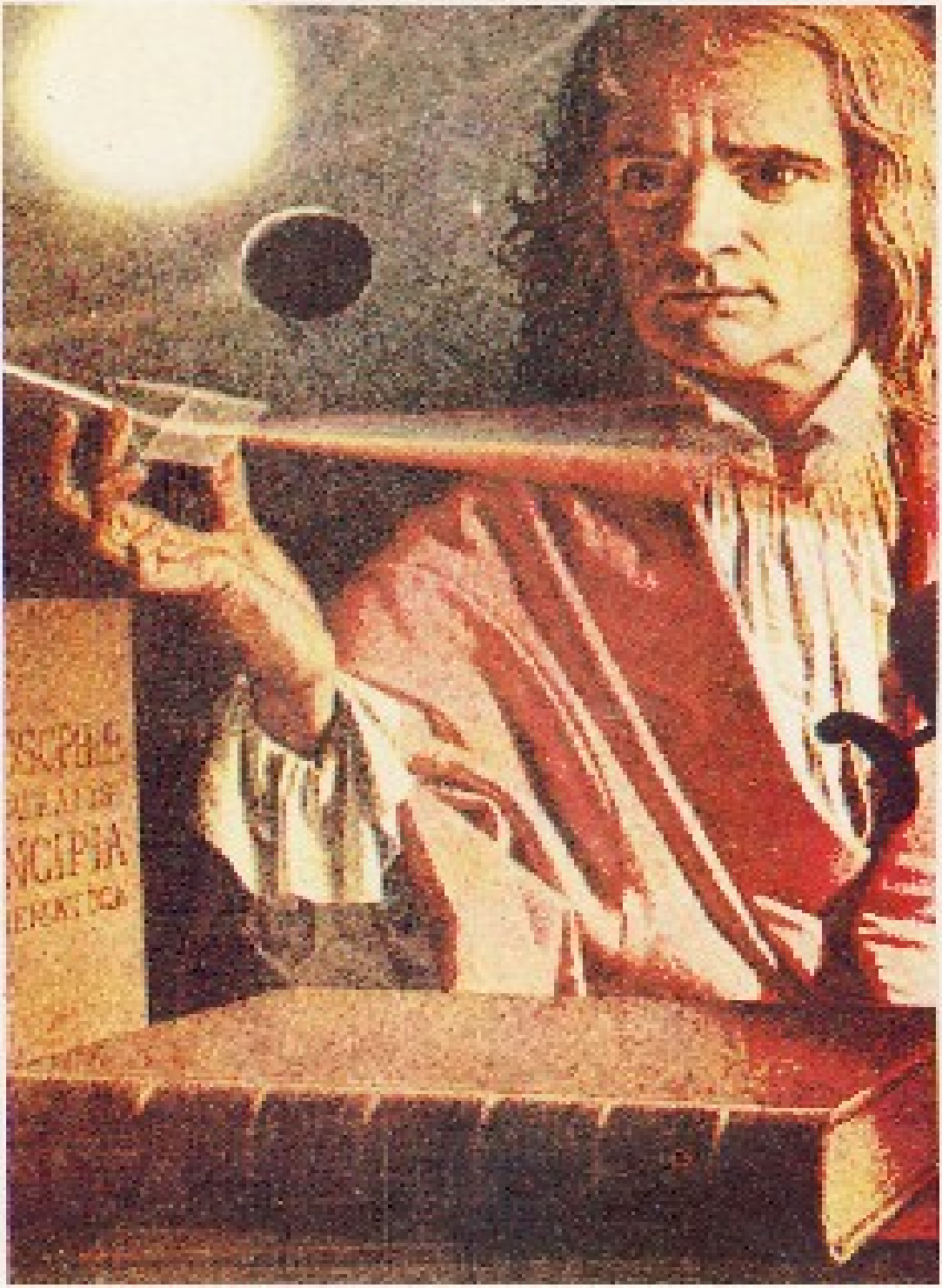

الجزء السادس

الهيئة المصرية العامة للكتاب

أحمد محمد الشنواني

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء السادس
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Six
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1996
الناشر	دون ناشر
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	-977 -01 4932 2-
المستخلص	يتناول هذا الكتاب الجزء السادس من " كتب غيرت الفكر الانسانى " والذي يعد حفنة من الحجارة الثمينة الملتقطة من هنا وهناك والتى كان لها اكبر الاثر فى بناء صرح الحضارة بما انها تمثل تاريخ الامم والشعوب وهى كالحجارة فى تاريخ البناء والعمران ومن تلك الحجارة الضخمة البارزة (كتاب الموتى - الرسائل الفلسفية - رسالة التوحيد - مبحث فى العقل الانسانى) .
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022108-001*

كتب غيرت الفكر الإنسانى

أحمد محمد الشنوانى

الجزء السادس

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

فهرس

الموضـــوع	الصفحة

المقدمة

طالما شبه الناس الحضارات ، ثم النهضات التى ترافقها ، بالبنيان الشامخ .

والكتب فى تاريخ الأمم والشعوب ، هى كالحجارة فى تاريخ البناء والعمران .

ونحن ، فى هذا الجزء من الكتاب توخينا أن ننتقى لك ، أيها القارىء تلك الحجارة الضخمة البارزة ، التى كان لها أثر بين فى بناء صرح الحضارة الذى نشهده فى عصرنا هذا .

والكتاب الذى بين أيدينا الآن هو عبارة عن حفنة من الحجارة الثمينة ، التقطناها من هنا وهناك ، من صرح الحضارة .. رائدنا فى اختيارها قيمتها ، وأهميتها وأثرها .

ولقد تاثرت بهذه الكتب التى كتبت عنها فى هذا الجزء من الكتاب ، وأحببتها وأعظمتها ، ووجدت فيها النور والتوجيه ..

لذلك رأيت أن أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما رأيته .

وما أردت الا الخير ..

والله المستعان أن يحقق به الفوائد وهو حسبى وكفى ..

المؤلف

كتاب الموتى

كهنة هوليوبوليس

٤٥٥٠ ق.م

هذا هو السفر الجليل ، والكتاب المقدس ، الذى قامت عليه دعائم الحياة المصرية القديمة فى هذا العالم وفى العالم الآخر ·

ما كان ليدفن فى لحده اذ اذا وضع بجانبه أو نقش على قبره ، آيات ، وتعاويذ ، وأدعية ، من كتاب الموتى ·

ويستطيع الانسان أن يدرك من قراءة كتاب الموتى أن المصريين كانوا يعتقدون بخلود النفس ، والحياة الأبدية ، فى العالم الثانى : وان كان هذا الاعتقاد غير واضح وغير صريح ، ولاينسى القارىء أننا نتحدث عن الانسان ، قبل خمسة آلاف سنة ، لا بل عشرة آلاف سنة ·

ويصف لك كتاب الموتى : الجنة ، والسماء ، والجحيم ، والمطر ، ومحاكمة الأموات ، وكل ما سيلاقيه الانسان فى العالم الآخر الذى ينتقل اليه بعد وفاته ·

ان كتاب الموتى هو مجموعة التعاليم الدينية ، والتمائم ، والتعاويذ ، والعلوم ، والمعارف ، وكل ما يحتاج اليه الميت فى العالم الآخر ·

هو دائرة معارف ما بعد الموت ·

هو كتاب الانسان ، من يوم ولادته الى يوم مماته ·

هو القوانين ، والشرائع الالهية ·

هو أقدم كتاب فى الدنيا ·

هو محكمة الأموات ، بقضاتها ، ومحاميها ، وآلهتها ·

هو شريعة الأحياء ، وقانون الأموات ·

هو الجنة والخلود ، أو النار والفناء ·

ان التعاليم فى كتاب الموتى ، تحفظ الجسد سالما ، وتمنع عنه الفناء والبلاء ، وتساعده على السكنى والوجود مع الآلهة فى النعيم ·

وكان الشائع عند المصريين أن (أوزوريس) هو اله الأموات ، وبشفاعته ووساطته يبقى الجسد حيا فيخرج منه جسدا نورانيا تسكنه الروح الى الأبد ·

ومن هنا جاءت تعاليم كتاب الموتى ، فى كيفية حفظ الجسد حيا سليما بلا عطب ولا فناء ، فقادهم ذلك الى تحنيط أجسادهم ٠

ومن هنا جاءت تعاليم كتاب الموتى ، فى كيفية حفظ الجسد حيا سليما ٠

وأنا لنعود بتاريخ الموتى ، الى الملك المصرى الأول « مينا » ، فقد قال الدكتور « بادج » ، أحد المؤرخين : « ان تاريخ المدنية المصرية يبدأ بتاريخ وجود كتاب الموتى » ٠

وانك لتجد شيئا من هذا فى ورقة البردى التى كتبها الحكيم المصرى القديم الفيلسوف « آنى » ٠ ووجدت على قبر الملكة « خنام نفرت » ، زوجة « مونتو حتب » ، أحد ملوك الدولة الحادية عشرة ، رموز هيروغليفية تفيد أن أحد فصول كتاب الموتى اكتشف فى عهد « حسبتى » الملك الخامس من الدولة الأولى ، وذلك سنة ٤٢٦٦ قبل الميلاد ٠

فاذا كان فصل كتاب الموتى اكتشف سنة ٤٢٦٦ قبل الميلاد ، فكم يكون عمر هذا الكتاب ؟ ومتى كتب ؟

وقد وجد (مسبيرو) فصولا من هذا الكتاب على أهرام الملك (أوناس Onas)المبنى سنة ٣٣٣٣ قبل الميلاد ، كما وجد فى أهرام (تيتى) بسقارة فصلا كاملا من هذا الكتاب ، ويعود تاريخ هذه الأهرام الى سنة ٣٣٥٠ قبل الميلاد ٠

ويرى المؤرخون أن كتاب الموتى كان معروفا عند ملوك الدولة الأولى أى منذ ٤٥٥٠ سنة قبل الميلاد ، وظل معمولا به وبقوانينه وشرائعه الى القرن الثانى بعد ظهور الديانة المسيحية ٠

وقد أكدت البراهين التاريخية الجزم بأن كتاب الموتى كتبه كهنة هليوبوليس ، قبل ظهور مينا والدولة الأولى ٠

ويقول كتاب الموتى انه كان على الميت أن يقطع سبعة جبال ، وعلى كل جبل اله يحرس ذلك الجبل وبعد ذلك يصل الى جنات النعيم ٠

وينص كتاب الموتى على أن أوزوريس هو القاضى الأعظم لمحاكمة الأموات ٠

ويشرح كتاب الموتى ، رحلة الشمس بعد غيابها تحت الأرض ، وكيف تسافر فى مركبها قاطعة العالم الأرضى ، لأن الشمس فى نظر القدماء لم تكن سوى جسم حى ومصدر كل حياة ٠

هكذا ورد فى كتاب الموتى ٠

واذا بحثت فى حقيقة بدء نظر المصريين الى العالم والدين ، تجد أن ثـالوث مصر الأول كان الشمس والأرض ، والنيـل ٠ أو الأم ، والأب ، والابن ٠

ثم جعلوا الها لكل من هؤلاء يمثلونه به ٠

(كـا) و (بـا)
الروح و النفس

كان الميت فى عهود قدماء المصريين عبدا للأحياء ، فاذا تأخر أهله عن تقديم القرابين ، والمأكولات لروحه ، تعذبت تلك الروح وماتت جوعا ٠

وكان اسم الروح (كا) بلغة المصريين ٠

و (كا) هذه ما يدعونه بالعربية قرينة ، أى الجسد الثانى للانسان وهى الروح التى تأتى لهذا العالم مع روحه ، وبكلمة أخرى هى النسخة الثانية من روحه وجسده ٠

ان (كا) كانت الروح ٠

أما (با) فكانت النفس ٠

وكانت (با) بعد موت الجسد ، تأخذ شكل طائر وتطير فى طبقات الجـو ٠

ولكى تعيش هذه الروح بعد موت الانسان ، ولا يتطرق اليها الفناء ، كانوا يضعون المأكل والمشرب فى قبره ، لكى تتغذى ولا تموت لأنها كانت أمينة مخلصة للجسد ، تبقى معه وتجلس بجانبه ٠

وكانت الروح تخلق مع الجسد ، وتحل فيه ، وتأخذ شـكله ، وتحفظ شخصيته ، وهى التى تنهض مع الجسد فى يوم البعث ٠

الجسد يموت ، أما الروح فتحيا الى الأبد ٠

لهذا أراد المصريون تخليد الجسد بتحنيطه ، حتى تجده الروح وتخلد فيه ٠

وهذا المبدأ دان به كثير من الأمم والشعوب ، بل ان المسـيحية نفسها اعتنقته ونادت به ٠

ان المصريين أول من قالوا : ان الانسان روحه خالدة ، وانها تنتقل بعد الموت الى كائن آخر — وهذا هو التقمص أو التناسخ ٠

حق الدفاع أمام القضـــاء الالهى

لم نـــر أجمل ، وأفضـــــل ، وأعدل ، من محاكمة الميت عند قدماء المصريين ·

ان ديانتهم ، هى الوحيدة التى أعطت الميت ، حق الدفاع عن نفسه·

انظر الى مجلس القضاء المصرى المؤلف من اثنين وأربعين قاضيا ·

لقد جلس القضاة لمحاكمة الميت ، وارتفع ميزان العدل فى ســـاحة المحكمة ، ففى الكفة اليمنى قلب الميت رمزا لأعماله ، وفى الكفة اليسرى عيار الحق لوزن قلب الميت ·

ان أوزوريس هو رئيس القضاة ــ انظر اليه جالسا على منصة الحكم وبجانبه الاله (تحوت) يسجل حكم المحكمة ، ويقف (أونوبيس) ليراقب كفتى الميزان ·

انظر الى الروح تتقدم الجسد أمام القضاة !

اسمع دفاعها وهى تقول :

لم أرتكب منكرا ، ولم أخن أحدا ·

لم أشهد زورا ، ولا لطخت اسم أبى بالعـــار ·

لم يأكل الحسد قلبى ، ولم أطلب مال غيرى ·

لم أقتل ، لم أزن ، لم أسرق ·

لم أشته امرأة قريبى ، ولا امرأة جارى ·

لم أحرز مالا حراما ، ولم أبع القمح بثمن غال ·

لم أخالف نظام الرى ، ولم أتلف مزروعات أحد ·

لم أظلم اليتيم ، والأرملة ، والأعمى ، والأعرج ، والشيخ المتقدم فى السن ·

لقد أطعمت الفقير ، وسقيت العطشان ·

الى آخر ما هنالك ، من أمثال الوصايا العشر المعروفة فى توراة العهد القديم ·

ثم تجلس آلهة الحق والعدل فى كفة الميزان اليمنى ، ويوضع قلب الميت فى الكفة اليسرى فان وجد قلبه ناقصا ، افترسه الوحش الواقف بانتظاره ·

وكان المطهر معدا بجانب المحكمة ؛ لتطهير النفوس التى ارتكبت هفوات صغيرة ·

★★★

وقد حفظت لنا فى مقابر الأفراد من الدولة الحديثة عشرات القراطيس من البردى التى سجلت بها فصـــول كتاب الموتى ، لتساعد على الوصول (سليما) ، وكانت هذه القراطيس تكتب سلفا ويترك مكان الاسم خاليا ليملأ عند الشراء ولم تكن الأمانة متوفرة دائما بطبيعة الحال · فكانت هناك ملفات تكرر فيها بعض الفصول ، وأخرى تحذف منها فصول أو تسقط منها فقرات ، وكان الكتبة مطمئنين الى أن واحدا لن يقرأ ما بها سوى الميت ··· وأنه لن يرجع عليهم مطالبا بتعويض عن اهمال ! ·

وهدف كتاب الموتى خدمة الميت : منحه القوة للاستمتاع بحياة خالدة، ولينال ما يصبو اليـــه فى الحياة وراء القبر ، وليؤكد النصر على أعدائه ، وليحصل على ما ييسر له التوجه حيثما يريد وكيفما يشاء ، وليحفظ جسده كاملا ، وليمكن روحه من الدخول الى قارب رع ··· ومن ثم الى مساكن المباركين ···

وعدد كبير من فصول كتاب الموتى أدعية الى رع أو أوزير ذكر الى جانبها عدد من النصوص المتصلة بالمحاكمة · ومنظر المحاكمة ينقلنا الى الفصل الخامس والعشرين بعد المائة من فصول الكتاب وهو يعد أهمها ويحتوى على ثلاثة أجزاء : المقدمة والاعتراف الســلبى والنص الختامى · وكان الميت يقرأ المقدمة عند دخوله الى صالتى (ماعة) (*) · أما الاعتراف السلبى فيكون أمام ٤٢ الها يجلسون لمحاكمته فى قاعة العدل· وأما النص الختامى فيردده بعد انتهاء المحاكمة حين يسمح له ببدء حياته الجديدة · ويشير المتوفى فى هذه النصوص الى أنه لم يرتكب اثما ثم يوجه حديثه

(*) ماعة أو ماعت هى تجسيد العدالة أو النظام الالهى الذى ارتضته الأرباب للكون ·

الى الاثنين والأربعين قاضيا مناديا اياهم بأسمائهم ومقرا أمام كل منهم على حدة بأنه لم يرتكب معصية يعاقب من أجلها ، ثم يتلو ذلك الاعتراف الثالث الذى يتضمن الجزء الأول منه نفس كلمات المقدمة التى تعد بمثابه جواز مرور الى القاعة ، أما نص الختام فيشتمل على المتون التى تمهد له سبيل الخروج ٠

وفى مقـــدمة الفصـــل يتقدم الميت الى قاعتى (ماعة) ويخاطب أوزير حاكم الغرب قائلا :

الولاء لك أيهـا الاله العظيم يا سـيد قاعتى (ماعة) ٠
لقد أتيت اليك يا مولاى لأشـهد بهـاءك ، اننى أعـرفك
وأعـرف أسـماء الاثنين والأربعين الهـا الكائنين معـك
فى هذه القـاعة الماعـة المزدوجة الذين يعيشـون كحراس
وسجانين للأثمة فيها والذين يطعمون على دمائهم فى ذلك اليوم
الذى تؤخذ فيه حياة الرجال ليحاسبوا فى حضرة (ون نفر) ٠
الحق أن اسمك (رحتى مرتى نب ماعتى) (أى : الأختـان
التوأمان ذواتـا العينين سـيدتا قاعتى ماعة ٠ الحق أننى
أتيت اليك وجئت بماعة (الحق والصـدق) ٠ لقد حطمت
الشر مـن أجلك ٠ أنـا لم آت شرا الى البشر ٠ أنـا لم
أضطهد أفراد عائلتى ٠ أنا لم أعمل الشر بدل الحق والصدق ٠
أنا لم أفكر فى أن يكون أول اعتبار فى ذهنى فى يومى أداء
عمل شاق من أجلى ٠ أنا لم أعرف التافهين من الرجال ٠ أنا
لم أرتكب اثما ٠ أنا لم أقدم اسمى ليكون محل اطراء ٠ أنا لم
أسىء معاملة الخدم ٠ أنا لم أفكر فى السخرية من الاله ٠ أنا
لم أختلس من مضطهد متاعه ٠ أنا لم أعمل ما تكرهه الآلهة ٠
أنا لم أفكر فى أن يكون أول اعتبار فى ذهنى فى يومى أداء
شخصا للبكاء ٠ أنا لم أقتل ٠ أنا لم أصدر أمرا بالقتل من
أجل ذاتى ٠ أنا لم أختلس قربان المعابد ٠ أنا لم أسلب كعك
الآلهة ٠ أنا لم آخذ الكعك المقدم الى ال (خو) ٠ أنا لم أزن ولم
أرتكب فسقا ٠ أنا لم أتدنس فى الأماكن المقدسة لاله مدينتى ٠
أنا لم أبخس المكيال ٠ أنا لم أزد أو أنقص من الأرض ٠ أنا لم
أجر على حقول الآخرين ٠ أنا لم أضف الى موازين الكفة لأغش
البائع ٠ أنا لم أسىء قراءة مؤشر الكفتين لأغش المشترى أنا
لم آخذ اللبن من فم الرضيع ٠ أنا لم أطرد ماشية ترعى ٠
أنا لم أحـاول اصطياد الطيور ذات الريش من متعلقـات

الآلهة · أنا لم أصطد سمكة بسمكة · أنا لم أمنع الماء حين يجب أن يجرى · أنا لم أقطع قطعا فى قناة ماء جارية · أنا لم أخمد نارا أو ضوءا كان يجب أن تحترق وتشع · أنا لم أغتصب قطع اللحم المنتقاه من التقدمات · أنا لم أطرد الماشية من أملاك الآلهة ·

وبعد هذا الاجمال يقول :

أنا طاهر ·· أنا طاهر ·· أنا طاهر ·· أنا طاهر ·

طهارتى طهارة ال (بنو) العظيم فى حنن نسوت (هرقليوبوليس) ، لأننى أنا أنف اله الرياح الذى يجعل البشر يعيشون فى اليوم الذى تكون عين رع كاملة فى أيونو (هليوبوليس) ، فى نهاية الشهر الثانى من فصل الاخراج فى حضرة الاله المقدس لهذه الأرض · لقد رأيت عين رع كاملة فى أيونو ، ولذا فلا تدعوا الشر يحيق بى فى هذه الأرض فى قاعتى ماعة ، لأننى أنا أعرف أسماء هذه الآلهة الذين فيها والذين هم أتباع الاله العظيم ·

أما غيره · فيرى الاسهاب ويرى أن ينادى الآلهة كلا باسمه مشيرا الى المكان القادم منه ··· وكل اله له ذنب ينفيه الميت عن نفسه فيقول :

١ ـ تحية ياطويل الخطى
أيها القادم من أيونو
أنا لم أرتكب اثما

٢ ـ تحية يا من يحتضنه اللهب
أيها القادم من خرعحا
أنا لم أسرق

٣ ـ تحية أيها الأنف المقدس
أيها القادم من خمنو
أنا لم ارتكب عنفا مع الانسان

٤ ـ تحية يا ملتهم الظلال
أيها القادم من مكان ارتفاع النيل
أنا لم أسرق

٥ ـ تحية يـا نحاصعو
أيها القادم من روستار
أنا لم أذبـــح رجـــلا

٦ ـ تحيـة أيها السـبع المزدوج
أيها القـــادم من السماء
أنـا لـم أطفـف المـكيال

٧ ـ تحية يـا من عيناه كالظران
أيها القـــادم من ســـخم
أنـا لـم اتعامـل مخادعـا

٨ ـ تحيـة أيها اللهـب
يا من تنبثق حين تتراجـع
أنا لم اختلس مخصصات الآلهة

٩ ـ تحية يـا مهشم العظام
أيها القـادم من خنن نسوت
أنـا لـم أنطـق بالبـاطل

١٠ ـ تحية يا من تزيـد استعار اللهب
أيها القادم من حت كابتـاح
أنـا لـم أخطف طعامـا

١١ ـ تحيـة أى قـــرتى
أيها القـــادم من أمنـتى
أنـــا لـــم أردد ســـوءا

١٢ ـ تحية يـا من تضىء أسنانـه
أيها القـــادم من تـــاشى
أنـا لـم أهـاجم انسانـا

١٣ ـ تحيـة يا ملتهم الدماء
أيها القـادم من بيت الذبـح
أنا لم أقتـل الحيوان من أملاك الاله

١٤ ـ تحية يا ملتهم الأمعاء
أيها القـادم من قاعة ماعة
أنا لم أتعـامل فى غش

١٥ ـ تحية يا اله الحـق والصدق
أيها القادم من مدينتى ماعة
أنا لم أتلف الأرض المحروثة

١٦ ـ تحية يا من ترجع الى الوراء
أيها القـادم من مدينة باست
أنا لم أدس أنفى مستهدفا عمل الشر

١٧ ـ تحيـــة عـــانى
أيها القـادم من ايونـو
أنا لم أحرك لسانى ضد انسان

١٨ ـ تحية أيها المزدوج الشر
أيها القادم من اقليم عتى
أنا لم أجعل للغضب طريقا الى نفسى بغير سبب

١٩ ـ تحيـة أيها الثعبان وامنتى
أيها القـادم من بيت الذبـح
أنـا لم أدنس زوجة آخر

٢٠ ـ تحية يا من يتطلع الى ما يؤتى له به
أيها القـادم من معـبد أمسو
أنا لم آثم ضد الطهارة

٢١ ـ تحية يا سيد الأمراء المقدسين
أيها القـادم من نهاتـو
أنا لم أسبب ذعر الانسان

٢٢ ـ تحيـة يا خـمى
أيها القـادم من بحيرة قـاوى
أنا لم اعتد على المواسم المقدسة

٢٣ ـ تحية يا من يأمر بالكلام
أيهـا القـادم من أوريت
أنـا لـم أكن غضوبـا

٢٤ ـ تحية أيها الطفـل
أيها القادم من بحيرة حق عث
أنا لم أصم أذنى عن قول الحق

٢٥ ـ تحيـة يا مدبر الحديث
أيها القـادم من مـدينة ونس
أنـا لم أثـر عراكـا

٢٦ ـ تحيـة يـا باسـتى
أيها القادم من المدينة السرية
أنا لم أدفـع رجلا للبكاء

٢٧ ـ تحية يا مستدير الوجه
أيها القادم من المسكن
أنا لم آت دنسا ولم أضاجع ذكرا

٢٨ ـ تحية يا سارق النار
أيها القادم من عخخو
أنا لم آكل قلبى (لم أفقد أعصابى)

٢٩ ـ تحية يا كنمتى
أيها القادم من كمنت
أنا لم أسىء معاملة انسان

٣٠ ـ تحية يا من تحضر قرابينك
أيها القادم من ساو
أنا لم أكن عنيفا

٣١ ـ تحية يا سيد الوجوه
أيها القادم من جفت
أنا لم أتسرع فى الحكم

٣٢ ـ تحية يا من تعطى المعرفة
أيها القادم من أوت
أنا لم انتقم من اله

٣٣ ـ تحية يا سيد القرنين
أيها القادم من سانيو
أنا لم أزد الحديث المعاد

٣٤ ـ تحية يا نفرتم
أيها القادم من حت كابتاح
أنا لم أخادع ولم أحك شرا

٣٥ ـ تحية يا تم سب
أيها القادم من جدو
أنا لم أردد لعنات على الملك

٣٦ ـ تحية يا من قلبه يعمز
أيها القادم من ثبتى
أنا لم ألوث الماء

٣٧ ـ تحية يـــا أخـــى
أيها الماء القـــادم من نو
أنا لـــم أرفـــع صـــوتى

٣٨ ـ تحية يامن تعطى الأوامر للبشر
أيها القـــادم من ســـاو
أنا لـــم ألعـــن الآلهـــة

٣٩ ـ تحية يا نحب نفـرت
أيها القادم من بحيرة نفر
أنا لـم أتصرف بوقـــاحة

٤٠ ـ تحية يـا نحب كـار
أيها القـادم من مدينتـــك
أنا لم أســع وراء التفرقـــة

٤١ ـ تحية يا صاحب الرأس المقدسة
أيها القـــادم من مســكنك
أنا لم أزد ثروتى فيما عدا متعلقاتى الشخصية الحقة

٤٢ ـ تحية يـــا من تحضر ذراعك
أيها القـــادم من أقـــرت
أنا لم أفكر فى السخرية من اله مدينتى

الولاء لكم أيهـــا الآلهة الذين تسكنون فى قاعتى ماعة أنا أعرفكم وأعـــرف أســماءكم . لا تدعونى أسقط تحت ســـكاكينكم للذبح . ولا تقدموا شرورى وآثامى للاله الذى أنتم فى حاشـيته لا تدعوا حدثا شريرا يصيبنى بسببكم . ألا فلتعلنوا أننى مبرأ وصـــادق فى حضرة (نب ارجر) (سيد العالمين) ، لأننى عملت ما هو حق وصدق فى تامرى (مصر) . أنا لم ألعن الها فلا تدعوا شرا يحيق بى بسبب الملك الذى يسكن فى يومى .

الولاء لكم أيها الآلهة الذين يسكنون فى قاعتى ماعة . يا من بغير شر فى أجسادكم ، يا من تعيشون على الصدق والحق فى حضرة الاله حور الذى يسكن قرصه المقدس . خلصونى

من الاله (بابا) الذى يعيش على أمعاء الأقوياء فى يوم المحاكمة العظمى . اسمحوا لى أن آتى اليكم لأننى لم أرتكب آثاما . أنا لم أذنب . أنا لم أعمل شرا . أنا لم أشهد بالزور فلا تدعوا الشر يحل بى اننى أعيش على الحق والصدق وأغتذى بالحق والصدق لقد أنفذت رغبات الناس ، كما أديت ما يجب على نحو الآلهة . لقد جعلت الاله على وئام معى بأن أنفذت ارادته .

لقد أعطيت الخبز للجائع والماء للعطشان والكساء للعارى والقارب للبحرى الغريق . لقد قدست تقدمات الآلهة وقدمت الواجبات الجنزية الى الـ (خو) .

كونوا اذن مخلصى وحماتى ولا تقيموا ضدى اتهامات فى حضرة الاله العظيم .

أنا نظيف الفم نظيف اليدين فدعوا أولئك الذين يشهدوننى يقولون (أقبل فى سلام) .

★★★

وبعد ذلك تنتهى المرافعة بمثل ما بدأت فيشير الميت الى ما لقيه قبل دخوله ، وكيف مر بالعقبات وتغلب عليها وكيف تطهر فى بركة الجنوب واستراح فى حقل الجنادب ، حيث يستحم بحارة رع فى الساعة الثانية من الليل والثالثة من النهار وكيف أنه سئل عن اسمه فأجاب الاجابة الصحيحة وكيف سئل عما رأى فشهد بالحق وكيف سألته مصاريع الباب عن أسمائها فلم يتردد ، بل ذكرها على التو وبالمثل فعلت أسكفة الباب وعتباته وأقفاله وتجويف الأقفال وحارس الباب وقوائم الباب ... وكيف كانت اجابته صحيحة فقالوا له جميعا : (أنت تعرفها جميعها ... تقدم ... مر عن طريقنا) ...

★★★

وهناك بعض فصول مهمة فى الكتاب تستحق الالتفات :

فالفصل ١١٠ الذى يصف المتع التى يلقاها الميت فى (سخت حتب) و (سخت يارو) أو الحقول الاليزية ، يرجع الى عصور ممعنة فى القدم من غير شك ، حين كانت تسود المجتمعات القروية فى مصر القديمة .

ويحوى الفصل السابع عشر مجموعة من الوقائع المتصلة بأصل الآلهة والأشياء الكائنة فى العالم الآخر ، وربما يرجع أصله الى احدى المدارس الدينية القائمة فى العواصم الكبرى مثل هليوبوليس .

والفصل الرابع والستون ذو قيمة كبرى وربما يكون من أقدم فصول الكتاب ويظهر أن له أصلين أثبتا فى عهد الدولة الوسطى ، يرجع أحدهما الى الأسرة الأولى والآخر الى الأسرة الرابعة ٠

وأما الفصل الخامس والستون ، فيشير الى أن (خو) الميت سيعيش ليضرب أعداءه ٠

وأما الفصل السادس والستون ، فيمنح الميت قوة يرتفع بها فوق جبهة رع ٠

ويعطيه الفصل الثامن والستون سطوة مطلقة على كل ما فى العالم السفلى ويمكنه من الرحلة بين الأحياء ٠ وفى الفصول : السادس والتسعين والسبعين والحادى والسبعين ، نراه يقرن نفسه بأوزير وساح وأنوبيس وحور وأتوم ويسيطر على رياح السماء ، وأما الفصل الثانى والسبعون ، فيمكنه من دخول مسكن فى الحقول الاليزية حيث يملأ جعبته من القمح والشعير ٠ وهو يستطيع عن طريق فصل رقم ١٨٠ أن يجول كيفما يشاء بمنتهى حريته فى العالم السفلى ، ويمارس كل التحولات الممكنة للروح الحيـة ٠

وتبدأ بالفصل السادس والسبعين مجموعة مهمة من الفصول التى تشير الى التحولات التى تطرأ على الانسان ــ ان هو أراد ذلك ــ فى العالم السفلى وفيها يقرر الميت أنه اقتيد الى بيت الملك ٠٠ قاده اليه (فرس النبى) وتمكنه هذه الفصول من تحويل نفسه الى صقر من الذهب (فصل رقم ٧٧)، والى صـــقر الهى (فصـــل رقم ٧٨) والى حـــاكم على الأمراء الالهيين (فصل رقم ٧٩) ، والى اله يمنح، الضوء فى الدياجير (فصل رقم ٨٠) ، والى لوتس (فصل رقم ٨١) ، والى الاله بتـــاح والى كائن حى فى عنو (فصل رقم ٨٤) ، والى بنو « فينكس » (فصل رقم ٨٣) ، والى ستونو « عصفور الجنة » (فصل رقم ٨٦) ، والى ثعبان سانا (فصل رقم ٨٧) ، ثم الى تمساح (فى فصل رقم ٨٨) ٠

ويشير عدد من الفصول الى ضرورة حفظ جسد الميت فى المقبرة ، وقد أنشئت مجموعة منها بقصد منحه القوة لمقاومة هجمات الأعداء ، وللحصول على اللحوم والشراب والقدرة على الحركة فى العالم السفلى ٠ وهكذا نرى أن الفصل الأول يشير الى الاحتفالات التى تتم يوم الجنازة ، وأما الفصول أرقام : ٨ ــ ٩ ــ ١١ ــ ١٢ ــ ١٣ ــ ٤٨ ــ ١٠٧ ــ ١١٨ ــ ١١٩ ــ ١٢٢ ــ ١٦١ ــ ١٨٠ فتمكن الميت من أن يشق طريقه فى العالم السفلى دون عوائق، كما تساعده على الغلبة على أعدائه ٠ ولما كان الميت يرغب فى أن تكون لديه صيغ سحرية ، فان الفصل الرابع والعشرين يزوده بهذه الصيغ ، كمـــا

يمنحه الفصل الثاني والثلاثون القوة للاستمساك بها وعدم التفريط فيها · وأما الفصلان الحادى والعشرون والثانى والعشرون فيمنحان الميت فما ، وأما الفصل الثالث والعشرون فيزوده بقوة فتح الفم ، ونرى الفصل الخامس والشرتن يمنحه القدرة على تذكر اسمه · وأما الفصول ما بين السادس والعشرين والثلاثين ، فنجدها تمنحه قلبا وتزوده بأدعية وصيغ سحرية ، تذود أولئك الذين يسرقون القلوب عن اختطاف قلبه منه وتمنعهم من انتزاعه حين يوضع فى كفة الميزان فى قاعة المحاكمة أمام أوزير · وأما التمساح الذى يأتى ليسرق الكلمات التى تتضمن القوة وحماية الميت ، فان كلمات الفصل الحادى والثلاثين كفيلة بابعاده ، وأما الفصول أرقام : ٣٣ ــ ٣٤ ــ ٣٥ ــ ٣٦ ــ ٣٧ ــ ٣٩ ، فانها تذود عنه لسع الثعابين والأفاعى وتحميه من عضة الخنفساء من أن تنهش جسده وتقطعه الى أجزاء صغيرة ، وأما الفصل الثامن والثلاثون ، فانه يمكنه من الهرب من الصل المميت ، وأما الفصل الأربعون ، فانه يخلصه من قوة الثعبان الذى يفترس الجحش وهو الثعبان المرهوب · وفى العالم السفلى ومدنه نرى العقاب يوقع على الموتى ، واننا نرى الفصول أرقام : ٤١ ــ ٤٢ ــ ٤٣ كفيلة بأن تدافع عن أولئك الذين يحبوهم أوزير بعطفه ويمنع عنهم الأذى وينجيهم من الجراح ومن قطع الرأس عند الكتلة المميتة ··· وكان الميت يطمع فى الوصول الى مقعد فى أون السماوية ، والفصل الخامس والسبعون كفيل بتحقيق أمنيته ، كما أن الفصل الرابع والسبعين يذود الأعداء عن كرسيه وعرشه ·· وكان يسعى الى استكمال قوته على الماء الجارى والهواء المنعش الذى تجلبه ريح الشمال ، وهذه تيسرها له جميعا الفصول : ٥٤ ــ ٥٥ ــ ٥٦ ــ ٥٧ ــ ٥٨ ــ ٥٩ ــ ٦٠ ــ ٦١ ــ ٦٢ وهذا العدد الضخم من الفصول يشير الى اهتمام المصرى بذلك الأمر ··· ولما كانت هناك نار وماء يغلى فى العالم السفلى ، فاننا نراه يسارع بحماية نفسه من الحروق والتشوهات عن طريق الفصل الثالث الستين · أما الطعام فأهميته لد « كا » لا تقل عن حاجة الميت للهواء المنعش والماء · والفصول : ٥٢ ــ ٥٣ ــ ١٠٥ ــ ١١٠ ــ ١٤٨ ــ ١٨٩ تؤكد ونرة ما يحتاجه حتى يجنب المأكل الفاسد والماء الملوث ، ذلك لأن فكرة تجوال الـ (كا) للبحث عن الطعام تقض مضجعه ، مما دعا الى أن نجد فى كل نص ما يشير الى ضمان اللحم الكافى والشراب وهو أمر يتكرر كثيرا ·

أما الفصول : ٤ــ٧٤ــ١١٧ــ١١٩ ، فتبيح للميت حرية المشى والتجوال فى الـ « رستاو » أو ممرات القبر والعالم السفلى ، وحين يعوق « عابب » سيره فان الفصل السابع يمكنه من أن يمر فوق ظهر العدو · أما ارتباط

الروح بالجسد ، فان ذلك من مهمة الفصل التاسع والثمانين ، وأما هرب الروح والظل من قيود القبر ، فان الفصلين الحادى والتسعين والثانى والتسعين يتكفلان بذلك · ورغم أن الميت لا يريد أن يتجه شرقا فى العالم السفلى (فصل رقم ٩٣) ، فانه يرغب مع ذلك فى زيارة أبيدوس السماوية ، والفصل رقم ١٣٨ ييسر له زيارة هذه المدينة ·

ورغم الجهود الطبية التى يبذلها المحنطون ، فان الأجساد قد تتعفن رغم ذلك وتبقى فى قبورها · ومثل هذه الكوارث تمنعها الفصول : ٤٥ ، ٤٦ ، ١٥٤ وخاصة الأخير وهو من أشد فصول الكتاب طرافة · أما الهزيمة فى العالم السفلى فيقف دونها الفصل الحادى والخمسون ، وأما غضب الاله فيفثأه الفصل الرابع عشر ، وأما خطر الموت مرة أخرى فان الفصول : ٤٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ كفيلة برده · وقد دفع حب الطقوس والاحتفالات المصريين الى أن يعنوا عناية خاصة بالترتيبات المتصلة بالمومياء والتابوت والأثاث الجنزى فى غرفة الدفن · ويشير الفصل رقم ١٥٢ الى اتمام هذه العمليات جميعا ، على الوجه المرضى وهو يحوى منظرا لغرفة ومجموعة من النصوص القصيرة المهمة ، وأما طراز الغرفة فهو طبعا قبر أوزير ·

ولا يستطاع الوصول الى قاعة أوزير حيث يعيش مع آمرائه الا عن طريق أبواب معينة وقصور وضياع ، يحرسها بوابون فى هيئة وحوش يستطيع أن ينفذ الميت من خلالها ، اذ أنه يخترق سبعة قصور ، و ٢١ صرحا و ١٥ ضيعة عن طريق الفصول ١٤٤ ــ ١٤٧ ــ ١٤٩ ــ ١٥٠ التى تزوده بأسماء الكائنات المختصة بهذه الأبواب كما تزوده بما يجب أن يقال ·

وفى رحلة الميت الى العالم السفلى يعترضه نهر ضخم عليه أن يعبره، وذلك بواسطة قارب سرى يحمل كل جزء من أجزائه اسما عليه معرفته ، وعليه أن يستطيع ترديده وذلك عن طريق الفصلين الثامن والتسعين والتاسع والتسعين ، ولما كان يتوق الى أن ينزل فى قارب رع ويبحر فيه مع الاله الى الأبد ، فان لالك لا تيسره له سوى الفصول : ١٠٠ ــ ١٠١ ــ ١٠٢ ــ ١٢٤ ــ ١٢٦ · وعلى ذلك فان نسخا من هذه الفصول جميعا يجب أن تثبت فى كل بردية كبرى ·

وكان المصرى يعتقد أنه سيلقى أخصاما يهاجمون أوزير فى العالم السفلى ، وأن ما قد يحل بالاله سيصيبه حتما ··· وحيث ان تحوت كاتب الآلهة هو الذى سيخلص أوزير مما يلقاه من متاعب ، فان الفصلين الثامن عشر والعشرين يكرسان له حتى يمنح حمايته للميت ويضمن نصر هذا الاله من أجل أخيه أوزير · وفصل تحوت معترف به فى الفصول ٩٤ ــ

٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ، التى خصصت لارشاد الميت لتقديم قربان على هيئة لوح كتابة ومحبرة للاله ٠

وقبل أن يستطع الميت أن يجول كما يشاء فى العالم السفلى ، كان من الضرورى أن يعرف معبودات المدن المهمة فى أنحاء الأرض الأربعة التى كان بها ٠ والفصلان ١٠٧ ، ١٠٨ يمكنانه من معرفة أرواح أمنتت (الغرب)، أما الفصل ١٠٩ فيمكنه من معرفة أرواح الشرق ، وأما الفصل ١١٢ فيمكنه من معرفة أرواح (ب) « فى الشمال » ، وأما الفصل ١١٣ فيمكنه من معرفة أرواح نخن (فى الجنوب) ٠ والفصل ١١٥ يمكنه من معرفة أرواح مدينة أون ، ويمكنه الفصلان ١١٤ ، ١١٦ من معرفة أرواح شمون (هرموبوليس) ٠

وتهدد الميت فى العالم السفلى أخطار الفخاخ والشباك وهو يستطيع عن طريق الفصل ١٥٣ أن يتجنبها ويهرب منها ٠ وأما الفصلان ١٦٩ ، ١٧٠ فيمهدان له السبيل لتجهيز سريره الجنزى ، ويقدم الفصل ١٦٨ قائمة بالمؤنات الضرورية ٠ وأما الفصل ١٢٣ فيمنحه القوة لدخول (البيت الكبير) وتزوده الفصول : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨٥ ، ١٨٦ بأدعية تتلى أمام القردة المقدسة وأمام الآلهة الذين كانوا قادة فى العالم السفلى وأمام أوزير وحتحور ٠ وهو يستطيع عن طريق الفصل ١٣٢ من العودة الى بيته ٠ وأما الفصل ١٥٢ فيمنحه القوة لبناء بيت على الأرض ٠ وأما الفصل ١٧١ فيزوده بنقبة من الطهارة ٠ وتمنحه الفصول ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٨١ القوة للتقدم أمام الرؤساء المؤهلين لأوزير ويصبح قريبا من رع ٠ كما يمنحه الفصل ١٠٤ مقعدا وعرشا بين الآلهة العظام، وأما الفصل ١٨٤ فيقربه من أوزير ٠ والفصل ١٣٠ يجب أن يقرأ يوم ميلاد الاله أوزير ٠ وأما الفصل ١٣٣ فانه يجعل الـ « آخ » (الروح) كاملة أمام مجمع الآلهة ٠ وأما الفصل ١٣٥ الذى يتلى فى يوم الهلال الجديد فيمنح الميت قوة شبيهة بقوة تحوت٠ ويتلى الفصل ١٤٠ فى اليوم الأخير من الشهر السادس من السنة المصرية ، ويجعله يظهر فى مجده أمام الآلهة حين تكتمل « أودجات » رع ٠ ويمنحه الفصل ١٦٧ القوة التى لدى الأودجات مما يمكنه من أن يقرن نفسه بها ٠ ويحوى الفصلان ١٤١ ، ١٤٢ متونا تجعل المرء يوجه الى ترديدها من أجل أبيه « فى عيد أمنتى » وهذا يجعل الميت كاملا مع رع والآلهة ٠ ويحوى الفصل ١٧٣ الأدعية التى وجهها حور الى أبيه أوزير وهى التى جمعت ليباشرها حور مع الميت ٠ والفصل ١٧٢ فصل مهم من ناحية تكوينه من تسعة أقسام وفيها توصف الأعضاء فى لغة شاعرية ، تقرب من أوصاف الأعضاء فى نشيد الانشاد لسليمان ٠ وأما الفصول ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ فليس لها نظير فيما كتب قبل الدولة الحديثة ، وبها من الكلمات

والتعابير الأجنبية ما يشير الى أنه لابد أنها ترجع الى مؤلفين أجانب وتلى النصوص كتابة تشير الى تمائم عجيبة وطقوس أعجب • وأما الفصـــول ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، فانها ذات فائدة تعليمية جليلة ، اذ نرى فيها كيف أن سوء فهم معنى فقرات معينة جاء نتيجة استعمال مخصصات معينة •

وفصول الكتاب التى تقارب المائتين مليئة بالدعوات ، وكلها تستهدف الوصول الى النعيم الأبدى فى حضرة الاله الأعظم ••• أوزير ••• ون — نفـر •

شريعة حمورابى

حمورابى

١٧٩٢ ق.م

لعل أكثر ما اشتهر به حمورابى هو قوانينه ، ولعل أول ما يذكر بصدد هذه القوانين هو الباعث على اصدارها ، وقد عبر ملك بابل العظيم عن ذلك الباعث اذ قال :

نشر العدالة هو رائدى

وتحطيم الأشرار والمجرمين هو هدفى

وحماية الضعيف من ظلم القوى هو غايتى ٠

تلك هى المعانى والقيم السامية التى حدت بحمورابى الى اصدار قوانينه ، التى لا يقل عددها عن ٢٨٢ قانونا قبل نحو ٣٧٥٠ عاما ٠

وقد تبدو قوانين حمورابى كثيرة العدد ، ولاسيما اذا قيست بالشرائع البابلية والسومرية التى سبقتها ، ولكنها فى الواقع قليلة وتبدو كذلك بخاصة اذا قورنت بما استهدفته وشملته من نطاق واسع ٠

فهى تتناول طائفة كبيرة من الجنايات والجنح فتحددها وتنص على العقوبات التى تستوجبها ، ثم انها تتصدى لأمور التجارة والزواج والأسرة والميراث والملكية ، وتضع لها جميعا من القواعد والشروط ما يكفل ضبطها وتنظيمها ٠

وتجدر الاشارة الى العناية الخاصة بأعمال ذوى الاختصاص كالأطباء والمهندسين ، وقد كادت قوانين حمورابى أن تنفرد بها فهى تحدد المسئوليات الملقاة على عاتق هؤلاء وأمثالهم ومثل ذلك يقال فى الأجور والايجارات بصورة عامة ، وفى أمور الزراعة وما يتصل بها من مشاكل وقضايا ، وقد أولتها شريعة حمورابى مزيدا من اهتمامها ٠

حقوق الأسرة والمرأة

وتحتل الأحكام الخاصة بالأسرة مكانة بارزة بين قوانين حمورابى فهى تعبر عن نظرة التقدير الى المرأة وحقوقها ، والحرص الشديد على حمايتها وحماية الأولاد القصر ولعلنا لا نجد لتلك النظرة وهذا الحرص مثيلا فى شرائع التاريخ القديم كله ٠

ونذكر فى هذا الصدد ان قوانين حمورابى تبيح الطلاق من حيث المبدأ وتجيز للرجل أن يطلق زوجته اذا هى تصرفت تصرفا مشينا ، أما اذا كان سبب الطلاق غير ذلك ، كعدم انجاب الأطفال مثلا ، فعلى الرجل فى تلك الحالات ان يعطى المرأة من المال بقدر المبلغ الذى استوجبه زواجه منها أصلا ، وعليه أيضا أن يعيد اليها (الدوطة) أو المهر الذى دفعته أو جاءت به من بيت أبيها .

وتظهر قوانين حمورابى فيما يتصل بتعدد الزوجات مثلما أظهرت بالنسبة الى الطلاق ، فهى تجيز للرجل ان يتزوج امرأة ثانية بسبب موت زوجته الأولى أما اذا أقدم الرجل على الزواج مرة ثانية بدون سبب الموت الذى ذكرنا فيتوجب عليه فى تلك الحال ان يبقى زوجته الأولى فى بيته ويعولها « ما دامت على قيد الحياة » .

أما فى الميراث فتقول تلك القوانين فيما تقول :

يرث الأولاد عن أبيهم الراحل أمواله وأملاكه ، أما أمهم الأرمل فلها حق الانتفاع بتلك الأملاك واستعمالها كما تشاء ويستثنى من ذلك طبعا الأملاك التى كان قد منحها اياها زوجها قبل وفاته . فللأرمل حق التصرف فى أملاكها الخاصة هذه بيعا أو ايجارا حسبما تشاء .

وبقى علينا أن نشير الى ما اشتهرت به شريعة حمورابى من قسوة العقوبات، وأول ما يحضرنا فى هذا الصدد المادة ٢٢٨ التى تعالج مسئوليات الأطباء والجراحين وهذا نصها : « اذا أجرى الجراح عملية جراحية رئيسية لأحد أفراد طبقة الوجهاء (بالبابلية : أولوم) وتسبب فى موت ذلك الرجل .. عوقب ذلك الجراح بقطع يده » .

وتحضرنا المادة (٢٢٩) التى تنص : « اذا بنى أحد المهندسين المعماريين بيتا لأحد الوجهاء وانهار ذلك البيت لضعف فى بنائه وانهدم على رأس صاحب فتسبب فى موته ، كان عقاب ذلك المهندس هو الموت » « أما اذا كان ضحية ذلك انهيار عبد من عبيد صاحب البيت ، فلا يطالب المهندس المسئول بأكثر من اعطاء صاحب البيت عبدا آخر بدلا من العبد الذى مات » .

ويبدو أن حمورابى أدرك ما انطوت عليه قوانينه من قسوة وشدة فأتاح الفرصة للصفح والعفو حينا ولتخفيف العقوبة أحيانا . ونضرب على ذلك مثلا المادة (١٥٩) التى تحدد عقوبة الزنى ، فتنص على أن « يربط الزانى بالزانية فيشد وثاقهما الى بعضهما البعض ثم يلقى بهما فى مياه النهر .. وتمضى المادة تؤكد أن فى امكانهما تحاشى هذا المصير .. وذلك

فيما اذا صفح الزوج عن زوجته الزانية وعفا الملك عن عشيقها وشريكها في الجريمة » ٠

حمورابى القائد والملك

نقف هنا ونتحول بحديثنا عن الشرائع الى المشرع الذي سنها لعلنا نلم ببعض معالم حياة حمورابى وبشيء من أفعاله وأمجاده ٠

وأول ما يتبادر الى الذهن هو ان المملكة الواسعة التى دانت لحمورابى ابان حكمه الطويل (١٧٢٨ ــ ١٦٨٦ ق٠م) ، والتى شملت بلاد ما بين النهرين جميعا وامتدت حتى وصلت الى ديار بكر ، لم تكن المملكة التى ورثها عن أبيه ، اذ لم تزد مساحة هذه على ٢٠ ميلا بالعرض و ٨٠ ميلا بالطول ، وقد اقتصرت على الرقعة الصغيرة التى نجدها فى الوقت الحاضر بين الفالوجة والديوانية ٠ أما بقية امبراطورية بابل الشاسعة فقد ضمها بها فى المرحلة الأولى من حكمه وكان من نتيجة هذه الفتوحات أيضا أن انهـــارت الممالك القوية التى كانت تحيط بمملكتـــه الصغيرة وكانت خمس ممالك هى : مملكة لارسا فى الجنوب وآشور وماري وآكلافوم فى الشمال وممكة اشنوتا فى الشرق ٠

دهـــاء حمورابى

ومن طريف ما يذكر هنا أن حمورابى لم يبدأ القيام بفتوحاته تلك لدى اعتلائه العرش مباشرة ، بل بعد ذلك بخمس سنوات فقد كان من الدهاء بحيث أمضى تلك السنوات الأولى فى التعرف الى أحـــوال تلك الممالك واعداد لعدة للحرب ، التى نوى منذ اللحظة الأولى خوضها ٠

أضف الى ذلك حرصه على الاحاطة بشئون مملكته ورعيته والعمل على توطيد أركان عرشه ٠

بيد أن تلك الفتوحات لم تلبث ان انتهى أمرها فى غضون بضـــع سنوات ، فحل السلم محل الحرب وعم استقرار وانتشر الرخاء وازدهرت الحضارة ، طيلة الأعوام الثلاثين الأخيرة من حكم حمـــورابى الذى امتـــد ٤٣ سنة ٠

بقى أن نذكر أن حمورابى أعظم ملوك بابل لم يكن بابليا ، بل كان ابن أحد شيوخ الأموريين كما دلت على ذلك رسائله التى تم الكشف عنها فى السنوات الأخيرة ٠

ولعل خير ما نختم به كلامنا عن حمورابى هو ما قاله حمورابى نفسه عن حكمه وأعماله فى أواخر أيامه :

لقد حطمت أعدائى فى الشمال والجنوب ٠

ووضعت حدا بعد ذلك للحروب ٠

ونجحت فى نشر الرخاء فى البلاد ٠

وأوجدت البيوت الصالحة لسكن العباد ٠

وضربت على يد كل من حاول بث الفساد ٠

★★★

وشريعة حمورابى كتبت على لوح من الديوريت ، ويعلوها نقش يظهر فيه حمورابى وكأنما يتلقى أمر كتابة الشريعة من اله العدالة ٠٠٠٠٠ اله الشمس « شمش » ٠ وقد نقل اللوح الى عاصمة العيلاميين القديمة « سوسه » ٠٠٠٠ نقلها اليها أحد الغزاة العيلاميين « شوترك ناهونتى » غنيمة حرب ٠٠٠ وكشف عنها العلماء الفرنسيون فى عام ١٩٠١ ــ ١٩٠٢٠ وقد كشط العيلاميون مواد القانون من ٦٥ ــ ١٠٠ التى احتفظت بها نسخ أخرى منها ، ومقدمة الشريعة وخاتمتها كتبتا بأسلوب شعرى ٠

المقدمـــة :

١ ــ حين حدد « أنوم » (١) المتعالى ملك « أنوناكى » (٢) و « أنليل » (٣) سيد السماء والأرض ومحدد أقدار البلاد ٠٠٠٠ ل « مردوك بكر » (٤) « أنكى » (٥) وظائف « أنليل » على البشر جميعا ٠٠٠ جعلاه سيدا على ال « أجيجى » وسميت بابل باسمها المبجل وجعلت أعظم ما فى العالم ٠٠٠ أسست له فى وسطها ملكية خالدة أسسها ثابتة ثبات السماء والأرض ٠٠٠ فى ذلك الوقت عينانى « أنوم » و « أنليل » لأعمل على اسعاد الناس أنا حمورابى ٠٠٠٠ المكرس ٠٠٠٠ الأمير الذى يخاف الله ٠٠٠ لأقيم العدل حتى يسود الأرض ولأقضى على الشر والسوء حتى لا يطغى القوى على الضعيف ولأرتفع كالشمس فوق الأقوام ذوى الرؤوس السوداء ولأضىء الأرض ٠٠٠ أنا حمورابى ٠٠٠٠ الراعى ٠٠٠٠ الذى عينه « أنليل » أنا من أعمل على الاكثار وأنمى فى وفرة كل ما ل « نيبور ــ دورانكى » (٦) الحامى الوفى المكرس ل « أيكور » الملك الكفء الذى أصلح « أريدو » وأعادها لمكانها ٠

٢ ــ أنا من طهر عبادة « أيابزو » ، من يركض فى أنحاء العالم الأربعة ، من يجعل اسم بابل عظيما ، من يسعد قلب « مرودك » مولاه ، من ظل طوال حياته يعد نفسه مسئولا عن « أيساجيل » سلالة الملكية ،

من ذرأه « سن » (٧) ذلك الذى دفع « أور » الى التقدم ... المرتجى ... من وفر الثراء لـ « أجيش جال » الملك العاقل المطيع لـ « شمش » (٨) القوى ، من أعاد وضع أسس « سيبار » ، من زين بالخضرة هياكل « أيا » مصمم معبد « أيبابار » الذى يشبه المسكن السماوى ... الجندى ... حامى « لارسا » (٩) ، من أعاد بناء « أيبابار » لـ « شمش » معاونه ... السيد المولى الذى أحيا « الوركاء » (١٠) ووفر الماء كثيرا لشعبها ورفع عاليا رأس « أيانا » ، ومن زاد فى ثراء « أنوم » و « أيانا » ملجأ البلاد الذى جمع شمل قوم « أيسن » (١١) الذى أثرى معبد « ايجالما » الملوك ، الأخ الحق لـ « زابابا » (١٢) معيد تأسيس قاعدة « كيش » ، الذى أحاط « ايميث أورساج » بالابهة والفخار ، الذى أمن الهياكل الكبرى لـ « ايننا »، راعى معبد « هورساج كالاما » (١٣) رعب الأعداء .

٣ ـ ذلك الذى جعله « أيررا » (١٤) رفيقه يحقق أطماعه والذى جعل « كوثه » متعالية والذى يسر كل شىء لـ « مسلام » الثور المتوقد الذى يناطح العدو مجبوب « توتو » (١٥) من يجاب السرور « بورسيبا » المكرس الذى لم يقف عائقا أمام « أيزيدا » الاله الملوك المعروف بالحكمة منوسع الأراضى الزراعية الخاصة بـ « دلبات » (١٦) الذى يقوم بخزن الحبوب « اوراش » القوى السيد المولى حامل الصولج والتاج الذى أوصله الحكيم « ماما » (١٧) للكمال والذى وضع تصميم « كش » ... الذى يجعل ولائم « ننتو » فاخرة ، الكامل الذى يحدد المراعى وأماكن الرى لـ « لجش » و « جرسو » (١٨) والذى يكثر من التضحيات لـ « أنيننو » من يقبض على العدو ... المقرب لدى « تليتوم » (١٩) ومن ينفذ وحى « حلاب » (٢٠) الذى يسعد قلب « عشتار » (٢١) الأمير الفاخر الذى يعرف « أدد » أدعيته وصلواته .... ذلك الذى يهدىء قلب « أدد » (٢٢) المحارب فى بيت « كركار » ، الذى أعاد تأسيس التعيينات فى « أيود جلجال » الذى منح « آداب » (٢٣) الحياة مدير معبد « ايماه » رئيس الملوك ... المحارب بغير نظير ..

٤ ـ من منح الحياة الى « ماشكان شيريم » (٢٤) من يوفر الشراب الى « مسلام » « العاقل .. الادارى الذى غاص الى أعماق الحكمة منقذ قوم « مالكا » (٢٥) من الشقاء مؤسس أماكن السكنى فى وفرة من أجل « أنكى » و « دامجال نونا » موسع مملكته الذى قدم التضحيات الفاخرة كل الوقت أول الملوك مخضع الأقاليم على طول الفرات بفضل قوة خالقه « داجان » (٢٦) من أنقذ قوم « ميرا » و « توتول » (٢٧) الأمير الورع الذى جعل وجه « أيننا » وضاء المكثر من الولائم لـ « نينازو » (٢٨) منقذ قومه من البلاء .. من يدعم فى أمان نصيبهم فى وسط بابل راعى الناس ذلك

الذى ترضى أعماله عشتار الذى أحل « عشتار » فى « أيولماش » فى وسط ميدان « أكدا » (٢٩) الذى يجعل القانون نافذا والذى يقود قومه فى الطريق الحق ٠٠ ذلك الذى أعاد الى « آشور » (٣٠) عبقريتها الحامية العطوفة والذى غلب المهتاجين ٠٠ الملك الذى جعل اســـم « أينانا » ممجدا فى « نينوى » (٣١) فى « أيميش ميش » ، الورع الذى يدعو فى حـــرارة الالهة الكبرى « سليل ســـومولا ايل » (٣٢) الابن القوى وريث ســـن موبالميت ٠

٥ ــ البذرة العتيدة للملكية ٠٠ الملك القوى ٠٠ شمس بابل الذى يجعل الضوء يندفع فوق أراضى سومر واكد (٣٣) الملك الذى أخضع أنحاء المعمورة الأربعة ٠٠٠٠

أنا ٠٠٠ محبوب أينانا ٠

حين أرسلنى مردوك لأقود الشعب فى طريق الحق ،

ولأدير البلاد ٠

وضعت أسس القانون والعدالة فى لغة الأرض ،

مستهدفا صالح الشعب ٠

فى ذلك الوقت ٠

قـــررت :

القـــانون :

١ ــ اذا اتهم رجل (٣٤) آخر بجريمة قتل لم يستطع اقامة الدليل عليها قتل ٠

٢ ــ اذا اتهم رجل آخر بالسحر ولم يســتطع اقامة الدليل اختبر بامتحان النهر فيرمى نفسه فيه ، فان غلبه النهر على أمره استولى خصمه على ضيعته وان أظهر النهر أنه برىء وخرج سالما ، فان المدعى يقتل ويأخذ الداعى عليه ضيعته ٠

٣ ــ اذا شهد بشهادة زور فى قضية ولم يستطع اثبات قوله وكانت القضية تتصل بالحياة يقتل ٠

٤ ــ اذا كانت شهادة الزور تتصـــل بالحبوب أو المال توقع عليه العقوبة ٠

٥ ـ اذا حكم قاضي حكما وأصدر قرارا وأبرز وثيقة مختومة ثم عدل في الحكم وأمكن اثبات أن القاضي غير في الحكم الذى أصدره ، يدفع ١٢ ضعف الدعوى موضوع القضية ثم يعزل عن كرسى القضاء ويطرد من الجماعة ولا يجلس مرة أخرى مع القضاة أثناء نظر القضايا ٠

٦ ـ اذا سرق رجل متاع معبد أو متاع الدولة ، فانه يقتل وكل من وضع يده على متاع مسروق يقتل ٠

٧ ـ اذا اشترى رجل أو أخذ كأمانة ذهبا أو عبدا أو جارية أو ثورا أو نعجة أو جحشا أو أى شيء آخر من يد رجل آخر أو عبده بغير شهود أو عقود ٠٠ فهو لص ٠٠ ويقتل ٠

٨ ـ اذا سرق رجل ثورا أو نعجة أو جحشا أو قاربا ٠٠٠٠ ان كانت للمعبد أو للدولة ، يدفع ثلاثين ضعفا وان كانت لمواطن يدفع عشرة أمثال وان لم يكن يملك ما يكفى لدفع التعويض يقتل ٠

٩ ـ ان عثر على بضاعة مسروقة من رجل فى حيازة آخر وأقسم هذا الأخير « أن بائعا باعنى اياها وقمت بالشراء فى حضرة شهود » وأعلن صاحب المسروقات «سأقدم الشهود على بضاعتى المسروقة» ، فان المشترى ما دام قدم البائع والشهود الذين تمت الصفقة بحضورهم كما قدم صاحب البضاعة الشهود على ملكيته لها ، فان القضاة يفصلون فى النزاع٠٠٠الشهود الذين تم الشراء بحضورهم والشهود الذين يشهدون بملكيتها لصاحبها يشهدون بذلك فى حضرة الاله ٠٠٠ اذا ثبت أن البائع لص فانه يقتل ، أما صاحب البضاعة المسروقة فيستردها وأما المشترى فيأخذ من أملاك البائع المال الذى دفعه ٠

١٠ ـ اذا لم يرشد المشترى عن البائع الذى باعه البضاعة وعن الشهود الذين تم الشراء بحضورهم ولكن صاحب البضاعة قدم شهوده ٠٠٠ فاشترى لص ٠٠٠٠ يقتل وصاحب المتاع يسترد متاعه ٠

١١ ـ اذا لم يقدم صاحب البضاعة المسروقة شهوده على ملكيته للبضاعة المسروقة فهو مخادع غشاش ٠٠٠٠ يقتل ٠

١٢ ـ اذا كان البائع قد مات ، فان المشترى يأخذ من ضيعته خمسة أمثال قيمة الدعوى فى القضية ٠

١٣ ـ اذا لم يكن من الميسور تواجد شهود الرجل ، فان القاضى يمنحه أجلا قدره ستة شهور فاذا لم يقدم الشهود خلالها ، فهو مخادع وينال الجزاء ٠

١٤ ـ اذا سرق رجل ابنا صغيرا لآخر حكم عليه بالموت ٠

١٥ ـ اذا عاون رجل عبدا للدولة أو جارية للدولة أو عبدا لمواطن أو جارية لمواطن على الهرب من بوابة المدينة يقتل ٠

١٦ ـ اذا آوى رجل فى بيته عبدا هاربا أو جارية هاربة ممن يمتون للدولة أو للمواطنين ولم يقدمهم عند استدعاء الشرطة ، فان صاحب البيت يقتل ٠

١٧ ـ اذا أمسك رجل بعبد هارب أو جارية هاربة فى العراء وأخذ كملك له ، فان صاحب العبد يدفع له عشرة شواقل من الفضة ٠

١٨ ـ اذا لم يعين العبد اسم صاحبه يأخذه الى القصر حتى يتم التحرى عنه ثم يعاد الى صاحبه ٠

١٩ ـ اذا احتفظ بهذا العبد فى بيته ٠٠٠٠ أو اتضح فيما بعد ان العبد بقى فى حوزته قتل ذلك الرجل ٠

٢٠ ـ اذا هرب العبد من يد أسرة يؤيد الرجل ذلك بقسم أمام الاله لصاحب العبد وعندئذ يطلق سراحه ٠

٢٢ ـ اذا أحدث رجل صدعا فى منزل يقتل أمام الصدع ويحشر داخله ويسد عليه ٠

٢٢ ـ اذا ضبط رجل متلبسا بسرقة قتل

٢٣ ـ اذا لم يضبط السارق ، فان صاحب المتاع المسروق يقدم تفصيلات المسروقات فى حضرة الاله وعندئذ ، تعوضه المدينة وحاكمها التى وقعت السرقة فى ناحيتها من متاعه المسروق ٠

٢٤ ـ اذا كان ما سرق « حياة » تدفع المدينة للحاكم مينا من الفضة تعويضا لأهلها ٠

٢٥ ـ اذا شبت نار فى بيت رجل وذهب رجال لاطفائها ثم نظر أحدهم بعينه الى متاع صاحب البيت وحاول اختلاسه يقتل بالقائه فى النار ٠

٢٦ ـ اذا كلف جندى خاص أو مبعوث بمهمة للملك ولم يذهب أو استأجر بديلا له ، يقتل ذلك الجندى أو المبعوث ثم تسلم أملاكه لبديله ٠

٢٧ ـ اذا أسر جندى أو مبعوث وهو فى الخدمة العامة للملك وكانت حقوله وبساتينه قد أعطيت بعد اختفائه الى آخر ارتبط بالتزاماته الاقطاعية ، فانه فى حالة العودة والرجوع الى المدينة يعاد اليه حقله وبستانه ويرعى بنفسه التزاماته الاقطاعية ٠

٢٨ ـ اذا كان الجندى الخاص أو المبعوث الذى أسر وهو فى الخدمة العامة للملك له ابن يستطيع ان يرعى التزاماته الاقطاعية ، فان الحقل والبساتين يعطيان له ليرعى الالتزامات الاقطاعية له ٠

٢٩ ـ اذا كان الابن صغيرا بحيث لا يستطيع رعاية الالتزامات الاقطاعية لأبيه ، يعطى ثلث الحقل والبستان للأم حتى تقوم بتربيته ٠

٣٠ ـ اذا كان جندى خاص أو مبعوث يسلم حقله أو بستانه وبيته بسبب الالتزام الاقطاعى ثم يغيب وبعد رحيله يأخذ آخر حقله وبستانه وبيته ويرعى الالتزامات الاقطاعية مدى ثلاث سنوات ٠٠٠٠ فان عاد وطالب بحقله وبستانه وبيته لا يعطى له ٠٠٠٠ ان من أخذها ورعى التزاماتها الاقطاعية تصبح من حقه الاقطاعى ٠

٣١ ـ اذا غاب لمدة سنة واحدة فقط ثم عاد ، فان البستان والبيت يردان له ويرعى الالتزام الاقطاعى ٠

٣٢ ـ اذا دفع تاجر فدية جندى خاص أو مبعوث أسر فى حملة الملك ومكنه من الوصول لمدينته ، فان المفتدى يدفع فديته عن نفسه ان كان لديه ما يكفى فى بيته ، أما اذا لم يكن لديه ما يكفى فى بيته، فيفتدى من أملاك اله المدينة فاذا لم يكن هناك ما يكفى من أملاك اله المدينة ، فان الدولة تفتديه ٠ وأما حقله وبستانه فلا تصفى مقابل الفدية ٠

٣٣ ـ اذا تملك « روكوم » أو « لوبوتوم » (منصبان عسكريان يعادلان شاويش وضابط) جنديا وتقبل ان يذهب مستأجرا كبديل فى حملة للملك ، فانهما يقتلان ٠

٣٤ ـ اذا اغتصب « روكوم » أو « لوبوتوم » متاع جندى ، أو أساء أحدهما الى جندى ، أو استأجر أحدهما جنديا ، أو أصدر حكما ضده ظلما لمصلحة من هو أعلى منه رتبة ، أو اغتصب منحة منحه اياها الملك ، فان ال « روكوم » أو « لوبوتوم » يعاقب بالموت ٠

٣٥ ـ اذا اشترى رجل من يد جندى ماشية أو غنما كان الملك قد أعطاها للجندى ، فانه يدفع ماله غرامة ٠

٣٦ ـ حقل الجندى أو بستانه أو متعلقات بيته ... هو أو المبعوث أو الاقطاعى ... لا تباع بحال من الأحوال .

٣٧ ـ اذا اشترى رجل حقلا أو بستانا أو شيئا من متعلقات بيت جندى أو مبعوث أو اقطاعى ، فان لوحة التعاقد تكسر ثم يدفع ماله غرامة مع اعادة الحقول والبستان والبيت الى صاحبها .

٣٨ ـ ليس من حق جندى أو مبعوث أو اقطاعى ان يتخلى عن حقله أو بستانه أو بيت اقطاعيته لزوجته أو ابنته ، وليس له بأية حال من الأحوال أن يتنازل عنها مقابل التزام عليه .

٣٩ ـ يجوز له أن يتنازل لزوجته أو ابنته عن أى حقل أو بستان أو بيت اشـــتراه ثم تملكه كنتيجة لذلك هو يستطيع أن يعينهم لالتزام خاص به .

٤٠ ـ « الناديتوم » (طبقة كهنوتية) أو التاجر أو الاقطاعى الخاص يستطيع أن يبيع حقله أو بستانه ، على أن يتقبل المشترى التزام ما اشتراه .

٤١ ـ اذا تملك رجل ، عن طريق المقايضة ، حقلا أو بستانا أو بيتا خاصا بجندى أو مبعوث أو اقطاعى ثم قام بدفع ثمن اضافى ، فان الجندى أو المبعوث أو الاقطاعى يعاود تملك حقله أو بستانه أو بيته كما يحتفظ بما دفع اضافيا .

٤٢ ـ اذا استأجر رجل حقلا للزراعة ثم لم ينتج حبوبا فى الحقل ، فان هذا يشير الى أنه لم يقدم لمالك الحقل حبوبا على أساس الأرض المجاورة .

٤٣ ـ اذا لم يزرع الحقل بل أهمله يدفع حبوبا لصـــاحب الحقل على أساس ما بجواره ، بل ان الحقل الذى أهمله يقوم بحرثه ويعود الى صاحبه .

٤٤ ـ اذا استأجر رجل حقلا بورا لمدى ثلاث سنوات لتحسينه ولكن كسله أدى الى أنه لم يقم بتحسينه فانه ، يحرث أرضه فى السنة الرابعة ويكسر كتله ويعيده الى صاحبه بل ـ أكثر من ذلك ـ بكيل عشرة « كور » من الحبوب لكل ١٨ « ايكو » .

٤٥ ـ اذا أجر مالك حقله لمستأجر وتسلم ايجار حقله ثم أغرق « أدد » فيما بعد الحقل أو اجتاحه فيضان ، فان الخسارة تقع على المستأجر .

٤٦ ـ اذا لم يكن قد تسلم الايجار سواء أكان أجر الحقل لنصف أم ثلث « المحصول » ، فان مستأجر الحقل ومالكه يقتسمان ما ينتجه الحقل من حبوب .

٤٧ ـ اذا كان المستأجر قد طلب من آخر أن يزرع الحقل لأنه لم يستطع استغلاله فى السنة السابقة ، فان مالك الأرض ليس له أن يعترض ولمستأجره الجديد أن يزرع حقله وفى موسم الحصاد يأخذ الحبوب بما يتفق والعقود ٠

٤٨ ـ اذا كان هناك دين فى ذمة رجل ثم أغرق « أدد » حقله أو اجتاحه فيضان أو لم تنم الحبوب بسبب الماء فى الحقل ، فليس له أن يعيد شيئا من الحبوب لدائنه فى هذه السنة ، بل يلغى لوحة العقد ولا يدفع فائدة عن تلك السنة ٠

٤٩ ـ اذا اقترض رجل مالا من تاجر ورهن للتاجر حقلا معدا للحبوب أو السمسم ، بأن قال له « ازرع الحقل ثم اجمع المحصول وخذ الحبوب أو السمسم الذى تنتجه » ٠٠٠٠ اذا كان المستأجر أنتج حبوبا أو سمسما فى الحقل ، فان صاحب الحقل نفسه يأخذ فى موسم الحصاد الحبوب أو السمسم التى أنتجها الحقل ويعطى التاجر الحبوب مقابل ماله الذى استدانه سنة مع الفوائد وكذا ما يقابل تكاليف الزراعة ٠

٥٠ ـ اذا رهن حقلا مزروعا أو حقلا استنبت به السمسم ، فان صاحب الحقل نفسه يأخذ الحبوب أو السمسم الذى أنتجه الحقل ثم يرد المال وأرباحه الى التاجر ٠

٥١ ـ اذا لم يكن لديه المال ليرده ، فانه يعطى التاجر مقابل ماله حبوبا أو سمسما بسعر السوق الذى يحدده الملك ذلك المال الذى استدانه التاجر مع فائدته ٠

٥٢ ـ اذا كان المستأجر لم ينتج حبوبا أو سمسما فى الحقل ، فله ألا يغير عقده ٠

٥٣ ـ اذا تكاسل رجل عن أن يقوى سد حقله ولم يصنعه قويا وحدث به صدع ثم كان من أثر ذلك أن اجتاح الماء الأرض المنزرعة ، فان الرجل الذى صدع السد فى أرضه يأخذ مقابلا للحبوب التى أصابها الخسار ٠

٥٤ ـ اذا لم يكن قادرا على التعويض بالحبوب ، يباع كما يباع متاعه ويقتسم الزارعون الذين أتلف الماء محصولهم ماله ٠

٥٥ ـ اذا حدث ان تكاسل رجل عند فتح قناته للرى بحيث اجتاح حقلا مجاورا لحقله ٠ فانه يكيل تعويضا بمقدار ما أصابه الخسار ٠

٥٦ ـ اذا فتح رجل الماء ثم تركه يغتال ما تم من عمل فى حقل مجاور ، يدفع ١٠ « كور » مقابل كل ١٨ «أيكو» لصاحب الحقل٠

٥٧ ـ اذا لم يتفق زاع مع صاحب الحقل لترعى أغنامه على الحشائش بل تركها ترعى فى الحقل دون موافقة صاحبه ، فانه حين يجمع صاحب الحقل المحصول ، فان الراعى الذى رعى غنمه فى الحقل دون موافقة صاحب الحقل يدفع بالاضافة ٢ « كور » لكل ١٨ « أيكو » لصاحب الحقل ٠

٥٨ ـ اذا حدث أن تركت الأغنام المرعى ، بعد أن احتجز القطيع كله داخل بوابة المدينة ، وساق الراعى الأغنام الى حقل ثم رعت فيه ، فان الراعى ملزم أن يرعى الحقل الذى رعت فيه الأغنام ثم انه فى موسم الحصاد يدفع ٦ « كليور » لكل ١٨ « ايكو لصاحب الحقل ٠

٥٩ ـ اذا قطع رجل شجرة من بستان رجل آخر دون موافقة صاحبه يدفع نصف مينا من الفضة ٠

٦٠ ـ اذا حدث أن سلم رجل الحقل لبستانى ليصنع بستانا ، فان البستانى حين يفعل ذلك يجب عليه أن يرعاه لمدة أربع سنوات وفى السنة الخامسة يتقاسم المحصول مناصفة مع صاحب الأرض ولصاحب البستان حق الحصول على النصيب الأفضل ٠

٦١ ـ اذا لم يقم البستانى برعاية الحقل كله بل ترك جزءا بورا يكون هذا الجزء من نصيبه ٠

٦٢ ـ اذا لم يقم بتحويل ما أعطى له من أرض الى بستان فى حالة كونها أرضا منزرعة ، يدفع البستانى الى صاحب الأرض ايجار الحقل عن السنوات التى أهمل فيها ، على أساس الأراضى المجاورة ، كما يقوم بالعمل اللازم فى الحقل الذى يعود الى صاحبه ٠

٦٣ ـ اذا كانت أرضا بورا ، فانه يقوم بالعمل اللازم فى الحقل ويعيده الى صاحبه كما يكيل ١٠ « كور » من الحبوب لكل ١٨ « ايكو » عن كل سنة ٠

٦٤ ـ اذا سلم رجل بستانا لكى يلقحه ، فان البستانى يعطى لصاحب البستان ¾ محصول البستان كايجار للبستان طيلة استثماره له ، أما هو فياخذ الـ ¼ ٠

٦٥ ـ اذا لم يقم البستانى بتلقيح البستان ومن ثم هزل المحصول ، فان البستانى يدفع ايجار البستان بما يعادل ايجار المثل المجاور ٠

٦٦ ـ اذا استدان رجل من تاجر ثم ضيق عليه التاجر ولم يكن لديه ما يدفعه اذا أعطاه البستان بعد التلقيح وقال له : « خذ مالك بلحا بقدر ما أنتج البستان » ٠ فانه لا يسمح للتاجر بذلك لأن

لصاحب البستان نفسه أن يأخذ ما أنتج البستان من بلح ويدفع للتاجر ماله وفائدته طبقا لنص اللوحة ، كما لصاحب البستان بدوره أن يأخذ بقية البلح الذى أنتجه البستان ٠

٦٧ ـ اذا بنى رجل بيتا فان جاره ٠٠٠٠٠٠

٦٨ ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

٦٩ ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

٧٠ ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ يعطيه ٠٠ ٠٠ ٠٠

٧١ ـ اذا كان يعطى حبوبا أو مالا أو بضائع لاقطاعية ولاية مجاورة يريد شراءها ، فانه يدفع غرامة ما سبق أن دفعه وتعود الضيعة الى صاحبها ، واذا لم يكن للضيعة التزامات اقطاعيـة ، فله أن يشتريها مادام يدفع مثل هذه الضيعة حبوبا أو مالا أو بضائع ٠

٧٣ ـ ٧٧ ٠٠٠٠ مواد ضائعة الا من ألفاظ ورد بها أمر بناء المنزل ٠

٧٨ ـ اذا أجر رجل لآخر ودفع المستأجر الأجر لصاحب البيت لمدة عام ثم قال المالك للمستأجـر وعقده لا يزال نافذ المفعول : « اترك المنزل » ، فان صاحب البيت يدفع غرامة المال الذى دفعه المستأجر لأنه طلب اليه أن يترك المنزل وعقده نافذ المفعول ٠

٧٩ ـ ٨٧ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

٨٨ ـ اذا أقرض تاجرا حبوبا بفائدة ، يأخذ مقابلها ٦٠ « قو » من الحب لكل « كور » كفائدة ، واذا أقرض مالا بفائدة يأخذ $\frac{1}{6}$ شاقل و ٦ « شى » (أى $\frac{1}{5}$ شاقل) لكل شاقل من الفضة كفائدة ٠

٨٩ ـ اذا لم يكن لدى رجل ما يسد به الدين ولكن كانت لديه حبوب ، فان التاجر يأخذ حبوبا مقابل ماله مع فائدة تتفق والسعر الذى يحدده الملك ٠

٩٠ ـ اذا زاد التاجر فائدة عن « ٦٠ » « قو » لد « كور » من الحبوب أو $\frac{1}{6}$ شاقل و ٦ « شى » عن شاقل المال ثم أخذها ، فانه يدفع غرامة تعدل ما أقرض ٠

٩١ ـ اذا أقرض تاجرا حبوبا بفـائدة ثم أخذ ماله بفائدة كاملة من الحبوب ، فان الحبوب مع المال قد لا ٠٠ ٠٠ ٠٠

٩٣ ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

٩٣ ـ اذا كان التاجر ٠٠٠٠٠ أو لم يستنزل القدر الكافى من الحبوب الذى تسلمه ولم يكتب عقدا جديدا ، أو كان قد أضاف الفائدة الى رأس المال ، فان التاجر يرد ضعف القدر الكامل الذى تسلمه من الحبوب ٠

٩٤ ـ اذا أقرض تاجر بفائدة حبوبا أو مالا وعند التسليم دفع المال بالوزن الصغير والحبوب بالمكيال الصغير ، ولكن حين استرد فعل ذلك بالوزن الكبير والمكيال الكبير ، فانه يدفع غرامة تعادل ما أقرضه ٠

٩٥ ـ اذا أقرض حبوبا أو مالا بفائدة وأعطى ٠٠٠٠٠ فانه يدفع غرامة تعادل ما أقرضه ٠

٩٦ ـ اذا استدان رجل حبوبا أو مالا من تاجر ولم يكن لديه حبوب أو مال يرده بل بضائع ، فانه يعطى لتاجره ما يملك ، مثبتا أمام شهود أنه سيأتى بها وعلى التاجر أن يقبل ذلك دون اعتراض ٠

٩٧ ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ فانه يقتل ٠

٩٨ ـ اذا سلم رجل لآخر مالا للشركة ، فانهما يقتسمان مناصفة فى حضرة الاله الربح أو الخسارة الناجمين ٠

٩٩ ـ اذا أقرض تاجر مالا بفائدة لتاجر متجول بقصد التجارة وأرسله الى الطريق ، فان التاجر المتجول ٠٠٠٠ على الطريق ٠٠٠٠ المال الذى عهد اليه به ٠

١٠٠ ـ اذا كان قد حقق ربحا حيث حل ، فانه يسجل الفائدة على المبلغ بالكامل الذى استدانه ثم يحسبان الأيام عليه ويرد للتاجر ٠

١٠١ ـ اذا لم يكن قد حقق ربحا حيث ذهب ، فان التاجر المتجول يدفع للتاجر مضاعفا ما اقترضه من مال ٠

١٠٢ ـ اذا كان تاجر قد أقرض تاجرا متجولا قرض مجاملة وتحققت خسارة حيث ذهب ، فانه يعيد رأس المال للتاجر ٠

١٠٣ ـ اذا هاجمه عدو فى الطريق جعله يسلم له كل ما يحمل فان التاجر المتجول يقسم بالاله وعندئذ يطلق حرا ٠

١٠٤ ـ اذا أقرض تاجر حبوبا أو صوفا أو زيتا أو أية بضاعة الى تاجر متجول لبيعها بالقطاعى ، فان التاجر المتجول يسجل القيمة ويردها للتاجر على أن يتسلم ايصالا عما يدفع للتاجر من مال ٠

١٠٥ ــ اذا كان التاجر المتجول مهملا ، بحيث لم يحصل على ايصال مختوم عن المال الذى دفعه للتاجر ، فان المال بغير ايصال مختوم قد لا يضاف للحساب ٠

١٠٦ ــ اذا اسدان تاجر متجول مبلغا من المال من تاجر ثم حدث نزاع ، فان التاجر عليه أن يثبت فى حضرة الاله والشهود أن التاجر المتجول استدان المبلغ ، وعندئذ ، يدفع التاجر المتجول الى التاجر ثلاثة أمثال المبلغ موضوع الدين ٠

١٠٧ ــ اذا عهد تاجر بشىء الى تاجر متجول ثم أعاد هذا اليه ما أعطاه ، فانه فى حالة حدوث أى نزاع بينهما وانكار التاجر المتجول انه تسلم شيئا ، فانه على التاجر المتجول أن يثبت ذلك بالقسم ضد التاجر فى حضرة الاله والشهود ، وعندئذ ، يدفع التاجر ستة أمثال الشىء موضوع هذا النزاع ٠

١٠٨ ــ اذا كانت بائعة خمور بدلا من أن تتسلم حبوبا كثمن للشراب تسلمت نقودا بالوزن الكبير وبذا جعلت سعر الشراب أقل من قيمة الحبوب فانهم يثبتون ذلك ضدها ويلقون بها فى ماء النهر٠

١٠٩ ــ اذا تجمهر بعض المتشردين فى حانة بائعة خمور ولم يقبض عليهم ولم تأخذهم الى القصر ، فانها تقتل ٠

١١٠ ــ اذا كانت « ناديتوم » (من طبقة الكاهنات) أو « أنتوم » (من طبقة الراهبات) ممن لا يعيشون فى دير ــ يفتتحون حانة أو يدخلون حانة بقصد الشراب ، فالعقوبة الحرق ٠

١١١ ــ اذا أعطت بائعة قنينة من شراب « بيخوم » نسيئة ، فانها تأخذ ٥٠ « قــو » من الحبوب عند جمع المحصول ؛

١١٢ ــ اذا كان رجل فى رحلة تجارية وأعطى فضة وذهبا وأحجارا كريمة أو أية بضائع من متعلقاته الى رجل آخر وعهد اليه بنقلها ، فان هذا الرجل اذا لم يسلم ما كان يجب نقله الى حيث كان يجب نقله بل أخذه لنفسه ، فان صاحب البضائع التى كان مفروضا أن تنقل يجب أن يثبت الاتهام ضد الرجل الأخير فيما يتصل بموضوع ما كان يجب نقله ولم يسلمه وعندئذ ، يدفع الرجل الى صاحب البضاعة التى كان يجب أن تنقل خمسة أمثال ما سلم اليه ٠

١١٣ ــ اذا كان لرجل دين من حبوب أو مال على آخر ثم أخذ حبوبا من الشونة (أو ساحة التذرية ، بغير موافقة صاحب الحبوب ، فيجب اثبات أن هذا الرجل أخذ حبوبا من الشونة أو ساحة التذرية

دون موافقة صاحب الحبوب وعندئذ ، يعيد كمية الحبوب التى أخذها ثم يدفع كذلك غرامة كل شيء آخر يكون قد اقترضه ٠

١١٤ ـ اذا لم يكن لرجل حبوب أو مال لدى آخر ولكن احتجزه كرهن ، فانه يدفع ثلث مينا من الفضة عن كل احتجاز ٠

١١٥ ـ اذا كان لرجل دين حبوب أو مال لدى آخر ثم احتجز شخصا كرهينة ، ثم مات الرهينة ميتة طبيعية فى بيت المحتجز ، فليس هناك وجه لاقامة الدعوى ٠

١١٦ ـ اذا كان موت الرهينة نتيجة ضرب أو اساءة فى بيت المحتجز ، فان صاحب الرهن عليه أن يثبت ذلك ضد تاجره : فان كان ابنا للرجل قتل الابن وان كان عبده دفع ثلث مينا من الفضة وغرامة عن كل ما يكون قد اقترضه ٠

١١٧ ـ اذا حل أجل التزام على رجل ثم باع خدمات زوجته أو ابنه أو ابنته أو سخر للخدمة ، فانهم يعملون فى بيت مستبييهم أو ملتزمهم مدى ثلاث سنوات وتعاد اليهم حريتهم فى السنة الرابعة ٠

١١٨ ـ اذا سخر عبد أو أمة للخدمة ثم أراد التاجر اشهار البيع ، فله أن يبيع دون وجه لاقامة الدعوى ضده ٠

١١٩ ـ اذا قام التزام على رجل وكان من نتيجة ذلك أنه باع خدمات أمته التى ولدت أطفالا ، فان صاحب الأمة يستطيع أن يدفع فيما بعد ما كان التاجر قد دفعه ثم يسترد أمته ٠

١٢٠ ـ اذا أودع رجل حبوبه فى بيت رجل آخر فخزنها وحدث تلف فى الشونة أو يكون صاحب البيت قد فتح المخزن وأخذ حبوبا أو أنه أنكر تماما تسلمه لأى حبوب بقصد خزنها فى بيته ، فعلى صاحبها أن يبين تفصيلات حبوبه فى حضرة الاله وعندئذ يعطى صاحب البيت الى مالك الحبوب ضعف ما أخذ من حبوب ٠

١٢١ ـ اذا أودع رجل حبوبا فى بيت آخر ، فعليه أن يدفع ٥ « قو » من الحبوب لكل « كور » مقابل تخزين لمدة سنة ٠

١٢٢ ـ اذا أراد رجل أن يودع لدى آخر فضة أو ذهبا أو أى شيء آخر لحفظه (أمانة) ، فيجب أن يبين بالشهود مقدار ما يود ايداعه ثم يحرر عقدا وعندئذ تتم عملية الحفظ (ايداع) ٠

١٢٣ ـ اذا سلم شيئا لحفظه بغير شهود أو عقود ثم أنكروا تسليمها حيث أودعها ، فان الحال لا تستدعى اقامة الدعوى ٠

١٢٤ ـ اذا أعطى رجل آخر فضة أو ذهبا أو أى شيء آخر بصفة أمانة فى حضرة شهود ثم أنكر الواقعة ، فيجب اثباتها وعندئذ يدفع ضعف ما أنكر ٠

١٢٥ ـ اذا أودع رجل متاعه كأمانة ثم اختفى المتاع حيث أودعه كما اختفى متاع صاحب البيت ، اما بسبب دخول اللصوص أو عن طريق نقب الحائط ، فان صاحب البيت الذى كان اهماله سببا فى تبديد الأمانة يجب أن يعوض صاحب البضائع ، وعليه أن يبحث جديا بحثا كاملا عن متاعه الضائع ويأخذه من اللص الذى سرقه ٠

١٢٦ ـ اذا لم يكن متاع الرجل قد سرق ولكنه قد أعلن « ان متاعى قد سرق » ، وبذا يحاول خديعة مجلس مدينته ، فان مجلس المدينة يستعرض الحقائق فى حضرة الاله وان متاعه لم يسرق وعندئذ يدفع لمجلس مدينته ضعف ما ادعى به ٠

١٢٧ ـ اذا شهر رجل براهبة أو زوجة رجل آخر ولم يستطع اثبات شيء يجر ذلك الرجل الى حضرة القضاة ويقص كذلك نصف شعره ٠

١٢٨ ـ اذا كان رجل وزوجته ولكن لم يحرر معها عقودا ، فان هذه المرأة ليست زوجة ٠

١٢٩ ـ اذا ضبط زوجته فى حالة تلبس مع رجل آخر ، يربطان معا ويلقى بهما فى ماء النهر ، فاذا أراد الزوج ابقاء زوجته ، فللملك أن يحفظ على الرجل من رعيته حياته ٠

١٣٠ ـ اذا اتصل رجل بخطيبة آخر ولم يكن قد واقعها رجل من قبل وكانت لا تزال فى بيت أبيها ثم رقد على صدرها وأمسك بها ، فانه يقتل أما المرأة فتطلق حرة ٠

١٣١ ـ اذا اتهم رجل زوجته ولم تضبط متلبسة مع آخر ، تثبت دعواها بقسم أمام الاله وتعود الى بيتها ٠

١٣٢ ـ اذا شهر بزوجة رجل آخر ولكن لم تضبط متلبسة فى حالة اضطجاع مع رجل آخر ، فانها تلقى بنفسها الى النهر من أجل زوجها ٠

١٣٣ ـ اذا أسر الرجل وكان فى بيته ما يكفى أسرته فان زوجته لا تهجر بيتها بل تحترس فلا تدخل بيت رجل آخر فانها تلقى ٠

١٣٣م ـ اذا لم تحترس المرأة ثم دخلت بيت رجل آخر ، فيجب اثبات ذلك ضدها ثم يلقى بها فى النهر ٠

١٣٤ ـ اذا أسر رجل ولم يكن هنـاك فى بيته ما يحفظ عليهـم الحيـاة الزوجية ، فلزوجته أن تدخل بيت رجل آخر ولا لوم عليها ٠

١٣٥ ـ ابا لم يكن فى بيت الأسير ما يكفى للانفاق على أسرته ، ثم دخلت زوجته الى بيت رجـل آخـر قبل عودته وولدت له أطفالا وعاد زوجها أخيرا ووصل الى مدينته ، فان هذه المرأة تعاد الى زوجها الأول أما الأولاد فيبقون مع أبيهم ٠

١٣٦ ـ اذا هجر رجل مدينته ثم هرب ثم دخلت زوجته بيت رجل آخر بعد رحيله ، فانه عند عودته ورغبته فى استعادة زوجته لا تعود الزوجة الى زوجها الهارب ، لأنه احتقر مدينته وفر هاربا ٠

١٣٧ ـ اذا عول رجـل أن يطلق « شـوجيتوم » رزقت منه أطفالا ، أو « ناديتوم » جاءته بأطفال ، ترد الى هذه المرأة بائنتها كما تعطى نصف الحقوق والبستان والمتاع حتى يربى أولادها ، وبعد أن تتم تنشئة أولادهـا تعطى نصـيبا مماثلا لأى وريث مما يوزع على أولادها ، حتى يستطيع الرجل الذى يختارها أن يتزوجها ٠

١٣٨ ـ اذا أراد رجل أن يطلق زوجته التى لم يرزق منها بأطفال ، فعليه أن يسلمها بالكامل كل ثمن زوجها وكذا بائنتها التى جاءت بها من بيت أبيها ٠٠٠ ثم يطلقها ٠

١٣٩ ـ اذا لم يكن هناك ثمن زواج ، فانه يعطيها « مينا » واحدة من الفضة لاتمام الطلاق ٠

١٤٠ ـ اذا كان مزارعا يعطيها ثلث مينا من الفضة ٠

١٤١ ـ اذا كانت زوجة رجل تعيش فى بيته قد عولت على أن تترك البيت لتعمل ، وبذا تهمل بيتها ويستشعر زوجها المهانة ، فيجب اثبات ذلك ضدها ٠ وان عول زوجها بسبب ذلك على تطليقها ، فانه يطلقها دون اعطائها شىء لاتمام الطلاق عند رحيلها ٠ وأما اذا لم يكن زوجها قد عول على تطليقها ، فله أن يتزوج من غيرها وتبقى الزوجـة السابقة فى بيت زوجها كخادمة ٠

١٤٢ ـ اذا كرهت امرأة زوجها بحيث قالت « لا صلة لك بى » فيتحرى عن حالتها أمام مجلس المدينة : فاذا كانت حريصة بحيث لا يبدو بها ما يعيبها حتى رغم أن زوجها يخرج ويتحدث عنها بسوء ، فان هذه المرأة يمكن تسريحها دون لوم اطلاقا الى بيت أبيها على أن تأخذ معها بائنتها ٠

١٤٣ ـ اذا لم تكن حريصة بل كانت دائمة الخروج للزيارات ، وبذا تهمل بيتها ويستشعر زوجها المهانة ، فانه يلقى بها فى ماء البحر ٠

١٤٤ ـ اذا تزوج رجل من « ناديتوم » ، ثم أسلمت هذه جارية لها زوجها ثم رزق منها بأطفال وعول على التزوج من كاهنة ، فليس له أن يفعل لأنه ليس له أن يتزوج من كاهنة ٠

١٤٥ ـ اذا تزوج رجل من « ناديتوم » ولم يرزق منها بأطفال ثم عول على التزوج من كاهنة فله أن يتزوجها ويأتى بها الى بيته ولكن هذه الكاهنة لا ترتفع اطلاقا الى مرتبة الـ « ناديتوم » ٠

١٤٦ ـ اذا تزوج رجل من « ناديتوم » وأعطته جارية حملت منه وجاءت بأطفال ثم طالبت بالمساواة لسيدتها لأنها رزقت بأطفال ، فليس لسيدتها أن تبيعها ولكن لها أن تدمغها بميسم الاماء وتعدها ضمن عبيدها ٠

١٤٧ ـ اذا لم ترزق بأطفال فلسيدتها أن تبيعها ٠

١٤٨ ـ اذا تزوج رجل ثم مرضت زوجته بالحمى ، فانه فى حالة عزمه على الزواج من أخرى ، له أن يفعل ذلك دون أن يطلق زوجته التى مرضت بالحمى ٠٠٠ انها يجب أن تعيش فى البيت الذى بناه ويستتمر فى اعالتها طيلة حياتها ٠

١٤٩ ـ اذا كانت هذه المرأة قد رفضت أن تعيش فى بيت زوجها ، يرد لها بائنتها التى جاءت بها من أبيها وعندئذ لها أن تترك البيت ٠

١٥٠ ـ اذا كان رجل عند اهداء حقل أو بستان أو بيت أو متاع الى زوجته يكون قد حرر عقدا مختوما معها ، فان أولادها لا يستطيعون الدخول فى دعوى ضدها بعد وفاة زوجها ، ما دامت الأم تستطيع أن تمنح ارثها ابنها الذى تحبه ولكن ليس لها أن تعطيه لغريب ٠

١٥١ ـ اذا كانت امرأة تعيش فى بيت زوجها قد نصت فى عقد زواجها أن دائن زوجها لا يستطيع ارتهانها بمقتضى ابراز وثيقة مكتوبة ٠٠٠٠ ثم حدث أن كان الرجل مدينا قبل الزواج من تلك المرأة ، فان دائنيه لا يستطيعون احتجازها ، كما أنه اذا كانت هى مدينة قبل دخولها الى بيت زوجها ، فان دائنيها لا يستطيعون احتجاز زوجها ٠

١٥٢ ـ اذا حدث الدين بعد دخول المرأة بيت زوجها ، فعلى الاثنين أن يساءلا أمام التاجر (يقصد الدائن) ٠

١٥٣ ـ اذا تسببت امرأة فى موت زوجها بسبب رجل آخر توضع على الخازوق ٠

١٥٤ ـ اذا واقع رجل ابنته فعليه أن يترك المدينة ٠

١٥٥ ـ اذا اختار رجل عروسا لابنه ثم واقعها ابنه ثم ضبط هو بعد ذلك متلبسا معها يربط ويلقى به فى النهر ٠

١٥٦ ـ اذا اختار رجل عروسا لابنه ولم يواقعها ابنه ولكن ضاجعها هو ، فانه يدفع لها نصف مينا من الفضة ثم يرد لها كل ما جاءت به من بيت أبيها ، حتى يستطيع الرجل الذى تختاره أن يتزوجها ٠

١٥٧ ـ اذا ضاجع رجل أمه بعد موت أبيه يحرق كلاهما ٠

١٥٨ ـ اذا ضبط رجل بعد موت أبيه متلبسا بمضاجعه مرضعته ، التى كانت حاملة أطفال ، فانه يقطع من بيت أبيه ٠

١٥٩ ـ اذا جاء خطيب الى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج ، ثم أحب امرأة أخرى وقال لحميه المقبل : « سوف أتزوج من ابنتك » ، فان أب الفتاة يحتفظ بكل ما جيء له به ٠

١٦٠ ـ اذا جاء خطيب الى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج ، ثم قال والد الفتاة له : « سوف لا أزوجك ابنتى » ، فانه يرد ضعف ما جيء به له به ٠

١٦١ ـ اذا جاء خطيب الى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج وأساءه صديق له بأن قال ان حماه المقبل قال : « سوف لا تتزوج من ابنتى » ، فانه يرد مضاعفا ما جيء له به ولكن صديقه لا يتزوج من الزوجة المزمعة ٠

١٦٢ ـ اذا اتخذ رجل زوجة ورزقت منه بأطفال ثم ماتت ، فليس لأبيها أن يسترد بائنتها ، لأن هذه البائنة ملك لأولادها ٠

١٦٣ ـ اذا اتخذ رجل زوجة ثم ماتت دون أن تجيئة بأطفال وأعاد له حموه ثمن الزواج الذى كان قد قدمه الى بيت حميه ، فليس لزوجها أن يدعى حقا فى بائنتها ، لأن هذه البائنة من حق بيت أبيها ٠

١٦٤ ـ اذا لم يرد حموه ثمن الزواج ، فانه يستنزل مبلغ ثمن الزواج بأكمله من بائنتها ويرد بقية البائنة الى بيت أبيها ٠

١٦٥ ـ اذا كان رجل ، عند اهداء حقل أو بستان أو بيت الى بكر أولاده المحبوب فى عينيه ، قد كتب وثيقة مختومة له وجاء اخوته للتقسيم

بعد وفاة أبيهم ، فانه يحفظه بالهدية التى أعطاه اياها أبوه مالا كما أن ضيعه الأب تقسم بينهم بالتساوى .

١٦٦ ـ اذا كان رجل لم يختر زوجه لأصغر أبنائه عند اختياره لأبنائه ، فان اخوته حين يقسمون تركته بعد موته يعطون لأصغر الأبناء حصة اضافية تعدل ثمن الزواج من ضيعة أبيهم وهكذا يمكنونه من الحصول على زوجة .

١٦٧ ـ اذا تزوج رجل ورزق بأطفال ثم ماتت زوجته فتزوج من بعدها بامرأة أخرى رزق منها بأطفال كذلك ، فانه حين يموت لا يقتسم الأطفال التركة تبعا لأمهاتهم ، بل يستولون على بائنة الأمين كل مجموعة على حدة ثم تقسم تركة الرجل بالتساوى بعد ذلك .

١٦٨ ـ اذا أراد رجل أن يحرم أحد أبنائه وقال للقضاة : « أريد حرمان ابنى من الارث » ، فان القضاة يتحرون حالته فاذا لم يكن الابن قد ارتكب ذنبا خطيرا بحيث يحرمه حقه فى البنوة ، فليس من حق الأب أن يقطع عنه حقه فى البنوة .

١٦٩ اذا كان قد ارتكب اثما خطيرا يكفى لحرمانه من البنوة ، فيجب العفو عن ذنبه الأول ، فان ارتكب خطأ خطيرا للمرة الثانية فللأب أن يحرمه .

١٧٠ ـ اذا ولدت الزوجة الأولى لزوجها أطفالا ثم جاءته جاريته بأطفال وقال الزوج فى خلال حياته « أطفالى » لأبناء الجارية وبذا عدهم كأطفال الزوجة الأولى ، فانه بعد موت الأب تقسم التركة بالتساوى بين أطفال الزوجة الأولى وأطفال الجارية على أن يكون لبكر الزوجة الأولى نصيب مفضل .

١٧١ ـ ومع ذلك ، فاذا لم يقل الأب خلال حياته « أطفالى » لمن جاءت بهم الجارية ، فانه بعد وفاة الأب لا يشارك أبناء الجارية فى متاع الأب أبناء الزوجة الأولى ولكن تحرر الجارية أولادها وليس لأبناء الزوجة الأولى حق الخدمة على أبناء الجارية ، وتأخذ الزوجة الأولى بائنتها وهدية الزواج التى كتبها زوجها لها على لوحة وتعيش فى بيت زوجها وتستمتع بالحياة فيه طيلة عمرها دون أن يكون لها حق بيعة لأنه ميراث يخص أولادها .

١٧٢ ـ ان لم يكن زوجها قد أعطاها هدية زواج فترد لها بائنتها وتحصل من متاع زوجها على ميراث يعدل أحد الأنصبة وان ظل أولادها يضايقونها ليدفعوها لترك الدار ، يتحرى القضاة الأمر ثم يلقون

اللوم على الأولاد وهكذا لا تترك المرأة البيت . أما ان عولت على تركه فتترك لأولادها هدية زواجها التي أعطاها اياها زوجها ، اما البائنة التي أخذتها من بيت أبيها فتأخذها معها حتى يتزوجها الرجل الذى تختاره .

١٧٣ ـ اذا كانت تلك المرأة قد رزقت بأطفال من زوجها الأخير في المكان الذى دخلت اليه ، فانه في حالة موتها يقتسم أطفالها من زوجها القديم وزوجها الجديد البائنة .

١٧٤ ـ اذا لم تكن قد رزقت بأطفال من الزوج الثانى فأطفال الزوج الأول وحدهم يتقاسمون البائنة .

١٧٥ ـ اذا تزوج عبد للقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة رجل حر ورزقت منه بأطفال ، فليس لسيد العبد حق الخدمة على الأطفال من ابنة السيد .

١٧٦ ـ هذا الى أنه اذا تزوج عبد للقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة سيد ، ثم انها دخلت حين تزوجها الى بيت عبد القصر أو بيت عبد المواطن الخاص ببائنتها وارتبطا ببعضهما ، ثم أسسا بيتا واقتناه بمتاع ثم مات العبد ، فان ابنة السيد تأخذ بائنتها ثم يقسم الى قسمين ما اشتركت مع زوجها فى شرائه بعد ارتباطهما ويأخذ صاحب العبد النصف وتأخذ هى النصف لأولادها .

١٧٦م ـ اذا لم يكن لابنة السيد بائنة يقسم الى نصفين ما اشترته مع زوجها بعد ارتباطهما ، ويأخذ صاحب العبد نصفا وتأخذ هى نصفا لأولادها .

١٧٧ ـ اذا كان لأرملة أطفال قصر وعولت على دخول بيت رجل ، فليس لها أن تدخل دون موافقة القضاة . فانها حين تريد دخول بيت رجل آخر يتحرى القضاة حالة تركة زوجها السابق ، ثم يعهدون الى زوجها الثانى برعاية تركة زوجها السابق وتحرر لوحة بينهم وبين المرأة تستهدف أنهم سيرعون التركة ويربون القاصرين دون التعرض بالبيع لمتاع البيت ، لأن المشترى الذى يقدم على شراء متاع بيت أطفال أرملة يخسر ماله ويعاد المتاع الى أصحابه .

١٧٨ ـ فى حالة الراهبة أو الـ « ناديتوم » أو المنذورة « زيكورم » التى كتب أبوها لها لوحة عند تقديمه لبائنتها ، فانه اذا لم يكن قد سجل بها تصريحه بتوريثها لمن تشاء ولم تكن قد منحها مطلق التصرف بعد موته ، فان اخوتها يأخذون حقلها وبستانها ولكنهم يطعمونها ويعطونها زيتا وملابس تعدل قيمة نصيبها بحيث تبدو

راضية . فاذا لم يقدموا لها طعاما وزيتا وملابس مناسبة تعدل قيمة نصيبها بحيث تبدو راضية ، فلها أن تعطي حقلها وبستانها الى أى مستأجر ترضاه والمستأجر فى هذه الحالة سيرعاها ما دامت تستولى على ثمار الحقل والبستان أو ما منحها أبوها طيلة حياتها دون حق التصرف بالبيت أو التوصية للغير ، لأن نصيبها يخص اخوتها من بعدها .

١٧٩ ـ في حالة الراهبة أو الـ « ماديتوم » أو المنذورة التي كتب لها أبوها عند تقديم البائنة صكا مختوما وسجل فى اللوحة التى كتبها تصريحه بالتصرف فى ميراثها وفق هواها ومنحها مطلق الحرية ، فانه بعد وفاته لها أن تسلم ميراثها لمن تشاء وليس لاخوتها حق الدعوى ضدها .

١٨٠ ـ اذا لم يقدم أب بائنة لابنته « ناديتوم » في دير أو منذورة ، فانه بعد موته تتسلم ، كنصيب لها من متاع أبيها فى تركته ، نصيبا مماثلا لأى وريث ولكن لهـا فقط أن تستمتع باستثماره طيلة حياتها ، لأن نصيبها فى الميراث ملك لاخوتها من بعدها .

١٨١ ـ اذا كرس أب لابنته لمعبد ك « ناديتوم » أو « عاهرة مقدسة » أو « كولماشيتوم » (متعبدة) ولم يقدم لها بائنة ، فانها بعد موته تأخذ نصيبا من تركته بمقدار الثلث ولها استثماره طيلة حياتها فقط لأنه يخص اخوتها .

١٨٢ ـ اذا كان أب لم يقدم لابنته الـ « ناديتوم » لـ « مردوك » بابل ولم يسجل وثيقة مختومة لها ، فانها بعد موته تشارك اخوتها فى تركة الأب بنسبة الثلث لها ولكن ليس لهـا أن تباشر أية التزامات اقطاعية ، لأن لـ « ناديتوم » « مردوك » بابل حق منح ميراثها لمن تشاء .

١٨٣ ـ اذا حرر أب وثيقة مختومة لابنته الكاهنة عند تقديم بائنتها فلها بعد موته أن تأخذ نصيبها فى تركة أبيها .

١٨٤ ـ اذا لم يقدم رجل بائنة لابنته الكاهنة لأنه لم يزوجها ، فعلى اخوتها بعد موته أن يقدموا لها هدية تتناسب مع قيمة التركة التى خلفها الأب ويقدموها لزوجها .

١٨٥ ـ اذا تبنى رجل ولدا باسمه ورباه ، فان الطفل المتبنى لا يسترجع اطلاقا .

١٨٦ ـ اذا تبنى رجل ولدا عرف أباه وأمه عند تبنيه ، فللطفل أن يعود الى بيت أبيه .

١٨٧ ـ الابن المتبنى لموظف القصر أو خادم القصر أو منذور لا يرد اطلاقا ،

١٨٨ ـ اذا أخذ عضو من طبقة الصناع ولدا متبنى وعلمه حرفته ، فله الحق فى ألا يرده اطلاقا ٠

١٨٩ ـ اذا لم يكن قد علمه حرفته ، فمن الممكن أن يعود الطفل المتبنى الى بيت أبيه ٠

١٩٠ ـ اذا لم يعد رجل من بين أبنائه الولد الذى تبناه ورباه ، فلهذا المتبنى أن يعود الى أبيه ٠

١٩١ ـ اذا تبنى رجل ولدا ثم أسس أسرة له وجاءه أولاد فيما بعد وعول على ابعاد المتبنى ، فان هذا الولد لا يذهب فارغ اليد ، اذ أنه على من تبناه أن يعطيه من متاعه ثلث ما يملك ، وله أن يسرحه بعد ذلك ما دام لم يعطه حقلا أو بستانا أو بيتا ٠

١٩٢ ـ اذا قال متبنى موظف قصر أو منذور الى أبيه بالتبنى أو أمه بالتبنى « لست أبى » أو « لست أمى » يقطع لسانه ٠

١٩٣ ـ اذا وجد متبنى قصر أو منذور أبويه وكره اباه بالتبنى وأمه بالتبنى ثم ذهب الى بيت أبويه تقلع عيناه ٠

١٩٤ ـ اذا أعطى رجل ابنه لمربية ، ثم مات وهو تحت رعايتها ، فانه فى حالة تعاقد المربية مع ابن آخر دون علم الأب والأم ، فعليهما أن يثبتا ذلك ضدها ثم يقطعا ثديها ، لأنها تعاقدت مع ابن آخر دون علم أبيه وأمه ٠

١٩٥ ـ اذا ضرب ولد أباه يقطع يده ٠

١٩٦ ـ من يتسبب فى اتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تقلع عينه ٠

١٩٧ ـ من يكسر عظمة رجل آخر تكسر عظمته ٠

١٩٨ ـ من يفقد رجلا من العامة عينه أو احدى عظامه يدفع مينا من الفضة٠

١٩٩ ـ من يفقد عبدا عينه أو احدى عظامه يدفع نصف القيمة ٠

٢٠٠ ـ من يسقط سن رجل من طبقته تكسر سنه ٠

٢٠١ ـ من يسقط سن رجل من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة ٠

٢٠٢ ـ من يلطم خد آخر أعلى منه مرتبه يجلد جلدة بسوط من جلد الثور علنا ٠

٢٠٣ ـ اذا لطم نبيل خد نبيل من نفس المرتبة يدفع مينا من الفضة ٠

٢٠٤ ـ اذا لطم رجل من العامة خد آخر يدفع ١٠ شواقل من الفضة ٠

٢٠٥ ـ اذا لطم عبد خد نبيل تصلم أذنه ٠

٢٠٦ ـ اذا ضرب رجل فى معركة رجلا آخر فأصابه ، فانه يقسم قائلا : « أنا لم أضربه عمدا » وعليه كذلك أن يدفع أجر الطبيب ٠

٢٠٧ ـ اذا مات بسبب الضربة فيقسم نفس القسم فاذا كان من النبلاء ، يدفع نصف مينا من الفضة ٠

٢٠٨ ـ اذا كان من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة ٠

٢٠٩ ـ اذا ضرب رجل ابنة آخر وأجهضت ، يدفع ١٠ شواقل من الفضة بسبب اجهاضها ٠

٢١٠ ـ اذا ماتت المرأة قتلت ابنته ٠

٢١١ ـ اذا وقعت الاصابة على ابنة رجل من العامة ، يدفع ٥ شواقل من الفضة ٠

٢١٢ ـ اذا ماتت هذه المرأة يدفع مينا من الفضة ٠

٢١٣ ـ اذا ضرب جارية فأجهضها يدفع شاقلين من الفضة ٠

٢١٤ ـ اذا ماتت الجارية يدفع ثلث مينا من الفضة ٠

٢١٥ ـ اذا باشر طبيب عملية كبرى لرجل بسلاح من البرونز فأنقذ حياته ثم فتح خراجا بعين رجل بسلاح برونزى فأنقذ العين ، فأجره عشرة شواقل من الفضة ٠

٢١٦ ـ اذا كان من العامة يأخذ خمسة شواقل ٠

٢١٧ ـ اذا كان عبدا فان صاحب العبد يعطى شقالين للطبيب ٠

٢١٨ ـ اذا باشر طبيب عملية كبرى لرجل بسلاح برونزى وتسبب فى موته أو فتح خراجا بعينه فأتلفها تقطع يده ٠

٢١٩ ـ اذا كانت العملية لعبد رجل من العامة ومات فيعوضه عبدا بعبد ٠

٢٢٠ ـ اذا باشر العملية على عين العبد بالسلاح البرونزى فأتلفها يدفع نصف ثمنه من الفضة ٠

٢٢١ ـ اذا أصلح طبيب عظمة مكسورة أو شفى تمزقا عضليا ، فعلى المريض أن يدفع خمسة شواقل للطبيب ٠

٢٢٣ ـ اذا كان من العامة يدفع ثلاثة شواقل من الفضة ٠

٢٢٣ ـ اذا كان عبدا دفع صاحبه شاقلين من الفضة للطبيب ٠

٢٢٤ ـ اذا قام طبيب بيطرى بعملية كبرى لثور أو حمار وأنقذ حياته فان صـــاحب الثور أو الحمار يدفع للجرح سدس شاقل من الفضة أجرا له ٠

٢٢٥ ـ اذا قام بالعملية لثور أو حمار وتسبب فى وفاته يدفع لصاحب الثور أو الحمار قيمته ٠

٢٢٦ ـ اذا عمل رجـل ممن يقومون بالوشم علامة عبد لرجل آخر دون موافقة صاحب العبد تقطع يده ٠

٢٢٧ ـ اذا خادع أحد المختصين بالوشم بحيث أزال علامة العبد من عبد لرجل آخر ، يقتل ذلك الرجـل ويعلق على باب بيته ويقســم للمختص بالوشم قائلا : أنا لم أقم بازالتها عن علم » ثم يطلق سراحـــه ٠

٢٢٨ ـ اذا بنى بناء بيتا لرجل وأنجزه ، فانه يعطيه شاقلين من الفضة لكل « سار » من البيت أجرا له ٠

٢٢٩ ـ اذا بنى بيتا لرجل ولم يقم البناء بحيث انهار المبنى وتسبب فى وفاة صاحب البيت يقتل البناء ٠

٢٣٠ ـ اذا أدى ذلك الى موت ابن صاحب البيت يقتل ابنه ٠

٢٣١ ـ اذا كان سببا فى موت عبد ، يعوضه بعبد لصاحب البيت ٠

٢٣٢ ـ إذا تسبب فى اتلاف متاع ، يعوض كل ما يتلف وكذلك لأنه لم يقم بعمل البيت شيئا متينا فانهار ، فعليه أن يعيد بناء البيت الذى انهار على نفقته ٠

٢٣٣ ـ اذا بنى بناء بيتـا لرجل ولم يكن عمله مأمونا ، بحيث أصبح الحائط خطرا غير مأمون ، فعليه أن يدعم الحائط على نفقته ٠

٢٣٤ ـ اذا صنع مراكبى مركبا سعتها ٦٠ كور لرجل ، فأجره شاقلان من الفضة ٠

٢٣٥ ـ اذا صنع المركب ولم يقم بعمله حسنا بحيث تفكك أحد أقواسه فى نفس السنة ٠٠٠ وحيث انه ظهر هذا العيب فعلى المراكبى أن يفك القارب ويقويه على نفقته ويسلم المقوى الى صاحبه ٠

٢٣٦ ـ اذا أجر رجل مركبه لمراكبى وأهمل هذا بحيث غرقت أو غاصت، فانه يعوضها بمركب أخرى لصاحب المركب الأولى ٠

٢٣٧ ـ اذا استأجر رجل مركبا وحملها بالحبوب والصوف والزيت والملح

أو أى نوع من الحمولة ، ثم أهمل المراكبى بحيث غاصت المركب وضاع ما تحمل ، فان المراكبى يعوض بمقدار ما غاص وما فقد ٠

٢٣٨ ــ اذا أغرق مراكبى مركب رجل ثم أعاد تعويمها ، فانه يدفع نصف قيمتها فضة ٠

٢٣٩ ــ اذا استأجر رجل مركبا يعطيه ٦ « كور » من الحبوب فى السنة ٠

٢٤٠ ــ اذا اصطدم قارب تجديف بمركب شراعية وأغرقها ، فان صاحب المركب المغرقة يقدم فى حضرة الاله التفصيلات المتصلة بما فقد من مركبه ، وعلى المسئول عن قارب التجديف الذى أغرق المركب الشراعية أن يعوض عن مركبه وعن بضاعته المفقودة ٠

٢٤١ ــ اذا احتجز رجل ثورا كرهينة يدفع ثلث مينا من الفضة ٠

٢٤٢ ــ ٢٤٣ ــ اذا استأجره رجل لمدة سنة ، يعطى صاحبه ٤ « كور » من الحبوب كايجار لثور الجر و ٣ « كورْ » من الحبوب كايجار لثور الشد الصغير ٠

٢٤٤ ــ اذا استأجر رجل ثورا ثم قتله أسد فى الخلاء ، فان الخسارة تعود على صاحبه ٠

٢٤٥ ــ اذا استأجر رجل ثورا وتسبب فى وفاته بسبب اهماله اياه أو ضربه ، فيعوض عن الثور لصاحب الثور ٠

٢٤٦ ــ اذا استأجر رجل ثورا ثم كسر قدمه أو أحدث قطوعا فى عضلة رقبته يعوض عن الثور بثور لصاحب الثور ٠

٢٤٧ ــ اذا استأجر رجل ثورا ثم أتلف عينه يدفع قيمته فضة لصاحب الثور ٠

٢٤٨ ــ اذا استأجر رجل ثورا ثم كسر قرنه أو قطع ذيله أو أصاب لحم ظهره يدفع ربع قيمته فضة ٠

٢٤٩ ــ اذا استأجر رجل ثورا ثم ضربه الاله فمات ، فان مستأجر الثور يثبت ذلك عن طريق الاله ثم يطلق حرا ٠

٢٥٠ ــ اذا نطح ثور رجلا أثناء سيره فى الشارع فمات الرجل ، فليس الأمر موضع دعوى ٠

٢٥١ ــ اذا كان لرجل ثور معروف بالنطح وأخطره بذلك مجلس مدينته ولكنه لم يخفف قرنيه أو يربطه ثم نطح الثور واحدا من النبلاء فمات فانه يدفع نصف مينا من الفضة ٠

٢٥٢ ـ اذا كان المقتول عبدا ، فانه يدفع ثلث مينا من الفضة ٠

٢٥٣ ـ اذا استأجر رجل آخر ، ليشرف على حقوله وأقرضه حبوب الاطعام وعهد اليه بالثيران وتعاقد معه على زرع الحقل ، ثم سرق الرجل الحبوب أو العلف ووجدت بين متعلقاته ، فان يده تقطع ٠

٢٥٤ ـ اذا اختلس حبوب الاطعام وبذا جاعت الثيران يعوض بمقدار ضعف ما أخذه من حبوب ٠

٢٥٥ ـ اذا أجر ثيران الرجل أو سرق حبوب البذر ومن ثم لم يزرع الحقل يثبت الأمر ضده وفى موسم الحصاد يكيل ٦ « كور » من الحبوب لكل ١٨ « ايكو » ٠

٢٥٦ ـ اذا لم يكن قادرا على الوفاء بالتزاماته ، يؤخذ به الى الحقل حيث تجره الثيران ٠

٢٥٧ ـ اذا استأجر رجل مزارعا ، فانه يعطيه ٨ « كور » من الحبوب كل سنة ٠

٢٥٨ ـ اذا استأجر راعى غنم ، فانه يعطيه ٦ « كور » من الحبوب كل سنة ٠

٢٥٩ ـ اذا سرق رجل محراثا من حقل ، فانه يدفع ٥ شواقل من الفضة لصاحب المحراث ٠

٢٦٠ ـ اذا سرق أداة بزر أو تقليب أرض ، فانه يدفع ٣ شـواقل من الفضة ٠

٢٦١ ـ اذا استأجر رجل راعيا ليرعى غنمه أو معزه ، فانه يعطيه ٨ «كور» من الحبوب كل سنة ٠

٢٦٢ ـ ٠٠ ٠٠ اذا ٠٠ ٠٠ سيد ٠٠ ٠٠ ثورا أو نعجة ٠

٢٦٣ ـ اذا كان قد فقد ثورا أو معزا عهد اليه بما يعوض الثور بالثور والمعز بالمعز لصاحبها ٠

٢٦٤ ـ اذا كان الراعى الذى عهد اليه بالماشية أو النعاج لترعى قد تسلم أجره بالكامل وفق رضاه ، ثم ترك الماشية تتناقص والنعاج تتناقص وبذا قلل من مقدار النسل ، فانه يعطى زيادة وربحا طبقا لشروط العقد ٠

٢٦٥ ـ اذا كان الراعى الذى عهد اليه بالماشية أو النعاج لترعى قد أصبح غير أمين ، ومن ثم غير من علامات الماشية أو باعها ، يثبت ذلك ضده ويعوض الماشية أو النعاج لصاحبها عشرة أمثال ٠

٢٦٦ ـ اذا حدثت زيارة اله لقطيع أو قتل أسد بعضه ، يبرىء الراعى نفسه فى حضرة الاله ، ولكن صاحب الماشـية يأخذ منه جثـة الحيوان الذى ضرب من بين أفراد القطيع ٠

٢٦٧ ـ اذا أهمل راع بحيث ترك العرج يدب فى القطيع ، فانه يعوض الماشية والنعاج بمقدار الخسارة عن طريق العرج الذى دب فيها لصاحبها ٠

٢٦٨ ـ اذا استأجر رجل ثورا للدرس والتذرية فأجره ٢٠ « قو » من الحبوب ٠

٢٦٩ ـ اذا استأجر رجل حمارا للدرس والتذرية فأجره ١٠ « قو » من الحبوب ٠

٢٧٠ ـ اذا استأجر رجل نعجة للدرس والتذرية فأجرها ١ « قو » من الحبوب ٠

٢٧١ ـ اذا استأجر رجل ثيرانا أو عربة أو سائقا ، يدفع ١٨٠ « قو » عن اليوم الواحد ٠

٢٧٢ ـ اذا استأجر رجل عربة وحدها ، فانه يدفع ٤٠ « قو » عن اليوم الواحد ٠

٢٧٣ ـ اذا استأجر رجل عاملا ، فانه يعطيه ٦ « شى » من الفضة عن اليوم الواحد من بداية السنة حتى الشهر الخامس ، أما من الشهر السادس حتى نهاية العام فيدفع ٥ « شى » من الفضة عن اليوم الواحد ٠

٢٧٤ ـ اذا أراد رجل أن يستأجر صانعا ، فانه يدفع له يوميا كأجر ٠٠٠ ٥ « شى » من الفضة وكأجر لصانع الطوب ٥ « شى » من الفضة وكأجر للنسـاج ٠٠٠٠ « شى » من الفضـة وكأجر لصـانع الأختام ٠٠ ٠٠ ٠٠ « شى » من الفضة وكأجر للجواهرجى ٠٠ ٠٠ « شى » من الفضة وكأجر للحداد ٠٠ ٠٠ « شى » من الفضة وكأجر لصانع الجلود ٠٠ ٠٠ « شى » من الفضة وكأجر لصانع السلال ٠٠ ٠٠ « شى » من الفضـة وكأجر للبناء ٠٠ ٠٠ « شى » من الفضة ٠

٢٧٥ ـ اذا استأجر رجل قاربا طويلا ، فايجاره ٣ شى من الفضة عن اليوم الواحد ٠

٢٧٦ ـ اذا استأجر رجل قارب تجديف ، فأجره ½ شى من الفضة عن اليوم الواحد ٠

٢٧٧ ـ اذا استأجر رجل مركبا سعتها ٦٠ كور ، فأجره سدس شاقل من الفضة عن اليوم الواحد ٠

٢٧٨ ـ اذا اشترى رجل عبدا أو أمة ولم يحل الشهر بعد وأصيب بصرع، فانه يعيده الى بائعه ويسترد المشترى ماله الذي كان قد دفعه ٠

٢٧٩ ـ اذا اشترى رجل عبدا أو أمة ثم تلقى دعوى ضد أحدهما ، فان البائع مسئول عن الدعوى ٠

٢٨٠ ـ اذا اشترى رجل فى بلد أجنبى عبد أو أمة رجل آخر ، ثم حين عاد الى بلده تعرف صاحب العبد أو الأمة على عبده أو أمته ، فانه اذا كان العبد أو الأمة من أهل البلد ، يحرران دون مال ٠

٢٨١ ـ اذا كان من أهل بلد آخر ، فان المشترى يقرر فى حضرة الإله مبلغ ما دفعه وفى هذه الحالة ، يعطى صاحب العبد أو الأمة الى التاجر ما دفعه من مال وهكذا يشترى حرية عبده أو أمته ٠

٢٨٢ ـ اذا قال عبد لسيده (لست عبدك) ، يثبت سيده أنه عبده وعندئذ تصلم أذنه ٠٠

خاتمـــة :

قوانين العدالة التي وضعها الملك الكفء حمورابى والتى أمن عن طريقها قيادة رشيدة وحكومة سديدة فى البلاد ـ أنا حمورابى ·· الملك الكامل الذى لم يهمل ذوى الشعور السوداء الذين قدمهم الى « أنليل » والذين عهد الي بهم راعيهم « مردوك » · اننى أوجدت لهم أقاليم هادئة وتغلبت على صعوبات مريرة وجعلت الضوء يشع فوقهم بالسلاح الماضى الذى منحنى اياه « زاببا » و « أينانا » وبفضل الالهام الذى منحنى اياه (أنكى) والقدرة التي أعطانى اياها « مردوك » ، اقتلعت العدو من أعلى من أسفل وأنهيت الحرب وأصلحت أمور البلاد وجعلت الناس يشعرون أنهم اخوة ولم ادع أحدا يرعبهم ·· لقد عيننى كبار الآلهة ومن ثم غدوت الراعى الخير الذى يعنى صولجة الحق وظلى يخيم فوق مدينتى وحملت فى صدرى شعوب أرض سومر واكد ، فتقدموا تحت حمايتى وحكمتهم فى ســـلام وآويتهم الى قوتى ، حتى لا يطغى القوى على الضعيف وحتى تتحقق العدالة لليتيم والأرملة فى بابل التى رفع راســـها « أنوم » و « أنليل » وفى « ايساجيل » ، المعبد الذى توطدت أسسه كالسماء والأرض ··· لقـد سجلت كلماتى القيمة على لوحتى فى حضرة تمثـالى كملك للعـدالة ·· وأقمتها لتشرق القانون فى الأرض وتسجل الأوامر فى الأرض ولتعطى العدالة للمظلوم · أنـا الملك المقدم على الملوك ····· كلمـاتى منتقـاة وقدرتى لا نظير لها ···

بأمر « شمش » القاضى الأعظم للسماء والأرض ·

الا فلتفسد عدالتى الأرض ·

باسم « مردوك » مولاى ·

الا لا يسخر أحد من تماثيلى ·

ثم تلا ذلك دعوات طويلة واستحلاف للآلهة ودعوات ضد من ينال لوحته أو تماثيله بالتدمير أو السخرية أو التغيير أو التحوير ··

***

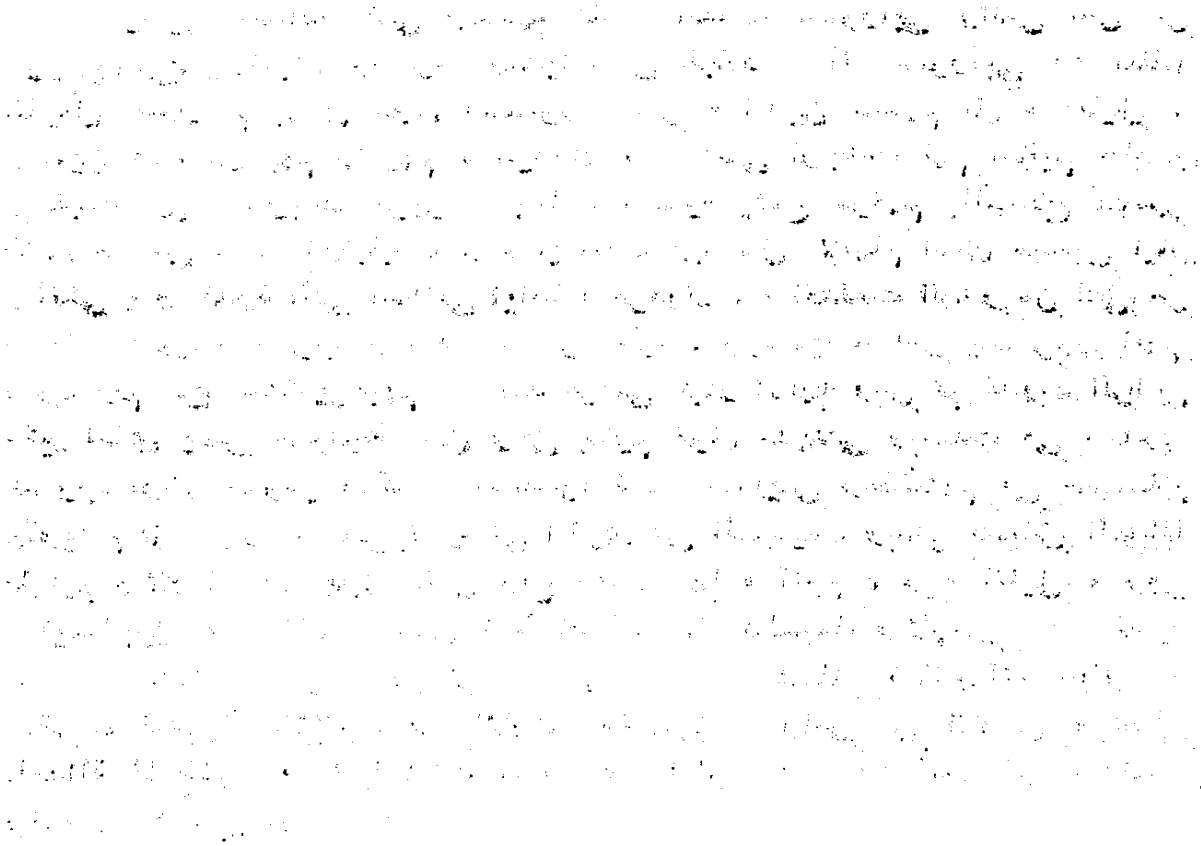

الأفستا المقدسة

زراد شت

٦٥٠ ق.م

للفرس أدب دينى عماده « زرادشت » وديانته • وبيان ذلك أن الفرس القدماء كانوا يعبدون الأوثان حتى ظهر فيهم نبيهم « زرادشت » فجاءهم بالدين والحكمة ولسنا ندرى على وجه الدقة أين زرادشت من عصور التاريخ • فالمؤرخون يختلفون فى وضعه بين القرن العاشر قبل الميلاد والقرن الخامس •

ويروى عن نبى الفرس أساطير منها أنه لما حملت به أمه هتف بها هاتف فى النوم ، ينبئها بما قدر الله لوليدها من مستقبل عظيم وأنه سيعرج الى السماء ، حيث يتلقى عن الله وهو « أهورا مزدا » ــ الكتاب المقدس ــ « الافستا » ــ قالوا ــ ومنذ أن شهد زرادشت نور الحياة بدت فيه علائم النبوة ، فقد قيل انه ضحك ساعة مولده وانه منذ الصبا كانت له مكانة ممتازة فى نفوس الناس ، ولما اكتملت رجولته أخذ يدعو الى التوحيد ويقاوم عبادة الأوثان •

ودعى زرادشت ليمثل بين يدى الملك حين بدأ دعوته الجديدة فلبى وذهب اليه فى ردائه الأبيض الفضفاض ، يحمل فى يده شعلة النار المقدسة وفى الأخرى صولجانا من غصون السرو وأخذ يعالج الملك ويقنعه برسالته الجديدة التى أوحى اليه بها من « أهورامزدا » ، لينهض بالشعب الآرى الى ذروة التوحيد فآمن الملك وابنه بديانة زرادشت ، وتحمس الأمير الشاب « اسفنديار » فدعا الناس أن يحطموا أوثانهم ليدخلوا فى دين الله الجديد فنهض يعارضه أمير آخر من أسرة أخرى هو « رستم » ، وتقابل الأميران فى ميدان القتال أما « اسفنديار » فتروى عنه الأساطير أن جسمه قد تحول الى كتلة من الصخر ، ولم يبق فيه مقتل الا عيناه ، ومع ذلك استطاع عدوه العنيد أن ينفذ اليه سهما فأعماه وعاد اسفنديار الى أبيه ضريرا ولم يلبث حتى أسلم الروح •

وانقسم الفرس فريقين : فريق موحد تؤيده الدولة وفريق احتفظ بديانته القديمة • وكان لابد من صراع طويل بين الفريقين انتهى بهجرة الفريق الأضعف ــ فريق الوثنيين ــ الى سهول الهند الخصيبة حيث استقر وتطورت عقيدته حتى أصبحت «البرهمية» كما يعتنقها الهندوس المحدثون، وبقى الفريق الآخر فى أرض الوطن وازدهر قرونا طوالا ، وشيد امبراطورية

عظيمة وشاعت الديانة الزرادشتية فى أرجاء فارس ، بفضل تأييد الدولة لها ثم اتسعت رقعتها حين اتسعت أملاك الفرس على أيدى ملوكها من أمثال « كورش » و « دارا » وظلت مسيطرة على النفوس حتى فتح المسلمون فارس ٠

★★★

واسم « زارادشت » هو الترجمة الاغريقية لـ « زاراثوسترا » الذى ضمنه نيتشه مسرحيته الشعرية المشهورة : « كذلك قال زاراثوسترا » ٠ وقد ولد « زارادشت » فى بلاد فارس ومن العسير تماما أن نستوضح من « النصوص البهلوية » التفاصيل الصحيحة لمولده ، نظرا لأن الحديث عادة ما يسير على شاكلة نوع من الحديث المقدس ٠ اننا نستخلص أن بعض رؤساء الملائكة « تجمعوا فوق جذع نبات الهوم وهو نبات فى ارتفاع قامة الانسان رائع فى لونه ممتلىء بالعصـــارة وهو طأزج » وهو النبات الذى اختار ملاك « زارادشت » الحارس الولوج فيه ، بعد ذلك اقتيدت الى شجرة النبات المذكور ست بقرات بيضاء اثنتان منها ، برغم أنهما كانتا بكرا ، صارتا حلوبتين ، اذ أكلت هاتان البقرتان من نبات « الهَاووما » وبذا « انتقلت طبيعة » زاراثوسترا « من ذلك النبـــات الى هاتين البقرتين ، واختلطت بلبن البقر » وبعد ذلك أغرى كاهن يدعى « بوروشاسبو » فتاة من أصل نبيل تدعى « داكدوب » لتحلب البقر وفى أثناء ذلك سحق « بوورشاسبو » نبات « الهاووما » ومزجه بلبن البقر وشرب هو والفتاة مسحوق نبات الهوم ممزوجا باللبن حتى آخر قطرة » ٠٠ عندئذ امتزجا معا وأنبآ « أهورامازدا » بذلك هنا وحدث اتحـــاد المجد ، اذ اتحد الروح الحارس والطبيعة الجسدية لزاراثوسترا فى صورة صبى ذكر ولكن بالرغم من ذلك ، فقد بذلت الأرواح الشريرة كل جهدها لتعوق الحمل الطبيعى للطفل فى رحم أمه ، ولكنها (أى الأم) تضرعت الى « أهورامازدا » فصارت فى أحسن حال ٠ وفى اليوم الذى ولد فيه « زاراثوسترا » غمر قرية «يوروشاسبو» نوع من الضياء المقدس واندلعت النار فى كل فجوة ، بيد أن أعظم معجزة له هو أنه ما كاد يولد ، حتى انخرط فى الضحك فاذا بالقابلات السبع اللائى جلسن حوله يتملكهن الفزع وقالت هؤلاء النسوة الفزعات : « وما هذا هل سببه العظمة أم السخرية ؟ ما هو ذلك الأمر الذى جعل الصبى يضحك على الفور عند ولادته مثلما يفعل شخص له قدرة ويكون مرد سروره الى نشـــاطه ؟ » ٠ ولكن بوروشاسبو أجاب بفخر : « لفوا هذا الرجل الصبى فى ملابس صنعت من وبر الغنم الناعم لقد كان مولده يرجع اليك يرجع الى فضيلتك أنت « يا « داكدوب » لقد استبان بوضوح قدوم المجد وحلول الضياء على هذا الفتى عندما ضحك على الفور عند ولادته » ٠٠

ولم تكن الأحداث التى أعقبت ميلاد « زارادشت » تعد شيئا ، بالقياس الى المحن والمغامرات التى أحدقت طفولته : لقد حاولت الشياطين والأرواح الشريرة بكافة الوسائل أن تحطمه . لقد حاولت أن تخنقه بأن لجأت الى مربية ؛ لتتولى هذه المهمة نيابة عنهم بأن ترميه تحت خيول راكضة أو تحرقه حتى الموت بأن تضعه على كوم من حطب محترق أو بأن تتركه للذئاب لتمسك به وتلتهمه . وفى كل حال كان ينقذ دون أن يصاب بأذى وفى الحالة الأخيرة كان مرد انقاذه الى حقيقة أن « فوهيومانو » و «سروش» الورعين جاءا بشاة كثيف وبرها وممتلىء ضرعها باللبن ، جاءا بها الى الحظيرة فدرت لبنا » ل « زاراثوسترا » فى جرعات سهل هضمها حتى بزغ ضوء النهار .

وعندما كان طفلا صغيرا جدا قيل عنه بالمثل انه كان « يطيل التطلع وهو ينظر الى أعلى والى أسفل وفى مختلف الجوانب حوله » ولما كان يسأل عما كان يفعل ، كان يجيب بأنه كان يرى رؤى المباركين يصعدون الى السماء والاشرار وهم يهبطون الى الجحيم ، وقد تنبأ فى الوقت نفسه بانتشار انجيل جديد فى بقاع الأرض .

الرسالة المقدسة :

بدأ « زارادشت » رسالته فى سن الثلاثين تقريبا . لقد استهلت هذه الرسالة بنوع من الفحص الروحى ، قامت به الروح الطيبة « فوهيومانو » . ولما تحدى الناس « زارادشت « يوما ما متسائلين : « ما أول شىء يثير همه وعن أى شىء كان أول سعى له ؟ وماذا كان اتجاه رغبته ؟ » أجاب الشاب : « اننى أعتبر أكبر همى الصلاح وأول مسعاى الصلاح وما تتجه اليه رغبتى الصلاح » . ولما سمح له فى الوقت المناسب بمصاحبة الأرواح كان فى استطاعة « زارادشت » أن يوجه أسئلة الى « أهورا مازدا » نفسه ، فلقد تساءل : « فى عالم التجسيد ما هو الشىء الأول فى الكمال وأيها الثانى وأيها الثالث ؟ » فرد عليه أهورامازدا قائلا : « ان أول كمال هو الأفكار السديدة وثانيها الكلمات الطيبة وثالثها الأعمال الصالحة » .

فى بدء رسالته يبدو أن « زارادشت » قد عاش حياة الناسك وعلى شاكلة « يوحنا المعمدانى » نزح الى البرية وعاش على لا شىء ، اللهم الا على الجبن والجذور ، ثم جاء الاغراء ومثلما قام الشيطان بالتغرير بالمسيح قامت الشيطانة « سيندارماد » بالتغرير بـ « زارادشت » ولم يتم اللقاء فى البرية ، بل بين أشخاص عاديين قرر « زارادشت » أن يدرس عاداتهم : « لقد اتجه زاراثوسترا الى العالم الذى يعيش فيه عالم الصداقة ، مستهدفا

أن يراقب تماما ذلك الطريق المعبد للوجود التجسيدى ، ثم تقدمت الشيطانة : امرأة ذات جسد ذهبى ناهدة الصدر لقد طلبت صحبته كما طلبت أن يخاطبها وأن يعاونها ولما كان على علم أن مفاتنه خداعة تماما ، طالبها بأن تدير ظهرها ولكنها ردت عليه قائلة : «يازاراثوسترا الاسبتماسى» حيثما تكن تكن النساء منا جميلات من الأمام قبيحات بصورة مخيفة من الخلف فلا تطالبنى بأن أدير ظهرى ، ولكنه آصر وبعد أن عارضت للمرة الثالثة وافقت على أن تدير ظهرها عندئذ خرجت منها سلالة كريهة من الثعابين والضفادع البرية والسحالى وأم الأربعين والضفادع البحرية ، على أن المحنة الحقيقية جاءت فيما بعد فى صورة هجمات شيطانية عليه ومن بينها كان ايلاج رصاص مصهور فى معدته ، ولكن لم يفلح شىء فى زعزعة ايمانه فى عدالة الاله الذى تمتع بصحبته أعنى « أهورا مازدا » وأخيرا ، كمكافأة له على تعبده الرواقى ، أهداه « أهورا مازدا » شخصيا بكتاب الحكمة السماوية ، الذى سمى فيما بعد باسم « أفيستا » وكان هذا هو الانجيل الذى كان يحلم به وهو صبى وبذا صار للمبعوث الآن أنجيله .

وبرغم أن تبشيره قد لقى فى بادىء الأمر أذنا صماء ــ لأن الفرس كان لديهم بالفعل آلهتهم وطقوسهم الطبيعية ــ الا أن « زارادشت » قد بدأ بالتدريج فى اجتذاب مهتدين . وعندما قرر من النهاية أمير فارسى يدعى « فيشتاسبا »أو « هيستاسبس » أن يعتنق العقيدة الجديدة ، بدأت حركة تحول دينية قوية ؛ لأن هذا الأمير أعلن على الفور عن نيته فى نشر العقيدة الزارادشتية فى أرجاء مملكته ، ولكن خليفته قمبيز المغتصب ، وكان يعتقد فى آلهة الماجيين القدمى ، سعى لاستئصال شأفة الديانة الزارادشتية . ولكن باعتلاء داريوس الأول العرش فى سنة ٥٢١ ق.م أعلنت العقيدة الزارادشتية ديانة رسمية للفرس . ويعتقد بعض المؤرخين أن الأمير « هيستاسبس » الذى كان أول من صادق « زارادشت » لم يكن الا والد داريوس واذا صح هذا القول ، فان هذا ينهض دليلا على أن (زارادشت) قد ولد فى أقدم تاريخ عزى اليه .

وطبقا لرؤية ، تمت وفاة « زارادشت » التى كان من المفروض أن تحدث فى الثامنة والسبعين من عمره بصورة مسرحية ، مثلما تمت ولادته وان كانت قد تمت بصورة أسرع وكان شعاع من نور يحيط به ثم يصعد الى السماء .

مثل هذه الرواية المقتضبة عن حياة « زارادشت » ، برغم ما حولها من قصص رائعة التصوير ، قد لاتشد القارىء الغربى كما لو كان فيها اما اقناع بصورة خاصة أو كان فيها سمو عقلى فريد فى ذاته . أما عن شخصية

زارادشت فنحن لا نعلم عنها شيئا وهى بلا شك : شخصية أكثر غموضا من غموض شخصية كافة الزعماء الروحانيين ، الذين ستتاح الفرصة لدراسة حيواتهم ، أما عن المعجزات المعزوة اليه أو كانت لها صلات بمختلف وجوه حياته فكثيرا ما تكون أقرب الى الغرابة والسخرية وأيا كان تأثيرها على أناس عصره وعلى من عبدوه فيما بعد ، فهى تستهدف كثيرا تعظيم شأنه فى عيوننا ، بقدر ما تباعد بينه وبين المركز الأمامى الذى يحتله الرجال ذوو الرؤيا التى تفوق قدرة البشر . هذا هو أول انطباع لنا .

صحيح انك اذا عرفت القدر اليسير عن انسان ما أمكنك أن تتصوره فى أية صورة تريدها وأيا كان جهلنا بـ « زارادشت » ، فاننا يمكن أن نكون على يقين من انه كان شخصا مختلفا تمام الاختلاف عن الحكيم العبقرى الأستاذ الألمانى الذى يمضى عطلته والذى تصوره « نيتشه » . وفى الواقع ، فان شخصية « زاراثوسترا » التى وردت فى المسرحية الشعرية التى سبقت الاشارة اليها ليست الا مجرد ركيزة توضع عليها أنماط فلسفة (نيتشه) عمن يفوق البشر ؛ لأنه ما من شخصية أخرى عظيمة من الشخصيات القديمة لم تكن خلوا تماما من الزخارف التاريخية وأملنا الوحيد ، برغم تواضعه ، فى الوصول الى فهم لمغزى « زارادشت » هو أن نتأمله ونأخذ فى اعتبارنا خلفية عصره ونحن ندرك ادراكا يشوبه الغموض بأن هناك تغييرا كبيرا فى روح الحضارة التى كان ينتمى اليها ، تغييرا يسيرا جنبا الى جنب مع العمل التبشيرى لمعلم عظيم . وفحص التعليم الحديث يتطلب أن نتعرف قدر المستطاع على عقلية الانسان وقد تكون النتيجة وهما ولكن أى تاريخ فيما وراء فترة معينة ليس وهما ؟ هذا الخط من البحث قد يبـــدو أنه جدير بأن يتبع .

كانت آلهة الفرس لعصر «زارادشت» ، تحمل شبها كبيرا لتلك الآلهة الواردة بالكتب المقدسة الهندية وفى الواقع ، لقد كان كثيرا ما ينادى العلماء الهنود بأن الافستا تكاد تدين بكل تعاليمها الأساسية للفيداس بما فى ذلك اسمها . لقد كان البانثيون مدفن عظماء الآلهة يضم الهين عظيمين : ميثرى اله الشمس وأنيتا اله الأرض والخصوبة ، وقد تأكدت أهمية عبادة الخصوبة أكثر من ذلك بعبادة هاووما الاله الثور الذى كان من المفروض أن دمه يهب الخلود لمن شربه . لقد كان عشب « هاووما » كما سبق أن رأينا أول ما حلت به روح (زارادشت) فى رحلتها البعيدة نحو مولده ولما كانت الهاووما موجدة بصورة خاصة فى الجبال ، لذا كانت لها خصائص مخدرة وكانت عبادة الاله الثور تتمثل فى شرب عصـــير النبات باعتباره مماثلا للدم الذى يهب الحياة ومن المحتمل أن يكون اله الهند « سوما » مثل الهاووما . ونجد أيضا بين هؤلاء الناس القدامى آثارا واضحة لعبادة

السلف : ديانة ترك اختفاؤها فى الأزمنة المتحضرة فراغا يملؤه مثل تلك البديلة المجـردة ، مثل القومية العقيدة الوحيدة التى قدمهـا الغرب للشرق ٠

لقد ذكرنا ان الكتب الزارادشـتية المقدسـة التى بقيت ، أعنى « الأفستا » والنصوص البهلوية (٣٥) تصعب قراءتها على الدارس الغربى ولاشك أن السبب فى هذا هو أنه لايكاد يكون هناك شىء من الأدب الغربى يمكن مقارنته بها ٠ والواقع هو أن النصوص التى بقيت لا تعدو أن تكون أجزاء من مجموعة كبيرة جدا من الكتب المقدسة بعضها أبيد عندما دمر الاسكندر الأكبر القصر الملكى فى « برسبوليس » ، فى حين أن أجزاء أخرى فقدت فى أثناء الفتوحات الاسـلامية فى القرن السابع الميلادى ٠ وتحمل الأفستا بما حوته من قصص وأناشيد وصلوات شبها معينا بكتاب العهد القديم وما يبدو أنه ينقصها هو : موضوع مستمر وهى خاصية من أهم الخصائص الجديرة بالاعتبار على الأقل فيما يتصل «بأسفار موسى الخمسة» وبرغم ذلك ، فانه اذا ما تكشفت مرة التكرارات والغموض والمصطلحات غير العادية للكتابات الزارادشتية ، فانه لا تلبث أن تبدأ رسالة عامة فى الظهور ببطء واذا القارىء الذى كان قد تقارب منها وقرر أنه قد أعياه أمرها ، اذا به يستسلم لسحرها كما أن كلمة السحر لاتستخدم فى غير موضعها الصحيح ٠ والأدب النثرى يؤثر على الخيال بقوة الرقية والبحث عن المنطق هو البحث عن شىء واضح أنه لم يقصد أن يكون له وجود بالمرة (.أو على الأقل لا يتضـح هـذا فى الترجمة)اللهم الا فى فقرات من الحكمـة الشعرية ذات المغزى مثل تلك التى نراهـا مقترنة بالحكماء الصينيين ، ومما يبعث على شدة الغرابة حقا أن القارىء الغربى قد يجد نسبيا مزيدا من الرضا والقناعة فى الشعر والأناشـيد الزارادشتية أو « الجاثاس » بمحاوراتهـا الأخلاقية والميتافيزيقية أحيانا تحوى قدرا طيبـا أكثر من الجوهر ، عما تحويه أناشـيد الشمس لاخنـاتون والأناشيد الرائعـة لد « ريج فيدا » ٠

***

مضمون العقيدة

آمن زرادشت فى كتابه « الأفستا » باله واحد عظيم ، ثم أخذ يفصل لقومه كيف ينبغى أن يعيشوا وفق قانون الطبيعة فلكى يكون الانسان جزءا سليما فى هيكل الكون ، يجب أن يعيش صحيحا معافى وألا يكون ضعيفا خائر القوى · ومن ثم أخذ يدعو الى أن يحيا الانسان حياة نقية نظيفة ؛ ليجنب نفسه العلل والأمراض ولقد طبع الله فى الانسان بصيرة يميز بها بين الطاهر والدنس أو بعبارة أخرى بين الحق والباطل وذلك هو الضمير الذى يهدى صاحبه سواء السبيل فمن يعش وفق ضميره ، تكن حياته متسقة مع ارادة الله ·

ولقد كان « أهور مزدا » رمزا للحياة الطاهرة النقية و « أهريمان » يمثل التلوث والدنس · والصراع لا ينفك قائما بين « أهورا مزدا » و « أهريمان » أو ان شئت فقل بين الطهر والدنس أو بين الحق والباطل واذا اصطرع الخصمان فى نفس الانسان ، فان الضمير يهدى ــ فى وضوح لا لبس فيه ــ الى أين يقع طريق الحق ·

ومن أهم اللفتات الفلسفية فى تعاليم زرادشت وجود مبدأين فى الطبيعة ، يعملان متضادين وهما « الروح الخالقة » و « الروح المبيدة » أو الكون والفساد · ومنذ تم الخلق وبين هذين الروحين كفاح وصراع وتنافس ولكن هل هذان المبدآن الهان ؟ فى الحق ان بعض النصوص فى الأفستا تدل على التوحيد مثل :

ان « أهورامزدا » عليم بكل شىء ولذا فهو يعلم بوجود أهريمان ، أما أهريمان وهو روح الشر ــ فلم يكن لديه علم بوجود « أهورامزدا » ··

« ان « أهورامزدا » فوق كل ذى علم وخير فهو فى جلاله لايشبهه شىء ·· » ·

ولذا ، ذهب بعض الباحثين الى أن رب الكون واحد عند زرادشت لاشريك له وان يكن فى الكون خير وشر يتنافسان فنزعة الشر بادية فى برد الشتاء يجمد الماء ويثلج الأرض ويعوق الشجر عن النمو والاثمار ، وفى الخواطر الشريرة تطوف بالرءوس ، وفى الشك والالحاد ، وفى الفقر والكسل ، وفى الأوثان وعبادتها ، وفى الحياة ، وفى الخيانة والكذب والظلام وكريه الروائح والأمراض وضروب الوباء ، وفى الحيوان المفترس

والزواحف السامة والحشرات ·· تلك وما اليها صنائع « روح الشر » التى أخذت على نفسها أن تهدم وتهلك وتبيد · ودعا زاردشت فى تعاليمه الى أن يكون الانسان خيرا فى قوله وفى تفكيره وفى عمله وخير انسان عند الله يتمثل فى « يما » وهو الذى ورد فى الشاهنامة والأساطير الفارسية باسم « جمشيد » · فقد وهب الله « يما » محراثا ورمحا ذهبيا ، ليتخذ منهما شارتين لسلطانه فوق الأرض ، وأخذ « يما » يعمل فى الأرض بما أمره الله ففلحها وأعدها للزارعة وأسكنها رجالا وماشية وكلابا وطيرا ثم أمدها بالنار ·

أخذ « يما » يقيم فى الأرض دولة الخير ، غير عالم أن « روح الشر » كامنة فى حنايا الطبيعة تتربص له فأنذره الله بما قد يغشاه من سيل وصقيع ؛ ليكون على حذر فهب « يما » من فوره يعد الحظائر لماشيته وخيوله ورجاله ونسائه ومختلف أنواع الطير ، كما أعد أمكنة آمنة يخزن فيها الحب ويحفظ شعلة النار أعد من كل شىء زوجين كأنه نوح ينقذ فى سفينته صنوف الكائنات · ان « روح الخير » قد بذرت الشجرة المثمرة وتعهدتها بماء الطهر والنقاء وراقبت نموها ؛ لكى تثمر أطيب الثمار « واذا بروح الشر يندفع من جهة الشمال فينفخ نفخة واحدة من الثلج والصقيع ــ هى الخيانة والسوء ــ فتأتى الى الشجرة النضرة وتحولها حطبا يابسا هكذا بدأت المعركة بين الخير والشر بين التقوى والضلال بين النور والظلام ــ الأول يصون صنع الله والثانى يهلكه ويفنيه · وتتجه الديانة الزرادشتية بكل همها نحو حماية الانسان من روح الشر وصحبته ·

أراد زرادشت أن يجتث روح الشر من جذورها ، ويفنى روح التدمير ولا يبقى على وجه الأرض الا البناء والتعمير ، ففضل القواعد الصحية ونظم الحياة التى من شأنها أن تصون الفرد والمجتمع · وأول ما ذكره « الأفستا » من هذه القواعد هو كيف ينبغى ان يتصرف الأحياء فى جثة الميت حتى يتخلصوا مما يترتب على وجودها من ذباب خبيث ، ويعبر كتاب الأفستا عن هذه الحقيقة الصحية بعبارة مجازية فيقول : «ان روح الشر اذا ما وجدت جثمان ميت تحولت من فورها الى ذبابة خبيثة تملأ جسدها بالمرض وتروح بين الناس وتغدو لتنشر بينهم حملها الخبيث » ، ثم يستطرد الكتاب فى ذكر الدقائق التى يجب على الانسان أن يؤديها ، تأييدا لروح الخير : أن يضع الجثة ، كيف يطهر مكانها من الدار ، ماذا يصنع بملابس الميت ·· الخ ·

ويتلو ذلك فى أوامر الكتاب وجوب فلاحة الأرض لتنتج الحب والشجر · فالله يأمر الانسان أن يروى اليابس الجاف وأن يجفف المستنقعات وأن يسكن الأرض ناسا وماشية وكل ذى نفع وخير · وان « زرادشت »

لتأخذه روعة الفزع حين يتصور أن الانسان قد تحدثه نفسه أن يدنس الأرض بدفن الموتى فى جوفها ، وما خلقت الا للزرع الذى يقيم الحياة فى الاحياء • ان الموتى موضعهم قمم الجبال تلتهمهم سباع الطير أو تأكلهم عوامل الطبيعة •

ثم يأمر الكتاب بما ينبغى أن يراعى فى الحبالى ابان الحمل وعند الولادة حتى تسلم الوالدة والولد ثم يفصل قواعد النظافة والطهارة والوقاية من الأمراض المعدية •

أما وقد سلم الجسد بهذا التدبير ، فان « زرادشت » يستطرد فى بسط قواعد الأخلاق فيقول : « ان الانسان قد ولد وفى فطرته عقلان : عقل خير وعقل شرير ، وكل من العقلين يحاول أن تكون له السيطرة على تنقية الانسان فى أفكاره وألفاظه وأعماله • وقد لخص زرادشت الحياة الخلقية فى ثلاثة أركان أساسية : أفكار خيرة وألفاظ خيرة وأعمال خيرة فهذه الجوانب الثلاثة طرق ثلاث تؤدى الى الجنة ، ومن يسعى لتحقيقها انما يسعى لتأييد الخير واعلاء كلمة الله : « فلا تنحرف عن أفضل الأشياء وهى ثلاثة : تفكير خير وقول خير وفعل خير » •

والمقصود « بالتفكير الخير » أن يحصر الانسان عقله فى الله الخالق ، وان يعيش مع الناس فى سلام وانسجام فان أحب الانسان الانسان ، عمل على وقايته من الخطر وعاونه وقت الضيق وعلمه ان كان جاهلا وهداه الى خير طريق يزيد بها غلته وثماره •

والمقصود « بالأقوال الخيرة » ان يكون الانسان حافظا للعهد منجزا للوعود موفيا للدين ، لا ينطق بما يؤذى ويقول ما من شأنه أن يوثق عرى الحب بين عباد الله •

و « الأفعال الخيرة » تقتضى من الانسان أن يخفف عن الفقير وأن يزرع الأرض وأن يستنبط الماء العذب وأن يشجع على اقامة الحياة الزوجية وأن ينفق ما زاد على حاجته فى وجوب خير الانسان •

ودعا زاردشت الانسان ان يتزوج لينشىء الأسرة فكما تصلح الأرض بالاخصاب تصلح الانسانية باتخاذ الأزواج ، ويشير كتاب الأفستا الى أن (ما يرضى الله من عبده أن ينشىء لنفسه دارا ويختار لنفسه زوجة وينسل الأطفال وان يحتفظ فى بيته بشعلة موقدة وان يكون له قطيع من الماشية) •

ثم يعرج زرادشت بتعاليمه على الحيوان ووجوب الرحمة به : فلنذبح منه ما نحن بحاجة اليه أما أن نلهو بقتله فى الصيد بسائر ضروب العبث ، فجناية كبرى عند الله خالق الانسان والحيوان على السواء •

الى هنا ينتهي تفصيل زرادشت فى الأفستا عن شروط الحيـــاة الخيرّة الصالحة ، ثم ينتقل بعدئذ الى ما يكون فى الحياة الآخرة فيبدأ بتقرير خلود الروح وبأن الروح الصالحة تصعد الى الجنة فى انتظار جسدها يوم البعث ، وأما الروح الشريرة فتلقى العذاب ألوانا حتى يوم الدين ٠

ان زرادشت يؤمن بحياة الجســـد والروح معا فلا هو ينصرف الى الحياة المادية وحدها حتى ينسى حياة الروح فى اليوم الآخر ، ولا هو يحصر تفكيره فى الروح بحيث يهمل الجسد ٠ الحياة بجانبيها هى محور الديانة الزرادشتية ٠ فللجسد ما أسلفنا من عناية بالصحة والطعام وما الى ذلك ، وللروح ما طبعه الله فى الانسان من ضمير يهديه سواء السبيل وقد رمز زرادشت للحياة بجانبيها المادى والروحى بالنار فلا حياة بغير سعى ونشاط وفى النار هذا النشاط الدائب ولا حياة بغير طهر ونقاء والنار أول عوامل التنقية والتطهير ، فلا عجب أن يبقى سدنة الفرس على شعلة النار ملتهبة على سبيل الرمز على أن تكون هى موضع التقديس والعبادة ثم خلف خلف من بعده لم يفهموا رمزه فى النار فعبدوها ٠

مقتطفات من كتاب الأفستا

يجدر بنـــا قبل أن نقدم هذه النمـــاذج أن نشـــير الى ما أورده « ميبه » فى مؤلفه الذى نشره فى عام ١٩٢٤ بقوله : « ان من يحاول قراءة « الأفستا » ، يلاحظ على الفور أن قراءتها غير ميسرة فليس بها فصل واحد مترابط وليست بها فكرة مسلسلة ، بل هى قطع متناثرة ضمت الى بعضها البعض بغير ترتيب أو تنسيق ومن ثم ، فان ترجمة ال « جاتها » بصـــورة مؤكدة صحيحة أمر غير ممكن » ٠

***

تعني ال « زندافستا » النص والتعليق (أفستا = النص ، زند = التعليق) ومما تجب ملاحظته أن كتب البارسى المقدســـة تتضمن تاريخيا وأول ما يطالعنا هنا هو ال « فنديداد » وهو يشبه فى التوراة سفر اللاويين أو التثنية ، من ناحية أن « أهورا مازدا » يظهر فيه وكأنما يتحدث الى « زارثواسترا » ملقيا اليه بالتشريعات المفصلة وليس هناك من يفترض أن هذا من عمل النبى نفسه ، بل هو تجميع كهنوتى تم بعد موته ببضعة قرون ولا يقدم شـــيئا من تعـــاليمه ٠ وبعـــد ال « فنديداد » نلتقى بال « فسبريد » وال « ياسنا » ، وهو نماذج طقسية تتضـــمن كتـــاب الأناشيد والصلوات الخاصة بالكهنة ٠ وتتضمن ال « ياسنا » ما نعرفه بال « جاتها » وهى التى تعتبر عادة الجانب الوحيد من « أفستا » الذى

بتضـــمن ما قدمه « زاراثوسترا » ، وتلا ذلك الـ « خوردان أفستا » (أو الأفستا الصغرى) ، التى تتضمن مدائح الكائنات الملائكية أو المعبودات الأقل شأنا مع بعض الصلوات والطقوس · وربما كان من الأوفق أن نقارن هذه المادة كلهـا بما تضمه النواحى الطقسية لـ « فيدا » مادام ايرانيو فارس أبناء عمومة للغزاة الآريين للهند · وتجدر ملاحظة أن الأفستا المتأخرة لم تكتب باللهجة القديمة وذلك كونها أنشئت فى العهد الأخمينى ·

ويمارس أتباع « زاراثوسترا » اليوم الجانب الطقسى من الـ « ياسنا » الذى يتضمن المجموعات الخمس من الصلوات والأناشيد والأدعية المعروفة باسم « جاتها » وعدتها سبعة عشر نشيدا ، وهذه الـ « جاتها » هى فى الواقع أقدم العناصر فى الـ « زندافستا » أو مجموعة الكتب المقدســة ويسود الاعتقاد اليوم أنها تتضمن الأقوال الفعلية لـ « زاراثوسترا » نفسه والقصائد فى لغة قديمة ويتنوع الوزن فيها وهى ـ كالمزامير ـ تضم بعض التفصيلات عن قصة الحياة كما يرويهـــا أصـــحابها فنحن نلتقى فيها مثلا بقوله :

« الى أى أرض أهرب ؟ الى أين المفر ؟ لقد أبعدونى عن نبلائى وعظمائى وليس القوم جميعا راضين عنى كما لايرضى عنى الحكام الخونة فى البلاد ! كيف أستطيع أن أرضيك أى (أهور مازدا) ·· اننى لا ألقى النجح ·

ذلك لأن قطعانى قليلة ومن ثم فأتباعى قلة ·· اننى أصرخ اليك ·· أى (أهور مازدا) امنحنى العون كما يمنح الصديق صديقه ! علمنى عن طريق الحق كيف أعتنق الأفكار الطيبة » ·

وهو يشير فى مكان آخر الى اســـتدعائه ليكون نبيـا فيقول :

« كواحد مقدس عرفتك أى (مازدا أهورا) (٣٦) ! حين جاءنى الفـكر الطيب وســألنى : « من أنت ؟ لمن أنت ؟ أنا زاراثوسترا كاره ممعن فى كراهيتى للزائف من الرجال بأقصى قوتى ·· أما المستقيم فأنا سنده القوى وذلك حـين أكسب المستقبل فى المملكة الأبدية اللانهائية مادمت أمدحـك وأرتل لك أى مازدا ! » ·

« كواحد مقدس عرفتك ! أى (مازدا أهورا) ! حين جاءنى (الفكر الطيب) وقد أجبته عن سؤاله (الام ستنتهى قراراتـك) : (فى كل تقدمه احترام لنارك ! سوف أداوم التفكير فى الحق مادام ذلك فى قدرتى ·· واذن فلتوجهنى للحق الذى أتطلبه ! » ·

وتعتبر الـ « جاتهـا » أناشيد وهناك واحـدا منها : « جاتها ٥٠ » ٠

لعل خلق الحكمة يعرفنى برغباته عن طريق (الفكر الطيب) حتى يجد لسانى مخرجا ! سأجهز اليك أسرع الخيل وأقواها بفضل مديحك حتى تأتى الى مازدا ! أيها « الحق » و « الفكر الطيب » ٠٠ عساك تكون مستعدا لعونى ! بأناشيد تتسم بالتقوى سأتقدم نحوك بأيد ممدودة أمامك أيها الحق : فى عبادة المخلص الأمين ! أمامك بقدرة « الفكر الطيب » !

بهذه الصلوات سأتقدم نحوك وأمجدك ! أى « مازدا » و « الحق » وذلك بفعال (الفكر الطيب) لئن كنت وليا على قدرى فسأضع فى ذهنى أمر حماية العقلاء ٠

كل ما سأقوم به من أعمال كل ما سوف يتم قبل الآوان كل ما هو ثمين لدى الرائى أيهـا الفكر الطيب من أشـعة الشمس وسطوع النهار ٠ كل ذلك لتمجيدك أيها « الحق » و « أهورا مازدا » اننى أعلن نفسى أى « مازدا » كمادح لك وذلك طيلة ما تكون بى قوة أيها « الحق » عسى خالق العالم ان يتمم — عن طريق الفكر الطيب — كمـاله حتى يستجيب الكمال المطلق لارادته ٠

ونلتقى فى « ياسنا ٤٤ » بفقرة أخرى جاء فيها :

لى سؤال أيها السيد المقدس ! ألا فلتخبرنى حقا كيف أستطيع أن أقوم بالعبـادة الصحيحة اللائقة بك أيها الملك المعبود ٠ علمنى أيها العاقل كما يعلم السماويون الأرضيين ٠٠ كما يتحدث الصديق الى صـــديقه ٠٠ حتى يأتى (الحق) العطوف بالنجدة فى أوانها وينزل « الفـكر الطيب » الينا من السماء فى قوته المنعمة ٠٠

خبرنى حقا وأنا أدعوك أيها الملك المقدس : متى تعطى محكمة السماء لكل رجل حقه ؟

اننى أتوسـل اليك أى أهورا ماذا أن تجيبنى حقا ٠ ان « عاقـلا » مثلك يســتطيع أن يكشف لصـديق كيف يؤدى الوء له كما تتقدم « العدالة » لمعونتك يســتطيع أن يتغلغل فى « الفكر الطيب » ٠

***

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :

متى يبدأ خير مستوى للكيـــان وهل تكون المكافأة من نصيب من يطمحون اليها ؟ لأن ذلك الرجل (أى زاراثوسترا نفسه) كما تشهد له العدالة يصد بروحه القوى التى تشفى الحياة وذلك من أجل خير الجميع أيها العاقل ٠

***

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :

من كان أول أب للعدالة عند الخليقة ؟

من حدد طريقهم نحو الشمس والنجوم ؟

من رسم خسوف القمر اذا لم تكن أنت ؟

أننى أريد أعرف ذلك أيها العاقل وأمورا أخرى كذلك ٠

***

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :

من ثبت الأرض فى أســـفل والســماء فى أعلى بسحبها حتى لا تتحرك ٠

من حدد أمواه الأرض والأشياء الخضراء بها ؟

من طهم للريح والسحاب خيولها ؟

من هو ــ أيها العاقل ــ خالق الفكر الطيب ؟

***

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :

من هو صانع الضوء والظلام ؟

من هو جالب النوم واليقظة ؟

من هو صانع الصباح والظهيرة والمساء ؟

ليحدد للبشر أعمالهم

***

انى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :

هل الأمور حقا كما أود أن تكون ؟

هل يسند التفانى العدالة فى كل أجزائها ؟

هل أسست مملكتك حقا عن طريق « الفكر الطيب » ؟

***

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
من صاغ التكريس والتفانى ؟
من أمر الأبناء أن يحترموا آباهم ؟
اننى أود أن أدرك فيك أيها العاقل
مع روحك المقدس خالق الأشياء قاطبة ٠

★ ★ ★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
حتى أصوغ فضيلتى طبقا لتعاليمك ٠
وبعد ما تلقيت من كلمات من الفكر الطيب
وحتى أدرك ما يوائم العدالة فى الحياة
على أية حال ستكون روحى بعد أن تصل الى « الخير » ؟

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
أفحتم على المرء أن يدرك الدين الذى تعلنه تعاليمى
•والذى هو خير الأشياء جميعا ٠٠
وذلك عن طريق الرغبة فى رفدك
التى تجعل ــ الى جانب العدالة ــ الأمور ناجحة ؟

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :

أيمد التكريس نفسه الى من يعلن اليهم دينك أيها العاقل ؟
أهو أنا حقا من كلفته بذلك منذ البدء
بينما كل الآخرين ٠٠ أعداء للعقل ؟

✶✶✶

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :

من من بين أولئـك الذين أوجـه اليهم الحديث الطيب ومن هو الشرير ؟
من من الرجلين ؟ أهو أنا الشرير ؟
أم هو ذلك الذى يحرمنى من عونك هو الشرير ؟
كيف لا يستطيع المرء ان يفكر انه هو الشرير ؟

✶✶✶

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
كيف نخلص أنفسنا من الشر ؟
أفى رده الى من لا يكترثون برعاية العدالة المليئين بالعصيان
والذين لا يحفلون باستشارة الفكر الطيب ؟

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
كيف أستطيع ان أسلم الشر الى أيدى العدالة ؟ ٠
كيف تستطيع أن تزرى به طبقا لمبادىء تعاليمك ؟
وحتى تعصف بالاشرار وتجلب لهم ــ أيهـــا العاقل ــ العمى
والكراهيـــة ٠

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
ألك قوة ــ مع العدالة ــ تستطيع بها ان تحول ذلك عنى ؟
حين يلتقى الجيشـــان ٠٠ لمن كتبت النصر أيهـــا العاقل
طبقا للنظام الذى تلتزم به ؟

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
من ــ فى حالة النصر ــ سيحمى الكائنات بفضل تعاليمك ؟
أية علامات مرئية ستمنحنى اياها ؟
دعنى أعرف السيد الذى يشفى الخليقة
ألا فلتدع كل من ينتظرونها يطيعونه بفضل الفكر الطيب
أيهـــا العاقل ٠

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
أسوف أستطيع أن أصل الى هدفى بفضل عونك أيها العاقل ؟
هل لى أن أرتبط بك وأندمج فيك
هل لى أن تصبح لكلماتى قوة ٠
حتى تتحد الاستقامة والخلود معا طبقا لشريعتك ٠٠ ؟

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
ألا فلتمنحنى كمكافأة من العدالة فرسين وجوادا وجملا ٠

سبق أن وعدت بها أيها العاقل ·
وكذلك منحة الاستقامة والخلود ·

★★★

اننى أسألك أى أهورا مازدا فلتجبنى كذلك :
ذلك الذى يمنع المكافأة عمن يستحقها ···
وذلك الذى لا يعطيها ·· بماذا يعاقب الآن
وهو مدرك ما سيناله فى النهاية ؟

★★★

أولئك الآلهة المزيفون · أكانوا اذن سادة خيرين ·· ؟
اننى أتساءل عن أولئك الذين ــ وهم يقدمون فروض العبادة ــ
يشهدون المضحى وتابعه يسلمان الثور للغضب (؟)
ورئيس السحرة يجعله يقدم حياته فى أنين ·
ومن لايقدمون السكائب حتى تصبح مجدية طبقا للعدالة ··

★★★

وتعد هذه الأنشودة الطويلة نموذجا طيبا للون الأدب الذى ينسب الى (زراثوسترا) ، وربما يكون من المناسب أن نختم هذه المقتطفات بجانب من « ياسنا ٣٠ » يضم الفقرات الأخيرة :

افتح أذنيك لتسمع ماهو السيد الطيب
تأمل بفكر صاف الطريقين اللذين على المرء أن يختار أحدهما
متنبها سلفا لما سوف تقرره العدالة فى صالحنا ·

★★★

فى البدء كان الروحان اللذان يبدوان توءمين ·
الواحد خير والآخر شرير ···
فى الفكر والكلمة والفعل ·
وعلى العاقل ــ وليس بمعنى ــ ان يختار بين الاثنين ·

★★★

حين يلتقى الروحان ·· الواحد بالآخر
يضعان أساس الحياة واللا حياة
وفى النهاية ·· تصبح الحالة السوء للشرير
وأما الطيب فله « الفكر الطيب » ·

★★★

من بين الروحين يختار الشرير أن يصنع الشر
ولكن « أكثر الأرواح المقدسة » ، مدثرا بالسموات السرمدية ،
يكون فى جانب العدالة
وهكذا يفعل كل أولئك الذين يسعدون بأن يرضوا
السيد العاقل « أهورا مازدا » عن طريق الفعال الطيبة .

* * *

الأمر كذلك بين الاثنين : فالآلهة الزائفة
لاتختار الخير أبدا
لأن الخطأ يتملكهم حيث يقررون ما يفعلون
ومن ثم فهم يختارون « الفكر السيىء »
ويسارعون للارتباط بالجنون
وليغيروا به طرائق البشر .

★★★

الفـــرس

اسخيـــلوس

٤٥٠ ق.م

يعتبر أيسخيلوس رب التراجيديا اليونانية لا لأنه أول من ابتدعها ، فقد مرت قبله بأدوار كثيرة تطورت في أثنائها من أناشيد الديثرامب الى ظهور المجيب ونشأة الحوار ولم يكن أول من عرض قصصا مسرحيـــة في أثينا ، فقد سبقه أربعة من شعراء المسرح الا أن جميع من مضـــوا قبله كفاهم ممثل واحد ، ومن الواضح أن ممثلا وحيدا لا يمكنه ابراز الصراع بين الانفعالات الانســـانية المختلفة · ويحظى ايسخيلوس في تاريخ التراجيديا بهذه المنزلة السامية ، لأنه أول من استخدم ممثلا ثانيا كما أنه أول من ابتدع الأحذية العاليـــة التي يلبســها الممثلون والملابس الفخمة والأساليب الجزلة ، ولهذا تحييه الجوقة في قصة الضفادع لأرستوفانيس عندما تغنى لأول مرة بعد ظهوره على المسرح :

أنت يا أول يوناني ، يا من شيدت

بروجـا من الأنغـــام الجليلة ·

كما تصفه بأنه رفع التراجيديا من الحضيض الى عالم الفن المهيب ·

ولد ايسخيلوس بن أوفوزيون في ايلوسيس ، بالقرب من أثينا في سنة ٥٢٥ ق·م ، من احدى شهيرات الأسر الاتيكية النبيلة المنحدرة من الهوبتريد · فملأت الوراثة قلبه بالسمو والرفعة والأرستقراطية العقلية والخلقية من ناحية ، وطبعت أسرار ايلوسيس الدينية عقله منذ نعومة أظفاره بطابع الميل الى الحقيقة الالهية الجدية ، وعودته بيئته التقية على غزو كل ما يحوطه من تصرفات الأناسي الى الآلهة من ناحية أخرى ·

ولكن المؤرخين الادقاء لايعرفون عن طفولته ومبدأ شبابه شيئا يعتمد عليه ، لأن أكثر ما يعرض لهذه الحقبة الأولى من حيـــاته هو خرافات وأقاصيص · كأن يروى مثلا أنه بينما كان هو في طليعة شبابه نائما في كرم والده ، اذ رأى ديونيسوس (٣٧) في المنـــام يوحي اليه أنه شاعر فيصير شاعرا ·

بيد أن الذي لاريب فيه هو أن المسابقات المأســـاوية قد استهوت عقله وتملكت قلبه منذ ربيع حياته ، فكلف بها وأصر على أن يبذل كل ما وسعه من جهد ، ليساهم فيها كما يفعل المسرحيون المسنون وقد حدث

هذا بالفعل ، اذ لم يلبث أن انخرط في سلك الشعراء وظل يجهد قريحته الوقادة ويحلق بخياله الخصب في جو الأساطير الصافي ، حتى أصبح ــ وهو لم يتعد الخامسة والعشرين بعد ــ يخاصم كبار الشعراء مثل « كريلوكوس » و « براتيناس » و « فرينيكوس » ويساجلهم وظل كذلك عشرة أعوام ٠

وعندما اندلع لهيب الحرب الميدية بادر الى المساهمة فيها بحماسة فائقة ووطنية صادقة واســـتبدل بالقلم السيف وبالقرطاس الترس ، فأسهم بنصيب وافر في معركتي « ماراثون » و « سالامينا » ٠

وبعد أن انهزم الفرس وطردوا من اغريقا ، وابتعد الخطر عن بلاده عاد الى عالم الشعر ٠ وكانت الشيخوخة قد نالت من خصومه فانسحبوا الى العزلة ٠ وكان سوفوكليس لايزال ناشئا فخلا له الجو وتمت السيادة على المسرح ، فأخذ يصول فيه ويجول وطفق يطلب ما يشاء من القضاة فلا يردون له طلبا ولا يؤخرون سؤلا ٠

ولكن هذه الامتيازات لم تحمله على الغرور والاتكال على الشهرة ، فتقعد به عن متابعة الانشاء وموالاة التأليف وانما على العكس من ذلك ، شجعته على النشاط ودفعته الى السمو بالمآسي وأحاطته بأفخم أنواع العظمة والأبهة فتجاوزت شهرته أثينا الى المدن الأخرى ٠

وسمع بصيته « هيبرون » أمير سيراكوسا ، فدعاه الى بلاده وقربه منه وأكرمه ايما اكرام ٠ ومنذ ذلك الحين أصبحت صقلية بالنسبة اليه وطنا ثانيا ولكن هذا لم يمنعه من ان يعود الى أثينا التي كانت هي المجال الأوحد لظهور المواهب وبروز العبقريات ٠

ظل يستمتع بالتفوق حتى أخذ كوكب سوفوكليس يتألق ويرسل بأشعته فيبهر الأبصار ، فانتصر في عام ٤٦٨ ق٠م على شاعرنا الشيخ ولكن ذلك لم يقذف اليأس الى قلبه ولم يحطم ارادته ، فأخذ يغالب السن ويناهض الزمن حتى ظفر للمرة الأخيرة في « الاوريستيسية » في عام ٤٥٨ ق٠م وعلى اثر ذلك انسحب الى صقلية ٠

وقد أجمع القدماء على ان سبب انســحابه شيء أليم حز في نفسه وألجأه الى هجر مدينته العزيزة ، والتي رأى فيها من قبل مجده يصل الى أوجه ، ولكنهم اختلفوا في بيان هذا السبب فزعم فريق انه لم يحتمل منظر الحفاوة التي كانت الجماهير تحيط بها خصمه الشاب سوفوكليس ، وادعى فريق ثان أنه هاجر على اثر اتهامه بافشاء سر الآلهة في ايلوسيس ٠ وأكد سويداس أنه بينما كانت احدى مآسيه تمثل انهارت مدرجات دار التمثيل فاعتبر هذه الحادثة انذارا من الآلهة أو أمرا بالانســحاب من عالم المسرح فانسحب ٠

ومهما يكن من شيء ، فانه ظل فى صقلية حتى توفى فى « جيلا » فى عام ٤٥٦ ق٠م وقد أعقب ولدين يدعى أحدهما « أوفوريون » والآخر « بيون » فكانا هما أيضا من شعراء المآسى ٠

مؤلفـــاته

اختلف الكتاب القدماء فى عدد مآسى ايسخيلوس ٠ فروت الرسالة التى لا يعرف مؤلفها أنها سبعون مأساة وخمس فواجع ، وصرح سويداس بأنها تسعون مأساة ٠ ولم يقر النقاد المحدثون من هذا العدد الا عناوين ثمانين بين مأساة وفاجعة ٠

لم يبق من هذا العدد الضخم الذى كتبـــه ايسخيلوس مـــن المآسى الا سبع وهى : « الضارعات » ، « الفرس » ، « مهاجمو ثيبا السبعة » ، « بروميثيوس موثقا » ، « أجاممنون » ، « حاملات القرابين » ، « المحسنات » وهذه المآسى التى أبقتها يد الزمن ــ وان كانت تعـــد شـــيئا ضئيلا الى جانب ما كتبه هذا الشـــاعر الموهوب ــ كافية لاعطائنا فكرة عن مقدرته ونبوغه فى الناحية المسرحية ٠

وقصة الفرس تعتبر القصة الثانية فيما وصل الينا من مسرحيات ايسخيلوس على اعتبار أن قصة الضارعات ترجع الى سنة ٤٩٢ ق٠م ٠ وتمتاز قصة الفرس بأنها المسرحية الوحيدة التى عالجت بنجاح حوادث معاصرة اشترك الشاعر نفسه فيها ، فهى تخليد لنصر أثينة فى سلاميس فى سنة ٤٨٠ ق٠م وهى أجمل تعبير عن خلاص اليونان عامة والأثينيين خاصة من نير البرابرة ٠

تدور حوادث القصة لا فى أثينا ولا فى أية بقعة من بلاد اليونان وانما فى فارس وأمام القصر الملكى فى سوسا ٠ وتتألف الجوقة من مستشارى الملك ووزرائه الذين عهد اليهم بالحكم أثناء غيابه ،وقد طالت غيبته وانقطعت أخباره واستحوذ عليهم القلق على مصيره ومصير الشباب الفارسى ٠ وتدخل أتوسا أم الملك وقد استولى عليها الفزع ، فقد رأت حلما قض مضجعها: رأت فيما يرى النائم أن امرأتين احداهما ترتدى الملابس اليونانية والأخرى تلبس الملابس الشرقية قد ربطهما ابنهـــا اكسركسيس الى عربتـــه ٠ أما الثانية فظلت ساكنة ، وأما الأولى فقد حطمت العربة وألقت بالملك أرضا وتناقش الجوقة هذه الرؤيا ، ناصحة أتوسا بالتقرب الى الآلهة والى روح دارا لدرء الشر عن البلاد ، ثم يأتى رسول يحمل أخبارا منكرة : لقد هلك كل شيء ودمرت قوات فارس تدميرا تاما وتظل الملكة صامتة والرسول

يفيض في سرد المصائب التي حلت بالجيوش الفارسية فقد أذهلتها القارعة ، ولكنها تبدأ حديثها محتفظة بكرامتها ذاكرة أن على البشر أن يصبروا على ما ترسل السماء من نوائب ، ثم تسأل الرسول أن يخبرها عمن سقط من النبلاء والأمراء وذوى الصولجان ويجيبها الرسول بأن ابنها قد نجا ولايزال حيا يرى ضوء النهار فتظهر الملكة سرورها ويستمر الرسول فى اخبارها بمن قتل من عظماء فارس ، ثم يختم بأن ينسب الكارثة الى اله ما انحاز الى قوات العدو فدمر الجيش الفارسى :

فهناك آلهة يحافظون على مدينة الالهة بالاس ·

أتوسا : ألم تدمر مدينة أثينة ؟

الرسول : بلى ! ولكن رجالها لم يمسسهم سوء وهم حصنها الحصين ·

ثم يخبر الرسول الملكة عن خديعة ثيميستوكليس — دون أن يذكر اسمه — الذى أرسل عبده الى ملك الفرس يخبره بعزم اليونانيين على الهرب ليلا ، وما كان من أمر الملك بسد جميع منافذ خليج سلاميس ، ليقع الأسطول اليونانى فى يده · وتدخل الملكة القصر لاعداد ما يلزم لتقديم الضحايا والقرابين وتنشد الجوقة نشيدا حزينا ، تبكى فيه مصرع رجال فارس والظلام الذى خيم على دورهم وتتوجع لفقد دارا وفتوحاته وتخرج الملكة حاملة القرابين وتشترك مع الجوقة فى استعطاف روح دارا لتظهر ولتقدم لهم النصح · ويظهر شبح دارا ، وبعد أن يستمع الى الأخبار السيئة يشرح للملكة وللجوقة أسباب النكبة : انها نبوءة قديمة كان يود ألا تتحقق بهذه السرعة ولكن متى سارع المتكبر الى تدمير نفسه وجد الآلهة الى جواره تدفعه دفعا ! ويعود شبح دارا الى قبره بعد ان ينصح الجوقة بعدم شن حرب على بلاد اليونان مرة أخرى مهما عظمت قوات فارس فأرض بلاد اليونان حليفة لأهلها · وتعود الملكة الى القصر ويأتي اكسركسيس فى أسمال ممزقة فريدا وحيدا فتصحبه الجوقة الى القصر وتنتهى بين تفجع الملك وعويل الجوقة ·

تعتبر قصة الفرس من أروع ما كتب أيسخيلوس ، ولكنها مع ذلك قصة تاريخية ومن الصعب تأليف قصص مسرحية عن انتصارات قومية معاصرة · وقصة الفرس ، على الرغم من روعتها ، موضوعها بسيط وليس بها تشخيص ولم تكن قصة كتبت عن انتصار الاثينيين فقد وضع فرينيخوس قصة مسرحية تحمل نفس الاسم ·

ولكن على الرغم من أن الأشعار الوطنية قد ينقصها الالهام ، لكن المشاعر الوطنية قد تكون فى بعض الأحيان موضوعا لقصائد رائعة ،

والهزيمة تهز المشاعر وتترك آثارا أكثر دواما من النصر ولذا ، كانت الهزيمة دائما حافزا على نظم شعر رائع ، ولكن يمكن أن ينظر الى النصر من زاوية أخرى من زاوية الخلاص من خطر محقق وفى هذه الحالة يمكن للنصر أن يصبح موضوعا لشعر خالد · ولقد كان من خصائص أيسخيلوس أن يسمو بأى موضوع يتناوله ولهذا خلصت قصة الفرس من العوامل التى كان من الممكن أن تعمل ضدها ، وقد لاحظنا أن قصة الفرس موضوعها بسيط ليس بها تشخيص ولكن حبكة الموضوع ودراسة الأشخاص ، ان لم توجد ، لاتضير الأعمال الفنية التى بلغت الذروة وان كانت جودة الموضوع تجعل من المؤلفات التى لا تعلو الى الذروة قصصا جذابة تثير الاهتمام ، كما يجب أن نذكر أن المدن القديمة لصغرها وارتباط سكانها بها تعلق بها أهلها أكثر من تعلقنا بالمدن التى نسكنها · كانت الرابطة وثيقة بين الانسان وعشيرته ، لأن التضامن العائلى كان وقاية للمرء ان اعتدى على أحد وجنة له ان اعتدى عليه وكذلك كانت المدينـــة مبعث ضمان واطمئنـــان للمرء ما دامت قائمة أما وقوعها فى يد الأعداء فكان نهاية الدمار والخراب ·

كانت التراجيديا فى العالم القديم تدور دائما حـول أعمال الأبطال ومصائر العظماء ، فليست هناك شخصية مهمة فى قصة تراجيدية الا ولها اجلال وتقديس أو تحف بها المهابة لأمر ما وقد عيب على يوربيديس أنه أنزل التراجيديا من عليائهـــا لأنه ــ وان احتفظ بالأســـماء القديمـة والشخصيات العتيقة ــ لم يحفظ عليها هيبتها ولم يصن كرامتها ، بل حاول ان يجعل من أبطال اليونان القدامى رجالا يشبهون معاصريه أو بالأحرى حاول ان يخلع ما علق بهؤلاء الأبطال من مهابة ، لينفذ الى قرارة نفوسهم وسويداء قلوبهم وهى لاتختلف فى شىء عن طبيعة البشر التى يشترك فيها الناس أجمعون · فعندما وضع أيسخيلوس قصة الفرس كان عليه لكى يجعل من مسرحيته قصة باهرة أن يخرج بها عن نطاق الحوادث المعاصرة وأن يهبها عظمة وجلالا · فاذا كان الاغريق قد قهروا الفرس واذا كان الاثينيون قد دمروا جيوش فارس وأساطيلها ، فلم يفعل ذلك بشر وانما كان ذلك من صنع الآلهة · واحتفاظ أيسخيلوس بهذا الشعور من أول مسرحية الفرس الى آخر بيت فيها هو سر نجاحها وروعتها ، ولهذا لا نجد ذكرا لأحد من قادة اليونان فى هذه القصة ، ولكن الحال يختلف فيما يمس الفرس فقد ملأ ايسخيلوس قصته بأسماء فارسية ، وهذه الأسماء الغريبة أبعدت القصة عن المستوى المعتاد وجعلت من الجائز أن تذكر هذه الأسماء فى قصة مسرحية ، ثم ان الفرس ، وان كانوا هم المغلوبين المنهزمين ، فقد أظهرهم ايسخيلوس أبطالا صناديد : لقد أنزلت بهم الكارثة الحزن والكآبة واليأس ولكنها لم تجعل منهم انذالا أو جبناء ومع فداحة القارعة لم تفقد

أتوسّنا أم الملك كرامتها أو تظهر بمظهر غير لائق بها وهذه الروح العالية التي عالج بها ايسخيلوس أعداء وطنه ، وتعتبر أمرا يثير الاعجاب ولاسيما اذا قورن بما يحدث في أيامنا هذه من الدعاية ضد الأعداء ، في أثناء الحروب من افتراء الكذب واختلاف ما لم يحدث على الاطلاق ·

لم يعر ايسخيلوس كبير اهتمام للدقة في ذكر المواقع الجغرافيه وهو لايضطرب ان كان المنظر الأول في سوسا وقبر دارا في مكان بعيد عن مقر الحكم ، ولم يشأ ايسخيلوس أن يجعل مكان عرض القصة في أي ركن من بلاد اليونان بين الاغريق المنتصرين ، بل جعل المسرح يمثل قلب بلاد الفرس وأكثر ايسخيلوس من ذكر كلمة هوبريس ، لأنها تحوى مغزى القصة كلها فالكبر يسبق الفشل والكبرياء يتبعها السقوط وقد تجبر اكسركسيس وبغى وتعدى حدود البشر وداس تماثيل الآلهة وهدم المعابد المقدسة ·

ان الفرس لايعرفون مبدأ الوسط فهم مسرفون على أنفسهم غزاة متجبرون قهروا العالم برا وقد أتوا لقهر البحار لم يكفهم ملك آسيا فهم يتوقون الآن الى اخضاع أوربا ·

ولكن على الرغم من تكبر الفرس واعتدائهم ، فاننا في هذه القصة نميل اليهم ونشفق عليهم وهذا من عمل ايسخيلوس ، الذى أضفى على هذه القصة ألوانا شرقية سواء أكانت فارسية أم غير فارسية وقد وصل الى هذه النتيجة باستعمال كلمات عجيبة لها رنين غريب وباستخدام أوزان وأنغام موسيقية قريبة من الأوزان والأنغام الشرقية ·

كان ايسخيلوس في نظر النقاد القدامى شاعر التراجيديا الملهم وهذا الالهام قد يكون عنيفا بحيث لايخضع لقواعد الفن ويطلق عليه أرستوفانيس لقب «الأمير الباكخي» ، نسبة الى باكخوس اله الخمر وكانت طقوسه صاخبة منفعلة يستولى الاله فيها على مشاعر عباده الذين شربوا حتى فقدوا السيطرة على عيونهم وعقولهم · ويذكر أثينايوس وغيره أن ايسخيلوس كان لايقول الشعر الا وهو نشوان وقد استعمل اللفظ هنا مجازا فهم لا يذهبون الى المعنى الحرفي للكلمة ، ولكنهم يشيرون الى أنه عند كتابة قصصه يكون ايسخيلوس في حال لا تختلف عن حال من انتشى · وقد ذكر بلوتارك أن جميع مسرحيات ايسخيلوس مفعمة بديونيسوس ويقال ان سوفوكليس لاحظ أن ايسخيلوس يجيد ولكن دون أن يدرى ما يفعل ·

وسوفوكليس يعنى أن ميله الأكبر واقع تحت تأثير الهام ، ولكن سوفوكليس نفسه يعمد الى الاجادة فيصل الى ما يريد ، ومن الممكن أن نشير هنا الى تلك الأقصوصة التى حكاها باوسانياس من أن ايسخيلوس ، وكان غلاما عهد اليه بحراسة كرم فنام ورأى فى منامه أن ديونيسوس اله التراجيديا قد ظهر له وأمره أن يدبج مسرحيات تراجيدية فلما استيقظ حاول قرض الشعر فوجده سهلا يسيرا ٠٠ !!

نمـــاذج

(أمام قبر دارا بعد أن قدمت الملكة أتوسا القرابين وبعد أن أنشدت الجوقة رثاء حزينا ناشدت فيه دارا أن يخرج من قبره ، ليقدم النصائح لبنى وطنه) شبح دارا (وقد ظهر على القبر) موجهـا حديثه الى أفراد الجوقة :

: يا شـــيوخ فارس يا أكثر الناس ولاء واخلاصا أى قرنائى فى شبابى ما الذى حل بمدينتنا من نصب ؟ ان الأرض لتتفجع مهتزة وقد قطعت اربا ولقد دب الى الفزع وأنا أرى زوجى بالقرب من قبرى وقد تقبلت ما حب من قرابين بقبول حسن ولقد وقفتم أنتم أنفسكم الى جوار قبرى تنشدون لحنا حزينـــا وترفعون أصواتكم بعويل يبعث الموتى من الأجداث ولقد ناديتم على بصوت تنفطر له الأكباد غير أنه ليس من اليسير الخروج من المقابر ، فآلهة الموتى يفضلون ، على أية حال ، المجىء على الرحيل ومع ذلك أتيت اليكم لأنى سيد عظيم هنالك ومع كل فأسرع حتى لا يوجه الى اللوم للابطاء والتأخير أى شر قاصم نزل بالفرس ؟ .

الجـوقة : أصـــابنى الروع لمشاهدتك وفى قلبى خشـــية لمخاطبتك لما يسيطر على فؤادى من هيبة قديمة .

دارا : جئت الى هنا مصيخا الى عويلك فلا تقصن على قصة طويلة ، بل خبرنى فى ايجاز الخبر كله طارحا استحياءك منى وراء ظهرك .

الجوقة : انى أخشى اجابة طلبك وأخاف ان أوجه اليك الحديث فأضطر الى استعمال ألفاظ لاتجوز فى مخاطبة الأصدقاء .

دارا : ان كانت هيبتى القديمـــة قد عطلت قرائحكم فقولى لى بوضوح أيتها السيدة النبيلة ياشريكتى فى حيـــاتى مدة طويلة بعد أن تتركى هذا البكاء والعويل فربما كانت هناك نائبة من نوائب البشر حلت بفارس فكثير من الشر يأتى من البر وكثير منه مصدره البحر ان امتد بالمرء العمر .

أتوسا : يا من فاق جميع البشر فى السعادة يا من قضيت حياتك الطويلة طالما كنت ترى أشعة الشمس مبجلا بين الفرس كاله ، لقد كنت

مبعث الجسد فى حياتك وانى لأغبطك حتى على مماتك قبل أن ترى هذه الشرور المستطيرة هذه يادارا القصة كلها فى جملة موجزة : لقد هلك سلطان فارس ·

دارا : وكيف ذلك ؟ أصب عليهم سوط عذاب أم انتشر بينهم وباء أم شب فى المدينة نزاع ؟

أتوسا : كلا ولكن الجيش كله سقط حول أثينة ·

دارا : من من أبنائى كان يقود ذلك الجيش ؟

أتوسا : أكسركسيس العنيد وقد أخذ معه سكان القارة جميعا فتركها خلوا من الرجال ·

دارا : وبأى نوع من الجنود يا لشقائه قام بتلك المحاولة الجنونية ؟ أبالمشاة أم بالبحارة ؟ ·

أتوسا : بكليهما فقد كان لمعسكريه قبلتان ·

دارا : وكيف استطاع جيش جرار من الرجالة أن يعبر المضيق ؟

أتوسا : ربطا ما بين شاطئيه بحيل هندسية فنجح فى خلق طريق فى اليم ·

دارا : وهل فعل ذلك ليقفل البسفور العظيم ؟

أتوسا : هذا ما حدث فعلا لقد أعانه عليه اله ما ·

دارا : ويل ! ياله من اله قدير أفقده صوابه !

أتوسا : نحن الآن نشاهد نتائج عمله وأى شر نجح فى القيام به ·

دارا : وماذا حدث لهم مما جعلكم ترفعون أصواتكم بالعويل ؟

أتوسا : قضت هزيمة الأسطول على الجنود من المشاة ·

دارا : وهكذا سقط الخلق جميعا صرعى الحراب ؟

أتوسا : نعم · ولهذا تبكى مدينة سوسا فقد جميع رجالها ·

دارا : وا أسفاه على جنودنا الأبطال عماد جيشنا الباسل !

أتوسا : لقد هلك الناس جميعا فى باكتيريا ولم يبق بها الآن شيخ كبير ·

دارا : يا لشقائك يا بنى ! ياللشباب الذى سقط من أبناء الحلفاء !

أتوسا : ويقال ان أكسركسيس وحيد فريد مع عدد قليل ··

دارا : (مقاطعا) أية نهاية أصابته ؟ هل توجد وسيلة للخلاص ؟

اتوسا : نجا بشق الأنفس الى القنطرة التى تصل الأرضين ٠

دارا : وصل سالما الى الجانب الآخر من اليابسة ؟ أحق هذا ؟ ٠

اتوسا : أجل فالخبر صريح وواضح وليس فيه ريبة ٠

دارا : ما أسرع ما تحققت النبوءة فأصابت ابنى ! وقد صب زيوس على ابنى نتيجة هذا الوحى ، أما عنى فقد كنت أدعو أن يأتى بها الآلهة بعد أمد مديد ولكن سارع المرء الى الهلاك دفعه الاله دفعة قوية أما الآن فقد تفجر ينبوع الشر فأصاب جميع أصدقائنا ولكن ابنى لم يكن ليدرك هذه الأمور فاعتمد على شبابه المتهور ، وأمل أن يمسك جريان الهيليسبونتوس المقدس في الاغلال كأنه رقيق البسفور نهير الاله ، وحاول تغيير مجراه محيطا المجرى الكبير بالقيود التى صنعتهـــا المطارق وبذا خلق معبرا لجيش جرار ٠ ومع أنه بشر الا أنه ظن ــ وهذا حمق ــ أنه سيتغلب على جميع الآلهة وخاصة على بوسيدون. وكيف لا يكون هذا مرضا عقليا استولى على ابنى ؟ وانى أخشى أن يصبح المال الذى جمعناه بالكد والتعب غنيمة لأول طارق ٠

* * *

الجوقة : ما هذا يا مولاى دارا ؟ ماذا نستخلص من كلماتك ؟ كيـف يخلص الشعب الفارسى من هذه النوائب ويسير الى ذروة النجاح ؟ ٠

دارا : أو لم تغزوا بلاد اليونان ولو كان الجيش الفارسى أكبر من ذلك فأرض يونان نفسه نهب حليفة لأهلها ٠

الجوقة : ما معنى هذا ؟ وكيف تحالفهم أرضهم ؟

دارا : انها تهلك جوعا جماهيرنا الغفيرة ٠

الجوقة : فان فزنا بجيش منتقى خفت أسلحته ؟

دارا : لن يحظى حتى الجيش المقيم الآن فى بقاع من بلاد اليونان بالرجوع ســـالما ٠

الجوقة : ماذا تعنى ؟ ألا يعبر كل جيش الفرس مضيق هيلى من أوروبا ؟

دارا : سيعبر عدد قليل جدا من هذا الجيش الغفير ان وجب ان نصدق نبوءات الآلهة ناظرين الى ما حدث فعلا الآن فنبوءات الآلهة لا يتحقق

بعضها ويتحقق بعضها الآخر واذا كان ذلك كذلك فأمـل فارغ أن يترك (اكسركسيس) عددا من الجنود المختارين وهم يقيمون الآن حيث يروى نهر أسوبوس السـهل بمياهه التى تجلب الخصب الحبيب الى بلاد بيوتيا وهم ينتظرون قضاءهم المحتوم وما كتب عليهم من تحمل الشرور جزاء ظلمهم والحادهم ، لأنهم لم يتورعوا عندما جاءوا الى بلاد اليونان من نهب تماثيل الآلهة وحرق المعابد وقد دمرت المذابح واقتلعت هياكل الآلهة من جذورها دون تمييز لقد كثرت سيئاتهم وسيكون عذابهم شديدا وستحل بهم مصـائب أخر فى المستقبل وليس هنـاك الى الآن من أساس متين يقيهم الشر ان المتاعب لتنهمر على رؤوسـهم كما تسيل المياه من الينابيع وسيراق دم القتلى غزيرا فى أرض بلاتيا على الحرب الدورية وستقوم الجثث على الشاطىء دليلا صامتا لأعين الناس حتى الجيل الثالث ، على أنه ينبغى ونحن بشر أن تكون أفكارنا متواضعة فالتعدى اذا ما ازدهر أخرج ثمارا من الأسى وجنى المرء منه محصولا من اليأس ، فاذا شاهدنا أمثال هذه الأشياء وما وقع من جرائها من عذاب وجب علينا ان نفكر فى أثينة وفى بلاد اليونان لايحقرن أحد حظه الحالى جريا وراء حظ آخر فيذهب حظه الحسن ، لأن زيوس يعاقب على الأفكار المتعجرفة وهو قاض قاس ولهذا قدموا النصيحة لذلك الشاب كى يثوب الى رشده قائلين له قولا لينا وحالوا بينه وبين اغضاب الآلهة بتهوره وكبريائه ، أما أنت أيتها العجوز الحبيبة يا أم اكسركسيس فادخلى دارك وانتقى ثوبا لائقا قابلى به ابنك فملابسه المزركشة قد مزقت فى كل موضع من جسـده حتى أظهرت خيوطهـا المتقطعة بسبب ما نزل به من آلام وما حل به من نوائب أما أنت فاشرحى صدره وخففى عنه بحديثك فأنت الوحيدة التى ان سمع كلامها ، فسيصبر ويحتمل أما أنا ، فسأعود الى باطن الأرض المظلم أما أنتم أيها الشيوخ فوداعا متعوا أنفسكم كل يـوم على الرغم مما يحيط بكم من شر : فالمال لا نفع له عند الأموات .

(يختفى شبح دارا)

الجوقة : يا لكثرة النوائب الحاضرة والمستقبلة التى أبكانى سـماعها والتى ستحل بالفرس !

***

وبعد فترة تقضيها الجوقة فى رثاء دارا وتعديد محاسـنه يظهر اكسركسيس يندب حظه :

اكسركيس : ويلى !

يا لشقائى وحظى البغيض
الذى فاجأنى على غرة
يا له من اله قاس أناخ
بوحشية على شعب فارس !
ماذا أصابنى أنا الشقى ؟ !
لقد انحلت قوى ركبتى عندما
وقع بصرى على هذه الجماعة من
المواطنين المتقاربة فى السن ٠
أى زيوس ليتنى مت قبل هذا
مع من قضى نحبه وليت
الموت لفنى فى ظلامه مع أولئك
الذين حم قضاؤهم

ويستمر اكسركيس فى النذب والعويل وتعـــاونه الجوقة وتنتهى القصة بهذه الخاتمة الصاخبة الحزينة ٠٠

المحـــاورات

بـــاركلى

٨٠٠ م

باركلى .. حياته وفلسفته

ولد فى أيرلندا بمنطقة كيلكنى عام ١٦٨٥ . كان أجداده من الانجليز البروتستانت ، لكن باركلى قضى سنيه المبكرة والمتأخرة بأكملها فى أيرلندا وهو وان كان قد قضى حياته تابعا للمذهب الانجليكانى ، الا أنه يبدو كما لو كان يعد نفسه أيرلنديا بصفة قاطعة . تلقى باركلى تعليما ممتازا بكلية كليكنى أولا ثم ابتداء من عام ١٧٠٠ بكلية ترينتى بدبلن عين فيما بعد زميلا لعدة سنوات . رسم قسا فى سنة ١٧٠٧ ، وصار نائبا لأسقف درى ، ثم أسقف كلوين بعد ذلك بعشر سنوات ، تزوج فى عام ١٧٢٨ وتوفى فى عام ١٧٥٣ بينما كان يشرف على الحاق ابنه بكلية كرايست تشيرش بأكسفورد وقبره موجود بالكاتدرائية هناك .

وحياة باركلى جديرة بالاهتمام بغض النظر عن كتاباته الفلسفية ، وترجع هذه الأهمية على وجه الخصوص الى تلك المحاولة الغريبة التى قام بها فى أواسط عمره لاقامة جامعة فى برمودا وكان الغرض الخاص من هذا المشروع هو التبشير . ولم يكن باركلى يرجو أن يجتذب الى كليته أولئك الذين نزحوا الى المستعمرات الأمريكية وأقاموا بها فحسب ، لكنه كان يرجو كذلك أن يجتذب اليها بعض الأهالى الأصليين من الهنود وهناك يدربون ليصيروا قساوسة للدين ورسلا للثقافة . ولقد استطاع باركلى — الذى كان على جانب كبير من النشاط والقدرة على الاقناع والجاذبية الفطرية — أن يحرز تأييدا شعبيا ورسميا كبيرا لمشروعه ، وحصل على ترخيص بانشاء الجامعة وعلى مبلغ طائل من المال عن طريق التبرعات الخاصة وعلى وعد من البرلمان باعانة حكومية من الأموال العامة ، لكن مشروعه كان فى الواقع غير قابل للتنفيذ وقد تبين للناس ذلك فى نهاية الأمر فبرمودا — وهذا ما لم يدركه باركلى على نحو واضح — جد بعيدة عن القارة الأمريكية بحيث لا تصلح موقعا ملائما لتحقيق أغراضه . وبعد أن رحل الى أمريكا فى عام ١٧٢٨ أخذت عوامل التردد والشكوك تسود وطنه . وقضى باركلى فى الخارج ما يقرب من ثلاثة أعوام ، منتظرا أن تدفع اليه المنحة لكن رئيس الوزراء « والبول » أعلن فى عام ١٧٣١ أن الحكومة لن تحقق له آماله .

وما زال البيت الذى بنـــاه باركلى وأقام فيه بنيوبورت فى رود آيلاند « فى الولايات المتحدة » قائما حتى وقتنا الحاضر ٠

كتب باركلى مؤلفاته التى يرجـع اليها الجانب الأكبر من شهرته عندما كان شابا فى مقتبل العمر فهو فى الوقت الذى زار فيه انجلترا لأول مرة سنة ١٧١٣ ــ وكان حينئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ــ كان قد نشر بالفعل كتابه « محاولة من أجل نظرية جديدة فى الرؤية » (١٧٠٩) وكتابه « أصول المعرفة البشرية » (١٧١٠) كما نشر فى ذلك العام نفسه (عام زيارته لانجلترا) كتابه « ثلاث محاورات بين هيلاس وفيلونوس » ٠ وهو فى كتبه المتأخرة لم يضف من الجديد الا القليل الى دفاعه عن آرائه التى اعتنقها فى ذلك الوقت المبكر وتفسيره لها وتقويمها فى بعض مواضـــع قليلة الأهمية بل الواقـــع أنه ــ كما يتضـــح لنا من رسائله ــ ظل لفترات طويلة فى حياته المتأخرة لا يشغل فكره بالفلسفة على الاطلاق ، فهو من هذه الناحية يختلف على نحو يستوقف النظر عن لوك الذى لم يظهر مؤلفه الرئيسى الا حينما قارب الستين من عمره ٠ والواقع ان باركلى الفتى الذى تعرف على كتابات لوك فى وقت مبكر من عمره يميل عادة الى أن يشير الى أفكار لوك على أنها أفكار شيخ طاعن فى السن وعلى أنها فى حقيقة الأمر مثيرة للاعجاب ، اذ تصدر عن رجل تقدمت به السن على هذا النحو ٠

ظاهرة فريدة فى تاريخ الفلسفة !!

ان باركلى ظاهرة من أكثر الظواهر استيقافا للنظر ، بل الواقع أنه ظاهرة فريدة فى تاريخ الفلسفة ، فقد كان فى تاريخ الفلسفة كثير من الفلاسفة الذين أقاموا أنســاقا ميتافيزيقية ، تتسم بالجرأة والشـــمول وبالغرابة فى كثير من الأحيان وقد كان هنالك أيضا بعض الفلاسفة وخاصة فى المأثور الفلسفى الانجليزى ممن انصرفوا الى توضيح الادراك الفطرى السليم والدفاع عنه ، ثم كان هنالك من المفكرين من كرســوا جهودهم للدفاع عن الايمان الدينى لكن باركلى يتفرد بمأثرة فذة هى انه استطاع ببراعة ومهارة مثيرة للدهشة أن يضطلع بجميع هذه المهام فى وقت واحد وكانت هذه المأثرة على تواؤم كامل مع مزاجه الذى كان يجمع بين ميل الى النسق الميتافيزيقى الطامح ومعتقدات دينية قوية واحترام راسخ للادراك العادى السليم ، لكنه لم يستطع أن يصوغ نظرياته بحيث تمنحه الرضى العقلى أيضا الا بفضل نفاذ بصيرته وقوة ذهنه الا أن تاليفه بين هذه المهام التى تتضارب عادة تاليف غير وطيد البنيان بغير شك وقليل من قرائه هم

الذين استطاعوا أن يتابعوه فى هذا التأليف . ولقد نظر اليه الناس فى بادىء الأمر ـ وهذا ما أصابه بالكدر الشديد ـ على أنه « مجرد » فيلسوف ميتافيزيقى جامح الخيال لكنه وجد فيما بعد من يدافعون عنه بين حين وآخر باعتباره « مجرد » نصير « للادراك الفطرى السليم » لكننا اذا أردنا أن ندرك نظرياته بكل ما فيها من قوة ، فلزام علينا أن نتبين كيف امتزجت فى هذه النظريات الثلاث جوانب متباينة .

اننا نستطيع أن نفهم موقف باركلى على خير وجه اذا نحن قارناه بموقف لوك والواقع ان هذه الخطة تتابع مجرى موقفه ذاك فى تصوره التاريخى بالفعل فلقد كانت صورة العالم كما وجدها باركلى لدى لوك حينما كان يقرؤه طالبا كما يلى تقريبا : العالم فى حقيقته وفقا للوك ـ نظام ميكانيكى من أجسام فى المكان فهو عالم « مصنوع » فى حقيقة الأمر من المادة والأجسام المادية لا تتصف فعلا الا بتلكم الصفات التى يستلزمها الطابع الميكانيكى لسلوكها ـ أى أنها تتصف « بالصلابة » والشكل والامتداد والحركة أو السكون والعدد » وتؤثر هذه الأجسام ـ من بين ما يؤثر فيه ـ على حواس الكائنات البشرية التى لها عقول ـ أى « جواهر غير مادية » كما ان لها أبدانا وعند حدوث هذا التأثير يؤدى التنبيه الميكانيكى للحواس والمخ الى نشوء « الأفكار » فى العقل ، وهذه الأفكار هى فى حقيقة الأمر ما يعيه المشاهد من أشياء وهذه الأفكار تمثل من بعض الجوانب طبيعة « العالم الخارجى »تمثيلا صادقا ، لكنها لا تقوم بهذا التمثيل الصادق من جوانب أخرى فالأفكار الخاصة بالصوت واللون والرائحة على سبيل المثال لها من مقابلات واقعية تطابقها فى العالم ، فما هى الا حالات يتأثر فيها المشاهد بحكم تكوينه ذاته بالمنبهات الميكانيكية المناسبة . لكن سرعان ما انتهى الأمر ببباركلى الى أن ينظر الى هذه الصورة للعالم على انها صورة مثيرة للسخرية وخطرة ومنفرة فى وقت واحد فهى مثيرة للسخرية ـ فيما أعتقد ـ لأنها كانت تؤدى على نحو بين الى نزعة تشككية جامحة تتعارض مع الادراك الفطرى السليم ، اذ كيف يمكن لمشاهد لا يعى شيئا من أفكاره قبل أن يعرف « أى شىء » عن « العالم الخارجى » الذى قال به لوك ؟ على أن لوك نفسه قد قرر ـ وفى هذا ما فيه من بطلان ـ ان اللون على سبيل المثال سمة ظاهرية وليس سمة واقعية من سمات العالم لكن كيف أتيح له أن يعرف أن تأملنا لأفكارنا يطلعنا على نحو صحيح ـ من أية ناحية من النواحى ـ على طبيعة العالم كما هى بالفعل ؟ فما على الفيلسوف المتشكك الا أن يشير الى احتمال أن تكون أفكارنا مضللة لا من بعض النواحى فحسب ولكن من جميع النواحى ـ فيما يتعلق بطبيعة الأشياء ، وانه لمن الواضح أن لوك لا يستطيع عندئذ أن يواجه مثل هذا الرأى ، وبهذا يكون لوك قد أسلم نفسه الى ذلك الرأى المثير للسخرية القائل بأن

الأشياء ـ اذا قصرنا أنفسنا على ما « نعرفه » ـ قد تكون فى العالم « الخارجى » مباينة تمام المباينة لما نظنه فيها ولعل هذه الأشياء ـ اذا قصرنا أنفسنا على ما « نعرفه » غير موجودة ولا شك أن هذا الرأى منفر لأى انسان ذى عقل سليم ٠

لكن يضاف الى ذلك أن مذهب لوك كان ـ فيما يعتقد باركلى ـ خطرا غاية الخطورة ، فهو الى جانب كونه يقدم تبريرا عاما للنزعة الشكية ، يميل الى المادية والالحاد وهو بذلك يميل ـ فى رأى باركلى ـ الى تقويض الأخلاق فقد أدخل لوك الله فى مذهبه باعتباره مصمما وخالقا ومحركا « لمكنة » العالم الكبرى ولكن كيف يمكنه أن يثبت أن المادة ذاتها ليست أزلية ؟ واذا كانت المادة كذلك أفلا يجعل مذهبه من الممكن ـ بل ومما يتفق مع العقل انكار وجود الله كلية ؟ زد على ذلك أن لوك نفسه قد ذهب الى أن الوعى ينتمى الى « الجواهر غير المادية » وهى التى كان لوك يود بغير شك أن يعدها أنفسا خالدة ، لكنه اعترف بأنه ليس فى مقدوره أن يدحض ذلك الرأى المضاد القائل بأن الوعى قد لا يكون سوى خاصية من خواص المادة وبأنه ـ بناء على ذلك ـ متوقف فى وجوده على دوام بعض الشروط الفيزيقية المادية ، وهكذا كانت نظريته عرضة الى حد ما لأن تبيح ـ ان لم تكن تشجع بالفعل ـ انكار وجود الله وخلود الروح وبهذا الانكار ينهار الدين فى رأى باركلى وتنهار معه الأخلاق ٠

ومن الواضح أخيرا ـ وان يكن باركلى قد قرر هذا فى عبارة أقل صراحة ـ ان الفكرة القائلة بأن « العالم » مكنة ضخمة كانت تحرج صدره وتنفره وكانت تلكم المجازات التى يبتهج بها لوك عن الساعات والمكنات والعجلات والزنبركات تبعث التقزز فى نفس باركلى الى أقصى الحدود فقد كان يشعر أن العالم « لا يمكن » أن يكون على هذا النحو حقا ـ وخاصة اذا كان اعتقادنا أنه كذلك يقتضى أن نقرر أن مظهره الفعلى خادع لنا ، « فجمال الخليقة كما تراه الأعين » ليس فى واقع الأمر سوى حواسنا لا لشىء الا لنعتقد أن العالم منفر الى هذا الحد ؟ ٠

من هنا عن لباركلى ـ وقد خطر له هذا فيما يشبه الالهام ـ ما بدا له على أنه وسيلة جريئة ولكنها بسيطة بديعة لاستئصال كل تلك الفظائع والاباطيل دفعة واحدة فما كان الأمر يقتضى منه الا أن « ينكر وجود المادة » ، اذ ماذا عساها تكون النتائج التى تترتب على ذلك ؟ أولا لن يكون لهذا الانكار أدنى تأثير على مجرى خبرتنا اليومية كما تحدث بالفعل فنحن باعتراف لوك نفسه لا نعى قط فى واقع الأمر سوى أفكارنا ، واذن فانكار وجود « الأشياء الخارجية » التى يزعمها لوك تلك الأجسام المادية لا يستتبع انكار أى شىء مما قد دخل فى خبرتنا وهو فى واقع الأمر يدع

آراء غير المتفلسفين من الناس على حالها دون أن يمسها بسوء لكن هذا لا يكفى ، اذ ينبغى أن يضع هذا الانكار نهاية لتساؤل المتشككين ، لأن لوك قد اضطر الى أن يسلم المتشككون بأن أفكارنا قد تضللنا فيما يتعلق بطبيعة الأشياء ، وما اضطره الى هذا سوى أنه نظر الى الأشياء باعتبارها شيئا آخر « غير » أفكارنا • أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنظر فرأينا أن الأشياء أى موضـوعات الخبرة العادية ــ ليست الا « مجموعات من الأفكار » ، فسيصبح من المستحيل استحالة قاطعة أن نزعم أن الأشياء قد لا تكون فى حقيقة أمرها كما تبدو لنا وسيستحيل على نحو أقطع من ذلك أن نزعم أن وجود الأشياء ذاته قابل للشك ، ذلك لأن البرتقالة اذا لم تكن جسما ماديا « خارجيا » بل مجموعة من الأفكار ، فبوسعى فى هذه الحالة أن أكون ــ كما يكون فى الواقع أى انسان ذى عقل سليم بطبيعة الحال ــ على يقين من أن البرتقالة موجودة وأنها تتصف حقا بما أجده فيها من لون ومذاق وملمس وعبير ، اذ يبدو أن الشكوك لا يمكن أن تنشأ بصدد بسيط كهذا الا نتيجة لتقريرنا الذى لا داعى له بأن الأشياء موجودة « بمعزل » عما لدينا من أفكار عنها وبالاضافة الى هذه الأفكار •

يمكننا بعد ذلك أن ننظر كيف واجه باركلى اعتراضـين خطيرين أولهما هو الاعتراض التالى : أفلا ينبغى أن نسلم بأن لأفكارنا « عللا » ؟ فنحن لا نحدث أفكارنا بأنفسنا بأية حال من الأحوال ومن الواضح أن أفكارنا ترد الينا من مصدر مستقل عنا وماذا عساه أن يكون هذا المصدر ان لم يكن هو « الأشياء الخارجية » فى نظرية لوك ؟ هنا يسلم باركلى بأن لأفكارنا عللا ولكن النظر اليها باعتبارها مسببة على نحو ما كان يعتقد لوك ــ فيما يرى باركلى ــ هو أمر لا داعى له ومستحيل على حد سواء لا داعى له ، لأننا نستطيع أن نفترض أن الله هو العلة التى تحدث أفكارنا فنستطيع أن نفترض أن الأفكار ترد الى عقولنا على النحو الذى ترد به بترتيبها واطرادها المثيرين للاعجاب ، أقول انهـا ترد هكذا بارادة الله مباشرة والواقع انه من المستحيل ــ فيما يرى باركلى ــ أن تكون الأفكار مسببة على نحو آخر لأن « التسبيب » معناه « أن تفعل » ، وليس هناك ما هو فعال حقا سوى « ارادة » كائن عاقل •

لكن قد يعترض ثانيا بأنه اذا أنكرنا وجود « المادة » فماذا يكون مصير الفيزيقا ؟ واضح انه محال أن نرفض مكتشـفات نيوتن وزملائه باعتبارها مجرد أوهام لكن المادة فى صورة الجزئيات أو « الجسيمات » هى على وجه التحديد تلك المادة التى كشفوا وأثبتوا لها ذلك العدد الكبير من الخواص فماذا يتبقى لقوانين الفيزيقا من موضوعات تصدق عليها اذا لم تكن هناك حقا أجسام مادية ؟

كانت التأملات الأولى لباركلى فيما يتعلق بهذا الاعتراض أقرب الى المراوغة لكنه فيما بعد ــ وخاصة فى كتابه « فى الحركة » الذى نشر فى عام ١٧٢١ ــ ابتكر اجابة بارعة تستوقف النظر ، وان كانت تتخذ اتجاها مضادا لهوى العصر على نحو لا يرجى لها معه قبول ، فلقد سبق باركلى كثيرا من فلاسفة العالم المعاصرين الى أفكارهم حينما أجاب بأن النظريات العلمية لا تصدق على أى شىء على الاطلاق · نعم ، لا شك أنها اذا كانت صحيحة فهى « تصدق » على عالم خبرتنا من حيث انها تمكننا من أن نتنبأ بمجرد ذلك العالم ، وأن نتحكم فيه كذلك الى حد ما لكن مهمة هذه القوانين لا تزيد على مهمة الوسائل التنبؤية فنظرية التكوين الجسيمى للمادة ــ مثلا ــ تمكننا من التعبير الرياضى المضبوط الذى تتميز به الصيغ الرياضية وهو الذى يمكننا باستخدامه أن نحصل على تنبؤات قيمة لا تقدر ولكن ليس هناك ما يدعونا الى أن نفترض أن الجسيمات والجزئيات التى تقوم بها النظرية موجودة بالفعل · ان افتراضنا أن هناك جسيمات من هذا القبيل ليس الا افتراضا مفيدا من الوجهة النظرية وعلينا أن نتمسك به طالما لنا فائدته ، لكن لا ينبغى لنا أن نعده حقيقة تقرر الواقع تقريرا حرفيا واذن ، فليس هناك ما يخشى منه على متابعة العلم نتيجة لمبادىء باركلى وليس على العالم الا أن يعترف بأنه لا يبحث فى « طبيعة الأشياء » وانما يعمل على اتقان صيغة الوسائل التنبؤية ·

ينبغى أن نذكر هنا أيضا أن باركلى قد خصص مقدمة كتابه « الأصول » لبحث فى اللغة ، لأنه كان يعتقد أن أخطاء المفكرين السابقين وخاصة لوك انما ترجع فى جانب من جوانبها الى الغموض اللغوى · وفى ذلك الفصل يفسر باركلى تعبيرات لوك الغامضة تفسيرا أقرب الى التجنى اذ يفسرها دائما بأبعد معانيها عن القبول وأكثرها تعرضا للتجريح ، لكن اصراره على أن ماهية اللغة تكمن فى استخدامها وعلى وجوب فهم التعبيرات اللغوية فهما مستمدا من استخدامها بالفعل فى سياقات محددة ، يجعل هذا الفصل من آصل وأشد اضافاته فى ميدان الفلسفة تأثيرا ·

ويمكننا أن نذكر مؤلفين من مؤلفات باركلى الأخيرة بايجاز فكتابه « ألسيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) مؤلف مطول اتخذ شكل المحاورة ، وفيه يناصر باركلى المبادىء الأورثوذكسية الانجليكانية ضد شتى الأنماط التى كانت شائعة من « التفكير الحر » ومذهب المؤلهة · لكن يعيب الكتاب على الرغم مما فيه من براعة ما يعيب العرف (الدينى) من اصطناع وليس له من أهمية كبيرة فى الوقت الحاضر بعد أن ماتت المنازعات التى دعت الى تأليفه ، أما مؤلف باركلى الأخير فقد كان كتاب «سيريس» وهو مؤلف غريب الى حد بعيد وفيه نجد عرضا لجانب من آرائه المبكرة ، يتخبط فيه باركلى

على نحو غير مألوف وهو عرض ثقيل غاية الثقل مصطبغ بصبغة التأمل ، ينتهى به الى بحث فى فضائل ماء القطران وهو دواء عمل باركلى على شيوع استعماله وجاهد فى سنواته الأخيرة على ترويجه بحماسة غريبة ·

وقد قضت مؤلفات باركلى الرئيسية وقتا طويلا قبل أن تحدث أى تأثير فى الفلسفة ، على الرغم من أن كتابه الأول فى الرؤية ذلك الكتاب ذو المجال المحدود ، قد نال حظا لا بأس به من الشهرة وقد كانت انتقاداته للوك قوية فى أغلب الأحوال ولقيت استقبالا حسنا وكان انتقاله الى مبدئه الخاص العجيب القائل بعالم غير مادى متمركز حول الله عالم « وجوده » هو كونه « مدركا » (هو عالم موجود لأنه مدرك) وفيه يتصور باركلى الكائنات البشرية فى حوار مباشر مع العقل الالهى ــ أقول كان هذا الانتقال انتصارا يتصف بالبراعة على أقل تقدير لكن هذا المبدأ كان من الخروج على المألوف بحيث لم يؤخذ مأخذ الجد فكون باركلى قد استطاع ــ بقدر ما يتعلق الأمر بالخبرة الفعلية ــ أن يصور مبدأه على أنه مطابع لآراء العامة المألوفة لم يكن كافيا ــ كما يشعر الناس بحق ــ لأن يجعل مبدأه هو نفسه رأى العامة بالفعل ، فلم يرحب باركلى باعتباره نصير الادراك الفطرى السليم ، بل ان نقده للوك قد فقد كثيرا من تأثيره ، لأنه بدا وكأنه يؤدى على نحو مباشر الى موقف أمعن فى الخطأ من موقف لوك · أما فلسفة العلم عنده فقد كانت عندئذ أقل قبولا بكثير مما كان يقدر لها لو أنها عرضت فى أيامنا هذه فقد كان من المسلم به تسليما عاما فى ذلك الوقت ان النظريات الفيزيقية ليست غير امتداد للملاحظة العادية وانها تطلعنا على حقائق من نفس النوع الذى تطلعنا عليه الخبرة العادية ، أما اليوم فقد أصبح من العسير أن نعتقد ذلك لكن لعل الناس قد شعروا ــ وكانوا محقين كل الحق فيما يتصل بحالة باركلى بالذات ــ أن انكار ذلك هو بمثابة محاولة مقنعة لتقويض مكانة عالم فيزيقا · وليس هناك أدنى ريب فى أن باركلى كان يقصد الى ذلك لكن كان من سوء حظه أنه نفر من « النظرية العلمية الى العالم » حينما كانت هذه النظرة فى أوج سطوتها ·

أما طالب الفلسفة العادى الذى يدرس باركلى فى الوقت الحاضر ، فأغلب الظن أنه يعد باركلى رائدا لمذهب الظواهر ومن المؤكد أن من بين جوانب فلسفته اعتقاده ان الأشياء المادية ليست سوى ــ أو يمكن أن ترد أو تحلل الى ــ فئات أو مجموعات من الأفكار على حد تعبيره أو من المعطيات الحسية على حد تعبير من جاءوا بعده ، زد على ذلك أن هذه الفكرة كانت هى الرد الكلاسى على نظريات الادراك « غير المباشر » كما شرحها لوك فى صورتها الكلاسية ، الا أننا لا ينبغى أن ننسى أن باركلى ــ على خلاف المحدثين الذين جاءوا بعده ــ لم يكن ينصرف الى تحليل فلسفى محايد بارد ،

فقد كانت نزعته الظاهرية بين يديه دعوى أونطولوجية فى أساسها ، ذلك أنه كان يود عن رغبة أصيلة أن ينكر وجود المادة وأن ينكر أن هناك أشياء مادية حقا ، والحقيقة أنه كان سعيدا بأن يؤمن بأن الرأى العادى يمكن أن يحلل على ذلك النحو ، بحيث يتفق مع نظريته الأونطولوجية وأعتقد أنهما (أى الرأى العادى ونظريته الأونطولوجية) « ينبغى أن يفهما على أنهما متفقان ، الا أنه كان على وعى بأنه ميتافيزيقى وليس مجرد فيلسوف تحليلى وكان يقصد عامدا الى أن يكون كذلك على خلاف لوك ، الذى كاد ألا يفطن الى أنه فيلسوف ميتافيزيقى وليس مجرد فيلسوف تحليلى ·

لقد لاحظنا فيما تقدم ان المحاولة البارعة التى أراد بها باركلى توحيد الميتافيزيقا مع الادراك الفطرى السليم ، قد انتهت الى نتيجة فلسفية مزعزعة · ولعل هذا يرجع الى استخدامه كلمة « فكرة » على ذلك النحو الذى أخذه عن لوك فاستخدام باركلى لهذه الكلمة « كاستخدام لوك لها » لا يتصف بازدواج المعنى ، بقدر ما هو استخدام غير محدد تحديدا كافيا فهو حينما يود أن يبرز جانب الادراك الفطرى السليم فى مذهبه يؤكد أنه يعنى بكلمة « فكرة » الأشياء التى ندركها بالحس ، لكنه حينما يتحدث باعتباره فيلسوفا أونطولوجيا فيقرر أن « وجود الشىء هو كونه « مدركا » وان المادة غير موجودة فهو عندئذ يؤكد أن الأفكار لا توجد «الا فى العقل» · من هنا يبين اننا لو محصنا استخدامه لهذه الكلمة على نحو أدق واضفينا عليها مزيدا من التحديد ، لما فقدت نظريته كثيرا من قوليتها بقدر ما يصبح من المحال تقريبا بسطها ؛ فهى مزعزعة بقدر ما هى على أساس مائع فى هذه النقطة الرئيسية ·

المحـــاورات

ظهرت المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلانوس عـام ١٧١٣ وأعيد طبعها عام ١٧٢٥ · وقد طبعت المحاورات ضمن مؤلفات باركلى الأخرى فى طبعة « فريزر » فى مطبعة كلارينـدون بأكسفورد ونشرت عام ١٨٧٢ فى أربعة أجزاء وأعيدت هذه الطبعة مرة أخرى عـام ١٩٠١ وظهرت فى أربعة أجزاء وهى لنفس الناشر ثم طبعت طبعة ثالثة ظهرت فى ثلاثة أجزاء وتحتوى فقط على الكتب التى ظهرت فى حياة باركلى وقد أخرج هذه الطبعة « سامبسون » عام ١٨٩٧ وتحتوى على مقدمة عن تاريخ حياة الفيلسوف كتبها « بالفور » ، وظهرت طبعة رابعة للمحاورات ضمن مؤلفات باركلى فى طبعة جديدة هى طبعة « لوس وجيسون » ظهر الجزء الأول منها فى لندن عند الناشر نلسن عام ١٩٤٦ والثانى عام ١٩٤٩ والثالث عام ١٩٥٠ والرابع عام ١٩٥١ وظهرت كذلك طبعتان فرنسيتان للمحاورات على حدة ، نشر الأولى « لى مير » والثانية « لى روا » فى مجموعة مختارة من مؤلفات باركلى ·

عنوان المحاورات :

يقرأ الكتاب من عنوانه وللمحاورات عنوانان : عنوان رئيسى وعنوان فرعى اذا نحن ألممنا بهما ، فسيتضح لنا على الفور موضوع الكتاب ·

أما العنوان الرئيسى فهو كما نعلم « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس » وهيلاس وفيلونوس اسـمان لشـخصين وهميين اختارهما باركلى بعناية ، لأن الاسم الأول وهو « هيلاس » مشتق من الكلمة اليونانية « هوليه » وهى الهيولا أو المادة وبهذا سيكون هيلاس مرادفا للفيلسوف المادى الذى يدافع عن وجود المادة ويمثل وجهة النظر المضادة لفلسفة باركلى · أما وجهة نظر باركلى فقد جعل فيلونوس يعبر عنها وفيلونوس اشتق باركلى اسمه من المقطع الأول للكلمة « فيلوسوفيا » ، ومعناها فلسفة أو محبة الحكمة ، وسيكون فيلونوس بهذا هو الناطق بلسان باركلى المعبر عن وجهة نظر اللامادية · والكتاب ، كما هو واضح من عنوانه ، «محاورات» أى أنه كتب على طريقـة الحوار وهو أول كتاب يختار باركلى فيه هذه الطريقة للتعبير عن أفكاره الفلسـفية · وطريقة الحوار هى الطريقة

الأفلاطونية فى التأليف كما نعلم لكن اختيار باركلى لها فى هذا الكتاب لا يعنى مطلقا تأثره بأفلاطون فى فلسفته ، أما تأثره به فقد بدا فى كتاب آخر ألفه باركلى بعد ١٩ عاما من تأليفه المحاورات واختار فيه طريقة الحوار الأفلاطونى كذلك ونعنى به كتاب « ألسيفرون أو الفيلسوف الصغير » • ففى هذا الكتاب يتجاوز تأثر باركلى بأفلاطون مجرد الشكل ليصبح تأثرا بالفلسفة الأفلاطونية نفسها وقد ظهرت المحاورات الثلاث بعد كتاب « المبادىء » بأعوام ثلاثة وفى هذه الأعوام الثلاثة كان قد تسنى لباركلى أن يجمع كل الاعتراضات التى أثارها النقاد حول مذهبه فى الصورة التى ظهر بها فى المبادىء ، وتسنى له أن يصوغها فى صورة اعتراضات من هيلاس فى كتاب المحاورات ، بحيث نستطيع أن ننظر الى المحاورات من هذه الناحية على أنها أهم من كتاب المبادىء وأوفى منه فى توضيح فكر الفيلسوف ، هذا فضلا عن أن طريقة الحوار فى التأليف الفلسفى تمتاز عن طريقة العرض التقليدى للمذهب بسهولتها وبمخاطبتها للجماهير •

وللمحاورات ، بالاضافة الى عنوانها الرئيسى عنوان آخر فرعى وضعه باركلى تحت العنوان الأول على النحو التالى : « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس ــ الغرض منها ببساطة هو البرهنة على حقيقة المعرفة الانسانية وكمالها وعلى طبيعة النفس اللاجسمانية وعلى العناية المباشرة للألوهية ، وذلك لدحض آراء الشكاك والملاحدة وكذلك من أجل رسم منهج يجعل العلم أكثر سهولة ونفعا واختزالا » •

وهذا العنوان الفرعى يلخص الموضوعات الثلاثة الرئيسية التى تناولتها المحاورات وهى : البحث فى المعرفة الانسانية ــ البحث فى النفس وطبيعتها الروحانية ــ والبحث فى العناية الالهية ووجودها المباشر بيننا ، وسنشير الآن الى وجهة نظر باركلى فى كل من هذه الموضوعات ، اذ أن الماما بها سيجعلنا نحيط بموضوع الكتاب وسنعرف من خلال عرضنا لها أن باركلى كان يعتقد أن مذهبه اللامادى هو خير ما يمكن أن يقف فى وجه المذهب الشكى والمذهب الالحادى معا • أما ما ذكره باركلى بعد ذلك فى العنوان الفرعى من أنه كان يرمى أيضا من وراء كتابه المحاورات الى « رسم منهج فى العلوم يجعلها أكثر سهولة ونفعا واختزالا » فنلاحظ أننا لا نلتقى فى المحاورات بمنهج تفصيلى فى بحث العلوم ، على نحو ما نجد مثلا عند ديكارت فى كتاب « المقال فى المنهج » الذى كتبه « لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة فى العلوم » وأغلب الظن أن باركلى لم يذكر المنهج فى العنوان الفرعى الا لمجرد الجرى وراء فلاسفة المنهج من القرنين (السادس عشر والسابع عشر) ، ولكنه قد يكون قصد الى المنهج قصدا غير مباشر فاعتقاده بأن المادة تنحل فى نهاية الأمر الى مجموعة من

الاحساسات الذاتية وبأنه لا وجود لجوهر مادى وراء هذه الاحساسات ، ومن شأنه أن يوفر على العلماء مجهودا هائلا فى البحث عن طبائع خفية مستورة وهو بحث لا طائل تحته · وأيا ما يكون الأمر ، فسنكتفى الآن بعرض سريع لوجهة نظر باركلى حول كل من هذه الموضـــوعات الثلاثة الرئيسية التى اشتمل عليها العنوان الفرعى للمحاورات مستعينين فى هذا ببعض النصوص والمقتبسة من المحاورات ·

المعرفة الانسانية :

يقول الفلاسفة ان هناك جوهرا ماديا قائما خارج الذهن يسـمى « المادة » وأنه يختلف فى طبيعته عن مجموعة الاحساسات الذاتية التى تستطيع حواسنا أن تدركها من الأشياء ساعة ادراكنا لها ، لكن باركلى يعتقد أن ما يسمونه بالمادة ليس الا هذه الاحساسات وانه لا شىء وراءها يكون مقوما لهـا ، بل ويعتقد أن هذا الذى ينادى به الفلاسفة منافس لما يعتقده رجـل الشـارع بشأن المادة فيقول مثلا على لسان فيلونوس : « سـل البسـتانى لم يعتقد بوجود شجرة الكريز أمامه فى الحديقة ؟ وسينبئك أنه يعتقد بوجودها ، لأنه يراها ويلمسها وفى كلمة واحدة ، لأنه يدركها بحواسه ثم سـله بعد ذلك لم يعتقد أن شـجرة البرتقال غير موجودة ؟ فسينبئك أنه يعتقد بعدم وجودها ، لأنه لا يدركها وعلى ذلك ، فان الشىء الواقعى أو ما له وجود عنده هو ما يدركه بحواسه أما ما لا يدركه فيقول عنه انه غير موجود » (المحاورة الثالثة) ·

فالمادة عند باركلى مجموعة من الكيفيـات المحسوسة التى يتوقف وجودها على ادراك حواسنا لها بمعنى أن وجودها ليس قائما فى الخارج بل فينا · وفى المحاورة الأولى من المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس يقوم باركلى باستعراض خصائص المادة التى اصـطلح على تسميتهـا بالخصائص الثانوية من حرارة وبرودة وطعوم وأصوات وألوان وينتهى الى أن هذه الكيفيات ما هى الا احساساتنا الذاتية ، وانها لا تختلف فى طابعهـا الذاتى عن احساساتنا باللذة والألم ، ثم يستعرض بعد ذلك الخصائص الأخرى للمادة التى اصطلح على تسميتها بالخصائص الأولية والأساسية مثل الامتداد والشـكل والصلابة والحركة ويقرر بصددهـا ما سبق أن قرره فى الخصائص الثانوية ، وذلك لأن الخصائص الأولية لاتوجد الا مصاحبة للخصائص الثانوية ومتلبسة فما يجرى على هذه لابد أن ينسحب على تلك فلا مجال بعد هذا لافتراض « موضـوع » لكيفيات المادة تتقوم هذه الأخيرة به وهذا العرض لجميع خصائص المادة يستغرق المحاورة الأولى كلها تقريبا ·

ولكى ينفى باركلى أى مبرر لوجود جوهر مادى يكون مقوما للكيفيات نجده فى نهاية المحاورة الأولى وفى الثانية يتابع جميع الأقوال التى قال بها الماديون على لسان هيلاس ، ليثبتوا من ورائها أن المادة « شىء » ما وراء الاحساسات ثم يفندها واحدا بعد الآخر على لسان فيلونوس • فالمادة ليست شيئا ممتدا تحت الكيفيات لأن من بين هذه الكيفيات الامتداد ، وسيكون معنى قولنا ان المادة تمثل امتدادا تحت الكيفيات ، أنها تمثل امتدادا تحت الامتداد الجديد الذى افترضناه يحتاج الى امتداد آخر وهكذا الى غير نهاية ، ولكن تكون نموذجا لأفكارنا وصورنا ، لأن هذا النموذج الثابت غير المفكر لا يمكن أن يكون علة لأفكارنا وصورنا التى تتصف بالفاعلية والتعبير معا • وأخيرا ؛ فان المادة لا يمكن أن تكون أداة أو « مناسبة » يستخدمها الله فى تدبيره للكون لان الله ليس فى حاجة الى أدوات أو مناسبات ليمارس تدبيره للكون من خلالها ولان افتراض هذه الأدوات من شأنه أن يحد القدرة الالهية •

وينتهى فيلونوس بأن يقول لهيلاس : اننى لا أفهم معنى لما تزعمه من أن المادة تقف تحت الخصائص وتقومها ويردف متهكما : « ربما يكون هذا على النحو الذى تقف به الأرجل تحت جسم الانسان ! ؟ » •

فخلاصة رأى باركلى فى المعرفة الانسانية ان المادة التى قيل عنها انها تمثل موضوعا قائما فى الخارج تتجه ذواتنا الى معرفته ، ليست فى حقيقة الأمر الا مجموعة من احساساتنا وانفعالاتنا الذاتية وان الموضوع الحقيقى للمعرفة ليس شيئا خارجيا ، بل هو ذواتنا واحساساتنا وهذا هو ما عبر عنه باركلى فى مبدئه الشهير وهو : « الوجود ادراك » أو « وجود الشىء قائم فى ادراكه » •

وكان من الطبيعى أن يساء فهم هذا المبدأ ، اذ يؤدى فى ظاهره الى الغاء الوجود الواقعى المادى للأشياء • ويروى فى هذا الصدد أن باركلى توجه فى يوم عاصف مطير لزيارة أحد معاصريه وهو « سويفت » وظل يقرع باب مضيفه دون جدوى لأن « سويفت » أصر — بالرغم من سقوط الأمطار — على عدم فتح الباب له قائلا : « اذا كانت أقواله صحيحة فلم يصر على قرع الباب ؟ ألا يستطيع أن يدخل الى هنا والباب مقفل ؟ » مع أن باركلى لم يقصد مطلقا الغاء الوجود الواقعى للأشياء ولم يشك لحظة واحدة فى واقعية الأشياء المادية وأسىء فهم مبدئه كذلك ، فظن أنه يؤدى الى أن تصبح الذات خالقة لوجود الشىء مع أن الذات عند باركلى ليس من مهمتها خلق وجود الشىء أو الموضوع ، لأن الموضوع « معطى » أمام الذات وان هذه الأخيرة تجده أمامها ولا تملك — حتى لو أرادت — أن تمنع عن ادراكه ، وذلك لأن الانسان — كما يقول باركلى فى المحاورة الأولى — « يشعر

بأنه حر فى أن يقطف هذه الزهرة ، وبأن يقربها من أنفه ليشمها لكنه لا يشعر بحرية شمها ، لأنه لا يملك الامتناع عن شمها » وما ذلك الا لأن الذات منفعلة بما يقدمه أمامها العقل اللامتناهى من شتى الموضوعات ولان القوة الفعالة فى عملية الادراك عند باركلى ليست المادة وليست الفردية ، بل هى بالأحرى العقل اللامتناهى أو الله الذى يملك وحده أمر بسط هذه الأشياء المادية أمام الذات الفردية لتدركها ، كما يملك أمر منعهـا عن ادراكها ٠

ان كل ما قصد اليه باركلى من وراء مبدئه القائل بأن الوجود ادراك ، أنه لا معنى لقولنا ان شيئا ما موجود دون أن يكون هذا الشىء ملموسا أو مسموعا أو مرئيا ٠٠ الخ وان الحكم بوجود شىء يتضمن فى الوقت نفسه الحكم بادراكه ــ على الأقل ــ الحكم بقابليته للادراك بواسطة عقل ما لأى شخص مدرك أو قادر على الادراك ، أى أن غاية ما أراده باركلى هو تقرير علاقة بين الذات والشىء علاقة حضور أو عدم غياب من جانب الذات فى اللحظة التى تقرر فيها أن ثمة شيئا ما موجودا وهو أمر لا غبار عليه اطلاقا ويتفق معما نقول به اليوم حول ذاتية الادراك فى الأدب والعلم على السواء ٠

النفس الانسـانية :

اذا كان باركلى قد ألغى وجود الجوهر المادى (دون أن يؤدى هذا الى الغاء الوجود الواقعى للمادة فى معناها الشائع كما قدمنا) ، فقد وقف من النفس الانسانية موقفا مختلفا ، لأنه تصورها على أنها جوهر مقوم للاحساسات المتفرقة التى تتعاقب عليها وهو فى هذا يختلف عن ديفيد هيوم الذى نظر الى النفس على أنها ليست شيئا آخر الا هذه الاحساسات المتفرقة ٠ واذا كان باركلى قد حصر المعرفة الانسانية للمادة فى ضرب واحد من المعرفة هو المعرفة الحسية ، على نحو ما رأينا ، أو اهتم فى ميدان المادة بهذا اللون من المعرفة على حساب المعرفة العقلية ــ على عكس فيلسوف عقلى مثل كانط الذى اتجه الى ارجاع المادة لحظيرة الذات العاقلة بمقولاتها المختلفة ــ فقد رأى أن معرفة الانسان لنفسه تتم عن طريق ضرب آخر من المعرفة أطلق عليه اسم اللمحة العقلية ويقصد بها باركلى لونـا من الحدس العقلى التى تصـدر عنه ٠ وقد عرض لرأيه هذا حول النفس الانسانية وطبيعتها اللاجسمانية وطريقة ادراكنا لها فى المحاورة الثالثة ٠

العناية الالهية :

خشى باركلى أن يؤدى قوله بأن وجود الأشياء مرتبط بادراكها الى أن يصبح هذا الوجود وهميا خياليا ، وذلك لأنه قد يؤول على أنه موجود

مرهون بلحظة الادراك موقوت بها يتلاشى عندما يتوقف الانسان عن الادراك ، أو عندما يشيح بوجهه عن الموضوع المدرك وفى هذه الحالة سيصبح من العسير علينا أن نفرق بين موضوعات الحس وموضوعات المخيلة ، لأن هذه الأخيرة من اختراعات الذات وموقوتة هى الأخرى بلحظة التخيل ومن أجل أن يبعد هذا الظن عن الأذهان ، ذهب الى أن الأشياء فى الوقت الذى تكون غير مدركة بالذات الفردية أو بالعقل البشرى المتناهى ، تكون قائمة فى عقل آخر أكثر شمولا منه هو العقل اللامتناهى ولذلك ، فان الأشياء المادية الواقعية حاصلة عند باركلى على وجود دائم مستمر وذلك بفضل قيامها فى العقل الالهى ، الأمر الذى يؤدى فى الوقت نفسه الى أن يصبح الوجود الدائم الواقعى للأشياء على نحو ما نشاهدها فى الكون دليلا — عند باركلى — على وجود الله · والحق أن نقطة الخلاف بين باركلى والماديين قائمة فى هذا الموضع بالذات أى أنها ليست قائمة خلافا لما هو شائع — فى أنه ألغى وجود المادة بينما اعترفوا هم بوجودها ، اذ أننا رأينا أن كلا من باركلى والماديين قد اعترف بوجود المادة ، بل قائمة بالأحرى فى أن باركلى قد قرر أن الوجود الدائم الواقعى للأشياء راجع الى وجود اله أو عقل الهى يحيط بها ، بينما قرر الماديون أن المادة حاصلة على وجودها الدائم الواقعى من ذاتها وأنها ليست فى حاجة الى عقل الهى يضمن لوجودها الاستمرار ، هذا بالاضافة الى أن الماديين قد ذهبوا الى أن المادة ليست مستقلة فى وجودها عن العقل الالهى فقط ، بل هى مستقلة كذلك عن عقول البشر جميعهم واعتقاد الماديين هذا — فضلا عن أنه يكشف عن الحادهم الصريح — فهو يؤدى فى نظر باركلى الى الشك ، وذلك لأنه قائم على الاعتقاد بوجود شىء لا قبل لى بمعرفته يتضمن حكمين : الحكم بوجود شىء والحكم بجهلى بهذا الشىء وهذا هو الشك بعينه أما موقف باركلى فهو على النقيض من هذا ، لأن ارتباط وجود الأشياء عنده بعقل ما — سواء أكان هذا العقل البشرى أو العقل الالهى — مشبع باليقين ويقوم على الاعتقاد بأن فى وسع العقل البشرى أن يحصل على المعرفة ·

ووجود الأشياء فى العقل الالهى عند باركلى يجب ألا نؤوله أى تأويل قائم على مبدأ « وحدة الوجود » ، وعلينا كذلك أن نفرق بينه وبين قول ملبرانش فى أن الأشياء موجودة فى الله وأننا ندرك هذه الأشياء فى الله فتكون معرفتنا بها من قبيل « الرؤية فى الله » على نحو ما نجد ذلك عند ملبرانش (نقد باركلى ملبرانش فى المحاورة الثانية) · وذلك لأن كل ما قصد من ورائه باركلى فى قوله هذا هو أن الانسان يشعر بأنه ليس مصدرا للصور الحسية التى يدركها : « وذلك لأنى عندما أفتح عينى أو أذهى جيدا وقتما يحلو لى فلا أستطيع أن أحدد أى نوع من الصور سيؤثر فى · فلا بد أن تكون الأشياء قائمة فى عقل آخر وهذا العقل يريد

أن يعرضها على ... واستخلص من هذا كله أنه ثمة عقلا تصدر عنه مختلف الأحاسيس التى أشعر بها « المحاورة الثانية » هذا فضلا عن أن العقل الالهى عند باركلى هو مصدر وحدة الأشياء وهويتها ومصدر كل ما نشاهده فى العالم من تماسك ونظام .

★ ★ ★

وبعد ، فما هو الحكم الذى نستطيع أن نخرج به بعد قراءتنا للخطوط الرئيسية للمذهب اللامادى كما بدت من خلال عرضنا السابق لموضوعات كتاب المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس ، وهو أهم كتبه على الاطلاق ومن أهم ما أضافته الانسانية الى تراثها الفكرى عبر تاريخها الطويل . نريد أن نعرف الى أى حد كانت اللامادية عند باركلى مذهبا مثاليا على الرغم من أن الانسانية لم تقف كثيرا عند التفرقة بين اللامادية والمثالية واقترن اسم باركلى عندها بأنه واضع أسس المادية المثالية معا ؟ فالمثالية هى المذهب الذى يرجع الوجود الى الفكر ويلغى المادة لحساب الذات وقد نقد باركلى وجود الجوهر المادى فألغاه ، وربط وجود الأشياء بادراك ، ونظر الى كيفيات المادة على أنها تأثرات ذاتية وكل هذا يوحى — وقد أوحى بالفعل الى الكثيرين — بأن باركلى فيلسوف مثالى ، لكننا اذا نظرنا نظرة انصاف فى فلسفة باركلى وجدنا انه لم يقصد من وراء نقده للجوهر المادى الغاء وجود المادة ، بل قصد فقط حضور الذات فى عملية الادراك ووجدنا أيضا أن الكلمة الأخيرة فى عملية الادراك عنده ليست للذات المدركة ، لأن هذه الذات ليست هى التى تخلع الوجود على الأشياء ، بل تجد هذه الأشياء معطاة أمامها ولا تملك حتى الامتناع عن ادراكها . أما الكلمة الأخيرة فى الادراك فقد جعلها باركلى لصاحب الكلمة العليا لله جل شأنه ومن أجل هذا ، فان اللامادية عند باركلى تبدو أمامنا على انها مذهب روحانى دينى ، أكثر منها مذهبا مثاليا فى نظرية المعرفة وفى هذه النظرة الروحية الى الكون والمادة استحالت الأشياء المادية — بعد أن جردت من وجودها الجوهرى الكثيف المقوم للصفات — الى صور مدركة شفافة حاضرة أمام الذات على نحو تعكس معه فى غلالتها الرقيقة وجود الله وتكشف عن عنايته الدائمة بالكون . « **فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين** » .

لكن باركلى ، مع ذلك ، مسئول أمام الانسانية عن تأويل مذهبه تأويلا مثاليا فاهتمامه بالمعرفة الحسية على حساب المعرفة العقلية فى الادراك أحال الشىء المدرك الى مجرد تأثيرات ذاتية ، وترك الناس فى شك من أقواله فى واقعية الأشياء ، ثم ان اعتراف باركلى بواقعية الأشياء ألا يحمل معه بذور الشك حول صدق مبدئه القائل بأن الادراك ذاتى كله ؟ يبدو أن الادراك ليس ذاتيا كله بدليل قول باركلى نفسه فى أن الأشياء « معطاة »

أمام الشخص المدرك ويلتقى بها أمامه فى لحظة الادراك (وهو قول شديد الشبه بأقوال هوسرل فى الادراك) حقا ، ان باركلى جعل الله أو العقل اللامتناهى هو المصدر الوحيد لهذا « العطاء » فى الادراك ولكن أيا كان مصدره ، فان هذا من شأنه أن يؤدى الى أن الادراك ليس ذاتيا كله كما ذهب باركلى ، ثم ذهب بعد ذلك الى أن الادراك ذاتى كله فما علاقة الادراك بالوجود ؟ والى أى مدى نستطيع أن نزعم أن الادراك ما دام ذاتيا فالوجود هو الآخر لابد أن يكون ذاتيا ؟ من الأوفق أن نفرق بين الادراك والوجود كما فعلت المدرسة الواقعية الجديدة (النيو ريباليزم) ، لأننا نشعر أثناء فعل الادراك ــ حتى لو سلمنا بأنه ذاتى كله ــ بأن جزءا كبيرا أو صغيرا من وجود الشىء يقاومنا ويفرض نفسه علينا ، وذلك لأنه يتبع دائرة خاصة هى دائرة الوجود ولا شك ان هذه الدائرة تتعدى دائرة الادراك ومهما قيل فى هذه الدائرة الأخيرة ، فانها ستكون مستغرقة فى دائرة الوجود ولن تتطابق معها أبدا وصدق « صمويل الكسندر » اذ يقول : « ان نظرية المعرفة لا تمثل الا فصلا واحدا من باب الوجود .. » .

★ ★ ★

الرسائل الفلسفية

الكندى

٨٥٠ - ٨٦٦م

الكندى من الاثنى عشر عبقريا الذين هم من الطراز الأول فى الذكاء على رأى العالم الشهير (كاردانو) · وهو من أشهر فلاسفة الاسلام ومن الذين لهم فضل كبير على الفلسفة والرياضيات والفلك · وقد عرف فى الشرق والغرب بمؤسس الفلسفة الاسلامية ·

قال عنه ابن النديم : « انه فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم بأسرها ، وفيلسوف العرب · كان عالما بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق والنجوم وتاليف اللحون وطبائع الأعداد ·· » واعترف باكون Bacon بفضله فقال :

« ان الكندى والحسن بن الهيثم فى الصف الأول مع بطليموس » · وهو أول من حاز لقب فيلسوف الاسلام · اشتغل فى الهندسة وألف فيها · وقد جعل الشهرزوردى الوصف الأول للكندى كونه مهندسا ، واعترف بذلك البيهقى أيضا فقال : « كان الكندى مهندسا خائضا غمرات العلم ·· » · وكان العلماء فى القرن التاسع وما بعده يرجعون الى نظرياته ومؤلفاته عند القيام بأعمال بنائية كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات ·

* * *

حيـــاة الكنـــدى

أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن اسماعيل ابن الأشعث بن قيس الكندى ، وهو أول فيلسوف فى المسلمين والعرب ، ولذلك سمى بحق « فيلسوف العرب » · ذلك ان المباحث الفلسفية كانت فى القرنين الأول والثانى للهجرة فى أيدى النصارى من السريان الذين كان معظمهم أطباء استعان بهم الخلفاء فى العلاج ، وحثوهم على نقل الطب والفلسفة ، الى أن شاركهم فى النقل عن السريانية الكندى ، فكان أول فيلسوف عربى مسلم ·

وقد اعتنق جده الأشعث الاسلام ، وكان من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذهب الأشعث مع بعض الســـابقين من المسلمين الى

الكوفة واستقر بها · وكان والد الكندى اسحاق بن الصباح واليا على الكوفة فى خلافة المهدى والرشيد حيث ولد يعقوب فيلسوفنا ، فى أكبر الظن ، عام ١٨٥ هـ قبل وفاة الرشيد بعقد من الزمان ·

تعلم الكندى فى صباه ما يتعلمه أمثاله من المسلمين : فحفظ القرآن والنحو والأدب العربى وبعض الحساب ثم درس الفقه ، واطلع على علم الكلام ·· ذلك العلم الذى كان قد بدأ فى الظهور ، ودار البحث فيه على المعتقدات الدينية · ولكن يبدو أنه كان أكثر ميلا الى العلوم والفلسفة التى عكف عليها طول حياته ، وبخاصة بعد انتقاله الى بغداد ، فانصرف الى طلبها ·

ومما لا ريب فيه أنه يعرف اللغة السريانية التى نقل منها ، وألف بها بعض الرسائل ، أما معرفته باللغة اليونانية فموضع شك · وكان يراجع بعض الترجمات ، مثل تاسوعات أفلوطين التى نقلها ابن ناعمة الحمصى وأصلح الكندى الترجمة · وهذا الكتاب يعرف فى العربية باسم « الربوبية » أو « أثولوجيا » لأرسطو ، مع أنه لأفلوطين · وأدى هذا الخلط بين فلسفة أرسطو ومذهب أفلوطين الى كثير من الاضطراب عند الكنـــدى ·

وكان يترجم ويراجع ويلخص ، أو كما قال سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل فى كتابه « طبقات الأطباء والحكماء » ، الذى نقل عنه القفطى ، انه « ترجم من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب ، وبســط العويص » · وجعله ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء من حذاق المترجمين فقال : « حذاق المترجمين فى الاسلام أربعة : حنين بن اسحاق ، ويعقوب بن اسحاق الكندى ، وثابت بن قرة الحرانى ، وعمر بن فرخان الكندى » (٣٨) ·

واتصل ، وهو فى بغداد ، بالمأمون والمعتصم بالله وابنه أحمد الذى كان يؤدبه ، وكتب اليه بعض رسائله · يقول ابن نباتة : « وكانت دولة المعتصم تتجمل به وبمصنفاته ، وهى كثيرة جدا ، وكان عظيم المنزلة كذلك عند المتوكل ، وكانت له مكتبة تحفل بالكثير من المصنفات حتى سميت « بالكندية »، وتحوى شتى الفنون ، وبخاصة الهندسة والنجوم · وحسده بعض معاصريه ، ودسوا له عند المتوكل ، وأقنعوه بالاستيلاء على المكتبة »· وذكره الجاحظ فى كتاب البخلاء ، ورسم له صورة « كاريكاتورية » تبين أنه كان شديد البخل ، وشاعت عنه هذه الصورة ورسخت مع التاريخ ·

ويروى القفطى قصـــة ان صـــحت فانها تدل على رسوخ قدمه فى الطب ، وخلاصتها ان تاجرا غنيا كان يعيش الى جوار الكندى ، ولكنه كان

كثير الازدراء به والطعن عليه ، مدمنا تعكيره والاغراء به ، فعرضت لابنه سكتة فجأة · ودعا التاجر أشهر أطباء بغداد لعلاجه فعجزوا ··· الى أن قيل له : « أنت فى جوار فيلسوف زمانه ، وأعلم الناس بعلاج هذه العلة ، فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب » · وقد عالجه الكندى بالموسيقا حتى شفى ·

★ ★ ★

الكندى المؤلف

كان الكندى غزير التآليف ، وقد وصف الشهرزودى مقدارها بقوله : ان فهرست كتبه يزيد على دست كاغد ، أى اثنتى عشرة ورقة · وليس هذا القدر بمستغرب ، لان ثبت مؤلفاته التى أوردها ابن النديم يبلغ ٢٤١ كتابا ، موزعة على ١٧ نوعا · غير أن كثيرا من هذه المؤلفات تناولتها يد الضياع ، فلم يبق لدينا الا بضعة وخمسون كتابا ، طبع منها بالفعل أربعون ، ولا يزال الباقى مخطوطا ·

ولا ينبغى أن يروعنا هذا العدد الوفير ، لأن معظم هذه الكتب أشبه برسائل صغيرة الحجم ، لا يتجاوز عدد صفحات بعضها عشر صفحات ·

ولا يمكن تصوير الكندى المؤلف تصويرا دقيقا الا اذا توافرت بين أيدينا سائر مؤلفاته ، حتى يتسنى معرفة ما كتبه منها فى صدر حياته وما دونه فى آخر عمره وهو يودع الدنيا ، وعندئذ نتمكن من معرفة تطور فكره ، وانتقاله من مرحلة الترجمة والتقيد بالأصل الأجنبى الى مرتبة الفيلسوف على الحقيقة الذى يدلى بثمرة تفكيره ·

ومع ذلك ، ففى الذى نشر ما ينفى لمعرفة طريقة فيلسوفنا فى التأليف والكشف عن أسلوبه ·

ونحن نرى من النظر الى المطبوع (٣٩) من كتبه أنها موجهة اما للخليفة المعتصم ، واما لابنه أحمد الذى كان مؤدبا له ، واما لأحد اخوانه من العلماء ، وأما لأحد تلاميذه · لذلك اتسمت كلها باستهلال معين ينم عن طابع خاص بالكندى ، وتشتمل كل ديباجة على أمور ثلاثة : دعاء لطالب السؤال بالتوفيق ، وتلخيص لسؤاله يمكن أن يعد عنوان الرسالة ، ومنهجا للبحث والتأليف ·

انه دعاء الى الله بالتوفيق لطالب المعرفة ، لأن التأييد والتوفيق والعون من الله تعالى ، خالق كل شىء ، والمبدع المدبر الفاعل القادر · ويقع هذا الدعاء فى بداية الديباجة كما يجىء فى ختامها ، ولا تخلو منه

أية رسالة من رسائله مما ينم عن تأصل الروح الاسلامية فى قلب الكندى، وعلى عقيدته التى تؤمن بها ويخلص لها ويدعو اليها من حيث صلة الله بأعمال الانسان · ان الدارس لمؤلفات الكندى يستطيع من مجرد فحص الديباجة أن يقطع بصحة نسبة الكتاب الى الكندى ، ومعرفة الذى وجهت اليه الرسالة من جهة أخرى ، أهو الخليفة أم ابنه أم أحد الأصدقاء أم أحد التلاميذ ·

ان أقدم ثبت بمؤلفات الكندى هو ذلك الذى أورده ابن النديم ، وعنه أخذ القفطى وابن أبى أصيبعة · وقد رتبها ابن النديم تحت سبعة عشر صنفا ، أولها كتبه الفلسفيات وآخرها الأنواعيات · ويبلغ عدد مؤلفاته بحسب ابن النديم ٢٤١ ، وبحسب القفطى ، وبحسب ابن أبى أصيبعة ٢٨١ · وسنورد اثباتا للفائدة ثبت صاحب الفهرست بغير تعليق · ومن شاء الوقوف على كتب الكندى المنسوبة اليه ، فليرجع الى البحث الذى نشره الأب مكارثى سنة ١٦٩٢ ، وفيه أورد المصنفات المطبوعة والمخطوطة والمترجمة · وهو بحث أولى نافع يعد أساسا صالحا لمتابعة البحث ، وبخاصة لأنه ذكر المكتبات التى توجد فيها مخطوطات الكندى ·

كتبه الفلسفية :

١ ـ كتاب الفلسفة الأولى فيما دون (كذا بالأصل والصواب) الطبيعيات والتوحيد (٤٠) ·

٢ ـ كتاب الفلسفة الداخلية والمسائل المنطقية والمعتاصة وما فوق الطبيعيات ·

٣ ـ كتاب رسالته فى أنه لا تنال الفلسفة الا بعد الرياضيات ·

٤ ـ كتاب الحث على تعلم الفلسفة ·

٥ ـ كتاب ترتيب كتب أرسطو طاليس ·

٦ ـ كتاب فى قصد أرسطو طاليس فى المقولات اياها قصدا والموضوعة لها ·

٧ ـ كتاب مائية العلم وأقسامه ·

٨ ـ كتاب أقسام العلم الأنسى ·

٩ ـ كتاب رسالته الكبرى فى مقياسه العلمى ·

١٠ ـ كتاب رسالته بايجاز فى مقياسه العلمى ·

١١ ـ كتاب فى أن أفعال البارى جل اسمه كلها عدل لا جور فيها ·

١٢ ـ كتاب فى مائية الشىء الذى لا نهـــاية له وبأى نوع يقـــال الذى لا نهـــاية له ٠

١٣ ـ كتـــاب رسالته فى الابانة أنه لا يمكن أن يكون جـــرم العـــالم بلا نهاية وان ذلك انما هو فى القـــوة ٠

١٤ ـ كتاب فى الفاعلة والمعفعلة من الطبيعيات الأولى ٠

١٥ ـ كتاب فى عبارات الجوا مع الفكرية ٠

١٦ ـ كتاب مسائل سئل عنها ى منفعة الرياضيات ٠

١٧ ـ كتاب فى بحث قـــول المـــدعى ان الأشـــياء الطبيعية تفعل فعـــلا واحـــدا بايجاز الخلقـــة ٠

١٨ ـ كتاب فى أوائل الأشـــياء المحسوسة ٠

١٩ ـ رسالته فى الترفق فى الصـــناعات ٠

٢٠ ـ رسالته فى رســـم رقاع الى الخلفـــاء والوزراء ٠

٢١ ـ رسالته فى قســـمة القـــانون ٠

٢٢ ـ رسالته فى مائية العقل والابانة عنه ٠

٢ ـ كتبه المنطقيـــة :

٢٣ ـ كتـــاب رسالته فى المدخل المنطقى باستيفاء القـــول فيه ٠

٢٤ ـ كتاب رسالته فى المدخل المنطقى باختصار وايجـــاز ٠

٢٥ ـ كتاب رسالة فى المقـــولات العشر ٠

٢٦ ـ كتـــاب رســـالته فى الابانة عن قـــول بطليمـــوس فى أول كتـــابه المجسطى عن قول أرسطوطاليس فى أنالوطيقا ٠

٢٧ ـ كتاب رسالته فى الاحترلس من خدع السفسطائيين ٠

٢٨ ـ كتاب رسالته بايجاز واختصار فى البرهان المنطقى ٠

٢٩ ـ كتاب رسالته فى الأصوات الخمسة ٠

٣٠ ـ كتاب رسالته فى ســـمع الكيـــان ٠

٣ ـ كتبـــه الحســـابيات :

٣١ ـ كتاب رسالته فى عمل آلة مخروطة الجـــوامع ٠

٣٢ ـ كتاب رسالته فى المدخل الى الأرثماطيقى خمس مقالات ٠

٣٣ ـ كتاب رسالته فى استعمال الحساب الهندى أربع مقالات ٠

٣٤ ـ كتاب رسالته فى الابانة عن الأعداد التى ذكرها فلاطن فى كتاب السياسة ٠

٣٥ ـ كتاب رسالته فى تأليف الأعداد ٠

٣٦ ـ كتاب رسالته فى التوحيد من جهة العدد ٠

٣٧ ـ كتاب رسالته فى استخراج الخبىء والضمير ٠

٣٨ ـ كتاب رسالته فى الزجر والفأل من جهة العدد ٠

٣٩ ـ كتاب رسالته فى الخطوط والضرب بعدد الشعير ٠

٤٠ ـ كتاب رسالته فى الكمية المضافة ٠

٤١ ـ كتاب رسالته فى النسب الزمانية ٠

٤٢ ـ كتاب رسالته فى الحيل العددية وعلم أضماره ٠

٤ ـ كتبه الكريات :

٤٣ ـ كتاب رسالته فى فى أن العالم وكل ما فيه كرى الشكل ٠

٤٤ ـ كتاب رسالته فى الابانة عن أنه ليس شىء من العناصر الأولى والجرم الأقصى غير كرى ٠

٤٥ ـ كتاب رسالته فى الكرة أعظم الأشكال الجرمية والدائرة أعظم من الأشكال البسيطة ٠

٤٦ ـ كتاب رسالته فى أن سطح ماء البحر كروى ٠

٤٧ ـ كتاب رسالته فى تسطيح الكرة ٠

٤٨ ـ كتاب رسالته فى الكريات ٠

٤٩ ـ كتاب رسالته فى عمل السمت على كرة ٠

٥٠ ـ كتاب رسالته فى عمل الحلق الست واستعمالها ٠

٥ ـ كتبه الموسيقيات :

٥١ ـ كتاب رسالته الكبرى فى التأليف ٠

٥٢ ـ كتاب رسالته فى تأليف النغم الدالة على طبائع الأشخاص العالية وتشابه التأليف ٠

٥٣ ـ كتـاب رسالته فى الايقـاع ٠

٥٤ ـ كتاب رسالته فى المدخل الى صناعة الموسيقا ٠

٥٥ ـ كتاب رسالته فى خبر صناعة التأليف ٠

٥٦ ـ كتاب رسالته فى صناعة الشعر ٠

٥٧ ـ كتاب رسالته فى الأخبار عن صناعة الموسيقا ٠

٦ ـ كتبـه النجـوميات :

٥٨ ـ كتاب رسالته فى أن رؤية الهلال لا تضبط بالحقيقة وانما القـول فيهـا بالتقـريب ٠

٥٩ ـ كتاب رسالته فى مسائل سئل عنها من أحوال الكواكب ٠

٦٠ ـ كتاب رسالته فى جواب مسائل طبيعية فى كيفيات نجومية ٠

٦١ ـ كتاب رسالته فى مطـرح الشـعاع ٠

٦٢ ـ كتاب رسالته فى الفصـلين ٠

٦٣ ـ كتـاب رسالته فيما ينسب اليه كل بلد من البلدان الى برج من البروج الكوكب من الكواكب ٠

٦٤ ـ كتاب رسالته فيما سئل عنه من شرح ما عرض له الاختـلاف فى صـور المواليد ٠

٦٥ ـ كتاب رسالته فيما حكى من أعمار الناس فى الزمن القديم وخـلافها فى هـذا الزمن ٠

٦٦ ـ كتـاب رسـالته فى تصحيح عمـل نمو دارات المواليـد والهيـلاج والكتخـداه ٠

٦٧ ـ كتاب رسالته فى ايضاح علة رجـوع الكواكب ٠

٦٨ ـ كتـاب رسالته فى الشـعاعات ٠

٦٩ ـ كتاب رسالته فى سرعة ما يرى من حركة الكواكب اذا كانت فى الأفق وابطائها كلما علت ٠

٧٠ ـ كتـاب رسـالته فى الابانة عن الاختـلاف الذى فى الأشـخاص العـالية ٠

٧١ ـ كتابرسالته فى فصل ما بين التيسيير وعمل الشعع ٠

٧٢ ـ كتاب رسلته فى علل الأوضاع النجومية ٠
٧٣ ـ كتاب رسالته المنسوبة الى الأشخاص العالية المسماة سعادة ونحاسة ٠
٧٤ ـ كتاب رسالته فى علل القوى المنسوبة الى الأشخاص العالية الدالة على المطر (موجود باللاتينية ومطبوع ، مفقود فى العربية)٠
٧٥ ـ كتاب رسالته فى علل أحداث الجو ٠
٧٦ ـ كتاب رسالته فى العلة التى لها يكون بعض المواضع لا تمطر ٠

٧ ـ كتبه الهندسيات :

٧٧ ـ كتاب رسالته فى أغراض اقليدس ٠
٧٨ ـ كتاب رسالته فى اصلاح كتاب اقليدس ٠
٧٩ ـ كتاب رسالته فى اختلاف المناظر ٠
٨٠ ـ كتاب رسالته فيما نسب القدماء كل واحد من المجسماه الخمسة الى العناصر ٠
٨١ ـ كتاب رسالته فى تقريب قول أرشميدس فى قدر قطر الدائرة من من محيطها ٠
٨٢ ـ كتاب رسالته فى تقريب وتر الدائرة ٠
٨٣ ـ كتاب رسالته فى عمل شكل الموسطين ٠
٨٤ ـ كتاب رسالته فى تقريب وتر التسع ٠
٨٥ ـ كتاب رسالته فى فى مساحة ايوان ٠
٨٦ ـ كتاب رسالته فى تقسيم المثلث والمربع وعملها ٠
٨٧ ـ كتاب رسالته فى كيفية عمل دائرة مساوية لسطح اسطوانة مفروضة ٠
٨٨ ـ كتاب رسالة فى شروق الكواكب وغروبها بالهندسة ٠
٨٩ ـ كتاب رسالته فى قسمة الدائرة ثلاثة أقسام ٠
٩٠ ـ كتاب رسالته فى اصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة من كتب اقليدس ٠
٩١ ـ كتاب رسالته فى البراهين المساحية لما يعرض من الحسابات وفلكية ٠

٩٢ ـ كتاب رسالته فى تصحيح قول أبسقلاوس فى المطالع ٠
٩٣ ـ كتاب رسالته فى اختلاف مناظر المرآة ٠
٩٤ ـ كتاب رسالته فى صنعة الاسطرلاب بالهندسة ٠
٩٥ ـ كتاب رسالته فى استخراج خط نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة ٠
٩٦ ـ كتاب رسالته فى عمل الرخامة بالهندسة ٠
٩٧ ـ كتاب رسالته فى استخراج الساعات على تصف كرة بالهندسة ٠
٩٨ ـ كتاب رسالته فى السوانح ٠
٩٩ ـ كتاب رسالته فى عمل الساعات على صفيحة تنصب على السطح الموازى للأفق خير من غيرهـــا ٠

٨ ـ كتبـــه الفلـــكيات :

١٠٠ ـ كتاب فى امتناع وجود مساحة الفلك الأقصى المدبر للأفلاك ٠
١٠١ ـ كتاب رسالته فى ظاهريات الفلك ٠
١٠٢ ـ كتاب رسالته فى أن طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر الأربعة وأنه طبيعة خامسة ٠
١٠٣ ـ كتاب رسالته فى العالم الأقصى ٠
١٠٤ ـ كتاب رسالته فى سجود الجرم الأقصى لباريه ٠
١٠٥ ـ كتاب رسالته فى الرد على المنانية فى عشر المسائل فى موضوعات الفـــلك ٠
١٠٦ ـ كتاب رسالته فى الصـــور ٠
١٠٧ ـ كتاب رسالته فى أنه لا يمكن أن يكون جرم العالم بلا نهاية ٠
١٠٨ ـ كتاب رسالته فى المنـاظر الفلـكية ٠
١٠٩ ـ كتاب رسالته فى امتناع الجرم الأقصى من الاستحالة ٠
١١٠ ـ كتاب رسالته فى صناعة بطليموس الفلكية ٠
١١١ ـ كتاب رسالته فى تناهى جرم العـالم ٠
١١٢ ـ كتاب رسالته فى المعطيـــات ٠
١١٣ ـ كتاب رسالته فى مائية الفلك واللون اللازوردى المحسوس من جهة السماء ٠
١١٤ ـ كتاب رسالته فى مائية الجرم الحامل بطباعه للألوان من العناصر الأربعة ٠

١١٥ ـ كتاب رسالته فى البرهان على الجسم الساتر ومائية الأضواء والظلام ٠

٩ ـ كتبه الطبيات :

١١٦ ـ كتاب رسالته فى الطب البقراطى ٠
١١٧ ـ كتاب رسالته فى الغذاء والدواء المهلك ٠
١١٨ ـ كتاب رسالته فى الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء ٠
١١٩ ـ كتاب رسالته فى الأدوية المشفية من الروائح المؤذية ٠
١٢٠ ـ كتاب رسالته فى كيفية اسهال الأدوية وانجذاب الأخلاط ٠
١٢١ ـ كتاب رسالته فى علة نفث الدم ٠
١٢٢ ـ كتاب رسالته فى أشفية السموم ٠
١٢٣ ـ كتاب رسالته فى تدبير الأصحاء ٠
١٢٤ ـ كتاب رسالته فى بحارين الأمراض الحادة ٠
١٢٥ ـ كتاب رسالته فى نفس العضو الرئيسى من الانسان والابانة عن الألبـاب ٠
١٢٦ ـ كتاب رسالته فى كيفية الدمـاغ ٠
١٢٧ ـ كتاب رسالته فى علة الجذام وأشفيته ٠
١٢٨ ـ كتاب رسالته فى عضة الكلب والكلب ٠
١٢٩ ـ كتاب رسالته فى الأعراض الحادثة من البلغم وعلة موت الفجأة ٠
١٣٠ ـ كتاب رسالته فى وجع المعدة والنقرس ٠
١٣١ ـ كتاب رسالته الى رجل فى علة شكاها اليه ٠
١٣٢ ـ كتاب رسالته فى أقسام الحميات ٠
١٣٣ ـ كتاب رسالته فى علاج الطحال الجاسى من الأعراض السوداوية ٠
١٣٤ ـ كتاب رسالته فى أجساد الحيوان اذا فسدت ٠
١٣٥ ـ كتاب رسالته فى قدر منفعة صناعة الطب ٠
١٣٦ ـ كتاب رسالته فى صنعة أطعمة من غير عناصرها ٠
١٣٧ ـ كتاب رسالته فى تغير الأطعمة ٠

١٠ ـ كتبه الاحكاميات :

١٣٨ ـ كتاب رسالته فى تقدمة المعرفة بالاستدلال بالأشخاص العالية على المسائل ٠

١٣٩ ـ كتاب رسالة الأولى والثانية والثالثة الى صناعة الأحكام بتقاسيم ·
١٤٠ ـ كتاب رسالته فى مدخل الأحكام على المسائـــل ·
١٤١ ـ كتاب رسالته فى المسائـــل ·
١٤٢ ـ كتاب رسالته فى دلائل التحسين فى برج السرطان ·
١٤٣ ـ كتاب رسالته فى قدر منفعة الاختيارات ·
١٤٤ ـ كتاب رسالته فى قدر منفعة الأحكام ومن الرجل المسمى منجمه باستحقاق ·
١٤٥ ـ كتاب رسالته المختصرة فى حدود المواليد ·
١٤٦ ـ كتاب رسالته فى تحويل سنى المواليد ·
١٤٧ ـ كتاب رسالته فى الاستدلال بالكسوفات على الحوادث ·

١١ ـ كتبـــه الجدليـــات :

١٤٨ ـ كتاب رسالته فى الرد على المنانية ·
١٤٩ ـ كتاب رسالته فى الرد على الثنويـــة ·
١٥٠ ـ كتاب رسالته فى الاحتراس من خدع السفسطائيين ·
١٥١ ـ كتاب رسالته فى نقض مسائل الملحدين ·
١٥٢ ـ كتاب رسالته فى تثبيت الرسل عليهم السلام ·
١٥٣ ـ كتاب رسالته فى الفاعل الحق الأول التام والفاعل الثانى بالمجاز·
١٥٤ ـ كتاب رسالته فى الاستطاعة وزمان كونها ·
١٥٥ ـ كتاب رسالته فى الرد على من زعم أن للأجرام فى هويتها فى الجو توقفات ·
١٥٦ ـ كتاب رسالته فى بطلان قول من زعم أن جزءا لا يتجزأ ·
١٥٧ ـ كتاب رسالته فى أن الجسم فى أول ابداعه لا ساكن ولا متحرك ظن باطـــل ·
١٥٨ ـ كتاب رسالته فى التوحيد بتفسيرات ·
١٥٩ ـ كتاب رسالته فى بطلان قول من زعم أن بين الحركة الطبيعية والعرضية سكونا ·
١٦٠ ـ كتاب رسالته فى جواهر الأجسام ·
١٦١ ـ كتاب رسالته فى أوائل الجسم ·
١٦٢ ـ كتاب رسالته فى افتراق الملل فى التوحيـــد وأنهم مجمعون على التوحيد وكل قد خالف صاحبه ·

١٦٣ ـ كتاب رسالته فى التمجيد ٠
١٦٤ ـ كتاب رسالته فى البرهـــان ٠

١٢ ـ كتبـــه النفسيـــات :

١٦٥ ـ كتاب رسالته فى أن النفس جوهر بســيط غير دائر مؤثر فى الأجسام ٠
١٦٦ ـ كتاب رسالته فى ماثية الانسان والعضو الرئيسى منه ٠
١٦٧ ـ كتاب رسالته فى خبر اجتماع الفلاسفة على الرموز العشيقة ٠
١٦٨ ـ كتاب رسالته فيما للنفس ذكره وهى فى عالم العقل قبل كونها فى عالم الحس ٠
١٦٩ ـ كتاب رسالته فى علة النوم والرؤيا وما ترمز به النفس ٠

١٣ ـ كتبه السياسيات :

١٧٠ ـ كتاب رسالته الكبرى فى السياســة ٠
١٧١ ـ كتاب رسالته فى تسهيل سبل الفضائل ٠
١٧٢ ـ كتاب رسالته فى دفع الأحزان ٠
١٧٣ ـ كتاب رسالته فى سياسة العــامة ٠
١٧٤ ـ كتاب رسالته فى الأخـــلاق ٠
١٧٥ ـ كتاب رسالته فى التنبيه على الفضائل ٠
١٧٦ ـ كتاب رسالته فى خبر فضيلة سقراط ٠
١٧٧ ـ كتاب رسالته فى ألفــاظ سقراط ٠
١٧٨ ـ كتاب رسالته فى محاورة جرت بين سقراط وأرشيجانس ٠
١٧٩ ـ كتاب رسالته فى خبر موت ســقراط ٠
١٨٠ ـ كتاب رسالته فيما جرى بين سقراط والحرانيين ٠
١٨١ ـ كتاب رسالته فى خبر العقــل ٠

١٤ ـ كتبـــه الأحداثيـــات :

١٨٢ ـ كتاب رسالته فى الابانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد فى الكائنــات الفــاسدات ٠

١٨٣ ـ كتاب رسالته فى العلة التى لها قيل ان النار والهواء والماء والأرض عناصر لجميع الكائنات الفاسدة وهى وغيرها يستحيل بعضها الى بعض ٠

١٨٤ ـ كتاب رسالته فى اختلاف الأزمنة التى تظهر فيها صور الكيفيات الأربع الأولى ٠

١٨٥ ـ كتاب رسالته فى النسب الزمانية ٠

١٨٦ ـ كتاب رسالته فى علة اختلاف أنواع السنة ٠

١٨٧ ـ كتاب رسالته فى مائية الزمان والحين والدهر ٠

١٨٨ ـ كتاب رسالته فى العلة التى لها يبرد أعلى الجو ويسخن ما قرب الأرض ٠

١٨٩ ـ كتاب رسالته فى أحداث الجو ٠

١٩٠ ـ كتاب رسالته فى الأثر الذى يظهر فى الجو ويسمى كوكبا ٠

١٩١ ـ كتاب رسالته فى كوكب الذؤابة ٠

١٩٢ ـ كتاب رسالته فى الكوكب الذى ظهر ورصده أياما حتى اضمحل ٠

١٩٣ ـ كتاب رسالته فى علة البرد المسمى برد العجوز ٠

١٩٤ ـ كتاب رسالته فى علة كون الضباب والأسباب المحدثة له فى أوقاته ٠

١٩٥ ـ كتاب رسالته فيما رصد من الأثر العظيم فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين للهجرة ٠

١٥ ـ كتبه الأبعاديات :

١٩٦ ـ كتاب رسالته فى أبعاد مسافات الأقاليم ٠

١٩٧ ـ كتاب رسالته فى المساكن ٠

١٩٨ ـ كتاب رسالته البكرى فى الربع المسكون ٠

١٩٩ ـ كتاب رسالته فى أخبار أبعاد الأجرام ٠

٢٠٠ ـ كتاب رسالته فى استخراج بعد مركز القمر من الأرض ٠

٢٠١ ـ كتاب رسالته فى استخراج آلة وعملها يستخرج لها أبعاد الأجرام ٠

٢٠٢ ـ كتاب رسالته فى عمل آلة يعرف بها بعد المعاينات ٠

٢٠٣ ـ كتاب رسالته فى معرفة أبعاد قلل الجبال ٠

١٦ ـ كتبـــه التقديميـــات :

٢٠٤ ـ كتاب رسالته فى أسرار تقدمة المعرفـــة ٠
٢٠٥ ـ كتاب رسالته فى تقدمة المعرفة بالأحداث ٠
٢٠٦ ـ كتاب رسالته فى تقدمة الخبر ٠
٢٠٧ ـ كتاب رسالته فى تقدمة الأخبـــار ٠
٢٠٨ ـ كتاب رسالته فى تقدمـة المعرفـة فى الاسـتدلال بالأشـخاص العلويـــة ٠

١٧ ـ كتبـــه الأنواعيـــات :

٢٠٩ ـ كتاب رسالته فى أنواع الجواهر الثمينة وغيرها ٠
٢١٠ ـ كتاب رسالته فى أنواع الحجارة ٠
٢١١ ـ كتاب رسالته فى تلويـح الزجاج ٠
٢١٢ ـ كتاب رسالته فيما يصبغ فيعطى لونـــا ٠
٢١٣ ـ كتاب رسالته فى أنواع السيوف والحديد ٠
٢١٤ ـ كتاب رسالته فيما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تنثلم ولا تكل ٠
٢١٥ ـ كتاب رسالته فى الطائر الانسى ٠
٢١٦ ـ كتاب رسالته فى تمويـخ الحمام ٠
٢١٧ ـ كتاب رسالته فى الطرح على البيض ٠
٢١٨ ـ كتاب رسالته فى أنواع النحل وكرائمه ٠
٢١٩ ـ كتاب رسالته فى غمل القمقم النبـاح ٠
٢٢٠ ـ كتاب رسالته فى العطر وأنواعـه ٠
٢٢١ ـ كتاب رسالته فى كيمياء العـطر ٠
٢٢٢ ـ كتاب رسالته فى صنعة أطعمة من غير عناصرهـــا ٠
٢٢٣ ـ كتاب رسالته فى الأسماء المعماة ٠
٢٢٤ ـ كتاب رسالته فى التنبيه على خدع الكيميائيين ٠
٢٢٥ ـ كتاب رسالته فى أركان الحيل ٠
٢٢٦ ـ كتاب رسالته فى الكبيرة فى الأجرام الغائصة فى الماء ٠
٢٢٧ ـ كتاب رسالته فى الأثرين المحسوسين فى الماء ٠

٢٢٨ ـ كتاب رسالته فى المد والجزر ٠
٢٢٩ ـ كتاب رسالته فى الأجرام الهابطة ٠
٢٣٠ ـ كتاب رسالته فى عمل المرايا الهابطة ٠
٢٣١ ـ كتاب رسالته فى سمعار المرآة ٠
٢٣٢ ـ كتاب رسالته فى اللفظ وهى ثلاثة أجزاء أول وثان وثالث ٠
٢٣٣ ـ كتاب رسالته فى الحشرات مصور عطاردى ٠
٢٣٤ ـ كتاب رسالته فى علة حدوث الرياح فى باطن الأرض المحدثة كثيرا من الزلازل والخسوف ٠
٢٣٥ ـ كتاب رسالته فى جواب أربع عشر مسألة طبيعيات سأله عنه بعض اخوانه ٠
٢٣٦ ـ كتاب رسالته فى جواب ثلاث مسائل سئل عنها ٠
٢٣٧ ـ كتاب رسالته فى قصة المتفلسف بالسكوت ٠
٢٣٨ ـ كتاب رسالته فى علة الرعد والبرق والثلج والبرد والصواعق والمطر ٠
٢٣٩ ـ كتاب رسالته فى بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم ٠
٢٤٠ ـ كتاب رسالته فى الوفاء ٠
٢٤١ ـ كتاب رسالته فى الابانة أن الاختلاف الذى فى الأشخاص العالية ليس علة الكيفيات الأولى كما هى علة ذلك فى التى تحت الكون والفساد ٠

★ ★ ★

لوردنا الثبت كاملا ليتضح لنا تنوع مؤلفاته ووفرتها وشمولها جميع أنواع المعرفة ٠ ولسنا ندرى على التحقيق من الذى رتب هذا التصنيف الى سبعة عشر بابا ، غير أنه يلوح فى أكبر الظن أنه من عمل ابن النديم نفسه الذى كان وراقا ، أى صاحب مكتبة كبيرة ، وألف الفهرست وصنف فيه أسماء المؤلفين فى كل فن مع ذكر مصنفات كل واحد منهم مما كان يبيعه بالفعل ، ويوجد فى مكتبته ، التى احتوت سائر ما كان متداولا فى زمانه من كتب ٠ ولقد اعترف المتأخرون له بهذه المزية ، فاتخذوه مرجعا لسير الحكماء والأدباء والعلماء ٠ وهذا صاحب لسان الميزان يقول فى ترجمة الكندى ، انه : « كان واحد عصره فى معرفة العلوم القديمة وصنف فى المنطق والحساب والأرثماطيقى والموسيقا والنجوم ٠ وقد سرد ابن النديم فى الفهرست أسماء تصانيفه فبلغت مائتين وبضعة وثلاثين تصنيفا » ٠

فلسفة الكندى من خلال رسائله

ظهر من السريان من نقل أطرافا من العلوم اليونانيـة التى كانت شائعة فى العصر الهيلينستى والاسكندرانى · غير أن الكندى تبحر فى جميع العلوم ، وأحاط بجميع المعارف ، وأضاف الى ذلك رأى الاسلام ، فكان بحق فيلسوف العرب ، الذى أدمج التراث الفلسفى اليونانى فى الثقافة الإسلامية فكانت بذلك الفلسفة هى النظرة الشاملة التى تربط بين جميع العلوم · وهو الذى سن للعرب سـنة الاعتماد على العلوم ليتم التفلسف بعد ذلك ، كما هى الحال عند الفارابى وابن سينا وابن رشد ، الذين كانوا علماء أولا ثم فلاسفة ثانيا ·

والفلسفة عنده هى طلب الحق · وقد ذكر فى رسـالة الحدود والرسـوم تعريفات كثيرة للفلسفة بحسب رأى القدماء من اليونانيين ، الا أنه فى رسالته الى المأتصم بالله فى الفلسفة الأولى يقول : « أن أعلى الصناعات الانسانية منزلة وأشرفها مرتبة ، صناعة الفلسفة التى حدها : علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان ، لأن غرض الفيلسوف فى علمه اصابة الحق ، وفى عمله العمل بالحق ·· وأشرف الفلسفة وأعلاها مرتبة الفلسفة الأولى : أعنى علم الحق الأول الذى هو علة كل حق » ·

واصطلاح « الحق » عند الكندى هو المحور الذى تدور عليه فلسفته · فالفلسفة تطلب حقائق الأشياء هذه الحقائق الثابتة الخالدة الأبدية المتعالية عن علم المحسوسات · « والحق الأول » هو الله ، وهذا هو الاصطلاح الذى يدل به على الله فى هذه الرسالة ، حيث يقول : « وعلة الوحدة فى الموحدات هو الحق الأول » · ويقول بعد ذلك : « فالواحد الحق اذن هو الأول المبدع الممسك كل ما أبدع » ·

فالغـاية من الفلسفة معرفة الحق الأول ، المبدع · ولذلك كانت الالهيات ــ كما ذهب أرسطو من قبل ــ أشرف جزء من الفلسفة التى تسمى بالعلم الالهى · غير أن الكندى يفترق عن أرسطو الذى يجعل الله « المحرك الذى لا يتحرك » · أما اله الكنـدى فقد تأثر بالأفلاطونيـة المزوجـة بالاسلام ··· فالقول بالواحد ، وبالأول مأخوذ من الأفلاطونية ، والقول بالابداع مستمد من الاسلام ، كما سنفصل ذلك فيما بعد ·

وتنقسم الفلسـفة قسمين : نظرية هى الطبيعيات والرياضيات وما بعد الطبيعة ، وعملية تشمل الأخلاق وتدبير المنزل والسياسة · وينقل

ابن نباته عن الكندى أن « علم الفلسفة ثلاثة : فأولها العلم الرياضى فى التعليم وهو أوسطها فى الطبع ، والثانى علم الطبيعيات وهو أسفلها فى الطبع ، والثالث علم الربوبية وهو أعلاها فى الطبع » · وهذا الترتيب الذى يجعل الرياضيات أول العلوم الفلسفية فى التعليم ، هو الذى أثر عن بطليموس ، ونقله الكندى ، وشاع منذ ذلك الحين ان الرياضيات هى « التعليم الأول » وظل تعريف الفلسفة وتقسيمها على هذا النحو متبعا بعد ذلك فى الفلسفة الاسلامية ، والفضـــل للكندى فى توجيههـــا هذه الوجهة ·

والفلسفة الأولى هى علم « العلة لأولى » ، اذ جميع باقى الفلسفة منطو فى علمها · والمنهج المتبع فى الفلسفة الأولى ، أو الميتافيزيقا ، هو منطق البرهان · وظل المنطق منهج الفلسفة وآلتها التى يستخدمها فلاسفة العرب فى طلب الحقيقة ·

الفلسفة والدين

والكندى أول من وجه الفلسفة الاسلامية وجهة التوفيق بينها وبين الدين · وله فى ذلك موقفان : الأول لا يميز بينهما اذ كلاهما يطلب الحق ، والثانى يجعل مرتبة الدين أسمى من الفلسفة · ولكن الدين يعتمد على الوحى ، على حين تستند الفلسفة الى العقل · ومنهج الدين هو الايمان بما جاء به الرسل ، وطريق الفلسفة هو المنطق · ولذلك لم يثق رجال الدين بالفلسفة والمشتغلين بها ، واتهموا الفلاسفة بالكفر ·

واضطر الكندى الى أن يرد اتهام رجال الدين بأنهم انما يذبون عن « كراسيهم المزورة التى نصبوها عن غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين ··· لأن من تجر بشىء باعه ، ومن باع شيئا لم يكن له · فمن تجر بالدين لم يكن له دين ، ويحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها وسماها كفرا · لأن فى علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة ، وجملة علم كل نافع والسبيل اليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه · واقتناء هذه جميعا هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه · فان الرسل الصادقة صلوات الله عليها انما أتت بربوبية الله وحده ، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتهـــا وايثارها » ·

فالكندى يوفق بين الدين والفلسفة لأمور ثلاثة : أولها أن علم الربوبية جزء من الفلسفة ، والثانى أن حقائق الفلسفة وكلام الرسل متوافقان ، والثالث أن البحث فيما جاء به الشرع واجب بالعقل .

ولكنه فى رسالته المسماة « فى كمية كتب أرسطو طاليس » يميز تمييزا حاسما بين الدين والفلسفة .. فالفلسفة من العلوم الانسانية التى تحصل « بطلب وتكلف البشر وحيلهم المقصودة » ، والدين ، أو العلم الالهى ، يحصل « بلا طلب ولا تكلف ولا بحيلة بشرية ، ولا زمان ، كعلم الرسل صلوات عليهم الذى خصها به الله جل وتعالى أنه بلا طلب ولا تكلف ، ولا بحث ، ولا بحيلة الرياضيات والمنطق ، ولا زمان ... بل مع ارادته جل تعالى بتطهير أنفسهم ، وانارتها للحق بتأييده وتسديده والهاماته ورسالاته . فان هذا العلم خاصة للرسل صلوات الله عليهم ، دون البشر ، وأحد خوالجهم العجيبة أعنى آياتهم الفاصلة لهم من غيرهم من البشر .. »

وهذا الموقف على طرفى نقيض من موقف الكندى السابق الذى جعل فيه العلم الالهى جزءا من الفلسفة يطلب بالمنطق والبرهان . فهو هنا :

١ ــ يجعل العلم الالهى فى مرتبة أعلى من الفلسفة .

٢ ــ ويجعل الدين علما الهيا ، والفلسفة علما انسانيا .

٣ ــ وأن طريق الدين هو الايمان بما جاءت به الرسل ، وطريق الفلسفة هو العقل .

٤ ــ وأن علم الرسول مباشر بلا زمان ولا تكلف عن طريق الوحى ، وأن معرفة الفيلسوف بالمنطق وتحصل بتكلف وفى زمان .

والمسلمون يتبعون كلام الله المنزل فى القرآن ، ويسلمون بحجته الصادقة التى تذعن لها العقول مثال ذلك سؤال الكفار « **من يحيى العظام وهى رميم** » فأوحى الله الى محمد « **قل يحييها الذى أنشاها أول مرة ...** » الى آخر السورة . فهذا الدليل القرآنى ليس « أبين ولا أوجز منه فى العقول النيرة الصافية » كما يقول الكندى .

هذا وقد حل القرآن الكريم المشكلات العويصة ، وعلى رأسها الخلق من عدم ، وهو ما يسميه « الابداع » ، ومشكلة البعث أو المعاد . والمشكلة الأولى يمثلها قول تعالى : « **انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** » ، فخلقه ليس كخلق البشر ، اذ كان فعل البشر لا يمكن من غير طينة ، أما الله فلا يحتاج الى طينة سابقة يشكلها ، ولكنه يبدع الخلق ، وهو ــ جل ثناؤه ــ لا يحتاج الى مدة لابداعه .

واذ قد نظر الكندى فى القرآن ، وحاول فهم معانيه بما يطابق ثقافته الفلسفية ، فقد اضطر الى التأويل الفلسفى ، فكان التأويل الأساس الثانى من أسس التوفيق بين الدين والفلسفة فى الاسلام · ففى رسالته الى أحمد ابن المعتصم بالله فى « الابانة عن سجود الجرم الأقصى وطاعته لله عز وجل » يفسر هذا الآية « **والنجم والشجر يسجدان** » بمقاييس عقلية ، فيقدم أولا المعنى اللغوى للسجود ، وهو وضع الجبهة فى الصلاة على الأرض ، ثم يقال السجود على « الطاعة فيما ليست له جبهة ولا كفان ولا ركبتان · وجملة ما لا يكون فيه السجود الذى فى الصلاة فمعنى سجوده الطاعة » ·

وتقال الطاعة أيضا على « التغيير من النقص الى التمام ، كالذى يقال فى النبت ، فانه اذا زكا قيل أطاع النبت » · وتقال الطاعة أيضا « على الانتهاء الى أمر الآمر فيما لم يكن فيه نقص ··· والانتهاء الى أمر الآمر انما يكون بالاختيار ، والاختيار لدى الأنفس التامة ، أى المنطقية » ·

فمعنى سجود الأجرام طاعتها لأمر الله · فالسماء الأولى تتحرك بالاختيار ساجدة ، أى مطيعة لأمر الله · وهذا التأويل يطابق المأثور عن أرسطو من أن حركة السماء الأولى جاءت عن الله الذى هو — فى مذهب أرسطو — « المحرك الذى لا يتحرك » ·

الله

والكندى لا يتبع أرسطو فى قوله بأن الله هو المحرك الذى لا يتحرك ، ولا يتبع أفلاطون فى قوله بأن الله منظم العالم ، بعد أن تأمل المثل القديمة ، ولا أفلوطين فى قوله بالواحد فقط · والواقع أنه كان متأثرا بالفلسفة اليونانية الهيلينستية بحسب ما تطورت اليه فى عصورها الأخيرة على أيدى الشراح · فنحن نرى فى شرح ثاون على المجسطى لبطليموس — وهو ذلك الكتاب الذى تأثر به الكندى فى رسالته المسماه « الصناعة العظمى » — أن الله يوصف بأنه بسيط ، لا يتحرك ، معقول لا تدركه الأبصار ، وأنه علة الحركة · وهذه الصفات الأربع ينسبها الكندى لله وهو البسيط اللامنقسم ، لأنه غير مركب ، المفارق للأجسام المحسوسة ، وهو العلة فى حركة الأجسام ·

والصفتان الأساسيتان لله فى القرآن هما الوحدانية والخلق : فالله واحد أحد ، والله خالق كل شىء · والصفة الأولى تتعلق بالذات الالهية فى ذاتها ، والثانية تتعلق بصلة الله بالعالم · وانقسم المسلمون فرقا كثيرة بازاء البحث فى الله وصفاته ، فأهل السلف كانوا يرفضون تسوية « أسماء » الله بالصفات ، ويتحرجون من وصفه بصفة لم ترد فى القرآن ·

أما المتكلمون فقد ابتدعوا اصطلاحات جديدة مثل « القدم » فقالوا ان الله « قديم » والعالم « حادث » ، أما الفلاسفة فيقولون بالأزلية بدلا من القدم . وذهب معظم المعتزلة الى سلب الصفات عن الذات الالهية تنزيها لله ، وطلبا للوحدانيـة المطلقـة ، فلا يقولون « الله عالم » ولكن يقولون « الله ليس جاهلا » ، وهكذا .

وقد تأثر الكندى بالمعتزلة فى سلب الصفات ، ولكنه جعل هذه الصفات منطقية ، فلسفية ، وفى ذلك يقول : « فالواحد الحق اذن لا ذو هيولى ، ولا ذو صورة ، ولا ذو كمية ، ولا ذو كيفية ، ولا ذو اضـافة ولا موصوف بشىء من باقى المقولات ، ولا ذو جنس ، ولا ذو فصـل ، ولا ذو شخص ، ولا ذو خاصة ، ولا ذو عرض عام ، ولا متحرك ، ولا موصوف بشىء مما بقى أن يكون واحدا بالحقيقة ... فهو اذن وحدة فقط محض ، وكل واحد غيره فمتكثر » .

ونحن نرى من ذلك أن المشكلة التى يحلهـا الكندى ليست على أساس العلاقة بين الصفات والذات ، بل هى حمل المقولات على الجوهر الالهى ، كما يقول المناطقة ، وهو من ناحية أخرى يذهب الى أن كل شىء يمكن تعريفه بأنه يتركب من جنسه وفصله ، ما عدا الله ، اذ لا جنس له ولا فصل . فهو لذلك يتبع طريق المنطقيين ، لا طريق المتكلمين .

وأدلة الكندى على وجود الله تعتمد على مبدأ العلية ... فكل شىء يكون بعد عدم لابد له من علة فى وجوده ، ولكننا لا نستطيع أن نمضى فى سلسلة الأسباب الى ما لا نهاية له ، فلابد من علة أولى ليس لها علة . وهذا البرهان أرسطاليسى ، ولكن الله عند أرسطو علة غائية ، نعنى أن الله لم يحرك العالم كعلة فاعلة ، بل العالم هو الذى تحرك شوقا الى الله .

أما فى فلسفة الكندى فالله ـ كما يردد فى أكثر من موضع من رسـائله ـ هو العلة الفاعلة . والعلة الفاعلة نوعان : احداهما العلة بالحقيقة ، وتسمى « الابداع » ، وفعلها هو الابداع من عدم ، وسائر العلل الأخرى متوسطة تنشأ عن علل أخرى . وانما تسمى عللا تشبيها لهـا بالفاعل الحق . وفى ذلك يقول : « فأما البارى تعالى فهو العلة الأولى لجميع المعقولات : التى بتوسط ، والتى بغير توسط ، لأنه فاعل لا منفعل بتة » .

وما دام العالم قد خلق بفعل الابداع بلا زمان ، فلابد أن يكون فى حاجة الى مبدع ، هو الله . وكل مخلوق فليس أبديا ما عدا الله فانه أزلى ، أما سائر المخلوقات فانها تظهر الى الوجود ثم تفنى ، مما هو واضح من أمر المحسوسات الجسمانية الدائمة التغير والجريان والتبدل . والحال

كذلك في العالم بأسره بما فيه من أجرام سماوية ، وكليات معقولة مثل الأجناس والأنواع ، فانها غير أزلية ، لأنها متناهية ومركبة · وكل شيء له نهاية فى الزمان وحد فى المكان ، فليس أزليا · ولذلك كانت فكرة اللانهاية فى غاية الأهمية فى مذهب الكندى ، وعلى أساسها يبرهن على فناء العالم ، وأنه مخلوق ، لأنه متناه ·

ويسوق الكندى دليلا آخر على وجود الله يستمده من النظام المثبوت فى العالم « فان فى نظم هذا العالم وترتيبه ، وفعل بعضه فى بعض ، وانقياد بعضه لبعض ، وتسخير بعضه لبعض ، واتقان هيئته على الأمر الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد ، وثبات كل ثابت ، وزوال كل زائل ··· لأعظم دلالة على أتقن تدبير ، ومع كل تدبير مدبر ، وعلى أحكم حكمة ، ومع كل حكمة حكيم » ·

أما المخلوقات فانها فى احتياج دائم الى الله ، لأن « الواحد الحق هو الأول المبدع المبسك كل ما أبدع ، فلا يخلو شيء من امساكه وقوته الا عاد ودثر » ·

العـــالم

أثار أرسطو ثائرة أصحاب الأديان السماوية لقوله بقدم العالم · فالله عنده لم يخلق العالم ، بل هو قديم قدم الله ، أزلى مثله · وتتصل مشكلة القدم بمشكلة الزمان أوثق الاتصال ، فالزمان أزلى لأن حركة العالم دائرية لا أول لها ولا آخر ، أما المكان فنهائى والعالم متناه · وقد هوجم ابن سينا بوجه خاص لقوله بقدم العالم · أما الكندى فالعالم عنده ليس أزليا ، لأن الزمان ليس أزليا · وقد حل هذه المشكلة على أساس رياضى من البحث فى النهاية واللانهاية ·

فالأجسام المحسوسة مركبة من مادة وصورة ، وتتحرك فى زمان وتنتقل فى مكان · فالمادة والصورة والحركة والزمان والمكان هى الجواهر الخمسة الموجودة فى كل جسم طبيعى · واذ قد ربط الكندى بين الزمان والمكان فيترتب على ذلك ان الزمان متناه ما دام المكان متناهيا ، وما دامت الأجسام متناهية · وليس الزمان هو الحركة ، انه عدد الحركة ، اذ ليس الزمان سوى المتقدم والمتأخر ، انه اتصال الآنات · والزمان مقدار ، كمية ، ولكنه ليس من الكم المنفصل كالعدد الذى نعده ونقول ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ·· ·· الخ ، بل هو من الكم المتصل ، انه الآنات المتصلة بين الماضى والمستقبل ·

وحيث كان الزمان من الكمية ، وكانت الكمية ــ أية كمية ــ متناهية ، فيترتب على ذلك أن الزمان متناه · وكذلك الحال فى « جرم العالم » ، فانه متناه ، لأنه من الكمية · وهناك أدلة كثيرة على التناهى يسميها بدهيات · وهذه البدهيات تشبه الى حد كبير البدهيات التى يفرضها المعاصرون من الرياضيين من أمثال برتراند رسل · وهذه البدهيات هى :

١ ــ الأعظام المتجانسة التى ليس بعضها بأعظم من بعض ، متساوية ·

٢ ــ اذا زيد على أحد الأعظام المتجانسة المتساوية عظيم مجانس لها ، صارت غير متساوية ·

٣ ــ انه لا يمكن أن يكون عظيمان متجانسان لا نهاية لهما ، أحدهما أقل من الآخر ، لأن الأقل يعد الأكثر ، أو يعد بعضه ·

٤ ــ الأعظام المتجانسة التى كل واحد منها متناه ، جملتها متناهية ·

فاذا سلمنا بهذه البدهيات فكل جسم لأنه مركب من مادة وصورة ، ولأنه محدود فى المكان متحرك فى الزمان ، فهو متناه ، حتى جرم العالم · واذ كان متناهيا ، فهو غير أزلى · الله وحده هو الأزلى ، وهو الواحد الحق ·

النفس والعقل

فاذا انتقلنا من العالم الى الانسان واجهتنا هذه المشكلة التى تعد جوهر الانسان على الحقيقة نعنى النفس والعقل · هل العقل ملكة من ملكات النفس ، أم ان العقل أسمى من النفس ؟ وما النفس وما العقل ؟ انها مشكلات خاض فيها أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ، ولا يزال الفلاسفة حتى اليوم فى حيرة من أمرها ··· وبوجه خاص القول بجوهرية النفس ، وانفصالها عن البدن ، وبقائها بعد فناء البدن ، وطبيعة العقل ، وكيف يعقل ، وكيف يعقل المعقولات الكلية ، الى غير ذلك ·

وقد تأثر الكندى بمذهبين متناقضين : أحدهما مذهب أرسطو ، وتعتمد فلسفته على الوجود ، والآخر مذهب أفلوطين الذى يقوم على الواحد· ولا شك ان ميتافيزيقا الوجود تختلف فى أساسها اختلافا بينا عن ميتافيزيقا الواحد ، ويصعب التوفيق بينهما · وقد أصلح الكندى تاسوعات أفلوطين ، التى نسبت خطأ الى أرسطو باسم « أثولوجيا أرسطو » ، والكلام فيها يجرى على أساس الواحد وهو أصل العالم ، وعنه يفيض العقل ، وعن العقل تفيض النفس الكلية · ثم تفيض عن النفس المادة ·

وفى رسالة الكندى فى النفس يعرض هذه الفلسفة الأفلوطينية ، فالنفس جوهر بسيط تفيض عن خالقها كما يفيض النور عن الشمس ،

وهى جوهر روحانى الهى مفارق للبدن ومتميز عنه · وحين تفارق النفس تطلع على كل شىء فى هذا العالم وتدرك الغيب · وعند تمام مفارقتها للبدن بعد الموت تصعد الى العقل وتستضىء بنور البارى وترى خالقها ·

والنفس لا تأخذها أبدا سنة من النوم ، كل ما فى الأمر انها ساعة النوم لا تستخدم الحواس · واذا تطهرت النفس وزكت ، رأت فى المنام عجائب الرؤى ، وتحدثت الى غيرها من الأنفس التى فارقت أبدانهـــا وتنقسم النفس أقساما ثلاثة هى : العاقلة ، والغضبية ، والشهوانية · والذين يتخلصون من شهوات البدن وملذاته ، وينفقون حياتهم فى التأمل للظفر بحقائق الأشياء هم السعداء ذوو الفضل المتشبعون بالاله ·

غير أن الكندى ألف رسالة أخرى فى العقل ، لعبت دورا كبيرا فى الفلسفة الاسلامية والمسيحية فى العصر الوسيط على حد سواء · وهو يعتمد فى هذه الرسالة على ما ذكره أرسطو فى كتاب النفس ·· وذلك أن أرســـطو يقسم العقل قسمين : المنفعل ، والفعال · فالمنفعل يقبل المعقولات وينطبع بها ، أما العقل الفعال عند أرسطو فهو أزلى ، خالد ، مفارق ، غير فاسد ، غير ممتزج ، وهو بالفعل أبدا ·

واختلف المفسرون لأرســـطو ـ الاسكندر الأفروديسى وثاسطيوس بوجه خاص ـ حول هذا العقل الفعال فذهب بعضهم الى أنه خارج عن الانسان وذهب بعضهم الى أنه ليس خارجا · وسمى الاسكندر الأفروديسى العقل المنفعل بالعقل الهيولانى أو المادى ، وهو استعداد الانسان لقبول الصور المعقولة · فاذا اكتسب هذا العقل المعقولات أصبح العقل «المستفاد» · والعقل الهيولانى والعقل المستفاد يفنيان بفناء الانسان · ولكن العقل كى يخرج من القوة الى الفعل ، من مجرد الاستعداد الى استفادة المعقولات وامتلاكها والحصول عليها ، لابد له من شىء يخرجه من القوة الى الفعل ، هو العقل الفعال ، الذى عده الاسكندر الهيا يفيض على عقولنا ·

ثم أضاف الكندى الى هذه العقول الثلاثة عقلا رابعـــا ، فأصبحت العقول فى الانسان ثلاثة ، والرابع العقل الفعال الخارج عن الانسان · وبيان هذه العقول هو كما يأتى :

١ ـ العقل الذى بالفعل أبدا · وهو العقل الفعال الخارج عنا ، وهو علة تعقلنا ·

٢ ـ العقل بالقوة ، أى مجرد الاستعداد لقبول التعقل ، وهو الموجود فى كل انسان ·

٣ ـ العقل الذى خرج فى النفس من القوة الى الفعل ، وأصبح موجودا بالفعل ولكن دون أن يباشر فعله مثل الكاتب الذى تعلم الكتابة دون أن يباشرها ·

٤ ـ العقل الموجود بالفعل ، ولكن صاحبه يؤدى به مهمته ، مثل الكاتب الذى يعرض الكتابة ويمسك بالقلم ويكتب بالفعل · والكندى يسمى هذا العقل « الثانى » ، أى الدرجة الثانية من الفعل ·

هذه الرسالة فى العقل على صغر حجمها ، ترجمت الى اللغة اللاتينية ، وأثرت فى أوروبا تأثيرا بالغا ، كما أثرت فى الفارابى ثم ابن سينا وسائر فلاسفة المسلمين الذين خاضوا فى نظرية المعرفة ، وحاولوا حل مشكلة اتصال عقولنا بالمعقولات الخارجة عنا ، والموجودة فى الصور الكلية التى تقوم الأشياء المحسوسة على أساسها ، ما دام كل جسم طبيعى يتركب من هيولى وصورة · أو مشكلة اتصال عقولنا ، أو الكليات التى كان يعتقد بعض الفلاسفة فى وجودها فى عالم المثل والمعقولات خارج الأشياء ·

فالكندى هو الممهد للفلسفة الاسلامية طريقها الذى سلكته فيما بعد على يد خلفه العظيم ، الفارابى الذى سماه الغرب بالمعلم الثانى ·

ولقد استطاع الكندى ، أول فيلسوف مسلم ، أن ينتزع الفلسفة من أربابها وان يخلق جيلا من التلاميذ وأصبح أحدهم رئيسا لمدرسة فى بغداد · ولم يكن تلامذته كثيرين ، ومن أجل ذلك لم يشتهر فى العالم الاسلامى شهرته فى العالم الأوربى · ومن أبرز تلامذته ابن كرنيب ، وأحمد بن الطيب السرخسى ، وأبو زيد البلخى ، ويسمى مايرهوف هؤلاء الثلاثة : « الجيل الثانى من الفلاسفة المسلمين » · أما الذى كان صاحب مدرسة فى بغداد ، فهو أبو أحمد الحسين بن أبى الحسين ابن ابراهيم بن يزيد بن كرنيب الكاتب ·

لم يكن الكندى فيلسوف الحضارة الاسلامية بمعنى الاحاطة بجميع العلوم والفنون ، وبمعنى اشاعة هذه الحضارة بطريق تعليمى فقط ، بل بمعنى اخضاع هذه الحضارة للقيم الدينية والأخلاقية كذلك ، فقد رأينا أن الحضارة تأخذ بالنافع وبالجميل ، والجميل عندهم يجمع بين الجمال والخير ، ولا يقتصر على الجمال الاستاطيقى فقط · وكان العرب يقولون : هذا يجمل بك ، بمعنى الأليق والأفضل ·

ان الحضارة اذا تقدمت فى الماديات ونواحى العمران دون أن تعتمد على أساس من الدين المستقيم والخلق القويم ، لا جرم تكون سريعة الانهيار · وقد استمرت الحضارة الاسلامية مزدهرة عالية أكثر من عشرة قرون من الزمان ، بفضل تمسكها بهذا الجانب الدينى الخلقى ، فجمعت بين المادية والروحانية · وكان الكندى حريصا ، كما رأينا على تقديم هذا المثل الأعلى الروحانى فى كل رسالة يكتبها ، حتى لو كانت فى العلوم الفلسفية البحتة ، أو الرياضية ، أو الطبيعية · فهو حريص على تثبيت الوحدانية ، واقامة الأدلة على أن الله هو الخالق المبدع المدبر ، الممسك

كل ما أبدع بتمام حكمته ، وعلى تثبيت دلائل النبوة واعلاء شأن الرسل ، وبيان فضلهم على الفلاسفة الذين يتبعون المنطق الانسانى المؤيد بالأقيسة والبراهين • لأن علم الرسل عليهم السلام مستمد بالوحى من العلم الربانى •

ولم يكن حرص الكندى على بيان منزلة الأخلاق الفاضلة فى رقى الحضارة وبقاء العمران بأقل من حرصه على بيان منزلة الدين • وقد ألف فى الأخلاق كتبا مستقلة ، لم تصل الينا مع الأسف ، ولكنه ألحق الأخلاق بمباحث النفس ، وبين كيف يفضى العلم بالنفس الى تهذيب الأخلاق •

والأخلاق عنده اصلاح النفس بتحكيم العقل فى القوتين الحيوانيتين فى الانسان ، وهما الشهوة والغضب واذا كان هذا المبدأ الأخلاقى يونانيا ، وهو الذى أثر عن سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فقد وفق الكندى بينه وبين تعاليم الاسلام الخلقية التى تعتمد أساسا على الدين ، وما أمر به الله فى كتابه من تقوى • ويلوح أن هذا المنهج الجديد فى بحث الأخلاق عند المسلمين ، والذى يوفق بين الأخلاق الاسلامية كما وردت فى القرآن والسنة ، وبين الأخلاق اليونانية ، هو الذى سلكه فيما بعد علماء الأخلاق وفلاسفتهم ، كما فعل ابن مسكويه فى « تهذيب الأخلاق » •

صفوة القول : كان الكندى ، فيلسوف العرب ، مسجلا للحضارة الاسلامية فى زمانه ، وكان كذلك راسما خطوطها العامة التى ينبغى أن تسير عليها فى المستقبل •

فهو الذى صنف الفلسفة الى نظرية وعملية ، وأن النظرية تشمل الرياضيات والطبيعيات وما بعد الطبيعيات وجرى هذا التقسيم عند الفلاسفة الاسلاميين فيما بعد •

وهو الذى ثبت دعائم الفلسفة ، ودافع عنها ، وبين فضلها ، وأشاعها فى الثقافة العربية ، واستمرت لعدة قرون من الزمان •

وهو الذى وفق بين الدين والفلسفة ، أو بين النقل والعقل ، فحدد معالم هذه المشكلة ، ورسم طريق حلها بما يرضى الدين ويقنع العقل •

وهو الذى جعل الفلسفة الاسلامية اللسان الناطق بالحضارة العربية •

فلا غرابة بعد هذا كله أن يسمى : « فيلسوف العرب » •

الإمتاع والمؤانسة

أبو حيان التوحيدى

٩٨٠ م

« أبو حيان التوحيدى فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة · فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء ، وفصاحة ، وفطنة ، ومكنة » ·

هكذا كان يقول عنه ياقوت الحموى ·

أما آدم متز فيقول عنه فى كتابه « الحضارة العربية فى القرن الرابع عشر » : « ربما كان التوحيدى أعظم كتاب النثر العربى على الاطلاق » ·

★★★

عصر أبى حيان التوحيدى

انحطت الدولة العباسية فى أواخر القرن الثالث للهجرة ، وانقسمت الى دويلات صغيرة آل أمرها الى جماعات من متغلبى الأعاجم كالأتراك والفرس والديلم ، فجرد الخليفة العباسى من كل سلطة فعلية ، وأصبحت المملكة الاسلامية ميدانا للأهوال والمآسى ·

والقرن الرابع الذى عاش فيه أبو حيان التوحيدى أو الذى عاشه أبو حيان التوحيدى من سنة ٣١٠ هـ الى سنة ٤١٤ هـ ، كان أعجوبة الأعاجيب فى انقسام الملك وانتشار الفوضى وذيوع الفتنة والاضطراب والعبث بسلطات الخلفاء والتحكم فى مصائرهم ، على ما يحلو للمهيمن المتسلط من الولاة والحكام ·

ازاء هذا الانحطاط السياسى كنت تجد رقيا فى الحياة العقلية ، فكأن العلوم والفنون لا ترقى الا فى عصور الفوضى والاضطراب ، فقد نتج عن تفكك الدولة العباسية أن عمد أمراء الدول الصغيرة ، سواء لأسباب سياسية أو بدافع حب الظهور ، أو الابقاء على تقاليد بغداد ابان مجدها — الى تشجيع العلماء ، وتقريب الفئة الممتازة من الأدباء والشعراء ، والعطف عليهم ، وبعد أن كان نصير العلم الخليفة ، أو وزيره أو بعض عماله فى بلد واحد ، أصبح نصراؤه فى هذا العصر عدة ملوك وأمراء ووزراء فى أشهر مدن العالم الاسلامى ، فغدا كل قطر من أقطار المملكة مركزا مهما من مراكز الثقافة العربية ، واستمرت الحركة العلمية التى ظهرت زمن المأمون فى سيرها المطرد ، وظل العرب عاكفين على الافادة من التراث الضخم الذى خلفته جهود العلماء والمترجمين فى العصور السابقة ·

وعلى الرغم من أن بنى بويه كانوا جماعة من شيعة الفرس . ومن ان « العناصر العربية فى عهدهم كانت معرضة لغلبة التيار الفارسى » ، فان أعجميتهم لم تحل دون تشجيع اللسان العربى ، فقد كان كثيرون من البويهيين ووزرائهم على جانب من الثقافة ، حتى أصبح أساس الاختيار للوزارة عندهم شيئين : « القدرة الادارية والقدرة البلاغية » ، ومن أشهر هؤلاء الوزراء ابن العميد ، وأكتب أهل زمانه ، والصاحب بن عباد ، وهو الذى جعل داره مجمعا لطوائف الكتاب المنشئين والقراء المتكلمين ، ولقد وصف التوحيدى مجلسه فقال : « وهل عند ابن عباد الا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون والوزير المهلبى الذى كان « غاية فى الأدب والمحبة لأهله » ، وبهاء الدولة أبو نصر سابور بن أردشير صاحب دار العلم فى بغداد ، وابن سعدان ، وزير صمصام الدولة وهو القائل يفخر بأهل مجلسه على زميليه المهلبى وابن العميد : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وانهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوى العقل ، واذا خلا العراق منهم فرقن على الحكمة المروية ، والأدب المتهادن ، لتظن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء . أو تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل واحد منهم » .

كان من جراء هذه العوامل نبوغ كثيرين من العلماء والأدباء والفلاسفة والفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصحاب المذاهب المتصوفة ، وأصبحت مدن كثيرة فى العراق وفارس مراكز للحركات العلمية كبغداد والبصرة والكوفة فى العراق ، والرى وأصفهان وشيراز وسيراف فى فارس ، على أن بغداد — على ما انتابها من ضعف وتضاؤل مركزها السياسى — ظلت العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقى ، وآية ذلك « أن جميع الحركات الروحية فى مملكة الاسلام كانت تتلاطم أمواجها فى بغداد ، وكان فيها لجميع المذاهب أنصار » .

كانت الحالة الاجتماعية فى أواخر القرن الثالث شبيهة بالحالة السياسية ، فقد أعقب فقدان الاستقرار السياسى فساد فى الوضعين الاجتماعى والاقتصادى وتباعد فى الطبقات الشعبية ، وسوء توزيع للثروة العامة فعكف فريق من الرؤساء والأغنياء — كما هى الحال فى عصور الفوضى السياسية — على الترف والبذخ واللهو ، وحرم أفراد الشعب حتى المفكرون منهم القوت الضرورى ، وقد أورد التوحيدى أمثلة عن حالة البؤس التى انحدر اليها زملاؤه المفكرون والأدباء فقد كان أبو سليمان المنطقى السجستانى ، سيد علماء عصره « بحاجة ماسة الى رغيف ، وحوله وقوته قد عجزوا عن أجرة مسكنه ووجبة غذائه وعشائه » ، وكان أبو سعيد السيرافى « عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الأرض » على حد قول

تلميذه التوحيدى « ينسخ فى اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش » ، وكان الفيلسوف يحيى بن عدى « يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر » وكان المعافى بن زكريا النهراوى ذا « أنسة بسائر العلوم » شاهده تلميذه التوحيدى فى جامع الرصافة « وقد نام مستدبر الشمس فى يوم شات وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور » ، وكان أبو بكر القومسى الفيلسوف من الضر والفاقة على جانب عظيم ، وهو القائل عن نفسه : « ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغ منى ، ان قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وان خرجت الى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدا أملس » ، الى غير ذلك من الأمثلة التى ذخرت بها كتب التراجم ٠

تأثرت الآداب والفنون بهذه الحالة الاقتصادية السيئة فتجمع الأدباء فى قصور الخلفاء والأمراء طلبا للرزق ، وكان جل هم أحدهم الاتصال بوزير أو أمير ينسى بقربه الفاقه والعوز ، وكانت حياة الأديب تجرى فى جو تسوده الدسائس والمؤامرات والتناحر والتملق ، فبعد الأديب عن المثالية ، وحصرت رسالته فى الفوز بالمجد والثروة والشهرة من أقرب سبيل ، ولذا جف ينبوع العاطفة الصادقة ، وغلب على الأدب التكلف والمبالغة المنافيـة للذوق والعقـل ، وتلون بلون التسـول والتضرع والاستعطاف حتى صرنا نرى أديبـا كبيرا كالتوحيـدى يخاطب أبا الوفاء المهندس معتذرا بقوله : « أنا سامع مطيع ، وخادم شكور ، مثلك يعفو ويصفح ، وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت آمر وأنا مؤتمر ٠٠٠ أأنا أدعك واجدا على ؟ وأرقد وأنت ماقت لى ؟ وأجد حس نعمة أنت وهبتها الى ؟ وألذ عيشا أنت أذقتنى حلاوته ؟ أأنسى أيادیك وهى طوق رقبتى ، وتجاه عينى ، وحشو نفسى ، وراحة حلمى ، وزاد حياتى ، ومادة روحى ؟ » ٠ أو كما كتب الى الوزير ابن العميد مستعطيا : « أصبح أديمى فقد حلم ، وجدد شبابى فقد هرم ، وأنطق لسانى فى اصطناعى ، فقد شردت صحائف النجح عند انتجاعى ، ورش عظمى فقد براه الزمان ، واكس جلدى فقد عراه الحدثان » ولذلك « اذا أحصيت الأدب الذى قيل فى المديح رجحت كفته على الأدب الذى قيل لباعث نفسانى » ٠

وشىء آخر نتج عن فساد الحياة الاقتصادية نجد صداه فى الأدب وهو أن أصحاب السلطان عمدوا الى الاعتداء على الرعية ومصادرة الأموال سـدا لحاجاتهم الاسرافية الى المال ، مما دعا النـاس ـ دفعا للشر عن أنفسهم ـ الى الظهور بمظهر الفاقة ، فمدحوا الفقر وذموا الغنى ، وسرت فيهم روح الكآبة ، وذم الزمان وأهله ، والشكوى من الظلم ، فقويت نزعة التصوف والتوكل فأحدثت تيارات فكرية نراها ماثلة فى أدب هذا العصر عامة ، وفى أدب التوحيدى بصورة خاصة

حياة ابي حيان التوحيدى

في هذه الفترة من الزمن عاش أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ، وتكاد حياته تكون مجهولة ، اذ لم يصلنا من أخباره الا النزر اليسير ، حتى ان ياقوتا الرومى ، وهو المعروف بسعة الاطلاع والبحث والتنقيب عجب من أن أحدا « لم يذكر التوحيدى في كتاب ، ولا دمجه ضمن خطاب » فلم نعرف شيئا عن أصله ونشأته ومكان ولادته ، حتى ان آراء المؤرخين — ومنهم ياقوت — في هذا السبيل جد متضاربة فمن قائل انه بغدادى ، ومن قائل انه شيرازى أو نيسابورى ، أو واسطي ، ويقول الذهبى انه « نزيل نواحى فارس » دون تعيين الزمان والمكان . واذا ما تقصينا جميع ما قيل عن التوحيدى ، وأحصينا ما تفرق من أخباره أمكننا القول انه ولد فى بغداد حوالى سنة ٣١٠ هـ من أبوين فقيرين ، اذ كان أبوه يبيع نوعا من التمر يقال له التوحيد ، وقد استنتجنا تاريخ ولادته من مصدرين :

اولهما : كتاب أرسله التوحيدى نفسه الى القاضى أبى سهل بن محمد سنة ٤٠٠ هـ يقول فيه انه بلغ عشر التسعين .

وثانيهما : « كتاب المقابسات » الذى ألفه سنة ٣٦٠ هـ وكان عمره يومذاك خمسين عاما بدليل قوله : « وما يرجو المرء بعد الالتفاف الى خمسين حجة ، وقد أضاع أكثرها ، وقصر فى باقيها » .

يقول مرجليوث فى « دائرة المعارف الاسلامية » ان التوحيدى صرف القسم الأكبر من حياته فى بغداد ، حيث درس النحو على أبى سعيد السيرافى (٢٤٨ — ٣٦٧) ، ويظهر لنا أن أثر أبى سعيد فى تلميذه يتعدى النحو الى غيره من العلوم والمعارف والأفكار والآراء ، فأبو سعيد عالم فذ شارك بكافة أنواع المعرفة فى عصره مشاركة واسعة ومتينة ، فقد « أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة ، فما وجد له خطأ ، ولا عثر له على زلة » ، وكان يدرس القرآن والقراءات ، وعلوم القرآن والنحو والفقه والفرائض والحساب والكلام والبلاغة والشعر والعروض والقوافى ، حتى تعدت شهرته بغداد الى أطراف البلاد ، صار يستفتى فى عدة قضايا دينية ولغوية وأدبية ، وكان أعلم الناس بنحو البصريين وهو الذى يتصدى لشرح كتاب سيبويه ، وبسط علم النحو حتى قال ابنه يوسف : « وضع أبى النحو فى المزايل فى الاقناع » يريد أنه سهله حتى لا يحتاج الى مفسر . وكان السيرافى على مذهب المعتزلة « ولم يظهر منه شىء » ، وكان على جانب عظيم من التدين والورع والصلاح والتقوى وعلو النفس ، والتعفف عن الدنايا ، وصفه تلميذه التوحيدى فقال : « ... كان عابدا ، خاشعا ، له دأب بالنهار من القراءة والخشوع ، وورد بالليل من

القيام والخضوع ، صام أربعين سنة الدهر كله » . ويقول أبو سعيد المدائني : « ما قرىء على أبي سعيد ذكر الموت والقبر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار والوعد والوعيد والعقاب والمجازاة والثواب والانذار والاعذار وذم الدنيا وتقلبها بأهلها وتغيرها على أبنائها الا وبكى منها وجزع عندها ، وربما نغص عليه يومه وليلته ، وامتنع من عاداته في الأكل والشرب » .

ان من يتدبر نفسية التوحيدي ، ويطلع على آرائه الأدبية وأفكاره الفلسفية يظهر له انعكاس آراء السيرافي وأفكاره في عقلية تلميذه ، ويندر أن نجد أستاذا ومريدا تشابها في الفكر والعاطفة ، فخضع الثاني لشخصية الأول القوية ، كما نجد ذلك عند السيرافي والتوحيدي ، فأبو سعيد في نظر تلميذه « عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الأرض » . ويعتقد لويس ماسينيون أن أبا سعيد السيرافي « علم تلميذه في سن مبكرة أسرار علم التصوف » حتى صار التوحيدي شيخا في الصوفية ، كما يقول ياقوت . وان من يتتبع دراسة عناصر هذا التأثير وبواعثه ، يجد أن التوحيدي مدين للسيرافي بنشأته العلمية وتهذيبه الروحي ، ونجد هذا التأثير أبين ما يكون في نزعتي التقشف والتوكل اللتين تعدان من أسس المثل الصوفية .

وهناك أستاذ آخر ، كان له أثر في تكييف شخصية التوحيدي الفكرية وهو علي بن عيسى الرماني (٢٩٦ ــ ٣٨٤) ، وهو من أئمة اللغة والأدب « جمع بين علم الكلام والعربية » ، ويعد في « طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي » وكان مشاركا في جميع العلوم ، نستدل على ذلك من الثبت الذي أورده ياقوت لتصانيفه المتنوعة ، الا أن الرماني كان أميل للنحو والمنطق منه الى بقية العلوم ، حتى انه كان « يمزج النحو بالمنطق » فيبلغ حد الغموض والتعمية ، حتى قال أبو علي الفارسي عنه : « ان كان النحو ما يقول الرماني فليس معنا منه شيء ، وان كان النحو ما نقوله فليس معه شيء » . وكان يقال : « النحويون في زماننا ثلاثة : واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيرافي » ، ولعل هذا الغموض ناتج عن ميل الرماني للانفراد بطريقة تخالف « الطريقة المتبعة من علم واضع المنطق » . واذا استثنينا النحو نجد أن للرماني أثرا في تخريج تلميذه التوحيدي في علم الكلام ، وتنشئته من الناحية العقلية والمنطقية ، فقد كان الرماني متكلما على طريقة المعتزلة « لم ير قط مثله علما بالنحو ، وغزارة في الكلام ، وبصرا بالمقالات وايضاحا للمشكل مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة .

وتلقى التوحيدي الفقه الشافعي على القاضي أبي حامد المروروزي

المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، ويعده ابن خلكان من أئمة الفقه الذى « لا يشق غباره فيه » ، وكان التوحيدى كثير الملازمة لمجالس أبى حامد والنقل عنه والرواية لأخباره كما يدل على ذلك كتاب « البصائر والذخائر » ، وقد علل التوحيدى تعلقه بأستاذه بقوله : « وانما أولع بذكر ما يقوله هذا الرجل لأنه أنبل من شاهدته فى عمرى ، وكان بحرا يتدفق حفظا للسير ، وقياما بالأخبار ، واستنباطا للمعانى ، وثباتا على الجدل ، وصبرا على الخصام » .

ودرس الفقه الشافعى على أبى بكر محمد بن على القفال بن اسماعيل الشاشى المتوفى سنة ٣٦٥ ، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء ، وكان « فقيها محدثا أصوليا لغويا شاعرا » ودرس الفقه الشافعى على القاضى أبى الفرج المعافى بن زكريا النهروانى (٢٠٥ ـ ٣٩٠) ، وكان أعلم الناس بفقه مذهب الطبرى ونصرته والدفاع عنه قيل له الجريرى ، وكان أبو الفرج فقيها ، أديبا ، شاعرا له « أنسة بسائر العلوم » وكان أهل زمانه يقولون عنه : اذا حضر القاضى أبو الفرج ، فقد حضرت العلوم كلها ، وكان « فى نهاية الذكاء ، وحسن الحفظ ، وسرعة الخاطر فى الجوابات » .

ودرس التوحيدى الفلسفة والمنطق على عالمين عظيمين ، انتهت اليهما رياسة أصحاب هذين العلمين وهما يحيى بن عدى المتوفى سنة ٣٦٤ هـ وأبو سليمان المنطقى السجستانى المتوفى بعد عام ٣٩١ هـ .

أما أبو زكريا يحيى بن عدى ، فهو فيلسوف نصرانى من أشهر تلاميذه أبو بشر متى بن يونس القنائى والفيلسوف أبو نصر الفارابى ، ومن المتضلعين فى علم المنطق حتى انتهت اليه « رياسة أهل المنطق فى زمانه وكانت فعالية يحيى بن عدى منصرفة الى ناحيتين : ترجمة كتب أرسطو من السريانية الى العربية والتوفر على دراستها ، وتلخيص تصانيف أستاذه الفارابى وشرح فلسفته ، وكان ميالا للجدل « يعتمد على المنطق فى اثبات الحقائق والعقائد » ونحن نعلم أن التوحيدى واخوانه درسوا الفلسفة اليونانية فى الكتب المترجمة ، ولا شك فى أنه أفاد من دروس يحيى بن عدى ، والتى نجد وصفها فى كتاب « المقابسات » .

وأما أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى فهو تلميذ أبى بشر متى ابن يونس القنائى ويحيى بن عدى ، ومن أعاظم علماء المنطق، والمطلعين على دقائقه وأسراره ، ومصنف كتاب « صوان الحكمة » ، وكان أبو سليمان أعور ، وبه وضح ، فكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله فلا يأتيه الا مستفيد أو طالب ، فقصده الرؤساء والأجلاء ، وكان علماء عصره يجتمعون حوله لمناظرته حتى غدا منزله « مقيلا لأهل

العلوم القديمة » وله « نظر فى الأدب والشعر » ، ويظهر أن التوحيدى كان كثير الملازمة لأستاذه السجستانى حتى عده القفطى « أحد أصحابه المعتصمين به » وعده ابن سعدان « جاره ومعاشره ولصيقه وملازمه وقافى خطوه وأثره ، وحافظ غاية خبرة » ، ولا أدل على صحة هذا القول من أن أغلب المحاورات والمناظرات التى ألف التوحيدى منها كتاب « المقابسات » ، هى من أحاديث ومذكرات وآراء أبى سليمان السجستانى وقد يلغ من شدة ملازمته لأبى سليمان أن توهم القفطى بأن التوحيدى كان « يغشى مجالس الرؤساء ، ويطلع على الأخبار لينقلها الى أستاذه ؛ وأنه لأجله ألف كتاب « الامتاع والمؤانسة » .

وهناك شيوخ آخرون قرأ عليهم التوحيدى كان أثرهم فيه أقل وضوحا ممن تقدم ذكرهم أمثال أبى محمد جعفر الخلدى وكان « رئيسا من رؤساء المتصوفة وورعا زاهدا » ، وأبى الحسين محمد بن أحمد بن اسماعيل ابن سمعون (٣٠٠ ـ ٣٨٧) وكان وحيد عصره فى الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الاشارة ، ولطف العبارة » ، وكان يقال له « الناطق بالحكمة » ، وغيرهما .

وهكذا فقد أتيح للتوحيدى أن يتصل بأكبر علماء عصره ، ومفكرى زمانه مما أكسبه ثقافة موسوعية نرى أثرها فيما وصل الينا من آثاره .

١ ـ آثار ابى حيان التوحيدى

لم تبق يد الحدثان من آثار التوحيدى الا النزر القليل · وقد أورد ياقوت فى معجمه ثبت كتب التوحيدى فبلغت سبعة عشر كتابا ، وبالرغم من أن هذا الثبت لم يستوف جميع آثار التوحيدى فقد صار عمدة لجميع من ذكروا هذه الآثار ، ومن المعلوم أن التوحيدى أحرق فى أواخر حياته كتبه ، ولا ندرى هل كان فقدان أكثر آثاره ناتجا عن الفعلة ، غير أن السيوطى وطاش كبرى زاده يعتقدان « أن النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه فى حياته ، وخرجت من قبل حرقها » ·

ومهما يكن من أمر ، فان ما تبقى من آثاره يدل على حياة فكرية خصبة ، وفعالية وافرة فى التأليف ·

(أ) الآثار الأدبية

« الامتاع والمؤانسة » : والذى نحن بصدده فى ثلاثة أجزاء صدرت بالتوالى سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤ بالقاهرة وهو من أهم كتب التوحيدى وأجلها خطرا ، تولى طبعه وتحقيقه الأستاذان د· أحمد أمين وأحمد الزين · هو كتاب يتضمن أحاديث شتى سامر بها التوحيدى الوزير البويهى ابن العارض ·

وفى كتاب الامتاع وثيقتان نفيستان انفرد التوحيدى فى ايرادهما : الأولى وصف المناظرة التى جرت فى بغداد عام ٣٢٦ هـ بحضور الوزير ابن الفرات اليونانى والنحوى العربى ، والثانية الفصل المتعلق باخوان الصفاء وهو الذى ألقى ضوءا عن هذه الجمعية السرية ، وأصبح أصلا اعتمد عليه كل من كتب اخوان الصفاء كالقفطى وابن العبرى · هذا وكتاب الامتاع والمؤانسة مصدر ثمين لدراسة أدب التوحيدى من جهة والحياة الفكرية والاجتماعية زمن بنى بويه من جهة أخرى ، ولا نجد أبلغ من عبارة القفطى فى وصفه حين قال : « هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فانه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة » ·

* « الصداقة والصديق » :

طبع للمرة الأولى فى استانبول عام ١٣٠١ هـ فى مطبعة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق ، ثم من القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ تحت عنوان : الأدب والانشاء فى الصداقة والصديق ٠

جمع فيه التوحيدى أكثر ما قيل فى الصداقة والصديق شعرا ونثرا ، لأناس معروفين ومجهولين منذ عصر الجاهلية الى عهد المؤلف ٠ وقد حدد التوحيدى غايته فى وضع الكتاب بقوله : « سمع منى فى وقت بمدينة السلام كلام فى الصداقة ، والعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والتكرم مما قد ارتفع رسمه بين الناس ، وغص أثره عند العام والخاص ، وسئلت اثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة وأصحاب الديانة والمروءة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها ، وينتفع بها فى المعاش والمعاد » ٠

* « الهوامل والشوامل » : ذكره التوحيدى فى المقابسات (مقابسة ٧) وطبعه الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر فى القاهرة سنة ١٩٥١ ٠ والكتاب عبارة عن أسئلة فى موضوعات أدبية واجتماعية وفلسفية وأخلاقية ونفسية ولغوية وجهها التوحيدى الى مسكويه فأجاب هذا ، ولا شك فى أن نصيب مسكويه من الكتاب أكبر وأوفى من نصيب التوحيدى ٠

* « بصائر القدماء وسرائر الحكماء » : (المعروف بالبصائر والذخائر) ٠ مخطوط محفوظ فى مكتبة فاتح باستانبول مؤرخ سنة ٦١٣ هـ ، فى خمسة أجزاء وهناك نسختان للجزءين الأولين محفوظتان الأولى فى مكتبة جون ريلان بمانشستر مؤرخة سنة ٦٠٢ هـ و الثانية فى مكتبة جامعة كامبردج مؤرخة سنة ١١١٧ هـ ٠

كتاب ضخم فى عشرة أجزاء ألفه التوحيدى بين عامى ٣٥٠ و ٣٦٥ هـ ، وهو ثمرة عمل خمسة عشر عاما ، أودعه التوحيدى ما رآه وسمعه وحفظه فى المجالس والدروس التى كان يحضرها ، والكتب التى قرأها فهو كما يقول : ثمرة العمر ، وزينة الأيام ، ووديعة التجارب » ٠

وللتوحيدى ميزة أخرى فى كتابه يجب اثباتها وهى أمانته العلمية وحرصه على التحقيق ونقل الكلام الصحيح وما أكثر ما يمر القارىء فى تضاعيفه بأمثال هذه الجمل : « هكذا حفظته من المجالس » ، أو « وقد حفظت من غير معرفة ثم سألت العلماء فوضح الجواب » ، وفى مكان آخر :

« سألت رجلا كان يتعاطى هذا النمط » ، أو مثل هذا العبارة « وهذا كله سماع بعد تحكيك ومدارسة وتصحيح ومقابسة » .

وللكتاب قيمة في الكشف عن محصل مطالعة التوحيدى وتجاريه ، وعن اتجاه نواحى الثقافة عنده وفى المجالس التى كان يرأسها أساتذته وأرباب المعرفة في زمنه أمثال أبى المرورزوى والسيرافى وغيرهم .

*** ذم الوزيرين : (٤١)**

رسالة مفقودة ، ذكر منها ياقوت مقاطع فى ترجمة الصاحب بن عباد ، وأحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب « ويعتقد مرجليوث أن هذه الرسالة محفوظة بالقسطنطينية وأن مطبعة الجوائب وعدت بنشره » .

*** « النـــوادر » :**

كتاب مفقود ، ذكره التوحيدى نفسه فى المقابسات .

*** « تقريظ الجاحظ » :**

وردت منه مقتطفـات فى معجم الأدباء فى ترجمـة أحمد بن داود الدينورى وأبى سعيد السيرافي .

*** « رسالة الجنين الى الأوطان » :**

ذكرها صاحب معجم الأدباء .

*** « رسالة فى علم الكتابة » :**

نشرها الدكتور ابراهيم الكيلانى ضمن مجموع « ثلاث رسائل لأبى حيان التوحيدى » .

وتعتبر هذه الرسالة من أمتع وأقدم ما نشر عن الخطوط العربية وقواعدها وانواعها ، وكان التوحيدى بحكم مهنة الكتابة والوراقة معنيا بهذه الصناعة مطلعا على دقائقها وأسرارها .

(ب) الآثار الفلسفية

*** « المقابسات » :**

طبع هذا الكتاب للمرة الأولى طبعتين حجريتين فى بومباى سـنة ١٣٠٥ و ١٣٠٦ هـ ، على يد ميرزا محمد ثم أعيد طبعه فى مصر سنة ١٩٢٩ طبعة سقيمة ملأى بالأخطاء ، وفى المكتبة الخالدية بالقدس مخطوطة كاملة

المقابسات يرجع عهدها الى القرن السادس الهجرى ، وفى دار الكتب الظاهرية بدمشق قطعة نفيسة من المقابسات يرجح أنها من عصر المؤلف ·

يحتوى الكتاب على ١٠٦ مقابسات تختلف طولا وقصرا ، وتبحث كل واحدة منها فى موضوع مستقل ، وهو عبارة عن مجموعة محاضر سريعة متقطعة للجلسات التى كان يعقدها جماعة من العلماء على رأسهم يحيى ابن عدى النصرانى ، وأبو سليمان السجستانى المنطقى سواء فى دار الوزير ابن العارض أم فى سوق الوراقين بباب الطاقة تجاه باب البصرة ، أم فى دور تلاميذ السجستانى نفسه ، وكان يحضر هذه المجالس جماعات من مختلفى الأجناس والمشارب والعقائد والملل والنحل ، فيهم الفلاسفة والأطباء ، والرياضيون ، والفلكيون والمؤرخون والشعراء والأدباء وأرباب الجدل وفدوا جميعهم من أنحاء العالم الاسلامى ، شوقا للمعرفة سعيا وراء العلم · كانت المسائل — وأغلبها تتصل بالفلسفة والتصوف — تطرح للبحث فيجيب عليها شيخ الجماعة ، فيقيد الطلاب الأجوبة فى دفاترهم ، وكثيرا ما كان يتدخل الشيخ ، اذا اتسع النقاش سواء لابداء رأيه السديد ، أم هداية طالب حائر حاد عن الطريق المعقول وتاه فى مهامه الفكرى العويصة ·

* « **رسالة فى ضلالات الفقهاء فى المناظرة** » :
* « **المحاضرات والمناظرات** » ·

وردت مقتطفات منه فى المسامرات والمحاضرات لابن العربى ·

* « **الاقنـــاع** » :

ذكره صاحب كشف الظنون ·

* « **التذكرة التوحيدية** » :

ذكره صاحب غرر الخصائص ·

(ج) الآثار الصـــوفية

* « **الاشارات الالهية والأنفاس الروحانية** » :

مخطوط فى جزءين ، حفظ الجزء الأول منه فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، كتب سنة ٤٧١ هـ وله مختصر فى مكتبة برلين مؤلف من ٥٤ رسالة فى المواعظ والأدعية الصوفية « المستحسنة البليغة » الموجهة الى مريدى التوحيدى وطلابه · وقد ألفه فى الدور الأخير من حياته أى بعد أن تجاوز الستين بل السبعين من عمره وهدأت ثورة نفسه الجامحة ، وجنح الى حياة روحية صرفة هدفها الاتجاه نحو الله منبع الخير والحق

والجمال والنظر اليه يعين العقل المجرد والقلب المضاء بالايمان المطلق والوجه الصوفى المحرق ٠

* « الحج العقلى اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى » :

كتاب مفقود ، ذكره ياقوت ، ويقول صاحب روضات الجنات : ان كتاب الحج العقلى « نظير ما كتبه حسين بن منصور فى كيفية حج الفقراء من اختراعات نفسه المخذولة ، فصار عمده السبب فى قتله » ويقول : مارجليوث : « ان عنوان الكتاب يوحى بالزندقة التى قتل من أجلهـــا الحلاج » ٠

* « الزلـــفى » :

ذكره صاحب معجم الأدباء ، وذيل تجارب الأمم ٠

* « رسالة فى أخبار الصوفية » :

ذكرها صاحب معجم الأدباء ، « ونظيرها الرسالة القشيرية » ٠

(د) كتب التراجم والجدل

* « رسالة فى بيان ثمرات العلوم » (٤٢) :

* « رسالة الامامة » (المعروفة برواية السقيفة) ٠

* المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى ابن يونس القنائى (٤٣) ٠

(هـ) كتب مجهولة المضمون

* « الرسالة البغدادية » :

ذكرها صاحب معجم الأدباء ٠

* « رسالة لأبى بكر الطالقانى » : رواها عن أبى حيان التوحيدى ٠

ذكرها بروكلمان ٠

* « رسالة الى أبى الفضل بن العميد » :

ذكرها بروكلمان ٠

ليالى الامتاع والمؤانسة

يدور السمر فى كتاب الامتاع والمؤانسة على ليال ، لكل ليلة موضوع رئيسى يحدده الوزير بسؤال يلقيه ، لكن سرعان ما يستطرد ويتشعب فيتناول أمورا كثيرة منوعة ، وغالبا يختتم « بملحة وداع » — وفيما يلى موجز سريع لأهم ما دار من أحاديث خلال الليالى الثمانى والثلاثين ·

— ففى الليلة الأولى جرى السمر حول متعة الحديث ، وخصائص الحديث الجيد ، وخلاصة الرأى هنا أن الحديث الجيد هو الذى يجرى على أحكام العقل ويشتمل على فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ، وان الانسان ليشأم من كل شىء الا من الحديث الطلى ، ففى المحادثة تلقيح للعقول ، وترويح للقلب ، وتسريح للهم ، وتنقيح للأدب ، وأما الموضوعات العرضية التى تناولها الكلام فى الليلة الأولى ، فتحديدات لغوية تفرق بين معنى كلمة « عتيق » ومعنى كلمة « قديم » وذلك بمناسبة المقارنة بين الحديث الذى يكون فيه جديد والحديث الذى يذكر القديم ، « التعجب كله منوط بالحادث ، وأما التعظيم والاجلال فهما لكل ما قدم » · وكذلك تنـاول أبو حيان بالتحديد معانى هذه الكلمات : حادث ، ومحدث ، وحديث ، وأخيرا ختمت الليلة بملحة الوداع ، وهى نكتة عن بناء بنى جدارا لرجل ، وبينما هما مختلفان على الأجر ، سقط الجدار ، فقال الرجل للبناء : هذا عملك الحسن ؟ فقال البناء وهل أردت أن يبقى الجدار قائما ألف سنة ؟ فأجاب الرجل : لا ، ولكن كان يبقى الى أن تستوفى أجرتك ·

— ويدور حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة حينذاك فى العلم والأدب ، يصفهم أبو حيان الوزير ويقول رأيه فيهم ، فمنهم أبو سليمان المنطقى الذى يقول عنه : « أما شيخنا أبو سليمان المنطقى فانه أدقهم نظرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنها ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز ·

ومنهم ابن رزعة ، فهو « حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة » ومنهم ابن الخمار ، وابن السـمح ، والقومسى ، ومسكويه الذى يصفه بقوله : « فقير بين أغنياء ، وعى بين أبيناء ، لأنه شاذ ·· » ومنهم عيسى ابن على ، ونظيف ، ويحيى بن عدى ، ويقول عنه : « انه مشوه الترجمة ردىء العبارة ، ولكنه كان متانيا فى تخريج المختلفة ·· » — أى فى تخريج المسائل المختلفة ·

فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آراء هؤلاء العلماء فى « النفس » فاخذ أبو حيان يفصل القول في ذلك ، وملخص ما قاله أنهم متفقون على أن النفس جوهر خالد ، وكان من أدق ما قاله كذلك فى العلم بمسائل الحكمة أنه وسط بين اليقين الكامل وبين اليأس من المعرفة ، وكذلك قال فى علم الطب انه وسط بين الصنواب والخطأ وفى الحياة أنها وسط بين السلامه والعطب ، وكذلك فرق أبو حيان بين العلم والتعليم ، « فالعلم صورة المعلوم فى نفس العالم ، وأنفس العلمـاء عالمة بالفعل ، وأنفس المتعلمين عالمة بالقوة ، والتعليم هو ابراز ما بالقوة الى الفعل ، والتعليم هو بروز ما هو بالقوة الى الفعل » ـ وختمت الليلة بأربعة أبيـات فى الغزل ·

ـ وفى الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجال السوء ، فبهرام «رجل مجوسى معجب ذميم ، لا يعرف الوفاء ولا يرجع الى حفاظ» وابن كخيا « رجل نصرانى أرعن خسيس ، ما جاء يوما بخير قط لا فى رأى ولا فى عمل ولا فى توسط » وهكذا ·

ـ وتدور الليلة الرابعة كلها تقريبا على الحديث عن ابن عباد ، يسأل الوزير أبا حيان رأيه فى ابن عباد وما يقال فى ذمه أحيانا ، فيقول أبو حيان : « ان الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ·· » ويمضى فى تحليل شخصيته تحليلا مسهبا ، ويقول عنه انه يمدح نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، فهو محب للثناء لدرجة الاسراف ، وهو مزيج من عقل وحمق ، ويأخذ أبو حيان فى مقارنته بابن العميد ، ويصف ابن عباد بمرض النفس ، « فللنفس أمراض كأمراض البدن » ، وهكذا أعطانا أبو حيان صورة مفصلة عن جوانب ابن عباد : فضائله وعيوبه ، ومما ورد فى هذه الليلة كذلك ذكر لأعلام العلماء والأدباء وما يمتاز فيه كل منهم ، فالخليل فى العروض ، وأبو عمرو بن العلاء في اللغة ، وأبو يوسف فى القضاء والاسكافى فى الموازنة ، وابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وابن مجاهد فى القراءات ، وابن جرير فى التفسـير ، وأرسطوطاليس فى المنطق ، والكندى فى الجـوهر الفرد (الجزء الذى لا يتجزأ) ، وابن سيرين فى العبـارة ، وابو العيناء فى البديهـة ، وابن أبى خـالد فى الخط ، والجاحظ فى الحيوان ·· الخ ·

ومن أصدق ما جاء فى حديث هذه الليلة ، قول أبى حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأدبية مع التواضع فى تقديره لنفسه ، قال : « ليس شيء أنفع للمنشيء من سوء الظن بنفسه ، والرجوع الى غيره ، وان كان دونه فى الدرجة ، وليس فى الدنيا محسوب (أى ليس فيها أحد)

الا وهو محتاج الى تثقيف ، والمستعين أحزم من المستبد .. » ومن لطيف ما قاله فى التفرقة بين كتاب يكتب وحديث يقال ، ان الكاتب لا يشفع له خطأه أن يكون قد أسرع فى الكتابة ، فليس يعلم القارىء أأسرعت فى كتابة ما كتبت أم أبطأت « وانما ينظر أصبت فيه أم أخطأت وأحسنت أم أسأت » .

ـ وفى الليلة الخامسة عود الى الحديث عن ابن عباد ، ثم الحديث عن أبى اسحق الصابى ، أما ابن عباد فقد نجح رغم عيوبه لأن أحدا لا يقول له خطأت ، فمن كان محدودا جعل الناس خطأه صوابا ، وأما أبو اسحق الصابى « فانه أحب الناس للطريقة المستقيمة .. وانما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو » .

ـ وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم : فالفرس تقتدى ولا تبتكر ، والروم لا يحسنون الا البناء والهندسة ، والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا روية ، والترك سباع للهراش ، والهند أصحاب وهم وشعوزة ، وأما العرب فقد علمتهم العزلة التفكير ، وساعدتهم بيئتهم على دقة الملاحظة ، وهم ذوو قيم خلقية عليا ..

ومن رأى أبى حيان أن الفضائل موزعة بين الأمم ، واذا وصفت أمة بفضيلة أو برذيلة ، فلا يكون ذلك الا على سبيل التعميم فى القول ، ولذلك اذا أريدت مقارنة بين أمة وأمة وجب أن يفاضل بين الكامل فى كل منهما أو بين الناقص فى كل منهما ، وان تعصب الانسان لقومه ليجعل من العسير عليه أن يقول أى الأمم أفضل من سواه فلكل أمة عصر تعلو فيه ثم يجىء عصر آخر فتعلو أمة أخرى ، وهكذا ، وليس من الانصاف أن نقارن أمة ابان صعودها بأخرى ابان هبوطها .

على أن أبا حيان يعود فيخص العرب بالثناء ، ويتناول بحديثه اللغة العربية : انه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد فى أى منها « نصوع العربية ، أعنى الفرج التى فى كلماتها ، والفضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها ... الخ » ، ويتصدى أبو حيان لما قاله الجيهانى فى ذم العرب ليتولى الدفاع عنهم أمجد دفاع وأبلغه .

ـ وفى الليلة السابعة مقارنة بديعة بين علم الحساب والبلاغة أيهما أنفع ـ أو قل بين العلوم الرياضية وفنون الأدب ـ فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية ، لأن الأولى جد والثانية هزل ، والأولى مستندة الى مبدأ موصولة بغاية حاضرة الجدوى ، أما الثانية فزخرفة وحلية ، والأولى شبيهة بالماء والثانية شبيهة بالسراب ، ولئن اكتفت الدولة بكاتب واحد ، فلا يكفيها مائة محاسب .

ويرد أبو حيان بقوله انه لا غنى للحساب نفسه عن الانشاء ، وان البلاغة مستندة الى عقل ، لأن بها تقام الحجة ، فهى تبدأ بأفكار عقلية ثم تمر خلال ألفاظ ، وأخيرا تستقر فى خط ، وأما أن الدولة يكفيها منشىء واحد فليس حجة على شى ، لأننا نحتاج الى خياطين أكثر مما نحتاج الى اطباء ، ولا يدل ذلك على أن صناعة الطب دون صناعة الخياطة ، وليس صحيحا أن الكلام الملحون يؤدى المعنى ، لأن المعنى يتغير دائما بتغير الاعـراب .

ـ أما الليلة الثامنة فقد رويت فيها مناقشة فلسفية دقيقة عميقة كانت قد دارت بين أبى سعيد السيرافى وأبى بشر متى بن يونس القنائى فى حضرة الوزير ابن الفرات عن المنطق اليونانى والنحو العربى (وهى مناقشة وردت أيضا فى كتاب المقابسات لأبى حيان التوحيدى) وخلاصه الرواية أن الوزير ابن الفرات كان قد سأل مجالسيه ذات يوم ان كان بينهم من يستطيع أن يتصدى لمناظرة أبى بشر متى فى المنطق ، فانه يقول ان « لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشـــبهة والشك من اليقين الا بالمنطق » ، فاستجاب أبو سعيد السيرافي لدعوة الوزير ثم واجه متى فقال : حدثنى عن المنطق ما تعنى به ؟ فقال متى : أعنى به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فانى أعرف به الرجحان من النقصان ، فقال أبو سعيد ردا على ذلك ان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل ، وكأنما أبو سعيد يريد بذلك أن يقول ان صورية المنطق وحدها لا تغنى ، اذ لابد من معرفة بحقائق المواد المرتبط بعضها ببعض بتلك الصور ، والتشبيه بالميزان ناقص ، لأن من الأشياء ما لا يوزن ، واذا كان المنطق الأرسطى ملزما لمن يتكلم اللغـة اليونانية فليس هو بملزم لمن يتكلم العربية .

فيرد متى قائلا ان المنطق يعنى بالمعقولات ، والناس فى المعقولات سواء ، فأربعة زائد أربعة تساوى ثمانية عند اليونان وعند العرب وعند غيرهما من الأمم على السواء ، فيعود أبو سعيد الى الكلام قائلا : ان التشبيه بأربعة وأربعة وأنها تساوى ثمانية عند الأمم هو تشبيه لا يؤدى المعنى ، لأن حقائق الرياضة بينة ، على خلاف المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ، على أننا اذا كنا نعنى بالمعقولات تلك المعانى التى يوصل اليها باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، فقد لزمت الحاجة الى معرفة اللغة ، فكيف ندرس منطق اليونان دون لغتهم ، فضلا عن أننا ننقل المنطق اليونانى عن اللغة السريانية ، والمعانى انما يصيبها التحول عند الترجمة من لغة الى لغة؟

وهنا يقول أبو بشر متى ان الترجمة عن اليونان تكفينا في هذا الصدد . ويعود أبو سعيد الى الرد قائلا : افرض ان الترجمة تكفينا فى ذلك ، فهل اقتص اليونان دون سواهم بالعقل ؟ أليس العلم مقسما بين الأمم ؟ أليس اليونان كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون ومع ذلك فليس واضع المنطق أمة بأسرها ، بل هو رجل واحد ، هذا الى أن منطقه لم يغير من العالم شيئا ، لأن الأمر مرهون بالفطرة ، وحال الناس من حيث الفطرة هى بعد ظهور المنطق كما كانت قبل ظهوره ، اننا نعلم ان عقول الناس متفاوتة فكيف تزعم ان فى وسع المنطق أن يسوى بينها جميعا ؟

ويسأل أبو سعيد مناظره فيقول : هل فى وسع المنطق الأرسطى أن يدلنا على معانى حرف الواو فى اللغة العربية ؟ فقال له متى : هذا نحو وليس هو من شأن المنطق ، فأجابه أبو سعيد بأن المنطق هو نحو والنحو هو منطق ، فاذا كانت المعانى مشاعا بين الأمم ، فلا تكون يونانية ولا هندية ، وانما يكون الاختلاف فى اللغة التى يعبر بها كل قوم عن تلك المعانى ، اذن فدراسة اللغة لا مندوحة عنها ، ويضرب أبو سعيد مثلا بالحرف فى اللغة العربية : الواو والباء وحرف « فى » فلكل منها أحكام تقضى بها قواعد اللغة العربية ، وليست هى نتاجا للعقل اليونانى ، مما يبين أنه لابد للمنطقى من دراسة اللغة التى بها يكون التفكير ، فالنحو يمس المعانى ولا يقتصر أمره على اللفظ .

انه بغير مادة الفكرة لا يوصل الى حل لأية مشكلة ، فالمنطق فى صوريته المجردة لا يرفع خلافا بين متناظمين ، ولا يؤدى بصاحبه الى معتقدات بعينها ، وخلاصة القول عند أبى سعيد السيرافى أن دراسة المنطق دون دراسة اللغة العربية لا تجدى نفعا .

وبعد الفراغ من هذه المناقشة الفلسفية ينتقل الحديث فى تلك الليلة الثامنة الى وصف لشخصية أبى سعيد السيرافى والى آخرين غيره كأبى على النحوى ، وعلى ابن عيسى وطائفة من الشعراء ، ثم يتناول الحديث مسكويه ، وابن نباته وغيرهما ، فكأنما هى سجل حافل لحركة علمية ثقافية واسعة المدى .

ـ وفى الليلة التاسعة أوصاف دقيقة لصنوف الحيوان وما تتميز به ، وكيف أن صفات الحيوان موجودة مثلها فى الانسان ، اذ فى الانسان وحده تتجمع صفات الحيوانات كلها ، فهو اذن مختلف عنها لا بالنوع ولكن بكثرة ما فيه من صفات ، تجمعت فيه وتفرقت فى الحيوان ، فللسبع والفأرة صفة الكمون ، وللذئب صفة النبات ، وللخنزير صفة الحذر ، وهكذا ، وانظر مثلا الى الصفات التى لابد من توافرها فى القائد تجدها كلها مما يتصف به الحيوان أيضا : « ينبغى للقائد العظيم أن يكون فيه

عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وجملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركى ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن « بعروا » — وهى دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء » ٠

نعم ، ان من أهم ما يفرق بين الحيوان والانسان أن الأول يعمل مدفوعا بالهام على حين أن الثانى يعمل بعد اختيار ارادى منه ، لكن للانسان من الهام الحيوان نصيبا ، كما أن للحيوانات من اختيار الانسان نصيبا ٠

وذكر أبو حيان أن للانسان أنفسا ثلاثا : النفس الناطقة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية وان لكل نفس منها أخلاقها ، فمن خصال النفس الناطقة أن تبحث عن حقيقة الانسان والكون والله ، وكذلك من وظائفها أن تضبط نوازع النفسين الأخريين ، وبعد ذلك أخذ أبو حيان يتناول الفضائل وأضدادها واحدة واحدة ليحدد مقوماتهـا وعناصرها ، فما الحسن وما القبيح ؟ ما الصواب وما الخطأ ؟ ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الجور ؟ ما الشجاعة وما الجبن ٠٠ الخ ٠

ويختتم أبو حيان القول فى الأخلاق بأن يصنف الناس من حيث أخلاقهم بحسب أمزجتهم ، فاذا غلبت الحرارة على الانسان كان شجاعا بذالا ملتهبا سريع الحركة والغضب قليل الحقد زكى الخاطر حسن الادراك ٠

واذا غلبت عليه البرودة كان بليدا غليظ الطباع ثقيل الروح ٠

واذا غلبت عليه الرطوبة كان لين الجانب سمح النفس سهل التقبل كثير النسيان ٠

واذا غلبت عليه اليبوسة كان صابرا ثابت الرأى صعب القبول ٠

ومما هو جدير بالذكر عن هذه الليلة أن أبا حيان يذكر فيها أنه قد أضـاف من عنده فى الكتابة ما لم يرد فى غضون الحديث ، وذلك استكمالا للموضوع ٠

— وفى الليلتين العاشرة والحادية عشرة قرىء بحث عن خصـائص الحيوان ، منها ما هو فسيولوجى ومنها ما هو متصل بالطباع ٠

— وفى الليلة الثالثة عشرة (٤٤) قرىء بحث فلسفى عن النفس ، فهى تعمل بغير عضو خاص من أعضاء البدن ، ولذلك فهى لا تفسد بفساد البدن ، هى جوهر لا مادى ، وغير قابل للمقاييس الكمية ، ينتقل الحديث الى الحركة ، فهى اما من داخل : وعندئذ تكون أحيانا ، أو من خارج : وعندئذ تكون اما حركة داخلية تسكن أحيانا ، أو من خارج : وعندئذ تكون اما حـركة بالدفع من خلف أو بالجر من أمام ، وحـركة الجسم

الانسانى انما تكون بفعل نفس ، واذن فالنفس حية ، وهى جوهر قابل لأن تطرأ عليه الأضداد دون أن يتغير هو فى جوهريته ، قوام النفس بذاتها لا بكونها حالة فى بدن ، ومن الفوارق بين الجسم والنفس أن الجسم لا يقبل صورة الا اذا زالت عنه الصورة التى كانت حالة فيه ، لأن الضدين لا يجتمعان فيه ، أما النفس فتقبل الصور الأضداد دفعة واحدة ٠

ـ أما الليلة الرابعة عشرة فتبدأ بمعنى السكينة وأنواعها ، فهناك سكينة طبيعية وأخرى نفسية وثالثة عقلية ورابعة الهية ، أما الطبيعية فهى اعتدال المزاج فى العناصر الطبيعية ، وأما النفسية فهى ما نسميه بالروية حين تأتى مماثلة لحكم البديهة ، والسكينة العقلية هى فى التئام الخواطر والأفكار وأما السكينة الالهية « فلا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحلم فى الانتباه ، وكالاشارة فى الحلم وليست حلما ولا انتباها فى الحقيقة » أى أنها سكينة روحانية ٠

وبعد ذلك ينتقل الحديث الى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف فيه من صفات وخصائص ، فكلها مشترك فى الفطرة الواحدة ، وتأتى بعد ذلك أوجه الاختلاف ، فاليونان يميزهم الفكر ، والهند يميزهم الوهم (أى الخيال) والعرب ميزتهم الفصاحة ، والفرس السياسة ، والترك الشجاعة ٠

ـ وفى الليلة الخامسة عشرة حديث فلسفى عن « الممكن » و « الواجب » حكى فيه التوحيدى عن ابن يعيش الرقى رأيه فيهما ، فقال : « الممكن شبيه بالرؤيا لا بدن له يستقل به ، ولا طبيعة يتحيز فيها وكما أن الرؤيا ظل من ظلال اليقظة ، والظل ينتقص ويزيد اذا قيس الى الشخص ، كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب ، فطورا يزيد تشابها للواجب ، وطورا ينقص تشابها للمنع ، وطورا يتساوى بالوسط » « والواجب (ويقصد به فى المصطلح الفلسفى ما هو ضرورى الوجود) لا عرض له ، لأنه حد واحد ، وله نصيب من الوحدة بدليل أنه لا تغير له ولا حيلولة بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل » ٠٠ الخ ٠ ثم ينتقل الحديث بعد ذلك الى نقطة فلسفية أخرى ، هى التفرقة بين العقل والحس ، فالأول ثابت والثانى متغير ، ومما قاله فى ذلك أن العقل يوصف بشهادة الحس وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل ، « الا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد » و « العقل يحكم فى الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصور الرفيعة » بالقياس الى الحواس التى

تتعلق بالفاسدات البائدات المتغيرات ، وبعد ذلك انتقل الحديث الى مسائل لغوية ..

ـ وفى الليلة السادسة عشرة حديث عن الجبر والقدر ، تعليقا على كتاب العامرى المعنون « انقاذ البشر من الجبر والقدر » .

وبهذه الليلة انتهى الجزء الأول من كتاب الامتاع والمؤانسة .

ـ ويبدأ الجزء الثانى بالليلة السابعة عشرة ، وفيها بحث لغوى عن الكلمات التى على وزن تفعال (بكسر التاء) وتفعال (بفتح التاء) .

ثم ينتقل الحديث فيها عن اخوان الصفا ، ويقال ان هذا هو النص الوحيد الذى كشف لنا عن أفراد هذه الجماعة التى ألفت « رسائل اخوان الصفا » المشهورة فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ثم نقله القفطى وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن اخوان الصفا ، وعن هذه الجماعة الفلسفية يقول التوحيدى هنا : « وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله والمصير الى جنته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة .. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، وكتموا أسماءهم ... » .

وعقب على ذلك التوحيدى بذكر بعض الآراء فى تلك الرسائل ، ومنها ما يدحض قولهم فى أن الشريعة من الفلسفة ، لأن الشريعة وحى الهى ، نسلم بها ولا نعللها ، وهى لا تخضع للمقادير ، ولا تشبه العلم الطبيعى ولا علم الهندسة ، ولا تحتاج الى المنطق ، وعند الاختلاف على شىء فى العقيدة لا نلجأ الى العلم « فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ، والعقل وحده لا يكفى ولابد معه من وحى ينزل على نبى فوق الفيلسوف .

ثم يورد أبو حيان رد المقدسى على هذا كله ، « فالشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء » ـ ثم رد الحريرى على المقدسى فى مقارنة الشريعة بالفلسفة ، ويورد كذلك رأى أبى سليمان المنطقى القائل بأن الشريعة والفلسفة كلتيهما حق ، دون أن تكون احداهما مأخوذة من الأخرى ، وقد تجتمع الشريعة والفلسفة فى رجل واحد وقد تظهر كل منهما على حدة .

وينتقل الحديث بعد ذلك الى استطرادات فى الحكمة وفى خصائص الحيوان وغير ذلك .

ـ والليلة الثامنة عشرة حديثها مجون وهزل ٠

ـ والتاسعة عشرة فيها أقوال حكيمة قرئت على الوزير ٠

ـ والعشرون تشتمل على أحاديث نبوية ٠

ـ والليلة الحادية والعشرون تتناول موضـــوع الغناء والموسيقا ، فلماذا تؤثر الموسيقا فى العقل ؟ وفيها حديث عن حاستى السمع والبصر ٠

ـ وأما الليلة الثانية والعشرون فقد دار الحديث فيها حول موضوع فلسفى عويص ، هو موضوع الجزئى والكلى وادراكهما والعلاقة بينهما ، وهل أبـرع ما قاله حيـــان فى ذلك ـ نقـلا عن أبى الحسن العامرى ـ « الكلى مفتقر الى الجزئى ، لا لأن يصير بديمومته محفوظا ، بل لأن يصير بتوسطه موجودا ، (أى أن الكلى بحاجة الى الجزئى للتجسد فيه وجودا فعليا ، والجزئى بحاجة الى الكلى ليدوم) ٠

ـ ومما قاله فى الكلى والجزئى أيضا أن « ما هو أكثر تركيبا فالحسى أقوى على اثباته ، وما هو أقل تركيبا فالعقل أخلص الى ذاته » ٠

وفى هذه الليلة أيضـــا حديث عن مشكلة الواحد والكثير ، وهى مشكلة معروفة فى الفلسفة ، وذات علاقة بالكلى والجزئى ، وفيهـــا أيضا حديث عن أنواع الخطاب : خطـــاب العاقل للعاقل ، وخطـــاب العاقل للأحمق ، وحديث عن « العادة » ، وحديث عن الفقر ومعناه الصحيح ، فليس الفقر فى قلة المال ، بل هو فى كثرة الشهوات وان كثر المال ٠

ـ وفى الليلة الثالثة والعشرين روايات عن النبى عليه السلام ٠

ـ وفى الرابعة والعشرين أحاديث عن الحيوان والنبات : أين تكون مواطنها وما طبائعها ؟ ثم حديث عن الروح والنفس ٠

ـ وأما حديث الليلة الخامسة والعشرين فمناظرة بارعة فيها موازنة بين النظم والنثر ، فبعد مقـــدمة طريفـة عن كون الحديث فى موضوع النظم والنثر كلاما على كلام « كلام على الكلام صـــعب ٠٠ لأنه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق ، وكذلك النثر والشعر » ٠

ثم رويت آراء تحبذ النثر وتفضله على الشعر : فالنثر أصل والنظم فرعه ، والكتب المنزلة منثورة ، والوحدة أظهر فى النثر منها فى الشعر ، والنثر طبيعى صناعى ، وترتيب الكلام فى النثر لا يحتاج الى تكلف والنثر من قبل العقل ، ونجوم السماء منثورة ، والأحاديث النبوية نثر ٠

وبعد ذلك رويت آراء فى تفضيل الشعر ، فله صناعة تقتصر على القلة ، أما النثر ففى وسع الجميع ، والنظم صالح للغناء والحداء ، وشواهد النحو واللغة لا توجد الا فى الشعر ، والشعراء هم الذين ظفروا بجوائز الخلفاء ·

وتختتم المحاورة برأى معتدل ، فلكل من الشعر والنثر فضـــائله ، ولكل منهما بلاغة ·

ـ وفى الليلة السادسة والعشرين مجموعة من أمثلة ·

ـ وتروى الليلة الســـابعة والعشرون مجموعة من قصص ونوادر تدل كلها على أثر المصادفات فى مجرى الحياة ، ثم تحكى عن الفال والطيرة

ـ وفى الثامنة والعشرين ذكر طائفة من أصحاب الطرب ·

ـ وفى التاسعة والعشرين وفى الثلاثين بحوث لغوية ·

ـ وفى الحادية والثلاثين كلام فى الحرب ، وكلام فى العقـــل والجنون ·

وبهذه الليلة ينتهى الجزء الثانى ·

ـ ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن الطعـام والطاعمين ، فيـدور الحديث فى ذلك خـــلال ثلاث ليال : بقيـــة الليلة الحادية والثلاثين ، ثم الليلة الثانية والثلاثين ، والثالثة والثلاثين ·

ـ وفى الرابعة والثلاثين حديث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فلابد للحاكم العاقل أن يفتح صدره لما يقوله الناس عنه ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هى كالعلاقة بين الوالد وولده ·· الخ ·

ـ وفى الخامسة والثلاثين حديث فى الجبر والاختيار ، وفى الحب والشهوة ، وفى النفس والروح ·

ـ وتدور الليلة السادسة والثلاثون حول بحوث لغوية ·

ـ والسابعة والثلاثون حول بعض الصفات الخلقية وتحديد عناصرها المكونة لها ·

ـ وفى الثامنة والثلاثين ، والتاســعة والثلاثين ، والأربعين نوادر وأحاديث فيها فطنة وسرعة خاطر ·

ويختتم الكتاب برسالتين يوجههما أبو حيان التوحيدى الى الوزير ، ثم برجاء يوجهه الى أبى الوفاء المهندس متوسلا مستغيثا ·

طوق الحمامة في الألفة والإيلاف

ابن حزم

١٠٢٦ م

في مزرعة خصبة من مزارع الأندلس ، غصين الاسلام الرطيب ، كان يقيم عالم شيخ قد تجاوز السبعين من عمره أقصاه الملوك عن قربهم الى أن انتهوا به الى هذه المزرعة وهو لا ينى عن نقدهم ، حرقوا الكثير من كتبه وقطعوه عن الناس فلم ينثن عن لومهم وكلما زادوه اعناتا زادهم عنفا فى القول والقلم . والشباب من طلاب العلم ينتقلون الى مستقره ، لا يخافون عقابا ولا يرجون من أولى الأمر ثوابا ، لينتهلوا من ذلك المنهل والشيخ يحدثهم ويعلمهم الفقه والأدب والتاريخ ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف حتى ينتهى أجله فى شعبان من سنة ٤٥٦ هـ فتكون تلك المزرعة الخصبة مثواه الأخير .

ذلك العالم العنيد القوى هو على بن سعيد بن حزم وكان يسمى أبا محمد .

★★★

هو أبو محمد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم ويلقب بالقرطبى نسبة الى موطن ولادته ونشأته ، كما يلقب بالظاهرى نسبه الى المذهب الفقهى الذى اشتهر به . وأصول ابن حزم تحيط به ظلمة كثيفة فيقال : ان أسرته تنحدر من أصل فارسى ، حيث ينتهى نسبه الى رجل من أهل فارس اسمه يزيد كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ويقال : ان أسرة ابن حزم من أصل أسبانى وان جده الأدنى كان حديث عهد بالاسلام ويبدو أن هذا القول هو الأقرب الى الصواب ، لأننا لا نعرف للموالى نسبا محققا ولأننا لا نجهل ما كان من انتحال كثير من الأنساب العربية ما أمكن فان لم يمكن فلتكن أنساب موالى العرب كل ذلك ليرتفع قدر منتحل النسب فيكون فى طبقة الغالبين الفاتحين . ومما يرجح هذا الرأى فى أصل ابن حزم ميل ابن حيان المؤرخ الأندلسى اليه (٤٥) وقد كان ابن حيان معاصرا لابن حزم فلعل ابن حزم أو أحد تلاميذه اصطنع هذا النسب الذى ينتهى الى فارس ويرفعه الى مرتبة الفاتحين ، لأننا نستكثر على ابن حزم الفقيه الدقيق ان يصطنع نسبا غير صحيح .

ومهما يكن من أمر ، فأسرة ابن حزم كانت تعيش أولا فى اقليم لبلة (٤٦) وفى بلدة كانت تسمى (منت ليثم) وأصبحت تسمى اليوم (منتيجار) أو « كاسا منتيخا » وكانت تلك الأسرة أسرة متواضعة تعيش على ما تغله الأرض من الرزق ، ثم تطلعت عيونها الى أضواء العاصمة وتحركت بهذا القانون الاجتماعى الذى يجذب الناس الى العواصم فقررت

الانتقال الى قرطبة وكان ذلك فى زمن سعيد بن حزم جد عالمنا أبى محمد . والأنباء التى لدينا عن حياة سعيد هذا بقرطبة غامضة ، وعلى العكس من ذلك أنباء ابنه أحمد فهى أكثر وأوضح . وأحمد هذا هو والد عالمنا أبى محمد بن حزم ، فمن المعروف عن أحمد بن سعيد أنه كان أديبا بارزا ، وعالما صالحا ، واداريا حازما وكان الى ذلك كله ذا مهارة عظيمة فى الاتصال بالأوساط وكسب ثقة الحكام . فسرعان ما تقدم الى صفوف الاداريين واستمر فى تقدمه حتى كان وزيرا للمنصور ابن أبى عامر وهنا ارتفعت منزلته درجات وانتقل بيته من بلاط مغيث غربى قرطبة الى مدينة الزاهرة شرقى العاصمة ، حيث قصر الحاجب القابض على زمام الأمور . وكانت لباقة أحمد بن سعيد عظيمة للغاية فقد استطاع أن يكسب ثقة المنصور ، مع الاحتفاظ بالولاء الصادق للخليفة الأموى ومن هنا ، ظل محتفظا بمكانته عند الحاجب والخليفة جميعا وظل بيته من البيوت الرفيعة بين بيوت الوزراء والمرموقين .

فى هذا البيت ولد على بن حزم سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) ونشأ فى تلك الأسرة التى تعتبر احدى الأسر الارستقراطية الجديدة التى كانت تعيش فى ترف وحسن مظهر وتأخذ مكانها فى أعلى مستوى بين الأسر القرطبية .

وقد قضى صاحبنا فترة صباه فى حريم قصر أبيه حيث عهد الى النساء بتربيته وتحفيظه القرآن .

ولعل السبب فى ذلك ما كان قد أصيب به وهو صغير من مرض قلبى أو لعل السبب هو فرط التدليل أو الترف أو لعله شىء غير هذا وذاك فهذا لا يعنينا كثيرا ، وانما الذى يعنينا هو أن ابن حزم نشأ فى هذه الفترة من حياته بين حريم القصور . وكانت نشأته مترفة ناعمة وكانت الى ذلك على كثير من المحافظة ورعاية الخلق القويم وقد أكسبته تلك البيئة النسوية كثيرا من الخبرة بأحوال النساء وأسرار نفوسهن ، كما أتاحت له تجارب عاطفية فتحت قلبه الغض على الحب والعشق ، كذلك أمدته تلك البيئة بكثير من قصص الغرام وأطلعته على عديد من أحوال العشق ووجهته منذ حداثته الى البحث فى فلسفة الحب .

أما ترف البيئة ونعومتها وأرستقراطيتها ، فقد طبعته على رقة المزاج ، ونعومة المشاعر ، وإباء النفس ، كما وجهته التربية المحافظة الى الأخذ بالسلوك القويم والبعد عن كل ما يشين ، برغم ما كان فى صدر حياته من مخالطة لصنوف النساء فى بيت أبيه وفى غيره من البيوت .

وبعد الخامسة عشرة تقريبا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم وهى مرحلة الخروج الى الحياة والتحصيل والدرس والتعلم

خارج البيت . وقد كان بدء هذه المرحلة حوالى سنة ٣٩٩ هـ حيث خرج أبو محمد الى مجالس العلماء فتردد على ابن الجسور وجلس الى الرهونى وانضم الى حلقات أبى قاسم المصرى وأخذ عن هؤلاء وغيرهم واتجه حينئذ نحو العلوم الدينية بنوع خاص وظل يواصل التحصيل فى قرطبة ، برغم ما بها من أحداث أوائل الفتنة ، حتى اضطرته أعمال العنف ومطاردة أنصار الأمويين الى الهجرة فترك قرطبة سنة ٤٠٤ هـ واختار مدينة المرية وهناك واصل درسه وتحصيله الذى بدأه فى قرطبة . ويبدو أنه فى المرية عنى بالدراسات الفلسفية والاسرائيلية ، حيث كان فى هذه المدينة جماعة من المشتغلين بالفلسفة وخاصة من أتباع مسرة ، كما كان بها أيضا الاسرائيليون الذين اضطر ابن حزم الى دراسة ديانتهم ، لينجح فى مناظرتهم .

ولكن الظروف لم تترك ابن حزم يفرغ للعلم الذى أخذ نفسه بتحصيله كأحسن ما يكون التحصيل ، بل دفعته الى بعض النشاط السياسى الذى ربما كان يجرف المفكرين فى تلك الآونة عن رضا حينا وعن سخط حينا آخر فقد قبض على ابن حزم فى المرية لما اشتهر به من الولاء للأمويين وسجن بها حينا ثم نفى فتوجه الى حصن القصر . ولما علم أن أمويا يدعى له فى بلنسية وهو عبد الرحمن الرابع الذى لقب بالمرتضى ، انتقل الى بلنسية ، ليكون فى نصرة الأمير الأموى الجديد ، ومعروف أن حرية هذا الأموى قد فشلت وان أنصاره كانوا بين قتيل وفار ومعتقل وقد كان الاعتقال نصيب صاحبنا ابن حزم حيث اعتقله صاحب غرناطة وسجنه حينا ثم أطلقه . وقد توجه ابن حزم بعد ذلك الى قرطبة سنة ٤٠٩ هـ بعد قيام القاسم بن حمود على الخلافة بها وسلوكه أول الأمر مسلك المهادنة والترضية واستأنف ابن حزم فى قرطبة حياته العلمية والأدبية حينا ، ثم دفعته الظروف الى السياسة من جديد فقد بويع فى قرطبة لاموى جديد هو عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ، وكان هذا الأموى محبا للمفكرين والأدباء فاستوزر بعضهم وجعل ابن حزم فى مقدمتهم ، ولكن المستظهر سقط بعد قليل وقام مقامه المستكفى فسجن ابن حزم حينا ولم يطلقه الا سقوط المستكفى وتقوض خلافته وخرج ابن حزم من السجن على عجز عن عمل أى شىء لنصرة بنى أمية وعلى مرارة مما لاقى من السياسة ، وربما كان على عزيمة أيضا للانصراف الى العلم فهاجر بعد قليل الى شاطبه فى شرق الأندلس وكان قد نضج علميا وفنيا وهنا ألف أعظم كتبه الأدبية « طوق الحمامة » ثم ألف أعظم كتبه العلمية « الفصل فى الأهواء والنحل » .

ثم سقطت الخلافة الأموية نهائيا بالأندلس وساد عصر الطوائف ، فلم يعد هناك من تيارات السياسة ما يجرف ابن حزم من جديد بعد انتهاء

دولة الأمويين الذين كان صاحبنا يكن لهم كل الولاء وصارت حياة ابن حزم خالصة للعلم وتنقلا مستمرا بين أقاليم الأندلس المختلفة ، وذلك لاشاعة علمه ونشر المذهب الظاهرى الذى تحول اليه وآمن به وقضى بقية حياته منافحا عنه · فقد كان أول الأمر مالكيا كأكثر فقهاء الأندلس ثم مال الى المذهب الشافعى حينا ثم تحول الى الظاهرية فى قوة والى النهاية ولعل هذا التحول كان سبب نفرته مما تورط فيه الفقهـــاء من التأويل الكثير والتحوير الشديد والاستنباط المتضـــارب ، كما كانت كراهيته لما كان عليه كثير من الفقهاء من نفاق ومجاراة للحكام واخضاع للنصوص حسب هوى المتسلطين سببا فى دفعه دفعا الى التمسك بالظاهر والاحتكام اليه ، لأنه شئ لا يمكن التلاعب به ولا المساومة عليه فكأن ظاهرية ابن حزم قد كانت رد فعل لظروف عصره وأحوال مجتمعه وما عاناه فى فترة الفتنة من محنة خلقية وعقلية ·

ومهما يكن من أمر ، فقد أبحر ابن حزم خلال تنقلاته الى جزيرة ميورقة وكان عليها أحمد بن رشيق نائبا عن مجاهد العامرى الذى كان يحكم جزر البليار ويؤثر البقاء فى دانية وانابة ابن رشيق عنه فى ميورقة · وفى تلك الجزيرة نشر ابن حزم مذهبه وأحدث ضجة علمية هائلة فكثر تلاميذه ومؤيدوه ومعارضوه ثم وفد على الجزيرة أبو الوليد الباجى وكان أحدث سنا من ابن حزم ، كما كان قريب عهد بالقدوم من المشرق ، وكان الى ذلك ركنا من أركان المالكية فى الأندلس فناظر ابن حزم ويبدو أنه كتل كثيرا من الفقهاء ضده ونفر حاكم الجزيرة منه وهنا اضطر أبو محمد الى ترك ميورقة والتنقل فى اقليم آخر من الأندلس وأخـيرا توجه الى أشبيلية حيث المعتضد بن عباد ، ولكن مقامه فى أشبيلية لم يطل وأغلب الظن أن اعتزاز ابن حزم وايمانه بنفسه لم يتح له أن يصبر كثيرا على العيش فى كنف المعتضد · وأغلب الظن أيضا أن منافسة الفقهاء له وتكتلهم ضده كانت من أسباب التعجيل برحيله عن مملكة المعتضد ولم يجد ابن حزم مستقرا أهدأ من موطن أسرته الأول فى اقليـــم لبلة حيث قضى بقيـة حياته فى التعليم والتأليف ، بعيدا عن المكايد التى عجزت عن ملاحقته فلاحقت كتبه ، اذ أحرقها فى أشبيلية علنا المعتضد بن عباد ، الذى كان قد ولى أشبيلية بعد موت أبيه والذى وقع تحت تأثير الفقهاء الحانقين على ابن حزم ، فارتكب هذه الفعلة المنافية لحرية الرأى واحترام كرامة العقل · ولكن تلك الحادثة لم تضعف من عزيمة ابن حزم بل قابلها بقوله :

فان تحرقوا القرطـاس لا تحرقـوا الذى
تضمنه القرطاس بـل هو فى صـدرى
يســـير معى حيث اســـتقلت ركائبى
وينزل ان انـزل ويدفـن فـى قبـرى

دعـــونى مـن احـــرق رق وكاغـــد
وقولوا بعلم كى يرى النـاس من يدرى
والا فعـــودوا فـى الماكتب بـــدباة
فكم دون ماتبغون للـــه من ســـتر

وظل ابن حزم يواصل رسالته العلمية الكبيرة ، حتى وافته منيته سنة ٤٥٦ هـ ، بعد أن عاش أكثر من سبعين عاما قضى معظمها فى النشاط العلمى والأدبى ٠

وقد وضـع ابن حزم كثيرا من المؤلفـات فى فنون مختلفة ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان فى المكتبة الأندلسية ، ولكن أيدى الزمن عدت على بعض مؤلفات ابن حزم ، واستطاع البعض الآخر أن يفلت من تلك الأيدى العادية وهذا البعض الباقى من أخصب وأدسم ما خلف الأندلسيون من تراث ٠

ففى الفقه والأصـــول ألف ابن حزم عدة كتب أهمهـــا كتـاب « الأبطال » الذى بسط فيه أبو محمد دقائق المذهب الظاهرى وله أيضـا كتاب « المحلى » الذى يناقش فيه أصول المذهب الشافعى ثم له كذلك كتاب « الخصال » الذى ضاع ، والذى يغلب على الظن أنه كان شرحا لأصول المذهب المالكى ، ثم كتاب « الايصال » ، الذى أوجز فيه ابن حزم ما بسطه فى كتاب « الخصال » ٠

وفى تاريخ الأديان خلف صاحبنا كتابه المشهور « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، وهو كتاب حافل بما فيه من تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب على اختلافها ٠ وقد قال المستشرق الأسبانى « أسين بلاثيوس » اننا لا نجد بين أيدينا وثيقة أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب « الفصل » لابن حزم ، فهو يمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذى لم يتوقف أبدا خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الأديان والمذاهب ٠ ففى ثنايا صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك النسيج المذهبى الذى تتألف منـــه الفلسفة الخالدة ، ذلك النسيج الذى صنعته أوفر عبقريات الاغريق حكمة بأيديها فى مهارة فائقة وعلى ضوء صفحاته نرى كيف يزداد النسيج سعة وامتدادا وكيف تدخل فى تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة ٠ وربما وجدنا أن هذه الأنسجة لا تضاهى نسيج الاغريق روعة وبريقا ، ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء ونراها تجود وتزداد احكاما بفضل ما أدخله عليها التفكير النصرانى الشرقى وما أضافه اليها المسلمون من مادة أوفر ٠ وقد كان المسلمون آخر من انتهت اليهم أطراف هذه العناصر كلها ولهذا ، قد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكرى المغنى ونتائجه ومن ثم لم يكن من العسير عليهم أن يسبقوا مفكرى النصـارى من أهل الغرب فى

تحليلها ووضع منهجها وأساسها اللذين سيقوم عليهما التفكير المنهجي « الاسكولاستي » في القرن الثالث عشر ·

وفي الفلسفة ألف ابن حزم كتابا في مراتب العلوم والمنطق وفي نقد أبي بكر الرازي وقد ضاعت كلها ، ولكن بقي لنا مما يستحق الذكر كتابه المسمى « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » وهو أشبه بسجل يوميات دون فيه ابن حزم ملاحظات منتزعة من تجاربه وخبراته في الناس والحياة · وهذه الملاحظات قد صاغها ابن حزم في تركيز ودقة فجاءت كأنها مبادىء عامة أو حكم بالغة ·

وقد قال المستشرق الاسباني « أسين بلاثيوس » عن أسلوب ابن حزم في هذا الكتاب : « وهذا الأسلوب الوعظي الحكمي الذي اتبعه ابن حزم ، يجعل كتابه هذا شبيها بحكم « ديمقراط » · ولا يخلو الكتاب ، مع ذلك ، من الفقرات الطوال كهذه القطعة الجميلة التي يذم فيها الغرور أو تلك التي يصارحنا فيها برذائل ونقائص أخلاقية يراها في نفسه ويقررها في تواضع ، يذكرنا باعترافات القديس « أوغسطين » · وفي مواضع أخر من الكتاب يصف ابن حزم أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية ويتجرد من الميل والهوى · وان الانسان ليشعر وهو يقرأ كلام ابن حزم في هذا المقام كأنه يطالع كتب الأخلاق التي كتبها « ثيوفراست » أو « لابروبير » أو يقرأ « مقالات في الأخلاق والسياسة لبيكون » ·

وفي التاريخ خلف ابن حزم عدة رسائل وكتب ومن ذلك : كتاب « جمهرة أنساب العرب » و « نقط العروس » ·

ولابن حزم أيضا رسالته المشهورة في « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » ، وهي رسالة كتبها ردا على ما ورد في خطاب بعث به ابن الريب التميمي القيرواني الى أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم · وكان هذا العالم القيرواني قد ذكر « تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم » فانبرى أبو محمد بن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم · فالرسالة تعتبر ثبتا لما ألفه الأندلسيون في مختلف العلوم ولمن نبغ منهم في شتى الفنون حتى أيام ابن حزم ·

ولأبي محمد كذلك في التاريخ « الامامة والخلافة » و « فهرست » ماكان له من شيوخ ويبدو أنهما من كتبه الضائعة ·

هذا ولم يكن ابن حزم عالما مبرزا فقط وانما كان أديبا شاعرا وناثرا أيضا · وقد مضت مؤلفات ابن حزم في الميدان العلمي ، أما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعا كتابه « طوق الحمامة » وسوف نفرد له كلمة حين نتحدث عن الأدب في هذه الفترة التي نسوق عنها الحديث ··

★★★

اهم مؤلفات ابن حزم

لا تكفي هذه العجالة لاحصاء مؤلفات ابن حزم ، ثم ان ما وصلنا منها مطبوعا أو مخطوطا لا يبلغ على كثرته الا نسبة ضئيلة من مجموع ما كتب وفيما يلي بيان أهم ما عرف من كتبه :

- « الفصل في الملل والأهواء والنحل » في خمسة مجلدات ·
- « طوق الحمامة في الألفة والايلاف » وهو من أمتع ما كتب عن الحب وماهيته وعلاماته ويعتبر دراسة نفسية أدبية من طراز فريد في بابه وقد ترجم هذا الكتاب الى عدد كبير من اللغات الأوربية ·
- « جمهرة أنساب العرب » وهو دراسة احصائية شاملة للقبائل العربية وانتشارها في العالم الاسلامي كله ·
- « نقط العروس في أخبار الخلفاء » وهو رسالة لطيفة جمع فيها احصائيات طريفة وأخبارا تاريخية قيمة عن خلفاء الاسلام في الشرق والغرب ·
- « الأحكام في أصول الأحكام » وهو دراسة شاملة في أصول الفقه على المذهب الظاهري والرد على المقلدين من المالكية ·
- « المحلى » في الفقه على مذهب الشافعية نشر في أحد عشر جزءاء ·
- « مجموعات رسائل ابن حزم » قام على نشرها الدكتور احسان عباس الذي نشر مجموعة أخرى بالاشتراك مع الدكتور ناصر الدين الأسد تحت عنوان « جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى » ونشر مجموعة ثالثة تحت عنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى » ·
- « ملخص أبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني ·
- « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ·
- « رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق » وقد نشرت عدة مرات ·

★★★

الرســـالة

« كلفتنى أعزك الله ـ أن أصنف لك رســـالة فى الحب ومعانيـه وأسبابه وأغراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة » ٠

هكذا يشرح ابن حزم موضوع رسالته التى عرفت فى تاريخ الأدب العربى باسم « طوق الحمامة » ٠

وابن حزم امام وفقيه وسياسى أندلسى ، عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، أى منذ حوالى ألف عام ٠ ويمكننا أن نعد هذه الرسالة محاولة عبقرية مبكرة فى علم النفس وتلتها محاولات أخرى فى تاريخ الأدب العربى مثل : « تزيين الأسواق » لداود الأنطاكى « وروضة المحبين » لابن قيم الجوزية « ومصارع العشاق » لابن السراج « وديوان الصبابة » لابن أبى حجلة ٠

ورغم أن مؤلف الرسالة رجل من رجال الدين ، الا أن ذلك لم يمنعه من ان يضع رسالة فى الحب وهو يبرر ذلك بقوله انه « لابد من استجمام النفس بشىء من الباطـــل ليكون عونا على الحق » وفى بعض الأثـــر : « أريحوا النفوس فانها تصدأ كما يصدأ الحديد » ٠

وفى أول الرسالة يشرح ابن حزم منهجه : فهو يلجأ للاســتدلال على ما يقول الى مصدرين هما تجربته الشخصية وحديث الثقات من أهل زمانه ، ولكنه لا يفصح عن أسماء فيما يرويه حفظا للأسرار والصداقات ، الا اذا كانت القصة مشهورة لا معنى لاخفاء أسماء أصحابها ٠

وقد قسم رسالته هذه الى ثلاثين بابا منهـــا عشرة فى أصول الحب واثنا عشر فى أغراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة وستة فى الآفات الداخلة على الحب ثم بابان ختم بهما الرسالة وهما باب الكلام فى قبح المعصية وباب فى فضل التعفف٠

★★★

والكتاب هو من أقدم الأبحاث العربية التى تناولت عاطفة الحب هذا التناول المنهجى المستقل المفصل والجميل فيه أن مؤلفه فقيه وكان المفروض أن يحجم عن الخوض فى مثل هذا الحديث الذى لم يتعود الفقهاء الخوض فيه ، ولكن طبيعة ابن حزم ونشأته من جانب وظروف عصره من جانب آخر ، قد جعلته يسطر هذا الكتاب الذى يفخر به الأدب الأندلسى · أما طبيعة ابن حزم فهى طبيعة صريحة جريئة تقول ما تعتقد وتعبر عما تحس ولا تعرف نفاقا أو التواء أو خوفا من الناقدين وقد حمل وحده عبء الدعوة للمذهب الظاهرى الذى آمن به ، ولم تثنه مخالفة آلاف الفقهاء ومعارضة جمهرة الأندلسيين ·

وأما نشأته فقد كانت نشأة تتيح لمثله أن يغرق فى الحب الى أذنيه ، وأن يحسه فى قلبه وفى قلوب المحيطين به كأشد ما يكون الاحساس ، ذلك انه نشأ فى وسط الحريم كما سبق أن بينا وخالطهن أشد المخالطة فى سنى حياته الأولى ، وقد أتاح له ذلك ادراك كثير من التجارب العاطفية كان هو بطلها حينا وكان غيره محورها حينا آخر ومن هنا جرب تلك العاطفة فى نفسه وكانت له معها تجارب وتتبعها فى غيره وكانت له معها دراسات ، ثم كانت تلك الظروف القاسية التى حملته على أن يهجر بلده وأن يعيش مهاجرا غريبا فى شاطبة · ومن شأن هذه الظروف أن تجعل مثل ابن حزم ينطوى على نفسه ويتذكر أيام مسرته ويستحضر ماضى قلبه ويستعرض ذكرياته عن نفسه وعن الآخرين · وهنا يكون فى الحب امرءا طبيعيا فهو حديث رجل صريح لا يعرف الخوف حين يذكر ما يعتقد وهو حديث خبير غنى بالتجارب والمشاهدات والأقاصيص ثم هو حديث أديب مهاجر غريب يحب ان ينفس عن نفسه بذكر ماضى قلبه وما يعرف عن قلوب الآخرين ·

وكتاب ابن حزم صنف فى هيئة رسالة رد بها على رسائل بعث اليه من مدينة المرية يسأله ان يصنف له رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة · وقد يكون الكتاب قد كتب فعلا بناء على طلب هذا السائل وقد يكون ابن حزم قد قدم بذكر هذا الطالب كتسويغ لتسطيره هذا الكتاب ، وهو ما أرجحه ، فابن حزم كان معروفا بين الأندلسيين كفقيه لا كباحث فى الحب فغريب أن يسأله سائل أن يحدثه حديثا مفصلا عن الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه لا عن الفقه الظاهرى والأصول والتوحيد وما الى ذلك مما من شأنه أن يسأل عنه ·

هذا وقد جعل ابن حزم كتابه فى ثلاثين بابا تتبع فيها الحب فى نشأته وتطوره وأعراضه ودرجاته وأنواعه ومسعداته ومنغصاته ، وهو فى كل باب يتحدث عن الموضوع الذى يعرض له معرفا ومحلل ومعللا ثم يتبع

ذلك ببعض الحكايات الواقعية التي شاهدها أو سمع بها وكلها تدور حول أندلسيين . وهو يضمن كلامه قطعا من شعره قد قالها في مثل التجربة أو الظاهرة التي يسوق عنها الحديث .

وقد صدر كتابه ببيان خطتـــه فقال : « وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين بابا منها في أصول الحب عشرة فأولها هذا الباب (مائية الحب) ، ثم باب في علامات الحب ، ثم باب في ذكر من أحب في النوم ، ثم باب في ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب في ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب في ذكر من لا تصح محبته الا مع المطاولة ، ثم باب التعرض بالقول ، ثم باب الاشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير » .

« ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا .. وهي باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طي السر ، ثم باب الكشف والاذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ثم باب الضنى ، ثم باب الموت » .

« ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب وهي : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشي ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو » .

« ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة وهما باب الكلام في قبح المعصية وباب في فضل التعفف ، ليكون خاتمة ايرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وليست قيمة طوق الحمامة فيما اشتمل عليه من أفكار عن الحب فحسب ، وانما قيمته أيضا في تلك الحكايات الكثيرة التي يرويها ابن حزم والتي تكشف الكثير من جوانب الحياة الأندلسية وتوقفنا على أسرار حكام ورؤساء وترفع الستائر عن بيوت وقصور وتنبه الى ما كان لصنوف من النساء من نشاط في دنيا المحبين كالطبيبة والحجامة والدلالة والماشطة والمغنية والمعلمة وما الى ذلك . وهناك قيمتان أخريان للكتاب الأولى : اشتماله على كثير من الأخبار التي تلقي ضوءا على حياة ابن حزم نفسه ، والثانية تضمنه الكثير من شعره بالاضافة الى نثره . فهو عمل ابن حزم الأدبي الأول الذي يدخل به مع الناثرين والشعراء المجيدين من أوسع الأبواب .

وبعد ، فهذا نموذج من طوق الحمامة وهو من « بـــاب من أحب بالوصف » وفيه يقول ابن حزم :

« ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا أمر يترقى منه الى جميع الحب فتكون المراســلة والمكاتبة والهم والوجد

والسهر على غير الابصار فان للحكايات ونعت المحاسن ووصف الاخبار تأثيرا فى النفس ظاهرا وان تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سببا للحب واشتغال البال وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ولكنه عندى بنيان هار على غير أس وذلك ان الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير لا بد له اذ يخلو بفكره ان يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعينا يقيمها نصب ضميره لايتمثل فى هاجسه غيرها قد مال بوهمه نحوها فان وقعت المعاينة يوما ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية » .

« وكلا الوجهين قد عرض وعرف وأكثر ما يقع هذا فى ربات القصور والمحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة اجابة طبائعهن الى هذا الشـــأن وتمكنه منهن .. » ..

وهذا نموذج آخر من الكتاب وهو من باب « طى السر » يقول فيه ابن حزم : « من بعض صفات الحب الكتمان باللسان وجحود المحب ان سئل والتصنع باظهار الصبر وأن يرى أنه مزهاة خلى ويأبى السر الدقيق نار الكلف المتأججة فى الضلوع الا ظهورا فى الحركات والعين ودبيبا كدبيب النار فى الفحم والماء فى يبس المدر وقد يمكن التمويه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف واما بعد استحكامه فمحال وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس لأنه يزعمه من صفات أهل البطالة فيفر منه ويتفادى عنه وما هذا وجه التصحيح فبحسب المرء المسلم ان يعرف عن محارم الله عز وجه التى يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لايؤمر ولا ينهى عنه اذ القلوب بيد مقلبها ولا يلزمها غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب وان يعتقد الصحيح باليقين واما المحبة فخلقة وانما يملك الانسان حركات جوارحه المكتسبة وفى ذلك أقول :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى	وسيان عندى منك لاح وساكت
يقولون : جانبت الحصون جملة	وأنت عليهم بالشريعـــة فائت
فقلت لهم : هذا الرياء بعينه	صراحـــا وزى للمرائين مافت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد	وهل منه فى محكم الذكر ثابت ؟
اذا لم أواقـــع محـــرما أتقى به	مجىء يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالى فى الهوى قول لائم	ســـواء لعمرى جاهر أو مخافت
وهل يلزم الانســـان الا اختيـــاره	وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت؟؟

« واننى لأعرف بعد من امتحن بشىء من هذا فكن الوجد بين جوانحه مرام جحده الى ان غلظ الأمر وعرف ذلك فى شمائله من تعرض للمعرفة

ومن لم يتعرض ومان من عرض له بشيء نجهه وقبحه الى ان كان من أراد الحظوة لديه من اخوانه يوهمه تصديقه فى انكاره وتكذيب من ظن به ذلك فسر بهذا ولعهدى به يوما قاعدا ومعه بعض من كان يعرض له بما فى ضميره وهو ينتفى غاية الانتفاء اذ اجتاز بهما الشخص الذى كان يهتم بعلاقته فما هو الا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى واصفر لونه وتفاوتت معانى كلامه بعد حسن تثقيف فقطع كلامه المتكلم معه فقد استدعى ما كان فيه من ذكره فقيل له : ما عدا عما بدا . فقال : هو ماتظنون عذر من عذر وعذل من عذل .. » .

ويلاحظ على ابن حزم كناثر ـ من خلال الطوق ـ أنه كان لا يكلف بالصنعة كلف غيره من معاصريه . فهو يؤثر البساطة على التكلف والدقة على الحيلة ، كذلك يلاحظ أن الثقافة العقلية والدينية كانت تنعكس أحيانا على أسلوبه ، فيورد بعض مصطلحات الفلسفة والمنطق ويهتم بالعلل والمقدمات والنتائج ، كما يورد بعض المصطلحات الفقهية أو الدينية على وجه العموم .

ويلاحظ على ابن حزم أخيرا أنه من الذين لم يقعوا تحت تأثير طريقة بديع الزمان . أما شعر ابن حزم ـ من خلال الطوق أيضا ـ فيلاحظ عليه أن أغلبه قطع وأبيات ، وهى من الناحية الفنية تتراوح بين الجودة والتوسط . ولغة ابن حزم الشعرية تنعكس عليها أحيانا ثقافته العقلية والدينية تماما كما يحدث فى لغته النثرية ..

★★★

الطوق والحمامة وعلم النفس !!

قد يعجب القارىء حين يرانا ندخل ابن حزم فى عداد علماء النفس ، ولكننا لو قرأ بعين الاعتبار رسالة ابن حزم فى الألفة والايلاف ، لما نردد فى ادراج تلك الرسالة ضمن المحاولات المبكرة فى علم النفس . ولئن كان ابن حزم قد تناول موضوع الحب من وجهة نظر الأديب والشاعر والمؤرخ أكثر مما تناوله من وجهة نظر الفيلسوف والمحلل والباحث النفسانى ، الا أنه من المؤكد مع ذلك أننا نلتقى فى تضاعيف دراسته للحب بالكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة والآراء الفلسفية العميقة . ولسنا نريد ـ فى هذه العجالة القصيرة ـ ان نضع بين يدى القارىء خلاصة وافية لرسالة ابن حزم فى الحب ، وانما حسبنا أن نبرز الجوانب الطريفة والأفكار الأصيلة فيما كتبه هذا المفكر العربى الكبير عن تلك العاطفة الانسانية

النبيلة · وربما كانت أول ملاحظة تعن للباحث عند مطالعته لرسالة ابن حزم في الحب ، هي هذا التسلسل المنطقي في العرض وذلك الترتيب المنهجي في تناول الموضوع بعكس مادرج عليه الكتاب العرب من استطراد واسترسال واطناب · فابن حزم يبدأ حديثه بالكلام في ماهية الحب ، ثم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن نشأة الحب فيستقصي علاماته ومظاهره ويستعرض أنواعه ونماذجه ثم يتتبع أحوال المحبين وعوارض حبهم فيحدثنا عن الوصل والهجر والوفاء والغدر والبين والضنى والسلو والموت ·· الخ وأخيرا يحدثنا ابن حزم عن صلة الحب بالشهوة ويعرج على موضوع الطهر والتعفف ، لكي ينتهي الى القول بأنه لم يحدثنا عن الحب بلغة الشعراء الحالمين ، بل هو قد اقتصر في رسالته على الحقائق الواقعية التي لا يمكن وجود سواها أصلا ·

والظاهر ان الكثيرين من معاصري ابن حزم قد عابوا عليه — وهو الامام الفقيه المتكلم — التعرض لدراسة موضوع كالحب فلم يجد ابن حزم بدا من الاعتذار عن ذلك في مقدمة رسـالته ولسان حاله يقول : انه حتى لو كان الحديث عن الحب أدخل في باب الباطل منه في باب الحق فقد قال أبو الدرداء : « أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق » كما ورد في بعض الأثـر : « أريحوا النفوس فانهـا تصـدأ كما يصدأ الحديد » واذا كان أول الحب هزلا فان آخره جد · وابن حزم يسجل في صدر كتابه جلال الحب وقداسته فيقول : « ·· دقت معانيه لجلالتها عن ان توصف فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة وليس بمنكر الديانة ولا بمحظور في الشريعة اذ القلوب بيد الله عز وجل » · وواضح من هذا النص ان ابن حزم كان يخشى ان يقع في ظن البعض ان الحديث عن الحب هو حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة فهو أحرص ما يكون على ابراز قدسية تلك العاطفة خصوصـا وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثيرون · ولكن ابن حزم حريص في الوقت نفسه على تنبيهنا الى أن الحب خبرة معاشة فلا يدرك حقيقته الا من كابده وعاناه بالتالي ، فان ابن حزم يستند في حديثه عن الحب الى تجربته الخاصة ·

والحق ان مفكرنا الأندلسي الكبير لم يكن يجـد أدنى حرج في الاشارة — بين الحين والآخر — الى بعض ما مر به من خبرات في هذا الصدد فهو لا يستند في أحكامه الى آراء نظرية خالصـة ، أو نظريات فلسفية معروفة ، بل هو يستمد أحكامه من تجاربه وتجارب الآخرين دون التعرض لذكر أسماء أصحابها ، اللهم الا من لم يكن هناك ضرر من تسميته · وهو يصرف النظر عن أخبار الأعراب والمتقدمين ، لاعتقاده بأن أساليبهم في الحياة والحب قد كانت مختلفة تماما عن أساليب أهل عصره ولاقتناعه في

الوقت نفسه بأنه لابد له من أن يأتى بجديد ، بدلا من أن يقتصر على ترديد أحاديث السابقين .

بيد أننـــا نلاحـظ أن تعريف ابن حزم للحب لا يخلو من تأثر بالنظرية الأفلاطونية المعروفة فى الحب ، فاننا نراه يقول : « وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا والذى أذهب اليه انه اتصال بين أجزاء النفوس المقومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع » . ولا شك أن هذا التعريف يذكرنا بحديث أفلاطون المشهور عن « الايروس » ، فى محاورة «المأدبة » خصوصا وان ابن حزم يستطرد بعد ذلك فيقول ان المحبة « استحسان روحانى وامتزاج نفسانى » ، ولكن ابن حزم لا ينص على الأصل اليونانى لهذه الطريقة ، بل هو يحاول ردها الى الآية الكريمة التى تقول : « **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها** » . وحجة ابن حزم هنا انه لو كانت علة الحب هى جمال المحبوب أو حسن الصورة الجسدية ، لما كان المحرومون من الجمال أو ناقصو الصورة موضعا لحب فى حين ان التجربة شـاهدة على أن كثيرا من المحبين قد يتعلقون بالأدنى وهم يعلمون فضل غيره دون ان يجد الواحد منهم محيدا لقلبه عنه . « ولو كان للموافقة فى الأخـلاق لما أحب المرء من لا يسـاعده ولا يوافقه » فلابد اذن من ان يكون الحب شيئا فى النفس وان يكون سر التمازج والتباين فى المخلوقات انما هو الاتصال والانفصال .

حقا ان المحبة على أنواع فهناك محبة القرابة ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ومحبة التصاحب والمعرفة ومحبـة البر يضعه المرء عند أخيه ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ومحبة المتحابين فى الله عز وجل (اما الاجتهاد فى العمل واما الاتفاق فى أصل النحلة والمذهب واما لفضل علم يمنحه الانسان) وأخيرا محبة العشق التى لا علة لها الا ماذكرنا من اتصال النفوس ، ولكن من المؤكد أنه اذا كانت المحبة لسبب من الأسباب فانها لابد من أن تفنى بفناء هذا السبب : « فمن ودك لأمر ولى من انقضائه» . واما محبة العشق ، فانها محبة خالصة تنفذ الى أعماق النفس فتتمكن منها ومن هنا ، فان لافناء لهذه المحبة الا بالموت وكما أنك قد ترى شخصين يتباغضان دون سبب ويكره أحدهما الآخـر دون علة ويستثقل الواحد منهما الآخر بلا مبرر ، فكذلك قد ترى شخصين يتحابان دون علة ظاهرة ويكلف الواحد منهما بالآخر لغير ما سبب ويأنس الواحد منهما بالآخر دون أدنى مسوغ ولكن لا غرابة فى ذلك : فان الحب يزين للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده حتى انك لتجد المرء حين يسمه الحب وكأنما هو قد اسـتحال الى مخلوق آخـر أو كأن طبيعته قد تغيرت تغيرا كليـا شاملا .

بيد أن القول بأن الحب استحسان روحانى أو امتزاج نفسانى . لايستلزم بالضرورة أن يكون قوامه التبادل فان ابن حزم يقيم تفرقة واضحة بين المحب والمحبوب ، كما أنه يقرر فى الوقت نفسه أن الحب اضطرار لا اختيار . وهو يعبر عن هذا المعنى فى مواضع متفرقة من كتابه فيقول مثلا : « وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لايؤمر به ولا ينهى عنه اذ القلوب بيد مقلبها .. وانما يملك الانسان حركات جوارحه المكتسبة .. وأما المحبة فخلقية » ومن ذلك أيضا قوله : « .. انى انما أحببته لنفسى ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قيادتى وأقود أصلى وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها .. (وأنت) ان بذلت نفسك لم يكن اختيارا ، بل كان اضطرارا ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها .. » . وكما قال أفلاطون من قبل ان ايروس هو المحب لا المحبوب ، فنجد ابن حزم أيضا يلحق الحب بالمحب ويتكلم عن معاناة الحب وأعراضه وظواهره وشتى آفاته من وجهة نظر المحب لا المحبوب . وحتى حين يتحدث ابن حزم عن الوفاء ، فاننا نجده يقيم به المحب لا المحبوب ؛ لأن الوفاء أوجب على المحب الذى بدأ بالمودة ، فى حين ان المحبوب مخير فى القبول أو الرفض والواقع ان الفارق بين المحب والمحبوب هو كالفارق بين الطالب والمطلوب ، أو بين الراغب والمرغوب فيه ، أو بين المغناطيس وقطعة الحديد التى تنجذب اليه : فنفس المحب قاصدة الى نفس المحبوب باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد والحركة انما تكون دائما من الأقوى .

وابن حزم هنا يتلاقى مع الكاتب الفرنسى ستندال الذى سيقول من بعد ان الرجل فى الحب مهاجم والمرأة مدافعة ، والرجل يطلب والمرأة ترفض ، والرجل مغامر جسور بينما المرأة متوجسة متخوفة .

ولكن ابن حزم يقرر مع ذلك ان المحبة لا تقوم مطلقا بين متنافرين أو متضادين ؛ لأن الشكل يستدعى دائما شكله والمثل الى مثله ساكن فأنت لاتجد اثنين يتحابان الا وبينهما مشاكلة واتفاق فى الصفات الطبيعيه بدرجة تختلف شدة وضعفا ، وكلما كثرت عناصر المشاكلة بينهما زادت المجانسة وتأكدت المودة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه فقيل له فى ذلك فقال : « ما أحبنى الا وقد وافقته فى بعض أخلاقه » . وابن حزم يضيف الى ذلك أن النفس بطبيعتها جميلة تولع بالجمال ، حسنة تكلف بكل شىء حسن فهى تنجذب بالضرورة نحو الأشكال المنسجمة والصور المتوافقة وهى حين تميز فى المواضيع الجميلة شيئا من أشكالها ، فانها سرعان ما تتعلق بها وتنجذب اليها « وان لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة » .

وابن حزم يفيض فى الحديث عن علامات الحب فيبين لنا كيف أن العين هى باب النفس « وهى المنقبة عن سرائرها والمعبرة عن كوامنهـــا والمعربة عن بواطنها » ، فليس بدعا أن تكون « النظرة » هى نقطه انطلاق الحب والحق انه كثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة فترى المرء يعشق صورة لا يعلم من هى ولا يدرى لها اسما ولا مستقرا · وابن حزم يحدثنا هنا عن الكثيرين ممن أحبوا من نظرة واحدة وكيف نشأت العلاقة فى نفوس هؤلاء المحبين من لمحة خاطرة ، بل قد تقع المحبة — فى رأيه — بالوصف دون المعاينة فيعشق المرء شخصا لم يره اما لأنه سمع عنه من الأخبار ما حببه الى نفسه ، واما لأن خياله قد صور له ذلك الشخص بصورة المعشوق الأسمى الذى لا يدانيه مخلوق كمالا وجمالا · وابن حزم يعلم ان للخيال دورا كبيرا فى نشأة الحب فهو يحدثنا عن محبين شغلوا أنفسهم بغير حقيقة وتعلقت أوهامهم بمعدوم أو شبه معدوم متعجبا كيف يحب المرء « من لم يره قط ولا خلق ولا هو فى الدنيا » ، ولكنه يعود فيفسر لنا هذا النوع من الحب بقوله : « ان الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير ، لابد له يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعينا يقيمها نصب ضميره لا يتمثل فى هاجسه غيرها قد مال بوهمه نحوها » · وابن حزم هنا يتلاقى مرة أخرى مع الكاتب الفرنسى ستندال الذى سيقول من بعد بفكرة « التبلور » ، فيروى لنا كيف أن خيال المحب يخلع على المحبوب كل ما يهواه هو من ضروب الكمال وكيف ان أوهام المحب هى التى تجىء ، فتضفى على شخصية المحبوب من المزايا ما يجعل منها جوهرة ثمينة نادرة · وابن حزم يتفق أيضا مع ستندال فى ان عملية التبلور أسرع وأســـهل لدى المرأة منها لدى الرجل ؛ لأن « حب النســـاء فى هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة اجابة طبائعهن الى هذا الشأن وتمكنه منهن » · ولكن الكاتب العربى الكبير يلاحظ ان « المعاينة » قد تجىء بعد ذلك فتؤكد هذا النوع من الحب وتزيد من قوته أو تبطله تماما وتقضى عليه بالكلية وهو يروى لنا — فى هذا الصدد — الكثير من الأخبار التى سمع عنها ويسرد علينا بعضا مما شاهده بعينى رأسه ، لكنه لا يلبث ضن يصدر على هذا النوع من الحب حكم الفيلسوف العاقل المتبصر فيقول : « ان من أحب من نظـــرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطـــرة فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو ·· وهكذا فى جميع الاشـــياء أسرعها نموا أسرعها فنـــاء وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفادا » ·

وكما حدثنا ابن حزم عن الحب الذى ينشـــأ عن الخيـــال والوصف والحب الذى ينشأ من نظرة واحدة ، نجده يحدثنا أيضا عن الحب الذى يتكون ببطء تحت عنوان « باب من لا يحب الا مع المطاولة » ، وابن حزم هنا يكشف عن عقلية سيكولوجية ممتازة ، لأنه يربط الحب بالزمان ويقيم

العاطفة على تعدد التجارب وارتباطها بموضوع واحد فيبين لنا كيف ان للاستقرار النفسى دورا مهما فى تأصل عاطفة الحب ودوامها ، وكيف أن « ما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا » . والظاهر ان خبرة ابن حزم الخاصة قد دلته على أن العشق السريع هو أقرب الى الشهوة منه الى الحب ، فى حين ان العاطفة البطيئة التى تتكون على مر الأيام لابد من ان تدوم وتثبت على العكس من الشهوة العابرة أو المغامرة الغرامية الخاطفة وهو يقول فى ذلك بصريح العبارة : « وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه الا ضربا من الشهوة واما أن يكون فى ظنى متمكنا من صميم الفؤاد نافذا فى حجاب القلب فما أقدر ذلك وما لصق بأحشائى حب قط الا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهرا ، أخذنى معه فى كل جد وهزل وكذلك أنا فى السلوك والتوقى فما نسيت ردا لى قط » .

ولما كان ابن حزم قد ربط الحب بالاستقرار النفسى ، كما أقام تفرقة حاسمة بين الحب والشهوة ، فاننا نجده يرفض فكرة التعلق بشخصين فى وقت واحد مؤكدا « وحدانية الحب » والواقع ان التعدد حليف الشهوة فى حين أن الوحدانية قرينة المحبة ، ولهذا يقرر ابن حزم بصراحة أن كل من يزعم انه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، فقد اختلطت عليه المحبة بالشهوة والشهوة لا تسمى حبا على التحقيق ، بل على المجاز فقط ، ولابن حزم فى ذلك أبيات جميلة فيقول فيها :

كذب المدعى هو اثنين حتما ... مثل ما فى الأصول أكذب مانى
ليس فى القلب موضع لحبيبيـ ... ـن ولا أحدث الأمور بثانى
فكما العقل واحد ليس يدرى ... خالقا غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يهوى ... غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحد « مستقيم » ... وكفور من عنده دينان

وواضح من هذه الأبيات ان ابن حزم يؤمن بالوحدانية فى الحب ، كما يؤمن تماما باله واحد ودين واحد .

والواقع أن ابن حزم حين يتحدث عن الحب ، فانه لا يتحدث عن فعل يملك المرء أسباب تصريفه بل هو يتحدث عن « داء عياء » لا مدخل للارادة فيه وان كان الحب بطبيعته « علة مشتهاة لا يود سليمها البرء » ، وهو لا يكتفى بنفى « الاختيار » عن المحب ، بل هو يقرر أيضا أنه ليس ثمة آفة أعظم من الحب . وان ابن حزم ليسهب فى وصف سلطان الحب على نفوس العاشقين فيقول : « اعلم ـ أعزك الله ـ أن للحب حكما على النفوس ماضيا وسلطانا قاضيا وأمرا لا يخالف وحدا لا يعصى ومالكا لا يتعدى وطاعة لا تصرف ونفاذا لا يرد .. (وهو) يحل المبرم ويحلل الجامد ويخل الثابت

ويحل الشغاف ويحل الممنوع .. الخ . وربما كان أعجب ما فى الحب أنه يعمى ويصم فهو يصيب شخصا عاقلا رزينا حسن التمييز فاذا به يخطىء الحدس ويستحسن القبيح وينحرف عن جادة الصواب ، حتى ليكاد الهوى يصبح له بمثابة طبع ثان ، فلا يعود يقبل الا على الردىء والفاسد والمعوج . ومعنى هذا أن آفة الحب قد تميل بالشخص الى تفضيل الأدنى ، أو هى قد تصرفه عن رؤية الأشخاص والأشياء بعين الحقيقة فاذا بالعاشق المؤوف (أى المصاب بآفة الحب) يستحيل الى مخلوق ناقص قد غلب عليه هوى عارض « فذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا » . وقد لا نبالغ اذا قلنا ان ابن حزم هنا يصور لنا الحب بصورة المرض الذى يشمل الارادة أو الداء الذى يعمى البصيرة وكأن أهل الحب عبيد مغلوبون على أمرهم أو ضحايا بريئة لسلطانه الهوى الغاشم المستبد !

على أن ابن حزم يشير — فى موضع آخر — الى أن للحب خمسة أدوار أو خمس درجات فهو يبدأ عادة بالاستحسان والاستحسان ان يتمثل الناظر صورة المنظور اليه فيستحسنها أو يستحسن أخلاقه ، وهذه الدرجة أدخل فى باب التصادق منها فى باب المحبة ، ثم يجىء بعد ذلك الاعجاز فيرغب الناظر فى المنظور اليه ويحن الى القرب منه ، وتلى ذلك مرحلة الألفة وهى الوحشة الى المحبوب اذا غاب ثم الكلف : وهو غلبة شغل البال به أو هو ما يسمى فى الغزل باسم « العشق » . وأما المرحلة الأخيرة فهى الشغف : وهو امتناع النوم والأكل والشرب الا اليسير من ذلك ، وربما أدى الشغف الى المرض أو الى التوسوس أو الى الموت . وابن حزم يحدثنا بالتفصيل عن نشأة الحب فيعقد فصلا يسمه باسم : « باب التعريض بالقول » يحدثنا فيه عن أساليب المحبين المختلفة فى الاعراب عن حبهم بفصل آخر يسميه باسم « باب الاشارة بالعين » ، يحدثنا فيه عن لغة العيون واشارات الألحاظ وما ورد على لسانه فى هذا الباب قوله : « واعلم ان العين تنوب عن الرسل ويدرك بهـا المراد والحواس الأربع أبـواب الى القلب ومنافذ نحو النفس والعين أبلغها وأصحبها دلالة وأوعاها عملا وهى رائدة النفس الصـادق ودليلها الهادى ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات وقد قيل ليس المخبر كالمعاين .. » ، ثم يعرض ابن حزم بعد ذلك لدراسة أساليب المحبين فى التراسل والتواصل ، فيحدثنا عن رسائل العشاق وأشكالها وخصائصها وأعاجيبها ، ثم يشير الى رسل المحبين أو سفرائهم فيسهب فى الحديث عن صفاتهم وأنواعهم ومهمتهم .. الخ .

وينتقل ابن حزم بعد ذلك الى الحديث عن أعراض الحب وصفات المحبين فيعقد فصلا تحت عنوان « باب طى السر » ، ينص فيه على أن من بعض صفات الحب الكتمان باللسان وجحود المحب ان سئل والتصنع

باظهار الصبر ·· الخ ولكن المحب لا يقوى طويلا على كتمان سره ، فان حركاته ونظراته سرعان ما تفضح حبه وتفصح عن مكنون وده ، فاذا بالناس جميعا يلحظون اضطرابه عند رؤيته لمحبوبه ويدركون من اشاراته وحركاته ما طوى عليه ضلوعه · ومن أعراض الحب أيضا طاعة المحب لمحبوبه وانقياد طبعه لطباع محبوبه حتى اننا لنرى الرجل « شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القيادة ماضي العزيمة حمي الأنف أبي الخسف فما هو الا أن يتنسم نسيم الحب ويتورط عمره ويعوم فى بحره فتعود الشراسة ليانا والصعوبه سهولة والمضـــاء كلالة ، والحمية استسلاما » وقد يقع فى ظن البعض أن تذلل المحب لمحبوبه أو صبره على دلاله انما هو دناءة فى النفس ، ولكن ابن حزم لايرى فى ذلك أية غضاضة خصوصا وان المحبوب — فى نظره — ليس كفوا للمحب ولا نظير له فليس فى التذلل له أو الصبر عليه أدنى مذلة أو اهانة · وابن حزم هنـا يروى لنا الكثير من أخبار المحبين الذين انقادوا وراء محبوبيهم دون أن يفكر الواحد منهم فى مصلحته الخاصة ، بل دون ان يحرص على سمعته أو يفكر فى لذته « ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه انى أعرف من كان يسهر الليـالى الكثيرة ولقى الجهـــد الجاهد فقطعت ضروب الوجد ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ولا عنده دفع فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه لاتعففا ولا تخوفا ولكن توقفا عند موافقة رضاء ·· » واما اذا ما تعمد المحب مخالفة محبوبه واقتصر على بلوغ مرغوبه دون الاهتمام بارضاء محبوبه فانه عندئذ انما يجعل من الحب مجرد أداة لاشباع أهوائه وكأن حبه مجرد متعة شخصية أو عاطفة أنانية (وهذا — مع الأسف — هو ما استحال اليه الحب لدى الكثير من المحبين) !

وكما حدثنا ابن حزم عن نعمة الوصل ، نجده يحدثنا أيضا عن آفة الهجر فهناك هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر وهجر يوجبه التذلل وهجر يمتحن به المحبوب صبر محبه وهجر يوجب العتاب لذنب يقع من المحب « وهذا فيه بعض الشـــدة لكن فرحـــة الرجعـــة وسرور الرضى بعدل ما مضى فان لرضى المحبوب بعد سخطه لذة فى القلب لا تعدلها لذة وموقعا من الروح لايفوقه شىء من أسباب الدنيا ·· » وأما أقسى ضروب الهجر فهو الهجر الذى يوحيه الوشاة ثم هجر الملل وأخيرا هجر القلى وهو الذى تنفد فيه الحيل ويعظم معه البلاء واذا كان الغدر من آفات الحب ، فان الوفاء هو الفضيلة الكبرى فى الحب وأول مراتب الوفاء ان يفى الانسـان لمن يفى له ، وتليهـا مرتبة ثانية هى الوفاء لمن غدر وهى للمحب دون المحبوب ، ثم مرتبة ثالثة وهى الوفاء مع اليأس البات وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون · ولما كان ابن حزم قد فرق فى الحب بين المحب والمحبوب ، فاننا نجده يجعل الوفاء ألزم على المحب عنه على المحبوب بحجة « ان المحب

هو البادى باللصوق والتعرض لعقد الأذمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعى صحة العشرة ·· (فى حين أن) المحبوب انما هو مجلوب اليه ومقصود نحوه ومخير فى القبول أو الترك فان قبل فغاية الرجاء وان أبى فغير مستحق للذم ··· » · وابن حزم حدثنا فى هذا الصدد عن نفسه فيقول انه ليس أثقل على نفسه من الغدر وليس أحب الى قلبه من الوفاء ، وهو يحمد الله على ما منحه من قدرة على الوفاء والمحافظة على العهد والعرفان بالجميل ·· الخ ·

تم يحدثنا ابن حزم فى « باب الضنى » عن لأمراض النفسية والجسمية التى قد تترتب على قمع الحب أو كتمانه فيقول ان « الأعراض الواقعة من المحبة غير الملل الواقعة من هجمات العلل ويميزها الطبيب الحاذق والتفرس الناقد » · وهو يروى لنا فى هذا الصدد بعض حالات الحب التى سمع عنها مما أدى بصاحبه الى الخبل أو الجنون (أى المرض العقلى) · ولما كان الحب فى نظر ابن حزم ظاهرة بشرية تخضع لما تخضع له سائر الظواهر البشرية الأخرى · فليس بدعا ان نراه يختم حديثه عن الحب بالتعرض لباب السلو وباب الموت ، اعتقادا منه بأن « كل ما له أول فلابد له من آخر » ومن أسباب السلو ثلاثة أصلها من المحب ألا وهى : الملل والاستبدال والحياء وأربعة أصلها من المحبوب ألا وهى : الهجر والمفارقة والجفاء والغدر وقد يكون السلو خارجا تماما عن ارادة الانسان : اما لموت ، واما لبعد لا يرجى بعده عود ، واما لعلة مزمنة طرأت على المحب وهذه جميعا تدخل تحت باب (اليأس) · وأخيرا ، يحدثنا ابن حزم عن الموت فيقول انه « ربما تزايد الأمور ورق الطبع وعظم الاشفاق فكان سببا للموت ومفارقة الدنيا · وقد جاء فى الآثار : من عشق فعف فهو شهيد » وقد تشتد غيرة المرأة على الرجل الذى تحبه حتى لتجد فى موته عزاء لها عن خوفها من خيانته كتلك التى كانت تقول بعد وفاة زوجها : « ما يقوى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته الا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره وأعظم آمالى اليوم اللحاق به » · ولا يتسع المقام للافاضة فى شرح رأى ابن حزم فى العفاف ، ولكن حسبنا أن نقول انه فى رأيه ممكن بشرط أن يحكم الانسان عقله (وقائده العدل) فى نفسه (وقائدها الشهوة) والرجال والنساء سواء فى المقدرة على قمع الشهوة بعكس ما وقع فى ظن الكثيرين ــ فقد وجدت صالحات من النساء كما وجد صالحون من الرجال والمهم فى التعفف هو ضبط الارادة وحسن توجيه الانتباه فقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك · وابن حزم يذكرنا بأن بنية الانسان مدخولة ضعفه ، فلابد من تجنب أسباب الخطر والتحامى بالذات عن مواطن الغواية

اذا أريد ضبط النفس وامتلاك زمام الذات وكم أدى طول الاختلاط وكثرة التنافس على النساء الى سفك الدماء وازهاق أرواح وكم كانت الغيرة سببا في تعادى المتواصلين وتباغضهم بعد المحبة !! وابن حزم يؤكد لنا هنا « أن المودة اذا استحالت الى عداوة صارت أفظع من الموت وأنفذ من السهم وأمر من السقم وأوحش من زوال النعم وأقبح من حلول النقم » . ويختتم ابن حزم حديثه عن الحب بالاشارة بالتعفف ، فيقول ان الرسول قد خص بمدحه « رجلا دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال انى أخاف الله » وليس عند الله معصية أقبح من الزنا ..

★★★

حي بن يقظان

ابن طفيل

١١٨٤ م

في القرن الثاني عشر للميلاد ظهر في الأندلس مفكر عربي عظيم ترك آثارا خالدة في ميدان الفلسفة هو ابن طفيل ، من أصحاب الكفايات النادرة ، ومن جبابرة المفكرين في القرون الوسطى في رأى الكثيرين من مؤرخي العلوم ، شغل منصب الحجابة عند حاكم غرناطة وتبوأ مركز الوزراة عند الأمير ابن يعقوب يوسف عبد المؤمن صاحب المغرب . وكان لهذا الأمير الفضل الأكبر في بروز مزايا ابن طفيل العقلية ، اذ شمله بعطفه وأحاطه برعايته وسهل له استغلال مواهبه التي جعلت من ابن طفيل عالما فلكيا رياضيا وطبيبا وفيلسوفا وأديبا من الطراز الأول .

نقد ابن طفيل بطليموس ونقد فلسفة الفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي . وكان في كثير من الأحايين صائبا في نقده مما يدل على أنه ذو بصيرة نافذة وعلى أنه كان مستقلا في آرائه واتجاهاته الفلسفية . فهو — أي ابن طفيل — بعد أن اطلع على فلسفة الفلاسفة العرب وغير العرب ، وبعد أن وقف على آرائهم ونظرياتهم ، خرج بمذهب خاص به وضعه في قصة سماها « حي بن يقظان » وهي من أروع ما كتب في القرون الوسطى وأحسن ما تفخر به الفلسفة العربية . وقد قال عنها الدكتور سارطون : « ان رسالة حي بن يقظان من أجمل الكتب المبتكرة في موضوعها التي ظهرت في القرون الوسطى » .

★★★

ابن طفيل : حياته وآثاره

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي . فهو ينتسب الى قبيلة قيس ، تلك القبيلة التي بلغت من الشهرة حدا جعل اسمها يطلق على ما سوى اليمنيين من العرب . وقد ولد في وادي آش — وهي بلدة في واد خصيب تبعد عن غرناطة نحو ستين كيلو مترا — في أوائل القرن السادس الهجري .

هذا كل ما يذكره التاريخ عن طفولته وشبابه ، لكن ما المركز الاجتماعي الذي كانت تشغله أسرته ؟ كيف قضى طفولته ؟ وأين قضاها ؟

كيف تعلم ؟ وعلى من تعلم ؟ كل ذلك يهمله التاريخ : اذ يمضى سريعا فيضعه فى غرناطة دارسا للطب ثم يضعه فى منصب أمين الأسرار لحاكم ولاية غرناطة ، ثم كاتم أسرار لدى الأمير أبى سعيد حاكم طنجة وهو أحد أولاد عبد المؤمن ، ثم يمضى التاريخ سريعا فيضعنا أمام ابن طفيل طبيب أبى يعقوب يوسف صاحب المغرب بل صديقه ووزيره ٠

وقد أدى ابن طفيل ، عن طريق هذه الصلة ، حق الزمالة العلمية خير أداء ٠ فكان يجلب العلماء من جميع الأقطار ، ويحض الملك على اكرامهم وتهيئة الجو المناسب لهم ٠

وهو الذى نبه الملك ووجه نظره الى ابن رشد « فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم » ٠

فى رحاب هذا الملك عاش ابن طفيل عيشة هادئة مطمئنة ٠ كان فيها الطبيب ، وكان فيها المستشار العلمى ، وهو الذى حفز ابن رشد ـ تحقيقا لرغبة أبى يعقوب ـ على العمل الذى قام به من تلخيص كتب أرسطو وشرحها ٠

ماذا أنتج ابن طفيل فى فترته هذه الهادئة المطمئنة ؟ ٠ ان المؤرخين يحدثوننا عن « تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك » ٠ ويحدثوننا عن رسالة فى النفس ، وعن رسائل تبودلت بينه وبين ابن رشد فى الطب ، ويذكر البطروجي الفلكى وابن رشد أن ابن طفيل وفق لنظام فلكى يخالف النظام الذى وضعه بطليموس ٠

بيد أننا على جهل تام بهذا النظام الفلكى وبغيره من النواحى الأخرى ٠ والمصدر الوحيد الذى نعتمد عليه هو رسالة حى بن يقظان فهى الكتاب الوحيد الذى بقى من رسائل ابن طفيل ٠ واذا كان ابن طفيل طبيبا بحكم وضعه فى القصر ، وفلكيا بشهادة أحد كبار الفلكيين ، وفيلسوفا الهيا ، فانه كان أيضا أديبا ، ورسالة حى بن يقظان تبرهن على ذلك فى وضوح : تألق فى الاسلوب ، وبراعة فى التعبير ، وسلاسة فى التركيبات ولقد طوع اللغة لأفكاره فأدى المعنى فى دقة تامة بأسلوب بارع ٠

يقول الدكتور أحمد أمين بحق « نحن لو قارنا بين ابن سينا وابن طفيل من الناحية الأدبية ، وجدنا ان ابن طفيل أرقى من ابن سينا بكثير من حيث اللغة والأدب : فعبارة ابن طفيل مشرقة ، وعبارة ابن سينا مغلقة غامضة ، ويظهر ان ابن طفيل كان مثقفا ثقافة أدبية أرقى من ثقافة ابن سينا ففى كثير من عبارات ابن سينا وألفاظه ما يدل على انه كان يستقى معلوماته اللغوية من المعاجم ، لا من كتب الأدب ، فجاءت بعض

الأحيان نابية . أما ابن طفيل فيستقى معلوماته اللغوية والأدبية من كتب الأدب والمثقفين بها ، فجاءت عبارته أنصع وأبلغ » (٤٧) .

واذا كان ابن طفيل أديبا ناثرا ، فقد كان شاعرا أيضا ، واذا كان نثره يمتاز على نثر ابن سينا ، فقد كان شعره يمتاز على شعر ابن سينا أيضا ، وقد كان فى شعره صاحب مزاج ، ذلك أنه يتكسب به . ولذلك اقتصر شعره تقريبا على العواطف والفلسفة .

هذا النزر اليسير هو كل ما نعلم عن حياة ابن طفيل ، وعن آثاره التى بادت بيد أنه ، لحسن الحظ ، قد بقى أثره الخالد « حى بن يقظان » . وهو قصة بلغت من القوة المنقطية حد الروعة ، فى أسلوب جزل سلس وقد حوت آراء ابن طفيل فى أهم المشاكل الفلسفية . ولا نبالغ اذا قلنا انها مذهب فلسفى كامل تتجلى فيه الدقة بكل معانيها . وقد صور فيها ابن طفيل « حى بن يقظان » وقد نشأ فى جزيرة منعزلة عن العالم ، لا أثر فيها لبنى البشر ، فأخذ ينظر ويتأمل ويستنتج متدرجا من المحسوس الى المعقول ، ومن الجزئيات الى الكليات ، حتى وصل الى تكوين فكره عن الله وعن الملأ الأعلى ، ثم أخذ فى الرياضة الروحية حتى وصل الى طور الولاية . ثم شاءت الظروف أن يصل الى جزيرته عابد متدين بدين سماوى ، أراد العزلة ليتفرغ للعبادة ، فالتقى به حى بن يقظان . وبعد تفاهمهما وأخذ كل منهما عن الآخر ، التزم حى بن يقظان ما ذكره له العابد من شعائر دينه . وبعد محاولة فاشلة لهداية المدينة التى نشأ فيها العابد عاد حى الى جزيرته واستقر فيها الى أن أتاه اليقين .

هذا ، فى كلمات ، مجمل القصة .

ولقد استمر ابن طفيل فى صحبة أبى يعقوب الى سنة ٥٨٠ هـ حيث توفى أبو يعقوب .

ولما قام بالأمر من بعده ولده أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور مكث ابن طفيل فى صحبته . بيد أن حياته لم تطل بعد صديقه ، فقد وافته المنية بعد وفاة أبى يعقوب بسنة واحدة أى سنة ٥٨١ هـ .

★★★

ابن طفيل وفلسفته

يتحدث الكثيرون ممن درسوا ابن طفيل عن صلته بالفلاسفة، فيزعم بعضهم أنه تأثر بابن باجه ، بينما يذهب آخرون الى تأثره بالفارابى ، ويزعم آخرون أنه كان التلميذ المخلص لابن سينا ، بل انه فى رأيهم قد

أخذ عن ابن سينا كل شيء حتى أسماء أبطال قصته ، ويزعم آخرون أنه كان متأثرا بالغزالى ، ووصل بهم الأمر الى الزعم بأنه تأثر بالفرس وبالهنود فضلا عن اليونان ، ولعل فى كلام ابن طفيل نفسه ، اذا فهم بطريقة سطحية ، ما يسند هذه المزاعم كلها على اختلافها وتعارضها بيد أن ابن طفيل لم يدرس حقيقة فى تمعن وعمق • ولو درس فى دقة وتمحص لظهرت شخصيته مستقلة متميزة ، وظهرت له فلسفة تستقل بطابع خاص ينفى هذه المزاعم على تعددها وتباينها ولنوضح هذه الظاهرة :

(أ) أما موقفه من الفارابى فان ابن طفيل يعلن فى صراحة ان كتب الفارابى كثيرة الشكوك ، ويضرب أمثلة على ذلك • ويقول عن رأيه فى السعادة وانها فى هذه الدار الدنيا « فهذا قد أيأس الخلق جميعا من رحمة الله ، وصير الفاضل والشرير فى رتبة واحدة ، اذ جعل مصير الكل الى العدم ، وهذه زلة لا تقال ، وعثرة ليس بعدها جبر » •

كان ابن طفيل ينفر من الفارابى ، وكان يصفه بسوء المعتقد فى النبوة ، ويرى أنه ليس فى حاجة الى ذكر آراء الفارابى لشكوكه ولسوء معتقده • لقد قرأ كتب الفارابى طبعا ، ولكنه قرأها قراءة الناقد ورفضها جملة ان لم يكن تفصيلا • فليس من المعقول مع هذا أن يكون قلده واحتذاه •

(ب) أما ابن باجة فلم يكن فى أهل الأندلس ، حسبما يرى ابن طفيل ، أثقب منه ذهنا ، ولا أصح نظرا ولا أصدق روية ، ولكنه — حسب رأيه أيضا قد شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن عمله وبث خفايا حكمته • كان ابن باجة يحث على استكثار من المال ، والجمع له ، وتصريف وجوه الحيل فى اكتسابه ، وهذا صارف فى رأى ابن طفيل عن مواصلة المعرفة والوصول فيها الى المراتب العليا : مراتب أولى الصدق على حد تعبيره •

ولذلك وصل ابن باجة الى رتبة أهل النظر فقط ، وصل الى رتبة ينتهى اليها بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى ، ولم يتخطها • انها المرحلة الأولى ، ولكنها ليست الأخيرة ، وهذه المرحلة الأخيرة مرحلة أهل الولاية — هى كل هم ابن طفيل ، واذا كان ابن طفيل يرى ان مرحلة النظر العقلية هذه قد تصل بالانسان الى الصواب فى الرأى وأن ابن باجه قد حقق هذا المنحى ، فانه مع ذلك يرى أنها مرحلة بدائية ، بل انه — كما سنرى فيما بعد — قد رفض العقل وهو أساس هذا المنحى من المعرفة •

(جـ) أما ابن سينا فقد أعجب به ابن طفيل : ذلك أنه ، مع طريقته العقلية الصارمة ، قد تتسم مقام أولى الصدق ، وأخذ فى وصفه ، وان

لم يكن قد تذوقه · يقول البارون كرادى فو عن ابن سينا انه درس التصوف دراسة موضوعية فنية · وهذا حق ، فلم يكن في طبيعة ابن سينا أن يتصرف · ولكن ذكاءه المدهش ، وقوة فطنته ، وحدسه البارع ، كل ذلك جعله يصف مراتب التصوف في كثير من الدقة ·

يتفق ابن سينا اذن مع ابن باجة في المرحلة العقلية النظرية ، وفي دقتهما فيها · بيد أن ابن سينا يزيد عن ابن باجة أنه تنسم رائحة ما وراء الطبيعة عن بعد ووصفها وصفا موضوعيا · فيه دقة وفيه جمال · ومن هنا كان اعجاب ابن طفيل به · واذا كان ابن طفيل يخاطب ابن باجة حينما يتحدث عن الحالة التي يشعر بها الواصلون فيقول له : « لا تستحل طعم شيء لم تذق ، ولا تتخط رقاب الصديقين » فانه يذكر وصف ابن سينا لهذه الحالة في اعجاب · ولكن ابن سينا مع هذا لم يصل الى مرتبة العارف · وهي المرتبة التي يتطلبها ابن طفيل ولا يبتغي بها بديلا ، وهي ليست مرتبة نظرية عقلية · انها مرتبة تذوق وكشف ومشاهدة كان ابن سينا بطبيعته بعيدا عنها · بل ان مرتبة النظر التي وصل اليها ابن سينا نفسه ، وما أدت اليه من نتائج مضافا اليها فلسفة أرسطو وفلسفة الفارابي وما كتبه أهل الأندلس لا تكفي في رأى ابن طفيل للمعرفة النظرية ، مع انها في نظره المرحلة الأولى · يقول ابن طفيل : « ولا تظنن أن الفلسفة التي وصلت الينا في كتب أرسطو وأبي نصر وفي كتاب الشفاء تفي بهذا الغرض الذي أردته ، ولا أن أحدا من أهل الأندلس كتب فيه شيئا فيه كفاية » ·

وقد زعم بعض الكاتبين أن هناك شبها بين رسالة ابن طفيل وقصة حي بن يقظان لابن سينا ، ولكن هذا الشبه معدوم ، فقصة ابن سينا قصة رمزية سمجة الأسلوب عادية المعنى ، ولا أدل على ذلك من أنك اذا جردتها عن رمزيتها أصبحت عادية يمكن لكل شخص أن يكتبها ·

ومن هذه النظرة يتضح ان ابن طفيل كان معتقدا برأيه معتزا بفكرته ، فلم يكن تابعا لابن سينا ولا مقلدا له ، وانما كان ابن سينا يمثل في نظره مرحلة من مراحل المعرفة ليست هي السنام ولا القمة ·

(د) أما الغزالي فان ابن طفيل يقول فيه : « أدبته المعارف ، وحذقته العلوم » ويقول : (ولا شك عندنا في أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل الى تلك المواصل الشريفة المقدسة) ·

ولهؤلاء الذين يزعمون ان ابن طفيل تأثر بالغزالي عذرهم حين ينساقون الى ذلك متأثرين بهذا الرأى الذي يبديه ابن طفيل ·

بيد أن الغزالى قد رفض العقل رفضا صارما جارفا ، ومرحلة النظر فى رأيه ، لا تثبت حقيقة ولا تؤدى الى يقين ، ورسالة ابن طفيل ، فى مراحلها الأولى العقلية رد صارم على هذا الاتجاه • وكان ابن طفل انما كتبها خاصة لتكون دليلا عمليا على فساد هذا الاتجاه • لابد من النظر العقلى فى رأى ابن طفيل ، وهو وان كان مرحلة أولى فهو مرحلة لابد منها • انه لا يلتقى مع الغزالى فى فكرته عن هذه المرحلة ، ويثبت فى يقين جازم أنها مرحلة مؤدية الى المعرفة ، ولكن الغزالى فى رأى ابن طفيل وصل الى المواصل الشريفة المقدسة • فهل تأثر ابن طفيل به فى المرحلة التى تعتبر أسمى المراحل والتى يهدف اليها ، واليها وحدها ، ابن طفيل ؟•

ان رد ابن طفيل على ذلك واضح لا لبس فيه (لكن كتبه — كتب الغزالى — المضنون بها ، المشتملة على علم المكاشفة ، لم تصل الينا) •

ثم ان ابن طفيل ينصح المسترشد بألا يسير على طريق التقليد ، ثم يقول : (وانما نريد أن نحملك على المسلك التى تقدم عليها سلوكنا ، ونسبح بك فى البحر الذى قد عبرناه أولا حتى يفضى بك الى ما أفضى بنا اليه • فتشاهد بذلك ما شاهدناه ، وتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه) •

ويقول عما كتبه : (وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد فى كتاب ولا يسمح فى معتاد خطاب ، وهو من العلم الكنون الذى لا يقبله الا أهل المعرفة بالله ، ولا يجهله الا أهل الغرة به) •

وأظن أنا لسنا فى حاجة بعد ما تقدم الى أن نقول ان طفيل كان مستقل الرأى وكان له نهج خاص فى وسيلة المعرفة •

كيف كان هذا النهج ؟ ذلك ما سنوضحه فيما يلى :

ان صاحب النظر الثاقب والفطرة المستعدة يمكنه أن يتدرج فى المعرفة من المحسوس الى المعقول ومن المعلوم حتى يصل الى تكوين فكرة من عالم ما وراء الطبيعة • انه يمكنه ذلك حتى ولو نشأ منعزلا عن العالم كلية وهذا هو الوضع الذى كان عليه حى بن يقظان فى عزلته التامة عن العالم منذ أن ولد ، وفى هذا يتفق ابن طفيل مع ابن سينا وابن باجة ويختلف معهما • فابن سينا وابن باجة يقولان مع ابن طفيل بامكان الوصول الى فكرة عن الملأ الأعلى ، ولكن هذه الفكرة — حسب رأيهما — نتيجة بحث ودراسة وتعليم وثقافة ، ولم يدر بخلدهما أنها قد تتكون كذلك فى العزلة التامة ، والانسان المتوحد عند ابن باجة هو انسان تربى وتثقف ونشأ فى بيئة انسانية •

وفى هذا المنزع يرد ابن طفيل أيضا على الغزالى الذى رفض العقل ورأى أن لا قيمة له فيما يتعلق باليقين ٠

ويتابع ابن طفيل سيره ، واذا كان قد اعتمد على العقل فى المبدأ ، فانه الآن يعتمد على الرياضة الروحية ، انه الآن صوفى بكل معنى الكلمة ، وتؤدى الرياضة بابن طفيل الى الاشراق ، ويؤدى الاشراق الى معرفة يضطر معها ابن طفيل الى رفض العقل ، وهنا يختلف كل الاختلاف مع ابن سينا وابن باجة ولكنه فى نزعته يختلف أيضا مع الغزالى ٠ فاذا كان الغزالى قد رفض العقل ، فانه رفضه قبل أن يصل الى الاشراق ، انه رفضه بأدلة (عقلية) ٠ أما ابن طفيل فلم يرفضه الا بعد (المشاهدة) الا بعد أن وصل الى مقام أولى الصدق فرأى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،ولاخطر على قلب بشر ٠

وموقف ابن طفيل فى هذا موقف طبيعى فان الاعتماد على العقل فى المبدأ طبيعى ، فاذا ما وصل الانسان الى حق اليقين كان رفضه للعقل طبيعيا أيضا ٠

ويسير ابن طفيل فيرى أن ما وصل اليه عن طريق المشاهدة ، يتفق مع الدين ، واذا كان حى بن يقظان قد نشأ فى عزلة تامة فانه حينما اتصل بآسال أخذ عنه الشعائر الدينية وعمل بها وآمن بالرسالة ٠

هذا هو النهج الذى سار عليه ابن طفيل وهو يختلف فيه عن ابن سينا والغزالى وابن باجة ، ويختلف فيه أيضا عن أرسطو وأفلاطون ٠

انه ليس بمقلد فيه واذا قلنا انه تأثر بغيره ، فانه متأثر كتأثير أفلاطون بمن سبقه وتأثر أرسطو بمن تقدموه ٠

لقد درس أفلاطون (الأرفية) وهى شرقية الأصل ، ودرس الفيثاغورية وهى استمرار للأرفية ٠ ولقد تتلمذ أرسطو على أفلاطون ، ودرس فى عمق ، نظريات الفلاسفة الذين تقدموه فوافقهم وخالفهم ٠ فاذا كان لأفلاطون وأرسطو مع كل هذا أصالتهما فلابن طفيل أصالة أيضا ٠ واذا كان التشابه فى الآراء لا يعنى التقليد ، واذا كانت كل فكرة ناشئة قد سبقت بما يشبهها ويماثلها وليس معنى ذلك ان كل فكرة ناشئة هى تقليد محض ٠ واذا كان ابن طفيل قد أعجب بالنار المشتعلة وراعه لهيبها المتصاعد الى عنان السماء ، فليس معنى ذلك انه ذهب الى ثقافة الفرس وأخذ منهم هذه الفكرة واذا كان قد وضع حتى فى جزيرة على خط الاستواء ، فليس معنى ذلك أنه تأثر بالهنود ٠

مقدمة الكتاب وموضوعـــه

بدأ ابن طفيل كتابه كما يأتى :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ـ ذكر سلفنا الصالح رضى الله عنهم ، ان جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الانسان من غير أم ولا أب ، لأنها أعدل بقاع الأرض هواء وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعدادا . وان كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء ..) .

ان قصة (حى بن يقظان) معروفة الآن للخاص والعام ، ويقصد ابن طفيل بكلمة (حى) : كائن ، حى ، بشر انسان . وبكلمة (يقظان) ـ الله ـ الخالق المبدع لهذا الوجود وجميع الكائنات الموجودة فيه .

ان ابن طفيل جعل (حى) يولد بلا أبوين فى احدى جزر الهند التى تحت خط الاستواء ، وترضعه وتربيه وتشرف على تنشئته ظبية ، الى أن ماتت هذه الظبية ، فكان هذا الحدث بمثابة تغير جذرى فى حياة الصبى ، الذى بدأ أول الأمر بتربية لحواســه . ولما بلغ سن الحادية والعشرين ، بدأ يعرف طبخ اللحم وصنع لباسه من جلود الحيوانات وصنع آلات الصيد والقنص ، وبناء كوخ من القصب اقتداء ببعض الطيور ، ثم بدأ فى استئناس الحصان وحمار الوحش وبعض الطيور الكاسرة . ثم بعد ذلك تطور تفكيره الى التفكير فى مملكات الحيوانات والنبات والمعادن الى أن وصــل الى فكرة أنه لابد من وجود وحدة بين العوامل فى الحياة المادية . فوجد أن لكل جســم مادته ومظهره ولكن ما الذى يكون ذلكم الشكل وتلكم المادة . ثم بعد ذلك بدأ (حى) يتدبر هذا الكون الفسيح بما فيه من أجرام سماوية ونجوم وكواكب ورياح وأمطار وعواصف ورعد وبرق . الى أن وصل عن طريق الملاحظة والمشاهد العلمية الدقيقة الى معرفة الله جل علاه ، وقدرة الخالق الأوحد تعالت قدرته .

وحى بن يقظان انسان ولد فى جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء . كيف ولد ؟ هناك فرضان : فرض يجعله يولد من أبوين شأن أى انسان آخر ، وفرض يجعله يتولد من الطين مباشرة .

فعلى حسب الفرض الأول كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة أخرى عظيمة متسعة الأكناف ، يملكها رجل من أهلها شديد الأنفة والغيرة ، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر ، فمنعها الأزواج لأنه لم يجد لها كفؤا ، وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا ، ثم انها حملت منه ووضعت طفلا . فلما خافت أن يفتضح أمرها وضعته في تابوت وخرجت به الى ساحل البحر ثم قذفت به في اليم ، فدفعه الى تلك الجزيرة حيث ألقى به تحت أجمة ملتفة الشجر ، عذبه التربة ، ثم أخذ الماء في النقص وبقي التابوت في ذلك الموضع واشتد الجوع بذلك الطفل وهو لا يزال في داخل التابوت فبكى واستغاث ، فوقع صوته في أذن ظبية فقدت ولدها الذى كان قد خرج من كناسه فحمله العقاب . فتتبعت الظبية الصوت وقد تخيلته صوت ولدها ، حتى وصلت الى التابوت ، ففحصت عنه بأظلافها . وهو يئن في داخله ، حتى طار من التابوت لوح من أعلاه . فحنت الظبية عليه وألقمته حلمتها وأروته لبنا سائغا . ومازالت تتعهده وتدفع عنه الأذى .

ذلك هو الفرض الأول يقول به الذين يرون أن ولادة الانسان لابد أن تكون من أبوين . وأما الذين يقولون بالفرض الثاني ، أى بامكان التوالد من الطين فانهم قالوا ان بطنا من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى . وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة يفضل بعضها بعضا في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الامشاج . وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمها مشابهة بمزاج الانسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان وحدث في وسطها نفاخة صغيرة منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ، ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به ، فتعلق به عند ذلك الروح الذى هو من أمر الله وتشبث به تشبثا يعسر انفصاله عند الحس وعند العقل . وهذا الروح دائم الفيضان من عند الله ، وهو بمنزلة نور الشمس الذى هو دائم الفيضان على العالم . والروح فياض أبدا على جميع الموجودات . فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى ، فتكون بازاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة الى ثلاث قرارات ، بينها حجب لطيفة وسكن في هذه البطون الثلاثة المنقسمة من واحد طائفة من تلك القوى ثم تكونت بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملوءة جسما هوائيا الا انه أغلظ من الأولين .

وهكذا يستمر ابن طفيل في بيان كيفية ايجاد سائر الأعضاء من قلب ودماغ وكبد ، حتى تم خلقه وتمت أعضاؤه ثم استغاث ذلك الطفل

عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه ، فلبثه ظبية فقدت ولدها وقامت بتربيته وهنا يعود الاتفاق بين أصحاب كلا الغرضين فقالوا انها قامت بغذاء الطفل أحسن قيام · وكانت معه لا تبعد عنه الا لضرورة الرعى وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث اذا هى أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارت اليه ·

ولم يكن بتلك الجزيرة شىء من السباع فتربى الطفل ونما حتى تم له عامان وتدرج فى المشى ، وظهرت أسنانه فكانت الظبية تحمله الى مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة · واذا جن الليل صرفته الى مكانه الأول ·

وحاكى الطفل نغمة الظبية بصوته ، وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان ، فألفته الوحوش والفها · وثبتت فى نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته ، فحدث له نزوع الى بعضها ، وكراهية لبعضها ·

غير أنه رأى أن جميع الحيوان مكسو بالوبر أو الشعر أو الريش ، ويرى منها ما هو سريع العدو قوى البطش ، ورأى ما لها من الأسلحة التى تدافع به عن نفسها مثل القرون والأنياب والمخالب · ففكر فى ذلك كله ، وطال همه وقد قارب سبعة أعوام · هنالك اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئا جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه علق به تلك الأشجار · ونازعته نفسه الى اتخاذ ذنب من أذناب الوحوش الميتة ، الا أنه كان يرى أحياء الوحوش تنخاس عنه ، الى أن صادف نسرا ميتا فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه وفتح ريشها وسواها وسلخ عنه سائر جناحيه وفصله على قطعتين ربط احداهما على ظهره ، والأخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه ، وعلق الجناحين على عضديه ، فأكسبه ذلك شدة ودفئا ومهابة فى نفوس الوحوش ·

ولم يفارق أثناء هذا كله الظبية التى أرضعته وربته الى أن أصابها الهزال ثم أدركها الموت ، فسكنت حركاتها بالجملة ، وتعطلت جميع أفعالها · فلما رآها الصبى على تلك الحالة جزع جزعا شديدا ، وكادت نفسه تفيض أسفا عليها · فكان يناديها فلا تجيبه · وحاول استطلاع سبب ما جرى لها فلم يهتد · فظل يفتش فى كل أعضائها الى أن اهتدى أخيرا الى عضو فى الجانب الأيسر من الصدر هو القلب · فجرده فرآه مصمتا من كل جهة ، فظل يقلبه ويفحصه فلم يعثر فيه على آفة · فاعتقد أن الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه بحاله · فتبين له أن الجسد كله خسيس لا قدر له بالاضافة الى ذلك الشىء الذى سكنه

مدة ثم ارتحل • هنالك فكر : ما هو ذلك الراحل ؟ وماذا ربطه بالجسد ؟ وما السبب الذى أزعجه ان كان خرج كارها ؟

وتشتت فكره فى هذا كله ، وسأل عن السبب ، وعلم أن أمه التى عطفت عليه وأرضعته انما كانت ذلك الشىء المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها •

وفى خلال ذلك نتن ذلك الجسد فزادت نفرته منه وود ألا يراه ؛ ثم انه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا • ثم جعل الحى يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة ، فوارى فيها ذلك الميت بالتراب • فاهتدى الى أن يصنع بأمه صنيع الغراب بزميله ، فحفر حفرة وألقى فيها جسد أمه وحثا عليه التراب •

وبقى زمنا يتصفح أنواع الحيوان والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة فاتفق له أن كان يرى فى بعض الأحيان نارا تنقدح فى أجمة قصب أجوف نتيجة احتكاك بعضها ببعض • فلما بصر بها وقف متعجبا • ومد يده اليها ، فلما باشرها أحرقت يده فاهتدى الى أن يأخذ قبسا لم تستول النار على جميعه ، فأخذ بطرفه السليم والنار فى طرفه الآخر ، وحمله الى داره وكان قد خلا فى جحر استحسنه للسكنى • ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب ويتعهدها ليلا ونهارا استحسانا لها وزاد أنسه بها ، واعتقد أنها أفضل الأشياء التى لديه •

هنالك ظن أن الشىء الذى ارتحل من قلب أمه الظبية لابد أنه من جوهر النار أو من شىء يجانسه وأكد ذلك فى نفسه ما كان يراه من حرارة الحى وبرودة الميت وراح يحقق هذا الخاطر ، فعمد الى بعض الوحوش وشقه حتى وصل الى القلب ، فقصد الى الجهة اليسرى منه وشقها ، فرأى ذلك الفراغ مملوءا بهواء بخارى يشبه الضباب الأبيض ، فأدخل اصبعه فيه فوجده من الحرارة فى حر كاد يحرقه ومات ذلك الحيوان على الفور • فصح ان ذلك البخار الحار هو الذى كان يحرك هذا الحيوان ، وان فى كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك ، ومتى انفصل من الحيوان مات •

ونزع الى البحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها ، وكيانها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به • فقام بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيل الفكر حتى بلغ فى ذلك مبلغ كبار الطبيعيين ، فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان ، وان كان كثيرا بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذى مبدؤه من قرار واحد ، وانقسامه فى سائر الأعضاء منبعث منه وان جميع الأعضاء

انما هي خادمة له ، وان منزلة ذلك الروح في تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الأعداء بالسلاح التام · والروح الحيواني واحدة اذا عمل بآلة العين كان فعله ابصارا ، واذا عمل بآلة الأنف كان فعله شما ، واذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقا وهكذا · فان خرج هذا الروح من الجسد، أو فنى أو تحلل بوجه من الوجوه ، تعطل الجسد كله وصار الى حالة الموت ·

وفي خلال ذلك تفنن في وجود الحيلة ، فاكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها ، واحتذى بها ، واتخذ الخيوط من الأشعار ومن القصب وكل نبات ذى خيط · وكان في الجزيرة خيل برية وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له · وأتم بذلك واحدا وعشرين عاما ·

ثم انه بعد ذلك أخذ في مأخذ آخر ، فتصفح عالم الكون والفساد من الحيوان على اختلاف أنواعه والنبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار الخ ، فاكتشف خواصها وأحوالها ·

ثم اتجه الى مأخذ آخر ، اذ أن نظره في سائر الأحياء من الجمادات والأحياء دعاه الى ادراك ان حقيقة وجود كل واحد منها مركبة من الجسمية ومعنى آخر زائد على الجسمية · فلاحت له صور الأجسام على اختلافها ، وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني ، اذ هي صور لا تدرك بالحس، وانما تدرك بضرب من النظر العقلي · ولاح له أن الروح الحيواني لابد له أيضا من معنى زائد الجسمية ، وذلك المعنى هو صورته ، وعقله الذى انفصل به عن سائر الأجسام ، وهو النفس الحيوانية ، ثم أدرك في النبات النفس النباتية ، وفي الجماد المادة والصورة ·

ونظر في ارتباط الموجودات فعلم بالضرورة ان كل حادث لابد له من محدث ، وتتبع الصور التي كان قد عاينها من قبل صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وأيضا لابد لها من فاعل · ولاح له مثل ذلك في جميع الصور ، فتبين له أن الأفعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها ، وانما هي لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة اليها ·

فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل ، حدث له شوق جثيث الى معرفته على التفصيل فتصفح جميع الأجسام فوجدها تحتاج كلها الى فاعل مختار· وانتقل فكره الى الأجسام السماوية، وكان قد بلغ ثمانية وعشرين عاما · فعلم ان السماء وما فيها من الكواكب أجسام لأنها ذوات طول وعرض وعمق ، فظل يتصفحها ويتصفح حركاتها فوقف على أن الفلك بجملته وما يحتوى عليه كشيء واحد متصل بعضه ببعض ، وان جميع الأجسام ، كالأرض والماء والهواء والنبات والحيوان كلها في ضمنه ، وكأنه حيوان كبير ، وما فيه من ضروب الأفلاك هي

بمنزلة أعضاء الحيوان ، وأن ما في داخله من عالم الكون والفساد بمنزلة ما في جوف الحيوان من أصناف الفضول والرطوبات ·

فلما تبين له أن الكون كله كشخص واحد في الحقيقة وانه محتاج الى فاعل مختار تساءل : هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن ، وخرج الى الوجود بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجودا فيما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجود ؟

رأى أنه ان اعتقد قدم العالم وان العدم لم يسبقه وأنه لم يزل كما هو ، فانه يلزم عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء ، وكل حركة فلابد لها من محرك ضرورة ، وعلى ذلك لابد أن يكون المحرك لا متناهيا ، يلزم لذلك أن يكون بريئا عن المادة ·

وان اعتقد حدوث العالم وخروجه الى الوجود بعد العدم ، يلزم عن ذلك ضرورة انه لا يمكن أن يخرج الى الوجود بنفسه ، وأنه لابد له من فاعل يخرجه الى الوجود ، وان ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك بالحواس ، وانه لو كان جسما من الأجسام لاحتاج الى محدث وتسلسل ذلك الى غير نهاية · وآذن فلابد للعالم من فاعل بريء عن المادة ·

فانتهى نظره بكلا الطريقين الى نفس النتيجة ، ولم يضره في ذلك تشككه في قدم العالم أو حدوثه ، وصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ، وانتهت به المعرفة الى هذا الحد وهو في الخامسة والثلاثين ، ورسخ في قلبه من أمر الفاعل ما شغله عن الفكر في كل شيء الا فيه ، وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها ، حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء الا ويرى فيه أثر الصنعة ، فينتقل بفكره على الفور الى الصانع ويترك المصنوع ، حتى اشتد شوقه اليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم المحسوس وتعلق بالعالم المعقول ·

ثم نظر في نفسه ، فرأى أن ذاته هذه ليست هذه المتجسمة التي يدركها بحواسه ، فهان عنده جسمه وجعل يتفكر في تلك الذات الشريفة التي أدرك بها ذلك الموجود الشريف الواجب الوجود · وتبين له أن كمال ذلته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبدا ، حتى لا يعرض عنه طرفة عين ، ورأى أن كماله في التشبه بواجب الوجود ، والتشبه العالي هو الذي تحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه الا الى الموجود الواجب الوجود · وذلك يتم بأن يلازم الفكرة في ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ، حتى تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات ، فلا يرى ثم الا الواحد الحي القيوم ·

وبعد أن حلق ابن طفيل ببطله حي بن يقظان هذا التحليق ، عاد به الى العالم المحسوس وهو في سن الخمسين فيصحب « أبسال » .

ذلك أنه كانت هناك جزيرة قريبة من تلك التي ولد بها حي ، وهذه الجزيرة انتقلت اليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء . وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من أهل الفضل والرغبة في الخير ، يسمى أحدهما أبسال والآخر سلامان . وكانا مؤمنين بتلك الملة ، الا أن أبسال كان أشد غوصا على الباطن ، وأكثر عثورا على المعاني الروحانية وأطمع في التأويل ، بينما كان سلامان أكثر تمسكا بالظاهر وأبعد من التأويل ، وأوقف عن الصرف والتأمل . وكان في تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد ، وأخرى تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة . فتعلق أبسال بطلب العزلة بينما تعلق سلامان بملازمة الجماعة .

وكان أبسال قد سمع عن الجزيرة التي نشأ بها حي ابن يقظان ، فارتحل اليها وكان يطوف بتلك الجزيرة فلا يرى أحدا ، الى أن اتفق ذات مرة أن خرج حي بن يقظان لالتماس غذائه ، وأبسال قد ألم بتلك الجهة ، فوقع بصر كل واحد منهما على الآخر ، فأما أبساء فلم يشك في أنه من العباد المنقطعين وصل الى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس . وأما حي فلم يدر من هو ، لأنه لم يره على صورة شيء من الحيوان الذي عرفه . فوقف يتعجب من أبسال ، وولى أبسال هاربا منه خيفة أن يشغله عن عزلته ، فاقتفى حي بن يقظان أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء ، فشرع أبسال في الصلاة والقراءة فجعل حي يقترب منه قليلا حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه ، فسمع صوتا حسنا وحروفا منظمة لم يعهد مثلها في شيء من أصناف الحيوان . فلما أحس به أبسال فر منه ، فلحق به حي وأظهر البشر والفرح ، وكان أبسال قد مهر في كثير من الألسن ، فظل يتكلم بكل لسان يعرفه فلم يستطع افهامه شيئا ، وحي بن يقظان في ذلك كله يتعجب مما يسمع ويرى . ثم آنس كل منهما بالآخر ، ورجا أبسال أن يعلمه الكلام والعلم والدين ليكون له بذلك أجر عند الله وزلفى . فشرع في تعليمه الكلام بأن كان يشير به الى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ، حتى جعله يتكلم في أقرب مدة . وهنالك سأله أبسال عن شأنه ومن أين صار الى تلك الجزيرة فأعلمه حي أنه لا يدري لنفسه ابتداء ولا أبا ولا أما أكثر من الظبية التي ربته ، وصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى الى درجة الوصول . فلما سمع منه أبسال ووصف ذات الله ، لم يشك أبسال في أن جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله عز وجل ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ، هي أمثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان ، فانفتح بصره ، وتطابق

عنده المعقول والمنقول فتحقق عنده أن حي بن يقظان من أولياء الله فالتزم خدمته . وجعل حي يستفصحه عن أمره ، فجعل أبسال يصف له شأن الجزيرة وما فيها من الناس ، ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم الالهي والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط . ففهم حي بن يقظان هذا كله ولم ير فيه شيئا على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم . فعلم أن الذي وصف ذلك وجاء به محق في وصفه ، صادق في قوله ، رسول من عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته . ثم جعل يسأله عما جاء به هذا الدين من الفرائض والعبادات فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبهها من الأعمال الظاهرة ، فتلقى ذلك والتزمه ، وأخذ نفسه بأدائه ، الا أنه بقي في نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما : أولهما : لم ضرب الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم ، وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس في التجسيم ؟ والثاني : لم اقتصر على هذه الفرائض وأباح الاقتناء للأموال والتوسع في المآكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والاعراض عن الحق ؟ وكان رأيه هو ، أي حي ابن يقظان ، ألا يتناول أحد شيئا الا ما يقيم به الرمق . وأما الأموال فلم تكن لها عنده معنى . وكان يرى ما في الشرع من الأحكام في الأموال : كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات يرى في ذلك كله تطويلا وكان يستغرب ذلك كله . فاشتد اشفاق حي بن يقظان ، على الناس وطمع أن تكون نجاتهم على يديه . وفاوض أبسال في الرحيل معا الى جزيرته .

واتفق أن ضلت سفينة وصلت الى هناك ، فركباها وسارت بهما الى جزيرة أبسال . وكان على رأسها حينئذ سلامان صاحب أبسال . فشرع حي في تعليم أهلها ، فجعلوا ينقبضون منه ويدبرون عنه . فيئس من اصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم . وتصفح الناس فرأى كل حزب بما لديهم فرحين وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ، وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق . فانصرف الى سلامان وأصحابه فاعتذر عما تكلم به معهم ، وتبرأ اليهم منه وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة ، والاقتداء بالسلف الصالح ، والترك لمحدثات الأمور . ثم تلطف هو وأبسال في العودة الى جزيرتهما وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم واقتدى به أبسال ، وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين .

★★★

هذه خلاصة قصة (حي بن يقظان) سردناها أحيانا بحروفها ·

والغاية الرئيسية التى استهدفها منها ابن طفيل هى بيان اتفاق العقل والنقل ، أى اتفاق الدين والفلسفة · وحى بن يقظان هو رمز العقل الانسانى المتحرر من كل سلطة ومن كل معرفة سابقة · ومع ذلك يهتدى الى نفس الحقائق التى أتى بها الدين الاسلامى فالدين حق ، والحق لا يتعدد ، ولهذا اتفق الدين والفلسفة ، وأبسال رمز لرجل الدين المتعمق المتأول الغواص على المعانى الروحانية ، وسلامان رمز لرجل الدين المتعلق بالظاهر المتجنب للتأويل المتوقف عند الأعمال الظاهرة والمعانى القريبة ·

أما الجمهور فلا يعى الا الظاهر والحرفى ولا يدرك من معانى الدين شيئا · واضح من هذا أن ابن طفيل يرتب الناس هذه المراتب الأربع · فأعلاها مرتبة الفيلسوف ، وتتلوها مرتبة عالم الدين البصير بالمعانى الروحانية أى الصوفى ، وتتلوها مرتبة رجل الدين المتعلق بالظاهر وهو الفقيه ، وأدناها مرتبة الجمهور من الناس ·

ان كتاب ابن طفيل أول ما عرف ، عرف كمخطوط من بين مخطوطات (الاسكوريال) فترجمه أولا الى :

١ ــ العبرية	موييسيس ناربونة ــ سنة ١٣٤١ ميلادية ·
٢ ــ اللاتينية	أ· بوكوك ــ سنة ١٦٧١ ·
٣ ــ الانجليزية	اشويل، جورج كيث ، سيمون اكلى ــ سنة١٧٠٨ ميلادية ·
٤ ــ الهولندية	مترجم مجهول ــ سنة ١٦٧٢ م ــ وترجم مرة أخرى الى هذه اللغة سنة ١٧٠١ م ·
٥ ــ الألمانية	ج· جورج بيريتيوس سنة ١٧٢٦ م ــ وترجمة أخرى سنة ١٧٨٣ م ·
٦ ــ الفرنسية	ليون جوتييه ــ سنة ١٩٠٠ م ·
٧ ــ الأسبانية	فرانثيسكوبونس ــ سنة ١٩٠٠ م ــ وترجمة أخرى كونثليث بالينثيا سنة ١٩٤٣ م ·

ويرجح جدا أن يكون هذا الكتاب قد ترجم الى غير هذه اللغات المذكورة ، كما ان الدراسات والأبحاث القيمة قد تعددت واختلفت جدا ، عدا المؤتمرات العالمية التى فقدت عن ابن طفيل ، سواء فى تشكوسلوفاكيا أو لبنان ، أو غيرهما ·

ومن الدراسات المهمة الجديرة بالذكر ، الكتاب الذى ألفه الأسبانى : خوسى بيرجو ليقارن بين . (ديكارت وابن طفيل) . لم يذكر تاريخ نشره فى مدريد .

أما عن تأثير (قصة حى بن يقظان) فى أوروبا فهناك مسألتان تثيران الحيرة . أولاهما أن الأب اليسوعى جرثيان Baltazar Gracian نشر فى سنة ١٦٥٠ ـ ١٦٥٣ كتابا بعنوان El Criticor والنصف الأول منه يشبه تماما (حى بن يقظان) . فهل كان ذلك عرضا واتفاقا ؟ هذا يستبعد لشدة الشبه بين كليهما لكن كيف عرف جرثيان بقصة حى ابن يقظان ؟ ان ترجمة بوكوك لم تظهر الا سنة ١٦٨١ وكذلك لم ينشر النص العربى الا فى سنة ١٦٨١ فكيف عرف جرثيان ، وهو لم يكن يعرف العربية ، بقصة حى بن يقظان ؟ تلك مشكلة لا تزال حتى اليوم دون حل .

ومشكلة ثانية هى : هناك تشابه بين (حى بن يقظان) وبين قصة روبنصن كروزو Robinson Crusoe تاليف Daniel de Foe لكنه أقل كثيرا من التشابه بين قصة (حى بن يقظان) والكريتكور El Criticor لجرثيان . وقصة روبنصن كروزو نشرت سنة ١٧١٩ أى بعد ظهور ترجمة بوكوك وتأثر بها فى الفكرة العامة فحسب ، لأن اتجاه ابن طفيل مختلف تماما عن اتجاه دانيل دى فو كما يتبين من تلخيصنا هذا لقصة حى بن يقظان .

ومن الذين أعجبوا بقصة (حى بن يقظان) ليبنتس الفيلسوف المشهور ، فقد اطراها اطراء بالغا (Leibritii Opera omnia, ed. Dutens, I. II, P. Genéve, 1768) ، وكان قد قرأها فى ترجمة بوكوك اللاتينية .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر والدراسات حولها فى أوروبا تتوالى فى غير انقطاع وبمختلف اللغات حتى الآن ، حتى يمكن أن نقرر فى اطمئنان أن قصة (حى بن يقظان) كانت أوفر الكتب العربية حظا من التقدير والعناية والتأثير فى أوروبا فى العصر الحديث .

تحفة النظار، وغرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

ابـــن بطـوطـــة

١٣٠٤ - ١٣٥٤ م

ابن بطوطة سيد الرحالة فى القرن الرابع عشر ـ الثامن هـ ـ غير منازع · فقد سلخ من عمره ثمانية وعشرين عاما يتنقل فى أجزاء العالم المعروف فى أيامه · بدأ من طنجة ، واجتاز شمال أفريقيا الى مصر وديار الشام ، وأدى فريضة الحج ، ثم ساح فى فارس وبلاد العرب ، وزار شرق أفريقية ، ودخل القرم وحوض الفولجا الأدنى ، وعرج على القسطنطينية ·· وتاقت نفسه بعد ذلك الى التشريق فاتجه نحو خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند ، حيث خدم ملك دلهى ثماني سنوات ، ثم زار جزر الملديف وبعض جزر الهند الشرقية والصين وعاد الى طنجة · لكن حنينه الى الأسفار عاوده فرحل رحلتين قصيرتين الواحدة الى الأندلس والأخرى الى السودان ·

وقد قدرت المسافة التى اجتازها ابن بطوطة فى أسفاره بنحو ١٢٠٠٠٠ من الكيلو مترات · واذا ذكرنا وسائل النقل والمواصلات التى كان عليه أن يلجأ اليها ، أكبرنا فيه هذه الهمة ·

***

المسلمون وريادتهم ميدان الرحلات

أتيح للمسلمين فى العصور الوسطى أن يحوزوا قصب السبق فى ميدان الرحلات والاكتشافات (٤٩) ، وقد شجع على هذه الريادة وعضد هذا الارتياد لبلاد الامبراطورية الاسلامية المترامية الأطراف ـ من حدود الهند شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالا الى صحارى أفريقيا جنوبا ـ أسباب نستعرضها فيما يلى :

١ ـ كانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه العرب تتطلب الدراسة والوصف ، مما دفع بعض الخلفاء والحكام العرب الى أن يوفدوا مبعوثيهم وسفراءهم الى البلاد الاسلامية والعربية المختلفة ؛ لدراسة أحوالها ومعرفة طبائع سكانها وبيان الطرق والمسالك المؤدية اليها ، تمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة بين سكانها ولتوثيق الروابط بين السلطة المركزية وبين حكام الأقاليم ، وقد اقتصرت هذه الرحلات على البلاد الاسلامية ·

٢ ــ يحث الاسلام على طلب العلم ويحث على تجشم المشاق فى هذا السبيل ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « **اطلبوا العلم ولو فى الصين** » دليل كبير . لذلك ، كان طلاب العلم يتركون أوطانهم ويسيرون شرقا وغربا وشمالا وجنوبا من اقليم الى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويقابلون الأعلام والفقهاء .

٣ ــ كان الحج من أعظم بواعث الرحلات ومن أغنى الينابيع التى زودت المسلمين بالمعلومات ، فان آلاف المسلمين الذين يتجهون الى بيت الله الحرام وقبر رسوله من كل فج عميق من شتى أنحاء الأرض ، كانوا يصفون عند عودتهم الى بلادهم مشاهداتهم ويروون القصص التى سمعوا ، كما كان النابهون منهم واسعو الثقافة يدونون تجاربهم ، لينتفع بها غيرهم وتساعدهم على أداء مناسكهم .

٤ ــ كان لاتساع نطاق التجارة وانتشار قوافلها وامتداد طرقها بين بحار الصين وآسيا الوسطى ، وسواحل بحر البلطيق والأندلس ، وشواطىء المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط ، وسواحل أفريقيا الشرقى وجزر المحيط الهندى وصحارى السودان ــ مما تشهد به الكنوز الوافرة من النقود الاسلامية التى عثر عليها فى روسيا وفنلندا والسويد والنرويج وفى سويسرا وجزر أيرلندا والجزر البريطانية ــ الأثر الكبير فى انتشار وازدهار النشاط الارتحالى .

٥ ــ الثراء الذى امتازت به البلاد العربية فى العصور الوسطى .

٦ ــ الميل الغريزى عند العرب للبحث والاطلاع ، ولذلك اتخذ كثير منهم السياحة وسيلة للدراسة والوقوف على ما بالبلاد الأخرى من عجائب وغرائب .

٧ ــ شعور العربى بأنه فى بلده ما دام فى ديار وبلاد اسلامية .

٨ ــ كانت للعروبة هيبة فى سائر دول العالم ، فكان العرب المسافرون يلقون من كرم الضيافة وحسن المعاملة ما يحبب اليهم الرحلات والأسفار .

٩ ــ قدر الدين الاسلامى متاعب السفر فخفف على المسافرين بعض الواجبات الدينية فى الصلاة والصوم « **ومن كان منكم مريضا أو على سفر** » كما أن اباحة تعدد الزوجات سمحت للمسافر بالتزوج فى البلاد المزارة .

١٠ ــ كان العالم العربى فى العصور الوسطى يمثل دائما كتلة ثقافية وروحية واحدة على الرغم من وجود بعض المنازعات السياسية .

١١ ـ كان العالم العربى كذلك يمثل وطنا حقيقيا لا للمسلمين فقط ، بل ولمواطنيهم من المسيحيين واليهود ٠

١٢ ـ السفارات الاسلامية الثقافية والاجتماعية تلك التى حفلت بها الدبلوماسية العربية الاسلامية فى هذه الحقبة من التاريخ مثل رحلة ابن فضلان الى جنوبى روسيا ، والسفارة الأندلسية الى أوتو الأكبر ، امبراطور الجرمان ، سنة ٩٧٣ ميلادية ٠

١٣ ـ يعزو بعض العلماء اختراع البوصلة الى الصينيين ، الا أن القرائن تدل على أن العرب أول من استعملوها فى رحلاتهم البعيدة ٠ فضلا على الاسترطلاب الذى ينسب الى العرب اختراعه وصناعته ٠

١٤ ـ وأخيرا يجدر بنا ألا ننسى السعى فى طلب الرزق ورحلات أعلام الفنانين ومهرة الصناع للمساهمة بفنهم فى المشروعات ، بالاضافة الى بساطة العيش ٠

كل تلك الأسباب هيأت للأسفار والرحلات ، فقام من العرب رحالة جابوا أرجاء العالم ، ولم تستطع الظروف السياسية كالحروب بين الملوك والأمراء أن توقف رحلات العرب الا فترات مؤقتة ، ثم سرعان ما كانت تعود سيرتها الأولى ٠

ولقد دون المؤلفون المسلمون الكثير فى مؤلفات خاصة بالرحلات ، وأدمجت أخبار بعضها فى كتب التاريخ والبعض الآخر فى كتب تقويم البلاد ٠

★★★

ومن عجب أن يكون ابن بطوطة هو شيخ الجوابين ثم تخلو المصادر الأصلية من ذكره ، فلا نجد له فى كتب التراجم سيرة ، ولا يتحدث عنه معاصروه الا بما لا يروى غلة كما فعل « ابن خلدون » ، وهو من المؤلفين العرب القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة مع أنه قد التقى به وسمع بأخبار رحلاته ٠ ويحاول الباحث أن يترجم للرجل ترجمة تليق به فلا يجد تحت يديه من مصادر سوى رحلته ، وهى وحدها لا تكفى لكتابة سيرة وتصنيف تاريخ ٠

ورحالتنا هو محمد بن عبد الله بن ابراهيم ، اللواتى قبيلة ، الطنجى مولدا ٠ وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين ، واشتهر بابن بطوطة ، وقبيلة لواته التى ينتمى اليها قبيلة بربرية كبيرة تعرف فى لسان البربر باسم « ايلواتن » ، وكانت بطونها تنتشر على طول الساحل الأفريقى من المحيط حتى ليبيا ٠ وكان مولد أبى عبد الله فى مدينة

طنجة ثغر المغرب على مدخل بحر الروم فى يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة (٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤ م) هكذا حدث هو عن نفسه كاتب رحلته ابن جزى يوم التقى به فى مدينة غرناطة قبل أن يملى عليه رحلته بسنوات ٠

ولا نعرف شيئا عن طفولة الرجل وصباه ، ولا علم لنا بسيرة حياته الا فى حدود ما يمكن أن نستخلصه من اشارات عابرات ترد على لسانه وهو يروى قصة رحلاته ، ولكن يبدو أنه كان عالما وفقيها وهو ما ينتظر من رجل ولد فى أسرة عرف عنها الاشتغال بالعلم ، ثم يؤكده ان يعرف الحجاج له فضله فيقدمونه عليهم قاضيا وهو فى تونس ، ثم يعمل بعد ذلك فى القضاء فى جزائر « ذيبة المهل » التى نعرفها فى وقتنا الحاضر باسم جزائر « ملديف » وأغلب الظن أنه كان مذهب مالك فهو المذهب الذى ساد فى المغرب العربى خلال العصور ٠

وكان ابن بطوطة رقيق المشاعر سريع التأثر ، وتفيض صفحات قصته بكثير من المواقف العاطفية ، فهو حين يترك والديه « تحمل لبعدهما وصبا ، كما لقى من الفراق نصبا » ٠ وهو عندما وصل مدينة تونس ، وبرز أهلها للقاء بعض كبار الشخصيات فى القافلة التى لحق بها « وأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم عليه أحد لعدم معرفته بهم ، وجد من ذلك فى النفس ما لم يملك معه سوابق العبرة واشتد بكاؤه حتى شعر بحاله بعض الحجاج فأقبل عليه بالسلام والايناس ٠٠٠ » ولما عاد من رحلته الأولى وعلم أن والدته قد ماتت حزن لذلك حزنا شديدا قطعه عن كل شىء وسارع الى زيارة قبرها فى طنجة ، ويظهر ان وقع المصيبة كان شديدا على نفسه فمرض ثلاثة أشهر قضاها فى سبتة ٠

وابن بطوطة متعصب لوطنه الصغير ، وكان المنتظر من رجل قضى أطيب سنى العمر متنقلا من بلد الى بلد أن تكون الدنيا كلها وطنه ، ولا ندرى هل كان الرجل يؤمن حقيقة بما يقول ، أم أنه أراد أن يداهن السلطان فراح يقص على مسامعه أن بلاده « الشريفة » هى أحسن البلدان ، « لأن الفواكه بها متيسرة والمياه والأقوات غير متعذرة » ٠

ولكن الرجل على فضله وعلمه ، يتميز بشىء غير قليل من البساطة ، وربما تصل الى السذاجة فى بعض الأحيان ، فهو يصدق كثيرا من الأساطير التى لا يقبلها عقل ، ويعتقد فى صحة كرامات الدراويش التى رويت له ، أو التى جسمها له الوهم والخداع النفسى فراح يرويها على أنها حقائق شاهدها رأى العيان ، وربما كان مرد ذلك الى أن الرجل بحكم نشأته الدينية كان تقيا ورعا ، يعظم الأتقياء والصالحين ، ويزور قبورهم للتبرك بهم ، وما سمع عن ولى من الأولياء الا وهرع الى لقائه ، يزوره

ويسأله صالح الدعوات ، وقد كانت هذه هي روح العصر فلا عجب أن يأخذ بها ابن بطوطة وأن يفعل ما يفعل مواطنوه ·

وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يكن من أصحاب الأقلام ، فهو لم يترك اى انتاج أدبى ، ولم يرد فى رحلتـه أو غيرها من المصـادر أى ذكر لمؤلفات منسوبة اليه ، ولكنه حـاول أن ينظم الشعر وما كنا لنعرف ذلك لولا أن أشار اليه هو نفسه ·

ولو كان ابن بطوطة من الأدباء لكتب على الأقل مذكرات منظمة عن رحلته ، ولما أمر السلطان أبو عنان المرينى كاتبه محمد بن جزى الكلبى أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة من عجائب رحلته ، بل كان الأقرب الى المنطق أن يكلفه هو بكتابتها ، ويشبه موقف ابن بطوطة موقف معاصره الرحالة البندقى ماركو بولو ، فهو بعد أن عاد من رحلاته الطويلة فى الشرق راح يحدث بأخبارها التى كان يستمع اليها القوم كأساطير ، وكان من الممكن أن تنسى هذه الأخبـار مع الزمن لولا أن صـادف وهو يسجنه فى جنوة كاتبا ذا مواهب أدبية اخذ يسجل رحلة ماركو بولو باملائه ، ولو أن ابن بطوطة لم يحظ بما حظى به فى بلاط ابى عنان حتى أمر كاتبه بتسجيل أخبار الرحلة لكان من المحتمل أن تضيع ، ولما كان لابن بطوطة المكان الذى يحتله الآن فى تاريخ الرحلات ·

لقد طوف ابن بطوطـة بكل أرجاء العـالم الاسـلامى فى أفريقية وآسيا وأوروبا ، وتعداه الى غيره من بلاد المسيحيين والوثنيين فزار بلاد الروم والصين والهند وسيلان حتى أصبح كما وصفه ابن جزى « رحال العصر ومن قلال رحال هذه الملة ، لم يبعد » ·

وكان لا يزال فى تجواله حين جاءه فى مدينة « تكدا » أكبر مدن الطوارق فى السودان الغربى ، كتاب من السلطان أبى عنـان يأمره بالوصول الى حضرته العلية ، فامتثل للأمر ، وخرج من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة (١١ سبتمبر سنة ١٣٥٣) فوصل فارس فى أواخر ذى الحجة (يناير ١٣٥٤) · وكان قد نوف على الحادية والخمسين من العمر ، وبقى بها حتى اختاره الله الى جواره فى سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧) م وله من العمر نحو ٧٤ سنة ·

وكما أغفل التاريخ اسم ابن بطوطة الشاب ، فقد تجاهل كذلك ذكر ابن بطوطة الشـيخ ، وتركنـا لا نعرف من أمره فى السنوات الثـلاث والعشرين التى قضاها مستقرا فى فارس ، الا أنه أقام فى حاشية السلطان « فغمره من احسانه الجزيل ، وامتنانه الحفى الحفيل ، ما أنساه الماضى بالحال ، وأغناه عن طول الترحال » ·

أما كاتب الرحلة هذا فهو محمد بن جزى الكلبى ، وقد ولد فى غرناطة ، والتحق بخدمة بنى نصر ، وترقى فى الوظائف حتى شغل منصب كاتب السلطان أبى الحجاج بن يوسف ، فلما اختلف معه هاجر الى فاس ليشغل نفس المنصب فى بلاط السلطان أبى عنان المرينى ، وأصبح محل ثقته · وقد عهد اليه بكتابة أخبار ابن بطوطه فقضى فى ذلك ثلاثة أشهر ، يستمع الى الرجل ويسجل ما يملى عليه منها « فكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة » (ديسمبر ١٣٥٥ م)· ويظهر أن هذا التقييد كان مجرد مسودة للرحلة أعاد صياغتها فيما بعد « فكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة » (فبراير ١٣٥٦ م) أى أنه أنفق قرابة ثلاثة أشهر أخرى فى تبييض المسودة ووضعها فى صورتها النهائيه ·

ولا يدل أسلوب ابن جزى على أنه كان من الكتاب الموهوبين ، وهو كثيرا ما يعمد الى السجع المتكلف · والى الاطناب حيث لا محل للاطناب ، والى تضمين أشعار الشعراء بلا مناسبة ودون أن تكون لها صلة بالموضوع · ولعل أسوأ ما فى الأمر أن يضمن كلامه فقرات يقتبسها من المؤلفين السابقين دون أن يشير الى أسمائهم ، وكثيرا ما سطا على مواطنه ابن جبير فنقل من رحلته فصولا ــ على نحو ما نرى فى وصف دمشق وحلب وبغداد وغيرها ــ فأفسد بذلك الاطار العام لحديث ابن بطوطة القصصى المسترسل ، الفياض بالحيوية والخالى من الحشو والتكلف ·

بيد أننا يجب أن نعترف بأن الرجل بذل غاية الجهد فى أن يخلق من أخبار ابن بطوطة عملا فنيا متماسكا ، ولا شك أنه لقى فى ذلك كثيرا من العناء ، فابن بطوطة لم يكن جغرافيا يهتم بالمكان اهتمامه بمقابلة الأشخاص والتحدث عنهم · وهو لم يدون مذكرات عن أسفاره أو لعله دون شيئا وضاع · فكان كل اعتماده فى املاء أخبار رحلته على ما وعته ذاكرته ، وعسير ، مهما كان المرء من قوة الذاكرة ، أن يروى التفاصيل الكاملة لأحداث ربع قرن · ولهذا كانت أخبار الرجل قصصا متفرقات · ولما كان ابن جزى لا يعرف شيئا من أمر البلاد التى تحدث عنها ابن بطوطة فليس غريبا أن يقع فى أخطاء وهو يحاول أن ينسج من أخبار محدثه قصة متكاملة البناء · وماذا يصنع ابن جزى وقد قطع صاحبه على نفسه عهدا بألا يسلك طريقا ما أكثر من مرة ، فكثرت أسماء الأماكن التى يذكرها واختلطت عليه مواقعها والمسافات التى تفصل بينها ؟! وماذا يصنع ابن جزى وصاحبه رجل يستمع الى القصص التى يرويها المترجمون المحليون فيصدقها دون تحقيق أو تمحيص ؟!

ومهما يكن من أمر ، فقد كان هذا الاضطراب سببا فى توجيه النقد الى بعض أجزاء الرحلة ، وبخاصة ما يتعلق منها بوصفه للقسطنطينية

وبزيارته للصين. وهو فى الأولى أخف وأيسر فمعظمه ينصب على اضطراب التواريخ ، غير أن هناك اجماعا على أن الرجل قد وصف المدينة وصف شاهد عيان قوى الملاحظة ، ولكنه فى الأخرى ادهى وأمر حتى ان البعض لينكر أن يكون ابن بطوطة قد زار الصين أصلا ، ومن هؤلاء شيفير Schefer وفيران Ferrand ويول Yule وعندهم أن ما ذكره عن هذه البلاد انما من قبيل التلفيق ، وهو زعم فيه كثير من التحامل .. حقا ان وصف الرجل المفصل للصين فيه كثير من النقاط الغامضه ، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أن ما ذكره الرجل عن الصين انما هو من نسج الخيال ، ففيه فقرات معينة لا يمكن أن تصدر الا عن معاينة مباشرة ، وكثير من أحاديثه تؤكده المصادر الصينية فيما يروى البحاثة اليابانى ياماموتو Yamamoto وتؤيده رحلة ماركوبولو الذى زار الصين من قبله ومكث فيها زهاء سبعة عشر عاما ، ومات قبل أن يبدأ ابن بطوطة رحلته بعام واحد .

الرحـــلات

بعد أن عرفنا الرجل وعرفنا شيئا عن الكتاب وجب علينا أن نتتبع خط سير هذا الرحاله لنضع الخطوط العريضة لرحلاته ، ولنقسمها الى ثلاث مراحل أو سفرات واسعة النطاق تسهيلا لعملية التتبع حتى يمكننا أن نقدم ملخصا موضحا لطريقة ابن بطوطة فى التصوير المجتمعى ، وعلى هذا أرى أن :

١ ــ الرحلة الأولى تقع فى الفترة الزمنية من سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٤ م الى ٧٣٨ هـ ــ ١٣٤٩ م . زار فيها شمال أفريقيا ومصر والشرق الأوسط وأفريقيا الشرقيـة وجزيرة العرب واليمن ، ثم قصد الى القسطنطينية ، وبعد أن أقام بها فترة من الزمن عاد الى الهند ، ثم سافر مع أعضاء البعثة الدبلوماسية التى أرسلها سلطان الهند محمد شاه .

٢ ــ والرحلة الثانية تقع فى سنة ٧٣٩ ــ ٧٤٠ هـ = ١٣٥٠ ــ ١٣٥١ م . زار فيها الأندلس وجبل طارق وغرناطة .

٣ ــ والرحـلة الثـالثة تقـع ما بين عـامى ٧٤١ ــ ٧٤٣ هـ . ١٣٥٢ ــ ١٣٥٤ م . زار فيها السودان وغرب أفريقيا .

وتستمد هذه الرحـلات قيمتها من تميز صـاحبها عن سواه من الرحالة السـابقين فى التفوق فى الدرس ، اذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا ألم بها وبسـطها بتفصـيل ، حتى انه هو الذى انفرد بالتحدث عن السلطانة « رضية » التى توجها مسلمو الهند ملكة عليهم .

كان متوفر النشاط حتى انه استطاع أن يشهد بلادا كثيرة ، كانت تعيش في العصر الذى بلغت فيه الحضارة العربية ذروتها واتسعت رقعة دولتها من حدود الهند فى الشرق الى المحيط الأطلسى فى الغرب ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز في الشمال الى صحارى افريقيا فى الجنوب. كما أن ابن بطوطة كان سابع سبعة من أعلام الرحالة العرب ، وهم المقدسى والادريسى وابن جبير والسمعانى وياقوت والبيرونى ، الا انه كان أشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية فى المجتمع الذى يراه .

ويمثل الكتاب الذى أملاه العالم ابن بطوطة وجها مهما لهذه الفترة من التاريخ ، عبر هذا الصعيد المترامى الأطراف من البلدان .

(أ) عبر المدن :

يوم البدء كان هو الخميس الثانى من رجب عام ٧٢٥ هـ ـ ١٣٢٤ م . ونقطة البدء طنجة والهدف القوى الظاهر حج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله (ص) . ويسلمه الطريق فى تلمسان رفيق سفر وجهته تونس ويسيران رغم مرض ابن بطوطة بالحمى التى عانى منها حتى وصل الركب مدينة تونس ، ومن تونس يسير الركب مخترقا بلاد المغرب نازلا بتلمسان وبجاية وطرابلس .

وينحدر الى مصر فيذهب الى الاسكندرية ومنها الى منية بنى المرشد ثم الى دمياط فالقاهرة شرقا الى الصالحية والى بلاد الشام ، بادئا ببيت المقدس فالبندقية فدمشق فبصرى فتبوك فالعلا .

ويتجه جنوبا الى الحجاز فالى المدينة المنورة ومنها الى مكة ، وبعد أداء الفريضة يصعد مرة ثانية الى الشمال فيزور العراق ، بادئا بالنجف ثم واسط فالبصرة ، وفى بلاد ايران يزور ابن بطوطة ايزج وتستر وأخيرا شيراز .

ويعود للعراق ليزور الكوفة وبغداد وكربلاء والموصل وعيد الرصد المولحة وجزيرة ابن عمرو ونصيبين وسنجار .

ويبحر جنوبا الى جنوب شبه الجزيرة العربية مارا بماردين وسواكن ومالى .

ويصل الى ميناء تعز باليمن ومنها الى عدن فزيلع التى يبحر منها الى الصومال ، ليزور مقديشيو وكلوا ويعود الى قلهات ، معرجا على طيب ، زائرا نزوا وكل هذه فى عمان .

ويبحر ابن بطوطة الى جزيرة هيرمز ثم الى كورستان ولاز ، ثم سيزاف على ساحل بحر الهند ، وقبل أن ينوى الحج مرة ثانية يمر ببلاد البحرين القطيف والحسا واليمامة .

والى مكـة من جديد والى مينـــاء جـدة ليبحر الى عيذاب وحمثرا والعطوانى ·

ويعبر البحر الأحمر ليصل الى صعيد مصر وينزل باسنا ويسافر منها الى أرمنت ثم الأقصر ومنها الى قوص وقنا وأخميم وأسيوط ومنفلوط وملوى والاشمونين فالمنيا (منية بن خصيب) فالبهنسة ثم بوش فمنية القائد فمصر ومنها الى بلبيس ·

ومن شرق مصر يتجه الى غزة ، ثم يزور مدينة الخليل وبيت المقدس فالرملة فعكا وطرابلس وجبلة ثم ميناء اللاذقية ·

ومن هناك تداعب أحلام ابن بطوطة زيارة شواطىء آسيا الصغرى ومدنها وكانت تحكمها آنذاك دولة فتية قوية ، ويبدأ بالعلايا ثم انطاكية ثم لى بردور وسبزا وأكردور وقلحسار ولاذق فميلات ومنها الى اللاندرة وبركا ومغنيســـيا وبرغمة ثم الى بـلاكسرى وبرصى ومـكجا وكردبولى وقصطمنية وصنوب والقـرم وأذاق والماجـر وبلغار والقسطنطينية ومن العاصمة الى السرا ، ويشد الرحال الى خوارزم والكات وبخارى وهرات والجام وطوس ومشهد الرضا وزامرة ونيسابور وبسطام وغزنة ·

أما الهند فلقد عاش فيها ابن بطوطة أياما حافلة وزار فيها لاهنرى ، ملتان ، دهلى ، أمروها بيانه ، هنرى ، أبى سرور ، منجرور ، هيلى ، جرفتن ،وقلقوت ، ومن هناك يبحر ابن بطوطة الى جزائر ذيبة المهل التى أذهلته فيها النساء الجميلات العاريات الا من مئزر يلففن به جزءا تحت خصورهن النحيلة ، الأمر الذى دعا الدكتور حسين فوزى الى أن يصيح فى الرحالة وهو يصف « ويحك يابن بطوطة » ·

وأبحر الى سيلان ومنها تقدم الى كنكار ثم جاوة فالخنسا ثم الى قنقجوا فالزيتون الى كولو عائدا الى قلقوط ، ولا يلبث أن يذهب الى ظافار ويسافر منها الى مسقط والى هيرمز فكورستان ومنها الى ايلار ثم جنح بل وقارزى ثم الى جمكان وميمن وبسا وشيراز وأصفهان من بلاد فارس ، وفى العراق يزور الكوفة وبغداد وينتجه جنوبا الى القدس وغزة ·

ويحضر الى مصر من جديد فينزل فى ميناء دمياط ، ويغادرها الى فارسكور وسمنود وأبى صير والمحلة الكبرى ثم الى دمنهور فالاسكندرية فالقاهرة ، ومن العاصمة يتجه جنوبا ، ومن صعيد مصر يركب الى عيذاب ويبحر منها الى جدة ثم الى مكة ويزور قبر رسول الله فى المدينة ، ومن أراضى الحجاز يعود الى صفاقس فى تونس ، ولا يلبث هذا الرحالة أن يستأنف رحلته خاصة وأن والديه كانا قد توفيا ، فيذهب من جديد الى مالى والسودان الذى لا يلبث به كثيرا حتى يعاوده الحنين الى صديقه سلطان

فاس فيعود الى هنـاك ، متخذاً من فاس وطنـا يحكى لسلطانها ليسجل وزيرها عملا من أكبر الأعمال ورحلة طويلة نادرة .

وهكذا نرى أن ابن بطوطة زار ما يقرب من مائتى مدينة عدا القرى الصغيرة التى مر بالمئات منها ، وعذرا ان كنا قد أوردنا هذا السرد الجاف لهذا العدد الكبير من المدن التى زارها جميعا الرحالة الكبير ، الا أننا نعتبرها المسرح الحقيقى للنشاط الانسانى الذى صوره ابن بطوطة ورآه وأحسه ، كما أنها الأرض الصلبة العمدان ذات المعالم العمرانية والجغرافيا ، التى وقف عندها الرحالة الكبير متأملا مدققا النظر ، راويا لحكايات تدور عندها أو تنبع منها .

(أ) المدن المهمة وملامحها المميزة :

ومرة أخرى نعود للمدن متأملين ما أضفاه ابن بطوطة على كل منها من نعوت وصفات ، ناظرين الى أهم ملامحها العمرانية .

فلقد وصف « بوسة » بأنها « صغيرة حسنة مينية على شاطىء بحر » وبهذه الصفات التى يمكن فعلا أن تكون واقعية جدا يعطينا ابن بطوطة صورة لشابة حسناء تقف حالمة على شاطىء .

أما احساس ابن بطوطة بالاسكندرية فيبين فى هذه الكلمات : « حرسها الله وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس ، العجيبة الشـــأن الأصيلة البنيان ، بهـا ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر وميادين ، كرمت مغانيها ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام أما مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها فى حلاها الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغـرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة اليها انتهاؤها » .

ومن الاسكندرية يسير ركب ابن بطوطة الى دمنهور فيقول : (انها مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذى عليه مدار أمرها » ويعنى بالجباية الكثيرة المتحصلات الواردة الى بيت المال من مكوس وضرائب ، ولا زالت دمنهور حتى اليوم عاصمة البحيرة .

أما أبيار فكانت « قديمة البناء ، أرجة الأرجاء » ، ووصف المحلة بقولة : (جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها) ، وماذا لو رأى ابن بطوطة المحلة اليوم كأهم مركز صناعى فى الشرق الأوسط وآلاف العمال يفدون ويعملون وينتجون .

ومن المحلة سافر ابن بطوطة الى دمياط ، التى رآها مدينة فسيحة الأقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب سورها

حلوى وكلابها غنم ، وماذا يمكن أن يقال مما يوضح رفاهية مجتمع هذه المدينة ذات السور الحلوى ·

ولقد تحدث ابن بطوطة عن مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا فذكر أن : (مسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر ، تقام فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق الى غرب ، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعى ، وذكر أن المدارس بمصر لا يمكن أن تحصى لكثرتها) ، كما تحدث عن المارستان الذى بين القصرين وقال ان محاسنه تعجز الواصف ، وقال عن قرافة مصر ومزاراتها : (لمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بها وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبى وغيره بأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة ، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة) ·

ويعود للنيل ليقول : (انه يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يندرع عليه ما يندرع على النيل وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره ، ويذكر قول الله تعالى مستشهدا : (**فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم**) ، ولذا سمى النيل باسم البحر ، ويذكر ابن بطوطة أنه ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله (ص) وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهى فاذا فى أصلها أربعة أنهار ، نهران ظاهران ونهران باطنان ، فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال : أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، وفى الحديث أيضا أن النيل والفرات وسيحون وجيحون ، كل من أنهار الجنة ، كما لاحظ ابن بطوطة أن مجرى النيل من الجنوب الى الشمال مخالف لجميع الأنهار ، وقال ان من عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفافها وابتداء نقصه عند زيادة الأنهار ونبعها ، ونهر السند مثله فى ذلك ، وذكر أن أول زيادته فى حزيران « يونية » فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان ، فان زاد ذراعا كان الخصب فى العام والصلاح التام ، فان بلغ ثمانية عشر ذراعا ضر بالضياع وأعقب الدمار ، وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وان نقص ذراعين استسقى الناس ، وكان الضرر الشديد ، والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهى النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون ·

وبعد النهر المعجزة يتحدث ابن بطوطة عن الأهرام والبرارى فيقول عنها : انها من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض فى شأنها وأولية بنائها ، ويصفها بأنها بناء بالحجر الصلب المنحوت

متناهى السمو مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ، وحكى عنها حكاية تقول ان ملكا من ملوك مصر قبل طوفان نوح رأى رؤية هالته ، أوجبت عنده انه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربى من النيل ؛ لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سأل المنجمين هل يفتح منها موضعا فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى ، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الانفاق فى فتحه واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة ، وكتب عليها (بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة فليهدمها فان الهدم أيسر من البناء) . فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل فلج فى ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ثم يرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التى بها اليوم ، ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه وأحصى ما أنفق فى النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا .

ومن الغريب أن يهتم ابن بطوطة بوصف الأهرام وايراد الحكايات المتواترة عنها ولا يذكر أبا الهول بكلمة ، وربما كان أبو الهول مطمورا آنذاك فى رمال الصحراء .

وينتقل الحديث الى القسطنطينية فيقول انهـا متناهية فى الكبر يقسمها نهر عظيم الى قسمين ، والنهر عظيم المد والجزر وكانت عليه قديما قنطرة مبنية ونهر يسمى الآن يعبر فى القوارب ، وأول أقسام المدينة اسمه اسطنبول وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه ، وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة ، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم ، وفى كل سوق أبواب تسد عليهم بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء . والمدينة فى سفح جبل داخل البحر والكنيسة العظمى فى هذا القسم ، أما القسم الثانى منها فيسمى الغلطة وهو بالعدوة الغربية من النهر .

وقال عن مانستارات القسطنطينية تلك التى تشبه الزوايا عند المسلمين وهى كثيرة يحتفلون ببنائها ويعملونها بالرخاء والفسيفساء . وحينما انتقل ابن بطوطة الى الهند وجد أن مدينة دلهى كبيرة المساحة كثيرة العمارة ورآها آنذاك أربع مدن متجاورات متصلات : احداها المسماة بهذا الاسم دلهى وهى القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة ٥٨٤ هـ ، والثانية تسمى سيرى وتسمى أيضا دار الخلافة ، والثالثة تغلق باسم السلطان ، والرابعة تسمى جهان وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند .

وعندما ذهب الى الصين صنف مراكبها وسماها فقال ان الكبيرة اسمها جنك والمتوسطه اسمها الزو والصغيرة تدعى ككم والكبيرة تحمل اثنى عشر قلعا فما دونها الى ثلاثة ، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ويديرونها بحسب دوران الريح ، ويخدم فى المركب منها ألف رجل ووكيل المركب كأنه أمير كبير ·

ولفت نظره بالقدس المسجد الأقصى الذى يقول عنه انه من المساجد العجيبة الرائعة الفائقة الحسن · يقال انه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه وأنه من شرق الى غرب سبعمائة واثنان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبة الى الجوف أربعمائة ذراع وخمسة وثلاثون ذراعا وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث ، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الامام الى المسجد ، والمسجد كله فضاء غير مسقوف الا المسجد الأقصى فهو مسقوف وهو فى النهاية فائق من احكام العمل واتقان الصنعة بالذهب والأصبغة الرائعة وفى المسجد موضع سواه مسقوف ·

وكان من الطبيعي أن تلفت قبة الصخرة الشهيرة نظر الرحالة الكبير فيقول انها من أعجب المبانى أتقنها وأغربها شكلا ، قد توافر حظها من المحاسن يصعد اليها فى درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الذواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف وأكثر ذلك موشى بالذهب فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متاملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها · وفى وسط القبة الصخرة الكريمة التى جاء ذكرها فى الآثار ، فان النبى صلى الله عليه وسلم عرج منها الى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل عليها على درج · وهنالك شبه محراب وعلى وجه الصحة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها ، أحدهما وهو الذى يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثانى من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب ·

ومثلما اهتمت عينا ابن بطوطة الذكيتان بالمشاهد المباركة لمحت مشاهد القدس الشريف ، فتحدث عن البنية الواقعة بالعدوة المعروفة بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع هنالك ، والتى يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ·

ولقد زار ابن بطوطة مدينة أنطاكية ورآها كثيرة العمارة والدور حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه ، وبعد ذلك تجول ابن بطوطة فى ربوع لبنان وتنسم هواء الجبل ، وبعد ذلك ذهب الى دمشق التى قال عنها انها

تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها · ولا أبدع مما قاله ابن جبير رحمه الله فى ذكرها حين قال انها جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت فى حلل سندسية من البساتين وحلت عن موضع الحسن من مكان المكين وتزينت فى صفتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى المسيح عليه السلام وأمه الى ربوة منها ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب انسياب الأراقم بكل سبيل ورياض يحيى نفوسنا نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى وتناديهم هلموا الى معرش للحسن ومقيل ، وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظمأ · وهكذا ، تستمر قصيدة المديح الطويل حتى تنساب أبيات الشعر فى حسنها وبهائها ·

ثم يتحدث ابن بطوطة عن البلد القدسى الشريف المدينة المنورة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وعن المسجد المعظم وروضته الشريفة فيقول : « ان المسجد مستطيل تحفة من جهاته الأربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها ، شكلها عجيب لا يتأتى وهى مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الزمان ، وفى الصفحة القبلية منها مسمار من فضة وهو قبالة الوجه الكريم وهناك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم ، وهناك يستدبرون القبلة فيسلمون وينصرفون الى أبى بكر الصديق ، ورأس أبى بكر عند قدمى رسول الله ، ثم ينصرفون الى عمر ابن الخطاب ورأسه عند كتفى أبى بكر ، وفى جوف الروضة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال انه كان فى بيت فاطمة بنت رسول الله ويقال انه قبرها » ·

ويحكى ابن بطوطة تاريخ بناء المسجد الكريم بالتفصيل ثم ينتقل الى تاريخ المنبر ووصفه والعاملين به والمجاورين ·

ويسير الركب الى مكة ويصفها ابن بطوطة بأنها : « مدينة كبيرة مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ وأبوابها ثلاثة أبواب : باب معلى بأعلاها وباب الشبيكة أو باب الزاهر أو باب العمرة بأسفلها والثالث باب السفل الذى دخل منه خالد بن الوليد يوم الفتح » · ويحكى ابن بطوطة عن المسجد الحرام فيقول : « انه فى وسط البلد متسع المساحة طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع والكعبة العظمى فى وسط ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط

الواصف بحسن كماله ، وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف يأتقن صناعة وأجملها ، وقد انتظمت بلاطاته الثلاث انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية » .

ثم ينتقل الى وصف الكعبة المعظمة الشريفة فيقول : « انها بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمانية وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسعة وعشرون ذراعا وبناؤها بالحجارة الصم » .

ويذكر الحجر الأسود فيرى أنه مرتفع عن الأرض ستة أشبار ، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول لتقبيله ملصق فى الركن الذى الى جهة المشرق والجوانب بالحجر مشدودة بصفيحة من الفضة يلوح بابهـا على سـواد الحجر الكريم فتجتلى منه العيون سحرا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه ألا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية .

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما أربع وعشرون خطوة وأبواب المسجد الحرام تسعة عشر بابا وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها : باب الصفا المفتح على خمسـة أبـواب ، وباب بنى شيبة ، وباب الخياطين ، وباب العباسى ، وباب بنى عبد شمس ، ويترك ابن بطوطة الكعبة الكريمة وفى خارج مكة يتأمل الحجون وهو الجبل المطل على النجبانة والثنية البيضاء ، التى خرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمة عام الوداع ، ومسجد التبرك الذى يقال ان الرسول استراح عنده والذى منه اعتمرت أم المؤمنين عائشة فى حجة الوداع . وقد بنيت هناك ثلاثة مساجد على الطريق تنسب كلها اليها ومن الجبال بمكة : جبل أبى قبيس وهو فى وجه الجنوب ، الذى يقال انه أول جبل خلقه الله تعالى ، والجبل الأحمر ، وجبل الطير ، وجبل ثور فى طريق اليمن وفيه الغار الذى آوى اليه رسول الله عند خروجه من مكة .

(ب) الناس والعادات والتقاليد :

هذه هى أهم المدن التى زارها الرحالة ابن بطوطة وتلك هى أبرز ملامحها العمرانية المرتبطة ، تماما ، بعقيدة المجتمع الاسلامى ، التى صورها فى رحلته ، كما ارتبطت بحياته الاجتماعية وعاداته وتقاليده تتبعناها ، لنصل الى الصورة الطوبوغرافية التى يتحرك فيها هذا المجتمع الكبير من اقصى المغرب الى اقصى الشرق .

وبعد أن استعرضنا هذه المسارح التي يبدع الانسان فوقها نشاطاته المختلفة ، وجب علينا ان نلتقط ـ ولو للحظة ـ الناس في أماكن شتى من هذا المجتمع ، لنتثبت من حقيقة عاشت وستعيش دوما طالما عاش الشعب الاسلامي العربي فوق هذه الأرض وفي هذه المدن .

رأى ابن بطوطة الناس وعايشهم وتعامل معهم وفهمهم وكتب عنهم ، فتراه مثلا يتحدث عن أهل مكة الذين لهم الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والايثار للضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء . ويعدد العادات الحسنة فيقول انه متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء والمنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم .

ويأتي الرجل من أهل مكة الى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي ، فيجعل الحبوب في احدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلا يذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط ، يؤدي ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة .

ويستطرد : (وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدا الأراك الأخضر ، ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا ، وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زى وتغلب على الحرام رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا) .

ومن عادات أهل مكة أن يصلي أول الأئمة أمام الشافعية ، وهو المقدم من قبل أولى الأمر وصلاته خلف المقام الكبير مقام ابراهيم وجمهور الناس بمكة على مذهبه ، وإذا صلى الامام الشافعي صلى بعده الامام المالكي في محراب القبالة للركن اليمني ، ويصلي امام الحنبلية معه في وقت واحد ثم يصلي امام الحنيفة .

... وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع ، أما صلاة المغرب فانهم يصلونها في وقت واحد كل امام يصلي بطائفته ، وربما دخل على الناس من ذلك سهو وركع المالكي بركوع الشافعي .

وفي يوم الجمعة يلصق المنبر المبارك على صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود ، وكل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة

وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه احد القدمة وفى يده الفرقعه ، وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه فى الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه ، الى أن يقترب من المنبر فيقبل الحجر الأسـود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر الزمزمى هو ورئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده وتركز الرايتان على جانبى المنبر ، فاذا صعد أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب تصل السيف ضربة فى الدرج يسمعها الحاضرون ثم يضرب فى الدرج الثانى ثم أخرى فى الثالث ، فاذا استـولى فى آخر الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيـا بدعاء خفى مستقبلا الكعبة ، ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقصر ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد ، فاذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على الرسول صلى الله عليها وسلم ثم يدعو للأميرين ، واذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه اشعارا بانقضاء الصلاة ·

وحينما يبدو هلال الشهر الجديد يأتى أمير مكة فى أول أيام الشهر وقوادها يحفون به ، وهو لابس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار ، فيصلى عند المقام ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع فى طواف أسبوع ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم ، فعندما يكمل الأمير شوطا واحدا يقصد الحجر لتقبيله ، يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا فى سبعة أشواط ، فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم انصرف ، واذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج راكبا · ويحتفل أهل مكة بعمرة رجب احتفالات لا يعهد مثلها وهى متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا الأول والخامس عشر والسابع والعشرون ·

وفى ليلة النصف من شعبان المعظم عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر والى الطواف والصلاة جماعات وأفرادا والاعتمار ، ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضـــوء القمر المتلألىء يملأ الأرض والسماء نورا يكررونها عشرا · وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين ، وبعضهم بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار ·

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند الأمير ويقع الاحتفال عند المسجد الحرام ، بتجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الأمة فرقا ·

وليلة استهلال شوال مفتتح أشهر الحج يوقدون المشاعل ويسرجون المصابيح والشمع ، على نحو فعلهم في ليلة السابع والعشرين من رمضان ، وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذى بأعلى أبى قبيس ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء ، فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف وبه يصلون صلاة العيد ؛ لأنه لا موضع أفضل منه .

وفى السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة الشريفة ــ زادها الله تعظيما ــ ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة .

وفى غرة ذى الحجة تضرب الطبول والدياديب فى أوقات الصلوات وبكرة وعشية ، اشعارا بالموسم المبارك ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات ، فاذا كان اليوم السابع خطب الخطيب خطبة صلاة الظهر ، خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلنهم بيوم الوقفة ، فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى ، وتقع المباهاة والمفاخرة بين مصر والشام والعراق فى ايقاد الشمع ، ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام ، وفى اليوم التاسع يرحلون من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة ، فيمرون فى طريقهم بوادى محسر ويهرولون ويستصحب الناس حصايات الجمار ثم ينحدرون ويذبحون ويحلقون ويحلون من كل شيء الا النساء .

هذه هى العادات والشعائر الدينية فى مهبط الوحى وقمة المجتمع الاسلامى مكة .

***

وفى مصر لمح ابن بطوطة عادات أمراء المماليك فى بناء الخوانق (الزوايا) التى يقدم للفقراء فيها ما يشتهون من طعام ، يأخذ الرجل منهم خبزه ومرقه مرتين فى اليوم لا يشاركه فيهما أحد ، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، كما يأخذ الرجل منهم مرتبا شهريا من عشرين درهما فى الشهر الواحد الى ثلاثين ، ولهم حلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح ، ويجلس كل منهم على سجادة . والملاحظة الأولى التى نخرج بها من حديث ابن بطوطة عن الفترة التى قضاها بمصر هو الكرم الذى توضحه الصورة السابقة ، مثلما توضحه أيضا الحفاوة التى قابل بها كل العلماء فى مصر ابن بوطة حينما سعى اليهم ، والملاحظة الثانية هى استتباب الأمن والنظام حتى انه عبر عن اعجابه بالنظام الكائن فى دمياط

حينما حكى أنه لا يسمح لأحد بالخروج منها الا بالتصريح المستصدر من الوالى ، فمن كان ذا منزلة رفيعة ، منح جوازا يبيح له الخروج ، على حين توضع علامة على ذراع عامة الناس بمثابة التصريح لهم .

★★★

وفى دمشق ، اهتزت نفس ابن بطوطة لوقف الأوقاف لأغراض كثيرة فمنها أوقاف لاعانة العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف لاعانة البنات على التجهيز الى أزواجهن وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الاسارة ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون وما يلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنا أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك .

★★★

ويتحدث ابن بطوطة عن أهل الصين ويذكر عاداتهم فى استقبال المراكب وتدوين ما عليها ومن عليها ومنعهم التجار من الفساد ببلادهم ، فكانوا ينزلون المسلمين عند مسلم متوطن أو فى فندق معروف ، وان أراد التسرى اشترى له جارية وأسكن بدارا يكون بابها فى الفندق وينفق عليها . وأهل الصين يبيعون أولادهم وبناتهم وذلك ليس عيبا عندهم ، غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه ان اختاروه ، وكذلك ان أراد التزوج تزوج ، أما انفاق المال فى الفساد فشىء لا سبيل اليه ؛ لأنهم يقولون لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا لأنها أرض فساد وحسن فائت .

ويقول ابن بطوطة ان بلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين ، فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف على نفسه أو على أمواله ، وترتيب ذلك ان لهم فى كل نزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال .

★★★

وفى الختام ، يعدد ابن بطوطة محاسن ومساوىء أهل السودان ، فيقول عنهم انهم أبعد الناس عن الظلم وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شىء منه ، كما أن الأمن مستتب فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من بنى لونه ، وهم يواظبون على الصلوات ويلتزمونها فى الجماعة ويلبسون يوم الجمعة الثياب

البيض الحسان ، ويعنون بحفظ القرآن الكريم ويجعلون لأولادهم القيود اذا ظهر منهم تقصير فى حفظه ٠

هذه بعض الصور الاجتماعية فى مصر والحجاز ودمشق والهند والسودان والصين ، أوردناها من كل قطر لمحة ؛ لتموج الحركة الاجتماعية أمام عينى القارىء ويتأمل مدى حرص المجتمع الاسلامى على الدين الحنيف ، وكيف برزت الصورة المسلمة ووضحت بازراء مجتمع كافر يهاب الاسلام والمسلمين ، وان عدد فيها ابن بطوطة بعض المساوىء فقد أوردها كمسلم ناقد غيور ٠

★★★

ويطوى النسيان رحلة ابن بطوطة ، فهى لم تكن من النثر الفنى الذى يتوارثه المشتغلون بالأدب العربى عبر القرون ، ومع أنها حفلت بالحكايات والقصص والأساطير التى تعطى صورا للمجتمع الذى عاش فيه ابن بطوطة والتى قد تستهوى الناس ، فلم يكن لها حظ من الرواج والذيوع فى القرون التالية ، وأغفلها الكتاب الذين جاءوا من بعده اغفالا تاما ، فلا اشارة اليها ، ولا اقتباس منها كما كانت العادة مع أمثالها من المصنفات ٠

ويختصر الرحلة فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) كاتب يدعى البيلونى ، فلا يكون المختصر بأحسن حظا من النص الكامل ، فينسى هو كذلك كما نسى الأصل من قبل ، ولكنه يكون بعد قرن من الزمان الخيط الذى يهدى الى الرحلة ويدل عليها ، فقد عثر على مخطوطات موجز البيلونى اثنان من رحالة الربع الأول من القرن التاسع عشر هما زيتسن Seetzen الألمانى وبوركهارت Burckhardt البريطانى ونقلاها الى مكتبتى جوتا وكمبردج ، فكان هذا هو بداية اهتمام أوربا بابن بطوطة ورحلته ، ومن عجب أن يظل العرب على جهل ببضاعتهم حتى تكتشفها أوربا ، ثم لا يسارعون باستردادها الا بعد سنين طوال ٠

عرفت أوربا اذن رحلة ابن بطوطة ممثلة فى الموجز الذى كتبه البيلونى ، وكان المستشرق كوزجارتن Kosegarten أسبق العلماء الأوربيين عناية بها ، فدرسها دراسة تحليلية نشرها فى سنة ١٨١٨ م ومعها ترجمة باللاتينية لثلاثة مقتطفات منها أعطاها عناوين الرحلة الفارسية Iter Persicum ، والرحلة الأفريقية Iter Africanum ، والرحلة المالديفية Iter Maldivicu ، ثم جاء من بعده تلميذه ابتز Apetz فدرس وصف ابن بطوطة لساحل مليبار ونشر دراسته فى سنة ١٨١٩ م ٠

وفى سنة ١٨٢٩ نشر القس صموئيل لى Rev Samuel Lee فى لندن أول ترجمة كاملة لموجز الرحلة باللغة الانجليزية ٠

وبعد أن تم للفرنسيين الاستيلاء على مدينة قسنطينة الجزائرية ، عثروا على خمس مخطوطات من رحلة ابن بطوطة ، وكان بعض أجزائها بخط ابن جزى نفسه ، وكان من بين المخطوطات اثنتان كاملتان ٠ ونقلت هذه المخطوطات بالطبع الى المكتبة الأهلية بباريس ، وعنى اثنان من العلماء الفرنسيين هما دفريمرى Defrémery وسانجينتى Sanguinitti بدراستها ، ومقابلة النسخ بعضها ببعض ، ومقارنة نصوصها ، وتمكنا فى النهاية من طبع الرحلة كاملة مع ترجمة الى اللغة الفرنسية ومقدمة علمية تحليلية طويلة ٠ ونشرت رحلة ابن بطوطة كاملة فى باريس لأول مرة فى أربعة أجزاء فيما بين سنتى ١٨٥٣ ، ١٨٥٨ م ٠ ولا تزال هذه الطبعة الباريسية هى أهم طبعات رحلة ابن بطوطة حتى يومنا هذا ، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة ٠

وعن هذه الطبعة الباريسية ، طبعت الرحلة فى القاهرة طبعتين عربيتين كل منهما فى مجلدين ، وظهرت الطبعة الأولى فيما بين عامى ١٨٧١ ، ١٨٧٥ م أى نحو عشرين سنة من ظهور الطبعة الفرنسية ، ثم ظهرت الطبعة الأخرى فى سنة ١٩٠٤ ٠ ومن أسف أن الذين نشروا الطبعتين العربيتين لم يحفلوا بالحواشى والتعليقات التى كتبها العالمان الفرنسيان ، ولم يفكروا فى نقل المقدمة الوافية التى صدرا بها الكتاب ، واكتفوا بنشر النص العربى دون حاشية أو تعليق ٠

وكان لظهور الجزء الأول من الطبعة الباريسية فى سنة ١٨٥٣ صداه فى الأوساط العلمية ، مما أثار اهتمام العالم الفرنسى ارنيست رينان (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢) فكتب عن ابن بطوطة ورحلته دراسة قيمة ٠ وبدأ يعنى بالرحلة كثير من الكتاب ، يدرسونها ويترجمون أجزاء منها الى مختلف اللغات ومنهم كولى Cooley وديفك Devic وديلافوس Delafoss وفيران Ferrand ويول Yule وكورديه Cordier وكان الأتراك من أسبق الناس اهتماما بهذا الأمر ، اذ كانت بلادهم مما اهتم به ابن بطوطة فى رحلته ، وبدأ هذا الاهتمام بمجرد ظهور الطبعة الباريسية كاملة ، ومن ثم شرعت صحيفة « تقويم وقايع » تنشر الرحلة فى فصول مسلسلة منذ سنة ١٨٦١ ، ثم ظهور ترجمة تركية كاملة للرحلة فى ثلاثة مجلدات من وضع الداماد محمد شريف فيما بين سنتى ١٨٩٧ ، ١٩٠١ ٠

وفى سنة ١٩١٢ نشر مزيك الجزء الخاص بالهند والصين فى هامبورج مترجما الى الألمانية • وفى سنة ١٩٢٧ أخرج الأستاذ فؤاد افرام البسانى فى بيروت مختارات من الرحلة فى ثلاثة كتيبات • وكان الأستاذ هـ • جب ممن اهتموا برحلة ابن بطوطة فنشر فى لندن سنة ١٩٢٩ مختصرا لها بالانجليزية مزودا بكثير من الحواشى العلمية الضرورية ، وذكر فى مقدمته التحليلية الوافية أنه يزمع ترجمة الرحلة كاملة ، وقد صدق وعده فشرع منذ سنة ١٩٥٨ يترجم الرحلة ، معتمدا على طبعة ديفريمرى وسانجنتى الباريسية ، ونشر منها حتى الآن جزءين مزودين بالحواشى والخرائط وبعض الصور •

وفى سنة ١٩٣٤ نشر وزارة (المعارف) المصرية مختارات من الرحلة تحت عنوان : (مهذب رحلة ابن بطوطة) قام على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه اثنان من كبار رجالها هما : الأستاذ أحمد الحوامرى ، والأستاذ محمد أحمد جاد المولى ولم يهتم الرجلان بأكثر من ضبط الأعلام وشرح بعض الألفاظ ، ولكنهما أضافا الى طبعتهما بعض الخرائط الجيدة التى رسمها وحققها الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافيا فى كلية دار العلوم ، وقد ظلّ مهذب رحلة ابن بطوطة لعدة سنوات من كتب المطالعة المقررة على طلبة المدارس الثانوية •

وكان آخر ما ظهر من ترجمات رحلة ابن بطوطة ، ترجمة مجرية نشرها ايفان هربك فى براغ سنة ١٩٦١ ، وأخرى ايطالية نشرها جبرييلى فى فلورنسا فى نفس السنة •

الفردوس المفقود

جون ملتون

١٦٦٧م

ليس هناك أدنى شك فى أن جون ملتون هو أحد الصور الكبرى فى الأدب الانجليزى ، يجىء بعد دانتى بوصفه أعظم شاعر لادع فى الثقافة الغربية . ان تحفته الرائعة « الفردوس المفقود » قد عادت اليه بمجد عالمى ما فتىء يتضاعف مع مضى القرون ، كما أن القارىء المعاصر يجد فى دنيا ملتون صورة عظيمة للمأساة الأبدية التى تدور بين المخلوق والخالق وبين الانسان وقدره .

***

انقضى عصر اليصابات بأدبه المرح الجذل الطروب ، فلاحت فى الأفق علائم عصر جديد وروح جديد . فها هو القرن السابع عشر قد أقبل ثم انتصف أو كاد ، وها هى روح التزمت فى الحياة والأدب قد ملكت على النفوس زمامها وانما تجسمت تلك الروح وبلغت ذراها فى شاعر العصر جون ملتون .

وقد أجمع النقاد على أن « ملتون » أحد ثلاثة هم أعظم الشعراء قاطبة فى الأدب الانجليزى . ولسنا نعنى بهذا أنك لا تجد بين أدباء الانجليز عددا من الشعراء قد يبلغ العشرين ممن يرتفعون فى بعض أدبهم الى الأوج الذى ارتفع اليه ملتون ، وانما نعنى أن ما أداه هذا الشاعر العظيم من تجسيد روح عصره فى شعره ومن الصعود بشعره الى أوج لم يهبط منه ، لم يتوفر فى تاريخ الأدب الانجليزى كله الا فى ثلاثة : « شكسبير » و « ملتون » و « وردزورث » . فقد تجد من شعراء عصر اليصابات من يبلغ فى أروع انتاجه مبلغ شيكسبير ، لكنك لا تجد بينهم من يضارعه فى اتساع أفقه ، وفى المحافظة على ما ارتفع اليه . فكل ما أنتجه شعراء عصر اليصابات تجد له نظيرا عند شيكسبير والعكس صحيح ، أعنى أن لشيكسبير آيات لا يدنو منها شىء مما أنتجه سائر الشعراء فى عصره وهكذا قل فى « ملتون » و « وردزورث » .

كان « ملتون » أصدق لسان يعبر عن خواطر عصره كله ، فكانت له غاية واحدة رئيسية ينشدها كل ما أنشد من الشعر ، وما تلك الغاية المنشودة الا بغية عصره وأعنى بها أن يقيم الناس برهانا على عدل الله

وحكمته تلك هى غايته التى قصد اليها تلميحا فى شعره كله وأفصح عنها تصريحا فى مطلع «الفردوس المفقود» ، ولكى نفهم روح العصر كانت حيوية جارفة تسود العصر ، حيوية تدفع الانسان الى الانغماس فى كل ما يزيده استمتاعا بالحياة دون أن يجد من العقل أو الضمير ما يكبحه فمغامرات فى جوف المحيط ، وتلقف لكل ثقافة جديدة يستخرجها رجال النهضة من أسفار القدماء ، فعهد البصابات فى الأمة هو مرحلة الشباب الفتى الطموح ، فيه تحطيم القيود الذى نعهده من الشباب ، وفيه الأمل الباسم ، وفيه الجدة والنضارة ، وفيه الرغبة الملحة فى تحصيل العلم ، وفيه الخروج على معايير الأخلاق ، وفيه حب الاستطلاع وركوب المخاطر مما نراه كذلك فى فتوة الشباب .

فلما انقضت عن العصر دوافع الشباب ونزواته وذهبت عنه نضارة الشباب وروعته ، أقبل على الناس عهد استيقظ فيه الضمير ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم فى العهد الذى أدبر ، عهد لم يقبل الحياة بكل ما فيها وهو بها فرح مغتبط ، بل أخذ يقدر خيرية العمل وشريته قبل أدائه ، عهد أراد فيه القوم ان يحتكموا الى الكتاب المقدس كما هو بحروفه وألفاظه بغير تأويل وتحريف وذلك هو عهد التزمت الدينى الذى كان له شاعرنا جون ملتون لسانه المعبر الناطق .

« جون ملتون » سليل أسرة من أوساط الناس ، ولد فى لندن عام ١٦٠٨ وأكمل تعليمه فى كيمبردج عام ١٦٣٢ ، حيث درس الآداب القديمة درسا رقيقا وغادر الجامعة وهو يعرف اللغة العبرية خير معرفة ، كما يجيد من الآداب الحديثة الانجليزى والايطالى والفرنسى وفضلا عن ذلك ، فقد برع فى الموسيقا واستمد منها لذة ومتعة .

وما لنا نطيل الوقوف عند أنباء حياته كأنه ليس أمامنا خضم من أدبه زاخر ؛ فلنأخذ من فورنا فى استعراض هذا التراث العظيم وسنقسمه لتيسير دراسته الى ثلاث مراحل :

١ ــ المرحلة الأولى :

شعره قبل سنة ١٦٣٩ : كان من أروع شعره الذى أنتجه منذ غادر الجامعة حتى سنة ١٦٣٨ قصيدتا « للجرو » ــ أو الطروب ، و «البنسروزو» ــ أو التأمل ــ ثم مقنعة مشهورة عنوانها « كومس » وأخيرا قصيدة تعد من آيات الأدب الانجليزى هى (لسداس) التى رثى بها صديقه « كنج » .

ففى القصيدتين المتعارضتين « لجرو » و « البنسروزو » ، أى الطروب والمتأمل يصور لنا الشاعر الحياة كما تبدو فى حالتين مختلفتين ، يصورها كما تبدو فيمن يستبشر الحياة ويطرب لها ويسترعيه منها اللذائذ والمباهج

ثم يصورها كما تبدو فيمن يغرق فى تفكيره وتأمله ويأخذ الحياة من جانبها الجاد الرصين . وهاتان الحالتان على اختلاف ما بينهما انما تصوران وجهين لحياة الشخص الواحد ، فليس منا من لا يطرب للحياة ساعه ثم لا يشهد فيها الا الجد ساعة أخرى . ففى قصيدة الطروب تلمح الشاعر وهو فرح بمباهج الطبيعة سعيد هانىء ، وفى قصيدة المتأمل تراه فى تفكيره الجاد مثقل الفؤاد مهموم النفس . ولقد كان يظن أن ملتون أراد بالقصيدة الأولى ان يصور لنا الرجل من حاشية الملك فى عصره ، وقد كان فارغ القلب لا يرى فى الحياة الا لهوا ومرحا . وانه أراد بالقصيدة الثانية أن يصور الرجل من « المتزمتين » الدينيين الذين كان الشاعر واحدا منهم وقد كان لا ينشد فى الحياة الا الجد الذى لا يعرف المزاح والعبث ، ولكن عاد رجال النقد فبينوا أن الشاعر لا يريد بقصيدتيه الا أن يصور نفسه بوجهيها ، فليس من اللذائذ التى يحتفل لها فى قصيدة « لجرو » ما يتنافى مع خلق التزمت الدينى الذى عرف به ملتون ، فمباهج النفس فى هذه القصيدة هى الربيع ونضارة الصباح وتغريد القبرة وشروق الشمس والرجال والنساء يشتغلون فى الحقول ، والقصص يروى بجوار المدفأة فى المساء وضجة الحياة فى المدينة الشـــامخة بأبراجها ، والروايات التمثيلية تجرى على المسارح .

وأما فى قصيدة « البنسروزو » فترى الشاعر بين كتبه فى برج عال منعزل يقرأ الفلسفة والعلم ، وتراه اذا غادر برجه ليمشى فانما يختار المماشى المنعزلة بين الأحراش ويقصد الى الكنائس التى بنيت على أساس الفن القوطى الجليل ، تراه يلتفت الى غروب الشمس لا الى شروقها واذا أنصت الى تغريد الطير ، فانما ينصت الى البلبل وهو يغنى فى جوف الليل . وهكذا يصور لك الشاعر نفسه فى حالته لكنه يختار لنفسه الحالة الثانية ويؤثرها على الأولى .

ونختم الحديث عن شعر المرحلة الأولى بكلمة عن قصيدة « لسداس » وهى المرثية الرائعة التى يكى بها الشاعر زميله فى الدراسة « كنج » ، الذى ابتلعه اليم وهو يعبر البحر الى أيرلندة .

و « لسداس » قصيدة من الشعر الريفى (٤٩) ، الذى يحاول فيه الشاعر أن يلبس أشخاصه أثواب الرعاة وأن ينطقهم بحديثهم وأن يجعل الجو كله فواحا بأريج الريف الساذج ، فهو يطلق على صديقه « كنج » اسما ريفيا هو « لسداس » وهو يشير الى زمالتهما أيام الطلب فى الجامعة .

كتب ملتون قصيدة لسداس سنة ١٦٣٧ ، وهو ما يزال فى بيت أبيه الذى أوى اليه بعد أن غادر الجامعة ولم يكن بعد قد اشتغل بالحياة العملية ، بل كان يواصل الدراسة بالقراءة وفى العام نفسه ماتت أمه ، فلم يلبث ان ارتحل الى أوربا يجوب أقطارها وزار ايطاليا بصفة خاصة والتقى بأعلام

الأدب فيها . وهنالك كتب بعض القصائد اللاتينية والايطالية ثم أسرع بالعودة الى بلاده ، حين جاءته الأنباء أن حبل الأمور قد اضطرب فيها وهنا تبدأ مرحلته الأدبية الثانية .

٢ ـ المرحلة الثانية ١٦٤٠ ـ ١٦٦٠ :

في هذه المرحلة أنتج مؤلفاته السياسية وأدبه النثرى وكان من أول ما كتبه بعد عودته الى لندن رسالة صغيرة « في التربية » نشرت سنة ١٦٤٤ ، وفيها يقترح أن تشمل تربية الناشيء ثقافة عريضة على أساسين : هما الآداب القديمة والمواد التى تنفع في الحياة العملية ، فيدرس الطالب الأدب والفلسفة والسياسة والقانون والطب وفن الحروب ، اذ لابد أن يعنى في التربية بأجسام الناشئين وعقولهم ونفوسهم على السواء ثم هو يوصى الى جانب ذلك بالموسيقا التى تبعث البهجة في النفوس .

وكان قبل نشره رسالة التربية قد كتب بضع رسائل دينية يدافع فيها عن عقيدة « المتزمتين » وعقب عليها بمجموعة أخرى من الرسائل الصغيرة تدول حول الطلاق ووجوب تنظيمه ، وذلك على اثر فشله في زواجه فقد كان تزوج من « مارى باول » التى لم يطل بها العهد معه حتى ذهبت في زيارة الى أبويها وأبت ان تعود اليه .

لكن حماسة ملتون في هذه الرسائل الخاصة بالطلاق سرعان ما فترت ، حين استسلمت له زوجته بعد نفور وعصيان وأنجبت له ثلاث بنات وعاشرته في هدوء ، حتى جاءتها المنية وهى ما تزال شابة في عامها السادس والعشرين .

وننتقل الآن الى أشهر ما جرت به براعة ملتون نثرا ، وأعنى رسالة عنوانها (أريوباجتكا) ، فقد حدث في سنة ١٦٤٣ أن فرضت على النشر رقابة بحيث لا ينشر كتاب جديد الا اذا أجازته لجنة أقيمت لذلك فقابل ملتون هذا النظام بالمقاومة والتحدى ، ونشر أولى رسائله الخاصة بالطلاق دون أن يستأذن في نشرها الرقيب وزاد في تهكمه بأن أهدى الرسالة الى البرلمان الذى فرض تلك الرقابة الأدبية ، ثم عقب على ذلك التحدى بنقد صريح وجهه للرقابة في هذه الرسالة التى نحدثك عنها والتى عنوانها « أريوباجتكا » خطبة موجهة الى برلمان انجلترا دفاعا عن حرية الطباعة بغير وقاية .

ولنمض الآن مسرعين فلا نقف عند سائر نثره السياسى الذى أخذ يخرجه رسالة بعد رسالة ، والذى أفقده البصر وهو في عامه الرابع والأربعين ، لنقول كلمة قصيرة في مقطوعاته الشعرية ننتقل بعدها الى آيته الكبرى « الفردوس المفقود » .

فقد صمت ملتون عن قول الشعر عشرين عاما امتدت منذ عودته من ايطاليا ، حتى عادت الملكية الى انجلترا بعد أن أبعدت عن البلاد حينا كان يتولى الحكم فيه « كرمول » الذى كان شاعرنا من أنصاره ، صمت ملتون عن قول الشعر خلال الأعوام العشرين التى تفرغ خلالها الى النثر ؛ لأنه أداة أنسب للعراك السياسى الذى شمل البلاد ، صمت شاعرنا عن قرض الشعر الا « مقطوعات شعرية » قالها بهذه المناسبة أو تلك ، وبعض هذه المقطوعات ذاتى يعبر عن حالته الشخصية كالمقطوعة المشهورة التى قالها حين فقد البصر ، وبعض المقطوعات متصل بالأحداث السياسية التى شغلت أكبر جهده وانصرف اليها أكثر نبوغه ٠

ولما كان عام ١٦٥٨ ــ وهو العام الذى فقد فيه زوجته الثانية التى أحبها حبا شديدا ــ مات كرمول رئيس الجمهورية ، فذهبت بموته آمال أنصار الجمهورية ومن بينهم ملتون وما هو الا أن عاد الى البلاد شارل الثانى سنة ١٦٦٠ ، حتى آوى الشاعر الى مكان يختبىء فيه لعله ينجو من الخطر الذى كان لابد أن يحيق بأعداء الملكية وظل فى مخبئه حينا وأحرقت بعض كتبه علنا ، وبهذا انتهى جهاده السياسى وانصرف بكل مجهوده الى آياته الخالدات ٠

٣ ــ المرحلة الثالثة (١٦٦٠ ــ ١٦٧٤) :

ها قد زالت من الشاعر شواغله السياسية بعودة الملكية الى انجلترا ، فانصرف الى تحقيق أمنية طالما تمناها ، وهى أن ينشىء فى الشعر آية خالدة لا يعرف لها بين ما أنتج الشعراء ضريبا ففيم يكتب ؟ أيختار « آرثر » بطلا لآيته الكبرى التى اعتزم ان ينهض بانشائها ؟ لقد جال بنفسه هذا الخاطر ثم لم يطل ، ولم يلبث أن اتجه بفكره نحو موضوع قصيدتيه الكبريين (الفردوس المفقود » و « الفردوس المردود » ، أما الأولى فتقص ثورة الملائكة على الله ، ثم كيف تم خلق الانسان واغراؤه وسقوطه طريدا من الفردوس ، وأما الثانية فتصف كيف حاول الشيطان أن يغرى المسيح وهو فى البيداء المقفرة بشتى المغريات لكنه لم يوفق فى اغرائه وخرج المسيح ظافرا ٠

(الدرة الفريدة ٠٠ الفردوس المفقود)

ونريد الآن أن نقف وقفة طويلة عند « الفردوس المفقود » ؛ لأنها فى آداب العالم درة فريدة ٠

تقع « الفردوس » فى اثنى عشر جزءا ، يمكن تقسيمها الى ثلاث مجموعات فثورة الملائكة وكفاحهم ضد الاله يشغل الأجزاء : الأول والثانى

والثالث ، كما يشغل الشطر الأعظم من الجزءين الخامس والسادس . وخلق الانسان وشفاعة المسيح له يرد ذكرهما فى الجزءين الأول والرابع ، ثم يشغل جانبا من الخامس والسابع والثامن وايقاع الانسان بالشيطان ثم عصيان آدم وحواء وطردهما من الجنة هو موضوع الأجزاء الباقية من التاسع الى الثانى عشر . وهناك خلاصة لهذه الملحمة العظيمة .

يستهل الشاعر قصيدته بدعاء يوجهه الى ربة الشعر يستلهمها الوحى :

ياربة الشعر أنشدينا :
كيف كان من الانسان أول العصيان ؟
ما تلكم الشجرة الحرام وما جناها ؟
فاياك أستعين على نشيدى العصيب
الذى أعتزم ألا يلوى فى تحوامه
حتى يحلق صاعدا فوق سامق « اونيا »
ينشد غاية لم يحاولها قبل نثر ولا قصيد

ثم يتجه الشاعر الى المسيح :

وأنت ياذا الروح اليك أنحو
يا من يؤثر على جلاميد المعابد طهر القلب والتقوى .
فائتنى العلم انك أنت العليم
قد شهدت الوجود منذ فاتحة الوجود .

أجل ياذا الروح فائتنى ، والفع وطىء دعائمى ،
على بهذا المقال الجليل أبلغ شاوا
فأكون للحكمة السرمدية ترجمانا
ولرحمة الله بالانسان برهانا
ألا حدثينا ... ...
عن أبوينا الأولين : ماذا دعاهما ...
أن يخرجا على « البارى » فيهويا وأن يعصيا مشيئة الله
لمحظور واحد ؟ ... ...
انه « الأرقم » الرجيم ثارت غيلته
حقدا وغلا ، فمكر بأم البشر

فقد دعاه الأمل الطامع فى العرش والملكوت
أن يثير فى الجنة حرباً وقودها الغرور والفجور
فخاب الرجاء اذ طرح به الله ذو الجبروت
فهوى من السماء يتقد لهيبا ...
وتردى فى هاوية ما لها من قرار بها يأوى
مغلولا بصم السلاسل يصطلى النار جزاء ...
وفى قرار مهواه تسع فضاوات .
مما يزرع به الأناسى خطو الليل والنهار
تردى الأثيم هزيلا بصحبة شيعته
يتقلب فى حماة الجحيم ...

***

ورأى ما حوله موحشا قفرا يبابا
ورآه فى جب مخيف التهبت جوانبه التهابا
كانه أتون سحيق مستعر ناره ولا تبعث النور

***

فهو ما ينفك يصلى عذابا مقيما وطوفانا من حميم
تغذو لظاه شواظ تذكو أبدا ولا تخبو
فذلك مستقر العصاة كما أراده عدل الاله

***

وهنالك سرعان ما شهد الأثيم رفاق هويه
... ... ورأى الى جواره ... « ابليس »
فاتجه اليه كبير أعداء الله
وهو من سمى فى السماء منذ ذلك الحين « شيطانا »
وألقى عبارة جريئة دوت فى ذلك السكون الرهيب فقال.
« أفأنت هو ؟ ... ...
لئن كنت من وشجنى به بوما
تبادل العهد واجتماع الرأى والكلمة واتحاد الأمل

***

فها هى ذى أواصر الشقاء توشج اليوم بيننا فتوحد هلكنا
أرأيت الى أى هاوية أوينا ومن أى الذرى هوينا ؟
الا أن الله فى غضبته ساق الدليل على رجحان قوته ...
ولكنى على ذاك لست بنادم وان صب علينا « الظافر » القادر

ما استطاع فى صورته من صنوف العذاب
فعزمى المصمم لن يحول وان حال منى رونق الاهاب

* * *

وماذا اذا فاتنا النصر فى حومة الوغى ؟
فنحن بذاك لا نفقد كل شىء
وهل يكون هزيما من له هذا العزم الحديد
والثأر السديد والمقت الذى لا يزول ؟
ومن له هذا الجنان الذى لا يلين ولا يحول ؟ ... ...
فما كان أخسها ضعة
لو أنى جثوت مسترحما وركعت ضارعا ،

* * *

فلنثرها على عدونا الألد ـ بالقتل أو بالختل ـ حربا عوانا

* * *

فلم يلبث رفيقه الجرىء أن أجاب :
« مولاى ! وأنت زعيم العديد من العتاة متوجين .
قدمت الى الوغى تحت لوائك « السيروفيم » مدججين

* * *

يا ويح نفسى ان ترى جليا هذا الخطيب الرهيب
الذى طوحنا فأشجانا وهزمنا فأردانا
وأضاع منا الجنة وهوينا به الى هذا الحضيض

* * *

لم لا يكون الله قد أبقى على نفوسنا وقوانا
فلم ينتقصها ليشتد أذانا ونضطلع بمر العذاب
لكى يرضى فينا غيظه الناقم
أو ليأمرنا بما شاء من فادح الأعمال فنستطيع الأداء ؟
فقد أمسينا له ـ بحق النصر ـ عبيدا أرقاء
ان شاء أصلانا النار فى قلب الجحيم
وان شاء سخرنا فى اللج البهيم
فان أحسسنا بالقوة موفورة فأين فى ذلك الغناء ؟
وهل أجد علينا خلود البقاء الا دوام الشقاء ؟

وأخيرا احتشد الملائكة الثائرون وتوسطهم الشيطان وخطب فيهم بعزمه على مقاتلة الله تعالى ، فاجتمعوا يتداولون الرأى فمنهم من يؤيد فكرة القتال ومنهم من يفندها وأخيرا نهض ابليس ـ وهو الذى يتلو الشيطان فى رفعه المقام ـ واقترح رأيا كان قد سبقه اليه الشيطان وهو أن يحاربوا الله فى مخلوقه الجديد وهو الانسان وصادف الاقتراح قبولا لكن نشأت مشكلة وهى : منذا الذى ينهض بعبء البحث عن العالم الجديد الذى فيه الانسان ؟ وعندئذ تطوع الشيطان نفسه أن يأخذ على نفسه هذه المهمة وانفض اجتماع الملائكة الثائرين وانصرف كل الى سبيله فهذا الى رياضة وذاك الى قتال وثالث الى جدال ، وأما الشيطان فقد شق بجناحيه الطريق الى أبواب الجحيم التسعة تحرسه « الخطيئة » وابنها الشائه وهو « الموت » وفتحت «الخطيئة» أبواب الجحيم للشيطان فخرج منها طائرا ·

***

هنا يتوجه الشاعر بالقول الى « الضياء » ويرثى العماء ؛ ليتخذ من ذلك مقدمة ينتقل منها الى صورة يصور فيها السماء ويصور حديثا يدور بين « الأب » (الله) و « ابنه » (المسيح) :

عليك سلام الله أيها الضياء الأقدس يا أول ما أنجبت السماء !
أنت الذى تفجر من ذات ساطعة فيضا ساطعا ،
ومن يدرى أى نبع سقاك ؟ فقد كنت ـ يا ضوء ـ
قبل أن تكون الشمس وقبل أن ترفع السماء ثم جاء أمر الله
فكسوت يا ضوء ـ كأنك الثوب ـ
عالما نهض من الماء العميق ،
لكنك لم تعد الى عينى اللتين تدوران عبثا فى المحاجر
تبغيان منك شعاعا نافذا لكن ليلهما بغير فجر !
كلما حال الحول عادت الفصول والنهار
ليس الى يعود كلا ولا حلو البوادر التى تنبىء باقتراب المساء والصباح
ولا يعود الى رونق الربيع المزدهر ولا ورد الصيف
ولا قطعان الأغنام والماشية ولا طلعة الانسان الالهية
ففى مكان ذلك كله أرى قتاما والظلام السرمدى
يحيط بى فيباعد بينى وبين حياة الناس البهيجة

ويرى الله الشيطان يدنو من العالم فيتنبأ « لابنه » بسقوط الانسان ثم يسأله : أين الحب الذى يرضى العدالة الالهية ويخلص الانسان من زلته ؟ فيجيب الابن :

احشرنى فى زمرة الانسان فى سبيل الانسان ٠
انزع نفسى عن صدرك وسأرجى ــ مختارا ــ
هذا المجد الذى يتلو مجدك وفى سبيل الانسان سأموت
راضيا فدع « الموت » ينقض على بغضبته
فلن أظل فى هزيمتى أمدا طويلا ٠

وبينما الملائكة يرتلون ويسبحون اقترب الشيطان من العالم وأبصر بالشمس والأرض والقمر فدنا من الشمس ، حيث التقى بأوريل وخاطبه قائلا :

٠٠٠ ٠٠٠ يا أسطع ملائكة السيرافيم
نبئنى : أين من هذه الأفلاك المشرقة
قد اتخذ الانسان لنفسه مقاما دائما ؟

فأجابه أوريل :

تلك الأرض مقر الانسان ومقامه وذلك الضوء
نهاره ولولاه لطمسه حالك الليل ٠٠٠
وهذا المكان الذى أشير اليه هو الفردوس
هو موطن آدم وتلك الظلال السامقه مسكنه

سمع الشيطان جواب أوريل فانحنى له اجلالا وانصرف ، ويمم شطر الأرض يملؤه النجاح المأمول ، فلما دنا الشيطان من الفردوس استيقظ ضميره وارتاع لهول الفعلة الشنعاء التى يقبل على اقترافها فصاح :

يا لشقوتى ! أين أنفث من نفسى ،
نقمة ليست تحد ويأسا لا ينتهى !
فأينما حللت كان جحيما لأنى فى نفسى جحيم ،

ولما اقترب من الفردوس أثرت فيه روعة المكان وجماله ، كما يحدث لمن يجتازون بسفنهم رأس الرجاء ويتوغلون فى المحيط فتهب عليهم الرياح من الشمال الشرقى تفوح بعطر التوابل الذى تحمله ، اذ تمر على جزيرة العرب المباركة فيتلكأون ويتراخون فى السير ، اذ تأخذهم نشوة الأريج الطائر مع الريح فهكذا أنعش أريج الفردوس فى الشيطان الذى أخذ يقلب النظر فى صنوف الخلائق ، التى لم يكن له بها عهد وأخيرا وقعت عينه على الانسان :

اثنان هما أنبل الخلائق صورة مستقيمان ممشوقان ،
٠٠٠ ٠٠٠ كأنهما على الجميع سيدان ،

وعليهما جلال اذ فى طلعتهما الالهيتين
أشرقت صورة الخالق المجيد ...
أما الرجل ففيه التأميل وشدة البأس
وأما هى ففيها الطراوة والرشاقة الحلوة الجذابة
... ... هكذا مضى الزوجان يدا فى يد
أجمل ما يكون الزوجان منذ عرف الحب لقاء الزوجين ،
فآدم خير الرجال منذ نسل الأبناء
وحواء بين بناتها أجمل النساء .

فلما رأى الشيطان آدم وحواء فى مثل ذاك الجلال والجمال يسيران ، أخذته الدهشة للمرة الثانية ، وأخذ يتلون فى صورة مختلفة من صنوف الحيوان ، ودنا منهما لينصت الى حديثهما فعرف من آدم شيئا واحدا حرم عليهما فى الجنة وهو أن يأكلا من شجرة المعرفة ، وسمع حواء وهى تقول لزوجها انها شهدت صورتها معكوسة فى الماء فظنت أنها أجمل مخلوقات الله بل أجمل من آدم .

... ... حتى أمسكت يدى بيدك الرقيقة
فأذعنت وعرفت منذ ذلك الحين
كيف تعلو الرجولة برشاقتها وحكمتها على جمال النساء

وأخذ الشيطان يجوس خلال الفردوس وبينا هو كذلك اذا بأوريل يهبط على شعاع من أشعة الشمس الغاربة لينذر جبريل ــ وهو على رأس الملائكة الحارسين ــ بأن ملكا يثير الريبة بنظراته قد تسلل الى الأرض فوعده جبريل أن يكشف أمره قبل طلوع الفجر .

وأقبل المساء الساكن وانتشر الشفق فى لون الرماد
فلف كل الكائنات بثوبه الهادىء
وساد الصمت وأوى الحيوان والطير
الى معشوشب المخادع فاستكن الطير فى أعشاشه
وراح فى نعاس الا البلبل اليقظان
طفق يغرد طوال الليل أناشيد الغزل

وأخذ آدم وحواء يتحدثان قبل أن يأويا الى مخدعهما فقالت حواء :

حلوة أنفاس الصباح هذا الاصباح ما أحلاه
مع البواكير فاتن الطير وما أجمل الشمس !
أول ما نشرت ــ فوق هذه الأرض الحبيبة ــ
أشعتها الشرقية على العشب والشجر والثمر والزهر

وهى تتلألأ بقطرات الندى ما أمتع عطر الأرض الخصيبة
بعد الرذاذ الرخى وما أحلى قدوم
المساء الجميل ثم ما أجمل الساكن
بطيره هذا الوقور وهذا القمر الجميل
لكن أنفاس الصبح حين يصبح
مفتونا بسحر بواكير الطير ولا الشمس حين تشرق
على هذه الأرض الحبيبة ولا العشب ولا الثمر ولا الزهر
وهى تتلألأ بالندى ولا الشذى بعد الرذاذ
ولا المساء الجميل ولا الليل الساكن
بطيره هذا الوقور ولا السير فى ضياء القمر
أو فى ضوء النجوم المتلألىء حلو بغيرك
ولكن أين تضىء هذه الأفلاك طيلة الليل ؟ ولمن
هذا المنظر الفاتن حين يأخذ الكرى بمقاعد الأجفان ؟

فيجيبها آدم قائلا :

لابد لها أن تقطع أفلاكها حول الأرض
وهى اذا لم تشهدها الأبصار فى جوف الليل
فلا تضىء عبثا ولا تظنى أنه بغير الأناسى
يعوز السماء راءوها وينقص الله حامدوه
فألوف الملائكة تقطع الأرض سيرا
فى خفاء حين نستيقظ وحين يأخذنا النعاس
وكل هؤلاء يرون آيات الله ويحمدونه حمدا لا ينقطع
ان أصبح الصباح أو أمسى مساء ... ...

ومضى آدم وحواء الى حيث يقضيان الليل فأرسل جبريل أعوانه ؛ ليتولوا الحراسة وأمر « أوريل » و « زيفزن » ان يبحثا فى أرجاء الفردوس عن الشيطان الهارب ، فوجداه جالسا على مقربة من حواء يلون لها أحلامها بما يريد فمد « أوريل » رمحه ومسه به مسا رفيقا ففزع الشيطان وارتد الى صورته وسيق الى جبريل الذى أخذ يجادله وكاد يقاتله ، لولا أن تذكر الشيطان أنه لا يستطيع النصر فى قتال مكشوف ، فلاذ بالفرار وتفرقت مع ظلال الليل أحلامها المخيفة ، فسرى عنها كربها ومضيا الى مكان من الأرض الفضاء وأخذا يرتلان ترنيمة الحمد لله .

عندئذ أرسل الله روفائيل من السماء ، لينذر آدم وحواء بالخطر الداهم فأنبأهما نبأ عصيان الشيطان وسقوطه من السماء ، وكيف أعد الشيطان عدته للثورة والقتال وأمر جبريل وميكائيل أن يقودا جند السماء فى وجه

هذا الثائر ونشب بين الفريقين قتال دام سجالا وفى اليوم الثالث أرسل الله المسيح فى عربة ليقف القتال :

وحل بينهم يحمل فى يمناه
عشرة آلاف من قواصف الرعد يرمى بها
الى أمام فنزلت فى نفوسهم منزل الطاعون
وأخذتهم الدهشة فوقفوا لا يقاومون
وطارت عنهم بسالتهم وتهاوى كليل سلاحهم
وفزعوا جازعين لهذا المنظر المخيف
فقذفوا بأنفسهم رؤوسا على أعقاب
من حافة السماء هويا ، وغضبة الله
تشتعل فى اثرهم وهم يهوون فى هاوية ما لها من قرار

وأنذر روفائيل آدم بمثل هذا القضاء يصيب الانسان لو اقترف جريرة العصيان . ولما كان روفائيل فى الفردوس ، لجأ الشيطان الى التخفى فاختفى سبع ليال ، كان خلالها يتشكل فى هيئة الضباب فلا تراه الأبصار ودخل فى جوف الحية لأنها أنسب أداة للخداع .

وأقبل الصباح وهم آدم وحواء أن يعملا فاقترحت حواء أن يبعد كل منهما عن الآخر أثناء قيامهما بالعمل ؛ لأنهما اذ يتقربان يتبادلان النظرات والبسمات والأحاديث ، فيدافع آدم عن وجوب « هذا اللقاء الحلو بين النظرات والبسمات لأنهما ما خلقا للعمل المضنى انما أريد لهما أن يعملا عملا هينا لذيذا .

لكن حواء طمأنته بأنها لن تقع فريسة لخداع العدو المتربص ان كان ثمة عدو متربص ، وأجابها آدم بأنه يخشى عليها الاغراء وأنهما لو سارا معا كانا أكثر حذرا وحيطة ، فأبت حواء أن تذعن ومضت وحدها وما هى الا أن صادفها الشيطان وحيدة فوقف أمامها ، وقد تقمص الحية وأبدى لها من الاعجاب ما يبديه العابد نحو معبوده وأخذ يخاطبها بلسان الشر : « يا أميرة هذا العالم الجميل يا حواء الباهرة » فسألت حواء : كيف أمكن للوحش أن ينطق بلسان الانسان ؟ فأجاب بأنها قدرة استمدها حين أكل ثمرة شجرة معينة ، فقد بثت فيه تلك الثمرة عقلا مفكرا وحملته على عبادة حواء ؛ لأنها « مليكه على الخلق » فطلبت اليه حواء أن يدلها على مكان تلك الشجرة ذات الثمر العجيب ؛ فأسرع بها الى « الشجرة المحرمة » ولما ساورتها الوساوس والمخاوف قال :

يا مليكة هذا الكون لا تلقى بالا
الى ذاك الوعيد بالموت لن تموتى

وكنف تموتين ؟ أبا لثمرة تموتين ؟ انها تهبك الطريق
الى العرفان ؟ أيقتلك صاحب الوعيد ؟ انظرى الى
أنا الذى أمسك بالثمرة وذاقها ؟ هأنذا أحيا
بل علوت بحياتى عما أراد لى « القدر »
لأنى لم أرض بما قسم لى فغامرت طامحا
أيغلق دون الانسان ما انفتح للحيوان ؟
أم هل يغضب الله حقدا
على هذا العدوان الجميل ؟ ... ...
يستحيل على الله أن يصيبك بالأذى ان كان عادلا
فيأيتها الآلهة البشرية أقدمى كلى الثمرة ولا تحجمى !
ووقعت كلمات الشيطان من حواء موقع القبول فأخذت تقول :
هذه الثمرة الجميلة كتب عليها أن تموت ؟
ان الموت من هذه الحية ؟ انها أكلتها ولا تزال حية
وباتت ذات علم تتحدث وتفكر وتدرك
وكانت بغير عقل حتى أكلت ألنا وحدنا
خلق الموت أم حرم علينا
هذا الغذاء العقلى حلال للحيوان ؟
ها هنا شفاه الجميع هذه الفاكهة المقدسة
جميلة فى مرأى العين وتستثير الذوق ...
فماذا يمنعنى أن أدنو لأطعم جسمى وعقلى معا ؟
... قالت هذا وامتدت الى الثمرة يدها الرعناء
واقتطفتها ثم أكلت ... ...
فأن تكونى قد مللت الافراط فى الحديث
ففى وسعى أن أغيب عنك برهة قصيرة
والاعتزال القصير يدعو الى حلو اللقاء
لكن شكا يساورنى ، فانى لأخشى
أن يلحق بك الضر ... ...

وتاهت حواء بنفسها عجبا أول الأمر ثم أخذت تتساءل ماذا عسى أن يكون وقع ذلك النبأ على آدم ؟ وقالت لنفسها لتخفف من ألمها :

ربما كنت الآن فى مكان خفى ان السماء عالية
عالية ! انها قصية لا ترى على هذا البعد فى وضوح
كل شىء على الأرض وربما كانت الشواغل
قد صرفت عن رقابتنا
« حرمنا » العظيم ... ...

ولكن أية صورة أبدو لآدم ؟ أأنبئه
بما اعترانى من تغير ؟
ماذا لو كان الله قد رآنى
فجاءنى الموت تباعا ؟ اذن فمصيرى الى فناء
ويزوج آدم من حواء غيرى
ويحيا معها فى نعيم أما أموت !
ويحى ! لقد حزمت أمرى اذن لقد اعتزمت
أن يقاسمنى نعيمى وشقوتى
انى أحبه حبا يجعلنى أحتمل الموت فى صحبته
وبغيره لا أطيق الحياة
... ... وآدم عندئذ
ينتظر عودتها فى شوق وضفر لها
اكليلا من أحسن الزهر ليزين جدائلها

لكن جاءت حواء وعلم منها عصيانها فوقف واجما وسقط من يده الاكليل الذى ضفره لحواء ثم التفت الى حواء وأخذ يسرى عنها :

قد لا تموتين ... ...
فما أحسب أن الله وهو الخالق الحكيم
ـ رغم وعيده ـ سيعمل جادا على فنائنا
ونحن زهرة خلقه ... ...
وعلى أية حال فقد وصلت مصيرك بمصيرى
واعتزمت أن أقاسى ما تقاسين من قضاء
فلو دهمك الموت كان الموت لى كالحياة

وناولته حواء الفاكهة المغرية الجميلة فلم يحجم عن أكلها ، مع أنه يعلم وخيم العواقب ولم يكن مخدوعا كما كانت حواء لكن كيف له أن يقوم سحر المرأة ؟ وسرعان ما أحس كلاهما الندم على فعلته واختفيا فى الغابة وتدثرا بأوراق الشجر وأخذا يبكيان ويوجه أحدهما اللوم للآخر فصاح آدم :

هلا أصغيت لكلماتى ولبثت
معى ـ كما رجوتك ـ حين تمكنت
منك تلك الرغبة العجيبة فى التحوال هذا الصباح المنكود !

فقالت حواء :

ولو بقيت أنت على رأيك ثابتا
لما زللت ولا زللت معى

وعاد ملائكة الحراسة الى السماء فقال الخطي ليبلغوا فشلهم ، تعلموا من الله أن القضاء محتوم وأرسل « ابنه » الى الأرض ليحاكم الزوجين ولينزل بهما العقاب ؛ لعنتين هما : العمل والموت ، ومن ناحية أخرى ، اتخذ الشيطان « الخطيئة » و « الموت » معينين له على الأرض .

وتاب آدم وحواء فاستجاب لهما الله وأرسل اليهما ميكائيل ؛ ليعلن أن الموت لن يقع عليهما حتى يكملا التوبة ، أما الفردوس فلن يعود لهما مقرا فأخذت حواء تنظر الى الفردوس بعين باكية واستسلم آدم لعبراته .

وآن أوان الخروج فهبط آدم وحواء الى الأرض وأخذا يضربان فى أرجائها يدا فى يد يسيران بخطو وئيد ...

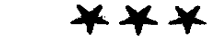

مبحث فى العقل الإنسانى

جون لوك

١٦٩٠ م

حياة لوك وأهميته فى تاريخ الفكر الانسانى

حياة الفيلسوف

ولد جون لوك فى رنجتون بمقاطعة سومرست فى ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢ ، بانجلترا أثناء حكم الملك شارل الأول ، وكان أبوه محاميا من جماعة البيوريتان (المتطهرين) . اشترك فى صفوف البرلمان حين اندلعت الحرب الأهلية (٥٠) ولم يكن الابن الصغير جون لوك يتجاوز العاشرة من عمره ــ فكانت هذه البيئة المكافحة التى نشأ فيها لوك ، من أكبر العوامل التى أدت الى تفتح ذهنه على بعض الأفكار السياسية السائدة فى ذلك الوقت ، وتوجيه نظره الى الاشتغال بالسياسة فيما بعد بحيث جعلت منه بعد ذلك فيلسوف الحرية لا فى انجلترا وحدها بل فى أوربا كذلك .

وقضى لوك فترة طفولته فى سومرست حتى بلغ الرابعة عشرة ــ ثم أرسل الى مدرسة وستمنستر فى سنة ١٦٤٦ ــ واستمر بها حتى التحق بجامعة أكسفورد فى سنة ١٦٥٢ .

ومما هو جدير بالذكر أن لوك لم يتأثر كثيرا بالمناهج التى كان يدرسها فى وستمنستر ، والتى كانت تتلخص فى دراسة القواعد والترجمة المتعلقة باللغتين اليونانية واللاتينية ، كما أنه لم يحب ذلك النظام القاسى الذى كان يسود المدارس الانجليزية فى ذلك الوقت وراح ينتقده ويحاول أن يضع أسسا جديدة لتربية تقوم على شىء من الحرية والمرونة . وقد وصف لوك تلك الطريقة القديمة ومقترحاته لتربية أخرى جديدة فى كتابه (أفكار عن التربية) عام ١٦٩٣ .

كما خاب ظنه كذلك حين التحق بجامعة أكسفورد لدراسة الفلسفة ، اذ وجدها خليطا من فلسفة القرون الوسطى والفلسفة الأرسطية ــ ممتزجة ببعض العبارات الغامضة والمشكلات المبهمة ــ ومع ذلك ، فقد استمر فى دراسته للفلسفة ، ولم يكن مرجع اهتمامه بها الى دراسته الأكاديمية فى أكسفورد ــ انما الى قراءاته الشخصية وخاصة لديكارت ــ الذى وجد فى كتاباته الواضحة وأفكاره السهلة الدقيقة نوعا من الثورة على تلك الفلسفة

المدرسية القديمة ، التى لم تكن لتشبع العقل أو ترضيه ، والتى جعلته يوقن أن الفلسفة يمكن أن تكون شيئا أكثر من مجرد التحدث بألفاظ ضخمة براقة أو عبارات صعبة لا يمكن فهمها ٠

واستمر فى دراسته الفلسفية فى اكسفورد ٠ مع قراءاته الخاصة مدة أربع سنوات ، حصل بعدها على درجة البكالريوس عام ١٦٥٦ ، ثم على درجة الماجستير فى الفلسفة بعدها بعامين ١٦٥٨ ثم عين عام ١٦٦٠ محاضرا فى الفلسفة اليونانية وفلسفة الأخلاق فى مدرسة الكنيسة بأكسفورد ، مع استمراره فى متابعة دراسته للمنطق الأرسطى وللميتافيزيقا ، متزودا بدراسة التاريخ والفلك والطبيعة وبعض اللغات ٠

وفى تلك الأثناء اجتذبت العلوم الطبيعية انتباهه واهتمامه ويبدو ذلك الاهتمام من صداقته لأكبر علماء عصره مثل اسحق نيوتن وبويل ٠

كما بذل لوك مجهودا كبيرا فى دراسة الطب واستطاع أن يحصل على درجة علمية من أكسفورد عام ١٦٧٥ ، تؤهله لممارسة الطب عمليا وبدأ يمارسه فعلا من حين لآخر ــ الا انه لم يشتغل به مهنة أساسية ولا بطريقة منتظمة أو دائمة ٠

ومما يروى عنه انه أنقذ حياة صديقه لورد شافتسبرى بواسطة عملية جراحية أجراها له ٠ وكان هدفه من دراسة الطب هو الرغبة فى تطبيق الطريقة التى كان يستخدمها كثير من العلماء أمثال جاليليو ونيوتن وبويل فى العلوم الطبيعية على الأمراض التى تصيب الانسان ، الا أن لوك استطاع أن يتبين اتجاهه الحقيقى الذى لم يكن الدين ولا الطب ولا السياسة بل الفلسفة ٠

هذا عن حياة لوك الدراسية والعلمية ، أما عن حياته العملية فكانت خصبة فيها كثير من النشاط والتغيير ــ حياة ديناميكية فعالة لم يكتف فيها بتعلم الفلسفة ولا بدراسة الطب ومزاولته من حين لآخر ، بل كانت له فى الميادين السياسية والاقتصادية والتربوية جهود واضحة تبلورت فى شكل مؤلفات قيمة تشرح رأيه وتعتبر عن وجهة نظره الاصلاحية ، فيما يتعلق بمشكلاتها ٠

ويرجع سبب اهتمام لوك بالسياسة والتنظيم الاجتماعى الى ظروف حياته التى نشأ فيها ٠

ثم كانت الفرصة التى أتيحت له بعد ذلك للاشتغال بالسياسة عمليا حين أرسل سكرتيرا لبعثة دبلوماسية ، تحت رئاسة سير والتر فيم عام ١٦٦٥ الى حاكم براندنبرج يعرضون عليه التحالف معهم أو الوقوف على الحياد فى حرب هولندا ، فابتدأ وعيه يتفتح على أفكار جديدة لم تكن له بها خبرة من قبل ٠

الا ان التأثير المباشر الذى أثر فى لوك وجعله يشعر بالحاجة الى تكوين أفكار واضحة واتجاهات محددة ومفهومات أساسية لتنظيم اجتماعى وسياسى جديد يقوم على الحرية — كان يرجع الى صحبته وعمله مع لورد أشلى — الذى عرف بعد ذلك باسم لورد شافتسبرى ، والذى كانت له مساهمة كبيرة فى مبادين السياسة والأخلاق — وكان يعتبر من أكثر الأشخاص تأثيرا فى الحياة السياسية فى انجلترا ، أثناء حكم شارل الثانى ، وذلك لكراهيته العميقة للاستبداد بكل أنواعه سياسيا كان أم فكريا أم دينيا ، وقد انتقلت كراهيته تلك بدورها الى صديقه لوك الذى أصبح بمثابة المدافع عن الحريات فى المجتمع الإنجليزى .

الا أن الدفاع عن الحرية لم يكن أمرا هينا فى ذلك العصر ، اذ لم تكن مناصرة الحرية ، آذ ذاك ، تفسر الا بمعنى الاباحية فى السياسة والدين وكان حتما على أشياعها أن يلاقوا اثنين كلاهما مر : فاما النفى والتشريد ، واما القتل ، ولكن لوك استطاع أن يظل فى انجلترا زمنا طويلا رغم مبادئه الحرة بفضل حماية ومساعدة صديقه لورد شافتسبرى .

ثم سافر لوك الى فرنسا عام ١٦٧٥ حين بدأت صحته تسوء وظل يتردد بين مونبلييه وباريس وبقية أجزاء فرنسا مدة أربع سنوات ، قابل خلالها كثيرا من الأصدقاء والفلاسفة مثل مالبرانش وبيرنيه ، أحد تلامذة الفيلسوف الفرنسى جسندى وتوماس هيربرن الذى أصبح فيما بعد ايرل أوف بميروك والذى أهدى اليه كتابه « مقالة فى العقل البشرى » .

ثم رجع الى انجلترا وظل يمارس نشـــاطه الفكرى والسياسى ، بمصاحبة صديقه لورد شافتسبرى الذى قبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة العظمى ففر هاربا الى هولندا حيث مات هناك .

فى تلك الأثنـــاء أحس لوك بأن موقفه فى انجلترا أصبح مهددا ؛ لأن الشخص الذى كان يعتمد على مساعدته وحمايته اتهم بالخيانة ومات — فآثر أن يتبع نفس الطريق الذى سار فيه صديقه من قبل وهرب الى هولندا عام ١٦٨٣ ، التى كان يسودها فى ذلك الوقت نوع من التسامح والحرية بالنسبة لبقية أجزاء أوربا .

الا أن هذه الحرب لم تحقق له الهدوء والاستقرار الذى كان ينشده ، خاصة بعد ان وضعت الحكومة الانجليزية اسمه فى القائمة السوداء وطلبت تسليمه أو طرده — فاضطر الى التستر والتخفى تحت اسم مستعار هو دكتور فان درلندن .

ولم يستمر هذا التخفى طويلا ؛ لأن أصدقاءه فى انجلترا بذلوا أقصى جهدهم لمساعدته وطلبوا عفو الملك جيمس الثانى عنه ، الذى وافق فعلا

ـ الا انه رفض هذا العفو وأرسل الى صديقه ايرل أوف بمبروك ، مبينا له أسباب ذلك الرفض ، قائلا ان العفو لا يصدر الا عن جريمة بينما هو لم يرتكب جريمة ـ لأن الدفاع عن الحرية لا يعتبر كذلك ، وفضل البقاء فى هولندا ، حتى يتمكن كذلك من مواصلة كتاباته التى لم يكن قد ظهر منها شيء له أهمية كبيرة حتى ذلك الوقت ، ١٦٨٦ ، الذى كان قد بلغ فيه الرابعة والخمسين من عمره ٠

وفى تلك الأثناء ظهرت بوادر الثورة ضد الملك جيمس الثانى آخر ملوك أسرة استيوارت الاستبدادية الذى كان مكروها من الشعب ، لاعلانه مذهبه الكاثوليكى صراحة ولتمسكه بنظرية حق الملوك المقدس فى الحكم ٠

فبدأ لوك نشاطه وانتقل الى روتردام حيث كان يقيم وليم أورانج ـ الذى أبحر عام ١٦٨٨ الى انجلترا واعتلى هو وزوجته العرش الذى تركه جيمس الثانى وهرب الى فرنسا ٠ ونجحت الثورة الانجليزية وتحقق حلم جون لوك بزوال الطغيان وأصبح الطريق أمامه ممهدا للعودة الى الوطن ، فرجع اليه وهو آسف لفراقه هولندا وأصدقاءه فيها ٠

وبفوز الأحرار فى انجلترا بالنصر والغلبة ، وباعتلاء وليم أورانج الحكم الذى عرف بعد ذلك باسم وليم الثالث ـ أصبح للوك مركز مرموق فى انجلترا ، باعتباره فيلسوف الثورة والأب الروحى لها والمبشر بمبادئها ، وقد عرض عليه الملك وليم ان يكون سفيرا لانجلترا لدى حاكم براندنبرج أو فى بلاط فينا ٠ ولكنه اعتذر عن عدم قبوله ذلك المنصب لسوء حالته الصحية وآثر قبول منصب آخر هو مستشار التجارة والمستعمرات فى انجلترا حتى عام ١٦٩١ ، حين اعتزل الخدمة وأوى الى منزل أصدقائه أسرة ماشام (٥١) ٠

ثم عاد فقبل مرة أخرى عام ١٦٩٦ نفس المنصب السابق لمدة أربع سنوات ، اضطر بعدها حين ساءت صحته الى الاعتكاف فى الريف الهادىء ، فى صحبة آل ماشام حتى توفى فى ٢٨ أكتوبر عام ١٧٠٤ ٠

كانت هذه حياة لوك الفيلسوف السياسى الثائر ، أما عن لوك الانسان فكان شخصا مخلصا لمبادئه ومتمسكا بها مدافعا عنها عاملا على تنفيذها فى شيء من التصميم الواعى وفى شيء من الحزم والتعقل ، متمسكا بقيم خلقية عالية ومفهومات انسانية واسعة على درجة كبيرة من الذكاء الذى ساعده على تفهم مجتمعه وألوان الاستبداد والضغوط الموجودة فيه وعلى معرفة الاتجاهات التطورية الجديدة فى المجتمع ، وبلورة هذه الاتجاهات فى مؤلفاته المتعددة وعلى وضع مقترحات سريعة فعالة ؛ لمعالجة تلك الأوضاع ومحاولة تغييرها بشيء من السهولة والمرونة

وكان لوك مشغوفا بالقراءة لدرجة أن البعض يميل الى الاعتقاد بأنه كان من أكثر رجال عصره ثقافة وعلما ، الا أنه كان مع ذلك متواضعا لا يحب الظهور ـ يكره تماما من يتشدق بالفلسفة بدون فهم أو من يجد لذة فى انتقاء المذاهب الغريبة أو الغامضه فيها ، بغية اجتذاب انتباه الناس ·

كما كانت للوك شخصية قوية صهرتها خبراته وتجاربه المتعددة ، بحيث أثرت فيمن حوله من الأفراد والأصدقاء حتى لقد شهد له جميع معاصريه بالاخلاص للحق والتفانى فى سبيل الحرية ، كما عرف بالاعتدال والحكمة ·

وليس أدل على حبه للحق واخلاصه له من رسائله التى كان يرسلها الى أصدقائه · فذكر مثلا فى خطاب له الى مولينو أن ما جعل من كتاباته ومؤلفاته شيئا ذا قيمة ، هو أنه لم يكتب لأى غرض آخر سوى الحق ، كما ذكر فى خطاب له الى كولينز أن الشىء الوحيد الذى يمكنه أن يفخر به هو انه يحب الحق بكل اخلاص ويبحث عنه دائما ، سواء أكان ذلك يسر البعض أم لايسرهم ·

الا أن هذا لا يدل على أنه كان بعيدا عن الناس غير مهتم بهم أو مبال بمشاعرهم ، لأنه كان على العكس يحب الناس ، الا أن حبه للحق كان أكثر ـ ويرجع ذلك الى أنه بطبيعته متقد العاطفة ولكن بلا انطلاق ؛ لأنه يعلم ـ كما يروى بيير كوست ـ كيف يسيطر على احساساته ويضبط عواطفه ·

وتتجلى هذه الاحساسات مع أصدقائه من الأطفال والبالغين على حد سواء فالأطفال كانوا يعتبرونه بمثابة الوالد الثالث لهم (أى بعد الوالدين) ، أما أصدقاؤه الكبار فكانوا يعتزون بصداقته ·

وأكثر ما يظهر تقدير لوك لعاطفة الصداقة ان أغلب مؤلفاته كانت اما بوحى من مناقشاته مع الأصدقاء ، أو مهداة اليهم · فكتابه (بحث فى العقل الانسانى) كان نتيجة لمناقشاته لبعض الزملاء فى احدى الأمسيات وخطابه عن التسامح كان مرسلا الى صديقه ليمبورخ ـ وكتابه « أفكار عن التربية » كان فى حقيقته خطابات مرسلة الى صديقه كلارك ـ وكما يروى البعض أن نقده للكتاب المقدس كان نتيجة لمناقشاته المتعددة مع السيدة ماشام ·

وكان يغلب عليه الحرص والتسامح والصبر والهدوء ـ يعتقد الى حد كبير يصل الى درجة الايمان بالعقل الانسانى ويكره كراهية متأصلة كل استبداد فى أية صورة من صورة ـ متشيعا مناصرا للحرية فى كل ميادينها وبكل أشكالها ·

أهميته في حركة التنوير :

اذا كان مؤرخو الفلسفة يعتبرون كتاب (ميحث في العقل الانساني) للوك بمثابة أول محاولة منظمة لفهم المعرفة البشرية وتحليلها للفكر الانساني وعملياته وطبيعته ـ فلنا الحق كذلك في القول بأن أهمية لوك لم تكن مقصورة فقط على ميدان الفلسفة ، بل تعدته وانتقلت بطريقة طبيعية الى ميدان السياسة والتنظيم الاجتماعي ·

فحركة التحرير الكبرى التي سادت أوروبا في القرن الثامن عشر ـ لم تكن سوى امتداد طبيعي لفلسفة لوك ـ تلك الفلسفة التي كانت تقوم على احترام القيم الانسانية والحرية الفردية ، سواء في الدين أم الفكر أم السياسة وتنادى بتحرير الفرد الذى كان قد انطمست شخصيته ، في ظل من استبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه وانصهرت في نار من طغيان الملوك وتعصبهم فأصبحت حياته كلها واجبات بلا حقوق ·

فقد كان لوك نصيرا لسيادة الشعوب ، ولما كانت هذه الشعوب مكفولة من افراد ، فانه من الواجب أن يستمتع كل فرد منهم بكافة حقوقه وأهمها حق الحياة وحق الملكية الخاصة وحق الحرية · وهذه حقوق تقوم على الانتاج كما يقول لوك وليست منحة من الحكام أو الملوك ·

وكل فلسفة تنادي بالفرد تقتضي الحرية ؛ لأن الحرية هي الشخصية والشخصية هي أساس الفردية ·

هذه الصرخة المدوية التي أطلقها لوك في انجلترا في القرن السابع عشر تجاوبت أصداؤها في أوربا كلها ـ وكان لها تأثير مباشر في نجاح الحركات التحريرية التي قامت بها الملايين المكافحة والشعوب ، التي كانت تسخر لخدمة الاستغلال والاقطاع الاجتماعي والاقتصادي والديني ·

فكان لها تأثير مباشر مثلا في نجاح الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، وذلك نتيجة لتأثير آراء لوك في فلاسفة التحرير الفرنسيين مثل فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو ·

فقد تبنى فولتير أفكار لوك عن الحرية والتسامح وظل طوال حياته يهاجم كل تعصب وخاصة الديني منه وينادي بالحرية ·

بينما أخذ مونتسكيو عن لوك نظريته في فصل السلطات وأخذ روسو عن نظرية العقد الاجتماعي ·

الا أن أهمية لوك وتأثيره السياسي لم يقتصر على فرنسا ولا أوربا فقط ، بل تعدتها كذلك الى أمريكا ـ اذ أنه يعتبر مصدر التفكير السياسي الذى ساد الولايات المتحدة ابان ثورتها ـ وهو الفيلسوف الذي أخذ عنه قادة الثورة الأمريكية أفكاره حين وضع وثيقة الاستقلال ·

فحين نادت الثورة الأمريكية بحرية الفرد الشخصية ، انما كانت في الواقع تردد نفس أنغام الحرية التي طالما رددها لوك وثار من أجلها ، والتي تبلورت بعد ذلك في المناداة بالديمقراطية باسم الحرية والمساواة وظهرت في شكل مقالتيه في الحكومة المدنية ، والتي ظهرت في آراء جيفرسون وتوماس بين وفي نص وثيقة الاستقلال الأمريكية تلك الوثيقة التي لم يكن مضمونها من ابتكار واضعها — بل كانت مجرد تعبير عن آراء جون لوك وذلك بنص اعتراف جيفرسون أحد المشتركين في اعلانها حين قال انه لم يشعر بضرورة تدعو الى ابتكار أفكار جديدة لم يسبق اليها ·

أهميته في تاريخ الفلسفة :

ترجع أهمية لوك في تاريخ الفلسفة الى عدة اعتبارات أهمها :

١ — انه يعتبر أول من وضع مشكلة المعرفة بمعناها المعروف لدينا الآن تقريبا موضع البحث والتعميق — وليس هذا معناه ان هذه المشكلة لم تكن معروفة في الفلسفة من قبل ، انما معناه أننا لا نكاد نلحظ قبل لوك أية محاولة جدية واضحة لدراسة مسائل المعرفة دراسة مستقلة منظمة ·

٢ — وانه وجه انظار الناس في عصره ، لكي يفكروا بطريقة أكثر تعمقا في المشكلات التي كانوا يتناولونها من قبل بطريقة سطحية وخاصة مشكلات المعرفة من حيث أصلها ومداها ودرجة اليقين بها · وانه بين أوجه النقص في طريقة التفكير القديمة التي كانت تدرس وتعالج بها المشكلات الفلسفية وتساءل عن مدى تقبل الناس لبعض الأحكام كما لو كانت شيئا مسلما بصحته مثل المبادىء الفطرية التي كانت في نظرهم واضحة بذاتها لا تحتاج الى دليل أو برهان على صحتها ·

٣ — وانه قدم لمعاصريه دراسات مهمة وقيمة وخاصة في التفرقة بين الصفات الأولية والصفات الثانوية وتحليل فكرة الجوهر — وتحليل اللغة ومعاني الكلمات ·

٤ — انه طبق الاتجاه التجريبي في الفلسفة على بحثه في نظرية المعرفة بالذات ·

٥ — كما ترجع أهميته كذلك في تاريخ الفلسفة الى المنهج الذي استخدمه في بحثه لنظرية المعرفة ، اذ أنه اضطر لاتجاهه التجريبي ، فلم يستخدم في أبحاثه الفلسفية منهجا آخر غير المنهج القياسي الذي كان

سائدا فى الفلسفة القديمة ، فحاول أن يطبق فى كتابه « مقالة في العقل البشرى » ، المنهج الاستقرائى على أصل المعرفة الانسانية • وكان هذا الاتجاه منه جديدا ؛ لأن المنهج الذى كان متبعا منذ القدم فى الفلسفة كان منهجا استنباطيا — ثم بدأ تطبيق المنهج الرياضى فى الفلسفة منذ ديكارت•

والمنهج القياسى منهج هابط من العام الى الخاص — من الكليات الى الجزئيات ، بينما المنهج الاستقرائى على عكس المنهج صاعد يصعد من الخاص الى العام — من الجزئيات الى الكليات لذلك ، فالمنهج الأول يناسب الاتجاه العقلى الذى يضع أمامنا قضايا عامة مسلما بصحتها ، أو أحكاما أولية صادقة بذاتها ويقيس بناء عليها كل ما يصادفه من قضايا جزئية ، بينما المنهج الثانى يناسب الاتجاه التجريبى العلمى الذى يبدأ بملاحظة الجزئيات ويستنتج منها قوانين عامة تشملها وتنطبق عليها •

فاذا كان التفكير العلمى هو السائد فى ذلك الوقت ، واذا كان ذلك المنهج هو الذى أثر فيه تأثيرا كبيرا — فاننا نستنتج من ذلك أن تطبيق لوك للمنهج الاستقرائى فى الفلسفة ، كان نتيجة لتأثره بالتفكير العلمى وصبغته التى سادت الفكر الانسانى فى ذلك الوقت ، بل وما زالت حتى عصرنا الحاضر •

★ ★ ★

قائمة بأهم مؤلفات لوك مرتبة ترتيبا زمنيا

1. *Draft A.* ١٦٧١

وقد نشرت المسودة الأولى من « المقالة فى العقل البشرى » عام ١٩٣٦ بعنوان :

An Early Draft of Locke's Essay, together with excerpts from his journals.

Edited by : Aaron and Gibb, Oxford, 1936.

كما نشرت المسودة الثانية للمقالة عام ١٩٣١ بعنوان :

2. *Draft B.*

An Essay concerning the Understanding, Knowledge opinion and assent.

Edited by : Benjamin Rand, Harvard- 1931.

سنة ١٦٨٩

رسالة فى التسامح :

3. *Epistola de Tolerantia ad Clarissimum Virum.*

وقد ترجم الى الانجليزية فى نفس العام ١٦٨٩ بعنوان :

A Letter Concerning Toleration (Translated by W.M. people, edited by : Awansham and Churchill).

كما كتب لوك رسالتين أخريين فى التسامح ظهرت احداهما باسم :

رسالة ثانية فى التسامح

A Second Letter Concerning Toleration

طبعة أونشام وتشرشل عام ١٦٩٠ .

وظهرت الأخرى بعنوان :

رسالة ثالثة فى التسامح

A Third Letter for Toleration

طبعة أونشام وتشرشل عام ١٦٩٢ .

كما ظهر جزء من الرسالة الرابعة التى مات قبل أن يكملها فى مجموعة المؤلفات التى نشرت بعد وفاته Posthumous Works عام ١٧٠٦ ٠

سنة ١٦٩٠

4. Two Treatises of Government مقالتان فى الحكومة المدنية

وقد ظهرت لها طبعة ثانية عام ١٦٩٤ ٠

سنة ١٦٩٠

مقالة فى العقل البشرى ٠

5. *An Eaasy Concerning Human Understanding.*

وقد نشر الطبعة الأول كل من Eliz. Holt, Thomas Basett ثم ظهرت الطبعة الثانية بزيادة بعض الاضافات عام ١٦٩٤ — ثم الطبعة الثالثة عام ١٦٩٥ والرابعة نشرها أونشام وتشرشل عام ١٧٠٠ ثم ظهرت الطبعة الخامسة باضافات أكثر ونشرها أونشام وتشرشل عام ١٧٠٦ ٠

سنة ١٦٩٣

بعض أفكار عن التربية ٠

6. *Some Thoughts Concerning Education.*

طبعة أونشام وتشرشل — وقد ظهرت طبعة ثانية عام ١٦٩٥ ٠

سنة ١٦٩٥

معقولية المسيحية ٠

7. *Reasonableness of Christianity, as delivered in the Scriptures.*

طبعة أونشام وتشرشل ٠

وقد كتب لوك دفاعين عن رأيه فى هذا الموضوع — ظهر الأول عام ١٦٩٥ بعنوان :

A Vindication of the Reasonableness of Christianity etc. From Edwards's Reflections.

وظهر الدفاع الثانى عام ١٦٩٧ بعنوان :

A Second Vindication of the Reasonableness of Christianity etc. By the author of the Reasonableness of Christianity.

سنة ١٧٠٦

نشرت الكتب التاليـــة للوك فى مجموعة المؤلفات التى طبعت بعد وفاته باسم :

Posthumous Works of Mr. John Locke.

طبعة تشرشل ــ لندن عام ١٧٠٦ وتتضمن :

١ ــ فى كيف يعمل العقل ٠

I. Of the conduct of the Understending.

٢ ــ دراسة لرأى مالبرانش فى رؤية الأشياء فى الله ٠

II. An Examination of P. Malebranche's Opinion of Seeing all things in God.

٣ ــ بحث فى المعجزات ٠

III. A Discourse on Miracles.

٤ ــ جزء من رسالة رابعة فى التسامح ٠

IV. Part of a fourth Letter on Toleration.

٥ ــ ذكريات خاصة بحياة أنتونى أول ايرل لشافتسبرى ٠

V. Memoirs relating to the life of Anthony, first Earl of Shaftesbury.

سنة ١٧١٤

الآثار الباقية من جون لوك

8. The Remains of John Locke.

طبعة تشرشل ــ لندن ــ ١٧١٤ ٠

★ ★ ★

تحليل الكتاب

١ ـ نقد نظرية الأفكار والمبادىء الفطرية :

يستنكر « لوك » رأيا شاع بين عدد من المفكرين ـ ومن الواضح أنه يشير الى « ديكارت » والديكارتيين والى أفلاطونيين « كمبردج » ـ مفاده انه ثمة مبادىء فطرية من قبيل ان الشيء لايناقض ذاته وأن الكل أكبر من الجزء . والحجة التى يحتجون بهـا على فطرية معرفتنا بهذه المبادىء هي أننا جميعا نوافق عليها ، ولئن كانت الموافقة الكلية ليست فى ذاتها دليلا على فطريتها ، فالثابت مع ذلك أن هذه الموافقة الكلية غير مسلم بها .

ذلك أن عددا كبيرا من أفراد الجنس البشرى لم يسبق لهم البتة أن تصوروا مثل هذه المبادىء كالأطفال والبدائيين .

ويمضى بنا هذا الى نقطة أخرى فقد يحتج بأننا قادرون على الأقل على معرفة هذه المبادىء بالقوة ، فاذا كان هذا يعنى أننا نملك من البداية قدرة على معرفتها فان « لوك » لا يعترض على ذلك ، اذ يقر بالقدرات الطبيعية أو الملكات ، أما اذا كان معنى هذا أن ثمة قضايا مضمرة فى الذهن من قبيل « الشيء هو ذاته » ولكنها لم يصرح بها بعد ، كان رد « لوك » أنه ليس ثمة قضية يمكن ان يقال انها فى الذهن الذى لم يعرفهـا وليس على وعى بهـا فاذا كان المقصود بعد ذلك أننا سنعرف هذه المبادىء حين نستدل ، يجيب « لوك » بأننا سنعرف أيضا أن ٧ + ٧ = ١٢ حين نستدل ، ولكن لا أحد يفترض هذه معرفة فطرية ويضيف « لوك » فضلا عن هذا أننا لانعرف هذه المبادىء بالاستدلال مع أننا نستخدمها فيه . « فان من يجشم نفسه مشقة النظر بشيء من الانتباه فى عمليات الفهم سيجد أن هذا القبول الحاضر الذهن لبعض الحقائق لا يعتمد على سـجل أصـلى فى العقل أو استخدامه (أى فى الاستدلال) بل على ملكة للذهن متميزة تماما منهما » وهى ملكة الحدس كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد .

ليس فى مستطاعنا اذن ان نتخذ من الموافقـة الكلية ـ على فرض قيامها ـ حجة على فطرية معرفة المبادىء ، كما أنه ليس من الممكن أيضا أن نطلب لهذه المعرفة أية أولية فى الزمن فمن الواضح ان معرفة المبادىء من حيث هى مجردة تأتى فيما بعد . فالاحساس وتمييز الأحمر من الأبيض

كل ذلك سابق على معرفتنا بمبدأ عدم التناقض ، فمن الغريب أن يوصف هذا المبدأ بأنه مطبوع فى العقل أصلا ٠

بيد أن الحجة ليست خاصـــة بالسبق الزمانى ، بل بالضرورة المنطقية فالمبادىء ضرورية ضرورة منطقية وواضحة بذاتها ٠ وما نكاد نفهم ما تعنيه الكلمات فى القضية « الشىء هو ذاته » حتى يتعين تصديقها فهل مثل هذه الضرورة وهذا الوضوح الذاتى يفسران فقط بالأخذ بأن المبادىء مطبوعة فطريا فى الذهن ؟ يرى « لوك » أن من المسـلم به أن المبادىء واضحة بذاتها ولكن الأمر كذلك فى حقائق أخـرى كثيرة لاتعتبر حقائق فطرية مثل ذلك الحقائق الرياضية ، فسواء أكانت هذه الحقائق ضرورية أم واضحة بذاتها فليس هذا دليلا على فطريتها ٠ ان المبدأ « الشىء هو ذاته » مبدأ ضرورى مسلم به لا لأنه مبدأ فطرى ، بل لأن اعتبار طبيعة الأشياء المشمولة فى هذه الكلمات لا يجعلنا نفكر فيها على نحو آخر اننا نتقبلها بالحدس كما نتقبل كون ٢ ، ٢ تساوى ٤ ٠

يخلص « لوك » من هذا بأن ليس ثمة ما يظهر أن المبادىء المستخدمة فى التأمل كمبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض تعرف معرفة فماذا يكون الأمر بالنسبة للمبادىء العلمية التى يدعى كونها فطرية ؟ يبدأ «لوك» بالتساؤل عما اذا كان هنالك مبادىء من هذا القبيل نتفق عليها جميعا ، فيجد من الضرورى التسليم بوجود بعض ميول مشتركة فى الجنس البشرى فمن المشترك عن الناس جميعا « الرغبة فى السعادة وكراهة الشقاء » ، بيد أن هذه نزعات وليست انطباعات للحقيقة فى الفهم اما فيما يختص بالمبادىء الأخلاقية ، فهنالك اتفاق أكبر على المبادىء التأملية منه عليها وبالتالى ، فاذا كنا قد تبينا ان هذه الأخيرة ليست فطرية فالأولى ليست بالأحرى كذلك ٠ ومن غاية الوضوح ان منبع مبادئنا الأخلاقية هو عقلنـا أو التربيـة التى نتلقاها من الآخرين أو آراء الأصدقاء المحيطين بنـا وعرف البـلاد التى نعيش فيها ٠ ويعتقد « لوك » أن ثمة قوانين للأخلاقية ثابتة وسرمدية ، ولكنها لا تعترف بأية معرفة غامضة فطرية وهى ليست مغروسة ابتداء فى الأذهان ومن الأكيد انه اذا كان الناس جميعا قد عرفوا المبادىء الأخلاقية معرفة فطرية ، لما شاهدنا فى كثير من الأمم بعض هذه المبادىء أو معظمها ولا نخجل من ذلك ٠

٢ ــ التجربة منبع الأفكار :

بعد أن ندد « لوك » بنظرية الأفكار الفطرية تصدى للبحث فى عناصر المعرفة القائمة فى الذهن ، وقد شبه الذهن بصفحة بيضـاء ليست فيها خصائص ولا أفكار وهنا يحق لنا أن نتساءل : من أين جاءت كل هذه

الذخيرة من الأفكار التى شكلتها مخيلة الانسان التى لا تفقد لها طاقة ؟ يجيب « لوك » على هذا التساؤل بأنها تأتى من التجربة فبالملاحظة التى نديرها على الموضوعات الخارجية المحسوسة وحول النشاط الداخلى للذهن نتزود بالادراك والتفكير ، وهما الركنان اللذان يرتكز عليهما النشاط العقلى ·

وبناء على ماتقدم فهنالك مصدران أساســـيان لجميع الأفكار التى تشكل وحدها دون غيرها خامات النشاط العقلى بأسره :

أولا : الاحســاس الخارجى : فالحواس تنقـــل الى الذهن ادراكات عديدة متميزة الطرائق المتنوعة التى أثرت بها الموضوعات الخارجية عليها ، ومن ثم تصل الينا أفكار الأصفر والأبيض والحار والبارد والصلب واللين والمر والحلو وهى ما ندعوه صفات حسية تشكل فى الذهن الادراكات ، هذه الادراكات هى مصدر معظم الأفكار التى لدينا وهى تعتمد تماما على الحواس هذه الادراكات هى الاحساس الخارجى ·

ثانيا : الاحساس الباطنى : ويتمثل فى ذلك النشاط الذى يمارسه الذهن بتعليماته التى تدون حول الأفكار التى انتقلت اليه من الحواس من ادراك وتفكير وشك واعتقاد وينجم عن ذلك بعض انفعالات مثل الرضا والضيق ونستقبل من هذا النشـــاط أفكارا متميزة ، تميز الأفكار التى نستقبلها من الموضوعات الخارجية التى تؤثر على حواسنا مثل هذه الأفكار لا علاقة لها بالاحساس الخارجى فهى تنشأ من ثم عن الاحساس الباطنى ·

هذان هما المصدران الوحيـــدان اللذان تأتى منهما الأفكار البسيطة وليس فى الذهن أدنى فكرة لم تأت اليه عن أحد هذين المصدرين ، واذ تنجم معرفتنا عن مصدرين متميزين : الاحساس والادراك نرى «لوك» يتخذ موقفا مختلفا تمـــاما عن موقف المدرسة الحسية ، فبينما يذهب « جسندى » و « هوبز » وهما مفكران سابقان عليه و « كانديلاك » و « هلفشيوس » وهما متأخران عنه الى أن انطباعات الاحساس هى المصدر النهائى لكل مالدينا من معرفة · يتميز « لوك » بالمصدر الثانى للأفكار وهو الاحساس الباطنى أو الادراك المتمثل فى النشاط الذهنى ، وبذلك تكون نظريته فى مصدر المعرفة نظرية تجريبية وليست حسية على نحو ما نجد عند أسلافه وأخلافه من الحسيين ·

ويعتبر الباب الثانى من « المبحث » محاولة لاحصاء الأفكار البسيطة وهى أفكار الاحساس وأفكار الادراك ورد أفكارنا الأخرى مهما تكن مركبة الى هذه الأفكار البسيطة فأفكار الاحساس بعضها يأتى الى الذهن من حاسة واحدة مثل الألوان والأصـــوات والأذواق والروائح والحرارة والبرودة

أما الأفكار التي نحصل عليها من أكثر من حاسة فهي الحيز أو الامتداد والشكل والسكون والحركة ، وثمة أفكار تنجم عن نشاط الذهن كاللذة أو البهجة والألم أو الضيق والقوة والوجود والوحدة .

هذه الأفكار البسيطة هي خامات معرفتنا وحين يتزود بها العقل ، تكون له القدرة على تكرارها والمقارنة بينها وتوحيدها بطرائق لاتكاد تنتهي ، ويمكنه بذلك أن يشكل منها أفكارا مركبة جديدة ، ولكن ليس في وسع العقل على أي نحو من الانحاء ان يبتكر أو يشكل فكرة واحدة بسيطة جديدة في الذهن لا تأتي من المصدرين اللذين أشرنا اليهما . ان قدرة الانسان في هذا العالم الذي يكتنفه لا تتخطى تشكيل الخامات المادية التي في متناول يده تشكيلا جديدا ، دون أن يكون في وسعه خلق ذرة من مادة جديدة ، أو أن يعدم ذرة من مادة قائمة ، وكذلك شأن عقله يشكل من الخامات ما يروم ولا يسعه ان يخلق خامة أو يعدم خامة موجودة .

وفي استقبال الأفكار البسيطة لا يبدي العقل نشاطا ايجابيا وانما دورة سلبي بحت ، فهو لا يستطيع أن يرفض تقبل هذه الأفكار أو أن يعدمها فهو أشبه بالمرآة لا يمكنها أن ترفض استقبال الصور المنعكسة على صفحتها أو تعدل فيها أو تمحوها . فالعقل قبل دخول الأفكار البسيطة أشبه بحجرة مظلمة والاحساس الخارجي والاحساس الباطني بمثابة النوافذ التي يلج منها الضوء ولكن ما يكاد الضوء ان ينفذ الى هذا المكان المظلم ، حتى يكون للعقل قدرة لا حد لها لتعديل هذا الضوء وتحويله . ففي وسع العقل ان يبدع أفكارا مركبة من أفكار بسيطة في تنوع لاينتهي بالجمع والمقارنة والفصل وهذه الأفكار المركبة لايقابلها محسوس خارجي كما هو الشأن في الأفكار البسيطة .

وتشمل الأفكار المركبة أنماطا ثلاثة :

١ ـ الضروب وهي تدل على صفات لاتتقوم بذاتها بل توجد في غيرها كالجمال في الزهرة أو الحديقة .

٢ ـ الجواهر وهي أفكار دالة على أشياء توجد بذاتها وتوصف بالضروب كالزهرة والحديقة والإنسان .

٣ ـ العلاقات وهي أفكار تعبر عن روابط كفكرة الأبوة والأكبر والأصغر .

والأفكار المركبة وهي ثمرة النشاط الإيجابي للعقل ، جعلت الفلاسفة العقليين يظنون أنها فطرية نابعة منه ولا دخل للتجربة فيها ، ولذلك يحرص

« لوك » على تحليل بعض الأفكار المركبة كأمثلة وشواهد يثبت منها انها لا تعدو فى نهاية الأمر أن تكون أفكارا بسيطة آتية بدورها من التجربة · ففكرة اللامتناهى لا تعدو أن تكون ضربا بسيطا للكم ، ذلك لأن العظم ليس الا ضربا بسيطا للمكان والسرمدية ضربا بسيطا للزمان فهى من قبيل الأفكار السلبية تنشأ حين يمضى العقل قدما فى التفكير دون بذل أى جهد لوقف توغله الذى لا يقف عند حد · فهذه الفكرة وليدة نشاط العقل بتأليفه بين أفكار بسيطة مستمدة من التجربة فالعقل يبدأ من المتناهى ، ذلك أننا لما كان وجودنا وجودا متناهيا محدودا بالمكان والزمان ، فاننا نتصور مكانا لا نهاية له وزمانا لا يحده حد وذلك بطريق المقارنة والتخيل ·

أما فكرة الجوهر فهى التى تسقط فى يد « لوك » ازاءها ، فاذا فحصنا فكرتنا عن الجواد أو الانسان أو قطعة الذهب ففى وسعنا أن نحل هذه الفكرة الى عدد من الأفكار البسيطة مثل الامتداد والشكل والصلابة والوزن واللون مجتمعة ، ولكن من ملاحظة ما شاع بين الفلاسفة فى عصر « لوك » وقبل من أن ثمة جوهرا معينا تلتقى عنده هذه الصفات أو تقيم فيه وتنجم عنه ، يتساءل « لوك » : لئن كان فى وسعنا أن نشكل فكرة واضحة عن الصفات المختلفة فهل نستطيع أن نشكل فكرة واضحة أو نعطى تفسيرا معقولا للجوهر ؟ ويجيب صراحة بالسلب ففكرة هذا الجوهر « فكرة مشوشة مضطربة تنتمى اليها الصفات وتقيم فيها » ان اسم جوهر يدل على سند مع اننا لانملك يقينا أية فكرة واضحة ومتميزة عن ذلك الشىء الذى نفترض كونه سندا ·

ان من يتساءل عن كنه الجوهر لن يكون أسعد حالا من الهندى الذى حين زعم أن العالم يحمله فيل ضخم سئل وما الذى سند الفيل ؟ فأجاب بأنه سلحفاة ضخمة فحين سئل من جديد وما الذى سند السلحفاة ؟ أجاب أنه شىء ما لا يعرفه · ان اللجوء الى « شىء ما » معناه أننا نتحدث كالأطفال حين يسألون عن معنى هذا الشىء الذى لايعرفونه يجيبون بأنه شىء ما ولكنهم لا يعرفونه ومن ثم ، يرى « لوك » أن التمييز بين الجوهر والضروب أو الأعراض تمييز لا حسم فيه ، ويبدو أن ثمة نبرة شك هنا عند « لوك » نستشفها من خلال تحليله ·

ويوصى « لوك » أولئك الذين يسرفون فى الحديث عن الجوهر ان « ينظروا ما اذا كانوا فى استخدامهم لها يطبقونها على الله اللامتناهى تطبيقها على الروح المتناهى والجسم بمعنى واحد ، وما اذا كانت تمثل ذات الفكرة عندما تسمى تلك الموجودات المختلفة غاية الاختلاف جواهر » وهو يرى أن كلمة جوهر حين تدل المادة على الذهن (متناهيا وغير متناه) تعبر فى كل عن معنى مختلف تمام الاختلاف · ولعل ما يجعل الأمر واضحا فى

المناقشات الفلسفية على الأقل بين أولئك الذين يسلمون بثنائيـــة المادة والذهن ، أن يستعاض عن كلمة جوهر حين تطبق على الموضـوعات غير الجسمية بكلمة ذهن وحين تطبق على الموضوعات الجسمية بكلمة مادة .

وتأسيسا على ذلك ، يتناول « لوك » الروح اللامادى والجسم فهو يرى أن ليست ثمة صعوبة فى فكرة روح لا مادى ، كما أنه ليست ثمة مشقة فى فكرة الجسم وليس ثمة بالتالى تناقض ما فى كون الفكر يمكن أن يوجد منفصلا ومستقلا عن الصلابة ، كما أنه ليس ثمة تناقض فى كون الصـــلابة يمكن أن توجد منفصلة ومستقلة عن الفكر فهما معا فكرتان بسيطتان مستقلة كل منهما عن الأخرى وما دامت لدينا فكرتان بسيطتان عن الفكر والصلابة ، فلسنا ندرى لم لا نسلم بوجود شىء مفكر بدون صلابة ، كما نسلم بوجود شىء صلب بدون تفكير أعنى المادة ما دام ليس من العسير أن نتصور كيف ان الفكر يمكن ان يوجد بدون المادة والمادة يمكن أن توجد بدون الفكر .

ويختتم « لوك » الباب الثانى بفصل قصير ولكنه مثير للاهتمام عن تداعى الأفكار وقد يكون « لوك » أول من اســـتخدم هذا الاصطلاح وهو يعنى به ان لبعض الأفكار ارتباطا طبيعيا وبعض الأفكار الأخـرى تلتقى فى أذهان الناس بحث لاتكاد فكرة تعن الذهن حتى تتوارد سائر الأفكار المرتبطة بها ومن الأمثلة التى يسوقها على ذلك : أن بعض الأطفال يقترن عندهم احساسهم بالألم ببعض الكتب بحيث يصـبح الكتـاب مكروها لهم وتغدو القراءة عذابا لايطاق .

٣ ـ تحديد الاطار العام للمعرفة :

لم يكن « جون لوك » أول فيلسوف انجليزى بذل عنـــاية كبرى للموضوعات السيكولوجية ولكن فى كتاب « مبحث فى العقل الانسانى » دراسات مثمرة وملاحظات قيمة جعلته أنفذ تأثيرا فى هذا المجال ، بحيث ان الباحثين الذين يؤرخون لعلم النفس ينوهون بلوك دائما حين يتحدثون عن الأصول السيكولوجية للمعرفة ، بيد أن غاية « لوك » هى البحث فى طبيعة المعرفة الانسانية وحدودها ولا شك أن هذا البحث يقتضى تحليل عناصر المعرفة أى أصولها السيكولوجيـــة وهذا هو ما نهض به « لوك » فى الباب الثانى . فهنالك الجانب الذاتى أى الذات العارفة وهنالك الجانب الموضوعى أى الأشياء الخارجية وهنالك الارتبـــاط بين الذات الموضوع بالاحساس والادراك والتصورات ثم تحديد الاطار العام للمعرفة بطريقة التحليل المنطقى التى لاحت بوادرها فى الفصول الأخيرة من الباب الثانى وبدت واضحة غاية الوضوح فى الباب الرابع .

ففي الباب الرابع تقييم العلاقات وهي النمط الثالث من أنماط الأفكار المركبة وتحديد لطبيعة الحدس والتفرقة بينه وبين البرهان وكل هذه جوانب أشار اليها « لوك » في عرضه لعناصر المعرفة وأرجأ النظر اليها نظرة تحليلية حينما يفرغ الى النظرة المنطقية الشاملة ·

يرى « لوك » أن الذهن لا يسعه اكتساب المعرفة إلا اذا عمد الى الربط بين الأفكار بعضها والبعض الآخر وينجم عن ذلك العلاقات :

١ ـ الهوية ·

٢ ـ الاضافة ·

٣ ـ الارتباط ·

٤ ـ الوجود الحقيقي ·

ويمكننا أن نلخص الأركان الأساسية للمعرفة عند « لوك » على النحو التالي :

أولا : الموضوعات الخارجية موجودة وجودا مستقلا عن معرفتنا بها ويمكن لهذه الموضوعات أن تستمر في الوجود حتى لو لم يكن هنالك أفراد يدركونها والأفكار من جهة أخرى تعتمد على نشاط الذهن أي النشاط العقلي ، بالرغم من أنها لا يمكن أن تتقوم الا اذا كانت عناصرها مستمدة أصلا من الاحساس ·

ثانيا : الموضوعات الخارجية أي الأشياء لها صفات لاتستمد من العقل وعلى ذلك فالأفكار التي تمثل الصفات في العقل ليست مستمدة منه وانما هي مستمدة أصلا من الصفات الأولى في الأشياء أعني الكيفيات البسيطة فمثل هذه الكيفيات تعتبر اذن حقيقية ·

ثالثا : الأشياء الخارجية وصفاتها لايؤثر فيها أننا نعرفها ولكن الأفكار تخضع لتأثير العقل كمرحلة ثانية بعد استقبال العقل في المرحلة الأولى للأفكار البسيطة ·

رابعا : لاتوجد أشياء خارجية على نحو ماتبدو عليه الأفكار المركبة (المجوهر ، الهوية ، الخ) ، بل على نحو ما تكون الأفكار البسيطة (اللون ، الشكل ، الطعم الخ) ذلك لأن الأفكار المركبة ليس لها مقابل حسي خارجي مباشر وعلى ذلك ، فما دام العقل يبني هذه الأفكار المركبة بناء مختلفا عن البناء الواقعي للأشياء ، فكل معرفة تمثل الأفكار المركبة (البرهانية ، الاحتمالية) ليست معرفة وثيقة شأن المعرفة المستمدة من الأفكار البسيطة (الادراكية الحدسية) وعلى ذلك ، فالمعرفة المبنية على الأفكار المركبة عرضة للخطأ ·

٤ ـ اللغة والفكر :

أهم ما يبسطه « لوك » فى العلاقة بين اللغة والفكر تلك النقائص التى لا مفر منها فى استخدام اللغة والأخطاء التى نقع فيها نتيجة الاهمال والوسائل التى يرى أنها كفيلة بتلافيها ٠

فاللغة يمكن ان تستخدم للتسجيل الخاص لأفكار الفرد وفى هذه الحالة يكون الفرد حرا تماما فى اختيار رموز لغته ، ولا يستلزم حينئذ الا أن يكون هناك اتساق بين الرموز واتفاق عليها لنقلها الى الآخرين بحيث تعنى الكلمة ذات الفكرة عند المتحدث من جانب وعند المستمع من جانب آخر ٠ هذا مثل أعلى تحول دون تحققه أسباب أهمها اثنان :

١ ـ حينما كانت الفكرة التى ترمز اليها الكلمة مركبة كان من اليسير على المستمع ان يغفل جانبا من مضمونها قصد اليه المتحدث أو أن يضمنها شيئا أغفله المتحدث ومن ثم فهما لايستخدمان الكلمة بنفس الطريقة ولن يكون فى مقدروهما ان ينقلا خواطرهما الواحد منهما الى الآخر نقلا خالصا ٠

٢ ـ قد لايكون للفكرة أى ارتباط فى الطبيعة وبالتالى لايكون لها نمط ثابت يستطع المستمع أن يفحصها على ضوئه مثل ذلك فكرة الجمال أو النعمة ٠

وبينما لا نحتاج الى الدقة فى الاستخدام الجارى للغة فى الحديث العادى ، تتضح هذه الدقة ضرورية فى نقل الحقائق العلمية فهنا لابد من فحص الكلمات الدالة على أفكار الجواهر والضروب المختلطة ، بما فى ذلك العلاقات ، فحصا بالغ العناية ٠ وليس الأمر بهذه الخطورة فى حالة أسماء الأفكار والضروب البسيطة ، ذلك لأن كلمة « أزرق » تفهم فورا فى معناها التام يفهمها كل من رأى الأزرق أو كل من يعرف أن الكلمة تشير الى ذلك اللون وكذلك الضروب البسيطة فمعنى ٧ أو مثلث واضح على أكمل وجه ٠

ان هناك نقائص لا مفر منها فى الكلمات وبخاصة الدال منها على أفكار الضروب المختلطة والجواهر وثمة نقائص أخرى فى استخدام اللغة يمكن ان نتجنبها وهى تعزى الى الخطأ والاهمال يجملها « لوك » فى سبع :

١ ـ نحن قد نستخدم كلمات لاتكون لدينا أفكار مطابقة لها فنردد أصواتا كالتى يرددها الببغاء ٠

٢ ـ قد نستخدم الكلمات فى غير ثبات فنعبر بكلمة واحدة عن مجموعة من الأفكار البسيطة ٠

٣ ـ قد نؤثر الغموض ، لنخلع على كلماتنا اهابا من الروعة والفخامة نخفى به ما فى خواطرنا من خلط ولبس ، ويشدد « لوك » هنا النكير على المناطقة والمحامين ٠

٤ ـ قد نأخذ الكلمات على أنها الأشياء أعنى أننا قد نقع فى غلطة افتراض أنه حيثما كانت هنالك كلمة فلابد أن يكون هنالك شىء مطابق لها ٠

٥ ـ نجعل كلمات تقوم مقام أشياء لانستطيع الدلالة عليها ٠

٦ ـ نستخدم كلمات معناها واضح لنا غير عابئين بأن نجعل هذا المعنى واضحا للآخرين ٠

٧ ـ نكثر من كلمات الاستعارة والكناية والتشبيه ولئن اغتفر هذا فى الحديث والشعر فهو لا يغتفر فى معرفة حقائق الواقع ٠

ويقترح « لوك » بعض الوسائل لملافاة هذه العيوب :

١ ـ ينبغى الاحتياط بحيث اذا استخدمنا كلمة فلابد أن نكون على بينة من الفكرة التى تدل عليها ٠

٢ ـ ينبغى معرفة هذه الفكرة بدقة وتميز فاذا كانت الكلمة تدل على فكرة بسيطة لزم ان تكون هذه الأخيرة واضحة ، واذا كانت تدل على فكرة مركبة وجب ان تكون هذه متحددة بحيث نعرف الأفكار البسيطة التى نجمت عنها وأن تكون هذه الأفكار البسيطة واضحة ٠

٣ ـ ينبغى احترام المواضعات المتبعة فى استخدام اللغة وان تستخدم الكلمات كلما أمكن ذلك فى اتساق مع الاستخدام المألوف لها ٠

٤ ـ اذا انحرفنا عن الاستخدام المألوف ينبغى ان نبين بأية طريقة نفعل ذلك وكذلك حيثما كان ثمة شك حول الاستخدام الملائم للكلمة ينبغى ان نجعل استخدامها واضحا ففى حالة أسماء الأفكار البسيطة نسوق الأمثلة وفى حالة الضروب المختلطة نلوذ بالتعريف وفى حالة الجواهر نجمع بين ضرب الأمثلة والتعريف ٠

٥ ـ يجب بقدر الامكان استخدام كلمة ذاتها فى نفس المعنى باطراد ولكن لسوء الحظ نضطر فى كثير من الأحيان الى استخدام تلك الكلمة فى معان مختلفة عن بعضها اختلافا طفيفا ٠

ويأمل « لوك » انه بالأخذ بهذه القواعد تأتى الكلمات صنوا دقيقا للأفكار ويمتنع الخلط والتمويه ٠

★★★

فى قانون السكان

مالتوس

١٨٣٠م

الخلفية التاريخية :

عاش روبرت مالتوس خلال الفترة الممتدة ما بين ١٧٦٦ ـ ١٨٣٤ ، وقد شهدت هذه الفترة عدة تغيرات مهمة في المجال الفكرى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى . أما عن المجال الفكرى فقد عاصر مالتوس تلك الفترة التي كانت ما تزال فيها بقايا متداعية من فكر المدرسة التى كانت ترى أن عماد الثروة لأى شعب من الشعوب انما يتمثل فيما يملكه من معادن نفيسة ، وانه لكى تزداد هذه الثروة فان الميزان التجارى للدولة يجب أن يحقق فائضا (أى أن تكون الصادرات أكبر من الواردات) ، وأن هذا الفائض يتعاظم كلما شجعت الدولة الصناعات والأنشطة المشتغلة بالتصدير . وكان التجاريون يعتبرون أن الأعداد الكبيرة للسكان تمثل علامة قوة اقتصادية عسكرية فالحجوم الكبيرة من السكان توفر من ناحية القوى العاملة الوفيرة التي تشتغل في مجالات الانتاج ، وهى من ناحية أخرى تمد الجيوش بالجنود اللازمين لغزو المناطق عبر البحار وتكوين الامبراطوريات الكبرى .

وبالاضافة الى البقايا الفكرية للمدرسة التجارية ، كانت الثورة الفرنسية قد أحدثت ردود فعل قوية مما دفع أهم العلم والمعرفة الى مزيد من التأملات فى مستقبل البشرية وفى النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه الانسان ، كما أن فروع العلم المختلفة قد تطورت واكتشف ما يسمى بالقوانين الطبيعية التى تنظم التجانس فى شتى ظواهر الطبيعة . واعتقد بعض الفلاسفة والمفكرين انه لا توجد قوانين طبيعية تحد من قدرة الانسان على تحسين ظروف معيشته وان فى امكان الانسان أن يستخدم القوانين الطبيعية المكتشفة فى تحسين انتاجيته وصحته ومستوى رفاهيته .

أما فى المجال الاقتصادى ، فقد عاصر مالتوس فترة تحول الاقتصاد البريطانى من الرأسمالية التجارية الى الرأسمالية الصناعية ، فقد تعاظم الدور الذى يقوم به الانتاج السلعى (الذى يعتمد على التخصص وتقسيم العمل والانتاج بغرض التبادل) ، وحقق تراكم رأس المال توسعا ضخما فى الصناعة وزاد حجم الانتاج الصناعى وتعددت المنتجات وتعاظم ، بشكل محسوس ، الاستخدام الموسع للتكنولوجيا فى مجال الانتاج ، وكل ذلك عضدته منجزات الثورة التى حدثت فى مجال الطاقة والنقل والمواصلات

وكان من نتيجة ذلك أن تعددت المصانع المعتمدة على الآلات ونشأت المناطق الصناعية الكبرى وباختصار ، تمت الغلبة للدور الحاكم والقيادى الذى أصبح يقوم به رأس المال الصناعى فى النشاط الاقتصادى ، اذ أصبحت الصناعة لا الزراعة أو التجارة هى المجال الرئيسى للحصـــول على الأرباح ومن ثم الموضوع الأساسى للاستثمار وتراكم رأس المال · وكان هذا التطور الاقتصادى الذى حدث فى انجلترا وعرف باســـم « الثورة الصناعية » يشق طريقه أيضا بدرجات متفاوتة فى دول أوروبا وفى المستعمرات التى استقر فيها الأوربيون الغربيون وبالذات فى العالم الجديد ·

وفى المجال الاجتماعى ترتب على تجربة التحول الى المجتمع الرأسمالى الصناعى حدوث مشاكل خطيرة وعلى درجة كبيرة من الأهمية ، فمع نشأة المناطق الصناعية زادت الكثافة السكانية بشكل واضح فى تلك المناطق ، كما زاد عدد سكان المدن هذا فى الوقت الذى لم تنم فيـــه حركة موازية لبناء المساكن فزاد التكدس البشرى فى الغرف وفى ابروشيات الكنائس والملاجىء ، وانتشرت الأمراض والرذائل الاجتماعية ، وزاد عدد العاطلين نتيجة للاستخدام الموسع للآلات ، التى حلت محل العمل الانسانى وانتشرت عمليات التسول والسرقة والتشرد وأصبح عدد كبير من الناس يعيش على المساعدات والصدقات التى توزعها الملاجىء والكنائس وفى المصانع عانى العمال الذين حالفهم الحظ بالعمل فيه من ظروف قاسية ، سواء من حيث انخفاض مستوى الأجور ، أم من حيث طول ساعات العمل التى امتدت الى ست عشرة ساعة فى اليوم ، أم من حيث ظروف العمل نفسها داخـــل المصانع ، حيث كان هناك غياب شبه كامل لوســـائل الأمن الصناعى · وبالاضافة الى ذلك عمد الرأسماليون الى تشغيل الأطفال والأحداث بين سن الخامسة والتاسعة للعمل داخل المصانع بأجور زهيدة جدا ولساعات عمل طويلة وأكثر من هذا كان الأطفال يتعرضون لضرب شديد حينما يبدو عليهم الاعياء أو التعب ، بل ان كتب التاريخ الاقتصادى تشير الى أن عددا من هؤلاء الأطفال كان يستخدم فى جر عربات الفحم والحديد فى دهاليز المناجـــم تحت الأرض ، كما أن تشغيل النساء والفتيات بالمصانع نظرا لانخفاض أجورهن كانت له نتائج سيئة على مستوى الصحة والأخلاق وتغيير وضع الرجل فى المجتمع ·

فى خضم هذه الظروف كان الصراع مازال حـــادا بين الرأســـمالية الصناعية الناشئة ، وبين طبقة النبلاء وملاك الأراضى ، وقد حسم هذا الصراع فى النهاية لصالح البورجوازية الصناعية اقتصاديا (بازدياد تراكم المال ونمو الانتـــاج الصناعى) ، وسياسيا (باستيلاء البورجوازية على السلطة) واجتماعيا (بالقضاء على مؤسسات وعلاقات الانتاج الاقطاعية) ·

فى ظل هذا الوضع التاريخى نشر روبرت مالتوس عددا من المؤلفات والبحوث مثل : (مقالة حول مبدأ السكان كما يؤثر فى تحسين مستقبل المجتمع عام ١٧٩٨) ، ثم أعاد نشره بعد التعديلات الطفيفة فى عام ١٨٠٣ ، ثم كتابه حول (رسالة فى الاقتصاد السياسى) الذى نشره فى عام ١٨٠٣ وأيضا : « ملاحظات عن آثار قوانين الغلال » فى عام ١٨١٤ ، ثم « بحث فى طبيعة وتطور الريع » فى عام ١٨١٥ · وكل هذه الأعمال كانت تجسد وجهة نظر روبرت مالتوس فى الصراع الفكرى الحاد ، الذى نشب بينهم وبين بعض الكتاب المعاصرين له مثـــل جردوين وكوندرســيه ودفيد ريكاردو وجان باتست ساى ، وذلك فى عدد من القضايا الاجتماعية المهمة مثل مستقبل البشرية وقضايا السكان ونظرية القيمة والريع والأجور ونظرية التوازن الاقتصادى العام ·· الى آخره · كان مالتوس يمثل وجهة نظر معارضة تماما لأفكار هؤلاء الكتاب حول هذه القضايا وليست أعماله التى كتبها فى هذه الفترة الا ردا على الأفكار والنظريات التى كان يدعـو اليها هؤلاء الكتاب ، على أن هذا الخلاف الذى نشأ بين مالتوس وبين معاصريه من الكتاب الكلاسيك لا يخفى عن الباحث حقيقة مهمة ، وهى أن أفكاره فى موضوع السكان كانت تمثل أحد الأعمدة الرئيسية التى قام عليها بنيان الفكر الاقتصادى الكلاسيكى البورجوازى ·

الجذور الفكرية والاجتماعية والسياسية لنظرية مالتوس :

وقبل أن نشرع فى رسم تخطيط عام لأفكار مالتوس فى السكان ، لابد لنا من الاشارة الى أن تفكيره فى هذا الموضوع كانت له جذور فكرية واجتماعية وسياسية معينة · والحقيقة أن الاحاطة بهذه الجذور هى أمر ضرورى للوقوف على مدى المساهمة الفعلية التى قدمها مالتوس فى نظرية السكان ، كما أن الاحاطة بتلك الجذور على درجة كبيرة من الأهمية لفهم موقفه من قضايا الصراع الاجتماعى فى عصره ، والدور التاريخى الذى أداه فى عملية التحول الاجتماعى التى شهدها عصره ·

ويقول رمزى زكى فى كتابه « المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة » عن الجذور الفكرية لنظرية مالتوس :

« أما عن الجذور الفكرية للرؤية المالتوسية لمشكلة السكان ، فانه من الثابت تاريخيا أن المقولات الرئيسية فى نظرية مالتوس للسكان ، كان قد سبقه الى صياغتها بشكل ما مفكرون آخرون · وقبل أن يموت مالتوس بأربعة أعوام نشر ميشيل توماس سادلر فى عام ١٨٣٠ مؤلفا ضخما فى مجلدين تحت عنوان : « قانون السكان » وفى هذا المؤلف اشارة لأول مرة بأن مالتوس لم يبتكر نظرية السكان التى تنسب عادة اليه ، بل سرقها من

« تونسد » الذي كان يرى ان الزيادة السكانية في العالم ستكون محددة بمقدار ما يوجد لدى البشر من طعام وانه لا محالة اذن من وجود البؤس والرذيلة اذا زاد عدد السكان ، في الوقت الذي لا توجد فيه كميات وافرة من الطعام ، كما أشار سادلر الى أن مالتوس قد ردد نفس الكلمات التي كتبها تونسد من أن سكان أمريكا الشمالية يتضاعفون كل خمس وعشرين سنة ، وفي كل خمسة عشر عاما في بعض الولايات وان السبب في عدم زيادة السكان في العالم القديم بنفس المعدل ، انما يرجع الى نقص الطعام آنذاك ·

كما تبين لكثير من الباحثين ان ثمة تشابها كبيرا بين الأفكار التي طرحها مالتوس في موضوع السكان ، وبين الأفكار التي ذكرها من قبله بمدة كافية ريتشارد كانتيلون وجيمس ستيوارت · ففي الكتاب الذي نشره كانتيلون في عام ١٧٥٥ بعنوان « بحث في طبيعة التجارة بصفة عامة » تعرض في جزء منه لموضوع السكان ، وفي هذا الجزء يشير كانتيلون الى أن قدرة السكان على الزيادة هي قدرة لا نهائية ·· غير ان العامل الوحيد الذي يحد من فاعلية هذه الزيادة هو مدى توافر الموارد الغذائية · وهو يرى ان قدرة البلد على احتمال عدد معين من السكان انما تتوقف على مدى حاجات السكان ومدى انتاجية الأراضي ، وكان يعتقد أنه اذا كانت الأراضي مخصصة لانتاج المواد الغذائية وان انتاج هذه المواد يكون في متناول العمال الزراعيين وسائر السكان ، فان ذلك يؤدي الى زيادة مقدرة البلد على احتمال سكانه وذلك بالقياس الى ما اذا كان الجزء الأكبر من ناتج الأرض يؤول للملاك الزراعيين ، حيث ان ذلك يؤدي الى الحد من مقدرة البلد على اعالة السكان ، لأن الملاك الزراعيين ينفقون نسبة عالية من دخولهم على استيراد المنتجات الأجنبية · وكان كانتيلون يرى أن الحروب التي تحدث من وقت لآخر انما مردها ذلك الضغط السكاني على الموارد الزراعية وان من نتائجها أنها تعيد التناسب بين السكان وضرورات الحياة ، كما أنه يشير في كتابه الى مسائل تتعلق بتأخير سن الزواج وتحديد حجم الأسرة وليس يخفى ما في هذا من تشابه كبير مع الموضوعات الأساسية لنظرية مالتوس في السكان ·

أما عن جيمس ستيوارت الذي يعد من أنصار المدرسة التجارية (الميركانتيلية) ، فقد تعرض في كتابه « مبادىء الاقتصاد السياسي » المنشور في عام ١٧٦٧ الى المسألة السكانية ، ووصل في تحليله الى النواة الأساسية لدى نظرية مالتوس · فهو يرى أن العامل الوحيد المحدد لزيادة السكان هو مدى توافر الموارد الغذائية ، غير أن هذه الموارد لا تزيد بنفس نسبة زيادة السكان وهو الأمر الذي يحد من امكانات النمو السكاني لأي بلد · وقد شبه جيمس ستيوارت النمو السكاني « بسلك حلزوني »

قابل للتمدد .. غير أن قابليته للتمدد يحدها ثقل موضوع فوقه هذا الثقل هو توافر المواد الغذائية . كما أنه في تحليله توصل الى صياغة تكاد تكون تامة لقانون تناقص الغلة وهو القانون الذي بني عليه مالتوس من بعده أسس تحليله في موضوع السكان .

مما سبق يمكن القول اذن ان القضايا الأساسية لنظرية مالتوس في السكان ، كان قد سبقه اليها مفكرون آخرون غير أنها لم تكتسب طابع الشهرة والترويج ، نظرا لعدم نضوج الظروف الاقتصادية والاجتماعية لهذا الرواج ، حيث ان ظروف البطالة ومشاكل الغذاء وارتفاع أسعار المواد الغذائية لم تكن قد وصلت في العصر الذي كتب فيه هؤلاء الكتاب مؤلفاتهم الى المدى الذي وصلت اليه في عصر مالتوس .

ويرى بعض الكتاب انه من غير المؤكد ان مالتوس قد تعرف على أفكار كانتيلون حينما كتب موضوعاته عن السكان .. بيد أنه من المؤكد أنه كان متأثرا بجيمس ستيوارت الذي كان قد تأثر بدوره بأفكار كانتيلون .

وعند الحديث عن الجذور الاجتماعية للرؤية المالتوسية للسكان ينبغي التنويه بأن مالتوس من الناحية الأيديولوجية والطبقية ، كان يدافع في صدد كتاباته عن مصالح رجال الاقطاع والدولة والكنيسة في وقت كانت فيه هذه المصالح تتعرض للاهتزاز الشديد ، بسبب الانتصارات التي أحرزتها الطبقة البورجوازية الصاعدة في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ففي الوقت الذي بدأت فيه الرأسمالية الصناعية الناشئة توطد أقدامها كنظام اجتماعي جديد أكفأ من الناحية النسبية من النظام الاقطاعي القديم ، بدأت تتفاقم مع هذا النمو مشاكل البطالة وارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية وبالتالي انخفضت معدلات الأجور الحقيقية للعمال . وهي المشاكل التي اتخذت طابعا عنيفا في البداية تمثل في مهاجمة العمال للمصانع وتدمير آلاتها واحراقها والقيام بالمظاهرات والاضطرابات ، للمطالبة برفع الأجور وتحسين ظروف العمل . وكان من الواضح أن ذلك يهدد حركة التوسع الصناعي وتراكم رأس المال بيد ان تزايد البطالة وارتفاع أثمان المواد الغذائية لم يكن نتيجة للظروف لاحتكاكية التي ولدتها طبيعة مرحلة الانتقال من النظام الاجتماعي الى النظام الرأسمالي فحسب ، بل كانت أيضا نتيجة حتمية لطبيعة التغيرات التي طرأت على الزراعة بعد تحولها الى نمط رأسمالي للانتاج .

ففي الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ، ومع تعاظم حركة التجارة الدولية وازدياد الطلب العالمي على الصوف الانجليزي نشأت في انجلترا الحركة المعروف باسم « حركة الاسيجة » ، وهي الحركة

التى شهدت تجمع الملكيات الزراعية الصغيرة والمتوسطة فى شكل حيازات رأسمالية كبرى · وبعد أن كانت هذه الحيازات تنتج من قبل فى الأساس القمح وسائر المواد الأولية الغذائية اللازمة للصناعات المنزلية تحولت بفعل هذا التمركز الى مراع لتربية الأغنام ، بهدف انتاج الصوف على نطاق واسع · وقد تمت هذه العملية بالعنف الذى لا رحمة فيه ، حيث قام الملك بطرد المزارعين الحائزين لأراضيهم وأرغموهم على التخلى عن هذه الأراضى وعن بيوتهم وأكواخهم التى يقيمون فيها وأحرقت منازلهم ، وهكذا « تحولت الأراضى الزراعية التى لم يكن من المستطاع زراعتها بغير الناس والعائلات الكبيرة الى مزارع ، يكفيها عدد قليل من الرعاة ، وصدرت فى ذلك الوقت قوانين خاصة باحاطة هذه الأراضى بسيجان (أسوار) ، لتأمين هذه العملية ، كما قام كبار الملاك تحت تأثير ارتفاع أسعار الصوف بنزع ملكية صغار الملاك بالعنف · وقد ترتب على سلب أملاك الفلاحين الصغار والمتوسطين وتحويل أراضيهم الى مراع للأغنام نتيجتان مهمتان :

الأولى : ظهور عدد ضخم من العمال الزراعيين الذين هاموا على وجوههم فى المدن الصناعية ، بحثا عن العمل وقدموا قوة عملهم الرخيص للعمل بالمصانع ، بيد أنه لا حركة التوسع الصناعى فى مراحلها الأولى ولا الصناعات الحرفية اليدوية كانت لتستوعب هذا العدد الهائل من الباحثين عن العمل ، ولهذا أصبح الكثيرون منهم متسولين ولصوصا ومتشردين وكان من نتيجة ذلك أن صدرت قوانين اغاثة الفقراء ·

الثانية : انه بالتحول الذى طرأ على الزراعة وادارتها بالأسلوب الرأسمالى القائم على المزارع الضخمة المتخصصة فى انتاج المواد الخام اللازمة لدوران دولاب الانتاج فى المصانع ، حدث نقص شديد فى انتاج المواد الغذائية وعلى الأخص القمح · وكان من نتيجة ذلك أن ارتفعت أثمان الحاصلات الزراعية وحقق ملاك الأراضى الذين آثروا زراعة أراضيهم بهذه الحاصلات أرباحا ضخمة كانوا ينفقونها فى شراء السلع الصناعية الجديدة وهو الأمر الذى أدى الى وجود حركة ضخمة فى البرلمان الانجليزى للسماح باستيراد الغلال من القارة الأمريكية مع عدم فرض جمارك على هذه الغلال ، وذلك للتخفيف من وطأة الأزمة وهى الحركة التى لقيت معارضة شديدة من جانب النبلاء وممثلى الاقطاع ، ثم حسم الأمر فى النهاية باسقاط قوانين الغلال المشهورة ضد مصلحة ملاك الأراضى ·

حياة مالتوس :

ولد توماس روبرت مالتوس فى الرابع عشر من فبراير عام ١٧٦٦ ، بقرية روكرى غربى دوركنج بانجلترا وكان الابن الثانى لدانييل مالتوس

الذى تلقى تعليمه فى أكسفورد وعاش فى قريته عيشة هادئة ، وكان يراسل بعض رجال الفكر مثل روسو · وقد تلقى روبرت مالتوس تعليمه أولا على يد والده ، ثم أرسل الى كلافرتون بالقرب من مدينة باث ، ليتلقى قسطا من التربية الدينية والتعليم ليتعلم اللاتينية وفى سن الرابعة عشرة أرسل الى كلية وارنجتون الدينية أيضا ، حيث كان يتعلم أبناء احدى الفئات الدينية المتحررة ثم التحق بجامعة كامبردج ، عام ١٧٨٥ حيث درس التاريخ والشعر واللغات الحية ، وحيث أظهر تفوقا فى الرياضة وكان موضع رضاء أبيه عندما سمع عن جميل صفاته وعن سلوكه فى الجامعة ·

واختير عام ١٧٩٧ زميلا فى كلية يسوع بكامبردج حيث نال درجة الماجستير ، وحيث قضى وقته كله فى دراسة الاقتصاد والسياسة · وظهرت فى ذلك الحين بعض آرائه التحررية ، اذ عارض قوانين الاختبار التى كانت تستبعد الكاثوليك والخارجين عن كنيسة انجلترا من الوظائف العامة ، ولكنه لم يعارض فى ذلك الحين قوانين الفقراء التى أصدرها بت ، وبعد أن اختير فى زمالة الكلية انخرط فى سلك كنيسة انجلترا وكان قسيسا ، ولم يمض عليه وقت طويل حتى أخرج مقاله عن السكان عام ١٧٩٨ ·

وفى العام التالى سافر مع زميل الدراسة عميد كنيسة ونشستر الى القارة الأوروبية ، وزار ألمانيا والسويد والنرويج وفنلنده وأجزاء من روسيا وجمع كثيرا من البيانات والمعلومات أفادته فى تنقيح كتابه واخراج طبعته الثانية ونشر عام ١٨٠٠ مقالا عن « ارتفاع أسعار المواد الغذائية » ثم زار فرنسا وسويسره · وفى يونية عام ١٨٠٣ كتب مقدمة الطبعة الثانية لمقال السكان حاول فيها ان يخفف من قسوة النتائج التى خرج بها المقال فى طبعته الأولى ·

وكان مالتوس يعنى بالرد على معارضى نظريته فى الطبعات المتتالية لكتابه ، حتى تضخمت مقالته فى طبعتها الثالثة عام ١٨٠٦ · وقد استطاع أن يقنع بت رئيس وزراء بريطانيا بنظريته وآرائه وكان هذا سببا فى تعينه أستاذا للتاريخ والاقتصاد السياسى بكلية هيليبورى حيث يتلقى موظفو شركة الهند الشرقية تأهليهم عام ١٨٠٥ · وفى ذلك الوقت تزوج واستقر فى كامبردج وقضى بقية حياته فى الدرس والمحاضرة خلال عام ١٨١٤ ـ ١٨١٥ ، وكتب « ملاحظات عن قوانين القمح » و « الأسباب الداعية للحد من الاستيراد » و « طبيعة الربح وزيادته » ، ثم نشر الطبعة الخامسة لمقاله عن السكان عام ١٨١٧ وعين عام ١٨١٩ زميلا فى الكلية الملكية ، وهو شرف كبير لا يحظى به الا كبار رجال الفكر والعلم فى بريطانيا ، وفى العام التالى نشر « الاقتصاد السياسى » كما نشر مقالا عن « مقياس القيمة » عام ١٨٢٣ وكتب مقالا عن السكان فى الموسوعة البريطانية لم تظهر الا عام ١٨٣٠

وفي عام ١٨٢٦ نشر الطبعة السادسة لكتاب السكان ، وأعاد طبع الاقتصاد السياسي . وكان أحد المؤسسين الأوائل لجمعية الاحصاء التي تأسست عام ١٨٣٤ وهو العام الذي توفي فيه .

النظـــرية :

بدأ مالتوس نظريته في الطبعة الأولى لمقال السكان على النحو التالي :

« أرى اني أستطيع أن أضع القضيتين الآتيتين :

أولا : الطعام ضروري لوجود الانسان .

ثانيا : الشهوة الجنسية ضرورية وستظل على حالتها الراهنـــة تقريبـــا » .

وسرعة السكان في التزايد أقوى بكثير من طاقة الأرض وسرعتها في انتاج الطعام اللازم لحياة الناس ، وبما أن السكان لا يستطيعون أن يعيشوا عيشة كريمة اذا ازدادوا فوق الحد الأدنى لكمية الطعام اللازمة لهم ، فانهم ان لم يتوقفوا عن التزايد ـ سيحل بهم البؤس والفقـر أو الخوف كذلك وسيزداد شعورهم بهذا كلما ازدادوا عددا .

ما هو معدل زيادة السكان اذا لم يضبطها ضابط ؟ وللاجابة على هذا السؤال أحالنا مالتوس ـ في الطبعة الثانية ـ الى سكان أمريكا الشمالية الذين لايضعون أي قيود تحـول دون تكاثرهم وانجابهـم وحيث خيرات الطبيعة موفورة ومجالات العمل متسعة والأرض بكر ، فوجد أن عدد سكان أمريكا الشمالية قد تضاعف في فترة تقع بين ١٥ ـ ٢٠ سنة ، بل لقد استنتج من الاحصاءات الأمريكية أن عدد السكان يمكن أن يتضاعف مرة كل ١٠ ـ ٥ر١٢ سنة « فطبقا لجدول يولد عندما تكون الوفيات ١ من ٣٦ ومعدل المواليد بنسبة ٣ : ١ ، فان معدل التضاعف سيتم مرة كل ١٢٥/٤ سنة وان هذا المعدل ليس ممكنا فحسب ، بل انه حدث خلال فترات قصيرة في أكثر من قطر واحد .. ويفترض سير وليم بت حدوث هذا التضاعف مرة كل عشر سنوات أحيانا » .

ومعنى هذا ـ طبقا لطرق حساب المعدلات الحديثة ـ أن عدد السكان يتضاعف مرة كل ربع قرن اذا كان معدل المواليد ٤٣ في الألف ومعـدل الوفيات ١٥ في الألف والزيادة الطبيعية ٢٥ في الألف .

وما هو معدل زيادة الطعام ؟ وللاجابة على هذا السؤال أشار مالتوس الى الظروف التي تؤثر على انتـاج الطعـام مثل مساحة الأرض المتوفرة للسكان ، كما أشار الى قانون الغلة المتناقصة فاذا افترضنا ان الأرض

خصبة ومن الممكن زراعتها كلها ، فان انتاجها لا يمكن أن يتضاعف كل حقبة من الزمن باضطراد ولو كانت الأرض في مثل خصب أرض انجلترا ، وكان من المستطاع مضاعفة الانتاج الغذائي في ٢٥ عاما ، فانها لن تضاعف انتاجها مرة أخرى بعد ربع قرن آخر حقا سيزداد الطعام بزيادة السكان (وزيادة العمل المبذول فيها) ولكن لن يتضاعف باضطراد أى لن يتضاعف بنفس المعدل الذى يتضاعف به السكان ٠

ووضع مالتوس معادلتين لتزايد كل من السكان والطعام على النحو الآتى :

« السكان يتزايدون بمعادلة هندسية هكذا ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ٠٠ الخ والطعام يتزايد بمعادلة حسابية هكذا ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ٠٠ الخ ٠

وفى خلال قرنين من الزمان ستكون نسبة السكان الى نسبة الطعام كنسبة ٢٥٦ الى ٩ » ٠

فاذا ترك السكان على سجيتهم دون ضابط ، لأصبح الفرق شاسعا بين سرعة تزايدهم وكمية الطعام التى ينتجونها ٠ ومن غير المعقول أن يزداد السكان زيادة تفوق انتاج اللازم لهم بمراحل عديدة ٠ وعدد السكان تحدده بالضرورة كمية الطعام المتوفرة أو التى يمكن أن ينتجها السكان الذين يزدادون بازدياد ما تنتجه الأرض من طعام فاذا وصلوا الى حد معين ــ بحيث تستطيع الأرض ان تطعمهم ــ كان لابد من وضع حد لهذه الزيادة أو بعبارة أخرى لابد ان تتوقف الزيادة الممكانية ولا مناص عندئذ من ضبط السكان ٠

فهناك اذن ضوابط أو معوقات لزيادة السكان تعمل باستمرار فى كل مجتمع ، كى تهبط بالسكان الى مستوى انتاج الطعام أو القوت الضرورى لبقائهم على قيد الحياة ٠ ويمكن أن تقسم هذه الضوابط والمعوقات الى قسمين كبيرين : ضوابط مانعة وضوابط ايجابية ٠

أما الضوابط المانعة فهى الوسائل التى اختص بها الانسان وحده دون سائر المخلوقات ، فهى نتيجة ما يمتاز به من قوى عقلية راقية يستطيع بها أن يدرك الأمور ، وأن يتنبأ بما سيحدث فى المستقبل ٠ أما بالنسبة للنبات أو الحيوان فالطبيعة هى التى تتدخل بضوابطها وقيودها الايجابية للحد من تكاثرها الذى يفوق ما تحتاج اليه من غذاء ٠

والمجتمعات الراقية هى التى تأخذ بزمام أمورها بيدها وتضع الضوابط والقيود المانعة ، التى تقيها شر الانطلاق فى التزايد بحيث تضعها أمام حافة المجاعة ٠ وأهم هذه الضوابط هو ضبط النفس ، والعفة ، وتأخير الزواج ، والعزوف عن المعاشرة الزوجية ، مع مراعاة أساليب الفضيلة

فى فترة العزوبة واذا لم يلجأ المجتمع الى فضائل الأخلاق والعفة وما لم يلجأ الأفراد الى تحكيم العقل وتغليبه على الهوى · فانه سيضطر الى ضروب الرذيلة التى تبيح للرجل ان يعاشر من يشاء من النساء دون ان يتحمل مسئولية الأطفال غير الشرعيين · وهذه الوسيلة ضارة المجتمع بعامة والأفراد بخاصة ·

وماذا يحدث لو لم يحد الناس من تزايدهم ؟ عندئذ لا مفر من تدخل الطبيعة فى تحديد عددهم « مستخدمة كل وسيلة للحد من زيادة السكان سواء أكان ذلك عن طريق تفشى الرذيلة أو البؤس وكل منهما يعمل على تقصير أمد الحياة على الأرض وعندئذ أيضا سيضطر شطر من السكان الى العمل فى الأعمال الشاقة ويقبلون العمل تحت ظروف غير صحية ويتفشى الفقر المدقع ، ويصعب على الأم أن تربى أطالفها وتزدحم المدن بالسكان ، مع كل ما يرافق هذا الازدحام من بؤس وشقاء مثل تفشى الأمراض ونقص الطعام وارتفاع سعره فتنتشر الأوبئة والحروب والمجاعات » ·

وقد شرح مالتوس بوضوح — فى طبعه مقاله الثانية — الوسيلة التى تتدخل بها الطبيعة تدخلا مفروضا ايجابيا ، للحد من تزايد السكان ولخصها فى كلمة واحدة هى البؤس ، مع كل ما تحمله من فاقة وضيق ذات يد واملاق وسوء تغذية · أما الأمراض ، فنتيجة لهذا البؤس تسقم الأبدان لقلة الطعام وتصبح هشة لا تستطيع ان تقاوم المرض فتتعرض له دون أدنى مقاومة · ويتدرج فى وصف البؤس وصفا مقنعا ، اذ يفترض حالة سكان يجدون ما يكفيهم من مواد التموين ويبدأ بهذا الفرض : فاذا زاد السكان زيادة تفوق انتاج الطعام (كما يبين فى نظريته) فمعنى هذا أن مواد التموين تقصر عن حاجة السكان فيضطر هؤلاء — حتى لا يموتوا جوعا — الى مضاعفة الجهد والعمل ، فاذا استمرت زيادة السكان أكثر من هذا ، فستصبح سوق العمل مكتظة بطالبيه فينخفض سعره أى تهبط الأجور ·

أو يظل الأجر — سعر العمل — كما هو ويوزع على عدد أكبر من العمال لكثرة السكان ، بينما كمية الطعام فى الأسواق كما هى أو زادت زادت طفيفة ، فيرتفع سعره لشدة الطلب عليه · والمهم فى الحالتين هو قيمة الأجر وما يستطيع أن يشترى به من طعام وليست قيمة مقومة بالنقود · وقد شهد مالتوس — فى حياته — فترة ارتفعت فيها أسعار الحبوب وكتب بتفصيل عن هذا الموضوع ويقول مالتوس معلقا على هذا ان انخفاض قيمة الأجر هو الذى يؤدى الى البؤس بين الطبقات العاملة · وأشار مالتوس بوضوح الى الفرق بين الأجر الاسمى (مقوما بالنقود) ، والأجر

الفعلى (قوته الشرائية) • والناس فى الأقطار المتمدينة ، كما يقول مالتوس ، لا تموت من الاملاق أو المجاعة الحقيقية (أى عدم وجود طعام فعلا بين أيديهم) ولكنها تموت ببطء نتيجة تفشى الأمراض من سوء التغذية ، أو من قلة ما يتناولون من طعام • ولعل مالتوس كان يرد بذلك على معارضى مقاله الأول الذين أشاروا الى أوروبا وسكانها الذين لا يتساقطون فى الطرقات اعياء وجوعا فهؤلاء — لأنهم لا يجدون الطعام الكافى الذى تتوفر فيه المواد الغذائية الأساسية للجسم ، يتعرضون أسرع من غيرهم للمرض ولأن معظمهم من الطبقات العاملة فهم يتنافسون على أدنى أجر ويضطرون الى التكدس فى مساكن مزدحمة متلاصقة رطبة غير صحية فتزداد صحتهم سوءا ، كما أن هذا التكدس فى المساكن الضيقة يساعد على نشر الأوبئة والأمراض •

وليس من سبب لذلك ســـوى اطلاق العنان للانجاب ولا علاج له الا بتدخل الانسان تدخلا واعيا شعوريا فى ضبط نسله ، أى باتبـاع الضوابط الوقائية اللازمة وتأخير الزواج والعزوف عن المعاشرة الزوجية بعد حد معين من الانجاب • ويشير مالتوس الى أن الضوابط الايجابية التى تفرضها الطبيعة تتناسب تناسبا عكسيا مع الضوابط الشعورية فحيث تقوى الثانية لا محل للأولى ، فاذا استطاع المجتمع أن يمسك بزمام أموره من حيث الانجاب وضبط نسله ، فانه لا يتزايد بما يفوق مقدرته على انتاج الطعام وتجد كل زيادة متأنية حكيمة ما تحتاج اليه من غذاء وبهذه الوسيلة يحمى المجتمع نفسه من تدخل الطبيعة بما تفرضه من بؤس يتحول الى مرض وحرب ومجاعة ، ذلك الثالوث المخيف الذى كان وما يزال يعمل فى ازالة العدد الزائد أو الفائض من الســـكان والذى يعمـــل باســـتمرار على ألا يبقى على سطح الأرض الا العدد الذى تستطيع أن تطعمه •

ويرى مالتوس ان المجتمعات المتمدينة لا تسمح لهذا الثالوث المخيف أن ينشب أظفاره فيها ، فيتذبذب عدد سكانها بين التكاثر السريع والتكاثر البطىء • فالسكان عندما يجدون فرصا أوسع للعمل ويستطيعون الحصول على طعام كاف يطلقون لأنفسهم العنان فى الانجاب ، ثم يجدون أنفسهم وقد تكاثروا بنسبة تفوق تزايد الطعام فلا يجـــدون الغذاء الصـــحى الكافى ويتعرضون للبطالة أو تخفيض الأجور أو هبوط قيمتها الفعلية ، ومن ثم لا يجدون ما ينفقون ويعزفون عن الزواج ويقف تكاثرهم أى يعود المجتمع الى حالة التوازن بين السكان والطعام •

ولكنه أيضا قال ان السكان يتزايدون حيث تتوفر سبل العيش وكان المثل أمامه أمريكا الشمالية ، حيث الأراضى العذراء الجديدة تنادى من يفلحها ، وحيث فرص العمل واسعة ، وحيث يتدفق المهاجرون ليعمروا

الأرض بالزواج والانجاب دون أى قيود أو ضوابط . وقد لخص مالتوس مناقشته لضوابط السكان فى النقاط الثلاث الآتية :

١ ـ يحدد الطعام بالضرورة عدد السكان .

٢ ـ يتزايد السكان عندما يتزايد الطعام الا اذا عاقهم عائق بدهى شديد .

٣ ـ تنتهى جميع الضوابط التى تخفض عدد السكان الى مستوى الطعام المتوفر لديهم الى ضبط النفس (العفة) أو الرذيلة أو البؤس .

أما عن النقطة الأولى فقد وجدها مالتوس بدهية لا تحتاج لدليل ، وأما عن النقطتين الثانية والثالثة فقد أجهد مالتوس نفسه للتدليل عليهما وذلك بجمع طائفة كبيرة من الأدلة والبراهين من جهات مختلفة من العالم فى خلال التاريخ الذى قرأه ، كما جمع أدلة أخرى من أوروبا المعاصرة وكانت رحلاته الذهنية فى تتبع الضوابط السكنية فى مختلف المجتمعات البدائية والمتقدمة والبدوية والمستقرة فى الماضى والحاضر أهم ما قدمه لعلم السكان ، فأكد بذلك علميته ومن ثم احتل مكانه بين العلوم الاجتماعية .

ولاحظ مالتوس ـ وهو يستعرض حركة السكان فى الأقطار المختلفة ـ أنه لولا ميل الانسان للتكاثر السريع فوق طاقة الأرض على انتاج الطعام اللازم له ، لفقد به الكسل الطبيعى عن تعمير الأرض فالهجرات البشرية كلها نشأت من ضغط الحاجة ، ولولا تزايد الناس فى المجتمعات المختلفة وقلة الطعام الذى تستطيع الأرض ان تنتجه لما شعر الناس بالحاجة الى الخروج والنزوح عن أوطانهم والبحث عن أرض جديدة يهاجرون اليها . وضرب مثلا لذلك ضغط القبائل البربرية على الامبراطورية الرومانية اذ لابد أن هذه القبائل تزايدت تزايدا طبيعيا عاديا ، ولم يستطع الطعام أن يلحق بهم فى زيادته ، ومن ثم أوشكت الفائض من سكانها يدقون أبواب الامبراطورية ويندفعون فى أرجائها واذا قفلت أمامهم أبواب الرزق فلا مفر من الخضوع لأحد الأحكام الطبيعية القاسية الأخرى وهى المجاعة والحرب والهجرة ، وهى الوسائل التى كانت تخلف بها الطبيعة من ضغط القبائل السلافية والجرمانية السكانى .

وقد وصف مالتوس بتفصيل حياة القبائل التتارية والمغولية مثل الأزبك والتركمان من وسط آسيا ، معتمدا فى ذلك على تقارير الرحالة وكتب التاريخ وهذه القبائل رعوية وتقوم أيضا ببعض الزراعة وقال انه على الرغم من حب هؤلاء القوم للنسل مثل جميع الشعوب الاسلامية الأخرى ، الا أن البلاد تفيض بهم من حين الى آخر ومن ثم تنشب الحروب بين القبائل أو يضطرون الى الهجوم على المجتمعات المستقرة التى تحيط

بهم ، كما أنه تحل بهم الفاقة والبؤس وتحصدهم الأوبئة والطواعين من حين الى آخر ٠

أما فى أفريقية ، فيهبط عدد السكان ويهبط به الى مستوى الطعام المتوفر لهم عامل آخر الى جانب المرض والمجاعة والحرب هو تجارة الرقيق٠ ولقد أشار مالتوس عند الحديث عن أفريقية (الكتاب الأول ، الفصل الثامن) الى عادة تعدد الزوجات الشائعة فى أفريقية المدارية وقال انه يشك فى أثر ذلك على تزايد السكان ، رغم أن هذه العادة تستوعب عددا كبيرا من النساء فى سن الزواج ٠ ومن الغريب ان الأبحاث الديموغرافية الحديثة قد أكدت شكوكه اذ ثبت أن المجتمعات التى لا تمارس تعدد الزوجات أكثر ايجابية من المجتمعات التى تمارس التعدد ٠ أما عن مصر ، فقد استقصى بعض ما أورده الكلاسيكيون عن تاريخها الغابر ومشروعات ريها وجسورها وقناطرها وقنواتها ، وقارن بين هذا الازدهار الاقتصادى القديم وما ذكره « فولنى » فى رحلته عن تدهور نظام الرى وسوء أحوالها الاقتصادية وتعرض الفلاحين لطغيان عصابات البدو فى العصر المملوكى ، وقال ان عدد السكان فى مصر يرتفع بقدر ما يستطيع أهلها من انتاج ، غير أن الفقر والمرض وسوء الحكم هو الذى يحدد عدد سكانها ٠

وتختلف وسائل الحد من تزايد السكان فى الأقطار المختلفة ٠ ففى فارس وتركيا تقوم الحكومة المستبدة الفاسدة بما تقوم به الحروب فى غيرهما ، اذ أن سوء أساليب الحكم يعنى سوء نظام الرى والزراعة وهذا يؤدى الى المجاعة ٠ وفى سيبيريا تقوم الأمراض المتفشية والمجاعات بدور المنجل الذى يحصد الزائد من السكان ، أما فى الهند فتؤدى بعض العادات الاجتماعية السيئة مثل الزواج المبكر الى الفقر وتفشى المجاعات المهلكة والأوبئة ويعمل نظام الرهبنة المنتشر فى التبت على تخفيض عدد السكان ، غير أن التخفيض لا يتعدى الحد الذى يستطيع أن يستهلك الطعام الذى تنتجه البلاد ٠

ويتحدث مالتوس عن سكان الصين وعددهم الضخم ويعزى هذا الى تربة البلاد الخصبة والى العناية الفائقة التى يبذلها الفلاح الصينى فى زراعة كل شبر من أرضه ، مما جعل الأرض تغل أعظم ما تستطيع من انتاج وتكفى عددا كبيرا من السكان ، ولذلك كان العرف الاجتماعى السائد يشجع الزواج ويقدس الذرية ، الا أن عدد السكان فى الصين لا يصل الى مداه فى الزيادة الطبيعية وذلك لشدة الازدحام فى القرى والمدن الصينية وانتشار الفقر واضطرار الناس الى وأد الأطفال ولاسيما البنات وانتشار الأوبئة من حين الى آخر وتعرض السكان لثورات الطبيعة كالفيضانات العالية التى تغرق الحرث والنسل وانتشار المجاعات ومثل هذا أيضا يحدث فى اليابان٠

وانتقل مالتوس بعد هذا (الكتاب الأول ، الفصلان الثالث عشر والرابع عشر) الى الضوابط التى أوقفت زيادة السكان فى بلاد اليونان وروما القديمة فأشار الى الحروب والأمراض التى كانت تجتاح بلاد اليونان القديمة من حين الى آخر ، كما أشار الى خروج المهاجرين الاغريق وانشائهم المستعمرات خارج أوطانهم وهى وسيلة لتخفيف الضغط السكانى ، كما أنه أشار الى بعض ما كان يمارسه اليونان من وأد الأطفال أو تركهم فى العراء حتى يموتوا . أما ما كان يشير به أفلاطون فى جمهوريته من تحديد الزواج فى الطبقة العليا الحاكمة ، وتأخيره ، واختيار أحسن الزوجات لأفضل الأزواج حتى ينجبوا جيلا قويا جميلا عاقلا يستطيع أن يرث الحكم ، فانه دليل على أن الاغريق القدماء قد عرفوا طرفا من الوسائل الشعورية أو الضوابط المانعة لتزايد السكان ومارسوها .

أما فى روما القديمة ، فقد كانت الحروب العديدة تأتى على زهرة الشباب فى المجتمع وتعمل باستمرار على تخفيف الضغط السكانى ، وكان بعض الرومان يلجئون الى الترهب ، كما أن بعضهم الآخر كان ينغمس فى الرذيلة ويقتنى القيان ويحجم عن تكوين أسرة . وكان الرومان يعتمدون فى جميع أعمالهم على الرقيق الذين كانت تعج بهم روما وحقول ايطاليا وان قوانين روما القديمة التى كانت تشجع على الزواج والانجاب ، لدليل على ان الناس يحجمون عن الزواج عادة واذا يتزوجون لاينجبون .

ويتتبع مالتوس الظاهرات السكانية فى أقطارها المختلفة فيلاحظ أن بعض دول أوروبا مثل النرويج والسويد وأيرلندا كانت تضع قيودا على الزواج ، بل انها كانت تمنع نسبة من الخدم فى المزارع عندما كانت تشجع الهجرة أو تضع من الظروف ما يحتم أمر الهجرة على بعض الأفراد . ففى أيرلندا كانت المزرعة تؤول الى الابن الأكبر ولا يجد بقية الأبناء سبيلا آخر للعيش الا بالهجرة ، ولا شك أن هذه القيود التى يضعها المجتمع ليحد من الزواج أو يؤخر منه أو يدفع بعض أفراده للهجرة ، كلها من قبيل الضوابط المانعة أو الشعورية للحد من زيادة السكان .

وقد استعان مالتوس فى حديثه عن سكان انجلترا بالاحصاءات التى جمعها معاصروه عن المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية ، كما عاصر أحد تعدادات السكان فى بريطانيا وهذا الجزء من كتابه يعتبر فى منهجه نموذجا للدراسة الديموغرافية كله احصاءات وجداول واستنباطات موضوعية ، رغم أن أسلوب المعدلات الذى كان يتبعه يختلف عما نألفه الآن . وقد لاحظ زيادة السكان فى انجلترا وويلز من ٩٫١٦٨٫٠٠٠ نسمة عام ١٨٠٠ الى ١٠٫٤٨٨٫٠٠٠ نسمة عام ١٨١٠ . ويناقش مالتوس باسهاب طرق الاحصاءات المتبعة وتسجيل المواليد بالنسبة لعدد الزيجات فى

بريطانيا فى هذه الفترة انما مرجعه الى ارتفاع الدخل القومى من الزراعة وازدياد وانتاج المصانع ، بمعنى آخر ، أن الازدهار الاقتصادى يؤدى الى ازدياد السكان كما ان ازدياد السكان ــ فى مجتمع ما ــ يؤدى الى الازدهار الاقتصادى ٠

بعد هذه الرحلات السكانيــة الواسعة فى الزمان والمكان ــ يصــل مالتوس الى استنتاجات عامة هى :

١ ــ ان الضوابط السكانيــة التى تفرضها الطبيعة أو المجتمع أدت الى بطء زيادة الســكان عامة أى ان الطبيعة (فى المجتمعات المتخلفــة) والمجتمع (فى المجتمعات المتقدمة) كان يعملان باستمرار على الحد من زيادة السكان ليتناسب ذلك مع القدر الذى تنتجه الأرض من طعام ٠

٢ ــ ان زيادة السكان زيادة كبيرة سريعة (أو ما يعبر عنه الانفجار) قد حدث عندما ازداد انتاج الطعام زيادة كبيرة وعندما كانت الحياة أسهل والعيش أرغد أى فى فترات الازدهار الاقتصادى ٠ فالاغريق فى مستعمراتهم الجديدة والأوربيون فى مهاجــرهم الجديدة فى العــالم الجديد كانــوا يتزايدون بسرعة واضطراد ، كما أن الســكان عامة فى أعقــاب الحروب أو الطواعين أو المجاعات كانوا يقبلون على الحياة والتزاوج والانجــاب ويعيدون بناء مجتمعاتهم بسرعة ٠

واذا لم يركن المجتمع الى فرض قيــود على كثرة النســـل ، فانه سيتعرض الى الأوبئة والمجاعات من حين الى حين ٠

وقد تتعود كثير من المجتمعات على شىء من المسغبة والجوع وعلى تناول كميات ضئيلة من الطعام ، الا أن عدد السكان فى معظم الأقطار يتناسب تناسبا طرديا مع كمية الطعــام الذى يستطيع هؤلاء السكان انتاجه أو شراءه ٠

وقد أفرد مالتوس القسمين الرابع والخامس من كتابه (فى الطبعات التالية) ، ليشرح وجهة نظره الجديدة بعد أن شرح «قانون تزايد السكان» ٠ ورأيه الجديد الذى ظل يردده ويدعو اليه هو ضرورة العمل الشعورى فى جانب الأفراد على الحد من نسلهم والحث على تأخير الزواج وضبط النفس والعفة والاعتدال ، وهو فى سبيل دعوته هذه هاجم قانون الفقراء بقوة ، حتى لقد اتهمه مواطنوه بأنه قاس مناع للخير عدو للبر والاحسان ، ولكن اذا راجعنا هذا القانون الذى وضع لحل مشكلة البطالة فى انجلترا لوجدنا فيه قسوة بالغة دعت الكاتب الاشتراكى الكبير برنارد شو فيما بعد الى مهاجمته اذ هو يتطلب من العاطل الذى لا يجد عملا ان يسلم نفسه وأسرته الى رئيس أبرشيته ، لكى يؤوى وأسرته فى ملجأ ، على أن يقبل أى عمل يكلف به بعد ذلك مهما كان ٠ فهذه الملاجىء فى الحقيقة كانت تهدم الروح

الانسانية وتخضع الفقراء الذين يلجئون اليها الى ضروب من الذلة والخنوع ، لا يقبلها رجل شريف لمواطنيه ٠

ان الفقراء ــ اذا فقــدوا كرامتهــم على هذا النحو ــ يشجعون على الكسل والتوانى ويفقدون سيطرتهم على أنفسهم ويقبلون غير مبالين على الزواج والانجاب ٠ فهناك ملجأ الابرشية فى آخر الأمر سيأويهم أو يأوى من ينجبون من أطفال اذا لم يجدوا ما يسد رمقهم ٠

ولماذا اذن شجع الطبقة الحاكمة الانجاب على هذا النحو ؟ هل لكى يقبل الفقراء على « انتاج » يد عاملة تتنافس على قبول أدنى أجر ممكن ؟ والعمــل فى أســوأ ظــروف ممكنة والتعرض للموت نتيجــة الأمراض أو الموت العاجل نتيجة الحوادث التى كانت تزخر بها المناجم والمصانع ؟ هل لهذا علاقة بالنظام الرأسمالى الجديد ، فى انجلترا فى ذلك الحين الذى كان يستخدم الأيدى العــاملة ويستهلكها كمــا يستهلك الوقود ويرمى بالأشلاء المتبقية من فقــراء المجتمع على قارعة الطريق ، كما يرمى بحثالة المصنع فى القنوات ثم يأتى الدولة ــ التى تمثل المصالح الرأسمالية ــ لكى تفتح ملاجئها لهذه الأشلاء الآدمية بعد ان أفقدتها آخر ما تبقى لها من كرامة انسانيــة وأخضعتها لضروب من الاذلال والمهانة لا قبل لرجل كريم بتحملها ؟ ٠

لم يكن مالتوس ــ الذى هاجــم قانون الفقــراء ــ هو عدو الخير والاحسان ولم يكن عدوا للبشر كمــا قالوا ، كمــا لم يكن ملحدا ومجدفا وناكرا لاحدى آيات الكتاب المقدس ، التى تدعو الناس الى «التزايد والتكاثر وتعمير الأرض » فالخالق الرحيم ــ كما دافع عن نفسه ــ لم يأمر مطلقــا بالتكاثر فوق ما تستطيع الأرض أن تتحمل ، ولم يأمر بأن يعيش الناس فى فقر ومسغبة وهو ــ كما قال أيضا ردا على معارضته عام ١٨٠٧ ــ ليس عدوا للسكان أو التزايد ، ولكنه عدو فقط للرذيلة والبؤس أى عدم التوازن بين كمية الطعام وعدد الأفواه التى تلتهمه وان الأرض يجب ان يعمرها سكان صحيحو الأجسام فاضــلون ســعداء ، وليس سكانا بائسين مرضى تسودهم الرذيلة ٠ وهو لا يدعو الفقراء وحدهم الى عدم الزواج ، بل هو يدعوهم ــ كما يدعو غيرهم ــ الى التعقل والبحث عن عمــل والتمسك به وتهيئة الظروف الاقتصادية المناسبة ، لتكوين أسرة قبل أن يقدموا على الزواج والانجاب ٠ ودعا الناس الى ألا يأتوا بأطفال لا يجدون ما يقتاتون به ٠ فمن الرحمة ألا يؤتى بطفل الى هذا العالم كى يواجه الجوع والمسغبة ، ومن التعقل والحكمة أن يهيأ لكل قادم جديد الى هذه الدنيا ما يجعل منه مواطنا صالحا ٠

ولقد أثارت نظرية مالتوس ـ أثنـاء حياته ـ كثيرا من الجدل حول درجة صحتها وقيمتها وآثارها الاجتماعية والاقتصادية • ولعل من أهم آثارها أنها استرعت انتباه المهتمين بعلوم الأحياء عامة ، ولو كان مالتوس منهم لوجد ان نفس مبدأ التكاثر بالنسبة للطعام ينطبق أيضـا على عالمى النبات والحيوان فكل جيل من أجيال أى نوع أحيائى يستطيع ان يتكاثر بحيث يغطى الأرض بنوعه وحده فحسب، لو وجد الطعام الكافى لذلك الفرد مع أفراد نوعه ويتصارع النوع مع الأنواع الأخرى داخل المملكة النباتية أو الحيوانية ، ومن ثم جاءت لداروين فكرة « الصراع من أجل البقاء » ووصفها وصفا قويا فى كتاب أصـل الأنواع الذى أخرجه بعـد قراءة مالتوس •

وقد كتب داروين فى قصة حياته أنه فى أكتوبر ١٨٣٨ ، أى بعد أن بدأ دراسته للأحياء بخمسة عشر شهرا وقع فى يده كتاب مالتوس عن السكان ، ولما كان مستعدا تماما لقبول فكرة تصارع الأحياء للحصول على الغذاء ذى القدر المحدد فى البيئة ، فقد خطرت له فكرة البقاء للأصلح والانتخاب الطبيعى فلابد وان الاحياء التى تستطيع الفوز فى صراع الحياه هى أصلحها للبيئة ولابد وأنها ـ تنتخب الأحياء التى تمتلك أصلح الصفات ملاءمة لها للبقاء والتى تمكنها من هذا الفوز •

وبعد ، فكتاب مالتوس دراسـة ونظرية ودعـوة ودراسة سكانية ونظرية فى تكاثر السكان وعلاقته بزيادة الطعام والعوامل التى تحد من تزايد السكان ودعوة لضبط النسل •

* * *

التاثير الفكرى والعملى لنظرية مالتوس :

ويقول د • رمزى زكى عن النتائج النظرية والعملية لنظرية مالتوس:

وبالرغـم من أنه قد نشب خلاف عميق بين مالتوس والاقتصاديين الكلاسيك المعاصرين له ، وهو الخلاف الذى دار حول موضوعات القيمة ونظرية التوازن الاقتصادى العام ، الا أن نظريته فى السكان كانت مع ذلك موضع قبول شبه عام بين الاقتصاديين الكلاسيك الذين كانوا يعبرون فى كتاباتهم عن وعى الطبقة البورجوازية الصناعية الوليدة •

والحقيقة أن القبول الذى حظيت به نظرية مالتوس عن السكان لدى الاقتصاديين الكلاسيك ، لم يكن مصادفة عابرة فهناك من داخل صلب هذه النظرية مجموعة معينة من الفروض والأسس الفكرية والأيديولوجية التى كانت تتفق وتنسجم مع البناء الكامل للفـكر الاقتصـادى الكلاسيكى البورجوازى آنذاك •

١ ــ يأتى فى مقدمة ذلك الطابع الأزلى والأبدى الذى أضفاه مالتوس على نظريته ، حيث نادى بأن قانون السكان الذى تحدث عنه انما هو قانون طبيعى ذو صفة مستقلة عن طبيعة النظام الاجتماعى السائد وكان هذا الادعاء يتمشى تماما مع ايمان الكلاسيك بوجود قوانين طبيعية خارقة تعلو فوق ارادة البشر وتسير أمور الكون والطبيعة والمجتمع ٠

٢ ــ ان قانون السكان بالصياغة التى وضعها مالتوس كانت تعطى تبريرا لسوء أوضاع الطبقة العاملة وبؤسها خلال المراحل الأولى من تطور الرأسمالية الصناعية ٠ فمشاكل الفقر والجوع والبطالة وسوء الصحة وانخفاض الأجور انما ترجع ــ فى رأى مالتوس ــ ليس الى طبيعة النظام الرأسمالى وانما الى مفعول قانون السكان ٠ ونظرية مالتوس بهذا الشكل كانت تعطى للبورجوازية الصناعية سلاحا نظريا فى يدها لتبرير سوء أوضاع الطبقة العاملة ٠

٣ ــ وقد انعكست هذه الوظيفة التبريرية لنظرية مالتوس فى النظرية التى وضعها ريكاردو عن الأجور وهى النظرية التى عرفت باسم « نظرية الأجر الحديدى » ، حيث استند ريكاردو فى صياغته لنظرية الأجور على قانون مالتوس فى السكان ، ذلك أنه انطلاقا من هذا القانون رأى ريكاردو أن الأجر الطبيعى للعمل يتحدد فى الأجل الطويل عند مستوى معين لا يتعداه ٠ وهذا المستوى هو الحد الأدنى الضرورى للمحافظة على العمال وتكمينهم من اعادة تحديد « جنسهم » وذلك على حد تعبير ريكاردو نفسه ، ومن ثم فالأجور تتحدد على أساس أجر الكفاف الذى يتحدد بدوره أساسا بمستوى أسعار المواد الغذائية الزراعية فاذا ارتفع أو انخفض الأجر الطبيعى عن هذا المستوى الكفافى ، فان هناك قوى طبيعية موجودة فى النظام ومن شأنها أن تعيد بطريقة تلقائية مستوى الأجر الى مستواه الادنى الضرورى فمثلا ، اذا ارتفعت أجور العمال عن هذا الحد الأدنى الكفافى ، لأدى ذلك حسب رأى ريكاردو الى زيادة عدد السكان ، حيث تكثر زيجات العمال ويترتب على ذلك زيادة النسل وزيادة عرض العمل فى الأجل الطويل بنسبة أكبر من نسبة زيادة الطلب عليهم ومن ثم تحدث فائض عرض فى عنصر العمل ، مما يؤدى الى انخفاض الأجور بشكل متتال ، الى أن تستقر عند مستوى أجر الكفاف واذا حدث على العكس من ذلك أن انخفضت الأجور الحقيقية المدفوعة للعمال الى مستوى أقل من مستوى أجر الكفاف ، فان ذلك يؤدى الى سوء الأحوال الصحية للعمال فتنتشر الأمراض ويرتفع معدل الوفيات بينهم ، كما تقل زيجاتهم وبالتالى ، يقل نسلهم ، الأمر الذى يتسبب فى الأجل الطويل فى حدوث نقص ملموس فى عرض العمل ٠٠ ومن هنا سيوجد فائض طلب (= نقصا فى العرض)

فى سوق العمل فى الأجل الطويل ، مما يؤدى الى ارتفاع الأجور بشكل مستمر الى أن تستقر عند مستوى اجر الكفاف ٠

٤ ـ ولما كان الأجر الطبيعى الكفافى يتحدد على أساس المواد الزراعية الغذائية ، فان ارتفاع أسعار هذه المواد يؤدى بالضرورة الى ارتفاع هذا الأجر الطبيعى معبرا عنه بالنقود ٠ ولما كان ارتفاع أسعار الغلال الزراعية فى المراحل الأولى من تطور الرأسمالية الصناعية يفرض قيدا على امكانات تراكم رأس المال فى الصناعة ـ لأن مستوى الأجر يحدد مستوى الربح وهذا الأخير يحدد مستوى التراكم ـ فان نظرية مالتوس فى السكان أعطيت بطريق غير مباشر لم يكن فى وعى مالتوس حينما صاغ هذه النظرية ، سلاحا نظريا فى يد الطبقة البورجوازية الصناعية للمطالبة بالسماح باستيراد الغلال من العالم الجديد ، مع عدم فرض رسوم جمركية على هذه الغلال وذلك حتى تنخفض نفقات المعيشة وبالتالى الأجور ٠ وقد تمكنت البورجوازية من تحقيق ذلك من خلال اسقاط قوانين الغلال وهو أمر كان يتعارض بالتأكيد مع مصالح طبقة ملاك الأراضى التى كان مالتوس يدافع عنها ٠

الاخوة كرامازوف

دوستويفسكى

١٨٦٠ م

دوستويفسكى أحد أئمة الرواية الروسية الكلاسيكية ، فانتاجه الروائى يشغل مكانة مهمة وخاصة ، لا فى تاريخ الرواية الروسية فقط ، بل وفى الرواية العالمية أيضا ·

تشكل اتجاه دستويفسكى الى الرواية كفن تحت تأثير التجربة الروائية لكل من بوشكين وجوجول ، كما أشار الكثير من الباحثين أيضا الى أهمية رواية كل من بلزاك وجورج صاند وفيكتور هوجو وديكنز بالنسبة لروايات دستويفسكى ·

برز دستويفسكى فى الساحة الأدبية فى أربعينات القرن الماضى ، واتسم انتاجه الروائى منذ أول رواية وهى « المساكين » بالمنهج الفنى الجديد ، فنجده يبتعد عن الخط الهجائى المميز لرواية معلمه جوجول الذى كان يجذب اهتمامه وصف الحياة الموضوعية المعيشية بأنماطها المتعددة ، واتجه دستويفسكى الى البحث العميق فى نفس أبطاله ، حيث يعطى الكاتب من خلاله صورة للواقع والحياة « الجارية » ·

كتب دستويفسكى القصة والرواية ، وكانت أشهر رواياته :

« المساكين » (١٨٤٥) ، « المحقرون والمهانون » (١٨٦١) ، « الجريمة والعقاب » (١٨٦٦) ، « الأبله » (١٨٦٩) ، « الشياطين » (١٨٧٢) ، « المراهق » (١٨٧٥) ، و « الاخوة كارمازوف » (١٨٨٠) ·

ويعتبر وصف حياة فقراء المدينة من أكثر الموضوعات المحببة عند دستويفسكى الروائى وقد اتجه الى هذا الموضوع فى العديد من رواياته ، من ذلك « المساكين » ، « المحقرون والمهانون » و « الجريمة والعقاب » · ودستويفسكى فى تصويره لحياة الفقراء ينحو نحوا جديدا ، فهو لا يهتم بتصوير اللوحات المعيشية التى تعكس الفقر والتناقضات الاجتماعية التى تحكم وجود الفقراء ، قدر اهتمامه بتصوير العالم الروحى والأخلاقى للفقراء ، والذى يبرز فى ارتباط وثيق بوجودهم المادى · فالمشكلة الاجتماعية للفقر تبرز فى روايات دستويفسكى من خلال المشكلة الأخلاقية والنفسية · والعالم الداخلى لفقراء دستويفسكى هو عالم صعب ومعقد ، فرغم ما يظهر عليه من غيظ وحنق وأنانية ، ورغم ما قد يسيطر عليه من أفكار كاذبة أو وهمى مريض ، فهو مع ذلك عالم الخير والمشاعر الطاهرة ومبادىء الانسانية والأخوة والضمير الحى والنفس القادرة على التضحية والمعاناة والتصحيح ·

حملت روايات دستويفسكى بصمة الواقع المعاصر ، فهى تصور الكثير من أحداثه الجارية ومشاكله الملحة كالجريمة ، والركض وراء المال ، ووقوع الانسان ضحية الاغراءات والأفكار الشريرة ، والانفصام بين الشخصية والمجتمع وبين الطبقات الحاكمة والشعب ، وتفكك وسقوط المركائز العائلية التقليدية وأزمة الحياة الاجتماعية المعاصرة ومشكلة وجود الانسان بها وخلافه • كما اهتم دستويفسكى أيضا فى ستينات وسبعينات القرن الماضى برسم نمط البطل المفكر ذى العقل المتأمل والاتجاه التحليلى تجاه الواقع ، وهو الذى برز فى أشهر رواياته (الجريمة والعقاب) و (الاخوة كارمازوف) • لكن بطل دستويفسكى هذا — ورغم ما يملكه من امكانات عقلية وفكرية كبيرة — يظهر فريسة للأفكار الكاذبة المضللة ويبدو بعيدا عن الشعب و لايشارك فى الحركة التحريرية لبلاده ، مع أن فكره يتيه فى البحث عن مخرج من أزمة الحياة • وهذا البطل يسيطر عليه شك عميق تجاه المثل الثورية الاشتراكية والليبرالية ، ويتأرجح بين الاتجاهات الفوضوية وبين الأفكار الدينية •

***

ولد « دستويفسكى » (٥٢) لأب جراح ، وشهد ضوء الحياة أول ما شهده بين جدران المستشفى الذى كان يعمل فيه أبوه ، وكانت طفولته عليلة يتعاودها المرض آنا بعد آن ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يظفر بنجاح متفوق فى مدرسة المهندسين ، لكن المهندس الناشىء غلبه الأدب فانصرف اليه لأن الهندسة جاءته عن طريق الدرس ، أما الأدب فطريقه اليه الطبع الأصيل •

وبدأت حياته الأدبية بداية لا تخلو من فكاهة ومن عبرة فى آن معا ، فقد كتب قصة كانت باكورة انتاجه ، قصة (الفقراء) ، وساقه صديق ناشىء فى الأدب مثله الى أديب من شيوخ الأدب اذ ذاك يقوم على تحرير مجلة أدبية ، هو (نكراسوف) ، وقدم الصديق صديقه (دستويفسكى) الى الأديب الشيخ ، فاستقبله الأديب الشيخ بنظرة باردة ، ولم يدر ناشئنا ماذا يصنع ، فقذف بمخطوط قصته قذفا ، وخرج مسرعا يتلفت يمنة ويسرة خشية أن تراه أعين الرقباء كأنه لص أتى أمرا ادا ، وقصد من فوره الى جماعة من أصدقائه الشبان ، فأخذت جماعتهم تقرأ شيئا من أدب (جوجول) حتى انسلخ الليل كله ، وعاد (دستويفسكى) الى داره مع فلق الفجر ، ولم يحس رغبة النوم ، فجلس الى نافذته يسرح البصر ، وما هو الا طارق يدق جرس الباب ، فيفتح له وهو دهش لهذا الطارق المبكر ، فيجد نفسه محتضنا بين ذراعى صاحب المجلة الأدبية (نكراسوف)، فقد شاءت المصادفة أن يزور الأديب الشيخ صديقا ناقدا ، ويذكر له أن

شابا لم يره من قبل قذف أمامه قصة لتنشر ، وقرأ الصديقان معا قصة (الفقراء) فأخذتهما بسحرهـا ، حتى أنفقا الليـل كله فى قراءتها ، ولما أصبح الصبح لم ، يطق (نكراسوف) صبرا على هذا الكشف الجديد، وذهب الى أصدقائه النقاد ، يطرق عليهم الأبواب قائلا : جئت لأعلن عن (جوجول) جديد ظهر اليوم فى أفق الأدب !

وفعل التشجيع فى أديبنا النـاشىء فعل السـحر ، فأخذ يعمل فى نشاط متصل عنيف لا يعرف الراحة والهدوء فعرض صحته للخطر من جهة ، وتعجل الانتاج من جهة أخرى ، حتى أصبحت سرعة الانتاج علامة تميزه وتنتقص من أدبه ، فاذا عرفت أنه كان يكتب عشر قصص فى آن واحد ، عرفت بأية سرعة كان ينتج ، وبأى مجهود كان يعمل ، لكن هذا التيار الدافق وقف ذات يوم فجأة حين أطبقت عليه مغاليق السجن فى بطرسبرج .

اتهم (دستويفسكى) مع جماعة من زملائـه بالعمل على الثورة ، وزجوا فى السجن ثمانية أشهر ثم جىء بهم الى ميدان فى قلب المدينة ، حيث أقيمت المشنقة انتظارا لرقابهم وخلعت عنهم ملابسهم الا أقلها ، فى جو كانت حـرارته احدى وعشرين درجـة تحت الصفر ، وقرىء عليهـم ما قضى به فى أمرهـم واذا هو الموت ، لم يكد يصدق (دستويفسكى) ما سمعته أذناه ، لابد أن يكون حلما ما سمع ، انه لم تنقض الا أيام قلائل منذ وضع أساسا لأثر أدبى جديد اعتزم انشاءه ، واطلع عليه أحد الزملاء فى السـجن ، وتلفت الى من وقف بجواره وسـأله دهشـا : أصـحيح ما يعلنون ؟ أصحيح أننا قادمون على الموت ؟ لم يجب المسئول بغير اشارة من اصبعه وهو صامت الى عربة قريبة ، طرح عليها غطاء ، وبدا كأنما تحت الغطاء شىء كالتوابيت وهبط من أعلن حكم الموت من منصته ، وصعد القسيس يحمل الصليب ويطلب من (المجرمين) أن يبوحوا له بما يريدون أن يبثوه من اعتراف ، ولم يفعل ذلك سوى واحد منهم ، واكتفى الباقون بتقبيل الصليب (لقد شرعوا السيوف فوق رؤوسنا ، وألبسونا قمصان من يقضى فيهم بالموت، وربطونا ثلاثة ثلاثة ، وكنت ثالث الثلاثة فى الصف الأول ، فعلمت أنه لم يبق من حياتى الا دقائق معدودة ، ذكرتك عندئذ وذكرت أطفـالك (هذا خطاب كتبه دستويفسـكى فيما بعد الى أخيه) وحاولت أن أقبل زميلى فى الصف قبلة الوداع ، ثم ما هى الا أن نفخت ثلة من الجند فى أبواقها نفخة ، واذا بالأغلال فكت عن أجسادنا ، وأعادونا الى منصـة المشـنقة ، حيث أعلن معلن أن جلالة القيصر قد عفـا ـ فقد استبدل القميص بحكم الموت سجنا يكون فيه العمل الشاق . والعربة التى كان يظن أنها تحمل التوابيت لأجسادهم كانت تحتوى على بذلات يلبسها من

يصدر عليه مثل هذا الحكم • وألبسوا هذه البذلات وسيقوا الى السجن، حيث قضوا سنوات أربعا ، أطلق سراحهم بعدها ، وعاد أديبنا الى الحياة من جديد ، ولكن كيف ؟ عاد من سجنه أسلم بدنا وأهدأ عصبا وأكثر فى عقله اتزانـــا !

استأنف (دستويفسكى) حياته الأدبية ، فأخرج قصة (المستذل والجريح) ، وعقب عليها بـ (ذكريات دار الموتى) وهو يعنى بدار الموتى سجنه الذى قضى فيه أربعة أعوام ، تقرأ فيه وصف الحياة فى ذلك المكان كما شهدها الكاتب ، فتنتفض من هولها رعبا ، ومما يستحق الذكر هنا أن (البؤساء) ــ لفكتور هيجو ــ صدر فى نفس الوقت الذى صدر فيه (ذكريات دار الموتى) ، وقد لا نعدو الحق ان قلنا ان (دستويفسكى) قد بلغ فى كتابه ما لم يبلغه (هيجو) من حيث بساطة التعبير وصدق التصوير ، كان (دستويفسكى) سجينا سياسيا ، لكنه لم تكن هنالك تفرقة بين سجين لسبب سياسى وسجين أجرم على نحو آخر ، وقد لا يكون فى ذلك شىء يثير العجب ، لكن العجيب حقا أن (دستويفسكى) وقد رأى نفسه فردا من جماعة مجرمة ، لم يدر فى خلده قط أنه فى وضع خاطىء ، كما أنه لم يدر بخلد أحد من زملائه فى السجن ــ نعنى مجرمى القانون ــ أن هذا السجين السياسى يقع فى منزلة فوق منزلة سائر المجرمين ، فلئن اعتدى المجرم على قانون من قوانين الدولة فقد اعتدى السجين السياسى على قانون آخر ، لهذا لم يحاول (دستويفسكى) فى كتابه هذا أن يخلع على نفسه ثوبا من الشرف ليميز به نفسه عن سواه • انما الذى حاوله ، وحاوله بعنف وقوة ، هو أن ينظر الى المجرم ــ كائنا ما كان اجرامه ــ نظرة غيظ وحنق ، فليست الجريمة خطأ انما هى ضرب من الجد العاثر ، لقد أحس (دستويفسكى) العطف على زملائه فى الاجرام ، وأعجب ببعضهم اعجابا شديدا ، فقد يكونون غلاظ الظاهر ، لكن فى بعضهم صفات طيبة ، ما فى ذلك من شك •

وبعدئذ ، اكتنفت حياة الكاتب صعاب ، من بينها ضيق مالى نتج عن انغماسه فى القمار أوقعه فى دين ، لم ينقذه منه بعض الشىء الا قصة عظيمة صادفت نجاحا عظيما ، هى قصة (الجريمة والعقاب) وطريقته فيها ــ بل طريقته فى قصصه جميعا على وجه الاجمال ــ هى ألا يحدد لك صفات أشخاصه تحديدا مرتبا ، بل هو يسرد لك دقائق حياتهم بالترتيب الذى تقع به فى الحياة ، لا بالترتيب المنطقى الذى يسبغه عليها عقل الكاتب ، ويتركك تستخلص لنفسك هذه الصورة من تلك الدقائق المبعثرة فى أنحاء القصة هنا وهناك ، خذ مثلا لذلك ، ترى المجرم فى القصة يعتزم قتل امرأة عجوز تراه يعتزم ذلك منذ الصفحة الثانية من

القصة ، ثم تتكاثر عليه الحوادث وتتعرج به الدقائق هنا وهناك حتى اذا ما بلغت نهاية القصة ، وجدت هذا المجرم ينشر مقالة في مجلة يحاول فيها أن يشرح نظرية تبرر مثل تلك الجريمة ، لو كان الكاتب يرتب الحوادث ترتيبا منطقيا لذكر لك نبأ هذه المقالة بعد ذكره للجريمة ، لكنه لم يعبأ بتباعد الحوادث بين الحقيقتين في قصته ، ما دامت تباعد بينهما في الحياة ، مثل هذه الطريقة في كتابة القصة من شأنها أن تقتل بعض الشوق في نفس القارىء وأن تشعره بمجهود عقلي ، لأنه يحاول أن يربط الحوادث المتناثرة بعضها ببعض ، وقد يستطيع ذلك وقد لا يستطيع ، كما هي الحال في الحياة الواقعة ، بعضنا قادر على ربط الحوادث بعضها ببعض وان باعدت بينها الأيام ، على حين يعجز بعضنا عن ذلك ، والكاتب هنا لا يعيننا على مثل هذا الربط ٠

والفن القصصي عند (دستويفسكي) له خاصة أخرى ، لعلها تميز القصة الروسية كلها ، بل لعلها تميز الفن الروسي كله بما في ذلك فن العمارة ، وهي أن يتركب الكل من مجموعات تكاد كل مجموعة منها أن تكون كلا مستقلا ، فالكنيسة التي تبنى على الطراز الروسي ــ مثلا ــ تتألف من عدة أجنحة ، يوشك كل جناح منها أن يكون كنيسة قائمة بذاتها ، والقصة الروسية تتألف من مجموعة من القصص ، لا يصلها الا خيط رفيع جدا يمكن قطعه والاكتفاء بأي جزء على حدة كأنه قصة وحده ــ هكذا كان فن (دستويفسكي) في قصة (الجريمة والعقاب) ٠

لكن هذه خصائص عامة الى حد ما في الأدب الروسي كله ، أما ما يميز (دستويفسكي) في انشائه الأدبي ــ من حيث طريقة الأداء ــ فهو السرعة في الانتاج ، وقد كان بين الدوافع اليها ضيقه المالي الذي كاد يلازمه ، على الرغم من كثرة مكسبه ٠ ولما وجد أن سرعته في الكتابة أبطأ مما أراد ، استخدم فتاة تكتب الاختزال ، لينتج في اليوم الواحد أضعاف ما كان ينتجه ــ وقد أصبحت هذه الفتاة زوجة ثانية بعد وفاة زوجته الأولى ــ وهذا الانتاج الغزير المتلاحق هو ما كان يطمح اليه ، ففضلا عن ضرورته المادية ، كان يطمح ألا تنقطع صلته أبدا بجمهور قرائه وأن يظل سلطانه على عقولهم متصلا دائما ، لكن هذه السرعة لابد أن تؤدي الى نتائجها الطبيعية من اهمال في السبق الفني ، حتى لو كان الفنان هو دستويفسكي ٠

ونرى هذا الاهمال واضحا في قصص جاءت بعد (الجريمة والعقاب) لكنها مع ذلك من آيات الأدب العالمي الخالدة ــ هي قصص (الأبله) و (الفكرة المتسلطة) و (الاخوان كارامازوف) ، في قصة (الأبله) يبين أن من يرتكب الشر لعله في تكوينه العصبي قد يكون أعلى فكرا وأسمى خلقا من سواه ممن لا يرتكبون شرا مثل شره ، ثم هو في هذه القصة أيضا

يعالج ظواهر الجنون على أنها ظواهر عادية لا شذوذ فيها ، تراها شائعة بين الناس ، والاختلاف هو فى الدرجة وحدها ، وفى (الفكرة المتسلطة) حـــاول الكاتب أن يتعقب العوامـل التى من شـــأنها أن تقوى حركة (الفوضوية) أو ان شئت فقل الثورة الفكرية التى أدت الى الشيوعية ، هذه العوامل الدافعة يستحيل فى رأيه أن يكون أساسها الآراء المهوشة الغامضة الهزيلة التى تتسلط على من أفقدتهم الحماسة اتزان عقولهم ، كما يستحيل كذلك أن يكون أساسها أحزابا سياسية تهافت بنيانها وشطحت فى خيال وأوهام ، بل لابد للانقـلاب الاجتماعى من جماعة قويت فيهم العزائم وتحددت فى رؤوسهم الأفكار وصلبت عندهم الارادة ، وأما قصته « الاخوان كارامازوف » فهى أشبه بواجهة عظيمة لبناء أعظم ، لكن البناء ليس له وجود ، وذلك أن الأديب أراد بادىء ذى بدء أن يجعل قصته هذه ذات خمسة أجزاء ، ثم قرر أن تكون من جزءين ، ثم لم يكتب من الجزءين الا جزءا واحدا ، هو هذه القصـــة ، لكنه جزء مؤلف من أربعـــة مجلدات ضخام حاول الكاتب فيها أن يصور الحركة الفكرية فى منتصف القرن التاسع عشر ، بما تضمنته من آراء ثورية وانقلاب فى وجهة النظر ، فى الأخوين الكبيرين « ديمترى » و « ايفان » جسد الكاتب جانبين من جوانب عصر الانقلاب الفكرى المشار اليه ، جانبين من جوانب الضعف ، ف «ديمترى» يمثل صاحب الارادة الضعيفة والأخلاق المنحلة ، و « ايفان » يمثل صاحب العقل الضعيف والفكر المتدهور ، وأما ثالث الاخوة « ليوشا » فيمثل الرجل الروسى اتزن فيه العقل والارادة معا ، فهو رجل سليم القوى معا فى الغرائز والميول ، يحب ويؤمن ويرق ويكرم ، ويقال فى التعليق على هذه القصة ان « دستويفسكى » أراد أن يمثل بالأخوين الكبيرين «ديمترى» و « ايفان » لروسيا وقد أخذت عناصر المدنية من الغرب ولم تهضمها بعد فانحلت خلقا ، ثم روسيا وقد اكتنفها الجهل فضعفت فكرا ، ثم أراد أن يمثل بالأخ الثالث « اليوشا » روسيا المستقبل حين تتسق فى حياتها عناصر المدنية الغربية مع مقومات التثقيف والتعليم ، ومهما يكن من أمر هذه القصة العظيمة الخالدة ، فهى ثروة زاخرة بدقة التحليل وصواب الرأى وصدق النظر ، هى قاموس شامل لكل معانى النفس البشرية ، وآلة موسيقية تجمعت فى أوتارها كل نغمة من نغمات القلب الانسانى ، ثم هى وثيقة ناصعة أثبت فيها الكاتب حيـاة الروسيا المعاصرة ، ما خفى منها وما ظهر ، الروسيا فى أخلاقها وتفكيرها وحياتها الاجتماعية على وجـه الاطلاق ، وهى فى بعض مواضعها بلغت فى روعة الأسلوب وبلاغة التعبير ما لم يبـلغه أديب روسى آخر ، فمثلا فى موضـــع منها يصف المناقشات البيزنطية الفارغة التى يحاول فيها المتناقشون أن يشققوا الشعرة كما يقولون ، والتى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، ولا تزال سائدة فى

كل وسط يشبه فى عقليته وتفكيره عقلية تلك العصور وتفكيرها ، فى هذا الموضع يصور الأديب رجلا من رجال « محاكم التفتيش » التى شاع أمرها فى أوروبا منذ قرون ، وخصوصا فى أسبانيا ، والتى كانت تحرق الأبرياء حرقا بحجة الزيغ عن الدين والخروج على العقيدة السليمة والايمان الصحيح : وفى هذا الموضع نرى المسيح قد عاد الى الأرض ، عاد فى مكان من المدينة نصبت فيه محكمة التفتيش أدوات النار التى سيلقى فيها بمن زاغ ــ فى رأيها ــ عن الدين ، وعرف جمهور الناس أنه المسيح فاجتمعوا حوله زرافات زرافات ، لكن رئيس محكمة التفتيش أمر بالقبض عليه وأرسله الى السجن ، ثم ذهب اليه فى سجنه وأخذ يعنفه على أنه وضع لأتباعه مبدأ يستحيل تطبيقه : « لقد عرض عليك الشيطان أن يحول الصخر خبزا فأبيت أن تتقبل منه ما عرض ، ثم زعمت أنك مستطيع أن تحكم قلوب الناس بالحب دون سواه انظر الى أية نهاية أدت هذه المبادىء وبنا معهم ، انهم يعرضون عن الحب ويصيحون فى طلب الخبز !

اننا اذا ما أعطيناهم ما يريدون من خبز ، استطعنا أن نصفدهم بالأغلال بعد ذلك عن رضى منهم ، سآمر غدا برميك فى النار ! » .

يحتل « دستويفسكى » من الأدب الروسى مكانة رفيعة ، فلا يرتفع عليه فى ذلك الأدب الا رجل واحد ، هو « تولستوى » .

***

الروايـــة

المجاهدة من أجل قضية الانسانية !!

بدأ دستويفســكى ينشر هذه الرواية مسلسلة فى صيف ١٨٧٨ وظهرت كاملة فى كتاب سنة ١٨٨٠ ولكن بعض موضوعاتها كانت تشغل بال دستويفسكى منذ سنة ١٨٧٠ ، فقد كتب فى تلك السنة الى صديق له ينوى كتابة رواية عن مرتكب الخطيئة الكبير فى خمسة أجزاء ، وأمكن بعد الاطلاع على مذكرات دستويفســكى الموجــودة فى ادارة المحفوظات الروسية معرفة أن عددا من الشخصيات التى كانت ستظهر فى هذا الكتاب الضخم الذى كان يهدف الى كتابته قد ظهر فى رواية «الممسوس» ورواية «الشاب الخام » ورواية « الاخوة كارامازوف» ، وموضوع رواية «الملحد» وهى احدى الروايات التى لم يكتبها . يبدو كذلك فى تفكير ايفان كارامازوف ــ أحد الشخصيات البارزة فى رواية « الاخوة كارامازوف » ــ عن وجود الله ، وكان دستويفسكى ينوى أن يسترسل فى سرد مغامرات اليوشا ــ أحد الاخوة ــ وما عرض له من صنوف الغواية ولكن موته حال دون ذلك .

وقد رمى دستويفسكى بهذه الرواية الى مقاومة الفلسفية ، وفقدان العقيدة والأفكار الأوربية عن العلم، التى طغت على عقول الشبان الروسيين فى عهده ، كتب الى أحد أصدقائه يقول : « يحاول الناس بكل ما أوتوا من جهد انكار الخلق المقدس وملكوت الله ومعناه » . وفيدور كرامازوف والد الاخوة الذين يحملون هذا الاسم وولدء ايفان وابنه غير الشرعى سمردياكوف يمثلون نزعة انكار وجود الله المادية الغالبة .

وتبدأ الرواية بالصراع بين الأب العجوز وابنه ديمترى على امتلاك جروشنكا والاستئثار بها ، ويسفر هذا الصراع عن قتل الأب الذى قام به أحد أبنائه ، فمن منهم القاتل ؟ وقارىء هذه الرواية ينتقل فى ثلاثة مستويات ، هى مستوى حياة أسرة كارامازوف ، ومستوى لغز حادث قتل الوالد ومستوى التفكير الفلسفى الذى تضمنته الرواية .

والابن الأكبر ديمترى يمثل الاسترسال مع الرغبات الجامحة والشهوات المنطلقة بغير عنان وعدم القدرة على السيطرة على النفس ، واخوه ايفان يمثل كبرياء المعتزين بالعلم والذين فقدوا يقينهم الدينى وعذبت نفوسهم الشكوك ، واليوشا أصغر الاخوة يمثل النزعة الدينية ، ويصل دستويفسكى الى قمة الاجادة الفنية فى تصويره لرأس الأسرة فيدور كارامازوف ، فهو رجل تتمثل فيه القوى الشيطانية ، وهو مريد كثير العورات والخسائس غارق الى أذنيه فى الشهوات الوضيعة والأعمال المستنكرة ولا يحاول اخفاء فجوره ودعارته ، بل يحلو له أن يعلمهما ويفاخر بهما ، ولا يصدء ضمير عن ارتكاب الموبقات والامعان فى ذلك ، وقد وصلت فيه النفس الانسانية الى أعمق منحدرات السقوط والتسفل والتمرغ فى الأقذار والأوحال ، وقد ننتقد أعماله ونستفظع أقواله ، ولكن لا يسعنا مع ذلك كله الا نعجب من فرط قوة حيويته وشدة تغلغل جذوره فى الأرض ، ودستويفسكى يدينه باعتباره مذنبا ولكن فى اكتفاء هذا الرجل العربيد المهرج بنفسه قوة غريبة الشأن .

وقد أجاد كذلك دستويفسكى تصوير شخصية سمردياكوف وهو ابن فيدور غير الشرعى من الخادمة البلهاء الفتاة ليزافينا .

ويحاول الأخ الأكبر ، ديمترى التكفير عن أهوائه الجامحة بمعاناة الشقاء واستهداف الآلام ، وقد كان دستويفسكى شديد التعلق بفكرة أن الشقاء هو خير مطهر للنفس من أدران الآثام والذنوب . ومما يروى عنه أنه فى ذات يوم قدم له أحد أصدقائه شابا تبشر مخايله بأنه سيكون له شأن فى المستقبل ، ودار الحديث عن كتب دستويفسكى وآماله فى مستقبل روسيا والحياة بوجه عام ، وترك هذا الشاب انطباعا حسنا فى

نفس دستويفسكي ، ولما انصرف الشاب سأله صديقه قائلا : « ما رأيك في هذا الشاب » ؟ ·

فركز دستويفسكي عينيه في صديقه وأجابه في هدوء : « أتعرف ما ينقص هذا الشاب ؟ انه في حاجة الى أن يعيش ثلاث عشرة سنة في سيبريا ، وهذا ما يعين على تكوينه » ·

وهذه وجه نظر دستويفسكي ، فالألم عنده هو الذي يجلو جوهر النفس ويبرز حقيقتها ·

وربما أخذ على دستويفسكي بعض قرائه ولوعه بتصوير الشخصيات الشاذة ، والطبائع المنتكسة ، وكثرة المرضى والمجرمين الذين تعج بهم رواياته ، وحتى قصصه القصيرة وأقصوصاته ويرجع جانب من أسباب ذلك الى مخالطته الأشرار والمطبوعين على الاجرام في سجون سيبريا وكان هو نفسه مريضا ، وهو يواجه الشر ولا يغمض دونه الطرف أو يغالط نفسه في حقيقته ، ولكنه من ذلك يتتبع آثار العناية الآلهية ، ويرى بقايا النور خلال الظلام الحالك ، وكيف تفوح رائحة أزاهير الخير بين أشواك الشرور الطاغية الملتفة ، وحقيقة أن كثيرا من الشخصيات التي يعرضها على ابصارنا ويحلل دوافعها من حثالة البشر ، ونفايات الانسانية ، ولكن الكتاب الكبار حينما يتعرضون لكشف مغامرات الانسانية ، ويصفون تجاربها المرة ، لا يختارون شخصيات من الطراز العادي المألوف ، وانما يعرضون علينا شخصيات من طراز هاملت ودون كيشوت والملك لير ، ويحاول دستويفسكي أن يواجه الشر ليستخرج من ثناياه الخير ، فكتبه رغم ما فيها من المآسي الداهية المحزنة تحمل مع ذلك الى الانسانية رسالة الأمل ·

وكان الذي تولى قتل فيدور كارامازوف هو ابنه غير الشرعي المختل الشعور الناقص العقل سمردياكوف ، ولم تخسر الدنيا شيئا بمصرع هذا التعير الحاقد الذي لا خير فيه ولا فائدة للانسانية من وجوده ، ولكن عقل ديمتري الذي كان يبرز الجريمة ، يجد معارضة شديدة من ضميره الذي يعنفه أشد تعنيف ، لأنه أراد أن يقتل أباه ويتخلص منه ، وانتوى ذلك ، ولكنه قصر عنه ، لذلك يحاول أن يوجه الاتهام الى نفسه ، ويلقى تبعة الجريمة على عاتقه ، لأنه أوحى الى سمردياكوف فكرة القتل ، وقد شنق سمردياكوف نفسه قبل كشف الجريمة والانتهاء من التحقيق ·

وأليوشا الابن الأصغر اتجه اتجاها دينيا ، وهو مثل بوذا في الأساطير المعزوة اليه ، يخرج من العزلة ليعيش في الدنيا ويرشد الحائرين في سبيل الحياة ويريهم طريق الخلاص ، وهو بحكم وراثته تجرى في

عروقه دماء أسرة كارامازوف ولكنه تغلب على نوازع الشر الذى فى نفسه وآثر الاتجاه الدينى الانسـانى ، وقد تأثر فى اختياره لهذا السبيل بشخصية بارزة فى الرواية وهى شخصية زوسيما الراهب الذى كان يعيش فى الصومعة ومن النصائح التى وجهها الأب زوسيما الى تلميذه أليوشا قوله : « لا تقم من نفسك قاضيا لاصدار الأحكام على الناس ، والحب الخاشع المتواضـع قوة رهيبة أقوى تـأثيرا من العنف ، والحب الناشط الفعال هو الذى يجلب الايمان ، فأحب الناس ولا تخش ما يقترفون من الآثام ، وأحب كل مخلوقات الله وارج الله أن يجعلك باشا مستبشرا وكن مرحا كالأطفال والطيور » .

ومن أقواله لأليوشا التى تكشف لنا عن بعض اتجاهات دستويفسكى نفسه قوله : « سيحل بك الكثير من نوائب الدهر ، ولكن هذه النكبات ستكون السبيك لاسعادك واشعار قلبك السرور وستبارك من أجلهـا الحياة ، وتجعل غيرك من الناس يباركونها » .

وقد صاغ دستويفسـكى شخصية الأب زوسيما على مثال راهب لقبه فى دير أوتين ، حينما زار هذا الدير فى صحبة الفيلسوف الروسى الشاب فلاديمير سولوفيف ، ودارت بينهما أحاديث دينية خلال الزيارة تركت أثرها فى نفسه .

وتتناول الرواية مشكلة العلاقة بين الضرورة والحرية . وفى أحد فصول الرواية وعنوانه « الغارق فى الشهوات » يصف لنا دستويفسكى جانبا من الصراع بين فيدور كارامازوف وابنه ديمترى المفتون بجروشنكا ، والتى ينازعه فيهـا أبوه ، ويقول دستويفسـكى : « جرى جريجورى وسمردياكوف الى الحجرة خلف ديمترى ، وكانا يتشاجران معه فى الممر رافضين أن يسمحا له بالدخول وذلك عملا بالأوامر التى تلقياها من فيدور كارامازوف قبل بأيام ، واغتنم جريجورى فرصة وقوف ديمترى لحظة عند دخوله الى الحجرة ليبحث عنه ، وجرى حول المائدة وقفل البابين المزدوجين على جانبى الحجرة اللذين يؤديان الى الحجرات الداخلية ، ووقف حيال البابين المغلقين مادا ذراعيه متأهبا للدفاع عن المدخل الى آخر قطرة من دمه ، ولما رأى ديمترى ذلك أطلق صرخة وهجم على جريجورى :

« اذن هى هنا ! انها مخبأة ! أفسح لى الطريق أيها الوغد » !

وحاول أن يجتذب جريجورى بعيدا ، ولكن الخادم المسن دفعه الى الوراء ، فاستشاط ديمترى غضبا وهجم على جريجورى وضربه بكل قوته ، فسقط الرجل المسن كما تسقط كتلة من الخشب ، ووثب ديمترى فوقه واقتحم الباب ، شحب وجه سمردياكوف وأخذ يرتعش ، وهو واقف فى

طرف الحجرة الأخرى على مقربة من فيدور كارامازوف وقد ارتبك واختلط عليه أمره ٠

وصاح ديمترى قائلا : « انها هنا ! لقد رأيتها فى التو واللحظة متجهة الى المنزل ، ولكنى لم أستطع القبض عليها ، فأين ؟ أين هى ؟ » ٠

وصيحته « انها هنـــا » كان لها تـأثير فى نفس فيدور بافلوفتش كارامازوف لا يمكن وصفه ، فقد ذهب عنه كل ما تولاه من الخوف ٠

وصاح مندفعا خلف ديمترى : « أمسكوا به ! اقبضوا عليه ! » ٠

وفى أثناء ذلك قام جريجورى من أرضية الحجرة ، ولكنه كان لا يزال يبدو مذهولا ، وجرى ايفان وأليوشا خلف والدهما ، وسمع فى الحجرة الثالثة صوت سقوط شىء أحدث رنينا ، وكان ذلك زهرية كبيرة ولكنها ليست غالية الثمن على ركيزة من المرمر ، وقد قلبها ديمترى وهو يجرى الى جانبها ٠

وصاح الرجل العجوز : « وراءه ! النجدة ! » ٠

فأمسك ايفان وأليوشا بالرجل العجوز ، وكانا يحاولان ارغامه على العودة الى مكانه ٠

وصاح ايفان فى وجه أبيه غاضبا : « لماذا تجرى وراءه ؟ انه سيقتلك فى الحال » ٠

« ايفان ! أليوشا ! لابد أنها هنا ، جروشنكا هنا ، لقد قال انه رآها بنفسه وهى تجرى » ٠

كان يكاد يغص بريقه ، ولم يكن ينتظر جروشنكا فى ذلك الوقت ، والأخبار المفاجئة بأنها فى المنزل أخرجته عن طوره ، فكان يرتعش غضبا ويبدو فاقد الصواب ٠

فصاح ايفان قائلا : « ولكنك رأيت بنفسك أنها لم تأت الى هنا » ٠

«ولكن يمكن أن تكون قد جاءت من المدخل الآخر » ٠

« ولكنك تعرف أن ذلك المدخل الآخر مقفل ومفتاحه معك » ٠

وظهر ديمترى فجأة فى قاعة الاستقبال ، وبطبيعة الحال وجد الباب الآخر مقفلا ، والواقع أن مفتاحه كان فى جيب فيدور بافلوفتش ، وكانت نوافذ الحجرات جميعها مقفلة ، ولذلك لم يكن هناك سبيل لمجىء جروشنكا الى أى مكان فى المنزل ولا لخروجها الى أى مكان منه ٠

وحينما رآه فيدور بافلوفتش ثانية صاح قائلا : (أمسكوا به ! انه كان يسرق النقود فى مخدعى) وانتزع نفسه من ايفان معاودا الهجوم على ديمترى ، ولكن ديمترى لوح بيديه ، وفجأة أمسك بالرجل العجوز من خصلتى الشعر الباقيتين فى صدغيه وشدهما بعنف ، وطرحه على الأرض ، وأحدث صوت وقوعه ضجة ، وركله مرتين أو ثلاث مرات بكعبه فى وجهه ، فتأوه العجوز بصوت حاد ، وبالرغم من أن ايفان لم تكن له قوة ديمترى الجسدية فقد ألقى ذراعيه حوله ، وجذبه بكل قوته ، وساعدهم أليوشا بقوته الواهنة بأن أمسك بديمترى من الأمام :

وصاح به ايفان قائلا : (أيها المجنون ! لقد قتلته) ٠

فصاح ديمترى لاهث الأنفاس : (هذا ما يستحقه ! واذا لم أكن قد قتلته فانى سأعود ثانية لأقتله ، ولن تستطيع حمايته !) ٠

فصاح به أليوشا بلهجة الآمر : (ديمترى ! انصرف من هنا فورا) ٠

(اليكسى ! خبرنى ، انى لا أصدق غيرك ، هل كانت هنا فى هذه اللحظات أو لا لقد رأيتها بعينى وهى تزحف من هذا الطريق ، بجانب الحاجز من الحارة ، ولما صحت بها ولت هاربة) ٠

(أقسم أنها لم تكن هنا ، ولم يكن أحد ينتظر قدومها) ٠

(ولكنى رأيتها ٠٠٠ فلا بد أنها كانت هنا ٠٠٠ سأعرف فورا أين هى ٠٠٠ أستودعك الله يا اليكسى ! لا تقل كلمة واحدة لأيسوب عن النقود الآن ، ولكن اذهب الى كاترينا ايفانوفنا من فورك ولا تتردد فى أن تقول لها : (انه يرسل اليك تحياته !) ، تحيات ، تحياته ولا شىء غير التحيات والوداع ، وصف لها ما شاهدته » ٠

وفى أثناء ذلك رفع ايفان وجريجورى الرجل العجوز وأجلساه على كرسى له تكأة ، وكان وجهه ملطخا بالدماء ، ولكن لم يكن فاقد الوعى ، وكان يستمع فى فرط اهتمام الى صيحات ديمترى ، ولا يزال يتوهم أن جروشينكا موجودة فى مكان ما بالمنزل ، ونظر اليه ديمترى نظرة تنطوى على الكراهية الشديدة وهو خارج ٠

وصاح قائلا : (لا أندم على اراقة دمك ! فاحذر أيها العجوز ، وحذار من أحلامك فان عندى كذلك أحلاما ، وانى ألعنك وأتبرأ منك كل التبرؤ) ٠

وانطلق يجرى من الحجرة :

فنشج العجوز قائلا وهو لا يكاد يبين : (انها هنا ، لابد أنها هنا يا سمردياكوف !) وكان يشير باصبعه ٠

فصاح به ايفان غاضبا : (كلا ، انها ليست هنا أيها العجوز المجنون ! ها هو يغمى عليه ! أسرع يا سمرديا كوف باحضار الماء ومنشفة !) .

وأسرع سمرديا كوف ليحضر الماء ، وخلعا ملابس الرجل العجوز ووضعاه فى الفراش ، وبللا المنشفة حول رأسه ، وكان قد أنهكه ما احتساه من الشراب وما تلقاه من الضربات فأغمض عينيه واستغرق فى النوم حالما وضع رأسه على الوسادة ، وعاد ايفان وأليوشا الى غرفة الاستقبال وأزال سمرديا كوف بقايا الزهرية المكسورة ، ووقف جريجورى الى جانب المائدة ينظر الى أرضية الغرفة فى أسى واكتئاب .

وخاطبه أليوشا قائلا : « ألا تضع ضمادة مبتلة حول رأسك وتأوى الى الفراش كذلك ؟ اننا سنعتنى به ، لقد لطمك أخى لطمة شديدة على رأسك » .

فقال جريجورى فى وضوح وهو حزين : « لقد أهاننى ! » .

فعلق ايفان على ذلك بابتسامة مغتصبة قائلا : « لقد أهان أباه » .

فعاد جريجورى يقول : « لقد كنت أغسل له جسده فى الدن وقد أهاننى » .

فهمس ايفان لأليوشا قائلا : « لعنة الله على كل ما حدث ، لو لم أجذبه بعيدا لكان قد قضى عليه ، وانه ليهون عليه القيام بذلك من أجل أيسوب أليس كذلك ؟ » .

فأجابه أليوشا صائحا : « لا سمح الله » .

فاسترسل ايفان فى همسه قائلا : « ولماذا لا يسمح » وقطب وجهه فى خبث وأتم حديثه قائلا :

« أفعى تبتلع أفعى ، وكلاهما يستحق ما ينزل به » فأبدى أليوشا اشمئزازه .

« بطبيعة الحال انى لا أتركه يقتل كما فعلت توا ، فانتظر هنا يا أليوشا ، انى سأذهب لأقوم بجولة فى الساحة فقد بدأت أشعر بصداع فى رأسى » .

فذهب أليوشا الى مخدع والده ، وجلس الى جانب فراشه خلف الستار قرابة ساعة ، وفتح الرجل العجوز عينيه فجأة ، ونظر طويلا الى أليوشا ، وكان واضحا أنه يتذكر ويتأمل ، وسرعان ما نم وجهه على الانفعال الشديد .

وهمس فى خوف : « أين ايفان ؟ » .

« انه فى الساحة ، لقد أصابه صداع ، وهو قائم بالمراقبة » .

« أعطنى المرآة ، انها موضوعة هناك ، أعطنى اياها » .

فأعطاه أليوشا مرآة صغيرة مستديرة كانت موضوعة على صوان الثياب ، فنظر الى وجهه فيها ، وكان أنفه متورما ورما شديدا وعلى الجانب الأيسر من جهته كدم كبير قرمزى .

« ماذا يقول ايفان يا عزيزى أليوشـا ويا ابنى الوحيد ، انى خائف من ايفان ، ان خوفى من ايفان أكثر من خوفى من الآخر ، أنت الوحيد الذى لا أخشى منه شرا ... » .

« لا تخف من ايفان كذلك ، انه غاضب ولكنه سيدافع عنك » .

« وماذا فعل الآخر يا أليوشا ؟ وهل جرى وراء جروشنكا ؟ قل لى الحقيقة يا ملاكى وهل كانت هنا توا أو لا ؟ » .

« لم يرها أحد ، لقد كان ذلك من قبيل الخطأ ، انها لم تحضر الى هنـــا » .

« أنت تعرف أن متيا يريد أن يتزوجها ، أن يتزوجها » .

« انها لن تتزوجه » .

« انها لن تتزوجـــه ، لن تتزوجه ، لن تتزوجه بأية حـــال من الأحوال ! » .

واهتز الرجل العجوز سرورا وارتياحا كأنما كان لاشىء يبعث على ادخال الفرح على نفسه واشعاره بالارتياح أكثر من هذا القول ، وفى غمرة السرور ونشوته أمسك بيد أليوشا وضغط عليها بحرارة واضعا اياها على قلبه ، والتمعت الدموع فى عينيه :

« خذ تمثال العذراء الذى كنت أحدثك عنه منذ لحظات واحمله الى منزلك واحتفظ به لنفسك ، وسأدعك تعود الى الدير ، ولقد كنت أهزل فى هذا الصباح فلا تغضب منى يا أليوشا ، انى أشعر بصداع فى رأسى ، وأرح قلبى يا أليوشا وكن ملاكا وقل لى الحق ! » .

فقال أليوشا فى حزن « لا تزال تسأل هل كانت هنا أو لا ؟ » .

« لا ، لا انى مصدقك ، سأخبرك بما فى الأمر ، اذهب الى جروشنكا بنفسك أو ابحث عنها فى مكان ما ، وأسرع واسألها ، وانظر بنفسك من تختاره ، هو أو أنا ؟ ماذا ؟ أتستطيع ذلك ؟ » .

فتمتم اليوشا قائلا وقد ارتبك : « لو رأيتها لسألتها » ٠

فقاطعه الرجل العجوز قائلا : « انها لن تخبرك ، فهى خبيثة ماكرة ، وستبدأ بتقبيلك وتقول لك انك أنت بغيتها ، وهى مخادعة شيمتها الغدر وفاجرة ، فلا تذهبن اليها ، لا تذهبن » ٠

« لا يا أبى ، انه غير لائق ، وليس من الصواب فى شىء » ٠

« والى أين كان يريد أن يرسلك توا ؟ فقد كان يصيح قائلا وهو منطلق « اذهب » ٠

« الى كاترينا ايفانوفا » ٠

« من أجل النقود ؟ لتطلب منها نقودا ؟ » ٠

« لا ، لم يكن ذلك من أجل طلب النقود » ٠

« ليست عنده نقود ، ولا أقل من القليل ، وسأستقر طوال الليل وأروى فى الأمر ، ويسعك أن تذهب ، وربما تلقاها ٠٠٠ وأكد لى مجيئك الى فى صباح الغد أكد ذلك ، فعندى ما أقوله لك غدا ، هل تجىء » ٠

« نعـــم » ٠

« حينما تحضر ادع أنك جئت بدافع رغبتـك فى السؤال عنى ، ولا تذكر لأى انسان ما قلته لك لا تقل عنه كلمة واحدة لايفان » ٠

« حسن جـــدا » ٠

« صحبتك السـلامة يا ملاكى ، لقد وقفت الى جانبى اليوم ، ولن أنسى لك هذا ، وعندى ما سأقوله غدا ، ولكن لابد لى من التفكير فيه » ٠

« وكيف حالك الآن » ٠

« سأنهض غدا من الفراش ، وأخرج سليما معافى » ٠

وبينما كان اليوشا يعبر الساحة وجد ايفان جالسا على مقعد عند المدخل ، وكان مشغولا بكتابة شىء فى مذكرته بالقلم الرصاص ، وأخبر اليوشا أن أباه قد استيقظ ، وسمح له بالعودة الى الدير لينام به ٠

فوقف ايفان وقال بلهجة ودية : « يسرنى أن ألقاك غدا » ٠

فقال اليوشا : « سأكون عند أسرة هوهلاكوف غدا وقد أكون عند كاترينا ايفانوفنا كذلك اذا لم أجدها الآن » ٠

فقال ايفان وقد علت وجهه بسمة : « ولكنك ذاهب اليها الآن مهما يكن من الأمر ، فشكرا لك ووداعا » فارتبك اليوشا :

« أحسبنى أفهم الآن سبب صيحاته وجانبا مما حدث قبل ذلك وقد سألك ديمترى الذهاب اليها وأن تقول لها ـ وهذا هو الواقع ـ انه يودعها ؟ » .

فأجابه أليوشا قائلا : « كيف ينتهى يا أخى هذا الخلاف الفظيع بين الوالد وديمترى ؟ » .

« لا يستطيع أحد أن يعرف على وجه التأكيد ، فقد ينتهى الى لا شىء وقد يسفر عن نتيجة سخيفة ، وهذه المرأة كالوحش ، ومهما يكن من الأمر فان علينا أن نستبقى الرجل العجوز فى داخل المنزل ، ولا ندع ديمترى يدخل اليه » .

« اسمح لى يا أخى أن أسألك شيئا أكثر من ذلك ، فهل من حق أى انسان أن ينظر الى الناس ويحكم أيهم جدير بأن يعيش ؟ » .

« ولماذا تدخل مسألة الجدارة ؟ ان المسألة يبت فيها بقلوب الناس على أسس أخرى أقرب الى الطبيعة ، أما ناحية الحقوق فمن له الحق فى أن يريد ؟ » .

« لا من أجل موت انسان آخر ؟ » .

« وماذا لو كان من أجل موت انسان آخر ؟ ولماذا يكذب الانسان على نفسه ما دامت الناس جميعا تعيش هكذا ، وربما ليس فى استطاعتهم أن يكونوا غير ذلك ، أتراك تشير الى ما قلته توا ـ وهو أن أفعى تبتلع أفعى ؟ وفى هذه الحالة دعنى أسألك أتظننى مثل ديمترى قادرا على اراقة دم ايسوب وقتله ؟ » .

« ماذا تقول يا ايفان ؟ ان مثل هذه الفكرة لم تخطر لى قط ببال ، ولا أظن ديمترى أهلا لذلك كذلك » .

فابتسم ايفان وقال : « شكرا لك ولو على ذلك وحده ، وكن واثقا من أنى سأدافع عنه دائما ، ولكن فى صميم رغباتى سأحتفظ لنفسى بحرية التفكير كاملة فى هذه الحالة ، فصحبتك السلامة الى الغد ، فلا تدنى ولا تلحقنى بالأوغاد » .

وتصافحا بحرارة لم يكن لهما بها سابق عهد ، وشعر أليوشا بأن أخاه قد خطا الخطوة الأولى للاقتراب منه ، وأنه من المؤكد لم يفعل ذلك الا مدفوعا بباعث محدد » .

وقد فصل لنا دستويفسكى فى هذا الفصل جانبا من الخلاف الذى وقع بين الأب العجوز والابن الشباب ، كما كشف لنا بعض نواحى نفسية

الابن الثاني ايفان وموقف الابن الأصغر أليوشا ونزعته الدينية ، وفي الفصل الثاني من الجزء الثاني من الرواية يدع دستويفسكي فيدور كارامازوف يكشف لنا نفسه في حديثه مع ابنه الآخر ، فهو يقول لأليوشا : « انه لم يسألني نقودا ، وهذا حق ، ولكنه لم يحصل مني على شيء ، فقد اعتزمت أن أعيش أطول زمن ممكن ، ومن ثم ترانى يا أليوشا في حاجة الى كل مليم ، وكلما عشت زمنا أطول كانت حاجتي الى المال أكثر » وظل يذرع أرض الحجرة من ركن الى آخر ويداه في جيبه « ما أزال أعد في الخامسة بعد الخمسين ، ولكني أريد أن أعد كذلك مدة عشرين سنة أخرى ، وكلما أمعنت في الشيخوخة صرت كما تعلم شيئا مقبولا ، فلن تقبل على المومسات من تلقاء أنفسهن ، ولذلك سأكون في حاجة الى مالي ، ولذلك ترانى أكثر من ادخار المال لأحتفظ به لنفسي يا عزيزي أليوشا ويمكن أن تعرف ذلك ، لأني أريد أن أنطلق في طريق الآثام الى نهاية الشوط ، وذلك لأني أستعذب الاثم ، والناس جميعهم يذمونه ، ولكنهم جميعهم يعيشون في الاثم ، وغاية ما في الأمر أن الآخرين يقترفون الاثم خفية وأنا أقترفه جهارا ينقض على جميع الآثمين الآخرين لكوني بمثل هذه البساطة وجنتك يا أليوشا لا تلائم ذوقي ، وأنا أصارحك بذلك ، وليست هي بالمكان المناسب للسيد الغطريف هذه الجنة حتى لو كانت موجودة ، واعتقادي أنني أنام ولن أستيقظ من نومي ثانية ، ويمكنك أن تصلي من أجل روحي اذا أردت ، واذا لم ترد ذلك فلا تلعنها ! هذه هي فلسفتي ، ولقد أحسن الحديث ايفان هنا أمس ولو أننا كنا جميعا سكارى ، وايفان مغرور معجب بنفسه ، ولكن ليس له حظ من المعرفة ولا من التعليم ، وهو يجلس صامتا ويبتسم للانسان دون أن يتحدث — وهذا هو ما يخصه .

وفي احدى المناقشات التي دارت بين أليوشا وأخيه يقول ايفان لأخيه : « عندي أن الحب الذي يشبه حب المسيح للناس معجزة مستحيلة الحصول في الأرض ، لقد كان الها ، ولكننا لسنا آلهة ، وافرض مثلا انني أعاني الشقاء وأكابد الألم ، فالغير لا يستطيع أن يعرف أبدا مدى ما أقاسيه لأنه انسان آخر وليس اياي ، وأكثر من ذلك أنه يندر أن يكون الانسان مستعدا للتسليم بشقاء الغير (كأن هذا الشقاء نوع من الامتياز) أتعرف لماذا لا يريد أن يسلم بذلك ؟ لأني لست طيب الرائحة أو لان لي وجها يبدو فيه الغباء أو لأني قد دست على قدمه ، وعلاوة على ذلك فان هناك ألوانا مختلفة من الشقاء ، هناك الشقاء المذل مثل الجوع ، ولكن حينما نصل الى الشقاء الأسمى — مثل الشقاء من أجل فكرة — فان الغير يندر أن يسلم به وربما لان يتوهم أن وجهي في رأيه لا يشبه وجه الرجل

الذى يشقى من أجل فكرة ، ولذلك يحرمنى فى الحال من عطفه وليس ذلك من فساد قلبه ورداءة نفسه ، وعلى المتسولين أن لا يظهروا أنفسهم ويكتفوا بطلب الاحسان عن طريق الجرائد ، والانسان يستطيع أن يحب جاره حبا معنويا مجردا أو حتى من بعيد ولكن هذا الحب مستحيل مع الاقتراب • ويكفى هذا فقد أردت أن أطلعك على وجهة نظرى » •

وهو فى هذا الحديث يرينا وجهة نظر ايفان المناقضة لوجهة نظر أليوشا المستمسك بالآداب المسيحية والمتأثر بآراء الأب زوسيما •

وفى مناقشة أخرى يقول ايفان لأخيه أليوشا : « تخيل نفسك قائما بخلق مصير الانسان ، وان هدفك أن تجعل الانسان سعيدا ، وأن تمنحه فى النهاية الطمأنينة والراحة ، ولكن كان الأمر يستلزم أن تعذب حتى الموت مخلوقا ضئيلا ، ولم يكن هناك معدى عن ذلك ، فهل توافق أن تكون منشىء الوجود الانسانى على هذا الشرط ؟ » •

ويجيبه أخوه اليوشا : « كلا انى لن أقبل ذلك » •

فيرد ايفان قائلا : « وهل تستطيع أن تسلم بفكرة أن الناس الذين تخلق من أجلهم الكون يوافقون على أن تكون سعادتهم قائمة على أساس دماء الضحية الصغيرة ؟ وأنهم يظلون سعداء الى الأبد بعد قبول ذلك ؟ » •

وفى الفصل الخاص بكبير قضاة محكمة التفتيش يجعل دستويفسكى هذا القاضى الكبير يخاطب السيد المسيح قائلا : (ان الانسان بطبيعته أضعف وأحط مما اعتقدت ! فهل فى استطاعته أن يصنع ما صنعت انك باحترامك الكبير للانسان طلبت منه الكثير ، ولقد أحببته أكثر مما أحببت نفسك ، ولو أنك قللت احترامك له لسألته أقل مما سألت ، ولكان هذا أقرب الى الحب لأن العبء فى هذه الحالة سيكون أخف حملا) •

وفى فصل عنوانه (سيدة ضعيفة الاعتماد) يذكر لنا دستويفسكى محادثة بين الأب زوسيما والسيدة المشار اليها ، وكان أليوشا حاضرا تلك المحادثة •

يقول الأب زوسيما مخاطبا السيدة التى تقدمت ابنتها فى سبيل الشفاء بتأثيره الروحى : (الشعور بالراحة ليس الشفاء الكامل ، وقد يجىء من أسباب مختلفة ولكن اذا كان هناك أى برء فهو من ارادة الله ، وكله من الله) والتفت الى أحد الرهبان الذين جاءوا لزيارته والتزود من نفحاته الروحية وقال له : (انى لا أرى الزائرين الا فى الفينة بعد الفينة ، وانى أعانى المرض وأعرف أن أيامى معدودة) •

فصاحت السيدة قائلة : (لا . لا . لن يأخذك الله منا ، ستعيش طويلا ، أمامك زمن طويل ، ومم تشكو يبدو لى أن صحتك جيدة وأنك مستبشر سعيد) .

(ان حالتى اليوم حسنة بصورة تفوق المألوف ، ولكننى أعلم أن هذا التحسن لن يظل طويلا وأنا خبير بالمرض الذى أعانيه ، فاذا كنت أبدو لك سعيدا فلن يكون فى وسعك أن تحدثنى بشىء أبعث على ارتياحى من ذلك القول ، لان الانسان قد خلق للسعادة ، وأى انسان سعيد سعادة تامة من حقه أن يقول لنفسه (انى أنفذ ارادة الله على الأرض) وجميع الصالحين الأبرار والقديسين والشهداء الأطهار كانوا سعداء) .

فصاحت السيدة قائلة : (كيف تقول ذلك ! انها كلمات جريئة وسامية ! ، ويبدو أنك تنفذ الى أعماق القلوب بكلماتك ، ومع ذلك فأين السعادة ؟ أين هى ؟ ومنذا الذى يستطيع أن يقول عن نفسه انه سعيد ؟ وما دمت قد سمحت لنا بأن نراك مرة أخرى اليوم فدعنى أفضى اليك بما لم أستطع أن أنطق به فى المرة الأخيرة ، ما لم أجترىء على قوله ، ولقد شقيت به طويلا ، انى أعانى الشقاء فاغفر لى ، انى أعانى الشقاء ! » .

وفى غمرة من حماسة الشعور ضمت يديها بعضها الى بعض أمامه .

« مم تشقين بوجه خاص ؟ » .

« أشقى ... من ضعف اليقين » .

« ضعف اليقين بالله ؟ » .

« كلا ، كلا ، انى لا أجترىء حتى على التفكير فى ذلك ، ولكن الحياة الأخرى ـ انها لغز محير ! ولا أحد يستطيع أن يحل هذا اللغز ، فاستمع لى ! انك تشفى النفوس ، ولك خبرة واسعة بالروح الانسانية ، وبطبيعة الحال لا أجسر على أن أنتظر منك أن تصدق حديثى بحذافيره ولكننى أؤكد لك بشرفى انى جادة فيما أقول ، ان فكرة الحياة وراء القبر تحيرنى وتذهلنى الى حد الألم واثارة الرعب ، ولست أدرى لمن ألجأ ، ولم أقدم على ذلك طوال حياتى ، ولكننى الآن أجسر على سؤالك فبالله ! ماذا تظن بى الآن ؟ » .

وضمت يديها بعضها الى بعض .

فقال لها زوسيما : « لا تكربك معرفة رأيى عنك ، انى أعتقد أنك مخلصة فيما تعانين من شقاء » .

« انى أشكرك شكرا جزيلا ! وأنت ترى أننى أغمض عينى وأسأل اذا كان أى انسان عنده يقين فمن أين أتاه هذا اليقين ؟ وحينئذ يقولون انه جميعه يأتى من الخوف تلقاء مظهر الطبيعة الذى يتهددنا وانه لا نصيب له من الحقيقة ، وأقول لنفسى « ماذا لو كنت مؤمنة طوال حياتى وحينما يمضى بى الموت لا يكون هناك سوى الأشواك النامية فوق قبرى » كلما قرأت لأحد المؤلفين ، انه شىء فظيع ، فكيف أستطيع استرداد يقينى ؟ لقد اعتقدت حينما كنت طفلة صغيرة اعتقادا آليا بدون تفكير فى أى شىء ، فكيف ، كيف يثبت الانسان هذا الاعتقاد ؟ لقد جئت لأضع روحى أمامك وأسألك عنها ، ولو أنى تركت هذه الفرصة تفلت منى فلن يستطيع أحد طوال حياتى أن يجيبنى ، فكيف أثبت هذا اليقين ؟ وكيف أقنع نفسى ؟ آه ما أشقانى ! انى أقف وأنظر حولى وأرى أنه قل من يعنيه ذلك ، ولا أحد يتعب باله بالتفكير فى ذلك ، وأنا وحدى التى لاتطيق هذا الموقف ، انه شىء مميت مهلك ! » .

« من غير شك ، ولكن لا سبيل الى اثباته ولو أنه من الممكن أن تقنعنى به » .

« كيـــف ؟ » .

« عن طريق تجربة الحب الفعال ، فحاولى أن تحبى جيرانك حبا فعالا لا يمســه لغوب ، وكلما تقدمت فى طريق الحب ازداد تأكدك من حقيقة الله وخلود روحك ، واذا وصلت الى نسيان النفس الكامل فى حبك لجيرانك ، فانك ستؤمنين ايمانا لا يشوبه شك ولا يستطيع الشك أن يتسرب الى نفسك ، وقد جرب ذلك ، وهو مؤكد » .

« فى الحب الفعال ؟ ان هناك مسألة أخرى ــ وأية مسألة ! أرجو أن تصدقنى اذا قلت لك ان حبى للانسانية قد وصل الى حد أننى أحلم دائما بأن أنزل عن ما أملك لها وأترك ابنتى ليز ، وأنتظم فى سلك أخوات الرحمة ، وفى تلك اللحظات أشعر بأننى أوتيت من القوة ما أستطيع أن أتغلب به على العقبات كلها ، ولا تخيفنى فى تلك اللحظات الجراح والقروح ، فانى أضمدها وأنظفها بيدى ، وسأمرض المصاب وسأكون مستعدة لتقبيل أمثال هذه الجراح » .

« انه كثير وحسن أن يمتلىء عقلك بأمثال هذه الأحلام لا بغيرها ، وفى بعض الأحيان ستفعلين الخير فى الواقع دون أن تدرى » .

« نعم ، ولكن هل أستطيع طويلا مثل هذه الحياة ؟ » واسترسلت فى الحديث وقد اشتد تحمسها الى حد الهوس « هذه هى المسألة الرئيسية .

هذه هى المسألة التى تؤلم نفسى أشد الألم ، وانى أغمض عينى وأسائل نفسى « هل تبقى طويلا بهذا السبيل ؟ واذا كان المريض الذى تغسل جراحه لا يتلقاك بالشكر ومعرفة الجميل وانما أتعبك بنزواته دون ان يقدر خدماتك الخيرة وشرع فى انتقاصك وألقى عليك أوامره فى خشونة وتقدم للسلطات العليا بالشكوى منك (وهو ما يحدث فى أغلب الأوقات حينما يقاسى الناس الآلام الشديدة) فماذا يكون اذن ؟ فهل تظل محتفظا بحبك أو تتخلى عنه ؟ أتعلم أننى انتهيت وأنا أشعر بالخوف والنفور الى تلك النتيجة ، وهى : أنه اذا كان هناك شىء يمحو حبى للانسانية فانه نكران الجميل ، وموجز القول اننى خادم مأجور أنتظر الأجر فى الحال — أى المدح وأن أتقاضى ثمن الحب حبا ، وخلافا لذلك لا أكون أهلا لأن أحب أى انسان » .

واعترتها نوبة تعنيف للنفس ، وختمت حديثها بنظرة الى شيخ الكنيسة تنم على الاعتزام المتحدى .

فقال الأب زوسيما : « انها تشبه القصة التى حدثنى عنها مرة أحد الأطباء ، وكان رجلا قد تقدمت به السن وكان من غير شك رجلا بارعا ، وكان يتحدث فى صراحة مثل صراحتك ولو أنها كانت فى قالب الهزل ولكن الهزل المشوب بالمرارة ، كان يقول « انى أحب الانسانية ولكنى أعجب من نفسى ، فكلما ازداد حبى للانسانية بوجه عام قل حبى للانسان بوجه خاص ، وكثيرا ما توصلت فى أحلامى الى عمل مشروعات حماسية لخدمة الانسانية ، وربما كنت أواجه الصلب فى الواقع اذا استلزم الأمر ذلك فجأة ، ومع ذلك فانى لا أستطيع أن أعيش مع أى انسان فى حجرة واحدة مدة يومين كما أعرف ذلك بالتجربة ، وحالما يقترب منى أى انسان تزعج شخصيته سرورى بنفسى وتحد من حريتى وفى مدى أربع وعشرين ساعة أبدا أكره خير الناس وأحسنهم ، أكره واحدا لأنه مصاب ببرد ولا ينفك يتمخط من أنفه ، وأناصب العداء فى اللحظة التى يقتربون فيها منى ، ولكن كان يحدث دائما أننى كنت كلما ازددت كراهة للناس أفرادا ازداد حبى للانسانية وتحمى لها » .

« ولكن ما العمل ؟ ماذا يفعل الانسان فى مثل هذه الحالة ؟ أعليه أن ييأس ؟ » .

« كلا يكفى شعورك بالضيق من هذه الحالة ، فافعل ما تستطعين وكله سيضاف الى حسابك ، وقد حدثت فى نفسك أشياء كثيرة ما دمت قد استطعت أن تعرفى نفسك بهذا العمق وهذا الاخلاص ، فلو أنك كنت تتحدثين الى بمثل هذا الاخلاص لمجرد أن تظفرى باستحسان لصراحتك

كما فعلت في التو واللحظة ، فانك بطبيعة الحال لن تصلى الى شيء فى طريق تحقيق الحب الحقيقى ، ولا يكون الأمر أكثر من الأحلام وتذهب حياتك جميعها كما يزول الطيف ، وفى مثل هذه الحالة ستمتنعين عن التفكير فى الحياة الأخرى كذلك ، وفى النهاية تهدأ نفسك على أية صورة من الصور » .

« لقد سحقتنى ! الآن ليس غير وأنت تتحدث أدركت أننى حقيقة كنت أسعى لأنال منك استحسان صراحتى حينما قلت لك اننى لا أستطيع احتمال نكران الجميل ، لقد كشفت لى نفسى ، لقد نفذت بنظراتك الى أعماقى وأوضحت لى نفسى ! » .

« أتقولين الحق ؟ حسن ، الآن بعد هذا الاعتراف أعتقد أنك مخلصة وأنك طيبة القلب ، فاذا لم تصلى الى السعادة فاذكرى دائما أنك سائرة فى الطريق الصحيح ، وابذلى جهدك فى عدم التنحى عنه ، وتجنبى الزيف قبل كل شيء ، كل ضروب الزيف وبخاصة عدم الصدق مع نفسك ، وراقبى ما تتورطين فيه من الخداع وتأمليه فى كل ساعة وكل لحظة ، وتحاشى الاحتقار ، واحتقارك للغير واحتقارك لنفسك ، وما يبدو لك سيئا فى داخل نفسك سيزداد صفاء ونقاء كلما راقبته فى نفسك ، وتجنبى الخوف كذلك ، ولو أن الخوف لا يكون سوى نتيجة لكل لون من ألوان الزيف ، ولا تخشى خور العزيمة فى الوصول الى الحب ، ولا يشتد بك الخوف حتى من أعمالك السيئة ، ويؤسفنى أنى لا أستطيع أن أواسيك بأكثر من هذه الكلمات ، لأن العمل بالحب فى الأحلام شديد الحرص على العمل المباشر ، العمل الذى يتم بمشهد من الجميع ، والناس مستعدون لأن يجودوا بحياتهم اذا لم يطل أمد المحنة ومرت مسرعة والجميع يشهدونها ويهللون لها كأنهم على المسرح ، ولكن الحب الفعال عمل وجلد ، وهو كذلك عند بعض الناس ربما كان علما كاملا ، وانى أتنبأ أنك حينما ترين وقد أخذك الروع أنك برغم ما بذلت من الجهود قد ابتعدت عن الهدف الذى قصدت اليه بدلا من الاقتراب منه ــ ففى تلك اللحظة نفسها أتنبأ بأنك ستصلين اليه وترين بوضوح قوة المولى المعجزة الذى كان طوال الوقت يرعاك بحبه ويسدد خطوتك فى الخفاء ، وسامحينى لأنى لا أستطيع البقاء معك أكثر من ذلك ، انهم ينتظرونني ، أستودعك الله » .

كانت السيدة تذرف الدموع .

« ليز ، ليز ، باركها ــ باركها » .

فقال الأب زوسيما مداعبا : « انها غير جديرة بأن تحب ، لقد احظت شقاوتها طوال الوقت ، ولماذا كنت تضحكين من أليوشا ؟ » .

والواقع أن ليز كانت خلال ذلك الحديث مشغولة بالسخرية من أليوشا ، فقد لحظت من قبل أن أليوشا غلب عليه الحياء ، وحاول أن يتحاشى النظر اليها ، وقد وجدت فى ذلك موضوعا للفكاهة والتسلية ، وانتظرت عامدة أن تلتقى عيناهما ، ولما عجز أليوشا عن احتمال نظرتها المتعمدة اضطر اضطرارا الى أن ينظر اليها فجأة فضحكت فى وجهه ضحكة الفائزة المنتصرة ، فازداد ارتباك أليوشا وأظهر استياءه ، وأخيرا حول وجهه عنها وتوارى خلف ظهر شيخ الكنيسة ، وبعد دقائق قليلة جذبته ثانية نفس القوة التى لا تقاوم فحول وجهه ليرى هل هى لا تزال موجهة اليه نظراتها أو أنها انصرفت عنه ، ووجدها تكاد تكون مائلة من مقعدها لتظل ناظرة اليه متلهفة على مبادلتـه اياها النظـر ، ولما التقت عيناهمـا ضحكت فلم يستطع الأب زوسيما الا أن يقول : « لماذا تسخرين منه هكذا أيها الفتاة الشقية ؟ » .

وفجأة وعلى غير انتظار احمر وجهها خجلا ، وأبرقت عيناها وظهرت على وجهها علامات الجد والاهتمام وأخذت تتحدث فى سرعـة وعصبية وبصوت فيه حماسة وغضب قائلة : « لماذا نسى كل شىء ؟ لقد كان يحملنى وأنا طفلة صغيرة ، وكنا نلعب معا ، وكان يأتى الينا ليعلمنى القراءة ، أتعرف ذلك ، ومنذ سنتين مضتا حينما ذهب بعيدا قال لى انه لن ينسانى واننا صديقان الى الأبد الى الأبد ! والآن أراه متخوفـا منى ، أيحسبنى محاولة أن آكله ؟ لماذا لا يريـد الاقتراب منى ؟ لماذا لا يتـكلم ؟ ولماذا لا يحضر لزيارتنا ؟ انك لا تمنعه عن القيام بذلك ، فنحن نعرف أنه يذهب الى كل مكان ، وليس من اللائق أن أدعوه للزيارة ، وكان يجب عليه أن يكون هو البادىء بالتفكير فيها اذا كان لم ينسنى بعد ، والآن هو يسعى لانقاذ روحه ! فلماذا ألبستموه هذا الجلباب الواسع ؟ انه اذا جرى سيتعثر ويسقط » .

وفجأة خبأت وجهها فى يديها وأخذت تضحك ضحكة عصبية طويلة مسموعة لا سـبيل الى مقاومتها ، وقد أصغى اليها شـيخ الكنيسة باسم الوجه وباركها فى رفق وحنان ، وبينما كانت تقبل يده ضغطت عليهـا ورفعتها الى عينها وبكت :

« لا تغضب منى ، انى ساذجة ولا أصلح لشىء ، وربما كان أليوشا على حق ، وربما كان مصيبا الصواب كله فى عدم رغبته فى زيارتنا ليرى فتاة تثير الضحك » .

فقال شيخ الكنيسة : « أوكد لك أنى سأرسله » .

وقد أجرى دستويفسكى الكثير من أفكاره واتجاهاته على لسان الأب زوسيما وهو من الشخصيات البارزة فى روايته العظيمة ، من قبيل ذلك

حديث زوسيما عن العلم فى العالم الحديث وتأثيره فى اضعاف الناحية الروحية فى الفصل الثالث من الكتاب السادس وذلك حيث يقول عن معاصريه : « عندهم العلم ولكن فى العلم لا شىء سوى ما هو موضوع للحواس ، فالعالم الروحى والجزء الأسمى من كيان الانسان ينبذ برمته ويحذف بنوع من الانتصار بل بشىء من الكراهية ، فقد أعلنت الدنيا سيادة الحرية وبخاصة فى العهد الأخير ، ولكن ماذا نرى فى هذه الحريه التى يتحدثون عنها ؟ ليس فيها سوى العبودية وهلاك النفس . لأن الدنيا تقول « عندك رغبات ولذلك اعمل على اشباعها ، لأن لك من الحقوق فى ذلك مثل ما لأغنى الناس وأقواهم نفوذا ولا تخش اشباع هذه الرغبات ، بل اعمل على مضاعفة رغباتك » هذه هى النزعة الجديدة السائدة فى العالم وهم يرون الحرية فى ذلك ، ولكن ما الذى يسفر عنه حق مضاعفة الرغبات ؟ عند الأغنياء العزلة والانتحار الروحى وعند الفقراء الحسد والقتل ، لأنهم أعطيت لهم حقوق ولكن لم يبصروا بالوسائل التى يسدون بها حاجاتهم وهم يزعمون أن العالم يزداد اتحادا وترابطا فى مجتمع أخوى لأنه قهر المسافات ، وطوى الأبعاد ، وأطلق الأفكار محلقة فى الهواء ، ولكن واأسفاه لا يمكن الوقوف بمثل هذه الرابطة الجماعية ، فتفسير الناس للحرية على أنها الاشباع المضاعف السريع للرغبات يجعلهم يشوهون طبيعتهم ، لأن ذلك ينمى رغبات طائشة رعناء وعادات سيئة ، وأوهاما مضحكة ، فهم لا يعيشون الا للحسد المتبادل وللترف وحب المظاهر ، وستكون عندهم حفلات العشاء والزيارات والعربات والمناصب والدراجات والخدم والحشم فى رأيهم من المستلزمات التى يضحى من أجلها بالشرف والشعور الانسانى ، بل سينتحر الناس اذا عجزوا عن اشباع هذه الرغبات ، ونرى هذا الشىء نفسه بين الذين لا يعدون من الأغنياء ، فى حين أن الفقراء سيغرقون حاجتهم التى تشبع فى العكوف على الشراب ، ولكن سرعان ما يشربون الدماء بدلا من النبيذ ، وهم مسوقون الى ذلك ، واسأل هل مثل هؤلاء الناس أحرار ؟ وأعرف أحد « أبطال الحرية » وقد أخبرنى هو نفسه أنه حرم فى السجن من الطباق ، ووصل به الضيق وسوء الحال الى حد أنه خان القضية التى نصب نفسه مدافعا عنها من أجل الحصول على الطباق ! ومثل هذا الرجل يقول « اننى أجاهد من أجل قضية الانسانية » .

فكيف يستطع مثل هذا الانسان ؟ وماذا يصلح له ؟ ربما كان قادرا على أن يقوم ببعض الأعمال السريعة ولكنه لا يستطيع أن يثبت طويلا ، فلا عجب أن أمثاله بدلا من أن يظفروا بالحرية قد وقعوا فى شرك العبودية ، وبدلا من أن يخدموا قضية الحب الأخوى واتحاد الانسانية قد ارتطموا

فى حمأة الخلاف والعزلة كما حدثنى الزائر الغامض وأستاذى فى شبابى ، ولذلك نرى فكرة خدمة الانسانية والحب الأخوى وتضامن النوع البشرى قد أخذت تضعف وتتضاءل فى العالم ، وحقيقة أن هذه الفكرة تتناول فى بعض الأوقات بالاحتقار والاستنكار ، لأنه كيف يستطيع الانسان الخلاص من مألوف عاداته ؟ وماذا يصير اليه أمره اذا كان أسيرا لعادة اشباع رغباته العديدة التى خلقها لنفسه ؟ انه فى عزلة فماذا يعنيه من شئون باقى الانسانية ؟ لقد نجحوا فى جمع حشد أعظم من الأشياء ولكن الابتهاج فى الدنيا قد ولى مدبرا » ٠

ولكن دستويفسكى مع ذلك كله لا يفقد الأمل ويقول عن لسان زوسيما : « هل يمكن أن يكون حلما ان الانسان فى النهاية وخاتمة المطاف سيجد سروره وارتياحه فى الأعمال المضيئة والصنائع الانسانية لا فى المتع الوحشية شأنه فى هذا العصر وفى النهم والفسوق والتظاهر والمفاخرة والحسد المتبادل ؟ انى أعتقد اعتقادا راسخا أن ذلك ليس حلما وأن الوقت حان ، والناس يضحكون ويتساءلون متى يجىء هذا الوقت وهل يبدو أنه قادم ؟ انى أعتقد أنه بعون المسيح سوف نحقق هذا الشىء العظيم ، وكم من الأفكار الكثيرة التى غشيت الأرض فى تاريخ الانسانية كانت لا تخطر بالبال قبل ظهورها بعشر سنوات ! وحينما جاء أوانها وحل ميعاد ظهورها قدمت وانتشرت فى أنحاء الأرض جميعها » ٠

وقد وجهت تهمة قتل فيدور كارامازوف الى ابنه ديمترى ، وكانت هناك شبهات وقرائن كثيرة تدعو الى هذا الاتهام ، ولكن الواقع أن القاتل الحقيقى كان ابنه غير الشرعى سمردياكوف ، وفى سرد أحداث الرواية بعد القاء القبض على ديمترى متهما بقتل أبيه ، تتجلى براعة دستويفسكى الكاتب الروائى وخصب خياله ووصفه للمحاكمة واجراءاتها ٠ ودفاع المحامى فيتيكوفتش عن المتهم غاية فى قوة التصوير ودقة التعبير ٠

★★★

رسالة التوحيد

الإمام محمد عبده

١٨٩٧م

الامام محمد عبده من أعلام النهضة الاسلامية ، وقائد من قادة الفكر العربى ، وزعيم من زعماء الاصلاح المصرى ، وهو فوق ذلك كله فيلسوف انسانى ، ومجدد دينى ، وباحث اجتماعى ·

عاش سبعا وخمسين سنة ، قضى أولها فى التعليم ، ووسطها فى التعليم ، وآخرها فى اعلاء شأن الدين ونفع المسلمين · ولكن رسالته الدينية لم تشغله عن الجهاد القومى · فكان فى مقدمة الزعماء الذين أيقظوا مصر من سباتها الذى أسلمها اليه المستعمرون ·

وكان أول صوت ارتفع فى مصر الحديثة يدعو الى نشر العدالة الاجتماعية بين الطبقات ، ونشر الثقافة بين الفقراء · وكان يرى أن التربية هى السبيل القويم للاصلاح السياسى ، وان لابد من تطهير المناصب الحكومية من ضعاف النفوس ومحترفى السياسة ، لكى يقدر للأمة أن تنهض نهضة حقيقية شاملة ·

وصفه مستشرق أمريكى فقال :

« كان محمد عبده فلاحا صميما ، وليد تربة مصر العريقة قبل أن يغدو مفتيا واماما للمسلمين · واننا لنلمح فى اخلاصه لهذه التربة ، وفى دعوته الى الوطنية ، مزاجا عجيبا من الوفاء للماضى المجيد ، والاستمساك بيقين الدين ، والولاء لوطنية الفلاح » ·

وكانت حياته ـ مثل شخصيته ـ خصبة حافلة ، اذ صنعها بقلبه ورأسه ويده ، كما يصنع الفنان الموهوب تحفة رائعة · وكانت أعماله وفيرة متنوعة ، اذ لم يكل يوما عن الفكر والعمل ، منذ شبابه الباكر الى أن صار شيخا اقترب من الستين : فكان يطالع ، ويعلم ، ويحرر « الوقائع المصرية » ، ويلهم الثورة العرابية ، وينشر دعوة « العروة الوثقى » ، ويشتغل بالقضاء فى المحاكم ، ويعلم فى الأزهر ، ويصدر الفتاوى فى الشئون الدينية والاجتماعية ، ويشترك فى جلسات مجلس شورى القوانين وفى مجلس الأوقاف الأعلى ، ويشرف على أعمال الجمعية الخيرية الاسلامية ، ويضع مشروعات لاصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، ويؤلف الرسائل الدينية ، وينشر المقالات الفلسفية ، ويفسر القرآن الكريم ، ويدافع عن الاسلام ، ويرد على منتقديه ، ويراسل علماء المسلمين ،

ويصادق أفاضل الغربيين ، ويسعى الى البر واغاثة المنكوبين ، باذلا من جهده الشخصى منفقا من ماله الخاص ٠

وكان حر الفكر ، واسع الأفق ، محيطا بأهم ما تنتجه قرائح المفكرين الغربيين ٠ وقد استكمل ثقافته برحلات عديدة فى أفريقيا وأوروبا ٠ وكان له أصدقاء عديدون ، شرقيون وغربيون ، كما كان يراسل بعض المفكرين الأوروبيين مثل « جوستاف لوبون » ، و « هربرت سبنسر »، و « تولستوى » ٠ وقامت بينه وبين « ولفرد بلنت » صداقة متينة ، وكان المستشرق البريطانى « ادوارد براون » شديد الاعجاب به حتى انه قدم الى مصر ليشهد دروس التفسير التى كان يلقيها الأستاذ الامام فى الأزهر ٠

حياة خصبة حافلة

ولد محمد عبده فى عام ١٨٤٩ بقرية « محلة نصر » بالوجه البحرى، من أبوين متوسطى الحال ٠ وتعلم القراءة والكتابة بمنزل والديه ، دون أن يذهب الى « كتاب » القرية ٠ وبعد أن جاوز العاشرة من عمره ، وأتم حفظ القرآن الكريم ، ذهب الى « الجامع الأحمدى » فى طنطا ، ليتم تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية ٠ بيد أن منهج التعليم بالجامع الأحمدى كان وعرا شاقا ، حتى كاد الصبى يصاب باليأس ، ويشتغل بالزراعة ، لولا أن التقى بأحد أخوال أبيه — وكان اسمه الشيخ درويش — فاستطاع أن يروض جماحه ، وأن يوجهه الى المعانى القدسية واللذائذ الروحية ، لأنه كان صوفيا طيب القلب ٠ وقد وصف محمد عبده الأثر الذى تركه « الشيخ درويش » فى نفسه فقال : « تفرقت عنى جميع الهموم ، ولم يبق الا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة ، أدب النفس ٠ ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى سوى ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة » ٠

وكان الحادث الجلل فى شباب محمد عبده هو التحاقه سنة ١٨٦٦ بالجامع الأزهر — أهم مركز للثقافة الاسلامية — حيث قضى زهاء ثلاث سنين دون أن يجنى فائدة تذكر من الدروس التى كان يستمع اليها هنالك، فما لبث أن انصرف عن « العلوم الأزهرية » ، وتطلعت نفسه الى علوم جديدة ٠

وألمت به ، فى ذلك الحين ، أزمة نفسية جعلته ينقطع عن الدرس ، ويحاول أن يعتزل العالم ، وأن يمارس ضروب الزهد والرياضة ولكنه اجتاز هذه الأزمة بفضل الشيخ درويش أيضا ٠

وكان من حسن حظه أن التقى بالسيد جمال الأفغانى ، رائد الحرية الدينية والسياسية فى نظر الشعوب الشرقية · واستطاع محمد عبده ، بفضل ما تلقاه عن أستاذه الأفغانى من هداية روحية ، أن يتحول نهائيا عن طريق الزهد ، وأن يقبل على الحياة العامة اقباله على دراسة العلوم العصرية المختلفة ، كالفلسفة والرياضيات ، والكلام ، والأخلاق ، والسياسة ، والفن ، وغيرها مما لم يكن له مكان فى مناهج الأزهر ووجد الشاب المصرى عند السيد الأفغانى روحا جديدة لم تكن مألوفة فى التعاليم الأزهرية : وجد عنده مذهبا فلسفيا واحدا ، ونظرة الى الحياة عميقة ، وصورة عن الكون منظمة · وقضى التلميذ فى صحبة الأستاذ شهورا ، يحيا حياة الروح والفكر وهو مبتهج بشوان ، متعطش الى ارتشاف المعرفة من ينابيعها الصافية ·

ومنذ اتصال محمد عبده بأستاذه الأفغانى اتجهت حياته اتجاها جديدا أخذ الشاب الأزهرى يبذل جهده للتحرر من سلطان العرف السائد والتقاليد الموروثة وشرع يقرأ ما ينقل الى العربية من ثمرات الثقافة الغربية ، وينشىء المقالات للصحف المصرية ، فنحس فيها أنه يحاول ، فى شىء من المشقة أحيانا أن يتخلص من العقلية المسيطرة اذ ذاك على البيئة الأزهرية ·

وفى سنة ١٨٧٧ تقدم محمد عبده لامتحان « العالمية » فى الأزهر ، وظفر بالشهادة ، رغم الشكوك التى حامت حول اسمه ، لاتصاله بالسيد جمال الدين الأفغانى ، ولكتابته الفصول التى يدعو فيها الى التجديد وترك الجمود والتقليد ·

وأصبح من حق محمد عبده أن يقوم بالتعليم فى الأزهر ، فأخذ يلقى فيه دروسا فى التوحيد والمنطق والأخلاق ، ثم عين مدرسا للتاريخ فى « مدرسة دار العلوم » ومدرسا للغة العربية فى « مدرسة الألسن » : فبدأ التعليم فى دار العلوم بمحاضرات عن « فلسفة ابن خلدون » · ومضى الشيخ فى التدريس حتى تولى الخديو توفيق ، فأمر بنفى جمال الدين الأفغانى من مصر ، وعزل محمد عبده من دار العلوم ·

ولكن « رياض باشا » أراد اصلاح جريدة « الوقائع المصرية » — وكانت لسان الحكومة الرسمى — فعين الشيخ محمد عبده محررا بها ، ثم جعله رئيس تحريرها · فكان الشيخ فيها — بحق — مصلحا ومعلما فى آن واحد : كانت غايته رفع مستوى الأمة ، وتقويم أخلاقها ، والنهوض بها نهضة اجتماعية أخلاقية ، فى تدرج وأناة وتطور ، ومن غير عنف ولا طفرة · وكان يعتقد أن ذلك يتم اذا سلك قادتها سبيل التثقيف والتربية ونشر التعليم ، لا سبيل تقليد الغرب من غير فهم ولا ادراك

عميق ، أو التمسك بظواهر المدينة المادية ، مع الغفلة عن صميم المدينة الروحية الصحيحة وسار الشيخ في تحرير « الوقائع المصرية » تلك السيرة الاصلاحية ، فكان عجيبا حينئذ أن ترى صاحب عمامة أزهرية ، يشرف من غرفة تحرير الجريدة الرسمية على الأمة ، فيقوم من أخلاقها ، ويصلح ما فسد من عاداتها ، ويعلم جرائدها حسن التحرير ، ويربيها على الصدق في القول والاخلاص في العمل .

وحدث بعد ذلك انقلاب سنة ١٧٨٩ ، الذى أدى الى سقوط وزارة « نوبار » و الوزراء الأوربيين الآخرين . وكان من نتيجته تألب الجيش المصرى بقيادة « عرابى » على الضباط الأتراك والشراكسة ... ولم يكن محمد عبده في أول الأمر مشايعا لعرابى ـ فقد كان يعتبره ناطقا بأفكار عسكرية بحتة ـ وانما كان يفضل قيام نظام للحكم مصحوب باصلاح داخلى تقدمى ، وسيلته الرئيسية هى نشر الثقافة ، وبث التربية الأخلاقية والسياسية الصحيحة التى تناسب قيام دستور حر . غير أنه ازاء تطور الحوادث وتدفقها لم يستطع الا أن يسارع الى شد أزر العرابيين الثائرين ، حتى صار أحد الرءوس المدبرة لشئون الحكومة الوطنية . وفى المرحلة التى صاحبت تأليف « وزارة البارودى » وضرب الانجليز للاسكندرية ، ثم اشتباك الجيش المصرى مع الجيش البريطانى ـ فى هذه المرحلة من حياة الثورة المصرية ، أخذ محمد عبده يناضل فى عزيمة واخلاص تحقيقا لحرية الشعب المصرى واستقلاله فى الداخل والخارج .

واتهم محمد عبده ـ بعد حبوط عرابى ـ بالتآمر مع رجال الثورة ، فحكم عليه بالسجن ، ثم بالنفى ثلاث سنوات ، فاختار الشيخ سوريا منفى له ، ورحل اليها عام ١٨٨٢ . ولكن اقامته لم تطل فيها ، اذ دعاه أستاذه جمال الدين الأفغانى الى اللحاق به باريس ، فلبى الدعوة ، وهبط أرض فرنسا أول مرة فى مستهل عام ١٨٨٤ . وهنالك عمل مع أستاذه على تأسيس جمعية وصحيفة باسم « العروة الوثقى » ، للدعوة لتقوية أواصر الجامعة الاسلامية ، ودفع عدوان الغرب على الشرق بوجه عام ... ومكافحة التسلط الأجنبى والطغيان الداخلى ، وانقاذ مصر من الاحتلال البريطانى بوجه خاص .

وكانت « العروة الوثقى » أول صحيفة عربية ظهرت فى أوربا ، وكان مكتب تحريرها بباريس ندوة لجميع الشرقيين ـ سواء المقيمون هناك أو الزائرون ـ فكنت ترى فيه : جمال الدين ، ومحمد عبده ، والصحفى الثائر « يعقوب صنوع » ، والفارسى الغريب الاطوار « مرزا باقر » .

ويبدو أن اقامة محمد عبده فى باريس ، فى هذه المرة ، لم تتح

له أن يألف الحياة الباريسية ، أو أن يتعلم اللغة الفرنسية ، اذ كان يقضى النهار كله منهمكا فى أعمال المجلة ، ولم يكن يقابل غير الشرقيين · ولكنه مع ذلك تمكن من زيارة انجلترا ، فى بداية صيف ١٨٨٤ ، حيث استقبله صديقه « بلنت » الذى يسر له مقابلة بعض رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطانى ، كما عاونه على ابلاغ صوته الى الرأى العام فى انجلترا ، عن طريق الصحافة ···

وكانت « العروة الوثقى » قصيرة الأجل ، لأن الانجليز حالوا دون توزيعها فى البلاد العربية · واضطر محمد عبده الى مغادرة باريس فى عام ١٨٨٥ ، فسافر الى بيروت ، التى كانت آنذاك مركزا للثقافة العربية وهنالك عهد اليه بالتدريس فى المدرسة السلطانية ، فألقى فيها دروسه المشهورة فى « علم الكلام » ، تلك الدروس التى كانت أصلا لرسالته عن الله وصفاته وأعماله ، وهى « رسالة التوحيد » ولم تكن تفوته فى بيروت فرصة الا انتهزها ، ليبين علة تأخر الشرقيين ، وليدعو الى العناية بدراسة العلوم الانسانية ، مع الحرص على تعاليم الأخلاق والتربية الدينية ·· على أن جهوده لم تقتصر على التعليم ، بل انه ألف جمعية دينية سرية ، كان من أهدافها التقريب بين الأديان الكبرى · وقد انضم الى هذه الجمعية القس « اسحاق تيلر » راعى الكنيسة الانجليزية ، الذى نشر فى لندن عدة مقالات تحدث فيها عن الاسلام حديثا مشبعا بروح الود · ويبدو أن نشاط محمد عبده فى هذه الجمعية فسر فى تركيا تفسيرا سياسيا يناقض مصالح الخلافة العثمانية ، مما حدا بالسلطان «عبد الحميد» الى السعى لدى الحكومة البريطانية لاصدار العفو عن الشيخ المصرى ، ودعوته الى مغادرة سوريا ·

وعاد محمد عبد عبده الى مصر عام ١٨٨٨ ، فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية ، ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف · وقد عرف فى هاتين الوظيفتين باستقلال الفكر ··· وكان يتوخى فى أحكامه تربية الجمهور وايقاظ ضميره ، واصلاح ذات البين بين الأسر ·

ثم عين الشيخ عضوا بمجلس ادارة الأزهر ، فدأب على السعى الى رفع المستوى الثقافى والمادى والأخلاقى لهذه الجامعة · ووضع لذلك مشروعه الاصلاحى المشهور ، الذى لم يستطع تنفيذه لكثرة ما وضع من عقبات ·

وما لبث أن عين مفتيا للديار المصرية ، سنة ١٨٩٩ ، فأضفى على ذلك المنصب سناء ومهابة ، ولم يقتصر على الافتاء فيما كان يحال اليه من مسائل ، بل وسع اختصاصه وزاد من نفوذ المنصب الكبير ·

وامتازت فتاوى الأستاذ الامام بالميل الى التسامح ، واستقلال

الرأى ، والبعد عن التقليد ، والملاءمة بين روح الاسلام ومطالب الحداثة ٠ وأشهر الفتاوى التى أصدرها ثلاث : الأولى تبيح للمسلمين ادخار أموالهم ، وأخذ الفوائد والأرباح عليها ، والثانية تبيح لهم أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة والثالثة تبيح لهم أن يتزينوا بزى غير زيهم التقليدى ، تيسيرا لهم فى أمور معاشهم ٠ وقد سببت هذه الفتاوى كثيرا من المجادلات ، وأثارت سخط الشيوخ المتزمتين ، وجلبت على المفتى ضروبا من القدح والتشهير لم تكن الدوافع اليها دينية خالصة فى أكثر الأحيان ٠

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ عين محمد عبده عضوا فى « مجلس شورى القوانين » ، فسار على سياسة ترمى الى تربية الرأى العام فى مصر ، وتعويد الأمة دقة النقد والتمحيص ، والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصة ، واستهداف المصالح القومية الكبرى ٠

وقد عمل الشيخ ، عن طريق « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، التى كان من أوائل مؤسسيها ، على تحقيق اصلاح أخلاقى اجتماعى ، يذكى فى الناس روح الاعتماد على النفس ، والتعاون بين الأفراد ، واشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والاحسان الى الفقراء ٠٠ وكان صوته أول صوت ارتفع فى مصر الحديثة مناديا بنشر مبادىء العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات ٠

والى الأستاذ الامام يرجع الفضل فى انشاء « مدرسة القضاء الشرعى » ، والعمل على اصلاح المحاكم الشرعية ، كما أسس « جمعية احياء الكتب العربية القديمة » ٠

وقد حدث فى عام ١٩٠٠ أن نشر وزير خارجية فرنسا ــ « جبرييل هانوتو » ــ مقالا فى صحيفة ال « جورنال الباريسية » ، بعنوان « موقفنا من الاسلام والمسألة الاسلامية » ٠ فلما ترجم المقال فى جريدة « المؤيد » بادر الأستاذ الامام بالرد عليه ، مفندا ما زعمه « هانوتو » من فوارق بين المسيحية والاسلام فيما يتصل بطبيعة الله ، والقدر وحرية الأفعال ، كما أنكر ما زعمه « هانوتو » من قيام التعارض بين الساميين والآريين ولامه فى النهاية لاستخدامه معلوماته التاريخية فى محاولة التأثير على أفكار الفرنسيين الذين لا يعرف معظمهم الاسلام على حقيقته ٠

وقد اشتهر هذا الرد كما اشتهر أيضا رد الامام على « فرح أنطون » الذى نشر مقالا عن الفيلسوف « ابن رشد » قال فى سياقه : ان المسيحية أرحب صدرا من الاسلام فى مواجهة العلماء والفلاسفة ٠ (وقد نشر الأستاذ الامام دفاعه عن الاسلام فى كتاب عنوانه : « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ») ٠

وفى سنة ١٩٠٥ ، أخذ محمد عبده ينشر الدعوة لانشاء جامعة

مصرية الى جانب الجامعة الأزهرية ولم يقنع بالتفكير ، بل خرج بالمشروع الى التنفيذ ، فأقنع « أحمد المنشاوى باشا » بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى احدى ضـــواحى القاهرة ، ولكن موت المنشـــاوى باشـــا أوقف المشروع ٠

وفى ١١ يوليو ســـنة ١٩٠٥ توفى الشـــيخ محمد عبده فى أوج نشاطه ، وكانت وفاته حدادا عاما للبلاد العربية والاسلامية جميعا ٠

آثـــار مذكورة

ان صورة محمد عبده ، كما تتبدى لنا بعد الالمام بشخصيته وسيرته، لا تختلف عن الصورة التى سجلها عنه من قدر لهم أن يعرفوه أو أن يروه فى حياتـــه ٠

فى ٣١ يولية سنة ١٩٠٥ كتب « هارولد سبندر » ــ كاتب حزب الأحرار الانجليزى ــ كلمة رثاء للأستاذ الامام بعد وفاته بثلاثة أسابيع ، وصف فيها لقاءه له بدار صديقه « ويلفرد سكاون بلنت » بعين شمس ، فقال ، « هنا أمسك مستر بلنت عن الكلام ، والتفت فجأة لسماعه وقع حوافر فرس ، فقـــال : ها هو الرجل ٠٠ فالتفت مثله ، فاذا بصـــورة انسان يقول الناظر اليها انها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين : شيخ حسن البزة ، جهير الصوت ، يمتطى فرسا عربيا كميتا جميلا يقبل نحونا على مهل ، وعلبه الأردية الطويلة التى لا تزال تضفى على الانســـان فى بلاد الشرق رونقـــا ورواء ، وفوق رأسه العمامة الكثيفة التى هى الوقـــاية الحقيقية من حر الشمس ٠ ولما انتهى الينا ترجل وتلطف فى تحيتنا ، وتنـــاول معنا فنجان شاى ، وأنشأ يحادثنـــا بالفرنسية ، وكان حديثه حديث مراقب مفـــكر وقف يرقب الحوادث من مكان بعيد ٠ وتمنى فيما سبق لوطنه أمانى كبارا ، ولكنه تخلى عنها ، وان يكن من البين أن نيران غيرته القديمة كانت لا تزال مشتعلة فى نفسه ٠ وكنت ألمح فى عينيه ذلك الابتسام المشوب بالكآبة والرحمة الذى لا يرى الا فى وجوه من قاسوا كثيرا من الأهوال والشدائد » ٠

وقال عنه تلميذه ومريده رشيد رضا فى « المنار » : « انه سليم الفطرة ، قدسى الروح ، كبير النفس وصادف تربية صوفية نقية ، زهدته فى الشهوات والجاه الدنيوى ، وأعدته لوراثة هداية النبوة ، فكان زيته فى زجاجة نفسه صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار » ٠

وقال شيخ الأدباء عباس محمود العقاد فى كتابه « عبقرية الاصلاح والتعـــليم » : « رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة ، ورأيته مرات لا تحصى فى صوره الشمسية التى لا تلتبس احداها بملامح صورة أخرى ،

فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة الى تلك الملامح فيما تنم عليه وتشير اليه : قوة وطيبة متفقتان لا يبين لك أنهما تنازعتا يوما أو تتنازعان ... وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم فى أخلادنا من سمات النبوة ، وهى فى طلعتها الانسانية بشر مثلنا ، وان لم نكن نحن بشرا مثلها فيما نتلقاه من وحى الله » .

فلسفتـــه

١ ـ تنوير الأذهـــان :

عاش الأستاذ الامام سبعا وخمسين سنة ، قضى أولها فى التعليم ، ووسطها فى التعليم ، وآخرها فى اعلاء شأن الدين واصلاح حال المسلمين . ولكن الرسالة الاصلاحية لم تشغله عن الجهاد القومى ، فكان فى مقدمة الزعماء الذين أيقظوا مصر من ســـباتها الذى أسلمهـا اليه الطامعون ، ولم يدخـــر وقتـــا ولا جهدا فى أداء المهمة الجليلة التى رأى وجـــوب النهوض بها ، تحقيقا للوعى القومى وهداية للضمير الانسانى . وأنفق حياته داعيا الى الحق ، جادا فى فعل الخير ، حريصا فى هذا كله على أن يضع شخصه وخبرته فى خدمة المجتمع ، فضرب فى هذا المضمار أروع الأمثال . ذلك أن الرجل فوق كونه اماما عصريا من أئمة المسلمين ، كان فليسوفا بالمعنى الصحيح ، نظر الى الفلسفة نظرة قديمة وجديدة فى آن واحد : فمن ناحية أخذ الفلسفة على معنى ممارسة الفضائل الأخلاقية ، وهداية الحياة الانسانية ، ومن ناحية أخرى أدرك أن التفكير الفلسفى لا ينبغى أن يظل محصورا فى مجال النظر الصرف ، وأنه لايستطيع أن يعطينا عن الوجود شعورا صحيحا الا اذا ألقى بنا فى معترك الدنيـــا ، والا اذا اضطررنا أن نتحمل مسئولية شخصية بازاء كل ما يحدث فيها .

من أجـــل هذا رأى أن الخطوة الأولى فى كل مسعى فلسفى وكل اصلاح حقيقى هى تنبيه الوعى وايقاظ الضمير ، واستشارة روح النقد تمهيدا للفهم . فلا عجب أن نراه فى جميع أقواله ورســـائله ومؤلفاته دائبا على مهاجمة « التقليد » ، أى تقبل آراء الغير دون المطالبة بالدليل ، ودون الالتفات الى حق كل شخص فى اســـتقلال النظر ، وأن نراه دائم الاشادة بمبدأ « الاجتهاد » ، أى الفكر المتحرر من كل عائق وشديد الحملة على المقلدين ، حتى لنجده يصفهم أحيانا بما يقرب من الكفر والمروق من الدين . وهو لا يكف عن التنبيه الى أن أبـــواب الاجتهاد لاتزال مفتوحة لجميع المسائل التى تثيرها ظروف الحياة المتجددة : فان فكرا يكون مقيدا بالعادات مستعبدا للتقليد لهو فكر ميت وليس له قيمة : « الفكر انما يكون

فكرا له وجود صحيح ، اذا كان مطلقا مستقلا ، يجرى فى مجراه الطبيعى الذى وضعه الله تعالى ، الى أن يصل الى غايتـــه » . وهذا البحث الحر أو هذه « الحاسة الناقدة » — باصطلاح الفيلسوف « كانط » — هى فيما يرى الأستاذ الامام الخاصية الانسانية على الحقيقة ، أى هى ما يميز « الحيوان الناطق » عن ســائر الحيوان . انهــا بعبارة أخــرى : الشجاعة فى طلب الحق ، تلك الشجاعة التى تجعل طالب الحق صــابرا ثابتا لا تزعزعه المخاوف ، وتجعل المرء عزيزا كريمــا ، بعيــدا عن أوهام العوام ، محطما لأصنام السوق . وبهذه الشجاعة « يكون الانسان حرا خالصــا من رق الأغيـــار ، عبدا للحق وحــده » . وبها يتسـير للانسـان ، كما قال على بن أبى طالب — كرم الله وجه — أن يعرف الرجــال بالحق ولا يعرف الحق بالرجـــال .

٢ — النقد تمهيدا للاصـــلاح :

نهض الامام ، أوائل هذا القــرن ، بمهمة الاصـــلاح الاجتماعى فى مصر ، فكان أول ما وجه اليه عنايته نقد الأوضاع الفاسدة فى المجتمع ، وراح يهاجم ما خلفته من آثار وخيمة فى الأفكار والأخـــلاق والعادات : أخذ يعيب على علماء المسلمين طرائقهم العقيمة فى التعليم ، اذ كانوا يقضون أعمارهم فى مناقشات لفظية ومجادلات سقيمة ، وينقطعون عن شـــئون الحياة . واستنكر هذا الضرب من الثقافة « المدرسية » أو البيزنطية التى تأنمد على الفول وتقعد عن العمل ، وتدفع الى الجدال دون الانتاج .

وجه الناقد المصلح هجوما عنيفا على ما فشـــا بين عامة المسلمين وعلمائهم من خرافات وبدع وأوهام ، كان من نتائجها تزييف تعاليم الاسلام التى تميزت بالسماحة والبساطة والقوة .

« وقد انتهينا الى زمان يفتخرون فيه بالجهالة ، ويشيدون بشئون الضلالة ، ويحكمون بكفر من طالع كتب الكلام . ويستنفرون من تقرير عقائد الاسلام ورفع أستار الأوهام ، ودفع شبه الملحدة اللئام . قد عكفوا على عادات بالية وهذيانات من التحصيل خاليـــة ، يفنون آجالهم سدى ، ويصدون عن طريق الهدى ، حادوا عن طريق السلف الصالحين ، واتخذوا سبيلا غير سبيل المؤمنين : كلمـــا لمحوا نورا الهيـــا بادروا الى اطفائه وعدوه شيئا فريا ، أو هدوا سننا مرضيا اســـتدبروه ونبذوه وراءهم ظهريا . ولو أنى كشفت سيىء أحوالهم لعجبت البشرية من قبيح أفعالهم ، ولكن الشكوى الى الله . ليس فى زماننا أذن تسمع ولا قلب يجزع ، فان كنت على شىء من العـــلم فاتخذ لك قبرا والا أوجعوك ضربا وألقموك حجرا : فان الأكابر فى هذا الباب أصاغر والبدع لديهم شعائر .

فلا حول ولا قوة الا بالله . وتغيير هذا الحال انما يكون بتأييد الله ولا نطيل الكلام ، فان القوم لئام » .

وكتب أيضا بعد ذلك بنحو عشر سنين ، ابان اقامته فى بيروت :

« ان ضعف العقيدة ، والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، الا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية ، ويطلبون للتخلص منها أى حيلة ، وهى من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم . ونرى الموسرين منهم يبخلون بأموالهم اذا دعت الحال الى معاونة الدولة والانفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم .. بعكس ما نرى فى سائر الأمم » .

وندد الامام بذلك الموقف السلبى الذى كان يقفه عامة المسلمين من السلطة الحاكمة : تأثروا بالعقائد « الجبرية » التى لاتمت الى الدين بسبب ، فألقوا بجميع شئونهم على عاتق الحكومة متوهمين أنهم غير ملزمين الا بدفع ما تفرضه عليهم من ضرائب ، كما ندد بسوء فهم الحكام لمعنى الحكم ، حين استغلوه فى تسخير الناس لاشباع أهوائهم ، وتذليل الأفراد لسلطانهم ، وجمع الثروة وابتزاز الأموال ، لانفاقها فى قضاء شهواتهم وتحقيق مآربهم .

واقتنع المصلح الأخلاقى بأن التقدم « الجوانى » تقدم المعرفة والتربية والخلق ، هو التقدم الصحيح الباقى ، وهذا يصدق على الجماعات كما يصدق على الأفراد ، وعندنا أن ما رآه الأستاذ الامام فى اصلاح المجتمع انما هو اقتداء بما رآه النبى العربى أساسا لكل اصلاح انسانى .. قال عليه الصلاة والسلام : « **ما من عبد الا وله جوانى وبرانى** ـ بمعنى سريرة وعلانية ـ **فمن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه ، ومن أفسد جوانيه أفسد الله برانيه** » ، وقال : « **ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم** » .

وعلى الجملة نستطيع أن نقول ان الأستاذ الامام لم يكف قط عن مهاجمة الآراء الباطلة والأعمال الفاسدة فى مجتمع جهل معنى الدين فى جوهره وابتعد عن ادراك روحه ، ولم يبق منه عنده الا ظواهر لا تطابقها بواطن ، مجتمع تحكمت فيه الشهوات ، « فلم تبق رغبة تحدو بالناس الى العمل الا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب » ، مجتمع أخذ بلب أفراده المجد الكاذب « وأحب كل واحد منهم أن يحمد بما لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل » .

أنى يكون الخلاص اذن ؟ أينبغى أن نلتمس علاجا للمجتمع الاسلامى فى محاكاة آراء الغرب وعاداته ؟

وللاجابة على هذا السؤال نرى أن الأستاذ الامام قد سبق الى مهاجمة هذه النزعة ، نزعة الاقتباس عن آراء الغرب اقتباسا سطحيا ظاهريا ، عاريا عن الفطنة وبعد النظر ، فقال : « ان أرباب الأفكار منا الذين يرومون أن تكون بلادنا — وهى هى — كبلاد أوروبا — وهى هى — لاينجحون فى مقاصدهم ويضرون أنفسهم ، بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح · فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ورجع الأمر الى أسوأ مما كان » ، ثم قال : « ان الذين يرومون الخير الحقيقى لوطنهم يجب أن يوجهوا اهتمامهم الى اتقان التربية ونشر التعليم : اذ أن اصلاح التعليم يجعل تحقيق وجوه الاصلاح الأخرى أكثر يسرا ، ولكن الذين يتخيلون أن نقل أفكار الغرب وعاداته الى بلادهم سيصل بها بعد زمن وجيز الى درجة من المدنية تماثل مدنية الغرب ، هؤلاء يخطئون خطأ جسيما ، فهم يبدءون بما هو فى الحقيقة نهاية تطور طويل المدى ، فان الدول الأوروبية لم تصل الى ما وصلت اليه الا بعد أن صهرت بوتقة الزمن عقليتها ، وساقتها ضرورات الحياة الى يقظة وعيها ، وأدى الصراع الحربى والاقتصادى الى تطور الفكر فيها · اننا لو تأملنا تاريخ سير التقدم الأوروبى لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد ، وهو احساس نفوس الأهالى بآلام صعبة الاحتمال ، من ظلم الأشراف النبلاء ، وغدر الملوك ، وضيق وجوه الاكتساب ·· وهذا الاحساس هو الذى دفع الأنفس الكثيرة العدد الى الخروج من هذه الآلام ، فطبوا لذلك أسبابا متنوعة ، أقواها التعاضد والتعاون على ترويج وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق ، فكانت لذلك المحالفات والمعاهدات ، وتتألف الجمعيات · فكان جرثومة تقدمهم أمرا منبثا فى غالب الأفراد ومحرزا فى أغلب العقول : وهو نشاط الأهالى فى اجتلاب الثروة ، وطلبهم لحرية العمل لينالوها ، ثم تدرجوا فيه ينتقلون من الى حال ، حتى عم التغيير جميع العادات والمشارب والقوانين · واذن فقد كان فى الغربيين تقدما طبيعيا تدريجيا ·· « أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والأهالى على غير علم منها بأنفسهم » ·

ومن المحقق أن بعض المصريين قد اندفعوا الى محاكاة الأوروبيين فى مظاهر مدنيتهم وأعراضها فحسب مثل الترف والأبهة والزينة ، دون أن يسائلوا أنفسهم عن حقيقة تلك المدنية أو يفطنوا الى روحها ، وكان لهذه المحاكاة أثر غير حميد على عدد كبير من أغنيائنا ، اذ تورطوا فى الحماقات ، وسعوا وراء اللذات ، وأهملوا جوهر المدنية الصحيحة ، ألا وهو قداسة

القـــانون الأخـــلاقى ، والشعور بالحقوق الطبيعية ، وأداء الواجبـــات الاجتماعية ٠

ويختتم الأستاذ الامام ملاحظاته الناقدة بهذا النذير : « اننا نخشى لو تمادينا فى هذا التقليد الأعمى ، واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الواجبة ، أن تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا وأن يكون انتقالنا عنها على وجه تقليدى أيضـــا فلا يفيد » ٠ والطريق القويم هو التنوير وايقاظ الوعى العام وتشكيل جمعيات فى القرى والمدن ، لتفهم القوانين واللوائح والمنشورات ثم وضع حدود قويمة للأعمال والأخلاق والتصرفات : فان اصلاح الأخلاق والأفكار والأعمال من أهم واجبات البلاد ٠

تحليل رســـالة التوحيد

١ ـ علم التوحيد التقليدى :

علم التوحيد أو علم أصول الدين هو علم يشـــتمل على بيـــان الآراء والمعتقدات التى صرح بها الشرع ، واثباتهـــا بالأدلة العقلية ونصرتهـــا وتزييف كل ما خالفها ٠

وأصل معنى التوحيد ـ كما بينه الامام محمد عبده ـ هو اعتقاد أن الله واحد لا شريك له ٠ وسمى هذا العـــلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد ٠ والمهمة العظمى لبعثه النبى صلى الله عليه وسلم ـ هى اثبات الحقيقة كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ٠

فالغاية من هذا العلم اذن هى معرفة الله العالى وصفاته والتصديق برسله اعتمادا على الدليل الواضـــح من كتـــاب الله الذى أمر بالنظر ، واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، ونهـــانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم ـ هذه هى الصـــورة التقليدية لعلم التوحيد الاسلامى ٠

٢ ـ سمات « رسالة التوحيد » :

أما « رسالة التوحيد » التى كتبها محمد عبده ابان نفيه فى بيروت ، والتى نشرها بعد ذلك سنة ١٨٩٧ ، فهى كتاب صغير أوضح فيه القول عن العقائد الاســـلامية التى يراها أصـــولا لا غنى عنها ، وفوض لذوى البصيرة فى الدين تفصيل القول فيها ٠

والغرض من تاليف هذه الرسالة قد بينه المؤلف فى أكثر من موضع، فقال فى الفصل الذى عقده عن حاجة البشر الى رسالة الرسل : « ولسنا بصدد الاتيان بما قال الأولون ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون . ولكنا نلتزم ما التزمنا فى هذه الوريقات ، من بيان المعتقد ، والذهاب اليه من أقرب الطرق ، من غير نظر الى ما مال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق ، اللهم الا اشارة من طرف خفى أو الماعا لا يستغنى عنه القول الجلى » .

فهذه الرسالة ، على ما يبدو لنا ، تهدف الى غرض رئيسى هو تبيان تفوق الاسلام وكماله ، ولهذا نجد أن الأستاذ الامام بعد أن عرض عقائد الاسلام عرضا تفصيليا ، وبعد أن بسط القول فى وجود الله وصفاته ، وحرية الارادة الانسانية ، وأسس الخير والشر ، ونظرية الوحى والأحكام الدينية — نجد أنه خصص الفصول الأربعة الأخيرة لدراسة الاسلام باعتباره عاملا أخلاقيا واجتماعيا ، ودراسة تطوره التاريخى .

وقد قدم الأستاذ الامام لهذه الرسالة مقدمة مركزة رسم فيها المراحل الكبرى التى مر بها تطور العقيدة الاسلامية . وحسبنا ها هنا أن نبرز سمتين من سمات هذه المقدمة :

السمة الأولى : هى أن الأستاذ الامام يرى أن علم التوحيد انما نشأ مع الاسلام وقام بقيامه . صحيح أن تقرير العقائد وتأييدها كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام ، « ولكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون » وجاء الاسلام فنهج بالدين منهجا جديدا : أقام الدعوى ، وبرهن ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر .

والسمة الثانية : هى أن الرسالة تبين حقيقة غفل عنها الكثيرون ، وهى أن الاختلاف الذى وقع بين المسلمين وانقسامهم من حيث العقائد الى فرق متعارضة منشؤه أسباب سياسية ، وأن الشبهات ثارت « بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن » .

فاذا قارنا « رسالة التوحيد » لمحمد عبده برسائل التوحيد عند السنوسى أو النسفى أو اللقانى أو الفضالى ، لتبين الاختلاف بين وجهات نظر المؤلفين السابقين ووجهة نظر الأستاذ الامام : ذلك أن رائد الفكر المصرى قد أضفى على كلامه طابعا أخلاقيا لا نجده فى المؤلفات الأخرى عن التوحيد . فمنذ عهد الغزالى نقرأ لأول مرة فى العصور الحديثة بحثا فى الأخلاق الاسلامية ، يتجه الى الغرض مباشرة من غير اقحام للمجادلات التى تعبر عن جوهر العقيدة الايجابية السليمة ، ولا خوض فى مواضيع الخلاف بين المذاهب وقد أشار هو نفسه الى ذلك فى تقديمه لكتاب ، حين قال مبينا

منهجه فيه : « تمهيد مقدمات وسير فيها الى المطالب من غير نظـــر الا الى صحة الدليل ، وان جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، راميا الى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد ».

ومما يسترعى النظر فى طريقة محمد عبده فى التدليل أنه لا يلجأ فى « رسالة التوحيد » الى ايراد النصوص من القرآن أو الحديث ، بل يسعى الى اقناع العقل والقلب والارادة عند من يراد استمالتهم الى الاسلام . والامام يكرر القول بأن الاسلام لم يفرض نفسه أبدا على الناس بالقوة أو السيف ، خـلافا لما تخرص به المتخرصـــون وأن انتشـــاره بسرعة مدهشة لا نظير لها فى التاريخ ، انما مصدره ما وجد الناس فيه من كمال عقلى وأخلاقى استمال النفوس اليه .

ومزية أخرى من مزايا « رسالة التوحيد » أن المؤلف جعل تصور الدين أكثر مرونة وشمولا مما عهدنا لدى سلفه من المؤلفين . فالدين عنده ضرب من « الحدس » أو الشعور الفطرى ، هو أشبه بالبواعث الالهامية منه بالدواعى الاختيارية . واذا صح ذلك فما على النفوس الا أن ترجع بالدين الى أصوله الطاهرة الأولى ، وتضع عنه أوزار البـــدع ، فتتلقى الهداية من ذلك الحدس الفطرى ، وترجع الى الدين قوته وتظهـر للأعمى حكمته : « الدين حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وســائل السعادات » . ثم هو « من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه » .

ولكن ليس معنى هذا عند الأستاذ الامام أن يهمل شأن العقل بالمرة فى قضايا الدين : فلقد بين لنا أن الاسلام دين يعتمد على العقل قبل كل شىء ، وانما المراد هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد الهى .

٣ ــ نظرية النبوة :

فاذا خطونا الى نظرية النبوة ، كمـــا بسطها الامام فى « رســـالة التوحيد » ، تبينا كيف أضفى على الوحى معنى « جوانيا » عميقا . فبعد أن ذكر ما قيل فى تعريف الوحى بأنه « اعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى » ، قال : « أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبـــل الله ، بواســـطة أو بغير واســـطة » .

ويفرق الأستاذ الامام بين « العرفان » و « الالهام » فيقول : « الالهام وجدان تستيقنه النفس ، وتنساق الى ما يتطلب على غير شعور منها من

أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » ولكن الوحى ممكن فقط لمن اصطفاهم الله ، أى للأنبياء عليهم السلام ·

ويرى الأستاذ الامام أن « بعثة الرسل » ، ضرورية لأسباب ردها الى سببين : أحدهما نفسانى · والثانى اجتماعى · ويقول : اذا نظرنا الى الانسان من الناحية النفسانية تبينا أن فيه ميلا فطريا الى سعادة تفوق قدرته العقلية · ولما كان الانسان عاجزا بنفسه عن أن يعرف ماهية ذلك المصير وماهية تلك السعادة ، وماهيـــة الوسائل للوصـــول اليهـــا ، فقد تولى الله برحمته أن يرسل من حين الى حين رسلا يكشفون للناس عن شىء من العلم الذى تلقوه من المنبع الأعلى ·

أما الدليل الاجتماعى على الرسالة ، فالفكرة الأولى فيه هى أن قانون المحبة والعدالة ينبغى أن يهدى الانسانية فى علاقات أفرادها بعضهم مع بعض · ولكن ذلك القانون قد أهمله النـــاس اهمالا صـــارخا ، ففشت فى المجتمع ضروب الظلم والأنانية ، وهما سبب الفرقة والاختـــلاف بين الناس ، ولذلك حقت رســـالة الرســـل الى الانســـانية لدعوتها الى ذلك القانون ، وانقاذها مما هى فيه من شرور وآثام ·

فبعثة الرسل فى صميمها روحية ، القصد منها تربية الأمم ، وهى من متممات كون الانسان ووجوده على الأرض ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع الانسانى منزلة العقل من الشخص والفرد ·

٤ ــ فلسفة تاريخ الدين :

ولعل مما يسترعى نظر الباحث فى آراء الأســـــتاذ الامام أنه أقام نظريته فى الاسلام على ما يمكن أن يسمى «فلسفة تاريخ الأديان» ، ومجمل تلك النظرية أن الدين فى جميع الأزمان واحد ، وأن مشيئة الله فى اصلاح الانسانية واحدة · وكل واحـــد من الأديان الثلاثة الكبرى ــ اليهودية والمسيحية والاسلام ــ بمثابة مرتبة من مراتب الشعور الدينى فى تطوره · لقد مرت بالانسانية أزمان والناس من فهم مصالحهم فى طور هو أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالعالم ، لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ، فكان من الحكمة أن يجىء دين يخاطب الحواس (ويقصد اليهودية » · ثم تدرجت الانســـانية ودق حسها ، ولطف شـــعورها فجاء دين يناسب هذه الحال ، فيخاطب القلب والشعور (يقصد المسيحية) · ثم بلغ الشعور الدينى اكتمال نضجه ، فظهر دين يخاطب العقل ، ويشركه مع العواطف والاحساس (يقصد الاسلام) · لكن هذه الأديان الثلاثة متفقة فى جوهرها ما دامت تنشد عبادة الله وهداية الناس فى صدق واخلاص ·

٥ ـ « ارادية الرسالة » :

والأمر الجدير بالذكر هو موقف الشيخ محمد عبده من مشكلة الارادة الانسانية التى اختلفت فيها الفرق الاسلامية • فنرى الامام المصلح يدلى بنظرية توفق بين علم الله وفعل الانسان ، وتبين ان الانسان يشعر بكسبه لأفعاله ولكنه يجب عليه أن يعلم أيضا ان قدرة الله فوق قوته ، وأنها تحيط بجميع أعماله •

ومهما يكن عند الأستاذ الامام من طرافة النظرة فى هذا الموضع أو فى غيره ، فان هنالك شيئا لا ريب فيه : وهو أنه كان حريصا كل الحرص على أن يقيم فلسفة اسلامية قوية ، تدعو الى تعاليم الحرية ، وتبث أخلاق الصبر والجهد والعمل ، فتوقظ العالم الاسلامى من حال النعاس والخمود ، وتبعث فيه أملا كان من قبل حقيقة واقعة ، تعيد اليه سابق مجده فى مجالات العلم والدين والأخلاق والسياسة جميعا •

نصوص مختارة

حرية أفعال الانسان :

« كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقوة ما فيه ، ويعد انكار شىء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل •

كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس • ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه أن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على حال بينه وبين ما يشتهى ، ان كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه ، لوجد انه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه ، فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هبت ريح فأغرقت بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل ، يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل

الى ان حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجـــود واحد يصرفه على مقتضى عمله وارادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر اليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ٠

فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ٠ وقد عرف القوم شكر الله على نعمـــة ، فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لأجله ٠

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيئا منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه ٠

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عنيـــه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه ٠

وقد خاض فيه الغـــالون من كل ملة ، خصوصـــــا من المسيحيين والمســـــلمين ٠ ثم لم يزالوا بعد طـــول الجـــدال وقوفا حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق ، وهو غرور ظاهر ، ومنهـــم من قال بالجبر ، وصرح به ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف ، وابطال لحكم العقل البديهى ، وهو عماد الايمان ٠

ومن مميزات الانسان حتى يكون غير سائر أنواع الحيوان ان يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان اما ملكا أو حيوانا آخر ، والفرض أنه هو الانســـــان ٠

فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل ٠ ثم علم الواجب (أى علم الله) محيط بما يقع من الانسان بارادته ، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا ، وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخـــر شر يعاقب عليـــه عقاب الشر ، والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ، فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب ، وكون ما فى العـــلم يقع لا محالة انما جاء من حيث هو الواقع ، والواقع لا يتبدد ٠٠ » ٠

انتشار الاسلام بفضل تعاليمه :

« جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين . فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العليـــة ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم ، وأنهم له واليه راجعون .. » .

« اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنهـــا فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة . تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام .. وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة ، بحيث أصبح لا يخضع لأحـــد الا لخالق الســماوات والأرض وقاهـــر الناس أجمعين .. » .

« تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غير ــ سواء كانت ارادة بشرية ــ ظن أنها شعبة من الارادة الالهية ــ أو أنها هى كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها » .

« صار الانسان بالتوحيد عبدا لله خاصة ، حرا من العبودية ، لكل من ســـــواه ، فكان له من الحق ما للحـــــر على الحر : لا على فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا تفاضـــــل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء .. » .

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، .. وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة .. » .

« أنحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصـــــوله الراســـــخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم .

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم : ثم فان الليل حالك ، والطريق وعرة ، والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة .

علا صوت الاسلام على وساوس الطعام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ـ أعلام الكون ودلائل الحوادث ·

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ··

عاب أرباب الأديان فى اقتفاء أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختلطته لهم سير أسلافهم ·· فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استبعده ، وردّه الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته ··

بهذا وما سبقه للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما : وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ··

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين ، وان كانوا الا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ، ويزعمون فى ذلك انهم بحبل الله مستمسكون : فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب · أنكر الاسلام ذلك كله ، وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد ·· والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه ، معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته ·

جاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والأخروية · وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على ان دين الله فى جميع الأجيال واحد · ومشيئته فى اصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر القلوب · وطالب المكلف برعاية جسده ، كما طالبه باصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهرا مطلوبا ، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وأن ما فرض من الأعمال انما هو لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق ·· ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر ، بل فضله عليه ، وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح

الهادى للرجل الرشيد : فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى فى صلاح الدنيا ٠

شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل : فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ٠ ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين ، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ، وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه ٠٠ ثم أخذ العهد على المسلمين ان يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ٠ ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ٠ ونهى بعد أداء الجزية عن كل اكراه فى الدين ٠٠

زفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر أن لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة ، وشرف اندراجها فى النوع الانسانى فى الجنس والفصل والخاصة ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ٠٠

تاثير رسالة التوحيد

كان لتعاليم الأستاذ الامام عموما ولرسالة التوحيد خصوصا أثر كبير لا فى مصر ، بل فى العالم الاسلامى كله ٠

أما فى مصر فقد ترجم الشيخ مصطفى عبد الرازق (مع المسيو برنار ميشيل) « رسالة التوحيد » الى الفرنسية سنة ١٩٢٥ وصدرها بمقدمة مستفيضة نفيسة عن حياة الشيخ محمد عبده وآثاره ، وخدمته للعقيدة الاسلامية بتأليف هذه الرسالة ٠

وأما فى الهند فقد تولى بعض العلماء ترجمتها الى اللغة الأوردية ، ثم وضعت فى برامج الدراسة فى جامعة على جار (عليكرة) وغيرها من المعاهد الاسلامية فى الهند وباكستان ٠

وفى تركيا قام الأستاذ « محمد شرف الدين » مدير المعهد الاسلامى بكلية الآداب بجامعة استنبول بتدريس مذهب الأستاذ الامام ، على ما هو مبسوط فى « رسالة التوحيد » ٠

وما من شك فى أنه كان لرسالة التوحيد ولغيرها من مؤلفات الامام أكبر الأثر فى توجيه حركات التجديد ، التى لا تزال الى يومنا هذا تزداد على الأيام نموا وازدهارا ، بفضل دعوة التنوير التى بدأها فى مصر وامتدت اشعاعتها الى ربوع العالم الاسلامى ، حتى صح لنا ان نقول مع قاسم أمين : « نعم كان للامام الكبير الذى فرض على نفسه اصلاح أمته خصوم وأعداء كثيرون : وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه ، فاقتصروا على التمسك بما وجد عليه آباؤهم من قبل ·· فكان الاستاذ الامام يحارب هذا الجيش الطويل العريض بقوة وعزيمة يحار العقل فيهما · ولكنه كان يدافع بقدر الضرورة ولا يتعداها ، ويحارب حرب الشجاع الكريم الذى لا يطعن من الخلف ولا يخدع ولا يغش ، وكان فضلا عن ذلك لا يكره خصومه ولا يبغض أعداءه ، وانما يناقش أفكارهم ، ويطعن على أوهامهم ، ويهدم معتقداتهم الباطلة ، ويرجو لهم الهداية ، ويرشدهم الى الصواب » ·

***

ولا نزاع اليوم فى أن « عبقرى الاصلاح والتعليم » ــ كما دعاه فقيدنا الكبير عباس العقاد ــ هو طراز ممتاز من علماء المسلمين ·

واذا كان قد استحق لقب « الأستاذ الامام » فذلك لأنه لم يكن اماما فى شئون الدين فحسب ، بل كان اماما فى أمور الدنيا أيضا ·

ولا يخفى أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة الدنيوية ، على نحو ما عهدنا فى سيرة ذلك المصلح الفيلسوف ، هو الجوهر الخالص من تعاليم الاسلام ·

* * *

الفهرس الشامل للأجزاء الستة مرتبا ترتيبا زمنيا ..

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١	كتاب الموتى	كهنة هوليوبولس	٤٥٥٠ ق.م	٦	١٠
٢	شريعة حورابى	حمورابى	١٧٢٦ ق.م	٦	٣٠
٣	أنشودة التوحيد	اخناتون	١٣٨٠ـ١٣٦٢ ق.م	٥	١١
٤	الالياذة	هوميروس	٩٠٠ ق.م	٣	١٣
٥	الأفستا المقدسة	زرادشت	٦٥٠ ق.م	٦	٦٤
٦	الكتب الخمسة	كنفوشوس	٥٥١ ق.م	١	٢٦
٧	الفرس	اسخيلوس	٤٥٠ ق.م	٦	٨٤
٨	ميـديا	يوربيديس	٤٣١ ق.م	٥	٣١
٩	التاريخ الجامع	هيرودوت	٤٢٧ ق.م	٢	١٠
١٠	الضفادع	أرستوفانيس	٤٠٥ ق.م	٥	٤٩
١١	المحاورات	سـقراط	٤٠٠ ق.م	٣	٣١
١٢	الجمهورية	أفـلاطون	٤٠٠ ق.م	١	٣٩
١٣	أوديب ملكا	سوفركليس	٤٠٠ ق.م	٤	٩
١٤	الموسوعة الأبقراطية	أبقـراط	٣٧٥ ق.م	٣	٥٩

تابع الفهرس الشامل للأجزاء الستة مرتبا ترتيبا زمنيا ٠

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١٥	فن الشعر	أرسطوطاليس	٣٣٥ ق٠م	٢	٣٤
١٦	أصول الهندسة	اقليدس	٣٠٠ ق٠م	١	٦٤
١٧	عن الصداقة	شيشرون	٤٤ ق٠م	٣	٧١
١٨	الانيـادة	فرجيل	١٧ ق٠م	٤	٢٥
١٩	مصنفات جالينوس الطبية	جالينوس	١٥٠ ـ ٢٠٠م	٥	٦١
٢٠	كليلة ودمنة	ابن المقفع	٧٥٠ م	٣	٩٩
٢١	العين	الخليل بن أحمد	٧٨٠ م	٣	١٢٣
٢٢	الموطـأ	مالك بن أنس	٧٨٥ م	٤	٤٥
٢٣	المحاورات	باركلى	٨٠٠ م	٦	٩٨
٢٤	الرسـالة	الشافعى	٨١٥ م	٣	١٤٣
٢٥	الرسائل الفلسفية	الكندى	٨٢٥ـ٨٦٦ م	٦	١١٦
٢٦	الأغـانى	الأصفهانى	٨٨٥ م	٣	١٦٥
٢٧	الجامع لصناعة الطب (الحاوى)	الرازى	٩٠٠ م	٥	٨٣
٢٨	ديوان المتنبى	أبو الطيب المتنبى	٩٠٠ـ٩٦٥م	٥	١٠٥

تابع الفهرس الشامل للأجزاء الستة مرتبا ترتيبا زمنيا ..

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٢٩	تاريخ الأمم والملوك	الطبرى	٩٢٠ م	٥	١٤٣
٣٠	العقد الفريد	ابن عبد ربه	٩٣٠ م	٤	٦٣
٣١	احصاء العلوم	الفـارابى	٩٤٠ م	٣	١٨٣
٣٢	الامتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى	٩٨٠ م	٦	١٤٤
٣٣	رسائل اخوان الصـــفا	اخوان الصفا	٩٨٣ م	٥	١٦٩
٣٤	القانون فى الطب	ابن سينا	١٠١٠ م	١	٧٦
٣٥	الشـاهنامه	الفردوسى	١٠١٠ م	٥	١٩٣
٣٦	تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق	ابن مسكويه	١٠٢١ م	٢	٥٧
٣٧	طوق الحمامة فى الألفة والايلاف	ابن حزم	١٠٢٦ م	٦	١٦٨
٣٨	القانون المسعودى فى الحياة والنجوم	البيرونى	١٠٣١ م	٣	٢٠٧
٣٩	رسالة الغفران	أبو العلاء المعرى	١٠٣١ م	٢	٧٤
٤٠	الرباعيات	عمر الخيام	١٠٨٠ م	٢	٩٨
٤١	احياء علوم الدين	الغزالى	١١٠٠ م	٢	١٢٠
٤٢	نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق	الادريسى	١١٥٤ م	٥	٢١٧

تابع الفهرس الشامل للأجزاء الستة مرتبا ترتيبا زمنيا ..

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٤٣	حى بن يقظان	ابن طفيل	١١٨٤ م	٦	١٩٠
٤٤	معجم البلدان	ياقوت الحموى	١٢٠٠ م	٥	٢٣٥
٤٥	الفتوحات	ابن عربى	١٢٣٨ م	٢	١٤٠
٤٦	شرح تشريح القانون	ابن النفيس	١٢٨٠ م	٣	٢٣٣
٤٧	تحفة النظار وغراب الأمصار وعجائب الأسفار	ابن بطوطة	١٣٢٤ـ١٣٥٤ م	٦	٢٠٩
٤٨	المقدمة	ابن خلدون	١٤٠٠ م	١	٩٦
٤٩	حياة الحيوان الكبرى	الدميرى	١٤٠٠ م	٥	٢٥٧
٥٠	الكوميديا الالهية	دانتى	١٤٧٢ م	٤	٨١
٥١	الأمير	مكيافيلى	١٥١٣ م	١	١١٧
٥٢	حركات الكرات السماوية	كورنيكوس	١٥٤١ م	٥	٢٧٧
٥٣	دون كيشوت	سرفنتيس	١٦٠٥ م	٤	٩٩
٥٤	مسرحيات شكسبير	شكسبير	١٥٩٠ـ١٦١٦ م	٣	٢٥١
٥٥	حركة القلب والدم	وليم هارفى	١٦٢٨ م	٥	٢٩٥

تابع الفهرس الشامل للأجزاء الستة مرتبا ترتيبا زمنيا ..

مسلسل	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٥٦	التأملات	ديكارت	١٦٤١ م	١	١٤٤
٥٧	الفردوس المفقود	جون ملتون	١٦٦٧ م	٦	٢٣٤
٥٨	البخيل	موليير	١٦٦٨ م	٥	٣١٣
٥٩	علم الأخلاق	اسبينوزا	١٦٧٧ م	٢	١٥٨
٦٠	ألف ليلة وليلة	مجهولة المؤلف	مجهولة التاريخ	٢	١٨٢
٦١	المبادىء	نيوتن	١٦٨٧ م	١	١٦٤
٦٢	مبحث فى العقل الانسانى	لوك	١٦٩٠ م	٦	٢٥٢
٦٣	روبنسون كروزو	ديفو	١٧١٥ م	٣	٢٧٩
٦٤	روح القوانين	مونتسكيو	١٧٤٨ م	١	١٧٨
٦٥	دائرة المعارف الكبرى	ديدرو	١٧٥١ م	٢	١٩٨
٦٦	العقد الاجتماعى	جان جاك روسو	١٧٦٢ م	٢	٢٢٨
٦٧	ثروة الأمم	آدم سميث	١٧٧٦ م	١	٢٠٢
٦٨	فاوست	جوته	١٨٢٥ م	٤	١١٧
٦٩	فى قانون الاسكان	مالتوس	١٨٣٠ م	٦	٢٧٤

تابع الفهرس الشامل للأجزاء الستة مرتبا ترتيبا زمنيا ..

مسلسل	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٧٠	فلسفة التاريخ	هيجل	١٨٣٢ م	٢	٢٧٢
٧١	فى التربية الجمالية للانسان	شيلر	١٨٣٧ م	٢	٢٥٢
٧٢	الكون	هومبولت	١٨٤٥ م	٢	٣٠٤
٧٣	الاخوة كرامازوف	دوستويفسكى	١٨٥٩ م	٦	٢٩٦
٧٤	أصل الأنواع	داروين	١٨٥٩ م	١	٢٢٤
٧٥	عن الحرية	جون ستيوارت مل	١٨٦٠ م	٤	١٣٣
٧٦	الحرب والسلام	ليوتولستوى	١٨٦٤ م	٤	١٥٣
٧٧	رأس المال	كارل ماركس	١٨٦٧ م	١	٢٤٤
٧٨	تحرير المرأة	قاسم أمين	١٨٩٤ م	٤	١٦٩
٧٩	قواعدالمنهج فى علم الاجتماع	دور كايم	١٨٩٥ م	٤	١٩٥
٨٠	أشعار طاغور	طاغور	١٨٩٠-١٩٤١ م	٤	٢٠٩
٨١	رسالة التوحيد	محمد عبده	١٨٩٧ م	٦	٣٢٤
٨٢	الشوقيات	أحمد شوقى	١٩٠٠-١٩٣٢ م	٤	٢٣١
٨٣	تفسير الأحلام	سيجموند فرويد	١٩٠٠ م	٤	
٨٤	النظرية النسبية	آينشتين	١٩٠٥ م	١	٢٥٩
٨٥	تدهور الغرب	اشبنجلر	١٩١٨ م	٥	٣٢٥

الهـــــوامش

(١) (أنوم) رب السماء ويعبد فى معبد (ايانا) مع المعبودة (اينانا) فى الوركاء ٠

(٢) الـ (انوناكى) فى هذا النص هم الآلهة الصغرى فى خدمة (انوم) والـ (اجيجى) هم الآلهة الصغرى فى خدمة (انليل) ٠

(٣) (أنليل) رب العاصفة وله معبد هو « ايكور » فى نيبور وسط بابل ٠

(٤) (مردوك) هو ابن (انكى) وزوج (ساربانيت) وهو اله بابل ثم الـ الامبراطورية فى عهد حمورابى ٠

(٥) (انكى) رب الأرض وكتلة المياه التى تسبب الحياة فيها وهو أب (مردوك) ومعبده هو (ايابزو) فى (اريدو) جنوب بابل ٠

(٦) (دورانكى) رباط السماء والأرض وهو اسم سومرى لـ (نيبور) يشير الى تمجيدها وهى مركز عبادة (انليل) صاحب معبد (ايكور) ٠

(٧) (سن) هو اله القمر وهو ابن (انليل) أب (شمش) وزوج (ننجال) وعبادته فى معبد « ايجيش شرجال » فى أور فى جنوب بابل ٠

(٨) (شمش) اله الشمس ورب العدالة زوج (آيا) ومعبده (ابابار) يقع فى (سيبار) شمالى بابل ٠

(٩) (لارسا) مقر آخر لعبادة (شمش) وهى الى جنوب بابل (سنكرة حاليا) ومعبدها يدعى كذلك (ايبابار) وقد تم استيلاء حمورابى عليها فى العام الثلاثين من حكمه بعد أن قضى على آخر ملوكها (ريم سن) ٠

(١٠) (الوركاء) (أوروك) مدينة مهمة فى جنوب بابل فتحها حمورابى فى العام السادس من حكمه هى مقر عبادة (أنوم) ، و (اينانا) ويعرف معبدها باسم (ايانا) ٠

(١١) (ايسن) مدينة فى جنوب (نيبور) فتحها (ريم سن) من العام التاسع والعشرين من حكمه ثم فتحها حمورابى فى العام السادس من حكمه وهى مقر عبادة (نن كاراك) واسم معبدها (ايجالما) ٠

(١٢) (زابابا) صورة أخرى لـ (نينورتا) ويعبد بخاصة فى (ايميته أورساج) فى (كيش) شمال شرقى بابل ٠

(١٣) (هورساج كلاما) معبد (اينانا) فى (كيش) حيث كانت تعبد كزوجة لـ (زبابا) ٠

(١٤) (أيررا) رب الحرب ويقرن كثيرا بـ (نرجال) وله معبد فى (كوته) شمال بابل هو (مسلام) ٠

(١٥) (توتو) لقب من ألقاب (مردوك) أصلا ، وهو هنا لقب لابنه (نابوم) اله الكتابة ومقر عبادته (بورسيبا) قرب (بابل) بمعبدها (ايزيدا) ٠

(١٦) (دلبات) مدينة لا تبعد كثيرا عن بروسيا وهى مقر عبادة (أوراش) ٠

(١٧) (ماما) ربة تعبد فى (كيش) قرب (لجش) فى وسط بابل وهى تعرف كذلك باسم (ننتو) ٠

(١٨) (جرسو) وهى (لجش) (تللو حاليا) مدينتان توأمان في وسط بابل واله المدينة هو (ننجرسو) ومعبده (انينو) ٠

(١٩) « تليتوم » لقب « اينانا » ٠

(٢٠) (حلاب) مدينة فى بابل هى مقر عبادة عشتار ومكانها الحالى مجهول ٠

(٢١) (عشتار) الاسم السامى للمعبودة (اينانا) ٠

(٢٢) (ادد) رب الجو ومعبده (ايود جالجال) فى بيت كاركار (ومكانهما غير معروف) ٠

(٢٣) اداب مدينة على الفرات فى وسط بابل (بسمايا حاليا) ومعبودتها (ماه) ومعبدها (أى ماه) ٠

(٢٤) (مشكان شيريم) مدينة لا تبعد كثيرا عن (اداب) ٠

(٢٥) (مالكا) مدينة فى أواسط الفرات غزاها حمورابى فى السنة التاسعة واخمد ثورة لها فى العام الرابع والثلاثين وهى مقر عبادة (انكى) وزوجته (دامجال نونا) التى تعرف كذلك باسم (دامكينا) وهى أم (مردوك) ٠

(٢٦) (داجان) اله حبوب سامى ، أصله غربى ، نقلت عبادته الى (ميزوبوتاميا) وعبد بخاصة فى أواسط الفرات ٠

(٢٧) (ميرا) و (توتول) مدينتان فى وسط الفرات وربما كانت (ميرا) هى « مارى » (تل الحريرى حاليا) التى غزاها حمورابى فى العام الثانى والثلاثين ٠

(٢٨) (نينازو) اله الطب ومقر عبادته بخاصة هى (اشنونا) فى معبده « ايسيكيل » ٠

(٢٩) (اكد) مدينة قديمة فى شمال بابل أسسها سرجون العظيم وجعل منها عاصمة له وهى مقر عبادة (عشتار) ومعبدها (يولماش)

(٣٠) (آشور) العاصمة القديمة على دجلة الأعلى (قلعة شرجات حاليا) ٠

(٣١) (نينوى) عاصمة آشور فيما بعد على دجلة الأعلى وهى عبادة (اينانا) ومعبدها (ايميش ميش) ٠

(٣٢) (سرمو لا ايل) الملك الثانى للأسرة البابلية ٠

(٣٣) (سومر) و (اكد) سومر الاسم القديم لجنوبى بابل ، واكد الاسم القديم لشمالها والاسمان معا اسم عام للاقليم جميعه ٠

(٣٤) الرجل يقصد به دائما المواطن من طبقة الأحرار ٠٠

(٣٥) البهلوية : كتبت الافستا باللغة الزندية ومن ثم تسمى زند ـ افستا أما النصوص فقد كتبت بلهجة ذات أصل هندى ، اشتقت من اللغة الفارسية الحديثة ٠

(٣٦) مازدا أهوار : ليس اسم (أهوار مازدا) من خلق زرثوسترا ، بل عثر عليه فى نص اشورى بهجاء مختلف ، من تاريخ أقدم ، وهو يعنى هناك « السيد العاقل » ٠

(٣٧) ديونيسيوس : اله الخمر والاخصاب عند اليونان ٠

(٣٨) « طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة جـ ١ ، ص ٢٠٧

(٣٩) نشرت له ثلاث رسائل ، كتاب الكندى فى الفلسفة الأولى من القاهرة ١٩٤٨ ، رسالة النفس من مجلة الكتاب أكتوبر ١٩٤٨ ، رسالة العقل ـ مع تلخيص كتاب النفس لابن رشد وأربع رسائل ١٩٤٩ ـ ونشر الدكتور أبو ريدة مجموعة رسائله فى مجلدين ـ القاهرة ١٩٥٠ ، ١٩٥٤ ، ونشر بعض المستشرقين رسائل متفرقة فى مجلات أجنبية ٠

(٤٠) هذه الاشارة التى وضعناها قبل كل رقم تدل على أن الكتاب مطبوع ٠

(٤١) ذم الوزيرين ٠ عرف هذا الكتاب بأسماء مختلفة ، ففى (وفيات الأعيان) ٦٠/٢ مثالب الوزيرين وفى (كشف الظنون) ٣٩٠/٢ مثالب الوزيرين ، وفى (معجم الأدباء) ١٨٦/٦ (أخلاق الوزيرين) ٠

(٤٢) ثمرات العلوم : ذكرها بروكلمان تحت عنوان (رسالة فى وصف العلوم) ٠

(٤٣) نسبة الى ديرقنى فى العراق ٠

(٤٤) قد رتبت خطأ فى نشرة الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين بحيث جعلت الليلة الثالثة عشرة ، ثم تتابع الخطأ فى العدد الترتيبى بعد ذلك الى نهاية الكتاب بأجزائه الثلاثة ٠ وحقيقتها أنها الليلة الثانية عشرة ، لكننا نؤثر الابقاء على الترتيب الموجود فى الكتاب لسهولة المراجعة ٠

(٤٥) انظر رأى ابن حيان فى (الذخيرة) لابن بسام ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ٠

(٤٦) اقليم ليلة : يقع هذا الاقليم فى غرب الأندلس قرب المحيط الأطلسى ٠

(٤٧) د٠ أحمد أمين (حى بن يقظان) ٠

(٤٨) راجع كتاب « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ٠ د٠ زكى محمد حسن

(٤٩) راجع الجزء الأول من كتاب « قصة الأدب فى العالم » للدكتور أحمد أمين ٠

(٥٠) قامت الحرب الأهلية فى انجلترا بين أتباع الملك شارل الأول وأتباع البرلمان وانتهت بفوز كروميل واعدام الملك وقيام الجمهورية عام ١٦٥٣ ٠

(٥١) هم فرانسيس ماشام وزوجته وأماريس كودورث ـ ابنة الفيلسوف رالف كودروث أحد أفلاطيى كمبردج ٠

المراجـــع

١ ـ أصـــول الكتب الخمسـة عشر

٢ ـ قصـــة الحضـــارة ول ديـــورانت

٣ ـ قصـــة الأدب في العالم
د ٠ أحمد أمين ، د ٠ زكى نجيب محمود

٤ ـ الموســـوعة الفلسفية
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

٥ ـ معالم تاريـخ الانسانيـــة هـ ٠ ج ـ ولز

٦ ـ الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب
ســـامى اليافى

٧ ـ فى الأدب المصرى القديم أحمد عبد الحميد يوسف

٨ ـ كتـــاب تاريخ مصر جيمس هنرى برســـتد

٩ ـ الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة
ســـير ٠و٠م ـ فلندر زيترى

١٠ ـ الخلود فى حياة المصريين د ٠ ســـيد عويس

١١ ـ على ضفاف النيـــل توفيق مفـــرج

١٢ ـ أعلام الفكر الاســـلامى أحمـــد تيمـــور

١٣ ـ الكندى فيلسوف العرب أحمد فؤاد الأهوانى

١٤ ـ الرواية الروسية فى القرن التاسع عشر
مكارم الغمـــرى

١٥ ـ فلاســـفة الشرق أ٠و٠ف٠ تـــوملين

١٦ ـ الخالدون العـــرب قدرى حافظ طوقان

١٧ ـ فلاســـفة الاســـلام ســـيد عبد العزيز

١٨ ـ ابن بطوطة فؤاد بـــدوى

١٩ ـ ابن بطوطة فى العالم الاسلامى ابراهيم أحمـــد العدوى

٢٠ ـ رحلة ابن بطوطة من طنجه الى الصين والأندلس وأفريقيا ٠
محمد محمـــود الشرقاوى

٢١ ـ أبـــو حيـــان التوحيدى ابراهـــيم الكيلانى

٢٢ ـ أبو حيان التوحيدى أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء
د ٠ زكريا ابراهيـــم

٢٣ ـ فلسفة ابن طفيل ورسالته حى بن يقظان
د ٠ عبد الحليم محمـــود

٢٤ ـ رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده
عثمـــان أمين

٢٥ ـ عبقرية الاصلاح والتعليم الأستاذ محمد عبده
عباس محمود العقاد

٢٦ ـ محمد عبده بطل الثورة الفكرية فى الاسلام
قـــدرى قلعجـــى

٢٧ ـ جـــــون لـــوك عزمى اســـــلام

٢٨ ـ المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة
رمزى زكـــى

٢٩ ـ جون لوك شاعر الفردوس المفقـــود
ترجمـــة / حسن حسين شكرى

٣٠ ـ أعلام الفكر الأدبى من سقراط الى سارتر
هنـــرى تـــوماس

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـتردیل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بيـل شـول وأدينيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتـــور هـــوجو
الجـزء والكل (محـاورات فى مضـمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبـرج
التراث الغامض ماركس والماركسـيون	سـدنى هـوك
فن الأدب الروائى عنـد تولستوى	ف ٠ ع أدنيـكوف
ادب الأطفـال	هادى نعمـان الهيتى
احمـد حسـن الزيات	د٠ نعمـة رحيم العـزاوى
اعـلام العـرب فى الكيمياء	د٠ فاضل احمـد الطـائى
فكرة المسرح	جـلال العشرى
الجحيـم	هنـرى باربوس
صـنع القـرار السـياسى	السـيد عليـوة
التطـور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسـكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجـر سـتروجان
تربيـة الدواجن	كـاتى ثيـر
الموتى وعالمهم فى مصر القـديمة	ا ٠ سـبنسر
النحـل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحـدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السـنة	د٠ جـون شـندلر
الصـحافة	بييـر البيـر
اثر الكوميـديا الالهية لدانتى فى الفـن التشـكيلى	د٠ غبـريال وهبـة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعـدها	د٠ رمسيس عـوض
حركة عدم الانحياز فى عـالم متغير	د٠ محمد نعمان جـلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومـر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شـوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصـغار	د٠ محيى الدين أحمد حسـين

نظريات الفيلم الكبرى	ج · دادلى انـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د · جـوهان دورشـز
حـرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د · السـيد عليـوة
الميـكروكمبيـوتر	د · مصـطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضـل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابريل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطـونى دى كرسـبنى
كتـابة السـيناريو للسـينما	دوايت سـوين
الزمن وقياسـه	زافيلسـكى ف · س
اجهـزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر راى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهمـوس
التجـربة اليـونانية	س · م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د · عاصم محمـد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د · سمبسـون
الشارع المصرى والفـكر	د · انور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمـان روسـتو
تبسـيط الكميـاء	فـريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون يوركهـارت
التـذوق السـينمائى	الآن كاسـبيار
التخطيط السـياحى	سـامى عبـد المعطى
البـذور الكونيـة	فـريد هـويل
دراما الشاشة (٢ ج)	شـاندرا ويكـراما ماسينج
الهيـرويين والايدز	حسين حلمى المهندس
نجيب محفوظ على الشـاشة	روى روبرتسـون
صـور افريقيـة	هاشـم النحـاس
	دوركاس ماكلينتـوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لوري
وظائف الاعضاء من الالف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر . بورد وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د. صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ. كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه ابو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
تراثيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / مونى براخ وآخرون

دليل تنظيم المتاحف	نادين جورديمر وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى	آدامز فيليب
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان رايلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بيرر برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج . بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد .
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار/ د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى الف عام	بينارد بودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريشو تود
حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ ج . ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم

رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشاردف بيرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز متز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جيزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج · كارفيل
فن التايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة ٣ ج	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف · م · بوجز
خفايا نظام النجم الامريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاير
ما هى البيولوجيا	ويليام هـ · ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناش
انواع الفيلم الاميركى	ستالين جين سيولومون
رحلة الأمير ردولف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام
المرأة الفرعونية	كريستيان ديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السى	روبرت لافنو

الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجمل تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	د.بفيد بوشيذر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت.ج.ه. جيمز

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٩٢٤٥

ISBN — 977 — 01 — 4932 — 2

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء السابع

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء السابع
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Seven
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1996
الناشر	الهيئة المصرية العامة للكتاب
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	977- 01 5000 - 2
المستخلص	يتناول الجزء السابع من كتاب " كتب غيرت الفكر الانسانى " استعراض لخمسة عشر كتاب من الكتب الرائدة والتى اثرت تاثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر العصور والدهور والغرض من هذه الموسوعة توضيح القوة العاتية للكتب وتاكيد الدور الخطير للكتاب فى تغيير مجرى الاحداث تغييرا كليا وذلك عن طريق مناقشة امثلة معينة والهدف هنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها اعظم الاثر واعمقه على الفكر الانسانى منذ اقدم العصور الى يومنا هذا . ومن ابرز الكتب التي تضمنها هذا الجزء (ملحمة جلجامش - المعلقات السبع - الشعر الغنائي - البخلاء) وغيرها من الكتب الرائدة .
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022109-001*

كتب غيرت الفكر الإنسانى

أحمد محمد الشنوانى

الجزء السابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

كتب غيرت الفكر الإنساني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

الفهـــــرس

الموضوع	صفحة

المقدمة

يقول الجاحظ فى وصفه للكتاب :

« الكتاب وعاء ملىء علمـــا ، وظرف حشى ظرفا ... وبستان يحمل فى ردن (١) ، وروضة تنقل فى حجر ، وناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء ..

ولا اعلم رفيقا اطوع ولا معلما اخضع ولا صاحبا اظهر كفاية ولا اقل جناية ولا اكثر اعجوبة وتصرفا ولا اقل تصلفا وتكلفا من كتاب ...

ولا اعلم قرينا احسن موافاة ولا اعجل مكافاة ولا احضر معونة ولا اخف مؤونة ولا شجرة اطول عمرا ولا اطيب ثمرة ولا اقرب مجتنى من كتاب ...

ولا اعلم نتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارب الحكيمة واخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب ... !! » .

★★★

سيظل الكتاب يتربع على عرش الثقافة والفكر مهما نافسته فى هذا المجال وسائل أخرى كثيرة ، خاصة وسائل الاعلام المرئية والمسموعة وأيضا مهما تفشت الأمية فى الأمم !!

وقد أضاءت الكتب طريق الانسان ، فقد عرف بها نور العلم والمعرفة باعتبار أن هذا الانسان يتميز بالعقل ، وباعتبار أنه يستفيد من ثقافته بقدر ما يستفيد من خبرته ، ولذلك فان الكتاب يعتبر تراثا انسـانيا لا تقف فائدته عند حدود ·· ولا تتوقف عند جيل دون جيل ·

ومنذ عرف الانسان التدوين بعد اكتشافه الورق ، بدأت رحلته مع الكلمة ، فبدأ يدونها فى مختلف فروع المعرفة ، وبين حين وآخر راحت تظهر عشرات الكتب كأوعية لعصارة فكر الانسان وخبرته ·

ومع مر الأيام وكر الدهور تحولت هذه الكتب الى تراث انسانى ·· وغدت مرجعا حيويا لكل من يريد الفكر والثقافة فى أى فرع من فروع المعرفـة ·

ورغم الكم الهائل من المؤلفات التى تدفع بها المطابع كل يوم ·· بل وكل دقيقة بمختلف اللغات وفى جهات الدنيا الأربع ·· الا أن هناك نوعيات من هذه الكتب هى التى تستوقفك ·· لأنها تمثل لكل مفكرى الانسانية محطات لابد من الوقوف عندها للتزود بما فيها من معرفة لا غنى للبشرية عنها لأجيال بعد أجيال ·

فالكتب مثل الناس درجات · فهناك من يعيش حياته ، ثم يمضى دون أن يترك أثرا ، وهناك من يؤثر فى دائرة الحياة من حوله ، وهناك من يمتد تأثيره الى آفاق أبعد وأبعد ··

وعن هذا النوع الأخير من الكتب ·· كانت موسوعة الفكر الانسانى والتى نقدم للجزء السابع منها تحت عنوان : «كتب غيرت الفكر الانسانى» ·

لقد عرضنا فى هذه الموسوعة (الأجزاء السبعة) لمائة كتاب من الكتب الرائدة والتى أثرت تأثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر العصـور والدهـور ··

ان الغرض من هذه الأجزاء السـبعة من كتابنا هو توضيح القوة العاتية للكتب وتأكيد الدور الخطير للكتاب فى تغيير مجرى الأحداث تغييرا كليا ·· وذلك عن طرق مناقشة أمثلة معينة (مائة كتاب) ··· ولم يكن فى تفكيرنا ـ كما قلنا ـ تقديم « قائمة » بأحسن أو أعظم الكتب ولكن كان هدفنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ··

ان القارىء العربى فى حاجة ماسة الى هذا المؤلف الضخم بأجزائه السبعة ، والذى يقدم عصيرا مفيدا لكل تلك الكتب العظيمة ، كما يقدم زبدة المعارف الانسانية التى لا غنى عنها فى تكوين المثقف الواعى ··

وبعـــد ..

فان الموسوعة ـ التى بين يديك ـ عزيزى القارىء ـ بأجزائها السبعة، هى خلاصة قراءات قضيتها بين الكتب .. عربية كانت أو غربية ، لفت نظرى اليها ما فيها من فكرة وخبرة .

لذلك أردت أن أضعها بين يديك لعلك تجد فيها ما وجدت ..

والله أسأل أن ينفع بها ، ويجعلها خالصة لوجهه ..

فما أردت الا الخير .. وعلى الله قصد السبيل ..

فانه نعم المولى ونعم النصير ..

المـــؤلف

ملحمة جلجامش

من ملاحم العصر البابلي

٣٠٠٠ ق.م

أســاطير العــالم القــديم

فى أذهان بعض الناس أن الأساطير ليست سوى « حواديت » تروى حول « المدفأة » فى ليالى الشتاء الباردة لا هدف من ورائها سوى التسلية والمتعة وقطع الوقت ...

ويخطىء هؤلاء اذ يأخذون الأساطير على أنها خرافة فحسب ليس فيها من الواقع أو الأهداف شىء سوى ما تضم من خيالات غريبة شاردة لا تصلح لغير الأطفال ..

فما كانت الأساطير شيئا من ذلك أبدا . والا لما استطاعت قط أن تكون هى العمد الخالدة التى قامت عليها أركان الأدب العالمى ولما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منها هذه الألوان المتباينة من الآداب والفنون .

فقد رافقت الأسطورة الانسان منذ نشأته وماتزال ترافقه .

وفى كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى اتحدت فى صراعها العنيف من أجل الحرية والخير والســـلام .

وما من أمة ارتفع شأنها أو هان الا ولها أساطيرها ، وهى فى كل ألوانها ــ سواء أكانت الهية أم بطولية أم غرامية أم خلقية أو فكاهية ــ انما تمثل جزءا ضخما من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلا بعد جيل ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا فى تكوينهم وحيواتهم .

ولا شك أن كل هذه الأساطير قائمة على أساس من الحقيقة ، غير أن الخيال الانسانى مع مر الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أردية ، جعلتها بعيدة عن المعقول وان تكن قريبة محببة الى النفوس .

ومع ذلك فأغلب الأساطير يدور حول انشـــاء حياة أفضل وهى محاولات نشأت مع نشوء الانسان يفسر بها أهم المشاكل التى واجهته فى بدء حياته على الأرض وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ويجتاز بوساطتها

الهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون الغامض الذى يحيط به ويحاول بها الوصول الى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ولماذا يقع الشر وكيف ينتصر الخير ٠

وبالرغم من أن الانسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هذه المحاولات، الا أنه فى خضم غروره ينسى أن محاولاته الحالية للوصول الى الكواكب ومغالبة الفضاء ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون وهى ان كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة الا أنها لا تختلف فى شىء عما كان يملأ ذهن الانسان القديم بالقياس الى المراحل الحضارية التى كان يعيش فيها ويترعرع بين أحضانها ٠

وكان أول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التى تحيط به ايمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل والعناصر والكائنات ٠

وبدأ الانسان يتأمل تلك القوى ويجسم كل شىء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول اليه فيجعله الها ، ويعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين ٠٠ فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد كلها آلهة طفق الانسان ينسج حولها القصص ويتناقلها خلفا عن سلف جيلا بعد جيل ٠

ولكن الانسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى ٠٠ كيف جاءت هى الأخرى ؟ لابد أن هناك شيئا خالقا شيئا أقوى من كل شىء ، استطاع أن يصنع وحده تلك كل الأشياء ٠٠٠

ومن هنا كانت أقدم الأساطير التى وضعها الانسان هى أساطير الخلق نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق وكيف أقام السماء والأرض وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها وأشكالها لتعمير الكون ٠

تصور الانسان الخالق الأول مصدرا رئيسيا للقوة والخالق يهيمن على كل شىء ويسيطر على أركان الكون الشاسع تصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ينظمون الحياة على الأرض ويبصرون أعمال الناس فيثيبون المحسن وينكلون بالمسىء ٠

وتباينت صور هذا الخالق فى أذهان البشر ، حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد الذى يتمثل دائما فى رب الأرباب أو كبير الآلهة،وجعلوا الآلهة الأخرى أتباعا يكلفهم مساعدته ويكل لكل منهم مهمة معينة ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها تارة بارشاده وطورا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يكون فى ذلك مساس به أو تجريد لما له من ربوبية مطلقة وسلطان شامل على كل شىء ٠٠

وكان لابد للانسان بعد ذلك أن يتخيل ذلك المجتمع الالهى الذى يختلط فيه آلهة مختلفو النزعات والأهداف والمهام فيهم الذكر وفيهم الأنثى، وكان لابد أيضا أن تختلط تلك الصور فى ذهنه بالعالم الأرضى الذى يعيش فيه هو نفسه فنسج فى أساطيره كل ما تخيله لذلك المجتمع الالهى من صور الصراع والنزاع والحسد والطمع والجشع والخير والشر مما يراه كل يوم ويشهده فى العالم البشرى ٠

عندما تصور الانسان مجتمع الآلهة وتخيله بدأ يربط بينه وبين مجتمعه حيث كان لابد من اتصال الآلهة والبشر واشتباك أعمال هؤلاء بأعمال أولئك فنشأت صورة جديدة ترسم ذلك الاتصال ثم الاشتباك ثم الصراع الذى كان لابد أن يكون ! ٠٠

وهنا تصور الانسان قصة الطوفان ٠٠ قصة أول صراع بين الآلهة والبشر ، حين يمعن أهل الأرض فى الفساد والسخرية بالآلهة فتغضب الآلهة عليهم وينزلون بهم نقمتهم بغمر صاخب تنفجر له عيون السماء فيهبط طوفان هائل يقضى على البشر المفسدين الا واحدا تصطفيه الآلهة فينجو فى فلك يصنعه وعلى يديه تعود الحياة من جديد ٠ وبدت صورة الانسان الذى اصطفته السـماء فهو شمس نيشتين عند البابليين وتجتوج عند السومريين وكزيزوتروس عند الآشوريين ودوكاليون عند الاغريق ٠٠

عاد الانسان يطل على الأشياء الغامضة التى تحيط به ٠٠٠ فوهم أن لكل شىء حوله نفس الصفات التى له وافترض أن للجماد روحا وللنبات روحا وللآلهة روحا ، وأنها تتصرف تماما كالانسان : تحب وتكره وترضى وتغضب وتفعل كل ما يفعله هو نفسه ! ٠٠

واستمر الانسان فى صراعه مع الطبيعة ، ومع الحيوان ٠٠ صراع عنيف ينتصر فيه الانسان مرة والطبيعة والحيوان مرات فما كان لدى الانسان سوى رسائل بدائية بسيطة ساذجة للنزول بها فى معترك هذا الصراع الرهيب ٠

ولم تعد رسائل الحرب العادية البسيطة تكفى لذلك الانسان وهو يصارع قوى أشد منه وأقدر فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه ، ومن خلال خيالاته بدأ يستغيث بأصحاب الخوارق فيما لم يستطع أن يفعله بنفسه ، فصور أنصاف الآلهة يستمدون قواهم من السماء وصور أبطالا خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ومظاهر الجبروت عند الآلهة ومن هنا ظهر جلجامش وأنجيدو عند البابليين ورستم عند الفرس وهرقل عند الاغريق وأمثالهم كثيرون فى عالم الأساطير ٠

لم يكتف الانسان خلال بحثه عن مصادر القوة التى تساعده على الأعداء بمثل هؤلاء الأبطال ، فبدأ يتخيل من جديد كائنات أخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الاتيان به والوصول اليه ..

وهنا ظهر الجن فى أساطير الانسان .. جن خيرون يستطيع بوساطتهم الوصول الى ما يجد نفسه عاجزا عن بلوغه بغير شيء خارق ، وجن شريرون يساعدونه فى الانتقام من الاعداء عند تصور أقسى أنواع الشر فى مجال الشر وجعل الانسان للجن من القوى والسمات الفائقة ما يقدمهم عليه هو نفسه مادام هو أدنى قوة وأقل من الجن سلطانا ..

تصور الانسان أن مجتمع الجن مثل مجتمع الانس من حيث التركيب .. ففيه حكام وأمراء وفيه أجراء وصعاليك وفيه خيرون وشريرون ولكن أهم صفات هذا المجتمع أنه يساكن الانسان ويعاشره .. يساكنه فى جسمه وفى ثوبه وفى طعامه وفى تفكيره وفى علاقاته الجنسية وفى أخص خـواطره ! ..

هكذا تخيل الانسان الجن الذين لا يراهم رأى العين ويتوهم دائما فى الوقت نفسه . وأنشأ حولهم مجموعة غزيرة من الأساطير وأدخلهم دائما خلال صراعه بين الخير والشر وبين الشر والآلهة ، ونظم أسلوبا للتعامل بينه وبينهم وجعل عالمهم تصاعديا مطبوعا بالسلطة شأن المجتمع البشرى الاقطاعى، وأضاف الى أشخاصهم صفات الشذوذ فى الهيئة والمسكن والسـلوك والصوت .. حتى يستطيع بذلك أن ينم عن صفاتهم الخارقة للمصطلح العام ويدل على التمييز البالغ حد التفوق .

غير أن أشياء أخرى فى تفكير الانسان دفعته الى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ أهدافه ، وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبينها بنفسه فى الوقت الذى لا يستطيع فيه أن يلمس ويتبين أشخاص الجن .. وهنا .. اتجه الانسان نحو السحر .. وفى كتاب الأدب الشعبى يقول مؤلفه الأستاذ رشدى صالح : « ونحن اذا نظرنا الى السحر الآن بتقديرنا الحديث رفضناه واعتبرناه أسلوبا من التصرف الساذج ولكنه كان فى التاريخ القديم قائما على استخدام القوة الخفية للكلمة لأن اختراع اللغة ـ أى استبدال الصوت بالاشارة أو الرسم ـ كان انقلابا مذهلا بالنسبة للانسان البدائى فاعتقد أن فى الصوت قدرة خارقة تستطيع اذا نظمت فى بضع جمل ـ أى تعويذة ـ وتليت مرارا أن تفرض سلطانها على أية ظاهرة أو كائن أو اله .. ومن هنا اعتقد المصريون القدماء مثلا أن الكلمة هى الأداة الالهية فى خلق العالم حتى ان آتون رع يقول فى أسـطورته : « خلقت كل الأشـياء ممـا يخرج من فمى عندما لم تكن ثمة سـماء ولا أرض » .

هذه القوة الخفية للكلمة هى قوة الالزام أو الربط .. وتتضح تلك القوة مما جاء فى تعويذة ايزيس وهى تطرد الألم من جسد رع فتقول : « اخرج أيها السم اخرج من جسد رع ... اخرج من جسد رع المحترق لأنى أقول التعويذة .. انى أنا التى آمر انى أنا التى أبعث الرسالة .. اخرج على الأرض أيها السم القوى .. ولتعلم أن الاله الكبير قد أسر فى أذنى باسمه الكبير .. » .

وهكذا أصبح السحر فى عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادة وتصور الانسان محاولات جديدة لاسترضاء الآلهة والقوى الخفية التى ظل يجهل طبيعتها وغاياتها فعمل على اجتلابها فى صفه لمعونته ولم يجد سوى السحر سبيلا الى ذلك باعتباره القوة الجديدة التى يستطيع بها أن يقهر القوى المناهضة له أو الخارقة لكل مستطاع وهكذا ، شاع الاعتقاد بأن الرقية أو التعويذة أو القسم ، يجبر القوى الخفية على أن تطيع الانســـان حتى اننا نقرأ فى ألف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة « افتح ياسمسم » يلزم هذه القوى على أن تشق الصخرة وتفتحها .. ولم يكن ذلك وحده ما تستطيعه التعويذة السحرية بل انها لتمكن الانسان من تسخير القوى الخفية أيضا فى ربط أعدائه حتى ان البابليين كانوا حين يدعونى على أعدائهم يقولون : « ليقع عليكم حبل الله » فكأنما الله اذا أراد أن يقتل انسانا أو يشل حركته لزمه أن يستخدم حبلا ! وتقول أسطورة طمهورث الفارسية انه ربط أهرمان ليمنعه من انزال الشر بالناس وتصور أسطورة برميثيوس الاغريقية أن العقاب الالهى كان يربطه الى صخرة .. وهكذا استطاع الانسان وقف غرمائه وأعدائه ــ أى وقف الشر ــ بالرقية أو التعويذة السحرية وجعل السحر بذلك أساسا جديدا لصراعه مع العالم المجهـــول .

كان كل ذلك أصلا لأساطير الانسان فى مختلف حضاراته وبيئاته .. تلك الأساطير التى جاءت فى أغلبها متشابهة متفقة تثير الحيرة والتساؤل عن علة تشابه أساطير المصريين مثلا مع أساطير الهنود والفرس والصين والاغريق والأوروبيين أيضا . هذا التساؤل أجاب عنه بعض الدارسين بأن الجنس البشرى كله قد نشأ أول ما نشأ فى مكان واحد ثم تفرق وارتحلت معه معتقداته وأساطيره ، ويذهب آخرون الى أن حياة الانسان لم تظهر فى مكان واحد بل فى أمكنة متفرقة ولكن قام بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت معها الأساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمة الى أمة ، وثم رأى ثالث يقول ان سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الانسانى عامة وانتقاله من حالات قامت فى كل موطن الى حالات أخرى قامت فى هذا الموطن نفسه .

ومهما يكن الأمر فالثابت برغم تشـــابه العناصر الأولى لكل هذه الأساطير أن ثم اختلافا وتباينا واضحا فى تفاصيلها فكل أمة شـــكلت أساطيرها حسب ظروفها الطبيعية ذاتها ·· فالمجتمعات التى استقرت فى أرض زراعية تشكل أساطيرها فى أهم ما يشغلها وهو الماء والنماء وخصوبة الأرض والمجتمعات التي عاشت على الصيد تشكل أساطيرها فيما يشغلها من الحيوان وأدوات الصيد وشياطين الغاب والمجتمعات التى يحيط بها البحر تشكل أساطيرها العواصف والأمواج والحور والجنيات ·

وكما تباينت تفاصيل أساطير الأمم تباينت أيضا أشكال أساطير الأمة الواحدة فمع كل تلك المراحل من ظروف الحياة تنوعت الأساطير فكانت هناك الأساطير الالهية التى ترتبط بما وراء الطبيعة ارتباطا تفسره العلاقات المتبادلة بين الآلهة والبشر والتى ينتصر الآلهة فيها دائما ، والأساطير التى تتناول الخوارق التى تدور حول أنصاف الآلهة والأبطـــال خارقى القوة المتمتعين بقدرة جسدية أو معنوية فائقة والأساطير التى تدور حول وسائل البشر فى التخلص من مآزق البيئة التى تحيط بهم والأساطير التى تهدف الى وضع أسس خلقية يتباين فيها الصراع بين الخير والشر ·

ومع كل ذلك يجب ألا تنسى أن هـــذه الأساطير التى عاشت حتى بدأت الديانات السماوية فأخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الدينى ··· هذه الأساطير ماتزال لها بقايا فى معتقد كل أمة حتى الأمم التى تعيش فى ظل الصناعة والعلوم ، بقايا ماتزال مسيطرة على العـــادات والتقاليد والثقافة الانسانية بوجه عام ··

من ذلك أن الفراعنة فسروا الفيضان فى أساطيرهم بأنه فيض الدموع التى تسفحها ايزيس وهى تبكى أخاها أوزيريس الذى قتله ست · وعندما جاءت المسيحية مصر وأزالت عبادة ايزيس استمرت أسطورتها تعيش فى معتقد الفلاحين فى شكل أسطورة مسيحية جديدة تقول ان الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذى كان كلما حل ميعاد الفيضان يدخل على العرش الالهى يرجـــو الله أن يرحم عبـــاده المصريين فيأمر بزيادة النيل ، ويظل يتضرع ويبكى حتى يســـــتجاب دعاؤه ويفيض النيل من فيض دموعـــه ·

★★★

الملحمـــة

تعد ملحمة جلجامش أشهر الملاحم البابلية ، وتتألف فى أصلها من طائفة من القصص غء الوثيقـة الاتصـال ضـم بعضها الى بعض فى عهود مختلفة ترجع الى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام ٠

وتتنـاول هـذه الملحمة بعض الأمور الأرضية كالانسـان والطبيعة والحب والمغـامرة والصـداقة والصراع ٠٠ وهنـاك الصراع بين عوامل الطبيعة وصراع بطل الملحمة لتغير مصيره بادراكه سر الخلود من بطـل « الفيضان الأكبر » ولكن هذا الصراع ينتهى بالفشل ويصحب الفشـل الاحساس بالتسليم٠ولقد كان تأثير الملحمة قديما بالغا ، فنتشرت بمختلف اللغات أما اليوم فهى تأسر لب الدارس والشاعر معا ٠

وأما عنوانها بالأكدية فيعنى « ذلك الذى شهد كل شىء » وهو فاتحة الملحمة وهى ملحمة شعرية فى اثنتى عشرة لوحة أطولها يحوى أكثر من ثلاثمائة بيت وهى المعروفة بـ « ملحمة الفيضان » وهى اللوحة الحادية عشرة وهى أكثر اللوحات حفظا وأكملها جميعا وأما بقية اللوحـات ففيها أجزاء كثيرة ضائعة ٠

ورغم أن كثيرا من النصوص الأكدية ، بل معظمها ، مصدره مكتبة « أشور بانيبـــال » فى نينوى الا أن ملحمة جلجامش (بخـلاف ملحمة الخليقة) نلتقى بها فى فقرات ونصوص سابقة ترجع الى الألف الأولى قبل الميلاد ، بل ان لدينا منذ منتصف الألف الثانية من بوغاز كوى نصوص تشير الى ترجمتها الى اللغة الحيثية ، ولدينا كذلك من النصف الأول من الألف الثانية أجزاء من النص البابلى القديم للملحمة يمكن ارجاع اللوحات أرقام : ١ و٢ و٣ و١٠ اليها وأغلب الأمر أن الملحمة هنا منقولة عن نص قديم أقدم من العصر الذى كتبت فيه ٠

والعلاقة بين ملحمة جلجامش كما نعهدها فى صورتها الأكدية وبين نظائرهـا السومرية المتعددة أصبحت واضحة بعد دراســات عديدة فى السنين الأخيرة ٠ وما تجدر الاشارة اليه أن اللوحة الثانية عشرة ترجمة

حرفية لنص سومرى أما الملحمة نفسها فبينما تستخدم بعض المراحل والمظاهر الواردة فى الأشعار السومرية ، الا أن التطور واضح فى ثناياها ومن الواضح كذلك أن الاحدى عشرة لوحة للنص الأكدى للملحمة جلجامش تشير الى خلق جديد للأسطورة يكاد يصل بها الى مرحلة الخلق المستقل الذى لا يستند الى الأصول السابقة بل يبدو وكأنما لا علاقة له بها ٠

★★★

وجلجامش من أبطال الأساطير العراقية والقديمة وقد ورد اسمه بين أسماء ملوك الوركاء (٢) ويقترن اسمه بالمغامرات والبطولة النادرة ٠

ويؤلف الطوفان فى الملحمة عنصرا مهما وقد وردت اشارات عنه فى الروايات السومرية وقد حدث الطوفان من غير شك فى العراق القديم فترك أصداء فى تراثهم الأول وقد عثر على آثار ترسيب فيضى بين عصر جمدة نصر وفجر الأسرات فى بعض مدن العراق القديم مثل كيش والوركاء وشروباك (موطن نوح الطوفان البابلى) : « أوتو ــ نبشتم » وقد ورد ذكر الطوفان كذلك فى سجلات الملوك السومريين التى يشار فيها الى أسرات ملوك ما قبل الطوفان وأسرات ما بعد الطوفان ، فحادثة الطوفان اذن حادثة حاسمة فى التاريخ ٠

وتبدأ الملحمة بوصف بطلها جلجامش وتشير الى حكومته ومعرفته بأحداث ماء قبل الطوفان ثم تصف أعماله فى الوركاء وبناءه لأسوارها ومعبدها المقدس « أى آنا » ولقد كان جلجامش رائع الصورة ولا غرو فهو من صناعة الآلهة الذين فتنوا فى ابراز قوته وجماله ٠٠٠ ثلثاه اله والثلث من البشر وكان جلجامش عنيفا ٠٠٠ لم يترك زوجة لزوجها ولم يترك ابنا لأبيه وبلغ عنفه حد أن ضج الناس منه فشكوه الى الآلهة واستمع الى شكايات الناس ووجه « أنو » الالهة « أرورو » التى خلقت جلجامش لتصنع نظيرا له ونفذت « أرورو » أمر « أنو » فغسلت يديها وعجنت طينا وبصقت فيه وصنعت منه بطلا هو « انكيدو » المارد الذى يغطى الشعر جسمه والذى يغطى رأسه شعر كشعر النساء وكان « انكيدو » لا يعرف حياة الناس فهو وحش يرعى الأعشاب ويطعم على النباتات وقد رآه أحد الرعاة فارتاع وذهب لأبيه يقص عليه ما شهده ونصحه أبوه أن يروى الأمر الى جلجامش ولمح له بطريقة اصطياده عن طريق امرأة يبعث بها جلجامش ٠٠٠ واستمع جلجامش الى الرأى الذى بعث به اليه أب الراعى فأعاده الى انكيدو فى صحبة بغى زودها بنصحه أن تتجرد من ثيابها حين يرد (انكيدو) الماء وأن تعمل على اغوائه ٠٠٠ وتم الأمر ووقع « انكيدو » فى حبائل البغى وعاش معها ستة أيام وسبع ليال وغيرت من طباعه ورققت منها فنفرت

منه الوحوش التى اعتادت أن تألفه ولم يعد فى استطاعته أن يجاريها فى العدو فعاد الى البغى ، فنصحته أن تعود به الى الوركاء حيث المعبد مسكن « أنو » و « عشتار » وحيث « جلجامش » رمز القوة والبطش وأسلم لها انكيدو قياده وفى نيته أن يصارع جلجامش الجبار ويغلبه ٠

وتجمهر الناس بعد وصوله ليشهدوا صراع الجبارين ولقاء البطلين ووقف أنكيدو عند بوابة المدينة يتحدى صاحبها جلجامش ونشبت المعركة وتصارعا وفوجىء « انكيدو » بتفوق جلجامش ولكن الواحد منهما أعجب بالآخر فصارا صديقين ٠

ثم اتجه الصديقان الى غابات الأرز سعيا وراء الشهرة والمجد ووصلا بعد سفر شاق الى مدخل الغابة التى يحرسها الغول « حمبابا » (٣) الذى عينه « انليل » لحراستها ثم أوغلا فى الغابة حتى بلغا موضع « حمبابا » فذعر جلجامش واستغاث بـ « شمش » الذى أرسل ريحا قوية سلطها على « حمبابا » الذى استسلم وتضرع الى « جلجامش » سائلا أياه أن يبقى على حياته ولكن « جلجامش » لم يرحمه بل قطع رأسه ٠٠٠ ثم عاد البطلان الى المدينة وهناك تهيأ للاحتفال بالنصر ولبس «جلجامش » حلله وصقل سلاحه ولما رأته عشتار أعجبت به وعرضت عليه أن يتزوجها فرفض سؤلها وحز ذلك فى نفسها وخاصة بعد أن عرض بعلاقاتها السابقة بعشاقها الذين جلب حبها عليهم الدمار ٠٠٠ « تموز زوج صباك الذى مات بسبب حبك له ! طير الشقران المرقش لطمته وكسرت جناحه وما يزال يندبه ! وشعرت « عشتار » بالذلة والمهانة فذهبت غاضبة الى أبيها (أنو) لتستعديه على « جلجامش » وألحت عليه أن يخلق لها ثورا يقضى به عليه ، وهددته ان لم يفعل أن تذهب لتحطيم بوابة العالم السفلى لتستعدى الموتى على الأحياء ٠٠ ورضخ « أنو » وخلق « ثور السماء » وأنزله الى الوركاء ففتك بأهلها ومات كثيرون ذعرا ، فانبرى له البطلان يصارعانه حتى غلباه على أمره ٠٠٠ فغضبت « عشتار » ولعنت جلجامش فضاق « انكيدو » بذلك وقطع فخذ الثور وقذف به فى وجهها وكان الثور الهيا قرناه من اللازورد وحزنت عشتار على موت الثور وأقامت المناحة عليه وشاركتها نسوة المعبد ٠٠٠ ومر موكب جلجامش فى زهو يسأل العذارى : من المجد بين الأبطال ؟ فكانت الاجابة ٠٠٠ جلجامش ٠٠ !!

وكان لابد من ذلك أن يحل العقاب بالبطلين ٠٠ ف « انكيدو » قتل « حمبابا » و « ثور السماء » ووقع حكم الآلهة عليه بالموت ومرض انكيدو وهو فى ريعان الشباب وبدأ ماضيه يمر أمام ناظريه،فأدرك أن الصياد الذى صحب البغى اليه هو أصل مصائبه فلعنه ولعن المرأة ٠٠٠ « تعالى أيتها البغى لأخط مصيرك الذى ينتهى الى الأبد ليكن الشارع مأواك وظل

الحائط مسكنك سيلطم السكران وجنتيك ... » ومات « انكيدو » وحزن عليه جلجامش وندبه كما تندب النساء ثم دفنه وظل الحزن يلازمه من بعده وأخذ يخاف هو نفسه الموت ... وفكر : كيف السبيل الى اجتنابه ؟

هنا تذكر قصة جده « أوتو نبشتم » الذى يعيش فى بقعة نائية فى البحار البعيدة والذى استطاع أن يحصل على الخلود فعزم على التوجيه اليه ليسأله سر الخلود وبدأ سفرة طويلة ... وصل أولا الى جبال « ماشو » التى تمر الشمس من مدخلها فى مسيرها اليومى وتحرس المدخل مخلوقات غريبة مركبة من انسان وعقرب ... نظرتها موت محتم . ولما رأى جلجامش « الرجل العقرب » وزوجته مادة الهية فسأله عن أهدافه فأخبره أنه يسعى وراء الوصول الى « أوتونبشتم » ليسأله سر الخلود ، فسمح له بالمرور وظل يسير فى ظلام حتى جاء بستانا عجيبا تحمل أشجاره الجواهر اللامعة ووصل أخيرا الى شاطىء واستقر عند حافة تقيم فيها احدى الالهات وشكا اليها حاله وطلب معونتها للوصول الى « أوتونبشتم » ، فنصحته أن يكف عن السعى « فالخلود للآلهة والموت من نصيب البشر » ... « استمتع بالحياة وارقص وغن والعب واغسل وجهك واسبح فى الماء وافرح بالزوجة فى أحضانك ... هذا نصيب البشر » وألح فى سؤاله رغم ذلك فأرشده الى « ملامح » « أوتو نبشتم » فسأله هذا عن سبب مجيئه وعجب من ملامح الأسى على محياه فرد عليه جلجامش أن ذلك بسبب موت رفيقه « أنكيدو » ومن فزعه من أن يحل به الموت مثله فقال « أوتونبشتم » هل يقوم بيت الى الأبد ؟ هل تبقى البغضاء الى الأبد ؟ ليس خلود منذ القدم ما أشبه النوم بالموت هكذا العبد والسيد حين ينتهى أجلهما » فسأله « جلجامش » كيف صار هو خالدا فبدأ « أوتونبشتم » يقص عليه قصة الطوفان الذى حصل من بعده على الخلود قال ...

سأنبئك بسر من أسرار الآلهة ... كنت أعيش فى « شروباك » وعول الآلهة على احداث الطوفان كان « أيا » فى مجلسهم فنقل الحديث الى كوخ القصب « مسكنى » وقال له « اسمع يا كوخ القصب وتأمل يا حائط يا رجل شروباك قوض بيتك وابن سفينة وانج بحياتك وخذ معك بذرة كل كائن حى » . وقلت لـ « أيا » سأفعل ولكن ماذا أقول لأهل المدينة ؟ قال لى : قل لهم ان « انليل » يكرهنى فلن أعيش معكم بعد اليوم سأنزل الى « ابسو » وأعيش مع « أيا » الهى وأما أنتم فسينزل عليكم المطر وصنعت السفينة وأنشأتها من ست طبقات بالاضافة الى أصلها فصارت سبع طبقات وقسمت كلا الى تسعة أقسام وزودتها بالمؤونة ووضعت فيها بذرة كل كائن حى وأدخلت فيها أهلى وأقربائى وحيوانات البر ووحوشه وكل الصناع وحل الوقت وأمطرت السماء ودخلت السفينة

وأغلقت بابها وأرعد « ادد » وانقلب النور وحبت العواصف وانكسرت السدود ... ستة أيام وست ليال ... وذعر حتى الآلهة من الطوفان ففزعت الى سماء « أنو » وهرخت « عشتار » مثل امرأة في المخاض وانتحبت سيدة الآلهة قائلة : « تحولت الخليقة الى طين وصار البشر الذين ولدتهم مثل بيض السمك يملأون المياه » . وفي اليوم السابع خفت حدة الطوفان وسكنت العاصفة ففتحت كوة وتطلعت الى البحر وكان كل شيء هادئا وكان البشر قد استحالوا الى طين ... وبعد اثنتي عشرة ساعة استوت السفينة على جبل نصير مدى سبعة أيام وأطلقت حمامة لم تجد مستقرا فعادت ثم أطلقت سنونو فعاد كذلك ثم أطلقت غرابا فذهب وأكل ولم يعد فأطلقت كل شيء الى الرياح الأربع ، وقربت قربانا للآلهة اجتمعوا حوله كالذباب ولما جاء « انليل » وشهد السفينة غضب لأن بعض البشر نجوا ولامه « أيا » لانه تسرع فأحدث الطوفان وصعد « انليل » الى السفينة وأخذ بيدي وأخرجني مع زوجتي فسجدنا له ثم باركنا وقال « ليكن » « أوتونبشتم » وزوجته الهين مثلنا سيعيش بعيدا » فأخذوني وأسكنوني هنا .

وأنت ياجلجامش : من سيجمع الآلهة من أجلك ؟ وغلب النوم جلجامش ولما استيقظ حزن وتوسل الى « أوتونبشتم » أن يدله عما يفعله وأشفقت عليه زوجة « أوتونبشتم » وتشفعت له عند زوجها فأسر اليه بسر خفي : أرشده الى نبات ينمو في غور البحر يجدد الشباب والحياة .. وربط جلجامش حجرا في قدمه في الأعماق ووجد النبات وأخذه ، وفكر في استنباته في بلاده ... ثم نزل ليستحم في بركة ، وشمت الحية شذا النبات فاختطفته وحصلت عن طريقه على وسيلة تجديد الشباب والحياة ... وجلس جلجامش يبكي وعاد الى المدينة بعد أن آمن أن الخلود ميسور وقام بتجديد بناء المدينة واقامة أسوارها العالية .

وهاك بعض فصول الملحمة ...

اللوحة الأولى :

ان من شهد كل شيء حتى نهاية الأرض ومن جرب كل شيء ... شهد المخفي من الأمور وكشف المستور ... وقدم بذلك تقريرا أمام « الفيضان » أتم رحلة طويلة ، مضى مرهقا ونقش كل ما مر به من عناء على لوحة من الحجر وشيد سور « أوروك » (الوركاء) وبنى في « ايانا » هيكلها الطاهر ثلثاه اله والثلث آدمي .. لا نظير له حين يكتسح بأسلحته ... ويوقظ أعوانه بالطبول .. أما أشراف الوركاء فالآسى يجتاحهم في قاعدتهم « جلجامش » لايدع الأبن لأبيه نهارا وليلا ويطلق العنان لعجرفته ورغم ذلك فهذا هو جلجامش .. راعى الوركاء انه يحب أن يكون راعيا

قويا وفخما ورائعا وعاقلا ! جلجامش لا تفلت منه الفتاة فيدعها لأمها ولا ابنه المحارب أوروس الشريف ! وأصغى آلهة السماء لشكايتهم ولما سمع « أنو » شكايتهم استدعى « أرورو » العظيمة وقال لها : « أنت التى خلقت جلجامش فاخلقى الآن صورته وليكن كفؤا لعاصفة قلبه ... ليتصارعا حتى يحل السلام فى الوركاء ... ولما سمعت « أرورو » ذلك حملت بصورة من « أنو » فى داخلها ثم غسلت يديها والتقطت طينا وشكلته وبصقت وخلقت « انكيدو » ... كان يغطى الشعر جسمه كله وكان شعر رأسه كشعر رأس المرأة .. خصلات شعره تنبثق مثل « نيسابا » (٤) انه لا يعرف الناس أو البلاد انه فى لباس مثل « سوموقان » (٥) .. يرعى الأعشاب مع الوعول ويزاحم الوحوش عند موارد الماء ... ولقيه صياد عند مورد الماء يوما وآخر وثالثا ولما رآه الصياد جمد وجهه ... ذهب مع وحوشه الى بيته وهو شديد الخوف لا يحير نطقا وقلبه منزعج والجهامة فى وجهه وقال لأبيه : « هناك رجل قدم من التلال .. انه أقوى من فى الأرض .. انه من موالى « أنو » ولذا فان قوته شديدة ... انه يطوف فى التلال وكالوحوش يعيش على الأعشاب وتطأ قدماه موارد الماء اننى أرهبه بحيث لا أجرؤ على الاقتراب منه انه ملأ الحفر التى حفرتها ومزق الفخاخ التى نصبتها انه جعل الوحوش وصيدى جميعا يهرب من بين يدى » ، وقال له أبوه : « يابنى جلجامش فى الوركاء هناك أقوى منه .. وكمولى « أنو » هو الشديد فى قوته اتجه اذن الى الوركاء وتحدث اليه عن قوة هذا الرجل واسأله أن يعهد لك بعاهرة ثم اصحبها ودعها تسيطر عليه بفضل قوة أكبر .. حين يرد الماء دعها تخلع ملابسها فحالما يراها متجردة سيعجب بنضجها ... سيقترب منها ... وعندئذ ستتخلى عنه وحوشه » .. واستمع الابن لنصح أبيه وذهب الى جلجامش وأعاد عليه ما رواه لأبيه ... واصطحب الفتى معه عاهرة ووصلا الى البقعة المعهودة فى اليوم الثالث .. ومر يوم ثم يوم آخر وهما جالسان الى مورد الماء وجاءت الوحوش لتشرب وجاء « انكيدو » الذى يعيش على الأعشاب مع الغزلان ويشرب الماء مع الوحوش شهدته الصبية .. شهدت الرجل الوحش وقال لها الصياد : « أيتها الصبية هاهو ذا فاخلعى ثوبك .. ليتعر صدرك حتى يستمتع بنضجك لا تخجلى رحبى بحماسته انه حين يراك سيقترب منك نحى ثيابك جانبا حتى يستقر فوقك عاملى المتوحش بدهاء المرأة ولسوف تتجنبه بعد ذلك الوحوش البرية التى عاشت معه من قبل .. » ونفذت الصبية كل ما أوصاها به فى دقة وظل من مفاتنها توجه الى وحوشه ولكن الغزلان نفرت منه والوحوش ابتعدت عنه وجزع « انكيدو » وشلت حركة ساقيه ولم يستطع أن يعدو كما كان يفعل ، خانته ساقاه ولكنه أصبح أوسع ادراكا وأشد فهما ، فعاد ليجلس عند قدمى

العـاهرة وتطلع الى وجهها واستمع الى حـديثها وهى تقول : « أنت عاقل يا أنكيدو ·· لقد صرت كاله فلم تجب المراعى مع الوحوش ؟ تعال معى الى أسوار الوركاء الى المعبد المقدس مسكن « أنو » و « عشتار » حيث يعيش جلجامش الذى يسود القوم كثور برى وحسن كلامها فى عينيه فقال لها : « قومى يا صـبية اصحبينى الى المعبـد المقـدس الطاهر مسكن « أنو » و « عشتار » حيث يعيش جلجامش هناك سأتحداه وسأصيح فى الوركاء قائلا : « أنا هو القوى أنا هو من يستطيع أن يغير المصائر ان من ولد فى المراعى قوى » ، فقالت له : « قم اذن ودعنا نذهب اليه حتى يرى وجهك سأريك جلجامش فأنا أعرف أين هو ·· تعال معى اذن الى أسوار الوركاء حيث الناس فى زى الأعياد سأريك يا «أنكيدو » الرجل المرح « جلجامش » تطلع اليه انه يشـع بالرجولة والقوة جسمه وافر الكمال ·· ان له قوة أكثر من قوتك وهو لا يستريح نهـارا أو ليلا تخل يا « أنكيدو » عن غطرستك ان « شمش » يعجب بـ « جلجامش » ان « أنو » و « انليل » و « أيا » قد زادوا فى حكمته ان « جلجامش » سيراك فى أحلامه فى الوركاء قبل أن تنزل من الجبال لان « جلجامش » استيقظ ليقص حلمه على أمه قائلا : « لقد رأيت حلما الليلة الماضية بديت النجوم فى السماء ·· كولى ·· ل ·· « أنو » نزلت واحدة على حاولت أن أرفعها فتعذر على ذلك حاولت زحزحتهـا فلم أفلح ··· كانت أرض الوركاء مجتمعـة حولها والنـاس متجمهرون ورفاقى يقبلون قدميها ·· لقد جذبت اليها كما يجذب المرء الى امرأة ·· ثم وضعتها عند قدميك لانك جعلتها تنـافسنى » وفسرت أمه « ننسون » العاقلة الخبيرة بألوان المعرفة حلم جلجامش فقالت : « منافستك ··· نجمة السماء » هذه الأوصاف التى قدمتها تعنى رقيقا قويا ينقذ صديقا ·· انه أقوى من فى الأرض كولى ل « أنو » يعنى شدة القوة والانجذاب له مثـل الانجذاب نحو امرأة يعنى انه سوف لا يهجرك ··· هذا هو تفسير حلمك » ، فقال لأمه : « رأيت حلما آخر ·· فى أسوار الوركاء بطة تجمع الناس وتجمهروا حولها وضعتها عند قدميك ··· انجذبت اليها كانجذاب المرء الى امرأة لانك جعلتها تنافسنى » ·

وفسرت الأم ننسون العاقلة الخبيرة بألوان المعرفة الحلم بقولها : « البطة التى رأيتها انها رجل وانجذابك نحوها كانجذاب المرء نحو امرأة لاننى أنا التى صنعتها لتنافسك ·· يعنى هذا رفيقا ينقذ صديقا ·· انه أقوى من فى الأرض ·· كولى « أنو » قوته شديدة ··· وفتـح جلجامش فمه وقال لأمه : « ألا ليكن لى كحظ كبير ·· أن يكون لى رفيق قوى ··· » · هـكذا كشف جلجامش عن أحـلامه ··· وبهذا تحدثت الصـبية الى جلجامش (٦) حين جلسا معـا ·

اللوحة الثانية :

مشوهة في النص الآشوري والجزء الأول من نص اللوحة تكرار للثلث الأخير من اللوحة الأولى لا نرى داعيا لسرده مرة أخرى ... وبعد ذكر الحلمين وتفسيرهما ... نرى « أنكيدو » يجلس أمام العاهرة وقد نسى موطن ولادته والفتاة تروى له من جديد أمر جلجامش ثم تطلب اليه أن يقوم : « هيا .. سأقودك الى الورکاء ذات الأسوار العريضة ... الى المعبد المقدس الى مسكن « أنو » قم يا « أنكيدو » سأقودك الى « أيانا » مسكن « أنو » حيث يعيش «جلجامش » الباهر الفعال وأنت ستحبه كذلك .. قم .. عن الأرض .. فراش الراعى ! وأصغى الى كلماتها ووافق على حديثها وملأت نصيحة المرأة قلبه وخلعت دثارها وألبسته اياه ... كسته بثوب وارتدت هي الآخر وأمسكته من يده وكما تقود الأم فتاها قادته الى أماكن الرعى وتجمع حوله الرعاة ... كان قد اعتاد أن يرضع لبن الوحوش البرية فوضعوا أمامه طعاما ولم يستسغه ، بل لم يعرفه كما لم يكن يعرف طعم الشراب القوى . وقالت له العاهرة : « كل طعاما يا « أنكيدو » فهو من مستلزمات الحياة واشرب شرابا قويا كعادة أهل الأرض » وأكل « أنكيدو » الطعام ، حتى شبع وشرب سبع قنينات من الشراب القوى فملأه المرح والتمع وجهه لحك شعر جسمه وضمخه بالزيت، وأصبح كالرجال ثم ارتدى ثيابا وتزود بسلاح لصيد الأسود حتى يقضى الرعاة ليلتهم في طمأنينة وأمسك بالذئاب وقبض على الأسود واستطاع حارس القطعان أن يرقد فقد غدا « أنكيدو » حارسهم الرجل القوى ... البطل الوحيد ...

ورفع عينيه فرأى رجلا واستدعى الصبية وقال لها : « ايتيني بالرجل . لم جاء الى هنا ؟ ما اسمه ؟ » واستدعت العاهرة الرجل وسألته لماذا يسرع فقال الرجل لـ « أنكيدو » : « انه اقحم نفسه في بيت اللقاء المخصص للناس انه يهيل العار على المدينة انه يفرض على المدينة التعسة أمورا غريبة انه بالنسبة لملك الورکاء ذات الأسواق الواسعة تصبح «طبل» (٧) الناس مطلقة بالنسبة للاختيار الزوجي ... بالنسبة لجلجامش ملك الورکاء ذات الأسواق الواسعة تصبح « طبل » الناس مطلقة بالنسبة لاختيار العروس حتى يلتقي بالزوجات الشرعيات ... انه يأتي أولا ثم من بعده الزوج ... ان ذلك كتب له في لوح القدر منذ قطع حبله السرى » وعند هذه الكلمات اصفر وجهه .

وسار « أنكيدو » ومن خلفه الصبية ولما دخل الورکاء ذات الأسواق الواسعة تجمعت الجماهير من حوله ، وحين توقف في الشارع تجمعوا حوله قائلين : « انه يطابق جلجامش لولا أنه أقصر قامة..انه قوى بنيانا ..

انه أشد الناس بأسا ·· انه اعتاد أن يرضع من لبن الوحوش البرية ··· سيكون فى الوركاء صراع بالأسنة » وفرح النبلاء وقالوا : « لقد ظهر بطل بدا واحد مساويا لجلجامش الذى يشبه الاله ··· ووقف « أنكيدو » فى الطريق معترضا جلجامش الذى بدا فى شدة البأس ·

التقيا فى سوق الأرض ··· واعترض « أنكيدو » البواية بقدمه وهو لا يسمح لـ (جلجامش) بالدخول وتماسكا وتناطحا كثورين وكسرا عارضة الباب واهتز الحائط ··· وحين حنى جلجامش الركبة وقدمه على الأرض ··· انفثأ غضبه وحين استدار قال له « أنكيدو » : « كواحد مفرد حملتك أمك « نتسويا » البقرة الوحشية رفعت رأسك فوق الرجال ··· (انليل) منحك الملك على الناس » ·

اللوحـة الثـالثة :

النص مشوه بها فى اللوحة الأشورية وغير كامل ، والنصوص فى اللوحات الأقدم عهدا تتابع سير الأسطورة ويبدو أن جلجامش عول على المضى ضد « خواو » الوحش الرهيب (وهو « خومبابا » فى الأشورية) الذى يقطن غابة الأرز ويحاول « أنكيدو » أن يثنيه عن عزمه ولكنه لاينجح « أم تريد أن تفعل ذلك ؟ » واعتنق الواحد منهما الآخر وتصادقا ·

(وتلى ذلك فقرة تعدل ٢٥ سطرا مشوهة) ··

ثـــم ···

وامتلأت عينا أنكيدو بالدموع وسقمت نفسه ومرض قلبه وتنهد فى أسى وقال له جلجامش : « يا أخى لم ترفع عينيك ؟ ولم يمرض قلبك ولم تتنهد فى أسى ؟ » وفتح « أنكيدو » فمه وقال لجلجامش : « يا صديقى : صرخة تتحشرج فى حلقى ذراعاى كليلتان وقوتى انقلبت الى ضـعف » وقال له جلجامش : « فى الغابة يقيم « خوواوا » المتوحش ··· لنذهب اليه ونذبحه حتى يطرد الشر من الأرض » وفتح « أنكيدو » فمه وقال له : « لقد عرفته فى التلال يا صديقى حين كنت أجول بين الوحوش بالخوواوا ان زئيره هو عاصفة الفيضان وفمه نار وأنفاسه الردى ·· لم تريد أن تفعل ذلك ؟ ان الصراع غير المتكافىء هو الاشتباك ضد « خوواوا » وفتح جلجامش فمه وقال لأنكيدو : « سأخترق جبال الأرز » ···

وقال « أنكيدو » : « كيف نستطيع أن نذهب الى هناك وحارسها محارب قوى ··· لا يعرف طعم الراحة ·· ان « انليل » عينه لحراسة غابة الأرز ··· ليكون رعبا للناس » ·

(ومن هذه المرحلة يمكن متابعة النص الأشورى) :

خومبابا ... زئيره عاصفة الفيضان فمه نار أنفاسه الردى يستطيع أن يسمع البقر الوحشي في الغابة على مبعدة ستين فرسخا ... من هو ذلك الذى يستطيع أن يذهب الى الغابة التى أحله فيها « انليل » ليحرسها ... ليرعب الآدميين ؟ ان الضعف يعتور من يذهب اليها » .

(ومن هنا يستمر النص البابلى) :

وفتح جلجامش فمه وقال لأنكيدو : « يا صديقى من يغلب الموت ؟ ان الآلهة وحدهم هم الخالدون أما البشر فأيامهم معدودة ... ان ما يحصلون له ليس سوى الريح حتى هنا نرهب الموت ... فماذا عن بطولتك ؟ اذن فلا تقدمك وليقل لى فمك « تقدم ولا تخف » فان سقطت خلفت من ورائى اسما ... سيقولون « جلجامش سقط فى صراعه ضد خوواوا » وذلك بعد أن تكون ذريتى قد تكاثرت فى بيتى انك أحزنت قلبى ... اننى سأقطع الأرز وسأخلد اسمى ... يا صديقى سأجعل الحداد يصنع لى أسلحة » وصنع الحداد أسلحة حادة السنان وكانت البلطة تزن ثلاث وزنات .. وزنة السلاح وزنتان ... وكان يحمل كل من جلجامش وأنكيدو ما زنته عشر وزنات ... وتجمع الناس عند بوابة الوركاء ذات السبعة مزاليج .. وفى شوارع أسواقها العريضة ... وتحدث جلجامش الى كبار القوم منذرا بهزيمة ذلك الذى فى غابة الأرز ويقطع أشجار الأرز وقال له كبار القوم ... « انك ما زلت صغيرا وما تدرى ما سيحل بك اننا سمعنا عن خوواوا ان مظهره عجيب فمن يستطيع أن يجابه أسلحته ؟ وان غابته تمتد لعشرات الآلاف من الفراسخ فمن يستطيع أن يوغل فيها ؟ وان زئيره كعاصفة الفيضان وان فمه نار وان أنفاسه الردى ... فلم تريد أن تفعل ذلك الأمر ؟ .. ان الصراع غير متكافىء فى الاشتباك مع خوواوا » فلما سمع جلجامش ما قاله مستشاروه ابتسم لصديقه وقال :

« ليحمك الهك وليردك سالما الى وطنك الوركاء » وركع جلجامش أمام « شمش » وقال : « أى شمش اننى أذهب يداى مرفوعتان للصلاة ألا لتحسن الى روحى ولتسمح بأن أعود الى وطنى الوركاء أسبغ على حمايتك » ...

وجرت الدموع على وجه جلجامش وجىء له بأسلحته ودعا له القوم بأن يعود سالما وقدم له الولاء كبار القوم وهم يقولون له : « لا تثق فى بأسك واحرس نفسك ليتقدمك أنكيدو فانه يعرف الطريق لأنه سار فيه من قبل وليخترق ممرات خوواوا وليعدك الينا سالما ليمنحك شمش سؤلك ... ليفتح أمامك المغلق من الطرق ... ليقف الى جانبك « لوجال باندا » لتغسل قدميك فى نبع خوواوا احفر بئرا فى وقت الراحة ليلا ...

ليكن الماء فى سقائك نقيا ليمنحك « شمش » ماء مبتردا ! وقال له « أنكيدو » مادمت قد عزمت فتقدم ... لا تخف اتبعنى أنا أعرف مسكنه والطريق اليه وحين سمع الشيوخ ذلك شيعوه داعين له بالتوفيق .

وقال جلجامش ل « أنكيدو » : « لنذهب الى ايجالما » ... الى حضرة الملكة الكبرى « ننسون » العالمة بكل شيء ... ذهبا اليها ... ولبست « ننسون » ثيابها ووضعت حليها المناسبة وصعدت السلالم الى السقف وقدمت البخور الى « شمش » ورفعت اليه يداها وقالت : « لم يمنحنى جلجامش ابنا بقلب قلق ثم تدفعه ليقوم برحلة الى قصر خومبابا ليدخل معركة مشكوك فيها ليسافر فى طريق غير مأمون حتى يذهب ويعود حتى يصل الى غابة الأرز حتى يذبح الوحش خومبابا حتى يمحو الشر الذى تكرهه من الأرض ألا فلتذكرك « آيا » عروسك بغير خوف ولتعهد به الى حراس الليل » .

ووضعت البخور وتلت الرقية ثم طلبت الى « أنكيدو » أن يحمل هذه الرسالة « أى أنكيدو القوى أنت يا من لست بثمرة رحمى ... اننى بهذا أعينك مع الكاهنات والمنذرين ونساء العبادة ومكرسى جلجامش ! ... ثم وضعت حول عنقه ... « ليحم أنكيدو صديقه ويحرس صاحبه ويحمل جسده فوق الحفر .. اننا .. المجمع .. نعهد لك بالملك » وقال أنكيدو لجلجامش ...

اللوحة الرابعة :

النص فيها قلق وغير مؤكد وهو مشوه فى كثير من أنحائه وفى نصوصه الحيثية والأشورية والأكدية ولا يستقيم النص الا بين حين وآخر وهو يشير دائما الى قطع عشرات الفراسخ فى الطريق الطويل حتى يقطعوا فى ثلاثة أيام ما قطعه غيرهم فى مائة وخمسين يوما ... حتى يبدو أنهما وصلا الى بوابة الغابة التى يحرسها حارس من أتباع خومبابا ويظهر ان جلجامش كان فى حاجة لتشجيع أنكيدو ويظهر ان الخوف أقعده بعض الوقت عن المضى لملاقاة المجهول حتى شجعه أنكيدو على التقدم .

اللوحة الخامسة :

توقفا وتأملا فى الغابة وتطلعا الى ارتفاع الأرز ومدا ببصرهما الى مدخل الغابة ... كان هناك طريق حيث اعتاد « خومبابا » أن يسير .. كانت الدروب مستقيمة والطريق سهلا ورأوا جبل الأرز .. مسكن الآلهة ... عرش « ايرنينى »(٨) ... ومن واجهة الجبل ارتفعت أشجار الأرز وكانت ظلالها رائعة ...

واحتضنا بعضهما ليأويا الليل ... وغلبهما النوم عند منتصف الليل تيقظا وقص على صديقه « أنكيدو » حلمه : « اذا لم تكن قد أيقظتنى فلم أنا يقظـــان يا أنكيدو يا صـــديقي لابد أننى شهدت حلما .. ألم يوقظنى ؟ .. الى جانب حلمى الأول شـهدت حلمـا آخر .. وفى حلمى يا صديقى انكفأ جبل ألقانى أرضا وأمسك بقدمى .. وظهر رجـل .. أجمل من فى الأرض وشـدنى من تحت الجبل وأعطانى ماء لأشربه فهدأ قلبى .. وأقر قدمى على الأرض ..

وقال أنكيدو يفسر لصاحبه حلمه : « الجبل يا صاحبى هو خومبابا انا سنقبض على خومبابا ونقتله وسنلقى بجثته الى السهل » ... ثم سار عشرين فرسخا ثم ثلاثين فرسخا وحفر بئرا أمام « شمش » وجاء الجبل بحلم لأنكيدو ووضع جلجامش ذقنه على ركبته وغلبه النوم ثم تيقظ فجأة وسأل صاحبه : « أناديتنى ؟ لم استيقظت ؟ ألم تلمسنى ؟ أمر بى اله ؟ لم يرتعد جسدى ؟ يا صاحبى لقد رأيت حلما ثالثا ... مزعجا السماء صرخت والأرض دوت وخبـا ضوء النهار وحلت الظلمة والتـمع البرق وأما السحب فأمطرت الموت ... ثم خبت النار وتحول كل شيء الى رماد لتنزل ...ولنتشاور خارجا » ولما سمع أنكيدو الحلم قال لجلجامش ...

(وهنا تختفى اجابة أنكيدو لجلجامش من النص) .

وأمسك جلجامش بالبلطة فى يده واجتث شجرة أرز فلما سمع خوواوا الجلبـة غضـب وقال : « من جاء ليجتث الشجرة التى نمت فى جبالى ؟ » وعندئذ جاءهما صوت «شمش» من السماء : « اقتربا ولا تخافا .. تقدما الى بيته وادخلا » .

(ويضيع جانب من النص) ثم يلى ذلك :

وجرت دموعه وقال جلجامش لـ « شمش » : « لقد جئت الى شمش واتخذت طريقى المرسوم لى » واستمع « شمش » الى دعاء « جلجامش » وارتفعت ضده « خوواو » الرياح القاسية ... ثمانية من الرياح هاجمته وصوبت الى عينيه فلم يستطع حراكا فقال لـ «جلجامش» : « أطلقنى ستكون مولاى وسأكون خادمك ... » ولكن أنكيدو قال لجلجامش : « لا تصغ الى ما قاله لك ... قطعوا رأس « خومبابا » ...

اللوحة السادسة :

ومسح شعره ونظف أسلحته والقى بأسماله وارتدى زيـا جديدا نظيفا ولما وضع جلجامش تاجا على رأسه وشهدت عشتار جماله قالت له : « أقبل يا حبيبى .. امنحنى من قطافك ! ستكون زوجى سأجهز لك عربة

من اللازورد والذهب ·· عجلاتها من الذهب وأبوابها من الالكتروم ···
ستكون لك بدلا من البغال القوية ··· جن من العواصف ·· ستدخل
بيتنا تحت عبق الأرز ··· وحين تدخل ستقبل قدميك عتبة الباب
وسيتضع أمامك الملك والسادة والأمراء وسيقدمون لك منتجات البلاد
والسهول اتاوة··ستنتج معزك ثلاثة أضعاف وأغنامك توائم ·· حمارك
سيفوق بغلك فى قوة حمله ستكون لخيل عربتك شهرة فى السباق
وسوف لا يكون هناك منافس لثورك تحت النير ! » وفتح جلجامش فمه
وقال لعشتار : « ماذا فى وسعى أن أقدم لك كهدية عرس ؟ أأقدم زيتا
لجسدك وملابس ؟ أخبزا وخضرا ؟ أطعاما يليق بالآلهة أم شربا يليق
بالملوك ؟ ··· اذا تزوجت منك فلن أكون سوى مستوقد يخبو فى البرد
وباب خلفى لا يذود الريح العاصفة ·· قصر يحطم الشجاع ··· غمامة
تغطى ·· قار يلوث حامله ·· قربة ماء ينقع ماؤها على حاملها ·· نعل
يضيق به لابسه ·· من ممن أحبك دام حبك له ؟ من من رعاتك استطاع
أن يبقى على ارضائك ؟ تعالى فأعدد لك من أحبوك : ··· « تموز » حبيب
شبابك ··· لقد قدر له النحيب عاما بعد لعام ··· أحببت طائر الراعى
المرقش فقربته وكسرت جناحه

انه يجلس فى الأحراش صارخا « وى أين جناحى ؟ »
ثم أحببت السبع ··· الكامل فى قوته ·
فحفرت له سبعا من الحفر وسبعا ·
ثم أحببت فحلا من الخيل ··· له شهرته فى المعارك
وزودته بالسوط والمهماز ··· وسمحت له أن يقفز سبعة فراسخ
ثم قدرت له أن يشرب الماء الكدر
وقدرت لأمه « سيليلى » العويل
ثم أحببت حارس القطيع الذى جعل أكوام الكعك طعاما لك
وذبح حملانا كل يوم ··· ومع ذلك ضربته فحولته الى ذئب حتى
طرده صبيانه وعضت كلابه فخذيه
ثم أحببت « أيشو للانو » بستانى أبيك الذى طالما حمل لك سلال
البلح
وكان كل يوم يضىء مائدتك
وارتفعت عيناك له ··· وذهبت اليه قائلة :
« أى ايشوللانو » لنتذوق قوتك ···
امدد « يدك » والمس « رقتنا »

وقال لك « ايشوللانو »
« ماذا تريدين مني ؟ »
ألم تخبر أمي ؟ أو لم آكل
حتى أطعم الاثم واللعنة ؟
أيحمى القصب مع الصقيع ؟ »
وحين سمعت حديثه ضربته وحولته الى عنكبوت
وأحللته في وسط ...
فلا يقوم ولا يجيء ...
اذا كان لك أن تحبيني ... فستعامليننى بالمثل » .

ولما سمعت « عشتار ذلك غضبت وصعدت الى السماء .. وذهبت الى « أنو » أبيها والى « أنتوم » أمها وقالت : « أبى ان جلجامش قد أهال على الاهانـــات !

ان جلجامش قد عـدد لى ســوءاتى ! ســوءاتى ولعناتى ! « وفتح » « أنو » فمه وقال لعشتار : « حقا انك دعوت ... وهكذا عدد لك جلجامش سوءاتك ... سوءاتك ولعناتك » ، وقالت «عشتار» لأبيها «أنو» أى أبى ! اجعل منى ثور السماء الذى يضرب جلجامش وأملاء جلجامش ... ان لم تجعلنى ثور السماء فسأحطم أبواب العالم السفلى وسأقيم الموتى ليأكلوا الأحياء حتى يزيد عددهم عليهم « وفتح » « أنو » فمه وقال لعشتار : « اذا أنفذت ما تطلبين فستكون هنـاك سبع سنين عجاف .. أفجمعت حبوبا للنـاس ؟ أفستنبت الحشـائش للأغنـــام ؟ وفتحت عشـتار فمها تقول ل « أنو » أبيها : « لقد خزنت الحبوب للناس والحشائش للأغنام » .

« ويلى ذلك بعض سطور لابد أنها تعنى أن « أنو » استجاب لها ، لأن الثور ينزل ويقتل المئات من الرجال بنخزتيه الأوليين » .

وأما نخزته الثالثة ... على أنكيدو ... وتفادى أنكيدو هجمته وقفز أنكيدو وأمسـك بثور السماء من قرنيه ونثر ثور السماء زبده فى وجهه وضربه بجماع ذيله وقال أنكيدو لجلجامش : ياصديقى لقد مجدنا ... (ثم يلى ذلك ١٦ سطرا ضائعة جاء بعدها) :

ودفن سيفه بين العنق والقرنين ولما تم لهما ذبح الثـور مزقا قلبه ووضعاه أمام « شمش » وانسحبا وقدما الخضوع ل « شمش » .

واعتلت عشـتار أسـوار الوركاء وفاهت بلعنتها : « ويل لجلجامش لانه أهاننى بقتله ثور السماء » ولما سمع أنكيدو قول عشتار فصـل

الفخذ اليمنى لثور السماء ورمى بها فى وجهها قائلا : « لو استطعت الوصول اليك لفعلت بك ما فعلته به ولعلقت أمعاءه الى جوارك » وعندئذ استدعت عشتار المنذورين وبنات الهوى وعاهرات المعبد وأقامت مناحة الى جانب الفخذ اليمنى لثور السماء ، ودعا جلجامش الصناع والمحاربين وأعجب الفنانون بسمك قرون الثور وكل منها زنته ثلاثون مينا من اللازورد ويكسوه ما سمكه أصبعان وبمقدار زنة الاثنين قدم ستة مكاييل من الزيت ... كعطر لربه « لوجال باندا » ثم جاء بهما وعلقهما فى غرفة نومه ... وغسلا أيديهما فى ماء الفرات واحتضنا بعضهما وسارا راكبين فى أسواق الوركاء وتجمع القوم ليشهدوهما وقال جلجامش لعازفات الجنك فى الوركاء : « من اللامع بين الأبطال ؟ من الرائع بين الرجال ؟ » فقلن : «جلجامش هو اللامع بين الأبطال،وجلجامش هو الرائع بين الرجال»، وأقام جلجامش فى قصره حفلا ونام البطلان في سريريهما فى الليل ونام أنكيدو وشهد حلما وقام أنكيدو ليحكى حلمه قائلا لصديقه : « أى صاحبى لم اجتمع مجلس الآلهة ؟ » .

اللوحة السابعة :

(هناك عمودان مفقودان من هذه اللوحة فى النص الآشورى) والنص الحيثى ويروى قصة الحلم أو جانبا منه على الأقل :

ثم بدأ النهار وأجاب « انكيدو » « جلجامش » : استمع الى ما رأيت فى حلمى الليلة : اجتمع « أنو » و « انليل » و « أيا » و « شمش » السماوى فى مجلس .. وقال « أنو » ل « ايا » : « لأنهما قتلا ثور السماء وقتلا «خوواوا» فان من عرى الجبال من أرزها يجب أن يموت ولكن «انليل» قال : «يجب أن يموت أنكيدو ومع ذلك فان جلجامش سوف لايموت» عندئذ أجاب « شمش » السماوى « انليل » الشجاع : « ألم يكن بناء على طلبتى (طلبتك فى نص آخر) انهما قتلا ثور السماء و « خوواوا » أفحتم اذن ان يموت الآن انكيدو البرىء ؟ واستدار « انليل » فى غضب الى « شمش السماوى وقال : « ألانك تتردد عليهما وتنزل اليهما كل يوم كواحد من أصحابهما ؟ » .

ومرض أنكيدو ورقد أمام جلجامش وجرت دموعه وقال : « أى أخى أى أخى العزيز سوف يضحون بى فى سبيل أخى ... بل ... أيجب ان اجلس بالروح لدى باب الأرواح ولا أعود فأشهد بعينى أخى العزيز ؟ » ..

(وتلى ذلك فقرات ضائعة من النص ويظهر أن انكيدو يبكى فيها بسبب الأحداث التى أدت الى ما صار اليه ... وواحدة من لعناته ــ فى النص الآشورى ــ موجهة ضد البوابة التى سببت عجز يده) .

رفع « انكيدو » عينيه وتحدث الى الباب كأنما هو آدمي وقال — :
يا باب الغابات الذى لا تفهم ·· ليس هناك مماثل لأخشابك ·· ارتفاعك ٧٢ ذراعا وعرضك ٢٤ ··· لو دريت أن ذلك قدر له أن يكون وأن جمالك هذا ·· كنت رفعت البطلة و ···

(وتلى ذلك فقرة طويلة ضائعة ··· نفهم من النص من بعدها أن « أنكيدو » يلتمس من « شمش » أن يصب لعنته على الصياد) ··

بدد ثروته ·· وحطم قوته ·· ليكن طريقه أمامك كريها ·· لتهرب من أمامه الوحوش التى ينصب لهـــا فخاخه ·· لاتدع للصـــياد الجـــرأة أو السيطرة على قلبه ·· ثم استدار قلبه ليلعن فتاة اللذة ·· العاهرة : أقبلى أيتها الفتاة ·· سأقرر لك مصيرك ! مصيرا سوف لا ينتهى الى الأبد ·· سألعنك لعنة كبرى ! قسما ستجتاحك لعناته على الفور ! ·· سيرمى الى بيتك ·· سيكون الطريق مأواك ·· سيكون ظل الحائط مقرك سيلطم خدك السكير والعطشان ·· لأنك ·· لى ولأن ·· على ·· ولما سمع «شمش» هذه الكلمات من فمه ناداه من السماء قائلا : « لم تلعن يا أنكيدو الصبية العاهرة التى جعلتك تأكل طعاما يصلح للآلهة وسقتك شرابا يليق بالملوك وألبستك ثياب النبلاء وجعلت من جلجامش النبيل صديقا لك ؟ ألم يجعلك صديقك الحميم جلجامش ترقد فى مخدع نبيل ؟ انه جعلك ترقد على وسادة شرف وأحلك فى مقعد الراحة ·· المقعد الذى الى اليسار حتى يقبل أمراء الأرض قدميك سيجعل أهل الوركاء يبكون عليك ويحزنون وسيملأ الفرحين من الناس بالأسى وحين ترتحل سيجوم كأسد بشعره على جسمه كلبدة الأسد فى المراعى » ·

فلما سمع انكيدو كلمات شمش الشـــجاع هدأ قلبه المغتاظ ··
(وتلى ذلك فقـــرة ضائعة ويبـــدو أنه يعود فيوجه الحـــديث الى الصبية فيقول) : « سيحبك الملوك والأمراء والنبلاء وسوف لايضرب واحـــد منهم بسببك فخذه الرجل المسن سيهز لحيته عليه ·· و ·· سيفك زناره ·· الا فليرد من لوثك ·· ليخرب بيته ومخزنه ·· سيقودك الكاهن الى حضرة الآلهة من أجلك ستهجر الزوجـــة ولو كانت أما لسبعة) فى تلك الليلة كانت نفس « انكيدو » مرة ونام وحيدا وأفضى الى صاحبه بمشاعره قائلا : « أى صديقى لقد شهدت الليلة حلما ·· أنت (بتشديد وفتح النون) السماء ·· ورددت الأرض ·· كنت وحيدا ·· اسود وجهه ·· كانت مخالبه كمخالب النسر غلبنى ·· قفز ·· حولنى حتى أصبحت ذراعاى ·· ك ·· طائر ·· وحين شهدنى قادنى الى بيت الظلام مسكن « اركالا » الى البيت الذى لا يغادره من يدخله ·· الى الطريق الذى لا رجعة فيه ·· الى البيت الذى لا يشهد سكانه النور حيث التراب نبيصهم والطين طعامهم

انهم يلبسون كالطيور دثارهم أجنحة ولا يرون الضوء بل يعيشون في الظلام ·· في بيت التراب الذى دخلت شهدت حكاما نزعت تيجانهم وشهدت أمراء ولدوا للتاج وممن حكموا الأرض في سالف العصور ·· كان صنو من « أنو » و « انليل » يقدمان اللحم والشواء ويصبان الماء البارد من السقاء الجلدية ·· في بيت التراب الذى دخلته يعيش كبير الكهنة والسادن ·· يعيش من يتلو الرقي والهيمان المستغرق في غيبوبته ·· يعيش مطيبو العطور لكبار الآلهة ·· يعش « ايتانا » (٩) و « سوموقان » ·· هناك تعيش « الارشكيجال » ملكة العالم السفلى وتركع « بعلة سرى » مسجلة العالم السفلى أمامها وتمسك بلوحة تقرؤها لها ·· ورفعت رأسها ورأتنى وقالت : « من جاء بهذا الى هنا ؟ » « وتلى ذلك فقرة ضائعة في النص الآشورى يليها » : تذكر كل رحلاتى من معه شهد صاحبى حلما تفسيره غير مرض انتهى اليوم الذى شهد الحلم فيه ومضى يوم آخر و « أنكيدو » يتألم في سريره وآلامه تزداد ثم يوم ثالث ورابع وألمه يتزايد ·· ثم خامس وسادس وسابع وثامن وتاسع وعاشر وألمه يزداد ·· أنكيدو مريض في سريره يتألم وأخيرا نادى جلجامش وقال له : « يا صاحبى ·· ان ·· صب على لعنته ·· سوف لا أموت كمن سقط في معركة ·· لأنى خشيت المعارك ·· ان صاحبى الذى قتل في معركة مبرر ، أما أنا ··

اللوحة الثامنة :

وعندما لاحت أول أضواء الفجر قال جلجامش لصاحبه ·· (ولا ندرى ما قاله ولكن يلى ذلك حديث جلجامش الى شيوخ الوركاء عند سرير موت أنكيدو) : أصغوا الى واستمعوا أيها الشيوخ اننى أبكى من أجل صديقى انكيدو ·· اننى أنوح في مرارة كالنائحة الثكلى ·· البلطة في جانبى والقوس في يدى ·· الخنجر في حزامى والدرع أمامى ·· ثوب الأعياد فرحي الكبير شيطان سوء قد سرقه منى ·· يا صديقى الصغير أنت يامن طاردت الحمار الوحشى في التلال وفهد المراعى ·· انكيدو ياصديقى الصغير ·· يا من تغلبت على كل شيء وجبت الجبال ·· وقبضت على الثور وذبحته يا من سبب الأسى لـ « خومبابا » الذى كان يعيش في غابة الأرز ·· ما هذا اذن ذلك السبات الذي حل عندك ؟ لقد دهمك الظلام فلم تعد تستطيع أن تسمعنى انه لا يرفع عينيه ! حين يلمس قلبه ولا يضرب ثم وضع نقابا على صاحبه كعروس ·· انه يرفع صوته كأسد ! كلبؤة حرمت من أشبالها ·· انه يروح أمام المخدع وهو يشد شعره ويمزق ملابسه ··

فوق وسادة المجد وسريرك

فوق مقعد الراحة ·· المقعد الى اليسار ·· أحللتك
حتى يقبل أمراء الأرض قدميك
سأجعل أهل الوركاء يبكون وينوحون عليك
سأملأ قلوب الفرحين بالأسى عليك
ومادمت قد ذهبت فسأكسو جسدى بشعر لايقص
وسأرتدى جلد أسد وأجوب الفيافى

وعند بزوغ الفجر فك جلجامش أربطتـــه ·· وجاء بمائدة من خشب « ايلاماقو » وملأ اناء من العقيق بالعسل ، وملأ اناء من اللازورد باللبن المخثر ··

اللوحة التاسعة :

جلجامش يبكى بحرقة أخاه انكيدو ·· وهو يجوب الفيافى « حين أموت أسوف لا أكون ك « انكيدو » ؟ ان الحسرة حلت فى داخلى ·· اننى أجوب الفيافى مرتاعا من الموت ·

اتخذت طريقى الى « أوتنابشتيم »·(١٠) بن « أوبارتوتو » فى أقصى سرعة وعند وصولى ليلا الى ممرات الجبال رأيت أسدين فاشتد الخوف بى ورفعت رأسى الى « سن » داعيا ··· وارتفعت دعواتى الى الآلهة ملتمسا أن تحفظنى ·· وبعد أن نام الليل استيقظ على حلم ·· رفع بلطته فى يده وسحب الخنجر من حزامه وكسهم نزل فى وسطهم وضربهم وطاردهم (وبقية العمود ضائع وحين نصل الى العمـــود الثـــانى نجد أنفسنا مع جلجامش أمام جبل) ·· اسم الجبل « ماشو » ·· حين وصل الى سلسلة جبال ماشو تلك التى ترقب الشمس مشرقة وغاربة والتى تصل قممها الى قبة السماء والتى يتدلى صدرها الى العالم السفلى يحرس الرجـــال والعقارب بوابتها والخوف منها يثير الرعب والنظرة اليها تعنى الموت ·· لما شهدها « جلجامش » اعتـــوره الخوف واســـود وجهه رعبـــا واستمسك بحواسه وانحنى أمامها وقال رجل عقرب لزوجته : « ان القادم الينا جسده لحم الآلهة » فأجابته زوجته : « ثلثاه اله وثلثه آدمى » ونادى الرجل العقرب زميله قائلا لسلالة الآلهة : « لم قدمت فى هذه الرحلة الطويلة ؟ ، لم جئت أمامى مخترقا البحار التى يصعب عبورها؟·· أريد أن أعرف سر مقدمك»·

« جئت بسبب « أوتنابشتيم » أبى الذى التحق بمجمع الآلهة بحثا وراء الحياة ·· وأنا وراء مشكلة الموت والحياة » وقال الرجل العقرب لجلجامش ليس هناك بشر ياجلجامش استطاع تحقيق ذلك وليس هناك واحد استطاع ان يرتحل فى مسارب الجبل ·· انه يمتد للداخل مدى اثنى عشر فرسخا ·· الظلمة كثيفة وليس ضوء ··

« فى أسى أو ألم فى البرد والحر بالتنهد أو البكاء ·· سأذهب والآن افتح بوابة الجبل » وقال الرجل العقرب لجلجامش : « اذهب يا جلجامش ·· جبال ماشو ·· لعله فى سلام ·· انه بوابة الجبل تنفتح » فلما سمع جلجامش ذلك ذهب فى طريق الشمس ولما قطع فرسخا أحس بالظلام يلفه لم يكن هناك ضوء ولم يستطع ان يميز ما أمامه أو ما وراءه ·· وحين قطع فرسخين ·· ولما قطع أربعة فراسخ لم يكن هناك ضوء كانت الظلمة سائدة ولم يكن يستطيع أن يميز ما أمامه أو ما وراءه ولما قطع ستة فراسخ كانت الظلمة دامسة ولم يميز ما أمامه مما وراءه ولما قطع سبعة فراسخ لم يكن هناك ضوء ·· كانت الظلمة دامسة ولم يكن يستطيع أن يرى شيئا أمامه أو خلفه ·· وقطع ثمانية فراسخ واستغاث حيث لم يكن هناك ضوء بل ظلام دامس لا يرى المرء فيه شيئا من أمام أو من وراء وقطع تسعة فراسخ بريح الشمال تهب على وجهه وكان الظلام دامسا وليس ضوء وليس ما يرى من خلف أو من قدام ·· وحين قطع أحد عشر فرسخا أشرق الفجر وحين قطع اثنى عشر فرسخا سطع النور ·· ولما رأى حرش الأحجار اتجه نحو ·· كان العقيق يحمل ثمارا وكان معلقا فى كرم يسر الناظر ، كانت للازورد أوراق كأوراق الشجر وكان يحمل كذلك ثمارا يرضى النفس أن تشهدها ·

اللوحة العاشرة :

(أ) النص البابلى القديم

« ·· وكسا نفسه بجلودها وهو يأكل لحمها ·· أى جلجامش ·· مما لم يحدث بمدى ما ساقت ريحى الماء ·· » وذهل «شمس» حين شهده وقال له : ؟ أين تجول ؟ ··· ان الحياة التى نشهدها سوف لا تجدها » ، فقال جلجامش للبطل « شمش » بعد تجولى فى السهوب ·· أفحتم على ان أريح رأسى فى قلب الأرض كل السنين ؟ ألا لتشهد عيناى الشمس حين أنال ملئى من الضوء ·· الظلمة تقترب بيننا ما يزال هنا ضوء : ألا ليت من مات موتا يشهد اشعاع الشمس » ··

ذلك الذى مر بالمحن معى ، انكيـــدو ، من أحببت كثيرا من قاسى المشاق معى ·· ذهب الى مصير البشر بكيته ليلا ونهارا ·· ثم ترددت فى أن أقوم بدفنه ·· فربما صحا صاحبى على لوعتى ·· سبعة أيام وسبع ليال ·· حتى سقطت دودة من أنفه ·· منذ موته لم أحس طعم الحياة ·· رحت أتجول كصياد فى السهوب ·· أى « زوجة الجعة » مادمت قد شهدت وجهك فلا تدعينى أشهد الموت الذى أرهبه ·· فقالت له « زوجة الجعة » . « أين تتجول يا جلجامش ؟ أنت سوف لا تعثر على الحياة التى تنشدها حين

خلق الآلهة البشر قرروا الموت للبشر مستبقين الحياة فى أيديهم وأنت يا جلجامش املأ بطنك وافـــرح يومك وليلك وابتهج كل يـوم ارقص والعب نهارا وليـلا لتكن ملابسك قشيبة مزركشـة ولتغسـل رأسك ولتستحم فى الماء ·· اهتم بالصغار الذين تمسك بهم فى يدك دع زوجك تسعد فى صدرك فهذا من سمات البشر !

وحين عاد ذهب اليه ·· وشـهده « سورسونبو » وقال لجلجامش : « خبرنى ما اسمك أنا «سوسونبو» تابع «أوتانابشتيم» فقال له جلجامش : « اسمى جلجامش الذى قدم من « أوروك ــ ايانا » واخترق الجبال فى رحلة طويلة من حيث تشرق الشمس أى « سورسونبو » مادمت قد شـهدتك فأرنى أوتانابشتيم ·

(ب) النص الآشورى

« سيدورى » زوجة الجعة التى تسكن بجوار البحر العميق وتجلس ·· صنعوا لها ابريقا ·· اناء من الذهب ·· وتنقبت ·· جاء اليها جلجامش وهو يتدثر بالجلود لحم الآلهـة فى جسده ، وبلية فى أمعائه ووجهه كوجه عابر قادم من بعيد ·· وتأملت زوجـة الجعة ومدت ببصرها الى بعيد وتحدثت الى نفسها قائلة « لابد أن هذا قاتل ترى الى أين هو ذاهب ؟ » وحالما رأته أغلقت بابها ووضعت المتاريس خلف بوابتهـا وحين سمع جلجامش هذه الأصوات أمسك بعصاه المدببة ··وقال لها : « ترى ماذا دفعك لاغلاق الباب ووضع المتاريس فى البوابة ·· اننى سأحطم الباب وأدمر البـوابة ·· » ·

وقال لها جلجامش : « ذبحت حارس الغابة وجئت بالكوارث على « خومبابا » الساكن فى غابة الأرز وذبحت الأسود فى ممرات الجبال » فقالت له زوجة الجعة : « ان كنت أنت جلجامش فلم ذبحت حارس الغابة وجئت بالكوارث على « خومبابا » الساكن فى غابة الأرز وذبحت الأسود فى ممرات الجبال ثم قبضت على الثـور القـادم من السماء وذبحته ؟ ·· لم ذبل اذن خداك وأصبح وجهك هضيما ؟ ·· لم يحزن قلبك ولم يبدو الاجهاد على سحنتك ؟ لم يحل فى أمعائك ولم يبدو وجهك كعابر سبيل من بعيد ؟ لم ذبلت سحنتك بوطأة البرد والحر وكأنما تسعى وراء سراب تجوب بسببه السهوب ؟ فقال لها جلجامش ·· « ان ذلك بسبب صديقى الصغير الذى كان يطارد الحمير الوحشية فى التلال والفهود فى السهوب ·· صديقى الصغير « أنكيدو » الذى قهر كل شىء وجاب الجبال ·· ذلك الذى أمسـك بثور السماء وذبحه وأنزل البـلاء ب « خومبابا » الساكن

فى غابة الأرز ·· صـــديقى الذى أحببته كثيرا ·· الذى قاسى معى كل المحن ·· ذلك الذى رضخ لحكم القدر على البشر ·· بكيته ستة أيام وسبع ليال حتى سقطت الدودة من أنفه ·

وهانذا أجوب السهوب خائفا من الموت ·· ان أمـر صديقى يثقل على ·· ان أمـــر صديقى « انكيدو » يثقل على قلبى ·· كيف أستطيع السكوت ؟ أنى لى الاستقرار صديقى الذى أحببته قد صار طميا ·· أفحتم على أنا أيضا أن أرقد فلا أقوم ثانية ·· الى الأبد ؟ ثم سألها جلجامش عن الطريق الى « أوتنابشتيم » : عن معالمه ! عن البحر الذى عليه أن يعبره وعن السهوب التى عليه أن يقطعها فقالت له : « لم يحدث من قبل أن عبرها انسان لم يحدث أن عبر انسان البحـر منذ بدء الزمان سوى « شمش » « الشجاع » ·· انه هو الذى يعبر البحر ·· ومن سوى شمش يستطيع عبوره ؟ ان مكان العبور مجهد ·· ومجهد كذلك الطريق اليه ·· عميقة هى « أمواه الموت » التى تقوم أمام من يقترب منها ·· فأين اذن تستطيع يا جلجامش أن تعبر البحر ان وصلت الى « مياه الموت » فماذا تنوى أن تعمل ؟ أى جلجامش هناك ! «أورشانابى» (١١) مراكبى «أوتنابشتيم» ومعه ثلاث قطع حجـرية ·· انه يلتقط فى « الغـابات » أفاعى أورنـو « ·· دعه يراك فان وافقه الأمر عبر بك وان لم يرقه عـــدت » فلما سمع جلجامش ذلك رفع بلطته فى يده وسحب الخنجر من حزامه واندفـع الى الغابة واندس فيها كسهم ·

وقال له «أورشانابى» : « ما بال خديك ذابلان ووجهك هضيم وقلبك كسير وسحنتك مجهدة وأمعاؤك مرهقة ·· وجهك كعابر سبيل طال به المطاف وملامحك قد أضناها الحر والبرد وما بالك تجوب السهوب كأنما تسعى وراء سراب ؟ فأجابه جلجامش بمثل ما أجاب زوجة الجعة من قبل ثم سأله عن طريق الى « أوتنابشتيم » ومعالمه ·· وعن البحر الذى عليه أن يعبره والسهوب التى يخترقها فأجابه « أورشانابى » قائلا : « ان يديك ياجلجامش تعوقان التقدم ·· لقد كسرت الأشـــياء الحجرية والتقطت « أفاعى أورنو » فالأشياء الحجرية مكسورة وال « أورنو » ليست فى الغابة » اذهب ياجلجامش حاملا بلطتك الى الغابة واقطع ١٢٠ عمودا طول كل منها ٦٠ ذراعا ثم ايت بالقار وارجعها الى بعضها وائتنى بها، فلما سمع ذلك جلجامش فعل ما طلب منه وصعد بعـد ذلك مع « أورشانابى » فوق القارب ودفعا به الى الأمواج وأبحـرا وقطعا فى ثلاثة أيـام ما يعدل رحلة شهر وخمسة عشر يوما ·· وهكذا وصل « أورشانابى » الى « مياه الموت » وقال لجلجامش : « استمسك بأحد الأعمدة ولكن لا تلمس مياه الموت ·· خـــذ عمودا ثانيـــا وثالثا ورابعـــا وخامسا وسادسا وسابعا وثامنا

وتاسعا وعاشرا وحادى عشر وثانى عشر ·· واستنفد جلجامش العيدان المائة والعشرين ثم فك ماحول حقويه ونزع ثوبه وأمسكه فى يده كشراع ·· وتطلع « أوتنابشتيم » الى بعيد وقال فى قلبه « لم كسرت الأشـــياء الحجرية الخاصة بالقارب ولم يمتطيه من ليس بصاحبه ؟ ان القادم ليس من رجالى ·· اننى أتطلع ولكننى لا ··

وقال جلجامش له ·· الـ « أوتنابشتيم » : هأنذا أشـــهد الآن « أوتنابشتيم » لقد تجولت فى كل البلاد وعبرت الجبال الوعرة والبحار جميعا ·· لم أذق النوم بل قيدت نفسى باليقظة وملأت مفاصلى آلاما ·· أنا لم أكن قد وصلت الى بيت « زوجة الجعة » حين كانت ثيابى قد بليت ·· لقد ذبحت الدب والضبع والأسد والفهد والنمر والوعل والوحوش البرية وزواحف السهوب ·· أكلت لحومها ولففت بدنى بجلودها ·

أنشيد مساكن للأبد ؟ أنختم عقودا للأبد ؟ أيقتسم الأخوة أنصبتهم للأبد ؟ أتبقى الكراهية فى الأرض للأبد ؟ أيظل النهر أبدا يرتفع ويجلب الفيضان ان اليعسوب يترك شرنقته حتى يشهد وجهه الشمس ·· منذ سالف العصور لم يكن هناك دوما الذين يستريحون والموتى ·· ما أشبه الواحد بالآخر ! أليسا يرسمان معا صورة للموت ؟ الرجل من العـــامة والنبيل ·· يتقاربان عند مصيرهما ··

ان الـــ « انوناكى » كبار الآلهة ·· اجتمعوا من قبـــل ·· ومعهم « ماميتوم » صانع القدر ·· وأقروا الموت والحياة أما الموت فلم يكشفوا عن موعده ·

اللوحة الحادية عشرة :

وقال جلجامش لـــ « أوتنابشتيم » :

اننى حين أتطلع لا أرى وجهك غريبا عنى ·· انك مثلى ··

ان قلبى قد نظر اليك كأنما أنت على أهبة معركة ·· ومع ذلك فأنت ترقد على ظهرك متراخيا ·· خبرنى كيف تم لك الاتصال بمجمع الآلهة سعيا وراء الحياة ؟

فقال « أوتنابشتيم » لـ « جلجامش » :

سأكشف لك ياجلجامش عن أمر مخبـــوء ·

سأميط اللثـــام عن سر الآلهة ·

« شوريباك » ·· مدينة تعرفها على ضفاف الفرات ·

كانت تلك المدينة القديمة ·· قدم الآلهة الذين كانوا بها ·
وانتوى كبار الآلهة أن يصنعوا الفيضان ·
كان « أنـــو » أباهـــم ·
و « انليل » الشجاع مستشارهم ·
و « ننورتا » بشيرهم ونذيرهم ·
و « أينوجى » مفتش القنوات ·
وكان معهم كذلك « ننيجيكوايا » ·
وكرروا كلماتهم الى كوخ القصب ·
« ياكوخ القصب ياكوخ القصب يا حائط يا حائط ·
أصغ يا كوخ القصب استمع يا حائط » ·
أيها الرجل من « شوروباك » يا ابن « أوباتوتو » ·
اهدم هذا البيت واصنع لك سفينة ·
تخل عما تملك واسع وراء الحياة ·
احتقر المتاع ودع الروح حية ·
خذ على ظهر السفينة بذرة كل شىء حى ·
السفينة التى سوف تبنيها ·
ستقيس أبعادها ·· عرضها كطولها ·
ستجعل سقفها مثل الـ « ابسو » !
ووعيت ما قيل وقلت ل « أيـا » ·
« ان ما أمرتنى به يا الهى سيسرهم أن أنفذه ·
ولكن كيف أجيب المدينة الناس والشيوخ ؟
وفتح « أيا » فمه وقال لى ·· لخادمه
ستقول لهم : علمت أن « انليل » يعادينى
وهكذا لا أستطيع أن أقيم فى مدينتكم ·
أو أضع قدمى فى أملاك « انليل » ·
سأذهب اذن الى الأعماق لأسكن مع الهى « أيا »
وأما لكم فسيوفر فى كثرة الخير ·· خير الطيور وأندر الأسماك ·
ستكون للأرض وفرة محاصليها ···
ومع انبثاق الفجر تجمعت الأرض حولى ·

حمل الصغار القار وجاء البالغون بما أحتاجه ٠
وفى اليوم الخامس صنعت هيكلها ٠
كانت مساحة سطحها فدانا كاملا ٠
كان ارتفاع كل حائط من حوائطها ١٢٠ ذراعا ٠
وصنعت شكل جوانبها وربطتها الى بعضها ٠
وجعلتها من ستة طوابق ٠
وهكذا كانت من سبعة أجزاء ٠
وقسمت أرضيتها الى تسعة أقسام ٠
ودققت مسامیرها وعملت اللازم لسطحها ٠
وأوقدت النار على ستة « سار » من القار ٠
كما صببت ثلاثة « سار » من الأسفلت ٠
وحملوا الى ثلاثة « سار » من الزيت ٠
بخلاف « سار » الزيت للقلفطة ٠
و ٢ « سار » الزيت الذى دسه المراكبى ٠
وذبحت ثيرانا للنـــاس ٠
وماشـــية كل يـــوم ٠
أعطيت العمال نبيذا أحمر وزيتا ونبيذا أبيض ليشربوا ٠
حتى يحتفلوا بعيد رأس السنة ٠
وأكملت السفينة فى اليوم التاسع ٠
وكان انزالها للماء بالغ المشقة ٠
حتى انهم اضطروا لدفع ألواح الأرضية من أعلى ومن أسفل ٠
حتى أمكن انزال ثلثى هيكلها الى الماء ٠٠
وحملتها بكل ما أملك ٠
حملتها بكل لدى من فضـــة
حملتها بكل ما لدى من ذهب ٠
حملتها بكل ما أملك من كائنات حية ٠
كل أسرتى وأقاربى صعدوا الى ظهرها ٠
دواب الحقل والحيوانات البرية ٠
وكل الصـــناع ٠

وقد حدد لى « شمش » وقتا محددا ·
« حين يسقط مطرا ذلك الذى يسبب القلق ليلا اصـــعد الى ظهر سفينتك وأغلق بابها » ! ·
وجـــاء الوقت الموعود ·
وأخذت أرقب وجه السماء ·
وكان منظر الجو مخيفا ·
دخلت السفينة وأغلقت بوابتها ·
وعهدت الى « بوزور ــ أمورى » الملاح بقيادتها بكل ماتحوى ·
ولمـــا أضـــاء الفجـــر
خرجت من الأفق سحابة داكنـــة ·
زأر « ادد » من داخلها ·
وتقدمها « شولات » و « هانيش » ·
كمناديين فوق التل والسهل ·
ومزق « ايراجال » القوائم ·
وجعل « نينورتا » السدود تتبعها ·
وحمل الـ « أنوناكى » المشاعل ·
وجعلوا الأرض تشتعل نارا ·
وصل الذعر من « ادد » عنان السماء ·
وتحول الى الظلمة كل ما كان مضيئا ·
انصدعت الأرض كما تنصدع الجرة ·
وظلت عاصفة الجنوب تهب يوما ·
تجمع السرعة وهى تهب وتغمر الجبال ·
وتجتاح الناس كأنما هى معركة ·
فلم يعد الأخ يرى أخاه ·
ولم يعد الناس يعرفون من فى السماء ·
وخشى الآلهة الطوفان ·
فتراجعوا وصعدوا الى السماء « أنـــو » ·
أقعى الآلهة كالكلاب وربضوا على الأسوار الخارجية ·
وصرخت عشتار وأنت كانين امرأة جاءها المخاض ·

عشيقة الآلهة ذات الصوت الجميل ناحت بصوت عال ٠
الأيام الخوالى ٠٠ واحسرتاه ! ٠٠ تحولت الى طمى ٠
لأننى نطقت شرا فى مجمع الآلهة ٠
فأمرت بالمعركة لاهلاك قومى ٠
بينا أنا نفسى التى تلد شعبها ٠
انهم يملأون البحر كبيض الأسماك » ٠
وبكى معها آلهة الـ « انوناكى » ٠
وجلس الآلهة جميعا يبكون فى ذلة ٠
وشفاههم جميعا مشدودة ٠
ســـــتة ايـام وســت ليـــال ٠
وريح الفيضان تهب ، وزوبعة الجنوب تكتسح الأرض ٠
فلما كان اليوم السابع
هدأت زوبعة الجنوب التى تحمل الفيضان ٠٠ هدأت فى المعركة ٠
التى كانت تحاربها كما لو كانت فى جيش ٠
وهدأ البحر وسكنت العاصفة وتوقف الفيضان ٠
وتطلعت الى الجو ٠٠ كان السكون قد حل ٠
وكان البشر جميعا تحولوا الى طين ٠
وكان سطح الأرض مستويا كسقف مستو ٠
وفتحت كوة وسقط الضوء على وجهى ٠
وانحنيت ٠٠ ثم جلست وبكيت ٠
وجرت الدموع على وجهى ٠
وبحثت فى الحر الشاسع عن خطوط شواطىء ٠
وفى كل من الأقاليم الأربعة عشرة ٠
كان يبرز اقليم جبلى ٠
وتوقفت السفينة عند جبل نصير ٠
واستمسك بهـــا جبل نصير ٠
ولم يســـمح لها بالحراك ٠
يوم ثم يوم آخر وجبل نصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكا ٠
ويوم ثالث ثم رابع وجبل نصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكا ٠

ويوم خامس ثم يوم سادس وجبـــل نصـــير يستمسك بالسفين
فلا تحير حراكا ٠
فلما كان اليوم السابع أطلقت حمامة ٠
فانطلقت ثم عادت ٠
لم يكن لها ما تستقر عليه فحومت وعادت ٠
ثم أطلقت « ســـنونو » ٠
فانطلق ثم عـاد ٠
لم يكن له ما يستقر عليه ، حوم وعاد ٠
ثم أطلقت غرابا ٠
وانطلق الغراب ولما رأى الماء قد تناقص
أكل وحوم ونعق ولم يعـد ٠
فأخرجت الجميع الى الرياح الأربع
وقدمت قرابين ٠
وسكبت سكائب على قمة الجبل ٠
وأقمت سبعا ثم سبع أوان عبادة ٠
وعلى صحاف قوائمها كومت القصب وخشب الأرز والآس ٠
وشم الآلهة العبق
شـــم الآلهة الأريج العبق ٠
وتكاكا الآلهة كالذباب حول المضحى ٠
وحالما وصلت الآلهة العظيمة (يقصد عشتار) ٠
نزعت الحلى العظيمة التى كان « أنو » قد صاغها طبقا لمشتهاها :
« أيتها الآلهة هنا كما اننى سوف لا أنسى حقا هذا اللازورد حول عنقى ٠
سأذكر دائما هذه الأيام ولا أنساها ٠
لتتقدم الآلهة الى القرابين ٠
الا « انليل » فلا يتقدم ٠
لأنه ــ بغير تعقل ــ قد ساق هذا الفيضان ٠
وحكم على شعبى بالهلاك » ٠
ولما جاء « انليل » وشهد السفينة غضب ٠
ملأه الغضب ضد آلهة الـ « اجيجى » وقال :

« أأفلتت نفس حيـــة ؟
كان يجب ألا يفلت انسان من الهلاك » ·
وفتح « نينورتا » فمه وقال له « انليل » البطل :
من ــ غير « أيا » ــ يستطيع ان يرسم الخطط ؟
انه « أيا » وحده ذلك الذى يعرف كل الأمور ! » ·
وفتح « أيا » فمه وقال ل « انليل » البطل :
أنت يا أعقل الآلهة أيها البطل ·
كيف استطعت ــ بغل تعقل ــ أن تأتى بالفيضان !
المذنب عليه وزر ذنبـــه ·
والمعتدى عليه وزر تعدياته ·
ومع ذلك فكن رحيما ! حتى لايقطع ·
كن صبورا حتى لايشرد ·
بدلا من أن تأتى بالفيضان ·
ألم يكن هناك أسد ترسله ليجتاح البشر ؟
بدلا من أن تأتى بالفيضان ؟
ألم يكن هناك ذئب تجعله ينقص من البشر ؟
بدلا من أن تأتى بالفيضان ؟
ألم يكن من الممكن احداث مجاعة تستذل بها البشر وتجعلهم يتناقصون
بدلا من أن تأتى بالفيضان ؟
ألم يكن من الممكن نشر وباء يضرب البشر ؟
انه لست أنا من أفشى السر لكبار الآلهة ·
لقد جعلت «اتراهاسيس» (أى البالغ العاقل يعنى أوتنابشتيم) يشهد
حلما وهو أعلن السر للآلهة ·
والآن فأره أمره ! » ·
وعندئذ صعد « انليل » الى ظهر السفين
وأمسكنى بيدى وأصعدنى الى ظهرها
وأخذ زوجتى وأصعدها وجعلها تركع الى جانبى
ووقف بيننا ولمس جباهنا ليباركنا :
حتى الآن لم يكن أوتنابشتيم سوى بشر ·

منذ الآن سيكون أوتنابشتيم زوجه مثلنا من الآلهة ·
سيعيش أوتنابشتيم بعيدا عن مصيب الأنهار ! » ·
وأما الآن فمن سيدعو مجمع الآلهة من أجلك
حتى تجد الحياة التى تسعى وراءها ؟
قم ولا تضطجع لتنام مدى ستة أيام وسبع ليال »
وبينما هو يجلس هناك على قعيدته
كان النوم يداعبه يلفه كالضباب ·
وقال « أوتنابشتيم » لزوجته :
« انظرى الى هذا البطل الذى يسعى وراء الحياة ·
ان النوم يلفه كالضباب » ·
فقالت له زوجته :
ألا لتلمسه حتى يستيقظ ·
حتى يعود سالما من حيث جاء ·
حتى يمر من البوابة عائدا الى الأرض التى قدمنا منها »
فقال أوتنابشتيم لزوجته :
« مادام الخداع من صفات البشر فانه سيسعى وراء خداعك ·
قومى اخبزى له فطير رقاق وضعيه عند رأسه
وضعى علامات على الحائط بقدر ما نام من أيام ·
وجفت الفطيرة الأولى ·
وتجلدت الثانية وأما الثالثة فتغير لونها ·
وأما قشرة الرابعة فابيضت ·
وأما الخامســـة فبدت عفنة ·
وأما السادسة فكانت لا تزال بلونها النضير ·
وحالما لمس السابعة استيقظ الرجل ·
وقال « جلجامش » لـ « أوتنابشتيم » :
لم يكد النوم يغلبنى حين لمستنى وأيقظتنى ·
فقال له أوتنابشتيم :
اذهب يا جلجامش احص فطائرك
حتى تعرف مدى مانمت من أيــام ·

لقد جفت الفطيرة الأولى وتجلدت الثانية وتغير لون الثالثة ·
وابيضت قشرة الرابعة وتعفنت الخامسة ·
أما السادسة فلا تزال نضرة ·
وأما السابعة فأنت قد تيقظت لتوك » ·
فقال له جلجامش :
فماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟
ان الموت يربض فى حجرة نومي ·
وحيثما تخطر قدمى فهناك الموت » ·
فقال له أوتنابشتيم ·· قال للمراكبى ·· أورشانابى :
« أى أورشانابى ألا لا تفرح بك المرساة !
ألا ليحتقرك مكان العبور ·
لتنكر شواطئه فلا يعرفها منك من يجول بها ·
ان الرجل الذى جئت به الى هناك ·· ذلك الذى يغطى جسده القذر ·
ذلك الذى شوه الجلد جمال أعضائه ·
خذه فاحمله الى مكان الاغتسال ·
وليغسل قذره فى الماء حتى يصبح نظيفا كالثلج ·
ولينزع جلده فيحمله البحر بعيدا ·
حتى يبدو جمال جسمه ·
ليجدد العصابة على رأســـه ·
وليتدثر فيغطى عـريه ·
حتى يصل الى مدينته وحتى يستكمل رحلته ·
ألا لا يكون لثوبه مظهر البلى ·· ليكن جديدا تماما » ·
وأخذه أورشانابى الى المغسل ·
فاستحم فى ماء نظيف كالثـلج ·
وألقى بجلده فحمله البحر بعيدا حتى بدا جمال أعضائه ·
ثم جدد العصابة حول رأسه ولبس ثوبا غطى به عريه ·
حتى يصل الى مدينته ويكمل رحلتـــه ·
وركب جلجامش السفينة مع أورشانابى ·
ودفعا القارب على الأمواج وأبحر ·
وقالت زوجة أوتنابشتيم له :

« لقد جاء جلجامش الى هنا مكدودا مجهدا
فماذا تعطيه ليعود الى بلاده ؟ »
وعندئذ رفع جلجامش المدراة ليقترب بالقارب الشاطىء .
وقال له أوتنابشتيم : « أى جلجامش !
لقد جئت الى هنا مكدودا مجهدا فماذا أعطيك حتى تعود الى بلادك ؟
سوف أكشف لك يا جلجامش عن سر خبىء .
وسأرشدك الى نبـــات
ستخز أشواكه يديك كالوردة .
ان استطعت الحصول عليه فانك ستحصل على الحياة » .
فحالما سمع جلجامش ذلك .
فتح « قربة الماء » وربط حجرا ثقيلا الى قدميه .
جذبه الى الأعماق وشهد النبات .
وأخذه رغم أنه وخزه فى يده .
ثم حل الحجر الثقيل من قدميه
وألقى به البحر على شاطئه .
وقال جلجامش ل أورشانابى المراكبى :
ان من يحصل على هذا النبات من البشر .
يحصل على نسمة الحياة .
سآخذه الى « الوركاء ذات الأسوار .
سيكون اسمه « الرجل يرجع صبيا فى شيخوخته »
سآكل منه أنا
وهكذا أرتد الى الشـــباب » .
وبعد ثلاثين فرسخا أعدوا أنفسهم لليل .
وشهد جلجامش بئرا ماؤها باردة .
فنزل ليستحم فيهـــا .
واشتم ثعبان عطر النبـات .
فخرج من الماء واختطفه وعاد الى جحره .
فجلس جلجامش يبكى .
وجرت دموعه على وجهه .

وأمسك بيد المراكبى أورشانابى وقال له :
« لمن يا أورشانابى جهدت يداى ؟
لمن بذلت دماء قلبى ؟
أنا لم أنل منحتى لنفسى ·
لقد أعطيت المنحة لأسد الأرض !
وسيحملها المد الآن عشرين فرسخا ·
حين فتحت قربة المـاء ·
وجدت ما وضع بها كعلامة لى :
اننى سانسحب وأترك القارب على الشاطىء ! » ·
وبعد عشرين فرســـخا ··
وبعد ثلاثين فرسخا استعملوا لليل ·
وحين وصلوا الى الوركاء ذات الأسوار
قال جلجامش لـ أورشانابى المراكبى :
« اذهب يا أورشانابى وسر على أسوار الوركاء
وافحص البهو السفلى واختبر المبنى ·
وتحقق من أنه من الآجر ·
وتحقق من أن « السبعة الحكماء » وضعوا أساسه ·
المدينة مساحتها « سار » وبساتينها « سار » ·
حد الأرض « سار » ·· ثم فناء معبد عشتار ·
ثلاثة « سار » والبهو ·· هذه هى الوركاء » ·

اللوحة الثانية عشرة :

يبدو أنه بعد خلق العالم نمت شجرة على ضفة الفرات ولكن ريح الجنوب اقتلعتها ، فأخذت « اينانا » (عشتار) الجذع الطافى وزرعته فى حديقتها فى الوركاء وعولت على استخدامه فى الوقت المناسب لتصنع منه سريرا لها وكرسيا · ولما تدخلت بعض كائنات معادية لتحول دون انفاذ خطتها تقـــدم جلجامش لمساعدتها وعرفانا لجميله صنعت له من قاعدة الشجرة أى من طرفها السفلى « بوكو » (ربما طبل سحرى) ومن رأسها « مكو » (ربما عصا يضرب بها الطبل) وأعطتهما له ·· وذات يوم سقط الطبل والعصا الى العالم السفلى فجهد فى الحصول عليهما ولم يفلح وراح

يبكى خيبته مولولا : « يا لـ « بوكو » ويا « مكو » اللذين لى أسفى عليهما ! » .

فى ذلك الوقت حين كان لدى حقا الطبل فى بيت النجار .
وكانت زوجة النجار مثل أمى التى ولدتنى .
وابنته مثل أختى الصغرى .
ترى من يجىء بالطبل من العالم السفلى ؟
من يجىء بالعصا من العالم السفلى ؟
قال « انكيدو » لـ « جلجامش » سيده :
« مولاى : لم تبكى ولم يحزن قلبك ؟
سآتى لك بالطبل من العالم السفلى
وسآتى لك بالعصا من العالم السفلى » .
فقال جلجامش لانكيدو تابعه :
« اذا ذهبت الى العالم السفلى
فسأقول لك كلمة تنبه لها جيدا والتفت لتحذيرى .
سـوف ترتدى ثوبا نظيفا .
كمغترب سـوف لاتضع علامة .
بزيت طيب من الوعاء سوف لا تدهن نفسك .
لأنهم سيجتمعون حولك على رائحته .
عصا رمادية سوف لاتقذف بها فى العالم السفلى .
فان من تلقيها عليهم سيحيطون بك .
عصا بيدك سـوف لا تمسك .
فالأرواح ستضطرب بسببك .
نعلا بقدمك سوف لا تربط .
صوتا بالعالم السفلى سوف لا تنبس .
الزوجة التى تحبها سوف لا تقبلها .
الزوجة التى تكرهها سوف لا تضربها .
الابن الذى تحبه سوف لا تقابله .
الابن الذى تكرهه سوف لا تضربه .
صراخ العالم السفلى سيحتجزك » .

« المستقرة ــ المستقرة ! أو نينازو ــ المستقرة !
لا يغطى كتفيها المقدستين ثوب ·
ثدياها على شكل الوعاء لا يلفهما قماش » ·
ولم يصنع انكيدو لتحذيرات مولاه ·
فارتدى ثيـــابا نظيفة ·
ووضع من الشارات ما يلفت النظر اليه
ودهن نفسه بزيت طيب من الوعاء ·
تجمعوا على رائحة عطره ·
ثم ألقى بعصا الرماية فى العالم السفلى ·
فأحاط به من ألقى العصا بينهم ·
وأمسك بعصا فى يده ·
ارتعدت بسببها الأرواح ·
وانتعـــل نعـــلا ·
وأخرج صوتا ضد العالم السفلى ·
وقبل زوجته التى يحبها ·
وضرب زوجته التى يكرهها ·
وقبل ابنه الذى يحبه ·
وضرب ابنه الذى يكرهه ·
فاحتجزه صراخ العالم السفلى ·
وأما المستقرة ! المستقرة !
أم نينازو المستقرة ! عارية الكتفين والصدر الذى يشبه الوعاء ·
فلم تسمح لانكيدو أن يصعد من العالم السفلى ·
« نامتار » لم يقبض عليه ، الحمى لم تقبض عليه ·
العالم السفلى قبض عليه ·
قاطع الطريق من أتباع نرجال لم يقبض عليه ·
ولكن العالم السفلى قبض عليه ·
انه لم يسقط فى ساحة الوغى ·
ولكن العالم السفلى قبض عليه ·
عندئذ ذهب مولاى ·· ابن « ننسون » (أى جلجامش) ·

باكيـــا انكيدو خادمه ..
ذهب وحده الى « ايكور » معبد « انليل » :
أبى « انليل » .. سقط طبلى الى العالم السفلى .
سقطت عصا طبلى الى العالم السفلى .
نامتار لم يقبض عليه ! الحمى لم تقبض عليه !
العالم السفلى قبض عليه .
قاطع طريق لنرجال لم يقبض عليه .
العالم السفلى قبض عليه .
فى ساحة الوغى لم يسقط .
العالم السفلى احتجزه .
ولم يتدخل الأب « انليل » فى الأمر .
فذهب الى « أور » .
أيها الأب سن .. سقط طبلى فى العالم السفلى .
وسقطت عصا طبلى فى العالم السفلى .
فقبض العالم السفلى على انكيدو الذى أرسلته لاحضارهما .
لم يقبض عليه نامتار ولم تقبض عليه الحمى .
بل قبض عليه العالم السفلى .
لم يقبض عليه قاطع طريق لنرجال .
ولكن العالم السفلى قبض عليه .
فى ساحة الوغى لم يسقط .
ولكن العالم السفلى قبض عليه .
ولم يتدخل الأب « سن » فى الأمر .
فذهب الى « اريدو » .
أيها الأب « أيا » .. سقط طبلى فى العالم السفلى .
وسقطت عصا طبلى فى العالم السفلى .
فقبض العالم السفلى على انكيدو الذى أرسلته لاحضارهما .
لم يقبض عليه نامتار ولم تقبض عليه الحمى .
بل قبض عليه العالم السفلى .
لم يقبض عليه قاطع طريق لنرجال .

ولكن العالم السفلى قبض عليه ٠
فى ساحة الوغى لم يسقط ٠
ولكن العالم السفلى قبض عليه ٠
فتدخل الأب « أيا » فى الأمر ٠
وقال لنرجال البطل الشجاع :
« أيها البطل الشجاع ! نرجال !
افتح ثقبا فى الأرض ٠
حتى تخرج منه روح انكيدو ٠
من العـــالم السفلى ٠
حتى ينبىء أخاه بطرق العالم السفلى » ٠
واستمع « نرجال » لـ « أيا » ٠
وفتح ثقبا فى الأرض ٠
وخرجت روح انكيدو كهبة روح من العالم السفلى ٠
وتعانقا وقبل كل منهما الآخر ٠
وتبادلا النصح وكل يقول لصاحبه :
« خبرنى ياصاحبى ٠ خبرنى يا صاحبى !
صف لى أمر العالم السفلى الذى شهدته » ٠
« سوف لا أقول لك ٠ سوف لا أقول لك !
لأنى اذا وصفت لك أمر العالم السفلى الذى شهدته ،
فانك ســـتجلس وتبكى » ٠
« ٠٠٠ سأجلس وأبكى » ٠
« جسدى ٠٠ الذى كنت تلمسه فيسعد قلبك ٠٠ تنهشه الحشرات
كالثوب الخلق » ٠
« جسدى الذى كنت تلمسه فيسعد قلبك ٠٠ يملؤه التراب » ٠
فصاح ٠٠ ويلاه ! وألقى بنفسه فى التراب ٠
وصاح جلجامش ويلاه ! وألقى بنفسه فى التراب ٠
« ٠٠٠ أرأيت ؟ » ٠٠ « نعم قد رأيت ! » ٠

★★★

سانوهم
٢٠٠٠ م

الأدب والحياة لأمة من الأمم بمثابة نسيج هما لحمتـــه وسـداه ، والحياة شعور يتملاه المرء فى نفسه ثم يتأمل آثاره فى الكون وفى نفوس غيره وأما الأدب فذلك الشعور ممثلا فى القالب الذى يلائمه من الكلام ٠ وكما لا يكون هناك أدب بغير حياة فليست هناك حياة بغير أدب فلكل حياة ادب كما لكل أدب حياة ، والمقياس الذى يقاسان به واحد ٠٠ لا يختلف فى دلالته وان اختلف فى وسيلته : ذلك أن الحياة لا تكون حياة بغير تعاطف ومودة ووسيلة التعاطف التعبير ٠ والتعبير لون من ألوان الأدب وليس الأدب تلهية ومسلاة فان أصبح كذلك ، فهو كفيل بأن يصرفنا عن الجاد من الأمور وهو بهذه الصفة سخف يخفى البطالة والفراغ ويحوى المغالاة والأكاذيب ويتحول الى صيغ وأساليب تلتمع فيها الألفاظ وتكثر فيها المغالطات وتفشو المحسنات اللفظية ، فالتزويق والتمويه يبلغان غايتهما اذا كان الهدف فارغا أو لم يكن هناك هدف ومن ثم يتعرض الأدب للاسفاف فينحط حين يجنح للغلو والعبث وتشويه المعـانى ويكلف كلفـا شديدا بمحسنات الصناعة وغيرها من ضروب الزيف ٠ ويستطيع الأدب على ذلك أن يكون مرآة لحياة الأمة ، فلئن بدأ الناس ينظرون اليه بعين لاهية فان ذلك يعنى أن حياتهم خالية من الجد وان نفوســهم خائـرة ، ذلك لأن الأدب ترجمان صادق للحياة فان جدت جد وان هزلت هزل ٠٠ ورغم ذلك فقد يجد والأمة هازلة ولكنه لا يهزل أبدا فى أمة جادة ومن ثم كان خير أدب يظهر فى أمة ما يسجله أدباؤها فى أعقاب ثوراتها أو نهضاتها أو فترات كبواتها ليرفع راية الكفاح عالية ٠٠ وأما حين تميل الدولة للرخاوة وتركن للترف فان مظاهر أدبها ودوافعه ومراميه تختلف جد الاختلاف فهى فى الحالة الأولى لاتميل للهزل أو الملق كما فى الحالة الثانيـــة وانما تحس بالأدب يغلى فى مشاعر المترنمين به وتجيش به صدورهم من فخر تتطاول به أو غضب تعلنه أو غزل تترنم به أو تاريخ يسجل أنباءها وكفاحها ويستوعب خلاصة حكمتها وتجاريبها ٠ وهكذا نرى نوعين من الأدب : أدب يسفح اليه البطالة والرخاوة وأدب تمليه الحيـــاة ويخاطب الفطـرة السليمة ويتجاوب معها ٠

ان البعض يرون ان الأمم بحاجة الى العلوم والمخترعات وليست بحاجة الى الآداب تطالعها وتتفقهها بحسبان أن الأدب لغو وأحلام وأن الأمم لا ترقى بالأحاديث والأوهام ·· وواقع الأمر ان في ذلك تضليلا وسوء فهم وتقدير فيقدر حظ الأمة من الأدب بقدر حظها من الحياة · والأمة قد تصل الى المجد العلمي ولكنها لا تستكمل مقوماتها بغير الأدب ولا يعد شعبا ناجحا ذلك الشعب الذى لا يعنى بالأدب فحين تضل في يديه مقاييس الأدب ، فان ذلك يعنى أنه فقد مقاييس الحياة ، ذلك لأن الأدب في جسم الأمة بمثابة الدم الذى يجرى في عروقه ويغذى كيانه ويمنحه النور والصفاء ·

ومقاييس الأدب متشعبة تشعب الحياة نفسها ، وليس هذا مما يعيبه ، وهو يختلف في هذا عن العلوم الأخرى فالقضية العلمية تعرف على حقيقتها الأخيرة المقيدة التي لا تتغير · أما الآداب فانها تتجدد تجدد الحياة فهى دائمة النمو والحركة والتحول في نظام الحياة نفسها ، بل ان فيها أكثر مما في الحياة ·· فيها عنصر الخلود الذى تفتقر اليه ، وفيها الروحية المطلقة أحيانا وهى التي تكبلها قيود الجسد في الحياة ، وفيها الحرية التي تطلقها من عقال المادة ، والأدب بهذه الصورة يتسامى على العلوم التي توقف على خدمة المادة وحدها بينما يشتمل كل ما تشتمل الحياة من حاضر ومستقبل ومن واقعية وأمل · والأدب الصحيح هو الأدب الذى يوقظ في النفس الشعور بالحياة والتطلع الى الحرية ··

***

ولقد كانت مصر القديمة أول شعب من شعوب العالم استطاع أن يدرك هذه المعانى مجتمعة ، وأن يفيد منها ويبرزها فخرج جيل له روح أدبية خالصة للأدب ذاته·ونستطيع بمطالعة آدابه أن ندرك أنه لم يستهدف بها نفعا تجاريا أو مصلحة مادية بل غذاء للروح واشباعا لنوازع النفس وكانت له أنواعه وأساليبه ، ومن أنواعه الأدب العاطفى والأدب القصصى والأدب الخاص بالحكم والأمثال والتأملات ثم الأدب الفلسفى وكلها من مصدر مصرى خالص فكانت فخر الكاتب وموضع تقدير القارىء · والأدب الصحيح كما يشير « بتاح حتب » هو « الأقوال المصوغة في أسلوب جميل ، والتي تحدث بها الوزير عندما كان يثقف بالمعرفة ويعلم مبادىء الحديث الطريف » · وكان الأدب في أول الأمر واقعيا يميل الى التعبير الدقيق السليم بعيدا عن المحسنات ولكن تطور الظروف السياسية غير من أساليبه حتى ليستطاع وضع حد فاصل بين ألوان الأدب في مختلف العصور ، مما يشير الى ما طرأ على البلاد من انحلال سياسى أو نهضة أو رغبة في لم الشمل أو ثورة تستهدف الخلاص من نير المستعمر ·· أو الركون

الى الدعة بعد الاطمئنان الى قيام دولة تستطيع أن تفرض رأيها على غيرها . ولقد وصل الاسلوب الأدبى الى قمته قبيل الدولة الحديثة فى عهود الكفاح ثم ركن من بعد ذلك الى المحسنات اللفظية فأضاع قواه وبددها . . وأما الأدب العاطفي والغنائي فقد لونه الترف بلونه فجدد من شبابه وجمله الى جانب ذلك الاتصال بالعناصر الأجنبية ودخول الأجانب الى الحياة المصرية . ولقد ظل أدب الدولة القديمة نموذجا يحتذى فى مختلف العصور حتى لنرى القوم فى عهد الدولة الحديثة يتمثلون به ويقلدونه حين أحسوا بأنهم لا يستطيعون أن ينحوا نحوه أمام واقعية الحياة التى يحيونها ، وان أفسدوا بمحسناتهم التى ظنوا أنها تغطى عيوب اسلوبهم ومرامية . ولقد بلغ تطور الأدب المصرى مداه فى الفترة المظلمة فى عصر الانتقال الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطى . . ومخلفات هذا الأدب هى ما نطالعه بعد ذلك بحوالى خمسمائة عام وهو ما دأبوا على تقليده ومحاكاته ولم يستطيعوا أن يتحولوا عنه أو يتناولوه بالتغيير من ناحية اللغة أو الأسلوب .

مصر القديمة هى موطن القصة القصيرة !!

وما يزال أكثرنا تشغله آثار مصر القديمة من أهرامات ومعابد ومسلات وتماثيل ، وصور ومناظر شيقه على جدران المعابد والمقابر ، عن التفكير فى آدابها ، بل منا من ما يزال يدهش ان سمع أن مما خلفته مصر من آثار أدبية مالا يقتصر على النصوص التاريخية والدينية ، وانما يشمل كذلك أعمالا أدبية جليلة . وما من ريب فى أنه يزداد دهشا اذا علم أننا ان استبعدنا تلك النصوص مما وصل الينا من آداب المصريين لتبقى بعد ذلك ما يكفى للدلالة على أنهم ضربوا بسهم وافر فى الأدب ، وأنهم لم يكونوا شعبا متدينا فحسب ، وانما كانوا كذلك شعبا أدبيا ، كما كانوا شعبا فنيا .

ويدل ما حفظ لنا من آدابهم على أنهم عالجوا نواحى مختلفة فى الآداب ، فقد كتبوا فى المواعظ وآداب السلوك وما ينبغى التخلق به فى الظروف المختلفة . وضمنوها الأمثال والحكم الخالدة على الزمان . وانشأوا المقالات فى الاصلاح السياسى لعلاج ما تفشى من مساوىء وما نزل بالمجتمع من نكبات . وصنفوا الرسائل فى المناسبات والأغراض المختلفة ، فى التهانى والتواصى ، والتعزيات ، والتفاضل والمفاخرة ، وفى هجاء الحرف الا حرفة الكاتب وغير ذلك من مطالب الحياة ومقاصدها . وحاكوا القصص القصيرة المختلفة ، حتى ليعتقد أن مصر هى موطن القصة القصيرة ، وأن المصريين أول من أنتجها لذاتها حبا فى روايتها وتزجية

للوقت ، وصاغوا الأناشيد يرتلونها لمعبوداتهم وملوكهم ، ويمجدون بها بعض مظاهر الكون والطبيعة وخاصة الشمس والنيل ، وصنعوا الأغاني يرقصون عليها ، ويتغنون بها لاحبابهم ، بل وزادوا على ذلك كله بان الفوا التمثيليات الدينية يمثلونها في أعيادهم لآلهتهم وملوكهم ، كما لم يفتهم أن يكتبوا في مسرات صيد السمك والطير .

وقبل أن نتعرض للكلام عن قيمة الأدب المصري يحسن أن نتعرف متى بدأ المصريون يصطنعون الأدب . ان أقدم ما حفظ لنا مما كتب من آدابهم انما هو من عهد الدولة القديمة ، فقد بقيت لنا من ذلك العهد نصوص دينية ، هي ما تعرف بمتون الأهرام ، ثم تراجم مختصرة لبعض الأشخاص على أنه ينسب الى الدولة القديمة أيضا قصة خلق الاله بتاح للعالم ، ومواعظ بتاح حتب وكاجمني ، وقصص السحرة ، وبرديتا ادون سمث وايبرز الطبيتان ، أن كانت جميعها وصلت الينا مكتوبة بخط من الدولة الوسطى أو الحديثة أو العهد الأثيوبي . ويعتقد أيضا ان الروايات التي كانت تمثل في الأعياد انما ترجع في جوهرها الى الدولة القديمة . وهنا يصح التساؤل عما اذا كانت كل هذه الآثار من عمل الدولة القديمة حقا ، وعما اذا كانت عصور ما قبل الأسرات في مصر خلوا من كل أثر أدبي .

ذهب بعض الباحثين الى أن من متون الأهرام ومن القصص والأساطير ما يمكن أن يرجع الى عصور ما قبل الأسرات ، بيد أن منهم من ذهب أخيرا الى أن الأدب المصري لم ينشأ الا في العهد التاريخي ، أي في عهد الأسرات معتمدا في ذلك على أن الكتابة الهيروغليفية في بداية الأسرات كانت لاتزال في مراحل تطورها ، وأن كتابات ذلك العهد تكاد تقتصر على الأسماء والألقاب ، وأن المصريين اذ ذاك كانوا يسجلون الأحداث متفرقة في الفاظ قليلة ، اذ لم يكونوا يعرفون بعد كيف يؤلفون بينها في رواية متصلة الحلقات وهو أساس القصص والأخبار ، وأنهم لم يبدءوا ذلك الا في أواخر الأسرة الثانية .

ولكن ألا يكون أدب الا أن يكون مكتوبا ؟ لقد بدأ المصريون حياتهم جماعات متفرقة ، ومن ثم أخذوا يكافحون قرونا وأجيالا طويلة ، حافلة أيامهم بالأحداث العظيمة ، ومتدرجين من ثقافة الى أخرى ، حتى تم لهم في مطلع تاريخهم توحيد البلاد في ظل حكومة رشيدة قوية ، فهل يمكن أن نتصور أن يتم ذلك كله دون أن يحيكوا القصص والأساطير عن أبطالهم ومعبوداتهم ، يروونها جيلا عن جيل ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد اهتدوا الى الكتابة بعد ؟ وهل يمكن أن نتخيل أنهم بعد أن قضوا الأجيال العديدة غافلين عن اصطناع القصص والأساطير انتفضوا فجأة فاصطنعوا الأساطير

العديدة التى تشير اليها فى إقتضاب متون الأهرام ، وذلك بعد أن وفقوا الى الكتابة .

اننا بهذا ننسى أن الكتابة حدث متأخر فى تاريخ الانسانية ، وأن الانسانية لا تنتظر حتى تهتدى الى الكتابة لتتخيل وتفكر وتفلسف ، كما ننسى ما كان للرواية والقصص من شأن فى الأزمنة الأولى .

لقد كان للكتابة شأنها ، ولكن ذلك لم يكن يعدو فى أول نشأتها التسجيل والنشر أما التصور والتخيل ، والخلق والابتداع ، والرواية والحديث فلا علاقة أصيلة لها بها . لذلك لابد وأن يكون المصريون فى عصور ما قبل التاريخ قد حاكوا من القصص والأساطير ما كانوا يروونه جيلا لجيل قبل أن يهتدوا الى الكتابة . واذا كان لم يحفظ لنا من هذه الأساطير شىء فى بداية عهدهم بالكتابة ، فذلك لأن هذه لم تكن قد استكملت بعد أصولها لتستطيع تسجيل مثل هذه الأساطير ، فى وقت كان لايزال للرواية سلطانها ، ولأن المصريين شغلوا بها إذ ذاك فى تسجيل مطالب الحكومة المتحدة بقدر ما وسعته معرفتهم بها .

وهكذا يكون الأدب المصرى نتاج فترة طويلة استغرقت قرونا وأجيالا تزيد كثيرا على ثلاثة آلاف عام ، اختلفت فيها طرزه وأساليبه من عهد الى عهد ، وهو يتميز فى مجموعه ببساطته ووضوحه ، وواقعيته وقصر جمله وسداده وأحكامه ، وهدوئه واتزانه ، وأنه أدب هادف يعمل على صلة بالدين لا يرمى الى التسلية الرخيصة . وفى هذا كله يتردد صدى البيئة التى نشأ فيها وطبيعة منشئيه ، اذ يصور طبيعة مصر ، وعادات المجتمع المصرى وأخلاقه على اختلاف طبقاته ، وذلك فى صورة حية صادقة ، وبتفاصيل شيقة تكشف عن الروح المصرية وما تتميز به من دعابة وفكاهة . وفيه تتراءى كذلك أحداث كل عصر ، وتتمثل صفاته وأفكاره بما لا يدع مجالا للشك فى أنه فى ظاهره وجوهره مصرى النشأة والأصل ، لم يؤثر فيه عنصر أجنبى دخيل عليه ، فأخيلته وأفكاره ، وأساليبه ومعانيه تنم على تصورات المصريين وعقائدهم ، وتشف عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، وتنبىء عن تجاربهم وأحداثهم وتحكى عن مخاوفهم وآمالهم ، على نحو ما تفعل ذلك فنونهم وصناعاتهم .

فهاك تراجم الأشخاص فى مقابرهم من الدولة القديمة ما زالت تتطور حتى غدت تصور حياة صاحبها ، وتبرز فى فخر واعتزاز أهم أخباره . وحديث الملك له ، أو ما كتبه اليه من رسائل ومن أهم ما حفظ منها تراجم أونى وحرخوف وبى نخت وسابنى . كما أن مواعظ بتاح حتب وكاجمنى انما تترجم عن أفكار ذلك العهد الفنى ، فهى توحى بالثقة بالنفس وحب

التقدم اذ « لا حد للفن · وما من فنان بلغ غاية مواهبه » ، وذلك ما يتفق أحسن ما يكون وروح الخلق والابداع التى سادت عصر بناة الأهرام ·

وها هي القطع الأدبية من عهد الفوضى والاضطراب فيما بين الدولتين القديمة والوسطى ، تصور في أصدق صورة ما انتاب المجتمع المصرى اذ ذاك من نكبات قلبت أوضاعه ظهرا على عقب بعد ذلك الاستقرار المكين الذى كان فى الدولة القديمة ، مما أشاع التذمر واليأس بين المفكرين فانقسموا طائفتين : طائفة تؤثر العاجلة فتدعو الى انتهاب اللذات ، وأخرى تؤثر الحياة الفاضلة فتنادى بأسباب الاصلاح · وقد اختار الكتاب على اختلافهم أطرا متعددة صاغوا فيها أفكارهم ، ووصفوا فيها حالة البلاد فى صورة حية قوية بما لا يدع مجالا للشك فى أن هذه الآثار انما هى وليدة عصرها، تحمل طابعه ، وتنطق بلسانه ، وتفكر بوحيه فى قوة وجلاء ·

منزلة الأدب في نفوس الأجداد

كان المصريون يقدرون الأدب حق قدره ويعجبون بالكلام الجيد والقول البليغ وكانوا يرون فى اجادة التعبير والتصرف فى فنون الحديث فضلا يمتاز به المرء ومثلا ينبغى أن يتخلق به الكريم ، ويرون فيه كذلك ثروة تعين على المنزلة الرفيعة والدرجة السامية ، فقد كان بتاح حتب يحض على بذل الجهد والاستقصاء فى نيل العلم والبلاغة ، ويقول ان الكلام الجيد أخفى من الحجر الكريم ، ومع ذلك فقد يجده المرء عند الاماء ·

ولقد أدرك المصريون ما يكون للكلمة من القوة والأثر وما تتيحه البلاغة والفصاحة من التسلط على الناس وحسن سياستهم والسيطرة عليهم ومكان ذلك من مقومات القيادة القوية والزعامة النافذة · ولنا فى ذلك شاهد من قول أحد ملوك اهناسيا (١٢) لابنه مريكارع وهو يعظه فيقول : « كن للكلام صانعا حتى تكون شديد البأس ، لأن قوة الرجل فى لسانه ، ولأن القول أمضى من أى قتال » · وفيما ورد فى قصة البحار الغريق قول التابع : « ان منطق الرجل ينقذه وحديثه يكف عنه (غضب) الوجوه » ·

ونستطيع كذلك الوقوف على مبلغ حب المصريين للأدب وشغفهم به مما أوردوه لنا فى قصة الفلاح الفصيح ، وما كان من شكايته للحاكم مما وقع عليه من الحيف والجور ، وذلك فى أسلوب مبين وقول عذب طرب له الملك ، فأمر الحاكم بالتراخى فى اجابة الفلاح والتلكؤ فى رفع الظلم عنه استزادة من بيانه ، كما أمر بتدوين ما يقول ورفعه اليه (١٣) ·

وقصة الفلاح الفصيح كما كتبها المصريون انما قصـــد بها امتـاع القارئين والسامعين بما أوردته من البيان والبديع ، وهى تكاد تشـــبه المقامات فى الأدب العربى ، فلا تكاد شخصية الفلاح لتختلف عن شخصية عيسى بن هشام التى اخترعها بديع الزمان الهمذانى أو شخصية أبى زيد السروجى التى اخترعها الحريرى ، ثم أجريا على لسانيهما ما شاءا من البيـــان .

كذلك ورد فى بعض آداب المصريين أن الملك سنفرو دعا رحاله يوما فسألهم أن يجدوا له من بينهم واحدا فيه من الحكمة والمقدرة ، فيحدث جلالته بالأقوال البليغة والأحاديث المختارة التى تسر قلب جلالته .

ولقد أدرك الملوك والكهـــان حب المصريين للأدب واقبالهـــم عليه وأثرهم به ، فكان أن استخدم فى الدعاية الدينية والسياسية ، فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة والرواية فيتحدثون اليهم بالقصة الشيقة التى تثير الشغف والانصاف ، وهم فى أثنـــاء ذلك يبثون فى تضاعيفها ما شاءوا من الدعاية ، ويوحون للناس بما يجرون على لسان أبطالهم من النبوءات والكهانات كان ذلك مثلا أواخر الأسرة الرابعة ، حين طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم ويدعون لدولتهم التى يقبض زمامها فيما رووا ملوك زعموا أنهم ولدوا لاله الشمس من امرأة من الشعب ، وتكرر ذلك أيام الدولة الوسطى فى نبوءة نفرو حـــو ، التى بشر فيها بحكم أمنمحات الأول وفى الدولة الحديثة عن مولد حاتشبسوت الالهى .

ومن الخطـــر أن تخضع الآداب القديمة لما عندنا اليوم من المقاييس والمعايير ، وأن نعيب على المصريين الأقدمين أدبا أنتجوه ولم يحقق لنا كل الذى نريده من آدابنا منذ اليوم ، فنقفز بذلك هوة سحيقة من الزمان ونسقط من تقديرنا عشرات من القرون فى حساب التطور الفكرى والأدبى ، ولذلك فينبغى أن نصدر فى حكمنا على الأدب القديم على أساس من تقدير العصر الذى أنشىء فيه والثقافات التى أخذ عنها وأسهمت فى انشائه .

ومع ذلك فقد وضع المصريون القدامى الأسس الأولى فى بناء الفكر الانسانى والانتاج الأدبى الرفيع ، وأنتجوا لنا أدبا مازال يؤثـــر فينـــا ونجد له فى نفوسنا شعورا بالرضى والاعجاب .

ومهما يكن من شىء ، فقد ملك المصريون ناصية المعانى والأفكار ، وكانوا حريصين فضـــلا عن ذلك على تجويد الكلام والوصـــول به الى أقصى ما استطاعوا من الجمال الفنى والتأثير الأدبى ، بما حفـــل به من ضروب البيان والبديع ، وما اصطنعوا فيه من التشبيه والاستعارة والكناية والتورية والجناس وحسب الذين ينظرون فى أدب المصريين القدامى أن

يعلموا أنهم أخرجوا للناس كثيرا من الصـــور والتعبيرات التى فرضت نفسها على آداب من جاورهم من الأمم والشعوب ، ثم وجدت سبيلها الى كتبنا المقدسة التى أثرت فى آداب العالم القديم والحديث ، وقد كان طبيعيا أن تتحدث الكتب المقدسة الى الناس بما كانوا قد ألفوا من قبل من الصور والأخيلة والتعبيرات ٠

ونعرف مما وصل الينا أنهم كتبوا فى المديح والرثاء والغزل والغناء ، بل كتبوا فى أكثر من ذلك من أغراض الأدب وفنونه ، واستطاعوا وصف المشاعر الانسانية من الحزن والفرح ، والغضب والرضـــا ومن اللذة والألـم ٠

ولعل أبرز أنواع الأدب المصرى القديم جميعا — اذا تجاوزنا عن الأدب الدينى — هو الأدب القصصى الذى يعد أبعدها أصولا وأثبتها قدما ، وهو يمتاز بحسن الصياغة ودقتها ثم متابعة الفكرة وتطورها وأخيرا بأنه أدب هادف له مراميه وأغراضه ٠

ولم يعرف الأدب القصصى على وجه التحقيق الا منذ عهـــد الدولة الوسطى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد أو قبيل ذلك بقليل ، ولدينا قصص للعامة والخاصة من مختلف العصور التالية ، وأما من عهد الدولة القديمة فلم يصلنا شىء من الأدب القصصى وان دارت القصص حول بعض أحداث هذا العهد البعيد أحيانا فتناولت بعض شخصياته كما نفعل اليوم حين نتناول شخصيات تاريخية فنروى عنها قصصنا ٠ وليس من شك أن هذه القصص ألفت ثم تناقلها قوم استهوتهم أحداثها فضخموا فى بعض نواحيها أو غيروا منها بما يتفق وظروف روايتها ٠٠ وقد لحقت بها الأساطير الدينيـة كما ثبتت بها بعض التقاليد المتعارف عليها ٠٠ ولكنها كانت تستهدف دائما ارضاء السامع من العـــامة وكانـــما صيغت لتغذى ميوله وتشبع رغباته وتتمشى مع أهوائه ٠

والقصص التى وصلتنا منذ عهد الدولة الوسطى تشير الى نضج ينم عن وجـود مرحلة سـابقة لمعالجة هـذا اللون من الآداب قد نستطيع أن نستشف وجوده من معالجة الأساطير فى متون الأهرام من عهد الدولة القديمة ٠٠ ومهما يكن من أمر ، فان غياب القصة فى عهد الدولة القديمة لا ينهض دليلا على عدم وجودها فقد يكشف يوما عن عناصرها الأولى فى هذه العهود البعيدة وعلى أية حال ، فان أدب القصة فى عهد الدولة الوسطى لا يمثل مرحلة تطور فحسب بل يمثل مرحلة كمال نسبى ، بل انه يمثل ذروة الأدب القصصى فى مختلف عصور الحضارة المصرية القديمة ٠

وأشهر ما وصلنا من هذا العصر قصة سانوهى ٠

قصـــة سانوهى

أتيح لهـذه القصـــة من الذيوع والانتشار ما يدل على أنها كانت من أحب القصص الى قلوب المصريين منذ الأسرة الثانية عشرة ، لما حظيت به من التداول والانتشار ، ولقد أجمع العلماء على أنها مثال راق لأروع ما ورد من آداب المصريين ، بل منهم من رفعها الى فوق ذلك.ولم تكن وقائع هذه القصة كلها من ضروب الخيال ، ولكنها كانت تعبر عن وقائع وأحـداث من التاريخ الذى لا خيال فيه ، فقد كان سانوهى أميرا ، وما ندرى لعله اتهم فيما كان من صراع على العرش تعرض فيه الملك أمنمحات للاغتيال ، فى مؤامرة لعلها فشلت ولكنها أنتجت لنا على كل حال أدبا جميلا جرى على لسان الملك وهو يعظ ولى عهده وقد صدمه الجحود والغدر .

القصـــــة

(تبدأ بمقدمة يذكر فيها سانوهى ألقابه ووظائفه ثم يقول) :

فى العام الثلاثين ، فى الشهر الثالث من فصل الفيضـــان ، اليوم السابع ، ذهب الرب ملك الشمال والجنوب سحتب ايب رع الى أفقه وصعد الى السماء حيث اتحد مع قرص الشمس واختلطت أعضاؤه بمن خلقها ، فاذا القصر قد ران عليه الصمت والقلوب فى حزن ، واذا البابان قد أغلقا حيث جلس رجال الحاشية وقد انحنت منهم الرؤوس على الركب ، على حين طفق الناس من حولهم يبكون .

وكان جلالته قد وجه جيشـــا الى بلاد التمحو وجعل على رأسه بكر أبنائه الاله الطيب سنوسرت ، وقد أرسل ليضرب البلاد الأجنبية ويسحق هؤلاء الذين كانوا من التحنو ، فلما عاد ساق معه الأسرى من التحنو مع الماشية التى لا حصر لها من كل نوع .

وأرسل الموظفون من ســـمار الملك بالقصر من البر الغربى لينقلوا للملك ما حدث فى القصر فكان أن لقيه الرسل فى الطريق ولحقوا به وقد جن الليل ، فلم يبطىء لحظة واحدة ، واذا بذلك الصقر الملكى يطير عائدا مع أتباعه دون ان يعلم جيشه ، ولكن رسولا آخر كان قد بعث خلسة الى سائر أبناء الملك ممن كانوا معه فى الجيش فهرعوا الى هناك .

ولقد كنت قائما هناك عن قرب حين أقبل الرسول فسمعت صوته وهو يحدثهم . فاذا قلبى يضطرب وذراعاى تتراخيان ، والفزع يدب فى

أعضائى جميعا ، فاندفعت أبحث عن مختبأ أتوارى فيه ، فجعلت نفسى بين شجرتين حتى أجد الطريق الذى أسلكه ٠

وكان أن وليت وجهى شطر الجنوب فقد قررت ألا أعود الى القصر اذ قدرت أن فتنة سوف تقع هناك ، ولا أستطيع القول بأنى سوف أعيش بعدها ٠ ثم عبرت بعد ذلك مياه ماعتى عند مزارع الجميز ثم نزلت الى جزيرة سنفرو حيث أنفقت النهار فى الحقول ، فلما استأنفت الرحيل حينما تنفس الصبح لقيت رجلا كان يعترض طريقى فحيانى فى احترام ولكنى فزعت منه ٠ ولما كان موعد العشاء كنت قد ألممت بمدينة نجاو فعبرت فى زورق غير ذى مجداف بمعونة ريح الغرب فوصلت الى الشرق عند محاجر سيدة الجبل الأحمر ٠

ثم كان أن سلكت الطريق الى الشمال فبلغت أسوار الأمير التى شيدت لصد البدو وضرب جوابى الرمال ، هناك ركعت بين الشجيرات فقد خفت الحرس من القائمين بالرقابة هذا اليوم أن يرانى ٠ ثم أنفقت الليل ماشيا حتى اذا كان فجر الغد ، كنت قد بلغت بتن ، ولكنى ما أن بلغت جزيرة كم أور حتى سقطت من الاعياء وقد أنهكنى العطش وألح على وضاق صدرى وصعب تنفسى ، والتهب حلقى بالغبار والجفاف ، فقلت : ذلك طعم الموت ٠ ولكنى قويت نفسى واستجمعت أطرافى وقد سمعت خوار قطيع من الماشية ولمحت البدو من بعيد ٠٠ واذا شيخ القبيلة هناك يتعرف على اذ كان قد زاد مصر من قبل ، فقدم لى ماء وطبخ لى لبنا ، ثم صحبته الى قبيلته فلقيت منهم خيرا كثيرا ٠

ثم مضيت تسلمنى بلد الى بلد ، فغادرت ببلوص وعدت الى قدم حيث أنفقت هناك عاما ونصف عام ٠ ثم كان أن أخذنى ننشى بن عامو أمير رتنو العليا قائلا : لسوف تكون معى آمنا وستسمع هنا لسان مصر ، وهو انما قال ذلك لأنه كان يعرف منزلتى ولأنه سمع الحديث عن حكمتى، وقد شهد لى بذلك جماعة من المصريين كانوا عنده ٠ قال لى : فيم أنت هنا وكيف بلغت بك الحال كذلك ؟ هل وقع فى القصر شيء ؟ قلت : لقد رحل الملك سحتب ايب رع الى أفقه ، وما يدرى امرؤ ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك ، ثم حدثته كاذبا بأنى كنت عائدا من حملة على بلاد التمحو عندما أبلغت خبرا اضطربت له نفسى ودفعنى قلبى الذى لم يعد فى صدرى الى الصحراء ، ومع ذلك فلم يذكرنى أحد بسوء ولا تلقيت عبارة ملام ٠٠ لست أدرى منذا الذى جاء بى الى هنا ، لكأنما هو قدر من الاله ٠ فقال لى : ماذا تستطيع هذه البلاد ان تفعل بدونه ذلك الاله الخير ، الذى ذاعت رهبته فى البلاد كلها كما ذاعت سخمت (١٤) عام الطاعون ٠

فأجبته قائلا : لقد دخل ابنه القصر فملك ارث أبيه ، انه الاله الحق

الذى لا شبيه له والذى لا يفوقه أحد ، انه رب السجاحة ذو الرأى المتين ، بأمره كل شاردة وواردة ، وهو الذى أخضع البلاد الأجنبية على حين كان أبوه فى القصر يصدر الأوامر ثم يحدث أباه بتنفيذ أوامره ·· وهو الذى لا يعيد ضربته اذا قتل ··

قلت له : اكتب اليه ودعه يعرف اسمك ، ولا تذكره بسوء فلن يقلع عن أداء الخير لكل أمة تظل على الولاء له · فقال لى : حقا ما أسعد مصر أن تقدر قوته ! ·· أما أنت فمقيم عندى فواجد كل خير ، واذا هو يجعلنى على رأس بنيه ويزوجنى كبرى بنـــاته ، وقد أذن لى أن أنتقى من بلاده خير ما يملك عند تخوم بلد آخر ، وكان بلدا طيبا اسمه (يا) فيه تين وعنب وفيه نبيذ أوفر من الماء ومقادير من العسل وزيت الزيتون وفاكهة من كل لون فضلا عن الأشجار ، وكان فيها الشعير والقمح ، ومن بهيمة الأنعام ما لا يحصيه عد ، مع ما كان يصل الى من علائم حب الناس · فكان ان جعلنى شيخا لقبيلة فى أحسن أقاليم بلاده ، وأصبح الخبز يقدم الى دائما والنبيذ لشرابى كل يوم مع اللحم المطهو ، والطير المشوى فضلا عن حيوان الصحراء وما كانت تجلبه كلابى من الصيد··وكذلك انفقت السنين الطوال هناك حيث أنجبت أولادا شـــبوا فتيـــانا لكل منهم رهطه الذى يدين له ، وكان الرسل ممن يذهبون الى الشمال أو الجنوب قاصـــدين القصر ينزلون بيتى ، ذلك أنى كنت أستضيف كل من يمر بى فأقدم الماء الى الظمآن وأهدى الضال فأرشده الى الطريق ، وأحيط بالحماية كل من يتعرض للنهب ·· ثم كان أن جعلنى أمير رتنو قائدا لجيشه أعواما طوالا فهزمت كل بلد سرت اليه فما كان أروع ما تركت من أثر فى فؤاد الأمير الذى أحبنى وأدرك مقدار شجاعتى فأحلنى على رأس بنيه ··

ولكن عملاقا من أهل رتنو أقبل على مخيمى يوما متحديا وكان بطلا مغمورا لانظير له هناك ، وكان قد أنزل الهزيمـــة بكل بلد أغار عليه ·· جاءنى فقال انه يود نزالى ، وفى ظنه أنه قادر على أن يقضى على ، وقد تآمر على استلاب أغنامى مع قبيلته ·· وجاءنى الأمير مستشيرا ، فأجبته بأننى لا أعرف الرجل ولا كانت بينى وبينه صلة ما ، ولم أطأ مخيمه ولا اقتحمت عليه بابه أو تخطيت حائطه ، ولكنه الحسد الذى أوغر صدره ·· وهب أن فحلا أراد قتال فحل آخر ، أتراه يولى ظهره أمام قرين له يكافئه فى كل شىء ؟ اذا كان قلبه يحثه على القتـــال فليعلن ما يريـــد ، أليس الله بعالم ما قدر فكيف لنا نحن أن نعرف ·

وما أن أقبل الليل ، حتى شددت قوسى وأعددت سهامى وشـــحذت خنجرى ودفعته فى غمده وصقلت أسلحتى ·· فلما لاح النهار أقبلت رتنو كلها — وقد أثارت قبائلها الأنباء وجمعت الناس مما جاورها من البلاد —

وأقبل غريمي على وأنا منتصب في ثبات فتقدمت منه والأفئدة كلها تضطرم من أجلي ·· كان النساء وأزواجهن يهتفون ·· أما من شجاع يقاتل معه · ويرفع عدوى فأسه وحزمة من سهام طفق يقذفني بها ، فتركته حتى استنفد أسلحته واحدا واحدا ، وأنا أتجنب سهامه فتمر طائشة بي ·· فلما لم ما معه اقترب كل منا من غريمه ·· وكان يظن أنه يصيبني فهجم على ، ولكني قذفته بسهم استقر في عنقه ، فأرسل صيحة عظيمة ثم انكب على وجهه فأجهزت عليه بفأســـه ، ثم أطلقت صيحتي وأنا على ظهره ، فاذا الآسيويون من أتبـاعه جميعا يتأوهون ·· فحمدت منتو (١٥) على حين انخرط شعبه في البكاء عليه ، فيضمني الأمير ننشي بن عامو بين ذراعيه · ثم تحولت فاستوليت على أملاك عدوى ، فازددت ثروة على ما كان لي من ثروة لا تعد وأغنام لا تحصى ·

أصبحت غنيا بما عندى من عبيد وما لى من بيت فخم ومكانة رفيعة · لقد فعل ربي ما فعل رحمة بمن أضله الهوى فقر الى بلد غريب · وان يوم النصر هذا انما هو ايذان برضوان ربي على ! · لقد كنت بالأمس لاجئـا ولكني أجـــد اليوم من ينتصر لى · كنت هاربا يبيت على الطوى ويبرح به الألم والجوع ، والآن يطعم الجار من زادى · وكنت أهيم بعيدا عن وطني في العراء ولكني أملك اليوم الأثواب الكثيرة والملابس البيضـــاء ، كنت حائرا مضطرا الى الجرى لا أجـد من أرسله ، أما اليوم فانا أملك جموع العبيـد وهذه دارى أنيقـة ورحابي واسعة وقد ارتفع ذكرى الى مسامع القصر · يارب ، يا من قدر على ذلك الفرار ، كن رحيما بي وأهدني الى بلادى ·· هلا قدرت لى رؤية البقعة التي يحن قلبي للعيش فيها ؟ أمن شيء أحب لدى أو أعظم عندى من أن يدفن جسدى في الأرض التي ولد فيها ؟ ارحمني يارب ··

حل لملك مصر أن يكون رحيمـــا بي فأعيش في ظـــلال كرمه ، وأن يأذن لى برعاية شئون صيدة البلاد التي تسكن قصره وأسمع أوامر بنيها · لقد حلت الشيخوخة وانثرانى الوهن وثقلت عيناى وضعف ساعدى وناءت قدماى بحمل وأرهق قلبي وحانت ساعة الوداع ··

فلما خوطب جلالة ملك الشمال والجنوب خبر كارع في حـالى · أسرع بالكتابة الى وبعث لى بالهدايا مما يمنح لأفراد الحاشية فملأ ذلك قلب خادمه سانوهى فرحا ·

نص الأمر الذى حمل الى الخادم المتواضع بعودته الى مصر من حورس ملك الشمال والجنوب ·· أمر ملكى للسمير سانوهى ، انظر لقد صدر هذا الأمر لتعلم ما هو آت : انك انمـا رحلت بـوازع من قلبك لك ·· ولكنه لم يكن في قلبي ضدك ·· ان الملكة وهي سماؤك في القصر باقية

على الخير متوج رأسها بملك الأرض وأبناؤها يشاركون فى الحكم • فهيا عد الى مصر وكن واحدا من الحاشية • لقد خطوت الى الشيخوخة • ففكر فى الموت والانتقال الى حرمة الموتى • ولقد أمرت فأعدت لك الزيوت والأكفان ولسوف يعد لك يوم الدفن موكب كبير الى القبر ••

ويلفنى هذا الأمر وقد كنت واقفا بين أقاربى من أهل القبيلة ، فلما قرىء على خررت ساجدا ثم قبضت قبضة من تراب فحثوتها على رأسى ، ثم اندفعت فى الحى حول خيامى وأنا أصرخ فرحا •

نص الاعتراف بوصول هذا الأمر •

سلام طيب عليك • وليقع كل ما تشرق عليه الشمس تحت سلطانك (١٦) ان هذا الفرار لم يكن مدبرا • كأنه كان حلما ، كرجل من الدلتا رأى نفسه فى فيله ••

وأذن لى باللقاء يوما واحدا فى أرض (ياريشا) أوصى بأملاكى الى أولادى فأقمت أكبر أبنائى شيخا على الحق ، وانتقلت قبيلتى وأملاكى كلها الى حوزته • ثم توجه ذلك الخادم (سانوهى) الى الجنوب فسلكت طريق حورس ، وما أن بلغت منطقة المناقع حتى أوفد قائدها رسولا الى القصر يعلن وصولى ، فاذا جلالة الملك يرسل ناظرا زراعيا من الضياع الملكية تتبعه محملة بالهدايا الملكية للبدو الذين رافقونى ثم استأنفت برحلتى • حتى بلغت مدينة أثيث تاوى (العاصمة) •

فما أن أضاءت الأرض فجر اليوم التالى جاء رجل يستدعينى ثم أقبل عشرة من الرجال ذهبوا بى الى القصر فصافحت الأرض بجبهتى • واستقبلنى أبناء الملك عند الباب ، وأرشدنى رفاق الملك •• الى طريق القاعة (الملكية) فوجدت جلالته على عرش من ذهب فانبطحت على بطنى وغشى على ، وكان هذا الرب يحدثنى متلطفا ولكنى كنت كمن غشيه الظلام •• ثم قال جلالته لواحد من سماره ، دعه ينهض ليتحدث الى ثم قال جلالته لى : ها قد عدت بعد أن ذرعت البلاد الأجنبية فى فرارك •• لا تقم على الصمت ، ألا تتحدث ؟ وكنت أخشى العقاب فأجبت جواب الخائف : (•• وددت لو استطعت الجواب •• هأنذا بين يديك • وحياتى لك ولتفعل •• ما تشاء ثم أمر بدخول أبناء الملك وتحدث الملك الى الزوجة الملكية : (انظرى ها هو ذا سانوهى وقد عاد أسيويا كأنه بدوى خالص • فندت صيحة عليه وصاح الأبناء الملكيون حقا كأنه ليس هو يا مولانا •• دعنا نحتفل بهذا الشيخ ابن الشمال ذلك البدوى الذى ولد فى مصر ، انه ما حمل نفسه على الفرار الا خوفا منك ، هجر وطنه لأنه امتلأ منك رعبا أيمكن للوجه الذى تطلع الى محياك أن يعتريه الشحوب •• فقال جلالته :

لا خوف عليه ولا هو يحزن ·· ولسوف يكون سميرا لى بين الأشراف ·· اذهبوا به الى قاعة الصباح لتكونوا فى خدمته ··

ثم أسكنت دارا لأحد أبناء الملك تحوى أثاثا فخما وحماما أنيقا وزخارف مقدسة ·· وأثوابا من كتان ، وعطورا من المر والزيت الثمين مما يخص الملك والنبلاء وفيه الخدم قائمين بأعمالهم ، وأزيلت عن أعضائى آثار السنين ، ومشط شعرى وألقى التفث الى الصحراء والملابس لجوابى الرمال ، ثم اكتسيت بأثواب الكتان الجميل ودلكت بأحسن الزيت ثم رقدت فى سرير وتركت الرمال لمن يعيش فيها وزيت الخشب لمن يدلك نفسه به ·

ثم منحت دارا وسط الحدائق ·· وشيد لى هرم من حجر بين سائر الأهرام ·· وانى لأحظى الآن بما يناله سمير الملك من عطف ، وسيظل هذا النعيم حتى يأتى يوم الهبوط الى الغرب فى مدينة الأموات ·

★★★

وبعد فهذه رحلة نفسية فى قصة ، تصور فى روعة وجمال ما اختلف على بطلها من المشاعر والأحاسيس ، فهى تصور الصدمة التى تلقاها ساعة بلغته وفاة الملك وما توقع من المحنة والشر وتصف خوفه وهلعه ثم ما لقيه من الأهوال والخطوب حتى قال لنفسه (ذلك طعم الموت) ·

حتى اذا بلغ رتنو (سوريا) اذا به يستخلف فى الأرض ويبدل من بعد خوفه أمنا · فلا يلقى من حاكمها الا خيرا ، فيتبدل شقاؤه نعيما وعسره يسرا واذا هو يتذاكر ذلك فى أسلوب مؤثر جميل · والقصة تصور أثناء ذلك حياة البدو كأحسن ما يكون التصوير وتجلو نظام القبيلة ومجتمعها وما قد يتعرض له البدوى من لدن جيرانه من العدوان والغارة حين تورط سانوهى فى مبارزة فرضت عليه ولم يكن يريدها ·

ولكن النعيم الذى عاش فيه الرجل لم يكن ليلهيه عن وطنه والشوق الرؤيته والتطلع لأن يستقر جسده فيه بعد موته ، وكان ذلك التعبير المؤثر الذى يصور لنا الحنين أحسن تصوير ويصور لنا اعزاز الوطن كيف يكون وكيف يحمل الرجل على ترك قبيلته وبنيه وأمواله ليعود الى مسقط رأسه · وتصور لنا ذلك الفرح الذى أحرجه عن طوره حين أذن له الملك بالعودة بعد أن عفا عنه ، وتنتهى القصة بالخاتمة السعيدة وهى العودة الى الوطن والاستقرار فيه حتى يدفن فى أرضه الطيبة ·

الشعر الغنائي

سافو

٦٠٠ ق.م

سافو الجميلة .. أشهر نساء اليونان

فى أعلى المدن الايونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الايولية (١٧) الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الايوليون والاخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسيا الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة وكانت كثرة هذه المدن صغيرة وكان شأنها فى التاريخ صغيرا كذلك غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الايونية فى الثروة والرقى والعبقرية الأدبية وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم وكانت متلينى أكبر مدائنها الخمس وكانت تجارتها سببا فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس وساموس وافسوس وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس الشجاع الفظ حاكما بأمره مدة عشر سنين ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صـــديقه وزميله الحكيم صولون وأخذ الاشراف يأتمرون ليستعيدوا سلطانهم ولكن بتاكوس رد كيدهم فى نحرهم ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس وسافو ،، فأخرجهم أولا من متلينى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألفيوس (١٨) ثائرا صخابا ، خلط السياسة بالشعر فكانت كل قصيدة من قصائده مثارا للفتنة والثورة وكان شريف المحتد وهاجم بتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفى من البلاد وقد اصطنع هو بحوره الشعرية التى أسماها من جاءوا بعد «ألفيوس» ، ويقال لنا ان كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها .

ولقد كان من سوء حظه ــ وان كان قد تحمل هذه الكارثة بصدر رحب ولم يلق بالا اليها ــ أن كانت بين معاصريه امرأة هى أشهر نساء اليونان أجمعين ونعنى بها سافو وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن تموت ومن أقوال استبايوس فيها : « وحدث مرة فى مجلس شراب أن أخذ اجزستيديس ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغانى سافو أعجب بها عمه اعجابا لم يسعه معه الا أن يأمر الغلام أن يعلمه اياها ولما سأله

أحد الحاضرين لم يطلب هذا الطلب ؟ أجاب بقوله : « انى أريد أن أتعلمها ثم أموت » ، وكان سقراط ـ ولعله كان يرجو مثـل ما يرجوه صولون لنفسه ـ يسميها « الجميلة » وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون ان ربات الشعر تسع ألا ما أكثر غباءهم
فليعلموا أن سافو اللسبوسية هى العاشرة

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة لأنى لا أعرف أن قد وجـدت فى جميع العصـور التى وصـل الينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ فى قرض الشعر . وكما أن الأقدمين اذا ذكروا لفظ « الشاعر » فانما يعنون بهذا اللفظ هومر كذلك كان العالم اليونانى كله اذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم .

وقد ولدت بسافا كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الايولية الرقيقة فى ارسوس من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق.م ، ولكن أسرتها انتقلت الى متلينى وهى لاتزال فى المهد وكانت فى عام ٥٩٣ بين الاشراف الذين ائتمروا ببثاكوس والذين نفاهم الى مدينة بيرا ، ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن فى الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة وبقول الشعر ولم تشتهر بجمالها ، فقد كانت صغيرة الجسم ضعيفة البنية وكان شعرها وعيناها وبشرتها أشد سوادا مما يحبه اليونان ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ورقتها ودماثة أخلاقها وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تخفى رقتها وحنانها ومما قالته هى عن نفسـها « ان قلبى كقلب الطفل » ويستدل من شعرها على أنها كانت ذات عواطف جياشة وأن ألفاظها كما يقول بلوتارخ « كانت تمتزج باللهب » ، وكانت مرهفة الحس الى حد ما وكان هذا سببا فى الحد من حماسة عقلها وقد وصفها أثيس تلميذها المقرب اليها بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والارجوانية وتتوج رأسها بالزهر وما من شك فى أن قوامها النحيل قد أكسبها ملاحة وجاذبية وشاهد ذلك أن ألفيوس الذى نفى معها الى بيرا أرسل اليها مسرعا رسالة عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ياذات التاج القرنفلى ياطاهرة ياذات الابتسامة الحلوة أريد أن أحدثك فى أمر ولكن الحيـاء يمنعنى أن انطق به » . جوابها أقل غموضـا من اقتراحه « لو كانت رغبتك طيبة ونبيلة ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو دنىء لما أسدل الحياء على عينيك غشاوة ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة » وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها فى قصائده وأناشيده ولكننا لا نعرف أن صلة غير هذه الصلة عقدت أواصرها بينهما ولعلهما قد افترقا حين

نفيت سافو للمرة الثانية وكان سبب نفيها أن بثاكوس قد خشى قلمه بعد نضوجه . فنفاها فى هذه المرة الى صقلية وكان ذلك فى أغلب الظن عام ٥٩١ وهى فى سن يكاد الانسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع ان تؤذى انسانا وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من اندروس وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية هى كليس قرة عينى التى لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة » وما من شك فى أنها كان فى وسعها أن ترفض ما فى ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته المبكرة وعادت الى لسبوس بعد أن أقامت فى منفاها خمس سنين وأضحت زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية فى الجزيرة وانا لنلمح بهرج الترف فى احدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن فى علمكم أنى أحب الحياة اللينة وأرى أن النور والجمال مما تشتهيه النفس » . وأضحت وثيقة الصلة بأخيها الأصغر كركسوس شديدة التعلق به وغضبت أشد الغضب حين شغف فى احدى سفراته التجارية الى مصر بحب محظية تدعى دريكا ثم تزوجها ضاربا بتوسلات أخته عرض الحائط .

وفى هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل فى قلبها ذلك أن نفسها تاقت الى الحياة النشيطة فأنشأت مدرسة للفتيات تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص كانت هى أولى « مدارس صقل » الفتيات فى التاريخ كله . ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن الرفيقات وأحبت سافو ــ وكانت وقتئذ أرملة ــ وقد قالت فى احدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز الحب قلبى كما تهز الريح القوية أشجار البلوط » ، وتقول فى احدى القطع الأخرى : « لقد أحببتك يا أثيس من زمن بعيد حين كانت أوثتى كلها أزهارا وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن تقبلت أثيس حب شاب من متلينى عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو فيها قوة العاطفة .

وأخرج والد أثيس إبنتهما من المدرسة ولدينا رسالة تعزى الى سافو نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أثيس ؟) بكاء مرا لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أتعس حظنا ! وأقسم لك يا سافو أن فراقى اياك كان على الرغم منى » فأجبتها : « سيرى فى طريقك منشرحة الصدر ولكن اذكرينى لأنك تعرفين مقدار هيامى بك فاذا لم تذكرينى فانى سأذكرك بما تنسين الا ما أعز وأجمل الأيام التى قضيناها معا لقد كنت تزينين غدائرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت الى جانبى وتزينين جيدك الرقيق بعقود مجدولة من مئات الأزهار وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت اهابك الأبيض

الغضى وأنت بين ذراعي ولم يكن في المكان كل تل أو موضع مقدس أو غدير ماء لم تذهب اليه ولم تملأ الأصوات الكثيرة في بواكير الريبة غابة من الغابات يسجع العندليب الا ذهبت اليها معي » .

وتأتي بعد هذه الأغنية في نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن أرى أثيس بعد اليوم ولا فرق عندي بين هذا وبين الموت » ان هذا بلا ريب هو صوت الحب الصـــادق الذي يعلو الى ذروة الوفاء والجمال ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقا عن « الحب اللسبوسي » أو أنها لم تكن الا تدريبا للخيال ولتجسيد المعاني المجردة ولكنا لا شأن لنا بهذا وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالعاطفة قوى الخيال يبلغ حد الكمال في لفظه ومبناه وفي قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهر » وفي قطعة أخرى حديث عن « الحب الذي يفكك الأعضاء والعذاب المر — الحلو » وتشبيه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التي تحمر على طرف الغصن على الطرف الأعلى للغصن والتي سها عنها الجاني لا لم ينسها بل انه لم يستطع لعلوها أن يصل اليها » وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب واستخدمت فيها بحورا من الشعر بلغ عدد ما بقي لنا منها خمسين بحرا وقد لحنت هي بنفسها أغانيها ووقعتها على العود وجمع شعرها في خمسة دواوين تحتوي نحو ألف بيت ومائتين بقي منها ستمائة يندر أن تكون متتالية . وحدث في عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة في القسطنطينية وروما باحراق سافو وألفيوس علنا . وفي عام ١٨٩٧ كشف جرنفل وهنت في اكسرنكوس بمديرية الفيوم توابيت مصنوعة من طبقات من الورق استخدمت في صناعتها قطع من كتب قديمة وجدت عليها بعض قصـــائد ســـافو .

وقد ثار ذكور الأجيال التالية لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها أو اخترعوا من عندهم قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب وثمة فقرة في معجم سويداى تروى كيف قفزت « العاهرة سافو » — وهو الوصف الذي توصف به الشاعرة عادة — من فوق صخرة في جزيرة لوكاس قفزة قضت بها على نفسها لأن البحار قاؤون لم يستجب لحبها . ويشير هنانبر واستوابون وغيرهما من الكتاب الى هذه القصة ويرويها أرفيد في تفاصيل جميلة . ولكننا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال وخليق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بين الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة ان سافو عاشت فتغلغلت حب الرجال ، ونجد في القطع

الصغيرة التى كشفت من أشعارها فى مصر جوابا لها مؤثرا ردت به على اقتراح رضه عليها بعضهم بأن تتزوجه فقالت : « لو أن ثديى قد بقيا قادرين على ارضاع الأطفال ولو أن رحمى قد بقى قادرا على حملهم لجئت الى فراش الزوجية بقلبى ترتجفان ولكن الزمان قد خط على جسدى خطوطا كثيرة والحب لا يسرع الى بما يحمله من هدايا الآلام » ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سنا . وفى الحق اننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها وكل الذى نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية والشعر الرائع واللطف والسعة وانها بزت ألفيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتا ، وتراها فى آخر قطعة لها تلوم فى غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« انكم يا أطفالى تجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون : « سنتوجك يا سافو الحبيبة يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغانى وأشجاها ألا تعرفون أن اهابى كله قد تجعد من طول العمر وأن شعرى قد استحال من أسود الى أبيض ؟ .. وكما أن الليل ذا النجوم يخلف حتما الفجر ذا الذراع الوردية وينشر الظلام فى طول الأرض وعرضها كذلك يقتفى الموت آثار كل حى ويمسك بتلابيبه آخر الأمر » .

★★★

افروديت راعيـة جمـال المرأة

كانت سافو وفتياتها يحرصن دائما على الاحتفال بالالهة افروديت والالهات التابعات لها أعنى الهات الرشاقة وربات الفنون وان لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة فقد كن يؤهلن أنفسهم للزواج وكان عندما يأتى تكتب لهن سافو أغنيات الزفاف وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن ولكن حتى يحين هذا اليوم فقد كن يعشن حياة منعزلة بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر وأفكارهن وعواطفهن كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو وقد أشرفت سافو على رغباتهم الناضجة وتمكنت من توجيهها الوجهـة الصالحة بأن تسللت فى نفوسهن بالتعاطف معهن وبالفهم الصادق لمشاعرهن واحساسها العميق بضرورة انجذابها نحوهن وما بقى لنا من أشعارها يبين لنا الى أى مدى دخلت سافو حياة فتياتها وكم كانت تبادلهن الحب والمودة وكيف استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن ٠

قد لا يستطع البعض من وجهة النظر الحديثة تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديرا صحيحا فلم تكن العقيدة فيها شعورا ذاتيا بالجمال بل عبادة حقيقة لالهة تؤمن بها سـافو وفتياتها كل الايمان اذ كانت افروديت الهة موجودة فى نظر سافو وفتياتها ، وعبادتهن لها كانت تفرض عليها اتخاذ موقف معين تجاه الحياة وكانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ومن ثم فان جمال من يعبدنها أمر معروف به وجدير بالتكريم ، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على أنه سبيل للحب والاخلاص ٠ ان عقيدة الجمال هذه غالبا ما كان يساء توجيهها ولكن يبدو أنها كانت تطورا طبيعيا فى ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتى من الآلهة ومما لا شك فيه ان مثل هذه المجتمعات فى اسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات مثل ما كان يحدث فى الاحتفال بأعياد الالهة هيرا فى أوليمبيا، أما فى ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلا أبسط وأكثر اتصالا بالآلهة فلم يكن النشـاط الأساسى فى الرياضـة بل فى الغنـاء ٠ كانت أفروديت تكرم ربات الفنون وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب الأغانى وكانت سافو تدرب الفتيات المكرسات لافروديت على الغناء ٠

كان شعر سافو يعنى أساسا بالحياة فى جماعتها فقد كانت تكتب فى مناسبات محدودة ولأفراد معينين وكانت أشعارها تعكس مشاعرها نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة ٠ ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من

أشعارها أن يحاول أولا أن يعرف الظروف التي كتبت فيها هذه القصيدة . قد يكون صـــوابا وهو أمر سهل ميسور تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف انسانية عامة ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لهم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيرا وهذا ما يجب أن ترى بوضوح فى القصيدة الأولى من كتابها الأول وهى عبارة عن أنشودة موجهة الى افروديت: « أى افروديت الخالدة ياذات العرش الوضاء يابنت زيوس يامدبرة الأمور اليك أتقدم بالضراعة : أى ملكتى لا تفعمى قلبى بالآلام والأحزان بل أقبلى الى هنا ان كنت قد استمعت من قبل الى صوتى ذات مرة عن بعد وأنت تطلبين من عل ان كنت قد تركت بيت أبيك الذهبى وأقبلت بعد ان ملكت زمام عربتك . ان بجعتيك المليحتين السريعتين قد أحضرتاك فوق الأرض المعتمة وهما ترفرفان بأجنحتهما القوية عبر السماء خلال الهواء وسرعان ما وصلتا وأنت أيتها المباركة والابتسامة تعلو وجهك الخالد قد سألت عم ألم بى ولماذا أدعوك وماذا فى قلبى الثائر أريده ان يحدث أكثر من أى شىء آخر : « من تلك التى تودين الآن أن يوقعها الاغراء فى حبك ؟ من تلك التى تلحق بك الأذى أى سافو ؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن فانها سرعان ما سوف تسعى اليك واذا كانت لا تتقبل منك هداياك فانها مع ذلك سوف تعطيك واذا كانت لا تحبك فانها سوف تقع سريعا فى هواك رضيت أم أبيت » . تعالى الى الآن كما فعلت من قبل وخلصينى من الهموم القاســـية وحققى كل ما يتطلع اليه قلبى حققى وكـــونى حليفتى فى المعركـة » .

وانه لمن سوء الحظ لطبيعة سافو الغريبة وعبقريتها الفذة أن الشذرات الباقية من أشعارها محوطة بالغموض ومليئة بالأفكار المتضاربة فهى أحيانا لوذعية وأحيانا أخرى خيالية وفى بعض الحالات عاطفية ، بل وعاطفية جدا حتى لتبدو مرضية سوداوية،مما دعا البعض ممن لايتوخون الدقة فى اصدار أحكامهم الى اتهامها بالخلاعة والمجون واعتبارها امرأة ساقطة ، وهذا يتنافى تماما مع الاحترام الذى كان يبديه كتاب العصور القديمة أثناء حديثهم عنها فأرسطو يحدثنا عن تقدير معاصريها واحترامهم لها حتى ان حكومة بلدها قد مجدتها ونقشت صورتها على قطع العملة ويضعها سقراط فى مصاف الحكماء ولا يملك المرء عند سماع أغانيها الا أن يتوقف عن الشراب ويخفى كأسه خجلا وكان من دواعى الفخر لنساء عصرها ان يقال انهن كسافو فى الثقافة والحكمة وكتابة الشعر ولعل وجود سيدة ساقطة فى ليسبوس تحمل نفس اسم الشاعرة سافو من الأمور التى أدت الى اشاعة الخلط بين الشخصيتين عند بعض الرواة .

أما عظمتها كشـــاعرة فأمر يكاد يكون متفقا عليه من جميع الرواة والنقاد فقد رفعها البعض الى مصاف الآلهة واعتبرها الهة عاشرة لربات

الفنون التسع ، وأشعارها في رأى البعض الآخر تفوق كل شعر دبجه يراع امرأة كما يفوق شعر هوميروس كل شعر جاء على لسان رجل ، وكان من عادة سقراط ان يطلق عليها اسم « سافو الجميلة » أثناء حديثه عنها رغم أنها كانت ضئيلة وسمراء وذلك لجمال أشعارها وروعتها ، تلك الأشعار التى تمنى سولون الحكيم ذات يوم ان يحفظ بعضا منها ثم لتات المنية ٠

ان طبيعة عواطف ســـافو يمكن أن ترى بوضوح من هذه الأبيات الرائعة التى تتحدث فيها عن فتاة رحلت عنها وتستعيد أيام حياتهما معا فى شكل محادثة دارت بينهما قبيل الرحيل ٠

« اذن فانى لن أرى أثيس مرة أخرى » ٠

« انى حقا أود أن أموت لقد تركتنى وهى تبكى بدمـــوع غزيرة وقالت لى « وأسفاه كم نحن تعساء على الرغم منى ياسافو أرحل عنك أقسم لك » وأجبتها بهذه الكلمات : « اذهبى وابتهجى فقط اذكرينى فأنت تعرفين مدى شغفى بك وان كنت لاتذكرين فانى أذكرك بما نسيت أن أذكرك بالأوقات السعيدة البهيجة التى أمضيناها معا فكم من مرة وأنت بجانبى قد زينت خصل شعرك المتهدلة بجدائل من زهر البنفسج والورد البهيج وعقدت حول عنقك الرقيق قلائد من مئات الأزهار وضمخت جلدك البض وأنت فى صدرى بكثير من العطور الملكية الثمينة وكل ما تتمناه (فتاة أرنية ناعمة) حصلت عليه وأنت تجلسين على حشية لينة من مكان مقدس أو (جدول ماء) لم نذهب اليه ولم (يملأ) الربيع (المبكر) أية غابة بشدو (البلابل) المتنوعة (الا وتجولت فيها معى) ٠٠٠ » ٠

ان الالهة التى كانت ســـافو وصويحباتها يقمن على خدمتهـــا هى أفروديت ولكن التفاصيل الدقيقة للطريقة التى كانت تقدم بها طقوس عبادتها تكاد تكون مجهولة تماما وأفضل ما وجد فيما وصلنا من شعر سافو وله صلة بهذه الطقوس شذرة تتألف من أربعة أبيات (شذرة رقم ١١٧) تصف مذبحا من الأغصان نصب تكريما للالهة افروديت والهات الرشـــاقة ٠

« ٠٠٠ أما أنت يا ديكا فانسجى بيديك الرقيقتين جدائل بديعة واجدليها معا بأغصان الزهور فان الالهة (أفروديت) تهتم بكل ما أبدعت زينته بالأزهار وكذلك ربات الرشـــاقة المباركات يزداد استحسانهن له ولكنهن يتحولن عن كل الأشياء التى لا تتوجها الزهور » ٠

ويبـــدو من هذه الأبيات أن طقوس الالهـــة افروديت كانت تتم فى الهواء الطلق وربما فى أحد الأحراش المقدسة وهناك بيتان يؤكدان هذه الفكرة (شذرة رقم ١١٢) ٠

«لقد طلع البدر علينا واتخذت العذارى أماكنهن حول المذبح ...» .

كانت جيرينا وأثيس وأناكتوريا أحب الفتيات الى قلب سافو والقصيدة التالية تبين مدى شغفها بالأخيرة (شذرة رقم ٣٨) .

« في رأى البعض أن أحسن ما على الأرض السوداء جيش من الفرسان وفي رأى البعض الآخر جيش من المشاة وفي رأى غيرهم أسطول من السفن ولكن بالنسبة لى فهو من يحبه المرء ومن السهل توضيح ذلك لأى انسان فان هيلين التى كانت تفوق كل البشر جمالا فضلت على أفضل الرجال (وهو زوجها مينلاوس) من دمر كل شرف طروادة (باريس) دون أن تفكر مطلقا فى طفلتها (هيرميون) ووالديها الأعزاء ولكن أضلها الحب فجعلها تذهب بقلبها بعيدا فمن السهل دائما ان تستمال المرأة عندما تفكر باستخفاف فيما هو قريب وعزيز وهذا ما يجعلنى أتذكر الآن أناكتوريا التى رحلت عنا والتى أفضل سماع وقع خطاها الجميل ورؤية وجهها المشرق الوضاء على جميع عجلات ليديا الحربية ومشاتها المسلحين انى أعلم علم اليقين أن المرء لا يستطيع أن يحصل على الأكمل ولكن أن يرغب فيما يشاركه فيه غيره أفضل من أن ينساه » .

لم يلعب الرجال الا دورا ضئيلا فى حياة سافو ومن ثم لم يأت لهم ذكر فى أشعارها الا نادرا فقد جاء ذكر لأخيها خاراكسوس فى بعض الأشعار وقد حدثنا هيرودوت عن القصة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار . رحل خاراكسوس الى ناوكراتيس المستعمرة اليونانية فى دلتا النيل بمصر وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق عليها اسم رودوبيس ووقع فى غرامها وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها وعندما عاد الى وطنه عنفته أخته سافو على تصرفه هذا فى احدى قصائدها .

كانت ناوكراتيس احدى المراكز المهمة للتجارة اليونانية ومن المحتمل أن خاراكسوس كان قد رحل الى هناك لأمور تتعلق بتجارة النبيذ من ليسبيا، ولكن أهم ما فى القصة هو الجدية والصرامة التى قابلت بها سافو تصرف أخيها وان فى معارضتها لهذا التصرف الطائش مع امرأة من هذا النوع لدلالة أكيدة على رفعة مستوى سلوك سافو نفسها ولعل الاسم الذى عرفها به هيرودوت وهورودوبيس هو اسم الشهرة الذى كان يطلقه عليها المحبون والاسم الحقيقى وهو ما جاء ذكره فى أشعار سافو دوريخا واذا لم تكن القصيدة التى أشار اليها هيرودوت قد وصلتنا ، فقد وصلتنا على الأقل شذرات تشير فيها سافو بعداء الى دوريخا فقد جاء فى احدى الشذرات (رقم ٣٧) :

« أيتها القبرصية (افروديت) لعل دوريخا تجدك أكثر مرارة

ولا تفاخر مرة ثانية بقولها انها قد وصلت الى الحب الذى كانت تتوق اليه نفسها » ٠

لقد كان يكفى سافو أن تعيد اليها دوريخا حب أخيها لها وقد عبرت عن هذا الأمل بتمنيها لدوريخا أن تجد الحب مرا ومن المحتمل ان هذه الشذرة جزء من القصيدة التى أشار اليها أثيناپوس بأن سافو عنفت فيها دوريخا لأنها نجلت وبر أخيها ، واذا كانت سافو تستخدم فى الحديث عن دوريخا ألفاظا قاسية ، فانها سرعان ما تصفح عن أخيها ٠ ولدينا شذرة هى افتتاحية لقصيدة ترجو فيها سافو لأخيها عودا حميدا الى الوطن وتعده بأنها ستغفر له كل أخطائه (شذرة رقم ٣٦) ٠

« أى عرائس البحر الشقراوات أرجو أن تسمحن لأخى أن يعود سالما وأن تحققن له كل رغبات قلبه الصادقة كما أرجو وقد زالت عنه كل أخطائه السابقة أن يصبح بهجة لأصدقائه وخطرا على أعدائه ولعل بيتنا لا يصيبه الحزى بسبب أي رجل كما أرجو أن يكون راغبا فى أن يجعل أخته تمتلىء فخرا به ، ولعله عندما يعود فى يوم قريب ويعمل وهو فى عز فرحة مواطنيه به على ازالة الألم المرير والكلمات الجارحة للشعور التى أصر قبل رحيله ان يملأ بها قلبى ولعله يحصل ان أزاد على زوجة جديرة به وبعقد شرعي أما أنت أيتها الكلبة السوداء المؤذية (والمقصود بها دوريخا بلا شك) فلعل سموم شرك تذهب هباء وتسعين لاصطياد فريسة أخرى » ٠

لم يقتصر احتقار سافو لدوريخا بل تعداها الى اخريات فلدينا شذرة (رقم ٧٢) يقال انها موجهة الى امرأة غير متعلمة ٠

« عندما تموتين فسوف ترقدين فى عالم النسيان ولن يذكرك أحد لانك لم تقومى بدور نتاج الورد نتاج بيريا فهناك المظلم وفى الظلام سوف تجوسين فى منزل الموت وتتجولين بين أشباح عديمة القيمة لا وزن لها » ٠

ولهذه الأبيات أهمية خاصة لأنها تطلعنا على رأى سافو بأن الخلود الحقيقى فى كتابة الشعر والأغانى وهى أول من عبر عن هذا الاعتقاد ٠ كانت سافو تؤمن بهذا الرأى ايمانا صادقا حتى انها كتبت بفخر ولكن ببساطة (شذرة رقم ٧٦) :

« انى أقول ان شخصا ما سيتذكرنا حتى فى الأيام المقبلة » ٠

كما تقول أيضا (شذرة رقم ١١) :

« ولكنى حصلت على النجاح الحق من الهات الفن الشقراوات وعندما أموت لن أصبح نسيا منسيا » ٠

ويحدثنا أرسطو بأن ألكايوس هو الشخص الذى كتبت له سافو تقول (شذرة رقم ١١٩) :

« اذا كنت ترغب فيما هو عف ونبيل واذا كان لسانك لا يهفو الى قول ما هو سيىء فلن يملأ الحياء عينيك بل ستتحدث عنه بحكمة » .

وذلك ردا على أشعار لألكايوس يقول فيها (شذرة رقم ١٢٤) :

« أى سافو الطاهرة يا ذات الخصل البنفسجية والابتسامة العذبة بنفسى كلام أود لو أقوله لك ولكن الحياء يمنعنى » .

وربما جاء ذكر لزوجها فى بعض الأشعار المفقودة .

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان يتصل بحياتها الخاصة الا أن هناك بعض الشذرات التى لا علاقة لها بهذه الحياة .

من هذه الشـــــذرات :

« ان من يبدو جميلا فهو جميل المظهر ولكن الفاضل سرعان ما يكون جميلا أيضا » (شذرة رقم ٥٨) .

« ان الثراء بلا فضيلة ليس رفيقا مأمون الجانب ولكنهما لو اجتمعا معا يكونان قمة الحظ السعيد » .

(شذرة رقم ١٠٠) :

« ان الموت بلاء هكذا يعتقد الآلهة على الأقل والا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد » .

(شذرة رقم ٩١) :

هذه هى سافو وهذه هى بعض الشذرات التى وصلتنا من أعمالها التى يقال انها كانت تملأ تسعة كتب ومن الواضح أنها كانت واثقة كل الثقة من نفســـــها وفنها وقد عاشت أشعارها كل هذه القرون الطويلة ومازالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التى كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة . ومن ثم فهى تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبتها الطبيعة حتى الآن فان ذوقها السليم وصدقها المتناهى فى التعبير وخيالها البديع وقوة عاطفتها لهى مميزات وهبتها لها الهات الفنون وربات الرشاقة فجعلن منها شخصية خارقة تفوق مستوى البشر ولذا نراها قد كرست حياتها وفنها لهن ، كما أن أشعارها تفوح دائما برائحة عبير وحيهن .

★★★

المعلقات السبع

أعظم شعراء العصر الجاهلي

٦٠٠ - ٥٥٠ م

هى أجود ما وصل الينا من الشعر الجاهلى وتسمى السموط أى العقود وأختلف الرواة فى عدد المعلقات وأصحابها فأبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب يجعلهم ثمانية ·· وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة وعنترة ولكن الزوزنى جعل المعلقات سبعا ليس بين أصحابها النابغة ولا الأعشى وأضاف الحارث بن حلزة وأضاف أبو زكريا التبريزى فوق ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص · فصارت المعلقات وملحقاتها عشرا ·· هذه أسماء أصحابها :

امرؤ القيس ــ النابغة ــ زهير ــ طرفة بن العبد ــ لبيد ــ عنترة ــ عمرو بن كلثوم ــ الحارث بن حلزة ــ الأعشى ــ عبيد بن الأبرص ·

وذكر أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وهو شارح المعلقات أنها سبع وأن بعضهم أضاف اليها قصيدتى النابغة والأعشى وان لم يعدهما من المعلقات وذكر ابن خلدون سبعة من أصحاب المعلقات فيهم علقمة ابن عبده لكنه لم يعين معلقته وسنأتى هنا على ترجمة من نسبت اليه معلقة معينة ·· فان الشاعرية تجمعهم جميعا ·

اختلف أصحاب الأخبار فى شأن هذه المعلقات فى الجاهلية فقال بعضهم ان العرب بلغ من تعظيمهم اياها أن لقوها بأستار الكعبة وأنكر بعضهم ذلك وأكبروه وأقدم المنكرين أبو جعفر النحاس النحوى المتقدم ذكره فقد قال فى شرحه المعلقات بالنسخة الخطية الموجودة منه فى مكتبة برلين ما نصه : « واختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع وقيل ان العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الأشعار ·· فاذا استحسن الملك قصيدة قال علقوها وأثبتوها فى خزائنى · فأما قول من قال انها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة وأصلح ما قيل فى هذا : « ان حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها وقال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ونقل ذلك عنه ابن الانبارى قال : « وهو (حماد) الذى جمع سبع الطوال هكذا ذكره أبو جعفر أحمد ابن محمد النحاس ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة » فهو يستغرب مخالفة النحاس لما ذكره الناس ·

والأكثرون يذهبون الى أنها علقت فى الكعبة . وهذا ابن عبد ربه كان معاصرا للنحاس المذكور وتوفى قبله (سنة ٣٢٨ هـ) قال : « وقد بلغ من كلف العرب به (بالشعر) وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد ميزتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستر الكعبة فمنه يقال مذهبة امرؤ القيس ومذهبة زهير . والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات وأيد ذلك كثيرون فى عصور مختلفة « وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان اذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء وقيل : بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته » ، فترى أن ابن رشيق أميل الى القول بتعليقها لأنه ينسب القول بذلك الى « غير واحد من العلماء » ويضعف الرأى الآخر بقوله « وقيل » .

أما ابن خلدون فانه يقطع بتعليقها ولا يذكر سواه وهذا قوله : « حتى انتهوا (أى العرب) الى المناغاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع » .

وقد وافقهم أكثر العلماء والباحثين فى هذا الموضوع وانما استأنف انكار ذلك بعض المستشرقين من الافرنج ووافقهم بعض كتابنا رغبة فى الجديد من كل شىء .

وأية غرابة فى تعليقها وتعظيمها بعدما علمنا من تأثير الشعر فى نفوس العرب وتعظيمهم لأصحابه ؟ أما الحجة التى أراد النحاس أن يضعف بها القول بتعليقها فهى غير وجيهة لأنه قال : « ان حمادا رأى زهد الناس بالشعر الخ » ، والحقيقة أن الناس لم يكونوا راغبين فى الشعر مثل رغبتهم فى أيامه ألم يكن الخلفاء يستقدمون حمادا هذا من العراق الى الشام ليسألوه عن بيت من قاله أو فيم قيل ؟ .. واليك تراجم أصحاب المعلقات ومن يلحق بهم .

امرؤ القيس

لم يذكر الشعر الجاهلى ولا المعلقات خاصة الا وذكر امرؤ القيس قد ملأ الأسماع وشغل أصحاب الروايات ، فلامرىء القيس شاعرية ينظر اليها جميع شعراء العربية المتقدمين والمتأخرين كشاعرية فذة يستحيل التحليق فى سمائها شعر رائق حوى كثيرا من أنواع الشعر العربى وذكروا أنه قد استنبط كثيرا من الأساليب الشعرية التى تحداها الشعراء منها استيقاف الصحب فى الديار ودقة الوصف واجادته على الخصوص فى وصف الناقة والفرس ويقولون انه أول من شبه النساء بالظباء والمها والخيل بالعقبان وفرق بين النسيب وسواه من القصيدة وقرب مآخذ الكلام فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه ٠

هذه ميزات ينسبها أهل الأدب العربى الى هذا الشاعر الفحل وقد تكون موضوع فخر لشاعر أو سمة من سماته الفارقة ، وما على الأول أن العلل كاملا ٠ وقبل أن ندرس شعر امرىء القيس علينا أن ننظر فى شخصيته وبعض النظر ومرجعنا فى ذلك كتب الأدب القديمة بالاجماع ٠

حيـــاته :

امـــرؤ القيس هو آخـــر ملوك كندة أو بالأحرى هو ابن آخـــر ملوكهم فهو قحطـانى النسب نشـأ فى أعـالى الجزيرة وأصهر أبوه الى التغلبيين ونشأ امرؤ القيس بينهم ومن هناك أتاه الشعر عند أهل الأدب وامرؤ القيس هذا لم يهنأ بالملك ولا بالامارة فقد عاش حياة بذخ وخلاعة لم ترق لوالده فطرده فجعل ينتقل فى الأحياء مع أخلاط من شذاذ العرب فاذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يـوم وخـرج الى الصـيد فاصطاد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير فينتقل الى غيره وما زال كذلك حتى قتل بنو أسد أباه حجرا ومن هنا تبدأ حياة امرىء القيس الجدية وحياة ملؤها الأهوال تكتنفها المصاعب : رجل يبكى أمله الضائع ويشرئب الى تاجه الذى ذهبت به المطامع والضعف فيقولون إنه هب للأخذ بالثأر فذهب الى عرب الجنوب القحطانيين يستنجدهم ، وقد ذهبت دولتهم فخذلوه ووقف له ملوك الحيرة بالمرصاد فألبوا عليه القبائل حتى أصبح شريدا طريدا يستنجد بقبيلة فلا يلبث ان يأتيها أمر الملك اللخمى فيغادرها وفى القلب ما فيه الى أخرى حتى أفضت به الحال الى

السموأل اليهودى صاحب الأبلق الفرد فى تيماء وهذا أوصله الى ملوك آل جفنة فزودوه بوصاة الى ملك الروم وهناك كاد يظفر ببغيته وقد أرسل معه القيصر جندا يظاهره على أعدائه ويعيد له تاجه ولكنه قضى قبل ان يبلغ العربية فمات فى أنقره ٠

هذا ملخص تاريخ شاعرنا الآن وفيه ما فيه من الغموض ومواضع الشك ولكن حياة هؤلاء الشعراء الأولين غامضة تحول حولها الظنون فمن يستطيع أن يأتينا بتاريخ موثوق به لجاهلية الأقوام كاليونان والرومان ؟ واذا تعدينا ذلك الدور فهذه جاهلية الفرنسيين والانجليز والألمان فمن يستطيع أن يأتينا بصورة حقيقية تاريخية لا تقبل الشك عن تلك العصور المظلمة ؟ فاذا قبلناها نقبلها لا كتاريخ موثوق به بل كقصة وضع عليها شعر يسمونه جاهليا وأصبح قاعدة لأدب اللغة فعلينا أن نتفهمها لنسلك هذا الطريق القويم ٠

شعره :

امرؤ القيس الشاعر الذى يعنينا أمره وقد بسطنا حياته يمثل لنا برجل العاطفة والانفعالات النفسية وما يشتق من هذه من حنين الى الصحب وعطف على الخلان وذكريات أليمة لعز ماض وعصره رفاه وأيام صبى لذيذة وما يحوم حولها من مقدرة شاعرية تحلق فى سماء الخيال ٠

★★★

معلقته :

أما معلقته فقد نظمها فى وصف واقعه جرت له مع حبيبته وابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل اذ حظر عليه لقاؤها ولعلهم منعوه منها لما كان من رغبته فى الشعر أما هو فكان ينتهز الفرص لملاقاتها ٠٠ فاغتنم فرصة ظعن الحى وكانوا اذا ظعنوا مشى الرجال أولا ثم النساء فتخلف امرؤ القيس عن الرجال وتربص حتى ظعنت النساء وكان فى طريق الظاعنين غدير يسمى دارة جلجل فى منازل كندة بنجد ٠ فسبقهن امرؤ القيس الى الغدير وفيهن عنيزة فنزعن ثيابهن ونزلن فى الماء فبرز هو من مخبئه وجمع الثياب وجلس عليها وحلف : لا يعطى الواحدة منهن ثيابها الا اذا خرجت اليه عارية فخرجن وبقيت عنيزة وأقسمت عليه أن يعدل عن شرطه فأبى وألح عليها أن تخرج فخرجت ثم دفع اليها ثيابها فلبستها واجتمع النسوة عليه وأخذت يعنفنه وقلن له : « انك أخرتنا عن الحى وجوعتنا » فقال : « سأعقر لكن راحلتى تأكلن منها » فعقرها وأتين بالحطب وجعلن يشوين اللحم حتى شبعن وكان معه ركوة فيها خمر فسقاهن منها ٠٠ فلما ارتحلن حملن أمتعته على رواحلهن وبقى هو لا مركب له فقال لعنيزة :

« لابد لك من أن تحمليني » وساعده صواحبها على طلبه فحملته على مقدم هودجها فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويحادثها ثم نظم معلقته ومطلعهـــا :

قفا نبـــك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجته من جنوب وشـــمال
ترى بعـــر الآرام في عرصـــاتها ... وقيعانهـــا كأنه حب فلفـــل
كأني غداة البين يوم تحمـــلوا ... لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفا بهـــا صـــحبي على مطيهـــم ... يقولـــون لا تهلك أسى فتجمـــل
وان شـــفائي عبرة ان سفحتها ... وهل عند رسم دارس من معول
كدأبك مـــن أم الحويرث قبلها ... وجارتها أم الرباب بمأســـل
ففاضت دموع العين مني صبابة ... على النحـــر حتى بل دمعي محمل
الا رب يوم لك منهن صـــالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعـــذارى مطيتي ... فيا عجبا من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمهـــا ... وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات انك رجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري وارخي زمامه ... ولا تبعديني عن جناك المطفل
افاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وان كنت قد أزمعت صرمي فاجملي
وان كنت قد ساءتك مني خليقـــة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
أغـــرك مني أن حبـــك قاتلي ... وانك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربي ... بســـهميك في اعشار قلب مقتل

★★★

وصف بها ما تقدم أحسن وصف ، وهي مدرجة مع سائر المعلقات في كتاب شرح عدة شروح ، أما سائر أشعاره فانها جمعت في ديوان منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وقد طبع في باريس سنة ١٨٣٧ وفي غيرها وقد شرحه البطليوسي النحوي المتوفى سنة ٤٩٤ هـ وطبع الشرح بمصر سنة ١٢٨٢ هـ وللنحاس شرح للمعلقة طبع في هال سنة ١٨٧٦ .

وقد ترجمت معلقته الى اللغة الروسية وطبعت مع الأصل العربي في بطرسبورج سنة ١٨٨٥ بعناية موركس .

وتجد كثيرا من أشعار امرئ القيس وأخباره في كتاب الأغاني ٦٢ج٨، ١٩ج٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧ وفي شرح المعلقات وفي كتاب الشعراء الستة الجاهليين طبع لندن سنة ١٨٧٠ وخزانة الأدب ٥٣٢ج٣ وفي شعراء النصرانية الصفحة السادسة ، وفي جمهرة أشعار العرب ص ٣٩ وفي أكثر كتب الأدب والتاريخ .

زهير بن أبى سلمى

وهو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء وهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة وانما اختلفوا فى تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه . وكما امتاز امرؤ القيس باستنباط الأفكار والأساليب وتلطيف المعانى ، فقد امتاز زهير بما فى نظمه من الحكمة البالغة وكثرة الأمثال مع القدرة على المدح وهو لا يعاظل (١٩) فى الكلام ويتجنب وحشيه ولا يمدح أحدا الا بما فيه ، وكثيرون يفضلونه على صاحبيه ويقولون انه أحسنهم شعرا وأبعدهم عن سخف وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الالفاظ .

وهو من مزينة احدى قبائل مصر وكان يقيم هو وأبوه وولده فى منازل بنى عبد الله بن غطفان بالحجاز من نجد وأول من نزل هناك منهم أبوه أبو سلمى لأنه تزوج من بنى قهر بن مرة بن ذبيان بن غطفان فولدت له زهيرا وتزوج زهير امرأة من سحيم بن مرة ولذلك كان زهير يذكر فى شعره ابن مرة وغطفان ويمدحهما،وكانت لزهير أخلاق عالية ونفس كبيرة مع سعة صدر وحلم .. فرفع القوم منزلته وجعلوه سيدا وكثر ماله واتسعت ثروته وكان مع ذلك عريقا فى الشاعرية فكان أبوه شاعرا وكذلك خاله وأختاه وابناه ، وكان لشعره تأثير كبير فى نفوس العرب وكان مقربا من أمراء ذبيان وخصوصا هرم بن سنان والحارث بن عوف وأول قصيدة نظمها فى مدحهما معلقته المشهورة والتى قالها على اثر مكرمة أتياها بحقن الدماء بين عبس وذبيان :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم
ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجيع وشم فى نواشر معصم
بها العين والآرام يمشين خلفه ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلا ياعرفت الدار بعد توهم
اثافى سفعا فى معرس مرجل ... ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها ... الا انعم صباحا أيها الربع واسلم

وبعد ذلك يصف سير ظعائن أحبابه :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن ... تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بانماط عتاق وكلة ... وراد حواشيها مشاكهة الدم

جعلن القنان عن يمين وحزنه ... وكم بالقنان من محل ومحرم
ظهرن من السوبان ثم جزعنه ... على كل قينى قشيب ومفام
وورکن فى السوبان يعلون متنه ... عليهن دل النـــاعم المتنعـــم
كان فتات العهن فى كل منزل ... نزلن به حب الفنا لم يحطم
بكرن بكورا واستحرن بســحرة ... فهن ووادي الرس كاليد فى الفم
فلما وردن الماء زرقا جمـامه ... وضــعن عصى الحاضر المتخيم
وفيهن ملهى للطيــف ومنظـر ... أنيق لعين الناظر المتوســم

فانظر الى هذه الصور التى يتبع بعضها بعضا والى هذا الوصف الدقيق وهذه التشابيه التى تطمئن اليها الحواس ثم يبدأ بمدح الاميرين المصـــلحين :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبزل ما بين العشـــيرة بالدم
فاقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعد ما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نســلم
فاصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
تعفى الكلوم بالمئين فاصبحت ... ينجمها من ليس فيها بمجرم
ينجمهـــا قوم لقـــوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
فاصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغـانم شتى من افال مزنـــم

ثم يقف الشيخ ناصحا لهم ليتركوا الحرب ويصف اهوالها الشديدة على طريقته التصويرية :

الا ابلغ الاحلاف عنى رسالة ... وذبيان هل اقسمتم كل مقسم
فلما تكتمن الله ما فى صـدوركم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم
وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر اذا ضريتمـــوها فتضرم
فتعرككم عـرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لك ظلمان اشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وبعد أن يذكر غدر حصين بن ضمضم ويعتذر عن عمله يختمها بتلك الأقوال الحكمية الخالدة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن يخطئ يعمر فيهرم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه وينـدم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم
سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

وبعد ذلك جعل يمدحها وقومها ويعيد كثيرا من معاني هذه المعلقة .

طـــرفه بن العبد البكرى

جاء لقبه في كتاب الأدب « الشاب المقتيل » ولشعره مقام يعرفه الأدباء فهو على ما وصل الينا من الطبقة الثانية وما كان لتأخيره عن الطبقة الأولى عذر لولا قلة ما وصل الينا من شعره ، فان ابن سلام صاحب الطبقات لم يذكر أنه يعرف له الا قصائد قليلة أشهرها التى مطلعها :

لخـولة أطـلال ببرقة ثمهـد وقفت بها أبكى وأبكى الى الغـد

وتليها أخرى مثلها مطلعها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنـون مسـتعر

ولكن ما فات ابن سلام أعاضه علينـا الأدباء المتأخرون ، وجاؤونا بنبذة من شعره لا يستطيع المطلع عليها الا أن يجعلها المقام الأول فى شعر الجاهلية فشعر طرفة شعر خالد متفاوت النزعات لا تستطيع أن تفهمه حتى تقف على شيء من حياة الشاعر فلنلم بها .

حياتـــه :

طرفة لقب غلب عليه واسمه على الأشهر عمرو وهو بكرى النسب وربما شهد بعض أيام البسوس وان لم يذكرها الا قليلا فى شعره . مات أبوه وهو صغير ، وربما كان أكبر اخوته أو أن يكون أخوه معبد أكبر منه وعليه فقد ربى طرفة فى أعالى العربية فى منـازل البكريين على الخليج الفارسى ، وترى فى شعره أن حياته فى هذا الدور كانت مضطربة فهي حياة صبى عاش أكثر حياته نظيرها ويقول ان أعمامه حضموا حقه وبذر الباقي غدا طريدا شريدا كما يقول « وافردت افراد البعير المعبد » ، ولا يوضح التاريخ هذه النقطة من حياته ، بل على الأغلب وبالاجتهاد كما يرى فى شعره أنه كان شريدا طريدا ينشد الشعر على هواه وقد يفد على بعض القبائل كما يظهر من المدائح فى ديوانه ثم عاد الى قبيلته وهناك ظهر مع الرعيان ويقولون انه ضيع ابل أخيه معبد وهذا لامه جدا وهزأ به وبشعره وعند ذلك غضب طرفة وآلى على نفسه أنه سيعيد ابل أخيه بشعره ثم ظهر طرفة فى بلاط عمرو بن هند بالحيرة ويذكرون معه فى هذا العصر خاله جرير ابن عبد المسيح الملقب بالمتلمس وانهما لزما بلاط عمرو بن هند ومدحاه كثيرا فأجازهما وجعل طرفة يرتاد حوانيت الحيرة ويستسلم الى هواه وهو بعـد فى العشرين من عمره وأخيرا ألحقه ابن هنـد مع خاله بولى العهد قابوس وهو أخو الملك وكان هذا الأمير محبا للصيد فكانا يذهبان

معه ثم يعودان وقد أعياهما الجهد ، فينطرحان ولا يبالى بهما حتى غضب طرفة مرة وهجاه هجاء مرا انتهى الى الملك فغضب الملك غضبا شديدا فكتب الى عامله فى البحرين وسليهما ، أى طرفة والمتلمس ، رسالتين مضمونهما أن اقتلهما ويقولون ان المتلمس فطن الى ما فى صحيفته وان أحد صبيان الحيرة قرأها له فرماها فى أحد فروع الفرات ونجا الى الشام أما طرفة — وقيل ان خاله حذره ولم يرعو — فأنفذ رسالته الى العامل فقتله وهو على أكد تقدير ابن ست وعشرين سنة .

المعلقـــة :

المعلقة هى خير ما قال طرفة أو ما وصل الينا من شعره ومن ينظر اليها يجدها كسائر المعلقات ليست فى موضوع واحد فهى تختلف مواقفها ومظاهرها حتى انشاؤها وفى هذا الاختلاف ما جعل الكثيرين من الرواة يختلفون فى تقديم بعض أبياتها على بعض وقد شك البعض فى نسبتها كلها الى طرفة وربما كان أسير بيت أضيف اليها هو :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقـارن يقتـدى

وهو باجماع الرواة ليس من المعلقة ولم نطـلع على أقوال الرواة الأقدمين فيها ، ولكن على ما يظهر هى مقاطع متفرقة نظمها طرفة فى غير موقف من مواقف الحياة ورأى الرواة أن هذه المقاطع على بحر واحد وروى واحد فقرنوها الى بعضها فبينما ترى فيها وصف اطلال خولة ثم وصف خولة نفسها تراه يعكف الى ناقته ويصفها وصفا دقيقا يعجز عنه أئمة شعراء الابل حتى قد يتلبس على بعض العلماء فيظنون أنه يصف امرأة لا ناقة . ثم تراه يصف نفسه ومجلس لهوه ويذكر بعض آراء له فى الحياة والموت ثم يعطف على عمه أو الوصى عليه ويعـاتب ابن عمه مالكا ويتخلص الى وصف نفسه وشجاعته ، ثم يوصى لابنة أخيه أن تنعاه بما هو أهله الى ما هنالك من اختلاف فى المواضيع . والمتعمق يرى أن هذه المواقف تختلف روعة واعجابا وشاعرية فهو فى فخره بنفسه عزيز الجانب فخم الكلام سلسه ، وفى عتابه لا يحتاج الى تأويل بل هو يرسل قريحته على سجيتها فيصيب موضع الداء ثم يعطف على الدهر ولومه ويصرخ بملء فيه:

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد
ولو شـــاء ربى كنت عمرو بن مرثـــد

وان وصف ناقته فهناك الكلام البدوى الذى لا يستغنى فى فهمه عن معاجم اللغة فهو يشبهها تارة بالقصر وطورا بالسفينة الى ما هنالك من أوصاف الجاهلية فيتخذ أجزاءها جزءا جزءا يشبه كلا منها بما يبين له

من مظاهر البداوة وما يسمع عن الحضارة فى جوار العربية فهى من هذه الجهة أصدق أمثال لحياة العرب فى الجاهلية منها نعلم كثيرا مما خفى علينا ومتى علمنا أن كل جزء من هذه القصيدة نظم على حدة ، لا نعجب للجمع بين أجزائها وبعد هذه المقدمة نذكر قسما منها وهى تزيد على مئة بيت :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك اسى وتجلد

وقر وافق امرأ القيس فى هذا البيت الا فى قافيته :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية او من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفائل باليد

ثم يصف خولة متدرجا حتى يصل الى وصف ناقته :

وانى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بفرمد
لها مرفقان أفتلان كأنما تمر بسلمى دالج متشدد
لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد
صيهابية العثنون مؤجلة القرا بعيدة وخد الرجل موارة اليد

الى أن يقول فى وصفها وهو من التشابيه النادرة :

وجمجمة مثل العلاة كأنما وعى الملتقى منها الى حرف مبرد
وخد كقرطاس الشآمى ومشفر كسبت اليمانى قده لم يجرد

وبعد أن يصف جسمها وأجزاءها يصف سيرها فيقول :

وان شئت لم ترقل وان شئت أرقلت مخافة ملوى من القد محصد
وان شئت سامى واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد
على مثلها أمضى اذا قال صاحبى ألا ليتنى أفديك منها وافتدى
وحاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد

وبعد أن وصف نفسه كما مر فى نفسيته ويصف موقفه من عمه يعطف الى وصف نفسه فيقول :

كريم يروى نفسه فى حياته ... مخافة شرب فى الممات مصرد
فدرنى ارو حامتى فى حياتها ... ستعلم ان متنا صدى اينا الصدى
لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد
ارى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غوى فى البطالة مفسد
ارى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد
ارى الموت اعداد النفوس ولا ارى ... بعيدا غدا ما اقرب اليوم من غد
ارى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
فمالى اراني وابن عمى مالكا ... متى ادن منه ينا عنى ويبعد

الى أن يقول :

فلو كان مولاى امرءا هو غيره ... لفرج كربى او لانظرنى غدى
ولكن مولاى امرؤ هو خالقى ... على الشكر والتسآل او انا مفتد
فظلم ذوى القربى اشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فاصبحت ذا مال كثير وزارنى ... بنون كرام سادة لمسود

الى أن يقول فى ختامها :

فان مت فانعينى بما انا اهله ... وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرء ليس همه ... كهمى ولا يغنى غناتى ومشهدى
بطىء عن الجلى سريع الى الخنا ... ذليل باجماع الرجال ملهد
فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى ... عداوة ذى الأضحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الرجال جراءتى ... عليهم واقدامى وصدقى ومحتدى
لعمرك ما امرى على بغمة ... نهارى ولا ليلى على بسرمد
ويوم حبست النفس عند اعتراكها ... حفاظا على عوراته والتهدد
على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترك فيه الفرائض ترعد
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتا ولم تضرب له يوم موعد

***

لبيد بن ربيعة العامرى

هو لبيد بن ربيعة العامرى (من قيس) وكان من أشراف الشعراء المجيدين والفرسان المعمرين . يقال انه عمر ١٤٥ سنة ، عاش معظمها فى الجاهلية وقد أدرك الاسلام وأسلم وهاجر وحسن اسلامه ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب فأقام بها حتى مات فى أوائل خلافة معاوية. فكان عمره ١٤٥ سنة منها ٩٠ فى الجاهلية وكانت الشاعرية ظاهرة فى عينيه منذ صباه ... ذكروا أن النابغة رآه وهو غلام جاء مع أعمامه الى النعمان ابن المنذر فتوسم فيه الشاعرية فسأل عنه فنسبوه فقال له : « يا غلام ان عينيك لعينا شاعر افتقرض من الشعر شيئا ؟ قال : « نعم ياعم » قال : « فانشدنى » فانشده قوله : « ألم ترجع على المدمن الخوالى الخ » . فقال له : « يا غلام أنت أشعر بنى عامر زدنى » فانشده قوله : « طلل لخولة فى الرسيس قديم » فضرب بيده على جبينه وقال : « اذهب فأنت أشعر قيس كلها » .

وأكثر شعره فى الجاهلية لأن الخلفاء الراشدين شغلوا الناس عن الشعر بالقرآن . ذكروا أن عمر بن الخطاب بعث الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يقول له : « استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الاسلام » فأرسل الى الأغلب الراجز العجلى ، فقال له أنشدنى فقال :

أرجـــزا تريـــد أم قصـــيدا لقـد طلبت هينـــا موجودا

ثم أرسل الى لبيد ، فقال : « أنشدنى ما قلته فى الاسلام » فكتب سورة البقرة فى صحيفة أتى بها وقال : « أبدلنى الله هذا فى الاسلام مكان الشعر » فكتب المغيرة بذلك الى عمر فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها فى عطاء لبيد .

فمعظم ما يروونه من شعره قيل فى الجاهلية وكان من أجود العرب ويقال انه آلى على نفسه فى الجاهلية ألا تهب صبا الا أطعم ، وكانت له جفنتان يغدو بهما ويروح كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم فهبت الصبا يوما والوليد بن عقبة فى الكوفة فصعد الوليد المنبر فخطب الناس ثم قال : « ان أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر فى الجاهلية ألا تهب صبا الا أطعم وهذا يوم من أيامه قد هبت صبا فأعينوه وأنا أول من فعل » ثم نزل عن المنبر فأرسل اليه بمائة بكرة ، وكتب اليه بأبيات قالها :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه اذا هبت رياح أبى عقيل
أشم الأنف أصيد عامرى طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بحلفتيه على العلات والمال القليل
بنحر الكوم اذ سحبت عليه ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فلما بلغت أبياته لبيدا قال لابنته : « أجيبيه فلعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر » فقالت ابنته :

اذا هبت رياح أبى عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف أروع عبشميا أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كان ركبا عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها فأطعمنا الثريدا
فعد ان الكريم له معاد وظنى لا أبا لك أن تعودا

فقال لها لبيد : « قد أحسنت لولا أنك استطعمته » ، فقالت : « ان الملوك لا يستحى من مسألتهم » فقال : « وأنت يا بنية فى هذه أشعر » .

ومما يستجاد من قوله قصيدة مطلعها :

الا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ويقال انه لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا هو :

الحمد لله أن لم يأتنى أجلى حتى لبست من الاسلام سربالا

★★★

معلقته :

ربما كانت معلقة لبيد من أوضح الدلائل على عدم تعليق هذه القصائد على أستار الكعبة ، فقد تعمد ابن هشام وخاصة كل كتاب السيرة النبوية على العموم تدوين كل شاردة فى زمن النبوة أو بالأحرى فى زمن النبى قبل النبوة وبعدها يشمل ذلك تاريخ القريشيين يوما بيوم وسنة بسنة ، مع ذكر كل ما يختص بموضوعه وكل حوادث تلك الأيام مدة ما ينيف على ستين سنة تهم كتبة السيرة وجميعهم لم يذكروا أن لبيدا علق قصيدته هذه أو غيرها على أستار الكعبة ولا أخال أحدا من كتبة السيرة لم يكن يهمه هذا الأمر فينتج من ذلك أن هذا الزعم لم يكن له من أثر فى عهد النبوة ولكن سواء علق لبيدا معلقته على الأستار أم لم يعلقها فلم يشك أحد فى نسبة هذه القصيدة اليه وذكروا أن أهل الأدب والشعر كانوا

يرونها وكانوا يعجبون بها وبعضهم كالفرزدق مثلا سجد عندما سمع قائلا يقول :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

ونالت هذه المعلقة عند أشهر شراح المعلقات المنزلة الرابعة وهي كما وصلت الينا ٨٨ بيتا يصف فيها كعادة أصحاب المعلقات الديار المقفرة والأطلال البالية ووقوع الأمطار عليها وما فعلته بها ويخلص الى ذكر حبيبته بعد سؤال الاطلال عن أهلها ووصف ارتحالهم ثم يلوم نفسه على تعلقه بمن صرم عهده ويعود الى وصف الناقة فيجيد ما يشاء ويصفها بالغمامة تارة وبالاتان الوحشية أخرى وبالبقرة الوحشية وقد افترس السبع ولدها ثم بعد أن يقتضب ذكر حبيبته نورا يعود فيصف اباءه ولهوه وشربه الخمر وبطشه وسرعة جواده ويلمح الى المناظرة في مجلس النعمان وينتهي الى مدح قومه والفخر بهم وهاك نبذة منها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
ومن تجرم بعد عهد انيسها حجيج خلون حلالها وحرامها
رزقت مرابيع النجوم وصابها ودق الرواعد جودها فرهامها
من كل سارية وغاد مدجن وعشية متجاوب ارزامها
فعلا فروع الايهقان واطفلت بالجهلتين ظباؤها ونعامها
والعين ساكنة على اطلالها عوذا تأجل بالفضاء بهامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها اقلامها

ثم يتخلص لذكر الأحبة فيسأل الأطلال :

فوقفت اسألها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها
عريت وكان بها الجميع فأبكروا منها وغودر نؤيها وثمامها
بل ما تذكر من نورا وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها
فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها
وأحب المجامل بالجزيل وصرمه بأق اذا ظلعت وزاغ قوامها

ثم يصف ناقته ويشبهها بالغمامة الحمراء فيقول :

بطليح أسفار تركن بقية منها فاحنق صلبها وسنامها
واذا تعالى لحمها وتحسرت وتقطعت بعد الكلال خدامها

خلها هبـاب فى الزمام كانها صهباء خف مع الجنوب جهامها

ثم بعد أن يتفنن فى وصف ناقته كما مر فى المقدمة يعود الى ذكر نوار فيقول :

اولم تكن تدرى نـوار باننى وصـال عقد حبـائل جذامها
تراك أمـكنة اذا لم ارضـها او يعتلق بعض النفوس حمامها

ثم يصف لهوه وشربه الخمر وبطشه فى الحرب وجواده ويشير الى المناظرة عند النعمان اشارة غير واضحة حتى ينتهى الى الفخر فيقول وبها يختم المعلقة :

انا اذا التقت المجـامع لم يزل منـا لزاز عظيمـة جشـامها
ومقسـم يعطى العشيرة حقها ومغـلـمر لحقوقها هضـامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغـائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهـم ولكل قـوم سنة وامامهـا
لا يطبعون ولا تبود فعالهـم اذا لا تميل مع الهوى احلامها
فاقنـع بما قسم المليك فانما قسم الخلائـق بيننـا علامها
واذا الأمانة قسمت فى معشر اوفى باوفـر حظنـا قسامها
فبنى لنا بيتـا رفيعـا سمكه فسـما اليه كهلها وغـلامها
فهم السعاة اذا العشيرة افظعت وهـم فوارسها وهـم حكامها
وهم العشيرة ان يبطىء حاسد او أن يميل مع العدو لئامها

★★★

عنترة العبسى

اذا قيست الرجال بالشهرة ، فلعنترة المقام الأشهر بين شعراء الجاهلية وفرسانها وقل من لم يسمع بذكره ، وذلك لأننا فى هذه النهضة الحديثة أو قبلها لم يكن مستوانا العقلى بمكان يترفع عن التهافت على قصة متداولة تسمى قصة عنترة . فهذه القصة مع ما يحيط بها من جهل للعلم حببت بطلها عنترة الى كثير من قلوب العامة حتى الخاصة وهذه الشهرة بقدر مارفعت عنترة أمام العامة خفضته تجاه الأدباء فقد عميت الحقيقة عليهم وجعلوا يتلمسون شعر عنترة فى دياجى هذه الكثرة التى تروى عنه وهم لا يتمكنون من الوقوف على حقيقة الرجل فقد جعله صاحب القصة رجلا كاملا بكل ما يتصف به الرجل الجاهلى ومن الصفات الرجولية الكاملة فى الجاهلية أن يكون شاعرا وهنا أصبح عنترة امام الشعراء وبطلهم صاحب القدح المعلى فى كل أنواع الشعر فهم قد غمطوا حقه فى تعرف حقيقة شخصيته وفى تعرف شعره أيضا ونستخلص الآن الكلام عنه من كتب الأدب معتمدين على أصح الآراء وأنزه النقد فى حقيقته .

حياتـــه :

لا نذهب مع المغالين فنقول انه شخص وهمى اختلقه صاحب القصة ونسب اليه كثيرا من هذه الوقائع بل عنترة بن شداد من بنى عبس ويلقب بالفلحاء ويكنى بأبى المغلس وهو عبد دعى فيهم ، أى ألحقه أبوه بنسبه حين أنجب ويروون فى ذلك قصة أن بعض أحياء العرب أغاروا على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا فتبعهم العبسيون فلقوهم فقاتلوهم عما معهم وعنترة حينئذ فيهم فقال له أبوه كر يا عنترة فقال عنترة : « العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر » وقال كر وأنت حر . ومن ذلك اليوم أصبح يشار اليه فهو أحد أغربة العرب وقد ذكر ذلك فى كثير من شعره ثم ظهرت فروسيته وقد يكون أبلى بلاء حسنا فى حرب السباق ولكنه لم يكن ذلك الفارس البارز الذى يغطى على سواه وعلى كل فقد ورد حديث وربما كان ضعيف الاسناد يقول : « كان لبنى عبس عبد يضرب الفارس والفارسين فعنترة بالاتفاق فارس وان كان فروسيته محدودة وعنترة شاعر والكن ليس أشعر الشعراء كما يقول اليازجى ، بل شعره الذى بين أيدينا ذو درجة محدودة ، ومن يذكره من الأدباء يعتر له بالميمية الكبرى وبقصيدة لامية وأخرى فائية وما سواها فقليل جدا . ولعنترة كما

لكثير من الشعراء عروس شعر وهى عبلة وقد ذكرها فى ميميته المذكورة وهذه كما اتصل بنا ابنة عمه وقد أصبحت بعد لأى زوجته فكل شعره الغزلى فى هذه المرأة وقد قتل أخيرا وهو شيخ هرم .

ولولا شعره ما كان يهمنا أمره ، ولكن قد اتفق أدباء العرب على أن يجعلوا عنترة من أصحاب المعلقات ومعلقته من الشعر المتوسط فليست بالدرجة الأولى كما أنها ليست بآخر المعلقات ، وأما بقية هذا الشعر فلم تصل الينا حقيقته وذكر صاحب الأغانى أن لشعر عنترة دواوين ولم يذكر لنـــا من هذا الشعر فيها وانما الشعر الذى اغترفه الأدباء هو منقول عن القصة وهـــذا الشعر سلس عذب القوافى رقيق الحواشى غير مهلهل تقرؤه فتتخيل نفسك على ضفاف دجلة أو الفرات وكأن الزمان قد انتقل من الجاهلية الى العباسيين وقد رأى ذلك كثير من الأدباء وجعلوا يختارون من هذا الشعر الكثير شيئا فيصروا على أنه لعنترة وهذا الشعر هو شىء واحد قد اختلف وزنا وقافية ، فهو يدور على محور البطولة والحرب والضرب بالسيف والطعن بالرمح ومصادمة الأبطال الكماة والظفر بهم ، ويستهل ذلك أو يتبعه بغزل رقيق جدا وبالطبع لم يكن قد وضع زمن صاحب الأغانى والا لما كان فات أصحاب الغناء فى ذلك العصر .

***

معلقتـــه :

وخير مثال لشعر عنترة هو معلقته ونختـار هنا نبذة منها جاء فى مطلعها :

هل غادر الشـعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة بدل « متردم » « مترنم » وتخريج معنى الأخير أسهل وقيل ان هذا البيت موضوع والقصيدة هى :

يـــادار عبلة بالجـواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى
فوقفت فيها نـــاقتى وكانها فـدن لأقضى حاجـــة المتلـوم
وتحـــل عبلة بالجواء واهلها بالحـزن فالصـمان فالمتثلـــم
حييت من طلل تقـادم عهده اقوى واقفر بعد أم الهيثـــم

حلت بارض الزائرين فاصبحت عسرا على طلابك ابنة مخزم
علقتها عرضا واقتل قومها زعما لعمر أبيك ليس بمزعم
ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى منزلة المحب المكرم
كيف المزار وقد تربع اهلها بعنيزتين واهلنا بالغيلم
ان كنت أزمعت الفراق فانما زمت ركائبكم بليل مظلم
ماراعنى الا حمولة اهلها وسط الديار تسف حب الخمخم
فيها اثنتان واربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأسحم

ثم يصف هذه الظعائن ويشبههن بكل ما يشبه به العرب نساءهم على سبيل الاجمال وخصوصا يشبه نفثات من يحب بالمسك أو بالروضة ومنها ما يستدرج الى وصف الروضة حتى يصل الى التشبيه البديع الذى لا يجوز أن نغفله وهو :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

ثم يتخلص الى وصف الناقة والجلود ويصفها بالقصر ويصفه بالنعام حتى يتخلص الى الفخر فيقول :

ان تفدفى دونى القناع فاننى طب باخذ الفارس المستلئم
اثنى على بما علمت فاننى سهل مخالقتى اذا لم اظلم
فاذا ظلمت فان ظلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بازهر فى الشمال مفدم
فاذا شربت فانى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى
هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة اننى أغشى الوغى واعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشلنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

بطل كان ثيابه في سرحه يحذى نعال السبت ليس بتوأم

ثم يذكر مواقعه في الحروب وظفره الى أن يختمها بوصفه فرسه فيقول :

لما رايت القوم اقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنترة والرماح كانها اشطان بئر في لبان الأدهم
مازلت ارميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا الى بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي
ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر اقدم
والخيل تقتحم الغبار عوابسا من بين شيظمة واجرد شيظم
ولقد خشيت بان اموت ولم تكن للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين اذا لم القهما دمي
ان يفعلا فلقد تركت اباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

فأنت ترى بعد الاطلاع على هذا الشعر أنه لا يقل بلاغة عن أسمى الشعر الجاهلي ولو تدبرناه لرأينا في المعلقة اختلافا بينا بين زيادة ونقصان ولكنها منسجمة عليها سمة شعر المعلقات .

***

النابغة الذبيانى

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء واسمه زياد بن معاوية من ذبيان من قيس . هو من الأشراف الذين غض الشعر منهم كما غض من امرىء القيس . وكان يفد على النعمان صاحب الحيرة فيمدحه ، فوقعت العداوة بينه وبين المنخل الشاعر ، فوشى به الى النعمان .. فهرب النابغة الى بنى غسان ونزل بعمرو بن الحارث الأصغر ملك الغساسنة فمدحه . ومازال مقيما عنده حتى مات عمرو وخلفه النعمان أخوه ، فمكث معه حتى اصطلح مع النعمان صاحب الحيرة فعاد اليه .

وكان يفد على صاحب الحيرة أيضا حسان بن ثابت الأنصارى ، ولكن النابغة كان مقدما على الجميع . فجمع من عطايا النعمان صاحب الحيرة ثروة طائلة وصار يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب . وله منزلة كبرى عند شعراء عصره ، فاذا جاءت سوق عكاظ ضربوا له قبة من جلد وجاء الشعراء ينشدون أشعارهم . وأول من أنشده ذات مرة الأعشى ثم حسان ثم الخنساء ، وهذا شرف لم ينله أحد من الشعراء سواه. ويمتاز النابغة عن صاحبيه بانه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا ، فكان شعره كلاما ليس فيه تكلف . وذلك ظاهر فى كل أقواله حتى جرى كثير منها مجرى الأمثال ، واقتبس الشعراء كثيرا من أقواله منها :

نبئت ان ابا قابوس اوعدنى ... ولا قرار على زأر من الأسد

تمثل به الحجاج بن يوسف حين سخط عليه عبد الملك بن مروان ، وقوله :

فلو كفى اليمين بغتك خونا ... لأفردت اليمين من الشمال

أخذه المثقف العبدى فقال :

ولو انى تخالفنى شمالى ... بنصر لم تصاحبها يمينى

وقوله :

فحملتنى ذنب امرىء وتركته ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع

أخذه الكميت فقال :

ولا اكوى الصحاح براتعات ... بهن العر قبل ماكوينا

وقولـــه :

واستبق ودك للصديق ولا تكن قتبـــا يعض بغارب ملحاحـا

أخذه ابن ميادة فقـال :

ما ان ألح على الاخوان أسألهم كمـا يلح بعض الغارب القتب

ومما يتمثل به من شعره قوله :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبـد الالـه صرورة المتعبـد
لرنـا أبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشـدا وان لم يرشد

أخذه ربيعة بن مقروم الضبى فقال :

لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الذرى يتبتل
لرنـا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموســه يتنـــزل

ومما يتمثل به أيضـا من شعره :

ومن عصاك فعاقبه معاقبـــة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

وقال فى العفة وهو أحسن ما قيل فيها :

رقـاق النعـال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

أخذه عدى بن زيد فقال :

اجـــل ان الله قد فضـــلكم فوق من احـكى بصلب وازار

فالصلب الحسب والازار العفاف ، وفى أمثالهم : أصدق من قطاة ــ قال النـابغة :

تدعو قطا وبها تدعى اذا نسبت ياحسنها حـين تدعـوها فتنتسب

وذلك لانها تلفظ باسمها . أخذه أبو نواس : « أصـدق من قول قطاة قطا » .

وقد مدح النابغة النعمـان وعمرو بن هند من أصحاب الحيرة ، وعمر ابن الحارث الغسانى وأخاه النعمان ووائـل بن الحلاج الكلبى وهجـا ابن زرعة ورثى واعتذر وفاخر . ولكن الشعر الوصفى قليل فى منظومه الا القصيدة التى نظمها فى وصف المتجردة زوجة النعمانى صاحب الحيرة وقد تقدم مطلعها . ومن قوله فى وصفها :

نظـرت بمقلة شـادن متربب احـوى احـم المقلتين مقلـد

والنظم فى سلك يزين نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد
صفراء كالسيراء اكمل خلقها كالغصن فى غلوائه المتأود
قامت تراءى بين سجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد
أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بآجر يشاد وقرمد
سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كان بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

وهى طويلة وفيها أبيات لا يليق نشرها ، ولكنه وصف فيها الطبيعة كما هى عادة الجاهليين فى تمثيل الواقع ، وكما فعل سليمان الحكيم فى نشيد الانشاد . ومن أحسن شعره معلقته التى مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى واحجار

وهى ستون بيتا ذكرها صاحب جمهرة أشعار العرب .

وللنابغة ديوان مطبوع غير مرة ، وشرح منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، وقد ترجمه الى الفرنسية وطبعه مع الأصل العربى المسيو ديرنبرج فى المجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٦٨ ، وصدر كتاب اسمه « التوضيح والبيان لأشعار نابغة ذبيان » طبع بمصر .

وأخباره متفرقة فى الأغانى ١٦٢ ج ٩ والشعر والشعراء ٧٠ و ١٢٦ والجمهرة ٥٢ وفى دواوين الشعراء الستة الجاهليين وفى شرح المعلقات وسائر كتب الأدب .

عمـــرو بن كلثـــوم

تغلبى من ســادات بنى ربيعة جده عدى بن ربيعة وتحوم الظنون حول مولده ، فيزعمون أن الجن والهواتف أنبأوا أمه بمجيئه وأنه سيسود قومه « فى خمسة وعشر » ويوردون على ذلك شعرا سخيفا ثم يقولون ان هذا من الشعراء الفرسان الفتاك وربما كان أشهر ما يعرفه الأدباء عنه هو قتله عمرو بن هند فى قصته المشهورة وبناء على هذه القصة أصبح عمرو بن كلثوم أفتك العرب ثم يضن علينا التاريخ الأدبى بتفصيل أخبار هذا الشاعر الأمير وما يروونه من شعره لا يشفى غليلا وانما المشهور عنه هو معلقته ونرجىء الكلام عنها الآن . وينفرد هذا الشاعر بأن أهل الأدب حفظوا لنا قطعة نثرية من قوله أنموذجا لنثر الجاهلية وكنا نود أن نرجىء ذكرها للكلام عن النثر ، ولكن ذكرها هنا يوضح لنا شيئا من عقلية هذا الشاعر ولا سيما وقد قالها بعد أن شبع من الأيام ويروى أنه عندما احتضر جميع بنيه وقال لهم :

« يا بنى قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحـد من آبائى ولابد أن ينزل بى ما نزل بهم من الموت وانى والله ما عيرت أحدا بشىء الا عيرت بمثله ان كان حقا فحق وان كان باطلا فباطل من سب سب فكفوا عن الشتم فانه أسلم لكم وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم وامنعوا من ضيم الغريب فرب رجل خير من ألف واذا حدثتم فعوا واذا حدثتم فأوجزوا فان مع الاكثار يكون الاهذار وأشجع القوم العطوف بعد الكرة كما أن أكرم المنايا القتل ولا خير فى من لا روية له عند الغضب ولا اذا عوتب لم يعتب ومن الناس من لا يرجى خيره ولا يخف شره فبكوه خير من دره وعقوقه خير من بره ولا تتزوجوا فى حيكم فانه يؤدى الى قبيح البغض » .

يختلف شعر ابن كلثوم عن سائر شعراء الجاهلية فهو بعيد عن التعقيد بعيد عن استعمال الكلام الجاهلى بعيد عن كل تكلف سلس العبارة بليغ التركيب يتفق مع شعر عنترة من هذه الناحية ، وربما اتفقا من ناحية ثانية وهى الفخر والحماسة ولكن الأدباء متفقون على تقدم ابن كلثوم فى شعراء الجاهلية ونحن اذا قلنـا شعره فانما المعلقة وهى كل شعره على سبيل المجاز وهذه المعلقة لم يتصل بنا منها سوى ما يزيد قليلا على مئة بيت،ويزعم الأدباء أنها كانت طويلة وطويلة جدا حتى يوصلوها الى تسعمئة بيت أو الألف ، وحبذا لو وصلت الينا بكاملها لأزالت عن الشعر العربى

وصمة التقصير فى الملاحم ومن أجدر بها غير هذا الشاعر الأمير الفارس . ولكن ما وصل منها كسائر المعلقات ليس وحده بل هو وصف مواقف عديدة مما حمل الأدباء أن يقولوا انها ليست قصيدة واحدة وانها على الأقل قصيدتان مطلع احداهما « ألا هبى بصحنك واصبحينا » والثانية « قفى قبل التفرق يا ظعينا » وذكروا له غير المعلقة شعرا قليلا لا يقاس بها .

معلقتـــه :

تحوم حول هذه المعلقة أقوال فيها مواضع للشك كثيرا ونحن نرويها على علاتها منها أنه قالها بعد أن أصلح ملك الحيرة بين بكر وتغلب بعد هلاك رهائن التغلبيين كما سنذكر فى الكلام عن الحارث بن حلزة ، ونرى فى المعلقة ما يتوعد به عمر بن هند ويدل على أنه قالها بعد مقتله وفى بعض الأقوال أنه قام بها خطيبا فى سوق عكاظ ، والظاهر أنه قالها فى أوقات مختلفة لأسباب مختلفة أو هى كما كانت قصائد مختلفة ضمها رواة قبيلته الى بعضها وجعلوهـا قصيدة واحدة يقولون ان بنى تغلب كانت تعظمها جدا ويرويها صغارهم وكبارهم حتى هجوا بذلك قال بعض شعراء بكر بن وائـل :

الهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها ابـدا مـذ كان اولهم ... يا للرجال لشـعر غير مسؤوم

وقد جرب بعض النقاد أن يطمس ذكر عمرو بن كلثوم فيطمس بذلك معه ذكر معلقته ، ولكنه للآن لم يقم دليل عملى على تفضيل هذا القول على سواه بل جانب الاثبات أرجح فقد ذكر شعراء الاسلام كالفرزدق وجرير وغيرهما تصريحا وتلميحا هذه القصة وصاحب الأغانى يقول انه لم يزل الى عصره من ولد عمرو بن كلثـوم كلثوم بن عمرو العتـابى الشـاعر وها نحن نثبت نبذة من المعلقة :

ألا هبى بصـحنك فاصـبحينا ... ولا تبـقى خمور الاندرينـا
مشعشعة كان الحص فيها ... اذا ما الماء خـالطها سخينـا
تجـور بذى اللبـانة عن هواه ... اذا مـا ذاقـها حتى يلينـا
وكاس قـد شربت ببعلبـك ... واخرى فى دمشق وقاصرينـا
اذا صـمدت حميـاها اريبـا ... من الفتيـان خلت به جنونـا
فما برحت مجال الشرب حتى ... تعالوهـا وقالوا قد روينـا
وانـا سوف تدركنـا المنايـا ... مقـدرة لنـا ومقـدرونا

وان غدا وان اليوم رهـــن وبعـد غـــد بما لا تعلمينـــا

ثم يبدأ بموضوع جديد فيقول :

قفى قبـل التفـرق يا ظعينـا نخبـــرك اليقـــين وتخبرينـــا
بيـــوم كريهـــة ضربا وطعنـا اقر بـه مواليـك العيونـــا
قفى نسألك هل أحدثت صرما لوشـك البين أم خنت الأمينا
أفى ليـــل يعـــاتبنى ابوهـا واخوتها وهـــم لى ظالمونـــا
تريك اذا دخلت على خـــلاء وقد أمنـت عيون الكاشحينـا

ثم يصف بكل ما توصف به المرأة الجميلة فى الجاهلية وبعد أن ينتهى يقول :

تذكرت الصـــبا واشتقت لمـا رأيت حمولها اصـــلا حدينـا
ابا هنـد فـلا تعجـل علينـا وانظـــرنا نخبـــرك اليقينـــا
بأنا نـورد الرايـات بيضـــا ونصدرهن حمـــرا قـد روينا
فان الضـغن بعد الضـغن يبدو عليـك ويخرج الداء الدفينـــا
وايـــام لنـــا غر طـــوال عصـينا الملك فيها ان ندينـا
وسـيد معشر قـــد توجـوه بتـاج الملك يحمى المحجرينـا
تركنـا الخيـل عاكفـة عليـه مقـــلدة اعنتهـــا صـــفونا

الى أن يقـــول :

نعـم اناســـنا ونعـف عنهم ونحمـــل عنهم ما حملونـــا
ورثنـا المجـد قد علمت معـد نطـاعن دونـه حتى يبينـــا
نطـاعن ما تراخى الناس عنـا ونضرب بالسيوف اذا غشينـا
بسـمر من قنا الخطى لـــدن ذوابـــل أو بيض يعتلينـــا
نشق بها رؤوس القوم شـقا ونخليهـــا الرقاب فيختلينـــا

الى أن يقول :

كأن ثيـــابنا منـــا ومنهـــم خضـبن بارجوان أو طلينـــا
كأن سيوفنـــا فينـــا وفيهم مخـــاريق بايدى لاعبينـــا

ثم يتطرق الى أن يعاتب الملك عمرو بن هند فيقول :

بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا ... متى كنا لامك مقتوينا
فان قناتنا يا عمر أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا

الى أن يقول :

ورثنا مجد علقمة بن سيف ... أباح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلا والخير منه ... زهيرا نعم ذخر الذاخرينا
وعتابا وكلثوما جميعا ... بهم نلنا تراث الأكرمينا
وذا البرة الذى حدثت عنه ... به نحمى الملتحمينا
ومنا قبلة الساعى كليب ... فأى المجد الا قد ولينا
متى تعقد قريننا بحبل ... تجد الحبل أو تقص القرينا
ونوجد نحن أمنعهم ذمارا ... وأوفاهم اذا عقدوا يمينا

ثم يعطف على بنى بكر فيقول :

اليكم يا بنى بكر اليكم ... ألما تعلموا منا اليقينا
ألما تعلموا منا ومنكم ... كتائب يطعن ويرتمينا
علينا البيض واليلب اليمانى ... وأسياف يقمن وينحنينا
اذا وضعت عن الأبطال يوما ... رأيت لها جلود القوم جونا
كأن متونهن متون غدر ... تصفقها الرياح اذا جرينا

وهذا المعنى أصل كل ما جاء فى معناه بعدئذ الى أن يقول :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعائن من بنى جشم بن بكر ... خلطن بميسم حسبا ودينا
أخذن على فوارسهن عهدا ... اذا لاقوا فوارس معلمينا
ليستلبن أبدانا وبيضا ... وأسرى فى الحديد مقرنينا
اذا ما رحنا يمشين الهوينا ... كما اضطربت تون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا اذا لم تمنعونا
اذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائن مثل ضرب ... ترى منه السواعد كالقاينا

الى أن يقول فى ختامها :

اذا ما الملك سام الناس خسفا ... ابينا ان نقر الذل فينا
الا لا يجهلن احد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
الا لا يحسب الأعداء انا ... تضعضعنا وانا قد ونينا
كانا والسيوف مسللات ... ولدنا الناس طرا اجمعينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملأه سفينا
اذا بلغ الفطام لنا صبى ... تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن اضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

***

الحارث بن حلزة البشـــكرى

قد جمع صاحب جمهرة أشعار العرب من قصائد الجاهلية تسعا وأربعين قصيدة ولم نر بينها قصيدة للحارث بن حلزة ولكن حمادا عدها فى المعلقات وجعلها سبعة وبقطع النظر عما روى حماد وما أغفل صاحب الجمهرة ، فالحارث بما بقى لنا من شعره وأهمه الهمزية التى يسميها حماد المعلقة ــ شـــاعر جدير بأن نصرف على شـــعره بعض الوقت فمن هذا الحـــارث ؟

هو الحارث بن حلزة يرجع نسبه الى بكر بن وائل الى ربيعة وقد قرنه المعجبون به بالطبقة الأولى كما كانوا يقربون كل شاعر يستحسنون له البيت والبيتين والحارث من المعمرين فقد ذكروا أنه عاش ما يقرب من مائة وخمسين سنة وهو شاعر يقول الشعر فى هذه المدة الطويلة ولكن ليس بين أيدينا ما يعد شيئا مذكورا بالنسبة لهذا العمر الطويل وهو شيخ قبيلته والمدافع عنهـــا عند الشدائد ، وقد كان خطيبهـــا فى بلاط عمرو بن هند كما سنذكر فى الكلام عن معلقته .

معلقتـــــه :

هو من الذين اشـــــتهروا بالواحدة وربما كانت هذه المعلقة من أهم الأسباب فى اختياره بين شعراء الجاهلية ، واتفق الرواة على أن السبب فى انشاده هو أن عمرو بن هند وقيل المنذر قد أصلح بين بكر وتغلب وأخذ من الحيين رهنا مئة غلام من كل حى ، وأن غلمان التغلبيين تاهوا فى بعض القفار وهلكوا عطشا فادعى التغلبيون أن البكريين قد أضلوهم وأنهم المسئولون عن دمائهم ، ووقف كل من الحيين أمام الملك وكان الحارث وقد شبع أياما خير من يرجع اليه فى أمور البكريين وكان به وضح من عادة العرب أن ينضحوا مكان من به وضح الماء وفى ذلك ما فيه من العار ، وقيل ان الحارث أعد قصيدته هذه وجعل يستنشدها فتيان قومه ليقوموا بها أمام الملك فلم يجد منهم من يغنى عنه فتحمل عار النضح وراءه بالماء وهب الشيخ الفانى الى بلاط الحيرة وجلس مع خصمه للمحاكمة ووضع الملك

بينه وبين الحارث ستورا فلما تكلم الحارث معتمدا على رمح لتصير [illegible] الملك ، وقيل أمه وكانت معه ، يقول ارفعوا الستور سترا سترا [illegible] من الملك حتى أتى عليها فأدناه الملك وأجلسه بقربه وحكم [illegible] وقيل انه ارتجلها بحضرة الملك بعد أن كان المدافع عن البكريين [illegible] الملك بطيشه وعدم خبرته وفى كل هذه الأقوال نظر لا يخفى على [illegible] ولا يهمنا سواء ارتجالا قالها أم غير ارتجال فهى من الشعر الجاهلى الذى يأخذ بألباب السامعين سلك فيها مسلك الشعراء الدهاة فتراه يرضى خصمه ويهدده ويمن عليه بعطف الملك ويميض للملك بسالة البكريين عنده خلافا للتغلبيين ويذكر مواقع شهيرة نصر فيها الملك وأهل الملك كل ذلك بلغة منسجمة رائعة وكان ينشدها فى [illegible] ويستل سخيمة الملك فيصب جام غضبه على خصمه وهذا قسم [illegible] مطلعهـــا :

آذنتنـــا ببينهـا أســـماء ... رب ثاو يمل منـه الثـواء
بعـــد عهـــد لنـــا ببرقة شـــماء فأدنى ديارها [illegible]

وبعد أن يعدد منازل أسماء وعددها تسعة يقول :

لا أرى من عهدت فيها فابكى الـ ... ـيوم دلهـا [illegible]
وبعينك أوقدت هنـد النـــا ... ر أخيرا تلوى [illegible]
فتنـــورت نارها من بعيـــد ... بخزازى هيهات [illegible]
أوقدتها بين العقيق فشخصين ... بعمـــود كمـا يلوح [illegible]

وقد عابوا هذا التشبيه على الحارث فانه يشبه إيقاد [illegible] ثم يتخلص من موقفه هذا على عادة أصحاب المعلقات الى ناقته [illegible] أطناب ويصل الى ذكر السبب لهذه المعلقة فيقول :

وأتانا من الحـــوادث والانـ ... ـباء خطب تعنى [illegible]
انا اخـــواننا الأراقم يغـــ ... ـلون علينـــا [illegible]
يخلطون البرىء منا بذى الذ ... نب ولا ينفع [illegible]
زعموا ان كل من ضرب العير ... مـــوال لنـــا [illegible]
اجمعـــوا امـــرهم عشـــاء فلما ... أصبحوا أصبحت [illegible]
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل خلال [illegible]

الى أن يقول :

ايهـــا الناطق المرقش عنـــا ... عند عمرو وهل [illegible]
لا تخلنـــا على غراتك أنـــا ... قبل ما قد وشى بنا [illegible]
فبقينـــا على الشـــناءة تنمى ... نا حصـــون وغزة [illegible]

من اهل العصر

قبل ما اليوم بيضت بعيون النا   س فيهـــا تعيـــط وابـــاء
فكأن المنون تردى بنــا ار   عن جوفا ينجاب عنه العمـاء

الى ان يصل فيمدح الملك فيقول :

ملك مقسط وأفضل ان يمـ   شي ومن دون ما لديه الثناء
ايما خطة اردتم فادو   ها الينا تســـعى بها الامـــلاء

ثم ينتقل بعرض ويصرح لهم بذكر وقائع كانت للبكريين على التغلبيين ويذكر تأدى البكريين عند ملوك الحيرة دون احفاظ للملك المصغى الى ان يقول ..

فاتركوا الطيخ والتعاشي فاما   تتعاشوا ففى التعاشى الـــداء
واذكروا حلف ذى المجاز وما قد   م فيه العهـــود والكفـــلاء

ثم يذكرهم ما صار فى ذلك الحلف ويمن عليهم بما عقبه من مكارم تعهد بها ويبرأ من كل ما اتهمه به التغلبيون وبعد ان تفرغ كنانته يختم معلقته بالمدح وهو :

وهو الرب والشهيد على يو   م الحيـــارين والبـــلاء بـــلاء

فأنت اذا تدبرت هذه القصيدة وعرضتها على نماذج الشعر الجاهلى ، وجدتها مطابقة لكل مناحيه وان عرض لها ما عرض مما آخرها عن مقام المعلقات ما رأوا من الصور الذهنية التى يجمعها المحامى فى سبيل الدفاع وقدروا ان ذلك لم يجتمع قبلها فى شعر جاهلى والحقيقة أن ذلك يدلنا على شدة الانطباق على الذهنية الجاهلية من سواه لأنه بعيد عن كل تكلف قريب المأخذ بكل ساذج ..

* * *

كتاب الجغرافيا

استرابون

٦٥ ق.م

كثيرا ما تتكرر على مسامعنا عبـــارة تقول ان عالمنا صغير · هذا صحيح · ان أرضنا صغيرة · بالنسبة الينـا · نحن الذين نستطيع أن نجول أرجاءها بالطائرة ·

نحن الذين نقرأ فى جريدتنا الصباحية نبأ الزلزال الذى وقع فى الليلة الفائتة فى اليابان ونستمع بواسطة جهاز المذياع الى سيمفونيات تعزفها فرقة الأوبرا فى فيينا أو نيويورك أو موسكو كما أصبحنا نرى على شاشة التليفزيون ونسمع أحداث العالم الحالية ، وزاد ذلك سهولة دخول الأقمار الصناعية فى مجال التلفزة والمكالمات الهاتفية · نعم لا داعى للدهشة مطلقا اذا قلنا ان عالمنا صغير جدا بعد أن استطاع الانسان أن يدور حول الأرض ·

ولكن أرضنا كانت شاسعة الأبعاد ، أو غير محدودة بالنسبة لأولئك الذين كانوا على ظهرها فى العصور الغابرة لأنهم لم يتوصلوا الى التعرف عليها الا ببطء عظيم وعبر الكثير من الأخطاء والأخطار ·

وهكذا نجد أن الجغرافية أخذت تحتل فى نفوسهم تدريجيا مكان الأسطورة · ولكن لا نعلم علم اليقين كيف تمت أوائل الاكتشافات ولا كيف كانت العصور التى سبقتها · اذ نجهل حياة أوائل الجماعات البشرية · أى الذين كانوا فى حقب ما قبل التاريخ · ولا نعرف عنها شيئا الا بالافتراض واللجوء الى الخيال · فليست هناك كتابات ولا قصص مباشرة ·

غير أن هذا التطور أو الخيال يستند الى أساس متين · فالآثار التى خلفها أناس تلك الأزمنة · والتى ظلت محفوظة بصورة سليمة نوعا ما فى طبقات الأتربة · أو على جدران الكهوف والتى يدرسها العلماء · ويقارنون فيما بينها أو مع آثار حضارات أحدث منها · أصبحت معروفة بشكل أفضل مما يسمح لنا باكتشاف أصولها ·

وهذا العمل الدائب القائم على التبصر والتأمل والمحاكمة العلمية هو الذى أدى الى قبول هذه الآثار ، كدلائل مقبولة على حياة الدهور البشرية

الأولى · ومنها نتوصل الى الزمن التاريخى · حيث ينحسر الشك كى يترك مكانه للقين ·

ليس هناك من سبب لدهشتنا اذا عرفنا أن الناس قد رغبوا فى التعرف على الكرة التى يقطنون · وهذا فضول طبيعى · فقد أرادوا أن يعرفوا ما وراء تلك الغابات التى تصد الأنظار وما خلف تلك الجبال التى ترد البصر خاسئا وهو حسير ، ومن هو ذاك الذى يعيش على الضفة الأخرى من النهر ؟ ·

فمنذ أن ظهر الانسان على وجه الأرض أغرم بحب الاكتشافات،ولكنه وجد فى بداية الأمر صعوبات جمة اضطرته الى النضال نضالا مريرا ضد قوى الطبيعة وضد الحيوانات الضارية · ولذلك مضت قرون عديدة توقف فيها الانسان عن الانتقال لمسافات بعيدة ·

يقول د· عبد الرحمن حميدة فى كتابه (أعلام الجغرافيين العرب) : ان هذا الفضول لم يكن لدى الرجل البدائى الدافع الرئيسى للأسفار · فقد كانت عنده حاجة أكثر الحاحا تدفعه وهو الجوع · أى البحث عن الغـذاء · وبعدئذ ظهرت الدوافع المشتقة عن هذا الدافع الرئيسى أى الرغبة فى المبادلات التجارية مع الشعوب الأخرى · والبحث عن حاصلات الأراضى الجديدة · والتعطش الى ثرواتها ··· ثم ظهرت دوافع أخرى كالأسباب الدينية والسياسية والرغبة فى المغامرة والفضـــول العلمى الـــخ ··

غـــير أن هـذا الاكتشاف التدريجى للأرض ــ مهما كانت الدوافع متفاوتة فى نبلها ــ لم يكن ممكنا الا بفضـــل النمو التدريجى فى الذكاء البشرى · لأن الانسان · منذ أن ظهر على الأرض · كان يجنح الى تحسين وضعه والى الاقتراب حثيثا من الكمال · وما بدأه فى الأول فى بحثه المتردد للتعرف على الوجه الحقيقى لهذا الكوكب دون أسلحة · ودون أدوات · أصبح شيئا فشيئا ميسورا بالنسبة اليه · وذلك كلما اخترع المزيد من الأدوات المتقنة · وكلما اعتاد أن يربط بين الأقطار التى زارها بشكل واضح وأكثر صحة · ربطا خالصا من كل تشويه ناجم عن المعتقدات والأوهام الوثنية التى أتى بها أوائل المكتشفين ، وأخيرا كلما زادت مهارته فى استخدام مكتشفاته ومخترعاته · فلما تيسرت له السبل أخذ يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها · ويركب متون البحار ويتجشم أعظم المشاق ويصبر على ما يعترضه من مكاره لكى يكتشف بلادا جديدا أو يختط طريقا جديدا لم تطأه قدم انسان من قبله ·

وقد كانت المحاولات الأولى لوصف الأرض · أو وصف أجزاء منها · غير مستندة الى مشاهدة لأحد المعاصرين · بل كانت معلومات استقاها الرواة ممن سبقهم · ولكنها كانت بداية الجغرافيا على كل حال ·

وهكذا يبدو لنا تاريخ اكتشاف الانسان للأرض كسفر ضخم يحوى جهود الانسان منذ العصور الأولى · فى حركته البطيئة والثانية الدؤوبة نحو المعرفة ·

الجغرافيا الاستكشافية فى العصور القديمة

ومن بين الشـــعوب القديمة التى نجهل تاريخها تقريبا · والتى استطاعت أن توسع الأفق الجغرافى · كانت شـــعوب البحر الأبيض المتوسط · وهو أول بحـــر معروف · نذكر الكريتيين (٢٠) والمصريين والفينيقيين والرومان · ويعود الدور الأول الى الاغريق · وهم شـــعب التصقت حياته بالبحر وتميز بحب الاستطلاع · مما ساعد على نمو تذوق المغامرات البعيدة لديهم ·

واستنادا الى رواية هءودوت · نجد أن أول حملة اكتشافية مهمة انما تمت على أيدى الفينيقيين وقد جهزها فرعون مصر نيخاوس الذى حكم فى النصف الثانى من القرن السابع قبل المسـيح بالســـفن وبالمؤن · واستطاعت فى عام ٦٦٥ ق·م أن تدور حول أفريقيا بعد أن انطلقت من البحر الأحمر وعادت عن طريق البحر الأبيض المتوسط · وقد استغرقت هذه الرحلة الدائرية مدة عامين · وكان البحارة يتوقفون فى كل خريف عند السواحل المناسبة لزراعة الحبوب ثم يستأنفون سفرهم بعد الحصاد · ولا يعطينا هيرودوت سوى القليل من التفاصيل عن هذه الحملة · مما دفع بعض العلماء الى الشك فى صحتها · ولكن بعد تدقيق روايته وتمحيصها واستنادا الى الشروح العظيمة التى أثارها العلماء · نجدنا أقرب الى اليقين وأدنى من الاعتقاد بصحة حدوث هذه الرحلة التى قطعت ما يعادل نصف محيط الكرة الأرضية · وشاهدوا الشمس تسطع من يمينهم فى طريق العـــودة ·

وقد قام القرطاجيون · الذين كانوا يسكنون بلاد تونس · فى الفترة الواقعة قبل الميلاد بخمسة قرون · بارسال القائد حنون لاكتشاف ساحل أفريقيا الغربية · فذهب على رأس أسطول مؤلف من ستين سفينة يركبها ثلاثمائة بحار بالاضافة الى عدد من المهاجرين واستمرت الرحلة فصل صيف بكامله · وأسس بعض المستعمرات على ساحل المغرب الأقصى وتقدم حتى شاهد هيجان بركان الكاميرون الكبير · ورأى أناسا يغطى أجسادهم الشعر

الكبرى كالنيل الأبيض والنيل الأزرق اللذين يؤلفان نهر مصر الكبير كما علم بوجود بحيرات كبرى وجبال عالية عند منبعث نهر النيل وكانت معرفته تقف عند بلاد الصومال ٠

واذا كانت التجارة هى الدافع على اكتشافات الفينيقيين والاغريق فان الحملات العسكرية كانت فى أساس اكتشافات الرومان ٠ وكانت نتائجها مهمة بشكل خاص فى شمال وشمال غرب أوروبا ٠

فبعد أن استولى الرومان على مصر عام ٢٩ ق٠م توغلوا فى الحبشة ٠ وقد أرسل الامبراطور نيرون بعثتين لاكتشاف النيل ووصلتا الى مناطق المستنقعات الفسيحة فى بحر الغزال ٠ كما اجتاز القائد بولينوس سوتيونيوس جبال الأطلس لمطاردة المغاربة الثائرين ٠

وفى عهد الامبراطور كلود ذهب الرحالة الاغريقى ديوجين واكتشف جبل كينيا وجبل كليمنجارو أعلى قمم أفريقيا ٠ كما ذهب حاكم تونس كورنيليوس بالبوس لاكتشاف منطقة فزان الليبية واحتل عددا من المواقع وحولها الى محطات محصنة على طريق القوافل التجارية ٠ وقد أدت الرحلات العسكرية والتجارية الى اغناء العلم الجغرافى الى حد كبير حتى ان أحد علماء الاغريق وهو هيكاته الذى عاش فى القرن السادس قبل المسيح قال بكروية الأرض متفقا بذلك مع مذهب فيثاغورث ٠ وبذلك أصبح مثقفو العالم القديم فى مطلع التاريخ الميلادى يمتلكون فكرة قريبة من الصحة عن الأصقاع المحيطة بهم ٠

هذا وقد تمتعت تجارة الاسكندرية بازدهار رائع فى القرون الأولى من التاريخ المسيحى وعن طريق مسالك التجارة أتت المعلومات الثمينة ٠ فقد كان الاغريق والرومان يجوبون منذ عهد بعيد سواحل المحيط الهندى ٠ وبدءوا يستغلون تيارات الرياح الموسمية المتناوبة ٠ وأصبحت الرحلات أقصر مدة وأكثر انتظاما من الاسكندرية باتجاه الهند عن طريق ميناء برنيق على البحر الأحمر ٠ فكانت الرياح الصيفية تدفع مراكبهم باتجاه الهند بينما تؤمن الرياح الشتوية العودة ٠ وبذلك تعرف تجار الاسكندرية على جزيرة سيلان وعلى شبه جزيرة مالاقا ٠ وفى القرن الميلادى الثانى أصبح لديهم بعض المعرفة عن الجزر الكبرى الواقعة الى الشرق من ذلك لأن سفنهم كانت تصل الى ميناء غاتيغارا على الساحل الصينى ٠

وفى الوقت نفسه كانت تجارة الحرير تدفع بالاغريق والرومان نحو هضاب آسيا الوسطى ٠ وكان استرابون ٠ والذى عاش فى أيام يوليوس قيصر ٠ أول جغرافى يتكلم عن الصينيين الذين كانوا يعيشون بين نهر آموداريا وبين البحر الشرقى ٠ وقد أوجدت القوافل والبعثات

الدبلوماسية التى كانت تخترق صحارى آسيا الوسطى علاقات مع بلاد الصـــين ٠

***

ولقد أعطتنا مؤلفات استرابون الذى عاش فى القرن الأول الميلادى فكرة عن مجموع العالم المعروف لدى الأقدمين ٠ وكانت مؤلفاته وصفية وتهتم كثـيرا بالتاريخ على خـلاف بطليموس الذى كان جغرافيـا رياضيا اهتم خاصة بحساب درجات الطول والعرض ٠

واستنادا الى (جغرافيـــة) بطليموس كان العـــالم المعروف لدى الأقدمين ٠ يمتد من جزر الخالدات غربا الى الصـــين الجنوبية شرقا ٠ أما حدوده الشمالية فكانت الجزر الواقعة شمال بريطانيا فى حين لا تتعدى حدوده الجنوبية منطقة السودان والبحيرات الكبرى وكان كتاب بطليموس مزودا ب ٢٧ خارطة كانت احداها تمتد نحـو البحـر المتوسط بحوالى ٢٠ درجة شرقا ، مما أدى بالتالى الى استطالة الأراضى بشكل مفرط باتجاه الشرق ٠

حيـــاة اســـترابون

التعـريف الصـحيح بالجغرافى استرابون هو أنه مؤلف كتـــاب (الجغرافيا) ، وكل ما نعرفه عنه مستمد من هذا الكتاب الذى يعد أهم مؤلفاته ، وهو الكتاب الوحيد الذى بقى لنا من هذه المؤلفات ، ونستنتج منه أن استرابون ولد حوالى عام ٦٤ ق٠م فى مدينة أماسيا التى يفرد لها وصفا يدل على محبته لهذه المدينة ٠ وينتمى استرابون الى أسرة ذات شأن ، عمل بعض أفرادها فى خـدمة ملوك بنطس وهـم : مثراداتيس الخامس يوثرجيتيس ومثراداتيس الســادس يوباتور ، حيث كانوا قادة عسكريين وحكاما وكهنة للالهة (بيلونا) ٠ وتنحدر أسرة استرابون من فرعين مختلفين ، يونانى وأسيوى ، ولكن كان استرابون يونانية محضا فى لغته وعاداته ولابد أن أسرته عاشت فى رغد من العيش مما مكنه من أن ينال قسطا وافرا من التعليم ٠ وبعد أن أتم استرابون مراحل التعليم الأول فى البيت أرسل الى نيسا (بالقرب من مدينة تراليس فى اقليم كاريا) حيث درس النحو والأدب على يد أريستوديموس ٠ وفى سنة ٤٤ ق٠م (وهو فى العشرين من عمره) ذهب استرابون الى روما لمتابعة دراسته العليا ٠ وتتلمذ على أيدى تيرانيون الأميسوسى ، وهو العالم النحوى والجغرافى (ولعـــل هـذا العالم هو الذى أجاز لاسترابون الاشـتغال بالجغرافيا) ٠ وكان من أساتذة استرابون كذلك كسينارخوس السليوكى

فى اقليم قيليقية ، وهو أحد الفلاسفة المشائين · وعرف استرابون عددا من الرواقيين أمثـــال بوسيدنيوس وبؤيتوس الصـــيداوى وأثينودوروس الطرسوسى فى قيليقية · ولذا صار استرابون رواقيا متحمسا للرواقية ، وأدرك ضرورة الأساطير والطقوس والأسرار الدينية لعامة الناس ولكن ديانته هو كانت (الرواقية) ·

كان استرابون رحالة عظيما ، ولكن ليس بالقدر الذى يذكره هو عن نفسه · وسافر استرابون من أرمينيا شرقا الى ايطاليا غربا ، وزار بلاد اليونان (على الأقل كورنثة) ومصر ــ حيث صعد فى النيل حتى أطراف أثيوبيا ، وكان استرابون على معرفة واسعة بكثير من بقاع آسيا الصغرى، واستمد الكثير من معلوماته من الكتب ، أى الكتب اليونانية ، اذ أن ما كان من الكتب الجغرافية بلغات أخرى قليل فى هذا المجال ·

ويشير استرابون فى كتاب الجغرافيا الى بعض مراحل حياته · فكان فى روما فى سنة ٤٤ كما كان بها فى سنوات تالية ، ٣٥ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٧ ق·م وأقام استرابون فى مصر من سنة ٢٥ الى سنة ٢٠ أو بعد ذلك · وحصـــل استرابون على الكثير من معلوماته فى مكتبـــة الاســـكندرية (اذ لا يمكنه فى غيرها أن يحصل على جميع ما احتاج اليه من مؤلفات) · وعاش استرابون متمتعا بمجده فى عصر الامبراطور أغسطس كله وبداية حكم تيبريوس (١٤ ــ ٣٧ م) ومن المحتمل انه أمضى أعوامه الأخيرة فى بلدته أماسيا ، ومات فى سنة ٢١ م · أو بعد ذلك ·

***

الكتـــاب

ألف استرابون كتابين عظيمين · أحدهما فى التاريخ ، وهو مفقود ، وثانيهما فى (الجغرافيا) ، وهو الذى وصلنا كاملا تقريبا ، ويعد هذا الكتاب أحد أعلام التراث القديم · وهو مقسم الى سبعة عشر جزءا ، مشتملة على وجه التقريب على ما يأتى :

١ ــ ٢ مقدمة · وهى تاريخيه الى حد ما ، حيث ينتقد هوميروس واراتوستنيس،ويناقش بوليبيس وبوسيدونيوس ويودكسوس الكيزيكى، كما يتحدث عن الجغرافيا الرياضية وشكل الأرض ورسم الخرائط على سطح كروى وسطح مستو · ويصر على القول بوجود محيط واحد فقط ، بدليل حدوث المد والجزر فى كل مكان ، وعلى هذا يستطيع الانسان أن يبحر من أسبانيا الى جزر الهند الشرقية ·

٣ ـ أسبانيا وجزر كاستيريدس ٠
٤ ـ جاليا وبريطانيا وغيرهما ٠
٥ ـ ايطاليا الشمالية والوسطى ٠
٦ ـ جنوب ايطاليا وصقلية ٠ الامبراطورية الرومانية ٠
٧ ـ أوربا الوسطى والشرقية (الجزء الأخير من هذا الجزء مفقود) ٠
٨ ـ جزائر البلوبونيز ٠
٩ ـ اليونان الشمالية ٠
١٠ ـ الجزر اليونانية ٠
١١ ـ منطقة البحر الأسود ، وبحر الخزر وجبال طورسوس وأرمينيا ٠
١٢ ـ ١٤ آسيا الصغرى ٠
١٥ ـ الهند وفارس ٠
١٦ ـ بلاد ما بين النهرين وسوريا وبلاد العرب وساحل أثيوبيا ٠
١٧ ـ مصر ٠

وهذا الكتاب دائرة معارف جغرافية ، وتختلف أجزاؤه بالضرورة من حيث القيمة العلمية ٠ وتوجد حول جغرافية استرابون مؤلفات حديثة كثيرة ، وأكثرها أهمية بحوث قام بها علماء تخصصوا فى دراسة مختلف الأقاليم ٠

ولكن ماذا كان هدف استرابون ؟ المعروف أنه أراد أن يكتب وصفا جغرافيا للعالم ، ولكن نظرا لأن تعليمه الأصلى كان أدبيا بحتا ، فانه لم يحفل بالجغرافيا الرياضية ، التى ازدراها دون معرفة كافية بها ، ودون فهم حقيقى لمشكلاتها ٠ ومن ناحية أخرى كان استرابون شديد الاهتمام بالناس ، وغلب عليه التفكير الفلسفى ، فالجغرافيا عنده طبيعية ، ومع ذلك كان الطابع البشرى والتاريخى والأثرى أكثر ظهورا ، اذ أراد أن يقدم لقرائه فكرة عامة عن مسطح الأرض ، أى طبيعتها (من حيث الأنهار والجبال وما الى ذلك) ، ثم اختلافات أقاليمها ، وبعد ذلك يشرح كيف عاش فى كل اقليم ، وأى نوع من الناس هم ٠ وتضمن ذلك عرضا للتقلبات والتغيرات التى طرأت عليهم وأعمالهم ، وذكرا لمدنهم ومتى أسست ؟ فضلا عن الطرق ، والمسالك والمعالم العامة ، وعظماء الرجال !!

ونظرا لكونه رواقيا ، تقبل استرابون المبادىء العامة فيما يختص بعبادة النجوم ، ولكنه لم يتطرف فى اعتناق مذهب التنجيم ، وليس هناك

ما يثبت أنه اعتقد فى الجينيثليالوجيا ، أى قراءة الطالع تبعا للأفلاك السماوية . بل كان ملما بما قام به المصريون وكهنة الكلدان من دراسات فلكية .

وذكر أن الفينيقيين أهل مدينة صيدا هم الذين نقلوا مبادىء علم الفلك والحساب الى اليونان .

وفى مجال السياسة كان استرابون متحيزا قطعا لجانب روما ، اذ أدرك أن عصر الامبراطور أغسطس جلب للعالم عناصر السلام والوحدة (ج ٦ ، فصل ٤) ، بدليل أن ذلك العصر قضى على القرصنة التى كانت متفشية فى شرق البحر المتوسط ، واستتب الأمن للسفر والتجارة فضلا عن الرخاء . وكان استرابون فخورا بشرقيته ، ولم يترك مناسبة دون أن يذكر العلماء الذين ولدوا فى الشرق ، وبرغم اعجابه الشديد بالحكومة الرومانية ، فانه لم يحفظ أى احترام للعلماء الرومان .

***

وتوجد مناقشات كثيرة حول تاريخ كتاب الجغرافيا . ولعل الجزء الأكبر من المعلومات النادرة بهذا الكتاب كانت من جمع استرابون قبل أن يغادر الاسكندرية (حوالى عام ٢٠ ق.م) ثم انتهى استرابون فى سنة ٧ ق.م . من النسخة الأولى من هذا الكتاب ، ولم يستخدم خريطة الجغرافى أجريبا ، التى لم تكن نشرت بعد فى ذلك العام . أما قائمة الولايات الرومانية الواردة فى آخر صفحة من الكتاب ، فقد قام استرابون بكتابتها فى تاريخ لا يتجاوز سنة ١١ ق.م ، ثم راجعها بنفسه سنة ٧ ق.م . وهو بعيد عن روما . ثم راجع استرابون الكتاب كله فى مدينة أماسيا حوالى عام ١٨م ، كما هو واضح من ذكره للامبراطور تيبريوس (الذى ابتدأ حكمه سنة ١٤ م .) فى حوالى عشرين موضعا من الكتاب .

وكان استرابون مدركا لضخامة كتابه ولأهميته ، حتى أطلق عليه وصف التأليف الضخم . وكان كذلك ، حتى ان الباحث لا يستطيع الا أن يسأل كيف أمكن لرجل واحد أن ينجز مثل هذا العمل الكبير . الواقع ان عملا فى مثل حجم هذا الكتاب فى زماننا نحن لا يمكن الا أن تقوم به أكاديميات أو جامعات ويشرف على تنفيذه عدد من العلماء والمساعدين ، ويستخدمون أنواعا شتى من الأدوات الحديثة . ومن حسن حظنا أن لدينا بفضل استرابون هذا الوصف الجغرافى المستفيض للعالم الغربى زمن الامبراطور أغسطس ، مضافا اليه كمية كبيرة من المعلومات التاريخية والأثرية والبشرية ، وكذلك أخبار التجارة والصناعة، وجوانب أخرى .

ولم يتخيل استرابون أفـــراد قرائه على أنهم جمـــاعة من علماء الجغرافيا ، لان أمثال أولئك لم يكونوا وجدوا بعد ، ولكنه تخيلهم من الساسة ورجال الأعمال، وغيرهم من المتعلمين في عصره (ج ١، فصل ١)، ولذا كان هؤلاء القراء قليـلين ، ولكنهم كانوا رجالا على جانب كبير من الذكاء بحيث لا يقلون عن خيرة رجال عصرنا .

وبرغم أن استرابون لم يكن عالما طبيعيا ، فان جغرافيته تصف كثيرا من الحقائق الطبيعية المهمة التي يتناولها هو بروح ناقدة . ومثـال ذلك أن استرابون فسر تكوين الجبال بفعل حركات الضغط الداخلية ، وان وادى تمبى فى اقليم تساليا ببلاد اليونان نتج عن زلزال . وكان استرابون يعتقد أن السبب فى الظواهر البركانية هو القوة المتفجرة فى الريـاح الحبيسة داخل الأرض، واعتبر البراكين نوعا من صمامات الأمن . وأرجع استرابون ظهور جزر البحر المتوسط الى انفصال عن جسم الأرض بواسطة الزلازل أو بفعل البراكين ، وقصد بذلك جزر الليبارى ، شمال شرق صقلية . وكرر استرابون من جديد وبوضوح تام النظرية القديمة القائلة بأن الأرض والبحر كثيرا ما تبـادلا موقعيهما ، ودلل على ذلك بعـدد من الأمثلة التي زالت فيها مساحة من الأرض ، والتي ارتفعت فيها مساحات أخرى . وبعض هذه الأمثلة محدود بمكان معين ، وبعضها الآخر واسع الانتشار . فمثلا عند الحديث عن واحة آمون يقول : « كان معبد آمون من قبل عند ساحل البحر ، ولكنه الآن فى الداخل بعد أن انحسر عنه المـــاء » ويذكر استرابون أن وجـود بقايا أصـداف متحجرة فى أماكن مختلفة يثبت أن الأراضى فى مصر السفلى حيث توجد هذه البقايا كانت فى الماضى مغمورة بالمـــاء . ويرجع استرابون السـبب فى زوال بعض المساحات الأرضية الى الزلازل ، وأن ظاهرة أخرى مثل هذه تستطيع أن تقضى على برزخ السويس وتفتح الطريق بين البحر المتوسـط والبحر الاحمر . ويسجل استرابون ملاحظات عن التراكمات الطميية عند مصبات الأنهار أو على امتداد مجراها . ويحدثنا استرابون كذلك عن صناعة الملح واستخراجه من عيون الماء المعدنية ، ومن مناجم الفضة فى اقليم لوريون ، وصناعة الزجاج فى الاسكندرية ، وصناعة السواقى ، وبناء المزلق الذى تتحرك فوقه السفن فى برزخ كورنثه ، كما يحدثنا عن القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر ، وهى القنـاة التي كانت تنتهى عند ميـنـاء أرسينوى ، وكانت تغلق بواسـطة بوابة مزدوجـــة للوقاية على سبيل الاحتياط من تغير التيار وللسماح بمرور السفن فى الاتجاهين .

★★★

لم يكن استرابون أديبا فنانا ، لكنه أتقن فن الكتابة كما يمكن أن يتقنه عالم . وكان واسع الثقافة ، صحيح اللغة ، واضحا دون أن يسعى الى المحسنات اللفظية . وقد يجده أصحاب الذوق الأدبى مما يسير على وتيرة واحدة لكن مما لا شك فيه أنه اجتهد فى تأليفه أصدق الاجتهاد ، وبذل أقصى ما يستطيع ليدخل عليه التنوع ، وليعطى قارئه الكثير من القصص مما يتفق والغاية الصارمة التى ارتسمها لنفسه .

وذكر استرابون أن أرسطو كان أول من اقتنى الكتب ، وأن ملوك مصر احتذوا حذوه بعد ذلك . وهذه العبارة صحيحة فى جملتها ، لأن ربما لا يكون أرسطو أول من اقتنى كتبا ، ولكن مما لا شك فيه أنه بفضل تأثيره — وهو التأثير الذى انتقل الى مصر بواسطة ديمتريوس الفاليرى واسترابون — قرر البطالمة الأولون تأسيس مكتبة الاسكندرية .

وتفوقت دراسات استرابون تفوقا كثيرا على أسفاره ، اذ قرأ جميع الأدب اليونانى الذى وصل الى يده ، مبتدئا بقصائد هوميروس . وكان شديد الاعجاب به ، شأنه فى ذلك شأن جميع اليونان. وبالغ استرابون فى تقدير القيمة الجغرافية لعقيدة الأوديسة ، مع لعلم بأن أراتوستنيس كان يميل الى التقليل من هـذه القيمـة . على أنه أغنى مصادر استرابون هو معاصره الذى يكبره ، واسمه بوسيدونيوس . واسترابون هو الذى حفظ للأجيال التالية تقدير بوسيدونيوس الخاطىء عن حجم الأرض .

انتشـار الكتـاب

ونظرا لما لكتاب « الجغرافيا » — وهو كتاب فريد فى نوعه — من قيمة عملية هائلة للساسة ورجال الادارة فى الامبراطورية الرومانية ، فاننا نعجب لقلة ما لقى سترابون من اهتمام القدماء به . هل كان ذلك لاخفاء النسخ الأولى من هذا الكتاب بواسـطة أصحابها لاستخدامها فى الأغراض العملية ، وليس للأغراض العلمية ؟ وليس هناك تفسير آخر . ذلك أن المؤرخ يوسيفوس هو الوحيد الذى عرف هذا الكتاب . على حين لم يعرفه أحد من اليونانيين ولا بطليموس نفسه ، ولا أى عالم رومانى ، رغم صعوبة تصور ذلك . وربما يكون هذا الاهمال لاسترابون من ناحية القـدماء هو السبب فى عدم وجـود ترجمـة عربية له ، اذ بقى استرابون مجهولا للجغرافيين المسلمين ومؤرخيهم .

ثم حدث فى العصر البيزنطى أن اكتشف كتاب الجغرافيا على يد استيفانوس البيزنطى (فى القرن السادس) ، واستخدمه يوستاثيوس التسالونيكى (فى القرن الثانى عشر) ومكسيموس بلانوديس (فى القرن

الثالث عشر) . غير أن أقدم مخطوط وصل الينا هو المخطوط الباريزى رقم ١٣٩٧ ، ويحتوى الأجزاء العشرة الأولى فقط ، أما الأجزاء السبعة الأخيرة فمصدرها ثلاث مخطوطات متأخرة ، وهى مخطوطات الفاتيكان رقم ١٣٢٩ ومختصر الفاتيكان ، والبندقية رقم ٦٤٠ .

أما بداية طبع هذا الكتاب فترجع الى جوارينو الفيرونى (١٣٧٠ ـ ١٤٦٠ تقريبا) وهو الذى أحضر معه من القسطنطينية مخطوطة يونانية ، وترجم منها الأجزاء العشرة الأولى الى اللاتينية ، أما الجزءان الحادى عشر ، والثانى عشر فقام بترجمتهما جريجوريو نيقرماس . وتم طبع الكتاب كله فى روما سنة ١٤٦٩ ، وأعيد طبعه خمس مرات قبل عام ١٥٠٠ وهى : البندقية ١٤٧٢ ، وروما ١٤٧٣ ، وتريفيزو ١٤٨٠ ، والبندقية ١٤٩٤ ، و١٤٩٥ . وقام بطبع المخطوط اليونانى الأصلى الدوس ، بالبندقية ١٥١٦، كما قام فلهلم كسيلاندر باعداد طبعة لاتينية منقحة (١٥٧٠) ، وكانت هذه الطبعة اللاتينية أول الطبعات الجيدة من هذا الكتاب .

ثم نشر اسحاق كازوبون النص اليونانى مرة أخرى ، وأضاف اليه ترجمة كسيلاندر (جنيف ١٥٨٧) . وكذلك قام يانسون دى أليلوفين الهولندى بطبعة أخرى ممتازة (أمستردام ١٧٠٧) .

ونشر أديمانتوس كوريه نصا يونانيا جديدا فى أربعة مجلدات ، باريس ١٨١٥ ـ ١٨١٩ ، ومعه ترجمة فرنسية فى خمسة مجلدات ، باريس ١٨٠٥ ـ ١٨١٩ . وكانت هذه الترجمة بناء على أمر نابليون ، واشترك فيها ثلاثة من علماء فرنسا هم : لابورت دى تيل واليترون وجوسلان .

أما أحسن طبعة من هذا الكتاب فهى التى قام بها أغسطس مينيكه ، وهى التى نشرها تويبنر (لبيزج ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣) ، وأعيد طبعها مرارا فى ثلاثة مجلدات .

أما الطبعة اليونانية الانجليزية فى سلسلة لويب الكلاسيكية ، فابتدأها جون روبرت ستلنجتون ، وأتمها هوارس ليونارد جونز (ثمانية مجلدات ـ ١٩١٧ ـ ١٩٣٢) .

الجامع الصحيح «البخاري»

أبو عبد الله محمد بن اسماعيل

٨٢٠ - ٨٦٠ م

اسم (البخارى) من الأسماء النابهة فى محيط الثقافة الاسلامية فقد ارتبط بتاريخ هذه الثقافة منذ عهد ازدهارها ومجدها ورزقه الله من بعد الصيت حظا منقطع النظير ·

فاذا أطلق هذا الاسم بصدد الحديث عن الكتب انصرف الى كتاب معين هو « الجامع الصحيح المسند والمختصر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه » واذا ذكر فى مجال الكلام عن أعلام الفكر الاسلامى لم يفهم منه غير مؤلف هذا الكتاب فقد غلب عليه وأغنى عن اسمه العلم واختص فى الشهرة به دون من ينتمون الى بلده بخارى من أفذاذ الرجال وهم كثير ·

طور التاسيس والتكوين

وصاحب الكتاب هو أبو عبد الله بن أبى الحسن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبه البخارى مولدا ووطنا ، الجعفى نسبا بالولاء وهذا هو المعروف من نسبه وأسماء آبائه وهو ما تظاهرت عليه جميع المصادر القديمة ·

وأسرة أبى عبد الله البخارى تنتهى فى القديم الى أصل متواضع تربطه بالأرض حرفة الفلاحة وربما فسر هذا الاستنتاج استتار أفرادها خلف أضواء التاريخ فيما قبل حياة البخارى وأبيه ·

فكل ما يعرف عن هذه الأسرة قبلهما أن رأسها (بردزبه) كان فارسى الأصل وأنه عاش ومات مجوسى الدين ·

والمغيرة بن بردزبه كان أول من شرح الله صدره بالاسلام من آباء البخارى والى خراسان فانتمى اليه بالولاء وصارت نسبة الجعفى لقبا له ولذريته من بعده ·

وان ابراهيم بن المغيرة قد عبر الحياة عبور المغمورين ولا يعرف من أمره أكثر من انتسابه الى أبيه وانتساب ابنه ، ولولا أنه رزق هذا الابن لنسى التاريخ اسمه كما نسى كل شيء عنه ٠

أما اسماعيل بن ابراهيم فقد كانت حياته مطلع النباهة لهذه الأسرة وكان أول المتجهين من أفرادها الى دائرة النور فغير منهج آبائه فى الحياة وشارك فى الحركة العلمية مختارا أهم جوانبها فى عصره وهو جانب الخدمة لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ٠

وقد وفق أبو الحسن بن ابراهيم فى حياته كلها :

وفق فى سلوكه مع الله والناس فاشتهر بالتقوى والورع ولم يعرف عنه الا ما يوجب الثناء والذكر المستطاب ٠

ووفق فى علمه فاستطاع بجده أن يرحل الى كبار الأئمة وأن يحدث عنهم ونال بالتقوى فى الرواية والأمانة العلمية ثقة النقاد والمحدثين فروى بالسماع عن مالك بن أنس وعن حماد بن يزيد وصحب عبد الله بن المبارك وروى عنه العراقيون ومنهم : أحمد بن حفص وقد ترجم له ابنه أبو عبد الله فى كتابه « التاريخ الكبير » ووثقه ابن حبان وترجم له أيضا مع الطبقة الرابعة فى كتابه « الثقات » ٠

ووفق فى معاشه مثل ما وفق فى عمله فجمع من الثروة حظا وفيرا ، سلك فى جمعه مسلكه فى عمله وتحرز فى كسبه كما تحرز فى روايته وفارق الدنيا مطمئن القلب ٠

تنسم محمد بن اسماعيل البخارى أول نسمات الحياة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ١٩٤ هـ وهذا ما يرويه معاصروه فى تحديد مولده ويذكر المستنير بن عتيق : أن البخارى أخرج له هذا التاريخ مكتوبا بخط والده اسماعيل ٠

وكان مولده ببخارى التى استوطنها جده المغيرة بعد اسلامه وهى مدينة كبيرة من بلاد التركستان على المجرى الأسفل لنهر زرافستان ، فتحها المسلمون بعد منتصف القرن الأول الهجرى ومنذ توطدت أقدامهم بها لى يد مسلم بن قتيبة صارت واحدة من الحواضر الاسلامية العظيمة ومعقلا للمسلمين فى ذلك الطرف النائى عن مقر الخلافة والسلطان ، ومركزا من أهم المراكز العلمية للثقافة الدينية هناك ٠ وكان ميلاده فى بيت عرفنا حظ صاحبه اسماعيل بن ابراهيم من التقى والعلم والثراء أما صاحبته فقد كانت على شاكلة زوجها فى الصلاح والورع ٠

وتشاء الأقدار أن يموت الرجل فى طفولة ابنه محمد قبل أن يرسم له الطريق ولكن عناية الله كانت أرحم بهذا الطفل وأكرم من أن تتركه

للضياع فهيأت له من حدب أمه الصالحة خير العوض عما فقد من رعاية الأب فتولت تربيته وتقويمه وسهرت على توجيهه وتسديد خطاه لا يحفزها الى ذلك حنان الأمومة وحده بل يؤازره ويؤثر فيه معنيان ساميان :

أحدهما : تستمده من الصورة المحيطة بها في الوطن الاسلامي بعامة وفي موطنها بخارى بخاصة وما يبلغ سمعها أو يتراءى لبصرها من موج النشاط العلمي المتدافع في أرجاء هذا الوطن وما يثمره هذا النشاط للمشاركين فيه من حسن الذكر ورفيع الجاه وهذه صورة نبيلة كل النبل لا ترضى أن يحرم ابنها من الظهور فيها بل تتمنى أن يحتل منها أكرم مكان .

والمعنى الثاني : تستوحيه من ذكرى زوجها الراحل فهي تتمثله دائما في أروع ما عرفت من صفاته تتمثله رجلا عصاميا نفض عن نفسه خمول أسرته وشق بعلمه طريق المجد والذكر مع النابهين وهي تحب لهذه الذكرى أن تدوم وتعرف السبيل الى دوامها وهو أن ترى معالم سيرته حية في واحد من بنيه وليحقق الله أملها هذا وفقها كل التوفيق في تنشئة ابنها الصغير محمد ، فوجهته الى الدرب الذي سلكه أبوه من قبل فأتم رسالته وتجاوز القمة من السلم الذي لم يصعد فيه الراحل غير درجات .

والعهد الذي عاشه البخاري في كنف أمه كان عهد استقرار واقامة دائمة اللهم الا أمدا قصيرا من نهايته هذا الأمد عاشه أيضا في صحبتها ولكنها كانت صحبة سفر حيث ارتحلت به لحج بيت الله وهناك افترقا فحين انتهى الموسم عادت هي الى وطنها بخارى وبقي هو في الحجاز ليتابع الحياة على نحو جديد .

وهذا العهد يشكل في حياة البخاري أخطر أطوارها وأبعدها أثرا في تحقيق نجاحه فهو — على قصره — طور التأسيس والتكوين فيه تفتحت مداركه وتكشفت ميوله وفيه تم صقله وتكامل نضجه وفيه اجتمع له من العلم ذخيرة غنية جمعها بالقراءة والحفظ من الكتب وبالسماع والتحمل عن الشيوخ وبالحوار والمناقشة في مجالس الدرس ، جمعها بكل سبيل من سبل الجمع والتحصيل واتخذها عتادا وسنادا يعتمد عليه في مقبل أيامه ودعائم ثابتة للبناء العلمي الشامخ الذي اقترن باسمه والذي اكسبه الشهرة والخلود والذكر مع الخالدين .

وتطور البخاري في هذا العهد كان سريعا دائم الصعود فقد بدأ من طفولته الغضة يتردد على « الكتاب » مع الصبيان ويتلقى من ألوان الثقافة ما اعتاد أهل زمانه أن يلقنوه للناشئين ، غير أنه كان مشرق العقل ساطع

الذكاء واسع الخطو فى طريق النبوغ وكان فى نضج مداركه أسبق منه فى سنى عمره وبذلك استطاع أن يستوفى حظه من التثقيف العام فى أمد قصير وأن يتهيأ للدراسة المتخصصة فى سن مبكرة فيلهم حفظ الحديث وهو فى العاشرة أو ما دونها من عمره ثم يتجه الى التخصص فيه وفى علومه من ذلك الحين .

واتجاه البخارى الى التوفر على حفظ الحديث ودرسه فى هذه السن المبكرة يرجع أول ما يرجع الى توفيق الله وهدايته ولكنه لا يعدم سببا ظاهرا من واقع حياته ومما أحاط به فى نشأته فقد اكتنف به كثير من الحوافز الدافعة الى هذا الاتجاه .

وحسب البخارى من الحوافز الموجهة أن يستيقظ وعيه على ما يملأ البيت من ذكرى أبيه العالم المحدث وأن تنمو هذه الذكرى كل يوم فى قلبه بما يتردد على سمعه من السيرة العلمية لهذا الأب وبما يتراءى لبصره من جوامع الحديث وكتبه ، حسبه هذا دافعا الى أن يجعل حياته امتدادا لحياة أبيه .

ثم حسبه من الحوافز الموجهة أيضا أن ينظر فيما حوله وحول بلده وأن يتدبر الحركة العلمية ويراها تتجه بكل جهدها الى جانب الثقافة الدينية وتخصص أكبر هذا الجهد لدراسة الحديث وعلومه حسبه هذا ليسير مع الركب ويتابعه فى الاتجاه .

ثم يكفيه أن يرى أئمة الحديث فى وطنه أو يسمع بأعلامهم فى خارج وطنه وأن يعرف ما يحف بهم من هيبة وجلال ، وما يلقون به من توقير واكبار وما يحتمل للقائهم من شد الرحال وما يتحلق حولهم من عديد الطلاب ويكفيه هذا ليتطلع بطموحه الى أن يكون واحدا من هؤلاء الماجدين .

وأيا ما كانت الأسباب الظاهرة لهذا الاتجاه فان استعداد البخارى كان متهيئا له من صغره كان متهيئا له مما وهبه الله من صفاء الذهن ومن قوة الحفظ ومن توفر الرغبة على التحصيل والدرس فاستطاع أن يسبق أقرانه من الصبيان وأن يسمو ببلوغ العاشرة من عمره على زمالتهم فى مقاعد الكتاب وأن يرتفع — وهو الحدث الناشىء — الى مستوى الكبار من الطلاب فيقتحم الحلقات الملتفة حول الشيوخ ويتردد على مجالس الرواية للسماع من الأعلام .

والظن بصبى لم يزل فى مطلع العقد الثانى من عمره : أن يواريه الصغر خلف الصفوف فى مثل هذه الحلقات وأن يطويه التهيب من كبار السن والسابقين عليه فى طلب العلم فيتأخر به الظهور ولكن البخارى كان فوق الظنون فما اقتحم هذه المجالس الا عن جدارة واستعداد يؤهله

للافادة منها والظهور فيها ومواهبه التى اختصرت له زمان الكتاب قد أسعفته ومكنته من الافادة والظهور فما هو الا زمن يسير حتى لمع نجمه ولفت الأنظار اليه واستطاع — بفطنته ويقظته وتفتح ذهنه وشجاعة قلبه — أن يتعقب الشيوخ من أول عهده بمجالسهم وأن يراجعهم فى سقطات الوهم وأخطائه ويصحح ما قد ينبه على انتباههم وانتباه تلاميذهم من هذه الأخطاء .

ولقد كان هذا الابتداء بشير خير للبخارى فى وسطه الجديد ولا شك أن انتصاره فى محاورة الداخلى قد زاده ثقة فى نفسه واطمئنانا لمستقبله ثم لا شك انه قد زاده اخلاصا فى العمل واقبالا على الطلب فأصفاه كل وقته وكل جهده فكان لا يكتفى بأن يختلف كل يوم الى مجالس الدرس ولا يقنع بالتلمذة لمن يلتقى بهم من شيوخها بل يدفعه الطموح الى أن ينمى معارفه ويوسع دائرة علمه وأن يتلمس المزيد مما لا يجده عند هؤلاء الشيوخ فلا ينتهى من لقائهم ولا يفرغ من التقاط ما تجود به قرائحهم الا ليتحول الى الكتب يعكف عليها ويشغل وقته بقراءتها وحفظها ويستمر على هذا المنهاج خمسة أعوام بعد مجاورته مقاعد الكتاب حتى اذا أشرفت هذه الأعوام على التمام كان قد استوعب علم الأعلام المشهورين فى بلده وأربى عليه بحفظ ما وقع له من كتب الأئمة السابقين .

وفى سنة ٢١٠ هـ (عشر ومائتين بعد الهجرة) خرج أبو عبد الله من بلده بخارى مودعا عهد الاستقرار والعيش المقيم فى رحاب الأهل والعشيرة متخطيا مرحلة التكوين والتلمذة المحضة، والأفق العلمى المحدود بحدود وطنه خرج مع أمه وأخيه محمد ليؤدوا فريضة الحج فلما انتهى الموسم قفلت الأم الى بخارى مع ابنها الأكبر وبقى هو فى حرم الله وفى جوار بيته ليستقبل العهد الجديد عهد الرحلة الدائبة التى لا تقيم الا بمقدار ما تأخذ من جديد المعرفة فى العلم والرواية وعهد التحصيل فى أفق رحيب يمتد نطاقه على محيط العالم الاسلامى كله ، وعهد التصدر لمنصب الأستاذية فى كل بلد ينزله مع دوام التلمذة لكل من يجد فى الجلوس اليه فائدة ، وعهد التسجيل لحصوله العلمى الغزير وتأليفه على نحو يفيد الاسلام والمسلمين .

وقد استهل البخارى هذا العهد استهلالا طيبا مباركا ووفق كل التوفيق فى اختياره لأول نبع يستقى منه العلم خارج وطنه فاختار أكرم المواطن على الله وأشدها ارتباطا بما ندب لتحمله من حديث رسول الله وآثر أن يجعل الحرمين الشريفين طليعة ما يتزود بالرواية عن شيوخه من بلاد المسلمين فأقام بمكة ما أقام ثم رحل الى المدينة فمكث فيها نحو عام حتى اذا استوفى حظا من السماع لمحدثى الحجاز انطلق فى سياحته متنقلا بغيره من الأقطار وتواصلت رحلاته حتى شملت معظم الرقعة

الاسلامية فطوف بأهم المراكز العلمية المنبثة على أديمها فيما بين حدود مصر ناحية الغرب ونهاية خراسان وما وراء النهر في أقصى الشرق .

البخارى ومبدؤه العلمى فى جمع الحديث

واذا كان البخارى قد تردد على أكثر ما زاره من الأمصار غير مرة ، اذا كانت اقامته المتقطعة بين سفراته تطول حينا وتقصر حينا آخر فما كان حله الا بمقدار ما يفيد وما كان ارتحاله الا ليستزيد أو ليسعد بلقاء شيخ جديد .

لقد كانت غايته العلم من سفره وحضره فما ونى عنه لحظة من حياته ولا أشرك فى طلبه والسعى له شيئا من عرض الدنيا وان جل ، بل حصر رغبته فيه وجده ووفر عليه وقته وجهده وما رئى — فيما وراء نومه القليل — الا وهو على حال من ثلاث : اما جالسا الى شيخ يسمع منه ويتلقى عنه أو متصدرا للحديث على الملتفين حوله من الطلاب أو منقطعا الى القلم والقرطاس يقيد شوارد ما جمع ، ليحفظها بالتدوين من التبدد والضياع وليعدها بالتصنيف والتاليف للانتفاع وسهولة الاطلاع .

وبهذا الجهد الأصيل والقصد النبيل يملأ البخارى عهد رحلاته فيقيضه فى العمل الدائب متعلما ومعلما ومؤلفا ويبارك الله فى هذا العمل فيخرج به أطيب الثمر ويفيض به الخير على صاحبه ، وعلى الاسلام والمسلمين .

***

وأول ما جنى البخارى من ثمار هذا العهد أن تسنى له من عدد الشيوخ ما لم يقاربه فيه محدث لا فى عصره ولا فيما سبقه أو لحقه فقد جاب الأقطار وطوف بالأمصار ولقى أغلب المحدثين فى زمنه وما كان أكثرهم حينذاك وبذلك اتسع سماع وتضاعفت أعداد الذين التقى بهم وهو محصى على وجه التقريب نوعا من هؤلاء وذلك فيما أسلفنا من قوله :

« لقيت أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر وخراسان فما رأيت أحدا منهم يختلف فى هذه الأشياء » « ان الدين قول وعمل وأن القرآن كلام الله » .

(طبقات الشافعية) .

ويحصى على وجه التحديد نوعا آخر فيقول :

« كتبت عن ألف وثمانين نفسا ، ليس منهم الا صاحب حديث » .

والخبران لا يستوعبان كل من لقيهم البخارى فهو يتحدث فى الأول عن نوع معين من الرجال تجمعهم عقيدة واحدة فى أصلين فيدينون جميعا بأن الدين قول وعمل وبأن القرآن كلام الله وقد كان الأصلان مما يثور فيه الخلاف فلعله قال الكلمة فى جدل دائر حولهما تنبيها الى كثرة المؤمنين بهما فى كل مصر ، لا قصدا الى الاحصاء الدقيق ولذلك لم يسلك بتعبيره مسلك التحديد فى العدد ، لأنه لم يقصده ولو قصده لعمد اليه ، ولترك المألوف من تعبير الناس حين يريدون التنويه بالكثرة المطلقة فى شىء فيقولون : انه أكثر من ألف .

وفى الخبر الثانى يتحدث البخارى عن رجال آخرين لاشك أنهم فى المعتقد ممن ذكرهم بخبره السابق ، ولكنهم لايستغرقونهم بل يختصون من دونهم بصفة هى أنه كتب عنهم ولأن التحديد هنا مطلوب فقد حصرهم فى ألف وثمانين نفسا ليس منهم الا صاحب حديث .

ومن وراء هذا العدد الحاصر وذاك العدد المعبر عن الكثرة أعداد لا يدركها الاحصاء التقى بهم وسمع منهم ولكنهم لم يكونوا أهلا للثقة عنده فهؤلاء أطرحهم وما رووا ولا يحسبون فى أولئك ولا فى هؤلاء .

وما أكثر ما ترك البخارى من رواة ومرويات ! يقول محمد بن أبى حاتم : سمعته يقول وقد سئل عن خبر حديث :

« يا أبا فلان ترانى أدلس ؟ تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر وتركت مثلها أو أكثر منها لغيره لى فيه نظر ؟ » .

والنظران فى هذا الخبر يختلفان ، فأولهما بحسب المقاييس المعتبرة عند غيره فى الجرح والتعديل والثانى بحسب مقاييسه الخاصة وهى أشد من تلك وأدق فى نخل الرواة وبهذا النظر وذاك أطرح كثيرا من الرجال شد اليهم الرحال .

وهؤلاء المطرحون لم يعدم البخارى استفادة من لقائهم فقد عرفهم وحفظ أحاديثهم عرفهم ليبتعد عن كل سند دخلوا فيه وحفظ أحاديثهم ليبرىء من عوارها مروياته وكتبه ولهذا لا نعجب اذا سمعناه يقول :

« أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح » .

ومهما تكن القيمة لما أفاده البخارى من لقاء هؤلاء المطرحين فانه لا يعتبرهم شيوخا له وانما شيوخه أولئك الذين وثق فيهم واستحقوا عن جدارة أن يروى لهم وهم على التحديد أولئك الذين كتب عنهم وأحصى عدتهم بألف وثمانين . وسواء فى الأستاذية له من كانوا منهم فوق سنه أو مضاهين له

أو أدنى منه فهو لا يقيس المشيخة بالأعمار ولكن يقيسها بالعدالة والضبط ونزاهة الرواية وصحة المعتقد ومتى اجتمعت هذه الصفات لراو ، تلمذ له ، وسمع منه وحدث عنه وكتب ولتكن سنه بعد ذلك ما تكون ·

وعنه أنه قال :

« ولا يكون المحدث كاملا حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه » ·

وهذا مبدأ علمى حكيم ومغزاه أن العلم نفيس أيا كانت أعمار حامليه وأن العالم الحق هو من ينشده فى مظانه ولا يترفع عن التماسه من صغير لأنه يرتفع بعلمه الى مقام خطير ·

شيوخ البخارى روافد لا تحصى

وشيوخ البخارى على كثرتهم وعلى اختلاف أمصارهم يحصرهم المحدثون فى خمس طبقات :

الطبقة الأولى : من حدثه عن التابعين : مثل محمد بن عبد الله الأنصارى حدثه عن حميد ومثل مكى بن ابراهيم وأبى عاصم النبيل فقد حدثاه عن يزيد بن أبى عبيد ومثل عبيد الله بن موسى الذى حدثه عن الأعمش ومثل خلاد بن يحيى الذى حدثهعن عيسى بن طهمان ومثل على ابن عياش وعصام بن خالد فقد حدثاه عن حريز بن عثمان وشيوخ هؤلاء كلهم من التابعين ·

والطبقة الثانية : من كان فى عصر هؤلاء ولكنه لم يسمع من ثقات التابعين : كآدم بن أبى اياس وأبى مسهر عبد الأعلى بن مسهر وسعيد ابن أبى مريم وأيوب بن سليمان بن بلال وأمثالهم ·

والطبقة الثالثة : وهى الوسطى من مشايخه وهم من لم يلق التابعين بل أخذ عن كبار تبع الأتباع كسليمان بن حرب وقتيبة بن سعيد ونعيم ابن حماد وعلى بن المدينى ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه وأبى بكر بن أبى شيبة وعثمان بن أبى شيبة وأمثال هؤلاء ·

وهذه الطبقة قد شاركه « مسلم بن الحجاج » فى الأخذ عنهم ·

والطبقة الرابعة : رفقاؤه فى الطلب ومن سمع قبله قليلا كمحمد ابن يحيى الذهلى وأبى حاتم الرازى ومحمد بن عبد الرحمن صاعقة وعبد بن حميد وأحمد بن النضر وجماعة من نظرائهم ·

وانما يخرج عن هؤلاء ما فاته من مشايخة أو ما لم يجده عند غيرهم.

والطبقة الخامسة : قوم في عداد طلبته في السن والاسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله بن أبي العاص الخوارزمي وحسين بن محمد القباني وغيرهم .

وماذا أفاد البخاري من هذه المشيخة الضخمة ؟

لقد فتحت له في المعرفة آفاقا جديدة ذهب الى أبعد غاياتها فاستزاد على ثروته السابقة من الحفظ أضعافا كثيرة ، واستضاف الى حظه من فقه الحديث وعلومه وما يضاهي هذه الزيادة الكبيرة .

أما جانب الرواية والحفظ فقد استجد له بهؤلاء الشيوخ روافد لا تحصى وجاءه من كل شيخ جديد نبع جديد وما زالت هذه الروافد تمده بالفيض الزاخر من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم — ومازالت أمدادها تتوالى على ذهنه الواعي وتنتعش في ذاكرته الحافظة الى أن جمع من ذلك نصيبا موفورا لم يظفر بمثله أحد حتى ليصير الحساب بالألوف فيما يحفظ من أحاديث الباب الواحد ، ويصبح ما يقال في تقدير روايته مثارا للدهشة والعجب .

وفيما يروى عنه أنه قال :

« لو قيل لي « تمن » لما قمت حتى أروى عشرة آلاف حديث في الصلاة الخاصة » .

وهذا مقدار ما يحمله في باب الصلاة وحدها فما عسى أن تكون جملة حفظه اذا انضم اليه ما يحفظه في سائر الأبواب ؟

ويقول وراقة بن أبي حاتم : سمعته يقول :

« مانمت البارحة حتى عددت كم أدخلت في تصانيفي من الحديث فاذا هو نحو مائتي ألف حديث » .

والذي يفهم من هذا أنه يحفظ هذا القدر ، والا ما استطاع أن يستحضره في ذهنه وأن يحصره بالعد قبل أن ينام ولا يفهم منه أنه لا يحفظ غيره لان المؤلف لا يحشد في تصانيفه جميع ما يحفظ بل ينتقي منه ما يناسبها ويؤثرها بما انتقى لها ثم يترك غيره وما أكثر ما يترك ! .

وقد يتوهم أن ما ذكره واحد منهما ادعاء أو مبالغة وذلك اذا قارناه بحقيقة العدد الذي تضمنه كتابه فالبخاري — مثلا — يقول : انه ينظر من كتابه الى مائتي ألف حديث مع أن محتويات الكتاب — الجامع الصحيح — أقل من ذلك بكثير .

. والواقع أنه لا تعارض الا فى الظاهر فما أراد بعبارته احصاء ما أودع من الأحاديث ولا قصد أن يحدد عددها بسبعين ألفا أو مائتى ألف .

وانما كان حديث كل منهما بصدد البيان لما يستحضره فى ذهنه عندما أودعه كتابه وكلاهما يستحضر العدد الذى ذكر ، لأنه مقدار الأحاديث التى تمثلها بذهنه ، وجعلها نصب عينيه ليختار منها مادة الكتاب بل هو مقدار الأحاديث الصحيحة التى انتقى منها هذه المادة ، فضلا عما عداه من غير الصحيح ويؤكد هذا ما روى عنه من وجهين ثابتين أنه قال عن كتابه الجامع الصحيح :

« أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بينى وبين الله » .

فهذه الستمائة ألف فيها الصحيح وغيره فترك غير الصحيح كله لأنه لا يرضى لكتاب من كتبه أن يتضمن شيئا منه ، ثم ترك من الصحيح كثيرا حتى لا يطول الكتاب وهو يصرح بذلك فيما ينقله الرواة عنه فيروى الاسماعيلى انه قال : « لم أخرج فى هذا الكتاب الا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر » .

البخارى من الأفذاذ الذين اختارتهم الأقدار لخدمة الحديث النبوى

وقد يصادفنا بعض المطبوعين على التهجم ، أولئك الذين يريبهم دائما أن يذكر الناس بالفضل ويطعنون كل حقيقة بالشك قد يصادفنا بعض هؤلاء فينكرون كل ما روى عن البخارى فى عبد محفوظه ويعتبرونه اختلافا من الرواة عليه أو ادعاء وتزيدا منه ولهؤلاء نقول : انه لا اختلاق ولا ادعاء وما هى الا الحقيقة الخالصة ففى الرجال نوادر من الأفذاذ النابهين تختارهم الأقدار لبعض جوانب النشاط الانسانى وتسمو بقدراتهم وطاقاتهم فيه على المعايير المألوفة للناس ولا تجود بأمثالهم الا بين الحين والحين وهؤلاء لا ينبغى لأحد أن يقيسهم بطاقته المحدودة ولا أن يتعرض لأقدارهم قبل أن يتعرف على مواهبهم وكفاياتهم وأن يعتبرها بمتطلبات النشاط الذى وجهتهم العناية اليه وملكتهم زمام الشهرة فيه فان كانت مواهبهم دون ما نالوا من شهرة فليطعن بما شاء والا فليقطع كل لسان قبل أن يمسهم بسوء .

والبخارى واحد من هؤلاء الأفذاذ النادرين والعمل الذى وهبه حياته هو خدمة الحديث النبوى الشريف والامتياز الذى ناله كان فى متطلبات

هـذا العمل ومن أهمها الحفظ الغزير والأمداد التى رويت فى تقدير المشهور من حفظه لا تعلو على مستوى كفايته بل هى دونه بكثير فالعناية التى اختارته لهذا العمل العظيم منحته من أسباب التوفيق ما يضمن له النجاح وسلحته من استعداده النفسى يرجع فى أسبابه الظاهرة الى أنه وفق من صغره فى اختيار عمله وقد عبر عن هذا أروع تعبير حين قال : « ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكتاب » فكأنما بما اختار من كلمة الالهام يعبر عن ابتهاجه بما وفق اليه ، ويعلن الشكر على أن هداه الله لما يوافق ميله ويناسب طبعه وليس بالأمر الهين أن يوفق الانسان فى اختيار عمله أيا كان نوعه فهو عنصر مهم للنجاح ، لأنه يملأ النفس ارتياحا للعمل ويوفر رغبتها فيه وتعلقها به ويضمن استمرارها على الاخلاص له فما بالنا اذا كان عملا دينيا جليلا لو افترضنا أنه لا يعقب كسب الدنيا كان من المحقق أنه يكسب ثواب الآخرة ؟

وقد تجلت هذه المعانى فى البخارى بأروع صورهـا وتمثلت فى انقطاعه لخدمة الحديث طيلة لمره وفى شدة اقباله على طلبه وجمعه فى تفريغ باله من كل شىء الا منه واشتغال قلبه به حتى فى أوقات الراحة والنوم شواهد ذلك فيما يرويه أصحابه ٠

★★★

هذا هو البخارى الذى وهب حياته لخدمة الحديث وجمعه ووفق فى اختيـار هذا العمل من صغره فاطمأنت نفسه اليه وامتلأت رضا به فاقبلت بكل جارحة عليه وأخلصت وقتها وجهدها له وأفنت عمرها فيه ٠

وهذا هو البخارى وما منح من قوى عقلية فذة تلائم عمله ، فصفاء ذهنه نادر المثال وقوة حفظه تسابق السمع والبصر فى الوعى والتسجيل وتنافس البحر فى اتسـاع الجنبات والتقبـل لكل فيض يجىء فتحفظ الكتاب من اطلاعة واحدة وتسـتوعب خمسة عشر ألف حديث فى ستة عشر يوما وتبهر الناس فيظنونها مجتلبة بعلاج وتثبت فى مواقف التحدى فلا تضطرب ولا تخور ٠

هذا هو البخارى وهذه استعداداته ومواهبـه ، فليس بالكثير ولا الغريب أن يذكر فى حفظه ما ذكر من الأعداد ٠

★★★

مؤلفات البخارى

ويبقى بعد ذلك بيان ما صنفه البخارى من كتب وعمدتنا فيه ما صنعه الامام الحافظ بن حجر فقد عد له واحدا وعشرين كتابا وذكر مع الكثير منها أسماء من عرفوا بروايتها أو الذين انتفعوا بالنقل عنها ، ونبه على ما كان موجودا منها عنده ومرويا له بالسماع أو بالاجازة وهذه هى الكتب على حسب ترتيبها فى ذكره لها ، بالجزء الثانى من كتابه « هدى السارى » :

١ ـ الجامع الصحيح : وسنتحدث عنه بتفصيل فيما بعد ونكتفى هنا ببعض ما ذكره ابن حجر عن رواته ومنها : ان الذين سمعوه من البخارى تسعون ألفا وان الفربرى واحد منهم وان روايته هى التى اتصلت بالسماع فى عصر ابن حجر وما قبله .

٢ ـ الأدب المفرد .

٣ ـ رفع اليدين فى الصلاة .

٤ ـ القراءة خلف الامام .

٥ ـ بر الوالدين .

٦ ـ التاريخ الكبير : وهو ثانى كتبه فى التأليف ألفه فى الليالى المقمرة عند قبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الثامنة من عمره وهو الكتاب الذى بلغ من اعجاب الامام اسحاق بن راهويه به أن حمله الى الأمير عبد الله بن طاهر وقال له : أيها الأمير الا أريك سحرا ؟ وهو الكتاب الذى يقول فيه أبو أحمد الحاكم : انه « كتاب لم يسبق اليه ومن ألف بعده شيئا من التاريخ أو الأسماء أو الكنى لم يستغن عنه فمنهم من تسبه الى نفسه مثل أبى زرعة وأبى حاتم ومسلم ومنهم من حكاه عنه فالله يرحمه فانه الذى أصل الأصول «طبقات الشافعية» » .

٧ ـ التاريخ الأوسط .

٨ ـ التاريخ الصغير .

٩ ـ خلق أفعال العباد .

١٠ـ كتاب الضعفاء .

وابن حجر يعقب على هذه العشرة بقوله : « وهذه التصانيف موجودة مروية لنا بالسماع أو بالاجازة » .

١١ـ الجامع الكبير .

١٢ـ المسند الكبير : ويظهر أنه مع الجامع الكبير قد اشتملا على كل الأحاديث الصحيحة التى قال انه يحفظها والتى اختصر منها كتابه

« الجامع المسند الصحيح » بدليل أنه يسميه المختصر أيضا ويظهر أن هذا الكتاب قد أخملهما وصرف الناس عنهما ، فلم يبق من أثرهما فى زمن ابن حجر غير ما يرد من تسميتهما فى الكتب أو على ألسنة الشيوخ .

١٣ــ التفسير الكبير : ذكرى الفربرى أنه كان مع البخارى وهو يؤلفه أثناء اقامته فى « فربر » وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة الجزائر كما فى « دائرة المعارف الاسلامية » ونسخة أخرى فى مكتبة باريس كما يقول « بروكلمان » .

١٤ــ كتاب الأشربة .

١٥ــ كتاب الهبة .

١٦ــ كتاب « أسامى الصحابة » : ذكره أبو القاسم بن منده وذكره أنه يرويه عن طريق ابن فارس سماعا عن البخارى ، وقد نقل منه أبو القاسم البغوى للكبير فى كتابه « معجم الصحابة » ونقل منه أيضا ابن منده فى كتابه « المعرفة » .

١٧ــ كتاب « الوحدان » : وهم من ليس لأحدهم الا حديث واحد من الصحابة وقد نقل منه ابن منده فى كتابه « المعرفة » أيضا .

١٨ــ كتاب « المبسوط » .

١٩ــ كتاب « العلل » .

٢٠ــ كتاب « الكنى » .

٢١ــ كتاب الفوائد .

هذا هو الثبت الذى أورده ابن حجر وهو لا يشمل الا ما عرفه من كتب البخارى وقد كانت له كتب أخرى لم يصله علمها فلم يذكر منها :

٢٢ــ كتاب « سنن الفقهاء » .

٢٣ــ كتاب « الضعفاء » : وهو كتاب آخر فيهم غير ما ذكره ابن حجر فقد أورده مجردا عن الوصف مع أن للبخارى كتابين بهذا الاسم أحدهما « الضعفاء الكبير » والثانى « الضعفاء الصغير » ، ولكل منهما نسخة خطية فى مكتبة « باتنه » والثانى منهما طبع مرتين احداهما مع كتاب المنفردات والوحدان لمسلم سنة ١٣٢٣ هـ والأخرى منفردا سنة ١٣٢٥ هـ . ومنهما كذلك :

٢٤ــ كتاب « قضايا الصحابة والتابعين » : وهو أول كتاب ألفه .

ولا مجال للاشتباه فى أن يكون هو المذكور باسم « أسامى الصحابة » لعطف التابعين على الصحابة فيما ذكر هنا ، لأنه جعله خاصا بمن

له قضاء فى أحكام الشريعة من الفريقين فان هذا وذاك مما يبعد أن يكون الاسمان لكتاب واحد ·

ولا نستبعد أن تكون للبخارى كتب أخرى قد غابت مع أسمائها . واذا كان ابن حجر قد فاته استيفاء كتبه مع شدة غرامه به وشدة تقصيه لأخباره وكثرة ما روى من كتبه فليس من المستبعد أن يفوت هذا الاستيفاء على غيره من المؤرخين ·

هذا ما يعرف الآن من الكتب الباقية للبخارى ونرجو الله أن يقدر الباحثين على معرفة غيرها بين ما تغيبه بطون المكتبات من نفائس الذخائر ونسأله — سبحانه — أن يكتب لما بقى من مخطوطاتها أن يطبع وينشر وان ينفع المسلمين بها استجابة لرجاء صاحبها انه سميع مجيب ·

ولعلنا بما أسلفنا من سيرة البخارى قد استطلعنا مبلغ توفيق الله له فى حياته العلمية وأدركنا مقدار نجاحه فى كل مظهر من مظاهر هذه الحياة ·

فقد رأيناه تلميذا طموحا يخلص نفسه لطلب العلم فيجعله غاينه ووكده ، ويصفيه وقته وجهده ويرتحل اليه بكل مصر ، وينتجع له كل شيخ ولا يكون له مأرب سواه ·

ورأيناه أستاذا نابها موثوقا بعلمه مرهوقا فى كل مكان فيستوقفه الناس فى الطرقات ليكتبوا عنه ويجلس اليه الشيوخ والأقران ليفيدوا منه ويكثر عدد تلاميذه حتى ليعدون بعشرات الألوف ·

ورأيناه مؤلفا موهوبا خصيبا فى نتاجه حصيفا فى تأليفه فيخرج من عديد كتبه ما يستوعب فروع تخصصه ويتجهز لكل كتاب بما وسعته كفايته من مادة علمه ويأخذ نفسه فى تأليفه بالأناة والصبر ويعاوده المرات بالمراجعة والنظر وبالتنقيح والتهذيب حتى يبلغ به الرضا عن نفسه ، ومن نفوس العلماء ·

وقد وجدت هذا الكمال العلمى عند البخارى ، ما يؤازره ويجعله من كمال نفسه فقد كان رحمه الله — انسانا سويا عظيم الخلق رضى السلوك مع الناس ومع الله وبذلك تواشجت عناصر شخصيته وتلاقت على الرشد واستوقف حظها من صفات العلماء والأبرار ·

فقد كان شجاع الرأى جريئا فى الحق فلا يجمجم على الخطأ مهما يكن مصدره ولا يقدم على تصويبه ولكن يبادر ببيان حاله قبل أن يجوز على عقول شهوده ولهذه الشجاعة العلمية كان لا يصبر على أغلاط شيوخه بل يسارع بالتنبيه عليها قبل أن تمر ويظنها الحاضرون صوابا وكانت هذه السنة شعاره منذ صغره ·

أعظم عمل علمى يجله المسلمون

لقـد وجد قبل محمـد بن اسماعيل البخارى كثير من الأئمة الذين أخلصوا النية فى جمع الحديث النبوى الشريف وصدقوا الهمة وبذلوا غاية الوسع لخدمته والعناية به ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه أبو عبد الله من بعد الصيت وسمو المنزلة بين الناس ·

ولا عجب فى أن يتسامى البخارى فى فضله على أهل عصره ولا فى أن ينفرد دونهم جميعا بأوسع مجال للشهرة وأرفع مقام من التقدير فقد اجتمع له ما لم يجتمع لأحدهم من مظاهر النبوغ والامتياز ومن تكامل الصفات العلمية والخلقية وبذلك سطع نجمه عاليا فى الآفاق فتضاءلت أمامه أقدار الرجال كما تسطع الشمس فيذوب فى ضوئها البـاهر ونور وقد تبينا حقيقة ذلك فيما أسلفنا من حديثنا عنه ·

ثم لا عجب في أن يمضى البخـارى الى ربه ويبقى اسمه مسـتأثرا بموضع الفاتحة من كتاب المحدثين لا ينافسه فيه مزاحم وأن يظل منفردا بالمقام الأسمى دون أن يرتفع الى سمائه واحد ممن جاءوا بعده ، لا عجب فى ذلك وقد ارتبط اسمه وذكره بأعظم عمل علمى يجله المسلمون وهو كتابه الذى ضمنه أصح ما صح عنده من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذى عرف المسلمون عالى قدره فعظموه واعتبروه أصح كتاب بعد كتاب الله وذلك هو الكتاب الذى نشرع الآن فى التعريف به ·

والاسم الذى اختاره البخارى لهذا الكتاب هو : « الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسننه وأيامه » كما رواه ابن حجر وهو : « الجامع المسند الصـحيح المختصر من أمور رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسننه وأيـامه » كما يـذكره ابن الصلاح وليس بين الروايتين كبير اختلاف،وبخاصة اذا صح ما نرجحه وهو أن كلمة « المختصر » قد سـقطت بسهو النساخ من عبارة ابن حجر فى مطبوعة « هدى السارى » ، بدليل أنه ذكرها بعد كلمة «المسند» فى مقدمة كتابه « النكت » وهو كتاب أراد أن يجعله مختصرا لكتاب « فتح البارى » ولكنه مات قبل أن يفرغ منه ·

والاسم على كلتا الروايتين فيه طول غير مألوف فى أسماء الكتب وليس من السهل أن يورده المتكلم بتمامه عندما يقصد الاشارة الى الكتاب ولذلك كان البخارى نفسه يجتزى ببعض ألفـاظ هذا الاسـم تحاشـيا للطول ·

فربما سماه « الجامع الصحيح » كما ورد فى قوله : « كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم مختصرا لصحيح سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع « الجامع الصحيح » .

وربما اكتفى بتسميته « الجامع » كما جاء فى قوله : « ما أدخلت فى كتابى (الجامع) الا ما صح وتركت من الصحيح حتى لا يطول » .

وربما اقتصر فى التسمية على كلمة « الصحيح » ومن ذلك قوله : ما كتبت فى كتاب « الصحيح » حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين .

بل ربما ابتعد عن الاشارة الى الكتاب عن كل الألفاظ التى تألف منها عنوانه فسماه « البخارى »وجعله شريكا له فى الشهرة بهذا الاسم بين الناس وذلك كما جاء فى قوله من رواية محمد بن أبى حاتم الوراق : « لو نشر بعض أستارى !! هؤلاء لم يفهموا كيف صنفت « البخارى » ولا عرفوه » .

واذا كان البخارى قد أطال فى تسمية كتابه فقد جعل اسمه بهذا الطول غير المألوف عنوانا دقيقا شاملا لكل مزايا الكتاب وخصائصه وموضحا لمنهجه فى تأليفه وهذا أمر بين يدركه كل من درسه ومارس القراءة فيه .

فهو « جامع » لانه لم يقتصر فيه على أحاديث موضوع واحد كما كان يصنع كثير من المؤلفين قبله وكما صنع هو فى بعض كتبه الأخرى بل نوع فى موضوعاته وجعله شاملا لفروع كثيرة من العلم فى الأحكام، والفضائل، والآداب ، والتفسير ، والأخبار ولذلك بلغت أبوابه ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسين بابا فى بعض نسخ الأصول جمع فيها مقادير كافية لتحقيق ما أراد من حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسننه وأيامه .

وهو « صحيح » فى كل ما أورده من أحاديثه الأصول وهى التى أخرجها فى متون الأبواب موصولة السند الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأفردها بطابع يميزها وينبه اليها وهو التصريح بقوله « حدثنا » وما يقوم مقامها والعنعنة بشروطها الذى التزمه وتشدد فيه ، فكل حديث ورد فى كتابه على هذا النحو فهو صحيح عنده .

ولعله مما يجمل فى هذا الموضع أن نبين صنيع البخارى لتمييز الأحاديث التى أوردها بالكتاب معتمدين فى ذلك على ملاحظة الحافظ بن حجر وهى ملاحظة جديرة بالتقدير .

فهو ان وجد حديثا يناسب الباب ولو على وجه خفى ووافق شرطه أورده فيه بالصيغة التى جعلها مصطلحة لموضوع الكتاب وهى : « حدثنا » وما قام مقامها والعنعنة بشرطها عنده ·

وان لم يجد فيه الا حديثا لا يوافق شرطه مع صلاحيته للحجة كتبه فى الباب مغايرا للصيغة التى يسوقها بها ما هو من شرطه ومن ثم أورده التعاليق ·

وان لم يجد فيه حديثا صحيحا لا على شرطه ولا على شرط غيره وكان مما يستأنس به ويقدمه قوم على القياس ، استعمل لفظ ذلك الحديث أو معناه ترجمة باب ، ثم أورد فى ذلك اما آية من كتاب الله تشهد له أو حديثا يؤيد عموم ما دل عليه ذلك الخبر ·

ولا يعكر على وصف الكتاب بالصحة أن أشتمل على أحاديث أخرى ليست من شرط صاحبه لا يعكر هذا ما دام البخارى قد أعطى كلا من النوعين ما يميزه عن الآخر وعلى هذا الاعتبار ـ اعتبار تمييزه كلا من الصحيح وغيره بطابع خاص ـ يجب أن نفسر ما رواه ابراهيم بن معقل النسفى من قوله : « ما أدخلت فى كتابى الجامع الا ما صح » بأن المراد أنه على هذا النحو وبهذا الطابع الخاص من صلة على الطريقة المعينة ويؤكد صحة هذا التفسير ما رواه الاسماعيلى من قوله : « لم أخرج من هذا الكتاب الا صحيحا » فمعناه أنه لم يورده على غرار ما التزمه فى أحاديثه الأصول ·

وهو « مسند » بالنظر الى أحاديثه الأصول أيضا فهو لم يورد فى الكتاب شيئا من المراسيل والمنقطعات والبلاغات اللهم الا ما يكون فى غير الأصل كالتعليقات والتراجم وقصر متون الأبواب وأصول أحاديثها على ما اتصل سنده بأحد الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا كان أو فعلا أو تقريرا ·

والحق أن الصحة والاسناد متلازمان فاتصال السند شرط فى الصحيح عنده وما دام موضوع كتابه هو الأحاديث الصحيحة كان لابد أن تجىء متون أبوابه وأصولها جميعها مسندة ، وهذا ما تم لكل أصول الأبواب والأحاديث التى هى من الموضوع الأصيل للكتاب ·

ولا يعنى هذا أن كل ما ترك البخارى اسناده فى الكتاب ليس من الصحيح على شرطه فالواقع أن فيما أورده غير موصول أحاديث صحيحة على شرطه ، وأخرى لاتعد عنده من الصحيح ·

أما ما كان مهما صحيحا على شرطه فهو يورده بغير اسناد لواحد من أمور · اما قصدا الى التخفيف لأنه ذكره فى موضع آخر موصولا ، اذ من

قاعدته أنه لا يكرر الا الفائدة فمتى ضاق المخرج ، واشتمل المتن على أحكام فاحتاج الى تكريره ، فانه يتصرف فى الاسناد بالاختصار خشية التطويل ، فهو يترك الاسناد عمدا تجنبا للتكرار واعتمادا على أن صحة الحديث تعرف من ذاك الموضع الذى وصله فيه ·

واما الاستغناء عن وصله بوصل غيره وايراده معلقا لافادة الاشارة اليه وتجنيب اهماله ، واما لانه لم يسمع من شيخه أو سمعه مذاكرة أو شك فى سماعه ولذلك لم يستسغ أن يسوقه مساق الأصول ·

وكذلك فعل بالأحاديث التى لا تكتسب وصف الصحة على شرطه فقد تعمد ترك اسنادها لينبه على أنها خارجة عن موضوع كتابه ·

وهو « مختصر » لأنه لم يستوعب فيه كل ما صح عنده من حديث النبى — صلى الله عليه وسلم — بل اقتصر فيه على مقدار يسير جدا مما كان يحفظه من صحاح الحديث فقد كان له منها ثروة طائلة حتى صرح فى بعض أحيانه أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح وأين يقع منها مقدار ما اختاره للكتاب؟ ·· وهو لم يقتصر على هذا اليسير الذى أورده الا ليحمى الكتاب من الطول فاكتفى فى كل باب بما يثبت أصل موضوعه وان كان وراءه الكثير والأكثر من الصحيح ، رغبة فى الاختصار ·

وقد صرح بهذا المعنى قال : « ما أدخلت فى كتابى الجامع الا ما صح وتركت من الصحيح حتى لا يطول » وصرح مرة أخرى بأنه ما تركه من الصحاح أكثر مما أخذه للكتاب وذلك فيما رواه الاسماعيلى من قوله : « لم أخرج فى هذا الكتاب الا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر » قال الاسماعيلى : « لانه لو أخرج كل صحيح عنده لجمع فى الباب الواحد حديث جماعة من الصحابة ولذكر طريق كل واحد منهم اذا صحت فيصير كتابا كبيرا جدا وهذا قول وجيه ، لأن ما أورده فى الكتاب لا يصل الى عشر المعشار بالنظر الى محفوظه من صحاح الأحاديث ·

***

هذه هى الصفات التى تضمنها اسم الكتاب والتى حرص البخارى على أن يحققها فيه · ولا شك أن وصف الصحة هو أهمها وقطب الرحى منهـا ، فالى أى مدى ذهب البخارى فى تحرى هذا الشرط وفى تطبيقه على الأحاديث التى هى أصل موضوع الكتاب ؟

ان مدار الحديث الصحيح — كما يقول الحافظ بن حجر — انما هو على اتصال السند واتقان الرجال وعدم العلة وقد ارتفع البخارى فى كل منها الى منزلة عالية ·

***

فاتصال السند قد تشدد البخارى فى تحريه ، الى حد لم يبلغه غيره ويظهر ذلك فى نظره الى الاسناد المعنعن ، فهو لا يعطيه حكم الاتصال الا اذا ثبت عنده اجتماع المعنعن عنه ولو مرة وقد أظهر هذا المذهب فى تاريخه وجرى عليه فى صحيحه وأكثر منه حتى انه ربما خرج الحديث الذى لا تعلق له بالباب جملة وما ذلك الا ليبين سماع روايته من شيخه ، لأنه قد أخرج له قبل ذلك شيئا معنعنا ·

واشتراط اللقاء بين المعنعن وشيخه من الأمور الخاصة بالبخارى والتى تميز بها عن كل أصحاب الصحيح ومنهم الامام مسلم حيث كان يكتفى بالمعاصرة لاعطاء الاسناد المعنعن حكم الاتصال ·

***

واتقان الرواة كان من الأمور التى يتحراها البخارى جهده فى رجاله، ولذلك اذا نظرنا الى المتحدث فيهم من رواته وجدنا عددهم قليلا بالنسبة الى جملة من روى عنهم فى الكتاب ويهون من شأن وجودهم بين رجاله أنه لم يكثر من تخريج أحاديثهم وأن أكثرهم من شيوخه الذين لقيهم وعرف أحوالهم واطلع على أحاديثهم وميز جيدها من موهومها ·

وقد تعرض الحافظ بن حجر لدراسة أحوال هؤلاء المتكلم فيهم من رجال البخارى دراسة ناقدة ، وقدم لذلك بقاعدة عادلة فى اعتمادها انصاف لأكثر المطعون عليهم من رجال الصحيح وبخاصة رجال البخارى ومسلم ولذلك نوردها بتمامها ·

قال الحافظ بن حجر : « ينبغى لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأى راو كان مقتضيا لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته ولا سيما ما انضاف الى ذلك من أطباق جمهور الأئمة على تسمية الكتابين بالصحيحين وهذا معنى لم يحصل لغيره من خرج عنه فى الصحيح فهو بمثابة اطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما هذا اذا خرج له فى الأصول ، فأما ان خرج له فى المتابعات ، والشواهد ، والتعاليق ، فهنا تتفاوت درجات من أخرج له منهم فى الضبط وغيره من حصول اسم الصدق لهم وحينئذ اذا وجدنا لغيره فى أحد منهم طعنا فذلك الطعن مقابل لتعديل هذا الامام فلا يقبل الا مبين السبب مفسرا بقادح يقدح فى عدالة هذا الراوى وفى ضبطه أو فى ضبطه لخبر بعينه ، لأن الأسباب الحاملة للأئمة على الجرح متفاوتة منها ما يقدح ومنها ما لا يقدح وقد كان الشيخ أبو الحسن المقدسى يقول فى الرجل الذى يخرج عنه فى الصحيح : « هذا جاز القنطرة » يعنى بذلك أنه لا يلتفت الى ما قيل فيه ، قال الشيخ أبو الفتح القشيرى فى مختصره :

« وهكذا نعتقد ، ابه نقول ، ولا نخرج عنه الا بحجة ظاهرة وبيان شاف يزيد فى غلبة الظن على المعنى الذى قدمناه من اتفاق النـاس بعد الشـيخين على تسـمية كتابيهما بالصـحيحين ومن لوازم ذلك تعـديل رواتهما » ٠

ونتيجة هذه القاعدة ــ كما قررها ابن حجر ــ أنه لا يقبل الطعن فى واحـد منهم الا بقادح واضح من أسباب الجرح المختلفة وهى : البـدعة والمخالفة والغلط وجهالة الحال ودعوى الانقطاع : بأن يدعى أن الراوى كان يدلس أو يرسـل وقد شرح هذه الأسباب مبينـا درجات كل منها وطريقة تطبيقه وذكر نتيجة مجملة لهذا التطبيق على رجال البخارى فى عمومهم وهى نتيجة مشرفة وباعثة على الاطمئنان اليهم كل الاطمئنان ٠

ثم أتبع ذلك بحـديث مفصـل عن المتكلم فيهم ممن أخرج البخارى أحاديثهم فى صورة الاتصال فتحدث عن كل واحد منهم مع حكاية الطعن الموجه اليه والتنقيب عن سببه والقيـام بجوابه والتنبيه على وجه رده ، وحق له بعد هذا الوزن الدقيق أن يقول : « قد وضح من تفاصيل أحوالهم ما فيه غنى للمتأمل ولاح من تمييز المقالات فيهم ومقدار ما أخرج المؤلف لكل منهم ما ينفى عنه وجه الطعن للمتعنت » ٠

ثم سلك هـذا المسلك بايجاز فيمن طعن عليهم ممن علق البخارى شيئا من أحاديثهم ، فعلى رغم أنه لا يضر البخارى شىء مما قيل فيهم ولو كان قادحا فانه لم يشأ أن يتركهم نهبا للطعون الباطلة ٠

وبعـد أن فرغ من وزنه لهؤلاء وأولئك ، ومن حديثه عنهم واحدا فواحدا وتبين ما له وما عليه بعد ذلك سرد أسماء المضعفين منهم دون حق بسبب الاعتقاد وأسماء المضعفين بأمر مردود كالتحامل أو التعنت أو عدم الاعتماد على المضعف لكونه من غير أهـل النقـد ، أو لكونه قليل الخبرة بحديث من تكلم فيه أو بحاله أو لتأخر عصره ٠٠٠ الـخ ٠

ثم عقب على ذلك بقوله :

« فجميع من ذكر فى هذين الفصلين ممن احتج به البخارى لا يلحقه فى ذلك عيب لما فسرنـاه وأما من عدا من ذكر فيهما ممن وصف بسوء الضبط أو الوهم أو الغلط ونحو ذلك ــ وهو القسم الثالث ــ فلم يخرج لهم الا ما توبعوا عليه عند غيره وقد شرحنا من ذلك ما فيه كفاية ومقنع » ٠

واذا صـفينا حساب المتكلم فيهم من رجال البخارى بعد صـنيع الحافظ بن حجر تبين أن هذا القسم الأخير قلة ومع ذلك لا يضير البخارى أنه خرج لهم شيئا توبعوا عليه لأنه صار قويا بالمتابعة ٠

★★★

أما الأمر الثالث مما يدور عليه الصحيح وهو عدم العلة فقد تحقق لصحيح البخارى منه أوفر الحظ وقد تتبع النقاد أحاديثه فكانت جملة ما يأخذه عليه المغالون عشرة ومائتى حديث شاركه مسلم فى اثنين وثلاثين منها وانفرد هو بثمانية وسبعين حديثا والعدد جميعه على فرض التسليم فيه لهؤلاء المغالين ــ لا يمثل الا قدرا ضئيلا بالنسبة لما تضمنه الكتاب من ألوف الأحاديث ٠

ومع ذلك فأن مآخذ هؤلاء النقــاد لم تسلم على التمحيص فقد كان للبخارى نقاد آخرون كشفوا وجه الحق عن صحة هذه الأحاديث اللهم الا نزرا يسيرا لا يؤثر فى أصل موضوع الكتاب ٠

والحافظ بن حجر أحد الذين انتدبوا لتبيان الحق فى هذا الأمر فبدأ بدفاع اجمالى يشمل البخارى ومسلم ، وشفعه بتقسيم الأحاديث التى انتقدت عليهما الى ستة أقسام مع بيان طريقة الفصل بين الصحيح والمعل فى كل قسم ثم تناول الأحاديث فوضعها واحدا بعد واحد فى الميزان ، ثم سجل خلاصة بحثه عقب آخر حديث منها فى قوله : « هذا جميع ما تعقبه النقاد والعارفون بعلل الأسانيد المطلعوم على خفايا الطرق ٠٠ وليست كلها قادحة بل أكثرهم الجواب عنه ظاهر والقدح فيه مندفع وبعضها الجواب عنه محتمل واليسير منه فى الجواب عنه تعسف كما شرحته مجملا فى أول الصــل وأوضحته مبينــا أثر كل حديث منهــا فاذا تأمل المنصــف ما حررته من ذلك عظم مقدار هذا المصنف فى نفسه وجل تصنيفه فى عينه، وعذر الأئمة من أهل العلم فى تلقيه بالقبول والتسليم وتقديمهم له على كل مصنف فى الحديث والقديم وليسا سواء من يدفع بالصدر فلا يأمن دعوى العصبية ومن يدفع بيد الانصاف على القواعد المرضية والضوابط المرعية فلله الحمد الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ٠٠» ٠

مكانــة الكتاب العلميــــة

وحسبنا ما قدمنا من أوصاف الكتاب ففيه الكفاية لكشف المهم من مزاياه وفى ضوئه نستطيع أن نبين منزلته بين كتب الحديث ما ســبقه منها وما تأخر عنه ٠

والمتتبع لحركة التدوين فى الحديث يــدرك لأول وهلة أن كتاب البخارى كان فتحا جديــدا فى خدمة السنة النبوية وأنه لم يسبق بنظير أو مقارب فى سمو مكانته العلمية فما صنف على غراره منذ ابتدأ المسلمون كتابة الحديث على عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى جاء البخارى فاهتدى الى طريقته الجديدة ٠

وبيان ذلك أن ما دون من الحديث على عهد النبوة وفي عصر الصحابة لم يكن مدونا فى جوامع ولا مرتبا على أبواب وانما كانت صحائف يجمع فيها الصحابى ما سمعه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وصحيفة أنس بن مالك وصحيفة جابر بن عبد الله الأنصارى أو صحائف يجمع فيها الصحابي ما سمعه هو بنفسه مع ما بلغه به أحد الصحابة الذين سمعوه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالذى يروى عن صحيفة كانت لأبي بكر ـ رضى الله عنه ـ ثم أحرقها مخافة أن يكون فيها شيء أخذه عمن ائتمنه ووثق فيه وهو غير أهل للثقة والائتمان ٠

وقبل نهاية القرن الأول كان قد جد من الأمور ما قويت معه الحاجة الى مضاعفة الجهد فى تدوين الحديث فكتب عمر بن عبد العزيز ـ رضوان الله عليه ـ الى أهل الآفاق يحثهم على جمع الحديث وتدوينه خوفا من دروس العلم وذهاب العلماء فكان من أوائل المستجيبين له : أبو بكر بن حزم ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى حيث كتب له الأول ـ كما طلب منه ـ ما كان من الحديث عند عمرة بنت عبر الرحمن الأنصارية وكتب الثانى مؤلفه الذى انتفع به كثير ممن جاءوا بعده ٠

ثم تتبع التدوين بعدهما من علماء الأمصار ٠

فمنهم من كان يصنف الأحاديث فى مجموعات تشتمل كل منها على باب واحد ومن أول المؤلفين على هذا النحو الربيع بن صبيح وسعيد ابن أبى عروبة ٠

ومنهم من كان يدون الأحاديث مرتبة على أبواب الأحكام من هؤلاء : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج والامام مالك بن أنس بالمدينة وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى بالشام وسيفان بن سعيد الثورى بالكوفة وحماد بن سلمة بن دينار بالبصرة وعبد الله بن وهب والليث ابن سعد بمصر ٠

ومنهم من ألف على المسانيد ومن هؤلاء أبو داود سليمان بن داود الطيالسى ومسدد بن مسرهد بالبصرة وعبيد الله بن موسى العبسى بالكوفة وأسد بن موسى الأموى ونعيم بن حماد الخزاعى بمصر والامام أحمد ابن حنبل ببغداد وعثمان بن أبى شيبة ٠

ومنهم من ألف الأبواب والمسانيد معا كأبى بكر بن أبى شيبة ٠

والجهود التى بذلها هؤلاء النبلاء جهود مشكورة وأجرهم عليها مضاعف عند الله غير أن الانتفاع الكامل بمؤلفاتهم كان ضيق الحدود ٠

فالكتب التى ألفت على أبواب الأحكام لم يقتصر أصحابها على حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل ضموا اليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم وذلك تحقيقا لأغراضهم من تبيين الأحكام الفقهية ٠

وكتب المسانيد لا يمكن الرجوع فيها الى حديث الا اذا عرف الصحابى الذى روى عنه ليمكن البحث عنه فى مسنده ٠

هذا الى ما يؤخذ على النوعين جميعا وهو جمعها لكل ما يصل اليه المؤلف من أحاديث سواء منها : الصحيح والحسن والضعيف ٠

ولا شك فى أن كل نمط من أنماط التاليف السابقة كان موافقا لمتطلبات عصره ومناسبا لطور التأليف لا يقتضى غيره ولكنها ـ بتقدم الزمن ـ أصبحت دون ما ينبغى عمله فى نظر المحدثين وتولد فى نفوسهم احساس بضرورة عمل جديد تكون غايته خدمة الحديث النبوى خدمة كاملة تخلصه مما اختلط به ، وتميز صحيحه من سقيمه ، وتسهل الانتفاع به على الناس ٠

فلما جاء البخارى كان هذا الاحساس قد قوى حتى أصبح رغبة ينادى بها العلماء فكان أول مستجيب لتحقيق هذه الرغبة وكان المنادى بها أستاذه اسحاق بن ابراهيم بن حنظلة المعروف بابن راهويه وفى ذلك يقول ابراهيم بن معقل النسفى : « قال أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى :

كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح » ٠

ولم تكن أمنية الامام ابن راهويه هى كل ما وجه البخارى الى تأليف الكتاب فقد سمعها معه أقرانه دون أن يحاول أحدهم تحقيقها ولكن ارادة الله سهلت له طريق الفوز فضمت الى نداء أستاذه حافزا آخر له حظه الأسمى عند أمثاله من أقوياء الايمان وتمثل له هذا الحافز فى رؤيا تشرف فيها بحضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفسرها له أحد المعبرين بما يوجهه الى هذا العمل الجليل وقد روى عنه أنه قال : « رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكأننى واقف بين يديه وبيدى مروحة أذب بها عنه ، فسألت بعض المعبرين فقال لى : أنت تذب عنه الكذب فهو الذى حملنى على اخراج الجامع الصحيح » ٠

بهذا الحافز وذاك تحركت همة البخارى ـ رحمه الله ـ لتأليف كتابه الجامع الصحيح وقد أولاه من العناية ما لم يحظ به كتاب آخر

فانتقاه من ستمائة ألف حديث وكان لا يكتب فيه حديثا الا اذا اغتسل وصلى ركعتين ، واستخار الله وتيقن من صحته كل ذلك لأنه أراد أن يجعله حجة فيما بينه وبين الله كما قال ولشدة تحريه فيه امتد به الزمن فى تأليفه الى ستة عشرة سنة فيما روى عنه ٠

بل لقد بلغ من توقيه له ومبالغته فى اتقانه وحرصه على كمال السلامة فيه أنه أعاد النظر فى تأليفه مرات وتعهده بكثير من التهذيب والتعديل قبل أن يخرجه الى الناس وهذا ما عبر عنه بأنه صنفه ثلاث مرات ٠

لقد حقق البخارى لكتابه غاية الاتقان بما تأنى فى تأليفه ، وبما راقب الله فيه وأعانه على ذلك روايته الغزيرة وخبرته الدقيقة بنقد الحديث واحاطته بعلومه وتاريخ رجاله ، وقد رأينا من قبل مقدار ما حققه فيه من مزايا الجمع والصحة والاسناد والاختصار وهذه معان يفوق ببعضها كل كتاب سبقه فما بالنا به وقد اجتمعت كلها فيه ؟ ٠

★★★

ولا يعارض أفضلية كتاب البخارى على كل كتاب سبقه ، ما روى عن الامام الشافعى ـ رضوان الله عليه ـ من أنه قال : « ما أعلم فى الأرض كتابا فى العلم أكثر صوابا من كتاب مالك » فهذه قضية انتهى العلماء من الفصل فيها واستقروا على أن ذلك القول كان من الامام الشافعى قبل ظهور الصحيحين للبخارى ومسلم،وبين ابن حجر وجه الأفضلية بيانا دقيقا وذلك حيث يقول : « ان ذلك محمول على أصل اشتراط الصحة فمالك لا يرى الانقطاع فى الاسناد قادحا فلذلك يخرج المراسيل ، والمنقطعات ، والبلاغات ، فى أصل موضوع كتابه ، والبخارى يرى الانقطاع علة فلا يخرج ما هذا سبيله الا فى غير أصل موضوع كتابه كالتعليقات والتراجم ولا شك أن المنقطع وان كان عند قوم من قبيل ما يحتج به ، فالمتصل أقوى منه اذا اشترك كل من رواتهما فى العدالة والحفظ فبان بذلك شفوف كتاب البخارى ، على أن الشافعى انما أطلق على الموطأ أفضلية الصحة بالنسبة الى الجوامع الموجودة فى زمنه كجامع سفيان الثورى ومصنف حماد بن سلمة وغير ذلك وهو تفضيل مسلم لا نزاع فيه » ٠

★★★

أما أفضلية الكتاب على ما جاء بعد من كتب الحديث فهى موضع اجماع بين النقاد فيما عدا صحيح مسلم ، فقد ذكر ابن الصلاح أن أبا على

الحافظ النيسابورى وبعض شيوخ المغاربة : كانوا يفضلونه على صحيح البخارى ذكر هذا ورد عليه فى معرض مناقشته لقول الامام الشافعى فى حكمه بالأصحية المطلقة للموطأ وذلك حيث يقول : « وأما ما روينا عن الشافعى ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : فما أعلم فى الأرض كتابا فى العلم أكثر صوابا من كتاب مالك قال : ومنهم من رواه بغير هذا اللفظ يعنى بلفظ « أصح من الموطأ » فانما قال ذلك قبل وجود كتابى البخارى ومسلم ثم ان كتاب البخارى أصح الكتابين صحيحا وأكثرهما فوائد ، وأما ما رويناه عن أبى على الحافظ النيسابورى أستاذ الحاكم أبى عبد الله الحافظ من قال : ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج ، فهذا وقول من فضل من شيوخ العرب كتاب مسلم على كتاب البخارى ، ان كان المراد به أن كتاب مسلم يترجح بأنه لم يمازجه غير الصحيح ــ فانه ليس فيه بعد خطبته الا الحديث الصحيح مسرودا غير ممزوج بمثل ما فى كتاب البخارى فى تراجم أبوابه من الأشياء التى لم يسندها على الوصف المشروط فى الصحيح ــ فهذا لا بأس به وليس يلزم منه أن كتاب مسلم أرجح فيما يرجع الى نفس الصحيح على كتاب البخارى وان كان المراد به أن كتاب مسلم أصح صحيحا فهذا مردود على من يقوله » .

وقد أثبت الحافظ بن حجر الأصحية لكتاب البخارى بأمور فصلها وغاية القول أنه يوجد ما يشبه الاجماع على القول بأفضلية كتاب البخارى فى الصحة على كتاب مسلم ، فجمهور العلماء متفقون على هذا القول .

★★★

البخـــــلاء

الجـــــاحظ

٨٦٤ م

انها حقيقة لا تقبل الجدل والنقاش حولها ، كل أمة تعتز وتفخر بماضيها ، وكل شعب من الشعوب يتعلق بأعلام وطنه من الأدباء والفلاسفة والفنانين ، وكل مواطن فرد له نموذجه الذى يحتذيه ومثاله الذى يحاكيه . ففى انجلترا هناك شكسبير وديكنز وملتون وبرنارد شو ، وفى فرنسا بلزاك وزولا وفلوبير ومونتيسكيو وديجول وأندريه مالرو وفى ألمانيا جوته وفى الهند طاغور وفى روسيا تولستوى ودستويفسكى وتشكخوف .

ويقف الجاحظ واحدا من المعالم الثابتة الشامخة فى أدبنا العربى وسط عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والكتاب . اذن ، فان الرجوع الى كتاباته وأقواله ضرورة تحتمها الرغبة فى الاستناد الى الأصول الثوابت ويستلزمها الحرص على أن يكون ثمة نموذج يحتذى . فيه يتجسد المثال الحق للأديب ذى الأسلوب المتميز والمنهج الواضح والرؤية الاجتماعية والنظرة الموضوعية .

وهذا يبدو جليا فى مختلف آثاره وكتبه ومخطوطاته ومن ثم ينبغى أن يقدم للناس حتى يعرفوا جانبا من جوانب تراثهم ، بحيث لا يقف تصورهم للأدب أو للثقافة عند حد من يقرءون لهم فى هذه الأيام .

كاتب ذو أفق واسع وثقافة شاملة ووعى عميق بحركة الحياة فى المجتمع من حوله وقدرة فائقة على الحوار الديمقراطى والجدل الجاد الموضوعى .

وفى محاولة لتوثيق الصلة بيننا وبينه سوف تكون حلقة الاتصال صفحات من كتابه (البخلاء) نقرأ فيها ونتأمل سطورها ونقف عند صورها ثم نحاول الاشارة الى امتداداتها وتأثيرها فيمن جاء بعد من الكتاب الذين عالجوا نفس الموضوع الذى دارت حوله صفحات (البخلاء) .

ذلك أن هذا الكتاب يحمل لونا متميزا قدمه الجاحظ الى المكتبة العربية من خلال نثر فنى جيد وصور انسانية متحركة وشخصيات منتخبة من واقع الحياة العربية فى عصر الجاحظ وجاء فى النهاية لونا من

ألوان الاحتجاج على التناقض الطبقى الذى كان سائدا . فقد اختار شخصيات الكتاب من طبقة واحدة معروفة ومتميزة لها تكوينها وبناؤها المادى والفكرى والنفسى ، ولها مصالحها الفردية وقدرتها على الامتلاك والتكديس واحتكار الثروة . لعل اختيار صفة « البخل » عند أفراد هذه الطبقة من الأثرياء والموسرين واحد من أساليب الجاحظ فى اعلان موقفه الاجتماعى والفكرى معا وما السخرية المرة الفكاهة اللاذعة الا تأكيد لرفضه هذه الطبقة وما تستند اليه من أخلاقيات وقيم وما يصدر عنها من سلوك.

وصفحات « البخلاء » لن تكون ناصعة واضحة مفهومة الا بعد الاحاطة بعالم هذا الكاتب الكبير وشخصيته وظروفه وثقافته وتآليفه وموقع « البخلاء » من مؤلفاته ومكانته وأثره وهذه النقاط — جميعا — تضيف الى معرفتنا بالكتاب وتسهم فى معايشة الكاتب معايشة تامة .

★★★

شخصية البخيل فى الآداب العالمية

كان البخل موضوعا وصورا ونماذج وشخصيات ، وما زال محل تناول الآداب والفنون فى العالم .

يقول الأستاذ فاروق سعد فى كتابه « مع بخلاء الجاحظ » : ان أقدم شخصية بخيل معروفة اليوم هى شخصية البخيل كريزوس الذى تشير اليه الترهة (٢١) الاغريقية والتى تروى أن الآلهة غضبت على كريزوس يوما لشدة تقتيره وشحه فقضت عليه بأن يتحول كل ما يلمسه الى ذهب. انما لم يكن لترهة كريزوس الشهرة التى حازتها ترهة اغريقية هى ترهة الملك ميداس الذى دفعه حبه للذهب الى الدعاء والالتماس من الآلهة أن تمنحه طاقة تحويل كل ما يلمسه الى ذهب وسرعان ما أجابت الآلهة طلبه لا لوجاهته بل لتعطيه وتعطى الانسانية درسا لا ينسى.. وكانت المأساة ..

والجدير بالذكر أن البخل يقترن غالبا برغبة تكديس المال ، الأمر الذى يحملنا على اعتبار شخصية « قارون » التى تحدثنا عنها الحكايات العربية الشخصية الأسطورية الشرقية المقابلة لشخصيتى كريزوس وميداس الغربيتين .

وما يعنينا هنا هو ملاحظة أن الآداب فى معالجاتها المختلفة للبخل قد سلكت مسلكين :

ـ المسلك الأول وهو ما يعالج وجوه البخل على أساس الوحدة الروائية الطويلة (قصة ، مسرحية) وهذا هو مسلك الآداب الغربية ·

ـ أما المسلك الثانى فانه يعالج وجوه البخل على أساس عدة وحدات روائية قصيرة (نادرة ، خبر ، أقصوصة) وهو مسلك الأدب العربى ولعل ذلك مرده الى ان الأديب العربى لم يعالج موضـــوعاته في اطـــار الفنون الأدبيـــة ، تلك التى حـــددها أرسطو واعتمدها الاغريق وتبنتها الآداب الأوربية منذ عصر النهضة فى مطلع القرن الخامس عشر ثم تبناها الأدب العربى فى مطلع القرن العشرين ·

من هنا نجد الأعمال الأدبية العربية التى تناولت البخل قد عرضت نماذج وشخصيات عديدة فى اطار المعالجة الواحدة سواء أكانت فصلا من كتاب أم كتابا كاملا كمـــا هو حال البخـــلاء للجاحظ بينما نجـــد الآثار الأوروبية لم تعرض سوى لأنموذج واحد فى اطار المحاولة الواحدة ·

ولعل مسرحية أريستوفان المسماة « بلوتوس » سنة ٣٨٨ ق·م والتى ظهرت فيها أول شخصية بخيل فى الأدب ونعنى بهـــا شخصية البخيل (كريميل) هى أول عمل فنى يعالج البخيل ·

ويذكر ان « لميناندر » مسرحية مفقودة تتناول موضوع البخل وفى القرن الأول بعد الميلاد نجد الكاتب اللاتينى بلين لوجان (الشاب) يروى لنا ما حدث له خلال وجبة طعام لدى بخيل فيصف لنا أساليبه وتصرفاته مع ضيوفه وما يقدمه لهم ·

ولكن شخصية البخيل اكليون بطل مسرحية «القدر» أو «قدر الذهب» التى كتبها « بلوت » حوالى سنة ١٩٥ ق·م كانت الأنموذج الذى احتذته كل من مسرحيتى : لورنزينودى مدسـيس المســـــماة « اردیـــوزا » (سنة ١٥٣٦) وجب جلى « التى تحمل عنوان السلة » (سنة ١٥٤٣) ومصـــدر الهـــام بيار دى لاريفـاى فى « الأرواح » (سنة ١٥٧٩) و « الأرملة » (سنة ١٥٧٩) ، واستوحاها موليير لشخصية بخيله الخالد هارباجون فى مسرحيته المشهورة التى تحمل اسم « البخيل » (سنة ١٩٦٨) ·

ولكن قبل أن تظهر مسرحيتا جلى ودى مدسيس نجد « الكوميديا الالهية » (سنة ١٣٠٠ ـ ١٣١٨) ملحمة « دانتى » المشهورة تتطرق الى البخلاء فى الجحيم (القسم السابع ـ أبيات ٦٤ ـ ٦٦) ·

تلى ذلك مسرحيتا أريستو «العلبة المزخرفة» (سنة ١٥٠٨ ـ ١٥٢٨) و « شخصيات مفترضة » (سنة ١٥٠٩) ، وكانت هذه الأخيرة من مصادر موليير ·

ثم تأتي فيما بعد سيناريوهات الكوميديا ديلارتي الايطالية : « العاشق المخدوع » ، و « الطبيب باكتون » ، و « المنزل المنهوب » الخ ·· حيث نجد صور البخل في مشاهد تعتمد على الحركات والتحركات والمواقف الصاخبة المضحكة ·

ولكن معالجة البخل لم تبق محصورة بالأدبين الاغريقي واللاتيني ثم بالأدبين الفرنسي والايطالي بل تعدتهما الى الانجليزي والاسباني وهكذا انضمت الى كريميل واكليون شخصيات فولبون (سنة ١٦٠٦) بطل مسرحية « بن جونسون » التي تحمل اسمه « اهفيل » في مسرحية « مأساة الملحد » التي كتبها سيريل تورنير سنة ١٦١١ · ونجد نقد العادات والتقاليد من خلال البخل والبخلاء يتجلى شيئا فشيئا في مسرحية « لوب دي فيجا » « العاشقة الماهرة جدا » (١٦١٨) ·

وفي مسرحية « وسيلة جديدة لايفاء الديون القديمة » (١٦٢٥) لماسينجر ، حيث تلعب فيها شخصية جيل أوفريش دورا رئيسيا ·

وفي سنة ١٦٣٠ ظهرت مسرحية يهودي مالطة التي كتبها كريستوفر مارلو حيث نجد فيها أنموذجا جديدا للبخيل يقف الى جانب نموذج كريميل واكليون وفولبون واهفيل وجيل أوفريش ولكنه يبزها اتساعا بنطاق الأبعاد المتحركة بها وأغوار التحليل النفسي ونعني به أنموذج البخيل باراباس ·

أما أنموذج المرابي الخسيس شيلوك في مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» التي ظهرت سنة ١٦٩٥ فهو أنموذج أشهر من أن يعرف·

وفي ذلك الحين كانت مسرحيات « سيدة مغامرة عاطفية » لصامويل شابيزو (١٦٢٥ ـ ١٧٠١) والمحامية الحسناء لبوازروبير والبورجوازيون العاشقون المنافسون لأبنائهم التي كتبها شفاليه تمهد الى جانب مسرحيات بلوت ولاريفي ودي فيجا لظهور مسرحية البخيل لموليير سنة ١٦٨٦ ·

والى جانب المسرح في القرن السابع عشر نجد فن الخرافة الشعرية المتطورة على يد لافونتين يعرض لنا في قصيدة تحت عنوان « البخيل الذي فقد كنزه » جوانب من نفسية البخيل وتصرفاته · وفي مدخل خرافة « الذئب والصياد » ينتقد لافونتين البخيل بأبيات عديدة وتعرض لنا خرافة الخازن والقرد أنموذجا لبخيل ممن عاشوا على الجمع والمنع ، ويعرض لنا بوالو في أطبيته العاشرة شخصية بخيل معاصر له فيصورها محللا منتقدا ، وبرزت شخصيات بخلاء في مسرحيات خمس كتبها جولدوني وهي

على التوالى : شخصية أوكتاف فى مسرحية الصديق الحقيقى (١٧٥٠) ، شخصية بانتالون فى مسرحيـــة « البخيل الغيوير » سنة ١٧٥٣ ، شخصية دون أومبروجى فى مسرحية « بخيل » سنة ١٧٥٦ ، شخصية « توديرو » فى مسرحية « توديرو برونتولون » سنة ١٧٦٢ ، وشخصية « كونت دوكا ستلدورو » فى مسرحية البخيل الباذخ « سنة ١٧٧٣ » ٠

وفى مطلع القرن التاسع عشر تطرقت القصة التاريخية الى البخل وذلك فى قصة (ايفنهو) « ســنة ١٨١٨ » للكاتب الانجليزى المعروف ولتر سكوت ٠

وانضم الأدب الروسى الى الآداب الأوربية فى معالجة البخل والبخلاء فظهرت لبوشكين سنة ١٨٣٠ دراما بعنوان « الفارس البخيل » حيث تجلت صورة عنيفة لبخيل جشع قاس لايعرف الا جمع الثروة مستبيحا كل شىء فى هذا السبيل يتميز عن أقرانه من البخلاء بالسلطة والتسلط والبطش ولكن رغم هذا كله فان نفسيته تضطرم بهزات شعورية غامضة ! ٠٠

ولابد هنا من الاشـــارة الى ذلك العرض والتحليل لتطور الشخصية الفكاهية من أريستوفان الى موليير فى كتاب هيجل « علم الجمال » ، حيث نجده يخص شخصية البخيل بدراسة فلسفية عميقة ٠ ويعود موضـــوع البخـــل ثانيـــة الى الأدب الفرنسى مع بلزاك فى قصـــته المشهـــورة « أوجينى جراندیه » « سنة ١٨٣٣ » ٠ ليعرض لنا من خلال شخصية الأب جراندیه صورة عن البخل ذات أبعاد نفسية عميقة ، وليصبح البخيل عنده شخصية يخطط لسلوكها الفكر ويصبح البخيل انسانا واعيـــا لما يقول قاصدا أو متعمدا لما يفعل ٠

ولم يتوقف الأدب الروسى فى تنـــاول البخل عند بوشـــكين فى « الفارس البخيل » التى نوهنا عنها بل جاء جوجول فى « النفوس الميتة » سنة ١٨٤٢ ودستويفسكى فى « أنشودة الميلاد » يتطرقان اليه ثم نجد البخل يتمثل فى « دون جوزالدو » سنة ١٨٨٨ ــ ١٨٨٩ الشخصية التى ابتكرها جيوفانى فارجا ٠

وقلما نجد فى أدب القرن العشرين تناولا أو معالجة متفرغة لموضوع البخل ماخلا أدب القصة البوليسية وذلك فى بعض لقاءات ومواقع طريفة بين أرسين لوبين وبعض المرابين البخلاء فى قصة موريس لبلان ، حيث تنتهى بانتصار لوبين واجبار المرابى البخيل على دفع مبالغ من المال لضـــحاياه أو افقاده جزءا من ثروته وكنـــوزه لتكون من نصيب المحتاجين ويتم هذا كله طبعا بعد اقتطاع لوبين لنصيبه من هذه الثروات ! ٠

ولعل مرد خلو أدب القرن العشرين من تناول موضوع البخل يعود الى انتقال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية من النطاق الفردى الى المجال الجماعى وتلاشى النوازع الذاتية فى نماذج الأدب واكتساح القضايا المصيرية والجماعية مجالات الوحى الفنى ·

★★★

ذلك هو المجرى الذى سلكته معالجة البخل والبخلاء فى الآداب الاغريقية واللاتينية والفرنسية والايطالية والاسبانية والانجليزية والروسية حتى العصر الحالى ، أما الأدب العربى فقد سلك قبل وبعد الجاحظ طريقا آخر ·

وهنا لابد من ملاحظة أن معالجة موضوع البخل والبخلاء قد شغلها الأدب العربى وحده طيلة العصور الوسطى ، اذ كما لاحظنا آنفا فانه بعد الأدب اللاتينى لم تعالج الآداب الأوروبية موضوع البخل والبخلاء الا بعد قرون ابتداء من القرن الخامس عشر ·

والسلوك الذى سلكه الأدب العربى أى معالجة موضوع البخل والبخلاء على أساس نماذج وشخصيات متعددة نجده متجليا فى الآثار القصصية مثل « المقامات » التى كتبها كل من بديع الزمان الهمذانى والحريرى وبعض النوادر والأخبار الواردة فى « ألف ليلة وليلة » والمؤلفات الأدبية الجامعة مثل « العقد الفريد » لابن عبد ربه و « الامتاع والمؤانسة » لأبى حيان التوحيدى و « عيون الأخبار » لابن قتيبة و « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى و « المستطرف فى كل فن مستظرف » للابشيهى ·

ويشير ابن النديم فى « الفهرست » والجاحظ نفسه فى كتابى « البخلاء » و « المحاسن والأضداد » الى من تناولوا موضوع البخل والبخلاء أمثال الأصمعى وسهل بن هارون وعبد الرحمن الثورى وأبى الحسن المدائنى ويذكر لهذا الأخير كتابا خصه بموضوع البخل ·

والملاحظ أن موضوع البخيل والبخلاء قد ورد فى هذه المؤلفات بشكل أخبار ونوادر أو أشعار أو تشبيهات اما متفرقة فى فصول مختلفة من المؤلف أو مختصا بها فصل من الفصول ·

وهذه الأخبار والنوادر تعبر عن الفكر بالالماح السريع بشكل مبسط تتضافر مكوناته فى تكوين بصرى فكه يشبه الرسوم الكاريكاتيرية التى نجدها فى الصفحات الدورية منها على سبيل المثال الأبيات التى يصف بها أبى الشمقمق « مروان بن محمد » مائدة جعفر بن أبى زهير :

رايت الخبز عز لديك حتى حسبت الخبز فى جو السحاب
وما روحتنا لتذب عنا ولكن خفت مرزئة الذباب

ونخال أنفسنا أمام مشاهد فيلم رسوم متحركة ونحن نقرأ تلك الأبيات لأبى نواس التى تصور شقاوة ذلك البخيل المدعو الفضل :

رايت الفضل مكتئبا يناجى الخبز والسمكا
فاسبل دمعه لما رآنى قادما وبكى
فلما أن خلصت له باني صائم ضحكا

ويقتضى التنبيه الى أن من تناولوا البخل والبخلاء فى الأدب العربى ، وسيما الذين سبقوا الجاحظ كانت تحدوهم غاية قومية حينا وهى التعريض بالشعوبية عن طريق اتخاذ شخصيات البخلاء من الأعاجم ، وحينا آخر غاية سياسية محلية وهى التعريض بالأمويين باتخاذ شخصيات من البخلاء ونسبها اليهم وكذلك كسبا لرضاء الدولة العباسية الجديدة والنظام الحاكم وتوطيد الدعوة لها ..

وفى بعض الأحيان كانت غاية من تناولوا البخل فى الأدب العربى غاية شخصية بحتة وهى الدفاع عن سلوكهم أو بالأحرى عن « مذهبهم » فى البخل . وهنا التناقض العجيب بين الغايات وموضوعها . ولكن ألم يكن هذا التناقض يعكس حالة الدولة والناس فى ذلك الحين ؟ الواقع أن صور هؤلاء للبخل والبخلاء كما وردت وأشرنا كانت ذات طابع اخبارى ، فهى ذات أبعاد زمانية ومكانية محددة والشخصيات فيها لاتصل الى مستوى النماذج كالتى نراها فى بخلاء الجاحظ .

★★★

الجـاحظ وعصره

البيئة الاجتماعية

تعددت عناصر الدولة العباسية فى امتداد أطرافهـا من المغرب الى مصر والشام وجزيرة العرب والعـراق وفارس وما وراء النهر واشـتد الاختلاف فى ميزات تلك العناصر وعاداتها ومناهج تفكيرها كمـا اشتد التمازج فيما بينها فلم تعد البيئة الاجتمـاعية عربية تنزع الى العروبة الخالصة ، بل قويت فيها الشعوبية وحركة التحرر من الأخلاق العربية ، فجر التمازج انحطاطا فى الأخلاق ·

وكانت اقتصاديات البلاد واسعة جدا مما أفسح لها مجالا واسعا فى الترف أما أموال الدولة فكانت فى عهد ازدهار الخلافة تؤلف ثروة طائلة ، الا أنها بعد المعتصم أصبحت بيد الأجناد الغرباء والوزراء والعمال يجمعونها بطرق شتى ويسيئون بذلك الى الدولة والشعب · وأما أموال الرعية فقد توافرت فى المدن حيث عاش الناس فى رخاء وسعة بعد اذ اهتمت الدولة بالزراعة وشقت لها الأقنية للرى وعززت الصناعة ولاسيما صناعة النسيج، واستخرجت المعادن من مناجم فارس ·

وكان من الترف والفراغ أن شاع اللهو فى البلاد ومال الناس الى الغناء والرقص والتفنن فى الملبس· كما مالوا الى لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد · والصيد أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء ·

وكان من الترف والفراغ أن شارع التسرى وتعاطى الناس المسكرات سرا وعلنا وعاقروا الخمر حتى بعض الخلفاء وكانت تعقد لمعاقرة الخمر والغناء حلقات أنس تسمى مجالس الشراب ·

وتوافر الطلب على العلمـاء والشعراء والمغنين وأرباب الموسـيقى فاتخذهم الأمراء والأعيان ندماء لهم ·

وانتشرت فى البلاد تجـارة الرقيق وكان فى بغـداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » ولاسيما الجوارى أنواعا مختلفة فهنالك السود من

السودان وجنوبي الجزيرة العربية وشمالي أفريقية وهنالك البيض من أتراك وصقالبة وغيرهم ، وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين (٢٢) بألوان الحمام فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود .

واشتهر من الأرقاء الغلمان يلبسون الحلل الجميلة ويتزينون ويتعطرون كالنساء ، والغلاميات المحسان يقصصن شعورهن ويلبسن ثياب الغلمان وقد تغزل الشعراء بكلا الفريقين .

وقد عنى العباسيون بتعليم الجواري وتلقينهن الغناء فكن من أشد العوامل في نشر تلك الصناعة كما عملن على نشر الشعور بالجمال الفني وعلى اشعار الناس بالظرف وضروب التفنن في المآكل والملبس والأزياء المختلفة .

وقامت الى جانب الترف والفساد حركة استياء تنعى على العهد فسقه ، وتشدد النكير على المفسدين ، وارتفعت أصوات الذين خانهم الحظ فلم يمدهم بالمال كما أمد غيرهم بل قامت حركة زهد تحتقر الفانيات في سبيل الباقيات وتستنكف مما وصلت اليه الأخلاق من الانحطاط ومما شاع من فنون الظلم والبغي والفجور .

واذا نظرنا الى ذلك العهد من الوجهة الدينية تجلى لنا أن النزعة السائدة هي الحرية ، ولا سيما أن الفلسفة اليونانية كانت قد هبت ريحها فارتفع بها لواء العقل والمنطق في الأقطار وكانت الدولة قد ضمت اليها من الشعوب ما اختلفت أجناسهم وديانتهم بين مسلمين متعبدي الفرق ونصارى مختلفي النزعات ومن يهود وصابئة (٢٣) وزرادشتيين (٢٤) ومانويين (٢٥) متباينى المذاهب .

وكانت المعتزلة من أشهر الفرق الدينية لذلك العهد بل أشهرها على الاطلاق وأشدها تأثيرا في التحرر الفكري وظهرت في أوائل القرن الثامن للميلاد في مدينة البصرة حول حلقة الحسن البصري ثم انشقت عنه وكان ذلك على يد واصل بن عطاء (٦٩٩ ـ ٧٤٨ م) وعمرو بن عبيد (٦٩٩ ـ ٧٦١ م) وقد تأثرت المعتزلة بالالاهوت المسيحي تأثرا جليا ، وكان ليوحنا الدمشقي (ابن سرجون (٧٣٠ م) أثر واسع فيها وانصرفت المعتزلة الى الدفاع عن العقائد الاسلامية دفاعا شديدا ووضع أصحابها أكثر كتبهم للرد على الرافضة (٢٦) والجهمية (٢٧) الجبرية والمثنوية (٢٨) وسائر المجوس وقد ذكرت امرأة واصل بن عطاء أن زوجها كان اذا جنه الليل يصف قدميه يصلي ، ولوح وذواة موضوعان أمامه فاذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد في صلاته قال عمرو بن عبيد :

« ليس أحد أعلم بكلام غاليـــة الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية (٢٩) والمرجئة (٣٠) والرد عليهم منه » ولم يكتف واصل بالرد على المخالفين وهو قابع فى بيته بالبصرة بل كان يرسل الوفود من أصحابه الى جميع الجهات لهذا الغرض وهكذا قامت ضجة عالية بين الفرق الدينية والاجتماعية واشـــتد النزاع بينها وشاعت أساليب المساجلة والنقاش ، وكثرت الفرق كثرة يضيق المقام بذكرها كلها وفيما ذكرناه منها كفاية ·

تلك صورة مصغرة للبيئة الاجتماعية فى عهد الجاحظ : تعـدد فى العناصر جر انحطاطا فى الأخلاق واقتصاديات واسعة أدت الى الترف فى المعيشة ولهو زاده التسرى والمرقيق ايغالا فى الفسق وزاد الحياة الغنية سعة وانطلاقا كما بعث النفوس العالية الى الاستياء والثورة على الفساد الشـــائع والى الزهد فى الغانيات وفرق دينية ومذاهب متباينة أشهرها المعتزلة ·

البيئة الثقافية

كانت البيئة الثقافية من أقوى العوامل فى النهضة العباسية اذ أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية فى نواحيها المتعددة ويمدونهـــا بمالهم وجاههم وقد بالغوا فى اكرام الأدباء فجالسوهم وولوهم أحيانا المناصب العالية ثم حذا الأمراء والوزراء حذو الخلفاء فى أكبـر مدن الدولة وكانوا يتنافسون فى ذلك كما يتنافسون فى فتح دور العلم وظهـــر فى الجيل الجديد ميل شديد الى الحياة العلمية ولا عجب فى ذلك وقد رأينا ما كان هنالك من نماذج مدنيات واختلاط حضارات ووعى عام أرهفه ما ناله القوم من ثقافات الشعوب المتمدنة ·

أما الثقافات التى كانت شائعة فى تلك الأيام التى كان لها أثر كبير فى الأدب فهى ثلاث : الثقافة العربيـــة الخالصة التى تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين كالتفسير والفقه والكلام والتصوف وما الى ذلك ، اعتمادها على الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرها ثم الثقافة اليونانية وتليها الثقافة الشرقية ولقـــد وصلت علوم اليونان وآدابهم الى الشرق من عهد فتوحـــات الاسكندر ، فنشر اليونان فلسفتهم وطبهم وفلكهم وذاعت ثقافتهم أيضا على يد الفرس أما الثقافة الشرقية فهى ثقافة معقدة وهى التى نجدها عند الفرس والهنـــود والأمم الســـامية التى كانت منتشرة فى العراق ، وقد وصلت الثقـــافة الفارسية بواسطة امتزاج العرب بالفرس وانتقال الخلافة الى بغداد واشتغال الوزراء والكتاب الفرس بالعربية ، وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالدولة بواسطة

التجارة والفتوحات التى شملت قسما كبيرا من الهند وبانضمام بعض الهنود الى الاسلام وكان منهم الشعراء وعلماء بالعربية كابى عطاء السندى الشاعر وابن الأعرابى (٣١) ، وكان الفرس القناة الثانية التى جرت ثقافة الهند الى العرب ٠

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمى فى ذلك العصر وفيها زبدة علوم الآشـــوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان وكان لابد للرجل المستنير الذى يعمل فى مناصب الدولة اذ ذاك ويقـوم فى الأمة مقـام الرجل القائد من أن يأخذ بحظ من هذه الثقافات جميعا ٠

ويرجع انتشار تلك الثقافات فى البلاد الى المدارس والترجمـــات وتشجيع الخلفـاء ونشرهم لها فمدارس جنديسابور والرها ونصيبين وحـران كانت تنشر الثقـــافة اليونانية ، ومدرستا الرها ونصيبين كانتا تزخران بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية ، وكانت فى حران جماعة وثنية تسمى الصابئة نبغت فى الدراســـات اليونانيـة من عامية وأدبية أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزا مهما للثقافة اليونانية ونالت شهرة فائقة فى الطب وكانت هذه المدارس كلها منارات اشـــعاع فى جميع العالم العربى ٠

وكانت حركة النقل والترجمة والنسخ هى القناة الكبرى التى جرت جميع العلوم القديمة الى الدولة العباسية كما كانت المطبعة الحية هى التى نشرت تلك العلوم فى جميع البلاد وجعلتها فى متناول الجميع ، وقد ساعد الخلفاء أولو الأمر تلك الحركة المباركة فأتت بأطيب الأثمار ، واذا بأرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينس وغيرهم ينطقون بلغة العرب واذا كتاباتهم فى أيدى الكثيرين توقد فى العقول نار نهضـــة مثمرة واشتهر من النقلة آل بختيشوع وآل حنين وآل ماسرجويه وآل نوبخت وغيرهم كثيرون ممن كان لهم فضل كبير على العلم وأهله وقد اعتمد العرب فى الفلسفة والطب والهندسة والنجوم والموسيقى على اليونان وفى النجوم والســـير والآداب والتاريخ والحكم على الفرس واقتبسوا من الهند طبها والعقاقير والحساب والنجوم والأقاصيص والموسيقى ومن الانباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم ومن المصريين الكيمياء والتشريح ، ومما يؤسف عليه أن الحـركة العلمية العباسية لم تستغل الأدب اليونانى استغلالا يذكر كما استغلت العلم اليونانى والفلسفة اليونانية فلم تتعرض لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر ولذلك أسباب يضيق عن ذكرها المقـــام ٠

انتشرت الثقافات الأجنبية المختلفة فى العالم العربى ، وكانت لكل ثقافة نزعة خاصة : أما العقل اليونانى فميال الى فلسفة التعليل والتحليل ميال الى المعنويات أكثر من ميله الى الماديات ، ميال الى التعمق والعلم فكان من البواعث الكبرى على احلال العقل محلا عاليا عند العرب فى ذلك العهد وعلى التصنيف والاشتغال بالعلوم ، وأما العقل الهندى فهو ميال الى التأمل والفكر الهندى هو من ثم تأملى شعرى أكثر مما هو علمى وهو فكر تصويرى خيالى تمثيلى ، شديد الاتصال بالعاطفة وعاطفة الزهد من البواعث الكبرى على الحكمة وشعاب الزهد والقصص عند العرب، فى حين كان العقل الفارسى وعاء حوى العلم القديم كله تقريبا فكان مؤلفا من عنصر فارسى وعنصر يونانى وعنصر هندى والأثر الهندى فى الثقافة الفارسية أوسع من الأثر اليونانى ، الا أن الحضارة الفارسية تغلب عليها المادة فكان العقل الفارسى من الأسباب التى أشاعت الزخرف والتفخيم والاطناب فى الكلام والكتابة وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها ·

تلك كانت البيئة الثقافية فى عهد الجاحظ وتلك الحال الاجتماعية والسياسية : تمازج ونزعات مختلفة وفوران فى كل الحقول ومذاهب وفروع فى المجتمع والسياسة والدين والعلوم وتبسط فى كل شىء وتداخل وتنافر ، ولقد عاش الجاحظ فى تلك البيئات مصورا ومؤرخا يحيا ويراقب يختبر وينظر يمتزج وينعزل وهكذا كان العصر كله مصورا فى ذاته وفى كتبه تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات فكان بذلك علما من أعلام التاريخ والأدب وركنا من أركان العلم والتحرى ·

حياة الجاحظ

اختلف المؤرخون فى أصل الجاحظ وفى تعيين سنة ميلاده وقالوا فى ذلك أقوالا مضطربة فذهب بعضهم الى أنه من أصل عربى ، وذهب بعضهم الآخر الى أنه من العناصر الأفريقية التى تداخلت فى العنصر العربى والفريقان ينسبانه الى كنانة أصيلا أو مولى · وقد أجمع المؤرخون على أن الجاحظ كنانى ليثى نسبه الى الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة، وقالوا انه كان مولى أبى القلمس عمرو بن قلع الكنانى وكان جده أسود يقال له فزارة · وكان جمالا لعمر بن قلع الكنانى · أما كنيته فقد قال أبو بكر العمرى : سمعت الجاحظ يقول : « نسيت كنيتى ثلاثة أيام فأتيت أهلى فقلت : بمن أكنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان » ·

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ لبروز عينيه من حدقتيهما الواسعتين في البصرة نحو سنة (٧٧٥ م ـ ١٥٩ هـ) وتوفي والده وهو بعد حديث السن ولما شب طلب العلم أولا في الكتاب مع أولاد القصابين ثم راح يعيش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة وهو لا يألو جهدا في طلب العلم ومطالعة الكتاب . وكانت البصرة في ذلك العهد أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد يجتمع في مسجدها طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة والأدب عرفوا « بالسجديين » (٣٢) فأقبل اليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية وما أن أيفع (٣٣) حتى تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاها عن خطباء العرب في المربد (٣٤) وقد ألف التردد اليه منذ حداثته وكان الى ذلك يكترى (٣٥) حوانيت الوراقين ويبيت فيها أحيانا للمطالعة .

ولما اجتمع له قدر صالح من العلم والأدب قصد بغداد واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة .

وتردد الى مجلس الأدباء من مثل ابن وهب وابن الزيات فوجد عندهم على ما قال هو نفسه مالم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب وبهم عرف ماهية الشعر وقام بحق الأدب والكتابة .

ظل الجاحظ يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام ويعمل الفكر ويحلل ويتوسع في ما حصله حتى تمت له ثقافة راقية وتنبه عقله فتمكن من التعرض لقضايا خطيرة في الدين ، وكان له مذهب وأتباع وشرع يؤلف الكتب وكان في أول أمره ينسبها الى ابن المقفع وسهل بن هارون حتى تسير .

فقد روى المسعودي في كتابه « التنبيه والاشراف » أن الجاحظ كان يقول : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم وأنسبه الى نفسي فلا أرى الأسماع تصغي اليه ولا الارادات تتيمم نحوه ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبهما ويسارعون الى نسخها لا لشيء الا لنسبتها للمتقدمين ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي عنى بتشييدها » .

ولما أن كان القرن التاسع (الثالث الهجري) حتى طارت للجاحظ شهرة كبيرة بين كتاب عصره وترامت تلك الشهرة الى أذن المأمون ـ وقد قرأ للجاحظ « كتاب الامامة » وأعجب به ـ فاستقدمه وسأله أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها .

ولما رأى المأمون ما للجاحظ من مقدرة على الكتابة ومن سعة فى الثقافة أراد أن يسند اليه ديوان الرسائل وهو من أهم مايدور عليه محور السياسة العامة للدولة لا يتولاه الا الحاذق الذى ضرب بالسهام الوافرة فى مختلف العلوم والآداب وصاحب السياسة والتدبير والمتفوق فى صنوف البلاغات وضروب الابانات . غير أن الجاحظ لم يمكث فى ذلك المنصب سوى ثلاثة أيام وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها ولا تمكن من الاقلاع عن العبث فى عمل ما يتطلب الرصانة والوقار ، ولا أحتمل منافسة الحساد الذين ثارت عليه حفائظهم (٣٦) خوفا على شهرتهم ومنزلتهم فى الدولة ومجالس الأدب وكان سهل بن هارون يقول : « ان ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب » .

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة وآثر أن يعيش مطلقا من كل قيد وما هى الا سنوات حتى اتصل اتصالا مكينا بمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات وزير المعتصم ثم الواثق من بعده وكان ابن الزيات من أكابر رجال الأدب والسياسة فكتب له الجاحظ ومدحه وأهداه « كتاب الحيوان » فأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار . وفى تلك الأثناء قام الجاحظ بأسفار الى دمشق وأنطاكية وربما وصل الى مصر أيضا فزادته الأسفار والضرب فى الآفاق اطلاعا وسعة معرفة ومهرت خياله بصورة جديدة .

ولما مات الواثق وتولى المتوكل كان فى نفس المتوكل من ابن الزيات شىء وقد جرى سنة ٨٤٧م أن منافس ابن الزيات القاضى أحمد بن أبى دؤاد استمال الخليفة وهو عدو المعتزلة والحرية الفكرية فأسقط ابن الزيات وفتك به فهرب الجاحظ ولكنه قبض عليه وقد جاء فى معجم الأدباء لياقوت عن أبى عبد الله المرزبانى أنه قال : « حدث اسحاق الموصلى وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبى دؤاد بعد قتل ابن الزيات فجىء بالجاحظ مقيدا وكان من أصحاب ابن الزيات وفى ناحيته فلما نظر اليه قال : والله ما علمتك الا متناسيا للنعمة كفورا للصنيعة معددا للمساوى وما فتنى باستصلاحى لك ولكن الأيام لا تصلح لك الا لفساد طويتك ورداءة داخلتك وتغالب طبعك فقال له الجاحظ : خفض عليك أيدك الله فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من ان يكون لى عليك ولأن أسىء وتحسن عنك من أن أحسن فتسىء وأن تعفو عنى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى فقال له ابن أبى داؤد : قبحك الله ! ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ما تأويل هذه الآية : (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد) ؟ قال : تلاوتها تأويلها أعز الله القاضى فقال : جيئوا بحداد فقال : أعز الله القاضى ليفك عنى وليزيدنى ؟ فقال : بل ليفك عنه فجىء بالحداد فغمزه

بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيـــل أمره قليلا فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر فى يوم وعمل يوم فى ساعة وعمل ساعة فى لحظة فان الضرر على ســـاقى وليس بجـذع ولا ساجة (٣٧) ؟ فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه ٠

وقال ابن أبى دؤاد بن منصور وكان حاضرا : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ثم قال : ياغلام صر به الى الحمام وأمط عنه الأذى واحمل اليه تخت ثياب طويلة وخفا فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر فى مجلسه ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان ٠

وقدم الجاحظ لابن أبى دؤاد كتاب « البيان والتبيين » فأعطاه فيه أبى دؤاد خمسة آلاف دينار ولما فلج القاضى وخلفـه فى القضـاء ابنـه أبو الوليد لزمه الجاحظ الى أن صرف عن القضاء سنة ٨٥١ م ٠

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل وقدم له بعضا من كتبه منها « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة » وكانت بين الرجلين مودة ومراسلة وطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز الا أن المتوكل لم يقربه منه لدمامة خلقه ٠

ولما اشتدت وطأة السنين على الجاحظ ووهنت قواه وأصيب بفالج نصفى عـــاد الى البصرة ، حيث لزم بيته سجين الهرم حدث المبرد قال : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس (٣٨) لو طار الذباب بقربه لآلمه وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها » ٠

وهرع العلماء والأدباء الى زيارة الشيخ العنيل معلم العالم العربى بمجمله وتوافدوا من البصرة وبغداد وســـواهما من البلدان وكان المبرد صاحب « الكامل » من جملة الزائرين ٠

وأخذ ذلك المصباح يخبو شيئا فشيئا ، وأخذ نوره يتضاءل حتى انطفأ تاركا فى البلاد نور العلم والثقافة الواسعة وهكذا مات الجاحظ معلم العقل والأدب سنة ٨٦٨ م ــ ٢٥٥ هـ ٠ وقد انهالت عليه الكتب يوما وهو جالس بينهـا يقرأ فقضت عليه ، لقـد لحدته ميتا بعد أن كانت سلوته فى حياته وشغله الشاغل الى ساعة مماته !! ٠

★★★

كان الجاحظ ذا ثقافة واسعة جدا تجعل منه دائرة معارف حية فقد وعى فى صدره جميع معارف عصره فى الأدب والدين والعلم والفلسفة قال أبو بكر أحمـد بن على (٣٩) : « كان أبو عثمـان الجاحظ من أصحاب

النظام (٤٠) وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية المخالفين والآداب والأخلاق وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرءوها وعرفوا فضلها واذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم انه ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وايصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال الى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور » .

وكانت مصادر ثقافة الجاحظ كثيرة منها أساتذته وما طالعه من كتب العرب واليونان والفرس والهنود وغيرهم ثم تجاربه ومعايناته. أما أساتذته فعرب المربد الخلص الذين كان يصغى الى أقوالهم وهو حدث قرب البصرة وأبو عبيدة (٧٢٨ — ٨٢٤ م) الذى قال فيه الجاحظ : « لم يكن فى الأرض لخارجى ولا اجماعى أعلم بجميع العلوم منه » والذى له من المؤلفات نحو مئتين فى الحمام والحيات والعقارب والخيل والابل والزرع ، والأصمعى (٧٣٩ — ٨٣٠ م) وهو صاحب لغة ونحو وامام فى الأخبار والنوادر والملح والغرائب جمع شتيت اللغة فى الشجر والنبات والابل والشاء والوحوش، وأبو زيد الأنصارى (— ٨٣٠ م) وهو من أئمة الأدب غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب وقد ألف فى القوس والترس والابل والوحوش وخلق الانسان والمطر والنبات ، وأبو الحسن الأخفش (— ٨٣٠م) وهو من أكثر أئمة النحو فى البصرة وتخرج الجاحظ فى الفلسفة والدين على أبى اسحاق النظام (— ٨٣٥ م) وقد قال عنه تلميذه : « الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحا فهو أبو اسحاق النظام » . وكان النظام مطبوعا على البحث عن أصل كل شىء وعن علته ولا يقتصر على الانقياد والمحاكاة ولم يكتف بطلب الفلسفة والكلام بل عكف على طلب العلم ولاسيما علم الطبيعة وكان يؤثر الجمل القصيرة فى كتابته ويعتبر الشك أساسا للبحث (٤١) ويستخدم المنطق فى بحثه عن الحقائق ويحارب أوهام العامة وخرافاتهم وكان واسع العقل فى التفكير ، شديد الجرأة على المحدثين ، قليل الايمان بصحة رواية الحديث . وقد أثر النظام فى الجاحظ تاثيرا بليغا وكانت طريقته فى التحرى من أركان طريقة الجاحظ العلمية .

ولم يكتف الجاحظ بالأساتذة الأعلام ، بل راح ينقب ويطالع ما ترجمه ابن البطريق وحنين بن اسحاق وبختيشوع وغيرهم من مشاهير النقلة . قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

خلف لنا الجاحظ مؤلفات كثيرة ما بين كتب ورسائل وقد قيل ان آثاره هذه بلغت ما ينيف على ثلاثمئة وخمسين كتابا رأي أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، وهي وان لم يكن كلها له تؤلف موسـوعة علمية أدبية ومما يؤسف عليـه أنهـا لم تكن تصل الينا كلها فقد ضاع منها عدد يذكر وأما ما وصل الينا منها فقد طبع معظمه وما يزال بعضه مخطوطا ومبعثرا في خزائن شـتى بين الشرق والغرب ٠

وانه لمن الصعب جمع تلك المؤلفات في فئات مرتبة على حسب مادتها لأن الكثير منها مختلف الموضوعات متعدد المعاني ومن ثم كان تقسيمنا التالي لآثار الجاحظ على وجه التغليب ٠

(أ) الفلسفة والاعتزال والدين :

ـ « كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال » وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال و « كتاب الاعتزال وفضله » ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضا « فضيلة المعتزلة » « والذي رد عليه الراوندي بكتابه « فضيحة المعتزلة » و « كتاب خلق القرآن » و « كتاب آي القرآن » و « كتاب الرد على اليهود » و « كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » وهو يبحث في تعليل الأشياء الطبيعية وما في الكائنات من الدلائل على وجود الصانع الخ ٠٠

(ب) في السياسة والاقتصاد :

ـ « كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب » و « رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة » و « رسالة في الخراج » و « كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارب » و « كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » الـخ ٠٠

(جـ) في الاجتماع والأخلاق :

ـ « رسالة في اثم السكر » و « كتاب أخلاق الشطار » و « كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة » و « كتاب خصومة الحول والعور » و « كتاب البخلاء » ٠٠

(د) فى التاريخ والجغرافيا والطبيعيات والرياضيات :

ـ « كتاب الأخبار وكيف تصح » و « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » و « كتاب الأمصار » و « رسالة فى الكيمياء » و « كتاب المعادن » و « كتاب نقض الطب » و « كتاب الحيوان » .

(هـ) فى الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية :

ـ « كتاب البيان والتبيين » الخ ...

(و) فى العصبية وتأثير البيئة :

ـ « كتاب القحطانية والعدنانية » و « كتاب العرب والعجم » و « رسالة فى فخر السودان على البيضان » و « كتاب مفاخرة السودان والحمران » الخ ...

(ز) فى موضوعات شتى :

ـ « رسالة الترسيع والتدوير » و « رسالة فى العشق والنساء » و « كتاب الاخوان » الخ ...

★★★

أثر البيئة البصرية وكتاب البخلاء

لاحظ الدكتور شارل بلا فى دراسته عن « البيئة البصرية وتكوين الجاحظ » أن البخل الذى أنشأ عليه الجاحظ كتاب البخلاء كان صفة بارزة للطبقة البصرية البرجوازية التى أثرت بفضل اقتصادها المفرط .

وانه ينبغى أن تحلل بعناية جميع مظاهر البخل وان يعرف مدى تأثيره ليس على نمو البصرة الاقتصادى بل على توجيه الحياة الاجتماعية العـــامة .

وانه من المؤكد ان هذه الآفة الزمنية قد أوحت الاشمئزاز الى نفوس العرب المعروفين بطبيعتهم السمحة وميلهم الوراثى للكرم والجود اذ لا ريب فى أنهم لم يألفوا وهذه النظرية الجديدة ، ثم ما لبث أن تحول فضولهم ودهشتهم الى حقد على البخل والبخلاء نما فى اطار الشعوبية الطبيعى ، أما الأشخاص (المولدون) الذين اختلطت دماؤهم فقد انضموا الى أحـد المعســـكرين .

والواقع أنه لا يمكن البحث عن دافع الجاحظ فى الكتابة عن البخل والبخلاء بمعزل عن حركة تجمع رأس المال فى عصره .

فقد أدت هذه الحركة دورا رئيسيا فى تغيير المفاهيم الاجتماعية خاصة والمفاهيم الحياتية عامة .

وكان التجاذب الحاصل بين مقومات الحياة العربية المتطورة وعناصر المجتمعات الأجنبية الداخلة يتولد ويتوالد دائما ودون انقطاع عن ذلك التصاعد المادى المستمر فى الحاضرة العربية فى ذلك الحين .

وما كان هذا التصاعد المادى ينتج ويندفع ويتفاقم الا من حركة تجمع وتركز رأس المال فى الحاضرة العربية الذى أصبح يشكل القوة المسيرة للفعاليات الاقتصادية فى الدولة والمجتمع .

وكان لابد من حصول تصادم بين الكيانات الاقتصادية والاجتماعية الحادثة من حركة تجمع رأس المال ، وبين القيم العربية خاصـــة والقيم

الاسلامية عامة وما تتضمنه من مثل تشبع بها فى الأصل المجتمع العربى المتطـــور ٠

وكان لابد أن يأخذ هذا الاصطدام شكل المقاومة ضمن حدود التعبير الشعورى الناقد ثم ينتقل الى النشاط الفكرى الشامل الذى يمهد دائما بتحاليله ومخططاته الى المجابهة فالى الصراع الذى يشارك فيه دائما التطلع المعاشى فى طوره العملى الانقلابى ٠

وجاء كتاب « البخلاء » للجاحظ ليمثل مرحلة المقاومة ٠٠ مرحلة التعبير الشعورى الناقد ٠ كانت مراعاة أصول الضيافة والكرم من تلك المثل العربية القديمة التي يعتز بها العربى اعتزازا كبيرا منذ الجاهلية ٠

والاســـلام جاء والزكاة ركن من أركانه والكرم والضـــيافة موضعا تحبيذه والبخل محل استنكاره فقد جاء فى سورة « التغابن » فى القرآن الكريم : « **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » (آية ١٦) وجاء فى سورة « محمد » من القرآن الكريم : « **وهانتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء** » ٠٠ (آية ٣٨) وللنبى محمد صلى الله عليه وسلم أحاديث فى هذا السبيل منها قوله : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه** » ٠

وكان الموالى قد ثبتوا مراكزهم فى المجالات الاقتصادية والمالية فى الوقت الذى كان العرب فيه ينصرفون الى الفتوحات بادىء الأمر ومن ثم الى الصراعات الداخلية فيما بعد ٠

واذا كان الموالى قد شاركوا أحيانا فى الصراعات الداخلية بين العرب، فذلك لخدمة مصالحهم الاقتصادية والمالية ، ذلك ان الثروة كانت هى وسيلتهم لتمتعهم بمستوى حياتى رفيع وثراء وسيولة نقدية تمكنانهم من فرض وجودهم ومصالحهم على الدولة وعلى ذلك المجتمع الغريب عنهم أصلا واستغلال السلطة لتحقيق غاياتهم وكان من المحتم ان يقف هؤلاء الموالى موقف المناهض لتلك القيم عامة وما تتضمنه من مثل خاصة لا لكونها محمولة من مجتمع غريب عنهم فحسب ، بل لما تثيره من حساسية لديهم بالنظر لكونها تتضارب مع مصالحهم الاقتصادية والمالية أساسا ، من هنا كان التقاؤهم بمن وجد من العرب المساهمين فى حركة تجمع وتركز رأس المـــال ٠

وكان الكرم والضيافة هما أقرب المثل موضوعا للمناهضة وكان البخل أحد صور هذه المناهضة ، وكان لقد البخل مظهرا من مظاهر المقاومة، ذلك أن المحافظة على تقاليد الكرم والضيافة مهما كان من شان وتاثير

هذه التقاليد تزعزع تجمع رأس المال وتشتت تركزه وحركة تجمع رأس المال تكون عادة حساسة للغاية سيما تجاه كل نقيض من شأنه أن يكشف وجودها أصلا وهى التى تقوم على الخفاء فى نشوئها ونموها وتطورها لذلك مهما كان شأن المتناقضات معها بسيطا فلابد لها من مناهضتها بضراوة ٠

انما لابد من التنويه بأن الجاحظ ـ كما يوضح الدكتور طه الحاجرى فى مقدمته للطبعة التى حققها لكتاب الجاحظ ـ « لقد أخذ هذا الموضوع (موضوع البخل) الذى كان أكبر مثارة للشهوات السياسية والعنصرية والذى كان جديرا أن يثير عوامل المشاقة والمخاصمة فجعله موضوعا أدبيا خالصا ومتعة فنية رائعة وكان رهينا بالأغراض الموقوتة التى أثير من أجلها فصار خالدا خلود النفس الانسانية يمنح بها ويصدر عنها ولها » ٠

★★★

اذا نظرنا فى صفحات (البخلاء) ، فسنجد أن الجاحظ جعل له مقدمة افتتح بها الكتاب ٠٠ حاول أن يضع فيها مجموعة من التساؤلات تعتبر الاجابة عنها ـ ككل ـ دراسة نفسية واقتصادية لظاهرة البخل عند بعض الذين اختارهم الجاحظ كنماذج للدلالة على هذا النزوع النفسى والأخلاقى لدى البشر ٠ وقد حاول عند صياغته لهذه التساؤلات أن يكشف عن وجهة نظر الأشخاص أنفسهم درءا لما قد يتهمون به ، أو تأكيدا لما يتمسكون بما يرونه حقا ثم هناك مجموعة أخرى من التساؤلات التى تبين وجهة النظر المضادة المخالفة لما يعتقدون وقد تكون وجهة نظر عامة رأى الناس فيهم وفى سلوكهم بل قل انها القضايا والموضوعات التى سوف يدور حولها الكتاب وهو يشير الى مسائل وموضوعات سبق له أن تناولها وعالجها فى كتابه المسمى (كتاب المسائل) وانه لن يقف عندها فى (البخلاء) ٠

مما جاء فى هذه المقدمة قوله : « ٠٠٠ وقلت : اذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء وما يجوز من ذلك فى باب الهزل وما يجوز منه فى باب الجد لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما فان للجد كدا يمنع من معاودته ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته وذكرت ملح الحرامى ، واحتجاج الكندى ورسالة سهل بن هارون وكلام ابن غزوان وخطبة الحارثى وكل ما حضرنى من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ولم حاموا الى المنع ونسبوه الى الحزم ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ولم جعلوا الجود سرفا والاثرة جهلا ولم زهدوا فى الحمد وقل احتفالهم بالذم ولم استضعفوا من هش للذكر وارتاح للبذل ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى ثناء ولا ينحرف عن هجاء ولم احتجوا لاطلف العيش على لينه ولمره على حلوه ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات فى وقتها

مع استهتارهم بها فى رحال غيرهم ولم رغبوا فى الكسب مع زهدهم فى الانفاق ولم عملوا فى الغنى عمل الخائف من زوال الغنى...» ثم يقول : (وقلت : فبين لى ما الشىء الذى خبل عقولهم وأذهانهم وأغشى تلك الأبصار ونقض الاعتدال وما الشىء الذى له عاندوا الحق وخالفوا الأمم وما هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافى وما هذا الغباء الشديد الذى الى جنبه عجيبة وما هذا السبب الذى خفى به الجليل الواضح وأدرك به الجليل الغـــامض) .

الجاحظ يتصور قارئا سبقت له قراءة كتابه الذى صنف فيه حيل لصوص النهار وفصل فيه حيل سراتى الليل يطلب اليه ان يجيبه عن هذه التساؤلات المتعددة الاتجاهات حول (البخل) و (البخلاء) ونظن ظنا أن قارئا على هذا النحو غير موجود وان تصوره الجاحظ ووضع له الأسئلة التى تكشف عن وعيه الشديد بما ينبغى أن تكون عليه مقدمة الكتاب .

ويكشف الجاحظ عن طريقة معالجته لموضـــوعه وكيف أنه ســـوف يركز فى مواضع وقد يستطرد فى مواضع أخرى ، وان كنا نلاحظ أنه فى هذه المقدمة يرى أن التركيز والتكثيف أفضل من التفاصيل وذكر الجزئيات والوقوف عنـــدما لا حاجة للقـــارى به وهذا مع ادراكنا لأهمية الاستطراد بالنسبة للجاحظ فى كتاباته الأخرى (فأما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء فسأوجدك ذلك فى قصصهم ــ ان شاء الله تعالى ــ مفرقا وفى احتجاجاتهم مجملا فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندى دون ما انتهى الى من أخبارهم على وجهها وعلى أن الكتاب أيضا يسير أقصر ويصير العار فيه أقل) . أما الجديد فى الكتاب كما يحدده الجاحظ : (وذلك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة وعجيبة وأنت فى ضحك منه اذا شئت وفى لهو اذا مللت الجـــد) .

وللجاحظ موقفان من أصحاب نوادر البخل: أنهم اذا كانوا من المشاهير فانه لا يسعى الى التشهير بهم واذا كانوا من غير المشاهير ممن لا يعرف حكايتهم أحد فان ذكرهم لا يحط من قدرهم وهو لا يستهدف ارضاء القارىء واشباع نهمه وحب الاستطلاع لديه على حساب أبطال حكاياته (وهـــذا كتاب لا أغرك منه ولا أستر عنك عيبه لانه لا يجوز ان يكمل لما ترده ولا يجوز أن يوفى حقه كما ينبغى له لأن ههنا أحاديث متى اطلعنا منها حرفا عرف أصحابها وان لم نسمهم ولم نود ذلك بهم وساء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم منهم الصديق والولى والمستور والمتجمل وليس يفى حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم فهذا باب يسقط البتة ويختل به الكتاب لا محالة وهو أكثرها لبابا وأعجبها موقعا وأحاديث آخر ليس لها

شهرة ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هى مقيدة أصحابها وليس يتوفر أبدا حسنها الا بأن يعرف أهلها وحتى تتصل ومستحقها وبمعادنها واللائقين بها وفى قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة وذهاب شطر النادرة) .

بعد المقدمة يثبت الجاحظ رسالة سهل بن هارون فى البخل الموجهة الى محمد بن زياد والى بنى عمه من آل زياد حين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوا كلامه فى الكتب وتقع فى ثمانى صفحات من القطع الكبير ثم ينتقل الى موضوع كتابه ويبدأ بأهل خراسان لاكثار الناس فيهم وخص بذلك أهل مرو بقدر ما خصوا به مثل : ابن أبى كريمة والكندى ، ثم يقف عند قصة أهل البصرة من المسجديين وقصة زبيدة بن حميد وليلى الناعطية وأحمد بن خلف وأبى جعفر الطرسوسى والحزامى وخالد بن عبد الله القسرى ومحمد بن أبى المؤمل والثورى وأبى سعيد المدائنى وغير ذلك من القصص المتعلقة بصنوف البخل وحيل البخلاء .

والجاحظ يؤكد أن الأحاديث الكثيرة التى كتبها حاول اضافتها الى أربابها بيد أن بعض الأحاديث الأخرى لم يضمها الى أصحابها .

وفى معرض تناوله لبعض الشخصيات التى تتسم بالبخل الأخلاقية والسلوكية تراه يمهد للتعريف بهذه الشخصية من هذه الزاوية بذاتها وكأنما ليوحى ببعض الأبعاد النفسية حتى لا يفاجأ القارىء بما قد لا يتصوره عقله من تصرف هذا البخيل .

ففى بداية حديثه عن « زبيدة بن حميد » الصيرفى يذكر لنا أنه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا لكنه بعد ستة أشهر دفع ما عليه للبقال ناقصا (درهمين وثلاث حبات شعير) فاغتاظ البقال وذكره بأنه يملك مائة ألف دينار ولا يرد الحق لصاحبه كاملا بعد نصف سنة وانه فعل معروفا فيه اذ يسدد عنه فى غيبته مبلغا كان مطلوبا ويكون هذا جزاءه بعد ستة أشهر فقال زبيدة : « يا مجنون أسلفتنى فى الصيف فقضيتك فى الشتاء وثلاث شعيرات شتوية ندية أرزن من أربع شعيرات يابسة صيفية وما أشك أن معك فضلا) .

هذا جانب من جوانب الشخصية فى علاقاتها بالناس من حولها وربما يكون — من ناحية أخرى — بعدا فكريا تنطلق على أساسه الشخصية فى تعاملها ثم يعطى ملمحا آخر يكشف عن الطريقة التى يتخذها فى معاملته لغلمانه أن يضربهم لاتهامهم بأنهم يأكلون دواء مخصصا للهضم ويذهب صديق له الى رئيسهم لكسال عن حقيقة سبب الضرب يفاجأ اذ يراه يتلوى من الجوع وانه لا حاجة به الى ما يهضم لأنه لم يطعم ولم يأكل (لا نحتاج الى الجوارشن ، ونحن الذين نسمع بالشبع سماعا من أفواه الناس — ما نصنع بالجوارشن) .

نماذج من بخلاء الجاحظ

ولابد من أن نقف عند قصتين لبخيلين شهيرين احتفت بهما صفحات البخلاء الأولى هي قصة أبي سعيد المدائني الذي كان اماما في البخل بالبصرة، وكان ممن يتعاملون بالربا فضلا عن أنه كان شديد العقل بعيد الروية حاضر الحجة قال له أحمد المكي : « والله انك لكثير المال وانك لتعرف ما نجهل وان قميصك وسخ فلم لا تأمر بغسله ؟ قال فلو كنت قليل المال وأجهل ما تعرف كيف كان قولك لي ؟ اني قد فكرت في هذا منذ ستة أشهر فما وضح لي بعد وجه الأمر فيه أقول مرة : الثوب اذا اتسخ أكل البدن كما يأكل الصدأ الحديد · والثوب اذا ترادفه العرق وجف وتراكم عليه الوسخ ولبد أكل السلك وأحرق الغزل هذا مع نتن ريحه وقبح منظره وبعد ، فاني رجل آتي أبواب الغرماء وغلمان غرمائي جبابرة فما ظنك بهم اذا رأوني في أطمار وسخة وأسمال دونه وحال حداد ؟ جبهوا مرة وحجبوا مرة فيرجع ذلك علينا بمضرة من اصلاح المال وان يعفى عنه كل ما أعان على حبسه مع ما يدخل من الغيظ ويلقى من كان كذلك من المكروه ·

فاذا اجتمعت هذه الخواطر هممت بغسلها فاذا هممت به عارضني معارض يوهمني أنه أتاني من جهة الحزم ومن قبل العقل فقال : أول ذلك الغرم الذي يكون في الماء والصابون والجارية اذا ازدادت عناء ازدادت أكلا والصابون نورة ، والنورة تأكل الثوب وتبلي الخز ولا يزال على خطر حتي يسلم الى القصر والدق · ثم اذا ألقي على الرسن فهو يعرض الجذبة والنترة والعلق ولابد من الجلوس يومئذ في البيت ومتى جلست في البيت فتحوا علينا أبوابا من النفقة وأبوابا من الشهوات والثياب لابد لها من دق فان دققنا في المنزل قطعناها وان نحن أسلمناها الى القصار فغرم على غرم وعلى أنه ربما أنزل بها من المكروه ما هو أشد وما جلست في المنزل قط الا أرجف بي الغرماء وادعوا على الأمراض والأحداث وفي ذلك لهم فساد والتواء وطمع لم يكن عندهم فاذا أنا لبستها وقد ابيضت وحسنت وحفت وطابت تبينت عنه ذلك وسخ جسدي وكثرة شعري وقد كان بعض ذلك موصولا ببعض ففرقته فاستبان لي ما لم يكن يستبين واكترثت

لما لم أكن اكترث له فيصير ذلك مدعاة الى دخول الحمام فان دخلته فغرم ثقيل مع المخاطرة بالثياب ولى امرأة جميلة شابة اذا رأتنى قد أطليت وغسلت رأسى وبيضت ثوبى عارضتنى بالتطيب وبلبس أحسن ثيابها وتعرضت لى وأنا فحل والفحل اذا هاج لم يرد رأسه شيء فاذا أردت مواقعتها ورأت حرصى نثرت على الحوائج نثرا ثم احتجنا الى تسخين الماء وأشد من هذا كله أن تعلق فتحتاج الى طئر فنقع فى ما لا غاية له) ...

ان هذا المنطق الذى يحمل على الاعتقاد بمعقولية دفوع الأشحاء الذى يجسده أبو سعيد المدائنى يؤكد قدرة الجاحظ على التوليد والتخريج وتقديم الأسباب والعلل واستخلاص النتائج بل انه دلالة واضحة على أن الجاحظ عايش البخلاء طويلا وعرف الدوافع الى بخلهم وأدرك الأبعاد النفسية لذلك ، وانا لنعجب اذ نرى أبا سعيد المدائنى يقدم الحجة تلو الحجة والتبرير تلو التبرير . ان المسألة لا تقف عند حد ثقافة الجاحظ ومعرفته باللغة والمنطق والفلسفة والجدل انها أبعد من ذلك خبرة معمقة ببواطن النفس البشرية وبما يعتمل فى داخلها من صراعات وبأن السلوك الذى يسلكه الانسان ليس بلورة لمحصلة مجموعة من التجارب والخبرات وخاتمة لمطاف طويل ارتضاه لنفسه . ان أبا سعيد المدائنى يحتج لمذهبه فى البخل أو فى الاقتصاد والنفقة وقدرته فى الاحتجاج ليست وليدة موقف واحد وانما هى خلاصة تاريخ حياة كاملة وممارسة طويلة مدروسة ان صح التعبير .

والجاحظ يورد حجج البخلاء مذاهب مختلفة فهو يسوقها مرة مساق الجد والسخرية تترقرق فى خلالها ، ويعرضها مرة أخرى فى معرض السخرية الصريحة لكنه حريص على أن يحكى الحركات النفسية حكاية دقيقة ويعرض ما تورده على خواطرهم أسبابهم المختلفة التى تحكمهم من بواطنهم عرضا رائعا ولا يترك الجاحظ شخصية أبى سعيد المدائنى قبل أن يحكى عنه ما لا يمكن أن ينسى :

(وكان أبو سعيد المدائنى ينهى خادمه أن نخرج الكساحة من الدار . وأمرها أن تجمعها من دور السكان وتلقيها على كساحتهم فاذا كان بعد الحين جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلا ثم فتشت واحدا واحدا فان أصاب قطع دراهم وصرة فيها نفقة والدينار أو قطعة حلى ، فسبيل ذلك معروف وأما ما وجد فيه من الصوف فكان وجهه أن يباع اذا اجتمع من أصحاب البراذع . وكذلك قطع الأكسية وما كان من خرق الثياب فمن أصحاب السينيات والصلاحيات وما كان من قشور الرمان فمن الصباغين والدباغين .

وما كان من القوارير ، فمن أصحاب الزجاج وما كان من نوى التمر، فمن أصحاب الخشوف وما كان من نوى الخوخ فمن أصحاب الغرس وما كان من المسامير وقطع الحديد فللحدادين وما كان من القراطيس فللطراز وما كان من الصحف فلرءوس الجرار وما كان من قطع الخشب فللأكافين وما كان من قطع العظام فللوقود وما كان من قطع الخزف فللتنانير الجدد وما كان من اشكنج (٤٢) فهو مجموع للبناء ثم يحرك ويثار ويخلل حتى يجتمع قماشه ثم يعزل للتنور وما كان من قطع القار بيع من القيار فاذا بقى التراب خالصا وأراد أن يضرب منه اللبن للبيع وللحاجة اليه لم يتكلف الماء ولكن يأمر جميع من فى الدار أن يتوضأوا ولا يغتسلوا الا عليه فاذا ابتل ضربه لبنا) ٠

رسالة فكرية فلسفية !!

أما البخيل الثانى الذى احتفت به صفحات « البخلاء » فانه الكندى الذى مدحه كل البخلاء ورأوا أنه كان حكيما حاضر الحجة ناصح الجيب دائم الطريقة وهو صاحب أقوال فى مدح البخل وذم الكرم فمنع المال وتحصينه خوفا من الغيلة وحفظه اشفاقا من الذلة ، أفضل عنده من جهل فصل الغنى وابتذال النعمة واهانة النفس بكرم الغير انما المال لمن حفظه وانما الغنى لمن تمسك به ولحفظ المال بنيت الحيطان وعلقت الأبواب واتخذت الصناديق وعملت الأقفال وتعلم الحساب والكتاب ٠

وللكندى قصة مشهورة وقف الجاحظ عندها طويلا وأعجب بها أستاذنا الدكتور طه حسين واعتبرها وصفا للخصومة التى قد تحدث بين الملاك والمستأجرين واستشهد بها فى كتابه (من حديث الشعر والنثر) على أن الجاحظ كان دقيق التصوير لحياة الانسان ولحياة البصرة وبغداد فى عصره ٠

قال الجاحظ : حدثنى عمرو بن نهيوى قال : (كان الكندى لايزال يقول للساكن وربما قال للجار : ان فى الدار امرأة بها حمل والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة فان النفس يردها اليسير فان لم تفعل ذلك بعد اعلامى اياك فكفارتك ان أسقطت غرة : عبد أو أمة ألزمت ذلك نفسك أم أبيت ٠

قال : فكان يوافى الى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه وان كان أكثرهم يفطن ويتغافل وكان الكندى يقول لعياله : أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع انما لكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان ٠

قال : وكنت أتغدى عنده يوما اذ دخل عليه جار وكان الجار لى صديقا فلم يعرض عليه الغداء فاستحييت انا منه فقلت : لو أصبت معنا مما نأكل

قال : قد ــ والله ــ فعلت قال الكندى : ما بعد الله شيء قال : فكتفه والله يا أبا عثمان كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا وتركه ولو أكل لشهد عليه بالكفر ولكان عنده قد جعل مع الله شيئا .

قال عمرو : بينا أنا ذات يوم عنده اذ سمع صوت انقلاب جرة من الدار الأخرى فصاح : أى قصاف (٤٣) ! فخالت مجيبة له : بئر وحياتك . فكانت الجارية فى الذكاء أكثر منه فى الاستقصاء قال معبد : نزلنا دار الكندى أكثر من سنة نروج له الكراء ونقضى له الحوائج ونفى له بالشرط قلت : قد فهمت ترويج الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال : فى شرطه على السكان أن يكون له ورث الدابة وبعر الشاة ونشوار (٤٤) العلوفة وألا يلقوا عظما ولا يخرجوا كساحة (٤٤) وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى فى بيته وكان فى ذلك يتنزل عليهم فكانوا لطيبه وافراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك .

قال معبد : فبينا انا كذلك اذ قدم ابن عم لى ومعه ابن له واذا رقعة منه قد جاءتنى : « ان كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك وان كان اطماع السكان فى الليلة الواحدة يجر علينا فى الليالى الكثيرة » فكتبت اليه : « ليس مقامهما عندنا الا شهرا أو نحوه » فكتب الى : « ان دارك بثلاثين درهما وأنتم ستة لكل رأس خمسة فاذا قد زدت رجلين فلابد من زيادة خمستين فالدار عليك من يومك هذا بأربعين » فكتب اليه : « وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الأرض التى تحمل الجبال وثقل مؤنتهما على دونك ؟ فاكتب الى بعذرك لأعرفه » ولم أدرك أنى أهجم على ما هجمت وانى أقع منع فيما وقعت فكتب الى :

« الخصال التى تدعو الى ذلك كثيرة وهى قائمة معروفة من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤنة ومن ذلك ان الأقدام اذا كثرت كثر المشى على ظهور السطوح المطينة وعلى أرض البيوت المجصصة والصعود على الدرج الكثيرة فينقشر لذلك الطين وينقلع الجص وينكسر العتب مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء وتكسرها لفرط الثقل واذا كثرة الدخول والخروج والفتح والاغلاق والاقفال وجذب الأقفال تهشمت الأبواب وتقلعت الرزات واذا كثر الصبيان وتضاعف البوش نزعت مسامير الأبواب وقلعت كل ضبة ونزعت كل رزة وكسرت كل حوزة حفر فيها آبار الددن وهشموا بلاطها بالمداحى هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف .

واذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء أحتيج من صب الماء واتخاذ الحبية القاطرة والجرار الراشحة الى أضعاف ما كانوا عليه فكم من حائط قد تآكل أسفله وتناثر أعلاه واسترخى أساسه وتداعى بنيانه من

قطر حب ورشح جرة ومن فضل ماء البئر ومن بسوء التدبير وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيز والطبيخ ومن الوقود والتسخين والنار لا تبقى ولا تذر وانما لدور حطب لها وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة فكلفتم أهلها أغلظ النفقة وربما كان ذلك عند غاية العسرة وشدة الحال وربما تعدت تلك الجناية الى دور الجيران والى مجاورة الأبدان والأموال فلو ترك الناس حينئذ رب الدار وقدر بليته ومقدار مصيبته لكان عسى ذلك ان يكون محتملا ولكنهم يتشاءمون به ولا يزالون يستثقلون ذكره ويكثرون من لائمته وتعنيفه ٠

نعم : ثم يتخذون المطابخ فى العلالى على ظهور السطوح ٠ وان كان فى أرض الدار فضل وفى صحنها متسع مع ما فى ذلك من الخطار بالأنفس والتغرير بالأموال وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد وهجومهم مع ذلك على سر مكتوم خبىء مستور : من ضيف مستخف ورب دار متوار ومن شراب مكروه ومن كتاب متهم ومن مال جم أريد دفنه فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه ومن ذلك حالات كثيرة وأمور لا يجب الناس أن يعرفوا بها ثم لا ينصبون التنانير ولا يملكون للقدور الا على متن السطح حيث ليس بينها وبين القصب والخشب الا الطين الرقيق والشيء الذى لا يقى هذا مع خفة المؤنة فى احكامها وأمن القلوب من المتلف بسببها فان كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم وأنتم ذاكرون فهذا عجب وان كنتم لم تحفلوا بما عليكم فى أموالنا ونسيتم ما عليكم فى أموالكم فهذا أعجب ٠

ثم ان كثيرا منكم يدافع بالكراء ويماطل بالأداء : حتى اذا جمعت أشهر عليه فر وخلى أربابها جياعا يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم واحسانهم فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم والذهاب بأقواتهم ويسكنها الساكن حين يسكنها وقد كسحناها ونظفناها لتحسن فى عين المستأجر وليرغب فيها الناظر فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا لا تصلحه الا النفقة الموجعة ثم لا يدع مترسا الا سرقه ولا سلما الا حمله ولا نقضا الا أخذه ولا برادة الا مضى بها معه ويدع يدق الثوب والدق فى الهاون والميجان فى أرض الدار ويدق على الأجذاع والحواضن والرواشن وان كانت الدار مقرمدة أو بالآجر مفروشة وقد كان صاحبها جعل فى ناحية منها صخرة ليكون الدق عليها ولتكون واقية دونها دعاهم التهاون والقسوة والغش والغسولة الى أن يدقوا حيث جلسوا والى ألا يحفلوا بما أفسدوا لم يعط قط لذلك أرشا ولا استحل صاحب الدار والا استغفر الله منه فى السر ثم يستكثر من نفسه فى السنة اخراج عشرة دراهم ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار فى الشهر أيذكر ما يصير الينا مع قلته ولا يذكر ما يصير اليه مع كثرته ؟ ٠

هذا ، والأيام التى تنقض المبرم وتبلى الجدة وتفرق الجميع المجتمع عاملة فى الدور كما تعمل فى الصخور وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطب ويابس وكما تجعل الرطب يابسا هشيما والهشيم مضمحلا . ولانهدام المنازل غاية قريبة ومدة قصيرة والساكن فيها هو كان المتمتع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذى أبلى جدتها وتحلاها وبه هرمت وذهب عمرها لسوء تدبيره فاذا قسمنا الغرم عند انهدامها باعادتها وبعد ابتدائها وغرم ما بين ذلك من مرمتها واصلاحها ثم قابلنا بذلك ما آخذنا من غلاتها وارتفقنا به من اكرائها خرج على المسكن من الخسران بقدر ما حصل للساكن من الربح الا أن الدراهم التى أخرجناها من النفقة كانت جملة والتى أخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة وهذا مع سوء القضاء والاحواج الى طول الاقتضاء ومع بغض الساكن للمسكن وحب المسكن للساكن لأن المسكن يحب صحة بدن الساكن ونفاق سوقه ان كان تاجرا وتحرك صناعته ان كان صانعا ومحبة الساكن ان يشغل الله عنه المسكن كيف شاء ان شاء شغله بعينه وان شاء بزمانه وان شاء بموت ومدار مناه ان يشغل عنه ثم لا يبالى كيف كان ذلك الشغل الا أنه كلما كان أشد كان أحب اليه وكان أجدر أن يأمن وأخلق لأن يسكن وعلى أنه ان فترت سوقه أو كسدت صناعته ألح فى طلب التخفيف من أصل الغلة والخطيطة مما حصل عليه من الأجرة وعلى أنه ان أتاه الله بالأرباح فى تجارته والنفاق فى صناعته لم ير ان يزيد قيراطا فى ضريبته ولا أن يجعل فلسا قبل وقته .

ثم ان كانت الغلة صحاحا دفع أكثرها مقطعة وان كانت أنصافا وأرباعا دفعها قراضة مفتتة ثم لا يدع مزابقا ولا مكحلا ولا زائفا ولا دينارا بهرجا الا دسه فيه ودلسه عليه واحتال بكل حيلة وتأتى له بكل سبب فان ردوا عليه بعد ذلك شيئا حلف بالغموس (٤٦) أنه ليس من دراهمه ولا من ماله ولا رآه ولا كان فى ملكه فان كان الرسول جارية رب الدار أفسدها وربما أحبلها وان كان غلاما خدعه وربما شطر به . هذا مع الاشراف على الجيران والتعرض للجارات ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم وربما استضعف عقولهم وطمع فى فسادهم وعيبهم فلا يزال يضرب لهم بالاسلاف ويغريهم بالشهوات ويفتح لهم أبوابا من النفقات ليعييهم ويربح عليهم حتى اذا استوثق منهم أعجلهم وحزق بهم (٤٧) حتى يتقوه ببيع بعض الدار أو باسترهان الجميع ليربح — مع الذهاب بالأصل — لسلامة مع طول مقامه — من الكراء وبما جعله بيعا فى الظاهر ورهنا فى الباطن فحينئذ يقتضيهم دون المهلة ويدعيها قبل الوقت .

وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء أن يدعى أن له شخيصا (٤٨) وأن له يدا ليصير خصما من الخصوم ومنازعا غير غاضب

وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها فيجعل استئجار البيوت وتصفح المنازل علة لدخولها والمقام ساعة فيها فاذا استقر فى المنزل قضى حاجته منها ورد المفتاح وربما اكترى المنزل وفيه مرمة فاشترى بعض ما يصلحها ثم يتوخى عاملا جلد الكسوة وجيرانا أصحاب آنية وآلة فاذا شغل العامل وغفل اشتمل على كل ما قدر عليه وتركهم يتسكعون وربما استأجر الى جنب سجن لينقب أهله اليه والى جنب سراف لينقب عليه طلبا لطول المهلة والستر لطول المدة والأمن وربما جنى الساكن ما يدعو الى هدم دار المسكن بل يقتل قتيلا أو يجرح شريفا فيأتى السلطان الدار — وأربابها اما غيب واما أيام واما ضعفاء — فلا يصنع شيئا دون أن يسويها بالأرض ·

وبعد · فالدور ملقاة وأربابها منكوبون وملقون · وهم أشد الناس اغترارا بالناس وأبعدهم غاية من سلامة الصدور وذلك ان من دفع داره ونقضها وساجها (٤٩) وأبوابها مع حديدها وذهب سقوفها الى مجهول لا يعرف فقد وضعها فى مواضع الغرر (٥٠) وعلى أعظم الخطر ·

وقد صار فى معنى المودع وصار المكترى فى موضع المودع ثم ليست الخيانة وسوء الولاية الى شىء من الودائع أسرع منها الى الدور وأيضا أم أصلح السكان حالا من اذا وجد فى الدار مرمة ففوضوا اليه النفقة وان يكون ذلك محسوبا عند الأهلة الذى يشفف (٥١) فى البناء ويزيد فى الحساب فما ظنك بقوم هؤلاء أصلحهم وهم خيارهم وأنتم أيضا ربما أكريتم مستغلا غيركم بأكثر مما اكتريتموها منه فسيروا فينا كسيرتكم فيهم وأعطونا من نفسكم مثل ما تريدونه منهم وربما بنيتم فى الأرض فاذا صار البناء بنيانكم — وان كانت الأرض لغيركم — ادعيتم الشركة وجعلتموه كاجازة وحتى تصيروه كتلاد مال أو موروث سلف ·

وجرم آخر ، وهو انكم أهلكتم أصول أموالنا وأخربتم غلاتنا وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستغلاتنا حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة ومن أعين العوام والحشوة (٥٢) · وحتى يدافعوكم بكل حيلة وصرفوا أموالهم فى كل وجه وحتى قال عبيد الله بن الحسن قولا أرسله مثلا وعاد علينا بحجة وضررا وذلك انه قال : « غلة الدار مسكة (٥٣) وغلة النخل كفاف وانما الغلة غلة الزرع والنسولتين » (٥٤) ·

وانما جر ذلك علينا حسن اقتضائنا وصبرنا على سوء قضائكم وأنتم تقطعونها علينا وهى عليكم مجملة وتلوونا بها وهى عليكم حالة فصارت كذلك غلات الدور — وان كانت أكثر ثمنا ودخلا — أقل يمنا وأخبث أصلا

من سائر الغلات فأنتم شر علينا من الهند والروم ومن الترك والديلم اذ كنتم أحضر أذى وأدوم شرا ثم كانت هذه صفتكم وحيلتكم ومعاملتكم في شيء لابد لكم منه فكيف كنتم لو امتحنتم بما لكم عنه مندوحة والوجوه لكم معرضة وأنتم فيه بالخيار وليس عليكم طريق للاضطرار ؟ .

وهذا مع قولكم : ان نزول دور الكراء أصوب من نز دور الشراء وقلتم : لأن صاحب الشراء قد أغلق رهنه وأشرط نفسه وصار بها ممتحنا وبثمنها مرتهنا ومن اتخذ دارا فقد أقام كفيلا لا يخفر وزعيما لا يغرم وان غاب عنها حن اليها وان أقام فيها ألزمته المؤن وعرضته للفتن : ان أساءوا جواره وأنكر مكانه وبعد مصلاه ونأت عنه سوقه وتفاوتت حوائجه ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها وأنه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها وأن من كان كذلك فهو عبد داره وخول جاره . وان صاحب الكراء الخيار في يده والأمر اليه فكل دار هي له متنزه ان شاء ومتجر ان شاء ومسكن ان شـــاء لم يحتمل فيها اليسير من الذل ولا القليل من الضيم ولا يعرف الهوان ولا يسام الخسف ولا يحترس من الحساد ولا يداري المتعللين وصاحب الشراء يجرع المرار ويسقى بكأس الغيظ ويكد بطلب الحوائج ويحتمل الذلة وان كان ذا أنفة ان عفا عفا على كظم ولا يوجه ذلك منه الا الى العجز وان رام المكافأة تعرض لأكثر مما أنكره قال رسول الله ـ صلى الله عليه وســـلم ـ : « الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق » .

وزعمتم أن تسقط الكراء أهون اذا كان شيئا بعد شيء وأن الشدائد اذا وقعت جملة جاءت غامرة للقوة فأما اذا تقطع وتفرق فليس يكترث لها الا من تفقدها وتذكرها ومال الشراء يخرج جملة وثامته في المال واسعة وطعنته نافذة وليس كل خرق يرقع ولا كل خارج يرجع وانه قد أمن من الحرق والغرق وميل أسطوان وانقصاف سهم واسترخاء أساس وسقوط سترة وسوء جوار وحسد مشاكل وانه اما لا يزال في بلاء واما أن يكون متوقعا لبلاء وقلتم : ان كان تاجرا فتصريف ثمن الدار في وجوه التجارات أربح وتحويله في أصناف البياعات أكيس وان لم يكن تاجرا ففي ما وصفناه له ناه وفيما عددنا له زاجر فلم تمنعكم حرمه المساكنة وحق المجاورة والحاجة الى السكنى وموافقة المنزل ان أشرتم على الناس بترك الشراء وفي كساد الدور فساد لأثمان الدور وجرأة للمستأجر واستحطاط من اللغة وخسران في أصل المال وزعمتم أنكم قد أحسنتم الينا حين حثثتم الناس على الكراء لما في ذلك من الرخاء والنماء فأنتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم في الكراء ، بل انما أردتم أن تضرونا بتزهيدكم في الشراء وليس ينبغي أن يحكم عن كل قوم الا بسبيلهم وبالذي يغلب عليهم من أعمالهم .

فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم وكلها حجة عليكم وكلها داعية الى تهمتكم وأخذ الحذر منكم وليست لكم خصلة محمودة ولا خلة فيما بيننا وبينكم مرضية وقد أريناكم أن حكم النازلين كحلم المقيمين وان كل زيادة فلها نصيب من الغلة ولو تغافلت لك يا أخا أهل البصرة عن زيادة رجلين لم أبعدك – على قدر ما رأيت منك – ان تلزمني ذلك فيما يتبين حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف وتصير الاقامة كالظعن والتفريغ كالشغل وعلى أني لو كنت أمسكت عن تقاضيك وتغافلت عن تعريفك ما عليك لذهب الاحسان اليك باطلا اذ كنت لا ترى الزيادة قدرا ·

وقد قال الأول : والكفر مخبثة لنفس المنعم ·

وقال الآخر :

تبدلت بالمعروف نكرا وربما تنكر للمعروف من كان يكفر

أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة وبالعداوة التي بين أسد وكندة وبما في قلب الساكن من استثقال المسكن وسيعين الله عليك والسلام) ·

أرأيت الى هذه الرسالة الفكرية الفلسفية الدقيقة وهذا الحوار الجيد العميق وهذا التوليد والخلق هنا ترتيب للفكرة وتنظيم للآراء واختيار ممتاز للكلمات وأسلوب مقتع · انتخاب لمفردات الحياة الواقعية المادية الملموسة وايمان قوى بنظرية البخل ودفاع جاد في سبيلها والدفاع عنها لقد نجح في أن يجعل الساكن متهما جانيا حقودا لصا محتالا يتوسل بشتى الوسائل غير الحميدة لاستغلال المؤجر أو المسكن كما يقول الجاحظ على لسان الكندى ثم تلك السخرية التي اصطبغت بها الرسالة من أولها الى آخرها انها المرآة التي يكتشف فيها العاطرون – عادة – وجوه الآخرين لا وجوههم ولعل في هذا تفسيرا للقبول الذى يلقاه أدب الجاحظ الساخر ·

تأثير الجاحظ

يقول د· سيد حامد النساج في كتابه « رحلة التراث العربي » :

لعل أقرب من يخطر بالبال من تلاميذ الجاحظ ممن افتتنوا به وتأثروا به أبلغ الأثر أبو حيان التوحيدى ٣١٠ هـ – ٤١٤ هـ · كان التوحيدى من أكبر المعجبين بالجاحظ يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه كما يقول ياقوت الحموى في (معجم الأدباء) وكان يقول : « الجاحظ واحد الدنيا » ولذا كان يكثر من مطالعة آثاره ويعنى بكتاب

الحيوان ويتوفر على تصحيحه وقد بلغ من اعجابه به أن ألف رسالة أسماها « تقريظ الجاحظ » قال فيها معددا صفات الجاحظ : « ان مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل انسان ولا تجتمع فى صدر كل واحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد » .

لذا حمل التوحيدى لواء الطريقة الجاحظية فتجلت فى كتابته الخصائص العقلية الجاحظية فقد كان لانكبابه على مطالعة كتب الجاحظ فى سن مبكرة أثر فى تفتح ذهنه وانماء مواهبه الأصيلة نجدها ماثلة فى عناصر أسلوبه العامة كالمطابقة بين المعنى والمبنى والوضوح والصفاء والدقة والطرافة والبعد عن التكلف والتزويق المصطنع ونجدها فى ضروب الصنعة كاستعمال الازدواج والمقابلة والتقسيم والتوفر على ايجاد ايقاعات صوتية وموسيقية ناشئة عن انتقاء الألفاظ واحكام بناء الجمل وتوازنها .

أثر الجاحظ في بعض طلابه من ناحية أخرى فمنهم من لخصوا بعض آثاره كما فعل عبد اللطيف البغدادى ١٦١١ ـ ١٢٣١م . ٥٥٧ ـ ٦٢٩ هـ الذى لخص كتاب (الحيوان) فى مؤلف سماه (اختصار كتاب الحيوان) وكما فعل ابن سناء الملك الشاعر المصرى (١١٥٥ ـ ١٢٥٩م ، ٥٥٠ هـ ـ ٦٥٨ هـ الذى لخص الكتاب نفسه وسماه (روح الحيوان) ومنهم من حاكى الجاحظ فى تأليفه فحفلت كتبهم بمختلف الموضوعات كابن قتيبة (عيون الأخبار) والمبرد (الكامل) وابن عبد ربه (العقد الفريد) وأبو بكر الصولى (الأوراق فى أخبار الخلفاء والشعراء) والآمدى وابن الفقيه الجغرافى بالقرن العاشر والبيهقى صاحب كتاب (المحاسن والمساوىء) والقزوينى ١٢٠٨ ـ ١٢٨٣ م ، ٦٠٥ ـ ٦٨٢ هـ والدميرى ١٣٤٩ ـ ١٤٠٥ م ، ٧٥٠ ـ ٨٠٨ هـ صاحب (حياة الحيوان الكبرى) .

أما فيما يتصل بكتاب « البخلاء » على نحو خاص فان تأثيره كان قويا وممتدا من حيث الموضوع والفكرة وطريقة المعالجة واللغة فقد يلتهمه الأديب أو المتأدب قبل أن يقدم على قراءة والحيوان والبيان والتبيين ففى الكتاب قصص وفيه حوار وفيه جدل وفكر وفلسفة وفيه حياة واقعية وأشخاص معروفون وفيه لون من الأدب النثرى الساخر وقد تأثر الدكتور طه حسين بلغة هذا الكتاب ، بل انا نجد انعكاسا واضحا لمقدمة البخلاء فى بعض كتابات طه حسين حين يتصور قارئا يسأله ويحاول الاجابة عن تساؤلاته مثيرا من خلالها بعض القضايا والمسائل التى يريدها هو لا القارىء والجدل مع الشخصيات أو مع القارىء والموسيقى الداخلية واستخدام الحال بكثرة وليس ثمة من ينكر اعجاب طه حسين الكبير بالجاحظ وتقليده.

اياه فى تناوله للموضوعات الاجتماعية والأدبية ، بل ان السخرية المرة الكامنة وراء الكلمات والألفاظ التى يكشف عنها التأمل الدقيق فى كتابات طه حسين موردها كتاب البخلاء للجاحظ وما أكثر ما أشاد طه حسين بفكر الجاحظ وعقله وأسلوبه وسخريته وطريقته فى الحوار والجدل · وفى تعليق له على قصة الكندى يقول : « فى هذه السهولة وهذا اليسر والجمال يصور لنا الجاحظ الخصومات لاكما كانت تقع بين الملاك والمستأجرين فى بغداد بل كما تقع هنا فى القاهرة ثم يذهب الى أن جمال النثر وتطوره عند الجاحظ قد مكن من انشاء البيان على أنه علم (هذا الجاحظ الذى نتحدث عنه ربما كان أول من حاول أن يضع نظريات فى البيان) ·

أما توفيق الحكيم الذى نهل من مناهل معروفة : يونانية وفرنسية واسلامية فانه أطال الوقوف عند الجاحظ فى كتاباته بشكل عام وأشار الى تأثره به لكن انعكاسات واشعاعات « البخلاء » كانت أوضح وقد أقام كتابه (أشعب أمير الطفيليين) على أثر قراءته للبخلاء بل ان الحكيم فى بعض سلوكه يكشف عن نظرة معينة الى البخل تأثرت فى الأغلب الأعم باتجاه بخلاء الجاحظ تستند الى منطق وفلسفة حتى شهر الحكيم بالبخل بين أصحابه ومريديه ·

ويحدثنا توفيق الحكيم فى ذكريات شبابه أنه أطال الوقوف عند القرآن الكريم وكتابات الجاحظ وألف ليلة وليلة ، وأنه يرى فى كتاب « البخلاء » آية فى التصوير الاجتماعى والنفسى · لقد اكتشف توفيق الحكيم فى شخصية الجاحظ الجانب الفنى بعد أن أوشك الاهتمام بكتابه الموسوعى (البيان والتبيين) أن يطمس نور كتابه البخلاء أو وهج رسائله الفكهة مثل رسالة التربيع والتدوير ، وكاد الجاحظ الفنان أن يختفى وراء الجاحظ المعلم والبلاغى ·

★★★

طبعـات الكتـاب

ألف الجاحظ كتابه هذا « البخلاء » قبيل وفاته بأشهر معدودات واذا كان قد توفى ٢٥٥ هـ ، فان معنى ذلك أن هذا الكتاب قد كتب فى ٢٥٤ هـ ومعناه من ناحية أخرى أنه يضم تجربة المؤلف خالصة ناضجة ، وأنه يحتوى على آراء كاملة فى الحياة والناس ، وأن من يريد بلورة أفكار الكاتب ومذهبه وأسلوبه يمكن أن يجد فى هذا الكتاب عونا أى عون ٠

ولهذا الكتاب نسخة خطية فى مكتبة « كوبريلى » تتكون من ٢٧٨ صفحة فى ١٧ سطرا لكل صفحة مكتوبة سنة ٦٦٩ هـ ونسخة ثانية فى باريس تتكون من ٧٦ صفحة فى ١٥ سطرا لكل صفحة وهى قطعة تمثل ثلث الكتاب وتقع ضمن مجموعة كتب هى : « فضل الكلاب على من لبس الثياب » لابى بكر محمد بن خلف بن المزريان وكتاب « نور العيون فى تلخيص سيرة الأمين والمأمون » لابن سيد الناس الحافظ أبى الفتح محمد بن محمد ٠

بعدئذ ، ومنذ ١٩٠٠ أخذت طبعات الكتاب تتوالى وكانت أول طبعة بليدن أصدرتها « دار بريل » وقد عنى بنشره وتحقيق نصه العـــلامة المستشرق الهولندى « فان فلوتن » ٠ فى ١٩٥١ ظهرت باللغة الفرنسية ترجمة لهذا الكتاب قام بها الأستاذ بلا وفى سنة ١٩٢٥ قدم العلامة « وليم مرسيه » طائفة من الملاحظات القيمة على نشرة « فان فلوتن » صحح فيها بعض الكلمات وقوم فيها بعض العبارات وأشار فيها الى بعض المقارنات ونشرت فى مجموعة اليونسكو ٠ فى ١٩٣٥ تلقف الحاج محمد الساسى المغربى نشرة فان فلوتن وقذف بها الى المطبعة دون أن يتكلف شيئا من أوليات ما ينبغى فى نشر الكتب وطبعها بمطبعة الجمهور المصرى فى ٢٢٧ صفحة فجاءت مشوهة عن الطبعة الأوربية السابقة تحمل أخطاءها وتزيد عليها أخطاء فى الطباعة والنشر وما لبثت وزارة التربية والتعليم المصرية (المعارف آنذاك) أن تنبهت الى شىء من واجبها فى هذا الصدد فعهدت بالكتاب الى الأستاذين أحمد العوامرى وعلى الجارم فأظهراه فى نشرة يبدو فيها أثر الجهد والتحقيق سنة ١٩٣٨ معتمدين طبعة المستشرق فان فلوتن ٠

ثم نشره وحققه مكتب العربى بالاشتراك مع لجنة من أعضاء المجمع العلمى بدمشق فى مطبعة ابن زيدون سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م باشراف بدر الدين النعسانى وخليل مردم بك وعبد القادر المغربى وعز الدين التنوخى ومحمد بهجت البيطار · كتب المقدمة أحمد أمين ويقع الكتاب فى ٤١٣ صفحة واعتمدت هذه الطبعة التصحيحات التى قام بها فان فلوتن ودى جويه ومرسيه الذى نشر تصحيحاته فى المجلة الآسيوية ·

كما نشر داود الجلبي مقالات تصحيحية عن أغلاط الطبعة الدمشقية لكتاب البخلاء فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد العشرون ١٩٤٥ الصفحات ٦١ ـ ٦٧ وقام الأستاذ طه الحاجرى بنشر الكتاب سنة ١٩٤٨ فى دار الكتاب المصرى ويقع فى ٤٦٦ صفحة ·

ونشر « رشر » قسما منه فى :

Exlcerpteu Ubersitzunger U.S.W.S. 267-484.

ثم الى جانب الترجمة التى قام بها الأستاذ شارل بلا فانه نشر كتابا بعنوان : صحف مختارة من كلام ابن عثمان الجاحظ يحوى منتخبات من ثلاثة كتب للجاحظ منها البخلاء طبع بباريس ١٩٤٩ كما أصدر الأستاذ طه الحاجرى طبعة أخرى فى دار المعارف بمصر ١٩٥٨ ضمن سلسلة ذخائر العرب ٢٣ ويقع فى ٥٠٧ صفحات·وتلافيا للوقوع فيما وقع فيه من تقدمه اعتمد الأستاذ الحاجرى فى تحقيقه كتاب البخلاء المخطوطة التى اعتمدها فان فلوتن قبله ومخطوطة ثانية فى مكتبة باريس الاهلية كما رجع عدد كبير من كتب الأصول للبحث والتنقيب والمقارنة عندما كان يريد التأكد من نص من النصوص وفى الكتاب وصف للمصادر التى استوحاها الحاجرى المباشرة منها وغير المباشرة · ومن ميزات هذه الطبعة أن المحقق قدم لها بمقدمة تحليلية نقدية لكتاب البخلاء بحث فيها النزعة الفنية عند الجاحظ ومكانتها من نزعاته الأخرى كما بحث فى كتاب البخلاء نفسه متناولا أصل وضعه مبينا خصائصه الفنية والطبعة مذيلة بفهارس عملية للأشخاص والأماكن والأطعمة والأدوات والشعر وهى تدل على ممارسة واعيا وتفهم عميق للتراث العربى بعـــامة ولأعمـــال الجاحظ الكثيرة بخاصـــة ·

وطبع فى دار احياء التراث العربى ببيروت سنة ١٩٦٠ ـ ١٣٨٠ هـ فى ٣١٥ صفحة كما طبع فى داو اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بدمشق ضمن سلسلة عيون التراث العربى ، قدم لها أحمد ظافر كوجان فى سنة ١٩٦٣ ويقع فى ٥٤٩ صفحة وفى نفس السنة أصدر الأستاذ طه

الحاجرى طبعة أخرى وجاءت فى ٤٣٨ صفحة صدرت عن السلسلة والدار اللتين أصدر بهما طبعته السابقة وكذلك جاءت الطبعة الخامسة فى سنة ١٩٧٦ وتقع فى ٥١٠ صفحات . وبين طبعتى الأستاذ الحاجرى السابقتين أصدر فوزى عطوى طبعة جديدة حققها وقدم لها نشرتها بالشركة اللبنانية للكتاب ببيروت سنة ١٩٦٩ .

مصنفات جابر بن حيان الكيميائية

جابر بن حيان

٨٥٠ - ٩١٠ م

لا يخفى أن المدنية الأوربية تقـــوم على عـدة أركان أهمها الركن الاقتصادى وهذا يقوم على ما أوجده العـلم من صناعات واستحداثه من آلات وأدوات لتسهيل استغلال القوى الطبيعية لصالح الانسان ورفاهيته .

ولقد لعبت الكيمياء وما تزال تلعب دورا مهما في هذا العصر فلولاها لما تقدمت الصناعة تقدمها الحاضر ولما سيطر الانسان على بعض العناصر سيطرته الحالية .

واذا ذكرنا الكيمياء والصـناعات التى خرجت منها وقامت عليها توجه نظرنا الى الذين وضعوا أسسها وعملوا على تقـدمها وارتقائها من كهنة مصر الى علماء اليونان الى فلاسفة الهند الى نوابغ العرب . ويهمنا ما أحدثه العرب فى هذا الفرع من ابتكار واكتشاف فنجد أنهم تبنوا هذا العلم وامتازوا على غيرهـم برجوعهم فيه الى التجربة والاختبـار اذ بعد اطلاعهم على بحوث من سبقهم من الأمم أتوا بزيادات مهمة جعلت بعض منصفى الغرب يعتبرون هذا العـلم من نتاج القريحة العربية الخصـبة ويرجع الفضل فى أكثر هذه الابتكارات والاضافات الى جابر بن حيان الذى قال عنه « برتيلو » : « لجابر بن حيان فى الكيمياء ما لأرسطوطاليس فى المنطق .. » ويعتبر برتيلو أيضا أن جميع الباحثين العرب فى هذا العلم نقلوا عن جابر واعتمدوا على تآليفه وبحوثه .

★★★

اختلف الناس فى أمر جابر بن حيان وليس بعجيب أن يختلف فى أمر العظماء من رجال الفكر والعلم فهم محط الأنظار واليهم يتقرب الناس وعلى الانتماء اليهم يتنازعون . فالشيعة تقول ان جابر من كبارهم وأحد أبوابهم ، وانه كان صاحب جعفر الصادق ومن الناس من يقول انه كان من جملة البرامكة ومنقطعا اليهم وقال قوم من الفلاسفة انه كان منهم كما « زعم أهل صناعة الذهب أن الرياسة انتهت اليه فى عصره وأن أمره كان مكتوما » . وزعموا أنه كان يتنقل فى البلدان لا يستقر به بلد خوفا من السلطان على نفسه وقد يكون ذلك نتيجة لعلاقاته مع البرامكة كما تقول

أكثر الروايات اذ كان مقربا الى البلاط العباسى فلما دار الزمان على البرامكة أصابه بعض ما أصابهم من اضطهاد وضغط حيث بقى وقتا طويلا مختفيا مما حمله على الفرار الى الكوفة ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الاختلاف فى أمر جابر بل نجد أن جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين ـ كما يقول صاحب الفهرست ـ ينكرون وجود جابر وأن لا أصل لرجل بهذا الاسم ولا حقيقة ، وأن الناس قد نسبوا اليه مؤلفات ورسائل ونحلوه اياها ولقد علق صاحب الفهرست على هذا تعليقا طريفا ينتهى به الى أن رجلا بهذا الاسم (جابر) كان موجودا وله حقيقة وهذا ما يأخذ به أكثر المؤرخين من القدامى والمحدثين قال ابن النديم فى الفهرست : « ٠٠٠ وأنا أقول ان رجلا فاضلا يجلس ويتعب فيصنف كتابا يحتوى على ألفى ورقة يتعب قريحته وفكره باخراجه ويتعب يده وجسده بنسخه ثم ينحله لغيره ـ اما موجودا أو معدوما ـ ضرب من الجهل وان ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم وأية فائدة فى هذا وأية فائدة ؟ والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصنيفاته أعظم وأكثر ولهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة ٠٠٠ وكتب فى معان شتى من العلوم ٠٠ وقد قيل ان أصله من خراسان ٠٠ » ولد فى طرسوس أو طوس سنة ١٢٠ هـ وعاش الى عصر المأمون ما يقرب من ثمانين سنة ٠

★★★

التراث العلمى والعربى

لم يسلم العرب من حقد الشانئين فقد حاول كثير من الأوروبيين أن يجردوهم من تلك العلمية المبتكرة التى اشتهروا بها فزعموا أن العقل العربى فى كل أطواره التاريخية لم يقدم الى المدنية خدمات علمية لتسخير قوى الطبيعة والانتفاع بها فى رقى الحياة الانسانية وأخذوا يبرهنون على هذه الدعوى الجائرة بأنه لم ينبغ فى العرب من كان مثل « جاليليو » أو « كبلر » أو « بيكون » وعلى الرغم مما ردده هؤلاء المنكرون فان فريقا كبيرا من علماء أوروبا أنصفوا العرب وأحلوهم المحل الأول فى طليعة الرواد الذين كشفوا أستار الطبيعة ومهدوا السبيل لقيام حضارة علمية زاهرة ومما ردده أولئك الجاحدون لفضل العرب دعواهم أن جابر بن حيان ـ وهو تلك الشخصية اللامعة فى عالم الكيمياء لا وجود له ، وأنه شخص وهمى وقال آخرون : ان ما نسب اليه من رسائل فى الكيمياء انما هى من وضع عالم لاتينى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد ٠

وكيفما كان الأمر فان من الثـــابت تاريخيـا أن العرب ما كادوا يتصلون بعد حركة الفتـح بالأمم المغلوبـة من فرس وروم حتى أخذوا يعملون على تشـييد امبراطورية قويـة تقوم دعائمها على العلم والمعرفة لذلك أخذت تنشط وتقوى فى العصر العباسى وكان المأمون من أشد خلفاء بنى العباسى حرصا على نقل الثقافة اليونانية وغيرها من الثقافات الى اللغة العربية فبعث بالكتب والرسل الى ملك الروم بالقسطنطينية يطلب منه ما هو مختار ومدخر فى خزائنه من الكتب النفيسة وكان ممن بعث بهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وغيرهما وقد روى أن المأمون كان يعطى كل مترجم وزن كتابه ذهبا مما دعا الى اثارة روح التنافس بين العلماء والمترجمين واشتهر من هؤلاء المترجمين آى بختيشوع أبنـاء جورجيس بن بختيشوع السريانى النسطورى طبيب المنصور وحنين بن اسحق العبادى شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة (٥٥) ويوحنا بن ماسويه (٥٦) ومتى بن يونس (٥٧) ومن المشجعين لحركة الترجمـة بدافع الرغبة فى العلم بنو موسى بن شاكر وهم ثلاثة اخوة « محمـد وأحمـد والحسن » وبذلك تهيأ للمأمون أن ينقـل فى عهده الى اللغـة العربية معظم أمهات الكتب فى العلوم والفلسفة وقد أنشأ دارا خاصة ببغداد تدعى دار الحكمة عهد الى العلماء فيها بنقل كل ما يمكن نقله من معارف الأمم الأجنبية ٠

وكان للنساطرة من علماء السريان الذين كانوا يقيمون بالرها(٥٨) ونصيبين (٥٩) وانطاكية (٦٠) من المراكز العلمية بالشام أكبر الفضل فى هذه الحركة العلمية ٠

وتشير المراجع الى أن هـؤلاء كانوا يشتغلون بترجمـة العـلوم اليونانية الى اللغة السريانية ، فلما احتل المسلمون الأقطار الشامية انتفعوا بهؤلاء العلماء فى ترجمة ما عندهم من الحكمة اليونانية الى اللغة العربية وقبل أن يشتغل العرب بنقل علوم اليونـان فى الشام والعراق وكانوا لاسـكندرية فى أيام البطالسـة مركزا مشهورا من مراكز العلم ، وكانت الاسـكندرية فى أيام البطالسة مركزا مشهورا من مراكز العلم ، وكانت لمكتبتها شهرة ذائعة فى العالم كله ، وقد نشأت فى الاسكندرية أول مدرسة للكيمياء ويقال ان بطليموس الأول (٣٢٣ ــ ٢٨٥ ق٠م) أنشـأ معهد « الميوزيوم » وخصص جانبا منه للبحوث الكيميائية وفى هذا العهد التقت معـارف المصريين القدماء فى الكيمياء بالبحوث الاغريقية فى هذه المادة التى يرجع اليها الفضل الكبير فى بناء حضارتنا الحديثة ٠ فلما اسـتقر العرب فى الاسكندرية أخذوا يدرسون فيها الكيمياء وغيرها من العلوم وكانت الكيمياء القديمة تقوم على أساس فكرة خاطئة وهى امكان تحويل المعادن الخسيسة من حديد ونحاس الى معادن نفيسة من ذهب وفضة ، والعمل على تحضير أكسير الحياة الذى يساعد فى اطالة العمر ولم تقف

فتوح العرب عند حد ، اذ تجاوزت بلاد الشرق الى أوروبا ففتحوا بلاد الأندلس ونشروا فيها حضارتهم فكانت هذه الحضارة قبسا قويا أضاء أوروبا ولذلك أقبل الأوروبيون على الجامعات العربية فى قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية — يدرسون وينقلون الكتب وفى مقدمتها كتب الكيمياء . وقد ظهر فى انجلترا أول كتاب فى الكيمياء ترجمه عالم انجليزى يدعى « روبرت أف تشيستر » كما اعتمد روجر باكون على مؤلفات ابن سينا فى الكيمياء ولم يأت القرن السادس عشر حتى كانت مؤلفات الكيمياء العربية قد أصبحت شائعة فى أنحاء أوروبا وكان العرب يسمون الكيمياء الاكسير وأطلق عليها الأوروبيون حجر الفلاسفة ثم أخذت بحوث الكيمياء بفضل جهود العرب تنحو نحوا عمليا تجريبيا وانتهى الأمر بالقضاء على نظرية أرسطو القديمة التى أيدها العرب حينا ثم عدلوا عنها بعد أن اتضح لهم استحالة استخراج الذهب من المعادن الرخيصة.واذا كان للكيمياء فضل عظيم فى بناء صرح الحضارة الانسانية فان جانبا كبيرا من هذا الفضل يرجع الى العرب الذين تعهدوا هذه البحوث وكان لهم فيها باع طويل سيتضح لنا بعد دراسة جابر بن جيان . وقد اتهم العرب ظلما بأنهم أحرقوا مكتبة الاسكندرية وتلك دعوى جائرة وقد رمى بها العرب ، ويكفى فى القضاء على هذه التهمة الباطلة ما كان عليه العرب من حب عميق للبحث وشغف بالاطلاع على الكتب ورغبة ملحة فى الوقوف على مصادر الثقافات الأجنبية. وبدهى أن الكتب هى مراجع ومنابع المعرفة واذن ، يكون من غير المعقول أن يعمد العرب الى احراقها والحقيقة التى لا شك فيها أن ما أصاب مكتبة الاسكندرية والمعهد الملحق بها كان من عمل غير العرب فقد روى ثقات المؤرخين أن الامبراطور « دقلديانوس » أمر فى سنة ٢٩٦ م بحرق كتب الكيمياء فى مكتبة الاسكندرية ، كما قيل إن أهل الاسكندرية ثاروا فى وجه بطليموس التاسع فأحرقوا جزءا كبيرا من هذه المكتبة العظيمة أما العرب فكانوا من أحب الناس للعلم ، وقد بهرتهم بحوث الكيمياء فمالوا اليها ويقول ابن النديم فى الفهرست : « كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا فى نفسه ومحبا للعلوم خطر بباله الصنعة فأمر باحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كانوا ينزلون بمدينة مصر وقد تفصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى وهذا أول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة » . ويقول ابن خلكان فى كتابة وفيات الأعيان : « ان خالدا كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام فى صنعة الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته وأخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مريانوس الرومى » ، ولكن ابن خلدون يستبعد اشتغال خالد بفن الكيمياء مدعيا أنه من الجيل العربى

والبداوة اليه أقرب فهو يعيد عن العلوم والصناعات ومن الأسف أن هذا العالم الكبير ينزع نزعة معادية للعرب ولذلك لانستطيع أن نعتمد على روايته والأقرب الى الواقع روايتا ابن النديم وابن خلكان وتقول بعض المصادر ان خالدا استعان على الاشتغال بالصنعة برجل يدعى « اسطفان المصرى » وممن اشتغلوا بالكيمياء من علماء العرب أبو عبد الله جعفر الصادق ابن الصوفى وكانت بحوث العرب فى الكيمياء مقترنة ببحوثهم فى الطب . بالصادق لصدقه وله كلام فى صنعة الكيمياء ومن تلاميذه أبو موسى جابر ابن الصوفى وكانت بحوث العرب فى الكيمياء مقترنة ببحوثهم فى الطب. وقد أفاد الأوربيون من علم الكيمياء الذى تقدم على أيدى العرب ومما يؤيد ذلك أن كثيرا من مصطلحات الكيمياء الحديثة ما تزال معروفة بأسمائها التى وضعها العرب ، من ذلك القلويات التى يسميها الأوربيون Al Kali . حقا لقد ترك العرب آثارا خالدة فى علم الكيمياء لانهم أول من أدخل فكرة التجربة العملية وخلصوا هذا العلم من نظريات الاغريق الغامضة .

مذهب قدماء العرب فى الكيمياء :

كان علماء العرب يقسمون هذا الوجود الذى نعيش فيه قسمين : الوجود الحسى وهو العالم المحس الذى نحيا فيه ويشمل الكرة الأرضية وما فيها من هواء وماء وما يتصل بها من أجرام والوجود غير الحسى وهو ما وراء الطبيعة .

أما الوجود الحسى فيقول فيه القدماء : انه نوعان :

الأول : عالم العناصر التى نشاهدها ونراها بأعيننا ونلمسها بأيدينا .
والثانى : عالم الأفلاك .

فالعناصر التى نشاهدها ونحسها أربعة وهى : الأرض والماء والهواء والنـــار .

وأما عالم الأفلاك فتسعة : الفلك الأول فلك القمر وهو أصغرها وأقربها الى الأرض ويزعمون أنه فوق كرة الهواء والفلك الثانى هو فلك عطارد ويرى من الكواكب السيارة والفلك الثالث للزهرة والرابع للشمس والخامس للمريخ والسادس للمشترى (جوبتير) والسابع لزحل .

وبالرغم مما وصل اليه القدماء فان معارفهم الفلكية كانت محدودة. وسبب ذلك شىء يسير جدا وهو أن المنـاظير وآلات الرصـد التى عرفها الفلكيون فى هذا العصر كانت بدائية ، وهذه سنة طبيعية ، فان معارف الانسان بدأت يسيرة قليلة ثم أخذت تنمو وتزداد وتتطور مع الأيام ومع التقدم الفكرى وانتهى علم القدماء الى أنه فى كل فلك من الأفلاك أو فى

كل مدار من المدارات السبعة كوكب واحد ثم قالوا : ان فوق فلك زحل الفلك الثامن وهو للكواكب الثابتة وفوق الفلك الثامن الفلك التاسع وهو فلك البروج الاثنى عشر ، ويزعمون أن هذه الأفلاك ترى على هيئة الأكر وأن بعضها داخل فى جوف بعض والذى يهمنا فى هذا البحث هو رأى علماء الكيمياء العرب فى الوجود الحسى وانه يتكون من أربعة عناصر وهى الأرض والماء والهواء والنار وهم حين يعترفون بوجود هذه العناصر لا يقصدون أن كل عنصر منها قائم بذاته وأنه منفصل عن الآخر كل الانفصال بل يقصدون ان كل جسم من الأجسام يتكون من هذه العناصر الأربعة بنسب متفاوتة فاذا تغلب أحد هذه العناصر على العناصر الباقية وليكن الماء مثلا كان العنصر هو الماء كذلك اذا تغلب العنصر الأرضى على العناصر الباقية كان العنصر هو الأرض. ومن طريف ما يذهب اليه علماؤنا القدماء فى العناصر الأربعة أن النار اذا كانت الغالبة كان الجسم على هيئة الاحتراق فاذا كان الاحتراق شديدا ، كان الجسم هو عنصر الماء واذا كان بطيئا فهو الصدأ ثم يضيفون الى العناصر الأربعة عنصرا خامسا وهو عالم الأفلاك ويقولون ان الأجسام فى تكوينها تبتدى متدرجة على نظام بديع من المعادن ثم النبات ثم الحيوان وان آخر أفق المعادن متصل بأول أفق الحيوان أى أن كل عنصر من هذه العناصر وهى المعاد والنبات والحيوان مستعد للاستحالة الى العنصر الذى يليه ويمكن أن يقال : ان عالم التكوين عند حكماء الاسلام هو بمثابة الأجسام المركبة عند المتأخرين من علماء الكيمياء فى العصور الحديثة ويقول ابن سينا : ان المعادن سبعة : وهى الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين وهذه الأنواع السبعة متباينة وكل واحد منها قائم بذاته .

ومما يلاحظ أن العرب قد أخذوا بعض آرائهم عن المصريين القدماء والاغريق ولكنهم هذبوا هذه الآراء ورتبوها ترتيبا منطقيا يتمشى مع الأساليب العلمية فتركوا مؤلفات قيمة فى علوم الكيمياء والباحث المطلع على هذه الكتب يرى أن أفكارا عامة تسودها يمكن تلخيصها فى المبادىء الآتية :

١ ـ كان العرب يعتقدون الى حد ما بصحة نظرية « أرسطو » التى يزعم فيها أن ما نسميه « الهيولى » هى أصل المادة فى كل كائن ولكنها لا توجد منفردة مستقلة بذاتها بل تكون متحدة بالهيئة الجسمية واتحادها على هذه الصورة يكون ما يسمى الجسم الوهمى ، فاذا اتحدت الأجسام الوهمية بالهيئة الذاتية صارت جسما معينا واتحاد الهيئات الذاتية بالأجسام الوهمية تنشأ عنه العناصر المعروفة التى هى الماء والهواء والنار والأرض .

٢ ــ أما موقف العرب من حيث تركيب المادة فانهم يقولون بامكان تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ولذلك انحصر اهتمامهم فى استحضار الأكسير حتى قيل : ان علم الكيمياء عندهم هو علم تدبير الذهب ويقول بعض الرواة : ان خالد بن يزيد بن معاوية سئل يوما : « لقد أنفقت أكثر شغلك فى طلب الصنعة فأجاب عن هذا السؤال بقوله : ما أطلب بذاك الا أن أغنى أصحابى واخوانى ، انى طمعت فى الخلافة فاختزلت دونى ، فلم أجد عوضا منها الا أن أبلغ آخر هذه الصناعة . واذا صحت هذه الرواية كانت دليلا على مقدار عناية العرب بتحضير الأكسير ، ولذلك استخدموا جميع الوسائل فى تحضير الذهب يقول « الجلدكى » : ان العرب وجهوا عنايتهم الى تدبير المواد والعظام والحوافز والألبان وكثير من النباتات والأملاح والفضلات والعروق وناب الفيل ولعاب الأفاعى والصمغ وقد بذلوا فى سبيل ذلك كل ما استطاعوه من التجارب وكان لهذه التجارب أثر عظيم فى تاريخ الكيمياء والنهوض بها الى الدرجة التى مكنت الأوروبيين من استخدام الكيمياء فى رفع مستوى الحياة الانسانية وقد وصل العرب بتجاربهم الى الكشف عن خواص كثير من الفلزات والأملاح والمركبات الكيميائية وأمكنهم أن يعرفوا طرق تحضيرها وتنقيتها وتأثير الحرارة فيها فوصلوا مثلا الى معرفة بعض الحوامض كحامض (الخليك) الذى يذيب النحاس كما عرفوا بعض الحوامض المذيبة للمعادن (كحامض الكبريتيك) و (حامض النتريك) وان كانوا لم يعرفوا هذه الحوامض بتلك الأسماء فقد كانوا يطلقون عليها بعض الأسماء كقولهم الماء الحاد والماء الحريف والماء المثلث ومازال العرب دائبين فى البحث حتى عرفوا الحوامض التى تساعد فى تبييض الفلزات وجعلها حمراء ، واخذت بحوثهم تسير قدما فى طريق النهوض العلمى فى الكيمياء حتى انتهوا الى معرفة عمليات الحل والاذابة ولعقد (الترسيب أو التبلر) والتسخين والتكليس والتقطير والتصعيد ، ولا شك فى أن هذه العمليات قد اقتضت ادخال تحسينات عظيمة على الأجهزة العلمية التى لابد منها لعمل هذه التجارب .

٣ ــ واذا كان علماء الكيمياء القدماء قد ذهبوا الى امكان تحويل المعادن فقد قاوم ابن سينا هذه النظرية وقطع بفسادها وبطلانها .

٤ ــ والكيمياء العربية تمتاز بانها قائمة على التجربة والبرهان العملى ، ولذلك كان علماء العرب لا يسلمون بأقوال غيرهم من علماء الأمم الأخرى الا بعد امتحان هذه الآراء بالتجربة التى يثبت فسادها أو صحتها وكان جابر بن حيان فى مقدمة علماء العرب الذين اهتموا بالتجربة وجعلها أساسا فى كل استنباط علمى ويقال : انه وضع شروطا معينة للتجربة ضمنها كتابا من كتبه وهو « كتاب الخواص الكبير » ومن علماء المدرسة

« الجابرية » المجريطي (٦١) الذى يقول : ليس أمامنا الا دليل واحد على استحالة المعادن الا التجربة العملية وينصح طالب الكيمياء بالتمرين الكثير على اجراء التجارب والاعتماد على قوة الملاحظة والتفكير العميق والمنطق السليم ومن يطلع على كتب الكيمياء العربية القديمة يجدها تمتاز بالروح العلمى الدقيق القائم على التجربة كما يلاحظ أنها تعنى خاصة بوصف التجارب وصفا علميا مع بيان طريقة اجرائها وما ينبغى أن يتخذ من احتياطات فى أثنائها . ومن هذه الناحية يتبين الباحث أن الكيمياء العربية تفوق الكيمياء اليونانية ، التى يفخر أهلها بأنهم أخذوها عن «هرمز» اله الحكمة ومبتدعها حيث يقول : « لقد علمت ابنى الكيمياء فى ثلاثة أيام دون أن أستخدم جهازا حتى ولا انبيقا » .

٥ ـ ومما ينبغى ذكره انصافا للكيمائيين العرب أنهم لم يقصروا بحوثهم على تحضير الاكسير ، فقد وضح بما لايدع مجالا للشك أنهم اتجهوا اتجاها عمليا الى تعليل بعض الظواهر الطبيعية والكيميائية واستنبطوا كثيرا من النظريات من ذلك ما قام به جابر من عملية اتحاد الزئبق بالكبريت وهى العملية التى أدت الى الاعتقاد بأن المعادن تتكون من اتحاد الزئبق بالكبريت ويقال : ان جابر استخدم هذه النظرية فى تفسير ظاهرة التكليس فقال : ان الفلز عندما يتأثر بالحرارة يتطاير منه الكبريت ويتخلف الكلس .

٦ ـ ومن آراء العرب أن الكواكب والأجرام السماوية تؤثر فى المعادن وقد نقلوا هذا الرأى عن البابليين الذين كانوا يقولون : ان الأبراج الاثنى عشر ـ وكانوا قد درسوها وعرفوا انتقالاتها ـ تؤثر فى مظاهر الحياة على سطح الأرض من نور وظلمة وحرارة وبرودة وتوالى الليل والنهار وتتابع الفصول لذلك ربط العرب بين المعادن السبعة التى عرفوها والكواكب السيارة فأطلقوا على كل معدن اسم الكوكب الذى يقابله على حسب زعمهم . ولكننا اذا بحثنا كتب جابر فى الكيمياء لا نجد أثر لهذا الرأى وكل ما عثر عليه فى كتبه تلك الوصية التى يقول فيها لمن يريد أن يقوم باية تجربة فى الكيمياء : اختر للتجربة الوقت الملائم لها ويمكن أن يقال : ان الكيمياء العربية فى النهاية خالية من مظاهر التنجيم لانها اتجهت اتجاها عمليا لذلك لم يكن فيها أى أثر للعوامل الوهمية كالسحر والتعاويذ وتأثير الكواكب .

٧ ـ وقد يظن بعض الباحثين ان علماء الكيمياء العرب قد اتجهوا بالكيمياء اتجاها نظريا خياليا لا صلة له بواقع الحياة والحقيقة التى لا تشوبها شائبة من الشك أن علماء العرب قد وصلوا الكيمياء بالحياة

العملية وأنهم اتخذوهـا وسـيلة الى تحضير الأملاح والأدوية والروائـح العطرة وغيرها ، ومما يؤيد ذلك أن الكندى وهو من فلاسفة العرب وعلماء الكيمياء قد ترك رسائل فى الكيمياء التطبيقية تدل على عناية العرب بهذه النـــاحية ٠

٨ ــ ويتجلى فضـــل العرب فى علوم الكيمياء فى أن الاغريق كانوا يقيمون الكيمياء عندهم على أسس ثلاثة : فلسفى وتجريبى وباطنى وقد اشتدت عناية الاغريق بالكيمياء الباطنية التى تستند الى الرقى والتعاويذ والمؤثرات الوهمية ٠ ولما أراد خالد بن معاوية أن يدرس الكيمياء لم يجد أمامه الا هذا ، ولكن جابر بن حيان حين بدأ يشتغل بالكيمياء أخذ يجردها من هذه الأمور الوهمية ووضع لها أساسا هو التجربة وبدأ العلماء بعده يسيرون على طريقته ٠ ومن هذا يتضح أن فضل العرب على الكيمياء كان عظيما ، ولكن العربى الذى تجرى فى عروقه دماء العرب يأسف كثيرا ، لأن العرب بعد أن نهضوا بالكيمياء وقف نشاطهم فى القرن الثانى عشر ، وفى هذه الفترة أخذ الأوروبيون ينقلون كتب الكيمياء العربية الى لغاتهم ، فانتفعوا بهذا التراث الخالد ، الذى كان عونا صادقا لهم على الاستمرار فى البحث ، حتى وصلت الكيمياء الى ما هى عليه فى الوقت الحاضر ، فسهلت للناس سبل الحياة الطيبة ، وارتفعت كثيرا بمستوى الوسائل الزراعية والصناعية والطبية وغيرها ٠

تلك خلاصـــة تاريخية موجزة تعطينا ــ فكرة صحيحة عن أجدادنا الأوائل ، الذين ركزوا جهودهم وتفكيرهـم فى سبيل التحقيق العلمى ، والكشف الكيميائى لاسعاد البشرية ، وقد أفادوا الانسانية حقا ٠

ابن حيان .. حياته ونشأته

تذكر دائرة المعارف البريطانية أنه أبو موسى جابر بن حيان ويسود الاعتقاد وفق الأدلة على أنه من قبيلة أزد القبيلة العربية التى قطنت جنوب الجزيرة العربية واستوطن بعضهم الكوفة بعد أن تهدم سد مأرب. وقد أيدت دائرة المعارف الاسلامية حيث ذكرت بأنه أبو موسى جابر بن حيان الأزدى صاحب كيمياء عربى مشهور واسم أبيه عبد الله الكوفى ويذكر ميلر عنه كتابته عن جابر ان العرب حاذقون فى التجارب ويشير الأستاذ سارتون فى كتابه (مقدمة فى تاريخ العلم) عنه التطرق الى كيمياوى العرب (يظهر أن لجابر بن حيان خبرة تجريبية جيدة فى عدد من الحقائق الكيمياوية وذكرت الموسوعة الدولية ان جابر بن حيان كيمياوى مشهور فى القرن الثامن للميلاد وكتبه ذات التأثير الكبير الواسع ، وتعتبر من أول المؤلفات فى المعادن والتى نقلت الى أوربا مثل نظرية تحضير المعادن من عنصرى الزئبق والكبريت ووصف لتحضير الحوامض المعدنية وبقيت هذه الكتب نصوصا كيمياوية لأجيال عديدة وهكذا تدل أكثر المصادر على ان جابرا عربى الأصل والثقافة ولم نجد من بين المصادر الموثوقة ما يشير الى أنه فارسى أو يونانى الأصل .

ولد جابر بن حيان بن عبد الله الأزدى فى مدينة طوس عام ٧٢١ م وكان والده من أقربادين (٦٢) الكوفة ومن المخلصين للدعوة العباسية فهاجر الى طوس ليكون من دعاة العباسيين هناك فشعر به عمال الدولة الاموية فالقى القبض عليه وحكم عليه بالاعدام ، أما جابر فقد أرسل الى البلاد العربية وتتلمذ أول الأمر على يد حربى الحميرى ثم تأثر بآراء الامام جعفر الصادق ودرس بعض العلوم الدينية عنه ثم دخل مدخل الصوفيين ومال الى الصوفية ولقب بها لذلك وكان صديقا مقربا للبرامكة الذين تسلموا مناصب وزارية فى عهد هارون الرشيد وقد عاصر جعفر ابن يحيى البرمكى وعندما اغتاظ الرشيد من البرامكة وبطش بهم فر جابر بن حيان الى الكوفة وعاش متستترا فيها ولم يعثر على أثر لجابر فى الكوفة الا بعد قرنين من وفاته على أثر عمليات بناء فى احدى مناطق الكوفة

المعروفة بباب دمشق وقد ذكرت بعض المصادر أنه عاصر المأمون فترة ويذهب بعض المؤرخين الى أن جابر قد قصد جعفر الصادق فى كتاباته وليس جعفر البرمكى والحقيقة ان النصوص التى بين أيدينا تشير الى أنه اتصل بكليهما وكان يشير الى الامام جعفر الصادق بسيدى جعفر وعندما يذكر جعفر البرمكى أو أباه يحيى فيدعوهما بجعفر ويحيى ، فلقد ذكر جابر فى كتاب الرحمة الامام جعفر الصادق أكثر من مرة حيث نعته بسيدى جعفر أو كما ذكره فى كتاب المقابلة والمماثلة سيدى جعفر بن محمد عليه السلام . ولم يكن جابر بن حيان أسطورة خيالية حتى أنكر وجوده بعض الكتاب والحقيقة أن جابر بن حيان قد عاش فى الكوفة مدة طويلة بعد مقتل جعفر البرمكى وقد ذكر الجلدكى فى نهاية الطلب أن أبا الربيع سليمان بن موسى بن أبى هشام روى عن أبيه موسى فى صدر كتاب (الرحمة) لجابر « لما توفى جابر بطوس سنة مئتين من الهجرة وجد هذا الكتاب تحت رأسه » وكتاب الرحمة من بين الكتب القلائل التى ألفها جابر وأجمعت المصادر الغربية والعربية على أنها له .

لابد وأن جابرا قد تستر بالعيش فى مدن عديدة عرف أهلها أو بعضهم بالعطف على البرامكة وربما عاش فترة طويلة فى الكوفة بعد نكبة البرامكة ثم غادرها فى أواخر أيام حياته الى طوس مسقط رأسه حيث وافاه الأجل هناك .

★★★

ثقافة جابر العلمية

كان جابر تلميذا لجعفر الصادق امام الشيعة على ما رواه بعض المؤرخين وقيل انه كان تلميذا لخالد بن يزيد بن معاوية الذى عرف بأنه أول من تكلم فى الكيمياء ووضع فيها الكتب وشرح صنعة الاكسير وعنه نقل جابر هذه الصنعة التى اشتهر بها وألف فيها نحو خمسمائة كتاب وكان بعض الناس فى زمانه يعدون هذه الصناعة أمرا موهوما اذ كيف يتسنى فى العقل استخراج الذهب من طبخ مواد نباتية ومعدنية ، وقد جرب بعضهم ما ذكره جابرة مدة طويلة فذهب تعبه سدى فكتب على مصنفاته :

هذا الذى بمقاله غر الأوائل والأواخر
ما أنت الا ساحر كذب الذى سماك جابر

ولكن جابر بالرغم من ذلك كشف باختباراته العلمية أمورا مهمة فى فن الكيمياء وترجمت كتبه الى اللغات الأوربية واشتغل الأوربيون وقتا طويلا بكيمياء جابر وانتفعوا بهد وقد نسب الى بعض المؤرخين أنه الذى

اخترع علم الجبر ومنه اسمه ومما يدعو الى العجب أن رجلا عظيما له تلك الشهرة التى ملأت سمع العالم وبصره ووصـــل الى درجة عالية فى العلوم وبخاصة الكيمياء ــ لم تعن المراجع العربية بوضع ترجمة وافية له ويقول ابن نباته المصرى : « وأما جابر بن حيان فلا أعرف له ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه وهذا دليل على قول أكثر الناس انه اسم موضوع وضعه المصنفون فى هذا الفن وزعموا أنه كان فى زمن جعفر الصادق وأنه قال فى كتبه : قال سيدى وسمعت من سيدى وهو يعنى جعفرا الصادق » وواضح من كلام ابن نباته ان تقصير المراجع العربية فى وضع سيرة صحيحة لهذا العالم مما أفسح المجال أمام الطاعنين والمتشككين فى العقلية العربية فادعوا أن جابرا شخصية وهمية ولكنه يقول أيضا نقلا عن الناس انه كان فى زمن جعفر الصادق فليس فى كلام ابن نباته شىء من التحقيق التاريخى وروايته لا تخرج عن النقل من غير روية ولا تمحيص وتتفوق روايات كثيرة على أن شيخيه هما خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة (٨٥ هـ ــ ٧٠٤ م) ولذلك لقب بالأموى ثم جعفر الصادق الامام الشـــيعى المشهور ويبدو من آراء جابر الدينية أن صلته بأستاذه جعفر الصادق كانت على أقوى ما يكون والدليل على ذلك أن مؤلفاته فى علوم الكيمياء يبدو فيها التعصب الشديد لمبادىء غلاة الشيعة تلك المبادىء التى تظهر فيها النزعات السياسية الثورية فقد كان من المبشرين بظهور امام جديد أو صاحب شريعة جديدة من ذرية على كرم الله وجهه·ومن العجيب أن علماء الكيمياء من اليونان الذين كانوا بالاســكندرية قد مزجوا تعاليمهم بالغنوســطية (٦٣) التى شــاعت فى مسيحية زمانهم فهل كان جابر متأثرا بما فعله هؤلاء العلماء بعد أن اطلع على تعاليمهم فى الكيمياء ودرسها ؟ أو أن أستاذه وهو من زعماء الشيعة قد أوحى اليه بذلك ؟ والذى نرجحه أنه تأثر بأستاذه وبعلماء اليونان معا وفى ثقافة جابر الدينية شبه قريب من دعاوى القرامطة من حيث المصطلحات التى أطلقوها على معتقداتهم وهو من المؤمنين بمذهب الأضداد والمقصود به أضداد الامام الذى هو زعيم الشيعة وينقسم تاريخ العالم عنده بحسب مراحل الوحى المتعاقبة الى سبعة أدوار آخرها دور الامام الذى يدعو اليه جابر ، وهو يعتقد أن الأئمة الذين تعاقبوا منذ على الى الامام القائم الجديد سبعة وهم : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلى بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق واسماعيل بن جعفر الذى لا فرق بينه وبين ولده محمد بن اسماعيل وهو السابع أو القائم المنتظر · ويخالف جابر القرامطة والاسماعيلية فى أنه لم يجعل عليا من الأئمة السبعة من فساد فى الرأى وزيغ فى العقيــدة لقــد كان جابر شيعيا من غلاة الشيعة الدينيــة فأخطأ الطريق الى العقيدة السليمة عقيدة أهل السنة والجماعة الذين هم جمهرة المسلمين الصادقين ، الا أننا لا نستطيع فى الوقت نفسه أن نسقطه من قائمة الخالدين ، لأننا لا نقيسه فى هذا المقام من الناحية الدينية وانما نقيسه

من الناحية العلمية من حيث الخدمات العظيمة التى أداها الى الانسانية كلها ببحوثه الكيماوية الناجحة التى وصـــل بها الى معرفة الكثير من النظريات الكيماوية والعناصر والفلزات التى قامت على أساسها المدنية التى نتمتع بثمراتها المباركة اليوم · ولنفرض أن جابرا لم يكن ولم يقدم الى الانسانية ما قدمه من بحوثه المبتكرة فهل كان يقدر للمدنية أن تقطع تلك الأشواط التى انتهت اليها وقامت عليها حضارة أوروبا الصناعية ؟ اننا نقول جازمين فى اصرار : ان المدنية كان لابد لها من أن تتخلف فى طريقها ولا تصل الى الهدف الذى بلغته الآن لان بحوث جابر فى علم الكيمياء كانت نواة صالحة للبحوث الكيماوية التى قام بها من بعده العلماء ، ولو لم تكن بحوث جابر لكان من المفروض حتما على هؤلاء العلماء أن يبدءوا من حيث بدأ جابر وقد يوفقون فيما وفق اليه وربما لا يوفقون وكم فى ذلك من زمن طويل يضيع سدى على الانسانية والمدنية ·

منهجه فى البحث ونظرياته العلمية

ترجع شـــهرة جابر فى علوم الكيميـــاء الى أنه أول من غير الأوضاع القديمة فى هذه العلوم التى كانت مبنيـــة على الأوهـــام فجعلها تقوم على التجربة والملاحظة والاستنباط ، وبعد أن درس جابر ما خلفه اليونان فى علوم الكيمياء أخذ يخالف أرسطو فى نظريته بتكوين الفلزات لأنه رآها لا تســـاعد فى تفسير بعض التجارب العلمية وبذلك أبطل جابر الكيمياء القديمة ودعا الى اســـتخدام العقل والاعتماد على الأدلة العقلية والتجارب العملية ولذلك يبدو فى تواليفهذا الروح العملى واستقصاء الحقيقة عن طريق المشاهدة والتجربة الدقيقة وقد وضع أصولا للتجارب العلمية ، وردت فى كتابه العلم الالهى ، منها تحديد الغرض من التجربة والعمل على اتبـــاع التعليمـــات الخاصة بها والابتعاد عما هو مستحيل فى نظر العقل ولا فائدة منه والعناية الدقيقة باختيار الوقت الملائم للتجربة وينصح من يقوم بالتجربة بأن يكون صبورا مثابرا وصامتا متحفظا وأن يحسن اختيار المكان الملائم لعمله بحيث ينبغى أن يكون فى مكان منعزل،وعلى من يقوم بأية تجربة فى هذه العلوم ألا يصادق الا من يثق به من الناس وألا يغتر بظواهر الأشياء لان ذلك قد يؤدى فى كثير من الأحيان الى اخفاق التجربة·وكان أرسطو يرى ان المادة تتكون من أربعة عناصر وهى : الماء والهواء والنار والتربة فحمل جابر على هذه النظرية أيضا وأبطلها ثم وضع لها أساسا جديدا شرحه فى كتابيه المائة والاثنى عشر ومما قاله : « ان المعادن تتكون من عنصرين : أحـــدهما دخان أرضى والآخر بخـــار مائى فاذا تكاثف هذان العنصران فى باطن الأرض تكون الكبريت والزئبـــق واذا اتحد الكبريت والزئبق تكونت المعادن وانما تتفاضل المعادن وتتكون من هذين العنصرين

كان من الممكن أن يتحول بعضها الى بعض ، ووظيفة الكيمائى أن يحول المعادن بعضها الى بعض فى أقل زمن وبذلك يسبق الطبيعة التى تقوم بهـذه العملية فتستغرق آلاف السنين » . ولم يكن جابر يفهم من الزئبق والكبريت المادتين المعروفتين عند عوام الناس ولكنه كان يقصد مادتين مثاليتين هما أصل جميع المواد الطبيعية ، ولكنهما فى خواصهما أقرب شبها بالزئبق والكبريت وعندما كان يفسر فى كتابه المعرفة بالصفة الالهيـة والحكمة الفلسفية كيفية اتحاد الزئبق مع الكبريت ، ساقه الحديث الى وضع أساس نظرية جديدة هى نظرية الاتحاد الكيميائى ويقال ان « جون دالتن الانجليزى » وضع ما يشبهها بعده بنحو ألف سنة . يقول جابر فى شرح نظريته الجـديدة : « قد يظن بعض الناس خاطئين أن الزئبق والكبريت عندما يتحدان يكونان مادة جديدة والحقيقة ان كلا من المادتين — يقصد الزئبق والكبريت — لم يفقد شيئا من خواصه بالكلية ولكن الذى حدث أن كل مادة منهما انقسمت الى أجزاء دقيقة وكل جزء من أجزاء المادة الأولى اتحد مع آخر من المادة الثانية فاذا نظر الانسان بعينه المجردة خيل اليه أنها مادة جديدة فى كل خواصها ولو كان لدينا شىء من القدرة على تفريق هذه الأجزاء بعضها من بعض لعـادت أجزاء كل مادة الى أصـلها محتفظـة بخواصها الأصلية » . وهذا ما يقوله رجال الكيمياء الحديثة فى الاتحاد الكيميائى ومن العجيب أن يوفق هذا العالم فيما وفق فيه فى عصر لم تكن قد تقدمت فيه المختبرات العلمية ولم تعرف الأجهـزة الدقيقة المعروفة اليوم لاجراء التجارب في معامل الكيمياء الحديثة فى هذا العصر وهذا دليل على عبقرية علمية فذة امتاز بها جابر بن حيان ، مما يجعلنا نقف دائما مشدوهين أمام علمائنا السابقين الذين خطوا بالعلم خطوات فسيحة، ثم جاءت عصور طمست فيها معالم هذا النور وحجبته عنا حينا .

ابتكاراته في عالم الكيمياء

من الابتكارات العلمية التى كشف عنها جابر ونسبت اليه أنه وضع ما يسمى علم الموازين والغرض من هذا العلم معادلة ما فى المعادن من طبائع وقد غلب اسم هذا العلم على صنعته الكيميائية حتى عرفت كيمياء جابر باسم الميزان ، ولهذا المصطلح عنده جابر معان مختلفة فهو يطلقه ويريد منه الوزن النوعى وقد يريد منه ما كان يفهمه أصحاب الكيمياء القديمة من أنه وزن مقدار الأجساد الداخلة فى خلط أو وزن وقد يريد منه ميزان الحروف العربية المتصلة بأمهات الطبائع الأربع وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وكما يطلق هذا الميزان على الأشياء التى تحت الفلك كذلك يطلق على الاينات (الميتـافيزيقية) كالعقل والنفس والزمان والمكان .

وجابر متأثر بالفيثاغورثية وبآراء الشيعة العلويين لذلك نراه يرمز بالميزان الى مذهبه في التوحيد العلمي ، والميزان عنده أيضا تأويل لما ورد في القرآن الكريم من ذكر الميزان في يوم الحساب . ونرى جابرا يفلسف آراءه العلمية ويحاول دائما أن يربط بين عقائده العلمية وتعاليمه الدينية ولو ذهبنا نستقصي ما وفق فيه جابر من ابتكارات في عالم الكيمياء لم يسبق اليها لوجدناه أول من استخضر « حامض الكبريتيك » بتقطيره من الشبه وقد سماه زيت الساج ولهذا الكشف أهميته العظيمة في الكيمياء الصناعية ، لأن هذا الحامض بالذات يدخل في كثير من الصناعات التي هي دعائم الحضارة وتقاس قدرة الأمة الصناعية في هذا العصر بمقدار ما عندها من « حامض الكبريتيك » الذي يرجع الفضل في كشفه الى جابر كما وصل الى كشف حامض آخر هو (النتريك) وعرف الصودا الكاوية وماء الذهب وطريقة فصل الذهب من الفضة بالحامض وما تزال هذه الطريقة متبعة الى الآن في تقدير (عيارات) الذهب في السبائك الذهبية وغيرها كما تنسب اليه عملية تحضير حامض الخليك بتقطير الخل وقد كانت هذه العملية ذات أثر كبير في تطور العلوم بوجه عام وبخاصة الكيمياء اذ وضعت في أيدي العلماء مفتاح سر من أسرار التحليل الكيميائي فاستطاعوا أن يدركوا أن لكل حامض أو سائل درجة غليان معينة فاذا امتزج سائلان أو أكثر وأرادوا فصلها بعضها من بعض رفعوا درجة حرارة هذه السوائل وبذلك يمكن تقطير واحد منها عندما تصل درجة الحرارة الى درجة غليانه المعينة وعلى هذا النحو ينفصل السائل ثم تنفصل بعده بقية السوائل كلما وصلت الحرارة الى درجة غليانها . ومن النظريات الكيميائية التي عرفها نظرية الكبريت والزئبق في المعادن وتفسيرها أن العرب كانوا يعرفون أن المعادن سبعة ، وأنها تتكون من كبريت وزئبق بنسب مختلفة فاذا ارتفعت نسبة الكبريت في معدن ما كان هشا وأسهل كسرا وأسرع الى الصدأ وكان وزنه أخف ، واذا كانت نسبة الزئبق أكثر — كان المعدن ليننا غير قابل للصدأ وأثقل وزنا وهذه النظرية لا قيمة لها اليوم في ميدان العلوم الكيميائية،ولكنها كانت ذات قيمة علمية كبيرة في عصر جابر ، لأنها كانت تعارض نظرية العناصر الأربعة المنسوبة الى أرسطو ، ولأن نظرية جابر من وجهة النظر العلمية كانت أقرب الى منطق العقل من نظرية أرسطو ، واستخدم جابر (ثاني أكسيد المنجنيز) في صناعة الزجاج ، وقد تأمل صناعة الزجاج في عصره فوجد لونه أزرق أو مائلا الخضرة فلما استخدم ثاني أكسيد المنجنيز زال ذلك اللون وصار الزجاج أبيض ناصعا .

وقد نجح هذا العالم العبقري نجاحا يذكر له بالاعجاب في العمليات الكيميائية التي منها الاذابة والتبلور والتقطير والتكليس والاختزال وكان

شديدة العناية بشرح الطرق التى اتبعها فى اجراء التجارب الكيميائية وهو يرى أن التكليس مقصـــور على المعــادن وحدها ، لأن المقصود منها ازالة الشوائب المخلوطة بالمعدن وحرقها حتى يصير نقيا ولا يكون ذلك الا برفع حرارتها الى درجة عالية بالتسخين ولا تقوى على هذا الأرواح ويفسر جابر الارواح بالمعادن المتطايرة كملح النوشادر واليك شرحا لعملية من عمليات التكليس فقد أجرى التجربة الآتية فى اختزال أكسيد الحــديد يقول : خذ رطلا من « الليثارج » وهو أكسيد من أكاسيد الرصاص وربع رطل من الصودا (كربونات الصوديوم) واسحقها ثم اخلطهما جيدا ، واصنع منهما عجينة بالزيت ، ثم ضع العجينة فى بوتقة يكون بقاعها ثقب صغير ثم سخن البوتقة تجد الفلز يهبط من الثقب ويمكن أن نتلقاه فى بوتقة أخرى تكون تحت البوتقة الأولى ، ثم يشرح لنا التفاعل الكيميائى الذى حــدث فيقول : ان الكربون الداخل فى تركيب الزيت يختزل الأكسيد ويحوله الى فلز الرصاص الذى يكون فى حالة الانصهار بتأثير الحرارة وعندئذ ينفذ من الثقب أما الصودا فهى مادة صهارة تسيح بسرعة فتعمل على صهر المواد الأخرى .

ومن كشـــوفه التى لها أثر فى الكيمياء ما وصل اليه من أن مركبات النحاس تكسب لونا أزرق وكشفه طرقا لتحضير الفولاذ ولا يخفى ما لهذا المعدن من أثر كبير فى صناعة الآلات التى قامت عليها الحضارة الحديثة وتنقية المعادن مما يشوبها وصبغ الجلود والشعر ثم تحضيره مادة مضيئة من « كبريتيد النحاس » كى تستخدم بدلا من الذهب فى كتابة المخطوطات الثمينة وهى التى تعرف اليوم بماء الذهب ، ثم تحضيره نوعا من الطلاء يقى الثياب البلل ويمنع الصدأ ثم كشفه أن الشبة تساعد فى تثبيت الألوان فى الصباغة ومعرفته فوائد بعض المواد النباتية والحيوانية فى مداواة بعض الأمراض وتمكنه من صنع نوع من الورق غير قابل للاحتراق وقد دفعه الى ابتكار هذا الورق أن الامام جعفر الصادق ألف كتابا ثمينا فى الحكمة وكان جابر يقدر هذا الموقف ، فاراد أن ينسخه على ورق لا يتأثر بالنار حرصا عليه من أن يحترق فنجح ووصل الى تحضير هذا الورق وهو أول عالم لاحظ بدقة ما يحدث من راسب « كلور والفضة » عند اضافة محلول ملح الطعام الى محلول نترات الفضة . ومن المركبات الكيميائية التى استحضرها « كربونات البوتاسيوم » و « كربونات الصوديوم » وهذه المركبـات وغيرهـا مما استحضره ووفق فى كشفه ذات أهمية فى عالم الصــناعة وبخاصـــة فى صـــناعة المفرقعـات والأصبغة المختلفة والسماد الصناعى والصابون والحرير الصناعى ، ومن بحوثه العلمية التى تبرهن على عقليته العلمية وتفكيره الناضج فى الكيمياء وغيرها بحوثه فى السموم ومضارهـا .

مصنفاته الكيميائية

لجابر بن حيان كتب ورسائل متعددة فى الكيمياء ذكر ابن النديم طرفا منها ومن هذه المؤلفات :

١ ـ « كتاب السموم ودفع مضارها وقد حصل على نسخة منه العلامة أحمد تيمور وفيه عالج جابر بحوثا علمية طريفة فى السموم وهذه البحوث القيمة لا تختلف عن البحوث الحديثة فى هذه النـاحية ، وقد عرض فى هذا الكتاب أقوال فلاسفة اليونان فى السموم وأثرها ، وجاء فيه بتقسيمات جديدة للسموم وأنواعها وأدويتها فى أجسام الحيوانات . ولهذا الكتاب أهمية بالغة فى تاريخ العلوم ، لما فيه من اشارات قوية الى العلاقات بين الطب والكيمياء وقد تناول الأستاذ العالم قدرى حافظ طوقان موضوع هذا الكتاب بشىء من الدرس المفصل فأشار الى المقدمة التى صدر بها جابر مؤلفه وقد جاء فيها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو موسى جابر بن حيان الصوفى قد ارتسمت ـ أطال الله بقـاءك ـ ما أمرت به وأحدثت من الشرح ما علمت أنك من الفهم بحسبه وانتهيت الى ارادتك وأتيت على حاجتك وأرجو أن تبلغ به رغبتك وتنال به بغيتك وتكون به راضيا ولأدبك كافيا ، الى أن يقول . قال بعضهم : ان السم جسم كونى ذو طبائع غالية مفسدة لمزاج أبدان الحيوان وقال آخرون : انه مزاج طبائع غالبة لدواب الحيوان بذاته وقال فريـق آخر : انه مزاج قوة مزاج غـالب مفسد ومصلح فهذه آراء الناس فى حده فأما غرضنا فى هذا الكتاب فهو الابانة عن أسماء أنواع السموم وكنه أفعالها وكمية ما يسقى منها ومعرفة الجيد من الردىء وأذكر مع ذلك السم الذى يكون نافذا بفعله فى سائر البدن والمهلك بجملته » .

ويفهم من هذه العبارات التى وردت فى المقدمة أن المؤلف عند حسن ظن المطلع على كتابه فقد حقق له رغبته فيما تنـاوله الكتاب من بحوث نافعة حول السموم وتعريفها وشرح كل ما يحتاج الى شرح حتى تتحقق الفائدة من الاطلاع ويكون كل شىء اشتمل عليه الكتاب فى متناول القارىء فى سـهولة ويسر ثم ينتقل بعـد ذلك الى بيـان الغرض الذى قصده من الكتاب وهو الكشف عن أسماء أنواع السموم وبيان حقيقة الأثر الذى تحـدثه والقدر الذى يسقى منهـا ، وتراه بعـد ذلك يقسم الكتاب خمسة فصول :

- الفصل الأول : ويتناول فيه البحث فى أوضاع القوى الأربع وبيان حالها مع الأدوية المسهلة والسموم القاتلة وحال تغير الطبائع التى تتركب منها أجسام الحيوانات ·
- الفصل الثانى ويبحث فيه عن أسماء السموم وبيان الطرق التى بها نعرف الجيد منها والردىء والمقدار الذى يسبقى من كل واحد منها وعلى أية حال يسبقى وكيفية ايصاله الى الأبدان ·
- الفصل الثالث : ويذكر فيه أسماء السموم العامة الفعل فى جميع الأبدان والسموم التى تختص ببعض أجسام الحيوان دون بعضها الآخر والسموم التى تختص ببعض الأعضاء من جسم الحيوان دون بعضها الآخر ·
- الفصل الرابع : وفيه يذكر علامات السموم المستقاة والآثار التى تعرض بسببها للأبدان وما ينبغى اتخاذه للعلاج منها ·
- الفصل الخامس : يتحدث فيه عن السموم المركبة وما يحدث منها·
- الفصل السادس : ويفصل فيه الكلام عن موضوع الاحتراس من السموم قبل تناولها ، حتى اذا أخذت لا تحدث ضررا ويذكر الأدوية التى تفيد فى افساد ضرر السموم واذا شربت فى غير حيطة ولا حذر ·

ومن بحوث هذا الكتاب تقسم السموم الى حيوانية ونباتية وحجرية وان من أنواع السموم الحيوانية مرارة الأفاعى ومرارة النمر ، ولسان السلحفاء ، وذنب الأبل والأرنب البحرى والضفدع والعقارب أما السموم النباتية فمنها قرون السنبل والأقيون والشيلم والحنظل والشوكران ·

وأما السموم الحجرية : فمنها الزئبق والزرنيخ والزاج والطلق وبرادة الحديد وبرادة الذهب ·

٢ ــ الكتب المائة والاثنا عشر : وهى مقالات فى صناعة الكيمياء لا رابط بينها ولكنها تشتمل على اشارات الى صناعة الكيمياء عند قدماء اليونان أمثال (زوسيموس وديمقريطس) (٦٤) ·

٣ ــ كتاب السبعين : وتجد فيه بسطا محكما طريفا لمذهب جابر فى الكيمياء ويقول ابن خلدون : « ولجابر فى الكيمياء سبعون رسالة وضعها فى أثناء البحث فيها وسماها الرسائل السبعينية » ·

٤ ــ كتب الموازين المائة والأربعة والأربعون : وهى تتناول بصفة عامة الأسس النظرية للكيمياء والعلوم المباطنة كما تتناول بصفة خاصة أسسها الفلسفية ·

٥ ــ الكتب الخمسمائة : وهى رسائل متفرقة تناول فيها فى شىء من الاستقصاء والافاضة بعض السوائل التى وردت فى كتب الموازين ·

ويقول حاجي خليفة في كتاب كشف الظنون : « ومن كتب جابر : كتاب الخالص وكتاب الخواص ، وعثر في دار الكتب المصرية على كتاب اسمه : « كشف الأسرار وهتك الأسرار » ، وآخرين هما : كتاب اظهار ما في القوة الى الفعل وكتاب الصنعة الالهية والحكمة الفلسفية وهي كتب مخطوطة وليس من السهل الاطلاع عليها وحل رموزها والوقوف على ما فيها من أسرار علمية » .

ومما يلاحظ أن كتب جابر أشبه بالألغاز وسبب ذلك كما أشرنا من قبل أن الرموز والاصطلاحات التي بنيت عليها غير معروفة للكثير من علماء الكيمياء وبخاصة في هذا العصر ويقال ان جابرا قصد بذلك في زمانه أن تكون كتبه غير معروفة الا لخاصة العلماء ، ومن كتبه التي ترجمت الى اللغة اللاتينية مبادىء علم الكيمياء طبع في بال سنة ١٥٧٢ م ووصية جابر وكيمياء جابر ومختصر الأكسير الكامل ونهاية الاتقان .

هذه بعض مؤلفات جابر في الكيمياء التي نقلت الينا ولسنا بصدد تفصيل ما جاء في هذه الكتب فان الكثير من الرموز التي وضعها جابر مازال الكثير منها سرا مغلقا على كثير من علماء الكيمياء في أوربا وقد يكون فيما وصل اليه جابر ما لايتفق مع النظريات الحديثة في الكيمياء ولكن المقطوع به أن الكيمياء العربية أو الجابرية بالرغم من ذلك قد خطت خطوات فسيحة من الناحية العملية فاكثرها قائم على التجربة والبرهان العملي والملاحظة الدقيقة .

أما الغرض الذي نسعى اليه وراء هذا الفصل من الكتاب فيرجع الى سببين ، الأول : الاشادة بمكانة الكيمياء العربية ، وأنها كانت قبسا قويا سار الأوربيون على هديها في بحوثهم الكيميائية والثاني : هو أننا نريد أن يقف شبابنا والمثقفون منا على الجهود العلمية التي بذلها علماء العرب في سبيل تكوين حضارات راقية .

وقبل أن نودع جابرا ينبغي أن نشير الى رأي الأستاذ (باول كراوس) في مؤلفات جابر فهو يرى أنه مزج فيها بين البحوث الكيميائية ونظريات العرفان التي كانت منتشرة بين غلاة الشيعة في أواخر القرن الثالث الهجري وتلك النظريات التي اختلطت اختلاطا قويا بالنزعات الثورية السياسية التي كادت تهز دعائم العالم الاسلامي فقد أخذ جابر يبشر بقرب ظهور امام معصوم جديد. ومهما يكن مذهب جابر الديني، فاننا لا ندرسه من هذه الزاوية ولكننا ندرسه كعالم أبدع كثيرا من النظريات في الكيمياء وقدم للانسانية كلها خلاصة تجاربه التي كان لها أثر عظيم في النهوض بهذا العلم ورفع مستوى الحياة الانسانية .

★★★

الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة

ابن رشد

١١٨٥ م

ابن رشد أعظم حكماء القرون الوسطى على رأى الكثيرين ومن أكبر فلاسفة الاسلام . وهو مؤسس الفكر الحر ، جرىء ومنطقى ، حصر جهده فى بادىء الأمر فى أرسطو ، فدرس مؤلفاته دراسة عميقة متحريا دقائقها وهو لم يقف عند هذا الحد بل عمل على شرحها وخرج بشروح لم يسبق اليها ، وقد مضى فى شروحه على طريقة النقد وفى أسلوب خاص وبذلك أورث الانسانية علم أرسطو كاملا بريئا من الشوائب على رأى «دى بور» .

قال رينان : « .. ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غموضها ... » واعترف « جون روبرتسون » بأن ابن رشد أشهر مفكرى الاسلام وأنه أبعد الفلاسفة وأعظمهم أثرا فى الفكر الاوروبى ، ذلك لأن طريقته فى شرح أرسطو بلغت الغاية .

ولقد اطلع « بيكون » على مؤلفات ابن رشد ودرسها دراسة عميقة واستفاد منها فوائد جليلة كان لها أثر كبير فى نتاجه واتجاهات تفكيره وكان معجبا بابن رشد اعجابا دفعه الى الاعتراف : ب « أن ابن رشد فيلسوف متين متعمق صحح كثيرا من أغلاط الفكر وأضاف الى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معلوما لأحد وأزال الغموض من كثير من الكتب التى يتناولها بحثه .. » .

امتاز ابن رشد بالنقد ، وكان أثره بالغا عند اليهود والمسيحيين فقد نقد بطليموس فى فلكه كما نقد شروح اسكندر فردوس وغشتيوس وكذلك نقد ابن سينا وهاجمه ورد على الفارابى والغزالى ، وكان شديدا فى نقده ورده قاسى اللهجة ولكن القلم سما به فى هذا الى أعلى درجات الكمال الفكرى .

لقد اقتبس العرب فلسفة ابن رشد بكاملها وكان من حسناتها أن حلت عقال الفكر الأوروبى وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها وعلى هذا يقول الدكتور فروخ : « ... ولم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو العصور الوسطى بشروح ابن رشد وباصابة آرائه ..» .

وهكذا نشأ مذهب الرشدية للأخذ بالعقل عند البحث وعدم الاعتماد على الروايات الدينية ٠

كان ابن رشد مخلصا للحق الى أبعد الحدود يسعى الى الحقيقة ويعمل جادا على الوصول اليها والأخذ بها دون اعتبار القائل أو الدين ٠ وكان يدعو الى قبول الآراء الصحيحة سواء أجاءت من مسلم أم غير مسلم فقال فى هذا الشأن فى كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » : « ٠٠٠ يجب علينا اذا ألقينا لمن تقدمنا فى الأمم السالفة نظرا فى الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ٠٠٠ وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك ٠٠٠ وسواء أكان ذلك الغير مشاركا لنا فى الملة أم غير مشارك فى الملة ، فان الآلة التى تصح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية كونها آلة المشارك لنا فى الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة ٠٠٠ » ٠ وقد تعرض الدكتور عمرو فروخ فى كتابه « عبقرية العرب » لنظرية (كانت) الفيلسوف الألمانى فى المكان والزمان فأجاد فى العرض والتحليل وكان موفقا فى النتيجة التى خرج بها فقد بين أن ابن رشد سبق (كانت) فى بحوث الزمان والمكان وأنه لم يكن للفيلسوف الألمانى فضل الابتكار بل كان له فضل التوسع لا غير ٠

ويدلل الدكتور فروخ على ذلك بما جاء فى كتاب « تهافت التهافت » من أقوال وآراء سبق بها ابن رشد فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ٠

ويرى كثيرون من الفلاسفة وأعيان الفكر أن فلسفة ابن رشد تركت أكبر الأثر فى أوربا وأخرجتها من ظلمات التقليد الى نور العقل والفكر ولهذا نجدهم يضعونه (أى ابن رشد) مع أفلاطون وأرسطو وكانت فى صف واحد فى الفلسفة العقلية ٠

رأى ابن رشد من دراساته الدينية والفلسفية وفى حملة الغزالى على الفلسفة أن الاخلاص للحق يوجب عليه أن يدافع عنها وهنا برقت له رسالته فى الحياة فقام يدعو الى الانتصاف للفلسفة ورد اعتبارها لها واحيائها والتوفيق بينها وبين الشريعة ٠

ويتبين من الآراء التى بثها فى كتبه أنه كان بعيدا عن التصوف يتقيد بالعقل ولا يسير الا على هداه ، وكان من ذلك أن اصطدم بوجهة النظر الدينية فى بعض المسائل فنشأ عداء بينه وبين رجال الدين أدى الى اضطهاده فى أواخر أيام حياته ٠

وكان ابن رشد ينفر من علم الكلام الاسلامى لكنه كان يرى فى الدين ضربا من الحق وقد ذهب الى ما ذهب اليه « اسبينوزا » فيما بعد من أن الوحى يرمى الى اصلاح الناس وتحسين أحوالهم لا الى تعليمهم فقط،وأن غرض الشارع ليس تلقين العلم بل أخذ الناس بصالح الأعمال والطاعة وهو ينظر الى الدين بعين الرجل السياسى (كما يقول دى بور) ويرى فيه وسيلة فعالة للاصلاح لما يهدف من غايات خلقية سامية فهو يؤمن بالمجتمع ولا يرى السعادة الا فيه وان سعادة الفرد فى سعادة المجموع ومصلحة الدولة يجب أن يكون لها الاعتبار الأول وهو فوق مصلحة الفرد ، ولهذا لا عجب اذا رأيناه ينتهز الفرص ليوجه حملاته على الحكام الجاهلين لأنهم لا يقدرون الصالح العام ولا يهتمون الا بمصالحهم الخاصة مهملين مصلحة المجتمع الذى يعيشون فيه .

ولعل هذا كله يعود الى روحه العلمى الصحيح ، فقد سما به هذا الروح فجعله من أشد الناس تواضعا واخفضهم جناحا وأقلهم أنانية واستغل نفوذه عند المسئولين والملوك والأمراء فى الصالح العام ، ولم يطلب جاها ولا مالا لنفسه بل كان يتجه الى خير المجموع من أهل بلده ووطنه الأندلس ومن هنا يتجلى أن فلسفته العملية كانت تتجه نحو الخير العام الشامل فدعا الى الاهتمام بصالح الجماعة وان على الانسان أن يأخذ بنصيب فى اسعاد المجموع ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ويدعو النساء الى القيام بخدمة المجتمع والدولة قيام الرجال ، وهو يرى أن حالة العبودية التى نشأت عليها المرأة قد أتلفت مواهبها وقضت على مقدرتها العقلية ولهذا قل أن تجد المرأة ذات فضائل أو على خلق عظيم وهن عالة على أزواجهن كالحيوانات الطفيلية وعلى ذلك ، فهو يرى أن الكثير من الفقر فى عصره « ... يرجع الى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه كأنها نبات أو حيوان أليف لمجرد متاع فان يمكن أن توجه اليه جميع المطاعن بدلا من أن يمكنها من المشاركة فى انتاج الثروة المادية والعقلية وفى حفظها.. » .

ويحمل ابن رشد على مذهب الفقهاء الذين يقولو ان الخير يكون خيرا لأن الله أمر به وأن الشر يكون شرا لأن الله نهى عنه ، ويخالفهم فى هذا كله ويعلن أن العمل يكون خيرا لنفسه وشرا لنفسه أو ذاته أو بحكم العقل والعمل الخلقى هو الذى يصدر عن روية عقلية ، ويلاحظ أن عقل الفرد يشط فى بعض الأحايين ويحتاط لهذا ويقول : « ... وينبغى أن لا يكون مرجعنا الأخير على عقل الفرد بل الى ما تمليه مصلحة الدولة... » .

وتناول ابن رشد فى بعض مؤلفاته معنى الميل وأتى بآراء فى الحركة والقصور الذاتى (وآراء أخرى لابن سينا وغيره من الفلاسفة الاسلاميين) هى فى واقع الأمر تمهيد لبعض معانى علم الديناميكا الحديث .

ابن رشـــد ٠٠ عصره وحياته

ولد الفيلسوف ابن رشد في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فى أسرة عربية أصيلة استقرت بالأندلس واشتهرت بالجاه والعلم فقد تولى ثلاثة من أفرادها فى أجيال متتابعة منصب قاضي القضاة في قرطبة وهم الجد والأب والحفيد وكان الحفيد أكثرهم شهرة وأبقاهم ذكرا فى تاريخ الفكر الانسانى٠ولا تقف شهرته عند حدود العالم الاسلامى القديم والحديث ، بل امتدت الى النطاق العـالمى منذ القرن الثانى عشر الميلادى حتى اليوم فاذا قيل الفيلسوف القرطبى أو الشارح الأكبر لأرسطو عرف الناس من هـو ٠

ونلاحظ أن موقف الغرب من ابن رشد يحتاج الى نوع من التفسير، فقد ألفوا هناك أن يلصقوا به صفة الشارح الأكبر أكثر من صفة الفيلسوف ولئن أكدوا له هذه الصـفة الأخيرة ٠ وكثيرا ما يؤكدونها ، فذلك لكى ينالوا منه أو لكى يزعموا أن أحد أعلام الفـكر المسيحى قد فنـد آراءه وأوقف تأثيرها فى نهضة أوربا الحديثة ٠

وربما اطمأن المستشرقون والمختصون في دراسة الفلسفة المسيحية بين حين وآخر الى أنهم غرسوا هذه الفكرة فى نفوس دارسى الفلسفة فى الغرب بل في الشرق أيضا وجعلوها حقيقة مقررة لكن الحق أقوى من أن يحجبـه الباطل ولئن حجبـه فترة من الزمن فسرعان ما تنقشـع فتبدو الحقيقة واضحة وسـافرة ونريد بهذا القول أن نعترف بأن أحد المنصفين من المستشرقين وهو أسـين بالاسيوس (٦٥) لم يجـد بدا من أن يعطى لابن رشد ما لـه وأن يعترف بأن توماس الاكوينى الذى يعـد فيلسوف المـذهب الكاثوليكى منـذ القرن الثالث عشر الميلادى قد استمد أصول فلسفته كلها من فلسفة ابن رشد ٠

وقبـل أن نعرض فى شيء من الايجاز لمدى تأثير فيلسوفنـا المسلم الأصيل فى التفكير الفلسفى الأوربى ، قد يجمل بنا أن نشير بكلمة سريعة الى عصره وحياته وأسرته ولانتاجه الفلسفى ٠

لقد عاش أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد فى عهد دولة الموحدين التى غلبت على شمال أفريقيـا وبـلاد الأندلس بعد تفـكك دولة المرابطين

وفشلها في الدفاع عن حوزة الاسلام في شبه جزيرة الأندلس أي في تلك الفترة التي اشتدت فيها وطأة الحروب الصليبية ، وهي الحروب التي لم تكن قاصرة على بلاد المسلمين في المشرق بل كانت قد بدأت منذ حين في المغرب وبلاد الأندلس .

وينبغي أن نشير الى ظاهرة قد تلقي ضوءا على الاتجاهات الفكرية التي سادت في دولة المرابطين فكانت من عوامل تدهورها والى بعض الاتجاهات الفكرية الأخرى التي ساعدت دولة الموحدين على الاحتفاظ بالأندلس وتأجيل خروج المسلمين منها،ذلك أن المرابطين قربت اليها الفقهاء وعلماء الكلام وظنت أن في استطاعة هؤلاء أن يؤلفوا بين قلوب الرعية وأن يكسبوا ولاءها لأولى الأمر وأن يقفوا سدا حاجزا أمام موجة التدهور الاجتماعي والسياسي لكن طائفة الفقهاء لم تكن للأسف في مستوى الأحداث التاريخية ولم تحسن استخدام السلطة التي دعيت الى المساهمة في النهوض بها ، حقا أنهم أصبحوا مقصدا لجميع الناس ولذوى الحاجات منهم بصفة خاصة غير أنهم لم ينسوا أمر أنفسهم،اذ أرادوا التمتع بالطيبات على غرار أمراء المرابطين فاتجهوا يطلبون الثراء والترف فاتسعت أرزاقهم وتلوثت روافد هذا الرزق وشابها شيء من المال غير المشروع .

وكان من الضرورى أن تدول دولة المرابطين عندما غلب كل أمير من أمرائها على اقليم أو مدينة من مدن الأندلس،وركنوا الى الاستبداد وتركوا تصريف أمر الدولة الى النساء وربما استعانوا بجيوش الفرنجة على منافسيهم .

أما دولة الموحدين التي أنشأها محمد بن عبد الله بن تومرت في أوائل القرن السادس الهجرى فهي التي طهرت شمال أفريقيا من رجس الصليبيين ثم سارعت الى نجدة المسلمين في شمال الأندلس فاستردت المدن من أيدى الفرنجة وأمنت المسلمين على نسائهم وأبنائهم وأموالهم وديارهم ووحدت كلمتهم وكان الاتجاه الغالب في هذه الدولة هو الاتجاه العقلي وتطهير العقائد من الخرافات والأوهام والقضاء على جدل علماء الكلام، ذلك الجدل الذى أساء كل الاساءة الى المسلمين ، ان في المشرق ، وان في المغرب فكان من الطبيعي أن تظهر طبقة من المثقفين والعلماء يطمئن اليها أمراء الموحدين ولم تكن هذه الطبقة سوى طبقة العلماء والفلاسفة .

تلك هي البيئة السياسية والفكرية التي نشأ فيها ابن رشد الفيلسوف فكان من الطبيعي أن تكون هذه البيئة مسرحا لعبقريته الخاصة التي ساندتها ظروف عائلية واجتماعية أخرى فجده هو أبو الوليد محمد ابن رشد قاضي قضاة قرطبة « وكان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع عصره عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه بصيرا في علم

الفرائض والأصول من أهـل الرياسـة والعلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت الحسن ، والهدى الصـالح .. وكان الناس يلجأون اليه ، ويعولون فى مهماتهم عليه وكان حسن الخلق سهل اللقـاء كثير النفع لخاصته وأصحابه ، جميل العشرة لهم حافظا لعهده كثير البر بهم » .

وكان الجد يقوم بالسفارة بين أهل الأندلس وملوك شمال أفريقيا وهو الذى طلب الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين أن يريح المسلمين من بعض مسيحيى الأندلس ممن كانوا يقيمون ببعض مدن الأندلس بأن ينقلهم الى شمال أفريقيا ، حتى لا يكونوا عيونا لاخوانهم من الفرنجة على المسلمين. أما الأب فكان أقل شهرة من الجد والحفيد رغم أنه بلغ بتعليمه وفضله مرتبة قاضى القضـاة بقرطبة وقد توفى الأب وهو أحمد بن رشد بعد أن بزغ نجم ابنه الفيلسوف .

وكانت صلة فيلسوفنا بأبى يعقوب يوسف بدءا لاتجاهه الى شرح كتب أرسطو بناء على توجيه من الأمير الذى شكا من غموض هذه الكتب . وتعد شروح ابن رشد لأرسطو من الطابع الأفلاطونى الحديث الذى خلعه عليها أمثال الفارابى وابن سينا وقد أدى ذلك الى أن كتبت لفلسفة أرسطو الغلبة فى مجال الفكر هناك على فلسفة فلاطون .

ومن المقرر أن معرفـة مفـكرى أروبـا بشروح ابن رشد هى التى ساعدتهم على تفنيد آراء الفارابى وابن سينا فى مسائل عديدة كنظرية المعرفة ومشكلة خلق العالم ، لذلك فليس بعجيب أن سموه الشارح الأكبر لأرسطو .

وقد سلك « توماس الأكوينى » أيضا مسلك التتلمذ على ابن رشد عندما أخذ آراءه الدينية بحذافيرها فارتضاها لنفسه ثم فصلها فى كتابه الضخم المسمى «بالخلاصة اللاهوتية» ، فبدا فى نظر قومه أنه هو المجدد الأكبر فى المسـيحية والحـق ان « توماسى الاكوينى » وجد فى كتب ابن رشد الخاصة تلك الكنوز التى سيحدثنا عنها فيلسوف مسيحى آخر فى العصور الحديثة وهو ليبتنز عنـدما يقول انه عثر على كنوز ثمينة فى الفلسـفة المسيحية فى العصور الوسطى .

تدرج ابن رشـد فى مناصب دولة الموحدين فعين أول الأمر قاضيا لأشبيلية ، ثم تولى منصـب قاضى القضـاة فى قرطبة وهو فى خلال ذلك لا ينقطع عن تفسير فلسفة أرسطو فى شروحه الكبرى والمتوسطة والصغرى ولا عن التأليف فى التفكير الاسلامى ، كما شهدت بذلك كتبه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » وكتاب « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » . وكتاب « تهافت التهافت » . وفى الكتاب الأول يعرض

ابن رشد نظريته فى التوفيق بين العقل والدين من الوجهة النظرية المحضة. وتتلخص هذه النظرية فى بيان أن الشرع والعقل كلاهما هبة من الله وليس من المعقول أن نطلق عليها نظريـة الحقيقة الواحدة التى يـأتى بها الوحى ويعضدها العقل وهى النظرية التى سيأخذهـا توماس الاكوينى فيما أخذ ابن رشد . أما كتاب الكشف عن مناهج الأدلة فهو تطبيق تفصيلى لنظرية الوفاق بين الدين الاسـلامى والعقـل فى نظر ابن رشد وذلك فى جميع المسائل التى شغلت مفكرى الاسلام من الباحثين فى العقائد .

أما كتاب « تهافت التهافت » فهو الذى ألفه للرد على الامام الغزالى بسبب تكفيره للفلاسفة ويقول د. محمود قاسم فى كتابه (فلسفة ابن رشد وأثرها فى التفكير الأوربى) : « غير أننـا نلاحظ أن ابن رشد أكثر اتفاقا مع الغزالى منه مع الفارابى وابن سينا . لذلك نقول ان من الأخطاء الكبيرة أن كثيرا من الباحثين الذين وقفوا عند عنوان هذا الكتاب ودون أن يمحصوا ما حواه تمحيصا دقيقا ظنوا انه لم تكن هناك نقط لقاء عديدة وجوهريـة بين الامامين الكبيرين مما دعاهـم الى القول بأن الغزالى حجة الاسـلام وان ابن رشد ـ ان لم يكن اماما للمارقـين ـ فهو قد انحرف فى الأقـل عن العقيدة الاسلامية ، غير أن البحث الموضوعى والمجرد عن الأفكار السابقة يكشف لنا عن حقيقة مخالفة تماما وهى أن ابن رشد أكثر الفلاسفة شبها بالامام الغزالى وأنه هاجم كلا من الفارابى وابن سينا أكثر مما دافع عنهما بل يمكن القول بأن كتاب « تهافت التهافت » انما ألف لتسفيه آراء هذين الفيلسـوفين اللذين شـوها الفلسفة الأرسطية وخرجا عن التيار الاسلامى الحقيقى » .

محنـــة ابن رشـــد

وكان من الطبيعى أن ينفس بعض الفقهاء أو كثير منهم على الفلاسفة وعلى ابن رشد مكانتهم الخاصـة عند أمراء دولة الموحدين وهذا هو سبب المحنة التى لقيها الفيلسوف القرطبى فى أيامه الأخيرة ، ذلك أن الفقهاء بذلوا جهدهم لكى يستردوا تلك المكانة التى كانت لهم فى دولة المرابطين وظنوا أن الريح بدأت تهب فى جانبهم عندما جاء الأمير الثالث للموحدين وهو أبو يوسـف يعقوب الملقب بالمنصـور فاختلقوا الأباطيـل وزيفوا بعض النصوص للايقـاع بابن رشد الذى زادت مكانته رفعة فى عهد هذا الأمير الجديد . وانما دفعهم الى محاولة النيل من ابن رشد أن الأمير أظهر بعد عدة سنوات من حكمه كراهيته لعلم الكلام ودعا الناس الى الاشتغال بالحديث فظن الفقهاء أن الفرصـة قد واتتهم لكى يستعيدوا مكانتهم بعد الاطاحـة بفريق العلماء والفلاسفة .

وقدر لهم أن ينجحوا نجاحا مؤقتا فاصدر المنصور أمرا بنفي ابن رشد وأصحابه الى قرية كان يقيم بها اليهود كما أمر باحراق كتبه وبتحريم قراءة الفلسفة عامة وهدد من يخالف أمره بالاحراق والقتل ولم يكن ابن رشد وحيدا في هذه المحنة بل كان أحد من أظهر المنصور غضبه عليهم وقد اختلفت الأقاويل في تعليل هذه المحنة فقيل انها لأسباب دينية ، وقيل انها لأسباب سياسة ونجدنا أكثر ميلا الى الرأى الأخير ذلك لان ابن رشد لم يمتحن عندما ألف كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» في سنة ٥٧٥ هـ وهاجم فيه علماء الكلام أشعرية وغير أشعرية في حين كانت محنته بعد ذلك بنحو من ستة عشر عاما · ثم عاد المنصور فعفا عن ابن رشد في سنة ٥٩٥ هـ ودعاه الى مراكش وقربه اليه وكرمه · ولو كان السبب دينيا لما استطاع المنصور أن يخدش عاطفة رعيته بأن يراجع نفسه في أمر ابن رشد · وقد توفي ابن رشد في عام ٥٩٥ هـ أي قبل وفاة المنصور بشهر أو نحوه ·

وكان فيلسوفنا أكثر الناس استقلالا في الرأى واعتدادا بما يؤمن أنه الحق ، كما أنه كان أكثر ميلا الى الاجتهاد منه الى التقليد وقد وصفه ابن الآبار فقال : انه لم ينشأ مثله في الأندلس كمالا وعلما وفضلا ، ومع أنه كان عظيم المرتبة شريف الأصل عريق النسب فقد كان من أشد الناس تواضعا وأخفضهم جناحا وربما كشف عن خلقه ودينه أن المحنة لم تترك في نفسه أثرا عميقا ، بل كان الأمر الذى حز في نفسه هو أن غوغاء قرطبة أخرجوه من المسجد الكبير هو وابنه وهما يتهيآن لصلاة العصر ·

***

تحليـــل الكتـــاب

وفى كتاب مناهج الأدلة يبين لنا ابن رشد أن المشكلات التى فرقت بين الأشعرية والمعتزلة مشـــكلات مزعومة ، بل هى مشـــكلات لفظية وأن المسائل لو عولجت بطريقة علمية منطقية بعيدة عن روح التعصب لما وجد هؤلاء ما يوجب الخلاف بينهم أو ما يدعو الى التراشق بالكفر ٠

لقـــد اختلف علماء الكلام فى مسألة الصفات الالهية والصلة بينها وبين ذات الله سبحانه ، كما اختلفوا في مسألة الجهة وفي امكان أو استحالة رؤية الله تعـــالى فى الحياة الأخرى وفى الحسن والقبيـــح ولم يتفقوا فى مسألة العدل والجور والقضاء والقدر الخ ، فأراد ابن رشد أن يبين لهؤلاء جميعا أن العقائد الاسلامية مطابقة للعقل ومن ثم ، فليس هناك ما يوجب الخلاف ٠ ولنعرض الآن للمسائل التى عالجها هذا الفيلسوف الدينى فى كتابـــه :

المسألة الأولى : أدلة وجود الله :

لقد ذهب فريق من المسلمين الى أن الدليل على وجود الله لا يعتمد على العقـــل بل الســـبيل الى ذلك هو الاعتماد على ما جاء به القرآن الكريم أو الوحى وهؤلاء هم أهل الظاهر الذين كانت لهم الغلبة فى بلاد الأندلس وفى المغرب فى العصر الذى عاش فيه ابن رشد وكان هؤلاء الذين يحقرون من شأن العقل يظنون أن التصديق بالوحى نفسه لا يحتاج الى استخدام العقل ٠ ويرى ابن رشد ألا يشغل نفسه بهؤلاء القوم ولا ترضى نفسه أن يصفهم بالضلال كما فعل علماء الكلام ، بل قال فى شأنهم انه متى وجد جماعة من النـــاس يعجزون عن استخدام عقولهم فى معرفة وجـــود الله ، فما عليهم الا أن يؤمنوا به بالطريقة التى يرضونها ولكنه لم يتورع عن السخرية بهم فقال بعد أن ذكر لهم عددا من الآيات التى دعا الله فيها الناس الى الايمان بوجوده عن طريق العقل : « ولا يمتنع أن يوجد من الناس من تبلغ به فدامة العقل وبلادة القريحة أن لا يفهم شيئا من الأدلة الشرعية التى نصبها صلى الله عليه وسلم للجمهور وهذا هو أقل الوجود فاذا وجد ففرضه الايمان بالله من جهة السماع » ٠

أما علماء الكلام من أشعرية ومعتزلة فقد زعموا أنهم يعتمدون على العقل للبرهنة على وجود الله فاستخدموا دليلين شهيرين عند دارسى علم الكلام أى علم التوحيد وهما :

(أ) دليل الجوهر الفرد :

ويتلخص فى أن الأجسام الموجودة فى العالم تتكون من أجزاء ، وهذه الأجزاء يمكن قسمتها الى أجزاء وهكذا • لكن هذا التقسيم لا يستمر الى ما لا نهاية له بل يجب الوقوف عند جزء لا يتجزأ وهذا الجزء الذى لا يتجزأ هو الجوهر الفرد وكل الجواهر الفردة تعرض لها حالات مختلفة • وهذه الأحوال هى التى يطلقون عليها اسم الأعراض ، وهى حادثة لأنها متغيرة وما دامت الجواهر لا تنفصل عن الأعرض اذن،لابد أن تكون حادثة مثلها لأن مالا ينفك عن الحوادث فهو حادث حسب مبدأ مشهور لديهم • ولما كانت الجواهر حادثة فالأجسام حادثة ثم العالم حادث ولابد له من محدث وهو الله •

ويناقشهم ابن رشد فى هذا الدليل ، فيرى أولا أنهم يعتمدون على نظرية اغريقية قديمة هى نظرية الذرة التى قال بها ديمقريطس • ونلاحظ ان نظرية الذرة عند القدماء قد استخدمت لتحقيق غرض مناقض لما يريده المعتزلة والأشاعرة أى انها كانت سبيلا الى انكار وجود الله والى تفسير الكون تفسيرا ماديا بحتا ، هذا الى أنه من العسير أن نبرهن بطريقة عقلية على حدوث جميع الأعراض بناء على ما نلاحظه من حدوث بعضها ، فاذا تبين لنا أن النبات ينمو ثم يصفو ثم يندثر فهل يتبين لنا عن طريق الحس والتجارب أن الزمان له أول وآخر • وليس معنى ذلك أن ابن رشد يقول بقدم العالم ولكنه يريد القول بأن أهل علم الكلام يعجزون عن اثبات حدوث الزمان والعالم بطرقهم الجدلية ولو سلمنا أن العالم حادث بناء على براهينهم الجدلية لم تنته الشبهات اذ يبقى أن نسأل : لماذا حدث العالم فى لحظة دون أخرى وهل طرأ على الارادة الالهية التى رأت ايجاده فى هذه اللحظة أو تلك عزم أو تصميم جديد ؟ فما جواب علماء الكلام عن مثل هذه الاعتراضات ؟ ربما وجدوا حلولا أخرى أكثر تعقيدا وتفريعا ، ولو سلمنا لهم أن ردودهم حاسمة فيبقى أن نسأل : هل هذه هى الطريقة الشرعية السهلة الواضحة التى جاءت فى القرآن الكريم • والحق كما يقول ابن رشد أن هذا الدليل ليس شرعيا ولا فلسفيا : « وطريقتهم التى سلكوها فى بيان حدوث الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو الذى يسمونه الجوهر الفرد وطريقة معتاصة تذهب على كثير من أهل الرياضة فى صناعة الجدل فضلا عن الجمهور ومع ذلك فهى طريقة غير برهانية ولا مفضية بيقين الى وجود البارىء » • وهى ليست برهانية لان البرهان المنطقى هو الذى يفرض نفسه على العقول فى مختلف

مستوياتها ، لأن العامة تسلم بالدليل المنطقى اجمالا ، وتسلم به الخاصة والعلماء اجمالا وتفصيلا، وهى غير شرعية وذلك لان القرآن الكريم لا يحتوى على دليل الجوهر الفرد ٠

(ب) دليـــل الممكن والواجب :

وقد لجأ المتكلمون الى دليـــل آخر سموه دليل الممكن والواجب وهو يتلخص فى أن كل ما يوجد فى العالم يمكن أن يوجد على نحو مخالف لما هو عليه بل العالم نفسه يمكن أن يحتل من الفراغ غير المكان الذى يوجد فيه وأكثر من ذلك فمن الممكن أن يخلق الله عالما أفضل من هذا العالم الحالى٠ وقد اســتدلوا على فكرتهم هذه أيضا بأنه من الممكن أن يصعد الحجر الى أعلى بدلا من أن يسقط الى أسفل ومتى كان الأمر كذلك فالعالم حادث لابد له من محدث وقد خيل الى أصحاب هذا الدليل أنه دليل قوى لأنه يبرهن فى الوقت نفسه على حرية الارادة الالهية المطلقة ٠

لكن ابن رشد يوجه ضروب النقد الى هذا الدليل فيرى أنه ليس عقليا ولا شرعيا أما أنه ليس عقليا فذلك لأنه يخالف البداهة الحسية ، كما يتنافى مع روح العــلم فنحن نجــد أن الواقع يكذبهم لأننــا نرى أن لكل نوع من الكائنــات خلقته الخاصة ونعلم أن هنــاك أسبابا وقوانين أودعها الله فى الكون ، فهم يريدون اذن انكار وجود الأسباب الطبيعية التى خلقها الله وقد ظنوا أننا اذا كنا نجهل السبب فى أن الحركة شرقية أو غربية فمعنى ذلك أن هذا السبب غير موجود فهناك اذن كما يرى ابن رشد أسباب للحركات السماوية ، واذا كانت هذه الأسباب مجهولة لدى طائفة من الناس فليس معنى ذلك أن الحركات جائزة وفى الجملة يعتقـــد ابن رشــد أن هؤلاء المتكلمين يتخذون جهلهم بالقوانين سبيلا الى القول بجواز أن يكون العالم على نحو مخالف لما هو عليه الآن ٠

وليس دليلهم من جانب آخر دليلا شرعيا لأنه ينتهى الى انكار حكمة الله وعنايته بما خلق ، انهم أرادوا أن يؤكدوا المشيئة المطلقة فانتهوا الى انكار الحكمة ٠ هذا الى أن انكارهم لوجودهم القوانين الطبيعية معناه الاتجاه الى القول بالمصادفة أو الاتفاق وهذا هو رأى الماديين الملحدين : « واذا لم تكن للشىء أسباب ضرورية تقتضى وجوده على الصــفة التى هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره كما أنه لو لم تكن ههنا أسباب ضرورية فى وجود الأمور المصنوعة، لم تكن هنالك صناعة أصلا ولا حكمة تنسب الى الصانع دون من ليس بصانع وأى حكمة كانت تكون فى الانسان لو كانت جميع أفعاله يمكن أن تتاتى بأى عضو اتفق ٠ أو بغير عضو حتى يكون الابصار مثلا يتاتى بالأذن كما يتاتى بالعين

والشم بالعين كما يتأتى بالأنف ؟ وهذا كله ابطال للحكمة وابطال للمعنى الذى سمى به نفسه حكيما ، تعالى وتقدست أسماؤه عن ذلك » ·

أما مشكلة حرية الارادة الالهية التى تعللوا بها فانها بمأمن من كل شبهة ، وذلك لأن الله سبحانه يريد كل شىء عن علم تنكشف له به جميع الكائنات فى جميع لحظات الزمن : وارادته سبحانه تختلف عن الارادة البشرية الناقصة التى تتردد بين عدة احتمالات بسبب نقص العلم الانسانى وعجزه عن معرفة ما سيقع فى المستقبل ·

كذلك نقد ابن رشد دليل المتصوفة على وجود الله وهو الدليل الذى يعتمد على الحدس الصوفى فقال : ان الدين الاسلامى جاء لجميع الناس لا لطائفة خاصة ، هذا الى أن الآيات التى تحث على النظر والتفكير أكثر بكثير من تلك الآيات القليلة التى يتأولها الصوفية للبرهنة على وجهة نظرهم الخاصة ·

اذن ، فما الأدلة التى يرتضيها ابن رشد ؟ انه يرى ان أدلة الشرع هى أدلة العقل ويريد بها :

(أ) دليل العناية الالهية :

حقا قد يقال ان القول بوجود عناية خاصة بالانسان معناه أننا نريد اتخاذه محورا للكون · نعم قد يقال ذلك وقد يقال أكثر منه وقد تبدو هذه الحجج مقنعة لدى من يصر على أن ينتقص من قدر نفسه ، ويأبى أن يعترف بأن الله كرمه بأن جعله بشرا لكن كثرة العلماء الذين يكابدون مشقة العلم يجزمون بأن هناك عناية بما فى هذا الكون ، وأن هذه العناية لا يجوز مطلقا أن تكون وليدة الصدفة ·

والشرع يؤكد ما تشهد به البداهة الحسية والنظرة العقلية السليمة وهنا يستشهد ابن رشد بآيات عديدة من القرآن ·

(ب) دليل الاختراع أو السببية :

وهو دليل يمتاز أيضا بالبداهة والوضوح فان ظاهرة الاختراع بينة فى الحيوان والنبات بل فى جميع أجزاء العالم وكل ظواهر الكون مسخرة لوظائف محددة وما كان مسخرا فلابد من أن يكون مخلوقا وهذا الدليل يشبه سابقه فى أنه دعوة صريحة الى البحث والدراسة لمعرفة أسرار القوانين والغايات التى أودعها الله فى هذا الكون ثم هو برهان الشرع فى الوقت نفسه بدليل الآيات العديدة التى وردت فى هذا المعنى ·

فهل هناك من شك اذن فى أن أدلة ابن رشد على وجود الله تفضل أدلة الأشاعرة والمعتزلة ؟ أو لم يكن أولى بهؤلاء ألا يتكايسوا بالمعرفة ، وألا يتباهوا بالجدل والتقريع فى غير ما يجدى ! ومما يدل على صدق وجهة نظر ابن رشد أن القرآن الكريم قد جمع بين هذين الدليلين فى كثير من آيـــاته ·

المسألة الثانية : الوحـــدانية :

لقد اعتمد علماء الكلام أشعرية ومعتزلة على بعض الآيات القرآنيـة للبرهنـة على وحـدانية الله كقوله تعـالى : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » (٦٦) · وقوله : « **ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون**»(٦٧) وقوله عز وجل : « **قل لو كان معـه آلهـة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا** » (٦٨) ثم استنبطوا من ذلك دليلا جدليا مشهورا يسمى بدليل التمانع ، وهو يمتاز بأنه دليـل غير مقنع ومثير للشبهات فى آن واحـــد ·

ويتلخص فى أنه لـو وجـد أكثر من اله واحـد ، لاختلفت الآلهة فلو فرضنا أن هنـاك الهين أراد أحدهما أن يوجد العالم وأراد الثـانى ألا يوجده فلابد من افتراض ثلاثة احتمالات : فاما أن تتم ارادة كل منهما واما أن تتم ارادة أحدهما دون الآخر · فعلى الاحتمال الأول يكون العالم موجودا معدوما فى آن واحد وعلى الاحتمال الثانى يكون العالم لا موجودا لامعدوما ، وعلى الاحتمال الثالث يكون الذى تتم ارادته هو الاله حقيقة ، لأن الآخر عاجز والعاجز لا يكون الها ·

وقد يبدو هذا الدليل مقنعا لكنه ليس كذلك اذ لنا أن تسأل : ولماذا لا يتفق الالهان بدلا من أن يختلفا ولا سيما أننا نرى البشر يتفقون فتكون نتائج اتفاقهم جودة فى العمل ودقة فى الصنع مما دعا بعض علماء الكلام الى القول بأن دليل الآيات السابقة ليس منطقيا بل هو مجرد دليل خطابى يراد به الاقنـاع ، لأنه من الجـائز الاتفاق على خلق العالم بنظامه الذى نشاهده ·

ويكشف لنا ابن رشد عن الخلل فى برهنة المتكلمين الذين أساءوا فهم الآيات السابقة فظنوا أنها من القيـاس الشرطى المنفصل مع أنها تتضمن قياسا شرطيا متصلا وهو المنهج العلمى الحديث الذى أظهر انتاجه المذهل فى الكشوف العلمية المعـاصرة كقوله تعـالى : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » يمكن عرضـه على النحـو البرهانى الآتى : لو فرضنا أكثر من اله واحد لفسد العالم لكن هذا الفرض غير صحيح،لأن العالم ليس فاسدا

اذن ليس هنـــاك الا اله واحد خلق هذا العـــالم بعلمه وحكمته وأما قوله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** » فمعناه أن اختلاف أفعال الآلهة لا يمكن أن يترتب عليه فعل واحد لكنا نرى عالما واحد متقنا ، اذن لا يعقل أن يكون هذا العالم موجـــودا بسبب آلهة مختلفة الأفعال وأما قوله تعـــالى : « **قل لو كان معه آلهـــة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا** » فهـــو خاص بحالة احتمال الاتفاق لا الخلاف ومعناه أنه لا يجوز عقلا أن يوجد الهان تتحد أفعالهما اذ لو كان هناك الهان يفعلان فعلا واحدا ، لوجب أن يكون نسبتهما الى العرش واحدة فلما غفل المتكلمون عن معنى هذه الآيات استنبطوا دليلا يتجه اليه الطعن وقد جاء ذلك كله بسبب اعتقادهم أن الآيات تحتوى على قياس شرطى منفصل مع أنها تنطوى على قياس شرطى متصل « وقد يدلك على أن الدليل الذى فهمه المتكلمون من الآية ليس هو الدليل الذى تضمنته الآية ان المحال الذى أفضى اليه دليلهم غير المحال الذى أفضى اليه الدليل الذين زعموا أنه دليـــل الآية هو أكثر من محال واحد ، اذ قسموا الأمر الى ثلاثة أقســـام وليس فى الآية تقســـيم فدليلهم الذى استعملوه هو الذى يعرفه أهل المنطق بالقياس الشرطى المنفصل .. والدليل الذى فى الآية هو الذى يعرف فى صناعة المنطق بالشرطى المتصل وهو غير المنفصل ومن نظر فى تلك الصناعة أدنى نظر تبين له الفرق بين الدليلين » .

المسألة الثالثة : مشكلة الصفات والذات :

لقد سوى المعتزلة بين ذات الله وصـــفاته خوفا من أن يؤدى القول بتعددها الى ما وقع فيه المسيحيون عندما فرقوا بين صفات الوجود والعلم والحياة وقالوا ان كل صفة منهما قائمة بذاتها ، فالوجود هو الأب ، والعلم هو الابن ، والحياة هى الروح القدس . ورأى الأشـــعرية ألا يســـووا بين الذات والصفات لأن العلم غير الوجود ، والوجود غير الحياة الخ ثم قالوا ان صفات الله زائدة عن الذات وقائمة بها فلما قيل لهم كيف تكون زائدة على الذات وقائمة بها فى آن واحد وفى هذا تشـــبيه للخالق بالمخلوق لان للانسان ذاتا وله صفات قائمة بذاته وزائدة عليها ــ قالوا ليست الصفات هى هو ، وليست هى غيره . فقيل لهم ان فى ذلك نوعا من التناقض فلم يجدوا حلا .

ولذلك يحكم ابن رشد على الطائفتين بأنهما ابتدعتا فى الدين، وفتحتا باب الفتنـــة من غير ما يدعو الى ذلك الشر كله ، ولا سيما أن محنة خلق القرآن كانت وليدة هذا الصراع الجدلى بين الفريقين .

ومن قبـــل قال الامام الغزالى اذا كنا لا نعرف حقيقة الذات الالهية ، فكيف ندعى معرفة حقيقة الصفات الالهية ومن بعد قال ابن رشد : « قول

من قال ان علم الله وصفاته لا تكيف ولا تقاس بصفات المخلوقين حتى يقال انها الذات أو زائدة عن الذات هو قول المحققين من الفلاسفة والمحققين من غيرهم من أهل العلم والله الموفق » · « واذا كان هذا هكذا فاذا الذى ينبغى أن يعلمه الجمهور من أمر هذه الصفات هو ما صرح به الشرع فقط وهو الاعتراف بوجودها دون تفصيل الأمر فيها هذا التفصيل فانه ليس يمكن أن يحصل عند الجمهور فى هذا يقين أصلا وأعنى ههنا بالجمهور كل من لم يعن بالصنائع البرهانية ، وسواء أحصلت له صنعة الكلام أم لم تحصل له فانه ليس فى قوة صناعة الكلام الوقوف على هذا القدر من المعرفة اذ أغنى مراتب صناعة الكلام أن تكون جدلية لا برهانية ، وليس فى قوة صناعة الجدل الوقوف على الحق فى هذا » ·

المسألة الرابعة : مسألة الجهة والجسمية والرؤية :

وتتصل مسألة الجهة بمسألة الجسمية فقد اعتقد بعض السذج من المسلمين أن الله جسم لا يشبه الأجسام وقد تأثر هؤلاء بالاسرائيليات فى حين أن كلا من الأشعرية والمعتزلة ينفون الجسمية وان كان الأشعرى أقرب الى المشبهة منه الى المعتزلة أما ابن رشد فقد رأى أن يلتزم ما جاء به الشرع فلا يصرح للجمهور لا باثبات الجسمية ولا نفيها هذا الى أن القول بالجسمية يتناسب على نحو ما مع القول بوجود الله فى جهة معينة ، وتلك فى الحق احدى المشكلات التى تعثر فيها ابن رشد · وأيا كان الأمر فان المعتزلة تنفى الجهة لأنها نفت الجسمية ، فى حين أن الأشعرية تنفى الجسمية وتؤكد الجهة مما دعا ابن رشد الى القول بأن الأشعرية لجأوا فى مسألة الرؤية التى ترتبط بهذه المسألة أيضا الى حجج سوفسطائية أما حجج المعتزلة فتتلخص فى أن اثبات الجهة لله تعالى معناه القول بأنه فى مكان وهذا يؤدى الى الجسمية · ولذا أولوا جميع الآيات التى جاءت تثبت الجهة فى القرآن من مثل قوله تعالى : « **يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة** » (٦٩) الى غير ذلك من الآيات ، كما أولوا أحاديث الرسول التى جاء فيها أن الله ينزل الى السماء الأولى وقالوا انها أحاديث آحاد ·

أما الأشعرى فانه لما أثبت لله وجها ويدين ، وان لم يكن ذلك شبيها بالوجه واليدين عند الانسان فقد مال الى المشبهة ، وأثبت الجهة ورفض تأويل آيات العرش واستشهد بأحاديث النزول التى أشرنا اليها ولما رفض تأويل المعتزلة للآيات أخذ يجادلهم لكى يقهرهم على القول بأن الله لو كان فى كل مكان كما يقولون ، لكان فى كل جزء من أجزاء العالم وفى بطن مريم أيضا وهذا مثال لما قد ينتهى اليه اللجج الذى لا تقوده الرغبة فى الوصول الى الحقيقة ، غير أن أتباع الأشعرى من المتأخرين مالوا الى رأى المعتزلة على

حد ما يذكر ابن رشد فهو يقول: « وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر ، يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية كأبى المعالى ومن اقتدى به » .

وربما توقعنا من ابن رشد أن يتبع المعتزلة لكنه آثر هنا أن يسلك مسلك الأشعرى واستدل على الجهة بنفس الآيات والأحاديث التى استدل بها المشبهة وأبو الحسن الأشعرى وتلك نقطة قلقة فى مذهبه ، لأنه ينكر الجسمية والرؤية البصرية ، ومع ذلك فانه يثبت الجهة وهو متأثر هنا بفلسفة أرسطو وقد حاول أن يجد مفرا من هذا التناقض فجعل يفرق تفرقة سوفسطائية بين الجهة والمكان حتى اذا قيل له كيف يمكن أن نتصور الها غير جسمى يوجد فى جهة معينة لم يجد جوابا الا أن يعترف بوجود نوع من التناقض وبأنه يجب أن ننهى الجمهور عن البحث فى أمر الجهة . وهو فى هذه النقطة الأخيرة محق ، لأن مسألة الجهة من أدق المسائل وهى من أمور الغيب التى يجب التفويض فيها .

أما فى مسألة رؤية الله فى اليوم الآخر ، تلك المسألة التى ترتبط دون ريب بالجهة فنجد أن المعتزلة ينفونها لأن شروط الرؤية البصرية انما هى خاصة بالأجسام والله ليس بجسم ، ولذلك تأولوا الآيات التى تثبت الرؤية وقالوا : ان المراد بالرؤية مزيد علم يفيضه الله على قلوب المؤمنين فى الحياة الأخرى .

لكن الأشعرى كان على وفاق مع نفسه لانه لما أثبت الجهة لم يجد غضاضة من اثبات الرؤية وأخذ يناقش أدلة المعتزلة أو يؤول بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى : « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** » (٧٠) وقوله تعالى : « **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى** » (٧١) الآية — كذلك احتج بأدلة ظنها عقلية فقال ان الأشياء لا ترى من حيث هى أجسام أو ألوان وانما ترى من حيث انها موجودة ولما كان الله موجودا اذن هو يرى . ويبدو أن مثل هذه الحجة لم تقنع أتباع الأشعرى فانا نجد المتأخرين منهم اقتربوا من المعتزلة عندما نفوا وجود الله فى جهة مقابلة وأنكروا استخدام العين وقالوا من الممكن أن يخلق الله لعباده انكشافا تاما لا يتوقف على شروط الرؤية العادية وهكذا يصبح الخلاف بين الفريقين لفظيا ، لأن الرؤية تصبح بعد حذف شروطها المادية علما ولهذا يقول الامام محمد عبده ان العلماء قد اتفقوا على نفى الرؤية بالوجه ، لأنهم يعترفون أن الله مخالف للحوادث ، وأنه ليس جسما ولا يوجد فى جهة .

وقد نقد ابن رشد رأى الأشعرى ومال الى رأى المعتزلة وان كان أكثر اتباعا لظاهر الشرع « لانه اذا قيل ... : انه نور وان له حجابا من

نور كما جاء في القرآن والسنن الثابتة ثم قيل ان المؤمنين يرونه في الآخرة كما ترى الشمس لم يعرض في هذا كله شك ولا شبهة في حق الجمهور ولا في حق العلماء ، وذلك أنه قد تبرهن عند العلماء أن تلك الحال مزيد علم ، لكن متى صرح لهم به ، أعني الجمهور بطلت عندهم الشريعة كلها أو كفروا بالمصرح لهم بها ، فمن خرج عن مناهج الشرع في هذه الأشياء فقد ضل عن سواء السبيل » .

المسألة الخامسة : مسألة العدل والجور والقضاء والقدر :

وهي احدى المسائل المهمة التي فرقت بين المسلمين وجعلت الخصومة أكثر حدة بين المعتزلة والأشاعرة ، مع أن الأمر لا يقتضي خلافا ولا خصومة فالمعتزلة الذين يصفون أنفسهم بأنهم أهل العدل يرون ان هذه الصفة صفة كمال وهي تهدف الى نفي الظلم عن الله سبحانه فأفعاله تتجه الى قصد وغاية وهي لا تخالف ما يقتضيه العقل الذي يفرق بين الحسن والقبيح والخير والشر . واذن ، فيجب ألا يأمر الله بالقبيح أو الشر ولا ينهى عن الحسن والخير .

وربما أخذ عليهم أنهم يستخدمون هنا كلمة تدل على عدم التأدب في حقه تعالى عندما يوجبون عليه فعلا من الأفعال . وأيا كان الأمر فانهم يقررون أن الله لا يريد الشر لعباده والا لكان ظالما ثم استدلوا على وجهة نظرهم بآيات عديدة من القرآن الكريم .

أما الأشعري فسلك مسلكا مضادا فقال بالحرية الالهية التي لا تخضع لشريعة فلله أن يخلد الأنبياء في النار والكفار في الجنة ، لان ارادته مطلقة ، وليس لأحد أن يوجب عليه فعل الصلاح أو الأصلح لعباده بل ذهب الى القول بأن أفعاله تعالى ليست معللة بغاية أو غرض . ثم انه يقرر أن الشر لما كان موجودا في العالم فالله مريد له . فهو يريد الكفر لعباده العاصين ويريد الايمان لمن يريد هدايته أي أن العبد ليس له اختيار فيما يريده الله له من طاعة أو عصيان .

فلما جاء ابن رشد رفض رأي الأشعرية قائلا انه مضاد للعقل ومخالف لروح الشرع : أما انه مضاد للعقل فذلك ما تشهد به البداهة فاننا ندرك بحواسنا أن هناك أشياء حسنة وأخرى قبيحة،وأن العبد يتجه الى الخير أو الشر والى الحسن أو القبيح ولذا كان أهلا للثواب أو العقاب ، أما أن رأيهم يخالف الشرع فذلك لأنه يناقض كثيرا من الآيات القرآنية التي تصف الظلم بالقبح أو الشر من مثل قوله تعالى : « **وما ربك بظلام للعبيد** » (٧٢) وقوله : « **ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما** » (٧٣) .

ومع ذلك ، فان الأشعرية والمعتزلة حاموا حول المشكلة دون أن يهتدوا الى حلها فالله يخلق الخير والشر جميعا لكنه يخلق الخير من أجل الخير ويخلق الشر من أجل ما يترتب عليه من الخير : « فلم يكن بد ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، من أحد أمرين اما ألا يخلق الأنواع التى توجد فيها الشرور فى الأقل ، والخير فى الأكثر فيعدم الخير الأكثر بسبب الشر الأقل ، واما أن يخلق هذه الأنواع فيوجد فيها الخير الأكثر من الشر الأقل ومعلوم بنفسه أن وجود الخير الأكثر مع الشر الأقل أفضل من اعدام الخير الأكثر لامكان وجود الشر الأقل . وهذا السر من الحكمة هو الذى خفى على الملائكة حين قال سبحانه حكاية عنهم حين أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة : « **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك** » الى قوله : « **انى أعلم ما لا تعلمون** » (٧٤) يريد أن العلم الذى خفى عنهم هو أنه اذا كان وجود شىء من الموجودات خيرا وشرا . وكان الخير أغلب عليه أن الحكمة تقتضى ايجاده لا اعدامه » .

وترتبط مسألة القضاء والقدر بمسألة العدل والجور لأن المعتزلة يقولون بحرية المرء حتى يكون أهلا للثواب والعقاب ، فى حين أن الأشعرية يقولون بنظرية الكسب وهى نظرية غريبة غامضة حتى قال الأشعرية المتأخرون «أخفى من الكسب عند الأشعرى» واذا أمكن شرح الغموض بعينه قلنا ان معناها هو الآتى : اذا أراد الانسان أن يقوم بفعل ما ، فان الله يخلق له القدرة على الفعل فى اللحظة التى يريده العبد فيها فتقترن به قدرة العبد . ويسمى هذا عندهم كسبا وهذا يبرر — فكرة الثواب والعقاب عندهم أيضا .

ومن الواضح أن مشكلة القضاء والقدر تبدو معقدة اذ لا يخلو رأى كل فريق من هذين الفريقين المتعارضين من حجج وجيهة فرأى المعتزلة يتفق مع القيم الأخلاقية ورأى الأشعرية يتسق مع القدرة الالهية . أو ليس من الممكن أن نجمع بين الأمرين وأن نرفع هذا التناقض الذى يكاد تتمزق له بعض النفوس ؟! .

والحل الصحيح الذى اهتدى اليه ابن رشد هو أن ارادة الانسان وان كانت حرة الا أنها مرتبطة بالقوانين والأسباب الخاصة التى وضعها الله فى الكون ويمتاز هذا الحل بأنه يعترف بحقيقة علمية وهى فكرة السنن والقوانين ، كما يمتاز بأنه يبين لنا أن الجبر لا يمكن أن يكون محضا وأن الاختيار لا يمكن أن يكون مطلقا ، بل نستطيع القول على نحو ما بأن الانسان مجبر باختياره ، لأنه يستخدم قدرته فى حدود ما خلق الله ، وكلما اختار طريقا معينا فى حياته أصبح مجبرا الى حد كبير على اختيار الطرق المستقبلة التى تتناسب مع هذا الطريق ، وقد عبر ابن رشد عن حله هذا بقوله :

« واذا كان ذلك كذلك فالأفعال المنسوبة الينا أيضا يتم فعلها بارادتنا وموافقة الأفعال التى من خارج لها وهى المعبر عنها بقدر الله ... ولما كانت الأسباب التى من خارج تجرى على نظام محدود وترتيب منضود لا تخل فى ذلك بحسب ما قدرها بارئها عليها وكانت ارادتنا وأفعالنا لا تتم ولا توجد بالجملة ، الا بموافقة الأسباب التى من خارج فواجب أن تكون أفعالنا تجرى على نظام محدود ... وليس يلغى هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التى من خارج فقط بل وبينها وبين الأسباب التى خلقها الله فى داخل أبداننا والنظام المحدود الذى فى الأسباب الداخلة والخارجة ، وأعنى التى لا تخل هو القضاء والقدر الذى كتبه الله تعالى على عباده » والحق أنه يجب أن نبدى اعجابنا بهذا الرجل الذى استطاع أن يصل الى فكرة القوانين العلمية فى القرن الثانى عشر الميلادى فى حين يرى بعض المعاصرين أن فكرة القانون العلمى من أحدث المخترعات العلمية .

المسألة السادسة : بعث الرسل :

لم يشأ ابن رشد أن يكون مقلدا لا للأشاعرة ولا للمعتزلة فى استخدامهم المعجزات المادية دليلا على النبوة ، فهو يرى أن المعجزات من مثل ابراء الأكمه والأبرص ، وانقلاب العصا حية ، معجزات برانية ، تصلح لاقناع الجمهور الذى يرى أن من تظهر على يديه هذه الأمور الخارقة للعادة لابد أن يكون صادقا فى ادعائه للرسالة . أما المعجز الحقيقى فى نظر ابن رشد وهو المعجز الذى يسميه « الأعلى والمناسب » أو الذى يمكن أن يسميه آخرون بالمعجز الجوانى ، فهو التشريع الذى جاءت به الكتب المقدسة ولا سيما القرآن الكريم الى جانب صفات النبوة التى تحققت فيمن نزلت عليهم هذه الكتب السماوية .

★★★

ديوان المثنوى

جلال الدين الرومى

٦٧٢ هـ

التصوف ليس فلسفة محددة المسائل ولا مذهبا بين المعالم يجتمع الذاهبون فيه على رأى واحد فى الفكر وخطة واحدة فى الفعل ، بل الصوفيون يكرهون الحدود وينفرون من القيود وقد قالوا : ان الطرق الى الله كعدد أنفس آدم · ويعنون ان لكل نفس طريقها الى الله ولكن مع هذا قد اجتمعت من أقوال الصوفية وأفعالهم على مر الزمان آراء وأفعال تعد من قواعد مذهبهم ويسمى الناس من يرى هذه الآراء ، أو يفعل هذه الأفعال « صوفيا » ·

وقد كثرت تعريفات التصوف والصوفى،لأن المعرفين لم يحاولوا وضع الحد المنطقى الجامع ، ولكن نظر كل واحد الى وصف مستحسن فعرف التصوف به أو غلب عليه حال من أحوالهم فآثره على غيره وقد جاء فى رسالة القشيرى تعريفات منها :

قال الجنيد : التصوف هو أن يمتلك الحق عنك ويحييك به ·

وقال عمرو بن عثمان المكى : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى به فى الوقت ·

وقال رويم : استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد ·

وقال معروف الكرخى : الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ·

وقال الشبلى : الجلوس مع الله بلا هم ·

ومن التعريفات ما ينظر فيه الى جانب العمل كقول أبى محمد الجزيرى وقد سئل عن التصوف :

الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى ·

وقول رويم : التصوف يبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقيق بالبذل والايثار وترك التعرض والاختيار الخ ·

وقال سمنون : هو ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء ·

وأرى أن العارف بتاريخ القوم وأحوال أئمتهم ، لا يبعد أن يعرف التصوف تعريفا مجملا بأنه فكر وذكر وعمل يراد بها الفناء في الله تعالى ·

ثم الناظر في تاريخ التصوف الاسلامي يجد فيه ثلاث مراحل :

الأولى التعبد والزهد والخوف الشديد من الجزاء وهذا نجده في سيرة الحسن البصري وسفيان الثوري وأمثالهما ·

والمرحلة الثانية : ذكرت فيها المعرفة والمحبة كما نجد في أقوال معروف الكرخي وبشر الحافي والسري السقطي وأمثالهم · قال الجنيد : سألني السري يوما عن المحبة فقلت : قال قوم المرافقة ، وقال قوم الايثار ، وقال قوم كذا وكذا · فأخذ السري جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد ثم قال : وعزته تعالى لو قلت ان هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ·

وممن أكثر الكلام في المعرفة ذو النون المصري ·

والمرحلة الثالثة مرحلة الفناء التي أدت الى القول بوحدة الوجود · ومن أوائل المتكلمين في الفناء الجنيد والشبلي ومن المفرطين فيها المغلوبين على أقوالهم أبو يزيد البسطامي · وفي كتاب اللمع لأبي نصر السراج صورة مما لقيه الجنيد من العناء في تأويل أبي يزيد ·

وقد اتضحت هذه النزعات على مر الزمان وشرحت ووضعت فيها المؤلفات واختلفت فيها المناهج والأقوال ·

وانقسم الناس منذ القرن الثالث الى أهل الصحو الحافظين أقوالهم وأفعالهم ، وأهل الشكر الذين يغلبهم الوجد على أنفسهم ·

وليس يتسع المجال لاجمال الكلام في هذا الموضوع بله تفصيله ·

٣ ــ وأنا اردت أن أقدم هذه اللمحة قبل الكلام على شعراء الصوفية في اللغة الفارسية وفي شعراء الصوفية الفارسيين تتجلى هذه المراحل الثلاث ، ولكن اهتمامهم بالزهد والتعبد قليل وحديث المعرفة والعشق والوجد والفناء يفيض به شعرهم ، في صور لا تعد بين الحقيقة والمجاز والتصريح والكفاية والوضوح والخفاء ، وقد كثر حديثهم عن الحبيب والوجه والطرة والعين ، والخمر والكأس والساقي ونحو هذا حتى صارت لهم لغة يعرفون هم ما يريدون بها ·

ومع هذه المعاني ألوف من المعاني النفسية ، هي أسمى ما أحسه الانسان في نفسه أو أدركه في العالم مشاهدة أو سماعا مما يتصل

بمقاصد الانسان وما يلقاه في سبيله الى هذه المقاصد . والخلاصة أن النفس الانسانية مصورة في جمالها وقبحها وسموها واسفافها وحبها وبغضها ، وسعادتها وشقائها ، وفي نزعاتها العليا الى عالمها والى الله مبدؤها ومنتهاها .

والقصص والتمثيل لهما من اهتمامهم نصيب كثير فالقصص الطويلة والقصص الصغيرة المستقلة أو التي تأتي في ثنايا القصص الكبيرة والاشارة الى القصص والحوادث أظهر ما يراه قارىء الشعر الصوفي .

أما تصور الصوفية لوحدة الوجود فهي النغمة الشائعة في أناشيدهم والفكرة المستكنة وراء أبلغ أشعارهم .

وحدة الوجود نبع يفيض فيخرج الشجر المختلف ، والزهر المتعدد ، والعشب الشتيت ، صور مختلفة الأشكال والألوان ووراءها هذه الفكرة .

وخلاصة ما تنم عنه أشعارهم فيها أنه ليس في العالم كله الا وجود واحد هو الوجود الحق المطلق وهو المحض والجمال المحض . وقد تجلى هذا الوجود المطلق فصدر عنه العالم ، أراد هذا الجمال أن يعرف ، وأول صفات الجمال التجلي أو كما قال أفلوطين : « الكمال يقتضي الظهور » وفي ذلك يروى الصوفية هذا الحديث القدسي : « **كنت كنزا مخفيا فاردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني** » وما أكثر ما يشير شعراء الصوفية الى هذا الحديث .. !

★★★

ابن سلطان العلماء

وان كان عمر الخيام هو زعيم فن الرباعيات الصوفية فان ثنائيات جلال الدين الرومي تتبوأ أوج النضج ، وتضع صاحبها على رأس الشعراء الصوفيين .

هذه الثنائيات آيات في جودة العبارة ، ولطافة المعنى ، ورقة الفكرة وصفائها ونضج الذهن الصوفي . ولقد أولتها الدوائر الأدبية في عالم الغرب اهتماما شديدا ونقلتها الى كثير من اللغات .

وتأثير فلسفة جلال الدين الرومي في أفكار الكثيرين من أتباعه ومريديه ومقلديه ، لا حد لها ، ولقد أثرت هذه الفلسفة في رجل من فحول عصرنا هو محمد اقبال وحسبه النقاد منتهجا أثر فلاسفة الغرب ، ولكنه قال عن نفسه بكل فخر : « كلا بل أنا أثر من جلال الدين الرومي » وحسب

جـلال الدين فخـرا أن يخـرج للعالم فى كل جيل مثل شاعر باكستان العظيم ·

هو محمد جلال الدين ابن سلطان العلماء محمد بهاء الدين ولد بن حسين بلخى بن أحمد بن محمود بن مودود بن ثابت بن سيب بن مطهر ابن حماد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ·

ولد جـلال الدين فى مدينة بلخ (٧٥) فى السـادس من ربيع الأول عـام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) وهو سليـل أسرة شريفة عريقة فى الحسب والنسب ترتبط بوشائج المصـاهرة مع سـلاطين خوارزم ، فقد كان جده حسين بلخى زوجا لملكة جهان(٧٦) بنت علاء الدين تكش خوارزم شاه· وكان ثمرة هذا الزواج أبوه محمد بهاء الدين ولم يلبث حسين بلخى أن مات قبل أن يتم بهاء الدين العام الثانى من عمره فلما كبر أظهر نبوغـا فى العلوم وتفوقـا فى الدين وتفرغ للتعليم والوعظ ووفـد على حلقته طلاب العلم والدين من مشارق البـلاد ومغاربها ينهلون من بحر علمه ويقبسون من فيض حكمته ويتريضون فى رياض صوفيته ··· حتى دانت له الشهرة وذاع صيته فيما وراء بلاد فارس والأناضول وصار يلقب بسلطان العلماء وأتم الله نعمته فتزوج وأنجب جلال الدين الذى يعتبر مولده حدثا مباركا فى تاريخ الصوفية والشعر الصوفى الفلسفى ·

ووقع جفاء بين سلطان العلماء بهاء الدين وبين خاله ، محمد قطب الدين خوارزم شاه ، سلطان خوارزم ، فقد دبت الغيرة فى قلب السلطان واشتعل صدره حسدا للمنزلة الرفيعة التى يتبوؤها « سلطان العلماء » فى البلاد كما دأب فخر الدين الرازى ـ الذى يعارض مذاهب الصوفية ويكره الصـوفيين ـ ينفر السلطان منه ويوغر صـدره عليه · فأرسل السلطان اليه رسولا قال له :

« يرى السلطان أن يتنازل عن عرش خوارزم لك ويبحث عن عرش آخر ·· » ·

فرد عليه بهاء الدين قائلا :

« ان السلطان ولا شك ، يسخر منا ·· لقد صدق وشايات المغرضين وأعار سـمعا لغيبـة الحاسدين نحن فى غنى عن عرشه · فليطمئن باله فنحن الذاهبون ·· ! » ·

وقام لفوره وأمر باعداد العدة للسفر ولم يثنه عن عزمه ندم السلطان ولا حزم طلبته ومريديه ورحل عن بلخ وفى صحبته زهاء ثلثمائة من أوفى تلاميذه وأخلص مريديه ·

وكان جلال الدين فى ذلك الوقت فى الرابعة من عمره ٠

ويممت القافلة شطر بغداد ، وعند نيسابور خرج جماعة من العلماء لتوديع سلطانهم بهاء الدين وكان على رأس القافلة الشاعر الصوفى الكبير فريد الدين العطار الذى ما أن وقع بصره على الطفل جلال الدين حتى ربت على رأسه ودعا له وأهداه ديوانه الخالد « الاهى نامه » : ديوان الأسرار وبشر سلطان العلماء بمستقبل باهر لابنه ٠

وقضى بهاء الدين زمنا فى بغداد يعظ ويعلم والتف حوله الطلبة والمريدون من الظامئين الى منهله العذب الغزير وسرعان ما تبوأ مكانة مرموقة فى بلاد العراق واستعاد سابق مجده وشهرته ٠

وفى موسم الحج سار الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ثم عرج على دمشق وحلب وتعرف بعلمائها وشعرائها وقادة الحركة الفكرية فيها وكان يصحب جلال الدين فى جميع رحلاته وأسفاره ٠

وفى الواقع كانت تلك الرحلات بمثابة دراسات ثقافية عملية لجلال الدين عكست فى نفسه انطباعات فنية عميقة كان لها أبعد الأثر فيما بعد فى شعره وفلسفته ٠

وقام الأب والابن بعد ذلك برحلات أخرى فى أرمينية وبلاد الروم (الأناضول) وأقاما فى أذربيجان وملطية بأرمينية فترات متفاوتة ٠ ثم انتقلا بعد ذلك الى لارندة (كرمان) ، فأقاما فيها زهاء سبع سنوات الأب يعلم فى المدرسة التى بناها الأمء موسى والابن جلال الدين يتلقى علومه على أبيه فيها ٠

وفى عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) تلقى سلطان العلماء دعوة من السلطان علاء الدين السلجوق لزيارة قونيه حاضرة ملكه ٠ فرحلا اليها واستقرا بها أخيرا بعد رحلات دامت زهاء ستة عشر عاما وأقاما فى مدرسة «التونيا» ، وظل بهاء الدين يعلم فيها الى أن اختاره الله تعالى الى جواره فى ١٨ ربيع الآخر من عام ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ٠

الـــــرومى

كان جلال الدين ذا مواهب فطرية نـادرة وكانت ملازمته لأبيه فى أسفاره وحضوره مجالس العلماء وحلقات مشايخ الصوفية لها أكبر الأثر فى نسج خيوط شخصيته الصوفية وقد ظل يدرس علوم الدنيا والدين على يد أبيه الى يوم وفاته ثم رحـل بعد ذلك الى دمشق وحلب لاسـتيفاء الدرس والتحصيل · وفى بلاد الشام التقى بواحد من أفذاذ تلامذة أبيه وهو برهان الدين الترمذى الذى لقنه بعض أسرار مذهب الطريقة الصوفية ثم عـاد الى قونية واستقر بها ، وأخذ يدرس التصوف على صلاح الدين زركوب وحسن حسان الدين جلبى ·

وسار جلال الدين على نهج أبيه فى تدريس العلوم الدينية والوعظ وتولى التدريس فى أربع مدارس فى قونية ، والتف حوله الطلاب من كل حدب وصوب لما لمسوه فيه من تبحر فى العلم وتفقـه فى الدين ، هذا الى جانب دماثة خلقه وتواضعه الجم وسرعان ما ذاع صيته واشتهر واحتل منبر أبيه وتبوأ ، بجدارة ، مركزه فى قونية حاضرة بلاد الروم (الأناضول) ·· ومن هنا اكتسب اسمه شهرته « الرومى » ·

شمس الدين تبريزى ونقطة التحول !!

وفى عام ٦٤٢ هـ (١٢٤٤م) حدثت نقطة تحول فى حياة جلال الدين العقلية والفكرية وكان هذا التحول نتيجة لالتقائه بشمس الدين تبريزى أحد مشهورى مشايخ الصوفية الأفذاذ فى عصره ومن المتفق عليه أن ركن الدين – وهو أحد أقطاب الصوفيين فى عصره – هو الذى أوفده الى جلال الدين ليدخله فى مذهب طريقته الصوفية .

والتقى شمس الدين .. التقى الدرويش الصوفى بالعالم الدينى ولحظ الدرويش المحنك على وجه العالم فجعل منه صوفيا مولها ، وكرس نفسه مرشدا له وقائدا روحيا .

وهكذا تحول جلال الدين من عالم يعلم العلوم الدينية ويعتلى منبر الوعظ الى صوفى متفرغ للرياضة الصوفية وقرض الشعر الصوفى .

وفى الحقيقة أن ذلك اللقاء الذى تم بين شمس الدين تبريزى وجلال الدين الرومى لم يكن الا اذكاء للنار التى تتأجج فى صدر جلال الدين واثارة للشوق المبرح الذى يكمن حارا فى حناياه ، وليس أدل على ذلك من شعره الذى كان ينظمه قبل ذلك اللقاء فقد كان يتجلى فيه بوضوح الاستعداد والرغبة والميل للتفرغ للصوفية .

وبين عشية وضحاها تمكن شمس الدين تبريزى من أن يتسلل بسهولة الى قرارة نفس جلال الدين الذى تغلغلت محبته فى قلبه وأصبحا خدين لا يفترقان .

وبعد وفاة شمس الدين تبريزى لم يحد جلال الدين عن انقطاعه للرياضة الصوفية .

ولم يفتر جلال الدين يوما عن نظم الشعر الصوفى وانشاده والتغنى به ، كما أنه لم يكن يغفل لحظة عن ترديد اسم شمس الدين تبريزى كما كان يرمز اليه أحيانا بالمرشد أو الطبيب الالهى وأحيانا يكنى به ويعرض أسراره الخفية فى سياق حديث الآخرين .

وليس أدل على تأثير شمس الدين تبريزى فى نفس « مولانا » من هذه الأبيات :

ان شمس تبريزى نور مطلق
بل هو شمس ، ومن أنوار الحق
لم يعد فى عرق ينبض ، فماذا أقول ؟
فى شرح صداقة ليس لها مثيل !
انقول الثناء منى هو ترك للثناء
فذلك دليل الوجود : والوجود خطأ وعناء !

فقد قلت له : ان من الخير لسر الحبيب عدم اظهاره فاستمع له خلال الحديث واحفظ كل أسراره ·

فلعل من الخير أن يكون سر المولهين ·

يردد دائما ضمن الحديث عن الآخرين ·

وفى الخامس من جمادى الآخرة عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣م) انقطع وتر الرباب وكف البلبل عن الترنيم وصوغ الألحان ·

المثنـــوى

والمثنوى من ثنى يثنى ·· وسماها جلال الدين كذلك لأن كل بيت منها يتركب من شطرين لزم فيهما قافية واحدة مستقلة وبحرا واحدا مع اختلاف المعانى وتفاوت القوافى ·

و « المثنوى » منظومـة برمتها على وزن الرمـل المسدس المحذوف وتفعيلته «فاعلاتن» ست مرات ، ولكنها فى نهاية كل شطرة تكون محذوفة النون أى « فاعلات » ·

وتقفى الشطرة الأولى لكل بيت من الأبيات مع شطرته الثانية · وهذا الضرب من القافية يسمى فى الشعر العربى « المزدوج » ·

ويوضـح جلال الدين سر اختياره لفن الثنائيـات بالذات فى نظم « المثنوى » بقوله :

« لما كان لكل شىء ظاهر مما يلى الخلق ، باطن مما يلى الحق فان كل شىء شيئان · وجميع الوجود مثنوى ! » ·

هذا وقد شرع جلال الدين فى نظم المثنوى فى مستهل عام ٦٥٨ هـ (١٢٥٩ م) وأنجز الجزء السادس عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) قبل وفاته بأيـــام ··

★★★

والمثنوى منظومة صوفية فى بحر الرمل والقافية المزدوجة (المثنوى)، فيها خمسة وعشرون ألف بيت وسبعمائة فى ستة أجزاء وقد صدر كل جزء بمقدمة منثورة منها ثلاث مقدمات عربية .

والشاعر فيها معلم مختلف الأساليب ينتقل من تفسير آية أو شرح حديث الى ضرب مثل وينصح وينتقل بتلاميذه من فن الى فن وكل هذا موصول بذكر الله والفناء فيه .

والقصص شائع فى ثنايا المنظومة وفصولها لا ينفصل بعضها من بعض بل يؤدى الاستطراد من فصل الى فصل وربما يبدأ القصة ثم يرجع ليتم الأولى على النسق المعروف فى كتاب كليلة ودمنة ويأخذ القصة القصيرة يتوسل بها الى مقاصده فيطول بها البيان حتى تصير حوادث القصة ضئيلة خفيفة فى البيان الذى يبتغيه .

وهو قوى البيان فياض الخيال رائع التصوير يوضح المعنى الواحد فى صور مختلفة ويسوق المثل اثر المثل والمعانى تأتيه ارسالا والمعانى تواتيه انثيالا ، وبحر الرمل يجاريه رهوا مسترسلا حتى ينظم حول القصة الصغيرة مئات الأبيات ويصل بها ما يشاء من الآراء والنصائح والعبر فقصة الوحوش والأسد والأرنب التى أهلكته من قصص كليلة ودمنة ، نظم فيها زهاء خمسمائة بيت وأخرج منها جدالا طويلا بين الأسد والوحوش فى الاختيار والجبر .

وقلب الشاعر مفعم بالعشق الالهى مستغرق به ، فكل بحث يذكر به وكل فكر يؤدى اليه فتراه يبدأ القصة التى تحسبها بعيدة كل البعد من العشق والفناء فاذا هو ينتهى الى هذه المعانى ويغوص فيها ، ويغلبه الواحد بين الحين والحين فيرتمى فى البحر الذى لا يعرف سابحه أو غريقه ساحلا ، تلكم قبلته أنى توجه ، وغايته حيثما سار ، ومقصد تصريحه وكناياته ومرمى نفيه واثباته :

« أنا غريق العشق الذى غرق فيه عشق الأولين والآخرين اذا ذكرت الشفة فانما أريد شفة البحر (شاطىء البحر) ، واذا قلت لا فانما مرادى الا (يعنى اذا نفى فانما يبغى الاثبات كما فى لا اله الا الله) .

هذا البيان وهذا الفيض وهذه الحرقة وهذا الوجد ، كل هؤلاء تقصر عن الابانة عما فى نفسه فيشكو هذا العجز فى الحين بعد الحين ويقف حائرا صائحا : ان الذى أحسه وراء الحروف والأصوات بل وراء الأسماع والأفهام « ما الحرف فتفكر فيه ، انه الشوك على جدار البستان . انى أمحق القول والحرف والصوت لأناجيك بغير هذه الثلاثة » .

وقد افتتح المثنوى بمقدمة فى الناى ، وهو رمز الروح التى تحن الى عالمها وتنوح ، وقد أولع به المولوية واستعانوا به فى أذكارهم .

وأول الكتاب :

استمع للناى عنى وحكى ... شفه الوجد وهدرا فشكا :
مد ناى الغاب وكان الوطنا ، ... ملأ الناس أنينى شجنا
أين صدر من فراق مزقا ... كى أبث الوجد فيه حرقا
من تشرده النوى من أصله ... يبتغى الرجعى لمعنى وصله
كل ناد قد رآنى نادبا ... كل قوم تخدونى صاحبا
ظن كل أننى خير سمير ... ليس يدرى أى سر فى الضمير
ان سرى فى أنينى قد أظهر ... غير أن الأذن كلت والبصر
ان صوت الناى نار لا هواء ... كل من لم يصلها فهو هباء
هى نار العشق فى الناى تثور ... وهى نار العشق فى الخمر تفور
حدث الناى باهوال الطريق ... وعن الجنون صبا لا يفيق
أهل هذا الحس من لا حس له ... أرهف السمع لهذى المعضلة
ضلت الأيام فى الأمنا ... ليس الا النار فى أيامنا

الى أن يقول :

ومن العشق ، وانى يحمل ؟ ... رقص الطور وخف الجبل
عش الطور أجل قد عشقا ... فهوى اذ خر موسى صعقا
لو تسنى من نديم لى فم ... قلت ، كالناى حديثا أكتم
صمت البلبل عن أتحانه ... حين غاب الورد عن بستانه

وتتخلل المثنوى أحيانا أبيات أو أشطار عربية منها هذه الأبيات :

غنى لى يا منيتى لحن النشور ... ابركى يا ناقتى ، تم السرور
ابلعى يا أرض مدمعى قد كفى ... اشربى يا نفس وردا قد صفا
عدت يا عيدى الينا مرحبا ... نعم ماروحت يا ريح الصبا

★★★

واستمع معى الى هذا الاستهلال الرائع الذى استهل به شاعرنا الجزء الثانى من المثنوى :

لقد أخرت هذا المثنوى زمنا ،
ولزمت له مهلة حتى يصير لدم لبنا .
حين جذب العنان ضياء الحق حسام الدين ،

أنزلنا من أوج السماء فى عليين ٠
ولما سما الى معراج الحقائق ،
لم تتفتح الأكمام بغير ربيع مشرق ٠
فلما ارتد مرة أخرى من البحر ونزل البرا ،
غنت الرباب أنغام المثنوى شعرا ٠

وقد استهل جلال الدين أيضا الجزءين الثالث والخامس من المثنوى باسم حسام الدين ٠

ومن هذا يبدو جليا مدى تأثيره فى نفسه ٠

فقد جاء فى مقدمة الجزء الثالث هذه الأبيات :

يا ضياء الحسن يا حسام الدين ،
بك جاوز المثنوى القمر المبين ٠

أما الجزء الخامس فقد استهله بهذا البيت :

الملك حسام الدين نـور كنوز السماء ،
يطلب منا أن نبدأ خامس الأجزاء ٠

كما أنه سمى الجزء السادس من المثنوى « حسامى نامه » أى ديوان حسام الدين وقد استهله بهذا البيت :

يا حسام الحق يا حياة الأنفس ،
يتحرك ميلى كثيرا للقسم السادس ٠

فـن الثنائيـات

وثنائيات جلال الدين ليست أول الثنائيات التى نظمت فى الشعر الصوفى فقد كان لمن قبله من مشهورى الصوفية ــ أمثال سنائى والعطار ــ ثنائيات صوفية فى تفسير المذاهب الصوفية كما كان لهم فضل السبق فى هذا الفـن ٠

ويمكننـا القول ان مجـد الدين سنائى قد نجح فى أن يجعل للشعر الصوفى كيانا ٠ كما وفق فريد الدين العطار فى أن يبتكر المعانى الصوفية السامية ، أما جلال الدين الرومى فقد ارتفـع بالشـعر الصوفى الى أوج النضـــج ٠

ولو أردنا انزال الشعراء الفارسيين منازلهم اللائقة بهم لرتبناهـم هذا الترتيب :

الفردوسى للشعر القصصى الحماسى ٠

عمر الخيام لفن الرباعيات الفلسفية ·

الأنورى للقصائـــد ·

سعدى للغزل ·

حافظ للغزل الصوفى ·

جلال الدين الرومى رأس الشعراء الصوفيين ·

وفى الواقع أن جلال الدين قد بلغ شأوا عظيما فى شعره فثنائياته تتميز بجودة العبارة ولطافة المعنى ورقة الأفكار ونضـــج الذهن الصوفى ولا عجب فقد اجتذبت اليها النفوس وأدركت الغاية فى طريق الوصول الى الغرض ·

وجلال الدين شـــاعر أصيل تتجلى فى شعره روعة الخيال الخصب وقوة البيان الساحر وبراعة التصوير الفنى ، كما يمتاز بمقدرة فائقة على صـــوغ المعنى الواحد فى عـــدة قوالب مختلفة واختيـــار الآيـــات القرآنية والأحاديث القدسية الشريفة والأمثال والحكم المناسبة وتضمينها ابداعه الفنى · وحدث ولا حرج عن الألفاظ السلسة التى تواتيه وتطاوعه فى يسر وعذوبة وعن المعانى العميقة التى تتدفق كالسيل العارم فى شعره ·

ومهما نقبت فى دواوين الشعر القديم فانك لن تلتقى بشاعر آخر يعرض نصائحه ويزجى عظاته وعبره ويشرح فلسفته وصوفيته ببساطة وصراحة ودون تكلف كجلال الدين ولا عجب فان العشق الالهى يتغلغـــل فى سويدائه ويسيطر على كل حواسه ويلفه بأجنحته الخفية محلقا به فى سماء الوحى والالهام ···

كل كلمة ··· كل حرف يقوده اليه وكل فـــكرة ··· وكل خاطر يوصله اليه ·

يبدأ قصة ما فتحسبه بعيدا كل البعد عن العشق الالهى والاستغراق والفناء فاذا به فجأة غريق فى هذه المعانى · وتتضمن الملحمة أبياتا نظمها جلال الدين باللغة العربية الفصحى توضح مدى رقته وعمق معانيه وسحر بيانـــه ·

وأروع مثال لذلك هذه الأبيات :

غنى لى يا منيتى لحن النشور

ابركى يا ناقتى · · تم السرور

ابلغى يا أرض مدعى ··· قد كفى !

اشربى يا نفسى وردا قد صفـــا

عدت يا عيدى الينا مرحبـا !
نعم ، روحت يازيـح الصبـا !
ادخلوا الأبيـات من ابوابها
واطلبـوا الأغراض فى أسبابها

جلال الدين الفيلسوف أقل ابتكارا من جلال الدين الشاعر فمذهبه الصوفية ولكنه عبر عن آرائه ونظرياته الفلسفية بأسلوب يفيض قوة وحماسة وايمانا ، دون أن ينهج فى عرضها أثر أسلافه الأقدمين،ولكن فورة الشعر كانت تفحم فكرته أحيانا وتمطها ..

★★★

ويتعذر على الباحث المتقصى أن يجمل آراءه ولو فى المسائل الكبرى، غير أننى سأعرض لبعض جوانب هذه الآراء . فالذات الالهية كما يتصورها جلال الدين حالة فى الكون وداخلة فى جوهره وليست مجردة عنه . اذ يقول فى المثنوى :

يا خفيا قد ملأت الخافقين
قد علوت فوق نور المشرقين
أنت سر كاشف أسرارنا
أنت فجر مفجر أنهارنا
يا خفى الذات محسوس العطا
أنت كالماء ونحن كالرحـا
أنت كالريح ونحن الغبار
تختفى الريح وغيرهـا

ثم يسترسل الرومى فى أبيات فارسية ترجمتها كالآتى :

« أنت كالربيـع ونحن نضارة الروضـة المخضرة ، والربيع مختف بينما فضله واضح لكل بصر » .

« أنت كالروح ونحن كاليد والقدم ، وقبض اليـد وبسطها من عمل الروح » .

« أنت كالعقل ونحن مثل لسانه ، وهذا اللسان يستمد بيـانه من العقـل » .

وفى شرحه لكنه الروح يعتقد أنها فى الأصل الهية ، وأنها كانت فى البدء متحدة مع الحقيقة العظمى :

« كنا جوهرا واحدا مثل الشمس كنا بلا عيب وكنا فى صفاء الماء » .

وقد حجبت الشمس الالهية نفسها عن الانسان حتى يتجلى الموجود الخالص فى المعدوم . اذ أن الشىء لا يتجلى الا فى ضده فالنور يتجلى فى الظلام والوجود فى المعدوم .

وهو يتحدث كثيرا كما يتحدث كبار الصوفية عن فناء الانسان ويتكلم عن زوال الاثنينية : واتحاد « أنا » و « أنت » وهى فكرة شائعة فى شعر ابن الفارض وغيره ولكن جلال الدين يذكر فناء العالم فى الله سبحانه فى صورة أخرى :

يرى أن العالم يرقى الى الله ، حائلا من جماد الى نبات الى حيوان فانسان فملك ، ثم يفنى فى الله . وقد ذكر بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى صاحب « الانسان الكامل » ما يؤخذ منه أن الانسان صلة العالم كله بالله وهى فكرة جلال الدين فى شكل آخر يقول فى المثنوى :

صرت اذا مت جمادا ناميا
مت نباتا صرت حيا ساعيا
مت حيوانا اذا بى بشر
طائرا فى ملك لا أستقر
ليس لى الا مسير نحوه
كل شىء هالك الا وجهه
ثم اسمو طائرا فوق الملك
ذاك فوق الوهم لا يخطر لك
ثم افنى والفناء كالأرغون
منشدى انا اليه راجعون..

وأما القضاء والقدر فجلال الدين يذهب فيه الى الاختيار ويشتد على الجبرية ومن هنا تتجلى عظمته — كما يقول عبد الوهاب عزام — فهو يرى أن الحياة جهاد مستمر لا ينبغى أن يسكن المجاهد فيها ساعة ، اذ يقول فى المثنوى فى قصة التاجر والببغاء :

« الغريق يجهد نفسه ويضرب يده على كل عشبة لعلها تنقذه من الخطر » .

« والحبيب (الله) يحب هذا الاضطراب وان الجهد الذاهب خير من النوم » .

والحب هو المرتكز والأساس فى مذهب جلال الدين فهو يرى أن فى الحب الخلاص من الكبرياء والغرور ، وأنه هو الطبيب المداوى لكل عللنا

وذلك هو الحب الذى يغفل النفس ولا يذكر الا المحبوب والحياة الخالدة انما هى بالاغفال التام للحياة الفردية :

« يا حياة العشاق فى الموت لن تجد قلبا الا بعد أن يحطم قلبك » .

« فالعاشقون المخلصـــون هم كالظلال ، والظلال تزول وتختفى حين تشرق الشمس فى أبهى نورها والعاشق المخلص هو ذاك الذى يقول له الله « أنا لك وأنت لى » .

وبالحب يصير المر حلوا ويتحول النحاس الى كبريت أحمـــر ويصفو العكر ويصبح الألم شافيا ويصير الموتى أحياء والحب هو الحياة السماوية فوق سطح الأرض :

« العشق معناه الطيران فى السماء وتمزيق مائة حجاب فى ســبيل النفس » .

ولكن الغرض من الحب الذى يضحى بالنفس الحصـــول على حيـــاة أسمى فانكار الذات يمهد الطريق الى ادراك حقيقة الوجود ، وأنه غير موجود الا الموجود الواحد أما زينة الحياة ومتعها ومشاغلها فتحجب الحقيقة عن أعين الناس وعليهم أن يجتازوا ذلك الى الثمل الروحى الذى ينسى الناس أنفسهم ويرفعهم الى تجلى الحقيقة الخالدة فى صورتها الرائعة البهية .

وهـــكذا يصل الصـــوفى الى هدفه المأمول ويتحد مع الواحد ، وهذا الاتحـــاد يرى جـــلال الدين أنه الحصـــول على الحياة الأزلية ، وحين يظفر الانسان بالحياة المتحدة لا يعود له حاجة الى الشفاعات والوسائل فالرسل والأنبياء ضروريون لقيـــادة الشخص العادى الى الله أما الانسان الكامل الذى يسمع الصوت من داخل نفس فليس فى حاجة الى الكلمات الخارجية فهو متحد مع البحر اللا نهائى للذات الالهية .

« مكانى هو لا مكان ، وعلامتى ليست بعلامة ، ليس هناك لا جسد ولا روح لأنى جزء من روح الأرواح » .

« لقد طردت الاثنين من نفسى ، رأيت العالمين عالما واحدا وبحثت عن الواحد وعرفت الواحد ورأيت الواحد ودعوت الواحد » .

« هو الأول هو الآخر ، هو الظاهر هو الباطن ، ولست أعرف سوى « يا هو » و « يا من هو » .

★★★

فآراؤه فى القضـــاء والقدر والعمل فى هذه الحياة الدنيا ، تنادى بالاختيار وحفز الانسان على العمل ومن أمثال ذلك قوله :

الحبيب الحق يحب النضال والجهاد
والجهد الذاهب سدى خير من الرقاد
ولا يخلو من العمل الملك الرحمن
لهذا قال : كل يوم هو في شان ٠

ويرى جلال الدين في الألم طريقة الوصول الى السعادة ٠ والبكاء في اعتقاده هو سبب الضحك ومن أقواله في ذلك :

لقد خلق الله العذاب والآلام
لتدرك معنى السرور الأفهام
قهرك ولطفك انا عاشق للاثنين
فاعجب لعاشق يعشق الضدين !

أما ايمان جلال الدين بوحدة الوجود فيتجلى في هذه الأبيات :

أيها المسلمون : ما التدبير
وانا نفسي لا اعرف نفسي !
نما مكاني حيث لا مكان ،
وبرهاني حيث لا برهان ٠
انا الهباء في اشعة الشمس ،
انا قرص الشمس نفسه ٠
انا فلق الصبـــح ،
انا نسمة المسه

★★★

ولا ريب أن « المثنوى » سـواء في أصله الفارسي أم في ترجمتـه العربية ذات ستة الأجزاء ، قد ترك آثارا كبيرة في العقل العربي وفي الفكر الاسلامي ٠٠ ومازال يعد من روائع الآثار الانسانية الخالدة ٠ وقد ذاع صداه في الشرق والغرب ، وما زال معدودا من أشهر كتب التراث الاسلامي الخالد ٠

وقد بلغ في شعره فيه مبلغا قويا ، اذ امتلأ الديوان بأفكار روحية لطيفـة وصـل بها الى الغرض بجودة عبارته ولطافة معانيه الصوفية قمة ازدهاره وكان جلال الدين يحسن اختيار ألفاظه وأساليبه وصوره الشعرية وان كان أكبر همه موجها نحو المعاني ٠

وقد بلغ أثره في آسيا الصغرى والهند وايران مبلغا كبيرا ، وكانت له المنزلة الرفيعة على امتداد العصور والفت شروح كثيرة للمثنوى ، من مثل « جواهر الأسرار » لكمال الدين حسين الخوارزمي وشرح اسماعيل

ابن أحمد « وهو بالتركية » ·· وينقل شمس الدين أحمد الأفلاكى فى كتابه « مناقب العارفين » عن لسان جلال الدين لراومى أنه قال : « ان الله تعالى قد شمل أهل الروم بعناية عظيمة ، لأن أهل هذه البلاد كانوا فى غفلة عن عالم الحب الالهى وعن التذوق الوجدانى ·· حتى كتب لنا مسبب الأسباب سببا نقلنا به من خراسان الى بلاد الروم وجعل هذه الديار مأوى لاعقابنا » ·

وكان أهل قونية يعدون جلال الدين ساحرا لشدة تأثيره فيهم وكان جلال الدين شخصية متميزة قل نظيرها ، وقد صار اماما روحيا للكثير من الناس فى العالم الاسلامى ·

ولقد كان « المثنوى » كتاب حكمة وأخلاق وفلسفة وذوق وتربية ومعارف اجتماعية وقصص رفيعة وتبلغ حكاياته « ٢٧٥ حكاية » منها ٢٦٤ حكاية كانت لها الأسبقية فى الأدب الفارسى ، وفى قصائد المثنوى تشعر دائما بروح الحكمة والفيلسوف والعالم والزاهد والشاعر والمتيم الولهان ·

وما فى « المثنوى » من حقائق حية وموضوعات وفيرة ليس متخلفا عن معارف الانسان المعاصر ولا عن البشرية اليوم فى مستواها الفكرى بل ما يزال يسبقها فى الحقيقة الحية فى الأخلاق وفى المعرفة وفهم الانسان والتوحيد والمبادىء الانسانية التى يجب أن تسود العالم المعاصر المتحضر ·

ان « المثنوى » لجلال الدين البلخى الرومى ، سيبقى تراثا حيا خالدا وسيظل ذخرا للانسان الذى خاطبه جلال الدين ورمزا للشرق وروحانيته العالية ·· وما أصدق وأبدع ما يقوله جلال الدين لتلميذه حسام الدين الجلبى فى « المثنوى » ! :

يا ضياء الحق يا حسام الدين أنت من بك جاوز « المثنوى » القمر بنورك ·

وقد كان جلال الدين يشعر من أعماق نفسه بأنه بأشواقه الروحية التى صورها فى « المثنوى » يقود الانسان الى عصر من الابداع والتجديد والشموخ الروحى العظيم ·

★★★

القواعد فى أصول علم البحر والقواعد
ابن ماجد
١٤٩٠ م

العرب والملاحة البحرية

يزخر التراث العربي الذى آل الينا من القرون الوسطى بقصص الأسفار والمغامرات البحرية التى قام بها الملاحون والتجار العرب فى المحيط الهندى وبحر الصين فيما بين سيراف (على الخليج الفارسى) وكانتون بالصين منذ وقت متقدم كالقرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد كما فى قصص « التاجر سليمان »و « أبو زيد السيرافى »وهى القصص التى انتشرت انتشارا واسعا بعد ذلك فى الأدب العربى وكانت الأصل المشترك لمثيلاتها فى الآداب الأوربية أيضا ، كما انتهت اليه بحوث المستشرقين الأجانب من أمثال العلامة الهولندى دى خويه (١٨٩٠ – ١٨٩٣ م) أثناء تحليله للأساطير الأوربية المبكرة وتدخل هذه القصص كلها فى محيط الأدب الشعبى « الفولكلور » العالمى للقرون الوسطى .

وفى نفس الوقت وصلتنا من تلك القرون أيضا كتب « العجائب » التى تصف الغريب من حيوانات البحر وظواهره وأهواله كما فى كتاب « عجائب الهند »لبزرج بن شهريار (القرن العاشر الميلادى أيضا) وتحفة الألباب لأبى حامد الأندلسى الغرناطى (حوالى ١١٦٠م) وعجائب المخلوقات للقزوينى (١٢٨٠م) وعجائب البر والبحر للدمشقى الصوفى (١٣٢٥م) .

وتعكس مثل هذه الكتب والقصص بشكل واضح عمق التجربة العربية للملاحين والتجار العرب فى البحار الجنوبية سواء أكان ذلك فى المحيط الهندى (بحر الهند كما كان يسمى) وجزره وخلجانه ، أم فى البحار المترامية التى دفعتهم مغامراتهم اليها كارخبيل الملايو وبحر الصين الا أن هذه القصص والحكايات لم تكن فى جملتها ذات طابع علمى أو عملى يوصلنا الى الاستدلال على الخبرة الملاحية العلمية للملاحين العرب فى ذلك الوقت والتى كانت ولا شك على درجة كبيرة من التقدم .

واذا كان الأمر كذلك فأين هى المؤلفات العلمية ذات الطابع التكنيكى لهؤلاء الربابنة العرب التى تصف مسالك الملاحة فى أعالى هذه البحار ووسائل ضبط المجرى والقياس أو تشرح الآلات والأدوات التى استعملوها فى السير فى البحر ؟ وهل كانت لديهم خارطات بحرية تحدد مجرى السفينة

في عرض المحيط كما يفعل القباطنة اليوم ؟ اذا لم تكن هذه المعلومات قد دونت في الكتب فهل كانت الخبرة الملاحية العربية في ذلك الوقت سرا محفوظا في الصدور يتوارثه الأبنـاء عن الآباء ويخشى تدوينها في بطون الكتب والمخطوطات ؟ أو أن ثمة مؤلفات قد كتبت بالفعل في فنون البحر على أيامهم ولكنها فقدت أو لم تصل الى أيدينا أو لم ينسخ منها الناسخون القدر الكافي حيث لم تكن بذات أهمية كبيرة لهم ؟

ومهما كان السبب فالمكتبة العربية جد فقيرة في مثل هذه المؤلفات التي يمكن أن نصنفها أو نحددها تحت عنوان «فنون البحر والملاحة الفلكية» من بين كتب التراث العربي الجمة التي آلت الينا من العصور الوسطى ·

والواقع أن الاعتقاد قد ساد لفترة طويلة من الزمن بأن مثـل هذه الكتب لم تكتب على الاطلاق الى أن اكتشف في العشرينات من هذا القرن مخطوط عربي قديم يرجع عهـده للمائة التاسعة الهجرية (القرن الخامس عشر الميلادي) كانت مكتبة المخطوطات بباريس قد حصلت عليه في عام ١٨٦٠ من أسـتاذ جزائري تولى التـدريس في مدرسة اللغـات الشرقية بباريس في ذلك الوقت وظل المخطوط المذكور منسيا في أرشيف المكتبة تحت رقـم ٢٢٩٣ رغم اشـارات عـابرة عنه حتى الثلث الأول من القرن العشرين حين قام المستشرق الفرنسي الألمعي جبرييل فرانـد بالتحقق من قيمته العلمية فنشره لأول مرة بين السنوات ١٩٢١–١٩٢٣ بطريقة التصوير الفوتوغرافي وعلق عليه · ونسخة باريس المشار اليها عليها تعليقات على الهوامش وبها أخطاء في النحو والصرف وفي الوزن والقافية ·

ويحتوي هذا المخطط على تسعة عشر مؤلفا في الملاحة الفلكية وفنون البحر لربان عربي من عمان يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي أو النجدي كما كان يسمى عاش في أواخر القـرن التاسع وأوائل القـرن العاشر الهجري ·

ويعتبر هذا المخطوط في الواقـع أهـم وثيقة في الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الأطلاق وتنحصر أهميته في أنه أقدم الوثائق الجيدة التي وصلتنا والتي دونت عن الملاحة وفنون البحر في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي لأفريقيا وبلاد الصين بلغة من اللغات كما أنه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم لعلم جديد هو « علم البحر » بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الاقيانوغرافيا أو الاقيانولوجيـا ولهذا أثره الكبير في تاريخ العلوم ·

ثم ان هذه الوثيقة لتلقي كثيرا من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم في فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر وعلى مدى تأثر البرتغال بالفكر العربي وبالتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشكل عام

وفى المحيط الهندى بشكل خاص وفضلا عن ذلك فان هذه الوثيقة تحتوى أيضا على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التى تعتبر فى حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية فى الوقت الذى نسعى فيه لتعريب العلوم ·

ولقد عثر فى دمشق فى عام ١٩١٩ على نسخة أخرى من المخطوط المذكور قام بالتعليق عليها ومقارنتها بنسخة باريس المستشرق جبرييل فراند أيضا · وفى مكتبة باريس أيضا مخطوط آخر برقم ٢٥٥٩ يحتوى على خمس رسائل ملاحية للشيخين أحمد بن ماجد وسليمان المهرى يرجع عهده لمنتصف القرن السادس عشر الميلادى ولكنه ليس بنفس القيمة التى عليها مخطوط ابن ماجد وحده ·

ولقد عثر الأستاذ كراتشكوفسكى المستشرق الروسى بمكتبة الاستشراق فى لينينجراد على ثلاث « أراجيز » أخرى لابن ماجد لم يسبق نشرها قام بنشرها والتعليق عليها الأستاذ تيودور شوموفسكى الذى نشر كتابه باللغة الروسية فى عام ١٩٥٧ ·

ويقال ان ثمة رسالة لابن ماجد بجدة وأخرى بالموصل أيضا وثالثة بفينا ·

★★★

سيرة ابن ماجد

وينحدر ابن ماجد نفسه من أسرة ربابنة فقد كان أبوه ربانا يلقب بربان البرين (أى بر العرب وبر العجم) وقد دون هو الآخر تجاربه الملاحية فى مصنف ضخم هو (أرجوزته الحجازية) التى تضم أكثر من ألف بيت فهى وصف الملاحة فى البحر الأحمر وكان جده هو الآخر ملاحا مشهورا ·

★★★

ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الربان الماهر والمعلم القدير ولا تاريخ وفاته الا أن الثابت أن نشاطه ينحصر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى) ، كما أنه درس الحساب وهو بعد صبى صغير ، وقد ذيل المؤلف مخطوطه هذا بقوله : « وختمنا هذا الكتاب فى عام خمس وتسعين وثمان ماية على الاختصار بقولى أوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام

ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » وهذا التاريخ يوافق عام ١٤٨٩ ــ ١٤٩٠ م ٠

ومن الثابت أيضا أن مؤلفنا قد تجاوز الستين من عمره وشهد أوائل القرن العاشر الهجرى وقد وجدنا فى أرجوزته المسماة « ضريبة الضرايب » ما يعزز ذلك من قوله :

شباب رأسى أعجب الناس من أمرى
أتانى عقيب الشيب فى آخر العمر
وأى شباب بعد ستين حجة
سما فى السما فوق السماكين والنسر

ومنها قولـــه :

أنا فرحتى فى ليلة قد ترتبت
كأنى أعطيت المنى ليلة القدر
مهذبة فى تسع ماية قد أتت
اذا هى تمت وفيت لها نذرى

والبيت الأخير يدل بوضوح على أنه قد دخل فى عام ٩٠٠ هجرية ويتمنى أن يوفى نذره بتمامه ولربما كان ذلك النذر هو حج بيت الله كما تعود أن يفعل ويوافق هذا التاريخ ١٤٩٤ ــ ١٤٩٥ م ٠

كما نستشف من كلام ابن ماجد فى «الفوايد» أنه تولى قيادة المركب فى سن مبكرة ربما فى الثانية عشرة أو الخامسة عشرة من عمره ويتضح ذلك من قوله : « وما وصفت هذا الكتاب الا بعد أن مضت لى خمسون سنة وما تركت فيها صاحب السكان (الدفة) وحده الا أن أكون على رأسه » ٠ وللأبيات التى اخترناها دلالة أخرى فمنها نستشف أيضا أن ابن ماجد على الرغم من تجاوزه الستين من عمره كان جم النشاط متوقد الذهن والقريحة صحيح البنية باعترافه مما أدى الى عجب الناس ، وأغلب الظن أنه عاش لســنوات عــديدة بعــد هــذا التاريخ وليس ذلك بمستبعد فى الأحوال الطبيعية على شخص قضى أغلب حياته فى البحر يعيش فى بساطة وهدوء يتنفس الهواء النقى متفرغا لمعمله لا يشغل باله بعرض الدنيا وزينتها ثم انه كان عفيف النفس ورعا تقيا مخلصا لربه ولمهنته زاهدا فى المال كما يتضح من كتاباته ٠

★★★

ولا ترجع شهرة الربان العربى الى كونه مؤلفا ترك للتراث العربى ذخيرة مهمة من المؤلفات العلمية والتكنولوجية عن البحر وفنون الملاحة فحسب ، بل أنه كان أيضا المرشد لسفينة فاسكو دى جاما البرتغالى

من ثغر مالينندى على خط عرض ٣ درجات جنوب خط الاستواء على الساحل الشرقى لأفريقيا الى كلكتا فى عام ١٤٩٨م . وقد اعترفت حكومة البرتغال نفسها بذلك الأمر مؤخرا فاقامت نصبا تذكاريا فى مالينندى يخلد هذه المناسبة ..

★★★

مؤلفات ابن ماجد

باستثناء كتاب الفوائد فان أغلب مؤلفات ابن ماجد الأخرى كتبها بالشعر بعضها قصائد طويلة والأخرى قصيرة وكثير منها يصف المسالك الملاحية فى المحيط الهندى وبحاره وأطرافه وخلجانه وكذلك فى أرخبيل الملايو وبحر الصين ونحن نورد قائمة من المعروف منها كما يلى :

١ ــ كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد .
٢ ــ حاوية الاختصار فى أصول علم البحار .
٣ ــ الأرجوزة المعربة التى عربت الخليج البربرى من رأس حافونى الى باب المندب .
٤ ــ قبلة الاسلام فى جميع الدنيا .
٥ ــ أرجوزة كنز المعالمة فى علم المجهولات فى البحر والنجوم والبروج .
٦ ــ أرجوزة فى النتخات لبر الهند وبر العرب .
٧ ــ الأرجوزة المسماة بميمنة الأبدال .
٨ ــ أرجوزة مخمسة .
٩ ــ أرجوزة فى عدة الشهور الرومية .
١٠ ــ الأرجوزة المسماة « ضريبة الضرايب » .
١١ ــ الأرجوزة المنسوبة لعلى بن أبى طالب .
١٢ ــ الأرجوزة الملكية (من مكة لجدة الى فرتك لكالكوت ودايول وكنكن وجوزرات والأطواح وهرامز) .
١٣ ــ الأرجوزة المسماة نادرة الأبدال فى الواقع وذبان العيوق .
١٤ ــ أرجوزة بر العرب فى خليج فارس .
١٥ ــ أرجوزة القسمة الجمة على أنجم بنات نعش (٧٧) .
١٦ ــ القصيدة الذهبية .
١٧ ــ الأرجوزة المسماة بالفائقة فى قياس الضفدع .
١٨ ــ البليغة فى قياس السهيل الرامح .

١٩ ـ فصل فى معرفة قياس المارزة ٠
٢٠ ـ فصل فى معرفة النتخة الجاه ٠ عشرة فى أرض جوازرات ٠
٢١ ـ فصل فى معرفة البلدة فى أرض جوزرات ٠
٢٢ ـ فصل فى معرفة البلدة على جاه عشرة ٠
٢٣ ـ فصل فى معرفة المنتخ ٠
٢٤ ـ فصل فى معرفة البلدة اذا كان من داخل الباب ٠
٢٥ ـ فصل فى معرفة البلدة جوزرات على جاه عشرة وربع من المازرة ٠
٢٦ ـ فصل فى معرفة ديرة القطب من روس بحر العرب ٠
٢٧ ـ ٢٩ ـ ثلاث أزهار هى « الراهنـــامات » التى حققها شوموفسكى عـام ١٩٥٧ وهى على الترتيب : الأرجوزة السـفالية وأرجوزة بر الهند وسيلان والصين والأرجوزة التـائية فى وصف المجارى من جدة الى عـدن ٠٠

★★★

كتـــاب الفـــوائد

يعتبر هذا الكتاب فى الواقـع أهـم مؤلف لابن ماجد ويحتوى على مقدمة واثنى عشر فصلا أو « فائدة » ٠

يقول المؤلف فى المقدمة بعد البسملة ما نصه :

« الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فانى رأيت العلوم فى الدنيا أسمى مفخرا وأجل مرتبة وأشرف منقبة لقوله صلى الله عليه وسلم وتحريض ساير الأنبياء على طلب العلم حتى قيل ما من علم قبيح الا والجهل به أقبح منه فكيف وهذا علم لم تعرف قبلة الاسـلام الا به أصـبح منه والدليل على صحته انى أقول وأفعل به فيا طالما قد أتينا بالمراكب من الهند والشام والزنج وفارس والحجاز واليمن وغيرهم بقصده لا يميل عن جهة البلد المطلوبة بأموال وأرواح وهذا دليل مؤكد أن هذا العلم يدل على القبلة فيحتاجون اليه أهل الفرايض وقد قرأ علينا فيه كثير من علمائهم وقضاتهم لمعرفة القبلة واستحسنوه وعملوا به دون غيره من العلوم التقريبيات كنصيب الدايرة وركز العود فيها ومعرفة طول مكة وعرضها وطول البـلد الذى أنت فيه وعرضـه ثم طول وعرض جميع البلدان والجزر الجنوبية فى البحر وما يحتـاجون فيه علم وعلمنا يحكم على جميع ذلك لأن البحر أكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقى الانسان

به فـان أمكنة المعرفـة بعلم الدايرة والأطوال والعروض ومعرفـة جهات الكعبة والأرياح الأربع وهى شمال ودبور وجنوب وصبا هـذه الأرياح الأربع الشهيرة فى الدنيا ..

فان قدر الانسان أن يفعل شـيئا غير معرفة البحر وحسابه فليفعل ، واذا عجز عن قبلة المدن والجزر اللاتى فى البحر المحيط فليعمل بعلمنا ، فاجتهدوا فيه فانه علم نفيس ولا يتم الا بتمـام العمر وما لا يدرك كله لا يترك جله وينبغى أن لا يتكبر فيه الانسان كما قال المصنف فى حاويته شـعرا :

وينبـغى البعـد عن الخيـلاء عنـد كمـال العلم والنهـاء

وينبغى لعارف هذا العلم أن يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل عن أهله وعن حزبه حتى يحصل مراده ، لأنه علم عقلى وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه فيلم ما لا يعلمه فتتم به رياسته لأن من ادعى الرياسة بغير كمال أسبابها وأدواتها فقد أخطأ كما قيل شعرا :

رياسات الرجـال بغـير علم ولا تقـوى الاله هى الخساسة

واعلم أيها الطالب أن كل علم يحتمل من يشتغل به طالبه من المهد الى اللحد كلما تفنن فيه وأدمن عليه ظهر له منه شىء لم يكن عند غيره حتى يكون مصنفا فان أتقنت هذا العلم لمعرفة القبلة كان خيرا لك من أن تغفل به فان ركبت البحر تكون عارفا به مطمئن القلب ولو كنت تاجرا فانت مطمئن القلب لم تحتج الى أموال وان احتجت اليه لجمع المال والجاك اليه الزمان فافعل به (ولا) تكن ذا غفلة فان الخطأ فيه مضل وأدعى لتلف الأرواح والأموال وهو أصعب شىء بعـد خدمه للملوك وسائر العـلوم خطؤها لفظى يمهلك وهذا مم يمهلك فحل لم يعطك بعضه حتى تعطيه كلك .. وقال على رضى الله عنه قيمة كل امرىء ما يحسنه . وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يطاع بالعلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل وأجود ما قيل فى ذلك نظما (شعرا) فيه قولنا :

العـلم لا يعرف مقـداره - الا ذوو الاحسان عنـد الكمـال

فهأنا ذا اختصرت منه ما يليق لأهل زمانى فى هذا الكتاب المسمى بكتاب الفوايد فى أصـول البحر والقواعد ألفته وصـنفته لركاب البحر ورؤسائه وفيه ما اشتبه من الحاوية وغيرها على الطالبين وبالله التوفيـق وقد سميناه كتاب الفوائد وهو مشتمل على فوايد كثيرة غوامض وظواهر اثنتى عشرة فايدة (كذا) وهى : (الفائدة الأولى .. الخ) ..

ويختتم المؤلف هذا الكتاب بقوله :

« وختمنا هذا الكتاب فى عـام خمس وتسـعين وثمان مايـة على الاختصار بقولى أوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » ويضيف الناسخ بعد ذلك قوله : « تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه وهو الكتاب المسمى بكتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد وذلك فى يوم الأحد المبارك سابع عشر ربيع الثـانى فى سنة أربعة وثمانين وتسعمائة (٩٨٤ هـ) أحسن الله عاقبتينا وبالله التوفيق ولكم .. الخ » ..

واضح من هذه المقدمة أن المؤلف يؤكد أهمية هذا العلم وأنه من العلوم المضبوطة العقلية يمكن الربان من الوصول الى البلد المطلوب دون ميلى أو انحراف كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواقع البلدان بالضبط بدل الطريقة الشمسية التى تعتمد على سقوط ظل الأعمدة فى دائرة مقسمة . كما يمكن للانسان أن يتكسب به عيشه وأن يركب البحر وهو مطمئن القلب والنفس .

ثم ان المؤلف بعد ذلك يؤكد أهمية التجربة واكتساب الخبرة بزيادة التحصيل ودوام السؤال عن المسائل الغامضة فيه وينصح الربابنة بالبعد عن الخيلاء عند كمال العلم .

أما الفصل الأول أو الفائدة الأولى فيبدؤه المؤلف بذكر تاريخ تطور علوم البحر على أيدى سلسلة من الربابنة ثم نجده متأثرا بطريقة الكتابة فى القرون الوسطى فيدون أخبارا قديمة ربما لتشويق القارىء وأغلب الظن أنه استقاها عن المصادر العديدة التى رجع اليها أو سمع بها وعن الكتب التى قرأها وذلك مثل ترتيب صنع سفينة نوح وأبعادها وذكر الطوفان وتحديد جبل الجودى وأغلب هذه الأخبار مدونة فى كتب العجائب ولكنه لا يطيل فيها كثيرا ، وسرعان ما يعود الى ذكر ربابنة البحر المشهورين من أمثال محمد بن شاذان وسهل بن ابان وليث بن كهلان وكيف عثر هو نفسه على « رهمانى » ؟ يرجع تاريخه لسنة خمسمائة وثمانين هجرية بخط حفيد الأخير ثم يشيد بعد ذلك بالمعلم « خواشير بن يوسف بن صلاح الاركى » الذى كان يسافر فى عام أربعمائة من الهجرة فى مركب دبوكرة الهندى ثم يحدد وضعه هو نفسه بين هؤلاء الربابنة ويقول تواضعا منه انه رابع الثلاثة ولكن علمه وتجربته فى الواقع تفوق تجربتهم جميعا وكيف أن بداية المتأخر هى نهاية المتقدم « وقد وقرتهم بقولى انى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة فقط وسيأتى بعد موتى زمان ورجال يعرفون لكل واحد منا منزلته ولما اطلعت على تاليفهم ورأيته ضعيفا بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وجربتها عاما بعد عـام فى نظم الأراجير والقصائد وفى هذا الكتاب عـام ثمانين

وثمان مائة فاستحسنوه الماهرون من أهل هذا الفن وعملوا به واعتمدوا عليه فى شدايدهم مثل رؤيا الجبال ومثل القياسات وأسماء النجوم ومعرفتها والهداية بها » ٠

وواضح من هذه الفقرات الأخيرة أن كتاب الفوائد قد أعاد المؤلف كتابته أكثر من مرة من بينها عام ٨٨٠ هـ ثم عام ٨٨٤ هـ ، وأن الربابنة الماهرين قد أفادوا منه سواء أكان ذلك عن طريق القياسات الفلكية التى أعاد هو تحقيقها مرارا أم عن طريق علامات البر من جبال وما اليها،ويضيف بعد ذلك قوله كيف كان القدماء أكثر حذرا وأنهم كانوا يعدون للرحلة وللسفينة اعدادا تاما ليضمنوا السلامة فى البحر فيقول :

« وفى الحقيقة أن الناس كانوا فى الزمان الأول أكثر حزما ولا يركبون البحر الا بأهله (أى مع الربابنة الماهرين) من شدة الحزم والخوف والحذر من البحر ويعدون للمركب اعتدادا (اعدادا) جيدا ولا يؤخرون الموسم ولا يشحنون المركب غير العادة ونحن أكثر منهم علما وتجربة وكل فن من فنون البحر له أصل » ٠

ويعدد هذه الفنون كالآتى : السفينة ثم المغناطيس أو (بيت الابرة) « وهو دليل على القطبين » ثم نجوم أخنان الحقة (وردة الرياح) وأسماءها ، ويقول ان تقسيم (وردة الرياح) قديم قبل « زمن اليوث » المتقدم ذكرهم ثم يذكر صفات البرور أى العلامات الساحلية من جبال وما اليها وله فيها اضافات مبتكرة أفادت الملاحين بالتجربة ويستشهد بأبيات من الحاوية تؤيد رأيه ٠

وفى هذه الأبيات يخاطب الربابنة بقوله ان ما جاء بكتابه من علامات تدل على التعرف على البر صحيح مجرب ٠

وبلغ من دقته فى تحديد مثل هذه العلامات قوله انه « لم يضف شيئا له شبيه (على الساحل) فى أعلاه وأسفله على مسيرة زامين أو أقل أو أكثر » (أى على مسيرة نحو ٦ ساعات بالشراع) ٠

كما يحذر من الاعتماد على الأنجم والأخنان فى المضايق الخطرة ٠

ثم يصف بعد ذلك تقسيم وردة الرياح العربية الى ٢٢٤ اصبعا أو درجة تنتظم فى « ٣٢ » قسما أو (خنا) ويلخصها ببيتين يستشهد بهما من « حاوية الاختصار » بقوله :

ومنـــدل الأخنـــان والمنـــازل لها أصـــابع شـــهرت يا عاقل
ســـبعون مع ســـبعين مع سبعونا وأربع مـــع عشر يحســـبونا

ومثل هذه الأبيات التى يلخص فيها المؤلف اصطلاحاته الملاحية قد تبدو لأل مرة كالألغاز يصعب حلها ، ولكن بدوام القراءة والتفهم يستطيع

الانسان التوصل الى مدلولها والبيت الأخير يلخص عدد الأصابع والدرجات هى (٧٠ + ٧٠ + ٧٠ + ١٤ = ٢٣٤ اصبعا) وهو قد جعل عدد المنازل فى تقسيم الدائرة كعدد منازل القمر أى ٢٨ والأخنان لتقسيم الحقة (الدائرة) عددها ٣٢ على عدد « أخنان المركب » وقد يدخل البعض من النجوم فى المنزلة القمرية ويدخل فى خن الحقة والأصابع وقسمتها على الأخنان والمنازل (والترفات » مأخوذة من درج (تدريج) الأسطرلاب كما يقول ·

أما الفصل الثانى أو الفائدة الثانية ، ففيها ملخص جميل للمعلومات والارشادات التى يجب على الربان الاحاطة بها ومنها « معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والاشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم (السفر) فى البحر وآلات السفينة وما يحتاج اليه الربان منها وما يضرها وما ينفعها » · وكذلك يحتوى هذا الفصل أيضا على طريقة القياس وعلى نظام مطلع النجوم الملاحية ومغربها (وهى من نجوم المنطقة المدارية) وكذلك اشارات قرب البر كالطين (طبيعة القاع) والحشيش (الطحالب والنباتات) والحيتان والموارز (الحيوان) والأرياح (الرياح) وتغوه الأمواه (يقصد خواص المياه) ومد البحر وجزره وهذه كلها كما نرى معلومات اقيانوغرافية من الطراز الأول يجدر بربان الاستدلال عليها وملاحظتها ·

ويشتمل الفصل الثالث على ذكر المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التى يهتدى بها الربان فى عرض البحر وهى :

البطين	الثريا	البلدة
الديران	الهقعة	سعد الذابح
الهنعة	الزراعين	سعد بلع
النثرة	الطرف	سعد السعود
الجبهة	الزبرة	سعد الاخبية
الصرفة	العواء	الفرع المقدم
الغفر	الزبانان	الفرع المؤخر
الاكليل	القلب	بطن الحوت
الشولة	النعائم	الشرطين

ثم يلى فى الفائدة الرابعة ذكر الأخنان وهى الجدى ـ الفراقد ـ النعش وسهيل ـ الناقة والحمارين والعيوق والعقرب ـ والواقع والاكليل ـ السماكين والتير ـ الثريا والجوزاء ثم الطائر ويقول ان لهذه النجوم والصور بروجا ودرجات ودقائق ومحال طول وعرض وجهة وبعد وممر يقصر عن ادراكها معالمة البحر وركابه ·

ومما توصل اليه ابن ماجد أيضا تقسيمه للنجوم والكواكب حسب درجة لمعانها الى ست مراتب فيقول هذا نجم من القدر الأول أو القدر الرابع مثلا ومن أقواله المأثورة فى هذا الصدد : « ونجوم قياسنا أنور من النجمين الأوسطين » أو قوله : « العقرب هو نجم خفاق منير » أو قوله عن الديران : « كلاهما أحمر من القدر الثانى » أو قوله :

الـــم تر سير النيرات مخالفا لشهرتهم سير السها والنعايم

« فالمراد بالنيرات السبعة الكواكب السيارة والسها والنعايم المراد بهم الثوابت » وفى هذا الفصل أيضا مرشدات ملاحية للسير بهذه النجوم ليلا بين السواحل المختلفة .

وفى الفصل الخامس (الفائدة الخامسة) يعدد المؤلف أسماء الكتب والمراجع الفنية التى يجدر بمعالمة البحر استيعابها وأغلبها فى الجغرافيا الوصفية والفلكية والرياضية .

أما الفصل السادس (الفائدة السادسة) فتتعلق «بالديرات الثلاثة» كما صنفها المؤلف وهى القسمة الأولى والقسمة الثانية والقسمة الثالثة وتأتى فى الترتيب بعد المنازل والأخنان ويتكلم المؤلف فى هذا الفصل عن « بيت الابرة التى تسمى السمكة وسمكة الحقة » ويحضرنا فى هذا المجال كلام المقريزى (٧٨) فى «الخطط» عن ملاحى المحيط الهندى الذين يهتدون الى القطب بسمكة من الحديد المطروق تطفو فوق الماء فيشير رأسها الى القطب .

وفى هذا الفصل أيضا يحذر ابن ماجد المعالمة من علل البحر وأخطاره فيقـــول :

« واعلم أن للبحر عللا فاحذر منها أولها نوم المعلم وحط الجاه فى الليل (النجم القطبى) فى مكان وفى النهار فى مكان غيره وذلك مما يطول الطريق ويحسب المعلم أنه يجرى فى مجرى وهو يجرى فى غيره من قلة معرفته أو من فساد حقه (بوصلته) ــ خصوصا عند الموجة (ارتفاع الموج) والتقاصير (الأماكن الضـــحلة) والمركب الناقع المزمن فى الماء (أى الذى يرشح فيه الماء فيثقل) فيحسب وقع علينا كل ذلك فصرفنا أنفسنا فيه .... والحذر كل الحذر من صاحب السكان لا يغفل عنه فانه أكبر أعدائك فلم تدر عنه النتخة من غريمك من أهل السكان وما صنفت هذا الكتاب الا بعد أن مضت لى خمسون سنة وما تركت فيها صاحب السكان وحده الا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامى » .

وأما الفصـــل السابع أو الفـــائدة السابعة فتتعلق « بالباشيات » والقياسات (ويقصد بالباشى هنا ارتفاع النجم فوق الأفق فى حالات معينة)

ويقول « فـران » ان هذه الكلمـة ليست عربية ولا فارسية ولا هندية ويستدل من هذا القياس على خط العرض ٠

وهو يؤكد هنا فى هذا الفصل أيضا فائدة التجريب مرة أخرى فيقول : « فوالله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات الا بعد أن كررت عليهم عشرين سنة » ، ويضرب المؤلف أمثلة حية على أهمية التدقيق فى قياس ارتفاع النجم ويقول :

« فانى لم أترك فى السـماء نجما الا وقد درجته وعرفت نقصانه وزيادته » أو قوله : « فقياسات بحر قلزم العرب وبر الملل فيما يلى العجم وبر العرب لم يحوزها (وكذا) فى زمانى غيرى » ٠

وهو يصف فى هذا الفصل أيضا طريقة القياس الصحيحة فيقول :

« واعلم أن للقياسات عللا فمنها اذا قمت من النوم ينبغى أن تغسل وجهك وعينيك بماء بارد وتجود الجلسة وتعجل النجم (المقيس) عن النجم الذى يلقى وجهك سـبعة اخنـان كالجاه والطاير ويكون الخشب (آلة القياس) الكبار ضيقات القياس ومد بهم يدك ما استطعت والأربع الصغار نفيسات وقصر بهم يدك ما استطعت والأربع المتوسطات قياسهم عادة وذلك لاتساع ذيل الأفق وانكفاف أعلى الأفق فافهم أنا أدركنا جميع كسور هذه الصنعة وينبغى أن يكون بين النجم المقيوس وبين الخشبة خيطا وبين الماء والخشبة كذلك خيطا والدخن (الضباب) من مفسـدات القياس وفساد الجلسة والباشى الفاسد والقياس باليد اليسرى من فساد القياس (أيضـا) » ٠

وأما الفصل الثامن (الفائدة الثامنة) فيتعلق بالاشارات والسيارات وترتيب المركب والعسكر فيبد بالسفينة وهى على البر لم تنزل الى البحر بعد ويقول ان على الربان الماهر أن يتفقد خللها قبل انزالها الى الماء وبخاصة مكان موضع « البوصلة » ويذكر طريقة لمعرفة اتجاه الريح وينصح الربان أن يستخدم البوصلة للتأكد من صحة قياسه بالليل فيقول :

« تأمل الجاه بالليل وحطه فى مكان يوافق المكان الذى حكمت عليه بالحقة (بالبوصلة) بالنهار حتى لا يكون النهار مجرى وبالليل مجرى ويطول الطريق » ٠

وفى هذا الفصل أيضا يتكلم ابن ماجد عن الطوفان والرياح وأوقاتها ومواقع حدوثها ولا يكتفى بهذا بل يذكر أيضا ظواهر وعلامات طبيعية تحت الماء وكذلك العلامات البيولوجية المميزة للمنطقة البحرية ومنها الحشائش البحرية والطيور كالمنجى والقرعا والأسماك المشهورة مثل انبتان والتهاول

وذلك من مثل قوله: « فاذا رأيت هذه العلامات يكون بينك وبين بر الصومال مسيرة نحو ١٢ ساعة تقريبا بالشراع اذا كانت الريح مواتية » ٠

ويذكر كذلك طائرا أزرق فى بطنه بياض يسميه « أم الصنانى » ، ويقول انه من علامات جزيرة سقطرة وانت قادم عليها من الجنوب ومن علامات البر وكذلك رؤية الجبال والمعالم الأرضية ومن ذلك قوله عند القدوم على ساحل الهند لدخول جوزرات : « انك اذا رأيت جبل جلنار وقد قبت رأسه قطعة واحدة وهى عنك فى مطلع العيوق (نجم) فأنت بشوران بلد التنبول وان ظهرت لك قمتـــان من هذا الجبل وكانت شرقية فانت بشوران للمغارب » ٠

ويعدد بعد ذلك كثيرا من هذه المعالم على سواحل الهند والسيلان وغيرها وجميعها اشارات جد نافعة للملاحين ، وينهى هذا الفصل بقوله : « وقد وصفنا جميع مناتخ بحر الهند لأنها أعم نفعا وأكثر استعمالا مع أهل هذه الصنعة » ٠

أما الباب التاسع أو الفائدة التاسعة فتتعلق بدورة البحر على جميع الدنيا وفيه وصـــف جدراف للسواحل والنتخات ومعالمها المشهورة على الساحل العربى والأفريقى للمحيط الهندى وفى البحر الأحمر من باب المندب الى القصير والسويس وفى هذا الباب يرجع المؤلف القارىء أيضا الى كتب المسعودى وابن حوقل فى تقويم البلدان ولا يقتصر ابن ماجد فى وصفه للســواحل على المحيط الهندى وانما يصف أيضـــا البحر الرومى (الأبيض المتوسط) وكيفية الوصول اليه بالدوران على سواحل أفريقيا ٠ وعلى الرغم من أن ابن ماجـــد ربما كان قد أحاط علما بهذا البحر من محادثاته مع معالمة الشام الذين لم يكن أفرس منهم فى معرفة « البحر الرومى » كما يقول المسعودى وكذلك من قراءته لكتب تقويم البلدان ــ فان هناك احتمالا كبيرا أيضا فى أن يكون عرب الأندلس قد داروا حول أفريقيا ووصلوا الى المحيط الهندى من المغرب قبل البرتغال ٠ وثن كان ابن ماجد قد اختصر وصف الساحل الغربى لأفريقيا ولم يذكر لنا شيئا عن طوله بمقياس الزمن الذى تقطعه المركب فى البحر ولا شيئا عن موانيه المشهورة ــ الا أنه يقرر أن هذا الطريق كان فى الزمن القديم طريق الفلفل (التوابل) وذلك قبل أن يكتشفه البرتغال بزمن طويل ٠ وانا نميل الى الاعتقاد بأن الملاحين العرب قد داروا حول أفريقيا سواء من الغرب الى الشرق أو بالعكس ومما يؤيد هذا الرأى أنه عندما وضع (فراموزو) مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ذكر أن ملاحا عربيا أبحر حوالى عام ١٤٢٠ م من المحيط الهندى حول القارة الأفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى ، ومن المعروف أيضا أن المصريين القدماء قد داروا حول هذه القارة من الشرق قبل ذلك بقرون طويلة ٠ وثمن رحلة عربية أخرى لجغرافى عربى من غرناطة هو ابن سعيد

(١٢٥٠ م) الذى ألف كتابا شهيرا بعنوان (جغرافية الأقاليم السبعة) كتبه على نهج « الادريسى » (أبى عبد الله ١١٠٠ ـ ١١٦٥ م) فى كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) (٧٩) ورد فيه أن ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة دار حول أفريقيا من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر وكيف كانت جالية هنـــدية تعيش فى مدغشـــقر فى ذلك الوقت ٠

ويتضح أيضا من الرجوع الى المصادر البرتغالية عن تاريخ البرتغال فى جنوب شرقى أفريقيا أن ملاحيهم حين نزلوا بناتال وموزمبيق فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى علموا أن العرب قد وصفوا هذا الساحل قبلهم بزمن طويل بأنهاره وخلجانه ومرافئه ٠

أما الفصل العاشر أو الفائدة العاشرة فتتعلق بوصف الجزر الكبار المشهورات المعمورات وأولها بطبيعة الحال جزيرة العرب وابن ماجد يصفها ويصف تاريخها ويقول انها كانت منفصلة عن الأرض والتحمت بعد طوفان نوح والجزيرة الثانية الكبرى هى جزيرة القمر « وهى الآن جزيرة (يعنى أنها هى الأخرى كانت ملتحمة قديما بالأرض) وطولها قريب عشرين درجة وبينها وبين بر السفال وجزره جزاير وشعبان (شعب مرجانية) وكل ذلك لم يمنع المسافر أن يجوز بينهم ٠ وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عام ابن نوح وعلى جنوبيها بحر دقيانوس وهو البحر المحيط بالدنيا وهو مبتدأ الظلمات الجنوبية على جنوب هذه الجزيرة » ٠

والمقصود بالقمر بطبيعة الحال هى جزيرة مدغشقر وفى قول آخر يسميها « مدكسكر » ٠

أما الجزيرة الثالثة فجزيرة شمطرة « سومطرة » وهى الجزيرة التى يمر بها خط الاستواء ٠٠ « وشمطرة لها عدة سلاطين كفرة وهى معدن الأفيال البيض والكافور وبسبس الزباد الخاص المبتاع بوزن الذهب » ٠

أما الجزيرة الرابعة « وهى جاوة على جنوب خط الاستواء فى الأقاليم الأول الجنوبى ٠٠ وهى أقل فى الكبر من شمطرة ويسكنها الكفرة والاسلام وسلاطينها كفرة وهى مدن اللبان الجاوى وجزر الصندل على جنوبيها وكذلك جزر العقاقير » ٠

والجزيرة الخامسة « تسمى الغور وهى معدن الحديد الغورى والسيوف الصافية القاطعة لجميع الحديد واسمها بالجاوى لكيوف ٠٠ وأهلها ذوو بأس شديد ما عليهم من الشجاعة مزيد » ٠

والجزيرة السادسة « وهى سيلان على شمالى خط الاستواء وعلى جنوبى بحر الصوليان (كرماندل) جزر بحر الهند من الجنوب والمشارق

ولها عدة سلاطين من الكفرة وهى جزيرة قريبة الاستدارة .. وبينها (وبين) بحر قايل معدن لؤلؤ يعمر فى بعض السنين ويخرب فى بعض (يعنى مغاصات اللؤلؤ المشهور) وهى معدن الافيال والقرفة والياقوت النفيس » .

أما الجزيرة السابعة « وهى زنجبار ممتدة على بحر الزنج ذات أشجار وأنهار وفيها أربعون خطبة (يعنى أن لها أربعين مسجدا تقام فيها الصلاة) تحكم عليها سلاطين الاسلام » .

أما الجزيرة الثامنة « فهى البحرين وتسمى «أوال» وفيها ثلاثمائة وستون قرية وفيها الماء الحالى (شبه العذب) من جملة جوانبها .. وحواليها معدن اللؤلؤ وعدة جزر كلها معادن اللؤلؤ يأوى عليها قريب ألف مركب وفيها جملة قبايل من العرب وجملة تجار وفيها جملة من النخيل المثمرات .. والخيل والابل والبقر والأغنام .. وفيها عيون جارية .. ورمان وتين وأترج وهى فى غاية العمارة) ، ثم يذكر بعد ذلك تاريخ سلاطينها .

أما الجزيرة التاسعة « فهى جزيرة (ابن جاوان أوبرخت) مما يلى الهراميز ، وفيها خمسمائة حائك يحوكون الحرير ويسكنها العرب والعجم وفيها الفواكه والكروم والبطيخ .. » .

أما الجزيرة العاشرة « فهى سقطرة وهى جزيرة عامرة قريبة التدوير أصغر من الجزاير المتقدم ذكرها طولها وعرضها قريب خمسين فرسخا وهى على مشارق بر الصومال تسكنها اهماج النصارى وقيل بقية اليونان .. وفيها خلق كثير قريب عشرين ألف آدمى وقد ملكوها من قديم الزمان خلق كثير فلم تتم الا لأهلها » ثم يذكر القبائل التى حكمتها وأغلبهم من المهرة (من اليمين) ثم ملوك الشحر وحضرموت .

وأما الفصل الحادى عشر (الفائدة الحادية عشرة) فتتعلق بمواسم السفر من السواحل المختلفة وهذه المواسم فى الواقع تتفق مع مواسم الرياح وملاءمتها للسفر فى البحر ويتبع ابن ماجد التقسيم المعروف بالنيروز (وهى السنة الفارسية وتبدأ فى ٢١ مارس فيقال مثلا مائة النيروز أى بعد مائة يوم من بدء السنة وهكذا وهو دخول الشمس برج الحمل) ومن هذا التاريخ يبدأ الحساب . وبدهى أن مواسم السفر تختلف على السواحل المختلفة وتبعا للجهة المقصودة .

وهو على سبيل المثال يقول : « وأما خير الخروج من باب المندم (المندب) وما يليه مثل الحديدة وعدن فى أول ماية وثمانين النيروز » .

« ... فهذه مواسم أول الريح الكوس (الغربية) من اليمين وعدن اذا خرج فى مايتين وثمانين الى حدود ثلثمائة ولا خير فيما بعدها » .

وأما تعريفه للأرياح فهى الصبا والشمال والقبول والدبور فالصبا هو الأزيب والقبول هو الذى يواجه المركب والدبور هو الريح التى تهب من الغرب للشرق صيفا ومن الشرق للغرب شتاء ٠

ويراعى ابن ماجد فى مواسم السفر أيضا حالة المد والأمطار فيقول فى أماكن أخرى : « ولا خير فيما بعد ذلك لأن المد عليها (يكون) قويا شديدا » ويعنى المد هنا التيارات المائية ٠

أو قوله : « الخروج من الهند لبر العرب أوله ثلثمائة وثلاثين النيروز من جوزرات وكنكن » ٠

وفيما يتعرق بالبحر الأحمر يقول : «وخير السفر فى البحر الذى فى الأقاليم الشمالية فى المايه ومن يمسك اليمن مسك الحجاز لأن بحر القلزم العربى لم يتغلق (يقفل) خصوصا على المراكب المعتدة (القوية) ٠

وفيما يتعلق بالسفر من ساحل الزنج يقول : « ولكن أهل جميع الأقاليم الجنوبية اذا أرادوا السفر بآخر أرياح الدبور ، فلابد لهم من الأمطار الى حدود خط الاستواء وكفى بذلك أرض أهل سفالة والاخوار الى أرض الزنوج مثلهم أرض تيمور لجاوة وما يليها ومن ملوك الغور ولجاوة وجميع الجزر الجنوبيات لم يسافرون (كذا) الا فى آخر الديمانى كل واحد منهم على قدر مكانه ومركبه » ٠

وهو يحذر من الدخول للموانىء فى المواسم الحرجة فيقول : « والحذر كل الحذر من النتخات وضيق المواسم عليها ولو عرف لكل نتخة موسمها ٠٠ » ٠

أما الفصل الثانى عشر (الفائدة الثانية عشرة والأخيرة) فيتعلق بوصف البحر الأحمر (بحر القلزم) وجزره وشعبه المرجانية ٠

ويهتم ابن ماجد بهذا البحر ويفرد له نحو العشرين صفحة من كتاب الفوائد ويصف شعبه بدقة والمسافات بين المراسى المختلفة ، فتكلم عن الشعب أحيانا تحت اسم الظهار (من ظهرة أو مكان مرتفع) ويتكلم أيضا عن طبيعة القاع فى بعض الأماكن مثل قوله : « وأمرية بر العرب فهى الحجر (صخر) والرمال وأما أمرية بر العجم فهى رمال » ، وكذلك يتكلم عن الأعماق فى مداخل البرور بدقة كبيرة ويحذر من الشعب الخطرة مثل شعب عيسى « فاخذوه بالليل كل الحذر فانه شعب خافى لم يكسر عليه الموج وقد وقع عليه مركب محمد بن مرعى الاسكندرانى فى سنة تسعين وثمان مائة فى الهجرة نصف الليل ٠٠ » ٠

★★★

الأورجانون الجديد
والأوهام الأربعة
فرنسيس بيكن
١٦٢٠ م

فرنسيس بيكن أحد أعلام الثورة على الفلسفة اليونانية القديمة والمنطق الصورى وفلسفة العصور الوسطى ويعتبر أيضا مؤسس المنهج الاستقرائى – منهج البحث فى العلوم الطبيعية • نعم استخدم هذا المنهج قبل بيكن علماء سابقون ومعاصرون ولكن لبيكن الفضل فى اعلان هذا المنهج وبيان قيمته وتفصيل مراحله ••

★★★

ولد بيكن فى الثانى والعشرين من شهر يناير سنة ١٥٦١ فى مدينة لندن من أسرة كريمة فقد كان أبوه السير نكولاس بيكن يتربع فى منصب من أسمى مناصب الدولة وكان نابغا نابها ذائع الصيت واسع الشهرة قد خفت اسمه فما ذاك الا لأن ذكر ابنه قد طغى عليه فبدده فى ظلاله فكأنما كانت أسرة بيكن تسير نحو العبقرية صاعدة جيلا بعد جيل حتى بلغت الذروة فى فرانسيس بيكن وكانت أمه سليلة بيت عريق حصلت من العلم وأصول الدين قدرا محمودا فأخذت ترضع ابنها من علمها الواسع ولم تدخر وسعا فى تنشئته وتكوينه منذ نعومة أظفاره لتخرج منه رجلا قويا ، ولما بلغت سنه الثانية عشرة أرسل الى جامعة كيمبردج ، حيث لبث أعواما ثلاثة ترك الجامعة بعدها ساخطا ناقما على مادة التدريس وطريقته على السواء فقد كره ذلك الجدل الفارغ العقيم الذى لا ينتهى فى أغلب الحالات الى شىء ذى غناء •

وما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى انخرط فى سلك الوظائف السياسية فعين فى السفارة الانجليزية فى فرنسا ولبث هناك عامين ثم باغته القدر بموت أبيه فعاد مسرعا الى لندن وما هو الا أن أخذت مواهبه الأدبية فى الظهور والذيوع فانتخب عضوا فى مجلس النواب وسرعان ما جذب اليه الأنظار لبلاغته الساحرة وبيانه الخلاب •

ولما كان عام ١٥٩٥ أهداه صديق له معجب بنبوغه هو الايرل اسكس ضيعة واسعة درت عليه ثروة طائلة عريضة هيأت له أسباب الترف والنعيم وكانت هذه الهبة العظيمة من ذلك المحسن الكريم جديرة أن تأسر بيكن ، ولكن حدث لهذا الصديق أن فترت بينه وبين الملكة اليصابات ما كان بينهما من روابط وصلات واستحكمت بينهما الخصومة واشتد النفور فدبر أسكس هذا مؤامرة خفية يريد بها أن يزج الملكة فى ظلمات السجن ثم يرفع الى العرش ولى عهدها وكاشف بيكن بما صحت عليه عزيمته وهو لا يشك فى أنه انما يكاشف صديقا مخلصا ، ولكنه لشد ما دهش حين أجابه بيكن باحتجاج صارخ على هذه الخيانة الشائنة ضد مليكة البلاد وبانذاره أن سيؤثر ولاءه للملكة على عرفانه للجميل ، ومضى اسكس فى

مؤامرته وحشد جيوشا سار بها الى لندن لكنه هزم وقبض عليه وكان بيكن عندئذ فى أكبر مناصب القضاء فلم يتردد فى اتهام الرجل الذى أكرمه وأحسن اليه حتى حكم عليه بالاعدام ٠

★★★

ويرى الكثيرون فى ذلك نقطة سوداء فى حياة بيكن ويعدونها من أوضح مظاهر انتهازيته ورغبته فى تملق الملوك ولو على حساب أخلص أصدقائه ، على حين أن كتابا آخرين يرون أن بيكن لم يفعل الا ما يحتمه عليه الواجب وأن تهمة الخيانة ثابتة على اسكس فلم يكن مفر من الاشتراك فى ادانته ، وعلى أية حال فقد أكد بيكن نفسه أنه آثر مصلحة الوطن ــ ممثلا فى شخص الملكة ــ على علاقته الشخصية بصديقه وكان يرى فى ذلك مبررا كافيا لسلوكه ٠

وبعد عامين من اعدام اسكس توفيت الملكة اليزابيث واعتلى جيمس الأول عرش انجلترا وانتعشت آمال بيكن فى الحصول على منصب حكومى كبير يدر عليه دخلا يضمن له حياة مستقرة ذلك لأنه كان قد بذل محاولات متعددة للحصول على منصب كبير فى عهد اليزابيث ولكنه لم يتلق الا وعودا ولم يصل الى شىء مما كان يطمع فيه ٠ وفى سنة ١٦٠٧ تولى بيكن أول منصب عام كان يصبو اليه وهو منصب المدعى العام ٠ وفى سنة ١٦١٣ أصبح محاميا عاما ثم مستشارا خاصا للملك سنة ١٦١٦ وفى العام التالى أصبح حامل الأختام الملكية وفى سنة ١٦١٨ عين كبيرا للمستشارين ومنح لقب « لورد فيرولام » ثم منح لقب « الفيكونت » سنة ١٦٢١ ٠

وعندما بلغ نجاح بيكن فى ميدان المناصب العامة هذه القمة ٠ بدأ يتدهور بسرعة فقد اتهم بالرشوة وبأنه يتقاضى هدايا من المتهمين قبل محاكمتهم وأثناءها وحاول الانكار فى البداية ولكنه اضطر الى الاعتراف بتقاضى الرشوة وان كان قد أكد مع اعترافه هذا أمرين : أحدهما أن هذه الهدايا لم تؤثر فى الأحكام القضائية التى أصدرها والآخر أن تقاضى الهدايا كان أمرا شائعا فى بلاده فى ذلك الحين حتى بالنسبة الى مناصب القضاة وقد كان بالفعل صادقا فى المسألة الثانية على الأقل ويبدو أن حاجته الى المال وديونه التى ظلت تتراكم طوال حياته وتعوده حياة البذخ والمتعة كل ذلك جعله يغض الطرف عن المصدر الذى يحصل منه على المال أو الوسيلة التى يأتيه بها هذا المال وعلى أية حال ، فقد أدانه مجلس اللوردات وحكم عليه بغرامة مقدارها ٤٠ ألف جنيه والحبس فى البرج طوال الوقت الذى يشاؤه الملك وعدم تولى أى مناصب فى الدولة أو الاقتراب من البرلمان أو المحاكم ومع ذلك ، فقد أعفاه الملك من الغرامة ولم يدم حبسه الا أياما قلائل ، وان يكن قد حرم بالفعل من تولى المناصب العامة بعد ذلك

ومن الواضح أن تخفيف العقوبة على هذا النحو دليل على أن جريمته لم تكن شيئا خارجا عن المألوف فى ذلك الحين .

ورغم أن بيكن قد تفرغ بعد نكبته هذه لحياته الخاصة ولمشروعاته العلمية الواسعة فان صحته التى لم تكن قوية فى وقت من الأوقات ـ قد بدأت تتدهور بسرعة وكان موته مرتبطا ارتباطا وثيقا بالهدف الرئيسى لحياته الفكرية وهو تحويل العلم الى ميدان التجربة العملية . ففى أثناء تجربة بدا له أن يجريها فى يوم مثلج شديد البرودة لكى يختبر تأثير التبريد فى منع التعفن ، أصيب ببرد قاتل ، وتفاقم المرض بسرعة فتوفى فى التاسع من أبريل سنة ١٦٢٦ ، وكان عندئذ فى الخامسة والستين من عمـره .

★★★

مؤلفـــات بيـــكن

كان « تقدم العلوم » فى طليعة الانتاج الأدبى لبيكن وهو كتاب فيه جانب من فلسفته ثم هو فى الوقت نفسه يذكر لوضوح عبارته وجودة بنـائها .

ولكن آيته الأدبية التى استحق من أجلها أن يذكر علما من أعلام الأدب هى مجموعة « مقالاته » فاليه يرجع الفضل فى ادخال « المقالة » فى الأدب الانجليزى .

ومما يميز أسلوب بيكن فى « مقالاته » التركيز الشديد فمعنى ضخم فى لفظ قليل . على أن بيكن لم ينته بكتابة « المقالة » كما بدأها فقد نشر من المقالات أول ما نشر عشرا وكان ذلك سنة ١٥٩٧ وكانت المقالة فى هذه البداية قصيرة مركزة حتى لكأنها مجموعة من الحكم فلما كان عام ١٦١٢ أعاد كتابة هذه المقالات الأولى ووسع فيها ثم أضاف اليها تسعا وعشرين ، ثم عاد سنة ١٦٢٥ فزاد فى اطالة مقالاته الأولى وأضاف اليها مقتبسات وحكايات ونشر معها احدى وعشرين مقالة جديدة .

ونستطيع أن نقسم هذه « المقالات » الى مجموعات أربع فمجموعة تدور حول الانسان فى حياته الخاصة ومجموعة ثانية تتناول الانسان فى حياته العامة وثالثة تعالج أمور السياسة ورابعة تبحث فى موضـوعات مجـردة .

★★★

وعندما تولى جيمس الحكم (جيمس السادس ملك اسكتلندا وقتئذ باسم جيمس الأول أول ملوك اسكتلندا على بريطانيا) أراد بيكن أن يتقرب اليه ويلفت نظره الى مشروعاته فنشر فى عام ١٦٠٥ كتاب « النهوض بالعلم » باللغة الانجليزية وأهداه الى الملك وقد حمل بيكن فى هذا الكتاب على تعاليم المدرسيين ونبه الى الطريقة التى يراها كفيلة بالنهوض بالعلوم (وقد أعاد بيكن نشر هذا الكتاب فيما بعد ، بعد ترجمته الى اللاتينية وادخال اضافات كثيرة عليه بعنوان : « قيمة العلم والنهوض به » فى عام ١٦٢٣) . وعمل بيكن بعد ذلك على نشر آرائه فى مجموعة كبيرة من المؤلفات اللاتينية التى لم تنشر خلال حياته والتى تضمنت أفكارا تكرر معظمها فى كتبه الرئيسية وقد بلغ عدد هذه المؤلفات اثنى عشر كتابا وفى عام ١٦٠٩ نشر بيكن كتاب « حكمة الأقدمين » وبدأ فى وضع خطة كتابه الأكبر « الاحياء العظيم » ، وكان بيكن يتوقع أن يكون هذا الكتاب أعظم ما كتب بحيث يعبر فيه عن نفسه بحق ويبلغ رسالته الى العالم .

وكانت خطة الكتاب « الاحياء العظيم » كما رسمها بيكن فى البداية تقضى بأن يتألف الكتاب من ستة أجزاء لم يستطع بيكن أن يتم الا واحدا منها ، وحتى فى هذه الحالة ظهر الكتاب ولما يكتمل بناؤه بعد ولنتأمل عناوين هذه الأجزاء كما أراد بيكن أن تكون :

١ ــ أقسام العلوم : وهو تصنيف للعلوم لم يكتبه بيكن فعلا ولكنه استعاض عنه مؤقتا بالجزء الثانى من كتاب « النهوض بالعلم » ورأى أن هذا الجزء يفى بالغرض حتى يتم هو تأليف كتاب خاص فى الموضوع وهو ما لم يفعله قط .

٢ ــ الأورجانون الجديد ، وعنوانه الفرعى هو : « ارشادات فى تفسير الطبيعة وهذا هو الجزء الذى نشره بيكن فعلا ، أما لفظ « الأورجانون » فيعنى الأداة أو المنطق نفسه بوصفه أداة للتفكير العلمى وقد أراد بيكن باستخدامه هذا اللفظ أن يعبر عن معارضته لنهج أرسطو ومنطقه الذى كان يعرف باسم « الأورجانون » .

٣ ــ ظواهر الكون ، أو تاريخ طبيعى وتجريبى تبنى على أساسه الفلسفة .

ويصف بيكن هذا الجزء بأنه دائرة معارف للعلوم الطبيعية وصنائع الانسان وفنونه ، يمكن عن طريقها اقامة الفلسفة على أساس سليم من دراسة الواقع بعد أن كانت تبنى من قبل على تجريدات لا صلة لها بالعلم الفعلى وقد ألف بيكن بضعة أبحاث قصيرة من أجل دائرة المعارف هذه ولكنه كان يؤمن بأن هذا عمل لا يمكن أن يقوم به رجل واحد .

٤ ــ سلم العقل : ويوضح الطريقة التدريجية في تطبيق المنطق على تفسير الوقائع التى جمعت فى المرحلة السابقة ٠

٥ ــ التمهيدات أو استباقات الفلسفة الجديدة : وهذا الجزء يقدم صورة تمهيدية للمعرفة الجديدة وللقوة التى يكتسبها الانسان عندما يتم « الاحياء » ٠

٦ ــ الفلسفة الجديدة أو العلم الايجابى : وقد صرح بيكن بأن قدراته لن تمكنه من كتابة هذا الجزء الأخير الذى سيكتبه العلماء أنفسهم بأبحاثهم والمفكرون بآرائهم المبنية على دراسة سليمة للواقع وكان يكفيه أنه بدأ السير فى الطريق ، وعلى البشرية أن تكمل ما بدأ ٠

وأول ما يلاحظ على هذه الخطة هو أن بيكن لم يتم الجزء الأكبر منها وكل ما فعله هو أنه حدد أهدافه العامة ، ثم شرع فى تنفيذ أجزائها الأولى وتوقفت جهوده عند هذا الحد ٠ وقد عمل شراح فلسفته على ادراج كتاباته المتفرقة ولا سيما مقالاته اللاتينية ضمن هذه الخطة وان لم يكن هو ذاته قد فعل ذلك ، وحتى فى هذه الحالة نجد أن هناك أجزاء غير قليلة من هذه الخطة لم تكتب فيها الا صفحات قلائل بينما الجزء الأخير لم يكتب فيه حرف واحد ٠

ولعل أهم نتيجة تكشف عنها خطة بيكن هذه هى أنه لم يؤلف بالفعل كتابا اسمه « الأورجانون الجديد » وانما ألف جزءا من « الاحياء العظيم » يحمل هذا العنوان ٠ وعندما نشر هذ الجزء أثناء حياة بيكن كان الغلاف يحمل اسم « الاحياء العظيم » وهكذا فان « الأورجانون الجديد » ليس كتابا مستقلا وانما هو جزء من كتاب أو على الأصح جزء من خطة عامة لاصلاح العلم والنهوض بحياة الانسان ومن الواجب دائما ان ينظر اليه داخل سياقه الطبيعى لا أن يؤخذ على انه بحث منفصل يكون أهم كتابات بيكن وقد تضمن القسم الثانى من « الأورجانون الجديد » خطة فرعية لهذا الجزء لم يستطع أن يتمها بدورها وهكذا ، فان « الأورجانون الجديد » جزء من خطة شاملة لم تكتمل كما أن الأورجانون الجديد نفسه خطة فرعية لم يكتمل منها الا جزء بسيط ، وقد ألف الكتاب على صورة فقرات منفصلة لها أرقام ثابتة وهو مؤلف من جزءين : جزء سلبى بعنوان « تفسير الطبيعة وقدرة الانسان » وجزء ايجابى بعنوان « تفسير الطبيعة وسيادة الانسان » وأسلوب الكتاب شيق بليغ يتضمن تشبيهات رائعة اشتهر بها بيكن فى كل كتاباته ، حتى عده البعض أمير البيان فى عصره سواء أكتب باللاتينية أم بالانجليزية (وقد بلغ من تحكمه فى اللغة أن ذهب بعض الباحثين المحدثين الى أنه هو المؤلف الحقيقى لدرامات شكسبير ، على حين

ان هـذا الأخـير لم يكن الا شخصـا مغمورا · ورغم ابتعاد الزعم عن الصـواب فانه ينطوى على تقدير ضمنى هائل لأسـلوب الكتابة عند بيكن !) ·

★★★

فلسفة بيكن ومنهجه

يقترن اسم بيكون بكتاب « الأورجانون الجديد » لدرجة أننا نظن خطأ أن الأورجانون الجديد عنوان كتاب مستقل ، وأنه كتاب بيكن الوحيد ، لكننا ـ كما أسلفنا ـ لاحظنا أن الأورجانون الجديد ليس الا جزءا من كتاب كبير مع أن بيكن لم يتم من هذا الكتاب الكبير الا ذلك الجزء ، لقد سجل بيكن منهجه الاستقرائي فى الأورجانون الجديد وقبل أن نعرض لمحتوى هذا الكتاب يحسن الاشارة الى موقف معين اتخذه بيكن من قيمة العلم يمكن تلخيصه فيما يلى : للعلم جانب نظرى وآخر عملى وينبغى ألا نتخذ العلم النظرى غاية فى ذاتها وانما هو وسيلة للفوائد العملية التى قد نجنيها من العلم والمقصود بالفوائد العملية للعلم تحقيق رفاهية الانسان · ينبغى أن تثمر الأبحاث العلمية فى الانتاج الصناعى والزراعى وتنشـيط هذه التجارب وبذلك يساهم العلم فى تحسين حياة الأفراد والأمم ، ولا يعنى هذا الموقف أن بيكن يحتقر الجانب النظرى من العلوم الطبيعية وانما يعنى فقط أن يرى بيكن هذا الجانب منخلا الى الفوائد العلمية ، وألا يكون العلم عديم القيمة بالنسبة للانسان ومن ثم قال بيكن قوله المأثور : « المعرفة قوة » أى يجب أن تحقق المعرفة العلمية سيادة الانسـان على مظاهر الطبيعة · يمكننا أن نفهم فى ضوء هذا الموقف من العلم كراهية بيكن للفلسفات القديمة ·

ولاختيار عنوان الكتاب « الأورجانون الجديد » دلالته فهو يدل على مقصد بيكن من الثورة على منطق أرسطو والمناداة بمنطق بديل عنه · كان يسمى منطقه « أورجانون » وهذه كلمة معربة عن اليونانية تعنى « أداة أو آلة » يقصد أرسطو بالأداة أنه لكى نبحث فى أى علم ينبغى أن نتمكن من أداة البحث وهو التسلح فى المنطق فهو منهج البحث فى أى علم ، جاء بيكن لينادى بالأداة الجديدة التى ينبغى علينا امتلاكها قبل أن نشرع فى البحث فى العلوم الطبيعية · ننتقل الآن الى ذكر أهم نقاط الأورجانون الجـديد ·

★★★

تحليل الأورجانون الجديد

قلنا عند الكلام عن مؤلفات بيكن ان « الاورجانون الجديد » ليس كتابا مستقلا بالمعني الصحيح وانما هو جزء واحد من ستة أجزاء كان بيكن يعتزم تاليفها تحت عنوان واحد شامل هو « الاحياء العظيم » . وتأكيد هذه الحقيقة أمر على جانب كبير من الأهمية اذ أن فهم المرء لبيكن يتغير كثيرا فى الحالتين : فالتركيز على كتاب « الاورجانون الجديد » بوصفه كتابا منفصلا بل بوصفه المؤلف الأكبر لبيكن يؤدى الى فهم بيكن على أنه مفكر منطقى فى المحل الأول على حين أن وضع هذا الكتاب فى سياق الخطة الكاملة « للاحياء العظيم » يلقى ضوءا صحيحا على مجهودات بيكن فى مجال المنطق ، بوصفها جزءا من مجهودات أشمل تتعلق بعلاقة الانسان بالطبيعة وتهدف الى تحقيق سيطرة الانسان على عالمه عن طريق العلم ومن المؤكد أن هذه النظرة الأخيرة تنطوى على المزيد من الانصاف لبيكن .

أما ادراك قيمة بيكن من حيث هو مفكر انسانى يدعو الى تطبيق العلم من أجل زيادة مقدرة الانسان المعنوية والمادية فهو وحده الكفيل بضمان مكانة رفيعة له بين الفلسفة ، اذ يغدو عندئذ رائدا من رواد النهضة الفكرية الحديثة بما لها من مميزات تختلف بها عن العصر القديم والعصر الوسيط اختلافا أساسيا .

تقسيم الكتاب :

ينقسم الكتاب الى فقرات موزعة على بابين وبيانها كما يأتى :

الباب الأول : فى الفقرات من ١ الى ٤ يبحث بيكن موضوع العلاقة بين الانسان والطبيعة فيبين أن الانسان يكمل عمل الطبيعة ويفسرها وبذلك ينفى ضمنا علاقة النفور والكراهية التى كانت سائدة بين الانسان والطبيعة فى العصور الوسطى .

ـ من ٥ الى ١٧ ينتقد بيكن العلوم الموجودة فى عصره كما ينتقد أداة هذه العلوم وهى المنطق الوسطى .

ـ من ١٨ الى ٢٧ : يتحدث بيكن عن التقابل بين استباق الطبيعة وتفسيرها ويوجه نقدا مفصلا الى نظرية الاستقراء عند أرسطو .

ـ من ٣٦ الى ٦٨ : يعرض بيكن أسباب الخطأ ومظاهر الضعف فى

ذهن الانسان وذلك فى نظرية « الأوهام الأربعة » وهو يبدأ بعرض عام لهذه الأوهام ثم يتحدث عن كل منها بتفصيل .

— من ٦٩ الى ٧٧ : يتحدث بيكن عن المعايير أو « العلامات » التى نميز بها العلوم والفلسفات الباطلة .

— من ٧٨ الى ٩١ : يوضح أسباب تدهور أحوال العلم والفلسفة .

— من ٩٢ الى ١٢٩ : يشرح كيف يمكن تلافى هذا النقص واصلاح العلم وانهاض الفلسفة .

الباب الثانى : اذا كان الباب الأول من الكتاب ناقدا هداما فى معظم أجزائه فان الباب الثانى بناء يعرض فيه بيكن نظريته الجديدة فى الاستقراء والقواعد الثلاث المشهورة للبحث العلمى ويطبق هذه القواعد على عدة أفكار أو مفاهيم أساسية فى العلم أهمها مفهوم « الحرارة » . ثم ينتقل بيكن الى بحث « العوامل الأخرى المساعدة للذهن » (الى جانب قواعده السابقة) ويعدد من هذه العوامل تسعة ، غير أن بقية الكتاب يخصص كله للعامل الأول من هذه العوامل التسعة فقط وهو « الأمثلة المميزة » .

أما العوامل الثمانية الأخرى التى لم يكتب عنها شيئا فهى :

٢ — دعائم الاستقراء .

٣ — تصحيح (أو تقويم) الاستقراء .

٤ — تنويع البحث تبعا لطبيعة الموضوع .

٥ — الطبائع المميزة .

٦ — حدود البحث أو احصاء شامل لكل الطبائع فى الكون .

٧ — التطبيق العملى .

٨ — استعدادات البحث .

٩ — السلم الصاعد والهابط للقوانين .

وكما قلنا من قبل فان بيكن لا يبحث فى بقية الباب الثانى (ابتداء من القسم الحادى والعشرين) ، الا الموضوع الأول من هذه الموضوعات التسعة وهو «الأمثلة المميزة» والمقصود من فكرة الأمثلة المميزة ذلك النوع من الظواهر الذى يلقى ضوءا ساطعا على موضوع البحث وبذلك يكون أجدر بالبحث من غيره من الظواهر ، ذلك لأن الطبيعة تحفل بأمثلة لا حصر لها فى كل ميدان خاص من ميادينها ومن المحال أن ندرك أسرار الطبيعة فى هذه الميادين الا اذا عرفنا كيف ننتقى الأمثلة التى تكشف فيها الطبيعة عن

أسرارها هذه والتى تتيح لنا ـ أكثر من غيرها ـ اقتحام أبواب الطبيعة المغـــلقة ٠

وقد أحصى بيكن سبعة وعشرين من هذه الأمثلة المميزة أطلق على كل منها ـ جريا على عادته ـ اسما غريبا فريدا ولكن الكثير من أسمائه هذه قد ثبتت فى لغة العلم وأصبحت اليوم جارية على ألسن العلماء وليس فى وسعنا هنا أن نعدد هذه الأنواع السبعة والعشرين من الأمثلة المميزة ولكن نكتفى بذكر أهمها :

ـ الأمثلة المنعزلة : وهى عزل الظاهرة المراد بحثها من غيرها من الظواهر التى تختلط عادة بها كتحليل الألوان بواسطة العدسة بدلا من ادراكها مختلفة بعناصر أخرى فى الأشياء الطبيعية ٠

ـ الأمثلة الفاصلة : وهى تلك التى تمكننا من المفاضلة والاختيار بين نظريات مختلفة متنافسة ٠

ـ الأمثلة الساطعة : وهى تلك التى تتمثل فيها ظاهرة بأقصى شدة ممكنة ٠

ـ الأمثلة الخافتة أو الخفية : وهى عكس السابقة أى تلك التى تتمثل فيه الظاهرة أضعف وأخفى ما تكون ٠

ـ الأمثلة الحدية : وهى تلك التى تقف على الحـدود بين ظاهرة وأخرى مثلما يقف الاسفنج على الحدود بين الحى وغير الحى ٠

ـ الأمثلة المنادية : وهى تلك التى تتضـــمن تجارب الظاهرة أو تستدعيها أمامنا ٠

الأفكار الرئيســـية

كان بيكن يؤمن بأن للبحث فى المنهج أهمية عظمى ٠ وكان يرى فى الوقت ذاته أن منهجه جديد كل الجدة : فهو ليس استمرارا للمناهج القديمة أو اصلاحا لها ، وانما هو محالة جديدة لم يجر بها أحد من قبل ولا شك أن قيمة أى منهج لا تقاس الا بنتائجه ومن هنا ، كان بيكن يلح أشد الالحاح على تطبيق مشروعاته العلمية حتى يتسنى تجربة مناهجه الجديدة عمليا واختبارها من خلال التطبيق العملى لها ٠

وتنحصر قيمة المنهج عند بيكن فى أنه الأداة التى تساعد الانسان على توسيع أفقه العقلى وعلى كشف المناطق المجهولة من العالم سواء أكانت هذه المناطق مادية أم معنوية ٠ ولقد كان بيكن يقارن عمله فى كثير من الأحيان بعمل كولمبس فى ميدان الكشف الجغرافى ولهذه المقارنة دلالتها الواضحة اذ أن نفس القوة التى دفعت كولمبس الى الابحار الى أقصى الغرب

الواضحة ، النائية للعالم ، هى التى دفعت بيكن الى محاولة زيادة قدرة الذهن على السيطرة على العالم الى أقصى مداها فالغاية فى الحالتين هى زيادة قوة الانسان واحكام سيطرته على الطبيعة ومن هنا قال بيكن مبررا مجهوده فى ميدان البحث المنهجي : « انه لمن المخجل حقا فى هذا الوقت الذى فتحت فيه آفاق العالم المادي من أرض وبحار وسماء أن تظل حدود العالم العقلى مقتصرة على كشوف القدماء وآرائهم » . ومما يثبت أن كلمة « العالم العقلى » هنا تشمل جميع ميادين المعرفة ولا تقتصر على ذلك الميدان الذى طالما تحدث عنه وهو ميدان العالم الطبيعى التجريبى قوله فى النص الآتى : « وربما تساءل البعض : هل نحن نرمى الى انهاض الفلسفة الطبيعية وحدها وفقا لمنهجنا أو نرمى الى انهاض العلوم الأخرى بدورها كالمنطق والأخلاق والسياسة ؟ اننا قطعا نعتزم ادراج هذه العلوم كلها (ضمن منهجنا) وكما أن المنطق الشائع الذى ينظم الأمور كلها بواسطة الأقيسة لا يطبق على العالم الطبيعى وحده وانما على كل علم آخر ، فان منهجنا الاستقرائى يمتد بدوره الى كل العلوم الأخرى ذلك لأننا نعتزم جمع تاريخ وقوائم للاختراع خاصة بالغضب والخوف والخجل وما شابهها وكذلك بأمثلة فى الحياة المدنية وبعمليات الذاكرة والتركيب والتقسيم والحكم وما شاكلها تماما كما نفعل فى الحرارة والبرودة والضوء والنبات وما اليها وبعبارة أخرى ، فالمنهج العلمى ينبغى فى رأيه أن يطبق على جميع مجالات الفكر وان لم يكن وقته قد اتسع الا للكلام عن تطبيقاته فى مجال العلوم التجريبية فحسب .

الأوهـــام الأربعـــة :

ربما كان أشهر أجزاء كتاب « الأورجانون الجديد » بل أشهر أجزاء كتاباته كلها هو ذلك الجزء الذى يتحدث فيه بيكن عن مظاهر الزلل فى ذهن الانسان أعنى الأوهام الأربعة . وقد ظهرت هذه الكرة فى كتابات مبكرة لبيكن فتحدث فى كتاب « انهاض العلم » عن أوهام الجنس والسوق والكهف والمسرح دون أن يذكر أسماءها ، ولكنه عالجها على أكمل وجه فى الباب الأول من « الاورجانون الجديد » وتتعلق هذه الأوهـــام بالطبيعة البشرية بما هى كذلك وبالطبيعة الفردية لكل شخص وبالألفاظ ووسائل تداول الأفكار وبالمذاهب الباطلة في الفلسفة والعلم وبذلك يكون مذهب الأوهام الأربعة عند بيكن خلاصة لنقده الشـــامل لتطور العقل البشرى وتحديدا للاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه اصلاح العلم وان يكن من أصعب الأمور ــ كمـــا أدرك هو ذاته ــ أن يتخلص العقل من كل هذه الأوهام المتأصلة فيه ويبدأ صفحة جديدة ناصعة البياض من تاريخه .

١ ــ تتعلق أوهام الجنس (النوع) بالأخطاء الكامنة فى الطبيعة

البشرية بوجه عام : فالحواس البشرية التى تتخذ مقياسا للأشياء جميعا معرضة للخطأ وعقل الانسان أشبه بمرآة غير مصقولة تضفى خصائصها الخاصة على الأشياء وتشوه صورتها وهكذا يضفى العقل على الأشياء ترتيبا ونظاما يلائم طبيعته الخاصة ولكنه غير موجود فى الأشياء ذاتها ومن هذا القبيل القول أن جميع الاجرام السماوية تدور فى مسارات تتخذ شكل الدائرة الكاملة وهكذا ، فان العقل البشرى عندما يضع نظرية ما يميل الى ادخال كل الظواهر قسرا فى هذه النظرية والى تجاهل أو اغفال كل الشواهد المتعارضة معها ومهما كان من قوتها ومن هذا الميل تنشأ الخرافات بشتى أنواعها كما ينشأ ميل الفلاسفة الى تفسير كل الظواهر من خلال مجموعة قليلة من المبادىء الثابتة مع اغفال كل التفاصيل المهمة التى ينطوى عليها الكون ، ولدى العقل البشرى ميل آخر الى ممارسة نشاطه دون توقف : فيظل يبحث عن العلل ولا يستطيع أن يتصور شيئا بغير علة وبذلك يقع فى أخطاء مثل تصور « «العلة الغائية» التى هى أكثر ارتباطا بطبيعة الانسان منها بطبيعة الكون » والتى هى من أكبر مصادر الفساد فى الفلسفة ٠

٢ ــ ولقد استمد بيكن اسم « أوهام الكهف » من أفلاطون وهو يعنى بها الأوهام الفردية التى يقع فيها كل شخص نتيجة لتكوينه الخاص . شأنه شأن سجناء الكهف عند أفلاطون وربما كان لنا أن نلاحظ فى صدد هذه التسمية أن أسطورة الكهف عند أفلاطون تتعلق بالنوع البشرى كله أو هى ترمز الى حالة الانسان وموقفه بوجه عام ٠ فالكهف عند أفلاطون هو الجهل أو النقص الأصيل الكامن فى الطبيعة البشرية ومن هنا ، فانه أحرى بأن ينطبق فى الواقع على النوع الأول من الأوهام ٠

ومن طبيعة هذه الفئة من الأوهام أنها شديدة التنوع لأنها تختلف فى كل فرد عنها فى الآخر : فمن الناس من يميل بطبيعته الى ادراك الفروق بين الأشياء ــ وهؤلاء هم المدققون الميالون الى تأمل التفاصيل ومنهم من يميل الى ادراك أوجه الشبه بين الأشياء وهؤلاء هم أصحاب المزاج التأملى ولكل من الطرفين أخطاؤه ، كما أن بعض الناس ميالون الى التقدم وبعضهم الآخر ميال الى التجديد مع أن الحقيقة لا زمان لها ولا يلزم بالضرورة أن تكون فى القديم وحده أو الجديد وحده وهكذا الحال فى سائر أنواع التحزب والتعصب الفردى التى ينبغى التخلص منها لضمان نزاهة البحث والتفكير ٠

٣ ــ ويرى بيكن أن أوهام السوق هى أخطر أنواع الأوهام والاسم يستمد من عملية التبادل التى تتم فى السوق، والتى يشبه بها بيكن عملية تبادل الأفكار وتداولها بين الناس عن طريق اللغة « ذلك لأن الناس يتوهمون

أن عقلهم يتحكم فى الألفاظ على حين أن الألفاظ هى التى تعود فتتحكم فى العقل وتؤثر فيه » ويدرك بيكن أن الألفاظ انما تعرف الأشياء على نحو غير دقيق لأن أصلها شعبى وليس علميا فهى موضوعة أصلا لتلائم الذهن العامى وهكذا ، فان الذهن العلمى حين يريد التعبير عن أفكاره وملاحظاته المرهفة الدقيقة لا يجد من الكلمات معينا ، فتنتهى كثير من الخلافات العلمية الى مجرد مجادلات لفظية بدلا من أن تدخل فى صميم موضوعاتها ومن هنا كانت دعوة بيكن الى مواجهة الأشياء مباشرة بدلا من الاكتفاء بمواجهة الأشياء من خلال الألفاظ اللغوية ٠

وتنقسم الأوهام التى تفرضها اللغة الى أسماء لأشياء ليس لها وجود كالقدر والمحرك الأول وعنصر النار وأسماء لموضوعات فعلية ولكنها جردت من الأشـــياء على عجل ودون تدقيق بحيث دب الخلط والاضطراب فى معانيها مثل كلمة « الرطوبة » التى تعددت معانيها الى درجة يصعب معها الاستقرار على واحد منها ٠ وتتدرج الأسماء فى مقدار افتقارها الى الدقة من أسماء الأشياء المادية الفردية التى هى الأقل تعويضا للخطأ الى أسماء الصفات المجردة التى هى الأكثر تعرضا للخطأ ومن هنا كان من الواجب أن نحرص على دقة التعريف فى الحالة الأخيرة بوجه خاص ، مع ادراكنا أن اللغة فى عمومها وفى جميع أحوالها ميدان خصب للأوهام التى تعوق الذهن عن مواجهة الأشياء وادراك طبيعتها الحقة ٠

٤ ــ والنوع الأخير من الأوهام هو أوهام المسرح وهى أوهام النظريات والمذاهب التى تفرض نفسها على الأذهان بمنطق مزيف أو نتيجة لاحترامنا المفرط لآراء القدماء ٠ هذه النظريات والمذاهب تتعدد فى الموضوع الواحد بغير حدود ويقف العقل ازاءها حائرا وكأنه مسرح يروح عليه الممثلون ويجيئون بينما يقف هو سلبيا : يتقبلها كلها دون مناقشة ٠ على أن هذه النظريات كلها لا تستند على أساس من الدراسة الفعلية للواقع وانما هى ترتكز على الاستدلالات المنطقية البارعة والمزيفة فى الوقت نفسه ومن هنا كانت الحاجة الى ايجاد أساس أمتن للفلسفة بحيث لا يعود العقل مسرحا لنظريات متعارضة فى الموضوع الواحد ، وانما يتقبل ما يشهد به الواقع فحسب ٠

وينقد بيكن ، ضمن هذه الفئة من الأوهام ، ثلاثة أنواع من الفلاسفة : النوع النظرى أو السفسطائى ويمثله أرسطو ، وهو يخلق عالما من الأفكار المجردة التى لا يقابلها فى الواقع شىء كالمقولات والقوة والفعل ويعالج كل الموضوعات من خلال هذه الأفكار وحتى التجارب القليلة التى أجراها كانت نتيجتها قد تحددت مقدما عن طريق الاستدلال ٠ والنوع الثانى هو التجريبى العشوائى وهو يعتمد على تجارب قليلة لا تخضع لمنهج منظم

ويحاول أن يبنى منها فلسفة كاملة ومن هؤلاء الكيميائيون القدامى الذين يتعجلون الوصول الى نتائج قبل أن يبنوا أبحاثهم على أساس متين . والنوع الثالث هو أصحاب الخرافات الذين يمزجون الفلسفة باللاهوت ولا يفرقون بين التفكير المنظم وبين الأسطورة الشعرية . ومن هؤلاء فيثاغورث وكذلك أفلاطون الذى ينتمى الى هذه الفئة ولكن « فى صورة أدق وأخطر » .

وبعد أن يعرض بيكن نظريته فى الأوهام الأربعة ، يدعو الذهن الى تطهير ذاته منها والبدء فى البحث على أسس سليمة فيقول : « لقد أتممنا الآن بحث كل نوع من الأوهام وخصائصها وهى كلها أوهام ينبغى التخلى عنها بعزيمة صادقة ويجب تحرير الذهن وتطهيره منها بحيث يغدو دخول مملكة الانسان التى تقوم على العلوم مماثلا لدخول مملكة السماء التى لا تفتح أبوابها الا للأطفال » .

وهكذا ينبغى أن يقبل الذهن على تحصيل العلوم وهو أشبه بطفل برىء خلا ذهنه من الأفكار السابقة .

★★★

تاثير بيكن

على الرغم من أهمية نظرية الاستقراء عند بيكن ، فان التأثير الأعظم له لم يكن فى هذا الميدان ، ذلك لأن البحث النظرى فى مناهج العلم أمر مشكوك فى قيمته دائما . ويبدو أن بيكن ذاته قد وصل الى هذه النتيجة وأدرك أن العالم لا يخضع لمناهج يفرضها عليه الفلاسفة وانما هو يضع لنفسه مناهجه خلال عملية البحث العلمى ذاتها ومن هنا فقد توقف عن اكمال « الاورجانون الجديد » واتجه بذهنه الى مشروعات أخرى أجدى من فرض المناهج على العلماء . والواقع أننا نستطيع أن نقول ان الفارق الحقيقى بين القياس والاستقراء هو أن الأول يزيد من تأكيد أهمية المنهج الفلسفى على حين أن الثانى يميل الى الاقلال من هذه الأهمية فالقياس يعنى مزيدا من الاهتمام بالألفاظ أو تحليل للمعرفة عن طريق التعامل مع كلمات ، على حين أن الاستقراء يعنى مزيدا من اهتمام بالأشياء ذاتها والوصول الى العلم بغير واسطة من الاجراءات والعمليات المنطقية وهكذا يبدو أن بيكن حين عاد الى استبدال الاستقراء بالقياس لم يكن يدعو فى واقع الأمر الى احلال نوع جديد من المنطق محل نوع قديم ، وانما كان يدعو الى تنظيم جديد للمعرفة الانسانية يبتعد فيه الفكر عن عبودية المنطق ويرجع الى المصدر الأصلى للمعرفة وهو الطبيعة أى أنه فى « الاورجانون

الجديد » انما يدعو الى منطق يقضى على تقديس المنطق واستدلال يقلل من أهمية الاستدلال ·

وعلى هذا الأساس ينبغي البحث عن تأثير بيكن الحقيقي في نواح أخرى من تفكيره وبالفعل كان لبيكن تأثير عظيم فى الأجيال التالية فى أوروبا بوجه عام وفى بلاده بوجه خاص ·

وقد لخص « أندرسن » تأثير بيكن الاكبر فى ثلاث نقاط :

١ ــ تحريره للعلم من حفظ المعارف وترديدها ومن طريقة النقل والمرجوع الى التراث ، التي كانت سائدة فى أعظم الجامعات فى ذلك الحين ·

٢ ــ دعوته الى الفصل بين العلم الانسانى والوحي الالهى ·

٣ ــ مناداته بفلسفة جديدة ترتكز على أســـاس متين من العلم الطبيعى لا من الميتافيزيقا التجريدية ·

ونستطيع أن نقول فى صدد المسألة الأولى ان طبيعة العلم قد أخذت تتغير بسرعة بعد وفاة بيكن بوقت قصير صحيح ان الحركة العلمية الحديثة كانت قد بدأت قبله ومستقلة عنه ومع ذلك فقد كان لتعاليمه تأثير بعيد فى دفع هذه الحركة الى الأمام أسفر عن انشاء الجمعية الملكية فى لندن « وهي الجمعية التى أشاد مؤسسوها بذكرى بيكن في يوم افتتاحها » ، وظهور موجة طاغية من الأبحاث التجريبية والكشوف الفنية التفصيلية التى استلهمت تعاليمه والتي مهدت لظهور الثورة الصناعية فى انجلترا بعد ذلك بقرن من الزمان ·

أما مسألة الفصل بين الدين والعلم فمن المؤكد أن بيكن قد أسدى بها إلى العلم خدمة كبرى وجنبه تدخل رجال اللاهوت الذين كانوا يرون أنفسهم « علماء » وأصحاب الرأي المطلق في كل كشف جديد ، لأنهم حملة الأسرار الالهية · ولا يستطيع أحد أن يشك في ايمان بيكن بتعاليم الدين غير أنه كان فى الوقت ذاته حريصـــا كل الحرص على ابعـــاد السلطة الدينية عن مجال الحقيقة العلمية بحيث اكتفى فى الشئون الدينية بالوحي وترك للعقل مهمة بحث مادة العالم الطبيعى وكشف قوانينها وبذلك صد عن الباحثين فى مجـــال هجمات رجـــال الدين دون استفزاز لهؤلاء الأخيرين ·

وأما فلسفة بيكن المرتكزة على أساس علمى فقد ظلت هى التيار السائد فى الفلسفة الانجليزية على التخصيص حتى اليوم ويمكن القول ان المذاهب التجريبية بمناحيها فى الملاحظة التسجيلية الدقيقة لعمليات

الذهن البشرى وكذلك المذاهب الوضعية فى تحليلاتها الدقيقة للغة العلمية. كل هذه قد تأثرت بطريق مباشر أو غير مباشر بدعوة بيكن الفلسفية الجديدة فى مستهل العصر الحديث .

نصوص مختارة من الأورجانون الجديد

أوردنا فيما سبق نصوصا متعددة من كتاب « الأورجانون الجديد » ولذا ، سنكتفى فى هذا الجزء بنصوص قليلة تكمل ما اقتبسناه من قبل :

١ ــ فى القسم ٨٤ من الباب الأول يناقش بيكن فكرة احترام القدماء والخضوع للسلطة فى ميدان الفلسفة ويوضح مدى ضررها بالنسبة الى تقدم المعرفة فيقول :

« ان الرأى الذى يرفع به الناس من قيمة القديم هو رأى باطل تماما ولا ينطبق على لفظ « القديم » مطلقا ذلك لأن شيخوخة العالم وتزايد عمره هو الذى يعد فى الواقع (قديما) وهذه هى الصفة المميزة لزمننا هذا لا للعمر المبكر للعالم فى أيام القدماء اذ أن هؤلاء الأخيرين هم بالنسبة الينا قدماء سابقون ولكنهم بالنسبة الى العالم محدثون صغار ولما كنا نتوقع من الشخص المتقدم فى العمر معرفة أعظم بأمور البشر وحكما أنضج من حكم الشاب ومعرفته نظرا الى ما اكتسبه الأول من تجارب وما مر به من حوادث منوعة متعددة ولكثرة ما رآه وسمعه وفكر فيه فان لنا الحق فى أن ننتظر من عصرنا (لو أنه أدرك قوته وجربها ومارسها) أمورا أعظم مما ننتظره من العصور القديمة مادام العالم قد ازداد اليوم قدما وتضاعفت ذخيرته وتراكمت بفضل عدد لا نهاية له من التجارب والملاحظات » .

١ ــ وفى القسم ١٢٩ من الباب الأول يقارن بيكن بين تأثير المخترعات التى تبدو فى ظاهرها بسيطة وبين تأثير الساسة والملوك ورجال الدين فى شئون البشر لكى ينتهى من ذلك الى أن تحقيق سيطرة الانسان على الطبيعة عن طريق الاختراع ، هو أسمى الغايات جميعا فيقول :

« نلاحظ أولا أن استحداث الاختراعات العظيمة يبدو عملا من أروع الأعمال البشرية وعلى هذا النحو نظر الأقدمون الى هذه المسألة : ذلك لأنهم كانوا يخلعون ألقاب الشرف الالهية على أصحاب المخترعات ولكنهم كانوا يكتفون بألقاب الشرف البطولية على أولئك الذين أثبتوا امتيازا فى الشئون المدنية (كمؤسسى المدن والامبراطوريات والمشرعين وأمثالهم) ولو قارن المرء بين الفئتين على النحو الصحيح : ذلك لأن الفوائد المكتسبة من الاختراعات يمكن أن تعم البشر عامة ، على حين أن الفوائد المدنية تقتصر

على مواضع خاصة بعينها ، كما أن هذه الأخيرة لا تدوم الا وقتا معلوما أما الأولى فأثرها باق الى أبد الدهر كذلك فان الاصلاح المدنى قليلا ما يتم دون عنف واضطراب على حين أن المخترعات نعمة وفائدة لا تؤذى ولا تضر أحـــدا ٠

٠٠٠ وفضلا عن ذلك فليتأمل المرء الفارق الهائل بين حياة الناس فى أرقى البلاد الأوربية وبين حياتهم فى أية منطقة همجية من جزر الهند الجديدة ، وسيجد أن هذا الفارق قد بلغ من الضخامة حدا يجعل الانسان أشبه ما يكون بالآلة بالنسبة الى الانسان ليس فقط بفضل تبادل المساعدة والمنافع ، وانما بفضل الحالة السائدة لدى الانسان فى كلتا الحالتين وهى نتيجة فنون الانسان وصنائعه لا نتيجة التربة أو المناخ ٠

كذلك ينبغى علينا أن نلاحظ قوة الاختراعات وتأثيرها ونتائجها وهى أمور تظهر أوضح ما تكون فى تلك المخترعات الثلاثة التى لم يعرفها القدماء : وهى الطباعة والبارود والبوصلة ذلك لأن هذه الاختراعات الثلاثة قد غيرت وجه العالم بأسره : الأولى فى ميدان العلم والثانية فى ميدان الحرب والثالثة فى الملاحة وهى قد أحدثت تغييرات لا حصر لها ، بحيث يمكن القول ان أية مملكة أو مذهب دينى أو نجم فلكى لم يكن له من التأثير فى شئون البشر أعظم مما كان لهذه الكشوف الميكانيكية ٠

وجدير بنا أن نميز بين ثلاث مراتب من الطموح : الأولى طموح أولئك الذين يسعون الى زيادة قوتهم الخاصة فى بلادهم وهو طموح وضيع منحط والثانية طموح أولئك الذين يسعون الى زيادة قوة بلدهم وسيطرته على البشر وهو طموح أرفع من السابق ولكنه لا يقل عنه طمعا ٠ أما اذا حاول امرؤ أن يستعيد ويوسع قوة الجنس البشرى فى عمومه ويزيد من سيطرته على الكون فان مثل هذا الطموح (ان جازت تسميته بهذا الاسم) انما هو أشرف وأنبل من النوعين السابقين معا ، على أن سيطرة الانسان على الأشياء انما تقوم على الفنون العملية والعلوم وحدها اذ أن الطبيعة لا تحكم الا باطاعتها » ٠

★★★

الحكايات

لافونتين

١٦٩٣ م

بالأمس قال معاصرو لافونتين عنه — ضمن ما قالوا — انه « ساذج » .. واليوم — وقد انقضى على وفاته قرابة ثلاثة قرون — يجىء أساتذة النقد فيقطعون بأن طبيعته ما تزال لغزا لم يحل بعد : يقول رينيه بريه : ان الغموض ما يزال يكتنف حياة لافونتين وتاريخ انتاجه ويقول أنطون آدم : انه لمن الصعب أن يسبر غور هذا الرجل ... وفى الماضى كان الناس يعتقدون أن حكايات لافونتين موجهة الى الأطفال ولكن سانت بيف يقول فى القرن التاسع عشر : « ان لافونتين الذى يقدم الى الأطفال لا يمكن أبدا للقارىء أن يتذوقه جيدا الا بعد سن الأربعين » ... من هو اذن هذا الرجل الذى صارت حياته كالأسطورة ، هذا الشاعر الفريد الذى لا يشبه شاعرا آخر على الاطلاق ؟ ما كنه فنه الذى أخفق فى تقليده عشرات من الكتاب فى حياته وبعد مماته ؟!

★★★

حيـــاة لافونتـين

ولد «جان دى لافونتين » عام ١٩٢١ فى اقليم شمبانيا بفرنسا من أب كانت له حراســـة الغابات فى اقليمه ، وهو منصب لا بأس به وورثه الابن عن أبيه وشاءت الأيام لأديبنا ألا يتلقى من العلم الا مبادىء لا تغنى ولا تفيد لكن سرعان ما اجتذبه الأدب الى حظيرتـه فأخذ يطالـع الروائع الأدبية فى مكتبة جده الغنية بالنفائس فدرس آثار « مارو » و « رابلييه » وغيرهما من أعلام الأدب فى القـرن السادس عشر . والعجيب أن لافونتين الذى خلقه الله كاتبا لم يفكر فى حمل قلمه الا بعد زمن طويل أنفقه فى القراءة فكانت أول آثاره ترجمة عن « ترنس » المسرحى المعروف فى أدب الرومان الأقدمين ثم انتقل لافونتين من الريف الى باريس حيث لم يلبث أن سطع نجمه وذاع اسمه فى عـالم الأدب وقد عاش فى باريس عيش المستهتر الذى لا يأبه لشىء ينشد متعة نفسه ، وسرعان ما وجد من رعاة

الأدب الأغنياء من يجعله فى كنفه ويغدق عليه المال فاكتفى بذلك وأخذ يتنقل بين مشاهد الحياة كأنها هو الطفل سذاجة وصراحة واستخفافا بأعباء العيش ولكنه فى حقيقة الأمر انما كان ينظر الى الأشياء بذلك البصر النافذ الذى يكشف عن كوامن النفوس ، وقد تملكه احساس قوى يعبث بالأشياء ويشعر بتفاهتها ٠

كان لافونتين أثناء اقامته فى باريس يخالط أئمة الأدب فى عصره : بوالو وموليير وراسين فكان الأربعة يجتمعون على فترات منتظمة فى حانة أو فى منزل لكنه الى جانب ذلك كان يعاشر صحبة السوء حتى تلوث اسمه فكان ذلك سببا فى أن يشير على الملك مشيروه الا يأذن بقبوله عضوا فى المجمع الفرنسى فلما مات أحد الأعضاء رشح لملء مكانه اثنان هما لافونتين وبوالو وهما صديقان حميمان ، وكان القصر يؤيد بوالوا والمجمع يفضل لافونتين فاختاره المجمع دون زميله فأرجأ الملك موافقته وأوشك أن يرفض ما قرره المجمع لولا أن خلا مكان جديد فانتخب له بوالو وحل بذلك الأشكال ومع ذلك ، فقد أشار الملك عند اعلان الموافقة على لافونتين اشارة لها مغزاها :« لكم ان تضموا لافونتين فقد وعد أن يكون حكيما » ولما اقترب لافونتين من ختام حياته تاب وندم على مجونه ومات سنة ١٦٩٥ ٠ ورعا تقيا !! ٠

★★★

أعمال لافونتين

ويروى لافونتين أنه لم يكن يفطن الى أنه رزق موهبة الشعر الا ذات يوم حين قرأ عليه أحد الضباط فى قصيدة لماليرب عن احدى محاولات اغتيال الملك هنرى الرابع هنا شعر برغبة ملحة فى قرض الشعر وبدأ يكتب منه قطعا كانت رديئة كلها ٠٠٠ على أن الشىء المسلم به هو أن نبوغه لم يظهر الا فى سن الأربعين ٠٠ كيف ؟ فى عام ١٦٦١ غضب لويس الرابع عشر على فوكيه فأمر بسجنه واذا بصداقة لافونتين وعرفانه يطلقان لسانه بأول أشعار تلوح فيها ملامح العبقرية : كتب قصيدة طويلة عنوانها L'Elegie auxnymphes du vaux هى التماس بالغ التأثير موجه الى الملك المستبد ٠٠٠ فالحق أن لافونتين كان مشبعا بروح تلك الصداقة النادرة التى لم تكتب من وحيها صفحات كثيرة والتى لم يعبر عنها فى الأدب الفرنسى بعمق يستأثر بالنفوس سوى مونتنى وجزع لافونتين لما لحق صديقه من عنت الملك الطاغية ومرض ثم رحل الى ليموزان وفى

رحلته كان يكتب ما يشبه المذكرات ويوجهه شعرا ونثرا الى زوجته، مذكرات تنطق بالألم والحسرة من أجل صديقه المنكوب ·· وتوقف فى طريقه فى أمبوز فبحث عن مبنى سجنها الذى زج فيه بفوكيه وجمد أمام بابه ولم « يبرح مكانه حتى أدركه الليل » · لقد كانت الصداقة شيئا حيويا فى حياة لافونتين ملكت عليه نفسه وألهمته فى كثير من أشعاره وهى تصلح لان تكون موضوعا لرسالة قيمة يتناول فيها الباحث ـ بالضرورة ـ علاقة لافونتين بموليير وراسين وبوالو وشابل عن فوكييه ·

وشخصية لافونتين تسترعى الانتباه حقا وهى بدورها تكون مادة خصبة لدراسة سيكولوجية شائقة لندعه أولا يتكلم :

انى أحب اللعب والحب والكتب والموسيقى ·
والمدينة والقرية وبكلمة واحدة كل شىء ·
ولا شىء قط يعجز عن امتاعى أيما امتاع ·
حتى ولا تلك اللذة الكئيبة التى يحسها قلب مبتئس ·

وينادى اللذة فيقول :

أيتها اللذة أيتها اللذة يا من كنت فيما مضى مسيطرة ·
على أجمل عقل فى اليونان ·
لا تستخفى بى تعالى واسكنى لدى ·
انك لن تكونى بلا عمل ·

وكيفما كان سعيه وراء اللذات فمن المؤكد أن حقيقة الأمر قد تأثرت بفعل الأساطير التى نسجت حول سمعة هذا الرجل « الطيب » وهناك شىء آخر لا تعرف الحقيقة عنه بدقة قاطعة هو حديثه أكان مملا ؟ أكان طليا ؟ الآراء فى ذلك متناقضة · كتب فولتير الى فوفنارج : « ان طبيعة هذا الرجل الساذج من البساطة بحيث كان حديثه لا يعلو على الحيوانات التى كان يمنحها الكلام · ان النحلة رائعة · ولكن حين تكون فى خليتها فان غادرتها لم تصبح أكثر من ذبابة » ·· بينما يرى « سانت بيف » ان صاحب الحكايات كان محدثا لطيفا فى الأوقات التى لم يكن فيها مغرقا فى التفكير والشرود ويقول لويس راسين ان من الموضوعات التى كانت « توقظ » لافونتين وتثير تحمسه أفلاطون ··· ويضيف فيرجييه الى أفلاطون السلام والحرب والنبيذ والنساء ·· ولكن أية فئة من النساء ؟ ـ هؤلاء اللائى لا يقتضى الوصول اليهن بذل جهد طويل ··

★★★

ولم يكن لافونتين يعرف أين توجد عبقريته ، فلم يستقر فى نوع من الأنواع الأدبية وانما كان دائم التجول بينها جميعا وان كان – مع ذلك – كثير التردد على « الحكايات » أو « الخرافات » التى تكدست وملأت اثنى عشر كتابا نشرها فى ثلاثة دواوين سنتناولها فى الصفحات التالية بالبحث والتحليل .

وشهادة لافونتين عن نفسه خير ما يقال عن عدم استقراره هذا ومحاولته الابداع فى شتى أنواع الأدب لندعه يعترف :

انى فراشة الشعر أشبه النحل .

وانى لشىء خفيف أطير الى كل موضوع .

كتب – ارضاء لذوقة بويون واستجابة لرغبتها – مجموعة كبيرة من الأقاصيص بالشعر وهو انتاج منحرف ينم عن مزاجه العابث وعن ابيقوريته ويزخر بالتفاصيل التى قد تهدر كرامة القارىء أو تخدش حياءه .. شىء عجيب : لقد أصابت هذه الأقاصيص نجاحا كثيرا .. وكتب عددا من الكوميديات أهمها « الأغا » التى قلد فيها الشاعر اللاتينى تيرنس ولكن هذا الجزء من انتاجه لا يكاد يذكره أحد – وألف ماساة لم يتمها هى صوت أخيليوس وكتب رواية مطولة بعض فقراتها بالشعر أطلق عليها « مغامرات بسيشيه » بسيشه – فى الأساطير اليونانية – فتاة رائعة الجمال أحبها كل الحب وانتهى الأمر باقترانهما) ولعل من أهم وأصدق انتاجه الثانوى تلك القصيدة الطويلة التى قالها دفاعا عن فوكيه محاولا فيها انتزاع عفو لويس الرابع عشر عن صديقه هذه القصيدة هى Elegie aux nymphes de vaux تضاف الى كل هذا رسائله الشعرية وكان أهم ما وجه منها الى هوييه والى مدام دى لاسبليير ... الشىء الذى ينبغى ذكره هو أن الانتاج الوحيد الذى كان يتناسب مع عبقرية لافونتين هو « حكاياته » التى صاغها على السنة الحيوانات .

لافونتين أمير الحكايات الخرافية

وأما « الحكايات الخرافية » فهى آيته الخالدة التى اتصفت بكل ما اتصفت به القصص من مزايا ثم سلمت بعد ذلك نقائصها ففيها ما فى « القصص » من براعة الرواية وحسن الفطنة والسخرية والخيال والرشاقة والتنوع ومرونة النظم ولا تشوبها شائبة من افراط ومجون ، فقد أثبت لافونتين انه أمير « الحكاية الخرافية » فى آداب العالم أجمع غير منازع فما يزال الناس ولن يزالوا يطالعونها فى شوق ورغبة « فالطفل يغتبط بها لما فى القصة من نضارة ونصوع ، وطالب الأدب المتحمس يشوقه فيها

الفن الرفيع الذى ينتظم رواية الحوادث والرجل الذى حنكته تجارب الدنيا يستمتع بها لما فيها من لمحات دقيقة عن الحياة وأخلاق الناس ٠

لم تكن موضوعات « الحكايات الخرافية » من خلق لافونتين وابتكاره فقد يتناول حكاية شائعة يتناقلها الناس فى أحاديثهم ، وقد ينقل حكاية قرأها لكاتب هنا أو كاتب هناك وأنك لتعلم سعة اطلاعه من تنوع المصادر استمد منها تلك الحكايات فبعضها شرقى وبعضها من الأدب القديم وطائفة من الأدب الوسيط وأخرى من الأدب الحديث ولكنك تقرأ القصة فى قالبها الجديد فكأنما هى جديدة مبتكرة ، وذلك لأنه يستعير مادتها ثم يخرج المادة المستعارة مطبوعة بطابعه موسومة بروحه وعبقريته فنبوغ لافونتين — كما يقول « سانت بيف » — فى طريقة الأداء لا فى مادة الموضوع ٠

والحكاية الخرافية فى رأى لافونتين قوامها عنصران : الجسد والروح فأما الجسد فهو القصة ذاتها وأما الروح فما تدل عليه القصة من مغزى ٠ وهو يصف « الحكايات الخرافية » فى مجموعها بأنها ملهاة طويلة تشتمل على مائة فصل يختلف بعضها عن بعض وأما الأشخاص فى هذه الملهاة الكبرى الا صنوف الحيوان فى معظم الأحيان جريا على تقليد عرف فى أدب الحكاية الخرافية منذ أقدم العصور ٠ وجدير بنا فى هذا الصدد أن نذكر حقيقة عن لافونتين وهى حبه للحيوان ودقة ملاحظته لطرائق عيشه ، لهذا كان بارعا فى فنه صادقا فى نظرته كلما عرض حيوانا فى موقف من المواقف ولم يكن أقل براعة وصدقا حين ساق فى حكاياته أشخاصا من البشر وليس ثمة فرق فى حقيقة الأمر بين أن يعرض أفرادا من الحيوان أو أفرادا من الانسان ، فهو فى كلتا الحالتين انما يصور النماذج البشرية البارزة فى عصره — يصور الملك ورجال الدين ورجال القانون ورجال المال من « البورجوا » كما يصورها الزارعين السذج وغيرهم من الطبقات فالحكايات الخرافية التى خلفها لنا لافونتين من أصدق الصور الأدبية التى تعكس دقائق عصرها ٠

وأما « روح » الحكاية الخرافية فهى — كما أسلفنا — لكننا نخطىء ان ظننا أن لافونتين كان يستخرج المغزى ليتخذه القارىء درسا خلقيا يهتدى به فهكذا ظن بعض الناقدين وأخذوا عليه — مثلا — أن يعلم الناس للظروف بدل الوقوف فى وجهها كما جاء فى حكاية « السنديانة وقصبة الغاب » انه بمثل هذا يسجل ما هو واقع كما تشهد به التجربة ولا يقرر قواعد الأخلاق كما يجب أن تكون ٠ ومن الاجحاف أن نعيب على الكاتب تصويره للحياة الواقعة كما شاهدها ومارسها ، فليس لافونتين بالأديب الذى يحصر نفسه

وحياته في حدود العرف والتقليد ، ولعل أكبر ما يميز « حكاياته الخرافية » عن حكايات السالفين ـ مثل ايسوب ـ هو أن عنصر التعليم والارشاد في أدبه ضئيل جدا اذا قيس بحكايات أولئك فلافونتين متفرج يراقب الحياة بنظر ثاقب نـاقد فيرى منها وجه الرذيـلة والحمق والنفـاق ثم يسخر مما يرى سخرية لاذعة لكنها حلوة الفكاهة مستساغة ٠

ولئن عـــد أدب لافونتين اتباعيا بسبب اعجابه بالقدماء وعنـايته الشديدة بالتجويد والصناعة فهو في حقيقة الأمر لا يجرى مع الاتباعيين الى نهاية الشوط لهذا الذى تراه في أدبه من حرية الابتكار والتنوع فهو مثال فريد في أدب القرن السابع عشر ٠

وبعد ، فكتاب « القصص » وكتاب « الحكايات الخرافية » وحده يتمم أحدهما الآخر بحيث يكونان معا « لافونتين » فلا تستطيع أن تحكم عليه بهذا الكتاب دون ذاك وأهم ما يمتاز به الكاتب : أولا أسلوبه من حيث المرونة والتنوع وثانيا ـ سلاسـة القصـــة في رواية منظـــومة فليس يعوق النظم عنده مجرى الحوادث في سهولة وتدفق وثالثا ـ براعته في الرمز والايماء ٠ ولهذه الحسنات في أدبه يكاد يستحيل على قارىء أن يقرأه ولا يفتن به والعجيب أن «لافونتين» في غير قلمه غر ساذج ، أما اذا حمل القلم ليكتب كان اللوذعي الحاذق المتعمق البصير بطبائع البشر ٠

ونسوق لك فيما يلي مثلا من « حكاياته الخرافية » ٠

★★★

ملخص الحـــكايات

الكتاب الأول :

الصرصور والنملة ـ الغراب والثعلب ـ الذئب والكلب ـ فأر المدينة وفأر الحقول ـ الذئب والحمل ـ الموت والحطاب (الانسان يفضل الحياة الشاقة على الموت » ـ شجرة البلوط وعود البوص (ربما كانت هذه الحكاية أحسن ما فى هذا الجزء ·· مغزاها أن المرونة أجدى من التصلب) ·

الكتـــاب الثـــانى :

النسر والخنفساء (الخنفساء تثأر للأرنب الذى خطفه النسر بأن تسرق بيضه ثلاثة أعوام متتابعة فتجبره على الاعتراف بجرمه) ـ الأسد والفأر (مغزاها أن الانسان كثيرا ما يحتاج الى من هو أضعف منه) ـ رجل الفلك الذى هوى فى بئر (استطراد فلسفى بشعر رصين) الأسد والذبابة الصغيرة (يقينا أنها أحسن ما فى هذا الجزء انها تشبه الملحمة فى حركتها وسمو أسلوبها » ·

الكتاب الثـــالث :

الطحان وابنه والحمار (ملهاة رائعة تحتوى على درس بليغ فى الأخلاق : اذا كان الاصرار رذيلة الحمقى ، فان التردد يشين الســلوك ويقضى على فاعلية الجهود) ـ الضفادع التى طالبت بملك (تصوير لتقلب الشعوب) ··· لقد دفع الغرور الضفادع الى الاطاحة بسيدها الذى كان دمث الخلق محبا للسلام فأرسل اليها ملك الآلهة طائرا كبيرا ليحكمها ولكنه أهلكها بالافتراس والتقتيل) الثعلب والتيس (مثل للطيش وقصر النظر) ··· « ان نظر التيس الى الأمور أقصر من لحيته » ·· لقد اجتذبه الثعلب الى بئر وقع فيها الأسد الذى أدركته الشيخوخة (درس نافع للقوة التى يصيبها الاضمحلال) ·

الكتاب الرابع :

العجوز وأبناؤه (مغزى هذه الحكاية أن القوة تعتبر ضعفا بغير اتحاد) ـ الضفدع والفأر (أراد الضفدع أن يأكل فأرا فحاول بخدعة استدراجه ليلتهمه فى الماء وهنا ظهرت حداة فالتهمتهما معا) ٠

الكتاب الخامس :

الوعاء الخزفى والوعاء الحديدى (استنجد الوعاء الخزفى بوعاء من حديد ليحميه فى رحلته ولكنه ارتطم به فتهشم) ٠٠٠ مغزى هذه الخرافة أنه يجدر بالانسان ألا يتحد الا مع من يتساوون به) ـ الفلاح وأبناؤه (حكاية مغزاها أن العمل أضمن وأثمن موارد الانسان) ٠

الكتاب السادس :

الأرنب والسلحفاء (مغزاها أن التسرع لا طائل فيه ففى التأنى السلامة) ـ سائق العربة التى انغرست فى الوحل (السائق يتخاذل ويستنجد بهرقل ولكن هرقل يرد عليه بقوله : « ان هرقل يريد أن يتحرك الناس قبل أن يساعدهم » ٠٠٠ ويتحفز الرجل ويوفق فى انتزاع عربته من الوحل ٠٠٠ مغزى هذه الحكاية : « ساعد نفسك تساعدك السماء » ٠

الكتاب السابع :

الحيوانات المصابة بالطاعون (هجاء موجه ضد ظلم الأقوياء والى المتملقين على السواء ـ الفأر الذى انعزل عن الدنيا) هجاء ضد النفاق : فأر يتخذ من قطعة جبن صومعة يتبتل فيها ٠٠ ويلجأ اليه اخوانه فى الضراء القديم ليمد اليهم يد المعونة ولكنه يخذلهم انه يكتفى بمنحهم بركاته) ٠ بلاط الأسد (درس فى الحيطة : الأسد يدعو أتباعه الى زيارته فى بلاطه أى فى عرينه ذى الرائحة الكريهة ٠٠ ويستاء الدب فيسد أنفه واذا بالأسد يقضى عليه بالموت بتهمة الوقاحة ٠٠ ويزعم القرد أن الرائحة « الهية » فيتقزز الأسد من ملقه الوضيع ٠٠ أما الثعلب فيدعى أنه عاجز عن الشم لأنه مصاب بالزكام ! » ٠

الكتاب الثامن :

الاسكافى ورجل المال (قصة اسكافى تلقى مالا لم يسعده فى حياته ٠٠ ولم يحقق لنفسه السعادة الا حين رد هذا المال الى صاحبه ٠٠ ان السعادة ليست فى المال وان الغنى الحقيقى فى زوال الهموم) ٠

(الصديقـان) حكاية ممتعة تنم عن حب لافرنتين ليصداقة المخلصـة — بعض أبيات هذه الحكاية صارت مأثورة :

ما اجمل ان يكون لك صديق حق ! .
انه يبحث عن حاجاتك فى أعماق قلبك
وهو يجنبك الشعور بخجل .
الافصاح عنها له بنفسك .

جنازة اللبؤة (صورة لزيف عواطف رجال القصور) .

الكتـاب التاسع :

القط والثعلب (تفاخرا وهما فى الطريق : أيهما أبرع من الآخر .. وفاجأتهما مجموعة من الكلاب .. بادر القط بتسلق شجرة وأخفقت حيل الثعلب للفرار فخنقته الكلاب يقول لافونتين فى هذه الحكاية :

ان تعدد الحيل قد يفسد الأمر .
لأن الانسان يضيع وقته فى الاختيار والمحاولة .
انه يريد أن يفعل كل شىء
لتكن لديك وسيلة واحدة ولكن وسيلة طيبة) .

الصـدفة والمتنازعان (هجاء ضد التخاصم : مسافران يتنازعان على صدفة عثرا عليهـا ويمر قاض فيحسم ما بينهما من خلاف .. لقد التهم لب الصدفة وأعطى كلا منهما احدى فلقتى غلافها) .

الكتـاب العـاشر :

يستهل لافونتين هذا الجزء بقطعة شـعرية طويلة تقع فى مائتين وأربعين بيتا مهداة الى مدام دى لاسبلير وبعد أن يزجى مدحا رقيقا الى ولية نعمته ينبرى لديكارت داحضا نظريته القائلة بأن الحيوانات ان هى الا مجرد آلات تتحرك ومستندا فى مهاجمته الى كثير من الأمثلة التى تدل — على العكس — على ذكائها . من هذه الأمثلة حكاية الفأرين اللذين نجحا فى خداع ثعلب بأن سرقا بيضـه منه ! كيف ؟ لقد استلقى أحدهما على ظهره وأمسك بالبيضـة بين ذراعيه بينما أخذ الآخر يجره من ذيله .. السلحفاة والبطتان (ان الغرور يؤدى الى أوخم العواقب : رفعت بطتان عصا بمنقاريها كل منهما من طرف .. وتعلقت سلحفاة بفمها فى وسط العصا .. وأثار الركب فضول واعجاب المارة فكانوا يتنادون صائحين : « يا للأعجوبة تعالوا اشهدوا ملكة السلاحف ! » واذا بالسلحفاة ترد عليهم

قائلة : « الملكة هذا حق ! انى أنا الملكة ! وحين تكلمت الحمقاء أفلت فمها فهوت على الأرض وتهشمت » .

الكتاب الحادى عشر :

لم يكن لافونتين يدرى أنه سينشر حكايات بعد اتمام هذا الجزء الأخير من الديوان الثانى فجعله بمثابة تذييل لكتبه السابقة مودعا فيه انتاجه ومتمنيا أن يصادف كتابا أفضل منه . يقول :

لقد افتتحت على الأقل الطريق .

وسيتاح لآخرين أن يتموا ما بدأت ..

وهذا الجزء يحتوى على تسع حكايات أهمها :

« العجوز والشبان الثلاثة » (مر ثلاثة شبان بشيخ يزرع أشجارا فسخروا من شيوخته الطموحة فرد الرجل بأن الأشجار التى يغرسها قد تنفع أبناءه ، وبأنهم ــ مع ذلك ــ قد يموتون قبله .. وحدث بالفعل أن توفوا جميعا قبله فأقام الشيخ لذكراهم نصبا كان يرويه بدموعه) .

الكتاب الثانى عشر (الديوان الثالث والأخير) :

كان لافونتين يدنو من نهايته حين ألف هذا الجزء الذى نشره وهو فى الثالثة والسبعين من عمره لقد فترت حيويته وغدا يهتم بالتفاصيل العميقة .. ومع ذلك فليس هذا الكتاب بالغ الرداءة ... وأهم ما ورد فيه من حكايات : القط العجوز والفأر الصغير (عن الشباب الذى يزهو ويحسب أن فى وسعه الحصول على كل شىء) .. الغابة والحطاب (فى هذه الحكاية درس رائع للجاحدين) .

★★★

من حكايات لافونتين

بـــلاط الأســـد

صاحب الجلالة الأسد يوما أراد
ان يعلن على أى الشعوب حكمته السماء سيدا
فارسل الرسل ينادى
تابعيه من كل جنس
باعثا فى أرجاء ملكه بكتاب
وعليه خاتمه ومضمون الخطاب
ان الملك سيعقد خلال شهر
مجلس البلاط كاملا وستكون الفاتحة
وليمة عظيمة باذخة
يتبعها من القرد اللعاب
فبمثل هذا الحفل العظيم
سيعرض الأمير ماله على الرعية من نفوذ
وقد دعاهم الى قصره
ويا له من قصر ! مخزن فيه الأشلاء مكدسة
تنبث منها الرائحة الى الأنوف فزم الذب خيشومه
الا ما كان أغناه عن مثل هذا الزم !
فقد عاد اليه بالويلات اذا استشاط الملك غيظا
فارسل الذب الى « رب الجحيم » يتقزز بين يديه
واهتز القرد من طرب هذه القسوة الصارمة
وامتدح غضبة الأمير عن رياء مفرط
كما اعجبه من الأمير مخلب وعرين ورائحة
ولم تكن الرائحة عنبرا ولا وردا
لكن رياءه الأحمق لم يصب نجاحا بل لقى شر الجزاء
وكان السيد الأسد بهذا

شبيها « بكالجولا »
وكان الثعلب على مقربة فقال له مولاه :
« وانت ماذا تشم ؟ خبر تكلم ولا تخف شيئا »
فاعتذر الثعلب من فوره
متمارضا بالزكام الشديد وليس في وسعه الحكم •
بغير عضو الشم وجملة القول أن تخلص الثعلب
فليكن لك ذلك عبرة :
ان اردت في بلاط الملك ان تصادف القبول
فلا تخلص الحديث ولا تمعن في نفاق مرذول
وحاول ما استطعت ان تجيب بما فيه النجاة

★★★

جنـــازة اللبـــوءة

ماتت زوجة الأسد
فهرول كل واحد
ليوفي للأمير
بعض عبارات العزاء
المفعمة بالحزن
وأمر الأمير باخطار اقليمه
بزمان الجنازة ومكانها
كما امر بان يحضرها حرس القصر
لينظموا الموكب
وليصحبوا الرفاق الى اماكنهم
تصور أن كل واحد من هؤلاء الرفاق قد حضر
وامعن الأمير في الصراخ
وكان عرينه يدوى
ان الأسود لا تملك معبدا غير عرينها

وسمع أفراد الحاشية ـ متشبهين بالأمير ـ
وهم يزأرون كل بلهجته
انى أعرف البلاط بانه بلد التملق فيما
على استعداد للابتئاس والاغتباط بالرغم من انهم لا يبالون بشيء
انهم يتصرفون بما يرضى الأمير فان أعجزهم الأمر حاولوا على الأقل التظاهر به
شعب كالحرباء شعب يحاكي سيده
كان يخيل المرء وكان روحا واحدة تشيع في الف من الأجساد
ان الناس في هذه البلاد مجرد آلات
ولنعد الى شاننا
لم يدرف الوعل عبرة واحدة ، اذ كيف كان في مقدوره ان يبكي ؟
ان هذا الموت يثار له : لان اللبوة فيما مضى كانت قد خنقت زوجته وابنـــه
وباختصار لم يبـك .. وراح أحد المداهنين يقول ويؤكد انه شاهده وهو يضحك
ان غضب الملك ـ كما يقول سليمان ـ غضب فظيع ولا سيما ان كان الملك اسدا
ولكن الوعل لم يكن متعودا على القراءة
قال له الملك : « ايها الهزيل ساكن الغابة ،
انت تضحك ولا تتبع هذه الأصوات الناحبة !
اننا لن ندخل ابدا في اعضائك الدنسة
اظافرنا المقدسة فتعالوا يا ذئاب
خذوا بثار الملكة واقتلوا جميعا
هذا الخائن من اجل روحها المبجلة » .
حينئذ قال الوعل : « مولاى ان وقت البكاء قد انقضى ،
والألم الآن لا طائل فيه ،
ان شريكتك الفاضلة قد ظهرت لى فى حلم
وهى مسجاة وسط الزهور ،
ولقد تعرفت عليها ،
وقالت لى : « ايها الصديق احذر ان يدفعك

هذا الموكب الى البكاء حين سأذهب الى الآلهة .
فلقد حظيت في رحاب الجنة بشتى انواع النعيم
اذ تحادثت مع امثالي من القديسين ،
لتدع الجزع بعض الوقت يلم بالملك ،
فذاك امر يسعدني » .. ولم تكد تسمع هذه الكلمات حتى علت
الصيحة : « اعجوبة ! مجد ! »
ولم ينل الوعل اى عقاب بل ظفر بعطاء .
انك ان رفهت عن الملوك بذكر الأحلام ،
وان تملقتهم ، وان سقت اليهم الممتع من الأكاذيب
فمهما كانت قلوبهم مفعمة بالسخط ،
فسيبتلعون الطعم وستصبح صديقا لهم .

★★★

تحليل الجمال

وليم هوجارث

١٧٠٤ م

ان الاحساس بالجمال وتقدير القيم الجمالية من أهم العوامل التى تؤثر فى كل فرد من حيث هما مقياس للمفاضلة بين العوامل الخارجية كما أنهما دعامتان قويتان من دعامات سعادة الانسان وشعوره بالبهجة واللذة .

ولما كان الجمال ـ كأية ظاهرة اجتماعية ـ ديناميكيا متفاعلا متطورا فى مثله العليا ومقاييسه الخاصة من فرد الى فرد ومن بيئة الى بيئة كان من واجب كل مستنير أن يلم ـ ولو بعض الشىء ـ بالموضوع الجمالى والا فانه يحرم نفسه من جانب من جوانب السعادة فى الحياة .

★★★

ويختلف الناس فى تحديد معنى الجمال وان كانوا يستخدمون هذه الكلمة كثيرا فى حياتهم اليومية فهم يطلقون كلمة جميل على مظاهر كثيرة تختلف فى طبيعتها وتكوينها وهم لا يعرفون ناحية من أوجه الشبه بين هذه المظاهر ... اننا كثيرا ما نسمع عن هذا المنظر الطبيعى انه جميل أو أن هذه الصورة أو ذلك التمثال جميل ، أو أن فى هذه القصيدة جمالا .. ان هذا المبنى جميل وذلك النغم الموسيقى جميل .. وهكذا نجد تباينا شاسعا فى الموضوعات التى يمكن أن نصفها بالجمال ، حتى اننا لا نكاد نستطيع أن نجد ناحية من أوجه التشابه بين هذه الموضوعات ومع ذلك فنحن نحمل عليها جميعا محمولا واحدا وهو صفة الجمال .

ومع أننا لا نستطيع فى اللحظة الراهنة أن نضع مرادفا لكلمة جميل، فاننا نرى أن نميز أولا بين هذه الكلمة وبين بضعة ألفاظ أخر قد تختلط بها من حيث المعنى فى ذهن بعض الناس .

فليس من اللازم أن يكون « الجميل » « مفيدا » كما أنه ليس من اللازم أن يكون المفيد جميلا واذن هناك فارق بين معنى هاتين الكلمتين. ولعل من الأمثلة التى نوضح بها الفارق بين المعنيين أننا لا نستطيع أن نقول على الدواء المر انه جميل أو أن نقول حتما على المنظور الجميل انه مفيد بل وأكثر من ذلك اننا يمكن أن نقول على بعض الحشرات المؤذية للانسان أن فيها جمالا ، بل ان الثعبان والنمر وبعض الطيور الجارحة قد نحس بما فيها من جمال فالجمال اذن يختلف عن الفائدة .

وليس الجميل أيضا هو « الصالح » أو « الملائم » حقيقة يجوز أن نطلق هذه الكلمة على بعض ما هو ملائم ولكن ليس كل ملائم وصالح جميلا .. فنحن لا نستطيع أن نطلق دائما كلمة جميل على أية آلة هى أنسب وأصلح ما يؤدى عملية من العمليات .

وينبغى أن نفرق أيضا بين ما هو « لذيذ » وما هو « جميل » فنحن نشعر باللذة من بعض الطعوم أو من بعض الروائح كرائحة البحر ومع ذلك فنحن لا نطلق كلمة جميل على هذه الأشياء بالرغم من أن بعض الناس يستعملونها خطأ بهذا السبيل .

ولقد كان بعض قدماء الفلاسفة يستخدمون كلمة (الجمال) على أنها مطابقة لكلمة « خير » أو « كمال » فكل ما هو « خير » من الناحية الخلقية أو كل ما يساعد الحياة على النماء والقوة فى نظرهم جميلا ، وما يزال فى علم الجمال رأى يأخذ بهذا المنطق فيعتبر أن الجمال خاضع للمعيار الحيوى كما هو خاضع أيضا للمعايير الأخلاقية . والواقع أنه ينبغى أن نفرق بين ما هو جميل وما هو خير ، ان المرأة الجميلة فى منظرها قد تكون شريرة فى أفعالها ، كما أن الفنان قد يبرز لوحة تمثل شحاذا ضعيفا متسولا فى شارع ضيق مظلم ومع ذلك تحس ما فى هذه اللوحة من جمال ولعل هذا ما يسوقنا الى أن نفرق بين الجمال الطبيعى والجمال الفنى فقد يكون هناك جواد ضعيف متخاذل لا يقدره البيطرى ومروض الخيول اللذان يسعيان الى البحث عن القوة الجسمية ومع ذلك يستطيع الفنان أن يبرز بهذا الجواد الهزيل صورة يتمثل فيها الجمال الذى يأخذ بالألباب .

واذن يتوقف الجمال الفنى على قدرة الفنان على التعبير ونخلص من هذه التفرقة الى العبارة المشهورة « ان كل جميل هو موضوع لدراسة علم الجمال ولكن ليس موضوع علم الجمال دائما جميلا ، ذلك أن الجمال الطبيعى قد يكون موجودا أو غير موجود ومع ذلك يستطيع الفنان بكفاءته الخاصة أن يحقق جمالا فنيا » . ونصل من هذا الرأى الى أن كلمة (قبيح) ليست مقابلة لجميل كما هو فى اللغة فالضدان لا يجتمعان فى حين أننا نستطيع أن نجد فى القبيح جمالا ، انظر الى صورة المسخة الذى يلعب بالكرات الملونة ألا تستطيع أن تجد فيها جمالا ، انظر الى القطعة التمثيلية التى تصور البؤس والقبح لا شك فى أننا قد نعجب بالتمثيل ونجد فيه جمالا فنيا .

ولقد اتجه بعض اليونان القدماء عند حديثهم عن الجمال الى دراسة التماثيل اليونانية الجميلة التى تمثل آلهة اليونان فى صور المثل الأعلى للنوع الانسانى وكأنى بهم يوحدون بين الجمال وبين المثل الأعلى للنوع فالحصان الجميل هو أقوى وأحسن ما يمكن أن يوجد عليه الحصان

أو ما يمكن أن نتخيله به ، والرجل الجميل هو الرجل الذى يتوفر له أقوى ما يمكن من عضلات وعلاقات ونسب.ان فى النموذج الكامل للنوع جمالا ولكن ليس الجمال وقفا على هذا النموذج الكامل بل قد يتوفر الجمال فى الشذوذ النوعى بل وفى الضعف والنقص والتشويه ذاته .

ويرى بعض النقاد أن الاعجاب بالقبيح ليس فى قدرة الفنان على تقليد القبيح وابرازه كما هو بل فى ابراز مشاعر معينة فالقبيح الذى يبرزه الفنان هو القبيح كما يشعر به الفنان وليس هو القبيح فى ذاته ... وهذا ما يجعل تقدير الفنان عند ابرازه القبح بصورة جميلة يمتاز عن تقدير الفنان عند ابراز الجميل جميلا ، لأنه يحتاج فى الحالة الأولى الى مهارة فنية فائقة .

ونود أن نشير الى ذلك التساؤل عن ذاتية الجمال وموضوعيته هل الجمال فى ذاته حقيقة قائمة بنفسها فى العالم الخارجى أم أنه ظاهرة نفسية يحس بها الفرد فى ذاته بحسب اللحظة الشعورية التى يمر بها ؟؟.. ازاء هذا السؤال انقسم المفكرون فى علم الجمال الى قسمين رئيسيين :

فالقسم الأول يرى أن الجمال ظاهرة موضوعية لها وجودها سواء أحسست بهذا الوجود أو لم أحس به ، فالجمال قائم بنفسه وموجود خارج النفس الشاعرة وكان من زعماء هذا الرأى الفيلسوف اليونانى أفلاطون الذى يرى ان الشيء يكون جميلا اذا ما توفرت فيه صفات معينة سواء وجد من يحكم عليه بهذا الجمال أم لم يجد ، فالجمال مجموعة خصائص اذا تحققت فى الشيء أصبح جميلا واذا امتنعت عن الشيء لا يعتبر جميلا وهكذا تتفاوت نسبة الجمال فى الشيء بحسب مدى اشتراكه فى مثال الجمال الخالد .

وأما الرأى الثانى فيذهب الى أن الشيء يكون جميلا عندما تراه كذلك أى أن الجمال ليس ظاهرة موجودة الا فى شعورنا فقط فالجمال صفة ذاتية يتوقف الشعور بها على حالتنا النفسية فظاهرة غروب الشمس مثلا يراها عدد كبء من الناس كل يوم ولكن البعض القليل من هؤلاء يحس بجمال هذه الظاهرة فى حين يحس البعض الآخر بأنها ظاهرة موحشة حزينة وقد لا ينتبه اليها الباقون أو هم لا يحسون نحوها بشعور ما .

ولسنا نود هنا أن نعرض لتلك المناقشات الطويلة فى فلسفة الجمال بخصوص هذه المشكلة فلكل من الجانبين حججه القوية ، ولكننا نكتفى بأن نشير بأن للجمال جانبا موضوعيا قائما سواء وجد من يدركه أم من لم يحس به وله جانب ذاتى يلعب دورا كبيرا فى ادراكنا لهذا الجمال ... ذلك أن الطبيعة والمجتمع من ناحية هما اللذان يقدمان عناصر هذا الاحساس بالجمال فلو رجعنا الى الانسان البدائى لوجدناه أيضا يحس بما فى هذه

الطبيعة من جمال سواء فى مناظرها أم فى حيواناتها ، فيأخذ بنفسه فى وقت الفراغ بمحاولة اثبـات ما يحس به من اعجـاب على جدران الكهوف ولولا أن هذا الانسـان أحس بنفسه بهذا الجمال لما عمل على اثبـاته فالموضوع الخارجى من ناحية ، والاحساس بهذا الموضوع من ناحية أخرى هما وجها المسألة التى لابد من توفرها . فالجمال اذن كقطعة العملة ذات الوجهين أحدهما هو الجانب الذاتى وأثره فى الشعور بالجمال والآخر هو الجانب الموضوعى ومدى جوهريته فى اثارة هذا الشعور الجمالى .

★★★

حياة هوجارت وأعماله

ولد وليم هوجارث فى لندن سنة١٦٩٧ وكان أبوه وأمه من المهاجرين الذين نزحوا الى لنـدن من وستمورلنـد · وينتميان الى طائفـة اشتهرت (ببرودة) الدم ولقد عرف هوجارث طوال حياتـه بالميـل الى السـخرية وبروحه المتمردة التى نستطيع أن نستشفها من جملة أمثلة مختلفة فمثلا ورغم أن والده كان من المشتغلين بالتعليم ، الا أنه قد نفر من كل دراسة منظمة ، كما أنه يستطيع مواصلة الدراسة فى أكاديمية سان مارتين للفنون بعد التحاقه بها سنة ١٧٢٠ وأدرك أن هذه الدراسة لن تفيده فائدة مشابهة للخبرة التى حصل عليها عند اشتغاله بالحفر على النحاس والفضة تحت اشراف أليس جامبل · ففى خلال عشر السنوات التى أمضاها فى الحفر على الدروع والأسلحة والأطباق الفضية أمكنه أن يخترع طريقة تساعده على نقل لوحات جهابذة أعلام الفن فى مهارة ولكنه أحس دوما أنه قادر على انجاز شىء أعظم من مجرد النقل والاستنساخ أى شىء يساعده على تحقيق المجد الفنى الذى سعى لادراكه ، ومن ثم آثر الانصراف عن النقل وحاول ابتكار رموز تساعده على تذكر ملامح الأشياء المختلفة التى يصادفها حوله وسرعان ما اخترع لغة مختزلة تمثل الأشياء الطبيعية المحيطة به ولم يدرك أن مثل هذه اللغة قد عرفها من قبل الأعلام القدامى اذ أشار اليها شيشرون فى كتابـه De Oratore ، كما أشـار اليها كونتيليان فى Institutes (حول تعليم الخطب) وكانت هذه الرموز تعلم فى القرون الوسطى · هذه الرموز قد ساعدت هوجارث على تذكر المعالم البارزة التى تستطيع الانتفاع بها فى ابداعه الفنى وربما بدت هذه الخطوة بلا أهمية كبيرة هذه الأيـام ولكنها فى القرن الثامن عشر قد عنت أشياء كثيرة اذ هى قد عنت الابتعاد عن المحاكاة والاعتماد على الوعى فى انتقاء الموضوع الفنى ·

وبدت كراهية هوجارث لكل صنوف المحاكاة فى ابتعاده عن تقليد القدامى الذين نظر اليهم نظرة تقديس وكانت الصور المستوردة من خارج انجلترا تباع بأثمان باهظة دون مراعـاة لقيمتها الفنية كما كانت الطبقة الأرستقراطية تتباهى بتصـاويرها التى قام برسمها مشاهير الرسامين فى أوربا من أمثال كوريجو وتينتوريتو وهولباين · وفى الحـق هذه الصور أقبح بكثير من صورهم الأصلية التى رسموها لمواطنيهم (والتى مازالت

موجودة فى متاحف أوربا) وأول صورة رسمها هوجارث (١٧٢٤) قد أبرزت حملته ضد أدعياء معرفة الفن وأنصار الكلاسيكية الجديدة وأتباع بالاديو (الفنان الايطالى الذى حاول فرض نوع جديد من الكلاسيكية على الفن) ففى هذا الوقت كان (البالادية) نسبة الى بالاديو تزحف على سائر أنحاء أوربا وتاثرت بها أنواع الفن كافة ٠

واسم هذه الصورة هو Masquerades Opera Burlington Gate وفيها يسخر هوجارث من اللورد بيرلنجتون زعيم هواة الفن ومقتنيه فى انجلترا ويسخر كذلك من هايدجر السويسرى الجنسية الذى كان من نسماء الملك ومن المغنى الايطالى كوزونى ومن وليم كنت راعى بيرلنجتون وفى سنة ١٧٣٥ رسم صورة أخرى لبوابة برلنجتون واشتهرت هذه اللوحة بسبب سخريتها من الشاعر بوب وان كان هوجارث قد قصد بها أيضا السخرية من دار برلنجتون معقل زعماء هواة الفن فى انجلترا ٠

والى جانب هذه الحملة الكبيرة التى وجهها هورجارث ضد هواة الفن البريطانى وأنصار مذهب الكلاسيكية الجديدة هناك والتى يقال فى تاريخ الفن انها قد مهدت للرومانتيكية ، شن هوجارث حملة أخرى ضد الناشرين وقد ترجع هذه الحملة الى نفوره من جميع المشتغلين بالنشر ، اذ اعتبرهم مسئولين عن وفاة والده المبكرة (فقد مات أبوه عندما كان وليم هوجارث فى التاسعة من عمره) وعانى والد وليم هوجارث الأمرين من هؤلاء الناشرين عند اشتغاله بوضع قاموس للغة اللاتينية كسب منه الناشر مكاسب طائلة لم ينل منها وليم ابنه الا قدرا بخسا الى أبعد حد ٠

وتذكر هوجارث هذه المحادثة عندما نشر (١٧٣٢) مجموعة لوحاته المسماة (سيرة غانية) التى ذاع صيتها على الفور وكانت سببا فى شهرته وان كان قد حصل منها على ربح تافه للغاية فسرعان ما ظهرت ثمانى طبعات مزورة لها بيعت باقل من ثمن الصور الأصلية وحدث شىء مماثل قبل ذلك عندما نشر طبعات لصورة Masqueradesand Operas فاضطر لهذا السبب الى رفع الأمر للقضاء ثم انتقلت القضية بعد ذلك الى البرلمان حيث تولى الدفاع عنها لفيف من أعضاء مجلس العموم ونجحت القضية وصدر قانون بحماية حقوق النشر فى مارس سنة ١٧٣٥ ، مازال يعرف حتى الآن (بقانون هوجارث) وبموجبه أصبح الرسام وحده صاحب الحق فى نشر طبعات لوحاته لمدة أربعة عشر عاما ، ونص القانون على الزام المزيفين بدفع خمسة شلنات عن كل طبعة غير مرخصة وعاد هذا القانون بالنفع على هوجارث ، اذ أصبح أول فنان انجليزى لا يخضع لأذواق الأثرياء ويتيسر له اختيار موضوعات لوحاته وفقا لمشيئته وضمن هوجارث تجاربه فى هذا الصدد كتيبا صغيرا بعنوان (قضية الرسامين والحفارين) ونشر هذا

الكتاب بغير ذكر لاسم المؤلف أو لتاريخ النشر وفيه تحدث عن صلة المطابع ودور النشر بالفنان وكيف تدفع هذه الدور مبالغ ضئيلة للغاية ثم تساعد على تزوير اللوحات المستنسخة بحيث تتعذر التفرقة بين الأصل والصور الزائفة وهذا هو سر شقاء الفنانين واثراء أصحاب دور النشر والمطابع على حسابهم في « بلد يتغنى بحريته وبحرية أصغر المواطنين الذين يعيشون فيـــه » ٠

وأسرف هوجارث في هذه النشرة عندما قال ان حماية حقوق الفنان ستساعد على الارتقاء بالفن وصناعات الأثاثات والمنسوجات والمصنوعـات « حتى يتسنى لانجلترا أن تتبـوأ مكانة مشابهة لفرنسا في عهد لويس الحادى عشر » ٠ وليس من شك في أن تأمين حيـاة الفنانين لم يعد دائما بالخير، اذ أنه قد حولهم أحيانا الى مستغلين جشعين وعلى أية حال ، لقد استفاد هوجارث نفسه بهذا القانون وبدت آثار ذلك واضحة في مكاسبه الطائلة التى حصل عليها بعد ذلك عندما نشر سنة ١٧٣٦ مجموعة لوحاته المسماه « سيرة خليع » ٠

الكتـــاب :

يقول هوجارث في المقدمـة ان غـايته من تاليف الكتاب هي بيـان المبررات التى نستند اليها عند وصف الأشياء بالجمال أو القبح أو الرشاقة وغير ذلك بعد الرجوع الى الطبيعة ذاتها وانه لتحقيق ذلك قد رجع الى شكل الخطوط التى تتألف منها الأشياء والى اختلاف تكويناتها ٠

والرجوع الى الطبيعة ضرورى للغاية فلقد فسدت أحكام الناس بسبب نسيانهم الطبيعة واقتصارهم على الرجوع الى الأعمال الفنية ، باعتبارها نماذج ترشدنا الى القيم الجمالية وكان الفنـانين وهواة الفن وحدهم هم الذين يعرفون الجمال وكأنه شيء موجود في رؤوسهم وحدها ٠ وفي الحق أن ادراك الجمال من حـق كل انسـان ومن الميسور الاهتداء اليه اذا نحن أحسنا التمعن في الطبيعة ذاتها ٠

والسر الذى يحول دون ادراك الجمال هو التدقيق في أشياء بعيدة عنه ولا تمت اليه بصلة فالناس لا يعنون عند تأملهم اللوحات الفنية بغير معرفة من رسمها والنوادر التى ترويها المراجـع عن صلتها بحياة الفنان ويقارنون بينهـا وبين اللوحات الأخرى ، متناسين أن الحكم يتطلب المقارنة بالطبيعة ذاتها ٠ فالرجوع الى أى فنان عبقرى بالذات لن يساعدنا على تحديد معنى الجمال وكم بين الفنانين من اختلافات كبيرة في تحديد هذا المعنى ! فالأشـكال الفنية التى رسمها بوسان ستبدو أغلب الظن منفرة في نظر

روبنز وندر التقاء دافنشى ورافائيل فى أى تصور من تصورات الجمـال ، وضاعت الحقيقة بسبب ما بينهم من اختلاف وقد يكون أولئك الذين لم يمارسوا الفن ممارسة عملية والذين لم يتأثروا بأى تعصب نتيجة لممارستهم، أو لم يتلقوا دروسا من غيرهم (ويقصد هوجارث نفسه بذلك) فى موقف أفضل من أبرع الفنانين وهواة الفن فاذا قيـل ان الاسـتغراق فى الفن والتركيز عليه وتناسى الطبيعة يساعد على تحديد كل القيم الفنية كان الرد على ذلك أن استمرار الصلة بين الفنان وأى أشكال ثابتة ، قد يؤدى الى تولد بعض العادات التى تتحول الى عقائد قطعية جامدة ، فالعين تنسى أحيانا بسبب تكرار المشاهدة واطرادها القبح وتظنه جمالا ·

وبعد أن حدد هوجارث منهجه وأثبت انه ينوى الاعتماد أساسا على الطبيعة فى ذاتها وانه لن يكتشف القيم الفنية من مقارنة اللوحات أو بعد الرجوع الى أقول الفلاسفة والفنانين بين لنا كيف يبدأ البحث فى أشكال الطبيعة وطالبنا بأن نرى الأشياء وكأنها محـوطة بقشرة رقيقة شفافة تجعلنا نطلع على ما فى باطنها ، بحيث لا تختلف نظرتنا اليها من الخارج عن نظرتنا اليها من مركزها ، كما طالبنا أن نفترض أن هذه القشرة الرقيقة مؤلفة من خطوط دقيقة للغاية متشابكة ومتلاحمة ويمكن ادراكها حسيا ·

وفائدة هـذه الخدعة (كمـا يسميها البعض) عظيمة للغاية لأنهـا ستساعدنـا على التركيز على أى جزء من السطح وعلى النفاذ ـ بخيالنا ـ فى أعماق الأشياء بحيث نراها فى شمولها من مركزها فتتكون فى أذهاننا فكرة عنها مكتملة ومثل هذه الطريقة هى التى تعيننا على القضاء على جزئية نظرتنا التى تدفعنا الى التركيز على أجزاء قليلة من سطوح الأشياء وكأن أجزاءها الأخرى بغير وجود ·

أسس الجمال :

واذا كانت دواعى الايضـاح تتطلب عرض كل عامل من العوامل الآتية ، على حدة ، فمن الواجب مراعـاة عدم انفصـال هذه العوامل فى الطبيعة · وبعد ذكر هذا التحفظ اختار هوجارث مجموعة من المؤثرات التى تؤثر على الجمال وناقش كلا منها على حدة وبدأ الكلام بالتناسب الذى ربما كان أهمها فهو عامل حاسم فى تحديد معنى الجمال وكثيرا ما تنخدع العين ببعض الأشياء التى لا تزيد عن مجرد زخارف ، ولكنها لاتتصف بالجمال لافتقارها الى أهم شرط من شروطه وهو التناسب · فالتناسب هو أساس الحكم على جمال الأشياء باختلاف أنواعها وهو ضرورى فى الفنون لتحديد الجمال فيها مثل ضرورته فى الكائنات الحية ·

واذا تأملنا حصـــان السباق مثلا فسنرى أن أعضـــاء جسمه تتناسب تناسبا يتوافق مع غايات السباق بحيث اذا استعضنا عن أية أجزاء أخرى جميلة كأن نستعيض عن الرأس المستقيم الذى يبدو نبيحا فى ذاته برأس حصان من خيول الحرب يتميز باستدارته ، فان شكل الحصان السباق يبدو ممسوخا بسبب عدم تناسب الأجزاء • وفى شكل هرقل مثلا اتساق بين الأجزاء كافة فهى تعبر عن القوة والجبروت ويبدو هذا فى ضخامة عظام الصدر والأكتاف وفى تناسب عضلات الأجزاء العليا مع عضلات الأجزاء السفلى فى الجسم •

وثانى أسس الجمال هو التنوع فنحن اذا تأملنـــا اختـــلاف ألوان النباتات والأزهار وأوراق الشجر والفراشات ، فسندرك أن المغزى الوحيد لكثرة هذه الألوان والأشكال هو ادخال السرور لملى العين بتأثير التنوع • (وهذه فكرة كانت شـــائعة فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر ومن أمثلتها القول بأن لون الذبابة أسود لكى ترى عندما تقف على أرض بيضاء أو القول بأن قشرة البطيخة مقسمة الى أقسام متســـاوية حتى لا يتنازع أفراد العائلة الواحدة عند تقسيمها) فالتنوع ، اذن ، هو أهم عامل فى شعور المتذوق باللذة وعلى عكس ذلك المماثلة التى تشعرنا بالملل وكأن الأشياء التى نراها ميتة خالية من الحياة •

ويستدرك هوجارث ويبين أن ما يقصده هو التنوع الذى يتبع تصميما محددا لأن أى تنوع عشوائى هو مجرد فوضى أو مسخ وكلمة التنوع عنده ذات معنى واسع للغاية ، لأنها تضم التدرج الذى قد نلاحظه فى شكل الهرم وفى اختلاف مساحة قاعدته عن مساحة قمته •

وثالث عامل يؤثر على تصور الجمال هو الاطراد • ولو صح القول بأن اطراد الأشكال والخطوط والأجزاء هو الذى يجعلها تبدو جميلة فى نظرنا ، لكان معنى هذا هو عدم اتصاف الأشياء بالجمال الا فى حالة سكونها وثباتها والعكس هو الصحيح ، لأننا نرتاح لشكل أى شىء عنـــدما نراه متحركا فنستطيع أن نراه فى صور مختلفة لهذا السبب تبدو الأشياء فى منظرها الجانبى أجمل منها فى منظرهـــا الأمامى ومن واجب أى فنـــان أن يتجنب انتظام الأشكال « سيمتريتها » حتى لا تبدو مطردة ، حتى نستطيع رؤيتها على جملة أوجه مختلفة اذا غيرنا نظرتنا اليها واذا اضطر المصور الى رسم منظر طبيعى باتساقه وتماثل أركانه وجوانبه ، فانه يلجأ الى التخلص من هذا الاطراد باضافة صورة شجرة أو صورة سحابة فيساعده ذلك على احداث التنوع الذى يجعل صورته تتسم بالجمال والتباين من أهم العوامل التى نلجأ اليها للقضاء على الاطراد •

ويقارن هوجارث مقارنة عملية بين الأشكال المطردة والأشكال الخالية من الاطراد • فيعرض صورة لهنرى الثامن ، بدت فيها الساقان متماثلتين فخلت لهذا السبب من الجمال على عكس صورة تمثال أنطونيوس التى يغلب فيها المثال على الاطراد بواسطة التباين والتنوع • ويلجأ الرسام الى الاطرد عندما تقتضى الضرورة فحسب أى عندما يرغب التعبير عن فكرة الثبات والسكون •

والبساطة بالمثل لا قيمة لها فى ذاتها كعامل من عوامل الجمال فهى بغير تنوع ستبدو شيئا مثيرا للملل والناس أحيانا ينسبون الجمال للبساطة ، وينسون أن التنوع هو العامل الأساسى الذى يسبق هذه البساطة فالهرم مثلا لا يعد جميلا لمجرد بساطته بل لتنوعه الذى سبقت الاشارة اليه وتنوع شكل الهرم هو سر تفضيله فى كل العصور بوصفه عاملا من عوامل الجمال فالأجسام المستديرة مثلا تبدو من كل اتجاه على شكل رتيب واحد• وراعى المصورون دواما اختيار الهرم اطارا يضم الأشكال التى يقومون برسمها ويعزى ذلك الى جمعه بين البساطة والتنوع •

وثمة شكل آخر يتصف بهذه الميزة وهو شكل ثمرة الأناناس ، وتنبه هذا الشكل وهو الشكل البيضاوى فهو يجمع كذلك بين البساطة والتنوع ويختلف فى هذه الناحية عن الدائرة اختلافا مماثلا لاختلاف المثلث عن المربع أو اختلاف الهرم عن المكعب ومن ثم نستطيع أن ندرك لماذا يرسم المصورون الرجه على شكل بيضة والسر واضح وهو أن البيضة تجمع بين البساطة والتنوع •

وثمة شكل آخر يتصف بهذه الميزة هو شكل ثمرة الأناناس وتنبه الفنان المعمارى الانجليزى كريستوفر رن (فى القرن الثامن عشر) الى هذه الحقيقة عندما جعل نهايتى واجهة كنيسة القديس بول فى لندن على شكل ثمرة الأناناس •

وننتقل الى عامل آخر هو عامل التعقيد ويرجع هوجارث قيمة هذا العامل من الناحية الجمالية الى أساس سيكولوجى ، فحياتنا عملية مطاردة مستمرة وكل ثمرة نجنيها بعد مشقة تشعرنا بلذة فان العوائق التى تعترض الارادة ، تزيد لذة الشوق فيتحول الجهد المبذول الى رياضة ولهو وترويح عن النفس وهذه اللذة واضحة جلية فى رياضة الصيد والقنص فالولع بالمطاردة كامن فى نفوسنا بل هو كامن فى نفوس الحيوانات وبوسعنا أن نلحظه فى محاورة القطة والفأر وتفضيلها مطاردة الفريسة على التهامها والعين تشعر بلذة مماثلة عندما تشاهد الطرقات المتعرجة والمنحنيات وعندما نتأمل الأنهار وهى تنساب • ويستخلص هوجارث من

هذا الميل تفضيل الخطوط الثعبانية (الانسيابية) على الخطوط المستقيمة وهى الفكرة الأساسية التى اعتمد عليها مذهبه ٠

ويعرف هوجارث تعقد الأشكال بأنه خاصة فى الخطوط التى يتألف منها الشكل تدفع العين الى نوع من المطاردة وبسبب حدوث لذة من جراء ذلك تسمى الخطوط والأشكال جميلة ويهتم هوجارث بهذه الخاصية باعتبارها الأساس الذى تعتمد عليه فكرة الرشاقة أكثر من اعتمادها على أى مبدأ من المبادىء الأخرى ما عدا التنوع ٠ والشكل عندما يتألف من خطوط معقدة يوهمنا بالحركة، لهذا يلجأ المصورون اليه عند رسم الرقصات القروية فنحن لن نستطيع اعتمادا على خطوط بسيطة مستقيمة تخيل الانحناءات والانثناءات التى تصحب الحركة ٠ ويضرب هوجارث مثلا آخر للجمال الذى يظهر فى الخطوط المعقدة البعيدة عن البساطة وهو منظر شعر الرأس الذى يزداد جماله كلما بدا مجعدا وكم تغزل الشعراء فى منظر الخصلات المجعدة ، التى ترغم العين على عدم الثبات والالتفات يمنة ويسرة ! ٠

ويلزم الاعتدال عند فهم ما يعنيه هوجارث بالتعقيد ــ كما هو الحال فى أى مبدأ آخر ــ فاذا زاد التعقد عن حده انقلب الى شىء منفر تحار له العين ، لأنها ستعجز عن متابعة أى عدد هائل من الخطوط المتشابكة المضطربة ٠

وآخر مؤثر على فكرة الجمال هو الضخامة وكم نشعر بالفزع مقرونا باللذة عند رؤية الصخور الضخمة ! وكم يروعنا منظر المحيطات الشاسعة ! على أن جمال الأشياء الضخمة كثيرا ما ينسينا اثارتها للفزع فيتضاءل الشعور بالهلع ويتحول الى اعجاب ولذة والأشجار الضخمة تؤثر فى مشاعرنا تأثيرا مشابها لتأثير منظر الكنائس الهائلة والقصور ويضرب هوجارث مثلا بقلعة وندسور وواجهة قصر اللوفر فى باريس (الذى تحول الى متحف بعد ذلك) ومعابد صعيد مصر بأعمدتها وتماثيلها الضخمة الرهيبة الوقورة ٠ وفى عالم الحيوان نحن نعجب بمنظر الفيل والحوت وبضخامتها وكثيرا ما يراعى مصممو الأزياء هذه الظاهرة عندما يصممون ملابس الملوك والحكام والقضاة وعندما يطيلون ذيل الأثواب أو يجعلونها على شكل عباءة تلتف حول الأكتاف والعنق ، فتشعرنا بالروعة وتجتذب انتباهنا ٠ فالضخامة اذن هى التى تضيف الوقار الى الرشاقة ومن الواجب تجنب أى اسراف فى الاعتماد عليها ، لأنها وحدها قد تبدو أحيانا شيئا منفرا ثقيل الظل مثيرا للسخرية فالضخامة التى تفتقر الى التناسب تفتقر غالبا الى الوقار والهيبة ٠

وبذلك يكون هوجارث قد انتهى من مناقشة المؤثرات التى يعتمد عليها الجمال ، وظهر أن أهم عاملين يعتمد عليهما الجمال هما التناسب

والتنوع أما عامل الاطراد وعامل البساطة فهما عاملان مساعدان لا يتوفر الجمال اعتمادا عليهما وحدهما والضخامة تضفى مسحة وقورة على الجمال كما أن التعقيد يضفى رشاقة على الجمال ويهمنا هذا العامل الأخير أهمية خاصة لأن هوجارث قد بنى عليه نظريته فى الخطوط ٠

الخطوط :

المصور يفترض مثل عالم الرياضيات انقسام الخطوط المستخدمة فى لوحاته الى أقسام ثلاثة : القسم الأول هو الخطوط المستقيمة والقسم الثانى هو المنحنيات والقسم الثالث خطوط تجمع بين الاستقامة والانحناء ، ووفقا لهذه القسمة يمكن تقسيم الأشياء من حيث أشكالها الى أولا : أشكال تتألف من خطوط مستقيمة فحسب مثل المكعبات أو دائرية فحسب مثل الأشكال الكروية أو تجمع بين الخطوط المستقيمة والدائرية مثل الأشكال الأسطوانية والمخروطية ، ثانيا : أشكال تتألف من خطوط مستقيمة وخطوط دائرية وخطوط مستقيمة من ناحية ، ودائرية من ناحية مثل رؤوس الأعمدة والأوانى ، وثالثا : أشكال تتألف من الخطوط السابقة مضافا اليها الخط المتموج باعتباره يساعد على تحقيق الجمال كالأزهار والأجراس وغيرها من الأشكال ذات الطابع الزخرفى ، ورابعا : أشكال تتألف من كل الخطوط السابقة مضافا اليها الخط الانسيابى ٠ ويمثله هوجارث فى صورة خط ملتف حول مخروط وهذا الخط يضيف رشاقة الى الجمال ٠

ويلاحظ أنه كلما قلت نسبة الاستقامة فى الخطوط تميزت هذه الخطوط برشاقتها فالخطوط المستقيمة لا تختلف بعضها عن بعض الا من حيث أطوالها ومن ثم فانها لا تفيد كثيرا حتى عند الاستعانة بها فى الزخارف ، أما الخطوط المنحنية فأكثر فائدة اذ يستطاع تنويع درجات انحنائها وأطوالها والخط المتموج أفضل من الخطين السابقين ففيه تنوع أكثر منهما ، لأنه يتألف من انحناءين متضادين فى الاتجاه ومن ثم فهو أكثر صلاحية كزخرف وأكثر اثارة للسرور وتشعر اليد بارتياح عندما ترسمه ٠

أما الخط الانسيابى فأكثر تنوعا من الخط المتموج بفضل تعدد تموجاته فى عدة اتجاهات فى نفس الوقت ، فان كثرة انثناءاته وتعرجاته تساعد على جعله يبدو وكأنه مؤلف من جملة أشكال متنوعة ٠ وعلى هذا يصح وصف الخط الانسيابى بأنه خط الرشاقة ويمكننا أن نتمثله اذا قمنا بلف سلك رفيع حول أى جسم مخروطى ٠

وجمال الأشكال يتوقف على البراعة فى الجمع بين الخطوط المختلفة فكلما نجحنا فى تحقيق التنوع ازداد الشكل اتصافا بالجمال بحيث

يستطاع القول بأن البراعة فى التأليف والابداع تعتمد على البراعة فى التنويع ، ولتأكيد ذلك بوسعنا الرجوع الى بعض الأشياء التى تتبين فيها هذه البراعة فى التنوع كشكل زهرة السوسن أو شكل زهرة الايريس والأبنية القوطية (٨٠) .

ومن الأبنية التى اتصفت بالجمال ، وتمثلت فيها أسس الجمال التى ذكرناها على أفضل وجه كنيسة القديس بولس فى لندن ففيها نستطيع أن نصادف تنوعا بغير اضطراب وبساطة بغير اجداب ووضوحا بغير جمود وضخامة بغير اسراف . ومنظر كنيسة القديس بولس من الخارج أفضل من منظر كنيسة القديس بطرس الشهيرة فى روما وان كانت كنيسة القديس بطرس أفضل منها من الداخل ، لاعتمادها على عدة مؤثرات ساعدت على ابراز التنوع كمختلف التماثيل واللوحات والاتساع المكانى .

وحرص هوجارث دواما على تأكيد ضرورة اجتماع كل الأسس التى تساعد على الافصاح عن الجمال فأى اسراف فى التنويع مثلا يجب ألا ينسينا مبدأ مهما من مبادىء الجمال هو التناسب . وفى فن العمارة يلزم أن يبدو البناء جميلا فى نظرنا ونحن نشاهده على بعد مثلما يظهر لنا ونحن على مقربة منه .

وبعد أن ذكر هوجارث أمثلة تؤيد وجهة نظره فى تفضيل الأشكال التى تعتمد على الخطوط فى خلق الجمال ، قام بالمقارنة بين هذه الخطوط المنحنية واختار أحدها وأسماه خط الجمال ، ولسهولة تحديده لجأ الى مقارنته بخطوط أخرى قريبة منه .

واتجه هوجارث اتجاها آخر لاثبات قيمة الخطوط الانسيابية فدعانا الى تصور شكل أو تمثال فى حالة خلوه من الخطوط الانسيابية ألا يبدو التمثال قبيحا فى هذه الحالة ؟

ومن الميسور أن نرى شكل هذا الخط عندما نلاحظ المثال وهو يحرك أزميله فى الأحجار المختلفة وعندما يلمس برفق التمثال فى آخر مراحل ابداعه أن مثل هذه اللمسات تبدو رقيقة .

ولعلنا نلاحظها فى تماثيل النساء أكثر مما نلاحظها فى تماثيل الرجال كما يتبين لنا اذا تأملنا تمثال فينوس وتمثال أبولون .

التناسب :

ويتوسع هوجارث فى شرح التناسب بعد أن أشاد بأهميته فى بداية كلامه ويعترض على تعريفه بأنه اتساق بين الأجزاء فحسب ، لأن مثل هذا التعريف يصلح للتناسب بمعناه الحسى ولكنه لا يفسر معنى آخر للتناسب

وهو التناسب بين روح الشيء ومادته أو شكله الخارجي • وهذا المبدأ هو الذى خضعت له أشكال الأشياء المختلفة كالسيوف والمدافع الخ ، وهو الذى نصادفه فى فن العمارة عندما نحس بوجود عدم تناسب بين قائم وعارضة أو بين العقود المختلفة وأكتافها • ولدينا أمثلة على ذلك فى عالم الحيوان أيضا تدل على ضرورة تناسب الأشكال الخارجية مع المهام الحيوية التى تقوم بها فأجمل هذه الكائنات هى أقدرها على الحركة والطيور القبيحة مثلا تعجز غالبا عن التحليق فى الفضاء ببراعة مماثلة للطيور الجميلة (وهذا رأى قد دحضه بيرك فى كتابه أصل الجليل والجميل) ، كما أن الأسماك القادرة على الغوص فى الماء أجمل بكثير من الأسماك التى تتعثر فى عومها •

فاذا اعتبرنا الحيوية والقدرة على الحركة وتناسب الشكل الخارجى مع القدرات المختلفة مقياسا للجمال ، فسيتضح لنا أن الانسان هو أجمل الكائنات • ويلجأ هوجارث أحيانا الى حجج غريبة لتبرير هذه الفكرة كقوله ان أجزاء الجسم التى اعتدنا اخفاءها هى أقبح هذه الأجزاء ، كما ان الأجزاء الثابتة من الجسم أقرب الى القبح من الأجزاء الكثيرة الحركة ويستدرك فيذكر أن القلب الانسانى يتصف بالجمال برغم اختفائه وبوسعنا أن نعزز رأيه — اتباعا لمنطقه — بالقول بأن القلب أكثر الأعضاء الداخلية حركة •

ثم يتحدث هوجارث عما يقال عن وجود قواعد رياضية تحدد الجمال فى الانسان كالنسبة بين ارتفاع الجسم وعرضه أو طول الساق وسمكها ، ويدرك هوجارث أن الحصول على مثل هذه النسب أمر شاق لاختلاف شكل خطوط هذه الأبعاد المختلفة فبعضها أقرب الى الاستقامة والبعض الآخر قريب من الانسيابى ، كما أن اختيار موضع القياس فى الذراع أو الصدر مثلا أمر شاء أيضا ، لأن هذه الأجزاء بعيدة عن الاستقامة فى خطوطها •

ويرفض هوجارث كل كلام عن مثل هذه القواعد الرياضية ويرى أن أعيننا وحدها هى التى تستطيع ادراك الشيء المستحب والتجربة هى أهم فيصل فى ادراك قواعد الجمال • فأى جزار اعتاد التدقيق فى شكل الحيوانات عند ذبحها يستطيع أن يحدثنا عن شرائط التناسب فيها • وأى ملاكم فى حلقة الملاكمة أو رياضى اعتاد رؤية الأجسام وهى عارية يستطيع أن يعلم أى نحات أو رسام النسب الصحيحة لجمال الجسم الانسانى •

والنساء فى هذه الناحية أقدر من الرجال على تحديد هذه النسب ، لأن الفرصة قد سنحت لهن لمشاهدة الكثير من السيقان والأذرع والأعناق وهى عارية (قيل هذا الكلام سنة ١٧٥٢) ومن ثم فهن قادرات على تنوير جهابذة العلماء والفنانين فى هذه الأمور !!

من هذا يتضح أن هوجارث يرى أن التجربة وحدها هى التى تحدد قواعد الجمال ولا يصح القول بوجود أية قواعد رياضية تحدد الجمال فالأصح هو ارتباط هذه النسب بحيوية الجسم ورشاقته وبراعة أجزائه فى الحركة . ويثبت هوجارث هذه الفكرة بالرجوع الى تمثال أنطونيوس . ومجرد نقل أبعاد هذا التمثال لن يساعد على ابداع تمثال مشابه فى جماله ولو أردنا ذلك يكفى أن نراعى عند تحديد أبعاد الأجزاء المختلفة مدى تحقيقها لغايات مرونة الحركة ورشاقتها وتعبيرها عن القوة وهذه أمور لن تعرف الا اعتمادا على التجربة .

ويتناول هوجارث فى كلامه عن التناسب مسألة أخرى وهى الصلة بين الشخصية والشكل الفنى ويضرب أمثلة مختلفة لاثبات هذه الصلة فالسقا ، مثلا ، نستطيع استنتاج حرفته من شكل قدميه وقصرهما ومن قوة عضلات الأجزاء التى يستعملها من جسمه ومثل آخر هو تمثال أبولون (بلفدير) الموجود فى روما والذى كثيرا ما يقارن بينه وبين تمثال أنطونيويس . فتمثال أنطونيوس يدفعنا الى الاعجاب به فحسب ، أما أبولون فيذهلنا بجلال مظهره وكأنه يعبر عن شىء أعظم من الانسان ، وأرجع البعض هذه الظاهرة الى أسباب رياضية فنسبوا ذلك الى زيادة طول الساقين والفخذين بالنسبة للأجزاء العليا . ولكن هوجارث يرفض هذه الفكرة ، لأنها قد تدل على استناد عظمة التمثال على تشويه بعض أجزاء الجسم والأرجح هو أن الفنان قد حقق غايته اعتمادا على فكرة شائعة وهى تضخم التمثال بحيث يبدو أكبر من الحجم الطبيعى ولكن التضخم لم يكن عشوائيا فقد اختار المثال أجزاء معينة قام بتكبيرها بعد أن أدرك تناسبها مع المعنى الذى يرغب التعبير عنه ، ولو أنه قصد ابراز رشاقة الحركة لوجب عليه الافصاح عن ذلك بوساطة الأجزاء التى تناسب الرشاقة ، ولو أنه أراد تعريفنا معنى القوة لتحتم اختياره أجزاء من الجسم نلمح فيها مظاهر القوة . وبراعة المثال تتكشف فى براعته فى الانتقاء فأحيانا تؤدى زيادة ضخامة الرأس الى المسخ كما تؤدى زيادة حجم اليدين أو القدمين الى زيادة قبح التمثال . ويلاحظ فى تمثال أبولون شىء آخر هو براعة المثال فى التعبير عن الجلال والسمو عندما أضاف اليه العباءة فزادته حيوية ووقارا .

النور والظل :

الصورة التى يرسمها المصور قد لا تختلف فى خصائصها اختلافا كبيرا عن الصور التى تنطبع على المرآة المسطحة . والمصور اذا أحس ترتيب الأجزاء المضيئة والأجزاء المعتمة ، يستطيع تقديم شىء قد لا يختلف كثيرا فى مظهره عن هذه الصورة المنعكسة فى المرآة والأضواء والظلال وحدها هى التى تعرفنا أبعاد الأشياء وأشكالها .

وثمة تشابه بين الظل ، والصوت والنغم ، وكما يوحى الينا ارتفاع أى صوت أو انخفاضه بابتعاد مصدر الصوت عن الأذن أو اقترابه منها ، كذلك يستطاع اعتمادا على كثافة الظلال واتجاهها فى التدرج تصور بعد الأشياء أو قربها والتدرج فى الظل من مظاهر الجمال وترتاح له العين كما تطرب الأذن لتدرج النغمة فى الارتفاع أو الخفوت .

وكثيرا ما ننخدع عند تقدير أبعاد الأشياء فى الحقيقة بسبب سوء تدرج الظل ، وهو ما يؤدى كذلك الى اساءة ادراك المكان والى تصور الأشياء المستديرة مسطحة والعكس بالعكس فالدائرة مثلا قد تتحول عند تنويع الظلال الى شكل مسطح أو كروى أو مقعر .

وطريقة تدرج الظلال وثيقة الصلة بمتعة العين عند مشاهدتها للأشياء فالأشكال التى تتدرج فيها الظلال فى اتجاه واحد أى تزداد تصاعدا فى كثافتها ـ واذا عبرنا عن ذلك بالأرقام كان التصاعد على الوجه الآتى : (١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥) ـ هى أقل الأشكال حظا من الجمال وتتشابه مع الخطوط المستقيمة التى أشرنا اليها .

والنوع الثانى من الأشكال التدرج فيه يتجه فى اتجاهين متضادين (ونستطيع أن نتمثله كشىء يتضاءل فى الكثافة ثم يزداد كثافة على الوجه الآتى : (٥ ـ ٤ ـ ٣ ـ ٢ ـ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ٤ ـ ٥) . وهذا النوع أفضل من النوع السابق ويناظر الخطوط المنحنية .

والنوع الثالث يقابل الخط المتموج (وصورته بالأرقام ٥ ـ ٤ ـ ٣ ـ ٢ ـ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٤ ـ ٣ ـ ٢ ـ ١) .

أما الظلال الانسيابية فلا يمكن تصويرها فى صورة أرقام كما فعلنا فى الخطوط السابقة .

وكما تفيدنا الظلال فى تحديد أبعاد الأشياء تفيدنا كذلك فائدة طائلة فى تصوير المكان . والرسام يستطيع أن يوهم المشاهدين أن هذه الظلال شىء حقيقى لا ريب فيه وربما اعتقد أولئك الذين لا يعرفون فى علم البصريات ذلك .

وتعتمد هذه الظلال على أسس ثلاثة هى التضاد والاتساع والبساطة .

صورة الوجه

يلاحظ هوجارث فى بداية هذا الفصل أنه لا وجود لأى وجهين متماثلين على ظهر البسيطة وان كانت الاختلافات بين وجه وآخر فى حاجة الى مزيد من الدقة لاكتشافها . ويطبق هوجارث نظريته فى الخطوط على

جمال الوجه ويختار أحد الأشكال المعروفة في الصور القديمة والتى أعجب بها أكثر الفنانين مثل رافائيل وغيره من المثالين والمصورين كما يختار أيضا شكلا لرأس رجل عجوز · هذان الشكلان يشهدان بأثر الخطوط الانسيابية فى ابراز جمال الوجه ، كما أنهما يثبتان ضرورة توفر أسس الجمال الأولى فى أى شكل يوصف بالجمال ·

والوجه هو مرآة الروح والنفس · ومهما ادعينا وجود أخطاء فى علم الفراسة فاننا كثيرا ما نكتفى بدراسة تعابير الوجه فىفهم الشخصية · وأوجه الأطفال لا تصلح للدراسة فهى تعبر عن معان قليلة للغاية وكلما ازدادت حركات الوجه تيسرت دراسة الشخصية الانسانية وحتى فى حالة المنافقين والبارعين فى الرياء الذين يستطيعون التحكم فى عضلات وجههم كثيرا ما تنكشف شخصيتهم الحقيقية من مجرد ابتسامة ·

ونحن اذا تأملنا صورة القدامى ، فسنلاحظ ما يشبه الاجماع على الربط بين الخطوط وطابع الشخصية · واذا أردنا الانتقاص من أية شخصية، فلن نصادف شكلا يعبر عن هذا المعنى أفضل من شكل سيلينوس الذى تكثر فيه الخطوط المنبعجة فى كل ملامح الوجه وهذا يبين الصلة بين هذا الخلط وابراز القبح ·

وفى الأطفال، ثمة صلة ملحوظة بين حركات العضلات وأفعال ببسيطة مثل فتح الفم أو التجهم · وعند رسم هذه الحركات يكتفى الرسام ببعض خطوط منحنية لا تختلف عن الخطوط التى يرسمها لاظهار حركات البلهاء ·

وابراز الجمال فى الابتسامة يعتمد على خطوط رقيقة متموجة بعكس القهقهة فانها تبدو قبيحة وتعتمد فى رسمها على خطوط أكثر استدارة ·

ثم يتجه هوجارث عن تطور الخطوط بتقدم السن ، ففى البداية ، الوجه يتميز ببساطته وبتقدم السن يزداد ظهور التنوع فيه ومن الميسور تحديد سن أى شخص بملاحظة خطوط وجهه واتساع حدقة العين ويلاحظ كذلك أنه لا اختلاف بين الذكور والاناث من حيث خطوط وجههم فى طفولتهم · ثم يظهر هذا الاختلاف بمرور الزمن وبوسعنا اكتشافه من مجرد التمعن فى نسبة حجم حدقة العين الى حجم الوجه ، على أن هذه العلامة تصلح للتفرقة حتى سن العشرين فحسب ثم تتعقد الأمور بعد ذلك بتأثير ما يطرأ من اختلاف على شكل خطوط الوجه ·

حركات الانسان وأفعاله :

بوساطة خطوط قليلة ، يستطاع التعبير عن الحركة وعن أفعال الانسان وتعابيره المختلفة · ويذكر أنه لو أراد التعبير عن احدى الرقصات

القروية لما احتاج الى أكثر من الخطوط الملتوية · وواضح أنه يسخر فيها من منظر الراقصين وكل ما فعله هوجارث هو تغيير شكل الخطوط عند الرسم من الشكل الانسيابي الى شكل المستقيم ، ويمكن بوساطة قوس مستدير وخطين مستقيمين الايحاء بشكل الرجل البدين واعتمادا على نفس هذه الخطوط المنحنية رسم هوجارث الجزء العلوى لامرأة بدينة أما الخطوط المتموجة فتفيد التعبير عن الرشاقة والرقة ·

ومهما أتقنا تصوير الحركات ، فانها تبدو دائما فى صورة حركة جامدة تثير الضحك ، فان تحويل الشخصيات الراقصة من حالة الحركة الى حالة الثبات يخلق منها صورا مثيرة للسخرية فى أغلب الأحيان ·

ولا يصح القول بأن تنوع الأشكال يعتمد على توزيع النور والظل واللون فحسب فبوسعنا الحصول على هذا التنوع أيضا من شكل الحركات المختلفة والناس عادة ينشدون الرشاقة ولذا يتعلمون السير والرقص والمبارزة وغيرها من الحركات التى تساعد على القضاء على تصلب عضلاتهم وأطرافهم · ويؤكد هوجارث وجود أسس لهذه الحركات وان كان الناس يعتمدون عادة على الفطرة فى محاكاة النماذج التى يرونها أقرب الى الرقة والوقار ، ويبتعدون عن أية نماذج يظنونها مثيرة للسخرية ·

ويحاول هوجارث تحديد خطوط رشاقة الحركات التى تحدث عنها فيقول ان الأجسام فى حركتها ترسم خطوطا يستطاع تحديدها مثل الدخان المتصاعد من النار أو الدوائر التى نراها فى الماء عند القاء الحجارة ··· الخ ·

والخطوط المختلفة تناظر أشكال حركات الجسم المختلفة · ومن ير حصان الحرب العربى وهو منطلق بغير لجام ، يستطيع أن يتصور شكل الخط المتموج الذى يتمايل يمنة ويسرة ولا يسير فى خط مستقيم على الاطلاق وهذا الانطلاق من أفضل الأمثلة تعبيرا عن الجمال والرشاقة · ويستخلص هوجارث من ذلك أن رشاقة الحركات تعتمد على نفس الأسس التى تعتمد عليها رشاقة الخطوط والأشكال ·

وأكثر حركاتنا تخضع للعادة بسبب تكرارها ، وتشابه خطوط الناس فى الكتابة انما يرجع الى طريقتهم فى الامساك بالقلم وتحريكه على الورق · وأغلب الحركات العادية التى تعتمد عليها حياة الناس تبدو عند تصويرها فى شكل خطوط مستقيمة أو دائرية ، والحركة الانسيابية نادرة ولهذا تحتاج الى تدريب طويل ·

ويتكلم بعد ذلك عن حركة الرأس فيلاحظ أن أى اسراف فى تهذيب الأطفال قد يؤدى الى خلق عادات سيئة فى حركة شكل الرأس كزيادة

الانحناء الى أسفل بحيث تلمس الرأس الصدر وكان الطفل يشعر بذنب أو خطيئة أو قد يثنى الرأس الى الوراء فى حركة غير طبيعية فتتسبب للطفل آلاما شديدة عند تحريكها ويلجأ آباء كثيرون الى الياقات المنشاة أو ربما الأطواق الحديدية ، لاصلاح بعض هذه العيوب والضفائر التى تثبت فى مؤخرة الرأس تكون أفضل علاج لذلك .

ومن الواجب ملاحظة تنافر الخطوط المستقيمة مع رشاقة حركة الرأس كذلك ، لأن الرأس المتصلب يبعد عن الرشاقة أما الرأس الذى يميل ميلا خفيفا الى اليمين أو اليسار فأكثر اتصافا بالرشاقة ومراعاة الحركة الانسيابية عند تحريك الرأس يمنة ويسرة أمر ضرورى هنا كذلك وهذه الحركة هى التى نعجب بها عند ملاحظة العظماء ، كما أننا نسخر من الحركة المستقيمة المضادة لها التى يلجأ اليها المهرجون ذضحاكنا .

وأكثر الرقصات تعبيرا عن الخطوط الانسيابية هى (المنويت) — وهى رقصة مشابهة للفالس كانت شائعة قبل القرن الثامن عشر — وتتالف من جملة خطوط انسيابية ولابد أن يشترك الجسم باكمله فى هذه الحركة الانسيابية ، لأنها لا تقتصر على حركة الأقدام وحدها فلابد أن تظهر فى لفتات الرأس وانثناءات الجسم وفى رقة الايماءات وكلما ابتعدت الرقصات عن هذه الخطوط الانسيابية ، قل نصيبها من الرشاقة ، ونحن اذا حولنا خطوط رقصة المنويت مثلا الى خطوط مستقيمة ، فستبدو مثيرة للضحك والسخرية مثل بعض الرقصات الايطالية القروية .

الكتاب واثره فى الفن العالمى

انتهينا من عرض كتاب تحليل الجمال لهوجارث وتخطى بعض المراجع عندما تعتقد أن أثر هذا الكتاب كان مقصورا على بريطانيا وحدها وهى فكرة تعزى الى الاستهانة بمكانة انجلترا فى الفنون التشكيلية ونحن لا ننوى هنا الدفاع عن حالة الفن فى انجلترا أو عن هوجارث وأثره فى الفن العالمى كما فعل فردريك انتال فى بحثه المستفيض بعنوان : Hogarth and his place in European

ولكننا نكتفى بالقول بأن هوجارث يكاد يعد أول مصور انجليزى تسترعى أعماله الفنية الانتباه خارج بريطانيا وقوبل كتاب تحليل الجمال بعد ترجمته الى اللغة الألمانية واللغة الفرنسية بترحيب شديد عند الألمان والفرنسيين فقد رحب به لسنج فى مجلة Vossiche Zeitung

(١٧٥٤) وذكر أنه قد ألقى ضوءا جديدا على الفن وقضي على الخرافة القائلة ان الذوق مسألة لا يصح مناقشتها • وفي فرنسا تعرض الكتاب لهجوم ديدور في مقالات نشرها (١٧٦٥) وان كان ديدرو قد استفاد من حجج هوجارث في تاييد نظرته الى الجمال دون أن ينسب هذه الأفكار الى هوجارث وأشاد جوته في أكثر من مناسبة بفكرة الخطوط الانسيابية •

واليوم ، تغيرت الأفكار الاستاطيقية ، وأصبحت بعيدة الاختلاف عن مذهب هوجارث فلم يعد هناك من يعنى اليوم بوضع قاعدة للجمال أو الشكل الجميل أو الخط الجميل ، ولكن هذا لا يعنى عدم الالتفات الى نظرية هوجارث فكل النظريات (مثل نظرية دافنشى في باراجونى ـ أو المقارنة بين الفنون ـ أو نظرية ألبرتى في كتابه عن التصوير أو النظريات المتزمتة التي فرضها ليبرون على التصوير الكلاسيكى بحكم رئاسته للأكاديمية الفرنسية) ضرورية لفهم الأعمال الفنية التي ظهرت قبل القرن التاسع عشر والتي لا يعترف البعض الا بها في عالم الفنون التشكيلية •

ومن الناحية الفلسفية لا يصح الاستخفاف بتاتا بما قام به هوجارث في تحليل الجمال ، وفي اعتماد نظريته على ملحوظة عابرة ذكرها ميكل أنجلو في معرض مقارنته بين الخطوط المختلفة • فكثير من النظريات قد شابهت نظريته في اعتمادها على فكرة جزئية ولعله قد تميز بجرأة ملحوظة عندما انتقد اعتماد الجمال على الخطوط المستقيمة أو المنحنية وحدث هذا في القرن الثامن عشر الذى لم يستطع البرء من شدة تعلقه بالرياضيات وبتطبيقها في سائر المجالات دون تمييز • ونظرية هوجارث تعد اعتراضا ـ ربما بغير قصد ـ على فكرة راسخة ترجع الى عهد فيثاغورث وأفلاطون اللذين طالما أشادا بجمال الخطوط المستقيمة والدوائر •

وربما أمكن القول ان هوجارث قد أسرف عندما انتقل من فكرة الجمال من الخطوط والزخارف الى الكلام عن الجمال الانسانى ـ كما رأى بوزانكيت ـ لان الجمال في هذه الحالة الأخيرة شيء بعيد الاختلاف من حيث النوع أو الدرجة على حد سواء وكم كان في حاجة الى عقل مشابه لعقل أفلاطون وقدرته الجبارة على انشاء الأنساق الفلسفية لاقناعنا بهذه الوثبة الكبيرة الجريئة !

★★★

كوخ العم توم

هارييت بيتشر ستو

١٨٥٥ م

في خشوع عميق ، وقف المحرر الأعظم ابراهام لنكولن ذات يوم من سنة ١٨٦٢ ، ليحيى المرأة التى قدر لها أن تهز بقصتها الخالدة « كوخ العم توم » ضمير العالم وتجند الرأى العام الأمريكى ، ضد ذلك الظلم الساحق النازل بالزنوج ، وأن تكون الموحية الدافعة لحرب تحرير العبيد الأهلية التى انتصرت فيها الولايات الشمالية على الجنوب قائلا :

« حسنا مسز ستو » ، اننى لسعيد بأن أرحب بك ، بوصفك مؤلفة تلك القصة التى أحدثت تلك الحرب العظيمة » .

فمن هى هاريت بيتشر ، تلك التى استطاعت أن ترسم بقلمها أدق صورة للعذاب البشرى فى قصة مثيرة تتحسس فى كل سطر من سطورها معانى انسانية ، تضرب فى أعماق الانسان لتثيره ضد الاضطهاد البشرى والاسترقاق ؟

وأى معان بالغة فى الشجو هى ، وليزا الأم الزنجية تقول لزوجها العبد الرقيق وهو يبثها قلقه ومخاوفه بعد أن استمع لمحاورة خفيفة كانت تدور بين سيدهما وبين أحد تجار الرقيق البيع طفلهما الوحيد :

« ولكن يحسن بك أن تعتصم بالايمان يا جورج لقد قالت سيدتى : ان علينا حين نغرق فى بحر من الظلم ، أن نؤمن بأن الله يبذل غاية جهده لرعايتنا .. ؟ » .

« سيدة نابغة بدون جدال »

ولدت هاريت بيتشر ستو فى يوليو من سنة ١٨١١ فى مدينة نيوانجلند فى ليتشفلد وكانت الصغرى من أطفال سبعة ، لأب مبشر ، لم يكن راتبه القليل بكاف ليؤمن للأسرة الكفاف من العيش ، مما حدا بأمها « روكسانا » الى افتتاح مدرسة أهلية ـ وكانت ذات ثقافة وعلم لتعليم

العلوم واللغات والفنون النسوية ، بالاضافة الى رسالتها الأولى كربة بيت وأم مثالية ·

فى هذه البيئة الواعية المغامرة ، نشـأت هاريت ، وأحست منذ طفولتها بروح الحرية تسرى فى أعصابها ودمها ، وهى تتجول بين الحقول والغابات·ومن تلك الطبيعة الرائعة أبدا ، ومن أرضها المتجهمة بالسحب ، تثقفـت ـ كما تقول ـ وانما تفكيرهـا وفهمها للحياة بطبيعتها وتجهمها وتقلباتها ·

وتقص هاريت من حوادث طفولتها ، ما يدل على أنها كانت كثيرا ما تثير العديد من المشاكل والمتاعب لأمها ، ولقد أغرت ذات مرة شقيقا لها على اقتسام أكل بصيلات الزنبق ، وبهذا حرمت الأسرة من صيف حافل بالزهر والشذى العميق ·

ولكن هذه الطفولة سرعان ما نراها تتعرض لضربة القدر ، ويد الموت تغتال الأم المثالية المضحية ، ولمـا تتم هارييت الخامسـة من العمر بعد ، وليبدو فى موتها ، وكأن الأسرة كلها قد ضاعت · وأصبحت دون قائد · ولم يكن الصغار هم الذين حرموا هذا النبع الفيـاض من الايثار والحنان فحسب بل كان السيد بيتشر ، ذلك الزوج الذى لم يسـتطع أى عزاء التخفيف من ألم فجيعته ووحدته فيكتب الى صديق له يقول :

« هناك شعور بالفجيعة والخسارة ما من سبيل الى تخفيفهما، ووحدة لا ينفذ الى ظلماتها مؤنس وانني حتى بين مرح الأطفال وعطف الأصدقاء أجدنى وحيدا · بيد أننى لا أتضجر ، بل ان شعورا يوميا عميقا يغمر كيانى، بأنه كم يجب أن أكون لله شاكرا » ·

« ولقد كان العام كله ـ بعد موتها ـ عام فراغ روحى عظيم ، كأنه لم تكن هناك محركات كافية فى العالم لتحركنى · ولقد تعودت أن أصلى لله بحرارة اما أن يأخـذنى اليه ، أو يعيـد الى ذلك الشعور باللذة فى الأشياء ، وفى البواعث التى كانت تحركنى فيما مضى » ·

★★★

وذهبت هارييت اثر وفاة أمها ـ لتعيش مدة مع جدتها ومن ثم لتعود الى لتشفيلد ·· بعد زواج أبيها للمرة الثانية ·

ولقد حاولت الزوج الجديدة للسيد بيتشر أن تكون أما ثانية للصغار، ونجحت بأن تكون محبوبة لديهم مكرمة · غير أن هارييت لم تحس نحوها بذلك الانعطاف الخاص ·

فى سن السابعة برهنت هارييت على أنها تملك ذاكرة ومواهب ساطعة ، اذ أصبحت تحفظ أجزاء من التوراة وعددا كبيرا من الأناشيد الدينية ، كما كانت مولعة بقراءة وتحصيل المعرفة الى حد بعيد فقد كانت مكتبة والدها مقصدها للبحث عن هذا الغذاء الفكرى وكان البحث عن هذا الغذاء واكتشافه يشبه لديها اكتشاف جزيرة فى المحيط .

★★★

حينما بلغت هارييت الثانية عشرة من عمرها التحقت بمدرسة السيد « جون دريس » وكان مربيا ذا شهرة ومكانة وفضل فتبدت براعتها وذكاؤها فى التعبير والدقة فى الانشاء . وفى يوم الاحتفال بانتهاء العام الدراسى كانت الفائزة الأولى . ولم يكن فوزها هذا عامل فرح واعجاب لأبيها وللمدرسة فحسب ، بل كان مستهل حياة جديدة تطلعت هارييت لبنائها بعزيمة وروح لا يقهر .

وتنسج الأقدار خيوطها لدفعها الى تلك الحياة ، وخطيب شقيقتها « كاترين » يغرق فى حادثة مركب ، فتفتح تلك الشقيقة مدرسة للفتيات تعلم فيها هارييب،فتستطيع بهذه الطريقة تأمين نفقات دراستها فى الجامعة.

وحينما تبلغ هارييت الخامسة والعشرين من عمرها سنة ١٨٣٦ ، ينتقل والدها الى « أوهايو » ليصبح رئيسا لأبرشية « لين » فى مدينة « سينسناتى » . وتذهب معه ابنتاه كاترين وهارييت ، وهناك تؤسسان معا مدرسة جديدة فى ضاحية المدينة . وتلتقى هارييت هناك بأستاذ جامعى لامع يدعى « كالفن ستو » فتتزوج منه .

★★★

فى ذلك الوقت كانت قضية الرق تهز النفوس فى كافة أرجاء القارة. وبما أن مدينة « سينسناتى » كانت تقع بقرب حدود « كينتاكى » ــ الولاية الجنوبية للعبيد ــ فقد أصبحت مرفأ للأفكار التحررية العاصفة وكان العبيد يهربون الى الولاية الحرة فى « أوهايو » وتمد لهم يد المساعدة فى كندا عن طريق رجال عرفوا بعطفهم على قضايا الحرية . فى تلك البيوت الكريمة الواقعة فى الشمال كان العبيد يجدون الحماية فى النهار الى حين ينقلون خلال الليل الى تلك الولاية .

★★★

وأضحى ساحل تلك الولاية مقرا للجدل العنيف ، ولتأييد قضية تحرير الانسان . ولقد ساعد الكثيرون من طلبة الولايات الشمالية على تحرير عبيدهم وعلى تأسيس مدارس للطلبة الملونين فى « سينسناتى » رغما عن نظرية العداء التى ورثها هؤلاء عن أهلهم .

وحينما حاولت الصحافة المحلية أن تلجأ إلى المناداة بحل عادل للقضية تعرضت مطابعها للكسر مرتين وقذفت الى البحيرة ، كما تعرض الكثير من بيوت الملونين للحرق وقتل البعض منهم · واضطرت هاريت وأسرتها بسبب هذا الى النوم متسلحين لحماية أنفسهم · وحذر البحث فى هذه القضية · وكنتيجة لهذا التقييد أوشكت المدرسة على التوقف عن التدريس بعد أن هجرها أكثر أساتذتها وطلابها وبعد أن بذل السيد بيتشر مع أبنائه فى سبيلها أقوى الكفاح ·

وفتحت هاريت بيتها للأطفال الملونين الذين كانت تعلمهم · وحينما اعتقل واحد منهم ، تولاها أسى عميق فبادرت الى افتدائه بكل ما كانت تملك من مال · حينذاك أنذرت عائلة ستو بالخطر : فهاجرت الى الشمال فى عام ١٨٥٠ ، وشرع زوج هاريت فى التدريس فى كلية برانسويك فى ولاية مين كما أخذت هى فى الكتابة للصحف ، لتعاون على كسب العيش ·

***

ديكنز : قصة جديرة بكل عقل وكل قلب !!

والآن وفى سن الأربعين ، ومع تبعات بيتية مرهقة وتربية لطفل ، كان من غير المتوقع أن تستطيع هاريت انتاج أى أثر أدبى بارز · ولكنها وهى على حساسية عميقة بالمأساة الانسانية الدامية وبالمعركة التى تثور وتندلع نيرانها فى الولاية ، الى ذلك الاضطهاد السافر للرقيق ، اذ أبيحت مطاردة الملونين واعادتهم ثانية الى العبودية والموت ــ فقد كانت هاريت أقدر من يتولى اثارة هذه المأساة ، اذ لم يكن الناس قد أثيروا أو حركوا الى الدرجة الكافية لمعارضة أو مقاومة الرق بعد · هنا ، نرى هاريت تود من الأعماق أن لو استطاعت اثارة هذه المعانى السامية فى النفوس ، ودفعها الى تحرير اخوتها فى الانسانية من الاذلال والعبودية والاضطهاد ·

ولاح لها هذا الرجاء أو تمثل فى ذهنها فى شخصية « العم توم » بينما كانت تجلس على مائدة القربان فى كنيسة برنسويك الصغيرة فى يوم أحد ·

وعادت هاريت الى البيت، يتملكها ايمان جارف بتنفيذ هذا القصد · وبدأت الكتابة · كتبت بادىء ذى بدء فصلين أو ثلاثة من قصة كوخ العم توم ، وقدمتها الى الدكتور « بيلى » صاحب جريدة الأحرار سابقا فى

سينسناتي ، وزارت بوسطن ، وفي قاعات انسيليبرى لمقاومة الرق ، استعارت الكثير من المراجع لدعم كتابها بالوثائق والحقائق .. وحين كتبت القصة نفسها ملأت كل صفحة وسطر فيها بالرأفة والعاطفة .. تلك العاطفة التي انبثقت من اختباراتها في مشكلة الرق والاضطهاد البشرى .

ونشرت هاريت القصة ، وكان التجاوب معها في كافة أنحاء العالم قويا عاصفا تبدى في فيض من رسائل التشجيع والتقريظ من ملوك وأمراء وكتاب وأدباء ، فقد كتب لها « ديكنز » قائلا :

« ان كتابك لجدير بكل عقل وكل قلب » كما قرظه كنجسلي وجورج اليوت وغيرهما ، وفي السنة التالية قامت هاريت وزوجها برحلة الى أوربا ، فكانت تقابل في كل مدينة تزورها بحماسة مقدسة اذ كانت جموع الشعب توقف مركبتها في الشوارع لتحييها وتملؤها بالزهر .

وافتتح اكتتاب عام تحرير العبيد حيث قدم لها مبلغ ألف جنيه استرليني على صينية فضة ، كما دعتها احدى الدوقات الى حفل في بيتها كان من شهوده لورد بالمرستون وماركونى وجلادستون قدمت لها خلاله سوارا ذهبيا على شكل قيد لعبد رقيق نقش على الحلقة الأولى منه : « اننا نؤمن بأنه رمز لقيد سوف يتحطم عاجلا » . كما نقش على الحلقة الثانية منه تاريخ الغاء تجارة الرق في أمريكا عام ١٨٠٧ وفي بريطانيا عام ١٨٤٣، وعلى الثالثة : تاريخ تحرير العبيد في مقاطعة كولمبيا الى اعلان الرئيس ابراهام لنكولن لالغاء العبودية في الوثيقة الدستورية في الولايات المتحدة، والى الأبد سنة ١٨٣٦ .

وعادت هاريت وزوجها الى أمريكا من رحلتها في أوربا لتكتب المذكرات الشائقة وتؤلف قصصا قوية أخرى .

واستمر بيع قصة « كوخ العم توم » بارتفاع ، وترجم الى تسع عشرة لغة مختلفة أخرى.وكان تأثيره في كافة أنحاء العالم عظيما ، اذ حرر الكثيرون عبيدهم بعد قراءته ، كما ازداد بيع كتب التوراة في فرنسا ، لأن الشعب هناك أحب أن يقرأ الكتاب الذى أحبه العم توم كثيرا .

وأخيرا ، وبعد الحرب الأهلية مباشرة استطاعت هاريت أن تشترى بيتا بين بساتين البرتقال في فلوريدا من النقود التي ادخرتها من التأليف كما بنت كنيسة لزوجها ظل يعظ فيها حتى موته سنة ١٨٨٦ .

***

في عيد هاريت الواحد والسبعين ، أقام ناشر قصصها حفلة كبرى على نخب مؤلفة القصة الانسانية العالمية ، دعا اليها الشعراء والفنانين والسياسيين ورجال الاصلاح ، وتحت منصة في خيمة عظيمة جلست هاريت لتصغى بتواضع الى قصائد الشعراء والخطب التى كانت تمجد كفاح امرأة واحدة رقيقة حيية ، وفى سمو ظاهر يدل على أنها أتمت هدفا عظيما .

★★★

وطوى الموت هاريت بيتشر ستو سنة ١٨٩٦ اثر مرض عضال « الشلل » ودفنت فى مقبرة متصلة بالكنيسة ، بين قبر ابنها وزوجها فى « أندرفر » وقال التاريخ :

لقد كافحت هاريت بقلم أكثر مما كافحت بسلاح ، وعاشت لترى معركتها ضد العبودية .. تنتصر ...

الكتاب .. وثيقة انسانية عظمى !!

اتفق نقاد «كوخ العم توم» ، من مادحين وقادحين ، فى نقطة واحدة. فقد اعترفوا جميعا ، بغير استثناء ، بالأثر الهائل لذلك الكتاب على عصره ، وبنفوذه القوى فى التحريض على الحرب الأهلية . وقد وصف أحد المعلقين المعاصرين القادحين ، هذا المؤلف بأنه : « تشويه وحشى أوحى به التعصب لالغـاء الرق ، وأنه موضوع لاثارة الشقاق بين الأقسام » . وأبدى أحد مشاهير المحاضرين والكتاب ، فى أوائـل القرن الحالى ، ملاحظته بقوله : « أحدث كتاب، كوخ العم توم ، ضررا للعالم يفوق ما فعله أى كتاب آخر ».

وعلى نقيض هذين ، عبر عدد كبير من المعجبين ، عن عاطفتهم بخطاب جاء من لونجفلو يصف كتاب كوخ العم توم ، بأنه : « أحد الانتصـارات العظمى التى سجلها تاريخ الأدب علاوة على أثره الأخلاقى » . وقرظ آخرون ذلك الكتاب على أنه « انتصـار للحقيقة » و « خالد » وأن المؤلف « سيدة نابغة بدون جدال » .

ما من كتاب آخر كان أكثر موضوعية ولا أحسن توقيتا وظيفيا .. زادت حدة النضال من أجل مسألة الرقيق . وزاد فى حدتها التصديق على قانون العبيد الهاربين ـ ظل المطالبون بالغاء الرقيق عشرين سنة يصعدون من اثارة الرأى العام ضد الرق ، وانقسم الكونجرس من الوسط قسمين ، يتزايد المعارضـين للرق من رجال الدين ـ من الشمال والجنوب ـ وهم يصيحون من منابرهم بالآيات المقدسة المحرمة (بتشديد وكسر الراء) استخدام العبيد وامتلاكهم . بلغ الجو الثائر ذروته ينتظر شرارة فحسب لحدوث انفجار يهز العـالم كله ، وقد زودهم كتاب كوخ العم توم بهذه الشرارة .

لم يكن الوقت منـاسبا فقط ، بـل ظلت الوراثة والبيئة تشكلان الشخص الملائم بالضبط لاثارة المغامرة ضد استرقاق البشر .

واذ كانت هاريت بيتشر ستو ابنة رجل من أشهر الناس قداسة فى القرن التاسع عشر ، وهو لايمان بيتشر وشقيقه واعظ أكثر عاطفة من أبيه

وهو هنرى وارد بيتشر وزوجة واعظ ، وشقيقه ووالدة وعاظ آخرين ، قضت حياتها كلها فى جو دينى بحت · وزيادة على ذلك ، كان تعليمها الدينى كلفينيا (٨١) متعصبا ، متمسكة بروح جوناثان ادواردز ، وصموئيل هوبكنز وغيرهما من متصوفى نيو انجلاند ، كما أحاطت بها باستمرار منذ نعومة أظفارها تعاليم لاهوتية « كالنار والكبريت » ·· فلما كانت هاريت لا تستطيع الا أن تكون واعظة — ان لم يكن من منبر ، فعلى الأقل بالقلم · تجلى الأساس الدينى فى جميع مؤلفاتها المتنوعة ومنها كوخ العم توم ، يحفزها الى الحماس الانجيلى وفصاحة التعبير بالآيات المقدسة ·

وفى السنوات التى قضتها هاريت ستو فى سنسناتى ، لم تكن من محبذى الغاء الرق المتحمسين ، وربما شاركت أبلها رأيه فى أن الالغاء يتكون من « الخل وحامض التتريك وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) مع الكبريت وملح البارود والفحم النباتى ، ليتفجر فتتناثر المادة الأكالة » · والواقع أن مسز ستو كانت متطرفة أكثر منها بطلة عاملة فى معركة الرقيق ، حتى عادت الى نيوانجلاند اذ عين كالفين ستو أستاذا بكلية بودوين بولاية مين فانتقل اليها مع أسرته فى سنة ١٨٥٠ ·

كانت نيوانجلاند كلها ثائرة حنقا على اقرار قانون العبيد الهاربين وخصوصا ضد أحداث ذات صلة بتطبيق ذلك القانون فى بوسطون · فأصحاب العبيد فى الجنوب يمكنهم مطاردة العبيد الهاربين داخل الولايات الحرة مع الزام موظفى هذه الولايات بمساعدتهم فى استعادة مملوكيهم · وزيادة على ذلك ، فان الزنوج الذين نعموا بالحرية قانونا منذ مدة طويلة ، جمعوا وأعيدوا الى أصحابهم السابقين ، وغالبا ما انفصلوا عن عائلاتهم فى هذه العملية ·

تسلمت هاريت ستو خطابا من زوجة أخيها مسز ادوارد بيتشر ترجوها فيه « أم تكتب شيئا يجعل أمة بأسرها تشعر بفظاعة الرق » · وتبعا لتقاليد أسرة ستو ، قالت هاريت : « بمساعدة الرب سأكتب شيئا كنيسة بوسطون · بينما يعقد أخوها الآخر هنرى وارد ، مزارات فى ان أحيانى الله » · وفى تلك الأثناء كان أخوها ادوارد ثائرا ضد الرق فى كنيسة مدينة بروكلين لتخليص العبيد من رقهم ومنحهم الحرية ·

كان القسم الأول من كتاب « كوخ العم توم » ، الذى كان ما يزال فى طور التأليف هو غاية الموضوع ، ويصف موت توم · وبينما كانت مسز ستو حاضرة فى كنيسة بزنسويك أثناء توزيع الذبيحة المقدسة،استرجعت كافة المناظر المتجمعة فى عين ذهنها ، وفى مساء ذلك اليوم نفسه ذهبت

الى حجرتها وأقفلت بابها وطفقت تكتب رؤيتها حتى نفد ما لديها من ورق الكتابة فاستعملت ورق اللف البني اللون وأكملت فيه قصتها . وعلى ذلك كونت هذه القصة الباب الذى عنوانه « الشهيد » في كتاب « كوخ العم توم » . ولما قرأته لأولادها وزوجها تأثروا جميعا تأثرا عميقا . ويقال ان كالفين ستو ، صاح يقول : « أي هاتى ، هذه ذروة قصة الرق التي وعدت شقيقتي ايزابيل بكتابتها . ابدئى من البداية حتى تصلى الى هذه ، تحصلى على كتابك » .

بعد أسابيع قليلة ، كتبت هارييت ستو الى جماليل بايلى محرر صحيفة « العصر القومى » وهى جريدة مناصرة لالغاء الرق تصدر فى واشنطون ، وكان بايلى يعرف أسرة بيتشر فى سنسناتى حيث كان يصدر جريدة أخرى مناهضة للرق عنوانها « الخير » ، حتى طرد من هناك فى كثير من العنف . ذكرت مسز ستو فى خطابها أنها تعتزم كتابة قصة اسمها « كوخ العم توم » عن « الرجل بين المساكين » فى صورة حلقات تصل الى ثلاث أو أربع . فعرض عليها بايلى ثلثمائة دولار لحقوق النشر ، وبدأت صحيفة « العصر القومى » تنشر الحلقات فى شهر يونية سنة ١٨٥١ .

توقعت مسز ستو أن ينتهى ذلك المؤلف فى شهر ، ولكنه امتد باستمرار فى مناظر وأحداث وشخصيات ومحادثات كانت مكدسة فى ذاكرتها من تجاربها السابقة أو قراءة ما جاءها بالاكوام بينما كانت قوى خيالها وابتكارها تتأجج حماسا . امتدت الحلقات الأسبوعية لمدة سنة تقريبا قبل أن تتمكن المؤلفة المتعبة من الوصول الى خاتمة كتابها . بعد ذلك ، أصرت على « أن الله نفسه هو الذى كتبه ، ولم أكن أنا سوى أداة فى يده » .

لم تكن الخطة الأصلية لقصة « كوخ العم توم » معقدة ولو أنها تتضمن عدة شخصيات . ففى المنظر الافتتاحى : لكى يسدد المستر شلبى ، وهو صاحب عبيد خير من كنتكى ، ديونه ، اضطر الى أن يبيع بعضا من خيرة عبيده ، ومنهم العم توم ، الى نخاس فى نيو أورليانز اسمه هيلى . فاسترقت السمع فتاة نصف زنجية اسمها اليزا فعرفت أن طفلها هارى سيباع أيضا . وفى ديجور الظلام ليلا ، هربت مع ابنها وعبرت نهر أوهيو المتجمد طلبا للحرية فى كندا . وكان زوجها جورج هاريس عبدا فى مزرعة قريبة ، فهرب هو أيضا ولحق بها . وأخيرا وبعد عدة مغامرات مع قوات القبض على العبيد الهاربين التى طاردتهم ، وبمساعدة أعضاء جمعية الأصدقاء التى أسسها جورج فوكس ، وغيرهم من البيض المشفقين عليهم ، على طول الطريق ، وصلوا الى كندا ، ثم بعد ذلك الى أفريقيا .

أما العم توم فكان سيىء الحظ ، اذ رفض الهروب لئلا يربك سيده ، وفضل عن زوجته وأولاده . وابان الرحلة الى نهر المسيسبى الى نيو أورليانز ، أنقذ توم حياة الصغيرة ايفا ولكى يعبر أبوها سانت كلير عن شكره لتوم ، اشتراه من النخاس .. كانت السنتان التاليتان مدة سعادة لتوم كخادم فى بيت سانت كلير المنيف فى نيو أورليانز مع الطفلة القديسة ايفا ورفيقها الزنجى الصغير توبسى . ثم ماتت ايفا ، وفى ذكراها ، اعتزم سانت كلير أن يعتق توم وزملاءه العبيد الآخرين ، ولكن سانت كلير قتل فجأة وهو يحاول أن يفرق بين اثنين من المتشاجرين فأمرت زوجته بارسال توم الى سوق الرقيق ليباع بالمزاد العلنى ، فاشتراه مزارع متوحش سكير من منطقة النهر الأحمر اسمه سيمون لجرى . وعلى الرغم من سلوك توم المسالم وبذله كل جهد لارضاء سيده القاسى ، فان لجرى سرعان ما بدأ يمقت توم ، وكان يسوطه كثيرا . وحدث أن اعتزمت اثنتان من الاماء ، كاسى واملين ، الهرب من المزرعة والاختباء فى مكان ما . فاتهم لجرى توم بمساعدتهما واشتبه فى أنه يعرف أين تختبئان . وعندما رفض توم الافضاء بأية معلومات ظل لجرى يسوطه حتى فقد وعيه . وبعد ذلك بيومين ، جاء جورج شلبى الصغير ابن صاحب توم السابق ليشتريه ويستعيده ولكن بعد فوات الأوان ، اذ مات توم متأثرا بجراح ضربه الوحشى القاتل . فما كان من جورج الا أن ضرب لجرى فطرحه أرضا ، ثم عاد الى كنتيكى فأعتق جميع العبيد باسم العم توم ، واعتزم تكريس بقية حياته لقضية الغاء الرق .

رغم أن توزيع صحيفة « العصر القومى » لم يكن ضخما ، فقد حظى كتاب « كوخ العم توم » باقبال حماسى فى خلال بضعة أشهر . وقبل ظهور الباب الأخير أخرج وليد أفكار مسز ستو من المطبعة فى صورة كتاب . تعهدت مؤسسة جون ب. جيوبت فى بوسطن بهذا العمل فى خوف عظيم بسبب طوله ، من جهة ، وكون مؤلفته امرأة ، من جهة أخرى وعدم شعبية موضوعه . ولكى يحتاط جيوبت ضد أى خسارة مالية ، عرض على مسز ستو ٥٠٪ من الأرباح نظير أن تدفع نصف تكاليف الانتاج . ولكن بدلا من ذلك ، اختارت أسرة ستون أن تحصل على ١٠ ٪ من ثمن النسخ المبيعة — فأضاع عليهم هذا القرار ثروة .

لم يكن كل من الناشر والمؤلفة متفائلا من نجاح « كوخ العم توم » . فعبرت مسز ستو عن أملها فى أن يأتيها ذلك الكتاب بما يكفى لشراء ثوب جديد من الحرير . كانت الطبعة الأصلية ٥٠٠٠ نسخة من جزءين ، وقد رسم على وجه الغلاف صورة كوخ زنجى .

بيعت ٣٠٠ نسخة فى اليوم الأول للنشر ، وبيع الباقى كله فى اليوم التالى ، بينما تدفقت الطلبات • وفى خلال أسبوع بيعت ١٠٠٠٠ نسخة ، وفى نهاية السنة الأولى كانت المبيعات ٣٠٠٠٠٠ نسخة فى الولايات المتحدة وحدها• كانت ثمانى آلات طباعة آلية تعمل ليل نهار لسد المطلوب، وتحاول ثلاثة مصانع للورق توريد الورق اللازم • ورغم هذا ، كان الناشر ما يزال فى حاجة الى ألوف النسخ لسد الطلبات » • ويبدو أن كل شخص يعرف القراءة والكتابة فى الدولة قد قرأ هذا الكتاب •

كانت شهرة « كوخ العم توم » فى الخارج تزيد عن المبيعات فى الولايات المتحدة نفسها • أرسل موظف صغير لدى بوتنام نسخة الى ناشر انجليزى ، فنال خمسة جنيهات نظير أتعابه فظهرت عدة طبعات مسروقة ، اذ لم تكن هناك حماية دولية لحق التأليف • وسرعان ما كانت هناك ثمانى عشرة مؤسسة انجليزية تمد السوق بالنسخ المطلوبة بأربعين طبعة مختلفة • وقدر أنه فى خلال سنة بيع مليون ونصف مليون نسخة فى بريطانيا العظمى والمستعمرات • ولم تحصل مسز ستو على أى شىء من ثمن كل هذه المبيعات وفى الوقت نفسه ، كان الناشرون الأوروبيون مشغولين بجنى ثمار ذلك المحصول الذهبى • فقد ترجم هذا الكتاب الى اثنتين وعشرين لغة على الأقل ، ولقى النجاح فى فرنسا وألمانيا والسويد وهولندا والدول الأخرى بمثل النجاح الذى لقيه فى الدول المتكلمة بالانجليزية •

وزيادة على ذلك ، حولت هذه الرواية الى مسرحية وصارت واحدة من أشهر المسرحيات التى مثلت فى المسارح الأمريكية ، وظهر منها عدد لا يحصى من الطبعات قامت بها جماعات مسرحية عديدة طافت حول العالم خلال القرن الماضى • ومرة أخرى ، لم تكسب مسز ستو شيئا ماليا ، اذ أن قانون حقوق الطبع والنشر والتأليف الذى كان سائدا فى سنة ١٨٥٢ لم يعطها اشرافا على تحويل روايتها الى مسرحية • وعلى أية حال، لم تستحسن مسز ستو تحويلها الى مسرحية ، ورفضت أن تطلب تصريحا بتحويل كتابها الى مسرحية •

عواصف من الغضب !!

وبالجملة ، فان ما أحرزه كتاب « كوخ العم توم » من شهرة وربح ، لم يحرزه أى كتاب آخر فى تاريخ النشر ، فيما عدا التوراة الذى ضرب الرقم القياسى فى المبيعات • صار هذا الكتاب ملكا للملايين فى شتى

صوره : الخيالية والمسرحية والشعرية والموسيقية ، كما طاف حول الكرة الأرضية ٠

كان تاثير كتاب (كوخ العم توم) على الرأى والعواطف المعاصرة هائلا مثل ضخامة مبيعاته ٠ وفيما بعد وصف ابن مسز ستو وحفيدها اقبال الناس ، بقولهما : (كان مثل اشعال حريق ضخم ، عمل على تألق السماء كلها بطوفان العواطف الجارف الذى اكتسح أمامه كل شىء وعبر المحيط الشاسع نفسه ، حتى بدا أن العالم كله قلما كان يفكر فى شىء أو يتحدث عن شىء سواه) ٠

بيد أنه جاءت من الجنوب عاصفة هوجاء من الغضب والانكار والقدح ، انصبت على مؤلفه (كوخ العم توم) ٠ وسرعان ما وضع اسمها بين قوسين مع أمير الشرور ، وامتلأت أعمدة فى الصحف من النقد المفصل بقصد اظهار أخطاء ومغالطات تصوير مسز ستو للرق ٠ ومن التعليقات النموذجية ، تقرير صحيفة (الرسول الأدبى الجنوبى) القائل بأن ذلك الكتاب «بغاء اجرامى لوظائف الخيال السامية» ، وان مسز ستو ، اذ اقترفت اثما بتأليفه ، « فقد وضعت نفسها خارج نطاق العلاج الطيب على يد النقد الجنوبى » ٠ وتسلمت مسز ستو شخصيا ، الوفا من الخطابات الغاضبة وخطابات السباب ٠٠ وفى البداية ، انتشر توزيع كتاب « كوخ العم توم » فى الجنوب بحرية ، غير أنه بعد رد الفعل العنيف المرير ، صار مجرد حوزة نسخة من هذا الكتاب ، خطرا أى خطر ٠

ومن قبيل التهكم ، كانت مسز ستو تأمل وتؤمن بأن روايتها قد تكون وسيلة لحل نزاع الرق الذى طال أمده ، وبعد أن قرأ أحد الأصدقاء الجنوبيين هذا الكتاب ، كتب اليها يقول : « سيكون كتابك مصلحا عظيما يوحد بين الشمال والجنوب » ٠٠ حاولت مسز ستو فى الكتاب أن تقدم فى عدل طرفى النزاع فى جدال الرق ــ التصورى والدينى من ناحية ، والقاسى المتشائم من جهة أخرى ٠ صور اثنان من أصحاب العبيد فى ذلك الكتاب ، هما المستر شلبى وأوجستين سانت كلير ، وهما أخوان من الجنوب عظيما الفضل ٠ وربما كانت ايفا الصغيرة ، ابنة سانت كلير أكثر الأطفال ملائكية فى الأدب كله ٠ أما الوغد الأعظم سيمون لجرى فهو رجل ملحد من ولاية فيرمونت ٠ كما يتحدث كثير من كوميدية الكتاب عن شخصيتين أخريين من نيو انجلاند هما مس أوفيليا وماركس ٠ وقد أبانت مسز ستو بوضوح أن أهالى الشمال ينقصهم الوعى الكافى بصفة قاطعة عن الزنوج ، ومع ذلك فقد يعطفون عليهم فى شىء من الغموض ٠

بيد أن هذه الاعترافات لم تكن كافية لارضاء استياء الجنوب . فقد توالت الهجمات العنيفة من كل جانب واتهمت مسز ستو بتشويه الحقائق. مثال ذلك : أشير الى أن قوانين الجنوب صارمة وملزمة ازاء قتل العبيد مثلما هي صارمة ازاء قتل البيض ، وتحرم اللوائح عادة فصل الأطفال ، الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات، عن أمهاتهم. هذا، والعبيد كممتلكات بالغو القيمة فلا يجب اساءة معاملتهم اساءة خطيرة .

أما في الشمال، فاستقبل كتاب « كوخ العم توم » استقبالا مختلطا : فحتى البعض ، الذين يمقتون الرق ، يتهمون هذا الكتاب لخوفهم من أن يثير حربا أهلية . كما ذمه أهل الشمال المستثمرون أموالا في أعمال قطن الجنوب خشية أن يعرض استثماراتهم للخطر . وعبرت صحيفة التجارة النيويوركية عن وجهة نظرهم هذه في نشرة معادية تتساءل عن مدى صدق مسز ستو . ومع ذلك ، فعموما ، تقبل القراء الشماليون « كوخ العم توم » على أنه اتهام حق لنظام الرقيق . ولما لم يعمل شيء غير ذلك ، تحرك الضمير القومي والغرائز الانسانية فأثارت هذه القصة وأصابت نغمات عباراتها الدينية القوية هدفها من أن الرق يتناول أرواحا بشرية .

ومن الآثار المباشرة لكوخ العم توم ، استحالة التصديق على قانون العبيد الهاربين فكان عدم التعاون مع القانون اجماعيا خارج الجنوب . والأشد من ذلك ، أن ذلك الكتاب ألهب مجموعة ضخمة من العاطفة ضد الرق ، وربما جعل من المحتم نشوب حرب أهلية وبالتأكيد ، كان هذا الكتاب السبب الأكبر في ذلك الالتحام المنتهي بكارثة ، كما أدرك ابراهام لنكولن وهو يصافح مسز ستو عندما زارت البيت الأبيض في سنة ١٨٦٢، وقال عنها انها « السيدة الصغيرة التي كتبت ذلك الكتاب المسبب لهذه الحرب الكبيرة » . وأبدى تشارلز سمنر ملاحظته بأنه « اذا لم يؤلف كتاب (كوخ العم توم) ، فما كان لابراهام لنكولن أن ينتخب رئيسا للولايات المتحدة » .

القيمة الأدبية للكتاب

أما القيمة الأدبية لكوخ العم توم ، فلم تلق الا اهتماما سطحيا في بادىء الأمر ، رغم أن النقاد جميعا ناقشوها فيما بعد . ولاحظ المؤرخ جيمس فورد رودز أن « الأسلوب عادي ، واللغة في أغلب الأحوال ، مبتذلة وغير أنيقة ، وتنقلب أحيانا الى اللغة العامية ، والدعاية متكلفة » . وناقش أحد النقاد الجنوبيين وهو ستارك ينج استخدام مسز ستو للهجة الزنوج ،

فيقول : « رأيت كثيرا من السود ، ولكنها لم تجعلهم يتكلمون · أذنها مستحيلة ، ليس لديها احساس بوقع لغتهم أو حيويتها » · ويشير فان ويك بروكس الى « عيوب الكتاب الواضحة من حيث التركيب والعاطفية » · ورغم هذا ، يصفه بأنه « وثيقة انسانية عظمى » · وتعتقد معلقة حديثة أخرى هى كاثارين انتوني أن « كوخ العم توم قصة وصورة للأخلاق الأمريكية ·· وتستحق التقدير السامى بغير ما ريب · ومن الجلى أن مسز ستو مولعة بالجنوب · فبينما هي تمقته لأنه في جانب الرق ، نراها تصور جوه بحرارة وعطف · كانت طليعة الكتاب الأمريكيين فى تناول مسألة الزنوج بجدية ، وتتخيل قصة بطلها رجل أسود · ورغم انها كتبت لغرض أخلاقي ، فقد نسيت المؤلفة الغرض الأصلى أحيانا فى متعة انسياقها فى سرد قصتها » · أما من حيث الوجهة التاريخية فبالطبع لهذه الرواية أهمية عظمى كوثيقة اجتماعية أكثر منها عملاً فنيا أدبيا أو كلاسيكيا · وبالتأكيد هي أكثر من مجرد قصة ، كما وصفها قلم « كاو » فيقول انها : « مفعمة بالقتل والشهوة والحب المحرم والانتحار والتعذيب البالغ القسوة والنجاسة والسكر وشجار الحانات » ·

أكسب كتاب « كوخ العم توم » مسز ستو ، فى الحال ، شهرة عالمية · ففى السنة التالية لنشر هذه الرواية قامت مسز ستو بثلاث رحلات الى الخارج ، زارت فيها انجلترا واسكتلندة حيث التقى ورحب بها مئات من النبلاء وأفراد العائلة الملكية وعلية القوم ومن بينهم الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت وديكنز وجورج اليوت وكنجزلى ورسكين وماكولى وجلادستون فى رحلتها المظفرة هذه ، استقبلها ، بحماس بالغ ، عامة الشعب الذين الذين رأوا فيها بطلة المساكين وفى ادنبره قدموا لها هدية بنسا قوميا حصيلته ألف جنيه ذهبى لمساعدتها فى محاربة الرق ·· لم يسبق قط أن مؤلفا أمريكيا خلق مثل هذه الاثارة البالغة ، ولا استقبل بمثل ذلك الاستقبال الحار فى الجزر البريطانية ·

وقد حاولت مرارا البرهنة على أن صورة الرق المرسومة فى كتابها ليست فيها أية مبالغة ، ولا هى « وليدة الأكاذيب » كما اتهمها البعض بأنها كدست تلك الأكاذيب لتجعل منها مفتاحا لكوخ العم توم ، التى قالت انها « ستضم جميع الحقائق الأصلية والوقائع والوثائق التى ستبنى عليها القصة مع بعض القصص الممتعة والمؤثرة الملائمة لقصة العم توم » · وينقسم هذا المؤلف الى أربعة أقسام تبدأ بوصف الشخصيات ، لتثبت أنهم أشخاص حقيقيون من الحياة الواقعية · ويشمل القسم الثانى قوانين العبيد مبينا أن اللوائح لا تحمى العبيد ، ثم يأتى سرد حياة العبيد كأفراد ، واخفاق الرأى العام فى حماية العبيد ومناقشة الأثر غير الأخلاقى للرق على

الأعمال الحرة في الجنوب . وأخيرا ، وجه اتهام للكنائس لموقفها المنقسم وغير الفعال حيال الرق .

كتبت ميسز ستو بقلمها الكثير التصانيف ، مؤلفا آخر عن الرق ، هو رواية « دريد » وهي « قصة المستنقع العظيم المشئوم » ، التي نشرت في سنة ١٨٥٦ ، وبيعت منها مائة ألف نسخة في أربعة أسابيع ، رغم أنها لم تصل الى شهرة « كوخ العم توم » كانت فكرة المؤلفة في « دريد » هي الأثر السيىء لنظام الرق على الرجل الأبيض — كل من الملك ، ومستأجر المزارعي الأبيض الفقير . كان الخلط بين الجنسين ونتائجه السيئة على كل الأشخاص ، مسرحيا .. ورواية « دريد » هذه غزيرة بتصوير البيض الفقراء ، والوعاظ المطالبين بانعاش الفقراء ، وحياة المزارع ولكن ليست بها شخصية أساسية واحدة ، مثل العم توم ، لتحظى بعطف القارىء .

أنتجت مسز ستو ، منذ ذلك الوقت حتى آخر عمرها وهو خمس وثمانون سنة ، سيلا لا ينتهي من الروايات والقصص وتواريخ الحياة والمقالات والمواضيع الدينية . ولمدة ثلاثين عاما تقريبا . كان متوسط انتاجها كتابا واحدا في كل عام . ولكنها تركت موضوع الرق في معظم انتاجها . وفي أثناء الحرب الأهلية ، كان أهم ما أسهمت به خطابا الى نساء انجلترا تذكرهن باستجابتهن الشاملة والمحبذة لكتاب (كوخ العم توم) ، والحادثة قبل ذلك بثمانية أو تسعة أعوام ، وتلومهن على تعاطفهن مع الجنوب ، وأعمالهن بعد نشوب الحرب . ونتيجة لذلك الخطاب ، عقدت اجتماعا كبيرا في الجزر البريطانية بقصد تغيير الرأى الانجليزى الحاكم نحو قضية الاتحاد . وعلى هذا ، فربما لعب خطاب مسز ستو دورا مهما في منع التدخل الانجليزى ،في وقت كان يمكنه فيه تعريض الجانب الشمالى للخطر .

عند تقدير مركز هاريت بيتشر ستو في التاريخ ، قال كيرك مونرو : « انها لا تقف فقط في مقدمة الصف الأمامي بين نساء العالم ، بل وفي تشكيل مصير الشعب الأمريكي ، في فترة حرجة أشد الحرج في تاريخهم . كان نفوذها أقوى من نفوذ أي فرد آخر ... وبالطبع لا يمكن لأي فرد انجاز منع الرق وحده ، ولا يمكن أن يقوم به أي شخص واحد » . وأشار مونرو وهو يستعرض العناصر التي حققت النصر النهائي . قائلا : « ولكن أعظم هذه العناصر كلها ، وأقواها تأثيرا هو « كوخ العم توم » .

ربما كان التقدير النهائي لكتاب (كوخ العم توم) ، والذي أمكن ذكره بعد قرن ، هو ما قررته مؤلفة أخرى اسمها كونستانس رورك ، اذ قالت : « ولو أنه تهشم من فرط الهياج الذي صاحب حياته المستقبلية ،

ورغم عيوبه فى بعض الأمور الأساسية ، فمازال يحتفظ بصفات ترفعه فوق مركزه المعاصر كرسالة ، صفات تفند التهمة السهلة العادية، وهى المبالغة. والواضح أن هذا الكتاب يفتقر الى الواقعية الحقيقية ، ولكن ربما كان من الواجب ألا نحكم عليه بالواقعية اطلاقا . ومن الجلى أنه تنقصه الصلابة ووضوح الرؤية الخاصان بالكتابة العظيمة . ليست عاطفيته حرة قط ، ولكنها صلبة وجامدة من الناحية العقلية ومريضة وعاطفية بحسب الاختيار انها تجرى فى سباق لا نهاية له ، ويبدو أن الهستيريا قد خلقت هذا السباق . بيد أن القوة السليمة لتلك العاطفة أنتجت اتساعات فى امتدادها ، واتزانات غير محسوبة ، ويذكر امتصاصها المتدفق للنتيجة الضخمة للعمل ،ومجموعاتها المفككة للأقدار المتشابكة ، يذكران على الأقل بمعنى يميز شعر الملاحم . كما أنها تتصف ، قبل كل شىء ، بالحركة المؤثرة نحو أهداف مجهولة على مسافات طويلة تغدو الفكرة التي لا تقاوم للسرد الأعظم ، المذكور هنا بالعواطف العميقة ، لأن المغامرة ليست حرة أبدا ، وانما تقطع عند نهايتها ، أو تساق الى الخطر .

وقد أكد فان ويك بروكس أن (كوخ العم توم) قد نقل من الجو الذى كتب فيه ، ورغم ذلك بقى صورة شعبية عظمى لعصر ولأمة » .

المراجـــــع

١	ـ تاريـخ العلـم	سارتـــون
٢	ـ أعلام الجغرافيين العرب	د٠ عبد الرحمن حميدة
٣	ـ دائرة معارف الشعب	دار الشعب
٤	ـ قصة الأدب فى العالم	د٠ أحمد أمين
٥	ـ قصـة الحضـارة	ول٠ ديورانت
٦	ـ مصر والشرق الأدنى القديم	د٠ نجيب ميخائيل ابراهيم
٧	ـ ابن ماجـد الملاح	د٠ أنور عبد العليم
٨	ـ معجم أعلام الفكر الانسانى	نخبة من الأساتذة المصريين
٩	ـ الجمال والفـن	د٠ ماهر كامـل
١٠	ـ الآداب العربية وتاريخها	جرجس كنعـان
١١	ـ المرأة فى ميادين الكفاح	فايزة عبد الحميد
١٢	ـ فلاسفة أيقظوا العالم	د٠ مصطفى النشـار
١٣	ـ الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب	سامى اليـافى
١٤	ـ الغرب والحضارة ٠٠ تاريـخ الحضـارة	كافين رايـلى
١٥	ـ أعلام العرب فى الكيمياء	فاضل أحمد الطائى
١٦	ـ نظرات فى فكر العقاد	عثمان أمـين
١٧	ـ الجاحـظ	حنـا الفاخورى
١٨	ـ مع بخلاء الجاحظ	فـاروق سـعد
١٩	ـ الملاحـة وعلوم البحار عنـد العرب	د٠ أنور عبد العلـيم

٢٠ ـ الشعر الاغريقى تراثا انسانيا وعالميا	د٠ أحمد عثمان
٢١ ـ فلسفة ابن رشد وأثرهما فى التفكير الغربى	محمود قاسم
٢٢ ـ فى فلسفة ابن رشد	محمد بيصار
٢٣ ـ الخالدون العرب	قدرى حافظ طوقان
٢٤ ـ ماهية الجمال والفن	عبد الله عويضة
٢٥ ـ شرح المعلقات السبع	الزوزنى
٢٦ ـ فى الأدب المصرى القديم	د ٠ أحمد عبد الحميد يوسف
٢٧ ـ البخارى	المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
٢٨ ـ أعلام فى الأدب الانسانى	ابراهيم المصرى
٢٩ ـ تاريخ آداب اللغة العربية	جرجى زيدان
٣٠ ـ رحلة التراث العربى	د٠ سيد حامد النساج

الهوامش

(١) صفحة ٢ : الردن : كم القميص ٠

(٢) صفحة ٥١ : الوركاء : مدينة قديمة من مدن بابل على ضفة الفرات ٠

(٣) صفحة ١٦ : « حمبابا : فى النص الأشورى هو « خوواوا » فى التصـبين السومرى والاكدى ٠

(٤) صفحة ٢٠ : « نيسابا » : الهـة الحبوب ٠

(٥) صفحة ٢٠ : (سوموقان) : الهة الماشية ٠

(٦) صفحة ٢٢ : ربما كان هذا خطأ فى الكتابة فالمقصود (انكيدو) وليس جلجاميش٠

(٧) صفحة ٢٣ : كلمة « طبل » هنا غامضة المعنى ٠

(٨) صفحة ٢٧ : (ايرنينى) : صورة من عشتار ٠

(٩) صفحة ٣٤ : (اتيانا) : ملك لحبش الأسطورى الذى حمله نسر فى السماء ٠

(١٠) صفحة ٣٥ : « أوتنا بشتيم » وهو « أوتانا بشتيم » فى البابلية القديمـة ٠ بطل الفيضان الميزوبوتامى وهو « زيوسودرا » السومرى ٠

(١١) صفحة ٣٩ : « أورشنابى » : هو (سورسولبو) النص البابلى القديم ٠

(١٢) صفحة ٦٧ : « أهناسيا » : مدينة عند مدخل الفيوم كانت عاصمة الأسرتين التاسعة والعاشرة فى عصر الانتقال الأول ٠

(١٣) صفحة ٦٧ : وهى تذكرنا بقصة الفلاح الذى شكا عامل الخراج بقوله : « انه ما ترك لى ذهبا الا ذهبا به ، ولا فضة الا فضها ، ولا عرضا الا عرض له ولا مالا ولا مال به ، ولا ضيعـة الا أضـاعها ولا ماشـية الا امشقهـا وأعجب به الأمير وأنصفه ٠

(١٤) صفحة ٧٢ : « سخمت » : معبودة فى شكل لبؤة كانت موضوع أساطير قديمة ٠

(١٥) صفحة ٧٤ : « منتسو » : اله الحرب عند المصريين ٠

(١٦) صفحة ٧٥ : يذكرنا بقول هارون الرشيد وقد نظر الى سحابة فى السماء « اذهبى حيث شئت يأتنى خراجك) كناية عن اتساع سلطانه ، كما يذكرنا بمـا كانت توصف به الامبراطورية البريطانية بقولهم « لا تغرب عنها الشمس » ٠

(١٧) صفحة ٧٩ : المدن الايونية : ايونيا : الجزء الأوسط من شاطىء آسـيا الصغرى الغربى والجزر المجاورة ٠

(١٨) صفحة ٧٩ : (الفيوس) : نهر بجنوب اليونان ٠

(١٩) صفحة ٩٩ : يعاظل : عاظل بالكلام : عقده وصعبه ٠

(٢٠) صفحة ١٢٩ : الكرتيين : كريت : أكبر جزيرة باليونان ٠

(٢١) صفحة ١٧٨ : النزهة : القول الخالى من النفع ٠

(٢٢) صفحة ١٨٦ : الصابئة : بياع الرقيق ٠ والنخاسة : بيع الرقيق ٠

(٢٣) صفحة ١٨٦ : الصابئة هم الذين تركوا التوحيد الى عبادة الاصنام ٠ وقالوا انا نحتاج فى معرفة الله الى متوسطات أما روحانية وهى الكواكب وأما جسمانية وهم بشر يأكلون ويشربون ٠ وقد انتشرت الصابئة عند الآشوريين والبابليين ٠

(٢٤) صفحة ١٨٦ : الزراتشتيون : هم أتباع زرادشت الذى ظهر بفارس فى القرن السادس قبل الميلاد ٠

(٢٥) صفحة ١٨٦ : « المانويون » : أصحاب مانى بن فاتك (القرن الثالث الميلادى) ظهر فى زمان سابور بن أردشير ، أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية ٠

(٢٦) صفحة ١٨٧ : « الرافضة » : عدة فرق من غلاة الشيعة ٠

(٢٧) صفحة ١٨٧ : « الجهمية » : مذهب اتباع الجهيم بن صفوان ٠ ويقول بالجبر ونفى اختيار العباد لافعالهم ٠

(٢٨) صفحة ١٨٧ : « التنويه » : مذهب القائلين بمبدأين أزليين هما النور والظلمة ٠

(٢٩) صفحة ١٨٧ : « الدهرية » : مذهب من يقولون بقدم العالم وتدبيره للعالم وتأثيره فيه ٠

(٣٠) صفحة ١٨٧ : المرجئة : فرقة من المتكلمين اختلف فى سبب تسميتهم فقيل لقولهم بتأخير العمل عن الايمان ، فلا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع من الكفر طاعة ٠ وقيل سميت كذلك لانهم يرجئون أمر أهل الكبائر الى الله تعالى ٠

(٣١) صفحة ١٨٨ : ابن الأعرابى : هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى أبو عبد الله (١٥٠ ـ ٢٣١ هـ) ٠ وهو راوية وعلامة باللغة من أهل الكوفة ٠

(٣٢) صفحة ١٩١ : « المسجديون » : هم قوم اتخذوا من المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له فعرفوا به ونسبوا اليه ٠٠ ويظهران هؤلاء المسجدين كان لهم أثر كبير فى التوجيه الأدبى لكثير من أدباء ذلك العهد ٠

(٣٣) صفحة ١٩١ : « أيفع الغلام » : ترعرع وناهز البلوغ فهو يفع ويافع ٠

(٣٤) صفحة ١٩١ : المربد : سوق قرب البصرة كان يختلف اليه الشعراء والخطباء ٠

(٣٥) صفحة ١٩١ : يكترى : يستأجر ٠

(٣٦) صفحة ١٩٢ : حفائظهم : الحفاظ جميع خفيظة : الغضب والحمية فيما يحفظ ٠

(٣٧) صفحة ١٩٣ : ساحة واحدة الساج : شجر عظيم صلب الخشب جمعه سيجان ويطلق الساج على الخشب مطلقا ٠

(٣٨) صفحة ١٩٤ : منقرض : أى مصاب بالنقرس ٠

(٣٩) صفحة ١٩٤ : أبو بكر أحمد بن على المعروف بابن الاخشيد من أفاضل المعتزلة وزهادهم ٠

(٤٠) صفحة ١٩٤ : النظام : هو أبو اسحق ابراهيم بن سيار بن هانى البصرى (١٨٥ ــ ١٢١) عالم وفيلسوف من كبار ائمة المعتزلة .

(٤١) صفحة ١٩٥ : « الشك أساس البحث » ... ن مذهب النظام ، وهو المذهب الذى نادى به الفيلسوف الفرنسى ديكارت بعد النظام بثمانية قرون .

(٤٢) صفحة ٢٠٢ : أشكنج : قطع الطوب والآجر المكسرة . فارسية أصلها أشكنك .

(٤٣) صفحة ٢٠٨ : قصاف : اسم الجارية .

(٤٤) صفحة ٢٠٨ : نشوار : ما تبقيه الدابة من العلوفة .

(٤٥) صفحة ٢٠٨ : الكساحه : مثل الكناسة .

(٤٦) صفحة ٢٩١ : الغموس : اليمين الكاذبة ، لانها تغمس صاحبها فى الاثم .

(٤٧) صفحة ٢١٢ : حزق بهم ، شدد عليهم .

(٤٨) صفحة ٢١٢ : الشقيص : النصيب .

(٤٩) صفحة ٢١٢ : ساجها : خشبها .

(٥٠) صفحة ٢١٢ : مواضع الغرر : الخطر .

(٥١) صفحة ٢١٢ : يشغف : ينقص .

(٥٢) صفحة ٢١٣ : الحشوة : بكسر الحاء وضمها : رذال الناس .

(٥٣) صفحة ٢١٣ : مسكه : أى ما يمسك الرمق من طعام وشراب .

(٥٤) صفحة ٢١٣ : النسولتين : الابل والغنم . وفلتهما أولادهما .

(٥٥) صفحة ٢٢٤ : الحيرة : معناها فى اللغة السريانية الحصن . وهى مدينة بالقرب من الكوفة .

(٥٦) صفحة ٢٢٤ : يوحنا بن ماسويه : هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه ، كان عالما وطبيبا مقدما عند الملوك وله مؤلفات ذات قيمة طبية عظيمة .

(٥٧) صفحة ٢٢٤ : متى بن يونس : هو أبو بشر متى بن يونس القنائى ، وهو يونانى واليه انتهت رياسة المنطقيين فى عصره ، وعليه قرأ الفارابى كتب المنطق وله كتب كثيرة فى تفسير الفلسفة اليونانية .

(٥٨) صفحة ٢٢٥ : الرها : ادسا باليونانية ، وأرهونى بالآرامية ، ومنه الاسم العربى الرها ، وهى مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام وكان لها شهرة عظيمة فى الحضارة .

(٥٩) صفحة ٢٢٥ : نصيبين مدينة من مدن الجزيرة كان بها قبل الاسلام مدرسة نسطورية نالت تأييد الساسانيين من ملوك الفرس فانتشرت بذلك العقائد النسطورية والمعارف اليونانية فى بلاد الفرس .

(٦٠) صفحة ٢٢٥ : انطاكية : مدينة بالشام كان لها شهرة عظيمة أيام الحروب الصليبية .

(٦١) صفحة ٢٣٠ : المجريطي : عالم رياضي وكيميائي أندلسي توفي عام ١٠٠٧ م ٠

(٦٢) صفحة ٢٣٣ : الاقرباذي : هو بيع الأدوية ويقصد به الصيدلاني في الوقت الحاضر ٠

(٦٣) صفحة ٢٣٦ : الغنوسطية : أو الغنوصية : نسبة الى الغنوص وهي كلمة يونانية معناها في الأصل المعرفة ، ولكن مدلولها الاصطلاحي هو النزعة الى ادراك كنه الأسرار الربانية ٠

(٦٤) صفحة ٢٤٣ : ديمقريطس : فيلسوف يوناني ولد ٤٧٠ ق٠م٠ ٠

(٦٥) صفحة ٢٥١ : ميجيل اسين بلا سيوس : (١٨٧١ ـ ١٩٤٤) اكبر المستشرقين الاسبان ٠ وهو من رجال الدين كان عضوا في الأكاديمية الاسبانية وأستاذ اللغة العربية بجامعة مدريد ٠ له مؤلفات عدة عن الثقافة العربية في اسبانيا ٠

(٦٦) صفحة ٢٦٠ : آية ٢٢ من سورة الأنبياء ٠

(٦٧) صفحة ٢٦٠ : آية ٩١ من سورة المؤمنون ٠

(٦٨) صفحة ٢٦١ : آية ٤٢ من سورة الاسراء ٠

(٦٩) صفحة ٢٦٤ : آية ٥ من سورة السجدة ٠

(٧٠) صفحة ٢٦٥ : آية ١٠٣ من سورة الأنعام ٠

(٧١) صفحة ٢٦٥ : آية ١٤٣ من سورة الأعراف ٠

(٧٢) صفحة ٢٦٦ : آية ٤٦ من سورة فصلت ٠

(٧٣) صفحة ٢٦٦ : آية ٤٠ من سورة النساء ٠

(٧٤) صفحة ٢٦٧ : آية ٣٠ من سورة البقرة ٠

(٧٥) صفحة ٢٧٣ : بلخ : احدى مقاطعات خوارزم ببلاد الفرس ٠

(٧٦) صفحة ٢٧٣ : جهان : احدى مقاطعات بلاد الفرس ٠

(٧٧) صفحة ٢٩٦ : انجم بنات نعش : نجوم ملاحية مشهورة ٠

(٧٨) صفحة ٣٠٣ : المقريزي : مؤرخ مصري (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م) ٠

(٧٩) صفحة ٣٠٦ : راجع الفصل العاشر من الجزء الخامس من هذا الكتاب ٠

(٨٠) صفحة ٣٤٢ : العمارة القوطية : طراز معماري استخدم في أوربا الغربية منذ القرن ١٢ واستمر حتى بداية عصر النهضة ٠

(٨١) صفحة ٣٦١ : جون كلفن : (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤ م) لاهوتي فرنسي بروتستانتي من رجال الاصلاح ٠ كان ضليعا في اللاهوت والقانون ٠ تحول عام ١٥٣٣ عن الكثلكة ، وصار من قادة البروتستانت المرموقين ٠ وبدأ ينشر مذهبه الديني ويعتبر كتابه (انظمة الدين المسيحي) واضع مبادىء اللاهوت الكلفني الأساسية ٠

الفهرس الشامل للأجزاء السبعة

مرتبا ترتيبا زمنيا ..

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١	كتابى الموتى	كهنة هوليوبولس	٤٥٥٠ ق٠م	٦	١٠
٢	ملحمة جلجامش	من ملاحم العصر البابلى	٣٠٠٠ ق٠م	٧	١٤
٣	سانوهى	المصريون القدماء	٣٠٠٠ ق٠م	٧	٥٨
٤	شريعة حمورابى	حمورابى	١٧٢٦ ق٠م	٦	٢٨
٥	أنشودة التوحيد	أخناتون	١٣٨٠ـ١٣٦٢ ق٠م	٥	١١
٦	الأفستا المقدسة	زرادشت	٦٥٠ ق٠م	٦	٦٢
٧	الالياذة	هوميروس	٦٠٠ ق٠م	٣	١٣
٨	الأشعار الغنائية	سافو	٦٠٠ ق٠م٠	٧	٧٤
٩	المعلقات	أعظم شعراء العصر الجاهلى	٦٠٠ـ٥٥٠ ق٠م	٧	٨٨
١٠	الكتب الخمسة	كنفوشيوس	٥٥١ ق٠م	١	١٥
١١	الفرس	اسيخيلوس	٤٥٠ ق٠م	٦	٨٢
١٢	ميديا	يوربيديس	٤٣١ ق٠م	٥	٣١
١٣	التاريخ الجامع	هيرودوت	٤٢٧ ق٠م	٢	٩
١٤	الضفادع	أرستوفانيس	٤٠٥ ق٠م	٥	٤٩
١٥	المحاورات	سقراط	٤٠٠ ق٠م	٣	٣١
١٦	الجمهورية	أفلاطون	٤٠٠ ق٠م	١	٣٩
١٧	أوديب ملكا	سوفوكليس	٤٠٠ ق٠م	٤	٩
١٨	الموسوعة الابقراطية	أبقراط	٣٧٥ ق٠م	٣	٥٥
١٩	فن الشعر	أرسطوطاليس	٣٣٥ ق٠م	٢	٣٣
٢٠	أصول الهندسة	اقليدس	٣٠٠ ق٠م	١	٦٣
٢١	كتاب الجغرافيا	استرابون	٦٥ ق٠م٠	٧	١٢٠
٢٢	عن الصداقة	شيشرون	٤٤ ق٠م	٣	٧١
٢٣	الانيادة	فرجيل	١٧ ق٠م	٤	٢٥
٢٤	مصنفات جالينوس الطبية	جالينوس	١٥٠ ـ ٢٠٠ م	٥	٦١
٢٥	كليلة ودمنة	ابن المقفع	٧٥٠ م	٣	٩٩
٢٦	العين	الخليل بن أحمد	٧٨٠ م	٣	١٢٣
٢٧	الموطأ	مالك بن أنس	٧٨٥ م	٤	٤٥

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٢٨	المحاورات	باركلى	٨٠٠ م	٦	٩٦
٢٩	الرسالة	الشافعى	٨١٥ م	٣	١٤٣
٣٠	صحيح البخارى	أبو عبد الله محمد بن اسماعيل	٨٢٠ ـ ٨٦٠ م	٧	١٣٦
٣١	البخلاء	الجاحظ	٨٦٤ م	٧	١٦٤
٣٢	الرسائل الفلسفية	الكندى	٨٢٥ ـ ٨٦٦ م	٦	١١٤
٣٣	مصنفات جابر بن حيان الكيميائية	جابر بن حيان	٨٥٠ ـ ٩١٠ م	٧	٢٠٤
٣٤	الأغانى	الأصفهانى	٨٨٥ م	٣	١٦٥
٣٥	الجامع لصناعة الطب (الحاوى)	الرازى	٩٠٠ م	٥	٨٣
٣٦	ديوان المتنبى	أبو الطيب المتنبى	٩٠٠ ـ ٩٦٥ م	٥	١٠٥
٣٧	تاريخ الأمم والملوك	الطبرى	٩٢٠ م	٥	١٤٣
٣٨	العقد الفريد	ابن عبد ربه	٩٣٠ م	٤	٦٣
٣٩	احصاء العلوم	الفارابى	٩٤٠ م	٣	١٨٣
٤٠	الامتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيد	٩٨٠ م	٦	١٤٢
٤١	رسائل اخوان الصفا	اخوان الصفا	٩٨٣ م	٥	١٦٩
٤٢	القانون فى الطب	ابن سينا	١٠١٠ م	١	٧٥
٤٣	الشاهنامة	الفردوسى	١٠١٠ م	٥	١٩٣
٤٤	تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق	ابن مسكويه	١٠٢١ م	٢	٥٥
٤٥	طوق الحمامة فى الألفة والأيلاف	ابن حزم	١٠٢٦ م	٦	١٦٦
٤٦	القانون المسعودى	البيرونى	١٠٣١ م	٣	٢٠٧
٤٧	رسالة الغفران	أبى العلاء المعرى	١٠٣١ م	٢	٧٣
٤٨	الرباعيات	عمر الخيام	١٠٨٠ م	٢	٩٧
٤٩	احياء علوم الدين	الغزالى	١١٠٠ م	٢	١١٩
٥٠	نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق	الادريسى	١١٥٤ م	٥	٢١٧

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٥١	حى بن يقظان	ابن طفيل	١١٨٤ م	٦	١٩٠
٥٢	الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة	ابن رشد	١١٨٥ م	٧	٢٢٦
٥٣	معجم البلدان	ياقوت الحموى	١٢٠٠ م	٥	٢٣٥
٥٤	الفتوحات	ابى عربى	١٢٣٨ م	٢	١٣٩
٥٥	ديوان المثنوى	جلال الدين الرومى	١٢٧٣ م	٧	٢٤٨
٥٦	شرح تشريح القانون	ابن النفيس	١٢٨٠ م	٣	٢٣٣
٥٧	تحفة النظار	ابن بطوطة	١٣٢٤ـ١٣٥٤ م	٦	٢١٠
٥٨	وغرائب الأمصار				
٥٩	المقدمة	ابن خلدون	١٤٠٠ م	١	٩٥
	حياة الحيوان الكبرى	الدميرى	١٤٠٠ م	٥	٢٥٧
٦٠	الكوميديا الالهية	دانتى	١٤٧٢ م	٤	٨١
٦١	الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد	ابن ماجد	١٤٩٠ م	٧	٢٦٨
٦٢	الأمير	ميكافيلى	١٥١٣ م	١	١١٧
٦٣	حركات الكرات السماوية	كوبرنيكوس	١٥٤١ م	٥	٢٧٧
٦٤	دون كيشوت	سرفانتيس	١٦٠٥ م	٤	٩٩
٦٥	مسرحيات شكسبير	شكسبير	١٥٩٠ـ١٦١٦ م	٣	٢٥١
٦٦	الأورجانون الجديد والأوهام	فرنسيس بيكن	١٦٢٠ م	٧	٢٨٦
٦٧	حركة القلب والدم	وليم هارفى	١٦٢٨ م	٥	٢٩٥
٦٨	التأملات	ديكارت	١٦٤١ م	١	١٤٣
٦٩	الفردوس المفقود	جون ملتون	١٦٦٧ م	٦	٢٣٤
٧٠	البخيل	موليير	١٦٦٨ م	٥	٣١٣
٧١	علم الأخلاق	اسبينوزا	١٦٧٧ م	٢	١٥٧
٧٢	الف ليلة وليلة	مجهولة المؤلف	مجهولة التاريخ	٢	١٨١
٧٣	المبادىء	نيوتن	١٦٨٧ م	١	١٦٣

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٧٤	مبحث العقل الانسانى	لوك	١٦٩٠ م	٦	٢٥٢
٧٥	الحكايات	لافونتين	١٦٩٤ م	٧	٣٠٤
٧٦	تحليل الجمال	وليم هوجارث	١٧٠٤ م	٧	٣٢٠
٧٧	روبنسون كروزو	ديفو	١٧١٥ م	٣	٢٧٩
٧٨	روح القوانين	مونتسيكو	١٧٤٨ م	١	١٧٧
٧٩	دائرة المعارف الكبرى	ديدرو	١٧٥١ م	٢	١٩٧
٨٠	العقد الاجتماعى	جان جاك روسو	١٧٦٢ م	٢	٢٢٧
٨١	ثروة الأمم	آدم سميث	١٧٧٦ م	١	٢٠١
٨٢	فاوست	جوته	١٨٢٥ م	٤	١١٧
٨٣	فى قانون الاسكان	مالتوس	١٨٣٠ م	٦	٢٧٤
٨٤	فلسفة التاريخ	هيجل	١٨٣٢ م	٢	٢٧١
٨٥	فى التربية الجمالية للانسان	شيلر	١٨٣٧ م	٢	٢٥١
٨٦	الكون	هومبولت	١٨٤٥ م	٢	٣٠٣
٨٧	كوخ العم توم	هارييت بيتشر ستو	١٨٥٥ م	٧	٣٤٢
٨٨	أصل الأنواع	داروين	١٨٥٩ م	١	٢٢٣
٨٩	عن الحرية	جون ستيوارت مل	١٨٥٩ م	٤	١٣٣
٩٠	الاخوة كرامازوف	دوستويفسكى	١٨٦٠ م	٦	٢٩٦
٩١	الحرب والسلام	ليو تولستوى	١٨٦٤ م	٤	١٥٣
٩٢	راس المال	كارل ماركس	١٨٦٧ م	١	٢٤٣
٩٣	تحرير المرأة	قاسم أمين	١٨٩٤ م	٤	١٦٩
٩٤	قواعد المنهج فى علم الاجتماع	دوركايم	١٨٩٥ م	٤	١٩٥
٩٥	اشعار طاغور	طاغور	١٨٩٠ ـ ١٩٤١ م	٤	٢٠٩
٩٦	رسالة التوحيد	محمد عبده	١٨٩٧ م	٦	٣٢٤
٩٧	الشوقيات	أحمد شوقى	١٩٠٠ ـ ١٩٣٢ م	٤	٢٣١
٩٨	تفسير الاحلام	سيجموند فرويد	١٩٠٠ م	٤	٢٥٩
٩٩	النظرية النسبية	أينشتين	١٩٠٥ م	١	٢٥٩
١٠٠	تدهور الغرب	اشبنجلر	١٩١٨ م	٥	٣٢٥

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احـلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيـات والحيـاة الحـديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيـا فى مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايمـوند وليـامز
تاريخ العـلم والتكنولوجيـا (٢ جـ)	ر٠ج٠ فوربس
الأرض الغـامضـة	ليستريديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
المرشـد الى فن المسـرح	لويس فارجاس
آلهـة مصـر	فرانسوا دوماس
الانسـان المصرى على الشـاشة	د٠ قدرى حفنى وآخرون
القـاهرة مدينة الف ليلة وليـلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطـق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النـوع الأدبى	د٠ محسـن جاسـم الموسوى
ديـلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسـان ذلك الـكائن الفـريد	جـون لويس
الـرواية الحـديثة	جـول ويست
المسـرح المصـرى المعـاصر	د٠ عبـد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنور المعـداوى
القـوة النفسـية للاهرام	يـل شـول وأدبنيت
فـن الترجمـة	د٠ صـفاء خـلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى الجزء والكل محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيكتور هوجو
	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	هادى نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٩٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايد
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين
نظرية الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د٠ جوهان دورشز
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د٠ مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	داويت سوين
الزمن وقياسه	زافيلكسكى ف ٠ س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س٠ م٠ بورا
مركز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون يوركهارت
التذوق السينمائى	الآن كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
دراما الشاشة	شاندرا ويكراما ساسينج حسين حلمى المهندس

الهيـــرويين والايـــدز	روى روبرتســـون
نجيب محفـــوظ على الشـــاشة	هاشـــم النحـــاس
صـــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتـــوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـــر لـــورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهنـــدسة الوراثيـــة	ويليـــام بينـــز
تربيـــة أسـماك الزينـــة	ديفيـــد الدرتون
الفلســفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جـــون ر ٠ بوردـ
	وميلتون جـــولد ينجـــر
الفكر التـــاريخى عنـــد الاغريق	أرنولد توينبى
قضـــايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صـــالح رضـــا
التغـــذية فى البلـــدان النامية	م ٠ هـ ٠ كنـــج وآخـــرون
بـــداية بلا نهـــاية	جـــورج جامـــوف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو ســديرة
حـــوار حـــول النظـــامين الرئيســيين للكـــون	جاليـــليو جاليليـــه
الارهـــاب	اريك موريس وآلان هـــو
اخنـــاتون	ســـيريل الـــدريد
القبيـــلة الثـــالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـــوافق النفسى	توماس ا٠ هاريس
الدليـــل البيليـــوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغـــة الصـــورة	روى أرمـــز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجـــاى متشـــيو
العـــالم الثـــالث غـــدا	بـــول هاريســـون
الانقـــراض الكبيـــر	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتـــور مورجـــان
التحليل والتوزيع الأوركســترالى	اعداد محمـــد كمال اسماعيل
الحيـــاة الكريمـــة (٢ جـ)	بيـــرتون بورتر

الشـــاهنامة (٢ ج)	الفـــردوسى الطـوسى
قيـــام الدولة العثمانية	محمـــد فؤاد كوبريلى
عن النقـــد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميـــرى
ترانيـــم زرادشـــت	اختيار / د٠ فيليب عطيـة
الســـينما العـــربية	اعداد / مونى براخ وآخرون
دليل تنظيم المتـاحف	نادين جورديمر وآخـرون
ســـقوط المطـر وقصص اخـــرى	آدامز فيـليب
جماليـات فن الاخـــراج	زيجمـــونت هينـــر
التاريخ من شتى جـوانبه (٣ ج)	ســـتيفن اوزمنت
الحمـــلة الصليبية الأولى	جـوناثان ريلى سـميث
التمثيـل للسينما والتليفـــزيون	تـونى بـار
العثمـــانيون فى اوربا	بـول كولنـــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيـر براير
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفـــريد ج ٠ بتـــلر
رحـــلات فارتيمـــا	رودريجـــو فارتيمـا
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بـكارد
فى النقد السينمائى الفـــرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصـــبان
الســـينما الخيـــالية	بيتـــر نيكوللز
الســـلطة والفـــرد	برتراند راصـــل
الأزهـــر فى الف عـــام	بينـــارد دودج
رواد الفلســـفة الحـــديثة	ريتشـــارد شـــاخت
ســـفر نامة	ناصر خســـرو عـــلوى
مصر الرومانيـــة	نفتـــالى لـويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيـور
الاتصـــال والهيمنة الثقافية	هـــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآسـيوية	اختيـار / صـبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانســـانى (٥ ج)	احمـد محمـد الشـنوانى
الشـموس المتفجـرة	اســحق عظيموف
مدخـــل الى علم اللغـــة	لوريتـــو تـــود

حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د٠ ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ ٠ ج ٠ ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٢ ج)	ريتشارد بيرتون
الطفل (٢ ج)	أدمن متز
الحضارة الاسلامية	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج ٠ برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج ٠ كارفيل
فن المايم والبانتوميم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ ج)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ه ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف ٠ م ٠ بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارد
بين تولستوى ودستويفسكي (ج ٢)	جورج ستاين
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ ؛ ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ٠ ناش
أنواع الفيلم الأميركي	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف (٢ ج)	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام

المـــراة الفـــرعونية	كريســـتيان ددیروش
نظـــرية التصـــوير	ليوناردو دافنشى
التربيـــة عن طـــريق الفـــن	هربرت ريـــد
معجـــم التكنـــولوجيا الحيـــوية	وليـــم بينـــز
البرمجـــة بلغـــة السى	روبرت لافـــو
الكيميـــاء فى خدمة الانســـان	رولاند جاكســـون
مجمـــل تاريخ الأدب المعـــاصر	ايفـــور ايفـــانس
نظـــرية الأدب المعـــاصر	ديفيـــد بوشبندر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوســـف شـــرارة
كنـــوز الفـــراعنة	ت ٠ ج ٠ هـ ٠ جميـــز
البرنامج النـــووى الاسرائيـــلى	د ٠ ممـــدوح حـــامد عطيـــة
بحثـــا عن عـــالم افضـــل	كارل بـــوبر
العـــلم وآفاق المســـتقبل	اســـحق عظيمـــوف
كونتـــا المتمـــدد	ايفـــرى شـــاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نومان كـــلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/١١٠٧٤

ISBN — 977 — 01 — 5000 — 2

الألف كتاب
الثاني
٣٠٢

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الثامن

أحمد محمد الشنواني

ة المصرية
ة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء الثامن
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Eight
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1998
الناشر	دون ناشر
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	x - 5654 01- 977-
المستخلص	يتناول الجزء الثامن من كتاب " كتب غيرت الفكر الانسانى " استعراض لمجموعة من الكتب الرائدة والتى اثرت تاثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر العصور والغرض من هذه الموسوعة تاكيد الدور الخطير للكتاب فى تغيير مجرى الاحداث تغييرا كليا وذلك عن طريق مناقشة امثلة معينة والهدف هنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها اعظم الاثر واعمقه على الفكر الانسانى منذ اقدم العصور الى يومنا هذا . ومن ابرز الكتب التي تضمنها هذا الجزء (انشودة النيل - اسطورة سميراميس - رحلات جليفر)
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022110-001*

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجـــزء الثـامن

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٨

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

الاشراف العام

الدكتور/ سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

سكرتير التحرير

علياء أبو شادى

المشرف الفنى العام

محسنة عطية

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

مقـــدمة

زاد أى شـــعب هو القراءة ، يقبل عليها ويشبع بهـــا جوعه الى العلم والمعرفة وألوان الحضارة • ان الحث على القراءة خير ما يوجه الى الأفراد والجماعات ، فى جميع الأمم والشعوب ، بل هو خير ما وجه الى الانسان منـــذ تحضر الى الآن •

ولقد بدىء تنزيل القرآن بفعل قصير خطير هو كلمة « اقـرأ » ، فكان أول ما خوطب به النبى (ﷺ) وخوطب به الناس من بعده هو هذا الأمر الكريم بالقراءة •

وكان صاحب المنطق ــ كما يسميه الجاحظ ــ يقول ان الانسان حيوان ناطق • وكان النطق عنده فيما يحدثنا الفلاسفة أشمل من ادارة اللسان فى الفم باللفظ الذى يبلغ السمع ، فينقل اليك ما فى نفس محدثك ، كان النطق عند أرسطاطاليس يدل على التفكير والتعبير جميعا ، الكن أرسطاطاليس لم يعرف الانســـان بأنه حيـــوان ناطق فحســـب ، وانما وصـــفه بأنه مدنى بالطبع ، كما ترجم القدماء ، أو أنه اجتماعى بالطبع ، كما يترجم المحدثون •

وما نعرف شيئا يحقق للانسان تفكيره وتعبيره ومدنيته كالقراءة ، فهى تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ • وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ • فالكاتب يفكر قبل أن يكتب وأثناء كتابته ، والقارىء يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته وبعد أن يقرأ •

وكذلك يمضى الانسان فى تحقيق هاتين الخصلتين اللتين تميزانه وتضـــعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفـــوق والرقى ، وهمـــا العقل والمدنية • فاذا أمـــر الله الانسان بأن يقرأ ، فانما يأمره بأن يطمح الى الكمال ، ويسعى اليه ، واذا كانت القراءة أخص مميزات الحضـــارة ، تكثر وتنتشر اذا اتسعت الحضارة وارتقت ، وتقل وتتضاءل اذا ضاقت الحضارة وانحطت ، فقد يكون من أيسر التعبير وأوجزه فى يوم من الأيام

أن تختصر الطريق ، وأن يعرف الانسان بأنه حيوان قارىء دون أن يكون فى هذا التعريف تجاوز لما قصد اليه أرسطاطاليس — كما يقول د. طه حسين — .

وكانت القراءة فى أول أمر الانسان مقصورة على قلة ضئيلة من الناس فى كل شعب من الشعوب المتحضرة ، وكان رقى الحضارة واتساعها يدعوان الى شيوع القراءة وانتشارها ، حتى كان هذا العصر الحديث ، وحتى كانت الديمقراطية ، التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب ما بين الطبقات .

واذا القراءة تصبح حقا شائعا لكل انسان ، بل واجبا محتوما على كل انسان يريد أن يحيا حياة صالحة . واذا الدول تشعر بهذا الحق وتفرض على نفسها أو تفرض عليها الشعوب تعليم القراءة لكل فرد من الناس . ونحن نعلم أن الدول انما تعلم أبناء الشعب هذه القراءة الآلية وقليلا جدا مما يهيئهم للقراءة التى ترقى العقل ، وتنقى الطبع ، وتصفى الذوق ، ولكن القراءة على كل حال هى الطريق الطبيعية الميسرة لرقى العقل ، والطبع ، والخلق ، والذوق . وحيثما انتشرت القراءة طلب الناس ما يقرءون ، وتنافس الممتازون منهم فى أن يقدموا اليهم ما يقرءون ، ونشأ عن هذا كله ما نعرفه من قوة الحياة العقلية ، وخصبها ، وما ينشأ عنها من نتائج لا تحصى فى حياة الناس .

والانسان مشوق بطبيعته الى الرقى ، ولكنه مدفوع الى حب اليسر ، وايثار السهولة ، وتجنب الجهد الشاق ما وجد الى ذلك سبيلا ، وهو محب للقراءة ما فى ذلك شك ، ولكنه يريد أن تيسر له هذه القراءة ، ووجوه التيسير كثيرة مختلفة ، أخطرها وأعظمها ضررا هو الذى يشيع وينتشر ، مع الأسف الشديد ، فالكلام السهل اليسير المبتذل القريب الذى ينتشر فى الصحف السيارة التى يكفى الانسان أن يمد يده ليتناولها ، وفى الكتب الرخيصة التى يحصلها القارىء دون أن يشق على ماله ويقرؤها دون أن يشق على عقله — هذا الكلام هو الذى يتهافت عليه القارىء بحكم هذه الخصلة الطبيعية فى تكوينه ، وهى خصلة الكسل ، وايثار الهين من الأمور ، فلابد اذن من أن تقاوم هذه الخصلة ما استطاع المثقفون مقاومتها ، ولابد من أن تقرب القراءة الممتعة الخصبة الى الناس حتى يستطيعوا أن يقرءوا فى غير مشقة على عقولهم ولا على أموالهم .

وليس كل ما ينتجه العقل الانسانى ميسر القراءة للناس ، فهناك الممتازون فى الثقافة ، ولكن هناك أصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة . وليس من اليسير أن يسيغ أولئك وهؤلاء ما يكتبه

الممتازون من الفلاسفة والعلماء والأدباء · وليس من الحق ولا من العدل أن يحرم أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل الانسانى من الانتاج · فلابد اذن من أن يأخذوا منه بحظ ما ، لابد من أن يرتفعوا اليه شيئا ومن أن يهبط هو اليهم شيئا ، حتى يكون هذا اللقاء الجلل الذى يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب ···

كل هذه الملاحظات دعتنا الى التفـكير فى كتابة هذه السلسلة من موسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » ، التى جمعت بين دفتيها أكثر من مائة كتاب من الكتب الرائدة والخالدة ، والتى أثرت تأثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر التاريخ ·

ان أهمية هذه الموسوعة أن بها تعريفا لأهم الكتب الخالدة على مدى التاريخ ، يغرى القراء المثقفين بقراءة الأصـــول ويتيح الفرصة لأصحاب المشاغل الجمة الذين لا يتسع وقتهم لقراءة أصول أمهات هذه الكتب أن يلموا بها الماما جيدا ، وكذلك يسعف ذاكرة قارىء الأصول على تذكر ما وعى منها من دروس ·

وقد كان فى نيتنا فى تلك الأجزاء الثمانية أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع ، وأنفعه ، فهى تجمع من كل فرع من فروع الانتاج العقلى ، وفى كل لون من ألوان النشاط الذى يجعل العقل الانسانى منتجا فى جميع فنون المعرفة ·· ذلك لأننا لا نفكر الا فى شىء واحد وهو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، ولا نريد الا أن يقرأ القارىء العربى وأن ينتفع ، وأن تدعوه هذه القراءة الى الاستزادة من الثقافة والطموح الى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى يحياها ·

وبعـــد ··· فهذا الجزء الثامن من موسوعتنا « كتب غيرت الفكر الانسانى » ، التى جمعت فيها مجموعة من الكتب الهامة على مدى تاريخ الفكر البشرى والتى كان لها أكبر وأعظم الأثر فى تغيير فهم الانسان لنفسه وللمجتمع الانسانى من حوله ·

ان الموسوعة بأجزائها الثمانية ــ هى خلاصة قراءات للكتب ، عربية وغربية لفت نظرى اليها ما فيها من فكر وتجربة وخبرة ·

لهذا عمدت الى أن أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجدت ·

والله أسأل أن ينتفع بها ويجعلها خالصة لوجهه والله المستعان أن يحقق بها الفوائد وهو حسبى وكفى ·

المـؤلف

أنشودة النيل

من الأدب المصري القديم

حـ ٣٠٠٠ ق.م

تقـــديس قدماء المصريين للنيـــل

لما رأى العالم القديم فرعون سيدا للنيل ، هالهم أمره فنسبوا اليه كل شيء : نسبوا اليـــه النسيم الهفاف والريح البـــاردة الآتية من البحر الأبيض التى تسير العمران فى مصر ، وكذلك القمر والنجوم والشهور والأيام والســـاعات .

ويلتمس ارمان (١) لهم العذر فى تقديسه والمغالاة به :

« ونحن نعذر المصرى اذا كان قد أفســـح لخياله المجال فى تقديس النيل ، تلك القوة التى تأتيه بالأعجوبة السنوية والتى تهيمن على حياته ، فلا غرابة اذا كان قد جعله واحدا من بين آلهته العظمى ، ومع ذلك عومل النيل معاملة أخرى ... فمع أنهم اعتادوا تقديم القرابين وتأليف الأناشيد لتمجيده ؛ فانهم لم يضعوه فى ذلك المستوى الذى وضـــعوا فيه آلهتهم الأخرى . واذا كانوا قد لقبوه فى بعض أناشيدهم « بأبى الآلهة » فان هذا اللقب قد استعاروه من الاله « نون » رب الماء الأزلى والسبب فى ذلك أنه ذكر فى نص من النصوص الدينية أنه ينبع من هذه المياه ... » .

ومن الغريب أن النيل على حبهم له ومغالاتهم به ... « قد تبوأ بين الآلهة منصب الخادم لهم ، فصوروه على جدران المعابد بزى البحار أو صياد السمك على هيئة بشر نصفه أنثى والنصف الآخر ذكر يقدم منتجاته الى الآلهة الكبار » .

ويخالف صموئيل مرسيه ارمان فى عبادة النيل . فصموئيل يستبعد صفة «الألوهية»،ويرى أن تقديسهم اياه كان اعجابا أكثر منه تأليها،كان بهرا وتقديرا وعرفانا أكثر منه عبادة واعتقادا .

---

(١) انظر كتاب (مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة) تأليف ادولف ارمان وهرمان رانكه .

وتقول د. نعمات أحمد فؤاد فى كتابها « النيل فى الأدب المصرى » :

« ونحن نلاحظ أن النيل لم تكن له معابد يعبد فيها اذا استثنينا معبد حعبى الذى ورد ذكره فى بردية هاريس وبردية ولبور .. ولكنه كان يحتفل بفيضه فى كل مكان بتقديم العطايا وأداء بعض العادات ... » .

وفى الوقت نفسه انعقدت الصلة من وقت مبكر بين النيل وأوزوريس ، أحد الآلهة العظام فى مصر ، وذلك ما قدر له منزلة كبيرة فى عقائد المصريين قلت الى جانبها أهمية كثير من الآلهة . كما سمى فى بعض الأحيان أبا الآلهة . وهو كذلك أحد الآلهة فى قائمة الآلهة فى معبد خنوم فى اليفنتين ...

وقال بعبادة النيل فى مصر القديمة الدكتور باهور والأستاذ عبد القادر حمزة ...

والحقيقة فى أمر النيل أنه كان فى مصر القديمة « اله » (حعبى) ويمثل بهذه الصفة على جدران معابد غيره من الآلهة . ولكنه هو لم تقم له معابد وليس له كهنة شأنه فى هذا شأن جب اله الأرض ونوت الهة السماء . ولكن ألا يدل هذا على أن النيل والسماء والأرض أكبر من أن تقام لها معابد لأنها مظاهر كبرى للطبيعة ماثلة فى كل مكان فى ... فى كل عين ... ؟!

ان النيل لم يعبد مثل آمون أو تحوت أو أوزوريس ، ولكنه لم يكن دونها فى رأى المصريين ...

للنيل عناية خاصة

اتجهت جهود الفراعنة منذ بدء مدنيتهم الزاهرة الى المحافظة على النيل ، استخدموا الوسائل المختلفة لهذه الغاية ؛ حتى استطاعوا أن يضربوا للأمم الأخرى مثلا حسنا بتلك الأعمال العظيمة التى قاموا بها وما نزال نشاهد آثارها حتى الآن .

ولقد أولوا النيل عناية خاصة لأنه مصدر حياتهم ومنبع أرزاقهم ، فاجتهدوا فى المحافظة على مجراه ودفع الغوائل عنه .

يقول العلامة أمين سامى باشا :

« ولما كانوا يقاسون ألوانا من العذاب فى تطهير مجرى النيل من هذه الرمال التى تأتى بها الرياح من الصحراء وتطمر مجراه الذى كان بالقرب من مكان الهرم الأكبر ، فقد فكروا فى أن يقيموا هدفا عظيما يمنع الرمال من طمر مجرى النيل ، فبنوا الهرم الاكبر ذا السطوح المائلة التى اذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الانعكاس . وهذه المزية لا تتوافر فى سطح أى جسم آخر . وقد عانوا فى تشييده ما عانوا ، وأبدعوا فى هندسته ابداعا شهد ببراعتهم وأحكموا وضعه احكاما هندسيا وفلكيا دل على سعة باعهم ووفرة علمهم ، حتى انهم استطاعوا أن يحكموا الفتحة التى فى منتصف أسفل الجهة البحرية على امتداد محور العالم ، وجعلوا الفتحة القبلية فى أعلى السطح المقابل ، تدخل منه أشعة ضوء « الشعرى » على جثمان من سيدفن فى هذا الهرم .

ذلك هو أهم البواعث على بناء الهرم الأكبر وغيره من الأهرام ، وليس الباعث كما يقولون انه أنشىء ليكون مدفنا . نعم قد دفن فيه منشئه ولكن هذا لا يحتم أنه بنى لهذا الغرض ، فان كثيرا من المساجد فى عصرنا وفى العصور الماضية دفن فيها منشئوها ، ومع ذلك اليس هناك من يقول انها بنيت لتكون مدافن .

وبانشاء الهرم الأكبر استراح المصريون القدماء من العذاب الذى كانوا يعانونه كل عام فى ازالة تلك الرمال ، التى كانت تعوق سير النيل وتمهد طريقه الى الوجه البحرى،وتولدت أراض زراعية فسيحة وسميت بهدية النيل . وعلى منوال هرم الجيزة بنيت أهرام أخرى من الحجر واللبن فى الجهة الغربية دون الجهة الشرقية التى كلها أحجار وجبال .

وقد عنى الفراعنة بانشاء خزانات فى مجرى النيل ــ وآثارها معروفة الآن باسم الشلالات ــ وصنعوا «سيالة» فى كل خزان تفيض منها المياه الى ما بعدها بقدر معلوم.ومما يلفت النظر أن فى وادى حلفا بالقرب من قرية «سمنه» صخورا وعرة المرتقى رأسية الوضع على حرف النيل بها كتابات بالهيروغليفية ، وعلى ارتفاع سبعة أمتار من سطح المياه فى أعلى أيام الفيضان الآن . وهى تدل على أن النيل بلغ فى عصر الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة أقصى زياداته ، اذ وصل الى موضع الكتابة فى هذه الصخور .

وقد كان الفراعنة يقيمون قراهم وبلادهم فى الجهات المرتفعة ٠ وكان المصريون يسرون بالفيضانات العالية ؛ لأنها تكسب الأرض خصبا يغنيها عن التسميد ، ولأن بلادهم فى مأمن من الغرق ولكن كان يؤلمهم أن يتأخر هبوط النيل عن شهر بابه » ٠

أعيـــاد النيـــل

عرف من الآثار التى استكشفت أن المصريين كانوا يقيمون للنيل احتفالات تشبه الاعياد ، ولم يذكر المؤرخون عنها الا شيئا قليلا ، فمن ذلك ما قاله « بلينى » المؤرخ الشهير « ان المصريين فى عصره كانوا يقدمون الغذاء للتماسيح ويلبسونها بعض الثياب فى وقت الفيضان ويلقونها فى النيل فتبدو ألوان الثياب الناصعة فى منظر بهيج يروق الناظرين » ٠

والذى لا شك فيه أن كل الاحتفالات الخاصة بالمهرجانات التى تقام لفيضان النيل سنوياء كانت بمنزلة فريضة دينية يحترمها الناس كاحترامهم للنيل ، وكان رؤساء النيل يقيمون لها الزينات المعتادة للأعياد العامة ٠

وجاء أيضا ما نصه « يستقبل الشعب المصرى بالفرح والسرور ظهور مياه السلسلة المقدسة ٠ ابتهاج النفوس وفرحها بمجيء النيل أمر طبيعى ، ويجب أن يعد فيضانه فى مقدمة الأعياد التى بحلولها يهنىء المصريون بعضهم بعضا » ٠

وجاء فى أنشودة النيل المكتوبة فى ورقة أنسطاسى البردية ما نصه : « أيها الفيضان المبارك قدمت لك القرابين والذبائح ، وأقيمت لك الأعياد العظيمة وذبحت لك الطيور واقتنصت لتحيتك الغزلان من الجبال ، وأعدت لك النار الطاهرة ، وقدم لك البخور والنعم السماوية والعجول والثيران فتقبلها هدية شكر واعتراف بفضلك » ٠

وجاء ذكر أعياد النيل فى مائدة للقرابين محفوظة فى متحف فلورانس ويرجع تاريخها الى ملوك الأسر الثلاث الأولى ٠

وقال « ماسبيرو » فى هذا الموضوع : « عندما يصل الماء المقدس الى جدران مدينة «سيين» ، يقدم الكهنة أو الحاكم أو أحد نوابه ثورا أو بطا ويلقيه فى الماء فى حرز من البردى مختوم عليه ويكتب فى الحرز الأمر

الملكى الخاص بنظام الفيضان ومتى ترأس الملك نفس هذا الاحتفال ، نقشوا فى الصحراء وسجلوا هذا الحادث تذكارا تاريخيا · واذا تغيب الملك عن الاحتفال ناب عنه الكهنة باحتفال عظيم ، حاملين تمثال المعبود سائرين به على ضفاف النيل والجسور مرتلين الأناشيد » ·

من المستندات الرسمية الباقية عندنا الآن شواهد السلاسل الثلاث ويرجع تاريخها الى عهد الملك رعمسيس الثانى ومنفتاح ابنه ، ورعمسيس الثالث ، وهى تنقسم الى جملة أجزاء : فبعد مقدمة رعمسيس الثانى تقرأ أنشودة النيل وخطاب الملك بالتهليل للمعبود ، ثم القرار الذى يحدد تاريخ الأعياد ويلحق به كشف القرابين وملخص ترجمته كالآتى :

« فى السنة الأولى والشهر الثالث من فصل الحصاد واليوم العاشر فى عهد المنير الشمس الملك القادر المحبوب من الحق صاحب التيجان حاكم مصر المنتصر على البلاد الجبلية حورس الذهبى المديد العمر المبارك ، ملك الوجهين البحرى والقبلى رعمسيس المحبوب من آمون (أبو الآلهة) الذى يمنحهم الحياة والبقاء والقوة كالشمس الى الأبد فليحى الاله الطيب النيل الذى يحيى النفوس بجوهره والثروة بثرائه · أنت أيها الوحيد الذى تظهر من نفسك ولا يعرف أحد ما تحويه والكل يفرح بظهورك من مخبئك فيك تربى الأسماك العديدة ومنك تفيض الخيرات على مصر ، فأنت خلقت لأجلنا ويسر بك الناس والمعبود (نون) متى قدم له القرابين بين أهالى البلاد ، واتحدوا معه فى فرح التحية بقدوم النيل المضىء · فخيراته على البلاد تستفيض من صنع يديه وتتدفق ببركاته » ·

« وقد أمر الملك بتقديم القرابين لأبيه آمون رع ملك الآلهة مرتين فى السنة ، فى زمن مياه السلسلة المقدسة وفى مكانه المكرم الذى لم تكن قبله مياه · حياة وسلام وقوة » ·

« فتقدم القرابين فى اليوم الأول من شهر سايت وفى الخامس عشر من شهر توت وفى الشهر الثالث من فصل الفيضان والخامس من شهر أبيب كضريبة سنوية » ·

« ويلقى فى النيل عجل أبيض وثلاث اوزات وهدايا ثمينة (لا بنت عـذراء كما يزعمون) ثم الكتاب الشـامل لتفصـيلات المهرجان وأنواع الهدايا للاله آمون ملك الآلهة ورب مدينة طيبة » ·

وحى النيل فى الأدب

ونقف الآن وقفة خاصة عند وحى النيل فى الأدب وأثره فيه ...

يعتز الأدب بقصة حورس وست وهى من أهم القصص التى أمدتنا بها أوراق البردى كاملة ... وحورس هو ابن أوزوريس وايزيس .

ويرى الدكتور أحمد بدوى أن أساطير المصريين التى تدور حول حياتهم ووسائلهم فى العيش وآمالهم فى الخير والخلود كأسطورة « اوزوريس » ... وأسطورة البعث وأسطورة (الحق والباطل) وغيرها، يراها عن يقين « انها كانت جميعا من وحى النيل وطبيعته التى صنع بها هذه الأرض ، وصنع بها الخلق المصرى والطبع المصرى والعقائد المصرية أيضا » .

وقد دارت حول النيل ، أساطير كثيرة فاذا تجاوزنا الأساطير وجدنا النيل قد أوحى من الأناشيد ما لا يزال منقوشا على حوائط الأهرام الى اليوم .

من متون الأهرام

« انهم يرتعدون أولئك الذين يشاهدون النيل عند ما يفيض ... ان الحقول تضحك والفيضان يغمر شاطىء النهر ... وتخرج قرابين الآلهة وتضىء وجوه البشر وتتهلل قلوب الآلهة » .

كما ورد فى بعض النقوش التى وجدت على حوائط الأهرام أناشيد موجهة الى النيل منها نشيد يذكر قدوم فيضانه الى مصر فيقول :

« ان ماء الحياة الذى فى السماء ... ان ماء الحياة الذى فى الأرض يأتى . فالسماء تلتهب (يريد تبرق) من أجلك (يخاطب النيل) والأرض تزلزل من أجل ولادتك ، لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود ... ان المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) .

كم أوحى النيل من أناشيد ! . فالفيضان لا تكاد تباشيره تبدو حتى ينطلق الفلاحون فى مصر القديمة مرنمين :

« أقبل تحوت ،

بالماء الى الحقول ،

وترتوى الأشجار ،

وحتى تغذى الأرض كلها » ٠

وقد أورد الأستاذ جمال الدين الشيال أغنية يتحدث فيها الرجل عن حبـه :

« سأرتقى صفحة النيل ومعى حزمة من الغاب أحملها على كاهلى ٠٠٠ سأذهب الليلة ٠ فالنهر خمر ، بتاح غابه ، وسوخمت لوتسه ، وأبارت براعمه ونفرتم أزهاره ٠٠٠ انظر الى الفجر وممفيس تبدو (كاناء مترع بالفاكهة وضع أمام بتاح الاله ذى الوجه الحسن ٠٠٠) ٠

وكانت الأم المصرية تتلو هذه الرقية قديما لتدرأ الشر عن وليدها وتطرد عنه الشياطين فتقول :

« اخرج يا من يأتى فى الظلام وتدخل خلسة ، هل أتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيـله ، هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسـمح لك بأن تأخذه منى لقد حصنته منك بعشب أفتيت الذى يؤلمك ، وبالبصل الذى يؤذيك وبالشهد حلو المذاق فى فم الأحياء ، مرا فى فم الأموات ، وبالأجزاء الخبيثة من سمك الأبدو ، وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر » ٠

ومن كتاب (شكاوى الفلاح) : « كن كاله النيل يجعل الأرض الجدباء أرضا خضراء ، ولا تكن كالسيل يدمر ما يأتى عليه واحذر الآخرة » ٠

وفى الأنشودة الكبرى التى صلى بها أخناتون لمعبوده الجديد :

لقد خلقت النيل فى العالم السفلى

ودفعت به الى (أعلى) حسب مشيئتك

لتحيى به البشر يا سيد الجميع

لقد جعلت نيلا يهبط اليهم من السماء

وجعلت لهم أمواجا تتدافع على الجبال كالبحر

فتجد حقولهم ما تحتاج اليه من الماء

ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية !

وهبت نيل السماء لشعوب الجبال

فاحييت حيوانها ومن يسعى فوق أقدامه

أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلى ·

ويلمحه أخناتون مرة أخرى فى نشيد · مما قبسته عنه المزامير فى رأى كثير من المؤرخين وخاصة العالم جيمس هنرى برستد :

وعند ما يصبح الصباح وتطلع من الأفق ،

وعند ما تضىء كأتون أثناء النهار ،

تطرد الظلمة وتهب أشعتك ،

فالأرضان فى عيد كل يوم ،

ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،

لانك أنت الذى أيقظهم

.. ..

.. ..

انهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم ،

وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،

لأن الطريق كلها مفتوحة عندما تظهر ،

وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،

لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط ،

أنشـــودة النيـــل

من لوازم الفطرة الراقية ابتكار الأناشيد فى المناسبات التى ترتاح النفوس فيها الى الترنم بما يستطاب لأجلها افتخارا واستلذاذا واستبقاء لحسن الأحدوثة، فيتداول الناس الأناشيد كلما تجددت الذكرى للاحتفالات. والنيل عند قدماء المصريين قد اختصوه بما ألفوا من مظاهر الأفراح ودلائل المسرات عند فيضانه ومواسم أعياده ، وقد خصوه بأناشيد رائعة تعرب عن شـــدة شعورهم ، من بينها الأنشودة التى نمقها فى عصره الشـــاعر المصرى القديم ووجدت مكتوبة فى لوحتين على الورق البردى معروفتين بورقتى ساليير وأنسطاسى ، وهما من مجموعة الأوراق البردية المحتفظ بها الى الآن فى المتحف البريطانى وترجمها العالمان الأثريان الشهيران ماسبيرو وجيمس ، وهما اللذان نقلاها من الشعر المصرى القديم .

« سلام عليك يا حابى . يا من تخرج الى هذه الأرض وتأتى لتحيى مصر . يا من تخفى فى الظلمات مجيئك . انك اللجة تنتشر على الحقول التى يخلقها رع . انك تعطى الحياة جميع الظمآنين ، ولكنك ترفض أن تروى الصحراء من فيض ماء السماء . ومتى هبطت فانه جب اله الأرض يشغف بالخبز على اختلاف أنواعه ، ونابرى اله الحبوب يقدم قربانه وبتاح ينشر الرخاء فى دار صناعتـــه .

« أنت سيد الأسماك ، متى جزت الشلال . لم تعد الطيور ترتمى مترددية على الحقول . أنت صـــانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعيـــاد .

« أنت من اذا أضربت عن العمل أصابعه ، أو مرض ، وقع ملايين من النـــاس فى البؤس . واذا قل ماؤه فى السماء هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، واستولى الذعر على المواشى ، وصار كل من فى الأرض كبيرا أو صغيرا يعانى العذاب .

« أما اذا أجيبت دعوات الناس ، فعلا النيل ، وصار لهم خنومو · فان الأرض حين ظهوره تصيح ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر يهتز من الضحك ، وكل سن يقطـــع ·

« هو النيل جالب الخيرات ومفيض الكثير من المأكولات · هو موجد جميع الأشياء الطيبة · هو سيد جميع النطف والجراثيم · هو حلو للذين يصطفيهم · هو موجد العلف للمواشى ، والقرابين لجميع الآلهة · والبخور الذى يأتى منه أجود من كل بخور غيره · وانه ليفيض على البلدين · فتمتلىء مخازن الحبوب وتزدحم المستودعات وتتوافر حاجات الفقراء ·

« انه ليضع نفسه فى خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير أن ينقص شيئا منها · وهو منشىء السفن · وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب من الحجارة أو أن تنحت له تماثيل يوضع له التاجان عليها · وهو لا يراه الراؤون · ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا يقدمون له هدايا ولا يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفيـــة ، ولا يعرفون مكانه ولا يقفون بالكتابات السحرية على صندوق ذخائره المقدسة ·

« وما من بيت يمكن أن تتسع له جوانبك يا حابى ، ولا من انسان يدخل قلبك · وأبناؤه وذراريهم يبتهجون بك لأنك تحكم كملك تسرى أوامره على الأرض كلها ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء، ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبذل خيراته بغير حساب ·

« وأينما يوجد الألم فأنت تحوله الى فرح · وحينئذ يبتهج كل قلب، ويقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت من الطرب لأن التتسيع الالهى الذى يرافقك ينظم كل شىء · فالفيضان الكافى يروى الحقول ويبعث النشاط فى الرجال ، واذ ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يتحاكم معه الى القضـــاء ·

« واذا كنت تدخل فى خلال الأغانى · وتخرج من خلال الابتهاج ، ثم اذا كان الناس يرقصون طربا حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك لأن تثاقلك اضمحلال وفساد · واذ ذاك يجتمع للابتهال اليك والحصول على مائك السنوى · أهل طيبة جنبا الى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس

ملابس الأعياد التى كان قد تعودها · وأبناء توت اله الغنى ، لا يتجملون بالحلى · ومثلهم التتسبيح الالهى · والليل عام شامل ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا ·

« أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تتجه اليه رغبة الخلق ، ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب ، ان أنت أحببت وأعطيت أمواج الأقيانوس السماوى ، فان نابرى اله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك، والطيور لا تتردى على الجبـل ·

« لو أن ما تعجنه يداك كان ذهبا ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهبا ولا فضة ولا لازورد ، وانما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة ·

« لقد بدءوا ينشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى · وهؤلاء هم ذرارى أبنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل الثناء عليك·ولا عجب ، فان اله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ويحب أن يتكاثر عدد القطعـان ·

« حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الغنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بأزهار اللوتس ، وصار كل شىء ثابتا ومن صنف جيد ·

« انه النيل ، لأبنائه جميع النباتات ، واذا هو لم يطعم الناس هجر النعيم المساكن وأصيبت الأرض بالاضمحلال » ·

أسطورة سميراميس

أسطورة آشورية

ح ٦٠٠ ق.م

« لقد خلعت على الطبيعة صورة امرأة ولكن أعمالى قد فاقت أعمال أشجع الرجال »

اختلف المؤرخون في حقيقة سميراميس ، فقال بعضهم ان وجودها خرافة ، ويؤكد آخرون أن الأعمال التى تنسب اليها متداخلة فى تاريخ الآشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهرى دجلة والفرات ٠٠ أما المنقبون عن الآثار فيرون أن سميراميس الهة أسطورية شرقية ٠٠ هى عندهم كفينوس عند الرومان ٠٠ وأن اسمها ، ومعناه الحمامة ، انما أطلق عليها لأن الحمائم احتضنتها عند مولدها وغذتها ، وهم يرونها رمز الحب والسعادة ، وفرح الرجال ، والظفر فى الحرب ٠٠ كما يعتبرونها وسيطا أسمى بين مبدءى الخير والشر على ظهر الأرض ٠٠ !

حتى جاء عام ١٩٠١ وكشفت البحوث التى قام بها البروفيسور « لهمان هوت » الألمانى عن حقيقة هذه الأميرة ، وأعادها الى مكانتها الرفيعة فى تاريخ آشور وبابل ٠ ووضع الأمور فى نصابها ٠

وقد استطاع البروفيسور لهمان هوت أن يفند الأساطير التى أتى على ذكرها كل من « ديودور الصقلى » ، و « جوستن » وغيرهما حول هذه الملكة ، ودلل على أنها كانت حقيقة لا مراء فيها ٠

★★★

ولكن ماذا تقول الأساطير عن سميراميس ٠٠ ؟ تقول :

انسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات فى جبال أرمينيا ، ففاض النهر ، وتدفقت مياهه ، وخرجت الأسماك تستلقى وتتمدد على أديم الأرض ٠٠

وبين تلك الأسماك ، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء ، فسبحتا اليها ، ودفعتاها أمامهما الى الضفة ٠٠ واذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة ، ثم ظلت تحميها حتى تراجع ماء الفيضان عائدا الى مجرى النهر ٠٠

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست ، ومن داخل البيضة خرجت الربة « ديركيتو » بوجه امرأة ·· وجسد سمكة ··· !

وأعجب الاله الأعظم بالربة الصغيرة ، بعد أن كبرت وملأت الآفاق بعدلها وفضلها وحكمتها ، وتمثل اعجاب الاله فى وعد قدمه اليها بأن تطلب منه أى شىء تريد ·· ولم تدع « ديركيتو » الفرصة تضيع ·· فسألته أن يخلد السمكتين اللتين أنقذتاها من الطوفان ·· فرفعهما الاله الأكبر الى السماء ·· وجعلهما ألمع نجمتين فى برج الحوت ·· !

ورغبت الربة « ديركيتو » فى أن تحمل ·· والربات يحملن ويلدن بغير زواج حسب رغبتهن ·· وحملت الربة ، ثم وضعت طفلة لها جسد انسان كامل·· يشع من بدنها النور لروعة ما منحته من ألوان الجمال ·

وأطلت الربة « ديركيتو » الى ابنتها ·· وملأها الذعر ·· وقد أثار رعبها ألا تكون طفلتها فى شكلها الالهى ·· مما يجعل الربات الأخريات ينظرن اليها بعين الريبة والشك ، ويعيرنها ، ويتهمنها بما هى منه براء ·

وحملت الربة مولودتها ذات ليلة مظلمة الى البادية ·· حيث تركتها هناك عارية مهملة ·· ليس حولها من شىء على الاطلاق سوى البرد والريح والزمهرير ·· والجوع القاتـل ·· !

وكان بيلوس ·· اله نينوى العظيم ·· يطل من عليائه ، فرأى الطفلة المسكينة تلقى فى العراء بغير سلاح أو معين ·· فأرسل من السماء رسوله « ينبو » يرعاها ويحميها ، ويحمل معه سربا من الحمائم يرف بعضها عليها بأجنحته لترد عنها حر النهار وبرد الليل ، وتنطلق الأخريات الى حيث ينزل الرعـاة فتحمل اليها بمنـاقيرها نقطـا من الحليب تقطرها فى فمها لتغذيها وتروى ظمأهـا ··· !!

ومع مرور الشهور والسـنين ، تحولت الحمائـم الى الأمكنة التى يضع فيها الرعاة ما يصنعون من جبن ، فتأخذ منه بمقدار ما تسع مناقيرها لتقدمه للطفلة التى عاشت مع حمائمها سعيدة لا تعرف قط طعم الشقاء ·

وكان الرعاة إذا عادوا فى المساء يرون جبنهم منقورا فيدهشون ، ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع ، قرروا أن يتركوا واحدا منهم يرقب المكان وهم غائبون ··

وشهد الراعى الحمائم وهى تحط حول الجبن وتلتقط قطعة صغيرة فتحملها بمناقيرهـا الى مكان تطير اليه · وأخبر الرقيب رفاقـه فتتبعوا الحمائم حتى وصلوا الى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة·· فأخذوها الى خيامهم ، واتفقوا على أن يحملوها معهم حيث يبيعونها فى سوق « نينوى » العظيم ··

وحمل الرعاة الصبية الحسناء الى نينوى ·· وكانوا قد سموهـا سميراميس ·· وهى تعنى الحمامة البيضاء ·

واتفق أن كان يوم وصولهم الى المدينة يوم الزواج الذى يقام كل عام ، حيث تجتمع فى السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحى المملكة ، لينتقى كل شاب عروسـا شابة ، أو ينتقى صـبية يحملها الى داره فيربيها الى أن تبلغ سن الزواج ·· فيتزوجها ·· أو يقدمها عروسـا لأحـد بنيـه ·· !

وكانت الساحة غاصة بالشيوخ والكهول والشبان ، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسـناء الى حيث يعرضونها للبيـع ·· وبينما هـم يضـعونها فى أول الصف ، اذ شاهدهم « سـيما » ناظـر مرابط خيول الملك ، وكان « سيما » عقيما لا ولد له ، فهفا قلبه الى سميراميس ، ورغب فى تبنيها ·

ودعا « سيما » الرعاة وساومهم على ثمنها · وعندما تمت الصفقـة حملها الى منزله ، فما أن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا ، واعتنت بها المرأة عنايتها بابنتها ·· وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت ·· وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء ·· !

★★★

وذات ربيع ، جاء مينوتس ـ قائد الملك ووزيره ـ الى مرابط الخيل يتفقدها · وشهد الوزير « سميراميس » الحسناء فراعه جمالها وبهاؤها وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور ·· ورنت اليه « سميراميس » بفتور يحمل الدعوة ، فوقف الوزير فى مكانه حائرا مبهورا ·· حتى انتبه الى نفسه آخر الأمر فدعا الفتاة وسار بها الى حديقة القصر يتحدث اليها وتتحدث اليـه ·

وانطلقت « سميراميس » على استحياء تتبع الوزير ، وعندما وقف فى بستان القصر اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام،ومد مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه،وأخذ يسألها من تكون ٠

ولم تستطع « سميراميس » أول الأمر أن تجيب ٠٠ ثم لم تجد الا أن تقول له انها ابنة ناظر المرابط الملكية ٠

ونادى الوزير على سيما ، ولكن ناظر المرابط لم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر ٠٠ واضطر الى أن يقص قصتها كاملة على الوزير ٠٠ منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحمائم فى البيداء ٠٠ حتى اتخذها ابنة له ، لا يطيق فراقا لها أبدا ٠٠ !

وأحس الوزير من طريقة الرجل فى الحديث ، أنه لا يمانع فى تركها مقابل مبلغ كبير ٠٠ فأخرج « صرة » من المال قذف بها اليه ٠٠ ثم انطلق بالفتاة فى الطريق الى العاصمة ٠

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا ، وعندما بلغ القصر كان أول مافعله أن سلمها للمزينات والماشطات ، وأخرج لها من خزائنه حليا لا يوجد مثلها الا فى كنوز الملك ٠٠ وأخذتها نساء القصر الى الحمام وغسلن بدنها بالماء المعطر ، ومشطن شعرها الأسود الطويل وأسدلته على كتفيها خصلا معقودة بالجواهر ٠٠ ثم ألبسنها الأرجوان الفينيقى الموشى بالذهب وأخرجنها للوزير كأجمل وأروع ما عرفت « نينوى » من عرائس ٠

واحتفل « مينوتس » بزواجه احتفالا لم يقمه أحد من قبل ٠ وكان لابد أن يصبح لسميراميس المقام الأول بين محظيات الوزير ونسائه ٠٠ حتى لقد كان يلازمها ملازمة الظل ولا يطيق عنها فراقا لحظة ، وكأية امرأة، استطاعت سميراميس أن تغذى ذلك الشوق والحب وتستغلهما لتتحكم فى الرجل الذى عبدها ، فخضع لرغباتها ، واحترم أفكارها ، وصار يأخذ بآرائها فى كل ما يلم به من أحداث ومهام !!

ومرت الأيام ، وسميراميس كل شىء فى حياة الوزير ٠٠ وكل شىء أيضا فى حياة الجماهير ٠ الا أن شيئا أكثر من جمالها كان سببا فى تعلق الشعب والوزير بالعروس الالهية ٠٠ هو ذلك النصر الذى استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها ٠٠ عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء ٠

★★★

من النصر الى المجد

كان ذلك يوما خالدا فى تاريخ البلاد.وكان الملك « نينوس » قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه ، وراح يبحث عن السبيل الى أمجاد جديدة يحققها لنفسه ولمملكته الواسعة الأطراف . فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه « مينوتس » على تجنيد جيش كبير ضخم ، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة ، ثم لم تمض أيام أخر حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق .

كان الجيش ضخما بالغ القوة لا قبل لأحد به على الاطلاق ، فلم يكن عجيبا ألا تثبت أمامه بلدة أو جيش ، الا أن الذى أثار « نينوى » وأغضب ملكها ، هو أن ذلك الجيش الضخم ، وعلى رأسه القائد ، والملك نفسه ، عجز من اقتحام عاصمة الأعداء .. « بكتريا » لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الأسوار المحيطة بالقلعة الشامخة .

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لا يستطيع لها اقتحاما ، ومع ذلك فقد أبى الملك الا أن يستمر على حصارها ولو أودى ذلك بالجيش كله ، ولما طالت غيبة الوزير على زوجته سميراميس ، أرسل اليها يستدعيها لتوافيه فى ميدان القتال .

وحضرت سميراميس ، ولم يعرفها رجال الجيش الا بعد أن تأملوها طويلا . وعرفوا جمالها الأخاذ الوضىء . فقد كانت ترتدى ملابس الرجال على غير ما كانوا يعهدون .. !

وطلع صباح .. ووقفت « سميراميس » على باب الخيمة تتأمل العاصمة الرائعة التى أنهكت الجيش الذى لم يهزم أبدا ، ولاحظت سميراميس أن الهجوم كان موجها الى قسم المدينة القائم فى السهل ، لا ضد قلعتها ، مما جعل البكاترة يحرسون حصونها بقليل من اليقظة ، وخطرت لها فكرة .. ألا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشامخة مباشرة..وهل يمكن أن تقوم هى نفسها بهذا الهجوم..!!

وانطلقت « سميراميس » الى الخيمة فأيقظت زوجها ، ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنعه بخطتها التى رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة .. !

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عارم عنيف ، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارتهم سميراميس بنفسها وتقدمتهم الى اقتحام القلعة الشامخة ·

وانقضت ساعة وبعض الساعة ·· وانتبه الملك ، والوزير مينوتس ، والجيش جميعا ·· فاذا سميراميس واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا ·· !!

وعرف الكل أنه النصر ·· وأدركوا أن المرأة التى قادت بضعة رجال قد اقتحمت القلعة التى انهارت ·· وان العاصمة قد باتت بين أيديهم ··

والتفت الملك الى قائده مينوتس يسأله :

ـ من تكون هذه المرأة يا مينوتس ·· ؟!

وشعر مينوتس بدنو الكارثة ·· وأدرك أن سميراميس قد راقت فى عينى الملك ، فسكت على رعب كأنه لم يسمع ، وكرر الملك السؤال ، ولم يجد القائد بدا من أن يجيب :

ـ انها زوجتى يا مولاى ·· !

وعاد الملك الى العاصمة ·· ودخل قصره ·· وتفرق الجند والناس · وأرسل الملك الى قائده يأمره بدعوة « سميراميس » اليه · ولم يستطع الوزير الا أن يحنى هامته ·

أما سميراميس ·· فقد وجدتها فرصة للوصول الى المجد الذى طالما حلمت به ·· وحملت على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود ، وتصاحبها فيها وصيفتان جميلتان ·· هذه راكعة وراءها تروح لها ، وتلك ساجدة أمامها تلبى الرغبات ··

وعندما دخلت على الملك ·· ووقعت عليها عيناه فى اتكاءاتها والتفاتها وزينتها وتألق طلعتها ·· انهار قلبه فى هوى عربيد ·· زادت هى من لهيبه بنظرات كلها دل وفتور ·· لم يدع له مجال الاختيار ·· !

وعندما صارا وحدهما ·· اتفق معها الملك على أن تترك زوجها ·· لتكون له وحده ·

وعادت سميراميس الى قصر زوجها وفى أثرهـا رسول الملك يقول لمينوتس :

— ان سميراميس قد راقت فى عينى الملك ، فهو يريد أن يراها فى قصره بين محظياته ونسائه . فاذا كنت فى حاجة الى زوجة تحل مكانها فليس لدى الملك ما يمنعـه من أن يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من سميراميس .. !

وصعق الوزير لرسالة الملك ورغبته التى لا يمكن أن ترد ، ولبث أمدا لا يدرى ما يفعل ، واستدعى سميراميس زوجته يسألها كيف يتخلص من رغبة الملك .. فاذا بها تشير عليه بتلبيتها .. على أن تسعى هى خلال اقامتها فى البـلاط .. بما أوتيت من فطنة ودهاء .. لعلها تقنـع الملك باعادتها اليـه .. !!

ونزل القائد على اشارة سميراميس .. وكله حزن ويأس .. ولكنه ما كاد يبصرها خارجة من القصر فى محفتها .. حتى اسودت الدنيا كلها فى عينيه .. وانطلق الى شجرة قائمة فى أقصى المدينة ..

ومن غصن قوى من أغصان الشجرة العجوز .. تدلت جثة لم تجد من يواريها التراب ..

وكانت هى جثة الوزير .. الذى حكم على نفسه بالاعدام .. !!

حب المجد والسلطان !!

بلغ الخبر « سميراميس » وهى بعـد لا تزال فى طـريقها الى قصر الملك .. ولكن ماذا يعنيها من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا أنها تحبه .. أبدا ما أحبتـه قط .. وما كان ليملأ قلبها سوى حب المجد ، والسلطان، والسيطرة، وهى تستطيع أن تجدها جميعا فى قصر نينوس .. !

وكان القصر ينتظرها كما لم ينتظر ملكة من قبـل أبدا .. وعندما دخلته كانت تعلم أنها لن تكون أولى المحظيات فحسب .. بل ستكون هى وحدهـا الملكة .. ولا محظيات سواهـا ..

وكان هذا هو بالضبط ما حدث ..

فقد عرفت « سميراميس » اللعوب كيف تجعل الملك يكتفى بها هى وحدها ·· ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن ·· كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس ··

ورفعها الملك من محظية الى ملكة ··

وولدت له الملكة ولدا أسماه ميناس ·

وظلت الحياة تسير ·

عرفت « سميراميس » كيف تجعل من نفسها كل شىء فى قصر الملك ·· وعرفت كيف تجعله لا يطيق فراقا لها لحظة ·· حتى ولو كان خروجا للحرب ·· أو لاخماد ثورة فحسب ··

غير أن خروجها معه فى كل غزواته ملأها كراهة له واحتقارا · فقد كان يستعمل فى حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والارهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل وآشور ·· فكيف تطيق وهى التى رعتها حمامات السلام فى البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك ··وفى كل مكان ··؟!

وكان آخر ما شهدته من حروب الملك، عندما خرج الى بلاد الطورانيين الثائرين عليه ·· فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم · أمر بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء ·· وعلق الجلود على جدران بناهـا أمام أبواب المدينة الثائرة · ولم يكتف الملك الوحشى بكل ذلك ، فقد أمر بقطع رءوس الثوار ·· ونظمها فى حبل على شكل عقد ، وحكم على من بقى حيا من الرجال بأن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم ·· أما من أبى فقد قطع أنفه وأذناه وشفتاه ·· ثم سيق مع الآخرين الى العاصمة ·· ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين ·· !!

ولم تطق « سميراميس » كل تلك الفظائع ·· وكرهت الرجل الذى عرفت فيه أقسى من وجد على ظهر الأرض · ودفعتها تلك الكراهية ــ جنبا الى جنب مع حب الطموح والسيطرة ــ الى أن تسعى للتخلص من هذا الزوج ·· عن أي طريق ·· !

ملحمة الرامايانا

فالميكي

ح ٤٠٠ ق.م

مصـــــادر الأدب الهنـــدى

كانت السهول الفسيحة القريبة من بحر قزوين فى الماضى السحيق موطنا لطائفة من قبائل الرعاة ، تربطها وشائج القربى ، واتحاد اللغة . وكان يسمى بعضهم بعضا (آرياس) أى الأصدقاء . ولكن سرعان ما دب بينهم التنافس ونشب القتال ، وانتهى الأمر ببعضهم الى الهجرة جماعات جماعات ، وأخذوا يضربون فى مسالك الأرض شرقا حتى ألقوا عصـــا التسيار فى غاب كثيف فاتخذوا الفؤوس من الصخر القاسى الغليظ ، يحطمون بها الشجر ثم يحركون بأغصانها التربة ويفلحونها ، وبهذا تحول هؤلاء الرعاة الرحـــل الى فلاحة الأرض ، لكن فلاحة الأرض لبثت زمانا طويلا مزدراة لا تليق بغير العبيد . ولهذا أخذ سادة هؤلاء الرعاة يملكون الأرض ويستخدمون الطبقات الوضيعة فى حرثها وفلاحتها .

ولكن هل تقنع تلك القبائل الراحلة الطامحة ببقاع ضيقة محصورة فوق الجبـــال ، وعلى مقربة منهم — فى الشمال الغربى من بلاد الهند — سهول خصبة غنية تمتد ما امتد البصر ؟ الى تلك السهول الفسيحة الخضراء شدوا الرحال فلقيهم أهلوها « الداسيون » بعنف المستميت فى الذود عن حياضها ، لكن ماذا تجدى الحماسة أمام قوة الغزاة ؟ فلهؤلاء الآريين كتب النصر ، فاستقروا وطاب لهم المقام وأصبح يطلق عليهم فيما بعد اسم الهندوس . وأما «الداسيون» فقد خضع منهم فريق استخدمه السادة الظافرون فى فلاحة الأرض، وهم من أطلق عليهم فيما بعد اسم «شودراس» وهم أدنى طبقات الهنود ، وأبى فريق آخر أن يستسلم فلاذ بالفرار الى الدكن ، وأوى الى مستنقعاته وغاباته حيث لا يزال الى اليوم رابضا .

وكانت هذه الحرب بين الآريين الغزاة وأهل البلاد الأصليين مصدرا لطائفة كبيرة من الأساطير والأغانى والترانيم والدعوات ، أخذت تتجمع على مر الزمن وتكتسب قداسة فى أعين الهندوس ومنها يتـــألف « الفيدا » الذى هو الكتاب المقدس عند الهندوس ، وعقيدتهم فيه أنه وحى من الله أوحى به الى قادة العهد الغابر وأنبيائه ، وعن هؤلاء تلقاه « البراهمية » ،

وهم طبقة الكهان الذين أخذوا على أنفسهم صيانة الفيدا من الدنس ، والترانيم التى فى الفيدا دعوات موجهة الى قوى الطبيعة ، فهذا الفجر الذى يبدد ظلمة الليل وينشر ضوءه على جبين الصباح ، وهذا الغروب الذى ينعش النفس المكروبة بعد عناء النهار وشمسيه المحرقة ، وهذا الغيث الذى ينبت لهم الحب ، كل هذه نعم تستوجب الحمد ثم ماذا يجنب القوم غضبة الصواعق وثورة العواصف غير الترانيم الدينية والقرابين ؟ ففى الفيدا صلوات ودعوات ليكثر الله الحب والماشية ويطيل الأعمار ويبارك الأبناء ، وفيه دعوات لله أن يكون للآريين مولى ونصيرا ، وأن يكون على الأعداء نقمة وبلاء ، وفيه ترانيم عن الحياة الآخرة وخلود الروح .

وبعد أن استقر الأمر للهندوس فى سهول البنجاب ، استأنفوا الزحف شرقا وأسسوا ممالك على ضفاف الكنج ، وغلبت منهم قبيلتان على غيرهما من القبائل هما : « بانجالا » و « بهاراتا » ، ثم نشبت بين القبيلتين حروب فى الوقت الذى كانت فيه جيوش الاغريق تحاصر مدينة طروادة ، وهذه الحروب هى موضوع ملحمة شعرية طويلة يمتزج فيها التاريخ بالأساطير وتسمى قصة « ماهابهاراتا » .

ولم تكن أغانى « ماهابهاراتا » وحدها مستأثرة بألسنة المنشدين ، بل قامت الى جانبها قصيدة أخرى أوسع منها انتشارا بين عامة الهنود، وهى قصيدة تروى مغامرات (راما) وشاعرها هو « فالميكى » ، ولئن كان أساس « ماهابهاراتا » هو الفروسية فى الحروب ، فان محور « رامايانا » هو الحب معينا لاينضب للمسرح مدى ألف عام أو يزيد .

ويختلف الباحثون فى تاريخ الرامايانا فمنهم من يقول انها ترجع الى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ، ومنهم من يقول انها ترجع فقط الى عام ٤٠٠ قبل الميلاد ، وهى ملحمة كتبها شاعر الهند العظيم « فالميكى » الذى تحتفل الهند الحديثة بذكراه احتفالا قوميا كل عام ، والرامايانا واسعة الانتشار بين كل طبقات الشعب الهندى، تحكى للأطفال قبل النوم وكثيرون يرتلون جزءا منها كل يوم وتروى شعرا فى الأعياد والمناسبات وتقدم دراما غنائية راقصة على خشبات المسارح كاحدى روائع الأدب العالمى عبر العصور ، ويجمع (الهندوس) على أنها « كتاب فلسفتهم الخالدة » ، مبرهنين على

ذلك بأن شخصياتها الشريرة ما تزال تتغلغل حتى اليوم فى كل العالم .. سواء فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، بل وفى شتى الطبقات الاجتماعية وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة أينما يوجد الانسان .

وقد كان لهذه الملحمة تأثير كبير على شعراء الهند عبر العصور ، فقد استلهمها بعضهم ليكتبوها مرات أخرى عديدة .. كل منهم بحسه وشاعريته الخاصة ، ولما كانت الهند بلادا متعددة اللغات وكل لغة من لغاتها تغطى مساحة محدودة من أراضيها الشاسعة.. فانك تجد الرامايانا الأصلية والرامايانات المستلهمة منتشرة فى كل اللغات الهندية الخمس عشرة .

ولقد قضى الشاعر الفيلسوف الناسك « فالميكى » سنوات عديدة من عمره فى الغابة يكتب ملحمته الرائعة وسماها «الرامايانا» ، نسبة الى بطلها « راما » ، وقد بدأ الشاعر ملحمته بنفس الأبيات التى تخيل أنها أمليت عليه من الخالق الأعظم « براهما » والتى تقول :

ستظل الرامايانا باقية ما بقيت الجبال ...

وما بقيت على هذه الأرض مياه تتدفق عبر الأنهار .

★★★

وفيما يتعلق بالأبواب والفصول فى ملحمة « الرامايانا » يقول الأستاذ «رومش دوت» ـ باحث هندوكى شهير فى الآداب السنسكريتية ـ انها فى الأصل تحتوى على ستة أبواب فقط وتنتهى عادة بعودة الأبطال الى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة؛ولكن الباب السابع الذى ألف بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو فى الحقيقة معيار جديد للشعر السنسكريتى ، اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت فى القرون الأخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوى على ستة أبواب أصلية وذيل فى الآخر يكون الفصل السابع .

ثم تنقسم الملحمة كلها والتى ألفت بالشعر الى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤ ألف بيت .. وبدراسة الباب السابع ، يظهر لنا بكل وضوح أنه ألف قبل الميلاد ، اذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف فى مصر

« راما » البطل واخوته بالمرة · وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بان الملحمة تصور أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ؛ ولكنها سجلت فى هذا القالب الشعرى فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ·

وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكية القديمة لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد ·

وقد جاء فى « الرامايانا » نفسها أن الراهب « والميكى » الذى ساعد « راما » فى محنته فى الغابة والذى شاهد وعاصر جميع مشاهده البطولية، هو الذى نظمها بعد عودة «راما» من منفاه الى « ايودهيا» ، ففى هذه الآونة لجأت اليه « سيتا » زوجة « راما » وماتت فى ديره ، لأن راما نفاها الى الغابة ولذلك أتيحت للراهب فرصة تربية ابنى « راما » اللذين عاشا فى كنفه تربية رهبانية ، وقد جال بخاطره فى هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد « راما » ومواقفه البطولية كلها بالشعر ، فبدأ فى نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما · كلما قرض « والميكى » مقطعا حفظه ابنا راما فى نفس الوقت · وبهذا حفظا الملحمة كلها والتى تتكون من خمسمائة مقطع تتضمن ٢٤ ألف بيت · وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكى أيضا فحضره « والميكى » مع ابنى راما ، اللذين أنشدا فى هذه الحفلة ملحمة « الرامايانا » كلها ·

وقد أثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها ، فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعى النظير، وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا ، الى أن سجلت كتابة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد ·

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين فى الهند فى القرون الخالية ، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى فى العالم ، لم تسجل انتاجها الأدبى والفكرى من أول وهلة ؛ بل تداولت ألسن الناس «الرامايانا» دهرا طويلا وحفظتها الصدور زمنا غير يسير حتى وجهت العناية أخيرا الى تسجيلها فى الكتب ، بعد أن انقطعت الهند مرحلة طويلة فى ميدان العلم والفكر ·

ولكن الرامايانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين، بل ساهم فى أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد ، كما هو الشأن لملحمة أخرى شهيرة ألفت بعد الرامايانا وهى « المهابهاراتا » ·

★★★

ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحى الأدبية والفنية فى هذه الملحمة؛ وما من شك فى أنها من أول نماذج الأدب والقصص فى الأدب السنسكريتى، بل الأدب الهندى قاطبة ، وهى غنية بالأحداث والمشاهد والحكايات والصور ، وتعتبر النواة الأولى للأساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التى ظهرت فيما بعد ، مثل : « نالا » و « ساوترى » و « شكنتلا » ، وهى صادقة فيما تحكى عن نفسها فى موضع من المواضع ، اذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة ، وهى التى تغذى جميع القصص وتمنح القوة لجميع الشعراء وهى درة يتيمة للشعر والشعراء ٠

ان «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التى تمثل جوانب انسانية رائعة ، فيها الدرس والعبرة لكل انسان يقرؤها ، كما يلوح فيها وفى كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والرقة والعاطفة ٠ والهدف الاساسى فيها هو المرأة والبيت ، فى حين أننا نجد ملحمة «المهابهاراتا» تدور حول الرجل والحرب، وبما أنها أقدم تراث وصل الينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها ٠

أما الناحية الفنية فيها فهى تعطى بوادر أولى واسسا ثابتة للأساطير الهندية التى ظهرت فيما بعد ، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار ، والتى غامر فيها أبطال هذه الملحمة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة الى غابة ومن بلد الى بلد ، من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حتى جزيرة « سيلان » الشهيرة التى منحت هذه القصة الشهية جوانب انسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين « الجنجا والجمنا » مثل «أوده وقنوح واله آباد» ، ولكن لايكاد يبين لنا فى خلال هذه الملحمة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل « دلهى » و « أجين » اللتين لعبتا دورا كبيرا فى الأدب السنسكريتى القديم ولا سيما فى ملحمة « المهابهاراتا » ومسرحية « شكنتلا » ٠ وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع الى هذه المناطق ٠ ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها ، مثل طبيعتها الفتانة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها ورعودها وأمطارها وسحبها ٠

وهذه الملحمة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود فى هذه الفترة من الزمان ، فلقد قطع الآريون مراحل عديدة فى تطورهم التاريخى والفكرى ، اذ مرت حياتهم حينا بالمادية البحتة وحينا

آخر بالروحانية المحضة ، وبما أن « الرامايانا » تصور أولى مراحل حياة الآريين فى الهند ، فنرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادىء السامية ٠

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحث الانسان على التضحية وأداء الواجبات نحو الانسانية ، وتذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية ٠ والسبب فى ذلك أن الانسان فى كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة فى الايمان بالله وقدرته وجبروته فى هذا الكون ٠ ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيرا ، مما حدا به فى بعض الأحيان الى الكفر بالله والجرى وراء المادية والشهوانية ، وقد وقعت الهند فى هذا اللون من الحياة فى العصور التى تلت « الرامايانا » كما تصورها ملحمة « المهابهاراتا » ، وهذا هو السبب فى أن « كرشن » الشخصية الأسطورية فى هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة ٠

وحينما ننظر الى القيم الروحية والمبادىء السامية فى « الرامايانا » ، نجد أن أحسن ما يتصوره الانسان فى هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما الى ذلك ٠

الأســـطورة أو الملحمـــة

رامايانا هى أوديسة الهند فى تاريخ الأدب الأسطورى وهى أشهر أساطير الهند وأحبها الى النفوس ٠٠ وتتناول حياة بطل اسمه راما نفاه أبوه فى غابة الشياطين حيث لقى من المصـائب والأهوال ألوانا شتى ، ونشب صراع جبار بينه وبين رافنا ملك الشياطين الذى تمكن من خطف زوجته ، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم ليأس أبدا ٠

والهندى يعتبر رامايانـا كتابا مقدسا ويعتبر راما صورة مجسدة للألوهية ولا يزال يتوجه اليه بالصلاة،وهو حين يقرأ الأسطورة انما يشعر بأنه يستمد من قراءتها سموا دينيا ، كما يستمد متعة أدبية وارتفاعا خلقيا ٠٠ اذ تطهره هذه القراءة من أوزاره جميعا وتجعله ينجب ولدا حتى ولو كان عقيما ٠٠ !!

كان الجميع سـعداء الا الملك ٠ فبرغـم العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه كل الشعب ، الا أن شيئا واحدا كان ينغص على الملك الحياة ٠٠ فقد أبت الآلهة أن تنعم عليه بولد يتولى من بعده عرش البـلاد ٠

ولقد كان سكان مدينة « أيوذيا » يعرفون تلك الحسرة التى تأخذ بقلب الملك « داشاراذا » سيد بلاد « كوسلا » . الا أنهم ما كانوا يملكون شيئا قط سوى أن يرفعوا أيديهم ، وهم يقـــدمون القرابين يدعـون « براهما » أن يمنح ملكهم الطيب وليا للعهد .

ولعل رب الأرباب قد استجاب لدعوات القوم الصالحين . فذات يوم بينما كان الملك مجتمعا بكهنته يقدمون القرابين لبراهما ، اذ ظهر الاله « فشنو » فى شكل نمر ، متربعا وسط النيران وقال للملك : خذ هذا الأرز المقدس ، واللبن الحليب ، ووزعه على زوجاتك فقد أرسلنى براهما لأبشرك بغـــلام اسمه راما يكون له ثلاثة اخوة آخرين من كل زوجة من الزوجات .. !

وحمل الملك اللبن والأرز الى زوجاته ، وقسمه عليهن فلم تمض أيام حتى أنجبت (كوشالا) زوجة الملك الأولى ولدا سماه « راما » ، ثم تبعتها « كايكى » بولد سماه « بارتا » . أما الثالثـة فقـد أنجبت ولدين هما « لاكشمان وساتروجنا » .

وعاش الاخوة الأربعة فى كنف الملك حتى شبوا ، ومع مر السنين كان راما قد اتخذ من أخيه لاكشمان صديقا وتابعا ورفيقا، وكان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارسا لأخيه بارتا .

وكبر راما حتى بلغ السادسة عشرة ، وبدأ الملك يمنحه من قلبه كل شىء ، ويدربه على أن يكون ملكا من بعده على كوسلا . ومن أجل أن يأمن على ولده متى تولى العرش من عداوات جيرانه امتلأ رأسه بفكرة تزويجه من سيتا .. كبرى بنات « جاناك » ملك « ميثالا » .

والحق أن سيتا كانت أجمل فتيات ذلك العصر ، غير أنها لم تكن فى الحقيقة ابنة الملك .. فقد كان ذات يوم يحرث بستان قصره بالمحراث واذا بالأرض تنشق من تحته وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور ، ذات جبين من عاج ، وشفة من مرجان وأسنان تسطع بلمعة اللآلىء ، كانت هى نفسها سيتا .. التى اعتبرها الملك هدية من الآلهة فتعهدها فى قصره حتى شبت وعندما حان حين زواجها ، قرر جاناك ألا يزوجها الا لمن يستطيع أن يثنى القوس المقدس الذى أهدته الآلهة لاجداده الأقدمين .

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله ، غير أن أحدا لم يستطع أن يثنى القوس ٠٠ فقد كان قوسا ماردا عملاقا صنعه الاله شيفا لنفسه ثم أهداه لأجداد جاناك ٠ ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن ثنيه فلا الآلهة ولا المردة ولا الشياطين ٠٠ كانوا يملكون القوة حتى تستطيع أن تثنيه ٠

وقرر راما أن يشترك فى المباراة ، وانطلق الى ميثالا حينما كان الملك يستعد لاقامة عيد الضحية ٠

وكان الشعب كله يحيى الملك حين دخل راما الساحة ، وأعلن عزمه على خطبة سيتا ٠٠ ابنة الملك !

وتحولت اليه كل الأنظار ٠٠ لقد كان صدره بارزا كليث ، وجسده فارعا كفيل ، وعيناه مهيبتين كنسر ٠

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان يجرها خمسة آلاف عملاق ، ومد راما يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يثنيه ، وارتعد الجميع ، فما كان أسهل ما انحنى القوس فى يد راما الذى ظل يثنيه حتى تلامس طرفاه ، ثم تحطم فى صوت كالرعد وهزة كالزلزال ، حتى ان آلاف المشاهدين سقطوا على الأرض عدا جاناك وراما والأميرة التى فتحت عينيها فى ذهول ٠٠ !

وأقيمت الأفراح ، وأرسل جاناك الى جاره الملك داشاراذا يدعوه الى حفل الزواج ، فجاء ومعه أبناؤه الباقون ، وعندما عادوا الى ايوذيا ٠٠ كانت مع كل منهم عروس أخرى رائعة٠٠من بنات ملك ميثالا الجميلات ٠

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا ٠٠ حتى دخلها الشر عن طريق كايكى ٠٠ الزوجة الثانية للملك ٠٠ !

فذات يوم أعلن الملك أنه يدعو الشعب فى الغد لحضور حفل تنصيب ولى عهده ، وملأت الأفراح كل « ايوذا » التى امتلأت قلوب سكانها جميعا بحب « راما » وزوجته الأميرة « سيتا » ابنة الالهة ٠ غير أن قلبا واحدا كان يمتلىء غما وحسدا هو قلب الملكة كايكى ، فقد أحزنها أن يكون العرش لابن ضرتها دون ولدها باراتا الحبيب ٠٠ !

ولعل تلك الغيرة التى ملأت قلب كايكى ، لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا لولا خادمتها العجوز « منتارا » ، فقد أشـعلت العجوز فى أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد ، وراحت تحرضها على التخلص من راما ليكون العرش خالصا لولدها باراتا ٠

وبكت كايكى غيظا ويأسا ٠٠ فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من اعلان ولاية العهد لأى ولد ٠ غير أن منتارا ابتسمت فى خبث وهى تقول :

ـ ان فى امكانك يا مولاتى أن ترغمى الملك على ايلاء العهد لولدك ٠٠ وارسال ابن ضرتك الى أعماق غابة الشياطين فلا ينافسه على العرش أبدا ٠

قالت الملكة كايكى :

ـ كيف يكون ذلك يامنتارا !

ومن بين شفتيها المملوءتين بحمى الحقد،راحت منتارا تذكر سيدتها بذلك اليوم الذى أصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال احدى معاركه مع شياطين الجن ، ففى ذلك اليـــوم كانت كايكى تعيش فى ذلك المكان ، وتصادف مرورها من نفس الطريق الذى سقط فيه الملك غارقا فى لجة من الدم ، وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت جاهدت حتى استطاعت حمله بعيدا عن الميدان ، وبذلت كل ما تملك حتى ارتد اليه الصواب ، وأخـذت تعنى بجراحه حتى أنقـذته من موت محقق ، وعنـــدما شفى الملك تزوجها ، وأقسم أن يحقق لها أى أمنيتين تطلبهما منه ٠٠ فى أى وقت تريد ٠٠ ومضت الأيام والشهور والسنون ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئا بعد ٠٠٠

ودار رأس كايكى بنشوة الخمر ٠٠ وقد بدأت تدرك ما تقصد اليه منتارا ، واستمرت العجوز تقول :

ـ لقد حان الوقت لكى تطلبى من الملك أمنيتك ، اطلبى منه أن يتخلى عن العرش لولدك باراتا وأن ينفى راما فى غابة الشياطين أربعة عشر عاما ٠ وفى خلال تلك السنوات يكون باراتا قد استطاع أن يستأثر بحب الشعب ولا يخشى منافسة أخيه ٠

وانطلقت كايكى الى الملك تذكره بوعده ، وأقسم لها أنه لم يحنث فيه ، وأنه سيحقق لها فى الحال كل ما تطلب كائنا ما كان · وهنا ألقت الملكة بالمفاجأة على رأس الملك الذى وقف كالمشدوه وما خطر بباله أنها تجرؤ على مثل ما تطلب الآن قط ···

غير أن الملك لم يكن يستطيع أن يحنث فى وعده ·· وبقلب حطمته الأحزان أحنى رأسه للمرأة التى خدعته ·· !

لقد كانت هذه هى أول مرة يحنى الملك داشاراذا فيها رأسه ، ولقد اضطر الى احنائه مرة ثانية أمام راما الذى وقف ومن حوله كل رجال البلاط ، فى انتظار أن يباركه أبوه ويعلن له ولاية العهد · فاذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيرا محطما وهو يولى العرش لباراتا ، ويأمر بنفيه هو نفسه أربعة عشر عاما فى غابة الشياطين ·· !!

وهتف الفتى فى حيرة :

ـ ولكن ما الذى صنعته يا أبتاه ··· ؟!

وأشار الملك الى كايكى وكأنه يشير الى الشيطان · وراح يقص على الجمع قصة الأمنيتين الخبيثتين ، والوعد الذى لم يكن يستطيع أن يحنث فيه ·· !

واندفع باراتا نحو أخيه راما · وأمسك بيده وهو يقسم أنه لا يمكن أن يمس عرشا من حق أخيه وحده · غير أن راما هز رأسه وهو يقول :

ـ أبدا أيها الأخ الكريم ·· لقد انتقل التاج اليك ، ولابد من تنفيذ الوعد الذى أعطاه أبى ، ستجلس أنت على العرش ·· أما أنا فسأنطلق لفورى وحدى الى غابة واندك فلا أعود الا متى انقضت الأعوام الأربعة عشر كاملة ·· !

واندفعت سيتا نحو زوجها ، وسجدت أمامه تتوسل وتقول له :

ـ خذنى معك يا زوجى الحبيب ·· فما أستطيع أن أعيش فى هذا المكان بعدك · ان العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب كلها عبث فى حياة المرأة ، وهى تؤثر عليها كلها ظل زوجها المعبود · ان سيتا ستهيم معك فى كل مكان فى الغابة ·· فذلك عندها أسعد مقاما من قصور العالم كله ،

انها لن تفكر فى بيتها لحظة ، أو فى أهلها ما دامت ناعمة فى حب الزوج الذى اختارها لتشاركه الحياة ، وستجمع الثمار البرية فى الغابة العبقة ، فطعام يذوقه راما هو أحب الأطعمة عند سيتا الوفية .

وكذلك فعل لاكشمان ، فقد راح يتوسل الى أخيه أن يأذن له بمرافقته . فاذا لم يكن يريده صاحبا فليكن حارسا له ، ولسيتا من هجمات سكان الغاب الملاعين .. !

وحاول راما أن يثنى زوجته وأخاه عما أصرا عليه ، غير أنهما ظلا يلحان ويتوسلان .. ولم يكن أمامه سوى أن يذعن لرغبتهما .. وانطلق الثلاثة معا فى الطريق الى وانداك .. غابة الشياطين .. !

★★★

لم يكد الأمراء الثلاثة يمضون ، حتى سقط الملك ميتا لفرط ما ألم به من حزن . وبرغم أن كايكى ملأها الفرح لوفاة زوجها ، الا أن باراتا رفض العرش وأقسم الا أن يحكم باسم أخيه حتى يعود من منفاه .

ومضت أعوام عشرة طويلة . عاش الأمراء الثلاثة خلالها متنقلين بين حنايا الغابة الموحشة ، يقتاتون فاكهة ويجمعون عشبا ويصطادون طيرا وحيوانا ، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط بأحد من الشياطين التى قيل انها تملأ الغابة .

وبينما كان الأمراء الثلاثة يستأنفون تجوالهم ذات يوم ، اذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام صومعة ناسك هرم يدعى اجستاى . لم يكد يلمحهم حتى رحب بمقدمهم ، وأقسم الا أن يستضيفهم أياما عددا .

ولم يكن بد من أن يقبل راما ضيافة الناسك . وخلال الأيام التى قضاها لديه عرف راما أن رافانا ملك الشياطين ، يقيم غير بعيد من أطراف الغابة عبر المكان الذى يقيم فيه الناسك ، الا أنه لا يجرؤ على الاقتراب منه لما يملكه الرجل الطيب من أسلحة رهيبة يخشاها الجن والشياطين .. ولعله كان أجدر براما ، أن يبتعد بزوجته وأخيه عن ذلك المكان ، غير أنه — وهو الشجاع الذى لا يعرف الجبن قط — أبى أن يستسلم للخوف وأقسم الا أن يستمر فى تجواله حتى تنقضى مدة النفى .. !

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضان الا أن يمضيا فى طريقهما ، أقسم أن يساعدهما بما يقيهما شر الطريق ، فأخذ بأيديهما الى مغارة تحت الأرض حيث آلات حرب فتاكة أعدها لصراع الجن والشياطين ٠٠ فأعطاهما شيئا منها ، كما منح راما قوسا وسهاما مسحورة لا تحصى ٠ ومنح لكشمان سيفا ذهبى النصل يثير الرعب فى قلب كل من يراه ٠٠

وأخذ راما ورفيقاه طريقهم من جديد فى أعماق الغاب ، وظلوا يسيرون حتى أخذ التعب بسيتا وأحست حاجة الى الراحة ٠ وهنا فقط حط ثلاثة الرجال وقرروا أن يبنوا مسكنا صغيرا يأوون اليه وترتاح سيتا فيه ٠٠٠

★★★

ومرت الأيام سعيدة هانئة ٠٠ حتى كان ذات يوم ٠٠٠

كانت « سورياناجا » أخت رافانا ملك الشياطين تتنزه فى الغابة ، حينما شهدت راما جالسا يناجى زوجته وأحست « سورياناجا » نحو الفتى بهوى غريب ، وراحت تتحين الفرص لتنفرد به ٠ فلما واتتها الفرصة وراحت تصب فى أذنيه ترانيم الهوى ، صد عنها ورفض أن يستجيب لعاطفتها ٠

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر ، أن أصرت على قتل سيتا التى تمنعه عنها ٠ وراحت « سورياناجا » تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فهاجمتها،غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع اليها ، وبحد سيفه البتار قطع أنفها وأذنيها ٠ وصرخت الشيطانة فى غضب ، وانطلقت تجرى والدم ينبثق متدفقا من جروحها ، حتى التقت بأخيها الصغير كارا ٠ وعندما عرف كارا الأمر أقسم لينتقمن وأرسل أربعة عشر تنينا ضخما ليقتلوا الأمراء الثلاثة ٠٠٠

غير أن الشيطان الصغير قد قدر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة ٠ فان التنانين لم تكد تهاجم مقر راما ورفيقيه حتى نهض هو فخنقها جميعا بيديه بغير سلاح ٠٠٠

وهنا جن جنون كارا ٠ وأعلنها فى الغابة حربا شعواء على راما ورفيقيه ٠٠٠

خرج كارا على رأس أربعمائة ألف تنين ، يثير كل منها رعب عالم بأسره ٠٠ !

ولمح راما صفوف الجيش الزاحف فأمر زوجته وأخاه بالاختفاء ، ثم لبس درعه واستل سيفه وأخرج رمحه ووقف وحده ينتظر التنانين ٠

وكانت التنانين تزحف كأمواج البحر ٠ وتحتك حراشيفها فتخرج أصواتا رهيبة كالرعد ٠ وملأ الرعب قلوب كل من فى الغابة ، الا راما الذى وقف صامدا تظل النبال من كنانته ٠ وظل ساكنا فى وقفته حتى ازدادت صفوف الجيش الزاحف اقترابا منه ، وهنا مد راما يده الى نباله وسهامه وراح يرسلها نارية عميقة على التنانين التى ملأها الرعب والفزع، وبدأت تتراجع وتتلوى تتلمس النجاة ٠ غير أن سهام راما كانت تلاحق الهاربين ، وأخذت أرض الغابة ترتوى بالدماء ٠٠ والتنانين تتساقط واحد فى أثر آخر ، حتى لم يعد هناك سوى كارا وحده وليس حوله أحد قط ٠٠ !

واقترب كارا من راما ٠ ونشبت معركة عنيفة مهولة ، راحت شظايا النبال وقطع الأخشاب تتطاير خلالها لتملأ جو الغابة ٠ ثم فجأة رفع راما قوسه وهزه كزلزال ، ثم أطلق سهمه مريشا سريعا الى قلب الشيطان ٠٠

غير أن المعركة لم تكن لتنتهى عند هذا الحد ٠٠٠

فقد تلقى رافانا ملك الشياطين أنباء مصرع أخيه وجيوشه فجن جنونه ٠٠ ونهض من فوق عرشه وهو يقسم ليقتلن راما ويمثلن به ٠

ونهض رافانا يستعد لمعركة رهيبة قاسية مع راما وصاحبيه ٠ غير أنه لم يكد ينهض حتى انحنى عليه أخوه « ماريشى » يحذره من قوة راما ، ويكشف له سر الذخيرة الفتاكة التى منحها له الناسك ، ويقص عليه قصة الآلهة التى اختارته ليقضى على الجن والشياطين ويشتتهم أجمعين ٠

وبدا الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة مما كان يتصور ، وانحط على عرشه ساخطا يفكر : كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيه ٠

ان له لعشرين ذراعا يستطيع أن يحمل فى كل منها سلاحا جبارا ، وان له لعشرة رءوس يستطيع كل منها أن يخترع ألف وسيلة لكسب النصر ٠ ولكنه مع هذا أحس بالجبن فقد أقنعه أخوه « ماريشى » أن النصر لن يكون حليفه اذا دارت المعركة بينه وبين (راما) وجها لوجه ٠٠

واذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال ! وراح كل رأس من الرءوس العشرة يبحث الأمر · وفجأة قفز رافانا فى فرح كبير ، فقد خطرت له بعد طول التفكير فكرة رائعة ، فقتل « راما » لن يذل كبرياءه وأنفته أو ينال منه ، ولكن الذى يذله وينغص عيشه هو أن يفقد أعز شخص لديه ··· وهكذا قرر رافانا أن يرسل أخاه مازيشى ليخطف سيتا ·· زوجة راما الحنون · !!

★★★

فى ذلك الوقت كان الأمراء الثلاثة يجلسون تحت شجرة مورقة يتلمسون الظل ويتذاكرون بلادهم وأهليهم · وفجأة لمحت سيتا منظرا أطلقت له صيحة فرح · لقد كان هناك ظبى صغير يقفز على مدى البصر رائع الجمال له شعر يبرق كما يبرق الذهب ·· !

ولمس الأمير فرحة زوجته وشغفها لمرأى الظبى · وعندما تمنت أن تملكه وتحتفظ به لأيام عودتها ، أقسم ليتأتينها به ·· حيا بغير جروح ··

وقفز « راما » من مكانه يعدو وراء الظبى ، بعد أن أوصى أخاه بحراسة سيتا وألا يغفل الطرف عنها قط أو يتركها مهما جرى من الأحداث ·

وأحس الظبى بالمطاردة فاندفع يقفز ويعدو يظهر آنا ويختفى آنا آخر · والأمير من ورائه لا يريد أن يفلته ، يخترق وراءه الأدغال ، ويسعى خلفه داخل الجحور ، ويأبى أن يستعمل قوسه وسهامه حتى لا يصيبه أو يجرحه ·

وظل الظبى يخترق قلب الغاب والأمير وراءه حتى أنهكه الجهد وأخذ به اليأس ، وأطل خلفه فاذا هو قد ابتعد تماما عن مكان زوجه وأخيه ··وهنا فقط ملأه القلق وأحس أن فى الأمر مكيدة دبرتها له الشياطين ·· فقرر أن يعود ولكن بعد أن يقتنص الظبى بسهامه ويحمل جلده البراق الى سيتا الحبيبة ·· !

وأرسل « راما » سهمه المسحور فأصاب الظبى وأسرع يجرى نحوه ليحمله · وعندما اقترب منه وجد شيئا آخر ما كان يتوقعه قط ، فقد كان الظبى يتلوى على الأرض ويتحول شيئا فشيئا الى صورة أخرى بعيدة كل البعد عن صورته · وحدق « راما » جيدا الى حيث كان الظبى المحتضر · فاذا هو « مارتشى » نفسه ·· شقيق ملك الشياطين ·

وأحس « راما » فرحا ضخما عندما وجد أنه قتل الشيطان . غير أن هذا لم يدع فرحته تطول،فقبل أن يلفظ النفس الأخير أرسل فى الغاب صرخة داوية قلد بها صوت راما ؛ ليوهم بها من يسمعها بأنه هو « راما » نفسه يطلب النجدة والغوث .. !

والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى اليه . فقد ملأت الصيحة آذان سيتا ولكشمان وخيل اليهما أن « راما » يستغيث بعد أن دهمه خطر مخيف .

ونسى لكشمان كل تحذيرات راما ، وانطلق يجرى الى الجهة التى خيل اليه أن الصوت يصدر منها ، بينما جلست سيتا تنتظر وفى قلبها هلع وذعر .

ومضت لحظات ، راحت « سيتا » خلالها تلوم نفسها اذ أغرت زوجها بالسعى وراء الظبى . وبينما هى تفكر وتنتظر طرق سمعها وقع أقدام تقترب منها ، ففزت وقد ظنت القادم زوجها ، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكا هرما يتوكأ على عصا ، وقد أحنت السنون ظهره وقوست قامته وقربت ما بين خطواته .

وطلب منها الناسك أن تأذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها . وفى أدب ورفق أذنت له سيتا وأحضرت ماء وفاكهة ، ثم راحت تنصت اليه وهو يسألها عن سبب وجودها فى ذلك المكان ، وبرغم الدهشة التى ملأتها للسؤال الغريب ، طفقت تقص عليه الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبى .

وهنا توقفت فى ذعر ، فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق ، ثم اذا بقامته تعتدل وظهره يستقيم ، واذا به ينتفض ليصير شابا قويا له عشرون ذراعا وعشرة رءوس .. !

لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه . وانقض ملك الشياطين على (سيتا) وهو ينادى على مركبته ودفع الأميرة الى داخلها ، وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو فى طريقها الى جزيرة سرنديب حيث مقر عرشه ... !

ظلت المركبة تطير ، والأميرة مشدوهة حائرة لا تكاد تعى . وأطلت فاذا ملك النسور يطير غير بعيد فاستغاثت به وانتبه ملك النسور الى الاستغاثة ، فاذا عدوه ملك الشياطين قد اختطف فتاة حملها فى عربته

السحرية الطائرة ، وتحول النسر الضخم يتبع العربة وينقض عليها ، غير أن الشيطان كان أسرع منه فطعنه فى جنبه بخنجر طعنة قاتلة سقط النسر على أثرها من ذلك العلو الشاهق نحو الأرض ، وقد غرق فى بحر من الدم ٠٠ !

واستمرت العربة تطير ، حتى اجتازت غابة وانداك ثم حطت قليلا على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القرود ٠ وعندما استأنفت الطيران كانت الأميرة قد عمدت الى القاء وشاحها وعقدها ليسقطا على سفح الجبل بين أيدى القرود ٠ ولم يتنبه ملك الجن الى سقوط الوشاح والعقد حين كان يسرع الى جزيرته ٠ أما هى فقد ملأها الأمل فى أن يعثر راما عليهما اذا كان قد نجا ، وتدله القرود على المكان الذى اتجهت اليـه ٠

★★★

بينما كان كل ذلك يحدث كان « راما » قد انطلق فى طريقه عائدا الى الوادى ، بعد أن انتصر على الشيطان مارتشى ٠ وبينما هو فى طريقه اذ التقى بأخيه لكشمان الذى كان قد انطلق لنجدته ٠ وصرخ « راما » اذ وجـد أخاه وحده ، وراح يؤنبه اذ لم يستمع الى تحذيره وتوصيته بألا يترك « سيتا » وحـدها ٠٠ فقد كان أدرك أن المؤامرة قد نجحت فى ابعادهما عنها لينفرد بها « رافانا » ويخطفها ٠ وأسرع الأخوان الى حيث تركا الأميرة ، فاذا المكان خال وآثار المعركة بادية ولا شىء هناك سوى الكون ٠ !

لم يستطع « راما » احتمال الصدمة فسقط غائبا عن الوعى ٠ وعندما انتبه الى نفسـه طفق يبكى ويصرخ ، وأخوه يحاول التخفيف عنه بغير جدوى ٠ وأحس لكشمان خطورة الأمر اذا ما طال انتظارهما فى ذلك المكان ، اذ سيفقدان فرصة البحث ومتابعة أثر ملك الجن ٠ فأخذ يدعو أخاه الى مغالبة اليأس والاسراع الى الجنوب حيث تقع مملكة « رافانا » التى يتحدث عنها الجميع ٠٠٠ !

أخذ الأميران طريقهما الى الجنوب ٠ وبينما هما يسيران ، اذا بهما يبصران شيئا ضخما يتمدد على الأرض ومن حوله بركة واسعة من الدم ٠ واقترب الأخوان يتأملان فاذا به ملك النسور يحتضر والدم لا يزال يسيل من جنبه ساخنا حارا ٠ واقتربا منه يسألانه سر ذلك الجرح فقص عليهما القصة ، وأشار الى الطريق الذى سلكه ملك الشياطين ٠

وقبل أن يستأنف الأميران السير ، شقا مدفنا للنسر الذى فقد حياته وهو يدافع عن فتاتهما · ثم أمعنا فى السير الى حيث أشار لهما ، وبلغا آخر الأمر جبلا ضخما وقفا لدى سفحه يفكران فى وسيلة لارتقائه · وبينما الحيرة تأخذ بهما اذا بقرد كبير يخرج عليهما من احدى مغارات الجبل ، ويسألهما عن سر وجودهما فى ذلك المكان · وقال له راما :

— ومن تكون أنت ·· وما اسمك ؟

قال له القرد :

— أنا « هانومان » سفير الملك سجريفا ، الحاكم الحقيقى لهذا الجبل· فما الذى تبغيان من حضوركما الى هذا المكان !!؟

وقص عليه راما قصته · وهز هانومان رأسه وهو يقول :

— لقد رأيت بنفسى مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب · لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة فى اعياء بداخلها ، وعندما مرت بالجبل أسقطت عامدة وشاحها وعقدها ، ربما لتدل الباحثين عنها الى المكان الذى اليه تطير ·

وأخذ « هانومان » بيد راما · وانطلق به الى الملك سجريفا ، لعله يمد له يد العون · وبينما هم فى الطريق قص القرد على راما كيف أن « سجريفا » يعيش الآن مغلوبا على أمره ، وحوله قليل من الأتباع بعد أن اغتصب أخوه عرشه وطرده من قمة الجبل ·· ووعد (راما) القرد أن يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزيمته الماضية وسهامه القاضية اذا هو وعد بمساعدته فى الوصول الى زوجته ·

وكان هذا هو ما حدث بالفعل ، فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة · وحمل راما قوسه وسهامه ونباله فشن بها حربا شعواء على ملك الجبل الذى اغتصب عرش أخيه · وبعد صراع عنيف استطاع « راما » الفوز بالنصر فهزم الغاصبين ، وأعاد سجريفا الى عرش الجبل ·· !

ومن أجل ان يرد سجريفا الجميل لحليفه ، وجه أربعة من جيوشه التى تضم آلافا من القردة العملاقة الهائلة الى جهات العالم الأربع ، وأمرها أن تسير فى الأرض باحثة عن المكان الذى نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة·

وكان على « راما » و« لكشمان » أن ينتظرا فى مملكة القرود عودة الجيوش الأربعة · وانقضت أيام طويلة كأنها السنون عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة ، ولم يبق غائبا سوى الجيش الذى كان قد توجه الى الجنوب ، وعلى رأسه هانومان سفير الملك الذى أخذ معه خاتم راما ·

والحق ، ان جيش الجنوب ظل يلقى من الأهوال والمخاطر ما لم يتصوره أحد قط ، ولقد بلغ اخلاص هانومان لصديقه راما حدا جعله لا يهتم أبدا بما يقاسيه هو وجيشه فى سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين · وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطىء المحيط ، وأطل فاذا هناك على مسافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف ·

وأدرك هانومان أن هذه الجزيرة هى المكان الذى يسعى اليه · وبرغم طول المسافة التى تمتد بين شاطىء المحيط والجزيرة المسحورة ، قرر هانومان الوفى أن يقفز قفزة جبارة هائلة ·· اما أن تصل الى الجزيرة ، وأما أن تورده الهلاك ·· !

وكان هانومان يحب المخاطرة ، فترك جيشه حيث هو ، واعتلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطىء ثم قفز قفزة هائلة فى الهواء ·· !

كانت القفزة رائعة حتى لقد كاد ظهر هانومان يصطدم بالسماء · واذا به قد عبر المحيط الواسع وحطت قدماه على شاطىء جزيرة سرنديب ·· !

وعندما أحس هانومان أنه قد نجح فى الوصول الى الجزيرة ، استخدم سحره ليتحول الى قرد صغير ، حتى لا يلفت اليه الأنظار ، وأخذ يتنقل بين بيوت الشياطين باحثا عن قصر « رافانا » حتى بلغه ، وعندما اجتاز أسواره شهد سرادقا صغيرا يمتد فى حديقة القصر الواسعة، واقترب من السرادق ومد بصره يتلصص فى حذر ، واذا به يقف مبهورا يمتلىء عجبا فقد كانت سيتا هناك بارعة الجمال كملاك ترقد على فراش مريضة منهوكة ·· ومن حولها ماردات من العفاريت يحرسنها ، ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعدها ويقول لها : ان صبره قد نفد لطول ما أمعنت فى رفض الزواج منه والاصرار على الوفاء لزوجها راما ·· ! وعندما عجز رافانا عن استرضاء سيتا — كما كان يعجز كل يوم — غادر السرادق وقد

أقسم أن لن ينتهى ذلك اليوم حتى يكون قد أرغم أنفها وأذل كبرياءها ، وما كاد رافانا يغادر السرادق حتى اقترب القرد الصغير من الفراش ثم همس باسم راما ٠٠ وانتفضت الأميرة ، وتلفتت حولها ، فاذا قرد صغير ولا شيء آخر هناك ، وظنت أنها كانت تحلم فأغمضت عينيها ، ولكن القرد عاد يذكر اسم راما ففتحت عينيها من جديد ، فاذا بالقرد يخرج خاتما ذهبيا ما كادت تراه ، حتى أيقنت أنه خاتم زوجها الحبيب ٠٠ ! وقبل أن تصرخ من الفرح ، كان هانومان قد أشار اليها فى سرعة خفية يحذرها من الصراخ ٠

وأشار القرد من طرف خفى الى « سيتا » أن تنتظر وتطمئن ٠ وفهمت هى اشارته وعرفت أنها النجاة ٠ وغادر هانومان المكان ، وقد قرر الرجوع سريعا الى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه « راما » لينزل النقمة بملك الشياطين ٠ ولكنه لم يكد يبتعد قليلا حتى ملأت رأسه فكرة جديدة هى أن ينزل نقمته هو أيضا بمملكة الشياطين ويحطم كبرياء ملكها ويذله ٠

وفى لمح البصر رفع « هانومان » عن نفسه السحر فعاد قردا ماردا ضخما ، راح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر ٠ ولم يكد يفعل حتى أحاطت به الشياطين من كل جانب ٠ وأطل حوله فاذا هو وحيد ، وهم كثيرون وأدرك بعد فوات الأوان مقدار خطئه وتهوره وعرف أنه واقع لا محالة بين أيديهم ، وهنا خطرت له فكرة فاقتلع من بهو القصر عمودا كبيرا من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ، ففرق شملهم ثم قفز فى الهواء قفزة هائلة كان واثقا أنها تبلغه شاطىء المحيط ، الا أن سهما أرسله أحد شياطين الجن أصابه ٠ وبرغم أن الاصابة كانت خفيفة الا أنها كانت كافية لأن تجعله يهوى قبل أن يبلغ الشاطىء ٠ فجذبه الشياطين ، وأوثقوه بالحبال وقادوه الى « رافانا » الذى كان ثائرا يرغى ويزبد ويهتز كزلزال ٠٠ !

وأصدر رافانا أمره فى الحال باحراق هانومان وأحاط الشياطين جسم القرد بلفائف القطن ، ثم أشعلوا النار فى القطن الذى أحاط بذيله ٠ واشتعلت النار وبدأت تتسرب بطيئة الى جسد القرد ٠

وشهدت السماء ذلك العذاب الذى نزل بالمنقذ ٠٠ فأشفقت عليه ، وتجمعت السحب وأمطرت مطرا غزيرا ، كان فيه الكفاية لاخماد اللهب ، وتيسير سبل الهرب للقرد بعد أن أحرقت النار وثاقه ففكت قيده ٠

وأقلعت السماء فجأة ، وأطل هانومان فاذا طرف ذيله لا يزال يشتعل به بعض النار ..

وخطرت له فكرة جديد . لقد كانت الأميرة تجلس فى سرادق بعيد عن القصر ، فلا خوف عليها اذا هو أحرق القصر نفسه ..

ونهض لفوره وراح يقفز هنا وهناك ، يدور بذيله فى كل اتجاه ويشعل النار فى كل شىء حوله وشبت النيران بكل جزء فى القصر .. ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول الى شعلة كبيرة هائلة .

وفى نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة بلغ بها شاطىء المحيط وأسرع فى مثل لمح البرق حتى بلغ الجبل وراح يقص الأمر على « راما » الذى أسرع الى الملك (سجريفا) يطلب منه أن يمده بباقى الجيوش .

وعلى رأس أضخم جيش شهدته الأرض ، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطىء المحيط ووقفوا فى مواجهة جزيرة سرنديب .

وأطل الشياطين من بعيد وملأهم الرعب . لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم وانزال الخراب بقصر الملك .. فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القرود بالجزيرة التى ملأها هانومان وحده من قبل رعبا .. ؟!

وكان « رافانا » على يقين من الهزيمة بعد أن تحالف ضده راما وهانومان ، فجمع مستشاريه وشرعوا يبحثون الأمر من كل الوجوه .

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة . ونهض « فهبشان » شقيق رافانا الأصغر ، يطالب بتنحية أخيه وتسليم « سيتا » الى زوجها ليحل السلام محل الحرب . غير أن « رافانا » ثار عليه وكاد يقتله فهرب هذا من أمامه وقد أقسم أن ينتقم ...

وقفز الشيطان الصغير فصار على الشاطىء . وانطلق الى « راما » يقص عليه قصته ويعرض عليه خدماته، وظنه « راما » أول الأمر جاسوسا، لولا أنه أشار عليه باقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر .

وفكر « راما » فيما أشار به الشيطان الصغير · واقتنع بصواب الفكرة ونفذها ··

ولم تكد تمضى خمسة أيام حتى كانت ملايين القردة قد جمعت كل ما أمكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر · وأقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش فى جنح الظلام ·

ونشبت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا · ومن كل من الجانبين سقط الآلاف قتلى وجرحى ، بيد أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما أصاب جيوش « راما » الذى استعمل سهامه المسحورة فأخذت تعصف بالشياطين عصفا مخيفا ·

واستمرت الحرب طاحنة عدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين· وعندما وجد (رافانا) أنها الهزيمة امتلأ غيظا وحنقا وانتفض مقسما أن يقتل « راما » ولو كلفه ذلك حياته ·

ونشبت مبارزة هائلة بالنبال بين راما ورافانا ·· وكان ملك الشياطين عنيفا فى مبارزته حتى لقد بدأ راما ينهار وكاد يستسلم ·· لولا أن جمع قوته كلها قبل أن يسقط على الأرض فى رمية واحدة بسهم مسحور من قوسه · وأخذ السهم طريقه سريعا الى قلب رافانا فأرداه ··

وردت نشوة النصر الى راما قوته ، وانطلق يجرى نحو السرادق الذى تقيم فيه زوجته يقوده هانومان الوفى · ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعانقان··الا أنهما عندما انتبها كان الهدوء قد ساد المكان · وكان فهبشان الشيطان الحليف واقفا على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران ·· !

وانتصب « راما » قائما من جديد · وأصدر أوامره بالصفح عمن بقى من الشياطين ، على أن يحكمهم فهبشان ويمنعهم من الهبوط الى الأرض بعد ذلك ·· !

وعندما أخذ راما وسيتا ولكشمان طريق العودة الى الوطن ، كانت الأنباء قد سبقتهم الى هناك على لسان هانومان ·· فخرجت أيوذا كلها وعلى رأسها نائب الملك باراتا الذى رفض أن يجلس على العرش طوال أربع عشرة سنة ·· وظل محتفظا به ليضع التاج بعد ذلك بنفسه على رأس أخيه راما ·· وزوجته سيتا الحسناء ·· !

★★★

خطب ديموستين

ديموستين

٣٦٠ - ٣٢٢ ق م

الخطب والخطباء على مدى التاريخ

الخطابة فطرة فى الانسان ؛ ولهذا لم تخل منها أمة حفظ التاريخ آثارها ، ففى الماضى البعيد كان بوذا يخضع الجماعات لكلامه المنزل وكانت نبوءات اسرائيل تهز الملوك والأمم ، وكانت اليونان حافلة بالبلغاء أى برجال قادرين على تحريك الشعب واثارته لعهد هوميروس وقبل ذلك العهد . ولكن فرقا عظيما بين هذه البلاغة الغريزية التى يولدها وحى الساعة ثم تزول غير تاركة أثرا والبلاغة العلمية التى امتازت بها العصور الراقية حيث كان الخطيب على حظ موفور من الفلسفة والتاريخ فكان يلقى خطابه بعد التفكير ويمكنه أن يكتبه فلا تزيل تلاوته من حسنه شيئا .

هذه البلاغة الناتجة عن درس واف وثقافة عالية وتمرين متصل أوجدتها أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد ولا عجب ، فقد كانت أثينا حينئذ فى مكان سام من الحضارة وشرف باذخ .

وكانت فرص القول متعددة ؛ لأن الأعمال الاجتماعية كافة كانت تقضى جهارا أو يجادل فيها أمام الجميع وكانت المسائل العامة تدرس فى مجتمع الأمة ، حيث يحق لكل وطنى أن يبدى رأيه وكانت الدعاوى تعرض أمام المحاكم الشعبية فيباح الكلام لمن أراد حتى المتهم . أضف الى ذلك اجتماعات الأدب والعلم التى لم يكن للساسة ضلع فيها ؛ فكانوا يجتمعون بخطيب بارع يتحدث اليهم فى موضوع ما كالثناء على الأبطال الذين يموتون فى سبيل الوطن أو غير ذلك .

وأشهر خطباء هذا العهد برقليس وازدكرات وأشين وديموستين ، وقد كان كل من الآخرين زعيما لحزب سياسى ؛ فقضيا العمر فى عراك محتدم الوطيس والغاية واحدة هى استقلال الوطن .

كان فيليب ملك مقدونيا ينتهز فرصة الخلاف القائم بين اليونان للوصول الى اخضاعهم بالقوة أو الحيلة ، وكانت أثينا منقسمة على نفسها : فقسم محافظ على ماضيه المجيد غير راض عن فيليب ولكنه ضعيف الهمم لما ساور الأخلاق من التخنث فلا قبل له بالاقدام على أمر ذى خطر . وقسم يريد التحالف مع فيليب وكان ديموستين حاملا لواء الحزب الوطنى وأشين

الحزب المقدونى ، وهذا الاختلاف فى موقف الخطيبين خلع مسحة خاصة من البلاغة على كل منهما فلم يخل كلام أشين من الزخرفة ، بينما كان ديموستين كله روحا وعصبا · وكانت بلاغة ديموستين مرآة صادقة لخلقة القوى الشديد ونفسه الملتهبة : فكانت تنم عن عزيمة أدبية لا تقهر يصرفها ذهن صاف ومنطق محكم واباء عظيم ولسان هجام فكان تارة جادا وطورا هازلا يستخدم العقل حينا والعاطفة حينا آخر هادئا غضوبا ساميا بسيطا ، وحتى اليوم لا تزال خطبه حافظة أثرها ، فنشعر به عند قراءتها كأنما صوته يدوى فى آذاننـــا ·

وكان صوت ديموستين آخر ما سمعته أثينا ، فان البلاغة لا تعيش بدون الحرية ، وقد جاء انتصار مقدونيا ضربة قاضية عليها فبقيت أثينا مدينة العلم والأدب وملاهى العقل ولكن منابرها أقوى من تلك النغمات الساحرة · ان الذى جعل أثينا عاصمة اليونان هى حيلتها السياسية فلما ذهبت أغراض السياسة منها ، أصبحت كباقى المدن وامتدت فتوحات الاسكندر ناشرة بذور اليونانيين فى الشرق فقامت عواصم جديدة كالاسكندرية وانطاكية وبيزانس،وبقيت أثينا كمعرض يؤمه كل من أراد الدرس أو التذكار ·

ولم يبلغ خلفاء ديموستين شأوه فى الخطابه ولكن اليهم يرجع الفضل فى نقلها الى الذرية ، فان المدارس التى أقاموها فى الشرق كان يحج اليها الناس من كل صوب لتلقى هذا الفن وعلى هذا الوجه لقنوا الرومان أسرار بلاغتهم فتعشقها هؤلاء وأخذوا يدربون عليها فتيانهم كما يدربونهم على الحرب والحكم ، الى أن ظهر شيشرون الذى يعده العارفون أعظم محام لذلك العهد فأرجع للخطابة مجدها السابق وسطع نوره فى سمائها ، كما سطع من قبل نور ديموستين ، ثم هوت الخطابة ثانيا وانطوى بساط عزها باستبعاد أوغسطس روما كما استبعد فيليب والاسكندر أثينا ·

ولما جاءت المسيحية بعثت فيها روحا جديدة وقام الرسل بالتبشير فكانوا كلهم خطباء اذ قيل لهم سيروا فى الأرض وعلموا الأمم · وقامت الكنائس على آثارهم وكان هذا الدين الجديد فى حاجة الى ارشاد مستديم فنبغ خطباء بين آباء الكنيسة أعادوا للخطابة بعض عزها · ولكن لم يطل ذلك بما تطرق الى اللغة اللاتينية من فساد لغات غريبة هى لغات الأمم المختلفة التى دخلت تباعا فى المسيحية ، وأخذ العى يملك ألسنة الوعاظ فصاروا ينسخ الخطب القديمة والقائها حتى اذا طلع القرن السادس استيقظت الخطابة من ضجعتها وارتفعت أصوات جديدة كان لها أثر عظيم فى الجماعة وكان من نتائجها الحرب الصليبية · وبلغ من كثرة عدد الخطباء

لذلك العهد والمنافسة فيهم أن الخطابة تحولت الى واسطة للكسب وجمع المال والهدايا ، فنزلت عن مقامها السامى وأخذت معالمها تتلاشى الى العصر السابع عشر ، عصر بوردالو وفنلون وبوسيه ودعاة الاصلاح والندوة العلمية التى أنشأها الكردينال ريشليو ٠

وأجمل أيام الخطابة بعد هذا هى أيام الثورة الفرنسية فقد أطلعت فى عشر سنوات من الخطباء عددا لم يسبق به عهد ، وكان للبلاغة فيها من التأثير ما لم يعرف له نظير والسبب فى ذلك ضخامة المشروع الذى أخذت الثورة على نفسها القيام به ، ثم السلطان الفجائى الذى ألقى اليها الدهر مقاليده والسرعة الهائلة التى كانت تتعاقب بها الحوادث ، ثم شدة العراك يختلط به غريزة البقاء وأعمار الخطباء وأكثرهم فى شرخ الشباب٠ولم تكن مشاغل النفوس وأهوالها لتمنع أولئك الخطباء من العناية بالشكل والديباجة والباس أفكارهم حللا براقة من الألفاظ والتعابير بما اتصل بهم من تأثير العصر السابق : فكانوا يكتبون خطبهم قبل القائها،على أن ذلك لم يكن مانعا من الارتحال عند الضرورة فتجىء أقوالهم ملتهبة كنفوسهم وفيها على بساطتها من اخلاص الشعور وتأثيرات النفس ما يبعث القوة والحرارة ٠

ثم خفتت الأصوات بمن طاحت بهم الثورة من أمراء الكلام وجاء نابليون ، وكان لا يحب الخطباء ، فلم يعد يسمع الا ضجيج المواقع الحربية ومن فوقها صوت واحد يملأ الكون هو صوت ذلك القائد العظيم ٠

أما اليوم فقد عادت الخطابة الى الظهور بنور أسطع ومجد أكمل وامتدت أعراقها الى كل فؤاد ونشرت ألويتها فى كل ناد من قصور الأغنياء الى أكواخ الفقراء ، ومن معاهد العلم الى ملاعب التمثيل الى مجالس الأدب والطرب الى الأسواق ٠

وكان للعرب فى الخطابة نصيب وافر أتاحه جوهم وأحوال معاشهم وأخلاقهم وآدابهم؛فان الحرية التى وجدوا فيها واستنشقوا هواءها والحماسة التى طبعوا عليها والاحساس الشديد الذى اشتملت عليه نفوسهم ، جعل للبلاغة أثرا عظيما فيهم فكانت الجملة البليغة تقيمهم وتقعدهم بما تثيره فى خواطرهم من النخوة لحماية جار أو أخذ ثأر أو غير ذلك ٠

وكانوا متفرقين قبائل ونحلا ، متعودين على الغارات والحروب فوجدوا فى الخطابة عونا لهم على الحض والترغيب أو التنفير والمفاخرة أو المناظرة ، بل صارت عندهم مظهرا من مظاهر الفروسية يتباهى بها شجعانهم ويدرب عليها فتيانهم كما فى الرومان ٠

قال عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجماهير يقدم على الخطيب ؛ لفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا فى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » .

ولم تكن الخطابة عندهم عن طول فكرة واجتهاد رأى ودراسة كتب بل بديهة وارتجالا ، وكان لهم بها غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعان : « ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون ، الا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره ؛ لأن الخطيب انما كان يخطب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهة الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا قضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر ، فانه لا يضيع منه بيت واحد » قال : « ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام ، وهو أن النبى (ﷺ) هو الذى رواها عنه فأطار ذكرها ما تميزت عن سواها » .

وقال القلقشندى : « وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه فى حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة ، فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من النصحاء فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها فى الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل وسبق الى ذرى المجد ، ويخصون بذلك المواقف الكرام والمشاهد العظام والمجالس الكريمة والمجامع الحفيلة فيقوم الخطيب فى قومه فيحمد الله ويثنى عليه ثم يذكر ما سنح له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر أو فخر أو صلاح أو نظام أو غير ذلك مما يقتضيه المقام » .

وقال الحافظ : « ونحن ــ أبقاك الله ــ اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج فمنعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنمط الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك الا فى اليسير والنزر القليل . ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون

وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان ، لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير ، وأحرى أنك منى أخذت بيدى الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مفلق أو خطيب مصقع ، علم أن الذى قلت هو الحق وأبصرت الشاهد عيانا فرق ما بيننا وبينهم فتفهم عنى فهمك الله ما أنا قائل » .

وكان يسمى خطيب القوم الزعيم أو المدره ، وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة ، وعمرو بن كلثوم ، وأكثم بن صيفى التميمى ، والحارث ابن عباد ، وقس بن زهير وغيرهم .

ولما جاء الاسلام ساعد على انتشار الخطابة تأييدا للدعوة الكبرى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فكان لها من آى القرآن معين لا ينضب وأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلا أو اشارة أو تهديدا ، حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات ، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله .

واتخذت الخطابة حينئذ صنيعة غير التى كانت عليها فى الجاهلية فكانت لغتها أرقى وأصفى وعلا شأنها الى درجة لم يسبق لها عهد ؛ لانصراف العرب عن الشعر اليها واعتمادهم فى الدين والسياسة عليها .

وأعظم خطباء هذا العصر هم بعد النبى دعاته وقواده وخلفاؤه .

ولما ثارت الفتن بعد مقتل عثمان وافترق المسلمون أحزابا اشتدت الحاجة اليها عند كل فريق للدفاع عن مبادئه والطعن فى خصومه ؛ فكان فى الجانب الواحد العراقيون وعلى رأسهم على بن أبى طالب وفى الجانب الثانى الشاميون وفى طليعتهم معاوية .

ثم أخذت تضعف ملكة الخطابة بعد الفروغ من الفتوح والاستسلام الى الترف حتى صدر الدولة العباسية ، فاذا بالخلفاء ودعاتهم ينعشونها بعد الذبول وينهضون بها بعد الحمول كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون وداود بن على وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبه .

ولما استوثق الأمر لبنى العباس وقام الأجناب والموالى بسياسة الدولة وقيادة الجيوش وقل النضال باللسان والسنان ، ذهبت البلاغة من الألسنة وحلت محلها الرسائل والنشرات ، وقصرت الخطابة على الجمع

والعيدين والأملاك · على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم الى عهد الخليفة الراضى ، وعهد بالخطابة والامامة الى الأكفاء من العلماء فنبغ فى آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخطابة كالبغدادى والتبريزى · ولما استعجم المسلمون وملك العى ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا انشاء الخطب فى الموضوعات المختلفة ، عمدوا الى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصرى وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمغزاها ، ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى اليوم (راجع تاريخ الآداب العربية لزيدان والأدب للزيات والوسيط لأحمد الاسكندرى ومصطفى العنانى) ·

واليوم بعد أن تنوعت أسباب الحياة وتعددت مظاهر الاجتماع وتبدل شكل الحكومات وتغيرت سلطة الحكام ، عادت الخطابة الى الظهور لابسة ثوبا آخر غير ثوبها الدينى ، فظهر فى الشام لعهد غير بعيد أديب اسحق والشيخ العازار وغيرهما ، وفى مصر عبد الله النديم والشيخ محمد عبده ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، أعظم خطباء هذا العصر الحاضر وأقواهم حجة وأبعدهم تأثيرا وأكثرهم بيانا ·

★★★

حياة خطيب أثينا العظيم :

ان تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان ، ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ، فوجهه يبدو عليه الهم والقلق كأن كل نصر أحرزه فيليب (ملك مقدونيا) قد أحدث غضنا جديدا فى جبهته ، والجسم نحيل منهوك ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها · وتكشف العينان عن حياة قلقة وتتنبآن بموت مدبر ·

★★★

تعتبر حياة « ديموستين » نموذجا فريدا للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان · كانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته ؛ فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده ، حتى لقد قال « كونتيليان » ان طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب ، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب ·

ولد « ديموستين » فى أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة؛ ولكن أوصياءه الثلاثة بددوا ثروته فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، طالب برفع الوصاية عنه ، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ودخل معهم فى نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام ٠

واذا كان « ديموستين » لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيرا ، فقد اكتسب معرفة بالقانون واجراءات القضاء ، وامتلأت نفسه أيضا كراهية لكل ظلم واعتداء ٠ أراد أن يدرس القانون لكى يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم فتتلمذ على « اسايس » ، الذى كان من علماء القانون والذى اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق ٠

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام ، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيبا قادرا على الكلام والمرافعة ٠ لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظا من التعليم ثم قرأ كتب التاريخ والأدب وأعجبته فصاحة الخطباء وفتنه ما يحظون به من تصفيق الناس واعجابهم،فتاقت نفسه الى أن يكون خطيبا، وكانت بلاد اليونان مقسمة فى ذلك التاريخ الى ولايات ومدن مستقلة وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية،كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطى:فكان لها مجلس للشورى أو « جمعية وطنية » تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب ، يرجع اليهم الأمر فى شئون الحكم ٠ وكان النظام القضائى يبيح لأى شخص أن يطلب الى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمرا يستحق عليه العقاب ، ويقوم الطالب فى هذه الحالة بمهمة المدعى العام ٠

وفى ظل هذا النظام تزكو الخطابة ، ويستطيع الخطيب النابغ أن يكون ذا شأن كبير ، وانه ليطمح الى أن يكون خطيبا يشترك بفصاحته فى ادارة شئون الحكم والسياسة ، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير فهو ضعيف الصوت قصير النفس مرتبك فى اشارته ، وبلسانه لثغة تزيد فى ارتباكه عند الكلام ٠ وفى غمرة يأسه وحيرته صادفه « ساتيروس » الممثل الشهير ، الذى اكتشف ما يتمتع به « ديموستين » من عقل يتوقد ذكاء وقلب يشتعل حماسة ونفس تضطرم بالطموح ونفخ فيه من روحه وأعاد اليه الثقة بنفسه ، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه الا حسن الالقاء واجادة النطق وهو شيء يكسب بالمران ٠

ويتحدث الرواة عن الجهود المضنية التى بذلها « ديموستين » فى تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته طموحه الى التحليق ولكنها قصت من جناحيه ، فصمم على أن يناضل حتى يصل الى القمة التى يريدها ، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس ٠

ويروى المؤرخ « بلوتارك » أن « ديموستين » شيد لنفسه حجرة تحت الأرض ، كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة وكان يقف أمام المرآة ليتخير الاشارات المناسبة وقت الالقاء ، وكان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ويصعد الجبل عدوا وهو ينشد أبياتا من الشعر بصوت مرتفع أو يقف على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج وكان يحلق نصف رأسه ؛ ليرغم نفسه على ملازمة حجرته بالشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعا الى دراسته وتمرينه ٠

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكلل جهاده بالنجاح ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية بل خطيب أثينا الأعظم !!

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه أصبح لسان أثينا، الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة حتى قال عنه « فنيلون » المؤرخ الكبير :

« اننا اذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته ، فهو يبرق ويرعد وهو سيل يجرف كل شىء يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به ؛ لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا » ٠

والواقع أن من يقرأ خطب « ديموستين » اليوم ، يشعر فيها بصدق اللهجة والاخلاص الذى يوحى اليه الثقة فى الخطيب ، ويروعه منها التدفق وغزارة المادة والمنطق السليم ويجدها مزاجا رائعا من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور ٠ وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى ٠

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب ، مما جعله فريدا فى العالم القديم : فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار ٠

وقد خصص « دايونيسياس » بحثا عنه فقال إنه سما بالنثر اليونانى الى حد الكمال ، بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون . فاق مدرسة « انتيفون » فى الوضوح والصفاء ، ومدرسة « ليسياس » فى الحماسة ، ومدرسة « ايزوكرات » فى التنوع والقوة والشعور العميق .

هذا هو « ديموستين » وقد نضجت عبقريته واكتملت قوته ، فما الدور الذى هيأه له القدر ليلعبه على مسرح الحياة ؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه وقضى حياته كلها مجاهدا فى سبيل مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب ، ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء .

★★★

مراحل الكفاح السياسى :

عندما درس « ديموستين » القانون كان يهدف الى الانتفاع بذلك فى مباشرة قضيته وشئونه الخاصة ، ولكنه لم يلبث أن اتخذه مهنة يتكسب بها ، واحترف كتابة الخطب والمرافعات لم يطلبها لالقائها فى المحافل أو أمام المحاكم ، ثم نال اجازة رسمية فى الحقوق وطفق يترافع بنفسه فى مجالى القضاء ، وجمع ثروة كبيرة .

وأخذ « ديموستين » يهتم بالسياسة وكانت مناقشات المجلس الاثينى العام ــ وهو البرلمان الشعبى الذى يعقد فى سوق المدينة ويشترك فى مناقشاته كل مواطن حر متمتع بحقوق المدنية ــ ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأمجاد تدفعه الى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة فى مناقشة قضايا وطنه .

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسى موجهة الى النهوض بروح الشعب الأثينى ، الذى نبذ تقاليده وخمدت حميته وانغمس فى اللهو . كان يرى أن أثينا هى الزعيمة الطبيعية لمدن اليونان التى يجب أن تعيش فى تعاون فلا تعتدى احداها على الأخرى ، ولكى تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولا أن تكون جديرة به ، ولهذا قدم ديموستين برنامجا عمليا لاصلاح

الأنظمة السائدة بصورة تعزز الديمقراطية وتزيد فى ثروة الدولة وتضاعف قوتها العسكرية،وأخذ يطالب باصلاح القوانين واجراءات التقاضى ويهاجم محترفى السياسة والمتطفلين على التشريع ، وينادى بأن تنتصر أثينا لكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان. ومن كلماته قوله : « ان الظلم والخداع ونقض العهود لا يمكن أبدا أن تؤدى الى قوة حقيقية ، انها قد تؤدى الى سيادة وقتية ؛ ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة ، كذلك يجب أن تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف .. » .

الخطب الفيلبيـــة :

ولكن جهاد « ديموستين » الأكبر الذى وقف عليه حياته ومات فى سبيله ، كان فى تنبيه الأثينيين الى خطر «فيليب» ملك مقدونيا ، وحثهم على الاستعداد للقائه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته .

وكان « فيليب » والد الاسكندر الأكبر ملكا لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان ، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها ؛ فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحا شهره فى وجه فيليب ليصده عن سلب الاغريق حريتهم واستقلالهم ، وقضى بقية حياته يستفز شعب أثينا للقتال ويحث شعب الاغريق على الثبات والنضال،وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلبية أو الفيلبيات .

فلنستمع اليه فى خطبه الفيلبية الأولى يحاول أن يشـعل الحماسة والوطنية فى شعب أثينا فيقول :

يا رجال أثينـا ..

ربما كان فيكم من تهوله عظمة فيليب ويرى ما هو عليه من ضخامة الملك ، وقوة الجيش وكثرة البطش فيظنه لا يقهر ، فاذكروا أثينا وانه أتى عليها عهد كانت فيه أيضا عزيزة الجانب ، وكان لها من سعة السلطان ورفعة الشأن مثل ما له الآن . وهذه الأمم المنضمة اليوم تحت لواء فيليب كانت حرة تؤثر التحالف معنا عليه . فلو أن فيليب فكر يومئذ كما نفكر نحن

اليوم وقال فى نفسه لا طاقة لى على محاربة الأثينيين وقد ملأوا البسيطة عدة وعديدا ، لمـــا أقدم على عمل ولكنه لم يدع لهذا الفكر ممرا بباله ولا معلقا بخاطره ، بل عرف أن الفوز للجسور دون سواه .

فاذا كنتم أيها الاثينيون تريدون ان تقوموا اليوم بما قصرتم عنه أمس،اذا كنتم قد عزمتم العزم الأكيد أن تستقلوا غير متواكلين ولا متخاذلين فقد فزتم باذن الله وأصلحتم حالكم واسترجعتم مالكم.لا تحسبوا فيليب هذا الها لا ينال ، ان هو الا هدف دائم للبغض والحسد والخوف لا يأمن حتى أقرب المخلصين له فان من حوله بشر مثلكم لهم أهواؤهم وشهواتهم وعواطفهم المتباينة ولكنهم فى حاجة الى نصير . تلك الأهواء والشهوات قد ضغط عليها الخمول كما ضغط عليكم وهذا ما أسألكم أن تنفضوه عنكم.

★★★

الام يا رجال أثينـــا تظلون « غرضا يرمى وفيئا ينهب ؟ » ما الذى تنتظرون ؟ الساعة الموافقة ؟ وحق جوبتر لا أعرف ساعة أنسب لتحريك الهمم فى النفوس الحرة من ساعة الذل والهوان أتريدون أن تطوى أعماركم وأنتم تتساءلون ماذا من جديد ؟ ترحا لكم وهل من جديد مثل هذا المقدونى قاهر أثينا ومخضع الاغريق . تعللون النفس بالآمال ترقبون موت فيليب أو اعتلاله ، وتنسون أن ذلك لا يبدل من حالكم شيئا ؛ لأن ما يساوركم من الخمول والعجز والضعة لا ينفع لديكم الا أن يسلط (فيليب) آخر عليـــكم .

وله من خطبة أخـــرى :

أيها الأثينيون .

رب معترض فيكم يظن افحامى اذا سأل : ماذا نفعل اذن ؟ أما أنا فأجيب ، لا تفعلوا شيئا مما تفعلون الآن وافعلوا كل ما لم تفعلوه ، على أنى سأزيدكم بيانا ، على الذين سارعوا الى السؤال أن يسارعوا الى العمل فاذكروا أيها الأثينيون ان فيليب نكث عهده معكم وكان البادىء بالعدوان ثم اذكروا أن فيليب هو عدو أثينا الألد ، عدوها الذى يكره أرضها وسماءها بل يكره منكم حتى أولئك الذين يغتبطون بأنهم نالوا حظوة عنده .

ان أبغض ما يبغضه فيليب وأخوف ما يتخوفه هو حريتنا هو نظامنا الديمقراطى وفى سبيل القضاء على هذه الحرية وهذا النظام ما فتىء ينصب الشراك ويدبر المكائد . هو يعرف حق المعرفة أنه لو أخضع بلاد الاغريق

بأسرها وبسط عليها سلطانه من أقصاها الى أقصاها ، لما جعله ذلك منها فى جناح آمن ما دامت ديمقراطيتكم سالمة ، وهو يعرف أيضا أنه اذا خانته الأقدار يوما وقلب الدهر له ظهر المجن ، فكل هذه الشعوب التى أخضعها عنوة تبادر الى خلع نيره والانضواء تحت لوائكم ٠

أفى العالم ظلم يجب دفعه ؟ هاكم أثينا ! أفى العالم أمة مقهورة تطلب نصيرا هاكم أثينا أفتعجبون بعد هذا اذا كان فيليب لا يطيق صبرا على هذه الحرية التى تقف منه موقف الرقيب على جرائمه المحاسب على آثامه ٠٠!

وله خطب أخرى ، منها :

أيها الاثينيون ٠ حتى متى سكونكم واخلادكم الى التوانى ؟ متى تدب الحياة فى عروقكم ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ أى دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد بالزوال وشرفها بالتمزق وكلمتها بالتفرق ؟ انه لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يواريكم فى قبوركم ٠

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضا عما جاء من أنباء فيليب ، فيقول واحد انه مات ويقول الآخر بل هو مريض !! يا عجبا ٠٠ !! عجبا يمزق القلب أى نبأ هناك غير أن مقدونيا يسعى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعا ؟ ماذا عسى أن تصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء ؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا فى الشدة عليكم ٠ فان فيليب ما قوى اليوم الا بضعفكم ولا تحرك الا بسكونكم ٠

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين فيقول :

« لا تقولوا المرتزقة ٠ نريد رجالا أحرارا أنبتتهم تربة أثينا يرون سعادتهم فى عزها وشقاءهم فى ذلها،ومن أرضها كانت بدايتهم وفى أرضها نهايتهم ، منها خلقوا واليها يعودون كرة أخرى أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى » ٠

ثم يحذرهم من الحرب المباغتة ويدعو الى الاستعداد لها قبل وقوعها ويقول :

« ان الحروب لا ضابط لها ولا قانون · فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الاغارة المفاجئة ؛ فيضيع الوقت فى المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تفوت الفرصة وتسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها فى يد أعدائنا قبل أن نخف لنجدتها · اذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لنا تجارب ولم نكن قد ابتلينا بمثله · أما الآن وقد عظم الخطب وتفاقم الأمر وأصبح فيليب على أبوابنا ، فقد وجبت علينا المبادرة الى تغيير هذه الخطة الخرقاء » ·

وقد كانت الخطبة وتهيؤ فيليب للاستيلاء على حصن للأثينيين بالقرب من بيزنطة باعثا لهم أثينا ، فأصدرت قرارا بتجهيز عدة أساطيل لحماية ذلك الحصن فعدل فيليب عن عزمه ، ولكنه هاجم بعد ذلك « أولنثوس » وهى المدينة الوحيدة من دون بحر ايجه التى بقى فى وسعها أن توقف زحفه ، فاستنجدت بأثينا فأسرع ديموستين الى المنبر يدعو الى نجدتها ، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ويؤكد لأهل أثينا أن مصلحتهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب فيقول :

« انكم لا يمكن أن تكونوا أخطأتم أيها الأثينيون اذا أخذتم على عاتقكم عبء القتال من أجل الحرية والسلام للجميع · لا وحق أبنائنا الأولين الذين قابلوا العدو عند (ماراثون) لا وحق بحارة « سالاميس » لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم فى أرض الوطن والذين كللوا هاماتنا بالمجد · أقسم بهم جميعا وبكل من مات فى سبيل البلاد ·· » ·

وقد استجابت أثينا لندائه وأرسلت حملة عسكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود والمرتزقة · غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد ، وبذل « فيليب » الأموال لقضاة « أولنثوس » ففتحوا له أبوابها وسلموه المدينة؛فأباحها للنهب والسلب وباع أهلها بيع السلع وأقام حفلات فخمة حضرها كثيرون من أنحاء اليونان فأحسن لقاءهم وملك قلوبهم بالمال والعطاء وعادوا الى بلادهم ؛ فكانوا دعاة للهزيمة وأعوانا لفيليب ·

وبسقوط أولنثوس وفشل أثينا فى انقاذها ، قوى فى أثينا الحزب الذى يدعو الى مسالمة فيليب ، والذى يضم خليطا من الزعماء منهم المخلص ومنهم الخائن مثل « ديمادس » الذى كان صنيعة فيليب ·

وكان ديموستين قد انتخب عضوا فى مجلس الخمسمائة وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التى فرضتها عليه الأوضاع الجديدة ، واضطر الى مسايرة دعاة السلم فأرسلت أثينا وفدا للصلح مع فيليب ، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد ٠

ولكن هذا الصلح ما كان ليدوم ما دام فيليب لا يعدل عن أطماعه ، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقى المدن الاغريقية ، وعاد ديموستين يجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب،ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهب للقتال ويقول لهم :

ـ ان الصداقة التى تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التى يركن اليها ٠ ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ ألا ترون اذن أن ألقاب فيليب نفسها هى انكار لهذه الحرية التى تنشدونها ؟ ان كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون انكم تحاولون تجنب الحرب ، ولكننى أخشى أن تقودكم هذه المحاولة الى الوقوع تحت نير الاستعباد ٠٠ » ٠

ومضى « ديموستين » يخطب ويخطب ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء فى خطبه ، فستظل كلماتها رمادا متخلفا عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود ، وسيظل الحجاب قائما بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والجمهور وحماسته ، والزعيم وحرارته ٠

شهادة من عدو !!

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية من خطبة له فى المجلس :

« ان منكم يا أهل أثينا من يعتقد أنه يحرج الخطيب اذا سأل : فماذا نفعل ؟ ولكنى أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم : لا تفعلوا شيئا مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شىء لم تفعلوه وانه لجواب حق وصدق ولكنى سأزيد لكم الأمر ايضاحا ولعل أولئك الذين سارعوا الى السؤال يسارعون أيضا الى العمل ٠ اذكروا أولا أن فيليب قد نقض عهدكم وهذه حقيقة لا مراء فيها ولا محل للخلاف عليها ، ثم اذكروا أيضا أنه عدو أثينا الألد عدوها الذى يكره أرضها وأسوارها بل ويكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه ٠ ان أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديمقراطى وانه ليهيىء أشراكه لكى يقضى على هذه الحرية وهذا

النظام ، لأنه يعلم جيدا أنه لو أخضع جميع بلاد الاغريق ، فسوف يظل غير آمن ما دامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس . وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة ، فان جميع هذه البلاد التى قهرها سوف تسارع الى الانضمام اليكم لاستعادة حريتها . ان فيليب لا يطيق الصبر على هذه الحرية الأثينية التى تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه فهو يعبىء جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا .

والآن ماذا يجب عليكم أن تفعلوه ؟ يجب أن يسارع كل منكم الى التبرع بنسبة ما يملك ثم انهضوا بالجيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية، حتى اذا تهيأ فيليب لغزو الاغريق وجدتم الجيش اللازم وامداد حلفائكم . لا تحدثونى عما يحتاج اليه هذا العمل من نفقات ومتاعب ، فانى لست أنكرها ولكنها تهون كلها اذا نظرنا الى الخطر الذى يهددنا .

هل تظنون أن فيليب لن ينالكم بأذى اذا ظللتم وادعين لا تحفلون بما يعمل ؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فانى لا أشير به عليكم ! أجل .. انه لخير لى أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا ، فليشر به من يشاء غيرى واستمعوا لأقواله اذا أردتم ، أما اذا كنتم تشعرون بما أشعر به وترون معى أنه كلما امتدت فتوحات فيليب ، كان فى ذلك تقوية له وسند يشد أزره علينا حين نضطر الى مكافحته .. اذا كنتم ترون ذلك فلم تترددون ؟ وماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع الشرف ؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب فى طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد ؟ ألا لا قدرت الآلهة .. فان مجرد النطق بهذه الكلمات ذل ومهانة ... .

بهذه الكلمات التى تنقد حماسة واخلاصا ، كان ديموستين يدعو الأثينيين الى القتال ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين ، ولكنها كانت تحوى من أدلة الاقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين : « انى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش .. » .

وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفا لسهام بلاغته والفضل ما شهدت به الأعداء !!

★★★

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا ، وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجد ديموستين دائما فى انتظارها ، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصدا لها يلقاها أقوى ما يكون ايمانا وأثبت جنانا ، وأفصح لسانا لا يخشى العدو الظافر الذى كان يكتسح من حوله ، بل كان لذلك يزيد ايمانا بصحة فكرته وصدق دعوته · وعبثا حاول «فيليب» أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها ·

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيرا من مدنها ولما رأت بلاد الفرس تقدم «فيليب» وتوغله عملت على محاربته ، فقام ديموستين يحث أثينا فى الخطبة الفيلبية الأخيرة على انتهاز الفرصة وتخليص بيرنثوس وبيزنطة من فيليب ، وسيرت أثينا اليها أسطولا ضخما تبرع ديموستين بشراء وتجهيز احدى سفنه من ماله الخاص ، فلم ينجح فيليب فى الاستيلاء على بيزنطة واضطر الى رفع الحصار عنها والعودة خائبا · وارتفعت مكانة ديموستين فى أعين أهل أثينا فأهدوه تاجا من الذهب اعترافا بفضله وتقديرا لجهاده ·

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التى تفتح أمامه الطريق لجنوب اليونان وهدد بذلك أثينا ، فدعا ديموستين الى الحرب وسافر الى بيوثيا ، وحملها بسحره على التحالف مع أثينا والتقى الجيشان ولكن فيليب هزمها هزيمة نكراء ، وان كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الاسكندر الأكبر ·

وعندما ذاع خبر قتل « فيليب » عمت الفرحة بلاد اليونان وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه الى المجلس العام ، وعلى رأسه اكليل من الزهر ، فهاجم سياسة مقدونيا ودعا مواطنيه الى الثورة على الاسكندر · وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها الى البلاد اليونانية تدعوها الى مقاومة خليفة « فيليب » والثورة عليه ؛ فتمردت مدينة « ثيبا » وأعلنت العصيان ·

ولكن الاسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى ؛ لاخماد حركات التمرد وزحف على «ثيبا» وسحق ثورتها ونكل بأهلها ودمر جميع منازلها، ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر « بيندار » ·

وبدأت « أثينا » تستعد للحصار وقد عصف بها الرعب ولكن الاسكندر لم يزحف اليها ، واكتفى بارسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له وكان فى طليعتهم ديموستين ٠

واستولت الحيرة على أثينا بشأن هذا الطلب وتناقش فيه مجلسها واشترك ديموستين فى المناقشة وروى قصة قال فيها ان الذئاب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع اذا سلموها كلاب الحراسة فقبل الرعاة ، ولكن الذئاب عندما رأت الحظيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفتكت به ٠

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد ، وأرسل الى الاسكندر وفدا يلتمس منه العفو عن خصومه ، فنجح الوفد فى مسعاه وتم الصلح بين أثينا والاسكندر المقدونى ٠

واندفع الاسكندر يتابع سياسة أبيه وحقق انتصارات كبيرة فى كل مكان ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهند ٠

وكان « ديموستين » فى خلال ذلك يتبع سياسة الحذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له « ثيبا » من دمار ٠ وامتزجت حياة ديموستين فى هذه الفترة بقصة غريبة ٠ ذلك أن « هاربال » الذى كان وزيرا لمالية الاسكندر تمرد عليه وانتهز فرصة انشغاله بالحرب فى آسيا ، فاستولى على مبلغ طائل من أمواله وجهز أسطولا من ثلاثين سفينة وجيشا من المرتزقة وهرب الى شاطىء أثينا ليشعل الثورة على الاسكندر ؛ ولكن أثينا رفضت قبوله بنصيحة ديموستين فذهب « هاربال » بمفرده الى « أثينا » وأعلن فى مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها،موهما اياها أن قواد الاسكندر يتحفزون للتمرد عليه وانقسم أهل أثينا الى فريقين : فكان فريق يرى التعاون مع « هاربال » واعلان الحرب على الاسكندر الذى كان مشغولا بحربه فى آسيا ، بينما رأى فريق آخر على رأسه ديموستين ابعاد «هاربال» وعدم الزج بأثينا فى حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمواجهة قوة الاسكندر ، التى بلغ من تعاظمها أنها أطمعت صاحبها فى غزو العالم كله ٠ وفى غمرة الحيرة أرسلت أم الاسكندر والقائد المقدونى « أنتيباتر » الوصيين على مقدونيا وفدا الى المجلس الأثينى العام يطلبان منه تسليم «هاربال» والمال الذى فى حوزته ، واقترح «ديموستين» القبض على « هاربال » وحراسته حتى يعود الاسكندر وحفظ المال الذى معه فى

الاكربول فوافق المجلس على الاقتراح ، ولكن (هاربال) هرب بعد ذلك من المعتقل ، وتبين أن نصف المال الذى كان مودعا فى الأكربول قد اختفى • ولما كان المال محفوظا تحت اشراف لجنة يرأسها ديموستين ، فقد اتهمه خصومه بالاهمال الجسيم فى مراقبة الحراس • وأثاروا الشك حوله فطلب ديموستين من المجلس تكليف لجنة للتحقيق فى الموضوع ، وأعلن أنه يقبل حكم الموت اذا تبين أنه أخذ شيئا من هذا المال ، وانتهى التحقيق بادانة ديموستين دون تقديم دليل مادى على هذه الادانة ، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة •

ولكن ديموستين هرب الى احدى الجزر حيث قام فى منفاه بعيدا عن أثينا •

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفى الاسكندر فى مدينة بابل عام ٣٢٣ ق•م بتأثير الحمى وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدونى وانهارت مكانه صنائع مقدونيا ، وأصدر المجلس العام قرارا بدعوة ديموستين للعودة الى بلاده ؛ فعاد الى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون وخرج لاستقباله الأهالى يتقدمهم القضاه والحكام والكهان •

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية ولجأ المجلس العام الى نوع من الحيلة ؛ لاعفائه من الغرامة الضخمة التى حكم بها عليه والتى لم يكن يجيز القانون الغاءها : فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذى يقدم الضحية لمذبح الاله « زيوس » مبلغا من المال ، فعهد المجلس الى ديموستين القيام بهذه المهمة فى مقابل « خمسين وزنة » وهى قيمة الغرامة•

وكانت الحرب قد اشتعلت بين انتيباتر ، الذى خلف الاسكندر على حكم مقدونيا واليونان وبين البلاد الاغريقية الثائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا وحققت البلاد الثائرة بعض الانتصارات اللامعة فى أول الأمر ؛ ولكنها لم تلبث أن هزمت فى موقعة كرانون سنة ٣٢٢ ق•م واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا •

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها الى القائد المقدونى لمفاوضته فى الصلح واستعاد الحزب الموالى لمقدونيا فى أثينا نفوذه القديم ؛ فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من انتيباتر •

وأعلن أنتيباتر استعداده للتوقف عن مهاجمة أثينا ، بشرط أن تخضع لمطالبه ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين فى مقدمتهم ديموستين •

واستطاع « ديمادس » أكبر خصوم ديموستين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر •

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية فهرب الى جزيرة كالوريا ، ولجأ الى معبد الاله « بوسيدن » الذى كان حرما يقدسه أهل اليونان .

وكان « انتيباتر » قد أرسل عملاقا من أتباعه يدعى « أركياس » الذى بدأ حياته ممثلا للقبض على ديموستين،فحاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس فأخذ يؤكد له أن القائد المقدونى سيعفو عنه لو سلم نفسه .

وجلس ديموستين صامتا يحدق فى الأرض وكأنما كان يدبر فى رأسه أمرا ثم نظر الى أركياس وقال له متهكما :

انك يا أركياس لم تستطع يوما أن تؤثر فى بتمثيلك ولن تستطيع اليوم أن تؤثر فى بوعودك !

فغضب أركياس وبدأ يهدد ويتوعد فقال له ديموستين :

ـ انك تتكلم الآن كمقدونى أما قبل ذلك فقد كنت ممثلا زائفا .

ولمعت عينا ديموستين بعزم رهيب فقال لرسول انتيباتر :

ـ انتظر حتى أكتب لأصدقائى .

ثم انسحب الى داخل المعبد ولكنه كان ظاهرا لمن فى الخارج ، وتناول قصاصة ورق ثم جلس أمام منضدة فى الهيكل كأنه يريد الكتابة ، ووضع القلم فى فمه وعض عليه بأسنانه،كما كانت عادته عند الكتابة ، ثم تقلصت عضلات وجهه فمال برأسه الى الخلف وسحب عباءته فغطى بها وجهه ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد ؛ فظنوا أن الخوف قد استولى على الخطيب العظيم ودخل اليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرر وعوده ومساوماته .

وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذى امتصه من القلم بدأ يسرى فى أوصاله فأزاح العباءة عن وجهه وقال لأركياس :

ـ يمكنك الآن أن تلعب فى المأساة دور « كريون » كما تشتهى ، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتى للجوارح بغير اكتراث ؛ ولكننى أيها الاله الكريم « بوسيدن » أترك معبدك ومازلت حيا ، كى لا أسمح لانتيباتر ورجاله أن يدنسوا قداسته .

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب اليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة ولم يكد يتخطى عتبة معبد الاله حتى انهارت قواه فسقط ، وفى صيحة أخيرة أسلم الروح .

★★★

ديوان أبو نواس

أبو نواس

أبو نواس .. أمير المستهترين ورائدهم !!

من غريب المصادفات أنه لما استقرت موازين الأدب فى العصر الحديث، برزت ناحية جديدة لم يفطن لها الكتاب القدامى ، وهى الواقعية فى الأدب وأثرها فى الأثر الفنى ومنزلته فى موازين النقد والخلود .

وبرزت هذه الناحية قوية شائكة لما اجتمع أعضاء لجنة جائزة (نوبل) لسنوات خلت ، لاختيار الأديب العالمى الذى يستحق جائزة نوبل للآداب ، فقد اختلف أعضاء اللجنة حول منح الجائزة للكاتب (ارنست همنجواى) ، وذهب بعضهم الى أنها من حق كاتب آخر ، ولكن الأغلبية تأثرت بواقعية همنجواى فى قصصه ورواياته ، فقررت أنه أحق بها من سواه ومعنى هذا الحكم الأدبى الخطير أن الأدب المعاصر أخذ يتطور نحو الواقعيـــة .

وهنا تبرز خطورة الأثر الأدبى الذى تركه الحسن بن هانىء للأجيال التى أتت بعده فى ديوانه ، فقد استبق المذهب الواقعى المعاصر بأجيال وأجيال وكان أجرأ شاعر عربى فى موازين الخلود والابداع .

ـ يقول الأستاذ عمر أبو النصر فى تقديمه لكتاب « أبو نواس فى تاريخ الشعر » تأليف ابن منظور المصرى :

وهذا الكتاب عرض رقيق لين هين لكبير من عظماء العرب ، وعظيم من علمائهم ، ابن منظور صـاحب (لسان العرب) أكبر موسوعة فى تاريخنا العربى القديم والحديث يتناول حياته اللاهية العابثة بشىء من الرفق والتورية ، وما تنفرد به من الوصف الناعم للاماء والجوارى يلبسن زى الغلمان ، ويقمن بالخدمة فى المجالس والحانات ، واصفا حياته المخمورة وعبثه المتواصل ومخالفته لما تواضـع عليه الناس من التقاليد والأخلاق ونذر الفضيلة ، وما اتصل بهذا وتعلق به وأسبابه ودوافعه .

وأنت حين تقرأ هذه الحياة الغريبة العجيبة ليبلغن بك العجب مبلغه وليأخذنك الذهول الى أبعد الحدود والغايات ، حين تستشعر أن هذه الحياة التى كان يحياها النواسى فى العهد العباسى الأول أو منـذ ألف ومائتى سنة ليست مما أداله الدهر ، وأزاله الزمن ، فهى ما تزال ظاهرة حية قائمة تجدهـا فى كهوف (سـان جرمان دى بريـه) فى باريس معقـل الوجوديين والوجوديات والمخنثين والغلاميات .

واذن ، فمثل هذه الحالات من الحياة الجارفة الخارجة على التقاليد المتواضع عليها ، قائمة فى باريس ، كما كانت أمرا واقعا فى بغداد عهد الحضارة العربية الاسلامية ، وفى هذا ما يؤكد أن الحضارة حين تبلغ ذروتها وتصل الى غاياتها فى كل عهد وقطر ، لابد وأن تنفر من عقال الأخلاق المتفق عليها ، ويتجه أفراد الناس سواء أكانوا من الأدباء أم الشعراء أو سواهم من رجال العلم والفنون الى سبل جديدة وطرق لم تحدها المسالك ولم تعبدها التقاليد ، حيث ينشئون لأنفسهم أساليب خاصة فى الحياة وحيث يخلقون ألوانا جديدة من الأخلاق تساير مشاربهم وترتضيها نفوسهم وهى أخلاق قد تكون ، وفى كثير من الأحايين ، مخالفة للأخلاق القائمة والتقاليد المقررة ٠

ومن المؤكد أن هذه المقاييس الجديدة فى الأخلاق والتى تكون عند المثقفين نواة تفكير عميق ومحاكمات منطقية متشعبة ٠٠٠ حين تنتقل الى جمهرة الناس وعامة الشعب تصبح شيئا عاديا ، ليس يجد فيها العامة غير وسيلة الى المتعة المطلقة واللذة الشاملة الكاملة ٠

وواقع الأمر أن الترف اذا توافر فى عهد من العهود ، اشتد تهافت الناس على ألوان اللذة ومشتقاتها وغرائبها ، فيندفعون عندئذ الى اكتشاف أشكال جديدة للذة لم يكن للسابقين عهد بها ولا معرفة ، سواء أكانت هذه اللذة فى الأشربة والمخدرات أم فى المتع الجسدية وأمثالها ٠٠ وما شاكلها ٠

وفى التاريخ الانسانى أمثلة عديدة تؤيد ما نذهب اليه : فقد أغرق الاغريق ثم الرومان فى المتع الجسدية ، كما يغرق اليوم رواد الحضارة الغربية فى مثل ذلك ، وان كنت تجد هذه الحياة العارمة أشد وأقوى فى العواصم والمدن الكبيرة منها فى غيرها من المدن الصغيرة والقرى المتواضعة ٠

★★★

وأنت تدرس فنون الأدب والشعر فى حياة أبى نواس ، انما تدرس ناحية من نواحيه وطرفا من حياته فليس أثره فى تاريخ الأدب العربى ليقوم على شعره فحسب وانما يقوم ــ وبالتأكيد ــ على ما اختطه من سبل جديدة فى الحياة ، وعلى ما درج عليه من مخالفة الأخلاق القائمة فى عصره ، وعلى ما سيره بين الناس من شعر يؤيد مذاهبه ويروج لها فى أسلوب رائع وشعر رقيق ٠

واذا كان الانجليز لا يتحرجون فى الافادة من بعض كبار كتابهم وشعرائهم مع انكارهم لأخلاقهم ومذاهبهم (كأوسكار وايلد) مثلا ، واذا كان الفرنسيون يجلون (أندريه جيد) وهو من يعلم القارىء خطرا فى الأدب وشهرة فى العالم ، مع شذوذه وغرائبه ٠

واذا كان الايطاليون يتباهون بشاعرهم (دانونزيو) مع تهوره واستهتاره ، فلسنا نجد سببا يمنعنا من التحدث عن أبى نواس على النحو الذى وصفنا ، وهو أمير المستهترين ورائدهم ٠٠ وقد شق لنفسه الطريق الى حياة الانفلات من المقاييس الأخلاقية القائمة قبل الوجوديين المعاصرين وقبل الجميع ٠

ان القداسة التى نتغنى بها ، والتى نحاول أن ندعو لها ونحارب المفكرين المجددين فى سبيلها لا تنفى الأمر الواقع ٠٠ من أننا نغالط أنفسنا ونتجاهل مسئولياتنا ٠٠٠ فمكافحة الرذيلة لا تكون باخفاء أخبارها وانما تكون بنشرها واذاعتها ٠٠٠ ليعرف الشباب مواطن الخطر ومكامن الشر ، فمهما اشتدت نزوات الشر عند أمة من الأمم ، فأنت تجد أبدا فيها قوما يدعون الى الخير ويحاولون الاصلاح ويقولون بالرجوع الى النهج القويم والمثل العليا ٠

ان فى تاريخ العرب والاسلام من قصص الاصلاح الاجتماعى والدعوة الى الخير والخلق القويم ما لا مثيل له عند أمم العالم كله ، وليس يضير الأدب العربى فى كثير ولا قليل أن يظهر فيه شاعر على غرار (أبى نواس) استهتارا ومجونا وتكالبا على اللذة ، فالأمة التى تخلق العبقريات الأخلاقية خليقة بأن تخلق العبقريات المستهترة أيضا ، لتنتظم عندها مقاييس العبقرية ، وليستطيع الأديب وهو يكتب تاريخ الأدب أن يؤديه على أحسن ما يكون وأنبل ما يكون وأصدق ما يكون ٠

حياة أبى نواس :

ليس فيما جاءنا عن نسب أبى نواس ما يصح الاقتناع به والاطمئنان اليه ، فالأقوال فيه متضاربة والاختلاف غير قليل ، على أن المشهور عنه أنه الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح ، وأن جده كان مولى من جند مروان بن محمد وهو من أهل الشام ، وأن أمه فارسية من الأهواز واسمها جلبان ٠

وكان يكنى فى أول أمره أبا على ثم تكنى بأبى نواس لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقه وهو صبى ، وقيل ان أستاذه خلفا الأحمر كان له ولاء فى اليمن ، فقال له يوما : « أنت من اليمن فتكنى باسم ملك من ملوكهم الأذواء » . فاختار ذا نواس ، فكناه أبا نواس بحذف صدره ، فغلبت عليه .

واختلف فى مولده فقيل : كان مولده فى سنة ست وثلاثين ومائة . وقيل : سنة خمس وأربعين وقيل : سنة ثمان وأربعين وقيل : سنة تسع وأربعين .

وكانت ولادته فى الأهواز من فارس ، ذلك أن أباه هانئا انتقل اليها مع الجيش للرباط ، فتزوج فيها جلبان ، فولدت له عدة أولاد منهم الحسن ومات أبوه وهو طفل فانتقلت به أمه الى البصرة وله من العمر سنتان . فنشأ هناك ولما شب أسلمته الى عطار يبرى عود البخور .

ولكن نفسه ما كانت لترضى هذه الصنعة ، وبها نزوع شديد الى الأدب ، فكان لا يفتر عن مخالطة أهل المسجد ، والأدباء المجان ، وأخذ يتردد على باب أبى عمرو بن العلاء . وكان الرواة والشعراء يجتمعون عنده فاتصل بهم وهو فى العقد الأول من عمره فاكتسب منهم أدبا وعلما ولكنهم أضروا بأخلاقه .

ولم يكن له من بسطة العيش ما يقيه الحاجة فيصون ماء وجهه ، فكان أصحاب المجون اذا أرادوا الخروج الى نزهة استأجروه بدينار فيحمل لهم أدواتهم ويبقى معهم حتى يعودوا .

وكأن الأقدار أبت الا أن تذيقه كأس الادناس حتى الثمالة ، فأرسلت اليه والبة بن الحباب الأسدى الشاعر الكوفى الخليع ؛ فلقيه عند العطار يبرى العود فافتتن به وأعجبه ذكاؤه،وأدبه فحمله الى الكوفة وعنى بتخريجه فى الشعر فأدبه بأدبه وخلقه بأخلاقه وعرفه بأصحابه المجان ، فأصبح لا يطيب له الا الاجتماع بهم وفيهم أمثال مطيع بن اياس وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد وحسبك بهم من عصابة سوء .

ولم يشأ أبو نواس أن يعرف بالشعر قبل أن يخالط العرب الخلص ويأخذ عنهم الغريب ويستوى لسانه على الكلام الفصيح ، شأن كل شاعر يريد أن ينبه فى ذاك العصر . فسأل أستاذه والبة أن يسمح له بالخروج

الى البادية مع وفد بنى أسد ، فأخرجه مع قوم منهم فاقام فى البادية سنة ثم قدم الكوفة فلبث فيها مدة قليلة ، ثم فارق والبة ورجع الى البصرة فاختلف الى كبار أئمتها فأخذ عنهم شيئا كثيرا ثم شخص الى بغداد ٠

قدم أبو نواس بغداد وسنه أربت على الثلاثين ، ومقاليد الخلافة فى يدى هارون الرشيد فأتيح له أن يتصل به فقربه الرشيد وأحبه وأنعم عليه ٠ وتغاضى عن فسقه وسكره واستهزائه بأحكام الدين ٠ وعفا عنه مرارا وأطلقه من سجنه على أنه لم يخصه بذاته ، فلقد كان الرشيد شديد الحرص على وقار الخلافة ، شديد الحفاظ على تقاليد الدين ، ولا سيما أمام الرعية ٠ فلم ير من الحكمة أن يجعل الشاعر الخليع مختصا بقصره ، لذلك لم يحظ أبو نواس الحظوة التى كان يأملها عند الرشيد ، فتفرغ لصاحبة المجان فكانوا يجتمعون فى سوق الكرخ أو فى روضة أو فى منزل ، فيتذاكرون الشعر ويشربون الخمر ويستمتعون بأنواع الملذات التى ألفتهم ، فما يتركون محرما الا اتفقوا على اتيانه غير متورعين ولا مستحين ، وأشهر أصدقائه الخلعاء فى بغداد : داود بن رزين الواسطى ، والحسين بن الضحاك الأشقر الخليع ، والفضل الرقاشى ، وعمرو الوراق ، والحسين الخياط وعنان جارية الناطفى ، واسماعيل القراطيسى ، ورزين الكاتب أخو دعبل ٠ وربما تولى أحدهم دعوة رفاقة فيهيىء لهم مجلسا فى بيته أو فى غير بيته فيكونون فى ضيافته ٠ وقد تكون هذه الدعوات بأن يقول كل واحد منهم شعرا يصف به ما عنده من أسباب اللهو والملذات ، فمن افتتن فيها أكثر من غيره قبلوا دعوته وصاروا اليه ٠ فهذه الحياة الماجنة المسرفة كانت تدفع شاعرنا الى التبذير فى نفقاته وهو مشهور بسخائه فلم تكفه عطايا الرشيد على جزالتها ٠ فكان يشكو ويتذمر حتى اضطر الى أن يقصد مصر ويمدح الخصيب أميرها، ولولا حاجته لما ترك بغداد وما فيها من أصحاب وملاه وحانات ٠

انتجع الشاعر مصر صفر اليدين متألما من كساد سوقه وفى ذلك يقول :

انى لآمل يا خصيب على يدك اليسارة آخر الدهر
وكذاك نعم السوق أنت لمن كسدت عليه تجارة الشعر

ومدح الخصيب بعدة قصائد فأحسن الخصيب صلته وأخذ أبو نواس يناديمه على الشراب ويلهو واياه ويعبثان معا حتى أصبحت للشاعر دالة عليه ٠ ويسرت حاله بعد عسر ، فتفرغ للهو والمجون فعله فى بغداد ٠

على أن عطايا الخصيب لم تكن لتغنى أبا نواس أو تنسيه ملاهى بغداد وقصر الخليفة العباسى · فنوابغ الشعراء لم يكن لهم غير دار السلام حاضرة تستثير قرائحهم ، وتذكى عبقريتهم ، وتشبع مطامعهم · ولعل الخصيب ضاق ذرعا برغبات الشاعر ، فان بعض الرواة يتحدثون بأنه بعد أن أعطاه ثلاث جوائز كل جائزة بألف دينار قال له : « ارتحل فما لك مقام عندنا » ويؤيد هذه الرواية ما نعلمه من أن أبا نواس ترك الخصيب غير راض عنه وعن عطاياه فكان اذا سئل : « كم وهب لك الخصيب مع مدائحك فيه وقصدك من العراق اليه ؟ » ، قال : « لا والله لم يهب لى الا مائة دينار والناس يكثرون فى ذلك » · وقد هجاه بعد مفارقته اياه ورماه بالتقتير على بنيه ·

ولكن لم يوفق فى الرجوع الى بغداد ، فانه شرع يهجو القبائل النزارية لما اشتدت صولة الشعوبيين ، ولم يعف عن قريش وفيها الخلافة وقبلها النبوة فحبس وطال حبسه حتى مات الرشيد واستخلف الأمين ·

اتصاله بالأمين :

عرف أبو نواس أولاد الخلفاء منذ قدومه بغداد وهو شاب · فنادم أولا ولد المهدى ولازمهم ، فلم يلق مع أحد من الناس غيرهم · ثم نادم القاسم بن الرشيد ولكنه لم يلبث أن فارقه وتقرب من أخيه الأمين،وكان يومئذ صبيا يدرس النحو واللغة على الكسائى · وزاده اتصالا بولى العهد أن الرشيد أمر الكسائى أن يحضر أبا نواس لينشد الأمين الشعر النادر ويعلمه الغريب · فلزمه شاعرنا ولم يفارقه ، وراقت الأمين صحبة أبى نواس فاتخذه نديما · وشاطره اللهو والمجون فانحطت أخلاقه فى صباه ، وكان انغماسه فى العبث والفسوق من الأسباب التى أضاعت ملكه ·

ولما بويع بالخلافة بعد أبيه جعل الشاعر فى بطانته فكان ألزم له من ظله · ولا ريب فى أن خلافة الأمين كانت أسعد أيام أبى نواس وان لم يطل عهدها أكثر من خمس سنوات ، وخمس سنوات شىء يذكر فى عمر الشاعر المتنعم · على أنها لم تخل بعض الأحيان من تنغيص ، اذ كان الخليفة يضطر الى حبسه على أعين الناس،حين يتهم لديه بالكفر والفجور والمجاهرة بشرب الخمر ·

وألحف عليه بالتشديد يوم اعصوصب الشر بينه وبين أخيه المأمون. وكان الفضل وزير المأمون فى خراسان يخطب بمساوىء الأمين ، وقد أعد رجلا يحفظ شعر أبى نواس فاذا انعقد المجلس قام فذكر الأمين وقال : « ومن جلسائه رجل ماجن كافر مستهزىء متهكم يقول كذا وكذا » .

وينشد من قبائح شعره . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل فسق وفجور وخمور وماخور » ويلعنهم من يحضر من أهل خراسان .

كان للأمين عيون فى خراسان فكتبوا اليه يخبرونه بالأمر . فجزع له وتوعد أبا نواس وحرم عليه شرب الخمر وذكرها فى شعره . فكان صاحبنا يتألم لهذا المنع فيطيع مكرها لا خوفا من غضب الامين وبطشه ، وانما حبا له وحفاظا على سمعته . وربما مرت به ساعات فما يستطيع عن الخمر صبرا فيشربها غير مبال ويسب الأمين ويهزأ به ، والأمين يتغاضى عنه ولا يطيق أن يؤذيه ، ورمى مرة بالثنوية وشهد عليه عدة نفر فأمر به الأمين الى السجن فتذمر أبو نواس وشكا واستنجد بالمأمون اذ يقول :

أما الأمين فلست أرجو دفعه عنى فمن لى اليوم بالمأمون

وكان المأمون يود أن يرى عنده شاعرا كأبى نواس فلما بلغه استنجاده به قال : « والله لئن لحقته لأغنينه غنى لا يؤمله » . على أن الشاعر لم يشأ أن يترك الأمين مع ما لقى منه فى آخر عهده ، وكان من حقه أن يناصر المأمون لو جارى نزعته الشعوبية ، وميله الى الفرس والشعوبية ، والفرس منهم يظاهرون المأمون . ولكنه آثر البقاء مع الأمين لأسباب منها أنه كان يحبه وتلذ له معاشرته ومنادمته فلا طاقة له بالابتعاد عنه ، ومنها أن له من الدالة عليه ما لا يأمل أن ينال مثله عند المأمون . ومنها أن أهل خراسان شيعيون يشددون فى أمر الغفران كأصحاب الاعتزال ، وكان أبو نواس عظيم الاتكال على عفو الله ، ففضل عليهم أهل السنة لأنهم لا يحظرون العفو على مسلم ارتكب الكبيرة اذا خرج من الدنيا على غير توبة ، بل يجعلون حكمه عند الله ، فاما أن يغفر له برحمته واما أن يشفع به النبى اذ قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » واما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته ولا يجوز أن يخلد فى النار مع الكفار .

فهذه الأسباب كانت تدفع الشاعر الى ايثار الأمين على أخيه ، مع ما رأى فيه من ضعف وخمول وتقلب آراء .

توبته وزهده وموته :

ولما قتل الامين وظفر المأمون بالخلافة ، أصاب أبا نواس شيء من الجزع والقنوط وتنكر له الدهر فتبرم بالحياة وسئم ملاذها وغرورها ، وأبى أن يتقرب من المأمون أو يمدحه ، وكان المأمون قد جعل مقر الخلافة فى خراسان ، ولبث هناك نحوا من ست سنوات حتى استتب له الأمر فى بغداد فانتقل اليها ٠

وكان بوسع الشاعر أن يتصل به ويستميله بالمديح ، ولكن اليأس الذى ساوره بعد مقتل الأمين جعله يزهد فى الحياة الدنيا ، وتراءى له شبح الموت فراعه وأحس أن قواه تحطمت من كثرة فسوقه واستهتاره ففزع الى ربه يستغفره ، وأقلع عن المجون وشرب الخمر ، وتنسك حتى هلك وهو على أشد ما يكون من الندم ٠ وكانت وفاته فى بغداد وله من العمر نحو من أربع وخمسين سنة ٠

آثار أبى نواس :

لأبى نواس ديوان شعر مختلف لاختلاف جامعيه ، فانه عنى بجمعه رهط من الأدباء ، منهم أبو بكر الصولى ، وعلى بن حمزة الأصبهانى ، وطبع غير مرة فى فينا ومصر وبيروت وفى صدر الطبعة المصرية فصل لجامعه الأصبهانى فى منزلة شعر أبى نواس ونقده ٠ وهذه المجموعة تتضمن أكثر من ثلاثة عشر ألف بيت رتبت على اثنى عشر بابا : فالأول فى نقائضه مع الشعراء وأخباره معهم ومع القيان ، والثانى فى المديح ٠ والثالث فى المراثى ، والرابع فى العتاب ، والخامس فى الهجاء ، والسادس فى الزهد ، والسابع فى الطرد ، والثامن فى الخمر ، والتاسع فى ما جاء بين الخمر والمجون ٠والعاشر فى غزل المؤنث ، والحادى عشر فى غزل المذكر ، والثانى عشر فى المجون ٠ وقد أهمل الناشر الباب الأخير فلم يثبته فى الطبعة ، لأنه رأى فيه ما يصم الآداب وحسنا فعل ، ولكننا لا ندرى بأى عين نظر الى الباب التاسع ، فان فيه من التعهر ما لا يقل عما ورد فى الباب الثانى عشر ٠

وجمع ابن منظور صاحب لسان العرب تاريخ أبى نواس ونوادره وشعره ومجونه فى كتاب سماه أخبار أبى نواس ٠ وقد طبع الجزء الأول منه فى مصر سنة ١٩٢٤ مضبوطا بالشكل مشروحا بعض الشرح ، ولكن الحكومة المصرية منعت متابعة نشره لما فيه من فحش مضر بالأخلاق ٠

وكتب الادب حافلة بأخبار أبى نواس وأشعاره لشدة اهتمام الناس برواية شعره ، فانهم كانوا يتفكهون به ويؤثرونه على أشعار القدماء ، فسار على الأفواه كل مسير ، فرويت له فى مصر أشعار لم يعرفهـا أهل العراق ، وضاعت له قصائد لم يبق منها شيء أو بقى بيت أو بيتان · ونحل شعرا كثيرا لم ينحل مثله أحد ، ذلك أنه سلك طريقا جديدا فى الشعر : فان أكثر أشعاره فى اللهو والتشبيب والمجون · وكان فى عصره طائفة من المجان يذهبون مذهبه وليس لهم من الشاعرية والشهرة مثله ، فأصبح الناس يلحقون به كل شعر فى الخمر والمجون لم يعرف صاحبه ولم يعن الرواة بشـعره ·

وأضيف اليه من النوادر والأخبار كما أضيف اليه من الأشعار ، فقد وضع عليه ابن الداية ، وكان مشهورا بصحبته ، روايات لا صحة لها · وفى أخبار أبى نواس لابن منظور المصرى نوادر أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة ، مما يدل على أن أهل مصر شغفوا بالشاعر كأهل العراق ، فراحوا يتفننون فى اصطناع الأخبار الغريبة عنه فحملوه أحمالا ثقيلة زادت سمعته تشويها · ونحن وان كنا لا يخامرنا ريب فى خلاعته وحوادثه المجونية ، لا يسعنا الا أن نشك فى بعض نوادره التى يظهر عليها التفنن وحب التفكهة والاغراب · وسنعتمد فى درس شعره على المشـهور منه الذى لا يشك فى نسـبته اليـه ·

★★★

مختارات من ديوان ابى نواس

قال فى عزة النفـس :

ومسـتعبد اخـوانه بشـرائه
لبسـت له كبرا ابرا على الكبر
اذا ضـمنى يومـا وايـاه محفـل
يرى جانـبى وعرا يزيـد على الوعـر
أخالفـه فى شـكله وأجـره
على المنطـق المبرور والنظـر الشـزر

وقد زادنى تيها على النـــاس أنـــنى
أرانى أغناهـــم وان كنت ذا فقـــر
فوالله لا يبـدى لســـانى لحاجـــة
الى أحـــد حتى أغيـــب فى قبرى
فـــلا يطمعن فى ذاك منى طامـــع
ولا صاحب التـاج المحجب فى القصر

الخمـــر

شهر فى خمارة !

وفتيان صدق ، قد صرفت مطيهم
الى بيت خمار ، نزلنـا به ظهرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما ،
ظننـــا به خيرا ، فظن بنـا شرا
فقلنا : على دين المسيح بن مريم ،
فأعرض مزورا ، وقال لنا هجرا
ولكن يهودى يحبـــك ظـاهرا ،
ويضمر فى المكنون منه لك الغدرا
فقلت له: ما اسم؟ قال: سموءل،
ولكنـــنى أكنى بعمـــرو ولا عمرا
وما شرفتـــنى كنيـــة عربيـــة ،
ولا أكسبتنى لا ثنـاء ولا فخـــرا
ولكنها خفت وقلت حروفهـا ،
وليست كأخرى، انما جعلت وقرا
فقلت له عجبا بطرف لسانـه :
أجدت أبا عمرو ، فجود لنا الخمرا
فأدبر كالمزور ، يقسـم طرفـــه
لأرجلنـــا شطرا ، وأوجهنا شطرا
وقال : لعمرى، لو أحطتم بوصفها،
للمناكم ، لكن سنوســعكم عذرا
فجـاء بهـا زيتية ذهبيـــة ،
فلم نستطع دون السجود لها صبرا
خرجنـا على أن المقـام ثلاثـة ،
فطاب لنا حتى أقمنا بها شهرا
عصابة سوء ، لا ترى الدهر مثلهم
وان كنت منهم لا بريئا ولا صفرا
اذا ما دنـا وقت الصـلاة رأيتهم
يحثونها ، حتى تفوتهم ســـكرا

الخمر والغفران :

دع عنك لومى ، فان اللوم اغراء ،
وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ،
لو مسها حجر ، سمته سراء

★★★

قامت بابريقها ، والليل معتكر ، فلاح من وجهها ، فى البيت لألاء
فأرسلت من فم الابريق صافية ، كأنما أخذها بالعين اغفاء
رقت عن الماء ، حتى يلائمها ، لطافة ، وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا ، لمازجها ، حتى تولد أنوار وأضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم ، فما يصيبهم الا بما شاؤوا
لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة ، كانت تحل بها هند وأسماء
حاشا لدرة أن تبنى الخيام لها ، وأن تروح عليها الابل والشاء
فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة : حفظت شيئا ، وغابت عنك أشياء
لاتحظر العفو،ان كنت امرأ حرجا، فان حظركه بالدين ازراء

العيش سكرة بعد سكرة

ألا فاسقنى خمرا،وقل لى:هى الخمر! ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر
فعيش الفتى فى سكرة بعد سكرة، فان طال هذا عنده ، قصر الدهر
وما الغبن الا أن ترانى صاحيا ، ولا الغنم الا أن يتعتعنى السكر
فبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى، فلا خير فى اللذات من دونها ستر
ولا خير فى فتك بغير مجانة ولا فى مجون ليس يتبعه كفر
بكل أخى قصف كأنه جبينه هلال، وقد حفت به الأنجم الزهر

نشوتان

لا تبك ليلى ، ولا تطرب الى هند ، واشرب على الورد من حمراء كالورد
كاسا اذا انحدرت فى حلق شاربها، أجدته حمرتها فى العين والخد
فالخمر ياقوتة ، والكاس لؤلؤة ، فى كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من طرفك خمرا،ومن يدها خمرا ، فما لك من سكرين من بد
لى نشوتان ، وللندمان واحدة ، شىء خصصت به،من دونهم وحدى

قصص الأمم

يا شقيق النفس من حكم ، نمت عن ليلى ، ولم أنم
فاسقنى البكر التى اختمرت بخمار الشيب فى الرحم
ثمت انصات الشباب لها ، بعد ما جازت مدى الهرم

فهى لليوم الذى بزلت ... وهى ترب الدهر فى القدم
عتقت حتى لو اتصلت ... بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم مائلة ، ... ثم قصت قصة الأمم
فرعتها بالمزاج يد ، ... خلقت للسيف والقلم
فى ندامى ، سادة زهر ، ... أخذوا اللذات من أمم
فتمشت فى مفاصلهم ، ... كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت اذ مزجت ، ... مثل فعل الصبح فى الظلم
واهتدى سارى الظلام بها ، ... كاهتداء السفر بالعلم

ثورة على القديم

عاج الشقى على سرم يسائله ، ... وعجبت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد ، ... لادر درك ، قل لى : من بنو أسد ؟
ومن تميم ومن قيس ولفهما ؟ ... ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ، ... ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها ، ... وبين باك على نوى ومنتضد
دع ذا ، عدمتك ، واشربها معتقة ، ... صفراء ، تفرق بين الروح والجسد

أدب المنادمة

ولست بقائل لنديم صدق ، ... وقد أخذ الشراب بمقلتيه
تناولها ، والا لم أذقها ، ... فيأخذها ، وقد ثقلت عليه
ولكنى أدير الكأس عنه ، ... وأصرفها بغمزة حاجبيه
وأحبسها الى أن يشتهيها ، ... وآخذها برفق من يديه
وان مد الوساد لنوم سكر ، ... دفعت وسادتى أيضا اليه
فذلك ما حييت له ، وأنى ... أبر بمثله من والديه

الغزل

حامل الهوى

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب
ان بكى يحق له ... ليس ما به لعب

تضحكين لاهية والمحب ينتحب
تعجبين من سقمى صحتى هى العجب
كلما انتفى سبب منك ، جاءنى سبب

★★★

المدح

مدح الرشيد

حى الديار اذ الزمان زمان ، واذ الشباك لنا خوى ومعان
يا حبذا سفوان من متربع ، ولربما جمع الهوى سفوان
واذا مررت على الديار مسلما ، فلغير دار أميمة الهجران
انا نسبنا والمناسب ظنه ، حتى رميت بنا ، وأنت حصان
لما نزعت عن الغواية والصبا ، وخدت بى الشدنية المذعان
سبط مشافرها ، دقيق خطمها ، وكأن سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى فى جلدها ، يقق ، كقرطاس الوليد ، هجان
والى أبى الأمناء هارون الذى يحيا ، بصوب سمائه ، الحيوان
ملك تصور فى القلوب مثاله ، فكأنما لم يخل منه مكان
ما تنطوى عنه القلوب بفجرة ، الا يكلمه بها اللحظان
فيظل لاستنبائه ، وكأنه عين على ما غيب الكتمان
هارون ألفنا ائتلاف مودة ، ماتت لها الأحقاد والأضغان
فى كل عام غزوة ، ووفادة ، تنبت ، بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكرى ، باليعملان شعارها الوخدان
يرمى بهن نياط كل تنوفة ، فى الله ، رحال بها ، ظعان
حتى اذا واجهن اقبال الصفا حن الحطيم ، وأطت الأركان
لأغر ، ينفرج الدجى عن وجهه ، عدل السياسة ، حبه ايمان
يصلى الهجير بغرة مهدية ، لو شاء صان أديمها الأكنان
لكنه فى الله مبتذل لها ، ان التقى مسدد ، ومعان

ألفت منادمه السماء سيوفه ، فلقلما تحتازها الأجفان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة، لفؤاده ، من خوفه ، خفقان
حذر امرىء نصرت يداه على العدى كالدهر ، فيه شراسة وليان
متبرج المعروف عريض الندى ، حصر ، بلا ، منه فم ولسان
للجود من كلتا يديه محرك ، لا يستطيع بلوغه الاسكان

مدح الخليفة محمد الأمين

كان للأمين خمس من السفن المعروفة بالحراقات : احداها على مثال الأسد ، والثانية على مثال العقارب ، والثالثة على مثال الدلفين ، والرابعة على مثال الفيل ، والخامسة على مثال الحية . فركب ذات يوم فى سفينة الأسد متنزها ، وركب أبو نواس معه ينادمه ، فقال فى ذلك :

سخر الله للأمين مطايا ، لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا ، سار فى الماء ركبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يعدو ، أهرت الشدق ، كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس ، اذ رأوه ، على صو رة الليث ، يمر مر السحاب
سبحوا ، اذا رأوك سرت عليه ، كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ، ومنسر ، وجناحيـ ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما اسـ تعجلوها بجيئه وذهاب
بارك الله للأمين . وأبقا ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه هاشمى موفق للصواب

★★★

الهجاء

هجاء اليمانية

كان أبو نواس قد ادعى أنه من العدنانية ، فأخذ يتعصب لها وهجا هاشم بن حديج الكندى :

يا هاشم بن حديج ، ليس فخركم بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتم فى اهاب العير جثته فبئس ما قدمت أيديكم لغد

ان تقتلوا ابن أبى بكر فقد قتلت حجرا ، بدارة ملحوب بنو أسد
وطردوكم الى الأجبال من أجا طرد النعام اذا ما تاه فى البلد
وقد أصاب شراحيلا أبو حنش ، يوم الكلاب ، فما دافعتم بيد
ويوم قلتم لزيد ، وهو يقتلكم قتل الكلاب : لقد أبرحت من ولد
وكل كندية قالت لجارتها ، والدمع ينهل،من مثنى ومن وحد :
ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية ، عن ثأره ، وصفات النوى والوتد

هجاء الخصيب

خبز الخصيب معلق بالكوكب ، يحمى بكل مثقف ، ومشطب
جعل الطعام على بينه محرما قوتا ، وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم راؤوا الرغيف ، تطربوا طرب الصيام الى أذان المغرب

هجو الرقاشى

قل للرقاشى اذا جئته : لو مت ، يا أحمق لم أهجكا
لأننى أكرم عرضى ، ولا أقرنه يوما الى عرضكا
ان تهجنى ، تهج فتى ماجدا ، لا يرفع الطرف الى مثلكا
والله لو كنت جريرا ، لما كنت بأهجى لك من أصلكا

★★★

الزهديات

خداع الدنيا

ألا رب وجه ، فى التراب عتيق ، ويارب حسن ، فى التراب ، رقيق
ويارب حزم فى التراب، ونجدة ، ويارب رأى ، فى التراب ، وثيق
فقل لقريب الدار : انك راحل الى منزل نائى المحل سحيق
وما الناس الا هالك وابن هالك ، وذو نسب ، فى الهالكين ، عريق
اذا امتحن الدنيا ، لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

العمل الصالح

أية نار قدح القادح ، وأى جد بلغ المازح ؟
لله در الشيب من واعظ ، وناصح ، لو خطىء الناصح
يأبى الفتى الا اتباع الهوى ، ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك الى نسوة ، مهورهن العمل الصالح
لا يجتلى العذراء من خدرها ، الا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله ، فذاك الذى ، سيق اليه المتجر الرابح
شمر ، فما فى الدين أغلوطة ، ورح بما أنت له رائح

صلاة خاطىء

يارب ، ان عظمت ذنوبى كثرة ، فلقد علمت بأن عفوك أعظم
ان كان لا يرجوك الا محسن ، فبمن يلوذ ويستجير المجرم ؟
أدعوك ، رب ، كما أمرت تضرعا ، فاذا رددت يدى ، فمن ذا يرحم
ما لى اليك وسيلة الا الرجا ، وجميل عفوك ، ثم انى مسلم

على سرير الموت

دب فى السقام سفلا وعلوا ، وأرانى أموت عضوا فعضوا
ليس تمضى من لحظة بى ، الا نقصتنى ، بمرها فى جزوا
ذهبت جدتى بحاجة نفسى ، وتطلبت طاعة الله نضوا
لهف نفسى على ليال وأيا م تجاوزتهن لعبا ولهوا
قد أساءنا كل الاساءة ، فالله هم صفحا عنا ! وغفرا ! وعفوا !

***

كتاب الزهرة

ابن داود الظاهري

٨٩٥ م

طلائع الدراسات العربية
لموضوع الحب والعشق

لم ينل الحب الانسانى ما يستحق من اهتمام الباحثين اذا ما قيس الى الحب الالهى ، فاننا نجد سيلا دافقا من المؤلفات أحصى منه ريتر ثلاثة عشر مؤلفا ، تمتد ما بين القرن الثالث الهجرى والقرن الحادى عشر ، وأحصت لويزانيتا جيفن تسعة عشر مؤلفا عن المدة نفسها تقريبا وسنضيف بدورنا عددا آخر ؛ ليتأكد فى النهاية أن التأليف عن الحب كالحديث عن الحب كالحب نفسه لا يتوقف الا ليبدأ من جديد وأنه كظاهرة امتدت بطول العصور ، على أن البداية ستبقى غامضة بعض الشىء شأن البدايات فى أى شىء ، الا أن هناك شبه اتفاق على أن الجاحظ (٢٥٥ هـ) قد فتح باب الحديث فى الحب بمقالتيه عن النساء وعن القيان ، والمقالة الثالثة : مفاخرة الجوارى والغلمان ، ثم ما كتبه أحمد بن الطيب السرخسى (٢٨٦ هـ) . وينقل الزركلى عن القفطى وغيره أنه قرأ على الكندى الفيلسوف وأن من مؤلفاته المدخل الى صناعة النجوم — والجلساء والمجالسة — واللهو والملاهى ، وهذا الأخير — كما يصفه — فى الغناء والمغنين والمنادمة والملح ، وكتاب القيان . ثم يأتى ابن داود صاحب الزهرة (٢٩٦ هـ) الذى نعتبره مؤسس اتجاه جديد فى دراسة الحب ، ثم محمد بن أحمد ابن اسحاق الوشاء صاحب « الموشى » — أو الظرف والظرفاء . ثم محمد ابن جعفر الخرائطى (٣٢٧ هـ) ، صاحب كتاب « اعتلال القلوب » فى أخبار العشاق وهو مخطوط ، ثم محمد بن عمران المرزبانى (٣٨٤ هـ) ، مؤلف كتاب « الرياض » فى أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين المحدثين وكتاب (أشعار النساء) ثم الحصرى القيروانى (٤٥٣ هـ) صاحب « المصون فى سر الهوى المكنون » وهو مخطوط ، ومؤلف « زهر الآداب وثمر الألباب ؟ ، ثم ابن حزم (٤٥٦ هـ) صاحب « طوق الحمامة » وهو أشهر ما كتب فى هذا الباب ثم جعفر السراج (٥٠٠ هـ) مؤلف « مصارع العشاق » ، ثم ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) صاحب « ذم الهوى » ، ثم أحمد بن سليمان الكسائى (٦٣٥ هـ) . مؤلف : « روضة العاشق ونزهة الوامق » وهو مخطوط ، ثم شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد (٧٢٥ هـ) مؤلف « منازل الأحباب ومنارة الألباب » وهو مخطوط أيضا ويضيف اليه الزركلى « مقامة العشاق » ، ثم

ابن قيم الجوزية « ٧٥١ هـ » صاحب : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ثم مغلطاى بن قليج (٧٦٢ هـ) مؤلف : « الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين » وهو مخطوط ، ثم ابن أبى حجلة (٧٧٦ هـ) مؤلف ديوان الصبابة ، ثم ابراهيم بن عمر الرباط البقاعى (٨٨٥ هـ) ، وقد اختصر مصارع العشاق فى كتاب مخطوط سماه « أسواق الأشواق » ثم داود الأنطاكى الطبيب الضرير (١٠٠٨ هـ) صاحب « تزيين الأسواق فى أخبار العشاق » ، ثم مرعى بن يوسف (١٠٣٣ هـ) مؤلف : «منية المحبين وبغية العاشقين» ، وأخيرا : السلاطى — وقد ألف « صبابات المعانى وصبابات المعانى » .

هذه المصادر الأساسية لمادة الدراسة فى موضوع الحب نراها منتشرة على مساحة زمنية تبلغ ثمانية قرون دون توقف ، على أن هناك كتبا أخرى قد تكون أقل أهمية ولكنها تعطى ملامح اضافية لابد من الوعى بها ، ليكتمل تصور الظاهرة فى كافة أبعادها فكتاب « المحاسن والأضداد » المنسوب للجاحظ ، يكتسب أهمية لا تقل عن أهمية رسائله المشار اليها ، وكذلك بعض آرائه فى كتابه الضخم «الحيوان» ، مع افتراض تأثره بكتاب « طباع الحيوان » لأرسطو وهناك كتاب آخر للمرزبانى بالاضافة الى « أخبار النساء » المنسوب الى ابن القيم ، وتضيف الى هذه الكتب الأخبارية نوعين آخرين من الكتب التى اهتمت بالحب الاول : كتب القصص والنوادر التى تقترب فى مادتها من « مصارع العشاق » وان ظهر طابع الصناعة أكثر وضوحا ، مثل كتاب « الفرج بعد الشدة » للقاضى التنوخى (٣٨٤ هـ) ، ففى الجزء الرابع من هذا الكتاب عدد وافر من قصص العشاق لا نجازف اذ نقول انه يخضع لمجموعة من القيم الفنية والأخلاقية تؤكد معنى مهما وهو أن مؤلفى هذا النوع من الكتب كانوا يختارون ما يتجاوب ورؤيتهم الخاصة للحب وأنهم — على الأرجح — كانوا يتدخلون فى الصياغة وفى تطوير الأحداث ، وستجد مصداق ذلك فى هذه الطائفة من القصص التى سبق بها الجاحظ وتردد صداها عند جعفر السراج ومن جاءوا بعده .

أما النوع الثانى فهو تلك الفصول التى جاءت فى سياق الكتب الموسوعية العربية وصحيح ان بعض ما فيها من مادة يعتبر ترديدا لما جاء فى كتب سابقة ،ولكن الاهتمام برصدها وتحديد اتجاهاتها سيعنى الكثير فى التعرف على فترات الازدهار فى التأليف عن الحب ووجهة الكتاب فى طرح الظاهرة ومعالجتها ، فضلا عن أن بعض هذه الفصول كتب فى فترة مبكرة ، وهذا يعنى أنه كان مصدرا أصيلا بعد ذلك ، ففى

« عيون الأخبار » لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) نجد المجلد الرابع كله قد تصدره عنوان واضح الملامح وهو : « كتاب النساء فى أخلاقهن وما يختار منهن وما يكره » وفى « العقد الفريد » لابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) نجد : « كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن » ، وقد عقد الراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ) فصلا فى كتابه : « محاضرات الأدباء » ـ وهو الحد الثالث عشر ـ تحت عنوان : « فى الغزل وما يتعلق به » ومادة هذا الفصل ذات تقسيم طريف وان يكن المحتوى تقليديا مكررا ٠

★★★

من هو ابن أبى داود المشهور بأبى بكر الأصفهانى

(٢٥٥ هـ) ـ (٢٩٧ هـ)

هو محمد بن داود بن على بن خلف الأصفهانى ، المشهور بأبى بكر الأصفهانى (٢٥٥ هـ ـ ٢٩٧ هـ) فقيه وعالم وشاعر ٠٠ ثم نستطيع أن نعده من عشاق العرب ، مع أن عهد العشاق العرب أموى ومكانهم البوادى ـ وأبو بكر هذا عباسى وعاش ومات فى القرن الثالث الهجرى ؛ ولكنه عشق فعف وعانى ما كان يعانيه أولئك العشاق ، وكان من حصيلة عشقه أن ألف كتابا لا نظير له فى الكتب وهو كتاب « الزهرة » فى الحب ومعانى الغزل التى حومت عليها قوافى الشعراء فى الأدب العربى منذ الجاهلية حتى عصره ٠

وأبو بكر الأصفهانى هو ابن داود الظاهرى الفقيه المجتهد ، الذى ينسب اليه مذهب أهل الظاهر وهم الذين يأخذون بظاهر الكتاب والسنة ويعرضون عن تأويل ورأى وقياس ، وكان داود أول من جهر بهذا الرأى وكان على علم ، زاهدا متقللا كثير الورع وانتهت اليه رياسة العلم ببغداد وكان من عقلاء الناس ، حتى قيل فيه : « كان عقل داود أكبر من علمه » وله تصانيف كثيرة عددها صاحب الفهرست فى زهاء صحيفتين ٠ ومن أقواله : « خير الكلام ما دخل الأذن بغير اذن » فهو أول من جانس هذا الجناس اللطيف ويشتم من كلامه الأدب محضا ، ونسق فى التعبير لعله البشرى بابن له أديب شاعر ظريف مبين ٠

وقيل فى داود الظاهرى انه أصفهانى الأصل ، من بليدة قرب أصفهان (قاشان) وقيل بل هو عراقى وأمه الأصفهانية ، وأيا كان

فمولده فى الكوفة ومنشؤه وشهرته ببغداد وفيها توفى سنة سبعين ومائتين للهجرة ٠

ولد أبو بكر سنة خمس وخمسين ومائتين (أى فى السنة التى توفى فيها الجاحظ) ونشأ فى كنف أبيه محببا اليه ، أثيرا جدا لديه ، وكان أبو بكر نحيفا وفى لونه صفرة ٠

نشأته العلمية ومجالسه العلمية

وقد نشأه أبوه على مذهبه وخرجه فى مدرسته فلما أينع ، فشت له فى بغداد شهرة علم وأدب ونبغ ووقع منه الناس على عقل راجح وأدب جم٠ يقول المسعودى فى عقه : « وكان ممن علا فى رتبة الأدب وتصرف فى بحار اللغة وتفنن فى موارد المذاهب وأشفى على أغراض المطالب وكان علما فى الفقه منفردا وواحدا فيه فريدا » ٠

وبعد أن توفى أبوه ، تصدر للاشتغال والفتوى وجلس مكان أبيه فى حلقته ، وعمره اذ ذاك خمس عشرة سنة فتعجب الناس واستصغره أكثرهم وأرادوا اختباره فدسوا له رجلا فقالوا : « اذا جلس فأته واسأله عن حد السكر ومتى يكون الانسان سكران ؟ » فلما أتاه الرجل ــ والمجلس حاشد ــ فقال : يا أبا بكر أخبرنى متى يكون الانسان سكران ؟ أجابه أبو بكر من فوره فقال : « اذا عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم » فاستحسن ذلك منه وعلم موضعه من العلم وشرح جوابه من عقله وتمكنه وأدبه ما أراد مختبروه ٠٠ ان ما قاله لحد دقيق وفصل لطيف بين الصاحى وبين السكران فى بيان موجز وسجع مرسل فكلامه كما قال أبوه قبلا : يدخل الأذن بغير اذن ٠

ولم يكن أبو بكر أول من استصغر للعلم ثم كبر عند مستصغريه ، ولكن أخبار الأدب والعلم وافرة فى اناس أذكياء نجموا كواكب فى مجتمعهم وأقوامهم وهم صغار ، نذكر منهم اياس بن معاوية ويحيى بن أكثم قاضى المأمون الذى لما ولى قضاء البصرة وهو ابن ثمانى عشرة سنة قال المأمون : كم « سنك ؟؟ » فقال يحيى دون تلكؤ : « كعتاب بن أسيد حين أقره النبى ﷺ على مكة » فأعجب به وبجوابه المأمون ، ثم علا عنده علوا ٠ وعتاب بن أسيد من مسلمى الفتح ، أمره النبى (ﷺ) على مكة حين خرج الى حنين والطائف وله يومئذ عشرون سنة ٠

وكان أبو بكر ممن تنبه الى ما يقوله الحسين بن منصور الحلاج فى ذلك الوقت وأفتى بكفره ونددد به ولكنه توفى قبله فلم يعش الى سنة تسع وثلاثمئة ليراه مقتولا مصلوبا .

ذكر الفقيه الشافعى أبو العباس الحضرى قال : كنت عند أبى بكر محمد بن داود فجاءته امرأة فقالت له : « ما تقول فى رجل له زوجة لا هو ممسكها (أى لا يقدر على نفقتها) ولا هو مطلقها » فقال : « اختلف فى ذلك أهل العلم فقال قائلون : تؤمر بالصبر والاحتساب ، ويبعث على التطلب والاكتساب وقال قائلون : يؤمر بالانفاق والا يحمل على الطلاق » . قال أبو العباس فلم تفهم قوله وأعادت فسألته فقال : « يا هذه قد أجبتك عن مسألتك وأرشدتك الى طلبتك ولست بسلطان فأمضى ولا قاض فأقضى ولا زوج فأرضى انصرفى رحمك الله .. » .

وقال عبد الله بن أبى الدنيا : حضرت مجلس أبى بكر محمد بن داود ، فجاء رجل فوقف عليه ورفع له رقعة فأخذها وتأملها طويلا وظن تلامذته أنها مسألة ثم قلبها وكتب على ظهرها وردها الى صاحبها فنظرنا فاذا الرجل هو الشاعر المشهور ابن الرومى واذا فى الرقعة :

يا بن داود يا فقيه العراق
أفتنا فى قواتل الأحداق
هل عليها فى ذى الجروح قصاص
أم مباح لها دم العشاق ؟

واذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيل صريع
بسهام الفراق والاشتياق
وقتيل التلاق أحسن حالا
عند داوود من قتيل الفراق

هذا ما رواه ابن خلكان وهو يدل على توفر أدب أبى بكر ورقة طبعه وبروز ظرفه من فقهه وحرارة حب يتلمسها القارىء فى أبياته ، مع قدرة على الشعر فى غير مناسبته وجوه وخلواته فما كان أظرفه فقيها مفتيا وأحلمه مسئولا وأبلغه وأرقه مجيبا !!

مؤلفاته

قال المسعودى : ألف أبو بكر محمد بن داود فى عنفوان شبابه وقبل كماله وانتهائه الكتاب المعروف « بالزهرة » ، ثم تناهت فكرته وبسقت قوته فصنف الفقهيات ككتابه فى «الوصول الى معرفة الأصول» وكتاب « الانذار » ، وكتاب « الاعذار والابحار » وكتابه المعروف ب « الانتصار على محمد بن جرير وعبد الله بن شرشير ، وعيسى بن ابراهيم الضرير » . قال ابن خلكان : وله غير ذلك فمن كتبه ما ذكره الصفدى فى (الوافى بالوفيات) وهى : مختار الأشعار والايجاز فى الفقه والبراعة والتقصى فى الفقه واختلاف مسائل الصحابة والفرائض والمناسك والانتصار لأبيه من الناشىء المتكلم .

فأغلب كتبه فقهى علمى والأدبى منها قليل ولكن كتاب الزهرة يعدل كتبا كثيرة ، فأسلوبه عجيب وتبويبه فريد وما فيه من شعر وخبر بليغ كريم وطريف .

شعره

ولأبى بكر شعر كثير معظمه فى الغزل العفيف ؛ ولكنه لم يجمعه فى ديوان فمنه ما رويناه آنفا فى جواب ابن الرومى وأكثر شعره مقطعات ومنه هذه الأبيات :

يا يوسف الحسن تمثيلا وتشبيها
يا طلعة ليس الا البدر يحكيها
من شك فى الحور فلينظر اليك فما
صيغت معانيك الا من معانيها
ان الدنانير لا تجلى وان عتقت
لا يزاد على النقش الذى فيها

واذا روى أبو بكر فى كتابه (الزهرة) شعرا يستحى من نسبته الى نفسه وهو مؤلف الكتاب غزليا وعزاه الى « بعض أهل العصر » فهو له ، وهو شىء هناك ليس بقليل . فمن ذلك قوله :

تمتع من حبيبك بالوداع
فما بعد الفراق من اجتماع
فكم جرعت من هجر وغدر
ومن حال ارتفاع وانضاع
وكم كأس أمر من المنايا
شربت فلم يضق عنها ذراعى
فلم أر فى الذى قاسيت شيئا
أشد من الفراق بلا وداع
تعالى الله كل مواصلات
وان طالت - تؤول الى انقطاع

★★★

شخصية ابن داود :

ونستطيع من تأمل هذه اللمحات من أخبار ابن داود أن نتصور صورة متكاملة لشخصيته الفذة ، فهو فقيه ولكن فقهه لم يحل بينه وبين المشاركة فى الأدب واللغة والتبريز فيهما ، وبين معرفة الفلسفة اليونانية وعلوم الحكمة · وبرغم تدينه وخلقه فان العاطفة كانت تملأ قلبه وتستولى على فؤاده ، فهو بذلك نمط فريد بين أبناء عصره خالف نمط الفقهاء المحافظين والأدباء المستهترين وجمع بين فضائل الدين والخلق وبين وحدة الثقافة ولطف الذوق فهو مثال للعالم المسلم فى ثقافات عصره البعيد عن الرياء وهو صورة للذكاء المتقد والعاطفة الدافقة ·

وفاته :

لم تطل بابن داود الحياة فتوفى فى سن الثانية والأربعين على ما يذكر الخصيب البغدادى : فقد ذكر أنه توفى سنة ٢٩٧ هـ بعد وفاة أبى يوسف القاضى ، أما المسعودى فقد ذكر وفاة ابن داود فى سنة ٢٩٦ هـ ·

وبذلك طويت حياة حافلة بالبحث والدرس متقدة بالمشاعر والأحاسيس ويكفينا قول ابن سريج عنه : ما آسى الا على تراب أكل لسان محمد بن داود !

كتـــاب الـــزهرة

مر بنا منذ قليل أن أبا بكر الأصفهانى ألف كتاب « الزهرة » فى بكور شبابه ، وقالوا ان السبب فى تأليفه أن أبا بكر وقع فى الحب حتى برح به ولكنه عف وكرم ، وعانى من برحاء الهوى مثل ما كان يعانى عشاق العرب الأوائل ، فكان كتاب (الزهرة) حصيلة تلك البرحاء وفيضا تدفق من ذلك الحب العنيف الذى استحوذ على نفسه وقلبه • وكان أبو بكر رقيق الفؤاد مرهف الحس ، سريعـا اهتزازه لكل جمـال وهو القائل : « ما انفككت من هوى منذ دخلت الكتاب » فهو من المدلهين الذين يجدون مرارة الهوى حلاوة والعذاب الغرامى راحة وريحانا ومن ينظر فى كتاب الزهرة : فصوله وأبوابه وأشعاره ومقاماته ـ يحس بالفعل ـ أن المؤلف عاشق خبير بأحوال العاشقين عميق التغلغل الى خفايا النفس عالم طب بالداء والدواء • وهذا لا يكون الا لمعان لا معاين ولوله واقع فى جحيم الهوى ليس منه بعيدا والا كان اذا وصفه ، وصفه خليا سليما • فخرج كتاب الزهرة بدعا فى الكتب وكان أبو بكر مزهوا به عمره • حتى انه لما كانت تجرى بينه وبين (ابن سريج) مناظرات كان يتباهى بكتاب الزهرة واذا غض منه (ابن سريج) ، دافع أبو بكر عن كتابه دفاع معجب به واثق من ارتفاعه ، وابن سريج هذا هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج القـاضى الشـافعى المتوفى سنة ست وثلاثمئة ، وكان فاضلا وله أشعار حسان وكان معاصرا لأبى بكر معارضا له أبدا ، وكانت خصومتهما المستمرة مثلا فريدا حفظه لنا تراث أمتنا على ما يسمى بـ « الخصومة الفكرية الشريفة » • فكانت معارضة بعضهما لبعض كريمة لطيفة تحمى فيها القلوب ولكن لا الى درجة الجهل والحقد ، وتبرد ولكن لا الى درجة السكون والتفاهة ، وكانا كلاهما يحضران مجلس القاضى أبى عمر محمد ابن يوسف فاذا تناظرا فيه وتعارضا لم يجر بين اثنين فيما يتفاوضانه أحسن مما يجرى بينهما ، وفى أحد تلك المجالس عير أبا سريج أبا بكر فقال له فى معرض مناظرة فقهية : أنت يا أبا بكر بكتاب الزهرة أمهر منك فى هذه الطريقة • فقال أبو بكر : وبكتاب الزهرة تعيرنى ؟ فوالله ما تحسن أن تستتم قـراءته من يفهـم ، وانه لاحـدى المناقب اذ كنت أقول فيـــه :

أكرر فى روض المحاسن مقلتى
وأمنع نفسى أن تنال محرما
وينطق سرى عن مترجم خاطرى
فلولا اختلاسى رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم
فما أن أرى حبا صحيحا مسلما

فقال ابن سريج أوعلى تفخر بهذا القول ؟ وأنا الذى أقول :

ومساهر بالغنج من لحظاته
قد بت أمنعه لذيذ سباته
ظنا بحسن حديثه وعتابه
وأكرر اللحظات فى وجناته
حتى اذا ما الصبح لاح عموده
ولى بخاتم ربه وبرأته

فقال أبو بكر لأبى عمر : أيد الله القاضى قد أقر هذا على نفسه بالمبيت على الحال التى ذكرها ، وأدعى البراءة مما توجبه • فعليه اقامة البينة ، فقال ابن سريج : من مذهبى أن المقر اذا أقر اقرارا وناطه بصفة ما •• كان اقراره موكولا الى صفته ، فقال أبو بكر للشافعى : فى هذه المسألة قولان ، فقال ابن سريج : فهذا القول الذى قلته اختيارى الساعة •

★★★

منهج كتاب الزهرة

ابتدأ ابن داود كتابه بمقدمة مسهبة يوجه الخطاب فيها الى صاحب له يقال انه محمد بن جامع الصيدلانى الذى اشتهر بصحبته ، يعاتبه على جفائه ويمهد لغرضه من الكتاب فيقول :

« وقلت قدمنى الله قبلك ــ قد أعيا على وجود نديم آنس به فى الخلوات وأجد عنده عزاء من النائبات يورد الى الأخبار ويكتم على الأسرار فان كان فى ناحيتك من يفى بهذا المقدار ويحفظ من أشعار المتغزلين

وأخبار المتيمين وكان عالما بطرق الهوى وأحكامه ، عارفا بالمصيب من الشعراء فى كلامه ، حافظا من أنواع الشعر فى كل باب ما يدخل حافظه فى جملة أهل الآداب ، تطولت بايثار ضننت به على نفسك وأعفيتنى من صرف حاجتى فيه الى غيرك » .

وفى هذا النص تتضح لنا الأهداف التى يرجوها ابن داود من كتابه وحدود المنهج الذى ارتضاه فى تناول موضوع العشق واستعراض أشعاره وأخباره .

وهذا المنهج يجمع الى جانب الرواية والخبر جانب التحليل وجانب النقد المعتمد على التذوق والوجدان فهو يشير الى الشعر والخبر : يحفظ أشعار المتغزلين وأخبار المتيمين والى جانب التحليل واستنباط قوانين العشق : بالعلم بطرق الهوى وأحكامه والى جانب النقد بالقدرة على التمييز بين المصيب من الشعراء والمخطىء فى وصفه لأحوال الحب وتحليله لخطرات القلوب ومشاعرها .

ثم يزيدنا ابن داود معرفة بمنهجه ويلقى عليه مزيدا من الضوء فيقول : « وقد عزمت لما رأيت بك من غلبات الاشتياق ، ومن ميلك الى تعرف أحوال العشاق أن أوجه اليك نديما يشاهد بك أحوال المتقدمين ويحضرك أخبار الغائبين » .

ثم يفصح ابن داود عن اسم كتابه ويعرض نظامه وترتيبه فيقول : « وهو كتاب سميته كتاب « الزهرة » واستودعته مائة باب ضمنت كل باب مائة بيت ، أذكر فى خمسين بابا منها جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وأذكر فى الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية » .

وهذه الخمسون بابا التى بين فيها ابن داود جهات الهوى وأحكامه ، هى التى يشملها كتابه المطبوع الذى بين أيدينا .

أما الخمسون بابا الأخرى فليست لها صلة بموضوع العشق ويدلنا على ذلك قول ابن داود فى آخر كتابه هذا بعد انتهاء الباب الخمسين : « ونحن الآن ان شاء الله ــ وقد أتينا على الخمسين الماضية من الأبواب ــ مبتدئون فى الخمسين الباقية من الكتاب . فأول ما نشرع فيه من ذلك ما قيل فى تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على قدرته والدلالة على آلائه والتحذير من سطوته ، ثم نعقب ذلك ما قيل فى رسوله

(ﷺ) ، ثم نتبع ذلك ما قيل فى المختارين من أهل بيته رحمة الله عليهم وصلواته ، ثم ننسق الى آخرها على أحق الترتيب بها حسب ما تبلغه أفهامنا ويومىء اليه اختيـــارنا وانما قدمت أبـواب الغزل منهـا دينـا ودنيا وأدعى الى مصالح النفس وأدخل فى باب التقوى ؛ لأن مذهب الشعراء أن تجعل التشبيب فى صدر كلامها مقدمة لما تحاوله فى خطابها ، حتى ان الشعر الذى لا تشبيب له ليلقب بالحصا وتسمى القصيدة منه البتراء ، وان قائلها ليخرج عند أهل العلم بالأشعار عن عمل يدخل فيه الموصوفون بالاقتدار والمنسوبون الى حسن الاختيار ، فأحببت ألا أخرج فى تأليف الشعر عن مذهب الشعراء ٠٠ ولم يصلح اذ انقضى ذكر التشبيب بالغزل أن أقدم على أمر الله عز وجل أمرا ، ولا أرسم بين يدى الأشعار الدالة على عظمته شعرا » ٠

فماذا أراد ابن داود من ذلك الترتيب الذى قسم فيه كتابه الزهرة الى قسمين : خمسون بابا فى أمر الهوى وخمسون فى تعظيم أمر الله عز وجل واستعراض ما قيل فى رسوله صلوات الله عليه وآل بيته وصحابته وما الى ذلك من الحكمة والموعظة وكريم الأخلاق ؟

لقد أراد أن ينجو من مأخذ يوجه اليه من المحافظين والمتعصبين ، فقد كانت الكتابة فى العشق وافراد الكتب لدراسته فى ذلك الزمان ، عملا لا يليق بأولى الفضل والوقار من الفقهاء والمحدثين كابن داود ومما يدل على ذلك ما حكاه ابن الجوزى فى ذم الهوى ، أن أبا العباس بن سريج الفقيه الشافعى كان اذا ناظر ابن داود قال له : « عليه يابن داود بكتاب الزهـرة » ٠

فأراد ابن داود ألا يجعل الحديث عن الهوى مقصودا لذاته ولا غرضا فى كتابه ، بل جعله كالتشبيب فى القصيدة بين يدى المديح أو الوصف ، وجعل غرضه الأساسى فى الكتاب هو الحديث عن تعظيم أمر الله عز وجل واستعراض ألوان الشعر الدينى والخلقى من لدن أمية بن أبى الصلت حتى عصره ، لكى لا يوجه اليه نقد ولا يلحقه عار !!

والحق أن ابن داود كان مهتمـا بموضوع العشق مولعـــا برواية أشعاره والاستزادة من فنونه حتى استطاع أن يرسم له خمسين بابا ، وأن يورد فى كل باب منها مائة بيت وما كان يتوقع لفقيه ومحدث مثله أن تصير له هذه القدرة الأدبية فى ذلك المجال ٠

ومع هذا يؤكد لنا ابن داود أن ما رواه فى هذا الكتاب ليس كل ذخيرته فى هذا الموضوع ، بل لقد التزم الاقتصار وآثر الاختصار فما ذكره فى كتابه يسير الى جانب ما يحتفظ به :

« وأقتصر فى ذلك على قليل من كثير ، وأقتنع من كل فن باليسير اذا كان ما نقصده أكثر من أن يتضمنه كتاب أو يعبر عن حقيقته خطاب ومثل هذا الكتاب انما يطلبه أهل الآداب ؛ ليخف على الألفاظ ويسهل للحفاظ فان بعد آخره نسى أوله ولسنا — وان اجتهدنا فى اطالته — راجين التناهى فى غايته ، ومن لم يرج الكمال فى الاكثار كان حقيقا أن يقنع بالاختصار » ٠

وهذا القول يوحى لنا بقدرة ابن داود واحاطته بموضوع العشق وليس هذا القول منه اعتذارا عن الاختصار ، فان ما ذكره فى هذا الكتاب فى موضوع العشق كثير لا قليل وهو أوفى تناول محض لهذا الموضوع فى التراث العربى ٠

ويعود ابن داود الى مقاييس الذوق والجمال ، حتى لا يفسح المجال لجدل يطول أو يقصر فى مدح العشق أو ذمه ؛ فبين لنا أن العشق أمر يختص به أقوام يتصفون برقة طباعهم وتآلف أرواحهم فمن كان مثلهم فهو يعذرهم ٠

فيبتعد بدراسة العشق عن المسائل العقلية والمنطقية التى تحتاج الى استدلال وتفتقر الى الاحتجاج والاقناع ، بل هو عاطفة رقيقة يبتلى بها ذوو الطبائع المتشاكلة والأرواح المتوافقة ٠ فمن كان مثلهم فى رقة الطبع وجوهرية الروح فهو يعذرهم ولا يعذلهم الا ذوو الطبائع الجامدة والقلوب الغليظة ٠

ومن هنا لا ننتظر فى كتاب الزهرة حججا منطقية أو دلائل عقلية ، فهو كتاب أفسح صدره لأحاديث العواطف وأحاسيس القلوب ٠

وفى ضوء هذا الأساس الذى أقامه ابن داود يحدد لنا غرضه الأهم من كتابه ويصف لنا حقيقة عمله ، فهو لم يصنع أكثر من اثبات الحقائق التى تحدثها الموافقة فلا لوم عليه ولا عار يلحقه ، أما نقيض ذلك فهو الذى يورث اللوم والعار : « وأكثر غرضنا من هذا الكتاب أن نذكر ما توقعه المشاكلة وما توجبه الطباع المتعادلة فاذا جمعنا بين المفترقات وألفنا بين الأشياء المتنافيات كان العار لاحقا لنا بقضائنا على أنفسنا » ٠

وأعجب ما فى الكتاب وأحلاه عناوين الأبواب فهى شىء جميل وطريف ، وقد يتعجب القارىء حين نقول له ان تلك العناوين هى ـ وحدها ـ أدب وفن وبيان فقد جعل ابن داود كل عنوان باب فى كتابه مصوغا بشكل مثل عال أو حكمة غرامية ـ ان صح التعبير ـ على نسق بيان حلو وسجع ظريف ، كذلك فقد آثر ابن داود أن يضع لأبواب كتابه تراجم لا تدل على الموضوع فحسب ، بل اتجه فيها للايحاء بآرائه والتعبير عن خواطره مما جاء بها أمثالا محكمة كما يقول : « وقد جعلت الأبواب المنسوبة الى الغزل من هذا الكتاب أمثالا » ٠

وهذه تراجم الأبواب الخمسين :

١ ـ من كثرت لحظاته دامت حسراته ٠
٢ ـ العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير ٠
٣ ـ من تداوى بدائه لم يصل الى شفائه ٠
٤ ـ ليس بلبيب من لم يصف ما به لطبيب ٠
٥ ـ اذا صح الظفر وقعت الغير ٠
٦ ـ التذلل للحبيب من شيم الأديب ٠
٧ ـ من طال سروره قصرت شهوره ٠
٨ ـ من كان ظريفا فليكن عفيفا ٠
٩ ـ ليس من الظرف امتهان الحبيب بالوصف ٠
١٠ ـ سوء الظن من شدة الضن ٠
١١ ـ من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب ٠
١٢ ـ من منع من كثير الوصال قنع بقليل الثوال ٠
١٣ ـ من حجب عن الأحباب تذلل للحجاب ٠
١٤ ـ من منع من الوصول اقتصر على الرسول ٠
١٥ ـ من أحبه أحبابه وشى به أترابه ٠
١٦ ـ من لم يعاقب على الزلة فليس بحافظ للخلة ٠
١٧ ـ من عاتب على كل ذنب أخاه فخليق أن يمله ويقلاه ٠
١٨ ـ بعد القلوب عن قرب المزار أشد من بعد الديار عن الديار ٠
١٩ ـ ما عتب من اغتفر ولا أذنب من اعتذر ٠
٢٠ ـ اذا ظهر الغدر سهل الهجر ٠

٢١ ـ من راعه الفراق ملكه الاشتياق ٠
٢٢ ـ قل من سلا الا غلبه الهوى ٠
٢٣ ـ من غلبه هواه على الصبر صبر لمن يهواه على الغدر ٠
٢٤ ـ من تجلد على النوى فقد تعرض للبلا ٠
٢٥ ـ فى الوداع قبل الفراق بلاغ الى وقت التلاق ٠
٢٦ ـ ما خلق الفراق الا لتعذيب العشاق ٠
٢٧ ـ من غاب قرينه كثر حنينه ٠
٢٨ ـ من لم يلحق بالحمول بكى على الطلول ٠
٢٩ ـ من قصر عن مصاحبة الجار لم ينفعه مساءلة الدار ٠
٣٠ ـ من منع من البراح تشوق بالرياح ٠
٣١ ـ فى لوامع البروق أنس للمستوحش المشوق ٠
٣٢ ـ فى تلهب النيران أنس للمدنف الحيران ٠
٣٣ ـ فى نوح الحمام أنس للمنفرد المستهام ٠
٣٤ ـ من امتحن بالمفارقة والهجر اشتغل فكره بالعيافة والزجر ٠
٣٥ ـ فى حنين البعير المفارق أنس لكل صب وامق ٠
٣٦ ـ من فاته الوصال نعشه الخيال ٠
٣٧ ـ من منع من النظر استأنس بالأثر ٠
٣٨ ـ من حجب عن الأثر تعلل بالذكر ٠
٣٩ ـ مسامرة الأوهام والأمانى سبب لتمام العجز والتوانى ٠
٤٠ ـ من قصر نومه طال ليـــله ٠
٤١ ـ من غلب عزاه كثر بكاه ٠
٤٢ ـ نحول الجسد من دلائل الكمد ٠
٤٣ ـ طريق الصبر بعيد وكتمان الحب شديد ٠
٤٤ ـ من غلب على صبره ظهر سره ٠
٤٥ ـ من لم يقع له الهوى باكتساب لم ينزجر بالعتاب ٠
٤٦ ـ من قدم هواه قوى أساه ٠
٤٧ ـ من شابت ذوائبه جفاه حبائبه ٠
٤٨ ـ من يئس ممن هواه فلم يلتفت من وقته سلاه ٠
٤٩ ـ لا يعرف المقيم على العهد الا عند فراق أو صد ٠
٥٠ ـ قليل من الوفاء بعد الوفاة أجل من كثيره وقت الحياة ٠

وفى هذه التراجم يتضح لنا أنها صيغت صياغة أدبية، بحيث صارت أمثالا موجزة وحكما رائقة وهى ذات دلالة على مقدرة ابن داود فى مجال النثر الفنى وأصالته فى الصياغة والتعبير ٠

ونلحظ فى ترتيب هذه الأبواب ان ابن داود قد حرص على أن تتدرج الأبواب وتترقى فى التصوير ، بحيث تمثل نمو العاطفة وتعبر عن أحوالها الواقعة من البداية ثم ما يعرض فى أثنائها وما يتوقع فيها الى النهاية أيا كانت ، مع حرصه على أن يكون الوفاء هو طابع هذه العلاقة حتى بعد الوفاة ٠

وهذا ما يعبر عنه ابن داود بقوله :

« ورتبتها على ترتيب الوقوع حالا فحالا فقدمت وصف كون الهوى وأسبابه وبسطت ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه من الهجر والفراق وما توجبه غلبات الشوق والاشفاق ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة ، وبعد أن أتيت على ذكر الوفاء فى الحياة وأرجيت ما بين أول الأبواب وأوسطها وما بين أوسطها وآخرها على المراتب بابا فبابا ، لم أقدم مؤخرا ولم أؤخر مقدما » ٠

ومن هنا يتضح لنا أن ابن داود قد التزم الوحدة فى الموضوع والوحدة العضوية فى الترتيب ، فجاء كتابه صورة متسقة ترسم للعشق حقيقته ، وهى صورة متكاملة ليس فيها ثغرات أو نقائص ٠

★★★

حقيقة العشق عند ابن داود

وترجمة الباب الأول من كتابه الذى عالج فيه حقيقة العشق ، تدل على أنه يرى أن العشق يتولد من النظر فقد جعل ترجمة هذا الباب : « من كثرت لحظاته دامت حسراته » وفى هذا المعنى يورد أشعارا كثيرة تدل على وقوع العشق بالنظر وحدوثه من ادامة التطلع الى مواطن الجمال ٠

ومع أن أغلب اختياراته فى هذا المعنى تدل على وقوع العشق بالنظر ، الا أنه يورد شاهدين يدلان على امكانية وقوع العشق بالسماع أولهما يرويه عن أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب :

اذا هن ساقطن الأحاديث للفتى
سقوط حصى المرجان من سلك ناظم
رمين فأنفذن القلوب ولا ترى
دما ما ترى الا جوى فى الحيازم

ولكن نهاية هذا الشاهد تبين اعتبار الشاعر للنظر دون السماع ، أو أن مراده السماع المساعد للنظر اذ يقول :

ولكن وبيت الله ما طل مسلما
كغر الثنايا واضحات الملاغم

والثانى يرويه عن القطامى ويصفه بأنه « أحسن ما قيل فى معناه » وهو :

وفى الخدور غمامات برقن لنا
حتى تصيدننا من كل مصطاد
يقتلننا بحديث ليس يعلمه
من يتقين ولا مكتوبه بادى
فهن يبدين من قول يصبن به
مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

★★★

الجانب العذرى فى كتاب الزهرة

حرص ابن داود على أن يؤكد ضرورة العفاف فى العشق ويبين مكانته فيه وأثره فى حسن عاقبته والحكم الأخلاقى والدينى عليه ، فأفرد لهذا المعنى الباب الثامن من كتابه الذى جعل ترجمته : « من كان ظريفا فليكن عفيفا » .

فقد كان ابن داود يؤمن بالمبادىء الاسلامية للعاطفة وبالمعانى العذرية التى أفاض فيها الشعراء الاسلاميون . كما كان ابن داود فقيها ومحدثا يلتزم القيم الأخلاقية التى جاء بها الاسلام .

ولذلك فقد استعان في تأكيد حقيقة العفاف بوسائل ثلاث :

١ ـ النصوص الدينيـة ٠

٢ ـ القيم الأخلاقيـة ٠

٣ ـ الأدب الاسلامي ونثره الذى يصـدر عن الوعى والالتزام بمبادىء الاسـلام ٠

والقيم الأخلاقية الى وجه اليها ابن داود الأنظار فى رعاية العفاف فى العشق قد جعلها مرتبطة بالابقاء على الود والحفاظ على الصلة ، اذ أنه يرى ان رعاية العفاف تحيط العلاقة بشفافية ونقاء يرقى بعواطف الانسـان ويسمو بوجـدانه ٠

فيقول :

« ولو لم تكن عفة المتحابين عن الادناس وتحاميهما ما ينكر فى عرف كافة الناس محرما فى الشرائع ولا مستقبحا فى الطبائـع لكان الواجب على كل واحد منهما تركه ابقاء لوده عند صاحبه وابقاء على ود صاحبـه عنده » ومعنى هذا أن هناك آدابا تحتم على العاشق أن يعف فى هواه ، حتى لا يعرض عاطفته للهوان أو الفنـاء ٠

وهذه القيم الأخلاقية التى يشير اليها ابن داود ويجعلها باعثا على التزام العفاف قيم نمت فى البيئة الاسلامية ، وأصبحت تقاليد لها مكانتها فى ذلك المجتمع واليها يشير ابن داود فى ترجمة الباب الذى يتحدث فيه عن الوفاء حين يقول : « من كان ظريفـا فليكن عفيفـا » ، وهو يعنى بالظرف هنـا : اللياقة والتثقيف والتقبل الحضارى والتشـكل بآداب المجتمع وتقاليده ٠ وقد كتب ابن داود كتابه هذا للصفوة المثقفة ولأصحاب الذوق والخلق فهو يشير الى آداب مرعية وتقاليد معهودة ٠

فاذا نظرنا الى الجانب الأدبى الذى استشهد به ابن داود على رعاية العفاف والاستمساك به ، نراه قد صـدر عن روح الاسلام ونما فى تربته ، وظهر انطباعه به فى أبهى صورة ٠

وقد تأثر هذا الشعر العفيف بدعوة الاسلام الى مخالفة الهوى وكف نوازعه كما قال سبحانه : « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى** » ، وقال : « **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** » ، وقال : « **ولمن خاف مقام ربه جنتان** » ٠

فمما يمثل أشعار المشتهرين بالعفاف قول العباس بن الأحنف :

أتأذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لايضمر السوء ان طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وهو يجرى على اعلان العفاف واجتناب الكبائر ، مع المسامحة فى الصغائر التى لا يخلو عنها العشق كالنظر والسمع ·

وعلى هذا الاتجاه يجرى قول حمزة بن أبى ضيغم :

وبتنا خلاف الحى لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبتنا يقينا ساقط الظل والندى من الليل بردا يمنة عطران
نذود بذكر الله عنا غوى الصبا اذا كاد قلبانا بنا يردان
ونصدر عن رى العفاف وربما شفينا غليل النفس بالرشفان

وفى هذه الأبيات يتضح لنا صدورها عن مبادىء الاسلام وتأثرها بتوجيهاته ·

وقد كانت أرقى رتبة يسمو المحب العذرى بمحبوبته اليها أن يصفها بالتقى وأن يزينها بالحياء فتلك أمثل صورة يرسمها العاشق العفيف لمحبوبته كما يقول النميرى :

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشت به زينب فى نسوة عطرات
خرجن بفج رائحات عشية يلبين للرحمن معتمرات
يغطين أطراف البنان من التقى ويخرجن بالأسحار مختمرات
فلما رأت ركب النميرى أعرضت وكن من أن يلقينه حذرات

كما يروى ابن داود عن أعرابى أنشده ببلاد نجد :

وقد كنت ودعت النقا ليلة النقا بما ليس يبلى ثوب جدته الدهر
وما نلت شيئا غير أنك قلت لى سأرعاك فاحفظنى فديتك يا بدر
سبتك بوجه كالصحيفة واضح وفى مقلتى وسنان فى طرفه فتر
وفى مضحك عذب كأن رضابه نوار أقاحى يدجنها العطر
ومالى علم غير أنى أظنه وما لى علم غير ظنى ولا خبر

ويروى ابن داود عن أعرابية بالبادية :

ويوم كابهام الحبـارى لهوته بقمعـة والواشون فيه تحرف
بلا حـرج الا كـلام مـودة علينـا رقيبـان : التقى والتعفف
اذا ما تهممنا صددنا نفوسنا كما صـد من بعد التهمم يوسف

وكان اقتناع هؤلاء أن الحب بغير عفـاف زائل لا خـير فيه وأن العفاف هو الذى يضفى على العاطفة السحر والشفافية كما قال الآخر :

ألا ياشفاء النفس لم تسعف النوى وتحيى فؤادا لا تنـام سرائره
أثيبى فتى حققت قول عـدوه عليه وقلت فى الصديق معاذره
أحبك ياسلمى على غير ريبـة وما خير حب لاتعف سرائره

فهذا تصريح بالقيم الثابتة فى المجتمع الاسلامى وتعبير واضح عن تأثر الأدب العربى بالاسلام وصدوره عن مبادئه .

وقد صرح الشعر العربى بقبح اللذة التى تورث صاحبها العار وتجلب له سخط الله وعقابه على نحو ما قال مسعر بن كدام :

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتهـا من الحرام ويبقى الاثم والعار
تبقى عواقب سوء فى مغبتها لا خير فى لذة من بعدها النار

وهذا تصوير لانطباع المسلم بعقيدته فى الثواب والعقاب وليس أثرا لفلسفة أو حكمة .

★★★

أما أهم القضايا المتعلقة بالحب فى كتاب الزهرة فيمكن أن نرى فيها أركان هذه العاطفة أو مقوماتها ، ونجملها فى :

(أ) الأسباب البعيدة للحب :

وذلك أنه حدد النظرة سببا لبداية الحب ولما كان ليس بالضرورة أن تنتهى كل نظـرة الى حب ، فقد وجب البحث عن تعليل أكثر غورا والتصاقا بالنفس الانسانية أو الجانب الغامض منها ومحاولته فى البحث عن هذا التعليل جديرة بأن نتعرف على تفاصيلها :

« وقد ذكرنا من أقاويل الشعراء فى الهوى أنه يقع ابتداؤه من النظر والسماع ما فى بعضه بلاغ ثم نحن ان شاء الله ذاكرون ما فى ذلك الأمر الذى أوقعه السماع والنظر ، ولو وقع وكيف وقع اذ قد صح كونه عند العامة وخفى سببه على الخاصة ·· عن النبى (ﷺ) أنه قال : « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » ·

وفى مثل ذلك يقول طرفة بن العبد :

تعارف أرواح الرجال اذا التقوا فمنهم عـــدو يتقى وخليـــل
وان امرءا لم يعف يوما فكاهة لم لم يرد سوءا بها لجهول

وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضا فجعل فى كل جسد نصفا وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم ·

وقد قال جميل فى ذلك :

تعلـق روحى قبـــل خلقنـــا ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميـا وليس اذا متنـا بمنتقض العهد
ولكنه بـاق على كل حالـة وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

وهنا نتأمل كيف بدأ بحديث نبوى عقب عليه بأبيات جاهلية قريبة من معناه ، ثم قفز راجعا الى أفلاطون مؤيدا زعمه بأبيات من العصر الأموى وكأنها قد لقيت (فى ذلك) ·

وليس هذا السبب الميتـافزيقى ـ ان صـح التعبير ـ هو التعليق الوحيد لنشأة الحب فهناك التفسير الفلكى ، حيث تتحكم الأبراج فى اتفاق الأرواح فلا يجد المرء بدا من أن يحب صاحبه ، أو فى ترابط المنافع أو مشاعر الحزن والفرح « فأما اتفاق الأرواح فانه يكون من كون الشمس والقمر فى المولدين فى برج واحد ويتناظران من تثليث أو تسديس نظر مودة فانه اذا كان كذلك ، كان صاحبا المولدين مطبوعين على مودة كل واحد منهما لصاحبه » ·

وتوافق البرج يعنى توافق المزاج وهنا يظهر فى عالم الحب مصطلح جديد سيلعب دورا أساسيا فى تفسيره عند كل من كتب بعد ابن داود تقريبا وهو « المشاكلة » ، وقد جاء المصطلح الجديد فى صورة « زعم » لجالينوس • وتعليل الحب بالمشاكلة يتجاوز السبب المحدث لهذه المشاكلة وهل هو النجوم أو غيرها كما سنرى : « وزعم جالينوس أن المحبة قد تقع من العاقلين من باب تشاكلهما فى العقـل ولا تقـع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ؛ لأن العقل يجرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد والحمق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين » • فهذا هو « التوافق النفسى » بلغة عصرنا أو تجاذب الأشياء •

ثم يأتى السبب أو التفسير الثالث ويمكن أن ندعوه التفسير العلمى وهو يتلمس السبب فى نشاط الغدد المستجيبة لحركة الشعور فتتبادل معه التـأثير :

« وقال بعض المتطببين ان العشق طمع يتولد فى القلب وتجتمع اليه مواد من الحرص فكلما قوى ، ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج وشدة القلق وكثرة الشهوة وعند ذلك يكون احتراق الدم واستحالته الى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها الى السوداء • ومن طغيان السوداء فساد الفكر، ومع فساد الفكر تكون الفدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون وتمنى ما لا يتم ، حتى يؤدى ذلك الى الجنون فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه ، وربما مات غما وربما نظر الى معشوقه فيموت فرحا أو أسفا ••• » •

(ب) أطوار الحـب :

وأصدق ما يصور رأيه مجملا يقوله تعقيبا على قصيدة عمر بن أبى ربيعة النونية والتى تنتهى بقوله :

قلت : يا سيدتى عذبتيـــنى قالت : اللهم عـــذبنى اذن

يقول ابن داود :

« ولو لم يصبر المحب على امتحان الفه الا بسماع مثل هذا من لفظه، لكان ذلك حظا جزيلا ودركا جليلا فكيف وحال الصفاء اذا ابتدأت بين المتحابين بالمشاكلة الطبيعية ، ثم اتصلت بالحراسة عن الأخلاق الدنية ، ثم عذبت بالرعايات الاختيارية بلغت بهما الحال الى حيث انقطعت بهم دونه الآمـال » •

هذا اجمال لأطوار الحب وحالاته تمثل المشاكلة نقطة البدء فيه ، حيث يتم التجاذب والتلاقى على عاطفة واحدة ثم يبدأ جهاد المحبين سلبا بعدم الوقوع فى الخطأ أو الخطيئة ، ثم ايجابا برعاية هذه العاطفة وما ينبغى أن تنال من الطرفين من آداب وأفعال وأقوال ٠

أما مراتب الحب تفصيلا فانها تبدأ بالسماع والنظر فيتولد عنهما الاستحسان ثم يقوى فيصير مودة ثم تقوى المودة فتصير محبة ثم تقوى المحبة فتصير خلة ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى فاذا قوى الهوى صار عشقا ثم يزداد العشق فيصير تتيما ثم يزداد التتيم فيصير ولها ، وهو قمة ما يبلغه المحب ، اذ معناه الخروج عن حدود الترتيب والتعطل عن أحوال التمييز ٠

فالحب عند ابن داود نوع من الاستلاب يتخلى فيه المحب عن التفكر والتخيل والاحساس بأى شىء سوى المحبوب ، ومن ثم قد يعانى حالات من الشك والقلق والجحود والرغبة فى النكوص ، ولكنه لن يكون محبا ان ترك هذه الهواجس تقترب منه أو تؤثر فى توحد عاطفته فالحب الحق « هو ما لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء » وهذا يعنى فى النهاية أنه تصور عاطفة المحب بمعزل عن المحبوب ذاته فليس الحب شركة بين طرفين يضحيان فى سبيل غاية واحدة هى سعادة كل منهما بوجوده مع الآخر ، بل هو موقف فكرى فردى ينبغى على المحب الصادق التزامه بصرف النظر عن موقف الطرف الآخر ولهذا يبدى اعجابه بقول الشاعر :

ان الذين بخير كنت تذكرهم هم أهلكوك وعنهم كنت أنهاكا
لا تطلبن حياة عند غيرهم فليس يحييك الا من توفاكا

فهذا المحب قد صبر على مضاضة دائه ، مع علمه بأن صبره يزيد فى الداء « ولم ير أن ينعطف الى سواه ولا طلب الراحة الا من عند من ابتلاه » ٠ ويقبل بتحفظ قول الآخر :

ولما أبى الا جماحا فؤاده ولم يسل عن ليلى بمال ولا أهل
تسلى بأخرى غيرها فاذا التى تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

« وهذا وان كان مخالفا لذلك فى أنه جرب الأدوية على نفسه والتمس الراحة فى الف غير الفه ، فانه موافق للذى يقدمه فى التماسه من نحو الجهة

التى حدث عنها الداء فى رجوع نفسه الى وطنها واقبالها بعد الانحراف على سـكنها » ٠

★★★

(ج) آداب الحـــب :

لابد لنا أن نلقى نظرات الى القواعد التى قررها ابن داود للعاطفة العذرية والمقاييس التى جعلها حكما فى هذا المجال ، فهى جانب أصيل فى كتاب الزهرة الذى لم يرد له صاحبه أن يكون معرضا لنتـاج العاطفة فحسب ٠ بل أراد منه أن يصـبح سجلا لقوانين العاطفـة التى اكتسبها الذوق العربى واستشعرها وجدان المجتمع الاسلامى فى عصره وقبله ٠

وابن داود يعتمد فى تقريره لهذه القواعد على شعر العاطفة العذرية للشعراء الأمويين والعباسيين الذين اشتهروا بهذا اللون ، مثل جميل وكثير وذى الرمة والعباس بن الأحنف والمؤمل والنميرى وغيرهم،والذين سمت لديهم صور التعبير عن العاطفة وان لم يشتهروا بالعشق مثل ابن تمام والبحترى ٠

ولذا ، فان عرض هذه المبادىء التى قررها ابن داود لابد أن يقترن بالاستدلال عليها من الشعر ، وقد أفسح ابن داود المجال لهذه المختارات ، وقد كان ابن داود وهو يجمع هذه المختـارات على وعى بما تحويـه من اتجاهـات ٠

ويرى ابن داود أن العاطفة مراتب تتفاوت فى القوة والضعف وتترقى فى القلب حالا بعد حال ٠

وقبل أن يذكر لنا ابن داود هذه المراتب ينقل عن جالينوس أن « العشق من فعل النفس وهى كامنة فى الدماغ والقلب والكبد ٠ وفى الدماغ ثلاثة مساكن للتخيل وهو فى مقدم الرأس والفكر وهو فى وسطه والذكر وهو فى مؤخره ، وليس يكمل لأحد اسم عاشق الا حتى اذا فارق من يعشـقه لم يخـل من تخييله وفكره وذكره وقلبه وكبده ؛ فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد ومن النوم باشتغال الدماغ والتخييل والذكر له والفكر فيه ؛ فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به فمتى لم يشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقا فاذا القيه خلت هذه المساكن » ٠

وهنا تتهيأ أذهاننا لمعرفة مراتب المحبة التى يوردها ابن داود حسب وقوعها حالا فحالا ٠

فأول من يتوالد عن النظر والسماع الاستحسان ، ثم يقوى فيصير مودة ، والمودة سبب الارادة فمن ود انسانا ود أن يكون له خلا ، ومن ود عرضا ود أن يكون له ملكا ثم تقوى المودة فتصير محبة والمحبة سبب الطـــاعة ٠

وفى ذلك يقول محمود الوراق :

تعصى الاله وأنت تظهر حبـه هذا محال فى القياس بديـع
لو كان حبك صادقا لأطعتـه ان المحب لمن أحب مطيـــع

ثم تقوى المحبة فتصـير خلة ، والخلة بين الآدميين أن تكون محبة أحدهما قد تمكنت من صاحبه حتى أسقطت السرائر بينه وبينه فصار متخللا لسرائره ومطلعا على ضمائره ٠

ثم تقوى الخلة فتصير عشقا والعاشق يمنعه من سرعة الانخراط فى هوى معشوقه اشفاقه عليه وضنه به ، حتى ان ابقاءه عليه ليدعوه الى مخالفته وترك الاقبال عليه ٠ فمن الناس من يتوهم لهذه العلة أن الهوى آتم من العشق وليس الأمر كذلك ٠

ثم يزداد العشق فيصـير تتيما ٠ وهو أن تصـير حالة العشـق مستولية للعاشق ، فلا يكون معها فضل لغيرها ولا تريد بقياسه شيئا الا وجدته متكاملا فيها ٠

وفى مثل هذا المعنى يقول أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متـــأخر عنـــه ولا متقـــدم
أجد الملامة فى هواك لذيـذة حبـا لذكرك فليـلمنى اللوم
أشبهت أعـدائى فصرت أحبهم اذا كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهـدا ما من يهون عليـــك ممن يكرم

« ثم يزداد التتيم فيصير ولها ، والوله هو الخروج عن حد الترتيب والتعطل عن أحوال التمييز ، حتى نراه يطلب ما لا يرضـاه ويتمنى ما لا يهواه ، ثم لا يحتذى مع ذلك مثالا ولا يستوطن حالا ٠

وقد قال حبيب بن أوس الطائى فى نحو هذا :

ولهتـه العـلى فليـس يعـد ال بؤس بؤسـا ولا النعيم نعيمـا

والشوق تابع لكل واحدة من هذه الأحوال والمستحسن يشتاق الى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه ، ثم كلما قويت الحال قوى معها الاشتياق ، فالحب وما أشبه يتهيـأ كتمانه فاذا بلغت الاشتياق بطـل الكتمان » ٠

ذلك من حيث مراتب العشق وترقى أحواله ، ويؤكد ابن داود أن العشق اذا تمكن من القلب فلا حيلة له ولا تدبير ٠ يذكر لبعض أهـل عصره أبياتا منها :

وقد كان يسبى القلب فى كل ليلة ثمانون بل تسعون نفسا وأرجح
يهيم بهذا ثم يعشـق غـيره ويسـلاهم من فوره حين يصبح
فلما دعا قلبى هواك أجابـه فلست أراه عن ودادك يبرح
رميت بهجر منك ان كنت كاذبا وان كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
وان كان شىء فى البلاد بأسرها اذا غبت عن عينى عنـدى يملح
فان شئت واصلنى وان شئت لم تصل فلست أرى قلبى لغيرك يصلح

ثم يقـول :

« فالمحبة ما دامت لهوا ونظرا فهى عذبة المبتدأ سريعة الانقضاء فاذا وقعت مرتبة على التمام فى المصافاة ، تعذرت قدرة القلب على هواه فحينئذ تضل أفهام المتميزين وتبطل حيل المتفلسفين » ٠

وذلك يصدق على واقع ابن داود ويصور مأساته فى غلبة الهوى عليه وتمكنه من قلبه حتى أعياه أمره وجر عليه التلف ؛ فلم يقو على الخلاص منـه ٠

★★★

(د) من أعراض العشق وأحواله :

تناول ابن داود فى كتاب الزهرة ما يعرض فى العشق من أحوال وما يترقى فيه من مراتب مختلفة بين السرور والحزن والرجاء واليأس واللقاء والفراق ، وما يوقظ الجوى فى النفوس وما يبعث الشوق فى الفؤاد من مظاهر الطبيعة ومشاهد الكون ٠٠

ووسيلته فى ذلك عرض الصور الشعرية الكثيرة ، التى تشهد لقوله أو تثبت رأيه أو تدل على فكرته ·

فهو فى ذلك يضع الشواهد الشعرية فى مواضعها المناسبة ويرتبها على أحوالها اللائقـــة ·

ولن يتسع هذا العرض لمتابعة ما أورده ابن داود فى كل أحواله ، ولكننا نتتبع الأفكار الكلية والتحليلات الدقيقة التى كان فيها ابن داود رائدا أصيلا ، ونختار القليل من الشواهد التى سجلها ·

سوء الظن من شدة الضن :

يعلل ابن داود الغيرة التى تبدو على العاشقين تجاه من يهوون ، بأن ذلك ناشىء عن حرصهم وضنهم على غيرهم أن يشاركوهم فى هواهم ·

فالعباس بن الأحنف من سوء الظن وشدة الغيرة تبلغ به المـدى فلا يسمع محزونا يفضى بشـكوى الا خطر بباله أنه يعنى محبوبته ، مبالغة فى الحذر وحرصا ألا يشاركه فى هواه أحد ، برغم ثقته بمن يحب فيقول :

لم ألـق ذا شجن يبوح بحبه الا ظننتـــك ذلك المحبوبـــا
حذرا عليك وانني بك واثـق ألا ينال سواى منك نصيبـا

بل ان المحب يشتد قلقه حين يتفكر فى مصير محبوبه بعد موته : هل يقيم على العهد أم يشتغل بسواه كما يقول البحترى :

أعظم الرزء أن تقـــدم قبـلى ومن الرزء أن تؤخـر بعـدى
حـذرا أن تكون الفـــا لغيرى اذ تفردت بالهوى فيك وحدى

وقد يستولى سوء الظن على قلب المحب فلا يصغى لنداء العقـل فيقترف الجريمة التى يندم عليها طول حياته ومن هذا القبيل قصة ديك الجن ، وهو شاعر عباسى ذكرت المصادر الأدبية بعض أخباره ·

قال ابن داود :

« واتصل بى أن ديك الجن قدم من سفر فوجد جاريته ، وقد كان يهواها ، عند أخيه تسأله عن خبره لابطاء كان منها ، فقتلها وقتل أمها وقال فى ذلك :

يا مهجة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفى فى مجال خناقها ومدامعى تجرى على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتى من شفتيها
فوحق نعليها وما وطىء الثرى شىء أعز على من نعليها
ما كان قتليها لأنى لم أكن أبكى اذا سقط الذباب عليها
لكن بخلت عن العيون بلحظها وأنفت من نظر العداة اليها

فديك الجن يصرح بسر مأساته التى دفعته الى القتل ، ثم أورثته الحزن المقيم فقد بخل عن العيون بلحظها وأنف من تطلع الأبصار اليها وقد خامره — دون شك — من ذلك الشعور ما يذهل ويأسر ·

وقد ظل ديك الجن يبكى جارته تلك أحر ما يكون البكاء فى أسى صادق ولوعة غير مصنوعة فيقول :

قمر أنا أستخلصه من دجنة لبليتى وجلبته من خدره
فقتلته وبه على كرامة ملء الحشى وله الفؤاد بأسره
عهدى به ميتا كأحسن نائم والدمع يجرح مقلتى فى نحره
لو كان يدرى الميت ماذا بعده بالحى منه بكى له فى قبره
غصص الزمان تفيض منها روحه وتكاد تنزع قلبه من صدره

ومع ذلك الحزن الصادق ، لم يخلص ديك الجن من وساوس الغدر التى ساورته تجاه جاريته تلك ، وبرغم الأسى الذى يخنق أشعاره فانه لم يندم على فعله بل كان أسفه على غدر جاريته ··· يقول :

ليتنى لم أكن لعطفك ملت والى ذلك الوصال وصلت
فالذى منى اشتملت عليه ولعار ما قد عليه اشتملت
قال ذو الجهل لم جهلت ولا أعلم أنى حلمت حتى جهلت
لائم لى بجهله ولماذا أنا وحدى أحببت ثم قتلت
سوف آسى طول الحياة وأبكيـ ـك على ما فعلت لا ما فعلت

ويرى ابن داود فى هذه الأبيات احتمال أن يكون ديك الجن مغلوبا فيها على عقله ، أما اذا لم يكن كذلك « فظنه الظن الذى لا غاية بعده ، وذلك أنه قد أيس من حبيبه بقتله له · وهو غير نادم على فعله بل مصوب له وراجع باللوم على نفسه فيما أتاه من الغدر » ·

وحين يتأمل الناظر هذه الغصص التى يتجرعها العاشقون فى ضنهم وظنهم واشفاقهم ووساوسهم يرى صدق قول القائل :

وما فى الأرض أشقى من محب وان وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيا فى كل حين مخافة فرقة ، أو لاشتياق
فيبكى ان نأوا شوقا اليهم ويبكى ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى وتسخن عينه عند التلاقى

أما ابن داود فانه يرى أن «تلك المكاره كلها أثمار الملاذ التى قبلها» .

فعنده أن الأمر يترقى بالمحبين من مرتبة الى أخرى حتى ينتهى بهم الى هذه الحال المقلقة ، ويشرح لنا ابن داود كيف يصل العاشق الى درجة الضن وسوء الظن فيقول : « فان من هوى انساناً ، فان قصاراه حين يهواه أن يعيد نظره اليه فيروى من شخصه ويستمع من لفظه » ويترقى به ذلك الى كثرة التلاقى والمواصلة وهو فى تلك الحال لا ينتبه الى موقف محبوبه ممن سواه ، لأنه مشغول بحظوظ نفسه « بل يجب أن يكون الفه سمحا بالمواصلة لمن علم أنه يوده ؛ ليكون ذلك سببا له الى مواصلته وتسهيلا له السبب الى معاشرته » .

وبعد ذلك يتشاغل المحب بالمطالبة بحقوق الفه . بعد أن يفرغ من المطالبة بحظوظ نفسه له من معاشرة غيره ، بل انه يصون الفه ويشفق عليه من مخالطته وعندئذ تبدر بوادر الشك وتهب رياح الظن ؛ فيعود الى ما كان يحسب له به مكرمة من برء به فيجعله عليه هجنة ويوهم نفسه أن ذلك الذى ناله ممنوح من كل من سأله .

ألم تسمع الذى يقول :

فلا تكثرى قولا منحتك ودنا فقولك هذا فى الفؤاد مريب
تعدين ما أوليتنى منك نائلا وللقابس العجلان منك نصيب

« فحينئذ يظن المحب ما لا يخشاه ويتمنى ما لا يهواه ويفسد عليه أمر دينه ودنياه وهذه حال الوله الذى ذكرناه » .

ومعنى ذلك أن هذه الحال من شدة الضن وسوء الظن تقتصر على مرتبة الوله وهى مرتبة فوق العشق ، أما مرتبة العشق فانها « توجب على المحب طاعة المحبوب فى كل ما أحب حتى لا يعصى له أمرا ولا يقبح له فعلا » .

★★★

ابن داود وتاثيره

ما المصادر التى يمكن أن نرجع كتاب الزهرة اليها ؟

هل هى كتب بذاتها ؟ أم هى أجناس من الأدب والعلم ؟ وهل يعود الى الثقافة العربية وحدها ؟ أم أن فيه ألوانا من الثقافات الأخرى ؟

وأول ما نلمحه فى كتاب الزهرة أنه ليس تأليفا بالمعنى المفهوم من الكلمة وهو النظر فى نتاج السابقين والاختيار من آرائهم وأقوالهم ، فليس مستقى من كتب ولا صادرا عن دراسات سابقة ، اذ انه لم تسبق دراسة ابن داود للعشق دراسة يعول عليها ويؤخذ عنها ٠

ومن هنا كان كتاب الزهرة كتابا رائدا فى موضوعه ، اختط لنفسه منهجا جديدا وأقام بناءه كما يحلو له ، ودون أن يثقله عناء النقل عن الكتب ودراسة الوجهات السابقة ٠

ويدل على ذلك قول ابن داود فى مقدمته : « انتزعته لك من خواطرى واخترته من غريب ما اتصل بمسامعى » ٠

فكتاب الزهـرة كما يقول د٠ مصطفى عبـد الواحـد فى كتابـه « دراسات الحب فى الأدب العربى » عبارة عن أجناس أدبية وعلمية ، مزج بينها ذوق دقيق وفكر منظم ووجدان رقيق وهذه الأجناس هى :

١ ــ الشعر العربى فى عصوره الجاهلية والأموية والعباسية ٠
٢ ــ النقد الأدبى ٠
٣ ــ الأخبار الأدبية ٠
٤ ــ معلومات من الحكمة والفلسفة ٠
٥ ــ التحليلات والتأملات النفسية ٠
٦ ــ أحاديث ولمحات دينية ٠

وبذلك يتمثل فى هذا الكتاب كل ألوان الثقافة الأدبيـة بمعناها الشائع فى الفترة التى عاشها ابن داود ٠

وهذه الثقافة التى يصدر عنها ابن داود فى كتابه ثقافة عربية اسلامية ، تنتسب الى البيئة التى عاش فيها ابن داود ولا تمد بجذور الى سواها ٠

ومن هنا ، فلا يمكن أحدا نسبة كتاب الزهرة الى مصادر دخيلة على الثقافة العربية فهو لا يمت فى غايته أو وسيلته الى جذور غير عربية ٠

فقد نشأ هذا الكتاب استجابة لحاجة اجتماعية ، حين حاول ابن داود أن يقدم للصفوة المتأدبة فى مجتمعه تحليلا لحقيقة الحب وصورة مكتملة لقواعده وآدابه ، واستعان فى ذلك بكل الوسائل الثقافية والأدبية المعاصرة له التى تناسب موضوعه وتحقق غايته٠ويدل على الصبغة العربية لكتاب الزهرة أن الشعر كان سداه ولحمته بحيث يمثل أعظم جانب فيه فهو اذن مستقى من الوجدان العربى قائم على صوره وأخيلته ٠

ويستطرد د٠ مصطفى عبد الواحد قائلا :

« ولسنا ننفى بذلك أن يكون لابن داود اطلاع على الثقافات المترجمة كالفلسفة اليونانية،فان من الثابت أن ابن داود قد طالع جانبا من هذه الفلسفة التى ترجمت قبل مولده فى بداية العصر العباسى،بدليل ما يذكره فى كتابه من اشارات موجزة اليها ؛ ولكننا ننفى أن يكون كتاب الزهرة صادرا عنها أو أثرا من آثارها ، فان الحيز الذى شغلته الفلسفة فى كتاب الزهرة حيز ضئيل بحيث لا يمثل عنصر ذا أهمية فيه ، ولو أنك حذفتها من الكتاب ثم قرأته لم تجد فيه حلقة مفقودة ولا فجوة بارزة ٠

وأغلب الظن أن ابن داود ضمن كتابه هذه اللمحات القليلة من الفلسفة والعلوم الطبيعية حلية لكتابه وشارة الى نواحى ثقافته ، فان الفلسفة فى ذلك العصر كانت لاتزال طريفة جديدة على الأذهان أو كانت طابع التجديد وشارة التفوق » ٠

وعلى كل ، فان أهم المصادر التى اعتمد عليها ابن داود فى كتابه هو الشعر بحيث نستطيع اعتباره مجموعا من المجاميع الشعرية الضخمة حفظت لنا جانبا هاما من تراثنا الشعرى فى أعذب صورة وأرقها وهو جانب العاطفة المشبوبة والمشاعر المحلقة ، أما المصادر العلمية من فلسفة ودين ونقد فهى لا تمثل فى الكتاب جوهره ، بل تضيف اليه حلية أو تستكمل زينة ، ويبقى بعد ذلك عمل الرجل فى تحليل هذه الأبيات الشعرية وفى الافضاء بنظراته فى قواعد العشق وآدابه وتحليلاته النفسية لخواطره وخلجاته وان كان جانب الشعر قد طغى على التحليل والتعليل٠

وقد اعتمد ابن داود فى ايراد الشعر فى كتابه على الرواية الشفهية عن معاصريه أمثال البحترى ، وعلى الرواية الأدبية عن العصور السابقة وقد كان المتأدبون يتفاوتون بمقدار روايتهم للشعر وكثرة حفظهم منه .

أما جانب التحليل والتأمل فى الكتاب،فقد صدر عن ذهن ابن داود وانبعث من وجدانه فليس له فيه مرجع سابق وليس لهذا الشأن أصل مقـدم .

وقد دل ابن داود فى تحليله للخواطر والأفكار فى كتابه ـ على ملكة أصلية وذوق دقيق ، ولو أنه أفسح المجال لهذا التحليل لخرجنا بدراسة نفسية مكتملة للمشاعر والخواطر والأفكار التى تتصل بموضوع العشق ، ولكن التزامه بقدر معين من الشعر جعله يفسح له المجال ويبث خواطره وآراءه على قدر .

أما تأثير كتاب الزهرة فى الدراسات الأدبية فى موضوع العشق ، فانه لا يبدو واضحا فى كتاب بعينه ، بقدر ما يبدو فى كتاب طوق الحمامة لابن حزم .

وما عدا ذلك،فلم ينح منحى ابن داود أحد من الكاتبين فى موضوع العشق .

ولا شك فى أن كتاب الزهرة كان ذا تأثير قوى فى كل الكتب التى تناولت موضوع العشق من بعده من حيث المادة الشعرية الحافلة التى حواها ، والتى حفظت جانبا كبيرا من شعر الأعراب والأفراد غير المشتهرين، ولولاه لضاع جانب هام من تراثنا الأدبى ولفقدت حلقة تعبر عن أرق جانب فى الوجدان العربى ، كما أن ترتيبه لدرجات العشق ووضعه لقواعده وآدابه ظلت هى النموذج المرعى فى الدراسات التى اهتمت بالتحليل والترتيب مثل طوق الحمامة وذم الهوى لابن الجوزى وغير ذلك .

★★★

مروج الذهب

المسعودي

القرن العاشر الميلادي

من ميزات المؤلفات التاريخية التى دونتها أقلام المؤرخين العرب الذين عاشوا وكتبوا فى العصر العباسى الثانى وما تلاه ، اتجاهها نحو المنهج العلمى وميلها الى الدقة التى تتطلبها كتب التاريخ بشكل عام • ويمثل هذا الاتجاه الجديد فى التاليف التاريخى ثلاثة هم : الطبرى والمسعودى ومسكويه •

وقد تحدثنا فى الأجزاء السابقة من الموسوعة عن كل من الطبرى ومسكويه ، واذ نتحدث فى هذا الجزء عن المسعودى سنجد أن المسعودى المؤرخ يسير على نهج الطبرى فى بعض الأمور : فهو مثلا مؤرخ حسب السنين لا حسب الموضوع ويذكر أكثر من رواية فى الموضوع الواحد ويستقى مواده من أقوال من سبقوه من المؤرخين بعد أن يتحرى الصدق فيما يجمع؛ولكنه يغاير منحى سلفه فى أمور كثيرة أخرى لظروف فرضتها بيئته وثقافته وعصره وغير ذلك ، وقبل أن نبسط القول فى خصائص مؤلفاته ونهجه فى البحث لنعش معه حياته كما تصورها لنا المعلومات القليلة التى نراها مبعثرة فى ثنايا بعض كتب التراجم والأخبار •

مولد المسعودى

المسعودى واسمه الكامل أبو الحسن على بن الحسين لا تبدأ حياته بسنة مولد ومكان ولادة • بل يكتنف الغموض سنة مولده وفى المصادر أكثر من رواية حول مكان ولادته • فابن النديم صاحب الفهرست مثلا يذكر أنه من أهل المغرب ، فى حين أن غيره من كتاب التراجم كالذهبى وياقوت الرومى وابن شاكر وغيرهم يجمعون على أنه من مواليد بغداد ، وأنه من نسل الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود • ويؤيد هذا الزعم ما يذكره المسعودى نفسه فى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » حيث يعدد أوصاف الأقاليم المختلفة فيقول : « وأوسط الأقاليم الذى ولدنا به وان كانت الأيام أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه وولدت فى قلوبنا الحنين اليه ، اذ كان وطننا ومسقطنا وهو اقليم بابل وقد كان هذا الاقليم عند ملوك الفرس جليلا وقدره عظيما » وهكذا يمكننا أن نقول فى تحديدنا لمكان ولادته انه أبصر النور فى بغداد ، مسقط رأسه ومستقر أهله وذويه من نسل صاحب رسول الله عبد الله بن مسعود • أما زمان ولادته فتهمله المصادر التى بين أيدينا ولا تتعرض له بذكر وهذا أمر طبيعى ، لأن أحدا لم يكن يتوقع له الشهرة وذيوع الصيت حين ولد ؛ ولكنه حين نبغ واحتل بين رجال عصره مكانا مرموقا سلطت الأنوار عليه

وتناقلت اسمه الألسن فحرص رجال التراجم على تدوين سنة وفاته والمصادر ، الا أن بعضها القليل ، تجمع على أن وفاته كانت فى العام ٣٤٦ للهجرة ، كما أن فى بعضها ما يدل على أنه دخل الحياة العامة وأخذ يجول الأقطار طلبا للعلم والمعرفة فى مطلع القرن الرابع للهجرة • وهذا ان كان لا يرشد الى سنة مولده الحقيقية ، فانه يسمح لنا بالاعتقاد بأنه ولد فى أخريات القرن الثالث الهجرى وانه لم يعل له ذكر الا منذ مطلع القرن الرابع ، ولذا فهو يعد من مؤرخى هذا القرن الأخير •

أسفار المسعودى

وقد أحب المسعودى الأسفار منذ شبابه فسافر سنة ٣٠٥ الى اصطخر فى فارس وزار فى السنة التى تلت بعض مناطق الهند وسيلان وبلاد سيمور ، وانضم الى فريق من التجار فى رحلة فى بحر الصين وعبر البحر الأحمر وزار مدغشقر كما زار زنجبار وعمان • وحوالى سنة ٣١٤ نجده يجوب بحر الخزر (بحر قزوين) ومناطقه ، وينتقل بعدها لزيارة طبرية وفلسطين ، وقد قام فى سنة ٣٣٢ بزيارة لأنطاكية ، وبعض مدن الحدود السورية • واستغرقت زيارته لهذه المناطق مدة سنتين أقام أثناءها فى بعض مدن الثغور الشامية والبصرة • حتى كان العام ٣٢٤ فتوجه الى دمشق وأمضى فيها بعض الوقت • وانتقل منها الى مصر ليعيش متنقلا بينها وبين سوريا حتى آخر حياته • وقد توفى سنة ٣٤٦ وهو مقيم فى الفسطاط بمصر •

هيرودوت العرب

وقد دفع المسعودى للقيام بهذه الرحلات الطويلة المتنائية حبه للعلم ورغبته فى طلبه والاستزادة منه • فهو بهذا يشبه المقدسى والبيرونى • وقد أتاحت له هذه الأسفار أن يعنى بمعارفه الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ، وأن يتعرف على لغات وعادات وتقاليد وأخلاق وسياسات الأمم المختلفة التى زارها • وهو فى جمعه بين المعرفة الجغرافية الواسعة بنتيجة الرحلات والأسفار وشغفه بالحقيقة التاريخية والأخبار بوجه عام ، يلتقى بهيرودوت أبى التاريخ عند اليونان فكلاهما رحالة زار البلاد وجاب الأقطار ، وكلاهما جمع أخبار الأمم التى زارها ، وكلاهما مزج بين التاريخ والجغرافيا فى مؤلفاته • وقد دعا هذا بحق المستشرق فون كريمر أن يشير الى المسعودى فى كتابه « تاريخ الثقافة فى الشرق » باسم هيرودوت العرب •

ينقـل ولا ينقـــد

يأخذ البعض على المسعودى أنه لم يكن يتمتع دوما بالروح العلمية العميقة ، وأنه كان فى بعض الأحيان سطحيا يقبل الخرافات والأساطير ويسردها فى كتبه كما تصل اليه دونما تمحيص أو نقد · ولكن المستشرق سيديو لا يعتبر هذا عيبا فى المسعودى بل يرجعه الى روح حب الاطلاع النامية عنده فيقول : « ولا نخشى التكذيب اذا قلنا انه لم يظهر بين العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودى واذا كنا نراه محتاجا الى روح النقد أحيانا ، فلنذكر أن حب الاطلاع الشديد فيه حفزه الى زيارة الأماكن الى أراد الوقوف على تاريخها فكان يساق الى نقل قصص ذات أصل مشكوك فيه » ·

المســعودى موسوعى

والمسعودى موسوعى لا يؤمن بالموضوع الواحد ولا يقنعه الاختصاص الضيق فيما يكتب واذا كان لهذا النهج مساوئه ، فهو لا يخلو من محاسن تدل على سعة أفق المؤلف وشمول نظراته وتعدد جوانب ثقافته ويحدثنا هو عن تنوع الموضوعات التى يضمها المؤلف الواحد من مؤلفاته فيقول فى الباب الذى يذكر فيه جوامع أغراض كتابه المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ما يلى مما يستدل منه على تضمينه هذا الكتاب أبحاثا فى التاريخ والجغرافيا والعادات والتقاليد والأخلاق والأدب وأخبار الملوك وسياستهم وغير ذلك · يقول المسعودى : « أما بعد ، اننا صنفنا كتابنا فى أخبار الزمان وقدمنا القول فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها···ثم أتبعناه بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة ·· ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط فى الاخبار على التاريخ ومن درج فى السنين الماضية ··· ونعتذر عن تقصير ان كان ونتنصل من اغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة فتارة باقصى خراسان وتارة بأواسط أرمينيا وأذربيجان وطورا بالعراق وطورا بالشام ··· نسرى فى الآفاق سرى الشمس فى الاشراق · كما قال بعضهم :

تيمم أقطار البلاد فتارة
لدى شرقها الأقصى وطورا الى الغرب
سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى
الى أفق ناء يقصر بالركب

وفاوضنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم وتباين هممهم وتباعد دارهم .. » .

وهكذا يصنف لنا الموضوعات التى تطرق الى بحثها فى كتابه وينقلنا معه فى أسفاره واصفا متاعبه فى رحلاته واطلاعه الواسع على ما ألف من قبله ومعددا بعضا مما دبج قلمه من مؤلفات فى التاريخ والجغرافيا وغيرها . وهو كغيره من المؤرخين العرب لا يتبع نظاما موحدا فى عرض مادته ونراه فى كثير من الأحيان يخرج عن جادة الموضوع الأصلى ليذكر أشياء لا تمت الى ما يبحث بصلة أو نسب . ولكنه يهتم ببحث جميع الأشياء التى يعتبرها المتعلم فى عصره أساسية ؛ لذلك جاءت مؤلفاته جامعة لكثير من المعلومات المتشعبة المتفرعة . وهو يلتفت بشكل خاص الى الأمور الاجتماعية والدينية والعلمية التى تميز بها العرب قبل اسلامهم ويقارن بينهم وبين العجم وغيرهم من الأمم ، محاولا اظهار فضل العرب وتقدمهم فتراه عند ذكر سير الملوك والخلفاء يستقصى أدق أخبارهم الخاصة فيدخل بيوتهم ويعيش معهم فى مجالسهم ويصف ملامحهم وعاداتهم فى المآكل والمشرب الملبس مما لا تجده عند غيره . وقل الأمر نفسه عن اهتمامه بما كانت عليه أمة العرب من معتقدات دينية وايمان بآلهة وأوثان وزجر الطير وسوانحه وبوارحه والكهانة والعرافة ، حتى يصل الى علومهم ومجالس أنسهم وقيانهم وآلات طربهم التى ضاع أغلبها ولم يصل الينا منها الا القليل .

تصانيف المسعودى

ومن تصانيفه : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، التنبيه والاشراف ، أخبار الخوارج ، ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور ، الرسائل ، الاستذكار بما مر فى سالف الأعصار ، أخبار الأمم من العرب والعجم ، خزائن الملوك وسر العالمين ، المقالات فى أصول الديانات ، البيان فى أسماء الأئمة ، المسائل والعلل فى المذاهب والملل ، الابانة عن أصول الديانة ، سر الحياة ، الاستبصار فى الامامة ، والسياحة المدنية فى السياسة والاجتماع ، ويبدو أن أوسع

كتبه كان كتابه « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » . وهو كتاب فى التاريخ العام والجغرافيا بدأ فى تأليفه سنة ٣٣٢ هـ ـ ٩٤٣ م . وقد بلغ عدد أجزاء هذا الكتاب ثلاثين مجلدا ، عرض فيها المسعودى الحوادث حتى سنة تأليفه . وقد ضاعت أجزاء هذا الكتاب كلها ولم يبق منها الا مجلد واحد اشتراه المستشرق فون كريمر من مكتبة فى حلب وحفظه فى مكتبة فيينا . ويذكر السائح الانجليزى بوركهارت فى كتابه « رحلات فى بلاد النوبة » ان شيخا قاهريا قص عليه فى مطلع القرن التاسع هذا الكتاب فى ملازم من أربع ورقات فى مكتبه فى جامع أياصوفيا بالقسطنطينية ويبحث المسعودى فى هذا الكتاب تاريخ العلم وجغرافية ديار الحرب (أى بلاد غير المسلمين) كما يبحث أيضا فى الأساطير التى تتحدث عن تاريخ مصر القديم . وقد نقل جزءا مما كتبه فى هذا الكتاب فى كتابه « الكتاب الأوسط » الذى لم يبق منه أيضا الا مجلد واحد محفوظ فى مكتبة البودليان فى أكسفورد .

وقد اختصر المسعودى المعلومات التى أوردها فى هذين الكتابين (كتاب أخبار الزمان والكتاب الأوسط) وجمعها فى كتابه المسمى « مروج الذهب » الذى انتهى من تأليفه سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وأعاد النظر به سنة ٩٤٥ هـ / ٩٥٦ م أى قبل وفاته بقليل .

كتاب التنبيه والاشراف

وللمسعودى كتاب مطبوع آخر هو كتاب « التنبيه والاشراف » الذى ألفه قبل وفاته بقليل ، وهو على حد تعبير المؤلف نفسه مقدمة لكتبه وتكملة لها . وهذا الكتاب عظيم الأهمية ؛ لأنه يحوى كل ما حصله المؤلف من الأخبار بعد أن كتب « مروج الذهب » الكتابة الأولى وهى التى وصلت الينا وقبل أن يعيد النظر به كما ذكرنا آنفا . وهو كتاب جغرافى أودع المؤلف فيه لمعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها وتراكيبها وأقسام الأزمنة والفصول السنوية ومنازلها والرياح ومهابها والأرض وشكلها ومساحتها وتأثير النواحى والآفاق على السكان والعروض والأطوال والأقاليم السبعة والأنهار ومصابها . كما يذكر فى هذا الكتاب الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها، كما يذكر ملوك الفرس والروم وأخبارهم وأخبار الأنبياء وسيرة الخلفاء حتى سنة ٣٤٥ للهجرة . وميزة هذا الكتاب أنه يحوى الكثير من المعلومات الجديدة التى لم يضمنها المسعودى مؤلفاته الأخرى . وقد طبع النص العربى الكامل لهذا الكتاب المستشرق دو خويه

فى سلسلة « مكتبة جغرافيى العرب » وذلك فى مدينة ليدن عام ١٨٩٤ ، وقد ترجم النص العربى هذا الى الفرنسية المستشرق كارا دى فو ، ونشره ضمن منشورات الجمعية الآسيوية ـ مجموعة الكتب الشرقية ـ وذلك فى باريس عام ١٨٩٧ .

واذا كان لحرص المستشرقين والمهتمين بتاريخ العرب والاسلام على ترجمة كتب المسعودى الى اللغة الأجنبية وطبعها ونشرها من دلالة ، فهى تقديرهم البالغ لآثار هذا المؤلف وحرصهم على الافـــادة منهـــا ويلخص فازيليف فى كتابه « العرب والروم » اعجاب المؤلفين الغربيين بكتب مؤرخنا المسعودى بقوله : « وكتب المسعودى مما يقرؤه المسلمون والأوربيون على السواء فيجدونه ممتعا طليا وذلك راجع الى تنوع الأخبار التى يسوقها المؤلف والى قدرته على جعل سرده حيا فى كتبه » .

كتاب مـــروج الذهب

لا شك فى أن كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » من أعظم كتب المسعودى خاصة ومن أبرز المصنفات العربية عامة . تحدث المسعودى عن سبب تسمية كتابه بهذا الاسم فقال : « وقد وسمت كتابى هذا بكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه : من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة فى معناه وغرر مؤلفاتنا فى مغزاه جعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات ؛ لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة اليه وتنازع النفوس الى عمله من دراية ما سلف وغبر فى الزمان » .

وكتاب « مروج الذهب » دراسة تاريخية جغرافية ربط بها المسعودى بين الزمان والمكان . تحدث المسعودى عن محتوياته فقال انه تحدث فيه عن « التاريخ وأخبار العالم وما مضى فى أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها » .

ويتميز كتاب « مروج الذهب » أيضا باهتمامه الواضح بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية ، فنجد فيه صورا كثيرة لحياة كثير من الشعوب عربية وغير عربية . وكان المسعودى أول من اهتم بدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصـــادية .

وكتاب « مروج الذهب » ليس تاريخا متصل الحلقات بعضه ببعض، ولكنه يتالف من مجموعة من الأحداث والاخبار رتبها المسعودى ترتيبا موضوعيا ويمكننا أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية الى قسمين متميزين : أما القسم الأول فيتحدث فيه المسعودى عن الخليقة وقصص الأنبياء والبحار والأرضين وما فيهما من العجائب وتواريخ الأمم القديمة من الفرس واليونان والرومان والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم والشهور والتقاويم ، ثم تحدث المسعودى فى آخر القسم الأول عن البعثة النبوية والدولة العربية الاسلامية منذ عهد الرسول الى خلافة عثمان ابن عفان · أما القسم الثانى فيبدأ بخلافة على بن أبى طالب · ثم يتناول الخلافة الأموية ثم يتحدث عن الخلافة العباسية حتى عهد الخليفة المطيع لله العباسى سنة ٣٤٥ هـ اذ توفى المسعودى فى سنة ٣٤٦ هـ ·

أشار المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » الى كثير من كتبه التى ضاعت فلم تصل الينا،والى كتب غيره من المؤلفين التى لاقت نفس المصير، مما يدل على أن المسعودى قد قرأ كثيرا من الكتب واعتبرها مصادرا لكتابه الى جانب مشاهداته وما سمعه خلال رحلاته وان كانت بعض المعلومات الجغرافية التى أوردها المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » قد ورد ذكرها فى كتب من سبقوه الا أنه ينفرد بمزية لم يشاركه فيها من سبقه من الجغرافيين العرب ، اذ تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الاسلامى فى عصره · كما تميز عنهم بالدقة والعمق وطرق المسعودى مواضيع جديدة لم يطرقها من سبقه من المؤرخين المسلمين : فقد تحدث عن تواريخ الهند والفرس والروم واليهود ، كما أبرز تاريخ العرب فى العصر الجاهلى وأديانهم وعاداتهم وأيامهم ·

رسم المسعودى لمن يقرأ كتابه « مروج الذهب » طريقة الاستفادة منه ، وحتى يدرك القارىء المجهود الكبير الذى بذله فى تأليفه ، أشار المسعودى الى رحلاته العديدة وأنه ينتهج مذهب الحياد التاريخى فلا يتعصب ولا ينحاز الى أحد ولا يعرض بأحد فيقول المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » : « وجميع ما أوردناه فى هذا الكتاب لا يسع ذوى الدراية جهله ولا يعذر فى تركه والتغافل عنه ، فمن عد أبواب كتابى هذا ولم يمعن النظر فى قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلنا ولا عرف للعلم مقداره فلقد جمعنا ما فيه فى عدة سنين باجتهاد وتعب عظيم وجولان فى الأسفار وطواف فى البلدان من الشرق والغرب فى كثير من الممالك غير مملكة الاسلام · فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة وليتفضل

بهمته باصلاح ما أنكر منه مما غيره الناسخ وصحفه الكاتب وليرع لى نسبة العلم وحرمة الأدب وموجبات الرواية وما تجشمت من التعب فيها فان منزلتى فيه وفى نظمه وتاليفه بمنزلة من وجد جوهرا منثورا ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنظم منها سلكا واتخذ عقدا نفيسا ثمينا باقيا لطلابه . وليعلم من نظر فيه أنى لم أنتصر فيه لمذهب ولا تحيزت الى قول ولا حكيت عن الناس الا مجالس أخبارهم ولم أعرض فيه لغير ذلك » .

نال كتاب « مروج الذهب » اهتمام المفكرين فى الشرق والغرب . فقد ترجمه المستشرق « باربيه دى مينار » الى اللغة الفرنسية وطبع الكتاب فى باريس سنة ١٨٧٢ فى ٩ مجلدات ؛ كما ترجم الأستاذ « سيرنجر » الكتاب أيضا الى اللغة الانجليزية وظهر الجزء الأول فى لندن سنة ١٨٤١ . كما ظهرت طبعات عربية عديدة للكتاب فى كثير من العواصم العربية .

مع مقتطفات من مروج الذهب

(أ) الجزء الأول :

١ ــ فى الباب الأول من كتاب « مروج الذهب » نرى المسعودى وقد سلك مسلك المؤلفين المحدثين فيتحدث عن دافعه الى تاليف هذا الكتاب والمصادر التى اعتمد عليها مع عقد مقارنة بينها . يبدأ الباب الأول بحديث المسعودى عن كتابه « أخبار الزمان » وقد لخص المسعودى أبواب هذا الكتاب على النحو الذى ذكرناه آنفا عند حديثنا عن آثار المسعودى . ثم يتحدث المسعودى عن كتابه الثانى «الأوسط فى الاخبار على التاريخ» ، ثم تحدث عن الدافع له على تاليف كتاب « مروج الذهب » فقال : « رأينا انجاز ما بسطناه واختصار ما وسطناه فى كتاب لطيف نودعه لمع ما فى ذينك الكتابين مما ضمناهما وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم الماضية والأعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما » .

ويظهر المسعودى بمظهر المتواضع فهو يعتذر عما قد يلاقيه القارىء من تقصير ويعلل ذلك التقصير بقوله : « على أن نعتذر من تقصير ان كان ونتنصل من اغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر ...

ثم مفاوضنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم وتباين هممهم وتباعد ديارهم على أن العلم قد بادت آثاره وطمس مناره وكثر فيه العناء وقل الفهماء فلا تعاين الا خمولا جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا قد منع بالظنون ، وعمى عن اليقين » .

ثم تحدث المسعودى عن كتبه ومؤلفاته ودون نبذة مختصرة عن كل كتاب منها ثم حدد أهدافه من تاليف « مروج الذهب » فقال انه أراد « احتذاء الشاكلة التى قصدها العلماء وقفاها الحكماء ، وأن يبقى للعالم ذكرا محمودا وعلما منظوما عتيدا » ، وأراد المسعودى أن يثبت للقارىء أن كتابه يتميز عن كتب من سبقوه فقال : « فانا وجدنا مصنفى الكتب فى ذلك مجيدا ومقصرا ، ومسهبا ومختصرا ، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غلب البارع منها على الفطن الذكى ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ولكل اقليم عجائب يقتصر على علمها أهله » . ويفخر المسعودى على أقرانه المؤلفين اذ قد رحل كثيرا واستفاد من رحلاته فيقول : « وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى اليه من الأخبار من اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه واثارة كل نفيس من مكمنه » .

وأشار المسعودى الى كتب من سبقه من المؤلفين ونقدها نقدا علميا ، وأبرز ما فيها من محاسن ومميزات وأشار الى بعضها اشارات عابرة وأطنب فى مدح بعضها الآخر ، واشتد فى انتقاد سنان بن ثابت قرة الحرانى . وقال اجمالا عنهم : « وقد ألف الناس كتبا فى التاريخ والأخبار ممن سلف وخلف فأصاب البعض وأخطأ البعض وكل قد اجتهد بغاية امكانه وأظهر مكنون جوهر فطنته » وخشى المسعودى أن يكون قد أغفل ذكر بعض الكتب الأخرى فلم يشر اليها فقال : « ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار الا ما اشتهر مصنفوها ، وعرف مؤلفوها ولم نتعرض لذكر كتب تواريخ أصحاب الأحاديث فى معرفة أسماء الرجال وأعصارهم وطبقاتهم،اذ كان ذلك كله أكثر من أن ناتى على ذكره فى هذا الكتاب » .

ثم أشاد المسعودى بكتابه « مروج الذهب » وعدد مزاياه فقال : « ولم نترك نوعا من العلوم ولا فنا من الأخبار ولا طريقة من الآثار الا أوردناه فى هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا اليه بضرب من الاشارات أو لوحنا اليه بفحوى من العبارات » .

وينهى المؤلف عن التصرف فى الكتاب فى أية صورة ويخوف من ذلك ويذكرنا هذا بما نراه اليوم فى مقدمات بعض الكتب الحديثة التى يحذر مؤلفوها كل من تسول له نفسه أن ينقلها أو يترجمها أو يطبعها بدون اذن المؤلف !! وان كان المؤلف المحدث يهدد اليوم باللجوء الى القضاء فالمسعودى يهدد من يعبث بكتابه بغضب الله عليه وسرعة نقمته وان الله سينزل به البلاء ويجعله مثلة للعالمين وعبرة للمعتبرين ، ثم يقول المسعودى: « وقد جعلت هذا التخويف فى أول كتابى هذا وآخره ليكون رادعا لمن ميله هوى أو غلبه شقاء فيراقب الله ربه وليحاذر منقلبه فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة والى الله المصير » .

٢ ـ تحدث المسعودى فى الباب الثانى من كتابه عن محتويات جميع أبواب الكتاب فهو بمثابة فهرس مفصل بمواضع الكتاب وقد بلغ عددها ١٣٢ بابا . وختم المسعودى هذا العرض بقوله : « فهذه جوامع ما حوى هذا الكتاب من الأبواب على انه قد يأتى فى كل باب مما ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الأخبار والآثار ما لم تأت عليه تراجم الأبواب وهو مرتب على حسب ما قدمناه من أبوابه على تفصيل منا لتاريخ الخلفاء ومقادير أعمارهم ، بأبواب نفردها عن سيرهم والجوامع مما كان فى أعصارهم وأخبار وزرائهم وما جرى من أنواع العلوم فى مجالسهم ملوحين بذلك الى ما سلف من تصنيفنا وتقدم من تاليفنا فى هذه المعانى والفنون » .

٣ ـ يتحدث المسعودى فى الجزء الأول من الكتاب عن عدد كبير من الموضوعات يغلب عليها الطابع التاريخى وهو ان التزم الطريقة الموضوعية ، الا أنه حافظ أيضا على التسلسل الزمنى فبدأ المسعودى حديثه عن ذكر مبدأ الخلق وتحدث عن آدم وحواء وأولادهما ثم تحدث عن الأنبياء واحدا بعد واحد فبدأ بنوح وولديه حام وسام وأولادهما ثم تحدث عن اسماعيل بن ابراهيم ويعقوب بن اسحاق وأيوب وموسى وشعيب وهارون ويوشع وداود وسليمان ولقمان الحكيم . ثم أشار الى ملوك بنى اسرائيل بعد سليمان وتحدث عن مولد عيسى بن مريم عليه السلام ثم لخص أحداث الفترة بين المسيح ومحمد (ﷺ) فتحدث عن ذى القرنين وقصة أصحاب الكهف وحبيب النجار واهتم المسعودى بالفترة السابقة لظهور الاسلام ، فتحدث عن اليمن وتنكيل ذى نواس بالمسيحيين فى نجران باليمن بعد اعتناق هذا الملك الحميرى لليهودية ، كما تحدث المسعودى عن أبرز الشخصيات العربية فى العصر الجاهلى مثل أسعد أبو كرب الحميرى وقس بن ساعدة الأيادى وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبى الصلت الثقفى وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب .

٤ ـ ثم ترك المسعودى التاريخ جانبا وانتقل الى موضوعات يغلب عليها الطابع الجغرافى وان طعمها بجوانب تاريخية واجتماعية ودينيه فبدأ هذه الموضوعات بالحديث عن أخبار الهند وملوكها ، وحكمة الهند ورأيهم فى بدء العالم ، وتحدث عن البراهمة وأشار الى الملك دبشليم وتأليف كتاب كليلة ودمنة وتحدث عن صنع الشطرنج وملك كورشر ، وعادات أهل الهند فى تمليك ملوكهم والاحتفال بموتهم ٠

ثم دخل المسعودى فى صميم الدراسات الجغرافية فوصف الأرض والبحار ومبادىء الأنهار والجبال والأقاليم السبعة وترتيب الأفلاك ، وناقش رأى بطليموس فى صفة الأرض والأفلاك ومساحة الأرض ، وتحدث عن كروية البحار والأدلة على ذلك ومنزلة الأرض من الكواكب ، وختم هذا الجزء بوصف هياكل الصابئة وترتيبها على ترتيب الأفلاك السبعة وعدد المراتب الدينية لرجال النصرانية ٠

ثم يخصص المسعودى صفحات كثيرة للحديث عن البحار والأنهار فتحدث عن تحركات البحار وأسباب تكونها وأشاد بنهر النيل ، ثم نقد ما ردده الجاحظ الذى زعم أن نهر السند يستمد من النيل ، وكتب المسعودى عدة صفحات عن أنهار جيحون وجنجس بالهند والفرات ودجلة وأنهار البصرة وتحدث بالتفصيل عن البحر الحبشى وسعته ومعادنه وخاصة اللؤلؤ والياقوت ودرس ظاهرة المد والجزر واختصاص بعض البحار بها دون غيرها ، ثم تحدث عن عدة بحار وخصص صفحات للحديث عن التنين والآراء المختلفة حوله ٠ وأشار الى أن الماء المالح أثقل من الماء العذب ، وعدد العلامات التى تدل على وجود المياه فى جوف الأرض ٠

وانتقل المسعودى الى تفصيل الحديث عن بلاد الصين ، فطرق جوانب مختلفة فتحدث عن ملوكهم وشعوبهم وعقد دراسة مقارنة بينهم وبين القبائل العربية ودرس تاريخ الصين وأخبار ملوكهم ٠

وعاود المسعودى حديثه مرة أخرى عن البحار وما حولها من العجائب والأمم وما فيها من معادن وخاصة بحار الصين والهند وفارس واليمن ٠

٥ ـ ثم طرق المسعودى عدة مواضيع مختلفة ، تجمع بين التاريخ والجغرافيا والرحلات فهو يتحدث عن المسك ، ثم عن ملوك صقلية وأفريقية قبل الاسلام ثم يصف أرض الحبشة والسودان ثم يقف قليلا عند وصف حيوان الكركدن ويناقش ما ذكره الجاحظ عنه ثم تحدث عن

عادات أهل الهند ومملكة طبرستان وجيدان ، وعادة حرق الموتى ويصف شعوب الروس والترك ويتحدث عن بعض الطيور مثل الباز والصقر وبعض الحيوانات مثل القردة · ويشير الى كثير من الممالك القديمة وحروبها وملوكها ، وخاصة ملوك السريان وبابل والفرس ·

ويعود المسعودى ثانية الى الأحداث التاريخية فيفصل الحديث عن الصابئة وعبادة الكواكب وزرادشت نبى الفرس المجوسى ، ويشيد بانتصار العرب على الفرس فى موقعة ذى قار · ثم يعدد ملوك اليونان ويفصل الحديث عن الاسكندر ويناقش من قالوا انه ذو القرنين ويتحدث عن ملوك اليونان بعد الاسكندر ، ثم ملوك الروم وموقفهم من المسيحية ويروى قصة أصحاب الكهف واعتناق قسطنطين المسيحية ·

ويخصص المسعودى صفحات كثيرة عن تاريخ مصر قبل الفتح العربى فيبدأ بوصف مصر ونهر النيل ويصف الاحتفال بليلة الغطاس وعادات المصريين فيها ويصف مقاييس النيل ومدينة الفيوم وبحيرة تانيس ودمياط · ويصف الأهرام وطريقة بنائها ويشير الى بعض عجائب مصر ومن نزلها من أبناء نوح ويتحدث عن بعض ملوك مصر ومدنها وبداية انتشار المسيحية فيها ويفسر كلمة فرعون ، ويفصل الحديث عن الاسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها ومنارتها ·

(ب) الجزء الثانى :

١ ــ يتحدث المسعودى فى الفصول الأولى من الجزء الثانى عن موضوعات كثيرة متنوعة تتناول الجغرافية والرحلات يبدؤها بالحديث عن السودان وأنسابهم وأجناسهم وملوكهم ثم يتحدث عن حيوان الزرافة، واقليمى ملك الزنج ، وصيد الفيلة ولعب الشطرنج وأفيال بلاد الهند ثم يصف الزبرقان بأنه (حيوان عجيب) ويتحدث عن عادات الزنج فى لباسهم وحليهم ويتحدث عن البجة والحبش وجزيرة سقوطرة ، وينتقل الى مصر فيتحدث عن قوص وقفط والواحات · ثم يطوف المسعودى بالقارىء بين عدة شعوب فيتحدث عن الصقالبة ومساكنها وملوكها وأجناسها ثم يذكر الافرنجة والجلالقة والنوكبرد وملوكها ·

٢ ــ وينتقل المسعودى الى مواضيع تاريخية تمهد لظهور الاسلام ويطعمها كعادته بألوان جغرافية وصور من رحلاته ومشاهداته ، فيبدأ الحديث عن عاد وثمود والنبى صالح ومكة وبناء الكعبة وقدوم ابراهيم

الخليل الى مكة وزواج اسماعيل من جرهم ، وسبب تسمية اسماعيل بهذا الاسم · ويعدد أبنـاء اسماعيل ويفصـل الحديث عن الكعبة ومن تولى الاشراف عليها من جرهم ومن أبناء اسماعيل ثم يتحدث عن سكان مكة الأقدمين مثل العماليق وطسم وجديس · ثم ينتقل الى الفترة التى تولت فيها خزاعة الاشراف على الكعبة ويتحدث عن ظهور قبيلة قريش وبطونها وما وقع بين الأحـلاف والمطيبين ويتحدث عن الايلاف والتقريش ورحلتى قريش الى الشام واليمن ·

٣ ـ وينتقـل المسعودى من هذه الدراسة التـاريخية الى دراسة الجغرافية فيصف عدة أقطار هى : الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق · ويتحدث عن سكنى الجبال وتأثير البيئة الطبيعية ثم يعود الى تخصيص الحديث عن بعض الأقطار مثل خراسـان وفارس وخوزستان وأرض الجزيرة والهند والصين وبلاد الروم ، ولا ينسى المسعودى أنه ينتسب الى بلاد العراق فيتحدث عن موطنه اقليم بابل ويتحدث عن الحنين الى الوطن ·

٤ ـ ورأى المسعودى أن يفرد قسما كبيرا من الجزء الثانى للحديث عن بلاد اليمن قبل الاسـلام ، فيذكر سبب تسمية اليمن بهذا الاسـم مع مقارنة بدوافع تسمية العراق والشام بأسمائها ؛ ويفصل الحديث عن العرب اليمنيين وانتسابهم الى قحطان وملوكهم الأقدمين من سبأ وحمير · وتحدث عن التبابعة ، وما حدث بين بلقيس وسليمان بن داود · ويروى قصـة الملك ذى نواس الذى اعتنق اليهودية وقتل المسيحيين فى أخاديد · وأشار الى سقوط الدولة الحميرية على يد الجيش الحبشى ، واستعانة العرب الحميريين بالفرس للخلاص من الاستعمار الحبشى ·

٥ ـ وأراد المسعودى أن يغطى أخبار العرب قبل الاسلام فانتقل من الحديث عن اليمن الى الحديث عن امارتى الحيرة والغساسنة وعلاقتهما بالدولتين الفارسية والرومانية ·

٦ ـ ثم عاد الى الجزيرة العربية ليتحدث عن أحوالها قبل الاسلام فبدأ حديثه ببلاد الحجاز فتحدث عن البدو وسبب سكناهم الخيام وأشار الى أيام العرب وهى حروبهم القبلية الجاهلية وعدد أديان العرب وأرخ للهجوم الحبشى على مكة بقيادة أبرهة · وتنقل المسعودى بين القبائـل العربية فتحدث عن عاد وثمود وجديس وطسم وجرهم · كما تحدث عن

المدينتين الحجازيتين : الطائف ويثرب · وفصل الحديث عن عقائد العرب فى الغيلان والهاتف والجن والقيافة والزجر والسانح والبارح والكهانة والعرافة وادعاء الغيب ، ودرس هذه الجوانب دراسة علمية واهتم بالدوافع النفسية وعقد مقارنة بين عقائد العرب وغيرهم من الشعوب ·

٧ ــ ثم خصص المسعودى صفحات عديدة للحديث عن التاريخ وتقسيمه الى سنوات وشهور عند كل من العرب والفرس والأقباط والسريان مع عقد دراسة مقارنة · وتحدث عن الأعياد الفارسية والمسيحية وأسباب تسمية الشهور الفارسية والعربية والرومانية ·

٨ ــ وانتقل المسعودى بعد ذلك الى موضوعات جغرافية فتحدث عن أقسام الأرض وعن الكواكب والجن · وأثر البيئة الجغرافية فى طبائع الناس وتأثير الكواكب فى حياة البشر وتوجههم بالعبادة لها ويشعة المؤرخ أنه استطرد كثيرا ؛ ولذا فهو يعتذر للقارىء فيقول انه أدرك اختلاف القراء فى الطبائع وفى دوافعهم لقراءة كتابه ، فرأى أن يجمع ألوانا مختلفة من الموضوعات ·

٩ ــ ويفصل المسعودى بعد ذلك الحديث عن الاديان فيتحدث عن ظهور الوثنية والهياكل وبيوت النار والأصنام · وعقائد الهند والصين وعبادة الكواكب وعقيدة العالم فى البيت الحرام ، ودين الصابئة وعبادة النار · ثم يتحدث عن معابد وهياكل اليونان والرومان والصقالبة والصينيين والفرس ·

١٠ ــ ويمهد المسعودى للتاريخ العربى الاسلامى فليخص أحداث التاريخ منذ بدء العالم الى ظهور الرسول (ﷺ) ، ثم يبدأ السيرة النبوية فيتحدث عن مولد الرسول (ﷺ) ونسبه وكنيته ويفصل الحديث عن طفولته وصباه · ثم البعثة النبوية والمسلمين الأوائل وحديث الهجرة والجهاد والغزوات ، ثم وفاة الرسول (ﷺ) · والمسعودى فى هذا الفصل يتبع المنهج الموضوعى ، الا أننا نراه بعد فراغه من دراسة السيرة النبوية يلجأ الى التاريخ بالسنين ، فقد رأى أن هناك أخبارا كثيرة عن الرسول (ﷺ) لم يدرجها فى نطاق الموضوعات التى أشار اليها ؛ ولذا رأى أن يتحدث عنها متخذا السنوات محورا لدراسته ونهج فى ذلك نهجا جديدا ، فهو يقسم الأحداث على سنوات حياة الرسول (ﷺ) قبل الهجرة ، فيذكر ما حدث فى السنة الأولى من مولده ثم ما حدث فى السنة الخامسة ثم السادسة ثم التاسعة حتى يصل الى السنة التى هاجر الرسول (ﷺ) فيها فيتخذ السنة الهجرية محورا لأخباره ·

١١ ـ ويبدأ المسعودى دراسته لتاريخ الدولة العربية الاسلامية ويتخذ من شخصيات الخلفاء محاور دراسته ، فيهتم بترجمة حياة الخليفة وأعماله وأحوال الدولة فى عهده · وينتهى الجزء الثانى من مروج الذهب بنهاية عصر الخلفاء الراشدين الأربعة ·

(ج) الجزءان الثالث والرابع :

١ ـ يختلف الجزءان الثالث والرابع عن الجزءين الأولين ، فهما يكادان يخلوان من الدراسات الجغرافية والحديث عن الرحلات ويجعل المسعودى الشخصيات التاريخية محورا لدراسته · ويبدأ الجزء الثالث بخلافة الحسن بن على بن أبى طالب ثم يتحدث عن قيام الدولة الأموية · ويمضى الكتاب مع أحداث العصر الأموى حتى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، ويفصل المسعودى الحديث عن الخلفاء العباسيين وينتهى الجزء الثالث بنهاية عهد الخليفة العباسى السادس الأمين ·

٢ ـ يبدأ الجزء الرابع بعهد الخليفة العباسى السابع المأمون ، ويتحدث المسعودى عن الخلفاء العباسيين حتى عهد الخليفة المطيع لله ·

٣ ـ وينهج المسعودى منهج المؤرخين المحدثين فيضع لكتابه خاتمة طويلة · ويبدأ خاتمته بأن يربط بين ما ذكره فى كتابه مروج الذهب وكتابيه الآخرين « أخبار الزمان » و « الأوسط » · ويذكر أنه انتهى من كتاب مروج الذهب فى جمادى الأولى سنة (٣٣٦ هـ) وتحدث عمن يتولون الحكم والسلطة فى هذه السنة ، وهم من الأسرة البويهية ، ويلمح باستئثار البويهيين بالنفوذ دون الخليفة العباسى المطيع ·

٤ ـ ويحاول المسعودى أن يوضح للقارىء أنه لم يكرر فى كتابه مروج الذهب ما ذكره فى كتابيه الآخرين وتحدث عن أبرز ما تناوله من موضوعات فى مروج الذهب فقال : « ودللنا على كتابنا هذا بقليل على الكثير ، بالخبر اليسير على الجليل الخطير ، وذكرنا فى كل كتاب من هذه الكتب ما لم يذكره فى الآخر الا ما لا يسع تركه ولم نجد بدا من ايراده لما دعت الضرورة الى وصفه وأتينا على أخبار أهل كل عصر وما حدث فيه من الأحداث وما كان فيه من الكوائن الى وقتنا هذا · مع ما أسلفناه فى هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر والعامر منهما والغامر والملوك وسيرها والأمم وأخبارها » ·

٥ ــ وأبدى المسعودى أمله فى أن تطول حياته فيؤلف كتابا آخر يضمنه « فنونا من الأخبار وأنواعا من طرائف الآثار ، على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ويوجد من نوادر الآثار » . واختار المسعودى اسما هو « وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » ولم تتحقق أمنية المسعودى اذ وافته منيته .

٦ ــ عقد المسعودى فى نهاية الكتاب فصلا تحدث فيه عن مدة حكم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، ثم عقد فصلا آخر عن أمراء الحج منذ عهد الرسول الى السنة التى أتم فيها كتابه .

٧ ــ وكانت آخر فقرات الكتاب اعتذارا من المؤلف عما يكون فى الكتاب من سهو أو تصحيف أو نقص أو تغيير قد يقع فيه الناسخ لكتابه فيقول : « وقد قدمنا الاعتذار فيما سلف من هذا الكتاب من سهو ان عرض أو تصحيف أو تغيير من الكاتب ان وقع ، ولما قد دفعنا اليه من الأسفار المتواترة والحركة المتصلة : تارة مشرقين وتارة مغربين وطورا متيامنين وطورا متشائمين ، وما يلحقنا من سهو الانسانية ويصحبنا من عجز البشرية عن بلوغ الغاية ، وتقصى النهاية ولو كان لا يؤلف كتابا الا من حوى جميع العلوم اذن ما ألف أحد كتابا ، ولا تأتى له تصنيف ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ . وينهى المسعودى كتاب « مروج الذهب » بحمد الله تعالى والصلاة على النبى وآله .

★★★

مقامات بديع الزمان

بديع الزمان الهمذاني

القرن العاشر / الحادي عشر الميلادي

نشـــأة المقـــامة

اختلفت الآراء فى تفسير لفظة « مقامة » ويبدو أنها اكتسبت مدلولات تطورت مع الزمن ٠

فقد جاء فى لسان العرب : المقام: موضع القدمين ٠ والمقام والمقامة : بالضم : الاقامة والمقامة بالفتح : المجلس والجماعة من الناس ٠

وأطلق اللفظ أيضا على المجلس الذى تسمع فيه الموعظة : « يلقيها الرجل بين يدي الخليفة أو الأمير أو جماعة من المتأدبين ، ولا بد كى يكون لها التأثير والاقناع على السامعين من أن تعتمـد مذهبـا بليغـا من الكلام يقرع الأسماع ويدخل الى النفس ويستهوى القلوب ، ثم انتهت الكلمة الى معنى « موعظة » أهل الكدية حتى اتخذها الهمذانى لتسمية القصص المعروفة بالمقامات » ٠

ثم يقول الدكتور فيكتور الكك فى كتابـه « بديعـات الزمان الهمذانى » :

« والجدير بالذكر أن معنى المقامة انحرف فى القرن الثالث الهجرى فتدنى الى الدلالة على كلام الشـحاذين ، الذين اضطروا فى توسلهم الى المحسنين بدعاءات توجيهية الى أن يستعملوا لغة مختارة منمقة ٠ ذلك أن الثقافة الأدبية التى كانت فيما سلف من مميزات البلاطات وروادها أخذت فى الانتشار بين طبقات الشعب » ٠

أما الدكتور زكى مبارك فقد عقد فصلا عن المقامة جاء فيه : « وأظهر أنواع الأقاصيص فى القرن الرابع هو فن المقامات وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو فطرة وجدانية، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون » ٠

ولشوقى ضيف رأى فى هذا الموضوع جاء فيه :

« ليست المقامة قصة وانما هى حديث أدبى بليغ ٠ وهى أدنى الى الحياة منها الى القصة ٠ فليس فيها من القصة الا الظاهر فقط أما فى حقيقتها فحيلة يعرفنا بها البديع وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة ٠ بل ان الحادثة التى تحدث

للبطل لا أهمية لها اذ ليست هى الغاية · انما الغاية التعليم والأسلوب الذى تعرض به الحادثة · ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة·

فالمعنى ليس شيئا مذكورا ، وانما هو خليط ضئيل تغشى عليه الغاية التعليمية · فالأساس العرض الخارجى ، وكان لذلك وجه من النفع ، فان الأدباء انساقوا الى الثروة اللفظية وأخذوا يبتكرون صورا جديدة للتعبير ، ولكن فى حدود سطحية وكأنما ألجموا عقولهم وأطلقوا ألسنتهم فلم يتجهوا بالمقامة الى وصف حوادث النفس وحركاتها ، ولا الى الافساح للعقل كى يعبر عن العواطف ويحللها ، وانما اتجهوا بها الى ناحية لفظية صرفة اذ كان اللفظ فتنة القوم ، وكان السجع كل ما لفتهم من جمال فى اللغة وأساليبها · وكانت الوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها » ·

والمقامات أقاصيص خيالية مختلفة الأغراض والموضوعات · فمنها الأدبية ، ومنها العلمية ومنها الدينية ومنها الاجتماعية أو الخلقية ومنها المجونية · وفيها سخر شديد ، ونقد لاذع ، وفيها ضروب من التخابث والاحتيال ، للتكسب والتعيش · وفيها صور متلونة لطبائع المجتمع وعاداته ·

ومدار المقامات على بطل متبدل الألوان ، كثير الاحتيال ، فيه شر كبير وفيه خير كبير · فهو دين منافق ، صادق كاذب ، متزهد ماجن ، واعظ مخادع · كل شىء وضده ، وهو الى ذلك واسع العلم والأدب شاعر خطيب متكلم راوية تجده فى كل مقامة ، وقلما خلت مقامة منه ويتولى الحديث عنه راوية خيالى مثله يفاجئه فى كل مقامة ويفضح أسراره وينقل أخباره ·

والفن القصصى ضعيف فى المقامات لقصرها ، ثم لأن القصة ليست غاية فيها بل واسطة لاظهار شخصية بطلها فى مختلف أحواله ، ولقد تمر مقامات غثة باردة لا قيمة فيها للقصة البتة ·

وتمتاز المقامات فى جمال لغتها وكثرة غريبها واعتمادها على المجاز أكثر من الحقيقة واصطباغها بالصبغة أكثر من الطبع،فهى ملتزمة السجعات أنيقة العبارات حافلة بالمحسنات المعنوية واللفظية · فيها الأمثال والأشعار والآيات والأحاديث فكل مقامة قطعة أدبية لغتها لغة الشعر على الأكثر لا لغة النثر ·

★★★

حياة بديع الزمان :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المشهور ببديع الزمان . ولد في همذان (١) في يوم ١٣ من جمادى الآخرة سنة ٣٥٨ هـ - يونية ٩٦٩ م .

ويبدو أن أول من أطلق عليه لقب الهمذاني الامام أبو منصور الثعالبي : « وهو أحمد بن الحسين بديع الزمان ومعجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في القريحة ، وسرعة الخاطر » .

ومن رسائله نفهم أنه من أسرة عربية استوطنت ديار العجم . وهو شديد التعصب للعرب على غيرهم اذ يقول في احدى رسائله : « انى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » .

ومن يتصل بنسبه الى قبيلة مضر ، وبنشأته الى فارس لا شك سيكون نابغة عصره وزمانه . فبديع الزمان ورث الخلق العربي وعاش به في بلاد العجم فظهرت عبقريته الخارقة وذكاؤه الوقاد ، بالاضافة الى تمازج واختلاط وتزاوج بين آبائه وأجداده العرب بين عائلات الفرس في تلك المنطقة العجمية ، كما أن أخاه الحسين بن يحيى كان مفتى البلدة .

نشأته :

اهتم أبوه بتعليمه وتثقيفه فاختلف الى دروس العلماء والأدباء في بلدته ، وتلقى على أيديهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية .

كان معلمه الأول أبا الحسن أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوى العظيم في عصره ، وقد تتلمذ بديع الزمان عليه ونهل من فيض علمه . كما تتلمذ على ابن بكر الفراء . وتعلم دراسة الحديث والرواية .

وبقي يختلف الى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره ، حتى أتم دروسه وتحصيله من اللغة والشعر والنثر .

والأمر الذى لا شك فيه أن بديع الزمان لم تكن ثقافته عربية فقط بل كانت عربية وفارسية . وهذا التضلع في الفارسية وآدابها أسدى اليه أكبر فائدة في انتاجه العربي .

وما كاد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى فارق مسقط رأسه همذان سنة ٣٨٠ هـ ـ ٩٩٠ م · فقدم على الصاحب بن عباد فى الرى ·

فأعجب الصاحب بذكائه وقدمه فى مجلسه وقربه منه ورأى فيه ذكاء شديدا وذاكرة قوية · ولعل هذا الذى حمل معاصريه أمثال الثعالبى على القول فيه : « هو من لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر ، وملحه غرر النظم ونكته ، ولم ير ولم يرو أن أحدا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء مثل اعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب » ·

لكن أواصر المودة اضطربت بين بديع الزمان والصاحب بن عباد وقد يكون مرد ذلك الى الحسد · ولعل الصاحب تخوف من البديع · وهو المحدث اللبق فخاف على منزلته الأدبية من أن يصبح الهمذانى محور الحلقات والمجالس ·

فما كان من بديع الزمان الا أن اتجه الى جرجان وهى بلدة مشهورة بالعلم والمعرفة ، ففيها نشأ عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ·

وهناك خالط علماءها وهم من الاسماعيلية واستفاد من علمهم واقتبس من فلسفتهم ·

ولكن اقامة بديع الزمان فى جرجان لم تكن طويلة لخلاف نشأ بينه وبين أحد الاسماعيليين ، فاتجه الى نيسابور وكان ذلك سنة ٣٨٢ هـ وهى تعد من أحسن مدن خراسان ، وكانت مجمع العلماء والفضلاء حيث يأتون اليها من كل صوب ·

وكان لبديع الزمان معركة أدبية مع شيخ كتاب عصره أبى بكر الخوارزمى الأديب الذائع الصيت الذى طرقت آدابه أسماع الناس برسائله وشعره ، وكان بديع الزمان شديد الرغبة فى الاتصال به راغبا فى علمه · فكتب له رسائل فى هذا الموضوع · وقد دخل البديع الى نيسابور رث الثياب خالى اليدين بعد أن سطا عليه اللصوص فى الطريق وسلبوه ما يملك ·

وعندما التقى البديع بالخوارزمى لم يهتم به هذا ولم يحسن لقاءه كمـا أنه لم يعجب بكبريائه · فحصلت بينهما جفـوة ومقاطعة وبغضـاء واستغل بعض الناس هذه العداوة ، فهيأوا لذلك مناظرة استعمل فيها بديع الزمان قريحته وسرعة بديهته فبدا الخوارزمى منهزما أمام الناس !

لمع اسم بديع فى نيسابور بعد المنـاظرة وذاع صـيته فى الآفاق وأصبح له تلامذة كثيرون فأملى عليهم مقاماته المشهورة ، حيث اصطنع فيها الأساليب المنمقة من سجع وتنميق · ولكنه لم يلبث أن ترك نيسابور رغم اشتهاره بها وعلو مكانته · فاتجه الى سجستان وكان حاكمها فى ذلك الوقت الأمير خلف بن أحمد فلقى منه البديع كل تكريم فمدحه بقصائد وبست مقامات أشاد فيها بكرمه · ثم عاد يطوف فى البلاد حتى استقر فى هراة « وهناك تزوج فيها من ابنة ابن على الحسين بن محمد الخشنامى ، أحد أغنيائها وساداتها وأنجب أولادا واقتنى مالا وضياعا » ·

شخصيته : صفاته واخلاقـه :

وصفه الثعالبى فى يتيمة الدهر ، فقال : « مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة » ·

وكثرة أسفاره تدل على طموحه لتوطيد المجد وبناء الشهرة · وقد اجتمعت فيه الصفتان : طالب علم وطالب مال ·

ولم يكن الدهاء ينقص الهمذانى ، فهو واسع الحيلة وكان فى كل مقال يمزح ويتهكم ، فهو أنانى والويل لمن يفضل الخوارزمى عليه ·

كان سريع الحافظة : « انه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرهـا لا يخرم حرفا ولا يخل بمعنى · وينظر فى الأربع والخمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سردا · وهذه حالة فى الكتب الواردة عليـه وغيرها · وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفزع منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها » ·

وفاتـــه :

وتوفى بديع الزمان فى هراة يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (٣٩٨ هـ) · ويذكر ابن خلكان رأيين فى وفاته : « الرأى الأول أنه مات مسموما بهراة · أما الرأى الثانى ويشاركه فيه كثيرون من مؤرخى الأدب فهو أنه أصيب بغيبوبة فظن أنه مات وعجل بدفنه فأفاق فى قبره وسمع صوته فى الليل فنبش عنه فوجد ميتا وقد قبض على لحيته بيده ومات من هول القبر !! » ·

مؤلفاتـــه :

مؤلفات البديع ثلاثة أنواع :

١ ــ أولها ديوان شعر ومعظمه يدور على المحسنات اللفظية والمعنوية ·

٢ ــ ثانيها مجموعة رسائل نظر فيها وفسر غوامضها الشيخ ابراهيم الأحدب · وهى تدور حول أغراض هى :

(أ) المـــدح لأن بديع الزمان كان يتكسب بأدبه فيتذرع بالمـــدح والثناء حين يستجدى ·

(ب) الاعتذار والاستعطاف ·

(جـ) العتـــاب ·

(د) الشـكوى ·

(هـ) الهجاء ·

(و) الود والصداقة ·

(حـ) النصـح والحكم ·

(ط) الوصف ·

٣ ــ ثالثها : المقامات المشهورة وهى اثنتان وخمسون مقامة ·

★★★

تحليل مقامات البديع :

لهذه المقامات راوية خيالى يعرف بعيسى بن هشام ، رجل أخو سفر ، لا يستقر به مكان ، وربما اتخذ صفة التجار أو صفة المكدين ، ولها بطل يعرف بأبى الفتح الاسكندرى يظهر فى أكثرها وينقل أخباره عيسى بن

هشام · وأبو الفتح هذا رجل خيالى أيضا : « من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية » (٢) · صاحب خبث وحيل يصطنع جميع المهن التى يحترفها الناس من أجل الكدية وابتزاز المال · وقلما خلت مقامة من الكدية والاحتيال ، وتراه مرة شيخا جليلا وقف فى الناس واعظا ينصح ويحذر ، ومرة قرادا يسلى الناس ويضحكهم ، وأخرى مشعوذا يدعى صنع المعجزات خديعة للقوم الساذجين · فيدر عليه الرزق وينتفع بشعوذته وخداعه فهو أشحذ الناس وأبرعهم تسآلا · وهو الى ذلك أخطبهم وأشعرهم ، وأعرفهم بعلوم عصره · وقد اختلفت أغراض مقاماته وتنوعت أبوابها فمنها الأدبية كالمقامة الجاحظية والمقامة القريضية ، وفيها رواية وشعر ونقد · ومنها الدينية والخلقية والاجتماعية ، فمن شيخ يتظاهر بالتقوى والتنسك ليعطف عليه الناس ويعطوه · ومتسول يطوف ومعه طفل فصيح يسترق القلوب · وتاجر حديث النعمة معجب بنفسه كثير الكلام يضجر مستمعيه · ومجنون عاقل متبحر فى علم الكلام ، يرد على أحد شيوخ الاعتزال · وغير ذلك مما يقع بين الناس فى مصاحبتهم ومخالفاتهم ·

وحوادث هذه المقامات تقع على الغالب فى الأمصار المتحضرة ، وقلما عنى البديع بالكلام على أهل البادية كما فى مقاماته الغيلانية ، والأسدية ، والبشرية ، والفزارية ، والأسودية ، وهى فى أكثرها قصيرة ضعيفة الفن القصصى تكاد تكون غثة باردة لولا حسن الصياغة وبراعة التصرف فى ضروب الكلام · وأما ما طال منها فانه جميل مونق كالمقامة المضيرية والبشرية والأسدية وسواها ·

وراوية بديع الزمان وبطله لا ينحصران فى زمان محدود ، فان عيسى بن هشام يحدثك فى المقامة الغيلانية عن الفرزدق وذى الرمة كأنه معاصر لهما ، ثم يحدثك فى المقامة الحمدانية عن سيف الدولة بن حمدان · ويحدثك عن خلف بن أحمد وكان واليا على سجستان معاصرا للهمذانى · وقد خصه البديع ببعض مقاماته وأشاد فيها بذكره وأطراه ·

وسنقتصر بتحليل مقامتين من مقاماته احداهما المضيرية ، وفيها تظهر براعة البديع فى الوصف ودقة التصوير على شىء كثير من السخر وخفة الروح · والأخرى البشرية وهى التى وفق بها صاحبنا لاختراع شاعر جاهلى تبناه التاريخ من بعده ألا وهو بشر بن عوانة العبدى ·

نص المقامة المضيرية (٣)

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندرى ، رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت الينا مضيرة تثنى على الحضارة ، وتترجرج فى الغضارة وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالامامة ، فى قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعنها ، وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخها ، وظنناه يمزح فاذا الأمر بالضد ، واذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الاخوان ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون، وتحلبت لها الأفواه (٤) وتلمظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى فى اثرها الفؤاد ، ولكنا ساعدناه على هجرها وسألناه عن أمرها ، فقال : قصتى معها أطول من مصيبتى فيها ، لو حدثتكم بها لم آمن المقت واضاعة الوقت ، قلنا : هات ٠

قال : دعانى بعض التجار الى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، الى أن أجبته اليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقها فى صنعتها ، وتأنقها فى طبخها ، ويقول : يا مولاى ، لو رأيتها ، والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور ، من التنور الى القدور ، ومن القدر الى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الابزار ٠ لو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون ٠ وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بطعينته ، ولا سيما اذا كانت من طينته٠ وهى ابنة عمى لحا ٠ طينتها طينتى ، ومدينتها مدينتى ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها أرومتى ٠ لكنها أوسع منى خلقا ، وأحسن خلقا ، وصدعنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته ٠ ثم قال : يا مولاى ، ترى هذه المحلة ٠ هى أشرف محال بغداد يتنافس الأخيار فى نزولها ، ويتغاير الكبار فى حلولها ٠ ثم لا يسكنها غير التجار ٠ وانما المرء بالجار٠ ودارى فى السطة (٥) من قلادتها ، والنقطة من دائرتها ٠ كم تقدر يا مولاى أنفق على كل دار منها ؟ قله تخمينا ، ان لم تعرفه يقينا ٠ قلت : الكثير ٠ فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ، وتنفس الصعداء ، وقال سبحان من يعلم الأشياء ٠

وانتهينا الى باب داره • فقال : هذه دارى كم تقدر يا مولاى ، أنفقت على هذه الطاقة ؟ • أنفقت والله عليها فوق الطاقة ووراء الفاقة • كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلهـا ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار • وانظر الى حذق النجار فى صنعة هذا الباب • اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم • هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض (٦) ولا عفن • اذا حرك أن ، واذا نقر طن • من اتخذه يا سيدى ؟ اتخذه أبو اسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأثواب • بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد فى العمل • لله در ذلك الرجل ! بحياتى لا استعنت الا به على مثله •

وهذه الحلقة تراهـا ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية ، وكم فيها يا سيدى من الشبة ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب بالله دورها ، ثم انقرها وابصرها ، وبحياتى عليك لا اشتريت الحلق الا منه فليس يبيع الا الأعلاق •

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمرك الله يادار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى : كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها ، حتى عقدتها ؟ كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن ، مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر ، ومزقه بين النرد والقمر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، الى بيع الدار فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراهـا ، فأنقطع عليها حسرات الى يوم الممات ، فعمدت الى أثواب لا تنض (٧) تجارتهـا ، فحملتها اليه وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسية (٨) والمدبر يحسب النسية عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدهـا لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فأتيته فاقتضيته ، واستمهلنى فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ووثيقة فى يدى ففعل • ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لى بجد صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود فى مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاى ، انى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيه اذ قرع علينا البـاب • فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فاذا امرأة معها عقد لآل • فى جلدة ماء ورقة آل • تعرضه للبيع ، فأخذته منها أخذة خلس ، واشتريته بثمن بخس ،

وسيكون له نفع ظاهر وربح وافر ، بعون الله ودولتك • وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجارة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك• اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات • وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد • والدهر جلى ليس يدرى ما تلد • ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق • وهذا يعرض فى الأسواق • فوزنت فيه كذا وكذا دينارا • تأمل بالله دقته ولينه، وصنعته ولونه فهو عظيم القدر لا يقع مثله الا فى الندر • وان كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى فهو عمله • وله ابن يخلفه الآن فى حانوته لا توجد أعلاق الحصر الا عنده • فبحياتى لا اشتريت الحصر الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، ولا سيما من تحرم بخوانه •

ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ، الطست والماء ، فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج • وتقدم الغلام فقال : ترى هذا الغلام ؟ انه رومى الأصل عراقى النشء • تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانفض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر • ففعل الغلام ذلك وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله ، أبو العباس ، من النخاس • ضع الطست ، وهات الابريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر الى هذا الشبه (٩) ، كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شبة الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان (١٠) الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها• تأمل حسنه وسلنى : متى اشتريته! اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة • يا غلام ، الابريق ، فقدمه ، وأخذه التاجر فقلبه ثم قال : وأنبوبه منه • لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست ، الا فى هذا البيت • ولا يجمل هذا البيت الا مع هذا الضيف •

أرسل الماء ياغلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور ، استقى من الفرات واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة ، وليس الشأن فى السقاء ، الشأن فى الاناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه • وهذا المنديل ! سلنى عن قصته • فهو نسج جرجان وعمل ارجان ، وقع الى فاشتريته ، فاتخذت امرأتى بعضه منديلا ، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه •

ثم رددته فى السوق ، وخزنته فى الصندوق ، وادخرته للظروف ، من الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لما فيها ، فلكل علق يوم ولكل آلة قوم ٠

يا غلام ، الخوان ،فقـد طـال الزمان ، والقصـاع ، فقد طـال المصاع (١١) ٠ والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمر الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها !

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر الى عرض متنه ، وخفـة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل فمتى الأكل !؟ فقال : الآن عجل يا غلام ، الطعام ٠ لكن الخوان قوائمه منه ٠

قال أبو الفتح : فجاشت نفسى وقلت : لقد بقى الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته والحنطة من أين اشتريت أصـلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفى أى رحى طحن ، واجانة (١٢) عجن ، وأى تنور سجر ، وخباز اسأجر ، وبقى الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صفف حتى جفف وحبس ، حتى يبس ٠ وبقى الخبـاز ووصفه ، والتلميذ ونعتـه ، والدقيق ومدحه، والخمير وشرحه، والملح وملاحته، وبقيت السكرجات(١٣) من اتخذها ، وكيف انتقذها ، ومن عملها ، والخل كيف انتقى عنبه ، واشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته واستخلص لبـه ٠ وكيف قير حبه (١٤) ، وكم يساوى دنه ، وبقى البقل كيف احتيل له حتى قطف، وفى أى مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووفى شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت أبزارها ، حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم ٠

فقمت فقال : أين تريد ؟! فقلت : حاجة أقضيها ، فقال : يا مولاى تريد كنيفـا يزرى بربيـعى الأمير ، وخريفى الوزير ، قد جصص علاه وصهرج أسفله ، وسطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ، ويمشى على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير أنه (١٥) من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه ٠ فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب ٠

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة ٠ وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجل

التجر بعمامته فغاص فى هامته . فأخذت من النعال بما قدم وحدث ، ومن الصنع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين فى ذلك الحبس ، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت . فهل أنا فى ذا يا آل همذان ظالم ؟

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقلنا : قديما جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار .

تحليل المقامة المضيرية :

يستهل البديع هذه المقامة كما يستهل غيرها باسناد الحديث الى راويته : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتوح الاسكندرى رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه والبلاغة يأمرها فتطيعه وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت الينا مضيرة » . وبعد أن وصف المضيرة وقصعتها وشغف المدعوين بها قال : « قام أبو الفتوح الاسكندرى يلعنها وصاحبها ويمقتها وآكلها ... ورفعناها فارتفعت معها القلوب وسافرت خلفها العيون وتحلبت لها الأفواه وتلمظت لها الشفاه » . وسئل أبو الفتح عن أمرها ، فأخبر أنه دعاه بعض التجار فى بغداد الى المضيرة فصار معه الى بيته وطفق التاجر وهو فى الطريق يصف زوجته حتى ينتهى هذا المشهد بقول أبو الفتح : « وصدعنى بصفات زوجته حتى انتهينا الى مخلته » فشرع التاجر يصف المحلة وعظمة دورها وجعل داره كالجوهرة الوسطى من العقد . وانتهيا الى باب الدار . فوقف يصف طاقتها فبابها فحلقة الباب . ودخلا الدهليز فجأر التاجر بالدعاء : « عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار » . وشرع يقص على أبى الفتح كيتف امتلك الدار وممن اشتراها ، ثم استطرد الى ذكر حظه الحسن فذكر خبر عقد من اللؤلؤ اشتراه بثمن بخس،حتى اذا انتهى عاد الى داره فروى حادثه حصير اشتراه بالمناداة ونعت صانعه ونصح لأبى الفتح أن يشترى الحصر من عنده . ثم عاد الى حديث المضيرة فطلب من الغلام الطست والماء . فقال أبو الفتح : « الله أكبر ربما قرب الفرج وسهل المخرج » وما أن أقبل الغلام حتى شرع التاجر يعرض أوصاف الابريق فالماء فالمنديل ودعا بالخوان ؛ فجاء به الغلام فراح يقلبه وينقره بالبنان ويعجبه بالأسنان ويقص قصته وينعته أحسن النعوت فجاشت نفس أبى الفتح وقد تحقق له أن التاجر سيصف كل شىء يعرض على الخوان ويذكر كيف اشتراه ومن أين اشتراه ومن صنعه فحاول الانصراف تخلصا ، فظن التاجر يريد الخروج فى حاجة نفسه فانبرى يصف له الكنيف وحسنه

الى أن قال : « يتمنى الضيف أن يأكل فيه ! » . قال أبو الفتح : « فقلت : كل أنت من هذا الجراب لم يكن الكنيف فى الحساب وخرجت نحو الباب وأسرعت فى الذهاب وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح : يا أبا الفتح المضيرة وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه ؛ فرميت أحدهم بحجر من فرط الضجر فلقى رجل الحجر بعمامته فغاص فى هامته فأخذت من النعال بما قدم وحدث ومن الصفع بما طاب وخبث وحشرت الى الحبس فأقمت عامين فى ذلك النحس فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت » .

فهذه المقامة من أبدع ما صنع الهمذانى ففيها جمال القصص وروعة الفن ودقة الوصف وحسن الانتقال ، واتساق الأفكار وفيها السخر والفكاهة والنكتة ، ولو وفق البديع فى جميع مقاماته توفيقه فيها لبلغ فى هذه الصنعة غاية الغايات .

★★★

نص المقامة البشرية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكا فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال : ما رأيت كاليوم . فقالت :

أعجب بشرا حور فى عينى ... وساعد أبيض كاللجين
ودونه مسرح طرف العين ... خمصانة (١٦) ترفل فى حجلين
أحسن من يمشى على رجلين ... لو ضم بشر بينها وبينى
أدام هجرى وأطال بينى ... ولو يقيس زينها بزينى
لأسفر الصبح لذى عينين

قال بشر : ويحك . من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة فقال : أمسى من الحسن بحيث وصفت ؟ . قالت : وأزيد أو أكثر فأنشأ يقول :

ويحك ياذات الثنايا البيض ... ما خلتنى منك بمستعيض
فالآن اذ لوحت بالتعريض ... خلوت جوا فاصفرى وبيضى
لا ضم جفناى على تغميض ... ما لم أشل(١٧)عرضى من الحضيض
كم خاطب فى أمرها ألحا ... وهى اليك ابنة عم لحا

ثم أرسل الى عمه يخطب ابنته ومنعه العم أمنيته فآلى ألا يرعى (١٨) على أحد منهم ان لم يزوجه ابنته ، ثم كثرت مضراته فيهم واتصلت معرته اليهم فاجتمع رجال الحى الى عمه وقالوا : لا تلبسونى عارا وأمهلونى حتى أهلكه ببعض الحيل فقالوا : أنت وذاك ، ثم قال له عمه : انى آليت أن لا أزوج ابنتى هده الا ممن يسوق اليها ألف ناقة مهرا ولا أرضاها الا من نوق خزاعة ، وغرض العم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة فيفترسه الأسد ، لأن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق وكان فيه أسد يسمى داذا وحية تدعى شجاعا يقول فيهم قائلهم :

أفتك من داذ ومن شجاع ان يك داذ سيد السباع
فانها سيدة الأفاعى

ثم ان بشرا سلك ذلك الطريق فما نصفه حتى لقى الأسد وقمص مهره فنزل وعقره ، ثم اخترط سيفه الى الأسد واعترضه ، وقطه (١٩) ثم كتب بدم الأسد على قميصه الى ابنة عمه :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
اذا لرأيت ليثا زار ليثا هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
تبهنس (٢٠) ثم أحجم عنه مهرى محاذرة فقلت : عقرت مهرا
أنل قدمى ظهر الأرض أنى رأيت الأرض أثبت منك ظهرا
وقلت وقد أبدى نصالا محددة ووجها مكفهرا
يكفكف غيلة احدى يديه ويبسط للوثوب على أخرى
يدل بمخلب وبحد ناب وباللحظات تحسبهن جمرا
وفى يمناى ماضى الحد أبقى بمضربه قراع الموت أثرا (٢١) :
ألم يبلغك ما فعلت ظباه بكاظمة غداة لقيت عمرا
وقلبى مثل قلبك ليس يخشى مصاولة فكيف يخاف ذعرا
وأنت تروم للأشبال قوتا وأطلب لابنة الأعمام مهرا
ففيم تسوم مثلى ان يولى ويجعل فى يديك النفس قسرا
نصحتك فالتمس ياليث غيرى طعاما ان لحمى كان مرا
فلما ظن أن الغش نصحى وخالفنى كأنى قلت هجرا
مشى ومشيت من أسدين راما مراما كان اذ طلباه وعرا
هززت له الحسام فخلت أنى شققت به لدى الظلماء فجرا

وجدت له بجائشة أرته بأن كذبته ما منته غدرا
وأطلقت المهند من يمينى فقد له من الأضلاع عشرا
فخر مجدلا بدم كأنى هدمت به بناء مشمخرا
وقلت له يعز على أنى قتلت مناسبى جلدا وقهرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمنى فرارا لعمر أبيك قد حاولت نكرا
فلا تجزع فقد لاقيت حرا يحاذر أن يعاب فمت حرا
فان تك قد قتلت فليس عارا فقد لاقيت ذا طرفين حرا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم على ما منعه تزويجها وخشى أن تغتاله الحية فقام فى أثره وبلغه وقد ملكته سورة الحية • فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية فجعل يده فى الحية وحكم سيفه فيها فقال :

بشر الى المجد بعيد همه لما رآه بالعراء عمه
قد ثكلته نفسه وأمه جاشت به جائشة تهمه
قام الى ابن للفلا يؤمه فغاب فيه يده وكمه
ونفسه نفسى وسمى سمه

فلما قتل الحية قال عمه : انى عرضتك طمعا فى أمر قد ثنى الله عنانى عنه ، فارجع لأزوجك ابنتى • فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخرا حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدججا فى سلاحه فقال بشر : يا عم انى أسمع حس صيد ، وخرج فاذا بغلام على قيد ، فقال : ثكلتك أمك يا بشر ، ان قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخرا ! أنت فى أمان ان سلمت عمك فقال بشر : من أنت لا أم لك ؟ قال : اليوم الأسود والموت الأحمر ، فقال بشر : ثكلتك من سلحتك (٢٢) فقال : يا بشر ومن سلحتك •

وكر كل واحد منهما على صاحبه فلم يتمكن بشر منه وأمكن الغلام عشرون طعنة فى كلية بشر كلما مسه شبا السنان (٢٣) حماه عن بدنه ابقاء عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى أليس لو أردت لأطعمتك أنياب الرمح ؟ ثم ألقى رمحه واستل سيفه فضرب بشرا عشرين ضربة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشر من واحدة ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب فى أمان ، قال : نعم ولكن بشريطة أن تقول لى من أنت فقال : أنا ابنك •

فقال : يا سبحان الله ما قارنت عقيلة قط فأنى لهذه المنحة ! فقال : أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصا من هذه العصيه (٢٤) هل تلد الحية الا الحيه

وحلف لأركب حصانا ولأنزوج حصانا (٢٥) ، ثم زوج ابنة عمه لابنه ٠

★★★

تحليل المقامة البشرية :

تمتاز هذه المقامة عن سائر أخواتها من مقامات بديع الزمان فى أنها اصطنعت شاعرا لم تعرفه القرون الخالية ، وزفته الى تاريخ الأدب فاحتفل به المؤرخون وأعظموا شأنه ولم يجدوا مشقة فى تحديد عصره فجعلوا وفاته فى أواخر القرن السادس للمسيح ٠ وهذا الشاعر هو بشر بن عوانة العبدى ٠

لم يتعمد البديع الصنعة فى هذه المقامة ولا التزم السجع والتزيين، بل تركها تجرى مع الطبع فبعد بها شيئا عن انشاء المقامات ٠ فكأنه وهو يتحدث عن شاعر فى الجاهلية ، أبى الا أن يجعل كلامه ملائما لعصر شاعره ٠ وهذا من بعض حسناته الا أنه لم يتأت له أن يبعد بقصته عن الاغراب فهى على لطفها وفكاهتها وحسن سياقها ، فيها أشياء كثيرة لا يطمئن اليها العقل ولا يسلم بها المنطق ٠ ولو لم تتخذ هذه المقامة تأريخا لحياة شاعر حقيقى ، لما عنينا بنقد ما فيها من الاغراب لأنه مستملح فى قصص خيالية كالمقامات ٠

لا يظهر فى هذه المقامة أبو الفتح الاسكندرى،الا أن عيسى بن هشام يرويها وهو من عرفت وأولها : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر ابن عوانة العبدى صعلوكا فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال : « ما رأيت كاليوم » ٠ فأنشدته السبية أبياتا وصفت بها جارية حسناء وقال بشر : « ويحك من عنيت ؟ » فقالت : « بنت عمك فاطمة » ٠ فقال : « أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ » قالت : « وتزيد وأكثر » ٠ فنرى ان بشرا لم يعرف أن له بنت عم حسناء الا من امرأة غريبة سباها فى احدى غاراته فلما عرف ذلك مل جانبها وطلقها : « ثم أرسل الى عمه

يخطب ابنته ومنعه العم أمنيته فآلى ألا يرعى على أحد منهم ان لم يزوجه ابنته • ثم كثرت مضراته فيهم واتصلت معراته (٢٦) اليهم • فاجتمع رجال الحى الى عمه وقالوا : « كف عنا مجنونك » • فقال : « لا تلبسونى عارا وأمهلونى حتى أهلكه ببعض الحيل » • فقالوا له : « أنت وذاك » ثم قال له عمه : « انى آليت ان لا أزوج ابنتى هذه الا ممن يسوق اليها ألف ناقة مهرا ولا أرضاها الا من نوق خزاعة » • وغرض العم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة فيفترسه الأسد ؛ لأن العرب كانت قد تحامت عن ذلك الطريق وكان فيه أسد يسمى داذا وحية تدعى شجاعا ــ كما أسلفنا القول ــ •

ثم ان بشرا سلك ذلك الطريق ، فما نصفه حتى لقى الأسد وقمص مهره (٢٧) فنزل وعقره (٢٨) ثم اخترط سيفه الى الأسد ، واعترضه وقطه ثم كتب بدم الأسد على قميصه الى ابنة عمه : « أفاطم لو شهدت ••• » •

وهذه القصيدة شهيرة متداولة وفق فيها بديع الزمان كل التوفيق فقد ضمنها دقة الوصف وجمال التصوير وأفرغها فى قالب شائق متخير الألفاظ منسجم التعابير • ولكنها على طبيعتها وجزالتها تتناهى سلاسة ورقة ووضوحا فتجعلك تشك فى جاهليتها لأن الشعر الجاهلى مهما سهل ولان ، لا يخلو من خشونة البداوة وغموض بعض التراكيب ولا سيما شعر قيل فى وصف الوحوش والابل والقفار ، فان عاطفة الجاهلى تتصلب فى مثل هذه الحالات فتصلب معها ألفاظه ، وبوسعك أن تلتمس أية قصيدة جاهلية شئت فترى اختلافا بينا فى لغتها اذا اجتمع من أغراضها الغزل والاستعطاف أو الرثاء الى وصف الوحوش والابل والقفار • ومعلوم أن بشرا من صعاليك العرب وهؤلاء يعيشون فى البرارى المقفرة ولا يخالطون غير الوحوش فيصبحون من الخشونة على جانب عظيم • وتخشوشن معهم لغتهم • ولنا فى شعر الشنفرى وتأبط شرا أمثلة صادقة للغة أولئك الصعاليك • أما قصيدة بشر فحضرية أكثر منها بدوية وليس ورود بعض الغريب فيها بدليل على جاهليتها وهو قليل تافه لا تأثير له فى أثناء اللفظ المأنوس •

وأرسل بشر القميص الى ابنة عمه لتقرأ القصيدة ولا نعلم من كان رسوله اليها ، لأن صاحب المقامات لم يذكره ولا ذكره من أرخ بشرا بعده • غير أننا نعلم أن بشرا ذهب يطلب النوق منفردا وسلك طريقا تحامت عنه العرب •

ولكن وصلت القصيدة الى ابنة عمه · وقرأها عمه ففاضت عاطفته فجأة واحتل حب بشر قلبه على حين غرة وندم على ما فعل وخشى أن تغتاله الحية فجد فى أثره مخاطرا بنفسه : « وبلغه وقد ملكته سورة الحية » (٢٩) · وادراكه اياه على هذه الصورة يجعل القصة أشد تأثيرا فى النفس · « فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية فجعل يده فى فم الحية وحكم سيفه فيها » ·

وكان ختام هذه القصة أطروفة فى غاية اللطف والفكاهة ، بينة الاغراب والاصطناع : « فلما رجع جعل بشرا يملأ فمه فخرا حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدججا فى سلاحه فقال بشر : « يا عم انى أسمع حسن صيد » وخرج فاذا بغلام على قيد (٣٠) · فقال : « ثكلتك أمك يا بشر أن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخرا · أنت فى أمان ان سلمت عمك » · فبارزه بشر فقهره الغلام ولو شاء لقتله · ثم قال : « يا بشر سلم عمك واذهب فى أمان » · قال : « نعم ولكن بشريطة أن تقول لى من أنت ؟ » فقال : « أنا ابنك » فقال : « سبحان الله ما قارنت عقيلة قط فأنى هذه المنحة ؟ » فقال : « أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك » · فقال بشر :

« تلك العصـــا من هذه العصيـه هل تلد الحيـــة الا الحيه ؟!

وحلف لأركب حصانا ولأتزوج حصانا ثم زوج ابنة عمه لابنه » ·

★★★

منزلة بديـــع الزمان :

قال الثعالبى : « هو بديع للزمان ومعجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عطارد وفرد الدهر وغرة العصر » ·

وفى هذه النعوت ما يدل على شدة اعجاب صاحب اليتيمة به ولم ينفرد بهذا الاعجاب أبو منصور وحده ، بل شاركه فيه جمهرة المتأدبين فى عصره وبعد عصره · وحسب البديع منزلة أن ينتظم له حزب يلف لفه وهو ما برح فتى غض الشباب : فقد علمت كيف انشق الناس شطرين بعد مناظرته لأبى بكر وكان الشطر الأعظم بجانبه يشد أزره ويفضله

على خصمه وقد استحق صاحبنا هذه المنزلة بذكائه النادر وسرعة خاطره واستبحاره فى اللغة وآدابها وبلاغة انشائه وحسن مائه وروائه ، وطول باعه فى الوصف والتصوير ودقة نظره فى مراقبة الأشياء وبراعتـه فى التوليد والابتكار وهو خير مصور للحياة فى لذتها وألمها ، ولأخلاق الناس ولا سيما المحتالون الذين يتوسلون الحيل لابتزاز الأموال ، وأول من ابتكر فن المقامات فترسمه فيه أخلافه فنحتوا من صخره واغترفوا من بحره . وكفاه فخرا أنه خلق لتاريخ الآداب شاعرا خدع به صيابة الأدباء . فرووا شعره وأثبتوا خبره وظل حديث المجالس وحلقات الطلب زهاء عشرة قرون ، وبديع الزمان أحـد زعماء الأسلوب المنمق وأبعدهم صيتا وأوسعهم شهرة وأنبههم ذكرا ! .

★★★

الهـــــوامش

(١) همذان : مدينة جبلية بفارس • تقع غربى طهران • كانت لهـا مكانة علمية وأدبية • وقد تخرج منها كثير من أدباء القرن الرابع الهجرى •
(٢) الاسكندرية : ثغر ـ ثغور الأندلس •
(٣) المضيرية : نسبة الى المضيرة • وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض •
(٤) سال لعابها •
(٥) الوسط •
(٦) المأروض : الذى أكلته الأرضة •
(٧) كاســدة •
(٨) بيع بثمن مؤجل •
(٩) الشبة : النحاس الأصفر أو البرونزى •
(١٠) الرث البــالى •
(١١) المجالدة والمقاتلة •
(١٢) المركن الذى يعجن فيه •
(١٣) آنية الطعام •
(١٤) كيف، اتصلت به بالشراء •
(١٥) فواصله •
(١٦) خمصانة : ضامرة •
(١٧) اشل : أرفع •
(١٨) يبقى •
(١٩) قطعه عرضا •
(٢٠) تبختر •
(٢١) الأثر : بضم الهمزة ندوب الجراح وثلمات السيوف •
(٢٢) من ألقتك ـ من بطنها •
(٢٣) شبا السنان : حده • •
(٢٤) العصا من العصية : مثل قديم فالعصا اسم فرس جذيمة الأبرش والعصية اسم أمهـا •
(٢٥) الحصان : بفتح الحاء المرأة العفيفة •
(٢٦) معراته : أذياته ، واحدتها معرة •
(٢٧) قمص المهر : رفع يديه وطرحهما ، وعجن برجليه من الفزع •
(٢٨) عقره : قطع قوائمه •
(٢٩) سورة الحية : سطوتها وحدتها •
(٣٠) القيد : المقدار • والمراد على قيد رمح أو ميل أى مقدار طوله •

الديكاميرون

بوكاشيو

القرن الرابع عشر الميلادي

بوكاشيو الضاحك الباكى

بوكاشيو كان أول من نبغ بين الكتاب الايطاليين فى النثر القصصى، بل ان كثيرا من النقاد يذهبون الى أنه لا يزال حتى يومنا هذا رب القصة القصيرة وسيدها ٠

★★★

والحق أن قصص الديكاميرون ممتعة تشتمل على كثير من مواقف الجد والهزل : فيها سخرية بالقساوسة والرهبان الذين غصت بهم العصور الوسطى ، وفيها أصول لكثير جدا من الملاهى التى جرت بها أقلام الكتاب المسرحيين ، وفيها بهجة ومرح ومجون ٠ ولعل خير ما يوصف به هذا الكتاب هذه العبارة الموجزة الجامعة التى اختارها له مترجمه الى الانجليزية قبل القرن السابع عشر وهى : « نموذج للمرح والبديهة الحاضرة والفصاحة وحسن الحديث » فموضوعات هذه القصص من التنوع والتباين بحيث لا تجد لها فى ذلك ضريبا ، فمنها ما يخوض فى مهاترات الحمقى ومنها ما يستدر أرق العواطف وأرقاها ، وبعضها يخرج على حدود العرف الاجتماعى ، بحيث لا يصلح أن ينشر اليوم فى مجلة تطالعها عامة الناس؛ ولكنك لن تجد فى هذه القصص المائة واحدة قد زلت فيما يزل فيه الكثير من الآثار الأدبية وهو جمود العاطفة وبرودها ٠

ان من الآثار الأدبية ما يصور للانسان مثله الأعلى ليجتذبه نحوه ، ومنها ما يصور له عيوبه ليضحكه من نفسه فالكوميديا الالهية لدانتى من الضرب الأول والديكاميرون لبوكاشيو من الضرب الثانى ، ان الانسان حيوانى طموح تراه دائما يزخرف حقائق طبيعته بأوهام ؛ ليتوهم أنه كامل أو مقترب من الكمال ، ولذا تراه أحيانا يبذل مجهودا محمودا محاولا أن يحيا وفق أوهامه لعله يدنو فعلا مما رسمه لنفسه من مثل أعلى ، لكنه كثيرا ما يفشل ضعفا وعجزا ، فيجد العزاء والسلوى حين يقرأ كتابا كالديكاميرون يذكره بأن فى الناس آلافا يماثلونه ضعفا ونقصا ٠

ان الكوميديا الالهية تمثل ذروة ما بلغه الأدب فى العصور الوسطى وان الديكاميرون يمثل البادرة التى بشرت بالنهوض والاحياء فمن أين

أتى هذا الخلاف ؟ هو فى أن الكوميديا الالهية تهيىء القارىء لحياة الآخرة بينما أريد بالديكاميرون أن يعد الانسان نفسه للحياة على هذه الأرض • وها هنا يقع الفارق بين روح العصور الوسطى وروح العصر الحديث •

ان الديكاميرون من أكثر الآثار الأدبية ميلا الى تصوير الواقع من غير تأثر بالميل والهوى ، فأدبه موضوعى متطرف اذ لا تلمس شخصية المؤلف فى أى موضع من الكتاب ولا هو يلون القصة بميوله الخلقية فالحكايات تروى من وجهة نظر انسان متفرج ، يقص علينا أن شيئا معينا وقع على نحو معين ، دون أن يضيف الكاتب عاطفته من اشفاق أو تأنيب؛ لذلك ترى بعض ما يثير الأسى والحزن فى شخصيات القصة يثير فينا الضحك ، وهذا تصوير دقيق لما يحدث فى الحياة الواقعة • فقد يحب فتى فتاة وتقوم فى وجهه عقبات تستدعى منه سلوكا معينا فيه غرابة فمثل هذا السلوك فى عين صاحبه فرض محتوم عليه لا قبل له برده ، ولكنه حين يروى لنا قد نراه مضحكا • واذن ، فالقصة الواحدة قد تضحك وقد تبكى حسب أسلوب روايتها ، وقد حكى بوكاشيو حكايته على نحو يثير فى قارئه الضحك من ضعف الانسان ؛ لأنه حكى الواقع والواقع أكبر المهازل •

كان بوكاشيو مبتكرا لبعض حكاياته ، لكنه لم يصنع فى بعضها الآخر غير الصياغة والتعبير ، اذ كان منها ما هو شائع يحكيه الناس بعضهم لبعض ومنها ما ترجمه عن الخرافات الفرنسية القديمة • ومهما يكن من أمر مصادر الكتاب ، فقد أصبح الديكاميرون جزءا من الأدب العالمى ولا يزال الشعراء الانجليز من أقدمهم الى أحدثهم يردون حوضه الغزير ويستقون منه ، وقد ترجم الى اللغات الأوربية وظهرت أول ترجمة انجليزية له فى سنة ١٦٢٠ وقد تم نقله الى الانجليزية حديثا ، كما نقلته الكاتبة القصصية « فرانسز ونوور » •

ذلك هو كتاب ديكاميرون الذى قال عنه أحد النقاد ان الأدب قد انتقل به « من منطقة ما وراء الطبيعة والقصة الرمزية واللاهوت وأخذ يحيا حياة جديدة وفق الأصول الكلاسيكية القديمة التى تعمل على تقليد الطبيعة تقليدا مباشرا » •

★★★

ولد جيوفانى بوكاشيو فى باريس عام ١٣١٣ لأب كان يشغل منصبا على كثير من الوجاهة واليسار ، فقد كان فى مقدمة رجال التجارة فى مدينة فلورنسا ، فى وقت كانت تسود المدينة فيه جماعة من الطبقة الوسطى أثرت فأزاحت الطبقة العليا عن عرشها ، وقضت أعمال التجارة أن يذهب

الوالد الى باريس فى رحلة قصيرة فاتصلت الأسباب بينه وبين امراة فرنسية وكان جيوفاتى ثمرة ذلك الاتصال ثم عاد الوالد مع وليده الى بلده فلورنسا ٠

ولما شب الغلام أراد أبوه أن يعلمه التجارة وشؤون المال فارسله الى نابولى ؛ ليمارس تلك الأعمال فى أحد أفرع تجارته الممتدة الأطراف ، غير أن بوكاشيو الصغير لم يتعلم شيئا عن البيع والشراء ، اذ لم تصادف التجارة من نفسه الا نفورا ؛ لكنه وجد الحياة هنالك زاخرة فعب منها عبا وقد قال بوكاشيو فى نابولى اذ ذاك : « انها مدينة بهيجة غنية فاخرة تفوق سائر المدن الايطالية جميعا يملؤها اللهو واللعب وأسباب المرح معبودة الناس » فقد بلغت الأخلاق فيها غايتها من الانحلال وانغمس الناس فى المجون ، حيث جاز أن ينازع الملك « روبرت الحكيم » رجلا من أهل نابولى فى أبوة طفلة ولدتها زوجة ذلك الرجل !!

وشاء القدر أن تكون هذه الطفلة أشد المثيرات الوجدانية فى حياة بوكاشيو ، فقد شهدها فى الكنيسة لأول مرة وكانت عندئذ فى عامها السابع عشر تصغره بعام واحد وكانت قد تزوجت قبل ذلك بعامين ، فأحبها للنظرة الأولى وأخذ يحدق فيها حتى اضطرت الفتاة الى أن تسدل على وجهها قناعها ، على أنه لم تمض أيام حتى توثقت بينهما الصلات وهى التى أشار اليها بوكاشيو فى حكاياته باسم « فيامتا » ، وما مضت على حبهما عشر سنوات حتى قضى عليها « وباء الطاعون » ، ثم لم يلبث أن ألمت به ملمة أخرى وهى أن أباه أضاع كل ماله فهوت الأسرة كلها فى مسغبة ، ردت عنها الأصدقاء فلما أثقل الهم قلب بوكاشيو ، حج الى قبر فيرجيل وهنالك قطع على نفسه عهدا أن يهب حياته للأدب ٠

وأول ثمراته فى الأدب قصيدة « فيلوستراتو » التى تتكون كل مقطوعة فيها من ثمانية أشطر وقد نسج على منوالها « تشوسر » قصته « ترويلس وكرسدا » ، وكذلك أثمر حبه للأدب أثرا أدبيا آخر هو قطعة نثرية عنوانها « فيلوكولو » كتبها ليدخل السرور على قلب حبيبته ثم قصة « فيامتا » التى قيل عنها انها أول قصة تحليلية عرفتها الآداب الأوربية وهى تعالج عواطف الزوجة التى هجرها الحبيب ٠ وبعدئذ أنشد قصيدة « ننفيل فيسولو » التى قال عنها انها خير ما أنشد من شعر ٠

ولم يمض طويل زمن بعد موت حبيبته «فيامتا» حتى عاد بوكاشيو الى فلورنسا ، وأخذ فى انشاء آيته الكبرى وهى كتاب « ديكاميرون » ٠

وبعد أن فرغ بوكاشيو من كتابه ديكاميرون بلهجته التسكانية ، حدث أن ذهب الى « بادوا » مبعوثا من جمهورية فلورنسا ليعيد بترارك من منفاه ، وكان بوكاشيو قد حفظ أغانى بترارك عن ظهر قلب وأعجب به منذ الصبا فلما التقى ببترارك وجده مشتغلا باحياء اللاتينية واليونانية القديمتين ، احياء جعله أبا للنهضة الأدبية غير مدافع وقد تأثر به بوكاشيو فأمسك عن الكتابة باللهجة التسكانية ليكتب باللاتينية كتابة العلماء . ومما نذكره عن بوكاشيو أنه هو الذى أضاف الى عنوان ملحمة دانتى لفظة « الالهية » فأصبح « الكوميديا الالهية » كما هو اليوم .

ومات بوكاشيو فى ديسمبر من سنة ١٣٧٥ وهو فى عامه الثانى والستين بعد أن أنفق أواخر أعوامه فى فاقة مريرة ، وحزن أليم ، لكنه كان قد شق طريق الخلاص من العصور الوسطى وقد كان فى أوله طريقا ضيقا وعرا ، فهو ضيق لأن الرائد الأول كان لابد له أن يحصر انتباهه فى البقعة التى أمامه ؛ ولذلك جاء كتاب بوكاشيو صورة لمكان بعينه وزمان بعينه حتى ليصح ان يقال عنه انه يصور ايطاليا فى القرن السابع عشر وهو وعر لأن تفتيت الصخر عمل مجهد شاق ؛ لكن الطريق الجديد سلك بالنزعة الجديدة عبر جبال الألب الى مسالك فسيحة طيعة هى آفاق الأدب الأوروبى الحديث .

★★★

الكتاب

أتم بوكاشيو الديكاميرون فيما بين عامى ١٣٤٨ ــ ١٣٥٣ م ، مستوحيا فكرته من وباء الطاعون الذى حل بفلورنسا عام ١٣٤٨ ، يصدر بوكاشيو كتابه بوصف مؤثر لذلك الوباء المدمر الذى كان يفتك بالسكان فتكا ذريعا، حتى يمهد الى اجتماع شمل الأبطال الذين تروى القصص على لسانهم وهم سبع فتيات حسان وثلاثة شبان فروا الى مكان آمن للنجاة من الطاعون ، وأخذوا يسلون أنفسهم طوال عشرة أيام برواية القصص فيروى كل واحد من منهم قصة كل يوم بحيث يتألف من الأيام العشرة مائة قصة هى قوام ذلك الكتاب الخالد الذى أمتع القراء فى العالم لمدة ستة قرون ولا يزال حتى يومنا هذا مادة ممتعة تحتل مكانة ممتازة فى جميع آداب العالم بعد أن ترجم الى مختلف اللغات .

ورغم أن بوكاشيو لم يعن حينذاك بأن يقرن ذلك العمل باسمه ، الا أن الديكاميرون كان السبب المباشر فيما أحرزه بوكاشيو من شهرة واسعة ٠

مقـدمة الديكاميرون :

يستهل بوكاشيو الديكاميرون بفصل افتتاحى ، يمهد به للقصص المائة التى تروى على لسان الأبطال الذين اختارهم ويصف كيف اجتاح وباء الطاعون مدينة فلورنسا عام ١٣٤٨ ، فأصبحت معزولة عن العالم بعد ازدهارها وكيف تفشى فيها المرض بحيث أصبح الموت هو القدر المحتوم لكل من ابتلى بالداء الوبيل ، فما تكاد البقع القرمزية تظهر على البـدن حتى يموت المريض فى غضون ثلاثة أيام ٠

« عم المدينة الرعب والكرب والفوضى وأهملت كافة القوانين من وضعية وسماوية وأصبح كل فرد من أهالى فلورنسا يفعل ما يشاء ، واقتحم سفلة القوم قصور الأثرياء ليعيشوا عيشة ترف ورخاء ، زاعمين أنه ما دامت النجاة من الطاعون أمرا مستطاعا ، فلا أقل من أن يلقوا الموت وهم يرفلون فى حلل النعيم ٠

وفضل البعض الآخر أن يحيا بمعزل عن العالم فأغلقوا الأبواب على أنفسهم ليعيشوا على الطعام المخزون ، وهجر بضعة آلاف من السكان بيوتهم ليعيشوا فى الريف ، تاركين وراءهم كل ما يملكون من متاع وثروات وأهل وأحباب ٠

« كان الأخ فى ذلك الحين يفر من أخيه والزوجة من زوجها والأشد من ذلك قسوة وأمر أن الآباء فى غمرة الهلع الذى ساد البلاد كانوا يهجرون فلذات أكبادهم ٠ وكان من الخطر الداهم أن يسير الناس فى الطرقات ؛ لأنهم كانوا يروعون بمنظر جثث الضحايا التعساء الذين صرعهم المرض ولقد شاهدت الكلاب بعينى رأسى وهى ترد موارد الهلاك لمجرد أنها لمست الثياب المهلهلة للموتى ٠

« فيما بين مارس ويوليو لقى مائة ألف من أهل فلورنسا حتفهم ، رغم أنه لم يكن من المتوقع أن يبلغ عدد سكان المدينة هذا الرقم الضخم قبل أن يلتهمها الوبـاء ، ولكن نفسى تطير شعاعا عندما تعـدد ما حل بمدينتنا من ألوان الشقاء ، ومن ثم سوف أمحو من الذاكرة كل ما يمكن

محوه وأكتفى بالاشارة الى أنه فى الوقت الذى كادت تخلو فيه المدينة من أهلها التقت فى صحن كنيسة سانت مارى مساء أحد أيام الثلاثاء سبع فتيات حسان وهن يرفلن فى ثياب الحداد ومن هذا العدد القليل ، كان يتألف كل الجمهور المحتشد للعبادة ٠

كانت كل واحدة من الحسان تمت بصلة الى الاخرى ٠ اما عن روابط الدم أو أواصر الصداقة الوثيقة ، وكانت بامبينا كبراهن تبلغ الثامنة بعد العشرين من عمرها ، أما فياميتا فقد كانت تصغرها بقليل،فى حين كانت فيلوميتا واميليا ولوريتا ونيفيلى تصغرانهما بسنوات ، أما ايليزا أصغرهن فلم تكن قد تجاوزت العام الثامن عشر من عمرها ٠

وعندما انتهت الطقوس انتحت الفتيات ركنا من الكنيسة وبدأن يتشاورن فيما ينبغى لهن أن يقدمن عليه ، بعد أن أصبحن وحيدات فى الحياة ٠ قالت بامبينا :

ــ اننى أنصح بأن نهجر فلورنسا ؛ لأن الحياة فى المدينة باتت شديدة الخطر ليس لمجرد أن الوباء قد داهمها ، وانما لأن الرجال قد فقدوا صوابهم وأصبحوا يعيثون فسادا فى الطرقات ويقتحمون البيوت دون وازع من القانون ، والأفضل لنا أن نلجأ الى الريف حيث الهواء النقى والتلال المعشوشبة وحقول القمح الناضج التى تذكرنا بالحياة ، بدلا مما يطالعنا فى جدران المدينة من هجران وأحزان ٠

وقالت فيلومينا معقبة :

ــ اننى أشك فى أن تتحقق لنا هذه الأمنية بغير أن يتقدم لمساعدتنا بعض الرجال ٠

وصاحت ايليزا محتدة :

ــ من أين يأتينا مثل هذا العون وقد أصبح كل من يمت الينا بصلة القربى من الرجال فى عداد الأموات ؛ بينما القلة التى سلمت من الموت قد آثرت الفرار ؟

وبينما هن يتداولن فى الأمر ، دلف الى الكنيسة ثلاثة فرسان فى ربيع العمر هم : بامفيلو وفيلوستراتو وديونيو ، وقد جاءوا الى الكنيسة يبحثون عن آسرات قلوبهم وكن بالمصادفة نيفيلى ، وبامبينا وفيلومينا ٠

وقالت بامبينا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة :

ـ انظرن ! ان الحظ لا يزال فى جانبنا ، لقد ألقى فى طريقنا ثلاثة شبان أجلاء لا أشك لحظة فى أنهم يجيبون مطلبنا لو أننا دعوناهم ٠

وأنبأت بامبينا الفرسان بحطتها راجية أن يقدموا العون لتنفيذها ، وظن الفتية فى أول الأمر أن المسألة لا تخرج عن الدعابة ٠ ولكنهم سرعان ما قرروا مصاحبة الفتيات عندما تبين لهم صدق ما عقدن العزم عليه ؛ لهذا لم تكد بواكير الصباح تلوح حتى تحرك موكب الفتيات الحسان تصاحبهن وصيفاتهن والفرسان مع أتباعهم من الرجال مدبرين عن فلورنسا ٠ وعندما قطعوا من الرحلة ميلين كانوا قد بلغوا المكان المتفق عليه وهو عبارة عن تل يقع بمعزل عن الطريق تكثر فيه الأشجار الباسقة ويتربع على قمته قصر منيف ، يحيط به فناء متسع كالروضة الفيحاء وبداخله الأبهاء والغرف الفسيحة التى تزينها الرسوم الرائعة ومن حوله تنتشر المروج الخضراء وحدائق ذوات رونق وبهاء ونافورات يتفجر منها الماء ٠

وعندما اطمأن الجميع الى أن كل شىء فى القصر قد أعد بنظام لاستقبال الوافدين ، قامت الحسان بنزهة فى الحديقة يصاحبهن الفرسان وهم ينشدون أهازيج الحب وينظمون أكاليل الأزهار ، حتى اذا ما بلغت الساعة تمام الثالثة أعدت المائدة فى قاعة الاحتفالات ٠ وعندما فرغ الجميع من تناول الطعام ، أخذ ديونيو ينفخ فى قيثارته بينما تعزف فياميتا على العود ، وقد انتظم بقية الجمع فى حلقة الرقص على أنغام الموسيقى ، وعندما انتهوا من الرقص أخذوا يغنون ، وهكذا استمروا فى الرقص والغناء حتى حل الليل وحينئذ انسحب الفرسان الى غرفهم وكذلك فعلت الفتيات ، بعد أن اتفق الجميع على أن تكون بامبينا منذ الغد ملكة على الحشد ، هى التى تشير بالرأى وتشرف على الطعام والحفلات ٠

وفى صباح اليوم التالى أرسلت الملكة بامبينا الى الجميع تدعوهم الى الاجتماع فى تمام الساعة التاسعة ، قائلة ان النوم خلال ساعات النهار منافٍ للصحة وقادتهم الى مرج كثير تظلله الأشجار العالية وتابعت حديثها قائلة :

ـ من الحماقة أن نفكر فى التريض ما دامت الشمس قد علت كبد السماء والجو مشبع بالحرارة وليس غير أصوات الجنادب بين أشجار الزيتون ، لهذا دعونا نجلس فى حلقة لنروى القصص وعندما تتم الدورة تكون حرارة الشمس قد هبطت فيتاح لنا حينئذ أن نسلى أنفسنا على خير ما نحب ٠

وتابعت بامبينا حديثها قائلة للفارس الجالس على يمينها :

ـ والآن بامفيلو أرجوك أن تروى قصتك ٠

الى هنا تنتهى المقدمة الممتعة التى يمهد بها بوكاشيو للقصة المائة ، والتى تتم روايتها على ألسن الرواة فى عشرة أيام بحيث لا تمر الدورة فى كل يوم حتى يشارك كل منهم بقصة ٠

وقبل أن نورد نماذج منتقاة من تلك القصص ، لا نحب أن نغفل جانبا له اعتباره بين ذلك القصص الانسانى الخالد ذلك الذى يتعرض للعواطف الانسانية الجامحة فى غمرة توقدها ، حينما تستسلم النفس الانسانية الى الضعف وتغلب عليها الغريزة المتدفقة ، وتنكشف الستر عن الملتفعين بالدين ، فيظهرون كالبشر العادى سواء بسواء ويستجيبون للواعج الحب وصبابة العشاق٠وتنكشف فى هذا اللون من القصص موهبة بوكاشيو الضخمة ، عندما يهبط بالقصة من أبراج القصور الى أكواخ السوقة وصوامع النساك فيجلوها بمسحة من الواقعية التى أكسبتها تلك الشهرة وذلك النبوغ ٠

★★★

القصص الانسانى :

نلمس فى كثير من القصص التى يضمها الديكاميرون النبضات الانسانية الحية ، والتحليل الدقيق للمشاعر الانسانية النبيلة وقد اخترنا نموذجا نلخصه فى عجالة ٠

فى قصة « الأب القاسى » نجد تاندريد أمير ساليرنو يزوج ابنته سيجيزموند وهى فى مقتبل العمر من زوج لا تكاد تتذوق معه أول متع الحياة حتى يختطفه الموت فتعود الى قصر أبيها ، وينسى الأب فى غمرة حبه وحنانه وعطفه على الابنة أن يفكر لها فى زواج جديد يعصمها من الزلل ولا تستطيع سيجيزموند أن تقاوم الرغبة بعد أن تحرك فى أعماقها ما كان ساكنا قبل الزواج ، فتختار لنفسها عشيقا من بين رجال القصر وهو شاب من أصل متواضع يسمى جيشارد وتتخذ الأرملة الحسناء كل أسباب الحيطة حتى لا يفتضح السر ٠ ولكن الأب العجوز يتسلل ذات يوم الى مخدع ابنته ليتبادل معها الحديث ، وعندما يجد الحجرة خالية والستر

مسدلة على السرير يجلس على مقعد تخفيه الستر بجوار السرير ويستسلم الى الكرى ، بينما يعود العاشقان فى غفلة من عيون الرقباء ويستيقظ الأب على أصوات تدغدغ حسه وحركات تثير سخطه وغضبه ، ولكنه يكتم غيظه وينسحب فى هدوء ثم يدع الحراس يقبضون على جيشارد ، دون أن تعلم ابنته ، ويذهب الأب العجوز الى حجرة ابنته ويفصح لها عن اكتشافه قائلا انه لم يكن يتصور أن ابنته تنحدر الى ذلك الدرك مع نكرة من رجاله ، بينما يوفر لها كل ما يستطيع من حب وحنان · ويخبرها أنه أجل البت فى مصير العاشق حتى يسمع دفاعها · وينكس الأب رأسه فى مذلة وينخرط فى البكاء كالأطفال ولا تحاول ابنته أن تطلب الرحمة أو تستدر العطف وتعترف اعترافا صريحا وتقول :

« لقد أحببت جيشارد وسأظل وفية لحبه ما حييت ، وان كنت أعلم أن ذلك العمر لن يطول واذا كان للحب أن يعمر بعد الموت ، فان هذا ما سيحدث من جانبى ، ان فضيحة هذا الشاب وقلة العنايه التى نظرت بها الى موضوع زواجى كان لهما أعمق الأثر فى نفسى ، واذا كنت يا أبى لم تخلق من حديد أو رخام فلابد أن تفكر فى أن هذا هو حال ابنتك أيضا · وينبغى أن تذكر فى هذه السن الطاعنة ما كان يزخر به قلبك فى سنى الشباب من عواطف جياشة اننى مازلت فى ربيع العمر وقد حرك فى الزواج المبكر ما كان خامدا من العواطف · بحيث لم يعد فى مقدورى أن أتجاهل الغريزة الصارخة · لقد كانت تلك الرغبات ولا شك هى التى أشعلت فى قلبى جذوة الحب المتعطش للارتواء وعندما أيقنت ألا سبيل الى مقاومة رغباتى ، اتخذت كل أساليب الحيطة كى أغلف حبى بستر من الشرف · وهكذا جمعت بين اشباع الرغبة والمحافظة على السمعة واذا كنت قد فضلت جيشارد على غيره من رجال القصر ، فانما كان ذلك بعد روية وطول تفكير · ويبدو أنك كنت تتسامح لو كان حبى لرجل نبيل الأصل ولكن الذنب ذنب الحظ وليس الخطأ من تدبيرى · ان الحظ أعمى وهو يختار أقل الناس استحقاقا له بينما يتخلى عن أولئك الذين تسمو عواطفهم ويستحقون أوفى تقدير ·

« ارجع الى الأصل لتجد اننا جميعا أبناء نفس الأب · وأننا خلقنا من طينة واحدة ثم تفرقت بنا السبل فى الحياة ليكون هناك النبيل الأصل ووضيعه ، وكائنا ما يكون الخلل الذى دفع الضمير الانسانى الى فرض هذا القانون الجائر ، فانه لا تزال هناك نفوس سامية لا تزن هذه الأمور بهذا الميزان · ووفقا لهذه المقاييس الرفيعة تستطيع أن تقول انه

بقدر ما تتعدد هذه الفضائل فى الفرد يكون سموه وعلو قدره ، ومن ثم يعتبر جيشارد أعرق فى السمو والنبالة من جميع رجال قصرك » ٠

واختتمت سجيزموند حديثها قائلة انها تترك لأبيها أن يقضى فى مصير جيشارد بما يشاء ، ولكنها ستنفذ الحكم عينه على نفسها طائعة طالبة من أبيها ألا يبكيها حينئذ ٠

وفكر الأب العجوز ثم هداه تفكيره الى قتل جيشارد وانتزاع قلبه من صدره ، وأرسل لها القلب فوق صحيفة مع رسول يحمل هذه الرسالة :

« يبعث اليك والدك الأمير بهذه الهدية لتعزيك عن فقد أشد ما تحبين » ٠

وأدركت سيجيزموند ما تحمله الرسالة من معنى وأسرعت الى زجاجة من السم كانت قد أعدتها وتجرعت كل ما فيها وعندما علم الأب بالأمر أسرع اليها ، وقالت سيجيزموند بضعف وهى تغالب سكرات الموت :

ـ اذا كان قلبك لا يزال ينبض بحبى ، فاننى أتقدم اليك بآخر رجاء انى لا أطلب منك سوى السماح بأن أدفن علانية بجوار جيشارد ، حيث أبيت الا أن أعيش سعيدة بجواره فى الخفاء ٠

وخنقت الأب العبرات فلم يستطع أن يجيب ابنته المحتضرة بكلمة واحدة ٠ ولم يكد الأب يبارح الحجرة حتى لفظت سيجيزموند آخر أنفاسها وهى تضم قلب العاشق الى صدرها ٠ وندم الأب العجوز على قسوته ولكن بعد فوان الأوان ، وسمح لجثتى العاشقين بأن تدفنا فى مقبرة واحدة ٠

قصة حب

حدث منذ زمان أن كان يعيش فى جزيرة قبرص رجل ذو أصل عريق وثراء وفير يدعى أريستيوس ، وكان الرجل يحس ببالغ التعاسة من جراء ابنه سيمون ، فرغم ما يتمتع به الفتى من جسم فارع وطلعة ذات حسن ، الا أنه كان ضعيف العقل وعندما اكتشف الأب أن أمهر المعلمين قد عجز عن صب القليل من المعرفة فى عقل الابن ، قرر أن يباعد بينه وبين ابنه حتى لا يقع عليه بصره وأرسله ليعيش بين العبيد فى منزله بالريف ٠

هناك اعتاد سيمون أن يكدح كما يفعل العبيد وأصبح في الواقع على شاكلتهم في خشونة الصوت وفظاظة الطباع · الا أنه حدث ذات يوم بينما كان يجوس خلال المزرعة أن وقعت عيناه على غادة حسناء مستغرقة في النوم فوق العشب الأخضر الكثيف · ومن تحت أقدامها أغفت وصيفتان وخادم من رجالها ، لم يكن سيمون قد رأى قبل ذلك وجه امرأة قط فوقف يحملق في الفاتنة مبهورا وهو يستند على عصاه ، وقد تسربت الى ذهنه أفكار غريبة وتحركت في أعماقه عواطف لم يشعر بها من قبل · وظل يتأمل الحسناء فترة طويلة حتى رأى أهدابها تتحرك ثم رآها تستيقظ ببطء وأحس سيمون بنشوة غامرة تملأ جوانح نفسه وقالت الحسناء :

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟ أرجوك أن تبتعد عني اني أرتعد لمرآك ·

وأجابها سيمون حالما :

ـ لن أبتعد اني لا أستطيع ·

ورغم أن الفتاة كانت خائفة فانه لم يتخل عنها ، حتى صحبها الى دارها وحينئذ ذهب الفتى الى أبيه ليقول له انه يريد أن يعيش كسيد مهذب وانه لم يعد يطيق حياة العبيد · ودهش الأب عندما اكتشف أن صوت ابنه قد لان واكتسب عذوبة ورقة ، بينما تهذبت طباعه وهشت أساريره · وغير الأب ثياب ابنه وسربله بملابس تليق بعلو مكانته وسمح له بالذهاب الى المدرسة ·

مضت أربع سنوات منذ وقع سيمون فريسة للحب وقد غدا الشاب أنبه شباب قبرص وأكثرهم أدبا وعلما ، وعندئذ ذهب الشاب الى والد ايفيجنيا ـ وذلك كان اسمها ـ طالبا يد ابنته ولكن الوالد أجابه بأن ابنته مخطوبة بالفعل لباسيموندس وهو شاب من نبلاء رودس وأن احتفالات الزفاف توشك أن تقام ، وهمس سيمون لنفسه في مرارة وهو يستمع الى تلك الأنباء الأليمة :

ـ أواه يا افيجينيا ! لقد حان الوقت لأكشف لك عن مدى ولعي بك · لقد كان حبك هو الذي خلق مني رجلا · والزواج منك كفيل بأن يجعلني سعيدا وعظيما كاله ! بك سأظفر والا فالموت عزائي ·

سارع سيمون الى بعض أصدقائه من الاشراف طالبا منهم العون فى تدبير سفينة للقتال · وعلى متن هذه السفينة تابع مسير السفينة التى ابحرت عليها ايفيجينيا قاصدة رودس وألقى على السفينة الأخرى بخطاف من الحديد وشدها نحوه حتى تلاقت السفينتان · ودون انتظار العون من أحد ، قفز سيمون بين خصومه وظل يدافعهم عن نفسه حتى ألقوا السلاح ، وهو يقول لهم :

ـ انى لم آت لسلبكم ، وانما جئت لاظفر بالحسناء النبيلة ايفيجينيا التى أحبها أكثر من أى شىء فى الوجود ، خلوا بينى وبينها وأقسم ألا ألحق بكم ضررا ·

جاءت اليه ايفيجينيا والدموع فى مآقيها فقال لها برقة :

ـ لا تبكى يا فاتنتى الرقيقة أنا أسيرك سيمون · ان حبى العميق الدائم يساوى أكثر بكثير مما يعدك به باسيموندا س ·

ابتسمت ايفيجينيا من بين دموعها ، بينما كان سيمون يصحبها الى ظهر السفينة ويبحر بها الى كريت حيث أهله وأقرباؤه وأصحابه ، الا أن عاصفة هوجاء هبت خلال الليل وألقت غلالها على جميع النجوم فى السماء ، وظلت السفينة تدور حول نفسها حتى ألقت بها العاصفة على شاطىء يقع على سواحل رودس · وقبل أن تتمكن السفينة من الاقلاع مرة أخرى هاجمها باسيموندا س وأخذ سيمون أسيرا وقاده الى كبير قضاة رودس · وكان فى ذلك العام ليزيماخوس الذى أصدر الحكم بالسجن على سيمون وصحبه بالسجن مدى الحياة بتهمة القرصنة والاختطاف ·

وبينما كان سيمون يقاسى مرارة السجن يائسا من أى أمل فى استرداد حريته ، كان باسيموندا س يعد العدة لحفل زواجه من ايفيجينيا ، وكان لباسيموندا س فى ذلك الحين أخ يصغره ويدعى هورميسدا س · وكان يرغب فى الزواج من حسناء اسمها كاساندرا ، وكان ليزيماخوس كبير القضاة يحب بدوره هذه الأخيرة · فكر باسيموندا س فى أنه يستطيع أن يوفر قسطا كبيرا من المتاعب والنفقات لو أنه أقام احتفاله بزواجه وزواج أخيه فى نفس الوقت ، لهذا فقد أعد العدة لذلك مما أثار حفيظة ليزيماخوس وأغضبه أيما غضب · وبعد طول روية وتفكير تخلى الشرف عن مكانه للحب وعزم ليزيماخوس على أن يختطف كاساندرا غصبا ·

ولكن من يعينه على قضاء مأربه من بين أصحابه ؟ هذا ما فكر فيه ليزيماخوس ولم يتردد لحظة فى أن يستعين بسيمون وأعوانه • خف اليهم فى السجن ليطلق سراحهم ويزودهم بالسلاح ويخفيهم فى منزله ثم قسمهم فى ليلة الزفاف الى ثلاث فرق،قصدت احداها الشاطىء لتستولى على احدى السفن ، بينما عهد الى الثانية بمراقبة بوابة قصر باسيموندس ونصب من نفسه قائدا للفرقة الثالثة يسانده سيمون ، واقتحمت هذه الفرقة قاعة الاحتفال حيث تقام مراسم الزواج وقتلت العريسين وحملت العروسين والدمع فى مآقيهما الى السفينة التى أبحرت بين تهليل ركابها ومرحهم قاصدة كريت •

وهناك تزوج الشابان من الفاتنتين بين تهانىء الأقارب والأصدقاء ورغم أن قتالا عنيفا قد نشب بين أهل جزيرة كريت وقبرص من جراء فعلتهما الشنعاء ، الا أن الأمور سويت فى النهاية على خير ما يرجى من سلام ، وحينئذ عاد سيمون مع ايفيجينيا الى قبرص وحمل ليزيماخوس عروسه كاساندرا الى رودس وعاش الجميع فى خير وسعادة حتى آخر أيام العمر •

قصة صداقة

فى الوقت الذى كان يحكم فيه روما اكتافيوس قيصر ــ وهو الذى أصبح يلقب فيما بعد الامبراطور أوغسطس ــ كان يعيش فى روما شاب يدعى تيتوس كوينتوس فلافيوس • وقد قصد الشاب أثينا ليدرس الفلسفة وهناك نمت علاقة صداقة بينه وبين شاب من أشراف أثينا يدعى جيسيبوس ، ودامت العلاقة بينهما ثلاث سنوات وهما يعيشان كأخوين شقيقين يدرسان معا ويعيشان تحت سقف واحد •

وذات يوم وقع جيسيبوس فى غرام حسناء من أثينا تسمى سوفورنيا وتعاهدا على الزواج • وصحب جيسيبوس صديقه لزيارة خطيبته قبل الموعد المحدد للزفاف بأيام ، وكانت تلك أول مرة تقع فيها أنظار تيتوس على سوفورنيا وبمجرد أن تلاقت نظراتهما وشاهد جمالها ، أحس أنه أحبها حبا لم يسبق لرجل أن أحس بمثله نحو امرأة ، وتأججت العاطفة فى قلبه الى درجة أنه لم يعد يستطيب الأكل أو ينعم بلذة النوم ، وبرح به المرض الى الدرجة التى أصبح معها غير قادر على النهوض من فراشه • وحزن جيسيبوس أيما حزن وأحس بعميق الأسى من أجل ما ألم بصاحبه

من سقم . ولما كان يظن أن هذا البلاء وليد مرض عقلى أصاب صاحبه . فقد ألح عليه كى يصارحه بسبب شقائه ولم يستطع تيتوس أن يخفى الحقيقة عن صاحبه فقال له ملتاعا :

ـ أواه جيسيبوس ! ، انى غير جدير بأن ألقب بالصديق لقد وقعت فى غرام سوفورنيا ، وهذا العشق يقتلنى ، يا لى من شخص وضيع! . ولكنى ألتمس منك الصفح يا صديقى سوف ألقى الموت عاجلا جزاء ما اقترفت من اثم وعدم ولاء .

جمد جيسيبوس فى مكانه برهة وهو مشتت بين حبه لسوفورنيا وولائه لصديقه ، ولكنه استقر آخر الأمر على أن يرد الحياة لصاحبه ولو كان ذلك على حساب سعادته . وبعد بضعة أيام عندما أحضرت سوفورنيا الى بيته حتى يقام حفل الزواج تسلل جيسيبوس بخفة الى غرفة العروس حيث كانت ترقد سوفورنيا (أطفأ الشموع ثم أسرع فى صمت الى تيتوس ، حيث أنبأه أنه سيكون الزوج واعترى تيتوس خجل غامر ورفض أن يذهب الى العروس ، ولكن جيسيبوس ظل يقنعه فى رفق وعطف حتى اقتنع . وسار تيتوس على أطراف أصابعه ودخل حجرة العروس المظلمة وسألها برقة عما اذا كانت تقبله زوجا ، ولما كانت سوفورنيا تعتقد أنه جيسيبوس فقد ردت عليه بقولها : « نعم » وعندئذ وضع تيتوس فى اصبعها خاتما ثمينا وهو يقول : « وأنا سأكون زوجا لك » .

وفى الصباح اكتشفت سوفورنيا الخديعة التى كانت ضحية لها ، وتسللت من المنزل لتقص على أبيها وأمها كيف خدعها جيسيبوس وزوجها لتيتوس وكان رد الفعل شديدا فى أثينا لما ارتكبه جيسيبوس فى حق سوفورنيا التى تنتمى الى أسرة من أشراف أثينا . ولكن الأبوين وقد وجدا أن ما حدث لا يمكن اصلاحه وافقا على أن يصحب تيتوس عروسه الى روما حيث لا تروج أنباء الفضيحة . ولكنهما قررا بعد رحيل تيتوس أن يقتصا من جيسيبوس وتحالفت ضده عصبة أخذت على عاتقها تلك المهمة ، ونجحت فى أن تجرده من كل ممتلكاته مع طرده من أثينا ، بعد أن صدر عليه حكم بالنفى حتى الموت .

عندما وجد جيسيبوس نفسه خالى الوفاض لا صديق له ، رحل الى روما سيرا على الأقدام قاصدا أن يلجأ الى تيتوس ليلتمس منه العون ، وعندما وصل الى روما اكتشف أن صاحبه قد صادف الثراء الواسع والجاه

المريض وأنه أصبح يتمتع بعطف الأمير أوكتافيوس الشاب ويعيش فى قصر منيف ، ولم يجرؤ جيسيبوس على أن يلج باب القصر وهو فى أسماله البالية وقنع بالوقوف كالشحاذ أمام البوابة ، على أمل أن يمر صديقه فيراه ويبادله الحديث · ولكن تيتوس كان يخرج فى كل مرة مندفعا من القصر ولم يبطىء فى سيره مرة واحدة حتى يراه وخيل لجيسيبوس أنه بات محتقرا من صاحبه فمضى فى سبيله محسورا مكدودا ·

سار جيسيبوس فى شوارع روما على غير هدى حتى فاجأه الظلام بالقرب من مغارة تواعد اللصوص على الالتقاء فيها ، واستلقى جيسيبوس على الأرض الصلبة واستسلم لسبات عميق · وبينما كان يغط فى نومه جاء لصان يحملان ما غنماه من أسلاب واختلفا على اقتسام المسروقات ونشب بينهما شجار عنيف وسقط أحدهما قتيلا بينما فر القاتل متسترا بالظلام ، حتى اذا كان الصباح اكتشف أحد الحراس الجثة وجيسيبوس غير بعيد عنها فألقى القبض عليه ·

استسلم جيسيبوس لقدره واعترف بأنه القاتل حتى يلقى الموت بهذه الطريقة بدلا من أن يقضى على نفسه بنفسه ، وازاء اعترافه أصدر القاضى الحكم بصلبه وكانت تلك هى وسيلة الاعدام فى ذلك الحين ·

وتشاء الظروف العجيبة أن يكون تيتوس موجودا فى قاعة المحكمة بطريق المصادفة ليتولى الدفاع عن رجل فقير ، وتعرف فى الحال على جيسيبوس واعترته الدهشة البالغة من جراء ما حدث لصاحبه من سوء المصير · وقرر أن ينقذ صاحبه مهما كلفه ذلك من ثمن ولكن القضية كانت قد قطعت شوطا بعيدا وليس أمامه سوى حل واحد ، ولكن تيتوس لم يتردد برهة فقد تقدم من منصة القاضى بخطى ثابتة وقال بين دهشة جميع الحاضرين :

ـ أرجوك أن تسحب حكمك هذا الرجل برىء · أنا القاتل !

تطلع جيسيبوس حوله فى دهشته ليرى تيتوس أمامه ، وأدرك أن صاحبه يحاول أن ينقذ حياته بدافع من الصداقة القوية وقرر بدوره ألا يقبل هذه التضحية فقال للقاضى :

ـ لا تصدقه يا سيدى أنا القاتل ولا يستحق العقاب سواى ·

دهش القاضى دهشة بالغة وهو يرى رجلين يسعى كل منهما الى حتفه ليفوز بالصلب ، كمـا لو أنه شرف لا يعدله شرف فى الوجود · وفجأة اندفع واحد من عتاة اللصوص كان يتابع المحاكمة ليقول بين دهشة الجميع :

ـ لقد مست هذه المناظرة الغريبة شغاف قلبى · ومن ثم سوف أعترف لكم بكل شىء · لا يمكنك يا سيدى أن تصدق أن أحدا من هذين الرجلين يمكن أن يرتكب الجريمة فما الذى يدفع سيدا من علية القوم أصحاب الثراء الواســـع كتينوس الى الذهاب الى مغـارة يختلف اليهـا اللصـوص ، انه لم يذهب قط الى المكان · أما هذا الغريب البائس ذو الثياب المهلهلة ، فقد كان نائما فى الوقت الذى وصلت فيه مع صاحبى الى المغارة واللصوص ـ كما تعلم يا سيدى ـ يختلفون فى بعض الأحيان خصوصا اذا كانت الغنيمة ثمينـة وقد كان هذا عين ما حدث البارحـة فشرعت مديتى لأضع حدا للنزاع ·

وقد كان ظهور رجل ثالث يعترف بالجرم مما زاد من حيرة القاضى فقرر أن يعرض القضية على أوكتافيوس قيصر · واستدعى قيصر الرجال الثلاثة فمثلوا بين يديه وعندئذ أفضى اليه تيتوس وجيسيبوس بقصـة صداقتهما الغريبة ، وفى الحال أصـدر أوامره باطلاق سراحهما واكراما لهما أصدر العفو عن اللص القاتل ·

وحينئذ صمم تيتوس على أن يعود معه جيسيبوس الى قصره وأرغمه على قبول نصف ثروته وزوجه من أخته فلافيا ، وهى شابة ذات حسن ساحر وفتنة طاغية · وحتى آخر أيام عمرهم عاش تيتوس وسوفورنيا وجيسيبوس وفلافيا فى سعادة ورخاء يجمعهم فى روما نفس القصر ، ولم يكن يمر يوم حتى يضيف الى سعادتهم ما يملأ القلوب غبطة وهناء ·

قصـــة ذكاء

كما ثار الكثير من الجدل حول الدين فى فلورنسا ابان الفترة التى اجتاحها فيها الوباء ، فقد أعاد ذلك الى ذاكرتها قصة ميلشيز ديك ·· كان الرجل وهو من أثرياء اليهود ، يعيش فى الاسكندرية أيام حكم السلطان العظيم صلاح الدين ، وكان السلطان فى مسيس الحاجة الى المال بعد أن

استنزفت الحروب كل ما كان فى خزائن الدولة من أموال . وقرر صلاح الدين أن يحتال على اليهودى ؛ ليجرده من ثروته فبعث اليه رسولا يستدعيه وعندما مثل اليهودى بين يديه قال له السلطان :

لقد سمعت أنك من الحكماء فى مسائل الدين . أريد أن أعرف منك أى الأديان تراه الدين الحق : اليهودية أم المسيحية أم الاسلام ؟

أدرك اليهودى أن صلاح الدين يريد أن يورطه فلو أنه أجاب بأن اليهودية أو المسيحية هى الدين الحق فلابد أن ينتقم منه السلطان ، ويحكم عليه بعدم الولاء ، ولو أنه صرح بأن دين الاسلام هو الدين الأفضل لطالبه بأن يتنازل عن جزء من ثروته للدولة مثلما فعل المؤمنون وتردد اليهودى وأعمل فكره لينجو من ورطته ثم أجاب بقوله :

كان يعيش فى قديم الزمان يا مولاى رجل يمتلك خاتما ذا رونق كبير وقيمة ذات بال ، وقد أعلن فى وصيته أن الابن الذى يترك له هذا الخاتم يصبح رب الأسرة من بعده وأن أبناء هذا الابن يبسطون حكمهم على أحفاد أبنائه الآخرين .

وظلت رغبة الأب تنفذ على مدار أجيال كبيرة ؛ ولكن الخاتم كان فى النهاية من نصيب رجل له ثلاثة أبناء وكان كل منهم فاضلا شديد الولاء لأبيه . ويحب الأب أبناءه جميعا على قدم سواء :

ولما وجد الأب نفسه غير قادر على أن يفضل ولدا على ولد ، طلب الرجل من أحد الصناع الماهرين أن يصنع له خاتمين آخرين على غرار الأول، وجاء الخاتمان مشابهين له الى درجة يصعب معها التمييز أيها الحقيقى . وبعد الوفاة ادعى كل من الأبناء أنه وريث الأب فى حكم الأسرة ولكى يدعم كل منهم الرأى بالحجة أخرج خاتمه الذى تلقاه من أبيه ولكن الخواتيم كانت متشابهة ، الى الدرجة التى لا يمكن التمييز بينها ومعرفة الأصيل منها ، ولم يستطع حتى هذه اللحظة أن يحسم الأمر انسان وهكذا حدث بالنسبة للأديان الثلاثة التى صدرت عن الرب يا مولاى : اليهودية والمسيحية والاسلام يظن كل من أصحابها أنه وريث الرب العلى ولكن الأمر بينهم غير مؤكد كما كان بالنسبة للخاتم الأصيل .

اغتبط صلاح الدين أشد الاغتباط وأعجبه الرد الذى استطاع ميلشيز ديك أن يتخلص به من الفخ الذى أعده له ، وبدلا من أن يستولى

السلطان على أموال اليهودى قسرا كما قدر قبل أن يستدعيه ، رغبه فى أن يقدم له المال على سبيل القرض ، واستجاب ميلشيز ديك لهذا الرجاء وسرعان ما رد له السلطان الدين وأغدق عليه العطايا والمنح ، بالاضافة الى ما خلعه عليه من منصب كبير واتخاذه له صاحبا فى مجلسه ٠

قصة الزوجة الصابرة

قضى الفرسان والحسان أمتع الأوقات فى الرقص والغناء ورواية القصص ٠ وعندما انحسرت موجة الوباء عن فلورنسا عاد الجميع الى المدينة ولكنهم قبل أن يبدءوا رحلتهم اليها ، قص عليهم ديونيو قصة بالغة الغرابة شديدة التأثير قال ديونيو :

جرى الرجال على أن يلصقوا بالنساء تهم التقلب وعدم استقرار العاطفة ٠ ولكن يحضر ذاكرتى قصة تدلل على ثبات عاطفة المرأة وقسوة الرجل ، ولا شك فى أنكم سوف ترحبون بالاستماع اليها ٠

كان المركيز جوالتيرى الحاكم الشاب لمدينة ساليرنو ، مؤمنا بأن النساء قلب(*) لا أمان لهن ولا ضمان لاستقرار عواطفهن ٠ ومن أجل هذا السبب أضرب عن الزواج واكتفى من متع الحياة بالصيد والقنص ، الا أن رعاياه لم يكونوا راضين عن مسلكه هذا خشية أن يموت دون وريث فيتركهم بلا سيد ، ومن ثم كانوا يلحون عليه فى الزواج وقطعوا فى ذلك شوطا بعيدا الى حد أنهم عرضوا عليه فى النهاية أن يختاروا له الزوج المناسبة وأغضبه ذلك أشد الغضب فقال لهم :

ـ اذا رغبت فى اتخاذ زوجة أيها الأصدقاء فانى سأختارها بنفسى ومهما كان أصلها أو البيت الذى نشأت فيه ، فأنتم مطالبون بتقديم واجبات الاحترام لها بما يليق بمقامها كزوج لمولاكم ، والا فانكم سوف تلمسون بأنفسكم كم يشقينى أن اتخذت زوجا حيث لم أكن أريد ! ٠

بعد ذلك ببضعة أيام بينما كان المركيز يمتطى صهوة جواده مارا بقرية غير بعيدة عن موقع القصر ، لمح ابنة أحد الرعاة تنقل الماء من البئر الى منزل أبيها ، وسألها المركيز عن اسمها وأجابته الراعية الحسناء : « جريزيلدا » ٠ وقال لها مركيز ساليرنو :

(★) بضم القاف وتشديد مع فتح اللام : متقلبات ٠

ـ حسن يا جريزيلدا ! انى أبحث عن زوجة ولو أنى تزوجتك فسيكون من واجبك أن تتعلمى كيف تعملين على ارضائى وتنفيذ كل مطالبى مهما كانت غرابتها ، دون أن تند عنك همسة اعتراض أو نظرة اكتئاب ٠

وأجابته جريزيلدا بقولها :

ـ نعم يا مولاى ٠

وعلى الفور أرسل المركيز بعض خدمه ليشتروا بعض الثياب الفاخرة وارتدت جريزيلدا الثياب الغالية ، ووضع المركيز على رأسها اكليلا من الأزهار ، ثم صحبها الى القصر وأقام حفلة رائعة للزواج كما لو أنه كان يعقد زواجه على ابنة ملك فرنسا ٠ وأثبتت جريزيلدا أنها زوج طيبة : فقد كانت ذات أخلاق دمثة وطباع رقيقة الى الدرجة التى خيل لزوجها أنه أصبح أسعد رجال العالم قاطبة٠ وقد أولاها رعايا زوجها ما يليق بمكانتها من التقدير والاحترام وأحبوها حبا جما ولشد ما كانت فرحتهم عندما أنجبت لهم طفلة حسناء ! ٠

ولسوء الحظ داخل زوجها شعور مبهم ، فقد خيل اليه أنها تتصرف بهذه الرقة والطيبة ؛ لأن الريح التى صادفتها كانت مواتية وقر عزمه على أن يمتحن قدرتها على الصبر عن طريق الأذى ، لذلك أنبأها أن رعاياه مستاءون لأنه اختار زوجا وضيعة الأصل ، وأنهم يتهامسون فيما بينهم لأنها أنجبت طفلة وأجابته جريزيلدا بقولها :

ـ انى أعلم يا مولاى أننى وضيعة الأصل وأن أقل رعاياك يفضلنى نسبا وأنى غير جديرة بالشرف الذى أسبغته على ٠ وأنى لأرجوك أن تتصرف على الوجه الذى يصون شرفك ويحقق سعادتك دون تفكير فى صالحى ٠

وسرعان ما وافى جريزيلدا أحد خدم المركيز قائلا لها :

ـ سيدتى اما أن أفقد حياتى أو أنفذ مشيئة مولاى لقد أصدر الى سيدى أوامره بأن آخذ ابنتك و ٠٠٠

لزم الخادم الصمت ولم يزد حرفا ، وظنت جريزيلدا أن ما أصدر اليه من أوامر يقضى بقتل ابنتها ، ولم تتردد فى أن ترفعها من المهد لتقبلها برقة ٠ ثم تلقى بها بين يديه وأرسل المركيز ابنته الصغيرة الى واحد من أقربائه فى بولونا لتنشأ هناك وتتلقى تعليمها ٠ وبعد بضع سنوات

أخرى أنجبت جريزيلدا ولدا ، وكان ذلك من بواعث سعادة المركيز عندما علم أنه رزق بوريث ؛ ولكنه تمشيا مع خطته قرر حرمان الأم من مولودها فقال لها :

ـ لم يعد فى مقدورى أن أواصل الحياة مع رعاياى انهم يقولون انهم لا يتسامحون فى أن يكون حفيد أحد الرعاة سيدا عليهم فى المستقبل، ولا بد لى من التخلص من هذا المولود كما فعلت مع سابقه ٠

وأجابت جريزيلدا بقولها :

ـ مولاى ٠ افعل ما تراه أفضل وأدعى لسعادتك دون أقل تفكير فى صالحى ، اننى لا أجد ثمة ما يسعدنى فيما يسبب لك الشقاء ٠

وفى اليوم التالى أرسل المركيز ابنه حيث أرسل ابنته من قبل ، وظن رعاياه أن الأب قد حكم على ولديه بالموت ووجهوا اليه شديد اللوم على ما تبدى من قسوته ولم يتوانوا عن اظهار عطفهم على الزوجة ٠ ولكن جريزيلدا لم تكن لتسمح لهم بتقريع زوجها بل كانت تلتمس له الأعذار ٠

ورغم كل ذلك فلم يكن المركيز قد اقتنع بعد باخلاص زوجته ، وبعد مرور ستة عشر عاما على زواجهما قرر الزوج أن يضعها أمام اختبار جديد فقال لها :

ـ أيتها المرأة لقد قررت أن أتخذ لى زوجة أخرى وسوف أعيدك الى كوخ أبيك على نفس الهيئة التى كانت لك قبل الزواج ، وسيكون اختيارى لزوجة من نفس طبقتى ٠

وبذلت جريزيلدا جهدا كبيرا كى تغالب دموعها ونكست رأسها فى تواضع ووافقت على الطلاق ، وجردها المركيز من ثيابها الفاخرة لترتدى الأسمال ، وقبل أن تسلك طريق العودة الى كوخ أبيها أخبرها المركيز أنه سيتزوج من ابنة كونت ياناجو وقال لها :

ـ انى على وشك أن أبعث فى طلب العروس الجديدة ؛ ولكنى أفتقر الى وصيفة تقوم باعداد الغرف والاشراف على الترتيبات اللازمة للاحتفال، ولما كنت خبيرة بمسالك القصر أرى أن تقومى بالخدمة كوصيفة فى القصر يوما أو يومين عليك أن تنظمى كل شىء وتوجهى الدعوات للسيدات اللائى سيحضرن الحفل وعندما تتم مراسم الزواج ، يتحتم عليك أن تعودى الى كوخ أبيك ٠

وكانت تلك الكلمات بمثابة طعنات الخنجر التى أدمت قلبها • فلم يكن من المستطاع أن تنزع حب زوجها من قلبها بالسهولة التى احتملت بها تخلى المجد والسلطان عنها ، وأخذت جرايزيلدا تجول فى ردهات القصر فى ثيابها الحقيرة وهى تشارك الخدم فى أعمالهم : تكنس الحجرات وتنظف الأثاث وعندما أتمت عملها قامت بتوجيه الدعوات الى سيدات المقاطعة اللاتى سيحضرن الحفل • وفى اليوم المحدد شاركت فى استقبال المدعوين فى ثيابها الخشنة ولكن بوجه مشرق ونظرات حانية ووصل المركيز فى الساعة المحددة متأبطا ذراع الزوجة الجديدة التى كانت آية فى الحسن حقا ، وعندما فرغ المركيز من تقديمها لجميع الضيوف الذين هنأه أغلبهم على حسن توفيقه فى الاختيار قال وهو ينظر باسما الى جريزيلدا :

ـ مارأيك فى عروسى ؟

ـ مولاى • أنى أحبها حبا لا مزيد عليه ، ولو أنها كانت عاقلة مثلما هى رقيقة فلا شك أنك ستكون أسعد الناس معها ؛ ولكنى أرجو مخلصة ألا تنهج مع هذه السيدة الوديعة مثلما سلكت مع زوجك السابقة ؛ لأنها من أصل رفيع وهى فى ريعان الشباب وقد ربيت خير تربية بينما نشأت الأخرى لتجالد ضراوة الحياة •

وقال المركيز برقة :

ـ اصفحى عنى • اصفحى عنى • اصفحى عنى • انى أعرف مدى ما عاملتك به من غلظة يا جريزيلدا ؛ ولكنى لم أكن أومن باخلاص النساء وثبات عواطفهن ولم أكن أصدق حتى أثبت لى عكس ما اعتقدت • اسمحى لى فى دقيقة واحدة من اللحظات السعيدة أن أصلح بعض خطئى ، وأن أرد لك كل ما حرمت عليك من سعادة طوال السنين الماضية هذه الشابة الحسناء هى ابنتك وابنتى يا عزيزتى جريزيلدا • انظرى • هذا هو ابنك ينتظر من خلفها •

وقاد المركيز جريزيلدا من ذراعها وهى تبكى من الفرح الى أبنائها وحينئذ وقفت جميع المدعوات وصحبنها الى حجرتها ؛ لتبدل ثيابها وترتدى أفخر ما لديها من الثياب اللائقة ولازمنها بضعة أيام وهن يحتفلن ويمرحن • وبعث المركيز الى أبيها الراعى الفقير وأقطعه جناحا من القصر ليعيش مع ابنته وأحفاده وزوج ابنته ، وعاش الجميع فى أتم ما يكون من السعادة والصفاء •

وقد أثرت قصص الديكاميرون فى الكتاب المعاصرين لبوكاشيو ومن جاءوا بعده الى يومنا هـذا وكمـا عاش كثير من الكتاب على فتات مائدة هوميروس، فقد حظيت قصص الديكاميرون بنفس المنزلة وقدر لها الانتشار الواسع ، وكان مصدر الهام كذلك لدرايدن وكيتس وتنيسون ، وترجمت القصص الى كل اللغات ؛ لتكون متعة للقراء على الدوام ٠

★★★

رحلات جليفر

سويفت

١٧٢٦ م

الحرية ٠٠ هى الطابع العام لأدب سويفت

الطابع العام لادب سويفت هو تلك الحرية الشديدة غير المألوفة فى زمنه فى استخدام فكره النافذ ، وجرأته على جميع الأوضاع والقيم واخضاعها للنقد العقلى ٠ حتى لقد قيل ان نقده العقلى المحض للقيم الراسخة والسائدة ، يهدد مبررات الحياة نفسها بعطب شديد ، والواقع أن اطلاق سلطان العقل كان عاطفته الوحيدة التى يتحمس لها حماسة صادقة عنيفة ويغضب غضبا جائحا لكل حجر على هذه الحرية العقلية التى هى أعظم وأثمن ما يمتلكه البشر فى مواجهة الكون وغوامضه ٠ ومن هذا المنبع تفجرت طاقته الهائلة على السخرية بكل ما يخالف العقل والبداهة السديدة ويحارب هذه الرواسب والقيم المنافية للعقل بنقد شديد ، يخيل للناس فى أحيان كثيرة أنه يقطر مرارة ٠ ولهذا السبب أيضا لا يوجه اهتمامه الأدبى والفكرى لمظاهر الحياة البشرية السوية ، بل لموطن التعفن والخلل فى قدرة جبارة على التشريح والتجريح والهجاء ٠

وخلاصة جهاد يوناثان سويفت الأدبى والفكرى أنه طالب حقيقة ، شديد الحماسة مصر على تدمير سائر التمويهات الزائفة المضللة للحقيقة متجلدا فى سخط لجميع الويلات التى تصيبه فى هذه الحرب الضروس التى شنها شاملة فى جميع المجالات ضد سائر أنواع التضليل والتحيز والتدليس ٠ وهو يعتبر ذلك الجهاد الأمثل فى سبيل شرف الانسان باعتباره كائنا عاقلا ، لا يهدر شرفه شىء كما يهدره كل تكبيل وكل انحراف فى سلوكه عن سلطان العقل وكل تقييد لحرية ذلك السلطان العقلى الشامخ ٠

وفى كل مجال من المجالات يتخذ الكتاب الواحد من كتب يوناثان سويفت هدفا معينا وموضوعا محددا ولا يخرج على هذه القاعدة الا فى كتاب واحد هو بيت القصيد من هذه السطور ألا وهو « رحلات جليفر » ، ففيه يتسع هدف سويفت اتساعا غير مألوف لديه فهو دراسة السلوك البشرى من طرفيه المتناقضين ضآلة وضخامة ٠ وتبدو فيه فلسفة سويفت متداخلة فى نسيج العمل الأدبى مع شىء كثير من السخرية التى لا تبتعد عن صميم الواقع وهى تحلق فى عالم الأسطورة والخرافة متناولا

بالنقد والهجاء السلوك الانتهازى والتفكير العلمى ومناهج البحث عن الحقيقة والتقدم الآلى وطموح البشر بجميع أنواعه ٠

ومن أطرف عناصر رحلات جليفر بلا شك تصويره الساخر لعالم السياسة والملأ الأعلى من رجال السلطة والحكم وسيداته ، واللوالب الخفية الحقيرة غالبا التى تختفى وراء مظاهر الأبهة والشعارات الطنانة والمعارك السياسية الجادة ٠ فاذا به يعرى أمجاد ذوى البأس والسلطان من طيالسها الخادعة ؛ ليعرضها لأنظار الناس هزيلة غير جديرة الا بالرثاء والازدراء ٠

ولا يعفى من مبضعه الحاد وأنواره الكاشفة الفضاحة النظام الملكى عموما فى كل زمان ومكان ، وما يكتنفه من حياة الفساد والنفاق والدسائس فى البلاط وخيوط خفية تتصل فى نهايتها بأحط الشهوات وأرخصها متمثلة فى المحظيات والعشيقات ٠ والى وسائل الرشوة والتحاسد والصغار فى الخصومة ٠ وكيف يكتسى كل هذا الفساد الوبيل أمام الشعب المخدوع ببهارج براقة من المبادىء والخطب الرنانة فى المحافل ومنتديات الأحزاب ومجالس النواب ٠

وكى يصل يوناثان سويفت الى هدفه العريض هذا ، ينقلنا بين عالمين متناقضين : عالم الأقزام وعالم العمالقة ، وبهذا التغيير الهائل فى « مستوى النظر » يتغير « المنظور » تغيرا شاملا ٠ وهو اذ يبدأ بعالم الأقزام ، يمكننا من أن نرى أنفسنا فرادى وجماعات وقد تجردت التقاليد المرعية من قداستها المكتسبة فاذا هى على حقيقتها وهؤلاء الأقزام يمارسونها ، شىء سخيف مفرط فى السخف نستغرق منه فى الضحك وهو بعينه ما درجنا عليه فى حياتنا العادية ناظرين اليه بما يناقض الاستنكار والاستهجان ٠

وحين ينتقل بنا الى دنيا العمالقة يكشف لنا عن همجيتنا ووحشيتنا، كما يكشف لنا أيضا عن ضآلتنا وغرورنا فيخرج المرء من الرحلتين وقد امتلأت نفسه بتفاهة شأن الانسان وتفاهة كل تلك النظم التى يستهول أمرها ويتناحر حولها ، وهو شعور يملأ الجوانح أسى واشفاقا وأسفا ٠

ويضع جليفر أمام أنظار الانسان القدوة الجديرة به لا فى عالم من أقزام البشر ولا فى عالم من عمالقتهم بل فى أرض «الخيول الفيلسوفة» ، حيث نرى حياة الحيوان مثلا يحتذى للكائنات العاقلة المعقولة فهناك نجد السلوك السوى الذى نشدناه عبثا فى ممالك البشر على اختلاف أنواعها ٠ فهذه الدواب ذوات الأربع تنظر الى جنسنا البشرى باحتقار وترى تصرفاته غير مفهومة ولا معقولة ؛ لأنها تصرفات خالية من الحكمة وليست لها غايات سديدة من مطالب الحياة الطبيعية ٠ فحضارتنا البراقة بكل ما فيها من تقدم شىء جنونى لا تفقهه هذه الكائنات الحكيمة ٠

حيـــاة ســـويفت

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر · وتجلى وهن جسمه فى نفس السن تقريبا فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مستمر يعاوده ·

كانت حياته كلها فى الواقع خليطا من المتناقضـات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده ـ فمع أنه ولد لأبوين انجليزيين،فقد ولد فى أيرلندا وقضى هناك معظم حياته · وبدا فى أخلاقه ذلك الأثر المزدوج : أثر أسلافه وأثر بيئته · فقد شب انجليزى العقل أيرلندى القلب · فقد أباه وسنه ستة شهور فاذا كان شهره الثانى عشر اختطفته حاضنته · فهى لا تكاد تسمع بموت عم لهما أخلفها تراثا فى انجلترا حتى تبحر فى سفينة دون أن تخطر سيدتها وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها · ولم يعد جوناثان الى أمه الا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث ، وكان الطفل قد قوى فيه حب كبير للانجيل وكلف شيطانى باللهو والمزاح ·

وفى السادسة التحق بمدرسة كلكنى والتحق فى الرابعة عشرة بكلية ترنيتى بدبلن وهنا أظهر شغفا بالمطالعة وانتقاضا على النظام · ولم ينـل البكالوريوس الا بشق الأنفس ولكن حيـل بينه وبين درجة الأستاذية لخلافه مع مساعد العميد فعاد الى بلدته يجلله العار ·

ولكنه وفق رغم ذلك فى الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل · وهو من أوساط الأدباء · وكان مستشارا مقربا الى ملك انجلترا وكان فيما يتناقل من لغط حاقد مريب الأب الطبيعى لجوناثان نفسه ، وأتاح له المنصب عشرين جنيها فى السنة ومكانا على المائدة الثـانية مع الخدم · فغنى السكرتير الألمعى جيبا واضمحل شأنا · فأقام ينسخ أفكار سيده الشيخ غير الألمعى · فاذا فـرغ لنفسه ـ وقليلا ما كان يحـدث ذلك ـ نسخ خواطره بالشعر غالبـا ·

سويفت أشهر نكرة فى عصره !!

ثم تغير عمل جوناثان سويفت · فقد رسم قسيسا فى قلعة دبلن · وسر القسيس الشاب بهذا الشرف الروحى · ولكنه ضاق بالمركز المادى فهو حين قرر العمل فى الكنيسـة كان يتوق الى بلوغ قمة الكنيسـة الانجليزية لا أن يكون فننا على فرعها الأيرلندى · ولكن أمنيته هذه العزيزة الوحيدة وهى بلوغ منصب مهم فى كنيسة انجلترا ، كانت الشىء الوحيد

الذى ينكره عليه رؤساؤه أشد الانكار · فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعية ، فهو لا يصلح زعيما من زعماء العقيدة المتعارف عليها فقد يلقى بأية قنبلة فى أية لحظة على عقيدة اخوانه فى الكنيسة · وكان الجميع وقتئذ يعرفون أنه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية فى أوربا ، وان لم يجرؤ على نشر ما كتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل) ·

وهذا العنوان كما ذكر فى المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة فهم اذا قابلوا حوتا ، ألقوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة وانه ليتبع نفس التقاليد فيلقى بهذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمة الكنيسة · ثم يمضى فى الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح ويوضح رأيه بصورة رمزية لأب خلف ثلاثة معاطف متساوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس (الكنيسة الكاثوليكية) ومارتن (كنيسة انجلترا)وجاك (الكنيسة الكلوينية) وقال لهم الأب : هذه المعاطف سنحفظ عليكم جدتكم وصحتكم ما حييتم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بها · كذلك أوصى بأن تعيشوا جميعا فى منزل واحد كما يعيش الاخوة · فانكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشل ·

وأخذ الاخوة الثلاثة معاطفهم ــ كما يقول سويفت ــ وسرعان ما نسوا وصية أبيهم وأخذ كل منهم يعدل فى شكل معطفه مرات حسب تغير النظر الى شكل الأزياء ·

وأخيرا نرى بطرس وقد زين معطفه بحشايا للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معالم المعطف وصار الناظر اليه لا يتبين فيه المعطف الذى أعطاه اياه أبوه ، ثم يفترض بطرس بعد ذلك أنه ــ دون شريك ــ صاحب المعطف الحقيقى الوحيد ، ويعلن فوق ذلك أنه وحده يملك بيت أبيه · وسرعان ما يقذف بأخويه الى العراء ·

يقول سويفت : وعندئذ أعاد الأخوان الطريدان فحص وصية أبيهما (الانجيل) وحاولا أن يردا معطفيهما الى بساطتهما الأصلية المعقولة ·

ثم يختتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح فى المحاولة نجاحا لا بأس به : فقد انتزع من المعطف كل شىء لا ضرورة له ، ولم يحرص الا على استبقاء تلك الحلى التى تغنى فى تقوية الثوب أو اخفاء عيبه · وأما جاك

فاندفع منحمسا فى تبسيط المعطف بحيث مزقه وأحاله خرقة · فاذا أتى الناس ينظرون اليها ويضحكون منها ·· كفى فان البقية لأغلظ من أن يسيغها الذوق الحديث ·

ولم تنشر قصة البرميل الا بعد أن مضت على كتابتها عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف · وهذه القصة وان يكن المقصود بها أن تقدم تشبيها يظهر منه المؤلف فضل كنيسة انجلترا على غيرها ، فانها قد فشلت مع ذلك فى ارضاء مطارنة كنيسة انجلترا وكبار أساقفتها ، لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى · لكنهم استشاطوا غضبا من اشاراته الى عيوب كنيسته · وقرروا أن هذا القسيس الشاب ستجنى عليه مهارته وأنه بحاجة الى أن يدارى والى أن يراقب ·

ويلقى سويفت فى شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع صفحات من قصة البرميل ثم يهمهم قائلا : « يا الهى يا لها من عبقرية تطامنت لى حين ألفت ذلك الكتاب ! » · فهذه هى مأساته التى جلبت عليه النحس · ان عبقريته أجل من أن يفهمها معاصروه فأوجست العقول الصغيرة خيفة من العقل الكبير وعمدت الى ابقائه أسيرا فى منصب مغمور بعد منصب مغمور : من كنيسة دبلن الى ابرشية ريفية فى لاراكور ومن كنيسة لاراكور يعاد الى كاتدرائية سانت باتريك بدبلن · ولكنه لا يمنح وظيفة مطران فى انجلترا أو حتى ايرلندا ولم يجرؤوا على أن يجاوزوا به وظيفة أسقف· لقد نال الدكتوراه فى اللاهوت وكسب صداقة أعظم الانجليز نفوذا · وتعشى مع رئيس الوزراء ولعب الورق مع وزير المالية · كل هذا ولا جدوى · وكلما طلب أن يعين فى أحد المراكز الهامة بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب · لقد أوغل قلبه فى الضنى والضرم · وأرسل ملتمسه ذات مرة الى الملكة مباشرة ·· وكانت نفس النتيجة السلبية · وظل سويفت الأسقف أشهر نكرة فى عصره ·

ولكنه يحتفظ فى ذلك كله بمظهر البشر وتمتلىء أيامه بالنكات والضحك فيما خلا الدوار الذى كان يختلف اليه دائما · وكان يحب الناس فرادى وان أبغضهم جماعات ·

رجل يعلو محياه البشر ، ويضطرب صدره غضبا كأنه الأتون · فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه · لكن كتب أن يمثل فى حضرتهم دور التابع · لقد قدم الى لندن فى وفد جاء يدافع عن شعب أيرلندا (ويدافع هو عن ترقيته) فقابل أكبر رجلين من ساسة انجلترا هما بولنجروك وهارلى ·

وحاول جهده أن ينال لديهما مكانه فالمرء فى لندن يجب أن يتسلق بأطرافه الأربعة ؛ ولكنه ظل نديمهما الأثير وان كان يهرج بلا مقابل ويكتب لهارلى نشرات سياسية كما قد فعل ديفو من قبل،ولكنه يفترق فى أنه يرفض أن ينال جزاء مما كتب٠٠وصافحه هارلى ذات مرة فتمكن من أن يدس فى يده خمسين جنيها ٠ فألقى الكاتب الثائر بالورقة فى وجه هارلى وغادر الحجرة مغضبا ورفض أن يرى هارلى مرة أخرى حتى زاره هارلى فى منزله ليعتذر له بنفسه ٠

ان سويفت لا يبغى بعمله مالا ٠ بل يبغى وظيفة كبيرة ٠ وهذا ما عجز دائما عن بلوغه سواء من هارلى أو من سواه ، غير أن اقامته بلندن وان فشلت سياسيا فقد كانت نصرا فكريا ، فغدا سويفت الفارس المعلم فى مشارب لندن التى تجتمع فيها ألمع عقول لندن يوميا للتبارز باللسان وكان (الأسقف العجوز) أمهر المتبارزين جميعا ٠ وان لم يكن أكيسهم دائما ٠ كان يضرب ضربات عميقة حادة فاصلة ، وكان حديثه يخلو من كل بلسم ملطف حين يقصد الى الايلام حقا ٠ قال أحد كتاب سيرته : لم يتطامن لأحد ما تهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل ٠ وقلة حظه من المرونة والكياسة ٠

كان ذهنه فذا فى الأذهان ولا يتلطف فى تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذى يخفى قبح الحياة ٠٠ وكان ساخرا قاسيا ينزل برواء الخيال الى سخف الواقع ٠

كذلك كان العميد سويفت ذلك المتهكم الوديع الرشيق العابس ذلك الأديب الذى يصفق لعبقريته والواعظ الذى يزدرى لصراحته والمعلم الذى يستشهد بأقواله فى كل مكان ولا يفهمه أحد ٠ عاد من انجلترا محملا بالتكريم دون أن يمنح منصبا ٠ انه لجبار عملاق مقيد بالأغلال فى أرض الأقزام ٠

★★★

أصبح العميد سويفت لا يؤدى من الطقوس فى أيام ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الانجيل الذى يلعن فيه أيوب يوم ميلاده ٠ انه ليزيد كل يوم زراية بالانسان وخدمة لبنى جنسه ٠ فهو يتحمس لتخفيف أعباء الأيرلنديين وهو يصليهم بلسانه حربا ويعانقهم بذراعيه حبا وغدت آلام ايرلندا شغله الشاغل فى شيخوخته وصار مطمحه الذى غلبه على

كل مطمح هو أن يخفف هـذه الآلام • حـدث مرة أن اقترحت الحكومة الانجليزية قانونا جائرا بالايرلنديين : فتحدى الظلم بسلسلة من الخطابات الشديدة المفحمة ؛ فاضطرت الحـكومة الى سـحب الاقتراح وهـذه هى الخطابات التى أمهرها سويفت بتوقيع م•ب درابير صاحب حانوت لبيع البضـائع الايرلندية والتى كسبت لسويفت شكران الايرلنديين وعرفانهم على مر الزمن •

وأصبح ذلك من مصادر مضايقته دائما فهو لا يحب تملق الجماهير لقد ساعدهم ــ كما قال ــ لا حبا لهم بل كراهة منه للعبودية • انه يعرف تلون الدهماء فهم مستعدون لأن يهللوا لجرأته فى النضال عنهم • لكن أتراهم يحركون اصبعا لانقاذه من مغبة جرأته ؟ وهو يروى قصة لتوضيح هذه الفكرة • كان أسبانى يهودى يسير الى الخازوق ومن ورائه جمهور متحمس من الأتباع ويخشى الصبية أن يحرموا المتعة اذا هو أنكر التهمة فهم يربتونه على ظهره صائحين مشجعين : « موسى أقم على ثباتك » •

وظـل سـويفت على ثبـاته رغم الصـبية الطائشـين والفضوليين الوحشيين فى العالم ، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشرى فى حنثه بايمانه وانفعالاته وسخافاته واحتياله وحربه • كان يذهله عدم انسانية الانسـان نحو الانسـان •

بلغ سويفت الآن أعوام الحكمة البصيرة وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية ، رحلات جليفر ، وبعث بمخطوط القصة فى ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦ الى الناشر (بنيامين موت) وأرسل مع المخطوط خطابا بتوقيع رينشارد سمبسون ، زعم فيه أنه ابن خال لمويل جلفر وقال : لقد ائتمننى مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط فى وصف رحلاته •• وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز • وقد تحسب اذا قرأت بعض أجزائها أن هنـاك شيئا من التهكم فى موضوع أو موضوعين • ولكن الرأى متفق على أنها لا تجرح أحدا • ثم يمضى مستر سيمبسون فى خطابه فيعرض مائتى جنيـه ثمنا للمخطوط فاذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقى المبلغ الى الناشر •

ونشر الكتاب فى خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى فى أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذى شنه جلفر على غبـاء الجنس البشرى الهمجى ، فقد حسب كل امرىء أنه ليس المعنى بهجوم الكاتب انما المعنى جاره • فوصل ألم الكاتب ذروة لم يبلغهـا من قبل • لقد فشل

فى تحقيق ما هدف اليه « أردت أن أغيظ الناس وأستثيرهم ، لا أن أرفه عنهم وأسليهم » • وقصة رحلات جلفر هى مغامرات رجل عاقل فى عالم مخبول ملىء بالباطل والزهو • ألا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد أتاح لهم أن يحكموه • اذن لقل الجشع وزادت الدماثة • وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس • وقلت القسوة وزادت الرحمة وقل البهرج وزاد المجد • وقلت الوقاحة وزادت الحكمة • كتب سويفت الى اسكندر بوب يقول : طالما حاولت أن أنشىء صداقة بين عقلاء الناس جميعا، وهم قل أن يزيدوا على ثلاثة أو أربعة فى كل جيـــل ولو أمكن اتحـادهم لساقوا العالم أمامهم سوقا •

وقبل وفاته عام ١٧٤٥ كتب دعاء وجد بعد موته فى أوراقه التى لم تنشر « اللهم انك تهب نعمتك وتصب نقمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شىء ••• فوجه اللهم أفكارنا الى ما نصبوا اليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذى يفوق الوصف والذى نوشك أن نمنى به » • كان دائم التفكير فى هناء الانسان •• ذلك الســاخر الذى واجــه بنى الانسان بالعواء والشحناء •

★★★

الرحـــلات

يصرح سويفت بأن غايته القصوى من كتابه (رحلات جليفر) فى العالمين الأكبر والأصغر وممالك شتى فى آفاق الأرض « أن يوبخ الناس ويقرعهم لا أن يسليهم ويرفه عنهم » • ولكن هذا العبقرى لم يبلغ غايته هذه من كتابه هذا • فقد شاء ما فطر عليه البشر من أنانية وقصر نظر أن يقلب هذه الغاية وأبى الناس منذ نشر الكتاب فى سنة ١٧٨٦ حتى اليوم ، الا أن يجدوا فيه مصدرا للتسلية والترفيه لا يقفان عند حد ، ولم يلتفتوا الى ما فى الكتاب من زجر وتقريع وتعنيف •

وظلت الأجيال من الكبار والصغار تقبل على رحلات جليفر بروح الاستمتاع على مستويــات مختلفة ، أما الدرس والاعتبــار فلم يغيرا من طبيعتهم كثيرا ولا قليـــلا •

ويبدأ الكتاب على لسان جليفر فيروى طفولته ونشأته واحترافه الطب والجراحة آخر الأمر ، وركوبه البحر على متن السفن طبيبا لركابها فى رحلاتها الى المشرق • وفى سنة ١٦٩٩ كانت تمخر السفينة البحار الجنوبية عندما ارتطمت بصخرة فانشقت • وظل جليفر يسبح على غير هدى ودفعه المد واتجاه الريح حتى مست قدمه الأرض فى ظلمة الليل وارتمى على شاطىء مجهدا واستغرقه النوم حتى الصباح • وحين أيقظته حرارة الشمس هم بالنهوض ، فاذا هو مقيد الى الأرض وهم بتحريك رأسه فوجدها مشدودة الوثاق أيضا وأحس شيئا يتحرك بلطف فوق ساقه ثم فوق صدره فحرك عينيه الى أسفل ولم يلبث أن تبين مخلوقا بشريا لا يبلغ ارتفاعه ست بوصات (١٥ سنتيمترا) ، وفى يده قوس ونشاب، ثم شعر بعدد آخر من نظرائه يزحفون فى أثره وبحركة عنيفة تمكن جليفر من تحطيم قيود ذراعه اليسرى ؛ ولكن هذه المخلوقات الصغيرة تمكنت من الفرار قبل أن يقبض عليها فى راحة يده وأحس بمئات السهام ترشق فى يده اليسرى فكان لها وقع كوخز الابر • وظل يئن أسى وألما الى أن أقدم بعضهم على قطع الحبال التى تقيد حركة رأسه وعندئذ استدار قليلا وأبصر شخصا يبدو زعيم القوم يلقى عليه حديثا طويلا لم يفهم منه شيئا • وحاول جليفر بالاشارة أن يفهمه مبلغ ما يحسه من الجوع • ففهم الزعيم مراده وسرعان ما جيء بسلالم كثيرة ألقيت على جانبيه وصعدها مئات من هؤلاء الأقزام محملين بالطعام والشراب فيصبون سلالهم ودلاءهم وقربهم فى فمه !

ويبدو أن رسالة سريعة وصلت امبراطورهم بمجرد اكتشافه نائما على الشاطىء واجتمع مجلس البلاط وقرر العناية بتغذيته وتأمين سلامته ونقله الى العاصمة • ولهذا الغرض مزجوا الخمر التى صبوها فى فمه بمخدر فاستغرقه النوم كرة أخرى • ولاحظ جليفر أن هؤلاء القوم وصلوا الى مستوى رفيع من الاتقان الآلى ؛ فاستطاعوا بواسطة الحبال والبكر أن يرفعوه فوق آلة ضخمة فى زمن لا يزيد على ثلاث ساعات • وهذه الآلة معدة لنقل الأشجار الكبيرة وغيرها من الأحمال الثقال • وشد الى المركبة العجيبة ألف وخمسمائة جواد من أضخم جيادهم • ويبلغ ارتفاع كل منها نحو أربع بوصات ونصف (١٠ سنتيمترات تقريبا) ، وتولت جره الى العاصمة حيث حبسوه مقيدا بالسلاسل • وحضر الامبراطور لمشاهدته وعقد البلاط جلسات كثيرة احتدمت فيها المناقشات حول خطورة حجمه ، وما يترتب على تحطيمه لأغلاله واحتمالات المجاعة التى قد تنشأ عن الاحتفاظ به • بيد أن وداعة جليفر طمأنت بالهم وتوثقت الألفة بينه وبين الامبراطور • وأخذ يدرس أحوال هذا الشعب السياسية والاختلافات

التافهة بين مبادئها · فهناك مثلا خلاف حول ارتفاع كعب الحذاء · وهناك أيضا عداء بين جزيرة ليليبوت هذه وجزيرة بليفكسكو التى أعدت أسطولا للغزو · وأراد الامبراطور أن يستغل ضخامة جليفر فى سحق أعدائه فأطلقه وخاض ماء البحر الذى وصل الى ركبتيه ثم شرع يحطم أسطول الأعداء أو يأسر سفنهم ويعود بها الى حلفائه · وطمع الامبراطور فى استخدام جليفر لغزو هؤلاء الأعداء واحتلال بلادهم واستعباد أهلها ؛ فرفض جليفر أن يكون أداة لهذا الغرض الهمجى · فغضب الامبراطور وأخذ يدبر المكائد للانتقام منه وفطن جليفر الى الحقيقة فقرر الرحيل الى جزيرة الأعداء ومن هناك أعدوا له الوسائل للاقلاع عائدا الى بلاده ، وأعطوه ألوفا من أغنامهم وأبقارهم التى يشبه حجمها النمل الكبير · وأخذ معه أنواعا من الطرائف فى دقة حجمها وخصوصا من الكائنات الحية والمصنوعات المستخدمة فى الحياة اليومية والفاكهة ، على أمل أن يربى سلالات من الأغنام والماشية والخيل فى قريته وأصر الملك على تفتيش جيوبه بدقة شديدة خشية أن يخفى فيها بعض رعاياه !

وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام ، لمح على البعد شراع سفينة انجليزية فظل يصرخ ويلوح وأخيرا أبصره الربان وانتشله ، بعد أن وضع جليفر فى جيوبه جميع أبقاره وأغنامه · ولكن فيران السفينة الانجليزية كانت تفترس أبقاره ·· !!

وبعد اقامة وجيزة فى انجلترا مع زوجته وأسرته عاوده الشوق الى المغامرات والأسفار ؛ فاستقل سفينة تجارية كبيرة متجهة الى الشرق أيضا · وبعد أن اجتازت السفينة مضيق مدغشقر هاجمتها الرياح الموسمية وضلت طريقها ونضب الماء العذب فنزل مع بعض البحارة الى أقرب جزيرة للبحث عن الماء · وظل يسير مقدار ميل على غير جدوى ثم هم بالعودة فأبصر رفاقه البحارة فى زورقهم يجدفون بهمة ، عائدين الى السفينة ومن ورائهم مخلوق هائل يخوض الماء الى ركبتيه فى أثرهم ·

وهكذا وقع جليفر فى أسر أهالى بروبدنجناح العمالقة الذين اجتمعوا حوله يتلهون به ويدفعونه بين السبابة والابهام ؛ ليتأملوه عن قرب وكأنه نوع غريب من الحشرات !

واحتفظ به صاحب الضيعة الذى أسره وفرحت زوجته بهذا المخلوق الصغير بعد أن صرخت لأول وهلة كما تصرخ سائر النساء لمنظر شىء يحسبنه فأرا · وزاد افتتان الزوجة به حين رأته يحسن الانحناء ويعاملها

بآداب المجتمع الراقى ، ويستخدم الشوكة والسكين اللتين كان يحملهما فى جيبه • ولم يجد جليفر عنتا الا من ابن ذلك المزارع وهو غلام فى العاشرة مدلل يعامل الحيوانات بقسوة • أما طفله الصغير الذى لا يتجاوز عمره العام فكان يعتبره دميته المفضلة • وفى الليل نام على وسادة صغيرة فى فراش الزوجين الضخم وهاجمه فأران فى حجم كلاب الصيد عندنا ولولا براعته فى استخدام خنجره بحيث جرح أحدهما فلاذت الفيران بالفرار لنهشته بسهولة •

وفكر المزارع فى استغلال جليفر تجاريا فراح يطوف به الموالد والقرى والمدن ويجتمع الناس لمشاهدته فيعرض عليهم العابه ؛ حتى جمع الرجل ثروة كبيرة وهزل جسم جليفر من شدة الارهاق فباعه الرجل للملكة بألف قطعة ذهبية • وهكذا صار مهرج الملكة القزم واستطاع أن يرى دخائل حياة البلاط عن كثب لسهولة اختفائه تحت الكراسى وخلف الستائر وقضى هناك ثلاث سنوات • وفى بعض الرحلات التى قام بها البلاط حملته الوصيفة فى صندوق صغير خاص كأقفاص الطيور عندنا • وغفلت عنه الوصيفة على الشاطىء فحمله نسر هو وقفصه ووقعت بين النسور معركة على هذه الفريسة فسقط الصندوق فى البحر وتقاذفه الموج ، الى أن انتشلته سفينة انجليزية مارة من هناك فأعادته الى انجلترا ، حيث أقسمت زوجته ألا تدعه يركب البحر بعد ذلك • ولكن قبل انقضاء عشرة أيام زاره ربان كبير المقام وظل يغريه حتى قبل العمل طبيبا وجراحا على سفينته المتجهة الى جزائر الهند الشرقية • وهكذا بدأت رحلة جليفر الثالثة الى ممالك كثيرة فى الشرق الأقصى حتى وصل الى اليابان وأحاط بعادات أهلها وشرائعهم •

أما رحلته الرابعة فهى التى صار فيها ربانا للباخرة وفى مجاهل البحر ثار عليه البحارة وحبسوه فى قمرته مدة طويلة ، ثم تركوه على شاطىء جزيرة مجهولة وسكانها هم « الخيول الفيلسوفة » وتعرف عاداتهم وأحوال معيشتهم • وحاول آسره أن يعلمه لغتهم ، ثم بدأ يلقنه مفهوم الحق والباطل والصواب والخطأ فى نظر هذه السلالة من الخيول الحكيمة ويبدى اعتراضه ورفضه للمفهوم البشرى لهذه المعانى • ثم يتطرق الحوار الى مناقشة أحوال الحضارة الأوربية وأنظمة الحكم والدستور الانجليزى وسمات رؤساء الوزارات ، ومن خلال هذه المناقشات تبرز حكمة هذه الحيوانات أرجح فى مواطن كثيرة من سلوك البشر المتحضرين فى دول الغرب المتقدمة •• ويفيض جليفر فى فضائل هذه

الحيوانات وأساليبها فى تربية الأحداث ، ونظم السياسة والحكم لديها وسائر عاداتهم فى أحوال المعاش المختلفة بما فى ذلك أسلوب البناء وشعائر الدفن · ويطنب فى وصف سعادته بين ظهرانيهم وتقدمه فى المنطق والفضيلة؛الى أن طلب اليه أن يغادر بلادهم وزودوه للسفر فارتحل حزينا على فراقهم الذى جاء على كره منه · ولولا ذلك لآثر البقاء ·

★★★

الرسائل

فولتير

١٧٣٢ م

فولتير .. خلاصة حياة عصر ! !

استهل الكاتب البريطانى المؤرخ النقـادة توماس كارليـل مقـاله اللامع الشائق عن الكاتب الفرنسى الشهير فولتير بقوله : « لو قدر للطموح أن يختار طريقه ، وللارادة فى المحاولات الانسانية أن ترادف الموهبة لكان كل الرجال الطامحين حقا من رجال الأدب » .

وفى موضع آخر من المقال نفسه يقول : « اذا استثنينا الراهب لوثر صاحب البروتستانتية ؛ فانه ليس هناك أحد من رجال الفكر فى العصور الحديثة قد صار تأثيره وشهرته أوربيين خالصين مثل فولتير » .

والواقع أن فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) ، قد بلغ فى عصره من الشهرة الواسعة والمكانة المرموقة العالية ما لم يبلغه كاتب قبله أو بعده ، حتى أصبح علما على عصره ورمزا له وليس فى مستطاع انسان أن يتصور القرن الثامن عشر بدون فولتير وتأثير فولتير .

وقد كتب عن فولتير من زوايا عدة وتناقضت الأحكام فى تقدير أدبه ومنزلته بين كبار المفكرين ولم يكن هناك مناص من ذلك ؛ فقد كان الرجل متعدد الجوانب وتناول فى حياته موضوعات شتى وكان هو نفسه يكاد يكون خلاصة حياة عصره .

★★★

ووصفه فيكتور هوجو فقال : « ان ذكرت اسم فولتير فقد ذكرت أخص مميزات القرن الثـامن عشر من أوله الى منتهاه » وقد اختصـت ايطاليا بعصر النهضة ، واختصت ألمانيا بعهد الاصلاح اللوثرى ؛ ولكن فرنسا اختصت بفولتير فقد كان يضم فى برديه النهضة والاصلاح ونصف الثورة الفرنسية ، كما كان يجمع بين شك « مونتانى » وسخرية « رابليه » .

ووصفه لامارتين فقال : « ان الأقدار قد وهبتـــه عمرا قد جاوز الثمانين ، فاستطاع أن يقضى على فساد عصره وقد مكنه عمره الطويل أن يحارب الزمن فلما سقط فى حومة الوغى كان سقوطه سقوط الظـافر المنتصر ... » . ويوم وقعت عينا لويس السادس عشر ـ وهو فى سجنه ـ

على مؤلفات فولتير وروسو قال : ان هذين الرجلين قد أوديا بفرنسا ٠٠ وهو يقصد بفرنسا أسرته هو بالطبع ٠

ومن مأثور أقوال فولتير : « ان الكتب تحكم العالم أو على الأقل تحكم الأمم ذوات اللغات المكتوبة ٠ أما ما سواها فلا تدخل فى الحساب ٠٠ » ٠

مولد فولتير ونشأته :

ما من رجل علم الكثيرين من معاصريه ومن بعد عصره أن يفكروا وأن يستغلوا قواهم العقلية مثل فولتير ، وما من قوة استطاعت أن تطفىء ذلك الضياء الذى انبثق فى أنحاء أوربا نتيجة لتعاليم فولتير والذى لا ينفك يتألق فى سمائها ٠

ولقد كان أولئك الذين لا يحبون أن يفكر الانسان لنفسه والذين يحبون أن يظل العقل البشرى جامدا يقولون ان فولتير رجل شاذ ؛ لأنه كان يصر على أن من حق الانسان أن يشك فيما لا يستطيع أن يؤمن به ٠ والذين لم يطالعوا حرفا واحدا مما كتبه فولتير يؤكدون أنه كان رجلا ملحدا ، على أن شعر فولتير كان خير جواب على هذا الاتهام ــ وان كان لم يعن بتوجيهه الى هؤلاء القوم وانما كان يتوسل به الى الله ــ انه يقول :

يا الهى الذى لا نراه والذى تعلن عن وجوده أعماله ٠
يا الهى استمع الى كلماتى الأخيرة ٠
اذا كنت قد أخطأت فانما كنت أبحث عن قانونك ٠
وقد يضل قلبى ولكنه عامر بك ٠

وما كان هذا الحادا ولكنه نداء قلب خاشع مستكين وما تهجم فولتير على عقيدة دينية ؛ ولكنه كان يسخر من الأضاليل المبتدعة التى لا تمت الى العقائد بصلة ٠

ولد الطفل الذى يدعى بعد ذلك باسم فولتير (وهو الاسم الذى عرف به فى كتاباته) فى مدينة باريس يوم ٢١ نوفمبر من عام ١٦٩٤ وسمى فرانسوا ــ مارى أروا وتوفيت أمه بعد سبع سنوات من ولادته وكانت صحته منذ بداية عهده فى هذه الحياة سيئة ، ولم يستطع على مر الأيام أن ينفض عن نفسه هذا الاعتلال الصحى ، كان طفلا نحيف الجسم ذا ابتسامة شيطانية شديد الجاذبية وله ولع غير طبيعى بدروسه ٠

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره أعلن أنه اعتزم أن يصبح من رجال الأدب وكأنما كان المداد يجرى فى عروقه ، فقد كان الشعر والمسرحيات تتدفق منه فى غير توقف ٠

وكان أبوه رجلا من الطبقة المتوسطة يقترب قليلا من طبقة الأثرياء وكان طموحا من الوجهة الاجتماعية ، وأراد أن ينقذ ابنه من حياة مهينة حين دفع به الى مكتب محاماة ولكن الشاب فولتير أظهر فشله فى هذه الناحية فالحقه أبوه بالسلك السياسى وبعث به الى هولندا وسرعان ما حطم أول قاعدة فى عمله السياسى حين فر مع فتاة فعاد الى وطنه يحمل هذه الوصمة ومع هذا فقد كان لا ينفك يريد أن يكتب وصاح أبوه فيه : « انك بالكتابة ستموت جوعا » وكأنما أراد أن يساعد القدر فى مهمته ، فحرم ابنه من الميراث ، وسرعان ما خاب تنبؤ أبيه ففى خلال عشر سنوات نجح فولتير نجاحا ماليا فاق أحلام أى شاعر ٠

ولقد كان من أكبر عوامل نجاح فولتير ما عمد اليه الرقيب من مصادرة كل كتب فولتير تقريبا وما اتبعه رجال الشرطة من وقف تمثيل مسرحياته فى الليلة الثالثة من عرضها ؛ وكان من نتيجة ذلك أن كانت المسارح تغص بالباريسيين فى ليالى الافتتاح ، وان كتبه كانت تباع وتقرأ كأنها مطبوعات صادرة من مؤسسة تختفى تحت الأرض عن أعين الرقباء وتسربت الكتب الى الأقطار المجاورة فطبقت شهر فولتير هذه الآفاق الجديدة٠وكانت التهمة الرسمية الملصقة به أنه يفسد الأخلاق والمبادىء العامة ، ولكنها لم تشر أية اشارة الى الخروج عن الآداب كأن المبدأ وقتذاك أن التهجم على الحكومة وانتقاد أعمالها يعد من أسوأ ضروب (المنافاة للشرف والآداب) ٠ ومسرحيات فولتير قد وضعت على أنها وقعت فى بلاد الفرس واليونان وبيرو والصين الا أن كل انسان كان يدرك المعانى المزدوجة وما بين السطور ويضج بالضحك الساخر ، والضحك شعلة لا تستطيع الحكومة أن تعمل على اطفائها ولم تملك الحكومة الفرنسية الا أن تتبع مع فولتير طريقة استبدادية تعسفية فأودعته سجن الباستيل، ولم تكن الحكومة فى ذلك العهد ملزمة أن تثبت التهمة ضد انسان لكى تودعه السجن ، فقد كان حسبها مجرد الشك والاشتباه ويبقى الانسان فى السجن دون أن يفرج عنه الا اذا كان له أصدقاء أقوياء يبذلون جهودهم ونفوذهم فى اخراجه ، وقد مكث أصدقاء فولتير أحد عشر شهرا حتى استطاعوا الافراج عنه بعد أن ازدادت صحته سوءا وضعفا وبعد أن أصبح أشد ضراوة وخطورة ، الى حد أن أحد النبلاء السخفاء ويدعى الشيفالييه دى روهان وجه اليه كثيرا من الاهانات قابلها فولتير بما عهد فيه من السخرية اللاذعة فلم يسع الشيفالييه الا أن يسلط عليه بعض خدمه لضربه والشيفالييه يدير حركة المعركة وهو جالس فى مركبته !

وكان فى استطاعة فولتير أن يحتمل ما يحيق به من ظلم وعسف أما ما ينال الآخرين منهما فلا يستطيع احتماله ٠

حين كانت أعظم ممثلات فرنسا،أدريين ليكوفريه،تحتضر كان فولتير قابعا الى جانب فراشها يستمع الى حديثها وهى تقص عليه كيف أن القسيس قد طلب منها أن تعلن أن فنها التمثيل هو عمل معيب وكيف أنها رفضت هذا المطلب رفضا باتا ؛ فتركها القسيس دون أن يمنحها الغفران الدينى ولما ماتت هذه الممثلة العظيمة أسرع رجال البوليس بجثتها ودفنوها فى حفرة وأهالوا عليها الجير الحى ٠

منذ ذلك اليوم طوى بين جوانحه كراهية متأججة لا للدين المسيحى كما زعم البعض زورا ، بل للقسوة التى تتنافى مع الدين السمح سواء أكانت هذه القسوة فرنسية أم غير فرنسية ، وسواء أكانت صادرة من الكاثوليك أم البروتستانت وكان يقول : « ان الرجل الذى يقول لى : اتبع عقائدى والا حلت بك لعنة الله ، سيقول لى بعد ذلك : اتبع عقائدى والا قتلتك » ٠

ورجل له مثل هذا اللسان ، لا يمكن أن يكون فى مأمن فى بعض الأقطار حتى فى عصرنا الحالى ؛ ولهذا فسرعان ما أودع فولتير سجن الباستيل للمرة الثانية ثم أطلق سراحه حين وعد بمغادرة فرنسا وأبحر الى انجلترا وهو متلهف القلب فوصل لندن عام ١٧٢٦ وقد تأثر أبلغ التأثير حين شاهد جنازة السير اسحاق نيوتن العالم الشهير فلم يعتد فولتير أن يرى حكومة فرنسا تبدى مثل هذا التقدير العظيم الذى أبدته الحكومة الانجليزية والشعب الانجليزى عند وفاة عالم مثل نيوتن والاحتفال بجنازته ودفنه فى هذا الاحتفال الضخم ، كذلك أدهشه فى انجلترا ما يسبغه الشعب الانجليزى على شعرائه من التعظيم والاجلال ، وما فى مجلس العموم البريطانى من القوة والاستقلال فى الرأى وأكثر من هذا وذلك ما رآه رأى العين من عدالة القضاء الانجليزى ٠

وفى عام ١٧٢٩ ، وكان فولتير قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، تسلم تصريحا من الحكومة الفرنسية بعودته الى فرنسا ولم ينقض وقت طويل حتى ندمت فرنسا على هذا التصريح الذى منحته الى فولتير ٠

واستطاع فولتير بما اكتسبه من الخبرة التجارية مدة اقامته فى انجلترا أن يشتغل بتصدير البضائع الى أمريكا والهند وغيرهما من أقطار العالم فعادت عليه هذه التجارة بثروة جعلته من الأغنياء وكان بطبيعته

يحب حيـاة الرفاهية ، ومكنته ثروته من الاستمتاع بها وارتداء الثيـاب الأنيقة واقتناء المركبات ، وراح يدعو غيره من النـاس الى الاستمتاع ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، فقد كان فولتير يحس بما يعانيه الناس من الشقاء والتعاسة ، بيد أن فولتير كان له من الآراء الأخلاقية ما هو أنبل من آراء ناقديه : لقد كان يرى أن الانسان قد خلق حرا طليقا ومسئولا عن أعماله وأن ضميره وحده هو الذى يتولى الحكم على عمله كمـا قال فى شعره :

اذا كان الانســـان قد خلق حـــرا
فلـــه وحـــده أن يحـكم نفســـه
واذا حكمـــه جبـابرة ظالمون فعليـه
أن ينتزعهم من فـــوق عروشـــهم ٠

وكان فولتير يهاجم هذه المساوىء بذكائه ونبوغه هجوما عنيفا وكان يقول : « ان تجارتى هى أن أقول كل ما يجول فى ذهنى » وما جال فى ذهنه احتواه ٩٩ مجلدا ٠ قال كل ما اضطرب به جنانه فى مسرحياته وفى شعره وفى رواياتـه وفى نشراته وفى مقـالاته وفى رسـائله التى بلغت ١٠٫٠٠٠ رسالة بعث بها الى مشاهير القوم فى جميع أنحاء أوربا ٠ ومن بين هؤلاء كاترين الثـانية قيصرة روسـيا ، التى بعثت اليه بهدايا عظيمة والملك كرستيان السابع ملك الدنمارك وجوستاف الثالث ملك السويد الذى وعد أن ينفذ ما أشار به فولتير وأنه سيحاول أن يرتفع بحياة قومه الى المستوى الانسانى ولم يستطع فريدريك الكبير حين كان وليا للعهد أن يغرى فولتير بالقدوم الى بوتسدام ؛ فرحل اليه متنكرا ليقدم اليه فى باريس فروض الاجلال ٠

على أنه جاء وقت على فولتير كان يتنقل من مكان الى مكان مختفيا عن الأنظار وعن العيون التى كانت تترقبه للقبض عليه ، وكان يضطر أحيانا الى الفرار من فرنسا الى الأقطار الأجنبية : فقد كان كل كتاب جديد يحدث انفجارا جديدا من الحقد والسخط عند أولياء الأمور ويصـبح الكتاب أو صـاحبه فى مأزق حرج ، وكان من أثر ثورة حكومة فرنسـا على كتب فولتير أن وجدت هذه الكتب طريقها الى الأقطار الأخرى ٠

بعد ذلك بادر بقبول دعوة فريدريك الأكبر التى ظلت قائمة وكان كل من فريدريك وفولتير يتبادل الاعجاب مع صاحبه منذ شبابهما وكان كلاهما عنيدا شديد المراس أنانيا قويا ماهرا ذكيا ٠ ولما وفد فولتير الى

بروسيا وجد الملك أن ضيفه الشهير لا يمكن أن يقبل دور النديم كذلك ثارت تأثرة فولتير على الروح العسكرية السائدة هناك وسرعان ما وقع الشقاق بينهما ؛ فوجد فولتير نفسه فى الطريق الى خارج البلاد واذا به يجد كل حدود أوربا مغلقة فى وجهه بفضل نفوذ فريدريك الأكبر ٠

وفى عام ١٧٥٥ وجد الفيلسوف الكهل ملجأ له وملاذا فى جمهورية جنوا الصغيرة وهناك ابتاع دارا أمها كل رجل عظيم فى أوروبا استطاع أن يقوم بالرحلة اليها وفى هذه الدار كان فولتير يستقبلهم استقبالا حافلا ، وفى عينيه الخابيتين بريق وعلى وجهه المجعد ابتسامته القديمة الخبيثة وكان يحتسى القهوة بشراهة ويحادث ضيوفه أشهى الأحاديث وكان الضيوف يجيئون لقضاء ثلاثة أيام فيمكثون ثلاثة شهور ٠

وكان بره بالناس أقل علانية من ضيافته وكان الكثيرون من الفقراء أو المضطهدين دينيا أو سياسيا يقدمون اليه ويفدون عليه طلبا لنجدتهم ، وبدأ فولتير تشييد دور لهم حتى أصبحت ضيعته قرية صغيرة فشيد لأهلها كنيسة ومدرسة لأطفالهم ، وعهد اليهم بالأعمال التى يستطيعون أداءها ، وكان أغلب هؤلاء اللاجئين من صناع الساعات السويسريين ، وسرعان ما وجد فولتير نفسه صاحب تجارة ساعات رابحة ٠ فكان يبيع ساعاته أقل من غيره بمقدار ثلث الثمن ٠ وكان يرسل رسالة شخصية مع كلب طلب ، ومثل هذه الرسائل أغلى وأقيم من كل الساعات التى أنتجها ٠

وكان فى الامكان أن يعيش فولتير فى سلام ودعة بعد أن أصبح واسع الثراء ؛ ولكن أشد معاركه المريرة وأعظم أعماله جميعا كانا عام ١٧٦٢ حين قام المتعصبون الدينيون فى مدينة تولوز باحتفالاتهم لانقضاء مائتى عام على ذبح ٤٠٠٠ مارق من الدين وفى ذلك الوقت وجدوا شابا مشنوقا فى بيدر (جرن) وذاعت الاشاعات ان هذا الشاب كان بروتستانتيا وأراد أن يصبح كاثوليكيا ونشر المتعصبون الدينيون أن والد هذا الشاب وهو كهل فان هو الذى شنق ابنه الشاب القوى ، وبعد ضروب من التعذيب الرهيب لم يعترف المسكين بشىء وامتدت يد القانون بالانتقام من جميع أفراد الأسرة ٠

ولما اهتم فولتير بهذه القضية بدأ يكشف عن الطبيعة المرعبة للقانون الجنائى كما يطبق فى فرنسا ، بل وفى كل البلاد الأوربية ما عدا انجلترا : لم يكن هناك محلفون ولا يسمح للمتهم بالاستعانة برجال القانون

ولا يسمح له بتقديم أية بينة فى مصلحته والذين يقدمون الاتهام يقدمون شهادات سرية ويقيم القضاة من أنفسهم نوابا · وعلم فولتير الى جانب كل ذلك أن مواد القـانون الجنـائى ليست كلها مكتوبة ، بل كانت فى رؤوس القائمين بالمحاكمات و « تترجم » كما يحلو لهم لاثبات الاتهام ولم يكن هذا بالأمر الجديد ، بل كان متبعا منذ العصور المظلمة · ولم يكن الأغنياء المتـازون يعرفون شيئا عن هذا القانون ، وكانوا يحسبون أن الفقراء والمساكين الذين يعاقبون انما هم يستحقون هذا العقاب حقا ·

واندفع فولتير بكل قوته ونبوغه فى الهجوم على رجال القـانون ورجال الكنيسة والملوك وجميع الصحف الأوربية ، يطالبهم جميعا باعادة التحقيق فى تلك القضية ولم يسع الملك الا أن يخضع للجماهير التى أثارها فولتير خلال ثلاث سنوات قضاها فى هجومه لم يهدأ له بال ولم تغمض له عين ولم تبتسم له شفاه وأعيد التحقيق فى القضية وثبتت براءة الأموات والأحياء·وأرادت محكمة تولوز أن تمحو هذه القضية التى وصمتها بوصمة العار من سجلاتها وأعيد النظر فى قانون الجنايات الذى ظل ٨٠٠ عام لا يفـكر أحد فى دراسته وكان كل ذلك بفضـل ذلك الرجـل الكهل « فولتـير » ·

وما كاد يصدر الحكم بالبراءة فى تلك القضية ، حتى هرع كل مظلوم فى القضايا القديمة الى فولتير فانطلق يكشف عن المآسى الرهيبة والمخازى ولا يهدأ له بال حتى يجرى العدل مجراه ، وراح يطالب بابعاد الدين عن السـياسة وعن القـانون وأن يعكف رجال الدين على الأعمال الدينيـة والروحيـة التى طال اهمالها · وظل فولتير فى حملته يفسر الفرق بين مخالفة القانون وبين الخطيئـة ويقول ان الله سيعاقب مرتكب الخطيئـة اذا أراد أما من ناحية القانون « فاننا نحب القوانين ويجب أن نكون فى خدمتها وأن نحمل كل أعبائها وكل من ينتهك حرمة القانون يكون انسانا لا يحب وطنـه » ·

وجاء يوم اشتد فيه حنين فولتير الى وطنه وعظم شوقه الى رؤية باريس قبل موته ، وفى أحد أيام شهر ديسمبر من عام ١٧٧٧ وقفت مركبة أمام ضابط الجمارك الذى أراد أن يرى هل تحمل هـذه المركبة أشياء ممنوعة واذا به يسمع ضحكة خفيفة وصوتا يقول له : « لا شىء ممنوعا داخل المركبة عداى » وبادر الضابط وفتح باب المركبة وصاح : « يا الهى انه مسيو فولتير ! » ، لأن تلك الابتسامة المغضبة كان يعرفها الملايين الذين لم تقع أنظارهم على شخص فولتير ·

واستقبلته باريس استقبالا رائعا ، وفتحت الأكاديمية الأهلية التى حاربته طويلا ذراعيها لذلك الأديب الثائر العظيم واصطف كل موظفى مسرح « الكوميدى فرانسيز » أمام الباب لتحية المؤلف المسرحى العظيم ٠

وقضى هذا الأديب الثائر نحبه وهو فى الثالثة والثمانين من عمره ، وكان ذلك فى مايو عام ١٧٧٨ وكانت آخر كلماته التى أملاها على سكرتيره هى :

« اننى أموت وأنا أعبد الله وأحب أصدقائى ولا أكره أعدائى وأزدرى الخرافات » ٠

وكان خير جزاء ناله فولتير حين قامت الثورة الفرنسية وأخرج الناس جثته ووضعوا نعشه فوق أنقاض الباستيل مدة ليلة ، فقد كان ليديه الضعيفتين الفضل فى القضاء على هذا السجن العتيد الرهيب ٠

★★★

فولتير المؤرخ

ولقد كان فولتير من أشد المهتمين بالتاريخ فكتب فيه لكن بعين الفيلسوف لا بعين المؤرخ التقليدى الذى يقتصر التاريخ بالنسبة له على مجرد سرد الحوادث وتوخى الدقة فى التأريخ لها والالمام بتفصيلاتها ، فلقد كان التاريخ الانسانى بالنسبة لفولتير وحدة واحدة ينظر اليه ككل ويرى أن جوهره هو التقدم المطرد الذى يحققه الانسان فليست فى التاريخ معجزة لا يمكن تفسيرها ؛ لأن ثمة عوامل ثلاثة تؤثر على فكر البشر ومن ثم على صناعتهم لتاريخهم هى المناخ ونوع الحكم والدين ٠ وان وضعنا هذه العوامل فى الاعتبار استطعنا تفسير لغز هذا العالم ، فان انتصارات البشرية على الأشياء وتناحر الجماعات البشرية وتقدم الأخلاق والعلوم والفنون كل هذا جرى بصورة طبيعية ، وكل هذا سيستمر متزايدا كلما توسع أفق العقل البشرى وكلما أحرز قدرا أكبر من التقدم العلمى والصناعى والفنى والأخلاقى والسياسى مما يتناسب أكثر مع حاجات الانسانية لا فرق فى ذلك بين انجازات أمم الشرق القديم وانجازات الغربيين المحدثين ، الا فرقا فى درجة التطور الذى وصلنا اليه وزيادة كم الاكتشافات والمخترعات التى ساهمت فى السيطرة أكثر على الطبيعة ، وفتحت الآفاق بصورة أكثر اتساعا أمام الانسان ٠

وهكذا تبلورت لدى فولتير نظرية فى تفسير التاريخ هى ما يمكن أن نطلق عليه نظرية التقدم ، وهى نظرية تركز ـ كما اتضح لنا ـ على الانجازات العقلية للبشر وتتبع تطور هذه الانجازات فى مختلف الميادين فالتاريخ بالنسبة له خط مستقيم سار فيه جميع البشر منذ الأمة المصرية القديمة والى اليوم وكل الأمم ساهمت فى صنعه بأقدار متفاوتة وعلى حساب ما تمتاز به شعوبها ٠

★★★

الخطابـــات الفلسفية

فى عام ١٧٣١ قضى على فولتير أن ينفى مرة أخرى ٠ كانت أدريين ليكوفرير ممثلة عظيمة أعجب بها فولتير ولما ماتت ، رفضت الكنيسة أن تقام لها الطقوس الدينية وكذلك كانت تفعل مع الممثلين جميعا ، كما أسلفنا القول ، ثم دفنت مدموازل ليكوفرير على شاطىء السين فى أرض موات ٠ فسخط فولتير وشيع الجنازة ثم احتج قائلا :

« آه ! هل أرى دائما أمتى ضعيفة »
« غير واثقة من رغباتها تعيب ما تعجب به »
« وأخلاقنا وقوانيننا فى تعارض دائم » ٠
« والفرنسى الطائش تطويه دواما دولة الخرافات ؟ » ٠
« ماذا ٠ ألا يجرؤ الناس على التفكير » ٠
« الا اذا كانوا فى انجلترا وحدها ؟ » ٠
« يا لك من منافسة لأثينا!أى للندن!!أيتها الأرض الطيبة! » ٠
« لقد عرفت كيف تتخلصين من الأوهام المخزية التى » ٠
« سببت الحروب الأهلية كما قضيت على الطغاة » ٠
« فوق أرضـــك يستطيع الانسان أن يفضى بكل ما يجول بخاطره » ٠
« وأن يتحمل فى سبيله كل شىء » ٠
« لا يمتهن فيك فن ولكل نجاح مجده » ٠
« فصاحب النصر فى تلار ، ابن النصر » ٠
« ودرايدن الجميل وأديسون الحكيم » ٠

« أوفلس الظريفة ونيوتن الخالد » ٠
« كل أولئك قد خلدت ذكراهم » ٠
« ولو كانت ليكوفرير فى لندن لكان لها قبر » ٠
« بين ذوى المواهب والملوك والأبطال » ٠

« هذا التمجيد لفتاة من فتيات المسرح اعتبر شركا كبير » ٠ ففر فولتير والتجأ الى قرية من قرى نورماندیا ٠ وبعد قليل طبعت فى روان سرا « خطابات فلسفية » عن الانجليز كان كتابا عجيبا ذا أثر خطير وان كان بسيط العبارة ٠ لم يكن من المستطاع أن يقال ان الكتاب عميق أو أن معلوماته قد روعيت فيها الدقة الشديدة ، غير أنه حقق الغرض الذى كان يرمى اليه المؤلف : وهو أن يعرف الفرنسيين انجلترا التى كانوا يجهلونها، وأن يحملهم على التفكير فى عيوب نظمهم ويغير آراءهم الدينية والسياسية٠

بدأ كتابه بخمسة خطابات عن المذاهب: الكويكر والإنجليكان والبرسبيتريان والسوسينيان والاريوسيين ٠ وهذا الموضوع كان مفضلا دائما عند فولتير ٠ ومن اليسير أن نعلم سبب هذا فهو حين يبين اختلاف العقائد الدينية يظهر ضعف كل منها ٠ ومن ناحية أخرى كان فى استطاعته أن يؤيد آراء ينسبها الى الذين يصفهم من أشخاص ولو عرضها هو لتعرض للخطر ٠

وبعد الموضوعات الدينية عرض المسائل السياسية : فكتب خطابين عن البرلمان والحكومة وكانت قوة مجلس العموم وانعدام بعض الامتيازات يرضيان البرجوازى أرويه كل هذا يبعث فى نفس التاجر الانجليزى كبرا مشروعا ويحمله على أن يجرؤ فيقارن نفسه بالمواطن الرومانى ٠ وهو يكاد يكون محقا فى هذا ٠ « والابن الأصغر لأمير من أمراء المملكة لا يحقر التاجر ٠٠٠ » ٠

بعد هذا يأتى ما يمكن أن يسمى خطابات التبسيط : فيتناول أحدها فلسفة لوك التى تعد فرصة سنحت لفولتير ليبسط لأول مرة نظريته الخاصة به ٠ انه يؤمن بالله ولكنه لا يقبل أننا لا نعرف عن الله الا انه موجود وأنه خلق العالم ٠ يؤمن بخلود الروح لأنه ضرورى لخير المجتمع ؛ ولكنه لا يجد أثرا فى الطبيعة لتلك الروح ويثنى على لوك حين يقول فى تواضع :

« ربما لن نستطيع بتاتا أن نعرف ما اذا كان المخلوق المادى الصرف يفكر أو لا يفكر » ٠

ثم يعرض بعد ذلك للخطابات العلمية التى تتناول نيوتن ونظام الجاذبية وعلم الضوء واللانهائى ٠ وكل هذه الخطابات تدل على حب الاستطلاع وعلى معلومات غزيرة ٠ ثم يختتم الكتاب بخطابات تتناول المأساة والملهاة ٠ وهو يكشف للفرنسيين عن شكسبير ، الذى يعده الانجليز مثل سوفوكليس ٠ كانت له عبقرية قوية واسعة لا تصنع فيها وتنطوى على الروعة ولكن ليست له أية ذرة من حسن الذوق ولا أية معرفة للقواعد ٠ غير أن فولتير وهو يشكو من شكسبير كان يجهل القواعد، كان يلوم أولئك الذين لم يعلموا الفرنسيين الا هذه الأخطاء وحاول هو نفسه أن يترجم شعرا قطعة من أجمل ما كتب شكسبير ٠ فوقع اختياره على مناجاة هاملت لنفسه : « يكون أو لا يكون ٠٠٠ » فسلك فيها مسالك كريون ، وأحل محل لغة شكسبير القوية عجمة مجردة وهذه الاهتزازات المنتظمة لأوزان الشعر تهدهد القارىء :

« تريث يجب أن تختار وأن تعبر فى الحال » ٠

« ومن الحياة الى الموت وأن تستحيل من كائن الى العدم » ٠

« يالرحمة الآلهة اذا كان الأمر كذلك فأمدونى بالقوة » ٠

« أيجب أن يهرم الانسان وتحنى ظهره تلك اليد التى تستبد بنا ؟»

« هل لى أن أتحمل أو أن أضع حدا لشقائى ومصيرى ؟ » ٠

« من أكون ٠٠ ما الذى يوقفنى ؟ ٠٠ ما الموت ٠٠ ؟ » ٠

« انه خاتمة آلامنا انه ملاذى الأوحد » ٠

« انه لنوم هادىء بعد تلك الفورات الطويلة » ٠

« الانسان ينام وكل حى يموت ٠٠٠ » ٠

واذا كانت ترجمته ليست صادقة فتعليقاته تنطوى على الذكاء : « النبوغ الشعرى عند الانجليز يشبه حتى الآن شجرة كثيفة الأغصان غرستها الطبيعة تلقى بآلاف الأفنان حيثما اتفق وتنمو بقوة لا تعادل فيها ٠ وهى تموت لو أنك جعلت منها غير ما فطرت عليه ، وأردت أن تجعل منها شجرة فى بساتين مارلى » ٠

ولم يكد الكتاب يظهر حتى طاردته الشرطة وسجن صاحب المكتبة فى الباستيل واضطر فولتير الى أن يلجأ الى اللورين · وأصبحت الخطابات الفلسفية بقرار من البرلمان « محكوما عليها بأن تمزق وتحرق فى فناء المحكمة أسفل هذا السلم الكبير ويشرف على هذا المجلس العالى وذلك لأن فيها فاحشة ، ولأنها تخالف الدين والخلق القويم وما ينبغى للسلطات من احترام » ونفذ هذا الحكم فى ١٠ من يونيو عام ١٧٣٤ ·

وهذا العمل يكاد يكون بمثابة ما اذا أحرق سياف فى أمريكا كتابا يتناول نظريات آينشتين ·

★★★ ·

رسائل فولتير تكشف حبه للحقيقة

من النظر فى حياة فولتير المتناقضة التى عاشها ، نفهم فولتير الذى كان فكره مرآة لشخصيته والعكس ، فقد كان محبا للحقيقة أكثر من حبه لحريته ، محبا للانسانية أكثر من حبه لنفسه محبا للصدق دون نفور من الكذب ، فقد كان يقول : « ان الكذب ليس ذنبا الا حين يضر بشخص ما ، أما حين يفيد الانسانية فانه أكبر الفضائل طرا » فقد كان كثيرا ما يتصنع بسخريته وتهكمه الايمان بما ليس يؤمن به ، وكثيرا ما نشر أعمالا من تأليفه تحت أسماء مستعارة ينكر نسبتها اليه أحيانا ثم يعود ويعترف بها فيما بعد ، ويفاخر بها · ورغم كل ما يقال عن مظاهر التناقض فى حياة وشخصية وفكر فولتير ، الا أن أحدا لا ينكر أنه كان شديد التأثير فى معاصريه بآرائه الايجابية البناءة وبآرائه السلبية الناقدة الساخرة فى آن معا وكذلك فهو كما قلنا فى البداية كان علما على عصر بأكمله ·

وبامكاننا اذن أن ننظر الى فلسفة فولتير باعتبارها ذات جانبين : جانب نقدى وجانب ايجابى بناء ، وان الجانب الأول هو الأهم فى فكر فيلوسوفنا فقد حقق من خلاله أهدافه فى ايقاظ الأوربيين عامة والفرنسيين خاصة من غفوتهم وبدد الظلمة التى كانت تغشى أعينهم ·

ولقد كانت من أقسى حملات فولتير ورسائله النقدية حملته على الدين فى ذاته ؛ بل الهجوم على كل عقيدة لا تعرف التسامح وتضع الايمان فوق العقل · وان كنا لا نعفى فولتير من مغبة تهجمه الشديد والمباشر على

الكتب المقدسة فى مثل قوله فى العديد من مؤلفاته ان المسيحى يسلم أمره دون قيـــد الى كتابين ، يعتقد أنهما مقدســـان هما التوراة والانجيل ويعتقد اعتمادا على ما ورثه من أقوال أن الله قد أوحى بهما ، على حين يرى فولتير أنه لا أساس لهذا الاعتقاد ، اذ كيف يمكن الاعتقاد بأن موسى كان لديه ما يكتب به فى الصحراء حيث لا توجد حتى أشجار لينقش عليها ! وبالاضافة الى ذلك فكاتب أسفار موسى يقول انه يكتب من وراء الأردن،فى حين أن موسى لم يدخل أرض الميعاد أبدا · كما أن فى النص أسماء لمدن ومواقع لم تعرف بها تلك المدن الا بعد موت موسى بوقت طويل · وفى التوراة عبارة تقول : « لم يأت بعد موسى نبى يضاهيه عظمة » وهذه جملة لا يمكن أن يكون كاتبها هو موسى ، كما أننا نقرأ فى أسفار موسى قصة موته كاملة !! فكيف يمكن التوفيق بين تلك المتناقضات !!

أما الأناجيل ، فانها ــ فى رأى فولتير ــ لم تحرر رأسا فى زمن المسيح ، بل كتبت بعد وفاته بمائة عام · وفضلا عن ذلك فان ما تعتبره الكنيسة منها حقيقية كانت ترافقها أخرى تعتبرها مزيفة · فما سر قبول بعض الأناجيل ورفض بعضها الآخر ؟ · وبالاضافة الى ذلك ، فان الأناجيل الأربعة لا تتفق فيما بينها على نسب المسيح ولا على أحداث طفولته ولا على معجزاته ولا على أقواله · فكيف يمكن اذن اعتبارها جميعا صالحة وذات قيمة ؟ ·

ويشكك فولتير فى الأصل الالهى لهذين الكتابين حينما يقول : اذا كان الله هو الذى أملى التوراة والانجيل ، حق لنا أن نعجب اذ ان الله ذو أفكار خاطئة جدا فى علم الفلك كما أنه يجهل علم تاريخ الحوادث ويجهل الجغرافيا جهلا تاما ويعتقد أن الأرانب تجتر ويناقض نفسه بنفسه فيما يخص الأخلاق ·· فهل فى الامكان أن يظن المرء أن الرب ذاته يفرض مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » فى التوراة ثم يأتى الانجيل فيأمرنا « أن نمد خدنا الأيمن لمن يصفعنا على خدنا الأيسر ، وأن نعطى ردائنا لمن سرق ثوبنا » وأن لا نقـــاوم الشرير ·· فهـــل هذه أوامر تتفق وأوامر التوراة ؟! ·

ولا يقف فولتير عند هـــذا الحـــد فى التشكيك والتهجم على الدين المسيحى ، بل يشكك فى كل المعجزات التى وردت فى الكتابين المقدسين ويعتبرها خرافات وأساطير ينبغى الحذر منها وعدم الأخذ بها ؛ لمنافاتها العقل فهو لا يرى فى تلك الكتب المقدسة المسيحية شيئا يعتد به سوى الأخـــلاق التى تبشر بها ، أما كل ما عداها فهو أكاذيب ينبغى أن يتحرر منها فكرنـــا ·

وينتقل فولتير الى رجال الدين المسيحى ، موضحا أنهم خرجوا على التعاليم الدينية الأصلية التى بشر بها المسيح وأنهم كثيرا ما يناقضون بأفعالهم ما يؤمنون به ويرددونه بأفواههم فلقد استنكر المسيح التفرقة بين الكهنة ولكن الكنيسة تقوم على نظام الدرجات ، حيث الرؤساء يتمتعون بالسلطة المطلقة وصغار الكهنة يحيون حياة بائسة · ولقد امتدح المسيح الخشوع والندامة ولكن الكنيسة تضرب المثل بالكبرياء والخيلاء والبذخ الفاضح·ولقد استنكر الجشع ولكن البابا وكبار الأكليروس يعيشون فى بحبوحة ورغد ولا يفكرون الا فى زيادة ثرواتهم ، ولقد امتدح المسيح اللطف والغفران ولكن الكنيسة اخترعت التعصب وزرعت بذور التفرقة والخلاف فى كل مكان وشنت الحرب على المنشقين والهراطقة والبروتستانت واليهود والمفكرين الأحرار وأذاقتهم الاضطهاد وأهلكت آلاف البشر فكانت من أعظم المصائب التى عرفتها الانسانية ·

ولا يخفى علينا بالطبع أن تلك الانتقادات التى يوجهها فولتير لرجال الدين والكنيسة المسيحية ، كانت موجهة لكنيسة القرن الثامن عشر التى كانت كثيرا ما تقف فى وجه التجديد فى مجالات العلم والفكر ·

ولقد شغل فولتير بالرد على هجمات بعض المتعصبين ضيقى الأفق الذين يهاجمون الفلسفة بحجة أنها دائما ضد الدين ، فى حين أن الأمر فى حقيقته قد يكون عكس ذلك فقد هاجم بعضهم فلسفة جون لوك ورد فولتير بقوله انها فلسفة حكيمة متواضعة لا يجب أن يثوروا عليها · فهى ليست مباينة للدين بل تصلح دليلا له اذا ما احتاج اليه ، فأية فلسفة تكون أكثر دينا من التى لا تؤكد الا ما تتمثله بوضوح كما تقر بعضها فتقول بأنه يجب أن نلجأ الى الله اذا ما بحثنا عن الأصول الأولى للكون · وفضلا عن ذلك ، فانه لا ينبغى أن يخشى من أى فكر فلسفى على أى دين فى أى بلد كان ، فالفلاسفة لا يكتبون مباشرة للعامة · وقد دلل فولتير على ذلك بقوله انه ان قسمنا الجنس البشرى الى عشرين جزءا لرأينا تسعة عشر جزءا من هؤلاء يعملون أعمالا يدوية ولا يعرفون رجلا فى العالم يدعى جون لوك وما أقل من يقرءون فى الجزء العشرين الباقى ·· وتجد من بين هؤلاء القراء عشرين يطالعون روايات فى مقابل واحد يقرأ فلسفة فعدد من يفكرون قليل للغاية ولا يستطيع هؤلاء أن يكدروا صفو العالم · وليس مونتانى ولا لوك ولا اسبينوزا ولا هوبز ·· الخ هم الذين حملوا مشاعل الشقاق فى أوطانهم فاذا ما جمعت كل كتب الفلاسفة فى الأزمنة الحديثة، لم تجدها قد أحدثت من الضوضاء فى العالم ما أحدثه جدال الكرادلة فيما مضى حول شكل كمهم وغطاء رأسهم ·

وهكذا كان فولتير دائم النقد ساخطا على كل شيء يحسب المناسبة التى يتحدث فيها والهدف الذى يسعى الى تحقيقه فاذا كان فيما سبق يبدو ساخطا على الدين ورجاله ، فانه نسى أنه فى غمرة ذلك قد قلل من قدر الفلاسفة ، كما قلل من شأن تأثيرهم فى العالم وهو اذا كان قد حمل على الدين ورجاله ، فان حملته على الفلاسفة السابقين والمعاصرين له كانت أشد ضراوة فبقدر ما كان حبه لبعض هؤلاء الفلاسفة شديدا كما كان شأنه مع فرنسيس بيكون وجون لوك ، بقدر ما كان هجومه ضاريا على الآخرين من أمثال ديكارت وبسكال وجان جاك روسو . فهل كان لديه معيار يقيم به هؤلاء الفلاسفة ؟ . وهل كان لديه معيار لتقييم مشاهير الناس فيعلى به قدر بعضهم ويحط من قدر آخرين ؟؟

معيار التنوير عند فولتير .. ونقده للفلاسفة

ان معيار التقييم عند فولتير هو مدى ما قدمه أى انسان سواء أكان من الفلاسفة أو العلماء أو الحكام أو القادة من أعمال استهدف بها خدمة الانسانية عامة وتنير الطريق للبشرية . فالعظمة الحقيقية — كما يقول فولتير — تقوم على عبقرية جبارة من السماء وعلى الانتفاع بهذه العبقرية لتنوير الانسان نفسه وتنوير الآخرين . وان سألنا فولتير — على ضوء هذا — أى هؤلاء الرجال أعظم من الآخر : قيصر أو الاسكندر أو تيمور لنك أو كروميل .. الخ ، لكانت اجابته ان اسحاق نيوتن هو أعظمهم بلا شك فان رجلا مثل نيوتن الذى لا يكاد يظهر مثله كل عشرة قرون يكون هو العظيم ؛ لأن هؤلاء السياسيين والفاتحين الذين لا يخلو منهم قرن ليسوا الا أشرارا ، فنحن نجل ونعظم من يسيطر على النفوس بقوة الحقيقة لا أولئك الذين يصنعون عبيدا بالاكراه والقهر ، نجل ونعظم من يكشفون لنا أسرار الكون لا أولئك الذين يشوهونه .

ويرتبط معيار التنوير عند فولتير بمعيار آخر هو النفع للوطن أو البشرية عامة ، فهو يرى أنه لا ينبغى أن نبالغ فى احترام وتقدير أصحاب الألقاب دون أصحاب المهن خاصة النافعة للدولة ، فقد كتب رسالة عن التجارة وأهميتها فى المشاركة فى عظمة الدولة وجعل مواطنيها أحرارا يقول فيها ساخرا : « أى الرجلين أكثر نفعا للدولة : أيكون السنيور المبوذر الذى يعرف وقت نهوض الملك ووقت نومه بكل دقة والذى ينتحل أوضاع

العظمة بتمثيلية دور العبد فى غرفة انتظار الوزير أم التاجر الذى يعنى بلده ويصدر من غرفته أوامر الى سوريا والقاهرة ويساعد على سعادة العالم ؟! » ٠

وعلى ضوء هذا المعيار « التنوير والنفع للبشرية » كان نقد فولتير للسابقين من الفلاسفة : فأرسطو مرفوض لأنه صاحب مذهب مستغلق غامض ، مما جعل تلاميذه يفسرونه على وجه ، أما ديكارت فقد ولد لاكتشاف أغاليط القرون القديمة ولكنه استبدل بها أغاليطه ، ذلك أنه سار على منهاج يعمى أعاظم الناس فقد خيل اليه أنه أثبت أن النفس عين الفكر،فان الانسان يفكر دائما وأن الروح تحل فى الجسم مزودة بجميع مبادىء ما بعد الطبيعة عارفة بالله وحائزة جميع الآراء المجردة زاخرة بروائع العلوم التى تنساها مع الأسف عند خروجها من بطن أمها !!

وقد انتقد فولتير ذلك الرأى الأخير لديكارت بقوله : « انه لن يجعلنى أعتقد أننى أفكر دائما ولا أجدنى أكثر استعدادا منه لأتصور أننى كنت بعد بضعة أسابيع من الحمل بى روحا بالغ العلم عارفا ألف شىء فى ذلك الحين فنسيته عند الولادة ، وانني كنت حائزا فى الرحم من المعارف ما أفلت منى عندما أصبحت محتاجا اليه وانني صرت عاجزا عن تعلمه ثانية بعد ذلك » ٠

وان كان فولتير ينتقد ديكارت هذه الانتقادات العنيفة الساخرة ، فانه لا ينسى أن يقر لديكارت ببعض اللمحات العبقرية : فهو يمتدحه باعتباره من أوائل الذين استنفروا العقول الى التفكير الحر فقد « أنعم ديكارت بالبصر على العمى فرأوا أغاليط القرون القديمة وأغاليطه وصارت الطريق التى فتحها كبيرة بعده » ٠

وهكذا كان حال فولتير مع بسكال ، فقد كتب فى احدى رسائله أنه يقدر عبقرية بسكال وبلاغته ولكنه كلما قدره اقتنع بأنه كان لابد من تصحيح الكثير من « أفكاره » فهو يرى أن ما كتبه بسكال فى « الأفكار أو الخطرات » كان مجرد خواطر ألقاها على الورق كيفما اتفق دون تدقيق « وقد كانت الروح التى كتب بها تلك الأفكار ــ فى رأى فولتير ــ هى اظهار الانسان من ناحيته المقوتة فهو ينهمك فى وصفه لنا جميع الأشرار والأشقياء ، وهو يكتب ضد الطبيعة البشرية كما كان ضد اليسوعيين،وهو يعزو الى جوهر طبيعتنا ما لا يكون الا لدى القلة من الناس وهو يصب الشتائم على الجنس البشرى ببلاغة ؛ ولذا فاننى أتعصب للبشرية مجترئا على هذا المبغض الأعلى للانسان » ٠

ولقد كانت أشد حملات فولتير ضد الفلاسفة،ضد معاصره وقرينه في حركة التنوير جان جاك روسو ، فقد كتب الى دالمبر قائلا عن روسو : « انه لا يحب آثاره ولا شخصه » ، ويصفه « بأنه ممسوس،مجنون،صبي مضر ، مسخ يجمع بين الحيلاء والانحطاط والفظاعات والمتناقضات » ٠ ويبدو أن كل تلك السخرية والشتائم كانت لكره فولتير لمبدأ روسو الشهير أن من الخير للانسان العودة الى الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيها قبل أن ينتقل الى حياة المدينة التي يعيش فيها ٠ ان فولتير يعبر عن رفضه لهذا المبدأ قائلا : كيف يمكن القبول بمبدأ اذا سرنا على حرفيته يجعلنا نلعن المدنية ونرفض حسناتها ونقبل بأن نسير على أربع ؟! كيف يمكن أن نؤمن بما يتمتع به « رجل الطبيعة » من طيبة كاملة وسعادة كبيرة ، ان الانسان المتوحش كما يعرفه الرحالة مخلوق بائس وهو ليس سوى طفل متين البنية له جميع ما في الطفولة من رذائل وما يتخللها من تذبذب وقسوة فكيف نقبل بأن نخطيء كل العلوم والآداب والفنون وكل ما يضمن سيطرة الانسان على العالم ونتخلى عن لذائذ العيش ؟ ثم كيف يقول روسو في معرض حديثه عن العصور الأولى : « آه ما أحلى عصر الجليد ٠٠ !» وكيف يقول : « ان الثمار هي لجميع الناس وان الأرض ليست لأحد » ان هذا المبدأ يهدم أهم حق في حياة الانسان وهو حق الملكية ٠

وهكذا ، فان روسو نال أكبر قسط من نقد فولتير دون جملة اطراء واحدة فسائر ما كتبه عدا خمسين صفحة من كتابه المعروف (أميـل) يقدرها وتستحق في نظره أن يكون كاتبها رجلا حرا وليس روسو — لا يستحق أكثر من النسيان ٠

أما أهم رسائل فولتير النقدية فكانت على الفلاسفة الملحدين فقد كان يرى — رغم حملته على الدين المسيحي ورجاله — أن من الجنون أن يرتمي المرء في أحضان الالحاد كما فعل أمثال « ديدور » و « هولباخ » ، لأن الرأي القائل بوجود الله قد تكون فيه صعوبات ، الا أن الرأي المعاكس أصعب ، فالملحد مضطر الى أن يقر بضرورة كل شيء كما فعل اسبينوزا وعليه أن يقبل بأن كل ذرة من الغبار حتم عليها أن تكون كما هي وان توجد بالضبط في النقطة التي توجد فيها في اللحظة التي توجد فيها وهو مجبر على أن يرى في الحركة احدى الخصائص الجوهرية للمادة فاذا كانت المادة لا تتحرك فكيف السبيل الى تفسير انها بدأت في الحركة في وقت ما ؟ ان المرء مجبر كذلك على اللجوء الى « المصادفة » لتفسير النظام الذي يسود الكون وظهور الأحياء في العالم وما يمتازون به من غائية خارقة في تكيف أعضائهم مع الوظائف اللازمة للمحافظة على الأفراد والأجناس ٠

ولكن كيف يمكن أن نقبل أنه اذا وضعنا كل الأحرف التى تتألف منها قصيدة الالياذة فى كيس ثم أفرغنا الكيس خرجت منه الالياذة كاملة بكل حوادثها وأشعارها ؟ . ان هذه المظاهرة بعيدة الاحتمال حتى ولو افترضنا لها وقتا لا متناهيا وعددا من التجارب لا متناهيا واذا كان ذلك كذلك أليس أبعد عن الاحتمال أن يكون العالم الذى نعيش فيه مع جميع المخلوقات وليد المصادفة البحتة ؟ .

ان الالحاد فى رأى فولتير ـ لا يفسر شيئا والعالم يصبح لغزا مطبقا لا يمكن حله والملحد يظن أنه يعرف كل شىء وهو فى الواقع لا يعرف شيئا فهو جاهل مرتين ؛ مرة لأنه لا يعرف ما يؤكده ، ومرة أخرى لأنه لا يدرك حدود معارفه .

ولعلنا نخرج من ذلك كله بأن فولتير يرى أنه من الواجب تنظيف الذهن من الخزعبلات المسيحية والتخيلات الديكارتية والتأكيدات الالحادية وسخافات جان جاك روسو وخطرات بسكال التشاؤمية ، بأية وسيلة ممكنة : سواء بالجدل المنهجى الهادىء أو بالسخرية اللاذعة .

ومما سبق يمكننا أن نستنبط آراء فولتير الايجابية فهو لا شك يؤمن بالتجربة الانسانية وبالعقل الانسانى ايمانا جازما وان كان يؤمن فى نفس الوقت بتواضع امكاناتهما المعرفية ، فهو يرى أن عقلنا حين تقوده وتدعمه التجربة يتيح لنا أن نثبت عددا صغيرا من المبادىء الأساسية اثباتا يقينيا أو يقترب من اليقين . وان ظلت بعض هذه المبادىء غامضة وقابلة للشك ، فيجب أن نعترف بقصورنا عن البرهنة القاطعة عليها فالفيلسوف الحق يجب ألا يتردد فى كثير من الأحيان فى أن يقول : لا أدرى ؟!

واستنادا الى هذا المنهج يقرر فولتير مبدأين لا شك فيهما لديه أولهما : وجود الله ، وثانيهما : القيمة المطلقة لشكل معين لفهم الأخلاق. أما عن المبدأ الأول فهو يقول : « حين أرى النظام والآلة العظيمة والقوانين الميكانيكية والهندسية التى تسود الكون والوسائل والغايات التى لا عدد لها لجميع الأشياء ، يسيطر على الاعجاب والاحترام وأرى حالا أنه اذا كانت أعمال الشر وحتى أعمالى تضطرنى الى أن أقر بوجود العقل فينا ، وجب على أن أقر بوجود عقل ذى نشاط أكبر فى هذه الآثار التى لا حصر لها ، وأقر بوجود هذا العقل الأعظم دون أن أخشى أحدا بغير رأى فليس من شىء يهز اعتقادى بهذا المبدأ : كل عمل يثبت وجود عامل » .

ويقدم فولتير برهانا آخر على وجود الله يسمى لدى الفلاسفة منذ أفلاطون ببرهان « الاله الصانع » حينما يقول متأملا ذاته : « نحن قطعا من صنع الله والبرهان على ذلك ملموس فكل شيء واسطة وغاية فى جسمى ، كل شيء رفاص وبكرة وقوة متحـركة وآلة مائية وتوازن سـوائل ومختبر كيمياء . اذن فكل هذا من ترتيب عقل وليس ذلك الترتيب من عقل أبوى ؛ لأنهما قطعا لم يكونا يعرفان ماذا يفعلان حين وضعانى فى العالم ، ولم يكونا سوى الآلات الصماء التى استعملها ذلك الصانع الأزلى الذى يحرك دورة الأرض ويدور الشمس حول محورها » .

وحـدة الأخـلاق الانسـانية عنـد فولتير

أما عن المبـدأ الثـانى ، فهو يقول مؤكدا وحدة الأخلاق الانسانية : « كلما ازداد تبصرى بالناس المختلفين باختلاف الطقس والعادات واللغة والقوانين والعبادة باختـلاف ذكائهم ، ازدادت ملاحظتى لوحـدة أساسهم الأخلاقى : فانهم جميعا يملكون مفاهيم بدائية فيما يخص العدل والظلم ، دون أن يعرفوا كلمة من اللاهوت وهم جميعا اكتسبوا تلك المفاهيم فى السن التى يتفتح فيها العقل ، كما أنهم اكتسبوا جميعا كيفية رفع الأثقال بالعصى ولذلك بدا لى أن فكرة العدل والظلم فكرة لازمة للبشر ؛ لأنهم جميعا يتفقون على هذه النقطة طالما أمكنهم أن يعملوا ويفكروا . فالعقل الأعظم الذى خلقنا أراد أن يسود العدل على الأرض .. والا كيف أمكن للمصريين القـدماء والآشـوريين البـدائيين أن تكون لديهم نفس المفـاهيم الأساسية المتعلقة بالعدل والظلم لولا ان الله قد أعطاهم منذ الأزل ذلك العقل الذى نما ومكنهم من أن يدركوا نفس المبـادىء الأخلاقية .. فجميع الشعوب مهما كانت كليـة من البدائيـة تقول بوجوب احترام الوالدين والأمر بالمعروف والنهى عن الشرور والمنكرات،وتلك مفاهيم واحدة يخلصون اليها عن طريق عقلهم النـامى » .

والى جانب تلك المبادىء الميتافيزيقية والأخلاقية ، كان فولتير عاشقا للحديث عن الحرية بكافة أنواعها وقد بهرته التجربة الانجليزية ، فكتب ينتقد الوضع الفرنسى ويحاول دفع مواطنه الى استبدال النظام الانجليزى به ؛ فلقد أعاد النظام الانجليزى الى الانسان كافة حقوقه الطبيعية التى فقدها فى ظل الأنظمة الملكية بفضل تنوير الفلاسفة ونضال الشعوب وهذه الحقوق هى : الحرية المطلقة فى التصرف بشخصه وأملاكه والتحدث الى الأمة عن طريق قلمه وعدم محاكمته فى أية قضية جنائية الا أمام محلفين

مستقلين وحسب المنطوق الدقيق للقانون · وضمن النظام الانجليزى لأفراده كذلك حرية العقيدة فللفرد حرية اعتناق أى دين يحلو له فى أمان ·

★★★

تأثير فولتير

ليس هناك شك فى تأثير فولتير على عصره تأثيرا كبيرا وان كان من غير الميسور تحديد مداه بدقة ، وليس هناك شك أيضا فى أن فولتير كان يتأثر بدوره من ايحاءات عصره وان كان تاثيره فى كثير من الأمور هو تأثير الوسيط الذى يضع قوة شهواته المعدية وقوة نبوغه الساحر فى خدمة الأفكار التى يخدمها دون أن يخلقها ·

ان فولتير يؤثر كفنان وكفيلسوف · ففى عالم الأدب نراه يؤثر بوجه عام بذوقه ولسانه كمهيج أولا وكملهم ثم كمحافظ وأمين على المبادىء الكلاسيكية · فالعقول التى يكونها تتمتع بذوق سليم ، وتعبر بعبارات واضحة جافة وتحافظ على صحة البيان وبلاغة العبارة · ان أتباع فولتير يثورون على أسلوب كأسلوب شاتوبريان ، ويحتقرون الكتاب الرومانتيكيين والقرن التاسع حافل بهؤلاء الفولتيريين وبصفة خاصة فى الجامعة والقضاء ·

أما فى عالم الأدب المسرحى ، فان معاصريه يضعونه فى مصاف راسين وكورنى وسيظل السيد الآمر فى الشعر الرقيق والغزل · وأما فى التاريخ ، فان تاثيره قد تلألأ وتجاوز فرنسا فقد ألف مدرسة للمؤرخين الفلاسفة الذين يعاب عليهم بأنهم ضحوا بالوقائع فى سبيل التفكير ، كما ضحوا بأبحاث النقد فى سبيل الحزبية ·

وقد اقتبسوا عنه قصصه الفلسفية فى القرن الثامن عشر أما فى القرن التاسع عشر ، فقد نقل شاتوبريان وجورج صاند وبلزاك القصة الى ميدان آخر بعيد عن ميدان كانديد ·

وقد تجلى تأثير فولتير العظيم فى رسائل الهجاء والصحافة ، فقد كان أستاذا فى فن السخرية اللاذعة · وأخذوا عنه فن المراوغة وطريقة تحليل المواضيع الهامة المعقدة وتعليلها بما يجعلها بسيطة هادئة وكيف تترجم رسائل الخصوم وتحول الى عروض سخيفة لا تحتاج الى نفى · وكيف يستطيع الكاتب أن يعيد ويكرر ما قال وما كتب بأوضاع مختلفة شيقة

ورموز غريبة ؛ لاقناع القارىء دون أن يعتريه سأم أو يتطرق اليه ملل · لقد كان فنانا عظيما فى مؤلفات خلت من عبارات الفن كما كان رائدا لكثير من كتاب القرن التاسع عشر · وعندما انتقل أناتول فرانس من كتابة القصة الى النقد الاجتماعى تجلت ميوله الفولتيرية وبدت أضعاف ما كانت عليه ·

واذا استثنينا أدب المناقشة والمناظرة ، أمكننا القول بأن فولتير كان أستاذا بارعا فى علم الانشاء واللغة والبلاغة لكثير من الكتاب الفرنسيين الذين لم يتذوقوا الأدب الرومانتيكى ولم يجاروه ·

وقد ساروا خلفه عندما نادى بمبدأ الملكية المطلقة ، بشرط أن تقف نفسها على خدمة البلاد والأمة · وعند جاهر باسراف العدالة · وأسرع الى اغاثة المظلومين ونصرة الضحايا وعندما حارب اسراف الادارة وأشار الى الاصـــلاحات المفيدة وعندما أعلن كراهيته للحرب وطالب بملكية تحب السلم وتعمل فى سبيل الرخاء العام وتنظيم التجارة والزراعة ·

ومجمل القول أن فولتير قد أثر على عصره بتنميـــة روح النقـــد فى الجمـــاهير · فقد استعرض أمامها جميع الوسائل الادارية والحكومية ، والمواضيع السياسية والدينية والقضائية والاقتصادية ، وعلمها كيف يجب أن تعتبر نفسها مختصة فى جميع المواد فجعل من الرأى العام قوة هدامة لما لا يرتضـــيه ·

وكيف كان تأثير فولتير عندما اندلعت نار الثورة الفرنسية · فقد سارت الحوادث بسرعة فائقة حتى لقد تجاوزت أفكاره وسبقتها ، فقد كان الوقت للحماس والشهوة والمشاعر،لا للتفكير والتأمل ثم جاء عهد القنصلية والامبراطورية فعاد نشـــاط الروح الفولتيرى · ثم جاء عهد الملكية بين ١٨١٥ ــ ١٨٣٠ فعاد تأثير فولتير وعمت أفكاره وانتشرت مؤلفاته وأقبل الناس على قراءتها ·

ولم يكن تأثير فولتير فى الخارج بأقل من تأثيره فى فرنسا فقد كان صداه يتردد فى أسبانيا والبرتغال وتجاوزهما الى ألمانيا وبلغ أشده فى ايطاليا ، حيث كانت الحاجة ماسة الى الاصلاحات الاجتماعية ، والى الحرية، والى الوحدة · أما انجلترا فان الفكرة الفاشستية كانت متوطنة فيها قبل أن يبدأ فولتير · فاذا كانت لم تأخذ عنه شيئا ولم تسايره فى شىء ، فانها قد تتبعته فى جميع أطواره وحكمت على أعماله واعترفت بنبوغه العظيم وعبقريتـــه الفـــذة ·

★★★

رینه

شاتوبریان

۱۸۰۲ م

اذا اســتعرضت الأدب الفرنسى من أوله الى آخره وجدت عاملين يظهر أحدهما آنا ويختفى آنا ليظهر مكانه العامل الآخر فاذا ما اجتمعا فى أديب أو فى طائفة من الأدباء كان الكمال ، فأما أولهما فرغبة فى الدقة أضفت على النثر الفرنسى خصائصه من حيث الوضوح وتوخى الصــدق ومتابعة الواقع ، وأما الآخر فميــل الى زخرفة اللفظ والعناية به لذاته ، فترى الاديب يحب اللغة التى يلهو بألفاظها على سنان قلمه لا لأنه يريد أن يزيل معنى عن صدره لا يطمئن الا اذا أخرجه ، بل لأنه يستمتع باللعب بالألفاظ نفسها فيجد لذته فى رصها على نحو معلوم وتزويقها على صورة معينة ، وقد حدث لهذين العنصرين أن اجتمعا فى القرن السابع عشر فحد المعنى من اللفظ وخــدم اللفظ المعنى فى اتزان عجيب فنرى فى أدب « راسين » و « لافونتين » واقعية تنشد صدق الأداء . لكنها تعرف كيف تستخدم من أجل ذلك لغة جميلة تفتن القارىء بما فيها من روعة الفن فلا يقال اللفظ الفخم لفخامته ؛ ولكنه يقال لأن المعنى المراد يتطلبه . ذلك الالتقاء بين العنصرين كان على أيدى فحول الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر فلما جاء القرن الثامن عشر ذلك القرن الذى كتب فيه الكتاب ونظم الشعراء لينشروا فى كتابتهم وفى نظمهم مذاهب فكريه أرادوا لها أن تشيع بين الناس ، تغيرت الحال : فلم تعد العناية باللفظ واجبة على الأديب فلا عليه أن يستخدم هذا اللفظ أو ذاك هذه العبارة أو تلك ما دام المعنى واضــحا ، ومثال هذا تراه فى فولتير وذلك هو ما وجده رجــال الأدب الابتــــداعى عندما شبت الثورة ، وجدوا واقعية ذهبت الى حد التطرف فماذا تظنهم فاعلين ؟ الثورة لقلب الوضع من النقيض الى نقيضه فلئن عنى أدباء القرن الثامن عشر بالمعنى وحده وبالواقع وحده فلنذهب نحن اليوم الى الطرف الآخر فلا نعنى الا بجمال العبارة والا بروعة الخيال . لم يقف الثائرون موقفا وسطا فيه اتزان واعتدال ، لم يقلدوا أدباء الاتباع فى القرن السابع عشر فيعــدلوا القســمة بين اللفظ والمعنى ؛ لأن الاتزان والاعتــدال قلما تجدهما عنــد جماعة ثائرة وقد وجــدت هذه الحركة الجديدة لسانها المعبر فى « شاتوبريان » .

شاتوبريان زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الفرنسى

كان الكاتب الفرنسى اللامع فرانسوا رينيــه دى شاتوبريان زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الفرنسى من كبار الكتاب العالميين ، وقد

امتاز فى عصره ببلاغة الأسلوب وبراعة الأداء وعمق الشاعرية والقدرة الباهرة على تصوير المشاهد والمشاعر وتعدد جوانب الشخصية فقد جمع بين مميزات الكاتب القدير المخلص فى أداء رسالته والتعبير عن آرائه ومعتقداته ، وبين السياسى والدبلوماسى البارع الحريص على كرامته الى الحد الذى حمل فيكتور هوجو على أن يقول عنه انه فى الوقت الذى انحنت أوروبا جميعها أمام نابليون ، كان شاتوبريان أحد الشعراء والمفكرين القلائل الذين وقفوا منتصبى القامة حينما ركع العالم جميعه على ركبتيه أمام البطل المنتصر ولم يكتف نابليون بغزو الدول التى غزاها وانتصر عليها ، بل حاول كذلك غزو شاتوبريان ولكنه عجز عن ذلك ، ولم يكن شاتوبريان يجهل عظمة نابليون أو ينكر بطولته ولكنه أبى مسايرته والانضمام الى حاشيته حينما أبطرته السلطة ، وأحالته حاكما مستبدا طاغية وقد تقلبت به الحياة بين الشدة واللين والعسر واليسر وظل فى الأحوال المتعارضة وفيا لآرائه ومعتقداته معتزا بشخصيته وابائه وكرامته، حتى رمى بفرط الكبرياء والاعتداد بالنفس ، وأعانته تجاربه ورحلاته على انتاج غرر التصانيف وروائع الأسفار طوال حياته الثرية المنوعة .

وقد ولد فرانسوا رينيه دى شاتوبريان فى سان مالو سنة ١٧٦٨ فى ليلة اشتد فيها عصف الرياح من ليالى شهر سبتمبر ، بمقاطعة بريتانى الفرنسية ونشأ فى قصر كومبور مهد أسرته العريقة وكان والده الكونت دى شاتوبريان من طبقة الأشراف الشديدة التمسك بالتقاليد وكانت والدته يغلب عليها الحزن ولا تكاد تعلو ثغرها ابتسامة ؟

ولم يكن يقيم فى هذا القصر الموحش سوى والديه وأخته لوسيل وخادمتهم وكان بطبيعة الحال لهذه النشأة أثرها فى بث الاكتئاب الذى كان غالبا على مزاج شاتوبريان . ويقول شاتوبريان عن نفسه انه أمضى طفولته على الشاطىء مع أستاذيه : الرياح والأمواج ، وقد أرسل فى بادىء الأمر الى مدرسة دول ثم الى مدرسة الجزويت فى رنز وتبع ذلك فترة من التردد درس فيها فى برست ليعمل فى البحرية ، ثم ألحق بكلية دينان ليكون من رجال الدين ثم ترك المشروعين وأعرض عن المحاولتين وأمضى عامين فى ضيعة الأسرة الاقطاعية فى كومبورج (١٧٨٤ — ١٧٨٦) مع والدته المريضة ووالده القليل الحديث وأخته لوسيل اللامعة الذكاء والعصبية المزاج . وكان للعامين اللذين أمضاهما فى هذه العزلة تاثير كبير فى تطور تفكيره وتكوين شخصيته ، فقد عمقت عزلة الأسرة فى كومبورج نزعة الحزن الغالبة عليه ، كما قوت جولاته المنفردة فى الغابات المحيطة بالمنطقة التى كان بها القصر الواسع الأرجاء ، ميله الى الطبيعة وشجعته أخته لوسيل على كشف موهبته .

وفى سنة ١٧٨٦ ترك كومبورج فى شهر أغسطس لينضم الى فرقة نافار بوصفه ملازما ثانيا واستمتع بالحياة فى الجيش ، لأنها كانت تتيح له فرص الاجازات التى كان يقضيها مع شقيقاته المتزوجات بمنازلهن فى مقاطعة بريتانى وفى فرســـاى حيث قدم البلاط وفى باريس حيث كان يجتمع بالكتاب أمثـــال فونتين ولاهارب · واكتسب صـــداقة والد زوجة أخيه القاضى والوزير مالزرب وبتشجيع من مالزرب ، عقد العزم على أن يقوم برحلة كشفية فى العالم الجديد · وفى ٧ أبريل سنة ١٧٩١ أبحر على السفينة سان بيير ذات القلعين الى أمريكا ·

وكان دافعه الى مبارحة فرنسا والقيام بهذه الرحلة ضيقه بالأحوال من ناحية وطموحه من ناحية أخرى ، ولم يكن راضيا عن اتجاه الثورة التى بدأت فى سنة ١٧٨٩ ، وخال أنه يستطيع أن يظفر بالشهرة والمال والمجد لفرنسا اذا استطاع أن يكتشف الطريق الشمالى الغربى بين أمريكا وآسيا وكتابه ملحمة عن المستوحش النبيل ، الذى كان يتوقع وجوده وهو يعيش فى حالة الطبيعة التى لم يشبها الفساد ؛ ولكنه عجز عن تحقيق ما كان يحلم به : فحالما وطئت قدماه الأراضى الأمريكية وجد أنه تنقصه التجربة ويعوزه المال والأهبة والاستعداد للقيام بالرحلة الكشفية · وكان أول من لقيهم من المستوحشين فى احدى الغابات يتلقون دروسا فى الرقص من أحد الخدم السابقين ، والرحلات التى قام بها فى أمريكا منذ وصوله الى بالتيمور فى ١١ يوليو سنة ١٧٩١ الى عودته من فيـــلادلفيا فى ١٠ ديسمبر من السنة نفسها عرضة للشك ويبـــدو أنه رأى شلالات نياجرا والبحيرات العظمى وبتزبرج وليس من الأمور المؤكدة انه رأى أوهيو والمسـيسبى وفلوريدا كما أكد بعد ذلك ، ولكن مما لا شك فيه أنه أفاد من هذه الرحلة حصيلة من التأثر بالمناظر الطبيعية الأمريكية عظيمة القيمة وقد انتفع بها وأحسن الاستفادة منها فى قصتيه المشهورتين آتالا ورينيه ·

ويرجح أنه بدأ تأليف كتابه « الناتشيز » وهو فى أمريكا ويشتمل الكتاب على قصة مستعمرة الناتشيز فى لويزيانا ، التى انتهت بمذبحة فى سنة ١٢٧٧ وقد قصد بها أن تكون ملحمة « لرجل الطبيعة » وربما يكون قد بالغ فى تأكيده انه كتب آتالا فى أكواخ المستوحشين فى القفار ، ويرجح أنه قرأ جزءا منها على مالزرب حين عودته الى فرنسا فى يناير سنة ١٧٩٢ · وبعد تسرعه فى الزواج من امرأة لم تجلب له ثروة ولم يكن عنها جد راض، انضم الى جيش الأمراء المهاجرين وكان يحمل معه رواية آتالا وقد ذكر فى مذكراته التى كتبها فيما بعد أنه احتفظ بأصولها فى جراب وقائى أنقذه

من رصاصتين صوبتا اليه في حصار تيونفيل. قال فى ذلك : « ان آتالا مثل الابنة المخلصة لابيها وضعت نفسها بين أبيها وبين رصاص الأعداء » وقد تعرضت القصة بعد ذلك لنقد شديد من الأب موريللیه .

وأعفى من الجيش لما أصابه من مرض وجروح دامية مع التقدير لما أبداه من اقدام وشجاعة وذلك فى أكتوبر سنة ١٧٩١ ، وشق طريقه فى صعوبة وهو يعانى الألم الى انجلترا ، حيث وصل فى مايو سنة ١٧٩٣ واستعان على تحصيل ما يقيم أوده باعطاء دروس فى اللغة الفرنسية،والقيام بالترجمة وفى الوقت نفسه بدأ تاليف كتابه عن « الثورات القديمة والحديثة » وفى سنة ١٧٩٤ عين بوظيفة مدرس فى سفولك .

واضطر للذهاب الى لندن وبها أخذ يتسلى فى عزلته ويعالج ما أصابه من الحزن والأسى وخيبة الرجاء بكتابة قصة رينيه .

ولكن أول كتاب قدمه للطبع لم يكن الملحمة النثرية وانما كان الكتاب الذى ألفه عن الثورات،وقد ظهر سنة ١٧٩٧ وأذاع اسمه فى أوساط المهاجرين فى لندن ، ولم يطل سروره بظهور هذا الكتاب فقد بلغه من أخته جولى خبر وفاة والدته وانها كانت عند وفاتها كسيرة الخاطر شديدة الحزن ؛ لاطلاعها على الآراء الالحادية التى أبداها فى رسالته عن الثورات . ويقول شاتوبريان انه حينما سمع ذلك بكى وآمن ، والواقع أنه كان متجها صوب الدين فى هذه الفترة.وحينما ظهر كتاب « حرب الآلهة» ، وهو قصيدة الحادية من نظم الشاعر بارنى ، حفز ذلك شاتوبريان الى النهوض بالدفاع عن المسيحية فكتب رسالته عن النواحى الشعرية والأخلاقية الجميلة فى الديانة المسيحية ، وكانت هذه الرسالة هى الأساس الذى أقام عليه كتابه الذى اشتمل على مجلدين عن « عبقرية المسيحية » .

ويرى المؤرخ البريطانى الكبير ج.ب جوش أن سنوات حكم نابليون، كانت سنوات جدب أدبى وان كتابات شاتوبريان كانت تطلق ينابيع العواطف وتوسع آفاق الخيال وتثير الحماسة التاريخية ، وأن ازدهار الدراسات التاريخية فى فرنسا بعد عهد الثورة يرجع الفضل فيه الى شاتوبريان قبل أى انسان آخر وقد أكمل فى الأدب رسالة روسو وبيرناردين دى سان بيير ، وأعظم ما أداه للتاريخ هو أنه فتح أبواب العصر الوسيط .

وفى ١٨١١ اختير شاتوبريان عضوا فى الأكاديمية الفرنسية فى المكان الذى خلا بوفاة أندريه شينبيه؛ولكنه فى الخطاب الذى أعده للالقاء عند استقباله أشار الى ذكريات عن الثورة ضايقت نابليون ولما رفض أن يقرأ الخطاب ، تأخر دخوله الأكاديمية الى عهد عودة الملكية .

وفى سنة ١٨١٤ كتب رسالة شديدة اللهجة عن نابليون والبوربون، واختاره لويس الثامن عشر وزير دولة ولم يمنعه ذلك من كتابة رسالة فى نقد النظـام الملكى ؛ لاقدام الملك على حل المجلس الاستشـارى فى سنة ١٨١٥ ، وقد حوله ذلك الى صف المعارضين فى انتقاص النظام الملكى لحقوق الشعب . ولم تتحسن العلاقات بينـه وبين النظام الملكى الا فى سنة ١٨٢٠ بعد موت الدوق دى برى وقد اختير فى السنة نفسها سفيرا لفرنسا فى برلين ثم سفيرا فى انجلترا سنة ١٨٢٢ ، وقد أسهم فى انهاء الحرب الاسبانيه بوصفه وزيرا للخارجية ، وفى سنة ١٨٢٤ عاد الى صفوف المعارضة وأعلن خصومته لوزارة فيلليل وكتب فى جريدة الديبان مدافعا عن حرية النشر واستقلال اليونان واكتسب بذلك شـعبية وأعيد طبـع كتابه «الناتشيز» وكتاب «آخر أيام بنى سراج» ورحلاته فى أمريكا .

وحينما سقطت وزارة فيلليل اختير سفيرا فى روما فى سنة ١٨٢٨؛ ولكنه قدم استقالته حينما جاءت وزارة بولنياك وبعد ثورة ١٨٣٠ دفعه وفاؤه لشارل العاشر الى أن يقف موقف المعارض للملكية الجديدة . ومن هذا الوقت بدأ يعيش حياته الخاصـة مكتفيـا بكتابة بعض مقـالات فى الصحف ، ناقدا الحكومة الجديدة وموزعا وقته بين بعض الأعمـال الأدبية وزياراته لصديقته القديمة مدام ريكاميه وقام بترجمة الفردوس المفقود التى نظمها ميلتون الى اللغة الفرنسية ، وأتم كتابه الذى اشتمل على ترجمة حياته ، وهو كتاب « مذكرات ما وراء الرمس » وقد توفى فى ٤ يوليو سنة ١٨٤٨ ودفن حسب وصيته فى جزيرة جران بيه الواقعة أمام سان مالو .

★★★

عبقريـة المسـيحية :

هو ذلك الكتاب الخالد الذى قال عنه مؤلفه شاتوبريان : « انه جاء بلسما وفى وقته » ولقد صدق شاتوبريان فى قوله . فهذا الكتاب كان بمثابة القبلة للقرن الجديد المولود الذى ابتدأ يحبو فى دورة الزمن .

كان من الواضح أن المسيحية فى حاجة ماسة الى من يرمم هيكلها ويعيد اليها اعتبارها ، فطبقة النبلاء فى القرن الثامن عشر كانت قليلة التدين أو على الأصح كانت تعتنق التيارات (اللادينية) التى وجدت أعظم الرواج فى سوق البلاد وكذلك كانت الطبقة الوسطى (البورجوازية) تلك الطبقة التى ابتدأت تخرج من ظلمات الجهل الى نور العلم والمعرفة . كانت الحالة كذلك لان الفلاسفة كانوا قد أخرجوا للناس معتقدا جديدا ، جعل المسيحية فى نظر الجميع غريبة فاسدة وحشية لا يؤمن بها الا قلة من الأغبياء .. !!

وهكذا أصبح من أقدس الواجبات خلق أحد المعتقدات القوية المؤثرة؛ ليضاد المعتقد الأول ويقف فى سبيله كالصخرة الشماء . هذا ما رآه شاتوبريان بجلاء ورأى أمامه الفرصة السانحة تدعوه وتلح فى هذه الدعوة فلم يسعه الا القبول .

كانت فكرته الأساسية من وضع « عبقرية المسيحية » هى أن يثبت أن الديانة المسيحية هى الأكثر شاعرية ، الأكثر انسانية ، وانها هى ألصق الديانات بالحرية والفن والأدب التى هى من ضرورات العالم الحديث ... وأنه لا يوجد أكثر قدسية من أخلاقها ، ولا أكثر محبة من أسسها وقواعدها وتعاليمها ومذاهبها . فهى تنمى العبقرية وتصفى الذوق وتقوى الاحساس بالفضيلة وتعطى قوة وطاقة للتفكير وتقدم هياكل نبيلة للكاتب وقوالب رائعة للفنان .

اذا نظر الباحث الى « عبقرية المسيحية » من وجهة نظر الفلسفة والمنطق ، وجد هذا الكتاب ضعيفا هزيلا فشاتوبريان لم يستخدم المنطق السليم أثناء دراسته ، بل تراه مولعا بالعلل الغريبة التى توصله من غير شك الى معلولات غريبة أو أغرب . لقد كان شاتوبريان يكتب ما يكتب وفى نفسه اعتقاد وفى قلبه اعجاب وبذلك استطاع أن يجعل القارىء يعجب ... ويعتقد !

لقد كانت دعائم المسيحية مشيدة من قرن مضى على أفكار غريبة شاذة ، فحولها شاتوبريان بكتابه هذا الى أفكار أخاذة متنوعة فخمة .

يقول لانسون :

لسنا نعرف على وجه الدقة هل أفلح شاتوبريان فى انتقاء الوسائل التى تحقق له أغراضه من انشاء هذا الكتاب أم لم يفلح ، ولكننا نعرف أن الكتاب نفسه قد قطع الطريق بسهولة الى قلوب القراء وأثر فى نفوسهم

أكبر الأثر ، وذلك لأن شاتوبريان أقام هيكـل الاعتقاد على صرح فنى وشـعرى ٠

ولهذا الكتاب أثره القوى فى عالم الأدب من ناحيتين هامتين :

الناحية الأولى هى ناحية الكتاب التحليلية التى ضمنها شاتوبريان عواطفه ووجداناته ، أى ضمنها عواطف ووجدانات الفنان الملهم والأديب العبقرى ٠ وكذلك صورة الطبيعة ولوحاته الفنية التى رسمتها ريشته وهى متأثرة بمشاهدات الرحلة فى بريتانى والعالم الجديد ٠

الناحيـــة الثـــانية وتتلخص فى تلك الصبغة الشاعرية المستحدثة ، التى شاعت فى هذا الكتاب ٠ فهذه الصبغة الشاعرية قد أكسبت الكتاب طرافة خاصة ، تظهر عند مقارنته بما كتب وألف من كتب دينية من عهد المسيح الى أوائل القرن التاسع عشر ٠ فكل هذه الكتب أساسها المنطق الجامد والتقيد بالتاريخ وحوادثه ٠ أما « عبقرية المسيحية » فيمتاز بذلك الاطار الفنى الشاعرى الذى سبقت الاشارة اليه ٠

قصص آتالا ورينيه والشهداء :

تصادمت قصـــة شاتوبريان « آتالا » بتيارين معارضين : أحدهما تيار نقد شديد لاذع وعدم ارتياح لظهور مثل هذه القصة ، ويمثل هـــذا التيار فئة الفلاسفة الذين قالوا :

« ان الأب « سافويار » يتكلم بحرية أكثر وفلسفة أكثر من الأب أوبرى الذى هو فى الحقيقة متعصب دينى لا أكثر ، أما التيار الآخر فهو تيار الاعجاب الشديد والرضى التام عن « آتالا » ، ويمثل هـــذا التيار النساء : فقد وجد فيهن شاتوبريان ضالته المنشودة ، لقد استطاع بسحر بيانه أن يحرك عواطفهن ويضرب على الوتر الحساس من قلوبهن ٠ لقد بكين وبذلك أعربن عن حبهن « لآتالا » ومؤلف آتالا ٠٠

وكما أن شاتوبريان قد أخذ مادة قصته « آتالا » من سياحته القصيرة الأمد فى شمال أمريكا ، فقد استخلص مادة قصته الثانية « رينيه » من قصر « كومبورج » ٠ ان (رينيه) بطل القصـــة هو نفس (رينيه) دى شاتوبريان ٠ فى هذه القصة يتحدث شاتوبريان عن نفسه وعن أخته لوسيل فهو قد أمضى فترات طويلة فى بهو القصر القديم مع أخته ٠ ولذلك خيل اليه أنه قد حدد شخصيتها ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ٠ فرينيه قد حدد

شخصية أخته ولكن بطريقته الخاصة • لقد رسم هذه الشخصية كما تخيلها فى أحلامه التى تشوبها الاثرة لا كما هى فى الواقع • والآن لنعد الى البطل « رينيه » ان السر فى متاعبه وحياته المملوءة بالأشباح الشاحبة المزعجة وفى لياليه الطويلة المسهدة ، يرجع الى أن الحب ينقص روحه الواسعة التى تحتوى العالم كله •

ولقد أدرج شاتوبريان قصته هذه « رينيه » بشجاعة زائفة فى كتابه « عبقرية المسيحية » عام ١٨٠٥ •

أما قصة « الشهداء » ، فقد حاول شاتوبريان فى هذه القصة أن يواجه عالمين : العالم القديم والعالم الجديد ••• عالم الالحاد وعالم المسيحية • وبعبارة أخرى أراد أن يبين لنا طبيعة الرجل القديم المستوحش وطبيعة الرجل الممتدين أى المتمتع بالمدنية الأوربية • والظاهر أن شاتوبريان قد تلقف هذه الفكرة من جان جاك روسو • ولكنه لم يتركها على حالها بل وسع دائرتها وأضاف اليها عناصر جديدة •

★★★

القصة

تمتاز مؤلفات شاتوبريان بالعمق والتحليل النفسى والتصوير العاطفى ، وبأنها كانت أول الكتب التى وضعت أيدى القراء على مساوىء العصر التى صورها فى « رينيه » على ما سيجىء ، وبأن حب الطبيعة وتذوق جمالها بارزان فيها بروزا واضحا ، وهذه الظاهرة الأخيرة لم تتضح قبل ذلك الا فى كتب « روسو » وبرناردان دى سان بيير « مؤلف رواية بول وفرجينى » •

كتب شاتوبريان أثناء نفيه فى انجلترا مؤلفا ضخما يقرب من ألفى صفحة وعنوانه (الناتشيز) وهم سكان احدى ولايات المسيسيبى • وبعد أن أتم نسخ هذا الكتاب فقدت منه النسخة الوحيدة التى كان يملكها وظلت مفقودة عدة سنين، ثم عثر عليها وفى أثناء فقدها اقتبس من حوادثها ما جعله موضوعا لروايتيه الفخمتين «آتالا» التى نشرها فى سنه ١٨٠١ ، و « رينيه » التى ظهرت سنة ١٨٠٢ والتى هى موضوع تلخيصنا وتحليلنا فى هذا الفصل •

يكاد النقاد يجمعون على أن هذه الرواية تعتبر نموذجا قيما لانتاج الرومانسيين ، وسجلا دقيقا شاملا لمحامد أهـل الجيل الذى ألفت فيه ومساوئهم · ففيها يلفى القـارىء الأخيلة المحلقة فى سماء « اللانهاية » والأحـلام المتغلغلة فى ليل الأبدية وملائكة السعادة المرفرفة بأجنحتها النورانية فى فراديس الهناء · وشياطين البؤس مهمهمة متمتمة فى غياهب الظلمات والجحيم ، وفيهـا يلتقى بالعواطف الحادة والأحاسيس الملتهبة والرغبات الملحة والأهواء العنيفة · وفيها يعرف القارىء آلام الحياة وشقاء العيش ويذوق مرارة الصعوبات ويدرك قسوة العقبات وبالاجمال : هى لوحة أمينة لذلك العصر الثـائر المضطرب المفعم بالقلق الملىء بالضجر ، وهو عصر الثورة الفرنسية الهائلة المجتاحة ، التى كانت بمثابة حد عملاق فصل به التاريخ بين القديم والحديث ·

لقد ترددت فى البيئات الأدبية فى كثير من الأحيان أن « رينيه » بطل هـذه الرواية هو شاتوبريان نفسـه ، وأن المؤلف لم يزد فيه شيئا على رسمه صورة لحياته الخاصة فى أدق دقائقها وأعمق تفاصيلها ·

ألف شاتوبريان هذه الرواية فى لندن (سنة ١٧٩٦) ، ولما عاد الى فرنسا نشرها مع « عبقرية المسيحية » فى سنة ١٨٠٢ ، كان ذلك قبل انفجار الرومانسية فى فرنسا فساهـم بها مساهمة فعـالة فى نشأتها وانتشارهـا ·

ومجملها أن « رينيه » وهو شاب فرنسى ـ قد ارتحـل الى أمريكا ليدفن نفسه فى عزلتها وانضم الى قبيلة هندية فى تلك البلاد ، وعاش فيها عيشة بدائية تتفق مع تلك البيئة · وهناك جعل يقص على الأب «سويل» ، وهو أحد المبعوثين الكاثوليك فى تلك الأصـقاع وعلى الرئيس الهنـدى الشيخ « شالتكس » كيف تخلى عن الحياة العملية وعلى أثر أية فاجعة غادر أوربـا ·

وتتلخص قصة هذا البطل فى أنه ولد ونشأ فى قصر عتيق منعزل وسط غابات مترامية الأطراف · وفى هذا القصر قضى طفولته ومبدأ شبابه الى جانب شقيقته « أميلى » التى كانت أسن منه قليـلا والتى ألف بينها وبينه اتفاق الذوق وتشابه المزاج تأليفا محكم الأواصر والعرى فشبا معا ؛ وجعلا يتقـاسمان لذة النزهات ويتذوقان حب الطبيعة وينعمان بجمال الشعر الذى كان رينيه قد وهبه ذات نفسه منذ الطفولة الناعمة ·

بيد أن هذا الهناء البرىء لم يلبث أن ذوت أزهاره ، وجفت أوراقه : فقد توفى والدهما وسرعان ما انتقلت ملكية القصر وما اليه الى أخيهما الأكبر • ولم يكن اذ ذاك بد من أن يوكل أمر هذين الناشئين الى بعض الأقارب ليكفلوهما ويقوموا على تربيتهما • وقد قلب هذا الحادث كيانهما رأسا على عقب وصدمهما صدمة عنيفة قاسية ؛ جعلتهما يفيقان فجأة من أحلامهما اللذيذة ويهويان بغتة الى أرض الحياة العملية المليئة بالألم والشر والمفعمة بالبؤس والتعاسة •

وعلى أثر انتباههما من دوار هذه الصدمة فكرا فى أن يقذفا بنفسيهما فى حظيرة الرهبانية ؛ ليقطعا كل روابطهما بهذا العالم الأسود الشرير ويخلصا لمالك الملك المشفق الرحيم ، ولكن الفتى لا يستطيع لذلك صبرا ولا يقوى على رياضة نفسه على تنفيذ هذا العزم وترغب نفسه الجامحة فى الفرار من هذه البيئة المحدودة ويشتاق قلبه المحزون الى مخاطر الأسفار والمغامرات ؛ فينفذ هـذا التصميم فعلا ويرتحل بعـد أن يسجل تسجيلا مشوبا بالألم والضنى أن شقيقته يبدو عليها أنها مستريحة لرحيله ان لم تكن مغتبطة سعيدة •

ومهما يكن من الأمر ، فانه يقذف بنفسه الى العالم الطويل العريض فيزور الآثار القديمة فى مختلف الأصقاع ويستمتع بالمناظر الجميلة فى متبـاين البـلاد ، وينعم بالمدن الكبرى ومن يقطنها من العظماء والأفذاذ ويتـأمل كل هذا تأملات دقيقة عميقة • وهنا لا نجـد بدا من تنبيـه شاتوبريان الى أن رينيه ــ على أثر موت والده ــ كان فقيرا معدما وانه هو وأخته قد وكل أمر الانفاق عليهما الى بعض أقاربهما ، وأنه بالتالى لا يستطيع القيام بنفقات تلك الأسفار الطويلة البعيدة فمن أين يأتى بكل هذا المال الذى يمكنه من تحقيق رغباته ؟ ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن شاتوبريان • فى رواية رينيه ــ يصور لنا حياته الخاصة فينسى أن بطل الرواية كان فقـيرا •

ومهما يكن من الأمر ، فان الذى لاريب فيه هو أنه لايحس فى قرارة نفسـه بالسعادة ، بل هو لا يشعر بالرضى والاطمئنان والسر فى غيبة السعادة من حياته هو أن هذه الرحلة الطويلة قد كشفت كثيرا من غوامض الوجود فأخذ يفكر فى خفاياه ومعمياته ، حتى صار لا يرى الا الحياة على حقيقتها وأننا لسنا الا أشياء ضئيلة وطفق يسأل نفسه قائلا : « الى أين ذهبت تلك الشخصيات العظمى التى طالما أحدثت ذلك الضجيج المدوى فى أنحاء المعمورة ؟ وكأنه يجيب نفسه على هذا التساؤل فيقول : « ان الزمان قد خطا خطوة فتجدد وجه العالم » •

وفى هذه الرحلة يقف بنا فوق بركان « اتنا » فى صقلية ؛ ليرسم لنا صورة شاب ملىء القلب بالأهواء الحادة وقد جلس على حافة فم البركان يندب حظ الفنانين من بنى الانسان الذين يرى مســاكنهم فى أســفل الجبل ، ثم يضيف الى ندبه قوله : « على هذا النحو فى كل حياتى تمثلت أمام عينى خلقا هائلا وغير ممكن الانكشاف والى جانبى هوة فاغرة فاها » ٠

وبعد هذه الرحلة يعود الى وطنه وكله أمل فى أن يكون قد قضى على هذا القلق العنيف المتغلغل فى أعماق نفسه وتلك الرغبة الحادة التى تتعقبه فى كل مكان ؛ ولكنه لا يكاد يستقر فى أرض الوطن حتى يباغته ذلك السلوك الغريب من جانب شقيقته؛فيحدث فى نفسه من الاضطراب أضعاف ما كان يشعر به قبل رحيله وكان من بوادر هذا السلوك المدهش انها عندما تعلم بعودته الى الوطن واعتزامه زيارتها ، تكتب اليه ألا يفعل بحجة أنها ليست مستيقنة من استقرارها فى مكان معين بسبب أعمالها وشواغلها ٠ واذ ذاك يحس بأن ذلك الاغضاء من جانبها أو ذلك النسيان أو التناسى لحنانهما القــديم يجرحه فى صميم فؤاده ويحــز فى نفسه ؛ فيعتزم أن يعيش فى الوحدة التامة والعزلة المقفلة فريسة لفقدان الثقة الذى يمزق نياط قلبه ٠

وفى هذه العزلة يحس كأن عاطفة سوداء غامضة تنهش فؤاده ويخيل اليه أنه قد خلق لأحداث فاجعة ؛ تتكشف عن موت وتنتهى الى سفك دماء ، وأن هذه الأحداث هى التى ستهيىء له أن ينشر جناحيه ويطير نحو أمكنة مجهولة يتوق قلبه الى رؤيتها وهو يرسم لنا هذه العاطفة الملتهبة فيقول : « انهضى وهبى ودمدمى أيتها العواصف التى يجب أن تحمل رينيه فى أجواء حياة أخرى » ٠ ثم هو يسير فى خطوات واسعة ووجهه يلتهب حمرة والريح تصفر فى شدة ، دون أن يحس بردا ولا مطرا كأنه مسحور معذب أو كأن به مســا من شيطان قلبــه ٠

وانه لعلى هذه الحالة اذ بضعف شديد يصيبه فجأة ؛ فييأس ويصمم على الانتحار ٠

وعلى أثر هذا يكتب الى « أميلى » رسالة بقصد تنظيم أعماله ولكن هذه الأخيرة ــ لانها معتادة على أن تقرأ ما بين طيات القلب الأخوى من أسرار ــ لا تجد عسرا فى أن تتنبأ بكل ما اعتزمه ٠ وفى الحال تسرع اليه غارقة فى دموعها وتهتف به قائلة : أيها الجاحد أتريد أن تموت وأختك على قيد الحياة ؟ أأنت تتهم قلبها ؟ اننى فهمت كل شىء كأنى كنت معك ٠ ثم لا تزال به حتى تستقسمه بكل محرجة من الأيمان ألا يحاول بعد الآن

العدوان على حياته ؛ فلا يسع رينيه الا أن يعود الى الحياة لأن مشهد هذه الاخت المحبوبة التي تلقت من الطبيعة شيئا الهيا ، كان يسحره ويغمره بالبهجة والسعادة ٠

بيد أنه مع الأسف لا يلبث أن يلمح أن « اميلى » تفقد الهدوء والصحة وهكذا لا تنقضى بعد ذلك ثلاثة أشهر حتى تأخذ حالتها فى الهبوط يوما بعد يوم وأخيرا ترتحل خفية ، بعد أن تترك له كتابا حزينا مؤثرا تقول له فيه انها يجب عليها أن تدخل الدير لتشبع الهامها الدينى وتذكره بقسمه ، أو ليتيم هذا الارتباك على أقل تقدير ٠

واذ ذاك يستولى اليأس على رينيه ويهرول الى الدير ليحارب هذا المشروع اذ كان الوقت لا يزال فيه متسع لذلك ؛ ولكنه لا يستطيع أن ينفرد بها ؛ لأن قواعد الدير القاسية تحول بينه وبين أمنيته فلا يسعه الا أن يكتفى بمشاهدة الطقوس الأخيرة التى تسجل انقطاعها لربها ، وبينما هو منحن على التابوت الذى مدت فيه « أميلى » كما يمد الجثمان فى القبر اشارة الى تخليها عن عالم الحياة ، اذ به يسمع بضع كلمات تفوه بها أخته فتقع على قلبه وقوع الصاعقة ، حيث يفهم منها بغتة أنها كانت تحبه حبا غير أخوى وانها تتمنى الموت عقابا لها ٠

وأخيرا يشعر رينيه بانفعال مأساوى واقعى ليس من نوع الأخيلة التي تطوف به عادة وحينئذ تنقض عليه أهواء وأحاسيس قاسية انقضاض الوحش على فريسته ولا تزال تنهش قلبه وتقضم فؤاده ، حتى تنزل به أعنف ألوان التعاسة والشقاء ٠ ومن العجب أنه اذ يصل الى هذه الحالة المريرة يفقد الرغبة فى الموت؛ولكنه يصمم على أن يهجر أوربا نهائيا ويرتحل الى أمريكا ٠ وهناك يتسلم كتابا من رئيسة الدير تنبئه فيه بأن « أميلى » قد توفيت ضحية الاحسان والاخلاص فى العناية بمعالجة المصابات بالأدواء المعدية من صاحباتها ٠

★★★

هذا هو موجز تلك الرواية الساحرة وفى بطلها المحزون المعذب يرى القارىء جيلا كاملا ماثلا للعيان ، بصورة أكثر قتامة واسودادا من صورة « فرير » فان رينيه ـ اذ يوصف هذا الوصف الدقيق ويحلل ذلك التحليل العميق بأسلوب شاتوبريان الذى لا يقارن ـ تتجسد فيه كل آلام العصر المكونة من عناصر شديدة التباين مليئة بالمفارقات : فمن انهيار فى الثقة واليقين الى موت عنيف الى خيبة أمل أخلاقية أو علمية الى أحلام

انسانية سامية لا تكاد تحلق فى عالم النور ، حتى تهوى كلمى صريعة من ضربات الأحـداث الواقعية المتوحشة ، وتنسحق تحت سنابك التجـارب العملية الى بأساء قاسية شديدة الوطء وترزح تحت القوى الممتازة ، الى نفى مفعم بالعزلة المريرة الوحشية،الى غيبة تامة للمواساة والتأسى ، الى فقدان كامل للايمان العملى المنتج الى تاليهية عائمة متموجة لا تحدد غاية ولا تعين نهـاية ، الى أهواء هائجة ثائرة غير ممكنة الاشباع والارواء . وتلك هى العناصر الأساسية التى يتألف منها مجتمعة جوهر القلق والضجر والحزن والانقباض وما الى ذلك من الأعاصير التى اجتاحت ذلك العصر وأصابت كل أهل ذلك الجيـل وكانت عنوان تلك الحقبة ، والتى استطاعت ريشة شاتوبريان أن تصـورها فى رينيه فتبـدع التصـوير وتحددها فتحكم التحديـد .

★★★

بيرجينت

أبسن

١٨٦٧ م

فى عالم المسرح الأوروبى عمالقة كبار سطع بريقهم فى سماء الأدب والفن الرفيعين فاستولوا على الأفئدة والأبصار وظلوا نجوما ثابتة براقة على ممر الحقب والعصور ، لا يخبو نورها أو يصيب بريقها الضعف والزوال . واذا حق للانجليز أن ينظروا الى شاعرهم الروائى الأكبر شكسبير نظرتهم الى نعمة من نعم السماء اختصهم بها الخالق دون غيرهم من البشر ، واذا كان للألمان أن يفخروا بجوته باعث نهضتهم الأدبية ورافع فنهم المسرحى الى أعلى السماء والذرى ، فان للنرويجيين تراثا أدبيا وفنيا خالدا يدينون بمعظمه الى عملاق أدبهم المسرحى « هنريك ابسن » .

ولد ابسن فى قرية صغيرة من أعمال النرويج فى عام ١٨٢٨ ؛ ولم يتسن له أن يتلقى تعليما عاليا بالمعنى الصحيح لضيق ذات اليد ؛ فاضطر الى أن يعمل أجيرا لصيدلى فى بلدته الصغيرة وهو لم يتعد الخامسة عشرة من العمر . وكان ابسن يمقت عمله هذا أشد المقت وكان يشعر فى قرارة نفسه بأن مجاله الرحب الفسيح هو ميدان الأدب والشعر ؛ ولهذا كان يعكف فى أوقات فراغه وكلما سنحت له الفرصة العابرة على نظم القصائد وهو بعد فى أول ربيع الشباب .

وفى عام ١٨٥١ ، حنا عليه الدهر حينا فنال بعض ما كان يتمنى : فقد انتقل الى بلدة برجن فى النرويج وأثار اهتمام علية القوم فيها ؛ فاختاروه ليشرف على اعداد الروايات المسرحية لمسرح المدينة وظل ابسن يشغل هذا المركز حتى عام ١٨٥٧ . ولم يستطع ابسن أن ينال حظوة حقيقية لدى مجتمع الطبقة البرجوازية السائد آنذاك فى « برجن » ، بل لقد أثار نقمة المجتمع عليه وسخطه لجرأته فى القول والنقد وخاصة فى روايته المسرحية « كوميديا الحب » . وكان لابسن فيما لاقاه من جحود وعزوف أسوة فى كبار أئمة الأدب الذين سبقوا عصرهم بمراحل وأشواط بعيدة أمثال الشاعر الانجليزى شيلى فآثر ابسن أن يرحل عن وطنه فترة من الوقت تجول فى أثنائها فى ربوع ايطاليا الساحرة الجميلة ، تلك الربوع التى طالما كانت ملاذا لأمثاله من الأدباء والفنانين ثم ألقى عصا الترحال فى ألمانيا وأقام أكثر وقته فى مدينة ميونيخ ما بين عامى ١٨٦١ الى ١٨٩١ . وكان أن أنتج هذا الزمن القاسى عليه ، الذى قضاه أشبه ما يكون بالمنفى أشهر رواياته المسرحية : بيرجنت والدمغة ورواية أعمدة المجتمع .

وفى عام ١٨٩١ عاد الى وطنه وكان الناس قد بدأوا يعترفون بفضله فقضى أواخر حياته فى هدوء وطمأنينة ، الى أن وافاه الأجل فى

عام ١٩٠٦ ، بعد مرض دام أربع سنوات كاملة وهد قواه الجسدية والعقلية معـــا ٠

ابسن مجدد الأدب المسرحى فى أوربا :

ويعتبر ابسن بحق مجدد الأدب المسرحى فى أوربا ، بعد أن نزل هذا الأدب الى الدركات ، ذلك أن ابسن آثر أن ينفض عن الدراما غبار التقاليد المتراكم الذى جعل منها دراما ميكانيكية روتينية تهتم بالشـكل والمبنى دون الروح والمعنى ٠ وكان محور مسرحيـات ابسن يرتكز الى فكرتين أساسيتين جعل منهما الكاتب هدفه المنشود ٠

أما الفكرة الأولى فايمانه العميق بقيمة النفس البشرية،ذلك الايمان الذى دفعه ساعيا بكل ما أوتى من جهد فكرى لاعلاء حرية الفرد ولاصراره على أن الفرد اذا ما أتاحت له حريتـه الصحيحة أن يختار طريق البعث بواسطة الثقافة الرفيعة والخلق القويم المتين ، سعى الى انقاذ نفســه ، ومن ثم عمل على تطوير المجتمع واصلاحه وانقاذه ٠

أما الفكرة الثـانية فهى تمسـكه بقيمة الحب الحقيقى الخالص من شوائب النفاق والأثرة والتمويه ٠ واعتقد ابسن أن غاية ما يصيب الفرد الانسانى من مأساة فى هذه الحياة انما هو حرمانه من أن يهب وأن ينال مثل هذا الحب الحقيقى سواء بسواء ٠

وقد عد ابسن فى عصره الذى عاش فيه متشائما متوحدا ٠ ولكنه كان فى الحقيقة من أكبر المتفائلين لا بالنسبة لعصره وحده ، ولكن بالنسبة الى أمله فى الانسانية وما يستطيع الانسان عمله فى سبيل بناء مستقبل أفضل ومجتمع أمثل يقوم على المحبة والصدق ٠

★★★

مســـرح ابســـن

ابسن أول من رفع مشكلات المجتمع الى خشبة المسرح

لم يكن الكاتب النرويجى « هنريك ابسن » هو مبتـكر المـــذهب الواقعى فى الأدب كما يزعم كثيرون ، ولكنه كان صاحب أقوى دفعة بهذا المذهب نحو الحياة المتحررة ٠ وقد اختار « ابسن » خشبة المسرح ليكون معرضا لمذهبه الجديد كما اختارها من سبقوه فى هذا الميدان أو بتعبير أدق كما اختارها من سبقه ، وأعنى به « موليير » على وجه التحديد ٠

كانت مسرحيات « موليير » هى اللبنة الأولى فى صرح الواقعية ، فقد صور بقلمه النارى عيوب مجتمعه الفاسد الذى اشترك فى تلويثه وافساده من كانوا يسمون أنفسهم رجال الدين والنبلاء وتضافرت على اتلافه قوى الرجعية والتقاليد البالية ٠

ولم يكتف « موليير » بمجرد التصوير بل أخذ يهدم الأصنام ٠٠ أصنام التعفن والفساد والتقاليد ٠ وكانت وسيلته فى ذلك الهدم هى كوميدياته الخالدة التى أخذ يقدمها كوميدية تلو كوميدية ؛ فتلقى أكبر التجاوب من الجماهير وتهز معاقل الرجعية هزا عنيفا ٠

وعندما مات موليير ، لم يأت بعده من يخلفه أو يدين بدينه،ولم يعرف المسرح مؤلفا يمسك بالمبضع ليشرح المجتمع الذى يعيش فيه ولم يحاول كاتب من كتابه السير فى الطريق الذى مهده موليير ٠٠٠ ومضت السنون وتتابعت الأجيال حتى كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما ظهر خليفة موليير الذى حمل لواء الواقعية وجرد قلمه؛ليصور عيوب مجتمع عصره على خشبة المسرح وليهدمها عيبا عيبا بمثل القلم المر الذى حمله الكاتب الفرنسى الكبير ٠

صور « ابسن » أكبر رذائل عصره وهو النفاق وشن عليه حملة شعواء ٠ ولم يترك لونا من ألوان النفاق ٠٠٠ هاجم نفاق السيد للمسود ونفاق الزوج للزوجة ونفاق رجال الدين وحارب الانتهازية والوصولية التى جعلت من الفرد آلة صماء يحركها غيره ويفرضون عليها أفكارهم ٠

خاض «ابسن» معركة من أعنف المعارك ، ولفت اليه أنظار المفكرين فى أنحاء العالم كله واستطاع أن يوقظ الأفراد فأيدوه فى كل قضية اجتماعية أثارها ؛ لأنهم أدركوا أنها مشاكلهم ٠٠٠ ومن ثم ثار عليه المحافظون ، وزعموا أنه تعرض لمناقشة أمور لا يجوز لأحد مناقشتها ، فكان جوابه عليهم وعلى ما زعموا أنه قد آن الأوان لثورة الانسانية على كل ما يقف حائلا بينها وبين التقدم ، وأنه لا يعطل ركب الانسانية الا التقيد بالتقاليد البالية ٠

وقد انتصر « ابسن » فى كل قضية خاضها وتحرر العالم أو معظمه من ألوان العبوديات التى حاربها كلها ٠ ولهذا السبب أصبحت معظم مسرحياته غير ذات موضوع فى أيامنا هذه ؛ لأنها تعالج مشاكل لم يصبح لها وجود فى العصر الحديث ٠٠٠ غير أن هذا لا ينقص من قيمتها الفنية بحال من الأحوال كما لا يجردها من فضيلتها الكبرى ، وهى أنها كانت تدعو الى تحرير الأفراد حتى تحرروا ٠

غير أن « ابسن » لم يبدأ بكتابة المسرحيات الواقعية عندما أخذ يكتب للمسرح ، بل بدأ بمجاراة أسلوب عصره الرومانسى فكتب فى عام ١٨٥٠ تراجيديا « كاتيلينا » التى تصور حياة الثائر الرومانى المعروف بهذا الاسم ... ولعله قد اختار شخصية ذلك الثائر القديم ليخفى وراءه شخصية الثائر الجديد أى شخصيته هو . ثم كتب مسرحية رومانسية أخرى من فصل واحد هى « قبر المخارب » وأعقبها بمسرحية « أمسية سنت جون » وهى كوميدية من النوع الرومانسى كذلك ، ثم بمسرحية «ليدى أنجر» و «وليمة سولهوج» ، وكانتا دراميتين رومانسيتين لا تختلفان عن درامات ذلك العصر الا بأنهما بنيتا على أساس من القصص الشعبى النرويجى القديم ، وأنهما كانتا حافلتين بالأغانى الشعبية التى كانت منتشرة على ألسنة الناس حينئذ . وقد ترجمت «وليمة سولهوج» الى اللغة السويدية ومثلت فى السويد وبلجيكا والدانمارك ؛ فكانت سببا فى شهرة ابسن خارج بلاده .

غير أن النجاح الذى لاقته « وليمة سولهوج » لم يتكرر عندما قدم مسرحيته التالية « أولاف ليلجكرانز » وهى دراما رومانسية تصور صراعا عاطفيا بين امرأتين على حب فارس من الفرسان تفوز فيه الغانية اللعوب على الخطيبة المحبة الطيبة القلب ، ولكنه لم ييأس فقدم بعد عام واحد مسرحية « قراصنة هليجلاند » وهى تراجيديا مأخوذة عن أسطورة معروفة تصور امرأة قتلت حبيبها ثم انتحرت فبعث هو حيا ، وتحولت هى الى عروس من عرائس البحر .

وقد أجمع نقاد المسرح على أن بوادر الاتجاه نحو الواقعية فى مسرح ابسن ، قد تجلت فى ومضات ومواقف من تراجيديا «القراصنة» هذه ، غير أنها لم تتضح تماما الا فى مسرحية « كوميديا الحب » التى كتبها فى عام ١٨٦٢ ، وان كان قد أخطأ خطأ كبيرا عندما كتبها شعرا ، فأفقدها كثيرا من واقعيتها ... اذ ان الناس لا يتبادلون الحديث فى حياتهم العادية منظوما مقفى . وفى هذه المسرحية عرف الكاتب نفسه ورسالته ... أعلن سخطه على النفاق الاجتماعى ، ودعا الى حرية الفكر والعلم كما سخر من الأسس المفتعلة التى تقوم عليها العلاقات الزوجية .

تتلخص المسرحية فى أن أرملة تملك منزلا كبيرا استأجره عدد من الرجال المتزوجين بينهم القسيس والموظف والتاجر وفيهم شاعر شاب ذو أفكار متحررة . انهم جميعا يدعون الى حفل ساهر فى حديقة المنزل ، وهناك يدور الحديث عن الحب والزواج فيطلق ابسن العنان للشاعر

ويجرى على لسانه حديثا جريئا يتهم فيه الحاضرين جميعا بالرجعية والمادية والنفاق ويهاجم الأسلوب الذى انتهجوه فى حياتهم الروجية والمعيشية ثم يعلن أن مجتمعهم ليس الا مجتمعا زائفا مزورا ... وتنتهى المسرحية نهاية أكثر جرأة وأكثر سخرية اذ يقرر زوجان ـ نتيجة لما سمعاه ـ أن ينفصلا وينهيا حياتهما الزوجية ، خوفا من المصير المحتوم لتلك الحياة !!

وقد قوبلت هذه المسرحية عند ظهورها بعاصفة من الاستياء وهوجمت هجوما عنيفا ، أدى الى حرمان « ابسن » من منحة حكومية كان مقدرا أن ينالها بصفته شاعرا وكان يعاونه على نيلها صديق له من الوزراء.

كان النقد الرجعى الذى وجه الى مسرحية ابسن الواقعة الأولى هو أنها تقدم أول مرة على خشبة المسرح شخصية القسيس الموقرة فتسخر منها أو على الأقل لا توقرها التوقير الواجب ، وأنها استهترت استهتارا معيبا بالقاليد واستخفت برابطة الزواج المقدسة ، هاجمها الرجال الدين هجوما عنيفا لا هوادة فيه وتطلع « ابسن » الى المثقفين والى القلة الواعية من المفكرين ولكنهم خذلوه ، حتى ان الفيلسوف «مونارد» وصف المسرحية بأنها « ليست كوميديا ولا عملا فنيا بل هى مجرد هجوم وهجاء وسب علنى ! » .

واضطر الى كتابة مسرحية جديدة « المدعون » فى آخر عام ١٨٦٤ ، وقد لقيت اقبالا كبيرا خفف من حدة ثورته وجعله يرجىء هجرته فترة من الزمن .

وعندما ذهب الى ألمانيا لم تعجبه غطرسة الجنود الألمان الذين ملأهم النصر غرورا . فاتجه لتوه الى ايطاليا حيث اختار روما مقرا نهائيا له . وهناك كتب مسرحية « براند » فى عام ١٨٦٦ وأرسلها الى النرويج حيث مثلت ولاقت نجاحا كبيرا ، حمل الحكومة هناك على منحه ما كان يطلق عليه حينئذ « معونة الشاعر » ، وهو مرتب شهرى يضمن للشعراء المبرزين حياة مستقرة كريمة .

لم يكن ظهور مسرحية « براند » أقل من ثورة فكرية ، ولم تكن شخصية بطلها اقل من صرخة مدويه تشهد بافلاس روح المجتمع ولم يكن « براند » نفسه سوى ابسن ، فقد اعترف الكاتب الكبير ذات مرة بقوله : « ان براند هو نفسى فى أروع حالاتها » .

وفى عام ١٨٦٧ م كتب « ابسن » مسرحية « بيرجنت » وهى ــ على النقيض من « براند » ــ تقدم شابا وضيع النفس كذوبا أنانيا وصوليا يؤمن بالانتهازية وأن الغاية تبرر الواسطة٠٠٠واذا كانت مأساة « براند » قد نتجت عن عناده وتمسكه بمثله العليا ، فان مأساة « بير » قد ولدتها أنانيته كما ولدها جبنه ٠٠٠ انه يغرى عروسا فى ليلة زفافها وهو يراقصها ويهرب بها الى مكان جبلى بعيد حيث يعتدى عليها ثم يتركها وحيدة لتجابه آلام الندم وعار الخطيئة ، أما هو فيهرب من النرويج ويجوب أنحاء الأرض ثم يعود ليلقى مصرعه فى عاصفة هوجاء ٠

وفى عام ١٨٦٨ كتب ابسن مسرحية « عصبة الشباب » ، وهى شديدة الشبه بمسرحية « بيرجنت » وبطلها « ستنسجارد » هو « بير » نفسه منقولا الى عالم السياسة ٠٠ ٠فهو محام وصولى يؤثر منفعته الشخصية ويخدع الطبقات الفقيرة بعباراته المعسولة ووعوده البراقة حتى اذا ما وصل الى غايته وأصبح من كبار الساسة ، تنكر لمبادئه ثم مثل الدور نفسه فى الطبقة الجديدة التى ارتفع اليها وحاول خداع ثلاث فتيات دفعة واحدة ، ولكنهن اكتشفن أمره فى اللحظة الأخيرة ٠٠٠ وقد أثارت هذه المسرحية جماعات الاشتراكيين ؛ لأنهم وجدوا فيها تعريضا بهم ٠

وفى عام ١٨٧٣ ، عاد ابسن الى كتابة المسرحيات التاريخية ، فكتب « الامبراطور والجليلى » التى تقع فى جزءين وهى تصور الصراع فى نفس الامبراطور « جوليان » وعقله بين المسيحية والوثنية ٠٠٠ وليس فى هذه المسرحية أكثر من الصراع بين عقيدتين فى نفس انسان ٠

وفى عام ١٨٧٧ بدأ كتابة أولى حلقات سلسلة مسرحيات اجتماعية فقدم « أعمدة المجتمع » التى تصور قنصلا غنيا ، يتمتع بسمعة طيبة تجعله دعامة المجتمع الذى يعيش فيه ؛ ولكنه كان فى الحقيقة شريرا فاسدا يخون ابن شقيقة زوجته ويتهمه بالسرقة وفى اللحظة التى يقرر فيها ابعاده على سفينة معطوبة لينفرد بزوجته ، كان الجمهور يتجمع حول بيت القنصل هاتفا بحياته فيطل عليه هذا من شرفة ليفاجئه معترفا بالحقيقة الرهيبة ٠٠٠ غير أن الجمهور المنافق سرعان ما يتغاضى عن « حماقات » القنصل ٠ أما زوجة ابن شقيقة زوجة القنصل فتصر على الرحيل ٠

وفى عام ١٨٧٩ ، قدم ابسن مسرحية « بيت الدمية » التى أثارت جدلا كثيرا واختلفت بشأنها الآراء اختلافا شديدا ٠ ان بطلة المسرحية « نورا » هى زوجة محام وأم لثلاثة أطفال ، نشأت فى بيت والدها مسلوبة الحقوق ثم عاشت فى منزل الزوج مسلوبة الحقوق كذلك حتى أصبحت

مجرد دمية ليست لها ارادة ... ولكن المسرحية لا تنتهى حتى تعلن فى قوة أنها لن تبقى فى هذا البيت وأن حياتها كدمية قد انتهت ؛ لأنها ستبدأ حياة جديدة تسترجع فيها ارادتها وشخصيتها وحريتها .

كان ابسن فى هذه المسرحية يتنبأ بأن المعجزة ستحدث ، وأن العالم سيشهد عهدا تتساوى فيه المرأة بالرجل...ولكنه اتهم بأنه هادم الأسرة ومفسد المجتمع .

وفى عام ١٨٨١ ، كتب ابسن مسرحية «الأشباح» ، التى يقدم فيها طرازا آخر من النساء فى شخصية « مسز الفنج » . انها تختلف عن « نورا » بطلة « بيت الدمية » اختلافا جوهريا ... فقد كانت الأولى قطة متوحشة أما هذه فسيدة دمثة الأخلاق لينة الجانب تقدس الزواج تقديسا وتخضع للمجتمع ... لقد اكتشفت بعد الزواج أن زوجها مدمن على الخمر ومصاب بمرض الزهرى ، وأنه غرر بخادمنها فأنجبت منه طفلة .

وفى عام ١٨٨٢ ، قدم ابسن مسرحية « عدو الشعب » التى برهن فيها على أن الأقلية الواعية قد تكون على حق وأما الأغلبية الكبرى فهى دائما على ضلال .

ان مسرحية « عدو الشعب » تبرهن على أرستقراطية ابسن الفكرية وهو اذ ينهيها بقول بطلها الطبيب : « ان أقوى رجل فى العالم هو الذى يواجه الحياة وحيدا » انما يدل على طبيعة تفكيره .

وفى عام ١٨٨٤ ، قدم ابسن مسرحية «البطة البرية» ، وهى مسرحية تميل الى الرمزية وأتبعها فى عام ١٨٨٦ بمسرحية « روزمير العجوز » ، وفكرتها أن التقاليد لا تفعل الا أن تشل ارادة الانسان . ثم بمسرحية « سيدة البحر » فى عام ١٨٨٨ وفيها يدعو الى الحرية مع المسئولية الكاملة .

وفى عام ١٨٩٢ ، قدم مسرحية « البناء العظيم » وهى دراما رمزية أخرى ضمنها ابسن كثيرا من تجاربه .

وفى الفترة من عام ١٨٦٦ حتى عام ١٩٠٠ ، كتب ابسن مسرحيات هى « أيولف الصغير » و « جون جبرييل بوركمان » و « حين نبعث نحن الموتى » .

وتمتاز مسرحيات ابسن بميزات واضحة هى :

١ ـ أن المسرحيات التاريخية منها تبدأ بداية عاصفة . أما المسرحيات الاجتماعية فتبدأ هادئة مشوقة معتمدة على الحوار الدقيق .

٢ ـ أن ابسن لزم فيها وحدة الزمان والمكان كما وضعها اليونانيون .

٣ ـ أنها محكمة البناء المسرحى احكاما دقيقا لا يجاريه فيه مؤلف آخر .

٤ ـ أن الحبكة فيها تبدأ بالقرب من نقطة الزمن ، مما يساعد على اخضاع المسرحية للوحدات الفنية المسرحية الثلاث وهى الزمان والمكان والحدث .

٥ ـ أن شخصياتها من النماذج الانسانية العالمية الطبيعية .

قال برنارد شو : « ان أستاذى النرويجى هو أول من رفع مشكلات المجتمع الى خشبة المسرح وقد ظل حتى آخر حياته الأدبية قادرا على انتزاع الاعجاب ويتمتع بعقليه خصبة » .

ان ابسن له فضل كبير على المسرح الحديث ، فهو فضلا عن أنه أول من عالج المشكلات الاجتماعية فى مسرحياته ، كان أول من كتب مسرحية الفكرة التى قلده كثيرون فى كتابتها فيما بعد .

★★★

مسرحيـــة بيرجنـت

● يبدأ زمان أحداث المسرحية فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وينتهى حوالى عام ١٨٦٧ .

● وتدور الأحداث فى أمكنة عديدة مختلفة مثل جدبر اندسدال والجبال المحيطة بها فى النرويج ، شاطىء مراكش ، الصحراء الكبرى بأفريقيا ، مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة ، وفى البحر .

● تعتبر بيرجنت قصيدة خيالية طويلة ، لم يقصد ابسن أن يضعها لنمثل على المسرح ؛ ولكن المخرجين فتنوا بشعرها الجيد الرائع فراحوا يبارون فى اخراجها على المسرح اخراجا شاعريا رمزيا .

● كتبت هذه القصيدة عام ١٨٦٧ وفى عام ١٨٧٦ أعدها ابسن اعدادا مختصرا لتعرض على مسرح كريسيتيانيا،حيث صاحبتها موسيقى من

تأليف جريج وبالتدريج أصبحت هذه المسرحية من المعالم الهامة فى أعمال المسارح الاسكندنافية الرئيسية ٠

● طبعت أول ترجمة لهذه الرواية باللغة الألمانية عام ١٨٨١ وباللغة الانجليزية عام ١٨٩٢ وبالفرنسية عام ١٨٩٦ ٠

● مثلت فى فرنسا وانجلترا على أساس الاعداد المختصر لها ٠

● فى سنة ١٩١٦ أخرجها رتشارد مانسفيلد فى شيكاجو بدون أى تعديل أو اختصار ٠

● تعتبر بيرجنت من المسرحيات الرمزية الساخرة، بالرغم من أن مؤلفها كتب عنها يقول : « ان بيرجنت شخص حقيقى عاش فى « جدبر اندستال » فى أواخر القرن الماضى أو أوائل القرن الحالى (التاسع عشر) ان اسمه لا يزال معروفا بين الفلاحين فى تلك المنطقة أما رحلاته فلا يعرف عنها شىء أكثر مما يوجد فى القصص النرويجية الخيالية » ٠

★★★

كان بيرجنت غلاما نرويجيا مزارعا فى الثامنة عشرة من عمره ، مفتول العضل ممتلئا حيوية وهو مع حيويته هذه غلام كسول متراخ جعجاع كذاب يقطع أيامه فى الأوهام والأحلام ومفاخرة الناس بالباطل ولا يفتأ يخاشنهم ويتشاجر معهم لأتفه الأسباب ، وبالاضافة الى كل ذلك كان أنانيا نزقا مراوغا لا عهد له ولا وفاء عنده ، أما ميزته الوحيدة فهى أنه كان يتمتع بقوة خيال شاعرية كانت تضفى عليه سحرا لا يقاوم ٠

وفى ذات يوم أخذت أمه الأرملة « آسى » توبخه من أجل كسله وتراخيه واهماله شئون المزرعة ، فما كان منه الا أنه أخذ يسخر منها ويستهزىء بها قائلا : « يا أمى يا حبيبة القلب يارثة الهيئة يا بشعة المنظر ٠ انك صادقة فى كل ما تقولين فلا تحملى همى أبدا وما عليك الا أن تتذرعى بالصبر وتأخذى بأهداب الأناة ، فلسوف أصبح يوما ما قيصر عظيم الجاه رفيع الشأن آمر وأنهى وأتصرف فى شئون الخلق » ٠

ولكن أمه تنظر اليه شزرا ثم تعيره بأن كسله وتراخيه قد ضيعا عليه « انجريد » ، تلك الفتاة الجميلة الفاتنة التى ستزف الليلة الى عريسها٠ وما يكاد بير أن يسمع ذلك من أمه حتى يهدد ويتوعد ٠٠٠ انه يحب هذه الفتاة حبا جنونيا ، ولذلك فهو يقسم بالذهاب الى العرس ليجعله عرسا مشئوما على أصحابه ! ٠

ثم ينطلق الغلام الى مكان العرس بعد أن حمل أمه بيديه القويتين ليضعها فوق ذروة من العشب ؛ كى لا تحول بينه وبين ما يريد من شر ٠

ويحاول بير أن يقتحم مكان الاحتفال ، ولكن المشرفين عليه يحولون بينه وبين الدخول لقذارة ملبسه ورثاثة هيئته ، ولما يعرفون عنه من ميله الى المشاكسة والعراك فينتحى بير ناحية حيث تعطف عليه الفتاة سولفيج احدى الوافدات على العرس؛ولكنها لاتكاد أن تسمع من صويحباتها ما يلوكه الناس عنه حتى تعرض عنه هى الأخرى فيشتد غيظه ويحس بالاهانة تدمى فؤاده فينطلق الى حيث يعب كثيرا من الخمر ملتمسا السلوان فى الكأس بعد أن فقده فى الناس ٠ ثم يعود بعد قليل الى مكان الحفل وفى نفسه ما فيها من الحنق والغيظ ولا يكاد أن يحس الناس منه ما يعتزمه من فتك وبطش؛حتى يتقدم اليه العريس بنفسه راجيا منه أن يذهب الى حيث حبست العروس نفسها فى أحد مخازن الحبوب ليأتى بها بالرغم منها ٠ ويرحب بير بهذه الفرصة المواتية وينطلق الى المخزن الذى حبست العروس فيه نفسها ٠

وتقبل بعد ذلك آسى والدة بير وهى تحمل هراوة غليظة وتقول انها انما جاءت لتخلع على ولدها لقب الفروسية بدقه بهذه الهراوة دقا عنيفا موجعا ، وبينما هى تقول ذلك اذا بولدها يحمل العروس انجريد على كاهله العريض القوى ويجرى بها فوق الجبل القريب فتصيح به أمه : « أسأل الله أن تسقط سقطة يدق بها عنقك ٠٠٠ انتبه لنفسك أيها الغبى وقدر لرجلك قبل الخطو موضعها ٠٠٠ احذر أن تنزلق أيها الشيطان » ٠ ولكن بير لا يبالى بشىء ٠٠ لقد فاز بالفتاة وقضى منها وطره ! ٠

ولكنه سرعان ما يزهد فيها فيتخلى عنها ليبدأ سلسلة عجيبة من المغامرات ٠ لقد قامت ضد بير كل البلدة وعلى رأسها هجستاد والد انجريد التى سلبها شرفها وتركها حطاما ، فلم يكن هناك بد من أن يهجر بير البلدة ويهيم على وجهه فى الجبال والفلوات ٠

ويشعر بير بالوحدة والضياع وبالتدريج يفقد احساسه بالواقع وأحلامه ويتفتح عقله لعلاقات أخرى مع عالم آخر ٠٠ عالم لا يمت للواقع بصلة وبينما هو هائم على وجهه يلتقى بفتاة من عالم الخلائق الشائهة فيسحر بها؛ بالرغم من أنها تحمل ذيلا كذيل البقرة وتقوده الفتاة الى والدها الملك الذى يعلمه الفرق الأساسى بين الانسان والمخلوق الشائه ٠ يقول

له الملك ان الانسان يدين بالفلسفة التى تنادى بمعرفة الانسان لحقيقة نفسه ، ولكن مفتاح السر فى مملكة الخلائق الشائهة هى أن تشبع رغبات نفسك الى درجة الاكتفاء ٠

ويتزوج بير ابنة الملك ثم يهجرها بسرعة ويطلق ساقيه للريح وبينما هو فى طريقه يقابله مخلوق غامض شائه المنظر ، لا يتبين أحد رأسه من ساقيه ولا وجهه من قفاه هذا الغول المفزع العجيب المدعو بويجن يأخذ على بير سبيله فلا يدعه يمضى كما يريد ٠٠ انه فى طريقه أينما ذهب وكيفما سار ليحول بينه وبين هذا الجبل الشامخ الذى يحاول أن يرقاه ٠ ويأخذ الضيق والملل ببير كل مأخذ ، وفى لحظة من لحظات غضبه يتحدى بويجن فى عزة وكبرياء أن يبارزه ولكن الغول الشائه يسخر من بير قائلا : « ان بويجن العظيم ينتصر دائما ولا يحارب أبدا » ويأخذ بويجن فى اسداء النصح لبير قائلا : « لا تذهب فى حياتك فى الطريق المستقيم٠اختر دائما الطريق الملتوى لا تقل رأيك واضحا وحاول دائما أن تصل الى ترتيب أو اتفاق مع الآخرين ، لتكون وراءك قنطرة تسير عليها اذا تأزمت الأمور » ٠

★★★

وينطلق بيرجينت ليذرع وجه الأرض من جديد ، فها هو ذا يبيع العبيد فى أمريكا والأصنام فى الصين كما يبيع فيها الخمر والانجيل ! وتمر الأعوام فيقتنى الأموال الجمة التى ينشلها منه بعض النشالين ؛ فيحتال لاستعادة ما فقد بأن ينتحل شخصية أحد الأنبياء العرب ، ليبتز ما تصل اليه يده من أموال من تجوز عليهم حيلته من العربان الضاربين فى الصحارى الأفريقية ! ٠

لقد مضت الآن قرابة عشرين عاما منذ أن بدأ مغامراته فى الخارج انه لم يعد يؤمن بفلسفة « اعرف نفسك » ، فهو فى الواقع يسير حسب مبادىء الخلائق المشوهة ٠٠ تلك المبادىء التى جعلته يفقد نفسه فى طريق الانانية وحب الذات وفى هذا الموقف يستعمل ابسن تعبيرا جميلا من تعبيرات شكسبير فى مسرحية رتشارد الثالث ؛ ليوضح نفسية بيرجنت التى أصبحت تنزع الى سياسة التوافق والتراضى والالتواء التى نصحه بها بويجن ! ففى وسط الصحراء الأفريقية نبتت فى ذهنه فجأة خطة جريئة يكسب من ورائها مالا وفيرا؛ولكنه لايستطيع أن يصبر على تحقيقها ٠٠٠ بل يريد أن ينفذها فى الحال ٠٠٠ ولكن لابد له من جواد ليطير به

الى حيث يريد وعندئذ يصيح كما صاح رتشارد الثالث « جواد !! أعطى مملكتى فى مقابل جواد ! » • ولكنه يتوقف لحظة ويصحح كلامه قائلا : « نصف مملكتى فى مقابل جواد » •

وعلى هذا النحو يضرب بيرجينت فى بيداء حياته التى لا يهدف فيها الى شىء فنراه يتوج ملكا على المجانين فى مستشفى الأمراض العقلية ، ثم يصبح عالما من علماء الآثار وهو بين يدى أبى الهول والأهرام فى مصر •

ويحس بيرجينت بالوحدة والشقاء بالرغم من ثرائه ، فيفكر فى العودة الى وطنه النرويج فيستقل سفينة تمخر به عباب اليم ، ولكن السفينة ترتطم ببعض الصخور بسبب عاصفة هوجاء فيعلق بير ومعه طباخ السفينة بلوح ضعيف من الخشب لا يكفى الا لانقاذ شخص واحد فحسب ويدرك بيرجينت ذلك ، فلا يتورع من أن يركل الطباخ البائس ركلة تبعده عن لوح الخشب وتهوى به الى قرار البحر لينجو بنفسه من براثن الموت ، ويصل بيرجينت أخيرا الى النرويج بعد جهاد طويل متصل ضد كل شىء حتى ضد نفسه •

والآن وقد عاد بيرجينت الى مسقط رأسه بعد جهد وتعب ، ينظر المسكين فى صحيفة حياته فيجدها سلسلة من المغامرات والضرب بالقيم الأخلاقية عرض الحائط فيتمنى لو استطاع أن يقضى مغرب العمر فى راحة وصفاء بال وفى عزلة من الناس •

ولكنه يخرج يوما الى الفلاة فيلتقى بسباك حاملا صندوق أدواته وبوتقة كبيرة ليصهر الحديد •

السباك : مرحبا بك أيها الريفى العجوز •

بيرجنت : مساء الخير يا صديقى •

السباك : تبدو عليك العجلة الى أين أنت ذاهب ؟

بيرجنت : الى جنازة ميت •

السباك : حقا ؟ اسمح لى أن أسألك : هل تدعى بير ؟

بيرجنت : ان اسمى هو بيرجنت •

السباك : يا للمصادفة السعيدة ! انه بيرجنت بالذات ذلك الذى أبحث عنه •

بيرجنت : ولماذا تبحث عنى ؟

السباك : الواقع أننى سباك كما ترى ويتحتم عليك أن تسقط فى بوتقـــتى ٠

بيرجنت : لماذا ؟

السباك : لكى تصهر ٠

بيرجنت : أصهر ؟

السباك : نعم ان بوتقتى نظيفة وفارغة ٠ لقد حفر قبرك وأعد لك الكفن وسيصبح جسمك طعاما شهيا للديدان ، لقد أمرنى المولى أن أبحث عن نفسك فى الحال ٠

بيرجنت : مستحيل يحدث لى هذا بدون أى انذار ؟

السباك : لقد جرت العادة أن يختار يوم الميلاد ويوم الموت دون أن يخطر الضيف فى أية حالة من الحالتين ! ٠

بيرجنت : هذا حق ، ان رأسى تدور ٠ أنت ٠٠٠

السباك : لقد سمعتنى أقول لك انى سباك ٠

بيرجنت : أفهم الآن ٠٠ ليس لك اسم فى حين أن الطفل المدلل تطلق عليه عدة أسماء ٠ والآن يا بير ٠٠ هكذا تكون نهاية رحلتك ومع ذلك فهذه خدعة دنيئة تستخدم معى ٠ انى أستحق شيئا أكثر رحمة فلست شريرا بالدرجة التى تظنها ٠ لقـد فعلت بعض الحسـنات القليـلة فى هذه الدنيا ٠٠ وعلى أسوأ الفروض قد أكون رجلا سيئا ولكنى لست فاجرا ولا أثيما بأية حال من الأحوال ٠

السباك : ولكن هذه هى المشكلة أيها الرجل ٠ فأنت لست فاجرا أثيما تستحق أن تلقى فى قرار سقر ، ومن أجل ذلك يتحتم عليك أن تلقى فى بوتقتى ٠

بيرجنت : سمها كما تشاء ٠٠ بوتقة أو قرار سقر فالمعنى واحـد ومرارتهما واحدة فى الفم ٠ اليك عنى أيها الشيطان ٠

السباك : أنت لست فظا بحيث تظننى رجلا شريرا ٠

بيرجنت : رجلا شريرا أو ثعلبا ذا مخالب ٠٠٠ اختر ما يحلو لك منهما ٠ والآن ارحل واتركنى ولا تتدخل فى شئونى ٠٠ اتركنى !

السباك : أنت يا صديقى واقع تحت تأثير خداع كبير نحن الاثنان فى عجلة من أمرنا ولكى لانضيع الوقت سـأشرح لك

المسألة ٠٠ أنت كما سبق أن قلت بنفسك لست فاجرا كبيرا وانما تقف موقفا وسطا بين الخطيئة والصلاح وربما ٠٠

بيرجنت : (مقاطعا) أنت الآن تقول كلاما معقولا ٠

السباك : تمهل قليلا أعتقد أننى لا يمكن أن أدعوك رجلا فاضلا ٠

بيرجنت : وأنا لا أدعى هذا بالتأكيد ٠

السباك : فلنقل اذن انك شخص وسط ٠ ان الفجرة بالمعنى الكبير لهذه الكلمة لا نقابلهم كثيرا فى هذه الأيام فان الاغراق فى الخطيئة والاثم يتطلب قوة فى العقل انه مجرد اللعب فى الوحل ٠

بيرجنت : هذا حق كله ٠

السباك : وأنت على النقيض من ذلك يا صديقى كنت ترتكب الاثم فى خفة ونزق ٠

بيرجنت : بالضبط يا صديقى ٠٠ يمكننا القول بأن الوحل قد تناثر على بعض الشىء ٠

السباك : الآن اتفقنا ٠ ان قرار صقر لم يجعل لأجلك أنت الذى لعبت فى الوحل ٠

بيرجنت : اذن فالنتيجة أنك ستركنى وشأنى ٠

السباك : أوه ٠٠ كلا يا صديقى ٠٠ النتيجة أنك ستنصهر فى بوتقتى !

بيرجنت : ما هذه اللعبة الجديدة التى اخترعتها بينما كنت أنا متغيبا خارج البلاد ؟ ٠

السباك : انها التجربة والخبرة ٠٠ هى قديمة قدم الخليقة نفسها، وقد أعدت بقصد حفظ الأشياء فى المستوى المطلوب ٠ سأضرب لك مثلا يحدث أحيانا فى أشغال المعادن ان قالبا معينا يثبت فشله ٠ اذا وجدت زرارا لا تصلح له عروة ما فماذا تفعل فى هذه الحالة ؟

بيرجنت : ألقى بالزرار مع الأشياء التالفة ٠

السباك : بالضبط كان والدك مشهورا بأنه يلقى بالأشياء عبثا ودون اهتمام طالما وجد أى شىء يلقى به ولكن المولى على النقيض من ذلك يؤمن بالاقتصاد ولذلك فهو لا يلقى أبدا بشىء تالف طالما فى الامكان استخدامه كمادة خام ٠ والآن

كان المفروض أن تكون أنت زرارا فى سترة الدنيا ينطلق منها اشعاع مضىء ولكن عروتك كانت ضائعة · ومن أجل ذلك يتحتم عليك أن تلقى مع الأشياء التالفة فى النـار لتصهر بك بعد ذلك من جديد ؟

بيرجنت : ولكن هل تعنى أنه يجب أن أصهر مع أى شخص من الأشخاص التالفين وأصب فى القالب من جديد ؟

السباك : هذا ما أعنيه تماما ، ما فعلناه لاناس كثيرين · ونفس الشىء يحدث لقطع النقود الفضية التى أصبحت ملساء من كثرة التداول ·

بيرجنت : ولكن هذا احتقار شنيع ، ألا تدعنى أذهب وشـأنى يا صديقى ؟ زرار بلا عروة قطعة نقود ملساء ما قيمتها بالنسبة لمولاك ؟ ·

السباك : ان مجرد امتـلاكك روحا يكفى لاعطـائك بعض القيمة الحقيقية ·

بيرجنت : كلا ·· قلت لك كلا ·· سأكافح بكل قواى ضد ما تريد فعله اننى أفضل أى شىء الا هذا ·

السباك : ولكن ماذا تعنى بقولك « أى شىء » ؟ يجب أن تكون منطقيا لست أنت بالشخص الذى يستحق الذهاب الى السماء ·

بيرجنت : أنا مسكين ·· أنا لا أتطلع حقا الى مثل هذا السمو ولكن لن أفرط فى ذرة من نفسى فلأرسل الى المولى ليحكم على بأن أقضى فى الجحيم وقتا معينا لنقل مائة عام مثلا اذا كان من الواجب أن يكون الحكم قاسيا ، فهذا شىء يمكن احتماله اذ ان العذاب عندئذ سيكون معنويا فقط ، وربما لا يكون على درجة كبيرة من القسوة انها أشبه ما تكون بمرحلة انتقال يأمل الانسان بعدها فى الخلاص والعودة لقضاء أيام أكثر اشراقا وسعادة · أما الفكرة الأخرى أن أبتلع وأضـيع وسط كتلة من المواد الغريبـة فى هذه البوتقة التى تقول عنها وأفقد كل الخصائص التى تميز بيرجنت فهذا يملأ نفسى رعبا ·

السباك : ولكن ليست هناك حاجة يا عزيزى بير لتبدى هذا القلق وتنفعـل كل هذا الانفعال بصدد مسـألة صغيرة كهذه لانك لم تكن يوما من الأيام مسيطرا على نفسك ولا مالكا

لزامها فلماذا يضيرك اذن اذا اختفيت من الوجود بعد موتك ؟ ٠

بيرجنت : لم أكن مسيطرا على نفسى ها ٠٠ ها ٠٠ أنت تضحكنى كلا يا صديقى السباك أنت مخطىء ، أنت تصدر حكمك على غير أساس لانك اذا فتشت فى داخل نفسى فلن تجد سوى بير ٠٠٠ بير ولا شىء آخر سواه !

السباك : لقد صهرت هذين الشخصين منذ تقول : « فتش عن بيرجنت الذى تحدى القدر ففشل ومن أجل ذلك يجب أن يصهر فى البوتقة » ٠

بيرجنت : ما هذا الهراء لابد أن الأوامر تعنى شخصا آخر يدعى جنت هل أنت متأكد تماما أنها تخص بير ؟ ألا تخص شخصا آخر يدعى جون أو رازمس ؟

السباك : مستحيل ان الأوامر الصادرة الى من زمن بعيد والآن هيا ولا تضيع الوقت ٠

بيرجنت : كلا لن أطيعك افرض أنك وجدت فى الغد أن هذا الأمر يخص شخصا آخر فماذا يكون العمل حينئذ ؟ يجب أن تكون حذرا أيها الرجل الطيب وتذكر أية مسئولية كبرى ٠٠٠

السباك : عندى أوامر صريحة ٠

بيرجنت : اذن أعطنى مهلة قصيرة ٠

السباك : لماذا ؟

بيرجنت : سأجد طريقة أثبت بها أننى طوال حياتى كنت مالكا لزمام نفسى ٠

السباك : تثبت ذلك ؟ ولكن كيف ؟

بيرجنت : بالوثائق والشهود ٠

السباك : أخشى أنك لن تقنع المولى ٠

بيرجنت : أنا واثق من اقناعه ! وعلى أية حال ، سنتكلم بخصوص ذلك الموضوع عندما يحين الأوان يا عزيزى أرجوك أن تقرضنى نفسى لمدة قصيرة وبعدها أعود اليك ، نحن الرجال لا نولد الا مرة واحدة كما تعلم ، ومن الطبيعى أن نكافح من أجل الاحتفاظ بالنفس التى جاءت معنا الى الحياة هل اتفقنا ؟

السباك : فليكن ولكن تذكر هذا : « سنلتقى عند مفترق الطرق التالى » ٠

وينصرف بيرجنت وهو فى لهفة للبحث عن شاهد يشهد فى صفه فيلتقى برجل عجوز محدودب الظهر يحمل حقيبة على ظهره ويدور حديث بين الاثنين ، نعلم منه أن هذا الرجل العجوز هو ملك الخلائق الشائهة وقد سلب منه كل ما يملك وأصبح متشردا فقيرا لا يجد ما يسد به رمقه · ويجد بيرجنت الفرصة سانحة ، فها هو ذا والد زوجته ولابد أنه سيشهد فى صفه · ويطلب بير الى الملك السابق أن يشهد بأنه ، أى بير ، كان دائما مالكا زمام نفسه ولكن الرجل العجوز يرفض ويذكره بأنه قد وهب نفسه للشهوات وأن المبدأ الذى ينادى « بأن تشبع رغبات نفسك الى درجة الاكتفاء » منقوش على قلبه ، وانه منذ الوقت الذى تشبع فيه بهذا المبدأ منذ ذلك الوقت عاش بيرجنت كما تعيش الخلائق الشائهة عيشة تطفح بالأنانية والخضوع للشهوات ويستنكر بير جنت هذا القول معترضا على وصفه بالمخلوق الشائه ، فيجيبه الرجل العجوز بأنه ليس من الضرورى أن تكون له قرون أو يتحلى بذيل ليكون مخلوقا شائها ، ولكن يكفى أن تكون روحه مطبوعة بالشهوة والأنانية ليصبح مخلوقا شائها ·

وترن الكلمات فى أذنى بيرجنت ··· بيرجنت مخلوق شائه يا للهول ! ويثور بير ضد الرجل العجوز متهما اياه بالجنون وناصحا له بالعلاج فى مستشفى فيجيبه الرجل العجوز بأنه فعلا يريد الذهاب الى المستشفى لولا أن هناك أمرا هاما يشغل باله ان ابنه الأكبر له تأثير كبير على الناس فى هذه المنطقة وهو يحاول أن ينشر فيهم أنه ، أى الرجل العجوز ، ليس الا أسطورة خرافية · ويستطرد الرجل فى كلامه قائلا : انه كثيرا ما سمع المثل القائل : « ألد أعداء الانسان هم أقرباؤه » وقد أصبح يؤمن الآن بصدق هذا المثل ويطلب الرجل بعض المساعدة المالية من بيرجنت ولكن الأخير يخبره بأنه قد فقد كل موارده ، ولذلك فهو يعتذر له عن مساعدته ويدهش الرجل العجوز ويبادر بالقول : « مستحيل هل أفلست يا صاحب السمو ؟ » ·

بيرجنت : لقد فقدت كل شىء ·· حتى نفسى ··· نفس الأمير بيرجنت مرهونة الآن ان الوزر يقع عليكم أنتم أيتها الخلائق الشائهة ··· وهذه هى النتيجة التى يحصل الانسان من صحبة السوء ·

الرجل العجوز : وهذا أمل آخر من آمالى يتحطم سأرحل مستجديا الناس وأنا فى طريقى الى المدينة !

وما يكاد الرجل العجوز ينصرف ، حتى يجد بيرجنت نفسه وجها لوجه السباك ويطلب بير الى السباك أن يجيبه على سؤال واحد : « ما معنى أن يملك الانسان نفسه ؟ » ٠

السباك : ان تمام السيطرة على النفس هو انكار النفس ٠ ربما لا تفهم المقصود من هذا التعبير فلنقل اذن ان السيطرة على النفس هى اتباع مشيئة المولى فى كل شىء ٠

بيرجنت : ولكن أفرض أن انسانا لم يقل له ما هى مشيئة المولى ؟

السباك : بصيرته هى التى تقول له ٠

بيرجنت : ولكن بصيرتنا كثيرا ما تخطىء ومعنى هذا أننا نتنكب الطريق السوى ٠

السباك : هذا عين الصواب يا بيرجنت لأن فقدان البصيرة يعطى الشيطان أقوى أسلحته ٠

بيرجنت : انها مسألة معقدة تمام التعقيد ولكن اسمع ٠٠ أصدقك القول بأنى كنت مسيطرا على نفسى ٠٠٠ قد يكون من الصعوبة بمكان أن أثبت لك ذلك ولكنى أستطيع أن أقول لك انه بينما كنت أتجول الآن وحيدا فى هذه المنطقة أحسست بوخزة مفاجئة من حربة الضمير فقلت لنفسى : « أنت رجل آثم » ٠

السباك : لقد عدت الآن الى النقطة التى بدأت منها ٠٠٠

بيرجنت : (مقاطعا) كلا أعترف اننى من كبار الأثمة والعصاة ليس فقط بالفعل بل الفكر والقول أيضا لقد عشت حياة فظيعة فى الخارج ٠

السباك : قد يكون ما تقوله صحيحا ولكن هل يمكنك البرهان عليه ؟

بيرجنت : أعطنى فسحة من الوقت وسأحضر لك براهينى مكتوبة ومصدقا عليها من القسيس ٠

السباك : اذا أمكنك أن تفعل ذلك فستنجو من الصهر فى البوتقة ٠٠ ولكن الأوامر التى لدى يا بير ٠٠٠

بيرجنت : (مقاطعا) انها مكتوبة على ورق قديم جدا ، ولا شك أنها مؤرخة منذ زمن بعيد عندما كنت أعيش حياة منحلة بوهيمية والآن هل ستدعنى أحاول ٠٠٠

السباك : ولكن ٠٠٠

بيرجنت : أرجوك أن تفعل معى هذا المعروف ٠

السباك : سأتركك الى مفترق الطريق التالى ٠٠ ليس أبعد من ذلك ٠

ويلتقى بيرجنت بعد ذلك بأحد رجال الدين فيعترف له بأنه من المجرمين الخاطئين ، بل من أكابر العصاه الذين أوغلوا فى الاثم فهو قد مارس تجارة العبيد ٠

القسيس : هذا شىء بسيط ٠٠ أعرف أناسا مارسوا تجارة العقول والارادة ٠

بيرجنت : وقد صدرت الأصنام بوذا الى الصين ٠

القسيس : كلام فارغ مضحك أعرف اناسا نشروا عبادة أصنام أكثر قبحا ٠٠ نشروها فى العظات والفن والأدب ٠

بيرجنت : ولكنى نصبت نفسى نبيـــا ٠

القسيس : فى الخارج ؟ هذا لا شىء ٠ كل هذه الأمور الهينة تنتهى عند الصهر فى البوتقـــة ٠

بيرجنت : ولكن اسمعنى أيها القسيس ٠٠ لقد أنقذت نفسى من الغرق على حســاب نفس أخرى كانت تكافـــح الموت وتتشبث بنفس اللوح الذى كنت ممسكا به ٠٠ ان موت طباخ السفينة يقع نصف وزره على لأننى لم أقذف به فى اليم الا لكى أضمن لنفسى البقاء ٠

القسيس : أستميحك عذرا ٠ ما فائدة الكلام عن نصف خطيئة ؟ اسمع نصيحتى أيها الصديق ٠٠ أعطيتك مأوى وزادا فما الذى تستفيده من ذلك ؟ أتعلم أنهم فى المدة الأخيرة فى باريس اخترعـوا طريقـة للتصوير الشمسى وأنهم يستطيعون أن يصنعوا للشىء صورتين : صورة موجبة وصورة سالبة ؟ الصورة السالبة تبدو للعين قبيحة ومع ذلك فهى تشبه الصورة الموجبة شبها كبيرا وبطريقـة التحميض تتحول الى صـورة موجبة ٠ وهكذا الروح ٠٠ لو أن روحا صورت نفسها صورة سالبة فانهم لا يعدمون اللوح من أجل ذلك ولكنهم يرسـلونه الى لأقوم بعملية التحميض فى المحاليل الكيماوية المختلفة حتى يتم تحويله الى صورة موجبة ٠ ولكن اذا كان نصف اللوح ممسوحا كما فى حالتك ، فلا تجدى فيه المحاليل الكيماوية ٠

بيرجنت : وعلى ذلك فان المرء يجىء عندك وهو أسود كالهباب ويخرج من لدنك وهو أبيض كالثلج · هل يمكننى أن أسألك عن اسم الشخص الذى تنوى الآن القيام بعملية تحويل صورته السالبة الى صورة موجبة ؟

القسيس : اسمه بيرجنت ·

بيرجنت : بيرجنت ؟ حقا · هل يملك بيرجنت زمام نفسه ؟

القسيس : ان يقسم على ذلك ·

بيرجنت : هو رجل صادق ·

القسيس : ربما أنت تعرفه ·

بيرجنت : كما أعرف اناسا كثيرين ·

القسيس : أين رأيته آخر مرة ؟

بيرجنت : فى الرأس ·

القسيس : رأس الرجاء الصالح ؟

بيرجنت : أجل ولكن أعتقد انه على وشك الرحيل من هناك ·

القسيس : يجب على اذن أن أرحل فى التو لألحق به هناك (ينصرف نحو الجنوب) ·

بيرجنب : (لنفسه) يا للغبى ! لقد ذهب مسرعا الى طريق خاطىء سوف يصاب بخيبة أمل · كم أنا مسرور اذ جعلت هذا الحمار لعبتى · انه يظن نفسه أعلى منى مرتبة دون أن يكون عنده مبرر لذلك سيفقد وظيفته ولا شك اذا لم يكن حريصا ·· ولكن ·· لماذا لا أجد نفسى مطمئنا تمام الاطمئنان ؟ يخيل الى أنى فقدت أرستقراطية النفس الى الأبد ··

(يظهر نجم مضىء يقطع السماء بسرعة ثم يختفى · يومىء بير برأسه تحية له) بيرجنت يحييك أيها النجم الأخ الذى أضاء ثم اختفى ·

(يعتريه الخوف والاضطراب فيقفز مختفيا فى الضباب · بعد لحظة صمت قصيرة ينادى قائلا) :

ألا يوجد أحد فى الكون أو تحت الأرض ·· أو حتى فى السماء ؟ ·

(يتراجع الى مكانه الأول ثم يلقى بقبعته الى الأرض ويأخذ فى تمزيق شعر رأسه ويعود اليه الهدوء تدريجيا) ·

أية حقارة وأية مسكنة أن تعود النفس الى غياهب الظلمات وتصبح لا شيء · أيتها الأرض الجميلة اغفرى ان وطأتك قدماى طوال هذه السنين دون هدف · أيتها الشمس الجميلة التى أسقطت أشعتها المضيئة العظيمة على قوقعة فارغة لا يوجد أحد بداخلها ليستقبل منها الدفء والراحة ·· أبدا لم يكن صاحب البيت فى منزله · أيتها الشمس الجميلة ويا أيتها الأرض الجميلة ! عبثا كن عاقلا واستسلم للصهر فى البوتقة · لنفرض أنكما كنتما تدفئان وتطعمان أمى · الطبيعة كانت كريمة سخية بقدر ما كانت النفس بخيلة طماعة · حياة الانسان هى الثمن الغالى الذى يدفعه فى مقابل ولادته سأذهب الى فوق ·· الى أعلى قمم الجبال ، لأمتع ناظرى بشروق الشمس حتى يصيب الكلال عينى !

فقد يسقط الثلج عندئذ ويغطينى ، وقد يكتب على مثواى الأخير « هنا يرقد لا أحد » وبعد ذلك ·· فليكن ما يكون ·

وفجأة يجد بيرجنت نفسه أمام السباك عند مفترق الطريق ·

السباك : صباح الخير يا بيرجنت · أين قائمة خطاياك ؟

بيرجنت : أؤكد لك أنى أعلنتها بأعلى صوتى ولم أخف منها شيئا !

السباك : ألم تجد شاهدا واحدا ؟

بيرجنت : لم أجد سوى مصور متجول ·

السباك : اذن فقد حانت ساعتك ·

بيرجنت : كل شيء قد انقضى · لقد شمت البومة رائحة الفأر · ألا تسمعها تطلق عليه النار ؟

السباك : هذه دقات جرس الصباح ··

بيرجنت : « مشيرا باصبعه » ما هذا ؟ هذا الذى يضيء ؟

السباك : ليس الا ضوءا فى أحد المنازل ·

بيرجنت : وهذا الصوت الذى يشبه الصياح الحزين ؟

السباك : ليس الا صوت امرأة تغنى ·

بيرجنت : انها هناك ·· هناك سأجد قائمة خطاياى !

السباك : (قابضا على ذراعه) تعال معى لتنظم بيتك ·

وفى هذه الأثناء يكون الاثنان قد خرجا من الغابة ، ووقفا بجوار كوخ سولفيج وقد أخذ الفجر يشقشق ·

بيرجنت : أنظم بيتى ؟ هذا هو بيتى ٠٠ اذهب أنت ٠٠ ارحل بعيدا عنى ٠ مهما كانت بوتقتك كبيرة كالقبر فانها لن تسعنى ومعى خطاياى ٠

السباك : الى الملتقى اذن يا بير فى مفترق الطرق الثالث ولكن عندئذ ٠٠٠

يختفى السباك بينما يقترب بيرجنت من كوخ سولفيج ٠

بيرجنت : سواء سرت الى الوراء أو الى الأمام فالكون يبدو بعيدا ٠ وسواء خرجت أو دخلت فالطريق ضيق (يتوقف) ولكن ما هذا ؟ ٠ يخيل الى أنى أسمع صوتا عاليا لا يكف عن الصياح يأمرنى قائلا : ادخل ٠٠ عد ٠٠ الى منزلى ٠

ويخطو بيرجنت بضع خطوات ثم يتوقف مرة ثانية فقد تذكر فجأة ما قاله له بويجن ٠

بيرجنت : اختر دائما الطريق الملتوى ٠٠٠ هذا ما قاله بويجن (يسمع صوت غناء ينبعث من الكوخ) كلا ٠٠٠ هذه المرة سأسلك الطريق المستقيم بالرغم من كل شىء ومهما بدا لى هذا الطريق ضيقا

ويجرى بيرجنت ناحية الكوخ وفى نفس الوقت تظهر سولفيج على عتبة الباب وقد تقدمت بها السنون ٠ وكل بصرها حتى أصبحت تقودها عصاها ٠ تبدو سولفيج فى ثياب الكنيسة وقد حملت فى يمينها كتاب صلاة ملفوفا فى منديل ، ووقفت ساكنة منتصبة القامة وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ٠ وما يكاد بيرجنت يراها حتى يجثو على قدميها قائلا :

بيرجنت : أصدرى الحكم على خاطىء أثيم !

سولفيج : انه هو ٠ انه هو ٠ شكرا لله (تمد يديها لتحسس وجهه) ٠

بيرجنت : اجهرى بكل ما أسلفت اليك من آثام ٠

سولفيج : آثام ! لم ترتكب أى اثم يا ولدى العزيز ٠

السباك : (من وراء الكوخ) أين قائمة الخطايا يا بيرجنت ؟

بيرجنت : (لسولفيج) أعلنى خطاياى ٠٠ أعلنى خطاياى بأعلى صوتك ٠

سولفيج : (جالسة بجواره) لقد جعلت أيامى كلها أغنية جميلة . فليباركك الله لأنك عدت الى ، وليكن مباركا هذا الصباح المشرق الجميـــل .

بيرجنت : اذن فقد انتهيت .. مادمت ترفضين اعلان خطاياى .

سولفيج : سيمد اليك « واحد » يد المساعدة !

بيرجنت : (ضاحكا) انتهيت .. الا اذا استطعت أن تحلى لغزا .

سولفيج : وما هذا اللغز ؟

بيرجنت : اليك فاســـمعى أتستطيعين اخبـارى أين كان بيرجنت منذ أن التقينا فى المرة الأخيرة حتى الآن .

سوليفج : أين كان ؟

بيرجنت : الرجل الذى كان يحمل علامة القدر على جبينه عندما فكر الله فى خلقه ! أيمكنك اخبارى أين هو ؟ اذا لم تستطيعى الاجابـة على هذا السؤال تحتم على أن أذهب الى مقرى الأخير فى أرض الظلال .

سولفيج : (مبتسمة) هذا اللغز من السهل حله .

بيرجنت : أخبرينى اذن أين كانت نفسى الحقيقيـة .. أخبرينى بأمانة وصدق أين كان « بير » الذى يحمل طابع الله على جبينـــه ؟

سولفيج : كان فى ايمانى ، وفى رجائى ، وفى حبى .

بيرجنت : ماذا تقولين ؟انه لغز هذا الذى تقولين .. هكذا تتحدث الأم عن طفلها !

سولفيج : أجل أنا أمه . أما أبوه فهو الذى يهبه الصفح من أجل صلوات أمه (يضىء شعاع من النور على وجـه بيرجنت فيصرخ فزعا) :

أوه .. أخفينى .. أخفينى فى حبك يا أمى !
(ويتعلق بها ويدفن وجهه فى حجرها . لحظة صـــمت طويلة . تشرق الشمس) .

سولفيج : (تغنى برقة) : نم يا ولدى .. يا أعز أولادى ســأهز فراشك حتى تنام .... سأرعاك وأسهر عليك ... نم يا أعز أولادى واحلم أحلاما سعيدة ذهبية .

السباك : (من وراء الكوخ) سأقابلك يا بير عند مفترق الطرق الأخير وعندئذ سنرى ...

سولفيج : (تغنى بصوت عال فى ضوء الشمس البهيج) سأهز فراشك حتى تنام . سأحرسك وأرعاك فنم آمنا مطمئنا واحلم أحلاما جميلة يا ولدى ... يا أعز أولادى .

★★★

وتسدل ستار الختام ، بينما بيرجنت يبكى وينتحب نادما تائبا مستغفرا ، بعد أن وجد السلام والراحة والطمأنينة فى عودته الى حبيبته أو أمه سولفيج ، التى جعلها ابسن رمزا للكنيسة أو الدين أو الايمان .

★★★

ونحن اذ أمعنا النظر فى هذه القصيدة المسرحية ، أدركنا أنها رمز لهذه الملحمة اللانهائية التى تضطرب فى أعماق النفس البشرية ، أنها رمز للصراع الدائم بين رغبات النفس وشهواتها ، وبين ما تفرضه عليها القوانين والآداب والشرائع الدينية والدنيوية . فلقد كانت حياة بيرجنت أشبه بالكابوس المفزع الذى يحاول النائم أن يبعده عن روحه وأن يتخلص منه بالاستيقاظ من النوم الكريه ، ولكن كل محاولات بيرجنت للخلاص من هذا الكابوس لم تزده الا تعقيدا وتمكنا له من نفسه .

فالعروس انجريد كانت من الرغبات الشهية الى نفس بيرجنت ، ولكنها لم تكن كل رغباته ، ولذلك فانه ما أن قضى وطره منها حتى زهدها ثم هام على وجهه أو هام به كابوسه حتى تزوج من ابنه ملك الخلائق الشائهة فماذا أطمعه فيها الا أنها ابنة ملك وما أن نالها حتى زهد فيها هى الأخرى وتركها ، لقد كان يجرى وراء غاية لا يدركها ولا يعرف كنهها كما يفعل الناس جميعا . ثم ما هذا المخلوق العجيب بويجن الذى أخذ على بيرجنت طريقه ، وما معنى قوله انه ينتصر دائما ولا يحارب أبدا .. أيكون بويجن هذا رمزا للزمان ؟ أو رمزا للقضاء والقدر ؟ .. أيكون رمزا لما كتب على كل منا أن يعانيه فى هذه الحياة الدنيا ؟ أم يكون فصلا مخيفا مروعا من فصول هذا الكابوس الفظيع ؟ وهذا السراب من الطير ما خطبه ؟ وأجراس الكنيسة ما شأنها ؟ وتلك النسوة اللائى رددن الطير الجارح عن بيرجنت ، وذعر بويجن منهن بعد ذلك فأعلن استسلامه على حين فجأة ، هل يرمز هؤلاء النسوة الى الكنيسة ؟

وبعد أن عاث بيرجنت فى الأرض فسادا ومر خلال دائرة الخلائق الشائهة وخضع لقوى الشر والخطيئة وسراب الطموح الكاذب ، وبعد أن مرت السنون مسرعة به نحو الشيخوخة الكئيبة والوحدة القاتلة ، اذا به يجد نفسه مضطرا للعودة من نفس الطريق الى مسقط رأسه ، ومكان ميلاده ، بحثا وراء حقيقة نفسه من جديد · وفى طريق العودة يلتقى مرة أخرى بملك الخلائق الشائهة ، تلك الخلائق التى جعلها ابسن رمزا لقوى الشر الكامنة فى أعماق نفوسنا البشرية الضعيفة ولكن الملك لم يكن حينئذ الا شحاذا فقيرا متسولا ، وقد كان ذلك ايذانا بانسحار قوى الشر ·

ويفيق بيرجنت لنفسه بالتدريج فيطرح وراء ظهره الأكاذيب الباطلة والأنانية القاتلة ، ويتخذ الاستقامة طريقا له بدلا من الطريق الملتوى المعوج · وأخيرا وبعد أن تخلص من قوى الشر التى كانت مسيطرة على روحه ، يجد فى نفسه الشجاعة الكافية والاستعداد التام لمقابلة سولفيج الفتاة الطاهرة التى تمثل قوى الخير والايمان بالله · وما أن يقابلها حتى يطلب منها الصفح والغفران : لقد استيقظ ضميره وأصبح فى عنفوان قوته ، وها هو ذا بعد أن قطع طريق الندم والتوبة ، يصبح أهلا لأن يركع عند قدمى سولفيج التى بقدسيتها الملائكية تمنحه فرصة العودة الى نفسه والخلاص من أدران الخطيئة والاثم ·

★★★

الإدارة العلمية

فريدريك تايلور

١٩١١ م

التايلورية ٠٠ ثورة ومبادىء وطموحات

ان الدولة التى تسبق الى اكتشـــاف طرق أفضـــل لتدريب طبقـــة الاداريين والاحتفاظ بالروح المعنوية للعمال ، لابد أن تسبق الدول الأخرى فى مضمار الاستقرار والأمن والتقـــدم ٠

ومشكلة اكتشاف الأفراد الذين يصلحون للقيادة الادارية ، مشكلة أكثر أهمية بالنسبة للدول النامية عنها فى الدول المتقدمة صناعيا ، ذلك لأن المؤسسات الصناعية أو التجارية خصوصا ليست مجرد منظمات تهدف الى الوصول الى غاية اقتصادية فحسب ، ولكنها تشكيل يجمع جهود مجموعة من الناس للوصول الى غاية مثمرة فى المجتمع ومن هؤلاء الناس العمال ورجال الادارة والعملاء والمستهلكون أو بمعنى آخر المجتمع بأكمله ٠

تدل الأبحاث العلمية الحديثة دلالة قاطعة على أهميـــة الدور الذى يقوم به المدير أو المشرف ، بل ربما كان هو أهم عامل فى البيئة الاجتماعية النفسية للعمل ، اذ ان المدير يمثل الادارة فى أعين مرؤوسيه أو عماله ، كما أن درجة تكيفه النفسى ومدى مرونة شخصيته وأسلوب سلوكه ، يؤثر فى سلوك وانتاج من يشرف عليهم ويحدد مستوى الروح المعنوية بينهم ٠

القيادة الادارية الناجحة فى الواقع خليط بين أسس الادارة العلمية والعلاقات الانســـانية ، مع الاستيثاق من أن أهداف التنظيم وأغراضه تستهدف المصلحة المشتركة لكل من يعمل فيه ، وهى فى الوقت نفسه ادارة متحركة تتصف بالمرونة وتتكيف مع الظروف المتغيرة ٠

وقد لمس فردريك تايلور واحـــدة من أهـــم مشـــكلات عصر الثورة الصناعية والتفوق الآلى محرزا بذلك انتصارا فى ميدان من أهم ميـــادين العمل الصـــناعى ٠

وفى ذلك الوقت كانت هناك مشكلة هامة تنحصر فى الشك الذى بدأ يتسرب الى النفوس فى أن الثورة الصناعية الهائلة ، أخذت تعجز عن تحقيـــق وعودهـــا ٠

فالثورة الصناعية التى أحدثت تغييرات جذرية فى أساليب الانتاج وساعدت – باتباع سياسة الانتاج على نطاق واسع – على زيادة نزوة الأمم التى اتبعت أساليبها ·· هذه الثورة سرعان ما اصطدمت صداما مباشرا مع نقيضين هما :

١ – الحاجة المستمرة الى تحقيق المزيد من الربح للمؤسسة الصناعية الرأسمالية ·

٢ – حاجة العاملين فى تلك المؤسسات الى زيادة دخولهم ·

وبدأ تايلور دراساته التى ما لبثت أن اتخذت شكلا علميا وتبلورت فيما يعرف الآن بالادارة العلمية ·

ولد « فردريك وينسلو تايلور » عام ١٨٥٦ من أبوين أمريكيين ميسورى الحال · وقد كانت أسرته تعده لأن يصبح محاميا ولكنه – من كثرة ما قرأ – أصيب وهو فى سن التاسعة عشرة بمرض فى عينيه،أرغمه على التخلى عن الدراسة · وفى عام ١٨٧٥ بدأ فترة من التلمذة الصناعية استمرت ثلاث سنوات التحق بعدها بمصنع « ميدفيل » للصلب ، حيث استطاع خلال السنوات الست الأولى من التحاقه بذلك المصنع التدرج من وظيفة خراط الى منصب كبير المهندسين ·· وهذه طفرة تصور لنا معدن هذا الرجل ومدى كفايته ومقدرته فقد كان مخترعا ذكيا وصاحب اكتشافات هامة فى صناعة الصلب · وقد دفعه طموحه الى الاستزادة من العلم ولم يلبث أن حصل فى وقت فراغه على درجة ماجستير فى الهندسة·

وقد كان يضطر خلال سنواته الأولى كعامل عادى الى مسايرة زملائه فى تعمد الحد من كمية الانتاج · ولكنه بعد أن رقى الى منصب رئيس عمال آلى على نفسه أن يحمل رجاله على القيام بنصيب عادل معقول من الانتاج وساعدته خبرته السابقة على أن يحدد ذلك النصيب المعقول · ولم تكن محاولته تلك بالمهمة اليسيرة ، فقد كان تحديا لما يعتبره العمال حقا من حقوقهم التى لا تقبل الجدل أو المناقشة ، اذ كانوا هم الذين يحددون كمية الانتاج والوقت اللازم له ·

وقد أدرك « تايلور » منذ البداية أن مشكلة الانتاج فى الصناعة الأمريكية أساسها الجهل : جهل رجال الادارة بما يستطيع العمال انتاجه بل وبما يجب عليهم انتاجه وجهل العمال بالطرق التى تؤدى الى زيادة انتاجهم لو قامت الادارة بمعاونتهم فى هذا السبيل وأن زيادة الانتاج انما تعود عليهم بالفائدة والجزاء ·

كذلك رأى « تايلور » أن العمل فى الصناعة الأمريكية يقوم على وسائل ارتجالية مبنية على تقاليد بالية ، اذ كان الصانع يتعلم الحرفة فى أثناء تلمذته عن طريق تقليد زملائه فى المصنع دون تفكير أو تدريب · وما أن يتمكن من اتقان تلك الحرفة ، حتى يبدأ فى مسايرة زملائه فى طريقة العمل · ويقبل ــ دون احتجاج أو معارضة ــ ما قد يعطل انتاجه من تأخير فى ورود الخامات أو المهمات أو استعمال العدد التالفة ·

وكانت الادارة لا تتدخل فى تحديد الانتاج بل تترك ذلك للعمال · فاذا رغبت فى زيادته لجأت الى وضع مكافآت مالية ، حتى تشحذ من همتهم · رأى « تايلور » كل هذه العوامل فبعث فى نفسه الرغبة فى القيام ببحث علمى اختار له أحد الخراطين ودأب على ملاحظته أثناء قيامه بالعمل محاولا بذلك تحليل عمله خطوة خطوة ، باحثا عن العوامل التى تؤدى الى بطء العملية · ثم انتهى من بحثه هذا الى تقرير مبادئه المعروفه بمبادىء « الادارة العلمية » ، وهى تتلخص فى أن الادارة يجب أن تنظر الى العمل على أنه مركب منطقى محدد بأسباب ومسببات ·

ترك « تايلور » مصنع « ميدفيل » عام ١٨٩٠ وأخذ يقوم بأبحاث مستقلة فى الصناعة لعدة سنوات ثم التحق بشركة « بتلهيم » للصلب عام ١٨٩٨ ، وكانت من أكبر الشركات فى صناعة الصلب بأمريكا وقام فيها بتجربة جديدة لاختبار مبادئه · وقد أدت هذه التجربة الى نتائج باهرة ، ذلك أنه تمكن من أن يجعل عاملا واحدا يقوم بتحميل سبعة وأربعين طنا ونصف طن من الصلب فى عربات السكة الحديد فى يوم عمل واحد فى حين كان خمسة وعشرون عاملا ــ قبل القيام بهذه التجربة ــ يحملون اثنى عشرا طنا ونصف طن فقط فى اليوم · وتمكن بذلك من أن يوفر للشركة ٧٥ ألف دولار فى هذه العملية بالذات وأمكنه فى الوقت نفسه أن يزيد دخل العمال بنسبة ٦٠٪ ، وأثبت لأصحاب الأعمال عظم الفائدة التى تعود عليهم اذا ما عالجوا مشكلات الانتاج فى مؤسساتهم على أساس علمى سليم وذلك بدراسة طرق العمل دراسة ذكية مفصلة ·

أخذ « تايلور » بعد ذلك يبشر بمبادئه · وقد ظهرت مدرسة تؤمن بتلك المبادىء ولم يحدث فى حياته العملية أن أضرب العمال احتجاجا على ما كان يقوم به من دراسات ، مع أن هدفه كان أن يتم العمل بأقل عدد من العمال وبأقل قدر من التكاليف ·

ولكن بعض تلاميذه بلغت بهم الحماسة فى تطبيق مبادئه حدا أثار العمال ، فجعلوا يقاومونها خوفا من تنتهى الى الاستغناء عن خدماتهم ،

وحدث فعلا أن قام اضراب كبير فى احدى الترسانات التابعة للحكومة ، وطلب « تايلور » شاهدا أمام لجنة تحقيق تألفت فى الكونجرس الامريكى لبحث التهمة التى وجهها العمال الى المشرفين من أنهم كانوا يدينون بمبدأ « التايلورية » ويحاولون تطبيقها عليهم · وكان مما قاله تايلور أمام هذه اللجنـــة :

« ليست الادارة العلمية هى ايجاد طريقة لانقاص التكاليف ولا هى صياغة قواعد لتنظيم العمل الاشرافى ولا هى دراسة الوقت أو الحركة ··· ولكنها ثورة عقلية شاملة من العامل وصاحب العمل نحو مشكلة الانتاج · وهذه الثورة تتطلب من كلا الطرفين ألا يعطيا الاعتبار الأول من تفكيرهما لمقدار الربح الذى يمكن أن يناله كل من الآخر ، بل يجب على الطرفين أن يعملا على زيادة الانتاج قبل كل شىء حتى يزيدا الأرباح ويزيد نصيب كل منهما منه · كما يجب على الطرفـين أن يعملا على القضاء على الأســاليب التقليدية البالية التى كانت تتحـكم فى سير العمل ، وأن يستبدلا بها الأساليب العلمية الصحيحة التى تعتمد على الأبحاث المنسقة » ·

ولقد لقيت آراء تايلور فى انجلترا نفس المصير الذى لقيته فى أمريكا على يد اتحادات العمال ·

ولعله مما يؤسف له أن المعهد القومى لعلم النفس الصناعى بانجلترا رأى أن يبـدأ عمله بضرورة الاشـارة الى أن أعماله لا تمت بصـلة الى « التـايلورية » ·

ولم يزل هذا التحيز ضد مبادىء « تايلور » قائما فى كثير من دوائر العمل ، وان كانت بدأت تلقى أخيرا قدرا من التأييد فى بعض الأوســاط الصناعيــة النــابهة ·

على أن تايلور نفسه أدرك فى آخر أيام حياته أن مبادىء الادارة العلمية تفتقر الى عنصر هام كى يكتمل لها النجاح · وقد حدا به ذلك أن يذكر « أن هناك نوعا آخر من البحث العلمى الذى يجب أن يلقى عناية فائقة ألا وهو الدراسة الدقيقة للعوامل النفسية التى تؤثر على العمال » ·

والحق أن « تايلور » ــ بالرغم من كل ما قيل عنه ــ كان انسانا كريما واسع الصدر يحبذ سياسة دفع أجور مجزية ·

وكان يرى انه من واجب صاحب العمل أن يفسح مجال الترقى أمام العامل النشيط ·

وقد سجل لتايلور فى حياته ما يربو على مائة فكرة فى ميدان الادارة العلمية ، وكان رئيسا للجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين (١٩٠٦)، وساهم فى تنظيم جمعية تقدم علم الادارة (١٩١١) ، التى أطلق عليها اسم « جمعية تايلور » بعد وفاته • وابتكر « تايلور » قواعد علمية لاختبار عمال مختلف الصناعات وعمال البيع • كما ابتكر أسسا ادارية أشرف بنفسه على تطبيقها حتى آتت ثمارها • وقد شرح ما وفق اليه من ابتكارات فى كتابين هما : « مبادىء الادارة العلمية » و « ادارة المصنع » •

★★★

مبـادىء الادارة العلميـة :

ظهر هذا الكتاب فى عـام ١٩١١ وكان شـاملا أبحاثـه ونظريتـه أو طريقته فى الادارة العلمية ، وقد بدأه تايلور بتحديد أهدافه من البحث فى مشكلات الانتاج الصناعى على الوجه الآتى :

أولا : توضيح الخسارة الفادحة التى يتعرض لها الاقتصاد القومى الأمريكى ، نتيجة لعدم الكفاءة الواضح فى كافة مظاهر الحياة الانتاجية ، وكان يقصد بهذا تبديد الثروة القومية نتيجة لعدم الرشد فى السلوك الانسـانى للأفراد •

ثانيا : محاولة اقناع القارىء أن تيسير علاج ذلك يمكن باستخدام نظم الادارة العلمية وأساليبها وليس بالاعتماد على قادة عباقرة يمسكون بدقة حياتنا •

ثالثا : اثبات أن الادارة الحقة علم ثابت يعتمد على قوانين واضحة وأساليب ذات قواعد ثابتة لا يرقى اليها الشك ، وأن هذا العلم يمكن تطبيقه على كافة مظاهر نشاطنا الانسانى من أبسط العمليات الفردية الى أعقد الأعمال الجماعية •

فتايلور يرى أن « الثروة » متوفرة ويمكن أن تكفى الجميع من عمال وأصحاب أعمال ، على شريطة تصرف الجميع بحكمة والتصرف بحكمة هو علم الادارة فلا عجب اذن أن ينجذب تايلور المهندس تجاه الدراسات التى أصبحت تعرف باسم « الوقت والحركة » •

فبالنسبة له أصبحت تلك الدراسات بمثابة العمود الفقرى للادارة العلمية ، وقد أدى اغراقه فى ذلك الى تحويل كل اهتماماته الى الورشة الصناعية فى المؤسسة ، وبالتالى اهمال المستويات الادارية الأخرى التى قد تتعرض لخطر « الضياع » والعمل الزائد .. بالضبط كالورش الصناعية للمؤسسة .

ولكن ايمان تايلور ذلك ــ ونحن ننظر اليه الآن وبعد عدة عقود على ظهور كتابه ــ له مبرراته القوية وتصورنا للحالة فى المجتمع الصناعى الأمريكى اذ ذاك هو وحده الذى سيساعدنا على ادراك اهتمامات تايلور .

لقد كانت المشكلة البارزة هى « علاقة العمال بالادارة وبأصحاب العمل » ، وكانت الأزمات المتتالية التى عانت منها تلك العلاقة والتى سبقت الاشارة اليها هى أبرز حقيقة تتضح أمام أى منقب أو مهتم بالقضايا الصناعية ، فليس من الغريب اذن أن يرى تايلور أن عداء العمال للادارة ولأصحاب العمل ، أدى الى اعتقاده الراسخ بأن من مصلحته ومن مصلحة زملائه من العمال أن يتباطأ فى عمله قدر استطاعته . وهذا العداء ــ فى رأى تايلور ــ هو أخطر ما يواجه الحضارة الصناعية فتايلور لا يهمه من يملك المصنع بقدر ما يهمه أن لا يتوقف ذلك المصنع أو أن يهبط انتاجيته وهو هنا يذكر فى كتابه احدى الرسائل التى وجهها الرئيس الأمريكى « تيودور روزفلت » فى أحد احتفالات البيت الأبيض الى حكام الولايات ، والتى قال الرئيس فيها :

« ان الحفاظ على ثروتنا القومية يتوقف أساسا على كفاءتنا القومية » .

وتايلور يقول ان تلك الجملة هى فى الواقع نبوءة وهى الرابطة القوية التى تشد اهتمامه فى كل صفحات كتابه . فمنذ البداية ... ودون أن يحاول البحث والتحرى عن الأسباب والدوافع السياسية للنظام الصناعى ، نراه ينجذب نحو نهوض المؤسسة الصناعية بعمالها وأصحابها نحو غاية للكمال ... وهذه هى قضية تايلور .

ويبدأ تايلور كتابه بأبسط التحاليل فهو يدعو القارىء الى التفكير فى أحسن وسائل « الحرث » وليكن حرث حديقة بيته مثلا . وهو يقول ان القارىء العادى لو قضى من ١٥ الى ٢٠ ساعة فى التفكير والتحليل ، لابد وأن يصل بالتأكيد الى معرفة علم حرث الحديقة أى الى معرفة أحسن وسائل « حرث حديقة بيته » . ويرى تايلور أن بساطة ذلك « العلم » هى التى تجعلنا لا نتصور أنه علم ، لأنه يبدو كقضية مفروغ منها ولكن الأمر

ليس كذلك بالنسبة لتايلور فان « علم الحرث » يعنى تحديد « المستوى النمطى » ليوم عمل وهذا يستلزم معرفة دقيقة بالحركات اللازمة لاتمام ذلك العمل · فالادارة العلمية — فى رأى تايلور — لبساطتها يجب أن تصبح أساسا تقوم عليه حياتنا اليومية ، وبالتالى يمكن تطبيق هذه الادارة العلمية على الحياة الصناعية مهما كانت درجة تعقدها ·

وتايلور يبدو كفيلسوف من نوع جديد · فهو يدعونا الى تحسين حياتنا ويقول لنا ان تحقيق ذلك سهل ميسور : فنحن اذا اعتدنا على شىء من التفكير وقدر من الدقة ، أمكن لحياتنا أن تسير وفق « نظام » نسيطر فيه علىحركتنا وعلى قوتنا ونحصل بموجبه على أقصى فائدة منهما ومن هذا المدخل البسيط يبدأ تايلور فى عرض نظريته ··· ان نقص كفاءة العمل هو سبب شقاء البشرية ، وعدم تمكنها من الافادة من التقدم العلمى الكبير الذى هيأته الثورة الصناعية · وفى الفصل الأول من كتابه يعرض لنا أسباب تلك المشكلة فى نقاط ثلاث :

النقطـة الأولى :

الاعتقاد الزائف المسيطر على العاملين الصناعيين والذى يجعلهم يعتقدون أن زيادة ناتج الأفراد والآلات ، لابد وأن يؤدى فى النهاية الى الاستغناء عن أعداد ضخمة من العاملين وتسليمهم الى مذلة البطالة ·

النقطـة الثانية :

عدم كفاءة أساليب الادارة والتنظيم الذى خلق حاجزا كثيفـا بين الادارة والأفراد ·

النقطة الثـالثة :

شيوع الأساليب غير العلمية فى حث الأفراد على العمل وتحفيزهم لتحقيق أهداف المشروع ·

ويتابع تايلور شرح هذه النقاط بصورة أوضح ·· فيقول : لقد أدى الاعتقـاد الزائف المسيطر على العاملين الى تصورهم بأن أى جهـد اضافى يبذله أى منهم يعد خيانة للمجموع ، لأنه سيؤدى الى « فصل » البعض ان عاجلا أو آجلا · ويرى تايلور أن هذا الاعتقاد مبنى على الخطأ · ويكفى للدلالة على عدم صحته أن أى اختراع فنى فى الصناعة أدى الى العكس ··· أى الى زيادة فرص العمل وليس الى التقليل منها ·

أما بالنسبة لتخلف أساليب الادارة ٠٠ فيرى تايلور أن فى الأخذ بأساليب نظامه فى الادارة العلمية ما يكفل تطويرها نحو زيادة الانتاجية ويؤدى شيوع الأساليب غير العلمية الى خضوع وسائل تدريب الأفراد على أعمالهم الى أهواء الملاحظين ورؤساء العمل والمهندسين ، وهذا يؤدى الى تضارب أساليب العمل وضياع جهد كبير ٠ وان استبدال تلك الأساليب بأسلوب مبنى على أسس علمية موحدة سيساعد على تنسيق جهود الأفراد وتوجيه الجهد توجيها أمثل ٠

فى رأى تايلور اذن أن أى عمل فى المؤسسة ، لا يمكن تحقيقه وفقا للطريقة العلمية الا بعد تجربة أدائه مرتين أو ثلاثة حتى نصل الى « مستواه » الصحيح ٠ فالتجربة لها المقام الأول فى نظرية تايلور وهذا — فى رأيه — يقع على عاتق الادارة العليا فهى التى « تأمر » وتوجه للانتاج، وقد نظن أن تايلور قد قصد بهذا الكلام تحويل الانسان الى مجرد آلة منفذة وقد نظن أنه يرى ترك مصائرنا بين أيدى قلة من العباقرة ٠٠٠ والحقيقة أن تايلور لا يؤمن بالمعجزات الميتافيزيقية التى تنتج لنا عباقرة من غير طينة البشر ٠٠٠ انه يؤمن بالانسان البسيط ويؤمن بأن خيال ذلك الانسان هو سر نجاحه وهو الذى يحقق له كل تقدم فالمصادفة لا تتحكم فى مصائرنا ، لأن الخيال لا يتحول الى واقع الا باتباع منهج علمى ٠

والرجل الكفء هو الذى يفكر دائما ويصر على النهوض بعمله وتحقيقه على أفضل وجه وعلم الادارة — فى رأى تايلور — ينبع من هذا التفكير ومن هذا التساؤل ٠

فاذا قامت الادارة العليا باتباع الأساليب العلمية والخبرات العلمية فى أعمالها ، فسيتطلب ذلك بالطبع نشر الوعى الادارى بين كافة المستويات ، حتى يتيسر للجميع ادراك الأساليب العلمية الادارية ٠

ويدرك تايلور مدى صعوبات تحقيق هذه الغاية : فهو يعرف أن الانسان كيان معقد يصعب التحكم فى سلوكه واذا كان البحث العلمى قد أرغمه على اختيار « انسان نمطى » ، فان هذا لا يعنى تشابه الجميع مع هذا الانسان النمطى الافتراضى وبين الانسان الحقيقى فلا ينبغى اطلاقا جعله مساويا للأفراد الممتازين وأفضل من هذا أن يكون ممثلا للأفراد العاديين ٠ ان مثل هذه الطريقة لا تعنى تثبيت هؤلاء الأفراد عند مستوى متوسط أو عادى ، لأن الطريقة العلمية تعنى محاولة الارتقاء بالأفراد العاديين وتحويلهم الى عمال فوق المتوسط ٠

ولتحقيق ذلك يعتمد تايلور أعظم اعتماد على قادة الجماعات الصغيرة ٠٠ أى الملاحظين والمشرفين ٠ وهو يرى « أنهم يجب أن يقضوا كل وقتهم بين الأفراد ٠٠ يحثونهم على التفكير المتقدم ويقودونهم ويوجهونهم لأداء أعمالهم على أحسن وجه » ٠ وفى رأيه أن ذلك يتطلب غاية الوضوح فى توزيع الأعمال والاختصاصات حتى يعلم كل فرد من هو رئيسه المباشر الذى يتلقى منه الأوامر والتوجيهات ، ولكنه يستدرج فيحذر من المبالغة فى ربط المرؤوسين برؤسائهم ولا غرابة فى هذا ٠٠٠ فتايلور من أنصار « النظام » الادارى لا « العلاقات الشخصية فالنظام الادارى يجعل التنظيم يعمل كالساعة ٠٠٠ كل جزء له وظيفة معروفة والعلاقات بين مختلف الوظائف تتم وفقا لروتين لا يتغير ٠

ومع ذلك ٠٠٠ فالانسان فرد ، وفرديته ــ فى رأى تايلور ــ لا تتعارض مع النظام بل على العكس يصونها النظام ٠ فالضمان الوحيد للفرد هو أن عمله فى المؤسسة سيناسب مؤهلاته « الفردية » وشخصيته ومزاجه ٠٠ وتركيبه ٠ وهذا كله يتحقق بوضعه ضمن نظام علمى دقيق ومبنى على دراسة كيانه كفرد ومعرفة اتجاهاته وميوله ٠ فاذا تم ذلك ٠٠ رضيت نفسه فلا يشعر بالكآبة والحزن ، واذا أحس بأن عمله القائم لا يرضيه نقل فى الحال الى عمل آخر يلائمه ٠ فالنظام العلمى يكفل له هذا ، ولكنه لا يحتمل منه الانتظار بل يتطلب دائما أفضل الأعمال فى أحسن الأوقات ٠ وهنا لا تكون هناك حاجة لتدخل الرؤساء والمديرين لفترات طويلة ولو حدث تدخل ، فانه يتم فى أضيق الحدود ٠

فالقائد الادارى ــ فى رأى تايلور ــ لا يجب أن يتلقى سوى تقارير مبسطة وملخصة ومقارنة ولكنها ــ برغم ذلك ــ تغطى كل الأمور الواقعة تحت سلطته ، وما دام النظام العام للمؤسسة يسير على روتين واضح ثابت، فان تدخل الرؤساء يكون على نطاق ضيق ٠٠ أى فى الأمور الاستثنائية فحسب على حد تعبير تايلور وهى تلك الحالات التى لم يسبق ادراجها ضمن النظام العام للمؤسسة ٠

ويشرح تايلور بعد ذلك طريقته العلمية ٠٠٠ وهو يرى أنها تقوم على سبع دعامات هى :

١ ــ تقسيم الأعمال الرئيسية فى المؤسسة واللازمه لاتمام العملية الانتاجية ثم اعادة تقسيم كل منها الى « أعمال فرعية » وهكذا حتى نصل الى العناصر الأولية للأعمال المختلفة ٠

٢ ـ دراسة وتحليل تلك الأوليات والفروع والأصول ، حتى يمكن الوصول الى تحديد ما لا حاجة له ، أى حصر العمل الزائد الذى لا تحتاجه العمليـــة فعـــلا ٠

٣ ـ دراسة وتحليل طرق أداء الأفراد للأوليات والفروع والأصول بحيث يمكن ـ مع مراقبة أعداد متفاوتة من الأفراد ـ الوصول الى أفضل طريقة لأداء كل حركة مع تحديد الوقت اللازم لأدائها ٠

٤ ـ انشاء سجلات للأعمال المختلفة والأوقات الزمنية اللازمة لكل منها ، حتى يمكن الوصول الى المستويات النمطية لكل الأعمال ٠

٥ ـ اضافة وقت اضافى لمواجهة المفاجآت أو الحوادث غير المتوقعة٠

٦ ـ تحديد نسبة أخرى من « الزمن الاضـــافى » لمواجهة نقص التدريب أو عدم التعود على العمل ٠

٧ ـ دراسة وتحليل الأدوات والأحوال المحيطة والمرتبـطة بكل عمل ، حتى يمكن العمل على تحسينها تحت كل الظروف ووضع مستويات نمطيـــة لهـــا ٠

ثم يشرح تايلور هذه الطريقة بافاضـــة ويعقد مقارنة بينها وبين الطريقة العشوائية السائدة ٠٠ ويقول : ان أهم ميزة لطريقتى العلمية هى أنها تعطى زمام المبادأة للادارة العليـــا للمؤسسة فباستبدال طريقة الأنماط بالعشـــوائية والشخصية تستطيع الادارة أن تتحكم فى ســـير العمليات الانتاجية وتوجيهها وفق رغبتها وبمزيد من الدقة ، فان هذا يعنى أن لهذه الطريقة مزايا أربعا :

١ ـ أنها تجعل لكل عمل « نظاما » علميا بدلا من العشوائيـــة الســـائدة فى الادارة ٠

٢ ـ أنها تختار وتدرب الأفراد علميا على تأدية أعمالهم بدلا من ترك ذلك للأهواء الشخصية للملاحظين ٠

٣ ـ أنها تخلق رابطة بين كافة الأفراد ٠٠ أساسهـــا « النظام العلمى » لتـــأدية سائر الأعمال ولا تترك التعاون بينهم فريســـة للأهواء والظروف ٠

٤ ـ أنها تقسم المسئولية بوضوح بين الادارة والعاملين بدلا من تركها حائرة بين الاثنين ٠

ويضرب تايلور أبسط الأمثلة وأعقدها لتجربة تطبيق طريقته فيبدأ بعملية « حمل كتل الصلب » فى الورشة وهى من أبسط العمليات التى لا تستخدم فيها العمال سوى أيديهم ويقرر تايلور أنه بمراقبة عمل حوالى ٧٤ عاملا يشتركون فى تلك العملية ، لاحظ أنهـا تتكون من الخطوات التاليـــة :

١ ــ الانحناء وتلقى ما زنته ٩٢ رطلا تقريبا من كتل الصلب ٠
٢ ــ حمل ذلك الوزن والسير به بضع خطوات ٠
٣ ــ الانحناء لالقاء الكتلة المحمولة فى مكان آخر تنقـل منـه الى داخـل الورشـة المختصـة ٠

ويقرر تايلور أنه بدراسة حركات هؤلاء الرجال أثناء العمل ، استطاع أن يصل الى توقيت دقيق للعملية بجميع خطواتها ٠ ثم اختار عاملا يمتاز بقوة الجسد وطلب منه العمل تحت اشرافه واتباع تعلياته بدقة وبالفعل وقف تايلور يرشد ذلك العامل ويقول له متى ينحنى ٠٠ متى يقف ٠٠ متى يسير ٠٠ متى يستريح ٠ الـخ ٠

وهكذا تحقق تفوق هائل فى كفاءة عمل هذا الفرد ، ففى البداية كان متوسط ما يحمله هذا الفرد من كتل الصلب فى يوم من أيام العمل هو حوالى ١٢ طنا ٠ وبعد ذلك ٠٠٠ وبعد تطبيق الطريقة العلمية ٠٠ أمكن هذا العامل أن يحمل حوالى ٤٧ طنا فى يوم عمل وحقق لنفسه أجرا أضافيا يوازى ٦٠٪ من أجره اليومى ٠

ويستخلص تايلور من ذلك أن صلة الانسان بالآلة قابلة للتغيير ، نتيجة للوعى الانسانى بعمل الآلة والقدرة على أقلمة النشاط الانسانى تبعا لمواصفات العدد والآلات واحتياجات العمل الأصلية ٠

وقد ظن الكثيرون من الباحثين أن تايلور قد ساعد بهذا الرأى على تسخير الانسان فى خدمة الآلة ٠ وليس العكس ٠٠ وهذا قصور بعيد عن الحقيقة ٠ فلم ينس تايلور أبدا أن الآلة من صـنع الانسان ولكن تعقد العملية الانتاجية واتساعها ، يمكن أن يحول الآلة الى عبء على الانسان ما لم يكن يعرف جيدا كيف يمسك بزمامها ويسيطر عليها ٠ والسيطرة على الآلة معناه النفاذ فى أعماق شىء جامد لا احساس فيه ومحاولة تفهم نظامه وميكانيكيته وهذا أمر شاق يتطلب جهدا كبيرا خلافا لما يعتقد ٠

ولتوضيح ذلك ، يضرب تايلور مثلا بالعامل الذى يقف فى مكان معين من خط الانتاج ويقتصر عمله على انزال يده كل فترة محددة بدقة ليضع جزءا بسيطا فى هيكل معدنى يمر أمامه بنظام ميكانيكى تحكمه الآلة التى تحمله من قسم لآخر • فالآلة فى هذه الحالة لا يمكنها فهم العامل ولن تستجيب الى رجائه وتوسلاته ، ولكنها تستجيب الى النظام الذى فرض عليها وما لم توضع طريقة تنظم صلته بالآلة ، فاننا سنفقد حتما سيطرتنا عليها ونصبح حينئذ عبيدا لها •

ويتبع تايلور نفس هذا المنطق الذى أثبت به كيف تبدد جهود البشر فى اثبات أسباب استنزاف الثروات المادية وضياعها • فالحركات الزائدة •• أو غير المنظمة •• أو غير الموجهة للناس هى المسئولة عن هذا الضياع • هذا يعنى أن الانسان هو المسئول الأول والأخير عن عمله وعن مدى ما يحصل عليه من الثروات المادية • وهذه المسئولية تقتضى ضرورة توعية الأفراد ، لأن الوعى ينبغى أن يتوفر للجميع من رؤساء وعمال على حد سواء فهو الذى سيساعد على خلق روابط سليمة بينهم •

ويضرب تايلور أمثلة لتأكيد ذلك من تجاربه الخاصة فى مصنع « ميدفال » للصلب ، فهو عندما لجأ الى وسائل الاقناع قد كسب رضاء العمال وودهم وهذا يعنى تفوق هذه الأساليب على أساليب القهر والضغط التى كان يلجأ اليها بعض الملاحظين والمشرفين فى أقسام أخرى من المصنع • والجانب الانسانى — الذى يركز عليه تايلور دائما — لا يجب اغفاله نهائيا • وقد قيل فى نقد تايلور انه قد حول العلاقات الانسانية — فى نظريته — الى شىء أشبه بالعلاقات الميكانيكية التى لا روح فيها وذلك باخضاعه العمل الانسانى لأنماط دقيقة شديدة الصرامة فى توقيتها •

وقد رد عليه تايلور عدة مرات فى كتابه وبطرق غير مباشرة حين أشار الى تفوق الانسان دواما اذا توفرت له القدرة على التحكم الدقيق فى أعماله • وليس هناك ما يمنع من مساعدة الآخرين بواسطة الخبراء على تحقيق هذا التحكم •

ويدرك تايلور ما يقال عن النفقات الباهظة التى تتكبدها المؤسسة فى حالة لجوئها الى الأخذ بالأساليب العلمية ، بسبب حاجتها الى أشرطة تسجيل ونماذج مطبوعة وكتب وخبراء دراسات وقت وحركة ••• الخ •

ولكنه يثبت لنا أن استخدام طريقته ـ رغم كافة التكاليف السابقة ـ قد حقق وفورات هائلة كما ظهر فى شركة ميدفال للصلب وشركة نبلهايم للصلب وهما الشركتان اللتان اتبعتا طريقته فترة ما ، فقد زاد الانتاج فى أحد الاقسام ووصلت وفوراته الى ما قيمته ٣٦ ألف دولار سنويا ٠

ويؤكد تايلور أن فى تعميم طريقته ما يضمن الحصول على المزيد من الوفورات ٠ وحدوث ارتفاع أكيد فى مستوى دخول الأفراد العاملين فى المؤسسة ٠ وهو يستند فى هذا الرأى الى تجربته الشخصية والى النتائج التى حصل عليها عندما طبق طريقة دراسات « الوقت والحركة و « تحقيق مستويات نمطية للأداء » ٠

ويهاجم تايلور هجوما شديدا الرأى الشائع فى بعض أوساط العمال بأن زيادة انتاجية العامل يؤدى حتما الى نقص العمالة ، وهو يرى أن زيادة انتاجية الفرد تساعد على زيادة فى انتاجية المجموع ورفاهيتهم ٠ ان الزيادة فى الثروة تعنى فى آخر المطاف زيادة فرص العمل وليس تقليلها ٠ ويحرص تايلور أشد الحرص على تفهم العمال لهذه الحقيقة ٠

ومن المسائل التى عنى تايلور بتأكيدها مسألة خبرة الرؤساء وخبرة الأفراد عن طريق تدريبهم ٠ فالمستويات النمطية لا تتحقق الا بالملاحظة المستمرة الطويلة والتى تتم على أسس علمية دقيقة وسجلات تحليلية حافلة ، ولا يتأتى نجاح الهدف من استنباط تلك المستويات الا بفهم الأفراد لها واقتناعهم بها ٠

وغنى عن البيان أن الطريقة العلمية تفوق فى مزاياها الوسائل النظرية التى تعتمد على الضغط والاكراه والاتصالات الشخصية والتقديرات الجزافية والفردية ، وقد يحسن اجمال مزاياها فيما يلى :

فمن ناحية ، تضمن الطريقة العلمية وجود علاقة عادلة بين الأجر الأساسى والجهد المبذول ٠

ومن ناحية أخرى ، الأجور التشجيعية حق مقابل لناتج اضافى حقيقى وهذا هو خير حافز للأفراد للنهوض المستمر بالانتاج ، لأن دافع الكسب سيحثهم على مواصلة الانتاج ٠

هذا الكلام يكشف عن جوهر مذهب تايلور ومبتغاه ٠ فالمؤسسة الصناعية ـ فى مذهبه ـ لا تبرير لوجودها الا بتحقيقها المستمر والدائب للأرباح ، فالربح هو المقياس الوحيد لنجاح المؤسسة الصناعية ، لأنه يعنى

انها أعطت أكثر مما أخذت وبالتالى عملت على زيادة الثروة القومية · ولكن هذا وحده لا يكفى فمن الواجب أن يشعر العاملون بالمؤسسة الصناعية بأرباحها ··· فى شكل زيادة الأجور والمهايا بقدر يتوافق مع كل زيادة فى الأرباح ·

وأخيرا ··· يجب ألا يتحقق الربح للمؤسسة والعاملين فيها نتيجة لارتفاع مستمر فى أسعارها ··· والا كان معنى ذلك أن المجتمع هو الذى يدفع ثمن هذا النجاح ·

ولكن الغاية التى يسعى تايلور لتحقيقها ليست « مثالية » بأية حال ، فهو لا يدعو أصحاب الأعمال الى التضحية بأرباحهم فى سبيل « اخوانهم » من العمال ، وهو أيضا لا يفترض أن العمال ملائكة يمكن أن يضحوا بأجورهم فى سبيل أسعار منخفضة للانتاج ·

ان تايلور من البراجماتيين ، وهذا يعنى أنه من المؤمنين بالناحية العلمية ··· فهو يدرك تماما أن زيادة الانتاج ستزيد الأرباح والأجور وستساعد على انخفاض الأسعار وبالتالى على اشباع الرغبات كافة ·

وأكثر من ذلك ··· فهو يقدم أساليب تحقيق تلك الزيادة ويقدمها بعد دراسات مستفيضة ، قام بها هو بنفسه واستغرقت أكثر من عشرة أعوام أمضاها فى الورش الصناعية وكذلك قام بها غيره من مهندسى الصناعات بعد أن تأكدت لهم صحتها ·

وفردريك تايلور صاحب رسالة ·· وهى رسالة جديدة فى مضمونها وفى أهدافها ، وقد يتصور البعض ــ وهو يقرأ لتايلور مرة ــ أنه يحاول أن يحيلنا جميعا الى مهندسين ··· فى رعاية حدائقنا الخاصة وفى قيادة سياراتنا وفى ادارة بيوتنا وفى طرق أكلنا ونومنا وذهابنا الى أعمالنا · وقد يكون هذا صحيحا وقد يكون نتاجا طبيعيا لعقلية تايلور فى تجربته الاجتماعية ··· ولكن سرعان ما يتبين لنا ــ ونحن نقلب صفحات كتابه ونتفهم أفكاره ــ أن المؤلف رائد حركة صناعية هامة · فهو بحق رائد ثورة ، ثورة من نوع جديد لا تهدف الى نزع الجذور الممتدة فى قلب المجتمع أو المساس بعلاقات الانتاج وانما هى ثورة تهدف الى تشكيل الأسس الصناعية تشكيلا جديدا ·

وثورة تايلور يمكن النظر اليها ضمن اطار الثورة التكنولوجية التى صاحبت الثورة الصناعية وأعقبتها ، وبهذا يكون مكان تايلور بين

أنصار الثورة الصناعية ٠٠ وليس بين الثائرين عليها ٠ فتايلور الذى عاصر أزهى سنوات التفوق الصناعى فى الولايات المتحدة ٠٠٠ وأعنفها ـ لم يفقد ايمانه قط بالقيم والعلاقات التى تمخضت عنها تلك الثورة للانسانية ٠

فليس فى كتاب تايلور ذلك التمرد الذى نعهده فى كتابات المفكرين السياسيين والفلاسفة الذين عاصروا تلك الثورة ، ولهذا فان مكانه يجب أن يكون بين المخترعين أمثال « وات » الانجليزى ٠ فثورته التى يمتلىء بها كتابه هى ثورة تكنولوجية أكثر منها سياسية واجتماعية ، لذلك مازال كتاب الادارة العلمية ـ حتى يومنا هذا ـ من المراجع الأساسية لدارسى الهندسة الصناعية والباحثين فى علم التنظيم الادارى ٠ بل انه لم يحدث فى التاريخ المعاصر أن حظى أى مؤلف فى علم الادارة فى مجتمع « رأسمالى » بمثل ما ناله كتاب تايلور من المعسكر الشيوعى من اعتراف به وقبول لما جاء فيه ، فان لينين وستالين ، قطبى الثورة البلشيفية ، لم يعترفا بأصالة نظرية تايلور فحسب ، بل اعتبراها معا أحدث « اختراع » فى عالم الادارة ، وكررا الدعوة الى ضرورة تعلم تلك النظرية وتطبيقها بقدر الامكان فى المؤسسات الصناعية السوفيتية ٠

فالادارة العلمية قد أصبحت فوق كل خلاف فى السياسة وأدخل تايلور بكتابه ـ لأول مرة ـ دراسات التنظيم والادارة من باب المعرفة الواسع الذى دخلته من قبل فروع الدراسات العلمية الأخرى ٠

★★★

مراجع مختـــارة

١ ـ قصة الأدب فى العالم	د٠ أحمد أمين
٢ ـ شـخصيات تاريخيـة من سقراط الى راسبوتين	على أدهـــم
٣ ـ من أعلام الأدب الفرنسى	د٠ جلال حسن صادق
٤ ـ من أعلام الأدب الأوروبى	على كامل
٥ ـ من أعلام الأدب الانجليزى	كامل عبد المجيد ـ فؤاد فهمى
٦ ـ بديع الزمان الهمذانى	مارون عبود
٧ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى	د٠ اكرام فاعور
٨ ـ فى الأدب المصرى القديـم	أحمد عبد الحميد يوسف
٩ ـ فولتـــير	سليم سعده
١٠ ـ فلاسفة أيقظوا العالم	د٠ مصطفى النشـار
١١ ـ خطباء صنعوا التاريخ	أنور أحمد
١٢ ـ قصـة الحضارة	ديورانت
١٣ ـ أعلام الفن القصصى	هنرى توماس ـ دانالى توماس
١٤ ـ دائرة معارف الشعب	دار الشعب
١٥ ـ الخطابة	نقولا زيادة
١٦ ـ أدباء العرب	بطرس البستانى
١٧ ـ أبو نواس	ابن منظور المصرى ، تقديم ودراسة عمر أبو النصر
١٨ـ الحب فى التراث العربى	د٠ محمد حسن عبد الله
١٩ ـ فولتـير	أندريه كريسون ، ترجمة د٠ صباح فخر الدين
٢٠ ـ الرسائل الفلسفية لفولتير	ترجمة عادل زعيتر
٢١ ـ دراسـة الحب فى الأدب العربى	د٠ مصطفى عبد الواحد
٢٢ ـ الحضـارة الانسانيـة بين الشرق والغرب	سامى اليافى

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى

ى. رادو نكاياوم جابوتنسكى
الإلكترونيات والحياة الحديثة

آلدس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت. و. فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر. ج. فوريس و ا. ج. ديكستر هور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستر ديل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

أولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود . صيانتها
تصنيفها — عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د. محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة . الانجليزية
والفرنسية

د. عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
أصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادينيت
القوة النفسية للأهرام

د. صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف نى ماتلو
تولستوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل وأحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبورج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض . ماركس
والماركسيون

ف. ع. ادينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه .
وسائطه »

د. نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د. فاضل أحمد الطائى
أعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د. السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى
منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د. روجر ستروجان
هل تستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

ا. سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر
القديمة

د. ناعوم بيترونيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور
الوسطى

د. لينوار تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية ازاء مصر

د. جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى
السنة

بيير البير
الصحافة

د. غبريال وهبة
أثر الكوميديا الالهية لدانتى
فى الفن التشكيلى

د. رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د. محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم
متغير

فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى
الوطن العربى

د. محى الدين أحمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج. دادلى آندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د. جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت
وأين توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى
حرب الفضاء

د. السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د. مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر — الدراما — الحكاية —
القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

انطونى دى كرسبنى وكينيث هينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكى ف٠ س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوى
اجهزة تكييف الهواء

بيتر راى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى

س٠ م٠ بورا
التجربة اليونانية

د٠ عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية

رونالد د٠ سمبسون ونورمان د٠ اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د٠ انور عبد الملك
الشارع المصرى والفكر

ولت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد ٠ س٠ هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على

الان كاسبيار
التذوق السينمائى

سامى عبد المعطى
التخطيط السياحى فى مصر بين النظرية والتطبيق

هربرت هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمى المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما فى المجتمع

دور كاس ماكلينتوك
صور افريقية ٠ نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة
د٠ محمود سرى طه
الكومبيوتر فى مجالات الحياة

بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الأعضاء فى الألف اليـاء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى

جون ٠ ر٠ بورر وميلتون جولدينج
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبى
الفكر التاريخى عند الاغريق

د٠ صالح رضا
ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر

م٠ هـ كنج وآخرون
التغذية فى البلدان النامية

جورج جامو ف
بداية بلا نهاية

د٠ السيد طه السيد ابو سديرة
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى

جاليليو جاليلية
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هو
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب٠ كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د٠ توماس ا٠ هاريس
التوافق النفسى ـ تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ،
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافى روائع الآداب العالمية ج ١

روى آرمز
لغة الصورة فى السينما المعاصرة

ناجاى متشيو
الثورة الاصلاحية فى اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البى وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسمـاعيل
التمليل والتوزيع الاوركسترالى

ابو القاسم الفردوسى
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلى
قيام الدولة العثمانية

تونى بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور ، شين ين بنج وآخرون
مختارات من الآداب الآسيوية

ناصر خسرو علوى
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى ٧ ج

جان لويس بورى واخرون
فى النقد السينمائى الفرنسى

العثمانيون فى اوربا
بول كولز

موريس بير برابر
صناع الخلود

ريجمونت هبر
بماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت ثيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر ميكوللز
السينما الحيالية

ادوارد سبرى
النقد السينمائى الأمر

بطالى لويس
مصر الرومانية

سيفن اورمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ج

موسى براج واخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فاسر بكار
لهم يصنعون البشر ج

عاطف محمد الجرار
ماسنريخت

اسرار كريم الله
من هم انتتار

ج س فريز
الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج

د. وريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهنديه

لوريتو نود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى الف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية ٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة ٢ ج

بادى اونيمود
افريقيا — الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

ادم متز
الحضارة الاسلامية

فاسى بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
ذكريات رحلة فاسكو داجاما

بيترى شابرمار
كوننا المتمدد

سوفدارو
الفلسفة الجوهرية

مارفن فار كربعد
حرب المستقبل

فرانسيس ج برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباش
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فى المايم والبانتومايم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ ماثيو
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ماليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى ٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الأمريكى

هارى ب ناش
الحمر والبيض والسو

جوزيف م يوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف بندهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

س ج هـ جيمس
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق ٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيربين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

فورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد مصر الدين السيد
اطـلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى
والأمن القومى العربى ؟

ـ ليوبوسكالما
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينر
معجم التكنولوجيا احيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٠ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين
والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسـان

ت٠ ج٠ جيمر
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسـام الدين زكريا
انطون بروكنر

اررا ف موجل
المعجزة اليابانية

وشرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دامير
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوريف وهارى فيلدمان
ديناميه الفيلم

ج٠ كونتنو
الحضارة الفينيقية

أرنست كاسيرو
فى المعرفة التاريخية

كنت أ كنشس
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند وجـاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسوليني

الوير جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف البنبى
مخ ر ت من الشعر الاسبانى

روبرت سكولز وآخرون
آفاق ادب الخيال العلمى

ب٠ س ديفيز
المفهوم الحديث للمـكان والزمان

س٠ هوارد
اشهر الرحـلات الى غرب افريقيـا

و٠ بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمـير تيمانيـانو
تاريخ أوربا الشرقية

جابرييل جاجارسيا ماركيز
الجنرال فى المتـاهة

هنرى برجسون
الضـحك

مصطفى محمود سليمان
الزلزال

م٠ و ثرنج
ضـمير المهندس

م٠ ر٠ جرنى
الحيثيون

سنيبو موسـكاتى
الحضـارات السامية

ـ البرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

حمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٥٢٤١

ISBN — 977 — 01 — 5654 — X

الألف كتاب
الثاني
٢١٣

أحمد محمد الشنواني

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء التاسع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء التاسع
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Nine
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1998
الناشر	دون ناشر
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	977- 01- 5963 - 8
المستخلص	يتناول الجزء التاسع من موسوعة " كتب غيرت الفكر الانسانى " مد من امدادات التاريخ على مر العصور مستعرضا فى تلك الموسوعة عصارة اهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والادب والتى اثرت تاثيرا عظيما فى الفكر الانسانى على مر الدهور والتى تعد بحق من الاعمدة فى الحضارة الانسانية ومن ابرز الكتب التي تضمنها هذا الجزء " ملحمة عنترة بن شداد - فلسفة جحا - نقد العقل العملى والنظرى - الابطال ".
URL	*www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022111-001*

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء التاسع

أحمد محمد الشنواني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٨

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

الاشراف العام

الدكتور/ سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

سكرتير التحرير

هلياء أبو شادى

المشرف الفنى العام

محسنة عطية

الفهـــــــرس

الموضوع	الصفحة
مدام بوفارى	
جوستاف فلوبير ١٨٥٧ م	٢١٧
رسالة الخلود	
محمد اقبال ١٩٣٢ م	٢٣٧
الهوامش	٢٦٦
مراجع مختارة	٢٦٩
الفهرس الشامل للأجزاء التسعة	٢٧٠

مقـــدمة

يهدينا التاريخ الى أن كل عمل عظيم لابد أن يقوم على أساس فكرة عظيمة . فقد جاء الرســـل والأنبيـــاء ومعهم الكتب المنزلة ، وهـــل ينكر أثر القرآن الكريم والكتب المقدسة فى مسيرة التاريخ وتشكيل حياة البشر ؟ كذلك جاء عباقرة البشر من العلماء والمفكرين ، فهل ينكر أثر « جمهورية أفلاطون » فى تطوير نظـــم الحكم ، أو أثر « ديكارت » فى تقديس العقل فى كل عمل يقوم به ؟ .

ان كتابا مثل كتاب « الأمير » لميكيافيلى استطاع أن يرسم سياسة محددة لايطاليـــا تهدف الى تخليص الوطن من الاعتـــداء الأجنبى ، وكان لكتاب « العصيان العام » لهنرى ثورو أثر مباشر فى تفكير غاندى وأتباع سياسة « المقاومة والسلبية » التى نجحت فى تحـــرير الهند من نير الاستعمار البريطانى . كما كان لكتاب « الادراك العام » لتوماس بين دور كبير فى تحرير أمريكا . ولكتاب « كوخ العم توم » للكاتبة الأمريكية هاريت ستو ــ فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكيـــة ــ نتائجه فى حركة تحرير العبيد .. ولكتاب ماركو بولو أثر ضخم ، فهو الذى كشف لأهل الغرب كنوز الشرق .. ورسالة كولمبس التى كتبها عام ١٤٩٣ عن رحلته الى أمريكا كان من نتيجتها خـــروج أمريكا الى حيز الوجـــود المعروف الآن ، وبات لها هذا الدور الضخم الذى تلعبه فى العالم وحضارته ..

ومن ذا الذى ينكر أن الثورة الفرنسية التى اندلع لهيبها فى أواخر القرن الثامن عشر كانت ثمرة لما كتبه جماعة من كبار الكتاب أمثال فولتير

وروسو ؟ وأن كتاب « عالم واحد » تاليف ويندل ويلكى ، الذى نشره عام ١٩٤٣ وبشر فيه بفكرة العالمية ، كان أساسا من الأسس التى ارتكز عليها انشاء هيئة الأمم المتحدة ؟! ..

وليست هذه الا أمثلة قليلة جدا ..

فالكتب العظيمة والرائدة فى التراث الفكرى العالمى ، التى أثرت تأثيرا عظيما مباشرا أو غير مباشر فى سير التاريخ أو تطور العلوم أو العلاقات الاقتصادية أو سلوك البشر أو ثقافة الانسان وحضارته بصورة عامة .. كتب كثيرة متنوعة على مدى التاريخ الانسانى كله .

وبرغم أهمية تلك الكتب ، فمن النادر أن تجد شخصا قرأها جميعا ، وذلك لصعوبة الحصول عليها مجتمعة مؤلفة أو مترجمة ، أو لندرة طباعتها ... ولذا كان تفكيرى فى اصدار هذه الأجزاء من هذه الموسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » استجابة لحاجة ملحة شعرت بها ، وهى ضرورة التعريف بروائع تلك الكتب الخالدة ، التى تؤلف الركيزة الأساسية التى يمكن أن يقوم عليها بناء الثقافة وتكوين الانسان الواعى المثقف ، خاصة وأن الكثيرين — ومن الشباب بالذات — لا يكادون يعرفون شيئا عن بعض هذه المؤلفات .

وهأنذا أقدم اليك عزيزى القارىء « الجزء التاسع » من هذه الموسوعة لتكتمل فيها عصارة ١٢٤ كتابا ، من أهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والأدب ... والتى أثرت تأثيرا عظيما فى الفكر الانسانى على مر الدهور ، والتى تعد بحق من الأعمدة فى الحضارة الانسانية .

والله أسأل أن ينتفع بهذه الموسوعة بأجزائها ويجعلها خالصة لوجهه .

فانه نعم المولى ونعم النصير ..

المؤلف

حرب البيلوبونيز

ثوكيديدس

٤٠٤ ق.م

كثيرا ما يطلق على المؤرخ اليونانى هيرودوت (١) « أبو التاريخ » ، ولكن بعض الباحثين يرى أن واضع أساس الكتابة التاريخية الحقة هو المؤرخ ثوكيديديس . وقد تناول هيرودوت فى كتابه (عالم البحر الأبيض المتوسط) الفترة من نهـــاية القــرن التاسع الى آخر القــرن الخامس (ق . م) . أما ثوكيديديس فقد اكتفي بكتابة التاريخ السياسي للعصر الذي عاش فيه وأرخ للحرب البيلوبونيزية (٢) التي اشترك فيها بوصفه قائدا أثينيا ، وبطبيعة الحال كان المجال الذى اختاره أقل اتساعا وأضيق حدودا من المجال الواسع الذي آثر هيرودوت أن يجول فيه ويصول .

وقد يبدو لأول وهلة أن ما قام به ثوكيديديس يعد هينا سهلا الى جانب ما تناوله هيرودوت فى كتابه . ولكن الواقــع أن فهم الانســان لاتجاهات عصره ونزعاته ومختلف تياراته — وهى فى دور التكوين — ليس من الأمور الهينة ، ولهذا السبب لم يظفر العلماء الذين بدأوا حركات جديدة في الأدب والسياسة والاجتماع بالتقدير المناسب فى حياتهم . وقد استطاع ثوكيديديس أن يفهم الكثير عن حالة عصره النفسية ، وأن يروى لنا أحداثه فى نزاهة قليلة النظير ، حتى أصبحت كتابته التاريخية نموذجا يحتذى ، ومثلا فى الأمانة والدقة وصدق الوصف وبراعة التحليل . وذلك برغم أن ثوكيديديس مات قبل أن يتم كتابه .

ثوكيديديس ونشأته

وما نعلمه عن حياته جد قليل ، ولد فى عام ٤٦٥ ق.م على الأرجح من أسرة أثينية ثرية . وكانت أسرته تنتسب الى البيت الحاكم فى تراقيا ، وكان يمت بصلة النسب والقرابة الى ملتياديس بطل معركة ماراثون ، وورث عن أبيه ضيعة بهــا مناجــم للذهب فى تراقيا . وقد تأثر تفكيره

بالثورة الشاملة التى أحدثها الفلاسفة السوفسطائيون (٣) ولم يتخذ له مذهبا خاصا من مذاهبهم . وانما تعلم من هؤلاء المفكرين درسا مهما ، وهو أن يمحص الأخبار ويختبر الحقائق ولا يتأثر فى أحكامه بالتقاليد وأن يخضع كل شىء للمنطق . ويتجلى تأثير المعركة السوفسطائية فى الربع الثالث من القرن الخامس قبل الميلاد حينما نوازن بين طريقة هيرودوت فى كتابة التاريخ ، وطريقة ثوكيديديس .

ثوكيديديس وحرب البيلوبونيز

كان ثوكيديديس فى الرابعة بعد الثلاثين حينما نشبت حرب البيلوبونيز فى سنة ٤٣١ ق.م. وقد اعتزم منذ أوائل الحرب أن يسجل أحداثها . وفى سنة ٤٢٤ ق.م عين قائدا على الأسطول الأثينى وعهد اليه بمقاومة القائد الاسبرطى (براسيداس) وبمنعه من الاستيلاء على (أمفيبوليس) ، ولكنه تريث فى تحركه فتمكن براسيداس من اقتحام المدينة قبل أن يصل ثوكيديديس لرده عنها ، وعوقب من أجل ذلك بالنفى لمدة عشرين سنة من أثينا . وقد استغل نفيه وفراغه الطويل فشرع فى الرحلات والتنقل لمشاهدة أماكن القتال حتى وصل الى صقلية ، وحاول ان يعرف أساليب أعداء أثينا فى حروبهم والدوافع التى ساقتهم الى خوض غمار الحرب . وعاد الى أثينا فى سنة ٤٠٤ ق.م. ومضى فى محاولة استكمال كتابه ولكنه لم يتمه .

ثوكيديديس يكتب للأجيال المتلاحقة من بعده !!

وكانت تملك ثوكيديديس نزعتان تسيطران على نفسه :

النزعة الأولى هى ميله الشديد الى ادراك الحقائق ، وبخاصة تلك الحقائق التى يعنى بها المؤرخ وتنير له السبيل فى ربط الأحداث بعضها ببعض . وهو يقول فى ذلك : « أما من ناحية طريقتى فى سرد الأحداث ، فانها ليست مستمدة من أى مرجع ظفرت به بطريق المصادفة .

ولم أعتمد فيها على مجرد تأثراتى الخاصة ، وانما هى تقوم من ناحية على تجاربى وعلى أشياء شاهدتها بعينى ، ومن ناحية على مشاهدات

آخرين أخضعتها للبحث الفاحص الدقيق والامتحان الصارم فى حدود الممكن . وكان هذا عملا بالغ الصعوبة ، لأن الذين شـــاهدوا الأحداث بعيونهم كانت تختلف روايتهم لها . والذاكرة فى بعض الأوقات قد تخذل أو قد يكون هناك ميل الى أحد الاتجاهات ، وكتابتى التاريخية كان يمكن أن تكون أكثر اثارة للاهتمام والتشويق لو أننى تحريت فيهـا أن تكون أكثر خيـــالا ، ولكن سأكون قانعا اذا أثبت أنها نافعة للباحثين الذين يحاولون أن يعرفوا كيف حدثت الأشياء على وجه الدقة فى الماضى ، لكى يستطيعوا أن ينظروا الى المستقبل ، لأنه لما كانت الطبيعة الانسانية على ما هى عليه فان المستقبل سيشبه الماضى ان لم يكن مثله تمـــاما . وموجز القول اننى كتبت لا لأحظى بثناء المعاصرين ، وانما لأترك ميراثا للأجيال التى تجىء بعدى » .

وقد يجد القارىء فى هذا الوصف شيئا من الاستعلاء والتفاخر ، ولكن قراء ثوكيديديس لا يستكثرون عليه ذلك ولا يجدون فى حديثـــه مبالغة أو انحرافا عن الحق .

وكان الاهتمام الآخر الذى يشغل بال ثوكيديديس هو معرفة كيف يحكم الناس أو كيف يمكن أن يحكموا ، وكان هذا باعث اهتمامه بتتبع أخبار الامبراطورية الأثينية .

وربما تكون صلاته العائلية مكنته من الحصول على أخبار لم يكن الحصول عليها ميسورا لغيره ، كما أن تجربته فى مباشرة الحرب قد جعلته أهلا لأن يؤرخ لها . أما صلته العائلية باقليم تراقيا ، فمكنته من ألا يكون متحيزا لأثينا تحيز الأثينى القح .

ثوكيديديس وخطته فى تاريخه

ويقع الكتاب فى جزءين كبيرين : الجزء الأول ينتهى عند سنة ٤٢١ ق.م وكان يبدو فى ذلك أنه نهاية الحرب ونهاية عمل المؤلف . والجزء الثانى يروى فيه الأحداث حتى الاستيلاء على أثينا فى سنة ٤٠٤ ق.م وهو يرى أننا نستطيع تقسيم الفترة من سنة ٤٣١ ق.م الى سنة ٤٠٤

ق.م. الى ثلاثة أقسام : القسم الأول ، الحرب التى استمرت عشر سنوات. والقسم الثانى الهدنة الجوفاء التى ظلت قائمة سبع سنوات . والقسم الثالث هو الحرب الثانية. والواقع أن الحرب استمرت سبعا وعشرين سنة لأن الهدنة لم تكن هدنة حقيقية .

وقد تتبع ثوكيديديس مجرى الحوادث فى أثناء نفيه وتنقل كثيرا لاكمال عمله واستيفائه ، وقد أعلن فى المقدمة التى صدر بها كتابه تصوره الجديد لكتابة التاريخ والمنهج المثالى الذى يرى اتباعه فى البحث التاريخى، وعاب على هيرودوت وغيره من المؤرخين اليونانيين الذين سبقوه ايثارهم العناية بتجويد الأسلوب وبراعة العرض على تحرى الحقائق وغربلة المعلومات والأخبار . وأظهر أنه لا يقصد أن يقدم أخبارا للتسلية وأنه غير طامع فى احراز النجاح فى هذا الميدان . ونبه القراء الى أنهم لا يجدون روايات قائمة على الأساطير فى كتابه .

وتختلف كتابة التاريخ الحاضر عن كتابة تاريخ العصور التى مضى عهدها . فكتابة تاريخ العهد الماضى تقوم على المراجع والوثائق . أما كتابة التاريخ المعاصر فتتضمن مواد لم تكتب وكذلك الوثائق ، وفى عصر ثوكيديديس كان الموقف يختلف عما هو عليه اليوم . فالذى يكتب تاريخ العهد الحاضر لا محيص له عن الاعتماد على الكثير من المواد المكتوبة مثل التقارير الرسمية والوثائق الحكومية ، ويضاف الى ذلك ما يستمده المؤرخ من الرجال الذين كان لهم دور بارز فى توجيه الأحداث ، أو من تجربته الخاصة اذا كان قد اشترك فى بعض الأحداث والوقائع ، ولكن عمله الرئيسى سيكون قائما على مراجع مكتوبة .

والكتاب يبدأ على الوجه التالى :

« ثوكيديديس الأثينى كتب تاريخ الحرب التى نشبت بين البيلوبونيزيين والأثينيين . وقد استهل عمله عند بداية الحرب لأنه اعتقد انها ستكون أعظم وأهم من كل ما سبقها من حروب ، وحمله على هذا الاعتقاد أن كلا من الطرفين أعد للحرب ما استطاع من قوة ، وأن الشعوب

الهلينية جميعا اشتركت فى هذه الحرب فانحازت الى هذا الطرف أو ذاك ، وبعضها سارع الى هذا الانحياز والبعض الآخر عقد العزم على ذلك . وكانت هذه الحرب أعظم حركة أثرت فى الهلينيين ، بل امتد أثرها الى بعض الشعوب الأخرى ، ويمكننا أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول انها أثرت فى مجموعة كبيرة من الجنس البشرى » .

وقد أدرك المؤلف أهمية عمله هذا تمام الادراك وتبين له وجه الحقيقة منذ البداية ، اذ ان الخصمين كانا يستعدان لخوض غمار هذه الحرب منذ أمد بعيد ، ولم تكن فى حقيقتها حربا أهلية تنشب داخل أمة من الأمم فحسب بل جرت اليها أمما أخرى .

وفى نظر الفيلسوف ، كل حرب فى حقيقتها حرب أهلية . وهذا الحكم يصح على الحرب البيلوبونيزية بوجه خاص . تلك الحرب التى قسمت الجيش الى معسكرين.وقد نقح ثوكيديديس مصنفه بعد سنة ٤٠٤ ق.م وكتب له مقدمة جديدة جاء فيها :

« كتب تاريخ هذه الحوادث ثوكيديديس الأثينى نفسه متتبعا تسلسل الوقائع فى الصيف والشتاء حتى ذلك الوقت الذى تمكن فيه الاسبرطيون وحلفاؤهم من أن يضعوا حدا لحكم أثينا ، واستولوا على أسوار بيرايوس . وبهذا الحادث تكون الحرب قد استغرقت فى مجموعها سبعا وعشرين سنة . واذا كان هنالك من لا يرى اضافة فترة الهدنة الى مدة الحرب فان حكمه خطأ ، ولابد له أن ينظر الى الأمور فى ضوء الحقائق كما وقعت حتى يتبين له أن تلك الهدنة لم تكن فى الحقيقة فترة سلم توقف فيها كل من الطرفين عن استعادة أو تسلم كل ما اتفق عليه.. وهكذا اذا جمعنا مدة السنوات العشر الأولى التى استمرت فيها الحرب الى مدة الهدنة المزعومة التى تلتها وحسبنا ذلك بحساب فصول السنة ، لوجدنا أن عدد السنوات هو العدد الذى ذكرناه مضافا اليه بضعة أيام ، أما اذا نظرنا الى الأمر بعين أولئك الذين تحققوا من وقوع المعجزات فاننا سنجد أن هذه الحقيقة بالذات كانت صحيحة لأننى أذكر أنه كان يقال دائما منذ بداية الحرب حتى نهايتها ، ان هذه الحرب ستستمر تسع

سنوات مضاعفة ثلاث مرات · ولقد عاصرت هذه الحرب وكنت فى سن تسمح لى باستنتاج الأحكام ، كما أننى تتبعت حوادثها بدقة لكى أتمكن من جمع المعلومات الصحيحة » ·

ولقد ظل مصنفه ناقصا لأنه على الرغم من هذا القول الذى اقتبسناه آنفا لم يتعد ثوكيديديس فى كتابته سنة ٤١١ ق·م ، أما تقسيم المصنف الى ثمانية كتب فقد قام به على الأرجح علماء الاسكندرية ·

وليست الفصول الثلاثة والعشرون الأولى من الكتاب الأول سوى مقدمة تدور حول علم الآثار ، وتمر الحوادث التى جرت من سنة ٤٧٩ق·م الى سنة ٤٤٠ ق·م مرا سريعا ، وبهذا يكون قد وصل تاريخه بتاريخ هيرودوت وشرح مقدمات الحرب الجديدة ووقف بقية الكتاب على الحرب نفسها حيث وصف أحداثها باعتدال وتجرد ، وأتى بها تبعا لتسلسلها التاريخى ، وحدد السنة الأولى من الحرب (سنة ٤٣١ ق·م) بذكر أسماء حكام أثينا واسبرطة،لكنه بعد ذلك كان يذكر السنوات بترتيبها أى السنة الأولى والسنة الثانية ·· وهكذا ولم يكن يذكر الأشهر الأثينية · وكانت التقاويم المختلفة الشائعة فى عصره مصدر فوضى واضطراب ولهذا لم يعرها أدنى اهتمام ، وكان يميز كل سنة بين الفصل المعتدل والفصل الردىء ، وعندما يحتاج الى مزيد من الدقة كان يشير الى الأحداث المناخية كقدوم الربيع واستواء الحنطة على سوقها وتذريتها فى الهواء وجنى الكروم والأيام الجميلة الأخيرة ·· وهكذا وضع وصفه للحرب فى هذا الاطار التاريخى المحكم· وكثيراً ما كان يضطر الى الانتقال المفاجىء من أحد أجزاء بلاد اليونان الى جزء آخر ، وهذا مما يضايق القارىء ، الا أننا لا نملك الا أن نعترف له بسلامة المنهج ، اذ انه كان يربط بين البيئة الجغرافية والحوادث التاريخية وهذا خير ما يفعله المؤرخ العلمى حتى لا يضل سبيله وحتى يأمن الزلل والعثار عن قصد ، لأن ثوكيديديس كان مؤرخا علميا بالمعنى الدقيق للكلمة وهو أول من يستحق هذا اللقب فى العالم ، ويعتبر كتابه أول رائعة أدبية فى النثر الأتيكى (أما هيرودوت ، فقد كتب مصنفه باللهجة الأيونية) بل هو فضلا عن ذلك أول محاولة لوصف

الحرب ، أسبابها وتقلباتها بطريقة رجل العلم ذى الدربة والمران ، أو قل بطريقة الطبيب الذى يصف تقلبات المرض . وقد تجنب الخرافات والالتباسات وقال فى ذلك مفتخرا :

« قد يكون خلو كتابى من بعض الخرافات سببا فى جعله منفرا للأذن . ولكن لعل هنالك من يرغب فى أن يلتقط فكرة واضحة عن الحوادث التى حدثت أو التى يحتمل أن تحدث فى يوم من الأيام بنفس الطريقة أو بطريقة مشابهة لها ، وحسبى أن يجد مثل هؤلاء الناس كتابى هذا مفيدا لهم » .

فان ثوكيديديس لم يكن يفكر فى مجده الشخصى ، بل كان يفكر فى كتابه شأنه فى ذلك شأن كل عالم مخلص . وقد بذل جهودا مضنية فى سبيل الحصول على نتائج لها قيمة خالدة .

أما المصادر التى اعتمد عليها ، فهى تجربته الخاصة ثم معلوماته التى استمدها من بعض الرواة،وكان فى بعض الحالات يعتمد على وثائق خاصة يدمجها فى روايته . فمعاهدة نيكياس مقتبسة بحذافيرها ، وكذلك نصوص الحلف الذى قام بين الأثينيين والأرجيفيين والمنتيبيين والأيليين ، وقد عثرت الجمعية الأثرية فى أثينا على جزء من هذه المعاهدة سنة ١٨٧٧ على لوحة من الرخام قرب الأكروبول .ونص هذه النقوش يتفق والنص الذى أورده ثوكيديديس (راجع موسوعة تاريخ العلم لجورج سارتون) ويعد هذا دعما عظيما له . ولم يكن ثوكيديديس ينتمى الى حزب ما على الرغم من اخلاصه العظيم لبركليس (٤) أو لنقل انه كان معتدلا فى تحيزه وان كان دائما مستعدا لأن يستمع الى وجهات نظر الأطراف الأخرى ، وأن يتفهمها ويشرحها بأمانة وعطف . فقد دربت تعاليم السوفسطائيين الحرة الأثينيين على أن ينظروا الى الموضوع من وجهيه المتقابلين وأن ينظروا الى الشخصية من نواحيها المختلفة . ولا يعنى هذا أن جميع الأثينيين أفادوا من هذا التدريب ، الا أن عقلية ثوكيديديس كانت على أتم الاستعداد للانتفاع به .

وقد كانت غايته الأولى دائما أن يكون صادقا قدر الامكان مهما كانت الظروف ، وكان يستشعر أحاسيس العالم الذى لابد له أن يصور التجارب السيئة والفشل ٠٠انه شيء مؤثر حقا ، الا أن هنالك لذة فى وصفه ٠ وقد رسم صورا دقيقة للزعماء والقادة ، ووصفه لبركليس خير مصدر يعتمد عليه لدراسة شخصيته وسياسته ، وخاصة فى السنوات الأخيرة (من سنة ٤٣١ ـ ٤٢٩ ق٠م) ٠ وهو يصور لنا رجلا كان فى استطاعته أن يعمل المستحيل اذ انه كان قادرا على أن يكبح جماح الشعب دون أن يحد من حريته أى انه يحفزه على قبول النظام المفروض وكأنما اختاره بنفسه ٠ وقد كان من دواعى سرور ثوكيديديس أن يصف عبقرية بركليس السياسية ، اذ كان معجبا به الى حد بعيد ، الا أنه استطاع أيضا أن يكون منصفا فى موقفه من بعض الرجال الذين لا يميل اليهم ٠ وبهذه الروح وصف قسوة كليون ، وأمانة نيكياس التى يكتنفها الجبن وتختلط بها الأوهام ، والتهور الرائع الذى أبداه الكيبيادس ٠ ولم يكن رأيه فى الرجال متوقفا على نجاحهم أو عدمه فقد يخطىء الحظ الرجل الطيب ولكن شخصيته تنم عن جوهره ٠

ويظهر حياده وموضوعيته وأمانته على أحسن صورة عندما يتناول المسألة الأساسية وهى الديمقراطية الأثينية مقارنة بالحكم والاستبداد فى اسبرطة ٠ وقد دافع عنها بركليس فى خطابه الجنائزى ، وهو من أنبل الأحاديث السياسية وذكرى خالدة لا تفنى لا لبركليس الذى ألقاه فحسب بل أيضا لهؤلاء الأثينيين الذين استمعوا اليه ولأمهم مدينة أثينا٠ كم كانوا عظماء ! هؤلاء الرجال استحقوا أن تتلى على مسامعهم مثل هذه الرسالة الكريمة وهى طويلة الى حد يحول دون اقتباسها كاملة ، لذا سنقدم نماذج منها ، قال :

« اننا نحب الجمال ولكن دون اسراف ، ونحب الحكمة ولكن دون ضعف ، أما الثروة فاننا نعتد بها لا لتكون موضع تفاخر ولكن لتعيننا على تحقيق أعمالنا ، ونحن لا نعيب الرجل الذى يعترف بفقره ولكننا نعتبر العيب كل العيب ألا يسعى الرجل الى اجتنابه ٠ وستجدون فى بعض رجالنا اهتماما بالشئون الخاصة وبالشئون العامة فى آن واحد ، ولن

تفتقدوا فى البعض الآخر وخاصة هؤلاء الذين يعنون بالعمل نفاذ البصيرة فى الشئون السياسية ، لأننا لا نعتبر الرجل الذى لا يسهم بنصيب فى الشئون العامة رجلا أنانيا يعنى بشئونه الخاصة فحسب بل رجلا لا يصلح لشىء من الأشياء » .

وختم حديثه قائلا :

« لقد تحدثت اليكم الآن طبقا للقانون بتلك الكلمات التى وجدتها صالحة للمناسبة . أما هؤلاء الذين جئنا لنواريهم التراب فقد نالوا من تقديرنا ما يستحقون وزيادة على ذلك ، ستعول الدولة أطفالهم من الآن فصاعدا حتى يبلغوا طور الرجولة ، وبهذا نكون قد توجنا الموتى وورثتهم بتاج ذى قيمة حقيقية ، مكافأة لهم على ما قدمت أيديهم فى هذا النضال ، اذ انه حيث تكون الجوائز التى تقدم مكافأة للفضيلة كبيرة نجد المواطنين الصالحين . والآن بعد أن ذرفتم على الموتى ما هم أهل له من دموع وبكى كل منكم موتاه ، عليكم أن تنصرفوا » .

أما الرأى الآخر فى الموضـــوع ، فقد عرضه ثوكيديديس على لسان «كليون بن كلينيتوس» الذى كان أول من وفق الى اقناعهم بوجوب افناء الميثيلينيين ، ولم يكن من أشد المواطنين قسوة فحسب ، بل كان فى ذلك الوقت أيضا أبعدهم تأثيرا على الشعب . قال كليون :

« لقد أدركت فى مناسبات كثيرة مرت بى ، أن الديمقراطية لا تصلح لحكم الشعوب الأخرى » ومضى كليون فى حديثه مبينا أن الديمقراطية والسيادة الامبراطورية لا تتفقان .

وهكذا كان الأثينيون حوالى نهاية القرن الخامس يمرون بالأزمة نفسها التى يمر بها العالم اليوم .

فمن المؤلم حقا أن نقرأ بركليس وكليون اليوم فى هذا الوقت الذى تمر فيه الديمقراطية بتجربة جديدة ، تعانى خلالها ما لم تعانه خلال تجربة

سابقة · وعلينـــا أن نتأمل جيـــدا كلمات بركليس الخالدة ، وأن نعير تحذيرات كليون أيضا بعض الالتفات ·

وقد ساعد ثوكيديديس معاصريه ، وما يزال يساعدنا نحن اليوم على تفهم الفروق الأساسية بين الرجال · وبعض هذه الفروق فطرى وبعضها الآخر نتيجة للظروف وان كان راسخا فى أعماقهم ، وكان عمله الخاص أن يقارن بين الخصمين العنيدين : أثينا واسبرطة · فقد وصف الاثينيين (فى الخطاب الجنائزى مثلا) بالرغبة فى العلم والتشوق اليه ، واتساع الأفق وحسن الضيافة والكياسة والذوق السليم والكرم والقلق ، بينما وصف الاسبرطيين بالضعة والحمية والأنانية والتوانى والهدوء والرجعية والحذر والغيرة والاصرار والصبر · وانه لمن المزعج أن يكون خصمك من هذا النوع من البشر (الذين قد يكونون رجالا فضلاء ولكن بطريقتهم الخاصة) وهذان النموذجان البشريان ما يزالان موجودين بين ظهرانينا حتى اليوم · والحرب بين أثينا واسبرطة لم تنته بعد وقد لا تنتهى أبدا · وهذا الوصف العلمى الذى قدمه لنـــا ثوكيديديس كان أكثر تمثيلا وصدقا مما لو حاول أن يجعله أشد تأثيرا فيصبح بذلك أقل موضوعية وأقل تجردا ، وليس هنالك على تراخى الزمن ما يوازى الحقيقة من حيث تأثيرها ·

وقد يأسف الانسان حقا لأن ثوكيديديس كان حريصا كل الحرص على التقيد بخطته ، ولذا نحى جانبا كل ما لا يدخل ضمن نطاق غرضه ، فلم يصف لنـــا المجتمع فى ذلك الوقت كما لم يصف لنا تلك الآثار التى لا تبارى مما خلفه لنا أهل الفن والمفكرون من اليونانيين · لقد كان هذا العصر من العصـــور الذهبية وكم يكون مهما وصف أحـــد المعاصرين له وخاصة اذا كان هذا المعاصر فى مثل ذكاء ثوكيديديس وحساسيته ! · ومهما يكن من أمر فلا شك أنه كان من رجال العلم ، اذ انه أدرك أن البحث العلمى لابد أن يقتصر على موضـــوع ضيق النطاق واضـــح المعالم ، ولم يقدم لنا ثوكيديديس صـــورة عن عصر أثينا الذهبى ، وبدلا من ذلك استطاع أن يقدم لنـــا وصـــفا دقيقا ما أمكنه ذلك لمعركة الحياة والموت التى خاضتها أثينا ضد خصم عنود لا تهدأ ثائرته ، وكانت هذه غايته ولذا يجب ألا يصرفه عنها أمر من الأمور ·

ولقد قيل ان أسلوب ثوكيديديس تغير وان نظـرته اختلفت خلال الثلاثين سنة التى قضاها فى التأليف ، وحاول علماء اللغة أن يثبتوا ذلك بواسـطة النقـد الداخلى · ولكن اذا عرفنا أن ثوكيديديس كان ينقح كتابه دائمـا ، وأنه من المحتمل أن يكون جزء من الكتـاب الأول قد روجع فى الوقت الذى روجع فيه جزء من الكتاب السابع ، فان مثل هذا النقد لا يركن اليه · وعلى الرغم من ذلك ، فلابد لنا أن نتقبل هذا الرأى بوجه عام، فان ثوكيديديس كان لاشك ناضجا عندما بدأ فى تأليف الكتاب، الا أن خبرته أخذت فى الازدياد ، ولابد أن يكون لاخفاق نيكياس والحملة الصقلية أثر فى تبدل نظرته · وليس من الطبيعى ألا تتغير شخصيته بعد هذه الوقائع الفظيعة وألا يطرأ عليه ما يطرأ عادة على كل عالم يشتغل بمشروع طويل الأمد · فهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه عوادى التغير كلما نما عمله بمرور الأيام ·

ولنعد ثانيـة الى الفصول الأولى من كتاب ثوكيديدس ، وهى التى تضم المقدمة الأثرية · وما هو جدير بالتنويه أنه رأى ضرورة ملحة لكتابة مثل هذه المقدمة · والسبب فى ذلك أن ثوكيديديس كان عصريا ، كما أنه كان يحس بأثر الماضى الطويل الذى أدى الى خلق الحالة الحاضرة ، ولهذا كان لابد له أن يلخص تجارب الماضى ، وما يثير الدهشة فى نفوسنا أنه استطاع أن يضطلع بهذا العمل،مثال ذلك أنه افترض أن وصف هوميروس للحرب البطولية لابد أن يكون مبنيـا على بعض الحقـائق مهما أسرف خياله الشعرى فى الزخرفة والتنميق ، وعنـدما تحدث عن الجزر الايجية قال :

« وسكان الجزر أشد تعلقا بالقرصنة ، ومنهم الكاريون والفينيقيون· ويظهر أن الكاريين كانوا يعمرون أكثر الجزر ، وهذا يتضح لنا من الحقيقة التالية : عندما ظهر الأثينيون فى هذه الحرب على أهل جزيرة ديلوس ، ونقلت قبـور جميع من ماتـوا ، تبين أن أكثر من نصف الموتى كانوا من الكاريين · وقد استنتج ذلك من نوع الأسلحة التى دفنت معهم ، ومن طريقة الدفن التى ما تزال متبعة عندهم حتى الآن » ·

وثوكيديديس هو الوحيد بين الكتاب القدامى الذى اعتمد على الشواهد الأثرية لتبيان أصول اليونانيين ، ويمكننا أن ندعوه « أبا علم الآثار » كما دعونا هيرودوت « أبا علم خصائص الشعوب » ٠

والمقدمة أيضا تلقى ضوءا على فلسفته التاريخية ، لأن وصفه يكشف عن فكرة تطورية على عكس الفكرة الرجعية التى عبر عنها هزيود (٥) والتى كانت سائدة حتى القرن السابع عشر ٠ وروايته تنم عن امكانية التكرار فى الشئون الانسانية ، ولكنه لم يتوسع فى شرح هذه الفكرة،ولهذا ليس من حقنا أن نقارنها بفكرة أفلاطون عن تكرار الدورات أو العود المستمر ، وربما عنى بذلك ببساطة ما يعنيه رجل العلم ، أى اذا تكررت الظروف المتشابهة فالنتائج قد تكون واحدة ٠ ومن الظروف التى ينبغى على المؤرخ أن يحسب حسابها الشهوات الانسانية ٠ وهذه لا تتغير تغيرا كبيرا باختلاف الزمان والمكان ٠ وهكذا قد تساعد دراسة الماضى المؤرخين على أن يتنبأوا بنتائج الصراع الذى يحتدم بين بنى الانسان ، شأنها فى ذلك شأن التقارير الاكلينيكية التى تساعد الأطباء على التنبؤ بالتطورات المتوقعة التى قد تطرأ على الأمراض ٠

وقد طبق ثوكيديديس نزعته الحيادية الموضوعية على نفسه أيضا ، فهو لا يكاد يذكر ادانته ونفيه ولا يحاول أن يعتذر ، فهل نعزو ذلك الى شعوره بالازدراء ؟ أو الى ضميره النقى ونفسه المتعالية ؟ أو الى الموضوعية العلمية ؟ الأغلب أن ذلك كان نتيجة لهذه العوامل الثلاثة مجتمعة وخاصة العامل الأخير ٠

ولكن من أين توافرت هذه النظرة العلمية لثوكيديديس ؟ لاشك أن صفات الموضوعية والتجرد التى ساعدت على تكوين هذه النظرة كانت فطرية لديه ٠ قد يكون هنالك بعض العوامل الخارجية التى تشجع على ظهور مثل هذه النزعة أو تعترض سبيلها ، وساعدت ثقافته على توكيد مثل هذه الصفات ، فقد جلس الى أنتيفون الرمنوس وغيره من السوفسطائيين ٠ واذا كانت السوفسطائية أصبحت مقيتة عندنا حتى اننا

لا نستطيع أن ندرك ما كان لهـــا من قيمة فى القرن الخامس ، فعلينا أن نتذكر مبدئيا أن أكثر الأثينيين كانوا بالضرورة يعرفون معنى الحقيقـة الجدلية ، وكان لابد لأعضاء المحاكم الشعبية أن يقـــدروا القيم النسبية لمختلف المرافعات التى تلقى على مسامعهم ، فكيف يتيسر لهـم ذلك ؟ كيف لهم أن يفاضلوا بين خطيبين يدافع كل منهما عن وجهة نظره الخاصة فى احدى الخصومات السياسية ؟ ومن النادر أن يكون أحد الحزبين نقيا نقاء لا تشوبه شائبة وأن يكون الثانى على العكس من ذلك ، فليست الأمور على مثل هذه البساطة ، وهذا لا يمنع أن ينحاز أعضاء الحزب الواحد الى حزبهم انحيازا أعمى · وقد يكون السوفسطائيون ــ وعلى الأقل النخبة الكريمة منهم ــ فى ذلك الحين يعلمون الشبان أن يتجنبوا الأهواء الحزبية والضغائن ، وأن يزدروا الأكاذيب والخرافات · وكان فى ذلك خير اعداد للتفكير المنطقى العلمى · وهؤلاء الرجـال الذين كانوا يقولون ان الحق نسبى لم يكونوا ساخرين ولا مشككين · وبفضـل خبرتهم السـياسية كانوا يدركون تمام الادراك تلك المشكلات التى كانت تنتـج عن الهوى وضيق الأفق ، فسهل عليهم معرفة الحق فى الخصومات العلمية المحضة · أما فى الشئون السياسية ، فان أول شرط لكشف الحقيقة هو التمسك بموضوعية الشىء والتسامح واللين مع الخصم · وكان ثوكيديديس على أتم الاستعداد لتفهم هذه التعاليم بفضـل عبقريته ، وقد بلغ الحد المستطاع من اتساع الأفق والحرص على الناحية الموضوعية ·

ومكنه حبه للحق من أن يرى الوقائـع وأن يسجلها باخلاص وأن يصنفها · وكان قديرا على أن يرى الأشـــياء كما هى ، ولم يعن بوجه عام بالناحية الخلقية للحوادث ، بل اكتفى بوصفها مثلما وصف الفساد الذى تمخض عنه الطاعون والذى حدث نتيجة للاضطرابات الأخرى التى رافقت صراعا لم تكن له نهاية ، وهو موضوع يعرفه جيدا أولئك الذين يدرسون الحروب ·

وكان أسلوبه كعقله أمينـا وصـارما يكتب بحماسـة وايجاز ودقة ووضوح وحيوية ، كما أورد التفاصيل بالدقة التى أمكنه الحصول عليها · وكان الوصف العام على حظ كبير من الاتزان فلم يتردد ماكولى الذى كان

من أعظم مؤرخى الانجليز أن يقول : « ليس هناك أثر نثرى حتى كتاب دى كورونا نفسه ـ يبلغ فى تقديرى كتاب ثوكيديديس السابع ، انه الكتاب الذى لا يضاهيه كتاب فى الفن البشرى » (الكتاب السابع تناول الحملة الصقلية المشئومة التى كانت السبب الأول للهزيمة الفادحة التى منيت بها أثينا) • وماذا يستطيع المرء أن يقول أكثر من ذلك ؟ ومن يستطيع أن يقول مثل هذا القول وله أعظم من هذه السلطة ؟

وقد هاجم جميع النقاد مكررين ومسهبين احدى خصائص أسلوب ثوكيديديس فى الكتابة ، ألا وهى عادته فى تضمين كتابته الأقوال الأصلية (وهى خاصية يشاركه فيها بعض المؤرخين القدماء) • فلنستمع اليه :

« أما فيما يختص بتلك الخطب التى ألقاها على بعض الرجال عندما أوشكت نيران الحرب أن تشتعل أو أثناء الحرب ، فقد كان من الصعب استعادة ألفاظها بدقة ، والأمر سواء بالنسبة الى الخطب التى سمعتها بنفسى أو تلك التى نقلها لى الرواة من مختلف المصادر • ولهذا أقدم هذه الخطب باللغة التى يلوح لى أن هؤلاء الخطباء عبروا بها ، فيما يتعلق بهذه الموضوعات قيد البحث،وبالعواطف التى تناسب المقام ، ومع هذا حاولت أن أتقيد بالمعنى العام ما استطعت الى ذلك سبيلا » •

أليس ذلك من الوضوح بمكان ؟ فعندما يستقر فى الذهن ، أن هذه الخطب لن تثبت حرفيا ، فليس هنالك كبير فرق بين كتابتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة باثبات علامات الاقتباس أو بالاستغناء عنها ، وكتابة الخطب على هذه الصورة كانت طريقة شائعة لا ينخدع بها أحد ، وكانت طريقة ضرورية أو لها ما يبررها على الأقل ، لأن القدامى لم يكونوا يملكون الوسائل التى تمكنهم من استيعاب الخطب نفسها ، اللهم الا اذا شهدوا الحفل بأنفسهم وكانت لهم ذاكرة قوية ، وليس لهذه الطريقة ما يبررها اليوم لأنه من اليسير الحصول على النصوص الحرفية للخطب •

وهنالك سؤال أخير قد يجول فى خاطر القارىء المتأمل وهو : كيف استطاع أثينى وطنى أن يصف هذه الأحداث الفاجعة التى أدت الى هزيمة

بلاده بمثل هذا الحياد ؟ وقد سبق أن أجبنا على هذا السؤال أو عن جزء منه . فلاشك أن ثوكيديديس كان وطنيا شديد الحب لديمقراطية أثينا ، الا أنه كان — من ناحية — رجل علم ، يضع اخلاصه للحقيقة فوق كل اخلاص ، ومن ناحية أخرى كان ايمانه بالديمقراطية عميقا ، حتى انه كان لا يعترف بأن هزيمة أثينا كانت أبدية ، فقد بقيت أثينا أو كان من الممكن أن تبقى كما كانت سابقة مدرسة اليونان . وقد بين بركليس فى خطبة الجنازة أن الثمرة الأولى للديمقراطية هى التثقيف لا مجرد النجاح ، وعلى الرغم من تلك التغيرات العظيمة ، تابعت أثينا حمل رسالتها فى تثقيف اليونانيين والعالم الغربى عامة ، وبهذا برهنت برهنة تامة على ما كان يؤمن به بركليس وثوكيديديس .

ثوكيديديس يعلمنا كيف ينبغى أن يكتب التاريخ !!

ولم يعلم ثوكيديديس اليونانيين بكتابه كيف يكتب التاريخ المعاصر فحسب ، بل علمهم كذلك كيف يتناولون التاريخ القديم ، فقد صدر كتابه بموجز عن التاريخ اليونانى ، يعد من أوفى ما كتب فى موضوعه . وقد حاول فيه ان يعلل أسباب تأخر ظهور حكومة قوية فى بلاد اليونان قبل العصر الذى عاش فيه . وقد تخطى فى هذا الموجز الأساطير المتجمعة والروايات المهلهلة ليصف حركة التقدم ، مقدما البراهين التى توضح اتجاهه وتظهر العصور بسماتها البارزة ، وليلقى ضوءا ساطعا على العصر الأسطورى مما يمكن من استخلاص بعض الحقائق المجدية . ويمتاز تناوله للفترة التالية للحرب الفارسية اليونانية وظهور الامبراطورية الأثينية — بما قدمه من نتائج بحثه وتحصيله ، لأنه لم يكن هناك سوى حوليات شديدة الايجاز لتاريخ تلك الفترة .

وكان ثوكيديديس يرى أن على المؤرخ ألا يكتفى بسرد الأحداث على طريقة كتاب الحوليات ، بل عليه أن يوضح لماذا وقعت الأحداث ، وأن يوضح العوامل التى ساعدت على حدوثها . وقد اقتضته محاولة فهم الحقائق التاريخية أن يحاول فهم شخصيات الممثلين للأحداث وتعرف دوافعهم النفسية والملابسات التى أحاطت بهم . ويتأثر المؤرخ فى تفهمه للحالات النفسية بمزاجه الخاص ، ولهذا قال بعض الناس ان الذى يقدم لنا صورة صادقة لنفسية نابليون لابد أن يكون صنوا له ، وفى هذا الرأى مبالغة ، لأن هناك ما يسمى بالخيال النفسى ولكن التأثير الذاتى لا يمكن بحال أن نمنع تأثيره منعا باتا .

وكاتب التاريخ المعاصر يعيش فى البيئة نفسها ويتأثر بنفس العادات والتقاليد ووجهات النظر السائدة ، ويتيح له ذلك الفرصة لتعرف نفسية الشخصيات التى تظهر فى مسرح الأحداث . وبطبيعة الحال لا يستطيع أن يتخلص تخلصا تاما من ميوله وأهوائه الخاصة . ومؤرخ العصور السالفة يستطيع أن يكون أكثر نزاهة ونأيا عن المحاباة والتحيز ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع الفكاك من ميوله ونزعاته سوى الى حد ما ، وذلك لتأثره بمعايير عصره وآدابه . وقد حاول ثوكيديديس التغلب على هذه الصعوبة بأن أظهر الأشخاص بطريق سرد أعمالهم وذكر خطبهم وأحاديثهم، وهو يتوارى خلفهم ولا يتقدم الا بذكر بعض البارزين وتأثيرهم فى نفوس معاصريهم ويتحاشى أن يلزم نفسه باصدار احكام على اعمالهم او سلوكهم الشخصى .

وكان ثوكيديديس يرمى من وراء اثبات الخطب والأحاديث التى تفسر الحقائق ، الى اظهار العناصر التى يتألف منها الموقف ، وكذلك اظهار الدوافع والأفكار ، وكانت هذه الخطب والأحاديث تتيح لكل فريق من الفرق المتحاربة مثل أثينا واسبرطة ، أن يوضح وجهة نظره ويبين موقفه. ونستطيع من هذه الأحاديث والخطب أن نفهم الكثير من شخصيات أمثال بركليس وكليون وبراسيداس ونيكياس والكبياديس . وبذلك كان يستطيع المؤلف أن يجعل كلا من الرجال والأحداث يتحدث عن نفسه بغير اشارة أو تعليق من المؤلف سوى اشارة هينة اذا اقتضى الأمر . وباتباع هذا الأسلوب ، كان القارىء يخال أن الشخصيات التى تقوم بالأفعال تتحدث عن نفسها بغير حاجة الى المؤلف .

وقد لوحظ أن معظم الأحكام التى اجترأ ثوكيديديس على اصدارها على الشخصيات الواردة فى كتابه ، تتناول قدرتهم على فهم الأحداث وكفايتهم السياسية . وقد ظهر ذلك فى حديثه عن بركليس وأنتيفون وثيموستكليس وثيرامينيس وهيرموكراتيس .

ثوكيديديس وميكيافلى !!

وشدة نزاهة ثوكيديديس جعلت بعض نقاده يرمونه بضعف الوطنية ، فقد سمح لكل فريق فى كتابه أن يعرض قضيته فى غير تحيز ، لأنه كان يكتب باعتباره مؤرخا لا باعتباره أثينيا ، ولكنه مع ذلك كان

يهدف بكتابه الى افادة الامبراطورية الأثينية . وهو لا يخفى عن نفسه ولا عن قرائه أن الامبراطورية لا يمكن أن يدافع عنها على أسس العدالة ، لأن الامبراطوريات لا يمكن المحافظة عليها الا عن طريق القوة . وعنده ان من قوانين الطبيعة أن يحكم القوى الضعيف ، وهو مثل ميكيافلى يضع مصلحة الدولة فوق كل اعتبار ، ولا يطبق المعايير الأخلاقية على الاتجاهات السياسية ، وهو فى حكمه على الأعمال وطرائق تنفيذها يقصر مدحه وذمه على نجاح هذه الأعمال والطرائق أو اخفاقها فى تحقيق الأهداف التى حاولت اصابتها . ولو أنه كان حيا فى القرن التاسع عشر لما وجد فى سياسة كافور الايطالى أو بسمارك الألمانى التى كانت لا تعنى بغير مصلحة الدولة ما يستحق اللوم والنقد .

وقد كان ميكيافلى يقول : « ان رجل الدولة كثيرا ما يضطر الى أن يعمل ضد الايمان والانسانية » . ويبدو أن ثوكيديديس كان يرى أن مصلحة الدولة هى المرشد فى توجيه السياسة . وقد كان ميكيافلى ومعاصروه فى عهد الاحياء يرون أن خلاص ايطاليا متوقف على وجود الأمير صاحب العقل المدبر والارادة الماضية ، وثوكيديديس يرى كذلك أن الارادة القوية التى يملكها رجل الدولة لها تأثيرها البعيد . وقد أخذ على ثوكيديديس بحق أنه فى تقديره للشخصيات لا ينظر الى الفرد من جميع جوانبه . ان الانسان كوحدة نفسية وتفهم الجوانب المختلفة لشخصية الأفراد من المشكلات المهمة الدقيقة التى تواجه المؤرخ . ويرى نقاد ثوكيديديس أنه أخفق فى هذه الناحية ، وأن مبالغته فى الاعراض عن تناول بعض الجوانب القليلة الأهمية فى الشخصيات التاريخية ، قد أغرته بأن يقصر حديثه على الجوانب التى لها مساس بالسياسة والحياة العامة ويغفل سائر الجوانب الأخرى . ويشعر قراؤه بأنهم فى حاجة الى المزيد من معرفة الشخصيات الكبيرة التى تناولها ، مثل بركليس وغيره من المشاهير . وهو فى حديثه عن بركليس يكتفى بالاشادة بقدرته السياسية الفائقة وعدم اهتمامه بالمال ومثاليته .. ويقف عند هذا الحد ..

والنقاد المعجبون بقدرة ثوكيديديس والمقدرون لكفايته يسلمون بما فى كتابه من بعض العيوب ووجوه النقص ، ولكنهم يلفتون الأنظار

الى المجهود العظيم الذى بذله ليرتفع بالكتابة التاريخية الى المستوى العلمى اللائق ، مؤكدين أن الكتابة التاريخية لم تصل الى المستوى الرفيع الذى استطاع تحقيقه بكتابه الا فى القرن التاسع عشر ، ولا يشكون فى أنه من أكبر الأساتذة وفى طليعة الفنانين فى الكتابة التاريخية ، وأن كتابه الذى أدركته الوفاة قبل أن يتمه يعد من طرائف الأدب والتاريخ الخالدة .

الأناباسيس
أو حملة كورش
أكسينوفون
٣٧٠ ق.م

أكسينوفون ومؤلفاته

ولد أكسينوفون بن جريلوس حول عام ٤٣٠ ق٠م وتوفى فى قورنثية حوالى ٣٥٤ ق٠م ٠ وذكر ديوجينس لائرتيوس (١) عنه ما يأتى :

« كان أكسنيوفون ممتازا من وجوه كثيرة أبرزها غرامه بالخيل والصيد وفن القتال ، هذا الى أنه كان رجلا صالحا يحب أن يقرب القرابين ويمارس الشعائر الدينية كما كان تلميذا وفيا لسقراط » ٠ وهذا الوصف القصير بارع وتكمله قصص تعيننا على معرفة أى طراز من الرجال كان ٠ ومن هذه القصص ما يذكره ديوجينس مثلا عن مقابلته لسقراط : « يقال ان سقراط التقى به فى الشارع فسد عليه الطريق بعصاه وسأله أين يمكن أن يشترى الانسان حاجات الحياة الضرورية ٠ فأخبره بأمكنتها ثم سأله سقراط : واذا أراد الانسان أن يكون فاضلا فاين يذهب ، فلم يحر جوابا٠ وعندئذ قال سقراط : اتبعنى لأرشدك » ٠ أليست هذه قصة بديعة ؟ انها توحى بأنه كان لدى سقراط من نفاذ البصيرة ما يجعله يعرف الرجل الصالح حين يراه ٠ وتؤثر فينا هذه القصة تأثيرا عميقا ٠

كان أكسينوفون ثريا يستطيع أن يشبع ذوقه فى الركوب والصيد ٠ ولعله اشتغل فى فرقة الفرسان بأثينا ٠ ولكنه لم يكن ذا حرفة معينة ، ولذا استطاع سنة ٤٠١ ق٠م أن ينضم الى جيش من مرتزقة الاغريق فى حركة قورش الثانى ضد أخيه الملك ارتخشارشا ، وغلب قورش وقتل فى معركة كوناكسا واضطر الجيش الاغريقى أن يتلمس طريقه الى بلاده ناجيا بنفسه ٠ وانتخب أكسينوفون رئيسا له بعد مصرع قادته ، ونجح

فى قيادة « عشرة الآلاف » الى طرابزون · وفى أوائل عام ٣٩٩ ق·م سلم ما بقى من الجيش الى قائد اسبرطى كان موجودا فى ذلك الوقت بآسيا · ونفى حول ذلك الوقت من مدينته(٢) ثم استمر فى خدمة اسبرطة وأصبح صديقا معجبا بأجسلاوس (ملك اسبرطة ٣٩٩ ــ ٣٦٠ ق·م) ، وكان من أحسن قواد الاسبرطيين وأشرفهم، وحارب أكسينوفون الفرس تحت قيادته وعاد معه الى اليونان ، واشترك (فى الفرقة الاسبرطية) فى معركة كورونيا · وتزوج أثناء ذلك وبلغ أولاده عام ٣٩٤ ق·م من العمر ما يسمح لهم بتلقى العلم فى اسبرطة · ووهبه لاسبرطيون فيما بعد ضيعة كبيرة فى سكيلوس على مقربة من أوليمبيا ، وفيها عاش عيشة ملاك الأرض يدير أملاكه ويركب الخيل ويصطاد ويكتب · وقد ألف معظم كتبه خلال العشرين سنة التى أقامها فى سكيلوس · ومن المؤكد ، أنه كتب أفضلها هناك ، ونعنى رسالته فى زحف الجيوش أو حملة قورش وذلك بين عامى ٣٧٩ ــ ٣٧١ ق·م ثم أدت تقلبات الحرب الى فقدانه ضيعته واضطراره الى بدء حياة جديدة فى قورنثية · وفى عام ٣٦٩ ق·م وقع الأثينيون صلحا مع اسبرطة وسمحوا لأكسينوفون بالعودة الى موطنه · وقد خدم أولاده بين حين وآخر فى جيش فرسان أثينا ·

لم نذكر جميع أعمال أكسينوفون الحربية ، الا أنه من الواضح أنه اكتسب كثيرا من التجارب كفارس وجندى ، وهو لم يكتسب ذلك فى تقهقره المشهور حين كان شابا من كوناكسا الى البحر الأسود فحسب ، بل باشتغاله أيضا فى خدمة أعداء بلده · وكان من أشد المعجبين بالتعليم فى اسبرطة وما فيها من نظام ، وكتب بعد موت اجسلاوس عام ٣٦٠ ق·م رسالة فى مدحه ·

مؤلفات اكسينوفون

مؤلفات أكسينوفون متعددة وغزيرة · وباستثناء كتاب منها أو كتابين لا يمكن أن يكون قد ألفها قبل نشاطه الحربى (٤٠١ ــ ٣٩٤ ق·م) وهى لهذا تقع ولا شك فى القرن الرابع قبل الميلاد · وقد ألف

كثيرا منها فى سكيلوس (٣٩٤ ـ ٣٧١ ق٠م) ، ولكنه ظل يكتب حتى الأيام الأخيرة من حياته ، وسنستعرض ثبت مؤلفاته .

ونبدأ بمجموعة من ثلاثة كتب تتعلق بالصيد والفروسية ، اذ من المفروض أن أولها كتبه فى شبابه قبل خروجه من أثينا الى آسيا .

١ ـ فى الصيد : وهى رسالة تعرض للصيد وبخاصة صيد الأرنب البرى ، وتشتمل على تربية الكلاب ، وهى أول رسالة من نوعها معروفة لنا .

٢ ـ فى ركوب الخيل : وكان يظن أنها أول رسالة فى هذا الموضوع فى أية لغة ، حتى نشر هرونزى عام ١٩٣١ رسالة حيثية عن الفروسية ، كتبها رجل يحب لحم الخيل وله فى الفروسية تجربة طويلة .

٣ ـ فى الفروسية : وتبين الواجبات التى ينبغى أن يعرفها قائد الفرسان ، وهى تتمة للموضوع السابق ، وتبحث فى تطبيق الفروسية من جميع وجوهها فى الأغراض الحربية .

ويعرف قراء الفرنسية كتابى أكسينوفون (٢ ، ٣) عن الفروسية بسبب ترجمة رائعة قام بها بول لويس كوربيه (١٧٢٢ ـ ١٨٢٥) وكان متضلعا فى الدراسات الفارسية وهلينيستيا على حد سواء .

أما أشهر مؤلفات أكسينوفون فهما الكتابان الخاصان بالأمور الآسيوية (٤ ، ٥) .

٤ ـ زحف الجيوش أو (حملة قورش) وهو عرض لأعظم مغامرة فى حياته ، وتصوير لاشتراك عشرة آلاف جندى من المرتزقة فى ثورة قورش الأصغر وانسحابهم الى طرابزون . ويعد أول تأريخ من نوعه . ولا يزال يعد من أهم المذكرات الحربية . وهو كذلك أول وصف للبلاد التى اجتازها فى مرتفعات أرمينيا . والكتاب مملوء بتفصيلات عجيبة ، وفيه اشارات الى النعام والجراحين فى الجيش والعسل السام والوشم وصناعة أهل

كاليبس للأسلحة الحديدية وتجارة الكتب • ويوضح أكسينوفون ضاربا بنفسه مثلا ، حاجة ضابط الجيش الى أن يكون عادلا كريما تقيا يحب الجند ويكسب اخلاصهم • وقد كانت مشاق القيادة عظيمة فى حالته بوجه خاص ، لأن «عشرة الآلاف » كانوا متباينين كل التباين ، فهم قوم من المغامرين جندوا من كل الأراضى الاغريقية ، أشبه بحطام بشرى لفظه اليم ، لا يجمع بينهم بقية من الهلينية ، وتثيرهم عزلتهم وسط البرابرة •

وكان ذلك الجيش فى حاجة الى قائد عبقرى يؤلف بين هؤلاء المغامرين •

ويعد كتاب « زحف الجيوش » أو حملة قورش قطعة أدبية رائعة تكفى لتخليد مؤلفها •

٥ ــ تربية قورش : عبارة عن سيرة قورش الأكبر مؤلفة تأليفا قصصيا • ونجد فيه أن نظم الفرس وعاداتهم ــ المفروض أنها موضوع الكتاب ــ أقرب الى أن تكون مقالا لها بقلم شخص كان معجبا بالاسبرطيين، بقدر ما كان يحتقر الفوضى الأتيكية •

انه كتاب من أنفس كتب العالم فى الأدب ، ويمكن أن نسميه النموذج الأول لطائفة من الكتب ظفرت ببعض الذيوع فى العصر الوسيط ، مثل « مبادىء الحكم » وكتب تعليم أبناء الملوك وتعليم حكام المستقبل واجباتهم وحقوقهم •

ولا يصح أن نفهم كتاب « تربية قورش » فهما حرفيا (كما كانت الحال فى الماضى) فانه مملوء بالأخطاء التاريخية الممزوجة بالحقائق • ومع أن غرضه الرئيسى أرستقراطى فان أكسينوفون لم ينس أستاذه سقراط ــ لم ينسه أبدا ــ ولذلك فالكتاب يشمل الطرف والأفكار السقراطية حتى ليذكر صورة بهيجة لسقراط أرمنى ، بل انه ليشمل بعض لمحات عن آراء ديمقراطية ، مثال ذلك ، أنه يشير (بتهكم حقا) الى حرية الناس فى ابداء الرأى ، وبشكل أكثر جدية الى هذه الحقيقة ، وهى أن « المساواة فى الحقوق

فى فارس تعتبر هى العـــدل » . وترجـــع هذه المتناقضـــــات الى ان قلب أكسينوفون كان أكبر من أهوائه . وفى الكتاب حكايات أو صور ممتعة عن فضـــل الخبز على اللحم أو غيره لأن الانســـان لا يحتـــاج الى تنظيف يديه بعد أكله (الجمهورية الصغرى وحدائق الحيوان أو ملاعب الوحوش وخطر الثورة ونظام البريد) وأقوال مأثورة مثل : « النصر فى المعـــارك بالأنفس لا بالأبدان » و « يتجنب أهـــل الاعتبـــار ما يضر اذا انكشف » و « يتجنب أصحاب العزم ما يضر ولو لم ينكشف » ، ولعل هذه الحكم مقحمة على الكتاب . والفصل الأخير أشد تأثيرا وفيه يصف موت قورش ووصـــاياه ويناقش خـــلود النفس مناقشـــة يمكن أن توازن بـ « فيدون » لأفلاطون دون أى ضير على أكسينوفون .

هذه القصة التعليمية الاغريقية (وهى أصل بعيد انحدر منه كتاب « تليماك ») مملوءة بالحياة وخفة الروح ، مما يساعد على تعليل ذيوعها . ومع أنها طويلة بعض الشىء ، فانها تصور جميع الموضوعات التى أيقظت روح الاستطلاع عند المؤلف أو أثارت انفعالاته فى مراحل مختلفة من حياته (من البلاد الآسيوية التى ارتادها والأجانب الذين عرفهم وطرائق التربية والخـدمة العســكرية وفنـــون الحرب والصـــيد والســـياسة والتهكم السقراطى) . واذا كان أكسينوفون قد كتبها فى زمن متقدم نسبيا فهى تمهيد لمؤلفاته الأخرى ، واذا كان قد كتبها فى زمن متأخر وهو الأرجح فيما يبدو فهى تلخيص لما جاء فى تلك المؤلفات من رسائل أساسية فى ثوب رومانتيكى وتعد خاتمة رقيقة .

ولنا الآن أن نشرع فى فحص كتـــابات أكسينوفون السقراطيـــة (٦ – ٩) التى كتبها على الأرجح فى سكيلوس .

٦ – المذكرات : وهى دفاع عن سقراط وذكريات عن محاوراته ، وهى تقدم لنا صورة عامة عن عادات سقراط ، وهى صادقة فى الأغلب وتصلح أن تكمل الصورة الأفلاطونية وتصححها . ونحن فى الحالتين أمام ذكريات ولكن ذكريات أكسينوفون توحى بالثقة أكثر من ذكريات أفلاطون.

٧ ــ الدفاع : وهذه أيضا تكمل الغرض الذى نشره أفلاطون بهذا العنوان نفسه وتكرر بعض الأجزاء مما جاء فى المذكرات ٠

٨ ــ المأدبة : وهى تكرار آخر لمحاورة أفلاطون لا يمكن أن يكون عرضيا ٠ ولا مناص لنا من القول بأن « مأدبة » أكسينوفون متأخرة عن « مأدبة » أفلاطون وأقل منها جودة ٠

٩ ــ فى تدبير المنزل : وهى محاورة بين سقراط وكريثوبولس تتعلق بادارة الضياع وتدبير المنزل ٠ ويروى سقراط ، وهو لم يكن يهتم بالزراعة وحياة الريف ، حواره مع مزارع يسمى أسكوماخوس ٠ ومن الواضح أن آراء هذا الرجل هى آراء أكسينوفون ، لأنها تبرز نموذج تفكيره من التعلق بالأرض والروح العملية وحسن الطبع والطيبة الواضحة ٠

أما مؤلف أكسينوفون الوحيد الذى يضرب فى صميم التاريخ فهو « هيلينيكا » ٠

١٠ ــ هيلينيكا : ويقع فى جزءين متميزين : الأول يتابع تاريخ ثيوسيديدس من ٤١١ ق٠م الى نهاية الحرب البيلوبونيزية ٤٠٤ ق٠م ، والجزء الثانى تتمة له حتى معركة مانتنيا (٣٦٢ ق٠م) ، ولكن بطريقة أخرى ٠ ويظهر بوضوح تحيز أكسينوفون لاسبرطة ضد طيبة أكثر من مرة ٠ ومع أنه وصل فى هذا الجزء الى سنة ٣٥٨ ق٠م، فانه لم يكمل تماما، وأكبر الظن أنه عاش عدة سنوات بعد ذلك ولكنه اضطر الى التوقف عن الكتابة ٠

وتكون مؤلفات أكسينوفون السياسية مجموعة أخيرة (فى غير ما ترتيب تاريخى ، ويصعب بيان التسلسل التاريخى الدقيق لكتبه) ٠

١١ ــ اجسلاوس : وهو سيرة ملك اسبرطة الذى خدمه أكسينوفون وأعجب به ، وقد ألف بعد موت اجسلاوس عام ٣٦٠ بمدة قصيرة ٠

١٢ ــ سياسة اللقدمونيين : والمرجح أن هذا المديح لأنظمة اسبرطة كما وضعها لوكورجوس قد كتب عام ٣٦٩ ق٠م ٠ ثم أضاف الى الكتاب خاتمة بعد زمن قليل ٠

وهناك كتاب يشبهه عن « سياسة الأثينيين » كان ينسب سابقا الى أكسينوفون ولكنه فى الأغلب تأليف متقدم بقلم أحد الأشراف قبل عام ٤٢٣ ق٠م ٠

وكلا الكتابين بعنوان السياسة ، مثل عنوان كتاب أفلاطون الذى يترجم عادة باسم الجمهورية ٠

١٣ ــ هيرون : وهى محاورة وهمية بين هيرون الاكبر طاغية سراقوسة الذى حكم من ٤٧٨ الى ٤٦٧ ق٠م وبين الشاعر الغنائى سيمونيدس القوسى (ح ٥٥٦ ــ ٤٦٨ ق٠م) وتعالج موضوعا مزدوجا : أيكون الطاغية أسعد من الشعب الذى يحكمه ؟ وكيف يظفر باحترامه ومحبته ؟ ولعل أكسينوفون قد استوحى تأليف هذه المحاورة فى زمان حكم ديونيسيوس الثانى (٣٦٧ ق٠م) وهو الذى كان أفلاطون يأمل أن يجعل منه ملكا فيلسوفا ٠

١٤ ــ فى الوسائل : ويشمل اقتراحات عملية لتحسين المالية الأثينية ، كتبه فى أواخر حياته بعد أن تصالح مع مدينته بزمن طويل ٠

أكسينوفون معلما

ومؤلفات أكسينوفون مع تنوع موضوعاتها تشترك فى أمور كثيرة لا من جهة أسلوبها فقط ، بل من جهة محتوياتها أيضا ٠ فالنغمة المسيطرة عليها تعليمية ذلك أن أكسينوفون لم يكن فيلسوفا ولكن كان كأستاذه سقراط معلما بالفطرة لا يصده عن التعليم شىء ، وهكذا كان يؤمن بسلطان التعليم وبقدرته على تعليم غيره ، ولم يكن ينظر فى الجليل الرائع لكن نظره فيما نظر فيه كان صادقا ، فحاول أن يفهم العالم الضئيل الذى حوله لا الكون كله ، وأن يفسره بوضوح وبساطة ما وجد الى ذلك سبيلا ٠ ونظرية التعليم علما وعملا مبسوطة فى (المذكرات) ، وبخاصة فى الكتاب الرابع وواردة عرضا فى « تربية قورش » ٠ وقد تأثر فى نظريته لا بسقراط فقط ، بل بديمقريطس والفيثاغوريين وكانت جماعة منهم تقيم قريبا من سكيلوس حيث قضى عشرين سنة من أسعد السنوات وأغزرها

انتاجا • وعنده أن الناس جميعا فى حاجة الى حسن التدريب وهو ألزم لأولئك الصبيان الذين تتوافر فيهم المواهب الطبيعية • وقد أدرك كل الادراك العناصر الثلاثة الأساسية فى كل تربية ، وهى المواهب الطبيعية والتعليم والرياضة البدنية • وهو يرى أن على الشباب أن يتدربوا على التعبير عن خواطرهم لزيادة ضبط نفوسهم ، وأن يلبسوا لكل حال لبوسها، وأن يتعلموا مع التصرف الاستقلال ، ويجب أن نعدهم للاسهام فى المناقشات السياسية والأعمال الادارية •

وكانت غايته الأساسية كغاية سقراط ، حتى لقد أجرى وصاياه على لسان أستاذه • وكان يواصل تعاليمه (يحاول مواصلتها) مؤولا اياها ومضيفا اليها ثمار تجربته الواسعة • وقد اهتم خاصة بالتعليم العام الذى يحتاج اليه كل متأدب كى يؤدى مهمته ، ومع ذلك شعر بالحاجة الى الملاءمة بين هذا التعليم والصفات الخاصة لكل طالب • ففى الناس صفات متباينة يمكن أن نحسن كل واحدة منها بالتدريب المناسب • ومن واجب المعلم أن يتلمس الاستعدادات الحسنة ليعمل على تنميتها • ومهما يكن من شىء فالتربية الخلقية والدينية أساسية ، ولا ينبغى للمعلم أن يحاول فقط زيادة المعلومات ، بل الأولى أنه يقوى روح الطالب ويكون خلقه •

ولا يبدو شىء من هذا مبتكرا اليوم ، ولكن سقراط وأكسينوفون كانا أول من قال به • وعلينا أن نذكر أن أكسينوفون كان يكتب فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد •

أثر أكسينوفون

كان أثر أكسينوفون بالغ العظم بسبب أهدافه التعليمية من جهة ، وحكاياته المشوقة التى رواها وأحسن روايتها من جهة ثانية ، وانسانيته ونقاء أسلوبه من جهة ثالثة • كان سمحا ، وكان نثره من السهولة والحلاوة بحيث جعله يلقب بنحلة أتيكا • ولقد وصف كونتليان أسلوبه بهذا الوصف الحسن : « البهجة الخالصة » وأصبح أكسينوفون بسبب هذا الوصف اماما فى اللغة أجيالا كثيرة • وكان لهذا من ناحية أخرى أثر

سيىء ، اذ ان كثيرا من الطلبة حاولوا بغير تحضير كاف شق طريقهم فى فهم كتاب « زحف الجيوش » ، فشق عليهم ذلك وأصبحت ذكرى الدرس تؤلمهم • ومع هذا لا نأخذ بحكمهم على «زحف الجيوش» ولا على أكسينوفون، لأن دراسة النصوص القديمة جميعها بهذه الطريقة أضحت مثار ألم وتعذيب • ولئن دل هذا على شىء فانما يدل على ضعف الطلاب والمعلمين •

وكان أثر أكسينوفون عظيما فى الزمن القديم • ولقد قيل ان كتبه التى ألفها عن آسيا وبخاصة « زحف الجيوش » ، هى التى وضحت السهولة النسبية فى معاملة الآسيويين ، وأثارت فى ملوك مقدونيا الطمع فى فتح آسيا • وأكبر الظن أن الاسكندر الشاب درس هذه الكتب ، ومن ناحية أخرى كان وصف أكسينوفون لمملكة آسيوية مثالية تصويرا ساحرا للممالك الهلينستية • وكان سادة الرومان يدرسون الصيد وتدبير المنزل والأخلاق وصناعة الحكم فى كتب أكسينوفون ، وكانوا يجدون فيها حلولا واضحة فى لغة سهلة مناسبة لمعظم مشاكلهم •

وقد درست مؤلفات أكسينوفون فى عصر النهضة البيزنطية وحوكيت طريقتها الأتيكية • وكان هيرودوت وأكسينوفون النموذجين الرئيسيين الأدبيين ليوحنا سيناموس (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) وقد ترجمت مؤلفات أكسينوفون الى اللاتينية على يد الهلينستيين الأوائل : بوجيو الفلورنسى ، وليوناردو برونى الأريزى ، وفرنشسكو فليلفو التولنتينى • وقرأ أدباء الانجليز فى المدة من ١٥٣٠ م الى ١٦٣٠ م كتاب « تربية قورش » ، وحاولوا أن يجدوا فيه حل مشكلاتهم • فقد كان ذلك الكتاب أول قصة تاريخية فى عالم الأدب لم يستمتع بها ويتعلم منها الانجليز فقط بل الفرنسيون والأدباء فى كل مكان متمدين من أوروبا • فكان الأنيس الصامت الذى علم الناس الطريقة السقراطية والسياسية ، كما كان مقدمة شرقية • ثم فضل عليه الناس فيما بعد كتاب « زحف الجيوش » ، وظل أكسينوفون من أبرز المعلمين للاغريقية وللهلينستية ••

الاطار التاريخي لحملة قورش

بجوار معبد أبوللو فى دلفى يقوم حجر مخروطى ـ هو الأومفالوس أو « السرة » ـ اعتقد اليونانيون القدماء أنه مركز الكرة الأرضية · وكان هذا الاعتقاد وليد شعورهم بالتفوق والتفرد ، وبأنهم منارة يحيط بها الظلام من كل جانب ، وبالتالى فهم خير الأنام وكل من وقف خارج حدود الأرض اليونانية همجى ، ومن ثم أيضا فكلمة أجنبى باليونانية القديمة هى « بربار وس » · ولعلهم لم يجانبوا الصواب كثيرا فى زعمهم هذا فقد كان ذلك الشعب يصنع حضارة لاتزال الى اليوم مصدر رشد والهام يثرى وجدان العالم وفكره ، ولم يكن ما حققه ذلك الشعب من امتياز وتفرد فى مجال السياسة والحرب ونظام الحكم يقل فى شىء عما حققه فى الفن والأدب والفكر · فبراكسيتليس يصوغ من الحجارة تماثيل تنطق وتتحرك ، وفيدياس قد جعل الازار الذى يتدثر به التمثال ، وهو من الحجارة الصماء ، يشف عن جسد التمثال من تحته ، ومسرحيات اسيخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس لاتزال تبهر القارىء أو المشاهد ، وفلسفة أفلاطون ومنطق أرسطو وجدل السفسطائيين العظام ، وانجازات علماء الطبيعة فى مجال الذرة والفلك ·· وأناكساجوراس ونظرياته عن سطح القمر المظلم وعن الشمس ككتلة صخرية ملتهبة وعن المادة التى لا تفنى ولا تستحدث ونظريته عن الائتلاف والانشطار ، وبروتاجوراس وجهوده فى علم اللغة والفلسفة ·· هذه العبقرية التى أعلنت عن نفسها فى الفن والأدب والعلوم والطبيعة والتى أعلنت عن نفسها أيضا بشكل واضح فى السياسة ونظم الحكم ·· ديمقراطية أساسها عشق الحرية فى العقل وفى الجسد وبعض العنف والعذاب · وبهذه الروح وقفوا متفردين فى العالم · وسنلمس تلك الحرية فيما كتبه أكسينوفون فى حملة قورش عن العلاقة بين الجندى اليونانى ورئيسه ·· انه يتصدى له ولا يطيع أوامره عن عماء ، انما هو اقناع أو اقتناع ولا ثالث غيرهما ·

بلاد اليونان هى منطقة الاشعاع وسط عالم مظلم ، وأثينا هى بؤرة الضوء وسط تلك المنطقة ، وبالتالى فهى تنشر الحضارة على باقى ولايات

بلاد اليونان بقوة الطرد المركزى ، وتتلقى الحقد والحسد من جيرانها بقوة الجذب المركزى باعتبارها محط الأنظار . وكانت أثينا بحق هى صفوة الصفوة (وكان أكسينوفون أحد فرسان ذلك العصر ٥٠٠ ـ ٤٠٠ ق.م) ومثلما كانت آثار الحضارة التى تشعها تصل قوية الى الجيران ثم تزداد أفولا بالتدريج كلما بعد المكان ، كذلك كان العداء يصلها قويا من أقرب الجيران وأقل ضراوة من الجيران البعيدين .

من الخارج كان الاغريق جميعا يتصدون لهجوم الأعداء الذى يأتيهم من جبهتين : من فارس فى الشرق سنة ٤٩٠ ق.م فى معركة ماراثون وسنة ٤٨٠ ق.م فى معركة سلاميس حيث هزم الاغريق الفارسيين وأحرقوا لهم سفن العودة ، ومن الغرب اندحرت جيوش الغزاة الذين جاءوا من قرطاجة ، وكانت هزيمتهم فى هيميرا فى صقلية فى نفس العام الذى انتصر فيه الاغريق فى معركة سلاميس سنة ٤٨٠ ق.م ، ثم هزم الأعداء فى كومای فى ايطاليا .

ومنذ ذلك الحين انتابت أثينا أو الامبراطورية الأثينية نوبة من الغرور وقد انتصرت على الفرس ، وازداد حقد جيرانها عليها وتطلعهم الى تبوؤ مكانتها . وبدأ الصراع رهيبا بين أثينا وجيرانها من الجنوب الاسبرطيين أو البيلوبونيزيين سكان شبه الجزيرة المورة ، وهم قوم شديدو البأس محاربون عتاة ، وسرعان ما اندلعت نيران حرب أهلية مريرة عرفت باسم « حرب البيلوبونيز » (٣) أتت على كل شىء ، وهى التى اعتبرها توينبى السقطة التى كانت سببا فى انهيار الحضارة اليونانية القديمة .

على امتداد ذلك العصر نفسه وعلى الطرف الشرقى لبلاد اليونان كان تاج فارس ينتقل من داريوس الأكبر الذى كان يحكم البلاد ابان معركة ماراثون الى ابنه كسركسيس الذى كان يحكم البلاد أيام معركة سلاميس، مارا بأرتاكسركسيس وبداريوس نوثوس الى الابن الأكبر لداريوس واسمه أرتاكسركسيس الثانى ، متخطيا بذلك الابن الأصغر قورش . وقد يبدو الأمر عند هذا الحد طبيعيا ـ أن يرث الابن الأكبر تاج البلاد قبل الابن الأصغر لولا أن كانت هناك ظروف أخرى .

وقد لعب قورش دورا بارزا فى التاريخ اليونانى ، فقرب نهاية الصراع الذى احتدم بين أثينا واسبرطة أقام الاسبرطيون حلفا مع تيسافرنيس ، وهو الستراب الفارسى على ليديا وأيونيا والقائد الأعلى لكل القوات الفارسية لضرب آسيا الصغرى • وقد كان الطمع من الجانبين هو أساس ذلك التحالف ، فتيسافرنيس قد قبل هذا التحالف طمعا فى أن يستطيع ــ بمساعدة الاسبرطيين ــ أن يستعيد السيطرة على المدن اليونانية على الساحل الآسيوى والتى كانت من قبل تحت الحكم الفارسى ثم أصبحت فى ذلك الوقت جزءا من الامبراطورية الأثينية• أما الاسبرطيون ، فقد كانوا بدورهم يطمعون فى أن ينالوا من تيسافرنيس العون والمساعدة لامداد أسطولهم ، ومع ذلك فلم يكن تيسافرنيس بالرجل الساذج ، بل كان سياسيا يحمل وجهين: نفعيا ومنافقا،والى جانب ذلك كان صديقا لألكبياديس الأثينى وهو سياسى محنك ذو وجهين أيضا ، حتى لقد سمى الكبياديس الكوثورنوس (٤) الذى أسدى الى صاحبنا نصحه بأن من مصلحته ألا ينتصر جانب على الآخر بل أن يجهد كل جانب الآخر بحروب مستمرة ليضعف اليونانيون جميعا أمامه • وعلى ذلك تراجع على الفور وأوقف اعاناته المادية عن الاسبرطيين ، وعندما احتج الاسبرطيون لدى الملك الفارسى داريوس الثانى بأن موقف تيسافرنيس يعتبر خرقا للاتفاق بين الجانبين أرسل الملك ابنه الأصغر قورش سترابا على ليديا بدلا من تيسافرنيس ، وعلى فروجيا الكبرى وكابادوكيا ، وقائدا حربيا لغرب آسيا الصغرى كله • وهكذا أصبح قورش رئيسا لتيسافرنيس الذى جرد من كل سلطاته العسكرية ، عدا جزءا صغيرا من منطقة نفوذه السابقة هو أيونيا •

وهكذا وجد قورش فجأة فى هذه المكانة الخطيرة •• كان ذلك سنة ٤٠٧ ق•م تقريبا ، ولم يكن قورش قد تجاوز بعد السابعة عشرة ، وقد طلب اليه الملك أن يخلص العون للاسبرطيين المغلوبين على أمرهم حتى ذلك الوقت • وقد قدم قورش لهم مساعدات جليلة ربما كان لها أكبر الأثر فى أن أحرز الاسبرطيون فيما بعد نصرهم على الاثينيين • وفى هذه الفترة تعرف الى الكثيرين من الضباط والجنود اليونانيين ، وارتبط معهم بعلاقات ومعاملات كثيرة • وقد بقى هؤلاء القواد الاغريق على رأس قوات

على أهبة الاستعداد للخدمة فى صفوف أى سيد ، والفصل فى الأمر يحسمه من يدفع أكثر • كذلك أتاحت له مشاركته فى حرب البيلوبونيز أن يتعرف أساليب القتال اليونانية ، وأن يشهد تفوق الجندى اليونانى الهائل على مثيله الفارسى • ثم كانت الحرب التى دامت ربع قرن قد بدأت تطرد عددا كبيرا من الضباط والجنود اليونانيين الذين تعودوا الحرب ولم يطيقوا السلم • وقد صادق قورش هؤلاء جميعا ، ومن بينهم كليارخوس اللاكيديمونى وبروكسينوس صديق أكسينوفون وخيريسوفوس الاسبرطى ومينون من تساليا •

وقبل انتهاء حرب البيلوبونيز بقليل ، أى حوالى ٤٠٥ ق•م استدعى قورش من آسيا الصغرى ليكون الى جوار والده على فراش الموت • لكنه قبل أن يصل تلقى الأخبار بأن أخاه ارتاكسركسيس قد أصدر أمرا بالقبض عليه فور توليه الحكم بعد موت أبيه ، مما أصل المرارة فى نفس قورش، فطلب الى أصدقائه اليونانيين حشد كل من يستطيعون من الاغريق، ليقوم بحملة ظل الهدف منها مخبوءا عن الجنود فترة طويلة من رحلة الحملة ، ثم عرف بعد ذلك أنها تستهدف تجريد أرتاكسركسيس من تاج الحكم • والسبب فى ذلك شعور قورش بالمرارة المفاجئة حين وصله نبأ البحث عنه لاعتقاله بعد وشاية تيسافرنيس به عند أخيه ، فى الوقت الذى كان يهيىء نفسه ليتولى الحكم ، فقد كان أثيرا الى قلب الملكة والملك لأنه الأصغر سنا ، ولأنه ولد فى القرمز ، أى ولد وكان أبوه متوجا على خلاف الابن الأكبر أرتاكسركسيس • ولهذا سابقته ، فقد تولى اكسركسيس — قبل ذلك بثمانين عاما — الحكم قبل أخيه الأكبر لذلك السبب نفسه •

وعلى امتداد الرقعة الزمنية نفسها ، وفى غفلة من تواتر الأحداث وتدافعها اللاهث ، نلمح اكسينوفون واحدا من الذين يشاركون فى صنع الحياة الثقافية فى القرن الذهبى (٥٠٠ — ٤٠٠ ق•م) الذى شهد حصاد عبقرية شعراء الدراما والمؤرخين والفلاسفة • وتميز أكسينوفون بسحر خاص يتبدى فى تبسطه فى المحادثة الذى ورثه عن سقراط ، وحدث أن طلب اليه صديقه بروكسينوس ان يسافر معه فى حملة قورش ، ووجد

أكسينوفون فى ذلك فرصة لقضاء بعض الوقت ولمشاهدة بلاد لم يرها ، ونصحه سقراط أن يستشير نبوءة دلفى (٥) أولا ففعل لكنه لحرصه على السفر ــ لم يسأل النبوءة هل يسافر أم لا بل سألها : « أى الآلهة ينبغى أن يقدم لها الأضاحى ليكون حظه أكثر توفيقا فى رحلته» . وسافر أكسينوفون مع الحملة ، وهو لا يعلم أن الحظ يعد له دورا خطيرا فى تلك الحملة وهو لم يبلغ سن الثلاثين . وقد سجل أحداث تلك الحملة فى كتاب « الحملة » على ما ذكرنا .

حملة قورش كما يصفها أكسينوفون

واذا كان لنا أن نستبق الأحداث متعجلين الوصول الى الجزء الثالث من مؤلف أكسينوفون ، يشدنا اليه بساطتــــه فى رواية الخبر وسحره فى اختياره أكثر الزوايا اطلالا على الفكرة التى ينبغى لفت انتبــاه قارئه اليها داخل الخبر الذى يرويه ، ثم تمكنه وبراعته فى ترتيب تفاصيل الخبر على نحو يجعل منه كاتبا روائيا فنانا ، اذا تعجلنا الوصول الى الجزء الثالث من « الأناباسيس » لنعرف كيف اشترك أكسينوفون فى الحملة ، وسنلحظ أنه كان متأنيا صبورا فلم يستسلم لاغراءات الرغبة فى الاعلان عن النفس والبحث فى أول مكان فى مؤلفه يسجل لنفســـه فيه اشتراكه فى تلك الحملة ، فقد يأتى ذلك المكان وسط أحداث تافهة تضيع معها سيرته ، ولكنه ينتظر الى أن يصل الى أكثر اللحظات توترا وأعظمها حرجا ، والى أن يصل الى أكثر المواقف تعقدا حيث تكون الأحداث عند ذروة الخطورة ، وقد اغتيل قواد الحملة ليظهر فى هذه اللحظة منقذا ومخلصا بعد أن طال بنا الشوق الى معرفة كيف يكون الخلاص من تلك الورطة ، ثم هو قد اختـــار لنفسه الجزء الثالث ــ وسط العقد ــ ليروى فيه قصة اشتراكه فى الحملة ، فنكاد وقد فرغنا من قراءة الكتب السبعة نحس أننـــا قد كنا صيدا لذلك الماكر أكسينوفون ، ألقى حولنا شباكه حين أوهمنا أنه كاتب موضوعى فانسقنا معه واذا بنا فى الجزء الثالث ــ وقد قطعنا الرحلة معه ــ نكتشف أن الجزءين

الأول والثانى وما ينطويان عليه من أحداث جسام ، قد كانا فى الحقيقة مقدمة لسيرة أكسينوفون أو مدخلا اليها • واقرأ ما يقوله عن عدم امتثاله لنصيح سقراط وتحايله على نبوءة دلفى واصراره على الاشتراك فى الحملة ، ولا يفوتك أن تلحظ أيضا كيف يظهر فجأة وكيف يجىء هذا الظهور فى ذروة الأزمة : « وبعد أن وقع القادة فى الأسر ، وكذلك الضباط الكبار والجنود الذين كانوا فى رفقتهم ولقوا حتفهم جميعا ، كان طبيعيا أن يجد الاغريق أنفسهم فى غمار حيرة مربكة ، ونهبا لأفكار مضنية ، فهم يقفون على أبواب الملك وهم محاطون من كل جانب بقبائل معادية لا تحصى ولا تعد ، وليس ثمة من منقذ يمد لهم يد العون فيما يحتاجون اليه من مؤن بعد ذلك وأنهم بعيدون عن بلاد اليونان بما لايقل عن عشرة آلاف ستاديا (حوالى ١٦٠٠ كيلو متر) وأن ليس لهم من مرشد يدلهم على الطريق ، وأنهم محاصرون من كل جانب بأنهـــار يستحيل عبـورها تسد عليهم خاصـة طريق العودة • ان الأجانب الذين قاموا مع قورش ومعهم بهذه الحملة قد خدعوهم ووشوا بهم ، وأنهم قد تركوا وحيدين ولم يعد بينهم فارس واحد يعينهم ، حتى لقد أصبح الأمر واضحا أمامهم على هذا النحو : ان هم أرادوا النصر فليس بوسعهم أن يقتلوا رجلا واحدا (من الأعداء) ، وان كان لا مفر أمامهم من الهزيمة فلن يبقى واحد فى قيد الحياة • وهم وقد عجت عقولهم بتلك الأفكار وعربد بنفوسهم اليأس واستبد ، راح قليلون منهم يتشممون الطعـام فى عزوف عندما حل المســاء ، وقليلون يوقدون نارا ، وكثيرون لم يرجعوا تلك الليلة الى ثكناتهم ، وانما رقدوا حيثما اتفق ، وقد فر منهم النوم بعد أن طواهم الحزن وأضناهم الشـوق الى وطنهم وأهليهم ، والى زوجاتهم وأطفالهم الذين بدا لهم أنهم لن يروهم بعد الآن • تلك كانت حالهم حين خلدوا الى الراحة •

وكان بين أفراد الجيش رجل اسمه أكسينوفون أحد الأثينيين ولكنه مسافر مع الحملة لأن بروكسينوس ، أحد أصدقائه منذ فترة طويلة ، كان قد أرسل اليه فى داره دعوة الى مرافقته • ووعده بروكسينوس كذلك ان وافق على السفر معه ، أن يقدمه ويوثق صـداقة حميمة بينه وبين قورش

الذى يعتبره أعز لديه من وطنه نفسه • وبعد أن قرأ أكسينوفون رسالة بروكسينوس التقى بسقراط الأثينى وناقشه فى أمر تلك الرحلة ونصح سقراط أكسينوفون ، وهو يخشى لو أصبح أكسينوفون صديقا لقورش أن يكون ذلك سببا فى تهمة تدين أكسينوفون من جانب الحكومة الأثينية • والسبب فى ذلك أن اعتقادا كان قد ساد بأن قورش قد حرص كل الحرص على تقديم أعظم المساعدات للاسبرطيين فى حربهم ضد أثينا ، نصح سقراط أكسينوفون أن يتوجه الى دلفى ليستشير الاله فى أمر تلك الرحلة • وقد ذهب أكسينوفون وسأل أبوللو أى اله ينبغى عليه أن يقدم له القربان ويزجى الصلاة ليعينه على أن تكون رحلته موفقه كل التوفيق ، وأن يعود آمنا الى وطنه بعد أن تكون قد صحبته السلامة وأصابه أسعد الحظوظ ، وقد أجاب الاله أبوللو عن سؤاله ودله عن الآلهة التى ينبغى أن يقدم لها الأضاحى • ولما عاد أكسينوفون من دلفى ، قص على سقراط النبوءة فكشف له صاحبنا الخطأ الذى تردى فيه ، فهو لم يسأل « الاله » أولا ما اذا كان الخير فى أن يذهب أم فى أن يبقى ، وانما هو قد قرر لنفسه أولا أن عليه أن يذهب ، ثم هو قد سأل الاله بعد ذلك عن أفضل السبل الى الرحيل • ومع ذلك أضاف سقراط : « وما دمت قد طرحت السؤال على هذا النحو فلا عليك الا أن تفى بكل ما أشار به الاله » •

ويصف أكسينوفون بعد ذلك كيف ألحق بصديقه خدعته وغرر به مثلما غرر بباقى الجنود • ومع ذلك واصل السير مع الحملة ، ويعود مرة أخرى الى اللحظة التى كان قد بدأ بها هذا الكتاب ، الى الورطة التى ألمت بالجنود وقد قتل القواد •

ويروى أكسينوفون قصة قورش وأسباب الحملة من أولها بادئا من السطر الأول من مؤلفه عن الحملة : « والآن عندما رقد داريوس طريح الفراش وقد ألم به المرض ، وعندما تشوف نهاية حياته تدنو ، فقد رغب فى أن يكون ولداه الى جانبه ، وحدث أن كان الابن الأكبر الى جواره بالفعل فى ذلك الوقت • أما قورش فقد أرسل لاستدعائه من ولايته التى كان قد نصبه ستترابا عليها ، وجعله قائدا لكل القوات المرابطة فى سهل

كاستولوس ، وعلى ذلك فقد رحل قورش وفى رفقته صديقه تيسافيرنيس ، ومصطحبا معه ثلاثة آلاف من الهوبلتياى (الجنود حاملى الأسلحة الثقيلة) الاغريق يقودهم أكسيناس من باراسيا .

وعندما أسلم داريوس روحه وأصبح أرتاكسركسيس خليفة الملك ، أسرع تيسافيرنيس ليشى بقورش ، افتئاتا ، عند أخيه الملك مدعيا أنه كان يتآمر عليه . ولما أن صدق أرتاكسركسيس الوشاية ، قبض على قورش بنية اعدامه لولا أن تشفعت له أمه وأعادته الى ولايته . والآن وقد عاد قورش بعد أن تربص الخطر بحياته ، وأفعمت روحه مرارة الازدراء راح يتدبر الأمر ، لن يتاح له ما أتيح لأخيه (من قوة) ولهذا ، ان استطاع فليكن ملكا بدلا منه ، وقد كانت باروساتيس الأم تحابى قورش وتهبه كل حب وحدب مؤثرة اياه على أخيه الذى أصبح الآن ملك (البلاد) ولاشك أنها ستسانده » .

وقاد قورش الحملة ، وحيثما سـار كان يتلقى العون من المؤن والرجال ، فبدأ سيره من ساردیس الى نهر مايائدروس ومدينة كولوساى متقدما عبر لوكاؤنيا وكابادقيا عبر جبل مونت تاوروس والممر المعروف ببوابات كيليكيا ، وقد بعث بعيون عن طريق آخر ليوهم حراس الفرس بأن الحملة تعود أدراجها . ويضطر قورش هنا الى التصريح بالسبب الحقيقى للحملة ويصف أكسينوفون موقف الجنود من قورش فى تلك اللحظة فى الجزء الأول من الأناباسيس: « وجمع قورش قواد الاغريق وأخبرهم أن المسيرة يجب أن تتجه الى بابل ضد الملك العظيم، وأشار عليهم تبعا لذلك أن يتولوا توضيح ذلك للجنود وأن يبذلوا غاية جهدهم لاقناعهم على اتباعه . وعلى ذلك عقد القواد اجتماعا أعلنوا فيه الأمر ، وثارت ثائرة الجنود وغضبوا من القواد قائلين انهم كانوا على علم بذلك منذ وقت طويل وانمـا أخفوه عنهم ، وأبعـد من ذلك أنهم رفضـوا أن يستمروا فى رحلتهم ما لم يعطوا نقودا ليتساووا بالرجال الذين رحلوا مع قورش من قبـل عندما ذهب لزيارة أبيه وتلقوا الهدايا والعطايا، برغم أنهم لم يكونوا يسيرون الى معركة، بل لأن أباه قد استدعاه لزيارته . ونقل القواد هذا المطلب الى قورش الذى

وعد بأن يعطى كل رجل خمسة ميناى (حوالى عشرة جنيهات) من الفضة عندما يصلون بابل ، وبأن يدفع كذلك أجورهم كاملة ، حالما يرجع بالاغريق الى أيونيا فى رحلة العودة ٠

وبهذه الوعود اقتنع الجزء الأكبر من الجيش اليونانى ٠

أما بالنسبة لمينون ، وقبل أن يتضح له ما يمكن أن يكون الجنود الآخرون قد فعلوه ، أى ما اذا كانوا قد تبعوا قورش أم لا ، فقد تحدث اليهم هكذا : « أيها الجنود،ان أنتم أطعتمونى فأنتم جديرون بتقدير قورش وتكريمه لكم فوق سائر الجنود ، وما عليكم أن تبذلوا جهدا أو تواجهوا خطرا ، فبماذا أنا آمركم ؟ فى هذه اللحظة (أتصور) قورش يرجو الاغريق أن يتبعوه ضد الملك ، وخطتى ، اذن ، أن عليكم أن تعبروا نهر الفرات قبل أن تتضح اجابة باقى الاغريق على رجاء قورش ٠ فان هم أطاعوه وقدروا أن يتبعوه فسيكون لكم أخيرا المفخرة والحظوة بأنكم أصحاب الفضل فى هذا القرار ، لأنكم أنتم الذين بدأتم العبور ، ولن يشعر قورش لكم بالعرفان والامتنان فحسب وقد وجدكم أشد الناس حدبا عليه وتحمسا لقضيته ، بل سيرد الفضل بأفضل منه ــ وهو يعرف كيف يفعل ذلك ، ومن ناحية أخرى اذا رفض الباقون أن يتبعوه فسوف نعود جميعا أدراجنا ، ولكنكم أنتم وحدكم الذين أطعتموه ستكونون رجاله المقربين ليس فقط فى أعمال الحراسة الخاصة (وهى خدمة سهلة) بل فى القيادات وفيما أنتم فيه راغبون غير ذلك ، أعرف أنكم ــ كأصدقاء لقورش ــ ستكونون فى مأمن منه » ٠ ولما أن سمع منه الجنود هذه الكلمات اقتنعوا وعبروا النهر سريعا قبل أن يعطى الباقون اجابتهم ، وعندما عرف قورش أنهم قد عبروا طار فرحا وأرسل « جلوس » الى القوات بهذه الرسالة : « أيها الجنود ، اليوم أحييكم وأثنى عليكم ، ولكننى سأبذل قصارى جهدى كى تجدوا فى شيئا أستحق عليه ثناءكم ، والا فلست قورش بعد اليوم » ٠ ولهذا قوى الأمل فى نفوس جنود مينون وتوجهوا بالدعاء له أن يشمله التوفيق ، بينما أرسل قورش الى مينون نفسه أروع الهدايا ٠ بعد ذلك تقدم قورش لعبور

النهر وتبعه باقى الجيش الى آخر رجل ، وفى هذا العبور لم يبتل رجل واحد لما فوق صدره بماء النهر · ويقال « ان هذه هى المرة الوحيدة التى تم فيها اجتياز هذا النهر سيرا على الأقدام فلم يعبر بعد ذلك الا بالقوارب» ·· «ويبدو أن العناية الالهية قد تدخلت ، وأن النهر قد تراجع وانحسر بوضوح أمام قورش ، لأن قدرا مسطورا كان قد خط بأن يصبح قورش ملكا » ·

وتتقدم الحملة فتجتاز أراضى سوريا الى أن تصل الى نهر أراكسيس « وهنا يجدون قرى كثيرة مليئة بالحبوب والنبيذ فيبقون هنـاك ثلاثة أيام ثم يستكملون مؤونة الجيش ويتقدمون عبر الصحراء العربية مسترشدين بنهر الفرات الذى جعلوه الى يمينهم » · وقبل أن نمضى مع مسيرة الحملة ، لايفوتنا أن نرصد من الجزء الذى تقدم براعة أكسينوفون فى نقل الواقعة ، انه ليس بالمؤرخ الذى يسجل ويكتفى بالتسجيل وفى سنة كذا حدث أن ·· فحسب ، كمـا أنه لا يكتفى بالوصف ونقـل الواقعة كما شهدها ، انما هو يغوص الى أغوار النفس ويخرج الى السطح وقد أمسك فى قبضته بكل ما يعتمل بتلك الأغوار ليبسطه أمامنا·ولعل لميوله الفلسفية يرجع هذا المنهج الذى مزج فيه بين التاريخ والتحليل النفسى ، ثم هو يحدد أولا مكان الحدث وشـــخوصه ويترك هؤلاء يحدثونك بلغتهم وبنفس الكلمات التى خرجت من أفواههم من قبل ، فان كان الحوار أقدر على تجسيد الواقع لجأ الى الحـوار ، وان كان السرد لجـا الى السرد ، وهو بانتحائه هذا المنحى يمازج بين عمل الأديب ومهمة المؤرخ · وستجد فى النهاية أن الكتاب الذى بين يديك هو كتاب فلسفة ونموذج من أدب الرحلات وكتاب حرب الى جانب أنه كتاب تاريخ ·

وعند ايسوس ينضم خيريسوفوس الاسبرطى ومعه ٧٠٠ رجل· ويصل عدد جنود قورش الآن الى ١٢٫٩٠٠ جندى من الاغريق ، و ١٠٠٫٠٠٠ من الفارسيين · وكانوا جميعا لا يتوقعون أن يحارب الملك ، لكنه يظهر أمامهم فجاة عند كوناكسا على بعد ٥٠ ميلا من بابل · وكان تشكيل جيش قورش على النحو التالى : كليارخوس قائدا للجناح الأيمن وكله من الاغريق ويقف بهم فوق الفرات، وقورش قائدا للوسط ، وأريايوس الفارسى قائدا للجناح الأيسر ·

ويصف أكسينوفون بعد ذلك كيف هجم الاغريق وانطلق جناح كليارخوس الأيمن وأطلق الجنود الصيحات ليطعنوا بالرعب قلوب الفارسيين الذين ولوا الأدبار هاربين دون أن يقتلوا رجلا واحدا٠أما قورش فقد كان طوال الوقت يعد ٦٠٠ من أقرب الجنود اليه من « رفقاء المائدة » كما يسمون ، ووقف يرقب ظهور أرتاكسركسيس فى الوسط ، ونعرف بعد ذلك أنه عندما يلمح الملك يصيح : « اننى أرى الرجل » ويندفع اليه مع جنوده مسددا ضربة قاتلة ، لكنه فى نفس اللحظة يلقى رمحا فى عينه يصيب منه مقتلا لينهى صراع قورش مع أخيه هذه النهاية الدرامية المفجعة بما يعيد الى أذهاننا قصة الأخوين بولينيكيس وايتيوكليس ولدى أوديب ، اللذين اقتتلا على أسوار طيبة وقتل كل منهما الآخر فى نفس اللحظة ٠

كان بوسع الاغريق أن يمكثوا حيث هم ، وأن يصبحوا خطرا يهدد فارس،ولكن كليارخوس يتقدم الى أريايوس الفارسى يعرض عليه أن يأخذ مكان قورش ويعده بأن يساعده على الوصول الى العرش ، فلا يقبل أريايوس خوفا من نقمة الفرس٠ويعرض اقتراحا بديلا بأن يدل الاغريق على مخرج من هذا المكان الذى تمزقه القنوات المائية ولن يقودهم الى رحلة العودة ٠ ولم يفعل الفارسيون شيئا لمواجهة فورية مع الاغريق سوى أنهم أغاروا على معسكرهم وسرقوا مؤونتهم من مأكل وشراب ٠ ثم أرسل الفارسيون تيسافرنيس ، الستراب الفارسى والسبب الحقيقى فى كل هذه المصائب الى معسكر الاغريق عارضا عليهم الصلح والصداقة ، بينما هم فى الحقيقة يدبرون لمكيدة٠ويلتقى تيسافرنيس بكليارخوس ويعقد معه مؤتمرا أبدع فى وصفه أكسينوفون الذى نقل الينا أقوال كل فريق من الاغريق والفارسيين نقلا حرفيا كأنه « محضر جلسة » ٠ وأغلب الظن أن الخطب التى جرى بها قلم أكسينوفون هى صياغة جديدة لأقوال القواد دبجها أكسينوفون بنفسه ، أى انها ليست بالتسجيل الحرفى ٠ فالمنطق الذى يحكم الفكرة الواحدة والذى تنتظم وفقه الأفكار متجاورة على نحو يفرض اقناع السامع بها ، وان كانت فى غير صالحه ، وقوة الحجة ، والأسلوب

الأدبى الذى لا يمكن ان يكون قد انطلق عفو الخاطر ، وانما جاء بعد تريث وتفكير ثم تقديم وتأخير ، كل هذه شـواهد لعلهـا تقطع بأن أكسينوفون قد أعاد صياغتها حتى لا تكون الرقعة الأرجوانية فى عمله . وفى نهاية الاجتماع يقبل كليارخوس دعوة تيسافرنيس الى عقد مؤتمر موسع داخل الأراضى الفارسية . وبعد تبادل الزيارات يخرج كليارخوس ذات مرة ومعه بروكسينوس ومينون وأجياس وسقراط الآخى ، ومعهم عشرون قائـدا ومائتان من الجنود . ووصلوا للقاء تيسافرنيس ، وفتحت الأبواب لكبار القواد الخمسة وانتظر القواد العشرون والجنود خارجها . أما القواد الكبار فقد ألقى القبض عليهم للادلاء بخططهم قبل أن يقتلوا ، وأما القواد والجنود فقد انطلقت عليهم كتائب الفرسان من الفرس تطيح رقابهم لاتدع عبدا ولا حرا .

ويجد الاغريق أنهم قد وقعوا فى ورطة ومزقهم اليأس على نحو ما رأينا فى بداية الجزء الثالث .

وعندئذ يظهر أكسينوفون الذى يبحث عن أحـد ضباط صديقـه بروكسينوس ويقنعه بأن لا سبيل الى النجاة الا بالحرب . ويعقد مؤتمرا يدعى اليه القـادة ويتم الاتفـاق على التقهقر قليلا والتحصن فى تيمرود ومسبيا وهما مدينتان محاطتان بالأسـوار . وظل الفارسيون يهاجمونهم عن بعد ، ولكنهم كانوا يخشون الالتحام . واجتمع أكسينوفون والقواد واتفقوا جميعا على الاتجاه نحو الشمال عبر أراضى الكرد الى أرمينيـا . ويصف أكسينوفون عرضهم العسكرى مطلقـا بأنهم كانوا ممثلين بارعين يؤدون دور المحاربين الشجعان ، ومر الجنود اليونانيون بمغامرات قاسية وسط الجبال والثلوج الى أن وصلوا أخيرا سهول أرمينيا حيث نعموا لوقت بالراحة وأحاطوا بينابيع التيجريس . ثم مرت حياتهم بعد ذلك بمخاطر ظنوا معها أنهم هالكون لا محالة . وبعد أن فقدوا كل أمل فى الحياة ، بدأ يشدهم الى بعضهم البعض حب مفاجىء ونوبات من العطف غير المبررة ، الى أن لاحظوا هرجا فوق أحد التلال . وجرى أكسينوفون ـ فيما يروى عن نفسه ـ لاكتشاف ما يجرى هنـاك فرأى رجـلا يتبع رجلا آخر يندفعان صائحين ، وعندما اقترب منهما سمعهما يقولان : « البحر .. البحر » .

أصبح الاغريق الآن ـ بفضل أكسينوفون ـ على مقربة من مستعمراتهم · وفجأة ـ وقد أصبحت حياتهم فى مأمن وضمنوا العودة ـ يتقاتلون ويتقاذفون الشتائم فى نوبات غير مبررة أيضا !!

أصبحوا الآن عند تريبيزوند ومع ذلك فقد مر عام كامل قبل أن يستقر الجيش تماما · وكان عليهم أن يبحروا عبر البحر الأسود ومن ثم أمامهم مغامرات كثيرة · سار أكسينوفون أخيرا برا الى كيراسوس ، ثم أعاد استعراض الجنود وقد أصبح عددهم الآن ٨ر٦٠٠ جندى ، وعبروا وطن الموسونويكو الذين يعيشون فى أعشاش فى أعالى الأشجار ، وفكر أكسينوفون فى اقامة مستعمرة يونانية فى هذا المكان لكن الرأى قر فى النهاية على العودة · واختار الجند أكسينوفون قائدا لهم ، لكنه اقترح خيريسوفوس الاسبرطى بدلا منه لكى لا يقلل من أهمية الاسبرطيين · ثم سرعان ما مات خيريسوفوس بالحمى ، وآل الأمر الى أكسينوفون الذى حاول أن يصور الأمر وكأنه قد فرض عليه رغما عنه ـ ليعود بهم الى بلادهم ·

★★★

وقد أثارت الأناباسيس جدلا كثيرا انصرف فى أغلبه الى تاريخ صياغته والى منهج أكسينوفون فى كتابة التاريخ · فمن قائل ان أكسينوفون قد كتب قصته عن تلك الحملة مستعينا بملاحظات كان يدونها أولا بأول أثناء الحملة ، ومن قائل انه بدأ صياغتها فى وقت كانت الأحداث لاتزال حية فى ذهنه ووجدانه · ويشهد بذلك مثلا الأسلوب البسيط الذى يحمل خصائص النتاج المبكر للكاتب · ومن الناحية الأخرى ، فان اقحام أكسينوفون لنفسه ولسيرته الذاتية ـ فى الكتاب الخامس أو الجزء الخامس ـ يشير الى أن تاريخ كتابته كان فى وقت متأخر يرجع الى سنة ٣٧٠ ق·م ، وعندما يشير أكسينوفون الى هذه الحملة فى جزء من « تاريخ بلاد اليونان » « الهللينيكا » الذى كتب حوالى سنة ٣٨٠ ق·م فانه يحيل قارئه ـ ان شاء مزيدا من التفاصيل ـ الى تاريخ حملة قورش الذى كتبه ثيميستوجنيس السيراكوزى ، وهذا يعنى أنه لم يكن قد دون بعد كتابه عن الحملة (الأناباسيس) حتى ذلك الوقت · ويفهم من هذا

كله أن أكسينوفون كان قد دون الأناباسيس عقب عودته من آسيا الصغرى مباشرة فى سنة ٣٩٤ ق٠م لكنه لم ينشرها حتى سنة ٣٧٠ ق٠م ، وربما أراد أكسينوفون أن يؤخر نشر عمله الى سن متأخرة تحرجا من الجزء الذى كتبه عن نفسه ٠

وقد كان لما كتبه أكسينوفون عن تلك الحملة أهمية قصوى ، فهو قد نقل صوراً حية وصادقة وجعل لليونانيين بهذه الصور مكانة فريدة ، فقد كشفت تلك الكتابة عن أروع القيم التى تحلى بها الجندى اليونانى من شجاعة وتحمل وتقوى وصبر وانسانية واستقلال وعقل ٠ هم جنود بحق وقت الشدة وهم أغارقة بحق حين يناقشون ويصرون على أن تصل كلمتهم ، وعلى أن يقتنعوا أو يقنعوا ، وبأن يؤخذ برأيهم حين يكون صوابا ٠ حتى لقد أطلق على هذه المجموعة من الاغريق أسماء منها أنهم « ديمقراطية متحركة » ، « جمهورية متجولة » ، خلاصة من عظمة أثينا تقف شاهدا فى وسط آسيا ، وقد بلغ من اخلاص أكسينوفون فى نقل المعارك حية فى كتابه حدا جعل أحد الدارسين للعلوم العسكرية يكتب : « ولا شك أن الجندى الذى أفادنا أعظم فائدة والذى سبق الاسكندر هو أكسينوفون ، وأنه هو الذى أطلع العالم كيف ينبغى أن يكون تكتيك الانسحاب ، وكيف يمكن قيادة المؤخرة ٠ والآن وبعد أن مر ثلاثة وعشرون قرنا فليس ثمة من نص حربى قديم غير الأناباسيس » !! ٠

ملحمة عنترة بن شداد

من الأدب الشعبي

٨٣٠ م

عنترة .. مثل بارز للفروسية العربية

تعد سيرة « عنترة » العربية الشعبية بحق من روائع الملاحم العالمية . فما من مصنف يحوى هذه الروائع يخلو من عرض موجز أو مفصل لهذه السيرة التى تؤكد حقيقة مهمة ، وهى أن الشعوب تتبادل التأثر والتأثير على اختلاف الأجناس والأديان والألوان ، على الرغم من اختلاف العصور . والباحثون اذا تجاوزوا ما فى الملاحم الشعبية من وجوه التماثل ، فانهم يسجلون وبخاصة عن سيرة عنترة ، أنها كانت من الروائع التى احتفلت بها أوربا فى القرن الثامن عشر وربما قبل ذلك ، ثم أصبحت من الموضوعات الأساسية فى الدراسات الأدبية بصفة عامة وفى دراسات الأدب المقارن بصفة خاصة ابان القرن التاسع عشر . فما أكثر ما فيها من العناصر الثقافية والأساليب الفنية التى تحتاج الى تحقيق تاريخى وتحليل أدبى !. واذا كنا نلمس منذ البداية تشابها أو تطابقا بين بعض حلقات هذه السيرة وبين ملحمة السيد الاسبانية وأغنية الرولان الفرنسية ، فاننا لانستطيع أن نغفل اعجاب ناقد أدبى عظيم مثل « هيبوليت تين » بهذه السيرة العربية ووضعه اياها بين الروائع الملحمية العالمية مثل سيجفريد ورولان والسيد ورستم وأوديسيوس وأخيل . كما أن الشاعر الفرنسى لامارتين كانت تأخذه النشوة ويستبد به الطرب كلما ذكر هذا البطل العربى عنترة أو اطلع على جانب من ملحمته الرائعة .

ولم يكن اختيار الشعب العربى لهذا البطل الجاهلى بلا سبب حيوى أملاه عليه موقفه من ذاتيته القومية العامة من ناحية ، ومن الشعوب الأخرى

التى تسللت الى موطنه وغلبته على مصالحه من ناحية أخرى ، ومن الواضح أن الشعب العربى انما اعتصم بموطنه الأصلى وهو الجزيرة العربية ، والتفت الى عصر نقاء الجنس وهو الجاهلية عندما أحس بوجدانه القومى ينبض دفاعا عن الحمى والنفس بعد انحسار موجة الفتوح الاسلامية واستئثار غير العرب من المماليك وأشباههم بمقدرات الحكم فى أجزاء من الوطن العربى وابان ذلك الصراع الدموى الطويل الذى عرف بالحرب الصليبية ... ومن أجل هذا كله اختار الشعب العربى مثالا بارزا للفروسية العربية الجاهلية وهو عنترة بن شداد العبسى الملقب بأبى الفوارس وهو الذى جمع بين الفتوة والتفوق فى الشعر وأسهم فى أيام العرب المشهورة ، كما كان من أصحاب المعلقات .

ولقد شغل الباحثون أنفسهم ولا يزالون بمحاولات الحكم على هذه السيرة الشعبية من ناحية النوع الأدبى ومن ناحية البناء الفنى ومن ناحية التاريخ ، وقلما عنوا بالباعث الأصيل الذى أثمرها . وهى كغيرها من نصوص الأدب الشعبى تكاملت فى بيئات عربية مختلفة ، ولم تبلغ غايتها من الكمال الا بعد أن استنفدت الأجيال والقرون فى النماء والتطور والتراكم ، ولهذه الحقيقة دلالتها الكبيرة وهى : أن الوجدان القومى تشبث بالمثال الذى اختاره ورآه ملائما لما يريد أن يعبر عنه ، فلم يحتفظ به حقبة تقصر أو تطول ، ولم يجعله موضوع غنائه فى بيئة واحدة مهما كانت، وانما ظل يعبر بوساطته عن هذا الوجدان بأبعاده التاريخية ، وبما تصوره من أمجاد وبما أراد أن يرسب من معارفه وبما اعتصم به من قيم يفرض على أفراده جميعا التصعيد اليها فى السمت وفى الفكر وفى التعبير وفى السلوك جميعا . ولا يرد اهتمام الشعب العربى بشخصية عنترة على هذا النحو الى رواة الأخبار كالأصمعى وأبى عبيدة وأمثالهما ، وانما يرد الى الفترة التى عاشها هذا الفارس العربى واشتهر بخلائقه ومواقفه ووقائعه حتى تجاوز ذكره منازل بنى عبس الى الجزيرة العربية أولا والى الوطن العربى الكبير ثانيا .. ولقد ذكر عنترة أيام النبى صلى الله عليه وسلم ولهجت به ألسنة بعض الصحابة وتردد اسمه فى صدر الاسلام وحمل الفرسان أخباره مع الفتوح . وذكر الجاحظ أنه كان زاد العامة فى السمر . ونمت

هذه الشخصية بنمو الوجدان القومى العربى ، حتى تكاملت صورة الملحمة وتخصص فى سردها فريق من القصاص الشعبيين ، وسجل العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية هذه الحقيقة ، كما سجلها ادوارد لين الذى وصف عادات المصريين المحدثين وأخلاقهم قبل الاحتلال الانجليزى للديار المصرية. وكانت سيرة عنترة الأخت الشقيقة لسيرة بنى هلال، وعرف المتخصصون فى الأولى بالعناترة والمتخصصون فى الثانية بالهلاليـــة .. ومن اليسير أن يتبين الدارس النواة الأصلية التى أصبحت على مر الأجيال والقرون سيرة شعبية كأنها الشجرة المورقة بجذورها وساقها وأغصانها وثمارها .

أبو الفوارس عنترة فى الجاهلية

وهناك سؤال على كل باحث أن يجيب عنـــه قبل أن يعرض النواة الأصلية التى تطورت حتى أصبحت سيرة شعبية . وهذا السؤال هو : لماذا حفر عنترة بن شداد العبسى صورة شخصيته وأحداث ســـيرته فى ذاكرة الشعب العربى دهـــرا طويلا ولم تحتفل هذه الذاكرة بأنداده من فرسان الجاهلية وفيهم من كان أعرق نسبا وأوفر مالا وأقوى شكيمة ؟ ويجيبنا على هذا السؤال د . عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى فى كتابه عن سيرة عنترة :

لقـــد ذكر الشعب العربى الزير ســـالم فترة من الزمن ولهج بسيف ابن ذى يزن فترات ، ولم يكن لهما مع ذلك نفس المكانة التى لاتزال لعنترة فى وجدان الشعب العربى الى الآن . وتكمن الاجـــابة فى أن محور سيرة عنترة بن شداد العبسى يدور حول الحرية التى افتقدها المواطن العـــربى عندما التفت الى الجزيرة فى مرحلة نقاء الجنس . واذا أردنا أن نجمل سيرة هذا الفارس فى عبارة واحدة فاننا نستطيع أن نقول : انها كانت صراعا أراد به صاحبه أن يحقق وجوده كفرد حر فى مجتمع حر ، يضاف الى ذلك أنه كان شاعرا ، فالحديث فى سيرته واقع وتعبير معا . ولم تكن فطنة الشعب لتغفل عن هذه الحقيقة التى يمكن أن تكون حافزا شخصيا لكل مواطن عربى ، وقوميا لكل مجتمع عربى ، ولذلك تجاوز عنترة عصره ودياره وظل حتى الآن بملحمته جزءا لا يتجزأ من التراث الشعبى الحى .

من هو عنترة ؟

هو عنترة بن شداد بن عمرو وقيل ابن عمرو بن شداد بن معاوية ابن قراد العبسى من أهل نجد ينتهى نسبه الى مضر،ويكنى بأبى المغلس(١) لغاراته فى الغلس ، ويلقب بعنترة الفوارس لشجاعته وعنترة الفلحاء (٢) لانشقاق شفته السفلى · وأم عنترة حبشية سوداء يقال لها زبيبة ، سباها أبوه فى احدى غزواته فأولدها عنترة وكان لها أولاد عبيد من غير شداد فلم يعترف به أبوه فى أول الأمر بل أنكره جريا على عادة العرب ، لأنهم كانوا يستعبدون أولاد الاماء ولا يعترفون بهم الا اذا ظهرت عليهم النجابة ·

اخلاقه وشجاعته

وكان أشد أهل زمانه وأجرأهم فؤادا وأسخاهم يدا · وهو على شجاعته وشدة بطشه حليم لين الطباع سمح اذا لم يظلم ، وفى ذلك يقول:

أثنى على بما علمت ، فاننى سمح مخالقتى ، اذا لم أظلم

وحدث عمر بن شبة قال : قال عمر بن الخطاب للحطيئة : « كيف كنتم فى حربكم ؟ » قال : « كنا ألف فارس حازم » قال : « وكيف ذلك ؟ » قال : « كان قيس بن زهير فينا وكان حازما فكنا لا نعصيه · وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل اذا حمل ونحجم اذا أحجم · وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأى فكنا نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك » · فقال عمر : « صدقت » ·

وقال الهيثم بن عدى : قيل لعنترة : « أنت أشجع العرب وأشدها ؟ » قال : « لا » · قيل : « فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ » قال : « كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزما وأحجم اذا رأيت الاحجام حزما ولا أدخل موضعا الا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه فأقتله » ·

ولعنترة كثير من الوقائع المشهورة ولكن أضيف اليه ما ليس له حتى اشتبه الصحيح بالموضوع · وقد حضر داحس والغبراء فأحسن فيها البلاء وحمدت مشاهده وفيها قتل ضمضما المرى أبا حصين وهرم ·

ولذلك قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر
للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما
والناذرين اذا لم ألقهما دمى
ان يفعلا فلقد تركت أباهما
جزر السباع (٣) وكل نسر قشعم (٤)

وأحب عنترة عبلة ابنة عمه مالك بن قراد ، فهاجت شاعريته واتسع خياله ، فنظم القصائد الطوال وازداد طموحا الى المعالى ، فجد فى طلبها ليمحو ببيض فعاله سواد لونه . وأنى له أن يطمع فيها وهو عبد لم يعترف به أبوه وأنكره أبناء عمه فغامر لأجلها ولاقى أشد الأهوال حتى ألحقه أبوه بنسبه ، ولكنه لم يظفر بها كما يستدل من شعره .

وقد اختلف فى موته فقال ابن حبيب وابن الكلبى : « أغار عنترة على بنى نبهان من طيىء فأطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير ، فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول :

حظ بنى نبهان منها الأخبث كأنما أثارها بالخثحث
آثار ظلمان بقاع محدث

وكان وزر بن جابر النبهانى فى فتوة فرماه وقال : « خذها وأنا ابن سلمى ! » فقطع مطاه (٥) فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح :

وان ابن سلمى عنده فاعلموا دمى
وهيهات ! لا يرجى ان سلمى ولا دمى
اذا ما تمشى بين أجبال طيىء
مكان الثريا ليس بالمتهضم
رمانى ، ولم يدهش بأزرق لهذم (٦)
عشية حلوا بين نعف ومخرم (٧)

وقال ابن الكلبى : «وكان الذى قتله يلقب بالأسد الرهيص» (٨) ٠

وذكر أبو عمرو الشيبانى : « أنه غزا طيئا مع قومه ، فانهزمت عبس ، فخر عنترة عن فرسه ، ولم يقدر لكبر سنه أن يعود فيركب ، فدخل دغلا (٩) وأبصره ربيئة طيىء فنزل اليه وهاب أن يأخذه أسيرا فرماه وقتله » ٠

وقال أبو عبيدة : « انه كان قد أسن واحتاج ، وعجز بكبر سنه عن الغارات ٠ وكان له من غطفان بعير ، فخرج يتقاضاه فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرج وناظره (١٠) فأصابته وقتلته » ٠ على أن الرواية الأولى أشهر الثلاث ٠ ومات عنترة بعد أن بلغ التسعين ٠

آثار عنترة

ديوان شعر مشهور أصابه كثير من النحل لطول ما تداوله الرواة والقصاصون ، وأكثره فى الفخر والحماسة وذكر الوقائع والغزل العفيف بابنة عمه،وقليل منه فى المدح والرثاء ٠ وأشهر شعره المعلقة وهى السادسة بين السبع الطوال ٠

عرفنا عنترة عبداً أسود أحب ابنة عمه فلم يستطع الوصول اليها وهو غير حر ينكره أبوه ، وعرفناه فارسا مغوارا جرىء الفؤاد طماحا الى المعالى ، وعرفناه كريما جوادا وحليما سهل المخالقة ، وعفيفا شريف النفس أبيا لايغمض على قذى (١١) ، فلا غرو أن تظهر جميع هذه الصفات فى شعره ويكون لها أثر كبير فيه ٠ ولاسيما أثر ذلك النضال العنيف الذى اشترك فيه من ناحية حبه وجده فى طلب المعالى ، ومن ناحية أخرى عبوديته وسواد لونه ، فترك فى شعره مرارة وألما هما صورة لما فى نفسه من ألم العبودية والحب ومرارة التعبير ، وترك فيه أيضا تلك الحماسة التى تتمثل بها شجاعته ونفسه الطموح ٠

بين العبودية والفروسية !!

نشأ عنترة أسود اللون أبوه شداد من سادات بنى عبس ، وأمه زبيبة أمة حبشية ، فلم يعترف شداد به جريا على عادة العرب ، فجعل عنترة فى

طبقة الرعيان يحلب ويصر . ولكن نفس هذا الفارس الشجاع لا تحتمل العبودية وفيها من الشمم والاباء والجرأة شيء كثير ، فكانت تتألم أشد الألم لما تلقى من الاحتقار والازدراء ، فتحاول جهدها أن تخرج من طبقة الرعيان في اظهار شجاعتها ولديها سلاحان ماضيان : الشجاعة والشعر . وكلاهما كفيل بأن يجعل لصاحبه مكانة عالية في القبيلة . فالفارس يدافع عنها بسيفه والشاعر يدافع عنها بلسانه . فلماذا لايتحرر عنترة وتدعيه بنو عبس وهي تحتاج اليه حاجة مزدوجة ؟ وقد قال صاحبنا الشعر في صباه وشهد المعارك وهو لا يزال يحلب ويصر . ولكن أباه كان حريصا على التقاليد البدوية فأبى استلحاقه وتحريره ، ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من فصاحته واقدامه ، كما ضربه عندما حرشت زوجته سمية بينهما ولم يكن عنترة قد تحرر بعد .

وما كان عنترة يجهل قدر نفسه فينام على الضيم والخمول ، فقد كان يعلم حق العلم أن قومه سيحتاجون اليه اذا أغاروا أو أغير عليهم . فأخذ يلح على أبيه طالبا اليه أن يعترف به ، وأبوه يعرض عنه ، بينما هو صابر ينتظر يوما عصيبا تنكب فيه بنو عبس فيلتجئون اليه ، فيغتنم الفرصة لتحقيق أمانيه ، وليس هذا اليوم ببعيد الوقوع وغزوات العرب متواصلة طمعا في الغنائم أو طلبا للماء والكلأ ، فما طال به الأمر حتى سنحت له الفرصة التي يتوقعها ، وقد اختلف الرواة في ذكر خبرها فقال ابن الكلبي : « وكان ادعاء أبيه اياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا فتبعهم العبسيون . فلحقوهم فقاتلوا عما معهم . وعنترة يومئذ فيهم فقال له أبوه : كر يا عنترة . فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر . فقال : كر وأنت حر . فكر وقاتل يومئذ قتالا حسنا فادعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه » .

وحكى غير ابن الكلبي أن السبب في هذا أن عبسا أغاروا على طيء فأصابوا نعما ، فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة : لا نقسم لك نصيبا مثل أنصبائنا لأنك عبد . فلما طال بينهم الخطب كرت عليهم طيء فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فانكم عددهم . واستنقذت طيء الابل . فقال له أبوه : كر يا عنترة ! فقال : أويحسن العبد الكر ؟ فقال له أبوه : العبد غيرك . فاعترف به فكر واستنقذ النعم .

ويذكر السيوطى رواية هى أقرب الى روح القصة منها الى التاريخ ، وان وافقت فى جوهـــرها الروايتين المتقدمتين ، وهى أن عنترة خلع نير العبودية بحد سيفه واحتياج بنى عبس اليه • ولم يقف عنترة عند هذا الحد بل أراد أن يحـــرر اخوته لأمه وهم عبيد مثله • وقيل انه حررهم أو حرر منهم أخاه حنبلا • ولكن لونه الأســـود بقى شاهدا على عبوديته واعتلال نسبه وبقيت أمه زبيبة أمة لا حرة ، أم ولد لا أم بنين ، ســـوداء لا بيضاء ، حبشية لا عربية ، حجة للناس على أنه هجين أخواله الزنوج • فمن أين له أن يمحو سواد لونه أو أن يجعل أمه من ربات الحجال ، ولونه لا ينصل وأمه لا تتحرر • والعرب لا يتسامحون فى النسب وكرم الأمومة والخؤولة ، فقد جعلوا له القابا تذكره أبدا بسواده وأمه • فهو الغراب ، واسود بنى عبس ، وابن السوداء وابن زبيبة ، فما عليه الا أن يقبل هذه الألقاب ويدافع عن لونه وأمه ليخرس ألسنة المعيرين ، فكان له كفاح بسيفه وكفاح بلسانه فجاء شعره صورة ناطقة بهذا • مثال ذلك قوله :

وأنـــا المجـــرب فى المواقف كلها ،
مـــن آل عبس منصبى وفعـــــالى
منهـــم أبى حقا ، فهـــم لى والد ،
والأم من حـــام ، فهـــم أخـــوالى

بين الحب والحرب

لم يكن عنترة ناعما فى حبه فتظهر آثار هذه النعمة على شـــعره ، بل كان شقيا تعسا يطمع فى عبلة ، فيصده والدها ويحاول استرضاءه فلا يجد الى ذلك سبيلا ، فكان اذا تغزل تألم وشكا ، وليس فى غزله غير شـــكوى وآلام •

وقد أفاضت قصته فى أخبار حبه لعبلة ، وتذمم والدها أن يزفها اليه ، ولكن الرواة لم يعيروها جانبا كبيرا من عنايتهم ، وانما جعلوا همهم فى التحدث عن وقائعه وعبوديته وتحررها ، واذا ذكروا عبلة أتوا بها عرضا خلال هذه الروايات دون أن يشرحوا مأساته الغرامية التى تفصلها القصة

أبلغ تفصيل مع أن شعره الصحيح لا يخلو من الاشارة اليها . فهذه المعلقة ، وهي أثبت شعر له ، تدلنا على أن والد عبلة كان ينتكر له ويهرب بابنته الى ديار الأعداء ليبعدها عنه . فيشكو الشاعر الفارس عداوة قومها له ومشقة الوصول اليها .

فعبلة في أرض الأعداء وقومها هم الذين ذهبوا بها اليهم ، فاضطر عنترة الى مقاتلة الأعداء ومقاتلة أهلها معهم ، فأصبح طلبها عسيرا عليه . كيف يطلبها وهو يقتل قومها ؟ ان في ذلك لطمعا منه في غير مطمع .

على أن اليأس والحرمان لم يرافقا عنترة طوال حياته ، في القصة ، فقد رق له قلب عمه مالك فزوجه عبلة ، واشتفى قلبه الكليم ، أما التاريخ فلا يقطع بخبر الزواج ولا ينفيه .

منزلة عنترة

اتضحت لنا ميزة الشاعر الفارس ، بما فيها من ألم ومرارة ، وعرفنا طرائقه في استرضاء عبلة ، وفي فخره وحماسته ووصف وقائعه ، والدفاع عن نسبة ، والرد على معيريه ، ولا ينبغي لنا أن نغفل عن تلك العذوبة التي نتذوقها في شعره فانه رقيق على غير ضعف ، سهل العبارة على غير اسفاف . ولا نعجب لوجود هذه الرقة في شعر عبد أسود خشن العيش ، هائل المنظر ، بل يجب أن ننظر الى أخلاقه الحسنة وتأثير الحب فيها ، فانما شعره صورة لنفسه . ولعنترة منزلة عالية في الشعر ، كما له منزلة عالية في الفروسية .

تاريخ الملحمة

ونحن اذا حاولنا أن نؤرخ لهذه السيرة الشعبية ، فان علينا أن نتذكر حقيقة بارزة لا يمكن اغفالها ، وهي استحالة تحديد فترة مضبوطة استغرقتها قريحة أديب ما في الجمع والتأليف ، ذلك لأن الآثار الشعبية تتسم بالحياة والمرونة معا .. تسقط منها حلقات وتضاف حلقات ويتعدل السياق ، وتختلف الوظائف وان ظلت المحاور الرئيسية على حالها لثبات

الحوافز الى وجود هذه الآثار وتفاعلها المستمر مع وجدان الشعب العربى ٠ وليس صحيحا أن يزعم دارس أن هذه السيرة وأشباهها قد نجمت فى حدود سنوات بأعيانها ، وأنها من تأليف شخصية معروفة بمقوماتها النفسية وخصائصها الأسلوبية ٠ والصحيح أنها كانت نواة ثم نمت على الأيام حتى تكاملت فاستقرت آخر الأمر على صورة ثابتة لا تكاد تتغير ، والصحيح أيضا أنها ، حتى بعد مرحلة التكامل والثبات تتعرض لما تتعرض له النصوص الشعبية ، فتنفرط بعض حلقاتها ، وتتخذ أشكالا جديدة ، وقد تنمو خلية منها بمعزل عن أصولها ، وقد تتبدد كلها وتبقى ظواهر فى أمثال الشعب أو بعض تقاليده ٠

وهناك أخبار تحاول أن تعلل السبب فى تأليف سيرة عنترة ، بل تحاول أن ترد هذه السيرة الى مؤلف بعينه ، وهذه الأخبار تزعم أن قصر الخلافة الفاطمية فى الديار المصرية تعرض لفضيحة تزرى من شأنه بين العامة ، فطلب الى أديب معروف بأن يؤلف قصة مشوقة تلهى الشعب عن فضيحة القصر فكانت سيرة عنترة ٠ ونحن قبل أن نناقش تلك الأخبار نرى من واجبنا أن نسجل أن الأدب الشعبى العربى بل كل أدب شعبى ، كثيرا ما يجنح الى خلق قصة تبرر أصلا من الأصول أو تلفق سببا من الأسباب ، وهو أسلوب شعبى يعمد الى تغطية الثغرات ، والايهام بمعرفة المجهول ، والميل الدائم الى التبرير لا بمنطق العقل ، ولا بتسجيل الواقع ولكن بأسلوب التخيل الفنى ٠

وقد نقل أحد مؤرخى الأدب العربى المحدثين أنه قد « نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخ يوسف بن اسماعيل ، كان يتصل بباب العزيز فى القاهرة فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز لهجت الناس بها فى المنازل والأسواق ، فساء العزيز ذلك وأشار الى الشيخ يوسف أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث ٠ وكان الشيخ يوسف واسع الرواية فى أخبار العرب كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبى عبيدة وعن هشام وجهينة اليمانى الملقب بجهينة الأخبار وعبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى (٧٤٠ ـ ٨٣١ م) وغيرهم فأخذ

يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس فأعجبوا بها واشتغلوا بها عما سواها. ومن تلطفه فى الحيلة أنه قسمها الى ٧٢ كتابا والتزم فى آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند الموضع الذى يشتاق القارىء الى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى الأول ، وهكذا الى نهاية القصة . وقد أثبت فى هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها. غير أنه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الأغلاط المكررة بتكرار النسخ » .

وهذا القول يعنى أنها من تأليف شخص واحد بذاته ، وأن بناءها الفنى الضخم تكامل فى اطار زمنى محدد وبحافز من خارج نفسية هذا المؤلف . وهو قول لا يحتاج الى كبير عناء فى نقده ، وان كان يدل على اعزاز العامة من العرب للبطل عنترة .

ومما يدخل فى باب الايهام الفنى ، تشبث السيرة نفسها ، بعد أن تكاملت ، بالانتساب الى واحد من أعاظم الرواة والاخباريين وهو الأصمعى. ولم تحفل السيرة بترجمة صحيحة لهذا الراوية الفحل . ولم تشغل مستمعيها أو قراءها بعد ذلك بطاقة الحياة الانسانية ، ولكنها عمدت الى أسلوبها المقرر المعروف بالجنوح الى المبالغة فى الخيال ، فقد ذكرت أن الأصمعى من المعمرين ، وأنه عاش ما يقرب من سبعة قرون ، ولم يكن هذا التلفيق عبثا ، وانما كان فنيا فى جملته وفى تفصيله للايهام بأن هذا الراوية عاصر أحداثا وأجيالا ، وأن ذاكرته كانت بمثابة التاريخ القومى للأمة العربية بأسرها . وحرصت السيرة على أن تذكر أنها انما نشأت فى العصر الذهبى للدولة الاسلامية ، أى فى عصر هارون الرشيد ، وفى بلاطه ، وذلك لكى تؤكد الحافز على تكاملها وهو الموازنة الضرورية بين واقع الأمة العربية المغلوبة على أمرها فى أوليات الحروب الصليبية وبين عصر البطولة الجاهلية وما ينطوى عليه من فضائل نقاء الجنس والعصر الذهبى الذى بلغته أمة العرب والاسلام أيام الرشيد ، عندما كانت هى الأمة المستكملة للتفوق الحضارى على غيرها من الأمم . فاذا أضفنا الى هذا كله التشبث بالمنهج الفنى نفسه ، تأكيدا لواقعية الأحداث بالقول بأنها

روايات مباشرة من عنترة نفسه وعن حمزة ، وأبى طالب ، وحاتم الطائى ، وامرىء القيس ، وهانىء بن مسعود ، وحازم المكى ، وعمرو بن ود ، ودريد بن الصمة ، وعامر بن الطفيل ٠٠ فاننا نكاد نقطع بأن التشبث بالأصمعى وايراد أسماء هؤلاء الأعلام جميعا ، لا يدل على حقيقة تاريخية أو شبه تاريخية ، بقدر ما يدل على الايهام الفنى بواقعية الأحداث والشخوص ، وان خرجت عن المألوف والممكن والمعقول ٠

الملحمة الشعبية

سيرة عنترة بن شداد من أوائل السير الشعبية التى حفظها لنا التاريخ ٠ والقضية المجتمعية التى تعالجها هى قضية الشعوبية وموقف العرب من أبناء الأجناس الأخرى ٠ ونحن نعتبرها أضخم هذه الأعمال الشعبية لا من حيث حجمها ولا من حيث رصدها لقضية من أخطر القضايا التى شغلت المجتمع العربى وهى قضية الشعوبية وحسب ، ولكن من حيث مضمونها الانسانى العظيم ، اذ تعتبر بحق أول صرخة فنية يطلقها الضمير الانسانى فى عمل أدبى كبير ضد العبودية وضد التفرقة العنصرية ٠

وقصة عنترة بن شداد هى قصة عبد تحرر ، ترسم صراعه من أجل المساواة بينه وبين الآخرين فى الحقوق والواجبات ، وتعكس صراع بطلها العنيف من أجل التحرر من موقف المجتمع المتخلف منه بحكم كونه عبدا ابن أمة ورجلا أسود فى مجتمع البيض ٠ ونحن بفهمنا لسيرة عنترة هذا الفهم نقدم لك تلخيصا كاملا لهذا العمل الكبير الذى يقع فى ٣٥٥٤ صفحة تقريبا يحاول المؤلف فيها كلها منذ البداية ــ وحتى يضع كلمة الختام ــ أن يصنع مقياسا آخر يقيس به الناس بغير المولد واللون ، وهما المقياسان اللذان تحدد بهما المجتمعات مجال المفاضلة بين الناس ، اذ يتحدد مكان الفرد بنسبه وبأصله الجنسى ، الا أن كاتب هذه السيرة يحاول أن يحدد معنى الحرية ومعنى الأحرار كمفهوم مضاد للمفهوم المتوارث التقليدى للحرية والأحرار ٠ فالحرية عنده مسئولية والتزام خلقى أمام المجموع وأمام الفرد الحر نفسه ٠ وبهذا المفهوم تتبلور القضية وتتبلور شخصية البطل أيضا ٠

يصور المؤلف بطله أسير ذل العبودية ، وأسير اللون الأسود برغم فضائله التى تؤهله لمركز الصدارة فى القبيلة ، فهو شجاع وهو فى نفس الوقت شاعر كبير يملك ناصية الفعل والقول جميعا · ويضع أمامه الصورة المضادة لشخصيات تنتسب الى القبيلة بحكم اللون والولادة معا · وهى لا تنتسب الى القبيلة فحسب ، وانما تنتسب الى أشرف بطونها ، كشخصية الربيع بن زيادة الذى يصر المؤلف دائما على نعته بصفة (الطنجير) ويرسمه بصورة ترسم معالم تخنثه وبعده عن مظاهر الرجولة الكاملة ولجوئه الى أساليب النســـاء فى التـــآمر على عنترة ، ويصور لنا المؤلف هذا التشويه فيجعله يضطر الى لبس ملابس النساء للهروب بحياته ذات مرة ·

ثم يضع المؤلف الاثنين فى مجال التنافس فى حب عبلة ، ويخلق من المواقف الروائية ما يظهر الفضائل الكامنـــة فى شخصية عنترة العبد الأسود ، ويظهر المطاعن واضحة فى شخصية الربيع المدلل الثابت النسب العريق الحسب ·

فالشرف اذن لاتكفى فيه الصدفة التى تجعل من انسان ما صاحب فضل بمجرد أنه ينحدر من صلب انسان ذى مكانة ومال ، وانما تفضل هذه الأحداث الروائية، فيما تخلق فى مواقفها من مقارنات ، شرفا آخر يأتى عن طريق السمات المتكاملة التى تمثل الدليل الحقيقى على الجدارة بالانتساب الى معانى التفوق والسمو · والحر اذن مجموعة سمات تتوافر فى نفسه الانسانية ، وليس مجموعة علاقات تخلقها الصدفة وتكونها الظروف ·

ودفاع المؤلف عن هذه القضية يجعله يضع المخالفين لعنترة دائما موضع الاختبار · وفى كل تجربة يفقـــدون حريتهم ولا يحصلون عليها الا بسيف عنترة العبد الأسود فيصبحون بهذا عتقاء سيفه · وهم بحكم شرعة الحرب عبيد له ، وبهذا يثير مشكلة المسئولية ، فهذا الانسان يتحمل بحكم ميزاته وتفوقه وبحكم مشاركته الفعلية فى أحداث القبيلة مسئولية لا تقل عن مسئولية أى فرد من أفرادها الذين يتمتعون بحريتهم ، ولكنه فى نفس الوقت لا يتمتع بحقوق الأحرار التى يقصرونها على أنفســهم

فى تعصب وغباء · وليس غريبا اذن أن يرسم المؤلف طريقة حصول عنترة على حريته واعتراف القبيلة بصحة نسبه الى أبيه شداد ، فى اثارة روائية لهذه المشكلة بالذات ·· مشكلة المسئولية والحقوق ·

فبعد أكثر من مرة ينقذ فيها عنترة القبيلة ويقتل أعداءها وهم من أشهر فرسان الجزيرة ، يصر أبوه وتصر القبيلة على الزامه مكان العبيد ، ثم يتقدم عمارة أخو الربيع بن زياد صاحب المكانة الكبيرة فى القبيلة يريد أن يتزوج عبلة ، ومالك أبوها موافق على ذلك ، برغم كثرة الوعود التى أزجاها مضطرا الى عنترة فى أكثر من موقف أنقذ فيهـا حياته أو كرامته أو عرضه · وتحول عبودية عنترة دونه فى الوقوف أمام عمارة ، حتى يصل الأمر الى أن مالكا أبا عبلة يلطم عنترة حين يعترض طريق عمارة · وما ان يرى العبيد هذه البادرة من مالك حتى يهجموا على عنترة جميعا ليؤدبوه على تجرئه على سيده · ويصل الأمر الى مداه حين تتشابك القضية ويتدخل فيها شداد فيهين عبده الأسود عنترة ارضـاء لشيوخ القبيلة وسادتها ، ويحس عنترة أن هؤلاء القوم لايعرفون له فضلا فيستسلم للهزيمة ويخلع ثياب الفرسان ويعود الى رعى الأغنام متخليا عن مسئوليته تماما مادامت القبيلة قد رفضت الاعتراف بحقه·ويقول لأبيه شداد : «مولاى·· افعل بى ما تريد واحكم على حكم الموالى على العبيد ــ والعبـد ما له غير مولاه ، ان أبعده أو أدناه · وأنا أشهد على نفسى أنى من اليوم فصاعدا قد امتثلت لأمرك ولا أقصر عن خدمتك ولا أفارق رعى الجمال وأكون على حفظ أموالك واعيا ، ولا أركب جوادا ولا أجرد حسامـا مع الأبطال ولا أنطق بالشعر أبدا ، ولو شربت كاسات الردى من الأنذال ·· » ·

وهذه الكلمات وثيقة استسلام واضحة تقدمها نفس حرة أمام صلابة المجموع وغبائه ، فليس من حق هذا المجموع أن يطلب من فرد من أفراده الدفاع عنه والمشاركة فى حمايته ، وهو ينكر عليه حقه الطبيعى فى التمتع بما يتمتع به باقى أفراد هذا المجتمع من حقوق، وانما يلجأ عنترة الى السلاح الوحيد الذى فى يده ، وهو الاحتجاج العملى باعلان العزلة عن هذه الحياة ورفض المشاركة فى تحمل أعبائها ·

ويمهد المؤلف بهذه الوقفة الى الوصول الى قمة من قمم عمله الروائى فى السيرة ، والى نقطة يتحول عندها مجرى الأحداث كلها ، حين تخرج القبيلة فى غزوة من غزواتها تاركة بعض فرسانها لحماية الحى ، فيهاجمه عدد كبير من الفرسان لا طاقة لهم بهم ولا يجدون لهم خلاصا منهم الا فى عنترة الذى يقف بعيدا عن المعركة بين العبيد حيث أرادوا له هم أن يقف ، ويأبى عنترة أن يترك مكانه،فمن لا حقوق له لا مسئولية عليه،فاذا ما اشتد الأمر بهم اضطروا الى الخضوع الى شروطه • وعنترة لا يترك مكانه الا بعد أن يعلنوا تحرره ، والا بعد أن يعلنوا اعترافهم بصحة نسبه الى أبيه شداد، والا — أيضا — بعد أن يعترفوا بحقه فى الزواج من ابنة عمه عبلة • فوسط الأزمة تجد القبيلة نفسها مضطرة الى اجابة عنترة الى كل شروطه • وهنا •• وهنا فقط ينزل عنترة الى الميدان فيحقق النصر لقبيلته التى أصبح عنده ما يبرر الدفاع عنها ويهزم أعداءها • وقد حصل على حريته وأكد نسبه لأبيه شداد ، ومكانه فى صفوف الأحرار من أبناء القبيلة •

وهكذا يجيب المؤلف على السؤال الذى أثاره اجابة تؤكد مفهومه للحرية وتؤكد حق كل مسئول عن أمن قبيلته ووجودها فى التمتع بكل حقوقه دون ما اعتبار لصدفة النسب أو قيد العبودية •

ولكن الاعتراف المرغم شىء وتأكيد هذا الاعتراف بحيث يصبح حقيقة واضحة فى حياة القبيلة وفى حياة الجزيرة أيضا شىء آخر • ويتمثل هذا فى العقبات التى تضعها القبيلة أمامه لتحول بينه وبين الزواج من عبلة ، كما يتمثل فى الغضاضة التى يعامله بها أشراف القبيلة ، وتصبح على عنترة مهمة شاقة هى اثبات جدارته كانسان بمنزلة الحر التى أصبح يتمتع بها ، كما أصبحت له عند المؤلف مهمة أخرى هى تأكيد السمات التى يراها جديرة بالانسان الحر •

ويلتقى عنترة فى سبيل تحقيق هذه الأهداف بأكثر من فارس عربى مشهور فيتفوق عليه فى مجال الصراع • كما يتلقى بأكثر من حدث حساس يكشف عن معدنه وطبيعة خلقه ، فاذا به مسارع الى انقاذ كل ملهوف• وتأسر

شهامته الناس كما يأسرهم سيفه ، حتى ليقع شاس بن زهير ملك عبس فى الأسر وينقذه منه • معروف كريم سبق أن فعله عنترة مع أسرة من بنى كندة • ونلمح « شاسا » يقول لنفسه : « هذه فعال عنترة معى ومع سائر الناس وهو ابن أمة فكيف تفعل أنت بضده يا شاس وأنت ابن حرة مكرمة» • وكما يثبت عنترة دالته على بنى عبس أجمعين ، فان المؤلف يحاول كذلك أن يثبت له هذه المكانة على جميع فرسان العرب المشهورين ليصبح فارس الجزيرة كلها ، ولتكتمل له هذه المكانة لابد له أن يصل الى مرتبة أصحاب المعلقات من شعراء الجزيرة المبرزين ، ويبدأ كفاح عنترة الشاعر محاولا أن يؤكد مكانته الشعرية كما أكد مكانته فى مجال الفروسية • ويدير المؤلف مقابلات بينه وبين أصحاب المعلقات حتى يوضح لنا الكفاح الشاق الذى يخوضه عنترة فى هذا الميدان أيضا ، فحين يلتقى عنترة بطرفة بن العبد يقول : « يا أبا الفوارس ما أنت الا قد كملت بالشجاعة • لكن بلغنى ، أنك رجل معلول النسب • ولولا ذلك كنا قبلناك وسمعنا ما قلته من شعرك وفى فصاحتنا أدخلناك » • فالمشكلة فى الشعر هى المشكلة نفسها التى واجتهه من قبل فى علاقته بعبلة ، وهى مشكلة النسب ، وكما استطاع عنترة أن يثبت جدارته فى أن يكون عضوا فى مجتمع القبيلة بسماته وصفاته لا بنسبه ومولده ، يعتمد أيضا هذه المرة على هذه السمات نفسها التى تعلن أمام المجتمع العربى الذى يجتمع فى مكة أمام الشيخ عبد المطلب ليقرر موقفه من عنترة وجدارته، بأن يأخذ مكانه فى هذا المجتمع بل وفى الصدارة منه •

ويلتقى عنترة بأصحاب المعلقات جميعا فى مشهد روائى خلاب ، ويقفون حياله كما وقف طرفة بن العبد ، ولكنه يحكم السيف بينه وبينهم ، فيأسرهم جميعا ويقرون له بأولى فضائل العربى الحر وهى الشجاعة ، فاذا ما أطلقهم من أسرهم أقروا له بثانية فضائل العربى الحر وهى الشهامة، فاذا ما اجتاح معهم فى أمر الشعر وقرأ أمامهم قصيدته الكبرى أقروا له بالفضيلة الثالثة عند العرب وهى القول • ويجتمع أصحاب المعلقات عليه يمتحنونه فى معارف العرب ويعلنون جدارته فى أن يدخل معهم فى مجتمع الخالدين من أصحاب المعلقات •• يسجد الناس فى كل مكان فى الجزيرة لقصائدهم المعلقة فى الكعبة •• !!

وليس بعد أن يصل المؤلف ببطله الى مثل هذه المكانة ـ يمكن أن يثور السؤال عن المضمون فى هذا العمل الكبير ، فهو لا شك كما قلنا حكاية عبد تحرر ٠٠ حكاية تؤكد أن الانسـان حر بسماته وخصائصه وخصاله ، وأن حق الحياة ينبغى أن يمنح لكل جدير به دون ما نظـر لأى اعتبار آخر ٠ يؤكد هذا المضمون موقف عنترة من الفارس القبطى (مقرى الوحش) الذى يأسره فى احدى معاركه على حدود الشام ، فيصبح عتيق سيفه وهو مع هذا يعامله معاملة الأحرار ، ويعطيه سهم الأحرار فى الغنائم، بل يساوى بينه وبين نفسه فى المكانة برغم اختلاف الجنس واختلاف الدين واختلاف المكانة بين الفائز والمهزوم ٠ فاذا ما مات (مقرى الوحش) أفرد لابنه نصيبا كاملا مثله فى ذلك مثل أى فارس عربى الأصل من فرسـان الجزيرة نفسها ، فعنترة حين يصبح الأمر رهن ارادته لايستطيع أن يقر شريعة العرب بل هو يغيرها بما يتلاءم لفهمه وايمانه بقضية الحرية ونفوره من معنى العبودية ٠ وهذه الظاهرة تتكرر بعد ذلك من عنترة فى علاقتـه بالنسـاء اللائى يأسرهن ويحصل عليهن بسيفه ، فاذا هن عنده زوجات لا اماء ، واذا أولادهن عنده أحرار لاعبيد ، بل لقد استغل المؤلف شخصية زبيبة أم عنترة استغلالا روائيا رائعا فى التدليل على قضيته ، اذ يكتشف عنترة ـ بعد أن أصبح فارسا مهيبا فى الجزيرة ، وفى احدى غزواته لبلاد الحبشة ـ أن النجاشى خاله وأن أمه التى يعتبرها العرب أمة (عبدة) هى فى واقع الأمر أخت لملك الأحباش ٠ فكأنما يريد أن يؤكد أن العشوائية التى تخلق من بعض الناس عبيدا هى عشوائيـة عمياء لا منطق لها ولا شرعية لوجودها ، وأن هذا الموقف الذى يقفه العرب من ازدراء العبيد يقوم على أساس خاطىء ينتهك كرامات النـاس ويذل بشريتهم دون ما اعتبـار لحقوقهم الطبيعية بل والموروثة فى الحياة الحرة ٠

وتصبح سـيرة عنترة بهذا أكبر وثيقة أدبيـة وأول صرخة فنيـة تدافع عن قضيتى الرق والتفرقة العنصرية وتضع حـلا لهما ، مطالبـة المجتمع الانسانى باتاحة الفرصة أمام الصالحين من أبنائه ليقدموا جهدهم للخير العام دون نظر الى لون أو الى عوامل مفتعلة ترفع بعض الناس وتذل

بعض النـاس . كما تؤكد للانسـانية أنها لن تستطيع أن تشرك أبناءها فى المسئولية الا اذا أشركتهم جميعا فى الحقوق .

وان كان المؤلف قد لجـأ فى علاجه لمشكلتى العبودية واللون الى نغمة القوة لا الى نغمة الضعف ، فما كان ذلك منـه الا اسـتجابة للواقع الاجتماعى الذى تدور فيه أحداث عمله الروائى ، وذلك هو الجزيرة العربية التى يعرف أهلها منطق القوة ، الذى تعود أن يكسب قضاياه بالقصـد والجهد لا بالمطالبة واستثارة العطف .

فلسفة جحا

من التراث الشعبي

ع ٩٠٠ م

الفاكهة ثمرة الأرض ، كما أن الفكاهة ثمرة العقل .. وقد اتخذت كل أمة من الأمم فى كل عصر ومصر شخصا من الشخوص الجحوية الباسمة ، رمزا لفكاهاتها تسند اليه كل طريف من فنون دعابتها ، فكثرت الشخوص « الجحوية » لذلك وتعددت ، فلم يكد يخلو منها زمان ولا مكان .

وقد طوع القصاصون كثيرا من الطرائف الجحوية وفصلوا منها أنماطا فكرية ألبسوها عرائس أفكارهم وأودعوها نفائس توجيهاتهم وآرائهم . فلم تلبث — على مر الأزمان واختلاف الأمم — أن تشكلت بألوان العصور والأمم التى قبستها ، كما يتشكل الماء بلون الاناء الذى يستودعه .

وأصبح الرمز الجحوى — على توالى العصور — أشبه بالرمز الجبرى يختلف مدلوله فى كل مناسبة عما سبقها .

ولو خلا العالم من أمثال هذه المفارقات لأصبح جحيما لا يطاق ، وطالما استعان بها أعلام الفكاهة من المصلحين والقادة فى كسب قضاياهم . وربما أغنت النكتة العابرة الملهمة ينطق بها الفكه الموهوب عن المقالات المستفيضة .

وطالما تناول الموهوب الفكه بدعابته الباسمة أدق الخفايا فأربى على الغاية .

وفى تاريخ الأدب شخصيات كثيرة جرت بها السنة الرواة وأقلام القصاصين وصورتها فى غير صورتها الحقيقية . ويقال فى مثل ذلك عن « جحا » الذى تروى عنه النوادر الكثيرة وتشاع حوله الحكايات والأسمار

منذ القدم حتى أيامنا التى نعيشها · ولم تعد لغة من اللغات الحية الا وتضم هذه الأسمار وتلك الحكايات ·

وها هو جحا شيخ الفكاهة الشرقية الساحرة ورمز الدعابة الفلسفية الساخرة والجادة فى الوقت نفسه ، وصاحب النكتة اللاذعة ، واليه تنسب حكايات طريفة عن العفاريت والجن وتروى الملح الغريبة التى يطرب لها الصغار والكبار على السواء · هذه الشخصية الفريدة ·· نجدها فى كل زمان ومكان ، فى القرية النائية أو المدينة العامرة ، مع الفلاح فى حقله ، والحاكم الظالم فى مجلسه ، والمظلوم المقهور فى موضعه ، مع القضاة على منصات العدل ، ومع اللصوص فى أوكارهم ، مع البلهاء والحمقى ، مع البنين والبنات ، مع الأدباء والعلماء · نجده فى حدث طريف ، وفى مفارقة مضحكة ، هذه الشخصية الفنية المعقدة المتعددة الملامح والسمات ، والمتناقضة فى الآراء والمواقف من هو صاحبها ؟

انه شخصية حقيقية ذات واقع تاريخى ، كما يقول الكاتب كامل الكيلانى فى المخطوط الذى عثر عليه ونشر فى مجلة الهلال حيث يقول :

« فى البدء ومنذ خمسة عشر قرنا ولد « خرافة » فيما يقول عارفوه طرافا وصافا ، بارع المقال رائع الخيال ، يروى للناس عجائب من أخبار العفاريت والجن وطرائفهم وملحهم ويقص عليهم من ذلك غرائب معجبة · يزعم لمعاصريه أنها حدثت له ، وأعجب بأحاديثه كل من سمعها · واشتدت فتنتهم بها حتى نسبوا اليها كل طريف من الحديث تخطف الأسماع غرابته وتبهج النفوس براعته ، وأصبح اسم « خرافة » مرادفا لكل حديث خيالى جذاب لا حقيقة له · ثم مضى القرن الأول ومضى معه « خرافة » ثم جاء القرن الثانى ومعه هدية من أنفس الهدايا الفنية التى يعتز بها عالم الفكاهة والمرح ، فكان شيخ السخرية العربية وامام الفكاهة الشرقية « أبو الغصن دجين بن ثابت » الملقب « بجحا الفزارى » · وقد لقى «جحا» من التقدير والاعجاب فى القرن الثانى من الهجرة مثل ما لقى سابقه « خرافة » من قبل ، ولم يقل شأنه عن سابقه تقديرا واعجابا ونباهة

ذكر ، وبعد صيت ، وأعجب الناس بأسلوبه السهل الممتنع فى فهم الحياة، كما أعجبوا بما سمعوا به من طرائف وملح ، ومن شدة اعجابهم به خلعوا لقبه ـ كما خلعوا لقب سابقه (خرافة) من قبل ـ على كل عجيب من القول وطريف من الحديث .

وأصبح للقصص الجحوى خصائصه وميزاته ، كما أصبح للقصص الخرافى (نسبة الى خرافة) من قبله بدائعه وخيالاته .. وأضاف بعض الناس الى طرائفه الكثير من مخترعاتهم وفنون ابداعاتهم ـ كما صنعوا بألف ليلة ـ حتى تعذر التمييز بين الأصول الجحوية ومحاكاتها المروية ، ولا سيما بعد أن اختلطت بفكاهات « أشعب » و « أبى دلامة » و « البهلول » ومن اليهم من أعلام الفكاهة العربية .

جحا العربى .. وجحا التركى

ويقول د . محمد رجب النجار فى كتابه (جحا العربى) :

« فى ضوء غلبة الرمز الفنى للنموذج الجحوى فى الأدب العربى ، غاب عن بال الكثيرين أن جحا العربى شخصية ذات واقع تاريخى وأن نسبه ينتهى به الى قبيلة فزارة العربية .. اذ ولد فى العقد السادس من القرن الأول الهجرى وقضى الشطر الأكبر من حياته فى الكوفة.. بذلك تخبرنا كتب التراث العربى وبخاصة كتب الأدب والأخبار والتراجم والسير .. وقد أشارت الى اسمه وما يشتهر به من نوادر وحكايات هو صاحبها .. وعلى الرغم من اضطراب أخباره أحيانا فى تلك المصادر ، فانها تجمع فى النهاية على وجوده « التاريخى » بسمته وملامحه المعروفة بيننا .

وعنايتنا بالواقع التاريخى لجحا أو بالأحرى للنموذج الجحوى ، قد لا تجد من يؤيدها من دارسى الفولكلور الذين يحتفون عادة بالرمز الفنى ودلالاته ووظائفه الحيوية أكثر من احتفالهم بالواقع التاريخى للشخصية ، ما دامت قد تحولت الى نموذج فنى ورمز قومى يحمل فى أعطافه جانبا من جوانب التعبير عن الجماعة . وقد اتخذ أسلوبا مميزا فى الابداع الأدبى الشعبى هو أسلوب الحكاية المرحة .. التى عرفت فى كتب التراث باسم

« النوادر » . غير أن عنايتنا هنا بالواقع التاريخى جاءت لأكثر من سبب ، فالوقوف عند تاريخ هذه الشخصية ـ ما دامت حقيقية ـ يشكل حلقة من حلقات تطورها الى نموذج فنى قومى، ويحسم فى الوقت نفسه ذلك الخلط أو الاضطراب الذى يلحق بالنموذج الجحوى وأصالته فى تراثنا العربى عامة ، ومأثوراتنا الشعبية خاصة .. وما يترتب على ذلك من نتائج تساعدنا فى تحليل البواعث التى أدت الى نمو هذه الشخصية وتطورها الى رمز فنى ، ولسوف نرى عند التناول التاريخى بعض الحقائق الأدبية والفنية التى اقترنت بهذا النموذج وصارت معلما مشتركا بين النموذج العربى وبين النماذج الجحوية اللاحقة .. وبخاصة النموذجان التركى والمصرى . فضلا عن أن هذا التناول سوف يتيح لنا ـ الى حد ما ـ امكان تتبع النوادر المنسوبة الى النموذج الجحوى بعامة ودراستها ومعرفة أصولها ، ومن ثم مقارنتها والوقوف على مدى ما أصابها من حذف أو تغيير أو اضافة ، فى ضوء المزاج القومى الذى أبدعها وردها تراثا شفويا أو مدونا لأجيال متعاقبة وقرون متطاولة » .

ومما هو جدير بالذكر أن « ابن النديم » المتوفى سنة ٣٨٥ هـ / ٩٨٧م صاحب الفهرست (الذى انتهى من تأليفه سنة ٣٧٧ هـ) يذكر لنا كتابا قائما بذاته اسمه « كتاب نوادر جحا » وقد وضعه فى أول قائمة كتب النوادر ضمن « أسماء قوم من المغفلين ألف فى نوادرهم الكتب ولا يعلم مؤلفها » . واذا كان ابن النديم قد صنف نوادره ضمن نوادر الحمقى والمغفلين ، فالذى يعنينا هنا أن نوادر جحا العربى قد باتت فى القرن الرابع الهجرى من الشهرة والذيوع بحيث وجدت من يحفل بجمعها وتدوينها وتصنيفها . ويأتى ابن النديم نفسه ليضع هذا الكتاب فى صدر قائمة كتب النوادر التى أشار اليها ، مما يؤكد مدى شيوعها وذيوعها آنذاك .

ويرى أحد الدارسين المعاصرين أن هذا الكتاب ربما كان عونا للآبى (المتوفى سنة ٤٢٢ هـ) صاحب نثر الدرر ، وللميدانى (المتوفى سنة ٥١٨ هـ) صاحب مجمع الأمثال ، مستدلا على ذلك من وجود تشابه بين

كتابيهما فى انتخاب بعض النوادر ، مما يدل فى نظره على أن الآبى والميدانى قد استقيا مادتهما عن جحا من مصدر واحد .. غير أن هذا الاحتمال ضئيل ما دام المصدر الأصلى مفقودا . ولعل أقرب الاحتمالات لتفسير ذلك التشابه ، أن الميدانى نفسه ربما كان قد استقى مادته من نثر الدرر للآبى ، ثم أضاف اليها ما سمعه فى عصره من نوادر وأمثال كان جحا العربى بطلها .

وقبل أن نمضى فى ترجمتنا لجحا العربى ، فانه من الأهمية بمكان أن نشير بادىء ذى بدء الى أصالة النموذج الجحوى العربى وأصالة نوادره فى ضوء ما ذكرته كتب التراث حتى القرن السادس الهجرى ، ومن ثم تتأكد أسبقيته ـ تاريخيا ـ على نظيره جحا الأتراك المعروف بنصر الدين خوجه الذى لم يكن قد ظهر الى الوجود بعد ، وبذلك تكون مصادر التراث العربى قد حسمت نهائيا ذلك الخلط أو الاضطراب بين شخصيتين ، وهو خلط قد وصل بنا الى حد انكار وجود شخصية جحا العربى أو اعتبارها ـ فى أحسن الأحوال ـ شخصية خرافية أو وهمية لا أصل لها ، وهو أمر مجاف للحقيقة والواقع معا .

عندما يشرع باحث فى الترجمة لحياة جحا العرب ـ وغايته تأصيل تلك الشخصية من الناحية التاريخية ـ فسوف يجد نفسه ملزما بأن يتخذ منهجا مغايرا ـ نوعا ما ـ لما ألفناه فى التراجم ، ومن ثم فسوف نسمح لأنفسنا بأن نترجم لجحا ترجمة تتبع التسلسل الزمانى للمصادر نفسها التى استقينا منها مادة البحث العلمية ، وغايتنا من وراء ذلك أن نتتبع التسلسل التاريخى ـ قبل الموضوعى أحيانا ـ لنمو هذه الشخصية وتطورها فى وجدان الأمة العربية ، فضلا عن نموها وتطورها تاريخيا وفنيا على السواء .

وفى ضوء ما ذكرت تلك المصادر ، فان أول خيط بين أيدينا يمكن أن نأخذ به هو ما أورده الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) فى كتابه « القول فى البغال » من نادرة بطلها جحا دون أن يترجم له ، مما يدل على أن جحا كان معروفا فى أوائل القرن الثالث الهجرى . ومن ثم لم يكن

الجاحظ فى حاجة للترجمة له بالرغم من أن اسم جحا لم يتردد بعد ذلك فيما بين أيدينا من كتب الجاحظ ، أو لعله ترجم له فى بعض ما ضاع من كتبه · جدير بالذكر أن شارل بلا ـ عند تحقيقه لهذا الكتاب ـ كاد يشك فى نسبة الكتاب الى الجاحظ بسبب تلك النادرة التى حاول أن يعزوها أول الأمر الى النساخ ، لكنه عاد فرجح وجود جحا العرب اعتمادا على رواية ابن النديم التى سبقت الاشارة اليها ·

واذا ما تجاوزنا اشارة ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، فان الخيط التالى الذى نمسك به يتمثل فى اشارة الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ فى قاموسه « الصحاح » ، عندما ذكر « أن أبا الغصن كنيته جحا » ، وكانت تلك الاشارة أول وأقدم خيط تحت يدنا يشير الى كنيته · بالرغم من أن محقق الصحاح ينفى ـ توهما ـ وجود علاقة بين جحا صاحب النوادر وبين جحا صاحب الكنية التى ذكرها الجوهرى ·· وهو نفى لا سند له كما سيتضح بعد ذلك · وما نكاد نمضى قدما حتى نستطيع أن نلتقط خيطا آخر ورد فى مخطوط « نثر الدرر فى المحاضرات » للآبى المتوفى سنة ٤٢٢ هـ حيث يذكر أن الجاحظ حكى أن اسمه نوح ، وكنيته أبو الغصن ، وأنه أربى على المائة · وفيه يقول عمر ابن أبى ربيعة :

دلهت عقلى ، وتلعبت بى حتى كانى من جنونى جحا

ثم أدرك ـ جحا ـ أبا جعفر ونزل الكوفة · ويروى الآبى بعد ذلك مجموعة من النوادر التى نسبت اليه · جدير بالذكر أن الآبى قد صنفها بين نوادر الحمقى والمغفلين ، وهذا يعنى فى رأيه أن جحا كان واحدا من الحمقى ·· غير أن الذى يعنينا فى ضوء هذا المخطوط ، هو المعلومة التاريخية التى تجعلنا نرجح أن جحا ولد فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، ما دام قد أربى على المائة وأدرك أبا جعفر المنصورى · وهذا يعنى ، من ناحية أخرى ، أنه عاش فى أواخر الدولة الأموية ثم أدرك سقوطها اثر الصراع العسكرى (الدموى) الذى نشب بين الأمويين والعباسيين ، وأنه نزل الكوفة أيام أبى جعفر · كما

يعنينا أيضا من رواية الآبى ، تلك الصفة التى اشتهر بها جحا فى رأى معاصريه وجاءت على لسان عمر بن أبى ربيعة عندما ضرب به المثل فى الجنون وأن الآخرين يتلعبون أو يتلاعبون معه ·· على اعتبار أن الجنون هنا لايعنى زوال العقل بل فساد التفكير ـ كالحمق تماما ـ وهذا ما يؤكده الآبى نفسه ·

ويقول د · محمد رجب النجار : ودلالة تلك الصفة هنا تأتى على غاية الأهمية اذ ان الجنون أو الحمق يعنى سقوط التكليف عن صاحبه وبخاصة التكليف الاجتماعى الذى يثقل كاهلنا دائما · ومن المعروف أن سقوط التكليف اذا شاع عن شخص ما يجعل من أقواله ـ مهما كانت صريحة أو جارحة أو حادة ـ مادة ثرة لاتنفد للفكاهة والسخرية دون أن تعرضه للعقاب المادى أو حتى للجزاء الاجتماعى ، وحينئذ يكون بمقدوره أن يقول ما يشاء دون خوف أو تردد · وتلك السمة تشكل واحدة من أهم سمات الشخصية الجحوية من الناحيتين التاريخية والفنية على السواء · وما دام الآبى قد ترجم لجحا فى حديثه عن حمقى العرب ومغفليهم من المعاصرين لجحا (وما أكثرهم فى تلك الفترة ، الأمر الذى يستحق دراسة قائمة بذاتها عن تلك الظاهرة فى كتب التراث وبيان دلالاتها) ، فذلك يعنى أن العرب قد وسموا جحاهم بالحمق ، وأن شهرته طارت فى الآفاق ابان حياته ، حتى ليضرب به المثل فى الحمق ·· وراح بعضهم يسخر منه أو يستهزىء بأقواله كما جاء فى بيت ابن أبى ربيعة ، وكما جاء فيما انتخب له الآبى نفسه من نوادر بلغت خمسا وأربعين نادرة · غير أنه فى ضوء هذه النوادر نفسها نستطيع أن نضيف ملمحين آخرين من ملامحه ، أحدهما أن جحا ليس أحمق أو أبله كما وسمه الآبى ·· بل انه متحامق متبالله كذلك ، وشتان ما بين الصفتين ، فاذا كانت الأولى تشير الى غباء صاحبها فان الأخرى تؤكد ذكاءه · أما الملمح الآخر فيتمثل فى استدعاء الخلفاء والقواد له للتسلية والترفيه من خلال التندر عليه ، الأمر الذى يزيد فى شهرته فى نظر المجتمع الشعبى على الأقل ·

ولو استقرأنا الآن بعض الملامح والقسمات الخاصة بشخصية جحا العربى من خلال نوادره لا أخباره ـ وبخاصة تلك النوادر التى اثرت

عنه ونسبت اليه فى حيـــاته وكان صاحبهـــا وبطلها فلم تنسب لغيره كما ذكر الأقدمون ــ لما خرجنا بغير الملامح والقسمات التى أكدتها أخباره (التاريخية) نفسها • ومن ثم سوف نجد أنفسنا فى خلاف مع هؤلاء الأقدمين ، الذين ترجموا لجحا وصنفوا نوادره بين نوادر الحمقى والمغفلين ، وكان عليهم أن يترجموا له وأن يصنفوا لنوادره بين الأذكياء •• ذلك أن المتأمل لهذه النوادر التى انفردت نسبتها الى جحا فى حياته تؤكد أنه كان ذكيا لماحا حاضر الجواب سريع البديهة حاد البصيرة ثاقب النظر وان تظاهر بغير ذلك لأسباب بعينها ــ الأمر الذى أكده أحد الباحثين المعاصرين هو كامل كيلانى الذى عثر ــ فيما يقول ــ على مخطوط قديم كتبه أبو السهلل طارق بن بهلل بن ثابت بن أخى جحا (الذى كان معنيا بتسجيل أحاديث عمه جحا وملحه وطرائفه) ، وأن هذا المخطوط يشرح لنـــا الأسباب التى أدت بجحا الى اتخاذ أسلوبه الخاص فى التغابى والتحامق •

يذكر كامل الكيلانى فى مقدمة المخطوط الذى عثر عليه ، ونشرها فى مجلة الهلال ، الطريقة التى تم عليها اللقاء المشهور بين جحا وأبى مسلم الخراسانى ــ كما رواها أبو السهلل :

« وقد ولد « جحا العربى » أبو الغصن دجين بن ثابت بالكوفة ، وعاصر الباطش الجرىء أبا مسلم الخراسانى ، وقد نمى خبره اليه ، فاستدعاه ، واستطرفه وجازت عليـــه حيلتـــه ، فحسبه أبله أو مخبولا ، وما هو فى الحقيقة بأبله ولا مخبول ، ولكنه ساحر بارع يلعب بالعقول » •

وقد سجل « أبو الغصن » هذا اللقاء فى ذكرياته التى حفظها لنا ابن أخيه طارق بن بهلل • قال :

« لقد نمت بعض أخبارى الى أبى مسلم الخراسانى القائد الجبار الذى هزم الدولة الأموية وزلزل كيانها ، وأقام الدولة العباســـية وثبت دعائمها مكانها ، وشيد بناءها ، فامتلأت نفسى منه رعبا وفزعا أول الأمر ، ثم جريت على مألوف عادتى فى الاستهانة بما لا حيلة لى فى دفعه من الأخطار

ومقابلته بالابتسام . ولم أعلم لاستدعائه اياى سببا . فلما بلغت مكانه علمت أن صديقى « يقطين » قد سمع « أبا مسلم » يذكرنى بالخير فى أحد مجالسه ويتنادر بما أذاعه بعض الأغبياء عنى من ضروب الغفلة .

فلم يكد يتبين شوقه الى لقائى حتى أفضى اليه بمكانى . فأمر أبو مسلم باستدعائى اليه . فاعتصمت بالحذر وتظاهرت بالبله . ولم أكد أرى صاحبى « يقطين » مع أبى مسلم وليس معهما ثالث حتى التفت اليه متبالها وسألته متغابيا : « أيكما أبو مسلم يا يقطين ؟ » فانخدع فى أمرى أبو مسلم على وفرة ذكائه وفطنته ، واستغرق فى الضحك من بلاهتى . وهكذا ضمنت الفوز فى البعد عنه والنجاة من صحبته » .

« وقد ذاع صيت أبى الغصن ونبـــه ذكره فى أوائل القرن الثانى من الهجرة وأعجب الناس بما سمعوا به من طرائفـه وملحه ، ثم دفعهم اعجابهم به الى أن خلعوا لقبه على كل دعابة مستملحة ، ثم أضـــافوا اليه على مر الزمن جمهرة كبيرة من طرائف غيره من المبدعين ، فاختلطت بفكاهاته وتعذر التمييز بين الأصل والتقليد .

ولم يلبث جحا أن أصبح علما على فن من فنـون الفكاهة الشرقية ، بعد أن كان علما على شخص بعينه من أفذاذ الناس » .

فاذا ما تركنا هذا النص الذى نشره الأستاذ كيلانى وذهبنا نستشف حقيقة « النموذج الجحوى العربى » وأسـلوبه فى الحياة من خلال نوادره ، ما خرجنا بغير النتيجة القائلة بأن أبا الغصن دجين بن ثابت المعروف بجحا الفزارى كان من أذكى رجال عصره على غير ما أذاع عنه أهل عصره ، الذين صنفوا نوادره مع أخبار الحمقى والمغفلين .. وندلل على هذا بالنوادر التى وجدناها له فى أقدم مخطوط لدينا ، وهو نثر الدرر للآبى ، وسنأخذ هذه النوادر بترتيب الآبى نفسه وروايته .

ويستخلص د . محمد رجب النجار من نوادر جحا العربى النتائج الآتيـــة :

ـ أن جحا العـرب ـ من نوادره وبشهادة بعض معاصريه ـ به ذكاء وفطنة ودهـــاء ..

ـ أنه اتخذ من الغباء أو التغابى ـ الحمق أو التحامق ـ أسلوبا له فى الحياة مكيفا نفسه بذلك مع ظروف عصره .. ومعاصريه ، فيما لا حيلة له فى دفعه من الأخطار .

ـ أن جحا كان ذا حس فكاهى مشهود .. مؤمنـا بفلسفة الضحك ودوره فى التغلب على صـــعاب الحياة ، موهوبا بجيد قول الفكاهة بـكل ألوانها المختلفة ، قادرا على السخرية حتى من نفسه .. وأنه حاضر البديهة سريع الخاطر ، حسن التخلص من المآزق .

ـ أن جحا قادر على أن يقلب المأساة الى ملهاة ـ فى قمة من قمم فن السخرية ، كما فى هذه النادرة التى ذكرها الآبى حين « نظر جحا الى رجل مقيد وهو مغتم ، فقال له غمك يا رجل ؟ اذا نزع القيد عنك فثمنه قايم ، ولبســـه ربـح » .

ونصر الدين خوجة أو الخوجة نصر الدين ، هو البطل الأشهر لقصص الذكاء والغباء عند الأتراك دون منازع . واليه تنسب نوادرهم وحكاياتهم المرحة ، وتكسب بهذا الانتساب أهميتها البالغـــة لديهم . ومن ثم فهم يرددون الكثير من نوادره وحكاياته ـ ليس من بـاب التفكه أو التنـدر فحسب ـ بل يستعينون بها ـ موقفا وسلوكا ـ فى التعبير عن حياتهـــم العملية وما تنطوى عليه تلك الحياة من ضروب المعاناة اليومية ، يقتدون بها فى سلوكهم ويتمثلونها فى الكثير من مواقفهـــم كما تقول دائـرة المعارف الاسلامية التى نراها تذكر عددا من الآراء المتضـاربة والمتناقضـة حول هذه الشخصية ـ من الناحية التاريخية ـ كذا التضارب والتناقض الذى لمسناه فى التاريخ لجحا الفزارى العربى .. فهو ، أى « نصر الدين خوجة » ، فى أحد الأحاديث رجل متعلم عاقل فى زمن الرشيد ، بينما هو فى حديث آخر ، معاصر لخوارزم شـــاه علاء الدين طاليش (الذى حكم فى المدة ١١٧٢ ـ ١٢٠٠ م) .

وتجمل دائرة المعارف الاسلامية الآراء التى توصل اليها الدارسون ـ ولا سيما المستشرقون فى تأريخهم لهذه الشخصية واعتقادهم بوجودها ، وان اختلفوا فى زمانها ومكانها . ويمكن أن نقسم تلك الآراء الى مجموعتين .

المجموعة الأولى ـ تضعه فى القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين (أى زمن بيازيد الأول وتيمور وقرمنيد الثانى علاء الدين) .

بينما تضعه المجموعة الأخرى فى القرن الثالث عشر (فى زمن سلجوق علاء الدين) .

ويبدو أن الرأى الأول قد استمد أدلته مما جاء فى قصص رحلات أوليا شلبى ، حيث ذكر على سبيل المثال قصة ذلك اللقاء بين تيمور وبين الخوجة فى الحمامات ، حينما أعلن الخوجة عن استعداده لشراء قميص تيمورلنك فى مقابل أربعين فدانا ـ هى قيمة القميص فقط ـ أما تيمور نفسه فلا يساوى شيئا . ويقول د . محمد رجب النجار : « اننا نشارك كاتب مادة نصر الدين الشك فى حدوث هذه النادرة لاستحالة التلفظ بمثل هذا القول فى حضرة تيمور الا اذا تقبلها من باب التفكه اعجابا منه بشخصية نصر الدين، وعلى كل حال فقد أتاح كانتيمير وديزوفون هامر وغيرهم لقصة أوليا شلبى أن تنتشر وتستمر فى أوروبا الى أن اعترف محمد توفيق ـ كاتب تركى ـ بهذه القصة فى كتاباته سنة ١٨٨٣ م عن فكاهات نصر الدين فى كتابه «بر أدم» أى «هذا الرجل» ويعنى به نصر الدين خوجة ، وهى الفكاهات التى ترجمت فيما بعد الى الألمانية سنة ١٨٩٠ م ، حيث تجددت فى هذه القصة الحياة وأصبحت منذ ذلك الوقت الرأى السائد فى أوروبا .

أما المجموعة الثانية ، فترى أن نصر الدين قد عاش فى القرن الثالث عشر ، وتعتمد فى رأيها على الأدلة التالية :

أولا : القصيدة التى أوردها الشاعر لمعى (المتوفى حوالى سنة ١٥٣٣ م) فى ديوان اللطائف والتى أكد فيها أن نصر الدين كان معاصرا لشاهيادجهزة الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ثانيا : فى المخطوطات القديمة جاء ذكر الخوجة مقرونا بالسلطان علاء الدين مما جعل قوبريلى زاده ـ أستاذ الأدب التركى فى جامعة استانبول ـ يميل الى فكرة أنه كان معاصرا لعلاء الدين السلجوقى الذى عاش فى القرن الثالث عشر ، أما ش · سامى بك وكذلك ب · هورن فقد قررا أنه كان معاصرا للسلاجقة بينما يؤكد الأخير ـ هورن ـ أنه كان فى عصر علاء الدين السلجوقى ، وأما قوبريلى زاده فقد عضد وجهة نظره بأدلة جديدة نوعا ما تتلخص فى :

١ ـ أن النقش الموجود على مقبرة نصر الدين فى آق شهر يحمل تاريخ ٦٨٣ هـ ، وعلى افتراض أن الكتابة معكوسة ـ كما يقول ـ فان هذا يدل على أن ـ الخوجة قد توفى فى سنة ٦٨٣ هـ أى سنة ١٢٨٤ / ١٢٨٥ م ·

٢ ـ ذكر اسمه فى وقفتين رسميتين فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٥٧ م) أى ما يؤكد وقوف نصر الدين خوجة شاهدا أمام القاضى ·

٣ ـ ما ذكره حسن أفندى مفتى « سيورى حصار » السابق منذ ما يزيد على خمسة وأربعين عاما فى « مجموعة المعارف » عن نصر الدين ، وقد اتفق ما قاله مع هذا الرأى ·· حيث ذكر حسن أفندى أن نصر الدين ولد فى قرية « خوتور » بجوار سيورى حصار فى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ / ١٢٠٩ م) ، وعاش فيها حيث نجح فى خلافة أبيه فى وظيفة الامامة ، ثم انتقل فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ / ١٢٣٨ م) الى مدينة « آق شهر » حيث توفى بها سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ م) ·

وعلى الرغم من أن هذه الأدلة ليست مقنعة تماما ، فانه لا يمكن اهمالها تماما · وعلى كل حال لم يكن مما يثير العجب ازاء هذا التضارب فى الروايات والآراء أن نجد بعض الباحثين أمثال رينيه باسيه ، وم · هارتمان وأ · فيسيلسكى كانوا يشكون فى تاريخ الخوجة ، وفى وجوده نفسه ، وهذه الشكوك ترتبط الى حد ما بأصول فكاهات نصر الدين ،

بل ان باسيه يرى أنه : « ليس من المستبعد أن تكون عامة الشعب فى تركيا ـ قد حرفوا اسم (جحا) الذى كان يبدو غريبا عليهم الى (خوجة) وهذا الرأى ينادى به باسيه ويصر عليه .

ومن الترجمات الضافية ـ نسبيا ـ فى هذا المقام تلك الترجمة التى كتبها حكمت شريف الطرابلسى فى مقدمة كتابه الذائع الصيت فى العالم العربى ـ حيث طبع عشرات المرات منذ مطلع هذا القرن ـ بعنوان « نوادر جحا الكبرى لنصر الدين خوجة المعروف بجحا الرومى » الذى نقله الى العربية من كتاب « لطائف نصر الدين خوجة » باللغة التركية .... وقد جاء فى هذه المقدمة أن نصر الدين قد تلقى علومه فى آق شهر وقونية ـ وولى القضاء فى بعض النواحى المتاخمة لآق شهر ، كما ولى الخطبة فى سيورى حصار ونصب مدرسا واماما فى بعض المدن . ساح فى الولايات : قونية ، وأنقرة ، وبروسيه ، وملحقاتها . وأنه كان واعظا ومرشدا صالحا يأتى بالمواعظ فى قالب النوادر ، وله جرأة على الحكام والأمراء والقضاة . وكثيرا ما كانت تستقدمه الحكومة من « آق شهر » الى العاصمة (يومئذ : قونية وكانت عاصمة السلاجقة ، وأخضعها بيازيد للأتراك العثمانيين بعد هزيمته لعلاء الدين) . وكان عفيفا زاهدا يحرث الأرض ويحتطب بيده ، كما كانت داره محطا للواردين من الغرباء والفلاحين ، ويذكر أن وساطته أنقذت بلدته « سيورى حصار » من تيمورلنك الجبار الطاغية . أما زمنه فالراجح أنه كان فى عهد السلطان أورخان وظل حتى عهد السلطان يلدبرم بيازيد خان فى أوائل القرن السابع للهجرة ، وعاش الى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) وتوفى عن ستين عاما وضريحه فى آق شهر .. » .

★★★

والآن نلتقى مع الفلسفة الجحوية فى علاقتها بالأشكال المختلفة للسلطة السياسية .

أولا : جحا والسلطان

تعد نوادر الرمز الجحوى مع السلطان ، تجسيدا حيا وفعالا لكل ما تمور به عصور الظلم والاستبداد من بطش وقهر وكبت وخوف ...

وهى من هذا المنظور انما تعكس لنا الرؤية القومية الرافضة لكل قوى الظلم والعدوان ـ تيمورلنك ـ كما أنها فى الوقت نفسه تحكى لنا المواقف المختلفة للناس من كل حاكم ظالم ، ومن كل سلطان مستبد ، يستند فى حكمه على القوة الباطشة وحدها ... وهى مواقف متناقضة بطبيعة الحال منها ما ينطوى على قيم وسلوكيات وأخلاقيات سلبية . وأخرى تنطوى على قيم وسلوكيات وأخلاقيات ايجابية .

(أ) الموقف الأول : ادانة القيم السلبية .. جحا .. وتيمور لنك

وفيه نرى النادرة الجحوية تعكس كل ما يشيع فى مثل هذه العصور من مواقف انهزامية وفردية ووصولية وانتهازية .. الى غير ذلك مما تتسم به دائما تلك الطحالب البشرية التى تعيش فى كنف كل حاكم ظالم ، وهنا نرى النموذج الجحوى يسعى الى تعرية هذا النوع من البشر ، أو قل تلك الشرانق الخبيثة المحيطة بالحكام ، فيسخر منها ويكشف أساليبها وأطماعها ووسائلها فى الغش والخداع . ويحذرها كذلك من مغبة تعاونها مع السلطة ، لأنها آجلا أو عاجلا سينفضح أمرها ، كما نراه فى الوقت نفسه لا يعفى الناس من مسئولياتهم فيما حل به وبهم ، فيحملهم الجزء الأكبر من المسئولية حينما استسلموا للخوف واستكانوا له وتهاونوا فى الدفاع عن حقوقهم وعن الذات العامة ـ الأرض والمعتقد والانسان ـ فوقفوا هذا الموقف السلبى اللامبالى مما حل بهم . وهو لذلك يسخر من عجز الناس وجبنهم ورياثهم ونفاقهم للسلطة . وبذلك يكون قد جسد لنا فى نوادره أسوأ ما فى الجانب الانسانى لحظة استسلامه للهزيمة .

وقد جاء جحا رمزا لهذه المواقف جميعا وشارك فى صنعها ، بل كان بطلا لها . وقد أنطقه الوجدان القومى حينئذ بما يدور فى خلده وضميره ـ حين عز القول ـ نحو حكامه ، وأغلبهم فى صورة تيمور لنك ، حتى ان أحد الباحثين رأى فى جحا « صورة لفردية عصر الاستبداد والانتهازية التى تتسم بها كل العصور الظالمة ، فنجده يستخدم ذكاءه لانقاذ نفسه من براثن السلطان ، وهو بهذا السلوك المشين صورة لعصره ، صورة للأنماط الفردية والوصولية والانتهازية والأنانية والانهزامية . وهى رؤية قاصرة

ومجددة للنموذج الجحوى لم يستطع خلالها هذا الباحث أن يكشف عن القيم الايجابية التى تنطوى عليها نوادر الرمز الجحوى بعامة .

وتذكر كتب النوادر أن أول لقاء تم بين تيمورلنك وجحا كان حينما استولى تيمور على بلاد الأناضول وراح يحضر علماء البلدة وفضلاءها ويسألهم : أعادل أنا أم ظالم ... ؟ فان أجابوه : « انك عادل » ذبحهم — وان قالوا : «انك ظالم» قتلهم ، فضاق ذرعهم ، فجاءوا الشيخ «نصر الدين» لما اشتهر به من الأجوبة السديدة الحاضرة — وقالوا له : لا ينقذنا من شر هذا الظالم غيرك فافعل وأنقذ عباد الله من سيف نقمته . فأجابهم : « ان التخلص من هذا الرجل ليس بالأمر الهين كما تعلمون . ولكن أرجو أن أوفق الى ما تطلبونه » . وبكل حيطة جاء الى قصر تيمورلنك الذى أعلموه أنه قد حضر «من يقدر أن يجيب عن سؤالك» . فأحضروه أمامه وأورد عليه ذلك السؤال ، فأجابه الشيخ : « أنت لست ملكا عادلا . ولا باغيا ظالما . فالظالمون نحن . وأنتم سيف العدل الذى سلطه الواحد القهار على الظالمين » . فأعجب تيمور بهذا الجواب وسر من شجاعة الشيخ ، واتخذه نديما خاصا له ، ولم يعد يفارقه مدة اقامته ببلاد الروم . وبذلك وبفضل حكمته وفطنته وذكائه استطاع أن ينقذ بلده ومواطنيه من بطش تيمور وبغى عساكره . ويذكر الرواة هذه النادرة فى مجال فضل جحا وكيف أنقذ بلده — لكنه أشار هنا الى مسئولية الناس عن واقعهم وعما حل بهم من بلاء ... حقا لقد كان دبلوماسيا داهية فى رده على تيمور . ولكن هل كانت تلك الاجابة تمثل واقع تيمور نفسه ؟ على كل حال لم يقف جحا هذا الموقف دائما .. صحيح أنه أصبح وسيطا بين قومه وتيمور ولكن الى جوار من وقف فى وساطته .. ؟ هذا هو السؤال . فبعد أن تم لتيمور النصر ترك الفيلة التى كانت تتقدم جيشه تسرح فى أرض المملكة على هواها ، وشاء أن نزل على بلدة جحا فيل ضخم من هذه الفيلة ، وكأنه استطاب المرعى فطابت له الاقامة ، وأخذ يعبث فى المزارع حتى أتلفها ، وما أبقى للناس بقية من رزق ، وتجمع وجوه البلدة للتشاور فى دفع هذا الوبال ، وطلبوا الى جحا أن يتوسط لدى السلطان حتى يأمر بنقل الفيل من البلدة ... فأبى جحا ، ولكنهم ألحوا فى الرجاء فقال جحا :

« اذا كان لابد من هذا فلنذهب خمسة معا فنقف بين يدى السلطان صفا واحدا ، ويقول كل منا كلمة واحدة فى الرجاء الذى نتقدم به ، فيقول الأول : فيلكم يا مولانا السلطان ثم يسكت . فيتلوه الثانى : نزل ببلدتنا منذ أمد طويل ، ويرد الثالث : وقد أفسد مزارعنا وأتلف أرزاقنا ، ويقول الرابع : نرجو أن ترحمنا فتأمر بنقله من بلدنا . ثم يدعو الخامس أن يمد الله فى عمر مولانا السلطان ويديم عزه ونصره ، فنرد جميعا مؤمنين على الدعاء . وسألنى القوم عن الحكمة فى ذلك فقلت لهم اننى اعرف أن سلطانكم أحمق ، وليس هناك ما يرضى أولئك الملوك الجبارين مثل التذلل واظهار الخضوع ، فاذا ما وقفنا بين يديه جميعا ورآنا من وجوه القوم فى رعيته ، دب فى نفسه دبيب الرحمة والعطف ، ثم هو لا يستطيع أن يحاسب واحدا منا ، لأننا جميعا سنشترك فى رفع المظلمة، وبهذا ننجو من غضبه وبطشه . واستحسن القوم الفكرة ومدحونى بحصافة الرأى ورجاحة العقل ، وقصدنا من فورنا السلطان ، وبعد أن أبدينا مظاهر الخضوع والخشوع تكلم الأول فقال : فيلكم يا مولانا السلطان . قال السلطان : ما باله ... ؟ فرد الثانى ، قائلا : لقد نزل ببلدتنا منذ أمد طويل . فقال السلطان : وما فى ذاك .. ؟ وجاء دورى فى الكلام ونظرت الى السلطان فرأيت عينيه تقدحان بالشرر ووجهه يتميز من الغيظ فأسرعت قائلا : أجل يا مولانا ان فيلكم قد طال عليه الأمد فى بلدتنا وقد شرفنا بذلك وهو على الرحب والسعة فى ضيافتنا ولكنه قد اشتاق الى فيلة تؤانسه ، فنلتمس أمركم بارسال فيلة اليه ، فهدأت ثائرة السلطان فجأة وانفرجت أساريره ، ثم أمر بارسال فيلة الى الفيل ومنحنى جبة وقاووقا دلالة التكريم . وخرجت فأقبل على أصحابى يلومونني ويقولون : لقد كنا فى مصيبة فجئتنا باثنتين . قلت : يا قوم هذا شأنكم أما شأنى فأنا أدرى به ، ومن يستطيع أيها الحمقى أن يقول للسلطان فيلكم .. ؟ وهل كان من الخير لى أن أتملق السلطان بهذه الكسوة العظيمة أو أقول الحق ويعلق رأسى على سور المدينة .. ؟ » .

وقد بين جحا طبيعة أصحاب السلطان وحاشيته ، فقال فى بيان أو تفسير هذه العلاقة بين السلطان وهذه الطبقة :

« اذا قدر الله عليك أن تكون من أصحاب السلطان فاحرص على ألا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تحس ولا تحكم · وعليك دائما أن تكون فى مرضاة هذا السلطان بالحق والباطل ـ فاذا رأيته راكبا كلبا فقل له : ما أجمل هذا الأسد ! · واذا سمعته يقول سخفا فقل له : ما أروع هذه الآيات المحكمات ! · واذا وجدته يرتكب الطيش والهوس فقل : انه العدل الذى يزن الأمور بالقسطاس ··· واعلم أن شجرة النفاق انما زرعت أول ما زرعت فى ساحة الملوك والسلاطين ··· وليس أصحاب السلطان وأهل بطانته الا فروع تلك الشجرة · وانما ينال الواحد منهم من الحظوة والرضا على قدر ما يبذل من نفاق · ويقدم من ملق · هذه حقيقة أعرفها وأفهمها ولكن مصيبتى أنى كثيرا ما أنسى · فقد كنا فى يوم فى حضرة الطاغية تيمورلنك ، وكان يجلس على عرشه أشبه بالعتل أو كانه برميل ، وأهل بطانته يجلسون من حوله وأبصارهم اليه شاخصة ، وآذانهم نحوه مرهفة ، وألسنتهم تدور بتسابيح الحمد بذاته والثناء على خصاله ، وفى مجرى الحديث سأل واحد من البطانة زميلا له : هل لك أن تفيدنا عن مذهبك ؟ فانتفض الرجل من مكانه وتوجه نحو السلطان فى ذلة وخضوع وانحناء ، ووضع يده اليسرى على صدره ورفع اصبعه مشيرا الى السلطان قائلا : السلطان تيمور مذهبى ومعتقدى · فأومأ اليه الطاغية بالرضا وهمهم المنافقون من حوله بالاستحسان والتفت الى أحدهم وقال : « أما لك أيها الشيخ أن تسأله عن نبيه ؟ وكنت قد نسيت أنى فى حضرة السلطان وأنى فى القوم المنافقين ، فصحت : مهلا يا أخى ، فانى أعرف أن الرجل الذى يكون مذهبه ومعتقده الطاغية تيمور ، لا شك فى أن نبيه السفاح جنكيز خان » · فكانى به يقول مع القائلين : الناس على دين ملوكهم ، فشريعة الغاب هى محاباة القوى وهى آفة كل العصور · والبطش هو فى كل زمان ومكان · ولكن جحا لا يعفى الناس من مسئولية ما هم فيه ، فعندما استولى تيمور على بلاد الروم (الأناضول) وأخذ المغول مدينته ، هاجر سكان البلاد فرارا من ظلمهم والتجأوا الى القرى والصحارى واعتصموا بالجبال ، وكان جحا وامرأته وولده فيمن هرب ، وبينما شرعوا يذكرون مظالم المغول وطباعهم الوحشية ، اشترك جحا فى الحديث فأخذ يعدد ما سيصيب الظالمين من العقاب فى الآخرة ويؤيد كلامه بالآيات القرآنية

والأحاديث النبوية ، وبينما هم يتحاورون بذلك وكان يسمعهم خفية درويش مهيب الشكل ذو نظر حاد فاندفع اليهم قائلا بصوت جهورى : « كلا أيها الشيخ فان ما قرأته من الآيات والأحاديث لا ريب فيه ، ولكن سيف النقمة الالهية والعدالة الربانية لا يتسلط على من ذكرت،وانما سلطه الله على أمثالكم ممن نزعت حميتهم وضعفت همتهم وقلت غيرتهم وأصبحوا لا اتفاق بينهم ولا اتحاد » . فلما سمعوا هذا الكلام خافوا . وتعجب جحا من وجوده ثم تجرأ وسأله : من أى بلاد أنت..؟وما اسمك المبارك ؟ فصاح الدرويش مزمجرا : أنا داهية ما وراء النهر ، واسمى تيمور . وما أتم كلامه حتى طار صواب جحا وقال له (متحامقا) : « وهل يقترن باسمك خان مان .. ؟ فزأر الدرويش بغضب : أجل فالتفت جحا الى من حوله من القرويين وقال : يا أمة محمد ، هلموا فصلوا على صلاة الجنازة » .

طبخ جحا يوما اوزة وحملها ليهديها الى تيمور لنك ، وفى الطريق تغلبت عليه شهوته فأكل منها فخذا ــ ولما رأى السلطان أنها ناقصة قال لجحا : وأين رجلها ؟ فقال جحا : ان جميع اوز المدينة برجل واحدة ــ وفى هذا تلميح الى ما كان عليه تيمور من العرج ــ واذا لم تكن تصدقنى فانظر الى الاوز الموجود على ضفة البحيرة أمامك ، وكان الاوز عندئذ واقفا فى الشمس ورافعا احدى رجليه ومخبئا رأسه فى صدره كما هى عادته ، فرأى السلطان ذلك وتظاهر بالاقتناع ، ولكنه أصدر أمره خفية الى الموسيقى السلطانية بأن تقترب من البحيرة وتضرب ضربا شديدا ، وما هى الا برهة حتى صدحت الآلات الموسيقية ودقت الطبول فجفل الاوز من هذه الضوضاء المزعجة وأخذ يركض يمينا وشمالا خائفا مذعورا ، فالتفت تيمور الى جحا وقال له : كيف تكذب على ، أما ترى الاوز يمشى على رجلين .. ؟ فقال جحا : ولكنك يا مولاى نسيت أن الرعب يأتى بالعجائب ، فلو أخافوك مثل ما أخافوه لجريت على الأربع » .

(ب) الموقف الثانى : ترسيخ القيم الايجابية

واذا كانت النوادر السابقة تدين القيم السلبية التى يتسم بها بعض الناس ، فان ثمة نوادر أخرى تزخر بالقيم الايجابية ، انه الموقف

النقيض الذى يعكس أحلام الناس وآمالهم فى الثورة والحرية والعدالة .. وفى هذا اللون من النوادر نرى النموذج الجحوى يقف الى جانب الناس ضد السلطان ... فيكشف لهم مظالمه وحماقة عقله وسفاهة رأيه وجور أحكامه فى قالب من السخرية والتندر .

قال له تيمور لنك يوما : أتستطيع أن تخبرنى كم أساوى من المال ؟ فنظر جحا اليه مترددا ثم قال : لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار . فضحك تيمور حتى استلقى على ظهره ثم قال : انك لم تبلغ فى جوابك شيئا . ان ملابسى وحدها تساوى ذلك المقدار من الدنانير . فقال جحا : لقد صدق ظنى اذن فما كنت أنظر من تقدير ثمنك الا الى هذه الملابس .

وهناك نادرة شبيهة تقول : دخل يوما هو وتيمور لنك الى الحمام ، فسأله تيمور لنك لو كنت عبدا فكم كنت أساوى ؟ فقال له : خمسون درهما . فصاح تيمور بوجهه : يا قليل الانصاف ان الفوطة التى بوسطى تساوى هذه القيمة . فأجابه جحا بسكون : وانى قطعت سعرا للفوطة أيضا .

وسأله تيمور يوما قائلا : هل تعلم يا جحا أن خلفاء بنى العباس كان لكل منهم لقب اختص به ، فمنهم الموفق بالله والمتوكل على الله والمعتصم بالله والواثق بالله وما شابه ذلك ، فلو كنت أنا واحدا منهم فماذا كان يجب أن أختار من الألقاب ؟ فأجابه جحا على الفور : يا صاحب الجلالة ، لا شك بأنك كنت تدعى بلقب « العياذ بالله » .

كان الحديث يدور فى مجلس تيمورلنك عن عذاب يوم القيامة وما يلقى فيها الكفار من شقاء وأهوال ، وكان جحا حاضرا فناداه تيمور لنك وقال له : أين يكون مقامنا فى الآخرة يا ترى .. ؟ فقال جحا : يكون مع الملوك العظماء الذين خلدوا أسماءهم فى التاريخ . فسر تيمورلنك ، وقال : مثل من من الملوك يا جحا ؟ فقال : مثل فرعون موسى والنمرود وهولاكو وجنكيز خان من أمثال جلالتكم .

وتبلغ السخرية الجحوية قمتها فى تصوير قوى البطش وآثاره المدمرة حينما خرج جحا مع تيمور فى رحلة الى الأقاليم ليطمئن على اذعان الناس لجبروته ومذلتهم لطغيانه • يحكى جحا قائلا : « ونزلنا أول يوم على قرية فنشب فيها حريق أكل دورها وشتت أهلها ، وتركها خرابا بلقعا . فقال تيمور : فلتأكلهم النار جميعا • وفى اليوم الثانى نزلنا على قرية أخرى فقيل لنا : ان دارا سقطت على سكانها فمات تحت الأنقاض كثيرون من الرجال والنساء والأطفال • فقهقه الطاغية قائلا : ولماذا يتركون الدار تسقط عليهم ؟ وفى اليوم الثالث نزلنا على قرية انحدر عليها السيل من الجبل فجرف بيوتها وأهلك أهلها • فلما علم الطاغية بذلك قال : ولماذا لم يدفعوا السيل عن أنفسهم ؟ وفى اليوم الرابع نزلنا على قرية فقيل لنا ان عجلا انطلق فنطح عددا كبيرا من الناس فمنهم من بقر بطنه ومنهم من قلع عينه • فقهقه الطاغية قائلا : ما أجدر هذا العجل الشجاع أن يكون فى الجيش ! •• وهالنى — أى جحا — ما رأيت من الشنائع والفظائع فتمثلت بين يدى الطاغية فى تضرع وابتهال وقلت : يا مولانا السلطان ، ان طالع السعد يبدو حيث سرتم ، وطائر اليمن يقر حيث حللتم ، فى كل يوم يشرق من جبينكم على هؤلاء المساكين ، وأخشى أن تمتد رحلتكم أكثر من هذا فيكون فى هذا هلاك العباد وخراب البلاد » •

ولا تنسى النادرة الجحوية أبدا أن تصور بعض الحكام فى جورهم وفى أحكامهم وطغيانهم وحيفهم عن الحق وارتشائهم وفساد حكمهم •

دخل أحد التجار مطعما فقدمت اليه دجاجة وبيضتان ، واتفق أن يدفع الحساب عند عودته من سفره ، وبعد ثلاثة أشهر رجع التاجر وتوجه الى المطعم ، فأكل دجاجة وبيضتين وطلب حسابه جميعا • فقال صاحب المطعم : ان حسابنا طويل ، ولكن يكفى أن آخذ مائتى درهم • فصاح التاجر : عجبا ! ما معنى طلبك مائتى درهم ثمنا لدجاجتين وأربع بيضات ؟ فقال صاحب المطعم : ان الدجاجة التى أكلتها منذ ثلاثة أشهر لو باضت كل يوم بيضة ووضعناها تحت دجاجة لنتج كذا دجاجة وكذا بيضة ولبعنا بمئات الدراهم • واحتدم بينهما الجدال وذهبا الى الحاكم

ـ وكان ضالعا مع صاحب المطعم ـ فسأل التاجر : هل اتفقتما على الثمن منذ ثلاثة أشهر ؟ فأجاب بالنفى . فقال الحاكم ألا يمكن أن يحصل من الدجاجة والبيضتين في هذه المدة مئـــات من البيض والدجـاج ؟ فقال التاجر : طبعا هذا معقول لو كانت الدجاجة حيـة ولكنها كانت مذبوحة محمرة وكانت البيضتان مقليتين . ولكن الحاكم بدا عليـه أنه سـيحكم بالدراهم المائتين . فطلب التاجر تأجيل الحكم الى الغد ، لأن عنده حجة سيقدمها . فأجابه الى ذلك . ولجأ التاجر الى جحا وقص عليه القصة وولاه الدفاع عنه . وفى الصباح حضر التاجر وقال : ان جحا سيقدم حجتى . وانتظروا جحا فأبطأ كثيرا ثم جاء فصـاح الحاكم غضـبا : لماذا تأخرت وتركتنا ننتظرك . فقال جحا فى رفق : لا تغضب يا سيدى فانى عندما تأهبت للحضور ، جاء شريكى فى الأرض التى سنزرعها قمحا وطلب البذور فانتظرت الى أن سلقت له مقدار جوالين من القمح وأعطيته اياه ليبذره فى الأرض فهذا سبب تأخرى . فصاح متهكما : ما أعجب هذا الاعتذار ! هل سمعتم أن القمح يسلق قبـل أن يبذر فينمو ؟ فقال جحا على الفور : وهل سـمع أحـد أن الدجاجة المحمرة والبيض المسلوق يتوالد ويتكاثر ، ثم يطلب لأجل ذلك من هذا التاجر مئتا درهم ؟ فبهت الحاكم وخرج التاجر منصورا .

استصحبه تيمور معـــه فى أيام الربيع ليحضر تعليم الجند رمى القوس والنشاب ، وفى أثناء التدريب أراد تيمور أن يعبث به ، فأمره أن يرمى هو أيضا وأن يصيب الهدف ، والا فالويل له ، فاعتذر جحا فلم يقبل منه بل أجبره على الرمى ، فأخذ القوس ورمى الهدف أول مرة فلم يصبه فقال : هكذا يرمى رئيس الشرطة عندنا . ثم صوب مرة أخرى فلم يصبه فقال وهكذا يرمى حاكم بلدنا . ولما رأى الثالثة ـ صادف أن أصابت الهدف ، صاح قائلا فى افتخار هكذا أرمى أنا . فأعجب تيمور وأنعم عليه .

ومن هذه النوادر أيضا تلك النادرة البعيدة المغزى :

فى أيام شباب جحا أمر الحاكم بمنع حمل السلاح . وفى يوم كان جحا ذاهبا الى المدرسة وهو يحمل سكينا كبيرة فأخذوه الى الحاكم فسأله :

ألا تدرى أننى حرمت حمل الأسلحة ، فكيف تحمل هذا السلاح فى وضح النهار ٠٠ ؟ فقال جحا : انما حملته لأصلح بعض الأغلاط التى أجدها فى الكتب ٠ فقال الحاكم : ألا يمكن أن تصلح هذه الأخطاء بغير هذه السكين الكبيرة ٠ فأجاب جحا : يا سيدى انه من الأخطاء ما تكون هذه السكين صغيرة بازائه ٠

ثانيا ـ جحا والقضاء

تؤكد النادرة الجحوية أن تحقيق العدالة وسيادة القانون فى مجتمع ما ، تكون رهنا بطبيعة النظام السياسى ونزاهة القائمين عليه ، ففى عصور الاستبداد تكون كلمة الحاكم المستبد هى القانون وكانت مصلحته الفردية فوق المصلحة القومية ٠٠٠ وحينئذ يفتقد الناس المقاييس والمعايير والضوابط التى تستقيم بها حياتهم ومجتمعهم وتصبح حياتهم جحيما لا يطاق ٠

وأكبر الظن أنه لا يمكن لدارس تاريخ القضاء فى المجتمع العربى أن يفصله عن تاريخه السياسى ، وذلك أن النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والقانونية هى أعضاء فى جسم السلطة وهيكلها العام ٠

واذا كان الوجدان الشعبى قد أعلن من خلال جحا موقفه من السلطة السياسية ورأيه فى حكامه ، فانه قد أعلن هذه المرة رأيه فى السلطة القضائية ورأيه فى قضاته٠٠٠٠ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة أن يتولى جحا القضاء أيضا ، أو هكذا شاء له الوجدان القومى فى ابداعه الشعبى، فأجلسه فى مجلس القضاء ليتخذ منه وسيلة يعلن بها رأيه فى ميزان العدالة وفى فساد القضاء ، وبخاصة فى تلك العهود التى كان يعيش فيها أيضا على هوى الحكام ٠ واذا كان القضاء ـ منذ أقدم العصور ـ هدفا لسهام النقد اللاذع ، فانه يعنى مجالا خصبا ـ بغير الشك ـ للنموذج الجحوى ٠ والدارس للنوادر الجحوية الخاصة بالقضاء تهوله كثرتها ٠ وبمقدوره أن يستشف بوضوح غياب القانون ، ومن ثم مدى اضطراب

العدالة واختلال ميزانها وفساد معاييرها · انها تعكس موقف الناس من القضاء ومآخذهم عليه ، من خلال الرمز الجحوى الذى وضع فى مواقف كثيرة مختلفة لتكون رؤيته ومواقفه منها أقرب الى الواقع التجريبى · ولهذا أيضا لم يكن من قبيل الصدفة أن يجىء الرمز الجحوى فى أغلب نوادره مع القضاء ــ « متقاضيا » يجسد لنا مفاسد القضاء وعيوبه عن كثب وعن موقف تجربة · كما نراه كذلك « قاضيا » يعتلى منصب القضاء ليحكم بين الناس بالعدل ويفصل بين المتنازعين بالقسطاس المستقيم ، ومن ثم يحقق الوجه الآخر للصورة التى رأيناه فيها متقاضيا ، اذ نراه فى هذه المرة يحقق القيم المفقودة والمثل المنشودة فى القضاء ، فيعيد الحق الى نصابه ولتأخذ العدالة مجراها فى جو من النزاهة · ونراه كذلك مستشارا للقاضى ولكنه يقف الى جانب الحق والعدل · فهو يؤمن بأن القضاء للناس لا عليهم على حد تعبيره فى بعض نوادره · ونراه كذلك يقوم بما يشبه دور المحامى فيقف مدافعا عن أصحاب الحقوق والمظلومين وينتصر لهم · وقد نراه شاهد زور أحيانا ، ولكنه سرعان ما يعترف ولا يخرج فى أدواره الثلاثة الأخيرة عن مفهومه للقضاء فهو فى رأيه ــ الجمعى ــ قضاء للناس ··· لا على الناس · انه بذلك يحقق رغبات الناس وأحلامهم فى قضاء عادل نزيه · ويواجه جحا هذه المواقف التى شاء له الوجدان القومى أن يضعه فيها ليعلن ــ من خلالها ــ آراءه فى القضاء والقضاة ·

مفاسد القضاء

قد يكون القاضى سكيرا مرتشيا يدفعه الهوى ويعميه الطمع وحينئذ تكون الطامة الكبرى على أصحاب الحقوق ، تقول النادرة :

كان بالبلدة التى بها جحا قاض سكير خرج يوما الى المزارع وسكر فخلع جبته وعمامته وألقاهما جانبا ، وخرج جحا الى التنزه فرأى القاضى على هذه الحال فاختطف الجبة ولبسها وذهب ، ولما انتبه القاضى ولم يجد الجبة رجع وكلف الحاجب أن يحضر له السارق، وبحث الحاجب فوجد جحا لابسا اياها ، فأخذه الى القاضى فسأله : من أين أتيت بهذه

الجبة ٠٠ ؟ فقال جحا : ذهبت أمس مع بعض أصدقائى الى المزارع فوجدت رجلا سكران ملقى على الأرض فى حالة مزرية فأخذت جبته ولبستها . ويمكننى أن أثبت ذلك بشهود وأريك وأرى الناس من هو هذا السكير ٠ فقال القاضى : لا نريد معرفة هذا السفيه ، فالبس الجبة كما تشاء ولا شأن لى بصاحبها ٠

وتشيع ظاهرة الرشوة فى النوادر الجحوية للسلطة عموما ٠

قال أحد الأثرياء لجحا : اذا بصقت على وجه فلان ــ وهو عدو لى ــ فلك درهم ، فوافق جحا على ذلك وذهب الى الرجل وبصق على وجهه ، فذهب جحا الى القاضى ــ ولما سأله أجاب جحا قائلا : ان لدى « فرمان » يخول لى الحق فى ذلك ، فتعجب القاضى من ذلك وقال له : أرنى «الفرمان» . فدفع جحا الى القاضى كيسا فيه نصف المبلغ الذى أخذه من صاحبه الثرى ، وما ان أخذ القاضى الدراهم حتى ولى وجهه الى الشاكى وقال له : حقا لقد أبرز خصمك « فرمان » يخول له الحق فى أن يبصق على وجهك وعلى وجوه الناس بل وعلى وجهى كذلك ٠

ويحدث أن يكون جحا نفسه قاضيا مرتشيا للسخرية :

كنت أجلس فى الدار فجاءنى شخص وحدثنى عن دعوى له على شخص آخر ، وبعد أن أشار وفهمت اشارته (رشوة) ، قال : يا مولانا أنت شيخنا وقاضينا ، وقد حدثتك بدعواى وانى لصاحب الحق فيها ، قلت : أجل يا أخى ٠ أنت صاحب الحق كله ٠ وكاد الرجل ينصرف من عندى حتى جاءنى خصمه فتقدم وسلم وقص على القضية مطولة مفصلة ، وفى أثناء الحديث غمزنى بحاجته غمزة فهمت ما وراءها (رشوة) ، وبعد أن أنتهى من حديثه قال : هذه يا مولانا القاضى هى دعواى وقضيتى وانى لصاحب الحق فيها ٠ قلت : أجل يا أخى انك لصاحب الحق كله ٠ وغضبت زوجتى لما رأت وسمعت ولم يعجبها ما قلت للرجلين ٠ فقالت : كيف يصح هذا يا جحا ؟ حضرتك قاض أو فاض ٠٠ ؟ ٠٠٠ كيف يكون الخصمان صاحبى حق معا فى دعوة واحدة ؟ والملعونة زوجتى تعلم علم اليقين أن الرجل الأول قد حمل الى دارنا جرة سمن ، وأن الرجل الآخر

قد جاءنا بجرة عسل · وما دام هناك سمن وعسل ، فكل الناس صاحب حق وأنف الحق راغم ، ولابد أن تتسع ذمة « الدعوى » فيصير كل المتخاصمين أصحاب حق فيها ، ولكن اللجاج غريزة فى النساء والثرثرة مأثورة عنهن ولم أشأ أن أدخل مع زوجتى فى مناقشة أو مخاصمة خشية أن يسمعنا أحد فيفتضح الأمر ، فأذعنت قائلا : أجل يا زوجتى وأنت فيما قلت صاحبة حق ·

ورشوة القضاة لا تقف عند حد المال ، بل تتعدى ذلك الى اغراء الجنس تلميحا لا تصريحا :

تقدمت الى جحا امرأتان فاتنتان ، عندما كان قاضيا ، فقالت احداهما :

لقد أوصيت هذه على عمل خيوط ثخينة كشعرى فنسجت لى خيوطا رقيقة · وحسرت الحجاب عن وجه كأنه البدر وأرته شعرها اللماع كسبائك الذهب قائلة : فلترد لى دراهمى · فقال جحا : سبحان الله · والتفت الى المرأة الثانية وقال لها : ماذا تقولين أنت ؟ فقالت بصوت يرتجف غضبا : كانت مقاولتنا أن يكون كخنصرى هذا لا كساعدى · وكشفت عن ساعدها الأبيض وهو ثخين كعمود من فضة أو بللور · وقال لها : كفى كفى يا ابنتى لا تجعلى الخيط ثخينا يفجع ولا تجعليه رقيقا يقطع كقلب شيخكما جحا ·

جحا قاضيا

وهناك مجموعة من النوادر تصور جحا قاضيا ذكيا لماحا واسع الحيلة فى سبيل الوصول الى تحقيق العدالة التى افتقدها الناس ، عاكسة بذلك آمال الشعب فى اصلاح ما اختل من قيم وموازين ومعايير ·

دخل لص دكان جزار وطلب منه شيئا من اللحم · وبينما كان الجزار يشتغل بقطيع اللحم فتح اللص الدرج وأخذ نقودا (من الفضة) فلمحه الجزار · فأمسك بخناقه وساقه الى جحا القاضى حيث ادعى كلاهما أن النقود له · فلما عرف جحا حكايتهما تحير فى الحكم بينهما · وجلس

يفكر ثم أمر باحضار سلطانية فيها ماء ساخن ووضع فيها النقود فظهر على وجه الماء دهن قليل ، فعرف جحا أن النقود للجزار فسلمها اليه وأمر بحبس اللص ٠

وهذه نادرة أخرى تمثل جحا قاضيا يعرف كيف يعيد الحق الى نصابه وتأخذ فيها العدالة مجراها الطبيعى ٠

نام رجل فى الغيط وتغطى بجبته فجاء لص وسرقها فأحس به الرجل فأمسك به وساقه الى جحا القاضى ، فلما وقفا أمامه ادعى كل منهما ان الجبة له ولم يستطع أحد منهما أن يأتى بشاهد أن الجبة له ، فجلس جحا يفكر فى هذه القضية العويصة ، ثم خطرت بباله فكرة رائعة فأمرهما أن يمسك كل منهما بطرف الجبة وتركهما على هذه الحال مدة طويلة وتشاغل عنهما بالنظر فى الأوراق وفجأة صاح فيهما : اترك الجبة لصاحبها أيها اللص ، فتركها أحدهما ، فعرف (جحا) أنه اللص فحكم عليه بالحبس وسلم الجبة لصاحبها ٠

وقريب من هذا النادرة ما سمع منسوبا الى جحا ، من أن أمتين تنازعتا طفلا ادعته كل واحدة منهما ولدا لها بغير بينة ، ورفعتا أمرهما الى القضاء فأشكل الأمر على القاضى (جحا) ، فوعظهما وخوفهما فأقامتا على التنازع والخلاف ٠ فقال عند تماديهما فى ذلك ائتونى بمنشار ٠ فقالت المرأتان : ما تصنع ؟ قال : أقده نصفين ولكل واحدة منكما نصفه ٠ فسكتت احداهما وصرخت الأخرى قائلة : لقد سمحت به لها ٠ وبذلك عرف من هى الأم الحقيقية فأعاده اليها ٠٠٠

والحقيقة أن هذه الحادثة قد نسبت الى أكثر من شخصية ، فهى قد نسبت الى سليمان الحكيم عليه السلام ، كما نسبت أيضا الى الامام على كرم الله وجهه ، وقد تكون نسبت الى غيرهما ٠ وهى تحكى دائما للدلالة على ذكاء صاحبها وقدرته على التخلص من أعقد المواقف الانسانية ٠ ولعل فى نسبتها الى جحا دليلا على ما ترسخ فى وجدان الشعب عن جحا من حكمة وكياسة ٠

راث كلب فى شارع عام بين منزلين فاختلف صاحبا المنزلين على من يزيل الروث منهما ، وتنازعا فذهبا الى القاضى،وكان جحا عنده فى

هذه اللحظة . فقص المتنازعان قصتهما وطلبا من القاضى أن يحكم بينهما . فأراد القاضى أن يعابث بجحا فقال له : افصل بينهما . فقال جحا : المسألة واضحة ، ان الروث فى شارع عام وليس على أحدكما أن يزيله وانما الروث على مولانا القاضى (يعنى ازالته فى المعنى القريب للتورية) فضحك القاضى والمتنازعان وتعاونا على ازالته ...

ثالثا : جحا والنقد الاجتماعى

اذا كانت ركائز أو محاور فلسفة النموذج الجحوى تقوم على عنصرين محوريين كبيرين هما : النقد السياسى والنقد الاجتماعى ... فان الأمر الذى ينبغى أن يشار اليه باهتمام أن نوادر السخرية والنقد الاجتماعى هى أضعاف أضعاف نوادر الرمز السياسى لجحا .

وهذه النوادر تعكس الى جانب نزوعها الى السخرية تجسيما حيا لما يريده الوجدان القومى العربى ، من خلال ابداعه الفنى الفكاهى من ترسيخ للتجربة أو الحكمة العملية ونقد الحياة الاجتماعية ، ولهذا لم تشأ الأمة العربية التى أبدعت هذا النموذج — كما ذكر أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس — أن تجعل هذا النموذج أو المثال سلبيا أو منعزلا ... وانما جعلته نموذج رجل عادى من الناس له مشاعرهم وتجاربهم ومواقفهم ، عليه أن يسعى فى سبيل العيش ويختلف الى الأسواق ويرحل الى الأمصار ويلتقى بالحكام ويعايش العامة ويتحدث اليهم ويختلف معهم على تباين طبقاتهم ومراتبهم ، وله معهم نوادره التى تجسم فلسفته الخاصة ، بل تجسم ما يريده الشعب العربى الذى تبناه فى ابداعه الشعبى على مر أجيال متعاقبة متصلة مستمرة ، وأثراه باضافاته الكثيرة من واقع تجربته ورؤيته وفلسفته ، وأوقفه من قيمه ومعاييره ومثله السلبية أو المختلفة موقف المتهكم بها الساخر منها ، حتى عد بحق ناقدا اجتماعيا للحياة العربية ، له من الشمول والمرونة والقدرة على التطور ومسايرة الزمان والمكان ما يجعله أهلا لهذه المكانة ،

وذلك فى أسلوب مميز ، يجمع الفكاهة والسخرية والحكمة فى آن واحد ، ومن ثم أصبح جحا المتحدث بلسان الشعب فى كل شأن من شئون الحياة • وكما يقول د • محمد رجب النجار فهو الواعظ ، والفقيه والفيلسوف والحكيم والساخر والضاحك وما شئت من كل ما تجيش به عواطف الشعب نحو أحداث الحياة ووقائعها ، ولهذا يتراءى لنا النموذج الجحوى فى شخصيات متباينة يمثل كل منها جانبا من جوانب الحياة المختلفة ، ورافدا من روافد التجربة الاجتماعية • فيعمل على ترسيبه معتقداتها وقيمها ومثلها ومعاييرها الايجابية • ولهذا فسوف يعيش هذا المثال أو الرمز حقيقة موجودة فى نفس كل انسان ، لأنه يمثل تلك الشخصية التى تفتقدها كل أمة « استكمالا لجانب من شخصيتها وهو جانب يختفى دائما وراء أحداث الحياة وتقاليد المجتمع وتدافع الناس فى غمرة الصراع على الرغيف، ولكنه يظهر ويتجلى واضحا فى مجال التحرر من القيود والانطلاق من ربقة التقاليد ، أى فى مجال الصراحة والبحبحة ومواجهة الأمور مكشوفة على حقائقها ، وهو جانب لا يمكن أن تحيا الأمم بدونه أبدا » •

ولسوف نجد أنفسنا فى هذا المقام ــ أمام المئات من النوادر التى تصور الحياة الاجتماعية بجوانبها المتعددة وتجاربها المختلفة •

أذاع جحا فى يوم من الأيام أنه سيطير فى أصيل يوم الجمعة القادم من فوق مئذنة المسجد الكبير فى الكوفة . حتى اذا حان الموعد وتجمع الناس فى كل مكان وضاق بجموعهم الميدان ، أطل جحا من أعلى المئذنة ونظر اليهم ساخرا من بلاهتهم ، وجعل يمد ذراعيه ملوحا بها فى الهواء ويحرك يديه مرة بعد أخرى كأنما يتهيأ للطيران بالفعل • وطال انتظار الناس ولم يطر فصاحوا به أن ينجز ما وعد • فنظر اليهم ساخرا ثم قال : كنت أحسبنى منفردا بالغفلة والغباء ، والآن أيقنت أننى واياكم فى الحماقة سواء •بل رأيت فيكم من يفوقنى فى هذا الباب • رأيتكم تصدقون ما لا يصدقه جحا وتنخدعون بما لا ينخدع به • تتخيلون ما لا يمكن أن يكون أنه يكون • خبرونى أيها العقلاء ، كيف صدقتم أن انسانا مثلى ومثلكم يستطيع أن يطير بغير جناحين ؟ •

وقع أحد الناس مغشيا عليه . فظن أهله أنه مات فغسلوه وكفنوه وحملوه على النعش وساروا به ، وفى الطريق تنبه الرجل فقعد فى النعش وصاح : أنا حى لم أمت خلصنى يا جحا ، فقال جحا : عجبا أأصدقك وأكذب كل هؤلاء المشيعين .. ؟

ولم يفت النادرة الجحوية أن تسخر من هؤلاء الذين يتسمون بالمبالغة وما تسببه لأصحابها من مواقف محرجة .

جلس جماعة يتفاخرون بفروسيتهم فقال جحا : أتى يوما بحصان حرون فتقدم اليه أحد الفرسان فلم يستطع أن يقترب منه . وقفز واحد ليركبه فرفسه . وجاء آخر فلم يمكنه من الركوب . فأخذتنى الحمية وشمرت عن ساعدى وجمعت أثوابى ومسكت بعرفه وقفزت (وهنا دخل أحد معارف جحا) فأكمل جحا حديثه قائلا : ولكنى لم أستطع أن أركبه .

جلس جحا فى المقهى يبالغ فى كلامه ، ويدعى أن عنده كثيرا من الذهب والنقود ، فسمعه لص . فطمع فيه ، فلما أتى الليل ذهب اللص الى منزل جحا ليسرقه ، وفتش كل الحجرات فلم يجد شيئا يستحق السرقة . فاغتاظ غيظا شديدا ووقف يلعن جحا ويشتمه ، وأراد الخروج فوجد جحا واقفا بالقرب من الباب ، فخزى اللص ولكن جحا رحب به فسكت اللص واتجه الى الباب ليخرج فقال له جحا : اقفل الباب من فضلك لئلا يدخل اللصوص ويسرقوا ما عندنا من الذهب والنقود . فقال اللص فى غيظ شديد : الله يلعنك يا جحا والله ما طمعنى فيك الا كلامك هذا .

والغرور أيضا مرض نفسى يصيب صاحبه حين يعطى نفسه أكثر من حقها ، ويزعم أنه أقدر الناس وأذكاهم وأبعدهم نظرا ... الخ . والناس يرونه فى غروره كذابا دعيا .. ولا شك فى أن تهكمهم به نوع من القصاص منه وتأديب له وحماية للمجتمع منه ومن أشباهه .

ادعى أحد الناس أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه أو يغشه . فذهب اليه جحا وقال له : أنت تزعم أنه لا أحد يستطيع خداعك أو غشك،

فاجاب الرجل بكل غرور : نعم • فقال جحا ولكنى قد حضرت اليك لأتحداك وأريك أنى أستطيع أن أخدعك وأظهر للناس غباوتك • فقال الرجل : لا أحد يستطيع ذلك ، واذا استطعت أنت فافعل • فقال جحا تراهننى على ذلك ؟ فقال الرجل : نعم أراهنك • فقال جحا : ان ذلك لا يكون الا فى الخلاء فتعال بنا الى هناك وأنا أريك كيف يكون الخداع • فوافقه الرجل وذهب مع جحا الى الخلاء ، وكان الهواء شديدا والسماء تكاد تمطر ، فلما بعدا عن البلدة رأى جحا من بعد رجلا يركب حمارا فقال لصاحبه : انى لا أستطيع أن أخدعك الا أمام جمع من الناس ليحكموا بيننا ، فانتظر هنا حتى أحضر الناس حالا وسأركب الحمار خلف هذا الرجل لأحضرهم بسرعة ، فوافقه الرجل فذهب جحا الى بيته وجلس يتدفأ وظل الرجل واقفا فى الهواء العاصف والبرد الشديد والمطر المنهمر مدة حتى مل الوقوف وأصيب بالبرد ، فلما طالت غيبة جحا وقد هجم الليل رجع المغرور الى البلدة يسب ويلعن ، وذهب الى بيت جحا يلومه على أنه تركه واقفا فى البرد والمطر والعواصف مدة طويلة فقال جحا : هذا هو الخداع يا سيدى الذكى المجرب للأمور ، اذهب لحال سبيلك واحذر أن تدعى أنه لا أحد يستطيع أن يخدعك •

واذا كان الكرم فضيلة لها قيمتها وأثرها ، فقد كان البخل رذيلة بل نقيصة يبغضها الناس والمجتمع • وقد حفلت النوادر الجحوية بعدد كبير جدا منها •

قال له أبوه : هات الطعام واقفل الباب • فقال جحا : يا أبى ليس هذا بشرط حزم ، بل قل اقفل الباب أولا ثم أحضر الطعام •

قال جحا لأحد البخلاء : لم لا تضيفنى ؟ فقال له : لأنك جيد المضغ سريع البلع اذا أكلت لقمة هيأت أخرى • فقال جحا : يا أخى أتريد اذا أكلت فى بيتك أن أصلى ركعتين بين كل لقمتين !!

كذلك كان الشره مثارا للتهكم والفكاهة فى النادرة الجحوية :

قيل لجحا ما بلغ من طمعك ٠٠ ؟ قال : ما رأيت عروسا تزف الا ظننت أنها لى ، ولا رأيت جنازة تمر الا ظننت أن صاحبها أوصى لى بشيء ، ولا رأيت اثنين يتناجيان الا خيل الى أنهما يأمران لى بمعروف ٠ ولقد كان الصبيان حولى يوما يلعبون بى فقلت لهم لأبعدهم عنى : ان فى دار فلان وليمة ، فذهبوا اليها مسرعين فلما بعدوا عنى وغابوا ظننت نفسى صادقا فتبعتهم ٠

جلس يوما مع زوجته فتمنى أن يهدى اليه خروف مسلوخ ليتخذ من الطعام لون كذا ولون كذا ٠ فسمعته جارة له فظنت أنه أمر بعمل ما سمعته فانتظرت الى وقت الطعام ٠ ثم جاءت فقرعت الباب وقالت شممت رائحة قدوركم فجئت لتطعمونى منها ٠ فقال جحا لامرأته : أنت طالق ان أقمنا فى هذه الدار التى جيرانها يتشممون الأمانى ٠

طبخ طعاما وقعد يأكل مع زوجته فقال : ما أطيب هذا الطعام لولا الزحام ٠ فقالت زوجته أى زحام ؟ انما هو أنا وأنت ٠ فقال : كنت أتمنى أن أكون أنا والقدر ولا غير ٠

والحق أننا لو مضينا فى تتبع المثالب الاجتماعية والنفسية والخلقية للناس ٠٠٠ والتى تناولتها النادرة الجحوية بسخريتها اللاذعة لطال بنا المقام ٠ فالمكابرة والعناد والمداهنة والرياء والجبن والنفاق والوصولية والتكاسل،والتمنى بدون عمل وأمور الشعوذة والدجل الى غير ذلك ، كانت موضوعا خصبا للنادرة الجحوية ٠٠٠ التى لم تغفل ــ كذلك ــ بعض التجارب العامة التى تصور طباع الناس السلبية التى تتنافى وقيم المجتمع ومعاييره ومثله ، فتعمل على ترسيبها فى دروس عملية ٠ وسنذكر فيما يلى مجموعة منتقاة ، تمثل كل واحدة موقفا بذاته لكنها فى مجملها تدور حول التهكم الاجتماعى ٠٠

كان مسافرا مع جماعة فنزلوا للراحة ، ولما أرادوا استئناف السير وضع رجله اليمنى فى الركاب وقفز فجاء ركوبه مقلوبا فضحكوا منه فقال : ما لكم تضحكون ؟ ان البغلة هى التى جعلت أمامها خلفا وخلفها أماما ٠

سألوه يوما : كم عمرك ... ؟ فقال : عمرى أربعون عاما . وبعد مضى عشرة أعوام سئل أيضا عن عمره . فقال : عمرى أربعون عاما . فقالوا له : اننا سألنا منذ عشر سنين فقلت : انه أربعون . والآن أيضا تقول انه أربعون ؟ فقال أنا رجل لا أغير كلامى ولا أرجع عنه . وهذا شأو الرجل الحر ، ولو سألتمونى بعد عشرين سنة فسيكون أيضا هكذا لا يتغير .

جاءه أحد أصدقائه وقال له : كنت قد وعدتنى أن تقرضنى بعض النقود فهيا أقرضنى . فقال له جحا : أنا لا اقرض دراهمى لأحد ولكنى أعطيك يا صديقى ما تشاء من وعود .

صعد المنبر يوما وقال : أيها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ؟ فقالوا : لا . قال : حيث انكم لا تعلمون ما أقول فلا فائدة من الوعظ فى الجهال ، ونزل من فوق المنبر . ثم صعد يوما آخر وقال : أيها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ؟ قالوا نعم . فقال : حيث انكم تعلمون فلا فائدة فى اعادته ثانية ، ونزل من فوق المنبر . فاتفقوا على أن يقول جماعة منهم نعم وجماعة لا ... ثم صعد مرة أخرى المنبر وقال : أيها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ؟ فقال بعضهم نعم وقال بعضهم لا . فقال لهم : على الذين يعلمون أن يعلموا الذين لا يعلمون .. ونزل .

ادعى أنه ولى من أولياء الله ، فقالوا له : ما كرامتك ؟ فأجاب انى أعرف ما فى قلوبكم . قالوا : قل . فقال : ان فى قلوبكم كلكم أنى كذاب . قالوا : صدقت .

ادعى الولاية فقالوا له : ماكرامتك .. ؟ قال : انى آمر كل شجرة فتجىء لى وتطعمنى فقالوا له : قل لهذه النخلة أن تجىء اليك فقال : تعالى أيتها النخلة . فلم تجىء . فكرر ذلك ثلاث مرات ثم قام ومشى فقالوا له : الى أين يا جحا .. ؟ قال ان الأنبياء والأولياء ليس عندهم كبر ولا غرور .. فان لم تجىء النخلة الى فانا اذهب اليها .

باع جحا منزله واستثنى منه مسمارا فى الحائط أخرجه من البيع واشترط ألا يمنع من زيارة مسماره فى أية ساعة من الساعات لأنه عزيز عنده . فقبل المشترى هذا الشرط .وفى الصباح ساعة الافطار دخل جحا ليزور مسماره فدعاه الرجل الى الافطار . وفى الظهر ساعة الغداء أقبل جحا ليتأمل مسماره فدعاه الرجل الى الغداء . وفى الليل ساعة العشاء حضر جحا ليتفقد المسمار فدعاه الرجل الى العشاء ، وحتى فى لحظات الراحة وأوقات النوم كان جحا ياتى فجاة الى المنزل ليرى ما حدث للمسمار . وتوالت تلك الزيارات الى أن ضاق المشترى بها ذرعا ، ولكن الشرط يلزمه بأن لا يمنعه من زيارته ، فلما لم يجد حيلة تخلصه من جحا تنازل له عن المنزل جميعه ، وانتقل منه من غير أن يأخذ من ثمنه شيئا .

ومن نوادر جحا التى يلقن فيها زوجته درسا لا تنساه حيث يظهر لها أنه ليس بالساذج الغر .. نادرتان نعتبرهما من أجمل النوادر التى قيلت فى هذا المقام :

اشترى ثلاثة أرطال لحم وقال لزوجته : اطبخيها فطبختها وأكلتها مع بعض أقاربها . فجاء جحا وطلب اللحم فقالت له : ان القط أكله وأنا مشتغلة بطبخ الطعام . فأمسك بالقط ووزنه فوجده ثلاثة أرطال . فالتفت اليها وقال : يا خبيثة ان كان هذا هو القط فأين اللحم ؟ وان كان هذا هو اللحم فأين القط ؟ .

وقد يلجأ جحا الى العقاب المادى حينما يطفح به الكيل :

خلع جحا قفطانه وعلقه على المشجب فى منزله ونام وكان بالقفطان نقود ، فوضعت امرأته يدها فى الجيب وسرقت بعض النقود وجحا نائم لم يشعر بها . وفى الصباح عد جحا نقوده فوجدها ناقصة فعرف أن زوجته سرقت نقوده ، وفى اليوم التالى وضع جحا فى جيب قفطانه عقربا وخلعه وعلقه على المشجب وتظاهر بالنوم وعينه الى القفطان ، فقامت زوجته باحتراس ووضعت يدها فى جيب القفطان لتسرق النقود فلسعتها العقرب . فصرخت وبكت فقام جحا من الفراش وقال لها : أنا آسف يا زوجتى لقد نسيت اليوم ووضعت فى الجيب عقربا بدل النقود .

قيل لجحا ان امرأتك قد أضاعت عقلها ، ففكر قليلا ثم قال : أنا أعلم أن لا عقل لها فدعنى أتذكر يا ترى ما الذى أضاعته .

جحا وزوجته وابنه وحماره !!

من الدواعى الانسانية والاجتماعية عند الشعب العربى أن تكون **لجحا أسرة ... تخيلها الوجدان الشعبى .. وعبر عنها ابداعه الشعبى في النادرة الجحوية . فكان له زوجة وابن وابنة ، كما كان له أب وأم** وحمارة ... واذا كان الوجدان الشعبى قد ربط جحا بهؤلاء جميعا فهو فى ذلك ـ كما سبق ـ انما يصله بأسباب الحياة ونموها من ناحية كما **يمد ـ من ناحية أخرى ـ فلسفة النموذج الجحوى أجيالا متعاقبة من بعده فجحا يحاورهم بفكاهته وسخرياته وما ينطوى عليه ذلك ـ** بطبيعة الحال ـ من حكمة عملية يعمل على ترسيبها ونقد اجتماعى يهدف اليه .

والابن الجحوى ـ كالزوجة الجحوية ـ يجمع بين المتناقضات ، فهو أحمق أبله ساذج تارة وماكر عنيد خبيث متحامق تارة أخرى .

وكما سبق لا يجب أن تؤخذ نوادر جحا مع ابنه مأخذ الفكاهة أو من **جانبها المرح فحسب برغم طغيان هذا الجانب عليها ، أو هكذا يبدو للوهلة الأولى ، فجحا مع ابنه انما يحاول أن ينقل اليه تجربته وفلسفته فى** محاورات طريفة سجلتها النوادر الآتية :

لعل نادرة « جحا وابنه وحماره » من أشهر ما أثر عن النموذج الجحوى من دروس تنشئته لابنه :

« ركب جحا مرة ومشى ابنه خلفه ومر أمام جماعة فقالوا : انظروا الى هذا الرجل الذى خلا قلبه من الشفقة يركب هو ويترك ابنه يمشى . فنزل جحا ومشى وأركب ابنه ومر على جماعة فقالوا : انظروا الى هذا الغلام المجرد من الأدب يركب الحمار ويترك أباه يمشى . فركب جحا وابنه على ظهر الحمار وسارا فمرا بجماعة فقالوا : انظروا الى هذا الرجل القاسى يركب هو وابنه ولا يرفقان بالحمار . فنزل جحا وابنه وساقا

الحمار ومشيا خلفه ، فمرا بجماعة فقالوا : انظروا الى هذين المغفلين يتعبان من المشى وأمامهما الحمار لا يركبانه · وبعد أن جاوزاهم حمل جحا هو وابنه الحمار وسارا به فمرا بجماعة فضحكوا منهما وقالوا : انظروا الى هذين المجنونين يحملان الحمار بدلا من أن يحملهما · وحينئذ أنزلاه وقال جحا لابنه : اسمع يا بنى انك لا تستطيع أن تظفر برضا الناس جميعا » ·

فكان ذلك أول درس علمه جحا لابنه : فرضاء جميع الناس حقا غاية لا تنال ·· وعلى الانسان أن يفعل ما يعلم أنه الحق والواجب ولا يبالى بسخرية الساخرين أو هزء الهازئين · هكذا يقول جحا معقبا على تلك التجربة ·

جلس جحا يوما على كرسى فى أحد المساجد ، ليعظ الناس واجتمع حوله خلق كثير وانتظروا ما يقول · فجلس ولم يفتح الله عليه بكلمة · وأصابه العى والحصر وتضايق الناس وأخيرا التفت اليهم وقال : أيها الناس تعلمون أنى غير عاجز عن الكلام · وقد أردت أن أحدثكم ولكن لم يخطر ببالى شىء · وكان ابنه جالسا بجوار الكرسى فنهض فقال : يا أبى اذا لم يخطر ببالك الكلام ، أفلم يخطر ببالك النزول عن الكرسى ؟ ·

مرت بجحا ـ يوما ـ جنازة ومعه ابنه وفى الجنازة امرأة تبكى وتقول مخاطبة زوجها الميت : الآن يذهبون بك الى بيت لا فراش فيه ولا غطاء ولا وطاء ولا خبو ولا ماء · فقال ابنه : يا أبى الى بيتنا والله يذهبون ·

بعث جحا ابنه يشترى له عنبا فأبطأ عليه حتى عيل صبره ، ثم جاءه بالعنب فضربه وقال له : أين التين ؟ فقال له الابن : لم تطلب منى تينا · فقال جحا : اذا أرسلتك فى حاجة فلابد أن تقضى حاجتين مرة واحدة · فمرض جحا فأمر ابنه أن يأتى له بطبيب ، فجاء بطبيب ومعه رجل آخر ، فسأله من هذا ؟ فقال : أما قلت لى أن أقضى حاجتين فى حاجة واحدة ؟ فجئتك بالطبيب فان شفاك كان خيرا والا فهذا الحفار يحفر لك القبر .

أما (حماة جحا) ، فهى أيضا كابنتها ذات طبع مخالف مشاكس عنيد :

ذهبت حماته تغسل ثيابها فى النهر فزلقت رجلها وغرقت ، وأسرع الناس يبحثون عنها فلم يعثروا على جثتها ، وذهبوا فأخبروا جحا فجاء الى النهر ونزل يبحث عنها فى الجهة التى ينحدر منها الماء فقالوا له : ان الجثة تتجه فى الماء نزولا لا صعودا · فهز رأسه وقال : أنتم لا تعرفون طباعها المخالفة فاتركونى فقد تعلمت طريقتها ·

وما دمنا قد تحدثنا عن أفراد الأسرة الجحوية باعتبارها نماذج مساعدة للنموذج الرئيسى لجحا ، فانه من الضرورى أن نقف هنا أيضا عند « فرد » آخر ارتبط أيضا بالنموذج الجحوى وشاركه كثيرا من نوادره ولم يكن دوره فيها بأقل من الأدوار المكملة الأخرى فى أى أدب ولا فى أية بيئة· فلم يكن يذكر جحا الا وتذكر معه ثلاث شخصيات متممة له أو ملازمة ، وهى : زوجته وابنه وحماره ·· لكل منها صفاته المميزة وخصائصه على نحو ما رأينا مع امرأته وولده ·

والحق أن حمار جحا — برغم ما عرف عنه من بلادة ، كان أليفا وديعا صبورا · وقد اقتناه جحا ليقضى به مصالحه وليحقق لنفسه شيئا من زينة الحياة · وجدير بالذكر أن حمار جحا كان من ناحية أخرى مشجبا يعلن بواسطته ، ويخلع عليه كثيرا من حماقات الناس وعيوبهم ··

وجد جحا فردة « حذوة » مما يستعمل فى نعال الحمير فاستبد به الفرح والسرور وقد منى نفسه بالعثور على ثلاث أخر ، وبعدها قال : الله كريم فقد هان الحصول على الحمار حينئذ ·

حينما باع خلخال زوجته وذهب يشترى به حمارا قابله رجل نحس وسأله عن سبب ذهابه الى السوق فقال لأشترى حمارا· فقال الرجل: قل ان شاء الله . لكن سماجته أغاظت جحا فقال : ولماذا تشترط على هذا الشرط والنقود فى جيبى والحمير فى السوق · ومضى جحا الى السوق فسرقت نقوده ، وفى عودته مر فى الطريق على ذلك الرجل النحس الذى ابتدره قائلا : من أين أنت قادم يا جحا ؟ فأجابه مغضبا : من السوق ان شاء الله ، وسرقت النقود ان شاء الله ، ولعن الله أباك وأمك ان شاء الله ·

جاء أحد الثقلاء يطلب الى جحـــا أن يعيره حمـــاره لقضاء بعض مصالحه · وحمار جحا عزيز على نفسه ، وهو يعلم أن هذا الثقيل سينهال حتما على الحمار وصاحبه سبا ولعنا وشتما وضربا اذا ما ناء بحمله أو توقف خطوة على الطريق · فاعتذر جحا بأن أحد الأصحاب قد سبقه فاستعار الحمار لبعض مصالحه · ولم يجد الرجل مفرا من قبول العذر ، وقبيل انصرافه نهق الحمار داخل الدار ، فغضب الرجل وقال لجحا فى لهجة ساخرة : كيف تقول يا جحا ان الحمار غير موجود وهو ينهق داخل الدار ؟ فرأى جحا أن ينصف نفسه من سماجة هذا الرجل بحجة أوقح من وجهه، فقال : مهلا يا صاحبى لقد قلت قولا وقال الحمـــار قولا ، فمن العيب أن تصدق الحمار وتكذب هذه اللحية المملوءة بالشيب ·

وما كاد الرجل السابق ينصرف حتى جـــاءه رجـــل آخر يسأله أن يعيره حماره ، وتملك جحا الغيظ وخشى أن يتعلل بالحجة الســـابقة خشية أن يفضحه الحمار مرة أخرى فأمهل جحا الرجل قليلا ودخل الدار وخرج ثم قال له : آسف يا صديقى فقد شاورت الحمار فى الأمر ولكنه أبى أن يذهب معك وقال : انى أخدم الناس وأحمل لهم أثقالهم ثم لا أجد منهم الا الضرب واللعن · فتعجب الرجل مما يقول جحا : ثم قال : ومتى كانت الحمير تتكلم يا جحا ؟ ومتى كان لها رأى ؟ فأسرع جحا للرد : هو ما ترى وما تسمع فكم من حمير تتكلم ولها مشورة ورأى ·· !

دفع جحا اللجـــام ذات مرة من فك حمـــاره فجمح به ولم يستطع أن يمسك زمامه ، فانطلق على غير هدى فاستسلم جحا الذى لم يكن له هم الا المحافظة على حياته من الخطر ··· فرآه أحد أصحابه على هذه الحال فصاح به : الى أين يا جحا·· ؟ فقال جحا : الى حيث يريد الحمار يا سيدى مادمنا قد رضينا أن نعيش بعقل الحمير ·

وهناك مقارنة طريفة بين « حمار جحا وزوجته » فى نادرة طريفة لها أكثر من مغزى :

ماتت زوجة جحا فلم يذرف عليهـــا دمعة ·· ثم مات حمـــاره فأخذ يبكى عليه بكاء متواصلا · وأقبل الناس على جحا يسألونه وهم فى عجب

من شأنه : ما هذا يا جحا الذى أنت فيه ؟؟ ماتت زوجتك فما بكيت عليها قط ، ومات حمارك فأنت فى بكاء دائم عليه • قال : وما ذنبى أيها الناس لما ماتت زوجتى أقبل هذا يقول : ان أختى يمكن أن تكون خير زوجة لك •• وأقبل ذاك يقول : ان ابنتى خير عوض عن زوجتك وانى أزفها اليك دون مقابل •• ثم مات حمارى فلم أجد أحدا من الناس يقول سأعوضك عنه بشىء • فهذه حجة الواقع يسوقها جحا من مفارقات فى طبائع الناس ، من خلال حزنه على حماره وما يجده من البون الشاسع بين أقوال الناس وتصرفاتهم •

ومن خير ما نختتم به هذه المواقف الجحوية التى تكشف طباع الناس وتقف من قيمهم ومعاييرهم موقف الناقد الاجتماعى : نادرتان تعبران عن مقولة اجتماعية ونفسية ، وهى انعدام الجانب الموضوعى فى تفكير الناس وأحكامهم حين يخضع هذا التفكير وهذه الأحكام للأهواء والمصلحة الشخصية قبل كل اعتبار ، وهى نقيصة لا شك لا تفوت على النادرة الجحوية •

أخذ من جاره « حلة » كبيرة وطبخ فيها ثم وضع داخلها « حلة » صغيرة وأعطاه اياها فقال له : ما هذا يا جحا •• ؟ قال : هى بنت « حلتك » ولدتها عندى • ثم طلبها مرة ثانية وخبأها فقال له جاره : أين « الحلة » ؟ قال : ماتت وهى تلد • فقال له : هل تموت « الحلة » ؟ فقال جحا : وهل تلد « الحلة » الذى يأخذ المكسب يتحمل الخسارة يا صديقى •

اتفق أصدقاء جحا على أنه لو استطاع أن يقضى ليلة فى العراء فى احدى ليالى الشتاء ، فانهم يقيمون له مأدبة •• على ألا يتدفأ بنار ، فان لم يستطع لزمه أن يقيم لهم مأدبة ، فوافق جحا وسهر الليلة فى العراء وهو ينقل بعض الأحجار من موضع الى موضع ليدفىء نفسه،وفى الصباح أقبل عليه أصدقاؤه وسألوه : كيف استطعت أن تتحمل البرد ؟ فقال مازحا كعادته : انى رأيت شعاعا من الضوء على بعد ميل فاستدفأت به • فصاحوا جميعا بخبث فى نفس واحد : لقد نقضت الشرط يا جحا ووجب عليك أن تقيم المأدبة•وعبثا حاول أن يقنعهم فلم يصدقوه ، واتفقوا على أن تقام

بعد ثلاثة أيام . وفى اليوم المحدد حضروا وانتظروا الغداء . ومضى الظهر وجاء العصر ولم يقدم لهم الطعام فقالوا له : لماذا تأخرت بالغداء ؟ فقال تعالوا لأريكم أنه لم ينضج بعد ، فقاموا معه الى ساحة البيت ، فرأوه قد علق قدرا فى أعلى النخلة ووضع على الأرض مصباحا صغيرا . فصاحوا به : هل يعقل أن يغلى هذا القدر بهذا المصباح الصغير من هذه المسافة بينهما .. ؟ فقال جحا لهم : ما أسرع نسيانكم ، منذ ثلاثة أيام زعمتم أنى تدفأت بشعاع على مسافة ميل ، واليوم تنكرون أن يغلى القدر على مسافة أذرع من شعاع المصباح ! .

ومجمل القول ، ان جحا لا يذكر فى أى أدب ولا فى أية بيئة اسلامية (عربية ، فارسية ، تركية) الا وتذكر معه ثلاث شخصيات رئيسية متممة لشخصيته الفنية وهى زوجته وولده وحماره ، فلم ينفرد بها النموذج العربى .. وكل من هذه الشخصيات الثلاث نمط أو نموذج فنى متميز بكثير من الخصائص والمفارقات ، بحيث تعد (شخصيات نمطية جاهزة) عرف كيف يستفيد منها بعض أدبائنا — بالفعل — فى أعمالهم الفنية المعاصرة .

وجدير بالذكر ان أغلب هذا النوع من النوادر الاجتماعية لا يزال يتردد أكثر من نوادره السياسية بصورة لافتة للنظر ، اذ لا تزال الألسنة تتناقلها وتتمثلها ، وخصوصا تلك التى تدور حول العلاقات الزوجية غير المتكافئة وسلوك الأزواج وزوجة الأب ومناكفات الضرة ، فى صورة « حواديت » أكثر الحديث فيها يدور « مكشوفا » ، اذ يختلط الأمر كثيرا بين جحا وبين أبى نواس الشاعر الاباحى المعروف ، وكذلك نوادر النموذج الجحوى مع حماره مما تشيع بكثير أيضا فى الريف وتكشف عن جوانب الغفلة فى الناس بوجه خاص . كما يؤكد أيضا اكبار الناس هناك لهذا الحيوان الوثيق الصلة بمصالحهم وحياتهم .

★★★

وهكذا نجد الشخصية الجحوية — فى التراث الثقافى الاسلامى كله — مرنة تستطيع التكيف مع كل المواقف والمفاجآت، فجحا أقرب الى القاضى العادل الذكى مرة ، ومرة أخرى نجده متهما ذكيا بارعا فى الافلات

من التهمة ، وأحيانا نجده أبله يثير الضحك والرثاء أو نجده متحامقا خبيثا ·· وهذا كله يمكنه من نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة فى مجتمعه ···

فلقد كان جحا من أدباء الفكاهة المنوعين ، فقد استخدم النادرة فى النقد والهجوم والحكمة والقصة : فكل نادرة من جحا تعتبر قصة فى ثلاثة أو أربعة سطور منها الحوار والبناء والفكرة والهدف ·

وليس غريبا أن يجتمع الكبار والصغار حول شخصية جحا ، المثقفون والبسطاء ، الجادون والمرحون ، حيث تمتع شخصيته كل هذه النوعيات من البشر بتراثها وخصوبتها واستعدادها الدائم لوضع الابتسامة على شفاه الآخرين ·

بل ان نوادر جحا وشخصيته وحياته قد ألهمت بالخيال القصصى العديد من الأدباء والمفكرين فى كل بلاد العالم ، وأصبح جحا مضربا للأمثال فى كل المواقف : للخير والاصلاح والحكمة ·· وأصبح مادة الاضحاك للتسرية عن النفوس ·

بیرینیس

جاک راسین

۱۶۷۰ م

راسين (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩)

« جاك راسين » شاعر مسرحى فرنسى يعتبر أحد أعظم المسرحيين الكلاسيكيين فى تاريخ الأدب العالمى كله .

كان يصغر منافسه العظيم كورنى (١) بنيف وثلاثين عاما . ولد فى بلد قريب من « سواسون » . وماتت أمه ثم مات أبوه وهو لم يزل فى طفولته ، فكفله جداه وربياه تربية كاملة حتى أتم دراسته . ولبث بضع سنوات وهو فى حيرة : أى طريق يختار فى حياته . أما ذووه فقد أرادوا له وظيفة دينية تدر عليه كسبا عظيما . وأما هو فكان بطبعه نفورا من مثل هذا ، وأخيرا شاء له الحظ الباسم أن يشفى الملك من مرض ألم به ، فكتب شاعرنا قصيدة فى ذلك صادفت اعجابا ، فأجرى عليه راتبا يكفيه . وكان له اذ ذاك خمسة وعشرون عاما من عمره . وفى السنة نفسها أخرج مسرحية « مأساة طيبة » ، ثم لبث بعدها ثلاثة عشر عاما يخرج المسرحية تلو المسرحية . وكان « راسين » يحظى عند الملك وتابعه بمكانة ممتازة . أما عند المختصين بالنقد الأدبى فكان هو وكورنى يتنافسان فى الزعامة ، ففريق يؤثر هذا وفريق يفضل ذاك ، ومن بين مآسيه « الاسكندر الأكبر » و « أندروماك » التى ارتجت لها باريس ، كما ارتجت منذ احدى وثلاثين سنة لمسرحية كورنى « السيد » ، فقد ظهرت فى هذه المسرحية خصائص راسين ودلائل نبوغه ، وأعقب هذه المأساة ملهاة « المترافعون » التى سخر فيها بالقانون سخرية لاذعة . ثم أخرج بعد هذه الملهاة ست مآس ، هى : « برتانكيس » و « بيرينيس » و « بايزيد » و « متريدت » و « افجينيا »

و « فيدر » .. وفشلت هذه الأخيرة حينا فاضطربت لهذا الفشل نفسه الحساسة التى لم تكن تحتمل النقد ، فنفض يديه من الأدب المسرحى ، وتزوج وعاش عيشـــا هادئا دام عشرين عاما ، ولم يكتب بعـد ذاك الا مسرحيتين تصطبغان بصبغة دينية ، كتبهما بدعوة من « مدام مانتنون » لتمثلهما الطالبات فى معهدها ، وهما « استير » و « آتالى » .

كان « راسين » من أولئك الشعراء الذى وهبهم الله قدرة الابتكار فى الموضوعات ، لكنه وهبهم قدرة أخرى فى سـعة وافراط ونعنى بها قدرة النسج على منوال موجود والكتابة على غرار مثل ونماذج سبقت الى الوجود ، ويحضرنـا من هذا القرن من الشعراء « فيرجيـل » فى الأدب الرومانى القديم ، و « بوب » فى الأدب الانجليزى فى مستهل القـرن الثامن عشر . ولهذه الطائفة من الشعراء قدرة عجيبة على تناول النماذج الأدبية بالتعديل والتبديل بحيث تلائم ملكاتهـم ، وكثيرا ما يسمون بما ينتجونه عن النموذج المحتذى. فأمثال هؤلاء الشعراء يستحيل وجودهم بغير سلف يضرب لهم المثال ، ثم يكاد وجودهم يستحيل كذلك بغير ناقد معاصر يأخذ بأيديهم ويهديهم سواء السبيل . وكان راسين محظوظا فى السلف الذى يحتذيه ، كما كان محظوظا فى الناقد الذى يهديه ، أما سلفه الذى شق له الطريق وظل يعبده له ويمهده ثلاثين عاما فهو « كورنى » ، وأما ناقده المرشد الهادى فهو « بوالو » الذى وهب القـدرة على الهداية والارشـاد .

لهذا جاء « راسين » فى فن المأساة الاتباعية ماهرا بارعا صناعا ، وكانت دقة الصناعة أروع ما فيه ، فالقواعد الصـارمة التى ضجر بها كورنى وأشقته بعبثهـا لاءمت « راسين » وطابقت فنه وميوله ، فقد التزمها وراعى أصولها ، لا كما يلتزم الانسان قانونا مفروضا عليه من قوة خارجة عنه ، بل كما يطيع الفنان رغبة فطرية وميلا طبيعيا يصدر عن النفس فى غير حرج ولا ضيق ، فلست ترى فى مسرحياته تفصيلات معقدة

وتشعبات مركبة لمجرى الحوادث ، لأن المثل الأعلى الذى كان يرمى اليه ووضعه نصب عينيه هو تركيز الانتباه والمجهود فى موضوع بسيط لا تتشعب منه الفروع • وعنده أن كثرة الحوادث فى مسرحية ما ـ تلك الكثرة التى يبتكرها الكاتب المسرحى ليظفر بانتباه النظارة ـ ليست دليلا على خصب الخيال بمقدار ما هى برهان على نضوب العبقرية وافلاسها ، فالشاعر مستطيع ـ فى رأى راسين ـ أن يمسك من النظارة انتباههم ، ويسترعى التفاتهم بحيث لا يفتر ولا يزول خلال فصول المسرحية الخمسة « بحوادث بسيطة تؤيدها العواطف الحادة والمشاعر الجميلة والتعبير الرشيق » • وبناء على رأيه هذا فى المسرحية ، تراه يختار لروايته أزمة نفسية واحدة تكون عواطف الأشخاص عندها فى قمة الحدة ، وتكفى لديها الحادثة اليسيرة لتستتبع الكارثة • ولئن كانت مسرحيات « كورنى » تعالج الصراع النفسى الذى تنشب دوافعه فى طوية الشخص ودخيلته دون صراع الشخص مع الحوادث الخارجية المحيطة به ، فقد كان « راسين » فى هذا الاتجاه أبعد مدى ، فالحوادث الخارجية عنده لا قيمة لها فى ذاتها ، وكل قيمتها أنها سبب أو نتيجة لما تضطرب به نفوس أشخاصه من العواطف المصطرعة • ثم يختلف راسين عن سلفه كورنى فى أنه جعل الحب دافعا رئيسيا فى سلوك أشخاصه ولم ينظر اليه نظرته الى الحافز الثانوى التافه كما فعل كورنى ، ولكنه بالطبع لم يقصر الحوافز على الحب ، بل أفسح المجال هنا وهنالك لغيره من الدوافع كالولاء والطموح ، على أنها هى العوامل الثانوية ، الى جانب الحب • ففى كل مسرحية من مسرحياته مشكلة غرامية ، وتكاد مشكلاته الغرامية تتخذ صورة واحدة ، فشخص يحب شخصا لا يبادله الحب لأنه يحب ثالثا وما يتبع ذلك الموقف العاطفى المعقد هو موضوع المسرحية ، لكن هذه المشكلة الواحدة التى لا تتغير فى جوهرها تتخذ فى المسرحيات المختلفة صورا متباينة بتفصيلاتها • وقد كان طبيعيا مع هذا الاختلاف بين راسين وكورنى ، فى نظرتهما الى الحب ، أن يكون راسين أنجح من سلفه فى تصوير النساء ، بل لم ينجح راسين فى تصويره الرجال بقدر ما وفق وأجاد فى تصوير النساء •

وظاهرة أخرى نلاحظها فى أدب راسين وهى أنه يميل الى تصوير الواقع ، وهنا قد يختلط الأمر على القارىء ، اذ يراه فى مسرحياته يرسم عالما أبعد ما يكون عن هذا العالم الذى نعيش فيه ، لكن النظرة الفاحصة سرعان ما ترد الأمر الى الصواب ، فلقد كان (كورنى) ينزع بطبعه الى اختيار الشواذ ، ثم يحيطهم بالمواقف الشاذة ، فتكون العواطف الناشئة فى نفوسهم عن تلك المواقف شاذة أيضا . أما راسين فيختار من الأشخاص والمواقف والعواطف ما يطابق الطبيعة البشرية ، ولا عبرة بعد ذلك بأى الأشخاص والمواقف يختار . انه لا يميل الى المبالغة والتهويل اللذين تتسمهما فى كورنى ، لأن المبالغة من خصائص الأدب الابتداعى ، وراسين اتباعى صميم ، فلا مبالغة ولا اسراف فى تصوير الناس ووصف ما تجيش به صدورهم ، قد يختار راسين موقفا من عهد غابر وأشخاصا انقضى زمانهم ، لكن ليتخذ منهم وسيلة يبرز بها الطبيعة البشرية ، كما نعهدها بقوتها وضعفها فى الحياة الواقعة التى تحيط بنا .

ننتقل الآن الى مسرحية راسين « بيرينيس » فنرى الأمر كالنقيض مع نقيضه ، فالمأساة كلها تقع فى غرفة واحدة صغيرة ، وحوادث المسرحية تتطلب لحدوثها فى عالم الواقع زمنا لا يكاد يزيد على زمن تمثيلها (ساعتين ونصف الساعة) وأشخاص الرواية عددهم ثلاثة ، وموضوع المسرحية نقطة بسيطة لا تعقيد فيها ولا تشعب،فعجيب أن يؤلف راسين من هذه المواد القليلة مأساة ، وأعجب من ذلك أن يبلغ فيها غاية التوفيق، فاهتمام النظارة بالمسرحية لا يفتر ، والموقف البسيط يبدأ عرضه وتطوره ثم يبلغ ختامه فى سرعة شديدة ودقة فنية بارعة : فالكاتب لا يحذف من الموقف عنصرا واحدا من عناصره الرئيسية ولا يضيف اليه عنصرا أو تعقيدا فى مجرى الحوادث ، وكل اعتماده فى التأثير على النظارة انما ينحصر فى طريقة علاجه لعدد قليل من المشاعر الانسانية يتفاعل بعضها مع بعض ، ولا تكاد تحس فى الرواية أثرا للعالم الخارجى الواقع . وكل ما يقدمه اليك راسين من حوادث العالم الخارجى أنه يشعرك ــ بفنه الرائع العجيب ــ أن وراء الأزمة النفسية الهادئة التى وقعت فى تلك الغرفة الصغيرة مؤثرات فى العالم الخارجى تلعب دورها وتفعل فعلها . فالقوة

التى فصلت بين الحبيبين أمر من أولى الأمر وواجب للدولة يجب أداؤه ، فاذا ما جاءت الساعة الفاصلة رأيت المحب (تيتوس) يتردد قليلا ثم يختار لنفسه أداء واجبه مؤثرا ذلك على بقائه الى جانب حبيبته . وما الحافز له فى اختياره الا كلمة واحدة ينطق بها هى « روما » ، فبهذه الكلمة الواحدة يستغنى عن الخروج بك من الغرفة الضيقة الى العالم الفسيح الذى يجول بك شيكسبير فى رحابه .

بيرينيس .. بين الحقيقة والخيال !

وبين الشعراء والمؤرخين خلاف فى سرد حوادث القصة ، فالأولون يستهلون الوقائع من شاعريتهم ، بينما يلجأ الآخرون الى التاريخ يستقصون حقائقه ووقائعه ، بعيدا عن المؤثرات الشاعرية والانفعالات العاطفية .. وسنبدأ بتقديم عرض للقصة كما صورها الخيال الشاعرى ثم نعقب عليه بموجز لحياة بيرينيس الواقعية كما سجلها التاريخ .

الفصل الأول : ملكة الشرق

غادرت بيرينيس ملكها فى فلسطين لتعيش الى جانب حبيبها ومعبودها « تيتوس » فى روما .. وكان تيتوس وليا لعهد الامبراطورية الرومانية — بعد أن خلف أبوه الامبراطور « فسباسيان » سلفه الطاغية « نيرون » على عرش الامبراطورية . وكان الابن بحكم ولايته للعهد حرا مطلق التصرف ، يفعل ما يشتهى دون رقيب أو حسيب من القانون .. فقد كانت روما لا تفرض رقابة قاسية الا على شخص الامبراطور الذى كان « مفروضا » أنها تلزمه باحترام القانون وعدم الخروج عليه .. وماذا كان قانون روما ؟ وأين كانت « قدسيته » يوم عبث به نيرون ومرغه فى الوحل .. لكأن العبث كان جائزا فى « روح » القانون أما نصوصه فواجبة الاحترام والتقديس .. !!

وعليه ، فقد ظل تيتوس ينعم ويرتع فى حب بيرينيس ويصب منه ما شاء .. فهو لم يزل وليا للعهد .. هكذا يقول القانون .

وفجأة تغيرت الظروف : فقد مات الامبراطور فسباسيان خليفة نيرون ووالد تيتوس ·· واذا بولى العهد يصبح امبراطورا فيقيد ذلك حريته ويحد منها ، بل ويعصف بها ·· فلقد خرجت التقاليد من مكامنها وكشر القانون عن أنيابه ، ان سيد روما لا يستطيع أن يكون سيدا على قلبه ·· حتى لو أراد أن يتزوج « شرعيا » من محبوبته ·· لأن القانون الرومانى يحرم على الجالس على عرش الرومان أن يتزوج من أجنبية ·· وأية أجنبية ؟ أجنبية سيئة السيرة جاءت من الشرق لتجلس على عرش الرومان ·

بل ان روما تطالب بأن ترحل هذه « الأجنبية » ، وتغادر البلاد فى الحال ، فماذا يفعل تيتوس العاشق الولهان ؟ لقد تركت بيرينيس ملك الشرق كله وضحت بتاجها لتعيش الى جواره وتنعم بحبه ! ·· وهو يحبها حبا جارفا ، برغم فارق السن الكبير بينهما ـ اذ كانت هى قد جاوزت الأربعين من عمرها وهو لم يزل فتى يافعا عارم الفتوة والشباب ··

نعم على بيرينيس أن تغادر روما وفى الحال !

كيف ينقل الامبراطور الشاب هذا الخبر المشئوم اليها ؟ لقد تذرع بادىء الأمر بذريعة الاعتكاف ·· فظل ثمانية أيام منقطعا عنها لا يراها ·· قضاها فى حداد مر ومأتم مقيم ·

ولكن متى كان انقطاع حبيب عن حبيبته ثمانية أيام أو ثمانية شهور يعنى فصم عرى الحب بينهما ؟ ·· ليت ملكة الشرق تفهم فتوفر عليه الكثير من الألم الذى سيعانيه عندما يرى نفسه مضطرا لأن يكشف لها بنفسه النقاب عن الحقيقة المفجعة ·· ولكنها لا تفهم ·· وليس من الميسور عليها أن تستنتج أمرا هو أبعد الأمور احتمالا ·· انها عمياء ·· صماء ·· لأنها تحب ··· والرجل حتى لو كان امبراطورا يحس بضعفه فى غمرة الآلام ، وهو يستشعر حاجة ملحة لأن يسند فى الشدائد رأسه التى تحمل التاج ، الى كتف امرأة ! ولعل هذه هى أعلى مراتب الشرف التى ترفع الانسانية المرأة اليها ، عندما تجد القوة المهزومة والشجاعة المغلوبة ملاذها ومعقلها فى المخلوقة « الضعيفة » التى خلقت لنحميها نحن الرجال

الأقوياء ، لا لنلتجيء اليها كى تحمينا هى !.. والتى خلقت لندفع عنها نحن الرجال الأقوياء عوادى الزمن ، وليس لتدفع هى عنا غوائل الأيام ! وان تيتوس لمكتئب حزين .. فما لهذه المرأة تعمى عن اكتئابه ولا تفطن الى حزنه ؟ .. وهذا الاعتكاف الذى يعتصم به ألا يشككها فى الأمر ؟ .. أم لعله يخلو بنفسه بعيدا عنها ليبكى أباه ؟ .. ان كل شىء يجوز وكل احتمال ممكن الا أن يكون تيتوس قد فكر فى التفريط فيها . ان الحب يبعث على الثقة ، وان ثقتها فى « تيتوس » ليس لها حد .. انه فى خلوته لا شك دائم التفكير فيها ، والدليل على ذلك أنه ـ بوصفه امبراطورا ـ آمر بتغيير معالم ملكها فى الشرق وتوسيعه .. ولو فكرت المسكينة ، لأدركت أن توسيع رقعة ملكها فى الشرق كان من جانب الامبراطور بمثابة تعويض لها عما ستفقده قريبا ، وان مثله فى ذلك مثل العاشق الذى يغرق معشوقته بالهدايا الثمينة قبل أن يقطع صلته بها . ولكن مبدأ « التعويضات » لا وجود له فى دنيا الحب الصاخب العنيف ..

ترى كيف علمت ملكة الشرق بالخبر المفجع ؟ . كان الملك « انتيوكوس » يحب بيرينيس حبا شديدا ظل مكبوتا فى صدره خمس سنوات لم يجرؤ أثناءها على البوح لها بكلمة عنه .. وكيف يجرؤ كائن من كان على الدنو من معشوقة « تيتوس » التى تحبه وتعبده دون سواه ؟ غير أن ملكة الشرق لم تكن غافلة عن حب « انتيوكوس » الصامت ، فقد كانت امرأة مرهفة الحس واسعة الادراك كاملة النضوج .. ولكن حبها لتيتوس كان من القوة بحيث لم يدع لها مجالا حتى لمجرد الاصغاء الى صوت آخر غير صوته .. فما الذى جد فجعل « انتيوكوس » يميط اللثام ويجرؤ على مطارحتها الهوى فى غير خوف ولا تردد ولا حياء ؟

ويحك أيتها التعسة . ألا تفهمين ؟ وكيف السبيل الى ايضاح الأمر لك ؟ وهل تعمى بصائر المحبين وتصم آذانهم ، فلا يرون الا الحب ، ولا ينصتون الا الى أنغامه .. وما عداه فهو هراء وكذب وخيالات وأوهام ؟ .. ان « انتيوكوس » يعلم بالخبر ، ويعلم صرامة القانون الرومانى الذى يحتم على الامبراطور أمورا ليس عنها محيد .. ومنها

بل على رأسها أن يهجر بيرينيس الى غير رجعة ٠٠ واذن فالفرصة مواتية للعاشق القديم الجديد ٠٠ فما عادت هناك عقبات تعترض سبيله ٠٠ وعليه فها هو يبوح لها لأول مرة بحبه فى غير خفاء أو التواء ٠

أما هى فقد أفسحت له من صدرها وتركته يهرف بما يريد أن يقول ٠ ماذا يضيرها أن تسمعه أو تسمع سواه ؟ فاذا كان يسعده أن يقول لها انه يحبها فليسعد ٠٠ ولكن هيهات أن ينال من شامخ حبها شىء يقوله أو يأتيه هذا المخلوق أو غيره من خلق الله أجمعين ٠ انها تحب تيتوس ولقد همت عدة مرات بأن توقف محدثها عند حده ٠٠ ولكنها خشيت أن تؤلمه ٠٠ انها امرأة سعيدة فى غرامها واثقة مطمئنة فى حبها ٠٠ والسعادة اذا وزعت على الآخرين تدفق ينبوعها وفاض ، واذا حبست عن الناس جف معينها وغاض ! ٠

ياللمسكينة ! ٠ انها ترثى لحال « انتيوكوس » وهى لا تعلم أنه هو الذى يرثى لحالها ٠٠ لأنه يراها أحق امرأة بالرثاء على وجه الأرض ٠

ولكن صمت « تيتوس » قد طال ٠٠ وانزواءه أصبح مبعث قلق فى نفسها ، وفى نفس وصيفتها والأمينة على سرها « فينيس » ٠

لقد ارتفع راسين الى مرتبة الاعجاز فى هذا الفصل ، الذى يرينا فيه الحب بأوهامه وخيالاته فى صورة رائعة ليس لها مثيل ٠٠ يرينا بيرينيس فى صورة المرأة التى يعميها الحب عن رؤية أى شىء ، فلا تريد أن تصدق الا الأمور التى تؤكد وجود حبها وبقاءه واستمراره ٠٠ ومن ورائها الحقيقة البشعة الكالحة تتعقبها وتلاحقها فى كل مكان ، وهى لا تراها بل تفر منها ٠٠ وكأنها طريدة تلوذ بغابة تتساقط أوراقها بينما يترصدها الصائد ليرديها عما قليل برصاصة فى ظهرها فتخر صريعة مضرجة بدمائها ، ثم تلفظ أنفاسها وهى ما تزال ٠٠ لا تدرى ٠٠ !

اللقاء المحتوم !

فاذا كان الفصل الثانى ، ظهر « تيتوس » على مسرح الحوادث ٠٠ ونراه يستوضح صفيه والأمين على سره « بولان » رأى روما فى زواجه

المستحيل من بيرينيس كأنه يجهل روما وقانونها ، ولكنه كان فى حاجة الى توكيد جديد ، ففى التوكيد راحة تبرر مسلكه الغشوم أمام قلبه وضميره .

انه ما يزال يجفل من مواجهة ملكة الشرق بالحقيقة المروعة ، مع أنها امرأة لا حول لها ولا طول .. ألا ما أعظم سطوة الحب وما أشد بأسه !!.. ونسمع تيتوس يردد مكتئبا : « اننى أجد منها الجمال والاباء والفضيلة كاملة .. وأنا أراها كل يوم بلا استثناء منذ خمس سنوات كاملات .. ومع ذلك فاننى فى كل يوم ألقاها ، يخيل الى أننى أراها لأول مرة » .

.. ويمعن تيتوس فى الفرار منها .. حتى اذا عيل صبرها أرسلت فى طلبه .. فجاء اليها .

وها هما الآن معا وجها لوجه .. صامتان لبرهة قصيرة قطعتها بيرينيس بعتاب رقيق وجهته الى حبيبها ، لأنه أجزل لها المنح والعطايا ، بينما هو يعلم أنها لا تطمع فى شىء من متاع هذه الدنيا ، ولا تصبو الا الى حبه كاملا دائما الى الأبد . انها تريده أن يمنحها قلبه وحبه .. وأن يلقاها كل يوم لأن لقاءه يساوى عندها ملكا يضم أركان الفضاء الأربعة .. وتطور العتاب الى ضراعة ملتهبة فقالت له : « أنت تعرف جيدا أننى سأموت فى اليوم الذى يحول فيه بينى وبينك حائل أو يقف بيننا انسان » .

.. وهنا هم تيتوس بمقاطعتها اذ لم يعد فى مقدوره أن يسمع منها أكثر مما سمع ! ان أحشاءه لتتمزق وانه ليحس بقلبه وقد أطبق عليه الألم بفكيه حتى ليكاد يخمد أنفاسه .. هم بمقاطعتها .. وهم بالكلام .. ولكن الكلمات جفت فى حلقه . أتراه قادرا على أن يوقع فى مواجهتها الحكم باعدامها ؟ انه ليرتجف كلما تصور شناعة ما هو مقدم عليه .. انه باطاعته روما سيسحق قلبه ، ولكن سيوقف دقات قلب المرأة التى ملكت عليه شغاف هذا القلب .. وكيف يجرؤ على أن يغمد فى هذا الصدر الجميل هذا النصل المسموم ؟ .. أيقتلها ويتركها مضرجة بدمائها ويفر كالجبان .. لا انه لا يستطيع ! انه لا يستطيع !

لقد خانته شجاعته ·· وخذلته قواه ·· ففر من وجهها دون أن ينطق ببنت شفة ·

والآن ، ها هى تتخبط فى دياجير الظلام من جديد : لماذا هرب منها الامبراطور ؟ أهو غاضب منها لأمر ما ؟ أهو حانق عليها لوزر ارتكبته ؟ انها لتدرك الآن طرفا من الحقيقة وتعرف لماذا هو غاضب محنق ، انها قد أفسحت صدرها لأنتيوكوس منذ أيام ليبثها هواه ·· لاشك أن هذا هو سبب غضب الامبراطور ··· وانها لتعترف بأنها قد اقترفت بفعلتها اثما كبيرا ·· ولكن ما أسعدها بما اقترفت من اثم ! · ان حبيبها « تيتوس » يغار من « أنتيوكوس » ، انه يغار ، فهو اذن عاشق ولهان ·· فما أسعدها بغيرته ·· وغضبه وثورته ! ·

وتسدل الستار على الفصل الثانى ·

ما بين الامبراطورية والحب

الواجب ·· فوق الحب !!·

كيف أتم راسين الفصول الثلاثة الأخرى ؟

ان تدرج الحوادث وتسلسلها أصبح الآن سهلا ، فبعد فترة التخيل جاءت فترة الشك ·· وكان يتعين على بيرينيس أن تعرف الحقيقة ·· وحين ترفع الستار عن الفصل الثالث ، يرينا راسين كيف قابلت ملكة فلسطين الصدمة وكيف تلقت الطعنة النجلاء !·· لم يكن فى وسع الامبراطور أن يأتى عملا يخل بالشرف الامبراطورى ·· فلم يخطر له على بال أن ينزل عن ملكه ويترك عرشه من أجل المرأة التى يحب ·· ان شرفه الامبراطورى يأبى عليه الهرب من تبعات الملك لأى سبب من الأسباب ·· فلم تكن هناك اذن معركة محتدمة بين الامبراطورية والحب ·· ولم يكن هناك صراع قائم بين الواجب والقلب ·· فقد كان القرار الحاسم متخذا من أول الأمر ، وهو أن الامبراطورية والواجب والقانون مفضلة على كل

ما عداها من اعتبارات .. وانما معركة الصدام كانت محتدمة حول أمر آخر هو : كيف يتم رحيل بيرينيس ؟ .

هنا يتأرجح التاج على رأس الامبراطور حتى ليكاد يهوى على الأرض، اذ يظهر أمام الحب رجلا حائرا مضعضع العزيمة لا يقوى على مواجهة هذه العاطفة .. بل هذه العاصفة ! .. كيف ترحل بيرينيس دون أن يورده هذا موارد التهلكة ؟ انه لايبدو هنا ملكا بل رجلا مسكينا وضع القدر فى يده مطرقة فجعل يدق بها قلبه حتى حطمه .. وانه ليرتعد فرقا عندما يتصور الألم الذى سيحل بغيره من جراء فعلته ، فهو لذلك يريد أن تلفظ فريسته أنفاسها الأخيرة بعيدا عنه .. فلا يرى مصرعها بعينيه ولا يسمع حشرجتها الذبيحة بأذنيه !

انه الجبن الذى يستحوذ على الرجل اذا ما اضطر الى الانفصال عن المرأة التى يحب .. فلتمت بيرينيس ما دام لا يسمع آهاتها وأناتها .. فلو طرقت سمعه هذه الآهات والأنات فقد يخر صريعا !

اذن ماذا يصنع ؟

كان نذلا فيما صنع .. اذ كلف بهذه المهمة آخر شخص فى الوجود كان يجب أن يكلف بها وهو « انتيوكوس » ... فقد كان يعلم أن هذا الرجل يحب بيرينيس ، وأنه طارحها الهوى وصارحها بغرامه .. فخيل اليه أنه سيكون أرق من سواه حنوا عليها ، ورعاية لها لأنه يحبها .. فهو سيتجنب ايلامهـا ، ويسهر على راحتها .. واذن فليقم « انتيوكوس » بابلاغها القرار المشئوم وليصطحبها بعدئذ الى ملكها فى الشرق بعد أن تخلع عن عرش حبها فى الغرب !

أما «انتيوكوس » فقد قبل المهمة التى كلف بها عن طيب خاطر .. وانه ليصعب علينا أن نميز أى الرجلين أكثر ضعة من الآخر ؟.. وما أحقر الرجال وأضأل أقدارهم أمام امرأة محطمة !! .

وأبلغ « انتيوكوس » الأمر الى « بيرينيس » ..

واذ أفاقت المرأة من الغاشية ، أصرت ألا تنصاع لأمر صادر اليها « نقلا » عن الامبراطور .. انها لن تنفذه الا اذا سمعته من فمه مباشرة ، وبغير وسيط ، انها لن تغادر روما الا اذا أمرها هو نفسه أن تغادرها .. فليخرج « تيتوس » من مخبئه ، وليقل لها ما يريد .. فان الحب لا يعرف الخوف ولا الكذب ولا النفاق !

المحنة الرهيبة !

فاذا كان الفصل الرابع ، نرى بيرينيس متهدمة متهاوية متهالكة بعد أن عرفت مصيرها المشئوم .. المحتوم .. لقد علم تيتوس باصرارها على لقائه ومواجهته فأجابها الى ما تطلب .. وكان وهو فى طريقه اليها يتمتم بالعبارة الآتية : « لقد طعنت قلبا أعبده ويعبدنى » .

ماذا لو أبقى عليها ... ولكن كيف السبيل الى خرق القانون ؟ .. لم يبق الا أن يلف حبل المشنقة على عنقه أو عنق الملكة ! .

وها هى بيرينيس معه الآن وجها لوجه .. يالهول الموقف ! . ماذا تراه مستطيعا أن يقول ، انه لا يلبث أن يضرع اليها بأن تساعده فى مهمته الشاقة وتشد من أزره فى محنته القاسية .. ويذكرها بأنها « ملكة » فواجبها يحتم عليها أن تتصرف التصرف اللائق بالملكات .. وعندئذ توجه اليه الملكة عتابا رقيقا خليقا بالملكات اللواتى عرفن كيف يجلسن وقورات على عرش الحب .. وها هو يحاول الدفاع وتلمس المعاذير ، ولكن ما جدوى كل هذا ؟ لقد قضى الأمر ، ونفذ سهم القدر المسموم الى صميم الأحشاء .

وقالت بيرينيس انها ستطيع أمر مولاها .. وستنفذه .

ولم يسجل التاريخ لحظة وداع رهيبة كتلك اللحظة التى ودع فيها هذان الحبيبان أحدهما الآخر .. لقد كانت نفسا انشقت نصفين ... أنصت الى هذه العبارات التى فاهت بها بيرينيس وهى تودع تيتوس :

« اننى لا أستطيع الاصغاء الى شيء بعد الآن .. فوداعا الى الأبد .. آه يا مولاى ! لعلك تقدر فى عقلك مقدار ما فى هذه الكلمة من قسوة وبشاعة عند الذى يحب .. ترى الى أى غور سوف نغوص فى الألم معا بعد شهر أو بعد عام من هذا الفراق ؟! لتفصلنى عنك البحار الشاسعة والمحيطات يا مولاى ، فاننى سأظل برغم ذلك مقيمة على حبك .. واننى لأسائل نفسى ما معنى شروق الشمس وغروبها وابتداء اليوم وانتهائه ، اذا لم ير فيه تيتوس حبيبته بيرينيس .. وترى فيه بيرينيس حبيبها تيتوس ؟! » .

وما كادت لحظة الوداع تدنو ، حتى خطر للامبراطور خاطر جديد : ليبق القانون محترما مصونا من كل عبث .. انه لا يفكر فى الانتقاص من هيبته .. والآن ماذا لو ترك القانون مهيبا مقدسا فى روما وتبع بيرينيس الى حيث هى ذاهبة ؟ ان القانون يجبرها هى على الرحيل ولكن لا يجبره هو على البقاء !!

.. لكنه ما كاد يشرع فى تنفيذ فكرته ، حتى أصدر اليه مجلس الشيوخ الرومانى أمرا بألا يغادر بلاده .. انه ليس ملك نفسه بل ملك بلاده وشعبه .. وعليه فالقانون يأمره بألا يحب ولا يشعر ولا يتألم .. ولا يغادر بلاده بل يبقى فيها جسدا بلا روح وجثة هامدة على عرش من ذهب وماس !

وهنا يتدخل « أنتيوكوس » منافقا مداهنا كعادته ، وقد كادت الشفقة على الحبيبين تقتله حسرة وألما ، يتدخل ليقنع الامبراطور بأن يرافق الملكة ويسهر على راحتها .. ولكن تيتوس يعود فيرفض ويصمم على البقاء فى عاصمة ملكه ..

وكان يمكن أن تسدل الستار على المأساة عند هذا الحد ، ولكن راسين أراد أن تستمر القصة ليظهر الملكة فى قمة مجدها كانسانة كاملة ارتفعت الى الذروة التى لم ترتفع اليها امرأة من قبل .. فقد سارعت الى تنفيذ الأمر الصادر اليها بالرحيل قبل أن ينطق به الامبراطور .. انها

لا تريد أن ينزل قدره فى قلبها بخروج هذه الكلمة من فمه .. بل تريد أن تبقى صورته محفورة فى نفسها معصومة من هذه الوصمة .. وهكذا اتخذت أهبتها للرحيل دون ابطاء ، ولو لتعيش بعد ذلك ساعة واحدة .. نعم لتذهب الى حيث تلفظ أنفاسها فى مكان آخر وتحت سماء أخرى .

وهنا يتدخل الامبراطور للمرة الأخيرة .. ولكن لا ليأمرها بالذهاب بل ليأمرها صراحة بالبقاء !

ولكن على أى شرط ، وعلى أى أســاس ، مادام لا يستطيع الزواج منها ، وما دام لا يستطيع التنازل عن العرش ليتبعها الى حيث هى ذاهبة ، فلماذا لا يلجأ الى آخر سلاح فى يده ؟ ان فى يده سلاحا لا تقدر روما أن تنتزعه منه .. انه سيف بتار فى امكانه أن يستله متى شاء : فليقضيا نحبهما منتحرين معا .. واذا كان قد عجز عن ملازمتها فى الحياة فليلازمها فى الموت !

قلب المرأة

ولكن « انتيوكوس » يتدخــل فى هذه اللحظــة المقــدسة ويشهد بحضــوره هذه اللوحة الخالدة التى رسمتها ريشــة القــدر فبلغت غاية الاعجاز والابداع فى التصوير .. ان هذه اللحظة كان يجب أن تكون وقفا عليهما معا دون دخيل بينهما .. حتى يقررا مصيرهما على ضوء اللهب المنبثــق من قلبيهما المحترقين ... ولكن « انتيوكوس » يظهر ليمنــع الامبراطور من الانتحار .

وهنا ينقلب موقف بيرينيس انقلابا عجيبــا ويتغير تغيرا يخطف الأبصار .. لقد كانت منذ برهة على أهبة الرحيل كسيرة القلب محطمة الفؤاد ، لأن تيتوس لم يعد يحبها .. فلم يكن رحيلها مصدر ألمها الذى استبد بها ، بــل كان يقينها من أن هذا الرحيــــل مبعثه أن تيتوس لم يعد يحبها . أما الآن فها هو الامبراطور يقدم لها الدليل الذى لا يقبل الدحض على حبه لها : انه يعرض عليها أن يتبعها الى الموت ... الى هذا

الحد يحبها حبيبها ؟ .. ان الحياة لم تعد اذن بلا طعم وبلا قيمة كما كانت تراها منذ برهة ، ان لها الآن طعما ولها الآن قدرا .. فما دامت لم تفقد حبه فلتتحمل بصبر ألم فراقه وسائر آلام الحياة .. ان حبه يعينها على الصبر ويمنحها قوة على احتمال حزنها .. ويمد قلبها الجائع بفتات من القوت يساعده على استئناف دقاته ونبضاته . ان الألم أصبح الآن مناصفة بين قلبين ، ولم يعد ألما ينوء بعبئه الثقيل قلب واحد بغير شريك . وحتى على البعد وعندما تنقطع كل الصلات المادية بين قلبين حبيبين ، فانهما يظلان متصلين بالأنفاس والنبضات .. فلا الزمن ولا بعد الشقة بقادرين على أن يفصما عرى حب يربط روحين .. والموت في جبروته اذا انشب فيهما أظفاره فستظل روحاهما متعانقتين في حياة الخلود ! .

وتسدل الستار على الفصل الأخير في الرواية ، وبيرينيس تخاطب الامبراطور قبيل رحيلها النهائي بهذه العبارات الأخاذة الخالدة :

« لقد أحببت يا مولاى .. لقد أحببت . وأردت أن أكون محبوبة أيضا .. واننى لأعترف بأننى كنت شديدة الجزع الليلة ، لانى ظننت ان حبنا قد انقضى وذهب الى غير رجعة .. أما الآن فاننى سعيدة بأن أتبين خطئى فيما ذهبت اليه .. سعيدة بأن أعلم أنك ستقيم على حبى وان فصلتنا البحار والمحيطات ... ولسوف أعيش يا مولاى مطيعة أوامرك على البعد كما أطعتها دائما على القرب .. أما أنت .. فاحكم ، واجلس على عرشك .. وأما أنا .. فلن أراك بعد الآن .. » .

الحياة تتغلب على الحب !!

وهكذا كانت « بيرينيس » قصة نابضة بالحياة لأنها صيغت من الحق الأبلج الناصع الذى لا زيف فيه .. ان النزعة الانسانية فيها تتغلب على كل نزعة أخرى ، ولولا ذلك لما تغلبت الحياة في ختامها على الحب ... فهى ترجمة صادقة للعاطفة الانسانية في أنبل صورها وأروعها .. بل هى القصيدة الشعرية الغالية على كل قلب ذاق طعم الحب ورشف من حلاوته أو تجرع من علقمه .. فخرج من تجاربه بهذه الحقيقة الخالدة : وهى

أنه مهما عصفت بالقلب أنواء الحب واستبدت به أوجاعه وتباريحه ..
فان هذه العواصف تساعد دقاته على أن تتجاوب قوية فى النفس ..
ولا توقف نبضاته بل تدفعها فتية جياشة بالحياة .

بيرينيس بين الخيال الشعرى والواقعية التاريخية

والى هنا قصة راسين .. ولكن المؤرخين يخالفونه فى وقائعها ..
كما يخالفونه فى شخصية بيرينيس التى مجدها ورفعها الى الذروة ...
بل انهم يخالفونه حتى فيما صور به شخصية « تيتوس » فهم يصفونه بأنه كان ذا نزوات جامحة عاصفة مفاجئة .. وأنه كان كفؤا لأن يرتكب أعظم الحماقات فى احدى نزواته تلك .. وأن اصداره الأمر الى بيرينيس بالرحيل كان نتيجة لاحدى تلك النزوات ... ويضيف المؤرخون أن تيتوس فى بداية عهده بالملك تحدى معارضيه وتحدى القانون .. ولم يحفل بشىء من تقاليد روما وأوضاعها . فجعل بيرينيس تشاركه حياته الرسمية علنا كما كانت امبراطورة متوجة ... وأنه كان يتمتع بسلطات مطلقة تدانى السلطات التى كان يتمتع بها الطاغية نيرون . فلا يعقل والحالة هذه أن يكون تطليقه ـ أو طرده ـ لبيرينيس ناتجا عن خوف أو مراعاة لشعور الرأى العام . وان تكن معاشرته لها قد ضاعفت من شوكة التيارات المعارضة له وزادتها حدة وعنفا ، لاسيما وقد كان ماضى بيرينيس موصوما بوصمة الدنس والعار : وصمة معاشرتها « لأخيها » معاشرة الأزواج ، على أن العجيب فى الأمر حقا أن تيتوس بانفصاله عنها طلق حياة الفسق والفجور .. وثاب الى رشده فلاذ بالاستقامة والخلق الحميد ! .

وعندما أصرت هى على مقابلة الامبراطور لتسمع من فمه الحكم عليها بالرحيل ، يقول المؤرخون انه رفض مقابلتها وكان عنيفا مع رسولها فلم يزد على أن كلفه بابلاغها أمره اليها بالرحيل فى الحال .

أما ماذا جرى لها بعد أن غادرت روما ، فقد تساوى التاريخ والرواة والشعراء جميعا فى جهل مصيرها الأخير .. اذ لم يتحدث عنها أحد بعد

ذلك واكتنفها الغموض المطبق · غير أن ذلك لم يمنع الشعراء والرواة من أن يصوغوا عنها منذ ذلك التاريخ قصائد وقصصا من نسج خيالاتهم ، ويجعلوا منها « أسطورة » من أساطير الرومان يؤلفون فيها مسرحياتهم عن الحب المنهزم ·· الغشيوم ·· الذى سيظل لغز الانسانية الغامض المحير الى يوم النشور ·

بيرينيس كما رواها التاريخ

ولما كان الحديث عن بيرينيس والخوض فى تاريخها والتعليق على حياتها لم يتجاوز ذلك المحيط الفرنسى الى ما عداه الا فى المناسبات النادرة وفى أضيق الحدود ·· فقد رأيت أن أستقى لك من صفحات التاريخ ـ ومما رواه عنها المؤرخ اللاتينى المعاصر لها «تاسيت» ـ حقيقة سيرة بيرينيس دون خيال أو تنميق :

ولدت بيرينيس فى فلسطين فى العام الثامن والعشرين بعد الميلاد ، أى فى فجر المسيحية · فهى بذلك قد نشأت فى ملتقى عالمين وحضارتين متباينتين ·· كما اختلط فى دمها الشرق والغرب : الشرق الذى انتمت اليه أمها « سيبروس » والغرب الذى انحدر منه أبوها « أجريبا » ·· فجاءت بذلك مزيجا من الكبرياء والنهم للملذات ·· والتهالك على الاستمتاع بكل ما فى الحياة من فرص للمتعة واشباع الشهوات ·

وكانت على جانب كبير من الدهاء والذكاء والمرونة وسعة الحيلة ·· وكان أجدادها لأبيها يعتبرون أمراء وأسياد وحكام « شعب الله » فى عهود الوثنية ·· وكانوا ذوى بأس وثروة يستمدون سلطانهم من امبراطور روما مباشرة ويعيشون فى بذخ واسراف كانا مضرب الأمثال فى التاريخ ·

وحرص أجريبا على تزويد ابنتيه « بيرينيس » و « دروزيللا » بالثقافة الرومانية ·· وعاشت بيرينيس فترة من الزمن فى « طبرية » فى بيت « هيروديا » زوجة عمها هيرودس ـ التى حرضت ابنتها « سالومى » ـ وكانت ابنتها من زوج سابق ـ على اغراء زوجها الجديد هيرودس بقطع رأس النبى « يوحنا المعمدان » وتقديمه اليها على طبق ·

.. ثم انتقلت بيرينيس من أرض الجليل المشرقة الى الاسكندرية ، حيث قضت فترة أخرى بصحبة أبيها قبل أن يبحر الى روما بناء على طلب الامبراطور تيبريوس الذى لم يكن على وفاق معه ..

ثم مات الامبراطور تيبريوس وجاء المخبول « كاليجولا » فعين أجريبا على احدى الولايات الخاضعة له . ثم اغتيل كاليجولا ليخلفه الامبراطور « كلوديوس » ، الذى اختار أجريبا ملكا لولاية جودى ـ كما كان يطلق يومئذ على تلك البقعة من فلسطين ـ وذلك مكافأة له على خدماته التى أداها لروما ..

وبحكم منصبه الجديد ، انتقل أجريبا بأسرته الى عاصمة ملكه (القدس) ، وهناك انصرف همه الى أن يزوج ابنتيه «بيرينيس» و «دروزيللا» فى سن مبكرة ، على أن يكون زواجهما ذا « صبغة سياسية » ، بحيث يفيد منه ويستغله فى الوصول الى تحقيق مآربه وأحلامه العريضة . كما لم يغفل الأب اعتبار « الناحية المالية » ، فكان أن تزوجت بيرينيس من أحد يهود الاسكندرية الأثرياء ويدعى « مارك » .. لكن هذا الزواج لم يدم طويلا لوفاة « مارك » بعد الزواج بوقت قصير ..

فماذا يفعل الأب ؟ اختار شقيقه « هيرودس » ليزوجه من ابنته الأرملة (بيرينيس) ـ أى انه زوج الابنة من عمها ـ وكان هيرودس فى الخمسين من عمره ، فى حين لم يكن عمر الأميرة بيرينيس يوم زواجها الثانى قد جاوز الثلاثة عشر عاما ! .

ابنة ملك .. وزوجة ملك

وكان القدر يدخر « للصبية » مجدا عريضا .. بل عرشا .. فقد كانت هدية العرس التى أهداها الامبراطور الرومانى الى هيرودس : مملكة «كاليكيا» ـ احدى مقاطعات فلسطين أيضا ـ فولاه عليها سنة ٤١ ميلادية . وهكذا توجت بيرينيس « ملكة » وهى فى سن الثالثة عشرة !

وعاشت الملكة الصغيرة مع زوجها الكهل متسلطة عليه مسيطرة على شؤون المملكة .. ورزقت من هيرودس ولدين هما « بيرينيسيان »

و « هيركان » . ولم تمض على زواجها ثلاث سنوات حتى مات أبوها « الملك أجريبا » ، وكانت تقيم فى بيته فى ذلك الحين فنشبت عند وفاته اضطرابات دموية فى أنحاء المملكة التى كان يحكمها بالحديد والنار ، والتى كانت تتنازعها الفرقة والأحقاد الدينية .. فهاجم الجنود السامريون قصر الملك وعاثوا فيه نهبا وسلبا ، وكادوا يعتدون على « بيرينيس » لولا أن لاذت بالفرار الى مملكتها ، واذ ذاك أخذوا تمثالها فوضعوه فى أماكن ذات سمعة مريبة وراحوا ينهالون عليه بأفحش الاهانات والألفاظ .

وبعد أربعة أعوام مات هيرودس فغدت « بيرينيس » أرملة للمرة الثانية وهى بعد فى التاسعة عشرة ... وهنا قرر امبراطور روما — وكان « نيرون » — أن يئول ملك مملكة « كاليكيا » الى ابن أجريبا الأكبر ، أى شقيق بيرينيس فتوج باسم « أجريبا الثانى » .

وكان أجريبا الثانى يعيش فى روما منذ ثمانى سنوات لاتمام علومه ودراساته وليتمرس بمعيشة البلاط وحياة الملوك والأمراء .. فغادرها الى مقر ملكه ، أفتن ما يكون شبابا وجمالا .. فقد كان فى الحادية والعشرين — الى جانب روحه العسكرية العالية وبسالته فى الجندية ، وألفته حياة القصور بما تنطوى عليه من ترف وتلف ... وما كاد يستقر به المقام فى عاصمة ملكه حتى راح يقدح زناد فكره : كيف ينبغى أن يكون مسلكه مع الداهية الفاتنة : شقيقته « بيرينيس » ؟..ان هذه الساحرة ليست بالمرأة التى يسهل اغفال وجودها واهمال شخصيتها ... وعليه ، فقد انتهى أخوها الملك الشاب الى التحالف معها كى تعينه بواسع خبرتها فى ادارة دفة الملك .

تعشق اخاها !

وكانت بيرينيس فاتنة بارعة الجمال ، يفتك حسنها بالقلوب ويأسر الألباب .. يضاف الى فتنتها ثقافة واسعة والمام شامل بأفانين السياسة وأحابيل السياسيين .. فزاد ذلك من تعلق أخيها بها ... وظلت أواصر المحبة والاخاء تزداد بينهما توثقا وتنزلق بهما رويدا رويدا .. فاذا بالعلاقات بين الأخ وأخته تتحول الى حب حرام !

واذا كانت تقاليدنا الحاضرة وقوانيننا تستبشع هذا النوع من العلاقات ، الا أننا لو رجعنا الى الوراء الى ما قبل ألفى عام لرأينا مقاييس ذلك العصر لا تنظر الى هذه العلاقات نظرة الاستبشاع التى ننظرها اليوم ، أولم يكن المصريون القدماء يبيحون للملك أن يتزوج من أخته حفظا للدم الملكى من أن يختلط بدم أجنبى ؟

على أن هذا لا ينفى أن اليهودية كانت فى العصر الذى نحن بصدده تعتبر زواج الأخ من أخته جريمة منكرة لا يصبر عليها ولا يطيقونها بحال ... لكن الأب الذى رضى لنفسه أن يزوج ابنته التى فى الثالثة عشرة من عمها الذى فى الخمسين طمعا فى أن يراها « ملكة » .. لا يبعد عن ابنته أن تعشق أخاها !

على أن علاقة بيرينيس الآثمة بشقيقها لم تلبث أن أثارت ثائرة الكثيرين عليها .. فلم تر بدا كى تهدىء من تلك الثائرة من أن تعمد الى التعمية وذر الرماد فى العيون ، فعقدت زواجا صوريا لها على ملك ولاية مجاورة يدعى « بوليمان » .. على أن العقد لم يكد يعقد حتى دخل الزوج فى « منطقة الظل » وبات كما مهملا ، ونسيا منسيا .. ثم لم تلبث بيرينيس أن تحللت من هذا الزواج وهجرت بوليمان ـ دون مبالاة ـ وقفلت راجعة الى القدس لاسيما أن الموقف كان يزداد كل يوم سوءا بسبب ازدياد المقاومة الشعبية لجيش الاحتلال الرومانى الذى كان يجثم على البلاد كالكابوس .. ولم تلبث أن اندلعت ثورة دامية أدت الى ذبح قوات الحاميات الرومانية وأسر جانب كبير من جيش أجريبا المغلوب على أمره ..

واذا كانت هذه الأحداث قد عنت بالنسبة لبيرينيس وشقيقها ـ أو عشيقها ـ فشلا سياسيا أو هزيمة شخصية ، فانها كانت تعنى بالنسبة لروما كارثة خطيرة تهدد بافلات الشرق كله من قبضتها ... ومن هنا اضطر الطاغية « نيرون » الى أن ينصب على رأس جيش الشرق قائدا قديما محنكا هو « فسبسيان » الذى أرسل يطلب الى ابنه « تيتوس » أن يحضر الفيلق الخامس عشر من مصر ويخف معه للقائه فى أرض فلسطين ..

وفى الوقت نفسه جرد أجريبا وأخته ـ من ناحيتهما ـ جيشا لمعاونة فسبسيان وجيشه على قمع تمرد الثوار اليهود ..

والتقى الجيشـــان الصديقـــان ..

بدايـــة المأســـاة !

وفى ذلك اليوم من عام ٦٧ ، وأمام مائة ألف مقاتل احتشدوا فى سهول فلسطين ، كتب القدر فى لوحته بداية مأساة غرامية من أعنف مآسى التاريخ .. فقد التقى « تيتوس » .. و « بيرينيس » .

كان كلاهما آية من آيات الفتنـــة والوسامة فى جنســـه : هى فى نضوج الثامنة والثلاثين أكمل ما تكون حسنا واغراء .. وهو فى ربيع السادسة والعشرين بارع الفتوة ، اجتمعت له وسامة المحيا وجلال الطلعة ونضارة الشباب وفحولة الجسم ، وحدة الذاكرة ، ووفرة الثقافة ، واتقان الخطابة ، والبراعة فى الموسيقى وهواية شتى الفنـــون .. فضـــلا عن شجاعته كقائد حربى مغوار « يعبده » جنوده ويقسمون بحياته .. والتقت العيون .. وخفق القلبان من أول نظرة .

ولم تمض أسابيع حتى استرد جيش الشرق منطقة الجليل وفرغ من تأديب العصاة ، فقبل القائد وابنه دعوة الشقيقين لقضاء عشرين يوما فى ضيافتهما كانت عبارة عن مهرجان متصل من المآدب وحفلات التكريم الباذخة .. وسكر العاشقان بخمرة الحب فى جو ساحر كان كل ما فيه يؤذن للهوى والمتعـــة !

وحين آن موعد عودة « تيتوس » الى روما .. صحبته بيرينيس .. ثم مات نيرون فخلفه القائد الظافر فسبسيان ، ثم مات هذا فجلس ابنه « تيتوس » على العرش ..

وحرمته الدولة من حق الزواج من « أجنبية » .

ثم كان ما قرأته فى مأساة « راسين » ..

بول و فرجینی

برنارد ین دی سان بییر

۱۷۸۷ م

جمـال الطبيعة والفضيلة

يقول برناردين دى سان بيير فى مقدمة الطبعتين الأولى والثانية من روايته : « أردت من هذا الكتاب أن أجمع بين جمال الطبيعة فى المناطق الحارة وجمال الحياة الخلقية والروحية لمجتمع صغير يعيش فى كنفها . كما أردت ايضاح حقيقة جوهرية وهى أن سعادتنا على هذه الأرض تتمثل فى عنصرى الطبيعة والفضيلة » .

ويقول أيضا فى المقدمة نفسها : « عندما انتهيت منذ سنوات من كتابة عناصر هذه الرواية العاطفية البريئة ، قرأتها على احدى سيدات المجتمع ، ثم أعدت قراءتها على عدد من أفاضل الرجال ممن يعيشون فى عزلة عن المجتمع حتى أعرف مبلغ تأثيرها فى قراء تختلف طباعهـــم وميولهم .. وكم كان سرورى اذ رأيت الدموع تنحدر من عيونهم جميعا !» .

ويلخص سان بيير فى هاتين الكلمتين ما قصد اليه فى روايته من حث على حياة الطبيعة والفضيلة واثارة لمشـــاعر القراء ودمـــوعهم . وبذلك يســـــتجيب لحاجة كانت تختلج فى قـــلوب النـــاس فى تلك الفترة من القرن الثامن عشر ، وهى الهروب من المجتمع الحضرى وما فيه من تكلف وقيود ، والتخلص من الفلسفة وجمودها والتحرر من العقل واستدلالاته الجافة ، والارتماء بين أحضان الطبيعة والاستجابة لنداء القلب واستثارة العاطفة واستدرار الدموع .

وكان من الغريب أن يكتب ســـان بيير مثل هذه القصة الانسانية الرقيقة ، وهو الذى أمضى حياته فى اضطراب دائم وقلق مستمر ، متنقلا

من بلد الى آخر سعيا وراء المادة ، متطلعا الى المناصب والألقاب ، شاكيا من سوء حالته ، دائم التحدث عن نفسه فى غرور أحيانا وادعاء ٠

فقد ولد جاك هنرى برناردين دى سان بيير بمدينة هافر ، فى ١٩ من شهر يناير عام ١٧٣٧ من والدين متوسطى الحال ، برغم ما كانا يدعيان من انتساب الى احدى الأسر النبيلة ٠ كان أبوه مراقبا للملاحة فى ميناء هافر وكانت أمه تحنو عليه بصورة بالغة ٠ وربما كان تدليل أمه سببا فى شدة حساسيته وحدة مزاجه وسرعة تقلبه ٠

كانت دراسته عادية بدأها فى بيته ثم ألحقته أسرته بمدرسة صغيرة يديرها أحد القساوسة بمدينة كان ٠ وفى عام ١٧٤٩ قام برحلة الى المارتينيك على ظهر سفينة تجارية يمتلكها عمه ، وعاد معها وقد زاد حسه ارهافا وخياله اتساعا ٠ وأرسله أبوه بعد ذلك الى مدينة روان حيث أتم دراسته ونال الجائزة الأولى فى الرياضيات ٠ كان ذلك فى عام ١٧٥٧ ٠

ومر صاحبنا بعد ذلك بمغامرات كثيرة استمرت اثنى عشرا عاما حاول فيها أن يستقر على وضع معين أو يلتحق بعمل ثابت فى فرنسا أو خارجها ٠ ويكتنف هذه الفترة من حياته شىء من الغموض ، ويحلو لسان بيير أن يزيد هذا الغموض بما رواه هو عن نفسه فى مذكراته ٠

ومن رواياته التى لم تثبت صحتها أنه منح فى عام ١٧٥٩ رتبة فى سلاح الهندسة نتيجة التباس فى الأسماء بينه وبين أحد المرشحين للوظيفة. واشترك بهذه الصفة فى حملة « هيس » عام ١٧٦٠ تحت قيادة الكونت سان جرمان ، ولكنه ما لبث أن فصل من الخدمة لسوء تصرفاته ٠ ورجع الى هافر حيث وجد أباه وقد تزوج للمرة الثانية بعد وفاة أم جاك ٠ ولم تحسن زوجة أبيه استقباله فعاد الى الجيش واشترك فى حملة مالطة عام ١٧٦١ كمشرف هندسى على المواقع والاستحكامات ، ويفصل مرة أخرى لسببين أولهما أنه لا يحمل مؤهلا رسميا وثانيهما كثرة منازعاته ٠

ويقصد الى باريس وينتحل لقب شفالييه ، ويكسب عيشه من اعطاء دروس فى الرياضيات ٠ ثم يفكر فى مشروع كبير يستطيع أن يجتذب به

اهتمام الحكومة الروسية وهو انشاء مزرعة اشتراكية عند بحيرة « آرال »، وما ان اختمر المشروع فى ذهنه حتى شد رحاله الى موسكو وليس معه الا قليل من المال · وفى طريقه يمر بأمستردام ، حيث يتعرف الى صحفى فرنسى · ويحاول الصحفى أن يحمله على التخلف فى أمستردام ، ويعرض عليه الزواج من شقيقته وكذلك وظيفة يتكسب بها عيشه ، ولكن سان بيير يرفض ويواصل طريقه وينزل بمدينة لوبيك ويحصل على مساعدة مالية من الشفالييه شازو ، ثم يقصد الى مدينة كرونستدات ومنها يصل الى بترسبورج وبعدها الى موسكو حيث يجد من ماريشال موينخ كل عناية ورعاية ، ويهتم بأمره الجنرال بوسكيه ومسيو دى فيلبوا الفرنسيان ، ويحصلان له على رتبة صف ضابط فى سلاح الهندسة الروسى ويتخلى عن فكرة مزرعة آرال · ويرسل فى مهمة الى فنلندا حيث تتاح له فرصة لدراسة طبيعة هذه البلاد · وعند عودته الى موسكو يجد أن الذين كانوا شملوه برعايتهم أصبحوا من المغضوب عليهم ، فيستقيل ويرحل الى بولندا · يصل الى وارسو فى بداية عام ١٧٦٤ ويقيم فيها خمسة عشر شهرا يعمل لحساب المقيم الفرنسى مسيو دى هينان ، ويتبادل الغرام مع احدى الأميرات ولكنه لا يلبث أن يغادر بولندا بعد أن ضاق ذرعا بها وبروسيا ·

ويقضى سان بيير شهرين بمدينة درسدن ثم يرحل الى برلين · ويعرض عليه الملك فردريك رتبة فى سلاح الهندسة ويرفض سان بيير · وتنعقد بينه وبين أحد مستشارى الملك صداقة متينة ، وعندما تبلغ هذه الصداقة حد الرغبة فى تزويج سان بيير بابنة المستشار يرحل صاحبنا راجعا الى باريس !

ويموت والد سان بيير عام ١٧٦٦ ويترك لابنه مبلغا ضئيلا من المال، ولكن البارون دى بروتوى يأخذه فى رعايته ويشجعه على تدوين مذكراته وتسجيل رحلاته · ويلتمس سان بيير رتبة فى احدى فرق المستعمرات فيجاب الى طلبه ويلحق بجيش الملك فى جزيرة « ايل دى فرانس » (عام١٧٦٨) وهى جزيرة تقع شرقى مدغشقر ، وكان المنتظر أن يستقر هذه المرة بعد أن وفق الى الوظيفة الدائمة التى كان يحلم بها،ولكن شيئا من هذا

لم يحدث ، فقد صدم فى أول مرة بعاصفة شديدة كادت تطيح بسفينته عند رأس « فنستير » أعقبتها عاصفة أشد وأنكى بالقرب من مدغشقر • ثم ثم وجد أن العمل الذىسيضطلع به وهو الاشراف على ترميمحصن ولى العهد فى مدغشقر لايتفق ومزاجه فتخلى عنه وقصد الى جزيرة « ايل دى فرانس » حيث اضطر الى قبول وظيفة مدنية عادية أقل بكثير مما كان يتطلع اليه • ودفعته روح المغامرة الى أن يقترح على رؤسائه التصريح له بالقيام برحلة استكشافية حول الجزيرة الصغيرة ، وأجيب فعلا الى طلبه • وشرع فى رحلته ولكنه عاد منها ساخطا بعد أن أثار عليه السلطات التى اتهمته بسوء معاملة الزنوج •

واعترى سان بيير شعور الألم والمرارة من كل هذه الاحداث ، وانتابه مرض عصبى فطلب اجازة للاستشفاء والنقاهة يمضيها فى فرنسا بعد أن فشل فى الزواج من احدى بنات الأثرياء من المستعمرين • وسافر الى باريس فى أواخر ديسمبر ١٧٧٠ ، ولكنه أخفق وزاد الطين بلة أن دب الخلاف بينه وبين البارون « دى بروتوى » الذى ضاق ذرعا به وبشكاواه • وضاقت سبل الحياة فى وجهه فكانت اللحظة الحاسمة حين قرر أن يعتمد على مجهوده الشخصى ، وأن « يزرع حديقته بنفسه » فيستخدم قلمه فى كسب عيشه •

الاحساس بالطبيعة وحب الفضيلة

وللمرة الأولى يكتشف سان بيير طريقه الحقيقى وموهبته الصحيحة• فاتصل بالأدباء من شعراء وكتاب وفلاسفة لا سيما جان جاك روسو ، وكان عام ١٧٧٢ بداية معرفته به ، وصار يجتمع معهم فى صالون مدموازيل دى لسبيناس الذى كان يمثل الاتجاه الجديد فى الفكر والأدب • ومهد له ذلك سبيل ابراز مواهبه واحياء قدراته كأديب فنان ومفكر مبدع •

ففى أوائل عام ١٧٧٣ ، ظهر كتابه « رحلة ضابط من جيش الملك الى ايل دى فرانس من البوربون الى رأس الرجاء الصالح » فى جزءين • وقد

استطاع بمساعدة الكاتب دالمبير ان يجد ناشرا للكتاب • وكان الكتاب جديدا فى أسلوبه ومضمونه ، اذ لم يكن مجرد سرد لوقائع وتسجيل لأسماء البلاد والامصار ، بل كان وصفا دقيقا لمشاهد الطبيعة وانطباعها فى النفس • وبالرغم من أن أسلوب سان بيير لم يكن قد استكمل بعد قوته وبراعته ، فقد بدا رائعا ممتازا بالقياس بمن سبقوه •

وصادف الكتاب نجاحا كبيرا لاسيما لدى القارئات ، ولمع اسم سان بيير فجأة وقفز الى مصاف أستاذه روسو صاحب مدرسة « الطبيعة الخارجية » • وكان الأدب من قبل يهتم « بالطبيعة الداخلية » ـ أى النفس البشرية ـ وأصبح الأستاذ الأول فى وصف هذه الطبيعة ، كما سيكون فيما بعد القصصى الاول فى تصوير الحياة البدائية وما فيها من طهر النفس ونقاء الضمير ، والداعى الأول بين الأدباء الى الايمان بالله والتمسك بأهداب الدين والفضيلة ، والمدافع الأول عن العناية الالهيه التى حددت لكل شىء فى الكون غاية يقصد اليها •

وشرع يعد كتابا جديدا بعنوان : « اركاديا »(١) وهو عبارة عن ملحمة ثبطت من عزيمة سان بيير وجعلته يكتفى ببعض فصول من الكتاب ، الحياة الهمجية ، ثم الحياة الطبيعية ، ثم عصر الفساد • ولكن الملاحظات والتحفظات التى أبداها أستاذه روسو برغم موافقته على الموضوع عامة ، ثبطت من عزيمة سان بيير وجعلته يكتفى ببعض فصول من الكتاب ، ليبدأ فى اعداد مؤلف آخر ضخم على نسق كتاب فرنسيس بيكون « تاريخ الطبيعة » • ولكن سان بيير عرف كيف يحدد بعمق وحكمة أبعاد هذا المؤلف الجديد الذى أطلق عليه اسم (دراسات فى الطبيعة) والذى ظهر فى ديسمبر عام ١٧٨٤ فى ثلاثة أجزاء • ومادة الكتاب تهدف فى مجموعها الى البرهان على وجود الله خالق الكون بما فى هذا الكون من جمال وروعة •

وليس هذا النوع من البراهين جديدا على الفكر الفلسفى ولكن الجديد الذى جاء به سان بيير هو الاحساس بهذا الجمال وتلك الروعة ، والأسلوب الوصفى الذى صور به الطبيعة وعبر به عن انطباعاته • ويرى بعض النقاد أن سان بيير تفوق على أستاذه روسو بسحر ريشته ودقة حسه وفيض مفرداته ، حتى قيل انه

صاحب أول قاموس للألفاظ التصويرية والمشاهد الطبيعية ·· وهو بهذا الاتجاه يسبق الحركة الرومانسية ·

وبقدر ما قوبل بالصد والاستنكار فى بداية حياته ، قوبل بالاستحسان والاعجاب عقب ظهور كتابه ، وانهالت عليه المنح من كل جانب ·

بول وفرجينى ·· وأحلام سان بيير الفلسفية ··

فى تلك الفترة الهادئة من حياته عاودت سان بيير أحلامه الفلسفية فى صورة مجتمع صغير يعيش على الفطرة والطبيعة وجبلت نفوس أهله على الخير والفضيلة ، فكتب رواية بسيطة فى هذا المعنى أراد أن يلحقها بأول كتاب نشره : « رحلة الى ايل دى فرانس » · وكان سان بيير حريصا كل الحرص ألا يصدر روايته هذه الا وهو مطمئن الى نجاحها ، لاسيما أنه لم يكن يبغى اجتذاب القراء كما فعل فى كتبه السابقة بوصف المشاهد الطبيعية فحسب ، بل أراد أن يفرغ فيها فلسفته حتى لايشذ عن سائر كتاب عصره ، الذين لم يخل كتاب لهم من الخواطر الفلسفية · ولذلك مهد لظهور قصته بقراءتها فى بعض الأوساط الأدبية · وقوبلت بالاستحسان الا فى صالون مدام « نيكر » — زوجة وزير المالية — وكادت جميع السيدات الموجودات يبكين تأثرا بالقصة لولا ابتسامة ساخرة على شفتى الوزير وانتقادة مريرة على لسان صاحبة الصالون · ولكن سان بيير اطمأن الى حكم أصدقائه المخلصين وصمم على نشر الرواية ، غير أنه عدل عن الحاقها « بالرحلة الى جزيرة ايل دى فرانس » وفضل لها مكانا يليق بها · وبعد أن هذبها وأعاد تهذيبها أكثر من مرة نشرها فى كتابه « دراسات فى الطبيعة » · وظهرت قصة « بول وفرجينى » عام ١٧٨٧ ملحقة بالمجلد الرابع من هذا السفر الضخم ·

وحظيت الرواية البسيطة باقبال منقطع النظير وتهافت عليها القراء لا سيما القارئات من جميع الأوساط ، وترجمت الى عديد من اللغات ·

ولم يكتف أصحاب دور النشر باعادة طبعها طبق الأصل ، بل يقال ان ٣٠٠ طبعة منها ظهرت بدون حق النشر ٠

وفى مقدمة طبعة عام ١٨٠٦ الفاخرة يتحدث سان بيير عما لقيته روايته من نجاح فيقول : « ان فى هذه الرواية ترفيها عن دراساتى فى الطبيعة وتطبيقا لنواميس الطبيعة على الحياة السعيدة التى نعمت بها أسرتان فقيرتان ٠ ولقد جاوز النجاح الذى صادفته كل أمل،فنسج الكتاب روايات على منوالها ، واستوحى الشعراء قصائدهم منها ، وحظى المسرح بتمثيليات شبيهة بها،وأطلق عدد كبير من الأمهات اسمى بول وفرجينى على مواليدهن ، وذاعت شهرة هذه الرواية العاطفية فى أوروبا كلها ٠ وترجمت مرتين الى اللغة الانجليزية ومرة الى كل من الايطالية والألمانية والبولندية والهولندية ٠ وجاءنى وعد بترجمتها الى الروسية والاسبانية ٠ لقد أصبحت الرواية تدرس فى مدارس انجلترا ٠ وأنا أعترف بأن نجاحها بهذه الصورة الاجتماعية يرجع الفضل فيه الى المرأة ، لأنها تملك شتى الوسائل التى توجه بها الرجل نحو الأخذ بقوانين الطبيعة ٠ ودليل ذلك أن أغلب الترجمات تمت على يد السيدات أو الآنسات ٠ وكم سرنى أن أرى «ولدى» اللذين تبنيتهما يرفلان فى ثياب غير التى عرفتهما بها !٠٠ولا ريب فى أن « ولدى » مدينان للجنس الناعم بالشهرة التى تمتد الى الأجيال القادمة ٠ فقد نظمت القصائد تشدو بمولدهما وترثى لموتهما بمهدهما ، وتتغنى بمهدهما ولحدهما كما يتغنى الشعراء بالآثار القديمة ٠٠ » ٠

وبعد « بول وفرجينى » أصدر سان بيير عام ١٧٨٩ كتابه « أحلام العزلة،ملحق بدراسات فى الطبيعة » ثم قصة « الكوخ الهندى » عام ١٧٩١ والكتابان يترجمان أفكار الكاتب وخواطره الفلسفية ، ويمثلان اتجاهه فى وصف الطبيعة بوصفه فنانا وفيلسوفا ٠

ومن مؤلفاته الأخيرة : « دعوة الى الاتفاق بمناسبة عيد الائتلاف » (١٧٩٢) ــ مقالات فى الطبيعة والأخلاق (١٧٩٨) ــ « رحلة الى سيلزيا » (١٨٠٧) ــ مسرحية « موت سقراط » (١٨٠٨) ــ « مقالة عن الصحافة » (١٨٠٨) ــ « مقالة عن جان جاك روسو » ــ قصص من الرحلات ٠

وقبيل عام ١٨٠٦ فكر سان بيير فى اصدار روايته «بول وفرجينى » فى طبعة فاخرة مزدانة بالصور من رسم مجموعة من كبار فنانى العصر ، ولكن المال كان يعوزه فشرع فى جمع الاكتتابات ، وكان يعتمد فى تشجيع الاكتتاب وتيسيره على قارئاته اللائى أحسن استقبال رواينه عند أول صدورها · وهو ينوه بذلك فى مقدمة الطبعة الفاخرة فيقول : « ان اقبال السيدات والآنسات على روايتى ، هو الذى جعلنى أفكر فى أن أضفى عليها كل مفاتن الطباعة الفرنسية والتصوير الفرنسى لتكون جديرة بالجنس الناعم الذى رحب بظهورها » ·

يتناول سان بيير فى مقدمته للرواية مسألة الشكل والمضمون بمناسبة ما وجه اليه من نقد بسبب اقحام نفسه فى الموضوعات العلمية فى كتابه « دراسات فى الطبيعة » فيقول : « يذكر رئيس تحرير « ديبا » أننى لا أصلح الا كاتبا وأننى من كبار كتاب العصر · وهذا أجمل تقريظ يحظى به أحد ·· فالشكل هو كل شىء أما المضمون فبعض الشىء · والمضمون لا يهم الا نفرا قليلا من المتخصصين،أما الشكل فيهم الجمهور كله ، وهو الذى يقرر الشهرة والمجد·وكان الرومان لا يعجبون بشيشرون الا لأسلوبه ولا يأبهون بغير ذلك فى خطبه » · وينتقل بعد ذلك الى أبواب الأدب فيفضل الرواية عليها جميعا يقول : « ان الروايات أمتع الكتب عند القراء وأكثرها انتشارا وأجلها فائدة ·· الرواية هى آلهة الأدب فى أوروبا » ·

أما عن المجد الأدبى فيقول سان بيير فى نفس المقدمة : « لا ريب أن المجد الأدبى هو الوحيد الذى يخلد بل به تخلد الأمجاد الأخرى ·· ولكن للأسف لايكاد كتاب يظهر حتى يتناوله الصحفيون بالنقد فيصفق الجمهور أو يصفر صدى لما تقوله الصحف·واذا صادف النجاح كتابا من الكتب سطا عليه الطفيليون من الناشرين أو الأدباء ، فزيفوا أو اقتبسوا أو نشروا بغير اذن··وماذا فى وسع الكاتب أن يصنع؟أيكف عن الكتابة ؟ بل يكتب لا لشىء الا لوجه الحقيقة · فكما أن الضوء ينمى قدرات الجسد كذلك الحقيقة تنمى ملكات النفس والوجدان » ·

كل هذه الخواطر أوردها سان بيير فى مقدمة طبعته الأخيرة لبول وفرجينى ليخلص منها الى هذا القول : « ان روايتى العاطفية البسيطة

ستكون مصدر شهرة لا تقل عن الشهرة التى كسبها هوميروس وراء الالياذة والأوديسة . ومن يدرى ؟ لعلى بفضل أصدقائى وأعدائى ، خاصة ممن يظهرون الاشفاق بى والرثاء لحالى أحظى بعد موتى بتمجيد يعوض ما تعرضت له حياتى من هجوم بسبب كتاباتى السابقة التى لم أكن أبغى من ورائها الا البحث عن الحقيقة » .

* * *

تبدأ رواية « بول وفرجينى » بعرض رائع لمسرح الأحداث التى تدور فيها . فيصف لنا الكاتب الجانب الشرقى للجبل القائم فى الجزء الخلفى من جزيرة « ايل دى فرانس » (٢) حيث الهدوء الشامل والصخور الوعرة والأشجار الباسقة المتنوعة والسماء ذات الألوان المتعددة . ويقف الكاتب فى تجواله عند بقايا كوخين حقيرين عفى عليهما الزمان ويلتقى هناك بشيخ أثقلته السنون والهموم فيسأله عن مصدر هذين الكوخين فيقول الشيخ : « انها قصة مؤثرة حقا ولكن الناس اعتادوا أن يستمعوا فقط لقصص العظماء والملوك » . فيعترض الكاتب قائلا : « ان الانسان مهما انحدرت أخلاقه وأعمته التقاليد ، تستهويه أحاديث السعادة اذا كان مصدرها الطبيعة والفضيلة » ويبدأ الشيخ فى روايته .

فى عام ١٧٢٦ جاء الى الجزيرة المسيو دى لاتور ومعه زوجته هيلين ، وكانا قد عقدا زواجهما بفرنسا برغم معارضة أسرتها الغنية فى هذا الزواج غير المتكافىء . وهاجر الزوجان على أمل أن يجدا فى الجزيرة ما يساعدهما على المعيشة الكريمة الميسرة ، ولكن المرض يفاجىء مسيو دى لاتور الذى يقضى نحبه تاركا هيلين وقد حملت منه ومعها خادمتها مارى من سكان الجزيرة ، وتهرب هيلين من المدينة وتلجأ الى هذا المكان المنعزل عند سفح الجبل ، وانها « لعزيزة عند البشر جميعا أن يسعى الأشخاص ذوو الحساسية الشديدة والقلوب الحزينة الى الأماكن المنفردة كأنما الصخور الجرداء ستحميهم من البؤس والطبيعة الهادئة تنسيهم الآلام » .

وتتقابل هيلين مع سيدة أخرى « مرجريت » ليست أحسن حظا منها جاءت هى الأخرى الى الجزيرة تخفى عارها ، بعد أن أغراها بالزواج فتى

من أسرة نبيلة فى مقاطعة بريتانيا بفرنسا ، وهى الفتاة الريفية البسيطة فصدقته وأسلمت اليه نفسها ثم تركها فهاجرت الى ايل دى فرانس ، واستقرت فى هذه البقعة البعيدة عن المدينة ومعها خادم من زنوج الجزيرة يدعى دومنج . وأقامت هناك تزرع الأرض وتأكل من ثمارها وقد وضعت طفلا أسمته « بول » وكان العناية الالهية أرادت أن تواسى كلا من هاتين السيدتين التعيستين فألفت بينهما ، وتقول مرجريت لهيلين : « أراد الله أن ينهى آلامى فأرسلك الى وملأ قلبك بالعطف على » . وهكذا يعمر الايمان بالله قلب هاتين الصديقتين بعد أن ندمت كل منهما على خطيئتها وأسلمت أمرها الى الحياة الجديدة ، حياة الفطرة والطبيعة ، وتتقاسمان المكان وتبنيان كوخين بمساعدة خادميهما والشيخ (الراوى) الذى أصبح بالمصادفة صديق الأسرتين ، والذى يترجم فى الحقيقة عن مشاعر سان بيير وأفكاره .

قانون الطبيعة والفضيلة

وتضع هيلين مولودة هى « فرجينى » وتقول عنها : « ان فضيلتها ستكون مصدر سعادتها كما كانت خطيئتى مصدر شقائى » ، ويتزوج الخادم دومينج من الخادمة مارى وتشترك الأسرتان فى زراعة الأرض واقتسام المحاصيل وبيع الفائض منها فى المدينة ، وتربى مارى عنزتين وبعض الدجاج ، ويحرس الحظيرة كلب اسمه ديديل أى « أمين » . وبهذه الصورة يكتمل المجتمع البسيط الذى أراد له سان بيير أن يعيش بعيدا عن الحضارة ، يرتزق من موارد الطبيعة ويعمل حسب قانونها الذى هو قانون الفضيلة والخير ، ويقول سان بيير : « ان واجبات الطبيعة — أى الأشغال التى تفرضها المعيشة الطبيعية — كانت تزيد سعادة هذا المجتمع الصغير » .

امتزاج قلبين

ويشب الطفلان بول وفرجينى وهما يتناديان بأخى وأختى ، ولا يفرقان بين هيلين ومرجريت فكل منهما أم للطفلين ، وما أجمل الصورة التى

يصورها سان بيير لهذا الامتزاج بين هذين القلبين الطاهرين حين يقول : « لم يكن ثمة أغرب من تعلق كل من الطفلين بالآخر . فاذا شكا بول وأحضر له فرجينى يبتسم ويهدأ . واذا أحست فرجينى بأى ألم لا يكشف عن هذا الألم الا بكاء بول ، وكأن الطفلة الطيبة تحاول اخفاء آلمها حتى لا يبكى أخوها من أجلها » . وما أبدع هذه الصورة البريئة اذ يقول الشيخ: « ما جئت مرة الى هنا الا رأيتهما عاريين كعادة الأطفال فى هذه البلاد ، وهما يدرجان متعانقين ، وما كان الليل نفسه بقادر على التفريق بينهما . وكان لهما مهد واحد ينامان فيه وخداهما ملتصقان وصدراهما متقاربان ويد كل منهما ملتفة حول عنق صاحبه وقد توسد ذراعه » . ويصف الشيخ هذه الوحدة الروحية بين بول وفرجينى عندما تجاوزا سن الطفولة الأولى فيقول : « كنت منحدرا ذات يوم من قمة الجبل ، فرأيت فرجينى مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة وقد رفعت ازارها وأسبلته على رأسها تتقى به المطر ، وظننت لأول وهلة أنها بمفردها فما ان دنوت منها لأساعدها على السير ، حتى رأيتها ممسكة بذراع بول يضمهما ازار واحد وهما يتضاحكان مغتبطين بهذه المظلة الواحدة التى ابتكراها لتحميهما من المطر ، ولقد ذكرنى منظر رأسيهما الجميلين تحت هذا الازار المنتفخ بطفلى « ليدا وجوبتر وقد حوتهما قوقعة واحدة » » .

ويمضى الطفلان فى حياتهما الطبيعية البسيطة لايتعلمان من محيطهما الا تبادل الخدمات والتعاون ، ولا يقرآن ولا يكتبان ولا يعبآن بأحداث الماضى ولا يتجاوز اهتمامهما حدود الجبال المحدقة بهما يظنان أن العالم ينتهى حيث تنتهى جزيرتهما ، لا يعرفان الخير المطلق أو الفضيلة المطلقة ، ولكنهما لا يفعلان الا الخير ولا يسلكان الا سبيل الفضيلة ، لا يتصوران الجمال الا فيما يريانه بالفعل جميلا . لم تكن بهما حاجة لمعرفة أن السرقة حرام فقد كان كل شىء مشتركا بين الجميع ، ولم يرهبهما أحد بقوله ان الله ينزل أشد العقاب بالأبناء الجاحدين فقد خفق قلبهما بحب الأهل نتيجة حب الأهل لهما ، ولم يتعلما من الدين الا ما جعل الدين محببا اليهما . واذا كانا لايطيلان الصلاة فى الكنيسة فهما أينما وجدا سواء فى المنزل

أم فى الحقل أم فى الغابة يرفعان الى السماء أذرع الابتهال والبراءة ويقسمان لله قلبا عامرا بحب الوالدين ٠

ويصف لنا الكاتب الحياة اليومية فى هذا المجتمع الطبيعى وكيف ينصرف بول بالفطرة الى الأعمال الخشنة فى الحقول والغابات وكيف تعنى فرجينى بشئون المنزل ٠ وتجرى الأيام وتبلغ فرجينى الثانية عشرة من عمرها وتبدأ هيلين ــ مدام دى لاتور ــ تفكر فى مستقبل ابنتها وهى ترأها تنمو وتنضج كالثمرة اليانعة ، وهنا يدخل عنصر جديد فى الرواية هو عنصر القلق ، ويشعر القارىء أن ثمة حادثا لابد أن يقع ويظل يرتقبه بشغف ٠ ويقحم الكاتب علينا شخصية تفسد هذا الجو الروحى الجميل ، شخصية عمة مدام دى لاتور التى تقيم بباريس وهى عانس على جانب كبير من الثراء ، ولكنها غليظة القلب شامخة الأنف تسيطر عليها النعرة الطبقية، وهى لذلك تكره ابنة أخيها وترفض مساعدتها ولا تفتأ تذكرها بخطئها وتندد ببؤسها وتعاستها ، وتدعى أن الله هو الذى أراد لها هذا الشقاء ٠ وتواسيها مرجريت قائلة : « وما حاجتنا الى أقاربك ؟ ان الله لم يتركنا وليس لنا أب غيره » ٠ وترد عليها هيلين بقولها : « لم يأتنا الشقاء الا من الخارج أما السعادة فهى فينا وبين أيدينا » ٠

وكانت الرسالة التى وصلت مدام دى لاتور من عمتها أول اتصال لأفراد هذا المجتمع بالعالم الخارجى ، وأول تجربة لبول وفرجينى لمعرفة أن هناك نفوسا لا تحب الخير ٠ أما التجربة الثانية فهى التى مرت بها فرجينى عندما حاولت أن تعيد زنجية هاربة الى سيدها ، وتطلب منه الرحمة بها والصفح عنها ، فقابلها صاحب الأرض هى وبول بنظرات قرأت فيها الغدر والقسوة فأدركت أنه ليس من السهل أن يأتى الخير دائما ٠

ولا يفتأ سان بيير المؤلف يمجد المرأة فى روايته ، فهو دائما يضع على لسان مرجريت وفرجينى كلمات الرحمة والحنان والتشجيع والايمان والحكمة ٠ تقول فرجينى لبول عندما يضلان الطريق ويتلهفان الى جرعة من الماء : « ان الله لابد مشفق بنا فهو يستجيب لنداء العصافير وهى تسعى

لرزقها » ، وما ان تنتهي فرجيني من كلامها حتى يسمعا خرير ماء فيهرعا الى نبع قريب ويرتويا منه ، واذ تنهار قوى بول ويأخذ في البكاء بعد أن بحث عن طريق يوصلهما الى الكوخ فلا يجدان تقول له فرجيني : « لنضرع الى الله فلابد أن يستجيب لصلاتنا » وما ان تفرغ من كلامهما حتى يبلغ سمعهما نباح كلبهما « فيديل » ٠

ولا ينسى سان بيير وهو يروى القصة على لسان الشيخ أنه من كتاب القرن الثامن عشر وأن الرواية في ذلك العصر لم تكن هدفا في ذاتها ، بل وسيلة للتعبير عن الأفكار الفلسفية أو الخواطر العلمية أو الاتجاهات الفكرية بصفة عامة ، لذلك نجد الرواية تتخللها باستمرار تعليقات من هذا النوع اعتبرها بعض النقاد حشوا كلاميا واعتبرها بعضهم أمرا طبيعيا بالنسبة لكاتب في ذلك العصر ٠

ونجد سان بيير في بعض فصول الرواية يبرع في وصف النباتات في تلك المناطق الحارة وطرائق الزراعة فيها ومواسمها وأنواع المحاصيل ، مستغلا في وصفه هذا معلوماته الخاصة التي حصل عليها في رحلاته العديدة والتي أودعها قبل ذلك فصول كتابه « دراسات في الطبيعة » ٠

ثم نجد الشيخ لا يمر بأثر من الآثار القديمة الا وقف عنده واصفا شعوره ٠ ويقول الشيخ : « مهما كان سروري عظيما كلما وقع نظري أثناء رحلاتي على تمثال قديم أو أثر من الآثار فهو لا يعدل اغتباطي بقراءة النقوش المخطوطة على هذه الآثار ٠ حينئذ يخيل لي أن صوتا بشريا ينبعث من الحجر آتيا من أعماق الزمن مخاطبا الانسان وسط البيد ليذكره بأنه ليس وحده في هذا الوجود ، وأن آخرين مثله عاشوا في هذه الأماكن بمشاعرهم وأفكارهم وآلامهم ٠ واذا كان هذا النقش من آثار أمة اختفت من الوجود انتقل بأرواحنا على أجنحة اللا نهاية ، وبعث فينا الاحساس بالخلود لأنه يمثل فكرة أو صورة تغلبت على الفناء وبقيت حية ناطقة من وراء الاطلال » ٠

ويصور لنا سان بيير هذه السعادة التي كان يحلم بها الفلاسفة بالنسبة لسكان البيئة الطبيعية والتي تملأ الآن قلوب أفراد مجتمعنا

الصغير . تقوم هذه السعادة أولا على العمل الاجتهادى ، فنرى بول ودومنج يحولان بجهودهما هذه البقعة القفراء الى جنة فيحاء.وتكون السعادة أيضا فى السلوك وفقا لأحكام الضمير فنرى السيدتين وولديهما لايقصدان الى المدينة الا لمواساة المرضى ومد يد المساعدة للمحتاجين .

وأصحابنا يعيشون فى سعادة لأنهم لايعرفون الحسد والطمع والاغتياب والنميمة ، بل يعتمدون على مجهودهم وعلى العناية الالهية ويسرون بقراءة التوراة والانجيل والاستماع الى قصص البائسين والمشردين وينشدون أحيانا الأناشيد ، ويرقص بول وفرجينى على أنغام الطبول أو يقومان بتمثيل فصول من التوراة بالاشتراك مع خادميهما .

كان الصبيان يعتمدان فى كل شىء على الطبيعة ، يعرفان الوقت باتجاه ظل الشجرة ويقيسان سنوات عمرهما بطول النخلة التى زرعت عند مولدهما « لا يعرفان من أحداث التاريخ الا حياة أهلهما ولا من الزمان الا حياة الأشجار التى زرعاها ، ومن الفلسفة الا بذل الخير للجميع والاستسلام لارادة الله » . لا هم يشغلهما ولا شهوة جسد تفسد عليهما قلبيهما ، ولا نزوة تعكر عليهما صفو حياتهما ، بل حب طاهر وتقوى خالصة ومناجاة روحية كأنها ترانيم الملائكة . يقول بول : « عندما أشعر بالكد والتعب تنسينى رؤيتك كل آلامى ، واذا وقع نظرى عليك وأنا على قمة الجبل وأنت فى الوادى يخيل الى أنك برعم من وردة حمراء تطل من البساتين. ومهما غبت عن ناظرى بين الخمائل فلا أحتاج الى رؤيتك لأعرف مكانك . ان شيئا ينطلق منك لا أعرف كنهه أستنشقه فى الهواء الذى يتهادى حولك والمسه فى الخضرة التى تجلسين عليها . ان زرقة السماء أقل جمالا من زرقة عينيك .. اذا لمسك طرف اصبعى رجفت كل أوصالى .. » وترد عليه فرجينى قائلة : « يا أخى ان أشعة شمس الصباح فوق هذه الصخور لا تبعث فى نفسى من السرور قدر ما يبعث فيها وجودك بجانبى .. انك تسألنى عن مصدر حبك لى فاعلم أن كل كائنين ينشآن معا يتآلفان ويتحابان . انظر الى طيورنا فقد شبت فى عش واحد وحبها المتبادل لايقل عن حبنا ، اننى أرفع دعائى الى

الله أن يحفظ كل فرد فى أسرتنا ، ولكنى اذا ذكرت اسمك بالذات زاد دعائى حرارة وقوة » .

وتنتقل فرجينى من مرحلة الطفولة الى سن المراهقة ويطرأ على حالتها العامة تغير واضح . ويصور سان بيير هذه الفترة من تطور أحاسيس فرجينى ومشاعرها تصويرا بارعا،لأن الفتاة تختلف عن سائر بنات جنسها: نشأت بين أحضان الطبيعة ولم تنصت الا لصوت الفضيلة ، لم تقرأ قصص الغرام ولم تختلط بفتيات من سنها يفسدن عليها تفكيرها ، ولم تتصل ببول حتى الساعة الا اتصال الأخت بأخيهـــا ، ومع هذا « أخذت فرجينى منذ مدة تحس بألم لا عهد لها به ، وقد شحب وجهها ووهن جسمها واستحالت زرقة عينيها وتسربت اليها خطوط داكنة وغام صـــفاء جبينها وتـوارت الابتسامة من ثغرها فتراها مرة مرحة وهى لا تدرى سببا لمرحها ، ومرة مكتئبة وهى لاتعرف سببا لحزنها ، هجرت العابها البريئة وطرحت أشغالها اليدوية السهلة المسلية وتجنبت الناس حتى أسرتها الحبيبة ، ولجأت الى الخلوات تبحث عن الراحة والاستقرار ، فلا تجد راحة هناك أو استقرارا حتى اذا وقع نظرها على بـول فى بعض غدواتهـا أو روحاتها طارت اليه فرحا وسرورا ، ولكنها لاتكاد تدنو منه حتى تجمد فى مكانها وتزحف الحمرة الى خديها ولم تجسر عيناها أن تستقرا فى عينيه .. فاذا حاول أن يضمها الى صدره تملصت من بين يديه وركضت نحو أمها هاربة مضطربة » .

«...كانت تنهض من فراشها ليلا وتجلس مطرقة،ثم تعود فتستلقى ولكنها لا تجد الى النوم أو الراحة سبيلا،فتخرج فى ضوء القمر وتتجه نحو الغدير ثم تنزل الى الماء .. فتتذكر أيام كانت تستحم فى نفس هذا المكان مع بول. .وترى ظل النخلتين المزروعتين عند مولدهما ينعكس على ذراعيها العاريتين وفوق صدرها وتفكر فى صداقة بول التى هى أزكى من أريج الأزهار وأنقى من مياه النبع وأقوى من سعفات النخل الملتصقة ، ثم تتنهد وتعود فتفكر فى الليل ووحشته فتحس بلهيب يتأجج فى صدرها فترتدى ثيابها وتهرع الى أمها تلوذ بحنانها وتأخذ بيدها وتظـــل تضغط عليها بشدة ، وتود أكثر من مرة أن تنطق باسم بول ولكن لسانها يحتبس فى

فمها فتلقى رأسها على صدر أمها وتبلله بالدموع ، وتحاول الأم أن تهدىء من روعها فتقول لها : « اضرعى الى الله فهو مالك الصحة والحياة واعلمى أننا لم نخلق فى هذا العالم الا كى نمارس الفضيلة » .

رسالة .. وقلق ..

وتفكر هيلين ومرجريت جديا فى زواج ولديهما ولكن صغر سنهما يجعلهما تترددان ، ويتدخل القدر ليبرهن على أن العناية الالهية التى دبرت شئون الكون ووضعت كل شىء فى مكانه لا تسمح أن يمس نظامها بغير جزاء . فهاتان الأسرتان السعيدتان تدينان بالسعادة لحياة البداوة والطبيعة ، حياة القناعة والرضى، حياة البساطة والمحبة . وقد رتبتا أمورهما على هذا الوضع ، وعاشتا حتى الآن فى نعيم لا يشوبه قلق اليوم أو هم الغد . الى أن وصلت مدام دى لاتور رسالة ثانية من عمتها المقيمة بباريس تدعوها الى العودة الى فرنسا أو ترسل اليها ابنتها فرجينى لتهيىء لها مستقبلا أفضل وتيسر لها الزواج من رجل ثرى يليق بأسرتها وتكتب لها كل ثروتهـــا .

وقعت هذه الرســـالة من نفوس الجميع موقع الكارثة ، وحاولت مدام دى لاتور أن تطمئن صاحبتها الى أنها لن تستجيب لرغبة عمتها ، ولكن حاكم الجزيرة الذى وصلته أوامر من السلطات الفرنســـية أخذ يضغط عليها . وتخضع مدام دى لاتور وتسعى لاقناع فرجينى فتفضى اليها ابنتها بما تشعر به نحو بول وفى ظنها أن أمها لا تعرف عن سرها شيئا . ويقول سان بيير فى ذلك : « تظن الفتاة العاشقة أن سرها لا يعرفه أحد . فهى تحجب عينيها بنفس الخمار الذى تحجب به قلبهـــا ، فاذا ما أزاحت طرف هذا الخمـــار ، انطلقت الشـــكوى تعبر عن آلامهـــا الدفينـــة وكشف القلب عن مكنون سره محطما سياج الخفر والحياء .. لقد اطمأنت فرجينى الى عطف أمها فأطلعتها على ما كان يحتدم فى وجدانها من معارك لا يعلم غير الله عنها شيئا » .

وتقنع فرجينى ويتقرر موعد السفر ويجن جنون بول وتصرح له أمه للمرة الأولى بأن أسرته لا تتكافأ مع أسرة فرجينى ، وأنها حملت به سفاحا أى أنه لا أب له • ولا يدرك بول معنى هذا الكلام ، فكل ما ينغص عليه عيشه أنه وفرجينى سيفترقان ، ويجتمع بول وفرجينى ذات ليلة قبل الرحيل وتجرى بينهما مناجاة من أروع ما كتب من الشعر المنثور ، تترجم عن الحب العذرى فى أجمل صوره وأبدع ألوانه • وتنتاب بول نوبات من الحزن تقترب من الجنون فيصيح بأم فرجينى : « أيتها الأم القاسية المجردة من كل عاطفة ، عسى هذه البحار التى تعرضين ابنتك لأهوالها لا تعيدها لك بعد اليوم • ليت هذه الأمواج تحمل اليك جثتينا وتقذف بهما فوق صخور الشاطىء فتنزل فى نفسك بعد موت ولديك حزنا مقيما ولوعة دائمة • ! »•

وتسافر فرجينى بغير وداع حبيبها ، ويبقى بول وحده يطوف بكل موقع كان عزيزا على فرجينى يخاطب الأغنـــام والطيور وكلبــه فيديل ويتسلق الصخرة التى تشرف على الأفق البعيد حتى تتوارى السفينة التى رحلت بفرجينى ، واذا جلس الى المائدة تحدث الى شبح محبوبته وقدم لها الطعام كما اعتاد أن يفعل • ويظل هكذا يهذى فاذا رجع الى صوابه أخذ فى البكاء حتى تخنقه العبرات •

وتمر الأيام ويحاول الشيخ أن ينسى بول أحزانه فيشجعه على الدرس ويقبل بول على التعليم بشغف لمعرفة أخلاق الذين تعيش فرجينى معهم • وهنا يصف لنا الكاتب كيف يكون الحب مصدر الاجتهاد والعـلم والفن والابداع • ويسترسل فى انتقاد المجتمع الحضرى وانتقاد ما يدرس للطلبة من جغرافية سياسية وتاريخ سياسى مفضلا لهم قراءة القصص ، لأنها تهتم بمصالح الناس ومشاعرهم ، ولا سيما اذا كانت تدور حول الفضـــيلة وليست من نوع القصص العابثة المعاصرة •

ويعتاد بول الخروج مع الشيخ فيجلسان فى ظـــل شجرة كانت فرجينى قد زرعتها ، وينتهز الكاتب فرصة هذه الفترة الراكدة فى سير الرواية فيعرض على لسان الشيخ بعض جوانب فلسفته فيتحدث عن الوحدة

والعزلة حيث يقول : « اذا كانت الزوجة الصالحة أعلى مراتب السعادة ، فالعزلة والوحدة أقل درجات التعاسة . العزلة هى المرفأ الأمين لكل هارب من ظلم الناس . ولهذا يكثر الرهبان والنساك فى البلاد التى يسام الشعب فيها الذل والعذاب ، والوحدة ترد للانسان بعض سعادته الطبيعية لأنها تبعد عنه شرور المجتمع . فى مجتمعاتنا الموزعة الى مذاهب وشيع تعيش النفس فى اضطراب دائم بينما لا تعير هذه الأوهام بالا فى حالة العزلة والانفراد ، بل تسترد كيانها وتشعر بوجودها وتحس بالخلق والخالق . تساعد العزلة على تكامل الجسد والوجدان ويكون المعمرون دائما من فئة المنعزلين . والعزلة ضرورية كذلك لسعادة الناس فى المجتمعات المتحضرة ، لأنها السبيل الوحيدة لاستمرار المتعة الوجدانية . واستقرار السلوك الفردى فى الحياة هو الفرار بالنفس وتطهيرها من رواسبها فتتركز فيها آراؤنا ولاتنفذ اليها آراء الغير . وليس معنى هذا أن يعيش الانسان دائما بمفرده ، فالحاجة المشتركة تربطه بسائر البشر يكرس لهم نشاطه ويعمل من أجلهم ، كما أنه يكرس للطبيعة كل حاسة من حواسه ، لأن العناية الالهية أعطتنا أقداما لنسير بها على وجه الأرض ورئتين لنستنشق بهما الهواء وعينين لنرى بهما الضوء ، أما القلب فقد اختص الله به نفسه » .

ويتحدث عن الطبيعة والحياة الطبيعية فيقول :

« بعد أن ابتعدت عن طريق الناس ابتعدوا عن طريقى ، لم أعد أكرههم بل صرت أرثى لحالهم .. ولم أجد استجابة الا من ذوى القلوب النقية الطاهرة ، ان الطبيعة تفتح للجميع صدرها وتدعوهم اليها جميعا ، ولكن كل فرد يحاول أن يفسر هذه الدعوة حسب هواه ، وقد استجاب كثير من التعساء الذين دعوتهم الى ممارسة الحياة الطبيعية ، ولكنهم لم يقبلوا عليها رغبة فى ترك حياة الحضر ، بل أيضا طمعا فى الثروة والجاه ، فاذا علموا أننى أدعوهم لأصرفهم عن الثروة والجاه ، ارتدوا ورمونى بالتعاسة والبحث عن الشقاء وأخذوا على ميلى للعزلة ، وادعوا أنهم وحدهم يخدمون الانسانية » .

ويذكر فنـاء الانسـان فيقول : « ان الأشـياء التى نراها كل يوم لاتبعث فينا الشعور بسرعة الحياة ، لانها تنمو وتكبر معنـا فلا نحس بشـيخوختها ، أما الأشياء التى تقع عليها العين فجأة بعد فراق طويل ، فتنبهنا الى السرعة التى يجرى بها تيار الحياة » .

وينتقد المجتمع الحضرى والفرنسى بالذات ، حيث يشترى كل شىء بالمال حتى الوظائف والألقاب . فالاحترام الذى كان فى الماضى نصيب أهل الفضيلة صار الآن قاصرا على ذوى المال ، ولايصل الى الثراء الا من باع ضميره . أما قول الحق فلا يجلب سوى العداوة . والانسان سعيد الحظ هو الذى توجده العنـاية الالهية فى بيئة بدائية لا كذب فيها ولا رياء ولا تملق ، بل بذل وتضحية فى سبيل الغير ارضاء لوجه الله . وهذه هى الفضيلة بعينها .

ويمر عامان ونصف العام ، ولم يصل من فرجينى غير رسالة واحدة تبدى فيها استياءها من الحيـاة الاجتماعية التى تحملها عمة أمهـا على ممارستها ، وتتحسر على الأيام الماضية وتؤمل أهلها فى قرب عودتها الى الجزيرة . ويمضى بول يعد الأيام يتسلق الصخور يرقب منهـا السفن القادمة معللا النفس بأن السفينة التى ستأتى بفرجينى لابد أن تطالعه يوما من الأفق البعيد . ويتصور كيف سيلقاها وكيف سيقيمان معا فى عش واحد يبنيه بيده . وفجأة تعاوده الأحزان والهموم وتسـاوره الظنون والشكوك ، فيتهم فرجينى بالتنكر له والتخلى عنه ، ويستولى عليه اليأس ويكره العمل وينفر ممن حوله ، ويتمنى لو أن حربا اندلعت ليلقى نفسه فى أتونها . ويقول له الشيخ : « ان الشـجاعة التى تدفعنا الى الاقدام على الموت هى لحظة واحدة ، والحافز عليها يكون عادة اعجاب الناس بنا ، ولكن هناك شجاعة أندر وأعظم تجعلنا نحتمل كل يوم محن الحيـاة فى استخفاء وتواضع : هى الصبر ، ولا يعتمد الصبر على رأى الآخرين فينا أو على أهوائنا بل على ارادة الله » .

وفى صبيحة يوم تظهر فى الأفق سفينة ويخرج رائد الميناء لاستقبالها بعرض البحر ويعود منها محملا برسائل ، من بينها رسالة من فرجينى تنبىء

فيها أمها أنها قادمة من فرنسا على ظهر هذه السفينة نفسها ، وتعم الفرحة جميع أصدقائها بهذه المفاجأة السعيدة ، فقد عاد اليهم ملاكهم المحبوب فرجينى • ويخرج بول لاستقبال السفينة وهو لايتمالك نفسه من فرط السعادة • وينتظر هو والشيخ عند الشاطىء ولكن الأخبار تترى بأن السفينة لن تتمكن من دخول الميناء لشدة النوء وأنها مهددة بالغرق ، ولا تمضى لحظات على هذه الأنباء حتى تهب عاصفة شديدة وترتطم السفينة باحدى الصخور الضخمة المتناثرة خارج المرفأ •• واذ يرى بول هذا المشهد يقفز الى البحر ويسبح محاولا الوصول الى السفينة ، وتبدو فرجينى على ظهر المركب وتلمح صديقها وهو يصارع الأمواج وقد ألقى جميع البحارة أنفسهم فى الماء وأخذوا يسبحون نحو الشاطىء ولم يبق غير بحار واحد راح يتوسل الى فرجينى أن تخلع ثيابها ليتمكن من حملها على ظهره والسباحة بها ، ويأبى الحياء على فرجينى أن تنزع أية قطعة من ملابسها وتؤثر أن يبتلعها الموج من أن يخدش حياؤها ، ويحمل الموج فرجينى جثة هامدة الى الشاطىء • ويأمر حاكم الجزيرة أن يشيع جثمانها الطاهر فى احتفال مهيب اشترك فيه كل سكان الجزيرة ممن عرفوا أفضالها ، وكانت الفتيات يجهشن بالبكاء وهن يلمسن نعشها تبركا بها وتقديسا لها •

ولم يعش بول طويلا بعد موت فرجينى ، فكان يقضى سحابة نهاره هائما متنقلا بين الآثار التى خلفتها فرجينى ساهما أحيانا ، وأحيانا باكيا أ ومصليا أو مناجيا أخته ومحبوبته • ويحاول الشيخ عبثا أن يلقى شيئا من البلسم على هذا القلب الجريح قائلا : « ان الندم لايجدى •• والموت أمر محتوم ، فما يتخلل حياة المرء من أمان وآمال ومشروعات أشبه ببرج مرتفع فى قمته الموت •• ومن حظ فرجينى أنها فارقت الحياة قبل أهلها جميعا ، لأن رؤية الموت أشد ايلاما من الموت نفسه : ان الموت من حسنات الله على البشر ، انه الليل الذى يريح من هم النهار ، ففى سبات الموت تهدأ الآلام وتسكن الأمراض وتتبدد المخاوف . والله يمنح الفضيلة قوة لاحتمال محن الحياة ، وهذا برهان على أن الفضيلة وحدها تجد السعادة فى هذه المحن • فاذا أراد الله لها الخلود عرضها لمحنة الموت واختبر شجاعتها ، وعندئذ تصبح هذه الشجاعة مضرب المثل وتثير ذكرى

آلامهما دموع الأجيال بعدها ! .. الله موجود يابنى والطبيعة كلها تسبح بوجوده ، وشرور الناس هى التى تدفعهم الى انكار عدالته لأنهم يخافونها . ان الاحساس بوجود الله كامن فى وجدانك ، وأعماله تتجلى أمام ناظريك . أتظن أن الذى دبر السعادة للناس على الأرض بحكمة لاتعرفها عاجز عن توفيرها للراحلين عنا بحكمة أخرى لاتعرفها ؟ لو أتيح لنا أن نفكر ونحن بعد لم نخرج من العدم هل كنا نتصور وجودنا على صـــورته الحاضرة ؟ والآن ونحن فى هذا الوجـود المضطرب المظـلم ، هل نستطيع أن نتنبأ بما سنئول اليه بعد الموت ؟ هل كان الله بحاجة الى هذا العالم المحدود ليستخدمه مسرحا لعقله الالهى ؟ ألم يكن فى مقـدوره بذر الحيـاة فى غير حقول الموت ؟ ... » .

وينتهى حديث الشيخ ويشعر بـــول بقوة الفضـيلة وبمـــا فى الموت من عزاء عن هذه الدنيـــا الزائلة . وبما فى الآخـرة من ســعادة تنتظر أبناء الفضيلة . فيطلب الموت ويشتهيه لينعم مع فرجيني بحياة هنيئة خالدة . وتشاء الصدف أن تشاهد كل من مرجريت وهيلين رؤيـا واحدة فى نفس الليلة تظهر لهما فيها فرجيني وهى تدعوهم جميعا اليها،ويتحقق الحلم ويلحق بول بحبيبته ولم يكن قد مضى على موتهـــا غير شهرين ، وتلحق به أمه بعد ثمانية أيام وتموت مدام دى لاتور بعد شهر،ولا يعيش الخادمان طويلا بعد هذه الأحداث . وهكذا يخلو المربع من سكانه جميعا حتى من الكلب فيديل الذى نفق حزنا على أصـــحابه ويدفن الجميع فى نفس المكان الذى عاشوا فيه ، وفى بطن الأرض الطيبة التى أفاضت عليهم بخيراتها فى هذا « الوادى السعيد » تحت ظل شجرة الخيزران .

وتنتهى رواية الشيخ بهذه الكلمات المؤثرة :

« أيها الأصدقاء الأحباء ، ان هذه الغابات التى أظلتكم أشجارها وهذه الغدران التى جرت من أجلكم مياهها وهذه التلال التى ترقدون عند سفحها لاتزال تندب فراقكم ، ولم يقو أحد بعدكم على زراعة هذه الأرض المهجورة أو رفع جدران هذه الأكواخ المتساقطة . لقـــد فرت عنزاتكم الى البرية وجفت كرومكم وهربت طيوركم ، ولم يعد يسمع فى قاع الوادى غير الحداة

والغربان فوق الصخور ، أما أنا فمنذ افتقدتكم أعيش كالصديق الذى فقد كل أصدقائه ، والوالد الذى ثكل جميع أبنائه أو المسافر الذى ضل طريقه وبقى هائما على وجه الأرض وحيدا وفريدا » .

ويبتعد الشيخ وقد خلا الوادى الا منه،ويقول الكاتب : « لقد جرت دموعى أكثر من مرة وأنا أستمع لروايته » .

« انها قصة حلم من الحب الجميل ، الحب الطاهر النقى الذى تود الانسانية أن تشهد مثله من وقت لآخر لتستريح من عناء الحقيقة القاسية ، قصة حب ساذج انتزعت من تاريخ القلب البشرى وبقيت مبللة بالدموع مثيرة للدموع . ان هذه الأحداث البسيطة التى تحكى مولد طفلين وحبهما العذرى ثم فراقهما القاسى ، ثم الأمل فى العودة ينهيه الموت ، وهذان القبران المنطويان على قلب واحد تحت ظلال أشجار الموز ، كل هذا يثير مشاعر الجميع من أثرياء وفقراء ، فلماذا يبحث الشعراء عن الالهام بعيدا ؟ ان عبقرية الشاعر كامنة فى قلبه ، ويكفى أن تهتز هذه القيثارة الالهية عفوا ببعض النغم البسيط لتعزف وتبكى جيلا كاملا » .

تلك هى رواية : « بول وفرجينى » التى أبكت جيلا بأسره وألهمت أكثر من كاتب وشاعر وكانت مشعلا من المشاعل الرائدة للحركة الأدبية .

نقد العقل العملي والنظري

كانط

١٧٨٨م

« كانط » فيلسوف من كبار فلاسفة الانسانية ، وهو مبدع ما يسمى « بالمثالية النقدية » ، التي مهدت السبيل الى انتصارات الفلسفة الألمانية الكلاسيكية ، وواضح مشروع يرمي الى استتباب السلام الدائم بين أمم الأرض قاطبة دون تفريق .

استهل كانط عصرا جديدا في الفكر الفلسفي . ومؤلفاته الكبرى أشبه بمعالم الطريق في تاريخ الفلسفة الحديثة . انه أحد أولئك العباقرة من أفذاذ الانسانية المفكرة ، الذين استطاعوا بحياتهم ومؤلفاتهم أن يخلقوا في الحياة العقلية داخل بلادهم وخارجها أثرا باقيا عند أهل عصرهم وعند الخلف من بعدهم . لقد وصفه أحد الكتاب بأنه « مفكر هز العالم بفكره أشد مما هزه معاصره فردريك الأكبر ، على الرغم من جيوشه ومدافعه » . وما من أحد ممن يأخذون أمور الفكر والحياة مأخذ الجد يستطيع اليوم أن يفكر أو أن يعمل من دون أن يضع موضع الاعتبار نظريات كانط وآراءه . وقد كانت تلك الآراء ولاشك من أكبر الوقائع في تاريخ العصر الحديث ، انها فيما يرى كونوفيشر ، تمثل ثورة شبيهة بالثورة التي أحدثها سقراط حين صرف الانسان عن دراسة الكون الى دراسة نفسه . والحق أنها تحدد مهمة الفيلسوف تحديدا دقيقا بحيث لا يعنيه أن يستكشف مبادىء الوجود ولا أن يحصل لنفسه نظرة عن العالم ، بقدر ما يعنيه أن يبحث في قوة العقل ليتبين اختصاصه وحدوده ومداه ، ويتلمس شروط المعرفة الانسانية ويبحث عن قيمة أفكارنا وأحكامنا .

حياته من أجل الفكر

بيد أن حياة « كانط » الخاصة تكاد أن تضمر أمام عظمة عمله ، وان كانت تقدم لنا صورة مشرقة لسلوك المعلم في خواطره وتوجيهاته .

ولد « كانط » فى ٢٢ من أبريل سنة ١٧٢٤ بقرية « كونيجسبرج » وكان أجداده لأمه وأبيه من المزارعين والسقاة والحرفيين فى بروسيا الشرقية ، وفى كورلاند ، وبعضهم فى لتوانيا ، وكان والداه يعيشان عيشة متواضعة أقرب الى المسغبة · وهو مع هذا يفخر بهما فيذكر أنهما وان كانا لم يخلفا له ثروة فانهما لم يتركا وراءهما دينا · وقد استطاعا أن يهيئا له تعليما نموذجيا مرتكزا على القناعة والاستقامة ·

وبفضل « فرانز ألبرت شولتز » ــ وكان واعظا وأستاذا لأصول الدين ، تربطه بأبويه رابطة صداقة ــ الحق « كانط » وهو لما يزل فى الثامنة بمعهد فريدريك ، وهو مدرسة ثانوية تصطبغ الدراسة فيها بالصبغة الدينية التى لاتخلو من تزمت · وفى سنة ١٧٤٠ بدأ « كانط » دراساته فى اللاهوت والفلسفة والرياضيات فى جامعة « كونيجسبرج » مسقط رأسه · وكان أستاذه فى الفلسفة هو الأستاذ « مارتن كنوتزن » الذى سيثنى عليه « كانط » فيما بعد ثناء عاطرا لحرصه على ألا يجعل من تلاميذه ببغاوات تردد ما تلقته دون فهم ، بل شخصيات مفكرة يتوخى كل منهم ممارسة التأمل والادلاء بالرأى بعد النظر والتدبر · وعقب وفاة أبيه سنة ١٧٤٦ قطع كانط دراسته التى استمرت زهاء سبع سنوات · ولحاجته الى المال اشتغل لستوات عديدة معلما خاصا · وفى تلك الحقبة من حياته انصرف الى استكمال ثقافته العامة مستفيدا من خبرات السنين وأحداثها مستخلصا منها القدرة على فهم الحياة ومواجهتها · وفى سنة ١٧٥٥ حصل على درجة الماجستير · وفى نفس السنة غدا مؤهلا للتدريس فى التعليم العالى بدراسته عن « توضيح جديد للمبادىء الأولى للمعرفة الميتافيزيقية » ، وأصبح بذلك أستاذا بجامعة «كونيجسبرج» ، وتجلت براعته كمحاضر وسعة اطلاعة وعمق فكره ، فى ذلك النشاط الواسع الذى مارسه فى التعليم وتناول فيه فروعا متعددة من المعرفة : فى الرياضيات والفيزياء ــ وكان أول من درسها فى جامعة ألمانية ــ والأنثروبولوجيا · غير أن ما يسترعى الانتباه أن « كانط » فى هذا النشاط الموسوعى فى دروسه لم يغفل فلسفته الخاصة ·

حيـــاة كانط

التأمل الخصب .. الوضوح فى الفهم .. السلامة فى التفكير !!

ويذكر الكاتب « راينهولد ثونز » ، وكان من المتابعين لدروسه ، أنه كان يؤثر البساطة فى التفكير وفى السلوك ، وكان يمتعض من التزمت فى العقيدة ويمج الاستبداد بالرأى ، يختص تلاميذه بالحدب والرعاية ، ويحوطهم بعطف الأب مشجعا لهم على النقد والتحليل وعلى اتبـــاع نظام صارم فى الدراسة .

وما إن عين أستاذا للمنطق والميتافيزيقا فى جامعة « كونيجسبرج » سنة ١٧٧٠ وهو فى السادسة والأربعين ، حتى فاض انتاجه فى محاضراته وكتبه ، وتحددت معالم فلسفته . وقد ظل يشتغل بالتدريس فى الجامعة الى أن آثر الاعتزال سنة ١٧٩٦ ، ومات سنة ١٨٠٤ ، وقد ترك لنا انتاجا فكريا ثمينا يغطى نصف قرن من ١٧٤٩ الى ١٧٩٩ .

وحيـــاة « كانط » ذاتهـــا بالنســـبة لانتاجه ليس فيها كما المحنا ما يثير . هى حياة شغلها التأمل الخصب لفكر انصب اهتمامه الأكبر على التدريس ، ولكننا برغم هذا نجد من التجنى على صاحبها القول بأنه عاش فى عزلة عن الدنيا وعزوف عن شواغلها وغيبة عن أحداثها . فلقد كانت الحياة فى نظر « كانط » واجبا ساميا ينهض بأدائه على الوجه الذى يرضى الضمير ، وكانت محاضراته الجامعية تجمع الى جانب الدراسة الخالصة ، التوجيه الأخلاقى السديد . من ذلك ما أثر عنه فى أحاديثه الى طلابه قوله : « ان الأستاذ الجامعى فى حرج شديد ، فهو يود من صميم قلبه أن يلم طلابه بألوان متعددة من المعارف ، بيد أنه يخشى من أن يستغرقوا فى حشـــد لاينتهى من المعلومات ، وأن يتعجلوا الحكم على الأشـــياء ، فتخرج منهم جماعة من أنصاف المثقفين تضيق نظرتهم ويختنق أفقهم ، فتعمى بصيرتهم ويكون الخطر منهم أفدح من ذلك الخطر الذى نخشـــاه من الأميين والجهلة » .

فهنا دعوة الى الوضوح فى الفهم والسلامة فى التفكير ، لا على أساس حشد المعلومات ، وانما على دعامة منهج واضح يعول فيه على النظرة العقلية النقية التى لاتشوبها شائبة من انفعال أو رغبة شخصية أو نزوة عارضة . وعلى ذلك نراه يذكر فى بعض أحاديثه : ينبغى للأستاذ الجامعى ألا يعلم طلابه الأفكار ، بل أن يعلمهم كيف يفكرون ، وألا يملى عليهم الآراء ، بل أن يعنى بتوجيههم لكى يصلوا الى بلورة الآراء السديدة بأنفسهم ، وهنا يطيب نفسا ويهدأ بالا الى أن هؤلاء الطلاب سينضمون لا محالة الى صفوة المفكرين الذين لا يعملون لنهضة أوطانهم فقط ، بل يعملون أيضا لنهضة الانسانية جمعاء .

ومن أحاديثه كذلك ما ينصب على المنهج الذى ينبغى اتباعه فى تدريس الفلسفة على سبيل التخصص ، فنراه يقول : « ينبغى علينا حين نتصدى لدراسة فيلسوف ما ، ألا نتخذه مثلا ، وألا نتبع آراءه مهما يكن فيها من سحر وطلاوة ، وانما لنا أن نقف منه موقف حياد ، وأن نتغلغل فى أعماق أفكاره ثم نحكم بعد هذا على هذه الأفكار » .

الفلسفة والعلوم الطبيعية

وتكوين « كانط » الفكرى تكوين غنى ، فمنذ العام السادس عشر من عمره درس فلسفة « فولف » فى سنته الأولى بجامعة « كونيجسبرج » . ومن عجب أنه سجل اسمه للتخصص فى دراسة أصول الدين ، وكان يندر أن يتابع محاضرة واحدة فى هذه الدراسات ، بل كان شغفه منصبا على الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وقد هيأ له اشتغاله بالتدريس كمعلم خاص أن يختلط بأسر عديدة من الأسر الألمانية الكبيرة ، ومكنه ذلك من الاتصال بكثير من الشخصيات المعاصرة له .

وقد نمى هذا الاختلاط بالناس فهمه للطبيعة البشرية ، وعمق خبراته بالعلاقات الانسانية ، فاذا أضفنا الى ذلك حرصه منذ شبابه الباكر على جمع المعارف وتصنيف المعلومات التى تثرى ثقافته وتغذى عقله ، للاحظنا انه حين راح يمارس عمله أستاذا فى الجامعة تجلت فيه خصال

الكاتب الى جانب صفات المحاضر · فليس غريبا بعد هذا أن يجذب « كانط » الى محاضراته العديد من عشاق المعرفة ·

وقد استهل « كانط » دعوته في الفلسفة بضرورة النظر الى التجربة نظرة فاحصة قبل التطلع الى التأمل الخالص ، وضرورة الف الانسان للنظر الفلسفى قبل عكوفه على دراسة المذاهب المختلفة ، وكانت وقفة « كانط » من الفلسفات السابقة عليه وقفة تنذر بالقطيعة وتؤذن بنظرته النقدية الجديدة ·

وقد اقتنع « كانط » بأنه لا سبيل الى تقديم الدراسات الفلسفية الا بالتحليل · وقد بسط خواطره فى هذا الصدد فيما كتب من رسائل ومقالات بين عامى ١٧٦٢ — ١٧٦٣ · وفى تلك الفترة يظهر نفوذ كل من الفيلسوف الاسكتلندى « هيوم » والمفكر الفرنسى « روسو » على الفيلسوف الألمانى · ولاشك ان اهتمام « كانط » بالتحليل كدعامة لكل فكر فلسفى مرجعه ما طالعه من نقد لعلاقة العلية عند « هيوم » · حتى انه يذكر أن هذا الفيلسوف قد أيقظه من سباته ، ومشكلة العلية التى أثارها « هيوم » تتمثل فى تعذر الوصول الى الروابط الضرورية التى يلزم أن تربط بين العلة والمعلول ، ما دام ليس فى الامكان أن يكون المعلول متضمنا فى العلة بحيث نستطيع أن نصل اليه بمجرد تحليلها ·

وكان « هيوم » حريصا على ابراز مكانة الاعتقاد ، وهو الذى ينبع فى الأساس من حيث يصدر الاحساس · هذا وكان « روسو » يشيد بيقظة الضمير ويتوق الى ارساء العلاقة الانسانية على أساس الحرية والاخاء والمساواة · وكان من أثر ذلك أن انصب اهتمام « كانط » على ما عسى أن يكون من قيم أصيلة عزيزة الجانب لا يتوافر للسلوك الأخلاقى الأساس السليم الا بها وينبنى على هذا أنه اذا كان لابد للمعلم من أسس راسخة فى المجال الطبيعى المادى ، فلابد للأخلاق من أسس مماثلة فى المجال الانسانى · ويخلص « كانط » من هذا الى أنه اذا كان على العقل أن يشرع للتجربة المادية ويضع أصولها ، فعليه أيضا النهوض بمهمة لاتقل خطرا وهى أن يرسى للتجربة الأخلاقية أصولها ويحدد لها غاياتها ·

ان ما طالعه « كانط » « لهيوم » و « روسو » قد أثر فيه تأثيرا عميقا ، وأدار فى رأسه مشكلات أصيلة تعد بحق الخامة الجوهرية لفلسفته . واذا كان « هيوم » قد وقف عند حد تفسير الضرورة فى العلية بعادة فى الذهن يثبتها الاعتقاد ، واذا كان « روسو » قد اكتفى بالدعوة العاطفية ، فان « كانط » بروحه المشرعة قد وضع بالعقل كل شىء فى موضعه . ولذلك كانت ثقافة « كانط » الواسعة واحاطته بالمذاهب السابقة على اختلافها وتنوعها ، بمثابة الحافز الأساسى الذى حفزه الى تقديم فلسفة متكاملة على أساس التحليل والنقد .

لذلك نجد أنه فى سنة ١٧٧٠ حين صار أستاذا للفلسفة بجامعة « كونيجسبرج » ، نشر فى نفس العام رسالة باللغة اللاتينية بعنوان : « صورة العالم الحسى والعالم العقلى ومبادئهما » . وفى هذه الرسالة ظهرت لأول مرة بعض الأفكار الأساسية فى فلسفته . فاذا لاحظنا أن « كانط » قد ذكر فى بعض كتاباته وأحاديثه أن سنة ١٧٦٩ تعد سنة حاسمة فى تفكيره ، لتبينا أن هذه الرسالة تعتبر بحق أول اعلان للفلسفة الكانطية . ويقول « كانط » نفسه عنها انها سنة الالهام والضوء الغامر . ويمكننا أن نصوغ القاعدة الأساسية التى خطرت له آنذاك على النحو التالى : ان الصور والمبادىء التى تعد الشروط الضرورية لكى يمكن لشىء أن يكون موضوعا لمعرفتنا ، يجب أن تكون صورا ومبادىء صالحة لكل تجربة . وطبق « كانط » هذه القاعدة على الزمان والمكان من حيث اعتبارهما صورتين لاحساسنا ، أى من حيث كونهما الاطار العقلى الضرورى الذى بدونه لايمكن للاحساس أن يكون احساسا . وتعد هذه الفكرة ايذانا بالثورة الكانطية فى الفلسفة المناظرة للثورة الكوبرنيقية فى الفلك : فالأشياء تدور حول الذات العارفة دوران الكواكب حول الشمس .

العقل .. المشرع الأول

لاشك أن « كانط » كان بسبيل انضاج مذهبه الفلسفى وكان متأنيا فى ذلك غاية التأنى ، ولهذا استغرق أحد عشر عاما فى تطبيقات

هذه الفكرة الأولى . فبعد أن كان يتحدث عن الاحساس نراه يتحدث عن الظاهرة ، وبعد أن كان ينظر الى الظاهرة راح يتطلع الى ما يحكمها . لقد اتضح لكانط أنه اذا كانت هناك شروط لابد من توافرها لكى تتم الظواهر على النحو الذى نشاهدها عليه ، فان هذه الشروط لايمكن أن تستخلص من واقع هذه الظواهر ، بل هى مستمدة من العقل البحت ، واذا كانت هذه الشروط لازمة لزوما تاما لكى تتم الظواهر ، ومادامت هذه الشروط عقلية فان العقل لازم لزوما تاما للتجربة . وليس فى وسعنا على هذا ونحن بصدد البحث فى امكان العلم أن نتوه فى زحمة هذه الظواهر ، بينما نترك المشرع الأول لها الذى يضع شروطها وهو العقل . وعلى ذلك فالطريق الى تعمق الظواهر لا يكون باستعراضها وتسجيل صفاتها ، وانما يكون أولا وبالذات باحصاء شروطها أى بالنظر فى العقل .

ان المهمة الأساسية للفلسفة هى التحليل والنقد لا تبديد الجهد فى تحليل الظواهر ذاتها ، بل بنقد العقل . وتجلت هذه الفكرة متبلورة فى عمدة كتبه « نقد العقل الخالص النظرى » الذى صدر سنة ١٧٨١ . ويعتبر هذا السفر القيم برغم وعورة أسلوبه بحثا تحليليا دقيقا لأصول المعرفة وغاياتها . وقد قيل بحق ان كل من يبحث فى نظرية المعرفة يبدأ بكتاب « لوك » : « مبحث فى الفهم الانسانى » (١) ، ثم لا يلبث أن يتجه الى كتاب « : « نقد العقل الخالص النظرى » ، حيث تنفتح أمامه آفاق لم يكن فى وسع الفيلسوف الانجليزى أن يوجهه اليها،وان فى هذا الكتاب بحثا جادا عميقا عن الشروط الضرورية اللازمة لكل معرفة صحيحة ، فضلا عن تحديد لامكانات العقل وتوضيح لمجالم النطاق الذى يتعين عليه الالتزام به . فالكتاب من ثم دليل على قدرة العقل الفذة فى ميدانه ، وعلى عجزه الذى لا مناص منه فى غير ميدانه . وليس معنى هذا أن « كانط » قد استطاع فى هذا الكتاب أن يجد حلا نهائيا لمشكلة المعرفة ، فان هذه المشكلة يثير حلها ذاته مشكلات أخرى .

وما كاد « كانط » يحس بما فى كتابه من مشقة واستعصاء ، حتى أخرج بعد عامين كتابا جمع فيه باختصار وفى وضوح الأفكار الأساسية

وهو : « التمهيدات الى كل ميتافيزيقا نبغى أن تكون علما » وقد صدر سنة ١٧٨٣ . ولم يكد « كانط » ينتهى من عرض أسس فلسفته النظرية ، حتى دفع الى الناس بكتابه : « نقد العقل الخالص العملى » الذى صدر سنة ١٧٨٨ . وقد بسط فيه تصوراته الأخلاقية .

أسس الأخلاق عند كانط

لقد تخلى « كانط » من البداية عن ذلك المنهج النفسانى الذى كان متبعا فى كثير من المذاهب الأخلاقية ، وبخاصة عند فلاسفة الحس الاخلاقى الاسكتلنديين : « هاتشسون » و « شافتسبرى » و « هيوم » . فلقد ارتأى «كانط » أن ميدان الأخلاق لايمكن أن يكون ميدانا لتحليل العواطف البشرية ، والا كانت المبادىء الأخلاقية مبادىء متنازعا عليها ، متجاذبة بين أطراف الانفعالات ، خاضعة للميول والرغبات .. وانما للأخلاق كما للمعرفة أسس ميتافيزيقية راسخة . ومعنى هذا أن للأخلاق أصولا عامة شاملة صادقة فى كل زمان ومكان تهيمن على العمل الأخلاقى وتصبغه بصبغة الدوام والرسوخ والاستقرار . وعلى هذا فمهمة « كانط » فى كتابه «نقد العقل النظرى» توازى مهمته فى كتابه «نقد العقل الخالص النظرى» . فكما أنه يحلل فى أحدهما أصول المعرفة البشرية ويردها الى قواعد عقلية ثابتة ، فهو فى الآخر يحلل الأصول الأخلاقية ويردها الى قواعدها العقلية الثابتة . وكذلك كان شأنه فى كتاب : « أسس ميتافيزيقا الأخلاق » الذى صدر سنة ١٧٨٥ قبل « نقد العقل العملى » بثلاث سنوات . وكما يمكننا أن نقول ان كتاب « التمهيدات الى كل ميتافيزيقا مستقبلة .. » هو بمثابة ملخص ل « نقد العقل النظرى » فبوسعنا القول ان كتاب « أسس ميتافيزيقيا الأخلاق » يعتبر موجزا عاما لكتاب « نقد العقل العملى » مع فارق واضح وهو أن « التمهيدات » صدر بعد « نقد العقل النظرى » بغير تبسيطه وتخفيف وطأته على الأفهام ، بينما « أسس ميتافيزيقا الأخلاق » صدر قبل « نقد العقل العملى » لتهيئة الأذهان له واعدادها لحسن قبوله . ويمضى « كانط » فى مهمته فيصدر له كتاب « نقد ملكة الحكم » سنة ١٧٩٠ وفيه دراسة فاحصة لمشكلات

الجمال يحسم فيهـــا بالطريقة التى حســـم بها فى مشكلات المعرفة والأخلاق ٠

وفى فلسفة « كانط » خيط يصل بين جوانبها المختلفة ، كما يصل الخيط بين حبات العقد ٠ وقد بينا من قبل أن الخطأ الظن بأن « كانط » كان بمعزل عن الحياة الانسانية العامة ، وان بدت حياته الخاصة منحصرة فى دائرة صارمة من العكوف على البحث واعداد المحاضرات والتاليف ٠ فلم يكن يفوته وهو يعيش فى بروسيا الشرقية،أن يلحظ بعين الاهتمام كل ما يدور حوله فى عالم الطبيعة وعالم الانسان ٠ ولئن لم ينجذب نحـــو الترحال كما انجذب « روسو » ، فان هوايتـــه الأثيرة عنده كانت مطالعة قصص الرحلات والكتب التى تتناول ظواهر البيئة الجغرافية ومعالم البيئة العمرانية ٠ وكان يرى أن مطالعته لهذه الكتب تفيده فائدة جمة فى مهمته التربوية والعلمية التى ينهض بها فى الجامعة ٠ لقد كان يتتبع بشغف تقلبات الأحداث السياســـية تتبعه لتطورات العلوم الطبيعية ٠ وكانت تلهب خياله ثورة أمريكا الشمالية والثورة الفرنسية حيث كان يرى فى مثل تلك الثورات ، ايذانا بأن الانسانية انما تخطو خطوات الى الأمام نحو التفاهم الكامل بين الناس ، بارساء القيم الأخلاقية النقية المنبثقة من الارادة الخيرة ٠ وكثيرا ما كان يدير المناقشات مع طلابه وأصدقائه فى غير أوقات الدرس حول أحدث المكتشفات فى ميدان العلم ، وحول أهم المشكلات فى مجال السياسة ٠ ولا ريب أن مؤلفاته الزاخرة بالتصورات الجديدة قد حببته بالشهرة والمجد ، حتى ان حشودا من المثقفين وطلاب المعرفة كانوا يفدون الى « كوينجسبرج » لرؤيته واستشارته فى مشكلات متنوعة ٠

فلسفة كانـــط

وربما كانت أفضل طريقة نتناول بها لب مذهب كانط الفلسفي ــ وان لم تكن هى الطريقة الوحيـــدة ــ هى أن نتنـــاوله عن طريق تصنيفه المزدوج للأحـــكام ، ففى رأيه أن كل حـــكم (١) اما أن يكون تحليليـــا أو تركيبيا ، (٢) واما أن يكون « قبليا » أو « بعديا » ٠ والحكم يكون

تحليليا اذا نتج عن سلبه استحالة منطقية مثل « الوالد ذكر » و « الشيء الأخضر ملون » فهذه أحكام تحليلية لأننا اذا قلنا : « الوالد ليس ذكرا » و « الشيء الأخضر ليس ملونا » كان كل حكم من هذين الحكمين محالا من الوجهة المنطقية ٠

وتتضح حقيقة كل حكم من الأحكام التحليلية من مجـــرد تحليل الحدود التى يتألف منها ٠ والحـكم الذى « لا يكون » تحليليـا يكون تركيبيا ، والأحكام التركيبية هى جميع الأحكام التى تطلق على وقائع التجربة وخاصة تلك التى تقرر قوانين تجريبية عن الطبيعة مثل « النحاس موصل للكهرباء » وهذه الأحكام ــ سواء أكانت صادقة أم كاذبة ــ يمكن بغير شك انكارها دون الوقوع فى تناقض ٠ ويكون الحكم « قبليا » اذا كان « مستقلا عن كل خبرة بل مستقلا عن انطباعات الحواس جميعا » ، وهكذا تكون عبارة «للانسان روح خالدة» ــ التى لا يمكن تأييدها أو تكذيبها عن طريق الخبرة ــ حكما «قبليا»٠٠هذا ان كانت ذات معنى ٠ وجميع الأحكام التحليلية « قبلية » ، ويمكن اظهار صدقها بل وضرورتها المنطقية دون الالتجاء الى التجربة أو الملاحظة ، وذلك بمجرد تحليل حدودها ٠

فاذا جمعنا هذين التصنيفين ولاحظنا أن كل الأحكام التحليلية لابد أن تكون « قبلية » أيضا ، رأينا أن هناك فئات ثلاثا من الأحكام تمنع كل منها الأخريين ولكنها معا تكون جامعة ٠ وهذه الفئات هى : (١) التحليلية (والقبلية) ، (٢) التركيبية البعدية ، (٣) التركيبية القبلية ٠ وجدير بالذكر هنا أن ليبنتز يعتبر الأحكام فى نظره يمكن أن تحلل حدودها من الوجهة النظرية ، حتى يتضح ان الرابطة بينها ضرورية من الوجهة المنطقية ٠ ويذهب هيوم وأتباعه المحدثون الى أن الأحكام جميعا اما أن تكون تحليلية (بالتالى قبلية) أو تركيبية بعدية ولا وجود لأحكام تركيبية قبليـــة ٠

أما كانط فيعتقد غير ذلك ، اذ يعثر على أحكام تركيبية قبلية (١) فى الرياضيات والعلم فى عصره (٢) فى الأخلاق . ومن أمثلة ذلك،هذا الحكم : « لكل حادثة سبب » اذ يمكن انكاره دون الوقوع فى استحالة منطقية ، ومع ذلك فان عموميته الكاملة شيء لايمكن تأييده أو تكذيبه بالخبرة الحسية (فاذا لم تعرف سببا لحادثة ما ، فاننا نستطيع دائما أن نمضى فى البحث

عنه ، لكننا لو اعتقدنا من ناحية أخرى أن لكل الحوادث المعروفة أسبابا فقد تكون هنـــاك حوادث أخرى بغير أسباب · والحق أن الشكل السائد لميكانيكا الكم فى يومنا هذا قد وفق فى رفض مبدأ السببية) ·

وجود الأحكام التركيبية القبلية يفرض اذن واجبين فلسفيين : الاول هو عرض هذه الأحكام عرضا واضحا وتاما أن أمكن ذلك · والثـانى هو البرهنة لا على أن هذه الأحكام تصدر فى سياق أى بحث نظرى وكذلك حيثما ألقيت واجبات أخلاقية على عاتق شخص ما فحسب ، بل البرهنة كذلك على أن للانسان مبرراته حين يصدر تلك الأحكام · ويصوغ كانط هذه المشكلة بأن يســـأل : « كيف تـكون الأحكام التركيبية القبليـة ممكنة ؟ » وهذا هو السؤال الرئيسى فى الفلسفة النقدية ·· وقد تطلبت الاجابة عنه نقدا لكل المعرفة النظرية والأخلاقية ، كما تطلبت تمحيصا لدعوى الميتافيزيقا بأنها تعطى معرفة عما هو مفارق للطبيعة ، أى انها تعطى معرفة عما يجاوز نطاق كل خبرة ممكنة ·

نقد العقل الخالص

مهمة هذا النقد الأولى هى (١) عرض ما يدخل من الأحكام التركيبية القبلية فى الرياضيات البحتة والعلم الطبيعى . وبيان « كيف تكون تلك الأحكام ممكنة » (ب) تمحيص دعاوى الميتافيزيقا . ومن المهم اذا أردنا أن نميز فى فلسفة كانط بين ما هو أدخـــل فى باب التاريخ الخالص وبين ما يمت الى القضايا المعاصرة ، أن نلاحظ أن كانط كان مقتنعا بأن الرياضيات فى عصره وفيزيقا نيوتن والمنطق الأرسطى ـ كلها كاملة الى الحد الذى يجعل تحليلها بمناهج الفلسفة النقدية يعطى كل تلك القضايا الأساسية التركيبية القبلية التى يمكن أن تستنبط منهـا فى يسر ـ قل أو كثر ـ أى قضايا أخرى بطرائق التدليل المألوفة · والخبراء منقسمون حول هذه المسألة ، ألا وهى الى أى حد يرغمنا تطور الهندسة اللااقليدية والنسبية ونظرية الكم والمنطق الرياضى الجديد ، على الاعتراف بأن كانط ما كان لينجح فى وضع تخطيط كامل للمعرفة القبلية ·

ومن الافتراضات الأساسية فى الفلسفة الكانطية ، أن الادراك الحسى والتفكير أمران مختلفان ، اذ ينسبهما كانط ــ تمشيا مع علم النفس فى عصره ــ الى ملكتين متميزتين من ملكات العقل ، الأولى هى الحس والأخرى هى الفهم • فاذا طرحنا الأحكام التحليلية جانبا ــ وهى تلك الأحكام التى لاتفعل أكثر من توضيح معنى حدودها ــ فان كل حكم يتألف أو يبدو أنه يتألف من تطبيق أحد المدركات العقلية على شىء جزئى بعينه ، أما ادراك الجزئيات فيعزى الى ملكة الحس ، بينما يعزى الى الفهم ادراك المدركات العقلية والقواعد التى يتم وفقا لها تطبيق تلك المدركات (على الجزئيات) ، ومن الضرورى لكى ندرك وظيفة الحكم التركيبى القبلى ومشروعيته أن نفحص مقوماته ، فنفحص نمط المدرك العقلى ونمط الشىء الجزئى اللذين يجعلانه على ما هو عليه •

ولنبدأ بالمدركات العقلية فنقول ، انها أنماط ثلاثة : الأول المدركات البعدية وهى التى نجردها من الادراك الحسى ، ويمكن أن نطبقها عليه (فكلمة « أخضر » مجردة من معطيات الادراك الحسى ، وهى أيضا تطبق على تلك المعطيات حين نحكم على شىء ما بأنه أخضر) والثانى هو المدركات العقلية القبلية التى وان لم تجرد من الادراك الحسى الا أنها تطبق عليه • والثالث هو « الصور » ، وهذه الأخيرة لا هى مجردة من الادراك الحسى ولا هى مما يطبق عليه • بينما لايتضمن تفسير كانط للمدركات العقلية البعدية شيئا غير مألوف للنزعة من السمات المميزة للفلسفة النقدية • وسنرى حين يتقدم بنا البحث كيف أن هذا التفسير أساسى : (أ) لفهم طبيعة تلك القضايا التركيبية القبلية التى تتضمنها الرياضيات والعلم الطبيعى والميتافيزيقا والأخلاق والحكم الجمالى والتفسير الغائى ، (ب) ولفهم دعواها بأنها صادقة ، (جـ) ولتقرير ما اذا كان لهذه الدعوى ما يبررها فى كل حالة من تلك الحالات الثلاث والى أى حد يكون ذلك •

(أ) فلسفة كانط فى الرياضيات : يحاول كانط أول ما يحاول فى مناقشته للرياضيات فى عصره ــ من حساب وتحليل كلامى وهندسة اقليدية ــ أن يبين أن القضايا التى تحتوى على بديهياتها ومبرهناتها هى

قضايا تركيبية قبلية،وهو لا يعنى بالعبارات التحليلية القائلة بأن بديهيات النظرية الرياضية تلزم عنها مبرهناتها منطقيا • ومن المتفق عليه عامة ــ منذ الكشف عن الهندسات الاقليدية واستخدامها الناجح فى الفيزيقا ــ أنه من الممكن انكار مسلمات الهندسة الاقليدية دون الوقوع فى أية استحالة منطقية ، وأن تلك المسلمات مستقلة عن الادراك الحسى ، وهذا يماثل ما عناه كانط بقوله انها تركيبية وقبلية ، فكثير من الخبراء ينازعون فى الطابع التركيبى القبلى للقضايا الحسابية وان تكن بعض القضايا الحسابية الخاصة « بمجموع الأعداد الصحيحة كلها » ، قد أنكرت دون الوقوع فى التناقض ، كما أنها مستقلة عن الحس من حيث انها لا تصف ادراكات حسية أيا كان نوعها • ويعتقد كانط أنه حتى الأحكام مثل (٧ + ٥ = ١٢) أحكام تركيبية ، لأن فكرة « ١٢ » ليست « محتواة » فى فكرة اضافة ٧ الى ٥ •

والآن وقد افترض كانط أن بديهيات كل نسق من أنساق الرياضيات البحتة ومبرهناته أحكام تركيبية قبلية ، فان عليه أن يسأل : كيف تكون مثل هذه الأحكام ممكنة ؟ هل هناك مثلا موضوعات جزئية أخرى غير الادراكات الحسية ، وهذه الموضوعات هى التى تمثلها المدركات العقلية فى الحساب والهندسة ؟ واجابة كانط عن هذا السؤال هى أنه توجد حقا مثل هذه الموضوعات •

ويرى كانط أن الزمان والمكان ــ اذا قابلنا بينهما وبين الادراكات الحسية القائمة فيهما ــ فهما : (١) فكرتان جديدتان ، (٢) وجزئيتان أكثر من أن تكونا كليتين•وفى أحد استدلالاته التى يهدف منها الى اثبات القبلية للمكان والزمان ، يلجأ الى امكان تغيير كل سمات الشىء المدرك فى الخيال ، ما عدا وجوده فى المكان والزمان (والحق أن اللون أو الشكل أو ما شابه ذلك للموضوع المدرك ، يختلف كل الاختلاف عن وضعه المكانى والزمانى) ومن استدلالاته التى يبين بها أن الزمان والمكان فكرتان جزئيتان وليستا كليتين ، استدلال يتألف من تأكيده بأن « التقسيم » عملية تختلف اختلافا تاما فى كلتا الحالتين ، فالمكان يقسم الى أماكن فرعية • والزمان الى فترات

زمانية ، أما تقسيم أى مفهوم كلى فانه ينقسم من ناحية أخرى الى أنواع مختلفة (فالحيوان مثلا يقسم الى « فقريات » و « لافقريات » ٠

فان كان كل من المكان والزمان جزئيا قبليا ، فان كانط يستطيع أن يفسر مشروعية أحكام الحساب والهندسة التركيبية القبلية ، فأحكام الحساب تصف تركيب الزمان وبما ينطوى عليه من تكرار لوحداته ، أما أحكام الهندسة فانها تصف تركيب المكان بنماذجه الممتدة ، وهكذا نتبين أن أحكام الرياضيات التركيبية القبلية « ممكنة » بفضل هذه الحقيقة ، وهى أننا حين نضع هذه الأحكام نطبق مدركات عقلية قبلية (وهى مدركات ان لم تكن مستقاة من الادراك الحسى فانها تطبق عليه) على جزئيات قبلية هى الزمان والمكان ٠ ويعتقد كانط أننا ندرك تركيب الزمان والمكان عن طريق ادراك تركيبات وان تكن مماثلة لرسومات ترسم على السبورة ، الا أنها لا تتألف من ظهور علاقات بالطباشير أو أية أداة طبيعية أخرى ٠

ويصف كانط تفسير مشروعية الأحكام التركيبية القبلية ــ كالحكم الذى وصفناه آنفا ــ بأنه تفسير « ترنسندنتالى » (أصلانى) (٢) وهو لهذا السبب لا يسمى فلسفته « نقدية » فحسب ، بل يسميها « ترنسندنتالية » (أصلانية) أيضا اذ « أنها لا تهتم بالأشياء اهتمامها بطريقة معرفتنا للأشياء من حيث انها ممكنة قبليا » ٠

(ب) فلسفة العلم عند كانط : ويمضى كانط ــ بتحليله للعلم ولمعرفة الادراك النظرى للواقع ــ الى بيان أننا نستخدم فى هذه المجالات أيضا ــ كما هى الحال فى الرياضيات البحتة ــ أحكاما تركيبية قبلية من واجب الفلسفة النقدية أو الترنسندنتالية أن تكشف عنها وأن تمحصها لتنظر فى مشروعيتها ، وهنا أيضا تراه يستحثنا على أن نتعرف على ما لدينا من قضايا تركيبية قبلية وعلى أن نثبت حقنا فيما نملك منها ٠

اننا جميعا نصدر أحكاما مؤداها أن هذه الحادثة الجزئية أو تلك « سببت » وقوع شىء آخر غيرها ، وفضلا عن ذلك فقد كان الاجماع

معقودا على قبول مبدأ السببية العام ، وهو المبدأ القائل بأن لكل حادثة سببا وذلك قبل ظهور ميكانيكا الكم · والحكم الذى يعبر عن هذا المبدأ هو حكم تركيبى قبلى فى نظر كانط ، وفضلا عن ذلك فان ادراكنا العقلى بأن « س تسبب ص » ــ وهو ادراك متضمن فى المبدأ العام ونطبقه حيثما نصدر حكما عليه بعينه ــ هو ادراك قبلى ، ومن المؤكد أنه لم يتم تجريده من أى ارتباط ضرورى أدركناه بالحواس ، ما دام كل ما ندركه بالحواس هو تعاقب الوقائع · وكان هيوم قد أثبت من قبل أننا لانجرد علاقة الضرورة العلية « من » الادراك الحسى · وكانط يعتنق آراء هيوم فى هذا المجال من حيث جوهرها ، ومع ذلك فاننا نطبق هذا المدرك العقلى على الادراك الحسى· والاسم الذى يطلقه كانط على المدركات العقلية التى لا تميز الزمان والمكان ــ على نحو ما تميزهما مدركات الرياضيات لكنها ممكنة الانطباق على الادراك الحسى ــ هو « المقولات » ، وكونها من مقومات الأحكام التركيبية القبلية يجعل من الضرورى ترتيبها ترتيبا منظما .

وهناك مفاتيح بعينها يعتقد كانط أنه بمعونتها يمكن أن يتم هذا الترتيب · فلدينا أولا الاختلاف القائم بين الأحكام الذاتية المستندة الى الادراك الحسى ، والأحكام الموضوعية التجريبية · قارن مثلا بين هذين الحكمين : « الشىء الذى يبدو لى الآن لونه أخضر » و « هذا شىء أخضر » فالحكم الأول لايدعى أنه عن أى شىء معروض أمام الجميع أعنى ، أى شىء مستقل عن ادراكى الحسى ، أى شىء يدركه الآخرون بحواسهم كما أدركه أنا بحواسى ، أى شىء يظل باقيا حتى بعد أن أختفى عن الوجود · أما الحكم الثانى فيدعى انه موضوعى وانه يقال عن جوهر يوجد مستقلا عن ادراكى الحسى ، ومع ذلك فان كلا من الحكم الذاتى الحسى والموضوعى التجريبى يحتوى على نفس المضمون الادراكى الحسى · ومن ثم يقول كانط ، اننا حين نضع الحكم الذاتى المستند الى الادراك الحسى ، فاننا لانستخدم مدرك الجوهر أو بالأحرى « مقولة » الجوهر ، على حين أننا نستخدم هذه المقولة فى اصدار الحكم الموضوعى التجريبى ·· وهذا يؤدى بنا الى نتيجة : هى أننا لو عقدنا المقارنة بين الأحكام الموضوعية التجريبية

والأحكام الذاتية الحسية التى يحتوى كل منها على نفس المضمون الادراكى الحسى ، واذا طرحنا هذه الأخيرة من الأولى ــ اذا صح هذا التعبير ــ فانه يتبقى لدينا مقولة واحدة أو أكثر من مقولة ٠

وثمة مفتاح ثان لايتعلق باستكشاف المقولات فحسب ، بل يتعلق كذلك بالمعيار الذى يجعلنا نوقن بأننـــا قد استكشفناها جميعـا ، هذا المفتاح هو الاختلاف بين مادة الأحكام الموضوعية التجريبية وصورتها ٠ فالتعبير عن مادة مثل هذا الحكم يتم دائمـــا بوساطة مدركاته البعدية ٠ أما الصورة فمن الممكن التعبير عنها بأن للحكم تركيبا بعينه ٠ فمثلا الحكم : « اذا أشرقت الشمس ، فان حرارة الصخر ترتفع » حكم مصوغ فى صورة « اذا ٠٠ ف ٠٠ » وتركيبه تركيب الحكم الشرطى ، وهذا يعبر ــ وفقا لكانط ــ عن هذه الحقيقة ، وهى أننا فى صياغتنا للحكم نلجأ الى استخدام مقولة « س تسبب ص » ٠ وحين يدخل كانط فى اعتباره الاختلاف بين الأحكام الذاتية الحســية والأحكام الموضوعية التجريبية التى لها المضمون الادراكى نفسه من ناحية ، والاختــلاف بين مادة الأحكام الموضـــوعية التجريبية وبين صورتها من ناحية أخرى ، يعتقد أنه فى مقدورنا أن نرى أن صورة الأحكام الموضوعية التجريبية أو تركيبها يمثل « المقولات » ٠

فاذا أثبتنا فى القائمة اذن ، كل شكل من أشكال الحكم ــ أى جميع صنوف التركيب المنطقى التى يمكن أن توجد فى الأحكام ــ دون أن نترك شكلا واحدا منها ، استطعنا أن نصل حينذاك الى قائمة كاملة للمقولات ٠ وان كانط ليعتقد أن المنطق التقليدى (الذى عدله بنفسه تعديلا طفيفا) يحتوى على قائمة بكل الأشكال المنطقية الممكنة للحكم ، ومن ثم فانها تشمل ضمنا كل المقولات ٠ ويتفق معظـــم الخبراء على أن كانط بالغ فى تقدير اكتمال المنطق التقليدى من هذه الناحية ، ولن نحاول هنا أكثر من ايراد المقولات كما رتبها كانط وهى : (١) مقولات الحكم ــ وهى الوحدة والكثرة وجملة الكل (٢) مقولات الكيف ــ وهى الموجـود والسلب وحد التناهى (٣) مقولات الاضافة ــ وهى الجوهر فى مقابل العرض ، والسببية فى مقابل التلازم ، والمشاركة أو التفاعل (٤) مقولات الجهة ــ وهى الامكان فى مقابل الاستحالة ، والوجود فى مقابل العدم ، والضرورة فى مقابل العرضية ٠

وليس يجدينا أن نمضي أبعد من ذلك في الحديث عن اشتقاق تلك المقولات فالمبدأ هو نفسه ذلك الذي صورناه في حالة « السببية » اذ يفصل المضمون الادراكي الحسي المشترك بين حكم موضوعي تجريبي والحكم الحسي (الذاتي) المقابل له ٠٠ يفصل أولا بين التركيب المنطقي المختلف أو الصور المنطقية المختلفة لهذين الحكمين وتكون الصور المنطقية للحكم الموضوعي التجريبي ـ بطريقة أكثر أو أقل جلاء ـ هي نفسها مقولة من تلك المقولات ٠

وتتألف الأحكام التركيبية القبلية من تطبيق المقولات على المعطيات المقدمة للحواس في المكان والزمان ، أي من تطبيقها على الكثرة الادراكية في مجال الادراك الحسي ٠ ولما كانت المقولات « لم » تجرد عن تلك الكثرة المعطاة على هذا النحو ، فان تطبيق المقولات على الكثرة ليس مجرد اعلان منا عما يوجد في الادراك الحسي ، (كيف يمكن أن نعلن مثلا أننا قد وجدنا الضرورة السببية في الادراك الحسي ، بينما كل ما أدركناه هو انتظام التعاقب بين الحوادث ؟) ٠ ان نظر كانط الثاقب الحقيقي ـ أو المزعوم ـ في طبيعة تطبيق المقولات على الكثرة التي يتبدى عليها الادراك الحسي يعد نقطة رئيسية في فلسفته النقدية ، وهو نفسه قد قارنها بفكرة كوبرنيكوس الثورية ، اذ جعل كوبرنيكوس « الملاحظ يدور حول الشمس بينما ترك النجوم ثابتة » ٠ وتطبيق المقولات على ما في الادراك الحسي من تعدد ، بل ان مجرد قابلية هذه المقولات للتطبيق هو ما يحيل التعدد الذاتي للظواهر ، التي كانت لتكون مفككة في الزمان والمكان ، الى حقيقة موضوعية (أو هي حقيقة تشترك في ادراكها الذوات وتتبادل ذلك الادراك) نميز فيها الأشياء الطبيعية باعتبارها مصدرا للادراك الحسي المترابط ارتباطا منظما ، وباعتبارها جواهر قادرة على الدخول في علاقات سببية وعلى التفاعل مع الجواهر الأخرى ٠

وهكذا فلأن يكون الشيء شيئا ـ في مقابل الانطباع الذاتي البحت ـ معناه في نظر كانط أن يكون حاملا للمقولات ، فالمقولات لاتجرد من الادراك

الحسى ذى الأجزاء الكثيرة ، وانما تفرضها الذات عليه ـ اذا صح هذا التعبير • وترجع حقيقة الأشياء التى تشترك فى ادراكها الذوات المختلفة الى الذات المفكرة ، بحيث يكون التفكير هو الربط بوساطة المقولات بين ما هو متعدد • وان كانط ليستخدم هو نفسه مثل هذه العبارات فى محاولته تقديم لمحة مبدئية عن وظيفة المقولات ، وعلينا أن نقنع أنفسنا هاهنا بهذه اللمحة دون أن نتعقبه فى التفصيلات الواسعة لتفسيره الكامل •

لكن ثمة نقطة واحدة ينبغى أن نتعرض لها على كل حال ، ذلك أن كانط يفرق تفرقة حادة بين الذات « الخالصة » التى تفرض المقولات وبين الذات التجريبية ، فكل وعى تجريبى بالذات انما يقوم هو نفسه على افتراض سابق بتطبيق المقولات ، واذن فالذات التجريبية التى تدرك حالاتها الخاصة وتكون بذلك على وعى بنفسها ليست هى الذات نفسها التى « تفرض » المقولات وليس ثمة وعى ذاتى بالذات الخالصة •

فاذا فهمنا أن المقولات من حيث تطبيقها على التعدد الادراكى الحسى هى التى تؤلف الأشياء ، كنا بذلك فى طريقنا الى فهم تلك الأحكام التركيبية القبلية التى ليست أحكاما رياضية • ويتصور كانط تلك الأحكام باعتبارها المبادىء التى يتم بوساطتها تطبيق المقولات على تعدد الادراك الحسى ، فهى تعبر عن الشروط التى تجعل الخبرة الموضوعية ـ فى مقابل كون المرء مدركا لظواهر مفككة ـ ممكنة ، كما أن تلك الأحكام هى الافتراضات السابقة التى لابد منها لكى ندرك الأشياء فى مجال الذوق الفطرى ، وفى مجال العلم • فشروط استعمال المقولات كما تعبر عنها الأحكام التركيبية القبلية غير الرياضية فى نظر كانط انما ترتبط بتلك الحقيقة ـ وهى أن الأشياء والادراكات الحسية قائمة كلها فى الزمان ، فهى شروط زمانية ، ويتضح ذلك بصورة أكثر جلاء فى حالة بعض المبادىء التركيبية القبلية بالنسبة الى بعضها الآخر • وهنا أيضا لانستطيع أن نمضى فى تفاصيل الكيفية التى استخلصت بها القائمة المزعوم لها أنها كاملة ، وأعنى قائمة تلك المبادىء • • وعلينا أن نكتفى باحصائها : (١) يقابل

مقولات الكم المبدأ القابل : « ان جميع الادراكات الحسية مقادير ذوات امتداد » (٢) ويقابل مقولات الكيف المبدأ القائل : « انه حكما بظواهر الأمر كلها نقول ان ما هو حقيقى ، اى ما هو شىء مما يكون موضوعا لاحساس ، انما يكون ذا مقدار غزارى ، أعنى أنه يكون ذا درجة » (٣) ولمقولات الاضافة مبدأ يقابلها هو : « لا تكون الخبرة الموضوعية ممكنة الا بقيام رابطة ضرورية بين الادراكات الحسية » (هذا المبدأ الأخير يتم التعبير عنه بصورة أكثر عينية فى ثلاث قضايا تركيبية قبلية وهى : مبدأ بقاء الجوهر : « كل تغير (تعاقب) للظواهر ليس الا تحولا للجوهر » · مبدأ السببية : « جميع المتغيرات تقع تبعا لقانون ترابط العلة والمعلول » · ومبدأ التفاعل : « جميع الجواهر من حيث هى مدركة باعتبارها متآنية فى المكان متفاعلة تفاعلا تاما » (٤) ويقابل مقولات الجهة ثلاثة مبادىء باعتبارها مميزة لأحكامنا عن العالم الموضوعى ·

ويستطيع كانط ــ بعد أن وجد المبادىء التركيبية القبلية فى اكتمالها المزعوم ــ أن يتعرض لمسألة تبرير تلك المبادىء · ولعل هذا هو أصعب جزء فى الفلسفة الترنسندنتالية المعروف باسم « الاستنباط الترنسندنتالى للمقولات» · والنقطة الرئيسية فى هذا الجزء هى : أن تطبيق المقولات على الأشياء ــ وفقا للمبادىء ــ أمر مشروع ، لأن معنى أن يكون الشىء شيئا ليس الا قبوله للتشكل بالمقولات ، والقول باستخدامنا للمقولات حين نفكر فى موضوعات الواقع ، وبأن استعمالها هو الذى يؤلف الواقع الموضوعى هما على مايبدو أهم ما أسهم به كانط فى نظرية المعرفة وفلسفة العلم ، أيا ما كان رأينا فى دعواه بانه استكشف الافتراضات السابقة على « كل » معرفة علمية وموضوعية استكشافا كاملا ·

(جـ) آراء كانط الميتافيزيقية : يؤدى تحليل المعرفة الرياضية والنظرية الى الرأى القائل بأن المعرفة النظرية تتألف كلها من ترتيب مادة الادراك الحسى الواقعة فى المكان والزمان وفقا للمقولات ، وهكذا تكون المعرفة حسية وعقلية على السواء ، فهى الحصيلة المشتركة للادراك الحسى وللتفكير · فلا يسعنا فيما لايمكن ادراكه ادراكا حسيا الا أن نجعله موضع تفكيرنا ، لكننا لا نستطيع أن نعرفه ، فيمكننا أن نفكر ــ

بل ينبغى لنا أن نفكر ـ فى أن هناك شيئا ما خارج الزمان والمكان والمقولات ، هو « الشىء فى ذاته » · ويطلق كانط على مذهبه الذى يؤمن بوجود : « شىء فى ذاته » « المعقول أو النومين » وهو لاسبيل الى ادراكه بالحس ، ولن كان من الممكن التفكير فيه · أقول انه يطلق على مذهبه هذا مذهب المثالية « الترنسندنتالية » فى مقابل المثالية المفارقة التى تدعى معرفة الشىء فى ذاته · وكل محاولة لتطبيق المقولات على الأشياء فى ذاتها لاتؤدى الا الى الوهم والخلط ·

وثمة مصدر آخر لمثل هذا الوهم ، هو الاستخدام غير السليم « لصور العقل » · فكما أن كانط استخلص المقولات ـ وهى تصورات لم يتم تجريدها من الخبرة وان كانت ممكنة التطبيق عليها ـ استخلصها من الصور الممكنة للأحكام ، فكذلك يستخلص « الصور » ـ وهى تصورات لا هى تجريدات من الخبرة ولا هى ممكنة التطبيق عليها ـ يستخلصها من الأشكال الممكنة للاستدلال المنطقى · وهو بفعله هذا يعود الى قبول المنطق التقليدى باعتباره كاملا على وجه العموم · والمبدأ الذى نهتدى به هو هذا : نستطيع أن نمضى دائما فى البحث عن مقدمات لاستدلالاتنا فى مقدمات أعلى منها دون حد نقف عنده (نستطيع أن نمضى دائما فى البحث عن الشروط ثم عن شروط الشروط التى يجب توافرها لصدق أية عبارة) · وتتكون الصورة حين نفترض أن هذا التسلسل اللامتناهى « بالقوة » انما يعطى لنا « بالفعل » فى مجموعة · ويسلم كانط بثلاثة أنماط من الاستدلال الاستنباطى بحيث ينشأ عن كل نمط من تلك الأنماط سلسلة من المقدمات التى هى لامتناهية بالقوة ، وبالتالى تنشأ « صور » ثلاث هى : (أ) صورة الوحدة المطلقة للذات المفكرة (ب) صورة الوحدة المطلقة لسلسلة الشروط التى يخضع لها الظاهر (ج) صورة الوحدة المطلقة للشروط التى تخضع لها موضوعات الفكر عامة · وكل « صورة » من صور « العقل » هذه تزودنا بموضوع مصطنع لنظام ميتافيزيقى مصطنع · فالصورة الأولى تزودنا بموضوع لعلم النفس التأملى (الذى يحتوى على معرفة قبلية مزعومة عن الروح) · والصورة الثانية تزودنا بموضوع لعلم الكون التأملى (الذى يتضمن معرفة قبلية مزعومة

عن العالم) والثالثة تزودنا بموضوع اللاهوت التأملى (الذى يتضمن معرفة قبلية بالله) ٠

وكل معرفة ميتافيزيقية بالوقائع ــ فى نظر كانط ــ اما أن تعبر عنها المبادىء التركيبية القبلية ، واما تستنبط من هذه المبادىء ٠ فان كانت الأولى أخذت المقولات على أنها مميزة للأشياء فى ذاتها ، وان كانت الثانية أخذت « الصور » على أنها مميزة لشىء يعطى فى الخبرة ، ففى كلتا الحالتين تكون الميتافيزيقا شيئا زائفا ، ذلك أن الاستعمال الخاطىء للمقولات و « الصور » وهذا ما يحاول كانط اثباته ــ يؤدى الى مغالطات عنيدة ، ولا يمكن التعرف على هذه المغالطات وحلها الا بفهم طبيعة « الصور » و « المقولات » ووظيفتها ٠ ومن بين تلك المغالطات يوجه كانط اهتماما خالصا الى البراهين المزعومة على وجود الله ، وخاصة البرهان الوجودى ، وهو البرهان القائل بأننا نستطيع أن نستدل على وجود الله من أننا نستطيع أن نتمثل فكرة كائن كامل ، فالكائن الكامل واجب الوجود ما دام عدم الوجود نقصا ٠ ورد كانط على ذلك هو أن الوجود ليس محمولا ٠

وهناك مغالطات أخرى يسميها النقائض ، وأهمها بالنسبة لمذهب كانط فى مجموعه هو التناقض الذى يقوم بين (١) حرية الارادة (حيث تعد الارادة علة تلك الأفعال التى تصدر عن ذات مسئولة أخلاقيا ، وتكون مسئولة عن تلك الأفعال) وبين (٢) مبدأ السببية الطبيعية الذى ينطبق على الظواهر جميعا (والذى يعد أحد شروط الواقع الموضوعى) ، وهنا يفرق كانط بين « صورة » الحرية الأخلاقية التى لا تتعلق بالظواهر ، وبين « مقولة » السببية التى تنطبق على الظواهر ، وخبرتنا عن الالتزام الأخلاقى تستلزم منطقيا « صورة » الحرية الأخلاقية ، فهى صورة نستطيع ــ بل ينبغى ــ أن نفكر فيها ولكننا لانعرفها ، اذ نحن لا نستطيع أن نفكر فيها (و) أن ندركها ادراكا حسيا ٠ و « صورة » الحرية اللاظاهرية التى ينبغى أن نفترضها اذا كان الانسان كائنا أخلاقيا ، تتفق تمام الاتفاق

مع مقولة السببية التى يعد تطبيقها على الظواهر شرطا لمعرفة الوقائع ٠ وسنعود الى هذا الموضوع فى القسم الثانى ٠

وبينما نجد أن لتطبيق « المقولات » على الظواهر وظيفة مكونة ــ أى تكوين الظواهر لتصبح أشياء ــ لانجد «للصور» أية وظيفة من هذا النوع ــ كما رأينا من قبل ــ لكن لها وظيفة منظمة ، فهى « توجه الفهم الى هدف بعينه ٠٠٠ مما يحقق لنا أعظم وحدة وأعظم اتساع فى الوقت نفسه » ٠ و « للصور » ــ كما رأينا ــ جذور فى مطلبنا الخاص بالبحث عن الشروط التى تتوافر لأى حكم صادق من ناحية ، وجذور فى الافتراض القائل بأن مجموع تلك الشروط التى تكون سلسلة لامتناهية بالقوة ، انمـــا يعطى « بالفعل » على صورة متناهية من ناحيـــة أخرى ٠ وهذا الافتراض ــ على خلاف المطلب ــ منبع لمعرفة مصطنعة ، بيد أن مطلبنـــا يضفى على حكمتنا وحدة أعظم ما دمنا باتباعه نربط بين أحكامنـــا ــ بواسطة العـــلاقات الاستنباطية ــ ربطا منظما ٠

نقد العقل العملى

يختص هذا الجزء من الفلسفة النقدية بالمبادىء التركيبية القبلية التى تكمن وراء معرفتنا بما ينبغى أن يكون عليـــه الأمـــر وعلى الأخص معرفتنا بما ينبغى أن نفعله ، وهذا الشطر من الفلسفة النقدية يرمى الى عرض هذه المبادىء واثبات مشروعيتها ٠

والقانون الأخلاقى ــ الذى نستطيع أن نحدد به ما اذا كان فعل ما ملزما أو غير ملزم ــ ينكشف لنا عن طريق تحليل خبرة الانسان الأخلاقية واللغة التى يصوغ بها هذه الخبرة ٠ ويحـــاول كانط أن يبين أن الأخلاقيـــة أو اللا أخـــلاقية التى لفعل فاعل ليست صفة لسلوكه ، كما أنها ليست صفة لأية رغبة تعتمل فى نفسه لاحداث حالة بعينها من الحالات ، فهذه الصفات لايلزم عنها أن الشخص يؤدى واجبه من أجل الواجب ٠ ولكى نعرف ذلك ينبغى أن نعرف ما يطلق عليه اســم مبدئه الأخلاقى ٠ والمبدأ الأخلاقى عند الفاعل هو القاعدة العامة التى يصوغها لتبرير أفعـــاله

« لقد فعلت ما فعلت لأنه حيثما وجدت هذه الظروف فى أى مكان وزمان فينبغى على المرء أن يقوم بهذا الضرب من الفعل » .

ويذهب كانط الى أن مبدأ الشخص يكون أخلاقيـــا اذا تمشى مع القانون الأخلاقى ، اذا كان ثمة قانون أخلاقى ، والقانون الذى يستخلصه من تحليل الخبرة الأخلاقية صورى بحت ، وهو الأمر المطلق المشهور : ان مبدأ فعلى ـ وبالتالى الفعل الذى أقوم به تبعا لهذا المبدأ ـ انمـــا يكون أخلاقيا فى حالة واحـــدة ، وواحدة فحسب ، وهى ان أرانى قادرا على أن أريد له أن يكون قانونا كليا . وبهذا المحك الصـــورى تنقسم المبادىء الى أخلاقية ولا أخلاقية ، تماما كما تنقسم الأقيسة بوساطة الاختبارات الصورية الى صحيحة وباطلة ، فالمبادىء هى المادة التى نختبرها بذلك المحك الصورى . ولانستطيع أن نوغل هنا فى عرض كانط لكيفية تطبيق القانون الأخلاقى على الفكر والعمل ، كما لا نستطيع أن ننظر فى براهينه على أنه من الممكن التعبير عن القانون الأخلاقى بطرائق متعددة ، لكنها متعادلة ، وأبرز صياغة بين الصياغات التى يراها متعادلة فى تعبيره عن الأمر المطلق هى هذه :« اعمل بحيث تعامل الانسانية ممثلة فى شخصك وفى الأشخاص الآخرين جميعا ، لا باعتبارها وسيلة فقط . بل باعتبارها دائمـــا غاية أيضا » . وما من أحـــد يعيش فى ظل التقليد الأوربى يمكن أن يجد شيئا غامضا أو مغرقا فى الفنية فى هذه الصياغة .

وبخبرتنا عن الصراع بين الواجب والرغبة، نجد أنفسنا ملتزمين بالأمر المطلق ، ولكن هل هذا الالتزام موضوعى ـ لا بمعنى أنه صادق بالنسبة لخبرتنا الأخلاقية ، ولكن بمعنى أنه ممكن فى عالم يخضع لقانون السببية؟ ويجيب كانط بأن الالتزام موضـــوعى بكل ما فى الكلمـــة من معنى ، « فصورة » الحرية التى نستطيع أن نفكر فيها دون أن نعرفها ، ليست فقط مما يتطلبه احساسنا بالواجب ، اذ تتمشى هذه الصورة كما ذكرنا من قبل ـ من حيث سيطرة مبدأ السببية على العالم الظاهرى . فالانسان من حيث هو كائن لا ظاهرى يخضع للسببية ، ولكنه من حيث هو كائن أو كائن ينتمى الى عالم الشىء فى ذاته ، فانه حـــر ، فهو لايستطيع أن يعرف ماذا

تكون حريته تلك . بيد أنه يعلم مع ذلك « أنه » حر . ومن الممكن أن نثبت اتساق الحرية الأخلاقيـــة مع نظام الطبيعة ، ولكن لابد أن تظل طبيعة الحرية الأخلاقية سرا ملغزا .

من ذلك العرض السابق يتضح لنـــا أن الأخلاقيـــة فى نظر كانط لاتحتاج ــ كما يعرف الانسان واجبه ــ الى فكرة كائن آخر فوق الانسان ، أو الى دافع آخر غير القانون الذى يدفعه الى أداء واجبه .. ومهما يكن من أمر ، فان الأخلاقية تفضى حتما الى افتراض أن الفضيلة ترتبط ارتباطا ما بالسعادة ، وأن كلا منهما يرتبط بالآخر ارتباطا محكما ، وعلى هذا النحو توحى الأخلاقية بصورة عن قوة من شأنها أن تصون هذا الترابط . غير أن الرابطة بين الدين والأخلاقيـــة ليست منطقية ، اذ تقوم على فعل من أفعال الايمان الذى يفسر الاتساق بين الحرية الأخلاقية والطبيعة المجبرة فى سيرها السببى ، ولولا تفسيرنا ذلك الاتساق بالايمان لظل أمرا ملغزا . وافساح المكان لهذا الفعل من أفعال الايمان بوجود الله هو مأثرة أعظم ــ فى نظر كانط ــ من ايراد البراهين الباطلة على هذا الوجود .

نقـد الحكم

حاول كانط فى « النقدين » الأولين أن يستكشف ويبرر المبـــادىء المفترضة افتراضا سابقا فى أحكامنا « الموضوعية » عما هو كائن ، وعما ينبغى أن يكون ، ولكنـــه فى « نقد الحكم » معنى بالكشف عن المبادىء « الذاتية » التى تكمن عند الجذور فى (١) بحثنا عن نسق ما فى تفسيراتنا للظواهر الطبيعية (٢) وفى ادراكنا للجمال . والفكرتان الرئيســـيتان اللتـــان يبحث فيها النقـــد الثالث هما فكرة القصد والقصدية (ويعنى بالكلمة الأخيرة الانســـجام الذى قد ندركه دون التعرف على أى قصد خـــاص) .

وفكرة القصد متضمنة فى « أى » تفسير علمى ، فكل تفسير من هذا النوع انما يقوم دائمـــا على الافتراض الضمنى بأن القوانين التجريبية الخاصـــة التى نستكشفها هى أكثـــر من مجرد اقتران غير ذى رباط ،

أو كومة من التعميمات غير المترابطة ، فنحن نبحث عن وحـــدة منتظمـة بعينها ، وهذا يســـتلزم امكان اعتبـــارها « وكأن عقـــلا فاهمـــا (وان لم يكن عقلنا الفاهم) قد قدمها لملكاتنا الادراكية لكي يجعل في الامكان قيام « نسق » من الخبرة يجيء متمشيا مع قوانين الطبيعة » . هذا الافتراض الذي يؤكد طابعه الافتراضي لفظة « وكأن » ليس جملة تصف الواقع ، وانما هو مبدأ ذاتي منهجي .

والى جانب الافتراض العام عن وجود انســـجام بين عقلنا الفاهم والطبيعة التي نحاول فهمها ، ينظر كانط في مجالات خاصة من مجالات البحث والتفسيرات الغائية التي تستخدم فيها أحيانا ، ولهذه التفسيرات فائدتها في تمهيد الطريق للتفسيرات السببية أو في ملء ثغرات سببية مؤقتة ، بل ربما كانت ثغرات دائمـــة و « فكرة » الأغراض في الطبيعة « فكرة » نافعة ولا غنى عنها من الناحيـــة المنهجية ، ولكنها باعتبـارها « فكرة » فهي تختلف عن « المقولات » من حيث انها لا سبيل الى تطبيقها تطبيقا موضوعيا .

ويثبت كانط أن التفسـيرات الغائية تدعم الافتراض القـائل بأن « الكون صـــادر عن كائن عاقل .. موجـــود خارج العالم » بيد أن الغائية ـ حتى في أكمل درجاتها ـ لا تبلغ أن تكون برهانا على وجود الله مادامت هذه المبادىء الغائية لا تزيد عن كونها عبارات ذاتية عن « ملكاتنا الادراكية بحالتها التي هي عليها » .

وقد رأينا أن كانط يعترف بالقصدية خالية من القصد ، والحق أنه يعرف الجماد بأنه « صورة القصدية من حيث انها تدرك بمعزل من مثول قصد بعينه » . وترجع وحدة الخبرة الجمالية (الاستطيقية) الى تفاعل غير محدد بين ملكات الادراك الحسي والخيـــال من ناحية ، وبين العقل الفاهم من ناحية أخرى ، وأن الخبرة الجمالية (الاستطيقية) لتدعونا الى أن يقوم العقل الفاهم بتطبيق المدركات العقلية عليها ، مع أنها أغزر من أن تمسك بها تلك المدركات العقلية .

على أن الحكم الجمالى (الاستطيقى) الى جانب اضفائه القصدية على ما نحكم عليه بأنه جميل ـ يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن الشىء الجميل يرتبط ارتباطا ضروريا بشعور باعث على اللذة ، وأنه بوصفه شيئا جميلا يعد موضوعا للمنفعة ، وأنه يثير اللذة فى نفوس الناس جميعا · هذه العمومية المطلوبة للأحكام الجمالية (الاستطيقية) تختلف تمام الاختلاف عن العمومية (الموضوعية) التى تتصف بها الأحكام التركيبية القبلية ، اذ ليس لها فى ملكاتنا الادراكية غير أساس ذاتى بحت ، ومن هذه الناحية تتساوى الأحكام الجمالية (الاستطيقية) مع التفسير الغائى ·

ولم يكن المقصود من نقد كانط للحكم أن يحل محل (النقدين) الآخرين بأى حال من الأحوال ، وليس من الممكن تأييد مثل هذا التأويل ، الا اذا ذهبنا الى أنه قد نظر الى « القصد » و « القصدية » باعتبارهما مقولتين مكونتين لواقع موضوعى ·· بيد أنه من الواضح أنه قد عامل « القصد » و « القصدية » على أنهما « فكرتان » ·

تأثير كانط

فيما يتعلق بالرياضيات اعتنق هلبرت والمدرسة الصورية من ناحية وبرونر والحدسيون من ناحية أخرى ، رأى كانط القائل بأن الرياضيات تتألف من قضايا تركيبية قبلية تصف تركيب المكان والزمان والبناءات التى تقوم فيهما ، وأن هلبرت ـ بالاضافة الى ذلك ـ ليعد اللامتناهى الفعلى فكرة كانطية ، أما فيما يختص بفلسفته عن العلم ، فقد حافظ عليها أنصار المذهب المضاد للظاهرية واعتنقها أينشتين بصورة جوهرية · وقد أثر رأيه عن وظيفة « الصور » على بيرس وعلى غيره من البرجماتيين مثل فيهنجر · وبراهين كانط عن النقائض التى تنشأ حين تؤخذ « الصور » على أنها مميزة للواقع الموضوعى ، مصدر من مصادر نظرية هيجل القائلة بأن الواقع مناقض لذاته ، وأن المناقضات ترتفع باعادة تركيب « الصورة » تركيبا ديالكتيكيا (جدليا) ·

وقد كان تأثير آراء كانط المضادة للطبيعة قويا غاية القوة على الحدسيين الأخلاقيين الذين جاءوا بعدئذ ، كما ارتضى كثير من فلاسفة الأخلاق فى المدارس المختلفة تفرقته بين العقل الخالص والعقل العملى ·

الأبطال

توماس كارلايل

١٨٤١م

عندما نشر المؤرخ الانجليزى الأشهر « توماس كارلايل » هذا الكتاب الجامع ـ بعد أن ألقاه فى سلسلة محاضرات بمدينة لندن خلال سنة ١٨٤٠ ـ أحدث هزة هائلة فى الأوساط والمحافل الأدبية والعلمية ٠٠ فقد كان المألوف فى كتابة التاريخ حتى ذلك الحين أن يستمد الكاتب أصل الأحداث من الحركات والتيارات السياسية ، والاتجاهات المختلفة التى تسير دفة الأمور دون الالتفات الى « شخصيات » الرجال والأبطال ، وأثرها القوى فى اعداد العدة لتلك الأحداث ٠٠ فاذا بكارلايل يجىء فيهدم هذه النظرية العتيقة ليبنى على أنقاضها نظريته الجديدة التى تعتبر سيرة حياة الزعيم أو البطل بمثابة العنصر الأساسى من عناصر تاريخ أمته ٠٠ فكارلايل يؤمن ايمانا عميقا بالوحى شبه الالهى الذى يلهم عظماء الرجال ، ويؤمن بمدى نفوذهم على تاريخ شعوبهم وأثر الرسالات التى يضطلعون بها فى صنع مستقبل بلادهم ٠

و « توماس كارلايل » (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) أحد الكتاب المبرزين فى تاريخ الأدب العالمى ، وقد حفل الأدب البريطانى فى القرن التاسع عشر بطائفة من كبار الكتاب والنقاد والشعراء والمؤرخين ، ولكن « كارلايل » كان مع ذلك أجلهم شأنا ، وأبعدهم شهرة وأسماهم مكانة ٠

ولم يكن « كارلايل » كاتبـا كبيرا فحسب ، وانما كان كذلك رجلا عظيما ، عظيما فى شخصـيته الواضحة المعالم الخالصـة الجوهر ، وفى اخلاصه وصراحته ، وفى جلده العجيب على البحث والتحرى والتحقيق ، ومثابرته الدائمة على التأليف والتفكير دون أن يعبأ بالشهرة أو بالمال ٠ وقد ظل طوال حياته يصدع برأيه ويدلى بحكمته دون أن يبالى أوقعت فى النفوس موقع القبول والاستحسان أم موقع الضيق والاستهجان ؟ ولم يكن اعجاب الجمهور به أو تقديره لأدبه وشخصيته ليحمله على أن يقول

غير ما يعتقد ليستبقى هذا الاعجاب ويحتفظ بتلك الثقة · وقد ظل قرابة ربع قرن وهو يشغل مكانة مرموقة بين معاصريه ·

وكان ما يمقته « كارلايل » ويحمل عليه تظل آراؤه فيه تنتقل من فم الى فم وتردد فى الأندية المختلفة فيقره بعض الناس على آرائه، ويتلقاها بعضهم بالرفض والاستنكار ، ولكن الاتجاهات التى كان يوافق عليها ويشيد بها كان يكفيها موافقته واشادته دليلا على صحتها ، وباعثا على تأييدها ·

وكان جميع الناس يعلمون أنه وصل الى تكوين معتقداته واعتناق افكاره بعد أن خاض لجج التجربة الشخصية وبذل مجهودا فكريا ، وأنه علم نفسه قبل أن يتطلع الى تعليم غيره ، وأنه مهما كان التقدير الذى تلقاه آراؤه وتظفر به رسالته فان نزاهته واخلاصه وصراحته فوق متناول الشكوك ، كما أن له من المؤلفات العظيمة ما يدعم مكانته ويبعد صيته وشهرته ·

وحياة « كارلايل » مثل حياة أكثر الكتاب والمؤلفين لم تتخللها أحداث خارجية عظيمة ، فهى تكاد تكون مقصورة على مغامراته الفكرية والمؤلفات التى استأثرت بجهده واستغرقت وقته ، وحياته الزوجية وعلاقاته بأصدقائه القليلين المختارين ، مثل « ارفنج » و « ستيوارت مل » و « براوننج » وغيرهم من الكتاب والمفكرين ·

ولد توماس كارلايل لأب بناء ، وكان أكبر اخوته التسعة ، أرسله أبوه الى مدرسة القرية ، فالى المدرسة الثانوية ، ولما كان الفتى ذا نبوغ ظاهر قرر الوالد أن يبعث به الى جامعة « ادنبره » ليتلقى تعليمه العالى فى الدين اعدادا له ليكون فيما بعد قسيسا ، وسار الفتى على قدميه من بلده الى « ادنبره » وهى مسافة طولها مائة ميل ، بلغها وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، ولكن أين لهذا الصبى الفقير بمصروفات الجامعة ؟ لابد له أن يلجأ الى ما يلجأ اليه أبناء الأسر الفقيرة عادة فى اسكتلندة ، وهو أن يشتغل ليكسب قوته ابان دراسته الجامعية · وأخذ كارلايل يشتغل بالتدريس بعض وقته ، ثم ما لبث أن تبين فى نفسه نفورا من هذا الذى أريد منه أن

يدرسه فانحرف عن ذلك الطريق ليكتب مقالة هنا ومقالة هناك، ثم ليدرس اللغة الألمانية ، وفي هذه الدراسة كانت ولادته الأدبية ، فقد انفتحت له آفاق فسيحة ، عرف أولا كيف يصوغ انجليزيته صياغة ألمانيا ثم عرف ثانية كيف يفكر ٠

لما بلغ « كارلايل » عامه الثلاثين ، جاء الى لندن مربيا لأولاد أحد الأغنياء ، ولم يمض طويل وقت حتى صادف من أصبحت له فيما بعد شريكة حياته ، وبعد زواجه سافر الى « ادنبره » حيث أخذ يكتب في النقد الأدبى ، لكن الزوجين لم يجدا هنالك ما يقتاتان به فعادا أدراجهما الى لندن ، ومن ثم أخذ يخرج نتاجه الأدبى « الثورة الفرنسية » و « فلسفة الملابس » و « الأبطال وعبادة البطولة » و « الماضى والحاضر » و « خطابات أوليفر كرومويل وخطبه » و « تاريخ فردريك الأكبر » ٠

وآيته الكبرى هى « الثورة الفرنسية » التى قص قصتها فى صورة حية ناصعة ٠ فكارلايل مؤرخ موهوب ، يبعث الحوادث والأشخاص بعثا جديدا ، فاذا أنت ازاء حياة تجرى فيها الدماء ، وأشخاص يتحركون وينشطون كما يتحرك الأحياء وينشطون ، ومن خصائصه فى وصف الأشخاص أنه كثيرا ما يوفق الى عبارة واحدة تلخص كل شىء عن الرجل الذى هو بصدد الحديث عنه ٠

فرغ « كارلايل » من كتابه « الثورة الفرنسية » ، فأعار المخطوط الى « مل » ليقرأه قبل طبعه ، وحدث أن أعاره « مل » بدوره الى سيدة تدعى « مسز تيلر » فألقت به خادمتها فى النار ظنا منها أنه أوراق مهملة ٠ ولم يكن عند « كارلايل » نسخة أخرى ، ولم يستطع أن يستعيد بالذاكرة عبارة واحدة فأخذ نفسه بكتابته من جديد ٠ ولم ينقطع أسفه على الصورة الأولى لأنها كانت فى رأيه أروع ، وان تكن زوجته تخالفه الرأى فى هذا ، فعندها أن الصورة الثانية أقل من الأولى حيوية ، لكنها أكثر تنسيقا وأنظم تفكيرا ٠

أما كتابه « فلسفة الملابس » فيعرض رأيه فيه بأن العمل واجب مقدس على الانسان ، وبأن احتمال المكاره فى سبيله فرض واجب ،

وليست السعادة التى ننشدها جميعا الا شعور الاطمئنان الذى نحسه اذا ما أدينا واجبا « بارك اللهم فيمن وجد عملا يؤديه ، ان فى هذا وحده البركة التى لا بركة وراءها ترجى » . ان العمل المتقن معناه النظام ، والنظام شىء تمناه « كارلايل » لبلاده ، بل للانسانية جمعاء ، متأثرا فى ذلك بما درس من الأدب الألمانى والروح الألمانى .. فلن تفهم «كارلايل» حق الفهم الا اذا وضعت نصب عينيك انه ألمانى الثقافة ألمانى التفكير . ولقد قيل ان انجلترا فى عصر فيكتوريا كانت ألمانية النزعة والاتجاه بتأثير الملكة فكتوريا نفسها وزوجها الألمانى ، لكنها كانت كذلك أيضا بتأثير « كارلايل » الذى كان له من الأثر على معاصريه ما لم يكن لكاتب آخر فى عهده .

اما آيته الكبرى الثانية فهى كتابه عن « الأبطال » ، الذى سنتحدث عنه بعد قليل . وهو يصور البطولة فى شتى نواحيها ، بطولة الحرب وبطولة الدين وبطولة الشعر وهكذا . وهو فى عبادته للبطولة وايمانه بها يبشر بالفلسفة الألمانية أيضا ، تلك الفلسفة التى كان « نيتشه » بعد ذلك لسانها الناطق .

سر العظمة والبطولة

اقترحت الآنسة « هاريت مارتينو » (١) على كارلايل القاء سلسلة من المحاضرات .. وجمعت الاشتراكات لها وبدأها « كارلايل » بالقاء محاضراته عن الأدب الألمانى فى سنة ١٨٣٧ . ونجحت المحاضرات نجاحا باهرا .. فأتبعها « كارلايل » بالقاء ثلاث سلاسل أخرى من المحاضرات عن تاريخ الانسان الروحى من أقدم العصور حتى عصره فى سنة ١٨٣٨ ، ومحاضرات عن الثورة الفرنسية فى سنة ١٨٣٩ ، واختتمها بمحاضراته عن الأبطال وعبادة البطولة فى سنة ١٨٤٠ ، وقد ظفرت هذه المحاضرات بالتقدير الكبير عند القائها ، ثم ظهرت مطبوعة فى سنة ١٨٤١ فى كتاب « الأبطال وعبادة البطولة والبطل فى التاريخ » وهو ليس من كتبه الضخمة الحافلة التى أمضى السنوات الطويلة فى اعدادها مثل كتابه عن الثورة الفرنسية أو كتابه عن رسائل « كرومويل » ، أو كتابه عن تاريخ

« فردريك الثـانى البروسى » ، ولكنه مع ذلك يمثـل المدخل الى فلسفته التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وقد حـاول « كارلايل » فى هذه المحاضرات بسط الكثير من أفكاره الرئيسية ، وبخاصة الأفكار التى ذكرها فى صورة رمزية شـعرية فى كتاب الملابس ، كما كشف فيهـا عن تصـوره للتاريخ ومنهجه فى اسـتقراء حوادثه ، وتفهـم ثوراته وانقلاباته ، وقد اسـتهل المحاضرة الأولى بقوله الذى أوضـح اتجاه المحاضرات من بادىء أمرها : « التاريـخ العـام أو تاريـخ ما أنجزه الانسـان ، هو فى صـميمه تاريخ عظمـاء الرجـال الذين عملوا فى هذه الدنيا ، وقد كان هؤلاء العظمـاء هم قادة الناس وهم المبتدعون والقدى ، بل هم بالمعنى الواسع مبتـكرو كل ما حاول السـواد الأعظم من الناس أن يعملوه ، وكل ما نراه فى هذه الدنيا قائما ومكتملا هو بحذافيره النتيجة المادية الخارجيـة والتحقيق العلمى والتجسيم للأفكار التى استقرت فى نفوس عظماء الرجـال الذين أرسلوا الى هذه الدنيا . ويمكن ان يقـال بحق ، ان روح تاريخ العـالم برمته هو تاريخ هؤلاء الرجـال » .

وهؤلاء الرجال العظماء سواء كانوا شعراء أو مصلحين أو كتابـا أو رجال أعمال أو رجال دين ، فانهم جميعا يحملون بين جنوبهم هذا السر الغـامض سر العظمة والبطولـة الذى تنزل عليهم وأودع فى قلـوبهم . فليسوا هم من مخلوقات الظروف وصنع الحوادث ، وانما هم الذين يخلقون الظروف ويصنعون الحوادث ويملون ارادتهم ، ويحققون مثلهـم العليا . ويقول عنهم « كارلايل » : « مثل هذا الرجل هو ما ندعوه الرجل الأصيل الطريف ، وهو رسـول موفد من المجهول اللانهائى يحمل الينا الأخبار والبشائر ، يحملها الينا مباشرة من الحقيقة الداخلية الباطنة للأشياء ، وهو يعيش متصلا اتصالا دائما بهـذه الحقيقة ، ولا تستطيع الاشاعات الباطلة والتخرصات الكاذبة أن تحجبها عنه ، انه مقبل من قلب الوجود النابض ، وهو جزء من الحقائق الأولية للأشياء » .

ومثل هذا الرجل العظيم أو البطل ، لا يستطيع جهل العصر الذى يظهر فيه ونقائصه وعيوبه أن تشوه رؤيته الأصيلة أو تمحو نضارتها . وهو قد وصل الى حقيقـة مجدية تهب القوة والحياة ، ومن أجـل هذه

الحقيقة يلتفت اليه وينزل على رأيه ويؤخذ بقوله ، وهو قوى بها ، وما كشفه هذا الرجل خالد على الزمن ، وتأثيره باق ولا يزول . وقد أكد « كارلايل » هذه الفكرة فى كتابه عن رسائل « كروميل » وخطبه ، الذى فرغ لتأليفه بعد انتهائه من القاء محاضراته حيث قال : « أعمال الرجل العظيم باقية لا ينالها البلى ، ولا تخلق جدتها ، ولو دفنت تحت أكوام من الأسمدة وتلال من النفايات والقاذورات . وما استودع فى الانسان وحياته من البطولة ومن الضوء الخالد يضاف الى الآباد فى دقة متناهية واستيفاء تام ويبقى جزءا مقدسا جديدا من حصيلة الأشياء » .

ويردد « كارلايل » هذا الرأى تأييدا لما سبق أن قاله فى كتابه عن الأبطال ، فقد قال فى المحاضرة الأولى : « ليس هناك شعور فى قلب الانسان أنبل من هذا الشعور بالاعجاب بمن هو أسمى منه وأجل شأنا ، وهذا الشعور حتى هذه الساعة وحتى جميع الساعات القادمة هو التأثير الحى فى حياة الانسان . والدين فى اعتقادى يقوم على هذا الشعور أليس الولاء الصادق وهو روح حياة المجتمعات منبثقا من عبادة البطولة والاعجاب المستسلم الخاضع بالرجل العظيم ؟ حقا ان المجتمع قائم على عبادة البطولة » .

وهذا الشعور عند « كارلايل » هو أعمق ناحية فى الانسان ، وهو موجود حتى فى عصور الهدم والتدمير وعهود التنقص والازدراء ، لأنه كامن فى نفس الانسان لاصق بطبيعته . وفى ذلك يقول « كارلايل » فى كتابه عن الأبطال : « يبدو لى أننى أرى فى عبادة الأبطال التى لا يستطيع أن ينال منها شىء ، الصخرة الراسخة التى تحول دون سقوط الدول فى مهاوى الهلاك وأعماق الخراب » .

ويمكن أن نتبين فى تضاعيف هذا الحديث شدة تأثر « كارلايل » بالتفكير الألمانى . فنظرية « كارلايل » فى الأبطال من وجوه كثيرة تطبيق عملى للفكرة التى غلبت على التفكير الألمانى فى أوائل القرن التاسع عشر ، وهى أن كل أمة من الأمم ، وكل عصر من العصور ، وكل حضارة من الحضارات لها فكرتها الخاصة الغالبة المستغلية . وهى تستمد سماتها من

هذه الفكرة العامة ، ويمكن أن نستخلص الفلسفة والدين والفنون وجميع عناصر الفكر والعمل من هذه الفكرة الرئيسية العامة التى ينبع منها كل شيء كما ينتهى اليها كل شيء ، وما أسماه « هيجل » فى كتابه عن فلسفة التاريخ « الفكرة » جعله « كارلايل » بحكم مزاجه البريطانى العملى « العاطفة البطولية » ولكى يتجنب الغموض نظر الى هذه العاطفة البطولية ممثلة فى بطل معين . وقد كان « كارلايل » كاتبا فنانا مطبوعا ، ولذا لم يجد صعوبة فى تحويل الفكرة المجردة الى عاطفة ، ثم منح هذه العاطفة جسدا وروحا وذلك باظهارها ممثلة فى أبطاله ، فهو بطبيعته لا يرتاح الى الصور المجردة ولا يأنس بالمفاهيم الفكرية ، وانما يروقه ويرضى نزعته الفنية وشعوره أن يراها مجسمة فى الأشخاص البارزين والأبطال العظماء .

فالرجل العظيم أو البطل فى رأى « كارلايل » يمثل الحضارة التى اشتملت عليه والعصر الذى احتواه ، وقد كشف فكرة العصر وأعلنها ووقف الى جانبها مناضلا عنها رافعا لواءها . ولم يجد عصره متحولا عن أن يتبعه وينقاد له . فالوقوف على هذه الفكرة ممثلة فى العاطفة البطولية وموقف البطل يجعلنا نفهم العصر بأبطاله ، وقد استطاع « كارلايل » بانتهاجه هذا المنهج أن يعرف تاريخ العصور عن طريق دراسته لحياة الأبطال الذين برزوا فيها ، وأصبحوا علما عليها وعنوانا لها ، وكأنه بهذه الطريقة قد أعاد كشف ما سبق أن كشفه أساتذته الألمان ، فقد شعر مثلهم بأن كل حضارة مهما اتسعت رقعتها وطال عهدها هى كل متماسك الأجزاء متجاوب الأنحاء ، فنظريته فى البطولة جمعت الأجزاء المتناثرة فى الحضارات والعصور التى حاول « هيجل » أن يربطها بعضها ببعض بطريق القوانين التى كشفها ، وأمكن لـ « كارلايل » بذلك أن يفهم العلاقة العميقة البعيدة بين الأشياء ، تلك العلاقة التى تربط الرجل العظيم بعصره . والشعور البطولى هذا اذن هو باعث المشاعر الأخرى ، كالطاعة والولاء والحب والاعجاب ، وهو محرك الثورات وباعث الانقلابات ومجدد الحياة الانسانية ومنقذها من الضلال والتخلف والجمود ، وعلى المؤرخ الحق أن ينظر الى الحضارات والثورات وشتى مظاهر الحياة الانسانية فى ضوء هذا الشعور البطولى ، لأنه باعث كل حركة ، والذين يكتفون فى

التاريخ بالنظر الى النظم والأوضاع والقوالب والصيغ . يغيب عنهم الجوهر واللباب ، فليس الانسان مخلوقا هامدا جامدا تاضب الحيويه مغلول العزيمة تصوغه القوانين والنظم ، ولا هو كائنا عديم الحياة فاقد الحس تعبر عنه الصيغ وتتضمنه القوالب . والتاريخ الحق ملحمة بطولة الانسان وقصة محاولاته العظيمة وأعماله الجليلة المدوية فى صفحات التاريخ .

والأبطال الذين اختارهم « كارلايل » فى محاضراته من بين العدد الكبير من الأبطال الذين يعجب بهم هم أحد عشر بطلا . والظاهر أنه رأى الاقتصار على الحديث عنهم ، ليكون ذلك أدعى الى التركيز وأبلغ وقعا فى النفوس . فالبطل فى صورة اله هو « أودين » اله « الاسكندنافيين » . والبطل فى صورة نبى هو نبينا الكريم «محمد بن عبد الله (ﷺ) . واختار البطل فى صورة شاعر الشاعرين العظيمين « دانتى » و « شكسبير » . ومثل للبطل فى صورة مصلح دينى بكل من : « لوثر » و « نوكس » . وضرب مثلا للبطل فى صورة كاتب بـ : « جونسون » و « روسو » و « بيرنز » . وقدم لنا « كروميل » و « نابليون » مثلين للبطل فى صورة ملك .

ويؤكد لنا « كارلايل » أن علينا أن نقترب من هؤلاء الأبطال بنفوس ملؤها الرهبة والاجلال ، لأنهم يضطلعون بالواجب الاسمى ، ولا يخضعون لمعايير النقد العادية . وقد لا يخلون من عيوب ونقائص — وان كان « كارلايل » يحاول أن يهون من شأن تلك العيوب والنقائص أو ينكرها جملة — ولكن مع ذلك علينا أن نحبهم ونحترمهم ونحنى الرقاب أمام عظمتهم .

١ — البطل فى صورة اله :

وفى محاضرته عن البطل فى صورة اله يقول توماس كارلايل :

نتناول هنا موضوع « البطولة » و « عبادة البطولة » فى تاريخ البشرية وهو موضوع لا يقل اتساعا ولا شمولا عن التاريخ نفسه . فان تاريخ ما أداه الانسان فى هذه الدنيا هو فى لبه تاريخ العظماء الذين أسهموا فى تقدمها .

ومن الأقوال الصائبـة ان دين الانسـان هو أهم حقيقة عنه .. ولا أعنى بدينه مذهبه فى العبادة ، وانما أقصد الشىء الذى يؤمن فعلا به والطريقة التى يشعر بأنه مرتبط بها روحيا بالعالم غير المرئى .. هل كان يؤمن بالوثنية أو تعدد الآلهة أو مجرد التمثيل الرمزى للغز الحياة ؟ ـ وفى هذه الحالات تكون القوة الطبيعية المادية هى العنصر الرئيسى ـ أو كان يؤمن بالمسيحية وبأن الذى لا يرى (بضم الياء وفتح الراء) هو الحقيقة الوحيدة ، وبأن الزمن يستند الى الأبدية ، ومن ثم تكون السيادة القدسية قد حلت محل السـلطان الوثنى ؟ أو كان يتجه الى الالحاد والتشكك والبحث عما اذا كان هناك عالم غير مرئى .. أو يتجه الى عدم الايمان والانكار الصريح ؟

ان الاجابة عن هذه الأسئلة تهيىء لنا لب تاريخ الانسان من حيث معتقداتـه .

ولنتخذ « أودين » ـ الصنم الرئيسى لدى وثنيى اسكندناوة رمزا للبطل فى صورة الاله .. وأول ما ينبغى أن أجاهر به فى هذا الصدد معارضتى للنظرية القائلة بأن تلك الوثنية ـ أو أية ديانة أخرى ـ انما تألفت من دجل وكهانة وخداع .. فالدجل لا يخلق شيئا بل يجلب الموت على كل شىء ، والانسان فى كل مكان عدو بالفطرة للأكاذيب .

وقد كانت الوثنية يوما حقيقة خالصة لدى معتنقيها .. وكان جلال الطبيعة أو الدنيا ـ الذى لا يتبدى اليوم الا للموهوبين ـ يتجلى اذ ذاك أمام كل من تأملها . وكان جسم الانسان وسر وعيه أكثر ما فى العالم جلالا وغموضا ، فكانا رمزا لله وأهلا « للعبادة » فى نظر الناس فى تلك العهود .

فأى شىء أقرب الى المعقول اذ ذاك من عبادة البطل .. من الاعجاب السامى بالرجل العظيم ؟ .. ان اعجاب المرء بمن هو أسمى منه هو المؤثر الحيوى فى حياة الانسان ، وهو البذرة الأولى للمسيحية .. ولا شك فى أن شعوب « اسكندناوة » الشمالية ، تلك قد أوتيت معلما وزعيما سبق سواه .. أوتيت بطلا حقيقيـا من دم ولحم ، كان هو الموحى لها بالهها الصنم « أودين » .. وتصف الأساطير هذا البطل بأنه مخترع الحروف

الأبجدية الاسكندنافية وبأنه مبتكر الشعر ·· ذلك لأن هذا الانسان النبيل المخترع والمبتكر كان حريا بأن يبدو لأهل الشام فى بداوتهم بطلا ونبيا والها ·· وأن ماروى عن « أودين » البشرى من أنه تكلم بصوت بطل وبوحى من السماء فنبأ قومه بها للشجاعة والشهامة من أهمية لا حد لها ·· ومن أن قومه آمنوا برسالته هذه ، واعتقدوا أنها من السماء وأنه ذو قداسة لأنه أبلغهم هذه الرسالة ·· كل هذا يبدو لى كبذرة أولى للدين لدى أهل الشمال ·· لأن ذلك الدين كان يمجد الشجاعة ويقدسها ويفرضها فرضا ··

٢ ـ البطل فى صورة نبى

وفى الفصل الخاص بموضوع البطل فى صورة نبى يقول :

ان العقيدة المحمدية بين العرب أوضح مثل للظاهرة الثانية من ظواهر تكريم الأبطال ، حيث لا ينظر الى البطل كاله ، وانما كملهم من الله ·· كنبى ·

فلنحاول أن نفهم ما كان « محمد » (ﷺ) يعنيه بالدنيا · أو بالأحرى **ما كانت تعنيه الدنيا لديه ·· انه بالتأكيد لم يكن دجالا ولا محتالا واسع الدهاء ولا مزيفا ·· والفروض القائلة بأنه كان كذلك ليست سوى نتاج** عصر الحاد ، فهى تكشف عن ألوان من الشلل الروحى تدعو للأسى ··· أفيقوى مدع زائف على ايجاد دين ؟ ·· ان الزائف لا يستطيع أن ينشىء شيئا ولو كان هذا الشىء بيتا من طوب ·· وما كان ميرابو ولا نابليون ولا بيرنز ولا كروميل ولا أى مخلوق ليستطيع أن يفعل أمرا ، ما لم يكن قبل كل شىء صادق الايمان به ·· فان الاخلاص وصدق الايمان هما **أعظم ما يميز جميع أولئك الذين يأتون عملا من أعمال البطولة ··**

والعرب شعب جدير بالذكر ·· بل ان بلادهم ذاتها أهل لأن تذكر ·· تصور آفاقا شاسعة رملية جرداء خالية صامتة كالبحر ·· وأنت فيها وحيد فى خلوة مع الكون ·· تضليك فى النار شمس ذات شواظ ووهج لا يحتمل ، وتغطيك بالليل السماء الواسعة العميقة ذات النجوم ·· انها بلاد تصلح لقوم من البشر خفيفى الأيدى كبيرى القلوب ··

ومن ثم يمتاز العربى بأنه يقظ نشيط خفيف الحركة ٠٠ وأنه أكثر الناس استغراقا فى التفكير والتأمل وأشدهم تحمسا وغيرة ٠٠

وهكذا كان العرب كرماء جسورين صرحاء صادقين عميقى الايمان٠٠ وكانوا بخلالهم العظيمة يرتقبون اليوم الذى يظهرون فيه للعالم ويستأثرون باهتمامه وتقديره ٠٠

وبين هؤلاء القوم ولد محمد (ﷺ) فى سنة ٥٧٠ ، فشب فى أحضان البادية وحيدا مع الطبيعة ومع أفكاره ٠ وقد عرف من باكورة عمره بأنه يفكر وكان زملاؤه يلقبونه بـ « الأمين » ٠ وبلغ الأربعين من عمره قبل أن يتحدث عن أية رسالة من السماء ٠ وكان طيلة هذا العمر يمارس حياة وادعة هادئة ينفذ فيها ببصيرته خلال مظاهر الأشياء الى الأشياء ذاتها ٠٠

ثم ٠٠ وبعد أن قضى شهرا معتزلا فى غار بالقرب من مكة يصلى ويتأمل ، أنبأ زوجه خديجة بأنه ــ بفضل نعمة من السماء لا سبيل إلى وصفها ــ لم يعد يتخبط فى الظلمات بل وضح لبصيرته كل شىء ٠٠ فاذا كل هذه الأصنام والأوثان هباء وليس هناك سوى اله واحد فوق الجميع ٠٠ فالله كبير ٠٠ وهو الحق ٠٠ (الله أكبر) ٠٠ وهكذا جاء الاسلام يدعو الى طاعة « الله » ٠٠

وهذا هو المذهب الصادق الوحيد الذى عرف حتى الآن ٠٠ فالرجل يصيب فى تصرفاته ويغدو عزيز الجانب طالما ربط نفسه بالقانون العظيم العميق ، المسيطر على الدنيا ، على الرغم من كافة القوانين الموضوعة والمظاهر المؤقتة الزائلة ، وكل حساب وتدبير ٠٠٠ وهذه هى روح الاسلام ٠٠ وهى أيضا عين روح المسيحية ٠٠ فعلينا أن نتقبل كل ما يحدث لنا على أنه من الله المهيمن علينا ٠٠ والاسلام يرمى ــ بطريقته الخاصة ــ الى انكار الذات وقمع النفس ٠٠ وهذه هى أسمى حكمة كشفتها السماء لعالمنا الأرضى ٠٠ وانى لأجد فى محمد ــ وفى قرآنه ــ الصدق والاخلاص والتحرر الكامل من الزيغ والضلال قبل كل شىء ٠٠٠ وقد ظل دينه طيلة هذه القرون الاثنى عشر مرشدا لخمس الجنس البشرى ٠٠ وظل ــ قبل كل شىء ــ موضع ايمان قلبى عميق ٠٠

لقد كان العرب شعبا ضيق الأفق ، فبعث اليهم نبى بطل ، فلم ينقض قرن حتى كان العرب قد وصلوا الى غرناطة من ناحية والى دلهى من ناحية أخرى ٠

٣ ـ البطل فى صورة شاعر

يقول كارلايل :

ان البطولة التى تتمثل فى القداسة أو النبوة من نتاج العصور الغابرة ، ولا سبيل الى تكرارها فى العصور الحديثة ٠٠ ومن ثم فنحن نرى بطلنا الآن فى صورة أقل طموحا ، ولكنها أيضا أقل استدعاء للشك أو للتساؤل ٠٠ تلك هى صورة الشاعر ٠٠ اذ ان البطل يستطيع أن يكون شاعرا أو ملكا أو كاهنا أو ما شئت له أن يكون تبعا لنوع الوسط الذى يولد فيه ٠٠ ولا أكاد أتصور عظيما حقا يعجزه أن يكون أى نوع من العظماء ٠

والواقع أن الشاعر والنبى سواء فى محاولة فض مغاليق أسرار الكون ، وان كان النبى ينفذ الى السر المقدس من ناحيته الخلقية ، فى حين أن الشاعر يستشفه خلال بحثه عن الجمال ٠٠ فالشعر أغنيته بطبيعته ، اذ ان أفكاره موسيقية ، لا فى اللفظ فحسب بل وفى صميمها وصوغها وموضوعها ٠٠

مقارنة بين شكسبير ودانتى

ولنأخذ مثلا « شكسبير » و « دانتى » الشاعرين اللذين ارتقيا الى مراتب تقرب من القداسة ٠

لقد عاشا بعيدين أحدهما عن الآخر ٠٠ ولم يكن لهما من نظير ، بل كان كل منهما فردا فذا ٠٠ ولقد وضع دانتى كتابه فى المنفى وسجله بدماء قلبه ٠٠ واتخذت روحه العظيمة المشردة فى الأرض لنفسها وطنا وسكنا فى ذلك العالم الآخر المهيب الذى صوره ٠٠ وما أشبه المراحل

الثلاث ـ الجحيم والمطهر والجنة ـ بثلاثة أقسام فى عالم قدسى عظيم فوق كل المقاييس الطبيعية !. وهذه الأقسام الثلاثة بعضها فوق بعض فى ظلمة ورهبة مخيفتين ·· هكذا كان عالم الأرواح الذى صوره دانتى ·· وكان تصويره أصدق ما قيـل فى الشعر ·· ونحن نرى أن الصدق هنا معيار قيمة الشعر ، وأن القوة هى طابع عبقرية دانتى ·· فان عظمته تتجلى فى تعبيراته القوية ، وفى عمق عباراته ، وفى حيوية الصـور التى ترسـمها كلمـاته ·

وهكذا نرى دانتى يتألق فى سماء المجد ـ حيث يومض كل عظيم رفيع الشأن فى كل العصور ـ براقا كالكوكب الناصع ··

وكما بعث دانتى الايطالى الى عالمنا ليمثل فى صورة موسيقية ديانة العصـور الوسطى ويستخلص منهـا ديانة أوروبا الحـديثة ، وحياتها الداخليـة الكامنة ·· فكذلك يمكن القول بأن شكسبير يصور لنـا حياة أوروبا الخارجية فى تطورها فى زمنه بما كانت تحفل به من معانى الشهامة والأدب والكرم والفكاهة والطموح ·· وما كان يلابسها من طرائق التفكير العلمى والتصرف والنظر الى الحياة ··

وكما أننا لا نزال نرى فى أشعار هوميروس بلاد الاغريق العريقة ، فاننا سنظل نرى فى أشعار شكسبير ودانتى ـ ولو مرت آلاف السنين ـ ما كانت عليه أوروبا الحديثة من ايمان ومن حياة ·· اذ صور لنا دانتى الايمان ـ أو الروح ـ بينما رسم لنا شكسبير الجسد بطريقة لا تقل عن طريقة دانتى نبلا ·· فكأنما بعث شكسبير ليسجل لنا هذه الناحية من حياة أوروبا ·· وفى الوقت الذى بلغت فيه الشهامة ـ التى كانت تطبع الحياة الأوروبية ـ ذروتها وأوشكت أن تنحـدر الى الانحلال البطىء الذى نراه الآن فى كل مكان ·· فى ذاك الوقت بعث هذا القطب من أقطـاب الشعر « شكسبير » بعينين ثاقبتين تنفذان الى أعماق المظاهر ، وبصوت غرد يتردد عبر الأجيال ليرقب تلك الحياة ويسجل لها وصفا يبقى على الزمن ! ·

الاضطهاد الذى اظهر عبقريا !

وهكذا كان الرجلان القديران : دانتي عميق ، قوى ، ملتهب كتلك النار الكامنة فى جوف الأرض .. وشكسبير هادىء واسع الأفق ، بعيد النظر كالشمس المطلة على عالمنا المنيرة له .. وقد أنجبت ايطاليا أحدهما وكان للانجليز شرف انجاب الآخر .

وكان ظهور شكسبير فى انجلترا عجيبا حتى لكأنه جاء وليد المصادفة .. وكثيرا ما يخيل الى أنه لو لم يضطهد سيد مقاطعة « وركشاير » ذلك الـ« شكسبير » لأنه كان يسرق الوعول من أراضيه ، لما قدر لنا أن نسمع عنه كشاعر عظيم ، هادىء ، كامل ، قادر على استكمال كل نقص فى نفسه .. وكأنما لم تكن غابات ستراتفورد وسماؤها ، والحياة الريفية الخشنة فى جنباتها بكافية لتكوينه .. ثم ، ألم يكن ذلك العصر العجيب الزاهر ، الخالد الأثر فى تكوين انجلترا ، والذى ندعوه بعصر « اليزابيث » لونا آخر من ألوان المصادفة فى حياة شكسبير ؟

ألا ما أشبه الحياة بشجرة تزدهر وتذبل وفقا لقوانينها وقواعدها الخاصة التى لا نكاد نتعمق الى حقيقتها .. انه لعجب لم يوله أحد حقه من التأمل والدراسة بعد .. فما الورقة الذاوية الجافة الساقطة على الأرض سوى مثل تتجمع فيه عوامل هى فى الواقع أجزاء من النظام الشمسى ومن مجموعة الكواكب والأجرام .. وما من فكرة تخطر للانسان ولا كلمة ولا عمل [illegible] من جميع البشر وله [illegible] بشكل ظاهر أو بشكل غير ظاهر — على سائر الناس عاجلا أو آجلا .. وهكذا الأمر كله كالشجرة تستمد حياتها من دورة العصارات فى كل كيانها ومن تأثيراتها على هذا الكيان ، ويتجلى الاتصال والتعاون المتبادلان فيها بين أصغر ورقة وأدق وأدنى شعيرة فى الجذر .. وبين أعظم الأجزاء وأضألها على العموم ..

سر عظمة شـكسبير

وتظهر عظمة شكسبير أكثر بروزا وجلاء فى تصويره للانسان .. فليس لمخيلته الهادئة المتكبرة مثيـل .. اذ ان كل كلمة فى رواياته انما تنبعث من تغلغل فكر وصفاء قريحة وجلاء بصيرة .. وهو فى تصويره يلم بكافة أنواع الانسان : من « عطيل » الى « فالستاف » ، ومن «جولييت» الى « كوريولينس » .. وهو يصور كلا من هؤلاء تصويرا كاملا دقيقا فى عدل وانصاف واعتزاز بكل منهم ..

ومن المقاييس الصحيحة للرجل ، مدى ما يؤتى من بصيرة .. وقد كان شكسبير أعظم أهل الفكر ، اذ ان مسرحياته تعتبر فى عمق الطبيعة ذاتها .. أى ان فنه لم يكن اصطناعا ، ولم يكن أسمى ما فيه وليد الصنعة ومن ثم فستظل الأجيال القادمة تجد فى شكسبير معانى جديدة وأضواء جديدة تكشف عن نفوسهم كمـا كشفت عن نفوس أبناء جيل شكسبير والأجيال اللاحقة له .

وهكذا كان شكسبير ـ هو الآخر ـ نبيا ذا بصيرة ملهمة ، ولكنه فسر وحيها من ناحية أخرى .. ذلك أن الذين تأويهم الجزيرة الانجليزية لن يلبثوا عما قريب أن يغـدوا جزءا صغيراً من الانجليز ، اذ سينتشر السكسون شرقا وغـربا ، وفى أصقاع شاسعة من الكرة الأرضية .. فما الذى يستطيع أن يربط بين هؤلاء جميعـا فى أمة واحـدة متماسكة حقا ، فلا يتفككون ، ولا يتقاتلون ، بل يعيشون فى سلام ؟

انني أجيب على هذا ، بأن الذى سيربط بينهم لن يكون سوى ملك انجليزى لا يزعزع الزمن أو الأحداث عرشه .. الملك شكسبير الذى يشرق علينا كأنبل وألطف وأقوى الروابط ، وانا لنذهب الى أنه سيظل يرسل ضياءه فوق الشعوب الانجليزية لآلاف السنين .

حقا ان من أعظم ما تحظى به أمة ، أن يكون لها مثل هذا الصوت الجهورى ملهما !

٤ ـ البطل فى صورة رجل الدين

أما عن البطل فى صورة رجل الدين فان كارلايل يقول :

ورجل الدين ـ كذلك ـ نوع من الانبياء ، اذ لا بد من أن يؤتى هو الآخر قبسا من الالهام ٠٠ فهو يرأس الناس فى عبادتهم ، ويربطهم بالقوة القدسية التى لا تدركها عين ٠٠

لقد كان « لوثر » و « نوكس » من رجال الدين المعترف بهم ، ولكنا نؤثر هنا أن نعتبرهما كما صورهما التاريخ : مصلحين ! ٠٠ فان المصلح المكافح ظاهرة لا مناص من حدوثها وتمس الحاجة اليها بين آن وآخر ٠٠ اذ ان الحواجز والعقبات لا يمكن أن تتلاشى قط عن طريق الانسان ، بل ان دواعى التقدم نفسها قد تنقلب الى سدود وقيود ، مما يستدعى هزها وزحزحتها لنمضى قدما ونخلفها وراءنا ٠٠ وهى مهمة كثيرا ما تكون بالغة الصعوبة ٠٠

ولنا أن نعتبر لوثر من محطمى الأصنام ليردوا البشر الى الحقيقة ، وهذه وظيفة العظماء ومعلمى البشرية ٠٠ فلقد قال لوثر للبابا : « ليس هذا الذى تدعوه غفرانا للخطايا سوى حبر على ورق لن يلبث أن يبلى ٠٠ انه وأمثاله لا يعدو ذلك ٠٠ فليس غير الله غافر الذنوب وليست الكنيسة ممثلة لله ولا الجنة والنار صورا رمزية ٠٠ وانى اذ أؤمن بهذا أشعر بأننى ـ أنا الراهب الألمانى الفقير ـ أقوى منكم جميعا » ٠

ولعل أهم مراحل الاصلاح هى التطهر وهو ما يذهب اليه المتطهرون (البيوريتان) وقد أنتج التطهر ثمارا جنية فى الدنيا ٠٠ بل انه وطد أقدامه كدين قومى لدى الاسكتلنديين ، وأتباع الكنيسة «المشيخية» التى كان « نوكس » قسها الأكبر ومؤسسها ، والتى غدت مذهب اسكتلندا ، ومذهب أوليفر كرومويل الذى أراد اصلاح نظام الحكم والحياة فى انجلترا ٠٠ وفى وسعنا أن نصف ما فعله « نوكس » لأمته بأنه بعث حقيقى من الموت ! اذ شرع القوم يرتدون بعده الى الحياة ، فازدهر الأدب والفكر والصناعة فى اسكتلندا ٠

وظهر أقطاب خلدهم التاريخ مثل جيمس وات ، ودافيد هيوم ، وولتر سكوت ، وروبرت بيرنز ٠٠ وانى لأرى « الاصلاح » وأرى « نوكس » فى قرارة نفس كل واحد من هؤلاء العظماء الخالدين ، وفى أعمالهم ٠٠ وأعتقد أنهـم ما كانـوا ليبلغوا ما بلغوا لولا روح الاصلاح التى نفثها هو فى أبناء عصره ٠٠

ان « نوكس » مثال يبين لنا كيف يستطيع المرء بصدق الاخلاص أن يغدو بطلا ٠٠ كان رجلا طيبا ، أمينا ، موهوبا ، ذكيا ٠٠ لم يكن خارقا للعادة ، بل انه كان ضيق العقل متواضعا اذا قيس بلوثر ، ولكنه من حيث الايمان والتشبث الغريزى بالحق والاخلاص الصادق الحقيقى ، كان فذا لا يفوقه أحد !٠٠٠وما أروع ما قاله عنه ايرل مورتون اذ وقف بقبره : « هنا يرقد الشخص الذى لم يرهب يوما انسانا » ٠

٥ ـ البطل فى صورة اديب

ثم هناك البطولة فى مجـــال الأدب ، وهى ظاهرة فذة جديدة ٠٠ فالأديب الذى يقضى عمره فى جحر قذر ، وثوب رث ، ثم يقدر له اذا مات أن يسيطر من قبره على أمم وأجيال بأسرها ٠٠ هذا الأديب يجب أن يعتبر أهم شخص فى حياتنا الحديثة ٠٠ فهو بهذا الوضع روح الجميع ، اذ انه فى حد ذاته يؤدى عين المهمة التى كانت الأجيال الغابرة تسمى صاحبها نبيا أو كاهنا أو صاحب قداسة ٠٠

ولقد كان الأنبياء الثلاثة الكبار فى القرن الثامن عشر ـ الذين وصموا بالزندقة والالحاد ـ هم : جونسون وروسو وبيرنز ٠٠ وما كانت بطولتهم الا فى أنهم حملوا النور الى البشر تحت أعباء من العوائق والعقبـات المتراكمة كالجبال ٠

أما « جونسون » فقد اعتدت أن أعتبره دائما من عظماء الانجليز ٠٠ كان نبيا بفضل ما أوتى من اخلاص ، وبفضل ما كان له من مقدرة على أن يؤدى رسالتـه بأسلوب مستمد من أعماق الطبيعة ، وان صـــاغه فى الأسلوب الذى كان يسود عصره ، والذى كان يعتمد على التجديف فى كل المقومات الخلقية والروحية !

وكانت أسمى دعوة نادى بها هى مراعاة الدقة والحذر فى معالجة المسائل العقلية والأدبية ٠٠ وأردف بهذه دعوة رفيعة أخرى هى : « طهر عقلك من الزيغ والزندقة » ٠٠ وهاتان الدعوتان تؤلفان أعظم رسالة كانت ممكنة فى ذلك الزمن ٠

انانيـــة روســـو !

أما « روسو » ، فلست بحاجة الى الاسهاب فى الحديث عنه وعن بطولته ٠٠ انه لم يكن قويا ، بل كان معلولا سريع الانفعال والتأثر ، كثير التشنج ٠٠ أجل لم يكن قويا ، وانما كان شديدا ، وكان مخلصا فى حماسه وايمانه بالآراء التى يراها حتى لقد كانت تستولى على لبه ٠

ولكن ، كانت غلطة روســو ومبعث شقوته ، أنه كان أنانيـــا ٠٠ فالأنانية منبع كل الأخطاء والتعاســات على اختلافها ٠٠ ولم يقدر له أن يصل الى الغلبة الكاملة على الشهوة المجردة ، فظل الجوع الجنسى حافزه الرئيسى ٠٠٠ وكان شــديد الغرور متعطشــا أبدا الى أهازيج الاطراء ٠٠ وكانت نفسه بأسرها مسممة ملوثة ، لا يعمرها سوى الشك ، والاعتزال، والمسلك الذى يمتاز بحدة الانفعال وتقلب الطباع ٠٠

ومع ذلك ، فقد استطاع روســو — وهذه حاله — أن يلمس الحقيقة ويكافح من أجــل الوصــول اليها بما أبداه من اهتمام واحتفاء بالطبيعة وبالحياة الفطرية الضاربة بين أحضان الطبيعة ٠٠ وكان من الغريب حقا أن نجد فى قرارة فؤاد روسو المسكين جذوة من النــار القدسية الحقيقية برغم مثاليته ونقائصه وانحرافاته ٠٠ فلقد انبعث فى نفسه — برغم الفلسفة الساخرة والزندقة والمجون التى شاعت فى أيامه — شعور بمعرفة لا يكاد العقل يصدقها بأن هذه الحياة التى نحياها حقيقة صحيحة واقعة ، وليست وهما أو مجرد نظرية ٠٠

ووجدت الثورة الفرنسية فى روسو الرسول الذى يبلغها انجيلها ٠ وساعدت حملاته المحمومة على ما فى الحياة المتحضرة من تعاسات ونقائص على بث وقدة الحمى والثــورة فى فرنسا عامة ٠٠ ومن العسير أن نحدس

ما قد يفعله حكام العالم برجل كهذا ، ولكن فى وسعنا أن نعرف ما قد يفعله رجـل مثـله بهم ٠٠ انه كفيل بأن يسوق الكثيرين منهم الى ٠٠ المقصلـة ! ٠

أما بيرنز ، فان مأساة حياته معروفة للجميع ٠٠ فان هذا الرجل الذى تقمصته أعظم نفس فى الأراضى البريطانيـة طرا ، كان يبـدو منحوسا ٠٠ فلقد ولد فقيرا ، لم يجد من يعلمه فكأنما خلق للكدح والعناء ٠٠ ولما قدر له أن يمارس الكتابة راح يؤلف فى أسلوب ريفى ولهجة خاصة لا يألفها سوى أهل الاقليم الريفى الصغير الذى كان يعيش فيه ٠

اننا لنجد فى بيرنز نبوغا ساميا ، ومع أنه نبوغ « غفل » غير مصقول، الا أنه امتاز بالبساطة الصادقة التى تنطوى على القوة ٠٠ كان فيه معنى كامن ، عميق ، من ضياء الشمس والبهجـة ٠٠ على أن الخلة الأولى فى شعره وفى حياته هى الصدق فى الاخلاص ، مما جعله يعيش فى صراع حامى الوطيس لاستجلاء حقائق الأشياء ٠

٦ ـ البطل فى صورة الحاكم

من حق ولى الأمر على الناس ، أن يـكون أهم العظماء ، اذ اننا نكل اراداتنا الى ارادته ، وندين له بالولاء ايمانا منا بأن فى هذا خير الجميع ٠٠ وهو يسمى بال « عاهل » أو « المنظـم » أو « الملك » أو « الحاكم » ٠٠

ومن الثوار من نصب نفسه ملكا فى عهود الثورات بعد أن ماتت الملكية وألغيت كما فعل كرومويل ونابليون ٠

ولقد كانت حرب « البيوريتان » ـ فى تاريخ انجلترا ـ جزءا من الحرب الشاملة التى تصنع التاريخ الحقيقى الصحيح للدنيا ٠٠ حرب العقيدة والايمان ضد الجحود والكفر ٠٠ أو بالأحرى صراع أولئك المجاهدين من أجل حقائق الأمور ٠ ضد أولئك المتشبثين بمظاهر الأمور وأشكالها ٠٠

ويقف كرومويل عاليا ، رفيع المكانة بين « البيوريتان » ، يمد يديه جبارا نحو الحقيقة التى تجلت له عارية وجها لوجه وقلبا لقلب ٠٠ ومع ذلك

فانه الوحيد بين المكافحين الذى قيل عنه انه لم يكن له عذر ولا حجة ·· وانه كان أنانيا طامعا فى طموحه ، غير أمين ، بل كان منافقا ، مرائيا ، جشعا ·· فحول الصراع النبيل من أجل الحرية النيابية الى مهزلة تدعو للرثاء ، مثلت من أجل مصلحته الخالصة ·

هذه هى الصورة التى رسموها له ·· ولقد كانت تبدو لى دائما أبعد من أن تصدق ، فان كل ما نعرفه عنه لا ينم لى عن صدق وصراحة واخلاص ، ولا نملك الا أن نلاحظ فى كل أعماله نظرته الحاسمة العملية واتجاهه نحو كل ما هو عملى ، وبصيرته الصادقة التى تتغلغل به الى أعماق الواقع ··

ومثل هذه الخلال لايمكن أن يؤتاها رجل دعى ، زائف ·· فان من كان زائفا لا يرى من الأمور سوى المظاهر الزائفة ، وسوى الرياء والنفاق ، فى حين أن الرجل الصادق لا يميز سوى الحقيقة العملية ··

موهبة نابليون الرئيسية

ونابليون لا يقل عظمة فى نظرى عن كرومويل ·· صحيح أن فتوحاته الهائلة شملت أوربا بأسرها ـ فى حين أن كرومويل حصر جهوده فى انجلترا على صغر مساحتها ـ ولكن فتوحات نابليون لا تميزه على كرومويل، اذ انها لا تعدو أن تكون نصبا خشبية يرتفع عليها ليزداد ظهورا ، ولكنها لا تزيد من عظمته ولا تغير منها ··

ولقد شاع فى أيام نابليون مثل معناه : « زائف كنشرة رسمية » ، لما عرف عن النشرات التى كان يصدرها نابليون أثناء غزواته من احتشادها بالزيف ··· ومع ذلك فقد أوتى نابليون شيئا من صدق الاخلاص ·· أوتى شعورا غريزيا عجيبا للوقوف على الحقيقة · وقد قام شعوره هذا على أسس من الواقع طيلة السنين التى كان يحفل فيها بالأسس ·· وكانت له غريزة فطرية تفوق ثقافته ·

ومما يروى عنه أن رفاقه شغلوا ذات مساء بالجدل حول وجود الله وعدم وجوده ، وأخذوا يؤكدون بكل الحجج المنطقية أن لا وجود لله ··

فما كان من نابليون الا أن تطلـح الى النجوم ثم قال ٠٠ « يالله من ذكاء يا سادة ، ولكن ٠٠ من الذى خلق كل هذه ؟! » ٠٠٠ وهكذا تسرب من ذهنه منطقهم المنطوى على التجديف والزيغ ، اذ طالعته الحقيقة العظمى ماثلة أمام عينيه ٠٠ وكذلك كان نابليون فى الأمور العملية : يرى ككل من كتب له المجد ، لب الناحية العملية فى كل أمر فيتجه اليه مباشرة !!٠

ومن ثم ، فقد كان فى أعماقه ايمان ظل حقيقيا صادقا طيلة وجوده ٠٠ وكان من صدق بصيرته أن رأى أن الحكم لصالح الشعب حقيقة لا قبل للعالم كله بمقاومتها أو كبتها ، فاتجـه اليها بوعيه وحماسه ٠٠ ثم ، ألم يكن موفقـا فى اجلاء غموضها ، حين قال : « ليس أجدر بالسلطات من الأيدى التى تحسن مسك زمامها » ٠٠ وهذه فى الواقع هى الحقيقة كلها فهى تتضمن كل ما للثورة الفرنسية أو أية ثورة أخرى من معان ٠٠ انها رسالة صادقة عظيمة من آخر العظماء الذين أوردنا ذكرهم هنا ٠٠

مدام بوڤاري

جوستاف فلوبير

١٨٥٧م

فلوبير .. رائد الواقعية فى الأدب العالمى

كان جوستاف فلوبير رجلا غير عادى . ويرى الفرنسيون أنه كان عبقريا ، غير أن كلمة العبقرية تستخدم اليوم بصورة غير دقيقة : فقاموس أكسفورد يصفها بأنهـا « قدرة غريزية خارقة تمكن صاحبها من الابداع التخيلى أو التفكير الأصيل أو الاختراع أو الاكتشاف .... » ويقارنها القاموس « بالموهبة » ، ويرمى من وراء ذلك الى أنها تحقق أغراضها بالفهم الغريزى والنشاط التلقائى أكثر مما تحققه عن طريق العمليات التى يمكن تحليلها بوضوح . وبهذا المقياس لايحتمل أن ينجب القرن الواحد أكثر من ثلاثة أو أربعة عباقرة ، وستفقد الكلمة قيمتها حين نطلقها على مؤلف ألحان مستحبة ، أو كاتب كوميديات حية ، أو رسام صور خلابة .. انها أعمال ممتازة فى مجالها ، وقد يتمتع مؤلفوها بموهبة وما أجمل أن يتمتع المرء بهذه الموهبة التى تعتبر شـيئا نادرا ، غير أن العبقرى يعيش فى مجال آخر ، ولو اضطررت الى اختيار العبقرى الذى أنجبه القرن العشرون،فربما كان « ألبرت أينشتين » هو الاسم الوحيد الذى يرد الى الذهن ، وقد كان القرن التاسع عشر أكثر خصوبة . أما ادراج فلوبير بين هؤلاء الذين يتمتعون بهذه الموهبة الخاصة أو عدم ادراجه ، فشىء يقرره لنفسه القارىء الذى يطالع هذه المقدمة واضعا تعريف القاموس نصب عينيه .

على أن هناك شيئا واحدا ليس فيه مجال للشك : فقد اصطنع فلوبير الرواية الواقعية الحديثة ، وتأثر به بطريق مباشر أو غير مباشر كل كتاب الرواية منذ ذلك الحين . وعنـــدما كتب تـوماس مان « بودنبروكز » ، وعندما كتب آرنولد بنيت « حكاية الزوجات العجائز » ، وعندما كتب تيـودور درايزر « الأخت كارى » ، فانما كانوا يهتدون بالشرارة التى

أشعلها فلوبير • ولا نعرف كاتبا غيره كرس نفسه لفن الأدب بمثل هذا النشاط العنيف الذى لا يخبو • ولم يكن الأمر معه كما هو بالنسبة لمعظم المؤلفين الآخرين الذين يرون أن الأدب وان كان نشاطا على جانب كبير من الأهمية ، الا أنه يسمح لهم بمزاولة أوجه نشاط أخرى تريح الذهن أو تنعش الجسد أو تثرى التجـربة • لم يكن فلوبير يعتقد أن العيش هو الغرض من الحيـــاة ، وانمـا الغرض من الحيـاة فى نظره هو الكتابة ، ولم يوجد راهب فى صومعته ضحى مختارا بلذات الدنيا حبا فى الله أكثر مما ضحى فلوبير بثراء الحياة وتنوعها فى سبيل طموحه لخلق عمل فنى •

لقد اعتنق فلوبير حكمة بوفون التى تقول ، انه لكى يجيد الانسان الكتابة فعليه أن يجيد الاحساس والتفكير والحديث • وكان يتبع الرأى القائل بأنه لا توجد طريقتان لقول الشىء ، انما هناك طريقة واحدة ، وأن اللفظ يجب أن يناسب الفكرة مثلما يناسب القفاز اليد • وكان يرغب فى كتابة نثر منطقى رشيق متنوع • وكان يتطلع الى أن يجعله ايقاعيا رنانا وموسيقيا كالشعر ، وأن يحتفظ له مع ذلك بمزايا النثر ! • وكان على استعداد لاستخدام كلمات الحياة اليومية والألفاظ السوقية اذا اقتضى الأمر ، مادام يستطيع استخدامها بحيث يخلق شيئا جميلا •

ويتوقف نوع الكتب التى كتبها المؤلف على طبيعته كرجل • ولهذا كان من الأفضل اذا كان كاتبا مجيدا أن نعرف بقدر ما نستطيع تاريخ حياته الشخصية • وهذا له أهميته بوجه خاص بالنسبة لفلوبير •

ولد فلوبير بمدينة روين فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ وهو ابن أشيل كليوفاس فلوبير الذى كان كبير جراحى مستشفى المدينة ، وكان هو نفسه نجل طبيب بيطرى ، أما والدته آن جستين كارولين فليريـو ، فكانت تنتسب من ناحية والدتها الى أقدم الأسر فى نورماندیا السفلى • وكانت شديدة الاعتزاز بنسبها • وقد أورثت ابنها الاستعداد لاضطراب الأعصاب والميل الى احتقار الناس العاديين • ومهما يكن من الأمر ، فانها كانت شديدة التوفر على العناية بنجلهـا ، وكان هذا من أسـباب اعراضه عن الزواج فقد قضى حياته عزبا •

ولم يكن فلوبير فى طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء ، وقد وصفته سيدة عرفته فى مطلع شبابه فقالت : « كان جوستاف فلوبير فى ذلك الوقت يبدو كأنه يونانى فى مقتبل السن ، وكان طويل القامة نحيف الجسم رشيق الحركة كالرياضى المصارع ، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية وغير حافل بتقاليد المجتمع ... وحينما قلت له ان النفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتى لها قيمتها ، أصغى لحديثى فى غير اكتراث وقد علا وجهه الابتسام ، وكان يعجب بما هو جميل فى الطبيعة والفن ، وقال انه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر فى مصلحته الشخصية . ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة . وكان الذى يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئا يبدو له أنه جدير بالاعجاب . والمتعة التى يجدها الانسان فى الاجتماع به والقرب منه باعثها تحمسه لكل ما هو نبيل . وتفوقه العقلى يبدو فى فرديته القوية،والذى ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية النافعة. فاذا سمع قول الناس ان الدين والسياسة أو الشئون العملية مشوقة مثل الأدب والفن ، فانه يفتح عينيه عن التعجب والرثاء لحالة القائلين بذلك » .

وهكذا كانت حالة فلوبير حينما قدم باريس سنة ١٨٤٠ لدراسة القانون ، وقد مل الحياة بها وكره ما يسمى « حياة الطلبة » ، ولم يكن قد وضع خطة حياته الأدبية بعد ، وكان يقضى أكثر أيامه وحيدا فى شقته الصغيرة . وما يكاد يفتح كتابا من كتب القانون حتى يطوى صفحاته ويستلقى ساعات فى فراشه حالما ، لقد صار ممن يؤثرون الاسترسال مع الأفكار والغوص فى التأملات .

وكان يتردد من الحين الى الحين على موسم براديبه ، وهناك لقى فى أحد الأيام فيكتور هيجو وعرف السيدة لويز كوليه وكانت احدى النساء المتأدبات المعروفات فى ذلك العهد ، وفى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٨٤٠ قام برحلة فى جبال البرانس وجزيرة كورسيكا .. وكان لهذا التغيير فى أسلوب حياته أثره الحسن فى حالته النفسية ، ووصفه لجزيرة

كورسيكا فى الرسائل التى بعث بها الى أصدقائه ينم على قدرته الفائقة على الوصف التى تجلت بعد ذلك فى مؤلفاته ٠

وفى سنة ١٨٤٥ مات والده وتوفيت شقيقته كارولين فى السنة التالية وأصبحت والدته تعيش فى عزلة ، فصمم على مغادرة باريس التى كان لا يستريح الى الاقامة بها ، وترك دراسة القانون التى كان يكرهها وآثر أن يعيش فى كرواسيه القريبة من روين بمنزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصعدات فيه ومنحدرات ، وفى الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة ٠

وقضى فى ذلك المكان أربعة وثلاثين عاما حتى أدركه الموت ، وعاش عيشة دراسة وعكوف على العمل لم يتخللها سوى رحلة الى بريتانى مع صديقه ماكسيم دى كامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه كذلك الى الشرق سنة ١٨٤٩ وزيارات لباريس فى فترات غير منتظمة ٠

ولم يقبل فلوبير على الأدب اقبالا جديا الا فى سنة ١٨٤٦ ، وبدأ يكثر من القراءة والاطلاع ويكتب مذكراته ويسجل تعليقاته على ما يقرأ فى رسائله الى أصدقائه ، ويضع خططا لحياته المقبلة وشرع فى كتابة أصول روايته « اغراء القديس أنطونيوس » ٠

وفى سنة ١٨٤٩ ، قام بالرحلة الى الشرق مع صديقه ماكسيم دى كامب ، وزار مالطة ومصر وسوريا وفلسطين والقسطنطينية وأثينا وجزءا من بلاد اليونان ، وفتن بما شاهد من مناظر ، وعاش باقى أيام حياته يحلم بالعودة الى تلك البلاد الحافلة بالأطلال الدوارس والآثار التاريخية ٠

وبعد سنة ١٨٥٠ أصبحت حياة فلوبير مقصورة على حوادث حياته الأدبية ، وصار تاريخه تاريخ كتبه التى شغل بتأليفها ، وكان يقضى معظم العام فى كرواسيه مقبلا على التأليف ، ولا يسمح لنفسه بالراحة الا مدة أيام قلائل ٠ وكان لا يذهب الى روين الا اذا كانت هناك بعض أعمال تقتضى ذلك ٠ وحينما كان يزور باريس كان يجتمع بسانت بيف وتيوفيل جوتييه وغيرهما من الكتاب والأدباء ٠ وفى أواخر حياته كان يلقى ألفونس دوديه

واميل زولا والأخوين ادمون جونكور وجيل جونكور ، وتدور بينهم أحاديث عن الأدب والفن ، وفى بعض هذه الزيارات كان يجتمع برينـــان وتين وجورج صـــاند ٠

وشغل فى المدة من سنة ١٨٥٠ الى ١٨٥٦ بكتابة روايته المشهورة « مدام بوفارى » ، وقد ظهرت فى مجلة « ريفى دى بارى » من أول أكتوبر سنة ١٨٥٦ الى ١٥ ديسمبر من السنة نفسها ٠ وفى يناير وفبراير سنة ١٨٥٧ شغل بالقضية التى اتهمته فيها الدولة بالخروج على الآداب فى رواية مدام بوفارى ٠ وقد برأته المحكمـــة ، ولكن بعد أن أبدى القاضى ملاحظات شديدة حول قيمة الكتاب من الناحية الأخلاقية ٠

وفيما بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦١ شغل بتأليف رواية « سلامبو » واتمام رواية « اغراء القديس أنطونيوس » ، وظهرت «سلامبو» سنة ١٨٦١ بعد أن بذل فى كتابتها جهودا أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية مهمة ٠

وفيما بين سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٨٦٩ عاد الى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله ، وكانت نتيجة هذه الدراســة رواية « التربية العاطفية » التى ظهرت فى سنة ١٨٦٩ ٠

وبعد سنة ١٨٧٠ تكاثرت عليه الهموم والأحزان ، وكان بطبيعته ميالا الى الحزن والتشاؤم ، وقد قوى هذا الميــل فى نفسه تقدم سنه والأحداث السياسية وما لقيته روايتاه « سلامبو » و « التربية العاطفية » من قلة الرواج وسوء التقدير ، يضاف الى ذلك تعرضه لمرض عصبى أصابه كانت نوبات هجماته تشكل خطــرا مستمرا على حياته ٠ وكان قد فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم لى بوتيفان ، كما فقد صداقه ماكسيم دى كامب ، وفقد والدته سنة ١٨٧٢ ، وتقدم فى الشيخوخة وحفت به العزلة الموحشة ، ولم تسعفه فى تلك الفترة ســـوى رعاية قريبته مدام كومنفيل وصداقة جورج صاند ، التى ساندته وكتبت اليه رسائل مشجعة تنطوى على كثير من التقدير والاعجاب والتشجيع ، كما راقه تفتح ملكات تلميذه جى دى موباسان ٠ وقد علمه فلوبير العناية الشديدة بالأسلوب

والتحرج من المبادرة الى سرعة الاخراج ، ووجد فيه بحق خير متمم لرسالته ومقدر فى الكتابة الفنية لطريقته وخطته ٠

وفى سنة ١٨٧٧ أخرج مؤلفا به ثلاث قصص لم يلق النجاح المنتظر ، وأخذ يستعد بعد ذلك لكتابة رواية « بوفار وبيكيشيه » وكان يؤثرها على مؤلفاته ، وقد بذل فى كتابتها جهدا جبارا ، وبرغم ذلك مات قبل أن يتمها ، وكان ينوى أن يخرجها فى مجلدين ، ولكن المواد التى تركها لم تكن تكفى الا مجلدا واحدا ، وقد مات بفعل سكتة قلبية فى صباح اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وهو فى الثامنة بعد الخمسين من عمره ٠

الرواية

تعد رواية مدام بوفارى فى طليعة الروايات التى استوفت شرائط الواقعية ٠ وقد ظهرت فى وقت كان مناسبا لظهورها ، فقد كانت موجة الأدب الرومانسى قد أخذت فى الانحسار ، ومل قراء الأدب المبالغات الرومانسية ٠ وفى عالم الأدب كما فى عالم الفكر بوجه عام ، كلما سادت نزعة من النزعات تستنفد جهدها وتمهد السبيل لظهور نزعة مناقضة لها ٠ وبعد التحليق فى الخيال نميل الى أن نرسو على شاطىء الواقع ، ولما كان الواقع نفسه لا يخلو من رتابة مملة ، لذلك سرعان ما تمله النفس وترتد الى الخيال حتى تضيق ذرعا بنوع آخر من الرتابة ٠

وفلوبير يعيش مع أشخاص رواياته ، فيرى ما يرون ويشعر بما يشعرون ، وهذه هى الواقعية الحقة ٠ ورواية « مدام بوفارى » حافلة بالشخصيات الحية وكلهم ناس عاديون ، ولكن لكل واحد منهم مع ذلك خصائصه ومميزاته ، فهم ليسوا طرزا معروفة ولا مختصرات موجزة للانسانية ، وانما هم شخصيات نابضة بالحياة بادية السمات والملامح ٠

والحياة الرتيبة المملة الخالية مما يشوق ويعجب تؤثر تأثيرا سيئا فى أصحاب الخيال الواسع والطموح البعيد ، وقد يشتد هذا التأثير الى حد وقوع المأساة ، وهذا هو المحور الذى دارت حوله رواية «مدام بوفارى» ٠

وفى تصوير فلوبير لمدام بوفارى قدم لنا صورة من أبرع الصور النسائية فى الآداب العالمية ، فقد استقصى حوادث حياتها ، وأرانا تطور مشاعرها وتتابع الحالات النفسية التى استولت عليها واستبدت بها .. ولقد كان والدهـــا روالت رجلا عطوفا ولكنه مجرد من العاطفة الدينية والحاسة الأخلاقية ، حسيا الى حد ما ، قليل الجدية وبه شىء من الزهو والخيلاء . وكانت لا تكاد تعرف والدتها . وقد نشأت نشأة حسبما اتفق فى ضيعة والدها ، وظلت بها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها وتعلمت القراءة والكتابة دون أن تقوم بعمـــل أى شىء فى الضيعة . وقرأت رواية بـــول وفرجينى فى طفولتها،وهى روايّة لها تأثيرها فى ايقاظ الأحلام الرومانسية وبخاصة فى نفس حساسة نزاعة الى الاسترسال مع تلك الأحلام مثل الطفلة « اميا » التى صارت فيما بعد مدام بوفارى . ومن سمات النزعة الرومانسية تطلع الانسان الى ما وراء آفاق حياته الراهنة ، ومن شأن هذا التطلع أن يجعل صاحبه غير قادر على تبين ما فى حاضره من مزايا ونواح مقبولة ، والرغبة فى التغيير الدائم من أعراض النزعة الرومانسية . وقد ظهرت هذه الأعراض على اميا منذ بلوغها الثانية عشرة من عمرها ، وألحقها والدهـــا فى الثالثة عشرة بدير الراهبـــات ، وقرأت روايات السير ولتر سكوت التاريخية ، فامتلأ خيالها بصور العصور الوسطى والفرسان والقلاع والجسور التى تفتح وتغلق ، وقرأت أشعار لامارتين العاطفية ، وأخرجت من الدير وعادت الى ضيعة أبيها . ولم تكن والدتها هناك لتحمل عنها أعباء الضيعة ، وكان لهذا الانتقال من الحياة الدينية الحالمة التأملية الى حياة الضيعة الرتيبة الخشنة اليومية وقعه السيىء فى نفسها ، ولذلك كانت تنتظر من ينقذها من الضيعة والاشراف على شئونها . ويلوح فى أفق حياتها وهى تعانى التبرم بحياتها شارل بوفارى ، وكانت مستعدة للترحيب بأى رجل يتقدم لها ويطلب يدها ، وكان يبدو لها أن كل رجل قادر على اشباع أحلامها الرومانسية واستنقاذها من الرتابة المملة التى تعيش فيها وتعانى أوصابها .

وقد استطاع فلوبير فى وصفه لشخصية شارل بوفارى أن يتغلب على صعوبات جمة ، فشارل بوفارى أقرب الى أن يكون طرازا من الناس

منه الى أن يكون له شخصية ، أو هو شخصية بغير شخصية ان صح هذا التعبير ، وهو مخلوق سلبى تشكله البيئة كما شاءت ، وهو خلو من الذكاء والارادة والخيال ، لا يفكر ولا يحلم ولا يكاد يرى شيئا بعينيه ، فهو صدى لأفكار غيره من الناس ، ورغباته تملى عليه ، وهو المنفذ ، ومشاعره نفسها تأخذ الصورة المطلوبة لها ، وهو يحب زوجته ولكن كما تريده هى أن يحبها ، ويحب طفولته ولكن بالأسلوب الذى يفرض عليه ، وقد تزوج فى أول الأمر على ارادة والدته وعملا باشارتها ، وهى التى اختارت له الزوجة الملائمة فى تقديرها ، وماتت زوجته الأولى ، أما فى المرة الثانية فقد تزوج باختياره المرأة التى أحبها ، وكان والدها قد أصيب بكسر فى ساقه فاستدعى الطبيب الريفى شارل بوفارى لمعالجتها وكان شارل حينذاك قد فقد توا زوجته الأولى ، ووفق شارل فى علاج الساق المكسورة واقتضاه ذلك أن يتردد غير مرة على ضيعة روالت ، وتكرر لقاؤه بالآنسة اما ، ولما أتم علاج الساق المكسورة وكان روالت قد علم بفجيعته فى زوجته الأولى دعاه فى ذات صباح وقدم له أجر العلاج وأهدى اليه ديكا روميا وقال له وهو يربت على كتفيه : « لقد جربت هذه الفجيعة وكنت فى هذا الموقف نفسه ، وحينما فقدت زوجتى العزيزة كنت أذهب الى الحقول لأخلو بنفسى وسقطت على جذع شجرة وبكيت ودعوت الله .... وكنت مستطار العقل الى حد أنى لم أر شيئا ، وفكرة الذهاب الى المقهى منفردا ملأت نفسى نفورا .. مرت الأيام يتلو بعضها بعضا وبالتدريج تولى هذا الشعور ، لقد ذهب وغاص فى الأعماق ، أعنى بذلك أن شيئا يبقى فى القاع كما يقول الناس ، ويبقى راسخا فى قلب الانسان ! ولكن مادام هذا هو حالنا جميعا ، فعلينا ألا نستسلم لليأس وألا نطلب الموت لأن غيرنا قد مات ، وعليك أن تتجلد يا سيد بوفارى ، وكل هذا سيزول فاحضر لزيارتنا وابنتى تفكر فيك فى بعض الأحيان أتعرف ذلك ؟ وهى تقول انه يبدو أنك قد نسيتها » .

وعمل شارل بنصيحته ، فكان يتردد على الضيعة ويقص عليه الشيخ صاحب الضيعة طريف أخباره ، وتأكدت العلاقة بينه وبين اما ، وشجع ذلك شارل على التقدم لخطوبتها ، وتم الزواج ، ولكن بعد انتهاء شهر

العسل أدركت امما أنهـا لا تحب زوجها ، ورأته على حقيقته رجلا عاديا لا نصـيب له من الخيـال ، ولا عناية له بملبسه والمحافظة على مظهره الخارجى ، وليست له آراء مبتكرة ، وانما هو يردد كالببغاء الآراء الشائعة المجوجة،ولا يميل الى ارتياد المسرح ومشاهدة أحدث الروايات التمثيلية، وحياته فى مجموعها بطيئة بليدة مكونة من أشياء صغيرة وتفاهات لا قيمة لها ، ولم يسؤها منه أنه من الناس الذين يمرون بالحياة دون أن يستنبطوا أسرارها ودخائلها فان معظم الناس من هذا القبيل ، وانما ساءها بوجه خاص أنه كان لا يفهم شيئا ولا يحسن النظر حتى من الزاوية الضيقة التى يعيش بها ، وهو لا يرى ما يتجاوز أنفه ، وهو يعيش لأنه يجد ما يمسك عليه رمقه ويقيم أوده ، وهى تعيش فى المستقبل وهو يعيش فى حاضره ، وهو مستغرق فى الواقع وهى مسترسلة فى الأحلام ، وهو كالمقيد بالمكان الذى يحتويه ، وهى هاربة بأفكارها وطموحها من مستقر وجودها ، فهو فى رأيها يمثل الحاضر الذى تضيق به وتمقته ، واذا حدثته فهو لا يصغى لها ولا يفهم مدلول حديثها ، وكل ما تحدثه عنه مناف لطبيعته ، وقد قبلته خطيبا ورضيته زوجا لا لأنهـا أحبته ، وانما بدافع من رغبتها فى التغيير وميلها الى مفارقة البيئة التى تعيش فيهـا وتجـربة لون آخر من ألوان الحياة ، وكانت نقمتها على حاضرها تزداد حدة مع مرور الأيام ، فهى لا تكف عن التطلع الى التغيير الذى تحلم به .. كانت كالملاح الذى ألقت به السفينة الغارقة على شاطىء مهجور ، فهو لاينى يدير الطرف فى الوحشة المحـدقة به مترقبـا رؤية الشراع الأبيض لائحا فى الأفق غير عارف الى أى مكان تدفع به الرياح ، ولكنها تنتظر فى كل صباح مجىء يوم الخلاص ، وحينما تغرب الشمس ويقبل الليل يغمر نفسها الحزن وتعاود التطلع الى الغد المأمول .

ودعيت مع زوجها الى حفلة أقامها مركيز من أعيان الريف فى ضيعته ، وكان شارل قد عالجه وهدأ آلام بثرة أصيب بها ، وارتدت امما خير ما عندها من الملابس وازينت ورقصت مع أحد الحاضرين على نغمات الكمان ، وقد زادها حضور هذا الحفل ضيقا بحياتها ، فعادت غاضبة ناقمة ، وأخذت تحلم بالحياة فى باريس وغشيان المسارح والصالونات ، وتحدث نفسها

بأن هذا هو الوضع الذى يلائمها ويرضى نزعاتها ، وصارت حياتها الحاضرة تبدو فى صورة أضأل من حقيقتها ، وأدنى من مستواها الحقيقى . وقوى شعورها بأن زوجها أكثر فظاظة وأشد نكرا ، فكانت تقول لنفسها « ما أشد فقره وأجدب نفسه وما أحقره وأهون شأنه ! » .

وفى هذا الموقف العصيب والحالة النفسية المتأزمة ظهر فى أفق حياتها العاشق المنتظر فى صوره الشاب الوسيم الرشيق ليون كاتب أحد المحامين فى مدينة يونفيل القريبة من روين ، وكانت قد أغرت زوجها بالاقامة بهذه البلدة وولدت له بها طفلة ، وكان ليون مثلها يحلم بالحياة فى باريس ويحب الموسيقى .

وتكررت مناسبات التقائهما ، وشعر كل منهما بتقارب ميولهما ولكنهما لم يتبادلا مع ذلك ألفاظ الحب وعباراته ، وشعر ليون بأنها تحاول بكتمانها عواطفها ارغامه على اعلان حبه لها .

وكانت تزداد فى خلال ذلك كراهتها لزوجها شارل ، وكان اعتقاده بأنه لا يدخر وسعا فى العمل على اسعادها يبدو لها كأنه اهانة تدل على فرط الغباء ، وأنه نوع من انكار الجميل ، وغلب على تفكيرها الاعتقاد بأنه هو العقبة القائمة فى طريق سعادتها ، وأنه سبب الشقاء الذى تعانيه ، وألقت عليه تبعة متاعبها جميعها ، وكانت تود لو أن شارل أوسعها ضربا حتى تجد مبررا لكرهها له وضيقها به والعمل على الانتقام منه ، وكانت فى بعض الأحيان تعجب من خواطرها الشريرة ، وبرغم ذلك كله كان عليها أن تتكلف الابتسام وتزعم أنها سعيدة وتدعى ذلك لتحمل الغير على تصديقها .

وكرهت هذا الرياء ومالت الى الهرب مع ليون الى أى مكان ، تجد فيه حياتها وتخلص من رتابة عيشها الممل ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تشك فى حبه لها ، فماذا تصنع ؟ .

كانت كلما فكرت فى ذلك تنهمر من عينيها الدموع ويشتد بها الكرب ، ولم يطمئن ليون الى بقاء هذه العلاقة التى لم تسفر عن حب واضح

صريح ، فآثر الابتعاد ونأى بجانبه عنها ، فأخذت تلوم نفسها وتأسى على ابتعاده عنها ، فقد كان النور الذى أضاء فى ظلمات حياتها والأمل الوحيد الذى تعلقت به فى نوبات يأسها ، فلماذا أضاعت من يدها هذه الفرصة السعيدة ، ولماذا تحرص على اجتذابه وتيسير أسباب اقترابه واكتساب عطفه وحبه ؟ وطاف ببالها أن تذهب اليه معتذرة متوسلة وترتمى بين يديه ، ولكنها أحجمت عن ذلك وكبر عليها الأمر ، وضاعف الأسف رغباتها وأطال حيرتها وأصبحت ذكرى ليون تثير شجاها ورواقد آلامها .

وأخذت تهدأ ثورة حبها له وتنطفىء وقدة هيامها به ، فقد ساءت حالتها النفسية واعتلت صحتها ، وفى هذه الفترة ظهر رودلف بولانجيه صاحب ضيعة لاهيشت القريبة من يونفيل ، وهو رجل عزب له دخل سنوى لا يقل عن خمسة عشر ألفا من الفرنكات ، وكان قد جاء الى شارل ليجرى عملية فصد لخادمه ، وحضرت مدام بوفارى اجراء العملية ونظر اليها بولانجيه بعد انتهاء العملية وتبادل بعض الأحاديث مع الحاضرين ومنهم مدام بوفارى وقال لها : « لقد سررت بمعرفتك » ودفع أجر العملية بغير اكتراث وانصرف .

وأعجب بولانجيه بمدام بوفارى ، واستماله جمالها وكان فى الرابعة بعد الثلاثين من عمره ، وفى طباعه شدة وصرامة ، ولكنه كان واضح التفكير وله خبرة بأحوال النساء وأسرارهن . وقد أخذ يفكر فى امرها لأنها حسناء فاتنة ، وقال لنفسه : « انى أتصور أن زوجها غاية فى الغباء وهى من غير شك قد سئمت معاشرته ، وأظافره قذرة ، وهو لم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام ، وهى بطبيعة الحال ترى أن معيشتها فى هذه البلدة الصغيرة مملة وتفضل أن تعيش فى المدينة وترقص فى كل مساء . وهذه المسكينة لا بد أن تكون نزاعة الى الحب ، فاذا قال لها أى رجل ثلاث كلمات مهذبة فانها ستعبده عبادة ، وانى واثق من ذلك ، وستكون شديدة الحب قوية العطف ، ولكن كيف أتخلص منها بعد ذلك ؟ » وأخذ يقارن بينها وبين عشيقته التى ملها وبدأ يزهد فيها ، وقال لنفسه « انها أوفر منها جمالا وأكثر نضارة ... » وعقد العزم على ايجاد علاقة معها ، وشرع يفكر فى أقرب السبل الى ذلك ، واستقر رأيه على اغتنام

الفرص وان يزور شارل فى بعض الأوقات ويدعوه لزيارته مع زوجته ..
وتسنح الفرصة المنتظرة ويلقى امما .

ومر على اللقاء الأول بينهما ستة أسابيع لم يرها فيها ، وقال لنفسه « انها اذا كانت قد أحبتنى من اليوم الأول للقائنا فان ذلك الحب سيقوى ويزداد وستكون شديدة الشوق الى لقائى » ، وحينما زارها تأكد من اصابة ظنه ، ووجد الفرصة سانحة لمصارحتها بحبه لها ، والواقع أن امما لقيت رودلف فى الفترة التى طغى فيها الملل على نفسها ولفها فى غياهبه وشعرت بأنها فى حاجة الى حب يستولى عليها ويذود عنهـــا السأم الذى تعانيه ، فقد كانت تحرص على الدخول الى عالم الحب لا الى رودلف ، وكان رودلف الذى هيأ لها الفرصة وأشبع فى نفسها تلك الرغبة . وقد عرفت متعة الحب وعاشت فترة فى عالم غريب لامع كله أحلام ومتعـــة ونشوة ، فهى تحب الحب نفسه لا رودلف ، ورغبتها فى أن تعرف الحب هى سبب الخطيئة الأولى التى وقعت فيها ، ثم يقع الخلاف بينها وبين رودلف وهو مأساة حياتها ، فقد اتفقت معه على أن يهربا معا ، ولكن رودلف غير فى آخر لحظة رأيه ونكث عهـــده ونقض وعده ، وأرسل اليها رسالة يقدم بها أعذاره ، وكان لهذه الرسالة أسوأ وقع فى نفسها وانهارت أحلامها وفكرت فى الانتحار ومرضت مرضا شديدا ، وحينما خفت وطأة المرض صحبها زوجها شارل الى المسرح ، وهناك لقيت ليون وأعاد ذلك اللقاء نيران حبهما القديم الى الاشتعال ، وتجددت العلاقة الغرامية بينهما ، ولكن الشاب ليون لم يقو على الثبـــات أمام عواطفهـــا القوية المجتاحة ، وتعرضت لصدمة زادت همومها وبلبلت خواطرها وأوقعتها فى حيرة صعب عليها الخروج منها ، فقد أصبحت الصكوك التى كانت تستدين بموجبها وتسرف فى نفقاتها دون أن يعلم شارل واجبة الدفع ، وصارت مهددة فى كل لحظة بالحجز على ما فى منزلها وكل ما تملك هى وزوجها ، ولجأت الى ليون وتوسلت اليـــه أن يعمـــل على استدانة المبلغ المطلوب سداده لتتحاشى الحجز ، ولكن ليون لم يوفق فى مساعيه ولم يبق أمامها الا أن تستذل كرامتهـــا وتنزل عن كبريائها وابائها وتذهب الى رودلف تلتمس منه أن ينقذها من ورطتها .

ويصف لنا فلوبير لقاءها لرودلف فيقول :

سألت نفسها ماذا تقول له وما الذى انتوت أن تبدأ به الحديث .. واقتربت منه بعد أن تنهدت تنهدا عميقا وقالت : « أوه ! لو كنت تعلم يا رودلف . لقد أحببتك حبا قليل النظير » وأمسكت بيده وجلسا حينا **من الزمن مثل جلستهما فى اليـوم الأول للقائهما ، ولما رأت أنه يجاهد** فى اخفاء حنوه بدافع الكبرياء ، قالت وقد ارتمت على صدره : « كيف تنتظر أن أعيش بدونك ؟ لا يستطيع الانسان أن يتعود فقدان السعادة ، لقد كنت يائسة ، وخلت أنه كان يجب أن أموت فى حين أنك ـ أنت تجنبتنى » .

ولقد كانت هذه هى الحقيقة ، فقد عمل على ذلك فى السنوات الثلاث الأخيرة ، بدافع ذلك الجبن الذى يميز الجنس القوى ، واسترسلت اما **فى حديثها محاولة اغراءه كالهرة العاشقة ، وبحركات رشيقة من رأسها :** « انك متيم بنساء أخريات ، قل الحق ، أوه ! انى أفهم ذلك وأنا أعذرهن وأظنك أغويتهن كما أغويتنى ، وأنت رجل فيك كل الصفات التى تمكنك من أن تجعل نفسك محبوبا ، ولكننا سنبدأ ثانية ، أليس كذلك ؟ ولا نزال يحب كل منا الآخر ؟ انظر ـ انى أضحك وأشعر بالسعادة ..... تحـــدث الى » .

كان منظرها فاتنا جذابا وقد ترقرقت الدموع فى عينيها مثل قطرات الندى فى غلالة زهرة زرقاء ، وجذبها الى ركبتيه وداعب شعرها الذى انعكست عليه أشعة الشمس الغاربة بظهر يده فأحنت رأسها فقبل فى رفق جفنها بطرف شفتيه .

وهتف قائلا : « ولكنك تبكين . فما سبب ذلك ؟ » .

فاشتد نشيجها ، وظن رودلف أنه مجـرد تعبير عن حبها ، ولكن لما كانت لاتزال صامتة فقد ظن أن هذا آخر جهادها مع الاحتشام ، فمضى يقول : « **أوه ! سامحينى . انك أنت المرأة الوحيدة التى أعتنى بها ، ولقد كنت قاسيا وأحمق . انى أحبك وسأظل أحبك دائما .. فما شأنك ؟ أرجوك** أن تخبرينى » وركع على ركبتيه الى جانبها .

« حسن ، لقد دمرت حياتى يا رودلف · أتعيرنى ثلاثة آلاف فرنك؟» · فقال وقد أخذ ينهض من ركوعه بالتدريج وعلت وجهه سيماء الجد « ولكن ··· ولكن هل هذا حقيقى ··· » ·

فمضت مسرعة فى حديثها قائلة : « أنت تعرف أن زوجى قد وضع أمواله فى يد محام وقد هرب المحامى وكان علينا أن نقترض ، والمرضى لا يدفعون ، وضيعة والده لم تصف بعد ، وسنحصل على المال قريبا ، ولكن اذا لم نجد ثلاثة آلاف فرنك فان منزلنا سيحجز عليه اليوم ، ولقد يحدث ذلك فى أية لحظة ، وقد جئتك معتمدة على صداقتك » ·

ففكر رودلف الذى اشتد فجأة اصفرار وجهه :« أوه ! هذا هو السبب الذى جاءت من أجله » ولكنه قال فى هدوء تام : « ليس عندى ما يعادل هذا المبلغ يا عزيزتى » ·

وكان بلا شك صادقا فيما قال · ولو كان يملك هذا المبلغ لأعطاه لها من غير شك ، ولو أنه باعتبار القاعدة العامة من أعمال العطف التى لا ترتاح لها النفس ، وليس أكثر قضاء على الحب من طلب المساعدة المالية ، فنظرت اليه فى صمت دقيقة أو دقيقتين ثم قالت : « ليس عندك هذا المبلغ !! كان يجب أن أجنب نفسى هذا العار الأخير · انك لم تحبنى قط ، ولست خيرا من الآخرين » ·

« وأحست كأن الأرض تدور بها ، وكانت لا تعى وجودها الا بتيار الدم السريع المتدفق فى شرايينها ، وكانت تستطيع أن تعتقد أنها سمعته يفلت منها مثل الموسيقى التى تصم الآذان والتى ملأت ما حولها ، وكانت الأرض تحت قدمها ألين من الأمواج ، وبدت أخاديد الأرض كأنها أمواج داكنة ، وظهر لها أن كل ما تتذكره وأفكارها جميعها كأنها تفر منها مثل آلاف الشظايا فى عرض كبير للألعاب النارية ، ورأت والدها ومكتب ليهيريه وحجرتها ومنظرا طبيعيا آخر ، وشعرت كأنها قد فقدت صوابها وتمشى الخوف فى نفسها ، ولكنها نجحت فى استعادة جأشها ، ولو أنها كانت لا تزال مضطربة النفس قد اختلط عليها الأمر ، ولم تستطع أن تتذكر سبب الحالة الرهيبة التى تعانيها ، أى ان المال كان باعثها ولم

تذكر الا شقاءها فى الحب ، وشعرت بأنها تفقد روحها فى تلك الذكرى كالجرحى من الرجال الذين يشعرون وهم يعانون غصص الموت بأن حياتهم تتساقط من خلال جروحهم الدامية ٠

وأقبل الظلام ، وبدأ طير العقعق يعود الى وطنه ، وفجأة بدا لها كأن كريات نارية تنفجر فى الهواء مثل الكرات المدوية ، وأنها تدور وتعلو حتى تختفى فى الثلج بين فروع الاشجار ، وظهر وجه رودلف فى وسط كل منها ، وأخذ عددها فى التكاثر وتقرب بعضها من بعض ، واختفت أخيرا ، وعرفت حينئذ أضواء المنازل التى كانت تضىء خلال السحاب فى الأفق ، ثم أخذت تدرك موقفها على حقيقته وقد بدا أمامها كالهاوية الفاغرة ٠٠ ولهثت كأن صدرها كان سيتمزق ، واتقدت فى نفسها حماسة بطولية جعلتها تكاد تشعر بالسعادة ، فانطلقت الى أسفل التل وعبرت الجسر الخشبى واجتازت الممر الضيق ٠٠ وبعد أن عبرت الميدان وصلت الى حانوت الكيميائى ٠٠٠ » ٠

« ولم يكن هناك أحد ، وهمت بالدخول ، ولكن يمكن أن يحضر أحد على صوت الجرس ولذا تلمست طريقها الى الحائط وقد حبست أنفاسها حتى وصلت الى باب المطبخ حيث كانت هناك شمعة مشتعلة فوق الموقد وكان جستين يحمل طبقا للخارج ، فقالت لنفسها : « أوه ! انهم يتناولون عشاءهم وعلى أن أنتظر » ولما عاد قرعت النافذة قرعا خفيفا فخرج فقالت له: « أعطنى مفتاح الحجرة التى فى الطابق العلوى حيث يوجد ٠٠ » ٠

« ماذا تعنين بذلك ؟ » ٠٠ ونظر اليها وقد عرته الدهشة لاصفرار وجهها فقد بدا أبيض اللون فى ظلمة الليل ، وظهرت له غاية فى الجمال وقد حفها الجلال كأنها طيف ماثل ، وبدون أن يفهم ما كانت تريده أدرك أن شيئا مخيفا سيحدث . ولكنها بادرت مسرعة الى القول فى نغمة رقيقة منخفضة متوسلة : « انى أريده أعطنى اياه » ٠

وكانا يستطيعان أن يسمعا من خلال الحاجز الرقيق صوت السكاكين والشوك فى حجرة الطعام ، وادعت أنها تريد الزرنيخ الموجود بأعلى لقتل الفئران التى منعتها من النوم ٠

فقال : « ولكن لابد من أن أخبر السيد هوميز » فأجابته قائلة : « ان الأمر لا يستحق ازعاجه وسأخبره فى الحال ، أرجوك أن ترينى النـــور » .

وذهبا الى الممر الذى يفضى الى باب المعمل ، وكان هناك مفتاح معلق على الحائط وصاح الكيميائى الذى بدأ يقلق : « جستن ! » .

فقالت : « اصعد الى الطابق العلوى » فتبعها وفتحت المغلاق بالمفتاح واتجهت الى الرف الثانى مباشرة (لأن ذاكرتها خدمتها جيدا) وأمسكت بالزجاجة الزرقاء ورفعت سدادتهـــا وأدخلت يدها وتناولت كمية من المسحوق الأبيض وشرعت فى ابتلاعها .

فصاح بها ممسكا بيديها قائلا : « توقفى ! » .

فأجابته : « التزم الصمت والا حضر بعض الناس » .

« فلم يدر ما يصنع وأراد أن يدعو أحدا لنجدته ولكنهـــا طلبت اليه ألا يقول شيئا لأن الخطأ جميعه سيقع على سيده . وذهبت الى بيتها وشعرت فجأة بالارتياح كأنها قد أنجزت واجبا » .

وهكذا وصف لنا فلوبير عودة امما خائبة من قصر رودلف وتصميمها على تناول السم ، وكيف ذهبت الى دار الكيميائى هوميز وابتلعت الزرنيخ .

ولما عاد شارل الى المنزل ووجدها سألها : « ما الخبر ؟ » ، وطلب منها أن توضح له جلية الأمر ، وكانت حينذاك جالسة الى مكتبها وقد أتمت **كتابة رسالة وطوتها بعد أن أثبتت بهـــا التاريخ والساعة وقالت له فى** لهجة جادة : « لا تقرأ هذه الرسالة الا غدا ، وبين هذا وذاك أرجوك **ألا توجه الى أى سؤال** » .

ويشتد بها الألم وتسوء حالتها ، ويسرع شارل الى الرسالة ويفضها ويقرؤها ويعرف أنها تناولت السم ، ويطلب النجدة ، وتتقاذفه لجج الحزن فتقول له امما : « لا تبك فبعد قليل لن أتعبك أبدا » .

فيقول لها شارل : « ولماذا ؟ ما الذى دفعك الى ذلك ؟ » .

فتجيبه قائلة : « كان على أن أفعل ذلك يا عزيزى » فيقول شارل : « ألم تكونى سعيدة ؟ هل أخطأت ؟ لقد بذلت كل ما فى وسعى » ٠

ومسحت بيدها فى بطء على شعره ، وعمقت عذوبة هذا الاحساس حزنه ، وشعر بأن حياته جميعها تنهار أركانها حينما فكر فى أنه سيفقدها فى الوقت الذى تعترف فيه بحبها له ٠

واضطر شارل بعد موتها الى أن يبيع كل ما يملك من الأشياء الفضية وأثاث المنزل ليسدد الديون ، وفتح فى النهاية درج مكتب اممما فوجد فيه الرسائل التى كان يبعث بها اليها ليون ، وصورة ردولف ، فتضاعف حزنه وكبر عليه الأمر ، ورفض أن يرى مرضاه وآوى الى حجرته معتزلا الناس وكان يتمشى فى حديقة داره جيئة وذهوبا وهو يبكى بصـــوت مسموع ، وفى ذات يوم وجدته طفلته الصغيرة ميتا وفى يده خصلة طويلة من شعر اممما الأسود اللون ٠

هذه هى مأساة مدام بوفارى التى بذل فلوبير فى كتابتها جهدا جبارا ، فجاءت طرفة من طرائف الفن الخالد فى موضوعها وفى أسلوبها ٠

رسالۂ خلود

محمد اقبال

۱۹۳۲ء

سـيرة وصـورة

محمد اقبال علم من أعلام الاسـلام فى هذا العصر وقائد من قادة الفكر فى الشرق وهو رائد من رواد الوعى الانسـانى فى الفلسـفة والدين ٠٠ انه « شـاعر فيلسوف وهب قلبه وعقله للمسلمين وللبشر أجمعين » ٠

وتستطيع اليوم ان نقول ، انه الى جانب شخصية جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ، ستظل شخصية اقبال من أبرز الشخصيات فى التاريخ الشرقى الحديث ٠

والحق أن شخصية اقبال شخصية جذابة لها على القراء سـحر عجيب ، ولعل مرجع ذلك الى أنه شـاعر يغوص على المعانى الفلسفية العميقة فيحسن تناولهـا وسبكها ويجليها للناس ببيانه الألمعى وشعره الناصع وتشبيهه الرائق ، فيجعل كتبـه ـ على غزارة مادتها وعمق موضوعاتها ـ روضة غناء تسر الناظرين ٠

ولد محمد اقبال فى بلدة « سيالكوت » باقليم البنجاب فى الهند فى ٢٢ من فبراير سنة ١٨٧٣ من أسرة متوسطة الحال معظم أفرادها من المشتغلين بالزراعة ، وتنتهى الى سلالة البراهمة ٠ نزلت منذ ثلاثة قرون عن امتيازاتهـا الوفيرة ومنزلتها المرموقة بين الطبقات الهندية ، واعتنقت الاسلام على يد أحد رجال الصوفية فى كشمير ٠

كان أبوه ـ محمد نور ـ رجلا متدينا ورعا ويؤمن بقيم الروح ٠ وتعلم اقبال مبادىء القراءة على أبيه ، ولكنه تعلم منه شيئا آخر أثمن من القراءة والكتابة : مبادىء الأخلاق ٠

أدخل اقبال أحد الكتاتيب المعدة لتحفيظ القرآن فى سيالكوت . وقد حرص أبوه على أن تكون قراءة ابنه للقرآن قراءة وعى وتدبر وتفهم تؤدى الى العمل به والاهتداء بهديه ، وكان يقول له : « يابنى اقرأ القرآن كأنه نزل عليك » . ويعقب اقبال على وصية أبيه بقوله : « ومنذ اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت » .

انتقل اقبال الى مدرسة « سيالكوت » . وما ان أتم الدراسة الابتدائية حتى التحق بمدرسة البعثة الاسكتلندية للدراسة الثانوية ، بينما تلقى أصول اللغتين الفارسية والعربية على أحد أصدقاء أبيه « شمس العلماء ميرحسن » . وكان أستاذا ملهما متضلعا فى آداب هاتين اللغتين ، وشجع الأستاذ تلميذه لما ترسم فيه من نجابة وذكاء مبكر .. على أن يتابع قرض الشعر والكتابة باللغة الأوردية بدلا من اللغة المحلية السائدة فى سيالكوت .

ثم دخل اقبال جامعة لاهور وأتم دراسته فيها . وانضم الى « جمعية حماية الاسلام » وعلى منصتها أخذ يقرأ شعره النابض بالحياة . وفى لاهور التقى بأستاذه المستشرق الانجليزى « السير توماس أرنولد » وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الألفة . وكان الأستاذ « أرنولد » شديد الاعجاب بمواهب تلميذه وانتاجه الشعرى ، ولذلك طلب منه أن يقوم بدلا منه بمهمة التدريس فى جامعة لندن فى فترة من الدراسة الجامعية سنة ١٩٠٥ م . وهنالك تعرف الى كثيرين من أهل الفضل والعلم . ثم قصد الى جامعة « هيدلبرج » ثم الى جامعة ميونيخ بألمانيا حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة برسالة قدمها عن « تطور الميتافيزيقا فى بلاد فارس » . وفى سنة ١٩٠٨ حصل على درجة فى القانون .

ولما عاد اقبال الى وطنه اشتغل بالشعر والفلسفة والسياسة ، وانتخب الشاعر الفيلسوف عضوا بالمجلس التشريعى بالبنجاب ، ثم ذهب الى لندن ـ سنتى ١٩٣١ / ١٩٣٢ للاشتراك فى « مؤتمر المائدة المستديرة » .

واختير رئيسا لحزب « مسلمى الهند » ورئيسا لجمعية « حماية الاسلام » التى كانت تشرف على عدد من المؤسسات الدينية والاجتماعية . وليث زمنا طويلا ينقى المحاضرات فى أرجاء الهند . وشارك فى سياسة بلاده بأقواله وأفعاله ورأس كثيرا من المجامع السياسية وكان عمادا قويا لحزب الرابطة الاسلامية .

ومات الفيلسوف الشاعر فى ٢١ من أبريل سنة ١٩٣٨ ودفن فى لاهور . واتخذ أصدقاؤه قبرا له فى فناء المسجد الجامع (شاهى مسجد) . ثم كتبوا على ضريحه أن محمد نادر شاه ملك الأفغان أمر بصنع ذلك الضريح اعترافا منه ومن الأمة الأفغانية بفضل الشاعر الخالد .

ومحمد اقبال أول من نادى بضرورة انفصال المسلمين فى الهند عن الهندوس ، وبوجوب قيام دولة خاصة بهم يستطيعون فيها أن يظهروا روعة الاسلام وأن يحيوا فيها الحياة التى تتمشى مع تعاليم الدين الحنيف .

ومنذ أعلن اقبال هذه الفكرة سنة ١٩٣٠ أصبحت الهدف الأول الذى جاهد مسلمو الهند لتحقيقه ، الى أن تم لهم انشاء دولة «الباكستان» فى أغسطس سنة ١٩٤٧ بعد نضال متواصل اشترك فيه جميع المسلمين هناك تحت قيادة محمد على جناح .

فلسفة اقبال

ان الدعوات الكبيرة ذات المرامى البعيدة والأهداف الانسانية قلما تنجح بالعصبيات الجامحة وحدها ، وقلما تستطيع أن تمضى بين العواصف والأنواء الثائرة بهذا وحده ، فلابد من الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة الواعية والعقيدة القوية الصادقة التى لا اهتزاز فيها ولا غموض ... وعندئذ تسهل التضحيات وتتضح المناهج ويعى الداعية ما يقول وبالتالى يعى الناس ما يلقى اليهم ، فيشمون منه روح الصدق وبوادر الاخلاص ونوايا الوفاء ! .. وهنا تراود أخيلتهم أحلام البعث والتحرر ، وتظل تلح عليهم وتتجسم أمام بصائرهم ، حتى يستجيبوا

لها ويهبوا كالأقدار النافذة التى لا تذعن ولا ترضخ ولا يخيفها بلاء مهما كثر ، ولا يروعها بذل مهما غلا ، ولا يعوقها حاجز مهما علا وصمد !..

نقول ، ان الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة والعقيدة الصحيحة هى الاستعداد الواجب لمن يخوضون طريق الاصلاح والبعث والتحرير . فهذه اذن هى القاعدة . وحينما نقول العلم نقصد العلم عامة ، سواء من الشرق أو الغرب .. فى «لاهور» أو « كمبردج ».. ونقول أيضا العلم الذى يغزو العقول ويصل الى أعماقها فتفرزه وتفحصه وتأخذ منه بحذر كل ما يفيدها ولا يخالف فطرتها أو يضاد عقائدها ومثلها العليا !..

ان من يتلقى كل شىء بقبول حسن ويقبل كل علم ويؤمن بكل نظرية دون فحص أو تمحيص فيلغى شخصيته ويتناسى وجوده ــ مثله كمثل الذى فقد حاسة الذوق ــ فهو يأكل الشهد دون أن يشعر بلذة ، ويتناول المر دون أن يدرى له غصة أو مرارة ... انه يأكل فقط ليملأ معدة خاوية ويقضى عادة متبعة وتقليدا جاريا .. ولكى يعيش ! ..

كان « اقبال » ــ شاعر الاسلام ــ من الصنف الأول من الرجال الذين ينهلون من العلم أنى وجدوه ويلحقون به أينما رحل ! ..

وفى أثناء ذلك كان « اقبال » يلتقط الآراء السليمة والحكمة العالية والأفكار المستحدثة وغير المستحدثة فينتقدها ويفندها ويردها الى أصولها فيعلم الثمين من الغث والنافع من الضار ..

وظل رأيه هكذا متحرر النزعة متحرر الفكرة يناقش وينقد ويبتكر ويقدم انتاجه فى ثوب رائع قشيب لا تملك أمامه الا أن تبدى الاعجاب . وكان نتيجة ذلك أن أصبح « اقبال » ذا فلسفة جديدة ومذهب مستحدث وآراء عميقة ، يتناقلها الكتاب والفلاسفة من قطر الى قطر ومن جامعة الى جامعة فى « ايران » و « الأفغان » و « مصر » و « ألمانيا » و « انجلترا » و « ايطاليا » ! ...

أجل ان المقلد الأعمى لا يأتى بجديد ، بل يجلب على نفسه السخرية والضحك أمام الأجيال التى تتوق الى الخلق والانشاء ، وتتلذذ بالجديد

النافع ، وفى نفس الوقت تمحى شخصيته وتذوب فرديته أو « ذاته » ، التى حرص « اقبال » فى فلسفته أن يجعل منها رمز التقدم وشعار التحرر والمجد والخلود ٠

كان محمد اقبال من أكثر مفكرى المسلمين احاطة ومن أوفرهم ابتكارا ، فى الوقت نفسه كان واسع المعرفة بمذاهب الفكر فى الشرق والغرب فأمدته هذه المعرفة بمادة خصبة صاغتها عبقريته مذهبا ضافيا جمع فيه بين العلم والدين والفن ، وكانت فيه نفحات من التصوف الاسلامى على العموم ، ومن خطرات جلال الدين الرومى على الخصوص ٠

أما فلسفة اقبال ، فنجد فيها قبسات من مذاهب المثاليين الغربيين والأخلاقيين منهم بوجه خاص،فيها قبسات من كانط،وفشته،وبرجسون، ووليم جيمس ٠ وفيها نزوع الى العمل الهادف وتغليب له على جوانب النظر المجرد ٠ ويبدو أن ما حاوله محمد اقبال فى تاريخ الفكر الاسلامى شبيه من بعض الوجوه بما حاوله « كانط » فى الفكر الغربى ٠ وقد عبر الشاعر الفيلسوف عن آرائه تلك فى طائفة من القصائد باللغتين الفارسية والأوردية ، فاستجابت لها الشبيبة المسلمة الهندية ٠ ثم بسطها بعد ذلك فى سلسلة من المحاضرات ألقاها باللغة الانجليزية سنة ١٩٢٨ ونشرها سنة ١٩٣٤ بعنوان « تجديد بناء الفكر الدينى فى الاسلام » ٠

وقد بين اقبال مقصده من هذه المحاضرات : بيان صلة المسلمين بفلسفة الغرب ، وحاجتهم الى اعادة النظر فى الاسلام كله دون انقطاع عن الماضى ، فى ضوء ما كشف عنه العلم من حقائق فى الكون وطرائق للنظر٠

ينزع اقبال نزعة جوانية فى نظرته الى المعرفة والرياضة الدينية فيقول ما خلاصته : ان هنالك فرقا بين المعارف المستقاة من مصادر مختلفة ٠ وقد سوى القرآن بين ضروب الادراك الانسانى فى الاستمداد منها لمعرفة الحقيقة القصوى ٠ فلابد من أجل ادراك هذه الحقيقة أن يصحب الادراك الحسى هذا الادراك الحدسى الجوانى الذى يسميه القرآن « القلب » ، ومن ثم فالعقل والحدس أو الفكر والالهام ليسا متنافرين كما يتوهم المتوهمون ٠

ويمضى اقبال فى نظراته الجوانية فيقول : ان الدين لا يقنع بالتصور المجرد بل يطلب اتصالا بمقصوده ووسيلة هذا الاتصال العبادة أو الصلاة . الصلاة وسيلة استنارة روحية تعرف بها الذات الإنسانية أنها موصولة بحياة أوسع . وكل طلب للمعرفة هو فى حقيقته صلاة . فالباحث فى العلم الطبيعى هو كالصوفى فى صلاته وتزيد الصلاة قربا من مقصودها بالاجتماع . والعبادة فردية كانت أو جماعية هى اعراب عن تلهف الوجدان الانسانى الى استجابة له فى صمت الكون الهائل .

ويقف اقبال عند مشكلة الحرية الانسانية ، مبينا أن تعاليم الاسلام قد أكدتها ، ولكن غلبة الأغراض السياسية أو المطامع الشخصية قد أشاعت فى عامة المسلمين جبرية مشئومة الحقت بالجماعة الاسلامية أضرارا بالغة .

ويتحدث الفيلسوف الشاعر عن تصور الاسلام للعالم على أنه عالم حركة ، وسنن مستمرة : « والحركة فى الجماعة الاسلامية بالاجتهاد . ويؤسفنا أن هذا الأصل الذى يهب للأمة الحياة لم يعمل عمله فى المسلمين . ان من أقوى أسباب ضعف المسلمين اهمال هذا الأصل ، أعنى ابطال الاجتهاد » .

وفى حديث اقبال عن « الاجماع » باعتباره أصلا من أصول الشرع الاسلامى يقول : « والأصل الثالث من أصول الشرع الاجماع . وهو عندى أعظم السنن الشرعية . وعجيب أن هذه السنة الرشيدة نالت كثيرا من بحث المسلمين وجدالهم ، ولكنها لم تعد التفكير الى العمل ، وكلما صارت سنة عملية فى بلد اسلامى . ولعل اتخاذها سنة دائمة ونظاما محكما لم يلائم مطامع الملك السابق الذى نشأ فى الاسلام بعد الخلفاء الراشدين، ولعل ترك الاجتهاد لأفراد من المجتهدين كان أقرب الى منافع الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس من تأليف جماعة دائمة عسى أن تفوقهم قوة . ومما يبعث على الرضا والأمل أن سيرة الحوادث فى هذا العصر وتجاريب أمم أوربا ، أشعرت الفكر المسلم الحديث بقيمة الاجماع وعرفته انه ممكن . وشيوع النزعة الجمهورية ، ونشوء مجالس التشريع يمهدان السبيل الى العمل بسنة الاجماع » .

واضح ان فلسفة اقبال في جوهرها ذات طابع ديني عميق وهي في جوهرها تمجيد للاسلام ، وبعث للحياة والقوة في المسلمين ، وتبشير لهم بمستقبل مجد وفخار اذا ساروا في حياتهم على هدى دينهم الحنيف .

يقول الشاعر الفيلسوف في نشيده الاسلامي المشهور :

في ظل السيف تربينا ... وبنينا العز لدولتنا
علم الاسلام علي الأيا ... م شعار المجد للمتنا
ومحمد كان أمير الرك ... ب يقود الفوز لنصرتنا
ان اسم محمد الهادي ... روح الآمال لنهضتنا
دوت انشودة « اقبال » ... جرتنا يحدو فيه الزمنا
ليعيد قوافلنا الاولى ... في المجد ويبعث أمتنا

ولا ينفك اقبال متغنيا بمآثر الاسلام ، وفي غنائه دعوة الى النهوض وحث للخطى على مواصلة السير مع القافلة . ولنستمع الى الفيلسوف يقول : « الغاية القصوى للنشاط الانساني هي حياة مجيدة فنية مبتهجة . وكل فن انساني يجب ان يخضع لتلك الغاية ، وقيمة كل شيء يجب ان تحدد بالقياس الى تلك القوة على ايجاد الحياة وازدهارها . وأعلى فن هو ذلك الذي يوقظ قوة الارادة النائمة فينا ، ويستحثنا على مواجهة الحياة في رجولة ، وكل ما يجلب الينا النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعة فيما حولنا انما هو انحلال وموت ... » .

وبهذا المعنى الارادي يتغني اقبال بعزيمة المسلم فيقول :

يبتسم المسلم في سلمه ... عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصر الفولاذ في عزمه ... اذا دعا الحرب ونادى النفير

ويقول أيضا :

يمشي على الأشواك والنا ... ر والسيف ويمضي ساخرا بالعذاب
فهو ... ولكن ... طليق ... قيود الاغتراب

ويعبر عن قوة الايمان فى « شعار المؤمن » فيقول :

لم أحن رأسى خاشعا الا لمن بيمينه الاحياء والافناء

ثم يقول :

فقرى لخلاقى غنى عن خلقه
فاتنا الغنى وان غدوت فقيرا
وارى فناء العيش خيرا للفتى
من أن يعيش على الغناء أسيرا

لقد رأى محمد اقبال أن الرجل الأوربى الحديث قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلى الصرف ، فلم يعد يعيش بروحه ، وأصبح لا يكاد يحس حياة الباطن والجوانى ، وينكر كل ما هو غيبى ويراه وهما . فهو فى مجال الفكر يعيش فى نزاع مع غيره دائما ، وهو يجد نفسه فى أغلب الأحيان عاجزا عن ضبط أنانيته وشهواته مأخوذا بسحر المادة يتكالب عليها تكالبا لا يعقبه الا الحسرة والشقاء .

« وقد كانت الحرب العظمى التى قامت فى أوربا قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وان الفطرة لتخلق اليوم فى أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة انسانا جديدا ، وتخلق عالما جديدا لاقامة هذا الانسان ، عالما يرى هيكله غير البين فى آثار أينشتين وبرجسون » ..

« لقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ... ولكن واأسفاه لم يستطع عباد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذى كان يثور فى الضمير الانسانى ! » .

فاذا نظرنا الى الشرق الاسلامى ألفيناه يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة .

« ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبين أن الحياة لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يكون تبدل فى أعماقها ، وان عالما جديدا لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجى حتى يوجد فى ضمائر الناس قبلا . هذا

قانون الفطرة الثابت الذى بينه القرآن فى كلمات يسيرة بليغة حين قال : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » . انه قانون يجمع جانبى الحياة كليهما الفردى والاجتماعى ، وانه لجدير بالاكبار كل مسعى فى العالم ولا سيما فى الشرق يقصد الى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية فيولد فيها سيرة انسانية صحيحة » .

ولقد كان اقبال شديد الايمان بأن للدين الأهمية العظمى والأثر الفعال فى توجيه حياة الفرد والجماعة على السواء . وفى هذا المعنى يقول :

« ان الدين فى أعلى صوره ليس أحكاما جامدة ولا كهنوتية ولا أذكارا . ولا يتيسر الا بالدين تهئية الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله اياه تقدم العلوم فى عصرنا . والدين وحده يرد اليه الايمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب شخصية فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة . ولابد للانسان من الارتقاء الى تصور جديد لماضيه ومستقبله ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ، ويقهر هذه المدينة التى فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطنى بين الدين والمطامع السياسية . والحق أن سير الدين والعلم على اختلاف وسائلهما ينتهى الى غاية واحدة ، بل الدين أكثر من العلم اهتماما ببلوغ الحقيقة الكبرى » .

ونظر محمد اقبال الى الدين الاسلامى على أنه « دين مفتوح » — اذا صح أن نستعير هنا تعبير برجسون فى كتابه « منبعا الأخلاق والدين » — بمعنى أن رسالته رسالة انسانية ليست لها حدود زمانية أو مكانية ، وأن به قوة كامنة تستطيع أن تحرر نفوس البشرية من قيود الأجناس والألوان والعصبيات . وبذلك أعاد اقبال الى الأجيال الجديدة من المسلمين ما افتقدوه من الثقة بالثقافة الاسلامية ، كما بعث فى نفوسهم تصميما على أن يبعثوا أمام الأبصار الحضارة المجيدة التى كانت فى وقت ما نعمة سابغة على الدنيا . ولقد تغنى اقبال بأنشودة الأمل والايمان لشعب كان قد فت الفشل فى عضده أعواما عديدة .

ومضى الشاعر يحدث الشبيبة المسلمة مؤكدا أنه على رماد الثقافة الغربية المحترقة يمكن أن تولد ثقافة أفضل وأبقى متى استمسكنا بحبل القرآن :

« ان مئات العوالم الجديدة منطوية في آياته

والعوالم كلها مكنونة في أناته

ومن بين هذه سيخرج عالم واحد يكفي أهل العصر الحاضر

فالتقوا معناه ان كان في صدوركم قلوب واعية

ولئن أصبح أحد العوالم بائدا

أعطى القرآن عالما آخر »

وخلاصة رسالة الاسلام عند اقبال هي اقرار الحرية وتدعيم العدالة وتوطيد المحبة بين البشر . وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف المسلم اقبال :

« ليست غاية الاسلام محصورة في الواردات الذاتية التي تجعل المرء بمعزل عما حوله من الاشياء وعمن حوله من الناس ، بل بناء التربية التي تجعل الفرد صالحا لان يكون منه ومن غيره مجتمع صالح له انظمته القديمة ، فان العصبيات التي تدعو الى البغضاء والتنفير وضيقة مهينة ليس لها في الاسلام وجود » .

نظرية الذات عند اقبال

واذا كان محمد اقبال قد اغترف من مناهل الفكر الاوربي على العموم ، واذا كانت فلسفته زاخرة بخواطر « فشته » و « برجسون » على الخصوص ، فالذي لا شك فيه أن فيلسوف باكستان وشاعرها كان يحس احساس المسلم ويفكر بعقليته .

رأى اقبال أن الفلسفة الهيغلية المغالية للصوفية الاسلامية التي كانت قد كان من آثارها في المسلمين تفشي اليأس والاستسلام والهرب من الحياة

والمقصود من العمل والاقدام هنا من أجل ذلك عنى الشاعر المصلح بتشييد تلك الفلسفة التي تزاوج الضعف والفناء ومعارضتها بفلسفة جديدة تبشر بالقوة والتفاؤل والنماء .

تلك هي فلسفة الذات ، وهي تعتمد على الاعتقاد بأن « الذات » أو الشخصية شيء ذو وجود حقيقي وليست وهما من أوهام العقول . فلهذا عارض اقبال أقوال « برادلي » وغيره من أتباع الفيلسوف « هيجل » أولئك الذين ينكرون وجود الفرد ولا يسلمون الا بالمطلق . كما عارض شطحات الشعراء من الصوفية ، لأنه كان يرى انتشار آرائهم من أسباب الانحطاط المتفشي في بلاد الاسلام .

ومجمل مذهب محمد اقبال في الذات ، أن الحياة كلها فردية ، وأنه لا وجود لما يسميه فلاسفة المطلق « الحياة الكلية » ، وأن الله نفسه فرد الأفراد في نظر اقبال . ويسلم الفيلسوف بما يقوله « ماك تاجرت » من أن الكون ان هو الا ارتباط بين أفراد . ولكنه يضيف الى ذلك أن النظام الذي نجده في هذا الارتباط ليس نظاما قد تم من ذاته أو تحقق منذ الأزل ، وانما هو نتيجة جهاد غريزي ودأب واع متواصل ونحن نسير على التدرج من التشتت والاضطراب الى الوحدة والنظام ، ونحن أعوان على تحقيق الوحدة والنظام في العالم . فالكون ليس عملا قد تم وليس شيئا قد فرغ منه ، بل انه صائر دائما ، وانه في طريق التكوين . وعملية الخلق مستمرة لم تزل ، والانسان هو أيضا يسهم فيها ما دام يشارك في اقامة شيء من النظام ، على الأقل في شيء من الاضطراب . ويردد اقبال قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وظاهر أن هذه النظرة عن الكون والانسان معارضة لنظرات أتباع « هيجل » من المحدثين ، كما أنها مناقضة لجميع صور الصوفية المنازعة الى القول بوحدة الوجود ، التي تعتبر الهدف الأقصى للانسان الفناء في الحياة الكلية ، وترى أن نجاة النفس الانسانية فناؤها في النفس الكلية .

والمثل الأعلى للانسان في نظر اقبال ليس هو سلب الذات بل اثباتها وتوكيدها ، ويقترب الانسان من تحقيق هذا المثل بازدياد قربه

ووحدانيته . وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « تخلقوا بأخلاق الله » أى تشبهوا به فى صفاته . ومن أجل هذا يصبح الانسان واحدا اذا تشبه بالواحد الأحد تعالى .

وما الحياة اذن ؟ انها فردية . وأعلى صورها هى الذات ، والشخص الأتم وجودا هو الذى تزيد فرديته فتقل المسافة بينه وبين الله . وكذلك المؤمن ــ وهو الفرد الحقيقى ــ لا يمكن أن يتوه فى العالم وانما العالم يتوه فيه .

انما الكافر حيرا ن له الآفاق تيه
وارى المؤمن كو نا تاهت الآفاق فيه

والحياة حركة دائمة جوهرها استمرار خلق الرغبات والمثل العليا . وأكبر عقبة تعترض طريق الحياة هى المادة والطبيعة ، ومع ذلك فليست المادة شرا ، وانما هى وسيلة لابراز ما فى الحياة من قوى كامنة . وتصل الذات الى التحرر والانطلاق بازالة جميع العوائق التى تعترض سبيلها . انها حرة من وجه ، ومقيدة من وجه آخر . وهى تصل الى حرية أتم وأكمل اذا اقتربت من الفرد الأعلى الذى هو مبرأ من كل قيد وهو الله سبحانه وتعالى . ويمكن أن يقال بالاجمال ، ان الحياة سعى دائب الى الحرية والانطلاق .

والشخصية عند اقبال حال فريدة من التجلد والجهد أمام المكاره ، ويقابلها الميوعة والرخاوة وهو يقول :

ونفسك فاشحذن فى كل آن وعش أمضى من السيف اليمانى

ويقول :

ففى الأخطار للهمم اختبار لأرواح وأجساد عيار

ولما كانت الشخصية بهذا المعنى هى أثمن ما يحققه الانسان ، فقد وجب عليه أن يدأب على الصمود للأحداث وركوب الأخطار وتجنب مزالق التواكل والاسترخاء . وكل ما ينزع بنا الى السعى ، وضبط النفس

ومغالبة العوائق والصعاب ، انما ييسر لنا الانخراط فى سلك الحياة الخالدة وهو يقول :

اذا صانت الذات المتينة نفسها أعيت على الأيام كل مماة

ويقول اقبال أيضا : « تنص كلمات القرآن على أن الكون الذى يواجهنا غير باطل ، ان له منافع كثيرة · وأهم نفع له أن الجهود المبذولة للتغلب على الصعاب فيه تشحذ بصيرتنا ، وتعدنا للنفوذ الى ما هو تحت سطح الظاهرات » · وبفضل هذه العقبات ، تستطيع الذات الانسانية أن تحقق « انيتها » وامكاناتها اللامتناهية ·

وفكرة الشخصية عند اقبال تعطينا معيارا للقيم فى الفن والدين والأخلاق ، كما تعطينا مقياسا للخير والشر : فكل ما يقوى الشخصية خير وكل ما يضعفها شر · ومن هذا الوجه يشيد اقبال بفلسفة « اسبينوزا » اذ جعل شعارها الفرح بالحياة ، وينتقد فلسفة أفلاطون ، لأنه جعل الموت هو المطلب الأسمى الذى ينبغى أن يسعى الانسان اليه ، ولأنه قد تجاهل أكبر عائق فى طريق الحياة ، وهو المادة ، ودعانا الى الفرار منها بدلا من التغلب عليها ·

وقوة الذات فيما يسميه اقبال : « العشق » ، ويعنى به الحماسة والرغبة فى العمل الخلاق · وأعلى صور العشق عنده هو خلق القيم وانشاء المثل العليا والسعى الدائب الى تحقيقها ·· وكما أن العشق يقوى الذات فالسؤال يضعفها ويوهنها · و «السؤال» ها هنا هو الخمود وقصور الهمة والقعود عن العمل :

جدة الدنيا بتجديد الفكر ليست الدنيا بصخر ومدر
همة الغائص فى « الذات » لها من غدير الماء بحر قد زخر
قاهر الأيام من انفاسه هى أعمار خلود فى الدهر

وأعلى مراتب الذات هى المرتبة التى تصل فيها الشخصية الى الانسجام بين قواها وملكاتها جميعا ، فيصبح النوم محرما عليها ، وتصبح

وبين الفكر والعمل : هذه مرتبة الانسان الكامل الذى تنتظره الانسانية

والخلاصة ، أن تحلل الذات فى فلسفة اقبال هو جوهر الكون ومقصد الحياة ، والحياة الصحيحة هى التى تسعى دائما الى النمو

على كل غصن تبين أن النبات مشوق لرحب الفضاء
فيما قر فى ظلمة الترب حب جنون النشوء به والنماء
فلا تبغ فى فطرة ترك سعيه فما ذاك معنى الرضا بالقضاء

وقد عبر اقبال تعبيرا جميلا عن لب هذه النظرية فى الذات بقوله :

« ... يا ضياء الانسانية والاخاء ، طارد بقوتك ظلام البغضاء حتى تزول عن انفسنا الشكوك والوساوس ، عسى أن تشاهد الأمم مرة أخرى وجه السعادة التى اختفت خلف مطامع المتحاربين » .

هذا بعض ما قاله « اقبال » حينما كان يحلم بعالم تسوده المحبة والاخاء وتتحطم فيه — كما أسلفنا — حواجز الدم واللون والجنس ، وتندثر أحقاد الطبقات التى لا تقوم الا على مشاعر البغض والتناحر والاستعباد ، لقد كان يهفو الى عالم نظيف قد هجعت فيه الحروب واستكانت المطامع الحمراء ونامت الأهواء الكافرة ..

ونظر « اقبال » بعين الحقيقة والواقع الى العالم الحديث ، فبدت له أمراضه واضحة كالشمس .. فكان أول ما يراود ذهنه أن ينقذ البشر مما دهاه ، لذا وضع فلسفته الخالدة التى ارتآها لأنها وقود الخلاص .. وأوقع المجتمع الانسانى ، وحادى القوافل الحائرة الى الطريق للسعادة والهدى ..

وقد التزم في فلسفته جادة الاسلام ، واتخذها سبيلا الى الحرية بعد أن درس وبحث وفكر وعاش في خضم الحضارات المختلفة والمدنيات المتعاقبة بقلبه وفكره ، فتيقن أنه لا خلاص للعالم الا بلواء الاسلام بروحانيته ومادیته ، كما رأى « برناردشو » و « تولستوى » وغيرهما من فلاسفة الغرب. مثل هذا الرأى ..

ولم يشغل تفكير « اقبال » قضايا العالم الاسلامى والعالم العربى فحسب ، بل تناول كل ما يشغل أذهان العالم من مشاكل : فتحدث عن عصبية الأمم ، وعن هؤلاء الذين يعبثون بقدسيتها ويسخرونها لاهوائهم ، حتى انه كان من أول المنبئين لها بالتمزق والفشل بعد نظره السياسى ، وناقش نظريات الحكم المختلفة ، وواجه « موسوليني » برأيه فى قوة وحزم وبسط له تبلبل الأفكار فى الأمة الايطالية ، ومغزى الحكم الدكتاتورى ، وتنبأ أيضا بانهيار ايطاليا السياسى عن قريب ، وقد حدث ما توقعه ابان الحرب العالمية الثانية .

وضرب اقبال بسهم وافر فى شرح المذاهب العالمية وماهيتها ، شأن العالم المتبصر الخبير ..

وكثيرا ما ترى فى شعره صورة لصراع الحبشة من أجل التحرير ، وثورات الشام وهى تناوئ الاستعمار ، وتمرد الهند وهى تدفع الغزاة ، وتحذيره الصهاينة وهم يحيكون الأعاجيب والمؤامرات ، وخطط سياسة السياسة ومستغلى الشعوب الذين يبيعون أنفسهم وضمائرهم للشيطان .

لقد كان نصيرا لقضايا الحرية فى كل مكان فى الشرق والغرب .. وكان غيورا على الأخلاق ثائرا على ضياعها عند الغربيين المنحلين المارقين أو الشرقيين الجامدين الخانعين ..

وكم كان حزن اقبال أليما حينما طلقت تركيا اسلامها ، وقضى « كمال أتاتورك » على الخلافة الاسلامية وعلى صلة تركيا بالعرب وقذف بنفسه فى أحضان الغرب بلا تحفظ ، ولكم نعى على « رضا بهلوى » فى ايران سياسته المتعجرفة التى تؤمن بكل ما يأتى به الغرب ، وكان

« اقبال » يظن أن أمثال هذه الحركات فى « تركيا » و « ايران » وغيرهما ليست الا خبط عشواء ، والتباس أفكار ومركب نقص ، وايمانا مطلقا بروعة المدنية الحديثة على علاتها ٠٠ وكان يعتقد أن حركة البعث الحقيقية هى يوم أن يهب المسلمون من غفلتهم ، وينشروا نور مبادئهم وحضارتهم العريقة ويجوبوا ميادين العلم والكفاح فى همة ونشاط ٠٠٠

و « اقبال » يرى أن حكم الشعوب يجب أن تسيره الفئة الفاهمة الواعية والتى لها من نضوجها وايمانها عاصم من الزلل والميل ٠ لهذا فهو يأخذ على النظام « الجماهيرى » أنه لا يزن الرجال الوزن الحقيقى ، بل يعتمد على العـــدد لا القيم الشخصية ، وبمعنى آخـــر قوامه « الكم » لا « الكيف » ٠٠ واقبال بهذا يرى أنه من الأوفق والأرجح أن يكون للفئات ذات الكفاية المرموقة كلمتها ورأيها ، كما كان فى صدر الاسلام بالنسبة لأهل « الحل والعقد » ، لذا يقول « اقبال » :

نظام الجماهير حكم بـه تعد العبـــاد ولا توزن

ومع ذلك « فاقبال » يحترم رأى الأغلبية ، ويسير على رأى الجماعة لأنه صاحب نظرة ديمقراطية سليمة ٠ وفى الوقت نفسه صاحب وجهة نظر ترفع من قيمة الانسان وتقدر كفاءته ومواهبه الشخصية ٠٠٠

و « اقبال » لا يفتأ يردد الشكوى من طغاة العالم الذين يذيقون الشعوب الضعيفة الويلات ، ويبكى من أجل السلام الضائع والقوة الغاشمة التى لا قلب لها ولا ضمير ! ٠٠

كم أصاب الانسان فى هذه الأ رض من اسكندر ومن جنكيز
ويقول التـــاريخ فى كل عصر خطـر فـــرط قـــوة لعـــزيز
وهى سـم بغير دين ، وبالديـ ـن دواء لكل ســـــم نجيز

وهكذا ظل « اقبـــال » طوال حياته يحارب السياسة اللادينية فى « روسيا » و « تركيا » و « أوربا » وفى أى مكان، لأى « الميكيافيللية» ليست كما يرى من الاسلام٠٠ويعتقد أيضا أن السياسة اللادينية ستورد الانسان

موارد التهلكة والدمار وتسلبه أسمى ما يعتز به من مشاعر وتقاليد وعقائد ..

ما الحق مخف عن فؤادى سره
فلقد حبانى الله قلبا مبصرا
فسياسة اللادين عندى خسة
مات الضمير بها وابليس افترى
لما قلى حكم الفرنج كنيسة
ساسوا كشيطان بلا قيد جرى
شرهت لأموال العباد كنيسة
فاذا الخسيس سفيرها بين الورى

فالاستعمار أنى حط رحاله ، وحيثما ألقى بعصاه ، يأخذ أكثر مما يعطى ويهدم أكثر مما يبنى ، ويفسد أكثر مما يصلح ، لأنه يابى الا أن يظل محتفظا بصولجانه متمتعا بسلطانه حائزا على أسباب الثراء والنفوذ ! ..

لقد كان « اقبال »ينشد البعث لأمم الأرض قاطبة ، ولا يرجوه للمسلمين فحسب ، فحال أوربا فى نظره لا ترضى وخطتها منحرفة وكذلك حال الشرق لا تسر ..

علة الشرق ذلة واقتداء ونظام الجمهور فى الغرب داء
مرض القلب والبصيرة فاش ما بشرق ولا بغرب شفاء

فكان لا مناص من أن تتسع رقعة فلسفته فتشمل القاصى والدانى ، وتتناسى الألوان والأجناس وعناصر التفرقة ، فكلهم فى نظره يحتاج الى رعاية وعلاج وصحوة ، سواء فى ذلك الغاصب والمغصوب . وازاء ذلك كان لا يفتأ يصرخ بنزعته الانسانية العامة التى لا تعرف التعصب ، فلا هو بهندى ولا عربى ولا شرقى ولا غربى ، انه انسان وكفى ، وبشر يؤمن « بذاته » وانسانيته .. فقد علمته فلسفته الذاتية أن يحلق فوق مستوى الأهواء والتفرقات :

الى عصبات الحرب ما أنا منهم ولست بهندى ولا أنا اعجمى
فقد علمتنى (الذات) تحليق نافر يمر على الدارين غير محتوم
فدينك تعداد لأنفاس محجم ودينى احراق لأنفاس مقدم

ومع احساس اقبال بهذه النزعة العالمية ، فهو يرى أنه هندى أعجمى بحكم المولد والنشأة فيقول : وماذا فى ذلك ؟ اذا كنت هنديا فى انغامى فانى « عدنانى » الصوت مسلم حنيفى ، واذا كانت كأسى من صنع الأعاجم ، فان خمرتها حجازية المنبع ، وأفكارى مستمدة من النبى العربى ، وهل الاسلام الا دين الله فى الأرض ووصيته الاخيرة الى الناس عامة ، وقد انضوى تحت لوائه الطورانى والسامانى .. والشرقى والغربى :

انا أعجمى الجنس لكن خمرتى صنع الحجاز وكرمها الفيحان
ان كان لى نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

ولقد توارد فى شعر « اقبال » أسماء الأعلام من أئمة الفكر والحرب والدين والسياسة فى شتى العصور والبقاع ، فكان شعره موسوعة لهؤلاء جميعا .. تحدث عن « محمد » (ﷺ) و « عيسى » و « جنكيز » و « الاسكندر » و « نيتشه » و « أفلاطون » و « ابن الرومى » و « ابن سينا » ، واحنى رأسه اعجابا « بعلى » و « عمر » و « أبى ذر » ، وتحدث عن الفلاسفة والصوفية والملحدين والمؤمنين .. كل ذلك لأنه كان انسانا يعيش بكل ذرة من كيانه ، فشعر اقبال سجل حافل للاحداث التاريخية والسياسة العالمية وسفر جليل لماضى الاسلام وحاضره ..

مؤلفاته ورسائله

وكان أول كتاب ألفه هو (علم الاقتصاد) وكتبه باللغة الأردية فى عام ١٩٠٣ ، وكان باكورة اعماله الشعرية (أسرار خودى) عام ١٩١٥ ، ثم تبع ذلك ب (رموز خودى) فى عام ١٩١٧ . وظهر ديوانه (بيام

مشرق) فى عام ١٩٢٣ ، و (زبور عجم) فى ١٩٢٧ ، و (جاويد نامه) فى عام ١٩٣٢ ، و (باس جيه بايد كرد / أى أقوام شرق) فى عام ١٩٣٦ ، و (ارمغان حجاز) فى عام ١٩٣٨ ، وكانت هذه الكتب كافة باللغة الفارسية · وطبع الكتاب الأخير بعد وفاة العلامه اقبال ·

وطبع أول كتاب ألفه العلامة محمد اقبال باللغة الأردية وهو بنغ داره) فى عام ١٩٢٤ ، ثم طبع كتاب (بال جبريل) فى عام ١٩٣٥ م ، وأعقب ذلك (ضرب كلام) فى عام ١٩٣٦ ·· ويتكون (بنغ داره) من مجموعة من القصائد الأردية تعود الى الأطوار الثلاثة لحياة العلامة اقبال الشعرية · أما كتاب (بال جبريل) ، فانه يعتبر ذروة شعر اقبال الذى وضعه باللغة الأردية · ويتكون الكتاب من القصائد الغزلية والرباعيات والقصائد المختتمة بالأفكار الرائعة الخ · أما (ضرب كلام) ، فقد وصفه اقبال بنفسه بأنه عبارة عن اعلان حالة الحرب على الفترة الحالية (١٩٣٦) ·

وكتب العلامة اقبال كتابين باللغة الانجليزية · كان الكتاب الأول بعنوان : (تطوير ما وراء الطبيعيات فى فارس) حيث ناقش فيه استمرارية الفكر الفارسى ، وعالج فيه التصوف بالتفصيل · ان مفهوم الصوفية عند اقبال هو انها تساعد على ايقاظ الروح وتجليها الى أعلى المستويات فى الحياة · أما الكتاب الثانى فهو (احياء الفكر الدينى فى الاسلام) ، وهو عبارة عن كتاب يضم ٦ محاضرات ألقاها العلامة اقبال فى مدارس (حيدر أباد) . ان بعض الأفكار الرئيسية لمحاضرات اقبال الست هى : المعرفة والخبرة الدينية والاختبار الفلسفى للخبرة الدينية و مبدأ الله ومعنى الصلاة والأنا الانسانية والجبر والاختيار وروح التراث الاسلامى ومبادىء الحركة فى الاسلام (الاجتهاد) · وقد ناقش تلك الأفكار بالتفصيل على ضوء الاسلام والفلسفة الحديثة ، مما أدى الى فتح مجالات جديدة للدراسات الاسلامية لمفكرى العصر الحديث ·

وبالاضافة الى هذه الكتب ، كتب العلامة اقبال المئات من الرسائل باللغة الأردية وباللغة الانجليزية أيضا · وقد طبعت رسائله التى كتبها

باللغة الأردية بتسع كتب مختلفة . وأدلى ببيانات حول قضايا الساعة المتعلقة بالمجالات الدينية والاجتماعية والثقافية للهند وأوروبا والعالم الاسلامى . وعمل لبضع سنوات أستاذا للفلسفة والعلوم الشرقية فى الكلية الحكومية بلاهور (الكلية الشرقية فى جامعة البنجاب) وألقى العديد من الخطب فى حياته ومارس المحاماة فى محكمة لاهور العليا ما عدا فى السنوات الأربع الأخيرة من حياته ، وكان يقابل الزائرين بكل حرية وكان بوسع كل فرد المجىء اليه والاستماع لما يقوله . وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كان يجد وقتا للشعر حيث ان شعره ملىء بالمعنى ، ومفعم بالأسلوبى الأدبى ، وفى الواقع ان شعره جعل الفلسفة موسيقية النغمة .

موضوع رسالة الخلود

ودور الشاعر الفيلسوف محمد اقبال فى اثراء الحضارة الاسلامية والكشف عن جوهرها وتجليته للناس فى اثبات أصالة الفكر الاسلامى ومقدرته على تخليص البشرية والانسان المعاصر من المشاكل التى يرزح تحت وطأتها ، وفى النهوض بالبشرية من الكبوة التى تردت فيها بفعل الاستعمار الغربى ، وبفعل الاهتمام بالمادة وحدها على حساب الروح .. كل ذلك من الوضوح بصورة لا تحتاج الى المزيد ، والذى نهدف اليه هنا هو لفت نظر القارىء الى ذلك الكتاب البالغ الأهمية (وان شئت قل : واسطة العقد فى كتب « اقبال » جميعها) ، ألا هو كتابه « الخلود » .

لقد بدأت مصر والعالم العربى معها تعرف «اقبال» منذ الثلاثينيات من القرن الحالى ، وذلك من خلال ترجمة لبعض دواوينه وأشعاره الى اللغة العربية ، ومن خلال دراسة لبعض شعره وتقديم شىء من فكره ، مع جوانب من سيرته قام بها المرحوم الدكتور « عبد الوهاب عزام » . لكن ما ترجمه الدكتور « عزام » لم يكن كافيا لتقديم مذهب « اقبال » ولا لشرح أفكاره بصورة كاملة ، أضف الى هذا أن حرصه على ترجمة الشعر

الفارسى الى أبيات عربية منظومة أوقعه فى غموض وأفقد الشعر رونقه وبهاءه . وذهب بتأثيره فى النفوس العربية . مما حدا بالعلامة الأستاذ « أبى الحسن الندوى » أن يختار من دواوين « اقبال » مقتطعات تقرب فلسفته وأسلوبه من قراء اللغة العربية ، وبعد ذلك اضطلع الشيخ « الصاوى شعلان » بمهمة التعريف بشاعرنا وبقريحته (ولكن فى ميدان الشعر حيث قدم الكثير فى هذا المجال) وما لبث « اقبال » أن عرف فى العالم العربى ، وتوالت احتفالات الهيئات العلمية والدينية به واهتماماتها باحياء ذكراه فى صورة بحوث وكلمات يلقيها كبار المفكرين من هنا ومن هناك .

ومع ذلك ، فقد اعتمد كل الدارسين على كتابين اثنين لم يتعدوهما الى غيرهما فى كل ما قدموه عن ذلك الفيلسوف الكبير .. هذان الكتابان هما :

١ — محمد اقبال تأليف الدكتور عبد الوهاب عزام .

٢ — تجديد الفكر الدينى فى الاسلام وهو كتاب ألفه « اقبال » نفسه باللغة الانجليزية وترجم الى العربية .

ومع أن هذين الكتابين لم يتضمنا غير نظرية « الذاتية » فقط من بين النظام الفلسفى الكامل لاقبال ، ومع أنه هو نفسه اعترف بأن هذين الكتابين لم يتضمنا سوى عرض لفكره وآرائه بصورة عقلية لاتخلو من غموض وتعقيد ، فان أحدا لم يحاول تقديم جوانب جديدة فى صرحه الفلسفى من خلال كتب جديدة ، ولو حدث ذلك لما أخذ عليه مفكرون آراء سبق له الرجوع عنها فى مؤلفات لاحقة .. فقد كان الرجل يتمتع بشجاعة فائقة ، وما كان يستنكف العدول عن بعض أفكاره اذا تبين له أن الصواب جانبه فيها . ولقد استمر وضع « اقبال » على الصورة التى عرضنا لها فى البلاد العربية حتى قام مؤخرا الدكتور « محمد السعيد

جمال الدين » بترجمة رائعة مع دراسة جادة وعميقة لمنظومة « اقبال » المسماة « جاويد نامه » أو « رسالة الخلود » ٠

ان « جاويد نامه » هى الرسالة التى تجمع شتات أفكار فيلسوف الاسلام المعاصر وتتضمن كل آرائه بعد أن نضجت واكتمل عودها ، وتبلورت ، وقد اتخذ شاعرنا موضوع « المعراج » وسيلة أو أسلوبا قدم من خلاله فكره وفلسفته ٠ ويرجع ايمان اقبال بهذا الأسلوب ـ أسلوب المعراج ـ الى الأيام الأولى فى فترة صباه ٠ فقد نظم آنئذ قصيدة عنوانها « القصيدة المعراجية » باللغة الأردية عبر فيها عن قيمة المعراج النبوى ، وكيف أنه حل عقد الحياة ، فقد اكتسب النبى (ﷺ) فيه الصفات الالهية ٠ وقد قرر « اقبال » فى تلك القصيدة أن العشق الالهى الحقيقى يتمثل فى ادراك النفس الانسانية امكانية قربها من الله تعالى حتى لتكون منه قاب قوسين أو أدنى ٠٠ ففى المعراج التخلص من عقدتى الزمان والمكان، وتحرر النفس الانسانية من أسرهما ، اذا هى آمنت بالله حق الايمان واقتدت بالنبى صلوات الله وسلامه عليه ، واذا حدث ذلك فان حقيقة الذات الانسانية تتأثر وتصبح قادرة على الرقى الروحى والوصول الى أعلى الدرجات ، ولكن ينبغى أن يكون واضحا أن مقدرة النفس الانسانية على تحقيق ذلك ، انما هى رهن بشىء واحد هو التطلع الدائب الى الرقى وعدم ربط القلب الا بالله ٠ وبالله وحده ٠

استرعى موضوع تلك الرسالة أنظار الباحثين من المستشرقين ، فترجموها الى الايطالية والألمانية والفرنسية والانجليزية فى الخمسينيات من القرن الحالى٠ ثم ترجمت الى لغات شرقية فى زمن متأخر نسبيا ، وكان وحدة موضوع الرسالة وطول نفسها وتكامل عناصرها هو السر وراء الاهتمام بتلك الرسالة شرقا وغربا ، انها قصة متناسقة الأجزاء متواصلة الفصول وتهدف فى نهاية الأمر الى غاية واحدة ٠

ويبدأ الفيلسوف الكبير معراجه بدعاء يعبر عن الاحساس العميق بغربة الانسان فى ذلك الوجود ٠ ذلك الانسان المقيد بحدود الزمان

والمكان ، ولا يجد الفيلسوف بدا من الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى ، طالبا منه أن يخلصه من هذين القيدين ، ليتسنى له الاتجاه الى هدفه المتمثل فى القرب من الله سبحانه والتجلى أمام الذات الالهية ، ذلك فوق رغبته فى الخلود والتخلص من تراب هذه الأرض .

ويستمر « اقبال » فى مناجاته ربه الى أن يلفه الليل بظلامه . وهنا تبدأ روح الشاعر الفارسى الكبير « جلال الدين الرومى » فى الظهور شيئا فشيئا ، ويدور بينه وبين شاعرنا حوار يشرح « الرومى » خلاله حقيقة المعراج بقوله : « ان المؤمن لا يرضى الا بالذات الالهية نفسها . فلقد ترك الرسول ﷺ الكون وما وراء الكون واتجه الى الله وحده » . وعلى الفور نرى اقبالا يتوق الى تحقيق تلك الرحلة المعراجية فيأتيه ملك يخلصه من أثقال الزمان والمكان وتحدث له خفة ورشاقة يبدأ بعدها رحلته من الأرض متجها أول ما اتجه الى فلك « القمر » بصحبة « الرومى » . وهنا يقدم « اقبال » وصفا رائعا لمشاهداته فى ذلك المكان ، ويحدثنا عن جباله الجرداء ، ثم يمضى فيه مع مرشده حتى يصلا الى « وادى الطواسين » ، وهناك يجدان صخرات أربعا كتبت عليها التعاليم الأساسية لدستور الأخلاق عند « بوذا وزرادشت والمسيح ومحمد » عليهما السلام . ومن خلال عرضه للجانب الأخلاقى عند هؤلاء .. يعطينا رأيه فيما يتصل بالتطور الانسانى ، ويبين لنا كيف قامت النبوة بدور رئيسى فى توجيه التاريخ البشرى ، مقدما نظريته فى التفسير الروحى للتاريخ فى مقابل رأى أصحاب نظرية التفسير المادى لذلك التاريخ .

وفى المرحلة الثانية يهبط « اقبال » مع « الرومى » فى فلك « عطارد » ويلتقيان باثنين من كبار المسلمين المصلحين هما « جمال الدين الأفغانى » « وسعيد حليم باشا » ويشكو لهما « اقبال » من تفرق المسلمين ، وضعف ايمانهم ، ومن الاستعمار والشيوعية اللذين ينخران عظام المجتمع المسلم وهنا يتحدث « الأفغانى » عن الوطنية الضيقة وما تجلبه من ضرر ، كما يلقى مزيدا من الضوء على انحرافات الشيوعية والاستعمار ، ثم يتحدث

المصلح التركى « حليم باشا » فيهاجم الحركة الكمالية فى « تركيا » ، ويتوجه بحديث الى الأتراك قائلا : « ان المسلم عليه أن ينظر فى نفسه ثم القرآن اذا أراد خلق عالم جديد » • وعندما يشكو « اقبال » من عدم معرفة المسلمين لعالم القرآن مع تداول الكتاب الكريم بينهم يأتيه الجواب من « الأفغانى » موضحا أن الأعمدة التى يقوم عليها القرآن هى :

١ ــ الانسان خليفة الله فى أرضه •

٢ ــ الحكومة الالهية هى التفسير لقوله تعالى : «ان الحكم الا لله» •

٣ ــ الأرض ملك الله •

٤ ــ الحكمة خير كثير •

ثم يتساءل الفيلسوف « اقبال » : كيف يمكن لموتى النفوس من مسلمى اليوم ، وكيف يتصور من أصحاب القلوب الخربة الآن ، احياء ذلك العالم الناصع البياض ــ عالم القرآن ؟ •• فينبرى « سعيد حليم » للرد عليه مؤكدا أن ذلك ممكن بشرط تحرير الروح المبدعة فى المسلم من كل ما يقيدها : ذلك « أن القرآن ينطوى على عوالم لانهائية ، ويبلى عالم فى نفس المؤمن فيمنحه القرآن عالما آخر جديدا يمنحه عالما له نفس المحكمات ، ولكن صورته متغيرة متجددة أبدا » •

ومن فلك « عطارد » هذا يوجه الفيلسوف « جمال الدين الأفغانى » رسالة الى « الروس » يدعوهم فيها الى الايمان بالله تعالى ويبكى مع « الرومى » حاضر الأمة الاسلامية ، وأخيرا ينشد « اقبال » قصيدة يبين فيها للمجتمع المسلم طريقة التخلص من مشاكله : أن يؤمن بالقرآن ويبحث فيه من جديد عندئذ ستتفتح عيونه على عوالم أخرى جديدة خليقة بأن يحياها الانسان •

ويواصل الفيلسوف الاسلامى الكبير معراجه فتصل به المسيرة الى فلك « الزهرة » ، وهو الكوكب الذى يضم الأصنام والآلهة ومعبودات الأمم القديمة ، وقد شاهدها فى حالة سرور وبهجة بسبب فرار الانسان من

طريق الله واتجاهه لعبادة المحسوس والماديات ، وينطق لسان واحد من هذه الآلهة شاكرا فضل المستشرقين المستعمرين الذين أثمرت بذور تشكيكهم الحادا ، ويعلن ابتهاجه فقد أطبقت الجاهلية الحديثة على العالم ، وتحطمت وحدة المسلمين ، وهنا يطالب « الرومي » باعادة النظر فى الماضى والمستقبل ، فهيا انهض أيها المسلم وتخل عن هذا العقليد الأعمى والجمود ، فلابد من تبديل الفكر من الأعماق » . وفى فلك « الزهرة » هذا يلتقى اقبال بعدوين لله والدين يعيشان فى حالة سيئة هما « فرعون وكتشنر » . وفى هذا الموقف يحاول « كتشنر » الدفاع عن تنقيب « الانجليز » لقبور الفراعنة فيقول ان ذلك لم يكن جريا وراء الذهب والجواهر وانما طلبا للعلم والحكمة حتى يتسنى كتابة تاريخ مصر والعالم القديم من جديد ، ولكن سخرية فرعون تأتيه هنا حين يسأله : ولكن ما رأيك فى تربة المهدى ؟ مشيرا بذلك الى نبش « كتشنر » لقبر « المهدى » عندما ذهب لاخماد الثورة المهدية فى السودان سنة ١٨٩٨ م ، وهنا تظهر روح « المهدى » فتدعو العالم الاسلامى الى التيقظ والعمل وتقول : « الى متى تظلون أسارى الفرقة والتشتت ، لقد آن الآوان لاحياء حرقة المحبة الالهية فى القلوب . يا ارض الحجاز ألا فلتنجبى « خالدا » آخر ، ألا فلتنشدى لحن التوحيد من جديد » .

المدينة الاسلامية الفاضلة

ثم يتقدم الشاعر « اقبال » مرحلة أخرى فى معراجه حتى ينتهى الى فلك « المريخ » ، وفى ذلك الفلك يعطينا تصوره للمدينة الفاضلة الاسلامية : مدينة تتخلق بخلق المصطفى (ﷺ) وتطبق الشريعة الاسلامية بكافة حذافيرها ، وبعد ذلك يأتى دور فلك « المشترى » حيث يلتقى الفيلسوف الكبير بأرواح ثلاث شخصيات هى « الحلاج » ، وشاعر هندى يسمى « غالب » ، وشاعرة من معتنقى المذهب وتسمى « قرة العين » ، وهى ايرانية الجنسية من أتباع المذهب البابى ، وقد حركت أناشيد هؤلاء الثلاثة نفس « اقبال » ، فأخذ يعرض عليهم مشاكله ويتوجه

بالقسم الأكبر منها الى « الحلاج » ويناقشه فى الحقيقة المحمدية وفى قولته « أنا الحق » ، وينتهى الى أنها كانت تعبيرا عن الجانب الالهى فى النفس الانسانية • ثم يظهر « ابليس » ويبدى شكواه من أن الانسان المعاصر لم يعد جديرا بخصومته ، ويدعو الله أن يهبه خصما جديرا بالمنازلة • بعد ذلك يمضى « اقبال » مع مرشده « الرومى » الى فلك « زحل » موطن الأرواح الرذلة التى خانت شعبها وأوطانها ، وهنا ينصحه « الرومى » ألا يهبط على هذا الكوكب فعليه يتنزل سخط الله وعذابه فى كل لحظة ، وفى هذا الموطن تنتهى مرحلة الأفلاك فى معراج « اقبال » لتبدأ بعدها مرحلة ما بعد الأفلاك ، حيث يمضى الرفيقان الى أن يصلا الى جنة الفردوس فيصفاها مع ما فيها من عوالم وقصور ويتقابلان فيها مع الزاهدة الهندية « شرف النساء » التى كانت تحرص على الجمع بين المصحف والسيف فى حياتها كلها ، كما يلتقيان مع الملك الايرانى « نادرشاه » فيقدم « اقبال » — خلال حوار معه — نقدا للنزعات الانفصالية أو الوطنية التى عمت العالم الاسلامى • بعد ذلك يلتقيان « بأحمد الابدالى » مؤسس دولة «أفغانستان» الحديثة ، الذى يهاجم بعنف اتجاه المسلمين نحو تقليد الغرب فى سفاسف الأمور ، وكان اللقاء الأخير مع ملك الهند السلطان الشهيد « تيبو » •

بعد ذلك كله يتوجه « اقبال » الى الحضرة الالهية ، وتثور فى نفسه تساؤلات يخط القلم الالهى ردا عليها فى قلب شاعرنا ، وكلها تدور حول اصلاح العالم الاسلامى . وأخيرا ، ينتهى معراج « اقبال » على صوت يأمره بالعودة الى الأرض لكن بعد أن حصل على زاد يوجهه الى طريق الحق والى الرقى الروحى •

ويتمثل هذا الزاد فى دعوة على شكل خطاب موجه من الشاعر الى الجيل الجديد يشرح فيه مفهوم التوحيد ، ويتحدث عن افلاس المسلمين المعاصرين — والشباب منهم خاصة — وينصح هؤلاء أن يربطوا قلوبهم بالله وحده ، ويحذرهم من اليأس بسبب الحقد والنفاق الذى يرونه فى المسلمين المعاصرين •

وهكذا يتضح أن الشاعر الباكستانى قد عالج فى معراجه أو فى كتابه هذا ، كثيرا من القضايا المهمة : تربوية وسياسية واجتماعية واقتصادية للدرجة التى جعلت بعض المستشرقين يقول عن رسالة الخلود : « فى كل شطرة يشعرنا الشاعر أنه يملك شيئا ليقوله ، وقد بدت ثقافته الاسلامية فيها عميقة وشاملة ، وفيها يرى أنه لا أسلوب التصوفى فى العصور الوسطى ، ولا القومية والالحادية بقادرة على أن تشفى علل الانسانية البائسة .. فقد كان الرجل مصلحا يرى فى الاسلام العلاج الناجع لآلام البشرية ، والمتنفس السليم لامكانات الانسان وطاقاته » .

ويبدو جليا مما عرضناه أن الأستاذ « سيد عبد الواحد » ــ عالم باكستان الشهير ــ كان محقا عندما قال : « فى مقدورنا أن نعتبر رسالة الخلود أعظم أعمال « اقبال » ، انها « كوميديا الهية » شرقية ، وقد عبر فيها بروعة عن أفكاره المتعلقة بمختلف القضايا التى تجابه الناس فى حياتهم اليومية . ويقدم اقبال فيها تفسيرا لحقائق الخلود ، ويناقش أكثر القضايا حساسية وتأثيرا بالنسبة للانسانية بطريقة فنية رائعة للغاية » .

الهـــــوامش

حرب البيلوبونيز

(١) انظر الجزء الثانى ، الصفحة ٩ من موسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » ٠

(٢) **الحرب البيلوبونيزية** : (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق٠م) صراع مسلح بين أثينا واسبرطة ٠ منشؤه انتصار أثينا للديمقراطية وسيطرتها على امبراطورية واسعة ، بينما كانت اسبرطة تناصر حكم الأقلية « الأوليجاركية » ٠ بدأت الحرب بسبب القرار الذى اتخذته أثينـــا بحرمان ميجارا الاتجار مع الامبراطورية الأثينية ، فاجتمعت العصـــبة البيلوبونيزية فى اسبرطة ، واتهمت أثينا بأنها خرقت صلح الثلاثين عاما ، وأعلنت الحرب عليها ٠ وفى ٤٣١ ق٠م غزت اسبرطة أتيكا ، ولكن أثينا كانت محصنة بأسوارها ٠ وفى (٤٣٠ ـ ٤٢٩ ق٠م) اجتاح الطاعون أثينا وتسبب فى موت كثير من الأثينيين ومنهم بركليس ٠ ومضت السنوات العشر الأولى من الحرب دون نصر حاسم ، وعندما أخذت قوى الفريقين فى الاضمحلال ، عقد صلح بينهما (٤٢١ ق٠م) كان بمثابة هدنة ، وفى هذه الأثناء تقدم صفوف أثينا زعيم جرىء يدعى القبيادس ، وأعد حملة كبيرة لفتح سراقوسة ، ولكنه اتهم بتهمة دينية ، واستدعى للعودة ، ففر الى اسبرطة حيث أذاع سر الحملة ، التى انتهت بكارثة مروعة لأثينا (٤١٣ ق٠م) ، الا أنها أحرزت انتصارات بحرية لم تكن حاسمة بنت اسبرطة أسطولا ، وساعدها الفرس فقضت على الأسطول الأثينى (٤٠٥ ق٠م) ٠ وأخضعت أثينا ، وأصبحت زعيمة بلاد اليونان زهاء ثلاثين عاما ٠

(٣) **السوفسطائيون** : جماعة من الفلاســفة قبل سقراط ٠ كانوا يعلمون البلاغــة والخطابة ، أنكروا امكان الوصول الى حقائق موضوعية ثابتــة ، اذ الحقيقة عندهم ذاتية نسبية باختلاف الأفراد ٠

(٤) **بركليس** : (ح ٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق٠م) زعيم أثينى من أسرة الكميونيد العريقــة ، عرف باتساع أفقــه وذكائه ، درس على أساتذة ممتازين ، كان هدفه أن يجعل أثينـــا زعيمة الحضارة الاغريقية ، وقوة سياسية كبرى ٠ وتحت زعامته شهدت أثينا أزهى عصورها فأصبحت على حد قوله « مدرسة بلاد الاغريق » ٠

(٥) **هزيود** : (القرن الثامن ق٠م) منشىء الشعر التعليمى عند اليونان ٠

الأناباسيس أو حملة قورش

(١) **ديوجينس** (٤١٢ ـ ٣٢٣ ق٠م) : فيلسوف يونانى عاش فى أثينا داعيا الى البساطة ٠ ومما يروى عنه أنه كان يجوب الطرقات نهارا حاملا مصباحا ليبحث عن « الانسان » أى الانسان الذى تتمثل فيه الفضائل البشرية الصحيحة ٠

(٢) السبب فى نفيه من أثينا أنه انضم الى عدوتها اسبرطة .

(٣) انظر الفصل الأول من الكتاب .

(٤) سمى الكبياديس كوثورنوس ، و (كوثورنوس) معناها القبقاب الذى يمكن لبسه فى القدمين .

(٥) **دلفى** : موقع ببلاد اليونان جنوب جبال برناسيوس ترجع شهرته الى مراسم كهانة الاغريق التى كانت تجرى فيه والتى بنى لها معبد عظيم فى دلفى وكانت تسكنه كاهنة تدعى بوثيا ، وكانت تنطق بالنبوءات فى لغة غير مفهومة — على مسمع كاهن يقوم بشرحها ونظمها فى أبيات من الشعر يسهل على الناس فهمها وحفظها .

ملحمة عنترة بن شداد

(١) **الغلس** : السائر فى الغلس وهو ظلمة آخر الليل .

(٢) **الفلحاء** : مؤنث الأفلح . وهو المشقوق الشفة السفلى .

(٣) **جزر السباع** : فريسة السباع .

(٤) **القشعم** : النسر المسن .

(٥) **المطا** : الظهر .

(٦) **الأزرق** : السهم . اللهذم الطويل الحاد .

(٧) **نعق ومخرم** : موضعان .

(٨) **الرهيص** : الثابت فى مكانه .

(٩) **الدغل** : الشجر الكثير الملتف .

(١٠) **سرج وناظرة** : ماءان لبنى عبس .

(١١) **القذى** : ما يقع فى العين فيؤذيها .

بيرينيس

(١) كورنى : (١٦٠٦ م — ١٦٨٤ م) شاعر المأساة الفرنسى .

من مسرحياته « ميديا » و « السيد » . وقد أفل نجم كورنى فى أواخر أيامه عندما تفوق عليه راسين ، وانتزع الشهرة منه .

بـول وفرجينى

(١) **اركاديا** : اقليم يونانى فى العصر القديم كان يسكنه الرعاة وكان مصدر الهام للشعراء الذين صوروه على أنه مقر الطهر والسعادة ، وأصبح الاسم يطلق الآن على المجتمع الوهمى الذى ينعم فيه أهله بالحياة البدائية لا سيما حياة الرعاة .

(٢) **جزيرة « ايل دى فرانس »** : اسمها اليوم جزيرة موريس وتقع شرق مدغشقر .

(١) انظر الصفحة ٢٥٢ من الجزء السادس من موسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » ٠

(٢) كثرت الترجمات العربية لهذه الكلمة ، فاستعملت لها : « المتعالية » و « الجوانية » و « الشـــارطة » و « التحليلية » و « التعمق الى الأصول » ٠

الأبطـــال

(١) **هاريت مارتينو** : (١٨٠٢ ـ ١٨٧٦) كاتبة انجليزية ٠ اهتمت بالاصـــلاح الاجتماعى ٠

مراجـــع مختـــارة

١ ـ تاريخ العلم — جـورج سارتون

٢ ـ رواد الوعى الانسانى — عثمـــان أمين

٣ ـ أدباء العرب — بطرس البستانى

٤ ـ العلوم عند العرب — قدرى حافظ طوفان

٥ ـ اعـلام الفن القصصى — هنرى توماس ـ دانالى توماس

٦ ـ من أعلام الأدب الفرنسى — د. جلال حسن صادق

٧ ـ من أعلام الأدب الأوربى — على كامل

٨ ـ من أعلام الأدب الانجليزى — كامل عبد المجيد ـ فؤاد فهمى

٩ ـ سيرة عنترة — د. عبد الحميد يونس

١٠ ـ البطل المضطهد ، ثأر عنترة — أحمد عباس صالح

١١ ـ أضواء على السيرة الشعبية — فاروق خورشيد

١٢ ـ الخالدون العرب — قدرى حافظ طوفان

١٣ ـ رسالة الخلود — ترجمة د. محمد السعيد جمال الدين

١٤ ـ قصـة الحضارة — ديورانت

١٥ ـ الموسوعة الفلسفية — ريتشارد شاخت ترجمة د. أحمد حمدى محمود

١٦ ـ الموسوعة الفلسفية — ترجمة فؤاد كامل وآخرين

١٧ ـ قصة الأدب فى العالم — د. أحمد أمين

١٨ ـ محمد اقبـــال — د. عبد الوهاب عزام

١٩ ـ شخصيات تاريخية من سقراط الى راسبوتين . — على أدهم

٢٠ ـ الموجز في تاريخ العلوم عند العرب — د. محمد عبد الرحمن مرحبا

الفهرس الشامل للأجزاء التسعة
مرتبا ترتيبا زمنيا

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١	ـ كتاب الموتى	كهنة هليوبوليس	٤٥٥٠ ق٠م	٦	٩
٢	ـ ملحمة جلجاميش	من ملاحم العصر البابلى	٢٠٠٠ ق٠م	٧	١١
٣	ـ أنشودة النيل	من الأدب المصرى القديم	٣٠٠٠ ق٠م	٨	١١
٤	ـ سانوهى	المصريون القدماء	٣٠٠٠ ق٠م	٧	٥٥
٥	ـ شريعة حمورابى	حمورابى	١٧٢٦ ق٠م	٦	٢٩
٦	ـ أنشودة التوحيد	اخناتون	١٣٦٥ ق٠م	٥	١١
٧	ـ الالياذة	هوميروس	٩٠٠ ق٠م	٣	١٣
٨	ـ الأفستا القديمة	زرادشت	٦٥٠ ق٠م	٦	٦٣
٩	ـ الأشعار الغنائية	سافو	٦٠٠ ق٠م	٧	٧١
١٠	ـ أسطورة سميراميس	أسطورة أشورية	٦٠٠ ق٠م	٨	٢٥
١١	ـ المعلقات	أعظم شعراء العصر الجاهلى	٦٠٠ ق٠م	٧	٨٥
١٢	ـ الكتب الخمسة	كنفوشيوس	ـ ٥٥٠ ق٠م ٥٥١ ق٠م	١	١٥
١٣	ـ الفرس	اسخيلوس	ـ ٤٧٩ ق٠م ٤٥٠ ق٠م	٦	٨٣
١٤	ـ ميديا	يوربيديس	٤٣١ ق٠م	٥	٣١
١٥	ـ التاريخ الجامع	هيرودوت	٤٢٧ ق٠م	٢	٩
١٦	ـ الضفادع	أرستوفانيس	٤٠٥ ق٠م	٥	٤١
١٧	ـ حرب البيلوبونيز	ثوكيديدس	٤٠٤ ق٠م	٩	١٠
١٨	ـ المحاورات	سقراط	٤٠٠ ق٠م	٣	٣١
١٩	ـ ملحمة الرامايانا	والميكى	٤٠٠ ق٠م	٨	٣٥
٢٠	ـ الجمهورية	افلاطون	٤٠٠ ق٠م	١	٣٩
٢١	ـ أوديب ملكا	سوفوكليس	٤٠٠ ق٠م	٤	٩
٢٢	ـ الموسوعة الابقراطية	ابقراط	٣٧٥ ق٠م	٣	٥٩

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٤٩	ـ احصاء العلوم	الفارابى	٦٤٠ م	١	١٨١
٥٠	ـ مروج الذهب	المسعودى	٩٤٧ م	٨	١٢٣
٥١	ـ الامتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى	٩٨٠ م	٦	١٤٣
٥٢	ـ رسائل اخوان الصفا	اخوان الصفا	٩٨٣ م	٥	١٦٩
٥٣	ـ مقامات بديع الزمان	بديع الزمان الهمذانى	١٠٠٠ م	٨	١٥١
٥٤	ـ القانون فى الطب	ابن سينا	١٠١٠ م	١	٧٥
٥٥	ـ الشاهنامة	الفردوسى	١٠١٠ م	٥	١٩٣
٥٦	ـ طوق الحمامة فى الألفة والالاف	ابن حزم	١٠٢٦ م	٦	١٦٧
٥٧	ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق	ابن مسكويه	١٠٢١ م	٢	٥٥
٥٨	ـ القانون المسعودى فى الحياة والنجوم	البيرونى	١٠٣٠ م	٣	٢٠٧
٥٩	ـ رسالة الغفران	أبو العلاء المعرى	١٠٣١ م	٢	٧٣
٦٠	ـ الرباعيات	عمر الخيام	١٠٨٠ م	٢	٩٧
٦١	ـ احياء علوم الدين	الغزالى	١١٠٠ م	٢	١١٩
٦٢	ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق	الادريسى	١١٥٤ م	٥	٢١٧
٦٣	ـ حى بن يقظان	ابن طفيل	١١٨٤ م	٦	١٩١
٦٤	ـ الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة	ابن رشد	١١٨٥ م	٧	٢٢٥
٦٥	ـ معجم البلدان	ياقوت الحموى	١٢٠٠ م	٥	٢٣٥
٦٦	ـ الفتوحات	ابن عربى	١٢٣٨ م	٢	١٣٩
٦٧	ـ ديوان المثنوى	جلال الدين الرومى	١٢٧٣ م	٧	٢٤٧
٦٨	ـ شرح تشريح القانون	ابن النفيس	١٢٨٠ م	٣	٢٣٣
٦٩	ـ تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار	ابن بطوطة	١٣٣٤ ـ ١٣٥٤ م	٦	٢١١
٧٠	ـ الديكاميرون	بوكاشيو	١٤٠٠ م	٨	١٧٣
٧١	ـ المقدمة	ابن خلدون	١٤٠٠ م	١	٩٥
٧٢	ـ حياة الحيوان الكبرى	الدميرى	١٤٠٠ م	٥	٢٥٧

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

م	الكتاب	المؤلف	السنه	الجزء	الصفحة
٧٣	الكوميديا الالهية	دانتى	١٤٧٢	٤	٨١
٧٤	الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد	ابن ماجد	١٤٩٠ م	٧	٢٦٧
٧٥	الأمير	ميكافيلى	١٥١٣ م	١	١١٧
٧٦	حركات الكرات السماوية	كوبرنيكوس	١٥٤١ م	٥	٢٧٧
٧٧	دون كيشوت	سرفنتيس	١٦٠٥ م	٤	٩٩
٧٨	مسرحيات شكسبير	شكسبير	١٥٩٠ ـ ١٦١٦ م	٣	٢٥١
٧٩	الأورجانون الجديد والأوهام الأربعة	فرنسيس بيكون	١٦٢٠ م	٧	٢٨٥
٨٠	حركة القلب والدم	وليم هارفى	١٦٢٨	٥	٢١٥
٨١	التأملات	ديكارت	١٦٤١ م	١	١٤١
٨٢	الفردوس المفقود	جون ملتون	١٦٦٧ م	٦	٢٣٥
٨٣	البخيل	موليير	١٦٦٨ م	٥	٣١٣
٨٤	بيرينيس	جاك راسين	١٦٧١ م	٩	١١٩
٨٥	علم الأخلاق	اسبينوزا	١٦٧٧ م	٢	١٥٧
٨٦	ألف ليلة والليلة	مجهول المؤلف	مجهولة التاريخ	٢	١٨١
٨٧	المبادىء	نيوتين	١٦٨٧ م	١	١٦٣
٨٨	مبحث فى العقل الانسانى	لوك	١٦٩٠	٦	٢٥٣
٨٩	الحكايات	لافونتين	١٦٩٤	٧	٣٠٣
٩٠	تحليل الجمال	وليم هوجارت	١٧٠٤ م	٧	٣١٩
٩١	روبنسون كروزو	ديفو	١٧١٥ م	٣	٢٧١
٩٢	رحلات جليفر	سويفت	١٧٢٦ م	٨	١٩٧
٩٣	الرسائل	فولتير	١٧٣٢ م	٨	٢١١
٩٤	روح القوانين	مونتسكيو	١٧٤٨ م	١	١٧٧
٩٥	دائرة المعارف الكبرى	ديدرو	١٧٥١ م	١	١٩٧
٩٦	العقد الاجتماعى	جان جاك روسو	١٧٦٢ م	٢	٢٢٧
٩٧	ثروة الأمم	آدم سميث	١٧٧٦ م	١	٢٠١
٩٨	بول وفرجينى	برنارد سان بير	١٧٨٧ م	٩	١٤٢
٩٩	نقد العقل	كانط	١٧٨٨ م	٩	١٦٦
١٠٠	رينية	شاتوبريان	١٨٠٢ م	٨	٢٣٥

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

اقـرأ فى هـذه السلسـلة

برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى

ى. رادو نكاياوم جابوتنسكى
الالكترونيـات والحيـاة الحديثـة

آلدس هكسـلى
نقطـة مقـابل نقطـة

ت. و. فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجـتمع

ر. ج. فوريس و ا. ج. ديكستر هور
تاريخ العـلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستردیل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د. قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

أولج فرلكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود . صيانتها
تصنيفها — عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نفسى ومنطق

د. محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة . الانجليزية
والفرنسية

د. عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
أصله وبداياته

انور المـداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وأدينيت
القوة النفسية للأهرام

. صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولســتوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل واحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبورج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض . ماركس
والماركسيون

ف. ع. انينكوف
فن الأدب الروائى عند تولســتوى

هادى نعمان الهيتى
ادب الأطفـال « فلسفتـه ، فنونه
وسائطه »

د. نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د. فاضل أحمد الطائى
أعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشـرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحـيم

د. السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى
منظمات الادارة العـامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسـان

د. روجر ستروجان
هل تستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال ؟

كاتى ثير
تربيـة الدواجن

ا. سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر
القديمة

د. ناعوم بيترونيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصـور
الوسطى

. لينوارد تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية ازاء مصر

د. جون شـندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى
السنة

بيير البير
الصحافة

د. غبريال وهبـة
ر الكوميديا الالهيـة لدانتى
فى الفن التشكيلى

رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة
البلشفية وبعدها

. محمد نعمان جلال
كة عدم الانحياز فى عالم
متغير

فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى
الوطن العربى

. محى الدين حمد حسير
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ح. دادلى أندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جـوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

. جوهان دورشنر
لحياة فى الكون كيف نشأت
وأين توجد

مائة من العلماء الأمريكيين
مبـادرة الدفاع الاسـتراتيجى
حرب الفضاء

. السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

. مصطفى عنـانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
الشعر — الدراما — الحكاية —
القصة القصيرة .

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

انطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج
أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكى ف. س.
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوى
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. انور عبد الملك
الشارع المصرى والفكر

ولت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على

الان كاسبيار
التذوق السينمائى

سامى عبد المعطى
التخطيط السياحى فى مصر بين النظرية والتطبيق

د. هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمى المهندس
دراما الشاشه (بين النظريه والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والايدز وأثرهما فى المجتمع

دور كاس ماكليمنوك
صور افريقية . نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشه
د. محمود سرى طه

الكومبيوتر فى مجالات الحياة

بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسيه

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الأعضاء فى الألف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية أسماك الزينة

أحمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى

جون . ر. بورد وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبى
الفكر التاريخى عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر

م. هـ كنج وآخرون
التغذية فى البلدان النامية

جورج جامو
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد ابو سديره
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هـ
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود الدوم

ب. كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسى ـ تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة .
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافى روائع الآداب العالمية ج ١

روى أرمز
لغة الصورة فى السينما المعاصرة

ناجاى متشيو
الثورة الاصلاحية فى اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البى وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

ادامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الأوركسترالى

ابو القاسم الفردوسى
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلى
قيام الدولة العثمانية

تونى بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور شين بن ناج وآخرون
مختارات من الآداب الآسيوية

ناصر خسرو علوى
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجو وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

أحمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى ٧ ج

جان لويس بورى وآخرون
فى النقد السينمائى الفرنسى

العثمانيون فى أوربا
بول كوازن

وريس بير براير
صناع الخلود

زيجمونت هبر
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ جـ

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرث ثيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمريكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن اوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣جـ

هونى براج واخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ جـ

جابر محمد الجزار
ماستريخت

ء ابرار كريم الله
من هم التتار

ج س فريرر
الكاتب الحديث وعالمه ٢ جـ

سوريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهنديه

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
اسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د بيارد دودج
الأزهر فى الف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ٣ جـ

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة ٢ جـ

بادى أوتيمود
افريقيا — الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتومان
كوننا المتمدد

سونداري
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ريليام هـ ماثيور
ما هى الجيولوجيا

خريستيان سالميه
السنغاريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الامريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى ٢ جـ

يانكا لافرين
رومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الأميركى

هارى ب. ناش
الحمر والبيض والسود

جوزيف م. يوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف يندهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبورج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق ٣ جـ

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ جـ

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

فورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطـلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى والأمن القومى العربى)

د. ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسـان

ت ج. جيمر
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسـام الدين زكريا
القطن بروكنر

ونفرد هولر
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
ديناميكية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت ا . كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

نورمان ند ، وجـاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولز

يجيل دى ليبس
الثران

جوسيبى دى لونا
موسوليني

لويز جرايت
موتسارت

روبرت سكولز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب. س ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س. هوارد
أشهر الرحـلات الى غرب افريقيـ

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمـير تيمانيـانو
تاريخ أوربا الشرقية

بابرييل جاجارسيا ماركيز
الجنرال فى المتـاهة

هنرى برجسون
الضـحك

د. مصطفى محمود سليمان
الزلزال

م. و. ثرنج
ضـمير المهندس

ا. ر. جرنى
الحيثيون

ستينو موسـكاتى
الحضـارات السامية

د. البرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٧٩٥ / ١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 5963 — 8